

تفجمات القرآن

أسلوب جديد في التفسير الموضوعي
للقرآن الكريم

الجزء ١٠-١

تمت طباعتها في دار النشر
بمساهمة من القراء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نفحات القرآن: اسلوب جديد فى التفسير الموضوعى للقرآن الكريم

كاتب:

ناصر مكارم شيرازى

نشرت فى الطباعة:

موسسه ابي صالح النشر و الثقافه

رقمى الناشر:

مركز القائميہ باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
١٠٥	نفتح القرآن
١٠٥	اشارة
١٠٥	الجزء الأول
١٠٥	اشارة
١٠٥	المقدمة:
١٠٦	اشارة
١٠٦	أنواع التفسير:
١٠٧	ما هو التفسير الموضوعي؟
١٠٨	ما هي المشاكل التي يمكن حلها بواسطة التفسير الموضوعي؟
١٠٩	تاريخ التفسير الموضوعي:
١١١	التفسير الموضوعي في كلمات العلماء السابقين:
١١٢	الاسلوب الصحيح في التفسير الموضوعي:
١١٣	عقبات تواجه التفسير الموضوعي:
١١٤	لماذا لم يتطور هذا الموضوع من التفسير؟
١١٥	كل عمل باسم الله
١١٥	تمهيد:
١١٥	شرح المفردات:
١١٧	جمع الآيات وتفسيرها
١١٧	لماذا نبدأ فقط باسم الله؟
١١٨	توضيحات
١١٨	١- الأهمية الخاصة ل «بسملة»
١٢٠	٢- هل أن بسم الله جزء لكل سورة؟

- ١٢٢ ٣- لماذا لم تُذكر بسم الله في بداية سورة براءة؟
- ١٢٢ ٤- لا تقرنوا اسم الله باسم غيره؟
- ١٢٣ نظرية المعرفة
- ١٢٣ تمهيد:
- ١٢٣ هل هناك عالم خارج أذهاننا؟
- ١٢٤ القرآن وضرورة المعرفة
- ١٢٤ تمهيد:
- ١٢٤ اشارة
- ١٢٥ ١- وجوب تحصيل العلم
- ١٢٦ ٢- التأكيد المتواصل على عدم ترك التفكير
- ١٢٦ ٣- التأكيد على لزوم التعليم والتعلم
- ١٢٦ ٤- العلم والمعرفة هما الهدف من خلق العالم
- ١٢٧ ٥- الهدف من بعثه الأنبياء هو التعليم والتربية
- ١٢٧ ٦- التفكير والتدبر هو الهدف من نزول القرآن
- ١٢٨ ٧- المعرفة هي الهدف من المعراج
- ١٢٨ ٨- الدعوة للإسلام بدأت بالدعوة للعلم
- ١٢٨ ٩- العلم نور وضياء
- ١٢٩ ١٠- إدراك أسرار الوجود خاص بالعلماء
- ١٢٩ ١١- الله أول معلّم
- ١٢٩ ١٢- بالعلم يتميّز الإنسان عن الموجودات الأخرى
- ١٣٠ ١٣- درجات القرب من الله تتناسب مع درجات المعرفة
- ١٣٠ ١٤- الأنبياء يُطالبون بعلم أكثر
- ١٣١ ١٥- المعرفة مفتاح نجاه الإنسان
- ١٣١ ١٦- العلم فخر بجميع أشكاله

- ١٣٢ ١٧- المعرفة شرط أساسى للادارة والقيادة
- ١٣٢ ١٨- العلم منبع الإيمان
- ١٣٣ ١٩- العلم منشأ تقوى الله وخشيته
- ١٣٤ ٢٠- العلم منشأ الزهد
- ١٣٤ ٢١- التطور المادى مرهون بالعلم
- ١٣٥ ٢٢- العلم مصدر القوة أو (العلم قوة)
- ١٣٥ ٢٣- العلم و التزكية
- ١٣٦ ٢٤- علاقة العلم بالصبر
- ١٣٦ ٢٥- العلم والمعرفة خير كثير
- ١٣٧ ٢٦- أصحاب السعير هم الجاهلون
- ١٣٧ ٢٧- الجهل مصدر انحطاط البشر
- ١٣٨ ٢٨- الجهل عمى
- ١٣٨ ٢٩- الحياة مع الجهل هى أرذل العمر
- ١٣٨ ٣٠- الجهل مصدر الكفر
- ١٣٩ ٣١- الجهل السبب الأساسى للفشل
- ١٤٠ ٣٢- الجهل مصدر لاشاعة الفساد
- ١٤٠ ٣٣- الجهل أساس التعصب والعناد
- ١٤١ ٣٤- الجهل مصدر لاختلاق الحجج
- ١٤٢ ٣٥- الجهل هو سبب التقليد الأعمى
- ١٤٢ ٣٦- الجهل عامل الخلاف والفرقة
- ١٤٣ ٣٧- الجهل هو سبب سوء الظن بالآخرين
- ١٤٣ ٣٨- سوء الأدب ينشأ عن الجهل
- ١٤٤ ٣٩- الجهل سبب الندم والمشاكل الاجتماعية
- ١٤٤ ٤٠- الجهل وتبدل القيم

- ١٤٤ الخلاصة و النتيجة:
- ١٤٥ توضيحات
- ١٤٥ ١- إمكانية المعرفة من وجهة نظر فلسفية
- ١٤٥ اشارة
- ١٤٥ ما هي شروط الوصول إلى المعرفة؟
- ١٤٧ إيضاح:
- ١٤٩ ٢- العلم البشرى المحدود
- ١٤٩ اشارة
- ١٤٩ شرح المفردات:
- ١٥٠ جمع الآيات وتفسيرها
- ١٥٢ نتيجة البحث:
- ١٥٢ ٣- الفلاسفة والعلماء يشهدون بقصور العلم البشرى
- ١٥٣ اشارة
- ١٥٥ تذكير:
- ١٥٦ مصادر وسبل المعرفة
- ١٥٦ اشارة
- ١٥٦ تمهيد:
- ١٥٧ ١- الحس والتجربة
- ١٥٧ اشارة
- ١٥٨ شرح المفردات:
- ١٥٨ جمع الآيات وتفسيرها
- ١٥٩ النتيجة:
- ١٦٠ توضيح
- ١٦٠ الفلاسفة ومصدر الحس:

- ١٦٢ ٢- العقل و التحليل المنطقي
- ١٦٢ تمهيد:
- ١٦٣ شرح المفردات:
- ١٦٥ أفعال العقل:
- ١٦٦ جمع الآيات وتفسيرها
- ١٦٦ قيمه العقل فى مقياس القرآن:
- ١٦٩ توضيحات
- ١٦٩ ١- الإدراكات العقلية برؤية فلسفية
- ١٧٠ ٢- منزلة العقل فى الروايات الإسلامية
- ١٧٢ ٣- المخالفون لتحكيم العقل
- ١٧٣ ٣- التاريخ والآثار التاريخية
- ١٧٣ تمهيد:
- ١٧٤ شرح المفردات:
- ١٧٥ جمع الآيات وتفسيرها
- ١٧٧ توضيحات
- ١٧٧ ١- مرآة التاريخ
- ١٧٨ ٢- جاذبية التاريخ
- ١٧٩ ٣- شوائب التاريخ
- ١٨٠ ٤- فلسفة التاريخ
- ١٨٠ ٥- التاريخ «النقلى» و «العلمى» و «فلسفة التاريخ»
- ١٨٠ اشارة
- ١٨١ الإجابة على إشكال:
- ١٨٢ ٦- التاريخ فى نهج البلاغة والروايات الإسلامية
- ١٨٤ آخر الحديث حول التاريخ المعلم:

- ١٨٥ ٤- الفطرة والوجدان
- ١٨٥ تمهيد:
- ١٨٦ نقرأ أولاً الآيات الآتية:
- ١٨٦ معاني المفردات:
- ١٨٧ جمع الآيات وتفسيرها
- ١٨٩ النتيجة:
- ١٨٩ توضيحات
- ١٨٩ ١- فروع الفطرة والوجدان
- ١٩٠ ٢- هل توجد معرفة فطرية؟
- ١٩٣ ٣- «الفطرة» و «الوجدان» في الروايات الإسلامية
- ١٩٤ ٥- الوحي السماوي
- ١٩٤ تمهيد:
- ١٩٤ شرح المفردات:
- ١٩٧ شرح الآيات وتفسيرها
- ١٩٧ الوحي شمس مشرقة:
- ١٩٩ توضيحات
- ١٩٩ ١- أقسام «الوحي» في القرآن المجيد
- ٢٠٠ ٢- ما هي حقيقة الوحي؟
- ٢٠٢ ٣- الوحي عند فلاسفة الشرق والغرب
- ٢٠٣ ٤- فرضية كون الوحي غريزة
- ٢٠٥ ٥- كيف تيقن الرسول بأنّ الوحي من الله؟
- ٢٠٦ ٦- القرآن أغنى مصدر للمعرفة في الأحاديث الإسلامية
- ٢٠٧ ٧- الوحي الخاص إلى غير الأنبياء (وحي الالهام)
- ٢٠٨ ٨- كيفية نزول الوحي على الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله

- ٢٠٩ ٩- الالهامات الغريزية
- ٢١١ ٦- الكشف والشهود
- ٢١١ تمهيد:
- ٢١٢ شرح المفردات:
- ٢١٣ جمع الآيات وتفسيرها
- ٢١٨ النتيجة:
- ٢١٨ توضيحات
- ٢١٨ ١- نماذج جميلة من الكشف والشهود فى الأحاديث الإسلامية
- ٢٢١ ٢- كيف تُرفع الحجب؟
- ٢٢٣ ٣- سبعة منامات صادقة فى القرآن المجيد
- ٢٢٣ اشارة
- ٢٢٧ النتيجة:
- ٢٢٨ ٤- المكاشفات الرحمانية والمكاشفات الشيطانية
- ٢٣٠ حُجُب المعرفة وآفاتها
- ٢٣١ تمهيد:
- ٢٣١ حُجُب المعرفة:
- ٢٣٢ شرح المفردات:
- ٢٣٣ جمع الآيات وتفسيرها
- ٢٣٣ النفوذ التدريجى لآفات المعرفة:
- ٢٣٨ النتيجة الأخيرة:
- ٢٣٩ حُجُب المعرفة وآفاتها (بالتفصيل)
- ٢٣٩ تمهيد:
- ٢٣٩ ١- الصفات التى تحول دون المعرفة
- ٢٤٠ اشارة

- ٢٤٠ ١- حجاب عبادة هوى النفس
- ٢٤٠ اشارة
- ٢٤٠ شرح المفردات:
- ٢٤٠ جمع الآيات وتفسيرها
- ٢٤٠ إتباع الهوى يُعمى القلب:
- ٢٤٢ ٢- حبّ الدنيا أحد الحجب
- ٢٤٢ اشارة
- ٢٤٢ جمع الآيات وتفسيرها
- ٢٤٣ ٣- حجاب الكبر والغرور وحبّ السلطة!
- ٢٤٣ اشارة
- ٢٤٣ جمع الآيات وتفسيرها
- ٢٤٣ اشارة
- ٢٤٤ حجاب الغرور فى الأحاديث الإسلامية:
- ٢٤٤ ٤- حجاب الجهل والغفلة
- ٢٤٤ اشارة
- ٢٤٤ جمع الآيات وتفسيرها
- ٢٤٤ اشارة
- ٢٤٥ حجاب الجهل فى الأحاديث الإسلامية:
- ٢٤٦ ٥- حجاب النفاق
- ٢٤٦ اشارة
- ٢٤٦ جمع الآيات وتفسيرها
- ٢٤٦ المنافقون عمى القلوب:
- ٢٤٨ ٦- حجاب التعصب والعناد
- ٢٤٨ اشارة

- ٢٤٩ جمع الآيات وتفسيرها
- ٢٤٩ الموتى المتحركون:
- ٢٥٠ النتيجة:
- ٢٥٢ ٧- حجاب التقليد الأعمى
- ٢٥٢ اشارة
- ٢٥٢ شرح المفردات:
- ٢٥٣ جمع الآيات وتفسيرها
- ٢٥٣ قومٌ أهلكتهم تقليدهم:
- ٢٥٤ توضيحات
- ٢٥٤ ١- أنواع التقليد المختلفة
- ٢٥٥ ٢- شروط التقليد الممدوح
- ٢٥٥ ٣- عوامل التقليد الأعمى
- ٢٥٦ ٨- حجاب حب الرفاه
- ٢٥٦ اشارة
- ٢٥٧ جمع الآيات وتفسيرها
- ٢٥٧ اعفنا من الجهاد:
- ٢٥٨ ٩- حجاب الأمانى
- ٢٥٨ اشارة
- ٢٥٨ جمع الآيات وتفسيرها
- ٢٥٨ الآمال البعيدة:
- ٢٥٩ توضيح:
- ٢٥٩ حجاب الأمانى فى الروايات الإسلامية:
- ٢٦٠ ٢- الأعمال التى تحجب عن المعرفة
- ٢٦٠ ١- حجب الذنوب

- ٢٦٠ اشارة
- ٢٦٠ جمع الآيات وتفسيرها
- ٢٦٠ الذنب يُعمى الإنسان ويصمه:
- ٢٦٢ توضيح:
- ٢٦٢ إنّ الذنب حجاب فى الروايات الإسلامية
- ٢٦٣ ٢- حجاب الكفر والأعراض
- ٢٦٣ اشارة
- ٢٦٤ جمع الآيات وتفسيرها
- ٢٦٤ لِمَ يحجب الذنب القلوب عن الفقه؟
- ٢٦٦ ٣- حجاب الاعتداء والعدوان
- ٢٦٦ اشارة
- ٢٦٦ جمع الآيات وتفسيرها
- ٢٦٧ ٤- حجاب الرؤية السطحية وترك التدبر
- ٢٦٧ اشارة
- ٢٦٧ جمع الآيات وتفسيرها
- ٢٦٧ أفعال القلوب الثقيلة:
- ٢٦٩ ٥- حجاب الارتداد
- ٢٦٩ اشارة
- ٢٦٩ جمع الآيات وتفسيرها
- ٢٧٠ ٦- حجاب الكذب والافتراء
- ٢٧٠ اشارة
- ٢٧٠ جمع الآيات وتفسيرها
- ٢٧١ خُداع الكذب:
- ٢٧٢ ٧- حجاب الظن القاتم

- ٢٧٢ اشارة
- ٢٧٣ جمع الآيات وتفسيرها
- ٢٧٤ ٣- الحُجَب الخارجية
- ٢٧٤ ١- حجاب القادة الضالين والمفسدين
- ٢٧٤ اشارة
- ٢٧٤ جمع الآيات وتفسيرها
- ٢٧٤ شجار أصحاب النار:
- ٢٧٥ توضيحان:
- ٢٧٥ ١- «المستضعفون» و «المستكبرون» فى القرآن المجيد
- ٢٧٦ ٢- دور القادة و الامراء فى التأثير على الناس
- ٢٧٧ ٢- حجاب الأصدقاء الضالين
- ٢٧٧ اشارة
- ٢٧٧ جمع الآيات وتفسيرها
- ٢٧٨ توضيح:
- ٢٧٨ دور الأصدقاء فى التأثير على طريقة التفكير عند الآخرين:
- ٢٧٩ ٣- حجاب الاعلام و الوسط الاجتماعى
- ٢٧٩ اشارة
- ٢٧٩ جمع الآيات وتفسيرها
- ٢٧٩ الإعلام المسموم:
- ٢٨٤ توضيح:
- ٢٨٤ الجوانب المتعددة للإعلام المضلل:
- ٢٨٥ ٤- حجاب وساوس الشياطين
- ٢٨٥ اشارة
- ٢٨٦ شرح المفردات:

- ٢٨٦ جمع الآيات وتفسيرها
- ٢٨٦ كيف يُزَيّن الباطل؟ وكيف تُسحر العيون؟
- ٢٨٩ توضيحات
- ٢٩٠ ١- من هو الشيطان؟
- ٢٩٠ ٢- الإجابة عن سؤال
- ٢٩١ ٣- النقطة المهمة الأخرى
- ٢٩١ مؤهلات المعرفة
- ٢٩١ تمهيد:
- ٢٩١ اشارة
- ٢٩٢ ١- علاقة التقوى بالمعرفة
- ٢٩٢ اشارة
- ٢٩٢ شرح المفردات:
- ٢٩٣ جمع الآيات وتفسيرها
- ٢٩٣ اتقوا كي يسطع نور العلم على قلوبكم!
- ٢٩٤ توضيحات
- ٢٩٤ ١- علاقة العلم بالتقوى فى الروايات الإسلامية
- ٢٩٧ ٢- كيفية الارتباط بين ينباع العلم والتقوى
- ٢٩٨ ٣- استغلال العلاقة بين «العلم» و «التقوى»
- ٢٩٩ ٢- الإيمان والمعرفة
- ٢٩٩ تمهيد:
- ٣٠٠ جمع الآيات وتفسيرها
- ٣٠٠ تأثير الإيمان على الرؤية الصحيحة:
- ٣٠٢ توضيح
- ٣٠٢ علاقة الإيمان بالعلم فى الروايات الإسلامية:

- ٣- علاقة «الصبر والشكر» ب «المعرفة» ٣٠٢
- اشارة ٣٠٢
- جمع الآيات وتفسيرها ٣٠٣
- السير فى الآفاق والأنفس مع الصابرين: ٣٠٣
- النتيجة: ٣٠٥
- ٤- المعرفة تهىء الأرضية للمعرفة ٣٠٥
- تمهيد: ٣٠٥
- جمع الآيات وتفسيرها ٣٠٦
- مالم تكن مئنا لن تطلع على اسرارنا: ٣٠٦
- النتيجة: ٣٠٧
- ٤- علاقة الخوف بالمعرفة ٣٠٨
- تمهيد: ٣٠٨
- شرح الآيات وتفسيرها ٣٠٨
- المعرفة والشعور بالمسؤولية: ٣٠٨
- النتيجة: ٣١٠
- الجزء الثانى ٣١١
- البحث عن عظمة الله ومعرفته فى القرآن الكريم ٣١١
- أسئلة مهمة ومصيرية: ٣١١
- دوافع البحث عن عظمة الله ٣١٢
- اشارة ٣١٢
- ١- الدافع العقلى ٣١٢
- تمهيد: ٣١٢
- جمع الآيات وتفسيرها ٣١٣
- التحقيق من مسؤوليات الإنسان الأساسية: ٣١٣

- النتيجة: ٣١٦
- توضيحيان ٣١٧
- ١- الدوافع العقلية لفهم الدين فى الروايات الإسلامية ٣١٧
- ٢- المعاندون الملتحون ٣١٧
- ٢- الدافع العاطفى ٣١٨
- تمهيد: ٣١٨
- جمع الآيات وتفسيرها ٣١٨
- شكر المنعم سلم إلى معرفة الله: ٣١٨
- شكر المنعم فى الروايات الإسلامية: ٣٢١
- ٣- الدافع الفطرى ٣٢١
- تمهيد: ٣٢١
- توضيحات ٣٢٢
- التبريرات المنحرفة: ٣٢٢
- اشارة ٣٢٢
- ١- نظرية الجهل ٣٢٣
- ٢- نظرية الخوف ٣٢٤
- ٣- نظرية العامل الاقتصادى ٣٢٤
- ٤- النظرية الجنسية ٣٢٥
- ٥- نظرية الحاجات الأخلاقية ٣٢٦
- براهين معرفة الله: ٣٢٧
- اشارة ٣٢٧
- ١- برهان النظم ٣٢٧
- التمهيد: ٣٢٧
- مميزات برهان النظم: ٣٢٧

- ٣٢٨ أسس برهان النظم:
- ٣٢٨ العلاقة بين النظام و العلم:
- ٣٣٠ ١- آياته فى خلق الإنسان
- ٣٣٠ اشارة
- ٣٣١ شرح المفردات:
- ٣٣٢ جمع الآيات وتفسيرها
- ٣٣٢ آيات الأنفس الأولى
- ٣٣٤ التعقيد والدقة فى نظام الخلق:
- ٣٣٦ ٢- آياته فى نمو الجنين
- ٣٣٦ تمهيد:
- ٣٣٦ شرح المفردات:
- ٣٣٧ جمع الآيات وتفسيرها
- ٣٣٧ عالم الجنين الغامض:
- ٣٣٩ توضيحات
- ٣٣٩ ١- صورة فى الماء
- ٣٤٠ ٢- فى ظلمات ثلاث
- ٣٤٠ ٣- مقر الأمن والامان
- ٣٤٠ ٤- خصيم مبين
- ٣٤١ ٥- تغذية الجنين
- ٣٤١ ٦- مصير الجنين من حيث الجنس
- ٣٤٢ ٧- تغيرات سريعة ومبهمة
- ٣٤٢ ٨- نظرة الرحم المستقبلية!!
- ٣٤٢ ٩- كساء للعظام
- ٣٤٢ ١٠- خروج الجنين

- ٣٤٣ ١١- التغيرات المذهلة في لحظة الولادة
- ٣٤٤ ١٢- بكاء الأطفال
- ٣٤٤ ١٣- اليقظة التدريجية للعقل والحواس عند الأطفال
- ٣٤٥ ١٤- غذاء الطفل مُعدّ قبل ولادته
- ٣٤٦ ٣- آياته في عالم الحياة
- ٣٤٦ تمهيد:
- ٣٤٧ شرح المفردات:
- ٣٤٨ جمع الآيات وتفسيرها
- ٣٤٨ خَلَقَ الحياة آية الخلق:
- ٣٥١ توضيحان
- ٣٥١ ١- لغز الحياة الكبير
- ٣٥٢ ٢- هل بإمكان الإنسان صناعة كائن حي؟
- ٣٥٤ ٤- آياته في خلق الروح
- ٣٥٤ تمهيد:
- ٣٥٤ شرح المفردات:
- ٣٥٥ جمع الآيات وتفسيرها
- ٣٥٥ الروح اعجوبة عالم الخلق:
- ٣٥٨ توضيحات
- ٣٥٨ ١- القوى الظاهرية والباطنية للروح
- ٣٥٩ ٢- الروح .. الظاهرة الخفية في عالم الوجود
- ٣٥٩ ٣- نشاطات الروح المختلفة
- ٣٦١ ٤- مقارنة عقل الإنسان بالعقول الألكترونية
- ٣٦١ ٥- أصالة واستقلال الروح
- ٣٦٢ ٦- خصوصيات الروح في القرآن الكريم

- ٣٦٢ ----- ٧- مسك الختام حول الروح
- ٣٦٣ ----- ٥- آياته فى الهداية الفطرية والغريزية للإنسان والحيوان
- ٣٦٣ ----- تمهيد:
- ٣٦٣ ----- جمع الآيات وتفسيرها
- ٣٦٣ ----- أستاذ الأزل:
- ٣٦٧ ----- توضيح
- ٣٦٧ ----- الهداية الفطرية و الغريزية فى العلم المعاصر:
- ٣٧١ ----- ٦- آياته فى حالتى النوم واليقظة
- ٣٧١ ----- تمهيد:
- ٣٧١ ----- شرح المفردات:
- ٣٧٢ ----- جمع الآيات وتفسيرها
- ٣٧٢ ----- النوم من آيات الله:
- ٣٧٤ ----- توضيح
- ٣٧٤ ----- ظاهرة النوم الخفية:
- ٣٧٥ ----- ٧- آياته فى بسط السماوات والأرض
- ٣٧٥ ----- تمهيد:
- ٣٧٦ ----- شرح المفردات:
- ٣٧٧ ----- جمع الآيات وتفسيرها
- ٣٧٧ ----- ارتفاع السماء آية حق!
- ٣٨٣ ----- النتيجة:
- ٣٨٤ ----- توضيحات
- ٣٨٤ ----- ١- عَظْمَةٌ وَوَسَعَةُ السَّمَوَاتِ
- ٣٨٥ ----- ٢- الدقة العجيبة فى القوانين التى تحكم السماء والأرض
- ٣٨٥ ----- ٣- السموات السبع

- ٣٨٧ ٤- لِمَ لا تنظرون إلى السماء؟!
- ٣٨٧ ٨- آياته في خلق الشمس والقمر والنجوم
- ٣٨٧ تمهيد:
- ٣٨٨ جمع الآيات وتفسيرها
- ٣٨٨ القَسَمُ بالشمس والقمر والنجوم:
- ٣٩٤ توضيحات
- ٣٩٤ ١- هوية الشمس
- ٣٩٥ ٢- البركات العظيمة للشمس
- ٣٩٦ ٣- القمر وبركاته
- ٣٩٧ ٤- الشمس والقمر في كلام الأئمة المعصومين عليهم السلام
- ٣٩٨ ٩- آياته في خلق الليل والنهار
- ٣٩٨ تمهيد:
- ٣٩٩ جمع الآيات وتفسيرها
- ٣٩٩ النظام العجيب الليل والنهار:
- ٤٠٢ توضيحات
- ٤٠٢ ١- أهمية النور والظلام وفوائد الليل والنهار
- ٤٠٣ ٢- ظاهرة الليل والنهار في القرآن الكريم
- ٤٠٣ ١٠- آياته في خلق الجبال
- ٤٠٣ تمهيد:
- ٤٠٤ شرح المفردات:
- ٤٠٤ جمع الآيات وتفسيرها
- ٤٠٤ البركات والأسرار العجيبة للجبال:
- ٤٠٨ توضيحات
- ٤٠٨ ١- الجبال والاعجاز العلمي للقرآن

- ٢- حديث للإمام الصادق عليه السلام حول الجبال ٤٠٩
- ٣- كلام لعالم كبير ٤٠٩
- ٤- حديث اعجازي حول تكوين الجبال ٤١٠
- ١١- آياته في تكوين الغيوم والرياح والأمطار ٤١٠
- تمهيد: ٤١٠
- شرح المفردات: ٤١١
- جمع الآيات وتفسيرها ٤١٢
- ظاهرة الريح والأمطار والأسرار الكامنة فيها: ٤١٢
- النتيجة: ٤١٧
- توضيحات ٤١٧
- ١- تكوين الرياح وفوائدها ٤١٧
- ٢- أسرار تكوين الغيوم وهطول الأمطار ٤١٩
- ٣- الرياح والأمطار في الروايات ٤٢٠
- ١٢- آياته في حدوث الرعد والبرق ٤٢٢
- التمهيد: ٤٢٢
- شرح المفردات: ٤٢٢
- جمع الآيات وتفسيرها ٤٢٣
- أسرار خلق الرعد والبرق: ٤٢٣
- توضيحات ٤٢٤
- ١- الرعد والبرق في نظر العلم المعاصر ٤٢٤
- ٢- فوائد وبركات الرعد والبرق ٤٢٥
- ١٣- آياته في خلق البحار والفلك ٤٢٦
- تمهيد: ٤٢٦
- شرح المفردات: ٤٢٦

- ٤٢٧ جمع الآيات وتفسيرها
- ٤٢٧ عجائب البحار!
- ٤٢٩ توضيحات
- ٤٢٩ ١- البحرُ مركز لأنواع النعم
- ٤٣٢ ٢- البحر عالم العجائب
- ٤٣٤ ٣- البحر في كلام المعصومين عليهم السلام
- ٤٣٤ ١٤- آياته في خلق الظلال
- ٤٣٥ تمهيد:
- ٤٣٥ شرح المفردات:
- ٤٣٥ جمع الآيات وتفسيرها
- ٤٣٥ هل إنَّ الظلَّ نعمةٌ عظيمةٌ؟
- ٤٣٨ توضيح
- ٤٣٨ لو لم تكن هناك الظلال ...!؟
- ٤٣٩ ١٥- آياته في عالم النباتات والشمار
- ٤٣٩ تمهيد:
- ٤٤٠ شرح المفردات:
- ٤٤١ جمع الآيات وتفسيرها
- ٤٤١ الورق الأخضر للأشجار:
- ٤٤٨ توضيحات
- ٤٤٨ ١- التركيب المذهل للنباتات
- ٤٥٠ ٢- فوائد وبركات النباتات
- ٤٥١ ٣- الأنواع غير المحدودة للنباتات
- ٤٥٢ ٤- عجائب عالم النباتات
- ٤٥٣ ٥- أسرار خلق النباتات في توحيد المفضل

- ١٦- آياته فى خلق الأرزاق العامة ٤٥٤
- تمهيد: ٤٥٥
- شرح المفردات: ٤٥٥
- جمع الآيات وتفسيرها ٤٥٦
- الكل يتنعم بهذه المائدة عدواً كان أم صديقاً: ٤٥٦
- توضيحات ٤٦٢
- ١- من عجائب عالم الأرزاق ٤٦٢
- ٢- هل أن الرزق مقسوم؟ ٤٦٤
- ٣- إذا كان الرزق مضموناً للجميع فلماذا يموت البعض جوعاً؟ ٤٦٥
- ٤- سعة الرزق وضيقه ٤٦٦
- ١٧- آياته فى خلق الطيور ٤٦٧
- تمهيد: ٤٦٧
- شرح المفردات: ٤٦٨
- جمع الآيات وتفسيرها ٤٦٨
- الطيور يُستخ وأنا صامت! ٤٦٨
- توضيحات ٤٧١
- ١- فن الطيران المعقد ٤٧١
- ٢- «عجائب الطيور» و «الطيور العجيبة» ٤٧٢
- ٣- الطيور فى خدمة الإنسان والبيئة ٤٧٤
- ٤- دروس التوحيد فى وجود الطيور ٤٧٥
- ١٨- آياته فى حياة النحل ٤٧٥
- تمهيد: ٤٧٥
- شرح المفردات: ٤٧٦
- لنزور بلاد النحل: ٤٧٦

- ٤٧٨ توضيحات
- ٤٧٨ ١- حضارة النحل العجيبة!
- ٤٨٠ ٢- جمع رحيق الأزهار وصناعة العسل
- ٤٨١ ٣- العسل غذاء مفيد ودواء شافٍ
- ٤٨٣ ٤- خدمات اخرى للنحل أتمن من العسل!
- ٤٨٤ ٥- البناء الجسمي للنحل عجيب أيضاً!
- ٤٨٥ ١٩- آياته في خلق الحيوانات
- ٤٨٥ تمهيد:
- ٤٨٦ شرح المفردات:
- ٤٨٦ جمع الآيات وتفسيرها
- ٤٨٦ ماذا يجري في عالم الحيوانات؟
- ٤٩٤ توضيحات
- ٤٩٤ ١- عجائب عالم الحيوانات
- ٤٩٤ ٢- ترويض الحيوانات
- ٤٩٥ ٣- ذكاء الحيوانات
- ٤٩٦ ٢٠- آياته في خلق اعضاء جسم الإنسان
- ٤٩٦ تمهيد:
- ٤٩٧ شرح المفردات:
- ٤٩٨ جمع الآيات وتفسيرها
- ٤٩٨ الدور الحساس لآلات المعرفة:
- ٥٠٢ توضيحان
- ٥٠٢ ١- عجائب أعضاء الجسم
- ٥٠٣ ٢- اللسان، هذا العضو المحترف!
- ٥٠٤ ٢١- آياته في الحياة الاجتماعية للإنسان

- ٥٠٤ تمهيد:
- ٥٠٥ جمع الآيات وتفسيرها
- ٥٠٥ شرح المفردات:
- ٥٠٦ تفسير وتحليل
- ٥٠٦ الروح الاجتماعية للبشر واحدة من أعظم المواهب الإلهية:
- ٥٠٩ توضيح
- ٥٠٩ هل للمجتمع روح؟
- ٥١١ كلمة الختام:
- ٥١١ الجزء الثالث
- ٥١٢ المقدمة
- ٥١٢ الطرق إلى الله ...:
- ٥١٣ براهين معرفة الله
- ٥١٣ اشارة
- ٥١٣ تمهيد:
- ٥١٤ ٢- برهان التغير والحركة
- ٥١٤ تمهيد:
- ٥١٥ شرح المفردات:
- ٥١٥ جمع الآيات وتفسيرها
- ٥١٥ إبراهيم عليه السلام يواجه عبدة الأصنام بمنطق قوى:
- ٥١٨ العلاقة بين الأفعال والحدوث:
- ٥٢٠ توضيحات
- ٥٢٠ ١- برهان الحركة ومقدماته
- ٥٢٠ اشارة
- ٥٢٠ أ) تعريف الحركة

- ٥٢٠ (ب) وجود الحركة
- ٥٢١ (ج) أركان الحركة
- ٥٢١ (د) مجالات الحركة
- ٥٢٢ ٢- أدلة وجود الحركة الجوهرية
- ٥٢٣ ٣- إثبات وجود الله بواسطة برهان الحركة
- ٥٢٤ ٤- العالم متغير وكل متغير حادث
- ٥٢٤ ٥- حدوث العالم والقوانين العلمية الحديثة
- ٥٢٥ ٣- برهان الوجود والإمكان (الغنى والفقير)
- ٥٢٦ تمهيد:
- ٥٢٦ شرح المفردات:
- ٥٢٧ حاجة الجميع إلى الله:
- ٥٣٠ توضيحات
- ٥٣٠ ١- برهان الوجود والإمكان من الناحية الفلسفية
- ٥٣١ ٢- برهان الغنى والفقير في الروايات الإسلامية
- ٥٣٢ ٤- برهان العلة والمعلول
- ٥٣٢ تمهيد:
- ٥٣٢ شرح المفردات:
- ٥٣٣ جمع الآيات وتفسيرها
- ٥٣٣ استجواب عجيب!
- ٥٣٥ توضيحان
- ٥٣٥ ١- برهان العلة والمعلول في الفلسفة والكلام
- ٥٣٥ اشارة
- ٥٣٥ ١- تعريف أصل العلية
- ٥٣٥ ٢- شمولية قانون العلية وسعة تطبيقاتها

- ٥٣٦ ٣- جذور معرفة قانون العلية
- ٥٣٧ ٤- أقسام العلة
- ٥٣٧ ٢- إيضاح برهان العلية
- ٥٣٨ ٥- برهان الصديقين
- ٥٣٨ تمهيد:
- ٥٣٩ شرح المفردات:
- ٥٤٠ جمع الآيات وتفسيرها
- ٥٤٠ القرآن وبرهان الصديقين: «٢»
- ٥٤١ بزوغ الشمس دليل عليها:
- ٥٤٢ إحاطة الوجود الإلهي:
- ٥٤٢ هو الأول والآخر:
- ٥٤٣ هو نور العالم:
- ٥٤٤ توضيحان
- ٥٤٥ ١- برهان الصديقين في الروايات الإسلامية والأدعية
- ٥٤٥ ٢- إيضاح برهان الصديقين
- ٥٤٧ ٦- الطريق الباطني لمعرفة الله (الفطرة)
- ٥٤٧ تمهيد:
- ٥٤٨ شرح المفردات:
- ٥٤٨ جمع الآيات وتفسيرها
- ٥٤٨ الخلق الثابت والراسخ:
- ٥٤٩ عند مواجهة الأزمات:
- ٥٥١ إقرار المشركين:
- ٥٥٣ عهد عالم الذر:
- ٥٥٦ حصيلة البحث عن عالم الذر:

- ٥٥٧ توضيحات
- ٥٥٧ ١- (عالم الذرّ) في الروايات الإسلامية
- ٥٥٨ ٢- فطرة العقل أم القلب؟
- ٥٥٩ ٣- شواهد حيّة على فطرية الإيمان بالله
- ٥٥٩ اشارة
- ٥٥٩ أ) الحقائق التاريخية
- ٥٦٠ ب) الآثار التاريخية
- ٥٦٠ ج) الدراسات النفسية واكتشافات علماء النفس
- ٥٦١ د) فشل الدعاية ضدّ الدين
- ٥٦٢ ه) التجارب الشخصية في الأزمات
- ٥٦٢ و) شهادة العلماء على فطرية الدين
- ٥٦٣ ٤- الفطرة في الروايات الإسلامية
- ٥٦٤ وحدانية الذات المقدسة «أهم أصل في معرفة الله»
- ٥٦٤ اشارة
- ٥٦٤ تمهيد:
- ٥٦٥ شرح المفردات:
- ٥٦٧ جمع الآيات وتفسيرها
- ٥٦٧ الذنب الذي لا يُغتفر:
- ٥٦٨ أعظم الظلم:
- ٥٦٩ السقوط الموحش:
- ٥٧٠ الجنة محرّمة على المشركين:
- ٥٧٠ الله برىء من المشركين:
- ٥٧٢ إبراهيم عليه السلام الأسوة الحسنة في مقارعة الشرك:
- ٥٧٣ توضيح

- ٥٧٣ لماذا هذا الإهتمام الكبير بقضية التوحيد والشرك؟
- ٥٧٤ دلائل التوحيد
- ٥٧٤ اشارة
- ٥٧٤ ١- شهادة الفطرة على وحدانية الله (عز وجل)
- ٥٧٤ تمهيد:
- ٥٧٥ جمع الآيات وتفسيرها
- ٥٧٥ حينما يشرق نور التوحيد:
- ٥٧٦ اللجوء إلى الله في الشدائد:
- ٥٧٧ النور الوهاج في الظلمات:
- ٥٧٨ ٢- تناسق العالم
- ٥٧٨ تمهيد:
- ٥٧٩ شرح المفردات:
- ٥٨٠ جمع الآيات وتفسيرها
- ٥٨٠ مظاهر التنسيق:
- ٥٨٠ تعدد الآلهة:
- ٥٨٢ توضيحات
- ٥٨٢ ١- النظرة العلمية لوحدة عالم الخلق
- ٥٨٣ ٢- إيضاح برهان التمانع
- ٥٨٣ اشارة
- ٥٨٣ الإجابة عن سؤالين:
- ٥٨٤ ٣- برهان الوحدة والتمانع في الروايات الإسلامية
- ٥٨٥ ٣- دليل صرف الوجود
- ٥٨٥ تمهيد:
- ٥٨٥ جمع الآيات وتفسيرها

- ٥٨٥ الله شاهد على وحدانية ذاته:
- ٥٨٦ هو الأول والآخر والظاهر والباطن:
- ٥٨٧ توضيحات
- ٥٨٧ ١- إنه حقيقة لا متناهية
- ٥٨٨ ٢- الحقيقة اللامتناهية واحدة قطعاً
- ٥٨٨ ٣- دليل صرف الوجود فى الأحاديث الإسلامية
- ٥٨٩ ٤- دليل الفيض والهداية
- ٥٨٩ اشارة
- ٥٨٩ تمهيد:
- ٥٨٩ جمع الآيات وتفسيرها
- ٥٨٩ دعوة الأنبياء العامة إلى الله الواحد:
- ٥٩٠ هل تمتلكون دليلاً على الشرك؟!
- ٥٩١ توضيحات
- ٥٩١ ١- الفيض والهداية فى الروايات الإسلامية
- ٥٩١ ٢- برهان التركب
- ٥٩٢ ٣- التوحيد والأدلة النقلية
- ٥٩٢ مصادر الشرك الهامة
- ٥٩٢ اشارة
- ٥٩٣ ١- إتباع الأوهام
- ٥٩٣ تمهيد:
- ٥٩٣ شرح المفردات:
- ٥٩٤ جمع الآيات وتفسيرها
- ٥٩٤ الغور فى عالم الأوهام!
- ٥٩٥ أسماء بلا عناوين:

- ٥٩٥ الاستناد إلى الحدس والتخمين:
- ٥٩٧ ٢- أتباع الحواس
- ٥٩٧ تمهيد:
- ٥٩٨ جمع الآيات وتفسيرها
- ٥٩٨ لماذا لا نرى الله؟
- ٥٩٨ طلبوا ذلك من موسى!
- ٥٩٩ دعنى أرى الله فى السماء!
- ٦٠٠ أيتوقعون أن يأتى الله إليهم!
- ٦٠١ توضيح:
- ٦٠١ لماذا ألقوا عالم الحس؟!
- ٦٠٢ ٣- المصالح الوهمية
- ٦٠٢ تمهيد:
- ٦٠٢ شرح المفردات:
- ٦٠٣ جمع الآيات وتفسيرها
- ٦٠٣ الأصنام شفاؤنا؟!
- ٦٠٣ توضيحات
- ٦٠٤ ١- منشأ الإعتقاد بالشفاعة
- ٦٠٥ ٢- تاريخ عبادة الأصنام والأوثان
- ٦٠٦ ٣- عوامل اخرى للشرك وعبادة الأصنام
- ٦٠٦ ٤ و ٥- عاملى التقليد والاستعمار
- ٦٠٦ تمهيد:
- ٦٠٦ شرح المفردات:
- ٦٠٧ جمع الآيات وتفسيرها
- ٦٠٧ عبادة الأصنام دين أجدادنا!

- ٦٠٩ الجواب الدائم للمشركين:
- ٦١٠ توضيحات
- ٦١٠ ١- التقليد، عامل للتقدم أم للإنحطاط؟
- ٦١٠ ٢- تزيين الشياطين وهوى النفس
- ٦١١ ٣- عامل الاستضعاف والاستعمار الفكرى
- ٦١٢ ٤- كلمة أخيرة حول عوامل الشرك
- ٦١٣ أقسام التوحيد
- ٦١٣ اشارة
- ٦١٣ التقسيمات الأساسية:
- ٦١٤ ١ و ٢- توحيد الذات والصفات
- ٦١٤ تمهيد:
- ٦١٥ جمع الآيات وتفسيرها
- ٦١٥ يامن تعالى عن الخيال والقياس والظن والوهم:
- ٦١٨ توضيحات
- ٦١٨ ١- المفهوم الدقيق لتوحيد الذات
- ٦١٩ ٢- مفهوم توحيد الصفات
- ٦١٩ ٣- الدليل على توحيد الصفات
- ٦٢٠ ٣- التوحيد فى العبادة
- ٦٢٠ تمهيد:
- ٦٢١ شرح المفردات:
- ٦٢١ المفهوم الدقيق للعبادة:
- ٦٢٢ جمع الآيات وتفسيرها
- ٦٢٢ هو المعبود وحده:
- ٦٢٣ لا أعبد غير الله:

- ٦٢٥ إن عجزتم عن عبادة الله فهاجروا:
- ٦٢٧ توضيحات
- ٦٢٧ ١- شجرة توحيد العبادة المثمرة -
- ٦٢٨ ٢- روح العبادة والإحترار من الإفراط والتفريط
- ٦٣٠ ٣- توحيد الوهابيين المشوب بالشرك
- ٦٣٢ ٤- توحيد الأفعال
- ٦٣٢ أ) توحيد الخالقية
- ٦٣٢ تمهيد:
- ٦٣٣ شرح المفردات:
- ٦٣٣ جمع الآيات وتفسيرها
- ٦٣٣ هو الخالق لكل شيء:
- ٦٣٤ خالقية الله للكون:
- ٦٣٦ توضيحات
- ٦٣٦ ١- الخطوة الاولى نحو الشرك في الخالقية
- ٦٣٧ ٢- خطوة اخرى على طريق الشرك
- ٦٣٨ ب) توحيد الربوبية
- ٦٣٨ تمهيد:
- ٦٣٩ شرح المفردات:
- ٦٤٠ جمع الآيات وتفسيرها
- ٦٤٠ الله سبحانه وتعالى رب العالمين:
- ٦٤٢ هو المدبّر للأمور:
- ٦٤٣ توضيحات
- ٦٤٣ ١- التوحيد يعنى حذف الوسائط!
- ٦٤٤ ٢- تاريخ الديانات وخرافة الوسائط

- ٦٤٤ اشارة -
- ٦٤٤ أ) آلهة الروم -
- ٦٤٤ ب) آلهة اليونان -
- ٦٤٥ ج) آلهة مصر -
- ٦٤٥ د) آلهة ايران -
- ٦٤٥ ه) آلهة الصين -
- ٦٤٥ و) مشركو العرب -
- ٦٤٦ ز) آلهة بلدان أخرى -
- ٦٤٦ ح) الاعتقاد بالمثل الأفلاطونية -
- ٦٤٧ ٣- التفويض لون من الشرك -
- ٦٤٨ ٤- هل أن الملائكة تدبر الامور؟ -
- ٦٤٨ ٥- «توحيد الربوبية» فى الأحاديث الإسلامية -
- ٦٤٩ ج) توحيد المالكية (الحاكمية التكوينية) -
- ٦٤٩ تمهيد: -
- ٦٥٠ شرح المفردات: -
- ٦٥٠ جمع الآيات وتفسيرها -
- ٦٥٠ الله مالك الملك: -
- ٦٥٣ توضيحان -
- ٦٥٣ ١- الآثار التربوية للإيمان بتوحيد المالكية والحاكمية -
- ٦٥٣ ٢- إستغلال مفهوم (ملكىة الله) -
- ٦٥٤ د) توحيد التقنين (الحاكمية التشريعية) -
- ٦٥٤ تمهيد: -
- ٦٥٥ شرح المفردات: -
- ٦٥٥ جمع الايات وتفسيرها -

- ٦٥٥ من لم يحكم بما أنزل الله:
- ٦٥٦ الحكم لله فقط:
- ٦٥٨ عند الاختلاف ارجعوا إلى الله:
- ٦٥٩ توضيحات
- ٦٥٩ ١- حاكمية الله في المنطق العقلي
- ٦٦٠ ٢- الحكومه وديعة إلهية
- ٦٦٠ ٣- شرعية الحكومات تستمد من الله فقط
- ٦٦١ ٤- الإيمان بتوحيد المالكية وتأثيراته التربوية
- ٦٦٢ ه) توحيد الطاعة
- ٦٦٢ تمهيد:
- ٦٦٣ شرح المفردات:
- ٦٦٣ جمع الآيات وتفسيرها
- ٦٦٣ إلهنا نطيع أمرك وحدك:
- ٦٦٥ عبادة القادة والعلماء:
- ٦٦٦ توضيحان
- ٦٦٦ ١- الله تعالى هو المطاع المطلق
- ٦٦٦ ٢- توحيد الطاعة في الروايات الإسلامية
- ٦٦٧ الجزء الرابع
- ٦٦٧ اشارة
- ٦٦٨ معرفة صفات جمال وجلال الله سبحانه
- ٦٦٨ اشارة
- ٦٦٨ تمهيد:
- ٦٦٩ طريق مملوء بالورود والأشواك:
- ٦٦٩ شرح المفردات:

- ٦٧٠ جمع الآيات وتفسيرها
- ٦٧٠ ليس كمثلها شيء:
- ٦٧٣ نتيجة البحث:
- ٦٧٤ توضيحات
- ٦٧٤ ١- لا تشبيه ولا تعطيل
- ٦٧٥ ٢- لم لا يصل العقل إلى كنه ذاته وصفاته؟
- ٦٧٦ ٣- النهى عن التشبيه في الروايات الإسلامية
- ٦٧٦ ٤- هل إنَّ أسماء الله توقيفية؟
- ٦٧٨ أسماء الله الحسنى والاسم الأعظم
- ٦٧٨ اشارة
- ٦٧٨ تمهيد:
- ٦٧٩ جمع الآيات وتفسيرها
- ٦٧٩ أسماء الله الخاصة:
- ٦٧٩ توضيحات
- ٦٧٩ ١- ماهى حقيقة الأسماء الحسنى
- ٦٨٠ ٢- عدد الأسماء الحسنى وتفسيرها
- ٦٨٥ ٣- أى واحد منها اسم الله الأعظم؟
- ٦٨٧ صفات الله تعالى
- ٦٨٧ اشارة
- ٦٨٧ أقسام صفات الله تعالى
- ٦٨٧ كما هو المتعارف فإنَّ صفات الله سبحانه وتعالى تنقسم إلى قسمين:
- ٦٨٨ (أ) صفات جمال الله
- ٦٨٨ اشارة
- ٦٨٨ ١- علم الله المطلق

- ٦٨٨ تمهيد:
- ٦٨٩ شرح المفردات:
- ٦٨٩ جمع الآيات وتفسيرها
- ٦٨٩ اللّٰه عز وجل عالم بكل شيء:
- ٦٩٠ يعلم نياتكم:
- ٦٩١ يعلم السر والجهر:
- ٦٩١ وعنده مفاتيح الغيب:
- ٦٩٢ إنّهُ علام الغيوب:
- ٦٩٣ موجودٌ في كل مكان:
- ٦٩٤ وهو معكم اينما كنتم:
- ٦٩٤ الخالق عليهم بخلقه:
- ٦٩٥ ولو أنّ ما في الأرض من شجرة أقلام و ...:
- ٦٩٦ عنده مفاتيح الغيب الخمسة:
- ٦٩٨ وكل شيء في كتاب مبين:
- ٦٩٨ ونحن أقرب اليكم:
- ٧٠٠ توضيحات
- ٧٠٠ ١- تأثير علم اللّٰه في بُعدى العرفان والتربية
- ٧٠٠ ٢- الأدلة على علم اللّٰه
- ٧٠٠ اشارة
- ٧٠٠ أ) برهان الخلق والنظم
- ٧٠١ ب) برهان الإمكان والوجوب
- ٧٠١ ج) برهان اللاتناهي
- ٧٠١ ٣- إنّ علم اللّٰه حضوري
- ٧٠٢ ٤- لا حصر ولا نهاية لعلم اللّٰه

- ٧٠٢ ٥- أسئلة مهمة حول علم الله
- ٧٠٥ ٦- علم الله في الروايات الإسلامية
- ٧٠٦ أقسام علم الله
- ٧٠٦ أ و ب) إن الله سميعٌ وبصير
- ٧٠٦ تمهيد:
- ٧٠٧ شرح المفردات:
- ٧٠٧ جمع الآيات وتفسيرها
- ٧٠٧ هو السميع البصير:
- ٧٠٨ يعلم ما تعملون:
- ٧٠٩ هو السميع والعليم:
- ٧٠٩ جهادكم:
- ٧٠٩ إنه قريب منكم:
- ٧١٠ إنه سميع الدعاء:
- ٧١٠ إنه تعالى بصير:
- ٧١١ إن الله خبير بأحوال العباد:
- ٧١١ إنه بصير بالمشاكل التي تواجه عباده:
- ٧١٢ الطير فوقهم صافات:
- ٧١٢ نتيجة البحوث:
- ٧١٢ توضيحات
- ٧١٢ ١- معنى كون الله سمياً بصيراً
- ٧١٣ ٢- السميع والبصير الواردة في نهج البلاغة والروايات
- ٧١٣ ٣- الأثر التربوي للإيمان بكون الله سمياً بصيراً
- ٧١٥ ٤- الله المدرك
- ٧١٥ ج) إن الله حكيم

- ٧١٥ تمهيد:
- ٧١٦ شرح المفردات:
- ٧١٧ جمع الآيات وتفسيرها
- ٧١٧ قدرته مقرونة بحكمته:
- ٧١٨ جميع أفعاله تتسم بالحكمة:
- ٧١٨ هو الحكيم الخبير:
- ٧١٩ حكيم لأنه وضع طريقاً للرجعة:
- ٧١٩ هو الحكيم الحميد:
- ٧١٩ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ:
- ٧٢٠ الطلاق نابع من الحكمة الإلهية:
- ٧٢٠ نتيجة البحث:
- ٧٢٠ توضيحان
- ٧٢٠ ١- الأدلة على حكمة الله تعالى
- ٧٢١ ٢- الآثار التربوية لمعرفة حكمة الله تعالى
- ٧٢٢ (د) إرادة الله ومشيئته
- ٧٢٢ تمهيد:
- ٧٢٣ شرح المفردات:
- ٧٢٣ جمع الآيات وتفسيرها
- ٧٢٣ إرادته نافذة في كل شيء:
- ٧٢٤ لا شيء يحول بينه وبين إرادته تعالى
- ٧٢٥ إرادته سبحانه في نصره المستضعفين:
- ٧٢٥ يريد الله بكم اليسر:
- ٧٢٥ إِنَّ اللَّهَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ:
- ٧٢٦ المشيئة الإلهية:

- ٧٢٦ الوحي والمشيشئة الإلهية:
- ٧٢٧ توضيحات
- ٧٢٧ ١- الدلائل العقلية على الإرادة الإلهية
- ٧٢٧ ٢- مامعنى إرادة الله سبحانه؟
- ٧٢٨ ٣- الإرادة الإلهية التكوينية والتشريعية
- ٧٢٨ ٤- الإرادة الالهية فى الروايات الإسلامية
- ٧٢٩ ٤- القدرة الإلهية المطلقة
- ٧٢٩ تمهيد:
- ٧٣٠ شرح المفردات:
- ٧٣١ جمع الآيات وتفسيرها
- ٧٣١ إنه على كل شىء قدير:
- ٧٣٢ الهدف من خلق الكون هو معرفة قدرته سبحانه:
- ٧٣٢ بيده الحياة والموت:
- ٧٣٣ تطورات الحياة دليل على قدرته تعالى:
- ٧٣٣ المالكية والقدرة:
- ٧٣٤ قدرته تعالى على اعادة الخلق:
- ٧٣٤ قدرته تعالى على إحياء الموتى:
- ٧٣٤ قدرته تعالى على تبادل الأقسام:
- ٧٣٥ وما كان الله ليعجزه من شىء:
- ٧٣٥ هو الوهاب القدير:
- ٧٣٦ نتيجة البحث:
- ٧٣٦ توضيح
- ٧٣٦ الأدلة على القدرة الإلهية المطلقة:
- ٧٤١ ٣ و ٤- أزلية وأبدية الله تعالى

- ٧٤١ تمهيد:
- ٧٤٢ جمع الآيات وتفسيرها
- ٧٤٤ توضيحات
- ٧٤٤ ١- النظره الفلسفيه لأزليه وأبدية الله تعالى
- ٧٤٥ ٢- أزليه الله تعالى وأبدية في الروايات الإسلاميه
- ٧٤٥ ٣- الإجابة عن سؤال
- ٧٤٧ الله الحى القيوم
- ٧٤٧ تمهيد:
- ٧٤٧ شرح المفردات:
- ٧٤٨ جمع الآيات وتفسيرها
- ٧٤٨ الله قائم بذاته والإنسان قائم بالله:
- ٧٤٩ توضيحان
- ٧٤٩ ١- حقيقة الحياة
- ٧٥٠ ٢- الأدلة على حياته سبحانه
- ٧٥١ (ب) صفات الجلال لله سبحانه وتعالى (الصفات السلبيه)
- ٧٥١ اشارة
- ٧٥١ تمهيد:
- ٧٥١ اشارة
- ٧٥٢ شرح المفردات:
- ٧٥٢ جمع الآيات وتفسيرها
- ٧٥٢ كل الخلائق تسج لله:
- ٧٥٤ توضيح
- ٧٥٤ «التشبيه» من أعظم الذنوب!
- ٧٥٥ ١ و ٢- نفى الرؤيه والجسميه

- ٧٥٥ تمهيد:
- ٧٥٦ جمع الآيات وتفسيرها
- ٧٥٦ العين لا تُطبق مشاهدةً جماله:
- ٧٥٧ ياموسى ارنا الله جهراً!
- ٧٦٠ عدم امكانية رؤية الله!
- ٧٦٠ النتيجة:
- ٧٦٠ توضيحات
- ٧٦٠ ١- لماذا تستحيل رؤية الله تعالى؟
- ٧٦١ ٢- منطق القائلين بامكانية الرؤية
- ٧٦٢ ٣- الروايات الدالة على انتفاء رؤية الله
- ٧٦٤ ٤- أدلة القائلين بالرؤية الظاهرية
- ٧٦٩ ٥- الله عز وجل ليس جسماً
- ٧٧١ ٣- ليس له محل وهو موجود فى كل مكان
- ٧٧١ تمهيد:
- ٧٧٢ جمع الآيات وتفسيرها
- ٧٧٢ أينما تولوا فثم وجه الله:
- ٧٧٣ و هو معكم أينما كنتم!
- ٧٧٥ نتيجة البحث:
- ٧٧٦ توضيحات
- ٧٧٦ ١- الله عز وجل فوق المكان والزمان
- ٧٧٧ ٢- لا يحلُّ الله فى شىء
- ٧٧٧ ٣- معنى حضور الله تعالى فى كل مكان!
- ٧٧٨ ٤- لماذا نرفع أيدينا إلى السماء أثناء الدعاء؟
- ٧٧٩ ٥- نفى المكانية عن الله فى الروايات الإسلامية

- ٧٨١ ٦- تبريرات المخالفين
- ٧٨٣ ٧- المتصوفة ومساءلة الحلول
- ٧٨٥ ٢- صفات فعل الله
- ٧٨٥ اشارة
- ٧٨٥ تمهيد:
- ٧٨٥ اشارة
- ٧٨٦ ١- الخالق ٢- الخلاق ٣- أحسن الخالقين
- ٧٨٦ اشارة
- ٧٨٦ توضيح وبلاغ:
- ٧٨٧ ٤- الفاطر ٥- البارى ٦- الخالق ٧- البديع ٨- المصور
- ٧٨٧ توضيح وبلاغ:
- ٧٨٨ توضيح وبلاغ:
- ٧٨٩ ٩- المالك ١٠- الملك ١١- الحاكم ١٢- الحكيم ١٣- الرب
- ٧٨٩ توضيح وبلاغ:
- ٧٩١ ١٤- الولى ١٥- الوالى ١٦- المولى ١٧- الحافظ ١٨- الحفيظ ١٩- الرقيب ٢٠- المهيمن
- ٧٩٢ توضيح وبلاغ:
- ٧٩٤ ٢١- الرازق ٢٢- الرزاق ٢٣- الكريم ٢٤- الحميد ٢٥- الفتاح
- ٧٩٥ توضيح وبلاغ:
- ٧٩٨ ٢٦- الرحمن ٢٧- الرحيم ٢٨- أرحم الراحمين ٢٩- الودود ٣٠- الرؤوف ٣١- اللطيف ٣٢- الحفي
- ٧٩٩ توضيح وبلاغ:
- ٨٠٠ الرحمة الإلهية الواسعة فى الأحاديث الإسلامية:
- ٨٠٤ ٣٣- الغافر ٣٤- الغفور ٣٥- الغفار ٣٦- العفو ٣٧- التواب ٣٨- الجبار
- ٨٠٤ توضيح وبلاغ:
- ٨٠٧ ٣٩- الشكور ٤٠- الشاكر ٤١- الشفيع ٤٢- الوكيل ٤٣- الكافى

- ٨٠٨ جمع الآيات وتفسيرها
- ٨١١ ٤٤- الحسيب ٤٥- سريع الحساب ٤٦- أسرع الحاسبين ٤٧- سريع العقاب ٤٨- شديد العقاب
- ٨١٢ جمع الآيات وتفسيرها
- ٨١٤ ٤٩- نصير ٥٠- نعم النصير ٥١- خير الناصرين
- ٨١٥ جمع الآيات وتفسيرها
- ٨١٥ ٥٢- القاهر ٥٣- القهار ٥٤- الغالب
- ٨١٦ جمع الآيات وتفسيرها
- ٨١٧ ٥٥- السلام ٥٦- المؤمن
- ٨١٧ جمع الآيات وتفسيرها
- ٨١٩ ٥٧- المحيي
- ٨١٩ جمع الآيات وتفسيرها
- ٨٢١ ٥٨- الشهيد
- ٨٢١ جمع الآيات وتفسيرها
- ٨٢١ ٥٩- الهادي
- ٨٢٢ جمع الآيات وتفسيرها
- ٨٢٣ ٦٠- خَيْر
- ٨٢٤ جمع الآيات وتفسيرها
- ٨٢٨ اللّٰه خير من كل شيء:
- ٨٢٨ جمع الآيات وتفسيرها
- ٨٢٨ ١- العالم مظهرٌ لصفاته وأسمائه
- ٨٢٩ ٢- الصفات الاخرى التي تعتبر من زمرة الصفات الفعلية
- ٨٢٩ (أ) اللّٰه المتكلم
- ٨٢٩ تمهيد:
- ٨٢٩ جمع الآيات وتفسيرها

- ١- ما المقصود من كلام الله؟ ٨٣٠
- ٢- الإستنتاج النهائي ٨٣٠
- ٣- (التكلم) فى الروايات الإسلامية ٨٣٢
- (ب) الله عز وجل صادق ٨٣٢
- تمهيد: ٨٣٢
- شرح المفردات: ٨٣٣
- جمع الآيات وتفسيرها ٨٣٤
- توضيح ٨٣٥
- دلائل صدق الله: ٨٣٥
- آخر الكلام حول الصفات الإلهية: ٨٣٥
- العدل الإلهى ٨٣٦
- اشارة ٨٣٦
- تمهيد: ٨٣٦
- شرح المفردات: ٨٣٧
- جمع الآيات وتفسيرها ٨٣٩
- إن الله لا يظلم أحداً: ٨٣٩
- ما الله بظلامٍ ٨٤٤
- كيف يُمكن أن يُساوى بين المحسن والمُسىء؟ ٨٤٥
- ثمرة البحث: ٨٤٥
- توضيحات ٨٤٥
- ١- مسألة العدل الإلهى لدى المذاهب والفرق الإسلامية ٨٤٥
- ٢- الأدلة العقلية على مسألة العدل الإلهى ٨٤٧
- ٣- ملاحظتان مهمتان ٨٤٨
- ٤- الرجوع إلى أدلة العدل الإلهى ٨٤٩

- ٨٥٠ ٥- العدل فى الروايات الإسلاميه
- ٨٥٢ ٦- أدلة منكرى العدل الإلهى
- ٨٥٣ نقد وتحليل
- ٨٥٣ لنتطرق الآن إلى نقد وتحليل هذه الإشكالات:
- ٨٥٧ الجواب الإجمالى المختصر
- ٨٥٨ القرآن والجواب الإجمالى على مسألة الآفات والبلايا:
- ٨٦٠ الحوادث الأليمه فى الروايات الإسلاميه:
- ٨٦١ تحذير!!
- ٨٦١ الجواب التفصيلى عن الحوادث الأليمه
- ٨٦١ ١- فلسفه التفاوت
- ٨٦٣ ٢- المشاكل هى من صنع الإنسان!
- ٨٦٣ اشارة
- ٨٦٤ القرآن والمصائب الذاتية الصنع:
- ٨٦٦ ٣- مصائب العقوبات الإلهيه
- ٨٦٨ العلاقة بين الذنوب والبلاء فى الروايات الإسلاميه:
- ٨٦٩ ٤- المصائب الموقظه
- ٨٧٠ القرآن والمصائب الموقظه:
- ٨٧١ وبخصوص آل فرعون ورد ما يلى:
- ٨٧٢ الحوادث الموقظه فى الروايات الإسلاميه:
- ٨٧٢ ٥- الإبتلاء عن طريق المشاكل
- ٨٧٣ القرآن والإبتلاءات العصبية:
- ٨٧٤ ٦- معرفه النعم فى المصائب
- ٨٧٥ ٧- موقع الخير والشّر فى عالم الوجود
- ٨٧٥ اشارة

- ١- ما معنى الخير والشر؟ ٨٧٦
- ٢- هل للشرور حالة عدمية؟ ٨٧٦
- ٣- الخيرات التي تأتي من الشرور ٨٧٧
- ٤- الخير والشر في القرآن الكريم ٨٧٨
- ٥- الخير والشر في الروايات الإسلامية ٨٧٩
- «سؤالان مهمان عن العدل الإلهي» ٨٨١
- ١- لماذا طرِحَ العدل كواحد من أصول الدين؟ ٨٨١
- ٢- هل تتعارض هذه الأمور مع العدل الإلهي؟ ٨٨٢
- الجزء الخامس ٨٨٥
- أهمية بحث المعاد ٨٨٥
- إشارة ٨٨٥
- أهمية بحث المعاد في المنظور القرآني ٨٨٥
- تمهيد: ٨٨٥
- جمع الآيات وتفسيرها ٨٨٦
- التأكيد على المعاد: ٨٨٦
- إنكار المعاد هو عين الضلال: ٨٨٩
- نتيجة البحث: ٨٩١
- أسماء المعاد في القرآن الكريم ٨٩١
- إشارة ٨٩١
- أسماء المعاد في القرآن الكريم ٨٩١
- تمهيد: ٨٩١
- جمع الآيات وتفسيرها ٨٩٢
- ١- القيامة ٨٩٢
- ٢- احياء الموتى ٨٩٣

- ٣- البعث ٨٩٣
- ٤- الحشر ٨٩٤
- ٥- النشر ٨٩٥
- ٦- المعاد ٨٩٦
- ٧- لقاء الله ٨٩٧
- ٨- الرجوع إلى الله ٨٩٨
- النتيجة: ٨٩٩
- للقيامة سبعون عنواناً في القرآن ٨٩٩
- اشارة ٨٩٩
- للقيامة سبعون عنواناً في القرآن ٨٩٩
- تمهيد: ٩٠٠
- اشارة ٩٠٠
- القسم الأول: ٩٠٠
- اشارة ٩٠٠
- ١- يوم القيامة ٩٠٠
- ٢- اليوم الآخر ٩٠١
- ٣- يوم الحساب ٩٠٢
- ٤- يوم الدين ٩٠٢
- ٥- يوم الجمع ٩٠٣
- ٦- يوم الفصل ٩٠٣
- ٧- يوم الخروج ٩٠٣
- ٨- اليوم الموعود ٩٠٤
- ٩- يوم الخلود ٩٠٤
- ١٠- يوم عظيم ٩٠٤

- ١١- يوم الحسرة ٩٠٥
- ١٢- يوم التغابن ٩٠٦
- ١٣- يوم التناد ٩٠٦
- ١٤- يوم التلاق ٩٠٧
- ١٥- يوم ثقيل ٩٠٧
- ١٦- يوم الأرفة ٩٠٨
- ١٧- يوم عسير ٩٠٨
- ١٨- يوم اليم ٩٠٨
- ١٩- يوم الوعيد ٩٠٩
- ٢٠- اليوم الحق ٩٠٩
- ٢١- يوم مشهود ٩١٠
- ٢٢- يوم معلوم ٩١٠
- ٢٣- يوماً عبوساً قمطريراً ٩١١
- ٢٤- يوم البعث ٩١١
- القسم الثاني: ٩١٢
- اشارة ٩١٢
- ٢٥- يوم نطوى السماء كطي السجل للكتب ٩١٢
- ٢٦- يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ٩١٣
- ٢٧- يوم تموز السماء موراً ٩١٣
- ٢٨- يوم تشقق السماء بالغمام ٩١٤
- ٢٩- يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً ٩١٤
- ٣٠- يوم تكون السماء كالمهل ٩١٤
- ٣١- يوم ترجف الأرض والجبال ٩١٥
- ٣٢- يوم يسمعون الصيحة بالحق ٩١٦

- ٣٣- يَوْمُهُمُ الَّذِي فِيهِ يُضْعَقُونَ ٩١٦
- ٣٤- يَوْمٌ يُنْفَخُ فِيهِ الصُّورُ ٩١٦
- ٣٥- يَوْمٌ كَانَ مَقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ٩١٧
- القسم الثالث: ٩١٨
- ٣٦- يَوْمٌ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ٩١٨
- ٣٧- يَوْمٌ تَبْلَى السَّرَائِرَ ٩١٩
- ٣٨- يَوْمٌ هُمْ بَارِزُونَ ٩١٩
- ٣٩- يَوْمٌ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ٩٢٠
- ٤٠- يَوْمٌ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحَضَّرًا وَمِمَّا عَمِلَتْ مِنْ سَوْءٍ ٩٢٠
- ٤١- يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ٩٢١
- ٤٢- يَوْمٌ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ٩٢١
- ٤٣- يَوْمٌ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ٩٢٢
- ٤٤- يَوْمٌ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا ٩٢٢
- ٤٥- يَوْمٌ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ٩٢٢
- ٤٦- يَوْمٌ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ٩٢٣
- ٤٧- يَوْمٌ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا ٩٢٣
- ٤٨- يَوْمٌ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ٩٢٤
- ٤٩- يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ٩٢٤
- ٥٠- ... يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ٩٢٥
- ٥١- يَوْمٌ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا ٩٢٥
- ٥٢- يَوْمٌ لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ٩٢٥
- ٥٣- يَوْمٌ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ٩٢٥
- ٥٤- وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ٩٢٦
- ٥٥- يَوْمٌ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ٩٢٧

- ٩٢٨ ٥٦- يوماً يجعلُ الولدان شيباً
- ٩٢٨ ٥٧- هذا يومٌ لا ينطقون
- ٩٢٩ ٥٨- يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ
- ٩٢٩ ٥٩- يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعذرتهم
- ٩٣٠ ٦٠- يَوْمَ يَعِضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ
- ٩٣٠ ٦١- يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ
- ٩٣٠ ٦٢- يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ
- ٩٣١ ٦٣- يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً
- ٩٣١ ٦٤- يَوْمَ تَبْطِشُ البُطْشَةَ الكبرى
- ٩٣١ ٦٥- يَوْمَ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ
- ٩٣٢ ٦٦- يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَكْرٍ
- ٩٣٢ ٦٧- يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهم
- ٩٣٣ ٦٨- يَوْمَ نَقُولُ لجهنم هل امتلأتِ
- ٩٣٤ ٦٩- يَوْمَ يَقُولُ المنافقون والمنافقات ...
- ٩٣٤ ٧٠- يَوْمَ لَا رَيْبَ فِيهِ
- ٩٣٤ ثمرة البحث:
- ٩٣٥ الأدلة على المعاد
- ٩٣٥ إشارة
- ٩٣٥ أدلة إثبات المعاد
- ٩٣٥ تمهيد:
- ٩٣٦ إمكان المعاد ومنطق المخالفين:
- ٩٣٦ إشارة:
- ٩٣٧ جمع الآيات وتفسيرها
- ٩٣٧ هل يستحيل التراب إلى إنسان مرة أخرى!

- ٩٣٨ الإنسان العاقل لا يتحدث بمثل هذا!.....
- ٩٣٨ إنها أساطير فحسب:.....
- ٩٣٩ إن هي إلهية واحدة وموتة واحدة:.....
- ٩٤٠ نتيجة البحث:.....
- ٩٤١ أدلة إمكان المعاد.....
- ٩٤١ اشارة.....
- ٩٤١ ١- الخلق الأول.....
- ٩٤١ تمهيد:.....
- ٩٤٢ جمع الآيات وتفسيرها.....
- ٩٤٢ من يحيى العظام وهي رميم؟!.....
- ٩٤٤ ثمرة البحث:.....
- ٩٤٥ توضيح.....
- ٩٤٥ اليوم الذى خلق فيه الإنسان:.....
- ٩٤٥ ٢- القدرة الإلهية المطلقة.....
- ٩٤٥ تمهيد:.....
- ٩٤٦ جمع الآيات وتفسيرها.....
- ٩٤٦ إنه على كل شىء قدير:.....
- ٩٤٩ ثمرة البحث:.....
- ٩٤٩ ٣- آيات إحياء الأرض.....
- ٩٤٩ اشارة:.....
- ٩٥٠ جمع الآيات وتفسيرها.....
- ٩٥٠ هل رأيتم كيف تحيى الأرض الميتة؟ فهكذا النشور!.....
- ٩٥٤ ٤- التطورات الجنينية.....
- ٩٥٤ تمهيد:.....

- ٩٥٥ جمع الآيات وتفسيرها
- ٩٥٥ إن شككتهم بأمر القيامة فانظروا إلى الجنين!
- ٩٥٩ ثمرة البحث:
- ٩٦٠ ٥- المعاد في عالم الطاقة
- ٩٦٠ تمهيد:
- ٩٦٠ جمع الآيات وتفسيرها
- ٩٦٠ استئناف عود الطاقة يتجدد امام انظارنا!
- ٩٦٤ النماذج التاريخية الحية للمعاد
- ٩٦٤ تمهيد:
- ٩٦٤ اشارة
- ٩٦٤ ١- قصة حياة عزير عليه السلام بعد موته
- ٩٦٦ ٢- إبراهيم عليه السلام والمعاد
- ٩٦٦ اشارة
- ٩٦٧ وهنا ينبغي أن نشير إلى عدة امور:
- ٩٦٨ ٣- قصة أصحاب الكهف
- ٩٦٨ توضيحات
- ٩٦٨ اشارة
- ٩٦٨ ١- ملخص الحادثة
- ٩٦٩ ٢- قصة أصحاب الكهف في كتب التاريخ
- ٩٦٩ ٣- مكان الغار
- ٩٧٠ ٤- قصة أصحاب الكهف في تصور العلم الحديث
- ٩٧٢ ٥- قصة هزيمة بني اسرائيل
- ٩٧٣ قصة قتيل بني اسرائيل:
- ٩٧٤ دلائل وقوع المعاد

- ٩٧٤ اشارة
- ٩٧٥ تمهيد:
- ٩٧٥ ١- برهان الفطرة
- ٩٧٥ اشارة
- ٩٧٥ جمع الآيات وتفسيرها
- ٩٧٥ المعاد يكمن فى أعماق الروح:
- ٩٧٨ توضيح
- ٩٧٨ المعاد يتجلى فى الفطرة
- ٩٨٠ ٢- برهان الحكمة
- ٩٨٠ تمهيد:
- ٩٨٠ جمع الآيات وتفسيرها
- ٩٨٠ الحياة بلا معاد لامعنى لها:
- ٩٨٢ توضيح
- ٩٨٢ هل يمكن للعاقل أن يعتبر الأيام المعدودة من هذه الحياة هى الهدف من الخلق؟
- ٩٨٣ ٣- برهان العدالة
- ٩٨٣ تمهيد:
- ٩٨٤ جمع الآيات وتفسيرها
- ٩٨٤ العدالة لا تتحقق بدون القيامة:
- ٩٨٦ توضيح
- ٩٨٦ العدل هو النظام الحاكم على الخلق:
- ٩٨٦ ٤- برهان الغاية والحركة
- ٩٨٦ تمهيد:
- ٩٨٧ جمع الآيات وتفسيرها
- ٩٨٧ الجميع يسير نحو الله:

- ٩٨٩ توضيح
- ٩٨٩ نهاية المطاف:
- ٩٨٩ ٥- برهان الرحمة
- ٩٨٩ تمهيد:
- ٩٩٠ جمع الآيات وتفسيرها
- ٩٩١ ٦- برهان الوحدة
- ٩٩١ تمهيد:
- ٩٩٢ جمع الآيات وتفسيرها
- ٩٩٢ متى تُحلّ هذه الاختلافات؟
- ٩٩٤ توضيح
- ٩٩٥ ٧- برهان خلود الروح
- ٩٩٥ تمهيد:
- ٩٩٥ جمع الآيات وتفسيرها
- ٩٩٥ استقلالية الروح:
- ٩٩٦ عن الشهداء في سبيل الله أيضاً:
- ٩٩٧ عذاب آل فرعون في البرزخ:
- ٩٩٧ قبض الأرواح!
- ٩٩٩ توضيحات
- ٩٩٩ ١- خلود الروح
- ١٠٠٠ ٢- هل الروح مستقلة عن البدن؟
- ١٠٠٢ ٣- أدلة الماديين على عدم استقلالية الروح
- ١٠٠٢ اشارة
- ١٠٠٣ النقاط المبهمة في هذا الاستدلال:
- ١٠٠٤ ٤- أدلة أنصار نظرية استقلال الروح

- ١٠٠٤ (أ) خصوصية كشف الواقع (اي الاطلاع على العالم الخارجى) -
- ١٠٠٤ اشارة
- ١٠٠٤ ولتوضيح ذلك يجب الالتفات إلى النقاط الآتية:
- ١٠٠٥ (ب) وحدة شخصية الإنسان
- ١٠٠٥ اشارة
- ١٠٠٦ خطأ ينبغي اجتنابه:
- ١٠٠٦ (ج) عدم مطابقة الكبير للصغير
- ١٠٠٦ اشارة
- ١٠٠٧ تساؤل:
- ١٠٠٧ (د) الظواهر الروحانية لا تتلائم مع الكيفيات المادية
- ١٠٠٨ ٥- هل النفس مجردة؟
- ١٠٠٨ المعاد الجسماني
- ١٠٠٨ اشارة
- ١٠٠٩ تمهيد:
- ١٠٠٩ المجموعة الاولى
- ١٠٠٩ اشارة
- ١٠٠٩ جمع الآيات وتفسيرها
- ١٠١٠ كيف تحيي العظام البالية؟
- ١٠١٠ المجموعة الثانية:
- ١٠١١ اشارة
- ١٠١١ جمع الآيات وتفسيرها
- ١٠١١ كيف يُبعث من فى القبور؟
- ١٠١٢ المجموعة الثالثة:
- ١٠١٢ اشارة

- ١٠١٢ جمع الآيات وتفسيرها
- ١٠١٢ من التراب نخرجكم تارة اخرى
- ١٠١٣ المجموعة الرابعة:
- ١٠١٣ اشارة
- ١٠١٣ جمع الآيات وتفسيرها
- ١٠١٣ المعاد يشبه إحياء الأرض بعد موتها
- ١٠١٤ المجموعة الخامسة:
- ١٠١٤ اشارة
- ١٠١٤ جمع الآيات وتفسيرها
- ١٠١٤ هل يمكن أن نُخلق من التراب ثانية؟
- ١٠١٥ المجموعة السادسة:
- ١٠١٥ اشارة
- ١٠١٥ جمع الآيات وتفسيرها
- ١٠١٦ نَعَم الجَنَّةُ ماديةٌ دليلٌ على تحقق المعاد الجسماني
- ١٠١٧ المجموعة السابعة:
- ١٠١٧ اشارة
- ١٠١٧ جمع الآيات وتفسيرها
- ١٠١٧ دليل آخر على كون العذاب المادي في جهنم
- ١٠١٧ المجموعة الثامنة:
- ١٠١٧ اشارة
- ١٠١٨ جمع الآيات وتفسيرها
- ١٠١٨ تكلم أعضاء الجسم دليل ملموس آخر
- ١٠١٩ المجموعة التاسعة:
- ١٠١٩ اشارة

- ١٠١٩ ثمرة البحث:
- ١٠٢٠ توضيح
- ١٠٢٠ المعاد الجسماني في مقياس العقل:
- ١٠٢١ شبهات جاحدى المعاد الجسماني
- ١٠٢١ اشارة
- ١٠٢١ ١- استحالة «اعادة المعدوم»
- ١٠٢٢ ٢- شبهة الاكل والمأكل
- ١٠٢٢ اشارة
- ١٠٢٤ الجواب النهائي لشبهة الاكل والمأكل:
- ١٠٢٦ ٣- شحة العناصر الترابية على سطح الأرض
- ١٠٢٧ ٤- هل تسع مساحة الأرض لحشر جميع البشر؟
- ١٠٢٨ ٥- كيف يتلائم الجسم الذي من صفاته الفناء مع الخلود؟
- ١٠٢٩ ٦- هل يمكن الجمع بين (معاد) الأجسام والأرواح؟
- ١٠٢٩ ٧- اى جسم يُعاد يوم القيامة؟
- ١٠٣٠ ثمرة البحث:
- ١٠٣٠ المعاد في الحضارات السالفة
- ١٠٣٠ تمهيد:
- ١٠٣١ جمع الآيات وتفسيرها
- ١٠٣١ الاعتقاد بالمعاد خلال العصور المختلفة:
- ١٠٣٧ ثمرة البحث:
- ١٠٣٧ توضيحات
- ١٠٣٧ ١- المعاد لدى شعوب ما قبل التاريخ
- ١٠٣٨ ٢- المعاد في ضمير شعوب ما بعد التاريخ
- ١٠٣٨ اشارة

- ١٠٣٩ (أ) المعاد لدى المصريين القداماء
- ١٠٤٠ (ب) «البابليون»
- ١٠٤٠ (ج) «السومريون»
- ١٠٤٠ (د) «الزرادشت»
- ١٠٤١ (هـ) «الصينيون»
- ١٠٤١ (و) «اليابانيون»
- ١٠٤٢ (ز) «اليونانيون»
- ١٠٤٢ (ح) «الرومان»
- ١٠٤٢ ٣- الاعتقاد بالمعاد في كتب اليهود «١»
- ١٠٤٣ ٤- القيامة من وجهة نظر الأناجيل
- ١٠٤٤ ثمرة البحث:
- ١٠٤٤ الإيمان بالمعاد وعلاقته بالتربية
- ١٠٤٤ تمهيد:
- ١٠٤٥ جمع الآيات وتفسيرها
- ١٠٤٥ الإيمان بالمعاد هو المحفز على عمل الصالحات:
- ١٠٤٧ الإيمان بالمعاد وتأثيره على الثبات:
- ١٠٤٨ إنكار المعاد هو السبب الرئيسي لاقتحام الفجور:
- ١٠٤٩ لو آمنوا بالمعاد لما ارتكبوا الذنوب:
- ١٠٥١ الإيمان بالمعاد وعلاقته بالرؤية الواقعية:
- ١٠٥٣ ثمرة البحث:
- ١٠٥٣ توضيحات
- ١٠٥٣ ١- الآثار الإيجابية العميقة للإيمان بالقيامة
- ١٠٥٥ ٢- الآثار التربوية للمعاد من وجهة نظر الروايات
- ١٠٥٦ ٣- الإيمان بالمعاد وعلاقته باطمئنان النفس

- المدخل إلى عالم البقاء ١٠٥٧
- اشارة ١٠٥٧
- ١- الموت ١٠٥٨
- تمهيد: ١٠٥٨
- جمع الآيات وتفسيرها ١٠٥٩
- ١- الموت قانون شمولي ١٠٥٩
- ٢- حقيقة الموت ١٠٦٠
- ٣- ملائكة الموت ١٠٦٠
- ٤ و ٥- حال المؤمنین والظالمین عند سكرات الموت ١٠٦١
- ٦- علّة الخوف من الموت ١٠٦٢
- ٧- الغاية من الموت والحياة ١٠٦٢
- ٨ و ٩- مقدمات الموت وسكراته ١٠٦٤
- ١٠- تمّنى العودة والإصلاح ١٠٦٥
- ثمرة البحث: ١٠٦٦
- اشارة ١٠٦٦
- ١- الموت هو مدخل عالم البقاء ١٠٦٦
- ٢- لماذا نخاف الموت؟ ١٠٦٧
- ٣- أسباب الخوف من الموت في نظر الروايات ١٠٦٨
- ٢- البرزخ ١٠٦٨
- تمهيد: ١٠٦٨
- جمع الآيات وتفسيرها ١٠٦٩
- ماهية البرزخ وخصوصياته: ١٠٦٩
- ثمرة البحث: ١٠٧٤
- توضيحات ١٠٧٤

- ١- البرزخ فى الأحاديث الشريفة ١٠٧٤
- ٢- البرزخ فى ميزان العقل والحس ١٠٧٦
- ٣- قبسات من عالم البرزخ ١٠٧٧
- ٤- خصوصيات عالم البرزخ ١٠٧٩
- اشارة ١٠٧٩
- أ) سؤال القبر ١٠٧٩
- ب) ضغطة القبر ١٠٨٠
- ج) عن أى الامور يُسأل؟ ١٠٨١
- د) ارتباط الروح بهذا العالم ١٠٨١
- ه) انتفاع الأرواح بأعمال الآخريين الصالحة ١٠٨٢
- ٥- هل يمرّ الجميع فى مرحلة البرزخ؟ ١٠٨٣
- ٦- الغاية من وجود البرزخ ١٠٨٣
- ملاحظة: ١٠٨٤
- الجزء السادس ١٠٨٤
- منازل الآخرة ١٠٨٤
- المقدمة: ١٠٨٤
- اشارة ١٠٨٤
- ١- علامات القيامة ١٠٨٥
- الفصل الأول: أشراف الساعة ١٠٨٥
- تمهيد: ١٠٨٦
- جمع الآيات و تفسيرها ١٠٨٦
- ظهور علامات القيامة: ١٠٨٦
- إقتربت الساعة: ١٠٨٧
- يوم تأتى السماء بدخان مبين: ١٠٨٧

- ١٠٨٩ الفصل الثاني: العلامات التي تنذر بنهاية هذا العالم
- ١٠٨٩ اشارة
- ١٠٨٩ ١- تلاشى الجبال
- ١٠٩٠ ٢- انفجار البحار
- ١٠٩٠ ٣- الزلزال العظيم المدمر
- ١٠٩١ ٤- ذهاب ضوء الشمس والقمر والكواكب
- ١٠٩٢ ٥- انشقاق الأجرام السماوية
- ١٠٩٤ الفصل الثالث: علامات بدء القيامة
- ١٠٩٥ ٢- النفخ فى الصور
- ١٠٩٦ نفخة الموت ونفخة الحياة:
- ١٠٩٦ تمهيد:
- ١٠٩٧ جمع الآيات و تفسيرها
- ١٠٩٧ نفخة الموت ونفخة الحياة!
- ١١٠٣ توضيحات
- ١١٠٣ ١- ما المراد ب (نفخة الصور) أو صرخة الموت والحياة
- ١١٠٤ ٢- تأثير الأمواج الصوتية على الإنسان وسائر الموجودات
- ١١٠٤ ٣- إجابات حول نفخة الصور
- ١١٠٤ ١- هل أن نفخة الصور تقع مرتين فقط؟
- ١١٠٥ ٢- من الملك المأمور بنفخة الصور
- ١١٠٥ ٣- ما هى الفترة الزمنية بين النفختين
- ١١٠٦ ٤- فلسفة نفخة الصور؟
- ١١٠٧ ٣- صحيفة الأعمال
- ١١٠٧ اشارة
- ١١٠٨ جمع الآيات وتفسيرها

- ١١١٠ الكتاب الذى يتكلم:
- ١١١١ كتب فى عليين وأخرى فى سجين:
- ١١١٢ الملائكة المراقبون:
- ١١١٣ كُتَاب صحيفه الأعمال:
- ١١١٤ كتاب الأعمال فى اليمين أو فى الشمال:
- ١١١٦ صحيفه أعمالنا أمام أنظار الجميع:
- ١١١٦ توضيحات
- ١١١٦ ١- صحف الأعمال فى الروايات الإسلاميه
- ١١١٧ ٢- ماهيه صحف الأعمال
- ١١١٩ ٣- فلسفه كتاب الأعمال
- ١١٢٠ ٤- أقسام كتب الأعمال
- ١١٢١ ٥- خصائص كتاب الأعمال
- ١١٢٢ ٤- حضور الأعمال
- ١١٢٢ تمهيد:
- ١١٢٣ جمع الآيات وتفسيرها
- ١١٢٣ يومئذ كل يرى عمله:
- ١١٢٤ استيفاء الأعمال يوم القيامة:
- ١١٢٨ لا تجزون إلاما كنتم تعملون:
- ١١٢٩ توضيحات
- ١١٢٩ ١- رؤيه الأعمال فى الروايات الإسلاميه
- ١١٣٠ ٢- تجسد الأعمال فى منطق العقل
- ١١٣١ ٣- تجسد اخلاق وسجايا الإنسان
- ١١٣٢ ٥- محكمة العدل الإلهي
- ١١٣٢ الشهود والميزان والحساب:

- ١١٣٢ تمهيد:
- ١١٣٣ جمع الآيات وتفسيرها -
- ١١٣٣ الجميع محضرون فى تلك المحكمة العظمى
- ١١٣٤ شهود المحشر:
- ١١٣٨ ميزان الأعمال:
- ١١٤٠ السرعة فى الحساب:
- ١١٤٢ توضيحات -
- ١١٤٢ ١- وصف للمحكمة الكبرى
- ١١٤٣ ٢- شهود يوم القيامة
- ١١٤٤ ٣- ماهو ميزان العمل؟
- ١١٤٥ ٤- ماهى الأعمال الثقيلة فى الميزان؟
- ١١٤٦ ٥- المسائل التى يسأل عنها يوم القيامة
- ١١٤٧ ٦- اليسر والعسر فى حساب المحشر
- ١١٤٩ ٦- الصراط والمرصاد
- ١١٤٩ تمهيد:
- ١١٤٩ جمع الآيات وتفسيرها
- ١١٤٩ طريق الجنة يمر عبر جهنم:
- ١١٥٢ توضيح
- ١١٥٢ ماهى حقيقة الصراط؟
- ١١٥٤ الجنة
- ١١٥٤ اشارة
- ١١٥٤ تمهيد:
- ١١٥٥ ١- موجبات دخول الجنة فى المنظور القرآنى
- ١١٥٥ اشارة

- ١١٥٥ ١- الإيمان والعمل الصالح
- ١١٥٦ ٢- التقوى
- ١١٥٧ ٣- الاحسان
- ١١٥٨ ٤- الجهاد والشهادة
- ١١٥٨ ٥- نهى النفس عن الهوى
- ١١٥٩ ٦- السابقون إلى الإيمان
- ١١٦٠ ٧- الهجرة والجهاد
- ١١٦١ ٨- الصبر والتحمل عند الشدائد
- ١١٦٢ ٩- الإيمان والاستقامة
- ١١٦٣ ١٠- إطاعة الله ورسوله صلى الله عليه و آله
- ١١٦٣ ١١- الاخلاص
- ١١٦٤ ١٢- الصدق
- ١١٦٤ ١٣- تزكية النفس
- ١١٦٥ ١٤- الانفاق والاستغفار
- ١١٦٦ ١٥- الخوف من الله
- ١١٦٦ ١٦- التولى والتبرؤ
- ١١٦٧ ١٧- الاهتمام بالصلاة
- ١١٦٧ اشارة
- ١١٦٧ الخلاصة:
- ١١٦٨ ٢- النعم المادية فى الجنة
- ١١٦٨ تمهيد:
- ١١٦٨ اشارة
- ١١٦٩ ١- حدائق الجنان
- ١١٧٠ ٢- ظلال الجنة

- ١١٧٠ ٣- قصور أهل الجنة
- ١١٧١ ٤- الفرش والأرائك
- ١١٧٤ ٥- الأغذية والأواني
- ١١٧٥ ٦- الشراب الطهور
- ١١٧٧ ٧- أفضل شراب أهل الجنة
- ١١٧٨ ٨- الأكواب والصحاف والكؤوس
- ١١٨٠ ٩- ألبسة الجنة
- ١١٨١ ١٠- حلى الجنة
- ١١٨٢ ١١- الحور العين
- ١١٨٥ ١٢- الخدم والسقاة
- ١١٨٧ ١٣- المضيفون
- ١١٨٨ ١٤- النزل
- ١١٨٨ ١٥- النعم التي لا تتصور
- ١١٩٠ ٣- اللذات الروحية
- ١١٩٠ اشارة
- ١١٩١ ١- الاحترام الخاص
- ١١٩٢ ٢- اجواء الامن والسلام
- ١١٩٣ ٣- الأمان بعد الخوف
- ١١٩٤ ٤- الأخلاء والأصدقاء الأوفياء
- ١١٩٥ ٥- العلاقات الطيبة
- ١١٩٦ ٦- الانشراح النفسى
- ١١٩٧ ٧- الشعور برضا الله
- ١١٩٩ ٨- نظر الله إليهم ونظرهم إليه
- ١٢٠٠ ٩- لهم ما يشتهون

- ١٠- النعم التي لا يدركها التصور ١٢٠١
- ١١- خلود نعم الجنة ١٢٠٢
- ٤- أبواب الجنة ١٢٠٣
- تمهيد: ١٢٠٣
- جمع الآيات وتفسيرها ١٢٠٣
- الجنة في الانتظار! ١٢٠٣
- توضيحان ١٢٠٤
- ١- أبواب الجنة في الأحاديث الإسلامية ١٢٠٤
- ٢- المكتوب على أبواب الجنة ١٢٠٥
- ٥- سعة الجنة ١٢٠٦
- تمهيد: ١٢٠٦
- جمع الآيات وتفسيرها ١٢٠٧
- كعرض السموات والأرض: ١٢٠٧
- ٦- هل الجنة مخلوقة؟ ١٢٠٩
- تمهيد: ١٢٠٩
- جمع الآيات وتفسيرها ١٢٠٩
- اعدت للمتقين! ١٢١٠
- توضيحات ١٢١٢
- ١- آراء العلماء المسلمين في خلق الجنة والنار ١٢١٢
- ٢- الوجود الحالي للجنة والنار في الروايات الإسلامية ١٢١٣
- ٣- جواب على اعتراضين ١٢١٤
- ٤- أين الجنة؟ ١٢١٥
- ٧- درجات الجنة ١٢١٨
- تمهيد: ١٢١٨

- ١٢١٩ جمع الآيات وتفسيرها
- ١٢١٩ جنة أم جنان؟
- ١٢٢٣ ٨- أسئلة وأجوبة حول الجنة
- ١٢٢٣ ١- هل أن التكرار يولد الملل؟
- ١٢٢٤ ٢- أتعرف قيمة اللذة بفقدانها؟
- ١٢٢٥ ٣- هل يوجد في الجنة تكامل؟
- ١٢٢٧ التار
- ١٢٢٧ اشارة
- ١٢٢٧ ١- من هم أصحاب التار؟
- ١٢٢٧ تمهيد:
- ١٢٢٧ اشارة
- ١٢٢٧ ١- الكفار والمنافقون
- ١٢٢٨ ٢- الصد عن سبيل الله
- ١٢٢٨ ٣- ترك طاعة الله وشق عصا المسلمين
- ١٢٢٩ ٤- الاستهزاء بآيات الله
- ١٢٢٩ ٥- عدم الاستفادة من العقل والعين والأذن
- ١٢٢٩ ٦- اتباع الشيطان
- ١٢٣٠ ٧- الطغيان والتكبر
- ١٢٣٠ ٨- الظلم والجور
- ١٢٣١ ٩- الركون إلى الظالمين
- ١٢٣١ ١٠- نسيان الآخرة
- ١٢٣٢ ١١- حب الدنيا
- ١٢٣٢ ١٢- اكتناز الذهب
- ١٢٣٣ ١٣- الفرار من الزحف

- ١٢٣٣ ١٤- قتل الأبرياء
- ١٢٣٤ ١٥- ترك الصلاة
- ١٢٣٤ ١٦- عدم ايتاء الزكاة
- ١٢٣٥ ١٧- أكل مال اليتيم
- ١٢٣٥ ١٨- أكل الربا
- ١٢٣٦ ١٩- كفران النعم الإلهية
- ١٢٣٦ ٢٠- المطففين
- ١٢٣٧ ٢١- الهمز واللمز والغيبة
- ١٢٣٨ ٢٢- الاسراف والتبذير
- ١٢٣٨ ٢٣- الجرائم والذنوب
- ١٢٣٩ ٢٤- تعدى حدود الله
- ١٢٣٩ اشارة
- ١٢٤٠ الخلاصة:
- ١٢٤٠ ٢- ماهية جهنم
- ١٢٤٠ تمهيد:
- ١٢٤١ جمع الآيات وتفسيرها
- ١٢٤١ تعابير القرآن بشأن جهنم:
- ١٢٤٤ أوصاف جهنم:
- ١٢٤٥ توضيح
- ١٢٤٥ فلسفة وجود النار:
- ١٢٤٧ ٣- أبواب جهنم وطبقاتها
- ١٢٤٧ تمهيد:
- ١٢٤٨ جمع الآيات وتفسيرها
- ١٢٤٨ ماهو المقصود من أبواب جهنم؟

- ١٢٥٠ ٤- العذاب الجسدى لأصحاب النار
- ١٢٥٠ تمهيد:
- ١٢٥٠ اشارة
- ١٢٥١ ١- شدة عذاب أصحاب النار
- ١٢٥١ اشارة
- ١٢٥١ جمع الآيات وتفسيرها
- ١٢٥٣ ٢ و ٣- الطعام والشراب القاتل لأصحاب النار
- ١٢٥٤ تمهيد:
- ١٢٥٤ جمع الآيات وتفسيرها
- ١٢٥٤ الزقوم- الحميم- غسلين- الضريع- الغساق- الصديد
- ١٢٥٩ ٤- ثياب أهل النار
- ١٢٥٩ تمهيد:
- ١٢٥٩ جمع الآيات وتفسيرها
- ١٢٥٩ اشارة
- ١٢٦٠ سائر العذاب الجسدى لأهل النار:
- ١٢٦٠ تمهيد
- ١٢٦١ جمع الآيات وتفسيرها
- ١٢٦١ ٥- سائر عذابهم الجسدى
- ١٢٦١ رياح مهلكه، وظلال محرقة:
- ١٢٦٢ نزانات جهنم الانفرادية:
- ١٢٦٤ توضيح
- ١٢٦٤ لماذا يكون العذاب الإلهى شديداً إلى هذا الحد؟
- ١٢٦٥ ٥- العذاب الروحى
- ١٢٦٥ تمهيد:

- ١٢٦٥ جمع الآيات وتفسيرها
- ١٢٦٥ الحزن والهم والقائل والحسرة اللامتناهية:
- ١٢٦٦ كثرة اللوم والتقريع:
- ١٢٦٩ ٦- خلود العقاب
- ١٢٦٩ تمهيد:
- ١٢٧٠ جمع الآيات وتفسيرها
- ١٢٧٠ عذاب الخلد:
- ١٢٧١ أبدية العذاب:
- ١٢٧٣ النتيجة:
- ١٢٧٣ توضيحات
- ١٢٧٣ من هم المخلدون في النار؟
- ١٢٧٣ اشارة
- ١٢٧٣ ١- الكفار
- ١٢٧٤ ٢- المنافقون
- ١٢٧٤ ٣- الغارقون في الذنوب
- ١٢٧٤ ٤- القتلة والجناة
- ١٢٧٥ ٥- أكلو الربا
- ١٢٧٥ ٦- الظالمون والجبابرة
- ١٢٧٦ ٧- الذين خفت موازينهم
- ١٢٧٦ ٨- المجرمون بشكل عام
- ١٢٧٧ النتيجة:
- ١٢٧٧ سؤال: هل أن مرتكبي الكبائر مخلدون في النار؟
- ١٢٧٩ توضيحات
- ١٢٧٩ اعتراضات على خلود العذاب:

- ١٢٧٩ اشارة
- ١٢٧٩ ١- فناء المادة
- ١٢٨٠ ٢- هل يمكن للعرضى أن يصير دائماً؟
- ١٢٨٠ ٣- ألا يعتاد أهل النار على العذاب
- ١٢٨١ ٤- هل أن الخلود نوعى أم شخصى
- ١٢٨١ ٥- هل ينسجم الخلود مع العدل الإلهى!؟
- ١٢٨٣ القرآن والشفاعة
- ١٢٨٣ اشارة
- ١٢٨٣ تمهيد:
- ١٢٨٤ جمع الآيات وتفسيرها
- ١٢٨٤ المجاميع الخمسة لآيات الشفاعة:
- ١٢٨٤ اشارة
- ١٢٨٤ القسم الأول: الآيات التى تنفى الشفاعة بشكل قاطع
- ١٢٨٥ القسم الثانى: الآيات التى تعتبر الشفاعة خاصة بالله
- ١٢٨٦ القسم الثالث: الآيات التى تؤكد على أن الشفاعة منوطه بإذن الله
- ١٢٨٧ القسم الرابع: الآيات التى حددت بعض الشروط للشفيع والمشفوع له
- ١٢٨٩ القسم الخامس: الآيات التى تشير إلى الأشخاص الذين لا تنالهم الشفاعة
- ١٢٨٩ النتيجة:
- ١٢٨٩ توضيحات
- ١٢٨٩ ١- مفهوم الشفاعة
- ١٢٩٠ ٢- أنواع الشفاعة (الشفاعة التكوينية والشفاعة التشريعية)
- ١٢٩١ ٣- فلسفة الشفاعة
- ١٢٩١ اشارة
- ١٢٩١ أ) بعث الأمل ومواجهه روح اليأس

- ١٢٩١ (ب) إيجاد العلاقة المعنوية مع أولياء الله
- ١٢٩٢ (ج) نيل شروط الشفاعة
- ١٢٩٢ (د) الاهتمام بسلسلة الشفاعة
- ١٢٩٣ ٤- متى تكون الشفاعة؟
- ١٢٩٥ ٥- الإشكالات الأساسية المطروحة بشأن الشفاعة
- ١٢٩٥ اشارة
- ١٢٩٥ (أ) هل تُعتبر الشفاعة تشجيعاً على ارتكاب الذنوب؟
- ١٢٩٥ (ب) لمن الشفاعة؟
- ١٢٩٦ (ج) هل تنسجم الشفاعة مع العدل الإلهي؟
- ١٢٩٦ (د) ألا تتعارض الشفاعة مع إرادة الله؟
- ١٢٩٧ (ه) عقوبات القيامة هي الأثر التكويني للأعمال، فكيف يمكن ازالتها بالشفاعة؟
- ١٢٩٧ (و) أليس الاعتقاد بالشفاعة من عوامل التخلف؟
- ١٢٩٧ (ز) ألا تتعارض الشفاعة مع التوحيد؟
- ١٢٩٨ النقاط الخاطئة في هذا الاستدلال:
- ١٣٠١ الأعراف وأصحابها
- ١٣٠١ اشارة
- ١٣٠١ تمهيد:
- ١٣٠٢ جمع الآيات وتفسيرها
- ١٣٠٢ موضع بين الجنة والنار:
- ١٣٠٢ لماذا هذه المعرفة؟
- ١٣٠٤ توضيحات
- ١٣٠٤ ١- الأعراف في اللغة والتفسير
- ١٣٠٥ ٢- الأعراف في العقل والمنطق
- ١٣٠٥ ٣- الأعراف في الروايات والأحاديث

- اشارة ١٣٠٦
- خاتمة بحث المعاد: ١٣٠٧
- الجزء السابع ١٣٠٧
- اشارة ١٣٠٨
- فلسفة بعثة الأنبياء عليهم السلام فى التصور القرآنى ١٣٠٨
- اشارة ١٣٠٨
- القرآن الكريم والهدف من إرسال الرسل عليهم السلام ١٣٠٨
- تمهيد: ١٣٠٨
- جمع الآيات و تفسيرها ١٣٠٩
- أهداف وفلسفة بعثة الأنبياء: ١٣٠٩
- ١ و ٢- التربية والتعليم ١٣١٠
- ٣- إقامة القسط والعدل ١٣١٢
- ٤- حرية الإنسان ١٣١٣
- ٥- النجاء من الظلمات ١٣١٤
- ٦- البشرى والإنذار ١٣١٥
- ٧- إتمام الحجّة ١٣١٥
- ٨- رفع الاختلاف ١٣١٦
- ٩- التذكير (بالنسبة للبيديات والمستقلات العقلية) ١٣١٧
- ١٠- الدعوة إلى الحياة الإنسانية الطيبة ١٣١٨
- ثمرة البحث: ١٣١٩
- توضيحات ١٣٢٠
- ١- فلسفة بعثة الأنبياء والرسل فى الروايات الإسلامية ١٣٢٠
- ٢- الغاية من إرسال الرسل فى التصور العقلى ١٣٢١
- أ) عجز الإنسان عن التقنين الدقيق ١٣٢١

- ١٣٢٣ (ب) التنسيق بين التكوين والتشريع
- ١٣٢٤ (ج) التربية العلمية
- ١٣٢٥ ٣- اسلوب المخالفين
- ١٣٢٧ الخصائص العامة للأنبياء عليهم السلام
- ١٣٢٧ اشارة
- ١٣٢٨ جمع الآيات و تفسيرها
- ١٣٢٨ ١- صدق الحديث
- ١٣٢٨ ٢- الالتزام بالعهود والمواثيق
- ١٣٢٩ ٣- الأمانة
- ١٣٣٠ ٤- الرغبة والشفقة الفائقتان
- ١٣٣٠ ٥- الإخلاص والإيثار الكامل
- ١٣٣١ ٦- البرّ والإحسان
- ١٣٣٢ ٧- عدم الخشية من غير الله تعالى
- ١٣٣٣ ٨- التوكل المطلق على الله تعالى
- ١٣٣٣ ٩- الإخلاص المنقطع النظر
- ١٣٣٤ ١٠- اللين والمحبة وحسن الخلق
- ١٣٣٥ ١١- الفوز في المحن الشاقة
- ١٣٣٥ ثمرة البحث:
- ١٣٣٦ شروط الرسالة
- ١٣٣٦ اشارة
- ١٣٣٦ التقوى والعصمة
- ١٣٣٦ تمهيد:
- ١٣٣٧ جمع الآيات وتفسيرها
- ١٣٣٧ كيف يكون المذنبون دعاةً للتقوى؟

- ١٣٤٢ من هم أهل البيت؟
- ١٣٤٧ ثمرة البحث:
- ١٣٤٧ تنزيه الأنبياء عليهم السلام
- ١٣٤٧ اشارة
- ١٣٤٧ تنزيه الأنبياء
- ١٣٤٨ اشارة
- ١٣٤٨ ١- آدم عليه السلام
- ١٣٥٠ ثمرة البحث:
- ١٣٥٠ ٢- نوح عليه السلام
- ١٣٥١ ٣- إبراهيم عليه السلام
- ١٣٥٥ ٤- يوسف عليه السلام
- ١٣٥٦ ٥- موسى عليه السلام
- ١٣٦١ ٦- داود عليه السلام
- ١٣٦٢ ٧- سليمان عليه السلام
- ١٣٦٦ ٨- يونس عليه السلام
- ١٣٦٧ ٩- نبي الإسلام صلى الله عليه و آله
- ١٣٧٤ ١٠- الأنبياء السابقون بشكل عام
- ١٣٧٥ اسطورتا الآيات الشيطانية والغرائق:
- ١٣٧٧ نقد الروايات المرتبطة بأسطورة الغرائق:
- ١٣٧٩ ثمرة البحث:
- ١٣٧٩ أقوال وآراء حول عصمة الأنبياء عليهم السلام
- ١٣٧٩ اشارة
- ١٣٨٠ يقول في بحث عصمة الأنبياء عليهم السلام:
- ١٣٨٢ الأدلة العقلية على عصمة الأنبياء عليهم السلام:

- ١٣٨٢ اشارة
- ١٣٨٢ ١- العوامل الداخلية- النفسية-
- ١٣٨٤ ٢- دليل الإعتماد
- ١٣٨٥ ٣- مخالفة الغاية وعدم تحقق أهداف البعث
- ١٣٨٦ ٤- لا يمكن الإغراء بالجهل والتشجيع على الخطأ
- ١٣٨٧ ٥- عدم أهلية غير المعصوم لتلقى الوحي
- ١٣٨٧ ٦- أدلة اخرى
- ١٣٨٨ أسئلة متعددة:
- ١٣٨٨ اشارة
- ١٣٨٨ ١- هل لعصمة الأنبياء صفة «جبرية»؟
- ١٣٩٠ ٢- هل تنسجم العصمة مع التقية؟
- ١٣٩١ المنزلة العلمية للأنبياء عليهم السلام
- ١٣٩١ اشارة
- ١٣٩٢ ما هو علم الأسماء؟
- ١٣٩٤ توضيحان
- ١٣٩٤ ١- حدود علم الأنبياء عليهم السلام
- ١٣٩٥ ٢- القرآن والعلوم الأخرى للأنبياء عليهم السلام
- ١٣٩٨ مصادر علم الأنبياء عليهم السلام
- ١٤٠١ الأنبياء عليهم السلام وعلم الغيب
- ١٤٠١ اشارة
- ١٤٠٢ تمهيد:
- ١٤٠٢ جمع الآيات و تفسيرها
- ١٤٠٤ النتيجة:
- ١٤٠٤ جمع الآيات وتفسيرها

- ١٤٠٨ الثمرة من مجموع آيات علم الغيب:
- ١٤١٠ روايات علم الغيب:
- ١٤١٢ حدود علم الغيب وكيفيته:
- ١٤١٥ إثبات علم القادة الإلهيين عن طريق العقل:
- ١٤١٥ اشارة
- ١٤١٦ العلوم الأخرى للأنبياء فى القرآن المجيد:
- ١٤١٦ اشارة
- ١٤١٦ ١- تعلم موسى من الخضر
- ١٤١٧ ٢- اطلاع داود على إعداد وسيلة دفاعية
- ١٤١٧ ٣- معرفة يوسف بتفسير الاحلام
- ١٤١٨ ٤- العلم بمنطق الطير
- ١٤١٩ طرق معرفة سفراء الله
- ١٤١٩ اشارة
- ١٤١٩ تمهيد:
- ١٤١٩ اشارة
- ١٤٢٠ ١- الاعجاز
- ١٤٢٠ اشارة
- ١٤٢١ جمع الآيات وتفسيرها
- ١٤٢١ الإعجاز، أول دليل على النبوة:
- ١٤٢٤ ثمرة البحث:
- ١٤٢٥ توضيحات
- ١٤٢٥ ١- ما هى حقيقة الإعجاز
- ١٤٢٨ ٢- العلاقة بين الإعجاز والنبوة
- ١٤٢٩ ٣- الاختلاف بين معجزات الأنبياء عليهم السلام

- ١٤٣٠ ٤- السحر لا يضاى المعجزة
- ١٤٣٢ ٥- منطق منكرى الإعجاز
- ١٤٣٥ ٢- التحقيق فى مضمون دعوة الأنبياء عليهم السلام
- ١٤٣٦ ٣- جمع القرائن
- ١٤٣٦ اشارة
- ١٤٣٦ روحية المتهم وسوابقه:
- ١٤٣٧ إرشادات القرآن حول هذين الدليلين:
- ١٤٣٨ ٤- شهادة الأنبياء السابقين
- ١٤٤٠ مسألة الوحي
- ١٤٤٠ اشارة
- ١٤٤١ «كيفية الإرتباط بعالم الغيب»
- ١٤٤١ تمهيد:
- ١٤٤١ جمع الآيات وتفسيرها
- ١٤٤١ طرق الإرتباط بعالم الغيب:
- ١٤٤٣ توضيحان
- ١٤٤٣ ١- أقسام الوحي وكيفيته فى الروايات الإسلامية
- ١٤٤٥ ٢- الوحي فى كلمات الفلاسفة المتقدمين والمتأخرين
- ١٤٤٥ إنتقادات
- ١٤٤٦ نقد وتحليل:
- ١٤٤٧ الاصول العامة لدعوة الأنبياء عليهم السلام
- ١٤٤٧ اشارة
- ١٤٤٧ الاصول العامة لدعوة الأنبياء
- ١٤٤٧ تمهيد:
- ١٤٤٩ جمع الآيات وتفسيرها

- ١٤٤٩ وحدة المسير لدى الأنبياء جميعاً:
- ١٤٥٥ ثمرة البحث:
- ١٤٥٥ الأنبياء عليهم السلام فى القرآن المجيد.
- ١٤٥٥ اشارة
- ١٤٥٥ الأنبياء فى القرآن المجيد
- ١٤٥٥ تمهيد:
- ١٤٥٥ اشارة
- ١٤٥٦ ١- عدد الأنبياء فى القرآن:
- ١٤٥٨ ٢- الأنبياء اولوا العزم فى القرآن
- ١٤٦٠ ٣- الكتب السماوية للأنبياء
- ١٤٦٠ ٤- الفرق بين الرسول والنبي
- ١٤٦٢ ٥- لماذا ظهر الأنبياء الكبار من منطقة خاصة؟
- ١٤٦٣ ٦- تكامل الأديان
- ١٤٦٣ مقدمة: تاريخ الانبياء جزء من تاريخ الاديان
- ١٤٦٥ الجزء الثامن
- ١٤٦٥ الرسول لأكرم صلى الله عليه و آله و سلم و ظهور الإسلام
- ١٤٦٥ اشارة
- ١٤٦٥ الرسول صلى الله عليه و آله و ظهور الإسلام وسرعة انتشاره:
- ١٤٦٧ ممارسة الضغط على المسلمين الجدد:
- ١٤٦٧ التهمة والاستهزاء:
- ١٤٦٨ الهجرة إلى الحبشة:
- ١٤٦٩ الحصار الاقتصادي:
- ١٤٧٠ بداية جديدة فى ابلاغ الرسالة:
- ١٤٧٠ الرسول يلتقى أهل المدينة:

- ١٤٧٠ اشارة
- ١٤٧١ بيعه العقبة الاولى
- ١٤٧١ بيعه العقبة الثانية:
- ١٤٧٢ الهجرة انعطاف جديد في تاريخ الإسلام:
- ١٤٧٤ صلح الحديبية فتح كبير وتقدم للإسلام:
- ١٤٧٤ رسائله صلى الله عليه و آله إلى ملوك العالم:
- ١٤٧٨ نبئ الإسلام في القرآن
- ١٤٧٨ تمهيد:
- ١٤٧٩ محيط دعوة الرسول صلى الله عليه و آله:
- ١٤٧٩ اشارة
- ١٤٧٩ ١- الأصنام في عقائد العرب
- ١٤٨١ ٢- تفشى حالة الفقر الشديد بين الناس
- ١٤٨١ ٣- عباداتهم العجيبة
- ١٤٨٢ ٤- الخرافات الاخرى لعرب الجاهلية
- ١٤٨٣ ٥- شيوع الفساد الأخلاقي
- ١٤٨٤ طفولة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله:
- ١٤٨٥ بداية مرحلة البعثة النبوية:
- ١٤٨٦ قصة يوم الدار:
- ١٤٨٩ الأشهر الأخيرة من حياة الرسول صلى الله عليه و آله:
- ١٤٩٠ الأدلة التي تثبت صدق دعوة رسول الإسلام
- ١٤٩٠ اشارة
- ١٤٩٠ الطريق الأول: اعجاز القرآن
- ١٤٩٠ تمهيد:
- ١٤٩١ جمع الآيات وتفسيرها

- ١٤٩٥ توضيحات
- ١٤٩٥ (أ) تأثير القرآن وجاذبيته المنقطعة النظير
- ١٤٩٥ اشارة
- ١٤٩٥ ١- قصة الوليد بن المغيرة المخزومي
- ١٤٩٦ ٢- استماع زعماء قريش إلى القرآن
- ١٤٩٦ ٣- قصة ابن أبي العوجاء ورفاقه
- ١٤٩٧ ٤- قصة عثمان بن مظعون
- ١٤٩٧ ٥- قصة اسعد بن زرار
- ١٤٩٩ ٦- قصة الأصمعي المثيرة
- ١٤٩٩ ٧- رد فعل إعرابي تجاه آية من القرآن
- ١٤٩٩ ٨- القصة المثيرة للسيد قطب
- ١٥٠٠ ٩- قصة النجاشي وعلماء الحبشة المسيحيين
- ١٥٠١ ١٠- تأثير القرآن في اوساط العلماء الاجانب
- ١٥٠٢ (ب) الذين لجأوا إلى المعارضة
- ١٥٠٦ صور اعجاز القرآن
- ١٥٠٦ اشارة
- ١٥٠٦ تمهيد:
- ١٥٠٧ ١- الاعجاز القرآني في الفصاحة والبلاغة
- ١٥٠٧ اشارة
- ١٥١٣ مقتطفات من الأمثلة الاعجازية للقرآن:
- ١٥١٤ ٢- الاعجاز القرآني على صعيد المعارف الإلهية
- ١٥١٧ ٣- إعجاز القرآن في تصور العلوم الحديثة
- ١٥١٧ اشارة
- ١٥١٩ ١- القرآن وجاذبيته العامة

- ٢- القرآن وخلق العالم ١٥٢٠
- ٣- القرآن وحركة الأرض ١٥٢٢
- ٤- القرآن وحركة المنظومة الشمسية ١٥٢٣
- ٥- القرآن واتساع العالم ١٥٢٤
- ٦- القرآن ووجود الحياة في المجرات الاخرى ١٥٢٥
- ٧- القرآن وخلق الجبال ١٥٢٦
- ٨- عنصر الزوجية بين النباتات في القرآن ١٥٢٩
- ٩- القرآن والزوجية العامة ١٥٣٠
- ١٠- القرآن يكشف النقاب عن مسألة مراحل تطور الجنين ١٥٣١
- ١١- القرآن يتحدث عن الآثار المهمة للغلاف الجوى للأرض ١٥٣٣
- ١٢- القرآن والغلاف الجوى للأرض أيضاً ١٥٣٥
- ١٣- القرآن وأسباب نزول المطر والثلوج ١٥٣٦
- ١٤- القرآن وعلاقة الرعد والبرق والمطر ١٥٣٧
- ١٥- القرآن وكشف هوية الإنسان ١٥٣٩
- ١٦- القرآن يكشف الستار عن عظمة خلق السماوات ١٥٤٠
- ٤- الاعجاز التاريخي للقرآن ١٥٤١
- دور التاريخ في المسائل التربوية: ١٥٤١
- الخطوط العريضة للتاريخ في القرآن: ١٥٤٢
- اشارة ١٥٤٢
- ١- كيفية خلق «آدم» كما ورد في القرآن وفي العهدين ١٥٤٢
- ٢- لقاء إبراهيم عليه السلام بالملائكة ١٥٤٥
- ٣- منشأ اختلاف اللغات ١٥٤٨
- ٤- عباده العجل من قبل بنى اسرائيل ١٥٤٩
- ٥- قصة النبي داود عليه السلام وزوجة اوريا ١٥٥١

- ١٥٥٥ ٦- هل أنّ سليمان عليه السلام بنى معبداً للأصنام؟!
- ١٥٥٧ ٧- المنافسة العجيبة بين يعقوب وأخيه عيسو
- ١٥٥٩ ٨- نسبة صنع الخمر إلى عيسى المسيح عليه السلام
- ١٥٦١ ٩- المسيح عليه السلام ودعوى الالوهية
- ١٥٦٢ ١٠- حضور المرأة العاصية في مجلس السيد المسيح عليه السلام
- ١٥٦٤ نتيجة البحث:
- ١٥٦٤ ٥- الاعجاز القرآني في سن القوانين
- ١٥٦٤ اشارة
- ١٥٦٤ ماهي أفضل القوانين؟
- ١٥٦٦ مزايا القوانين القرآنية:
- ١٥٦٦ اشارة
- ١٥٦٦ أولاً: الشمولية والسعة
- ١٥٦٨ ثانياً: تقوية الروابط الاجتماعية
- ١٥٦٩ ثالثاً: احترام حقوق الإنسان
- ١٥٧٠ رابعاً: الحرص على تأمين الحرية والأمن
- ١٥٧١ خامساً: ضمانات تنفيذ القوانين القرآنية
- ١٥٧٤ سادساً: إحياء القيم الروحية
- ١٥٧٥ سابعاً: الاصول الثابتة والمتغيرة
- ١٥٧٦ ٦- الاعجاز الغيبي للقرآن
- ١٥٧٦ اشارة وتنبية:
- ١٥٧٦ اشارة
- ١٥٧٨ ١- الأخبار عن هزيمة الأعداء في اقل من عشر سنين
- ١٥٧٩ ٢- التنبوء عن نصرين هامين آخرين
- ١٥٨٠ ٣- الغنائم الكثيرة في المستقبل

- ١٥٨١ ٤- التنبؤ بالهزيمة الساحقة للاعداء
- ١٥٨٢ ٥- نبوءة اخرى عن الانتصار في معركة بدر
- ١٥٨٤ ٦- الوعد بالعودة
- ١٥٨٥ ٧- لن ينال الإيمان أبداً
- ١٥٨٥ ٨- إنا أعطيناك الخير الكثير
- ١٥٨٨ ٩ و ١٠- أولئك لن يضروكم بشيء
- ١٥٨٩ ٧- الاعجاز القرآنى فى عدم وجود التناقض والاختلاف
- ١٥٨٩ اشارة
- ١٥٩١ خرق العادات والنواميس الطبيعية
- ١٥٩١ اشارة
- ١٥٩٤ إشكالات حول مسألة شق القمر
- ١٥٩٤ اشارة
- ١٥٩٥ ١- إشكال من زاوية تاريخية
- ١٥٩٥ ٢- من الزاوية العلمية
- ١٥٩٦ ٣- انشقاق القمر فى التصور القرآنى
- ١٥٩٧ الطريق الثانى: جمع القرائن طريق آخر للاطمئنان
- ١٥٩٧ اشارة
- ١٥٩٨ تمهيد:
- ١٥٩٨ جمع القرائن دليل متداول فى كل العلوم:
- ١٥٩٨ اشارة
- ١٦٠١ ١- ميحط دعوة النبى صلى الله عليه و آله والظروف السائدة هناك
- ١٦٠٤ ٢- تاريخ الرسول صلى الله عليه و آله وخصائصه الأخلاقية
- ١٦٠٥ ٣- مضمون الدعوة
- ١٦١٠ ٤- عمق تأثيره فى محيطه

- ١٦١١ ٥- ما هي الوسائل الكفيلة لبلوغ الهدف
- ١٦١٣ ٦- إيمانه وتضحيته في سبيل هدفه
- ١٦١٤ ٧- من هم المؤمنون به؟
- ١٦١٥ ٨- التطور السريع
- ١٦١٨ الطريق الثالث: البشارات والإشارات
- ١٦١٨ اشارة
- ١٦١٨ تمهيد:
- ١٦١٩ إنهم يعرفونه جيداً:
- ١٦٢٢ التبشير بظهور النبي صلى الله عليه و آله في الكتب السماوية:
- ١٦٢٧ الخاتمية في القرآن الكريم
- ١٦٢٧ اشارة
- ١٦٢٧ تمهيد:
- ١٦٢٨ جمع الآيات وتفسيرها
- ١٦٢٩ مفهوم خاتم النبيين:
- ١٦٣٠ الاجابة عن بعض الاسئلة:
- ١٦٣٣ الخاتمية في الروايات الإسلامية:
- ١٦٣٦ توضيحات
- ١٦٣٦ ١- هل أن السير التكاملي للإنسان ينسجم مع مسألة الخاتمية؟
- ١٦٣٧ ٢- هل أن القوانين الثابتة تتماشى مع احتياجات الإنسان المتغيرة؟
- ١٦٣٨ ٣- هل يجب حرمان الإنسان من فيض الارتباط بعالم الغيب؟
- ١٦٣٨ ٤- هل تنسجم هذه الآيات مع مسألة الخاتمية؟
- ١٦٤٠ الجزء التاسع
- ١٦٤٠ الولاية والإمامة
- ١٦٤٠ اشارة

- ١٦٤٠ تمهيد:
- ١٦٤٠ اشارة
- ١٦٤١ ١- ماهى الإمامة؟
- ١٦٤٢ ٢- هل الإمامة من الاصول أم من الفروع؟
- ١٦٤٢ ٣- متى بدأ البحث فى الإمامة؟
- ١٦٤٢ اشارة
- ١٦٤٤ اصطلاح «الإمام» فى اللغة والقرآن:
- ١٦٤٥ ٤- عظمة منزلة الإمام فى القرآن الكريم
- ١٦٤٨ ٥- فلسفة وجود الإمام
- ١٦٥١ ١- الولاية والإمامة العامة فى القرآن الكريم
- ١٦٥١ تمهيد:
- ١٦٥١ آية الانذار والهداية:
- ١٦٥٤ آية الصادقين:
- ١٦٥٦ آية اولى الأمر:
- ١٦٥٩ ٢- الولاية والإمامة العامة فى السنة النبوية الشريفة
- ١٦٥٩ تمهيد:
- ١٦٥٩ ١- حديث الثقلين
- ١٦٥٩ اشارة
- ١٦٦٤ ترتيب مختصر:
- ١٦٦٤ تكرار حديث الثقلين على لسان النبى صلى الله عليه و آله:
- ١٦٦٦ المسائل المهمة المستوحاة من حديث الثقلين:
- ١٦٦٦ سؤال أخير:
- ١٦٦٨ ٢- حديث سفينة نوح
- ١٦٦٨ اشارة

- ١٦٦٩ مفاد حديث السفينة:
- ١٦٧٠ ٣- حديث النجوم
- ١٦٧٠ اشارة
- ١٦٧١ مضمون حديث النجوم:
- ١٦٧٣ سؤال:
- ١٦٧٣ ٤- حديث «الأئمة الأثنى عشر»
- ١٦٧٣ اشارة
- ١٦٧٥ مضمون حديث «الأئمة عليهم السلام اثنى عشر»:
- ١٦٧٧ ملاحظة
- ١٦٧٧ لا تخلو الأرض من حجة:
- ١٦٧٨ الإشارات القرآنية والمنطقية على وجوب الحجّة:
- ١٦٧٩ الشروط والصفات الخاصة بالإمام
- ١٦٧٩ اشارة
- ١٦٧٩ تمهيد:
- ١٦٨٠ علم الإمام
- ١٦٨٠ اشارة
- ١٦٨٢ ملاحظة
- ١٦٨٣ مصادر علم الأئمة!
- ١٦٨٣ اشارة
- ١٦٨٣ ١- العلم الكامل بكتاب الله
- ١٦٨٦ ٢- الوراثة من النبي صلى الله عليه و آله
- ١٦٨٧ ٣- الاتصال بالملائكة
- ١٦٨٨ ٤- إلقاء روح القدس
- ١٦٨٩ ٥- النور الإلهي

- ١٦٩٠ عصمة الأئمة عليهم السلام
- ١٦٩٠ تمهيد:
- ١٦٩٣ مَنْ هم أهل البيت؟
- ١٦٩٥ أجوبة عن عدة أسئلة:
- ١٦٩٨ شبهات حول العصمة:
- ١٦٩٩ خصائص الأئمة عليهم السلام
- ١٦٩٩ اشارة
- ١٧٠٠ الله فقط الذي يُعَيّن الإمام:
- ١٧٠١ الولاية التكوينية للأنبياء والأئمة عليهم السلام
- ١٧٠١ اشارة
- ١٧٠١ تمهيد:
- ١٧٠٥ الولاية التكوينية في الأحاديث الإسلامية:
- ١٧٠٧ الولاية والإمامة الخاصة
- ١٧٠٧ اشارة
- ١٧٠٨ تمهيد:
- ١٧٠٩ القسم الأول: الآيات التي تهتم بمسألة الإمامة بشكل مباشر
- ١٧٠٩ ١- آية التبليغ
- ١٧٠٩ اشارة
- ١٧٠٩ شأن النزول:
- ١٧١٠ حادثه الغدير:
- ١٧١٠ مضمون روايات الغدير:
- ١٧١٢ دراسة وتحليل حول آية التبليغ:
- ١٧١٤ توضيحات
- ١٧١٤ ١- معنى الولاية والمولى في حديث الغدير

- ١٧١٥ ----- ٢- آيات أخرى فى القرآن تؤيد حديث الغدير
- ١٧١٧ ----- ٣- كيفية ارتباط هذه الآية بما قبلها وبعدها
- ١٧١٧ ----- ٤- لماذا لم يحتج الإمام على عليه السلام بحديث الغدير؟
- ١٧١٨ ----- ٢- آية الولاية
- ١٧١٨ ----- اشارة
- ١٧١٨ ----- سبب النزول:
- ١٧١٨ ----- اشارة
- ١٧٢٠ ----- كيفية دلالة الآية على الخلافة:
- ١٧٢١ ----- شبهات واعتراضات:
- ١٧٢٤ ----- ٣- آية اولى الأمر
- ١٧٢٤ ----- ٤- آية الصادقين
- ١٧٢٧ ----- ٥- آية القربى
- ١٧٢٧ ----- اشارة
- ١٧٢٩ ----- آية القربى فى الروايات الإسلامية:
- ١٧٣٢ ----- القسم الثانى: آيات الفضائل
- ١٧٣٢ ----- تمهيد:
- ١٧٣٢ ----- ١- آية المباهلة
- ١٧٣٣ ----- اشارة
- ١٧٣٣ ----- مضمون آية المباهلة:
- ١٧٣٤ ----- المباهلة فى أقوال المحدثين:
- ١٧٣٤ ----- أهمية المباهلة:
- ١٧٣٨ ----- مؤاخذاتهم على آية المباهلة:
- ١٧٣٨ ----- الجواب:
- ١٧٤٠ ----- ٢- آية خير البرية

- ١٧٤٣ ٣- آية ليله المبيت
- ١٧٤٥ ٤- آية الحكمة
- ١٧٤٦ ٥- آيات سورة هل اتى (الإنسان)
- ١٧٤٦ اشارة
- ١٧٤٨ هل أتى فى الشعر:
- ١٧٤٨ المشككون وسورة هل أتى
- ١٧٥١ ٦ و ٧- آيات مقدمه سورة «البراءة» وآية «سقاية الحاج»
- ١٧٥١ اشارة
- ١٧٥١ الاولى آيات مقدمه سورة البراءة
- ١٧٥١ اشارة
- ١٧٥٣ النتيجة:
- ١٧٥٤ الثانية: آية سقاية الحاج
- ١٧٥٥ ٨- آية «صالح المؤمنين»
- ١٧٥٧ ٩- آية الوزارة
- ١٧٥٧ اشارة
- ١٧٥٨ مضمون آية وروايات «الوزارة»:
- ١٧٥٩ ١٠ و ١١- آيات سورة الاحزاب
- ١٧٥٩ اشارة
- ١٧٦٠ سؤال:
- ١٧٦١ ١٢- آية البينة والشاهد
- ١٧٦٣ ١٣- آية الصديقون
- ١٧٦٤ ١٤- آية النور
- ١٧٦٥ ١٥- آية الانذار
- ١٧٦٧ ١٦- آية مرج البحرين

- ١٧٦٩ ١٧- آية النجوى
- ١٧٦٩ اشارة
- ١٧٧٢ سؤال:
- ١٧٧٢ ١٨- آية السابقون
- ١٧٧٢ اشارة
- ١٧٧٤ ١- مَنْ المقصود من: «قليل من الآخرين»؟
- ١٧٧٤ ٢- مَنْ هو أول مسلم؟
- ١٧٧٤ اشارة
- ١٧٧٨ سؤال واحد فقط!
- ١٧٧٨ الجواب:
- ١٧٧٩ ١٩- آية «اُدُنُّ وَاِعِيَّةُ»
- ١٧٨٠ اشارة
- ١٧٨١ النتيجة:
- ١٧٨١ ٢٠- آية المحبة
- ١٧٨٣ ٢١- آية المنافقين
- ١٧٨٥ ٢٢- آية الإيذاء
- ١٧٨٦ ٢٣- آية الانفاق
- ١٧٨٨ ٢٤- آية المحبة
- ١٧٩١ ٢٥- آية المسؤولين
- ١٧٩٣ الأئمة الاثنى عشر
- ١٧٩٣ اشارة
- ١٧٩٣ تمهيد:
- ١٧٩٣ اشارة
- ١٧٩٥ ١- آية الصلوات والتحية

- ١٧٩٩ ٢- آية النور والبيوت
- ١٨٠٠ ٣- الصراط المستقيم
- ١٨٠١ ٤- وسيلة قبول توبة آدم عليه السلام
- ١٨٠٢ ٥- أفضل الحسنات
- ١٨٠٣ اشارة
- ١٨٠٥ التصريح باسماء أئمة أهل البيت عليهم السلام:
- ١٨٠٦ الإمام المهدي عليه السلام
- ١٨٠٦ اشارة
- ١٨٠٦ تمهيد:
- ١٨٠٦ اشارة
- ١٨٠٨ ١- حكومة الصالحين في الأرض
- ١٨١١ ٢- آية سورة النور
- ١٨١٣ ٣- آية ظهور الحق
- ١٨١٤ آثار انتظار المهدي عليه السلام:
- ١٨١٥ حقيقة الانتظار وآثاره البناءة:
- ١٨١٥ والآن تأملوا في هذه الطائفة من الروايات بدقة:
- ١٨١٦ مفهوم الانتظار:
- ١٨١٧ الانتظار يعنى الاستعداد التام:
- ١٨١٧ اشارة
- ١٨١٨ الفلسفة الاولى بناء الذات فردياً
- ١٨١٩ الفلسفة الثانية: أعمال الرعاية الاجتماعية
- ١٨١٩ الفلسفة الثالثة: المنتظرون الحقيقيون لا يذوبون في فساد المحيط
- ١٨٢٠ الجزء العاشر
- ١٨٢٠ العلاقة بين الإمامة والحكومة

- ١٨٢٢ ضرورة إقامة الحكومة في المجتمع البشري
- ١٨٢٢ اشارة
- ١٨٢٢ تمهيد:
- ١٨٢٥ ضرورة الحكومة في الرويات الإسلامية:
- ١٨٢٦ ضرورة الحكومة في التصور العقلي:
- ١٨٢٨ أهداف الحكومة الإسلامية
- ١٨٣١ أنواع الحكومات
- ١٨٣١ اشارة
- ١٨٣١ ١- الحكومات الاستبدادية
- ١٨٣١ ٢- الحكومة الديمقراطية
- ١٨٣٢ ٣- الحكومة الإلهية
- ١٨٣٤ دراسة ونقد لأنواع الحكومات
- ١٨٣٤ اشارة
- ١٨٣٥ الحكومة تنصيب أم انتخاب:
- ١٨٣٧ حقيقة الحكومة الإسلامية
- ١٨٣٧ اشارة
- ١٨٣٩ الولاية الخبرية والإنشائية؟
- ١٨٤٠ الحكومة والوكالة:
- ١٨٤٠ العلاقة بين الدين والحكومة من وجهة نظر القرآن الكريم
- ١٨٤٠ اشارة
- ١٨٤٤ فريقان لا يروق لهما تشكيل الحكومة الإسلامية:
- ١٨٤٤ اشارة
- ١٨٤٥ الطائفة الأولى
- ١٨٤٦ والطائفة الثانية:

- ١٨٤٦ والطائفة الثالثة:
- ١٨٤٧ نقد وتحليل:
- ١٨٥٠ أركان الحكومة الإسلامية
- ١٨٥٠ اشارة
- ١٨٥١ المقدمة:
- ١٨٥٢ الركن الأول: السلطة التشريعية
- ١٨٥٢ تمهيد:
- ١٨٥٣ جمع الآيات وتفسيرها
- ١٨٥٧ هل يمتلك الرسول صلى الله عليه و آله والمعصومون حق التشريع؟
- ١٨٦١ مجلس الشورى وانتخاب النواب
- ١٨٦١ اشارة
- ١٨٦١ أهمية وضرورة المشورة:
- ١٨٦٣ أهمية الشورى فى الأحاديث الإسلامية:
- ١٨٦٤ صفات المستشارين:
- ١٨٦٥ كيفية انطباق مجالس الشورى مع موازين المشورة الإسلامية
- ١٨٦٦ اشارة
- ١٨٦٨ المسؤولية الرئيسية لمجلس التشريع الإسلامى:
- ١٨٦٩ الركن الثانى: السلطة التنفيذية
- ١٨٦٩ اشارة
- ١٨٧١ النظام التنفيذى للحكومة الإسلامية فى عصر النبى الأكرم صلى الله عليه و آله:
- ١٨٧١ صفات وشروط المسؤولين التنفيذيين:
- ١٨٧٢ شروط القائمين على الحكومة فى الأحاديث الإسلامية:
- ١٨٧٢ اشارة
- ١٨٧٢ ١- العلم والوعى فى أعلى مستوياتهما

- ١٨٧٣ -٢- سعة الصدر وانفتاح الفكر والاستعداد لتحمل الحوادث المختلفة.....
- ١٨٧٣ -٣- الوعى بمسائل الزمان.....
- ١٨٧٣ -٤- مراعاة العدالة وعدم التفريق بين الناس.....
- ١٨٧٣ -٥- الاهتمام بمكافأة المحسنين والعفو عن المذنبين الذين يؤمل بتوبتهم وعودتهم عن ذنوبهم.....
- ١٨٧٤ -٦- النظر لمصالح الناس ومصالحه بعين المساواة!.....
- ١٨٧٤ -٧- الارتباط العاطفى مع الناس.....
- ١٨٧٤ -٨- الابتعاد عن البخل، والجهل، والجفاء والظلم.....
- ١٨٧٤ -٩- عدم المصانعة والتعاطى مع أهل الباطل.....
- ١٨٧٤ -١٠- النظر بعين الامانة لمقامه ومنصبه.....
- ١٨٧٦ هيكليّة السلطة التنفيذية.....
- ١٨٧٦ اشارة.....
- ١٨٧٧ النظام التنفيذى فى عالم الوجود:.....
- ١٨٧٨ النظام التنفيذى فى عصر النبى صلى الله عليه و آله:.....
- ١٨٧٩ كيفية انتخاب رئيس السلطة التنفيذية والمسؤولين الآخرين:.....
- ١٨٨١ الثقافة الحاكمة على الحكومة الإسلامية.....
- ١٨٨١ اشارة.....
- ١٨٨٤ -١- رعاية الاصول الأخلاقية فى حرب مع الأعداء.....
- ١٨٨٤ -٢- الآداب الإسلامية فى جمع الضرائب.....
- ١٨٨٥ -٣- الإقتصاد فى كلّ شىء.....
- ١٨٨٦ -٤- المعيار الفضيلة وليس العمر.....
- ١٨٨٦ -٥- الرأفة الإسلامية.....
- ١٨٨٦ -٦- الإعتماد على الشعب.....
- ١٨٨٧ -٧- الإتصال المستمر بالعلماء.....
- ١٨٨٧ -٨- الثقافة الحاكمة على الجهاز القضائى.....

- ١٨٨٧ ٩- الإرتباط المباشر مع الناس
- ١٨٨٨ ١٠- الإهتمام بالمحرومين
- ١٨٨٨ التتية:
- ١٨٨٩ كيفة انتخاب رئيس الجهاز التنفيذى
- ١٨٩٠ الركن الثالث: السلطة القضائية
- ١٨٩٠ تمهيد:
- ١٨٩٢ من يكون له حق الفصل والقضاء؟
- ١٨٩٢ تمهيد:
- ١٨٩٤ صفات القاضى
- ١٨٩٤ اشارة
- ١٨٩٥ الشرائط الكمالية:
- ١٨٩٦ القرآن وصفات القاضى:
- ١٨٩٧ النتيجة:
- ١٨٩٧ آداب القضاء فى الإسلام:
- ١٨٩٨ فى وظائف القاضى وهى سبع:
- ١٨٩٩ تفاوت كيفة القضاء فى الإسلام عن المدارس المادية:
- ١٩٠٠ الحدود والتعزيرات فى الإسلام
- ١٩٠١ اشارة
- ١٩٠١ ١- فلسفة الحدود والتعزيرات فى الإسلام
- ١٩٠٢ ٢- معنى الحد والتعزير
- ١٩٠٢ ٣- تعداد الحدود الإسلامية
- ١٩٠٢ اشارة
- ١٩٠٢ ١- حد الزنا
- ١٩٠٣ ٢- حد السرقة

- ٣- حدُّ القذف ١٩٠٣
- ٤- حدُّ المحارب ١٩٠٣
- ٥- حدُّ المرتد ١٩٠٤
- اشارة ١٩٠٤
- لماذا كلُّ هذه الصرامة في المرتد؟ ١٩٠٤
- ٦- حدُّ شرب الخمر ١٩٠٦
- ٧- حدُّ اللواط ١٩٠٦
- ٨- حدُّ المساحقة ١٩٠٦
- ٩- حدُّ القيادة ١٩٠٧
- ١٠- حدُّ الساحر ١٩٠٧
- وتوضيح ذلك: ١٩٠٨
- عدّة نكات مهمّة في التعزيرات الإسلامية: ١٩٠٨
- ١- وحدة القرار ١٩٠٨
- ٢- عدم اقتصار التعزير على الجلد ١٩٠٨
- ٣- معنى تخيير الحاكم في التعزيرات ١٩١٠
- ٤- التعزيرات في القرآن الكريم ١٩١٠
- اشارة ١٩١٠
- أ) قصة المتخلفين عن غزوة تبوك ١٩١٠
- ب) قصة ثعلبة ١٩١١
- ج) آية الايذاء ١٩١٢
- د) آية النشوز ١٩١٢
- أحكام السجن في الإسلام ١٩١٤
- تمهيد: ١٩١٤
- اشارة ١٩١٤

- ١- تاريخ السجن ١٩١٤
- اشارة ١٩١٤
- أولُ سجن أُسس زمن عمر بن الخطاب: ١٩١٥
- السجن في زمن أمير المؤمنين على عليه السلام: ١٩١٦
- ٢- فلسفة وأقسام السجون ١٩١٦
- اشارة ١٩١٦
- ١- السجن الايدائي ١٩١٧
- ٢- السجن الإصلاحى ١٩١٧
- ٣- السجن الاحتياطى ١٩١٧
- ٤- السجن التأديبى ١٩١٧
- ٥- السجن السياسى ١٩١٧
- ٦- السجن الاستحقاقى ١٩١٨
- ٧- سجن الحفظ ١٩١٨
- اشارة ١٩١٨
- ١- السجن الانتقامى ١٩١٨
- ٢- السجون المعدة لقمع التحرر ١٩١٨
- ٣- السجن لعزل القيادة عن القاعدة ١٩١٩
- ٤- السجن لرفع المضايقات ١٩١٩
- ٥- السجن بسبب النزاهة ١٩١٩
- ٣- السجن من وجهة نظر القرآن الكريم ١٩١٩
- ٤- موارد السجن فى الروايات الإسلامية ١٩٢٠
- اشارة ١٩٢٠
- ١- فى مورد الإعانة على القتل ١٩٢٠
- ٢- الأمر بالقتل ١٩٢١

- ٣- في مورد تكرر السرقة ١٩٢١
- ٤- في مورد المرتدة الفطرية: ١٩٢١
- ٥- التعامل الإنساني مع المساجين ١٩٢١
- ٦- الطرح التاريخي لأبي يوسف لحماية السجناء ١٩٢٤
- الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ١٩٢٤
- تمهيد: ١٩٢٤
- جمع الآيات و تفسيرها ١٩٢٧
- خطوة مهمة في طريق إجراء الأحكام: ١٩٢٧
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الروايات: ١٩٣٠
- وهنا ينبغي الالتفات إلى عدة نكات ضرورية: ١٩٣٠
- جهاز الحسبة والمحتسب في الحكومة الإسلامية: ١٩٣٣
- توضيح ذلك: ١٩٣٣
- الركن الرابع: التربية والتعليم ١٩٣٦
- تمهيد: ١٩٣٦
- اشارة ١٩٣٦
- ١- التربية والتعليم في الإسلام ١٩٣٧
- ٢- أهمية العلم لا تنحصر بالعلوم الدينية ١٩٤١
- ٣- تعلم العلوم المفيدة في الروايات الإسلامية ١٩٤٣
- ٤- مقام المعلم في الإسلام ١٩٤٤
- ٥- التعليم المباشر وغير المباشر ١٩٤٨
- ٦- صلاة الجمعة وأثارها التربوية ١٩٤٩
- ٧- الآثار الثقافية لمؤتمر الحج العظيم ١٩٥١
- ٨- تأثير المساجد والأماكن المقدسة ١٩٥٢
- دور الصحف والمجلات في الحكومة الإسلامية ١٩٥٣

- ١٩٥٣ تمهيد:
- ١٩٥٤ جمع الآيات و تفسيرها
- ١٩٥٥ توضيحات
- ١٩٥٥ ١- أهمية الكتاب والقلم فى الزوايات
- ١٩٥٦ ٢- وصايا مهمة للحكومات الإسلامية
- ١٩٥٧ ٣- تأسيس المكتبات
- ١٩٥٩ الركن الخامس: الدفاع (القوات المسلحة)
- ١٩٥٩ تمهيد:
- ١٩٦١ جمع الآيات و تفسيرها
- ١٩٦١ روح الجهاد، دفاع لاغزو:
- ١٩٦٧ توضيحات
- ١٩٦٧ ١- الجيوش المنظمة والتعبئة الجماهيرية
- ١٩٦٨ ٢- السبق والزمانية
- ١٩٦٩ آداب الجهاد
- ١٩٦٩ اشارة
- ١٩٧١ أقسام الجهاد:
- ١٩٧١ اشارة
- ١٩٧١ ١- الجهاد الإبتدائى
- ١٩٧١ ٢- الجهاد لإخماد نار الفتنة
- ١٩٧٢ ٣- الجهاد لحماية المظلومين
- ١٩٧٣ الحكومة الإسلامية والسلام
- ١٩٧٣ اشارة
- ١٩٧٤ جمع الآيات و تفسيرها
- ١٩٧٧ النتيجة:

- ١٩٧٨ أسرى الحرب
- ١٩٧٨ تمهيد:
- ١٩٧٩ جمع الآيات و تفسيرها
- ١٩٨١ الأسرى فى الروايات:
- ١٩٨١ علاقة المسلمين بغير المسلمين، الأقليات الدينية والحكومة الإسلامية
- ١٩٨٢ تمهيد:
- ١٩٨٢ جمع الآيات و تفسيرها
- ١٩٨٣ قصة «الجزية»:
- ١٩٨٥ إختيار الأسلوب الأفضل فى النقاش:
- ١٩٨٦ الدعوة إلى أصل أساسى مشترك:
- ١٩٨٨ العيش المشترك مع أتباع الأديان الاخرى فى الروايات:
- ١٩٨٩ تعامل المسلمين مع غير أهل الذمة:
- ١٩٩٠ الحكومة الإسلامية والأجهزة الأمنية
- ١٩٩٠ تمهيد:
- ١٩٩٢ توضيحات
- ١٩٩٢ ١- قصة تجسس حاطب وسارة
- ١٩٩٣ ٢- قصة استخبار حذيفة
- ١٩٩٣ ٣- المنظمات الأمنية فى الروايات الإسلامية
- ١٩٩٧ ٤- إستراق السمع
- ١٩٩٨ ٥- التعذيب الجسدى لأخذ الإعترافات!
- ١٩٩٨ اشارة
- ١٩٩٩ سؤال: هل الغاية تبرر الوسيلة؟
- ١٩٩٩ و الجواب:
- ٢٠٠٠ تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

نفحات القرآن

إشارة

سرشناسه : مكارم شيرازى ناصر، - ١٣٠٥
 عنوان و نام پديد آور : نفحات القرآن اسلوب جديد فى التفسير الموضوعى للقرآن الكريم ناصر مكارم شيرازى بمساعده مجموعه من الفضلا
 مشخصات نشر : موسسه ابى صالح النشر و الثقافه [١٣٧٧؟].
 مشخصات ظاهرى : ج ٦
 وضعيت فهرست نويسى : فهرست نويسى قبلى يادداشت : عربى مندرجات : ج ١. العلم و المعرفه فى القران. -- ج ٢. معرفه الله فى القرآن. -- ج ٣. -- ج ٤. معرفه صفات و جلال الله. -- ج ٥، ٦. المعاد فى القرآن موضوع : تفاسير شيعه -- قرن ١٤
 رده بندى كنگره : BP٩٨/٧٧٧٧٧٧٧٧
 رده بندى ديويى : ٢٩٧/١٧٩
 شماره كتابشناسى ملي : م٧٧-١٣٧١١

الجزء الأول

إشارة

الاهداء:
 إلى الذين أحبوا القرآن
 إلى الذين يريدون أن ينهلوا المزيد من معين الحياة الصافى
 إلى الذين يتوقون إلى معرفة القرآن وفهمه أكثر فأكثر.
 نفحات القرآن، ج ١، ص: ٤
 بمساعدة العلماء الأفاضل وحجج الإسلام السادة:
 محمّد رضا الآشتياني
 محمّد جعفر الإمامي
 عبدالرسول الحسنى
 محمّد الأسدى
 حسين الطوسى
 سيّد شمس الدين الروحانى
 محمّد محمّدى الاشتهاردى
 نفحات القرآن، ج ١، ص: ٥
 بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

إشارة

- ١- أنواع التفسير.
- ٢- ما هو التفسير الموضوعي؟
- ٣- ما هي المشكلات التي يمكن حلها بواسطة التفسير الموضوعي؟ (و كيفية الاستفادة من هذا النوع من التفسير).
- ٤- تاريخ التفسير الموضوعي.
- ٥- الاسلوب الأمثل في التفسير الموضوعي.
- ٦- العقبات التي تعترض التفسير الموضوعي.
- ٧- لماذا لم يتطور هذا اللون من التفسير؟

أنواع التفسير:

عندما نريد الحديث عن تفسير القرآن الكريم يتبادر إلى الذهن التفسير المتعارف (التفسير الترتيبي) حيث تجرى عملية بحث آيات القرآن الكريم بالترتيب ويتم توضيح مضمونها وماهيتها، وهو الاسلوب المتبع في تفسير القرآن منذ صدر الإسلام وإلى يومنا هذا، وقد قام علماء الإسلام بتأليف مئات أو آلاف الكتب تحت عنوان «تفسير القرآن الكريم» على هذه الطريقة.

وهناك نوع آخر من التفسير الرائج إلى حد ما والذي يهدف إلى تفسير «مفردات القرآن»

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٦

أي أنه يتناول كلمات القرآن كل على حدة وبالتسلسل حسب الحروف الأبجدية وعلى هيئة مُعجم، ومن أبرز نماذج هذا التفسير هو كتاب «مفردات الراغب» و «وجوه القرآن» و «تفسير غريب القرآن» للطريحي، وأخيراً كتاب «التحقيق في كلمات القرآن الكريم» و «نثر طوبى» أو «دائرة معارف القرآن الكريم».

بينما توجد هناك أنواع أخرى من تفسير القرآن منها «التفسير الموضوعي» الذي يحقق ويبحث آيات القرآن الكريم على أساس مختلف المواضيع المتعلقة باصول الدين وفروعه والامور الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأخلاقية.

وهناك نوع آخر من التفسير نطلق عليه «التفسير الارتباطي» أو التسلسلي، حيث يتناول مواضيع القرآن المختلفة من حيث علاقتها ببعضها.

فعلى سبيل المثال، بعد بحث موضوع «الإيمان»، و «التقوى» و «العمل الصالح» كل على حدة في التفسير الموضوعي تتم عملية بحث علاقة هذه المواضيع الثلاثة ببعضها من خلال الاعتماد على الآيات والملاحظات الواردة في ذلك، ومن المسلم أن حقائق جديدة سوف تنكشف لنا عن كيفية ارتباط هذه المواضيع ببعضها تكون بالغ الأهمية والفائدة.

إن أفضل طريقة للبحث حول عالم الخلق والتكوين وما يتضمنه ويحويه من كائنات هو دراسة العلاقة بين هذه الكائنات التي تؤلف هذا العالم، ففي الحقيقة أن الشمس والقمر والأرض والإنسان والمجتمعات البشرية هي موجودات لا تنفصل عن بعضها البعض وهي تشكل في مجموعها كياناً واحداً مترابطاً، والاسلوب الصائب في دراستها هو أن نبحثها من حيث ارتباطها مع بعضها.

وهكذا الأمر في كتاب «التدوين» أي القرآن الكريم، فهناك علاقات دقيقة وظرفية بين مواضيع القرآن الكريم، ولا بد من تفسيرها من حيث ارتباطها مع بعضها.

النوع الآخر من التفسير هو «التفسير العام» أو «الرؤية الكونية للقرآن» وهنا يتناول المفسر جميع مضمون القرآن فيما يتعلق بعالم الوجود، وبتعبير أكثر وضوحاً: يربط كتاب «التكوين» مع كتاب «التدوين» وينظر إليهما معاً، وتتم دراستهما من حيث ارتباطهما

بعضهما.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٧

وعلى هذا الأساس فإنّ هناك خمسة أنواع من التفاسير:

١- تفسير مفردات القرآن.

٢- التفسير الترتيبي.

٣- التفسير الموضوعي.

٤- التفسير الإرتباطي.

٥- التفسير العام، أو النظرة الكونية للقرآن.

والمشهور والمعروف من بين هذه الأنواع الخمسة هو النوع الأول والثاني، وإلى حد ما النوع الثالث، أي أنّ التفسير الموضوعي لا زال يسير في مراحلها الأولى، على أمل أن يقطع مراحلها التكاملية تدريجياً من خلال الإهتمام الذي أولاه علماء الإسلام به مؤخراً ومن خلال المزيد من الجد والمثابرة، وأن يحتل مكانه اللائق في المستقبل القريب.

أمّا النوع الرابع والخامس من تفسير القرآن فلم يحظيا باهتمام المفسرين بعد، وهذا العمل يقع على عاتق الجيل الحاضر وأجيال المستقبل بأن يتناولوا هذا الباب بعد تكامل التفسير الموضوعي بما فيه الكفاية، ويقوموا باداء حقه بالقدر المستطاع.

ما هو التفسير الموضوعي؟

قبل الإجابة على هذا السؤال لابد من طرح سؤال آخر وهو: لماذا لم يُرتب القرآن بأسلوب موضوعي يشبه الكتب المتداولة؟ بل أنّه جمع بشكل يختلف عنها جميعاً.

والجواب هو: إنّ المؤلف أو المؤلفين يأخذون بنظر الاعتبار مختلف المواضيع المتشابهة في حقل واحد من أجل اعداد الكتب المتداولة، فمثلاً في علم الطب يؤخذ بنظر الاعتبار «مختلف الأمراض التي ترتبط بمسألة صحة الإنسان» ثم تُقسم المسائل المتعلقة بهذه المواضيع على فصول وأبواب (أمراض القلب، الأمراض العصبية، أمراض الجهاز الهضمي، أمراض جهاز التنفس، الأمراض الجلدية وسائر الأمراض).

ومن ثمّ يبحثون كلّ فصلٍ وكلّ بابٍ من خلال الاعتماد على المقدمات ونتائجها وبهذا

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٨

النحو يتمّ تأليف كتاب باسم كتاب «الطب».

بيد أنّ القرآن ليس كذلك، فهذا الكتاب نزل على مدى ٢٣ سنة وفقاً للحاجات والظروف الاجتماعية المختلفة والوقائع المتباينة، والمراحل التربوية المتفاوتة، وكافة شؤون حياة المجتمع الإسلامي، وفي نفس الوقت لم يتعلق بزمانٍ ومكانٍ معينين! ففي وقت تدور كافة بحوث القرآن حول محور مقارعة الوثنية والشرك وبيان التوحيد بكل فروعه، والشور والآيات النازلة في هذه المرحلة كلّها في المبدأ والمعاد: (كالسور التي نزلت في مكة خلال السنوات الثلاث عشرة الأولى من البعثة).

وفي زمان آخر نرى محور البحث والحديث ساخناً وقويّاً حول الجهاد وكيفية مواجهة الأعداء في الداخل والخارج والمنافقين.

وعندما تقع غزوة الأحزاب فتتزل سورة الأحزاب، وما لا يقل عن ١٧ آية منها تتحدث عن هذه المعركة والتجارب والقضايا التربوية فيها ووقائعها.

وحيثما جرت واقعة صلح الحديبية نزلت سورة الفتح وبعدها فتح مكة وغزوة حنين نزلت سورة الإخلاص وآيات اخرى.

والخلاصة، فتزامناً مع انتشار الإسلام والتحرك العام للمجتمع الإسلامي كانت تنزل الآيات المناسبة وتصدر الأوامر اللازمة، وهذا ما

كان يكتمل المسيرة التكاملية للإنسان.

واستناداً إلى ما ذكرنا آنفاً، يتضح المغزى من التفسير الموضوعي وهو جمع الأحداث والوقائع المتعلقة بذلك الموضوع وترتيبها لتتجلى وجهة نظر القرآن الكريم بشأن ذلك الموضوع وأبعاده. فمثلاً، تُجمع الآيات المتعلقة ببراهين معرفة الله كالفطرة، وبرهان النظم وبرهان الوجود والإمكان وباقي البراهين، وحيث إن القرآن يفسر بعضه بعضاً تتضح أبعاد هذا الموضوع «١».

(١). لقد رويت عبارة «القرآن يفسر بعضه بعضاً» عن ابن عباس، وليس من المستبعد أن يكون قد أخذها عن النبي صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام نتيجة لعلاقته القوية معهما في مسائل القرآن، كما ورد مضمونها في نهج البلاغة حيث يقول: «وذكرت أن الكتاب يصدق بعضه بعضاً» (نهج البلاغة، الخطبة ١٨) وقد أورد بعض العلماء في كتبهم جملة «القرآن يفسر بعضه بعضاً» على أنها حديث، كما في صفحته ١٠٦ من كتاب (تنزيه التنزيل) للمرحوم الشهرستاني، إذ وردت هذه العبارة باعتبارها رواية بدون أن ترد عليها مؤاخذه، كما تلاحظ في نهج البلاغة إشارة أخرى إلى هذا الأمر، حينما يقول بشأن القرآن الكريم: «وينطق بعضه ببعض ويشهد بعضه على بعض» (نهج البلاغة، الخطبة ١٣٣).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٩

وهكذا بالنسبة للآيات المتعلقة بالجنة أو النار، والصراط وصحيفة الأعمال، والآيات المتعلقة بالقضايا الأخلاقية والتقوى وحسن الخلق والشجاعة، و... والآيات المتعلقة بأحكام الصلاة والصوم والزكاة والخمس والأنفال، والآيات المتعلقة بالعدالة الاجتماعية وجهاد الأعداء وجهاد النفس و...

والمسلم به أن هذه الآيات التي نزلت في مناسبات مختلفة، عندما تُجمع كل طائفة منها على حدة وتنظم وتفسر فسوف تنكشف عنها حقائق جديدة، ومن هنا تتضح أهمية التفسير الموضوعي، حيث سيأتي الكلام عنه في البحث الآتي إن شاء الله.

ما هي المشاكل التي يمكن حلها بواسطة التفسير الموضوعي؟

إنّ الجواب على هذا السؤال واضح للغاية من خلال ملاحظة ما مرّ ذكره آنفاً، ولكن للمزيد من التوضيح ينبغي الالتفات إلى هذا الأمر وهو:

إنّ الكثير من آيات القرآن الكريم تتناول بُعداً واحداً من أبعاد موضوع ما، فمثلاً، فيما يخص مسألة «الشفاعة» فقد ورد في بعض الآيات أصل إمكان الشفاعة.

وفي البعض الآخر «شروط الشفاعة» (سبأ ٢٣، مريم ٧٨).

وفي بعضها شروط «المشفّع لهم» (الأنبياء ٢٨، غافر ١٨).

وفي بعض تنفي الشفاعة عن الجميع ما عدا الله تعالى (الزمر ٤٤).

وفي بعض آخر ثبتت الشفاعة لغير الله (المدثر ٤٨).

نجد أنّ حالة من عدم الوضوح تحيط بأمور الشفاعة بدءاً من حقيقة الشفاعة وحتى سائر الشروط والخصوصيات الأخرى ولكن عندما نأخذ آيات الشفاعة من القرآن

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٠

ونضعها جانب بعضها ونفسرها على ضوء بعضها البعض يرتفع هذا الغموض ويحلّ الابهام على أحسن وجه.

وكذلك الآيات المتعلقة بالجهاد، أو فلسفة أحكام وتعاليم الإسلام، أو الآيات المتعلقة بالبرزخ، أو مسألة علم الله، وكذلك موضوع

علم الغيب، وهل أن العلم بالغيب ممكنٌ لغير الله أم لا؟ فلو وُضعت آيات كل موضوع في جانبٍ فمن الممكن أداء حق هذا الموضوع وحل الإشكالات الموجودة عن طريق التفسير الموضوعي.

وعلى هذا الأساس فإن الآيات المتعلقة بـ «المحكم» و «المتشابه» والتي تدعو لتفسير «المتشابهات» بالاستعانة «بالمحكّمات» يعدّ نوعاً من التفسير الموضوعي.

ومن هنا يبدو أنّه من خلال تفسير الآيات المتعلقة بموضوع ما بالاستعانة بالآيات الأخرى تنبثق عنها معارف وعلوم جديدة، هذه العلوم تكمن فيها معارف القرآن والحلول لكثير من المعضلات العقائدية وأحكام الإسلام.

من هذا الباب يُمكن تشبيه آيات القرآن بالكلمات المتفرقة، حيث إنّ لكل منها مفهوماً ذاتياً، ولكن حينما تُرتب وتجمع في جمل مفيدة فهي تُعطي مفاهيم جديدة.

أو تشبيهها بالعناصر الحياتية مثل «الأكسجين» و«الهيدروجين» التي حينما تتفاعل مع بعضها ينتج عنها الماء الذي هو عنصر حياتي آخر.

خلاصة القول إنّ لا يمكن حلّ الكثير من اسرار القرآن إلّا عن هذا الطريق، ولا يُمكن النفوذ إلى مكوناتها إلّا من خلال هذا السبيل، ونعتقد بأنّ هذا القدر كافٍ لتوضيح أهميّة التفسير الموضوعي.

وباختصار يمكن تلخيص فوائد التفسير الموضوعي في النقاط التالية:

١- إزالة الإشكالات التي تبرز في بعض الآيات للوهلة الأولى وحلّ أسرار وألغاز المتشابه في القرآن.

٢- الأطلاع على خفايا ودقائق وعلل وأسباب ونتائج المواضيع والقضايا المختلفة الواردة في القرآن الكريم.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١١

٣- الحصول على معلومات جامعه لمواضيع مختلفة مثل «التوحيد» و «معرفة الله» و «المعاد» و «العبادات» و «الجهاد» و «الحكومة الإسلامية» وعلوم مهمّة أخرى

٤- كشف أسرار وخفايا جديدة من القرآن من خلال الجمع بين الآيات.

تاريخ التفسير الموضوعي:

يمكننا ملاحظة نماذج من التفسير الموضوعي للقرآن الكريم في نفس آيات القرآن الكريم حيث أمرت هذه الآيات بتفسير المتشابه منها بالمحكم، ويعد هذا الأسلوب نوعاً من التفسير الموضوعي.

وفي كلام أئمّة الهدى عليهم السلام أمثلة كثيرة تهدينا إلى أسلوب جمع الآيات المتعلقة بموضوع معين وترتيبها ثم الاستفادة منها، ولأجل إثبات هذا الأمر نكتفي بذكر عدد من الأمثلة:

١- في الرواية المعروفة «١» بعنوان وصيّة النبي صلى الله عليه وآله وموعظته لعبدالله بن مسعود المذكورة في بحار الأنوار- وهي رواية طويلة وكثيرة المضامين، وفيها أمثلة كثيرة بنحو يمكن القول أنّ الرواية تدور حول محور التفسير الموضوعي- عندما يتكلم صلى الله عليه وآله عن ذم الدنيا حيث يقول: «يا ابن مسعود إنّ الأحق من طلب الدنيا زائلة»، ثم يستدل على هوان الدنيا وزخارف هذا العالم بالآيات التالية:

«اعلموا أنّما الحياة الدنيا لعبٌ ولهوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم وتكاثرٌ في الأموالِ والأولادِ...». (الحديد / ٢٠)

«ولو لِمَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ* وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ». (الزخرف / ٣٣ و ٣٤)

«مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَدْمُومًا مَدْحُورًا». (الاسراء / ١٨)

وفي محل آخر يتحدث عن (القول بغير علم)، ويقول صلى الله عليه وآله: يا ابن مسعود لا تقل شيئاً

(١). بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ٩٤.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٢

بغير علم ولا تتفوه بشيء ما لم تسمعه وتراه، ثم يذكر آيات عديدة حول هذا الموضوع:

قال تعالى: «وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا». (الاسراء / ٣٦)

وقال تعالى: «سَتَكْتُبُ شَهَادَتَهُمْ وَيُسْأَلُونَ». (الزخرف / ١٩)

وقال تعالى: «مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ». (ق / ١٨)

وقال تعالى: «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ». (ق / ١٦)

وكذلك ذكرت الرواية ابحاثاً حول الذكر والإنفاق في سبيل الله، ومكارم الاخلاق وغيرها اعتماداً على جمع الآيات وتبويبها.

٢- جاء في حديث آخر عن أمير المؤمنين على عليه السلام تقسيم لمعنى «الكفر في القرآن المجيد»:

إن الكفر في القرآن على أربعة أقسام:

الأول: الكفر بمعنى الجحود والانكار، وهو على قسمين:

أ) إنكار اصل وجود الله والجنة والنار والقيامة كما يحكى القرآن عن لسانهم «وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ». (الجاثية / ٢٤)

ب) الكفر المقارن للمعرفة واليقين كما جاء في القرآن:

«وَجَحَلُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا». (النمل / ١٤)

الثاني: الكفر بمعنى المعصية وترك الطاعة كما أخبر الله سبحانه عن قوم من بنى اسرائيل يؤمنون ببعض الكتاب ويكذبون ببعض اذ

يقول سبحانه: «أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ». (البقرة / ٨٥)

الثالث: الكفر بمعنى البراءة والتنصل كما قال سبحانه عن لسان ابراهيم عليه السلام لعبدة الأصنام «كَفَرْنَا بِكُمْ». (الممتحنة / ٤)

وقال سبحانه أيضاً «يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ». (العنكبوت / ٢٥)

الرابع: الكفر بمعنى عدم شكر النعمة كما قال سبحانه: «لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٣

كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ». (ابراهيم / ٧)

ثم يجمع عليه السلام الآيات الواردة في الشرك وأقسامه في القرآن فيقسمها إلى الشرك في العقيدة، والشرك في العمل، والشرك

في الطاعة، وشرك الرياء، ويوضح كلاً منها بذكر الآيات القرآنية «١».

وكما تلاحظ فإن الإمام عليه السلام بتقسيمه لآيات الكفر والشرك يلقى نظرة كلية على هذا الموضوع، ويوضح بأن لهذين

المصطلحين مفهوماً واسعاً شاملاً، فالكفر يشمل كل اخفاء للحق سواء كان في العقائد أو في العمل أو في المواهب الإلهية، والشرك

يعنى أن نجعل لله شريكاً أو نداً سواء كان في العقائد أو في العمل أو الطاعة للقوانين، ويتضح جيداً بهذا العرض الجميل للتفسير

الموضوعي في المثالين المذكورين لكلمات الإمام عليه السلام الدور الكبير لهذا التفسير في سعة ذهنية الإنسان والفهم العميق للآيات

القرآنية.

والنموذج البديع الآخر ما ورد في كلام الإمام موسى بن جعفر عليه السلام مع هشام بن الحكم.

فالإمام عليه السلام وفي مقام بيان منزلة العقل يذكر الآيات المرتبطة ب «اولى الألباب» ويجمعها كلها ويقول لهشام: «أنظر كيف أن

الله سبحانه وصف اولى الألباب على أحسن وجه وزينهم بأفضل لباس»، ثم يذكر سبع آيات من القرآن المجيد تتكلم عن منزلة اولى

الألباب وهي (البقرة/ ٢٦٩- آل عمران/ ٧- آل عمران/ ٩- المؤمن/ ٥٤) «٢».

فاليقايام بجمع هذه الآيات والنظر إليها منضممة بعضها إلى البعض يعطى للإنسان رؤية عميقة يستطيع معها فهم معنى أولى الألباب ومقامهم ومنزلتهم، وهذا عمل لا يتم إلا عن طريق التفسير الموضوعى. هذه نماذج من اصول التفسير الموضوعى فى كلمات قادة الإسلام العظام، النبى صلى الله عليه وآله وأئمة الهدى عليهم السلام، وهناك نماذج عديدة أخرى لم نذكرها تجنباً للاطالة.

ج ج

(١). بحار الأنوار، ج ٦٩، ص ١٠٠- ١٢٠ (خلاصة الحديث).

(٢). اصول الكافى، ج ١، ص ١٥ كتاب العقل والجهل.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٤

التفسير الموضوعى فى كلمات العلماء السابقين:

لم يكن التفسير الموضوعى متداولاً إلا فى فترات محدودة وحول موضوعات خاصة، إلا أنه ورد كثيراً على ألسنة العلماء السابقين، ولكن يجب الاعتراف بأننا لا نعرف أحداً منهم تناول التفسير الموضوعى فى جميع المجالات.

ومن الرواد الأوائل فى هذا المضمار، العلامة المجلسى قدس سره حيث نراه قد تصدى لجمع كل الآيات ذات العلاقة بالموضوع عند دخوله فى كل فصل من فصول بحار الأنوار، ثم يلقى عليها نظرة شاملة وينقل أحياناً آراء المفسرين، ويسعى لتوضيح ما يذكره من الآيات.

ففى مثلها فى الجزء ٦٧ عندما يتكلم حول «القلب» والسمع» والبصر» ومعنى كل منها فى القرآن الكريم، يجمع عشرات الآيات ثم يذكر روايته من الكافى ثم يقوم بذكر بيان جامع لها، فيستغرق بحثه فى هذا المجال عشر صفحات تقريباً «١».

وفى الجزء ٥٨ فى باب حقيقة الرؤيا وتعبيرها يذكر أولاً أكثر من عشر آيات من القرآن حول هذا الموضوع ثم يبحث فى تفسيرها عدة صفحات «٢».

وفى الجزء ٢٢ فى الباب الأول يبحث عن ما جرى لليهود والنصارى والمشركين بعد الهجرة، فيذكر عشرات الآيات من مختلف السور حول هذا الموضوع ثم يقوم بتفسيرها «٣».

وقد اتبع هذا المحقق العظيم نفس الاسلوب فى الفصول الاخرى من الكتاب.

ومن الأمثلة الاخرى للتفسير الموضوعى فى كلمات المتقدمين، الكتب المؤلفة تحت عنوان آيات الأحكام، وفى هذه الكتب ذكرت الآيات المتعلقة بالأحكام الفقهية، مثل الآيات التى لها ارتباط بأجزاء وشروط الصلاة وأقسام وشروط الصوم، والحج والنكاح والطلاق وأحكام الحدود والديات والقضاء وغيرها، حيث جمعت الآيات وتم بحثها على نحو موضوعى بالاستعانة ببعضها الآخر.

(١). بحار الأنوار، ج ٦٧، ص ٢٧ إلى ٤٣.

(٢). المصدر السابق، ج ٥٨، ص ١٥١ إلى ١٥٨.

(٣). المصدر السابق، ج ٢٢، ص ١ إلى ٦٢.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٥

ويبدو أن أول كتاب أُلّف فى هذا المجال هو كتاب (أحكام القرآن) تأليف (محمد بن صاحب الكلبي)، وهو من أصحاب الإمام

الباقر عليه السلام والإمام الصادق عليه السلام والمتوفى سنة ١٤٦ هـ فهو سابق حتى للشافعي الإمام المعروف المتوفى سنة ٢٠٤ هـ بتأليف كتاب في هذا المجال.

وبعد تصدى العديد من الفقهاء والعلماء لتأليف الكتب في مجال آيات الأحكام (تارة بهذا الاسم وتارة بأسماء أخرى وقد ذكر المرحوم المحدث الطهراني في كتاب «الذريعة» ثلاثين كتاباً من هذه السلسلة «١»، وأشهرها بين العلماء والفقهاء المعاصرين كتاب آيات الأحكام للمحقق الأردبيلي قدس سره المسمى «زبدة البيان»، وآيات الأحكام للفاضل المقداد المسمى (كنز العرفان). وجاء في الكتاب الأخير أنّ من المشهور بين العلماء أنّه توجد خمسمائة آية في القرآن المجيد حول الأحكام الفقهية، إذا أخذنا في الحسبان الآيات المتكررة في هذا المجال وإلا فالعدد أقل من ذلك «٢».

وقد كُتب في هذا المجال كتاب «إعجاز القرآن في العلوم المعاصرة» وفيه الآيات ذات العلاقة بالاكشافات العلمية المعاصرة، والتي تعدّ من المعجزات العلمية للقرآن، وكتاب «المجتمع والتاريخ» و «الحقوق في القرآن المجيد»، وكلها تعبير عن السعي المستمر في التأليف في حقل التفسير الموضوعي.

كما ألفت كتب حول قصص القرآن تمّ فيها توضيح الوقائع الواردة في قصص الأنبياء بواسطة جمع آيات القرآن. ولكن مع هذا يجب الإذعان بأن كل هذه المحاولات ناظرة للتفسير الموضوعي في مجال معين وزاوية محددة، وهي ليست بصدد تفسير جامع وشامل لكل موضوعات القرآن، وفي الفترة الأخيرة بذلت محاولات وجهود لتفسير القرآن تفسيراً موضوعياً واسعاً، وهذه الجهود تستحق كل تقدير.

(١). الذريعة إلى تصانيف الشيعة، ج ١، ص ٤٠-٤٤.

(٢). كنز العرفان، ج ١، ص ٥.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٦

ومن جملة هذه الكتب يمكن ذكر كتاب «مفاهيم القرآن» وقد صدر عدد من أجزاءه بالفارسية والعربية وهو كتاب قيم. ولكن مع هذه المساعي التي تستحق التقدير يجب الاعتراف بأنّ مسألة التفسير الموضوعي للقرآن لا زالت في مرحلة البداية، وتحتاج إلى زمان كي تحتل المكانة المناسبة لها كالتفسير الترتيبي، وهذا لا يتم إلا بالسعي المستمر الدائب للعلماء والمفسرين، وبالاستفادة من تجارب الماضين وتنميتها وايصالها إلى درجة الكمال المطلوب.

وما تراه في هذا الكتاب هو حلقة من هذه السلسلة التي نأمل لها أن تنضمّ إلى الحلقات المعتمرة الأخرى والمهم أن يتجنب أصحاب النظر والمعرفة الأعمال المكررة في هذا المجال، وأن يبادر كل منهم إلى الإبداع والتجديد حتى تتمكن تحت ظل هذه الإبداعات أن تطوى هذا الطريق الطويل.

الاسلوب الصحيح في التفسير الموضوعي:

يوجد اسلوبان للتفسير الموضوعي:

الاسلوب الأول: الذي اختاره بعض المفسرين في عملهم، وهو أنهم يتناولون المواضيع المختلفة كالموضوعات العقائدية (التوحيد والمعاد و ..) والموضوعات الأخلاقية (التقوى حسن الخلق و ...)، وبعد ذكر بحوث فلسفية وكلامية أو أخلاقية يذكرون بعض الآيات القرآنية المرتبطة بالموضوع بعنوان الشاهد على ذلك.

الاسلوب الثاني: وهو الذي يتم فيه قبل كل شيء جمع الآيات الواردة حول الموضوع من جميع أجزاء القرآن، وقبل أي حكم أو ابداء نظر يتم جمع الآيات وتفسيرها مجتمعة، وجمعها وملاحظة العلاقة فيما بينها نحصل منها على الصورة الكاملة.

وهنا لا يملك المفسر شيئاً من عنده مطلقاً، ويسير كالأصل خلف آيات القرآن فيفهم كل شيء من القرآن، ويكون كل همّه كشف محتوى الآيات، وإذا أراد الإستعانة بأراء الآخرين

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٧

بل حتى بالأحاديث، فذلك في المرحلة الثانية وبصورة مستقلة.

وقد إختارنا هذا الأسلوب في (نفحات القرآن) حيث جمعنا كل الآيات الواردة في كل موضوع وجعلناها في مقدمه كل بحث، وجعلنا كل مسائل البحث تسير تحت ظل الآيات، ونعتقد أن هذا هو السبيل الأمثل لإيصالنا إلى حقائق القرآن.

وهذان الأسلوبان متبعان في التفسير المعتاد (التفسير الترتيبي حسب السور والآيات) فجماعه يحملون آيات القرآن على آرائهم وجماعه أخرى يجعلون آراءهم تابعة لآيات القرآن، ومن الواضح أن الأسلوب التفسيري الصحيح هو الثاني.

القرآن (نور وكتاب مبین) فهو يبين كل الحقائق المرتبطة بسياده الإنسان: «قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ». (المائدة/ ١٥)

عقبات تواجه التفسير الموضوعي:

يواجه المفسر في طريقه ثلاث عقبات مهمه.

١- ليس التفسير الموضوعي بأن تجعل فهارس الآيات أمامك وتجمع الآيات التي ورد فيها ذكر لكلمات المواضيع التي تريد البحث فيها، مثل الجهاد والتقوى لأن الكثير من الآيات تتكلم حول هذه المواضيع بدون أن تذكر فيها كلمه التقوى أو الجهاد، ولا بأس هنا أن نذكر مثلاً واحداً، نحن نعلم أن الله سبحانه «رحمن» و «رحيم» و «أرحم الراحمين» وهذا المعنى وارد، في الكثير من آيات القرآن، ولكن توجد آيات تبين هذه الحقيقه بدون استعمال ماده «رحم»، منها: «وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ» «١». (النحل / ٦١)

(١). لا بد من الإشارة إلى أن الآية الأولى تشير إلى ظلم الناس وفي الآية الثانية جاء بدل الظلم الاكتساب، ومن جمع الآيتين معا يظهر أن الكثير من الأعمال التي تصدر من الناس ليست خالية من نوع من أنواع الظلم.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٨

ونفس هذا المعنى مع اختلاف يسير ذكر في الآية ٤٥ من سورة فاطر: «وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ». هاتان الآيتان تشيران إلى رحمه الله ولطفه المطلق على عباده من غير أن تستعمل ماده (رحم) في الآيتين.

٢- العقبة الأخرى التي تعترض التفسير الموضوعي مشكله جمع الآيات وأخذ النتيجة منها، فهذه العمليه تحتاج إلى دقه وظرافه وذوق ووعى كامل واحاطة تامه بالآيات القرآنيه والتفاسير، وعندما تكون الآيات المرتبطة بموضوع ما كثيره ويكون لكل منها بعد خاص بها فإن الجمع سيكون أكثر تعقيداً.

مضافاً إلى ذلك فإن التفسير الموضوعي لا يزال يخطو خطواته الأولى ولم يُبدل في هذا النطاق جهد وسعي حثيث، وهذا يجعل الأمر أكثر صعوبة وتعقيداً بالنسبة للمبتدئين ويختلف كثيراً عن التفسير المعتاد المتبع منذ نزول القرآن.

٣- العقبة الكبيرة الثالثة: إن موضوعات القرآن الكريم، هذا الكتاب الإلهي العظيم لا- حد لها ولا- حصر، ففيه المسائل العقائديه والعلميه، وفيه المسائل الأخلاقيه والسياسيه والاجتماعيه والاقتصاديه، وآداب العشره وأحكام الحرب والسلام وتاريخ الأنبياء وامور الكون و.. الخ.

وفي كل واحده من هذه الامور موضوعات كثيره بحثها القرآن، ومناقشه كل هذه المسائل تحتاج إلى وقت طويل وصدر واسع. وأحياناً تبحث الآية الواحدة في التفسير الموضوعي أبحاثاً عديده من جهات مختلفه، وفي كل بعد من أبعادها يجب بحث فصل خاص

به، في حين تفسر الآية في التفسير الترتيبي تفسيراً واحداً فقط.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٩

لماذا لم يتطور هذا الموضوع من التفسير؟

يبدو أن جواب هذا السؤال قد اتضح من الأبحاث السابقة، فالمشكلات الكثيرة التي تواجه التفسير الموضوعي، قد منعت من تطوره خاصة، وأن التفسير الموضوعي يحتاج إلى معاجم دقيقة وجامعة بحيث يمكن استخراج الآية منها بسهولة ولم تكن توجد في السابق، ولكنها اليوم بحمد الله في متناول الأيدي.

ومن الطريف ما جاء في مقدمة المعجم القرآني المعروف ب «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم» حيث قال: (إن المتقدمين اهتموا كثيراً بالعلوم القرآنية ولكن لم يهتموا باعداد معجم دقيق لتعيين آيات القرآن، والسبب في ذلك أن أغلبهم كان من حفظة القرآن)!

ولا نعلم مدى صحة هذا الرأي، ولو افترضنا كون الإنسان حافظاً للقرآن فهذا لا يجعله مستغنياً عن المعجم، الذي هو وسيلة لا بد منها من أجل تسهيل عملية التفسير الموضوعي (وإن كانت بوحدها ليست كافية)، وهذا العمل لم يتم في السابق إلا بنحو ناقص ودون الطموح أحياناً.

ولابد من الإشارة إلى مسألة هنا وهي أن جمعاً من المفكرين الغربيين والأجانب المحيين للقرآن المجيد بذلوا جهوداً من أجل إعداد معاجم لهذا الكتاب السماوي ومن نماذجها المعتمدة كتاب «نجوم الفرقان في اطراف القرآن» إعداد المستشرق الالمانى «فلوغل» وتأليفات اخرى قام بها المسلمون مثل «مفتاح كنوز القرآن» وكتاب «فتح الرحمن».

وبناءً على ما ورد في مقدمة «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم» فإن هؤلاء هم الذين مكثوا المؤلف من إعداد هذا المعجم الغنى البديع وجعله في متناول أيدي علماء الإسلام.

وآخر ما نقوله هنا هو أنه على الرغم من جميع المشكلات والمعوقات الموجودة في طريق التفسير الموضوعي، فإن بركاته ومعطياته كثيرة وبنفس النسبة وخاصة بالنسبة للعلماء والمحققين، حيث تنكشف لهم في ضوءه الحقائق التي تزيدهم إيماناً وقوة ونشاطاً

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٠

لمواصله العمل، وتوجج في قلوبهم نار الشوق والمحبة حيث إن مثل الآية القرآنية عندما تتحدث حول موضوع ما لوحدها، كمثل النقطة التي إذا اجتمعت مع نقاط اخرى ورتبت كونت شكلاً جذاباً وصوره بديعه لم تكن موجودة من قبل، وهذا أمر مهم جداً وبعث على النشاط والاشتياق، وكما ذكرنا فإن النبي صلى الله عليه وآله وأئمة أهل البيت عليهم السلام، أرشدونا منذ البداية إلى التفسير الموضوعي ووردت في كلامهم نماذج مختلفة جميلة وجذابة وقد أشرنا إلى البعض منها.

ج ج

وحيث ننتهي من هذه المقدمة نجد أنفسنا أمام هذا العمل العظيم المملوء بالمصاعب، ولا ريب في أننا لا نستطيع - اعتماداً على أنفسنا - أن نحمل هذه الأمانة ونوصلها إلى الهدف إلا بالظرف اللطيف اللطيف وعونه وعنايته، ونحن هنا بكامل وجودنا نتوجه إلى الله سبحانه وتعالى ونمد إليه أيدينا قائلين.

إلهنا! خذ بأيدينا في هذا الطريق، اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم، احفظنا في هذا الطريق الكثير المزالق من السقوط في وادي الضلالة، وتفضل علينا بالتوفيق لإتمام هذا العمل على النحو الأحسن.

أمين يا رب العالمين

قم - الحوزة العلمية - ناصر مكارم الشيرازي

٢٦ / محرم الحرام / ١٤٠٨ هـ

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢١

كل عمل باسم الله**تمهيد:**

علمنا القرآن الكريم في بداية كل سورة (عدا سورة التوبة) وفي آيات كثيرة أخرى أن نبدأ عملنا باسم الله وأن نعطر أجواء قلوبنا وأرواحنا بطيب اسمه.

باسم «الله» وهو الجامع للصفات الكمالية.

باسم «الرحمن» و «الرحيم».

باسمه الذي هو على كل شيء قدير.

باسمه الذي هو بكل شيء عليم.

إنّ هذا الاسم المقدس ينور القلب ويهب للروح الصفاء والقوة والنشاط.

ذكر رحمته الخاصة والعامّة تبعث في الإنسان عالمًا من الأمل.

ذكر قدرته وجبروته يعث في الإنسان الجرأة لمواجهة المصاعب.

ذكر علمه واحاطته بكل فرد وبكل شيء يُطمئن الإنسان بأنّه ليس لوحده.

فإذا بدأنا عملنا بهذه الروح فاننا سنصل إلى الغاية المطلوبة بلا شك، وكل سعي وجهاد يبذل وفق هذا المنهج فسوف تكون نتيجته الموفقية والفلاح.

لذلك فقد ارتأينا أن أفضل ما نبدأ به بحثنا في هذا الكتاب هو موضوع (بداية كل عمل باسم الله).

فنبداً أولاً بمناقشة الآيات ذات العلاقة بهذا المعنى ثم نقوم بعملية التفسير والجمع، وفي المرحلة الأخيرة نذكر بحوثاً مكتملة تحت عنوان «توضيحات» وسنواصل اتباع هذا الأسلوب بالترتيب المذكور إلى آخر الكتاب إن شاء الله.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٢

الآيات:

١- «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . (كل سور القرآن عدا سورة براءة)

٢- «إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . (العلق / ١)

٣- «وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ . (هود / ٤١)

٤- «قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنِّي الْيَقِيْ اِلَى كِتَابٍ كَرِيْمٍ * اِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَاِنَّهُ بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ * اَلَّا تَعْلَمُوْا عَلٰى وَاْتُوْنِيْ مُسْلِمِيْنَ .

(النمل / ٢٩ - ٣١)

ج ج

شرح المفردات:

«الاسم»: يعتقد الكثير من علماء اللغة أن هذه الكلمة في الأصل مشتقة من مادة «سمو» (على وزن علو) بمعنى الارتفاع، وحيث إنّ

التسمية سبب للمعرفة والظهور وعلو المنزلة لكل شيء استخدمت كلمة اسم في هذا المعنى «١».

«الرحمن» و «الرحيم»: كلمتان مشتقتان من مادة «رحمة» والمعروف أن (الرحمن) يعنى ذو الرحمة العامة الشاملة للجميع، و (الرحيم) يوصف بها ذو الرحمة الخاصة، وعلى هذا رحمانية الله جعلت فيضه ونعمته شاملة للعدو والصديق والمؤمن والكافر، ولكن رحيمته أوجبت للمؤمنين مواهب خاصة في الدنيا والآخرة في حين أن هذه المواهب محرمة على الغافلين والبعيد عن الله. والشاهد على هذا الاختلاف ما يلي:

١- «الرحمن» صيغة مبالغة والرحيم صفة مشبهة، وصيغة المبالغة تفيد معنى التأكيد

(١). البعض يرى أن الاسم من مادة (وَسَم) بمعنى (العلامة) ولكن يبدو أن هذا غير تام لأن جمعه على هيئة أسماء وتصغيره ب (سَمِي) و (سَمِيه) يدل على عدم وجود (الواو) في أصله والبعض يعتبره مشتقاً من كلمة (شما) وهي اصطلاح عبري وعند التعريب صارت بهيئة اسم وسما (التحقيق في كلمات القرآن الكريم) ولكن هذا مستبعد أيضاً ولا شاهد عليه، والشاهد الآخر على عدم كون الاسم مشتقاً من مادة (وسم) أن الهمزة في اسم تسقط عند وصل الكلام ولو كانت من مادة (وسم) فالهمزة بدلاً عن الواو ولا ينبغي أن تسقط.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٣

بنحو أكثر وتدل على سعة هذه الرحمة، ولكن البعض يرى أن كليهما صفة مشبهة أو أن كليهما صفة مبالغة، ولكن مع ذلك صرحوا بأن الرحمن تفيد معنى المبالغة الكثيرة (١).

٢- وقال البعض: إن الرحيم صفة مشبهة وتفيد الإستمرار والثبات، لذلك هي مختصة بالمؤمنين، لكن الرحمن صيغة مبالغة ولا تدل على المعنى المذكور.

٣- «الرحمن» اسم خاص بالله ولا يطلق على غيره، في حين أن الرحيم يقال لله ولغيره، وهذا دليل على أن مفهوم الرحمن يدل على رحمة أوسع.

٤- هناك قاعدة معروفة في الأدب العربي وهي: (زيادة المباني تدل على زيادة المعاني)، يعنى أن الكلمة التي حروفها أكثر فإن مفهومها يكون أكبر وحيث إن (رحمن) خمسة أحرف و (رحيم) أربعة أحرف فمفهوم (رحمن) أوسع (٢).

٥- كما أن البعض استفاد هذا المعنى من آيات القرآن حيث إن (الرحمن)، ذكر غالباً بنحو مطلق، في حين أن (رحيم) ذكر مقيداً في كثير من الموارد، مثلاً، قوله تعالى «إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ رَّحِيمٌ». (البقرة/ ١٤٣) وقوله تعالى «إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا». (النساء/ ٢٩)

أما الرحمن فذكر من غير قيود فهو يدل على عموم رحمته.

٦- وتشهد بعض الروايات على هذا الاختلاف، ففي حديث ذي مغزى ومعانٍ عن الإمام الصادق عليه السلام نقرأ: «الرحمن اسم خاص بصفة عامة والرحيم اسم عام بصفة خاصة» (٣).

ولكن مع هذا لا يمكن أن ننفي استخدام الكلمتين في معنى واحد، كما ورد في دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفة: «يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما» ويمكن أن يعد هذا استثناءً فلا ينافي الاختلاف المذكور.

«مجراها» و «مرساها»: كلتا الكلمتين اسم زمان أو اسم مكان بمعنى مكان الحركة

(١). راجع تفاسير مجمع البيان وروح المعاني والميزان، ج ١، ص ٢٠ و ٥٥ و ١٦ على التوالي.

(٢). تفسير شبّر، ص ٣٨؛ روح المعاني، ج ١، ص ٥٦.

(٣). تفسير مجمع البيان، ج ١، ص ٢١.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٤

وزمانها، أو مكان التوقف وزمانه «١».

الاولى مشتقة من مادة (جريان) والثانية من مادة (رسو) على وزن (رَسَم) بمعنى الثبات والاستقرار، لذلك يقال للجبال (الرواسي) جمع (راسية) لأنها ثابتة ومستقرة.

جمع الآيات وتفسيرها

لماذا نبدأ فقط باسم الله؟

في الآية الاولى (بسم الله الرحمن الرحيم) التي تصدرت كل سور القرآن (ما عدا سورة براءة) يعني نعلمكم أن تبدأوا عملكم باسم الله الرحمن الرحيم وتستعينوا به في أداء عملكم وتنفيذ خططكم «٢».

إن أعمالنا مهما تكن فهي فانية زائلة وصغيرة محدودة، أما عندما ترتبط بالذات القدسية الباقية الخالدة التي لا حد لها ولا نهاية، فإنها ستصطبغ بصبغته وتستلهم من عظمتهم وازليته.

قدراتنا مهما تكن فهي ضعيفة لا تمثل إلا قطرة في بحر، لكن عندما ترتبط تلك القطرات بالبحار العظيمة للقدرة الإلهية فإنها ستجد العظمة وتكتسب روحاً جديدة وهذا كله سرُّ بسم الله في بداية كل عمل.

ج ج

في الآية الثانية كلام عن خطاب جبرئيل الأمين في بداية البعثة للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله عندما احتضن النبي وضمه وقال: «إِقْرَأْ بِسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ».

وبهذا فقد بدأ جبرئيل منهاج رسالته عند بعثته النبي صلى الله عليه وآله باسم الله.

ج ج

(١). قال بعض المفسرين إنها اسم زمان فقط كما في (مجمع البيان) والبعض اعتبرها اسم مكان فقط كما في (الميزان) والبعض اعتبرها اسم زمان ومكان كما في (تفسير شبر).

(٢). البعض يعتقد أن هناك جملة محذوفة وهي (ابتدىء)، والبعض قال هي (استعين)، نعم في صورة كون الجملة عن الله سبحانه (كما في جميع السور عدا الحمد) فحينئذ يتعين المعنى الأول ولكن في خصوص سورة الحمد حيث إن الجملة تعبير عن لسان العباد فيكون فيها المعنى الأول أو الثاني أو كلاهما وعلى هذا فإن (ب) في بسم الله إما بمعنى الاستعانة أو بمعنى الإبتداء (تأمل جيداً).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٥

الآية الثالثة تتحدث عن قصه نوح عندما حلت لحظة الطوفان والجزاء الإلهي الشديد على قومه الكفرة والطغاة، وعندما استعدت السفينة للحركة وصدر الأمر لأصحاب نوح الذين لم يتجاوز عددهم الثمانين بأن يركبوا في الفلك قال (بسم الله مجربها ومرسها) ثم استعان بمغفرة الله ورحمته وقال: «إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ».

ج ج

وفي الآية الأخيرة كلام عن كتاب سليمان إلى ملكه سبأ بعد أن أخبره الهدهد عن قوم سبأ وعبادتهم للالصنام.

وعندما تناولت ملكة سبأ الكتاب جمعت أعوانها وافراد البلاط وقالت: «يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْكِ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَأَنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ».

ج ج

من مجموع الآيات الأربع المذكورة ندرك جيداً أنّ ابتداء كل عمل يجب أن يكون ب (بسم الله)، سواء كان في التعليم والهداية مثل سور القرآن أو كان دعاءً من العباد مع الذات القدسية مثل سورة الفاتحة، أو بداية البعثة والرسالة وأول نداء للوحي مثل بداية سورة العلق، أو أنّه بداية الحركة للنجاة من الأخطار والطوفان وبداية توقف السفينة والنزول منها للابتداء بالمنهج الجديد كما في قصة نوح، أو ابتداء الكتاب المرسل من أجل الدعوة للتسليم إلى الحق كما في كتاب سليمان لملكة سبأ. وخالصة الكلام أنّ العمل سواء كان من الله سبحانه أو من الخلق أو من جبرئيل أو من الأنبياء مثل نوح وسليمان أو من عامة الأفراد، يجب أن يبدأ ب (بسم الله) ويرتبط بالذات المقدسة ويستمد منه القوة والعلم والإدراك. وهذا هو معنى الحديث المعروف للنبي صلى الله عليه وآله: «كل أمر ذي بال لم يذكر فيه اسم الله فهو ابتر» (١).

(١). سفينة البحار، ج ١ مادة (سما).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٦

والأمر الذي ينبغي ملاحظته أنّ الصفات التي ذكرت بعد بسم الله في الآيات المذكورة تناسب العمل الذي بدأ ب (بسم الله) ففي قصة نوح جاء ذكر (غفور رحيم) وهو إشارة شمول الرحمة الإلهية لأصحاب نوح، وفي قصة نزول أول آية جاء ذكر صفة الربوبية والخالقية ونحن نعلم أنّ مسألة الوحي بداية لعمل تربوي وعلى هذا فإنّ التربية التشريعية تقترب بالتربية التكوينية. وبهذا نعلم أنّ الاستفادة من ذكر الصفات المناسبة هو بمثابة درس للجميع حول كيفية ابتداء أعمالهم ب (بسم الله).

ج ج

توضيحات

١- الأهمية الخاصة ل «البسملة»

نلمس في الروايات الإسلامية أهمية كبيرة لهذه الآية المباركة وأنها في درجة (اسم الله الأعظم)، كما روى عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «بسم الله الرحمن الرحيم أقرب إلى اسم الله الأعظم من ناظر العين إلى بياضها» (١). وفي حديث آخر عن الإمام الرضا عليه السلام: «أقرب من سواد العين إلى بياضها» (٢). إنّ ل (بسم الله) أهمية بالغة إلى درجة بحيث أنّ بعض الروايات ذكرت أنّ في تركها تعريض النفس للعقاب الإلهي، كما ورد في رواية أنّ عبد الله بن يحيى دخل في مجلس أمير المؤمنين عليه السلام وكان أمامه سرير فأمره الإمام أن يجلس عليه فتحطم السرير فجاءه ووقع عبد الله على الأرض وجرح رأسه وخرج منه الدم فأمر أمير المؤمنين عليه السلام بماء فغسلوا الدم ثم وضع الأمير يده على الجرح فأحس عبد الله بالدم شديد في أول الأمر ثم برىء جرحه فقال الإمام عليه السلام: «الحمد لله الذي يغسل ذنوب شيعتنا ويطهرها بالحوادث المؤلمة».

(١). تفسير البرهان، ج ١، ص ٤١، ح ٢.

(٢). المصدر السابق، ح ٩.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٧

فقال عبد الله: يا أمير المؤمنين لقد نبهتني، أخبرني أي ذنب ارتكبت حتى أصاب بهذا الحادث المؤلم كي لا أعود إلى ذنبي فإنّ

ذلك يسعدني.

فقال عليه السلام: «عندما جلست على السرير لم تقل: (بسم الله الرحمن الرحيم) ألم تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال عن لسان ربّه: (إن كل عمل ذى بال لم يبدأ فيه بيسم الله فهو أبتى ولا ثمرة فيه)».

فقال عبد الله: فديتك لا أدها بعد هذا أبداً.

فقال الإمام عليه السلام: «إذن ستكون سعيداً» (١).

ولكن من الواضح أن الاسم الأعظم أو بسم الله الذى هو أقرب ما يكون إليه ليس المقصود منه جريان ألفاظه على اللسان، فالتلفظ لوحده لا يحل العقد المستعصية ولا يفتح أبواب الخيرات والبركات ولا ينتظم به شتات الأمور، بل المراد هو التخلق به.

يعنى أن مفهوم بسم الله يجب أن يذوب فى روح الإنسان وباطنه، وعندما يتلفظ بها بلسانه يشعر أن كامل دقائق وجوده قد دخل فى الحى الإلهية وصار من أعماق وجوده يستمد من ذاته المقدسة.

وينبغى الانتباه إلى أن التأكيد على الابتداء بيسم الله ليس فقط فى الكلام وإنما فى الكتابة أيضاً كما فى كتاب سليمان عليه السلام إلى بلقيس.

فى حديث الإمام الصادق عليه السلام: «لا تدع البسملة ولو كتبت شعراً» ثم ذكر الإمام عليه السلام أنهم كانوا يبدأون رسائلهم قبل الإسلام بعبارة (بسمك اللهم).

ولما نزلت الآية الكريمة «إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، بدأوا رسائلهم بعبارة (بسم الله).

وفى حديث آخر نقرأ أن الإمام الهادى عليه السلام وصى أحد وكلائه وهو داود الصرمى الذى قال: أمرنى عليه السلام بحوائج كثيرة فقال لى: قل كيف تقول؟ فلم أحفظ مثل ما قال لى، فمدّ الدواة وكتب «بسم الله الرحمن الرحيم اذكر إن شاء الله والأمر بيد الله،

فتبسمت، فقال: «ما

(١). بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٣٠٥ مع التلخيص.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٨

لك» قلت خير. فقال: «أخبرنى». قلت: جعلت فداك ذكرت حديثاً حدثنى به رجل من أصحابنا عن جدك الرضا (عليه السلام) إذا مرّ بحاجته كتب: «بسم الله الرحمن الرحيم اذكر إن شاء الله فتبسمت، فقال لى: «يا داود لو قلت إن تارك التسمية كتارك الصلاة لكنت صادقاً» (١).

إن لبسم الله أهمية بالغة وعظيمة بحيث نقرأ فى حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «إذا قال المعلم للصبي بسم الله الرحمن الرحيم (ويكرر الطفل ذلك) كتب الله براءة للصبي وبراءة لأبيه وبراءة للمعلم» (٢).

ونختم هذا الكلام، بمقالة مشهورة بين جماعة من المفسرين وهى:

إن معانى كل الكتب الإلهية مجموعة فى القرآن.

ومعانى كل القرآن مجموعة فى سورة الحمد.

ومعانى كل سورة الحمد فى بسم الله.

ومعانى بسم الله مجموعة فى الباء (٣).

وتمركز جميع مفاهيم القرآن والكتب الإلهية فى باء بسم الله يمكن أن يكون لكون أن كل المخلوقات فى عالم التكوين، وكل التعليمات فى عالم التشريع تستمد وجودها من الذات المقدسة حيث إنها علة العلل لجميع الكائنات، ونعلم أن باء بسم الله هى الوسيلة للاستعانة وطلب النصرة من الله وهذه مسألة جديرة بالدقة والتأمل.

٢- هل أن بسم الله جزء لكل سورة؟

لم يعدّ المفسرون وعلماء العلوم القرآنية البسمله من آيات السور عند حسابهم للآيات القرآنية إلّا في سورة الفاتحة، التي أجمع الفقهاء واتفقوا على أن البسمله جزء منها ولذلك

(١). سفينة البحار، ج ١، ص ٦٦٣، مادة (سما).

(٢). تفسير البرهان، ج ١، ص ٤٣، ح ٣٢.

(٣). تفسير روح المعاني، ج ١، ص ٣٧.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٩

فقد ذكروا أن آياتها سبع ومنها البسمله.

وكذلك فإنّ أحد الأسماء المعروفة لهذه السورة هو «السبع المثاني» لأنها سبع آيات «مثاني»، لأنها نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله مرتين نظراً لأهميتها.

ولكن مع هذا فإنّ كتابة البسمله في جميع المصاحف القديمة والجديدة دليل قاطع على جزئيتها للسور.

روى عن عبد الله بن عمر، أنّه كان إذا بدأ الصلاة بعد التكبير قرأ بسم الله الرحمن الرحيم، وكان يقول إذا لم تقرأ بسم الله الرحمن الرحيم فلماذا كتبت في القرآن؟! (١).

واورد السيوطي في المجلد الأول في تفسيره الدر المنثور وهو عالم معروف من أهل السنة روايات كثيرة حول جزئية بسم الله لسورة الحمد.

وهناك روايات كثيرة من طرق أئمة الهدى وأهل البيت عليهم السلام وردت في جزئية بسم الله لسورة الفاتحة ولبقية سور القرآن الكريم، لذلك فإنّ علماء الشيعة متفقون ومجمعون على جزئيتها في جميع الموارد (٢).

ونذكر مثلاً على الأحاديث الواردة من طرق أهل السنة ما ورد عن «جابر بن عبد الله» أنّ النبي صلى الله عليه وآله قال له: «إذا قمت للصلاة فكيف تقرأ؟» فقال جابر: أقول الحمد لله رب العالمين (أى بدون بسم الله) فقال له النبي صلى الله عليه وآله قال: «بسم الله الرحمن الرحيم» (٣).

ومن أجل رفع سوء الفهم والتوهم أصّر النبي صلى الله عليه وآله أن يجهر بالبسمله في كثير من الصلوات، تقول عائشة: «ان رسول الله صلى الله عليه وآله كان يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم» (٤).

وفي حديث آخر يقول أحد أصحاب النبي صلى الله عليه وآله: كنت أصلي خلف النبي صلى الله عليه وآله وكان

(١). سنن البيهقي، ج ٢، ص ٤٣-٤٧.

(٢). راجع كتب الخلاف للشيخ الطوسي، ج ١، ص ١٠٢ مسألة ٨٢؛ سنن البيهقي، ج ٢، ص ٤٤-٤٥-٤٦؛ تفسير در المنثور، ج ١، ص ٧-٨؛ البيان في تفسير القرآن، ص ٥٥٢.

(٣). تفسير در المنثور، ج ١، ص ٨.

(٤). المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٠

يجهر ببسم الله في صلوات المغرب والعشاء والصبح وصلوة الجمعة خاصة (١).

والملفت للنظر ما رواه البيهقي من أن معاوية صلى بأهل المدينة فتلا: بسم الله الرحمن الرحيم في أول سورة الحمد، ولكن لم يقرأ بسم الله للسورة التي بعدها ولم يكبر حتى ذهب للركوع، فعندما سلم للصلاة اعترض عليه جماعة من المهاجرين وقالوا: أسرقت من الصلاة أم نسيت؟ فكان معاوية بعد ذلك يقرأ بسم الله للسورة بعد الحمد أيضاً (٢).

ولكن مع ذلك فإن جماعة من علماء السنة لا زالوا يتركون البسملة في الصلاة وحتى في سورة الحمد أو يقرأونها اخفاتاً، ومما يلفت النظر أن الفخر الرازي ذكر في تفسيره تسعة عشر دليلاً على إثبات أن بسم الله الرحمن الرحيم جزء من سورة الحمد وأكثرها روايات عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

الآلوسي مفسر القرآن المعروف ناقش هذه الأدلة في تفسيره (روح البيان)، ولكنه يصرح بأن البسملة آية مستقلة في القرآن وإن كانت ليست جزءاً من سورة الحمد (٣)!

فهو يعترف بأن البسملة جزء من القرآن، لكن لا نعلم لماذا يصر على أنها آية مستقلة وليست جزءاً من سورة الحمد؟ ومهما كان فلا يخفى أن البسملة موجودة في جميع المصاحف طوال التاريخ الإسلامي في بداية جميع السور إلا سورة البراءة، ومن المسلم أن هذا بأمر من النبي صلى الله عليه وآله ولا يمكن أن نعقل أن النبي صلى الله عليه وآله أمر أن يكتب في القرآن شيء ليس منه، وعلى هذا فلا حجة لنا إذا فصلنا البسملة من السور لأن هذا نوع من أنواع التحريف للقرآن الكريم. ولهذا يقول الإمام الباقر عليه السلام في مثل هؤلاء: «سرقوا أكرم آية في كتاب الله: بسم الله الرحمن الرحيم» (٤).

(١) تفسير در المنتور، ج ١، ص ٨.

(٢) ذكر «الحاكم» هذه الرواية في المستدرک، ج ١ ص ٢٣٣ واعتد بسندها، وورد نفس هذا المضمون بتفاوت ضئيل في تفسير درالمنتور، ج ١، ص ٨؛ وتفسير روح المعاني، ج ١، ص ٣٩.

(٣) تفسير روح المعاني، ج ١، ص ٣٧.

(٤) تفسير البرهان، ج ١، ص ٤٢، ح ١٥.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣١

ويضيف الإمام الصادق عليه السلام: «ما لهم قاتلهم الله عمدوا إلى أعظم آية في كتاب الله فزعموا أنها بدعة إذا أظروها وهي بسم الله الرحمن الرحيم» (١)!

ولهذا فقد ورد عن الأئمة عليهم السلام الاصرار على الجهر بسم الله الرحمن الرحيم خاصة وفي جميع الصلوات الليلية والنهارية لأجل القضاء على هذه البدعة الموروثة.

وخلاصة الكلام أن أهميّة البسملة بين آيات القرآن أوضح من أن تحتاج إلى البحث ولذلك يجب أن نعطيها أهميّة كبيرة، ومن المؤسف أن البعض من فاقدى الذوق السليم وخشية من أن تقع كتاباتهم بأيدي الأفراد غير المتوضئين أو أن تُداس بالأقدام أو تقع في الأزقة والأسواق، يمتنعون من كتابة البسملة في رسائلهم وكتاباتهم، ويضعون محلها عدداً من النقاط غافلين عن أن سيئة ترك بسم الله أشد بكثير من هذه المساوئ.

نحن مأمورون بأن نكتبها، وأن نسعى من أجل المحافظة عليها واحترامها، وإذا لم يراع الآخرون الحرمة اللازمة فلسنا مسؤولين عن أعمالهم، ولا ينبغي لنا أن نترك البسملة لهذا العذر لأن الضرر الذي يصيبنا سيكون أكبر.

لذلك ينقل لنا التاريخ أن أول سكة ضربت في الإسلام كانت في زمان «عبد الملك بن مروان» وبأمر من الإمام الباقر عليه السلام وكتب على أحد وجهيها «لا اله إلا الله» وعلى الوجه الآخر «محمد رسول الله صلى الله عليه وآله»، ومن الواضح أن هذه السكة تقع في أيدي عامة الناس حتى غير المسلمين الذين كانوا يعيشون في محيط الإسلام، فلم تكن مراعاة هذا الأمر مانعة من ضرب السكة

والشعارات الإسلامية الحية ولا ينبغي لها أن تكون «٢».

٣ - لماذا لم تُذكر بسم الله في بداية سورة براءة؟

الجواب على هذا السؤال ورد صريحاً في حديث روى عن أمير المؤمنين عليه السلام: «لم تُنزل بسم الله الرحمن الرحيم على رأس «سورة براءة» لأنّ بسم الله للأمان والرحمة، ونزلت

(١) تفسير البرهان، ج ١، ص ٤٢.

(٢) تاريخ التمدن الاسلامي، جرجي زيدان، ج ١، ص ١٤٣.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٢

براءة لرفع الأمان وبالسيف» «١» يعني رفع الأمان عن الكفار الناكثين للعهد.

ويعتقد جماعة بان هذه السورة تنمى لسورة الأنفال لأنّ سورة الأنفال تتكلم عن العهد ولهذا لم يذكر بينهما «بسم الله الرحمن الرحيم».

وهذا المعنى ذكر في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام: «الأنفال والبراءة واحدة» «٢».

واحتُمَل أيضاً أنّ الله سبحانه ومن أجل أن يبيّن حقيقة أنّ البسملة جزء في جميع سور القرآن لم يذكرها في بداية هذه السورة. والجمع بين هذه الأقوال الثلاثة ممكن.

وهناك آيات متعدّدة حول البسملة في القرآن وخصوصاً في مورد ذبح الحيوانات، والكلام عنها ينبغي أن يكون في محل آخر.

٤ - لا تقرأوا اسم الله باسم غيره؟

إنّ القادر المطلق والرحيم الحقيقي هو الذات الإلهية المقدّسة سبحانه وتعالى.

وما عالم الوجود إلّا مائتة من موائد احسانه، وكل ما لدينا منه فيجب طلب الحاجة والعون منه والابتداء باسمه، والآيات المتعلقة «ببسم الله» والروايات الواردة في هذا المجال كلها تؤكد على هذا المعنى

ولهذا فإنّ الذين يقرنون مع اسم الله اسم غيره كالطواغيت الذين يضعون أسماء السلاطين المتجبرين والمتكبرين إلى جنب اسمه سبحانه ويفتتحون بها ويبدأون بها، أو الأشخاص الذين يبدأون أعمالهم باسم (الله) و «الشعب»، كل هؤلاء في الحقيقة مصابون بنوع من الشرك، وحتى اسم النبي صلى الله عليه وآله لا ينبغي أن يُقرن إلى جنب اسم الله في هذا المجال فلا يقال بسم الله ونبيه.

ففي حديث ورد في تفسير الإمام الحسن العسكري (عليه السلام): «إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان

(١). تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ٢ وهذا الحديث ذكره الفخر الرازي عن ابن عباس عن علي عليه السلام مع اختلاف يسير وقال

عليه السلام هناك: لأنّ بسم الله الرحمن الرحيم أمان وهذه السورة نزلت بالسيف ونزل العهد وليس فيها أمان.

(٢). تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ١.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٣

جالساً يوماً مع أمير المؤمنين علي عليه السلام فسمعا شخصاً يقول «ما شاء الله و شاء محمد» وآخر يقول «ما شاء الله و شاء علي».

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا تقرأوا محمداً ولا علياً بالله عزّ وجلّ».

ثم اضاف: «ولكن إذا أردتم فقولوا ما شاء الله ثم شاء محمد، ما شاء الله ثم شاء علي»، يعنى اعلموا أن مشيئة الله قاهرة وغالبة على كل شىء فليس لها فى الوجود من مساوٍ أو نظير أو قرين، وما محمد فى دين الله وأمام قدرة الله إلا كطير يحلق فى فضاء هذا الكون الواسع وكذلك على «١».

(١) إثبات الهداء، ج ٧، ص ٤٨٢، ح ٧٩ (مع قليل من التلخيص).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٥

نظريّة المعرفة

تمهيد:

إنّ أول قضية تواجه الإنسان فى ابحائه العلميه هى قضية المعرفة، وأول أسئلة تنقدح فى ذهن الإنسان هى:

١- هل هناك عالم موجود خارج وجودنا أم أنّ ما نسمعه ليس إلا كالرؤيا والأحلام التى نراها فى منامنا وأنّ ما وراء الطبيعه ما هو إلا وهم وخيال؟

٢- إذا كان هناك عالم ما وراء الطبيعه فهل بإمكاننا إدراكه ومعرفته؟

٣- إذا وجد عالم فى الخارج وأمكننا معرفته، فما هى الطرق التى يجب أن نسلکہا للوصول إلى معرفته وما هى مصادر معرفته؟

هل أنّ طريق الاستدلالات العقلية كافٍ لذلك، أم عن طريق التجربة والعلوم التجريبية الطبيعية؟

أم عن طريق الوحي أو بواسطة طرق اخرى وأى هذه الطرق أفضل وأكثر اعتماداً؟

٤- أضف إلى ذلك ما هى الوسائل التى نستطيع بها معرفة العالم؟

٥- وبعد قبول المسائل المذكورة يطرح هذا السؤال وهو: ما هى الأمور التى تؤدى إلى تقوية وتوسيع مجالات وآفاق المعرفة عند

الإنسان، وتجعل روحه وقلبه أكثر استعداداً لتلقى المعارف؟

وما هى الموانع والعقبات التى تقف حائلاً بين الإنسان والمعارف الحقيقية لعالم الوجود، وتجره إلى الحيرة والضلال؟

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٦

هل هناك عالم خارج أذهاننا؟

حول هذه المسألة الأولى انقسم الفلاسفة إلى قسمين:

١- «الواقعيون» (رئاليسم).

٢- «المشككون أو المثاليون أو التصوريون» (أيدىاليسم).

والقسم الثانى فى الواقع هم فرع من السوفسطائيين المنكرين للحقائق بل إن البعض يعتقد أنّ السوفسطائيين هم أنفسهم المثاليون الذين يعترفون بوجود أنفسهم وأذهانهم ويعتبرون ما سواه وهماً وخيالاً، وإلا فكيف يمكن لعاقل أن ينكر كل شىء حتى وجود نفسه إلا أن يكون مصاباً بخلل عقلى.

وعلى أيّة حال فإنّ أفضل الطرق لإدراك ما وراء الطبيعه هو ايكال الأمر إلى الوجدان، الوجدان العام لكل الناس ولجميع العقلاء، بل حتى وجدان المثاليين أنفسهم شاهد على هذا المدعى

لأنّ كل مخلوقات عندما تشعر بالعطش تقوم بالبحث عن الماء، فالعطش والماء وتأثير الماء فى رفع العطش امور يدركها حتى

الأطفال والحيوانات، والسوفسطائيون أيضاً لا يختلفون في عملهم عن الآخرين، فعندما يريد الإنسان أن يعبر شارعاً مزدحماً يقف جانب الشارع قبل كل شيء وينظر يميناً وشمالاً، وينتظر حتى يخلو الشارع من السيارات فيعبر الشارع مع الاحتياط، خشية أن تدهسه سيارة فيصاب بأذى أو جراح.

هذا العمل يتساوى فيه الواقعيون والمثاليون فالكل يعترف بوجود الشارع والسيارات وخطر الدهس والاصطدام والأمور الأخرى، وكلهم يعبرون الشارع مع الحيطة والتحفظ.

وهكذا عندما يمرض الإنسان ويرى الآثار غير العادية للمرض في نفسه، فيراجع الطبيب فيأمره الطبيب بان يجرى له التحليل وبعد ذلك يكتب له الطبيب وصفة الدواء، ويحدد له الغذاء المناسب واولقات تناول الدواء والغذاء ومقاديره، فيرى المريض نفسه مكلفاً بأن يمثل لهذه الأوامر كي يستعيد صحته السابقة.

وفي كل ذلك لا فرق بين الواقعيين والمثاليين، فالكل يستجيبون للمرض بواسطة

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٧

ادراكهم الوجداني ويعترفون بالعشرات من الحقائق العينية، من آثار المرض إلى وجود الطب والطبيب والمختبرات والدواء والغذاء. وبهذا الدليل نقول «ان المثاليين في الحقيقة واقعيون»!

وان المشككين عندما يردون ميدان الحياة يتناسون كلامهم ويرون أنفسهم امام الواقع العيني فيتعاملون معه وفق ما يقتضيه.

وقد أيد القرآن الكريم في آياته الكريمة صحة هذا المعنى فكل آيات القرآن تخبر عن الحقائق والواقع العيني الخارجي، من سماوات وأرض وملائكة وبشر وعالم الطبيعة وما وراءه والدنيا والآخرة.

وإنّ هذا الأمر في القرآن بدرجته من الوضوح والجلء بحيث لا يحتاج إلى بحث أكثر، لذلك نهى هذه المسألة ومنتقل إلى مسألة إمكان المعرفة «١».

ج ج

(١). تؤكد هنا مرة أخرى بأنّ هدفنا في جميع مباحث هذا الكتاب ليس متابعة الآراء الفلسفية أو التاريخية أو ... بل هدفنا في الأصل التفسير الموضوعي يعني متابعة البحث من نظر القرآن ومدى انعكاس الموضوع في الآيات المختلفة ... وإذا وجدت ضرورة للبحوث الفلسفية وغيرها فسنفرد لها بحثاً منفصلاً بعنوان توضيحات في الخاتمة.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٩

القرآن و ضرورة المعرفة

٤٠ ملاحظة قرآنية حول أهمية العلم والمعرفة

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٤١

القرآن و ضرورة المعرفة

تمهيد:

إشارة

لم يعتبر القرآن الكريم مسألة معرفة الإنسان لما وراء الطبيعة أمراً ممكناً فحسب بل اعتبرها من أهم الضرورات. فالقرآن يدعو إلى معرفة أسرار عالم الوجود وحل رموز الكون والمخلوقات، ويستخدم القرآن في دعوته لأتباعه- للتزود بالعلم-

الأساليب الصريحة والظاهرة المباشرة وغير المباشرة.

والبحث فيما صرح به القرآن في هذا المجال يفتح أمام أعيننا أفقاً جديداً، ويرينا أنّ أمر المعرفة من الواجبات المؤكدة وبمستوى عال جداً من الأهمية.

والطريف: إنّ هذه الدعوة قد جاءت في زمان ومكان كانت قد غطت الافق فيه سحب الجهل الظلماء، حقاً إنّ عمق وسعة ماورد في القرآن يدل قبل كل شيء على عظمة القرآن وصدق المبعوث به.

ومن أجل ذلك نطالع آيات القرآن ونبحث عن ماورد من تعابير مختلفة في هذا المجال.

هذه الدعوة لها وجوه متنوعة وبشكل كامل، وقد جمعنا (أربعين أنموذجاً) من الآيات المختلفة وكل واحد منها ينظر إلى هذه المسألة المصيرية من زاوية خاصة.

وفي الضمن ذكرنا في الحواشي الروايات المعتمدة المتناسبة مع الآيات، ليتضح التنسيق والتنسيق والسنخية الكاملة بين الكتاب والسنة.

ج ج

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٤٢

١- وجوب تحصيل العلم

وردت في (٢٧) آية من القرآن المجيد دعوة صريحة للتزود بالعلم، والاستفادة من جملة «اعلموا» إليكم نماذج منها:

- ١- «فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . (البقرة/ ٢٠٩)
- ٢- «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . (البقرة/ ٢٣١)
- ٣- «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . (البقرة/ ٢٣٣)
- ٤- «اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا . (الحديد/ ١٧)
- ٥- «وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ . (البقرة/ ٢٠٣)
- ٦- «فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَيَّ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ . (المائدة/ ٩٢)
- ٧- «وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ . (الأنفال/ ٤١)
- ٨- «اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهُوَ . (الحديد/ ٢٠)

ج ج

الآيات الاولى والثانية والثالثة تنظر إلى الذات الإلهية المقدسة وإلى صفاته الأعم من «صفات الذات» و «صفات الفعل».

الآية الرابعة تشير إلى الحياة والخلق.

الآية الخامسة تتحدث عن القيامة والحشر.

الآية السادسة تتكلم عن النبوة وسأله النبي صلى الله عليه وآله.

الآية السابعة تبين الأحكام العملية الإسلامية.

والآية الثامنة ترينا الوجه الحقيقي للعالم وتظهر لنا تفاهتها، كأسلوب للدعوة إلى الزهد والتقوى والنجاة من حُب الدنيا وما يترتب عليه من ذنوب.

وبهذا نستنتج أنّ كل ما يرتبط بالعقائد والأعمال ومنهج الحياة قد ورد مشفوعاً بكلمة (اعلموا) وهي تتضمن دعوة للتسلح بالوعى والمعرفة في كلّ هذه المجالات «١».

(١). ورد أيضاً التأكيد الكثير في الروايات الإسلامية على طلب العلم، والحديث المعروف (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) المروى عن النبي صلى الله عليه وآله شاهد واضح على هذا المعنى، بحار الأنوار، ج ٦، ص ١١٧، والإمام الصادق عليه السلام: «طلب العلم فريضة على كل حال»، ج ٢، ص ١٧٢.
نفحات القرآن، ج ١، ص: ٤٣

٢- التأكيد المتواصل على عدم ترك التفكير

تارة يقول سبحانه: «أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ . (الأنعام / ٥٠)
وتارة يقول بعد بيان الآيات الإلهية المختلفة الأعم من التكوينية والتشريعية: «لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ . (البقرة / ٢١٩) و (الاعراف / ١٧٦)
وأحياناً يقول: «أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا». (الروم / ٨)
كل هذه الآيات تدل على ضرورة التفكير، وهذه الضرورة في التفكير تدل على إمكان المعرفة «١».

٣- التأكيد على لزوم التعليم والتعلم

جاء في سورة التوبة:
«فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ . (التوبة / ١٢٢)
هذه الآية الكريمة لا تؤكد على تعلم الدين الإلهي فحسب بل تحث على تعليمه ونشره بعد تعلمه أيضاً.
والتعبير ب (نفر) تطلق على الخروج إلى ميدان الجهاد وقد استعمل في الآيات القرآنية الأخرى بهذا المعنى وعلى هذا فإن أفراد الأمة الإسلامية في غير الحالات الضرورية لا يجوز لهم الخروج بأجمعهم إلى ساحة القتال، بل ينبغي على مجموعة منهم أن تبقى في المدينة لتتعلم الأحكام الإلهية وتعلمها للآخرين بعد رجوعهم.

(١). جاء في حديث عن النبي صلى الله عليه وآله: «اغدُ عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو محبباً ولا تكن الخامس» المحجج، ج ١، ص ٢٢.
نفحات القرآن، ج ١، ص: ٤٤
والتفسير الآخر للآية هو: أن المسلمين يجب أن ينقسموا إلى قسمين: قسم يبقى في المدينة ليحافظ عليها، وقسم يذهب إلى ميدان الجهاد ليُشاهد آثار العظمة الإلهية والمعجزات والامدادات الغيبية والنصر الإلهي، ثم وبعد رجوعهم يُخبروا سائر الناس بذلك.
وهناك احتمال ثالث في تفسير الآية وهو ضرورة نفي بعض سكان ضواحي المدينة إليها ليتفقهوا في أحكام الدين وتبليغها للآخرين عند الرجوع، ومكث البعض الآخر في تلك المناطق لحفظ نظام الحياة هناك «١».
ولكل تفسير ميزة لا توجد في التفسير الآخر «٢».

ولكن بغض النظر عن الاختلاف في التفاسير، فإن ما نسعى لإثباته - وهو وجوب التعلم والتعليم - ثابت بلا منازع، وتأكيد القرآن على هذين الواجبين دليل واضح على إمكان ضرورة المعرفة «٣».

ج ج

٤- العلم والمعرفة هما الهدف من خلق العالم

«اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا». (الطلاق / ١٢)

لقد شرحنا المراد من السماوات السبع والأرضين ما فيه الكفاية في التفسير «الأمثل» «٤».

- (١). تفسير الكبير، ج ١٦، ص ٢٢٥؛ تفسير الميزان، ج ٩، ص ٤٢٧؛ تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ٨٣.
 - (٢). في التفسير الأول مرجع الضمير في جملة (ليتفقوا) و (لينذروا) اسم محذوف والتقدير هو «وتبقى طائفة»، وهذا فيه حذف، والحذف يعتبر خلاف الظاهر. بينما (نفر) جاء بمعنى الجهاد هنا، هذه نقطة قوة التفسير الأول. في التفسير الثاني مرجع الضمير مذكور وهو (طائفة)، لكن الثاني ضعيف لأن ميدان الجهاد ليس محلًا للتعلم إلبالتوجيه الذي ذكر، وفي التفسير الثالث يقدر المحذوف، لكنه يتفق مع الروايات التي تفسر النفي (بالهجرة للتفقه في الدين). «ذكر في تفسير الثقلين ٩ روايات في هذا المجال».
 - (٣). يقول الإمام الصادق عليه السلام: «لوددت أن اصحابي ضربت رؤوسهم بالسياط حتى يتفقوا» (اصول الكافي، ج ١، ص ٣١).
 - (٤). بالنسبة للسماوات السبع يرجع إلى ذيل الآية ٢٩ من سورة البقرة وبالنسبة للأرضين السبع إلى ذيل الآية ١٢ من سورة الطلاق.
- نفحات القرآن، ج ١، ص: ٤٥
- وكيفما كان فإن الآية تبين بوضوح حقيقة أن أحد أهداف الخلق هو العلم والمعرفة، وتعريف الإنسان بعلم الله وقدرته وصفاته وذاته، وهذه الآية صريحة في بيان إمكان المعرفة إلى حد بعيد «١».

٥- الهدف من بعثة الأنبياء هو التعليم والتربية

إن القرآن الكريم ذكر هذه المسألة بشأن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله عدة مرات، من جملتها ما جاء في سورة البقرة: «كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ». (البقرة / ١٥١)

وقد جاء هذا المعنى في كل من الآيات ١٢٩ من سورة البقرة و ١٦٤ من سورة آل عمران و ٢ من سورة الجمعة.

فإذا كانت المعرفة غير ممكنة، فكيف أمكن أن تشكل المعرفة أحد الأهداف المهمة لبعثة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله «٢».

٦- التفكر والتدبر هو الهدف من نزول القرآن

«كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ». (ص / ٢٩)

«أَفَلَا يَتَدَّبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا». (سورة محمد / ٢٤)

(١). جاء في حديث أن الإمام الحسين بن علي عليه السلام خاطب أصحابه قائلاً: «أيها الناس إن الله جل ذكره ما خلق العباد إلا ليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه، فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة ما سواه» (بحار الأنوار، ج ٥٠، ص ٣١٢).

(٢). يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «كفى بالعلم شرفاً أن يدعيه من لا يحسنه ويفرح إذا نسب إليه وكفى بالجهل ذمماً أن يبرأ منه من هو فيه» (بحار الأنوار، ج ١، ص ١٨٥).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٤٦

مادتها (دُبر) وتعني ظهر الشيء، ومن ثم استعملت بمعنى التفكير والتفكير بعواقب الامور، وذلك لأن عواقب الامور ونتائجها تتضح بالتفكر.

إن الآية الأولى أوضحت أن التدبر هو هدف نزول القرآن كي لا يقتنع الناس بقراءة الآيات ككلمات مقدسة فحسب وينسوا الهدف الأخير منها.

والآية الثانية اعتبرت ترك التدبر دليلاً على أفعال القلوب وتعطيل الحس.

وعلى أيّ فإنّ هاتين الآيتين دعوة عامة للتدبر، دعوة تثبت بوضوح إمكانية المعرفة «١».

٧- المعرفة هي الهدف من المعراج

«سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ»
(الاسراء / ١)

ونفس معنى الآية هذه ورد في سورة النجم، حيث تحدثت عن المعراج بأسلوب آخر، والآية هي:

«لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى . (النجم / ١٨)

تبين هاتان الآيتان - على الأقل - أحد الأهداف المهمة لمعراج النبي صلى الله عليه وآله وهي قضية رؤية آيات الحق الكبرى الرؤية التي تعتبر أهم مصادر المعرفة «٢».

٨- الدعوة للإسلام بدأت بالدعوة للعلم

«إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ . (العلق / ١-٥)

إن هذه الآيات التي تعتبر أول أنوار الوحي التي شعت في قلب الرسول الطاهر صلى الله عليه وآله في

(١). يقول الإمام الكاظم عليه السلام لهشام بن الحكم: «ما بعث الله أنبياءه إلى عباده إلا ليعقلوا عن الله فأحسنهم استجابة أحسنهم معرفة». (أصول الكافي، ج ١، ص ١٦).

(٢). للتفصيل راجع التفسير الأمثل، ذيل الآية ١٨ من سورة النجم.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٤٧

غار «حراء» في جبل «ثور»، بدأت بقضية المعرفة وختمت بها.

إستهلت الآيات بحث الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله على القراءة التي هي إحدى وسائل المعرفة، وختمت بالبحث عن المعلم الأعظم للكون أي الله الذي يُعتبر الإنسان تلميذه المُبتدئ.

أليست هذه كلها دلائل واضحة على إمكانية المعرفة؟!

ج ج

٩- العلم نور وضياء

«قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تُسْتَوَى الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ». (الرعد / ١٦)

«وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ». (فاطر / ١٩ و ٢١)

إن هذه الآيات جعلت الظلمات في عداد العمى والنور في عداد البصر، وهي إشارة إلى أن العلم نور وضياء، والجهل يساوى العمى وهي من أجمل التعابير للتشجيع على المعرفة «١».

١٠- إدراك أسرار الوجود خاص بالعلماء

«وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ . (الروم / ٢٢)
 «وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ . (العنكبوت / ٤٣)
 فى الآيه الأولى عدّد إدراك أسرار كتاب التكوين خاصاً بالعلماء وفى الثانية عدّد فهم كتاب التدوين خاصاً بهم كذلك.
 وهذا تشجيع لطلب العلم والمعرفة من جهة، ودليل على مسألة المعرفة من جهة أخرى
 ج ج

(١). يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله: «العلم نور يقذفه الله فى قلب من يريد أن يهديه». (الوافى، ج ١، ص ٧).
 نفحات القرآن، ج ١، ص: ٤٨

١١- الله أول معلّم

«وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا». (البقرة / ٣١)
 «الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ . (الرحمن / ١ - ٤)
 «الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . (العلق / ٤)
 «عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمِ . (العلق / ٥)
 إنّ معلّم الكون العظيم تارة يعلم آدم الأسماء، وتارة أخرى يعلم الإنسان ما يحتاجه وما لم يعلمه (بواسطة التكوين والتشريع).
 وتارة يوعز للإنسان بتناول القلم لتعلّم الكتابة، وتارة أخرى يجرى على لسانه حرفاً أو حرفين ويعلمه الكلام، وهذا يكشف عن احدى صفاته عزوجل هى تعليم العباد، التعليم الذى هو وسيلة للمعرفة.
 ج ج

١٢- بالعلم يتميّز الإنسان عن الموجودات الأخرى

«قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ . (البقرة / ٣٣)
 إنّ هذا الخطاب الذى ورد فى الآيه كان موجهاً للملائكة بعد أن أمرهم بأن يسجدوا ويخضعوا لخليفته (آدم) عندما خلقه، لكى يوقروه بعد علمهم بمكانته وتفوقه عليهم، وقد فهم الملائكة أهلية آدم عليه السلام لخلافه الله سبحانه وتعالى فى الأرض بعد أن وجدوا فيه القابلية والاستعداد لتقبل العلم والمعرفة بأقصى درجاتهما، كما أعربوا عن شديد أسفهم وندمهم حيال ما ساورهم من تردد أو استفسار عن أهليته للخلافه الإلهية فى بادىء الأمر «١».
 ج ج

(١). يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله: «أكثر الناس قيمة أكثرهم علماً وأقل الناس قيمة أقلهم علماً». (بحار الأنوار، ج ١، ص ١٦٤).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٤٩

١٣- درجات القرب من الله تناسب مع درجات المعرفة

«يُؤَفِّعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ . (المجادلة/ ١١)

بدأت الآية بالحديث عن الاصول الأخلاقية في آداب المجلس، ثم عن درجات العلماء والمؤمنين بعنوان النتيجة والجزاء لعملهم بهذه الاصول الأخلاقية.

«الدرجات» جمع «درجة» وهي تستعمل للسلم عندما يرتفع إلى الأعلى تقابلها «الدركات» جمع «دركة» التي تستعمل لنفس السلم عندما ينزل إلى الأسفل كسلم السرداب (الطابق الأسفل).

إن استعمال «درجات» نكرة ايحاءً إلى عظمة تلك الدرجات، واستعمالها جمعاً لا مفرداً يمكنه أن يكون إشارة إلى اختلاف درجات العلماء.

بالطبع أن الرفع هنا لم يقصد به الرفع المكاني، بل السمو في طريق القرب من الساحة الربانية.

استنتج العلماء الطباطبائي رحمه الله في تفسير (الميزان) أن المؤمنين قسمان:

قسم (المؤمنون العالمون) وقسم (المؤمنون غير العالمين)، والمؤمنون العالمون أفضل درجة من المؤمنين غير العالمين ثم استدل بالآية:

«هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ . (الزمر / ٩)

ويحتمل أن الآية تشير إلى علاقة الإيمان بالعلم «١»، وسنشير إلى هذه الآية تفصيلاً إن شاء الله «٢».

١٤- الأنبياء يطالبون بعلم أكثر

«وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا». (طه / ١١٤)

(١) تفسير الميزان، ج ١٩، ص ٢١٦.

(٢). جاء في حديث الإمام الصادق عليه السلام: «إن الثواب بقدر العقل». (بحار الأنوار، ج ١، ص ٨٤).

نفحات القرآن ج ١ ص ١٠٠

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٥٠

إن الآية الكريمة تخاطب الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وتدعوه إلى طلب العلم بالرغم من أن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله يحظى بمقام علمي شامخ وعظيم، وهذا يكشف عن أن الإنسان لا تقتصر عملية طلبه للعلم على مرحلة من المراحل، بل إن طريق العلم مستمر وليس له نقطة انتهاء.

«قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا». (الكهف / ٦٦)

فموسى عليه السلام بالرغم من أنه من أولى العزم وبالرغم من انشراح صدره بمقتضى الآية:

«رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي . (طه / ٢٥)

وبمقتضى الآية «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا». (القصص / ١٤)

وبالرغم من هذا المقام العلمي الرفيع، إلا أنه كان مطالباً بأن يخضع أمام «الخضر» ويتعلم منه كالتلميذ.

وعلى أي حال، فإن هذه الآيات أدلة واضحة على إمكانية وضرورة طلب العلم، والسعي المستمر في طريق التعلم والمعرفة «١».

١٥- المعرفة مفتاح نجاه الإنسان

«قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا». (سبأ/ ٤٦)

إن خطاب رسول الله صلى الله عليه وآله في هذه الآية موجه لأعدائه المنغمسين في الكفر والشرك، ومختلف أنواع الفساد الأخلاقي. وقد بين لهم أن مفتاح نجاتهم من هذا المستنقع الخطر هو التفكير والعلم الذى هو طريق وسيل المعرفة. وعلى هذا الأساس بالامكان معرفة جذور أى ثورة وأى تحول أساسى فى المجتمعات البشرية من خلال معرفة ثوراتهم الفكرية والثقافية.

(١). يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «العلم ميراث الأنبياء والمال ميراث الفراعنة». (بحار الأنوار، ج ١، ص ١٨٥).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٥١

فلو كانت المعرفة غير ممكنة فلماذا التفكير؟ بالخصوص بعد حصر الموعظة بالتفكير وذلك باستعمال «إنما» التى تفيد الحصر، وهنا يثبت أن مفتاح النجاه هو المعرفة فقط!

لكن هذا التفكير سواء كان - جماعياً أو فردياً - ينبغى أن يكون متزامناً مع القيام لله وفى سبيله، ولهذا يقول «ان تقوموا لله أى بعيداً عن التعصب والعناد، والهوى النفسانى الذى سيأتى شرحه فى موانع المعرفة إن شاء الله.

وقد أكد النبى يوسف عليه السلام على هذا الموضوع، وقال عند جلوسه على عرش السلطنة فى مصر:

«رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيَّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ . (يوسف / ١٠١)

من الملفت للنظر هنا هو أن علم تعبير المنام من العلوم ذات الأهمية القليلة، وبالرغم من ذلك فإن قصة يوسف عليه السلام فى القرآن تكشف بوضوح عن أن علمه بتعبير الرؤيا أدى إلى إنقاذه من سجن عزيز مصر، كما أدى إلى إنقاذ مصر من القحط والمجاعة، لأن العزيز رأى مناماً عجيباً عجز المفسرون عن تأويله، إلا أن أحد السجناء الذين قد أطلق سراحهم وسبق ليوسف أن فسّر رؤياه فى السجن كان حاضراً فى البلاط آنذاك فقال: إني أعرف من يفسّر الرؤيا جيداً، وعندما فسّر يوسف عليه السلام له ما رآه فى منامه الذى يتعلق بالامور الاقتصادية لسبع سنوات مقبله، أطلق سراحه وتهيأت مقدمات حكومته من جهه، ومن جهه اخرى استطاع أن يضع برنامجاً دقيقاً لانقاذ أهل مصر من المجاعة خلال سنوات القحط المقبله.

إن الآية السابقة التى تحدثت عن علم تأويل الأحاديث (فى المنام) بعد حديثها عن ملك يوسف (حكومته)، يمكن أنّها تشير إلى العلاقة بين هذين الاثنين.

وكيفما كان فإن هذه الآية توحى بأن مفتاح النجاه هو العلم والمعرفة.

وحتى أن أبسط العلوم يمكن أن يكون سبباً لانقاذ دوله «١».

ج ج

(١). يقول الإمام على عليه السلام مخاطباً كميل: «يا كميل ما من حركة إلا وأنت محتاج فيها إلى معرفة» (تحف العقول، ص ١٩).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٥٢

١٦- العلم فخر بجميع أشكاله

«وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ * وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ . (النمل / ١٥ و ١٦)

بالرغم من ملك وعظمة «سليمان» و «داود» اللذين لم يكن لهما مثيل بل ويحتمل عدم قيام حكمه كحكومتها على مر التاريخ كما في الآية ٣٥ من سورة (ص) «وَهَبْ لِي مُلْكًا لَمَا يَتَّبِعِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي خُصُوصًا وَأَنْ حُكُومَتُهُمَا لَمْ تَخْصِ الْإِنْسَ، بل امتدت حتى شملت الجن والحيوانات وحتى القوى الطبيعية كالريح، مع هذا كله فالله عندما يهب نعمه إلى الوالد وولده، يبدأ بنعمة العلم والمعرفة، لذا كانا يشكرانه لما فضلها على كثير من عباده (يحتمل أن يكون الشكر بهذا الأسلوب) «على كثير من عباده» لا غير لأنه كان هناك من أتوا علماء أوفر مما أوتى سليمان وداود، والجدير بالذكر هو أن (سليمان) بالرغم من ملكه العظيم «بحيث إن كل من شك في ذلك ضحكت على عقله الطيور والأسماك»، رغم هذا، فانه كان يفتخر بعلمه قليلة الأهمية مثل معرفته بلغة الطيور قبل افتخاره بملكه وحكومته ومواهبه الإلهية الأخرى.

إن هذه النصوص الجميلة تبين عظمة مقام العلم بجميع أبعاده، وهو بنفسه دليل واضح على إمكانية وضرورة المعرفة «١».

١٧- المعرفة شرط أساسي للإدارة والقيادة

عندما اقترح على يوسف التصدي لمسؤولية مهمة في حكمه مصر، قال:

«إِجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ . (يوسف / ٥٥)

عندما أعلن بنو اسرائيل عن استعدادهم لمقارعة الملك الظالم آنذاك «جالوت» الذي شردهم، طالبوا نبيهم بأن يعين لهم قائداً كي يجاهدوا «جالوت» الظالم، تحت رايته، قال لهم النبي:

(١). جاء في حديث للإمام الصادق عليه السلام: «العلم أصل كل حال سنى ومنتهى كل منزلة رفيعة» (المحجج البيضاء، ج ١، ص ٦٨).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٥٣

«إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . (البقرة / ٢٤٧)

والجدير بالذكر إن «طالوت» الذي كلف بمهمة قيادة بنى اسرائيل لمقارعة الملك القوى والظالم، كان قروياً مجهولاً يعيش في إحدى القرى الساحلية وكان يرعى مواشى أبيه ويزرع!

لكنه كان ذا قلب واع، وجسم قوى، ومعرفة دقيقة وعميقة بكثير مما يجرى حوله، ولهذا عندما رآه النبي «اشموئيل» عينه قائداً على بنى اسرائيل ولم يعبأ باعتراضاتهم على تعيينه، تلك الاعتراضات الناشئة عن معايير وهمية في انتخاب القائد كامتلاك الثروة والأموال الطائلة والسمعة والتقاليد الموروثة من الآباء، حيث كانوا يعترضون بأنه مع ما عندنا من أشخاص ذوى سمعة وثروة، وهم أجدر من طالوت لهذه المسؤولية، فكان يجيبهم النبي: إن هذا الاختيار هو انتخاب الهى، والكل يجب أن يسلم لأمره.

إن هاتين الآيتين تدلان بوضوح على أن المعرفة والعلم من عناصر القيادة والإدارة، وتؤكدان ما قلناه عن المعرفة حتى الآن «١».

١٨- العلم منبع الإيمان

«وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ». (سبأ / ٦)

«إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا». (الاسراء / ١٠٧-

(١٠٨)

«فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَجْدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى . (طه / ٧٠)
 «وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ آتَوْا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ...» .
 (الحج / ٥٤)

(١). يقول الإمام الصادق عليه السلام: «الملوك حكام على الناس والعلماء حكام على الملوك».

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٥٤

«... وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ . (آل عمران / ٧)

إن الآية الأخيرة تلقي الأضواء على العلاقة الوثيقة بين العلم والإيمان، وتبين بأن المطلع والمتبحر هو الأرسخ في الإيمان والتسليم «١». إن هذه الآيات تبين بوضوح أن المعرفة هي إحدى السبل المؤدية إلى الإيمان، والإيمان الذي ينبع منها سيكون راسخاً قوياً ومتجذراً إلى مستوى بحيث نقرأ في قصة موسى عليه السلام السحرة في عصر فرعون، أن إيمانهم بموسى عليه السلام كان بسبب معرفتهم بأن ما جاء به موسى عليه السلام لم يكن سحراً، فما كان من فرعون إلا أن هددهم بشدة قائلاً لهم: «آمتتم له قتل أن آذن لكم؟!» فالطغاة يريدون التحكم حتى يعقول الناس وإيمانهم القلبي وفهمهم ولا يتصرف أحد بأى شيء إلا باذن منهم، وقد جاء في تهديد فرعون لهم أنه قال:

«فَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبْنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ ...» . (طه / ٧١)

لكنهم كانوا بدرجته من الصمود بحيث كانوا يقولون له:

«لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ» . (طه / ٧٢)

وفعلًا فقد نفذ فرعون وعيده الذي قطعه على نفسه بالانتقام من السحرة المؤمنين، واستشهدوا من أجل المعتقد الذي ذابوا فيه عشقاً ونالوا مبتغاهم الاسمي وهو الشهادة.

يقول المفسر الكبير المرحوم الطبرسي إنهم: «كانوا في أول النهار كفاراً سحرة وفي آخر النهار شهداء بررة».

إن ثمرات العلم له تنحصر بالإيمان فحسب بل تشمل الاستقامة والصمود أيضاً. «٢»، «٣»

(١) ما ذكرناه حقيقة لا تنكر سواء قلنا بأن كلمة «الراسخون» معطوفة على «الله»، أو قلنا بأنها مبتدأ وخبرها الجملة اللاحقة، لأنه على

كلا الفرضين، الضمير في «يقولون» يرجع إلى «الراسخون في العلم» وبه تتضح العلاقة بين الإيمان والعلم في الآية.

(٢) يعتقد البعض أن «العلم» والإيمان شيء واحد. فإذا كنا نعلم بأن هناك خالقاً لهذا العالم وهو قادر وعالم، فنفس هذا العلم إيمان

به، لكن المحققين يقولون بفصل الإيمان عن العلم، لأن الإيمان يمكن أن يكون ثمرة من ثمار العلم (وليس الثمرة الضرورية

والدائمة) لكنه ليس عين العلم والإيمان التسليم القلبي والقبول والاعتراف الرسمي، بينما كثيراً ما يحصل أن يعتقد الإنسان بشيء ولم

يسلم به، كما يحكى القرآن عن البعض في سورة النمل الآية ١٤ «وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا» ..

(٣) يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «العلم حياة الإسلام وعماد الإيمان». (كنز العمال، ج ١٠، ص ١٨١).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٥٥

١٩- العلم منشأ تقوى الله وخشيته

«إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ». (فاطر / ٢٨)

يقول الراغب في مفرداته «الخشية هي الخوف الذي يكون مترامناً مع التعظيم، وغالباً ما ينشأ عن العلم».

«وَأَتَّقُونَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ . (البقرة/ ١٩٧)

إذ لم تكن هناك علقه بين «العلم» و «التقوى لم يخاطب الله سبحانه وتعالى «أولو الألباب» داعيهم للتقوى في الآية، وهذا الخطاب دليل على هذه العلقه المباركه.

«فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . (المائدة/ ١٠٠)

«كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ . (البقرة/ ١٨٧)

إن هذا التعبير في الآية الأخيرة يدل بوضوح على أن الله تعالى يبين الآيات كمقدمة لإيجاد الوعي لدى الناس، والوعي يكون أحد سبل التقوى

بالطبع ليس كلما كان العلم كانت التقوى لأن هناك علماء غير عاملين، لكن المتيقن أن العلم مقدمة وأرضية خصبة للتقوى ويعتبر من المصادر الأساسية للتقوى والتقوى غالباً ما تكون قرينه العلم، العلم الذي يكون مقروناً بالإيمان سيكون منشأً للتقوى كذلك. والعكس بالعكس، فالجهل غالباً ما يؤدي إلى نفي التقوى والورع «١».

٢٠- العلم منشأ الزهد

«وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَاقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ . (القصص / ٨٠)

(١) يقول أمير المؤمنين عليه السلام «أعظم الناس علماً أشدهم خوفاً من الله». (غرر الحكم، الحكمة ٣٢٦).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٥٦

أشارت هذه الآية التي جاءت في أواخر سورة القصص إلى قصة (قارون) ونقل نصيحة علماء بني اسرائيل لكافة الناس، الذين تمنوا امتلاك ثروة قارون عند استعراضه لثروته.

فعندما شاهد أهل الورع من علماء بني اسرائيل تعلق الناس بالدنيا وجهم الشديد لها وارتباطهم الوثيق بها خاطبهم قائلين: ويلكم يا عبدة الدنيا! لا تتخذكم الثروة وبها راج الدنيا، فالجزاء الإلهي خير لكم في الدنيا والآخرة إن عملتم صالحاً وكنتم مؤمنين، لكن لا ينال هذا الثواب الإلهي إلا الصابرون الراضون بالظلم والاعراض المادية.

إن عبارة (أوتوا العلم) تدل بوضوح على وجود علاقة بين (الورع والزهد) من جهة والعلم والمعرفة) من جهة أخرى، وأن العارفين بزوال الدنيا وحقارة الثروات المادية في قبال الجزاء الإلهي وخلود الآخرة، فإنهم لا ينخدعون بالماديات ولم يتمنوا ثروة قارون «١».

٢١- التطور المادي مرهون بالعلم

«قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي . (القصص ٧٨)

الكلام الذي ورد في الآية الكريمة قاله قارون الغني والمغرور والأناني عندما نصحه علماء قوم موسى أن يستثمر ثروتك في مجال منافع العباد ولا تنس نصيبك من الدنيا، وأحسن لعباد الله كما أحسن الله اليك ولا تتخذ ثروتك وسيلة للفساد. لكنه أجاب قائلاً: إنني جمعت هذه الثروة بفضل علمي ومعرفتي.

والذي ينبغي ذكره هنا هو أن الله لم ينف ادعاءه هذا.

بل يقول تعالى «وَلَمْ يَعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا». (القصص / ٧٨)

(١). يقول الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ مِمَّا خَاطَبَ اللَّهُ بِهِ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ قَالَ: إِنَّ عِبَادِي الصَّالِحِينَ زَهَدُوا فِيهَا بِقَدْرِ عِلْمِهِمْ بِي». (بحار الأنوار ج ١٨، ص ٣٣٩).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٥٧

إِنَّ هَذَا التَّأْيِيدَ الضَّمْنِيَّ يَكْشِفُ أَنَّ لِقَارُونَ عِلْمًا تَمَكَّنَ بِوِاسْطَتِهِ أَنْ يَجْمَعَ ثَرَوَتَهُ الْعَظِيمَةَ (سواء كان ذلك العلم هو علم الكيمياء - كما يدعى بعض المفسرين أو كان معرفته لقواعد وفنون التجارة والأعمال).

إِنَّ الْمُسْلِمَ بِهِ هُوَ أَنْ ادَّعَى قَارُونَ لَمْ يَصْلِحْ حِجَّةً لِمَنْعِ انْتِفَاعِ النَّاسِ بِثَرَوَتِهِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ مَهْمَا كَانَتْ لَدَيْهِ مِنْ مَوْهَلَاتٍ وَقَابِلِيَّاتٍ، لَا يُمْكِنُهُ لَوْحْدَهُ أَنْ يَكْسِبَ ثَرَوَةً بِهَذَا الْحِجْمِ فَلَا يَدَّ أَنْهُ قَدْ اسْتَفَادَ مِنَ الْآخِرِينَ فِي سَبِيلِ تَحْصِيلِهَا، لِذَا فَهُوَ مَدِينٌ لِلْمَجْتَمَعِ وَلِتَعَاوُنِهِمْ مَعَهُ.

وعلى أى حال، فإن ما تبينه هذه الآية هو وجود علاقة بين «العلم المادى» والتطور المادى، وهذا ما نشاهده بوضوح فى عصرنا الحاضر، حيث إن أقواماً تقدموا مادياً فى مجال الصناعة والحضارة المادية وذلك بفضل علومهم وتقنياتهم وصناعاتهم «١».

٢٢- العلم مصدر القوة أو (العلم قوة)

«قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآه مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي . (النمل / ٤٠)»
هذه الآية لها علاقة بقصة سليمان وملكه سبأ، فعندما أراد سليمان أن يأتى بعرشها، تعهد عفريت من زعماء الجن بأن يأتى به قبل أن يقوم سليمان من مجلسه، لكن وزير سليمان «آصف بن برخيا» الذى كان عنده علم من الكتاب، والذى كان علمه يمكنه من القيام بأعمال خارقة للعادة قال لسليمان: إنى أستطيع أن آتى به قبل أن يرتد إليك طرفك وفعل ما قال، فشكر سليمان ربّه على الفضل الذى آتاه إياه من الأنصار والأعوان والأصدقاء.

وهذه الآية وإن جاءت فى مورد خاص، لكنها تكشف بوضوح عن العلاقة الموجودة بين العلم والقوة، وترغب وتشجع على كسب العلم «٢».

(١). يقول الإمام على عليه السلام: «لا غنى أخصب من العقل ولا فقر أخط من الحمق». (اصول الكافى، ج ١، ص ٢٩).

(٢). يقول الإمام الصادق عليه السلام: «العالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس». (اصول الكافى، ج ١، ص ٢٩٠).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٥٨

٢٣- العلم و التزكية

«رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . (البقرة / ١٢٩)»
ما ورد فى الآية الكريمة الذى يعد بمثابة دعاء دعا به «إبراهيم» و «إسماعيل» عليهما السلام فى ضمن أدعية دعيا بها الله، يكشف بوضوح عن العلاقة الوثيقة بين «العلم والحكمة» من جهة، و «التزكية والتربية» من جهة اخرى وقد تقدم العلم هنا على التزكية.

لكن فى الآيتين التاليتين والتين تناولتا منهج الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بعد البعثة، تقدمت التزكية على العلم فيهما، حيث يقول الله تعالى هناك:

«لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ

لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . (آل عمران / ١٦٤)

كما أن الآية الثانية من سورة الجمعة تشبه الآية المتقدمة مضموناً.

الظاهر أن الاختلاف في التعبير حين يقدم العلم على التزكية تارة والتزكية على العلم تارة أخرى ناشىء من التأثير المتبادل بين هذين الاثنين، فإن العلم مصدر التربية الأخلاقية، والتربية الأخلاقية تصلح لأن تكون في - بعض مراحلها - مصدراً للعلم.

وعلى هذا، فكل منهما يهيء الأرضية للآخر، وهذا هو معنى التأثير المتبادل للعلم والتزكية (وسياتى شرح هذا الموضوع في بحث مؤهلات المعرفة إن شاء الله) «١».

٢٤ - علاقة العلم بالصبر

«وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا». (الكهف / ٦٨)

هذا الحديث نطق به العالم الرباني (الخضر) مخاطباً به موسى بن عمران، عندما سأله أن

(١). يقول أمير المؤمنين في حديث له حول العلم: «ومن ثمراته التقوى واجتناب الهوى ومجانبة الذنوب». (بحار الأنوار، ج ٧٨، ص ٦).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٥٩

يعلمه من علومه، فاجابه الخضر: إنك لم تحط بأسراري وألغاز أعمالي، ولن تتحملها وذلك لقلّة احاطتك ومعرفتك.

وهذا التعبير يبين بوضوح أن عدم العلم والمعرفة يؤدي إلى نفاذ صبر الإنسان.

بالطبع أن الصبر قد يكون مصدراً لزيادة العلم والمعرفة، وعليه فهذان الاثنان بينهما تأثير متبادل كما يصرح بذلك القرآن في عدد من الآيات:

«إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ».

(ابراهيم / ٥)، (لقمان / ٣١)، (سبأ / ١٩)، (الشورى / ٣٣)

ومن الواضح أن طريق العلم والمعرفة طريق صعب مليء بالمنغصات، ولا يمكن أن يدرك العلم إلا بالصبر والتحمل والصمود، وأن العلماء والمخترعين والمكتشفين لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه إلا بالمثابرة والصبر.

٢٥ - العلم والمعرفة خير كثير

«يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا». (البقرة / ٢٦٩)

وكلمة «الحكمة» مشتقة من مادة «حكم» على وزن (حَتم) وتعني الصّد والمنع بهدف الإصلاح ولهذا يقال لزام الحيوان «حكمة» على وزن (شَجرة)، وبما أن العلم والمعرفة يحول دون اتخاذ الإنسان سلوكاً مشيناً، فلهذا سميت «حكمة».

كما أن «العقل» يعني الامساك والحفظ، ولهذا قيل للجل الذي تربط به رجلا الجمل «عقال»، فالعقل قيل له عقلاً لأنه يصون الإنسان من الانحراف عن جادة الصواب.

وعلى أيّة حال، فإن القرآن الكريم وصف العلم بأبلغ وأجمل توصيف حيث قال (خيراً كثيراً)، وهذا التعبير يشمل جميع النعم والمواهب الإلهية المادية منها والمعنوية.

إنّ المستخلص من خمسة وعشرين عنواناً ذكر حتى الآن حقيقة بينه واضحة وهي: إن القرآن وبلاستعانه عبارات شيقه ولطائف البيان

يحثّ الإنسان على طلب العلم والمعرفة

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٦٠

ويعدّهما أفضل موهبة ونعمة إلهية، ويستفاد من التعبيرات السابقة بالدلالة الالتزامية أنّ طريق العلم مفتوح للجميع، ولا شيء أنفع منه، وهذا هو الشيء الذي نحن بصدده (١).

والآن نتقل إلى عناوين أخرى تدور حول محور «الجهل» وبملاحظة آثاره السلبية والمدمرة، نشق طريقنا نحو العلم والمعرفة وما ينتج عنهما من آثار إيجابية وحيوية.

٢٦- أصحاب السعير هم الجاهلون

«وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْإِنعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ . (الاعراف / ١٧٩)

إنّ كلمة «ذراً» مأخوذة من مادة ذرء على وزن (زرع) وتعني الخلق، لكن المستخلص من «مقاييس اللغة» أنّ أصلها يعني «نثر البذور». ويحتمل لهذا السبب ذكر الراغب في «مفرداته» أنّ معناها الأصلي هو «الاطهار والايضاح»، بينما قال البعض كما في «التحقيق في كلمات القرآن»: إنّ معناها الأصلي هو «النثر والنشر».

فإذا أريد منها الخلق فيكون معنى الآية: إنّ أولئك الذين وهب الله لهم السمع والبصر والفؤاد ... (وسائل المعرفة) ولم يستفيدوا منها لا مصير لهم غير جهنم، وإذا كانت «ذراً» بمعنى النشر والنثر، فالآية تشير إلى أنّ أشخاصاً كهؤلاء سينثرون في جهنم. وعلى أية حال فهذه الحقيقة تكشف عن أنّ عاقبة الجهل وتعطيل وسائل المعرفة ليست سوى نار جهنم. «وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ* فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحِّقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ». (الملك / ١٠ و ١١)

(١). يقول الإمام على عليه السلام: «لا كثر أنفع من العلم». (بحار الأنوار، ج ١، ص ١٨٣).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٦١

نعم إنّ ذنبهم العظيم هو أنّهم لم يستفيدوا من عقولهم وعطلوها عن النهوض بمهامها، ولم يصغوا لقول الحق وبهذا أغلقوا أبواب المعرفة والعلم، وفتحوا أبواب جهنم ليدخلوها داخرين.

إنّ سياق الآية الثانية التي تنسب الإثم إلى أصحاب السعير وهم يعترفون بأنّ مصيرهم ما كان هذا لو أنّهم استفادوا من عقولهم، وهذا الاعتراف الكاشف عن الندم، دليل على أنّ سلوكهم لهذا الطريق كان باختيارهم، وإذا زعم بعض المفسرين كالفخر الرازي عند تفسيره للآية الأولى أنّها دليل على الجبر، فإنّ الثانية تنفي مزاعمه وتصلح لأنّ تكون مفسرةً للآية الأولى لأنّ «القرآن يفسر بعضه بعضاً». وعلى أية حال فإنّ العلاقة بين «جهنم» و «الجهل» لاجدال فيها في القرآن وسوف تتضح في الأبحاث القادمة أكثر (١).

٢٧- الجهل مصدر انحطاط البشر

«إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَّا يَعْقِلُونَ . (الأنفال / ٢٢)

إنّ هذه الآية والتي قبلها تشيران إلى موضوع واحد لكن الأخيرة تشير له صراحةً والسابقة تلميحاً، والموضوع هو: إنّ الإنسان متى ما ترك الاستعانة بوسائل المعرفة التي منحها الله له فانه سينحط ويسقط إلى مستوى يجعله أضل من جميع الدواب التي على وجه الأرض، ولم لا- يكون كذلك من بإمكانه أن يصل إلى أعلى عليين في جوار رب العالمين، وأن يصل إلى مقام «لا يرى به إلّا الله»،

ولكن بتركه جميع المواهب والمِنح الإلهية فإنه سيسقط إلى أسفل سافلين. إضافةً إلى هذا، فإنَّ الإنسان الذي لا يسير في جادة الخير والهداية، فإنه ربّما يستخدم تلقائياً جميع المواهب والقابليات الإلهية في طريق الشر، وسيرتكب جرائم مفعجة ويخترع

(١). في حديث للرسول صلى الله عليه وآله يقول فيه: «إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّهُ مَنْ سَلَكَ مَسَلَكًا يَطْلُبُ فِيهِ الْعِلْمَ سَهَلَتْ لَهُ طَرِيقًا الْجَنَّةَ». (بحار الأنوار، ج ١، ص ١٧٣).
نفحات القرآن، ج ١، ص: ٦٢
وسائل رهيبة لم يدنُ إلى مستوى وحشيتها أيُّ من الحيوانات المفترسة، كما نشاهد نماذجه في عصرنا الحاضر عند أناس بعيدين عن الله والبشرية «١».

٢٨- الجهل عمى

«أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ أَلَمْ يَتَذَكَّرْ أُولَٰئِكَ أَلْتَأْتُوا الْبُطُوبَ .
(الرعد / ١٩)

تضع الآية الكريمة العلماء وذوى الفكر في مقابل العمى، والتقابل هذا يكشف عن أن العمى والجهل سواء، وقد جاء هذا المعنى فى آيات اخرى بأسلوب آخر:

«وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ* وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ* وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحَرُورُ* وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ...» (٢). (فاطر / ١٩-٢٢)

٢٩- الحياة مع الجهل هي أرذل العمر

«وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمْرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا...» (الحج / ٥)

وقد جاء فى سورة النحل الآية ٧٠ نفس ما جاء فى هذه الآية من معنى مع اختلاف ضئيل. إنَّ كلمة «أرذل» مشتقة من مادة «رذل» وتعنى الموجود الضال، كما فى كثير من معاجم اللغة مثل «المقاييس» و «صحاح اللغة» و «المفردات» وغيرها، وبتعبير آخر الشىء الذى لا يُعتنى به أو لا قيمة له.

(١). يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «الجهل مطية شمس من ركبها زلَّ ومن صحبها ضلَّ». (غرر الحكم، ج ١، ص ٨٥).
(٢). يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «من لم يصبر على ذلِّ التعلم ساعة بقى فى ذلِّ الجهل أبداً». (بحار الأنوار، ج ١، ص ١٧٧).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٦٣
وعليه فالمراد من «أرذل العمر» أيام وساعات من العمر التى تقلَّ قيمته عن بقية أيام العمر، وقد نعت القرآن الأيام الأخيرة من الشيخوخة التى تتزامن مع نسيان العلوم وفقدانها ب «أرذل العمر»، وعليه فأفضل أيام العمر وساعاته هى الأيام والساعات التى تكون مقرونه بالعلم والمعرفة «١».

٣٠- الجهل مصدر الكفر

«وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ . (الأعراف / ١٣٨)

إنَّ ما يثير العجب هو أنَّ بنى اسرائيل شاهدوا بأمر أعينهم الإعجاز والعظمة الإلهية في غرق الفراعنة، ونجاتهم عندما عبروا النيل، وبالرغم من ذلك كله يقترحون على موسى أن يجعل لهم صنماً يعبدونه.

لكن موسى أجابهم أنَّ جهلكم دعاكم إلى عبادة الأصنام. وفي الحقيقة أنَّ عبادة الأصنام دائماً تنشأ عن الجهل، وإلَّا فكيف يمكن للإنسان أن يعبد ما يصنع بيده؟ وكيف له أن يطلب حل المعضلات والمشاكل الكبرى التي تعترى حياته من قطعة من خشب أو معدن؟!

إنَّ تاريخ عبادة الأصنام يكشف عن أنَّ هذا العمل القبيح نما وتطور تحت ظل من الخرافات والأوهام، وكلما تقدمت الشعوب في مجال العلوم والتقنية كلما تراجع الشرك وعبادة الأصنام وازدادت أنوار التوحيد ضياءً:

إنَّ النبي العظيم «هود» كان يصرح لقوم «عاد» بهذا الأمر إلَّا أنه عندما شاهد فيهم الإصرار على عبادة الأصنام طلب من الله سبحانه أن ينزل العذاب عليهم قال:

«إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ .

(الاحقاف / ٢٣)

(١). يقول الإمام على عليه السلام: «الجهل في الإنسان أضرّ من الأكله في الأبدان» (غرر الحكم).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٦٤

إنَّ التعبير ب «تجهلون» أى بصيغة المضارع الذى عادة ما يدل على الاستمرار، يوضح أنَّ «الجهل المستمر» كان منبع الشرك وعبادة الأصنام، وفي الحقيقة إنَّ تعاضد ثلاثة أنواع من الجهل ولدت هذه الحالة الاجتماعية، وهى: الجهل بالله وبأنه لا كفو ولا مثل له، والجهل بمقام الإنسان وأنه أشرف المخلوقات، والجهل بالطبيعة وأنه لا قيمة للجماادات فى قبال موجود كالإنسان.

ترى كيف سمح الإنسان لنفسه أن يجعل قطعة من الحجر اقتطعت من الجبل تارة فى درجات السلم فى منزله يسحقها بأقدامه، وتارة يصنع منها صنماً يركع ويسجد له ويطلب منها حل مشكلاته الكبرى ، يعدون هذا جهلاً «١»؟

٣١- الجهل السبب الأساسى للفشل

«يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ . (الأنفال / ٦٥)

الظاهر أنَّ الآية ناظرة إلى معركة «بدر» وعدم تساوى عدد المشركين والمؤمنين فيها، وهى تنفى اسطورة توازن القوى كإعزاز إسلامى إلهى تأمر الآية بعدم التراجع فى المعركة حتى لو كان عدد جنود الإسلام عُشر جنود العدو! لكن الذى يسدُّ النقص الكمى فى القوات الإسلامية- كما تصرح الآية- هو شيثان: الأول هو الصبر والاستقامة والثبات عند المؤمنين، والثانى هو جهل وحماقه الأعداء.

وهذا يدل بوضوح على أنَّ الاستقامة والصبر هما الطريق للنصر، وأنَّ الجهل هو سبب الخسران والفشل.

الجهل بالقابليات والطاقات الإلهية المودعة فى ذات الإنسان.

(١). يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «الجاهل لا يرتدع، وبالمواعظ لا ينتفع». (غرر الحكم، ج ١، ص ٦٨). ويقول الإمام الصادق عليه

السلام: «ليس بين الإيمان والكفر إلا قلة العقل». (اصول الكافى، ج ١، ص ٢٨).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٦٥
الجهل بقدره الله عز وجل وعظمته.
الجهل بتقنيات وقواعد المعركة، وأنواع اخرى من الجهالة «١».

٣٢ - الجهل مصدر لاشاعة الفساد

«أَتِنُّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النَّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ . (النمل / ٥٥)
إنهم قوم لا يؤمنون بالله يجهلون بهدف الخلق وقوانينه، ويجهلون الآثار السيئة لهذا الإثم والعار يعنى «اللواط»
إن هذا الحديث الذى نطق به النبى العظيم «لوط» يشير بوضوح إلى أن ميل أولئك القوم إلى هذا العمل البشع والقيح (اللواط) نشأ
عن الجهل وعدم المعرفة.
والنبى يوسف عليه السلام يُشير إلى هذا المعنى بأسلوب آخر:
«قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ . (يوسف / ٣٣)
إن ذكر النساء بصيغته الجمع يدل على أن نساء مصر كنَّ يُردن أن يُخرجن يوسف عن جادة العفاف وليس امرأة عزيز مصر (زليخا)
فقط، ويوسف عليه السلام كان مستعداً لتقبل السجن برحابة صدر على الابتلاء بحب نساء مصر له.
إن الجملة الأخيرة من الآية السابقة تُشير إلى أن العشق الملوَّث بالإثم والانحرافات الجنسية (على الأقل فى كثير من الموارد) ناشئة
عن الجهل، الجهل بالقيم المجبول عليها الإنسان، الجهل بالآثار القيمة للعتاف والطهارة والنزاهة، والجهل بمردودات الإثم، وأخيراً
الجهل بالأوامر والنواهي الإلهية.
وكما نرى فى قصة يوسف بوضوح أن السبب الأساسى فى ارتكاب الجريمة من قبل

(١). يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «من عمل على غير علم كان ما يُفسد أكثر مما يصلح». (مشكاة الأنوار، ص ١٣٥).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٦٦
إخوانه هو الجهل وعدم معرفتهم:
«قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ . (يوسف / ٨٩)
نعم أنتم الذين عدبتم أخاكم أولاً، ثم ألقيتموه فى الجب عن جهل ثانياً! أنتم الذين كذبتهم على أبيكم ذلك الشيخ العجوز وأذميتهم
قلبه عندما أخفيتهم ابنه عنه، وفى النهاية بيعه بعدة دراهم بخسه كما يُباع الرق ولم تفوا بعهدكم الذى عاهدتم به أباكم تجاه الأخ الآخر
«بنيامين» عندما أتهم بالسرقة فتركتموه وحيداً.
وجهلكم هو وحده منشأ جميع هذه الأفعال «١».

٣٣ - الجهل أساس التعصب والعدا

«إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ...» (الفتح / ٢٦)
إن كلمة «حمية» مشتقة من مادة «حُمى» على وزن «حُمِد»، وكما يذكر الراغب فى «مفرداته» أن معناها الأولى هو الحرارة الناشئة من
أشياء مثل النار والشمس والقوة الباطنية فى جسم الإنسان (الحرارة الذاتية والباطنية للأشياء)، ولهذا يقال لارتفاع درجة حرارة المريض
(حُمى على وزن (كُبْرَى ، وبما أن التعصب والغضب يولدان حرارة وحرقة فى باطن الإنسان قيل «حمية»، وقد جاء فى كتاب «التحقيق

في كلمات القرآن الكريم» أن «الحمية» هي شدة الحرارة والعلاقة والتعصب في الدفاع عن النفس «٢».

إن هذه الآية نزلت في حوادث صلح الحديبية وتوضيح قصة سبب النزول: أن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله قصد مكة للحج في السنة السادسة من الهجرة، إلا أن المشركين منعوا المسلمين من دخول مكة تعصباً لجاهليتهم، مع أن السماح بزيارة مكة كان مباحاً للجميع

(١). يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «فقيه واحد أشد على إبليس من ألف عابد». (بحار الأنوار، ج ١، ص ١٧٧).

(٢). «هي شدة الحرارة، والعلاقة والتعصب في الدفاع عن نفسه والتعفف والترفع». (مادة حمى .

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٦٧

حسب قوانينهم وسنتهم المتعارفة، فهم بهذا انتهكوا حرمة الحرم الإلهي، ونقضوا سنتهم، إضافة إلى أنهم وضعوا حائلاً ضخماً بينهم وبين الحقائق.

إن إضافة «الحمية» إلى «الجاهلية» من قبيل إضافة «السبب» إلى «مسببه»، التعصب والعناد والغضب ينشأ عن الجهل دائماً، لأن الجهل لا يسمح للإنسان أن يفكر بعواقب أعماله، ولا يسمح له قبول أن فكرته قد تكون خاطئة، وأن هناك علماً أوسع وأكبر من علمه، ولهذا نرى أن شدة عناد وتعصب الأقسام الجاهلة أكثر منها في الأقسام الأخرى، ولهذا السبب نجد أن الأنبياء والرسل عندما يعثون إلى قوم بالرسالات والأنوار الإلهية الساطعة، يواجهون مقاومة عنيفة، ويتهمون بمختلف التهم، وقد أورد القرآن الكريم نموذجاً من ذلك:

«وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجْعَلُ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ * وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امشُوا وَاصبروا على آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا خِطَابٌ . (ص / ٤-٧)

حيث ترى أن حديثهم مملوء بالعناد، الناشئ عن الجهل والغرور «١».

٣٤- الجهل مصدر لاختلاق الحجج

«وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ . (البقرة / ١١٨)

هناك قضية تتكرر دائماً في تاريخ الأنبياء والرسل وهي أن الجاهلين والمعاندين يختلقون الحجج الواهية من أجل الهروب من الإيمان بالأنبياء والرسل والتسليم للحق الذي يروونه بأعينهم من خلال المعجزات الإلهية ووسائل الاقناع التي يأتي بها الرسل فتراهم تارة يقولون لِمَ بَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا؟ لِمَ لَمْ يَأْتِ مَلَكٌ مَحَلُهُ؟

(١). يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «العلم أصل كل خير والجهل أصل كل شر». (غرر الحكم، ص ٢٠ و ٢١).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٦٨

وتارة يقولون: لِمَ لم ينزل علينا كتاباً نقرأه؟

و أخرى يقولون: لن نؤمن ما لم نر الله والملائكة جهرة.

وتارة اخرى يقولون: لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعب وتفجر الأنهار خلالها تفجيراً، كما في سورة (الإسراء) في الآيات ٩٠، ٩٣.

كما أن هناك أمثلة ونماذج اخرى ذكرت في القرآن الكريم.

في الحقيقة أن ذوى العلم يكتفون بدليل منطقي واحد، وإذا تعددت الأدلة عندهم ازدادوا رسوخاً وإيماناً.

لكن المتعصبين والجاهلين المعاندين غير مستعدين للتخلي عن عقائدهم وخرافاتهم، فيتمسكون كل يوم بحجة في سبيل الهرب من الحقيقة، وإذا ما دحضت حججهم تركوها وتمسكوا بحجة أخرى، ذلك لأن هدفهم ليس طلب الحقيقة بل التملص منها (١).

٣٥- الجهل هو سبب التقليد الأعمى

«إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . (الأنبياء / ٥٢-٥٤)

إن كلمة «التماثيل» جمع «التمثال» والتي تعنى الموجود الذى له وجه، وتطلق على التماثيل المنحوتة والرسوم. وكلمة «عاكفون» مشتقة من مادة «عكوف» وتعنى التوجه المستمر نحو شىءٍ والمتزامن مع التعظيم، واصطلاح «اعتكاف» يطلق على العبادة الخاصة المعروفة التى تقام فى المسجد وهى مشتقة من نفس المادة. نعم، إن عبدة الأصنام لم يكن لهم دليل منطقي على عملهم القبيح هذا، وغالباً ما كانوا

(١). يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «الجاهل صغير وإن كان شيخاً كبيراً والعالم كبير وإن كان حدثاً». (بحار الأنوار، ج ١، ص ١٨٣).
نفحات القرآن، ج ١، ص: ٦٩

يقتنعون بتقليدهم الأعمى ولهذا نعتهم ابراهيم عليه السلام بأنهم وآباءهم فى ضلالٍ مبين. إن ابراهيم عليه السلام فى بقیة محاكمته التاريخية لعبدة الأصنام فى بابل يقول: «أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ!؟ ثم يضيف «أَفْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . (الأنبياء / ٦٦-٦٧)

يعنى أن هذا التقليد الأعمى ناشىء عن عدم التعقل والتأمل وهو نابع من الجهل، ودليله واضح، فإن ذوى العلم يتمتعون باستقلال فكري، واستقلالهم الفكرى هذا لا- يسمح لهم بالتقليد الأعمى بينما الجاهلون تراهم مرتبطون بهذا وذاك وبشكل أعمى فيتبعون الآخرين على غير بصيرة.

٣٦- الجهل عامل الخلاف والفرقة

«لَا يَقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قَرْيٍ مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسِهِمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ . (الحشر / ١٤)

إن كلمة «قرى» جمع «قرية» ومعناها الأماكن المعمورة أعم من الأرياف والمدن، وقد تطلق على مجموعة يسكنون فى مكان ما، و «قرى محصنة» تعنى المناطق الآمنة من العدو بسور أو أبراج أو خنادق أو غيرها.

إن هذه الآية تتحدث عن طائفة «بنى النضير» (إحدى ثلاث طوائف يهودية تقطن المدينة) حيث تكشف عن فرعهم وخوفهم الباطنى واختلافهم وفرقتهم، فتصرح الآية للمسلمين: إنكم تحسبونهم جميعاً ومتحدين لكن الواقع أن شملهم متفرق بسبب جهلهم وعدم معرفتهم.

إن الاختلاف ينشأ عن الجهل، والاتحاد ينشأ عن المعرفة دائماً، فالجاهلون لا يجهلون الأخطار الجسيمة للفرقة، ولا يجهلون فوائد الاتحاد وبركاته فحسب، بل يجهلون اسس التعايش السلمى، واسلوب التعاون وشروط النشاطات المشتركة، وهذه المسألة أدت بهم إلى الاختلاف والفرقة.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٧٠

إن المتعصبين والمعاندين والمتكبرين والحاقدين والسفهاء، لا- يمكنهم الاتحاد مع الآخرين، لأن كلاً من هذه الصفات تكون مانعاً كبيراً امام الوحدة، ويجب أن نعلم بان منشأ جميع هذه الرذائل هو الجهل «١».

٣٧- الجهل هو سبب سوء الظن بالآخرين

«ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْعَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَعْشَى طَائِفَةٌ مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ...» (آل عمران/ ١٥٤)

تحدثت هذه الآية عن الليلة المضطربة والملتهبة التي عاشها المسلمون بعد معركة أُحُد، حيث احتل بعض المسلمين هجوم قريش في تلك الليلة مرة أخرى لتدمير آخر ما تبقى من مقاومة المسلمين بعد ما أنهكوا في المعركة نهاراً. في هذه الأثناء أنزل الله على المسلمين نعاساً مهدئاً لهم، إلّا أنّ ضعيفي الإيمان قد تاهوا في أفكارٍ رهيبه فما استطاعوا النوم آنذاك، وكانوا يتساءلون: يا ترى هل أن وعود الرسول حقّة؟ هل أننا سنتنصر في النهاية مع ما حصل لنا في أحد؟ هل سننجو من هذه المهلكة؟ أو أنّ كل ما قيل لنا كان كذباً؟ وما إلى ذلك من الوسوس وإساءة الظن الجاهلي.

لكن الحوادث التي حصلت فيما بعد بينت لهم خطأهم الفاحش، وأنّ كافه الوعود الإلهية حقّة، ولو أنّهم انفصلوا عن أفكار الجاهلية تماماً لما أساءوا الظن بالله ورسوله.

والتعبير في الآية يوحي بأنّ الجهل هو أحد أسباب إساءة الظن، وأنّ عدم قدرتهم على التحليل الصحيح للحوادث جعلهم يسيئون الظن، ولو كانت لهم القدرة الكافية على تحليل الحوادث وفهمها لما وقعوا في شباك سوء الظن.

ج ج

(١). يقول الإمام على عليه السلام: «لو سكت الجاهل ما اختلف الناس». (بحار الأنوار، ج ٧٨، ص ٨١).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٧١

٣٨- سوء الأدب ينشأ عن الجهل

«أَنَّ الَّذِينَ يَتَّذِرُونَكَ مِنَ وَّرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ . (الحجرات / ٤)

كان البعض يضايق الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله حيث كانوا يقفون عند باب بيته منادين بصوت عالٍ: «يا محمدا!» «يا محمدا!» اخرج إلينا» فكان رسول الله صلى الله عليه وآله يتأذى من اسلوبهم هذا، ولكنه كان يكظم غيظه وذلك لما كان يتصف به من خلقٍ عظيم، إلى أن نزلت هذه الآية، فعلمتهم أدب الحديث مع الرسول ومحاطيته (في سورة الحجرات).

والتعبير «أكثرهم لا يعقلون» إشارة جميلة إلى أنّ سوء الأدب غالباً ما ينشأ عن الجهل فكلما قُتِد العلم حل سوء الأدب مكانه، وكلما تواجد العلم تواجد الأدب معه.

«وَأذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبُحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ . (البقرة / ٦٧)

إنّ الآية تتعلق بقضية قتل حدثت في بني اسرائيل كادت أن تجر إلى معارك كبيرة بين قبائل بني اسرائيل لجهلهم بالقاتل: فأمر الله أن يذبحوا بقرة ويضربوا بقسم منها المقتول كي ينطق ويعرفهم قاتله.

وبما أنّ هذه القضية كانت معجزة ومدهشة للغاية بالنسبة لبني اسرائيل، فقد قالوا لموسى ابتداءً: أتخذنا هزواً؟

فأجاب موسى عليه السلام: أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين أي أنّ الاستهزاء من معالم الجهل ودليل على العجب والتكبر والغرور،

فإن الذين يتمتعون بهذه الصفات يتخذون الآخرين هزواً كي يحقروهم، ونعلم أن التكبر والعجب ينشآن عن الجهل حتى أن كثيراً من الجاهلين يستهزئون بالعلماء «١».

٣٩- الجهل سبب الندم والمشاكل الاجتماعية

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصِيبُكُمْ عَلَىٰ

(١). يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «العلماء غرباء لكثرة الجهال بينهم». (بحار الأنوار، ج ٧٨، ص ٨١).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٧٢

مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ . (الحجرات / ٦)

إن هذه الآية تمثل قاعدة أساسية تأمر المسلمين بأن يتبينوا ويتأكدوا من كون الرواة ناقلية الأخبار من الثقات ويحققوا في الخبر الذي وصلهم من فاسق أو شخص لا يعتمد عليه فلا يستعجلوا باتخاذ الإجراءات على ضوء ما نُقِلَ لهم من خبر، لأنه قد يوجب لهم كثيراً من الندم والمشاكل والمصائب الاجتماعية.

فمن البديهي أن الجاهل لا يمكنه أن يتخذ موقفاً صحيحاً تجاه مختلف القضايا، وعدم معرفته هذه تؤدي به إلى كثير من المآسى والمشاكل الاجتماعية والتي نهايتها الندم.

٤٠- الجهل وتبدل القيم

«كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . (البقرة / ٢١٦)

إن نشاطات الإنسان وفعالياته تنسجم دائماً مع القيم التي يعتقد بها، ومعرفة هذه القيم لها دور أساسي في تبلور وتوجيه نشاطات الإنسان وفعالياته.

فالجهل وعدم المعرفة قد يؤدي به إلى الوقوع في الخطأ عند التمييز بين (القيم) وبين (أضدادها)، أي أن يشخص ما هي القيم التي تكون سبباً في التقدّم والخير والبركة، ويفرق بينها وبين ما هو عامل الشرّ والشفاء والانحطاط.

إن الآية السابقة تقول: إن للجهد في سبيل الله قيمة- فهو سبب للعة وصيانة ماء الوجه والفخر والموقية- لكنكم تكرهونه لجهلكم وعدم معرفتكم بآثاره، وتعتبرون القعود وترك الجهد قيمةً وعملاً للسلامة والسعادة، لكنه عامل وسبب لشقاءكم.

وعلى هذا، فالجهل هو سبب الخطأ في تمييز القيم، وهو عامل اتخاذ المواقف غير الصحيحة وغير المدروسة تجاه القضايا المختلفة والحوادث المتنوعة التي تحدث في الحياة اليرمية وعامل للافراط والتفريط «١».

(١). يقول الإمام على عليه السلام: «لا ترى الجاهل إلا مفراطاً أو مفراطاً». (نهج البلاغة الكلمات القصار، الكلمة ٧٠).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٧٣

الخلاصة و النتيجة:

إن المستخلص من البحوث القرآنية السابقة والتي دُرجت تحت أربعين عنواناً، ولربما تكون أكثر حيث (لا ندعى تحديدها بهذه

العناوين أبدأً) والتي تحثُ على طلب العلم والمعرفة، تمثل اهتمام القرآن البالغ بمسألة المعرفة في جميع المجالات، سواء في مجال معرفة الذات والصفات الإلهية، أو في مجال معرفة الكون والسموات والأرض وجميع الكائنات والإطلاع على أسرار المخلوقات الأرضية والسموية الطبيعية أو ما وراء الطبيعة، ومعرفة النفس والألمام بمختلف العلوم.

ومن خلال البحث في الآيات السابقة نستخلص بوضوح الأمور التالية:

١- إنَّ طريق العلم والمعرفة ميسر للناس كافة، وكلُّ حسب استعداده وسعيه يستطيع أن يطوى ما أمكنه منه، وبدون ذلك فالدعوة للعلم والتأكيد على أهميته لا معنى لها.

٢- إنَّ قيمة الإنسان لها علاقة مباشرة بمقدار معرفته لله وأسرار عالم الوجود.

٣- إنَّ أكبر مفخرة وموهبة للإنسان هو قابليته واستعداده لتقبل المعارف بالرغم من ضعفه الجسماني.

٤- إنَّ طلب العلم هو طريق الانتصار والغلبة على مختلف المشاكل: وهو طريق تزيكئة النفس.

٥- من أجل مواجهة الشقاء ومختلف المفاسد نحتاج إلى العلم والمعرفة قبل أى شىءٍ آخر.

تؤكد أنَّ هذه الآيات نزلت في زمان خيمت فيه غيوم الجهل السوداء، وغطت أفق المنطقه بل العالم ظلاماً، في حين أنَّ شمس العلم قد غابت وغرق الناس في أمواج الجهل.

حقاً إنه لشيءٌ عجيب أن تكون مثل هذه البيئه مهدياً لهذه الرسالة ذات التعاليم السامية أن يكون إنساناً امياً رسولاً لمثل هذه المدرسه العظيمة مدرسه الإسلام الخالد وهذا دليل حى على حقانية القرآن.

إنَّ الملفت للنظر هو احصاء سبعمائة آية من قبل بعض المحققين تتحدث عن العلم

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٧٤

والمعرفة وأرضياتها ومصادرها، وبالقياس إلى آيات الأحكام والتي تقدر بخمسائة آية، نستطيع أن نستنتج أن القرآن أولى أهميته كبرى للعلم والمعرفة فاقت الأهميه التي أولاهها للأحكام الشرعيه.

ج ج

توضيحات

١- إمكانية المعرفة من وجهه نظر فلسفيه

إشارة

إنَّ وجود عالم خارج الذهن أمر مسلم وبديهى لا يحتاج إلى برهان، ويعترف بهذا عملياً حتى السوفسطائيون أو المثاليون الذين ينكرون وجود الأعيان الخارجيه.

لكن البحث ينصب في هل من سبيل إلى معرفة هذه الواقعيات؟

وإذا كان الجواب بالايجاب فما هى سبيل المعرفة ووسائلها؟

ما هى شروط الوصول إلى المعرفة؟

وبتعبير آخر، هل يمكن تبديل الواقعيات الخارجيه إلى حقائق ذهنيه، أى انعكاس صورته ما فى الخارج عيناً فى الذهن أم لا؟ إنَّ جميع

تعريف المعرفة والاختلافات الحاصلة حول ذلك ترجع إلى هذا الموضوع «١». ومن جهة أخرى فإنّ جذور جميع العلوم والمعارف البشرية تكمن في الإجابة عن هذا السؤال. وبالرغم من أنّ أغلب الفلاسفة (سواء الماديين منهم أو الإلهيين) يؤيدون إمكانية معرفة الواقعيّات الخارجيّة، إلّا أنّ البعض منهم لا يعتقد بإمكانيتها، وقد ذكرت أربعة أدلة لإثبات مرادهم:

(١). وعلى هذا يكون تعريف المعرفة عبارة عن: تبديل الواقعيّات الخارجيّة إلى حقائق ذهنيّة، وانعكاسها في مرآة الذهن كما هي.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٧٥

١- إنّ الحواس هي أهم وسائل المعرفة، والبصر يقع في الدرجة الأولى من حيث الأهميّة، لكننا نجد الكثير من الأخطاء تصدر عن هذه الحاسة!

فالشهاب المشتعل في السماء نراه كخط من النور الممتد، بينما هو عبارة عن نقطة ضوئية متحركة لا أكثر! وإذا كنّا نمشي في شارع مُشجّر الطرفين، وابتعدنا عن الأشجار رأيناها تقترب من بعضها البعض، وتتصل وتشكل زاوية في نقطة بعيدة عنّا بينما الأشجار لم تلتق على طول الطريق ولم تُشكل أية زاوية، والفاصلة بينها متساوية في جميع نقاط الشارع. وإذا كانت إحدى يديك باردة والأخرى حارة ووضعتهما في ماء دافئ، فإنّك تحس بالحرارة باليد الباردة، وبالبرودة باليد الحارة، فيرتسم في الذهن إحساسان متضادان اتجاه الماء في آن واحد.

ولدينا الكثير من الأمثلة عن عدم إمكان الاعتماد على حاسة البصر وبقية الحواس (اللامسة وغيرها).

ومع وجود هذا النقص فكيف نعتد على حواسنا؟! بل إنّ عالم الخارج يمكن أن يكون وهماً أو أضغاث أحلام ولا غير، وهل أنّ الذي نراه في الرؤيا ونعتبره حقيقة في ذلك الحين، يُمثل الحقيقة؟

٢- لا نكاد نرى اثنين من العلماء أو المفكرين في هذا العالم يتفقان في جميع المسائل، وما هذه الاختلافات بين العلماء إلّا دليلاً على فقداننا الطريق الذي يهديننا إلى معرفة الحقائق.

فالذي رآه واقعاً عينياً قد يكون برأى الآخرين وهماً وخيالاً لا أكثر والنعكس صحيح.

وحتى الإنسان الواحد قد تتغير رؤيته وأفكاره تجاه قضية معينة تحت ظروف مختلفة، وهذا يزلزل أسس قضية المعرفة.

٣- إنّ الموجودات في العالم كلّها في حركة مستمرة، وينتج عن هذه الحركة تحول أوضاع الموجودات وحتى أفكارنا ومعارفنا وعلومنا خاضعة لهذه الحركة، فكيف يمكن

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٧٦

أن تحصل لنا معرفة حقيقية لهذه الموجودات والعلاقات بينها، مع أنّ المعرفة تستدعي الاستعاذة بأمر ثابت.

٤- نعلم أنّ العالم يُمثل نظاماً موحداً ومتربطاً، ومعرفة جزء منه تستدعي معرفة الكل، وعليه، فإنّ فقدان حلقة من السلسلة المترابطة للعالم يُخلّ بمعرفتنا ويحول دون معرفة أي جزء منه.

ومن جهة أخرى فإنّ الواقعيّات التي لا يمكن للبشر إدراكها كثيرة ولا يحصى عددها بالقياس إلى حجم المعلومات البسيطة.

وعلى هذا، فكيف يمكن لنا أن نعد معرفة العالم أمراً متيسراً؟ إذن يجب الاعتراف بأنّ ما في أذهاننا مجرد تصورات لها قيمة علمية فقط، وليست لها أية قيمة واقعية.

ج ج

الجواب:

يمكن الإجابة على هذه الاستدلالات بثلاث طرق:

١- إن جميع الذين يقولون بعدم إمكان المعرفة الواقعية، يؤمنون بالكثير من المسائل الواقعية، فهم يمسكون بأقلامهم ليبرهنوا ويستدلوا في مؤلفاتهم على صحة ما ذهبوا إليه وخطأ مخالفهم، ومن خلال انكارهم فانهم عرفوا المثات من المسائل الواقعية، ومن خلال هذه المعرفة دقوا طبول الحرب ضد مخالفهم واستفادوا في حربهم هذه من الكثير من الامور الواقعية مثل، القلم، والورق، الخطوط، الكلمات، الجمل والعبارات، الكتب، دور الطبع والنشر والمكتبات، المخالفين أنفسهم، المخاطبين، الأمواج الأثيرية، النور وغيرها، كل ذلك يمثل اموراً واقعية استفادوا منها في معرفتهم ليشنوا بها حرباً على المعرفة، فلقد استعانوا بالمعرفة ضد المعرفة وهو خطأ فاضح يستدعي الدقة والتأمل.

٢- إن خطأهم الكبير هو عدم تمييزهم بين مسألة كون معرفة الإنسان محدودة وبين أصل مسألة المعرفة، فإن استدلالاتهم لا تنفي إمكانية المعرفة مطلقاً، غاية الأمر أنها تثبت

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٧٧

أن معرفة الإنسان محدودة أو مقرونة بالخطأ أحياناً.

أجّل، لا يمكنهم إنكار وجود «الشهاب» بل إن ما يقولونه في هذا المجال هو أن الخط النوراني الذي نراه ليس خطأ نورانياً بل نقطة نورانية، والتصوير الخاطيء هذا نشأ عن خطأ في حاسة البصر، إذ ليس الخطأ في وجود نفس الشهاب بل في تصور خط ممتد ملتهب. كما أن الخطأ ليس في نفس وجود الشارع والأشجار على طرفه بل الخطأ في أن الأشجار كلما ابتعدنا عنها اقتربت من بعضها البعض في أبصارنا، وكذا الأمر بالنسبة للماء الدافئ، فليس الخطأ في نفس وجود الماء ودرجة حرارته المعينة، بل في تمييز درجة الحرارة. ولكننا - كما سبقت الإشارة - لا ندعى إدراكنا لجميع حقائق الوجود، كما لا ندعى أن معرفتنا منزّهة عن أي خطأ، بل ما نريد إثباته هو إمكانية المعرفة على سبيل القضية الجزئية، وقد نشأ خطأ أصحاب الرأي القائل بعدم إمكان المعرفة من ادعائهم القاطع الجازم بعد وجود المعرفة.

والملفت للنظر هو أن ما ذكره مخالفو إمكانية المعرفة من أدلة يمكن أن يستخدم كدليل ضدّهم، لأنهم عندما يبحثون مسألة خطأ الحواس، فإن مفهوم ادعائهم أن هذه الحقيقة اكتشفناها بحواسنا الاخرى أو بطرق عقلية، فندرك خطأ الحاسة المعينة في ذلك المورد، وهذا اعتراف صارخ بصحة بعض المعارف.

فعندما نقول مثلاً: إن الخط الملتهب الممتد الذي نراه عند ظهور الشهاب في السماء خطأ، فذلك بسبب إنا لاحظنا بحواسنا الاخرى إن الشهاب قطعة حجر تحترق عند وصولها إلى الأرض وذلك لسرعتها واحتكاكها بطبقة الهواء، وعندما تبدو لنا كالنقطة النيرة، وبما أنها تتحرك بسرعة هائلة فتخطأ العين في التمييز ونراه خطأ ممتداً وملتهباً، مستقيماً منحنيّاً.

كذلك الأمر بالنسبة للخطين المتوازيين عندما نراها متقاطعين من بعيد، بينما رأيناها من قريب متوازيين فعند مقارنة المعلومات التي حصلنا عليها من بعيد ومن قريب نعترف بخطأ أبصارنا من بعيد.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٧٨

إذن يجب القول بأن أي حكم بخطأ بعض المعلومات، دليل على معرفة كثير من الحقائق (دقق النظر في ذلك).

٣- إنهم في الحقيقة لم يميزوا جيداً بين «البديهيات» و «النظريات» ولا بين «المعرفة الإجمالية» و «المعرفة التفصيلية» ولا بين «الامور المطلقة» و «الامور النسبية»، ولأجل عدم معرفتهم الدقيقة وتمييزهم لهذه المواضيع الثلاثة وقعوا فيما وقعوا فيه من خطأ.

ج ج

إيضاح:

إنّ هناك حقائق لا- يشك بها أحد إلاّ السوفسطائيون وكما قلنا سابقاً أنّهم ينكرون الحقائق بالسنتهم ويعتقدون بها في قلوبهم وهى الحقائق التى لا- حاجة إلى التفكير فى إثباتها، فالكل يعرف مثلما أنّ اثنين زائداً اثنين يساوى أربعة، وأنّه لا يمكن أن يحصل الليل والنهار أو الصيف والشتاء فى آن ومكان واحد، أو شخصاً واحداً يكون فى مكة والمدينة فى آن واحد وحتى أولئك الذين يعدّون اجتماع النقيضين أو الضدين ممكناً، فإنّهم يتلاعبون بالألفاظ فقط، ويدعون لهذه الحقائق قلبياً، فمثلاً بالنسبة ل «اجتماع الضدين» يقولون بإمكان أن يكون الجو ممطراً فى ساعة ومشمساً فى ساعة أخرى، إذن اجتماع الضدين أمر ممكن، أمّا إذا سألناهم هل يمكن أن يكون الجو ممطراً ومشمساً فى ساعة ومكان واحد؟ فسيجيبون: لا.

وفى مقابل هذه المعلومات البديهية هناك قسم آخر من المعلومات وهى «المعلومات النظرية» التى تحتل الخطأ والترديد، وما ذكره المنكرون من عدم إمكانية المعرفة فأنّه يتعلّق بهذا النمط من المعلومات.

كما أنّ هناك مجموعة من الحقائق مطلقة ولا نسبية فيها كالأمثلة السابقة (العلاقات الرياضية بين الأعداد وامتناع اجتماع النقيضين والضدين).

ولكن لا يمكن إنكار أنّ هناك مجموعة من المفاهيم النسبية التى تتغير بتغير الظروف،

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٧٩

فمثلاً الحرارة والبرودة أمران نسيان، فكل شىء حرارته أكثر من حرارة جسم الإنسان فهو حار، وكل شىء حرارته أقل من حرارة جسم الإنسان فهو بارد، فإذا ما تغيرت درجة حرارة أجسامنا بتغير مفاهيم الحرارة والبرودة عندنا، ولهذا قد يجلس شخصان فى غرفة يشعر أحدهما بالبرودة فيطلب تشغيل المدفئة والآخر يشعر بالحرارة فيطلب فتح الأبواب.

بالطبع، فى هذا المجال توجد حقيقتان وهما درجة حرارة الجسم ودرجة حرارة الغرفة وتصورنا عن الحرارة والبرودة ينشأ عن المقارنة بين هاتين الحقيقتين فيختلف الحكم تجاه المسألة.

كما أنّ فى العالم هناك حقائق ثابتة وحقائق متغيرة، والأمثلة التى ذكرناها سابقاً وما شابهها تدخل تحت عنوان الحقائق الثابتة، وحتى الماركسيون القائلون بتغير وتبدل الحقائق فى العالم يستثنون حقيقة التحول والتغير كقانون ثابت، ويعتقدون أنّ كل ما فى العالم فى تحولٍ وتغيرٍ مستمر إلّا نفس قانون التحول والتغير فأنّه ثابت دائماً (بالطبع هناك مجموعة أخرى من القوانين يفرضون ثباتها إضافة إلى هذا القانون).

وإذا تجاوزنا الأمر السابق فإنّ هناك «معرفة إجمالية» ومعرفة تفصيلية» هناك حقائق لا نعرف عنها إلاّ شيئاً إجمالياً، فلا معرفة لنا بخصائصها وعلاقاتها بالأشياء الأخرى فى العالم تفصيلاً، لكن عدم معرفتنا التفصيلية عنها لا يعنى نفى المعرفة الإجمالية عنها.

فمثلاً العين جزء من الجسم، وما لم نعرف الجسم بجميع أعضائه جيداً لا نتمكن من معرفة علاقة العين بأعضاء الجسم الأخرى، لكن عدم معرفتنا للعين تفصيلاً لا يمنع من معرفتنا لها إجمالياً وأنها تقع فى الرأس وتحت الجبين، ولها سبع طبقات، وكل طبقة مهمّة خاصة بها، وفائدتها رؤية المناظر واللقطات المتنوعة.

وبالنظر لما تقدم يتضح أنّ أدلة المخالفين لنظرية المعرفة نشأت من عدم دقتهم فى التقسيمات السابقة، فعندما يقولون: إنّ العالم كتلة واحدة، وعدم معرفتنا لمفردة من مفرداته يفقدنا المعرفة بأى جزء منه، فقولهم هذا خلطٌ فى الحقيقة بين المعرفة التفصيلية والإجمالية،

لأننا إذا أردنا معرفة جزءٍ ما فى العالم بجميع علاقاته بباقى أجزاء العالم يجب

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٨٠

علينا معرفة جميع أجزاء العالم بدقّة، فهذه معرفة تفصيلية، بينما المعرفة الإجمالية لا تستدعى ذلك كله، ومعرفتنا للأرض والسماء وأفراد البشر والكائنات التى من حولنا هى كلها من هذا القبيل من المعرفة «١».

وهناك ايضاحات أكثر فى هذا المجال سنعرض لها فى الفصل اللاحق إن شاء الله تعالى

ج ج

٢- العلم البشرى المحدود

إشارة

١- «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا». (الاسراء / ٨٥)

٢- «... وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ...». (لقمان / ٣٤)

٣- «وَأَنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَّا تُفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ...». (الاسراء / ٤٤)

٤- «وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ». (البقرة / ٢١٦)

٥- «لَخَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ». (غافر / ٥٧)

٦- «... لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا». (الطلاق / ١)

٧- «قُلْ لَأْمْلِكُنَّ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَأَسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ...». (الاعراف / ١٨٨)

٨- «... آبَائِكُمْ وَابْنَائِكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا...». (النساء / ١١)

٩- «وَلَوْ أَنَّ فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ». (لقمان / ٢٧)

(١). قد يقال إن منكري المعرفة لا ينكرونها كلياً، وعلى هذا فالنزاع بينهم وبين المؤيدين لنظرية المعرفة يكون نزاعاً لفظياً.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٨١

شرح المفردات:

إن كلمة «روح»- وكما جاء في قواميس اللغة- في الأصل اشتقت من مادة «ريح» ويطلق على التنفس كذلك، وبما أن هناك علاقة وثيقة بين التنفس وبقاء الحياة ونفس الإنسان استعملت الروح بمعنى النفس، ومن ثم بمعنى تلك الحقيقة المجردة التي يتوقف بقاء الإنسان عليها.

إن «روح» على وزن (لَوْح) تعني النسيم البارد، وكذلك اللطف والرحمة، ومنه اشتقت كلمة «الرائحة» و «المروحة».

وإن كلمة «تفقهون» مشتقة من مادة «فقه» وقد جاءت- كما في لسان العرب- بمعنى الاطلاع على شيء وفهمه، لكنها تطلق اطلاقاً خاصاً على علم الدين (أو علم الأحكام)، وذلك لرفعة وأهميته هذا العلم، والراغب في مفرداته يقول: «الفقه يعني الاطلاع على شيء خفي بواسطة الاطلاع على أمر ظاهر ومكشوف» وعلى هذا مفهومه أخص من مفهوم العلم.

ومعنى كلمة «غيب»- وكما جاء عن ابن منظور في لسان العرب- هو «الشك» ويطلق على كل شيء خفي عمله عن الإنسان، (ولعل ذلك بسبب أن الأشياء الخفية غالباً ما تقع مجالاً للشك).

يقول الراغب عند تفسيره لجملة «يؤمنون بالغيب»: إنَّ الغيب شىء خارج عن دائرة الحس والعقل الابتدائي ويعرف بواسطة إخبار الأنبياء.

وكلمة «نفدت» أخذت من مادة «نَفَدَ» على وزن (حَسَدَ)، و«النفاذ» كما يستخلص من المفردات ولسان العرب - يعنى الفناء والدمار، و«مُنفَذٌ» تُطلق على الشخص القوى للغاية فى استدلالاته بحيث يدحض جميع حجج خصمه، و«نفاذ» جاءت بمعنى نضوب ماء البئر.

جمع الآيات وتفسيرها

كان عدد من المشركين أو أهل الكتاب يسألون النبى صلى الله عليه وآله عن «الروح»، فأمر الله سبحانه الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله و كما جاء ذلك فى الآية الاولى أن يجيبهم بأنَّ «الروح» من أمر ربى
نفحات القرآن، ج ١، ص: ٨٢

ويضيف لهم بأنهم ما أوتوا من العلم إلاً قليلاً، ولهذا فلا قابلية لهم لإدراك حقيقة «الروح» (١).
وفى هذه الآية إشارة واضحة إلى كون العلم البشرى محدوداً (وذلك لأنَّ الروح المقصودة فيها هى روح الإنسان) وهى أقرب شىء إلى الإنسان وذلك لأنَّ الإنسان ما استطاع الاحاطة علماً بجوهر روحه التى هى أقرب إليه من الحقائق والموجودات فى الكون، وأنَّ ما يعرفه عنها هو معرفة سطحية وإجمالية، فكيف يمكنه معرفة حقائق العالم الاخرى!

ج ج

أما الآية الثانية التى هى آخر آية من سورة لقمان، تكشف عن علوم خاصة بالله تعالى وأشارت إلى خمسة منها: قيام الساعة، نزول المطر، الجنين الذى فى رحم الام، الحوادث المستقبلية التى تتعلق بأعمال الإنسان والمكان الذى يموت فيه الإنسان، وقد أُشير إلى هذه العلوم الخمسة فى الروايات تحت عنوان «مفاتيح الغيب الخمسة» التى لا يعرف عنها أحد إلا الله (٢).
وقد يعلم الإنسان علماً إجمالياً عن هذه الأمور الخمسة بالاستعانة بالقرائن، إلا أنَّ الجزئيات لا تتضح لأحد أبداً، فلا يعلم - مثلاً - ما هى قابليات الجنين الجسمية والروحية وهل هو جميل أم قبيح وأنه سليم أم سقيم، وحتى جنسه (المذكر والمؤنث) لا يمكنه معرفته إلى مراحل متأخرة من حياته فى الرحم.

إنَّ القرآن يخاطب الإنسان فى هذه الآية ويقول: يا أيها الإنسان أنك لا تعلم عن غدك شيئاً ولا تعلم فى أى أرض تموت، وعليه فكيف تتوقع أن تعرف عن جميع ما فى العالم وعلمك محدود؟!

(١). إنَّ جملة «ما أوتيتم من العلم إلا قليلاً» فسرت من قبل أغلب المفسرين بكونكم أوتيتم قليلاً من العلم، إلا أنَّ البعض فسرها بأنَّ قليلاً منكم أوتى علماً، إلا أنَّ هذا التفسير الأخير يتنافى مع ظاهر الآية التى تجعل المشركين وأهل الكتاب السائلين عن الروح مخاطباً لها فتأمل.

(٢). تفسير مجمع البيان، ج ٨، ذيل الآية ٣٤ من سورة لقمان.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٨٣

وقد تحدثت الآية الثالثة عن تسييح وحمد جميع الكائنات لله، فجميعها بلسان حالها وبالنظام الدقيق والعجيب الذى يهيمن عليها - تحمد وتثنى على الله وتشهد بزهته عن أى نقص وعيب، وتملاً - العالم بلسان حالها - أو بقولها إضافة إلى لسان حالها - بهممة التسييح والتحميد، وكل ذرة فى هذا العالم بلا استثناء لها عقل وعرفان وشعور خاص بها، تحمد الله وتثنى عليه بمعرفة، وقد شرحنا هذين الرأيين فى التفسير الأمثل (١).

وعلى أيّة حال، فنحن لا نستطيع فهم لسان حال الموجودات لأننا لا نعرف كل شيء عن أسرار هذا العالم ونظامه، كما لا نستطيع فهم ما تقول أيضاً.

و من هنا يتّضح أنّ العالم مليءٌ بالهمهمة والألحان الإلهية ونحن غافلون عن ذلك لأننا لم نحط به خبراً، وهذا دليل واضح على كون علمنا البشرى محدوداً.

ج ج

وتحدثت الآية الرابعة عن «الجهاد» وتقول للذين يكرهون الجهاد: أنتم تجهلون «الخير» و «الشر» ولا تميزون بينهما، فإنكم أحياناً ما تكونون في حرب مع مصالحكم وقد تتقدمون نحو الشر حباً ورغبةً فيه، وهذا دليل واضح على علمكم المحدود حيث إنكم لا تميزون أحياناً بين ما هو شرٌّ لكم وما هو خيرٌ لكم، إلّا أنّ الله يعلم ذلك وقد أوضح بواسطة الوحي (الذي هو أحد مصادر المعرفة) ويبيّن لكم ما فيه خير وما فيه شر.

إنّ الآية الخامسة مع إشارتها إلى عظمة خلق السموات والأرض أشارت إلى حقيقة أن خلقهما أعظم وأهم من خلق الإنسان، وأشارت أيضاً إلى عدم معرفة أكثر الناس لهذه القضية، هذا في الوقت الذي كانت فيه معلومات الإنسان بصورة عامة وفي الحجاز بصورة خاصة محدودة تجاه خلق السموات والأرض، ولعلمهم كانوا يتصورون النجوم آنذاك مسامير فضية في كبد السماء، واليوم حيث توسعت معلوماتنا تجاه خلق السموات والأرض، فإنها لا زالت محدودة.

(١). التفسير الأمثل، ذيل الآية ٤٤ من سورة الاسراء.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٨٤

والآية السادسة بعد أن أشارت إلى قضية الطلاق والعدّة وضرورة بقاء المطلقة في بيت الزوج عند إعتادها بالعدّة الرجعية، تقول: قد يحدث الله أمراً جديداً في هذه الأثناء أي اثناء مجاورتها لزوجها السابق، الأمر الذي قد يؤدّي إلى الصلح بينهما. والملفت للنظر هنا هو أنّ مخاطب الآية نفس الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله فإذا كان الرسول صلى الله عليه وآله مع علمه الواسع يُخاطب بخطاب كهذا فما حال باقي أفراد البشر؟!

وهذا دليل على قصور العلم البشرى إلى مستوى بحيث لا يستطيعون أن يعلموا بمستجدات يومهم اللاحق.

ج ج

وفي الآية السابعة يؤمر الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله بأن يقول: إني لا أملكُ نفسي نفعاً ولا ضرراً، وأن يعترف: إني لا أعلمُ الغيب (إلّا ما علمني الله) واني لو كنت أعلمُ الغيب لاستكثرت وازددت من الخير لنفسى وما مسنى ضرٌّ وما حصلت لى مشكلةً.

إنّ هذا الحديث قاله الرسول صلى الله عليه وآله عندما كان أهل مكة يسألونه عمّا إذا كان يوحى إليه فلم لا يعلم ما سيؤول إليه امر ارتفاع وانخفاض اسعار السِّلَع أو الجفاف وهطول الغيث في المناطق المختلفة كى يستريد من الخير وينتفع أكثر، فأجابهم: إنّ عالم الغيب هو الله وهو صاحب العلم غير المحدود.

عندما يعترف الرسول صلى الله عليه وآله مع علمه الواسع حيث يقول الله تعالى فيه «... وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ...». (النساء/ ١١٣) بأني لا أعلم من الغيب (وهو الأمر الخارج عن الحس) إلّا ما علمني الله فكيف حال بقيّة البشر؟

ج ج

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٨٥

والآية الثامنة بعد أن بينت أحكام إرث الأولاد والأب والأم في حالات مختلفة ذكرت:

حتى أنفسكم لا تعلمون أيّاً من الأب والأم أو الأولاد أنفع لكم؟ وأيهم أحق بأموالكم كي يخصص له سهم أكثر. نعم، لستم على بينة بمصالحكم الشخصية، لهذا السبب لا تستطيعون أن تسنوا قوانين دقيقة تليق بمقام الارث وغيره، إنّ المُقنّن يجب أن يكون الهاً محيطاً بكل أسرار الوجود، نعم، إنّ قصور علم البشر بدرجة لا يستطيع أن يسن قوانين تحافظ على مصالحه، ولهذا نرى أنّ القوانين البشرية في حالة تغيير دائمى، فإذا كان الإنسان يجهل مصيره إلى هذا الحد، فكيف به تجاه الموجودات الاخرى الموجودة في الكون؟

وأخيراً، فإنّ الآية التاسعة والأخيرة في البحث هذا تحدثت عن العلم الإلهي اللامتناهي، وصوّرت اللانهاية في الأذهان بحيث يستطيع حتى الذي لم ينل من العلم إلّا القليل بل وحتى الأمى أن يرسم في ذهنه صورة عنها، بالرغم من صعوبة تصور اللانهاية حتى للعلماء، حيث قالت: لو أنّ ما في الأرض من شجر يصير أقلاماً رغم أن الأشجار قد يصل عددها إلى مليارات (بل قد يُصنع الملايين من الأقلام من شجرة واحدة: وبالرغم من أنّ حوضاً صغيراً قد يملأ الملايين من الدواة فكيف بالمحيطات والبحار، وإضافة إلى هذا كله، لو اجتمعت الملائكة وكتاب الانس والجن على أن يكتبوا بهذه الأقلام وهذا الحبر كلمات الله وعلمه ما استطاعوا وسوف تنصرم الأقلام وينتهي الحبر وما زالت كلمات الله جلّ جلاله وعلمه في بداية الدفتر، هذا من جهة.

ومن جهة اخرى فأننا نعلم أنّ المراد من كلمات الله هو الكائنات الموجودة في العالم، وعلى هذا فالآية دليل واضح على سعة العالم وقصور علم البشر.

ج ج

نتيجة البحث:

إنّ ما يستخلص من الآيات السابقة هو أنّ معرفة الإنسان وعلمه رغم سعتها بحدّ ذاتها

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٨٦

ورغم أنّ علوم ومعارف البشر في حالة ازدياد في كل يوم بل كل ساعة ولحظة، ورغم امتلاء الدنيا بالمدارس والجامعات والمكتبات ومراكز التحقيق، رغم هذا كله فإنّ هذه المعلومات بالقياس إلى المجهولات كالقطرة بالنسبة للبحر.

إذا لم يكن الإنسان عارفاً بخيره وشره ونفعه وضره ولا يكُنّه روحه التي هي أقرب إليه من أى شىء آخر، ولا بالحوادث المقبلة عليه، ولا بساعة موته، فكيف يمكنه أن يعرف ما يدور في الكواكب البعيدة في العالم اللامتناهي.

ومما لا شك فيه أنّ جهل الإنسان بهذه الامور لا يعجزه بل لسعة الكون، وقد يكون انكار البعض لنظريه إمكان المعرفة نشأ من خلطهم بين هذه المسألة ومسألة قصور العلم البشرى واقترانه بالاختفاء.

إنّ القرآن كما يدعو إلى العلم والمعرفة ويؤكد على أن باب العلم مفتوح للجميع، يصرح بقصور العلم البشرى، هذا النقص والقصور اللذان يدعوانه إلى الاعتراف بعظمة الكون وخالقه وبحاجته إلى الرسل وأصحاب الوحي.

ونختم هذا الحديث بمقطع من دعاء الإمام الحسين عليه السلام المعروف بدعاء يوم عرفة، حيث يقول:

«إلهي أنا الفقير في غناي، فكيف لا أكون فقيراً في فقرى، الهى أنا الجاهل في علمى، فكيف لا أكون جهولاً في جهلى».

ج ج

إشارة

إنّ كون علم البشر محدوداً أمرٌ مسلم به وبديهى ولا يحتاج إلى دليل أو برهان لإثباته، إلّا أنّه بالالتفات إلى النقاط التالية يتّضح لنا الأمر أكثر:

١- إنّ قدرة حواس الإنسان محدودة، فالعين رغم أنّها أهم وسيلة للمعرفة في الامور الحسية فهي لا تستطيع رؤية شىء من بعيد، إضافة إلى أنّ عدد الألوان التى يشاهدها
نفحات القرآن، ج ١، ص: ٨٧

الإنسان محدودٌ جداً لأنّ الألوان ما فوق البنفسجية وما تحت الحمراء بالرغم من كثرتها فلا قدرة للعين على رؤيتها. كذلك بالنسبة للاذن فإنّها لا تسمع كل شىء بل تسمع أمواجاً صوتية محدودة، وبمجرد ارتفاع أو هبوط درجة تردد الأمواج فسوف لا تسمع شيئاً، وكذا الحال فى بقية الحواس.

إنّنا بالعين المجردة نستطيع رؤية عدّة آلاف من النجوم فى السماء فقط، بينما هناك المليارات من النجوم موجودة فى السماء. صحيح أنّ الوسائل العلمية ضاعفت من قدرة الحواس، إلّا أنّها هى بدورها محدودة القدرة أيضاً.

٢- إنّ قدرة إدراكنا وأفكارنا محدودة وما وراءها فهو مجهول عندنا على الاطلاق، وهذا الأمر يصدق حتى بالنسبة إلى أكثر الناس علماً وذكاءً فإنّ قدرة فكره وإدراكه تكون محدودة أيضاً.

٣- من جهة اخرى فإنّ العالم واسع بدرجة لا- يمكننا استيعابه، ونستطيع أن نقول: إنّ علمنا كلما ازداد، ازدادت عظمة العالم فى أذهاننا.

ولإدراك عظمة هذا العالم (إلى المستوى الذى يصل إليه فكرنا) يكفى أن نعرف أنّ المنظومة الشمسية والنجوم التى نشاهدها حولنا جزء من المجرة التى تسمى بدرب التبانة (المجرات أو مدن النجوم مجموعة ضخمة من النجوم التى تشكل عالماً خاصاً بحد ذاتها). وفى هذه المجرة- على ما يقول العلماء- يوجد أكثر من مائة مليار نجمة! والشمس بالرغم من عظمتها ونورانيتها فإنّها تعتبر من النجوم المتوسطة الحجم فى هذه المجرة.

ونفس هؤلاء العلماء يقرون- وبالاستعانة بالتلسكوب والحسابات الكمبيوترية- أنّ هناك مليار مجرة فى هذا العالم تقريباً! «١»

(١). جاء فى كتاب (هل وكيف ولماذا) أنّ الفلكيين يعتقدون بوجود عدد كبير وهائل من المجرات قرب مجرتنا وبعضها أكبر والبعض الآخر أصغر حجماً وقد كشفت التلسكوبات القوية والحاسوبات العادية للنجوم عن وجود مليار مجرة تقريباً فى هذا العالم.
نفحات القرآن، ج ١، ص: ٨٨

إنّ ذكر هذه الأرقام سهل على اللسان لكن ما أصعب تصورها؟! وينبغى أن لا ننسى أنّ معلوماتنا عن هذه المجرات والنجوم الهائلة تدور حول محور الأرض فكيف بنا إذا تجاوزنا هذا المحور؟!

٤- ومن جهة ثانية فإنّ عالمنا هذا له بداية ونهاية فلا يعلم أحد عن المليار سنة الماضية ولا عن المستقبل شيئاً، فهو كالسلسلة بدايتها الأزلى وتمتد إلى عمق الأبد، وما نعرفه هو حلقة واحدة من هذه السلسلة وهى الحلقة التى نعيش فيها، وما ماضيها أو مستقبلها إلّا كشيح مرسوم فى أذهاننا.

صحيح أن الإنسان- وبدافع من فطرته- فى سعى مستمر لتحصيل علم أكمل وأشمل عن نفسه وعن العالم، وأنه قد جمع خلال آلاف السنين الماضية معلومات كثيرة ادخرها فى خزائن مكتبات العالم الكبيرة والصغيرة.

وصحيح أنّ بعض المكتبات كبيرة إلى مستوى بحيث يصل مجموع طول رفوف الكتب فيها إلى مائة كيلومتر (كما هو الحال بالنسبة

لمكتبة المتحف الانجليزي)! وقد يصل عدد الكتب في بعضها إلى ستة ملايين كتاباً (كما هو الحال بالنسبة لمكتبة باريس)، بل قد يصل عدد الكتب في بعضها إلى خمسة وعشرين مليوناً (كما هو الحال بالنسبة للمكتبة الأمريكية المعروفة)، وقد تصل فهارس الكتب فيها إلى حجم مكتبة كبيرة، وقد يصل الأمر بالبعض أن يستعمل وسائل النقل للتنقل فيها من مكان إلى آخر! لكن بالرغم من كل هذه المعلومات عن العالم وأسراره، فإن مجموعها لا يشكل إلا كقطرة من محيط كبير للغاية.

ج ج

ولا بأس أن نشير هنا إلى شهادات بعض العلماء في هذا المجال كى يعرف القارىء أن ما ذهبنا إليه معترف به عند الجميع.

١- يقول «كريس موريس» الطبيب والعالم النفساني في كتابه «سر خلق الإنسان»:

«عندما نفكر بالفضاء اللامتناهي، أو الزمان السرمدي، أو الطاقة العجيبة المودعة في

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٨٩

الذرة، أو بالعوالم غير المحدودة والتي تسبح فيها كواكب كثيرة، أو بقدرة تشعشع بعض الكواكب، أو بقوة جاذبية الأرض، أو بالقوانين الاخرى التي يرتبط قوام العالم بها، عندما نفكر بهذه ندر كمدى ضعفنا ونقصان علمنا» (١).

٢- ويذكر الدكتور «الكسيس كارل» في كتابه «الإنسان ذلك المجهول»:

«إن المساعي التي بذلت في العلوم التي اطلع عليها الإنسان لم تصل إلى نتيجة مطلوبة، ومعرفتنا لأنفسنا ما زالت ناقصة إلى حد كبير» (٢).

ولهذا السبب جعل «الإنسان ذلك المجهول» عنواناً لكتابه القيم، فإذا كانت معرفة الإنسان عن نفسه محدودة إلى هذه الدرجة، فواضح حال معرفته عن الأكوان والعوالم الاخرى.

٣- ويقول العالم المعروف «وليام جيمس»:

«علمنا قطرة، وجهلنا بحر عظيم».

٤- ويقول الفلكي المعروف «فلا ماريون»:

«أستطيع أن أهيبء أسئلة ولمدة عشر سنوات عن مجهولات لا تستطيعون الإجابة عليها» (٣)!

٥- ويضيف في كلام آخر له:

«نحن نفكر لكن ما هو فكرنا؟ ونمشى، لكن ما هو عملنا العضلي هذا؟ لا أحد يعلم بذلك.

أرى أن إرادتي قدرة غير مادية، لكنني عندما أريد أن أرفع يدي أرى أن الإرادة غير المادية تحرك يدي والتي هي عضو مادي، كيف يحصل هذا؟ وما هي الواسطة التي تحول

(١). سرّ خلق الإنسان، ص ٨٧ (بالفارسية).

(٢). الإنسان ذلك المجهول، ص ٥.

(٣). على اطلال المذهب المادي، ص ١٣٨.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٩٠

الطاقة غير المادية إلى مادية؟ لا يوجد من يجيب على هذا السؤال» (١).

إذا كانت معلوماتنا تجاه أوضح وأبسط الامور العادية هكذا، فما هو الحال بالنسبة للقضايا المعقدة أو البعيدة عن متناول أيدينا زماناً ومكاناً.

٦- يقول «انشتاين» الرياضى المعروف والمكتشف للنظرية النسبية والتبعد الرابع، في أحد كتبه:

«لقد علمنا كتاب الطبيعة الذي نقرأه الكثير من الأمور وقد عرفنا أسس لغة الطبيعة ...

لكن رغم قراءة تلك المجلدات وفهمنا لها فإننا مازلنا بعيدين عن كشف أسرار الطبيعة» (٢).

وينبغي هنا إضافة هذه الجملة على الشهادات السابقة:

من العجيب حقاً أن كل اكتشاف جديد يحصل في هذا العالم يزيد من مجهولات الإنسان، وبعبارة أخرى إن اكتشافات العلماء في مختلف المجالات كالاكتشاف مكتبة جديدة، أو اكتشاف كنز قيم في نقاط مختلفة من الأرض.

وبديهي فإننا إذا اطلعنا على وجود مكتبة في إحدى المدن، أو كنز قيم في خربة فقد أزلنا النقاب عن مجهول واحد، لكن الآلاف من المجاهيل تكشف عن نفسها من خلال هذا الاكتشاف، مثل عدد الكتب ومحتواها وكتابتها وشخصياتهم وقضايا أخرى من هذا القبيل، كذا الحال بالنسبة للكنز فإذا اطلعنا على وجوده تبلورت في أذهاننا مجاهل أخرى عنه مثل نوعيته ومحتواه

ولا نذهب بعيداً، فإن عالم الكائنات المجهرية (المكروبات والبكتريا والفيروسات) كان في يوم ما مجهولاً كلياً، وعندما خطا (باستور) الخطوة الأولى عند كشفه لبعض من هذه الكائنات تجلى أمامه عالم كبير من المجهولات.

إن اكتشاف الكواكب «اورانوس» و «نبتون» و «بلوتون» في المنظومة الشمسية وكذا

(١). على اطلال المذهب المادي، ص ١٣٨.

(٢). خلاصة الفلسفة النسبية.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٩١

كشف المجرات الجديدة كلها من قبيل كشف (باستور) لعالم الكائنات المجهرية، ومن هنا يجب الاذعان والاعتراف بأن العلوم البشرية كنور شمعة وان حقائق هذا العالم العظيم كنور الشمس بل أعظم من ذلك!

ومن هنا ينبغي القول: «سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا». (البقرة / ٣٢)

ونختم هذا الحديث بكلام عظيم لمتكلم عظيم ألا وهو الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، حيث يقول في خطبة الأشباح:

«واعلم أن الراسخين في العلم هم الذين أغناهم عن اقتحام السُّدِّدِ المضرَّوبِ دون الغيوب، الاقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب، فمدح الله - تعالى اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً، وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخاً، فاقتصر على ذلك ولا تُقدِّرْ عظمة الله سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين!» (١).

ج ج

تذكير:

إن الالتفات إلى كون علم البشر محدوداً له آثار ونتائج إيجابية بناءً، نذكرها هنا:

١- الحد من الغرور العلمي: نعلم أن البشر قد واجه مصائب كثيرة من جراء الغرور العلمي، ومثاله ما ظهر في حدود القرن الثامن عشر الميلادي في اوروبا فعندما حصلت قفزة في العلوم الطبيعية آنذاك، تصور بعض العلماء أن جميع ألغاز الكون قد حلت وأن أسرارها قد كشفت، ولهذا أنكروا كل شيء يكمن وراء معلوماتهم، بل سخروا من جميع الأمور التي لا تدخل في اطار معلوماتهم، وقد وصل انكارهم إلى حدٍ سخروا من وجود الروح حيث قال بعضهم: لا تؤمن بوجود الروح مالم نشاهدها تحت سكاكين الجراحة في غرفة العمليات، أو بما أن الله لا يدرك بالحس فلا وجود له!

إن هذا النوع من الغرور خلق مشاكل كثيرة، والأمر الوحيد الذي يمكنه أن يحطم هذا

(١). نهج البلاغة، الخطبه ٩١.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٩٢

الغرور العلمى هو الالتفات إلى ضآله العلوم البشرىة بالقياس إلى المجهولات، طبقاً للأدلة التى ذكرت سابقاً. إن الالتفات إلى هذه الحقيقة هو الذى جعل العلماء المتعمقين يعترفون بما قاله أحدهم:

«إن علمى وصل إلى مستوى بأتى أعلم أنى لا أعلم» و «معلوماتى صفر والمجهولات بالقياس لها غير متناهية».

٢- الحركة العلمية الأسرع: إن الالتفات إلى هذه الحقيقة يسوق الإنسان نحو السعى الحثيث والجهاد المخلص والمتواصل لحل ألغاز عالم الوجود، خاصة وأنه يرى أن أبواب العلم مفتوحة أمامه، ولا ييأس من الحصول على علوم أكثر.

ومن الواضح أن الإنسان لا يسعى وراء الكمال ما لم يشعر بالنقص، ولا يبحث عن الدواء ما لم يحس بالمرض، ولهذا يقال: إن الاحساس بالألم احدى نعم الله العظيمة، وان أسوء الأمراض هى تلك التى لا يصحبها الألم لأن المريض لا يطلع على المرض إلا بعد أن ينقض عليه ويهلكه.

إن الالتفات إلى ظنالة العلم البشرى يخلق عند الإنسان رد فعل إيجابى يدفعه نحو التحقيق والتفحص أكثر فأكثر، وقد يكون هذا الأمر هو أحد أهداف القرآن الكريم عند تأكيده على نقصان العلم البشرى.

٣- الالتفات إلى مبدأ أسمى من الآثار الإيجابية التى يتركها الاحساس بالنقص العلمى عند كل فرد هو أن الإنسان شاء أم أبى يجد نفسه بحاجة إلى مبدأ أعظم تكون عنده جميع أسرار العالم مكشوفة، وألغازه محلولة، إن هذه القضية تهىء الأرضية لقبول دعوة الأنبياء، وتفتح أمامه سبلاً للاهتمام بالمصادر والطرق العلمية التى تفوق علم البشر.

على أية حال، إن الالتفات إلى كون علم البشر محدوداً مع غض النظر عن كونه حقيقة، له آثار تربوية وإيجابية جمه.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٩٣

مصادر وسبل المعرفة

إشارة

(مصادر المعرفة الستة)

الحس والتجربة

العقل والتحليل المنطقى.

التاريخ والآثار التاريخية.

الفطرة والوجدان

الوحى السماوى

الكشف والشهود

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٩٥

تمهيد:

بعد ما ثبت لنا إمكان المعرفة وإمكانية الوصول إليها إجمالاً، جاء الدور للبحث عن سبل المعرفة، وتعبير آخر عن مصادرنا ومنابعها

التي تمكننا من معرفة الحقائق الموجودة في العالم، لأننا بالاستعانة بهذه السُّبُل يمكننا تبديل «الواقعات» إلى «حقائق»، بواسطة هذه المعالم وذلك لأنَّ كلاً من هذه السُّبُل معلم وهادٍ يرفع الحجاب عن أسرار العالم ومجهولاته. وقبل كلِّ شيء ينبغي معرفة رأى القرآن في هذه المسألة، لأنَّ محور دراستنا هذه هو التفسير الموضوعي والتحقيق حول تعليمات القرآن الكريم.

وقد وصلنا بالتحقيق والتتبع الدقيق في الآيات المختلفة والمنتشرة في القرآن الكريم إلى هذه النتيجة وهي أنَّ طرق المعرفة ومصادرها في القرآن الكريم تتلخص في ستة أمور:

١- الحس والتجربة (الطبيعة).

٢- العقل والتحليل المنطقي.

٣- التاريخ والآثار التاريخية.

٤- الفطرة والوجدان.

٥- الوحي السماوي.

٦- الكشف والشهود.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٩٧

١- الحس والتجربة

إشارة

لنمعن النظر خاشعين في البدايه إلى الآيات الكريمة التالية:

١- «أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ . (ق / ٦)

٢- «أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ...». (الاعراف / ١٨٥)

٣- «أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى الْأَبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَالْيَ السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَالْيَ الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ . (الغاشية / ١٧ - ٢٠)

٤- «فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ...». (الروم / ٥٠)

٥- «فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ . (الطارق / ٥ - ٦)

٦- «فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنبًا وَقَضْبًا . (عبس / ٢٤ - ٢٨)

٧- «أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ . (الشعراء / ٧)

٨- «أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ . (السجدة / ٢٧)

٩- «سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ...». (فصلت / ٥٣)

١٠- «أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ أَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ . (الملك / ١٩)

١١- «وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ . (الذاريات / ٢٠ - ٢١)

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٩٨

١٢- «وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . (النحل / ٧٨)

ج ج

إن الآيات الواردة في هذا المجال كثيرة جداً، وما ذكر هنا نماذج واضحة في مجالات مختلفة «١».

شرح المفردات:

إن كلمة «ملكوت»- على ما يقوله الراغب في مفرداته- مصدر «مَلَك» وقد اضيفت لها التاء، وتستعمل في الإشارة إلى (ملك الله) فقط دون غيره، بينما جاء في «مجمع البحرين» و «لسان العرب» أن الملكوت يعنى «العزة والسلطنة»، ويقول البعض: إنها اشتقت من «مَلَك» على وزن «حُكْم» وتعنى «الحكومة والملكية»، و اضيفت لها التاء والواو للمبالغة.

وكلمة «قضب» على وزن (جَئِذْب)- وكما جاء في لسان العرب- فى الأصل تعنى «قطع» بحيث قال بعض المفسرين: إنها تعنى الخضروات التى تُحصَد فى فصول مختلفة «٢».

وكلمة «جُرْز» تعنى الأرض الفاقدة للنباتات، أو الأرض التى لا ينبت فيها نبات، و «جَرَزَ» على وزن (مَرَض) وتعنى القَطْع ونقل صاحب «لسان العرب» عن بعض أئمة اللغة أن الأرض الجرز تطلق على الأرض التى قلع نباتها أو انقطع عنها المطر.

(١). يمكن الرجوع إلى الآيات التالية: الاعراف، ١٨٥؛ ويوسف، ١٠٩؛ الروم، ٩؛ غافر، ٦؛ النحل، ٧٩؛ الشعراء، ٧؛ الاحقاف، ٣٣؛ الملك، ١٩؛ يس، ٧٧؛ الأنعام، ٦؛ النحل، ٧٨؛ المؤمنون، ٧٨؛ ق، ٣٧؛ الاحقاف، ٢٦؛ هود، ٢٤؛ غافر، ٢١؛ محمد، ١٠.

(٢). تفسير الميزان، ج ٢، ص ٣١٦؛ تفسير مجمع البحرين، ج ١٠، ص ٤٤٠. نُقِلَ عن ابن عباس أن المراد من «القضب» فى الآية هو «الرطب» الذى يقتطف من النخيل لكن بالنظر إلى الآية الأخرى التى أشارت إلى نفس الكلمة فإن هذا التفسير بعيد. وقال البعض: يحتمل أن يكون المراد منها هو فواكه الشجيرات مثل الخيار والرقي، أو جذور بعض المزروعات مثل الجزر والبطاطس.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٩٩

وأما كلمة «افتدة» جمع «فؤاد» وتعنى القلب- كما يقول الراغب- إلّا أن الفؤاد يطلق على القلب الذى له حالة إنارة وإضاءة، وهذا أمر ملفت للنظر حيث يعد الله القلب المنور والمنير من مواهبه، وجدير بالذكر أن صاحب «لسان العرب» ذكر أن أصلها جاء من «فأد» على وزن (وَعَد) ويعنى المشوى، وعلى هذا تكون كلمة «فؤاد» إشارة إلى العقول التى تتحلى بالأفكار الناضجة!

ج ج

جمع الآيات وتفسيرها

فى الآية الاولى يدعو الله الإنسان إلى الالتفات إلى السموات والأرض وجمالهما وكيفية بنيانهما والنظام الذى يتحكم بهما وإحكامهما واتقانها وخلوهما من العيب.

وفى الآية الثانية يدعو الله الناس إلى مشاهدة نظام السموات والأرض والكائنات، وذلك لإيقاظ القلوب للسير فى طريق التوحيد ومعرفة الخالق.

والآية الثالثة تلقى نظرة من السماء إلى الأرض حيث تلفت نظر الإنسان إلى شيئين:

أحدهما خلق الإبل وعجائب هذا الخلق (بالخصوص لئناس يعيشون فى محل نزول القرآن).

والآخر تسطیح الأرض بحيث تصلح الحياة عليها، ويعتبر القرآن المشاهدة فى جميع هذه المراحل منبعاً مهماً للمعرفة.

وفى الآية الرابعة التى يخاطب الله فيها الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله يلفت نظره إلى مسألة نزول الغيث وإحياء الأرض بعد

موتها ويقول له: «فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها».

وفى الآية الخامسة يشير الله إلى مبدأ خلق الإنسان وأنه يجب أن ينظر من أى شىء خُلِقَ؟ قد خلق من ماء دافق، ويذكر المشاهدة هنا كوسيلة للمعرفة كذلك.

وفى الآية السادسة يأمر الله الإنسان بأن ينظر إلى غذائه وطعامه كيف نبت وشق الأرض

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٠٠

وخرج النبت من التربة بواسطة نزول المطر فصارت الحبوب والفواكه والخضروات، فإذا نظرنا إليها ودققنا فى كل ورقة من أوراقها لوجدناها كتاباً وسفراً يحكى لك عن معرفة الله.

ج ج

والآيات الست السابقة تدعو إلى «النظر» بينما الآيات الخمس التى بعدها تدعو إلى «الرؤية» بالرغم من أن كلا من هذين الاصطلاحين فى كثير من الأحيان يستعملان بمعنى واحد، إلا أنه كما يستفاد من قواميس اللغة المعروفة- يطلق «النظر» على حركة العين والتفحص والدقة فى مشاهدة شىء، بينما تطلق «الرؤية» على نفس المشاهدة «١»، بالطبع أن كلا المفردتين تستعملان بمعنى المشاهدة الحسية تارة وبمعنى المشاهدة الذهنية والفكرية تارة اخرى، إلا أنه ينبغى الالتفات إلى أن المعنى الأولى لهما هو المشاهدة الحسية. وعلى أية حال، فإن الآية السابعة تدعو المشركين لمشاهدة مختلف النباتات التى تنبت أزواجاً أزواجاً فى أرجاء المعمورة. والآية الثامنة تدعو المشركين كذلك إلى رؤية مياه البحار ومصدرها تلك القطرات العالقة فى الغيوم وهطولها منها على الأرض اليابسة وخروج الزرع الذى يستفيدون منه هم وأنعامهم.

وقد أشارت الآية التاسعة إلى جميع آيات «الآفاق» و «الأنفس»، وهى آيات الله فى هذا العالم العظيم وفى العالم الصغير وهو وجود الإنسان، وقالت: نحن نريكم آيات الآفاق والأنفس كى يتبين لكم الحق ويتضح.

والآية العاشرة دعت إلى مشاهدة الطيور وكيفيه طيرانها فى السماء، فتارة صافات اجنحتها وتارة اخرى قابضات، وهذا الأمر هو الذى يجعلها تطير فى السماء خلافاً لجاذبية الأرض، كما أن طيرانها بسرعة تارة بصف الأجنحة واخرى بقبضها، وكأن هناك قدرة خفية تدفعها إلى الأمام، ولكل من الطيور شكلها الخاص بها والوسائل الضرورية لحياتها.

(١). يراجع مفردات الراغب ولسان العرب مادة «نظر».

نفحات القرآن ج ١ ص ١٤٩

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٠١

والآية الحادية عشرة لفتت الأنظار إلى مسألة خلق الأرض ومن ثم خلق الإنسان الذى يعتبر خلقه عالماً عظيماً مليئاً بالضجيج رغم صغر حجمه، وأثبت الذين لا يبصرون رغم أنهم قادرون على الإبصار بخطاب «أفلا يبصرون».

(ينبغى الالتفات إلى أن «البصيرة» جاءت من مادة «بصر» الذى يعنى «العين» إن «بصر العين»، ورغم استعمالها بمعنى «النظر» و «الرؤية» إلا أنها تختلف عنهما بالتأكيد على عضو البصر وقوته، لكنها كالمفردتين السابقتين قد تستعمل بمعنى المشاهدة الباطنية والفكر).

وأخيراً، فإن الآية الثانية عشرة تؤكد على الأعضاء الثلاثة أى الأذن والعين والقلب التى تعتبر ثلاثة أعضاء أساسية للمعرفة وهذا دليل واضح على اعتبار المشاهدة والحس من المصادر الأساسية للمعرفة.

النتيجة:

إن الآيات السابقة والتي غالباً ما تحدثت عن قضية التوحيد ومعرفة الله، أمرت الناس بأن يفتحوا أعينهم أثناء سلوك طريق المعرفة

والتوحيد من أجل الوصول إلى الهدف، عندها سيرون اسم «الله» على جبين كل موجود في هذا العالم، ويشاهدون الأنظمة الدقيقة والغريبة التي تتحكم بالعالم، ومن ثم يصلون - بواسطة برهان النظم - لا إلى معرفة ذات الله فحسب، بل صفاته وتوحيده وتدييره وقدرته وعلمه اللامتناهي.

وبالنظر إلى أن أهم مسألة في الإسلام هي مسألة التوحيد ومعرفة الله، وأن أهم دليل في القرآن على المعرفة هو برهان النظم، وأهم منبع لبرهان النظم هو الطبيعة والمخلوقات فمن هنا تتضح أهميته الحس والمشاهدة والتجربة من وجهة نظر القرآن الكريم. وقد استعان القرآن كثيراً بـ «المشاهدة الحسية» ليس في مسألة التوحيد فحسب بل في مسألة المعاد أي ثاني أهم مسألة في الإسلام أيضاً، وقد صور لنا لقطات من المعاد بالاستعانة بنفس الطبيعة المشهودة لنا، كما جاء ذلك في سورة (ق) حيث يقول تعالى

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٠٢

«وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ* ... وَآخِيتْنَا بِهِ بَلَدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ : أى فى يوم القيامة. (ق/ ٩ و ١١) كما- وأنه للكشف عن عاقبة الظلم والجور وأهلهم- دعا الله الناس لمشاهدة ما خلف هؤلاء من آثار ومشاهدة مدنهم الخربة. هذا كله تأكيد من القرآن على ضرورة الاستعانة بـ «الحس والمشاهدة» كمصدر للمعرفة.

توضيح

الفلاسفة ومصدر الحس:

هناك اختلاف كبير فى وجهات نظر الفلاسفة فيما يخص قضية اطلاعنا على العالم الذى يحيط بنا وما هى المراحل التى نطويها للوصول إلى هذه المعرفة؟ ومن أى مصدر تصل أذهاننا؟ إن أكثر الفلاسفة عدوا الحس أحد مصادر المعرفة رغم ظهور قطبين على طرفى الإفراط والتفريط فى هذا المجال.

١- «الحسيون» حيث يعتبرون الحس الطريق الوحيد للمعرفة وينكرون المصادر الاخرى كالعقل.

«إن هؤلاء الذين ظهروا فى القرن السابع عشر أنكروا قيمة البرهان القياسى العقلى، واعتبروا اسلوب التجربة الاسلوب الوحيد والسليم والمعتمد عليه فى هذا المجال، وتعتقد هذه المجموعة بعدم أصالة وتجذر الفلسفة النظرية العقلية المستقلة عن العلوم التجريبية، ويعدون العلم ثمرة الحواس فقط، والحواس لا تتعلق بالباطن وعوارض الطبيعة، إذن لا اعتبار للمسائل الفلسفية الأولية، وذلك لأنها نظرية وعقلية بحتة وتتعلق بالامور غير المحسوسة، ولا يدرك الإنسان هذه المسائل نفيًا أو إثباتًا» (١).

(١). اصول الفلسفة والمنهج الواقعى للشيخ المطهرى، ج ١، ص ٦ (مع تلخيص قليل).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٠٣

إن الماديين ومن ضمنهم أتباع المذهب «الديالكتيكى» من المتحمسين لهذه النظرية، فهم يقولون:

«إذا انقطعت جميع قنوات التأثير الخارجى عن حسنا، فهذا يعنى أنا سوف لا نعرف شيئاً، وسيعجز الذهن عن جميع نشاطاته، وتبقى معرفة الواقعيات أمراً محالاً، وعلى هذا فالحس منشأ المعرفة ومبنى أحكامنا اتجاه أى مسألة، فينبغى القول أن الحس منبع المعرفة بل منبعها الوحيد» (١).

٢- المجموعة الاخرى هى التى تقع فى الطرف المقابل للمجموعة الاولى تماماً وهى التى لا تولى أى أهمية للحس فى مجال المعرفة. يقول «ديكارت»: «لا نستطيع الوثوق بالمفاهيم التى وصلتنا من الخارج بواسطة الحواس الخمسة بأن لها مصداقاً خارجياً أم لا، وإذا

كان لها مصداق فلا يقين لنا بتطابقه مع الواقع» (٢).

مسار الحكمة في اوربا: «يعتقد (ديكارت) أنّ محسوسات الإنسان لا تتطابق مع الواقع، وأنّ الحس هو وسيلة ارتباط بين جسم الإنسان والخارج، ويرسم لنا صورة كاذبة عن العالم، فهو يعتقد أنّ المفاهيم النظرية هي أساس العلم الواقعي» (٣).
والخلاصة: أنّ هذه المجموعة تعتقد أنّ المعقولات فقط لها قيمة علمية يقينية، أمّا المحسوسات فلها قيمة علمية غير يقينية (٤).
إنّ المجموعة الأولى تستند إلى أخطاء العقل النظرى والاختلاف الفاحش بين العلماء في المسائل العقلية، بينما تستند المجموعة الثانية إلى أخطاء الحواس، حيث يذكرون أعداداً لا تحصى من أخطاء حاسة البصر التي تعتبر أهم وأوسع حس للإنسان.

(١). المادية الديالكتيكية «نيك آئس»، ص ٣٠٢، (ملخص) - بالفارسية -.

(٢). مسار الحكمة في اوربا، ج ١، ص ١٧٢ (مع تلخيص) - بالفارسية -.

(٣). المصدر السابق.

(٤). اصول الفلسفة، المقالة الرابعة (قيمة المعلومات).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٠٤

لكن ممّا لا شك فيه أنّ كلتا المجموعتين خاطئتان، ونوضح ما ندعيه بصورة مركزة فنقول:

بالنسبة للحسين يمكن حصر أهم إشكالاتهم في النقاط التالية.

١- إنّ كلّ إنسان عند مشاهدته للموجودات الخارجية يواجه مجموعة من الحوادث والقضايا الجزئية لا- يمكن الاستفادة منها للاستدلال، لأنّ كل استدلال يجب أن يستند إلى قضية كلية.

ومن هنا تبدأ مسؤولية العقل، حيث يقوم بصياغة قضايا كلية من هذه الجزئيات، فمثلاً نلاحظ أنّ قطعة الحجر تكسر الزجاج العادي في ظروف مختلفة، فهذه الحوادث الجزئية الحاصلة بالحس تنتقل إلى العقل، فيصوغ العقل قاعده كلية تجاه هذه المسألة، وكذلك الأمر بالنسبة للتجربة في الظروف والازمنة والأمكنة المختلفة التي تكشف عن أنّ الضوء ينتشر بصورة خط مستقيم، فالعقل يصوغ قاعدة كلية من هذه الحوادث الجزئية لا وجود لها في الخارج والموجود في الخارج هو مصاديقها لا ذاتها.

وعليه فالإدراكات الحسية كالمواد الخام التي قد «تتحلل» وقد تتركب في مختبر العقل، ومن خلال هاتين العمليتين نحصل على المفاهيم الكلية التي يستفاد منها في المنطق والاستدلال.

٢- ممّا لا شك فيه أنّه ينبغي الاستفادة من العقل لإصلاح الأخطاء الناشئة من خطأ الحواس، فعندما نقول:

فإذا اخطأ البصر في رؤية الأشجار المتوازية متقاطعة من بعيد فإنّ المعيار في تشخيص وإدراك الخطأ هذا هو العقل.

صحيح أنّ تمييزنا لهذا الخطأ يستند إلى الحس أيضاً حيث إنّنا ندرك خطأ بصرنا من بعيد لأننا طوينا الشارع من اوله إلى آخره عدّة مرّات وشاهدنا الأشجار في طول الشارع متوازية ولم تلتق في مكان، لكن هذا الاستدلال الذي يستند إلى الحس يقوى عندما يقول لنا العقل إنّ اجتماع النقيضين محال، ويقول بامتناع أن تكون الأشجار متوازية ثم تلتقى في

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٠٥

نقطة واحدة، فاستدلنا بهذا الشكل يثبت لنا خطأ ما نشاهده من بعيد. في الحقيقة إنّ قضية امتناع اجتماع النقيضين التي تدرك بالعقل تشكل حجر الأساس لجميع الاستدلالات، وعليه فلا يؤخذ بالدليل الحسي دون الاستناد إليها.

٣- فضلاً عما سبق، فإنّ ما ندركه بالحس هو ظاهر الأشياء، وما نرى من الجسم بالحس مجرد مظهره لا شيء آخر، وعليه فبدون تدخل الإدراكات العقلية لا نستطيع معرفة حقيقة الجسم.

قد يقال: إنّ الحواس لا دور لها لوحدها بل يجب الاستعانة بالإدراكات العقلية حتى في العلوم التجريبية، لكن ينبغي الاذعان إلى هذه

الحقيقة- وهي أن جميع الإدراكات العقلية حصلت بواسطة الحواس وكما يقول «جان لوك» الفيلسوف الانجليزي المعروف: «لا شيء في العقل لم يوجد قبله في الحس».

إن هذه الجملة التي أصبحت مثلاً وبقيت ذكرى منه تدل على أن الذهن كان كاللوحة البيضاء في البداية وقد ينقش عليها بعد ذلك بواسطة الحواس، وأن لا وظيفة للعقل غير «التجريد» و «التعميم» أو «التحليل» و «التركيب» لمدرجات الحواس.

لكن هذا خطأ فظيح، وذلك لأن علمنا بأنفسنا (الذي هو علم حضوري) لم يحصل بواسطة الحواس، كذلك علمنا بوجود الحواس، أو علمنا باستحالة اجتماع النقيضين لم يحصل عن طريق الحواس، فنحن ندرك محالة أن نكون موجودين ومعدومين في آن واحد وإن لم نملك حواساً، كذا الأمر بالنسبة لقضايا أخرى لا حاجة فيها إلى الحواس.

وتوجد أبحاث كثيرة في هذا المجال لو أسهبنا فيها لابتعدنا عن هدف هذا الكتاب، وتَطَرُّقنا لبعضها هنا كان بهدف توضيح نظريتي «الحسين» و «العقليين» الذين حصروا سبل المعرفة في بُعد واحد، وأن نظريتهما سقيمتان وأن كلاً من «الحس» و «العقل» يشكلان منبعاً ومصدراً للإدراك، كما انعكس ذلك في القرآن المجيد.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٠٧

٢- العقل و التحليل المنطقي

تمهيد:

في القرآن الكريم تعابير كثيرة استعملت للإشارة إلى هذا المصدر كما يشاهد الكثير من الآيات التي تدعو الناس إلى المعرفة بالاستعانة ب «التفكير».

ونذكر هنا بعض تلك التعابير التي استعملت للإشارة إلى هذا المصدر المهم للمعرفة:

١- العقل.

٢- اللب (وجمعها ألباب).

٣- الفؤاد.

٤- القلب.

٥- النهي

٦- الصدر.

٧- الروح.

٨- النفس.

كما أن هناك تعابير استعملت في القرآن لبيان مهمة العقل مثل:

٩- الذكر.

١٠- الفكر.

١١- الفقه.

١٢- الشعور. نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٠٨

١٣- البصيرة.

١٤- الدراية.

والآن نبحت كلاً من العناوين السابقة في ضمن بحثنا عن الآيات التي وردت فيها تلك التعبيرات «١».

ج ج

لنمعن خاشعين أولاً في الآيات التالية:

١- «كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . (البقرة/ ٢٤٢)

٢- «أَنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولَى الْأَبْصَارِ .

(آل عمران / ١٩٠)

٣- «وَاللَّهُ اخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . (النحل / ٧٨)

٤- «وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَوْمٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَيَلًا مِنْ مَّحِيصٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَمَذَكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى

السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ». (ق / ٣٦-٣٧)

٥- «كُلُوا وَارْزُقُوا أَنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّأُولَى النَّهْيِ . (طه / ٥٤)

٦- «بَلْ هُوَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فِي سُذُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ .

(العنكبوت / ٤٩)

٧- «فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتَ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ».

(الحجر / ٢٩) و (ص / ٧٢)

(١). إضافة إلى العناوين والتعبيرات السابقة التي اشير إليها، هناك تعبيرات استعملت في القرآن وأريد بها مراحل الإدراك مثل: الظن والزعم والحسبان واليقين، وعلم اليقين وعين اليقين وحق اليقين، والتي تبدأ بمرحلة هشه ومتزلزله من الإدراك وتنتهي باليقين الذي هو أعلى مراحل الإدراك ولا يتصور درجه ومرحلة أعلى منه.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٠٩

٨- «وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا». (الشمس / ٧-٨)

٩- «... وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . (البقرة/ ٢٢١)

١٠- «قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ . (الأنعام / ٥٠)

١١- «انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ . (الأنعام / ٦٥)

١٢- «وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أحياءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ .

(البقرة/ ١٥٤)

١٣- «أَنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ .

(الاعراف / ٢٠١)

١٤- «وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ .

(لقمان / ٣٤)

شرح المفردات:

«العقل» كما جاء في لسان العرب ومفردات الراغب- من العقال أى الحبل الذى يُشدُّ به ساق البعير لمنعه من الحركة وبما أن العقل يردع الإنسان عن القيام بالأعمال المشينه اطلقت هذه المفردات عليه.

وقد ذكر صاحب الصحاح أنها تعنى «الحُجر» «المنع» بينما قال البعض كصاحب القاموس: إنها تعنى «العلم بصفات الأشياء كالحسن والقبح والكمال والنقص»، أما صاحب مجمع البحرين فقد فسّر العاقل بانه: «الذى يستطيع أن يسيطر على نفسه ويتغلب على أهوائه وميوله».

ويظهر أن معناه الأولى هو الصد والمنع ولهذا يقال لمن امتنع لسانه عن النطق «اعتقل لسانه» كما يقال «للديء» «عقل» لأنها تحول دون إهراق دماء أكثر، ويقال للمرأة العفيفة والمحجبة والطاهرة «عقيلة».

نقحات القرآن، ج ١، ص: ١١٠

يقول «الخليل بن أحمد» فى كتابه «العين»: إنَّ العقل يطلق على القلعة والحصن أيضاً.

كما نلاحظ هنا فإنَّ مفهوم الحجر والمنع متضمّن لجميع هذه المعانى، وعليه فإنَّ أصله يعنى المنع.

أما كلمة «اللب» وجمعها «الألباب» - كما يقول كثير من أهل اللغة - يعنى الخالص والصفوة من كلِّ شيء، ولهذا يطلق على المرحلة الرفيعة من العقل «اللب»، فإنَّ كل لب عقل لكن ليس كل عقل لباً، لأنَّ اللب هو العقل فى مراحل الرفيعة والخالصة، ولهذا السبب نَسَبَتْ أمور القرآن الكريم إلى «أولى الألباب» لا - تدرّك إلّا بالمرحل الرفيعة من العقل، كما يطلق اللب على باطن كثير من الفواكه لأنَّه خالص من القشر (١).

وإنَّ كلمة «الفؤاد» - كما أشرنا سابقاً - من مادة «فأد» على وزن (وَعَد) وفى الأصل معناه وضع الخبز على الرماد أو الحصى الحارة، كى يُخبز جيداً، كما يطلق على طبخ وشوى اللحم (٢).

وعلى هذا فالعقل عندما ينضج يطلق عليه «فؤاد» وجمعه «أفئدة».

ويضيف الراغب فى مفرداته: إنَّ «الفؤاد» يعنى القلب مع زيادة وهى الإنارة واللمعان.

إنَّ «القلب» - كما جاء فى القاموس والمفردات والعين ولسان العرب - فى الأصل يعنى تغيير الشيء وتحوله، وغالباً ما يستعمل بمعنيين، فتارة يطلق على العضو الذى يتكفل بضخ الدم إلى جميع أعضاء البدن، وتارة أخرى يستعمل فيرادُّ به الروح والعقل والعلم والفهم والشعور، وجاء هذا الاطلاق من حيث إنَّ القلب الجسمانى والقلب الروحى فى حركة وتغيّر مستمرين، وكما يقول بعض أهل اللغة:

ما سُمى القلب إلامن تقلبه والرأى يصرف بالإنسان اطواراً!

كما أنَّ كلمة «القلب» تطلق على مركز كلِّ شيء مثل: قلب العسكر، لأنَّ القلب مركز جسم وروح الإنسان، وقد جاء فى القاموس أنَّ خالص كلِّ شيء يقال له «قلب».

(١). لسان العرب والمفردات ومجمع البحرين.

(٢). لسان العرب وتاج العروس ومفردات الراغب.

نقحات القرآن، ج ١، ص: ١١١

وكلمة «النهى» تعنى «العقل» ومن مادة «نهى» على وزن (سَيَعَى) ويعنى المنع من شيء مأخوذ، وقد صرح كثير من أئمة اللغة (كصاحب المفردات ومجمع البحرين ولسان العرب وشرح القاموس) أنَّ هذه التسمية جاءت من حيث إنَّ العقل ينهى عن الأعمال المشيئة.

و«الصدر» فى الأصل يعنى القسم الأمامى الذى تحت الرأس (فى الجسم) ومن ثم اطلق على القسم الأعلى والمقدم لأى شيء، مثل صدر المجلس أى أعلاه، وصدر الكلام أى بدايته، وصدر النهار أى أوله (كما جاء ذلك فى المفردات ولسان العرب).

إلّا أنَّه قد يستفاد من بعض الكلمات معنى المقدمية والبداية لكلِّ شيء، وعلى كلِّ حال، بما أنَّ العقل عضو مهم ويقع فى الجزء الأعلى من البدن أطلق عليه صدر، خاصة وأنَّ القلب الجسمانى يقع فى وسط الصدر (العضو المعروف من البدن)، وسنذكر فيما بعد أنَّ هناك علاقة وثيقة بين انقلاب القلب العضوى والانقلابات العقلية.

أما كلمة «الروح» في الأصل تعنى التنفس، وبما أن هناك علاقة وثيقة بين التنفس وبقاء الحياة، استعملت بمعنى النفس ومركز العقل وفهم الإنسان.

وقد صرح البعض أن كلمتي «الروح» و «الريح» اشتقتا من أصل واحد، وإذا سميت الروح - التي هي وجود مجرد ومستقل - روحاً فذلك من حيث إن الروح كالريح توجد الحيوية والحركة من دون أن تُرى
وكلمة «النفس» - وكما يقول الراغب وصاحب القاموس ولسان العرب وكتاب العين - تعنى الروح التي هي مركز إدراكات الإنسان،
إلّا أن القرآن الكريم ذكر مراحل النفس:

«فالنفس الامارة» هي النفس التي تأمر الإنسان بالمعاصي وترغبه بها، و «النفس اللوامة» وهي التي تندم على المعاصي التي ارتكبها الإنسان وتوبخه عليها، و «النفس المطمئنة» وهي التي تتحكم بجميع الشهوات والميول وقد وصلت إلى مرحلة الاطمئنان.
من مجموع ما سبق، يتبين لنا أن القرآن المجيد استعمل مفردات كثيرة للإشارة إلى العقل، وكل من هذه المفردات تشير إلى جانب من جوانب هذا الوجود النفساني، وبتعبير آخر كل منها يتعلق ببعد من أبعاد العقل.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١١٢

وبما أن هذه القدرة الغامضة تردع الإنسان عن الأعمال المشينة وتمنعه عنها قيل لها عقل ونهى
وبما أنه في حال انقلاب وتحول دائم قيل له «قلب»، وبما أنه في القسم الأعلى من بدن الإنسان قيل له «الصدر».
وبما أن هناك علاقة وثيقة بينه وبين الحياة قيل له «روح» و «نفس»، وعندما يصل إلى مرحلة الإخلاص ويصفو من الشوائب يقال له
«لُب»، وأخيراً عندما تنضج أفكاره يطلق عليه «فؤاد».

نستنتج من هذا البيان أن استعمال هذه المفردات المتنوعة في القرآن لم يكن اعتباطاً بل كان منسجماً ومتماشياً مع الموضوع الذي في الآية، وهذا من عجائب القرآن التي يدركها الإنسان عند تتبعه لآيات القرآن وتفسيره لها موضوعياً.

ج ج

أفعال العقل:

إن «الذكر» يمثل الاصطلاح المقابل للنسيان، وكما يقول الراغب: إنه حالة في الإنسان تمكنه من حفظ ما أدرك واستحضاره في
الذهن عند الحاجة، وهذا المعنى قد يتم بالقلب وقد يحصل باللسان.

وإن «الفكر» يعنى فعالية العقل، وعلى ما يقوله الراغب: إنه قوة تسوق العلم إلى المعلومات، ويعتقد بعض الفلاسفة: أن حقيقة الفكر
تتركب من حركتين: حركة نحو المقدمات، ثم حركة من المقدمات إلى النتيجة، ومجموع هاتين الحركتين اللتين تؤديان إلى العلم
والمعرفة يقال لهما «الفكر».

و «الفقه» يعنى «الفهم» بصورة عامة - كما جاء ذلك في لسان العرب - إلّا أن الراغب في مفرداته يقول: إنه بمعنى الاطلاع على أمر
خفى بالاستعانة بأمر ظاهر وجلى، وعليه فالفقه علم يحصل بالأدلة (بالطبع إن الفقه المصطلح فعلياً هو علم الأحكام الإسلامية).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١١٣

أمّا «الشعور» فيعنى العلم والمعرفة - كما يقوله بعض من أئمة اللغة كصاحب القاموس ولسان العرب ومقاييس اللغة وغيرهم - إلّا أن
الراغب قال في مفرداته: يعنى «الاحساس»، وإذا كان المقصود هو الاحساس الباطنى فلا - اختلاف مهم بين ما قاله الراغب وما قاله
الآخرون في شرح معنى الشعور، وقد جاء الشعور في كثير من آيات القرآن وأريد به (العلم)، إلّا أنه استعمل في موضع آخر وقصد به
الاحساس الخارجى.

إن كلمة «البصيرة» اشتقت من البصر، وقد جاءت - كما يقول الراغب - بثلاثة معانٍ:

بمعنى العين، وبمعنى قوة العين، وبمعنى قوة الإدراك والعلم.

وقد قال البعض: إنَّ معناها في الأصل هو العلم سواء حصل بالمشاهدة الحسية أو بالعقل «١».

وتستعمل مفردة «البصيرة» بالخصوص في «الإدراك القلبي والعلم»، ولهذا جاء في لسان العرب أنها تعني الاعتقاد القلبي، وقد فسرها البعض بالذكاء الذهني.

وقد استعملت بالمعنى الأخير في القرآن الكريم حيث يقول: «قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي» (يوسف/ ١٠٨)

وكلمة «الدراية» تعني العلم والخبرة بصورة عامة، أو العلم والخبرة في الأمور الخفية والمستترة، كما قد جاءت بمعنى «الكياسة»، كما يستفاد من قواميس اللغة أنها في الأصل تعني الالتفات إلى شيءٍ ثم استعملت وأريد منها الخبرة بشيءٍ، وقد استعملت في القرآن الكريم مراراً وقصد بها مفهوم «العلم»، ويستخلص من هذا القسم من بحثنا أن الألفاظ التي استعملت للتعبير عن العقل وأريد منها مفهوم العلم والإدراك ألفاظ متنوعة، وكلُّ منها تُعبر عن بُعد وجانب من أبعاد وجوانب العقل، وقد استعملت كلُّ في موردها! فعند البحث عن الخبرة مع الدقة استعملت «الدراية»، وعند البحث عن التحليل والعقل

(١). التحقيق في كلمات القرآن الكريم مادة (بصر).

(٢). وقد جاءت في آيات أخرى وأريد منها نفس المعنى كما في الآيات: القيامة ١٤؛ والأنعام ١٠٤؛ الأعراف ٢٠٣؛ الإسراء ١٠٢. نفحات القرآن، ج ١، ص: ١١٤

استعمل «الفكر»، وعند البحث عن أمرٍ خفي ومعرفته بالاستعانة بأمرٍ محسوس استعمل «الفقه»، وعند البحث عن الخبرة المقترنة بالحفظ والحضور بالبال استعمل «الذكر»، وعلى هذا السياق تستعمل كل مفردة في محلها وكل لفظ في مقامه. وينبغي الالتفات هنا إلى هذه النقطة وهي أن التعبيرات التي استعملت في القرآن لبيان مهام العقل لها مراحل ورتب، تبدأ ب «الشعور» ويراد منه الإدراك البسيط، ثم مرحلة «الفقه» والذي يعني إدراك المسائل الخفية من المسائل الجليّة، وبعدها تأتي مرحلة «الفكر» ويُراد منه التحليل العقلي، ثم تأتي مرحلة «الذكر» أي الحفظ في الذهن والحضور في البال، ثم مرحلة «النهي» التي تعني الإدراك العميق لحقائق الأمور، وتنتهي هذه المراحل بمرحلة «البصيرة» التي تعني النظر الذهني العميق. وهذا هو معنى البلاغة والفصاحة!

ج ج

جمع الآيات وتفسيرها

قيمه العقل في مقياس القرآن:

إنَّ أول آية تناولناها بالبحث هنا تؤكد بان الهدف من نزول الآيات هو العقل والتفكير لدى الإنسان، وتكشف عن هذه الحقيقة بالتعبير ب (لعل) التي تفيد بيان الهدف في موارد كهذا المورد.

وقد أكدت بعض الآيات على هذا الموضوع وذهبت إلى ابعده من ذلك حيث وبخت الناس على عدم تفكيرهم وتعقلهم وأخذتهم بعبارة كهذه: «أَفَلَا تَعْقِلُونَ» (١).

وقد تكرر هذا المضمون بصيغة جملة شرطية، حيث يقول تعالى «قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ». (آل عمران/ ١١٨)

(١). آل عمران، ٦٥؛ الأنعام، ٣٢؛ الاعراف، ١٦٩؛ يونس، ٦١؛ هود، ٥١؛ يوسف، ١٠٩؛ الأنبياء، ١٠ و ٦٧؛ المؤمنون، ٨٠؛ القصص، ١٠؛ الصافات، ١٣٨.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١١٥

إن هذه التعابير المختلفة: «لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ، إِنَّ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ» تكشف بوضوح عن هذه الحقيقة وهي: إن الله وهب الإنسان العقل كي يستعين بقدرته على إدراك الحقائق وفهمها، ويستحق اللوم والتوبيخ إذا ترك الانتفاع بهذه القدرة. والآية الثانية ومن خلال اشارتها إلى آيات الله في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار صرحت: إن إدراك هذه الآيات أمر يسير لأولى الأبواب.

وكما أشرنا سابقاً، فإن (اولى الأبواب) هم العلماء الذين خلصت عقولهم من جميع ترسبات الأوهام، فهم يدركون وقائع نظام الخلق، ويرون جمال الخالق من خلال المخلوقات، وهذا يكشف عن أهميته العقل كطريق لمعرفة الحق جل وعلا.

ج ج

أما الآية الثالثة، فبعد أن أشارت إلى خروج الإنسان من بطن أمه لا يعلم شيئاً شرحت وسائل المعرفة، فبدأت بحاسة «السمع» الذي تُعرف علومه ب «العلوم النقلية»، من خلال الاصغاء إلى أقوال الآخرين، ثم ذكرت «البصر» الذي تميز به الأشياء بعد مشاهدتها ثم ختمت ب «الفؤاد» الذي تُدرك به الحقائق غير المحسوسة، وقد قلنا سابقاً: إن الفؤاد هو العقل عند نضوجه، فهو أعلى درجة من العقل.

ج ج

والآية الرابعة بعد إشارتها إلى الأقوام السالفة المقتدرة والتي أُبديت واهلكت بسبب، وقد أهلكوا لطغيانهم وفسادهم، ولم يستطيعوا الفرار والنجاة، قالت: «إِنَّ فِي ذَٰلِكَ (في سيادتهم ثم إبادتهم) لَمَذَكَّرٍ لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ (أى عقل) أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ (أى يصغى للنصائح)»!

والآية الخامسة بعد الإشارة إلى إحياء الأرض الميتة وانبات الزرع فيها الذى يمثل غذاء الإنسان ودوابه، صرحت: إن هذه الامور آيات يدركها أصحاب النهى

وكنا قد أشرنا إلى أن النهى هو العقل بما هو ناهٍ عن فعل الأفعال القبيحة.

ج ج

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١١٦

أما الآية السادسة فبعد أن أشارت إلى الآيات العظيمة والبيّنة للقرآن، قالت: إن هذه الآيات فى صدور (قلوب) الذين أوتوا العلم، وكما بينا من قبل فإن الصدر يعنى الجزء المقدم والأعلى من كل شىء، وهذا يبين أن العقل الذى يعتبر من المصادر المهمّة للمعرفة، يشكل أشرف جزء فى الإنسان.

والآية السابعة بعد أن ذكرت قصة خلق آدم عليه السلام خاطبت الملائكة بالقول: «فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ» . (٢٩ / حجر) و (ص / ٧٢)

وهذه (الروح الإلهية) هى (جوهر العقل)، وقد اضيفت إلى الله لأهميتها (ويقال لهذه الإضافة اضافة تشريفية) لأن الله لا روح له ولا جسم، ولأجل هذه الروح الإلهية سجد جميع الملائكة المقربين لآدم عليه السلام، وإلا فالطين والتراب لا قيمة لهما، وهذا تأكيد شديد على أهميته وقيمة العقل.

ج ج

والآية الثامنة تشير إلى خلق (النفس) أى الروح والعقل، وتُقسم بخالق النفس، ثم تضيف: إنَّ الله ألهم وكشف للنفس طريقى الفجور والتقوى بعد أن أوضح لها هذين الطريقين، وهذا تلميح جميل إلى الإدراكات الفطرية التى جُبلَ عليها الإنسان منذ أن بدأ حياته. كان هذا مجموع العناوين والمفردات الثمانية التى استعملت فى القرآن وأريد بها الإشارة فى كل مفردة منها إلى جانب وبعده من جوانب وأبعاد جوهر العقل، وقد بينت هذه العناوين الأبعاد المختلفة لهذا المصدر المهم للمعرفة.

ج ج

إنَّ ما ذكر سلفاً كان بحثاً فى جوهر العقل، أما بالنسبة لنشاط ووظيفة العقل، فهناك تعابير عديدة فى القرآن كانت قد اختصت بهذا الموضوع وكلُّ منها تبين جانباً من جوانب وأبعاد نشاط العقل، وهى كالتالى:

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١١٧

الآية التاسعة بحثت التذكر واعتبرته الهدف من بيان آيات الله، والتذكر هو الحفظ والخطور فى الذهن وهو أحد أهم وظائف العقل، وإذا لم يكن التذكر حاصلًا عند الإنسان ما استفاد الإنسان من علومه شيئاً.

وفى هذا المجال نرى تعبيرات مختلفة فى القرآن، فقد يذكر الموضوع الاستعانة بالأداة (لعل) التى تفيد بيان الهدف فى موارد كهذا المورد، وتارةً أخرى يعبر عن الموضوع بأسلوب التويخ واللوم مثل «أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ» (١).

وقد يبين الموضوع بأسلوب التويخ لأولئك الذين لا ينتفعون بالعقل والفكر، فلا يحفظون الحقائق ولا يتذكرونها، كما هو الأمر فى: «قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ».

(الاعراف / ٣) و (النمل / ٦٢).

ج ج

وقد تحدثت الآية العاشرة عن (التفكير) بعد استفهام استنكارى: «قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ؟» وقد وجهت اللوم بقولها: «أفلا تتفكرون»، وكما أشرنا سابقاً إلى أنَّ التفكير يعنى تحليل وتجزئة المسائل للوصول إلى حقائقها، وهو سبيل للفهم الأكثر والأفضل.

وقد تنوعت تعبيرات القرآن فى هذا المجال، فتارةً يكون الاسلوب هكذا «لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ» (البقرة / ٢١٩)

وتارةً يكون: «لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» (يونس / ٢٤)، و (الرعد / ٣)، و (النحل / ١١)

وتارةً أخرى يكون: «أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ» (الروم / ٨)

ج ج

وتحدثت الآية الحادية عشرة عن «الفقه» الذى يعنى الفهم العميق، حيث قالت: «انظر

(١). كما فى سور الأنعام، ٨٠؛ هود، ٢٤؛ النحل، ٩٠؛ المؤمنون، ٨٥؛ الصافات، ١٥٥.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١١٨

كيف نصرف الآيات» بأنواع من البيئات «لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ فَهْمًا عميقًا.

وقد جاءت العبارة هنا بصيغة: «لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ» (الانعام / ٦٥)

كما قد جاءت فى مكان آخر بصيغة: «لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ» (الأنعام / ٩٨)

وفى آية أخرى بأسلوب: «لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ» (التوبة / ٨١)

وفى أخرى: «بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا» (الفتح / ١٥)

وكلها تبين الأهمية القصوى للفهم والإدراك العلقى.

وكما قلنا سابقاً، فإنَّ كلمة «الفقه» تعنى إدراك الامور الخفية بالاستعانة بمشاهدة الامور الجلية، وهذا الإدراك هو أحد أبعاد الإدراك

العقلي.

وتحدثت الآية الثانية عشرة عن «الشعور»، فبعد أن نهت المؤمنين عن نعت الشهداء بالأموات قالت: إنهم أحياء ولكن لا تشعرهم أى لا تدركون.

وقد يراد بالشعور هنا معنى الاحساس الظاهري، أو الاحساس الباطني، وقد استعمل بكلا المعنيين في القرآن المجيد. وقد ذم القرآن في موارد مختلفة، أولئك الذين لا يشعرون ولا يستخدمون شعورهم «١».

ج ج

وقد تحدثت الآية الثالثة عشرة عن «البصيرة» بعد ما أشارت إلى المتقين، حيث قالت: إن المتقين إذا ما ابتلوا بوسوس الشيطان تذكروا الله وأبصروا وادركوا الحقيقة فنجوا من شباك الشياطين. إن «البصيرة» و «الأبصار» هو الرؤية وقد تتم الرؤية بواسطة العين الظاهرة فيكون بصراً حسيماً، وقد تتم بواسطة العين الباطنية أى العقل فذلك «الإدراك العقلي»، والمراد من البصيرة في هذه الآية هو المعنى الثاني.

(١). كما في الآيات الآتية، الشعراء، ١١٣؛ الحجرات، ٢؛ البقرة، ٩؛ آل عمران، ٦٩؛ الأنعام، ٣٦ و ١٢٣؛ المؤمنون، ٥٦.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١١٩

إن الإنسان على نفسه بصيراً: «بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ». (القيامة / ١٤)
والرسول وأتباعه على بصيرة فيما يدعون إليه: «قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي . (يوسف / ١٠٨)
وقد استعملت البصيرة في جميع هذه الموارد بمعنى المعرفة الحاصلة عن طريق العقل قطعاً.

ج ج

وقد تحدثت الآية الرابعة عشرة والأخيرة عن «الدراية» التي تعنى الذكاء والخبرة والاحاطة بالمسائل الخفية أو غير المحسوسة، حيث قالت: «وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ . (لقمان / ٣٤)
وقد استعملت الدراية في القرآن بصيغ السلب دائماً، ويفيدنا في هذا أن الدراية مرحلة عميقة من الفهم والإدراك لا تحصل لكلاً إنسان.

ج ج

نستنتج من الآيات السابقة النتائج الآتية:

- ١- إن القرآن يعتبر العقل من المصادر الأصلية للعلم والمعرفة، وقد أولاه أهمية قصوى
- ٢- القرآن يدعو الجميع للتفكير والتفكير في جميع الأمور.
- ٣- التفت القرآن التفاتاً خاصاً إلى ماهية الروح الإنسانية وأبعادها المختلفة، وأكد على كل من هذه الأبعاد.
- ٤- عبر القرآن عن نشاطات الروح في مجال إدراك الواقعيات تعبيرات مختلفة، وقد استخدم واستفاد من كل تعبير في محله. إلا أن القرآن ذكر موانع عديدة تحول دون الإدراك الصحيح للعقل، سنبحثها في فصل (حجب المعرفة) إن شاء الله.

ج ج

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٢٠

توضيحات

١- الإدراكات العقلية برؤية فلسفية

بالرغم من أن أغلب الفلاسفة يعتبرون الإدراك العقلي أحد المصادر المهيمة للعلم والمعرفة، إلا أن الفلاسفة الحسيين يخالفون هذا الأمر، ولا يعيرون للإدراكات العقلية أهمية واعتباراً- كما أشرنا إلى ذلك سابقاً- ويحصرن طرق المعرفة بالتجارب الحسية متذرعين بالحجج الواهية الآتية:

- ١- اختلاف الفلاسفة في المسائل العقلية، فإن كل طائفة منهم قدّمت أدلة ظاهرها يوحي بأنها منطقية لإثبات مدعاها.
- ٢- وقوع كثير من العلماء بأخطاء معتقداتهم بحيث يضطر البعض في مواقع عديدة للاعتراف بخطئه ويسعى لتصحيحه.
- ٣- كما يجب إضافة أمر آخر إلى الأمرين السابقين وهو: إن التقدم والتطور السريع للعلوم الطبيعية في القرون الأخيرة حلّ الكثير من ألغاز العالم وأسراره عن طريق التجربة الحسية، وهذا الأمر قوى فكرة الاستناد إلى التجربة الحسية (في مجال المعرفة) فقط، وألغى بقيته الطرق.

ونقرأ في «تاريخ الفلسفة»: إن موضوعاً كهذا الموضوع سبب انكار الحقائق (الحسية وغير الحسية) من قبل السوفسطائيين في اليونان القديمة، فمن جهة نظرنا إلى اختلاف الفلاسفة، ومن جهة أخرى نظروا إلى عوام الناس، فبعضهم يؤيدون ادعاء وكيلي المتنازعين في المحكمة، ويعطون الحق لكل من الطرفين وكأن كلا الطرفين على حق، ولهذا قويت عندهم فكرة أن لا حقيقة واقعاً. وهنا ينبغي الالتفات إلى عدة أمور لرفع هذه الالتباسات:

الأمر الاول: هو وجوب فصل «الإدراكات البديهية» عن «النظرية» عند التحقيق في مسألة الإدراكات العقلية، وذلك لأن الأخطاء لا تحصل في البديهيات، فلا يشك أحد في أن الاثنين نصف الأربعة، أو أن شيئاً لا يمكن أن يكون موجوداً ومعدوماً في آن واحد ومكان

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٢١

واحد، وإذا شاهدنا أشخاصاً يشككون في هذا الأمر أو يعتقدون، بخلاف ما هو بديهي فهم في الواقع يتلاعبون بالألفاظ لا أكثر، فيفسرون (النقيضين) أو «الضدين» بمعانٍ غير تلك المعاني المتعارف عليها، وألا فلا خلاف في اصل الموضوع.

الامر الثاني: لا يخطأ الاستدلال إذا استند إلى مقياس دقيق، فالخطأ ينشأ عندما يستند الدليل إلى مقياس غير دقيق، ولهذا لا نشاهد اختلافاً في مسائل الرياضيات وقوانينها، لأنها تعتمد على أسسٍ دقيقة، ونملك معايير واضحة لمعرفة صحة أو خطأ النتيجة لأي مسألة، والنتائج تكون قطعية كذلك.

الأمر الثالث: إن قولنا بوجود أخطاءٍ في الإدراكات العقلية، دليل على قبولنا للإدراكات العقلية لا على نفيها، وذلك لأن مفهوم حديثنا عن الأخطاء في الإدراكات هو أننا نقلب بعض الحقائق ونخطئ عقائد الآخرين على أساس تلك الحقائق المقبولة لدينا.

مثلاً عندما حكمنا بصحة أحد آراء الفلاسفة المختلفين، فإننا نعلم أن صحة اعتقادين متضادين محال، وهذا إدراك عقلي بديهي، وقضية القائمين: «إنّ الحس لا- اعتبار له لأنه يُخطئ» تماثل هذه القضية، وكما ذكرنا سابقاً، فان تخطئتنا للباصرة في إدراكها لخط دائري ممتد ناشئ عن معرفتنا بأن هذا الخط نقطة نورانية متحركة، وبما أن «النقطة» تضاد «الخط» حكمنا بخطأ الباصرة في إدراكها للخط الممتد، وهذا اعتراف ضمنى يوجد حقائق وإمكانية إدراكها.

وآخر الحديث، نقول: في الحقيقة إن جميع المنكرين للإدراكات العقلية يريدون إثبات مدعاهم بنفس الإدراكات، أي أنهم ينقضون مدعاهم عملياً، وقد هبوا لحرب الإدراكات العقلية بواسطة الإدراكات العقلية.

أكدت الروايات الإسلامية على أن للعقل أهمية قصوى أكثر مما هو متوقع، وأشادت به

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٢٢

بعناوين مختلفة مثل: أساس الدين، وأكبر غنى، وأفضل رأس، وأعلى قضية، وأفضل صديق، وأخيراً المقياس والمعيان للتقرب إلى الله ونيل الثواب الإلهي.

ونكتفي هنا بذكر اثنتي عشرة رواية فقط من بين عشرات بل مئات الروايات الماثورة والمنقولة عن الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله، والأئمة عليهم السلام.

ففي هذا المجال:

١- قال الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله: «قوام المرء عقله، ولا دين لمن لا عقل له» (١).

٢- قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا غنى كالعقل ولا فقر كالجهل» (٢).

٣- وقال في حديث آخر: «إن الله تبارك وتعالى يحاسب الناس على قدر عقولهم» (٣).

٤- وجاء في حديث للإمام الصادق عليه السلام: «إن الثواب على قدر العقل» (٤).

٥- كما جاء في حديث للرسول صلى الله عليه و آله: «ما قسم الله للعباد شيئاً أفضل من العقل ... وما أدى العبد فرائض الله حتى عقل عنه، ولا بلغ جميع العابدين في فضل عبادتهم ما بلغ العاقل» (٥).

٦- وجاء في حديث أن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام خاطب هشام بن الحكم قائلاً: «يا هشام! ما بعث الله أنبياءه ورسله إلى عباده إلا ليعقلوا عن الله، فاحسنهم استجابة أحسنهم معرفة، وأعلمهم بأمر الله أحسنهم عقلاً، وأكملهم عقلاً أرفعهم درجة في الدنيا والآخرة» (٦).

٧- وقال الرسول صلى الله عليه و آله في حديث آخر: «لكل شيء آله و عُدَّة، وآله المؤمن و عُدَّته العقل، ولكل شيء مطية ومطية المرء العقل، ولكل شيء غاية وغاية العبادة العقل» (٧).

(١). بحار الأنوار، ج ١، ص ٩٤، ح ١٩.

(٢). نهج البلاغة الكلمات القصار، الكلمة ٥٤.

(٣). بحار الأنوار، ج ١، ص ١٠٦، ح ٢.

(٤). اصول الكافي، ج ١، ص ١٢، ح ٨ (كتاب العقل والجهل).

(٥). المصدر السابق، ص ١٢، ح ١١.

(٦). المصدر السابق، ص ١٦.

(٧). بحار الأنوار، ج ١، ص ٩٥، ح ٣٤.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٢٣

٨- وجاء في حديث للإمام الصادق عليه السلام: «إذا أراد الله أن يزيل من عبد نعمة كان أول ما يغير منه عقله» (٨).

٩- ويقول الإمام على عليه السلام في هذا المجال: «العقل صاحب جيش الرحمن، والهوى قائد جيش الشيطان، والنفس متجاذبة بينهما، فأيهما غلب كان في حيزه» (٩).

١٠- ويقول في حديث آخر: «العقول أئمة الأفكار والأفكار أئمة القلوب، والقلوب أئمة الحواس، والحواس أئمة الأعضاء» (١٠)، (وبهذا فإن أعضاء الإنسان تستند إلى حواسه وحواسه تستعين بعواطفه، وتعتمد عواطفه على أفكاره، وأفكاره على عقله).

١١- وجاء في حديث للرسول صلى الله عليه و آله: «إن الرجل ليكون من أهل الجهاد ومن أهل الصلاة والصيام، وممن يأمر بالمعروف

وينهى عن المنكر، ولا يُجزى يوم القيامة إلأعلى قدر عقله» (٤).

١٢- وقال الإمام الباقر عليه السلام: «لا مصيبة كعدم العقل» (٥).

٣- المخالفون لتحكيم العقل

إنَّ لهذا الجوهر الإنساني (العقل) شأنًا رفيعاً وصفات إيجابية كثيرة جداً، والملفت للنظر حقاً أنه بالرغم من اتصاف العقل بهذه الصفات وامتلاكه هذه المكانة المرموقة نجد مَنْ يذمونه وَمَنْ يتأسفون لأنهم عقلاء، والأغرب من ذلك أنهم يمتلكون الحجج- حسب زعمهم- على ادّعاءاتهم الجوفاء!

(١). بحار الأنوار، ج ١، ص ٩٣٠، ح ٢٠.

(٢). غرر الحكم.

(٣). بحار الأنوار، ج ١، ص ٩٦، ح ٤٠.

(٤). تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٣٢٤.

(٥). بحار الأنوار، ج ٧١، ص ١٦٥.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٢٤

فتارة يقولون: إنَّ العقل يحد من تصرفات الإنسان ويسلبه حرّيته، حيث يجعل أمامه موانع تحول بينه وبين ما يريد أن يقوم به من عمل حراماً كان أو حلالاً حسناً أو قبيحاً خيراً أو شراً، فلو لم تكن لنا عقول لكنا أحراراً.

وتارة يقولون: إنَّه يسلب راحة الإنسان حيث نرى العقلاء والأذكياء من الناس لا راحة لهم، إلأأنَّ البسطاء من الناس فرحون وسعداء دائماً لانعدام تأثير العقل عليهم.

وإذا قرأنا أشعاراً مفادها ذمُّ العقل أو الانتقاص منه أو الاستهانة به فمن الواضح كونها مزاحاً أو سفسطة أو كناية عن مفاهيم أخرى ويستبعد أن يكون مرادهم ذم العقل، بل إنَّهم يقصدون أنّ هناك اموراً مؤلمة تحيطهم، والناس في غفلة عنها.

أو أنّ قصدهم من الجنون المذكور في بعض الأشعار كصفة للعقل، هو الجنون العرفاني والمراد منه العشق الإلهي، والتضحية بكل شيء في سبيله.

وعلى أيّ حال، صحيح أنّ العقل يقيد حرية الإنسان وبعض تصرفاته،

إلما أنّ هذا فخر له، لأنَّه يرشده نحو التكامل، إنَّ هذا الادّعاء يُشبه ادعاء من قال: «إنَّ الاحاطة بعلم الطب يحد من انتخاب الإنسان لأنواع الأطعمة ومن أمور أخرى»، وهل هذا نقص؟! أم أنه ينقذ الإنسان من الاصابة بالامراض وفي بعض الأحيان من التسمم القاتل.

أمّا القول بأن العقل يزيد من هموم الإنسان وأحزانه، فهذا يرفع من منزلة الإنسان، العاقل من يتحصن آلام المضطهدين والمظلومين ويتألم من سلوك المعاندين وبالتالي فهو دليل على الكمال، وكما جاء في المثل: (إما أن يكون ضعيفاً ونحيفاً كسقراط في زهده أو سميناً وبديناً كالخنزير).

نعم، إذا غفلنا عن مسألة التكامل الإنساني واعتبرنا الأصل في الحياة هو اللذة المادية، فإن ما يتفوه به بعض المؤيدين لأصالة اللذة المادية صحيح، لكن هذا الحديث مضحك ولا قيمة له من وجهة نظر الإنسان الموحد الذي يؤمن بالرسالة والهدف وتكامل الإنسان.

إضافة إلى هذا، فإنَّ المؤيدين لأصالة اللذة مضطرون لأنَّ يسلموا ويخضعوا لكثير من القوانين الاجتماعية الحادة من حرياتهم وتصرفاتهم، وأن يفرضوا على أنفسهم العناء من

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٢٥

هذه الناحية، ومن هنا ندرك كيف أن الإنسان يسقط في الهاوية عند ابتعاده عن تعاليم الوحي والأنبياء. إلى هنا ننهي البحث عن المصدر الثاني من مصادر المعرفة (العقل) ونتقل إلى المصدر الثالث بالرغم من بقاء بحوث كثيرة لم تطرح في هذا الفصل.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٢٧

٣- التاريخ والآثار التاريخية

تمهيد:

تعرض القرآن للقضايا التاريخية بأسلوبين:

- ١- الأسلوب المدون، أي أن القرآن المجيد يسرد للمسلمين بعض الحوادث التاريخية للأقوام السالفة بألفاظ وعبارات شيقه ودقيقه، ويبين الامور الغامضة والمشرفة من تاريخهم، ويشير إلى عواقب أعمالهم، وذلك لتوعية المسلمين وتعريفهم بالقضايا المختلفة، ولكي يرى الناس حقائق من حياتهم في مرآة تاريخ السالفين.
- ٢- الأسلوب الثاني، التكويني، أي كشف القرآن عن الآثار التاريخية التي خلفتها الأقسام الغابرة، الآثار الصامتة ظاهراً والتي تمثل عالماً صاحباً ومثيراً، الآثار التي يمكنها أن تصوّر لنا التاريخ الغابر، الآثار التي تعتبر مرآة أمام الإنسان يرى فيها وجه حياته في الحاضر والمستقبل.

ج ج

نبدأ أولاً بقراءة نماذج من كلا القسمين في الآيات التالية:

- ١- «لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ . (يوسف / ١١١)
- ٢- «فَاقْصِصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ . (الاعراف / ١٧٦)
- ٣- «ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ». (هود / ١٠٠)
- ٤- «تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقِصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٢٨

لَمِنَ الْعَافِلِينَ . (يوسف / ٣)

٥- «فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَنْ يَخْشَى .

(النازعات / ٢٥-٢٦)

٦- «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ...».

(الحج / ٤٦)

«أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْتَالُهَا». (محمد / ١٠)

٨- «قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ .

(آل عمران / ١٣٧)

٩- «قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ». (العنكبوت / ٢٠)

١٠- «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ . (البقرة / ٢٥٨)

١١- «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ* إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ». (الفجر/ ٦- ٧)

١٢- «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ . (الفيل/ ١)

شرح المفردات:

١- إنَّ كلمة «قصص» تعنى التبع لآثار شىء ما «١»، وقد سميت القصة قصة لأن فيها تتبعاً للأخبار والحوادث المختلفة، وعليه فالقصة لا تعنى الرواية فحسب، بل تعنى - لغوياً- التبع لآثار الأشياء.
كما تطلق «القصص» على كل شىء متتابع ومتسلسل.

(١). ينبغى الالتفات إلى أن (قصص) كما هي مصدر لقص يقص، هي جمع (قصة)، والمراد منها في سورة يوسف في الآيتين ٣ و ١١١ هو المعنى الثانى.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٢٩

وبما أن (المقص) يقص الشعر على التوالى قيل له (مقص)، والقصة، على وزن «غصة» وتعنى مجموعة الشعر الإمامى «١».

٢- أما كلمة «عبرة» فاشتقت من مادة (عبور) و (عبر) وتعنى الانتقال من حالة إلى حالة اخرى، و «العبور» فى الأصل - يعنى عبور الماء سباحة أو بالزورق أو على الجسر وأمثال ذلك، وقد استعملت هذه المفردة بمعنى أوسع وهو الانتقال من حالة إلى حالة اخرى، ويقال لقسم من الحديث (عبرة) لأنها تمثل العبور من لسان المتكلم إلى اذن السامع.
أما (العبرة) فهى الحالة التى يتوصل بها من معرفة المُشاهد إلى ما ليس بِمُشاهدٍ «٢».
وقد ذكر البعض أن «العبرة» تعنى الدلالة التى توصل الإنسان إلى مراده «٣».

كما جاءت هذه المفردة بمعنى التعجب «٤» (وقد يكون هذا الاطلاق الأخير لأن كثيراً من الامور التى يكتشفها الإنسان عن طريق الحوادث المهمة والجلية تثير العجب).

٣- كلمة «السير» تعنى الحركة على الأرض، وإذا قيل (سيروا فى الأرض) فإن القيد الأخير تأكيد للسير، وقد قال الراغب فى مفرداته: دُكر معنيان للسير فى الأرض: أحدهما الحركة الجسمانية على الأرض (ومشاهدة الكائنات وآثارها المختلفة)، والثانى هو الحركة الفكرية ودراسة الكائنات، وقد صرح البعض: إن السير يعنى العبور المستمر فى جهة واحدة «٥».

أما كلمة «السيرة» فتعنى الطريقة والأسلوب، واستعمالها إشارة إلى تاريخ حياة الأشخاص، وقد أخذت من هذا المعنى

٤- أما «الرؤية» فقد جاءت بمعنيين، أحدهما المشاهدة بالعين، والآخر العلم والمعرفة

(١). لسان العرب، ومفردات الراغب، ومجمع البحرين.

(٢). مفردات الراغب.

(٣). تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ٢٧١.

(٤). لسان العرب.

(٥). تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ٢٦٨.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٣٠

أو المشاهدة الباطنية «١»، وقد استعملت فى القرآن الكريم فى موارد كثيرة بالمعنى الثانى أى بمعنى العلم والاطلاع، وأمّا «الرأى» فيعنى الاعتقاد القلبى والنظريه سواء كان اعتقاداً يقينياً أو ظنياً، وأمّا «الروية» و «التروى» فيعنيان التفكير أو السعى والبحث للحصول على

النظرية.

٥- كلمة «نظر» في الأصل تعنى دوران العين أو حركة الفكر لإدراك أمر ما، أو مشاهدته، وجاء أيضاً بمعنى البحث والتفحص وتارة جاء بمعنى المعرفة الحاصلة بعد الفحص، وقد ذكر صاحب مجمع البحرين ثلاثة معانٍ للنظر: ١- مشاهدة الشيء، ٢- التدقيق فى الشيء بواسطة العين؛ ٣- التفكير للحصول على العلم أو الظن «٢».

أما صاحب لسان العرب فقد شرح النظر بأنه المشاهدة بالعين والثانى المشاهدة بالقلب، والمفيد أنه استشهد بعد ذلك بحديث للرسول صلى الله عليه و آله حيث قال فيه: «النظر إلى وجه على عبادة»، وفى تفسير هذا الحديث ينقل عن ابن الأثير أنه قال: معنى الحديث هو أن الناس حينما كانت أعينهم تقع على على غ عليه السلام كانوا يقولون: «لا إله إلا الله ما أشرف هذا الفتى لا إله إلا الله ما أعلم هذا الفتى ...» «٣».

جمع الآيات وتفسيرها

بعد أن أشارت الآية الأولى إلى المصير المؤلم لبعض الأمم السالفة قالت: «لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ فَالتفكير فى مصير هؤلاء يُعد الاسلوب الأمثل لأولى الأبواب لمعرفة عوامل السعادة والشقاء، وتمييز طريق الهلاك عن طريق النجاة.

(١). وفعلها يتعدى لمفعول واحد على المعنى الأول، ومفعولين على المعنى الثانى (لسان العرب والمفردات).

(٢). مفردات الراغب مادة (نظر).

(٣). لسان العرب، مادة (نظر).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٣١

ج ج

والآية الثانية خاطبت الرسول قائلة ذكرهم بتاريخ ومصير الامم السالفة من أجل أن تبعث فيهم روح التفكير والتأمل: «فَاقْصِصِ الْقُصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ وهذا يدل على أن البيان الصحيح لتاريخ السالفين موجب لصحوة الأفكار ومصدراً للمعرفة.

ج ج

والآية الثالثة بعد أن بينت مصير بعض الأقوام السالفة مثل قوم نوح وشعيب وفرعون ولوط وعاد وثورود، قالت: «ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ» (أى من القرى من هو باقٍ لحد الآن ومنها من زال وفنى «مَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ . (هود/

(١٠١)

ثم أضافت فى النهاية «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ». (هود/ ١٠٣)

ج ج

و الآية الرابعة التى جاءت فى بداية سورة يوسف، هيأت أذهان المخاطبين فى البداية لتلقى وإدراك ما سيقال لهم فقالت: «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقُصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ .

(يوسف / ٣)

فقد استندت الآيات الأربع إلى موضوع «القصة» والقصص» كوسيلة للمعرفة.

ج ج

والآية الخامسة بعد اشارتها إلى تعذيب فرعون قالت: «فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى .

إن هذه الآية ذكرت (العبرة) التى تعنى الانتقال والعبور من حالة قابلة للمشاهدة إلى حقائق غير قابلة للمشاهدة واعتبرتها وسيلة

للمعرفة.

ج ج

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٣٢

وقد أكدت الآية السادسة والسابعة والثامنة والتاسعة على مسألة «السير في الأرض»، ودعت الناس إليه باساليب خطابية مختلفة، فمرة خاطبتهم ب: «أَفَلَمْ يَسْتَبِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَرَّةً «فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ» بعد ما ذمتهم لعدم سيرهم في الأرض.

وفي آيات أخر حُوطِبَ جميع الناس أو المسلمين بالقول: «فَدَخَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيَرُوا فِي الْأَرْضِ فَمَا نَظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ .

وفي آية أخرى هناك دعوة للناس لأن يسيروا في الأرض للبحث عن بدء الخلق والاستفادة من ذلك للعلم بكيفية النشأة الآخرة.

ج ج

وقد أكدت الآيات العاشرة والحادية عشرة والثانية عشرة على مسألة المشاهدة و «الرؤية» ليس بالعين الباصرة، بل بالعقل والبصيرة. إن الخطاب في الآيات الثلاث في الظاهر موجّه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله إلاً أن المراد بها جميع المؤمنين، بل الناس كافة، والخطاب بصيغة استفهام تقيري، حيث خاطبه الله تارة بالنحو الآتي:

ألم تر إلى الذي (أى نمرود ذلك السلطان الطاغي المغرور) حاج إبراهيم فى ربه، وإلى أى نهاية انتهى به المطاف؟ وتارة يخاطبه بهذا الخطاب: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ* إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ».

وخاطبه تارة أخرى بنحو آخر قائلاً له: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ، مذكراً بقصة أصحاب الفيل الذين قدموا من اليمن لهدم الكعبة فانزل الله عليهم طيوراً- بالرغم من ضعفها- ترميهم بحجارة من سجيل تحملها بمنقيرها فهلكوا بهذه الأحجار الصغيرة. ومن المسلم به أنه لا الرسول ولا غيره من المسلمين رأى إبراهيم ونمرود وسمع

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٣٣

محاجتهما، وكذا الأمر بالنسبة لقوم عاد، فلم يروه ولم يروا مدنها العمارة يومذاك، وحتى بالنسبة لأصحاب الفيل فإن الرسول صلى الله عليه وآله وُلِدَ فى السنة التى هجم فيها (ابرهة) طبقاً للرواية المشهورة، فلم ير شيئاً من الحادث وكذا أكثر المسلمين، وعلى هذا فالمراد من الرؤية هو التدقيق فى تاريخهم.

إن ما يلفت النظر هنا هو أن الآيات الخمس الأولى ركزت بحثها على التاريخ المدون أى ما جاء فى صفحات الكتب التاريخية بينما ركزت الآيات الأربع الأخيرة بحثها على التاريخ التكويني الحى أى الآثار الباقية عن الأقسام الغابرة فى بقاع مختلفة من العالم.

من الممكن أن تكون الآيات الثلاث الأخيرة فيها إشارة إلى التاريخ المدون أو التاريخ الخارجى أو كليهما، ويتضح من مجموع هذه الآيات (وأمثالها فى القرآن الكريم) الأهمية القصوى التى أولاها القرآن لقسمى التاريخ كمصدر للمعرفة والعلم.

إن الله عز وجل يدعو الناس تارة لأن يشاهدوا بأعينهم قصور الفراعنة وآثار دمار مدن عاد وثمود وقصور نمرود وأعوانه والبلاد التى جعل عاليها سافلها التابعة لقوم لوط لكى يعرفوا أن مصير المتجبرين سيؤول إلى هذه النهاية.

وتارة نجد القرآن نفسه يشرح بدقه هذه الحوادث ويسلط الأضواء عليها ويعد العبر بعد العبر ذاكراً عاقبة (المكذبين) و (الظالمين) و (الكافرين) و (المفسدين) فى ضمن بحوثه التاريخية هذه.

فى الحقيقة إن القرآن تارة يأخذ بأيدى الناس إلى «مصر» ويريهم الآثار التاريخية ويصور لهم الراقدين تحت التراب ويضع أمام أعينهم العروش التى عصفت بها الرياح، وتارة أخرى يريهم الذين أركسوا فى العذاب وهُدمت عروشهم، والخلاصة: فإن القرآن يريهم ما خفى عن العيان من قصص الأسلاف.

إنه يمضى بهم إلى المدن المُخرِبَة كمدینة (سدوم) مركز قوم لوط ليشاهدوا عن كثب ما حلّ بها ومن هناك إلى جنّة شداد، وبلاد بابل، (مركز حكومة نمرود)، ومناطق اخرى.

إنه يجعل من ايوان كسرى في المدائن وزخارف كل قصر عبرة لمن اعتبر ونصيحة جديدة.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٣٤

والخلاصة: إن القرآن يستند كثيراً في مجال التعليم والتربية والتوعية إلى التاريخ المدون في الكتب، وما موجود على وجه الأرض، وهذه، مسألة جديرة بالاهتمام كثيراً.

ج ج

توضيحات

١- مرآة التاريخ

إن أهم ما يحصل عليه الإنسان في حياته هو تجاربه الشخصية، التجارب التي تفتح له بها آفاق جديدة وواسعة من أجل حياة أفضل وجهاد أكثر ليسعى جاهداً للوصول إلى التكامل الأمثل.

لكن ما هو مقدار التجارب التي يستطيع الإنسان الحصول عليها خلال عمره القصير البالغ مثلاً عشرين سنة أو خمسين أو ثمانين؟ هذا إذا قضى عمره في ميادين التجربة ولم يقضه على وتيرة واحدة.

إننا، لو استطعنا أن نجمع تجارب جميع من عاش في عصر واحد، أو تجارب جميع من عاش في القرون والعصور الماضية، لخصّنا لنا على تجارب كثيرة، وستكون تلك التجارب مصدراً مهماً لمعرفةنا وخبرتنا.

إن التاريخ - إذا تم تدوينه بالطريقة الصحيحة والكاملة - فسوف يقدم للباحثين والدارسين تجارب البشر على مرّ القرون، وحتى إذا كان ناقصاً فإنه يضم بعض تجارب العصور الغابرة.

ومن هنا تبدو أهمية التاريخ حيث إن ما يحدث الآن قد تكرر نموذج أو نماذج منه في التاريخ سابقاً، وما يقال عن التاريخ من أنه «يعيد نفسه» حقيقة لا تنكر وقد تستنى موارد منه إلا أن أكثر الحوادث داخله في اطار هذا القانون.

وقد أشار الإمام على عليه السلام لهذا الموضوع بوضوح في خطبة له، حيث قال فيها: «عباد الله

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٣٥

إنّ الدهر يجري بالباقيين كجريه بالماضين» «١».

وقد جاء في حديث شريف أن ما يجري في الامّة الإسلامية قد جرى مثله في بنى اسرائيل.

ومن هنا تتضح أهمية ودور التاريخ في مجال المعرفة والفكر، ونستطيع القول بتحدى:

إنه بالتحليل والدراسة الدقيقة لتاريخ البشر نجد:

عوامل الفشل والسقوط.

وعوامل الانتصار والفوز.

وعوامل ازدهار الحضارات.

وعوامل سقوط وانقراض الحكومات (الدول).

وعاقبة الظلم والاستبداد.

وعاقبه العدل والانصاف.

ونتائج وحدة الكلمة والحركة والسعي.

ودور العلم والمعرفة.

وعواقب الجهل والبطر والكسل، كلها قد انعكست في مرآة التاريخ.

وإن أراد أحد أن يمنحه الله حياة ثانية فحرى بنا أن نقول له: إنك إذا درست التاريخ بدقة لوجدت إنك لم تمنح حياة ثانية فحسب،

بل وهبت الآلاف المضاعفة.

وما أجمل ما خاطب به الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ولدّه الأكبر الإمام الحسن عليه السلام: «أى بنى إننى وإن لم أكن عمّرتُ عمر

من كان قبلى، فقد نظرت في أعمالهم، وفكرت في أخبارهم وسرت في آثارهم، حتى عُدت كأحدهم، بل كأنى بما انتهى الئى من

امورهم قد عمّرتُ مع أولهم إلى آخرهم» (٢).

(١). نهج البلاغه، الخطبة ١٥٧.

(٢). نهج البلاغه، وصيته للإمام الحسن المجتبى عليه السلام.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٣٦

ومع أننا لا ننكر النواقص والإشكالات على التاريخ المتداول بين أيدينا، ولكن رغم هذه النواقص - التي سنشير إليها فيما بعد - فهو

غنى بالعلم والمعرفة.

٢- جاذبية التاريخ

لم كان التاريخ معلماً؟ الإجابة عن هذا السؤال ليست صعبة، وذلك لإمكانية تشبيه التاريخ بالمختبر الكبير الذى تخضع فيه قضايا حياة الإنسان المختلفة للتحليل.

وعلى هذا الأساس، فكما أنّ العلوم التحليلية حلت الكثير من مسائلها وقدمت الكثير من البراهين الحية لإثبات الواقعات بالاختبار، كذلك التاريخ ذلك المختبر العظيم حيث تختبر فيه الكثير من القضايا والمسائل، حيث يميز فيه الذهب الخالص من الذهب غير الواقعي، وبه تزول الأوهام عن الأذهان.

إذا حللت ظواهر الأجسام أو تركيباتها في مختبرات الكيمياء والفيزياء، فأنتك في مختبر التاريخ تحلل أسرار انتصار وفشل الأقسام السالفة، وسبب سيادة وتطور أو انحطاط الحضارات، وردود الفعل وصفات ومعنويات الأقسام والأشخاص، واسلوب عملهم بجاذبية وجمال فائق.

وبذلك يكون التاريخ وسيلة مناسبة لدراسة عوامل السعادة وشقاء البشر.

وإذا شاهدنا في القرآن الكريم تأكيداً على تاريخ الامم السالفة، وشاهدنا فيه من السور الدالة على المباحث التاريخية حتى أنّ بعض السور تدور معظم آياتها أو كلّها حول تاريخ الأقسام السالفة فذلك كله ناشىء من هذه الملاحظة التي أشرنا إليها.

وقد ينكر المعاندون بعض المسائل النظرية، إلّا أنّه لا يمكنهم انكار واقعات التاريخ القطعية، وبالخصوص الحوادث التي أشار إليها القرآن حيث نراه يأخذ بأيدي الناس إلى ما خلفته الأقسام الغابرة، ويروى قصصهم على قبورهم وقمم مدنهم الخربة.

إنّ التاريخ - فى الحقيقة - فرع من المسائل التجريبية، وتعبير آخر يمكن ادغامه فى مصدر «الحس والتجربة» إلّا أنّه يختلف عن الحس والتجربة اختلافاً طفيفاً فالحس والتجربة يتعلقان بالحاضر لكن التاريخ يتعلق بالماضى، وأنّ الحس والتجربة قد يتعلقان بذات الفرد

فقط بينما التاريخ يتعلق بجميع ذوات البشر.

ولكن الأهمية الفائقة لهذا الفرع من التجربة تفرض علينا دراسته كمصدر مستقل للمعرفة.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٣٧

٣- شوائب التاريخ

بالرغم من أن التاريخ مرآة كبيرة وجميلة تعكس الوقائع إلّا أنّ المؤسف فيه هو وجود أيادٍ ملوثة سعت وتسعى دائماً لتغيير وتشويه الوجه الناصع لهذه المرآة، ولهذا السبب فإنّ هناك كثيراً من الشوائب في التاريخ تحول دون معرفتنا للحقيقة ودون تمييزنا الصادق من الكاذب منه.

إنّ سبب التشويه واضح، حيث لم يكن المؤرخون محايدين دائماً، بل كثيراً ما يؤرخون التاريخ بالشكل الذي يتناسب مع دوافعهم الشخصية والفئوية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ جابرة كل عصر سعوا لإغراء المؤرخين وجذبهم ليكونوا تحت سيطرتهم ونفوذهم، ليملوا عليهم ما يحلو لهم فيكتبوا ما يريد هؤلاء الجابرة.

وبالرغم من المساعي التي تبذل بعد زوال كل من الجابرة والظالمين وتوفر أجواء حرة أكثر في سبيل إصلاح الأخطاء، وتصحيح ما لحق بالتاريخ من فساد، إلّا أنّ المؤرخين قد لا يوفقون في هذا المجال لإصلاح الخطأ، أو تكون إصلاحاتهم غير كافية.

والملفت للنظر أنّ قضايا التاريخ تتبدل كلما تبدلت الحكومات المستبدّة ذات الميول والاتجاهات المتضاربة، ف «بنو أمية» مثلاً حرفوا التاريخ الإسلامي بشكل، و «العباسيون» حرفوه بشكل آخر، كما أنّ الذين خلفوا العباسيين صاغوه بشكل آخر.

إنّ (استالين) كتب في زمن ما تاريخ الثورة الشيوعية في روسيا بشكل، وقد درّس هذا التاريخ في جميع المدارس آنذاك، والذين خلفوه كانوا يعتبرونه جلابداً مصاصاً للدماء فجمعوا تلك الكتب ودوّنوا تاريخ الثورة بصيغة أخرى، وهكذا فعل كل من خلف الحكومة في الاتحاد السوفيتي فكتب التاريخ بما يتناسب مع ميوله الشخصي والمذهبي.

ولهذا السبب، فإنّ البعض أساء الظن بالتاريخ وقال فيه- مبالغاً- هذه العبارة: «إنّ التاريخ مجموعة حوادث لم تحدث أبداً، وأقوام لم توجد أبداً»!!

إلّا أنّ الانصاف يفرض علينا أن نعدّ التاريخ أحد مصادر المعرفة بالرغم من الغبار الذي غطاه، وذلك لأنّ التاريخ كأي خبر آخر منه «المتواتر» ومنه «الموثوق» ومنه «الضعيف» ومنه «المجهول».

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٣٨

ولا- يمكن انكار ما تواتر في التاريخ عن جُند المغول وجيش هتلر والحوادث المفجعة في «الاندلس»، والمئات من هذه الحوادث، والذي يصلح للنفي والإثبات والإشكال هو جزئيات التاريخ، وهي بدورها إذا ثبتت باخبار الثقات أصبحت صالحة للاعتماد عليها. بالطبع فإنّ الأخبار الضعيفة في هذا المجال ليست قليلة.

و هذا حكم عادل بحق التاريخ، فينبغي عدم الأخذ بكل ما جاء في التاريخ، كما لا ينبغي نبذ كل ما ورد فيه.

وقد سلّم قسمان من التواريخ من أي تحريف وتلوّث وهما:

التواريخ التي ظلّت في صورة آثار تكوينية في الخارج، فلا يمكن تحريفها ببساطة، وقد أكد القرآن المجيد على هذا القسم كثيراً، وآيات «السير في الأرض» بهدف التعرف على تاريخ الامم السالفة ناظرة إلى هذا القسم منه.

والأكثر من ذلك التواريخ التي وصلتنا عن طريق «الوحي» مثل تواريخ القرآن التي تعتبر أصيلة وخالصة من جميع الرغبات والنزعات، فكما أن الله عزّ وجلّ أفضل مقنّن فهو أفضل مؤرخ كذلك، لأنّه خبير بجميع الجزئيات ومنزه عن الإتجاهات الفردية والجماعية، ومع

توفر هذين الشرطين فهو أفضل مؤرخ روى لنا التاريخ.

وقد يتعجب البعض ويسأل: لماذا يعيد الله تعالى قصة نوح أو موسى أو فرعون أو مواجهة الأنبياء للمستكبرين والجبابرة عدّة مرّات؟ لقد غفلوا عن أن كل حكاية ناظرة إلى الحادث من زاوية واحدة فقد يكون لكل حدث تاريخي زوايا وجوانب متعددة، فقد ينظر - مثلاً - إلى تاريخ بنى اسرائيل من حيث مواجهتهم لطاغوت زمانهم، وقد ينظر لتاريخهم من حيث عنادهم لأنبيائهم، وقد ينظر لتاريخهم من حيث عواقب الاختلاف والتشتت وعدم الاتحاد، أو من حيث آثار ونتائج نكران النعم، والخلصة: إن كثيراً من الحوادث التاريخية كالمراة ذات الأبعاد المختلفة، يسلط كل بعد من ابعادها الأضواء على جانب من الجوانب (وسياتى شرح هذا بالتفصيل فى بحث تواريخ القرآن).

ج ج

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٣٩

٤ - فلسفة التاريخ

إنّ المهم فى التاريخ هو العثور على «جذور» و «نتائج» الحوادث التاريخية. فإذا حصلت ثورة فى بقعة ما من العالم - مثلاً - ينبغى أولاً دراسة العوامل التى أدت هذه الثورة والتحقق منها بدقة. ثانياً النظر فى نتائج هذه الثورة، وهذان الأمران هما اللذان يخرجان التاريخ عن كونه مجرد حكايات مسلية، ويبدلانه إلى مصدر مهم للمعرفة.

لكن يؤسفنا أن يكتفى المؤرخون بذكر الحوادث التاريخية، فى مرحلة تبلورها فقط، وقلما يتجهون نحو جذور وعلل الحوادث ونتائجها، ولم يتركوا فى مجال تحليل القضايا التاريخية آثاراً تُذكر.

إلا أن القرآن قرن تدوين الحوادث مع البحث عن أصولها ونتائجها فتارة بعد ذكره لمقطع تاريخي يقول:

«فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ . (آل عمران / ١٣٧)

وتارة يقول: «وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ . (الاعراف / ٨٦)

وتارة يقول: «فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ . (النمل / ٦٩)

وتارة يقول: «إِنَّ اللَّهَ لَإَيُّبٌ مَّا يَقُومُ حَتَّى يُعَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ . (الرعد / ١١)

والجدير بالذكر أن للتاريخ فروعاً عديدة أهمها تاريخ الإنسان والمجتمعات البشرية، وتاريخ الحضارات، وتاريخ العلوم والفنون البشرية، وهى تواريخ محورها الأساس ومحرك عجلتها هو الإنسان.

ياله من بسطاء أولئك الذين يظنون أن التاريخ - بالرغم من كل فروع وتشعباته - نتاج قسرى للقضايا الاقتصادية وخاصة وسائل الانتاج، أى أن التاريخ خلقته وسائل الانتاج واجهزته التى صنعها الإنسان بنفسه!

وعلى هذا الأساس يمكننا القول: إن هؤلاء بتصورهم الخاطيء وتفكيرهم الشاذ لم يعرفوا الإنسان ولا التاريخ أبداً.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٤٠

٥ - التاريخ «النقلى» و «العلمى» و «فلسفة التاريخ»

قسم أحد العلماء المعاصرين التاريخ- من وجهة نظر وزاوية خاصة- إلى ثلاثة أقسام:

١- التاريخ النقلي: وهو عبارة عن مجموعة من الحوادث الجزئية المعينة التي حدثت في الماضي، وهو أشبه ما يكون بالفلم الذى يصور حادثه أو حوادث، لهذا فانه جزئى دائماً وليس كلياً، ويتحدث عما كان لا عما يكون، ويتعلق بالماضى لا بالحاضر، ونقلى لا عقلى.

وهذا الفرع من التاريخ يمكنه- عن طريق المحاكمات- أن يكون معلماً مفيداً، وعبرة من أناس ذلك الزمان، وهو أشبه بتأثر الإنسان بجليسه، وأشبه بالاسوة التى يذكرها القرآن للناس ليعتبروا منها ويقتدوا بها.

٢- التاريخ العلمى: وهو التاريخ الذى يتحدث عن قواعد وسنن الامم السالفة التى تُستنبط من دراسة وتحليل حوادث العصور السابقة، وفى الحقيقة فإنّ التاريخ النقلى كالمادة الخام لهذا التاريخ.

ومن ميزات هذه السنن هى إمكانية تعميمها، وكونها علمية، وإمكانية جعلها مصادر للمعرفة، وإحاطة الإنسان- عن طريقها- بالمستقبل. وبالرغم من أن هذا النوع من التاريخ كلى وعقلى، فإنه علم بما كان لا بما يكون.

٣- فلسفة التاريخ: وهو علم يتحدث عن تحول المجتمعات من مرحلة إلى أخرى أو بتعبير آخر: هو علم بما يكون لا بما كان. ويمكن توضيح هذا بالمثل الآتى:

إنّ «علم الأحياء» علم يبحث عن القواعد الكلية التى تحكم حياة الموجودات الحية، إلّا أنّ نظرية «تكامّل الأنواع» إذا قلنا بها- تبحث عن كيفية تحول وتبدل نوع من الحيوانات إلى نوع آخر، إذن، موضوع البحث فى فلسفة التاريخ هو كيفية حركة وتكامّل التاريخ، إنّ هذا الفرع من التاريخ يتسم بجانب كلى وعقلى، ورغم ذلك فإنه ناظر إلى مجريات التاريخ من الماضى إلى المستقبل وفائدة هذا النوع من التاريخ لا تخفى على أحد «١».

(١). ملخص من كتاب فلسفة التاريخ تأليف الشهيد المطهرى.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٤١

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ ما ذكرناه فى شروحنا للاقسام الثلاثة كان صحيحاً وإن لم يتفق شيئاً ما مع الاستعمالات العصرية لمفردتى «العلم» و «الفلسفة» وأنّ المراد كان اىصال المفهوم إلى أذهان القراء فقط.

فضلاً عما ذكر سابقاً نضيف هنا القول بإمكانية ادغام القسم الثانى والثالث فى قسم واحد، ذلك لأنّ القوانين الكلية التى رسمت التاريخ وتُستخرج وتُستنبط من التاريخ النقلى، تارة تكون ناظرة إلى الوضع الراهن للمجتمعات، وتارة اخرى تكون ناظرة إلى تحول وتكامّل المجتمعات.

والمهم هنا هو أنّ القرآن المجيد لم يقتنع بالسرد المجرى لحوادث التاريخ بل أشار أيضاً إلى السنن والقوانين الكلية التى حكمت المجتمعات، القوانين التى يمكنها أن تزيل القناعات عما كان ويكون، أو عن أى تغير وتحول تاريخى كأتى تقدم أو سقوط أو فشل حصل للمجتمعات.

يشير القرآن- مثلاً- إلى هذه السنن: «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ». (الأنفال / ٥٣)

وينبغى الالتفات إلى أنّ القرآن ذكر هذه السنن بعد ما أشار إلى قصة قوم فرعون وعذابهم بسبب ذنوبهم.

ويقول فى آيات اخر (بعد اشارته إلى تاريخ الأقوام القويّة التى أهلكت بسبب تكذيبهم الرسل وشركهم وذنوبهم وظلمهم): «فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بِأَسْنًا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ». (المؤمن / ٨٥)

نعم تنبغى الوقاية قبل العلاج، وهذا قانون كلى، لأنّ الإنسان لو ابتلى بجزء أعماله فلا فرصة حينئذٍ لجبران الماضى.

الإجابة على إشكال:

قد يُقال إن قبول وجود قانون كلي في تاريخ الإنسان يجسد مفهوم الجبر في تاريخ

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٤٢

البشر ولا ينسجم وحرية الإرادة والاختيار.

لكن الالتفات إلى نقطة في هذا المجال يرفع الإشكال بالكامل والنقطة هي:

إن قولنا بوجود قوانين وسنن كلية معناه أن أعمال البشر الاختيارية (سواء الفردية منها أو الجماعية) لها مردودات وانعكاسات قهرية، فمصير الأمم الصامدة والعارفة والمثابرة - مثلاً - هو النصر، ومصير الأمم المشتتة والجاهلة هو السقوط والفشل.

هذه سنن تاريخية، فهل أن مفهوم هذا القانون الكلي هو أن الإنسان مجبور، أم إنه تأكيد لتأثير ونفوذ إرادة الإنسان في تعيين مصيره؟ وهذا الأمر أشبه ما يكون بقولنا: إن الإنسان يموت إذا تناول سُمًّا، وهذا المردود قهري ولا يتنافى واختيار الإنسان وأصل إرادته.

٦- التاريخ في نهج البلاغة والروايات الإسلامية

بما أن نهج البلاغة كتاب عظيم ذا محتوى تربوي غني جداً، وبما أن التربية بلا معرفة، والمعرفة بلا تربية أمر محال، فقد أكد هذا الكتاب على القضايا التاريخية كثيراً.

إن أمير المؤمنين عليه السلام عند حديثه عن الحوادث التاريخية يصورها وكأنه يأخذ بأيدي الناس إلى مكان الحدث ويريهم فرعون وجنوده ويقتفون آثار مستضعفى بنى اسرائيل ومن ثم يشاهدون غرقهم فى نهر النيل.

إنه يصور قوم نوح وقوم عاد وثمود تحت تأثير الدمار الشامل الذى خلّفه الطوفان والصواعق والزلازل والحجر الذى أمطروا به، والناس يشاهدون أخذ هذه الأمم الطاغية واللاهيئة مع قصورهم ومدنهم وبطغيانهم وهلاكهم فى طرفه عين بحيث لم يبق إلّا آثار الخراب والصمت القاتل المهيمن عليها، وكل من سآخ فى نهج البلاغة مرّ بهم ورجع بكنز هائل من العلم والمعرفة والخبرة، إن قدره نهج البلاغة فى تصوير الحوادث قدرة عجيبة حقاً، وكذا الأمر عند بيانه لفلسفة التاريخ.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٤٣

وقد شرحنا سابقاً كلام الإمام على عليه السلام للإمام الحسن عليه السلام حول تأثير التاريخ على طول عمر الإنسان، طول يمتد بامتداد أعمار جميع البشر من حيث المعرفة والتجربة.

وهناك عبارات جميلة له عليه السلام حول جريان السنن التاريخية حيث يقول:

«عباد الله إن الدهر يجرى بالباقيين كجره بالماضين، يعود ما قد ولّى منه، ولا يبقى سرمداً ما فيه، آخر فعاله كأوله، متشابهة اموره، متظاهرة أعلامه» (١).

وفى تفسيره للإيمان باعتباره ذا أربعة أعمدة الصبر واليقين والعدل والجهاد، يقول:

«اليقين منها على أربع شُعب، على تبصرة الفطنة وتأول الحكمة، وموعظة العبرة وسنة الأولين» (٢).

ويقول عليه السلام فى موضع آخر:

«واعلموا عباد الله أنكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا على سبيل من قد مضى قبلكم، ممن كان أطول منكم أعماراً، وأعمر دياراً، وأبعد آثاراً، أصبحت أصواتهم هامدة، ورياحهم راكدة، وأجسادهم بالية، وديارهم خالية، وآثارهم عافية، فاستبدلوا بالقصور المشيدة، والنمازق الممهدة، الصخور والأحجار المسندة، والقبور اللاطئة المُلحّدة التى بُنى على الخرب فناؤها وشيّد بالتراب بناؤها» (٣).

ويقول فى خطبة اخرى:

«فاعتبروا بما أصاب الأمم المستكبرين من قبلكم، من بأس الله وصولاته ووقائعه ومثلاته، واتعظوا بماواى خدودهم ومصارع جنوبهم» (٤).

كما يقول فى نفس الخطبة:

«فانظرو كيف كانوا حيث كانت الأولاد مجتمعة والأهواء مؤتلفة، والقلوب مهتدة.

(١). نهج البلاغة، الخطبة ١٥٧.

(٢). المصدر السابق، الكلمات القصار، الكلمة ٣١.

(٣). المصدر السابق، الخطبة ٢٢٦.

(٤). المصدر السابق، الخطبة ١٩٢، (الخطبة القاصعة).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٤٤

والأيدي مترادفة، والسيوف متناصرة، والبصائر نافذة والغرائم واحدة، ألم يكونوا أرباباً فى أقطار الأرضين؟ وملوكاً على رقاب العالمين؟ فانظروا إلى ما صاروا إليه فى آخر امورهم، حين وقعت الفرقة، وتشئت الألفة، واختلفت الكلمة، والافتدء، وتشعبوا مختلفين، وتفرقوا متحاربين، قد خلج الله عنهم لباس كرامته، وسلبهم غضارة نعمته، وبقي قصص أخبارهم فيكم عبراً للمعتبرين» (١).

ويقول فى خطبة اخرى:

«وإن لكم فى القرون السالفة لعبرة! أين العمالقة وابناء العمالقة! أين الفراعنة وبناء الفراعنة» (٢)! أين أصحاب مدائن الرّس (٣) الذين قتلوا النبيين، واطفئوا سنن المرسلين، وأحيوا سنن الجبارين؟ أين الذين ساروا بالجيوش، وهزموا الألو، وعسكروا العساكر ومدنوا المدائن؟» (٤).

كما أنّ الروايات الإسلامية أولت عناية كبيرة لهذه المسألة، واعتبرتها أحد المصادر المهمة للمعرفة وبالأخصّ للمسائل الأخلاقية، وتهذيب النفوس، والالتفات إلى واقعات الحياة.

وقد جاء فى رواية أنّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عندما كان فى طريقه مع عسكره إلى صفين وصل إلى مدينة (ساباط) ثم إلى مدينة (بهرسير) (٥) (المناطق التى كانت مركزاً لحكومة الساسانيين) التفت أحد صحابته فجأه إلى آثار كسرى (والملك الساسانى

(١). نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢، (الخطبة القاصعة).

(٢). العمالقة: أقوام قوية وتمكنة وجبارة وظالمة كانوا فى شمال العراق، وقد فتحوا «مصر» وحكموها لفترة فى عهد الفراعنة.

(٣). يعتقد الكثير أنّ أصحاب الرس قوم سكنوا اليمامة جنوب الحجاز، وكان لهم نبي باسم حنظلة، وقال البعض أنهم قوم شعيب، ويعتقد بعض آخر أنّ مدنهم كانت بين الشام والحجاز (يراجع التفسير الأمثل، ذيل الآية ٣٨ من سورة الفرقان).

(٤). نهج البلاغة، الخطبة ١٨٢.

(٥). يقول البعض إنّها مشتقة من الأصل الفارسى أى (بوراد شير) أو (دهار دشير) وهى إحدى المدائن السبعة التى كانت تقع غرب نهر دجلة (معجم البلدان، ج ١، ص ٥١٥).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٤٥

المعروف) وانشد البيت:

جرت الرياح على مكان ديارهم فكأنهم كانوا على ميعاد

فقال الإمام عليه السلام: «لم لم تقرأ، هذه الآيات: «كَمْ تَرَكَوا مِنْ جَنّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَانظُرُوا كَيْفَ يَكْفُرُونَ»

وَأورثناها قوماً آخرينَ فما بكتَ عليهمُ السماءُ والأرضُ وما كانوا مُنظرينَ « (١)».

وقد جاء في حديث الإمام الصادق عليه السلام: «إن داود عليه السلام خرج من المدينة وهو يقرأ (الزبور)، وما من جبل أو حجر أو طير أو حيوان وحشى إلا يقرأ معه، وهو مستمر في طريقه حتى وصل إلى جبل، يعيش على قمته نبي عابد اسمه (حزقييل)، أدرك مجيء داود عندما سمع ترتيل الجبال والطيور والوحوش، وعندما سأل داود النبي: هل تأذن لي بالصعود إليك؟ فأجابته النبي العابد: لا، فبكى داود، فأوحى الله إلى (حزقييل) بأن لا يوبخ داود، وأن يطلب من الله تعالى حسن العاقبة، فقام حزقييل وأخذ بيد داود وجاء به إلى محله.

فسأله داود: هل عزمت على الذنب يوماً؟

فاجاب: لا.

ثم سأل: هل حصل عندك الغرور والعجب لكثرة عبادتك؟

أجابه: لا، ثم سأله: هل رغبت في الدنيا وهل أحببت شهواتها ولذاتها؟

أجاب: نعم، نعم قد يخطر هذا في قلبي.

فسأله: ماذا تفعل آنذاك؟ أجاب: أدخل في هذا الوادي واعتبر بالذي فيه.

فدخل داود الوادي، فرأى أريكه من حديد وعليها جمجمة متأكلة وعظاماً رميمة ولوحة مكتوبة، فعرف داود: أن ذلك يتعلق بملك

مقتدرٍ حكم سنين طويلة وبنى مدناً كثيرة.

وقد بلغ به الأمر إلى ما تراه ... « (٢)».

ج ج

(١). بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٣٢٧.

(٢). المصدر السابق، ج ١٤، ص ٢٢ (ملخص الحديث).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٤٦

آخر الحديث حول التاريخ المعلم:

إن ما ذكرناه عن التاريخ كمصدر للمعرفة والعلم مشروط بالأمور الآتية:

أولاً: أن لا يدرس الإنسان التاريخ للتسلية.

ثانياً: أن يدرس العلاقة الحقيقية بين القضايا التاريخية وأعمال الإنسان، ولا يحلل القضايا التاريخية على أساس التبريرات الوهمية كالحظ والصدفة، أو المصير المحتوم أو القضاء والقدر (على التفسير الذي يعتقد به الجاهلون، والذي تُسلب على أساسه قدرة الإنسان في الاختيار).

ثالثاً: أن يستنبط القوانين التاريخية الكلية من الحوادث الجزئية، وأن يحقق في اصول ونتائج كل حادثه ثم يجعل نفسه مصداقاً لهذه القوانين ويخرج بالنتيجة.

رابعاً: أن لا يسعى ليجزّب الحوادث (التي جرت قبله) بنفسه، وذلك لكي لا يكون مصداقاً لهذا الحديث «من جزّب المجزّب حلت به الندامة».

خامساً: أن يكون ناقداً للحوادث التاريخية ومميزاً للمسلّمات من المشكوكات والأساطير من الواقعات.

وخلاصة الحديث هو أن يتلقى التاريخ كمصدرٍ ملهمٍ للمعرفة والخبرة في حياته، وليس بشكله المحرّف.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٤٧

٤- الفطرة والوجدان

تمهيد:

عندما يصل الإنسان إلى سنّ الرشد، يتعرف على بعض الحقائق من دون الحاجة إلى معلم كاستحالة اجتماع الضدين أو النقيضين حيث تكون واضحة عنده.

ويدرك حسن وقبح كثير من الامور، مثل: قبح الظلم وحسن العدل والاحسان.

وعندما يقوم بعمل مشين، يناديه صوت الوجدان الرادع الباطنى يؤنبه على عمله، وعندما يأتى بعمل حسن يشعر بالطمأنينة والرضا النفسى.

يستأنس بالجمال ويحب العلم والمعرفة.

يحبس فى باطنه ارتباطاً بمبدأ مقدس، وبتعبير آخر: إن فى باطنه ما يجزّه ويجذبه إلى الله عزّ وجلّ.

وهذا يكشف عن وجود مصدرٍ للمعرفة فى باطن الإنسان غير المصادر التى قرأنا عنها سابقاً، يطلق عليه «الفطرة»، وتارة «الوجدان» واخرى «الشعور الباطنى».

ولتعيين حدود العقل وحدود الفطرة نتأمل الايضاحات الآتية:

إنّ روح الإنسان تمثل ظاهرة عجيبة ذات جوانب وأبعاد متعددة، ندرك بعضها، ونجهل الآخر، كما أن لها نشاطات مختلفة بمحاذاة جوانبها المختلفة.

وإنّ العقل يشكل قسماً من الروح، ووظيفته التفكير، كما أنّ هناك قسماً آخر وهو الحافظة ووظيفتها حفظ المعلومات وخبزها وتقسيمها وتبويبها واستخراج المراد والمطلوب منها- بشكل معجز- من بين الملايين من المفاهيم والحوادث والذكريات.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٤٨

والقسم الآخر هو العواطف أو مركز الحب والعشق والعداء والخصومة والبغضاء.

والقسم الآخر هو الأعمال الباطنية كالاختيار والإرادة والعزم والتصميم.

والخلاصة ينبغى القول: إنّ الروح بحر عظيم ملؤه العجائب والغرائب، وإنّ القوانين التى تحكمها قوانين متنوعة ومعقدة للغاية.

إلاّ أنّه يمكن تقسيم الروح إلى قسمين كليين:

١- القسم الذى يتعلق بالتفكير والإدراكات النظرية، أى ما يكتسبه الإنسان عن طريق الاستدلال.

٢- القسم الذى يتعلق بالإدراكات البديهية الضرورية، أى ما هو حورى ومعلوم عند الإنسان بلا دليل أو برهان.

وكلما تحدثنا عن الفطرة والوجدان، فإنّ مرادنا هو القسم الأخير من الإدراكات.

«الفطرة»: وتعنى الخلقه الاولى أى خلق الروح والنفس ممتزجة مع مجموعة من المعلومات الفطرية.

و «الوجدان»: ما يجده الإنسان فى نفسه من دون حاجة لتعلمه.

و «الشعور الباطنى»: الإدراك الباطنى للإنسان الذى يستلهم منه الإنسان، وعلى أزيه حال، فإنّ ممّا لا شك فيه أنّ هذا الشعور أحد

مصادر العلم ومعرفة الحقائق، الذى قد يعبر عنه ب «القلب» وهو يختلف بوضوح عن «العقل» الذى هو مركز الإدراكات النظرية بالرغم

من أنّهما فروع لشجرة واحدة وثمرتان لروح الإنسان (فتأمل).

بالطبع، ليس كل ما قيل هنا متفق عليه من قبل الفلاسفة جميعهم، بل أردنا الإشارة إلى هذا الموضوع، وسنعيد الإشارة إليه مرّة اخرى

بشكلٍ استدلالى إن شاء الله.

وبعد الالتفات إلى هذه الملاحظة، نتأمل فى القرآن لئرى كيف يكشف لنا عن هذا المصدر.

ج ج

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٤٩

نقرأ أولاً الآيات:

نفحات القرآن ج ١ ١٩٢

١- «وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا* فَالْهَمَّهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا». (الشمس / ٧- ٨)

٢- «فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ . (الأنبياء / ٦٤)

٣- «وَلَيْسَ سَأَلْتُهُمْ مِّنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ . (لقمان / ٢٥)

٤- «فَإِذَا رَكبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ . (العنكبوت / ٦٥)

٥- «صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ . (البقرة / ١٣٨)

٦- «خَلَقَ الْإِنْسَانَ* عَلَّمَهُ الْبَيَانَ . (الرحمن / ٣- ٤)

٧- «عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ . (العلق / ٥)

٨- «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لِتَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

(الروم / ٣٠)

ج ج

معانى المفردات:

إنَّ كلمة «الهمها» مأخوذة من مادة «الإلهام» أى- كما يصرح به كبار اهل اللغة- الشىء الذى يقع فى قلب الإنسان، ويقول الراغب فى مفرداته: «الإلهام: إلقاء الشىء فى الروح ويختص ذلك بما كان من جهة الله وجهه الملاء الأعلى ، والروح يعنى القلب، أما الرُّوع فيعنى الخوف والانبهار.

ثم استشهد بالآية «فَالْهَمَّهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا» كدليل على ما قاله.

وقد جاء فى لسان العرب: أنها من مادة (لَهْم) وتعنى البلع، والالهام يعنى التلقين الإلهى، وهو نوع من أنواع الوحي (الوحي بمعناه العام).

ومع الالتفات إلى أصل هذه الكلمة يمكن العثور على سبب الاطلاق، وكأن الروح تفتح فم الإنسان وتلقى فيه حقيقة بواسطة التعليم الإلهى فيمضغها فمه.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٥٠

«الفطرة»: جاءت من مادة فَطْر، ويعتقد البعض أنها فى الأصل تعنى «البقر» وهو الشق «١»، بينما يعتقد البعض الآخر أنها تعنى الشق طوِّلاً، ثم استعملت بمعنى الخلق، وكأنَّ ستار العدم يُبقر ويُمزق فتخرج منه الموجودات الحية، كما يقال للعمل المنافى للصوم كتناول الطعام (إفطار)، فيقال: إنَّ ذلك بسبب بقر شىء ممتد ومتصل.

ويقال للنبات الذى يفطر الأرض ويبقرها «فَطْر» لأنه يبقر الأرض ويخرج منها، وقد يطلق على حلب التدى بالأصابع «فَطْر».

كما أن العجين إذا اختمر وصيّر خبزاً أطلق عليه «فَطْر» (٢).

وعلى كل حال، فإن المراد من هذه المفردة في الآيات هو الخلقة الإلهية الأولى والهداية التكوينية نحو حقائق مودعه في روح الإنسان وهو مجبول عليها.

وأما كلمة «النفس» - وكما أشرنا سابقاً - فتعني «الروح» وقد يطلق على ذات الشيء «نفس الشيء» كما جاء ذلك في القرآن الكريم (ويحذركم الله نفسه) كما قد جاءت هذه المفردة بمعنى «الدم» و«العين» و«الشخص» (٣).

كما أنها قد تطلق اطلاقاً خاصاً على «النفس الامارة» إلا أنها جاءت في الآيات هنا بمعنى «الوجدان» الذي يشكل قسماً من روح الإنسان.

وكلمة «صِبْغَة» مشتقة من مادة «صَبَغَ» أي طلى لوناً، ويطلق على نتيجة العمل «صبغة»، و«صَبِغَ» يعنى الطعام الذي يؤكل مع الخبز بحيث يكون الخبز كالصبغة لذلك الطعام، وادعى البعض أنه يعنى زيت الزيتون الذي يغمس فيه الخبز ويؤكل.

ويقول الراغب: إن «الصبغة» المذكورة في الآية إشارة إلى العقل الذي جُبل عليه الإنسان وميزه عن الدواب، وهو كالفطرة (٤).

(١). لسان العرب.

(٢). كتاب العين، ولسان العرب، ومفردات الراغب.

(٣). مجمع البحرين الطريحي، مادة (نفس)، ومفردات الراغب.

(٤). مفردات الراغب، مادة (صبغ).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٥١

إن التعبير بالصبغة، كما يقول عدد من أئمة اللغة - قد يكون بسبب أن «النصارى يغسلون الوليد بعد اليوم السابع بماء ممزوج بمادة صفراء اللون (غسل التعميد) معتقدين أن هذا الصبغ يطهره وينزهه، والقرآن يصرح لهم: إن صبغة الإسلام والتوحيد أحسن من هذه الصبغة وأشرف.

وعلى هذا، فالتعبير بالصبغة يتناسب كثيراً مع الفطرة والخلقة الأولى خاصة وأن بعض الروايات فسرت الصبغة ب «الإسلام والولاية» (١).

جمع الآيات وتفسيرها

في الآية الأولى بعد أن أقسم الله بالنفس وبالذى سواها وما فيها من قابليات، أشار إلى المصدر المُلهم للمعرفة وهو «الوجدان الأخلاقي»، وقال: إن الله ألهم الإنسان المعرفة في مجال التقوى والفجور.

وقد جاء في آية أخرى ما يماثل مفاد هذه الآية، فبعد إشارته إلى خلق الإنسان قال:

وهديناه النجدين.

وينبغي الالتفات هنا إلى أن «نجد» - في الأصل - المكان المرتفع ويقابله «تَهَامَة» أي الأرض المنخفضة، إلا أن النجد هنا - بقرينه ما قبل وما بعد الآية، وبقريته بعض الروايات التي فسرت النجد - كناية عن الخير والشر وعوامل السعادة والشقاء (٢).

كما أن الآية: «إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا». (الإنسان/ ٣)

قد تشير إلى نفس المعنى، أو على الأقل تندرج «الهداية الفطرية» في المفهوم العام للهداية التي جاءت في هذه الآية.

(١). تفسير البرهان، ج ١، ص ١٦٧-١٥٨.

(٢). تفسير القرطبي، ج ١٠، ص ٧١٥٥؛ تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٩٤.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٥٢

والآية الثانية ناطرة إلى تحطيم الاصنام من قبل بطل التوحيد ابراهيم الخليل عليه السلام:

ومحاكمة عبدة الأصنام له في بابل، فعندما سُئِلَ: «أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتَانِ يَا إِبْرَاهِيمُ؟ (الانبياء / ٦٢)

اجابهم عليه السلام: «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسْتَلُّوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ . (الانبياء / ٦٣)

ثم قالت الآية: «فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ أَى ظالمون لأنفسهم ولمجتمعهم وربهم وخالقهم الذى يغدق عليهم النعم.

يعتقد بعض المفسرين: أن عبارة: «فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ» تعنى لوم احدهم الآخر، إلا أن هذا خلاف ظاهر الآية، فالتفسير الأول أصح.

نعم، إنه الضمير الذى يجعل عبدة الأصنام المغرورين يلومون أنفسهم ويوبخونها.

إِنَّ التَّعْبِيرَ بِ«النَّفْسِ اللّوَامَةِ» فِي الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ: «وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللّوَامَةِ».

(القيامة / ٢) خاصة وأن الله قرنها بيوم القيامة، إشارة واضحة إلى هذه المحكمة الباطنية والوجدان الفطرى.

والآية الثالثة تشير إلى أمر المشركين، حيث يعرضون عن اتباع آيات الله عندما يُدعون إليها ويصرون على اتباع ما كان عليه آباؤهم،

فيقول الله فى هذا المجال: «وَلَيَنْ سَيِّئَاتُهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ، وبالرغم من ذلك لم يخضعوا لله تعالى بل

لأصنامهم التى صنعوها بأيديهم لجهلهم: «الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . (لقمان / ٢٥)

وجوابهم على هذا السؤال عن خلق السموات والأرض، يمكن أن يكون نابعاً عن «الفطرة»، ويوضح حقيقة أن الأنوار الإلهية متأصلة فى

الإنسان منذ تكوينه فطرياً ولكن الناس غافلون عن هذا الحكم الفطرى، فيذهبون عنه شططاً.

ج ج

وتشير الآية الرابعة إلى نفس المفاد الذى جاء فى الآية الثالثة، فقد وضحت التوحيد الفطرى الذى يتجلى فى باطن الإنسان عندما يمر

بالأزمات والشدائد، ومثال ذلك أن الناس

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٥٣

عند ركوبهم السفينة ومواجهتهم الأمواج المتلاطمة والزواج والعواصف يذكرون الله، لأنهم لا يجدون أحداً يستطيع انقاذهم آنذاك

من الشدائد غير الله.

فعندما ترفع ستائر التقاليد الخرافية والأوهام والتعاليم الخاطئة وتتجلى فطرة البحث عن الله، يذكرونه ويدعونه يا خلاص كامل.

وما أن يهدأ البحر أو يصلوا إلى الساحل، حتى تساورهم الأفكار الملوثة بالشرك مرة أخرى وتستعيد الأصنام وجودها فى قلوبهم

وتسدل ستاراً على فطرتهم مرة ثانية؟

ج ج

والآية الخامسة، بعد ما عرّدت التوحيد دين وملء إبراهيم وانبيا عظام آخرين كإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى عليهم

السلام قالت: «صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ .

إنّ النصرى الذين يعتقدون بالتثليث، ويغسلون أولادهم بغسل التعميد، ويضيفون- أحياناً- مادة صفراء إلى الماء الذى يُغسل به،

ويقرنون عملهم هذا باسم «الأب» و«الابن» و«روح القدس» يعتبرون هذا العمل مطهراً لهم من الذنوب التى ورثوها من آدم عليه

السلام «١».

إنّ القرآن أبطل هذه الأفكار جميعها وصرح: إن صبغة الله أحسن من هذه الصبغة الخرافية، فسلموا لهذه الصبغة لتطهر أرواحكم من

كل شرك وإثم وعبادة للأصنام.

وقد جاء في الروايات - كما قلنا سابقاً - أن المراد من الصبغة هو الإسلام والولاية «٢»، وهذا تأكيد على وجود إلهامات فطرية في ذات الإنسان.

ج ج

(١). لقد جاء في قاموس الكتاب المقدس: أن غسل التعميد أحد القواعد المقدسة التي كانت معروفة قبل ظهور المسيح عليه السلام، وهو من فرائض الكنيسة، ويستعملون فيه الماء ويثثون عليه، ويعتبرونه مطهراً من النجاسات ويعتقد الكثير من المسيحيين أن الغسل هذا وجب على أولاد المؤمنين (القاموس، ص ٢٥٧-٢٥٨).

(٢). تفسير الميزان، ج ١، ص ٣١٦؛ تفسير الدر المنثور، ج ١، ص ١٤١.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٥٤

والآية السادسة والسابعة تحدثنا بعد الإشارة إلى خلق الإنسان عن تعليمه البيان وما لم يعلم.

«الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . (العلق / ٤)

وعلى هذا فهو معلم البيان كما هو معلم بالقلم، وهو معلم الإنسان ما لم يعلم، وهذه التعاليم قد تكون تلميحاً إلى التعاليم الفطرية المودعة في باطن الإنسان بشكل معلومات ملخصة وأولية، وقد تكون تلميحاً للوسائل والأسباب والمقدمات التي جعلها الله في الإنسان، والتي تمكنه من اختراع اللغة والخط واكتشاف واقعيات الكون الأخرى.

وعلى المعنى الأول تكون الآيات شاهداً على بحثنا.

ج ج

أما الآية الثامنة في البحث فقد تحدثت عن دين الفطرة وأمرت الرسول بأن: «أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَاتَّبِعِدِلَّ لِخَلْقِ اللَّهِ .

الجميل هنا أن القرآن لم يذكر كون معرفة الله فطرية فحسب، بل إن الدين بجميع أبعاده وجوانبه فطري.

والأمر كذلك بالضرورة، وذلك لتنسيق الموجود بين جهاز «التكوين» وجهاز «التشريع» أي أن ما جاء مفصلاً في عالم التشريع، جاء بصورة مجملته في عالم التكوين، وعندما يتفق نداء الفطرة مع نداء الأنبياء والشريعة، فإن هذا الاتفاق يجعل الإنسان في طريق الهدى وسنخوض تفصيلاً في هذا الموضوع عند بحثنا في التوحيد الفطري في المجلد الثاني إن شاء الله.

النتيجة:

طبقاً لما قرأناه، فإن القرآن المجيد يعتبر «الفطرة» أو «الوجدان» مصدراً غنياً للمعرفة، وقد دعا الجميع - بتعابير مختلفة - للالتفات إلى هذا المصدر لأهميته البالغة.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٥٥

توضيحات

١- فروع الفطرة والوجدان

إنَّ المعلومات الفطرية والوجدانية لها فروع مختلفة وأهمها الفروع الأربعة التالية، والملفت للنظر أن كل آية من الآيات التي جاءت في أول البحث أشارت إلى فرع من هذه الفروع، وهي:

١- إدراك الحسن والقبح- أي الأخلاق التي يطلق عليها- أحياناً- «الوجدان الأخلاقي»، وتعني أن الإنسان ومن دون الحاجة إلى استاذ أو معلم يعتبر كثيراً من الصفات حسنةً مثل «الاحسان» و «العدل» و «الشجاعة» و «الايثار» و «العفو» و «الصدق» و «الأمانة» وغير ذلك من الصفات.

وفي مقابل هذه الصفات، صفات قبيحة مثل «الظلم والجور» و «البخل» و «الحسد» و «الضعيف» و «الكذب» و «الخيانة» وأمثالها. والآية: «فَالْهَمَّهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا» تشير إلى هذا النوع من التعاليم الفطرية.

٢- إدراك البديهيات العقلية: التي تعتبر أسس الاستدلالات النظرية، ولا يمكن إقامة البرهان في أي موضوع من دون الاستناد إليها. وتوضيح ذلك: أن في الرياضيات مجموعة من القضايا البديهية تنتهي إليها جميع الاستدلالات الرياضية وهي وجدانية، مثل (الكل أكبر من الجزء)، وإذا تساوى أحد شيئين متساويين مع شيء آخر، تساوى كل منهما مع ذلك الشيء، أو إذا أنقصنا مقدارين متساويين من شيئين متساويين أو أضفنا ذلك المقدار إلى كل منهما فالنتيجة تساويهما كذلك. وكذلك الأمر بالنسبة للاستدلالات العقلية الفلسفية، فلا يمكن الاستدلال من دون الاستناد إلى قضية استحالة اجتماع الضدين أو النقيضين وغير ذلك.

ويستخدم القرآن- أحياناً- هذه الاصول المسلم بها لاثبات قضايا مهمة، كما في قوله:

«قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ . (الزمر / ٩)

ويقول في آية أخرى: «قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ». (الرعد / ١٦)

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٥٦

٣- الفطرة المذهبية- أن الإنسان يتعلم بعض القضايا والمسائل العقائدية من دون الاستعانة بمعلم أو استاذ كمسألة معرفة الله والمعاد وقضايا عقائدية أخرى يأتي شرحها في المجلد الثاني إن شاء الله.

والآية: «فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ» تشير إلى هذا القسم من المعرفة الفطرية.

ولهذا السبب نرى الإيمان بمبدأ مقدس موجوداً على مرّ العصور، كما أن لدينا قرائن تثبت تجذّر هذا الإيمان عند الإنسان البدائي كذلك ولا يمكن اتساع هذا المعتقد واستمراره عند البشر عبر مرّ العصور إلّا إذا كان متأصلاً في فطرة الإنسان.

٤- محكمة الوجدان: توجد في باطن الإنسان محكمة عجيبة يمكن تسميتها «القيامة الصغرى» ، تحاكم الإنسان على أعماله، فتشجعه على الحسنات، وتوبخه على السيئات، ونجد هذه التشجيعات والعقوبات في باطننا جميعاً (بالطبع مع وجود اختلاف)، وهي نفسها التي نقول عنها تارة: (إن ضميرنا راضٍ)، وتارة: (إن ضميرنا يؤنبنا) إلى حدٍ حيث يسلب منا النوم، بل قد يؤدي- أحياناً إلى نتائج مأساوية مثل الانتحار والجنون والابتلاء بأمراض نفسية، والآية: «فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ» تشير إلى هذا القسم.

٢- هل توجد معرفة فطرية؟

بالرغم من أن الجميع يشعرون بشكل عام بوجود هذا المصدر في ذواتهم، أي يشعرون بوجود مجموعة من الخطابات والالهامات، أو بتعبير آخر وجود إدراكات لا تحتاج معلماً أو استاذاً، إلّا أنّ بعضاً من الفلاسفة شكك في هذا المصدر، وعلى العموم توجد ثلاث نظريات في هذا المجال:

أ) نظرية الذين يعتقدون أن كل ما لدى الإنسان من معلومات موجود في باطنه، وما يتعلمه في الدنيا، يتذكره في الحقيقة، لا أنه يتعلمه

من جديد! هذا ما نقل عن افلاطون واتباعه «١».

(١). يقول افلاطون: إنَّ الروح قبل حلولها في البدن ودخولها في العالم المجازى كانت في عالم المعقولات والمجردات و «المثل»، أى أنَّها أدركت الحقائق ونسيتها بمجرد دخولها في عالم الكون والفساد، إلَّا أنَّها لم تمنح عنها بالكامل، فالإنسان كالظل والشبح فما هو في «المثل» يتذكره بمجرد الالتفات إليه، فكسب العلم والمعرفة تذكراً في الحقيقة، وإذا كان الإنسان جاهلاً منذ البدء فلا يمكنه تحصيل العلم (مسير الحكمة في اروبا ج ١، ص ٢٣- نظريات افلاطون).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٥٧

(ب) نظرية أولئك الذين يدعون أنَّ المعرفة بجميع أقسامها عند الإنسان فطرية، بالرغم من اذعانهم لِقابلية الإنسان على إدراك القضايا المختلفة، ويتصورون أنَّ إدراكه الفطري انعكاس لتجاربه وحاجاته والضرورات الاجتماعية.

اعتبر «فرويد» عالم النفس المعروف «الوجدان الأخلاقي» مجموعة من النواهي الاجتماعية والميول المكتوبة في ضمير الإنسان، يقول: إنَّ «الوجدان الأخلاقي» لا يمثل سلوكاً ذاتياً وعميقاً لروح الإنسان، بل إنَّه رؤية باطنية بسيطة للنواهي الاجتماعية، ولا يوجد في تاريخ المجتمع ولا تاريخ الفرد تصورات بدائية عن حسن الأشياء وقبحها، وقد تولدت هذه التصورات من البيئة الاجتماعية وتشعبت عنها «١».

وقد فسر أتباع المذهب المادى (الديالكتيك) الإدراكات الفطرية على أساس مقولتهم المعروفة «كل شىء وليد الظروف والاضاع الاقتصادية»، فانكروا وجودها.

(ج) نظرية أولئك الذين يرون أن قسماً من معلوماتنا فطرية والقسم الآخر مكتسب، والمعلومات المكتسبة تنتهى إلى تلك المعلومات الفطرية وهى أساسها.

وقد أثبتت الأدلة المنطقية العقلية، والأدلة النقلية من الآيات والروايات هذه النظرية وذلك للأسباب الآتية:

أولاً: أننا نعتقد بوجود قضايا بديهية مُسَلِّمٌ بها فى الرياضيات وبدون تلك البديهيات لا يمكن اثبات أية قضية رياضية، كذلك الأمر بالنسبة للقضايا الاستدلالية الأخرى، فلا بد من اعتمادها على قضايا بديهية مسَلِّمٌ بها تكون الأساس لكل استدلال.

وبعبارة أخرى: لو أنكرنا القضايا الفطرية بالكامل لأنكرنا جميع معارفنا، لأنَّ جميع القضايا العقلية ستكون مرفوضة، وسنسقط فى النهاية فى وأدى السفسطة.

(١). أفكار فرويد، ص ١٠٥؛ ومجموعة ماذا أعلم- للأمراض الأخر الروحية-، ص ٦٤ (بالفارسية).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٥٨

وإذا أثبتنا- مثلاً- بالحس والتجربة أو بدليل عقلى وجود أمر ما، فإذا كنَّا غير واثقين بقضية «استحالة اجتماع النقيضين» التى تعتبر من القضايا البديهية جدًّا، فعندئذٍ يمكننا التشكيك بالأمر، والقول بإمكانية عدم وجود الأمر الذى أثبتنا وجوده!

وإذا أردنا إثبات هذه الاصول البديهية بالتجربة والاستدلال فسينتهى الأمر بنا إلى الدور والتسلسل ولا تخفى سلبيات هذا الأمر على أحد.

ثانياً: فضلاً عمَّا سبق، فكما نعترض على السفسطائين (الذين ينكرون كل شىء) وكذا المثاليين (الذين ينكرون الحقائق الخارجية، ويعتقدون بالامور الذهنية فقط) وبالاستناد إلى الوجدان نقول: إنَّ الوجدان يشهد ببطان مثل هذه العقائد، لأننا ندرك أنفسنا والعالم الخارجى الذى يحيط بنا بوضوح، فكذلك الأمر هنا، لأنَّ هذه الضرورة الوجدانية دليل على وجود كثير من الإدراكات الباطنية.

وكما أننا نحس بحاجات جسمية وروحية كثيرة (الحاجات الجسمية مثل الأكل والشرب والنوم، والروحية مثل الميل إلى العلم

والاحسان والجمال والعبادة والقداسة) ويقول بعض علماء النفس: (إن هذه المقتضيات تشكل الأبعاد الأربعة لروح الإنسان). فهذا الوجدان ذاته يصرح لنا بحسن الاحسان والعدالة وقبح الظلم والاعتداء، وفي هذه الإدراكات لا نحتاج إلى مصدر اجتماعي أو اقتصادي أو غير ذلك بل يكفيننا الوجدان.

إن حجة أمثال «فرويد» و «ماركس» واضحة، حيث أنهم يعتقدون بأصل واحد وهو رجوع كل قضية اجتماعية وفكرية إلى الجنس أو الاقتصاد، ويصرون على توجيه كل شيء على ضوء هذا الأصل.

ثالثاً: إن الموضوع واضح من جهة نظر توحيدية، لأننا إذا سلمنا أن الإنسان خُلِقَ للتكامل على أساس سنه إلهية، فلا ينبغي الشك في أن وسائل ودوافع مثل هذا التكامل يجب أن تكون مهينة في ذاته، وموجودة، وأن ما جاء به الأنبياء وما ورد في الكتب

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٥٩

السماوية متناسب وهيئة الإنسان التكوينية.

وعليه، فحاكم التكوين والنخلة متناسب وفي تناسق كامل مع عالم التشريع.

أو بتعبير آخر، فإن خلاصة هذه التعليمات مودعة في ذات الإنسان وأن ما جاء في الشرائع السماوية هو شرح مفصل لهذه الخلاصة من التعليمات.

ولهذا، فلا يمكن التشكيك في التعاليم الفطرية التي يؤيدها العقل والرؤية الكونية التوحيدية.

سؤال:

لقد صرح القرآن بقوله عز من قائل: «وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَاتَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ». (النحل /

٧٨)

ألا يستفاد من هذه الآية أن لا وجود للمعلومات الفطرية أبداً؟

الجواب:

أولاً: إن الإنسان في ساعات ولادته لا يعلم شيئاً قطعاً، وحتى المعلومات الفطرية ليست فعالة، وعندما يعرف نفسه ويصبح مميزاً يتحسس المعلومات النظرية ويدركها بلا معلم أو استاذ أو حس أو تجربة، وإلا فكيف يمكن القول بأن الإنسان يعلم كل شيء حتى بوجوده الذاتي - بالتجربة وأمثالها «١».

ثانياً: ألم نقل بأن القرآن يفسر بعضه بعضاً؟

حيث إن آيات مثل: «فَاللَّهُمَّهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا» و «فِطَرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا»

(١). نقلت عبارة معروفة عن (ديكارت) قال فيها: «كنت شاكاً حتى في نفسي، ثم رأيت أنني افكر، فأدركت أنني موجود» إنها عبارة مليئة بالأخطاء، لأن الذي يقول: أنا أفكر فانه يعترف بال (أنا) قبل اعترافه بالتفكير، لا أنه يعترف بالتفكير قبل الأنا.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٦٠

التي جاءت في أول البحث تفسر الآية: «وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَاتَعْلَمُونَ شَيْئاً»، فتكون المعلومات الفطرية مستثناة من هذه الآية.

سؤال آخر:

وقد يطرح هنا سؤال آخر عكس السؤال الأول وهو: أن القرآن الكريم في الكثير من الآيات أطلق مفردة «التذكير» على علوم الإنسان، مثل: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ». (النحل / ١٣)

ويقول في آية أخرى: «وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ». (آل عمران / ٧)

وفي اخرى أيضاً: «وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . (البقرة/ ٢٢١)

ألم يكن المراد من هذه الآيات وهو نفس ما ذهب إليه افلاطون، أى أن العلوم عبارة عن تذكير لما هو موجود فى سريرة الإنسان، وحاصل عنده منذ القدم؟

الجواب:

إن «التذكير» من مادة «ذكر» ومعناه الأولى - كما يقول أئمة اللغة - هو الحفظ، وكما يقول الراغب فى مفرداته: الذكر قد يطلق على حالة نفسية تُعين الإنسان على حفظ العلوم والمعارف، وقد يقال لحضور الشيء فى القلب، أو البيان، وما جاء فى لسان العرب قريب لما جاء فى المفردات، حيث قال: الذكر، يعنى الحفظ كما يعنى الموضوع الذى جرى على الألسن.

وعلى هذا، فالذكر والتذكر لا يعنى حضور الشيء فى القلب بعد النسيان أو استعادة الذكرى فقط، بل يشمل جميع المعلومات.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٦١

٣- «الفطرة» و «الوجدان» فى الروايات الإسلامية

لقد أشير فى الروايات الإسلامية إلى هذا المصدر كثيراً ونذكر هنا نماذج من تلك الروايات:

- ١- قال رسول الله صلى الله عليه و آله فى حديث معروف له: «كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه يهودانه وينصرانه» (١).
 - يدل هذا الحديث بوضوح على أن التوحيد، بل حتى الاصول الأساسية للإسلام مودعة فى فطرة الإنسان (٢).
 - ٢- وقد جاء فى حديث أن شخصاً سأل الإمام الصادق عليه السلام عن الآية: «فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا»، فأجاب الإمام عليه السلام: «التوحيد» (٣).
 - ٣- وفى حديث آخر أجاب عن نفس السؤال بهذا الجواب: «هى الإسلام» (٤).
 - ٤- وقد قال الإمام عليه السلام فى حديث آخر فى هذا المجال: «فَطَرَهُمْ عَلَى المَعْرِفَةِ» (٥).
 - ٥- وقد جاءت روايات عديدة عن الإمام الصادق عليه السلام فسرت الآية: «صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً» بالاسلام (٦).
 - ٦- وقد جاء فى حديث قدسى: «خَلَقْتُ عِبَادِي خُنَفَاءَ»، وقال صاحب مجمع البحرين بعد ذكره لهذا الحديث يعنى مؤهلين لقبول الحمد، ثم اعتبر معنى الحديث نفس معنى الحديث المعروف «كل مولود يولد على الفطرة».
- وهناك ملاحظة جديرة بالذكر وهى: إن الروايات الإسلامية عبرت عن الأعمال الحسنة

(١) بحار الأنوار، ج ٣، ص ٢٨١.

(٢) يأتى شرح هذا الحديث مفصلاً فى، المجلد الثانى من هذا التفسير.

(٣) اصول الكافى، ج ٢، ص ١٢، باب فطرة الخلق على التوحيد، ح ١.

(٤) المصدر السابق، ح ٢.

(٥) المصدر السابق، ح ٤، والروايات التى جاءت فى هذا المجال كثيرة ويمكن الرجوع إلى المصادر التالية: بحار الأنوار، ج ٣، باب ١١ من أبواب التوحيد.

(٦) بحار الأنوار، ج ٣، ص ٢٨٠.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٦٢

بالمعروف وعن الأعمال السيئة والقيحة بالمنكر وتطلق هذه المفردة على الأمر المجهول، فقد يُثبِتُ هذا الاطلاق أن الأعمال الحسنة

سلوكات تعرفها الروح وتستأنس بها وتسكن إليها أما الأعمال القبيحة والسيئة فهي ممارسات تتنفر منها الروح، ومجهولة عندها.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٦٣

٥- الوحي السماوي

تمهيد:

توجد آيات كثيرة في القرآن الكريم حول الوحي، بل إن بحثه طرح في جميع الكتب السماوية، وفي الحقيقة فإن أتباع الأديان السماوية يعتبرون «الوحي» أهم مصدر للمعرفة، لأنه ينهل من العلم الإلهي الواسع، في حين أن المصادر الأخرى تتعلق بالإنسان نفسه، وهي محدودة جداً بالنسبة لهذا المصدر.

إن الرؤية الكونية الإلهية تقول: إن الله عز وجل (ولأجل هداية البشر (أى بيان الطريق له) أوحى إلى رجال الوحي (أى الرسل العظام) بكل ما يحتاجه الناس في سبيل اجتياز الطريق إلى التكامل والسعادة.

وفي الحقيقة، إن العقل إذا كان سراجاً منيراً قويا فإن الفطرة والوجدان والتجربة بمنزلة سراج من نوع آخر، و «الوحي» بمنزلة الشمس الساطعة، الأكبر والأعظم من السراجين المذكورين.

وعلى هذا فيعد الوحي - من وجهه نظر الإلهيين - أهم وأغنى مصدر للمعرفة.

والآن نقرأ خاشعين الآيات الآتية.

١- «وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَخِيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآذنيه مَا يَشَاءُ أَنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ . (الشورى ٥١)

٢- «وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ . (النجم / ٣- ٤)

٣- «قُلْ أَنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ . (فصلت / ٦)

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٦٤

٤- «ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ...» . (الاسراء / ٣٩)

٥- «قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلْجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَيَّ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ...» . (البقرة / ٩٧)

٦- «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ...» . (النحل / ٨٩)

٧- «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ .

(الشورى ٥٢)

٨- «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ . (النحل / ٤٣)

٩- «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ...» . (الحديد / ٢٥)

١٠- «أَنَا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ . (الحجر / ٩)

١١- «قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ . (آل عمران / ١١٨)

١٢- «وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا...» . (النساء / ١٦٤)

شرح المفردات:

١- «الوحي» استعمل هذا الاصطلاح في القرآن والروايات والأدب العربي بمعانٍ كثيرة، إلما أن المعنى الأولي للوحي - كما يقول

الراغب في مفرداته- هو «الإشارة السريعة»، ولذا يقال للأعمال السريعة «وحي»، كما يقال «وحي» للحديث الرمزي المتضمن كتابات، والذي يُتبادل بسرعة، والذي قد يحصل بالكتابة أو الإشارة، ثم اطلقت هذه المفردة على المعارف الإلهية التي تقذف في قلوب الأنبياء والأولياء.

وللوحى أشكال متعددة، فتارة يكون بمشاهدة ملك من الملائكة واستماع حديثه، كما هو الحال بالنسبة لجبرئيل عليه السلام حيث كان الله يُوحى إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بواسطته.

وتارة باستماع صوته فقط دون مشاهدته كما كان يوحى إلى موسى عليه السلام.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٦٥

وتارة يُوحى بالألقاء بالقلب فقط.

وتارة يوحى الله بالالهام فقط كما هو الحال بالنسبة لأم موسى عليه السلام.

وتارة بالمنام (كالرؤيا الصادقة) (١).

ذكر الخليل بن أحمد في كتاب العين: إن أصل معنى «الوحي» هو «الكتابة»، وقال ابن منظور في لسان العرب: إن الوحي يعنى «الإشارة» و «الكتابة» و «الرسالة» و «الالهام» و «الحديث الخفى» و «كل خطاب يُلقى على شخص آخر».

ومن مجموع ما تقدم نستشف أن «الوحي» فى الأصل يعنى الإشارة السريعة والحديث الرمزي والخطاب الخفى المتبادل بالرسائل أو الإشارات، وبما أن التعاليم الإلهية أوحيت إلى الأنبياء بشكل غامض، أطلقت مفردة «الوحي» عليها، لأن الألفاظ التي نستعملها وضعت لمستلزمات حياتنا اليومية، فإذا أردنا أن نستعملها فى الأمور الخارجة عن مستلزمات حياتنا اليومية، فينبغى توسيع معانيها، أو تجريدها أو استعمالها فى مناسبات خاصة.

يقول الشيخ المفيد قدس سره فى «شرح الاعتقادات»: إن أصل الوحي يعنى الكلام الخفى، وقد أطلق على كل شىء القصد منه تفهيم المخاطب بشكل يخفى عن الآخرين، وإذا نسب الوحي إلى الله عز وجل فالمراد به التعاليم والأوامر الإلهية التي يُخاطب بها الأنبياء والرسول (٢).

٢- أمياً «الانزال» و «التنزيل» فاشتقتا من مادة «نزول» وتعنى- فى الأصل- الهبوط والمجىء من المكان العالى إلى المكان الدانى، وفرقهما عن النزول أنهما مصدران لفعالين متعديين فى حين أن النزول مصدر لفعل لازم.

وقد يكتسب الانزال معنىً حسيماً مثل ما جاء فى هذه الآية: «وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا». (الفرقان / ٤٨)

(١). مفردات الراغب مادة (وحي).

(٢). سفينة البحار، ج ٢، ص ٦٣٨.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٦٦

وقد يكون بمعنى موهبة تُؤهب من صاحب مقام عالٍ إلى صاحب مقام دان: «أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ». (الزمر / ٦) وقد يكون الانزال بمعنى إلقاء المعارف الإلهية من قبل الله، وقد استعمل هذا المعنى فى القرآن كثيراً، وهناك بحث لأئمة اللغة فى كون الانزال والتنزيل بمعنى واحد، أو أن لكل معنى يختص به، فبعض يقول: إنه لا-اختلاف فى المعنى بينهما غير أن التنزيل يفيد الكثرة فقط «١»، بينما يعتقد بعض آخر: أن «التنزيل» يفيد التدرج، و «الانزال» يفيد التدرج والدفعى، واعتمد الراغب فى تفريقه هذا على الآية:

«وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَمَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَاذًا أَنْزَلْتُمْ سُورَةً مُّحْكَمَةً وَذُكِرَ فِيهَا الْقِيَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ». (محمد / ٢٠)

فالآية تحدثت أولاً عن طلب المؤمنين لنزول آيات الجهاد تدريجياً، ثم أشارت إلى نزول حكم الجهاد بصورة قاطعة وجامعة، وعندها ينظر المنافقون إلى الرسول نظر المغشى عليه من الموت.

٣- إن «تبيين» اشتقت من مادة «بين» أى المسافة الفاصلة بين الشيئين، ثم جاءت بمعنى «الايضاح» و «الفراق»، وذلك لأن الفصل بين الشيئين يستدعى هذين الأمرين، ثم استعملت بعد ذلك لكل من المعنيين بصورة مستقلة، فتارة تعنى «الفراق» واخرى «الايضاح». وقد جاء فى «صحاح اللغة» أن «بين» تأتي بمعنيين متضادين هما، الفراق والآخر الاتصال، ويظهر أن معناهما فى الأصل - كما جاء فى غير صحاح اللغة - هو الفراق، إلا أن الفراق قد يؤدى إلى الاتصال بشيء آخر فاستعمالها فى الاتصال لأنه يلازم الفراق. وعلى أئمة حال فإن مفردة «تبيين» جاءت فى كثير من آيات القرآن بمعنى الظهور والانكشاف والوضوح، ولهذا يقال للدليل الواضح والمنكشف «بينه» سواء كان عقلياً أو محسوساً، فيطلق «البينه» على الشاهدين العادلين (الذين يعتبران بينه محسوسه)، كما

(١). وهذا رأى صاحب لسان العرب، حيث نقله عن ابى الحسن.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٦٧

تطلق «البينه» على معاجز الأنبياء، و «البيان» يعنى رفع ستار الأبهام عن شيء، سواء كان بالنطق أو بالكتابة أو بالإشارة. ٤- «التكليم» و «تكلّم» من مادة «كلم»، وفى الأصل - كما يقول الراغب - يعنى التأثير الذى يرى أو يُسمع، فالذى يرى كجرح الآخرين، والذى يُسمع فهو الحديث الذى نسمعه من الآخرين.

يذكر الخليل بن أحمد فى كتابه «العين»: أن أصل التكليم يعنى «الجرح»، وعلى هذا فاطلاقه على النطق كان بسبب التأثير العميق الذى يتركه الحديث فى قلوب المستمعين له، بل قد يكون تأثير الكلام أشد من تأثير السيف والخنجر، وكما يقول الشاعر العربى المعروف: جراحات السنان لها التثام ولا يلتام ما جرح اللسان

ويستفاد من بعض العبارات أن «التكليم» و «التكلم» لهما معنى واحد، وكلاهما بمعنى النطق والحديث، ولهذا عدت «متكلم» احدى صفات الله، فى حين إذا أردنا التقييد بالآية: «وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا» ينبغى القول أن الله «مُكَلَّم».

ولا يستبعد احتمال استعمال مفردة «التكلم» فى موارد حيث يحدث شخصاً شخصاً آخر، إلا أن «التكليم» مثل «المكالمه» تطلق على الحديث المتبادل بين طرفين، وكلام الله مع موسى عليه السلام فى جبل طور من هذا القبيل.

ومن هنا يطلق «علم الكلام» على علم العقائد، لأنه يذكر أن أول بحث بحث فيه بعد الإسلام هو كلام الله (القرآن)، حيث كان البعض يعتقد أنه أزلى، والبعض الآخر: أنه حادث.

وقد أدى الخلاف فى هذه المسألة فى القرون الاولى من عهد الإسلام إلى شجار ونزاعات شديدة، حدثت بين المسلمين آنذاك «١». ونعلم الآن أن ذلك النزاع لم يكن له أساس ولا نتيجة، لأنه إذا اريد من القرآن محتواه،

(١). ذكر هذا الاحتمال فى دائرة معارف القرن العشرين كأول احتمال فى مجال التسمية هذه، دائرة معارف القرن العشرين، فريد وجدى، ج ٨ مادة (كلم).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٦٨

فالمسلم أنه كان مع علم الله أزلياً، وإذا كان المراد منه ألفاظه وكتابته ونزوله بواسطة الوحي، فهذا حادث فى زمن بعثه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بلا شك، وعلى أية حال، فالهدف من هذا الحديث كان بيان وجه تسمية «علم العقائد» ب «علم الكلام».

شرح الآيات وتفسيرها

الوحي شمس مشرقه:

لقد انعكس صدق الوحي في القرآن الكريم بشكل واسع.

حيث أشارت مئات الآيات إلى الوحي كمصدرٍ عظيمٍ للعلم والمعرفة، وأشارت بعضها إليه بهذا العنوان «الوحي» وبعضها بـ «التنزيل» و «الانزال» وبعضها بـ «تبيين الآيات الإلهية» وبعضها بـ «تكليم الله للرسول»، وبمصطلحات أخرى.

وأفضل تعبير يُذكر في هذا المجال أن يقال: إذا كان العقل في المنظار القرآني بمثابة «مصباح» شديد الاضاءة لكونه مبيناً للحقائق، فإنّ الوحي «كالشمس» الساطعة التي تضيء أرجاء المعمورة».

اشير في الآية الاولى إلى ثلاثة طرق من طرق اتصال الأنبياء بالله عزّ وجلّ، حيث قالت:

«وَمَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَخِيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأْذَنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيمٌ فَالطَّرِيقُ الْأَوَّلُ هُوَ الْإِيحَاءُ، والثاني هو التكلم من وراء الحجاب كما تكلم الله مع موسى في جبل طور سيناء، والطريق الثالث هو إرسال رسول لبلاغ الخطاب الإلهي إلى النبي، كما كان يهبط جبرئيل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وآله للإبلاغه الخطابات الإلهية.

وعلى هذا، فالإلهام القلبي وإيجاد الأمواج الصوتية وهبوط ملك مكلف بنقل الوحي، ثلاثة طرق لاتصال الأنبياء بعالم ما وراء الطبيعة. والآية الثانية بعد أن أقسمت بالنجم قالت: «وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ».

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٦٩

إنّ القسم (بالنجم إذا هوى يعني النجم في حالة الأفول قد يكون إشارة إلى غروب وافول نور الإيمان والهداية عن الوجود في عصر الجاهلية، الغروب الذي كان مقدمة لطلوع آخر، أي طلوع شمس الوحي على لسان الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله. وعلى هذا الأساس، فالآية أدرجت كلام الرسول صلى الله عليه وآله تحت أصل كلي ناتج عن الوحي والإرتباط الغيبي.

ج ج

والآية الثالثة أمرت الرسول بأن يتخذ موقفاً تجاه طلبات بعض المشركين العجيبه وغير المألوفه، ويقول لهم: إني لست ملكاً من ملائكة الله ولا موجوداً أعلى من البشر ولا ابن الله، ولا شريكه، «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ وَهَذَا (الإيحاء) هو الذي يمثل الاختلاف بيني وبينكم.

وعلى هذا، فالرسول يمتاز عن بقية البشر بميزة خاصة وهي اختصاصه بمصدر المعرفة هذا وهو (الوحي).

ج ج

والآية الرابعة، بعد ما ذكرت ستة من أحكام الإسلام المهيمه (حرمة قتل الأولاد وحرمة الزنى وقتل النفس والتصرف في مال اليتيم ووجوب الوفاء بالعهد وإيفاء الكيل) خاطبت الرسول صلى الله عليه وآله قائلة: «ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ».

وطبقاً لهذه الآية، فإنّ الأحكام الجزئية شأنها شأن اصول الدين والعقيدة توحى إلى الرسول صلى الله عليه وآله.

ج ج

والآية الخامسة نزلت لتجيب على أولئك اليهود الذين قالوا: إنّ جبرئيل عدونا عندما سمعوا أنّه يأتي الرسول بتعاليم الإسلام، حيث أمرته بأن يقول لهم: «قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٧٠

لْجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَيَّ قَلْبِكَ بِأَذْنِ اللَّهِ .

والتعبير في هذه الآية يكشف عن أن جبرئيل عليه السلام كان يُنزل - أحياناً - آيات القرآن على قلب الرسول مباشرة في حين أن بعض الروايات تشير إلى أن جبرئيل كان يأتي للرسول صلى الله عليه وآله على هيئة إنسان أحياناً ويقوم بإبلاغه الخطاب الإلهي بهذا الطريق (١).

ج ج

والآية السادسة وضحت الحقيقة الآتية: إن القرآن الذي أنزلناه على الرسول فيه تبيان لكل شيء وحاملاً للهداية والرحمة والبشارة إلى جميع المسلمين، وعليه فإن جميع هذه المعارف تصدر عن هذا المصدر العظيم أي الوحي. بديهي أن المراد من «كل شيء» هو جميع القضايا التي تتعلق بسعادة الإنسان، فتعلم أن أسس جميع هذه القضايا قد جاءت في القرآن (سواء المادية منها أو المعنوية) في صورة قوانين كلية.

ج ج

وقد صرحت الآية السابعة بأن القرآن روح نزلت على الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله من قبل الله عز وجل، ولم يكن يدرى ما الكتاب ولم يكن يدرى ما الإيمان، وقد قيل للقرآن «روح» لأنه يبعث الحياة في قلوب المجتمع البشري، وهذا حديث يذهب إليه كثير من المفسرين (٢).

والمراد ب: «ما كنت تدري ما الكتاب» هو أن الرسول لم يكن عارفاً بمحتوى الآيات قبل البعث، وهناك شواهد تاريخية وروائية تكشف عن سبق معرفته بالله قبل البعث.

(١). أصرَّ الفخر الرازي على تأويل الآية بما يتناسب مع ما ذهبت إليه الروايات من أن جبرئيل عليه السلام كان يتمثل امام الرسول صلى الله عليه وآله في صورة إنسان، وبما أن القلب هو مركز حفظ الآيات عبر الله بهذا التعبير «فَأَنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَيَّ قَلْبِكَ» (تفسير الكبير، ج ٣، ص ١٩٦)، لكننا لا نرى ضرورة لتأويل الآية بالشكل الذي قاله الفخر الرازي، بل يمكن القول بأن اتصال جبرئيل عليه السلام بالرسول كان يتم بطريقتين: جسماني وروحي.

(٢). يقول الراغب: «سمى روحاً لكون القرآن سبباً للحياة الآخروية».

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٧١

وعلى أي حال إن هذا تأكيد آخر على قبول «الوحي» كأهم مصدر للمعرفة، لأن القرآن عدُّ هنا «روحاً و «نوراً» و «هداية».

والآية الثامنة بعد ما تجاوزت نبوة الرسول صلى الله عليه وآله أشارت إلى الأنبياء من قبله وقالت:

«وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ» فهم على ارتباط وعلم بمنبع المعرفة هذا.

ج ج

وتحدثت الآية التاسعة عن «البيّنات» ونزول الكتب السماوية وقوانين الحق والعدالة على الرسل، وقالت: إِنَّا أَنْزَلْنَا الرِّسْلَ وَزُودَنَا هُمْ بِمَعَاذٍ مِنْ جِهَةٍ، وبكتب وقوانين حقة من جهة أخرى لكي يقوم الناس بالقسط والعدل عن الظلم، وهذه كلها أمور ملهمة من مصدر الوحي.

ج ج

وقد تحدثت الآية العاشرة عن انزال «الذكر» أي الآيات التي تكون سبباً لتذكّر الناس ووعيتهم، في الوقت نفسه فإن الله يعد الناس في هذه الآية بحفظ هذا القرآن من أي نقص أو زيادة أو تلف أو تحريف، فالوحي - إذن - هو عامل يقظة الناس، وبما أن الله له حافظ، فسيحفظه كمصدر مهم للمعرفة.

ج ج

وتقول الآية الحادية عشرة: «قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ أَنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ وهذا دليل واضح على أن الآيات الإلهية سبب ليقظة العقول ونشاطها.

ج ج

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٧٢

وأخيراً، فقد تحدثت الآية الثانية عشرة عن تكليم الله لموسى عليه السلام، وقد كان الكلام هذا مصدراً لمعرفة موسى الإلهية، وهو نوع من الوحي.

هذه نماذج من آيات القرآن التي صرحت - رافعة لأي ابهام وشبهه - بأن الوحي مصدر وأساس للمعرفة. هذا في وقت ينكر فيه الفلاسفة الماديون هذا المصدر على الإطلاق، ويفسرونه بتفسير نقرأها في البحوث القادمة. وبعدها أتضح أصل هذا المصدر، نذهب إلى بحث قضايا مختلفة تحوم حوله.

ج ج

توضيحات

١- أقسام «الوحي» في القرآن المجيد

من خلال ملاحظتنا لآيات القرآن فقد استعملت مفردة «الوحي» في القرآن المجيد في عدة معانٍ، بعضها تكوينية وأخرى تشريعية، وبصورة عامه فأنها مستعملة في سبعة معانٍ:

١- «الوحي التشريعي» وهو الذي يهبط على الرسل، وقد جاءت في أول البحث نماذج من الآيات التي استعملت فيها هذه المفردة بهذا المعنى

٢- «الالهامات التي توحى لغير الأنبياء» كما هو الأمر بالنسبة لأم موسى «وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ...» (القصص / ٧)

وهناك إلهام يماثل هذا إلا أنه يختلف عنه شكلياً، كالذي حدث لمريم، حيث تمثل لها الوحي وبشرها بولادة عيسى (مريم / ١٧ - ١٩).

٣- «وحي الملائكة» أي الخطابات الإلهية التي توجه إليهم، كما جاء ذلك في قصة غزوة بدر الكبرى في سورة الأنفال الآية ١٢: «إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا».

٤- «الخطاب مع الإشارة» كما جاء ذلك في قصة حديث زكريا مع قومه: «فَخَرَجَ عَلَىٰ

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٧٣

قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا» (مريم / ١١)

٥- (اللقاءات الشيطانية الغامضة) كما جاء في الآية: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا» (الأنعام / ١١٢)

٦- (تقدير القوانين الإلهية في عالم التكوين) كما في الآية: «وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا» (فصلت / ١٢)

وما جاء في شهادة الأرض يوم القيامة: «يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا» بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا.

(الزلزلة / ٤ - ٥)

قد يكون تلميحاً لهذا المعنى من الوحي.

وقد جاءت مفردة الوحي بمعنى «خلق الغرائز» كما في الآية: «وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا

يَعْرَشُونَ» (النحل / ٦٨)

ومن جهةٍ أخرى فإنَّ هبوط الوحي على الرسل جاء على أربع صورٍ على الأقل، كما جاء ذلك في القرآن المجيد، وهي:

- ١- صورة ملك يشاهده الرسول.
 - ٢- وسماع صوت الوحي دون رؤيته.
 - ٣- وفي صورة إلهام قلبي.
 - ٤- وفي صورة رؤيا صادقة، كما جاء ذلك في قصة إبراهيم عليه السلام عندما أمره الله أن يذبح ابنه إسماعيل (الصافات / ١٠٢)، أو ما حصل للرسول صلى الله عليه وآله عندما بشره الله - بالرؤيا - بدخول المسلمين الكعبة آمنين (الفتح / ٢٧).
- وقد جاء في رواية أنّ أحد الصحابة سأل الرسول صلى الله عليه وآله: كيف ينزل عليك الوحي؟ فأجابته الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «يأتيني أحياناً مثل صلصلة الجرس، وهو أشدُّ عليّ، فيفصم عني وقد وعيتُ ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول» (١).
- وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «الأنبياء والمرسلون على أربع طبقات:

(١). بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٦٠.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٧٤

فنبى متبأ في نفسه لا يعدو غيرها، ونبي يرى في النوم ويسمع الصوت ولا يعاينه في اليقظة، ولم تبعث إلى أحد وعليه إمام مثل ما كان إبراهيم على لوط عليه السلام ونبي يرى في منامه ويسمع الصوت ويعاين الملك، وقد أرسل إلى طائفة قلوباً أو كثروا كيونس عليه السلام ...

والذي يرى في نومه ويسمع الصوت ويعاين في اليقظة وهو إمام مثل اولي العزم وقد كان إبراهيم عليه السلام نبياً وليس بإمام حتى قال الله «إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي» فَقَالَ اللَّهُ: «لَا يُنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ» من عبد صنماً أو وثناً لا يكون إماماً» (١). (البقرة / ١٢٤)

٢- ما هي حقيقة الوحي؟

لقد قرأنا وسمعنا الكثير عن حقيقة الوحي، لكن رغم ذلك كله، فإنَّ معرفتنا لحقيقته غير ممكنة، لعدم ارتباطنا بهذا العالم الغامض، وحتى لو فسره لنا الرسول بنفسه، فإنه لا ينطبع شيء في أذهاننا عنه سوى شبح.

ومثل ذلك كمثل شخص بصير يريد أن يصف أشعة الشمس الجميلة، وأمواج البحر الهائجة وأجنحة الطاووس الملونة والمنظر الخلاب للورد وبراعم الحديقة الخضراء.

لشخص ولد أعمى وقد تحصل صور مبهمه ومشوشة لهذه المخلوقات عند الأعمى إلّا أنّ إدراك صورها الحقيقية فهو أمر مستحيل. لكننا نستطيع توضيح الوحي عن طريق آثاره وأهدافه ونتائجه، ونقول: إنّ الوحي هو الالتقاء الإلهي الذي يتم بهدف تحقيق النبوة والتبشير والانداز، أو نقول: إنه نور يهدي به الله من يشاء، أو نقول: إنه وسيلة الإرتباط بعالم الغيب وإدراك معارف ذلك العالم، ولهذا السبب نرى القرآن يتحدث عن آثار الوحي لاعن حقيقته.

و ينبغي أن لا نعجب من هذا الأمر، وأن لا نتخذ عدم إدراك حقيقة الوحي دليلاً على عدم الوجود، أو نفسره بتفاسير مادية جسمية، فإنَّ في عالم الحيوانات التي نعدها في مستوى

(١). اصول الكافي ج ١، باب طبقات الأنبياء.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٧٥

أدنى من مستوانا فضلاً عن عالم النبوة، تُشاهد آثار أحاسيس وإدراكات يعجز البشر عن إدراكها، فبعض الحيوانات تضطرب قبل حدوث الزلزلة وتصرخ بصورة جماعية أحياناً، وتارة تحدث أصواتاً مروعة حاكية عن قرب وقوع حدث مفعج، هذا كله بسبب تحليها بحاسة تستطيع بواسطتها أن تكشف قرب وقوع الزلزلة، الأمر الذي تعجز عن كشفه أحدث تكنولوجيا في العصر الحاضر. أو أن بعض الحيوانات تتنبأ بتغيرات الأحوال الجوية للأشهر القادمة، فتبنى بيوتها وفقاً لتلك الأحوال في الأشهر المقبلة عليها، وتعد الطعام الذي يتناسب مع طول فصل المطر والشتاء، فإذا كان طويلاً - مثلاً - يختلف مقداره عما لو كان قصيراً! كما أن بعض الطيور قادرة على الهجرة الجماعية من المناطق القطبية إلى الاستوائية أو بالعكس، وقد يتم ذلك في الليل وفي سماءٍ ملبدة بالغيوم، مع أن الإنسان لا يمكنه السير في هذا الطريق وينجح باجتياز واحد بالمائة منه، إلا بالاستعانة بالوسائل الدقيقة، وكذا الأمر بالنسبة لبعض الحيوانات حيث تطلب صيدها في ظلام الليل الدامس، وأحياناً تحت أمواج المياه وغير ذلك من الأمثلة التي يصعب على الإنسان تصديقها، إلا أن العلم أثبت صحتها. إن هذه الواقعات التي تثبت بالعلم والتجربة تكشف عن وجود إدراك وشعور خاص لتلك الحيوانات لا يوجد مثله عند الإنسان، بالطبع إن الاطلاع الكامل على عالم حواس الحيوانات الغامض أمر محال، إلا أنه لا يمكن إنكار هذه الحقائق «١». فبالرغم من أن حواس الحيوانات لها ابعاد مادية وطبيعية وهذا أمر طبيعي ولا يمثل جانباً غيبياً، إلا أننا لا نعرف حقيقة هذه الحواس، فكيف يمكن لنا أن ننكر عالم الوحي الغامض أو نشكك فيه بسبب عدم إدراكنا له؟ لم نقصد من حديثنا هذا الاستدلال على ثبوت مسألة الوحي، بل أردنا أن نرد على الذين ينكرون وجوده بسبب عدم إمكان إدراك حقيقته.

ولنا طرق واضحة لإثبات قضية الوحي منها:

(١). يراجع كتاب عالم حواس الحيوانات الغريب (بالفارسية).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٧٦

١- نشاهد من جهة رجالاً يدعون النبوة جاءوا بكتب وتعاليم تفوق قدرة البشر الفكرية، فالرسول الامي - مثلاً - كيف أمكنه الايتان بكتاب ذي محتوى مجيد بالرغم من كونه قد نشأ وترعرع في مجتمع الحجاز المتأخر للغاية في عصر الجاهلية؟!
٢- ومن جهة اخرى فإن دعوة الرسل مقترنة دائماً مع معاجز تفوق قدرة البشر، وهذا يكشف عن ارتباطهم بعالم ما وراء الطبيعة.
٣- ومن جهة ثالثة، فإن الرواية الكونية التوحيدية تقول لنا: إن الله خلقنا للتكامل والسير نحو ذاته المقدسة الأبدية، وبديهي أن سلوك هذا الطريق أمر غير ممكن لكثرة مصاعبه وانعطافاته وتعرجاته ومشاكله وأخطاره لأننا نشاهد عجز العقل وضعفه عن إدراك كثير من الحقائق، والدليل على ذلك، الاختلافات الكثيرة بين العلماء والمفكرين، وكذلك مصير الأمم التي وضعت قوانينها بالاعتماد على العقل والقوانين الوضعية وذلك لإدارة شؤون حياتهم الفردية والاجتماعية.
وعلى هذا، فإننا نقطع بأن الله لم يترك الإنسان لوحده، فبالإضافة إلى عقله أمدته بقيادة يرتبطون بعالم الغيب، ويستفيضون من بحر العلم الإلهي، وهذا هو الذي يعينه لاجتياز الطريق والوصول إلى الأهداف المقصودة.
وبهذه القرائن الثلاث يمكننا إدراك العلاقة بين عالم الإنسانية وعالم ما وراء الطبيعة، وكذلك الإيمان بالوحي رغم أننا لم نتعرف على حقيقته وماهيته، وبتعبير آخر: إن علمنا بالوحي علم إجمالي وليس علماً تفصيلياً.

٣- الوحي عند فلاسفة الشرق والغرب

سعى كثير من فلاسفة الشرق والغرب في العهد القديم والجديد إلى فتح الطريق أمامهم نحو أسرار عالم الوحي وسعوا إلى تفسيره بما يتناسب مع مبانيهم الفلسفية، إلّا أنّ دراسة بحوثهم في هذا المجال تكشف عن ضياعهم في متاهات الطريق، إلّا البعض منهم، ولم نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٧٧

ينجل لذلك البعض إلّا شبح عن ذلك العالم.

يقول أحد العلماء:

كان الفلاسفة الغربيون- إلى القرن السادس عشر كجميع الأمم الأخرى- يؤمنون بالوحي، وذلك لأنّ كتبهم كانت حافلة بالآخبار عن الأنبياء، وعندما ازدهرت العلوم الجديدة «الطبيعية والتجريبية» واخذت تفسر كل القضايا على أسس مادية، تراجع فلاسفة الغرب عن آرائهم وأخذوا ينكرون الوحي، وتجاوزوا إلى أبعد من ذلك بأن اعتبروا الوحي مجموعة من الأساطير والخرافات التي عفا عليها الدهر، وتبعاً لذلك فقد أنكروا وجود الله وعالم ما وراء الطبيعة والروح، وامتد بهم الأمر إلى أن يفسروا الوحي بمجموعة من التخيلات أو الأمراض العصبية.

واستمر هذا التوجه حتى أواسط القرن التاسع عشر إلى أن تم اكتشاف عالم الأرواح بالطرق العلمية والتجريبية، وأصبح عالم ما وراء الطبيعة في قائمة القضايا التجريبية، وقد كتبت حول ذلك المئات بل الآلاف من المقالات.

ومن هنا أخذت مسألة الوحي طابعاً جديداً لدى هؤلاء وخطوا خطوات جديدة في هذا المضمار، على الرغم من أنّهم لم يفسروا هذه الظاهرة كما فسرتها الأديان الأخرى وبالأخص المسلمون من السائرين على خطى القرآن المجيد، وبشكل عام فإنّ هناك نظريتين مختلفتين لدى مجموعة من الفلاسفة القدماء والمتأخرين لتفسير ظاهرة الوحي، ولكن الفريقين لم يصلوا إلى حقيقة الوحي حسب ما ورد في القرآن الكريم، والنظريتان هما:

١- يعتقد عدد من الفلاسفة المتقدمين أن منشأ الوحي هو «العقل الفعّال»، والعقل الفعّال وجود روحي مستقل عن وجودنا، وهو قرينة، ومصدر لجميع علوم البشر ومعارفه، كما يعتقدون بأنّ الأنبياء كانت لهم علاقة وثيقة مع هذا العقل الفعّال، وكانوا يستلهمون منه، وما حقيقة الوحي إلّا هذه العلاقة.

وفي الحقيقة، لا دليل لهؤلاء لاثبات مدعاهم القائل بأنّ الوحي هو عبارة عن الإرتباط والعلاقة مع العقل الفعّال، إضافة إلى هذا، فإنّه لا دليل على وجود ما يزعمون وجوده أي

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٧٨

«العقل الفعّال» كمصدر مستقل للعلوم، كما ذكر ذلك في المباحث الفلسفية.

وعلى هذا، فالنظرية المذكورة عبارة عن احتمال مبنى على احتمال، وفرضية مستندة إلى فرضية، ولم تثبت أي من الفرضيتين، كما أنّه لا حاجة لفرض «العقل الفعّال» بل يكفينا القول بأنّ الوحي عبارة عن اتصال بعالم ما وراء الطبيعة والذات المنورة، أمّا كيف وبأى شكل يتم ذلك؟ فهذا لم يتضح لنا.

نحن شاهدنا آثاره فأما بوجوده، دون أن نعرف حقيقته، وكثير من حقائق هذا العالم حالها كحال الوحي.

٢- يعتقد عدد من الفلاسفة المعاصرين أنّ «الوحي» هو تجلٍ «علم اللاشعور» أو العلاقة الغامضة مع حقائق هذا العالم التي قد تنشأ من

«النبوغ الباطني» تارة، وتارة أخرى من «الرياضة الروحية» وعن مساع من هذا النوع، وقد عدّ علماء النفس شخصيتين للإنسان:

«الشخصية الظاهرة والإرادية» وهي جهاز الإدراك والتفكير والمعلومات الحاصلة بالحواس العادية، والشخصية الأخرى هي «الشخصية غير المرئية واللاإرادية» التي قد يعبر عنها ب «الوجدان الخفي» أو «الضمير الباطني» أو «علم اللاشعور» ويعتبر علماء النفس أنّ حلّ

كثير من المشاكل الروحية كامن في هذه الشخصية.

إنهم يعتقدون أن مجالات فاعلية ونشاط الشخصية الثانية اوسع بكثير من مجالات نشاط وفاعلية الاولى

وقد كتب أحد علماء النفس في هذا المجال:

يمكننا تشبيه الشخصية بقطعة ثلج عائمة في الماء، وعادة ما يكون تُسجَمُها خارج الماء، وهذا المقدار الخارج هو الشخصية الظاهرة أو عالم الشعور، ويقابلها الشخصية اللاإرادية إلى عالم اللاشعور، حيث إن القسم الأعظم من النشاط الذهني لم نُحِط به علماً ويحصل بشكل غير إرادي، وهو بمثابة الأجزاء الثمانية من قطعة الثلج تحت الماء «(١)».

لا شأن لنا فيمن كشف الشخصية الثانية للإنسان، «فرويد» أم غيره، كما لا شأن لنا في أن

(١). معرفة النفس ترجمه (الدكتور ساعدى)، ص ٦ و ٧ مع إيضاح بسيط (بالفارسية).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٧٩

كلام المتقدمين فيه إشارة إلى ما ذهب إليه المعاصرون أم لا، المهم بالنسبة لنا هو أن كثيراً من علماء النفس، بعد اكتشاف عالم اللاشعور وحل بعض المعضلات الروحية عن طريق هذا الاكتشاف، سعى لتبرير ظاهرة الوحي بما يتناسب ويتفق مع هذا الاكتشاف، حيث ادعوا أن الوحي هو ترشحات عالم اللاشعور التي تظهر عند الأنبياء على شكل طفرات فكرية بالصدفة.

وقد ساعد الأنبياء في ذلك أحياناً -أمران: الأول النبوغ الفكري، والثاني هو الترويض والتفكير المستمر.

وطبقاً لهذه الفرضية، فإن علاقة «الوحي» بعالم ما وراء الطبيعة ليست علاقة من نوع خاص ومغايرة للعلاقات الفكرية والعقلية لبقية أفراد البشر، وأن هذا لا يتم عن طريق وجود روعي مستقل باسم «الوحي»، بل هو انعكاس لضمير الأنبياء الخفي، وهذه الفرضية كالسابقة القائلة بأن الوحي هو الاتصال بالعقل الفعال، تفتقد الدليل، وقد يكون المراد بهذا من هذا الكلام ليس إثبات حقيقة الوحي، بل مرادهم إن ظاهرة الوحي لا تتنافى مع العلوم الحديثة، ويمكن تجلّي عالم اللاشعور لدى الأنبياء.

وبتعبير أوضح، فإن العلماء يصرون على تفسير جميع ظواهر العالم طبقاً للقوانين الطبيعية والاصول العلمية التي اكتشفوها، ولهذا فإنهم بمجرد مشاهدتهم لظاهرة جديدة، يسعون إلى تحليلها في إطار العلم الحديث، وإذا افتقدوا الدليل في هذا المجال اكتفوا بالفرضيات. لكن تلقى ظواهر العالم بهذا الشكل ليس صحيحاً، وهذا هو خطأ العلماء الطبيعيين، مفهوم كلامهم هذا هو: إننا فهمنا الاصول والقوانين الأساسية للعالم، ولا توجد ظاهرة خارجة عن أطر هذه القوانين والاصول.

وهذا ادعاء محض ولا دليل له، بل لنا دليل على العكس، حيث نشاهد بمرور الزمن اكتشاف اصول وقوانين جديدة لنظام هذا العالم، ولدينا قرائن تثبت أن نسبة ما نعلمه عن هذا العالم إلى ما لا نعلمه كنسبة القطرة إلى البحر.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٨٠

لقد عجزنا عن المعرفة الدقيقة لحواس الحيوانات الغامضة، بل وحتى عن معرفة أسرار وجودنا، لذا لا يمكننا سوى ادعاء معرفة قسم من هذه الأسرار فقط.

فلماذا - إذن - هذا الاصرار كله على تبرير ظاهرة الوحي في أطر القوانين العلمية المكتشفة، بل ينبغي القول: إن الوحي حقيقةً شاهدنا آثارها ولم نطلع على ذاتها وحقيقتها.

٤- فرضية كون الوحي غريزة

طرح بعض المفكرين الإسلاميين المتأثرين بأفكار العلماء الغربيين فرضية اخرى في مجال الوحي تختلف في الظاهر عن الفرضيتين

السابقتين إلا أنها تتفق معهما جوهرياً.

وقد بُنيت هذه الفرضية على الاصول الآتية:

١- إنَّ «الوحي» لغةً يعنى النجوى بهدوء، واستعملت فى القرآن بمفاهيم عدة تشمل أنواع الهدايات الغامضة، بدءً بهداية الجمادات والنباتات وانتهاءً بهداية الإنسان عن طريق الوحي.

٢- إنَّ الوحي نوع من أنواع الغريزة، وهداية الوحي ليس إلهادية غريزية.

٣- إنَّ الوحي هداية الإنسان من وجهة نظر جماعية، أى أنَّ المجتمع الإنسانى بما هو كتلة واحدة، له مسير وقوانين وحركة، فيحتاج للهداية، ودور «النبى» فى هذا المجال كدور الجهاز المتسلم الذى يتسلم ما يحتاجه نوع البشر بشكل غريزى.

٤- إنَّ الأحياء تهتدى فى مراحلها الاولى بواسطة الغريزة، وكلما تكاملت ونما حس التصور والفكر عندها، كلما نقصت قدرة الغريزة فيها، وفى الحقيقة فإنَّ الحس والتفكير يستخلفان الغريزة، وعلى هذا الأساس فالحشرات لها غرائز أكثر وأقوى والإنسان أقل غرائزاً بالقياس إلى الحيوانات الأخرى.

٥- إنَّ المجتمعات البشرية (من وجهة نظر اجتماعية) تسير دائماً فى طريق التكامل وتتجه نحوه، فكما أنَّ الحيوانات فى مراحل حياتها الابتدائية كانت تستند إلى الهداية

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٨١

الغريزية بالكامل، ثم اعتمدت تدريجياً على حواسها وتخيلها وأحياناً تفكيرها، وعندما نما عندها التفكير والحواس تدريجياً، استخلفت الغريزة، كذلك المجتمع البشرى، فبنموه وتكامل عقله ضعفت غريزة الوحي عنده.

٦- إنَّ للعالم البشرى عهدين، عهد هداية الوحي، وعهد هداية العقل والتفكير فى طبيعة التاريخ.

٧- إنَّ الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله الذى ختمت به النبوة رسول للعهد القديم والحديث، فإنه من حيث مصدر الإلهام الذى كان يستفيض منه (لا- مصدر التجربة الطبيعية والتاريخ) فهو يتعلق بالعهد القديم، ومن حيث روح تعاليمه التى تدعو إلى التفكير والتعقل ودراسة الطبيعة والتاريخ (التي ينتهى عمل الوحي بمجيئها) فهو يتعلق بالعصر الحديث «١».

إنَّ المستخلص من هذه الفرضية أنَّ الوحي نوع معرفة لا إرادية تشبه الغرائز وهى دون المعرفة الإرادية التى تحصل عن طريق الحواس والتجربة والعقل، وتضعف هذه القدرة «الوحي» كلما تكامل جهاز العقل والفكر، فيستخلف العقل حينئذٍ الوحي، ومن هذا الباب ختمت النبوة.

بالرغم من أنَّ هذه الفرضية- صدرت عن مفكر إسلامى- إلا أنها أضعف فى بعض جوانبها من الفرضيات التى قدمها علماء وكتاب غربيون فى هذا المجال، على الرغم من التشابه من حيث فقدان الدليل، ويمكن القول: إنَّ هذه النظرية أسوأ نظرية طُرحت فى هذا المجال لحد الآن، وذلك للامور الآتية:

أولاً: إنَّ العلماء الغربيين عدوا الوحي شيئاً فوق الإدراك الحسى والعقلى للإنسان، بينما عُبدَّ فى هذه النظرية شيئاً دون ذلك، وهذا تفكير عجاب!

ثانياً: لم يَعِدَّ المفكرون الغربيون الوحي نوعاً من أنواع الغرائز الحيوانية، فى حين عُددَّ فى هذه النظرية من هذا القبيل.

(١). مقدمته فى الرؤية العالمية الإسلامية، للشهيد المطهرى رحمه الله (وقد ذكر الشهيد المرحوم النقاط السبع السابقة التى تعكس رأى اقبال اللاهورى فى كتابه «احياء الفكر الدينى فى الإسلام» بشكل ملخص ونقدها).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٨٢

ثالثاً: إنَّ أمر الوحي واضح بالكامل للمسلم الملم بمفاهيم القرآن حيث يُعتبر نوعاً من الاتصال بالعالم الإلهى، وتلقى معارف عظيمة

وجليئة للغاية من هذا العلم لم يستطع الإنسان أن يصل إليها بالعقل.

إنّ الوحي من وجهة نظر القرآن الكريم هداية إرادية بالكامل وهو أسمى بكثير من «الهداية العقلية»، -وكما قلنا سابقاً- فإننا إذا شبهنا العقل بنور مصباح نير فإنّ الوحي بمثابة الشمس الساطعة.

يخاطب القرآن الناس - من جهة- قائلاً: «وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا». (الاسراء / ٨٥)

ومن جهة أخرى يصف الله علمه ويقول: «وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ أَنْ اللَّهُ غَزِيرٌ حَكِيمٌ». (لقمان / ٢٧)

فوحى النبوة ارتباط بهذا العلم اللامتناهي، ولهذا يصرح القرآن الكريم أنّ الله هو معلم الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله.

«وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ». (النساء / ١١٣)

إنّ العقل والعلم البشرى مهما تقدما وتكاملاً أضعف من أن يقودا الإنسان إلى طريق السعادة من دون توجيه وارشاد الوحي، والدليل الحى لهذا الكلام هو مذاهب الفلاسفة وانحرافاتهم العجيبة، والحقيقة أنّ الذين عُرفوا كمفكرين اسلاميين هم مفكرون غربيون فى واقع أمرهم، وأفكارهم اتخذت صبغة الأفكار الغربية، ولهذا سعوا دائماً لذكر تبريرات طبيعية للامور غير الطبيعية.

إنّ الغربيين إذا اصرروا على ذكر تبريرات طبيعية للامور الغيبية، فذلك لانكارهم عالم الغيب، فلا ينبغي لأى مسلم اقتفاء أثرهم فى ذكر تبرير طبيعى لمسألة كهذه.

من المؤسف أنّ الآثار السيئة لهذا التقليد نجدها فى كثير من كتب أولئك المفكرين الذين غالباً ما درسوا فى الغرب، ومعلوماتهم عن الإسلام قليلة جداً.

ج ج

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٨٣

٥- كيف نيقن الرسول بأنّ الوحي من الله؟

إنّ هذا السؤال من جملة الأسئلة التى طرحت حول مسألة الوحي، كيف علم الرسول بأنّ الوحي من الله وليس لقاءً شيطانياً؟ وبتعبير آخر: ما هو مصدر هذا العلم واليقين؟

إنّ الجواب عن هذا السؤال واضح، فإضافة إلى أنّ الفرق بين اللقاءات الرحمانية واللقاءات الشيطانية كالفرق بين السماء والأرض، فإنّ محتوى كل منهما يعرف نفسه، وينبغى القول: إنّ الرسول عندما يتصل بالوحي يدعن بحقيقته بالنظر الباطنى، وأمره كالشمس الساطعة نهاراً، فلا نعتنى بالذى يشكك بوجودها ويقول: يُحتمل أن تكون وهماً لا أكثر، وذلك لأنّ احساسنا بها قطعى ولا يقبل الشك.

يقول العلامة الطباطبائى قدس سره فى تفسيره للآية: «فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى إِنَّنِي أَنَا رَبُّكَ...». (طه / ١١-١٢)

وهذا حال النبى والرسول فى أول ما يوحى إليه بالنبوة والرسالة، لم يختلجه شك ولم يعتريه ريب فى أنّ الذى يوحى إليه هو الله سبحانه، من غير أن يحتاج إلى إمعان نظر أو التماس دليل، أو إقامة حجة، ولو افتقر إلى شىء من ذلك كان اكتساباً بالقوة النظرية، لا تلقياً من الغيب، من غير واسطة «١».

ومن هنا يتضح عدم صحة ما جاء فى بعض الروايات من أنّ الوحي عندما نزل لأول مرّة على الرسول فى غار «حراء» ذهب إلى بيت خديجة وقصّ عليها ما جرى واطاف: «إنى أخاف على نفسى (أى أخاف أن تكون الايحاءات شيطانية لا إلهية) فطمأنته خديجة، ثم ذهبت به إلى ورقة بن نوفل (ابن عم خديجة) الذى كان يدين بالمسيحية فى عهد الجاهلية، وكان يجيد القراءة والكتابة العربية

والعبرية، فطلب من النبي أن يشرح ما جرى له .. وبعد ما قصَّ الرسول صلى الله عليه وآله ما جرى له، قال ورقة: إنه هو الوحي الذي كان يهبط على موسى عليه السلام وأضاف: ليتنى أكون حياً كي أرى كيف يخرجك قومك من هذه المدينة «٢».

(١). تفسير الميزان، ج ١٤، ص ١٣٨.

(٢). نقل هذا المضمون كثير من المحدثين والمفسرين من أهل السنه منهم «البخارى فى صحيحه» و «مسلم» و «سيد قطب فى تفسيره فى ظلال القرآن فى بداية سورة العلق» كما ورد فى «دائرة معارف القرن العشرين، مادة (وحي)».

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٨٤

وكون هذا الحديث مختلق أمر لا ريب ولا شك فيه، إذ كيف يحتاج الرسول الذى ارتبط بعالم الغيب وكل وجوده يشعر بهذه الرابطة، إلى ورقة بن نوفل الكاهن النصرانى؟ وكيف يمكن الاعتماد على مثل هذا الوحي؟

لماذا لم يشك به موسى بن عمران عندما نزل عليه أول مرة فى طور سيناء؟ بالرغم من أن موسى سمع صوته فقط ولم يشاهده، أليس هذا دليلاً على وجود أياذ خفية تهدف من وراء تلفيق هذه الخرافات إلى النيل من الوحي والنبوة وتضعيف أسس الدين الإسلامى؟

٦- القرآن أغنى مصدر للمعرفة فى الأحاديث الإسلاميه

نستمر فى بحثنا هذا مع الأخذ بنظر الاعتبار أن القرآن الكريم يمثل المصدق البارز للوحي طبق ماورد عن الأئمة الأطهار عليهم السلام، كى يكون تأكيداً لأصل وموقعية القرآن كمصدر عظيم للمعرفة، كما يكون جواباً لأولئك الذين يذهبون شططاً ويعدون الوحي من «الغرائز الحيوانيه» وأدنى من الإدراكات العقلية، ويعتقدون أن الإنسان استغنى عن الوحي والمعارف التى تنشأ منه بعد تكامله العقلى!

قال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله مخاطباً المسلمين: «إذا التبست عليكم الامور كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن ... من جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار، وهو أوضح دليل إلى خير سبيل، من قال به صدق، ومن عمل به اجر، ومن حكم به عدل» «١».

٢- ويقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فى احدى خطب نهج البلاغه: «ثم أنزل عليه الكتاب نوراً لا تطفأ مصابيح، وسراجاً لا يخبو توقده، وبحراً لا يدرك مقره، ومنهاجاً لا يضل نهجه، وشعاعاً لا يظلم ضوءه، وفرقاناً لا يخمد برهانه، وتبياناً لا تهدم أركانه، وشفاء لا تخشى أسقامه، وعزاً لا تهزم أنصاره، وحقاً لا تُخذل أعوانه».

(١). نقل المرحوم العلامة المجلسى هذه الخطبة فى بحار الأنوار ج ٧٤، ص ١٧٧ عن أبى سعيد الخدرى من جملة خطب الرسول التى نقلها.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٨٥

«فهو معدن الإيمان وبحبوخته وينابيع العلم وبحوره، ورياض العدل وغدرانه، وأثافى الإسلام وبنيناه» «١».

٣- ويقول الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام: سأل رجل الإمام الصادق عليه السلام: «ما بال القرآن لا يزداد على النشر والدرس إلّا غصاصة؟» فقال الإمام: «لأن الله تبارك وتعالى لم يجعله لزمان دون زمان، ولا لناس دون ناس، فهو فى كل زمان جديد، وعند كل قوم غض إلى يوم القيامة» «٢».

والأحاديث الواردة فى هذا المجال كثيرة فى مصادر السنه والشيعه، وقد ذكرنا ثلاثة فقط، أحدها للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله

والآخر لأمير المؤمنين عليه السلام وحديثاً للإمام الصادق عليه السلام.

٧- الوحي الخاص إلى غير الأنبياء (وحي الالهام)

كما ذكرنا في بداية البحث أن للوحي معاني كثيرة، منها «وحي النبوة والرسالة»، وهناك قسم آخر من الوحي وهو «الالهام» الذي يُلقى في قلوب غير الأنبياء، أو خطاب يُبلغ به غير الأنبياء.

ومثاله ما جاء عن ام موسى حيث يقول القرآن في هذا المجال: «وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي...» (القصص / ٧)

وقريب من هذا ما جاء عن الحواريين، حيث يقول الله تعالى «وَأَذِّبْنَا إِلَىٰ الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمَنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ . (المائدة/ ١١١)

كما قال الله في يوسف قبل أن يبعثه نبياً، عندما أراد اخوته أن يلقوه في اليم:

«... وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . (يوسف / ١٥)

وهذا الوحي ليس هو نفس وحي النبوة، بل وحي إلهامي، بقريته الآية ٢٢ من نفس

(١). نهج البلاغة، الخطبة ١٩٨.

(٢). بحار الأنوار، ج ٨٩، ص ١٥.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٨٦

السورة، حيث جاء فيها أن الله ألهم نبيّه (يوسف) كي يدرك بأنه ليس وحيداً بل الله يحفظه ويرزقه نصيباً من القدرة ويصل الأمر إلى أن يندم اخوته على فعلهم، وهذا الوحي هو الذي جعل الأمل ينبعث في قلب يوسف.

يذكر «الفخر الرازي» ستة احتمالات في ذيل الآية (٣٨) من سورة طه، وأغلبها خلاف الظاهر، لأن ظاهر الآية هو اللقاء في القلب، أو سماع صوت ملك الوحي الذي يتناسب والمعنى اللغوي للوحي «١».

ومثال القسم الثاني هو الخطاب الذي أبلغه أحد الملائكة لمريم والذي كان يتعلق بولادة عيسى عليه السلام، وقد حكى القرآن حوار مريم مع الملك الذي تمثل في صورة إنسان وسيم.

وأوضح مثال للوحي الالهامي هو الذي كان يُقذف في قلوب الأئمة المعصومين عليهم السلام والذي اشير إليه كثيراً في الروايات.

وعندما سُئل الإمام الصادق عليه السلام عن مصدر علم الأئمة قال: «مَبْلَغُ عَلْمِنَا ثَلَاثَةٌ وَجُوهٌ:

ماضٍ، وغابرٍ، وحادثٍ، فأما الماضي فمُفَسَّرٌ وَأَمَّا الغابر فمزبور، وأما الحادث فقذف في القلوب، ونقر في الأسماع وهو أفضل علمنا ولا نبئ بعد نبينا» «٢».

وقد جاء في حديث آخر للإمام الرضا عليه السلام يقول فيه: «وَأَمَّا النكت في القلوب فهو الالهام وأما النقر في الأسماع فحديث الملائكة، نسمع كلامهم ولا نرى أشخاصهم» «٣».

وبصورة عامة، فإن علوم الأئمة عليهم السلام تحصل من عدة طرق: العلوم التي ورثوها عن الرسول والأئمة الذين سبقوا، على شكل وصايا وقواعد مدونة توضع في متناول أيديهم والتي قد يطلق عليها في بعض الأخبار «الجامعة»، وعندما يحصل لهم أمر مستحدث لا وجود له في المصادر التي في أيديهم، يوحى الله إليهم إلهاماً قلبياً أو نقرأ في أسماعهم يسمعون به صوت الملائكة «كما هو الحال بالنسبة لمريم عليها السلام».

- (١). راجع التفسير الكبير، ج ٢٢، ص ٥١.
- (٢). بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ٥٠.
- (٣). إرشاد المفيد، ج ٢، ص ٨٠؛ بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ١٨.
- نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٨٧
- لكن المسلم به أن هذا الوحي لا-علاقه له بوحي النبوة، وهو من قبيل وحى الحواريين وأمثال ذلك، وفى الواقع، أن الاصطلاح العصرى للوحي يطلق على وحى النبوة الذى يسمى «إلهاماً»، وقد قال العلامة الطباطبائى فى هذا المجال: حبذا لو أطلقنا عليه إلهاماً لأنه يتفق والأدب الدينى «١».
- يراجع - للتفصيل - المجلد ٢٦ من بحار الأنوار، باب علوم الأئمة عليهم السلام، كما يراجع المجلد الأول من اصول الكافى باب أن الأئمة عليهم السلام محدثون.

٨- كيفية نزول الوحي على الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله

كما قلنا سابقاً، إننا لا ندرك حقيقة الوحي، وهى من المجهولات عندنا، لأن إدراكها شىء خارج عن اطار الحس والعقل، بل ندرك آثار الوحي فقط، والأثر يدل على المؤثر، وعلى هذا فمن العبث الدخول فى عالم الوحي الغامض إلا أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام عندما كانوا يُسألون عن كيفية الايحاء، يجيبون جواباً وافياً بحيث يرسم فى الذهن عن الوحي تصوراً لا غير!

ذكر الشيخ الصدوق قدس سره فى كتابه «الاعتقادات» حول نزول الوحي حديثاً لا بد أن استخلصه من الروايات حيث قال فيه: «اعتقدنا فى ذلك أن بين عيني اسرافيل لوحاً، فإذا أراد الله عزوجل أن يتكلم بالوحي ضرب اللوح جبين اسرافيل، فنظر فيه فقرأ ما فيه، فيلقيه إلى ميكائيل عليه السلام، ويلقيه ميكائيل عليه السلام إلى جبرائيل عليه السلام ويلقيه جبرائيل عليه السلام إلى الأنبياء عليهم السلام، وأما الغشية التى كانت تأخذ النبى صلى الله عليه وآله حتى يتقل ويعرق فإن ذلك كان يكون منه عند مخاطبة الله عزوجل إياه فأما جبرائيل فإنه كان لا يدخل على النبى صلى الله عليه وآله حتى يستأذنه إكراماً له، وكان يقعد بين يديه قعدة العبد» (٢).

- (١). تفسير الميزان، ج ١٢، ص ٣١٢.
- (٢). اعتقادات الصدوق، ص ١٠٠.
- نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٨٨
- وقد جاء فى الروايات مضمون هذا الحديث إجمالاً «١».
- ونقرأ فى حديث آخر أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله عندما كان يوحى إليه يسمع صوتاً هادئاً قرب وجهه.
- وقد جاء فى حديث آخر: إن الوحي عندما كان ينزل على الرسول صلى الله عليه وآله يبدأ جبينه يتصبب عرقاً وإن كان الجو بارداً «٢».

وبصورة عامة فإن الوحي كان يهبط على رسول الله بأشكال مختلفة، ولكل شكل آثاره الخاصة به.

كما يستفاد من الروايات أن جبرئيل كان يهبط على الرسول أحياناً - بشكله الحقيقى الذى خلقه الله عليه، ويحتمل أنه هبط بهذا الشكل مرتين فقط طوال عمر الرسول (كما أشير إلى ذلك فى بعض تفاسير سورة النجم) «٣»، كما أنه قد يهبط متمثلاً فى صورة

«دحية الكلبي» (٤)، (٥).

٩- الالهامات الغريزية

قلنا سابقاً أنّ للوحى مفهوماً واسعاً سواء فى آيات القرآن أو فى كتب اللغة، كما قلنا إنّ أحد مصاديقه هو الإدراك الغريزى عند الحيوانات، ولا يمكن تحليله بأى تحليل مادى، بل وجوده فى الحيوانات دليل على وجود ذلك المصدر الغنى والعظيم للعلم والمعرفة فيما وراء الطبيعة.

(١). بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٥٤، ح ٩.

(٢). بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٦١.

(٣). فى ظلال القرآن، ج ٧، ص ٣٠٦.

(٤). بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٦٧، ح ٢٩.

(٥). إنّ دحية بن خليفة الكلبي هو أخو الرسول الرضاعى، وكان من أجمل الناس آنذاك، فكان يتمثل فى صورته جبرئيل عندما يريد الهبوط على الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله (مجمع البحرين مادة وحى). وكان من مشاهير صحابه الرسول صلى الله عليه وآله ويُعرف بحسن الوجه، أرسله الرسول صلى الله عليه وآله بالرسالة إلى قيصر الروم «هرقل» فى السنة السادسة أو السابعة من الهجرة، وكان حياً حتى خلافة عمر (قاموس دهخدا بالفارسية).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٨٩

وقد أشار القرآن المجيد إلى هذا الأمر العجيب بالنسبة للنحل فى الآيات ٦٨ و ٦٩ من سورة النحل.

لقد اتضح لنا- بعد التحقيقات التى اجريت على هذه الحشرة فى العصر الحاضر- أنّ النحل يعيش حياة اجتماعية وتمدناً عجيباً يفوق تمدن الإنسان فى بعض نواحيه، فالعمران والبناء يتم عنده بدقة كاملة وطبقاً للمواصفات الهندسية، وكيفية تجميع العسل وتهيئته وادخاره وحفظه من التلوث، وكيفية تربية الصغار، والتعذية الخاصة للملكة، والتحقق من عدم تلوث بعض النحل بالزهور الملوثة، وكيفية الدفاع ضد العدو، وكيفية إخبار أعضاء الخلية عن الزهور بواسطة النحل المكلف بالبحث، وإعطاء المواصفات الدقيقة من حيث المسافة والانحراف وذلك للحركة الجماعية نحو ذلك المصدر، وغير ذلك من الامور العجيبة التى لا يمكن تفسيرها إلّا بالقول بأنّ لها إلهاماً غريزياً.

ويقال: إنّ تم التعرف على ٤٥٠٠ نوع من أنواع هذه الحشرة، والعجيب فى الأمر أنّ جميعها تتبع طريقة واحدة فى كيفية البناء والمصّ والتغذية من الزهور (١).

إنّ البحث يستدعى عدم الخروج عن صلب الموضوع كثيراً، وإلّا فالحديث عن الحياة الغامضة للنحل طويل، ويكفينا منه الحديث عن بنائه لبيت سداسى الاضلاع مع زوايا هندسية دقيقة.

يقول العلماء فى هذا المجال: إنّ البيوت المبنية من قبل النحل بنيت بدقة وظرافة بحيث لا تحتاج إلى مواد أولية كثيرة للبناء، رغم سعة محتواها، لوجود ثلاثة أشكال فقط من بين الأشكال الهندسية المتعددة- يمكن بناء البيوت على أساسها من دون حصول فراغ بينها والأشكال هى، المثلث متساوى الاضلاع والرابعى، والسداسى، وقد كشفت الدراسات الهندسية أنّ سداسى الاضلاع يتطلب مواد بناء أقلّ مع شدة مقاومته، ولهذا السبب رجحه النحل على الشكلين الآخرين.

من أين حصلت له هذه الالهامات الغريزية؟ وفى أى مدرسة تعلم هذه التعاليم؟

(١). اول جامعة، ج ٥، ص ٥٥ «بالفارسية».

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٩٠

لا- يقتصر هذا الالهام الغريزي على النحل فحسب، بل نجده في كثير من الحيوانات تفوق عجائب كل منها الاخرى، نذكر لذلك الأمثلة الآتية:

يقول أحد العلماء في كتاب له باسم «البحر بيت العجائب»:

«إن الحركات التي تقوم بها بعض الأسماك تعتبر من غرائب الطبيعة ولا أحد يستطيع أن يكشف أسرار هذا السلوك، فهناك نوع من الأسماك يسمى «النُقْط» يغادر البحر المالح الأنهر العذبة وهي الأماكن التي ولدت فيها نفسها، وقد يقتضى ذلك أن تسير عكس اتجاه حركة المياه، أو تصعد الشلالات من أسفلها إلى أعلاها، وقد يبلغ عددها حداً بحيث تملأ النهر، وعندما تصل إلى المحل المقصود تضع بيوضها ثم تموت!

يا ترى كيف تستطيع هذه الأسماك أن تختار المياه المناسبة لها؟ إنه أمر عجيب، والأعجب، لأنها تفتقد الخارطة، كما أن بصرها تحت الماء محدود، ولم يدلها أحد على الطريق، وبالرغم من ذلك فهي تصل إلى المكان المقصود والمناسب».

ويضيف في نفس الكتاب: «إن الأعجب من ذلك هو سلوك الأسماك الانجليزية «سمك يشبه الحية» فحين تبلغ ثمان سنوات تغادر النهر أو المستنقع الذي كانت تعيش فيه، وتزحف ليلاً على الأعشاب المتشابكة حتى تصل إلى شاطئ البحر، ثم تجتاز المحيط الأطلسي عرضاً حتى تصل إلى المياه القريبة من «برمودا»! وتغوص في المحيط آنذاك وتضع البيوض ثم تموت ... إن صغار هذه الأسماك تطفو على سطح البحر وتبدأ سفرها عائدةً إلى وطنها، وتستغرق هذه السفر سنتين أو ثلاثاً حتى تصل إلى المحل الذي كان فيه أسلافها.

كيف وجدت هذه الأسماك طريقها رغم أنها لم تسلكه سابقاً؟ إنه سؤال لا يمكنك الإجابة عنه، كما لا يستطيع أعلم العلماء الإجابة عنه، إنه سرّ، ولا أحد يعرفه» (١)!

وكثير من الطيور المهاجرة تجتاز طرقاً ومسافات طويلة، وبعضها يجتاز طريق «أوربا» إلى «أفريقيا الجنوبية» دون خطأ في الاتجاه، ولم نكتشف كيفية اهتداء هذه الطيور إلى

(١). البحر بيت العجائب، ص ١١٦ و ١١٧ «بالفارسية».

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٩١

الطريق حتى فترة ليست بعيدة.

وقد أثبت بعض العلماء - بعد التحقيق والتجارب على هذه الطيور - أنها تهتدي الطريق بواسطة مواقع النجوم، وأثبتت التجارب أنها تعرف مواقع النجوم غريزياً، وتعلم تغير مواقعها حسب فصول السنة، وحتى عندما تتلبد السماء بالغيوم، فإنّ وميض بعض من النجوم يكفيها للاهتداء إلى الطريق، كما أثبتت تجارب اخرى أنها ورثت معرفتها عن الفلك ومواقع النجوم، أى أنها تعلم كل شىء عن السماء ومواقع النجوم وإن لم تشاهد السماء سابقاً، بالطبع لم تُكتشف كيفية انتقال هذه المعلومات التفصيلية لهذه الطيور بالوراثة، خاصة وأنّ السماء تتغير أشكالها بمرور الزمان، ثم: من أين حصل الجيل القديم على هذه المعلومات؟! (١).

و النموذج الآخر لهذه الغريزة هو سلوك طير باسم «آكسك لوب» عندما تضع البيوض، فيقول العالم الفرنسي «وارد» حول هذا الحيوان:

«إنى درست حالات هذه الطيور، فوجدت من خصائصها أنها تموت بعد أن تبيض، ولا ترى أفرانها أبداً، كما أن الأفران لا ترى

امهاتها، وعندما تفقس البيوض تخرج كالديدان بلا أجنحة ولا ريش، ولا قدرة لها على تحصيل الطعام، ولا قدرة لها للدفاع عن نفسها من الحوادث والمخاطر التي تهدد حياتها، ولهذا ينبغي أن تبقى في مكان محفوظ فيه طعام يكفيها لمدة سنة، ومن بعدها تقوم الام- عندما تشعر أنها على وشك أن تبيض- بالبحث عن قطعة من خشب ثم تثقبها ثقباً عميقاً، وتجمع فيها المؤونة الكافية، فتجمع أولاً أوراق الأشجار ما يكفي لفرخ واحد لمدة سنة وتلقيها في نهاية الثقب العميق، ثم تضع عليها بيضه وتبنى عليها سقفاً محكماً من عجينه خشبي، ثم تبدأ ثانياً في جمع مؤونة فرخ آخر لمدة سنة وبعد جمعها المؤونة ووضعها على سطح الغرفة الاولى تضع بيضه ثانية عليها وسقفاً

(١). حواس الحيوانات الغامضة، تأليف (ويتوس دروشر)، ترجمة لاله زارى، ص ١٦٧- ٧١ (ملخص) «بالفارسية».

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٩٢

آخر، وهكذا تبنى الغرفة بعد الغرفة حتى تموت «١».

من الذى علم هذا الطير هذا الحجم من المعلومات رغم أنه لم ير امه ولا- أفراخه؟ لا- جواب لأحدٍ على هذا السؤال إلا القول، بأنها الهامات غريزية من قبل الخالق العظيم.

(١) المتلبسون بالفلسفة، ص ٢٢٩، «بالفارسية».

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٩٣

٦- الكشف والشهود

تمهيد:

نفحات القرآن ج ١ ٢٢٢

القسم السادس والأخير من مصادر المعرفة هو «الشهود القلبي والمكاشفة».

وقبل كل شيء ينبغي تعريف هذا المصدر المجهول لدى أكثر الناس، كى يتضح فرقه عن «الوحي» و «الالهام» و «الفطرة» و «الإدراكات العقلية»، ولكى لا يحملهُ غير المطلعين على «اتباع الظن».

ومن جهة اخرى، لكى نحول دون استغلال هذا العنوان من قبل البعض، والنظر إليه نظرة تشاؤمية من قبل البعض الآخر. إن الكائنات فى هذا الوجود تنقسم إلى قسمين:

١- الكائنات التى يمكن إدراكها بالحواس وهى «العالم المحسوس».

٢- الكائنات غير المحسوسة وهى «عالم الغيب».

لكن الإنسان- أحياناً- يفتح أمامه طريق باتجاه عالم الغيب يمكنه من معرفة بعض الحقائق الغيبية (حسب قابليته)، وبتعبير آخر، تتكشف له بعض حقائق عالم الغيب فيشاهد تلك الحقائق كما يشاهد حقائق العالم المحسوس، بل أوضح وأوثق.

ويقال لهذه الحالة «المكاشفة» أو «الشهود الباطنى».

وقد اشير إلى هذا العلم فى الآيتين: «كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ! (التكاثر / ٥- ٦)

وقد ورد فى المصادر الإسلامية المختلفة: إن «المجرمين» و «المؤمنين» تحصل لديهم

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٩٤

هذه الحالة عند الاحتضار، فيشهد المؤمنون عندها ملائكة الله أو الأرواح القدسية لأولياء الله بينما يعجز الجالسون حولهم عن مشاهدة ذلك.

كما حصل هذا الأمر لرسول الله صلى الله عليه وآله في غزوة الخندق عندما ضرب الرسول صلى الله عليه وآله الصخرة ثلاثاً وكان يظهر بريق في كل ضربة وعند سؤال المسلمين عن هذا البريق قال:

أضاءت الحيرة وقصور كسرى في الأولى وفي الثانية أرض الشام والروم وفي الثالثة قصور صنعاء... وسيأتى تفصيل الحديث «١».

كما أنه قد حصل هذا لآمنه أم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عندما كانت حاملة بالرسول صلى الله عليه وآله حيث قالت: رأيت نوراً خرج مني شاهدت به قصور بلاد «بصرى في الشام»، وهناك كثير من النماذج جاءت في الآيات والروايات نشير إليها فيما بعد، إن شاء الله، فهذه كلها لا وحى ولا إلهام قلبى، بل نوع من المشاهدة والإدراك تختلف عن المشاهدة والإدراك الحسى.

وعلى هذا، فالكشف والشهود - اختصاراً - عبارة عن: الدخول في عالم ما وراء الحس ومشاهدة حقائق ذلك العالم بالعين الباطنية، كالمشاهدة الحسية بل أقوى أو سماع تلك الحقائق باذن روحانية.

بالطبع لا يمكن تصديق كل من يدعى أنه وصل إلى هذه الملكة، إلا أنه ينبغي الاذعان بأصل وجود مصدر المعرفة وتحدث أولاً عن هذا الأمر، ثم عن كيفية الوصول إليه، ثم طريق تمييز المدعين الصادقين من الكاذبين، وبعد هذا التمهيدي، نمنع خاشعين في الآيات التالية:

١- «وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلِكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ .

(الأنعام / ٧٥)

٢- «وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . (التوبة / ١٠٥)

٣- «مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ أَفَتَأْمُرُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ وَقَدْ رَأَهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ

(١). الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ١٧٩.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٩٥

عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ . (النجم / ١١-١٤)

٤- «كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ . (التكاثر / ٥-٦)

٥- «يَوْمَ يَرَوُنَّ الْمَلَائِكَةَ لَابُدْشَرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا».

(الفرقان / ٢٢)

٦- «وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَىٰ لَهُمْ وَقَالَ لَأَغَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي خِرَازِكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْقِتْمَانَ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ أَنَّىٰ أَرَىٰ مَا لَاتَرَوُنَّ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ . (الأنفال / ٤٨)

٧- «وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ .

(يوسف / ٩٤)

٨- «فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا».

(مريم / ١٧)

شرح المفردات:

إن «ملكوت» اشتقت في الأصل من مادة «الملك» والتي تعنى الملكية والحكومة، واضيفت لها «الواو» و «التاء» للتأكيد والمبالغة، أما

مَلَكُوتَهُ فتعني الحكومة والعزة.

يقول الطريحي في «مجمع البحرين»، إن ملكوت جاءت بمعنى العزة والسلطنة والمملكة، وادعى بعض أئمة اللغة أنها تعني «الحكومة العظيمة» وهو يتفق مع ما قاله الراغب في مفرداته، ويقول صاحب الميزان: «كان النظر في ملكوت الأشياء يهدى الإنسان إلى التوحيد هداية قطعياً» (١).

إن «فؤاد» - كما بينا معناه بالتفصيل سابقاً - تعني القلب والروح عندما ينضجان ويتكاملان، وهو مشتق من مادة «فأد» التي تعني النضج. وإن «أجد» من مادة «وجود» ويعني الحصول، فقد يكون الحصول عن طريق احدي

(١). تفسير الميزان، ج ٧، ص ١٧١.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٩٦

الحواس الظاهرية، مثل الرؤية بالعين، والسمع بالأذن، أو بواسطة الحاسة الشاممة، وقد يحصل عن طريق الحواس الباطنية مثل الاحساس بالجوع أو الشبع والهم والغم، وقد يحصل عن طريق العقل مثل وجدان الله بالاستدلال العقلي والبراهين المختلفة. كلمة «تمثل» من مادة «مُثُل» ويعني الوقوف أمام شخص أو شيء، ويقال مُثِّلَ بشخص أو شيء أي ظهر في صورة شخص أو شيء آخر، وقد تكرر موضوع التمثيل في الروايات الإسلامية والتواريخ، منها ظهور ابليس في «دار الندوة» أمام المشركين وهم يخطون لقتل الرسول متمثلاً في شكل رجل صالح وخير. ومنها تمثل الدنيا في صورة امرأة جميلة وفاتنة أمام الإمام على عليه السلام وعدم استطاعتها من النفوذ في قلبه الطاهر وقصتها معروفة، ومنها تمثل أعمال الإنسان أمامه في القبر ويوم القيامة، كلُّ بشكله المناسب له حيث عبرت الروايات الإسلامية عن هذا الأمر بالتمثيل، ومفهوم التمثيل في جميع هذه الموارد هو ظهور شخص أو شيء في صورة شخص أو شكل آخر من دون تغير في باطنه وماهيته (١).

جمع الآيات وتفسيرها

إن الآيات الأولى بعد إشارتها إلى جهاد إبراهيم عليه السلام بطل التوحيد ضد الشرك وعبادة الأصنام، تحدثت عن المنزلة الرفيعة لإيمانه ويقينه، وكمكافئته لهذه المكانة فإن الله أراه ملكوت السموات والأرض، فأصبح من أهل اليقين أي وصل إلى درجة عين اليقين وحق اليقين، جزاءً لما عاناه من جراء جهاده ضد الشرك وعبدة الأصنام، ومع الأخذ بنظر الاعتبار أن «السموات» تفيد العموم هنا (لأنها جاءت جمعاً لا مفرداً ومعرفة لا نكرة)، نستنتج أن الله أطلع إبراهيم على سلطانه في السموات المتمثل بالكواكب والنجوم والمجرات وغيرها، كذلك سلطانه على الأرض ما ظهر منها وما بطن، وقد عبر القرآن عن هذا الأمر بهذا التعبير «نرى إبراهيم...».

(١). تفسير الميزان، ج ١٤، ص ٣٧.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٩٧

ومع الأخذ بنظر الاعتبار إلى أن الإنسان لا يمكنه رؤية هذه الحقائق بعينه الظاهرية واستدلالاته العقلية، ندرك أن الله أراه هذه الحقائق عن طريق الشهود الباطني وإزالة الحجب التي تحول دون مشاهدة الإنسان الحقائق الغيبية.

وقد ذكر الفخر الرازي احتمالين في تفسيره ل «الإرائة»، أحدهما: «أنها حسيه»، والثاني:

أنها إرائة عن طريق الاستدلال العقلي، ثم اختار الاحتمال الثاني، وذكر تسعة أدلة عليه (١).

لكن - كما قلنا سابقاً - فالإنسان عاجز عن الاحاطة الكاملة بأسرار سلطان الله على العالم سواء كان عن طريق الحس أو عن طريق العقل، وتحتاج الاحاطة هذه إلى طريق إدراك آخر، وهو الشهود الباطني، ولهذا السبب يذكر صاحب تفسير «في ظلال القرآن»:

«أن المراد من الآية إخبار إبراهيم عن أسرار الخلق الخفية ورفع الحجاب عن آيات كتاب الخلق التي نشرت كي يصل إبراهيم إلى درجة اليقين الكامل» (٢).

و بتعبير آخر: إن إبراهيم اجتاز مراحل التوحيد الفطري والاستدلالي - في البداية - من خلال مشاهدته لطلوع الشمس وغروبها وطلوع النجوم وافولها، وجاهد المشركين واجتاز درجات التوحيد في ظل هذا الجهاد العظيم، الواحدة تلو الاخرى، إلى أن بلغ مرحلة كشف الله له فيها الحقائق، وهي مرحلة الشهود الباطني.

وهناك حديث للإمام الصادق عليه السلام في هذا المجال يشير فيه إلى هذا المعنى حيث يقول: «كُشِطَ لإبراهيم السموات السبع حتى نظر ما فوق العرش، وكشط له الأرضون السبع، وفعل لمحمد صلى الله عليه وآله مثل ذلك...» (والأئمة من بعده قد فعل بهم مثل ذلك) (٣).

وقد ذكر صاحب البرهان الكثير من الأحاديث في تفسيره، كلها تكشف أن الإدراك هذا ليس هو نفس الإدراك العقلي أو الحسي، بل - وكما صرح صاحب الميزان وأشارنا إليه سابقاً - إن الملكوت هي مجموعة الامور التي لها ارتباط بالذات المقدسة الإلهية من حيث

(١). التفسير الكبير، ج ١٣، ص ٤٣.

(٢). في ظلال القرآن، ج ٣٩، ص ٢٩١.

(٣). تفسير البرهان، ج ١، ص ٥٣١، ح ٢ (ومضمون الحديث الثالث والرابع قريب من مضمون هذا الحديث).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٩٨

انتمائها إلى تلك الذات، وهذا ما شاهده إبراهيم وعن هذا الطريق استطاع أن يصل إلى التوحيد الخالص (١).

وهناك روايتان ذكرت في تفسير «الدر المنثور» إحداهما عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله والاخرى عن ابن عباس تبيين أن الله رفع الحجب عن إبراهيم وأراه ملكوت السموات والأرض أي أسرار قدرته، وحاكميته على الكون والوجود (٢).

ج ج

والآية الثانية بعد ذكرها لأحكام «الزكاة والصدقة والتوبة» خاطبت الرسول قائلة:

«وَقَلِّ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . (توبه/ ١٠٥)

ومما لا شك فيه أن المراد من رؤية الأعمال من قبل الله سبحانه وتعالى هو رؤية الله لجميع أعمال الناس سواء الصالحة منها أو غير الصالحة وما ظهر منها وما بطن «بقريته وحده السياق» وينبغي القول بأن مشاهدة الرسول مثل مشاهدة الله، لأن الآية مطلقة ولم يقيدتها شيء، وأما المؤمنون، فالمراد منهم خلفاء الرسول صلى الله عليه وآله المعصومون بحسب القرائن المختلفة «لا جميع المؤمنين». ومع الالتفات إلى أنه لا يمكن مشاهدة أعمال كافة الناس مشاهدة حسيه أو استدلالية عقلية، ينبغي القول: إن الآية بينت حقيقة وهي أن الرسول صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام بإمكانهم المشاهدة بشكل يختلف عن المشاهدة الحسية المتعارفة، يشاهدون بها جميع أعمال المؤمنين.

وقد ذهب الفخر الرازي إلى أن المراد من الآية جميع المؤمنين لا الأئمة، وعندما وقع في إشكال أن المؤمنين لا يطلع أحدهم على أعمال الآخر، أجاب: إن المراد أنهم يُخبرون بها.

(١). تفسير الميزان، ج ٧، ص ١٧٨.

(٢). در المنثور، ج ٣، ص ٢٤.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٩٩

وهذا تكلف بلا نتيجة، وتبرير خلاف الظاهر.

كما أنه نقلت روايات عديدة في ذيل هذه الآية بينت أن أعمال العباد تُعرض كل صباح (بعض الروايات ليس فيها قيد الصباح) على رسول الله صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام فيرونها ويفرحون بها إن كانت طاعات، ويتألمون إن كانت معاصياً «١».

و يمثل هذا الحجم الكبير من الروايات في تفسير هذه الآية درس كبير لجميع سالكي طريق الحق والهداية، حيث إن هناك مراقبين أجلاء يراقبون أعمالهم، والإيمان بهذه الحقيقة لها مردودات تربوية جمّة، وقد نقل هذا المضمون في ضمن روايات كثيرة عن الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول في أحدها: «إذا صار الأمر إليه جعل الله له عموداً من نور يُبصرُ به ما يعمل به أهل كل بلدة» «٢».

ج ج

والآية الثالثة إشارة إلى ما يعتقد البعض من مشاهدة رسول الله صلى الله عليه وآله لجبرئيل عليه السلام في شكله الحقيقي، وقد شاهده بهذا النحو مرتين، المرة الأولى في بداية بعثته حيث ظهر (عليه السلام) في الافق وغطى الشرق والغرب، وكان بدرجة من الجلالة والعظمة حيث اضطرب الرسول حينها اضطراباً شديداً، والمرة الثانية هي عند معراجة صلى الله عليه وآله، وقد اشير في سورة النجم لكلا اللقائين.

وهناك تفسير آخر وهو أن المراد من الرؤية في الآية هو حصول الشهود الباطني له، الشهود للذات الإلهية المقدسة، وهو شهود بالعين الباطنية لا الظاهرية، وهو مصداق واضح ل «لقاء الله» في هذا العالم، وقد جاء شرح ذلك مفصلاً في تفسير الأمثل في ذيل الآية ١٨ سورة النجم.

(١). جاء في تفسير البرهان في ذيل الآية المذكورة، وفي بحار الأنوار، ج ٣٣، ص ٣٢٦ فما بعد، عشرات الروايات المنقولة في هذا المجال، ويمكن القول: إنها وصلت إلى مستوى التواتر، و من اصول الكافي ج ١ باب «عرض الأعمال» جاء ذلك مفصلاً.

(٢). منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ج ٥، ص ٢٠٠ (لقد جمع في هذا الكتاب روايات عديدة بهذا المضمون) وقد ذكر بعضاً منها البحراني في تفسيره «البرهان».

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٠٠

وعلى أيّة حال فإن الآية تصرح: إن ما رآه الرسول صلى الله عليه وآله بقلبه قد حدث بالفعل، وقلبه صادق بما شاهده وغير كاذب. والتعبير هذا شاهد على مسألة الكشف والشهود الباطني الذي يعتبر أحد مصادر المعرفة للإنسان، إنسان مثل الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، وقد جاء في تفسير الميزان:

ولا بدع في نسبة الرؤية وهي مشاهدة العيان إلى الفؤاد فإنّ للإنسان نوعاً من الإدراك الشهودي وراء الإدراك باحدى الحواس الظاهرة والتخيل والتفكر بالقوى الباطنة كما أننا نشاهد من أنفسنا أننا نرى وليست هذه المشاهدة العيانية ابصاراً بالبصر ولا معلوماً بفكر، وكذا نرى من أنفسنا أننا نسمع ونشم ونذوق ونلمس ونشاهد أننا نتخيل ونتفكر وليست هذه الرؤية ببصر أو بشيء من الحواس الظاهرة أو الباطنة فإننا كما نشاهد مدركات كل واحدة من هذه القوى بنفس تلك القوة كذلك نشاهد إدراك كل منها لمدرکها وليس هذه المشاهدة بنفس تلك القوة بل بأنفسنا المعبر عنها بالفؤاد «١».

وقد صرح المفسرون: إن المراد من الرؤية في الآية هو المشاهدة بالقلب.

وقد جاء في حديث أن سأل أحد صحابة الإمام أبي الحسن على بن موسى الرضا عليه السلام:

هل رأى رسول الله صلى الله عليه وآله ربّه عزّ وجلّ؟ فاجابه عليه السلام «نعم بقلبه، أما سمعت الله عزّ وجلّ يقول:

ما كذب الفؤاد ما رأى لم يره بالبصر ولكن رآه بالفؤاد» «٢».

بديهى، أن المراد من «الرؤية القلبية» ليس هو الفكر والاستدلال العقلى، لأن هذا أمر لا يختص بالرسول صلى الله عليه وآله بل يحصل لجميع المؤمنين والموحدين.

ج ج

وقد خاطبت الآية الرابعة المؤمنين كافة قائلة: «كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ تَضِيفُ: «ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ».

(١). تفسير الميزان، ج ١٩، ص ٢٩.

(٢). تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ١٥٣، ح ٣٤.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٠١

وهناك بحث بين المفسرين فى أن الرؤية هذه تقع فى الدنيا أم فى الآخرة؟ أو أن الأولى فى الدنيا والثانية فى الآخرة؟ لكن ظاهر الآية يدل على أن الثانية تقع فى الآخرة، بقريته «ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ» وذلك لأنه لا سؤال فى الدنيا، وعلى هذا فالرؤية الأولى «رؤية الجحيم» تقع فى الدنيا.

وقد جاء فى تفسير الميزان: إن ظاهر الآية يدل على وقوع رؤية الجحيم قبل يوم القيامة، بالطبع رؤية قلبية والتي تعد من ثمار الإيمان واليقين، كما هو الأمر فى قصة إبراهيم ورؤيته لملكوت السموات والأرض.

وقد تقدم أن البعض يرى أن الرؤية فى كلا-الموردين تتعلق بيوم القيامة، ولهذا تكلفوا كثيراً عند بيانهم للفرق بين الرؤيتين، كما يُشاهد ذلك فى كلام المفسر الفخر الرازى «١».

وعلى أية حال، فإن الآية تأكيد فى ظاهرها على أن الإنسان- فى بعض الحالات- تُرفع عن قلبه الحجب فيتمكن من رؤية بعض حقائق عالم الغيب.

ج ج

والآية الخامسة أشارت إلى طلب الكافرين المُلح، حيث كانوا يسألون: لِمَ لَمْ يُنَزَّلْ عَلَيْنَا مَلَائِكَةٌ؟ أو لِمَ لَمْ نَرَ اللَّهَ جَهْرَةً؟ «٢».

ويجيبهم القرآن: «يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لأَبْشَرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا». (٢٢/ فرقان)

وهناك خلاف بين المفسرين فى المراد من «يوم» فى الآية، فأى يوم هو؟ يعتقد البعض أن المراد منه هو يوم القيامة لكن البعض يعتقد- مع الالتفات إلى الآيات التى تحدثت عن (ملائكة الموت) ومن ضمنها الآية التالية: «وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمْرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ...». (٩٣/ الأنعام)

(١). تفسير الكبير، ج ٣٢، ص ٨٠.

(٢). الفرقان، ٢١.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٠٢

إن المراد منه هو لحظات الموت، أو بعد الموت وقبل يوم القيامة.

وقد نقل هذا رأى عن ابن عباس «١»، فى حديث عن الإمام الباقر عليه السلام: «فإذا بلغت الحلقوم ضربت الملائكة وجهه ودبره (قيل اخرجوا أنفسكم اليوم تُجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون) وذلك قوله «يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لأَبْشَرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ» «٢».

وطبقاً لهذا التفسير، فإن الإنسان عندما يكون على وشك الموت تُرفع عن قلبه الحُجُب، فتحصل له حالة الكشف والشهود، فىرى الملائكة.

ج ج

والآية السادسة تحدثت عن معركة بدر وأن الشيطان زين للمشركين أعمالهم وصورها لهم وكأنهم يحسنون صنعا، وذلك كي يكونوا أكثر تفاؤلا واملًا بما يقومون به.

ومن جهة اخرى فإن عدد وعده جيش المشركين الذي يقدر بعده أضعاف المسلمين آنذاك اصطفوا أمام المسلمين، والشيطان يوسوس لهم وبشكل مستمر بانهم بهذا الجيش المجهز سوف ينتصرون ولا تستطيع أية قوة أن تغلبهم: «لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَأَنْتَى جَارٌ لَكُمْ».

وعندما اشتعلت الحرب ونزلت الملائكة لنصرة المسلمين بأمر الله، تراجع الشيطان، وقال لهم: «أَنْتَى بَرِيءٌ مِّنْكُمْ أَنْتَى أَرَى مَا لَاتَرُونَ أَنْتَى أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ لِأَنَّهُ رَأَى الْإِمْدَادَاتِ الْغَيْبِيَّةِ وَأَثَارَ رَحْمَةِ اللَّهِ!»
و حول هذه الآية انقسم المفسرون إلى قسمين:

القسم الأول يرى أن الشيطان متجسم وظهر أمام هؤلاء بصورة إنسان وأخذ يوسوس لهم.

(١). تفسير الكبير، ج ٢٤، ص ٧٠.

(٢). تفسير البرهان، ج ٣، ص ١٥٨، ح ١.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٠٣

وأما القسم الثاني فإنهم يرون أن الشيطان نفذ في باطن المشركين كما هو المتعارف واحداث أثراً في قلوبهم.

وقد اختار كثير من المفسرين الرأى الأول، وهناك روايات معروفة تؤيد هذا الرأى، حيث قالت: إن الشيطان تمثّل لهم في صورة «سراقه بن مالك» الذى يعتبر من أشرف «بنى كنانة» وقد حصل هذا الأمر «التمثّل» عندما هاجر الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، حيث اشترك الشيطان آنذاك فى شورى المشركين فى «دار الندوة» متمثلاً فى صورة رجل كبير السن من أهالى «نجد» وليس محالاً أن يتمثّل فى صورة إنسان، لأنّ هذا ممكن بالنسبة للملائكة (كما هو منقول فى قصة ابراهيم ومريم).

والبحت الآخر هو: هل أن الشيطان رأى الملائكة حقاً يساندون جند الإسلام؟ أم عندما رأى آثار الانتصار غير المرتقب تيقن بنزول الملائكة والامدادات الغيبية؟ هناك نظريتان فى هذا المجال:

يعتقد كثير من المفسرين أن المراد رؤيتهم حقيقة، ويؤيد ذلك ظاهر الآيات اللاحقة التى تحدثت عن دخول الملائكة ساحه بدر. وعلى هذا، فما كان المؤمنون ولا المشركون يرون تواجد الملائكة فى بدر، بينما كانت الحجب مرفوعة عن الشيطان، فكان يرى الملائكة.

وهذا نوع من الكشف والشهود منحه الله للشيطان لأهداف معينة.

ج ج

والآية السابعة أشارت إلى قصة يوسف عليه السلام، فعندما خرج أولاد يعقوب عليه السلام مع القافلة فرحين من مصر، وكانوا قد شاهدوا يوسف على عرش السلطنة رجعوا حاملين قميص يوسف لتقر عين أبيهم وليرجع نظره إليه ثانية، وعندما تحركت القافلة من مصر، قال يعقوب لمن حوله فى بلاد كنعان: إننى أشم رائحة يوسف إذا لم ترمونى بالكذب والجهل، إن ما قاله يعقوب كان صدقاً لأنه لم يشم الرائحة بالشامة الطبيعية التى يمتلكها جميع الناس ولهذا لم

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٠٤

يصدقه أحد ممن كان حوله فنسبوا الضلالة إلى الشيخ الكنعانى ذلك النبى العظيم حيث قالوا له: «تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفَى ضَمَالِكَ الْقَدِيمِ».

(يوسف / ٩٥)

وقد تبين صدق شيخ كنعان عند رجوع الاخوة إلى كنعان.

وقد عُدَّت المسافة بين مصر وكنعان بعشرة أيام في بعض الروايات، وبثمانية أيام في بعضها الآخر وفي روايات اخرى بثمانين فرسخاً (١).

ولا دليل على حمل الآية على المعنى المجازى والقول بأن شم رائحة القميص كناية عن قرب لقائه بيوسف حيث ألهم الأب بذلك اللقاء (مثل قولنا نشم رائحة انتصار المسلمين على الأعداء)، وذلك لأنه مع امكان حمل الألفاظ على الحقيقة لا يمكن الحمل على المجاز.

وفي النهاية نستنتج أن مكاشفة حصلت ليعقوب ورفعت عنه الحجب، وباحساس يفوق الاحساس الظاهري استطاع أن يشم رائحة قميص ابنه من بعيد.

ج ج

وقد تحدثت الآية الثامنة والأخيرة عن قصة تمثّل الملك الإلهي لمريم حيث يقول القرآن في هذا المجال بصراحة:
لقد انفصلت مريم عن أهلها في الضفة الشرقية من «بيت المقدس»، واتخذت حجاباً بينها وبين الناس (وهذا الحجاب إما أن يكون لأجل التفرغ للعبادة والنجوى أكثر، أو أن يكون لأجل التطهر والغسل)، وأيما كان فإن الله أرسل إليها روحه، فتمثل لها بشراً وإنساناً سوياً أى كاملاً من دون عيب وذا قامه ووجه جميل، ففرغت مريم في الوهلة الاولى لكنها اطمأنت عندما قال لها: «إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا» أى عيسى عليه السلام. (مريم / ١٩)

(١). تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ٢٦٢؛ تفسير الكبير، ج ١٨، ص ٢٠٧.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٠٥

واستمر الحديث بينهما طويلاً، وقد ذكر في سورة مريم «١».

وقد ادعى البعض أن الملك تمثل لمريم في حس الباصرة فقط، (وليس في الخارج)، لكن هذا خلاف الظاهر ولا- دليل عليه، والقرائن على أن هذا الشهود قد حصل لمريم فقط، ويحتمل أنه إذا كان أحد معها ما كان قادراً على الرؤية، وعليه فالآية قرينة اخرى على مسألة إمكانية الشهود حتى لغير الأنبياء.

النتيجة:

نستنتج مما تقدم أن هناك مصدراً للمعرفة غير المصادر التي قرأنا عنها إلى الآن، وهو مصدر مبهم وغامض بالنسبة لنا، لن يستفاد وجوده من آيات القرآن بوضوح، وهو لا يختص بالأنبياء والأئمة، بل قد يحصل لغيرهم أيضاً، وإذا شككنا في بعض الآيات في مجال استفادة هذا المصدر منها، فإن هذا المصدر يُستشف من مجموع الآيات.

بالطبع، إن هذا الحديث لا يعنى فسح المجال أمام كل من يدعى الكشف والشهود، بل إن لهما علائم سنشير إليها فيما بعد إن شاء الله.

توضيحات

١- نماذج جميلة من الكشف والشهود في الأحاديث الإسلامية

إن الروايات التي كشفت عن مصدر المعرفة ليست بالقليلة وقد وصلت إلى حد «الاستفاضة» حسب تعبير علماء الحديث، وقد أوردنا هنا نماذجاً من هذه الروايات:

١- ذكر في تاريخ معركة الأحزاب أن المسلمين عند حفرهم للخندق حول المدينة

(١). راجع تفسير الأمثل، ذيل الآية ١٩ من سورة مريم.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٠٦

(كوسيلة دفاعية أمام العدو) خرجت عليهم صخرة كسرت المعول، فأعلموا النبي صلى الله عليه وآله، فهبط إليها ومعه سلمان فأخذ المعول وضرب الصخرة ضربة صدعها، وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتى المدينة، فكبر رسول صلى الله عليه وآله والمسلمون، ثم الثانية كذلك، ثم الثالثة، ثم خرج وقد صدعها، فسأله سلمان عما رأى من البرق، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أضاءت الحيرة وقصور كسرى في البرقة الأولى وأخبرني جبرئيل أن امتي ظاهرة عليها، وأضاء لي في الثانية القصور الحمر من أرض الشام والروم، وأخبرني أن امتي ظاهرة عليها، وأضاء لي في الثالثة قصور صنعاء، وأخبرني أن امتي ظاهرة عليها، فأبشروا، فاستبشر المسلمون» (١).
لم يصدق المنافقون هذه البشارة التي ساقها الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وأخذوا يستهزئون بقولهم: يا للعجب كيف رأى قصور الحيرة وقصور ملوك إيران والروم واليمن من المدينة وكيف بشر بالانتصار على هؤلاء ونحن الآن محاصرين من قبل مجموعة من جيش اعراب مكة؟ إن هذا الكلام لا أساس له ولا حقيقة.
إلا أن الحوادث المستقبلية أثبتت صحة ما قاله الرسول صلى الله عليه وآله.

وقد يحمل البعض الشهود هنا على معنى مجازي، لكن لا مبرر لهذا الحمل مع إمكان الحمل على المعنى الحقيقي.

٢- لقد ورد في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام حول معركة مؤتة (التي وقعت بين المسلمين والروم الشرقية في شمال الجزيرة): «أن المسلمين عندما ذهبوا للقتال بقيادة جعفر بن أبي طالب، فإن الرسول صلى الله عليه وآله كان يوماً في المسجد وقد تسطحت له الجبال والارتفاعات فشهد جعفرًا يقاتل الكافرين ثم قال: قتل جعفر» (٢).

وقد جاءت تفاصيل أخرى عن هذا الموضوع في روايات أخرى حدث أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله ارتقى يوماً المنبر بعد صلاة الصبح، فصوّر للمسلمين ساحة المعركة في مؤتة بدقة، وتحدث بالتفصيل عن شهادة «جعفر» و «زيد بن حارثة» و «عبدالله بن رواحة» وكأنه يرى المعركة بأم عينيه، والجدير بالذكر أن التواريخ المعروفة - عند إيرادها لهذه القصة -

(١). الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ١٧٩.

(٢). بحار الأنوار، ج ٢١، ص ٥٨، ح ٩.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٠٧

نقلت هذا الحديث عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «إن الشهداء الثلاثة حُمِلوا إلى السماء على سررٍ من ذهب ورأيت نقصاً في سرير «عبدالله بن رواحة» قياساً لسريري الشهيدين الآخرين، فسئل عن سبب هذا؟ قال: مضياً، وتردد بعض التردد ثم مضى، فالتعبير بالرؤية في الرواية له معنى عميق وهو نموذج من نماذج الشهود.

٣- وهناك حديث في تفسير الآية: «وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ . (آل عمران / ١٩٩)

يقول: إن سبب نزول الآية هو النجاشي ملك الحبشة، فانه عندما توفي أخبر جبرئيل الرسول بالأمر، فدعا الرسول المؤمنين لأن يصلُّوا على أحد اخوتهم، فسألوا: من هو؟

أجاب: النجاشي.

ثم جاء الرسول إلى مقبرة البقيع، فتجلت له بلاد الحبشة وتابوت النجاشي من المدينة، فصلّى عليه «١».

٤- وقد جاء في تاريخ ام الرسول آمنه عليها السلام، أنها نزل عليها ملك عندما كان الرسول في رحمها وقال لها: إن في رحمك سيد هذه الامية فقولى عند ولادته: إني أعوذ بالله الأحد من شرّ الحاسدين، وسمّيه «محمدًا»، وقد شاهدت عند حملها أنه خرج منها نور أضاء لها قصور بصرى من أرض الشام! «٢».

وهذا الحديث يكشف عن إمكان حصول حالة الشهود لغير الأنبياء والأئمّة.

٥- وفي الحديث المعروف: أن أمير المؤمنين عليه السلام كان في بعض حيطان فدك وفي يده مسحاة فهجمت عليه امرأة من أجمل النساء فقالت: يا ابن أبي طالب إن تزوجتني أغنك عن هذه المسحاة وأدلك على خزائن الأرض ويكون لك الملك ما بقيت، قال لها: «فمن أنت حتى أخطبك من أهلك؟».

قالت: أنا الدنيا: فقال عليه السلام: «ارجعي فاطلبي زوجاً غيرى فلست من شأنى فأقبل على مسحاته وأنشأ».

(١). بحار الأنوار، ج ٨، ص ٤١١.

(٢). سيرة ابن هشام، ج ١، ص ١٦٦.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٠٨ لقد خاب من غزته دنيا دنية وما هي إن غرت قروناً بطائل

اتتنا على زى العروس بثينةً وزينتها في مثل تلك الشمائل

... الخ «١».

وقد حمل البعض الرواية على «التشبيه» و «التمثيل» و «المجاز» لكننا إذا أردنا حفظ الظاهر، فمفهومها هو أن الدنيا تمثلت للإمام على عليه السلام في عالم المكاشفة في صورة امرأة جميلة وأجابها عليه السلام بالسلب.

وقد نقل تمثل الدنيا للمسيح عليه السلام كذلك في صورة امرأة مخادعة مع اختلاف بسيط عمّا نقل عن الإمام على عليه السلام «٢».

٦- وقد جاء في أحوال الإمام السجاد عليه السلام (وعندما كانت فتنة عبد الله بن الزبير في الحجاز مستعرة والكل كان يتربح نهاية الأمر) أن الإمام عليه السلام قال: «خرجت حتى انتهيت إلى هذا الحائط فاتكأت عليه فإذا رجل عليه ثوبان أبيضان ينظر في تجاه وجهي ثم قال: يا على بن الحسين ما لى أراك كئيباً حزيناً؟ أعلى الدنيا؟ فرزق الله حاضر للبر والفاجر، قلت:

ما على هذا أحزن وأنه لكما تقول، قال: فعلى الآخرة؟ فوعد صادق يحكم فيه ملك قاهر- أو قال قادر- قلت: ما على هذا أحزن وأنه لكما تقول: فقال: مم حزئك؟ قلت: ممّا نتخوف عليه من فتنة ابن الزبير وما فيه الناس قال: فضحك ثم قال: يا على بن الحسين هل رأيت أحداً دعا الله فلم يجبه؟ قلت: لا، قال: فهل رأيت أحداً توكل على الله فلم يكفه؟ قلت: لا، قال: فهل رأيت أحداً سأل الله فلم يعطه؟ قلت: لا، ثم غاب عني» «٣».

٧- وفي حديث آخر للإمام نفسه عليه السلام يقول فيه: «كأننى بالقصور وقد شيدت حول قبر الحسين عليه السلام وكأننى بالأسواق قد حفت حول قبره فلا تذهب الأيام والليالي حتى سار إليه

(١). بحار الأنوار، ج ٤٠، ص ٣٢٨، ح ١٠.

(٢). بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ١٢٦ باب حب الدنيا و ذمها، ح ١٢٠.

(٣). اصول كافي، ج ٢ باب التفويض إلى الله، ح ٢.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٠٩

من الآفاق وذلك عند انقطاع ملك بني مروان «١».

٨- جاء في أمالي الصدوق عن أحوال الحر بن يزيد الرياحي:

لما خرجت من الكوفة نوديت أبشر يا حر بالجنة.

فقلت: ويل للحر يبشر بالجنة وهو يسير إلى حرب ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله؟! «٢»

٩- وقد جاء في حديث معروف دار بين ام سلمة زوجة الرسول صلى الله عليه وآله والإمام الحسين عليه السلام أن الإمام عليه السلام أراها كربلاء ومحل شهادته «٣».

١٠- وقد نقلت حكايات متعددة عن العلماء العظام والمتقين والمؤمنين الصادقين في مجال المكاشفات وذكرها هنا يطيل بحثنا- إلا أنه ينبغي القول بانها خرجت عن فحوى الخبر الواحد ووصلت إلى درجة الاستفاضة ويمكنها أن تكون مؤيداً جيداً لموضوعنا.

٢- كيف تُرفع الحجب؟

إضافة إلى الأحاديث السابقة التي تمثل نماذج عملية لمسألة الكشف والشهود، هناك تعابير في الروايات تدل على أن الإنسان كلما ازداد إيمانه ويقينه زالت عنه الحُجُب والصفات الذميمة (التي اصطنعها الإنسان نفسه بذنوبه) عن قلبه وتكشفت له حقائق أكثر عن الكون إلى درجة تمكنه من النظر إلى ملكوت السموات والأرض كما نظر إبراهيم الخليل.

إن قلب الإنسان وروحه كالمرآة التي حال غبار المعصية والصدأ الذي تراكم عليها من انعكاس الحقائق، لكنها عندما تُجلى بماء التوبة، ويزول غبار المعاصي عنها، ويظهر القلب جيداً، فإن الحقائق ستسطع فيها ويكون صاحبها أمين أسرار الله، فيسمع نداءاته التي لا

(١). بحار الأنوار، ج ٩٨، ص ١١٤، كتاب المزار، ح ٣٦.

(٢). أمالي الصدوق، ص ٩٣، مجلس ٣٠.

(٣). مدينة المعاجز، ص ٢٢٤.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢١٠

يسمعها إلا من أوّتمن.

ويمكن أن نجعل الأحاديث التالية شواهداً على ما قلناه!

١- يقول الرسول صلى الله عليه وآله في ضمن حديث له: «لولا أن الشياطين يحومون إلى قلوب بني آدم لنظروا إلى الملكوت» «١».

٢- وقد جاء في خبر آخر عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أيضاً: «ليس العلم بكثرة التعلّم، وإنما العلم نور يقذفه الله في قلب من يحب، فيفتح له، ويشاهد الغيب، وينشرح صدره فيتحمّل البلاء، قيل: يا رسول الله هل لذلك من علامة؟ قال: التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله» «٢».

٣- وقد وصف نهج البلاغة حَيَجِجَ اللهُ على الناس في الأرض هكذا: «هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة وباشروا روح اليقين، واستدانوا ما استعوره المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها مُعلّقة بالمحل الأعلى أولئك خلفاء الله في أرضه والدعاة إلى دينه» «٣».

٤- وقد جاء في حديث «ذعلب اليماني» الخطيب النبه الذي كان من صحابة الإمام علي عليه السلام: سأل الإمام يوماً هذا السؤال: «هل

رأيت ربك يا أمير المؤمنين؟»

أجاب الإمام: «أفأعبد ما لا أرى؟!»

فقال: «وكيف تراه؟»

فقال الإمام: «لا تدركه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان» ثم أضاف: «قريب من الأشياء غير ملابس، بعيد منها غير مباين» (٤).

ليس مراد الإمام من إدراك الله إدراك بالاستدلال العقلي، وهذا واضح، لأن هذا الأمر حاصل لجميع الموحدين وحتى لتلك العجوز صاحبة الغزل المعروفة، فأنها تستدل على

(١). بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ٥٩، ح ٣٩، باب القلب وصلاحه.

(٢). تفسير الصراط المستقيم، ج ١، ص ٢٦٧.

(٣). نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ١٤٧.

(٤). نهج البلاغة، الخطبة ١٧٩.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢١١

وجود الله بحركة آله الغزل التي تحتاج إلى محرك، فكيف بالفلك العظيم والسموات والأرضين.

فالمراد- إذن- إدراك لله يفوق الإدراك الطبيعي، أي الشهود الباطني، فأنه يرى الله به واضحاً بدرجة وكأنه يراه بعينه. (فدقق).

٥- وقد جاء في حديث معروف للإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً» (١).

أي أتى أرى جميع الحقائق من وراء ستار الغيب، أراها بالشهود الباطني، وبصيرتي تشق حاجز الغيب وتنفذ فيه.

٦- قال الإمام علي بن الحسين عليه السلام: «ألا إن للعبد أربع أعين: عينان يُبصر بهما دينه وديناه، وعينان يُبصر بهما أمر آخرته، فإذا

أراد الله بعبد خيراً فتح له العينين اللتين في قلبه، فأبصر بهما الغيب وأمر آخرته» (٢).

وقد جاءت روايات عن الشيعة الصادقين يشبه مضمونها مضمون هذا الحديث (٣).

٧- ونقرأ في حديث الإمام الصادق عليه السلام: «إن الرسول صلى الله عليه وآله رأى يوماً الصحابي «حارثة» فسأله عن حاله».

فاجابه حارثة: «يا رسول الله مؤمن حقاً!»

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لكل شيء حقيقة فما حقيقة قولك؟».

فاجابه حارثة: «يا رسول الله عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي وأظمأت هواجري وكأني انظر إلى عرش ربي وقد وضع للحساب

وكأني انظر إلى أهل الجنة يتزاورون في الجنة وكأني اسمع عواء أهل النار في النار».

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «عبد نور الله قلبه أبصرت فثبت».

(١). غرر الحكم.

(٢). خصال الصدوق، ص ٢٦٥، ح ٩٠.

(٣). بحار الأنوار، ج ٦٧، ص ٥٨، ح ٣٥.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢١٢

فقال حارثة: «يا رسول الله ادع الله لي أن يرزقني الشهادة معك».

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «اللهم ارزق حارثة الشهادة».

ولم تمض أيام كثيرة حتى أرسل الرسول فريقاً لاحدى المعارك وكان معهم حارثة فقاتل وقتل ثمانية أو تسعة من الأعداء ثم قتل

شهيداً (١).

٨- وقد جاء في حديث للرسول صلى الله عليه وآله نقل في كتب أهل السنة: «لولا تكثير في كلامكم وتمريج في قلوبكم لرأيتم ما

أرى ولسمعت ما أسمع» (٢).

إنّ هذه الأحاديث وأحاديث أخرى من هذا النوع، وضحت العلاقة بين الكشف الروحاني والإيمان واليقين، وبينت امكانية حصول الإنسان- بالتكامل المعنوي- على هذا الإدراك الذي لا نعلم عنه غير أنه موجود فحسب.

٣- سبعة منامات صادقة في القرآن المجيد

إشارة

تعتبر «الرؤيا الصادقة» إحدى فروع الشهود والكشف، والمنامات الصادقة هي التي تتحقق وتطابق الواقع، فتعد منامات كهذه نوعاً من الكشف.

إنّ الفلاسفة الروحيين- خلافاً للفلاسفة الماديين الذين يعتقدون بأنّ الرؤيا هي وليدة النشاطات اليومية أو الآمال غير المتحققة أو الخوف من الامور المختلفة- وهؤلاء يعتقدون أنّ الرؤيا تنقسم إلى الأقسام التالية:

١- الرؤيا التي تتعلق بالذكريات والميول والآمال.

٢- الرؤيا غير المفهومة والمضطربة ويعبر عنها بـ «أضغاث أحلام» وهي نتيجة قوة الوهم والخيال.

٣- الرؤيا التي تتعلق بالمستقبل وترفع الستار عن بعض أسرار الإنسان، وتعبير آخر أنّها شهود يحصل للإنسان وهو نائم.

(١). اصول الكافي، ج ٢، ص ٥٤ باب حقيقة الإيمان واليقين، ح ٣.

(٢). تفسير الميزان، ج ٢، ص ٢٩٢.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢١٣

لا دليل للفلاسفة الماديين على نفى القسم الثالث، بل لدينا قرائن كثيرة تثبت واقعية هذا القسم من الرؤيا، وقد ذكرنا عدّة نماذج حية لا تقبل الخطأ والمناقشة في التفسير الأمثل «١».

والجدير ذكره أنّ القرآن ذكر سبعة موارد على الأقل من موارد الرؤيا الصادقة، وذكرها هنا يناسب تفسيرنا الموضوعي:

١- تحدث القرآن في سورة الفتح عن الرؤيا الصادقة للرسول، حيث رأى نفسه مع أصحابه يدخلون مكة لأداء مناسك العمرة وزيارة بيت الله الحرام، فأفصح الرسول عن منامه هذا للمسلمين ففرحوا، إلّا أنهم تصوروا أنّ الرؤيا هذه تحققت في السنة السادسة عندما حصل صلح الحديبية، ولم يحصل الفتح يومذاك، إلّا أنّ الرسول طمأنهم بأنّ الرؤيا صادقة وستتحقق يوماً ما.

وقد أجاب القرآن أولئك الذين شككوا في صدق الرؤيا بقوله:

«لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِالرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤْسِهِمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا».

(الفتح/ ٢٧)

تحقق المنام بجزيئاته في ذى القعدة من السنة السابعة للهجرة، وقد عرفت العمرة في تلك السنة بـ «عمرة القضاء» لأنّ المسلمين كانوا قاصدين أداءها في السنة السادسة، لكن قریش منعتهم منها.

رغم أنّ المسلمين دخلوا مكة (التي تعتبر مركزاً لقدرة المشركين وسلطانهم) من دون سلاح، إلّا أنّ ابهتهم كانت مشهودة للأعداء، وقد صدق عليهم تعبير «آمنين» و «لا- تخافون» بالكامل فأدوا مراسم زيارة بيت الله وبه تحققت منام الرسول صلى الله عليه وآله بجميع خصوصياته رغم أنّ تخمين وقوع أمر كهذا كان شبه مستحيل، وهذا من عجائب تاريخ الإسلام.

٢- وقد أشير في سورة الاسراء إلى رؤيا اخرى للرسول صلى الله عليه وآله إشارة عابرة وقصيرة حيث قال تعالى:

(١). التفسير الأمثل، ذيل الآية ٦٠ من سورة الإسراء.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢١٤

«وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُحَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا». (الاسراء / ٦٠)

وقد نقل مفسرو الشيعة والسنة حديثاً معروفاً جاء فيه: أن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله رأى في المنام قروداً ترتقى منبره وتنزل منه، فحزن الرسول من جراء هذا الأمر، لأنه يحكى عن الحوادث المفاجئة في قيادة المسلمين بعد الرسول صلى الله عليه وآله (إن الكثير فسّر المنام بحكومة بنى امية، حيث خلفوا الرسول - ظملاً - واحداً بعد الآخر وأفسدوا في الخلافة، وكانوا فاقدى الشخصية واتبعوا ما كان عليه آباؤهم في الجاهلية) «١».

وادعى البعض أن هذه الرؤيا هي نفس رؤيا دخول مكة، بينما سورة الاسراء نزلت بمكة، والرؤيا كانت في المدينة وقبل واقعه صلح الحديبية في السنة السادسة الهجرية.

وقد رجح البعض مثل الفخر الرازي أن تكون الرؤيا بمعنى المشاهدة في حالة اليقظة، والآية تشير إلى مسألة المعراج «٢».

لكن هذا التفسير ضعيف لأن المعنى الأصلي واللغوي للرؤيا هو المشاهدة عند النوم لا في اليقظة، وعليه فالصحيح هو التفسير الأول. أما المراد من «الشجرة الملعونة»، فقد ادعى البعض: إنها هي «شجرة الزقوم» التي تنبت في قعر جهنم طبقاً للآية ٦٤ من سورة الصافات، وهي طعام الأثيم كالمهل يغلى في البطن طبقاً للآيات ٤٦ و ٤٧ من سورة الدخان.

وادعى بعض آخر: إنها كناية عن اليهود العصاة، فإنهم كالشجرة مع ما فيها من غصون وأوراق إلا أنهم ملعونون عند الله. إلا أنها فسرت في كثير من كتب الشيعة والسنة بنى امية، وقد نقل الفخر الرازي هذا

(١). تفسير الكبير، ج ٢٠، ص ٢٣٦.

(٢). جاءت هذه الرواية في تفسير القرطبي ومجمع البيان والصفى والكبير، وقد قال الفيض الكاشاني: إنها من الروايات المشهورة عند العامة والخاصة.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢١٥

التفسير عن ابن عباس المفسر الإسلامي الكبير «١»، وهذا التفسير يتفق مع رؤيا الرسول صلى الله عليه وآله بالكامل.

قد يقال: لم يشر القرآن إلى الشجرة الملعونة في القرآن المجيد؟ إلا أن هذا الإشكال يُحل بالالتفات إلى لعن المنافقين بشدة في سورة محمد صلى الله عليه وآله الآية ٢٣، وبنى امية من طلائع النفاق في الإسلام.

إضافه إلى هذا، فإن تعبير القرآن «نُحَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا» يصدق عليهم بالكامل.

وقد جاء في رواية أن عدداً من صحابة الإمام الصادق عليه السلام سألوه نفسه أو أباه عليه السلام عن المراد من الشجرة الملعونة في الآية، فأجابهم: «بنى امية» «٢».

وقد نقل نفس المضمون عن أمير المؤمنين عليه السلام وكذلك عن الإمام الباقر عليه السلام، وقد ذكر على بن ابراهيم الروايات الثلاث في تفسيره «٣».

وقد نقل السيوطي في تفسيره «الدر المنثور» روايات كثيرة عن الشجرة الملعونة، ورؤيا الرسول صلى الله عليه وآله، حيث فسرت الشجرة الملعونة في بعضها بنى امية وفي بعضها بنى الحكم وبنى العاص، وكلهم من شجرة خبيثة واحدة «٤».

وعلى أية حال، فإن رؤيا الرسول صلى الله عليه وآله تحققت بعد رحيله، وخلفته الشجرة الملعونة نسلاً بعد نسل، وكانوا بلاء عظيمًا

على المسلمين، وامتحناً كبيراً لهم.

٣- والرؤيا الصادقة الاخرى هي رؤيا إبراهيم الخليل عليه السلام فيما يخص ذبح اسماعيل عليه السلام، فإنه كان محللاً لامتحان عظيم للوصول إلى مقام الإمامة وقيادة الامّة الرفيع،

(١). نقلها القرطبي عن ابن عباس في تفسيره، ج ٦، ص ٣٩٠٢؛ ونقلها الفخر الرازي عنه أيضاً في التفسير الكبير، ج ٢٠، ص ٢٣٧.

(٢). تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ١٨٠، ح ٢٧٨.

(٣). تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ١٨٠ و ١٨١، ح ٢٨٢ و ٢٨٣ و ٢٨٤.

(٤). تفسير الميزان، ج ١٣، ص ١٧٥.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢١٦

فقد أمر بذبح ابنه العزيز «اسماعيل»، رغم أنّ الأمر أوحى إليه وهو نائم، أي أنّ الایعاز كان مناماً لا شيئاً آخر، ولنقرأ ما يقوله القرآن في هذا المجال:

«فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمُرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ . (الصافات/ ١٠٢)

إنّ التعبير «أرى الذي هو فعل مضارع يفيد الاستمرار يدل على أنّ إبراهيم عليه السلام كان يرى الرؤيا كراراً، بحيث حصل له اطمئنان بأنّ الأمر من الله، ولهذا أجابه اسماعيل بهذا الجواب: «يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمُرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ . ولهذا السبب نفسه جاء في الآيتين: «وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا».

(الصافات/ ١٠٤-١٠٥)

والحادث هذا، دليل واضح لأولئك الذين يقولون بإمكانية عد الرؤيا الصادقة نوعاً من أنواع الوحي للانبيا والرسل، كما أنّه قد جاء في بعض الروايات: «إنّ الرؤيا الصادقة جزء من سبعين جزءاً من النبوة» (١).

وقد شكك بعض الاصوليين في مسألة نسخ الحكم قبل العمل به إلّا أنّ كلامهم - وكما ذكر في محله - يختص بالأوامر غير الامتحانية، أمّا في الامتحانية فهو غير صادق، والتعبير ب «قد صدقت الرؤيا» دليل على أنّ إبراهيم عليه السلام قد أدى ما عليه بما جاء به من تهيئة المقدمات لهذا الإيثار الكبير.

٤- ومن الرؤى الصادقة في القرآن، هي رؤيا يوسف في بيت أبيه، حيث أشارت إليها الآيات الاولى من سورة يوسف:

«إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ . (يوسف / ٤)

تنبأ يعقوب مستقبل يوسف والحوادث المقبلة عليه فبشره: «يَجْتِيكَ رُبُّكَ ... وَتُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ . (يوسف / ٦)

يعتقد بعض المفسرين أنّ يوسف رأى هذا في المنام وهو في الثانية عشرة من عمره، وقد

(١). بحار الأنوار، ج ٥٨، ص ١٦٧ و ١٧٧ و ١٧٨.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢١٧

تحقق منامه بعد أربعين سنة حيث جلس على عرش الحكومة في مصر، وجاءه اخوته مع أبويه خاضعين له، أو ساجدين لله شكراً، كما أشير إلى ذلك في نهاية السورة:

«وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا». (يوسف / ١٠٠)

إنّ هذا الحديث يحكي بوضوح عن إمكانية تحقق أحلام صادقة انعكست من قلب طاهر قبل أربعين سنة رغم أنّه لم يُذكر العدد ٤٠

سنه في آيات القرآن، إلا أن الاستفادة من قرائن الآيات أن الفاصل بين المنام وتحققه كان طويلاً جداً.

وجدير بالذكر هنا أن من ضمن البشائر التي بشر يعقوب بها يوسف هذه البشري

«وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ . (يوسف / ٦)

وهذه الجملة (سواء عنت علم تعبير المنام كما يعتقد كثير من المفسرين أو عنت مفهوماً أوسع من ذلك ليشمل الخبرة والإحاطة باصول وأسباب الحوادث ونتائجها) «١»، فإنها على كل حال دليل واضح على امكانية صدق بعض الرؤى وتحققها عيناً وواقعاً في الخارج.

٥ و ٦- المنامان اللذان رآهما صاحباً يوسف في السجن عندما كان مسجوناً بذنب طهارته، فيحكي الله قصتهما في نفس السورة ويقول:

«وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَأْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ . (يوسف / ٣٦)

فدعاهما يوسف للتوحيد وعبادة الله قبل أن يؤول ما رآيا، ثم قال للذي رأى أنه يعصر خمراً أي عنياً: إنك تخرج من السجن، وقال للذي رأى فوق رأسه خبزاً يأكل منه الطير:

إنك ستحكم بالإعدام وقد تحقق المنامان (من المتعارف في بيئته فاسده وحكومته جباره مثل بيئته وحكومته مصر آنذاك حيث يحكم على يوسف بالسجن بذنب العفة والطهارة، أن يطلق سراح الذي يسالم الحكومة ويحضر الخمر لطغاتها، أما الذين يتحلون بروح الدفاع

(١). تفسير الميزان، ج ١١، ص ٨٦.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢١٨

عن المستضعفين ويعطون خبزاً للطيور فيحكم عليهم بالاعدام).

وعلى أية حال، فإن هاتين الرؤيتين اللتين حكاهما القرآن بصراحة يكشفان عن امكان اعتبار الرؤيا كمصدر للمعرفة، بالطبع لا كل رؤيا ولا كل معبر ومفسر لها.

٧- رؤيا سلطان مصر التي جاءت في نفس السورة، وهي نموذج واضح آخر للرؤيا الصادقة، يحكي القرآن هذه الرؤيا قائلاً:

«وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُتَبَلَاتٍ خُضِرٍ وَأَخْرَ يَابَسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنَّ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ . (يوسف / ٤٣)

وبما أن حاشية الملك لم يكونوا خبراء بتعبير الرؤيا، قالوا له: «أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين».

يحتمل أنهم أرادوا طمأننة سلطان مصر بحدِيثهم هذا (ينبغي الالتفات إلى أن ملك مصر وفرعونها هو الحاكم العام لمصر، بينما عزيز مصر هو - كما يقول بعض المفسرين - وزير الخزينه، واسم فرعون المعاصر ليوسف هو «ريان بن وليد» واسم عزيز مصر «قطفير عطفير» «١».

فتذكر عندها ساقى الملك الذي اطلق سراحه من السجن بعد أن رأى الرؤيا وأولها يوسف، فحكي القصة للملك فبعث الملك شخصاً إلى يوسف كي يؤول المنام، فأوله هكذا:

«قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُتُبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ .

(يوسف / ٤٧ - ٤٨)

وقد تحقق المنام بعد ذلك، وعندما شاهدوا الصدق والمعرفة في يوسف عليه السلام، أطلقوا سراحه، وقد أدى به الأمر أن أصبح عزيز مصر ووزير الخزينة، ثم من بعده أصبح ملك مصر كلها مع سعتها وعمرانها.

(١). نقل هذا المضمون في التفسير الكبير للفخر الرازي، ج ١٨، ص ١٠٨ (وللتفصيل يراجع «اعلام القرآن»، ص ٦٧٣، كما قد صرح «ابو الفتوح الرازي» أن نهاية يوسف وصوله إلى سلطنة مصر» تفسير روح الجنان، ج ٦، ص ٤٠١.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢١٩

النتيجة:

يستفاد من الآيات السابقة إمكانية كون بعض الرؤى مصدراً لإدراك بعض الحقائق، وبتعبير آخر، فإن مسألة الكشف والشهود يمكنها أن تحصل في المنام كما تحصل في اليقظة، وهذه الرؤى على ثلاثة أقسام (طبقاً للآيات السابقة):

١- بعض الرؤى تتحقق في الخارج عيناً من دون أي تغيير، مثل رؤيا الرسول، زيارته مع الصحابة لبيت الله الحرام التي جاءت في سورة الفتح.

٢- منامات تتحقق وهي بحاجة إلى تفسير وتعبير، وتتحقق بتفسيرها لا بعينها، ولا يفسرها إلا الخبير بها، مثل المنامات الأربعة التي حصلت ليوسف ولصاحبيه في السجن ولملك مصر، وقد ذكرت كلها في سورة يوسف.

٣- الرؤيا التي فيها جانب حكم وإيعاز، وتُعدُّ نوعاً من الوحي يحصل عند النوم مثل رؤيا إبراهيم عليه السلام.

بالطبع ليس مفهوم الكلام هذا أن كل منام يُعدُّ كشفاً أو شهوداً، بل إن كثيراً من المنامات تُعدُّ أضغاث أحلام، وتفتقد لأي معنى، وهي رؤى ناتجة عن نشاط قوة الوهم، أو عن الحرمان والكبت والمآسى وعدم الراحة والأذى

ج ج

سؤال:

قد يسأل البعض عن المنامات التي تتعلق بحوادث المستقبل، فهل هي نوع من العلم؟

أم هي (كما يعتقد فرويد العالم النفساني المعروف) لا شيء سوى إرضاء للشهوات والميول المكبوتة والحرمان الحاصل للإنسان، فتتجلى له في المنام مع تغيير وتبدل لخداع «الأنا» ولإرضاء الشهوة المكبوتة فإن الحلم إشباع خيالي لها، وقد ينعكس هذا الميل بنفسه عيناً في الحلم (مثل رؤيه عاشق لمعشوقته الفقيده عيناً) وقد ينعكس في منامه مع تغيير وتبدل، فيحتاج حينها إلى تعبير وتفسير.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٢٠

الجواب:

إن ما يقوله فرويد هو فرضية لا أكثر، وفي الحقيقة لا دليل على ما يدعيه أبداً، فقد تكون بعض المنامات مصداقاً لما يدعيه، أما كون الأحلام كلها من هذا القبيل فهذا ما لا دليل له عليه «١».

نحن نعتقد أن للمنامات أقساماً، وقسم منها هو الرؤيا الصادقة، ونعدها وسيلة للكشف أي كشف بعض الحقائق، وهذه حقيقة استفدناها من القرآن (الذي هو وحي الهى) بالدرجة الأولى وبالدرجة الثانية من التجارب التي حصلت في هذا المجال، ليس المراد تلك الحكايات التي لا سند لها، بل المراد الحوادث التي وقعت لشخصيات كبيرة ومعروفة في عصرنا أو في العصور الماضية، وقد نقلوا هذه المنامات في كتبهم (وقد أشرنا إلى بعض من نماذجها الواضحة في الجزء التاسع من التفسير الأمثل).

ومن هنا يعرف أنه لا يمكن عدّ الرؤيا لوحدها مصدراً للمعرفة، ولهذا يقال بعدم حجية الرؤيا، بل ينبغي ضم قرائن من الخارج موضحة

ولا تقبل النفي، لتصبح الرؤيا مصدرًا مقبولًا للمعرفة.

٤- المكاشفات الرحمانية والمكاشفات الشيطانية

قد نستغنى عن التذكير بأنه كما يوجد كشف وشهود واقعي يحصل تارة بالإيمان واليقين الكامل، وتارة أخرى بالرياضات النفسية، فإنه يوجد كشف وشهود وهمي كثير، فقد يحصل هذا الكشف بسبب التلقينات المكررة وانحراف الذهن والفكر عن جادة الصواب، وتارة بسبب الالتقاءات الشيطانية، فتتمثل في ذهن الإنسان صور وحوادث لا واقع لها، إنها

(١). لم يكتشف العلماء منشأ النوم (لا المنام) بعد، فلا يعلمون هل أن منشأه نشاط فيزيائي أم كيميائي أم كلاهما، أم ناشىء عن نشاط الجهاز العصبي، فإذا كان النوم نفسه لغزاً لم يُحل بعد، فكيف يمكن القول بحل مسألة المنام التي هي أعقد من مسألة النوم أضعافاً مضاعفة!

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٢١

مجموعة أو هام لا أكثر، ومن هذا القبيل الكشف والشهود الذي يدعيه كثير من «الصوفية»، فإن المريد البسيط يعتقد في بداية عمله (من جراء الإعلام والدعاية التي يتلقاها من البعض) أنه ينبغي له أن يرى مرشده الحقيقي في المنام، وتقوى هذه الفكرة عنده كل يوم، فيتوقع في كل يوم رؤية جمال مرشده ومراده في عالم الرؤيا يزوره ويرشده (غالباً ما يضع أشخاصاً معينين نصب عينيه لهذا المنصب، وإذا لم يعينهم بالدقة فإنه يعين صفات ومميزات خاصة لهم).

قد يفقد هذا الصوفي توازن فكره الطبيعي من جراء الرياضات الروحية الشاقة وانحراف المزاج، فتزداد قدرة الوهم عنده، فيرى في المنام يوماً أشخاصاً قريبين - من حيث الصفات والميزات - من الأشخاص الذين رسمهم في ذهنه، وقد يتطابقون في الصفات بالكامل، وقد يحصل هذا في عالم اليقظة، لأن عيني هذا السالك البسيط أنشدت إلى الطريق، واذنيه صاغيتان إليه دائماً فهو ينتظر دائماً أن يفتح له باب من ذلك العالم: تنمو هذه الفكرة عنده ليلاً ونهاراً، وقد تصنع قوة الوهم عنده - لا إرادياً - صوتاً ينقر أذنه، أو تتمثل أمامه صورة، فيتخذها أساس اعتقاده.

كما أن الاستماع إلى المواضيع المؤنسة والمنشطة (التي قد تبين في اطار إشارات جميلة وتترامن مع ألحان مخدرة، يزيد من تأثير التلقينات عليه أضعافاً مضاعفة.

إن تلك الفرقة من الصوفيين الذين يؤيدون «الوجد والسماع» (١)، يذوبون فيهما بشكل حيث يفقدون توازنهم، ويُعطل العقل عندهم، فيتركون الساحة فارغة لقوة الوهم، وأولئك الغارقون في وهم الكشف والشهود ومشاهدة عالم الغيب يسرون في عوالم خيالية تتوقف سعتها على شدة الوهم والخيال عندهم، فتتمثل أمامهم صور مثل بحار النور، وجبل الطور، والسماوات السبع والأرضين السبع، وكلما مالت قوة الوهم عندهم إلى شكل أو صورة، تمثل ذلك الشكل أو تلك الصورة أمام أعينهم.

(١). المراد من السماع، الألحان الموسيقية أو نغمات المطربين الدارجة في بعض مجالس الصوفيين، والمراد من الوجد، الذوق والشوق واللهفة التي تحصل للصوفيين الذين يحسنون السماع ويقترن مع حركات تشبه الرقص.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٢٢

إنهم يفرحون لهذه اللحظات كثيراً، وكأنهم التقوا بالمراد وعانقوه، فيصرحون وتعلو أصواتهم، مما يزيد ويفاقم هذه الحالة عندهم، ثم يرمون بحالة شبيهة بالاغماء، وبعدها يصحون ويهدءون من هذه الحالة، يحكون للناس ما رأوا ظناً منهم أنه كشف.

إنهم في الحقيقة يسعون نحو السراب ظناً منهم أنه ماء، ورغم عدم وصولهم إلى شيء، يتلون بأمر بعيدة عن الحق والحقيقة. وبعبارة مختصرة: لا يمكننا تصديق كل من ادعى الكشف والشهود، وكذا لا يمكننا اعتبار كل تمثل وكل نداء إلهياً واقعياً، وذلك لأن هناك كشفاً شيطانياً.

وقد جاء في حديث للإمام علي عليه السلام مع الحسن البصري: أن الإمام عليه السلام مر بالحسن البصري وهو يتوضأ فقال: يا حسن اسبغ الوضوء، فقال: يا أمير المؤمنين لقد قتلت بالأمس اناساً يشهدون أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، يصلون الخمس، ويسبغون الوضوء، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: قد كان ما رأيت فما منعك أن تعين علينا عدونا، فقال: والله لأصدقنك يا أمير المؤمنين لقد خرجت في أول يوم فاغتسلت وتحنطت وصببت عليّ سلاحى وأنا لا أشك في أن التخلف عن أم المؤمنين عائشه هو الكفر، فلما انتهيت إلى موضع من الخريبة ناداني مناد «يا حسن إلى اين ارجع فإن القاتل والمقتول في النار» فرجعت ذعراً وجلست في بيتي، فلما كان في اليوم الثاني لم أشك أن التخلف عن ام المؤمنين عائشه هو الكفر، فتحنطت، وصببت عليّ سلاحى وخرجت اريد القتال، حتى انتهيت إلى موضع من الخريبة فناداني مناد من خلفي: «يا حسن إلى اين مرة بعد اخرى القاتل والمقتول في النار» قال علي عليه السلام: صدقك افتدري من ذلك المنادى؟ قال: لا، قال عليه السلام: ذاك أخوك ابليس، وصدقك أن القاتل والمقتول منهم في النار، فقال الحسن البصري: الآن عرفت يا أمير المؤمنين أن القوم هلكى (١).

إن نداءات كهذه أشير إليها في القرآن بصفه وحى الشياطين، حيث يقول تعالى في الآية: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحى بَعْضُهُمْ ألى بَعْضٍ زُخْرُفَ

(١). احتجاج الطبرسى، ج ١، ص ٢٥٠.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٢٣

نفحات القرآن ج ١ ص ٢٦٩

الْقَوْلِ غُرُورًا». (الانعام / ١١٢)

إنها نوع من الامتحان للتمييز بين صفوف المؤمنين وغيرهم، فقد جاء في الآية: «وَأَنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ ألى أَوْلِيَائِهِمْ . (الانعام / ١٢١) وبناءً على ما تقدم، نرى كتب الصوفية مليئة بهذا النوع من المكاشفات، مكاشفات غريبة وموحشه، ومردوداتها السلبية كثيرة، نشير إلى بعض منها هنا بشكل مختصر:

١- ورد في كتاب «صفوة الصفاء» في شرح أحوال الشيخ صفى الدين الأردبيلي، بقلم أحد مرديه ما مضمونه: أن رجلاً من ذوى المكاشفات أخبر الشيخ بأنه رأى في عالم الرؤيا أن أكمام الشيخ امتدت من العرش إلى الثرى فقال له الشيخ: إن رؤياك هذه تتناسب مع طول أناةك وصبرك!

٢- كتب محى الدين بن عربى في كتابه «مسامرة الأبرار» إن الرجيين لأشخاص مرتاضون برياضات خاصة، ومن صفاتهم أنهم يرون الراضين (الشيعة) في حالة الكشف في صورة خنازير.

٣- وكتب الشيخ عطار في كتابه «تذكرة الأولياء» عن «با يزيد البسطامى»: «طُفْتُ البيت فترة، وعندما وصلت إلى الحق، رأيت أن الكعبة تطوف حولي! ... إن الله بلغ بي إلى درجة حيث أستطيع أن أرى الخلق جملة بين اصبعي!!» (١).

٤- وقد جاء في نفس الكتاب، أن با يزيد قال: عرض عليّ الحق الفى مقام عنده وفى كل مقام سلطان، وما قبلت (٢).

إن هذه ادعاءات لم تُسمع من نبي مرسل ولا من إمام معصوم، بل إن ادعيتهم ومناجاتهم فى جنب بيت الله التى تكون فى غاية التذلل والتواضع تكشف عن أن كشفاً كهذا إن لم يكن فهو - قطعاً - أوهام وتخيلات شيطانية ترسم فى أذهان البعض، لأسباب وعوامل

مختلفة،

(١). تذكرة الأولياء، ص ١٠٢.

(٢). المصدر السابق، ص ١٠١.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٢٤

أشرنا إلى بعضها سابقاً، وإن سعة هذه الأوهام تتوقف على مدى وطول آمال الشخص وتخيلاته.

سؤال:

ثمة سؤال يطرح نفسه هنا، وهو: هل من طريق لتمييز المكاشفات «الرحمانية» من «الشيطنية» و «الحقيقية» من «الوهمية» أم لا؟

الجواب:

نعم توجد ثلاث علامات يمكن من خلالها التمييز - الإجمالي - للمكاشفات الشيطانية من الرحمانية، وهي: إن الرحمانية اضافة إلى كونها يقينية وقطعية تقترب بمستوى عالٍ من الإيمان واليقين والمعرفة والاخلاص والتوحيد والعمل الصالح، بينما تفتقد المكاشفات الشيطانية هذه المواصفات، وعلى هذا الأساس فلا اعتبار لقول من يدعى المكاشفات الرحمانية وهو يفتقد هذه المواصفات. ولقد قرأنا في رواية مضت أن الرسول صلى الله عليه وآله قال: «العلم نورٌ يقذفه الله في قلب من يحب، فيفتح له، ويشاهد الغيب، وينشرح صدره فيتحمّل البلاء، قيل: يا رسول الله وهل لذلك من علامة؟ قال: التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله» (١).

ثم إن المكاشفات الحقيقية تتفق دائماً مع الكتاب والسنة، وفي نفس الاتجاه الذي يتجه إليه كلام الله والمعصومين عليهم السلام، ولا تميل قيد أنمله عن جادة الاطاعة الربانية، وغير ملوثة بأدنى إثم أو ذنب.

(١). تفسير الصراط المستقيم، ج ١، ص ٢٦٧.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٢٥

وثالثاً، إن محتوى المكاشفات الحقيقية يتفق دائماً مع العقل اتفاقاً كاملاً، وتكون بعيدة عن الامنيات والأوهام غير المعقولة، فالذي يقول: «إنى رأيت الراضية - مكاشفة - كالخنازير»، في الحقيقة رأى نفسه في مرآة ذاته، والذي يقول: «عندما وصلت إلى الحق، فرأيت بيت الله يطوف حولي» فإنه مُصاب بوقع في رأسه، وشخصاً كهذا يرى نفسه مستغنياً عن الطواف، ويرى الطواف أدنى من شأنه، بينما الرسول صلى الله عليه وآله بعظمته لم ير نفسه مستغنياً عن ذلك، وقد حج حتى في آخر سنه من عمره الشريف وأدى المناسك.

وآخر الحديث في الكشف والشهود هو هذا:

لا يمكن عدّ الكشف والشهود كمصدرٍ عامٍ للمعرفة مثل «العقل» و «الحس» و «التاريخ» بل إنه مصدر خاص، وله شروط ومواصفات صعبة.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٢٧

حُجُب المعرفة وآفاتها

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٢٩

حُجُب المعرفة وآفاتها

تمهيد:

في بحثنا حول طرق العلم والمعرفة تمكنا من اجتياز قسم من محطات هذه الطرق وقد سلمنا بوجود واقعيات خارج إطار الذهن، وقلنا بان امكانية إدراك تلك الواقعيات لدى الإنسان هو شيء معقول إلى حد ما، وقد عرفنا بدقه مصادر المعرفة الستة. كما علمنا أن خمسة من مصادر المعرفة أي «الحس» و «العقل» و «الفطرة» و «التاريخ» و «الوحي» عامه ويستطيع الجميع الاستعانة بها للوصول إلى المعرفة المرادة، إلا أن المصدر السادس وهو الشهود الباطني مصدر خاص بفريق من المؤمنين وأولياء الله، ولا يتمتع بها الجميع.

بقي محطتان ينبغي العبور منهما للوصول إلى المراد، الاولى «موانع طرق المعرفة»، والاخرى «ممهّدات المعرفة»، والبحث هنا ينصب على الموانع.

فمما لا شك فيه: أن العين لوحدها لا تكفي لرؤية الموجودات والأشخاص، بل ينبغي أن لا يكون هناك حجاب أو مانع يحول دون الرؤية، فلو كان هناك دخان أسود أو غبار أو ضباب غليظ يحول بيننا وبين الشيء المراد رؤيته فأننا لا نرى الشيء الذي أمامنا وحوالينا مهما كان قربه منا، فضلاً عن البعيد، فالشمس التي تنير كل ارجاء العالم بنورها الساطع تُحجب رؤيتها عنا إذا حالت الغيوم بينها وبيننا. فإذا استفاد شخص من نظارة سوداء قاتمة السواد، فطبعي أنه لا يرى شيئاً، وإذا استفاد من نظارة ملونة فأنه سيرى الأشياء ملونة (حسب لون نظارته)، وإذا كانت عدستا نظارته

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٣٠

غير مصقولتين جيداً فأنه سيرى الأشياء معوجة، وإذا كان مبتلياً بمرض اليرقان فأنه سيرى الأشياء صفراء، وإذا كان أحولاً فانه سيرى صوراً لا تتطابق مع الواقع.

وأمثال هذه الموانع بالضبط قد تحصل للعقل والفطرة، وقد تحصل موانع في فهم التاريخ وحتى الوحي وكلمات المعصومين عليهم السلام، فقد يُساء فهمه لنفس الموانع والحجب التي تحصل للإنسان في مصادر المعرفة الاخرى، ومن هنا نفهم أهمية بحث موانع المعرفة ونذكر أهمية العلم بها للوصول إلى المعرفة.

وبما أن القرآن منطلق بحثنا في التفسير الموضوعي، فنسعى لمعرفة الموانع والحجب التي ذكرت فيه بالدرجة الاولى لقد ورد البحث في القرآن حول موانع المعرفة بنحوين: الأول بحوث كليّة و «منذرة» والثاني: بحوث جزئية و «تعليمية»، ولنتناول الآن البحوث الكليّة.

حُجْب المعرفة:

نُمن خاشعين أولاً إلى الآيات التالية:

- ١- «أَمَّنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا». (فاطر / ٨)
- ٢- «وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . (الأنعام / ٤٣)
- ٣- «فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ». (آل عمران / ٧)
- ٤- «كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . (المطففين / ١٤)
- ٥- «لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ . (الحج / ٥٣)
- ٦- «وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا». (الاسراء / ٤٦)
- ٧- «وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ . (البقرة / ٨٨)
- ٨- «وَنُطْبِعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَشْمَعُونَ . (الأعراف / ١٠٠)

٩- «وُطِّعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ . (التوبة/ ٨٧)

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٣١

١٠- «خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً». (البقرة/ ٧)

١١- «أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً». (الجاثية/ ٢٣)

١٢- «أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا». (محمد/ ٢٤)

١٣- «فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ». (الحج/ ٤٤)

١٤- «لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ .

(الأعراف/ ١٧٩)

شرح المفردات:

قبل كل شيء ينبغي الخوض في البحث عن المفردات المختلفة والظرفية التي استعملت في الآيات السابقة التي أشارت إلى حجب المعرفة وحرمان الإنسان منها، كلُّ منها تشير إلى مرحلة من مراحل انحراف ذهن الإنسان وحرمانه من المعرفة، فتبدأ بالمرحلة الأضعف، وتنتهي بمرحلة أشد وأقوى من الحرمان بحيث تسلب الإنسان قدرته على التمييز، بل تصوّر له الحقائق بالعكس فيرى الشيطان- من جرائها- ملكاً بريئاً، والقبح حسناً، والباطل حقاً!

ح ج

إن «زيغ» تعني- كما يقول كثير من أئمة اللغة- الانحراف، أو الانحراف عن الحق والصواب، ولهذا جاء في القرآن: «رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا». (آل عمران/ ٨)

و «رَانَ» من مادة «رَيْن» (على وزن عَيْن) وهو الصدأ الذي يصيب بعض الفلزات. هذا ما قاله الراغب في مفرداته، وقد قال بعض أهل اللغة: «إنه قشر أحمر يترسب من الهواء ويظهر على سطح بعض الفلزات مثل الجديد»، وهذا الصدأ علامة للإستهلاك والتلف وزوال

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٣٢

شفافية ولمعان الفلز.

وقد فسّر البعض هذه المفردة ب «غلبة أمر على أمر آخر» أو «الوقوع فيما لا مخرج منه».

وقد قيل للشراب المسكر «رَيْنُهُ» لأنه يتغلب على العقل «١».

«الْوَقْرُ»: على وزن (عَقْل) هو الثقل في السمع بدرجته يصعب السمع بها.

أما «الْوَقْر» على وزن (فِكْر) فهو الثقل الذي يوضع على ظهر الإنسان أو رأسه، كما يقال «وَقِر» للحمل الثقيل، ولهذا قيل لصاحب العقل «ذِي وَقَار».

«الغشاوة»: تطلق على كل شيء غطى شيئاً آخر، ومن هذا الباب قيل للستارة غشاوة، وقد اطلق، لفظ «غاشية» على يوم القيامة من حيث إنّ الخوف الناشئ منها يغطي جميع الناس ويخيم عليهم، وقد اطلقت هذه المفردة على الليل الأظلم كذلك لأنه كالستار يغطي الأرض، كما اطلقت على «الخيمة» كذلك.

«أَكْنَهُ»: جمع كِنَان، وفي الأصل تعني غطاء يُسْتَر به شيء، و «الِكِن» على وزن (جِن) يعني الوعاء الذي تحفظ به الأشياء، وقد أطلقت هذه المفردة على البيت أو على أي شيء يحفظ الإنسان من الحرارة والبرودة، وجعل الأكنة على القلوب يعني: سلب قدرتها في التمييز.

«الْغُلْف»: على وزن (قفل) جمع «أغْلَف» ومن مادة «غِلاف» وتعني غلاف السيف أو غلاف أي شيء آخر، و «قلوب غلف» تعني قلوباً

لا تفهم ولا تعي الحقيقة، وكأنها مُغلّفة. «قَسَتْ» من مادة «قَسْوَة» على وزن (مزوءة)، والقساوة تعني الصلابة والغلظة وفقدان المرونة، ويقال للفضة غير الخالصة «قسي»، والقلوب القاسية هي غير اللينة والغلظة تجاه الحق والعدالة. و «طَبَعَ»: من مادة «طَبَعَ» ويعني الختم أو النقش، ومن هذا الباب تستعمل المفردة هذه في مجال المسكوكات الذهبية والفضية، ويقال للخاتم الذي تُختم به الكتب والرسائل

(١). تفسير الفخر الكبير ذيل الآية ١٤ من سورة المطففين والمنجد مادة (رين).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٣٣

طابع، وعندما تستعمل هذه المفردة في مجال العقل فتعني أنه مُغَطَّى ومختوم عليه فلا يفهم ولا يعي شيئاً، وكأن أبوابه مغلقة ومختوم عليها، أما مفردة «طَبَعَ» فتعني الصدأ الذي يعلو السيف كما تطلق على المعاصي والذنوب التي تلو القلب وتغطيه. و «الْحَتْم»: يعني الانتهاء والفراغ من الشيء، وبما أن الرسائل تختم عند الفراغ منها، قيل لوسيلة الختم خاتم، وفي الماضي كان كثير من الناس ينقشون أسماءهم على فصوص ما يتختمون به، فيختمون بها الرسائل، ولهذا اطلق على خاتم اليد خاتماً. وكان وما زال العرف (إذا أرادوا أن يغلقوا بيتاً أو صندوقاً بحيث لا يفتحه أحد) يغلقون الباب أولاً بحبل أو قفل، ثم يصبون مادة لصقة أو طين لزوج على القفل أو الحبل ثم يختمون على تلك المادة، بحيث إذا أراد شخص فتح الباب أو الصندوق اضطرَّ لأن يكسر الختم. إن استعمال القرآن لهذه المفردة في مجال العقول، إشارة إلى أنها عقول مغلقة ومختوم عليها ولا تعي شيئاً بدرجة لا يمكن أن تحصل على بصيص للوصول إلى طريق العلم والمعرفة.

جمع الآيات وتفسيرها

النفوذ التدريجي لآفات المعرفة:

(الانحرافات والرين والأمراض والأكنة والأفقال):

كما قلنا سابقاً: إن أهمية بحث «موانع المعرفة» تستدعي عرض الموضوع في مرحلتين:

المرحلة الاولى ونبعث فيها- إجمالاً- عن وجود الموانع والحجب وكيفية تأثيرها على العقل، وكيفية تلوث مصادر المعرفة بها تدريجياً، إلى درجة تنتهي إلى تعطيلها.

المرحلة الثانية: ونبعث فيها عن جزئيات وخصائص كل من هذه الموانع والآفات، وللقرآن بحث واسع تربوي وجذاب في هذا المجال.

ولنبداً أولاً من المرحلة الاولى فمما تجدر الإشارة إليه، هو أن القرآن تحدث عن موانع

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٣٤

المعرفة والآفات ونفوذها التدريجي والغامض، بشكل عَرَفَ سالكي طريق العلم، والمعرفة بها تعريفاً كاملاً، وأنذرهم كراراً بأن لا يفنوا عمرهم في السعي نحو السراب ظناً منهم أنه ماء، وبعد سنوات من السعي الحثيث من أجل الوصول إلى الحقيقة ينتهون إلى الباطل.

ح ج

والآن نبعث معاً الآيات المذكورة:

الحديث في الآية الاولى والثانية يدور حول تزيين الأعمال، فتارة يزيناها الشيطان للإنسان (كما جاء ذلك في الآية الثانية) وتارة تكون

ذهنيات الإنسان ونفسه أو عوامل اخرى هي التي تزين للإنسان سوء أعماله (كما جاء ذلك في الآية الاولى، حيث إن الفعل فيها مبنى للمجهول) فقالت: «أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسِينًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ» فَإِنَّ الْأَوَّلَ يَتَجَهَّ نَحْوَ الْهَٰوِيَّةِ وَالثَّانِي نَحْوَ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَإِذَا مَا صَدَرَ مِنْهُ عَمَلٌ سَيِّئٌ أَسْرَعَ إِلَى التَّوْبَةِ وَجَبْرَانِ مَا عَمِلَ.

وتضيف الآية الثانية: إن قلب الإنسان يقسو في المرحلة الاولى ثم يتأهل لتقبل وسوسة الشيطان فتتمثل الأعمال السيئة حسنة أمامه، ومن هنا نرى بعض الناس غير نادمين على أعمالهم السيئة، بل قد يفرحون ويتباهون بها، ويصرون على منطقيتها وصحتها.

وقد حصل هذا الأمر لأخوة يوسف، فعندما ألقوه في البئر وجاءوا بأبهم بقميصه ملطخاً بدم كاذب ادعوا أكل الذئب له، وأنهم صادقون في كلامهم.

فأجابهم أبوهم: «بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً». (يوسف / ١٨)

أى ظنتم أنكم أحسنتم عملاً بهذه الجريمة، وانكم ستحلون محل يوسف في قلبي، وأن يوسف انتهى أمره إلى الأبد، غافلين عن أنكم توطئون بعملكم هذا مقدمات عزه وسلطانه، وأن مكانه سيبقى فارغاً في قلبي حتى أرى الفقيد مرة أخرى ومما يستحق الإشارة إليه هو أن القرآن ينسب تزيين الأعمال تارة للشيطان وتارة

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٣٥

لنفس الإنسان، وتارة يأتي التزيين في صيغة فعل مبنى للمجهول وتارة ينسبه إلى الله تعالى كما جاء ذلك في الآية: «إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ». (النمل / ٤)

هذه ترجع إلى أن مقدمات هذا الأمر تبدأ من نفس الإنسان، فيتمسك بها الشيطان ويفعل فعلته، وبما أن الله مسبب الأسباب وخالق العلل والمعلولات فتنسب إليه نتيجة الأعمال، وتقضى حكمته بأن يتلى البعض بمصير كهذا وما أسوأ حال الذي تتمثل السيئات أمامه حسنات!

ج ج

وقد تحدثت الآية الثالثة عن المراحل الاولى لانحراف القلب، وبعد تقسيمها للآيات إلى محكمات (وهي ذات المفاهيم الواضحة) ومتشابهات (وهي ذات المعاني المعقدة) قالت: «فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا»، فالراسخون في العلم يفسرون المتشابهات بالمحكمات، واما الذين في قلوبهم زيغ فيأخذون بالمتشابهات ويفسرونها برأيهم ابتغاء الفتنة.

إنهم يتمسكون بما تشابه من القرآن لتبرير نواياهم غير الخالصة، ولهذا نرى كثيراً من المنافقين وأصحاب البدع وأتباع المذاهب المنحرفة يستغلون صفاء قلوب المخلصين والمؤمنين بآيات الله بالكامل، ويبررون بدعهم بالاستعانة ب «التفسير بالرأى» والاستعانة بالآيات المتشابهة، وبتعبير آخر: بما أن قلوبهم وأفكارهم منحرفة فيرون آيات الله منحرفة أيضاً، كالمراة المعوجة تنعكس فيها الصور معوجة.

ج ج

والآية الرابعة تشير إلى الصدا والرين الذي يعلو القلوب، إنه الغبار الذي يعلو القلوب بسبب الذنوب والمعاصي، فيتراكم الغبار عليها حتى تتحجر، ويغطي الصدا القلب كله،

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٣٦

حيث قالت الآية: «كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ فَلَإِ عَجَبٍ فِي عَدَمِ تَمَكُّنِهِمْ مِنْ رُؤْيِهِ الْحَقِيقَةِ».

ج ج

وتحدثت الآية الخامسة عن تفاقم الحالة السابقة بحيث تتبدل إلى مرض روحى، فبعد إشارتها إلى الالتقاء والوساوس الشيطانية حتى

للأنبياء والمرسلين قالت: «لِيَجْعَلَ مَا يُلْقَى الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ .

نعم، إن هذه القلوب التي لا تستلذ بطعم الحقيقة، بسبب مرضها، وحلاوة الحقيقة عندها كالمرارة، على استعداد لقبول وسوسة الشياطين.

ومما يلفت النظر هنا أن جملة «فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» تكررت اثنا عشر مرة في القرآن، مما يكشف الأهمية التي أولاها الله لهذه المسألة، مع الالتفات إلى أن أغلب هذه الآيات عنت المنافقين وصرح بذلك في عدد منها «١».

إلا أن المرض جاء في بعض من هذه الآيات بمعنى «الشهوات والميول والهوى»، كما هو الحال في الآية: «فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ . (الأحزاب ٣٢)

وعلى أئمة حال، فإن الاستفادة من الآيات هو أن الإنسان كما يصاب جسمه بأمراض، كذلك روحه فإنها قد تصاب بأمراض سببها «النفاق» تارة و «الأهواء والميول» تارة أخرى، وتغير عند عروضها - ذائفة روح الإنسان بالكامل، كما نرى ذلك في أمراض الجسم فقد تغير مزاجه بشكل يجعله يستلذ بالأغذية الشاذة والكريهة ولا يستلذ بالأكلات اللذيذة والمفيدة، فإن إنساناً كهذا غير قادر على إدراك الحقائق ووعي الأمور وفهمها.

ومن المؤسف أنهم كلما استمروا في طريقهم كلما تفاقم عندهم المرض، فإذا كانوا في مرحلة الشك، فسيتفاقم عندهم ويشدد ويصل تدريجياً إلى مرحلة الإنكار ومن الإنكار

(١). الأنفال، ٤٩، والأحزاب، ١٢ و ٣٢.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٣٧

إلى مرحلة أخطر وهي الاستهزاء ومخالفة الحق، يقول القرآن في هذا المجال: «فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ . (البقرة / ١٠)

ج ج

تحدثت الآية السادسة عن جعل الأكنة والحجب على القلوب، وليس حجاباً واحداً بل حجب وأكنة وذلك للحيلولة دون فهمهم القرآن، حيث جاء فيها: «وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا».

ذكر بعض المفسرين أن التعبير بالأكنة يدل على تعدد الكنان «١»، ومما لا شك فيه أنه لم يجعل وقر في آذانهم الظاهرية بل الروحية كي لا يسمعون من الحق شيئاً، كما لم تجعل الأكنة على القلوب التي هي وسيلة لضخ الدم في الأوعية، بل جعلت الأكنة على أرواحهم وعقولهم.

وقد وقع كثير من المفسرين - عند الإجابة عن هذه المسألة - في إشكال، فتارة قالوا: إنها معجزة حيث كان الرسول صلى الله عليه وآله يختفي عن انظار أعدائه المعاندين، فلا يكادون يسمعون شيئاً من كلامه، وذلك كي لا يؤذوه صلى الله عليه وآله، وتارة قالوا، إن الله يمنع لطفه عن أشخاص كهؤلاء فيتركهم لحالهم، وهذا هو معنى جعل الأكنة على القلوب والوقر في الآذان.

إلا أن ظاهر هذه الآية (التي تماثل آيات أخرى من القرآن) شيء آخر، وفي الحقيقة أن هذه استعمالات مجازية في حق المعاندين والمتعصبين والمغرورين والغارقين في الإثم، وتعبير آخر: أن حرمانهم من إدراك الحقيقة بسبب صفاتهم الرذيلة وأفعالهم القبيحة، فقد جعل الله هذه الميزة في هذه الأعمال، فهي كخاصية القتل بالنسبة للسم، فلا يلام صانع السم وشاعل النار إذا تناول شخص ما سمّاً أو ألقى نفسه في النار فمات، فإنه في مورد كهذا ينبغي لوم الذي ألقى نفسه في النار والذي تجرع السم فقط.

وقد نقلت الآية السابعة ما كان يقوله اليهود للرسول صلى الله عليه وآله أو الأنبياء الآخرين، حيث كانوا

(١). تفسير روح المعاني، ج ١٥، ص ٨٢.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٣٨

يقولون: «وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ يَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مِمَّا يُؤْمِنُونَ ، نعم لعنهم الله بكفرهم، وأبعدهم عن رحمته، وأنَّ أشخاصاً كاليهود كيف يمكنهم أن يذوقوا حلاوة الحقيقة.

قد يكون التعبير بـ «الغلاف» يختلف عن التعبير بـ «الأكنة»، وذلك لأنَّ الغلاف يستر المغلف ويغطيه من جميع الجهات، بينما يغطي الستار جهة واحدة من المستور، وبتعبير آخر: تارة تصيب الموانع مصدراً واحداً من مصادر المعرفة كالفطرة لوحدها أو العقل لوحده، وتارة أخرى تعطل جميع المصادر وتجعلها في غلاف يحول دون المعرفة.

نعم، كلما تلوث الإنسان بالذنوب والفساد أكثر ابتعد قلبه وروحه من المعرفة وحُرم منها أكثر.

ج ج

وتحدثت الآية الثامنة والتاسعة عن الطبع على القلوب الذي يحول دون المعرفة، وقد اعتبرت الآية الثامنة الطبع سبباً لعدم السمع «فَهُمْ لَيْسَ مَعُونَ ، واعتبرت الآية التاسعة الطبع سبباً لعدم الفقه والفهم «فَهُمْ لَيَفْقَهُونَ ، والمراد في الموردين واحد، فكما قلنا: إنَّ المراد من عدم السمع هو عدم الإدراك والوعى والفهم.

وهذه المرحلة أشد من المراحل السابقة، فالمرحلة الأولى هي جعل الأكنة على القلوب، ثم الغلاف عليها، وفي النهاية يطبع عليها للحيلولة دون نفوذ أى شيء فيها، كما ذكرنا ذلك في بحث شرح المفردات.

طبعاً: إنَّ ابتلاءهم بهذا المصير ليس اعتباطياً، بل لأسباب أشارت إليها الآية السابقة حيث قالت: «وَإِذَا أَنْزَلْنَا سُورَةً أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ * رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَيَفْقَهُونَ . (التوبة / ٨٦-٨٧)

إذن إعراضهم عن الجهاد وتخلفهم عنه هو السبب في الطبع على القلوب.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٣٩

وآية أخرى أشارت إلى سبب آخر من أسباب الطبع، حيث قالت: «أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبِحْنَا بِمَالِهِمْ يُدْزَنُوا بِهِمْ . (الاعراف / ١٠٠)

أى أنهم يذنبون رغم رؤيتهم وعلمهم بأحوال السابقين وابتلائهم بالعذاب الإلهي من جراء ذنوبهم، فطبع على قلوبهم.

ومما يذكر هنا أنَّ الطبع جاء في الآية الثامنة بصيغة المضارع «نطبع» وفي التاسعة بصيغة الماضي «طبع» وهذا تلميح إلى أنَّ الطبع نتيجة سوء أعمالهم وتصرفاتهم.

يقول بعض المفسرين: إنَّ المراد من «الطبع» في مثل هذه الآيات هو نفس السبك والنقش الذي يستخدم للدرهم والمسكوكات، وهو نقش ثابت وبارق، لا يتغير بسهولة «١»، فإنَّ نَقَشَ الكفر والنفاق والإثم نَقِشَ على قلوبهم فلا يمحي بسهولة.

ج ج

وتحدثت الآية العاشرة والحادية عشرة عن «الختم» وكما قلنا سابقاً في شرح المفردات: إنَّ الختم يعنى الانتهاء والفراغ من شيء، وبما أنَّ الرسائل تختم عند الفراغ منها استعملت هذه المفردة هناك أيضاً، وختم الشيء قفله وشده بحيث لا يمكن لأحد فتحه، والمراد من الختم على القلوب والأسماع والابصار في الآيات، هو سلب قدرتها عن التمييز بين الحق والباطل، والخير والشر وذلك بسبب أعمال أصحابها وتصرفاتهم، ولهذا يذكر القرآن في الآية السابقة: «أَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . (البقرة /

(٤

المسلم به هو أنَّ هذا الخطاب لا يعم الكافرين كلهم بل يخص المتعصبين والمعاندين منهم، أى أولئك الذين غرقوا بذنوبهم إلى

درجة حيث أصبحت قلوبهم ظلماء، وإلّا فالنبي أرسل مبشراً ومنذراً للكافرين والمنحرفين. والجدير ذكره هنا هو أنّ الآيات تحدثت عن الختم على الأبصار والسمع كما تحدثت

(١). تفسير المنار، ج ٩، ص ٣٣.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٤٠

عن الختم على القلوب، وهذا تلميح منها إلى أن السمع والبصر قد يتعطلان، أى قد يتعطل الإدراك الحسى كما يتعطل العقلى، وكما تعلم أنّ أغلب العلوم البشرية تحصل بواسطة هذين الإدراكين، وحتى حقانية الوحي ودعوة الأنبياء تكتشف بهما، ومع تعطلهما فإن طرق الهداية والنجاة ستغلق أمامهم، وهذا من سوء أعمالهم وهذا ما أرادوه لأنفسهم، ولا يستلزم جبراً كما يدعيه بعض الظانين. وقد جاء هذا التعبير فى مجال الطبع كذلك، حيث يقول تعالى فى الآية: «اولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم». (النحل / ١٠٨)

والآية التى سبقت الأخيرة أشارت إلى أن هذا الأمر ليس عاماً وشاملاً لجميع الكفار، بل يختص بمن شرح صدره للكفر، حيث يقول تعالى «ولكن من شرح بالكفر صدراً». (النحل / ١٠٦)

ج ج

وقد تحدثت الآية الثانية عشرة عن أفعال القلوب التى قد تكون أشد من الختم «١»، حيث قالت: «أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفلها» أى أن آيات القرآن تنفذ فى القلوب ولو من نوافذ صغيرة، وذلك لأن منطق القرآن هو البيان البديع، والبلاغة فى التعبير، والعمق والدقة فى التحليل، وهو نور وضياء خاص ينفذ فى قلب كل مؤهل ولو بأقل تأهيل، ويستحوذ على القلوب ويهز الضمائر، رغم هذا فانه لا ينفذ فى قلوب هؤلاء ولا يهز ضمائرهم أبداً، وذلك لانغلاق قلوبهم. إنّ «أفعال» جمع «قفل» ومن مادة «قفل» ويعنى الرجوع، وبما أن كل من أتى باباً مقفولة رجع، استعملت هذه المفردة فى هذا المجال. إنّ التعبير «الأفعال» قد يكون إشارة إلى تعدد أفعال القلب بحيث إذا ما فتح قفل بقيت أفعال اخرى، وهذه فى الحقيقة أسوأ مرحلة وأشدّها من مراحل حرمان إدراك الحقائق.

(١). وقد أشار الفخر الرازى فى تفسيره الكبير إلى هذا الأمر.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٤١

ويلاحظ هنا عدم اضافة «قلوب» إلى الأفعال بل جاءت بصيغة النكرة، وكأن هذا إشارة إلى أن هذه القلوب ليست لهم، والأعجب من هذا هو إضافة «الأفعال» إلى «القلوب» وكأن قلوبهم أهل للأفعال فقط لا لشيء آخر.

ج ج

وفى الآية الثالثة عشرة تعبير يهز الضمائر حيث يقول تعالى «إنّها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور». (الحج / ٤٦) أى أن الحاسة الباصرة إذا فقدت فهذا ليس بعمى لإمكان أن يسد العقل اليقظ فراغها، وإنّما الشقاء والبؤس والتعاسة فى القلوب إذا عميت، فعمى القلوب أكبر حاجب عن إدراك الحقيقة، والإنسان بنفسه يعمى قلبه، ولقد أثبتت التجربة أنّ الإنسان إذا ما جعل عصابة على عينيه أو مكث فى ظلام لمدة طويلة، فإنّه سيفقد باصرته تدريجياً، كذلك الأمر بالنسبة للذين يغمضون عيون قلوبهم عن الحقائق، أو يمكثون مدةً طويلةً فى ظلمات الجهل والغرور والإثم فإن قلوبهم ستعمى، وتكون غير قادرة على إدراك أى حقيقة. يُشكك البعض أنّه لا يمكن أن يراد من القلب (الذى فى الصدر ويضخ الدم إلى جميع أعضاء البدن) بل المراد العقل والروح.

إلا أنه بملاحظة استعمال «الصدر» بمعنى الذات والفترة يتضح لنا أن المراد من «القلوب التي في الصدور» هو الإدراك العقلي المودع في طبيعة الإنسان.

إضافة إلى هذا، فإن القلب أول عضو في بدن الإنسان يتأثر بعواطف وأحاسيس وإدراكات الإنسان، نلاحظ أن اتخاذ قرار مهم، أو حصول حالة غضب شديدة، أو الاحساس بالحب القوي تجاه شخص ما يزيد من دقات القلب، فإذا استعمل القلب الظاهري كناية عن العقل، فلأجل العلاقة الوثيقة التي بينه وبين الروح «١».

ج ج

وقد تحدثت الآية الرابعة عشرة والأخيرة عن آخر مرحلة لحرمان الإنسان من المعرفة،

(١). للمزيد من العلم راجع التفسير الأمثل ذيل الآية ٧ من سورة البقرة.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٤٢

والتي يتعطل فيها العقل والفترة والعين والاذن عن العمل بالكامل، فيهوى الإنسان إلى مستوى الأنعام بل أضلّ. والآية تلميح إلى فريق من أهل النار وكأنهم خلقوا لأجلها لا لشيء آخر: «لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ . وعليه، فانهم فقدوا «هويتهم الإنسانية»، وأغلقوا أبواب الرجوع على أنفسهم، فهووا من قمم السعادة السماوية المعدة لهم إلى شقاء جهنم التي أعدت لأولئك الذين غلقوا جميع أبواب المعرفة على أنفسهم، وهو مصير صنعتة نفوسهم وذنوبهم وعصيانهم.

النتيجة الأخيرة:

إن في القرآن الكريم نماذجاً كثيرة تشبه الآيات الأربع عشرة التي ذكرناها في أول هذا الفصل، وانتخبنا هذه الأربع عشرة للمواصفات التي تتحلى بها، وقد انتهينا إلى حقيقة واضحة وهي أنه قد تعرض آفات لمصادر المعرفة بالخصوص العقل والفترة والحس، وبعض تلك الآفات خفيفة طفيفة، وبعضها شديدة، وبعضها بدرجته من الشدة حيث تترك الإنسان في ظلمات مطلقة تمنعه من استيعاب أوضح الحقائق الحسية.

وقد سعينا لمتابعة هذا الانحراف التدريجي لجميع مراحل مع الاستشهاد بآيات القرآن، ولا ندعى أن الترتيب الطبيعي لهذا الانحراف هو نفس الترتيب الذي جاء في الآيات عيناً، بل نقول: إن الآيات المذكورة قد بينت نفوذ الآفات في جميع المراحل. وما أجمل تعبير القرآن في هذا المجال، وما أدقه؟ فتارة يتحدث عن العوامل الخارجية مثل «تزيين الشيطان» وتارة يتحدث عن انحراف القلب والفكر، وأخرى عن صدأ القلوب، وحيناً عن تحول هذا الانحراف إلى مرض مزمن. وحيناً عن الأكنة المجعولة على القلوب.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٤٣

وتارة عن تغلف القلوب بالكامل.

وتارة عن الطبع على القلوب والنقش عليها.

و أخرى عن وضع القلوب في أوعية وختم تلك الأوعية.

و أحياناً عن تجاوز الأكنة القلوب لتشمل السمع والبصر.

و أحياناً أخرى عن تغفل القلوب.

وتارة عن العمى الكامل.

وأخيراً عن سلب الإنسان هويته الإنسانية وإسقاطه نفسه إلى درجة الأنعام بل إلى درجة أدنى من ذلك. أما دواعي هذه المآسى والمصائب؟ فهو ما تناولته في بحثنا اللاحق، لأن الهدف من بحثنا الماضى كان التعريف بالآفات والحجب وتوضيح أمرها بصورة إجمالية. ثم نصل إلى مرحلة علاج هذه الأمراض وكيفية رفع الأكنة ومسح الصدأ والرین والوقاية من الوصول إلى مرحلة لا مخرج ولا نجاه منها.

ونهى بحثنا هذا بحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «إن لك قلباً ومسامع وإنَّ الله إذا أراد أن يهدى عبداً فتح مسامع قلبه، وإذا أراد به غير ذلك ختم مسامع قلبه فلا يصلح أبداً وهو قول الله عزَّوجلَّ «عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا» (١)».

ج ج

(١). تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٤١.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٤٥

حُجْبُ المعرفة وآفاتِها

«بالتفصيل»

١- الصفات التي تحول دون المعرفة

٢- الأعمال التي تحجب عن المعرفة

٣- الحُجْبُ الخارجية

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٤٧

حُجْبُ المعرفة وآفاتِها (بالتفصيل)

تمهيد:

كان الحديث في البحث السابق عن انسداد أبواب المعرفة وطرقها بالاجمال. وحديثنا الآن عن «العلل والعوامل» المسببة لهذه الظاهرة المؤلمة التي يمكنها أن تؤدى بالإنسان إلى السقوط إلى درجة الأنعام والبهائم.

حديثنا عن الامور التي تسبب ظهور الصدأ على قلب الإنسان، وجعل الوقر في الاذان، والعمى في القلب، واختلال توازن العقل، واخيراً تسبب عدم رؤية الحق أو رؤيته معكوساً!

تابع القرآن هذه المسألة المهمة في آيات عديدة وبين العلل الأساسية لهذه الظاهرة، ويمكن تلخيص العلل في ثلاثة أقسام:

١- الصفات التي تحول دون المعرفة أى الصفات والأخلاقيات التي يمكنها أن تكون حاجباً عن الرؤية الروحية.

٢- الأعمال التي تحجب عن المعرفة أى السلوك والأعمال التي تسود مرآة العقل.

٣- الحجب الخارجية أى العوامل الخارجية التي تؤثر على فكر الإنسان وعقله وعواطفه وفطرته.

وسنبحث هذه العناوين الثلاثة كلاً على حده (وؤكد هنا على أننا نطرح العلل التي وردت في القرآن الكريم بوضوح فقط).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٤٩

١- الصفات التي تحول دون المعرفة

إشارة

إن هذه الصفات التي ذكرت في القرآن بصراحة تارة وبالكناية تارة أخرى عبارة عن:

١- حجاب عبادة هوى النفس

إشارة

قبل كل شيء نؤمن خاشعين للآيات التالية:

- ١- «أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ الْهَوَاةَ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصِيرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . (الجاثية / ٢٣)
- ٢- «... كَلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ* وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ . (المائدة / ٧٠-٧١)
- ٣- «وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ . (محمد / ١٦)

شرح المفردات:

«الهوى بمعنى رغبة النفس وميلها إلى الشهوات ويقال إنها مشتقة من «الهوى» الذى يعنى السقوط من الارتفاع، وذلك لأن الهوى يسبب سقوط الإنسان فى المصائب فى الدنيا، وابتلاءه بالعذاب فى الآخرة، ومن هنا قيل لجهنم «هاوية» لأن قعرها منخفض للغاية. نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٥٠

وقد ذكر البعض معنيين لهذه المفردة: (الصعود والارتفاع) و (السقوط)، وذكر بعض آخر معنى واحداً لها وهو (الارتفاع والسقوط إلى الأسفل) وهذا فى الحقيقة تركيب من المعنيين السابقين.

وقال البعض: إن الهوى يعنى «السقوط» والهوى يعنى «الصعود» (١).

ج ج

جمع الآيات وتفسيرها

إتباع الهوى يعنى القلب:

تحدثت الآية الاولى عن اتخاذ الهوى إلهاً واتباعه، والتضحية لأجله بكل ما يملك، وكل من كان كذلك فسوف يختم على قلبه وعلى سمعه ويجعل على بصره غشاوة، فلا يهتدى بعد ذلك، فلنقرأ الآية: «أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ الْهَوَاةَ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ...».

ج ج

والآية الثانية تحدثت عن فريق من اليهود المعاندين حيث كلما جاءتهم رُسلُ الله وأنوا بما يخالف أهواءهم، قاموا بتكذيب بعضهم

وقتل البعض الآخر، إنَّ عنادهم هذا جعل حجاباً بينهم وبين الحقائق، فيرون أنفسهم آمنين من عذاب الله، حيث تاب الله عليهم، وشملتهم رحمته الواسعة في المرة الاولى لكن في المرة الثانية شملتهم نعمته، وذلك لنقضهم عهدهم وطغيانهم، فعموا وصموا. وهذه من المردودات السلبية لاتباع الهوى حيث يهرقون دماء الأنبياء ولا يدركون قبح عملهم. إنَّ التعبير «يقتلون» بصيغة المضارع يدل على أن ديدن هذا الفريق من اليهود هو قتل الأنبياء لما يأتون به من الشرائع المخالفة لأهوائهم.

(١). راجع مفردات الراغب، ومجمع البحرين، وكتاب العين، واقرب الموارد، والمنجد.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٥١

والآية الثالثة تشير إلى فريق من المنافقين الذين يستمعون للنبي صلى الله عليه وآله، وبمجرد ابتعادهم عنه استهزئوا به أمام المؤمنين. يقول القرآن عن هذا الفريق من المنافقين: «أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ». إنَّ هذه الآيات الثلاث تبين بوضوح العلاقة بين اتباع الهوى وفقدان قدرة التمييز. لِمَ لا يكون اتباع الهوى مانعاً عن إدراك الحقيقة وقد استحوذ حبه على جميع جوانب الإنسان، فلا يرى شيئاً غيره ولا يفكر إلا به؟ وقد سمعنا قول الرسول كثيراً حيث يقول فيه:

«حُبُّكَ لِّلشَّىءِ يُعْمِي وَيُصِمُّ» (١).

كما سمعت في هذا المجال حديثاً آخر نقل عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وعن أمير المؤمنين:

«أما اتباع الهوى فيصّد عن الحق» (٢).

إنَّ هذه المسألة واضحة إلى درجة أنها أصبحت مثلاً في كلام العرب: «صاحب الحاجة أعمى لا يرى إلا حاجته» (٣). إنَّ الإنسان الذي خسر قلبه وروحه في حب الجاه والمال والشهوة، وعبأ كل رأس مال وجوده في هذا المجال، لا يرى شيئاً في الدنيا غير هذا الحب، وقد جعل هذا الحب ستاراً سميكاً حجب عقله وفكره. وما أجمل ما قاله على عليه السلام في إحدى خطبه: «مَنْ عَشَقَ شَيْئاً أَعشى بصره» (٤). وقد نقلت الرواية التالية في شأن نزول الآية ٢٣ من سورة الجاثية التي أشرنا إليها سابقاً: إنَّ أبا جهل طاف بالبيت ذات ليلة ومعه الوليد بن المغيرة (فقد كانت الكعبة محترمة في

(١). روضة المتقين، ج ١٣، ص ٢١.

(٢). بحار الأنوار، ج ٧، ص ٧٥؛ ونهج البلاغة الخطبة ٤٢.

(٣). تفسير المراغي، ج ٥، ص ١٥٧.

(٤). نهج البلاغة، الخطبة ١٠٩.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٥٢

الجاهلية أيضاً ومحلاً للطواف) فتحدثا في شأن النبي صلى الله عليه وآله، فقال أبو جهل: والله إنني لأعلم أنه صادق. فقال له: مه، ومالك على ذلك؟ قال: يا أبا عبد شمس كئنا نسميه في صباه الصادق الأمين، فلما تم عقله وكمل رشده نسميه الكذاب الخائن؟ والله إنني لأعلم أنه صادق. قال:

فما يمنعك أن تصدقه وتؤمن به؟ قال: تتحدث عني بنات قريش أني اتبعت يتيماً أبي طالب من أجل كسره، واللوات والعزى إن اتبعته أبداً، فنزلت «وختم على سمعه وقلبه» (١).

وما أجمل ما قاله على عليه السلام عن الهوى «آفة العقل الهوى ، كما قال في محل آخر:
«الهوى آفة الألباب» (٢).

٢- حب الدنيا أحد الحجب

إشارة

يقول القرآن في هذا المجال:

«ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْمَآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ .
(النحل / ١٠٧ - ١٠٨)

جمع الآيات وتفسيرها

إن الآيه تشير إلى قوم أسلموا رغبة في الإسلام، ثم ارتدوا عنه، فلمحت الآية إلى أن ارتدادهم لم يكن لرؤيتهم ما يخالف الحق في الإسلام، بل لأنهم فضلوا الحياة الدنيا على الآخرة، ورجحوها عليها، فانسلكوا عن الإسلام واتجهوا نحو وادي الكفر تارة أخرى، فلم يهدم الله بعد كفرهم لأنهم لم يكونوا أهلاً لذلك، وذلك لحبهم الحياة الدنيا، فطبع الله على

(١). تفسير المراغي، ج ٢٥، ص ١٥٧.

(٢). غرر الحكم.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٥٣

قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأغلق عليهم أبواب المعرفة فأصبحوا من الغافلين.

إنَّ حَبَّ الدُّنْيَا سِوَا مَا كَانَ فِي مَجَالِ حَبِّ الْمَالِ وَالثَّرْوَةِ أَوْ فِي حَقْلِ حَبِّ الْجَاهِ وَالْمَقَامِ، أَوْ فِي مَجَالِ حَبِّ الشَّهَوَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ، فَإِنَّ هَذَا الْحَبَّ كَالرِّيحِ الْعَاصِفِ يَهْبُ فِي بَاطِنِ الْإِنْسَانِ فَيَفْقِدُهُ تَوَازُنَ عَقْلِهِ بِالْكَامِلِ.

نعلم أنَّ المِيزَانَ الدَّقِيقَ يُجْعَلُ فِي مَحْفَظَةِ تَحْوِيلٍ دُونَ تَأْثِيرِ النِّسِيمِ عَلَيْهِ، وَحَتَّى الْوِزَانَ يَنْبَغِي لَهُ حِسُّ أَنْفَاسِهِ حَتَّى الْإِنْتِهَاءَ مِنَ الْوِزَنِ، وَذَلِكَ لِلْحِيلُولَةِ دُونَ تَأْثِيرِ امْوَاجِ الْهَوَاءِ الْخَارِجَةِ مِنْ رِئْتِهِ عَلَى تَعَادُلِ الْمِيزَانِ، فَمَا فَائِدَةُ مِيزَانٍ كَهَذَا عِنْدَ هُبُوبِ رِيحِ عَاصِفٍ؟

إِنَّ حَبَّ الدُّنْيَا سِوَا مَا كَانَ بِشَكْلِهَا الْقَارُونِي أَوْ الْفِرْعَوْنِي أَوْ السَّامِرِي أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، لَا يُعْطَى الْإِنْسَانَ الْحَرِيَّةَ فِي أَنْ يُحْكَمَ عَلَى الْأُمُورِ بِشَكْلِ صَحِيحٍ أَوْ يَفْكَرَ تَفْكِيراً سَلِيمًا، وَإِذَا صَرَحَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ بِأَنَّهُ طَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ، فَالطَّبْعُ هَذَا يُمَثِّلُ حَبَّ الدُّنْيَا، وَبِمَا أَنَّهُمْ يَتَجَهَّوْنَ نَحْوَ السَّبَبِ فَيَتَلَوْنَ بِالْمَسَبِّ.

ويشاهد في الأحاديث الإسلامية تعابير جميلة في هذا المجال، يقول الإمام الباقر عليه السلام:

«مَثَلُ الْحَرِيصِ عَلَى الدُّنْيَا كَمَثَلِ دَوْدَةَ الْفَرَزْدَقِ كَمَا أَزْدَادَتْ مِنَ الْقَزِّ عَلَى نَفْسِهَا كَانَ أَبْعَدَ لَهَا مِنَ الْخُرُوجِ حَتَّى تَمُوتَ غَمًّا» (١).

كما نُقِلَ حَدِيثٌ آخَرَ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ فِيهِ: «الدُّنْيَا تَغْرُ وَتَضْرُ وَتَمْرُ» (٢).

ويقول الإمام نفسه في رسالته كتبها لأحد أصحابه ينصحه فيها ويقول: «فارفض الدنيا فإنَّ حب الدنيا يُمر، ويُصم ويكُم ويُدلُّ الرُّقَابَ

فتدارك ما بقى من عمرك ولا تقل غداً أو بعد غدٍ فأنما هلك من كان قبلك باقامتهم على الأمانى والتسوييف» (٣).

ج ج

(١). بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ٢٣، ح ١٣.

(٢). نهج البلاغة.

(٣). بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ٧٥؛ اصول الكافي، ج ٢، باب ذم الدنيا والزهد فيها، ح ٢٣.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٥٤

٣- حجاب الكبر والغرور وحب السلطة!

إشارة

١- «الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ» (غافر / ٣٥)

٢- «وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَءَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ» (فصلت / ٤٤)

جمع الآيات وتفسيرها

إشارة

الجبارون والمغرورون لا يدركون الحق!

تحدثت الآية الاولى عن كلام «مؤمن آل فرعون» صاحب الضمير الحى الذى كان فى بلاط فرعون يؤيد موسى بن عمران ويؤمن به سراً، فقالت: «الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ».

نعم، إن عناد الحق والاصرار فى ذلك العناد يجعل حجاباً قاتماً على فكر الإنسان ويسلبه قابلية التمييز و حسن المعرفة، فيبلغ به الأمر إلى أن يصح قلبه كالوعاء المغلق لا يخرج محتواه الفاسد ولا ينفذ فيه المحتوى السليم والمفيد.

يقول البعض فى الفرق بين «الجبار» و «المتكبر» أن «التكبر» يقابل «الخضوع للحق» و «الجبروت» يقابل «الشفقة والمحبة للخلق»، فالظلمة المغرورون لا يخضعون للحق ولا يرحمون ولا يشفقون على الخلق.

ج ج

والآية الثانية نقلت أقوال فريق من المتكبرين المعاندين حول القرآن حيث كانوا

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٥٥

يقولون: لِمَ لَمْ يَنْزَلِ الْقُرْآنُ أَعْجَمِيًّا كى نهتم به أكثر وكى يفهمه غير العرب؟ (قد يكون مرادهم هو الحؤول دون فهم الناس له). فأجابهم القرآن: لو نزل القرآن أعجمياً لأشكلتم إشكالا آخر وهو «لولا فصلت آياته» أى أن محتواه معقد ومبهم ولا نعى شيئاً منه، ثم

قلت، عجيب أن يكون القرآن أعجيباً ونازلاً على عربي؟!

ثم أمر الله رسوله بأن يقول لأولئك المغرورين:

«هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ».

وواضح أن الذي ينادى من مكان بعيد لا يسمع ولا يرى

إذا أنكرت أعينهم نور شمس القرآن الساطعة فذلك لرمدها، وإذا أنكرت آذانهم نداء الحق المدوي فذلك للوفر الذي فيها.

حجاب الغرور في الأحاديث الإسلامية:

١- جاء في حديث للإمام الباقر عليه السلام: «ما دخل قلب امرئ شئ من الكبر إلا نقص من عقله ما دخله من ذلك قل ذلك أو كثر» (١).

٢- وقد خاطب أمير المؤمنين عليه السلام فريقاً من المنحرفين في كلماته القصار قائلاً: «بينكم وبين الموعظة حجاب من العزة» (٢).
عندما يتمحور حب الذات في نفس الإنسان، يسعى الإنسان لأن يجمع كل شئ في نفسه، وعندما يصل إلى مستوى «العجب» يرى نفسه أعلى وأرفع من أي إنسان آخر، وعندما يصل إلى مستوى «الأناية» يرى نفسه المقياس الوحيد للقيم والجمال. وهذه الحالات تجعل ستاراً عجيباً على عقله تحجب الحقيقة عنه، فيرى جميع القيم

(١). بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٨٦ باب وصايا الإمام الباقر عليه السلام، ح ٢٦.

(٢). نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٢٨٢.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٥٦

منحسرة في نفسه، وينسى غيره.

ولهذا، فإن أول خطوة في مجال تهذيب النفس هو الترفع عن «الكبر والغرور»، ولا يتأهل الإنسان للقرب من الله من دون ذلك.

٣- وقد جاء في كلام لأمير المؤمنين عليه السلام: «شر آفات العقل الكبر» (١)، كما جاء في كلام آخر له: «العجب آفة» (٢).

ج ج

٤- حجاب الجهل والغفلة

إشارة

١- «كَذَٰلِكَ يَطَّعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ . (الروم / ٥٩)

٢- «لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاءَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ» «وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سِدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سِدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ» * وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ

ءَأُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . (يس / ٦ و ٩ و ١٠)

جمع الآيات وتفسيرها

إشارة

أكدت الآية الأولى على أن الله ضرب للناس في هذا القرآن من كل مثل، فتارة بآيات الآفاق والأنفس وتارة بالوعد والوعيد، وتارة بالأمر والنهي، وتارة بالبشرى والانداز، وتارة بالسبل العاطفية والفطرية، وتارة بالاستدلال، ورغم هذا البيان فإن فريقاً من الجاهلين والغافلين يجحدون بآيات الله ويقولون: أنتم مبطلون أى على باطل، ويضيف الله فى الآية: هذا كله لأجل أن الله طبع على قلوبهم وذلك بجهلهم.

إن الآية- فى الحقيقة- تشير إلى أسوأ أنواع الجهل وهو «الجهل المركب» الذى

(١). غرر الحكم.

(٢). المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٥٧

يحسبه صاحبه علماً، ولا يصغى لمن أراد ايقاظه من غفلة الجهل هذه، ولهذا فإن شخصاً كهذا يظل جاهلاً جهلاً مركباً إلى أبد الدهر. إذا كان الخطاب موجهاً لجاهل «جهلاً بسيطاً» أى لا يعلم ويعلم أنه لا يعلم، ومستعد فى نفس الوقت لقبول نداء الحق والهداية، فإن الأمر اتجاهاً بسيطاً، والحجاب المانع يطبع على القلب عندما يكون الجهل مركباً وممتزجاً بروح العناد وعدم التسليم لنداء الحق. وقد نقل فى بعض التفاسير شعر جميل لشاعر عربى يقول فيه:

قال حمار الحكيم يوماً لو تنصفونى لكنتُ أركب

لأنتى جاهل بسيطو صاحبى جاهل مركب «١»

ج ج

وتشير الآية الثانية إلى فريق من الغافلين الذين صدر حكم العذاب بحقهم وذلك لجهلهم وعنادهم وأنهم ليسوا أهلاً للهداية. ثم صور القرآن الحُجُب التى قد تحيط العقل تصويراً عجبياً حيث قال: «إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ* وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَعْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ . (يس / ٨- ٩)

إن عبارة «وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا» إشارة إلى الحجب التى تحول دون رؤية آيات الآفاق والكون. إن الأغلال التى جاءت فى الآية قد تكون إشارة إلى الحجب التى تحول دون رؤية آيات الأنفس، والأسوأ من هذا كله هو جعل الغشاوة على الأبصار بحيث لا إمكان للرؤية، وهى ستار الغفلة والجهل والغرور.

وبديهي أن أشخاصاً كهؤلاء مع كل هذه الحجب، سواء أُنذِرهم الرسول أم لم ينذرهم وسواء سمعوا آيات القرآن من شفاه محمد صلى الله عليه و آله الطاهرة أم لم يسمعوا، فهم لا يؤمنون ولا

(١). تفسير روح المعانى، ج ٢١، ص ٥٥ ذيل الآية ٥٩ من سورة الروم. نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٥٨

يهتدون، إنهم رهائن لا لغلٍ واحدٍ، بل لأغلالٍ عديدة (فالأغلال جاءت بصيغة الجمع لا المفرد)، وقد فسر البعض السد (الذى يجعل امام الشخص) بالحجب التى تحرم الإنسان من الهداية النظرية والاستدلال، والسد (الذى يجعل من الخلف) بالحجب التى تمنع من الهداية الفطرية والرجوع إليها «١».

حجاب الجهل فى الأحاديث الإسلامية:

١- قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عن الجهل: «الجاهل ميت بين الأحياء» «٢».

٢- كما قال فى محل آخر: «الحمق من ثمار الجهل» «٣».

واضح، كما أن الميت فاقد الإدراك والاحساس كذا الجاهل العنود، لا نتوقع منه الفهم الحقيقي للامور.

٣- من خصائص الجاهلين بالجهل المركب أنهم يعدون العلماء الحقيقيين ضالين، ولهذا جاء في حديث الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: «تعجب الجاهل من العاقل أكثر من تعجب العاقل من الجاهل» (٤).

٤- نهي البحث بحديث للإمام أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول فيه: «إن قلوب الجهال تستفزها الأطماع وترتهنها المني وتستعلقها الخدایع» (٥).

ولا عجب أن تعجب الحقائق عن قلب كهذا،

(١). تفسير الكبير، ج ٢٦، ص ٤٥ ذيل الآيات المذكورة في بحثنا.

(٢). غرر الحكم، ص ٩٩.

(٣). المصدر السابق، ص ٤١.

(٤). سفينة البحار، ج ١، ص ١٩٩.

(٥). أصول الكافي، ج ١، ص ٢٣، كتاب العقل والجهل، ح ١٨.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٥٩

٥- حجاب النفاق

إشارة

١- «يَخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ* فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ .

(البقرة/ ٩- ١٠)

٢- «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ* صُمُّ بُكْمٌ عُتَىٰ فَهُمْ لَّا يُزْجَعُونَ .

(البقرة/ ١٧- ١٨)

٣- «إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ عَرَّ هَوْلًا دِئِبْتُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . (الأنفال/ ٤٩)

٤- «وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا». (الأحزاب/ ١٢)

جمع الآيات وتفسيرها

المنافقون عمى القلوب:

إن في أوائل سورة البقرة ثلاث عشرة آية تحدثت عن النفاق والمنافقين، وقد صورتها بدقة متناهية وبتعابير وافية، والآية الأولى هي من ضمن الآيات التي جاءت هنا.

يقول القرآن في هذه الآية: إن أحد أخطاء المنافقين أنهم يخادعون الله وكذا المؤمنين، وفي الحقيقة لا يخادعون إلا أنفسهم وهم لا

يشعرون ولا يعلمون، وذلك لأنّ النفاق قد غطى قلوبهم بستاره السميك، ثم يضيف القرآن: «فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا». من الواضح، أنّ المراد من المرض في الآية هو «مرض النفاق» الذي يتغلب على قلوبهم، فالإنسان المريض لا يستطيع أن يفكر تفكيراً سليماً (لأنّ العقل السليم في الجسم السليم)، وكذلك حواسه الظاهرية، ولهذا نرى بعض المرضى تبدو ألد الأغذية عندهم كرهية الطعم، وبعض الأغذية كرهية الطعم لذيدة.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٦٠

وقد شبهت الآية الثانية المنافقين بالذي ضلّ متورطاً في ظلمات الليل، ثم استوقد ناراً ليرى مما حوله، فجاء ريح عاصف وأطفأ ما استوقده فبقى في الظلمات تارة أخرى، فلا يبصر ولا يسمع ولا ينطق شيئاً، ولا طريق له للرجوع. قد يكون المراد من النور الذي جاء في الآية هو نور الإيمان الظاهري الذي يراه المنافق ويستضيء به ما حوله ويحفظ نفسه وماله تحت ضيائه.

أو أنّ المراد منه هو نور الفطرة الذي جُبل عليه الإنسان، والمنافقون يستثمرون هذا النور في البداية، ولا يمضي زمن طويل حتى تأتي زوبعة النفاق فتطفئه.

وتحدثت الآية الثالثة والرابعة عن المنافقين مرضى القلوب، وبقرينة الآيات السابقة ندرك أنّ المراد من «الذين في قلوبهم مرض» هو نفس المنافقين وأنّ العطف عطف تفسيري «١»، إلّا أنّ الآية الثالثة تحدثت عن موقفهم في معركة بدر، والرابعة عن موقفهم في معركة الأحزاب، والفرق هو أنّهم كانوا في «بدر» في صفوف المشركين لأنّ المشركين يوم ذاك كانوا القوة الراجحة، وفي معركة الأحزاب كانوا مع المسلمين.

كانوا يقولون: «اغترّ هؤلاء المسلمون بدينهم، وقد خطوا هذه الخطوة الخطيرة (الجهاد) رغم قلة العدة والعدد ظناً منهم بالنصر، أو بالشهادة التي مصيرها الموت!»

بالطبع، إنهم غير قادرين - بسبب المرض الذي في قلوبهم - على الإدراك الصحيح لعوامل النصر الحقيقية أي الإيمان والثبات والفتوة التي هي وليدة الإيمان فما كانوا يدركون أنّ من يتوكّل على الله القادر فهو حسبه وهو ناصره، والشاهد على هذا الحديث هو ما حصل

(١). لقد جاء في تفسير الميزان، ص ١٦٤ و ٣٠٢؛ وكذلك تفسير الكبير، ج ١٥، ص ١٧٦، أنّ المراد من الذين في قلوبهم مرض هم ضعيفو الإيمان وهم غير المنافقين. لكن لا يتناسب ضعف الإيمان مع المرض في القلب، إضافة إلى أنّ الآيات الثلاثة عشرة التي جاءت في أوائل سورة البقرة استعملت هذا التعبير في حقهم. كما يبدو بُعد الرأي الذي يفسر المرض بالترديد والشك، لأنّ المرض نوع من الانحراف، بينما الشك نوع من فقدان.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٦١

في صدر الإسلام، حيث إنّ بعض المسلمين رفض الهجرة إلى المدينة، والعجيب في الأمر أنّ قريشاً عندما تحركوا نحو بدر لقتال المسلمين، اصطف هؤلاء المسلمون (المنافقون) في صفوفهم، وكانوا يحدثون أنفسهم أنّهم سيلتحقون بجيش محمد إذا كان جيشه ذا عدد كبير، وسيبقون مع جيش قريش إذا ما كان عدد المسلمين قليلاً «١».

وهل للنفاق مفهوم غير هذا الذي تجسد في هذه المجموعة؟ وإذا لم يكونوا منافقين، فمن هم المنافقون؟

وقد حصل هذا الأمر بالذات في معركة الأحزاب فإنّ شخصيات كثيرة من المنافقين كانت قد حشرت نفسها مع المسلمين، وعندما شاهدوا كثرة الأحزاب قالوا بصراحة: ما وعدنا الرسول إلّا كذباً وباطلاً.

وهذا هو حجاب النفاق الذي لا يسمح لهم من إدراك الحقائق، رغم أنّهم شاهدوا بأم أعينهم أنّ النصر ليس بكثرة العدد، بل بالإيمان

والثبات الناشء عنه.

سؤال:

يطرح سؤال هنا وهو: كيف يكون النفاق حجاباً يحجب عن الحقائق؟

الجواب:

يمكننا الإجابة عن هذا السؤال بالالتفات إلى ملاحظة في هذا المجال وهي: إن روح النفاق تستلزم أن يتحرك الإنسان مع كل التيارات وأن يكون مع جميع الفرق، وأن يتخذ صبغة المحيط الذي يعيش فيه، فيفقد في النهاية أصالته واستقلاله الفكري، إن طريقة تفكير إنسان كهذا تكون متطابقة دائماً مع طريقة تفكير الفريق الذي يكون معهم، فلا عجب أن يكون حكمه غير صحيح.

(١). تفسير الكبير، ج ١٥، ص ١٧٦ ذيل الآية ٤٩ من سورة الأنفال.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٤٢

وقد جاء في بعض التفاسير: إن التعبير ب «في قلوبهم مرض» يصدق في موارد كهذه الموارد، من حيث إن غاية القلب (العقل) الخالص هو معرفة الله وعبوديته، وكل صفة منعت وحجبت عن غاية القلب هذه، قيل لها مرض (لأنها تحجب الهدف وتمنعه من الظهور) «١».

ولهذا جاء في الآية ٧ سورة المنافقين: «وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ .

كما قد جاء في حديث الإمام الباقر عليه السلام: «إن القلوب أربعة: قلب فيه نفاق وإيمان وقلب منكوس وقلب مطبوع وقلب أزهر أجرد» فقلت ما الأزهر؟ قال: «فيه كهينة السراج، فأما المطبوع فقلب المنافق، وأما الأزهر فقلب المؤمن إن أعطاه شكر وإن ابتلاه صبر، وأما المنكوس فقلب المشرك» «٢».

ونتهي حديثنا هذا بكلام للإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «النفاق على أربع دعائم على الهوى والهوىنا والحفيظة والطمع» «٣».

ونعلم أن كلاً من هذه الامور الأربعة تشكل حجاباً سميكا أمام نظر العقل.

٦- حجاب التعصب والعناد

إشارة

١- «وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْمَعُ الْإِيكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا آيَةً لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ . (الأنعام / ٢٥)

٢- «وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَّا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا* وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا». (الاسراء / ٤٥-٤٦)

٣- «فَأَنْتَكَ لَاتَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ* وَمَا

(١). تفسير الكبير، ج ٢، ص ٦٤ ذيل الآية ١٠ من سورة البقرة.

(٢). اصول الكافي، ج ٢، ص ٤٤٢ باب في ظلمة قلب المنافق، ح ١.

(٣). اصول الكافي، ج ٢، ص ٣٩٣ باب صفة المنافق والنفاق.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٦٣

أَنْتَ بِهَادِ الْعُمِيِّ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ أَنْ تُسْمِعَ الْآمَنُ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ».

(الروم / ٥٢-٥٣)

٤- «وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَنْ جَسْتُهُمْ بِآيَةٍ لِيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطَلُونَ* كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ .

(الروم / ٥٨-٥٩)

٥- «وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا أَنْتُمْ عَامِلُونَ . (فصلت / ٥)

جمع الآيات وتفسيرها

الموتى المتحركون:

حضر عند رسول الله صلى الله عليه و آله ابو سفيان والوليد بن المغيرة والنضر بن الحارث وأبو جهل وأفراد آخرون واستمعوا إلى حديث الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله فقالوا للنضر: ما يقول محمد؟

(وكان النضر تاجراً يسافر إلى إيران وله اطلاع واسع بالأساطير والقصص التاريخية الإيرانية) فقال: لا أدري ما يقول لكنى أراه يحرك شفثيه ويتكلم بأساطير الأولين كالذى كنت احديثكم به عن أخبار القرون الاولى وقال أبو سفيان: إنى لا ارى بعض ما يقول حقاً.

فقال أبو جهل: كلا، فانزل الله تعالى «وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ» (١).

وقال بعض المفسرين فى تفسير هذه الآية أنهم لما أصروا على الكفر وعاندوا وصمموا عليه فصار عدو لهم عن الإيمان والحالة هذه كالكنان المانع عن الإيمان (٢).

ولهذا نزلت هذه الآية وقالت بصراحة: «وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ...».

(١). تفسير الكبير، ج ١٢، ص ١٨٦.

(٢). المصدر السابق، ص ١٨٧.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٦٤

وقد قال بعض المفسرين فى تفسير هذه الآية:

«وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً»: إِنْ عَنَادَ هَؤُلَاءِ الْكُفْرَةَ وَاصْرَارَهُمْ فِي مَعَادَةِ الْحَقِّ، يَجْعَلُ سِتَاراً عَلَى قُلُوبِهِمْ يَحُولُ دُونَ إِيمَانِهَا (١).

وقد تحدثت الآية الثانية عن الحجاب الذى كان يُجعل بين الرسول صلى الله عليه و آله وبين فريق من المنافقين عندما كان يتلو القرآن الكريم.

وقد فسر البعض هذا الحجاب بستار حقيقى كان يجعله الله بين الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله وبينهم بحيث لا يرونه، إلا أنه مع الالتفات إلى الآيات التى لحقت هذه الآية من نفس السورة، يتضح لنا أن الحجاب لم يكن سوى «حجاب التعصب والعناد والغرور والجهل» الذى كنتم حقائق القرآن عن عقولهم وإدراكهم.

والشاهد على ذلك هو قوله تعالى «وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَخِيدَهُ وَلَوُوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً» فالمستفاد من هذا التعبير هو أنهم كانوا يصغون فى البداية إلى حديث الرسول صلى الله عليه و آله ثم يولون مدبرين لعدم سماح العناد لهم لإدراك القرآن، وإدراك حديث التوحيد.

ونشاهد في نفس السورة تعابير اخرى تحكى روح العناد المتجسمة فيهم، ومع هذا، فهل يمكنهم إدراك حقيقة ما؟ وخاطبت الآية الثالثة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله قائلة له: إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا الصَّمَّ عِنْدَمَا يُولُونَ مَدْبِرِينَ، كما أَنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ هِدَايَةَ الْعَمَى وَإِنْقَاذَهُمْ مِنَ الْهَلَاكِ، فما يسمع كلامك إلا الذين آمنوا بآيات الله وسلموا للحق (أى الذين تتلفه قلوبهم للحق، فَإِنَّ قُلُوبًا

(١). تفسير الكبير، ج ١٢، ص ١٨٧.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٦٥

كهذه كالأرض المعدّ للزرع، تسطع عليها الشمس، وتقطر السماء عليها قطرات الحياة، فتنمو فيها البذور بسرعة، وأما القلوب التي عطلتها حُجب التعصب والجهل فإنها محرومة من هذه الحقائق) «١».

والآية الرابعة تحدثت عن أولئك الكفار الذين وقفوا أمام الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله عناداً وخالفوا كل ما جاء به، فكانوا يرمون الرسول والقرآن بالباطل تارة، وتارة اخرى يقولون:

إِنَّ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ سِحْرٌ وَأَسَاطِيرُ الْأُولِينَ وَلَا مَجَالَ لِلْحَقِّ فِيهِ: فتحدثت في هذه عن هؤلاء وقال: «كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ . لِأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا عَنْ هَذَا الْكِتَابِ السَّمَاوِيِّ الَّذِي هُوَ مَصْدَرُ الْحَقَائِقِ.

كما أن الآية توضح العلاقة بين «الجهل» و «العناد».

وعكست الآية الخامسة النموذج الكامل من العناد، فما قيل إلى الآن كان خطاباً بين الله ورسوله، أما هنا فهم يعترفون بأنفسهم بأن على قلوبهم أكنة، وفي آذانهم وقراً، وبينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وآله حجاب لا يسمح لهم إدراك ما يقول والتسليم له، فاعمل على شاكلتك ونحن عاملون على شاكلتنا.

إن هذه التعابير تبين بوضوح ما هو العامل الأساسى لهذه الحجب وما هو السبب الرئيسى للوقر الذى يجعل فى الاذن؟ إنها عبارات يقطر منها التعصب والعناد وتبين سبب شقائهم وتعاستهم.

كما أن «التعصب» مشتق من مادة «عصب» وهو فى البدن خلايا تسبب اتصال العضلات إحداها بالآخرى أو بالعظام، والعصب بمثابة الوسيلة لنقل الايعاز إلى المخ، وبما

(١). وقد جاء فى سورة النمل الآية ١١ مضمون يشبه مضمون هذه الآية.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٦٦

أن له بنياناً قوياً ومحكماً استعملت هذه المفردة بمعنى الشدة والاستحكام، ويوم عصيب يعنى يوم شديد وصعب، ولهذا يطلق «التعصب» على حالة الارتباط الشديد بشىء، كما أن «العُصْبَةُ» على وزن أسوة تعنى جماعة من الرجال (المقتدرين) الذين لا يقلون عن عشرة، وأما «عَصَبَةُ» فتعنى أقارب الرجل من جهة الأب «١».

إن «اللجاجة» وهى من مادة «لجج» هى التمداد فى العناد، وملازمة أمر ما وعدم الانصراف عنه، و «اللججة» تعنى حركة أمواج البحر، أو التباس ظلمات الليل، و «البحر اللججى» هو البحر الواسع والمتلاطم، والتلجج فى الكلام هو التردد فيه، أو اختلاط الأصوات «٢».

النتيجة:

إن التعصب واللجاجة والعناد يتلازم أحدها الآخر، لأن الارتباط الشديد بشىء يدعو الإنسان إلى اللجاج والعناد والدفاع عنه بدون قيد أو شرط.

بالطبع قد يستعمل التعصب بمعنى الانحياز والإرتباط بالحق، إلّا أنّ الاستعمال الغالب له هو الإرتباط بالباطل. إنّ منشأ التعصب واللجاجة والعناد - بجمع أشكالها - هو الجهل والقصور الفكرى، لأنّ صاحب التعصب واللجاجة يظنّ أنّه إذا تخلى عن عقيدته ورأيه فهذا يعنى تخليه عن كلّ شيء، أو أنّ هذا إهانة لشخصيته. وقد يكون منشأه هو التكبر والغرور اللذين يمنعان من الخضوع أمام الحق والتسليم له، وقد يكون منشأه عوامل أخرى إنّ التعصب واللجاجة يجعلان ستاراً قاتماً على العقل لا يسمح للإنسان أن يرى

(١). كتاب العين، والمفردات، ومجمع البيان، ولسان العرب.

(٢). المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٦٧

الحقائق، حيث نرى البعض غير مستعدين للتخلى عن عقائدهم بأى شكل كان رغم وجود الأدلة القطعية على بطلانها، وإنّ أشخاصاً كهؤلاء لو أقمنا لهم ألف دليل ودليل على أنّ للدجاج رجلين، قالوا: كلا، بل رجل واحد! ولو أخذناهم بأيدينا تحت نور الشمس الساطعة وقلنا لهم: إنّ نهار، قالوا: لا بل ليل! لقد عكست الآيات التى ذكرناها فى بداية البحث هذه الحقيقة بوضوح، واعتبرت هؤلاء ضيّماً وعمياً وأمواتاً، وطبع على قلوبهم، أو أنّ قلوبهم مغلقة فلا يفقهون شيئاً. وقد جاء فى الروايات الإسلامية مضامين تستند إلى نفس المضمون الذى جاء فى الآيات المذكورة، وفيها توبيخ لأهل اللجاجة والعناد.

منها قول أمير المؤمنين عليه السلام: «اللجوج لا رأى له» (١).

ومنها قوله عليه السلام كذلك: «اللّاج يُفسد الرأى» (٢).

وكذا قوله عليه السلام: «ليس للجوج تدبير» (٣).

وقال الإمام عليه السلام نفسه فى الخطبة القاصعة: «فألله الله فى كبر الحمية وفخر الجاهلية فإنّه ملاحح الشنآن، ومنافخ الشيطان، التى خدع بها الأمم الماضية والقرون الخالية حتى أعنقوا فى حنادس جهالته ومهاوى ضلالته» (٤).

نهى حديثنا بكلام آخر لنفس الإمام العظيم، فى جواب له على رسائل أهالى مدن مختلفة حول حوادث صغيرة: «من لَجّ وتمادى فهو الراكس الذى ران الله على قلبه وصارت دائرة السوء على رأسه» (٥).

بالطبع - وكما قلنا سابقاً - إنّ الاصرار والالاحاح فى الحق ليس تعصباً، وإذا أطلقنا عليه تعصباً فهو «تعصب ممدوح»، ولهذا جاء فى حديث للإمام على بن الحسين عليه السلام عندما سُئل

(١). غرر الحكم.

(٢). المصدر السابق.

(٣). المصدر السابق.

(٤). نهج البلاغة الخطبة ١٩٢.

(٥). المصدر السابق الرسالة ٨٥.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٦٨

عن مفهوم التعصب: «العصبيّة التى يأنم عليها صاحبها أن يرى الرجل شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين، وليس من العصبيّة أن

يُحِبُّ الرَّجُلُ قَوْمَهُ وَلَكِنْ مِنَ الْعَصِيَّةِ أَنْ يَعْينَ قَوْمَهُ عَلَى الظُّلْمِ» (١).

٧- حجاب التقليد الأعمى

إشارة

نُعمن خاشعين أولاً في الآيات التالية:

- ١- «قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ * أَنْ هَذَا الَّذِي خُلِقَ الْأَوَّلِينَ * وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ . (الشعراء / ١٣٦-١٣٨)
- ٢- «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَالْيَ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ . (المائدة / ١٠٤)
- ٣- «وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ . (الأعراف / ٢٨)
- ٤- «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ». (لقمان / ٢١)
- ٥- «وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَوْمِهِ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ . (الزخرف / ٢٣)

ج ج

شرح المفردات:

رغم أنه لم ترد مفردة «التقليد» عيناً في الآيات السابقة بل جاءت مفردة الاقتداء أو

(١). بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٢٨٨.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٦٩

الاهتداء أو اتباع ما كان عليه الآباء والاسلاف وامثال هذه المفردات، إلّا أنه من المستحسن ايضاح مفهوم هذه المفردة جيداً. إنّ هذه المفردة مشتقة من مادة «قلند»، وتعني في الأصل - كما ورد عن الراغب في المفردات - قتل الحبل، وقيل للقلادة «قلادة» من حيث إنّ حبالاً كانت تُقتل وتعلق في العنق، و«القلائد» جمع قلادة، استعمالها القرآن وأراد بها الأنعام التي تُعدّ للأضحية في مناسك الحج، فإنها تُقلد لتتميز عن غيرها من الأنعام (الآية الثانية من سورة المائدة)، كما أنّ اطلاق التقليد على اتباع الآخرين، من حيث إنّ المقلد يجعل كلام المقلد كالقلادة في عنقه، أو من حيث إنّه يلقي المسؤولية على عاتق المقلد.

أمّا «مقاليد» - وكما يقول كثير من اللغويين - فجمع «مقليد» أو «مقلد»، إلّا أنّ الزمخشري ادّعى في كشافه: عدم وجود مفرد لهذه الكلمة.

وأما «مقليد» و«اقليد»، فبمعنى المفتاح، وقد نقل ابن منظور في لسان العرب: إنّ أصل هذه المفردة هو كلمة «كليد» الفارسية والتي تعني مفتاح كذلك، واستعملت في العربية بنفس المعنى وتستعمل «مقاليد» بمعنى الخزائن أيضاً، وذلك من حيث إنّها تقفل ولا طريق لها إلّا بالمفتاح.

إذن، لا علاقة بين مفردة «مقاليد» مع مادة «التقليد» و«القلادة» (١).

إلّا أنه يحتمل رجوع كلا المفردتين إلى مادة واحدة من حيث إنّ كثيراً من الناس يجعلون المفاتيح في فتائل ويقلدون بها أعناقهم (٢).

ج ج

جمع الآيات وتفسيرها

قوم أهلكتهم تقليدهم:

إِنَّ آيَةَ الْاُولَى اُشَارَتْ اِلَى حَدِيثِ قَوْمِ «عَاد» مَعَ رَسُوْلِهِمْ ذِي الْقَلْبِ الْعَطُوفِ

- (١). مفردات الراغب؛ مجمع البحرين؛ لسان العرب؛ البرهان القاطع وكتب اخرى.
(٢). وقد اعتبر البعض «اقليد» مفردة يمنية أو رومية (مجمع البحرين ولسان العرب - مادة قلد-).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٧٠

نفحات القرآن ج ١ ٢٩٩

الرحوم «هود»، فعندما دعاهم إلى التوحيد وترك الظلم والاجحاف والترف أجابوه: «سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوْعَطْتَ أَمْ لَمْ تُكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ وبهذا كشفوا عن تحجرهم وصلابتهم تجاه كلام النبي المنطقي، وذلك لعدم سماح حجاب التقليد لهم بقبول الحقيقة.

ج ج

وقد كشفت الآية الثانية عن مواقف مشركي العرب عندما كانوا يُدعون إلى ما أنزل الله، وإلى ترك عبادة الأصنام، وترك البدع في تحريم كثير من الامور الحلال، وكان جوابهم آنذاك: «حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا» فيظنون أن هذا يغنيهم عن القرآن هادياً!!
إِلَّا أَنَّ الْقُرْآنَ أَرَادَ اِيْقَازِهِمْ مِنْ غَفْلَتِهِمْ هَذِهِ وَأَرَادَ تَمْزِيقَ حِجَابِ التَّقْلِيدِ عِنْدَهُمْ فَأَجَابَهُمْ:
«أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ وَهَلْ يَجُوزُ تَقْلِيدُ الْجَاهِلِ الضَّالِّ!؟»

ج ج

والآية الثالثة أشارت إلى مشركي العرب أيضاً (أو فريق من ذوى الصفات الشيطانية) فانهم إذا ما سُئِلُوا عن سبب إتيانهم الفاحشة والعمل القبيح؟ أجابوا: «وَجَدْنَا عَلَيْهِمْ آبَاءَنَا» ولا يكتفون بهذا بل قد يضيفون: «وَاللَّهِ أَمَرَنَا بِهَا». فينفى القرآن هذه التهمة الكبيرة ويقول: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ . يعتقد كثير من المفسرين أن المراد من «الفحشاء» فى الآية الكريمة هو طوافهم رجالاً ونساءً عراة فى عصر الجاهلية، حيث كانوا يعتقدون: أن الملابس التى ارتكب بها ذنب ليست أهلاً لأن يُطاف بها حول بيت الله الحرام.
وعلى هذا المنوال، كان ينتقل عملهم القبيح هذا من نسل إلى نسل بالتقليد الأعمى وما كان التقليد يسمح لهم لأن يدركوا قبح هذا الفعل.

ج ج

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٧١

إن رابع وخامس آية أشارتا إلى موقف وكلام فريق من المشركين فى عهد الرسول صلى الله عليه و آله أو العهود التى سبقت عهده تجاه دعوة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أو الأنبياء السالفين، حيث كانوا يقولون: «أَنَا وَجِدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَأَنَا عَلَى آثَارِهِمْ مُتَقِدُونَ .

وهكذا توارث الأجيال بعد الأجيال الكفر وعبادة الأصنام والآثام والعادات والسنن القبيحة، وقد نسجت روح التقليد حجاباً سميكاً على عقولهم لا يسمح لهم لقبول أى حقيقة، فيقول القرآن عن هؤلاء تارة: «أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ .

(المائدة / ١٠٤)

ويقول تارة اخرى: «أَوْلُو كَان الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ».

(لقمان / ٢١)

واخرى: «قَالَ أَوْلُو جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءُكُمْ .

(الزخرف / ٢٤).

ج ج

توضيحات

١- أنواع التقليد المختلفة

إنّ تقليد الآخرين، سواء كان تقليداً لحي أو ميت، أو تقليداً لشخص أو فريق لا يخرج عن صور أربع:

- ١- تقليد الجاهل للعالم: أى تقليد الجاهل بشيء لمن له تخصص أو خبرة بفن أو علم، مثل مراجعة المريض للطبيب الخبير بعلم الطب.
- ٢- تقليد العالم للعالم: أى مراجعة أهل العلم أحدهم للآخر واتباع كل منهم للآخر.
- ٣- تقليد العالم للجاهل: أى يترك الإنسان علمه وخبرته، ويتبع الجاهل ويقلده عشوائياً.
- ٤- تقليد الجاهل للجاهل: بأن يتخذ قوم جهال عادات وتقاليد ومعتقدات ليست

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٧٢

قائمة على دليل أو مستندة إلى شيء، ويقوم قوم آخرون باتباع أولئك القوم وتقليدهم فيها، وهذا هو أكبر عامل لانتقال المعتقدات الفاسدة والتقاليد الخاطئة من قوم إلى آخر، وهذا النوع من التقليد استهدفته أكثر الآيات التي ذمّت التقليد.

واضح أن القسم الأول من التقليد هو القسم المنطقي الوحيد، وقد اعتمدت حياة الناس على ذوى الاختصاصات وعلى هذا النوع من التقليد المنطقي، لأنّ الإنسان حتى لو كان نابغة زمانه لا يمكنه التخصص في جميع الاختصاصات والفروع العلمية، خصوصاً وأنّ العلم- في هذا العصر- أصبحت له فروع وتشعبات لا تُعد ولا تُحصى، ومن المحال أن يتخصص إنسان في فروع علم أو فن واحد، فضلاً عن جميع العلوم والفنون.

وعلى هذا، فكل إنسان يمكنه أن يكون مجتهداً في فرع من فروع العلوم، أمّا في الفروع الاخرى التي لم يجتهد فيها، فلا طريق له إلّا الرجوع إلى المتخصصين فيها.

إنّ المعمار يراجع الطبيب إذا مرض، والطبيب يراجع المعمار إذا أراد بناء عمارة، أى أنّ كلّ منهما «مجتهد» في تخصصه و«مقلد» في التخصص الآخر، وهذا (رجوع الجاهل إلى العالم وغير المجتهد إلى المجتهد وغير المتخصص إلى المتخصص) أصل عقلائي كان ولا يزال متعارفاً ودارجاً بين الناس، بل إنّ عجلة الحياة تسير على هذا النوع من التقليد، بالطبع أنّ هناك شروطاً ينبغي توفرها في المجتهد الذي يُرجع إليه، سنتعرض لها بعد ذلك.

وهذا التقليد هو الذى أشار إليه البارى تعالى فى القرآن الكريم وعنوانه ب «أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ». (الأحزاب / ٢١)

كما جاء فى الآية: «أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدُوا». (الانعام / ٩٠)

ورغم أنّ الخطاب موجه للرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، لكن لا يبعد أن يكون المخاطب به الامّة بأجمعها.

أمّا الأقسام الثلاثة الباقية من التقليد فكلّها باطله ولا أساس منطقي لها، فتقليد (العالم للجاهل) و (الجاهل للجاهل) حالهما واضح، وأمّا تقليد (العالم للعالم) فان كان من باب مراجعة أحدهما الآخر للتشاور وتكميل المعلومات، فلا يُعدّ هذا تقليداً بل هو نوع من «التحقيق».

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٧٣

إنّ التقليد هو غرض الطرف عن التخصص الذى يمتلكه الإنسان واتباع شخص آخر اتباعاً بدون قيد أو شرط، فالمسلم أن التقليد من قبل شخصٍ قادرٍ على التحقيق والاجتهاد أمر مذموم وغير صحيح، ولهذا لم يُجزَّ الفقه الإسلامى للمجتهد أن يكون مُقلِّداً. ويتضح مما قلنا فلسفة تقليد المجتهدين فى المسائل الفقهية من قبل غير المجتهدين، ومثل هذا دارج فى جميع الفروع العلمية، وبما أن الفقه الإسلامى واسع إلى درجةٍ حيث لا- يمكن للناس جميعاً أن يجتهدوا، فجميع أبوابه والتحقيق فيها تعين على فريق منهم الاجتهاد بالفقه، وعلى الناس اتباعهم، إلّا أنّ الأمر يختلف عنه فى اصول الدين، فيتعين التحقيق والاجتهاد فيها على كل مسلم، وذلك لإمكانية ذلك، فلا يجوز التقليد فيها.

ج ج

٢- شروط التقليد الممدوح

عادةً ما يقال فى تعريف «التقليد» أنه عبارة عن قبول كلام الآخرين بلا دليل، وتارةً يوسعون المفهوم ويعتبرون الاتباع العملى تقليداً من دون الالتزام بحديث أو كلام للآخرين، وتارةً يعدون التأثيرات اللا إرادية (التي تتركها أعمال وسلوك وصفات الآخرين عند الإنسان) قسماً من التقليد.

بالطبع أن القسم الأخير من التقليد (الذى يتحقق بشكل غير ارادى) خارج عن موضع بحثنا، أما القسم الثانى والثالث، فيمكن أن يكونا ممدوحين إذا ما توفر شرطان فى «المقلِّد»- أو مرجع التقليد- وهما: الخبرة والصدق، أى كونه من أهل العلم أولاً، وينقل ما يوحى إليه علمه بصدقٍ ثانياً، وإذا ما انتفى هذان الشرطان دخل التقليد القسم المذموم.

ومن جهةٍ اخرى، ينبغى أن يكون موضوع التقليد من مواضيع الاختصاصات كى يباح التقليد فيه، أما إذا كان من المسائل العامة التى يمكن للناس كافة الخوض والتحقيق فيها (مثل اصول الاعتقادات وبعض المسائل الأخلاقية والاجتماعية غير ذات الجانب

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٧٤

الاختصاصى) فانه يتعين على كل إنسان التحقيق فيها والوصول إليها بنفسه.

ومن جهةٍ ثالثة، فإنّ المقلِّد ينبغى أن لا يكون قادراً على الاستنباط، فإذا ما قدر على ذلك فى مسألةٍ ما، مُنع من التقليد فيها. ومن هنا تتضح حدود التقليد الممدوح والتقليد المذموم من الجهات الثلاث (أى شروط المرجع وشروط المقلِّد) وشروط الموضوع المقلِّد فيه).

نهى كلامنا هذا بحديث عن الإمام الصادق عليه السلام:

قال رجل للصادق عليه السلام: إذا كان هؤلاء العوام من اليهود لا يعرفون الكتاب إلّا بما يسمعون من علمائهم فكيف ذمهم بتقليدهم والقبول من علمائهم؟ وهل عوام اليهود إلّا كعوامنا يقلدون علماءهم، فقال عليه السلام: «بين عوامنا وعوام اليهود فرق من جهة وتسوية من جهة أمياً من حيث الاستواء فإنّ الله ذم عوامنا بتقليدهم علماءهم كما ذم عوامهم، وأما من حيث افرقوا فإنّ عوام اليهود كانوا قد عرفوا علماءهم بالكذب الصراح وأكل الحرام والرشا وتغيير الأحكام واضطروا بقلوبهم إلى أن من فعل ذلك فهو فاسق لا يجوز أن يصدّق على الله ولا- على الوسائط بين الخلق وبين الله فلذلك ذمهم، وكذلك عوامنا إذا عرفوا من علمائهم الفسق الظاهر والعصية الشديدة والتكالب على الدنيا وحرامها فمن قلّم مثل هؤلاء فهو مثل اليهود الذى ذمهم الله بالتقليد لفسقه علمائهم فأما من كان من الفقهاء صائناً لنفسه حافظاً لدينه مخالفاً لهواه مطيعاً لأمر مولاه فللعوام أن يقلدوه» (١).

ج ج

٣- عوامل التقليد الأعمى

التقليد الأعمى أو بتعبير آخر: (تقليد الجاهل للجاهل) والأسوء منه (تقليد العالم للجاهل)، دليل على الإرتباط الفكرى، وله عوامل عديدة، نتعرض لبعضها بالإجمال هنا:

(١). الوسائل الشيعية، ج ١٨، ص ٩٤.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٧٥

١- عدم النضج الفكرى: إنَّ أشخاصاً قد ينضجون ويبلغون جسيماً، إلَّا أنَّ فكرهم لا يستقل ولا يبلغ إلى آخر العمر، ولهذا يظلون من أتباع هذا وذاك، ولا يفكرون يوماً في مسألة ما ولا يحللونها باستقلال. إنَّ أنظار هؤلاء تترصد الآخرين دائماً، فيرددون ما يتفوه به الآخرون، وكأنهم خُلِقوا بلا إرادة، ولهذا قد يغيرون اتجاههم بالكامل إذا ما تغيرت بيئتهم أو تغير محيطهم.

إنَّ طريق مكافحة هذا النوع من التقليد الأعمى هو رفع المستوى الثقافى للمجتمع والسعى لإزدهار الأفكار والقابليات.

٢- التأثر بشخصية: وهى أن يتأثر الإنسان بشخصية ما ويجعلها أسوة له بحيث لا يرى نفسه أهلاً لإبداء الرأى أمام صاحبها، فيتبعه بكل معنى الكلمة ويسير خلفه وإن لم تكن تلك الشخصية أهلاً للتباع والتقليد.

٣- التعلق الشديد بالأسلاف: والتعلق هذا قد يصنع منهم أناساً مقدسين وإن لم يكونوا أهلاً لذلك، فتتبعهم الأجيال اللاحقة عشوائياً، ومع أنَّ الأجيال اللاحقة التى ترث علوم السالفين وتضيف إليها علوماً اخرى تكون أكثر وعياً بطبيعة الحال، لكنها مع ذلك تبتلى بالتقليد العشوائى.

٤- التحزب أو التعصب الطائفى: إنَّ تعصباً كهذا يدفع بفريق من الناس لاتباع حزب أو طائفة والسير خلفهما والتمسك بترديد ما يتبناه ذلك الحزب أو تلك الطائفة، بحيث لا يسمح الإنسان لنفسه بالتفكير باستقلال والعمل خارج اطار الحزب أو الطائفة. إنَّ هذه العوامل الأربعة وعوامل اخرى سبباً لانتقال كثير من الخرافات والأوهام والعقائد الباطلة والتقليد والعادات الخاطئة والسنن الجاهلية والأعمال القبيحة من قوم إلى قوم آخرين ومن نسل إلى نسل آخر. وبتعبير آخر، فإنَّ الميول الخاطئة تجعل حجاباً على فكر الإنسان تحول دون معرفته للحق.

ج ج

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٧٦

٨- حجاب حب الرفاه

إشارة

فى البدء نتأمل خاشعين فى الآيات التالية:

١- (وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهَدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَحْنُ مَعَ الْقَاعِدِينَ * رَضُوا بِأَنْ يُكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ . (التوبة/ ٨٦- ٨٧)

٢- «إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يُكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . (التوبة/ ٩٣)

ج ج

جمع الآيات وتفسيرها

اعفنا من الجهاد:

أشارت الآية الأولى إلى أولئك الذين لم يستعدوا لتنفيذ الأوامر الإلهية في مجال الجهاد، فبالرغم من اقتدارهم الجسمي والمالي للحضور في سوح القتال لكنهم انضموا إلى صفوف القاعدين وغير القادرين على الجهاد، وقد ألحوا على الرسول صلى الله عليه وآله بأن يذرهم ويجعلهم مع القاعدين والخوالف.

و «القاعدين» جمع «قاعد» وهم المعذورون عن الجهاد.

و «الخوالف» جمع «خالفة» ومن مادة (خَلَف) ومعناها يقابل الأمام، ولهذا يقال «خالفة» للنساء اللاتي يبقين ماكنات في بيوتهن عند خروج رجالهن، ولا- يبعد أن يكون مفهوم هذه المفردة أعم من النساء، بحيث يشمل جميع العاجزين عن الجهاد والمعذورين عن الالتحاق بساحات القتال من النساء والأطفال والشيوخ والمرضى

يقول الراغب في مفرداته: إن «خالفة» عمود يجعل في نهاية الخيمة وتطلق - كناية - على النساء الماكنات في البيوت، ويقول البعض: إن «خالف» من تخلف كثيراً (١).

(١). تفسير المنار، ج ١٠، ص ٥٧٢.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٧٧

وتستعمل هذه المفردة - أحياناً - بمعنى «كراهه الرائحة» من باب أن الرائحة الكريهة تستخلف الرائحة الجيدة إذا ما ذهبت.

وقال البعض: إنها بمعنى الانحطاط والميل إلى الامور الدنيئة لأن هذا المثل يدل على التخلف (١)، إلا أن المعنى الأول أنسب من بقیة المعاني.

وعلى أية حال، فإن محبي الرفاه وطلاب العافية غير مستعدين للايثار والتضحية عند الأزمات والكوارث الاجتماعية، وهم مستعدون لأن يجعلوا في صفوف الأطفال والمرضى دون أن يلتحقوا بصفوف المجاهدين، ويقول القرآن فيهم، في نهاية الآية نفسها: «وَطَبِحَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ».

نعم، إن حب الراحة والرفاه كالحجاب الذي يمنع من الرؤية الفكرية الصحيحة، فهؤلاء لا يدركون أن السعادة ليست بالأكل والشرب، بل قد تكون في الحضور في ميادين الجهاد، وفي التخضب بالدماء، وبلقاء الله، إلا أن الذي لا يفهم هذه الامور يستهزئ بها.

ج ج

وتشير الآية الثانية إلى المعذورين عن الجهاد مثل الضعفاء والمرضى والذين لا يملكون الوسيلة للقيام بهذا الأمر، بينما تشاق إليه قلوبهم، وتصب دموعهم لعدم اقتدارهم على الانفاق، يقول الله فيهم: «إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْتِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ».

ثم يضيف: «وَطَبِحَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَمَّا يَظُنُّونَ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمِيلَ إِلَى الرَّاحَةِ جَعَلَ حِجَابًا سَمِيكًا عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ شَيْئًا، إِنَّ كِلْتَا الْآيَتَيْنِ تَوْضِحُ حَقِيقَةَ وَاحِدَةٍ وَهِيَ الْعِلَاقَةُ بَيْنَ «التخلف عن الجهاد لأجل الراحة والصحة» و «عدم إدراك الحقائق».

(١). تفسير الكبير، ج ١٦، ص ١٤٣.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٧٨

٩- حجاب الأمانى

إشارة

١- «يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بلى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ».

(الحديد/ ١٤)

جمع الآيات وتفسيرها

الآمال البعيدة:

إنَّ «الأمانى» جمع «أمنية» وتطلق على الحالة النفسية التي تعرض للإنسان من جراء تمنيه لشيء ما «١»، والجدير بالذكر أنَّ الأمانى المعقولة والمنطقية ليست نقصاً، بل هي عامل لتقدم البشر وبناء مستقبل أفضل له من الحاضر، إنَّما النقص فى الآمال البعيدة وغير المنطقية، ولهذا يفسرون الأمانى فى موارد كهذه بالمعنى الثانى، حيث تجعل الإنسان فى غفلة وتسدل حجاباً من الظلمة على قلبه. ويقول ابن الأثير: إنَّ التمنى يعنى تشهَى حصول الأمر وكذلك يطلق على ما يخطر على النفس بالنسبة للمستقبل، كما أنَّ «مُنِيَّة» و «الامنيَّة» وردتا بمعنى واحد «٢»، إلَّا أنَّ بعضاً فسر «الأمنية» بالكذب، ذلك لأنَّ الكاذب يُقدِّر أمراً فى قلبه ثم يحدث به «٣». يقول الراغب: لما كان الكذب تصوّر ما لا حقيقة له صار التمنى كالمبدأ للكذب فصَحَّ أن يُعبَّر عن الكذب بالتمنى. وادّعى البعض: أنَّ معنى هذه المفردة فى الأصل هو التقدير والفرض والتصوير «٤»،

(١). مفردات الراغب، وينبغى الالتفات إلى أنَّ الأمانى جمع أمنية، أمّا مُنى فجمع منية.

(٢). لسان العرب.

(٣). المنجد مادة (منى).

(٤). مجمع البحرين للطريحي.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٧٩

وقد قيل للأمانى أمانى لأنَّ الإنسان يقدرها ويصورها فى ذهنه.

وعلى أية حال، فإنَّ المؤمنين عندما يجتازون المحشر نحو الجنة بسرعة فى ظل الإيمان يصرخ المنافقون والمنافقات: «أُنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ»، فيجيبهم المؤمنون:

«ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ» الدنيا «فَأَلْتَمِسُوا نُوراً فَضْرَبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ». (الحديد/ ١٣)

وعندها يصرخ المنافقون: «أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ فى الدنيا فى مجتمع واحد وقد كنا فى بعض الطريق معكم؟ فما الذى حصل حيث انفصلتم عنا واتجهتم نحو رحمة الله وتركتونا فى العذاب؟

فيجيبهم المؤمنون «بلى كنا معكم فى مجتمع واحد، فى الزقاق وفى السوق، وفى السفر والحضر، وكنا جاراً لكم، بل عشنا فى بيت واحد، ولكنكم أخطأتم خمسة أخطاء فاحشة، الأول: أنكم سلكتم طريق الكفر والنفاق ففتنتم أنفسكم: «وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ».

وثانياً: أنكم «تَرَبَّصْتُمْ وترصدتم فشل المسلمين، وموت الرسول صلى الله عليه وآله، وتحججتم فى كل عمل خير.

وثالثاً: «وَأَرْبَبْتُمْ وترددتم خاصة في مسألة المعاد، وحقانية الإسلام.

ورابعاً: «وَعَزَّيْتُمْ الْأَمَانِيَّ التي نسجت حجاباً ضخماً على عقولكم وأفكاركم «حتى جاء أمر الله .

وخامساً: «وَعَزَّيْتُمْ بِاللَّهِ الْعُزْرَةَ» أي غرركم الشيطان بعفو الله ووعدكم بالألّا ينالكم عذابه.

نعم، إن هذه العوامل معاً أوجدت المنظر الذي صوره القرآن لنا، وهي التي سببت خلق سورٍ عازل بين المؤمنين والمنافقين.

إن شاهد حديثنا هو الجملة الرابعة، حيث جاء فيها «وَعَزَّيْتُمْ الْأَمَانِيَّ ، الأمانى قد تصل إلى درجة بحيث تشغل فكر الإنسان بالكامل،

فيغفل عن كل شيء، ويظل في

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٨٠

عالم الوهم والظن، فتعمى عيناه، ويثقل سمعه، ويفقد وعيه (إذا كان واعياً)، ويظل في الظلمات التي وضعها بنفسه تائهاً.

إن سعة الأمانى قد تصل إلى درجة يرسم صاحبها خططاً لنفسه لا يمكن تطبيقها حتى لو كان كنوح عليه السلام في العمر، وقد يقوم

بمقدمات امنيه، الكل يعلم بعدم امكانها حتى لو كان قد بدأ بها منذ قرون، وهذا هو حجاب الأمانى الذى يحول دون المعرفة.

وقد نقل بعض المفسرين خمسة أقوال في تفسير الأمانى إضافة إلى الآمال البعيدة، والأقوال هي:

(تمنى فشل المؤمنين وضعتهم، وإغواء الشيطان، والدنيا، وتوقع استغفار الرسول للمنافقين، وتذكر الحسنات ونسيان السيئات) «١»، وقد

فسرها البعض ب «الأباطيل».

توضيح:

حجاب الأمانى فى الروايات الإسلامية:

إن مسألة (الآمال الطويلة والأوهام البعيدة عن الواقع، وأنها تجعل حجاباً على عقل الإنسان وشعوره) لم يشر إليها فى القرآن الكريم

فحسب، بل لها شواهد كثيرة فى الروايات الإسلامية والتواريخ أيضاً، ففى حديث مشهور للإمام على عليه السلام يقول فيه: «إن أخوف

ما أخاف عليكم اثنان، إتباع الهوى وطول الأمل، فأما اتباع الهوى فيصدد عن الحق وأما طول الأمل فينسى الآخرة» «٢».

ويقول فى كلماته القصار: «الأمانى تعمى أعين البصائر» «٣».

ونقرأ فى حديث آخر لنفس الإمام عليه السلام: «جماع الشر فى الاغترار بالمهل والاتكال على الأمل» «٤».

(١). تفسير القرطبي، ج ٦، ص ٦٤١٧.

(٢). نهج البلاغة، الخطبة ٤٢.

(٣). نهج البلاغة الكلمات القصار، الكلمة ٢٧٥.

(٤). غرر الحكم (حرف ج رقم ٥٥).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٨١

كما نقل عن نفس الإمام فى هذا المجال أنه قال: «غرور الأمل يفسد العلم» «١».

والخلاصة أن من يريد الاطلاع على جمال الحقيقة كما هى ويصل إلى ينبوع المعرفة الصافى، ينبغى له أن لا يغطى عقله بحجاب

الأمانى السميكة، وأن لا يضل فى متاهات طريقها.

ونختم هذا البحث بحديث آخر للإمام أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول فيه: «واعلموا أن الأمل يسهى العقل ويُنسى الذكر فاكذبوا

الأمل فإنه غرورٌ وصاحبه مغرور» «٢».

ج ج

(١). غرر الحكم (حرف ج، رقم ٥٥).

(٢). نهج البلاغة، الخطبة ٨٦.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٨٣

٢- الأعمال التي تحجب عن المعرفة

١- حجب الذنوب

إشارة

نتأمل خاشعين معاً في الآيات التالية:

١- «الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَمَا يُكذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . (المطففين / ١١-١٤)

٢- «فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ . (محمد / ٢٢-٢٣)

٣- «أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبِنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . (الأعراف / ١٠٠)

٤- «ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُا السُّوْأَىٰ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ . (الروم / ١٠)

جمع الآيات وتفسيرها

الذنب يُعمى الإنسان ويصمه:

أشارت الآية الأولى إلى أولئك الذين أنكروا القيامة بالكامل، وأضافت: أن القيامة لا ينكرها إلا المعتدون والآثمون، فإنهم لا يخضعون أمام الحق ولا يسلمون إليه أنفسهم أبداً، ولهذا إذا تليت عليهم آيات الله قالوا: أساطير الأولين.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٨٤

ويصرح القرآن: أن الأمر ليس كما يتوهم هؤلاء، وقولهم هذا سببه الصدأ الذي أحاط قلوبهم وحال دون أن يعقلوا شيئاً. لقد استخدمت مفردة «رَيْن» في هذه الآية الكريمة، وقد قلنا سابقاً: أن لها معاني ثلاثة (على ما يدعيه أئمة اللغة) الأول: الصدأ الذي يعلو الأشياء القيمة، الثاني: الصدأ الذي يعلو الفلزات وهو علامة تآكل وفساد ذلك الفلز، الثالث: كل شىء غلب على شىء آخر، ولهذا تستعمل هذه المفردة في مجال غلبة الشراب المسكر على العقل وغلبة الموت على الأحياء، وغلبة النوم على العيون «١».

وبالطبع يمكن جمع هذه المعاني الثلاثة في مفهوم واحد وهو الصدأ الذي يستحوذ على الأشياء ويعلوها، ثم اطلقت هذه المفردة على غلبة كل شىء على شىء آخر.

ونستشف من هذه الآية أن الإثم يعكر صفاء القلب بحيث يمنع انعكاس الحقائق في هذه المرآة الإلهية، وإلا فإن آيات الله خصوصاً في مسألة المبدأ والمعاد واضحة ولا تقبل الإنكار.

ولهذا فقد قال بعض المفسرين: يظهر من هذه الآية أولاً: أن الأعمال القبيحة تُوجد نقوشاً وصوراً في نفس الإنسان، وثانياً: أن هذه الصور والنقوش تحول دون إدراك الحق.

وثالثاً: إن روح الإنسان - وحسب طبيعتها الأولية - صافية وشفافة، وتدرك الحقائق كما هي، وتميز بين الحق والباطل وبين التقوى والفجور، كما جاء ذلك في الآيات «وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا» فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا «٢». (الشمس / ٧-٨)

وقد حلل مفسرون آخرون المسألة بشكل ملخص آخر.

عندما يكرر الإنسان عملاً ما فإن ملكة نفسانية لذلك العمل ستحصل عنده تدريجياً، كالقراءة والكتابة، ففي البداية يشق عليه الأمر، وبعد الممارسة يتمكن منهما بدرجة لا يحتاج فيهما إلى فكر ودراسته.

(١). تفسير الكبير، ج ٣١، ص ٩٤؛ تفسير روح المعاني، ج ٣، ص ٧٢.

(٢). تفسير الميزان، ج ٢٠، ص ٣٤٩.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٨٥

وكذلك الأمر بالنسبة للذنوب، فبالإصرار عليها وارتكابها مرات عديدة تحصل هذه الملكة عند الإنسان، ونعلم أنه لا حقيقة للذنب غير إشغال القلب بغير الله، والتوجه لغير الله ظلمة، وعندما تتراكم الظلمات على القلب تسلبه صفاءه وشفافيته، وإن لهذه الظلمات درجات ومراحل، المرحلة الأولى هي مرحلة «الزئير» أو الصدا، والمرحلة الثانية هي مرحلة «الطبع» والمرحلة الثالثة هي مرحلة «الأفقال» وهي أشد المراحل.

ج ج

والآية الثانية ناظرة إلى المنافقين الذين يدعون الإيمان، فإذا ما نزلت آية في الجهاد تمارضوا وتذرّعوا بذريعة من هو على وشك الموت، فيخاطبهم القرآن قائلاً، إن استمراركم في مخالفتكم هذه وإعراضكم عن العمل بكتاب الله، سيؤدي بكم إلى أن تفسدوا في الأرض، وأن تقطعوا أرحامكم، ولا يأمن شركم حتى أرحامكم، ثم يضيف:

«أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ (بذنوبهم فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ فما كادوا يسمعون الحق ولا يرونه.

وقد كشفت هذه الآيات عن أن النفاق حجاب للقلب والروح من جهة، ومن جهة أخرى عن التأثير السلبي للذنوب خصوصاً (الفساد في الأرض) و (قطع صلة الرحم) و (الظلم والجور) على إدراك الإنسان وتمييزه بين الحق والباطل.

ولقد فسّر البعض عبارة «إن توليتم» بالأعراض، وفسرها بعض آخر بالولاية والحكومة، أي أن مقاليد الامور إذا أصبحت بأيديكم فستفسدون وتريقون الدماء وتقطعون الأرحام «١»، ولهذا جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام: أن الآية نزلت في بني أمية «٢»، وهذا تلميح إلى أنهم عند استلام زمام الامور والحكومة الإسلامية سوف لا يرحمون صغيراً ولا كبيراً، ولم يسلم من ظلمهم أحد حتى أقاربهم وذووهم.

(١). ورد كلا التفسيرين في تفاسير روح المعاني ومجمع البيان والميزان في ذيل الآيات المذكورة في البحث.

(٢). تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٤٠، ح ٥٩.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٨٦

وسواء كان معنى «التولي» هنا هو الإعراض عن الجهاد أو استلام مقاليد الامور في الحكومة والفساد في الأرض، فإن ذلك لا يضر ببحثنا، لأن الآية على أية حال تبين أن الذنوب حجاب للقلوب.

ج ج

وقد أشارت الآية الثالثة إلى أولئك الذين ورثوا الأسلاف من دون أن يعتبروا بمصيرهم الذي ابتلوا به، فخاطبتهم: «لو نشأ أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون».

عطف العقاب على الذنوب مع الطبع على القلوب والآذان، تلميح إلى العلاقة بين هذين الاثنين.

ويقول البعض: إن الله إذا شاء عذبهم بأحد العذابين: إما بإهلاكهم بسبب ذنوبهم، وإما بإبقاءهم أحياء مع سلب قدره تمييز الحق عن الباطل منهم، وهذا عذاب أتعس من عذاب الهلاك الإلهي.

إلا أنه بالالتفات إلى مجيء «أصبناهم» بصيغته الماضي و «نطبع على قلوبهم» بصيغته المضارع، نفهم أن الجملة الثانية مستقلة وليست عطفًا على ما قبلها، فيكون معنى الآية هكذا: (سواء عجلنا بعذابهم أم لم نعجل فنحن نطبع على قلوب هؤلاء ونلقى حجباً عليها) «١».

ج ج

أشارت رابع وآخر آية إلى عاقبة الذين يرتكبون الأعمال السيئة فقالت: «ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَصَابُوا السُّوْأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَمْ يَكُنْ مَصِيرُهُمْ هَذَا وَالذَّنْبُ كَالْمَرَضِ الَّذِي يَنْقُضُ عَلَى رُوحِ الْإِنْسَانِ فَيَتَأَكَّلُ الْإِيمَانَ مِنْ جِرَائِهِ؟ وَلَمْ يَكُنْ هَكَذَا

(١). جاء هذا كاحتمال في تفسير الكبير، في ذيل نفس الآية، إلا أن صاحب تفسير الميزان عدَّ الجملة الثانية معطوفة على «أصبناهم» التي تفيد الاستقبال، لكن الظاهر أن التفسير الأول أنسب.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٨٧

وهو كالحجاب الذي يغطي القلب ويعميهِ؟ والأسوأ أنه لا يكفر فحسب، بل يفتخر بكفره، وقد شهد التاريخ الكثير من هؤلاء. وخالصة الحديث، إن القرآن يعدُّ الذنوب والمعاصي من موانع المعرفة، وهذه حقيقة ملموسة ومجربة عند كثير من الناس، فبمجرد صدور ذنب أو معصية منهم يشعرون بظلمات خاصة في قلوبهم، وإذا ما مالوا إلى الطهارة والتقوى يشعرون بأنوار تتراح لها قلوبهم.

ج ج

توضيح:

إن الذنب حجاب في الروايات الإسلامية

لقد انعكست هذه الحقيقة في الروايات الإسلامية بشكل واسع نذكر هنا نماذج منها:

١- جاء في حديث للرسول الأعظم صلى الله عليه وآله يقول فيه:

«إنَّ العبد إذا أخطأ خطيئته نكتت في قلبه نكتة سوداء فإذا هو نزع واستغفر الله وتاب صيقل قلبه فإن عاد زيد فيها حتى تعلق على قلبه، وهو الزان (الرين) الذي ذكر الله في كتابه: «كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» «١».

٢- ونقرأ في حديث الإمام الصادق عليه السلام: أنه قال فيه:

«كان أبي يقول: ما من شيء أفسد للقلب من خطيئته، إنَّ القلب لِيُوقِعُ الخَطِيئَةَ فما تزال به حتى تغلب عليه فيصير أعلاه أسفله» «٢».

بديهي أن المراد من (أعلاه أسفله) تغير قدرة الإنسان على التمييز- بسبب الانس بالذنوب- حيث يرى الحسن قبحاً والقبح حسناً، وهي أخطر مرحلة.

٣- وقد جاء في حديث آخر للإمام الصادق عليه السلام أيضاً يقول فيه:

(١). تفسير القرطبي، ج ١٠، ص ٧٠٥٠، روح المعاني، تفسير ج ٣، ص ٧٣، وتفسير الكبير، ج ٣١، ص ٩٤.

(٢). اصول الكافي، ج ٢ باب الذنوب، ح ١.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٨٨

«إذا أذنب الرجل خرج في قلبه نكتة سوداء فان تاب انمحت، وإن زاد زادت حتى تغلب على قلبه فلا يُفلح بعدها أبداً» (١).

واضح، أن الشرط الأول للفلاح هو إدراك الحقائق، فالذي تعطل قلبه (عقله) عن العمل كيف يمكنه الوصول إلى السعادة والفلاح؟!

وقد جاء نفس المضمون في رواية أخرى عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير الآية «كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ»، وتم

التعبير فيه بالنكتة السوداء والنكتة البيضاء حيث تتغلب السوداء - نتيجة تراكم الذنوب - على البيضاء النورانية وتغطيها (٢).

٤- وفي حديث آخر للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله يقول فيه:

«كَثْرَةُ الذُّنُوبِ مُفْسِدَةٌ لِلْقَلْبِ» (٣).

٥- وقد نقل في كتاب الخصال حديث عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله جاء فيه:

«أربع خصال يُمتن القلب: الذنب على الذنب...» (٤).

ولهذا، فإننا أمرنا - لمحو آثار الذنوب - قراءة ودراسة أحاديث الأئمة إضافة إلى التوبة، كما نقل ذلك في نور الثقلين عن الرسول

الأكرم صلى الله عليه وآله:

«تذاكروا وتلاقوا وتحذثوا فإن الحديث جلاء للقلوب وإن القلوب لترين كما يرين السيف، وجلاءه الحديث» (٥).

٦- وقد أشار أمير المؤمنين عليه السلام لهذه الحقيقة في خطبة له مخاطباً بها بعض عمى القلوب:

«قد خرقت الشهوات عقله وأمانت الدنيا قلبه وولت عليها نفسه فهو عبد لها» (٦).

(١). اصول الكافي، ج ٢ باب الذنوب، ح ١٣.

(٢). المصدر السابق، ح ٢٠، وقد نقل نفس المضمون في مجمع البحرين في مادة (ارين) أيضاً.

(٣). تفسير در المنثور، ج ٦، ص ٣٢٦.

(٤). الخصال، ج ١، ص ٢٥٢، ح ٦٥، وقد جاء مضمون يشبه هذا في تفسير در المنثور، ج ٦، ص ٣٢٦.

(٥). تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٥٣١، ح ٢٣.

(٦). نهج البلاغة، الخطبة ١٠٣.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٨٩

٧- وقد نقل الإمام الصادق عليه السلام عن الرسول صلى الله عليه وآله أنه قال:

«إذا ظهر العلم واحترز العمل واثلت الألسن واختلفت القلوب وتقاطعت الأرحام هنالك لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم» (١).

٨- وقد صرح بهذا الأمر بالنسبة لبعض الذنوب كما جاء ذلك في حديث لأمير المؤمنين عليه السلام مخاطباً به أولئك الذين تركوا

الجهاد:

«ألبسه الله ثوب الذل... وضرب على قلبه بالأسهاب وأدبل الحق منه بتضييع الجهاد» (٢).

٢- حجاب الكفر والأعراض

في البداية نمنع خاشعين في الآيات الكريمة التالية:

١- «تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ .
(الأعراف / ١٠١)

٢- «فَبِمَا نَقُضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا».
(النساء / ١٥٥)

٣- «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُهُ أَنَا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا» . (الكهف / ٥٧)

٤- «وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ» . (فصلت / ٤٤)

(١). تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٤١، ح ٤٣.

(٢). نهج البلاغة، الخطبة ٢٧.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٩٠

جمع الآيات وتفسيرها

لِمَ يَحِبُّ الذَّنْبُ الْقُلُوبَ عَنِ الْفَقْهِ؟

إنَّ الآية الأولى بعد إشارتها إلى تاريخ وقصص خمسة أقوام من الأقسام السالفة وهم (قوم نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب) حيث نزل عليهم العذاب الإلهي لتكذيبهم آيات الله، قالت: «تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ ...».

إنَّ جملة «كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ لَا- تشير إلى أي كافر كان، وذلك كثيراً من المؤمنين كانوا في صفوف الكفار والتحقوا بصفوف المؤمنين بعد سماعهم لدعوة الأنبياء، فالمراد- إذن- ذلك الفريق من الكافرين الذين ألحوا وأصرروا على كفرهم، فان كفرهم هذا يحول دون معرفتهم ورؤيتهم للحق.

والشاهد على هذا الكلام هو قوله: «فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ أَى أَنْ تعصبهم بلغ درجة لا- تسمح لهم بتغيير طريقتهم والرجوع عن الباطل إلى الحق، وقد ذكرت خمسة وجوه في تفسير هذه الجملة في تفسير الميزان والفخر الرازي «١»، إلّا أن أظهرها هو ما تقدم اعلاه.

والآية الثانية بعد ما أشارت إلى سلوك فريق من اليهود وعدائهم للأنبياء قالت: «فَبِمَا نَقُضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ ...».

يقول القرآن: إنهم لا يفقهون شيئاً وذلك لكفرهم فطبع الله على قلوبهم من جراء ذلك.

بديهي أن المراد من الكفر هنا هو الكفر المترامن مع العناد، والكفر المترامن مع العدا للأنبياء، والكفر المترامن مع نقض المواثيق باستمرار والاستهزاء بآيات الله، ومسلم أن كفرة كهذا يجعل حجاباً على عقل الإنسان لا يسمح لصاحبه أن يدرك الحقائق، وهذا شيء صنعته أيديهم ولا جبر في البين.

ويظهر أن مرادهم من «قلوبنا غلف» هو الاستهزاء بآيات الله وبشخصية موسى بن عمران، لا أنهم يعتقدون أن قلوبهم خلقت مغلفة لا تفهم الحقائق (كما جاء ذلك في بعض

(١). تفسير الميزان، ج ٨، ص ٢١٥؛ تفسير الكبير، ج ١٤، ص ١٨٦.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٩١

التفاسير) «١»، إلّا أنّ الله أخذ كلامهم بالجد وأجابهم: «بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ...».

وهناك احتمال آخر وهو أنّ مرادهم من الجملة هو أنّ قلوب كلّ منهم كالوعاء المليء بالعلم والغمد الذي فيه السيف فلا تحتاج لعلوم الآخرين «٢»، إلّا أنّ هذا الاحتمال بعيد جداً.

وعلى هذا، فهناك ثلاثة احتمالات في تفسير الآية والأول أنسب من الآخرين، وقد نقل في بعض التفاسير حديث ذا مغزى عميق عن الرسول صلى الله عليه وآله يقول فيه: «الطابع مُعَلَّقٌ بِقَائِمَةِ الْعَرْشِ فَإِذَا انْتَهَكَتِ الْحَرَمَةَ وَعُغِلَ بِالْمَعَاصِي وَاجْتُرِيَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى الطابع فطبع على قلبه فلا يعقل بعد ذلك شيئاً» «٣».

والجدير بالذكر هو أنّ «طابع» اسم فاعل للطبع و«طابع» اسم آلة الطبع، ويظهر في الحديث أنّ الكلمة الأولى بالفتح والثانية بالكسر. وهذا الحديث يؤكد بوضوح الحقيقة التالية: أنّ لا جبر هنا، وأنّ حجب القلوب نتيجة لأعمال الإنسان نفسه.

ج ج

وطرحت الآية الثالثة سؤالاً تقريرياً حيث قالت: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ...».

إنّ دليل اعتبار القرآن هؤلاء أظلم الناس واضح لأنهم ظلموا أنفسهم كما ظلموا الآخرين كذلك فإنّ ظلمهم هذا وقع في محضر الساحة القدسية الإلهية مع وجود تعاليمه الحقّة، وعليه فالآية لا تدل على عدم الجبر فحسب، بل تدل على اصالة الاختيار. وما يلفت النظر هنا هو أنّ الفخر الرازي بالرغم من كونه من القائلين بالجبر، لكنّه

(١). تفسير الميزان، ج ٥، ص ٣٨؛ تفسير القرطبي، ج ٣، ص ٢٠٠٤.

(٢). لقد جاء هذا الاحتمال في التفاسير التالية: في تفاسير الكبير، ج ١١، ص ٨٧؛ والقرطبي، ج ٣، ص ٢٠٠٤؛ وروح المعاني، ج ٦، ص ٨.

(٣). تفسير روح المعاني، ج ٦، ص ٨.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٩٢

عندما يصل إلى هذه الآية يقول: إنّ آخر الآية دليل لمؤيدي الجبر، بينما صدرها دليل لمؤيدي الاختيار! ثم يضيف: قلما نجد آية في القرآن تؤيد أحد الفريقين، وإذا ما وجدنا آية مؤيدة لفريق وجدنا قبالتها آية تؤيد الفريق المقابل، والتجربة شاهد على ما نقول، وهذا امتحان صعب من الله للعباد، وذلك لكي يتمييز الراسخون في العلم عن المقلّدين «١»! ياله من اعتراف عجيب؟! ونضيف إلى ما قاله الفخر الرازي: أنّ كلّاً من آيات القرآن لا يمكن دراستها وملاحظتها لوحدها من دون ملاحظة ودراسة الآيات الأخرى فضلاً عن صدر وذيل الآية الواحدة، كما نقول: إنّ الآية بصدرها وذيلها دليل على مسألة الاختيار لا شيء آخر، وذلك لأنّ صدرها يقول: إنّ الإعراض عن آيات الله واقتراف الذنوب من أفعال الإنسان وهو فاعلها باختياره، بينما ذيل الآية يقول: إنّ الله يعاقب المصّرّين على السير في هذا الطريق، وعقابهم هو جعل الأكنة على قلوبهم.

وبتعبير آخر: إنّ الله جعل لهذه الذنوب آثاراً ومردودات، وهذه الآثار تعكّر صفاء القلب، وتسلب قدرة التمييز عند الإنسان، فأى جبر في هذا الحديث؟!

مثله كمثل الخبير الذي يعلم بأن السم قاتل، وبالرغم من ذلك يتناوله، فهل هذا التأثير القهري للسم جبر؟!

ج ج

وقد أشارت الآية الأخيرة إلى المعاندين الذين يختلقون الحُجج ويسألون- أحياناً- هذا السؤال: لِمَ لَمْ ينزل القرآن أعجباً كي نعيه

أهميته أكبر ولكي لا ينحصر في العرب؟

(قد يكون غرضهم الأساسي من هذا هو عدم فهم عامة الناس له والاقبال عليه إذا ما كان أعجمياً).

(١). تفسير الكبير، ج ٢١، ص ١٤٢، والعجيب أن الألوسى في روح المعاني عندما نقل عبارة الفخر الرازي ادعى أن الفخر الرازي قال: إن هذه الآية من أدلة القائلين بالجبر والآية التي قبلها من أدلة القائلين بالاختيار. وقد نقل صاحب الميزان العبارة من روح المعاني، بينما مراد الفخر الرازي صدر وذيل الآية نفسها (تأمل جيداً).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٩٣

فأجابهم القرآن في صدر الآية: «وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْ لَأَفْضَلْتَ آيَاتُهُ . (فُصِّلَتْ / ٤٤)

أى لأشكلتم اشكالاً آخر وهو: أن القرآن مبهم وغامض، ثم يضيف القرآن: «ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ أَى هل يصح لنبى عربى أن يأتى بقرآن أعجمى؟

ثم أمر الله الرسول صلى الله عليه وآله بأن يجيبهم هكذا: «قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءً وَالَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا فِي آذَانِهِمْ وَقَرَّ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ».

وقد بينت الآية بوضوح أن اختلاق الحجج والعتاد والإصرار على الكفر يجعل حجاباً على القلوب يمنعها عن الإدراك والفهم (١).

٣ - حجاب الاعتداء والعدوان

إشارة

«ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ . (يونس / ٧٤)

جمع الآيات وتفسيرها

بينت الآيات السابقة لهذه الآية من سورة يونس قصة نوح، حيث كان يدعو قومه لله ويسعى لهدايتهم واندازهم من عذاب الله، إلّا أنهم كذبوه، فاغرقهم الله بطوفانه وأهلكهم، وأنقذ المؤمنين منهم بالسفينه فورثوا الأرض. ثم يضيف الله في الآية: إنا أرسلنا- بعد نوح- رسلاً كلنا إلى قومه مع معجز وأدلة واضحة ومنطقيه ورسائل يشهد محتواها على أحقيتهم، إلّا أنهم لم يخضعوا للحق واستمروا فى تكذيبهم.

(١). فسير البعض عبارة: «وهو عليهم عمى» بأن القرآن سبب لعمى هذا الفريق، بينما قال ابن منظور فى لسان العرب والراغب فى المفردات: إن جملة (عمى عليه) تعنى اشتبه عليه حتى صار كالأعمى (تأمل جيداً).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٩٤

ويقول الله فى ذيل الآية: «كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ، وهذه إشارة إلى أن الاعتداء والعدوان يترك حجاباً فى القلب يحول دون معرفة القلب لآيات الله وتمييزه بين الحق والباطل.

إنّ الطبع الإلهي على القلوب بالاضافة إلى كونه عقاباً إلهياً للمعتدين، كذلك يكون أثراً من آثار الاستمرار في الاعتداء، والمراد من الاعتداء هنا هو الاعتداء في الساحة الإلهية واستمرار المعصية واقرار الذنوب ومعادة الرسل.

إنّ جملة: «فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ إِشَارَةٌ إِلَى أَنْ بَعْضَ الرُّسُلِ جَاءُوا أَقْوَامَهُمْ فَكَذَّبُوهُمْ، ثُمَّ أَرْسَلَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ رَسُولًا آخِرِينَ مَعَ أَدَلِّهِ وَاضِحَةٍ فَمَا آمَنُوا بِهِمْ أَيْضًا، وَذَلِكَ لِأَنَّ عِنَادَهُمْ نَسَجَ حَاجِبًا سَمِيكًا عَلَى عُقُولِهِمْ فَأَصْبَحُوا لَا يَفْقَهُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ. وَيَقُولُ الْبَعْضُ: إِنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْمَكْذِبِينَ فِي الْآيَةِ قَوْمَ نُوحٍ الَّذِينَ أُغْرِقُوا بِالطُّوفَانِ، وَالْمُرَادُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِالْأَقْوَامِ الَّتِي جَاءَتْ بَعْدَ قَوْمِ نُوحٍ وَقَدْ سَلَكُوا مَسْلَكَ قَوْمِ نُوحٍ فِي الْإِعْتِدَاءِ عَلَى الرُّسُلِ وَتَكْذِيبِهِمْ» (١).

ويبدو هذا التفسير بعيداً عن الواقع لأنه لازمه اختلاف مرجع الضميرين في (كذّبوا) و (ليؤمنوا)، ولهذا فالأفضل هو التفسير الأول. ويحتمل أن يكون المراد هو: الأقوام التي جاءت بعد نوح والتي قد نُقِلت لها حقائق عن دعوة الأنبياء السالفين فكذبوا تلك الحقائق، ثم جاءتهم رسل فكذبوهم كذلك، وعلى هذا فالتكذيب الأول يتعلق بما نُقِلَ وحُكِيَ لهم، والتكذيب الثاني يتعلق بالأمور التي شاهدوها من الأنبياء بأعينهم (٢) ويبدو أن هذا التفسير مناسب، ولا يبعد الجمع بين التفسيرين.

ج ج

(١). تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ١٢٥.

(٢). تفسير روح المعاني، ج ١١، ص ١٤٣.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٩٥

٤- حجاب الرؤية السطحية وترك التدبر

إشارة

١- «وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا». (الإسراء / ١١)

٢- «أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا». (محمد / ٢٤)

جمع الآيات وتفسيرها

أقفال القلوب الثقيلة:

في الآية الأولى يذكر الله سبحانه وتعالى أحد أسباب الكفر وعدم الإيمان بالله وهو عدم دراسة الأمور بدقّة وتبحر، ويقول: إنهم وبسبب إضطرابهم وتسرعهم يتجهون أحياناً نحو الشر بشكل وكأنهم يتجهون نحو الخير والسعادة، ويتجهون نحو الهاوية بشكل وكأنهم يتجهون نحو مكان آمن ويتجهون نحو الذل والعار كما لو كانوا يتجهون نحو طريق الفخر والعز.

أي أنّ تفكيرهم السطحي وتركهم التدبر يجعل حجاباً على عقولهم يحول دون إدراكهم الصحيح، فيرون- لأجل ذلك- الشرّ خيراً والشقاء سعادة، والضلال صراطاً مستقيماً.

وقد جاء في تفسير الميزان: أنّ المراد بكون الإنسان عجولاً هو: أنه لا يأخذ بالإناء إذا أراد شيئاً حتى يتروى ويتفكر في جهات صلاحه وفساده حتى يتبين له وجه الخير فيما يريده من الأمر فيطلبه ويسعى إليه، بل يستعمل هواه في طلبه بمجرد تعلقه به فرّما كان شرّاً

فتضرر به، لكن جنس الإنسان عجول لا يفرق بين الخير والشر بسبب عجلته، بل يطلب كل ما لاح له ويسأل كل ما بدا له فتعلق به هوام من غير تمييز بين الخير والشر (١).

أما المراد من «يَدْعُ» هنا؟ فيقول البعض: أنه الطلب سواء كان في صورة دعاء أو طلب

(١). تفسير الميزان، ج ١٣، ص ٤٩ (ملخص).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٩٦

من الله أو كان بصورة طلب عملي أي، السعي لتحصيل الشيء وبذل الجهود لِنَيْلِهِ (١).

إلا أن المستفاد من بعض التفاسير أن المراد هو الدعاء اللفظي والطلب من الله، ولهذا قيل في شأن نزول الآية: إنها نزلت في حق النضر بن الحارث وهو من مشركي العرب المعروفين حين قال: «اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ»، فاستجاب الله هذا الدعاء وأهلكه (٢).

وقد ذكر المرحوم الطبرسي كلا التفسيرين في مجمع البيان ويظهر أن معنى الآية يسع كلا التفسيرين.

وقد جاء في حديث للإمام الصادق عليه السلام في تفسيره لهذه الآية قال فيه: «وَاعْرِفْ طَرِيقَ نَجَاتِكَ وَهَلَاكِكَ، كَيْلَا تَدْعُو اللَّهَ بِشَيْءٍ عَسَى فِيهِ هَلَاكُكَ وَأَنْتَ تَظُنُّ أَنْ فِيهِ نَجَاتُكَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى «وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا» (٣). وقد جاء في حديث آخر أن آدم نصح أولاده وقال لهم: «كُلُّ عَمَلٍ تُرِيدُونَ أَنْ تَعْمَلُوا فَعَفُّوا لَهُ سَاعَةً فَإِنِّي لَوْ وَقَفْتُ سَاعَةً لَمْ يَكُنْ أَصَابَتِي مَا أَصَابَتِي» (٤).

ومن هذا الباب اطلق العرب عبارة «ام الندامات» اسماً للعجلة، كما قيل: أن العجلة من الشيطان إلأى ستة موارد: أداء الصلاة في وقتها، دفن الميت، تزويج البنت الباكر عند بلوغها، أداء الدين عند حلول وقته، إطعام الضيف عندما يحل، والتوبة عند اقتراف الذنب. أمياً ما المراد من الآية «و كان الإنسان عجولاً» وأمثالها الذي ورد في القرآن الكريم والتي تعبر عن نقاط الضعف المهمية في طبيعة الإنسان؟ وكما ذكرنا في التفسير الأمثل أن المراد بالآية الإنسان الذي لم يتخلق باخلاق الله ولم يترب على أساس التربية الرسالية والدينية، لا الإنسان المهذب.

(١). تفسير الميزان، ج ١٣، ص ٥٠، وبما أن الباء في «بالخير وبالشر» باء صلة فيكون معنى الجملة هكذا: «يدعو الشر كدعائه الخير».

(٢). تفسير القرطبي، ج ٦، ص ٣٨٤١؛ و تفسير الكبير، ج ٢٠، ص ١٦٢.

(٣). تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ١٤١.

(٤). تفسير روح البيان، ج ٥، ص ١٣٧.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٩٧

ج ج

وتحدثت الآية الثانية عن فريق من المنافقين المعاندين حيث أُشير إليهم في الآيات السابقة بصفه عمى القلوب، وإذا تسلموا زمام الحكم ما رحموا صغيراً ولا كبيراً، واعتبرهم الله الملعونين والمطرودين من رحمته، وقال فيهم هنا: «أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا» لا قفل واحد بل أقفال، فكيف يمكنهم إدراك الحقائق؟ (محمد/ ٢٤)

هناك بحث بين المفسرين في أن «أم» متصلة أو منفصلة «١»، فإذا كانت متصلة يكون المعنى هكذا: أفلا يتدبرون القرآن أو أن هناك أقفالاً على قلوبهم؟ وأما إذا كانت منفصلة فالمعنى هكذا: أفلا يتدبرون القرآن؟ كلا، بل إن أقفالاً على قلوبهم.

وعلى كلا المعنيين فالآية دليل على وجود تضاد بين «التدبر» و «الحجاب على القلوب»، ويمكن القول: إن الآية تشير إلى حجاب ترك

التدبر.

وقد جاء في تفسير (في ظلال القرآن): «تدبر القرآن طبقاً لهذه الآية يزيل الغشاوة، ويفتح النوافذ، ويسكب نور المعرفة على القلوب، ويحرك المشاعر، ويستجيش القلوب، ويخلص الضمير ويجدد الروح ويجعلها أكثر صفاءً وإشراقاً» (٢).
وقد جاء بعض المفسرين بدليلين لذكر القلوب نكرة في الآية، الأول: أنها ذكرت نكرة لبيان حال قلوبهم المروّع، وأنها قلوب مجهولة مليئة بالقساوة والظلمات.

الثاني: إن المراد هو بعض القلوب لا كلها، لأن بعضهم لم يصلوا إلى تلك الدرجة من الظلمات بحيث تقفل قلوبهم وتتوقف عن إدراك الحقائق.

وذكر الأفعال بصيغة الجمع إشارة إلى الحجب المختلفة التي تجعل على قلوبهم مثل حجاب النفاق والعناد والغرور وحب النفس وغيرها.

كما ينبغي الإشارة إلى هذه النقطة وهي: إن بين «ترك التدبر» و«حجاب القلب» تأثيراً متبادلاً، فكل منهما يمكنه أن يكون علة للآخر في مرحلة ومعلولاً له في مرحلة أخرى،

(١). ينقل الآلوسی فی روح المعانی عن سیبویه أنها متصلة، بينما ينقل عن ابی حیان وفريق آخر أنها منفصلة (ج ٢٦، ص ٦٧).

(٢). تفسير في ظلال القرآن، ج ٧، ص ٤٦٢.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٩٨

فتارة ترك التدبر ينشأ عن ظلمات القلب، وتارة أخرى ظلمات القلب تنشأ عن ترك التدبر.

ونتهى حديثنا هذا برواية عن الإمام الباقر عليه السلام جاء فيها: «قرأ القرآن ثلاثة: رجل قرأ القرآن فاتخذه بضاعة واستدر به الملوك واستطال به على الناس، ورجل قرأ القرآن فحفظ حروفه وضيع حدوده واقامه إقامة القدح فلا كثر الله هؤلاء من حملة القرآن، ورجل قرأ القرآن فوضع دواء القرآن على داء قلبه فأسهر به ليله واطمأ به نهاره وقام به في مساجده وتجافى به عن فراشه فأولئك يدفع الله العزيز الجبار البلاء وأولئك يدل الله عز وجل من الأعداء وأولئك ينزل الله عز وجل الغيث من السماء فوالله لهؤلاء في قراءة القرآن أعز من الكبريت الأحمر» (١).

٥- حجاب الارتداد

إشارة

في البداية نتأمل خاشعين في الآية الكريمة التالية:

«اتَّخَذُوا إِيمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ* ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ .

(المنافقون / ٢-٣)

جمع الآيات وتفسيرها

إن هذه الآية ناظرة إلى المنافقين، وبالرغم من أن النفاق حجاب مستقل بحد ذاته إلا أن القرآن هنا يذكر موضوعاً آخر في هذا

المجال حيث يقول: «بَانَهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ .
يعتقد بعض المفسرين: أَنَّ الأشخاص المعنيين في هذه الآية هم فريق آمنوا ظاهراً وظلوا كفاراً باطناً.

(١). اصول الكافي، ج ٢، باب ١٣ النوادر، ص ٦٢٧، ح ١.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٩٩

إلما أن ظاهر الآية يكشف عن أنهم في البداية آمنوا حقاً، ثم كفروا بعد إيمانهم، وكان كفرهم هذا مترامناً مع النفاق، لأن التعبير ب «ثم» يدل على أن كفرهم حصل بعد الإيمان لا- أنه كان مترامناً مع الإيمان ليكون أحدهما ظاهراً والاخر خفياً، وعلى هذا فالآية تتحدث عن حجاب الارتداد.

ولا عجب في أن يطبع الله على قلب من آمن وذاق طعم الإيمان وحلاوته، وشاهد أنوار الرسالة، ثم كفر كفرةً تزامن مع النفاق. إذا التبس الحق على شخص منذ البداية فعذره يمكن أن يكون وجيهاً، أما إذا ارتد عن الإيمان بعد ما عرف الحق وآمن به، فهذا غالباً ما يكشف عن حالة العناد عند هذا الشخص، والله يسلب نعمة المعرفة عن أشخاص كهؤلاء ويطبع على قلوبهم. بالطبع لا دليل لنا على أن كل المنافقين كانوا غير مؤمنين منذ البداية، بل إن فريقاً منهم آمنوا في البداية حقاً ثم ارتدوا كما جاء ذلك في الآية: «وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ .

(التوبة/ ٧)

و هذا النفاق المترامن مع العناد هو الذي يجعل حجاباً على القلوب.

ونؤكد تارة اخرى أن هذا الحديث لا يدل على الجبر اطلاقاً، لأن مقدمات هذا الحرمان أوجدها المنافقون بأنفسهم.

٦- حجاب الكذب والافتراء

إشارة

في البداية نلاحظ خاشعين الآيات الكريمة التالية:

١- «الَّذِينَ تَرَى الَّذِينَ اتُّبِعُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن نَّمَسِّنَا النَّارَ أَلَا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

(آل عمران/ ٢٣- ٢٤)

٢- «وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا أَنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٠٠

نفحات القرآن ج ١ ٣٤٩

فَمَا أَعْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ . (الأحقاف/ ٢٤)

ج ج

جمع الآيات وتفسيرها

خُداع الكذب:

يقول بعض المفسرين في شأن نزول الآية الاولى

إن رجلاً وامرأة من اليهود زنياً، وكانا ذوى شرف، وكان في كتابهم الرجم، فكرهوا رجمهما لشرفهما، فرجعوا في أمرهما إلى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله رجاء أن يكون عنده رخصة في ترك الرجم فحكم الرسول صلى الله عليه وآله بالرجم فأنكروا ذلك فقال عليه الصلاة والسلام: بيني وبينكم التوراة فإن فيها الرجم فمن أعلمكم؟ قالوا: عبدالله بن سوريا الفدكي، فأتوا به واحضروا التوراة، فلما أتى على آية الرجم وضع يده عليها، فقال ابن سلام الذي كان على ملة اليهود وأسلم.

قد جاوز موضعها يا رسول الله، فرفع كفه عنها فوجدوا آية الرجم، فأمر النبي صلى الله عليه وآله برجمهما فرجما، فغضبت اليهود لعنهم الله لذلك غضباً شديداً فأنزل الله تعالى هذه الآية «١».

يقول القرآن في هذا المجال: «الْم تَرَى إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيحاً مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ .

ثم يضيف: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ أَلَّا أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ وَعَرَّهَمُ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

«يفترون» من مادة «الافتراء» ومن أصل «فري» الذي يعنى القطع وشق الجلد بهدف الإصلاح، إلا أنه قد تستعمل في صيغة «الافراء» فتعنى القطع بهدف الافساد، و «الافتراء» معناه واسع، أى القطع سواء كان بهدف الإصلاح أو الافساد، بالرغم من استعماله في أغلب

(١). تفسير الكبير، ج ٧، ص ٢٣٢.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٠١

الأحيان في مجال الافساد والتخريب، كما استعملت هذه المفردة في مجال الكذب والشرك والظلم «١».

أما «عَرَّهَمُ» فمن مادة «غرور» ومشتقة من «عُر» بمعنى ظاهر الشيء، ولهذا قيل للأثر الظاهر في جبين الحصان «عُرَّة»، كما تستخدم في القماش إذا طوى بشكل حيث تظهر عليه آثار الطوى، كما تستعمل هذه المفردة بمعنى الخداع، وكان الطرف المخدوع يُطوى كالقماش «٢».

أما «عَرَّور» فيعنى الشخص والشى الذى يخدع الإنسان، كما تطلق على الشيطان الخادع «٣».

وقد قيل في كيفية أن الكذب والافتراء يخدعان الإنسان ويحجبان عنه المعرفة وما ذكر صاحب الميزان:

«إن الإنسان يجرى في أعماله وأفعاله على ما تحصل عنده من الأحوال أو الملكات النفسانية والصور التي زينتها ونمقتها له نفسه دون الذى حصل له العلم به، كما أن المدمن على استعمال المواد المخدرة ونحوها يستعملها وهو يعلم أنها مضرّة غير لائقة بشأنه وذلك لأن حالته وملكته النفسانية زينت له هذه الامور واضفت عليها نوعاً من الجاذبية بحيث لم تدع له مجالاً للتفكر والاجتناب.

وبعبارة اخرى أنهم كرروا الكذب ولم يزالوا يكررونه ويلقونونه أنفسهم حتى اذعنوا به أى اطمأنوا وركنوا إليه بالتلقين الذى يؤثر أثر العلم كما بينه علماء النفس فصارت الفرية الباطلة بال تكرار والتلقين تغرهم فى دينهم وتمنعهم عن التسليم لله والخضوع للحق الذى أنزله فى كتابه «٤».

(١). مفردات الراغب مادة (فري).

(٢). مفردات الراغب مادة (غرور).

(٣). لسان العرب مادة (غرور).

(٤). تفسير الميزان، ج ٣، ص ١٢٥.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٠٢

إنّ هذا مجربٌ، فتارة يتفوه الإنسان بحديث كذب ويعلم أنّه كذب وافتراء، وعلى ضوء إعادة الحديث يقع في شك منه، ثم يعيده مرات اخرى فيصدق به، حتى يبلغ درجة الاعتقاد بالرغم من عدم واقعيته، فيصير حجاباً أمام رؤيته العقلية السليمة. وعلى هذه فلا مجال للقول بأنّ الكذابين هم فريق من اليهود وأنّ المخدوعين يمثلون فريقاً آخر.

ج ج

وقد أشارت الآية الثانية إلى قوم عاد، وهم قوم ذو قدرة، كانوا يعيشون في الاحقاف (جنوب أو شمال الجزيرة العربية)، وابتلوا بالريح العاصف إثر تكذيبهم لرسولهم «هود» وإثر ظلمهم وفسادهم في الأرض.

فَالآيَةُ تَقُولُ: «وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا أَنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا... وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ .

إنّ الآية تؤكد أن تكذيبهم المتوالى لآيات الله سبب سلب إدراكهم ومعرفتهم، فابصارهم ترى وآذانهم تسمع وأفكارهم تعقل ظاهراً، إلّا أنّ الستار الحاجب حال دون استعانتهم بوسائل المعرفة هذه فابتلوا بعذاب الله.

«يجحدون» من مادة «جحد» ويعنى فى الأصل نفى شىء تيقن الإنسان من وجوده أو إثبات شىء يؤمن الإنسان بعدمه، وبتعبير آخر: الجحد يعنى انكار الواقعات عمداً وعن معرفة «١».

إنّ التجربة أثبتت أنّ الإنسان إذا ما استمر فى انكار الحقيقة، فستصبح القضايا التى يؤمن بها بشكل قطعى مورد شك وبشكل دائم، وإذا استمر الانكار أكثر فإنّ قدرته على التمييز تتبدل بحيث يرى الحق باطلاً والباطل حقاً.

(١). مفردات الراغب مادة (جحد)، كما يقول الجوهري: إنّ الجحد هو الانكار مع العلم. كما ذكر ذلك صاحب مجمع البحرين فى مادة (جحد).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٠٣

وهناك أسباب وعلل لهذا العمل (أى انكار الواقعات مع العلم والمعرفة)، فتارة ينشأ عن العناد، وتارة اخرى عن التعصب، وتارة عن الكبر والغرور، وتارة يقدم الإنسان عليه حفاظاً على مصالحه المادية التى تتعرض للخطر إذا ما كشف عن الحقائق، وتارة لأجل شهوات اخرى، وعلى أيّة حال فإنّ لهذا العمل مردودات سلبية، وهو حدوث حجاب على العقل والفطرة فتتقلّب قدرة التمييز عند الإنسان رأساً على عقب.

ج ج

٧- حجاب الظن القائم

إشارة

إنّ اتباع الظنون والخيالات الباطلة يغير العقل تدريجياً ويحرفه عن جادة المعارف الأصيلة، ويجعل حجاباً أمام عيني الإنسان واذنيه. فى البداية نقرأ معاً خاشعين الآية الكريمة التالية:

«وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ . (المائدة/ ٧١)

جمع الآيات وتفسيرها

إن هذه الآية ناظرة إلى فريق من اليهود الذين عاهدوا الله على أن يتبعوا دعوات الأنبياء ويخضعوا لها، إلا أنهم كلما جاءهم رسول يأمرهم بما يخالف أهواءهم النفسية نهضوا ضده أو قتلوه.

ثم تضيف الآية: إنهم حسبوا أن لا تكون فتنة ولا عذاب، وهذا ظن باطل نشأ عن حب الدنيا والكبر والغرور، ظن باطل تدعو إليه الشياطين والأهواء النفسية، وهذا الظن هو الذى ألقى بحجابه على أفئدتهم وأبصارهم وسمعهم فحال دون أن يعقلوا شيئاً، فلم تعد أبصارهم تدرک الآثار المتبقية من المصير المؤلم للأقوام السالفة ولم تعد آذانهم تمتلك

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٠٤

قدرة سماع ما يُنقل عنهم، وبهذا فقدوا هاتين الوسيلتين المهمتين للمعرفة- السمع والبصر- من الناحية العملية وظنوا أنهم فى أمان من عذاب الله، وقد حصل لهم هذا الظن من خلال السير فى الأرض ودراسة التاريخ والأقوام السالفة، فما سمعوا عن تلك الأقوام بآذانهم، ولا شاهدوا بأعينهم، بل إن أبصارهم وآذانهم وأفئدتهم عاطلة عن العمل فحسبوا أن لا عذاب لهم.

إلا أنه بعد انقضاء وطر من الزمن أدركوا خطأهم والتزموا طريق التوبة، وقد وسعتهم رحمة الله فقبل توبتهم.

ومرة اخرى خدعتهم ظنونهم الباطلة فظنوا أنهم شعب الله المختار فى أرضه (بل أبناء الله)، فأسدلت ستائر العمى والصرم والجهل على أبصارهم وسمعهم وطردوا من رحمة الله تارة اخرى.

إن هذه الآية تبين بوضوح أن الظنون الباطلة وخاصة ظن الأمان من عذاب الله يجعل غشاوة على الباصر والمسع ويعطلهما عن العمل. وعلى هذا، فالمراد من «فعموا وصرموا» هو أن أعينهم ما بصرت آيات الله والآثار الباقية من الأقوام السالفة، وأن آذانهم ما صغت لمواظب الرسل.

وبديهي أن اتباع الظن الباطل لمرة أو مرات لا يترك هذا المردود السلبي لدى الإنسان، بل الاستمرار عليه هو السبب فى ذلك.

وهناك أقوال فى سبب عطف الجملة الثانية على الاولى ب «ثم» التى تدل على الفاصل الزمنى.

فقال البعض: إن استعمالها للإشارة إلى مصيرين مختلفين لليهود، أحدهما عندما هاجمهم أهل بابل، والثانى عندما هاجمهم الإيرانيون والروميون وأسقطوا حكومتهم «١»، وقد جاء شرح ذلك فى التفسير الأمثل فى بداية سورة بنى اسرائيل.

وقال البعض: إن الجملة الاولى إشارة إلى عهد زكريا ويحيى وعيسى حيث خالفهم

(١). تفسير المنار، ج ٦، ص ٤٨١.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٠٥

اليهود آنذاك، والعبارة الثانية إشارة إلى عهد الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله حيث أنكروا نبوته ورسالته «١».

وقال البعض: إن العبارة الاولى تبين أن الله لعنهم وطردهم من رحمته وأعماهم وأصمهم لأجل ظنهم الباطل من أنهم شعب الله المختار، وقد شملتهم رحمة الله بعد ذلك فتاب عليهم ورفع عن قلوبهم ذلك الظن الباطل، فأبصرهم وأسمعهم تارة اخرى كى يلتفتوا إلى حقيقة هي: عدم وجود فرق بينهم وبين غيرهم إلا بالتقوى

إلا أن حالة الوعي واليقظة هذه لم تستمر عندهم، وتورط بعضهم بنفس الحسبان الخاطيء القائم على أساس التفرقة العرقية تارة اخرى، فأعماهم وأصمهم الله ثانية «٢».

والجمع بين هذه التفاسير ليس متعذراً، ونتيجتها جميعاً واحدة وهى: إن الظن الباطل (كظن اليهود أنهم شعب الله المختار) يمنع الإنسان تدريجياً عن الإدراك والفهم ويحرفه عن جادة الصواب، وإذا كان هذا الظن فى بدايته فيقظة العقل محتملة، ورجوعه عن هذا

الحسبان ممكن، أما إذا تفاقمت الظنون وتأصلت في ذاته فيصبح الرجوع عنها أمراً غير ممكن.

ج ج

(١). وقد ذكر هذا التفسير كاحتمال في تفسير الكبير، ج ١٢، ص ٥١٦ وكذا في تفسير روح المعاني، ج ٦، ص ١٨٤.

(٢). تفسير الميزان، ج ٦، ص ٧١.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٠٧

٣- الحُجُبُ الخارجية

١- حجاب القادة الضالين والمفسدين

إشارة

إن الحجب الخارجية هي الحجب التي تكمن وراء أعمال الإنسان وصفاته وتؤثر على العقل والإدراك والشعور وملكة التمييز وتحول دون معرفته الحقائق، وهي عديدة تشكل مساحة واسعة، وقد أشار إليها القرآن بأساليب متعددة وجميلة.

١- «وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَاءَنَا فَأَظَلُّونَا السَّبِيلًا * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنُتُمْ لَعْنًا كَبِيرًا». (الأحزاب / ٦٧-٦٨)

٢- «... وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ . (سبأ / ٣١-٣٢)

٣- «قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالِبَّانِسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا آذَرُكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخِرَاهُمْ لَأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتَيْهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ . (الأعراف / ٣٨)

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٠٨

جمع الآيات وتفسيرها

شجار أصحاب النار:

إن الآية الأولى تبيّن حال فريق من الكفار عندما يرون نتيجة أعمالهم عند الله، فيقولون: «رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَاءَنَا فَأَظَلُّونَا السَّبِيلًا»، فما كنا نبتلى بهذا المصير لولاهم، ثم يقولون: «رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ (عذاباً لكفرهم وعذاباً لأنهم أضلونا) وَالْعَنُتُمْ لَعْنًا كَبِيرًا».

فهم لا يريدون سوى تبرير أعمالهم بكلامهم هذا، صحيح أن لرؤسائهم دوراً في انحرافهم، لكن هذا الأمر لا يسلب عنهم المسؤولية تجاه أعمالهم.

وصحيح أن وسوسة القادة المفسدين والزعماء الضالين والمضلين جعلت حجاباً على عقولهم وأفكارهم فحال دون تفكيرهم الصحيح، إلّا أن مقدمات هذا الأمر هم هيأوها بأنفسهم لأنهم سلموا أنفسهم عشوائياً إلى هؤلاء من دون احراز أهليتهم للقيادة.

وهناك خلاف بين المفسرين في الفرق بين ساداتنا وكبراءنا، أو بالأحرى هل هناك فرق بينهما أم لا؟

يعتقد البعض أن «سادتنا» إشارة إلى ملوك وسلاطين المدن والدول، و «كبراءنا» إشارة إلى الرؤساء المحليين، حيث عُبدت طاعة

السادة مكان طاعة الله، وطاعة الكبراء مكان طاعة الرسول، فقدره وصلاحيه الفريق الأول أكثر من الفريق الثاني ولهذا قُدّم. ويعتقد البعض أنّ السادة إشارة إلى الملوك وأصحاب القدرة، والكبراء إشارة إلى كبار السن، ولهذا يتبعهم بعض الناس. ويعتقد آخرون أنّ كليهما بمعنى واحد وأنهما قد وردا للتأكيد «١».

ويبدو أنّ المعنى الأخير أنسب من جميع المعاني السابقة.

وتجدر الإشارة إلى أنّ «سادة» جمع «سيد» والسيد يعنى رئيس السواد (أى الجمع الغفير من الناس، وقد اطلق عليه سواداً من باب أنّه يبدو أسود اللون من بعيد) ثم اطلقت

(١). راجع تفسير روح المعاني، ج ٢٢، ص ٨٧؛ تفسير الميزان، ج ١٦، ص ٣٦٩؛ الكبير، ج ٢٥، ص ٢٣٢.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٠٩

هذه المفردة على كل رجل كبير.

وقد تحدثت الآية الثانية عن الكفار الظالمين الذين إذا ما رأوا نتيجة أعمالهم فى الآخرة سعى كلُّ منهم لإلقاء ذنبه على الآخر، فيقول حينها المستضعفون (أى المغفلون) للمستكبرين (أى الظلمة وأصحاب السلطة الذين أضلوا الآخرين بأفكارهم الشيطانية):
لولا وساوسكم المغرية والشيطانية لَكُنَّا فى صفوف المؤمنين، لقد غسلتم أدمغتنا، واتبعناكم جهلاً، وجعلتمونا آله بأيديكم لتحقيق ما ربكم الشيطانية، وقد فهمنا الآن أنا كنا على خطأ.

بالطبع لم يخرس المستكبرون عندها، بل يجيبون: «أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ الرِّسَالُ بِالْبَيِّنَاتِ وَالْحُجُجِ الْكَافِيَةِ؟ إِنَّكُمْ مَخْطُؤُونَ وَنَحْنُ غَيْرُ مَسْئُولِينَ عَنْ ضَلَالَتِكُمْ»، «بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ وَمَذْنِبِينَ لِأَنكُمْ تَرَكْتُمْ مَا دَعَاكُمْ إِلَيْهِ الرِّسَالُ وَاتَّبَعْتُمُ الْأَقْوِيلَ الْبَاطِلَةَ بِالرَّغْمِ مِنْ إِرَادَتِكُمْ وَاخْتِيَارِكُمْ».

ج ج

وقد أشارت الآية الثالثة إلى شجار «القادة» و «الأتباع» الضالين فى جهنم، فكلما دخلت أمة لعنت الاخرى واعتبرتها هى المسؤولة عن شقائها وعذابها فى الآخرة، ويقول الأتباع يومذاك: «رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِنَاهُمْ عَذَابًا مِّنَ النَّارِ عَذَابًا لَّأَنَّهُمْ ضَالِّونَ وَعَذَابًا لَّأَنَّهُمْ أَضَلُّونَا وَأَغْوَوْنَا».

فيجيبهم الله: «لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَّا تَعْلَمُونَ» .

إنّ مضاعفة العذاب لقادة الباطل أمر متوقع وليس عجباً، إلّا أنّ مضاعفة العذاب لأتباعهم أمر قد يبدو غريباً للوهلة الاولى لكننا إذا دققنا فى الأمر نجد ضرورة مضاعفة العذاب لهم، عذاب: لأجل أنّهم ضالون، وعذاب: لأجل اعانتهم أئمة الكفر والذود عنهم والقتال دونهم، كما جاء ذلك فى حديث للإمام الصادق عليه السلام عندما جاءه أحد أصحابه مُعلنًا توبته عمّا قدمه لبنى أمية من خدمات، يقول فيه:

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣١٠

«لَوْلَا أَنَّ بَنِي أُمِّيَّةٍ وَجَدُوا مَنْ يَكْتُبُ لَهُمْ وَيُجِيبِي لَهُمْ الْفِيءَ وَيُقَاتِلُ عَنْهُمْ وَيَشْهَدُ جَمَاعَتَهُمْ لَمَا سَلَبْنَا حَقَّنَا» «١».

توضيحان:

١- «المستضعفون» و «المستكبرون» فى القرآن المجيد

تحدث القرآن المجيد مراراً عن المستكبرين «والمستضعفين» وهو موضوع مهم وجدير بالانتباه ويمكن أن يشكل أحد المباحث

المستقلة في التفسير الموضوعي، إلا أنه ينبغي هنا الإشارة إليه بصورة عابرة مع بيان الآيات التي وردت في هذا البحث. يقول الراغب في مفرداته: إن الكبر والتكبر والاستكبار لها معانٍ متقاربة، ثم يضيف: إن للاستكبار معنيين أحدهما: أن يتحزى الإنسان ويطلب أن يصير كبيراً وذلك متى كان على ما يجب وفي المكان الذي يجب وفي الوقت الذي يجب والثاني أن يتشبهه فيظهر من نفسه ما ليس له وهذا هو المذموم وعلى هذا ما ورد في القرآن، وهو قوله تعالى «أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ». (البقرة/ ٣٤) ثم يضيف الراغب: قابل المستكبرين بالضعفاء تنبيهاً إلى أن استكبارهم كان بما لهم من القوة من البدن والمال «٢». إن الاستضعاف يقابل الاستكبار وهو يعنى طلب الضعف وقلة الحيلة، لكن بما أن هذه المادة غالباً ما تستعمل في القرآن بصفة (فعل مبنى للمجهول) أو (اسم مفعول)، فتعنى الضعف الذي فرض عليهم من قبل المستكبرين. وقد استعملت في القرآن بصيغة الفعل المبني للمعلوم كما جاء ذلك في فرعون الذي استضعف بنى اسرائيل: «إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ . (القصص / ٤)

(١). بحار الأنوار، ج ٧٢ (٧٥)، ص ٣٧٥؛ سفينة البحار، ج ٢، ص ١٠٧ مادة (ظلمة).

(٢). مفردات الراغب، مادة (كبر).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣١١

كما ينبغي ذكر هذه النقطة وهي: أن القرآن استعمل مفردة (مُستضعف) بمعنيين: الأول المظلومون في الأرض، وهم المشمولون بالطفاء الله، كما جاء ذلك بالنسبة إلى مستضعفى بنى اسرائيل حيث قال الله فيهم: «وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أُمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ . (القصص / ٥) والمعنى الثانى وهو المستعمل غالباً في القرآن المجيد: الضعفاء فكرياً بسبب جهلهم وتقليدهم الأعمى وتعصبهم، فيتبعون الظلمة والقادة الضالين عشوائياً، وهؤلاء هم الذين أشارت الآيات المذكورة في أول البحث إلى شجارهم مع المستكبرين في يوم القيامة وصرحت أنهم يستحقون العذاب المضاعف كالمستكبرين: عذاباً لأجل أنهم ضالون وعذاباً لأجل أنهم ساهموا في تثبيت اسس حكومة الجبارين.

٢- دور القادة و الامراء فى التأثير على الناس

لقد جاء فى حديث للإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «الناس بامرائهم أشبه منهم بأبائهم» (١). إن هذا الشبه يمكن أن يكون من حيث إن فريقاً من الناس يتبعون الامراء ويقتدون بهم جهلاً وغفلةً ويجعلون قلوبهم ودينهم رهناً لإشارات هؤلاء الامراء وايعازاتهم، ولهذا اشتهر الحديث «الناس على دين ملوكهم». إن هؤلاء الامراء فى رأى بعض الناس أبطال وقداوات نموذجية واسوات حسنة وأرفع شأناً من أن يُنتقدوا، وقد يقلد البعض أنفسهم مناصب مقدسة فيغرروا ببعض الجهلة والعوام، ويجعلوا حجاباً أمام أفكارهم وعقولهم. ومن المتعارف أن هناك فريقاً يعتبر «القدرة» دليلاً على «الحقانية»، ويعتبر المنتصر هو المحق فرداً كان أو جماعة، وهذا الاسلوب من التفكير جعلهم فريسة للكثير من الأخطاء

(١). بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٤٦ كتاب الروضة كلمات على عليه السلام، ح ٥٧.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣١٢

والانحرافات في حساباتهم الاجتماعية.

إنّ الملوك والقادة الجبارين أينما دخلوا أفسدوا، وذلك لاستغلال الضعف والعجز الفكري لدى بعض الناس، كما جاء ذلك في القرآن على لسان ملكة سبأ: «قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا إِذْ لَّهُمْ كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ . (النمل / ٣٤) وبالرغم من أن هذا الحديث تفوهت به ملكة ظالمة، إلّا أنّ ذكره في القرآن من دون أي نقدٍ من جهته، وصدوره من شخصيه ظالمة وخبيرة بما عليه الظلمة من أمثالها من جهة أخرى دليل على واقعية هذا الحديث الشبيه بالاعتراف. ولهذا أرادت ملكة سبأ أن تختبر سليمان هل هو ملك أو نبي حقاً؟ فأرسلت إليه هدايا كي تعرف رد فعله تجاهها، وذلك لأنها تعرف أنّ أفكار الملوك وقلوبهم رهن الهدايا والذهب والفضة والشأن والمقام، بينما الأنبياء لا يهمهم شيء سوى صلاح الامم.

٢- حجاب الأصدقاء الضالين

إشارة

«وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا* يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا* لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا». (الفرقان / ٢٧- ٢٩)

جمع الآيات وتفسيرها

إنّ هذه الآيات تشرح مشهداً من مشاهد يوم القيامة، وهي لحظات تأسف الظالمين وتأثرهم من أعمالهم إلى درجة حيث يعضون على أيديهم.

إنّ تعبير «يعضّ» من مادة «عضّ» ومعناها واضح، والتعبير ب (يعضّ) في العربية

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣١٣

وكذا في الفارسية كناية عن شدة التأسف والانزعاج، وقد شوهد أنّ كثيراً من الناس إذا ما واجهوا مصيبة عظيمة ناشئة عن سوء عملهم وجهلهم عضوا على أيديهم أو أصابعهم أو ظاهر أكفهم، وكأنهم يريدون عقاب أيديهم لأجل قيامها بهذا العمل.

إلّا أنّ المصيبة إذا لم تكن شديدة جداً اكتفوا بعض أناملهم كما قال القرآن حاكياً حال الكفار في الآية ١١٩ سورة آل عمران: «وَأَذَّا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ»، أو اكتفوا بعض ظهر احدى اليدين، أما إذا كانت المصيبة شديدة جداً فتارة يعضون أيديهم اليسرى واخرى أيديهم اليمنى والذي جاء في الآية الكريمة هو «يَدَيْهِ» وهذا يكشف عن أنّ المصيبة عظيمة للغاية يوم القيامة، وغالباً ما يقترن العضّ بالتفوه بجمل وأقويل مفهومها التوبيخ للنفس، ويتحد حينها الكلام مع السلوك في ابراز الغضب.

ويقولون عندها: «لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا* يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا* لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي إِلَّا أَنْ هَذَا الْخَلِيلُ مَا سَمَحَ لَهُمْ بِالْقِظَةِ.

وعلى هذا، فهم يعدّون الخليل الضال هو السبب الأساسي لشقائهم، حيث جعل حجاباً أمام أفكارهم وعقولهم حال دون رؤيتهم لجمال الحق.

وهنا أقوال في المراد من «فلان»:

احتمل البعض أنّه الشيطان، حيث ينتخبه الإنسان - أحياناً خليلاً، وذلك بقرينه قوله في ذيل الآية: «وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا».

ويقول البعض: إنَّ المراد منه هو نفس الشخص الذي نزلت في شأنه الآية، أي «عقبه» وهو أحد الكفار المعروفين، أسلمَ وارتد عن الإسلام وتخلّى عن الرسول لأجل خليله «أبي»، وقتل في معركة بدر، بينما قُتل أبي في معركة أُحد «١». لكن الظاهر أنَّ مفهوم الآية - كما يقول البعض - كلّي شامل لجميع الأصدقاء الضالين والموسوسين، وأنَّ شأن النزول لا يُخصّص الآية أبداً، خصوصاً وأنَّ لمفردة

(١). تفسير مجمع البيان، ذيل نفس الآية مورد البحث ويقول البعض: إنَّ «أبي» الإنسان الوحيد الذي قتله الرسول بيده طيلة عمره الشريف (تفسير روح البيان، ج ٦، ص ٢٠٥).
نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣١٤

«الشیطان» معنى واسعاً يشمل شياطين الجن والانس، كما أنَّ ذكر كلمة «فلان» وبصيغة النكرة قرينة واضحة على اطلاق المفهوم «١». وقد قيل في تفسير «شركاء المشركين» الذين ذُكروا في الآية ١٣٧ من سورة الأنعام: «وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَاءَهُمْ لِيُرُدُّوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ، أَنَّهُمْ التَّوَلَّوْا لِمَعَابِدِ الْأَصْنَامِ ، حَيْثُ كَانُوا يَغْوُونَ النَّاسَ وَيَغْرُونَهُمْ لِتَضْحِيهِ أَوْلَادِهِمْ لِلْأَصْنَامِ ، وَبِهَذَا التَّبَسُّ عَلَيْهِمْ الْحَقُّ ، وَالْقَى حِجَابَ عَلَى عَقُولِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ . وَعَلَى هَذَا التَّفْسِيرِ ، فَإِنَّ الْآيَةَ تُعَدُّ شَاهِدًا وَاضِحًا عَلَى بَحْثِنَا أَيَّ أَنَّ الْأَصْدِقَاءَ الْمُضْلِينَ يَشْكُلُونَ حِجَابًا لِلْعَقْلِ يَمْنَعُهُ عَنِ الْمَعْرِفَةِ.»
ج ج

توضيح:

دور الأصدقاء في التأثير على طريقة التفكير عند الآخرين:

يشاهد في الروايات الإسلامية تعبير كثيرة في هذا المجال، تكشف عن أنَّ الأصدقاء المنحرفين والمستشارين الضالين يمكنهم السيطرة على فكر الإنسان وتغيير موازين عقله وإغلاق طريق الحق عليه، ونذكر هنا نماذج من الروايات التي تشير إلى ذلك:
١- نصح الإمام علي عليه السلام ابنه الحسن يوماً قائلاً له:
«يا بُنَيَّ إِيَّاكَ وَمَصَادِقَهُ الْأَحْمَقُ فَإِنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَنْفَعَكَ فَيَضْرِكُ ... وَإِيَّاكَ وَمَصَادِقَهُ الْكَذَّابُ فَإِنَّهُ كَالسَّرَابِ يُقْرَبُ عَلَيْكَ الْبَعِيدُ وَيُبْعَدُ عَلَيْكَ الْقَرِيبُ» «٢».

٢- وقد جاء في عهد الإمام علي عليه السلام لمالك الأشتر حول المستشارين:
«وَلَا تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ بَخِيلًا يَعْدِلُ بِكَ عَنِ الْفَضْلِ وَيَعِدُّكَ الْفَقْرَ وَلَا جَبَانًا

(١). تفسير في ظلال القرآن، ج ٦، ص ١٥٦.

(٢). نهج البلاغة الكلمات القصار الكلمة ٣٨.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣١٥

يُضْعَفُكَ عَنِ الْأُمُورِ وَلَا حَرِيصًا يَزِينُ لَكَ الشَّرَّ بِالْجُورِ» «١».

ويستفاد من التعبير الأخير أنَّ المستشارين المنحرفين يمكنهم التأثير في فكر الإنسان ويحولون دون الإدراك والمعرفة.

٣- وقد جاء في حديث آخر للإمام علي عليه السلام:

«مَجَالِسَةُ الْأَشْرَارِ تُورَثُ سُوءَ الظَّنِّ بِالْأَخْيَارِ» «٢».

٤- وقد جاء في حديث للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله:

«المرء على دين خليله وقربنه» (٣).

وبهذا يتضح تأثير الصديق الصالح أو غير الصالح على كيفية المعرفة واسلوب التفكير.

ج ج

٣- حجاب الاعلام و الوسط الاجتماعي

اشارة

في البداية نتأمل خاشعين في الآيات الكريمة التالية:

١- «قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ* ... فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورًا فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ . (طه / ٨٥-٨٨)

٢- «فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ . (القصص / ٧٩)

٣- «قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرَهُبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ . (الأعراف / ١١٦)

٤- «وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَيْنَا آمَنُوا وَجْهًا

(١). نهج البلاغة، الرسالة ٥٣.

(٢). سفينة البحار، ج ١، ص ١٦٨.

(٣). اصول الكافي، ج ٢، ص ٣٧٥، باب مجالسة أهل المعاصي، ح ٣.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣١٦

النَّهَارِ وَانكفروا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ . (آل عمران / ٧٢)

٥- «أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ* فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ* فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ . (الزخرف / ٥٢-٥٤)

جمع الآيات وتفسيرها

الإعلام المسموم:

إن الآيه الاولى أشارت إلى قصة السامري طالب الشأن والمقام، الذي استغل غيبه موسى عليه السلام اثناء ذهابه إلى طور سيناء (للقاء ربه) لمدة أربعين يوماً، فجمع ذهب وحلى بنى اسرائيل وصنع منها صنماً في صورة عجل! ويظهر أنه وضعه باتجاه الريح بحيث يخرج صوتاً كزغاء البقرة عند هبوب الرياح، وقد عبر القرآن عن هذا الصوت ب «خوار» أي صوت البقرة البطيء.

إنه انتهز الفرصة بأسلوب خاص، حيث قام بعمله هذا بعد مضي خمسة وثلاثين يوماً من غيبه موسى أي عندما أخذت أنوار التبليغ التوحيدى تتضاءل في قلوب بنى اسرائيل، حيث كان المفروض أن يرجع موسى من طور سيناء بعد ثلاثين يوماً، إلا أن الله أخر ميعاده لامتحان بنى اسرائيل فاتهمن أربعين يوماً.

يقول القرآن في هذا المجال: «قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ .

وعلى أى حال فإن انحراف بنى اسرائيل (الذين ينقل أن عددهم بلغ الستمائة ألف) عن طريق التوحيد الخالص إلى الشرك والكفر وعبادة الأصنام ليس بالأمر الهين، إن الآيات التي جاءت في هذا المجال في سورة «طه» وغيرها من السور وكذا التواريخ والتفاسير تكشف عن أن السامري كان يستعين بأسلوب خاص من الاعلام والتبليغ للإستحواذ على أفكار الناس وغسل أدمغتهم، بحيث جعل حجاباً على عقولهم، فظنوا (بسبب ذلك

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣١٧

(الحجاب) أن هذا العجل هو إله موسى !

والعجيب هنا أن الأمر بلغ بنى اسرائيل إلى حدّ حيث ردّوا ما قاله السامري: «هذا إله موسى ، والتعبير ب «قالوا» شاهد على هذا. والتعبير الأخير دليل واضح على تأثير إعلام السامري الشديد، إنّه كان يستثمر إعلامه في الجهات التالية:

١- انتهاز فرصة غيبه موسى

٢- تمديد غيبته إلى أربعين يوماً.

٣- الاستعانة بالذهب والحلى التي كانت ثمينه بالنسبة لبنى اسرائيل.

٤- استثمار الأراضية المساعدة والمنحرفة مثل طلبهم من موسى جعل صنم إلهاً عندما نجوا من الغرق في النيل، ومرو بقوم يعبدون الأصنام: «قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ». (الأعراف / ١٣٨)

٥- مكانته الاجتماعية عند بنى اسرائيل واعتمادهم عليه إلى حدّ حيث كانوا يولون له قدسية خاصة ويعودونه ربيب جبرئيل «١»!

٦- حب ضعفاء الفكر لأله محسوس، وعدم التفاتهم إلى أن الله بعيد عن التجسيم والصفات الجسمانية، حيث بلغ بهم الأمر أن طلبوا من موسى رؤية الله جهره كما عكس القرآن ذلك في الآية الخامسة والخمسين من سورة البقرة.

إنّ هذه الامور واموراً اخرى سببت انحراف بنى اسرائيل عن جادة التوحيد بالكامل، واغواءهم بتبليغ السامري واعلامه وفي النهاية عبادتهم للأصنام.

ولهذا، عندما رجع موسى وعلم بهم، وبين القبح الشديد لعملهم هذا، استيقظوا من غفوتهم وصرخوا قائلين: ندمننا! ندمننا! واستعدوا لأجل قبول توبتهم أن يقتل بعضهم بعضاً كفارة لذنبهم العظيم (البقرة / ٥٤).

(١). تفسير روح الجنان، ج ٧، ص ٤٨٢؛ تفسير روح البيان، ج ٥، ص ٤١٤؛ دائرة المعارف- دهخدا- مادة (سارى)، (بالفارسية).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣١٨

وعلى أى حال، فإن الآية دليل واضح على حجاب الاعلام المضلل.

ج ج

وتحدثت الآية الثانية عن «قارون» الغنى والمعروف في بنى اسرائيل الذي قام يوماً باستعراض ثروته أمام بنى اسرائيل.

لقد نُقل في التواريخ قصص كثيرة في هذا المجال، فكتب بعضهم: ظهر قارون مع فريق يُعدّ بأربعة آلاف رجل وامرأة من الخدم والحشم والجاريات، فالرجال على خيول أصيلة، بألبسة حمراء، والجاريات على بغال بيض سروجها من ذهب، والجميع مزينون بالحلى والذهب والمجوهرات «١».

وقد قدر البعض عدد أفراد قارون بسبعين ألفاً، وإذا لم نعتبر هذه الأرقام واقعية، فتعبير القرآن: «فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ» يكشف عن عظمة تلك اللقطة، وقد يكون عمله هذا من أجل تحدى واغصاب موسى عليه السلام، أو تثبيتاً لقدرته في بنى اسرائيل، أو أنه جنون عرض القوة والثروة اللتين يُبتلى بهما كثير من المتمولين والأغنياء، وعلى أى حال، فإنّ تلك اللقطات والاعلام المترامن معها كان

بدرجة من العظمة سلبت عقول الكثير من بنى اسرائيل وَأَلْقَتْ بَسْتَارَ عَلَى أَرْوَاحِهِمْ حَتَّى جَعَلْتَهُمْ يَتَمَنُونَ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ ثَرَوَتُهُ وَقُدْرَتُهُ، وَيَعْدُونَهُ سَعِيداً وَ «ذُو حِطِّ عَظِيمٍ».

وبعد ما جاء ذلك اليوم الذى خسف الله الأرض بقارون و ثروته بسبب جرائمه وأعماله المشينة، وعلم الجميع بما حلَّ بِهِ استيقظوا من غفلتهم وأبدوا سرورهم من حيث إنهم لم يكونوا مثل قارون.

إن تأثير الاعلام لا ينحصر على ذلك الزمان فحسب، بل يشمل فى كل عصر وهذا أمرٌ لا يُنكر، وان كثيراً من جبابرة الماضى والحاضر يستعينون باستعراض قوتهم وامكانياتهم كاستعراض قارون لأجل تخدير أفكار الناس، وتسخيفها، وسحر أعينهم، وقد

(١). راجع تفاسير الكبير والقرطبي وروح المعانى فى ذيل الآيات فى سورة القصص.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣١٩

جَنَوْا ثَمَارَ مِثْلِ هَذِهِ الاسْتِعْرَاضَاتِ وَلَا يَزَالُونَ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَالْمَفْكَرِينَ الرَّاسِخِينَ هُمْ فَقَطِ الْقَادِرُونَ عَلَى رَفْعِ هَذِهِ الْحِجَابِ عَنْ أَفْكَارِهِمْ وَأَفْكَارِ غَيْرِهِمْ، وَتَبْيَانِ الْوَجْهِ الْحَقِيقِيَّةِ لَهُؤُلَاءِ الْجَبَابِرَةِ.

ج ج

وقد بينت الآية الثالثة جانباً من جوانب مقارعة موسى للسحرة، الذين دعاهم فرعون من جميع أرجاء مصر واغراهم بالكثير من الوعود، والذين يقدر عددهم بعشرات الآلاف من السحرة طبقاً لبعض الروايات، وبخمس عشرة الف ساحر طبقاً لروايات اخرى (يحتمل أن يكون هذا العدد متعلقاً بنفس السحرة وأعاونهم وعمالهم، كما ينبغى الالتفات إلى أن السحر كان رائجاً فى ذلك العصر بكثرة).

وقد اجتمع لأجل ذلك جمعٌ غفير من الناس عند الضحى فى يوم كان عندهم عيداً (كما عبّر عنه القرآن «يوم الزينة» و «ضحى فى الآية ٥٩ من سورة طه، وقد كشفت القرائن عن أن فرعون كان واثقاً من انتصار السحرة على موسى عليه السلام، وذلك لأنه كان قد سخر جميع وسائل الاعلام لخدمته هذه القضية.

تقول الآية: «فَلَمَّا الْقَوْأَ سَحَرُوا أَعْيَنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ .

وينبغى هنا معرفة مفردتى «الاسترهاب» و «السحر» جيداً لفهم الآية.

جاء «السحر» - لغة - بمعنيين، الأول هو الخدعة، والثانى هو الشىء الذى غمضت عوامله وكانت غير مرئية، وقد أرجع البعض كلا المعنيين، إلى معنى واحد وقالوا:

إِنَّ حَقِيقَةَ السِّحْرِ هِيَ قَلْبُ الشَّيْءِ مِنْ حَقِيقَتِهِ إِلَى شَكْلِ آخِرٍ «١».

وكما قلنا فى المجلد الأول من التفسير الأمثل عند تفسير الآية ١٠٢ من سورة البقرة:

أنّ السحر غالباً ما يعتمد على الخواص الكيميائية والفيزيائية للمواد التى لم يعرفها الناس إلّا أنّ السحرة يعرفونها جيداً وقد اعتمدوا عليها كلياً، كما أنه جاء فى التفاسير حول قصة

(١). راجع قاموس اللغة، ومفردات الراغب، والتحقيق فى كلمات القرآن الكريم، وتاج العروس.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٢٠

مقارعة موسى عليه السلام للسحرة، إذ يحتمل أن ما جاء به السحرة هو مجموعة من العصى والحبال الجلدية الجوفاء والمليئة بمادة الزئبق الفَرَّار، وبما أنّ الحركة والتمدد الشديد من خواصه عند ارتفاع درجة حرارته، فعندما ألقوا هذه العصى والحبال بدأت بالحركة والقفز والتقلص والانبساط بفعل حرارة الشمس أو الحرارة المنبعثة من المكان الذى يحتمل وجود مصدر حرارتى تحته «١».

وقد يستعين السحرة فى عروضهم - أحياناً - بالشعوذة وخفة اليد، فيرى الناس أشياء لا واقع لها، وقد شاهد كثير من الناس نماذج من

هذه العروض، وقد ينشرون مواد كيميائية خاصة عن طريق العطور وتبخير اعشاب معينة بحيث تؤثر على الحاسة الباصرة وحاسة السمع بل وحتى على اعصاب الحضور لتمثيل صور غير واقعية أمامهم.

كما يحتمل أنهم يستعينون بالتنويم المغناطيسي والتلقين بحيث تتمثل صور غير واقعية أمام الناس.

بالطبع هناك قسم آخر من السحر يحتمل استعانة السحرة به وهو تسخير الجن أو بعض الأرواح (وهذه خمسة طرق رئيسية للسحر). وقد يطلق السحر على معنى أوسع من المعاني السابقة، فيقال لمن حسن بيانه «له بيان ساحر» كما جاء في الحديث: إن الفتنه سحر، لأنها تفرق بين الأحياء، إلا أن الذي جاء في الآية هو «سحروا أعين الناس» وهو التلاعب بباصرة الحضور بحيث يجعلهم يرون اموراً لا واقع لها، فيرون حية تسعى وإن لم يكن هناك حية أبداً، والشاهد على هذا الحديث هو الآية: «فَإِذَا جِبَالُهُمْ وَعِصْوَاهُمْ يُجَالُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُمْ تُسْعَى .

(طه / ٦)

مع أنها لا تسعى ولا تتحرك لكن الزئبق - احتمالاً - هو الذي جعلها تبدو هكذا).

وأما «استرهبوا» فمن مادة «رهب» وهو الخوف المترامن مع التحفظ والاضطراب (كما

(١). راجع تفسير روح المعاني، ج ٩، ص ٢٢؛ التفسير الكبير ١٤، ص ٢٠٣؛ تفسير روح البيان، ج ٣، ص ٢١٣؛ تفسير المنار، ج ٩، ص ٦٦ وتفسير أخرى.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٢١

يقول الراغب في مفرداته) وقد فسر كثير من المفسرين الاسترهاب بالارهاب أى ايجاد الخوف والاضطراب، والتعبير هذا يكشف بوضوح عن استعانتهم بوسائل الاعلام والتلقين إضافة إلى سحر (وغالباً ما يستعين السحرة بهذين الأمرين، بل القسم الأعظم من موفقيتهم يرجع اليهما وإلى حسن القيام بهما).

وقد نقل أن مساحة المحل الذى عُذَّ لهذا الأمر كان ميلاً فى ميل «١»، كما نقل أيضاً أنهم أعدوا جبلاً من الحبال والعصى التى تبدو وكأنها أفاعى تسعى «٢».

ثم خاطب السحرة الناس بأقويل مثل: أيها الناس ابتعدوا عن الساحة لكى لا تمسك الأفاعى بضرر لأنها خطيرة ومخيفة! وأمثال هذه التعابير التى أشير إليها فى بعض التفاسير «٣»، وقد تأثر بهم الناس كثيراً لأنهم سحروا أعينهم وقلوبهم، وبهذا ألقوا بحجهم على حواس الناس وعلى عقولهم للحيلولة دون إدراك الحقائق والواقعات.

ج ج

لقد كشفت الآية الرابعة عن احدى المؤامرات الاعلامية التى حاكها اليهود ضد الإسلام، والتى كان هدفها تضعيف عقيدة المسلمين بالإسلام، وقصتها: أن فريقاً منهم أسلموا وآمنوا ظاهراً فى النهار وارتدوا عن الإسلام فى الليل، وعندما سئلوا عن سبب رجوعهم عن الإسلام قالوا: إنا لاحظنا صفات محمد صلى الله عليه و آله من قريب فوجدناها لا تتطابق مع كتبنا الدينية وأحاديث علمائنا فرجعنا عنه.

إن هذه الحملة الاعلامية سببت فى ارتداد قوم من المسلمين عن الإسلام، إذ قالوا:

إذا ارتد عن الإسلام أهل الكتاب الذين هم أفهم منا ويعرفون القراءة والكتابة، فلا بد وأن الدين باطل ولا أسس قوية له، وبهذا استطاعوا أن يشوشوا على أفكار البسطاء من الناس

(١). تفسير روح المعاني، ج ٩، ص ٢٢.

(٢). تفسير المنار، وقد نقل هذا الحديث عن مفسر باسم ابن اسحاق، ج ٩، ص ٦٦.

(٣). التفسير الكبير، ج ١٤، ص ٢٠٣.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٢٢

ويلقوا بحجاب فتنهم على عقولهم.

إن مفردة «طائفه» في عبارة «وقالت طائفه» من مادة «طواف» وتعني فريقاً من الناس بشكل حلقة، وكأنهم يطوفون حول موضوع ما، والمراد منها على ما يقول بعض المفسرين: هو الاثنا عشر يهودياً من يهود خيبر أو المدينة أو نجران، حيث تألموا كثيراً عند تغير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، فحاكوا هذه المؤامرة «١».

إن التعبير «وجه النهار» إشارة إلى بداية النهار لأنّ الوجه أول شيء يواجهه الإنسان، وهو أشرف عضو، بالطبع أن الآية حكّت المسألة كاقتراح اقترحه البعض ولم تتكلم عن تنفيذ هذا الاقتراح، إلّا أنّ القرائن أثبتت أنهم نفذوا مؤامرتهم بعد ما حاكوها، وإلّا فيستبعد أن يذكره القرآن باهتمام بالغ، والآيات اللاحقة تحكي عن هذه الأهمية.

لكننا نعلم على أيّة حال، أنّ خطتهم الإعلامية هذه لم تترك أثراً ملحوظاً في قلوب المؤمنين الذين طهرت قلوبهم.

ج ج

إنّ الآية الخامسة والأخيرة بينت كذلك جانباً من جوانب مقارعة موسى عليه السلام لفرعون، فعندما اتّجهت الأنظار إلى موسى وكادت القلوب أن تهتدي والأفكار أن تُصحح، قام فرعون بحملة إعلامية شديدة سعيّاً منه لحرف الناس عن اتجاههم نحو دين موسى وقد انعكس في هذه الآية جانب من جوانب الاعلام الفرعوني المضلل.

اعتمد اعلامه في البداية على ذكر شرفه العائلي ونسبه، وقال: «أنا خير من هذا الشخص مشيراً إلى موسى» الذي ينحدر من عائلة فقيرة حيث يعمل راعياً وعبداً من عبيد بنى اسرائيل.

و هو لا يملك قدراً من الفصاحة وأنا افصح منه.

وفضلاً عن ذلك «فلو لا القى عليه اسورة من ذهب» أي لِمَ لم يكن له سوار من ذهب

(١). التفسير الكبير، ج ٨، ص ٨٥؛ تفسير روح المعاني، ج ٣، ص ١٧٦؛ تفسير القرطبي، ج ٢، ص ١٣٥٤.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٢٣

الذي كان يُعدّ علامه وبيان لشخصية صاحبه.

ثم أنّه إذا كان صادقاً لِمَ لم يأت بملائكة معه كي تكون شاهداً وعلامه على صدق كلامه؟

وبهذه الحجج الأربع ادّعى بطلان نبوة موسى عليه السلام.

يقول القرآن في هذا المجال: «فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ».

إنّ «استخف» من مادة «خفيف» والمراد منه هنا هو أنّ فرعون سعى لأنّ يستخف عقول قومه، جاء في تفسير مجمع البيان: إنّ فرعون استخف عقول قومه فأطاعوه فيما دعاهم إليه لأنّه احتج عليهم بما ليس بدليل وهو قوله: أليس لي ملك مصر... الخ «١» (واستخفاف الطغاة للجماهير أمر لاغرابه فيه؛ فهم يعزلون الجماهير أولاً عن كل سبل المعرفة، ويحجبون عنهم الحقائق حتى ينسوها ولا يعودون يبحثون عنها؛ ويلقون في روعهم ما يشاؤون من المؤثرات حتى تنطبع نفوسهم بهذه المؤثرات المصطنعة، ومن ثمّ يسهل استخفافهم بعد ذلك، ويلين قيادتهم، فيذهبون بهم ذات اليمين وذات الشمال مطمئنين) «٢».

والجدير بالذكر أنّ القرآن يقول في نهاية الآية: إنهم أطاعوه واستسلموا لإعلامه، وذلك لأنهم مذنبون وفاسقون، وهو يشير بذلك إلى أنّ المؤمن الهادف والواعي لا يكون عرضة لظاهرة غسل الأدمغة، بل الفسق والذنوب هي التي تهيب الأرضية لتقبل إعلام باطل كهذا.

وبتعبير آخر: فإنَّ «النفس الامارة» من الداخل، و«الوساوس الشيطانية» من الخارج يتعاضدان فيكتمان المعرفة عن الإنسان.

ج ج

(١). تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ٥١.

(٢). تفسير في ظلال القرآن، ج ٧، ص ٣٤٠.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٢٤

توضيح:

الجوانب المتعددة للإعلام المضلل:

إنّ هذه القضية في عصرنا الحاضر أوضح من أن تبحث أو تناقش، كما أنّها لم تخفّ على الناس في العهود الغابرة. إنّ الجبابرة الذين أرادوا فرض إرادتهم وحاكمتهم على الناس، توسلوا بوسائل إعلامية مختلفة لغسل أدمغة الناس، بدءاً بالمكاتب القديمة وانتهاءً بالمحاريب والمنابر، وأخذوا برواة القصص والأساطير في المقاهي، وانتهاءً بالكتب العلمية. والخلاصة: إنّهم استعانوا بجميع الوسائل المضلّة للوصول إلى مآربهم، من تحريف التاريخ، وأشعار الشعراء، وثناء المداحين، ومراكز التقديس والاحترام عند الناس، واختلاق الأساطير والكرامات والقيم غير الواقعية، وغيرها من الوسائل، فإنّهم يستطيعون بوسائل الاعلام هذه أن يصوروا الشيطان ملكاً أو إنساناً محترماً، وذلك كله من أجل الوصول إلى مآربهم. وقد جاء في بعض التواريخ الإسلامية المعروفة أن طاعة أهل الشام لمعاوية بلغت درجة عجيبة، ونقل هنا عبارة المسعودي في هذا المجال:

«لقد بلغ من أمرهم في إطاعتهم له أنّه صلى بهم عند مسيرهم إلى صفين الجمعة في يوم الأربعاء» (١).

والقصة التالية قصة معروفة (ولو لم تكن مروية في كتب التاريخ لكان قبولها صعباً)، حيث إنّ رجلاً من أهل الكوفة قدم دمشق راكباً جملاً في وقت كان أهل الشام يرجعون من صفين، فرآه رجل دمشقي فقال له: إنّ هذه الناقة لي وأنت أخذتها مني في صفين، فتنازعا فاشتكى الشامي عند معاوية (وكانها اتخذت صبغة سياسية) وجاء بخمسين شاهداً على أنّ هذه الناقة له، ففضى له معاوية على أساس الشهود.

فصرخ الكوفي قائلاً لمعاوية: إنّ هذا جمل وليس ناقة (انثى الجمل)، وطلب منه أن

(١). مروج الذهب، ج ٢، ص ٧٢.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٢٥

يلاحظها بنفسه، فأدرك معاوية صدق الكوفي فيما يقوله، لكن رغم ذلك قال له: إنّ الحكم صدر وانقضى وبعد ما تفرّق الناس أرسل معاوية رجلاً إلى الكوفي، فأتاه وأعطاه ضعف قيمة جملة، وقال له: «أبلغ علياً أنّي أقابله بمائة ألفٍ ما فيهم من يُفرق بين الناقة والجمل» (١).

وخلاصة القول: إنّ في التاريخ شواهد ونماذج كثيرة تكشف عن كيفية إغواء الطغاة والساسة لأمم عظيمة وغسل أدمغتهم بحيث ضلوا خيارى في متاهات الدروب، وابتلوا بمصائب كثيرة، وعند استتباب الأوضاع ورجوعها إلى حالتها الطبيعية، وعند سقوط الجبار المضل، وارتفاع حجب الاعلام، يستيقظ بعض الناس ويتنبهون لماضيهم فيتأسفون ويندمون كثيراً.

وفي العصر الحاضر اكتسب الاعلام قدرة عظيمة بدرجة ان في بعض الدول المتقدمة- اصطلاحاً- تأخذ وسائل الاعلام بأيد الشخصيات العلمية والمفكرين الواعين نسبياً صناديق الاقتراع ليصوتوا للشخصيات التي تدعو إليها وسائل الاعلام تلك، وقد يتصور أنهم احرار على الاطلاق، بينما لا خيار لهم من جراء وسائل الاعلام تلك.

إن اتساع وسائل الاعلام المسموعة والمرئية واستعاتتها بفنون علم النفس يزيد في تأثير الاعلام على النفوس بدرجة يحار فيها الخارجون عن دائرة الاعلام والمتمكنون من متابعة الامور من دون رأى مسبق فيها.

إن هذا الأمر لم ينحصر في الامور السياسية فحسب، بل في الامور الاقتصادية كذلك، فإن وسائل الاعلام يمكنها بحملة إعلامية أن تسوق المجتمع نحو استهلاك سلعة قد تكون اعتباطية أو مضره أحياناً، وبهذا يفرض على المجتمع اقتصاداً سقيم.

إن الاستعانة بعناوين وقيم كاذبة مثل الاستعانة بعنوان «موديل» أحد أوسع وأعقد الطرق للوصول إلى هذه الأهداف غير المشروعة.

كما أنه يستعان بالاعلام الثقافي الغامض لفرض المذاهب الفكرية المختلفة على الشعوب، فتارة يفرض مذهب باطل وعارٍ عن الاسس المنطقية، وكأنه مذهب فلسفي منطقي إنساني.

(١). مروج الذهب، ج ٢، ص ٧٢؛ الإمام على صوت العدالة الإنسانية، ج ٤، ص ٩٥٦.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٢٦

وعلى أزية حال، فمما لا شك فيه أنه ينبغي رفع هذه الحجب عن المجتمع وتصحيح اتجاه المعرفة فيه، كما ينبغي عدم ترك وسائل الاعلام أن تفكر وتقرر بدلاً عن المجتمع، بل يحدد عملها في توعية الناس، وتهئية الأرضية لهم لاتخاذ القرارات الصحيحة.

ينبغي أن لا يكون هدف وسائل الاعلام الجماعية هو وضع الحجب على عقول الناس والتعتيم عليهم، بل ينبغي أن يكون الهدف هو رفع حجب التعصب والجهل والغفلة والتقليد العشوائي عن العقول، وهذا هو البرنامج الراقى لوسائل الاعلام في مجتمع رشيد ونموذجي، والمؤسف في عصرنا الحاضر هو قلة مثل هذه المجتمعات.

إن النقص في وسائل الاعلام هو أنها بيد الساسة، والأسوء من ذلك أنها بيد العمالقة الاقتصاديين الذين يوجهون الناس أين ما شاءوا.

ج ج

٤- حجاب وساوس الشياطين

إشارة

في البداية نتمعن خاشعين في الآيات الشريفة التالية:

- ١- «فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . (الأنعام/ ٤٣)
- ٢- «وَجَدْتُنَّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ . (النمل/ ٢٤)
- ٣- «وَعَادَا وَتَمُودَا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِينِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ . (العنكبوت/ ٣٨)
- ٤- «وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَانِ نُفِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَأَنْهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنََّّهُمْ مُهْتَدُونَ . (الزخرف/ ٣٦-٣٧)

٥- «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا . (الأنعام/ ١١٢)

٦- «إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٢٧

وَأَمَلَى لَهُمْ . (محمد / ٢٥)

٧- «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ». (فاطر / ٥)

شرح المفردات:

كلمة «الشیطان» خلافاً لما يُظنّ البعض - ليس اسماً خاصاً بابليس وعلماً له، بل له مفهوم عام، وعلى ما يُصطلح عليه فهو «اسم جنس» يشمل كل موجود متمرد وباغ ومخزّب، سواء كان من الجن أو الانس أو شيئاً آخر. وهنالك قولان في أصل هذه المفردة:

القول الأول هو القائل بأنه من مفردة «شَطُون» أى التبعّد، ولهذا قيل للبئر العميق والبعيد قعره عن متناول الأيدي «شَطُون»، ويقول «خليل بن أحمد»: إن شَطَنَ تعنى الجبل الطويل، وبما أنّ الشيطان بعيد عن الحق وعن رحمته الله استعملت هذه المفردة فيه.

والقول الثانى هو القائل بأنه من مادة «شَيْط» ويعنى الالتهاب والاحتراق غضباً، وبما أنّ الشيطان خلق من نار واشتعل غضباً عندما أمر بالسجود إلى آدم عليه السلام أطلقت هذه المفردة عليه وعلى الموجودات الأخرى من أمثاله «١».

«الغرور»: من مادة «غُرور» أى الخدعة والحيلة والغفلة عند اليقظة، وقد اطلقت هذه المفردة على الشيطان لأنه يغرّ الناس بخدعه وحيله ويخرجهم عن الطريق الصواب، ويغيّر رؤيتهم للحق والباطل.

«الغرور»: كل شىء يغرّ ويخدع، وهو أعمّ من المال والمقام والشهوة والشيطان، وإذا فسّر أحياناً بالشيطان فقط فذلك لأنه أخبث الخادعين والماكرين.

أما «التسويل» فمن مادة «سُوّل» وفى الأصل يعنى الحاجة والامنية التى ترغب النفس

(١). التحقيق فى كلمات القرآن الحكيم؛ مفردات الراغب؛ لسان العرب ومجمع البحرين مادة (شيطان).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٢٨

فيها، والتسويل يعنى تزيين الشىء بشكل حيث تشاق إليه النفس، كما جاء بمعنى تزيين الأشياء القبيحة.

هذا التفسير ذكره الراغب فى مفرداته، إلّا أنه يستفاد من صِحاح اللغة وكتاب العين، أن معناها فى الأصل هو الاسترخاء المترامن مع الغرور والغفلة، ولهذا اطلقت هذه المفردة على تزيين الامور غير السائغة واطهار عكس ما هى عليه وبشكل سائغ، بحيث يُخدع الإنسان من جرائمها ويسترخى.

وعلى أية حال، فإنّ المراد من تسويلات الشيطان فى الآيات هو إظهار القبح حسناً بشكل يخدع الإنسان ويحرفه.

جمع الآيات وتفسيرها

كيف يُزَيّن الباطل؟ وكيف تُسحر العيون؟

تحدثت الآية الاولى عن فريق من الأقوام السالفة الذين أرسل إليهم رسل ليؤمنوا ويسلموا أنفسهم للحق، إلّا أنّهم اعرضوا عن ذلك، فأنزل الله عليهم بأسه، فابتلاهم بمختلف المشاكل والمصائب والحوادث الصعبة، والفقر والمرض والقحط وغير ذلك، كى يوقفهم من غفلتهم، ولكى يخضعوا للحق، إلّا أنّهم اتخذوا السبيل المنحرف بدل سبيل الرشاد والرجوع إلى الحق والتوبة.

يقول القرآن في هذا المجال: لماذا لم يتضرعوا بالرغم من مجيء بأسنا لهم؟ ثم يعد أسباب هذا الأمر ويقول: الأول هو «قَسَتْ قُلُوبُهُمْ فما كادت تخضع للحق».

والثاني هو: «وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» ، بحيث أصبحوا يرون المعاصي صواباً والقبح جمالاً، وقد نفذ الشيطان هنا من طريق عبادة الهوى

وبتعبير آخر: لم تؤثر فيهم لا مواعظ الأنبياء اللفظية، ولا مواعظ الله العملية والتكوينية، وعامل هذا الحجاب هو قسوة القلوب من جهة، ومن جهة أخرى تزيين الشيطان لهم، بحيث سلب منهم روح التضرع والخضوع.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٢٩

هناك بحث بين المفسرين في المراد من «تزيين الشيطان»، فيقول البعض: إنه الوسوس الشيطانية التي تبدو المحاسن فيها قبائلاً والقبايح فيها محاسناً، أو العوامل الخارجية التي تزين للإنسان سوء أعماله، كما تجعل المواد السامة في غلاف مغرٍ وجميل، وكما يُدعى للانحرافات الكبيرة تحت غطاء التمدن والأفكار النيرة والحرّة.

وتحدثت الآية الثانية عن هدهد سليمان عندما قدم من رحلته إلى بلاد الملكة سبأ، فبعد حكايته لقصة سبأ وحضارة بلادها العظيمة قال: «وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ .

إن هذه الآية تكشف عن أن الهدهد بالرغم من محدودية عقله وذهنيته الخاصة به وبالعالمه يدرك بالاجمال حجب المعرفة، ويعرف أن الشيطان يجعل ستاراً على فكر الإنسان يحول دون تمكنه من إدراك الحقائق ويغلق أبواب المعرفة عنه ويحول دون وصول الإنسان إلى مراده المنشود.

وقد بحثنا امكانية اطلاع الحيوانات على عالم الإنسان، كما بحثنا مدى معرفتها لهذا العالم في تفسير الأمل ذيل الآية ١٨ من سورة النمل، وفي ذيل الآية ٣٨ من سورة الأنعام.

كما تحدثنا في ذيل الآية نفسها عن كيفية طي الهدهد المسافة الطويلة بين الشام واليمن ووصوله إلى بلاد سبأ.

ج ج

وقد تحدثت الآية الثالثة عن قوم عاد وثمود وطغيانهم وعصيانهم ثم هلاكهم، كما عرضت على عرب الحجاز مدنهم الخربة التي يمرون بها عند رحلاتهم إلى الشام واليمن كعبرة لهم، ثم أشارت إلى السبب الأساسي في إهلاكهم وهو تزيين الشيطان لأعمالهم بحيث ما كادوا يبصرون شيئاً ولا يعقلون رغم امتلاكهم للابصار والعقول، وقد قالت الآية: «وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ .

إن عبارة «وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ» - كما يقول كثير من المفسرين - تعنى غفلتهم وعدم

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٣٠

تدبرهم في الحقائق بالرغم من امتلاكهم للعقول والحواس واقتدارهم على الاستدلال والتمييز بين الحق والباطل «١».

وقد جاء في تفسير الميزان: «إنهم كانوا يعرفون طريق الحق بفطرتهم إلا أن الشيطان زين لهم أعمالهم فمنعهم عنه» «٢».

ويقول البعض: إن المراد من العبارة هو معرفتهم للحق بواسطة دعوة الأنبياء وتعاليمهم «٣».

إن الآية بجميع تفاسيرها (سواء قبلنا أحدها أو قبلنا الجميع لعدم المنافاة بينها) شاهد على ما قلناه من أن تزيين الشيطان يجعل حجاباً على عقل الإنسان وفكره.

ج ج

وقد بينت الآية الرابعة بصورة عامة مصير الذي يعشو عن ذكر الله ويغفل عنه وقالت:

«وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَانِ ... وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ .

ذَكَرَ المفسرون وأئمة اللغة معنيين لفعل «يَعْشُو»، فقال بعض: إنَّه ظلام خاص يحلُّ في العين يفقد الإنسان من جرائه بصره ويكون أعمى أو أعشى (أى لا يرى فى الليل) وهو من مادة «عَشَى»، كما يقال «عشواء» للجمل الذى لا يرى أمامه ويخطأ عند المشى، وعبارة «خبط عشواء» إشارة إلى هذا المعنى

وعلى هذا فيكون معنى الآية الشريفه هو: إنَّ الذى لا يرى آيات الله فى الكون بعينه، ولا يسمع من انبيائه، فانه سيقع فى فخ الشيطان وتسويلاته.

وقال بعض آخر: إنَّها من مادة «عَشُو»، وعندما تستعمل مع «إلى فتعنى الهداية ببصر ضعيف، وعندما تستعمل مع «عن» فتعنى الإعراض» (٤).

(١). تفسير مجمع البيان، ج ٧، ص ٢٨٣؛ تفسير روح البيان، ج ٦، ص ٤٦٨، كما نقل هذا عن بعض المفسرين فى تفسير القرطبي.

(٢). تفسير الميزان، ج ١٦، ص ١٣١.

(٣). التفسير الكبير، ج ٢٥، ص ٦٦.

(٤). يقول بعض المفسرين: إنَّ هذه المفردة إن كانت من مادة (عَشَا، يَعْشُو)، فتعنى التعامى من دون أن تكون علة فى بصره، أمَّا إذا كانت من مادة (عَشَى يَعْشَا)، فتعنى حصول علة فى بصره، تفسير روح البيان، ج ٨، ص ٣٦٨، وينبغى الالتفات هنا إلى أنَّها فى الآية من باب (عَشَا، يَعْشُو).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٣١

وعلى هذا فيكون المراد من الآية هو: إنَّ الذين يعرضون عن ذكر الله فَنَقِيضُ ونسلط الشيطان عليهم «١».

إنَّ «نَقِيضُ» من مادة «فَقِيضُ» وتعنى قشر البيض ثم استعملت بمعنى الاستيلاء، واستعمال هذه المفردة فى الآية أمرٌ مثير، حيث يكشف عن أنَّ الشيطان عندما يَنَقِيضُ على الإنسان يحيط به من جميع الجهات، ويقطع اتصاله بالخارج بالكامل كما تفعل قشرة البيض بالبيض، وهذا أسوأ أنواع حجب المعرفة التى يُبْتَلَى بها الإنسان، كما أنَّ هناك مثلًا عند العرب يقرب معنى الآية للأذهان «استيلاء القبيض على البيض».

والأسوء من هذا هو أنَّ احاطة الشيطان بالإنسان واستيلاءه عليه ومقارنته له تستمر إلى درجة تجعله يفتخر بضلالته ويحسب أنَّ طريقه هو طريق الحق والهداية «وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ».

ج ج

وقد تحدثت الآية الخامسة عن شياطين الانس والجن الذين نصبوا العداة للأنبياء والذين أعدوا أنفسهم لابطال فاعليته تعليم الأنبياء، ويوحى بعضهم إلى بعض أقاويل مزخرفة باطله لا- أساس لها من الصحة، كما يعلم بعضهم البعض طرق المكر والخداع، وذلك لاغفال الناس وكنم الحقائق وجعل الحجب عليها، وإبعاد الناس عن تعاليم الأنبياء.

وينبغى ذكر هذه النقطة هنا وهى: إنَّ العدو ذكر بصيغة المفرد، بينما الشياطين بصيغة الجمع، وهذا قد يكون من حيث إنَّ الشياطين متحدون ومتفقون فى سبيل إغفال الناس وخداعهم وكأنهم عدو واحد.

ويقول البعض: إنَّ «عدو» هنا بمعنى أعداء أى بمعنى الجمع «٢».

(١). راجع لسان العرب ومفردات الراغب و تفاسير القرطبي وروح البيان والميزان.

(٢). تفسير روح المعانى، ج ٨، ص ٤.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٣٢

كما صرح بعض آخر: إنّ «العدو» تطلق على المفرد والمثنى والجمع «١».

والآية السادسة هي من آيات سورة محمد صلى الله عليه و آله التي أُشير فيها إلى حجب متعددة من حجب المعرفة، فتارةً تعدّ الفساد في الأرض وقطع صلة الرحم سبباً للعمى الباطنى لهم الآية ٢٣، وتارةً اخرى تعد ترك التدبر فى القرآن بمثابة الأفعال على القلوب. والآية المذكورة تعدّ تزيين الشيطان وتسويلاته سبباً لارتداد الضالين، حيث يتبين لهم الحق ويؤمنون به أولاً، ثم ينحرفون عنه من جراء تسويلاته وتزيينه لهم إلى درجة يفتخرون فيها بضلالتهم الأخيرة.

من هم المشار إليهم فى الآية؟

هذا ما بحثه المفسرون وانقسموا من جرائه إلى فريقين، فبعض يقول: إنّهم اليهود، حيث كانوا مؤمنين بالرسول صلى الله عليه و آله قبل ظهوره وذلك لوجود العلامات المذكورة فى كتبهم عن ذلك الرسول، ثم سلكوا سبيل العناد والمخالفة له بعد ظهوره، ويُعدّ هذا نوعاً من الارتداد.

وبعض يقول: إنّها تشير إلى المنافقين الذين آمنوا فى البداية ثم ارتدوا بعد ذلك، أو أنّهم آمنوا ظاهراً وهم كافرون باطناً، لكن مع الالتفات إلى كون الآيات التى سبقت هذه الآية والتى تليها نظرة إلى المنافقين، لا يبعد أن تكون هذه الآية تشير إليهم كذلك فالمراد من الآية- إذن- المنافقون الذين آمنوا فى البداية ثم ارتدوا بعد ذلك.

إنّ «أملى لهم» من مادة «املأ» أى الإمهال «٢»، والمراد منها هو الآمال البعيدة التى يوحىها الشيطان للإنسان، الآمال التى تشغل فكر الإنسان وتزين له الباطل وتبعده عن الحق.

ج ج

أما الآية السابعة والأخيرة فقد أُنذرت الناس- بتعبير وافٍ- بأن وعد الله حق، ثم ذكر

(١). تفسير المنار، ج ٨، ص ٥.

(٢). ينبغى الالتفات هنا إلى أنّ أصل هذه المادة هو (مَلُو) لا (مَلَأ)- بالهمزة-.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٣٣

عاملين للضلالة والانحراف عن الحق، الأول: الدنيا «فَلَا تَغْرُنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا»، والثانى:

الشيطان «وَلَمَّا يَغْرُنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ» فتارةً يؤملكم بكرمه وينسيكم غضبه، وتارةً اخرى يغويكم بشكل بحيث تنسون الله وتعاليمه، أو تبدو لكم تعاليمه بشكل معكوس.

إنّ «غرور»- كما أشرنا سابقاً- هو كل ما خدع الإنسان، سواء كان مალأ أو جاهاً أو شهوات أو غير ذلك، وبما أنّ الشيطان أوضح مصداق للخداع، أطلق عليه ذلك كثيراً، وفُسر به «١».

يعتقد كثير من المفسرين أنّ عبارة «لَمَّا يَغْرُنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ» تلميح إلى أنّ الشيطان غرّ الإنسان بعفو الله وكرمه بدرجته يمكنه من ارتكاب أى معصية أراد، وبلغ به الأمر أن يعتقد بأنّ هذا ناشئ عن كمال معرفته لصفات الله! وهذا أمر عجيب.

وحاله كحال من يتصور أنّ جسمه قوى وذو مناعه تمكنه من مقاومه جميع السموم المهلكة، فيخدعه تصوره ويتناول السم فيموت. وهذا هو أحد حجب المعرفة.

ج ج

توضيحات

١- من هو الشيطان؟

إنّ «الشيطان»- وكما قلنا سابقاً- ليس اسماً خاصاً أو علماً لإبليس، بل إنّ إبليس الذى امتنع عن السجود لآدم هو أحد الشياطين. إنّ لإبليس جنوداً كثيرة من جنسه ومن الناس، وتطلق مفردة الشيطان على الجميع، وعلى هذا فقادة الكفر والشرك والظلم والفساد فى الأرض، والعاملون فى الاجهزة الظالمة كلهم من جنود الشيطان، ولقد جاء فى روايته أن هناك شياطين من الانس أسوء من شياطين الجن، حيث سأل رسول الله صلى الله عليه و آله أبأذر يوماً: «هل تعوذت بالله من شر شياطين الجن

(١). إنّ «الغرور» صيغة مبالغة.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٣٤

والإنس؟

فقال أبوذر: وهل من الناس شياطين؟

فأجابه رسول الله صلى الله عليه و آله: «نعم هم شرّ من شياطين الجن» (١).

كما أنّ المستشفّ من القرآن هو أن للشيطان جنوداً فرساناً وراجلين كما جاء ذلك فى الآية: «وَاجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ . (الاسراء / ٦٤)

إنّ «اجلب» من مادة «إجلاب» ويعنى التجمع السريع أو الضجيج والصياح لحث مجموعة ما على الحركة.

أمّا المراد من «خيلك ورجلك»، فيقول الكثير من المفسرين: إنّه الراجل أو الفارس الذى يخطو فى معصية الله، أو قاتل فى هذا السبيل (٢).

ويقول البعض: إنّ للشيطان أعواناً وأنصاراً راجلين وفرساناً حقاً.

وحمل البعض العبارة على الكناية، وقال: المراد من الآية هو أنّ الشيطان أعدّ العدة ووفّر جميع الوسائل لصراع ومجابهة الناس (٣).

كما يحتمل أن يكون المراد من الخيل هو قادة الكفر والظلم والفساد، ومن الرجل، الشخصيات المتوسطة الأضعف من الشخصيات السابقة.

كما يحتمل أن يكون المراد من الخيل هو الشهوات والصفات الذميمة التى تتغلب على روح الإنسان وتمتطيها، والمراد من الراجلين هو العوامل الخارجية التى تسعى لانحراف الإنسان عن الصراط المستقيم.

ج ج

٢- الإجابة عن سؤال

(١) التفسير الكبير، ج ١٣، ص ١٥٤.

(٢) نقل القرطبي هذا التفسير عن أكثر المفسرين.

(٣) ذكر الفخر الرازى هذا التفسير كاحتمال فى تفسير الكبير، ج ٢١، ص ٦، وقد جاء ما يشبه هذا الاحتمال فى تفسير فى ظلال

القرآن، ج ٥، ص ٣٤٣.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٣٥

هناك سؤال يرتبط ببحثنا وهو: كيف يمكن أن يتركنا الله لوحدنا نواجه جنود الشيطان القويّة والقاسية؟ وهل يتفق هذا مع حكمه الله وعدله؟

يمكننا الإجابة عن هذا السؤال بالالتفات إلى نقطة، وهي: إنَّ الله - وكما جاء في القرآن الكريم - يجهز المؤمنين بجنود رحمانية، أي الملائكة، ويوظف القوى الغيبية التي في العالم يؤازرونهم وينصرونهم في طريق جهاد النفس والعدو:

«إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ* نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ...».

(فصلت / ٣٠ - ٣١)

٣- النقطة المهمة الأخرى

هي: إنَّ الشيطان لا يدخل قلوبنا فجأة ولا يعبر حدود دولة الروح من دون جواز، إنَّ هجومه ليس مباغتاً بل يدخل برخصتنا، نعم إنَّه يدخل من الباب لا من النافذة، ونحن نفتح له الباب، كما يقول القرآن في هذا المجال: «إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ* إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ .

(النحل / ٩٩ - ١٠٠)

في الحقيقة إنَّ أعمال الإنسان هي التي توفر الأرضية لنفوذ الشيطان، وذلك ما يقوله القرآن: «أَنَّ الْمَيِّدِينَ كَانُوا أَخْوَانَ الشَّيَاطِينِ .

(الاسراء / ٢٧)

إلما أنه لا- طريق للنجاه من مكائد الشياطين المتنوعة وجنودهم في أشكالها المختلفة من الشهوات ومراكز الفساد والسياسات الاستعمارية والمذاهب المنحرفة والثقافات الفاسدة، إلَّا اللجوء إلى الإيمان والتقوى والتظلل بألطف الله والتوكل على ذاته المقدسة، وكما يقول الله تعالى: «وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٣٦

قَلِيلًا». (النساء / ٨٣)

وقد انتهت إلى هنا حجب المعرفة العشرون، فننتقل معاً إلى مؤهلات المعرفة.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٣٧

مؤهلات المعرفة

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٣٩

مؤهلات المعرفة

تمهيد:

إشارة

كما أنَّ البذور تنمو في الأراضي الخصبة، وكما أنَّ الأزهار لا تتفتح في الأراضي المالحه بالرغم من استعمال أفضل البذور، ونزول المطر المتوالي عليها، كذلك بذور المعرفة فإنها لا تنمو إلَّا في القلوب الصالحة والمؤهله، ولا تتفتح أزهارها إلَّا في الأرواح الطاهرة.

ولهذا السبب فإنَّ الاطلاع على الروحيات والأعمال التي تهيبء وتعدُّ أرضية المعرفة يعد من أهم البحوث التي تتعلق ب «المعرفة»، وقد استعمل القرآن في هذا المجال تعابير ذات معانٍ عميقة وإشارات جميلة.

وبالرغم من أنَّ المؤهلات للمعرفة كثيرة، إلَّا أنَّ الاسس المهمة والتي أشار إليها القرآن عبارة عن الامور التالية:

١- علاقة التقوى بالمعرفة.

٢- الإيمان والمعرفة.

٣- علاقة الصبر والشكر بالمعرفة.

٤- المعرفة تهىء الأرضية للمعرفة.

٥- علاقة الخوف بالمعرفة

و سنبحث كلاً من هذه الامور في فصل خاص بعد ذكر الآيات التي تتعلق بها، كما سنستعين بالروايات الإسلامية في هذا المجال كمؤكد وموضح لها إن شاء الله.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٤٠

١- علاقة التقوى بالمعرفة

إشارة

في البداية نتأمل خاشعين في الآيات المباركة التالية:

١- «الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَارِيبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ . (البقرة/ ١- ٢)

٢- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا». (الأنفال / ٢٩)

٣- «وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . (البقرة/ ٢٨٢)

٤- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

(الحديد/ ٢٨)

ج ج

شرح المفردات:

إنّ «التقوى من مادة «وقاية» وتعنى - كما يقول الراغب في مفرداته- حفظ الشيء من الآفات.

ثم يضيف: إنّ التقوى بمعنى حفظ الروح والنفس مما يخشى مضرته، ثم اطلقت على الخوف، كما أنّ التقوى في الشرع تطلق على التحفظ من المعاصي، وكمالها ترك بعض المباحات المشكوكة «١».

ولباقي أئمة اللغة تعابير تشبه ما جاء في المفردات، فقد فسرها بعض بالصيانة «٢»، وبعض اخرج «الامتناع عن القبائح والأهواء» «٣».

وقد نقل عدد من المفسرين حديثاً عن بعض الصحابة أنّهم سألوا عن حقيقة التقوى فاجابوا:

(١). مفردات الراغب مادة (وقى) .

(٢). لسان العرب نفس المادة.

(٣). مجمع البحرين، نفس المادة، كما ينبغى الالتفات إلى أن أصل مفردة التقوى هو «وقى فانقلبت الواو تاءً، كما ذكر ذلك الخليل

بن أحمد في كتابه «العين».

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٤١

«هل مررت بطريق مليء بالأشواك في يوم ما؟ قال السائل: نعم، قال: ألم تجمع ثيابك وترفع اذيالك وتسعى للخلاص من الأشواك؟ فحالتك هذه هي التقوى .

نعم، إنَّ الطريق إلى الله مليءٌ بالأشواك كأشواك الشهوات والميول والأهواء والآمال البعيدة والكاذبة، ومن هنا ينبغي على الإنسان أن يحافظ على ثباته فيتجنب أن يكون عرضةً لهذه الأشواك، وينبغي أن لا تشغله عن مسيره إلى الله سبحانه وتعالى. وهذا لا يكون إلا باليقظة والمعرفة والخبرة ومراقبة النفس على الدوام.

وبتعبير أبسط: إنَّ التقوى هي الوقاية من الآفات التي تعترض الروح في سيرها التكاملي، وتجنُّب الذنوب والشبهات حتى الوصول إلى الملكة.

وقد ذكر بعض المفسرين معاني عديدة للتقوى وجاءوا بشاهد من القرآن لكلٍ منها، وفي الحقيقة أنَّ كلاً منها مصداق من مصاديق التقوى مثل التوبة والطاعة والإخلاص والإيمان (العبادة والتوحيد) «(١)».

ويقول البعض: إنَّ حقيقة التقوى هي أن يجعل الإنسان حائلاً أو مانعاً أمام آفة ما، فكما يدفع الإنسان تأثير ضربات العدو بالدرع، كذلك المتقون فانهم يصونون أنفسهم من عذاب الله بواسطة درع طاعة الله «(٢)».

نقسّم التقوى إلى ثلاث مراحل: التقوى عن الكفر، والتقوى عن الذنب، والتقوى عما ينسى الإنسان ذكر ربه «(٣)».

ولكن - كما هو واضح - فإنَّ المعاني هذه كلها ترجع إلى المعنى الأساسي الذي ذكر للتقوى في البداية.

ج ج

(١). وجوه القرآن، ص ٥٥؛ التفسير الكبير، ج ٢، ص ٢٠.

(٢). تفسير روح البيان، ج ١، ص ٣٠ و ٣١.

(٣). المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٤٢

جمع الآيات وتفسيرها

اتقوا كي يسطع نور العلم على قلوبكم!

يقول الله عزَّ وجلَّ في الآية الأولى «ذَلِكَ الْكِتَابُ لَمَّارٍ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ وَالتَّعْبِيرُ هَذَا يثبت بوضوح تأثير التقوى على المعرفة كمؤهل لها.

وهذه هي الحقيقة، فما لم تحصل في باطن الإنسان مرحلة من مراحل التقوى لا يمكنه الاستفاضة من ينابيع الكتب السماوية، وأقل التقوى هو أن يسلم الإنسان نفسه إلى الحق ويترك العناد، فإنَّ الذين يفتقدون هذه المرحلة من التقوى سوف لا يرتفعون إلى أدنى درجة من درجات المعرفة ولا يتقبلون الهداية أبداً.

طبعي أن الإنسان كلما كانت روح التقوى والتسليم إلى الحق وقبول الحقائق والواقعات قوية عنده كانت استفاضته من ينابيع الهداية أكثر.

إنَّ ينابيع الهداية وعلى رأسها القرآن المجيد كالغيث الذي يحيى الأرض ويفتح أزهار المعرفة فيها، وهذا يحدث في الأرض الخصبة فقط لا في كل أرض.

إنَّ التعبير «هدى أي بصيغته المصدر، تأكيد لحقيقة أن روح التقوى إذا استيقظت عند الإنسان وأصبحت فعالة، فإنَّ القرآن سيصبح

الهداية ذاتا (تأمل جيداً).

وفي هذا المجال يقول بعض المفسرين العظام:

«إن الهداية الثانية لما كانت بالقرآن فالهداية الاولى قبل القرآن وبسبب سلامة الفطرة، فإن الفطرة إذا سلمت لم تنفك من أن تنتبه شاهدة لفقرها وحاجتها إلى أمر خارج عنها، وكذا احتياج كل ما سواها مما يقع عليه حس أو وهم أو عقل إلى أمر خارج تقف دونه سلسلة الحوائج، فهي مؤمنة مدعنه بوجود موجود غائب عن الحس، منه بدأ الجميع وإليه ينتهون ويعودون، وأنه كما لم يهمل دقيقة من دقائق ما يحتاج إليه الخلق كذلك لا يهمل هداية الناس إلى ما ينجيهم من مهلكات الأعمال والاخلاق وهذا هو الاذعان بالتوحيد والنبوة والمعاد وهي اصول الدين» (١).

(١). تفسير الميزان، ج ١، ص ٤٢.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٤٣

كما يقول الفخر الرازي:

«والبعض الآخر ذكر في حصر الهداية بالمتقين لأن الله تعالى ذكر المتقين مدحاً ليبين أنهم هم الذين اهتدوا وانتفعوا به كما قال: «إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّنْ يَخْشَاهَا». (النازعات / ٤٥)

وقال: «إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذُّكْرَ». (يس / ١١)

وقد كان عليه السلام منذراً لكل الناس، فذكر هؤلاء الناس لاجل أن هؤلاء هم الذين انتفعوا بانذاره» (١).

وقد استنتج الفخر الرازي في بعض عباراته:

«ولو لم يكن للمتقى فضيلة إلا ما في قوله تعالى (هدى للمتقين) كفاه لانه تعالى بين أن القرآن هدى للناس في قوله تعالى «شَهْرٌ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ...».

(البقرة / ١٨٥)

ثم قال: إنه هدى للمتقين فهذا يدل على أن المتقين هم كل الناس فمن لا يكون متقياً كانه ليس بانسان» (٢).

و بالرغم من عدم تعارض التفاسير الماضية، إلا أن التفسير الأول يبدو أوضح، ومن هنا يعرف عدم صحة الرأي القائل (بحمل «المتقين» في الآية على المجاز، والقول بأن المراد منهم سالكو طريق التقوى وذلك للحيلولة دون الوقوع في إشكال (تحصيل حاصل)، وذلك لأن للتقوى وكما قلنا- مراحل ودرجات، فمرحلة منها تؤهل لهداية القرآن، والمراحل الرفيعة الاخرى تكون وليدة هداية القرآن.

ويطرح هنا سؤال وهو: إن الآيات التي جاءت بعد «هدى للمتقين» عرفت المتقين بالذين يؤمنون بالغيب وبقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، وعلى هذا، أفلا تكون هداية القرآن تحصيلاً للحاصل يا ترى!

إن الإجابة على هذا السؤال تتضح بالالتفات إلى نقطة في هذا المجال وهي: إن الوصول إلى هذه المراحل المذكورة في السؤال ليست نهاية الطريق، بل هناك مراحل كثيرة اخرى ينبغي طيها لبلوغ المرحلة التكاملية اللانقطة بالإنسان، وهذه المرحلة عند

(١). التفسير الكبير، ج ٢، ص ٢١.

(٢). المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٤٤

المتقين ستهديهم إلى مراحل ارفع واسمى بالاستعانة بهداية القرآن.

وتوجد تعبيرات في القرآن تشبه ما جاء في الآية السابقة، مثلما جاء في الآية: «وَإِنَّهُ لَتَذَكَّرٌ لِّلْمُتَّقِينَ . (الحاقة / ٤٨)

فعدت الآية الاولى القرآن «هدى للمتقين وسبباً لهدايتهم، والثانية «تذكرة» لهم، ونعلم أن «التذكر» من مقدمات «الهداية»، ولهذا عندما وصل عدد من المفسرين إلى هذه الآية أرجعوا الحديث فيها إلى نفس الحديث في بداية سورة البقرة. وعلى أيه حال، فإن هذه الآيات شاهد ناطق على دور التقوى كمهّد للمعرفة والهداية.

ح ج

وقد وضحت الآية الثانية علاقة التقوى بالمعرفة توضيحاً أكثر من الآية السابقة وصرحت: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا انْ تَقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا».

إن «الفرقان»- كما يقول بعض أئمة اللغة:- (اسم مصدر)، وادعى بعض آخر (مصدر) إلّا أنّ أغلب المفسرين يصرحون بأن له- في موارد كهذا المورد- معنى فاعلياً مقرونًا بالتأكيد (أشبه ما يكون بمفهوم صيغة المبالغة)، ومعناه الشيء الذي يفرق بين الحق والباطل، وله مفهوم واسع يشمل القرآن المجيد ومعجزات الأنبياء والأدلة العقلية الواضحة وشرح الصدر والتوفيق والنورانية الباطنية وغير ذلك «١».

وبهذا، فالقرآن يقول بأن «التقوى هي الأرضية التي تعد للمعرفة والتي يمكن الاستدلال بها تماماً في بعض المراحل، وتنطوي في المراحل الاخرى ضمن الامدادات الإلهية المعنوية.

سمى القرآن المجيد يوم معركة بدر «يوم الفرقان»، وذلك من حيث إنه يوم شهد آيات الله البارزة تؤيد جند الإسلام ضد جند الشرك، فبالرغم من عدّه وعدد المشركين الذي يقدر بثلاثة أضعاف عدد المسلمين، تحملوا ضربات قاسية من المسلمين لم يتوقعها أحد.

(١). راجع المفردات، وكتاب العين، ولسان العرب، ومجمع البحرين، والميزان، والكشاف في ذيل الآية نفسها.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٤٥

إضافة إلى هذا، فإن معركة بدر كانت أول مواجهة مسلحة بين المسلمين والمشركين انفصلت بها صفوف المسلمين عن المشركين، ولذا سميت ب «يوم الفرقان».

وينبغي الالتفات إلى أن «فرقاناً» جاءت بصيغة نكرة ومطلقة، فدلّت على عظمة ذلك النور الإلهي وعلى سعته، بحيث يشمل المسائل الاعتقادية والعملية وكل ابداء رأى تجاه امور الحياة المهمّة، وعلى هذا، فثمره شجرة التقوى هي الولوج في كل خير وبركة والابتعاد عن كل شرّ وفساد.

يقول الفخر الرازي في شرحه لهذه الآية: بما أن لفظ الفرقان مطلق فينبغي حمله على كل ما يفرق المؤمنين عن الكافرين، فهذا الفرقان إمّا في أحوال الدنيا وإمّا في أحوال الآخرة، والذي يتعلق بأحوال الدنيا إمّا أنه يتعلق بالقلب وهي الاحوال الباطنة أو في الأحوال الظاهرة، فبالنسبة للقلب والباطن فالله يهدى قلوب المؤمنين ويلقى فيها المعرفة ويشرح صدورهم ويمحو عنها الحقد والحسد والبغض والعداوة، بينما يمتلىء قلب المنافق والكافر من هذه الرذائل والصفات السيئة، لأن القلب إذا تنور بنور الإيمان زالت ظلمات هذه الرذائل عنه، أما الذي يتعلق بالظاهر، فالله ينصر المسلمين ويفتح لهم ويمنحهم الرفعة «١».

ح ج

والآية الثالثة التي هي جزء صغير من أطول آية، أي بعد أن بينت عدداً من الأوامر الإلهية قالت: «وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ . (البقرة/

(٢٨٢)

يقول القرطبي في تفسيره:

«إنّه وعدّ من الله تعالى بأن من اتقاه علّمه، أي يجعل في قلبه نوراً يفهم به ما يلقي إليه، وقد يجعل الله في قلبه ابتداء فرقاناً، أي فصلًا

يفصل به بين الحق والباطل» (٢).

(١). التفسير الكبير، ج ١٥، ص ١٥٣ (بتلخيص).

(٢). تفسير القرطبي، ج ٣، ص ٤٠٦.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٤٦

إنّ هذا الحديث لا يعنى ترك كسب العلم، والاكتفاء بتهذيب النفس - كما يقول بعض الصوفية وأشخاص منحرفون - بل المراد هو أنّ التقوى تهيب الأرضية لكسب العلم الحقيقي أشبه ما يكون بالأرض الخصبة والمعدّة لبذر البذور. صحيح أنّ جملة «اتقوا الله» ليست شرطاً وأن جملة «يعلمكم الله» ليست جزءاً لها (ولهذا أنكر البعض العلاقة بين التقوى والعلم المستفادة من هذه الآية)، لكن ممّا لا شك فيه هو أن اقتران أحدهما بالآخر لم يكن اعتباطاً، بل هو تلميح إلى العلاقة الموجودة بين هذين الاثنين، وإلا فيعرض انسجام الآية للسؤال.

ج ج

إنّ رابع وآخر آية بيّنت العلاقة بين التقوى والمعرفة بوضوح، فبينت ثلاثة أجور للذين يتقون الله ويؤمنون برسوله. الأول يؤتيهم الله كفلين أو نصيين من رحمته، نصيباً لإيمانهم ونصيباً لتقواهم، أو نصيباً لأجل إيمانهم بالأنبياء السالفين ونصيباً لأجل إيمانهم بالرسول صلى الله عليه وآله، وبالرغم من أنّ المخاطبين في الآية مؤمنون إلّا أنّ الله يأمرهم أن يؤمنوا بالرسول صلى الله عليه وآله، كما أنّ شأن نزول الآية يبيّن أنّها بصدد فريق من نصارى الحبشة الذين سمعوا القرآن وآمنوا بنبي الإسلام صلى الله عليه وآله (١).

والثاني: هو جعل الله لهم نوراً - لأجل إيمانهم وتقواهم - يهتدون به في صراطهم:

«وَيَجْعَلُ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ .

وبالرغم من أنّ البعض أراد تقييد مفهوم الآية والقول بأنّ النور الذي ذكّر فيها إشارة إلى النور الذي يسعى بين أيدي المؤمنين وبإيمانهم في يوم القيامة (كما تشير إلى ذلك الآية ١٢ من سورة الحديد: «يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ»). (الحديد/ ١٢)

لكن لا دليل لهم على هذا التقييد، بل إنّ مفهومها - وكما يقول صاحب الميزان - واسع

(١) «الكفل» ما يعيل الإنسان ويرفع حاجته، ويعتقد البعض أنّ هذه المفردة حبشية دخيلة على العربية.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٤٧

يشمل الأنوار الإلهية كلها في الدنيا والآخرة، وعلى هذا فتكون الآية شاهداً على العلاقة بين «التقوى و «المعرفة».

أما الأخير فهو: «وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ وهذا كله لأجل إيمانهم وتقواهم.

توضيحات

١ - علاقة العلم بالتقوى في الروايات الإسلامية

وفي الروايات الإسلامية أيضاً تم بيان مدى تأثير التقوى على مسألة العلم، هذه الروايات تبين بوضوح أنّ تطهير القلب والروح بالتقوى يعد الأرضية لتلقى المعارف الإلهية.

نذكر هنا الأحاديث التالية كنماذج لما جاء في الروايات الإسلامية:

ونقرأ في حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال:

«من غرس أشجار التقى جنى ثمار الهدى» (١).

٢- وجاء أيضاً في إحدى خطب نهج البلاغة أنه عليه السلام قال:

«أما بعد فاتى أوصيكم بتقوى الله .. فإن تقوى الله دواء داء قلوبكم وبصر عمى افتدتكم وشفاء مرض أجسادكم وصلاح فساد

صدوركم وطهور دنس أنفسكم وجلاء عشا أبصاركم» (٢).

٣- وفي حديث عنه أيضاً أنه عليه السلام قال:

«للمتقى هدى في رشاد وتحرج عن فساد» (٣).

٤- ونقرأ أيضاً في نهج البلاغة أنه عليه السلام قال:

(١) غرر الحكم.

(٢) نهج البلاغة، خطبة ١٩٨.

(٣) غرر الحكم.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٤٨

«ابن العقول المستصبحة بمصاييح الهدى والأبصار اللامحة إلى منار التقوى» (١).

٥- ونختم حديثنا بحديث ذي معنى عميق عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله حيث قال: جاء في وصية الخضر لموسى عليه

السلام: «يا موسى وطن نفسك على الصبر تلق الحلم واشعر قلبك التقوى تنل العلم ورضّ (روض) نفسك على الصبر تخلص من

الإثم» (٢).

٢- كيفية الارتباط بين ينابيع العلم والتقوى

ما هو تأثير التقوى واجتناب الذنوب وترك التلوث بها على مسألة المعرفة؟ وتعبير آخر: ما هي العلاقة المنطقية بين العلم والأخلاق؟

في الحقيقة أن لهذين الاثنين علاقة تقارب قوية، وأي علاقة أقرب وأوثق من العلاقة المتبادلة بين هذين الاثنين؟ فالتقوى ينبوع العلم،

كما أن العلم ينبوع التقوى وليس هذا بأمر طبيعي فحسب بل إنه أصل أساسى للسير في طريق المعرفة.

فيمكن الاستدلال على تأثير التقوى على العلم بالطرق التالية:

(أ) إن السخية والتنسيق تسببان الجاذبية والارتباط دائماً.

فعندما تتطهر روح الإنسان وتزكى بالتقوى تحصل جاذبية قوية بينها وبين المعارف والعلوم الحقيقية «فالسخية تبعث على الارتباط

العجيب».

(ب) إن منجل التقوى يحصد جميع الأشواك من مزرعة روح الإنسان، ويُعدّ القلب وبهيته لنمو بذور العلم والمعرفة، بل إذا دققنا النظر

فإن بذور العلوم جميعها قد بذرها الله في هذه المزرعة، والمهم في الأمر هو حصد الأعشاب المزاحمة وإرواء المزرعة.

وقد جاء في حديث للمسيح عليه السلام مخاطباً فيه أنصاره قائلاً:

«ليس العلم في السماء فينزل اليكم، ولا في تخوم الأرض فيصعد عليكم، ولكن العلم

(٢). منية المريد للشهيد الثاني (ينقل عن بحار الأنوار، ج ١، ص ٢٢٧).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٤٩

مجبور في قلوبكم مركز في طبايعكم، تخلقوا باخلاق الروحانيين يظهر لكم» (١).

(ج) نعلم أنه لا وجود للبخل والحسد في مبدأ عالم الوجود، وعلى ما جاء في الآية:

«وَأَنْ مِّنْ شَيْءٍ أَلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ . (الحجر / ٢١)

فإن خزائن النعم غير المتناهية عند الله، ما ينقصه زيادة كرمه وكثرته شيئاً، بل إن جوده وكرمه يتجلى أكثر «وَلَا يَزِيدُهُ كَثْرَةُ الْعَطَاءِ إِلَّا جُودًا وَكَرَمًا».

وعليه، فإن الحرمان سببه عدم أهلية الأشخاص، إن التقوى تجعل الإنسان أهلاً للفيض الإلهي، وأي فيض أرفع شأناً من المعارف والعلوم الإلهية؟

إن القلوب كالأوعية كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ أَوْعِيَةٌ فَخَيْرُهَا أَوْعَاها» (٢) والمهم هو أن نوسع هذه

الأوعية، وأن لا تكون مقلوبة لا تسع ولو لقطرة واحدة، وهذا الأمر ممكن في ظل التقوى

أما التأثير المتبادل بين العلم والتقوى فهو أن العلم الحقيقي يمحو جذور الرذائل الأخلاقية وينابيع الإثم والذنب، ويمثل أمامه عواقب

الأمور، وهذه المعرفة تعين الإنسان على تبلور التقوى في قلبه وعلى ابتعاده عن الإثم، ويتضح من هنا أن العلم ينبوع للتقوى كما أن

التقوى ينبوع للعلم، غاية الأمر أن مرحلة من التقوى تسبب مرحلة من العلم، وتلك المرحلة من العلم تسبب مرحلة أرفع من التقوى

وعلى هذا المنوال فإن كلا منهما يؤثر في الآخر تأثيراً متبادلاً، وقد تكون الآية: مشيرة إلى هذه النقطة:

«إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ .

(الاعراف / ٢٠)

أي أن التقوى تكون في البداية، ثم التذكر، ثم البصيرة، والنتيجة هي النجاة من وساوس الشياطين.

ج ج

(١). تفسير الصراط المستقيم، ج ١، ص ٢٦٧.

(٢). نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ١٤٧.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٥٠

نفحات القرآن ج ١ ٣٤٩

٣- استغلال العلاقة بين «العلم» و «التقوى»

بالرغم من أن علاقة المعرفة بالتقوى علاقة لا يمكن انكارها، سواء من وجهة نظر القرآن المجيد، أو من وجهة نظر الدليل والعقل

(وقد بينا ذلك بالتفصيل)، إلا أن هذا الحديث لا يعني ترك طرق كسب العلم والمعرفة المتعارفة، والاستغناء بتهديب النفس بحجة

أن تهذيب النفس سيقتف العلم والمعرفة في صدورنا كما ظن ذلك عدد من الصوفية الذين اتخذوا هذه المسألة حجة لمقارعة

المعرفة وكسب العلم وظلوا في جهل دامس.

إن الإسلام أوجب كسب العلم بدرجة حيث اعتبر الحضور في مجلس العلم كالحضور في روضة من رياض الجنة: «مجلس العلم

روضة من رياض الجنة».

كما عدّ النظر إلى وجه العالم عبادة: «النظر إلى وجه العالم عبادة» (١)، وكل خطوة يخطوها في سبيل العلم فهي خطوة نحو الجنة (٢).

وقد عدّ مداد العلماء أفضل من دماء الشهداء «٣».

وحفظ الحديث وكتابته من الفضائل العظيمة «٤».

ويدعو الإسلام- من جهة اخرى- إلى تهذيب النفس وتزكيتها لأجل تهيتها لقبول المعارف والعلوم الإلهية.

وعلى هذا، فأولئك الذين تركوا طلب العلم وأوصوا زملاءهم وأتباعهم بتركه، والتوجه إلى تصفية الباطن وتزكيتها على خطأ، لأنّ التزكية هذه غالباً ما تنحرف عن جادة الصواب بسبب عدم اقتنائها بالعلم والمعرفة، وكذلك أولئك الذين انهمكوا في كسب العلوم الرسمية وأهملوا تهذيب النفس، فانهم في ضلالة، نعم ينبغي السعي نحو كليهما.

ج ج

(١). غرر الحكم.

(٢). بحار الأنوار، ج ١، ص ١٦٤.

(٣). المصدر السابق، ج ٢، ص ١٤.

(٤). المحجّة البيضاء، ج ١، ص ١٥.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٥١

٢- الإيمان والمعرفة

تمهيد:

إنّ روح الإيمان هي التسليم للحق والخضوع أمام الحقائق، وبما أنّ أكبر حقيقة في عالم الوجود هي ذات الله المقدّسة، فإنّ روح الإيمان تتمحور حول التوحيد ومعرفة الله.

إنّ الإيمان يفسح المجال أمام عقل الإنسان لأنّ يدرك الحقائق كما هي حقاً، سواء كانت مرّة أو حلوة، وسواء كانت ملائمة لمزاجه وطبعه أم لا.

إنّ معلومات أولئك الذين لم يسلموا للحق هي تصوّر وتمثّل لرغباتهم وأهوائهم، لا لنفس الحقائق الموجودة في الخارج، أنّهم يرون الدنيا بالشكل الذي يرغبون فيه، ولا يرونها بشكلها الواقعي.

وبهذا التمهيد تتضح علاقة الإيمان بالمعرفة اجمالاً، ونأمل الآن خاشعين في آيات القرآن في هذا المجال:

١- «أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا...» (الأنعام/ ١٢٢)

٢- «أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ». (النور/ ٤٠)

٣- «وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ...» (الحديد/ ١٩)

٤- «أَقْمِنِ سَرْحَ اللَّهِ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ». (الزمر/ ٢٢)

ج ج

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٥٢

جمع الآيات وتفسيرها

تأثير الإيمان على الرؤية الصحيحة:

تحدثت الآية الاولى عمّن كانوا موتى ثم أحياهم الله وجعل لهم نوراً يهتدون به في الطريق. والمراد من الموت والحياة هنا هو الإيمان بعد الكفر، كما جاء ذلك في الآية: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ». (الانفال / ٢٤)

وعلى هذا فالحياة هي حياة الإيمان الحقيقي والصادق، الحياة المقترنة بالنور والضياء والمعرفة. والجانب المقابل لجانب الأحياء، هو جانب أولئك الذين ضلوا في ظلمات الكفر ولم يخرجوا منها أبداً «كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا».

يعتقد كثير من المفسرين أن هذا النور هو نور القرآن، وقد فسّره بعضهم بنور الدين، وبعضهم بنور الحكمة «١»، وقد أضاف البعض على ذلك نور الطاعة «٢»، لكن المسلم أن لهذا النور مفهوماً واسعاً يشمل جميع أنواع المعرفة، ومن البديهي أن مراد القرآن هو اكمل مصاديقه.

إن التعبير «يمشى به في الناس» يتناسب كثيراً مع الحياة الاجتماعية في الدنيا، كما يكشف عن أن «الإيمان» يعدُّ أرضية «المعرفة» في قلب الإنسان ويحول دون ارتكاب الأخطاء في الحياة الدنيا.

ج ج

وقد شَبَّهت الآية الثانية غير المؤمنين (أو أعمالهم) بظلمات أعماق بحرٍ لُجِّي تتلاطم الأمواج على سطحه، وسمائه ملبدة بالغيوم بحيث إذا أخرج شخص يده لم يكدرها أحد.

(١). التفسير الكبير، ج ١٣، ص ١٧٢؛ تفسير القرطبي، ج ٤، ص ٢١٤؛ تفسير المنار، ج ٨، ص ٣٠.

(٢). تفسير روح الجنان، ج ٥، ص ٥٠.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٥٣

وقد أكدت في النهاية: أن الذين لم يجعل الله لهم نوراً فمالهم من نور أبداً.

إن عبارات هذه الآية تثبت بوضوح أن الكفر وعدم الإيمان ظلمات، وأن الإيمان والإسلام نور.

إن الأخطاء التي تصدر من غير المؤمنين ومن المنحرفين بدرجة من الكثرة بحيث يحار الناظر اليهم كيف أنهم لا يكادون يرون حتى موضع أقدامهم؟! وكيف أنهم لا يستطيعون تمييز ما ينفعهم عما يضرهم؟

حقاً أنه لا ظلام أشد من الظلام الذي رسمته الآية، فإن طبيعة أعماق البحار هي الظلام، لأن نور الشمس لا ينفذ إلّا لمدى أقصاه سبعمائة متر، وبعد ذلك لا شيء سوى الظلام الدامس، هذا إذا لم يكن البحر لجياً، وإلّا فلا تنفذ أشعة الشمس إلّا لمدى قريب جداً من سطح البحر، وفضلاً عن هذا فإن الغيوم تمنع من وصول أشعة الشمس أساساً.

ويقول البعض: إن المراد من الظلمات الثلاثة في الآية هي ظلمات الكفار في الاعتقاد، وظلماتهم في الكلام، وظلماتهم في العمل.

ويعتقد بعض أن المراد منها هو: ظلمات القلب وظلمات الباصرة وظلمات السمع، وأضاف بعض آخر: أن هذه الظلمات عبارة عن: أنه لا يعلم ولا يعلم أنه لا يعلم، ويظن أنه يعلم «١»، ولكن لا منافاة بين هذه التفاسير، ومفهوم الآية يسع جميع هذه التفاسير.

ج ج

والآية الثالثة، بعدما وصفت المؤمنين ب «الصادقين» و «الشهداء» أضافت: «لهم أجرهم ونورهم».

إنّ «الصدّيق» صيغة مبالغة لصادق، وتعنى كثير الصدق، ويقول البعض: إنّها تعنى الشخص الذى لم يصدر منه كذب أبداً، ويعتقد بعض آخر: إنّها تعنى الذى اعتاد على الصدق بحيث يمتنع عليه الكذب عادةً، وبتعبير آخر: حصلت له طبيعة ثانوية على أساس الصدق وعدم الكذب.

(١). التفسير الكبير، ج ٢٤، ص ٨.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٥٤

ويقول البعض: إنّها تعنى الشخص الصادق فى اعتقاده وكلامه، يكشف سلوكه عن صدق اعتقاده (١).

وتجتمع جميع هذه المعانى فى القول بأنّها صيغة مبالغة لصادق، لأنّ المفهوم آنذاك يكون شاملاً لجميع المعانى المتقدمة، وعلى هذا فالمسلم أنّ المراد ليس جميع المؤمنين بل المؤمنون أصحاب الدرجات الرفيعة فى إيمانهم.

أمّا «الشهداء» فقد يكون المراد من ذلك هو أنّ المؤمنين الصديقين لهم أجر كأجر الشهداء، كما جاء ذلك فى حديث للإمام الصادق عليه السلام عندما جاءه شخص يطلب الدعاء له بالشهادة، فاجابه الإمام عليه السلام: «إنّ المؤمن شهيد» ثم تلا الآية: «وَالَّذِينَ آمَنُوا...» (٢).

كما يحتمل أن يكون المراد من الشهداء، هو الشهداء على أعمال الناس، لأنّ المستشف من آيات عديدة هو أن فريقاً من المؤمنين (الأنبياء والأئمّة) يشهدون على الأمم.

ولا يبعد الجمع بين هذين المعنيين (٣).

إنّ «الأجر» فى عبارة «لهم أجرهم ونورهم» تعنى جزاء الأعمال، أمّا «النور» ففسّره البعض بأنّه النور الذى يسعى بين أيدي المؤمنين الذى يفتح الطريق نحو الجنة يوم القيامة، إلّا أنّه لا دليل على هذا التحديد، وقد جاء هنا مطلقاً، فينبغى القول بعمومية مفهومه وشموله للنور الذى يجعله الله للمؤمنين فى الدنيا كما يشمل النور الذى يهتدى به المؤمنون إلى الجنة يوم القيامة (٤).

(١). المفردات ومجمع البحرين مادة (صدق)، تفسير الميزان، ج ١٩، ص ١٨٦؛ تفسير المراعى، ج ٢٧، ص ١٧٤؛ تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٣٦.

(٢). تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٣٨.

(٣). احتمل البعض أنّ جملة «وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ» ليست عطفاً على الجملة التى سبقتها، وأنّها جملة مستقلة مركبة من مبتدأ وخبر، إلّا أنّ هذا الاحتمال بعيد جداً.

(٤). الظاهر من تعبير بعض المفسرين أن الضمائر فى جميع هذه الجمل ترجع إلى المؤمنين، بينما يصرح صاحب الميزان بأنّ الضمير فى «لهم» يرجع إلى «الذين آمنوا» والضميرين الآخرين يرجعان إلى «الصديقين» و «الشهداء»، أى أولئك الذين لهم أجر الصديقين والشهداء ولهم نورهم، إلّا أنّ هذا الاحتمال بعيد.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٥٥

وقد طرحت الآية الرابعة والأخيرة استفهاماً تقريرياً قائلة: «أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ؟ وهذا دليل واضح على أنّ قبول الإيمان مترامن ومقترن مع شرح الصدر، وشرح الصدر أرضية خصبة للنور الإلهي، النور الذى يضىء العالم أمام أعين المؤمن، ويكشف له حقائقه كما هى.

إنّ المراد من «شرح الصدر» هو اتساع الروح إلى درجة تكون مستعدة لاستيعاب حقائق كثيرة، وما يقابل شرح الصدر هو «ضيق الصدر» أى تضيق الروح بدرجة لا تتمكن من استيعاب شىء من الحقائق، وبتعبير آخر: إنّ شرح الصدر هو اتساع وعظمة الروح الذى

يُعَدُّ الإرتباط بالذات اللامتناهية أحد عوامله، نعم إنَّ الروح التي تتخذ صبغة الله وتتسع تكون أهلاً لقبول العلوم والمعارف الإلهية. إنها لا تتسع فحسب، بل تلين وتختصب وتتهىء لنثر بذور المعرفة فيها، ولهذا صرحت الآية في النهاية: «فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ .

ج ج

توضيح

علاقة الإيمان بالعلم في الروايات الإسلامية:

- ١- جاء في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إنَّ المؤمن ينظر بنور الله» (١) فطلب أحد الصحابة بيان معنى الحديث فقال عليه السلام: «هذا إنما هو لأجل أنَّ الله تعالى قد خلق المؤمن من نوره واحاطه برحمته».
- ٢- ونقرأ في حديث آخر عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «اتقوا فراسة المؤمن فأنه ينظر بنور الله ثم تلا: إنَّ في ذلك للمتوسمين» (٢).
- ٣- وفي رواية أخرى عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام عن آبائه الكرام عن رسول الله صلى الله عليه وآله

(١). بحار الأنور، ج ٦٤، ص ٧٤، ح ٢.

(٢). المصدر السابق، ح ٤.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٥٦

قال: «إياكم وفساسة المؤمن فأنه ينظر بنور الله تعالى» (١).

- ٤- ونجد أن هذه الأمثال اتخذت أهمية كبرى كما هو المشاهد في بعض الروايات حيث ينقل نهج البلاغة عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «اتقوا ظنون المؤمنين فإنَّ الله سبحانه جعل الحق على السنتهم» (٢).
- ٥- وجاء عنه عليه السلام في نهج البلاغة أيضاً أنه قال: «وبالصالح يستدل على الإيمان وبالإيمان يعمر العلم» (٣).
- ٦- ونختم البحث بحديث عن الإمام الباقر عليه السلام يقول فيه: «ما من مؤمن إلَّو له فراسة ينظر بنور الله على قدر إيمانه» (٤). وكما قلنا في بداية البحث، فإنَّ الإيمان الصادق يجعل الإنسان عاشقاً للحق والحقيقة ومدعناً أمام الواقعات والحقائق، وبهذا تتحرر روح الإنسان من جميع القيود وتتهىء لقبول جميع المعارف.

٣- علاقة «الصبر والشكر» ب «المعرفة»

إشارة

في البداية نقرأ خاشعين الآيات الشريفة التالية:

- ١- «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ» (ابراهيم / ٥)
- ٢- «أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلُوكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ» (لقمان / ٣١)

٣- «فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ

(١). بحار الانوار، ج ٦٤، ص ٧٥، ح ٨.

(٢). نهج البلاغة الكلمات القصار، الكلمة رقم ٣٠٩.

(٣). نهج البلاغة، خطبة ١٥٦.

(٤). عيون الأخبار، ج ٢، ص ٢٠٠ (ينقله عن كتاب الحياة، ص ٩٢).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٥٧

وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ». (سبأ/ ١٩)

٤- «وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ* اِنْ يَشَأْ يُسَبِّحْ بِالنَّجْمِ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ مِنْكَ بِاللَّيْلِ وَالنَّجْمِ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ مِنْكَ نهاراً» (الشورى ٣٢-٣٣)

ج ج

جمع الآيات وتفسيرها

السير في الآفاق والأنفس مع الصابرين:

تحدثت الآية الاولى عن «بنى اسرائيل»، حيث بُعث فيهم موسى عليه السلام بمعاجز وآيات إلهية واضحة، وكان موظفاً بأن يخرجهم من ظلمات الشرك والكفر والفساد إلى نور التوحيد الذي هو ينبوع جميع البركات والخيرات، ولأن يذكرهم بأيام الله، ثم قالت الآية في النهاية: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ».

ما المراد من أيام الله؟

هناك بحث بين المفسرين في هذا المجال، فمنهم من فسرها بالنعم والابتلاءات الإلهية «١»، ومنهم من فسرها بأيام انتصار الرسل والأمم الصالحة، ومنه من اعتبرها إشارة إلى أيام عذاب الأقسام الطاغية والعاصية والظاهر عدم التعارض للأيام بين هذه التفاسير لأنها كلها من «أيام الله».

إن معناها الواضح، وازافتها إلى الله «اضافة تشريفية»، والمراد منها هو جميع الأيام المهمة من حيث أهميتها البالغة، أو من حيث إن فيها نعمة إلهية شملت أقواماً صالحين كالانتصارات العظيمة على جند الشرك والظلم، وكالنجاة من الظلمة والطواغيت وكالموقفية لأداء الجهاد أو فريضة عظيمة اخرى.

أو من حيث شمول عذاب الله ونعمته لأقوام عصاة وهلاكهم، أو شمول نبذة من العقاب الإلهي لهم ليستيقظوا من غفلتهم ويعوا، كل هذه هي «أيام الله» وداخله في مفهومها الواسع.

(١). لقد جاء هذا التفسير في عدد من الاحاديث النبوية. تفسير الميزان، ج ٥، ص ١٥ و ١٦؛ تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٥٢٦.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٥٨

أما سبب كون هذه الآيات عبرة للصابرين والشاكرين فقط دون غيرهم (ينبغي الالتفات هنا إلى أن «صبور» و «شكور» صيغة مبالغة، الاولى تعنى كثير الصبر والثانية كثير الشكر)، فذلك لأجل أن دراسة دقائق هذه الحوادث وجذورها من جهة، ونتائجها من جهة اخرى يحتاج إلى صبر وتأن.

إضافة إلى هذا، فإنه لا يستفيد من هذه الحوادث إلا أولئك الذين يقدرّون نعم الله ويشكرونه عليها، وعلى هذا، فالصبر والشكر أرضيتان ملائمتان للمعرفة والعلم.

كما يحتمل أن يكون تقارن الصبر مع الشكر لأجل أن هؤلاء مجهزون بالصبر عند المصائب، وبالشكر عند النعم، وعلى هذا فلا يركعون أمام المصائب، ولا يغترون عند نزول النعم، فلا يضلّون أنفسهم على أريّة حال، فهم مؤهلون لتقبل المعرفة وأخذ العبر والدروس من هذه الحوادث العظيمة.

في الآية الثانية والرابعة جاءت هذه العبارة: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ»، وقد ذُكرت بعد التعرض لحركة السفن في البحار والمحيطات التي تتم بايعاز من الله وبالاتعانة بالرياح فتطوى المسافات البعيدة وتصل إلى مقاصدها بسرعة.

بديهي أن هذا الموضوع هو إحدى آيات الله التكوينية، وآية من آيات النظام الإلهي وقدره الله. لكن هل ياترى يكون استثمار هذه الآيات الإلهية الموجودة في عالم الوجود وحتى الكامن في هبوب الرياح ممكناً للجميع، أو أنه خاص بأولئك الذين يدرسون ويتابعون نظام الخلق العجيب بدقة وصبر وتأنٍ إلى المستوى الذي يتيح لهم العلم البشري فرصة الاستثمار، ومن جهة أخرى فإن الدافع نحو «شكر المُنعم» نفسه عامل للسعي والحركة في طريق المعرفة.

يقول «القرطبي» في تفسيره:

«والآية: العلامة، والعلامة لا تتبين في صدر كل مؤمن إنما تتبين لمن صبر على البلاء وشكر على الرخاء» (١).

(١). تفسير القرطبي، ج ١٤، ص ٧٩.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٥٩

وقد جاء في تفسير «روح البيان»:

«مبالغ في الصبر على المشاق فيتعب نفسه في التفكير في النفس والآفاق» (١).

والجميل هنا هو أن الهواء الذي يحيط بالكرة الأرضية من أطف الموجدات، وبالرغم من ذلك فهو عندما يتحرك ويتنقل فانه لا يحرك السفن العظيمة في البحار فحسب، بل كذلك الغيوم التي تُعدُّ ينابيع للغيث، يأخذ بها نحو الصحارى والأراضى الميتة فيحييها، كما بانتقال الهواء الحار إلى المناطق الباردة والهواء البارد إلى المناطق الحارة تنهياً للأراضى الميتة للحياة، وإضافة إلى هذا فإن الهواء يلقي النباتات كالزهور والأشجار ويحمل أحياناً البذور فتزرع في الأماكن التي تسقط فيها، ألم تكن هذه من آيات الله؟ ومن يمكنه استثمار هذه الآيات غير الصابرين والشاكرين؟

وقد جاء في حديث للرسول الأعظم صلى الله عليه وآله: «الإيمان نصفان نصفه صبر ونصفه شكر» (٢) وهذا الحديث تأكيد لما جاء في الآيات.

ج ج

وأخيراً فإن الآية الثالثة أشارت إلى قوم سبأ، حيث شملهم التوفيق الإلهي فاستطاعوا أن يوجدوا سداً عظيماً بين الجبال في «اليمن»: وادخروا فيه الماء الكثير، وتمكنوا من إيجاد بساتين كثيرة، فغمروا في النعم والفرح، إلماً أنهم سلكوا طريق كفران النعمة، فتسلطت الأقوام المرفهة على الأقوام الضعيفة ظلماً وجوراً فعمّ مسكنهم الخراب والدمار، بحيث هلك الحرث والنسل لانفجار السد، فتفككوا وتشتتوا بشكل حيث جعلهم الله أحاديث للآخرين «فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَأَهْلَكَهُمْ جَمِيعاً وَوَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ»، ثم أضاف القرآن: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ».

وذلك لأنهم يستخلصون الدروس والعبر بدقتهم وتأنهم.

- (١). تفسير روح البيان، ج ٧، ص ٩٨.
- (٢). تفسير مجمع البيان، ج ٧، ص ٣٢٣؛ تفسير الكبير، ج ٢٥، ص ١٦٢؛ تفسير المراغى، ج ٢١، ص ٩٧؛ تفسير القرطبي، ج ٥، ص ٣٥٧١ وتفسير اخرى
- نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٦٠
- ومن جهة فإن هذه الحقيقة ثبتت، وهى: أن بين الحياة والممات مسافة قصيرة جداً، بحيث يمكنك البحث عن الممات فى قلب الحياة، فإن وفرة الماء التى سببت تقدم قوم سبأ وإزدهار بلادهم وتطور حضارتهم، سبب هلاكهم يوماً ما!
- ومن جهة اخرى فإن هذا يكشف عن شدة ضعف هذا الإنسان المغرور، وذلك لأنه يقال إن السدّ (الذى اطلق عليه سدّ مأرب)، قد نُقب بواسطة الجرذان الصحراوية ثقباً صغيراً فى البداية ثم توسع الثقب إلى أن أدّى بالسدّ لأنّ ينهدم بالكامل، وبهذا نرى أن جرداناً صحراوية أبادت حضارة عظيمة.
- ومن جهة ثالثة، فإنّ المستكبرين من قوم سبأ الذين لم يَرُقْ لهم رؤية المستضعفين بقربهم، وحسبوا أنه ينبغي وجود فاصلة أو سد عظيم كسد مأرب بين أقلية الأشراف والأكثرية المستضعفة، طلبوا من الله أن يبعد مدنهم عن مدن المستضعفين كي لا يتمكنوا من السفر مع المستكبرين، ويبقى امتياز السفر خاصاً بهم «رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا»، (سبأ/ ١٩) إلّا أنّ الله فرقهم بشكل حيث لا هم بقوا ولا ظنونهم الباطلة.
- ومن جهة رابعة، فإنّ حياتهم المرفهة أغفلتهم عن ذكر الله، وما صحوا إلّا بعد أن انتهى كل شيء.
- وعلى هذا، فيمكننا بالتأمل والدقة والاستعانة بالعقل أن نستشف آيات كثيرة من هذه القصة وهذا الحديث «١».

النتيجة:

إنّ المستشف من الآيات الأربع الماضية هو: أن كل من كان أدق وأكثر صبراً فى دراسته لاسرار الخلق والحياة الاجتماعية، ولكل من كان شاكراً للنعم ومستعيناً بوسائل المعرفة فإنّ له نصيباً أوفر وأكثر من المعرفة، ولهذا كان الصبر والشكر أرضيتين ممهدين للمعرفة.

ج ج

- (١). ينبغي الالتفات إلى أن مفردة «أحاديث» التى جاءت فى الآيه، منتهى الجموع وتكشف عن وجود أحاديث وقصص كثيرة فى ماضى قوم سبأ لا قصة واحدة.
- نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٦١

٤ - المعرفة تهىء الأرضية للمعرفة

تمهيد:

المعروف هو أن الثروة تجلب الثروة، أى أن مقداراً من رأس مال يكون أرضية لربح رأس مال أكبر، وكلما ازداد مقداره ازداد مورد الإنسان من رأس ماله.

أن هذا الأمر ينطبق على العلوم والمعارف كذلك، فالذين يملكون رأس مالٍ من العلوم تتوفر عندهم الأرضية الخصبة لتقبل علوم ومعارف اخرى، ولهذا قلنا: إن المعرفة تهىء الأرضية للمعرفة أى لنيل معارف اخرى هى أرفع وأوسع.

وقبل الخوض في البحث نعمن خاشعين للآيتين التاليتين:

١- «وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ . (الروم / ٢٢)

٢- «فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

(النمل / ٥٢)

جمع الآيات وتفسيرها

مالم تكن منا لن نطلع على اسرارنا:

إن الآية الاولى من جملة الآيات الكثيرة في سورة الروم التي أشارت لآيات الآفاق والأنفس، وعدت بعضاً من آيات الله في العالم الأكبر (الكون) وبعضاً من آيات العالم الأصغر «الإنسان» فأشارت الآية إلى العالم الأكبر من جهة «وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، ثم أشارت إلى بعض دقائق خلق الإنسان من جهة اخرى «وَاخْتِلَافِ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ .

الاختلاف ليس في الألسنة والألوان الظاهرة فحسب، بل في السنة الفكر وألوان الأذواق والبواطن، فأنها مختلفة إلى درجة بحيث لا يمكن العثور على شخصين متشابهين

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٦٢

بالكامل، وهذا الاختلاف جارٍ حتى بالنسبة للتوأم.

إن هذا الاختلاف يسبب - من جهة- التعارف والاختلاف بين الناس، لأنه إذا لم يكن تمايز بين الناس اختل النظام الاجتماعي للحياة، كما هو الحال بالنسبة للتوأم فالذى يعاشرهم كثيراً يقع في اخطاء تجاههم، فقد يقدم أحدهم من السفر ويقوم صديقهم بزيارة الآخر الذى لم يسافر، أو يمرض احدهم فيزور الآخر وهو صاح، أو يعطى الابوان الدواء للسليم لعدم التمييز بينهما.

تصوروا ما الذى يحصل لو كان الناس جميعاً متشابهين من جميع الجهات؟! ومن جهة اخرى، فإن هذا التنوع والاختلاف يسبب انخراط كل مجموعة من الناس فى جانب من جوانب الحياة وبهذا الاختلاف فى الأذواق والقابليات تسد جميع احتياجات البشر الاجتماعية فلا يحصل خلل فى هذا المجال، ألم تكن هذه الدقة العجيبة فى هذا النظام من آيات الله؟!

والجدير بالذكر أن المفسرين ذكروا احتمالات عديدة فى تفسير (اختلاف الألسنة) فتارة قالوا: إن المراد منه هو الاختلاف فى اللغة، حيث نعلم أن اللغات الموجودة حالياً أكثر من ألف لغة، وهذا التنوع الذى لا نريد الخوض فى تفصيلاته فعلاً، جيد لتعرف الأقوام المختلفة على بعضها البعض.

وتارة قالوا: إن المراد هو اللهجات وكيفية حديث الأشخاص التى تختلف من شخص إلى آخر اختلافاً كبيراً، فلكل منطق وأسلوب فى البيان يعبر عن شخصيته.

وتارة قالوا: إن المراد هو الأصوات أو ما يصطلح عليه ب «الذبذبات الصوتية» التى تختلف عند الأشخاص اختلافاً فاحشاً، ولهذا فإن الأعمى يميز الأشخاص من أصواتهم، كما أن البصير يميزهم من وجوههم.

ومن هنا يتضح أن اقتران اختلاف الألسنة والألوان بخلق السموات والأرض فى الآية هو لأجل الإشارة إلى أن جميع موجودات العالم -صغيرها وكبيرها، وأبسطها وأعقدها- بحسب الظاهر- تحكمها قوانين وأنظمة دقيقة، و. هى آيات لعلم الله وقدرته وينبغى الإشارة

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٦٣

إلى أن الآية صرحت فى النهاية: «أَنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ نعم إن العلماء هم الذين يدرسون أسرار الكون ويتفحصونها واحدة تلو الاخرى، وهم الذين تكون معرفتهم السابقة أرضية خصبة لمعارفهم الأكثر والأدق.

ج ج

وقد تحدثت الآية الثانية عن مجاميع صغيرة مفسدة تعيش في «وادي القرى بين قوم صالح (على ما يقوله المفسرون)، وكان عددهم تسعة رهط (أي مجموعات صغيرة)، وكانوا يفسدون في الأرض دائماً كما يصفهم القرآن الكريم: «وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ . (النمل / ٤٨)

أمهلهم الله كثيراً كفرصة للتوبة والرجوع إلى أنفسهم، لكن ما زادهم الأمهال إلّا غوراً، وكان نهاية أمرهم أن أنزل الله عليهم صاعقة من السماء، وزلزلة من الأرض ختمت حياتهم.

يقول القرآن فيهم: «فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا» أي خالية منهم بسبب ظلمهم وطغيانهم.

ثم يضيف: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

إنّ عبارة: «بِمَا ظَلَمُوا» تدل على أنّ الظلم هو السبب في دمار البيوت وخرابها، وقد نُقِلَ عن ابن عباس أنّه قال: إنني وجدت هذه الحقيقة في كتاب الله وهي: إنّ الظلم يهدم البيوت، ثم تلا الآية المذكورة.

وقد جاء في التوراة: «يا بن آدم لا تظلم فيهدم بيتك» (١).

وينبغي الالتفات هنا إلى أنّ مفردة «خاوية» تعني - في الأصل - خالية، إلّا أنّ كثيراً من المفسرين فسرها بالخربة، وهذا قد يكون لأجل أنّ البيت إذا خلى وهجر خرب وانهدم (٢).

(١). تفسير روح المعاني، ج ١٩، ص ١٩٤.

(٢). ذكر صاحب تفسير روح البيان معنيين لمادة (خوى أحدهما الخلو والثاني السقوط والانهدام، ومن هنا يعبر عرب الجاهلية عن النجم إذا سقط (خوى النجم) إلّا أنّ الظاهر أنّ المعنى الأول لهذه المادة هو: الأول فقط، ويستعمل تعبير (خوى النجم) إذا ما غرب نجم أو افل بلا- مطر (حيث كان يعتقد عرب الجاهلية أنّ طلوع كثير من النجوم مترام مع المطر وإذا لم يكن هناك مطر استعملوا التعبير السابق لذلك النجم).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٦٤

النتيجة:

من المعلوم أنّ آيات الله - سواء كانت آفاقية أو انفسية أو تعلقت بدروس وعبر تاريخ الأقاليم الغابرة - تخص الجميع، وبما أنّ الجميع لا يستفيد منها ولا يستثمرها، يقول القرآن عنها «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

وتارة يقول: «للمتقين».

وتارة يقول: «لكل صّبار شكور».

وهذه إشارة إلى أنّ هذه الفرق - هي التي تنتفع بهذه الآيات وتستفيد منها دون سواها، لِمَا عندهم من أرضية خصبة لهذا الأمر.

وهناك آيات كثيرة في القرآن المجيد لا تخلو من الإشارة إلى حقيقة أنّ المعرفة تعتبر أرضية معدّة وخصبة لمعارف أكثر، كما جاء ذلك في الآيات التالية:

«كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . (الاعراف / ٣٢)

«يُفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . (يونس / ٥)

«كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . (فصلت / ٣)

«تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . (البقرة / ٢٣٠)

كما اتضح - مما مر - الجواب على السؤال عن حاجة العالمين لشرح وتبيين الآيات الإلهية.

٤ - علاقة الخوف بالمعرفة

تمهيد:

إن الإنسان ما لم يشعر بالمسؤولية لا يلتفت إلى مصادر المعرفة وسوف لا يبالي بآيات الله ومواعظه.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٦٥

ومن هنا ينبغي القول بأن الاحساس بالمسؤولية والخوف من الله هو احدى أرضيات المعرفة التي تُعدُّ روح الإنسان وتهيئها لتقبل علوم ومعارف مختلفة.

وبالالتفات إلى هذا التمهيد نتأمل خاشعين في الآيات التالية:

١- «وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ» إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ. (هود/ ١٠٢-١٠٣)

٢- «أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مِآبِينَ آيَدِيهِمْ وَمَا خَلَفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ نَشْأَ نَحْسِفَ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نَنْسِقُطَ عَلَيْهِمْ كَسِيفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ . (سبأ/ ٩)

٣- «وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ . (الذاريات/ ٣٧)

شرح الآيات وتفسيرها

المعرفة والشعور بالمسؤولية:

إن الآيه الاولى بعدما أشارت إلى ماضى بعض من الأقسام السالفه (مثل قوم لوط وشعيب والفراعنه) ونزول أنواع من العذاب عليها، قالت: «وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ» ثم قالت فى النهايه: «إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ» ثم قالت: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ» أى فى قصص الأمم السالفه وعقابهم ونزول العذاب عليهم آيه واضحه لمن خاف عذاب الآخرة.

لقد جاءت مفردة «آيه» نكرة، وذلك للإشارة إلى عظمه وأهميته هذه الآيه الإلهية ودور العبرة فيها، والتعبير ب «لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ» إشارة إلى الأرضية المعدة للمعرفة عند أولئك الذين يخافون من عذاب الآخرة.

أما أولئك الذين لا يخافون عذاب الآخرة فلا يدركون علاقه هذه الذنوب بأنواع العذاب الإلهي، إنهم يعدون العذاب أمراً قهرياً وجبرياً، أو يرجعون أسبابه إلى حركة الأفلاك

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٦٦

والنجوم وأوهام وخرافات اخرى، ولا يدركون الأسباب الحقيقيه له «١».

إضافه إلى هذا، فإن الإنسان لا يقطع بالعذاب الدينوى ما لم يقطع بالعذاب الاخرى، لأن كليهما وليد شىء واحد وهو معرفه الله ومعرفه عدالته.

إن جملته «وهي ظالمه» تلميح إلى أن الأخذ والدمار كان بسبب ظلم تلك القرى وبتعبير آخر: فإن جميع الانحرافات العقائديه

والسلوكية داخله في مفردة الظلم.

ج ج

والآية الثانية بعدما أشارت إلى آيات الله في السموات والأرض: وبيان قدرته على كل شيء أكدّت بأنّ الله لم يعجز عن عذاب أولئك العصاة الذين سخروا بآيات الله واتهموا الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله بالجنون، واعتبروا المعاد محالاً، إنّ شئنا خسفنا بهم الأرض، أو أسقطنا عليهم من السماء أحجاراً سماوية: «إِنْ نَشَأْ نُخَسِفُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ».

إنّ «كسّف» جمع كسّف ويعنى القماش المقطّع قطعاً قطعاً، وقد استعملت هذه المفردة هنا إشارة إلى بعض الكرات السماوية التي تنفجر تحت ظروف خاصة وتتحول إلى قطع متعددة تسبح في السماء، وإذا ما دخلت في مدار الأرض، تحولت (بايعاز من الله) إلى أمطار من حجر، أو سقطت على وجه الأرض بصورة قطع حجريّة كبيرة، كلّ منها يمكنها تدمير منطقة واسعة من سطح الأرض، كما أنّ العلماء اكتشفوا نماذج من هذه الكتل الحجريّة في منطقة «سيبيريا».

ثم قالت الآية في النهاية: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ أَى لِكُلِّ عَبْدٍ رَاجِعٍ لِّلَّهِ وَخَائِفٍ مِنْ عَذَابِهِ وَمَتَّخِذٍ سَبِيلِ التَّوْبَةِ. المسلم هو أنّ هذه الآيات عامّة لجميع البشر، لكن لا ينتفع بها إلاّ من خاف الله وشعر بالمسؤولية» (٢).

(١). لقد اشير إلى هذا الأمر في التفاسير التالية: تفسير روح المعاني، ج ١٢، ص ١٢٣؛ تفسير الكبير، ج ١٨، ص ٥٨؛ تفسير روح البيان، ج ٤، ص ١٨٥.

(٢). تفسير القرطبي، ج ٨، ص ٥٣٤٦.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٦٧

وبتعبير آخر: فإنّ جملة «لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ بِمِثَابَةٍ بَيَانٍ لِّسَبَبِ جَمَلِهِ» «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً»، أَى أنّ الالتفات إلى حقيقة العبودية والتوبة والإِنَابَةِ سبب للالتفات بهذه الآيات (١).

وفي الحقيقة، إذا ما درسنا حقيقة مفهوم العبودية، رأينا لا يخلو من التوبة والإِنَابَةِ عند اقتراف الذنب.

ج ج

أما ثالث وآخر آية في البحث، فقد أشارت مرّة أخرى إلى المصير الرهيب لقوم لوط ذلك المجتمع الذي بلغ من العار أفصاه، وسخر من جميع قيم الإيمان والإنسانية وغمر في وحل الفساد والفحشاء ...

إنّ الآية بعدما أشارت إلى تدمير مدنهم وتخريبها قالت: «وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ يَعْتَقِدُ الْكَثِيرُ أَنَّ مَدَنَ قَوْمِ لُوطٍ كَانَتْ فِي الشَّامَاتِ قَرِبَ «البحر الميت» أو بين الشام والحجاز، وكان يطلق عليها «المدائن المؤتفكة»، ويقال: إنّهُ عندما زلزلت الأرض من مدنهم هدمتها، ثم نزلت عليهم أمطار من الأحجار، وانشقت عندها الأرض شقاً نفذ فيه ماء «البحر الميت»، وبدل هذه المدن إلى مستنقعات ننته، ولهذا يدعى البعض العثور على آثار من الأعمدة وغيرها من هذه المدن في أطراف البحر الميت.

وعلى أَى حال، فإنّ هذه الآثار الباقية - سواء كانت في اليابسة أو تحت المستنقعات الآسنة - درس وعبرة، ولا ينتفع بهذا الدرس إلاّ الذين يخافون عذاب الله، ويشعرون بالمسؤولية (وتواجدت فيهم أرضية المعرفة).

وبتعبير بعض المفسرين:

آية العبرة هذه هي لأولئك الذين من شأنهم أن يخافوه لسلامة فطرتهم ورقة قلوبهم دون من عداهم من ذوى القلوب القاسية فانهم لا يعتدون بها ولا يعدونها آية ودليلاً (٢).

(١) تفسير روح المعاني، ج ٢٢، ص ١٠٤.

(٢) تفسير روح المعاني، ج ٢٧، ص ١٣.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٦٨

النتيجة:

إنّ الخوف سواء كان بمعنى الخوف من الله أو من عذابه أو من الذنب والمعصية (لأنّ جميعها ترجع إلى معنى واحد)، يُعدُّ الأرضية لروح الإنسان لتقبل الحقائق والمعارف، الإنسان ما لم يشعر بالمسؤولية لا- يتجه نحو مصادر المعرفة ولا يبحث في آيات الآفاق والأنفس والتكوين والتشريع.

وخلاصة الحديث، أنّ الحركة نحو العلم والمعرفة كأي حركة أخرى تحتاج إلى محرك، والمحرك يمكنه أن يكون أحد الامور التالية:

١- جاذبية العلم والعشق للمعرفة التي أودعت في روح الإنسان منذ البداية.

٢- الاطلاع على النتائج المثمرة والآثار القيمة للمعرفة، ووصول الإنسان إلى المراحل الرفيعة تحت ظلها.

٣- الشعور بالمسؤولية والخوف من العواقب المؤلمة لفقدان المعرفة والجزاء الترتب عليها.

إنّ كلّاً من هذه الامور يمكنها أن تهىء الأرضية المناسبة لطى هذا الطريق المليء بالتعرجات، وإذا ما تعاضدت هذه الامور مع بعضها البعض، فإنّ الحركة نحو المعرفة ستكون أسرع وأعمق وأكثر ثماراً.

وآخر الحديث: إنّ أكبر فخر للإنسان هو العلم والمعرفة، والجاهلون هم موتى الأحياء.

إنّ بلوغ مرحلة المعرفة الكاملة، لا يتم إلّا مع توفر الأسباب ورفع الموانع والحجب وتهيئة الأرضية المناسبة.

وما أجمل ما قاله الشاعر:

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٦٩ وفي الجهل قبل الموت موت لأهله فأجسامهم قبل القبور قبور

وإنّ امرءاً لم يحيى بالعلم ميتة فليس له حتى النشور نشورٌ

ربّنا علّمنا المعارف الحقيقية، والأرفع من ذلك أى

معرفة ذاتك المقدّسة الطاهرة وصفاتك الجليلة.

إلهي! نعلم أنّ أعظم فخرنا هو علمنا ومعرفتنا،

والاطلاع على أسمائك وصفاتك وعالم خلقك أى أفعالك،

إلّا أنّه لا يتيسر طى هذا الطريق الصعب إلّا بتوفيقك، فوقفنا

وثبت أقدامنا.

يا مولانا! إنّ شياطين الدرب كثيرون، وأوديته

خطرة، وموانعه عديدة، ولا يمكن رفع هذه الموانع إلّا

بامداداتك، فزودنا بها وبألطافك الخاصة.

أمين يا رب العالمين

نهاية المجلد الأول من نفحات القرآن

(التفسير الموضوعي)

صباح الجمعة - ٨ رجب ١٤٠٨ هـ . ق

الموافق ل ٧ / ١٢ / ١٣٦٦ هـ . ش

الجزء الثاني

البحث عن عظمة الله ومعرفة في القرآن الكريم

أسئلة مهمة ومصيرية:

الكل يريد أن يعرف أجوبة هذه الأسئلة:

من أين جئنا؟

أين نحن؟

وإلى أين نذهب؟

وبالطبع فثمة سؤال مهم آخر إلى جانب هذه الأسئلة الثلاثة وهو:

«لماذا جئنا؟» هل كان لمجيئنا غاية؟ وإن كانت له غاية فما هي؟

وما هي الوسائل المتوفرة لدينا من أجل الوصول إلى هذه الغاية؟

من هو المبدىء الأصلي لهذا العالم، ومن أين نَبَعَ عالم الخلق؟

وأخيراً، هل هناك طريق لمعرفة هذا المبدىء الكبير؟

هذه هي أهم أسئلة البشر.

إن الذين لا يرون ضرورة في العثور على أجوبة هذه الأسئلة هم الغرقى في الحياة المادية اليومية إلى درجة أنهم لا يفكرون في شيء

سوى «النوم والأكل واللذة الجنسية»، فهم كالأنعام لا علم لهم «بالعالم الإنساني».

أو أنهم سعوا وحاولوا العثور على جواب هذه الأسئلة لكنهم لم يصلوا إلى شيء، فيئسوا وكفوا عن البحث.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٦

وإنطلاقاً من أن «السؤال» هو الدافع «للحركة» دائماً، الحركة نحو الإجابة، وأن الأسئلة كلما كانت متنوعة وعميقة كانت الحركة أوسع

وأكثر تجذراً، لهذا يجب أن تستقبل الأسئلة المهمة بصدور واسعة، ولا نخش كثرة الأسئلة وأهميتها، بل نستقبلها بكل رحابة صدر.

ويمكن أن تكون محصلة عمر الإنسان ليست في الحقيقة شيئاً سوى العثور على أجوبة الأسئلة، وأن نتيجة جهود كل علماء العالم

والفلاسفة وعلماء العلوم الطبيعية بلا استثناء هي الأجابه عن بعض هذه الأسئلة.

يحاول علماء الفلك أن يشرحوا كيفية ظهور السماوات والنظام الذى يحكمها.

وعلماء الجيولوجيا يجيبون على الأسئلة ذات العلاقة بظهور الأرض وتركيبتها.

وعلماء الأنثروبولوجيا والتحليل النفسى وكل الذين يدرسون العلوم الإنسانية والاجتماعية يريدون أن يعثروا على أجوبة الأسئلة المتعلقة

بهذا الموجود العجيب المسمى ب «الإنسان».

ويريد الفلاسفة بمساعيهم المتواصلة أن يطلعوا على حقيقة المبدىء ومصير العالم - إلى الحد الذى يستطيع عقل البشر أن يصل إليه -

أو الإجابة عن بعض الأسئلة المتعلقة بهذا المجال على الأقل.

نستنتج مما ذكرناه أنه إن كان البحث حول «الخالق لعالم الوجود» ومبدأ هذا العالم الكبير الذى نعيش فيه من أقدم البحوث وأرسخ

الأسئلة الإنسانية، فليس ذلك أمراً عجبياً.

ولهذا نرى من واجبنا السعى بقدر استطاعتنا للعثور على جواب هذه الأسئلة:

من هو مبدىء عالم الوجود؟ وكيف يمكن معرفته؟!

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٧

دوافع البحث عن عظمة الله

إشارة

١- الدافع العقلي

٢- الدافع العاطفي

٣- الدافع الفطري

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٩

١- الدافع العقلي

تمهيد:

تمهيد:

قلنا إنه لا توجد حركة بدون حافز أو دافع، وبالطبع فلا يمكن للحركة في طريق معرفة مبدىء عالم الوجود أن تكون بلا حافز، ومن هنا يذكر الفلاسفة والعلماء ثلاثة دوافع أساسية للبحث عن الله، وجميعها أشار إليها القرآن الكريم إشارات واضحة.

١- الدافع العقلي.

٢- الدافع العاطفي.

٣- الدافع الفطري.

وللبعض من هذه الحوافز فروع خاصة بها.

لنبتدأ أولاً بـ «الحافز العقلي» و نتأمل خاشعين في الآيات الكريمة أدناه:

١- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ».

(الأنفال / ٢٤)

٢- «لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ».

(آل عمران / ١٦٤)

٣- «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ». (الحديد / ٢٥)

٤- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا جَاءَكُم بِالْحَقِّ لِنُحْيِيَكُمْ وَلِنَعْلَمَ بِإِيمَانِكُمْ وَلِنُؤَيِّدَنَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَارِكِينَ» (الأعراف / ١٥٧)

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٠

٥- «قَالَ هَلْ يَشْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ* أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يُضُرُّونَ ... فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ». (الشعراء / ٧٢، ٧٣، ٧٧)

٦- «فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَتَمُودَ». (فصلت / ١٣)

٧- «قُلْ إِنَّمَا أَعْطَاكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَى خِزْفٍ ثُمَّ تَذْكُرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ».

(سبأ / ٤٦)

جمع الآيات وتفسيرها

التحقيق من مسؤوليات الإنسان الأساسية:

الإنسان يحب الكمال، ويعتبر هذا الحب خالداً عند كل الناس، يبقى أن كل إنسان يرى كماله في شيء معين، فيذهب نحوه، والبعض يذهبون وراء السراب يحسبونه ماءً ويلهثون خلف القيم الوهمية والكمالات الخيالية ويتصورونها واقعاً. قد يسمى هذا المبدأ أحياناً بـ «غريزة حب المنفعة ودفع الضرر» التي يجد الإنسان نفسه على ضوئها بأنه ملزم أن يكون له تعامل جاد مع كل موضوع يتعلق بمصيره (بلحاظ النفع والضرر).

لكن إطلاق تعبير «غريزة» على هذا الحب يعدّ تعبيراً غير صحيح، فالغريزة عادة تطلق على أمور تؤثر في أفعال البشر أو باقي الأحياء بدون تدخل التفكير، ومن هنا تستعمل بالنسبة للحيوانات أيضاً.

وعلى هذا الأساس فمن الأفضل أن نستخدم تعبير (الرغبات السامية) التي استعملها البعض لمثل هذه الموارد.

وعلى كل حال، فالحب للكمال والميل نحو المصالح المعنوية والمادية ودفع كل أنواع الضرر يجبر الإنسان على التحقيق حتى في مواضع الاحتمال، وكلما كان هذا الاحتمال أقوى وذلك النفع والضرر أعظم، كان التحقيق والبحث أكثر ضرورة.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١١

من المستحيل أن يحتمل شخص تأثير أمر مهم في مصيره، ولا يرى من واجبه التحقيق حوله.

وقضية الإيمان بالله والبحث عن الدين تعتبر من هذه القضايا بلا شك، لأنّ هنالك في محتوى الدين كلام عن القضايا المصيرية، وعن القضايا التي يرتبط خير وشر الإنسان بها ارتباطاً وثيقاً.

البعض يذكر مثلاً من أجل إيضاح هذا الموضوع، فيقول: لنفترض أننا نجد إنساناً واقفاً على مفترق طريقين ونسمعه يقول بقطع ويقين: إنّ البقاء هنا خطرٌ، واختيار هذا الطريق (إشارة إلى أحد الطريقين) هو الآخر خطر، والطريق الثاني هو طريق النجاة، ثم يذكر قرائن وشواهد لكل ما قاله، فما من شك أن أي عابر سبيل يرى نفسه ملزماً بالتحقيق ويعتقد أنّ اللامبالاة تجاه هذه الأقوال مخالفة لحكم العقل، وبلحاظ هذه المقدمة ننتقل إلى تفسير الآيات.

إنّ أول آية من الآيات المعنية بالبحث تعتبر دعوة رسول الله إلى الإسلام دعوة إلى العيش والحياة الحقيقية، وتدل هذه الدعوة على أنّ بالإمكان جمع كل محتوى الإسلام في مفهوم «الحياة»، الحياة التي تشمل الحياة المعنوية وتشمل الحياة المادية، الحياة الشاملة والجامعة.

مع أنّ البعض فسر معنى الحياة هنا بأنه بخصوص «القرآن» أو «الإيمان» أو «الجهاد» (١)

، لكن ممّا لا شك فيه أنّ الحياة مفهوم واسع يشمل كل هذه العناوين المذكورة وكل ما هو مؤثر في حياة الإنسان المعنوية والمادية.

وعلى كل حال، إذا دعانا شخص بمثل هذه الدعوة فهل يمكن أن نغض الطرف عن

(١) ذكرت هذه الاحتمالات عن المفسرين في تفسير الكبير، ج ١٥ ص ١٤٧؛ وتفسير الميزان، ج ٩، ص ٤٣؛ وتفسير روح المعاني، ج

٨، ص ١٦٩؛ و تفسير القرطبي، ج ٤ ص ٢٨٢٥.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٢

دعوته ولا نرى من مسؤوليتنا حتى التحقيق في هذه الدعوة؟.

هنا يريد القرآن بهذا التعبير أن يوجد حافز الحركة نحو التحقيق حول الدين لدى كل من له القابلية على هذه الحركة. يقول الراغب في كتاب «المفردات»: إن حقيقة «الاستجابة» هي السعي والقابلية على استلام الجواب، ولأن هذا الموضوع ينتهي عادةً بالجواب فقد فسروه بمعنى «الاجابة» (١).

الآية الثانية تعدُّ بعثة الرسول من أعظم النعم الإلهية التي منحها الله سبحانه وتعالى للمؤمنين، ثم تذكر في تفسير هذه النعمة ثلاثة برامج مهمّة للرسول: تلاوة الآيات الإلهية:

«يَتْلُوا عَلَيْهِنَّ آيَاتِهِ»، والتركية والتربية: «وَيُزَكِّيهِمْ»، وتعليم الكتاب والحكمة «وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ».

ونتيجة كل هذه البرامج هي النجاة من «الضلال المبين»: «وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ».

إن كل هذه التعبيرات هي من أجل إحياء محفزات الحركة نحو الأسلام لدى الناس، أو على الأقل من أجل أن يرى كل إنسان نفسه ملزماً بالتحقيق حول الإسلام لأنه من الممكن أن يكون أكبر نفع وضرر للإنسان كامناً في هذا التحقيق.

«المِنَّة»: من مادة «مَن» وهي في الأصل كما يعتقد البعض بمعنى القطع، لهذا فإن: «أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ» بمعنى الثواب الذي لا ينقطع أبداً، وكذلك يقال لنوع من الاصماغ والترشحات ذات الطعم الحلو والتي تشاهد كالكقطرات الصغيرة مستقرّة على أوراق الأشجار تشبه قطرات الندى يقال لها «المن».

ولكن يعتقد الراغب أن «المن» في الأصل بمعنى الحجر الذي يَزِنون به، والذي أطلق

(١) ولكن يجب الالتفات إلى أن «الاجابة» تكون فعلاً متعدياً بدون حرف الجر، في حين أن «الاستجابة» تذكر غالباً مع حرف اللام.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٣

فيما بعد على النعم الكبيرة الثقيلة.

وحيثما تستخدم هذه المفردة في القاموس الإلهي فتعني «منح النعم» وحين تستخدم في قاموس البشر فتعني غالباً التحدث بالنعمة التي يجزلها الإنسان لغيره، من هنا كان معناها الأول إيجابياً والثاني سلبياً ومذموماً.

الآية الثالثة تشير إلى هدف مهم آخر من أهداف بعثة الأنبياء، وهو مسألة «العدالة الاجتماعية»، فتقول: إننا جهزنا الرسل بثلاثة أشياء: أولاً: البراهين الواضحة التي تشمل «المعجزات»، و «البراهين العقلية»: «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ».

ثانياً: الكتاب السماوي الذي يبين المعارف ويشرح للناس مسؤولياتهم.

وثالثاً: الميزان: وهو الوسيلة التي بواسطتها توزن الأشياء، والعجب أن بعض المفسرين قد فسروا الميزان بالمعنى الذي ذكرناه، في حين أن أغلب المفسرين يعتقدون أن المراد من الميزان هي الوسيلة التي بواسطتها يقام العدل فيشخص بواسطتها الحق من الباطل، الزيادة من النقصان، الخير من الشر، القيم الحقة والخيرة من القيم الباطلة والشريرة، وبإمكاننا أن نفسر الميزان بالقوانين الإلهية.

صحيح أن هذه الأمور مذكورة في نص الكتب السماوية، ولكن ذكرها بشكل مستقل جاء بسبب أهميتها.

وعلى كل حال، هل من الممكن أن يسمع إنسان بأن شخصاً يدعى الدعوة إلى وجود مثل هذه الحقائق المصيرية ولا يرى أن من واجبه التحقيق في هذه الدعوة؟.

يقول الفخر الرازي: الناس ثلاثة أنواع: نوع في مقام «النفوس المطمئنة» وهم المعنيون بالآية: «أَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ»، النوع الثاني في مقام

«النفوس اللوامة» وهم أصحاب اليمين الذين يحتاجون إلى معيار قياسي من أجل المعرفة والأخلاق، ليكونوا في أمان من الإفراط

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٤

والتفريط، وهم المقصودون بتعبير «الميزان»، النوع الثالث هم أصحاب «النفوس الأمارة» الذين تعنيهم الآية: «انزلنا الحديد» أي هم

المستحقون للعقاب والجزاء (١).

في الآية الرابعة إشارة إلى الأبعاد المختلفة لبعثة الأنبياء وبالخصوص السياسية والاجتماعية ونزول الأديان السماوية، وفيها ذكر لبعض أوصاف رسول الله صلى الله عليه وآله فقد جاءت لترغيب الناس في اتباعه، منها: «يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ».

لا شك أن هذه أمور مصيرية وذات علاقة وثيقة بمسألة تكامل الإنسان وخيره وشره، بل مجرد احتمالها يكفي لدفعه نحو التحقيق. «الإصر»: على وزن مصر، يعنى فى الأصل الربط والاعلاق وحبس الشىء بقوة وعنوة، ثم أطلقت على الحمل الثقيل والأعمال الشاقة التى تعوق الإنسان عن النشاط، ولهذا سُميت الجبال والمسامير التى تربط بها الأعمدة «آصار»، ولهذا أيضاً سُمى العهد والوعد والذنب بالاصر (٢).

يمكن الاستنباط من التعابير التى وردت فى كلمات أرباب اللغة والمفسرين أن معنى كلمة «إصر» الجسم الثقيل الذى يُربط بقدم السجين لكى لا يستطيع أن يتحرك، وإن ذكره إلى جانب الأغلال وهى الأطواق والسلاسل التى تقيد بها الأعناق يناسب هذا المعنى، ثم أطلقت هذه المفردة على معنى آخر يتناسب وأصل الكلمة.

مع إن الكثير من المفسرين فسروا «الإصر» و «الأغلال» فى هذه الآية بمعنى التكاليف الشاقة أو الامتحانات العسيرة والمعقدة التى حلت بالامم السابقة، لكن الظاهر أن لهاتين المفردتين مفهوماً أوسع وأشمل يستوعب كل أنواع قيود الاسر والحمل الثقيل الذى يسببه

(١) التفسير الكبير، ج ٢٩، ص ٢٤١.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٤٨٨؛ التفسير الكبير، ج ١٥، ص ٢٥؛ تفسير روح المعانى، ج ٩، ص ٧٢ ومفردات الراغب، مادة (إصر) وكتاب العين، ج ٧ ص ١٤٧.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٥

«الجهل» و «الشهوات» و «الذنوب» و «الاستبداد» و «الاستعمار» وما شاكل، وهى أمور ترتفع وتزول تحت ظل وجود رسول الله وتعليماته التحررية.

الآية الخامسة كلام ورد عن لسان محطم الأوثان إبراهيم عليه السلام عندما خاطب الوثنيين موبخاً إياهم على عملهم القبيح هذا (عبادة الأصنام)، وقال من أجل إيقاض عقولهم حيث كانوا يغطون فى سبات عجيب:

«هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ* أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ؟!» فلا بد للعبادة أن تكون إما من أجل الربح والمكافأة والمنفعة أو من أجل دفع الضرر والعقاب.

وبالطبع لم يكن لديهم أجوبة إيجابية على هذه التساؤلات سوى الإعتصام باتباع وتقليد السلف والقول: «بَلْ وَحَدَّثْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ».

تدل هذه التعابير جيداً بأن حافز النفع والضرر (ليس النفع والضرر المادى فحسب فالنفع والضرر المعنوى أفضل وأرفع منه) ويمكن أن يكون حافزاً للحركة باتجاه معرفة الله.

حول نزول آيات سورة فصلت وهى الآية السادسة فى بحثنا هذا، نقرأ أن «أبا جهل» سأل «الوليد بن المغيرة» وهو من رجال عرب الجاهلية المعروفين وهو من أهل النظر والمشورة يُرجع إليه عند المعضلات: ما هذا الذى يقوله «محمد»؟ أهو كهانة أم سحر؟ أهو تكهن؟ ... فقال «الوليد»: يجب أن أذهب إليه بنفسى وأتحقق، وعندما جاء إلى النبى صلى الله عليه وآله قرأ له بعضاً من آيات سورة فصلت إلى أن جاء إلى الآية التى وردت فى بحثنا: «فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ».

فارتجف «الوليد» لسماع هذه الآيات واقشعر بدنه ووقف شعر رأسه، فنهض من مكانه وعاد إلى بيته وأغلق الباب على نفسه، حتى ظن اكابر قريش أنه يميل نحو الدين

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٦

الإسلامي، وعندما جاءوا إليه وسألوه عن شأنه، قال: ما صبوت (اي لم اسلم) وانى على دين قومي وآبائي ولكنى سمعت كلاماً صعباً تقشّر منه الجلود، فلا هو بالشعر ولا بالخطب ولا بالكهانة، ولما قيل له: إذن ما نقول فيه؟ قال: قولوا هو سحر، فإنه آخذ بقلوب الناس (١).

أولا يمكن لمثل هذه التهديدات الواردة في الآيات القرآنية وبقية المصادر الدينية أن تكون حافزاً على التحرك نحو التحقيق (بالنسبة لمن لم يؤمنوا لحد الآن).

في الآية السابعة من البحث، أمر الرسول صلى الله عليه وآله أن يخاطب جميع معارضيه ويعظهم بمسألة واحدة: «قُلْ إِنَّمَا أَعْظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفِرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ...». كل تعبير هذه الآية تعابير مدروسة.

فالتعبير ب «إنما» من أجل الحصر.

والتعبير ب «الموعظة» يستخدم في المواضع التي يحكم فيها العقل بشيء، ولكن لكون الإنسان غافلاً عنه فهناك شخص حريص آخر يوقظه ويعظه.

والتعبير ب «القيام» دليل على الاستعداد الكامل لتنفيذ الأهداف الجديدة.

والتعبير ب «مثنى» و «فرادى» إشارة إلى النشاطات الجماعية والفردية والجهود الشاملة في هذا السبيل «لا شك أن الإنسان يفكر بشكل أعمق عند انفراده ولكنه يفكر بشكل أكمل حين يكون ضمن الجماعة، لأن الأفكار ستتحده مع بعضها، والجمع بين هذين (التفكير على انفراد وضمن الجماعة) هو أفضل الطرق» (٢).

(١) بحار الأنوار، ج ١٧، ص ٢١١ وتفاسير أخرى (الأصل في الحديث مفصل وقد نقلناه بتلخيص، لاحظوا تفصيله في التفسير الأمثل ذيل الآية ١٣ من سورة فصلت.

(٢) قال بعض المفسرين: «مثنى إشارة إلى المناظرة التي لها تأثير كبير في كشف الحق، في حين أن «فرادى إشارة إلى القراءة في الوحدة، واحتمل بعض آخر أن «مثنى» إشارة إلى التفكير الذي يقوم به الإنسان خلال النهار ضمن الجماعة و «فرادى» التفكير الذي يحصل في الليل وعند الانفراد (تفسير القرطبي، ج ٨، ص ٥٣ و ٩٣).

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٧

ثم التعبير ب «التفكير» الذي ينبع من الصميم ويهدى الإنسان إلى البراهين العقلية الواضحة.

والتعبير ب «لكم» هو الآخر ممتزج بمسألة الانذار والإلتفات إلى العذاب الشديد وفيه إشارة إلى أن الموضوع هنا هو نفعكم وضرركم فقط، ولا هدف للنبي صلى الله عليه وآله سوى هذا.

أفلا يجب والحال هذه أن يأخذوا دعوتهم مأخذ الجد ويفكروا فيها ويعتروا على الحق ثم يتبعوه؟

النتيجة:

إن الآيات أعلاه وآيات مشابهة أخرى تكشف النقاب جيداً عن الحافز العقلي للبحث والتنقيب في طريق «معرفة الله» وتدلل على أنه لا يمكن لأي إنسان عاقل أن يتعاسف ويسكت أزاء الدعوات العظيمة لأنبياء الله ورسله على صعيد الدعوة إلى الله ذات العلاقة الوثيقة بمصير الجميع، وهذا هو الحافز الأول للتحقيقات الدينية.

توضيحات

١- الدوافع العقلية لفهم الدين في الروايات الإسلامية

- ١- ورد في حديث عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام أن أحد أصحابه سأله عن الضعفاء (المستضعفين) فكتب له الإمام في الجواب: «الضعيف من لم ترفع إليه حجة، ولم يعرف الاختلاف، فإذا عرف الاختلاف فليس بمستضعف» (١).
- ٢- و جلوه های توخالی دنیا از دور روی نفس هذا المعنى عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله: «من عرف اختلاف الناس فليس بمستضعف» (٢).

(١) أصول الكافي، ج ٢، ص ٤٠٦، (باب المستضعف)، ح ١١.

(٢) المصدر السابق، ح ١٠.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٨

وفي هذا إشارة إلى أن الإنسان حين يطلع على وجود الاختلاف سوف يرغبه عقله على التحقيق والمطالعة (النظر)، وعندها لا يُعتبر مستضعفاً.

وبالطبع فالقصد من «المستضعف» هنا هو «المستضعف فكراً» الذي نسميه أحياناً بـ «الجاهل القاصر».

٣- جاء في حديث آخر عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «أربعة تلزم كل ذي حجي وعقل من أمتي، قيل: يا رسول الله ما هن؟ قال: إستماع العلم وحفظه ونشره والعمل به» (١).

وبهذا يعتبر النبي صلى الله عليه وآله الاستماع والتحقيق من آثار وعلامات العقل والدراية.

٢- المعاندون الملخون

كان دائماً في مقابل الأحرار الذين يرون التحقيق في الحق واجبه العقل، هناك جماعة يخشون رؤية الحق كالخفافيش، وحتى لو ارتفع صوت منادى الحق ودوى في آذانهم سدوا آذانهم لكيلا يسمعوا صوته.

ينقل القرآن عن جماعة من قوم نوح عليه السلام على لسان هذا النبي العظيم عندما اشتكاهم إلى الله: «وإِنِّي كَلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِيَتَّخِذُوا مِنِّي حِجَابًا فَأَصَابَتْهُمْ مِثْقَاتُ الْمَوْتِ وَكَانُوا فِي حُكُومٍ» (نوح / ٧)

ولم يكن حال المشركين بأقل من هؤلاء، بل كأنهم ورثوا قوم نوح المعاندين الذين تحدث عنهم القرآن: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنَسْمَعَنَّ هَذَا لَهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ». (فصلت / ٢٦)

إن هذه الجماعة التي لها أتباع ومقلدون في كل عصر وزمان لا يسمحون لأنفسهم بالتحقيق في ما يجري أبداً، إنهم جهلة حمقى يخشون نور الشمس كأنهم الخفافيش، يلجأون إلى الظلمة دائماً، ويفتخرون بالجهل، إنهم أكثر حرماناً من الجميع لأنهم أعداء تفضحهم الشمس.

(١) تحف العقول، مواظ النبي، ص ٤٠.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٩

٢- الدافع العاطفي

تمهيد:

ثمة مثل معروف يقول: «إِنَّ النَّاسَ عبيدُ الْإِحْسَانِ». ورد نفس هذا المعنى تقريباً في حديث عن أمير المؤمنين الإمام على عليه السلام: «الإنسان عبد الاحسان» (١). وورد عنه عليه السلام: «بالإحسانِ تملك القلوب» (٢). وفي حديث آخر عنه أيضاً: «وأفضلُ على من شئتَ تكن أميره» (٣). وجذور كل هذه المفاهيم في حديث الرسول صلى الله عليه وآله إذ يقول: «إِنَّ اللَّهَ جعل قلوب عباده على حبِّ من أحسن إليها وبغضٍ مَنْ أساء إليها» (٤). والخلاصة هي أَنَّ هنالك حقيقة تقول: إِنَّ الذي يسدى خدمه لشخص أو ينعم عليه نعمة فسيكون عطفه هذا عليه منطلقاً من حبه له ويكون هذا الآخر محباً لمن اسدى إليه الخدمة والنعمة، يحب أن يتعرف عليه تماماً ويشكره، وكلما كانت هذه النعمة أهم وأوسع، كان توجه العواطف نحو «المنعم» و «معرفة» أكثر. ولهذا جعل علماء علم الكلام (العقائد) مسألة «شكر المنعم»- ومنذ القِدَم- إحدى الدوافع على التحقيق حول الدين ومعرفة الله.

(١) غرر الحكم.

(٢) المصدر السابق.

(٣) بحار الأنوار، ج ٧٧، ص ٤٢١.

(٤) تحف العقول، ص ٣٧ (قسم من كلمات النبي صلى الله عليه وآله).

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٠

ولكن يجب الانتباه إلى أن «شكر المنعم» هو قرار عاطفي قبل أن يكون قراراً عقلياً.

نختم هذه الإشارة ببيت شعر لأبي الفتوح البستي الشاعر العربي المعروف:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسان إحساناً بعد هذه الإشارة نتقل إلى القرآن ونتأمل خاشعين في الآيات أدناه:

١- «وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَاتَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ». (النحل / ٧٨)

٢- «وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِيَتَأْكَلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلًا حَلِيًّا تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ». (النحل / ١٤)

٣- «فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنَّ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ».

(النحل / ١١٤)

جمع الآيات وتفسيرها

شكر المنعم سلم إلى معرفة الله:

تحدث الآية الأولى عن أهميَّة النعم الإلهيَّة لتحرك في الناس روح الشكر وتدعوهم عن هذا الطريق إلى معرفة «المنعم»، إِنَّ الحديث

عن النعمة وسيلة للمعرفة، فقد تحدث القرآن عن «العين» و «الأذن» و «العقل» بقوله: «وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ».

فمن طريق السمع تتعرفون على العلوم النقلية وعلوم الآخرين.

وعن طريق البصر ومشاهدة أسرار الطبيعة وعجائب الخلق تتعرفون على العلوم التجريبية، وعن طريق العقل تتعرفون على العلوم العقلية والتحليل المنطقية.

ومع أن هذه المواضيع الثلاثة معطوفة على بعضها في هذه الآية بالواو ولا تعنى بالضرورة الترتيب، إلا أنه ليس من المستبعد أن يكون هذا هو الترتيب الطبيعي لها، لأن

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢١

الإنسان عندما يولد لا يمتلك القدرة على النظر والمشاهدة إلى فترة من الزمن بعد ولادته، ولأنه معتاد على الظلام فهو يخاف من النور ويغمض عينه لمدة من الزمن، في حين أن الأذن تسمع الأصوات من أول لحظة، ومن الواضح أن القدرة العقلية والتمييز والشعور تبدأ بالعمل والنشاط لدى الإنسان بعد السمع والبصر، خاصة وأن «الفؤاد» كما يصرح أرباب اللغة بمعنى «العقل الناضج العميق» ولا يمثل مرحلة عادية من العقل، وطبعاً فإن مثل هذا الشيء يظهر بعد ذلك.

فضلاً عن أن الآية المذكورة يمكن أن تكون إشارة إلى حقيقة أن الوصول إلى «الكليات العقلية» يأتي بعد العلم ب «الجزئيات» عن طريق الحس، وعلى كل حال، فالآية تصرح أن الهدف من إسداء هذه النعم هو تحريك روح الشكر لدى البشر، والذي يدعوهم بالنتيجة إلى محبة الخالق ومعرفة الله وإطاعة أوامره.

وبالطبع فإن هذا لا يتناقض مع كون بعض العلوم الإنسانية علوماً فطرية لأن المعلومات الفطرية عند الولادة موجودة في طبيعة الإنسان على شكل الاستعداد والقابلية، وليس لها طابع الفعلية، ثم تثمر بعد ذلك.

الآية الثانية تشير إلى ثلاث نعم إلهية أخرى تتعلق جميعها بتسخير البحار وتعتبرها دافعاً نحو الاستفادة من فضل الله وشكره، ومن هذه النعم:

أولاً: اللحوم التي تستخرج من البحر والمسماء ب «لَحْمًا طَرِيًّا»، وهو اللحم الذي لم يبذل الإنسان جهداً في تربيته أبداً، وإنما ربه يد القدرة الإلهية في أعماق البحار ووضعت في متناول أيدي الإنسان مجاناً، فيعتبر نعمة كبيرة، خاصة في عصر وزمان كانت تكثر فيه اللحوم الفاسدة وكان الناس يضطرون إلى الاحتفاظ باللحوم إلى فترة معينة عن طريق تمليحها أو شيها وتجفيفها تحت أشعة الشمس، وكانت هذه اللحوم تسبب الكثير من الأمراض والتسمم للمسافرين، في حين كانوا يستخدمون اللحوم الطازجة بكل سهولة في سفراتهم البحرية أو الساحلية.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٢

ثانياً: ثم تشير الآية إلى المواد المستعملة للزينة المستخرجة من أعماق البحار والمستخدمه من قبل البشر وتقول: «وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا».

أي أن الله وفر لكم أكثر المواد الغذائية ضرورةً بالإضافة إلى الحاجات ذات الطابع التجميلي الصرف.

ثالثاً: وفي المرحلة الأخيرة تشير الآية إلى واحدة أخرى من بركات البحار التي كان لها دور مؤثر جداً في حياة البشر حتى في يومنا الحاضر، وهي استخدام البحر كطريق كبير وواسع ومتصل لحمل ونقل أنواع الأمتعة التي يحتاجها الناس في السفر، ومع الأخذ بنظر الاعتبار أن حوالي ٧٥ بالمائة من وجه الأرض مغطى بالبحار التي تصل إلى كل نقاط العالم، وأنّ قسماً كبيراً من البضائع والمواد الضرورية تنقل عن هذا الطريق، وأنّ قسماً كبيراً من الأسفار يتم من خلال هذا الطريق، ومن هنا تتضح أهميته هذا الموضوع.

يقول عز وجل: «وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ».

ثم يضيف في النهاية: «لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

وبهذا جعل الالتفات إلى هذه النعم أيضاً وسيلة لإحياء روح الشكر وبالتالي اكتساب المعرفة بالله، وإلا فما حاجة الله إلى شكرنا؟ كل هذه ذرائع إلى معرفة ذاته وصفاته والحركة نحو هذا الكمال المطلق.

والجدير بالذكر أن «مواخر» هي جمع «ماخرة» من مادة «مخر» (على وزن فخر)، وهذه المادة كما يستفاد من محصلة كلمات أرباب اللغة والمفسرين بمعنى الشق والخرق، كشق «أمواج الماء» بصدر السفينة، أو شق «أمواج الرياح» بواسطة الوجه والأنف والتقدم نحو الأمام، أو شق الأرض لأجل الزراعة.

ولأن هذه الأمور غالباً ما تكون مصحوبة بالصوت فقد اطلقت هذه المفردة على صوت هبوب الرياح الشديدة أيضاً «١»، إن كل حياة الإنسان والعالم تعترتها موانع يجب على

(١) تفسير الكبير، ج ٢٠، ص ٧ وقد جاء نفس هذا المعنى في تفسير روح المعاني والقرطبي تذييلاً للآية المنظورة في بحثنا.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٣

الإنسان كشفها واجتيازها كي يشق طريقه بالتقدم والتطور، وهذه من النقاط المهمة والحساسة.

وبالضمن فلقد علمنا أن «المواخر» تعني السفن والمراكب، ولذلك فقد فسر ابن عباس «المواخر» بالسفن التي في حالة حركة «الجارية» «١» حيث إن قيمة السفينة تكمن في كونها متحركة.

أمّا الآية الثالثة والأخيرة والتي خاطبت مشركي مكة أو المؤمنين، وفي احتمال قوى أن الآية عنت بخطابها الاثنين معاً، فقد أمرت بقولها: «فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ».

والملفت للنظر هنا أن الآية ذكرت في آخرها: «وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنَّ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ» فالبعض قال: إن هذه القضية شرطية وذلك لأن هؤلاء لا يعبدون الله أصلاً فكيف يشكرون نعمته، فيكون الأمر «سالباً بانتفاء الموضوع».

وأيضاً يرد احتمال حول هذه المسألة وهو أن جزاء القضية الشرطية هي عبارة «فكلوا مما رزقكم الله...» والذي ورد مسبقاً حيث يعنى بان هذه الأرزاق في حالة كونها حلالاً طيباً عندما أكون عبداً ومطيعاً لله سبحانه وتعالى، لأن كل النعم خلقها الله سبحانه وتعالى من أجل المؤمنين، ومثل ذلك مثل المزارع الذي يسقى الورد ماءً، فهو إنما يعمل ذلك من أجل أن يحصل على الورد لا أن يجنى الأشواك بالرغم من أن الأشواك لا تخلو من فوائد، وقد ذكروا تفسيراً ثالثاً وهو أن الآية تخاطب الوثنيين، أنكم إذا أردتم العبادة فاعبدوا من هو ولي نعمتكم، لماذا تعبدون الأصنام التي لا دور لها مطلقاً «٢».

(١) تفسير الكبير، ج ٢٠، ص ٧، وكذلك ورد هذا المعنى في تفسير روح المعاني و تفسير القرطبي وذلك في تفسير الآية قيد البحث هذا.

(٢) تفسير الكشاف، ج ٢، ص ٦٤٠، وثمة تفسير آخر ورد كاحتمال من الاحتمالات في تفسير الميزان وروح المعاني تذييلاً للآيات المنظورة في البحث.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٤

وليس من المستبعد الجمع بين هذه التفاسير لأن المخاطب حسب الظاهر هم جميع المؤمنين والكافرين، بالرغم من أن الآيات السابقة واللاحقة تدل على أن الكلام موجه إلى المؤمنين أكثر مما هو موجه إلى الكفار.

وعلى كل حال، فالعلاقة بين «النعمة» و «الشكر» و «العبادة» ثم «معرفة المعبود» و «ولي النعمة» تتضح بجلاء من هذه الآية.

وبهذا نتوصل إلى الحافز الثاني لمعرفة الله وهو مسألة شكر المنعم.

شكر المنعم في الروايات الإسلامية:

- ١- جاء في حديث عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «لو لم يتوعد الله على معصيته لكان يجب ألا يعصى شكراً لنعمه» (١).
- إنّ التعبير ب «الواجب» في هذا الحديث هو في الحقيقة نفس تلك الوظيفة التي تتبع من عواطف الإنسان.
- ٢- نقرأ في حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله عند عائشه ليلتها، فقالت: يا رسول الله لمّ تتعب نفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟» (٢).
- فقال: يا عائشه ألا أكون عبداً شكوراً» (٣).
- ٣- يقول الإمام الرابع علي بن الحسين عليهما السلام في أحد أدعية الصحيفة السجادية:
- «والحمد لله الذي لو حبس عن عباده معرفة حمده على ما أبلاههم من مننه المتتابعه وأسبغ عليهم من نعمه المتظاهره لتصرّفوا في مننه فلم يحمده وتوسعوا في رزقه فلم يشكروه ولو كانوا كذلك لخرجوا من حدود الإنسانية إلى حد البهيمة فكانوا كما وصف في محكم

- (١) نهج البلاغه، الكلمات القصار، الكلمة ٢٩٠.
- (٢). إشارة إلى ذيل الآية الأولى من سورة الفتح من التفسير الامثل.
- (٣) أصول الكافي، ج ٢، باب الشكر، ح ٦.
- نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٥
- كتابه إنّ هم إلّا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً» (١).
- ٤- جاء في كلام آخر من نهج البلاغه: «... ولو فكروا في عظيم القدرة وجسيم النعمة لرجعوا إلى الطريق وخافوا عذاب الحريق ولكن القلوب عليله والبصائر مدخولة» (٢).
- تتضح من هذه الروايات العلاقة الروحية بين «شكر النعمة» و «معرفة الله وإطاعة أوامره».

(١) الصحيفة السجادية، الدعاء الأول.

(٢) نهج البلاغه، الخطبة ١٨٥.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٧

٣- الدافع الفطري

تمهيد:

عندما نتحدث عن الفطرة فالمقصود هو نفس تلك الاحساسات الداخلية والإدراكية التي لا تحتاج إلى أي استدلال عقلي.

عندما نشاهد منظرًا طبيعيًا جميلًا جدًّا أو زهرة ذات لون ورائحة طيبة نحسُّ بقوة جذب تدفعنا نحوها، ويسمى هذا الاحساس بالميل نحو الجمال وحب ولا نرى أي حاجة هنا للبرهنة على إثبات قولنا هذا.

أجل، إنّ الميل للجمال يعد من الرغبات المتعالية للروح الإنسانية.

إنّ الاندفاع نحو الدين وخاصة معرفة الله هو أيضاً من هذه الاحساسات الفطرية والداخلية، بل هو من أقوى الدوافع في أعماق طبيعة

وروح جميع البشر.

ولهذا السبب لا نشاهد قوماً أو أمة لا في الحاضر ولا في الماضي التاريخي لم تكن تمتلك نوعاً من العقائد الدينية تتحكم في فكرها وروحها، وهذه علامة على أصالة هذا الاحساس العميق.

وانطلاقاً من أن التوحيد الفطري يُطرح في مجال براهين معرفة الله كبرهان مستقل مع كل آياته، لا نرى داعياً للبحث المسهب حول هذا الموضوع، فنكتفي بذكر نقطة واحدة ونوجل المزيد من البحث حول هذا الموضوع في محله إن شاء الله.

عندما يذكر القرآن قصص نهضة الأنبياء العظام فإنه يؤكد في عدة مواضع على هذه النقطة وهي أن الرسالة الأصلية للأنبياء تتمثل بإزالة آثار الشرك والوثنية (وليس إثبات وجود الله، لأن هذا الموضوع مخبئاً في أعماق فطرة كل إنسان).

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٨

وبتعبير آخر: إنهم لم يكونوا بصدد غرس «بذور عبادة الله» في قلوب الناس، بل كانوا في صدد سقاية الغرسة الجديدة الموجودة واستئصال الأشواك والأدغال الزائدة المضرة التي قد تقتل أو تُذبل هذه النباتات بصورة تامة في بعض الأحيان.

وردت جملة: «أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ» أو «أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ» في كلام الكثير من الأنبياء في القرآن الكريم، وهي عبارات تفيد نفى الأصنام وليس إثبات وجود الله.

كما جاء في دعوة رسول الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم: «أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ». (هود / ٢)

ودعوة نوح عليه السلام: «أَنْ لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ». (هود / ٢٦)

ودعوة يوسف عليه السلام: «... أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ». (يوسف / ٤٠)

ودعوة النبي هود عليه السلام: «.. أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ». (الاحقاف / ٢١)

وفضلاً عن هذا فإننا نمتلك في أعماق نفوسنا أحاسيس فطرية أصيلة أخرى منها ما نراه في نفوسنا في الرغبة الشديدة للعلم والمعرفة والاطلاع.

فهل من الممكن أن نشاهد هذا النظام العجيب في هذا العالم المترامي، ولا تكون لنا رغبة في معرفة مصدر هذا النظام؟

ليس من الغرابة أن يقضى أحد العلماء مدة عشرين سنة من أجل التعرف على حياة النمل، ويثابر عالم آخر عشرات السنين لمعرفة عادات أوضاع بعض الطيور أو الأشجار أو أسماك البحار بدون أن يكون لديه دافع لحب العلم؟ هل يمكن أنهم لا يريدون معرفة مصدر هذا البحر اللامتناهي الذي يشمل الأشياء من الأزل إلى الأبد؟!

نعم، هذه دوافع تدعونا إلى «معرفة الله»، العقل يدعونا إلى هذا الطريق، العواطف تجذبنا نحو هذا الاتجاه، والفطرة تدفعنا إلى هذه الجهة.

كانت هذه خلاصة للمحفزات والدوافع الواقعية والحقيقية لظهور الدين ومعرفة الله.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٩

توضيحات

التبريرات المنحرفة:

إشارة

هنالك إصرار عجيب من قبل بعض علماء الاجتماع والنفس الماديين في الغرب والشرق على أن مصدر ظهور الدين والعقيدة

التوحيدية معلول للجهل أو الخوف أو عوامل أخرى من هذا القبيل.

بالطبع إن هذا الأمر ليس عجباً في نظر البعض، لأنهم كما يبدو قد اتخذوا قرارهم باتفاق مسبق، ويعتبرون من المسلمات أن ليس ثمة شىء غير عالم المادة، لهذا يرون أنفسهم ملزمين بأن يفسروا كل ظاهرة على أساس العوامل المادية.

من ناحية أخرى نعلم أن وجود العقائد الدينية ما ينفك يزلزل أركان المادية، وإذا أضفنا إلى هذا المعنى الصراعات الشنيعة بين الكنيسة و علماء العلوم الطبيعية في القرون الوسطى يمكن الاستنتاج أن مثل هذه التفاسير المادية للدين والاعتقاد بالله جزء من العداء الذى تكنه المدارس المادية للدين.

مع أن البحث فى كل هذه النظريات بشكل مفصل يحتاج إلى أحاديث طويلة يُخرجنا الدخول فيها عن كُنه بحثنا التفسيري، ولكن يبدو من الضرورى الإشارة إليها هنا بشكل مختصر، لكننا نكرر أن كل هذه التفاسير قائمة على أساس أحكام مسبقه وهى أن نسلّم بعدم وجود عالم وراء الطبيعة، وبأنّ عالم الوجود يتلخص فى نفس عالم الطبيعة هذا.

ويمكن تحديد هذه النظريات- أو بعبارة أدق هذه الفرضيات- بشكل عام فى خمس فرضيات:

١- نظرية الجهل

يقول أحد علماء الاجتماع المعروفين: «مع أن العلم والفن كشف الكثير من الأسباب الخفية، إلّا أنّ الكثير من هذه الأسباب ما تزال بعيدة من نطاق العلم وبقية فى لفيق

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٠

الأسرار، وضرورة التوصل إلى هذه الأسباب دعت إلى ظهور الدين» (١).

ويضيف أحد الفلاسفة الماديين: أن الإنسان عندما ينظر إلى الأحداث من زاوية تاريخية فسيتصور العلم والدين عدوين لا يقبلان الصلح! وذلك لسبب واضح جداً، فالذى يعتقد بحركة العالم بلحاظ قانون العلية لا يستطيع أن يسمح ولو للحظة واحدة بأن يدخل عقله تصور يقول: إنَّ بإمكان موجود خلق الموانع والعثرات فى واقع الأحداث (٢).

وبعبارة أبسط إنهم يريدون الادعاء أن جهل الإنسان بالعلل الطبيعية كان السبب فى تصورهم لوجود قوة وراء الطبيعة أوجدت هذا العالم وما انفكت تديره، ولهذا فكلما اتضحت الأسباب والعلل الطبيعية تزلزل الاعتقاد بالدين وعبادة الله.

إنَّ الخطأ الأساسى لاتباع «فرضية الجهل» ينبع من:

أولاً: إنهم ظنوا أنّ الإيمان بوجود الله يعنى إنكار قانون العلية، وإننا على مفترق طريقين: إمّا التسليم للعلل الطبيعية أو لوجود الله، فى حين أن الإيمان بقانون العلية والكشف عن العلل الطبيعية من وجهة نظر الفلاسفة الإلهيين يعد أحد أفضل طرق معرفة الله.

إننا لا نبحت عن وجود الله وسط الفوضى والحوادث الغامضة والمبهمه، أبداً، بل نبحت عن وجوده فى وسط الأنوار والنظم المعروفة لعالم الوجود، لأنَّ وجود هذه النظم علامة واضحة على وجود مصدر علم وقدره فى عالم الوجود.

ثانياً: لماذا تراهم يغفلون عن هذه النقطة، وهى أن الإنسان ومنذ أقدم العصور ولحد الآن يرى دائماً نظاماً خاصاً يحكم العالم؟ نظاماً لا يمكن تبرير ارتباط وجوده بالعلل التى لا شعور لها، وكان يعتبره دوماً علامة على وجود الله، وكل ما فى الأمر أن هذا النظام كان

(١) جامعه شناسى، ساموئيل كنيك، ص ٢٠٧ (علم الاجتماع عند ساموئيل كنيك).

(٢) الدنيا التى أراها، ص ٥٨- وكم هو مضحك قول «اوغست كونت» إنَّ العلم عزل أبا الكائنات من وظيفته وساقه إلى مكان منزو (أى باكتشاف العلل الطبيعية لم يبق ثمة محل للإيمان بالله) (الدوافع نحو المادية، ص ٧٦).

معروفاً في الماضي بدرجة أقل، وكلما تطور علم البشر، إكتشفت منه دقائق وطرائف جديدة وأتضح علم وقدره خالق عالم الوجود أكثر.

ومن هنا فإننا نعتقد أن «الإيمان بوجود الله» و «الدين» يتقدم إلى الأمام بتقدم «العلوم»، وكل إكتشاف جديد لأسرار ونظم هذا العالم إنما هو خطوة جديدة لمعرفة الله بصورة أفضل، فلم يكن بإمكان السابقين أبداً أن يعرفوا الله بالشكل الذي نعرفه اليوم، تطور العلوم لم يكن على ما هو عليه الآن.

٢- نظرية الخوف

ذكر المؤرخ الغربي المعروف «ول ديورانت» في تاريخه ضمن بحث بعنوان منابع الدين عن الحكيم الروماني «لو كروتوس» بأن «الخوف هو الأم الأولى للالهة»، ومن بين أنواع الخوف هو الموت الذي يحتل مكانة أهم بين بقية أنواع الخوف ... ولهذا لم يكن باستطاعة الإنسان البدائي أن يصدق بأن الموت ظاهرة طبيعية ولذا كان يتصور له سبباً ما وراثياً على الدوام» (١). ويكرّر «راسل» نفس هذا الكلام بصياغة أخرى في قوله:

«أتصور أن مصدر الدين هو الخوف والرهبنة قبل كل شيء، الخوف من الكوارث الطبيعية، الخوف من الحروب وما شاكل، والخوف من الأعمال غير اللائقة التي يرتكبها الإنسان أثناء غلبه الشهوات عليه» (٢).

ويتضح بطلان هذه الفرضية من حيث إن أتباعها كأنهم قد تعاهدوا جميعهم بشكل ضمنى على الاتفاق بأنه ليس ثمة جذور ما وراثية للدين والاعتقاد بعبادة الله، ولا بد من البحث عن سبب له في الطبيعة، سبب يعود إلى نوع من الظن والخيال، ولهذا فهم دائماً يرون الأمور الفرعية وينسون المسألة الأصلية.

(١) قصة الحضارة، ل «ول ديورانت»، ج ١، ص ٨٩.

(٢) العالم الذي أعرفه، ص ٥٤.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٢

صحيح أن الإيمان بالله يمنح الإنسان طمأنينة واقتداراً روحياً، وصحيح أنه يمدد بالشجاعة قبال الموت والحوادث العصبية، إلى درجة أنه في بعض الأحيان يكون مستعداً لكل ألوان التضحية والفداء، لكن لماذا ننسى ما هو أمام أعين البشر دائماً أي النظام الذي يحكم الأرض والسماء والنباتات والأحياء ووجود الإنسان ذاته؟!

وبعبارة أخرى فإن الإنسان مهما كان جاهلاً بعلم التشريح والفسلجة وما شابه، لكنه حينما ينظر إلى بناء عينه وأذنه وقلبه ويده ورجله يراه بناءً عجباً ودقيقاً، وهذا لا يمكن تفسيره أبداً بعوامل اللاشعور والصدفة، فتمو غصن من الزهور، زنبور العسل، بزوغ الشمس والقمر وسيرهما المنتظم وبقية الظواهر الأخرى لا يمكن تفسير كل هذه الظواهر بالصدفة واللاشعور.

هذا هو الشيء الذي كان موجوداً ولا يزال دائماً أمام أعين الإنسان وهو السبب الأصلي في ظهور الإيمان بوجود الله، لماذا يتجاهلون هذه الحقائق البينة ويتشبثون بمسألة الخوف والجهل؟ لا شيء غير خوفهم من نمو العقائد الدينية؟ لماذا تركوا الطريق الأصلي التي وسلخوا الطريق المنحرف؟ والسبب هو أن الأحكام المسبقة حالت بينهم وبين معرفة الحقيقة؟!

٣- نظرية العامل الاقتصادي

إن أتباع هذه النظرية يعتقدون بأن القوة التي تحرك التاريخ هو شكل وسائل الإنتاج، ويعتبرون جميع الظواهر الاجتماعية سواء الثقافية منها أو العلمية أو الفلسفية أو السياسية وحتى الدين وليدة هذا العامل!

ولأصحاب هذا الرأي تبريرات عجيبه من أجل الربط بين ظهور الأديان والمسائل الاقتصادية، منها قولهم: إنَّ الطبقة الحاكمة في المجتمعات البشرية قد أوجدت الدين من أجل القضاء على مقاومة الشعوب المستعمرة وتخديرها، ويلفتون الأنظار إلى عبارة «لينين» المعروفة التي أوردها في كتابه «الاشتراكية والدين» والتي يقول فيها: «الدين أفيون الشعوب»!

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٣

ولهم في هذا الموضوع كلام كثير هو في الغالب تكرر للمكررات.

ومن حسن الحظ أن أتباع هذه النظرية (الاشتراكيون) قد أجابوا على إشكالاتهم بأنفسهم من خلال عباراتهم المتناقضة، فهم عندما يواجهون الإسلام وكيف كان سبباً في حركة ونهوض أمة متخلفة، وكيف استطاع أن ينهي سلطة المستعمرين من أمثال سلاطين ساسان وقيصر الروم وفراعنة مصر و «تباغة» اليمن، يضطرون إلى استثناء الإسلام على الأقل من هذا المقطع التاريخي.

وفوق كل هذا، عندما يشاهدون اليوم الحركات والنهضات الإسلامية التي تنطلق ضد المستعمرين (خاصة في العصر الحاضر) بوجه حكام الشرق والغرب وانتفاضة الشعب الفلسطيني ضد الكيان الصهيوني، فليس أمامهم سبيل سوى أن يشكوا في تحليلاتهم، بغض النظر عن الذين يعيشون حصاراً في حصار ولا يستطيعون أن يبصروا حتى نور الشمس الساطع.

وعلى كل حال، مع الأخذ بنظر الاعتبار التاريخ المعاصر والقديم لا سيما الخاص بالإسلام، يتضح جيداً أن الدين وخلافاً لزعمهم ليس مادة مخدرة وأفيوناً أبداً، فضلاً عن أنه السبب في ظهور أقوى الحركات الاجتماعية وأكثرها مثاراً للإعجاب، والقضايا الاقتصادية تشكل بدورها جزءاً من حياة الإنسان، وحصر الإنسان في الزاوية الاقتصادية يعتبر أكبر خطأ في معرفة الإنسان ومعرفة نوازه وميوله المتعالية.

٤ - النظرية الجنسية

والآن تعالوا واستمعوا للسيد «فرويد» الذي يريد أن يقيم جسراً بين «ظهور الدين» و «الغريزة الجنسية» ويعتبر الدين وليداً للغريزة الجنسية!

إنه يحاول أن يربط هذا الموضوع في فرضيته باحدى القبائل الوهمية (للأب في هذه القبيلة الخيالية نساء كثيرات، أما الأولاد الشباب فيعانون الحرمان، وأخيراً ثار الأولاد وقتلوا الأب وأكلوا لحمه، ثم ندموا على فعلتهم، لقد غضوا النظر عن نساء القبيلة وعمدوا

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٤

إلى إدائه وتقييح عملهم) ومن هنا نشأ بينهم نوع من الحظر وبتعبيره «تابو» أي (حظر الزواج من المحارم).

ويضيف: يوجد في القبائل المتوحشة اليوم شيء باسم «التوتم» وهو الأب أو كبير العشيرة بالنسبة لأعضاء القبيلة، ويعتبر حاميهم وولى نعمتهم.

إنهم يحترمون «التوتم» ويتصورون أن عليهم أن يتشبهوا به ويقلدوه (هذا الاعتقاد بالتوتم نابع من نفس الاعتقاد بالقبيلة الوهمية أيضاً). يعتقد فرويد أن الإيمان بالتابو والتوتم هو السبب لظهور العقائد الدينية، ووفقاً لما ذكرنا أعلاه فإن له علاقة بالقضية الجنسية! «١».

وفضلاً عن أن فرضية فرويد الجنسية قائمة على أساس اسطورة (اسطورة القبيلة الوهمية)، فإن تحليلاته تشبه إلى حد كبير الأساطير والخرافات، وهذا ناتج من أنه ينظر الى روح وجسم الإنسان الذي يحمل أبعاداً وميولات متنوعة من زاوية واحدة وبعد واحد.

صحيح أن للإنسان غريزة جنسية، لكن من المسلم به أن وجود الإنسان لا ينحصر في الغريزة الجنسية، فجسمه يقع تحت تأثير غرائز مختلفة، ولروحه ميول متعالية مختلفة، «فالنظر من بعد واحد» خطأ لم يقع فيه فرويد فحسب بل إن الاشتراكيين الذين يحصرون وجود الإنسان في البعد الاقتصادي قد وقعوا فيه بشكل آخر، وكلا النظريتين اخطأتا خطأ فاحشاً في معرفة الإنسان.

كان الأجدر بفرويد وبدل الاعتماد على الأوهام أن ينظر إلى هذه الحقيقة وهي أن الإنسان منذ فجر حياته وحتى اليوم أبصر نظاماً

حاكماً على العالم المترامى وعلى وجوده هو لا يمكن تفسيره بالعلل الطبيعية غير العاقلة وغير العالمة، وكان هذا هو المنطلق في ظهور الاعتقاد بالله، فلماذا يرفضون نهجاً بهذا الوضوح ويسلكون طريق الجهل والضلال؟!

(١) الاقتباس من فرويد والفرويدية.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٥

٥- نظرية الحاجات الأخلاقية

يقول «أنشتاين» في بحث بعنوان «الدين والعلوم»: بقليل من الدقة يتضح أن الأحاسيس والانفعالات التي أدت إلى ظهور الدين مختلفة ومتباينة جداً.. وبعد أن يشير إلى نظرية الخوف يضيف:

إن النزعة الاجتماعية لدى البشر هي أيضاً من أسباب ظهور الدين، فالفرد يرى أن أباه وأمه، أصدقاءه وأقاربه، قاداته وعظماءه، يموتون، ويرحلون من حوله واحداً واحداً، إذن فالرغبة في الهداية والمحبة وأن يكون محبوباً في مجتمعه وأن يكون له أمل في شخص ما معتمداً عليه، تمهد الأرضية في نفسه لقبول الاعتقاد بالله «١».

وبهذا فهو يريد أن يفترض دافعاً أخلاقياً واجتماعياً لظهور الدين.

وهنا أيضاً نلاحظ أن الذين طرحوا هذه الفرضية قد خلطوا بين «الأثر» و«الدافع»، في حين أننا نعلم أن ليس كل أثر هو دافع بالضرورة، فمن الممكن أن نعر على كثر أثناء حفرنا لبر عميق، وهذا هو «أثر»، والحال أنه لا شك في أن المحرك والدافع الأساسي لحفرنا البر شيء آخر وهو الحصول على الماء وليس اكتشاف كثر ما.

وعليه فصحيح أن بإمكان الدين تسكين ومعالجة آمال وآلام الإنسان الروحية، وأن الإيمان بالله يخلصه من الاحساس بالوحدة عند فقد الأصدقاء والأصدقاء ويملاً الفراغ الناتج من فقدانهم، ولكن هذا أثر وليس دافعاً.

الحافز الأصلي للدين والذي يبدو منطقياً جداً هو في الدرجة الأولى ما أشرنا إليه سابقاً، فحينما يرى الإنسان نفسه وجهاً لوجه أمام نظام في عالم كلما تأمل فيه أكثر تعرف على عمقه وتعقيده وعظمته أكثر، فهو لا يستطيع أبداً أن يعتبر ظهور ولو «وردة» واحدة بكل ما لها من ظرافة وبناء عجيب، أو ظهور «عين» واحدة بكل ما فيها من نظام ظريف ودقيق ومعقد، لا يستطيع أن يعتبر ذلك وليداً للطبيعة غير العاقلة والمصادفات العمياء الصماء، ومن هنا يبحث الإنسان عن مبدىء لهذا النظام.

(١) الدنيا التي أراها، ص ٥٣.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٦

وبالطبع فهناك أمور أخرى تدعم هذا المعنى أشرنا إليها سابقاً.

والعجيب أن «أنشتاين» نفسه الذي اقترح مثل هذه الفرضية تراجع عن كلامه في مكان آخر وأعرب عن عقيدته في موجد عالم الوجود وإيمانه الراسخ بذلك المبدىء الكبير بشكل ملفت للنظر، يدل على أنه ينكر الاعتقاد الممتزج بالخرافات ولا ينكر التوحيد الخالص من أي خرافة.

إنه يقول: «ثم وراء هذه الأوهام معنى واقعي لوجود الله لم يتوصل إليه سوى القليل من الناس» ثم يصرح بعقيدته وعقيدة كبار العلماء بنوع من الإيمان الديني الذي يسميه «الأحاسيس الديني بالخلق» أو «الوجود» ويدعو في مكان آخر ب«الحيرة اللذيذة من نظام الكائنات العجيب الدقيق».

والألطف من ذلك أنه يقول: «إن هذا الإيمان الديني سراج درب البحوث في حياة العلماء» (١).

طبعاً الكلام هنا كثير وإذا أردنا أن نترك العنان للقلم حسب التعبير الدارج فسوف نخرج عن شكل البحث في التفسير الموضوعي. لهذا نعود إلى أصل الحديث مرة أخرى وننهي هذا البحث، ونلفت النظر إلى أنه يجب البحث عن دافع ظهور الأديان في مطالعة عالم الخلقه أولاً (الحافز العقلي والمنطقي)، ثم في الجاذبية الذاتية العنيفة (الحافز الفطري)، ثم في التوجه نحو ذلك المبدىء الكبير بسبب التمتع بنعمه اللامتناهية (الحافز العاطفي) «٢».

(١) الدنيا التي أعرفها، ص ٥٦ و ٦١.

(٢) من أجل مزيد من المعلومات في هذا المجال يراجع كتابنا «الحافز في ظهور الأديان».

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٧

براهين معرفة الله:

إشارة

١- برهان النظم

٢- برهان التغير والحركة (يبحث في مجلد ٣)

٣- برهان الوجوب والإمكان (الغنى والفقير) (يبحث في مجلد ٣)

٤- برهان العلة والمعلول (يبحث في مجلد ٣)

٥- برهان الصديقين (يبحث في مجلد ٣)

٦- الطريق الباطني لمعرفة الله (الفطرة) (يبحث في مجلد ٣)

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٩

١- برهان النظم

التمهيد:

إن أوسع برهان اعتمد عليه القرآن الكريم في آياته وسوره في إثبات «معرفة الله» هو «برهان النظم» بشكل غطى هذا البرهان على كافة البراهين التي وردت في القرآن الكريم.

وهذا يدل على أن أفضل وأوضح طريق لمعرفة الله وتنزيهه من كافة ألوان الشرك من وجهة نظر هذا الكتاب السماوى العظيم هو البحث في نظام الخلقه وأسرار الوجود وآيات الآفاق والأنفس.

مميزات برهان النظم:

لهذا البرهان خصائص من أجلها اعتمد وأكد عليه القرآن الكريم إلى هذا الحد.

١- إن برهان النظم يقنع العلماء كما يقنع عامة الناس، أى أن كل فئة تستطيع الاستفادة والانتفاع منه حسب قابليتها، وذلك لأن الناس مختلفون في إدراك أسرار الخلقه.

٢- ليس في برهان النظم الجفاف الموجود في الاستدلالات الفلسفية، بل على العكس فيه لطف خاص يمنح الإنسان حبّ الاطلاع

على ذلك المبدىء الكبير، ويوجد فيه نوعاً من الاندفاع والشوق نحوه، ويخلق لديه حالة من الخضوع الممزوج بالحبّ ومعرفة الله، وبتعبير آخر فهو يروى عقل الإنسان كما يروى عواطفه وأخلاقه.

وأخيراً فإنّ برهان النظم وبسبب دراسته لأنواع النعم الإلهية ضمن دراسة نظم هذا العالم فهو يؤكد على مسألة شكر المنعم، وهذا بحدّ ذاته حافز آخر من حوافز التوحيد.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٤٠

٣- إنّ برهان النظم برهان في حال تطور (متجدد)، وبتعبير آخر هو برهان لا متناه، المقدمه الكبرى وإن كانت ثابتة، لكن صغراها تمثل أعصانا متفرعة ومورقة وذات براعم نامية لهذا البرهان، لأنّ أى اكتشاف من الاكتشافات العلمية حول أسرار الخلقه إنما يشكل مصداقاً وصغرى جديدة لهذا البرهان، فهو لهذا جديد دائماً، وفي كل يوم يأخذ شكلاً آخرًا، وهو متطور ومتقدم إلى جانب تطور العلم والمعارف البشرية.

٤- إنّ برهان النظم يدعو الإنسان إلى سلوك الآفاق والأنفس، وهذا السلوك المملوء بالبركة يزيد من مستوى معرفة الإنسان في كل يوم ويجعل تفكيره مزدهراً، خاصّة وأنّ أسس برهان النظم مختلطة بحياء الإنسان وهو يواجهها في كل خطوة من خطواته، وليس كالبعض الآخر من البراهين التوحيدية التي تقع على هامش قضايا الحياة وخارجها.

٥- برهان النظم هو البرهان الوحيد الذى يستطيع إخضاع الفلاسفة التجريبيين الذين ينكرون الاستدلالات العقلية المحضه، ويستخدم حربه العلم التي يستخدمونها فى إثبات «المادية» ضدّهم، وهو بهذا اللحاظ ذو فاعلية عالية.

ولهذا ليس من العجيب أن يضع القرآن الكريم الغالبية العظمى من مباحثه التوحيدية على أساسه، لكن من العجيب أنّ بعض المحققين المتأثرين بشدة ببراهين أخرى (البراهين الفلسفية المحضه) يتجاهلون الأهميّة القصوى لهذا البرهان وكأنّهم لا علم لهم بمميزاته وآثاره العميقة.

أسس برهان النظم:

يرتكز هذا البرهان فى شكله الأول على ركيزتين أساسيتين، بحسب ما هو مصطلح يشكل صغرى وكبرى

١- هنالك نظام دقيق ومحسوب يحكم عالم الوجود.

٢- أينما وجدنا نظاماً دقيقاً ومحسوباً فمن غير الممكن أن يكون وليد الحوادث التصادفية، بل لابد أن يصدر عن علم وقدرة عظيمين.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٤١

والنتيجة هى أنّ هناك مبدأ علم وقدرة عظيم وراء نظام عالم الخلقه (سواء أطلقنا عليه اسم الله أو وضعنا له إسماً آخر) لأنّ التسمية لا تؤثر فى مثل هذه البحوث.

العلاقة بين النظام والعلم:

قبل كل شىء يجب إثبات المقدمة الثانية المسماة بكبرى القياس، ومن أجل هذا لابد من تعريف مختصر ل «النظام».

يمكن القول: أن أى منظّمه أو موجود يعمل وفق برنامج معين ويعطى نتائج معينة، هو موجود منظّم، وعلى هذا الأساس فإنّ «الحساب» و «البرنامج» و «الهدف» تشكل العناصر الأصلية الثلاثة للنظام، فمثلاً الساعة نموذج ل «الموجود المنظّم»، ذلك أنّ أجزاءها مصنوعة وفق حساب دقيق، ثم هنالك برنامج لتركيبها، والهدف منها هو التشخيص الدقيق للوقت.

ولأجل التوصل إلى هذه العلاقة (علاقة النظام والعلم) يمكن الاستعانة بعدة أدلة:

١- الوجدان: مع أننا لم نر أبداً الكثير من العلماء الكبار والمخترعين والفنانين المهرة، ولم يبق منهم سوى الآثار، إلّا أننا حين ننظر إلى تلك الآثار والكتب والصناعات واللوحات النفيسة والأبنية البديعة، نعتزف بدون الحاجة إلى دليل بعقلهم وذوقهم وعلمهم ومهارتهم الصناعية والفنية.

٢- من أجل إثبات هذه العلاقة يمكن -بالإضافة إلى الوجدان- الاستعانة بالدليل المنطقي، فمن أجل أحداث بناء منظمة واطهارها إلى الوجود يجب أن يكون هناك اختيار في سبع مراحل على الأقل.

فلو تصورنا بناءً عظيماً وجميلاً ومحكمه، وجب أن نمارس عملية الاختيار والانتخاب بشكل محسوب على عدة أصعدة «اولها» نوعية المواد المستخدمة، و «ثانيها» مقدار وكمية المواد، و «ثالثها» جودة المواد، و «رابعها» الأشكال والأحجام المختلفة، و «خامسها» إيجاد الانسجام بين الأجزاء، و «سادسها» إيجاد التناسب بينها، و «سابعها»

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٤٢

من حيث وضع كل من الأجزاء في مكانه المناسب.

وهذه الاختيارات السبعة يجب أن تتم كل واحدة منها وفقاً للعلم والاطلاع والحساب، وأحياناً الحسابات الدقيقة جداً، ومن هنا عندما نرى مثل هذه البنية نتيقن أن صانعها بلا شك كان يملك العلم والمعرفة والاطلاع الواسع.

٣- يمكن إثبات هذه العلاقة (علاقة النظام والعلم) عن طريق آخر (عن طريق البرهان الرياضي).

إنّ «حساب الاحتمالات» الذي أصبح اليوم فرعاً علمياً مستقلاً في الجامعات ذو فاعلية جيدة جداً في مجال العلاقة بين النظام والعلم، وهو نفس الشيء الذي ندركه بصورة إجمالية في حياتنا، لكن حساب الاحتمالات يعكسه في شكل رياضي واضح.

إنّنا لا نصدق أبداً أن إنساناً آمياً يستطيع عن طريق الصدفة أن يؤلف كتاباً في مجال «الفلسفة» مثلاً أو «الآداب والشعر» أو «الطب»، بمعنى أن نعطي آله طابعة فيبدأ بدون أن يعرف الحروف بالضغط على أزرار الآلة ليطلع كتاباً.

وليس من المستحيل كتابة كتاب علمي عن طريق الصدفة فحسب، بل لا يمكن كتابة حتى رسالة قصيرة أيضاً.

لأنه لو افترضنا أن حروف الآلة الطابعة ثلاثون حرفاً فقط، (وهي بالطبع أكثر بكثير، لأنّ لبعض الحروف صور متعددة، فمثلاً حرف الباء الأولية والباء الوسطية والباء النهائية والباء المفردة تشكل أربع صور مختلفة لحرف الباء) يقول حساب الاحتمالات هنا: إنّ الظهور التصادفي لكلمة «من» المكونة من حرفين هو احتمال واحد من تسعمائة احتمال.

(١/٣٠ * ١/٣٠ / ١ / ٩٠٠) (١)

وا احتمال ظهور كلمة مكونة من ثلاثة أحرف هو احتمال واحد من ٢٧ ألف احتمال، وحين نصل إلى كلمة مكونة من خمسة أحرف سوف نجتاز حدود ٢١ مليون!!

والآن إذا كانت الحروف الموجودة في رسالة قصيرة هي مائة حرف فإنّ مجموعة احتمالات هذه الأحرف هي العدد ٣٠ مرفوعاً إلى الأس ١٠٠ بحيث أن رسالتنا المعينة

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٤٣

تشكل احتمالاً واحداً من هذا العدد الهائل من الاحتمالات، أي عدداً كسرياً بسطه واحد ومقامه العدد ٣ إلى يمينه مائة صفر.

إنّ مقام هذا الكسر من الضخامة بحيث لا يمكن حسابه، ولا شيء في هذا العالم يصل إلى ضخامة هذا العدد.

ولأجل إيضاح هذه الحقيقة يكفي أن نعلم أننا لو قطرنا جميع المحيطات على الكرة الأرضية قطرة قطرة وحسبنا عددها لكان عددها أقل من عدد على يمينه واحد وعشرون صفرًا فقط.

وعلى هذا الحساب لو حسبنا كتاباً مكوناً من ألف صفحة فإنّ عدد الاحتمالات سيتضخم إلى درجة أن الاحتمال التصادفي لعدده الكسري (البسط) يتساوى مع الصفر أي أنه مستحيل.

وبهذا الدليل، إذا ادعى شخص مثلاً: أن «ابن سينا» مؤلف كتاب «القانون» في الطب كان أمياً تماماً، وأن «المتتبي» لم يكن له ذوق شعري مطلقاً، وأن «أنشتاين» لم يكن يفقه شيئاً من الرياضيات وأن بنائى الأبنية التاريخية الشهيرة لم يكن لهم أدنى اطلاع فى فن العمارة، وأن جميع الآثار التى تركوها ظهرت بمحض الصدفة والحركات غير المقصودة لأيديهم على الأوراق أو على المواد الإنشائية! فلا شك أن من يقول مثل هذا الكلام إن لم يكن يمزح فهو مجنون!

وخلصه القول أن علاقة النظام بالعلم واضحة إلى درجة أن الكثير من العلوم والمعارف البشرية قائمة على النظام، فمثلاً جزء مهم من تاريخ الحضارة البشرية كتب من خلال مطالعة ودراسة الآثار الجذابة للسلف التى خلفوها بعد رحيلهم.

والعلماء - بمطالعة الآثار التى يعثرون عليها بواسطة الحفريات أو التى يكتشفونها فى قبور ومعابد الأقوام الغابرة - يتوصلون إلى مستوى ثقافتهم وحضارتهم ونوعية عقائدهم.

فى حين إذا أنكرنا علاقة النظام والعلم إنهارت كل هذه الاستنباطات.

الآن وقد اتضحت تماماً العلاقة بين النظام والعلم، وبعبارة ثبتت كبرى البرهان، نتطرق

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٤٤

إلى مصاديقها فى عالم الوجود التى اعتمد عليها القرآن الكريم.

واللطيف أن آيات القرآن لا تتحدث مطلقاً عن كبرى برهان النظام، أى «علاقة النظام والعلم»، لأنها كانت واضحة ووجدانية إلى حد أنه لم تكن ثمة حاجة لبيانها، وكما قلنا فإن الإنسان إذا أنكر هذه العلاقة يجب عليه إنكار الكثير من الحقائق الموجودة فى حياته، وما من شك فى أن منكرى هذه العلاقة يشبهون ب «الفسفستائين» الذين ينكرون الحقائق أثناء حديثهم، ولكنهم فى حياتهم اليومية يقبلون جميع الحقائق مثل الآخرين، فمثلاً لو تمرضوا يراجعون الطبيب ويستعملون الدواء وينفذون إرشادات الطبيب حرفاً بحرف، أى أنهم يعترفون رسمياً بوجود «الطبيب» و «الدواء» و «علم الطب» و «الصيدلة» ومئات الأمور الأخرى الدائرة فى هذا الفلك.

إن منكرى «علاقة النظام والعلم» أيضاً بدورهم يستنتجون علمياً وعملياً من أى أثر علمى وصناعى وأدبى وفنى، وجود مبدىء واع وذى ذوق وفن، ولا يعتمدون أبداً على الاحتمالات المجنونة.

الآن وقد اتضحت علاقة النظام والعلم تماماً، وثبتت كبرى البرهان حسب الاصطلاح المنطقى، نعرض على مصاديقها فى القرآن الكريم والتى اعتمد عليها.

ونعتقد أن من الضرورى ذكر هذه النقطة وهى: أن الفلاسفة الماديين الذين حاربوا برهان النظم (انكار وجود النظام فى العالم أو إنكار علاقة النظام والعلم) وعلى رأسهم «دافيد هيوم» لم يتحفونا بسوى مجموعة من الوسوس التى لا قيمة لها، الوسوس التى لم يكونوا يقبلونها فى حياتهم أبداً.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٤٥

١- آياته فى خلق الإنسان

إشارة

فى البداية نمنع خاشعين فى الآيات الكريمة أدناه:

١- «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْشُرُونَ». (الروم / ٢٠)

٢- «إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا».

(الإنسان / ٢)

٣- «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ».

(المؤمنون/ ١٢ و ١٣)

٤- «ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسِيلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ

مَاءٍ مَّهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ». (السجدة/ ٦- ٩)

٥- «وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّهِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ» (١). (الجاثية/ ٤)

شرح المفردات:

«بَشَرٌ»: من أصل (بَشَرَةٌ) بمعنى ظاهر جلد الإنسان، ولكن يستفاد من «مقاييس اللغة» أن أصلها هو ظهور شيء ذي حسن وجمال، لذا فإن حالة «البشر» (على وزن اليسر) بمعنى الفرح والانبساط، وانطلاقاً من أن هذه الحالة خاصة بالإنسان، كانت مفردة «البشر»

(١) هنالك في هذا المجال آيات متعددة أخرى أيضاً، صرفنا النظر عن ذكرها لتقارب مضمونها مع ما ذكرناه من الآيات، من جملتها آيات سورة النجم، ٤٥-٤٦؛ غافر، ٦٧؛ فاطر، ١١؛ الكهف، ٣٧-٣٨؛ النحل، ٤؛ الانعام، ٢.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٤٦

اسماً للنوع الإنساني «١»، وهذه المفردة تطلق على الرجل والمرأة والمفرد والمثنى والجمع «٢».

«سِلَالَةٌ»: (على وزن عَصَارَةٌ) بمعنى الشيء المأخوذ من شيء آخر، فيكون خلاصته وعصارته، وهي في الأصل من (سَلَّ) على وزن (حَلَّ) بمعنى سحب وجرّ برفق وتستخدم لسحب السيف من القراب أيضاً ثم اطلقت على عصاره وخلاصه الأشياء «٣»، وحينما نقرأ في الآيات المذكورة أن الله خلق الإنسان من سلالة من طين، فمعنى ذلك من العصاره المصطفاه من الطين، وقال البعض: إن المراد من هذا هو أن آدم مخلوق من عصاره كل الأتربة الموجودة على الأرض (ولهذا فقد استخلص آثار الجميع في وجوده) وإطلاق «السليل» على «الابن» من باب أنه ناتج من عصاره وجود الأب والأم.

«النطفة»: في الأصل بمعنى «الماء الصافي»، واعتبرها بعض أهل اللغة بمعنى «الماء القليل»، وبما أن الماء الذي يمثل المبدأ في ظهور الإنسان قليل ومصطفى وعصاره من كل الجسم فقد أطلقت هذه المفردة عليه، ويقال للسوائل الجارية «ناطف» أيضاً.

«أمشاج»: جمع «مشج» (على وزن نشج) بمعنى الشيء المخلوط، والبعض اعتبرها جمعاً ل «مشيج»، ولأن ماء الرجل والمرأة يختلطان عند انعقاد نطفة الإنسان فقد أطلقت هذه المفردة عليه.

جاء في «لسان العرب» أن هذه المادة في الأصل بمعنى اللونين المختلفين الذين يمتزجان مع بعضهما (ثم أطلقت على الأشياء المختلفة التي تختلط مع بعضها).

خلق الإنسان من (نطفة أمشاج)، يمكن أن تكون إشارة إلى المواد المختلفة التي تشكل النطفة، أو القابليات المتنوعة التي تجتمع في النطفة عن طريق عامل الوراثة وغيره من العوامل، أو أنه إشارة إلى كل هذه الامتزجات.

(١) مقاييس اللغة، لسان العرب والتحقيق في كلمات القرآن الكريم.

(٢) لسان العرب، ومجمع البحرين.

(٣) مفردات الراغب، مجمع البحرين، ولسان العرب.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٤٧

جمع الآيات وتفسيرها

آيات الأنفس الأولى

للقرآن الكريم عبارات متنوعة حول بداية ظهور الإنسان، يقول في أول آية بهذا الخصوص:

«وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ».

ويقول في الآية الرابعة: «وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ».

ويقول في الآية الثالثة: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ».

ويقول في الآية ١١ من سورة الصافات: «إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ».

ويقول في الآية ٢٦ من سورة الحجر: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ».

وجاء في الآية ١٤ من سورة الرحمن: «خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ».

«الصِّلْصَالُ»: في الأصل بمعنى لوى الصوت في الجسم اليابس، ولهذا سُمِّي الطين اليابس الذي يصدر منه صوت عند ارتطام جسم آخر به بالصلصال، وحين يُفخر على النار يقال له «الفخار».

«الفخار»: مأخوذ من مادة «فخر» أي الفخور كثيراً، ولأنَّ الأشخاص الفخورين أناس كثير و الضجيج والكلام وفارغون، فقد أُطلق هذا الاسم على الكوز وكل فخار فارغ الجوف، بل أُطلق على كل أنواع الفخار (١).

يستفاد من مجموع الآيات أعلاه أنَّ الإنسان كان تراباً في البداية، وقد امتزج هذا التراب بالماء واستحال إلى الطين، وقد أخذ هذا الطين بعد مضي فترة شكل الوحل ثم استخلصت من عصارته المادة الأصلية لآدم ثم جُفِّفَتْ، وباجتيازها المراحل المهمة تكوّن آدم. لكن في آيات أخرى من القرآن كالأية الثانية المعينة، يعتبر خلقه الإنسان من نطفة

(١) مفردات الراغب؛ ومجمع البحرين؛ ولسان العرب.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٤٨

مختلطة: «مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ».

وفي الآية الثالثة يعتبرها أولاً من «عصاره الطين»، ثم من «نطفة في الرحم»: «مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ».

واضح أنَّ المراد من هذه الآيات هو خلقه الإنسان في المراحل والأجيال اللاحقة، وبهذا فإنَّ جدنا الأول مخلوق من التراب، وأولاده وعقبه من نطفة أمشاج.

وثمة احتمال في تفسير الآية أعلاه هو: بما أنَّ المواد المكوّنة للنطفة مأخوذة جميعها من التراب (لأنَّ غذاءنا إمّا من المواد الحيوانية أو النباتية ونعلم أنَّ جميع هذه المواد نحصل عليها من التراب)، لهذا فلم يكن الإنسان الأول من التراب فحسب، بل إنَّ جميع الناس في المراحل اللاحقة ينشأون من التراب أيضاً (١).

وعلى كل حال، فهذه حقاً من العجائب الكبيرة في عالم الوجود وغرائب عالم الخلق أن يولد- من مادة ميتة وبلا روح ولا قيمة لها كالتراب- موجود حي وعاقل وذو قدر وقيمة كالإنسان، فهذه من الآيات البيّنات لذلك المُبدى الكبير، و «إنَّ ذلك الخالق لجدير بالشكر والثناء لأنّه خلق من الماء والطين مثل هذا الشكل الجذاب».

وبشكل عام فإنَّ ظهور الحياة من موجود ميت ما يزال من ألغاز عالم الفكر والمعرفة، فضمن أيِّ شروط وظروف يخرج موجود حي من موجود ميت كالتراب؟ يعتقد كل العلماء أنَّ الكرة الأرضية حين انفصلت عن الشمس كانت كلها ناراً محترقة، ولم تكن عليها حياة

مطلقاً، ثم بردت قليلاً قليلاً وهطلت عليها سيول الأمطار من الغازات المضغوطة الموجودة حولها، فتكونت البحار، بدون أن يكون فيها كائن حي، ثم ظهرت بوادر الحياة سواء النباتية أو الحيوانية وأخيراً خلق الإنسان! إننا سواء اعتقدنا بالخلق المستقل للإنسان (كما هو ظاهر الآيات القرآنية)، أو اعتبرنا

(١) ورد في تفسير الميزان، ج ١٦، ص ١٧٣ إشارة مقتضبة لهذا المعنى

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٤٩

الإنسان متكاملًا من أنواع الأحياء الأخرى (كما يقول أتباع داروين، ونظرية التكامل)، فمهما كان فإن جذور هذا الإنسان تعود إلى التراب، فهو منبثق ومخلوق منه، وإذا كان ظهور كائن حي أحادي الخلية ومجهري من التراب، محيرًا لأفكار كل العلماء، فكيف بظهور الإنسان من التراب الميت الخالي من الروح؟

هنا يجب الاعتراف أننا بأزاء آية كبيرة من آيات الحق وعلامة محيرة من عظمة الله، آية من العالم الصغير هي نموذج متكامل للعالم الكبير.

يقول كاتب «سر خلق الإنسان» «غرسى موريسن» في معرض إشارته إلى بداية ظهور الحياة على الكرة الأرضية:

«وقعت حادثة عجيبة في بداية ظهور الحياة على الكرة الأرضية كان لها أثر كبير على حياة الموجودات الأرضية، حيث أصبح لاحدى الخلايا خاصية عجيبة وهي أنها وبواسطة ضوء الشمس بدأت تحلل وتجزئ بعض التراكيب الكيميائية وتوفر بهذا العمل المواد الغذائية لنفسها ولسائر الخلايا المشابهة، وقد تغذت الخلايا المنشطرة من احدى هذه الخلايا البدائية على الأغذية التي وفرتها لهم أمهم وأوجدت جيل الحيوانات، في حين أن خلية أخرى بقيت على شكلها النباتي وكونت نباتات العالم، وهي اليوم تغذى كل الأحياء الأرضية.

ثم يضيف: هل يمكن التصديق أنه وحسب الصدفة كانت إحدى الخلايا منشأً لحياة الحيوانات وخليئة أخرى كانت أصلًا ومصدرًا للنباتات؟».

ووفق قول آخرين:

إن العلماء يقسمون موجودات عالم المادة إلى نوعين، العضوية (وهي الموجودات القابلة للفساد كأنواع النباتات وأجسام الحيوانات)، والموجودات اللاعضوية (المعدنية) التي لا تقبل الفساد، ولهذا يقسمون الكيمياء إلى قسمين «الكيمياء العضوية» و «اللاعضوية».

تشكل المواد العضوية جميع أطعمة الإنسان تقريباً، وهي مأخوذة كلها من التراب،

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٥٠

وحين تدخل جسم الإنسان تكوّن تراكيب كيميائية جديدة تناسب تغذية كل عضو من الأعضاء، وهذه نفس الحقيقة التي بينها القرآن بعبارة: «إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ» أو «مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ» (١).

صحيح أن للإنسان علاوة على المادة الترابية روحاً إلهية، ولكن لا شك أن الروح تكون مظهراً للأعمال والأفعال المختلفة بالتنسيق مع الجسم و عليه فإن هذه المادة الترابية تستطيع بالتنسيق مع الروح أن تقدم أنواع القابليات والأذواق والابتكارات والأعمال التي يحار فيها العقل.

مع أن الإنسان صار موضوعاً لعلوم مختلفة، وهنالك عالم خاص حول كل جانب من جوانبه يمارس دراساته وأبحاثه، إلا أن الإنسان ما يزال موجوداً مجهولاً، ويلزم من الوقت سنين طويلة لكي يحل العلماء بجهودهم المتواصلة هذا اللغز الكبير في عالم الوجود وينيروا زواياه، وربما لم يستطيعوا أبداً أن يقوموا بذلك!

يمكن لكل عضو من أعضاء جسم الإنسان أن يكون لوحده موضوعاً لحساب الاحتمالات: العين، الاذن، القلب، العروق، الجهاز

التنفسى، الكلى المعدة، الكبد، وأخيراً الجهاز العصبى المعقد، وبعملية رياضية بسيطة يتضح أن أى عقل لا يوافق على أنّها خلقت صدفة.

نعم، إنّه من أجل التوصل إلى بنية ونوع فعالية وفلسفة كل واحد من الأعضاء فقد درس آلاف العلماء والعقول المفكرة وكتبت مئات أو آلاف الكتب حولها.

هل يصدق أحد أنّه من أجل معرفة كل واحد من هذه الأعضاء تلزم كل هذه العلوم والعقول والذكاء والدراية، بينما لا يلزم صنعها علماً وعقلاً على الإطلاق؟! كيف يمكن أن يكون فهم أسلوب عمل إحدى المعامل متطلباً لسنين من المطالعة، بينما تكون صناعة هذا المعمل قد حصلت على يد العوامل غير العاقلة؟ أى عقل يصدق هذا؟!

هنا لا يعتبر ظهور الإنسان من المادة البسيطة (التراب) ومن سلالة من طين ومن الحمأ

(١) مقتبس من إعجاز القرآن من وجهة نظر العلوم المعاصرة، ص ٢٣ و ٢٤.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٥١

المسنون إحدى أعمال الخلق العظيمة والآيات الكبيرة على وجود الله فحسب، بل إن كل واحدة من خلايا الجسم بإمكانها أن تكون مرآة عاكسة لعظمة الله ووجوده.

التعقيد والدقة فى نظام الخلق:

يقولون: إن للجهاز الفلانى نظام معقد، هذا عندما يكون بناؤه متكوناً من أجزاء وتشكيلات مختلفة ذات ارتباطات متعددة ومتنوعة، ويقوم بأعمال متباينة مهمّة، فمثلاً الحاسبة الألكترونية التى تستطيع فضلاً عن أعمال الحساب الأصلية أن تحل أنواع المعادلات الجبرية والقضايا الهندسية وتؤدّى مختلف الحسابات الرياضية بسرعة أو تحفظها فى حافظتها، تعتبر ذات نظام معقد.

يقول العلماء: إن خلف غشاء شبكية العين يوجد تسعون ألف حزمة عصبية تربط بين خلايا الشبكية وسلسلة الأعصاب (بالطبع لكل عين من عيني الإنسان تسعون ألف حزمة) وهذا نظام عجيب ومعقد جداً، وبأخذ هذه النقطة بنظر الاعتبار نعود إلى أصل البحث:

فى عالم الخلق وعلاوة على قضية الظرافة والدقة، ثمة أنظمة معقدة غاية التعقيد، تهت الإنسان وتحيره، وحسب تعبير بعض العلماء فإنّ فى مدينه جسم الإنسان العظيمة أبنية تكون أكبر ناطحات السحاب فى العالم إلى جانبها مثل كوخ طينى.

وكنموذج: نأخذ بناء الخلية وهى من بين الأنظمة المعقدة فى العالم، والذى اكتشفت اليوم أسرار عظيمة منه.

وكذلك فإنّ الإنسان وبشكل معدل فى جسمه «عشرة ملايين مليار» وحدة حية صغيرة تسمى «الخلية».

كان أول من اكتشف الخلية ووضع لها تسمية، عالم يدعى «هوك» فى القرن السابع عشر الميلادى، وطبعاً فإنّه لم يكن يعلم يومذاك ما فى بناء هذه الوحدة الصغيرة من تعقيد يبعث على الحيرة، ولكن العلماء الذين جاؤوا بعده واصلوا مساعيه وتوصلوا إلى أسرار نسردها

فيما يلي جانباً من شهاداتهم:

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٥٢

١- يمكن تشبيه خلية مجهرية واحدة بمدينه فيها آلاف التأسيسات مجهزة بمنشآت ومعامل لتبديل المواد الغذائية إلى المواد التى يحتاجها الجسم، بحيث لا يمكن أن نقيس أعظم وأحدث الظواهر الصناعيه للبشر بها.

٢- تتكون هذه المدينه الصغيره والصاخبه من ثلاثة أقسام:

أ) جدار الخلية وهو بمثابة سور المدينه.

ب) القسم الأوسط للخلية (السايتو بلازم).

ج) النواة أو مركز القيادة.

إنَّ السور المصنوع حول الخلية من اللطافة والظرافة بحيث لو وضعنا ٥٠٠ ألف من هذه الجدران إلى جانب بعضها فمن الصعب أن تساوى سمك ورقة اعتيادية! ومع هذا فهو حساس ومحكم قبال هجوم العوامل الخارجية إلى درجة أن سور الصين المعروف ليس شيئاً يذكر بالقياس إليه!

وهذا السد الرقيق مصنوع بدوره من ثلاثة جدران أو من ثلاث طبقات اصطلاحاً، يتشكل طرفاه من الأنسجة البروتينية وأسفله مليءً بالدهنيات وهذه الدهنيات لا تسمح لشيء أبداً بالدخول داخل المدينة إلاّ بمفتاح رمزي، وهذا المفتاح الرمزي هو: أن المواد التي تريد الدخول إلى المدينة يجب أن تتمكن من إذابة دهون الجدار فيها والنفوذ إلى الداخل، وهذا دليل يثبت أنها صديقة وليست من الاعداء، وبهذا فإنَّ هذه المدينة محروسة بشدة من كل جانب بدون حاجة إلى حارس.

٣- يوجد في داخل هذه المدينة (الخلية) قنوات كثيرة تمتد من الجدران إلى أطراف «النواة»، أي حصن قيادة الخلية، تأخذ المواد الغذائية وتحيلها إلى بروتينات.

واللطيف أن ٢٣ نوعاً خاصاً من الأحماض تدخل هذه الخلية، والبروتين يتكون من تركيب عدة أنواع منها.

٤- النواة الأصلية بمفردها تمثل ناطحة سحاب مكوّنة من آلاف الطبقات بحيث تكون ناطحات السحاب المعروفة في نيويورك منزلاً متواضعاً إلى جانبها.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٥٣

للنواة الأصلية في الخلية وهي مقر القيادة تشكيلات معقدة: غشاء النواة، العصارة الداخلية، والحزمات الرفيعة حولها التي تتولى كل منها مهمة خاصة.

٥- العجيب أن في نواة الخلية وحدات صغيرة جداً وظريفة تسمى «الجينات» يصل عددها طبقاً لدراسات العلماء إلى حدود ٢٥ ألف جين.

ليست «الجينات» هي الكل في الكل في أعمال الخلايا وحسب، بل إنّها تمسك بكل نشاطات الجسم، ومن أهمها التحكم بالأمرور الوراثية ونقل الصفات والخصائص إلى الخلايا اللاحقة، أي أنّ انتقال كل الصفات الوراثية عند البشر وسائر الحيوانات يتم عن طريق الجينات.

ولأنَّ العمل الأساسي للجين يقع على عاتق الحامض الخاص في النواة، لذا يمكن تسميته بالعقل الإلكتروني أو كامبيوتر الجين.

والأعجب من هذا، أن نفس هذه الجينات متكوّنة من أجزاء أخرى تصل طبقاتها من ٣٠ إلى ٥٠ ألف حسب ما يعتقد العلماء.

ومختصر الكلام أن هذه المدينة العظيمة بذلك السور العجيب وآلاف المنافذ والبوابات، وآلاف المعامل والمخازن وشبكة الأنابيب ومركز القيادة بتأسيساته الكثيرة وارتباطاته المتعددة والنشاطات الحياتية المتنوعة في تلك الحدود الصغيرة، من أعقد وأدهش مدن العالم، إذ إنّنا لو أردنا أن نصنع مؤسسات تقوم بنفس الأعمال (ولا نستطيع ذلك أبداً)، وجب علينا اقتطاع عشرات الآلاف من الهكتارات من الأرض لوضعها تحت اختيار هذه المؤسسات والأبنية المختلفة والأجهزة المعقدة لتكون جاهزة لمثل هذا البرنامج، لكن المدهش أن نظام الخلق قد ضغط كل هذا في مساحة تعادل ١٥ مليون مليمتراً! (١).

أجل، في خلقه الإنسان آلاف آلاف من الآيات والعلامات الإلهية: «الْعَظْمَةُ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ».

(١) من كتب فلسفة الحيوان، فلسفة الوراثة، والسفر إلى أعماق وجود الإنسان.

٢- آياته في نمو الجنين

تمهيد:

ظلت تحولات نمو الجنين في بطن أمه ولسنين طويلة خافية عن أعين العلماء، إلى أن رفعت يد العلم النقاب عن هذا العالم المملوء بالأسرار، وأظهرت أن النطفة عندما تستقر في محلها من الرحم وتبدأ سيرها التكاملي، ماذا تطوى من المراحل المختلفة والمتنوعة حتى تصبح على هيئة إنسان كامل، والعجيب أن القرآن الكريم أكد عدة مرات على قضية نمو الجنين في آياته المختلفة وفي ذلك العصر والزمان الذي لم تكن فيه علوم ولا اكتشافات، تارة لإثبات التوحيد وتارة لإثبات المعاد.

مع إن «علم الأجنه» ما زال في مراحل الأولى، ومعلوماتنا عن هذا العالم الغامض ما تزال قليلة جداً، ولكن حتى هذا المقدار الذي كشف العلم البشري النقاب عنه، قد وضع دنيا من العجائب والغرائب مقابل أعين العلماء.

بهذه الإشارة نتأمل خاشعين في الآيات الكريمة التالية:

١- «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سِيلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا * ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ». (المؤمنون / ١٢-١٤)

٢- «الْمَ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزُّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى». (القيامة / ٣٧-٣٩)

٣- «أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ». (يس / ٧٧)

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٥٦

٤- «قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا». (الكهف / ٣٧)

٥- «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» (١). (غافر / ٦٧)

شرح المفردات:

«العلقة»: من مادة (عَلَق) (على وزن شفق) وهي في الأصل بمعنى العلاقة والإرتباط بشيء، ولهذا جاءت كلمة «عَلَق» بمعنى «الدم المتخثر» و «الديدان المصاصة للدماء»، وقد سميت «العلقة» بهذا الاسم لأنها إحدى مراحل تكوين الجنين في رحم الأم، فهي تشبه قطعة الدم المتخثرة (٢).

جاء في «مقاييس اللغة» أن أصل مفهوم هذه المفردة هو ارتباط وتعلق شيء بوجود أعلى منه ثم اتسع مفهومها بعد ذلك (٣). «المضغ»: من مادة (مَضَغ) بمعنى مضغ الطعام وبمعنى قطعة اللحم التي يمضغها الإنسان لمرة واحدة شرط أن تكون غير مطبوخة، وإطلاق هذا المصطلح على إحدى مراحل الجنين التي تأتي بعد مرحلة «العلقة» جاء من باب تشابهها مع مثل هذا اللحم، ففي ذلك الحين يصبح الجنين على شكل قطعة حمراء فيها الكثير من العروق ذات اللون الأخضر، ويقال أحياناً «قلب الإنسان مضغ من جسده»، كل هذه التعابير تعود إلى أصل واحد (٤).

(١) توجد على هذا الصعيد آيات أخرى في القرآن الكريم نكتفي بذكر رقمها وسورتها لتقارب معناها من الآيات المذكورة أعلاه، فاطر، ١١؛ والحج، ٥.

(٢) مفردات الراغب.

(٣) وفي كتب اللغة الأخرى تعابير تشبه هذا التعبير كما في لسان العرب ومجمع البحرين.

(٤) مقاييس اللغة؛ مفردات الراغب؛ مجمع البحرين؛ لسان العرب وصحاح اللغة.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٥٧

«المنى»: في الأصل من مادة (منى) (على وزن سعى) بمعنى التقدير والقياس، وبما أن في ماء النطفة مقياس إنسان أو حيوان ما، فقد أطلقت هذه المفردة عليه، ولهذا أيضاً يسمى الموت ب «المنية» فهي الأجل المقدر للإنسان أو الحيوان. وإطلاق مفردة «التمنى» على الآمال جاء بسبب أن الإنسان يُصوّر ويحدّد آماله في قلبه، ولأنّ الكثير من الآمال لا تطابق الواقع تأتي مفردة «الأمنية» أحياناً بمعنى الكذب «١».

جمع الآيات وتفسيرها

عالم الجنين الغامض:

كما اشرنا سابقاً فإنّ القرآن الكريم أكد مراراً على مسألة المراحل التكاملية لنمو الجنين في رحم الأم، ودعا الناس كافة إلى مطالعتها بدقة، واعتبرها إحدى الطرق للوصول إلى معرفة الله، وكذلك إحدى طرق إثبات إمكانية المعاد. إن الآيات الأولى المعنيّة بالبحث وبقرينة العبارة الأخيرة منها: «فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ» تشير إلى قضية التوحيد، وبالرغم من أن الآيات اللاحقة من نفس سورة «المؤمنون» هذه تدلّ على أنها تشير إلى قضية المعاد أيضاً وبهذا تكون هذه الآيات قد تعرضت إلى مسألة معرفة الله وتوحيده بالاضافة إلى معاد.

وقد تحدثت في البداية عن خلق الإنسان من «سَلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ» ثم من «نُطْفَةٍ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ»، وبعد ذكر هاتين المرحلتين تنتقل إلى ذكر خمس مراحل أخرى

١- مرحلة «العلقة» حيث تتبدل النطفة إلى دم متخثر في داخله الكثير من العروق.

٢- مرحلة «المضغة» حيث يصبح هذا الدم المتخثر على شكل قطعة من اللحم.

٣- مرحلة «العظام» حيث تتبدل كل الخلايا اللحمية إلى خلايا عظمية.

٤- يأتي دور مرحلة تغطية العظام باللحم حيث تغطي العضلات كل العظام: «كَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا».

(١) مفردات الراغب، مجمع البحرين، ولسان العرب.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٥٨

٥- هنا تتغير لهجة القرآن وتخبرنا عن تحول وخلق مهم وجديد للجنين، فيقول بتعبير فيه أسرار وخفايا: «ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ».

وعندما تنتهي هذه المراحل السبع يصف القرآن هذه الخلقة العجيبة أجمل وصف بعبارة: «فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ»، وهي عبارة لم تأت في أي آية أخرى من القرآن ولم تستخدم في مجال أي موجود آخر. ذكر المفسرون تفاسير متنوعة في المراد من العبارة الغامضة: «الخلق الآخر».

ويبدو أن أنسبها وأقربها إلى القصد هو بلوغ الجنين مرحلة الحياة الإنسانية، حيث يظهر فيه الحس ويبدأ بالحركة، ويضع قدماً في عالم الحيوانات والبشر، يعبر القرآن عن هذه الطفرة الكبيرة والعجيبة بكلمة «الإنشاء» في إشارة إلى الطريق الطويل الذي يقطعه الإنسان خلال هذه المدة القصيرة.

نقرأ في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير عبارة: «ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ» قوله: «هو نفخ الروح فيه» (١).

صحيح أن الجنين كائن حي مند لحظاته الأولى ولكنه وحتى فترة معينة لا- يمتلك أى إحساس وحركة فى بطن الأم، ويكون فى الحقيقة أشبه بالنبات منه بالحيوان أو الإنسان، ولكن بعد مضى عدّة أشهر تُبعثُ فيه الروح الإنسانية، ومن هنا جاء فى الروايات الإسلامية أن الجنين لا يستحق قبل بلوغه هذه المرحلة الدينة الكاملة أبداً، أما إذا بلغ هذه المرحلة كانت ديتة نفس الدينة الكاملة للإنسان (٢).

التعبير ب «أحسن الخالقين» بالرغم من أنه لا- خالق غير الله إنما هو لأجل أن مفردة «الخلق» ليست فقط بمعنى الإيجاد بعد العدم فحسب، بل لها معان أخرى منها: «التقدير» و «الصناعة» و «إعطاء الأشكال الجديدة للأشياء الموجودة فى العالم»، ولا شك أن الإنسان يستطيع بما منحه الله من قوى أن يوجد تغييرات كثيرة على مواد هذا العالم

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٥٤١، ح ٥٦ و ٥٧.

(٢) المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٤١، ح ٥٦ و ٥٧.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٥٩

المختلفة، فيصنع من الحديد والفولاذ المصانع والمعامل أو يبنى من المواد الإنشائية بناءً عظيماً بأحجام مختلفة.

إذن فلخلق مفهوم واسع يشمل كل هذه الأمور.

ولهذا ورد فى القرآن الكريم عن لسان النبى عيسى عليه السلام قوله: «إِنِّى أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ». (آل عمران / ٤٩)

وبالطبع فإن الخالق الحقيقى أى ذلك الذى يوجد المادة والصورة وإليه تعود كل قدرات وخواص الأشياء هو الله فقط، ومهمته غيره من الخالقين وهم الخالقون المجازيون، هى تغيير الأشكال وتصميم المواد.

تشير الآية الثانية من الآيات المنظورة إلى مرحلة بداية ظهور الإنسان أولاً، أى عندما كان قطرة ماء حقيق اسمها المنى، ثم تذكر مرحلة العلقه فقط من بين مراحل نمو الجنين ولا تذكر المراحل الأخرى إلآ تحت عنوان: «فَخَلَقَ فَسَوَّى» وهو تعبير شامل جداً، وتشدد خاصة على قضية ولادة الجنس «المذكر» و «المؤنث» وهى من أعقد المظاهر المتعلقة بعلم الأجنه: «فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى .

«سَوَّى»: من مادة (تسوية) بمعنى التنظيم والتسوية، ويعتقد البعض أنها إشارة إلى خلق الروح الذى جاء فى الآية السابقة بشكل آخر. ويرى البعض أن كلمة «الخلق» إشارة إلى خلق الروح، وكلمة «سَوَّى» إشارة إلى تنظيم وتعديل أعضاء الجسم الإنسانى، وفسرها البعض بالتعديل والتكميل.

لكن الظاهر أن تعبيرات الآية شاملة وواسعة بحيث تستوعب كل ألوان الخلق والتنظيم والتعديل والتكامل التى تطرأ على العلقه حتى ساعة وضع الحمل (١).

يقول الراغب فى كتاب المفردات: تقال «التسوية» لصيانته الشىء من الإفراط والتفريط من حيث المقدار والنوعية.

(١) تفاسير القرطبي، روح المعانى، فى ظلال القرآن، الميزان و الكبير، فى التعقيب على الآية المعنيه.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٦٠

فى الآية الثالثة يؤكد على نقطه جديدة أخرى ويقول بعد الإشارة إلى خلق الإنسان من النطفه «خصيم مبین».

وقد وردت تفاسير متعددة لهذا التعبير: فقالوا تارة إنها إشارة إلى مرحلتى «الضعف» و «القوة» لدى الإنسان، حيث كان يوماً ما نطفه حقيرة ويصبح لاحقاً قوياً ومقتدراً إلى درجة قيامه بالخصومة والضجيج ازاء كل شخص حتى ازاء الله!

وقالوا تارة إنها إشارة إلى ملكة النطق والفهم والشعور لدى الإنسان، فهذه النطفة الحقيرة يصل بها الأمر إلى عدم الاقتصار على النطق فقط، بل إلى التمتع بالقدرة على الاستدلال المنطقي بانواعه والاعتدال العقلي، ونحن نعلم أن ظاهرة النطق والبيان والمنطق والاستدلال من أهم ظواهر الوجود الإنساني.

وقيل أحياناً: إن هذا التعبير إشارة إلى النزاع العجيب الذي يحصل بين الخلايا الذكرية (الحيامن) من أجل التسلط والاتحاد بالخلية الانثوية (البيضة)، لأن نطفة الذكر عندما تدخل الرحم تتحرك آلاف الحيامن بسرعة كبيرة لتصل إلى نطفة الأنثى وتتحد معها. وأول حيمن يصل إليها وينفذ إلى داخلها يسد الطريق على بقية الحيامن، لأن غشاءً مقاوماً سيحيط بالبيضة ويمنع من نفوذ بقية الحيامن إليها، وبهذا فإن البقية سيهزمون في هذا الصراع العجيب ويمتصهم الدم، ولهذا يشير القرآن الكريم بعد ذكر مرحلة النطفة إلى قضية «خصيم مبین» (١).

في الآية الرابعة أيضاً يرد ذكر الخلقة من التراب ثم النطفة وبعد ذلك مرحلة التسوية والتنظيم، وفي الآية الخامسة وهي آخر الآيات يضيف القرآن إلى كل هذا مرحلة «الولادة» وخروج الجنين من بطن الأم على شكل طفل وليد: «ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً». وكما نعرف فإن أهم عجائب الجنين هي نهاية عمره، بالولادة، أيه عوامل تؤدي إلى

(١) إعجاز قرآن از نظر علوم روز، ص ٢٧ (بالفارسية).

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٦١

إصدار الأوامر للجنين بالخروج في لحظة معينة! وتقلبه عن شكله العادي (في الحالة العادية يكون رأس الجنين إلى الأعلى ووجهه إلى ظهر الأم) فترسل رأسه إلى الأسفل لتسهيل عملية ولادته!؟

في البداية يُخرق كيس الماء الذي كان الجنين يسبح فيه، وتخرج المياه ويستعد الجنين لدخول الدنيا لوحده.

يصيب الأم ألم شديد، تضغط كل عضلات بطنها وظهرها وجانبيها على الجنين، وتدفعه إلى الخارج.

إنّ التفاعلات الكيميائية والتغيرات الفيزيائية التي تحصل للجسم أثناء الولادة على درجة من الغرابة والعجب بحيث تحكى جميعها عن علم وقدرة غير متاهيين أوجدا هذه البرامج لمثل هذا الهدف المهم.

وبهذا نستنتج بوضوح من الآيات المذكورة أنّ النظام المعقد والمذهل لنمو الجنين يُعدّ من الآيات والعلامات المهمة التي تخبر عن

وجود العلم والقدرة اللامتناهية لموجده، ومن جانب آخر على قدرته على قضية المعاد والحياء بعد الموت، ذلك أن الجنين يتخذ كل

حين حياةً ومعاداً جديداً، ولذلك كان هذا النمو دليلاً على التوحيد بقدر ما هو دليل على المعاد.

توضيحات

١- صورة في الماء

هنالك مثل رائع ومشهور عندما يراد التذكير بعدم ثبات شيء معين فيقولون: «إنّه كالصورة في الماء» لأنها تتبعر بأقل حركة أو نسيم،

لكن العجيب أنّ الله الكبير يجعل كل الصور المختلفة للإنسان وللجميع من الأحياء الأخرى صوراً في الماء ويودع كل هذه الصور في

قطرة من ماء النطفة، من يرسم الصور في الماء سوى الله الكبير؟

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٦٢

٢- في ظلمات ثلاث

والأغرب من ذلك حسب قول القرآن، هو أن هذه الخَلْقِ التي يوجد لها الله واحدة تلو الأخرى في ماء النطفة ليخرجها خلال فترة قصيرة على هيئة إنسان كامل يقوم بها عز وجل جميعاً في محل مظلم لا تصل إليه يد أحد، كما يقول القرآن: «يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ». (الزمر/ ٦)

إنّ الظلمات الثلاث كما يرى الكثير من المفسرين وكما أشارت بعض الروايات هي:

ظلمة بطن الأم، ثم ظلمة الرحم، وبعد ذلك ظلمة «المشيمة» (الكيس الخاص الذي يحتوي الجنين) التي تكون على شكل ثلاث ستائر سميكة حول الجنين (١).

يحتاج الرسامون والنحاتون المهرة أن ينفذوا صورهم أمام النور والضياء الكامل، لكن ذلك الخالق الكبير يرسم صورة على الماء في ذلك المنزل المظلم بحيث يفتن ويبهز الجميع ويجذبهم للمشاهدة.

٣- مقر الأمن والامان

٣- مقر الأمن والامان

يقول القرآن بصراحة: «إننا جعلنا نطفة الإنسان في مقر الأمن والأمان: «ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ». (المؤمنون/ ١٣)

والحقيقة إن أكثر نقاط الجسم صوتاً هي تلك التي تستقر فيها النطفة والجنين بحيث تكون محمية من كل جانب، فمن ناحية هنالك العمود الفقري والأضلاع، ومن ناحية أخرى هنالك العظم القوي المسمى بالحوض، ومن ناحية ثالثة الأغشية والعصلات المتعددة التي تحتويها البطن، بالإضافة إلى أن أيدي الأم تتحول بشكل لا شعوري أثناء وقوع بعض الحوادث الخطيرة إلى درع مقابل البطن!

(١) تفسير مجمع البيان؛ تفسير الميزان؛ التفسير الكبير وتفسير أخرى (روى المرحوم الطبرسي في مجمع البيان نفس هذا المعنى ضمن حديث عن الإمام الباقر عليه السلام).

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٦٣

والأغرب من كل هذا أن الجنين يقع في داخل كيس مملوء بماء لزج بحيث يكون معلقاً في داخل ذلك الكيس وفي حالة تامة من فقدان الوزن، أي لا يواجه أي ضغط من أي جانب، ذلك أن بنية الجنين وخاصة في بداياته تكون رقيقة جداً بحيث يمكن لأقل ضغط عليه أن يسحقه.

ولهذا الكيس بما يحتويه من ماء خاصية القابلية على مواجهة الضربات، وهو تماماً كاللؤلؤ المرنة التي توضع لأفضل السيارات، حيث بإمكانها امتصاص وإبطال مفعول أية ضربة توجه إليه نتيجة الحركات السريعة للأم.

والألطف أنه يحفظ درجة الحرارة بالنسبة للجنين ضمن الحدود المعتدلة، ولا يسمح للحرارة والبرودة المفاجئة التي تهاجم بطن الأم من الخارج أن تترك آثارها بسهولة على الجنين!

فهل يمكن العثور على مقر أكثر أماناً من هذا؟ وما أجمل تعبير القرآن حين يسمي مقر النطفة ب «القرار المكين»؟!!

٤- خصيم مبین

هذه أيضاً إحدى عجائب الجنين، سواء فسرناها بمعنى قدرة الإنسان على الكلام والاستدلال والاحتجاج، كما قال بعض المفسرين، أو فسرناها كونها المسابقة والتزاع الذي يحصل بين الحيامن أثناء الحركة باتجاه البويضة (نطفة الأنثى في رحم الأم، والذي ينتهي بنجاح أحد الحيامن في اتحاده بالبويضة، أما بقية الذين انهزموا في هذه الخصومة فإنهم يفنون ويجذبهم الدم، أو اعتبرناها إشارة إلى كلا

التفسيرين.

وعلى كل حال، فهذه من النقاط الظريفة والبديعة للجنين، إذ يظهر من موجود منحط وحقير ظاهرياً إلى ظاهرة سامية وقيمة جداً.

٥- تغذية الجنين

تغذية الجنين بدورها إحدى العجائب، لأنّ النمو والرشد السريع للجنين يستلزم مواداً

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٦٤

غذائية كاملة ونظيفة ومصفاة من ناحية، ومن ناحية أخرى يحتاج إلى الأوكسجين والماء بالمقدار الكافي الذي يجب أن يصل الجنين بشكل مستمر، وقد جعل الله هذه المهمة على عاتق جهاز اسمه «الحبل السرى» الذي خلقه منذ اللحظات الأولى إلى جانب الجنين، والذي يرتبط من أحد طرفيه بقلب الأم عن طريق شريانين ووريد واحد، ومن طرفه الآخر بالجنين عن طريق عقدة الشرة.

يمتص هذا الجهاز كل المواد الغذائية والماء والاكسجين اللازم بواسطة نظام الدورة الدموية للأم، ثم ينقل هذه المواد بعد تصفيتها ثانية إلى الجنين، ثم يقوم باستقطاب الفضلات والزوائد والكاربونات وما شاكل ويعيدها إلى دم الأم.

إذن فالحبل السرى يلعب دور الجذب والدفع بالإضافة إلى كونه مصفى بحيث يستطيع الإنسان من خلال مجرد مطالعته للبناء المذهل لهذا الحبل السرى أن يصل إلى عظمة الخالق.

اللطف أنه ورد حديث عن أحد المعصومين عليهم السلام يقول فيه ما معناه: إن الجنين يستفيد من النسيم الذي تستنشقه الأم!

لم تمض سوى سنوات على اكتشاف العلماء بأن رثى الجنين لا تقومان بنشاطهما التنفسي وأنه يسبح في ماء الرحم وأنه بحاجة إلى الأوكسجين؟ ولم تمض سوى سنوات على معرفتهم أنّ الاوكسجين الذي تستنشقه الأم يدخل إلى دمها وينتقل إلى الحبل السرى فينتفع منه الجنين عن طريق سُرته؟

على أيّة حال، لم يمض زمن طويل على ذلك لكن العين البصيرة للإمام عليه السلام رأت هذه الحقيقة منذ مئات السنين فقال: إنّ الجنين يستفيد من هذا النسيم، هل هناك تعبير مقابل الهواء الملوّث الذي تنتفسه أفضل من كلمة النسيم الذي استخدمه الإمام للإشارة إلى الأوكسجين؟ «١»

(١) إقتبس من كتاب اولين دانشگاه، ج ١، ص ٢٥٣ (بالفارسية).

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٦٥

٦- مصير الجنين من حيث الجنس

لم يتمكن أحد من الإجابة عن السؤال القائل: كيف وبتأثير أيّة عوامل يصير الجنين ذكراً أو أنثى أى أنّ العلم لم يعثر لحد الآن على جواب له، فمن الجائز أن تكون بعض المواد الغذائية أو الأدوية مؤثرة في هذا المجال، لكن المسلم به هو أن تأثيرها ليس مصيرياً وجزاماً.

ومع هذا فالعجيب مشاهدة تعادل نسبي دائم بين هذين الجنسين (الرجل والمرأة) في المجتمعات البشرية، وإن كان ثمة اختلاف فأنه ليس بالاختلاف الملفت للنظر.

تصوروا يوماً يختل فيه هذا التعادل فتكون نسبة الرجال إلى النساء عشرة إلى واحد مثلاً، أو على العكس يكون عدد النساء عشرة أضعاف الرجال، أيّة مفاسد عظيمة سوف تظهر؟ وكيف سيضطرب نظام المجتمعات البشرية؟ وهل أنّ المجتمع الذي يكون فيه مقابل

كل رجل عشر نساء أو مقابل كل امرأة عشرة رجال يستطيع أن يوفر لنفسه حياة هادئة؟

لكن الذى خلق الإنسان لحياءً سالمه، أوجد هذا التوازن العجيب والغامض فيها، أجل إن الله تعالى ووفقاً لمشيئته وحكمته يهب لمن يشاء ذكوراً ويهب لمن يشاء إناثاً: «يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ». (الشورى ٤٩)
لكن هذه المشيئة والإرادة محسوبة.

٧- تغيرات سريعة ومبهمة

من العجائب الأخرى فى الجنين، أن النطفة الأصلية للإنسان تكون فى بدايتها مجرد موجود أحادى الخلية، ينمو ويكثر بواسطة الانشطار على شكل متوالية هندسية، تحدث هذه الكثرة وهذه التحولات بصورة سريعة جداً وكما قال القرآن: «خَلَقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ» ولو استمر هذا النمو على هذه السرعة بعد الولادة لكانت للإنسان خلال مدة قصيرة قامه بطول الجبال! ولضاق به وجه الأرض، ولكن نفس الذى منح الجنين السرعة فى سيره التكاملى سوف يخفف منها عند وصول الإنسان إلى مرحلة معينة ثم يوقفها بالتدريج!
نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٦٦

٨- نظرة الرحم المستقبلية!!

ما هى العوامل التى تجعل من الخلايا الناتجة عن خلية واحدة تأخذ أنواعاً متباينة:
خلايا غضروفية، عظمية، عضلية، جلدية، وغيرها؟ هل هو الرحم الذى قدّر مستقبل هذا الموجود فمنح الخلايا أشكالها كلاً فى محلها؟ إن كان له مثل هذا الذهن والقدرة والابداع فمن وهبه هذا الذهن والقدرة والإبداع؟!
يقول العالم المعروف «الكسيس كارايل» فى كتاب «الإنسان ذلك المجهول»: «كأن كل جزء من الجسم على معرفة بالاحتياجات الحالية والمستقبلية لكل الجسم، وهو يغير نفسه وفقاً لهذه الاحتياجات، للزمان والمكان مفاهيم أخرى عند الأنسجة، لأنها (الأنسجة) تدرك جيداً البعيد كإدراكها للقريب والمستقبل كإدراكها للحال، فمثلاً تصبح الأنسجة اللينة للأعضاء الجنسية للمرأة فى نهاية فترة الحمل ألين وأكثر قدرة على الاتساع، وهذا التغير يُسهّل عبور الجنين فى الأيام اللاحقة عند الولادة، وفى نفس الوقت تزداد خلايا الثدي ويكبر هذا العضو بل إنه يمارس نشاطه وينتج اللبن استعداداً لتغذية الوليد حتى قبل الولادة..
إنّ وضع وسلوك العضلات على طول فترة نمو الجنين فى رحم الام، يكون وكأنها تعلم المستقبل مسبقاً، فتراعى انسجام الأعضاء فى لحظتين زمنيّتين متفاوتتين أو فى نقطتين مكانيتين مختلفتين» (١).
مهما سمينا هذا الموضوع فإنه لن يتغير، لكنه على أية حال يخبر بوضوح عن وجود مبدأ كبير للعلم والقدرة فيما وراءه.

٩- كساء للعظام

قرأنا فى تفسير الآية ١٤ من سورة المؤمنون أن للقرآن تعبيراً خاصاً عن قضية ظهور العضلات يقول فيه: «فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا»، إنّ اختيار كلمة: «كَسَوْنَا» إحدى معجزات القرآن العلمية، فقد ثبت اليوم أن العظام تظهر قبل الأنسجة اللحمية (٢).

(١) الإنسان ذلك المجهول، ص ١٩٠.

(٢) إعجاز القرآن من وجهة نظر العلوم المعاصرة، ص ٢٩.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٦٧

١٠- خروج الجنين

كما قرأنا في تفسير الآية ٥ من سورة الحج، فإنَّ الله ينسب إخراج الجنين من الرحم إلى نفسه: «ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً» إنَّ هذا التعبير يكشف عن أهميَّة عملية الولادة التي توصل إليها العلماء في عصرنا الحاضر.

ما هو العامل الذي ينظم زمان الولادة؟ وما هي الظروف اللازمة لإصدار الأوامر للجنين بالخروج؟ وكيف تُعَدُّ جميع أعضاء الجسم لهذا التحوُّل المهم؟ وضمن أيَّة عوامل ينقلب جسم الجنين تدريجياً ليخرج رأسه إلى الدنيا أولاً؟ هل تراه يعلم أنَّ ولادته ابتداءً برجليه غير ممكنة أو أنَّها مستعصية جداً؟ مَنْ يصدر الأوامر لكل عضلات جسم الأم بتسليط أشد الضغوط على الجنين من أجل الخروج؟ وتظهر أهميَّة هذا الموضوع عندما يختل هذا النظام نادراً ويضطر الأطباء إلى عملية «فتح البطن» «الولادة القيصرية»، وربَّما كان وجود مثل هؤلاء الأشخاص القلة، إنذاراً للجميع لكي يفكروا بأهميَّة هذا الموضوع.

بالطبع يمكن في بعض الحالات التنبؤ بزمان الولادة على وجه التقريب، ولكن في بعض الحالات تحصل الولادة قبل الموعد وأحياناً بعده.

وهكذا فإنَّ عملية الولادة بكل ما يتعلق بها من أمور محسوبة، إنَّ هي إلَّا آيئة أخرى من آياته تبارك وتعالى.

١١- التغيرات المذهلة في لحظة الولادة

ذكرنا أنَّ أحداً لا يستطيع تعيين لحظة الولادة بصورة دقيقة، وما يتنبأ به الأطباء عموماً أو خصوصاً لإخبار الناس فإنَّه ذو طابع تخميني فقط، كما تقول الآية:

«اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامَ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ» (١)
(الرعد / ٨)

(١) «تغيض» من مادة «غيض» على وزن فيض بمعنى امتصاص السائل أو احتوائه، ثم جاءت بمعنى النقصان وكذلك بمعنى الفساد، ولهذا فسر البعض كلمة تغيض في الآية أعلاه بمعنى نقصان الجنين والبعض بمعنى الولادة قبل الموعد وهو المعنى المشهور بين المفسرين، وهو المروى في حديث عن الإمام الباقر أو الإمام الصادق عليهما السلام، كما أنَّ ذيل الآية يدل على ذلك.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٦٨

ظاهر الآية أنَّ هذا من العلوم الإلهيَّة الخاصَّة، وهو العلم بخصائص الجنين من كل الجوانب قبل ولادته، فهو عزوجل لا يعلم بالجنين من حيث جنسه فقط وإنَّما يعلم بكل قابلياته وأذواقه وصفاته الظاهرة والباطنة، كما أنَّ لحظة ولادته لا يعلمها إلَّا الله، ومن أجل أن لا تتصور أن الزيادة والنقصان تأتيان بدون حساب أو مبرر، بل إنَّ ساعتها وثانيتها ولحظتها محسوبة جميعاً، فقد أضاف قائلاً: «وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ».

المثير هو ظهور تغيّرات عجيبة على نظام حياة الوليد في لحظة ولادته وهي تغيّرات ضرورية جداً لتكييفه مع المحيط الجديد، وسوف نشير إلى اثنتين منها فقط:

(أ) تغيّر نظام دوران الدم، فعملية دوران الدم في الجنين دوران بسيط، لأنَّه لا يتحرك الدم الملوّث نحو الرئتين من أجل التصفية، إذ لا تنفس هناك، ولهذا كان إثنان من أجزاء قلبه (البطين الأيمن والأيسر) الذي يتحمل أحدهما مسؤوليَّة إيصال الدم إلى الأعضاء والثاني يتحمل مسؤوليَّة إيصال الدم إلى الرئتين للتصفية، على اتصال مع بعضهما، ولكن بمجرد أن يولد الجنين تُغلق البوابة بينهما وينقسم الدم إلى قسمين، قسم يُرسل إلى كل خلايا الجسم لتغذيتها والقسم الآخر إلى الرئتين لتصفيته.

أجل، ما دام الجنين في بطن الأم فإنَّه يحصل على ما يحتاج من الأوكسجين من دم الام، لكن عليه أن يكتفى ذاتياً بعد الولادة ويحصل على الأوكسجين بواسطة الرئة والتنفس، الرئة التي كانت قد خلقت وأعدت مسبقاً بشكل تام في رحم الأم، سوف تمارس

عملها فجأة بأمر إلهي واحد، وهذا من العجائب حقاً.

(ب) إنسداد عقدة الشيرة وجفافها وسقوطها (عادةً ما يقطعون عقدة السرة التي تعتبر طريق تغذية الجنين بواسطة الحبل السرى من دم الأم، ولكن حتى لو لم يقطعوها فإنها تتيبس وتسقط تدريجياً).

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٦٩

أى كما أن طريق الحصول على الاوكسجين يتغير عند الولادة، فإن طريق التغذية يتغير أيضاً وبشكل مفاجئ، ويبدأ الفم والمعدة والأمعاء التي اكتملت في الفترة الجنينية ولكنها لم تكن تعمل، فتبدأ بالعمل فجأة، وهذه واحدة أخرى من العجائب المهمة في خلقه الإنسان.

١٢- بكاء الأطفال

غالباً ما يكثر الأطفال الرضع من البكاء، من الممكن أن يكون هذا البكاء دلالة على آلامهم، فهم لا يمتلكون لساناً غير لسان البكاء للافصاح عن الألم، أو أنه بسبب الجوع والعطش، أو بسبب الانزعاج إزاء ظروف الحياة الجديدة سواء كانت حراً أو برداً أو ضوءاً شديداً أو ما شابه، لكن من الممكن أن يبكي الأطفال بدون هذه الظروف أيضاً، وهذا البكاء رمز حياتهم وبقائها.

فهم في ذلك الحين بحاجة شديدة إلى الرياضة والحركة والحال أن ليس بإمكانهم الرياضة، الرياضة الوحيدة القادرة على تحريك كل وجودهم بما فيه الأيدي والأرجل والقفص الصدري والبطن وإدارة الدم بسرعة في كل العروق لتغذية كافة الخلايا بصورة متواصلة، هي «رياضة البكاء» التي تعتبر بالنسبة للطفل رياضة كاملة، ومن هنا إذا لم يبكي الوليد فيحتمل أن يتعرض لأضرار جمة أو تتعرض حياته كلها إلى الخطر.

وفضلاً عن هذا فإن هنالك رطوبة عالية في مخ الأطفال إذا بقيت هناك يمكن أن تؤدي إلى أمراض وأوجاع شديدة، أو تسبب العمى والبكاء يعمل على خروج الرطوبة الزائدة من أعينهم على شكل دموع، فيضمن ذلك صحتهم.

يقول الإمام الصادق عليه السلام في حديثه المعروف ب «توحيد المفضل» بعد الإشارة إلى هذا الأمر: «أفليس قد جاز أن يكون الطفل ينتفع بالبكاء ووالده لا يعرفان ذلك فهما دائبان ليسكتاه ويتوحيان في الأمور مرضاته لئلا يبكي، وهما لا يعلمان أن البكاء أصلح له وأجمل عاقبةً...» (١)

(١) بحار الأنوار، ج ٣، ص ٦٥ و ٦٦.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٧٠

وفي نفس الرواية، يشير الإمام عليه السلام إلى جريان الماء من أفواه الأطفال الذي يكمل مهمة دموع أعين الأطفال، ويقول: «فجعل الله تلك الرطوبة تسيل من أفواههم في صغرهم لما لهم في ذلك من الصحة في كبرهم» (١)

١٣- اليقظة التدريجية للعقل والحواس عند الأطفال

لو كان للطفل عقل منذ البداية فلا شك أنه كان يتألم بشدة، لأنه سوف يشعر آنذاك بالضعف والمذلة، فهو لا يستطيع المشي ولا الأكل ولا القيام بأبسط الحركات، يجب أن يلقوه بقماش ويضعوه في المهد ويغطوه بغطاء ويشطفوه ويحفظوه.

يقول الإمام الصادق عليه السلام ضمن الإشارة إلى هذا الموضوع في حديثه المسمى ب «توحيد المفضل»: «فإنه لو كان يولد تام

العقل مستقلاً بنفسه لذهب موضع حلاوة تربية الأولاد، وما قدر أن يكون للوالدين في الأشتغال بالولد من المصلحة...» (٢)

بالإضافة إلى أن الانتقال إلى عالم جديد بكل شىء ومجهول كان سيسبب له من الوحشة والاضطراب ما قد يضر بفكره وأعصابه، لكن تلك القدرة الأزلية التي خلقت الإنسان للتكامل قدّرت فيه كل هذه الأصول.

كذلك لو كانت حواسه متكاملة، وفتح عينيه فجأة وشاهد مشاهد جديدة واستمعت أذنه إلى الأصوات والأنغام الجديدة، لما كان فى وسعه تحملها، فكان التدريج فى تلقى برامج الحياة الجديدة هو الاسلوب الأمثل.

الملفت للنظر أن القرآن الكريم يقول: «وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَمَّا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ». (النحل / ٧٨) وفقاً لهذه الآية فإنّ الإنسان لا يمتلك أى علم فى البداية ولا يتمتع حتى بالسمع والبصر،

(١) بحار الانوار، ج ٣، ص ٦٥ و ٦٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٦٤.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٧١

ثم وهبه الله القدرة على السماع والنظر والتفكير، ربّما كان ذكر السمع قبل ذكر الأبصار إشارة إلى أنّ النشاط السمعى عند الوليد يبدأ أولاً، وبعد فترة تكتسب الأعين قدرتها على الابصار، بل إنّ البعض يعتقد وكما أسلفنا أنّ للأذن فى عالم الجنين مقداراً من القابلية على السماع، فهى تسمع أنغام قلب الأم وتعتاد عليها.

١٤ - غذاء الطفل مُعدّ قبل ولادته

لا يستطيع وليد الإنسان والكثير من الحيوانات فى بداية ولادته أن يأكل الأطعمة الجافة والثقيلة، ولهذا فقد هيأت يد الخالق المقتدرة غذاءً خاصاً فى ثدى الأم إسمه «اللبن»، والحقيقة أن نفس دماء جسم الأم التى كان الطفل ينتفع منها فى الفترة الجنينية تتحول إلى لبن ضمن عملية تغيير واسعة وسريعة، فتغذّيه حتى الفترة اللازمة.

يتغير شكل ثدى الأم بصورة تدريجية خلال فترة الحمل، ويكبر شيئاً فشيئاً نتيجة الإفرازات التى يقذف بها الحبل السرى إلى دم الأم ليأمرها بالاستعداد الكامل، وهكذا يهوىء الثدى نفسه لوظيفته المستقبلية الثقيلة.

إنّ الأنابيب الموجودة فى الثدى والامتدة حتى قمة الثدى (الحلمة)، تتشعب وتزداد وتفرز إفرازات بسيطة، وعند ولادة الطفل تعلن عن استعدادها التام.

العجيب أن ترشح اللبن من خلايا الثدى ليس دائماً وإلّا لخرج اللبن بصورة متواصلة إلى الخارج، بل إنه بمجرد ملامسة شفتى الوليد لثدى الأم وبدئه بالامتصاص تتجه الحوافز العصبية عن طريق الأعصاب إلى النخاع ومن النخاع إلى الهايبوثالموس فتؤدى إلى نوعين من الإفراز، يصب أحدهما فى الأثناء عن طريق الدم فيضغط على الأنسجة المحيطة بأنابيب اللبن ليندفع اللبن باتجاه الحلمة، وتتم كل هذه الأعمال خلال ٣٠ ثانية، والأعجب أنّ اللبن لا يتحرك فى ذلك الثدى الذى يرضع منه الطفل فقط، بل ويحدث هذا فى الثدى الآخر أيضاً فيكون مستعداً، ولذا يؤكد الأطباء على إرضاع الوليد من كلا الثديين.

اللبن غذاء كامل، وخاصة لبن الأم الذى يعتبر غذاءً أكمل بالنسبة لوليدها ولا يستطيع شىء فى العالم أن يحل محله.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٧٢

يحتوى الحليب على أنواع الفيتامينات كفيتامين A، B، D، P وفيتامينات أخرى وقد اكتشف فى العلماء ٢٢ مادة مختلفة، علاوة على أنواع الأنزيمات «١»، والكثير من الأدوية الضرورية تنتقل عن طريق لبن الأم إلى وليدها، ومن هنا فإنّ الأطفال المحرومين من لبن الأم

يصابون بمختلف الأعراض.

يبدو أن لبن الأم لا يغذى جسم الطفل فحسب، بل إنه يروى عواطفه وروحه أيضاً، ولهذا قد يصاب المحرومون من لبن الأم بمشاكل ونواقص عاطفية بعض الأحيان.

وعلى هذا الأساس يقول القرآن الكريم: «وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَّمَّ الرَّضَاعَةَ». (البقرة/ ٢٣٣) إن عجائب وغرائب اللبن أكثر من أن يحتويها هذا المختصر، وإذا أردنا أن نترك العنان للقلم لمثل هذه الأبحاث نكون قد خرجنا عن بحثنا التفسيري.

(١) من أجل مزيد من الاطلاع تراجع دائرة معارف القرن العشرين، مادة (لبن)، والجامعة الأولى (اولين دانشگاه)، ج ٦، وإعجاز القرآن من وجهة نظر العلوم المعاصرة، وقد وردت إشارات مثيرة حول هذا المعنى في حديث توحيد المفضل (بحار الأنوار، ج ٣، ص ٦٢).

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٧٣

٣- آياته في عالم الحياة

تمهيد:

إن ظاهرة الحياة هي أعقد ظواهر هذا العالم حسب ما نعلم، ظاهرة حيرت عقول كل العلماء، وقد مضت آلاف السنين والعلماء يفكرون فيها، لكن هذا اللغز لم يُحلّ لحد الآن.

ما هو السبب الذي أدى إلى أن تضع الموجودات الجامدة وبطرفة عجيبة، أقدامها في مرتبة الحياة والعيش فتكون لها تغذية ونمو وتناسل؟! من الممكن أن يصنع الإنسان جهازاً بالغ التعقيد (كالعقول الالكترونية المتطورة جداً) بعد قرون من التجارب، وهذا بدوره شاهد على سعة اطلاع ومعرفة من صنعه، ولكن هذا الجهاز الدقيق والمعقد للغاية لا ينمو أبداً، ولا يداوى أو يرمم كسوره وعيوبه، ولا يتناسل بصورة مبدئية مطلقاً.

أما الكائنات الحية، فإنها فضلاً عن بنائها الدقيق والمعقد والمذهل إلى أقصى الحدود، فإنها تستطيع القيام بهذه الأعمال وأعمال أخرى كثيرة، والقليل من المطالعة حول وضعها يشكل آية واضحة ودليلاً بيناً على العلم والقدرة اللامتناهية لخالقها.

يُكثر القرآن من الاستناد إلى موضوع الحياة والموت في آياته المختلفة ضمن قضية إثبات وجود الله، ونفى الشرك بانواعه، ويؤكد عليه كثيراً، والحق أنه كذلك.

بعد هذه الإشارة نقرأ خاشعين الآيات الكريمة أدناه:

١- «إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ». (الانعام/ ٩٥)

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٧٤

٢- «كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ». (البقرة/ ٢٨)

٣- «هُوَ يُحْيِي وَيُمَيِّتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ». (يونس/ ٥٦)

٤- «وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمَيِّتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ».

(المؤمنون/ ٨٠)

٥- «إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمَيِّتُ وَمَا لَكُمْ مَنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ». (التوبة/ ١١٦)

٦- «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ». (الدخان / ٨)

٧- «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَرَّجَ آبرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ آبرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ». (البقرة / ٢٥٨)

٨- «إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِنَّا الْمَصِيرُ». (ق / ٤٣)

٩- «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَمْ مَنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ». (الروم / ٤٠)

١٠- «وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ». (النحل / ٦٥)

شرح المفردات:

«الحياة»: يقول الراجب في المفردات: تستخدم الحياة في معانٍ مختلفة: الحياة النباتية، الحياة الحسية (حياة الحيوانات)، الحياة العقلانية (حياة البشر)، الحياة بمعنى زوال الغم والهم والحزن، الحياة الأخروية الخالدة، والحياة المذكورة كونها إحدى الصفات الإلهية، ويأتي لكل واحدة منها بشاهد من الآيات القرآنية.

ولكن في «مقاييس اللغة» يُذكر لهذه المفردة معنيان أساسيان، أحدهما الحياة مقابل الموت، والآخر «الحياة» وهو ما يقابل الوقاحة والصلافة.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٧٥

غير أن البعض يعتقد برجوع المعنيين إلى أصل واحد، لأنّ الذي يتمتع بالحياة والخجل إنّما يصد نفسه عن الضعف والعجز ويتحرك باتجاه الخير والطهارة، وإن كان الثعبان العظيم يسمى ب «الحية» فذلك لشدة تحركها التي تعتبر من أبرز آثار الحياة والعيش، وتسمى القبيلة ب «الحى» بلحاظ امتلاكها حياة اجتماعية وجماعية «١».

وبالطبع فإنّ لهذه المفردة معانٍ كنائية كثيرة من جملتها «الإيمان» في مقابل الكفر، و «الطراوة» في مقابل الذبول، و «الحركة» في قبال السكون، ويطلق على التحية اسم «التحية» من باب أنّ فيها طلباً للسلامة والحياة.

«الموت»: هو بالضبط النقطة المقابلة للحياة، لهذا كانت له أنواع مختلفة يقابل كل منها نوعاً من أنواع الحياة، منها «الموت النباتي» كما في قول القرآن حول المطر «أَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا». (ق / ١١)

و «الموت الحيواني» و «الموت العقلاني» أى الجهل.

و «الموت» بمعنى الغم والحزن كما يقول القرآن الكريم: «وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ». (ابراهيم / ١٧)

و«الموت»: بمعنى النوم، كما قالوا: «النوم موت خفيف» مثلما أنّ الموت نوم ثقيل.

واعتبر البعض «الموت» بمعنى الانحلال التدريجي للكائن الحي، و «الموتة» حالة شبيهة بالجنون، وكأنّ العقل والعلم يموتان في تلك الحالة.

كما أنّ البعض فرّق بين «الميت» و «المات» وقالوا: الميت هو الميت أمّا «المات» فهو الموجود في حالة الانحلال والانحدار نحو الموت.

ولهذه المفردة معانٍ كنائية كثيرة منها «الكفر»، و «النوم»، و «الخوف».

وسميت الأرض الموت بالموت لافتقادها الحياة النباتية، والقابلية على الغرس والزراعة، وأمّا بعد أن تُهَيَّأ للغرس والزرع فيسمونها «مهيأة».

ورد في قواميس اللغة أنّ أصل هذه المفردة هو ذهاب القوة، والذي يعتبر موت الكائنات الحية من مصاديقه البارزة.

(١) التحقيق في كلمات القرآن الكريم؛ مفردات الراغب، لسان العرب؛ مجمع البحرين؛ وكتب اللغة الأخرى

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٧٦

جمع الآيات وتفسيرها

خُلِقَ الحياءُ آية الخلق:

جرى الاستناد في الآيات العشر أعلاه وعدد آخر من الآيات القرآنية إلى قضية الحياة والموت بعنوان إحدى الآيات الإلهية الكبيرة وعلامات الذات المقدسة للخالق، كان التأكيد في أغلبها على حياة وموت الإنسان، وفي بعضها على الحياة والموت بشكل عام أي عند جميع الأحياء، وفي البعض أكدت على حياة وموت النباتات.

في الآية الأولى المخصصة للبحث، ورد كلام عن فلق النواة والحيّة بواسطة القدرة الإلهية، وعن استخراج الكائن الحي من الكائن الميت وبالعكس الكائن الميت من الحي، بحيث تشمل الحياة والموت بالمعنى الواسع للكلمة في النباتات والحيوانات والبشر.

الملفت للنظر أن بذور النباتات ذات جدار صلب ومحكم، والنواة أكثر إحكاماً منه، إذ ليس فلقها بالأمر الممكن بسهولة، ومع هذا فالفلق الخارجة من داخل الحيّة والنواة بحيث لا يمكن وصف رقتها ولطافتها، أما كيف يمكن لتلك الفلق اللطيفة أن تفلق تلك القلعة والحصن الحصين فتخرج من خلال جدرانها وتستمر في طريقها؟ فليس ذلك سوى القدرة الإلهية الفريدة، وكأنّ عبارة: «إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى» إشارة دقيقة إلى هذا المعنى

وحول كيفية إخراج الله تعالى الميت من الحيّ والحيّ من الميت، ذكر الكثير من المفسرين الماضين الأمثلة عليها، بخروج الدجاجة من البيضة، والشجر والنبات من الحبة والنواة، والإنسان من النطفة، في حين صار من المسلم به لدى العلماء اليوم أن الكائنات الحية تظهر دائماً من الكائنات الحية، أي أن في داخل حبة ونواة النباتات والأشجار فضلاً عن الكمية المعينة من المواد الغذائية، توجد خلية حية هي في الحقيقة نبات وشجرة مجهرية صغيرة جداً وإذا استقرت في المحيط المناسب فسوف تستفيد من هذه المواد الغذائية فتتمو وتكبر، وكذلك بالنسبة إلى نطفة الإنسان والحيوان فإن الخلايا الحية كثيرة، وهي المصدر لتكاثر وتناسل الإنسان والحيوان.

أجاب بعض المفسرين المعاصرين (كالمراغي ومؤلف تفسير المنار) الذين التفتوا إلى

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٧٧

هذا الإشكال بأن هذه الخلايا الخاصة مع أنها تسمى في عرف علماء العلوم الطبيعية بالكائنات الحية، ولكنها لا تجدر بهذه التسمية في العرف العام للناس واللغة، لأنّ أيّاً من آثار الحياة والعيش لا تظهر عليها «١».

والأفضل أن نقول: إن المراد بخروج الكائن الحي من الميت لا يعدو أحد المعنيين التاليين:

الأول: هو بالرغم من أن الكائنات الحية في الظروف الحالية تخرج دائماً من البذور والحبوب والنطف الحية، ولكن لا شك أن الأمر لم يكن كذلك في البداية، لأنّ الكرة الأرضية عندما انفصلت عن الشمس كانت عبارة عن كتلة من نار، ولم يكن عليها أي كائن حي، ثم ظهرت أول الكائنات الحية من الكائنات غير الحية ضمن ظروف لا علم لنا بها اليوم وبأمر الله بعد سلسلة من القوانين البالغة في التعقيد.

والفرضية القائلة: إن من الممكن للحياة أن تكون قد انتقلت من الكواكب الأخرى إلى الكرة الأرضية بواسطة القطع والأجرام السماوية والتي يُصير البعض عليها، لا تستطيع أن تحل لنا أية مشكلة، لأنّ الإشكال يصدق على تلك الكواكب أيضاً، فهي ولا شك كانت في

البداية كتلاً محترقة، ولا يستطيع أى كائن حتى أن يتحمل تلك الظروف.

الثانى: هو أن البذور والحبوب والنطف الأولى لم تكن إلّا موجودات صغيرة جداً لكنّها نمت وتطورت عن طريق تغذيتها على المواد الغذائية غير الحية وهى فى الحقيقة تجذب إليها الموجودات غير الحية وتحولها إلى حية، وعليه فإنّ آلاف الآلاف وملايين الملايين من الخلايا الحية قد ظهرت من الموجودات الميتة، وعن هذا يقال: إنّ الله يخرج الميت من الحى ويخرج الحى من الميت. والبعض قالوا: إنّ المراد بهذا التعبير ولادة «الكافر» من «المؤمن» و «المؤمن» من «الكافر»، أو ولادة الجنين السقط من الإنسان الحى، وولادة الطفل الحى من الام التى تموت فجأة ولا يزال الطفل حياً فى بطنها.

(١) تفسير المراعى، ج ٧، ص ١٩٧؛ وتفسير المنار، ج ٧، ص ٦٣١.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٧٨

ولكن ممّا لا شك فيه أن هذه الأقوال هى مصاديق للمفهوم الكلى للآية ولا تشمل كل مفهوم الآية، المفهوم الأصلى للآية هو أحد المفهومين المشار إليهما.

وعلى أيّة حال فالتعقيد الذى يحيط بقضية الحياة والموت من الدرجة بحيث أن العلماء لا يزالون عاجزين عن فهم أسرارها، فإذا كان فهم أسرار إحدى الظواهر يحتاج إلى كل هذا العقل والتفكير والذكاء، فهل يمكن إيجاد هذه الظاهرة بدون الحاجة إلى أى عقل وذكاء!؟

ولهذا يقول القرآن فى نهاية نفس هذه الآية: «ذَلِكُمْ اللَّهُ فَانِّي تُؤْفَكُونَ».

تقول الآية الثانية بلهجة الاستفهام الموبّخ: «كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ» وفى هذا إشارة إلى أن قضية الحياة والموت كافية لمعرفة الله.

وبتعبير آخر فإن ظاهرة الحياة والموت فى عالم الخلق من أهم الوثائق لإثبات وجود الله.

إنّ الإنسان عندما يفتح عينيه ويعرف نفسه، فإنّه يطالع هذه الوثيقة الكبيرة قبل كل شىء.

ويدرك الإنسان جيداً أنّ حياته ليست من عنده لأنّه كان يوماً فى عداد الموجودات غير الحية، إذن، تميّة قدره وهبته الحياة، الحياة بكل أسرارها ورموزها، بكل دقائقها وتعقيداتها.

اعتبر بعض المفسرين «الكفر» فى هذه الآية بمعنى «كفران النعمة»، أى كفران نعمة الحياة والموت، هذا الموت الذى هو مقدّمه لحياة أخرى، ولكن الظاهر هو أنّ الكفر هنا بمعنى إنكار وجود الله أو إنكار توحيده من قبل المشركين.

بالإضافة إلى أنّه جرى التأكيد فى هذه الآية على قضية المعاد، أى أنّ ظهور الحياة والموت تمثلاً دليلاً على التوحيد بالإضافة إلى كونهما دليلاً على إمكان المعاد.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٧٩

الآية الثالثة تُعد ضمن آيات المعاد، ولكن كما قلنا فإنّ قضية الحياة والموت دليل على إثبات وجود الله وعلى إثبات المعاد، والتعبير ب «هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ» إشارة إلى أنّ الحياة والموت بيد الله فقط، ولا يمكن لأحد سوى الله القادر المتعال أن يصنع مثل هذه الظاهرة المهمة والعجيبة إلى أقصى الحدود.

أمّا الآية الرابعة فقد وردت ضمن آيات التوحيد فى سورة (المؤمنون)، وأكدت على قضيتين «قضية الحياة والموت»، و «قضية ذهاب وإياب الليل والنهار» ولهذين شبه كبير فيما بينهما، الموت كالظلمة، والحياة كالنور والضياء، وربما كان تقديم الليل على النهار من هذا الباب أيضاً، ذلك أنّ الموت كان قبل أن تكون الحياة وكان الإنسان سابقاً أجزاءً ميتة ثم أنعم الله عليه فكساه ثوب الحياة، وسواء كان «اختلاف الليل والنهار» بمعنى ذهاب وإياب الليل والنهار (من مادة «خلفه») على وزن حرفه بمعنى التناوب فى المجيء والحلول

محل البعض)، أو من مادة (خلاف) بمعنى التباين والاختلاف التدريجي في فصول السنة المختلفة، وأياً كان المعنى فهو يدل على النظام الدقيق الذي يحكمهما وما يرافقه من فصول أربعة ومن بركات ناتجة عنها، كما أن لقضية الموت والحياة والنظام الذي يحكمها في المجتمع الإنساني نتائج وآثاراً كثيرة لا يمكن بدونها تنظيم حياة الإنسان.

فإذا لم يمت أحد، لما كانت الأرض محلاً للحياة، وإن مات الجميع بسرعة خلت الأرض أيضاً، ولكن خالق هذا العالم جعل فيه نظاماً دقيقاً بحيث لا تخلو الأرض من أقوام يعيشون عليها ويتمكنون من الانتفاع من مواهب الحياة، وهذه هي سنة الله فقوم يأتون وقوم يذهبون.

ولهذا يقول تعالى في نهاية الآية: «أَفَلَا تَعْقِلُونَ» أفلا تتفكرون في قدرة الخالق وربوبيته ووحدانيته؟ وإن من المستحيل ظهور هذا النظام البديع من غير علم ولا تدبير.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٨٠

وفي الآية السادسة جاءت قضية الحياة والموت إلى جانب قضية الربوبية، فهو الله سبحانه مالككم وربكم أنتم وآبائكم، الأولين وهو خالق الموت والحياة.

وبشكل أساسي فإن قضية الموت والحياة إحدى فروع ربوبية الله سبحانه وتعالى، «الربوبية» بمعنى الإصلاح والتنظيم والتربية، وهذه لا تحصل إلا عن طريق الحياة والموت، الحياة تعطى الإنسان إمكانية التكامل، والموت أيضاً مقدمة لتكامل آخر وحياة جديدة في عالم أوسع.

تعكس الآية السابعة الحوار التاريخي بين النبي إبراهيم عليه السلام وجبار زمانه «نمرود»، ويبدو أن هذا الحوار جاء بعد قصة تحطيم إبراهيم الأصنام وظهوره كبطل من الأبطال وشياع صيته في كل مكان واضطرار نمرود إلى إحضاره «١».

إن أول سؤال سأله هذا الرجل الأناني الذي أذهب عقله غرور السلطان للنبي إبراهيم عليه السلام هو: «من إلهك؟».

فاعتمد إبراهيم قبل كل شيء في جوابه على ظاهرة الحياة والموت المهمة وقال: «ربّي الذي يحيي ويميت».

فقال الجبار الطاغى نمرود مع علمه الأكيد بأحقية كلام إبراهيم ومن أجل استغفال من حوله وتخدير عقولهم: إنني أستطيع القيام بهذا أيضاً «أنا أحيي وأميت».

لم يذكر القرآن ما صنعه نمرود من أجل إثبات ادّعائه هذا، ولكن الكثير من المفسرين قالوا: إنه أمر فوراً باحضار إثنين من السجناء، فأطلق سراح أحدهم وحكم على الآخر بالموت وقال: أرايت كيف أن الحياة والموت بيدي؟! والفخر الرازي استبعد هذا المعنى في تفسيره وهو أن يكون الحضر في مجلس نمرود

(١) ورد هذا المعنى وهو أن الحوار أعلاه حصل بعد تحطيم الأصنام من قبل إبراهيم في عدّة تفاسير منها تفسير المراعي ج ٣، ص ٢١؛ والكبير ج ٧، ص ٢٥.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٨١

من البله والسذاجة بحيث لا يدركون الفرق بين عمل نمرود وبين الحياة والموت التي تحصل عن طريق الله.

ويقول: إن قصد نمرود هو قوله: أتراك تزعم أن الله يقوم بذلك من دون أية واسطة؟ هذا غير صحيح، وإن كان ذلك يحصل عن طريق الاستفادة من عالم الأسباب، فإن ذلك بإمكاننا أيضاً «١».

ولكن يبدو أن الفخر الرازي نسي هذه النقطة، وهي: أن الجهلاء في كل عصر وزمان ليسوا قليلين، خاصة المتملقين الذين يحيطون بحكام الجور والاستبداد والتجبر.

وقد ورد ما يشبه هذا المعنى في حياة موسى وفرعون حيث حاول فرعون استغفال وخداع أهل مصر بكلماته الركيكة المضحكة

ودعاهم إلى عبادته.

إن تفسير الفخر الرازي يلائم جماعة من الفلاسفة يجتمعون مع بعضهم ويصطنعون مثل هذه السفسطات، أمثال لو كان الفاعل فاعلاً بالواسطة لكان كذا ولو كان بلا واسطة لكان كذا.

الآية الثامنة تعتبر إيجاد الحياة والموت أمراً خاصاً بالله، شأنها شأن الآية الثالثة، وتعتبر عودة جميع الخلق إلى بارئهم عزوجل. وفي الآية التاسعة يخاطب الله تعالى المشركين بلهجة حازمة فيقول: «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَمْ مَنْ شَيْءٍ»، هل بإمكانهم إحياء شيء أو إماتته؟ أو رزقه؟ وما دامت كل هذه الأمور خاصة بالله، فما لكم تشركون به: «سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ».

(١) تفسير الكبير، ج ٧، ص ٢٤.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٨٢

وأخيراً وفي الآية العاشرة والأخيرة يطرح الله قضية حياة النباتات، وهو وجه مشرق، جميل وملئ بالأسرار من وجوه الحياة، ويعرض على البشر صورة الأراضي الميتة كيف يلبس هذه الصحارى اليابسة الفاقدة للحياة لباس الحياة بزخه مطر واحدة أو عدة زخات، فتتصاعد من كل جانب من جوانبها أنغام الحياة فتتجلى ساحة البعث والنشور في هذه البقعة.

ويضيف في آخر الآية: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَشْمَعُونَ»، يسمعون انغام تحميد وتسييح النباتات ويصغون بأذان قلوبهم لهمسات التوحيد من كل نبات يخرج من الأرض ويردد ذكر «وحده لا شريك له»: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَشْمَعُونَ».

توضيحان

١- لغز الحياة الكبير

كشف تطور العلم والمعرفة البشريه النقاب عن الكثير من الحقائق، وأوضح العديد من قضايا هذا العالم الكبير، ولكن كما أشرنا فعلى الرغم من ذلك فما زالت هنالك الكثير من الألغاز تواجه الإنسان، وأحد أهم هذه الألغاز هو لغز الحياة، القضية التي لم يُمط اللثام عن وجهها لحد الآن رغم جهود ومساعي آلاف الآلاف من العلماء والعقول المفكرة على مر التاريخ البشري، وما زالت مستتره خلف ستار من الابهام.

واللطيف أن القرآن الكريم خاطب المشركين قبل أربعة عشر قرناً قائلاً: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاشْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ».

المثير أن عجز البشر اليوم عن خلق الذبابة بمقدار عجزه قبل أربعة عشر قرناً، وعجزه أزاء هجوم الذباب والجراد وبقية الحشرات يصل إلى درجة عدم جدوى كل ما يستخدم من أجهزة التسميم والمكافحة الحديثة.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٨٣

قد يُقال: إن الإنسان صنع أجهزة قيمة أكثر أهميته من خلق الذباب كالسفن الفضائية والعقول الألكترونية المعقدة وأمثال ذلك. ولكن هذا خطأ كبير وقياس باطل، إذ ليس للسفينة الفضائية أو العقل الألكتروني أي نمو أو تحول ذاتي ويستحيل أن ينبج مثيله، ولا يمكن من داخل نفسه ترميم ما يطرأ عليه من الأضرار، فهو لا- يُصلح قطعاته التالفة أبداً، ويحتاج إلى الهداية والقيادة من خارجه، والحال أن للذبابة من هذه الوجوه أفضلية واضحة على تلك السفينة الفضائية أو جهاز الكمبيوتر، ولكن كثرة الذباب أدى إلى

تصوره من قبلنا كموجود حقير ولا أهميته له، ولو كانت هنالك ذبابة واحدة فقط في العالم لأتضح آنذاك مدى ما سيوليه العلماء لها من الاهتمام.

وفضلاً عن هذا فإننا لا نحتاج أساساً إلى هذه المفاضلة، فالهدف هو إيضاح أن بناء الكائن الحي حتى لو كان خلية واحدة والتي أشرنا إليها إشارات واضحة في البحوث الماضية، على قدر من الغموض والتعقيد بحيث يدل على أن صانعه ذو علم وقدره غير متناهيين وذو اطلاع تام بقوانين الحياة المعقدة، وبتعبير أصح أنه هو الذي وضع هذه القوانين.

كيف يمكن أن تحتاج معرفة ظاهرة كهذه إلى كل هذا العقل والشعور ولا يحتاج صنعها إلى أي عقل أو شعور؟!

وهذا هو الأمر الذي نحن في صدد إثباته في هذه البحوث، والذي يشكل هدف القرآن من الآيات المذكورة وآيات مشابهة أخرى نختم هذا الحديث بذكر نقطة، وهي أن الحياة والعيش رغم أنها من أبرز الظواهر، ولكن حقيقتها غير واضحة لحد الآن لأحد، إن ما نراه هو آثار الحياة التي تمثل (النمو والتحول والتغذية والتناسل، والاحساس والحركة والتفكير)، ولكن ما هي تلك الحقيقة التي تكون بمثابة المصدر لهذه الآثار؟ لا يعلم أحد بذلك لحد الآن، وما زالت العقول في حيرة من ذلك.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٨٤

٢- هل بإمكان الإنسان صناعة كائن حي؟

لا شك أن الكائنات الحية وجدت في البداية من كائنات غير حية، سواء حدث هذا الأمر على الكرة الأرضية أو على الكواكب السماوية الأخرى، ولكن تحت أي ظروف؟

ووفقاً لأي معادلة حدثت هذه الطفرة العظيمة؟ إن هذا الأمر بقي مجهولاً لحد الآن ولم يتسن لأحد معرفته، طبعاً أن البعض من العلماء يأملون بأنهم سوف يكتشفون هذه المعادلة وهذه الظروف، ويقولون: لعننا في النتيجة نستطيع أن نصنع خلايا حية من مركبات غير حية.

لا أحد يعلم جدوى ومنطقيته هذا الأمل؟ وهل سيتحقق مثل هذا الأمل عملياً في نهاية المطاف أم لا؟ وعلى فرض أن الإنسان سيكتشف ظروف بداية الحياة ومعادلتها وسوف يستطيع صناعة خلايا حية في داخل المختبرات، ولكن يجب أن لا ننسى أن: أولاً: إن هذا العمل حين يأتي عن طريق تقليد عالم الخلق وتركيب المواد المختلفة مع بعضها لن يكون سوى ما يشبه الصناعات التجميعية التقليدية.

ثانياً: على فرض أن مشكلة صناعة الخلية الحية سوف تُحل، ولكن تبقى هنالك مشكلة الكائنات المعقدة متعددة الخلايا، كبنية الذبابة أو الجراد أو الطائر أو الأسماك الكبيرة وأخيراً الإنسان، فمن الذي يستطيع أن يوجد مثل ما ذكرنا عن طريق الصناعة؟ يقول أحد العلماء وهو (البروفسور هانز): سوف يصل الإنسان بعد ألف سنة إلى سر الحياة، ولكن هذا لا يعني أنه سيستطيع صناعة ذبابة أو حشرة أخرى أو حتى خلية حية.

ثالثاً: لنفترض أننا ضمناً مثل هذه الأهداف بمعونة الهبة الإلهية المسماة بالعقل، وتطورت العلوم وتقليد قوانين الطبيعة، لكن هذا لن يكون له أدنى تأثير على ما نحن بصدد الوصول إليه، لأنه إن كان بالإمكان إيجاد خلية حية واحدة باستخدام كل هذه النماذج الموجودة والمواد الطبيعية الجاهزة يحتاج إلى كل هذا العلم والمعرفة، فما مقدار العلم والمعرفة اللازمة لخلق أنواع متعددة من الموجودات الحية بلا نموذج أو مواد سابقة؟ هل يمكن أن نعتبر للطبيعة الجامدة الفاقدة للشعور والعقل دوراً في خلق هذه الموجودات؟

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٨٥

وألفت انتباهكم إلى عبارة ظريفة عن «غرسى موريسن» رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك في كتاب «سر خلق الإنسان»، يقول: «قال هيغل: أعطوني الهواء والماء والمواد الكيميائية والزمان وسوف أخلق بها إنساناً، لكن هيغل نسي أنه بحاجة إلى نطفة وجرثومة الحياة من أجل هذا المشروع أيضاً، إنه بعد أن يجمع الذرات اللامرئية ويرتبها إلى جانب بعضها ضمن نظام وترتيب خاص بخلقة الإنسان، عليه أن يمنح الروح لهذا القلب! وعلى فرض أنه وُفق للقيام بكل هذه الامور الخارقة للعادة، هنالك احتمال واحد فقط من بين ملايين الاحتمالات لخلق حيوان لم تشاهد عين الدهور شيئاً أغرب منه، والأعجب هو أن هيغل لن يقول بعد الموقفية في هذا الأمر أن هذا الموجود العجيب ظهر بحسب الصدفة والحدث، بل يقول: «إن ذكائي ونبوغى هو الذى خلقه» (١).

تارة يتصور بعض السذج أن بالإمكان تبرير ظهور الحياة عن طريق الحوادث والصدف الكثيرة، والحال أننا لو أردنا ووفق حساب الاحتمالات حساب عملية ظهور ذرة واحدة من البروتينات،- وهى إحدى المواد المكونة للكائنات الحية- عن هذا الطريق، لما كفى عمر الكرة الأرضية لظهورها!

ول «جورج والد» أستاذ علم الأحياء فى جامعته «هارفارد» كلام عن شروط ظهور الحياة واستحالة إمكان خلق الحياة بالصدفة والذاتية، هذه خلاصته:

«من أجل تشكيل البروتين يجب التحام مئات أو آلاف الجزئيات «أحماض أمينية» ينسب مختلفه وأشكال متنوعه على شكل سلسلة، وإن عدد أنواع البروتينات لا محدود حقاً، لأنه لا يمكن العثور على نوعين من الحيوانات يكون لهما نوع واحد من البروتينات، إذن فجزئيات المواد العضوية تشكل مجموعة عظيمة لا حدود لتنوعها وتعقيدها يبعث على الحيرة، ومن أجل صنع موجود حى واحد لا نحتاج إلى مقدار كافٍ ونسب معينة من أنواع البروتينات اللامتناهية فحسب، بل يجب ترتيبها ترتيباً صحيحاً أيضاً، أى أن بناءها

(١) سر الخلق، ص ١٣٩ إلى ١٤١.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٨٦

له من الأهمية ما لتركيبها الكيميائى من الأهمية».

ثم يضيف: «إنّ بناء البروتينات معقد حقاً، وإن اعقد الأجهزة التى صنعها الإنسان (كالعقل الألكترونى) هى بحكم الألغوبة مقابل أبسط الكائنات الحية! يكفى الإنسان أن يفكر فى هذه العظمة لتتضح له استحالة الخلقة الذاتية أو بالصدفة» (١).

نختم هذا الكلام بحديث قيم عن الإمام الصادق عليه السلام، وحديث رفيع المعانى عن أمير المؤمنين على عليه السلام، للإمام الصادق عليه السلام كلام مفصل قاله للمفضل فى حديث التوحيد المعروف ب «المفضل» حول خلقه الإنسان وأعضائه المختلفه، يقول المفضل:

سيدى: إن قوماً يقولون أنه من صنع الطبيعة! فيجيب الإمام عليه السلام:

«سلهم عن هذه الطبيعة أهى شىء له علم وقدرة على مثل هذه الأفعال؟ أم ليست كذلك؟ فإن أوجبوا لها العلم والقدرة، فما يمنعهم من إثبات الخالق؟ فإن هذه صنعته، وإن زعموا أنها تفعل هذه الأفعال بغير علم ولا عمدٍ وكان فى أفعالها ما قد تراه من الصواب والحكمة، عُلِمَ أن هذا الفعل للخالق الحكيم، وأن الذى سمّوه طبيعته هو سُنّه فى خلقه الجارية على ما أجزاها عليه» (٢).

ويقول أمير المؤمنين على عليه السلام: «ولو اجتمع جميع حيوانها من طيرها وبهائمها، وما كان من مُراجِها وسائمها وأصناف أسناخها وأجناسها، ومتبلدة أممها، وأكياسها، على إحداث بعوضه، ما قدرت على إحداثها ولا عرفت كيف السبيل إلى ايجادها ولتحيرت عقولها فى علم ذلك» (٣).

(١) معرفة الحياة «شناخت حیات»، ص ١١ (بالفارسية).

(٢) بحار الأنوار، ج ٣، ص ١٦٧.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة ١٨٦.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٨٧.

٤- آياته في خلق الروح

تمهيد:

الروح أيضاً من أعجب ظواهر عالم الوجود وأكثرها غموضاً، ومع أنها أقرب الأشياء إلينا إلّا أننا بعيدون جداً عن معرفتها وتشخيصها. لم تتوقف جهود ومساعي العلماء والفلاسفة من أجل معرفة الروح في أى زمن من الأزمان، واستطاعوا بفضل هذه الجهود أن يكشفوا اللثام عن بعض الأسرار، ولكن الوجه والأسرار الخافية للروح لم تتغير لحد الآن، وما زالت هناك الكثير من الأسئلة حول هذا الموضوع بدون جواب.

ومن هنا كان خلق روح الإنسان من الآيات المهمة الدالة على علم وحكمة وتدبير الخالق.

وعلى هذا الصعيد نتأمل خاشعين فى الآيات الكريمة أدناه:

١- «وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا». (الشمس / ٧ و ٨)

٢- «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا».

(الاسراء / ٨٥)

٣- «وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صِيلٍ صَالٍ مِنْ حَمِيمٍ مَسِينٍ * فَاذًا سَيُوتِيهِ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ».

(الحجر / ٢٨ و ٢٩)

٤- «ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ

الْخَالِقِينَ». (المؤمنون / ١٤)

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٨٨

٥- «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ». (الزمر / ٤٢)

شرح المفردات:

إن مفردة «الروح» تعنى فى الأصل التنفس والنفخ، ويعتقد بعض أرباب اللغة أن «الروح» اشتقت فى الأصل من «الريح» بمعنى الهواء والنسيم والرياح، وبما أن روح الإنسان أى ذلك الجوهر المستقل المجرد ومصدر الحياة والتفكير هى جوهر لطيف تشبه من حيث تحركها ومنحها للحياة التنفس والنسيم، فقد استعملت هذه المفردة للتعبير عنها، بالاضافة إلى أن علاقة الروح بالجسم لها ارتباط وثيق بالتنفس، لهذا استعملت هذه الكلمة فى خصوص روح الإنسان.

يعتقد البعض أن المعنى الأصلي لهذه المادة هو «ظهور وحركة شىء لطيف» سواء كان فى عالم الجسم أو فى عالم الروح والمعنى ومن أجل هذا أطلقت هذه الكلمة أيضاً على ظهور مقام النبوة وقضية الوحي وتجلي نور الحق.

«الروح»: (على وزن قوم) التى تعنى السرور والفرح والراحة والنجاة من الغم والحزن، وهى الاخرى مأخوذة من هذا المعنى كذلك يطلق على اللطاف والرحمة الإلهية «روح الله».

مفردة «الريحان» تستخدم في كلام العرب ل «الورد» من أجل رائحتها الطيبة المنعشة ونسيمها المعطر.

ومفردة «الروح» بمعنى «طرف الغروب» حيث تعود الحيوانات إلى حضائرها لتستريح.

وعلى كل حال، فإنّ مواضع استعمال هذه المفردة في القرآن الكريم متنوعة جداً، فتأتى حيناً بمعنى ملاك الوحي، وحيناً بمعنى الملاك الكبير من ملائكة الله الخُصّص (أو

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٨٩

المخلوق الأفضل بين الملائكة)، وتأتى أحياناً لتدل على القوة الإلهية المعنوية التي يسند الله المؤمنين بها، وجاءت تارة بمعنى الروح الإنسانية، وهذا ما أشرنا إليه في الآيات أعلاه «١».

«النفس»: يقول الراغب في المفردات: النفس بمعنى الروح، وتأتى أحياناً بمعنى ذات الشيء، و «النفس» (على وزن قَنَص) بمعنى الهواء الذي يدخل ويخرج من وإلى جسم الإنسان عن طريق الفم.

وقد أُطلقت مفردة «النفس» هذه على الدم أيضاً، لأنّ الدم إذا خرج من جسم الإنسان بمقادير كبيرة فارقت روحه، وربما أُطلقت هذه الكلمة على كل وجود الإنسان.

على أيّة حال، فإنّ أحد المعاني المعروفة للنفس هو «الروح» التي ذكرت عدّة مرّات في القرآن الكريم.

١- «النفس الامارة» التي تأمر الإنسان بالسوء: «إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ».

(يوسف / ٥٣)

٢- «النفس اللوامة» التي ترتكب الذنوب بعض الأحيان ثم تندم وتلوم نفسها: «وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللّوَّامَةِ». (القيامة / ٢)

٣- «النفس المطمئنة» وهي النفس الواصلة إلى مرحلة الأطمئنان والراحة والطاعة التامة لأوامر الله والمشمولة بعناياته: «يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ* إِرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً». (الفجر / ٢٧)

جمع الآيات وتفسيرها

الروح اعجوبة عالم الخلق:

ورد في الآية الأولى من الآيات التي اخترناها لبحثنا هذا قَسَمٌ يختصّ بالروح الآدمية وخالقها.

(١) مفردات الراغب؛ لسان العرب؛ مجمع البحرين؛ والتحقيق في كلمات القرآن الكريم.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٩٠

ذلك الله الذي خلق الخلق ونظم القوى الروحية للإنسان إبتداءً من الحواس الظاهرية وهي مقدمة الإدراكات الروحية وانتهاءً بقوة التفكير، الحافظة، التخيل، الإدراك، الابتكار، الإرادة والتصميم: «وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا».

وعلمه طرق الهداية بعد تنظيم هذه القوى «فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا».

مع أنّ القوى الروحية للإنسان متنوعة وكثيرة جداً، ولكن القرآن هنا وضع إصبعه من بين كل تلك القوى على مسألة «إلهام الفجور والتقوى (إدراك الحسن والقبح)، لأنّ هذه المسألة لها تأثير كبير جداً في مصير الإنسان وسعادته وشقائه.

قلنا مراراً: إنّ القَسَمَ يدلّ على الأهميّة والعظمة، أهميّة المُقَسَمِ به والمُقَسَمِ له، خاصة القَسَمِ القرآني لحمل الناس على المزيد من التفكير في آيات «العظمة» الإلهية.

فضلاً عن أن «النفس» في هذه الآية ذكرت بصيغته النكرة، وهي في مثل هذه الموارد من أجل التأكيد على أهمية الموضوع أو كثرته (١).

تشير الآية الثانية إلى السؤال الذي طرح من قبل جماعة من المشركين أو أهل الكتاب، حيث وفدوا على الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسألوه عدة أسئلة كان أحدها عن الروح كما قال القرآن: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ». ثم يأمر القرآن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله و آله: «قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي».

إن في هذا الجواب غير المستبين إشارة عميقة إلى مدى غموض ومجهولية هذه الظاهرة الكبيرة في عالم الوجود، ومن أجل أن لا يقول أحد لماذا لم تظهر واحدة من أسرار الروح؟ يضيف الله في آخر الآية: «وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا».

(١) تفسير روح البيان، ج ١٠- ص ٤٤٢؛ و تفسير روح المعاني، ج ٣٠- ص ١٤٢، وقد احتمل بعض المفسرين أن تكون «النفس» في الآية أعلاه إشارة إلى الروح والجسم كليهما، مع أن عبارة: «فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا» تناسب الروح أكثر، وكذلك الآية: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا...».

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٩١

وليس من العجيب أن لا تطلعوا على أسرار الروح بهذا «العلم القليل» و «المعرفة اليسيرة» (خصوصاً في ذلك الزمان وتلك البيئة). روى عن ابن عباس في بعض الروايات أن قريش أرسلت بعض رؤوسها إلى علماء اليهود في المدينة وقالت لهم: إسألوهم عن محمد لأنهم من أهل الكتاب ولهم من العلم ما ليس لنا، فجاؤوا المدينة وسألوا علماء اليهود، فقال اليهود في جوابهم: إسألوه عن ثلاثة أمور: قصة أصحاب الكهف، وذى القرنين، وقضية الروح، فإن أجاب عن جميعها أو سكت عن جميعها فليس بنبي، أما إن أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبي.

فعدت رؤوس قريش إلى مكة وعرضت الأسئلة على الرسول صلى الله عليه وآله، فقدّم لهم الرسول شرحاً وافياً حول ذى القرنين وأصحاب الكهف، ولكنه فيما يخص السؤال عن الروح إكتفى بذلك الجواب المغلق بأمر من الله «١»، ومع أن هناك تفاسير مختلفة لمعنى الروح في الآية أعلاه في روايات المعصومين عليهم السلام وكلمات المفسرين، ولكن أغلب هذه التفاسير لا تتنافى مع بعضها ويمكن الجمع بينها، والروح الإنسانية من جملة المفاهيم الداخلية في مدلول الآية المعنوية «٢».

في الآية الثالثة كلام عن حوار الله مع الملائكة حول خلق البشر، حيث يقول عز وجل مخاطباً الملائكة: «إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ* فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ». ثم نقطتان تثيران الاهتمام في هذه الآية، الأولى إضافة روح الإنسان إلى الله إذ يقول:

(١) تفسير روح المعاني، ج ١٥، ص ٢٤١ «قالت قريش لليهود أعطونا شيئاً نسأل هذا الرجل فقالوا: سلوه عن الروح فسألوه فنزلت: «يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً».

(٢) وردت في تفسير الميزان أقوال متعددة في هذا المجال، منها أن المراد بالروح هي الروح الواردة في الآية الشريفة: «يوم يقوم الروح والملائكة صفاً» ومنها أن المراد بها جبرائيل وقال بعض المفسرين: إنها تعني القرآن، وآخر التفاسير هو أن المراد بها الروح الإنسانية، ثم يضيف: إن المتبادر من إطلاق الروح هو هذا.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٩٢

«من روعي»، وهذا دليل على منتهى عظمتها وأهميتها الروح الإنسانية، وهذا من قبيل الإضافة التشريعية حسب المصطلح، ك «بيت الله» و

«شهر الله» التي تشير إلى أهميّة الكعبة وعظمه شهر رمضان المبارك، وإلا فإن كل مكان هو بيته وكل الأشهر أشهره. والثانية أمر جميع الملائكة بالسجدة لآدم بعد نفخ الروح فيه، وهذا برهان آخر على عظمة مقام الإنسان، ذلك أن السجدة تفيد منتهى الخضوع، فكيف لو كانت من قبل كل الملائكة؟ وهذه خير علامة على المقام الرفيع لآدم. في الآية الرابعة وبعد الإشارة إلى خلق النطفة وتطورات الجنين والألبسة المختلفة التي يكسو بها الله هذه القطعة الصغيرة في مختلف المراحل، يُعبر عز وجل لهجة الكلام ويقول: «ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ».

إنّ التعبير «الانشاء» (الايجاد) في هذه المرحلة وخلافاً للمراحل السابقة التي عبر عنها بالخلق، إضافةً إلى استخدام «ثم» التي تستعمل عادةً من أجل الفصل يدل جميعه على أنّ الخلق في هذه المرحلة يختلف تماماً عن المراحل السالفة، وهذه علامة على أنّ المراد هو خلق الروح التي ترتبط بالجسم بعد تكامله. والمثير أنّه يعبر ب «خلقاً آخر» وهو تعبير غامض ومُعلق، خلافاً للتعبيرات السابقة التي يتحدث فيها عن «النطفة» و «العلقة» و «المضغة» و «العظام» و «اللحم» وهي مفاهيم معروفة جميعاً، وهذا دليل آخر على اختلاف المرحلة الأخيرة عن المراحل الماضية. ومن العجب أنّ بعض المفسرين ذكروا تفاسير لعبارة: «الخلق الآخر» لا تنسجم أبداً مع روح الآية، من جملتها: أنّ المراد بانشاء الخلق الآخر هو ظهور الأسنان والشعر على الجسم «١»! في حين أنّ هذا لا يتناسب أبداً مع تعابير الآية ولا شك أنّ ظهور الأسنان والشعر

(١) روى هذا الاحتمال عن بعض المفسرين في تفسير روح المعاني، ج ١٨، ص ١٤؛ وتفسير القرطبي، ج ٧، ص ٤٥٠٢.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٩٣

ليس له من الأهميّة ما يوازي سائر تطورات الجنين المختلفة. في نهاية الآية وردت جملة عجيبه أخرى تشكل دلالة أخرى على الأهميّة القصوى لخلق الإنسان في المرحلة الأخيرة أو في مجموع هذه المراحل، يقول تعالى «فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ» فسبحان العليم الحكيم الذي أودع القابلية والجداره في مثل هكذا موجود حقير.

«تبارك»: من مادة (بَرَك) بمعنى صدر الناقه، وبما أنّ للناقه حين تضع صدرها على الأرض نوع من الثبات، فقد جاءت هذه المفردة بمعنى «الثبات والدوام» ولأن كل نعمه كانت دائمة إزدادت أهميتها، فقد سميت هكذا نعم بالمباركة. إنّ استخدام هذه المفردة في خصوص الله إشارة إلى عظمة وقديسه وخلود ذاته المطهره. في الآية الخامسة والأخيرة من الآيات المعنيه في بحثنا هذا يشير عز وجل إلى مسألة بقاء الروح، بتعبيره: «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا».

وبلحاز أن كلمه «يتوفى» تعني القبض والاستلام الكامل، و «الأنفس» هي الأرواح، يتضح أنّ الروح ينفصل كلياً عن الجسم عند الموت وبأمر الله، ولكن عند النوم يحصل هذا الانفصال بشكل ناقص: «وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا». ثم أشار إلى عدم عوده بعض الأرواح في حالة النوم وعوده البعض الآخر حتى أجل مسمى وأضاف: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» (١).

(١) يقول الفخر الرازي في تفسيره وتعقيماً على هذه الآية: إنّ الله الحكيم جعل ارتباط الروح الآدمية بالجسم على ثلاثة أقسام: تارة يسطع شعاع الروح على جميع الأجزاء الظاهرية والباطنية للجسم، وهذه حالة اليقظة، وتارة يسحب هذا الشعاع من الأجزاء الظاهرية ويبقى في الباطنية وهذه حالة النوم، وتارة يرتفع شعاعها عن الأجزاء الظاهرية والباطنية وتلك حالة الموت.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٩٤

يستفاد من هذه الآية وبكل سهولة أن الإنسان تركيب من الروح والجسم، وأن الروح جوهر غير مادي، وأن النوم درجة ضعيفة من الموت ودليل على ضعف الارتباط بين الروح والجسد.

ويستفاد أيضاً أن الموت لا يعنى الفناء والهلاك، بل هو نوع من البقاء واستمرار الحياة.

والنتيجة هي أن الروح الإنسانية بكل قواها وقدراتها التي تجعلها من أعقد وأعجب ظواهر عالم الوجود هي إحدى آيات الله الكبرى كيف يمكن أن يكون خالق كل هذا العلم والقدرة والفكر والذكاء والذوق والإبتكار والإرادة والتصميم هي الطبيعة الفاقدة للعقل والشعور ولكل أنواع العلم والفكر والذكاء والإبتكار؟!.

بل على العكس، فهذه القطرات والروافد الصغيرة علامة على وجود محيط كبير تنبع جميعها منه، وهذه الأشعاعات الباهتة قبس من تلك الشمس الكبيرة.

توضيحات

١- القوى الظاهرية والباطنية للروح

عدّ القدماء خمسة قوى ظاهرية وخمسة قوى باطنية للروح الآدمية، أما القوى الظاهرية فهي: حاسة النظر، السمع، الشم، الذوق، اللمس، وهي نوافذ روح الإنسان نحو عالم المحسوسات والروابط بين ذلك الجوهر المجرد وعالم المادة. إن كل واحدة من هذه القوى عالم واسع مليء بالأسرار، وكل واحدة من أدوات هذه القوى أى العين والأذن واللسان والغدد الشمية والأعصاب الموزعة في كافة أنحاء الجلد، آية من آيات الله تتضمن في داخلها عالماً من العلم والحكمة. وقد عد الفلاسفة القدماء القوى الباطنية خمسة أيضاً:

١- الحس المشترك.

٢- الخيال، والذي يعتبر ذاكرة الحس المشترك.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٩٥

٣- القوة الواهمة التي تدرك مفاهيم من قبيل المحبة والعداء.

٤- القوة الذاكرة التي تحفظ في داخلها الإدراكات الواهمة.

٥- قوة التخيل التي تُصَرِّف المفاهيم والصور الجزئية الموجودة في خزانه الخيال والذاكرة فترسم صوراً مختارة لا- وجود لها في الخارج.

وكل واحدة من هذه القوى الخمس هي عالم مليء بالأسرار بحد ذاتها.

لكن علماء وفلاسفة اليوم لا- يحددون القوى الظاهرية بتلك القوى الخمس المعروفة، ولا- القوى الباطنية بتلك القوى الخمس المذكورة، إنهم يضعون للنفس الإنسانية قوى كثيرة، ويعتبرون الروح الآدمية مخزناً عجيباً فيه أنواع القوى ومختلف الاذواق والقابليات والادراكات التي يختلف فيها أفراد البشر.

لقد وضع علم النفس والتحليل النفسى يده اليوم على مناطق غامضة ومبهمة من روح الإنسان واكتشف فيما اكتشف فيها عالماً جديداً وسرياً باسم «الضمير الخفى» أو «ضمير اللاشعور» ووضع أمام أعين البشر المزيد من العجائب عن هذا الموجود المجهول.

٢- الروح .. الظاهرة الخفية في عالم الوجود

مع أنّ القرآن الكريم يشرح الكثير من الجزئيات المتعلقة بالسماء والأرض والنباتات والحيوانات عند ذكره للآيات الإلهية سواء كانت آيات آفاق أو آيات أنفس، لكنه حين يصل إلى قضية الروح لا يزيد على قوله: «قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا». أو إنه يقول: «وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا» أو يعبر عنها بإنشاء الخلق الآخر: «ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ»، أو إنه ينسب الروح إلى نفسه فيقول: «وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي».

إنّ كل هذه التعبيرات تحكى عن أن خلق الروح يختلف عن خلق بقية الموجودات، وليس هذا إلا بسبب تعقيد قضية الروح وأسرارها العظيمة.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٩٦

٣- نشاطات الروح المختلفة

للإنسان نشاطات روحية وفكرية عديدة، سواء في الشعور أو في اللاشعور، بحيث يمكن لكل واحد من هذه النشاطات أن يكون موضوع بحث مستقل في كتب متعددة (وغالباً ما كان)، وقسم من هذه النشاطات على النحو التالي:

(أ) «التفكير» من أجل الوصول إلى المجهولات، أو بتعبير الفلاسفة حركة الفكر نحو المبادئ، ثم حركته الأخرى من المبادئ نحو الأهداف والمراد.

(ب) «الابتكار» من أجل حلّ مشاكل الحياة غير المتوقعة، ومواجهة الحوادث المختلفة، ورفع الاحتياجات المتنوعة والابداعات والاكتشافات والاختراعات.

(ج) «الذاكرة» لحفظ أنواع المعلومات التي يحصل عليها الإنسان عن طريق الحس أو التفكير وتبويبها وتخزينها ثم استدكارها عند الحاجة.

(د) «التجربة وتحليل القضايا» من أجل معرفة علل وجذور الحوادث عن طريق فصل المفاهيم الذهنية عن بعضها، ثم تركيبها، ثم الوصول إلى علل ونتائج الحوادث.

(هـ) «التخيل» أي إيجاد صورة ذهنية قد لا تكون في بعض الأحيان موجودة في الخارج كمقدمة لفهم القضايا الجديدة.

(و) «الإرادة والتصميم» لأجل القيام بالأعمال أو التوقف عنها أو تغييرها.

(ز) «الإدراكات الفطرية والعقلية» وهي الأساس في الاستدلالات النظرية وغير البديهية.

(ح) «العشق، الحب، العداوة وعشرات الظواهر الروحية الأخرى ذات التأثيرات الإيجابية أو السلبية في أفعال الإنسان.

وبالطبع فهذه القضايا ليست منفصلة عن بعضها، بل هي متمركزة جميعها في داخل روح الإنسان، إنها أمواج من هذا المحيط اللامتناهي، وأنوار من هذه الشمس الساطعة، وهذا ما يدل على أنّ الروح الآدمية أرفع آيات الله وأهم علاماته.

وفي قول القرآن الكريم إشارة إلى هذه الحقيقة: «وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ*»

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٩٧

وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ». (الذاريات / ٢١)

ولا نذهب بعيداً فإنّ الذاكرة الإنسانية التي تمثل أرشيفاً للمعلومات المختلفة على درجة من الغرابة والعجب بحيث لو أننا أردنا توظيف مئات الأشخاص لحفظ وطرافه وترتيب معلومات أحد الأشخاص لاستحال عليهم القيام بنشاط الذاكرة بهذه السرعة والدقة.

ولو سلبت منّا الذاكرة لساعة واحدة لما أمكنتنا الحياة، فلا نضلّ الطريق إلى منازلنا فحسب، بل سيصينا النسيان حتى في أن نضع اللقمة في فمنا عند تناول الطعام، سيكون كل شيء بالنسبة لنا مجهولاً ووحشياً وغريباً ومُحيراً.

فقد أحد الشباب جزءاً من ذاكرته نتيجة حادث سير أصابه بضربة دماغية، وعندما حملوه إلى بيته أنكر بيته! وقال: إن هذه هي المرة الأولى التي أضع فيها قدمي هنا! بل حتى أمه كان يتصورها امرأة غريبة، وبدت اللوحة الفنية التي رسمها بيديه مجهولة تماماً في عينيه، وكان يقول: إنها أول مرّة أراها.

إننا نحمل في أرشيف ذاكرتنا صوراً لآلاف الموجودات وآلاف البشر وآلاف المواد المختلفة وآلاف الآلاف الخواطر واللقطات والآلاف المعلومات المختلفة الأخرى والعجيب أن استحضار إحدى الخواطر لا يحتاج أكثر من واحد بالألف من الثانية من أجل أن يستطيع الإنسان الانتباه إلى خاطرة معينة من بين معلوماته المبوبة التي مضت عليها لحظة أو سنة أو خمسون سنة، خاصة وأن العلماء يسيرون إلى إحدى الأعمال المحيرة للذاكرة والتي يسمونها «معجزة الذاكرة» وهي بالترتيب الآتي:

كثيراً ما ينسى الإنسان اسم شخص أو موضوع ثم يجهد ويحاول أن يتذكره ويقبّر رفوف أرشيف ذاكرته واحداً بعد الآخر ولكن دون جدوى

حسناً، إن كان الإنسان يعلم ذلك الاسم أو الموضوع، فلماذا يبحث عنه؟ وإن لم يكن يعلمه فكيف يبحث عن شيء لا يعلمه؟ أيمكن أن يبحث الإنسان عن ضالة لا يعرف ما هي أو من هي؟!

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٩٨

ومع هذا فيصدق على ذاكرة الإنسان أن تبحث عند النسيان عن ضالة لا تعلم ما هي؟
وفجأة تصل إلى الرف الذي يحمل ضالتها فتعثر عليها (١).

وهنا توجد نقطة دقيقة يكمن فيها الحل المذهل للقضية، وهي: في مثل هذه المواضع لا يبحث الإنسان عن ذات ذلك الاسم أو الموضوع الذي لا يعرف ما هو بل من أجل العثور عليه تراه يبحث عن مجموعة الحوادث التي يعلم بشكل إجمالي أنه اخترنها في ذهنه بمعينة الاسم المطلوب (لأن الحوادث المختلفة تُخترن على شكل مجموعات مجموعات)، فمثلاً هو يعلم أنه تعرف لأول مرّة على الشخص المعنى الذي نسي اسمه في اليوم الفلاني والمحل الفلاني، لذلك يطلب من أرشيف الذاكرة وبشكل فوري إضبارة ذلك اليوم وذلك المحل ويتصفحها بسرعة البرق ليعثر في طياتها على اسم ذلك الشخص.

ونختم هذا الكلام بحديث عن الإمام الصادق عليه السلام ورد في توحيد المفضل، يقول:

«تأمل يا مفضل هذه القوى التي في النفس وموقعها من الإنسان، أعنى الفكر والوهم والعقل والحفظ وغير ذلك، أفرأيت لو نقص الإنسان من هذه الخلال الحفظ وحده كيف كانت تكون حاله؟ وكم من خلل كان يدخل عليه في اموره ومعاشه وتجارته إذا لم يحفظ ماله وما عليه وما أخذه وما أعطى وما رأى وما سمع، وما قال وما قيل له ولم يذكر من أحسن إليه ممن أساء به، وما نفعه ممّا ضره، ثم كان لا يهتدى لطريق لو سلّكه ما لا يُحصى ولا يحفظ علماً ولو درسه عمره، ولا يعتقد ديناً، ولا ينتفع بتجربة ولا يستطيع أن يعتبر شيئاً على ما مضى بل كان حقيقاً أن ينسلخ من الإنسانية أصلاً».

ثم يضيف الإمام: «وأعظم من النعمة على الإنسان في الحفظ النعمة في النسيان، فإنه لولا النسيان لما سلا أحد عن مصيبه ولا انقضت له حسرة، ولا مات له حقد، ولا استمتع بشيء من متاع الدنيا مع تذكر الآفات ..» (٢).

(١) الاقتباس من كتاب «حافضة» من سلسلة «چه می دانم» (بالفارسية).

(٢) بحار الأنوار، ج ٣، ص ٨٠ و ٨١ (بشيء من التلخيص).

٤- مقارنة عقل الإنسان بالعقول الألكترونية

في بعض الأحيان يقارن البعض من عديمي الاطلاع بناء روح وفكر الإنسان وعقله ببناء العقول الالكترونية، والحال أن الفرق بينهما اكبر من الفرق بين الطائرة اللعبة التي يلعب بها الأطفال وطائرة عملاقة حقيقية! والسبب هو: إن نشاط العقول الالكترونية محدود بحدود حافظتها فقط، وحافظتها هي تلك التي يغذيها الإنسان بالمعلومات، ولذلك ليس لها وراء حدود هذه الحافظة المحدودة أى نشاط على الاطلاق.

وفضلاً عن أن العقول الألكترونية تفتقر لأى نوع من أنواع الإبتكار والتفكير أزاء إحدى الحوادث الجديدة مهما كانت بسيطة، كرد الفعل مقابل هبوب الرياح الشديدة مثلاً ناهيك عن الإبتكار والإبداع فى القضايا المهمة والمعقدة.

ثم حتى لو افترضنا صحة المقارنة بينهما فأى عقل يصدق أن صناعة العقل الالكترونى الذى يُعد أعجوبة الصناعات البشرية، قد تمت على يد إنسان أمى أو أعمى أو أصم أو مجنون؟

أيمكن للطبيعة الفاقدة للروح والعقل والتفكير والابتكار أن توجد الروح والعقل والابتكار؟ ومن هنا نقول: إن فى داخل روح الإنسان الآلاف من آيات الخالق وعلاماته.

٥- أصالة واستقلال الروح

مع أنه لا يوجد بالنسبة لنا فرق فى البحوث المتعلقة بآيات الله بين أن تكون روح وفكر الإنسان جوهرًا مستقلًا ومجردًا عن المادة، أو مرتبطًا بها ومن آثارها (وهذا هو الجدل المعروف بين الفلاسفة الإلهيين والماديين)، ولكن لا شك أنه متى ما ثبتت أصالة واستقلال الروح اكتسبت هذه الآية الإلهية مزيداً من التأثير والجدية.

يصر الماديون على أن الروح والفكر من الخواص «الفيزو كيميائية» للخلايا الدماغية

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٠٠

والتي تزول تماماً بفناء الجسم، والحال أن للروح والفكر الأدمى ظواهر لا يمكن تفسيرها بالتفسير المادية أبداً.

فمثلاً يجد كل شخص حقيقة فى داخله تسمى «الأنا»، وهى واحدة ليست أكثر منذ بداية العمر حتى نهايته، «أنا» منذ الطفولة وحتى الآن شخص واحد لم أزد ولم أتغير، وسأبقى أنا ذلك الشخص إلى آخر العمر، بالطبع درست وتعلمت القراءة والكتابة ولهذا فقد حصلت وعلى نسبة من التكامل، لكننى لم أتحوّل إلى إنسانٍ آخر، بل ما أزال ذلك الشخص السابق.

فى حين إذا أخذنا الأجزاء المادية للجسم نرى أن جميع تلك الذرات فى حال تغيّر وتبدل، وأن جميع خلايا الجسم تتغيّر كل سبعة أعوام مرّة واحدة تقريباً، أى أن الشخص البالغ من العمر سبعين سنة أصابه تبدل فى أجزاء جسمه المادية عشرة مرات، رغم أن «الأنا» (شخصيته الإنسانية) ثابتة لم تتغير، وهذا يدل على أن حقيقة «الأنا» حقيقة ما وراء المادة ولا تتغير بتغيرات المادة.

فضلاً عن أن فى أذهاننا حقائق مخزونة تكون أكبر من مخنا وخلايانا المخية آلاف الآلاف من المرات، تصور السماوات والمجرات، الشمس والقمر وغيرها، فمن المستحيل أن تكمن هذه الصور الكبيرة فى الجزء المادى من وجودنا، ولا سبيل إلا أن تنعكس فى الجزء غير المادى أى الروح، لأنّ الجزء المادى أى المخ ليس إلّا موجود صغير.

وعلاوة على هذا فإنّ الظواهر المادية تقبل التجزئة والقسمه جميعاً فى حين توجد بين مفاهيمنا الذهنية مفاهيم لا تقبل التجزئة إطلاقاً. إنّ خصوصية «تصوير الواقع» والاطلاع على العلم الخارجى بالنسبة لنا، والموجودة فى علومنا ومعارفنا، هى حقيقة لا يمكن تبريرها عن

طريق الخواص «الفيزو كيميائية» للمخ.

وهذه البراهين الأربعة وبراهين واضحة أخرى تدل بجلاء على أن الروح جوهر مستقل ومجرد من المادة «١».

(١) من أجل مزيد من الشروح راجع، ذيل الآية ٨٥ من سورة الإسراء من «التفسير الأمثل».

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٠١

٦- خصوصيات الروح في القرآن الكريم

يمكن استخلاص الخصوصيات والصفات التالية للروح الإنسانية بالاستفادة من آيات القرآن الكريم:

(أ) تتمتع الروح الآدمية بالاستقلال وتبقى بعد انفصالها عن الجسد مستقلة، والآية «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ...» (الزمر / ٤١) تشهد بهذه الحقيقة.

(ب) من الممكن أن تتنعم الروح الآدمية وبعد انفصالها عن الجسم في عالم البرزخ بانواع النعم الإلهية أو أنها تتعذب بمختلف صنوف العذاب الشديد، وفي آية «حياة الشهداء» كما ورد في الآية ١٦٩ من سورة آل عمران.

وآية «عذاب آل فرعون» كما ورد في الآية ٤٦ من سورة غافر.

دليل على هذا المعنى

(ج) يختلف بناء الروح إختلافاً كبيراً عن بناء الجسم كما قرأنا ذلك في الآيات المعنية حيث إن الله تعالى يعتبر الروح من عالم «الأمر» وخلقها من نوع «انشاء الخلق الآخر» الآية ٨٥ من سورة الاسراء و ١٤ من سورة المؤمنون.

(د) إن علم الإنسان عن حقيقة الروح وأسرارها قليل جداً، وآية «وَمَا أَوْتِيْتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا». (الاسراء / ٨٥)

شاهد على هذا المدعى

(هـ) في حالة النوم تضعف علاقة «الروح»، ب «الجسم» وفي حالة الموت تنقطع نهائياً كما في ورد في سورة الزمر، الآية ٤٢.

(و) الروح والظواهر الروحية بصورة عامة من الآيات المهمة على عظمة الله ووسيلة مهمة لمعرفة تعالي «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ». (الزمر / ٤٢)

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٠٢

٧- مسك الختام حول الروح

إنّ البحث حول الروح اكبر وأوسع من أن نستطيع تبيان جميع أبعاده في هذا الموجز السريع، وإذا أردنا أن نترك عنان القلم خرجنا من بحثنا التفسيري، لذلك يمكن الرجوع إلى الكتب الفلسفية والكلامية والروائية، من أجل المزيد من التفصيلات وقد وردت بحوث

متعددة في «التفسير الأمثل» في هذا المضمار، ونلاحظ بحوثاً وشروحاً وافيه في تفسير الميزان، المجلد الأول في تفسير الآية: «وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ».

(البقرة / ١٥٤)

ذكر العلامة المجلسي في كتابه المشهور بحار الانوار ١٧ دليلاً عقلياً ونقلياً لإثبات أن حقيقة الإنسان ليست مجرد هذا الجسم «١».

وفي نفس هذا الكتاب يذكر نقلاً عن المحقق الكاشاني ١٤ قولاً حول حقيقة الروح «٢».

ونختم هذا البحث بحديث لطيف عن أمير المؤمنين عليه السلام، حيث روى عنه أنه قال: «الروح في الجسد كالمعنى في اللفظ» (٣). يقول أحد العلماء واسمه الصفري: «إنني لم أر مثلاً حول الروح أجمل وأفصح من هذا المثال»، نعم الروح كالمعنى والجسم كاللفظ!

(١) بحار الأنوار، ج ٥٨، ص ٦ إلى ١٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٧٥.

(٣) سفينة البحار، ج ١، ص ٥٣٧، مادة (الروح).

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٠٣

٥- آياته في الهداية الفطرية والغريزية للإنسان والحيوان

تمهيد:

ليس البشر فحسب بل الكثير من الأحياء الأخرى تولد من أمهاتها ولديها حصيله من العلوم والمعارف الفطرية والغريزية، العلوم التي لم يكن ثمة معلم يعلمها وليست وليده التجربة والاختبار، بل إن المعلم الأول هو الذي أودعها منذ البداية في عمق وجود الإنسان وسائر الحيوانات بطريقة تثير العجب والذهول.

إن دراسة هذه العلوم والمعارف والهداية الفطرية والغريزية تعد آيات عظيمة على عظمة الله وعلامة بينة لعلمه وقدرته.

وبهذه الإشارة القصيرة، نقرأ خاشعين للآيات الكريمة أدناه:

١- «قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى . (طه / ٥٠)

٢- «أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ».

(البلد / ٨ - ١٠)

٣- «فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا». (الشمس / ٨)

٤- «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكُمْ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ».

(الروم / ٣٠)

٥- «الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ». (العلق / ٤ - ٥)

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٠٤

٦- «الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ». (الرحمن / ١ - ٤)

٧- «فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ». (الغاشية / ٢١)

جمع الآيات وتفسيرها

أستاذ الأزل:

الآية الأولى من الآيات التي اخترناها في بحثنا هذا تتناول حوار موسى بن عمران عليه السلام مع فرعون، فعندما سأله فرعون وأخاه هارون: من هو ربكما هذا الذي تدعوان له؟ أجابه فوراً: «رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى .

واضح أن كل موجود خلق من أجل هدف، وكل صنف من أصناف النباتات والحيوانات والموجودات سواء كانت طيوراً أو حشرات

أو حيوانات أو صحارى أو بحاراً، كلُّ خُلِقَ لبيئته خاصة، ونرى بوضوح أنّ لها انسجاماً كاملاً مع بيئتها وقد زوّدت بما تحتاج إليه، هذا فى المرحلة الابتدائية من خلقها.

أمّا فى مرحلة الهداية التكوينية فنشاهد بجلاء أنّ ليس هنالك موجود يترك لحاله بعد خلقه بل إنّهُ يُساق نحو أهدافه بتوجيه خفى، وللكثير منها علوم ومعارف لم تصلهم بلا- شك عن طريق التجربة الشخصية ولا عن طريق تعليم المعلم، إنّ هذه الهداية التكوينية والعلوم والمعارف من آيات الذات المقدّسة التى خلقت هذا العالم الكبير وما انفكت تهديه وتسيره.

وبالطبع فإنّ هذا الكلام لا يخص الإنسان وحده، بل إنّ مفاد الآيه هو بحث كلى وجامع وعم يشمل أفراد البشر، وهذا أمر يختلف عن هداية الأنبياء والرسل المسماة بالهداية التشريعية والخاصة بالإنسان.

إنّ الطفل الذى يولد من أمّه يتّجه وبدون أى مقدّمة نحو ثدى الأم بفمه ويمتص عصارة روحها، وتارة يضع يديه الصغيرتين على الثدي فيحرك منابع اللبن فيه، من اين تعلم هذا الدرس الذى يضمن له تغذيته واستمرار حياته؟

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٠٥

من اين يعلم أنّ أفضل سبيل لرفع حاجاته التى لا يستطيع القيام بها هو «البكاء» البكاء الذى يهز الأم فى نومها ويقظتها ويفرض عليها معونته، وكذلك العلوم والمعارف الأخرى التى يستفيد منها الإنسان فى مراحل أخرى من دون الحاجة إلى معلم.

يوجد فى آيات أخرى من القرآن ما يشبه هذا المعنى نقرأ فى قوله تعالى «وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى . (الأعلى / ٣)

وفى الآيه الثانية من الآيات المخصصة لبحثنا هذا وعند تذكير الإنسان بنعمه عليه، يقول بعد الإشارة إلى نعم العين واللسان والشفاه: «وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ».

«نجد»: فى اللغة بمعنى المكان المرتفع والفلاة، وهى تقابل «التهامه» التى تطلق على الأراضى المنخفضة والواطئة والمساوية لمستوى سطح البحر وما شاكل، وانطلاقاً من أنّ المعرفة بأسس السعادة وطرقها وسلوك هذه الطريق يشبه إلى حد ما سلوك الطرق المرتفعة بما فيها من مشاق ومشاكل كثيرة، فقد استعملت مفردة «نجد» هنا بمعنى طريق الخير، ثم جاء الاطلاع على طرق الشر إلى جانبها بعنوان «التغليب»، وعليه يكون معنى الآيه هو: «إنّا هدينا الإنسان إلى هذين المكانين المرتفعين»، وهذان المكانان هما طرق الخير والشر.

لهذا نقرأ فى حديث عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «يا أيها الناس! هما نجدان: نجد الخير ونجد الشر، فما جعل نجد الشر أحبّ إليكم من نجد الخير» (١).

يحصّر البعض من ذوى النظر المحدود مفهوم الآيه الواسع فى داخل موضوع محدود، ويقولون: إنّ المقصود من هذين المكانين المرتفعين هما ثديا الأم! وقد ورد فى الحديث أنّ الإمام على عليه السلام سئل عن معنى «وهديناه النجدين» وهل تعنى ثديي الأم كما يدعى البعض.

إنّ الهداية الإلهية فى هذا المجال تحصل طبعاً عن طرق مختلفه، عن طريق الوجدان الأخلاقى، الفطرة، الدلائل العقلية، وتعاليم الرسل (أى أنّها تشمل أنواع الهداية التكوينية والتشريعية)، لكن سياق الآيات يناسب الهداية التكوينية أكثر.

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٥٨١؛ و تفسير مجمع البيان؛ و تفسير القرطبي، وقد روى نفس هذا المعنى عن الإمام الصادق عليه السلام تعقيباً على الآيات المنظورة.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٠٦

وفى الآيه الثالثة بعد القسم بروح الإنسان، وخالق الروح، يشير إلى مسألة الهام الفجور والتقوى ويقول: إنّ الله تبارك وتعالى ألهم نفس الإنسان الفجور والتقوى «فَأَلَّهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا»، و «اللاهام» من مادة (لَهَم) على وزن (فَهَم) أى (ابتلاع) أو (شرب) الشئ

(١).

ثم جاءت بمعنى القاء الأمر في قلب الإنسان من قبل الباري تعالى فكأنما يلتهم القلب ذلك الأمر بتمامه، وللالهام معنى آخر أيضاً وهو «الوحي»، حيث استُخدم أيضاً بهذا المعنى أحياناً. وتعني «الفجور» خرق حجاب التقوى وارتكاب الذنوب، وهي من مادة «فَجَرَ» التي تعني الانشقاق الواسع، أو انكشاف ظلمة الليل بواسطة بياض الصباح.

و «التقوى»: من مادة «الوقاية»، وتعني (الصيانة)، والمقصود هنا الأساليب التي تمنع الإنسان من التلوث بالذنوب والقبايح. من هنا يُفهم بوضوح من هذه الآية أن الله تبارك وتعالى قد أودع مسألة إدراك الحُسن والقُبْح العقليين وفهم الحَسَنِ والسَيِّءِ بشكلٍ فطرياً داخل روح الإنسان كي يهديه الطريق نحو السعادة والتكامل.

وورد في حديثٍ للإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية أنه قال: «بَيَّنَ لَهَا مَا تَأْتِي وَمَا تَتْرَكَ» (٢) ، فالمقصود هو أن الله بيّن للإنسان ما يجب فعله وما يجب تركه أو بتعبير آخر علّمه (الواجبات، والمحرمات). وحول السبب في تقدّم «الفجور» على «التقوى»؟ يقول بعض المفسرين: لأن «التطهر من الذنوب» يُمثل الأرضية ل «التحلي بالتقوى» ، باعتبار أن (التخليّة) تكون قبل (التحليّة)، و (التطهير) قبل «إعادة البناء» دائماً (٣).

(١) لسان العرب مادة (لَهْم) بناءً على ذلك فحينما تستعمل هذه المادة في باب الافعال تفيد «الابتلاع والشرب» وقال بعض إنها تستخدم في امور الخير فقط، وإنّ المراد من الهام الفجور في الآية هو صده عن الخير أيضاً.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٥٨٦، ج ٧.

(٣) تفسير روح المعاني، ج ٣٠، ص ١٤٣.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٠٧

على أيّة حال، فلو لم يكن إدراك حُسن وقُبْح الأفعال فطرياً بالنسبة للإنسان، أي لو كانت هناك حاجة للاستدلال من أجل فهم قُبْح الظلم وحُسن العدل والاحسان والأعمال الأخرى فمن المسلمم إنه سيختل نظام المجتمع البشري، لأن الكثير من الاختلافات العقائدية تنشأ عن الاستدلالات النظرية، حيث لا يوجد أساس وجدائتي متين لهذا المعنى فيمنح كل شخص لنفسه حرية القيام بأي عمل. أجل إن هذه الهداية الالهية في الحياة الاجتماعية للإنسان مصيرية إلى أبعد الحدود، وهذه النعمة وهذه الهداية مهمّة إلى الحد الذي لا يمكن قياسها بسائر النعم الأخرى

وفي الآية الرابعة طرحت مسألة فطرية الدين، وهو (الدين الحنيف) أي الخالي من كل أشكال الهوى والاتجاه نحو الباطل والانحراف، والظاهر من كافة أشكال الشرك والتلوث:

«فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا».

والاستفادة من تعبير «الدين» نظراً لسعة مفهومه، حيث يشمل جميع اصول الدين، والحد الأدنى من مجموع فروع الدين، بأنه ليس معرفة الله والتوحيد فقط، وإنما اصول وفروع الدين كافة اودعت منذ البداية في روح الإنسان بنحو اجمالي وبصورة فطرية، وهذه هي «الهداية التكوينية» التي يُمكن أن تُوجد أكثر الآثار جاذبية لدى الإنسان فيما لو تناغمت مع «الهداية التشريعية» للأنبياء عليهم السلام.

بناءً على ذلك فإن أصل كل دعوة موجودة في الشريعة له وجود في أعماق فطرة الإنسان، ولا يعارض أي دين الإرادات الفطرية للإنسان، بل يرشدها ويكملها من خلال الطريق المشروع، ولهذا فإن التعبد والتدين موجودان داخل روح الإنسان بصفتها هداية تكوينية، وإذا ما حصل انحراف ما فأنه طارئ، لهذا فإن دور الأنبياء عليهم السلام هو ازالة هذه الانحرافات الطارئة كي تحصل إمكانية تفتح الفطرة الحقيقية.

وهنا نكتفى بهذا المقدار حيث سنتكلم مفصلاً بخصوص هذه الآية في بحث التوحيد الفطري في المجلد الثالث إن شاء الله.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٠٨

وقد تحدثت الآية الخامسة عن التعليم الإلهي بواسطة القلم ثم أشارت بشكل عام إلى تعليم الإنسان للمسائل التي يجهدُها إذ يقول تعالى «الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ».

قد يكون التعليم الإلهي بواسطة القلم إشارة إلى القراءة والكتابة التي حدثت لأول مرة على أيدي الأنبياء عليهم السلام «١»، أو لأن الله تبارك وتعالى قد أوحى هذا الذوق والقابلية لدى الإنسان هدايةً فطريةً حيث أُبتدِعَ بعد اتّضح القراءة والكتابة، فبدأت مرحلة ما بعد التاريخ مع إيجاد الخط (حيث نعلم أن الفاصل الزمني بين مرحلتى ما قبل التاريخ وما بعد التاريخ هي مسألة اكتشاف الخط). على أيّ حال، فقد حصل التعليم بالقلم عن طريق الهداية الإلهية.

ويمكن أن تكون جملة «عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ» إشارة إلى العلوم الفطرية المختلفة التي أودعها الله تعالى فكر الإنسان، المتضمنة لإدراك القبح والحسن، والفجور والتقوى وكذلك القضايا البديهية التي تكون أساساً للقضايا النظرية في العلوم الاستدلالية، والأطلاع على قواعد الدين واصل الأحكام الإلهية أيضاً.

وفي الآية السادسة بعد أن ينسب تعليم القرآن إلى الله الذي هو مصدر جميع الرحمات والكرامات، يتحدث عن خلق الإنسان ويقول: «خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ».

ول «البيان»: مفهوم عام حيث يُطلق على كل شيءٍ موضَّح كأنواع الاستدلالات العقلية، والمنطقية التي تُبين المسائل المعقدة، أو الخط والكتابة، أو الكلام الذي يعد من أبرز مصاديقه.

وقد اعطى المفسرون احتمالات كثيرة في تفسير «البيان»، فقد اعتبرها فريق منهم

(١) نقل عدة من المفسرين أن آدم عليه السلام كان أول من كتب بواسطة القلم (تفسير القرطبي، ج ١٠، ص ٧٢١٠؛ وتفسير روح البيان، ج ١٠ ص ٤٧٣).

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٠٩

بمعنى بيان الخير والشر، وفريق آخر بمعنى بيان الحلال والحرام، وثالث اعتبرها بمعنى الاسم الأعظم، ورابع بمعنى تعليم اللغة «١». لكن من الواضح أن ظاهر (البيان) هو التكلم، وتبدو بقية الاحتمالات ضعيفة «٢».

وهنا كيف علم الله تعالى الإنسان التكلم؟ قال بعض المفسرين: إن الله هو الذى «وَضَعَ اللُّغَاتِ» ثم علم الأنبياء عليهم السلام عن طريق الوحي، لكن يبدو أنه ليس هناك دليل واضح لهذا الرأي، إنما المقصود هو الإلهام الباطني من قبل الله تعالى للإنسان، حيث استطاع من خلال إيجاد الصوت عن طريق الحنجرة، ثم إيجاد الحروف عن طريق حركة اللسان والاعتماد على مخارج الحروف، ثم تركيبها مع بعضها وإيجاد الكلمات، ثم تسمية الأشياء والمفاهيم المختلفة، بحيث يعكس مقاصد الباطنية والمفاهيم المادية والمعنوية، الجزئية والكلية، المستقلة وغير المستقلة كافة عن هذا الطريق السهل الذى هو فى متناول أيدي الجميع، والحقيقة أنه لو لم تكن هذه الهبة الإلهية الخلاقية ولم يعرف الإنسان التكلم لما وُجدت الحضارة، ولما ارتقى العلم إلى هذا الحد، ولما تمكن الإنسان من بناء قواعد حياته على أساس التعاون الجماعي، لأن التعاون فرغ من علاقة التقارب مع الآخرين.

وورد في تفسير الميزان أن من أقوى الأدلة على أن اهتداء الإنسان إلى «البيان» قد تم بالهام الهبي، هو اختلاف اللغات باختلاف الامم والطوائف فى الخصائص الروحية والاخلاقية والنفسانية وبحسب اختلاف المناطق الطبيعية التى يعيشون فيها «٣».

وقد قدر بعض المحققين عدد اللغات الموجودة فى العالم ب «ثلاثة آلاف لغة»، وقال بعضهم أن العدد يفوق ذلك «٤».

وهذا الاختلاف عجيب حقاً، وهو من براهين قدرة وعظمة الله تبارك وتعالى

(١) تفسير القرطبي، ج ٩، ص ٦٣٢٢، و تفسير روح المعاني، ج ٢٧، ص ٨٦.

(٢) إذا فُسِّرَت (البيان) في بعض الروايات على أنها الاسم الأعظم فهو من باب ذكر المصداق الواضح.

(٣) تفسير الميزان، ج ١٩، ص ١٠٧.

(٤) دائرة المعارف «فريد وجدى»، ج ٨، ص ٣٦٤.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١١٠

فَأصلُ التكلّم من آياتِ الله العظيمة، وهذا التنوع في اللغات آيةٌ عظيمةٌ أخرى وكلاهما يعتبر من خصائص خلقه البشر.

من الممكن أن تنطق بعض الطيور عن طريق التعليم المتكرر عبارات جذابة، ولكن - ممّا لا شك فيه - أنّ عمَلها ليس إلتقليد لالفاظٍ محدودةٍ صادرةٍ عن الإنسان من غير ادراكٍ لمفاهيم هذه الالفاظ، فالإنسان وحده الذي يستطيع - بنحوٍ غير محدودٍ وبادراك تام - أن يكونَ جُملاً ويصب فيها مفاهيم مختلفةً ويعبر عنها.

وفي (توحيد المفضل)، يلفت الإمام الصادق عليه السلام النظر إلى هذه الآية العظيمة، حيث يقول عليه السلام للمفضل: «... اطلّ الفكر يا مفضل في الصوت والكلام وتهيئه آلاته في الإنسان، فالحجره كالأنبويه لخروج الصوت، واللسان والشفتان والاسنان لصياغة الحروف والنغم، الم تر أن من سقطت أسنانه لم يقم السين، ومن سقطت شفته لم يصح الفاء، ومن ثقل لسانه لم يفصح الراء، وأشبه شيء بذلك المزمار الأحمر...» (١).

ثم يشرّح الإمام عليه السلام تفاصيل ذلك للمفضل ويدعوه إلى التفحص بهذا الأمر.

وفي الآية السابعة والأخيرة من بحثنا، يخاطبُ تعالى الرسول صلى الله عليه وآله وأمره: «فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ»، فقد يكون المقصود من «التذكير» إشارة إلى أن حقائق هذه العلوم والمعارف وخلاصتها موجودة في وجدان وروح الإنسان طبقاً للهداية الإلهية، ثم تفتح هذه العلوم في ظل تعاليم الأنبياء والرسل (عليهم السلام)، حيث تخرج من مرحلة «الخفاء» إلى مرحلة «الظهور»، ومن «الاجمال» إلى «التفصيل» ومن «الباطن» إلى «الظاهر».

وقد وردت هذه الآية أربع مرات في القرآن الكريم في سورة القمر عند بيان وقائع قوم «فرعون» و «عاد» و «ثمود» و «لوط» حيث يقول تعالى «وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ». (القمر/ ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠)

(١) بحار الأنوار، ج ٣، ص ٧١.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١١١

وهذا الكلام معروف أيضاً عن بعض الفلاسفة اليونانيين، حيث يقولون: «ليست العلوم والمعارف إلا التذكير، ولقد اودعت جميع القواعد العلمية روح الإنسان دون استثناء، وقد نسيها الإنسان إلا أنها تعود إلى الذاكرة بمساعدة المعلمين».

يقول الفخر الرازي في تفسيره: «لو قال قائل: هذا يقتضى وجود أمر سابق فنسى، ونقول: ما في الفطرة من الانقياد للحق هو كالمُنسى فهل من مدكّر يرجع إلى ما فطر عليه» (١).

على أية حال، فإن جميع هذه الآيات دليلٌ حثي على الهداية الإلهية الفطرية للإنسان.

توضيح

الهداية الفطرية والغريزية في العلم المعاصر:

مع تطور علم النفس، وعلم التحليل النفسى، وبحوث العلماء حول الحواس ذات الأسرار الغريبة للحيوانات، اكتشفت الكثير من أسرار الهداية الفطرية والغريزية الغريبة والمدهشة فى عالم الأحياء، ونواجه ظواهر تعجز العلوم عن تفسيرها، ولا يمكن أبداً الوقوف على مصدر هذه الهدايات، إلا أن نَسَلِّمُ بأن مبدىء عالم الوجود الذى تكفل بهدايته جميع الكائنات هو الذى وَهَبَ هذه العلوم عن طريق الالهام الفطرى الخفى للإنسان أو الحيوانات.

ولدينا فى هذا المجال قدر وافر من الشواهد بحيث لو جُمعت لشكَّلت كتاباً كبيراً، منها الحالات الدقيقة الآتية:

١- إنَّ الطفل حين ولادته يعرف جيداً ومن دون الحاجة إلى معلّم كيفية الامساك بالثدى والرضاعة، واستخدام اليد والأصابع لهذا العمل، وعكس وايصال حاجاته إلى الأم عن طريق البكاء ويكون حاملاً لاستعدادات خفية اكتسبها من أمه، من بينها: ابتداء الكلمات،

(١) تفسير الكبير، ج ٢٩، ص ٤٢.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١١٢

قابلية التكلم وفهم اللغات بالإضافة إلى إدراك الحسن والقبح وقسم كبير مما يجب وما لا يجب ويحمل فى نفسه بشكل فطرى معرفة عالم الوجود بالإضافة إلى معرفة الله سبحانه وتعالى.

يقول أحد العلماء: حينما تحتضن الأمهات أطفالهن لتهديتهم فهن يضعنهم على الجانب اليسر من الصدر بلا علم منهن بهذا الفعل، حيث يضعن أطفالهن بجوار قلوبهن، فيهدأ الطفل بمجرد سماعه ضربات قلب الأم لأنه اعتاد على سماع هذا الصوت عندما كان جنينا فى بطن أمه وقلما توجد ام ملتفتة إلى هذه المسألة، ولذا فإنها تؤدّى عملها هذا فى هذا المجال بالهام فطرى محض.

٢- إنَّ مسألة الهداية الفطرية والغريزية فى عالم الحيوان أوسع بكثير عمّا هى عليه فى الإنسان، حيث يعرض علماء العصر نماذج مدهشة منها، فقد جاء فى كتاب (البحر دار العجائب) تأليف (فرد ديناندلين) ما يأتى:

«إنَّ تصرفات بعض الأسماك تُعدّ من أسرار الطبيعة حيث يعجز كلُّ إنسانٍ عن بيان سببها، فاسماك ال (قزل آلا) تترك مياه البحر لتعود إلى مياه الأنهار العذبة التى بدأت حياتها فيها، وتسبح بجِدِّ فى الاتجاه المعاكس لتيار الماء، وتقفز من فوق الصخور، بل وتصعد على الشلالات أيضاً، وقد تملأ النهر لكثرتها أحياناً، وعندما تصل هذه الأسماك إلى المكان الذى تبحث عنه تضع بيوضها ثم تموت!

فكيف تهتدى هذه الأسماك إلى الأنهار المناسبة ياترى أنّها أكثر إثارة للعجب من اختراع المذياع والتلفاز، لأنها لا تمتلك خارطة، كما أنّ قابليتها على الرؤية تحت الماء ضعيفة، وليس هناك من يُدلُّها على الطريق «١».

٣- وجاء فى نفس ذلك الكتاب: «إنَّ تصرف (الجري) أكثر عَجَباً من هذا، فحينما يبلغ سمك الجري «الانجليزى» ثمانى سنوات يهجر الحوض أو النهر الذى يعيش فيه ويزحف ليلاً كالافعى على الاعشاب الرطبة حتى يصل إلى شاطئ البحر، ثم يطوى المحيط

(١) البحر دار العجائب، ص ١١٦.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١١٣

الاطلسى سباحةً ويتجه نحو المياه القريبة من (مثلث برمودا) حيث تضع الاناث بيوضها تحت الماء هناك وتموت ... والمدهش أنّ صغار سمك الجري تعوم على سطح الماء ثم تبدأ سَفراً طويلاً نحو الوطن الأم، حيث تستغرق هذه الرحلة سنتين أو ثلاث سنوات! فكيف يعرف الجري هدفه هذا مع أنّه لم يسلك هذا الطريق أبداً؟!

إنَّ الجواب عن هذا السؤال يستوى فيه جميع الناس حتى أعلم العلماء وهو (لا أعلم) «١».

٤- يقول (فيتوس درفيشر) مؤلف كتاب (الحواس الخفية للحيوانات): «لقد اكتشف العلماء أسراراً مذهلة عن الخفاش، منها وجود

أربعة أنواع من الخفافيش التي تصطاد الأسماك، فهي تحلق ليلاً فوق الماء وتمتد أرجلها فيه فجأةً لتصطاد سمكةً وتأكلها، إنه سرٌّ مدهشٌ فمن أين لها العلمُ بأن في تلك النقطة سمكةٌ تسبح تحت الماء؟ لم يفلح الإنسان بالقيام بهذا العمل حتى الآن بالرغم من وسائله واختراعاته العلمية، فلا تستطيع أى طائره قاذفه أن تحدّد مكاناً معيناً لغواصه تحت الماء، وإن استطاعت فعليها أن تطلق موجات خاصة على الماء كى تحدد مكان الغواصه من خلال الذبذبات التى تنبعث من الغواصه إلى الطائره بواسطة الأمواج اللاسلكيه.

أجل، فالطائره على عكس الخفاش لم تستطع الاطلاع مباشرةً على مكان وجود الهدف الذى تحت الماء، .. يقول البروفسور (غيرى فون) «ليس هناك توضيحٌ يمكنُ قبوله لهذا الموضوع أبداً».

ثم يضيف قائلاً: «ولم يكتشف الإنسان شيئاً حتى الآن إلا ويوجد الطبيعة قد سبقته إليه».

ومن الطبيعى أن يبعث هذا الاكتشاف عند الإنسان الغرور، لكنه لا يلبث أن يجد نفسه متأخراً عن الطبيعة فى هذا المضمار.

لهذا فقد استحدثت العلماء الاميركيون علماً جديداً باسم «البيولوجيا»- علم البيئه-، وهدفه تعلم الفنون والأساليب الجديده من الدروس التى تمنحها لنا الطبيعة من خلال الوصول إلى أسرارها.

(١) البحر دار العجائب، ص ١١٦.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١١٤

ثم يضيف قائلاً: «لو وضعنا أحد هذه اللبائن (الخفاش) فى صندوقٍ مُقفَلٍ مُظلمٍ وابتعدنا به ثلاثمائة كيلو متر عن عُشه ثم اطلقناه، نجده يعود مباشرةً وبقصرٍ وقتٍ إليه بالرغم من كونه شبه أعمى وكون ذلك المكان مجهولاً بالنسبة إليه» (١).

٥- ويوضح الكاتب المعروف (غرسى موريسن) فى كتابه (سرُّ خلق الإنسان) وفى فصوله تحت عنوان (الشعور الحيوانى)، صوراً لنماذج من هذا القبيل منها:

إنّ الطيور تبنى وتوجد أعشاشها بشكلٍ غريزى (على الرغم من أنّها لم ترَ نموذجاً من قبل)، فطيّر السنونو الذى يبنى عُشه فى رواق البيوت يهاجر فى فصل الشتاء إلى المناطق الدافئه، وأما إذا لاحت طلائع الربيع فهو يعود إلى وكره.

والكثير من الطيور تهاجر نحو الجنوب والمناطق الحاره، وأغلبها يقطع مئات الفراسخ براً وبحراً إلا أنّها لا تضلّ الطريق إلى أوكارها أبداً.

والأسماك الحرّة تعيش سنواتٍ عديده فى البحر، ثم تعود إلى النهر الذى جاءت منه، والاكثر عجباً أنّها تقفز من شاطئ النهر المرتفع وتذهب إلى النهر الذى وُلدت فيه ...

فالأسمالك الحرّة تتبع شعورها الباطنى، وتذهب إلى الساحل الذى كان محلّاً لنشوئها ونموها، فأى شعورٍ يؤدى إلى أن يعود هذا الحيوان إلى وطنه بهذا النحو الدقيق؟ «لا علم لأحد».

فلو أخرجنا فرخ طيرٍ من عُشه وقمنا بتربيته فى بيئه اخرى فهو يبدأ ببناء عشٍ له عند بلوغه مرحلة الرشد والتكامل وبالاسلوب الذى يتبعه أبواه، فهل أنّ الأعمال المحدده والمختلفة التى تصدر عن جميع مخلوقات الأرض تحدث صدفةً، أم أنّ العقل والشعور العام يؤدى إلى صدورها؟ (٢).

٦- ويقول أحد العلماء الفرنسيين ويدعى «فارد» بصدد طائرٍ يسمى (اكسيكلوب) ما يأتى:

(١) الحواس الخفيه للحيوانات، ص ١٧.

(٢) سرُّ خلق الإنسان، الفصل ٨، الشعور الحيوانى.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١١٥

«لقد درست أحوال هذا الطائر، فوجدت من خصائصه أنه يموت عندما يكمل وُضِعَ بيوضه، أى أنه لا يرى فراخه أبداً، ولذلك فإنّ الفراخ سوف لن ترى وجه الأم المليء بالحنان إلى الأبد، وعندما تخرج من البيضة تكون على هيئة البرقة عديمة الريش والأجنحة ولا قدرة لها للدفاع عن نفسها تجاه ما يهدد حياتها، لذلك فعليها البقاء لمدة سنه كامله على هذه الحال وفي مكان آمن، وأن يكون غذاؤها إلى جانبها، لهذا فحينما تشعر الأم بحلول موسم وضع البيوض تبحث عن مقطع خشبي فتقوم بثقبه، ثم تشتغل بجمع الأطعمة، فتجمع الأوراق والأغصان التي يمكن استخدامها لتغذية فراخها لمدة سنه كامله وتعدّه لواحده من هذه الفراخ، ثم تضعه في نهاية الثقب وتضع عليه بيضة واحدة وتبنى فوقه سقفاً قوياً نسبياً من عجينه الخشب، وتبقى تشتغل بجمع الأطعمة، وبعد تأمين قوت سنه كامله لفراخ آخر ووضعه على سقف الطبقة الاولى تضع بيضة اخرى ثم تبنى طبقة ثانية، وهكذا تقوم ببناء عدة طبقات ثم تموت بعد الفراغ من العمل! (تأملوا جيداً .. من اين جاءت معرفه هذا الطائر الضعيف بأنّ لفراخه مثل هذه الحاجات؟ وممّ استلهم هذه التعاليم؟ فهل تعلمها من أمه؟ في الوقت الذي لم يرها أبداً، أم من خلال التجربة، علماً أنّ هذا العمل لا يقع إلّا مرة واحدة في حياته ... ألا يجب الاعتراف بأنّ هذا الفعل يستند إلى الهام غيبى و غريزي حيث وضعت يد القدرة الإلهية في كيانه؟!).

٧- يقول العالم النفساني الروسي المعروف (بلاتونوف) في كتابه (علم النفس في الاتحاد السوفيتي):

«التقيت أثناء الحرب العالمية العظمى صدفه بطبيب لم يَرَ النوم لبضع ليالٍ، ثم تمكّن من النوم قليلاً، وأثناء ذلك جرى بعدد كبير من الجرحى الذين يجب علاجهم فوراً، إلّا أنّ الطبيب المذكور لم يستيقظ، فحرّكناه وسكبنا الماء على وجهه، فكان يحرك رأسه ويعود إلى النوم، فأشرت إلى الموجودين بالسكوت «كى اوقظه»، ثم قلت له بهدوء وبشكل واضح: أيها الطبيب جاؤوا بالجرحى وهم بحاجة ماسه إليك، هنا استيقظ فوراً.

ثم يضيف: كيف يمكن تبرير هذا الأمر، فهؤلاء الذين كانوا يسعون لا يقاظه كانوا

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١١٦

يوجهون التأثيرات على القسم غير الفعال من دماغه، بينما وضعت «دائرة الحراسه من المخ» في حالة انذار وترقب فهذا الجزء يبقى مستيقظاً حتى في أعماق حالات النوم، ومن خلال دائرة الحراسه هذه يقيم الإنسان علاقاته مع العالم الخارجي (ويودع المسائل التي يرغب بها في هذه الدائرة بلا قصد منه).

والأم التي تنام إلى جانب طفلها المريض ولا يمكن لأعلى صرخات الذين من حولها أن توقظها، تستيقظ لأقلّ أنّ تصدر من طفلها. والطحان الذي ينام عند حدوث العواصف المصحوبة بالبرق والرعد يستيقظ بمجرد توقف طاحونته عن العمل، كل ذلك بسبب ايداعهم لما يريدونه في دائرة الحفظ في المخ في حالة اللاشعور» (١).

٨- ويقول (دريشر) في كتابه حول الحمام الزاجل وعودته المدهشه إلى عشه:

«لو وضعنا هذا الطائر في صندوقٍ مقفلٍ مظلم وأبعدناه مئات الكيلو مترات عن وكره، وسلطنا به الطرق الملتوية والمعقدة أثناء رحلتنا، فإنّه حال اخراجه من الصندوق يطير مباشرة نحو عشه بعد عشر أو عشرين ثانية من رؤيته النور، وقد ثبت ذلك عن طريق الاختبارات المتكررة التي قام بها عالمٌ معروفٌ يدعى الدكتور «غرامر» .. ويمكن توضيح اسلوب عمله بهذا المثال: فلو أنّ هذا الطائر كان في مدينة هامبورغ فإنه يعلم أين تكون الشمس عند الساعة الفلانية من اليوم، فإذا أخذوه إلى مدينة «بروم» مثلاً فإنه يفهم أنّ الشمس هناك تكون إلى الشمال من ١/٢٥ درجة شرقاً بنصف درجة.

فمن أجل عودته إلى وكره في هامبورغ يجب عليه التحليق نحو الشمال الشرقي مع الأخذ بنظر الاعتبار وضع الشمس في هامبورغ. إلّا أنّه ليس معلوماً كيف تقوم هذه الطيور بتحديد طريقها عندما يكون الجو غائماً حيث تختفي الشمس؟ لقد أثبت التجارب أنّ أغلبها يجد طريقه بدون الاستفادة من حركة الشمس كبوصله لتحديد اتجاهها» (٢).

(١) علم النفس في الاتحاد السوفيتي، ص ١٩ «مع شيء من الاختصار».

(٢) الحواس الخفية للحيوانات، ص ١٨٣.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١١٧

ولو فرضنا أن هذه الطيور تستفيد من حركة الشمس، فمن المسلم به عدم مقدرتها على تعيين الزوايا، وهي زوايا صغيرة جداً، لا يمكن قياسها الا من خلال الاستعانة بالمتقلة لتحديدتها، وهذه مسائل لا يمكن تفسيرها إلا في ظل الهداية التكوينية الإلهية. إن هذا الطائر ومئات مثله دليل حقيقي على أن وراء الطبيعة علماً وقدره لا متناهية تهدي وتقود كل موجود في مسيره حياته ... نعم كل هذا دليل على من لا دليل له.

٩- ونختم الحديث بكلام ورد عن الإمام الصادق عليه السلام طبقاً لما جاء في (توحيد المفضل)، حيث يقول عليه السلام: «فكر يا مفضل في خلقه عجيبة جعلت في البهائم، فأنهم يوارون أنفسهم إذا ماتو كما يوارى الناس موتاهم، وإلا فأين جيف هذه الوحوش والسباع وغيرها لا يرى منها شيء؟ وليست قليلة فتخفي لقلتها؛ بل لو قال قائل: إنها أكثر من الناس لصدق، فاعتبر ذلك بما تراه في الصحارى والجبال من أسراب الطبا والمها والحمير والوعول والأياثل وغير ذلك من الوحوش، وأصناف السباع من الأسد والضباع والذئب والنمور وغيرها، وضروب الهوام والحشرات ودواب الأرض، وكذلك أسراب الطير من الغربان والقطا والأوز والكرابي والحمام وسباع الطير جميعاً وكلها لا يرى منها شيء مات إلا الواحد بعد الواحد يصيده قانص أو يفترسه سبع ...» (١).

(١) بحار الأنوار، ج ٣، ص ٩٩ (مع شيء من الاختصار).

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١١٩

٦- آياته في حالتى النوم واليقظة

تمهيد:

لم يقتصر القرآن الكريم على إشارته إلى الموضوعات المهمة جداً كخلق السماوات والأرض، والشمس والقمر، وروح الإنسان، بصفتها آيات وبراهين من الله تعالى فحسب، بل نراه أحياناً يتعرض إلى المسائل العادية في نظرنا أيضاً، لكي يوضح لنا أن ليس هناك شيء عادي في هذا العالم، فكلها آيات حقي كبيرة كانت أم صغيرة، وبراهين عظيمة على علم وقدره البارى تعالى ومن بين هذه الامور التي تُعدُّ عادية حسب الظاهر، هي حالتا النوم واليقظة اللتان استند اليهما القرآن الكريم على وجه الخصوص. بهذا التمهيد نقرأ خاشعين الآيات الكريمة الآتية:

١- «وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِّنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ». (الروم/ ٢٣)

٢- «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِيَأْسَواَ وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا».

(الفرقان / ٤٧)

٣- «وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَأْسَواَ». (النبا/ ٩- ١٠)

٤- «إِذْ يُعَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَ كُمْ بِهِ».

(الانفال / ١١)

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٢٠

شرح المفردات:

حينما يتطرق بعض أرباب قواميس اللغة إلى مصطلح «النوم» يقولون إنَّ له مفهوماً معروفاً «١». إلَّا أنَّ الراغب يقول في كتاب المفردات:

النوم: فُسر على أوجه كلها صحيح بنظرات مختلفة، قيل هو استرخاء أعصاب الدماغ برطوبات البخار الصاعد إليه، وقيل هو أن يتوفى الله النفس من غير موت، قال: «الله يتوفى النفس» الآية، وقيل النوم موت خفيف والموت نوم ثقيل «٢». و«النُّعاس»: «على وزن عُبار» ويعنى النوم القليل والخفيف، وفُسر بعض على أنه بداية النوم، وهنا حيث يكون النوم خفيفاً في بدايته فإنَّ كلا المعنيين يعودان إلى حقيقة واحدة.

و«السبات»: مأخوذة من مادة «سَبَت» (على وزن تَبَت) أى «القطع»، ولهذا سُمِّي يومُ السبت بهذا الاسم في لغة العرب، حيث كان يوماً لتعطيل الأعمال من أجل الراحة، ومما يظهر أنَّ هذه التسمية مستوحاة من أفكار اليهود حيث يعتبرون يوم السبت عطلة لهم، وهذا ما يعتقد به اليهود، إذ يقولون إنَّ الله تعالى بدأ خلق العالم يوم الأحد وانتهى بعد ستة أيام فكان يوم السبت نهايةً لخلق البشر وللراحة إلَّا أننا نعلم أنَّ هذا من الأخطاء الفاضحة لليهود، لأنَّه في الوقت الذي لم تكن هناك سماء ولا أرض ولا شمس ولا قمر لم يكن هناك وجود لليوم والاسبوع أيضاً وحينما يقول القرآن الكريم: «خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ» فالمقصود «ست مراحل». وكلمة «السبت» جاءت بمعنى الراحة أيضاً «٣».

جمع الآيات وتفسيرها

النوم من آيات الله:

في الآية الأولى من البحث يُعدُّ القرآن الكريم نوم الإنسان في الليل والنهار أحد

(١) لسان العرب ج ١٢، ص ٥٩٥، مادة (نوم).

(٢) لسان العرب، مادة (نوم).

(٣) مفردات الراغب؛ مجمع البحرين؛ لسان العرب.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٢١

البراهين على علم وقدره الله تعالى فيقول: «وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ».

وهو في نهاية الآية يؤكد هذا البرهان «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ».

ومما لا شك فيه أنَّ الكائنات الحيَّة كافة تحتاج إلى الراحة لتجديد قواها، واكتساب الطاقة اللازمة لاستمرار نشاطاتها الحياتية، الراحة التي تلاحقهم تلقائياً، وتجبر حتى الذين يحرصون على عدم التمتع بها.

فأى عامل أفضل من النوم يمكن أن نفكر به من أجل تحقيق هذا الهدف حيث يلاحق الإنسان بشكل إجباري ويضطره ليقاف جميع نشاطاته الجسمية، بل حتى بعض من نشاطاته الفكرية الأساسية، وفي النتيجة يغط في راحة عميقة، وخلال هذه الفترة تقوم أجهزة الجسم باعادة البناء والاستعداد للسعى والحركة من جديد.

ومما لا شك فيه أنَّ الإنسان لولا- النوم، فأنه يذبل ويثقل، ويصيبه العجز والانكسار بسرعة، لذلك فقد قالوا: إنَّ النوم المعتدل والاستقرار سرُّ السلامة وطول العمر وحيوية الشباب.

واللطيف أنَّ الآية التي نبحتها وضعت «النوم»، و«إِتِّغَاءُ فَضْلِ اللَّهِ» في مقابل بعضهما، وحسب قول بعض المفسرين أنَّ الأول هو علامة

الموت والثاني علامة القيامة.

إنّ تعبير «ابتغاء فضل الله» يشير إلى نقطة ظريفة وهي أن سعى وجهد الإنسان في حياته من المسائل ذات الأهمية، وكذلك الفضل الإلهي، والجمع بين الاثنين تجعل الإنسان يستفيد من مواهب هذا العالم.

وهنا توجد نقطة جديرة بالاهتمام أيضاً حيث ذكرت الآية أعلاه النوم بالنهار إضافة إلى النوم بالليل: «مَتَّامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ»، في الوقت الذي يُعتبر النوم مختصاً بالليل فقط حيث تؤكد آيات القرآن الكريم هذا المعنى إلماً أنّ بعض الظروف التي تطرأ في حياة الإنسان تجبره على أن يسهّر الليل وينام النهار، ويُلاحظُ هذا الأمر كثيراً في السفر ليلاً، وفي المناطق الحارة جداً حيث تتوقف النشاطات النهارية بسبب حرارة الجو ويكون العمل فقط أثناء الليل.

وفي عصرنا الراهن حيث تكون الكثير من المؤسسات الصناعية، ومعامل صناعة الأدوية مضطرة للعمل ليلاً ونهاراً، إذ من الصعوبة إيقاف العمل، ممّا يدفع العمال إلى تقسيم

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٢٢

أعمالهم إلى ثلاث وجبات يومياً، فتتضح الحاجة إلى النوم في النهار أكثر من أي وقتٍ آخر.

والآن .. فلو لم يكن برنامج تنظيم النوم بيد الإنسان، ولم يتيسر النوم نهاراً بدلاً عن الليل، فمن المسلم به أن مشكلاتٍ كبيرة ستعرض حياتها.

وفي الآية الثانية بعد ذكر: «هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِبَاسًا» يشير إلى مسألة النوم حيث يقول تعالى «وَالنَّوْمَ سُبَاتًا».

ومن الممكن أن يكون تعبير «هو الذي» إشارة إلى الجانب التوحيدي لهذه الامور، فكلّ منها دليل على الذات المقدسة، أو جانب الانعام كي يعرف الإنسان ولي نعمته، ومن المسلم به أن الإشارة إلى وليّ النعمة ستكون مقدّمة لمعرفة أيضاً. واللطيف أنّه يقول بعد ذلك: «وَجَعَلَ النَّهَارَ نَشُورًا» (١)

أجل ... ففي وضوح النهار تنتشر الروح ويستيقظ الإنسان بشكل كامل، إذ لا يخلو من شبه بنشور يوم القيامة والحياة ما بعد الموت.

وهذا الاحتمال ممكن أيضاً، حيث يشير إلى انتشار الناس في ميدان الحياة وحركتهم نحو مقاصدهم المعاشية المختلفة، وبهذا فإنّ أجراس النوم والراحة تفرع مع حلول الظلام، وتندق هذه الأجراس في النهوض مع بزوغ الشمس.

وفي الآية الثالثة تكرر هذا المعنى باختصار طفيف إذ يقول: «وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا* وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا»، فكما يصبون اللباس الإنسان من الاخطار ويكون له دوراً في سلامته فإنّ ظلام الليل له مثل هذا الأثر.

وفي الآية الرابعة والأخيرة في هذا البحث، وحينما يتحدث القرآن الكريم عن وقائع غزوة بدر يشير إلى أنّ احدي نعم الله على المؤمنين في تلك الليلة التاريخية كانت «أدّ

(١) تأملوا جيداً أنّ «النشور» معنى لمصدر، و «السبات» معنى لمصدر أيضاً أو اسم مصدر، واطلاقهما على الليل والنهار يفيد المبالغة والتأكيد.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٢٣

يُغَشِّيْكُمْ النَّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ».

لقد كان هذا النوم الرغيد سبباً في تجديد قواهم والاستعداد للمعركة الحاسمة في ساحة المعركة بدر صباحاً، وبخاصة بعد قطع تلك المسافة الطويلة إلى حد ما، تلك المعركة التي انتهت بنصر مبین للمسلمين.

ولعلّ تعبير «النعاس» إشارة إلى عدم استحواذ النوم العميق عليهم بالرغم من تمتعهم بالراحة، كي لا يستغل العدو الوضع السائد

وبإغاثتهم ليلاً، ولهذا كانت حقيقة ذلك النوم نعمةً وكيفيته نعمةً أخرى على أئمةِ حالٍ، فإنَّ الآيةَ أعلاه تعتبر تأكيداً على أثر النوم على أعصاب وجسم الإنسان أيضاً، وتجديد الطاقات من أجل مثابرة أكثر وجهادٍ أكثر فاعليَّة في كافة المراحل.

توضيح

ظاهرة النوم الخفية:

مع أنَّ «النوم» و«الرؤيا» تعتبر بالنسبة لنا أمراً عادياً، إلَّا أنَّ العلماء لم يتوصلوا إلى عمق هاتين الظاهرتين المهمتين بالرغم ممَّا بذلوه من مساعٍ وجهود.

فأى فعلٍ وانفعالاتٍ تطرأ على جسم الإنسان ليتوقف فجأة القسم الأعظم من نشاطاته الجسمية والروحية؟! ويحصل هذا التغيير في جميع أجزاء جسمه وروحه كذلك، فلا يفهم شيئاً ولا يبدي أى حركةٍ ويستلقى جانباً كالصخرة، ولو غرقت الدنيا بأكملها فهو نائمٌ لا يدري. ومع كل هذه التوضيحات والآراء والفرضيات التي قيلت في هذا المجال، فقد حافظ النوم على صورته المدهشة! والأكثر عجباً من ذلك مسألة (الرؤيا) التي تُعدُّ من الأغايز العظيمة كروح الإنسان.

وطبعاً أنَّ الحديث المفصل بصدده حقيقة وأسرار هاتين الظاهرتين خارجٌ عن موضوع بحثنا، لأنَّ الغاية من بحث الآيات المذكورة هي بيان المنافع الكثيرة، والفوائد التي لا تُحصى للنوم من جانب ومن جانب آخر كونه نعمةً من نعم الله.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٢٤

فالنوم المعتدل دائماً يعتبر دليلاً على سلامة روح واعصاب الإنسان، لذلك فإنَّ أهمَّ أسئلة الأطباء للمصابين بالأمراض النفسية تدور حول كيفية نومهم.

فلا تتوقف الاجهزة الأساسية في جسم الإنسان كالقلب والرئة أثناء النوم، لكنها تعملُ بهدوءٍ أكثر، ويصبحُ دوران الدم في الأعضاء أكثر تناسقاً، ويتوقف نشاط الدماغ تقريباً، وتستقر جميع العضلات أيضاً، فتؤدى كلُّ هذه الامور إلى حصول هذه الأعضاء على فرصةٍ لتجديد بناء بنائها.

وخلال النوم تُزال سمومُ الجسم، وتعالجُ كثير من الأمراض.

لقد أورد «روخلين» في كتابه (الرؤيا في نظر بافلوف) بحثاً تحت عنوان (العلاج بالنوم العميق) قائلاً:

«بناءً على فرضية «بافلوف» فإنَّ النوم عبارة عن ظاهرة توقُّف من أجل الصيانة وتجديد القوى وعليه فيمكن استغلاله كعاملٍ للعلاج من الأمراض المختلفة، وتؤدي التجارب اليومية دور النوم في ذلك أيضاً».

ثم يضيف: «إنَّ النوم العميق الطويل مؤثر على تحسُّن صحة المريض، لأنَّ المرضى ينامون أكثر من المعهود بعد مرضٍ طويلٍ من أجل استعادة قواهم وسلامتهم».

ويقول: «لقد واجه العلاج عن طريق النوم رواجاً واسعاً في الاتحاد السوفيتي، وقد استخدمت هذه الطريقة لأول مرةٍ لمعالجة (جنون الشباب) «الشيزوفرينيا» الذي يعتبر من الأمراض النفسية الشائعة».

ويقول في جانب آخر من حديثه: «تمَّ الحصول على نتيجةٍ مرضيةٍ لعلاج المصابين بارتفاع ضغط الدم عن طريق النوم العميق ... فالنوم الطويل الذي هو حالة من الراحة الكاملة للمخ، يُجدد قدرة الجهاز العصبي ويوازن تنظيم نشاط الأعضاء الداخلية، ويترك أثراً إيجابياً مساعداً للوضع العام للإنسان» (١).

أجل؛ فالذى خلق الإنسان سالماً من أجل السعى والنشاط، وضع جميع وسائل ذلك تحت تصرفه، وأحدّها نظام النوم واليقظة، النظام الذى تبرز فيه بكل وضوح براهين حكمه البارى عز وجل.

(١) النوم فى نظر بافلوف، ص ١١٢-١١٦ (مع الاختصار).

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٢٥

٧- آياته فى بسط السماوات والأرض

تمهيد:

بعد أن ذكرنا آيات (الانفس) نتجه صوب آيات الآفاق:

لقد كانَ النظر إلى السماوات والأرض على الدوام دافعاً لتفكير الإنسان، وكلّما تطوّر علم الإنسان تعاظم العالم السماواتى ذو الأسرار العجيبة فى نظره، فلو قيسَتْ عظمَةُ السماوات فى نظر علماء اليوم مع ما مضى لكانت «كالقطرة» إلى «البحر»، وليس معلوماً أن يكون «الغد» كذلك فى قياسه مع «اليوم».

فماذا يجرى فى هذه المنظومة والمجرات الكبيرة، والنجوم الثابتة والسيارة؟ وما هى العوالم الموجودة فيها؟

وإلى أىّ زمانٍ يعود تاريخ ظهورها؟

وهل هناك من يسكن فيها؟ وإذا كان كذلك فهل أن حياتهم تشبه حياتنا أم يختلفون عنّا؟

هذه الأسئلة وعشرات أخرى تشغل فكر كلِّ إنسانٍ باحثٍ ومتفحصٍ فى أمر السماوات.

يقول علماء العصر: إننا اليوم نرى نجوماً فى السماء قد اختفت من الوجود قبل آلاف السنين وربما قبل ملايين السنين، وهذا يعود إلى الفاصلة الخارقة بينها وبيننا، وأن نورها قد بدأ حركته منذ آلاف أو ملايين السنين وما زال فى طريقه إلينا، فإذا كان الميدان الحقيقى للسماء هكذا- وهو كذلك-، فإلى أىّ حدٍ يختلف مع ما نراه اليوم؟ ليس هناك من يستطيع الإجابة عن هذا التساؤل!

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٢٦

هذه التساؤلات وأمثالها كثيرة حيث يصعب الإجابة عنها من قبل العلماء.

لقد أصبحنا أمام مثل هذا العالم المملوء بالأسرار، فعظمته من جانب، والنظام والتقنين اللذان يسودانه من جانبٍ آخر، تكشف الستار عن القدرة والعلم اللامتناهى لمن له اليد فى هذا الخلق.

بعد هذا التمهيد نقرأ خاشعين الآيات الشريفة الآتية:

١- «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ». (آل عمران / ١٩٠)

٢- «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ... لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ». (البقرة / ١٦٤)

٣- «وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ». (الروم / ٢٢)

٤- «إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ». (الجاثية / ٣)

٥- «خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ».

(العنكبوت / ٤٤)

٦- «إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَيْعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ».

(يونس / ٣)

٧- «وَلَيْتَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ». (العنكبوت / ٦١)

٨- «لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ».

(غافر / ٥٧)

٩- «قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ». (ابراهيم / ١٠)

١٠- «وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ* وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ».

(الذاريات / ٤٧-٤٨)

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٢٧

١١- «وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفْهًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ». (الانبياء / ٣٢)

١٢- «اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ». (الرعد / ٢)

شرح المفردات:

لكلمة «الخلق» معنيان كما يقول صاحب «مقاييس اللغة»، أحدهما تقدير الأشياء، والآخر النقي والمسطح.

ويقول الراغب في المفردات: «الخلق» أصله التقدير، ويستعمل في ابداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء، قال تعالى «خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ» أى أبداعهما بدلالة قوله:

«يَدْبِغُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ»، ... وليس الخلق الذى هو الإبداع إله تعالى، ولذلك قال فى الفصل بينه تعالى وبين غيره: «أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَدَّكَّرُونَ»، أما الذى يكون بالاستحالة فقد جعله الله تعالى لغيره فى بعض الأحوال، وتستعمل هذه المفردة فى الكذب أيضاً (وربما اطلق على الكذب بسبب اختلاق وايجاد موضوع ما فى فكر السامع) «١».

ويقول ابن منظور فى «لسان العرب»: الخلق فى كلام العرب ابتداء الشيء على مثال لم يسبق إليه.

وعليه ... أن كلمة الخلق تعنى فى الأصل التقدير والتنظيم وتنقية الأشياء، إلا أنها استخدمت فيما بعد بمعنى الابداع والإيجاد وتغيير هيئة الأشياء بالنحو الذى يتبادر هذا المعنى الآن.

ومعنى «السماء» استناداً إلى ما قاله علماء اللغة، الشيء الذى يرتفع عالياً، لذلك فإن البعض يعتقد أن لها صفة النسبية حيث يمكن أن تكون نسبةً لشيء إلى شيء آخر كالسماء إلى الأرض، واشتق «الاسم» من هذه المادة أيضاً لأن التسمية عاملٌ فى رفعه وسمو مقام المسمى

(١) مفردات الراغب، ص ١٥٨.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٢٨

واستناداً إلى كلام مؤلف «التحقيق» فإن السماء قد تكون ملموسةً ومادية كما فى:

«أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً» أو معنوية كما فى: «قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ». (البقرة / ١٤٤)

ويقول «ابن منظور» فى «لسان العرب» أيضاً: السمو: تعنى الارتفاع والعلو «١».

وبناءً على ذلك فإن كلمة السماء لا تعنى هذه السماء فقط بل أى نحو من الارتفاع والعلو، ولكنها جاءت فى الآيات المنتخبة فى هذا البحث بشكل عام بمعنى السماء.

وتطلق «الأرض» فى الأصل على الجزء الأسفل لكل شيء قبالة «السماء» التى هى الجزء الأعلى لكل شيء، قال هذا الكلام صاحب

«مقاييس اللغة»، ويقول الراغب في تعبيرٍ مشابه: الأرض هي الجرم الذي يقابل السماء، ويعبّر عن أسفل كل شيء بـ «الأرض». وورد في كتاب «التحقيق» أنّ الأرض لها مسميات متعددة بعضها أوسع من بعضها الآخر، فهي تُطلق على المسكن، والمحل، والقرية، والمدينة، والبلد، والكرة الأرضية، وما تحت السماء، وحتى ما موجود في عالم الجسم وتحت عالم الأرواح، حيث يقال لكل منها «أرض»، وفي هذه المفاهيم يلاحظ قيدان هما الانخفاض، ومقابلة الارتفاع. «أرضة» (على وزن حذقة) وتعني الحشرة التي تخرج من الأرض وتأكل الخشب. واللطيف هو أنّ أحد معاني «الأرض» هو مرض الزكام، والآخر هو «الرعدة». ولعلّ السبب في ذلك أنّ هذه الأمراض تُقعّد الإنسان وتُخلّده إلى الأرض «٢».

- (١) في كتاب «العين» للخليل بن أحمد ذكرت «سما» بمعنى الارتفاع أيضاً، ص ٣٩١.
 (٢) مقاييس اللغة؛ مفردات الراغب؛ لسان العرب؛ مجمع البحرين؛ والتحقيق في كلمات القرآن الكريم، ص ٧١٢ وص ١١٣.
 نفاحات القرآن، ج ٢، ص: ١٢٩

جمع الآيات وتفسيرها

ارتفاع السماء آية حق!

الحديث في أول آية من البحث هو عن خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار اللذين يحصلان نتيجة دوران الأرض حول نفسها مقابل الشمس إذ يقول تعالى «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ».

وكما أوضحنا في بحوث المعرفة في المجلد الأول من هذا التفسير فإنّ «الالباب» جمع «لب» أي العقل الصافي والعميق، نعم.. فمن لهم مثل هذه العقول والألباب يستطيعون أن يروا آيات وبراهين كثيرة عن القدرة الإلهية في خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وليس آية واحدة أو برهاناً واحداً فقط.

واللطيف ما جاء في الرواية المشهورة الواردة في الكثير من التفاسير في تفسير هذه الآية حيث ورد فيها: قال ابن عمر: قلت لعائشة أخبريني بأعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وآله، فبكت وأطالت ثم قالت: كل أمره عجب، أتاني في ليلتي فدخل في لحافي حتى الصق جلده بجلدي، ثم قال لي: يا عائشة هل لك أن تأذني لي الليلة في عبادة ربي؟ فقلت يا رسول الله إني لأحب قربك وأحب مرادك قد أذنت لك، فقام إلى قرب ماء في البيت فتوضأ ولم يكثر من صب الماء، ثم قام يصلي، فقرأ من القرآن وجعل يبكي، ثم رفع يديه فجعل يبكي حتى رأيت دموعه قد بلت الأرض، فأناه بلال يؤذن لصلاة الغداة فرآه يبكي، فقال: يا رسول الله أتبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟

فقال صلى الله عليه وآله: يا بلال أفلا أكون عبداً شكوراً، ثم قال: ما لي لا أبكي وقد أنزل الله في هذه الليلة: «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» ، ثم قال: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها» «١»

صحيح أنّ كلّ من ينظر إلى السماوات والأجرام السماوية يهتدي إلى آيات من آيات الله تعالى إلهاً ذوى العقول والألباب يستفيدون أكثر من سواهم، فهؤلاء يرون آثار قدرة الله

(١) تفسير روح الجنان؛ ج ٣، ص ٣٨٤؛ تفسير الكبير ٩ ص ١٣٤؛ و تفسير روح المعاني، ج ١٤٠٤؛ تفسير القرطبي، ج ٣، ص ١٥٥٢ وتفسير اخرى

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٣٠

تعالى في كل مكان من السماء، فهم يجدون في خلق كل منظومة، وكل مجزة، وفي حركاتها المنتظمة العجيبه أسراراً لم يجدها سوى اولى الألباب.

وما يلفت النظر أنه ذكر في الآية الثانية «قَوْمٌ يَعْقِلُونَ» بدلاً من «اولى الألباب»، وفي الآية الثالثة «عَالِمِينَ»، والرابعة والخامسة «مؤمنين». وفي الحقيقة، كما ورد من تفصيل سابق في بحث (مصادر ومجالات المعرفة) في المجلد الأول من هذا التفسير فإن كلاً من الميزات أعلاه (الألباب، التعقل، العلم، والإيمان) تعتبر أرضية مناسبة للمعرفة والاطلاع بشكل أكثر عن آيات الله.

وهذه مسألة جديرة بالاهتمام حيث يصف القرآن الكريم «اولى الألباب» الذين تُفْتَحُ أمامهم أبواب معرفة الله من خلال مشاهدة خلق السماوات والأرض إذ يقول تعالى

«الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا». (آل عمران / ١٩١)

أى أن ذكر الله أولاً، والتفكير ثانياً، والتأمل في الهدف من الخلق ثالثاً، يُدْلَهُمْ كل ذلك على عظمة الخالق جلّ وعلا. وعلى هذا الأساس فإن تلك علماء الطبيعة في معرفة الله سبحانه وتعالى بالرغم من معرفتهم لدقائق الأمور في هذا الوجود يعود إلى أنهم اعتمدوا في بحوثهم على دراسة المعلول والمخلوق ولم يهتموا بدراسة علّة العلة و خلق الوجود والهدف من الخلق.

وكما في الآية الاولى فقد وردت مسألة خلق السماوات والأرض في الآية الثانية، إلى جانب اختلاف الليل والنهار، أى مجيء وذهاب الليل والنهار (أو اختلافهما التدريجي على مدى فصول السنة)، حيث يمثل ذلك إحدى الظواهر البارزة في السماوات والأرض، إذ يسود النظام الدقيق هذه الظاهرة منذ أزمنة طويلة، ويمكن تحديد لحظة شروق الشمس وغروبها قبل حصولهما، والحدود الدقيقة لليل والنهار في كل فصل وكل زمان من السنة،

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٣١

ولأى بقعة من بقاع الأرض، ونعلم جيداً بأنه أينما يوجد نظام دقيق فإنه يكمن وراءه علم وعقل ولب مدبر.

وفي الآية الثالثة ذكر مسألة اختلاف الألسن والألوان، التي هي من آيات الأنفس، إلى جانب مسألة خلق السماوات والأرض التي هي من آيات الآفاق، حيث يقول تعالى

«وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ».

وقد يكون اختلاف الألسن والألوان بمعنى اختلاف اللغات التي يتكلم بها الناس، وألوان وجوههم، أو بمعنى لحن أصواتهم واسلوب حياتهم، وتفكيرهم وأذواقهم، وقابلياتهم، أو جميعها، فهذا التنوع العجيب الذي يكون وسيلة لتعرف الناس على بعضهم، وإلى عدم خلو أى من المناصب الاجتماعية، من خلال النظام الدقيق الذى يسوده، لا ينفصل عن النظام العجيب السائد في السماوات والأرض بل يرتبطان معاً، وكل دليل على عظمة وقدره وتدبر الذات المقدسة لله، عز وجل.

وتشير الآيتان الرابعة والخامسة إلى خلق السماوات والأرض فقط، وتعدّه من آيات الله، لأنّ ممّا لا ريب فيه أنّ هذا الخلق العظيم هو من آيات الله البينات، غير أنّ الآية الخامسة استندت إلى مسألة التقنيين والهدف من هذا الخلق وبيانه من خلال تعبير «بالحق».

وفي الآية السادسة طرح موضوع جديد ألا- وهو خلق السماوات والأرض في ستة أيام، إذ يقول تعالى «إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ».

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٣٢

وقد ورد ذكر خلق السماوات والأرض في ستة أيام في سبع آيات من القرآن الكريم «١».

وهذا يُبرهن على أن (القرآن الكريم) يولى اهتماماً خاصاً لمسألة الخلق التدريجي للعالم، وهو بذاته دليل آخر على عظمة الخالق جلّ وعلا.

ومع أن بعض الماديين غير الواعين وبسبب عدم معرفتهم لمعنى «اليوم»، انتقدوا مثل هذه الآيات واستهزؤوا بها «٢» حيث إنهم يعتقدون أن «اليوم» هنا بمعنى بياض النهار أو (الأربع وعشرين ساعة)، إلا أن الجميع يعلم أن اليوم بهذا المعنى هو ناتج من حركة الأرض وضوء الشمس، وعندما لم يكن وجوداً للسماوات والأرض لم يكن هناك مفهوم لليل والنهار بهذه الهيئة.

فقد غفل هؤلاء عن هذه المسألة وهي أن كلمة «اليوم» وما يماثلها في بقية اللغات لها معانٍ مختلفة من حيث المفهوم والاستعمالات اليومية، فمنها ما يعنى «المرحلة» وقد تكون هذه المرحلة قصيرة أو طويلة جداً، كما يقول الراغب في كتاب (المفردات) الذي هو من الكتب اللغوية المعروفة: اليوم يُعبر به عن وقت طلوع الشمس إلى غروبها، وقد يُعبر به عن مدة من الزمان أي مدة كانت.

ونقول في الاستعمالات اليومية، إن الناس كانوا في يوم ما يسافرون على ظهور الحيوانات، واليوم بوسائط النقل السريع، وكلا هذين التعبيرين (يوم، واليوم) إشارة إلى حقبة طويلة، ونقرأ في الحديث المعروف عن أمير المؤمنين عليه السلام: «واعلم بأن الدهر يومان: يوم لك ويوم عليك» «٣».

بل إن الدنيا كلها عُدت يوماً واحداً، وكذلك كل الآخرة في بعض العبارات، فيقول أمير المؤمنين عليه السلام: «وإن اليوم عمل بلا حساب، وغداً حساب بلا عمل».

والبيتان المعروفان عن الشاعر كلیم الكاشاني تعبير لطيف في هذا المجال، وهذه

(١) الفرقان، ٥٩؛ السجدة، ٤؛ ق، ٣٨؛ الحديد، ٤؛ الاعراف، ٥٤؛ هود، ٧.

(٢) المادية التاريخية، ص ٨٧.

(٣) نهج البلاغة، الرسالة ٧٢.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٣٣

ترجمتهما العربية:

إن الحياة سيئة الصيت يومان ليس أكثر (كلیم) فدعني اخبرك كيف مضت؟ فيوم مر بتعلق القلب بهذا وذاك ويوم آخر مضى بانقطاع القلب عن هذا وذاك وعليه فإن المقصود من خلق السماوات والأرض في ستة أيام هو ست مراحل، وقد تمتد كل مرحلة من هذه المراحل ملايين أو آلاف الملايين من السنين، ومن الواضح عدم توفر أي دليل يعارض هذا التحديد من الناحية العلمية «١».

ولكن من المحتمل أن تكون هذه المراحل الست حسب التسلسل الآتي:

١- مرحلة كان العالم كله فيها مجاميع عظيمة جداً من الغازات التي تدور حول نفسها.

٢- مرحلة انفصال هذه الغازات عن بعضها والدوران حول محور المجموعة المركزية.

٣- المرحلة التي فيها شكّلت بعض هذه المجاميع بسبب دورانها حول نفسها منظومات كمنظومتنا الشمسية.

٤- المرحلة التي تكونت فيها الأرض واستعدت للحياة، وظهرت عليها المياه، وتكونت البحار.

٥- مرحلة ظهور الأشجار والنباتات وتهيئة الأقوات والأطعمة على الأرض.

٦- مرحلة ظهور الحيوانات وبعدها الإنسان على الأرض.

والمسألة الجديرة بالاهتمام هي أن من بين الآيات السبع التي بيّنت خلق السماوات والأرض في ستة أيام، تمت الإشارة في أربع آيات منها فقط إلى خلق السماوات والأرض في ستة أيام «٢».

وفى ثلاث آيات ورد خلق السماوات والأرض وما بينهما «٣».

وفى آية واحدة فقط اشير بشكلٍ عامٍ إلى تفصيل هذه المراحل الست، فمرحلتان لخلق

(١) ذُكر أيضاً فى كتاب القاموس المقدس الذى هو شرح لمفاهيم التوراة والانجيل، شرح فيما يخص خلق السماوات والأرض فى ستة أيام حيث يشبه ما ورد أعلاه فى بعض الجوانب بالرغم من اختلافه ببعض الخرافات كاستراحة الله فى اليوم السابع (القاموس المقدس، ص ٨٤ كلمة الخلق).

(٢) الحديد، ٤؛ الاعراف، ٥٤؛ يونس، ٣؛ وهود، ٧.

(٣) الفرقان، ٥٩؛ السجدة، ٤؛ ق، ٣٨.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٣٤

الأرض، وأربعة مراحل لإيجاد النباتات والحيوانات: «الَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ... وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ». (فصلت/ ٩-١٠)

بناءً على ذلك، فإن المراحل الست أعلاه تتعلق بخلق السماوات والأرض وموجوداتهما المتنوعة «١».

وتقول الآية السابعة من البحث إن هذا المعنى مسلم به حتى لدى الوثنيين وهو: إن الله تعالى هو خالق السماوات والأرض، ومسخر الشمس والقمر، وأن هؤلاء يفهمون أن هذا العالم الجبار والنظام العجيب لا يمكن أن يكون من خلق الأصنام، بل إن ضميرهم يحكم بأنه من خلق الله العالم القادر: «وَلَيْتُنَّ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ».

وعليه فليس العلماء والمفكرون وحدهم الذين يصلون إلى معرفة الذات الإلهية المقدسة من خلال التفكير بأسرار الخلق، وإنما الوثنيون الجهلاء كذلك يعرفون بشكل عام الذات المقدسة من خلال مشاهدة هذا النظام بالرغم من أنهم يتيهون فى وادٍ من الشرك بسبب الخرافات والجهل المحيط بهم.

ومع أن الآية الثامنة تقصد مسألة المعاد والقيامة بدلالة الآيات التى تليها وتقول إن القادر على خلق السماوات والأرض بهذه العظمة، قادر على أن يحيى الموتى لأن خلق السماوات والأرض أصعب وأعقد من خلق الإنسان، لكنها مع ذلك دليل واضح على مسألة معرفة الله أيضاً، لأن وجود الإنسان بل وحتى عضو واحد من أعضاء جسمه كالعين والاذن،

(١) ومن للتوضيح أكثر فى هذا المجال يراجع التفسير الأمثل ذيل الآيات ٥٤ الاعراف؛ و ١٠ فصلت).

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٣٥

بل حتى بناء خلية واحدة من خلايا هذه الأعضاء بكل ما فيها من التعقيد والابهام والأسرار والأنظمة يمكن أن يكون من آيات الله تعالى بناءً على ذلك فإن (خلق السماء والأرض الذى هو أكبر وأعظم من خلق الإنسان أوضح برهان على عظمة الله تعالى «لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ».

ومن المؤكد أن خلق الإنسان إذا ما قيس مع كل جزء من أجزاء هذا العالم فإنه يرجح عليه، إلا أنه إذا قيس بكل السماوات الواسعة والأرض، فمن المسلم به أن السماوات والأرض يرجح خلقها على خلق الإنسان.

والظريف أن القرآن الكريم حينما جاء بهذا التصريح لم يكن للناس حينذاك - ولا سيما المتخلفين فى الحجاز - معرفة بعظمة السماوات، ولعلمهم كانوا يظنون أن السماء سقف أزرق اللون قريب منهم، وقد تم تشبيته بواسطة مسامير فضية وهى النجوم!

أجل ... إننا اليوم ندرك جيداً المفهوم العميق لهذه الآية، لأن العلماء تفحصوا هذه السماء الواسعة من خلال المراصد الفلكية العملاقة، وقد زدونا بأسرار وعجائب مذهلة عن عظمتها والنظام السائد فيها، ومن أين ندرى أن ما يشاهدونه اليوم لا يبلغ معشار

عظمة هذا العالم، ولعل هذه الحقيقة تتضح غداً للملأ، لهذا يقول تعالى في آخر الآية: «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» (١). وفي الآية التاسعة تم جمع دورة كاملة من دروس التوحيد ومعرفة الله في استفهام إنكارى حيث يقول: «أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ».

والجدير بالاهتمام هنا أن كلمة «فاطر» تعنى المشقق، وجاء استخدام هذا التعبير إما بسبب تمزيق حجاب العدم والظلمة أثناء خلق السماوات والأرض وإشراق نور الوجود فى

(١) ما معنى «لا- يعلمون» هنا؟ هناك احتمالات مختلفة: أولها هو: أن الناس يجهلون عظمتها قياساً مع الإنسان، والآخر أنهم يجهلون القدرة الإلهية اللامتناهية، والثالث، أنهم يجهلون قدرته على مسألة المعاد، أو يعلمون، وحيث إنهم لا يفصحون عن علمهم هذا، فهم فى حكم الجهلاء (ولكن لا يستبعد أن تجتمع كل المعانى الثلاثة الاولى فى الآية وكما قالوا بأن حذف المتعلق دليل على العموم).
نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٣٦

خلق السماوات والأرض، أو إشارة إلى ما يُعرف اليوم لدى علماء الفلك حيث إن جميع هذه الأجرام والمنظومات كانت فى اليوم الأول على هيئة مجموعة كبيرة مرتبطة ببعضها، وانفصلت عن المركز نتيجة لحركتها حول نفسها وتأثير القوة الدافعة لها عن المركز، والقت بقطع منها إلى الخارج وظهرت المنظومات والمجرات الثابتة والسيارة (١).

على أية حال، سواء كان المشركون هم المخاطبون فى هذه الآية أو منكرو وجود الله تعالى أو كلاهما، فإنه يستفاد من هذه الآية الكريمة هذه الحقيقة، وهى أن التمعن فى خلق السماوات والأرض يكفى لأن يقتلع كل نوع من أنواع الشك والريب فى وجود الله ووحدانيته وقدرته من قلب الإنسان.

ويشير فى الآية العاشرة إلى خاصية اخرى من خصائص السماء والأرض إذ يقول تعالى «وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ». فمن المسلم به أن خلق مثل هذه العوالم الجبارة يستلزم قدرة مناسبة له، وهى قدرة البارى عز وجل وحدها. ويضيف فيما بعد «وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ».

وبالرغم من أن بعض المفسرين اعتبروا ذلك بمعنى توسعه الرزق عن طريق هطول المطر وغيره (٢) لكن يبدو أن للآية معان بالغة الأهمية والدقة، حيث أتضح ذلك لعلماء عصرنا الحاضر، وقد اميط اللثام عن معجزة من المعجزات العلمية للقرآن، وهى أن العالم فى حال اتساع وبصورة مستمرة، وأن النجوم والمجرات والأجرام تبتعد عن بعضها بشكل سريع.

(١) يقول الراغب فى المفردات: «فَطَّرَ» على وزن «سَيَّرَ» أى الشَّقُّ طولياً، ثم جاءت بمعنى الایجاد والإبداع، و«فَطَّرَ» (على وزن مِثْر) تعنى الافطار وترك الصيام، وكأنَّ الصيام ينفطر، (والفطرة تعنى الخلقه وهى مأخوذة من هذه المادة أيضاً).
(٢) وقد فسّر بعض المفسرين لفظه (موسعون) بمعنى (قادرون) أيضاً، لأنه مفردة (الوسع) تأتي أحياناً بمعنى «القدرة»، أما مفهوم «التوسيع» فهو أوضح.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٣٧

يقول أحد العلماء المعروفين ويُدعى (جورج غاموق) فى كتابه (بداية ونهاية العالم):

«يُمَرُّ فضاء الكون الذى يتألف من مليارات المجرات بحاله من الامتداد السريع، والحقيقة هى أن عالمنا ليس ثابتاً بل إن اتساعه مسلم به، والوقوف على كون عالمنا يُمَرُّ بحاله من الاتساع يهيه لنا المفتاح الحقيقى لكنوز أسرار النظرية الكونية، فلو أن العالم يُمَرُّ اليوم بحاله من الاتساع والامتداد فهذا يعنى أنه كان يُمَرُّ بحاله من الانكماش الشديد فى عابر الازمان» (١).

ومما يبعث على الدهشة أن هذا التوسع يسير سريعاً بالقدر الذى يقول عنه (فورد هوفل) فى كتاب (حدود النجوم): «لقد تم قياس

اقصى سرعة لتباعد الكرات حتى الآن بما يقارب ٦٦ ألف كيلو متر في الثانية، وتُدلّل الصور الملتقطة عن السماء على هذا الاكتشاف المهم بوضوح، حيث إنّ الفاصلة بين المجرات النائية تتضاعف بسرعة أكثر من المجرات القريبة! «٢».

فأى قوة عظيمة تكمن وراء هذه الأجرام والمنظومات الجبارة حيث تبعدا عن مركز العالم بهذه السرعة النادرة من دون أن تتلاشى على اثر هذه الحركة؟!!

ثم يشير إلى الأرض فيقول: «وَالأَرْضَ فَزَسْنَاهَا فَنَعَمَ المَاهِدُونَ».

فالتعبير ب «الفرش» من ناحية، و «الماهد» من مادة (مهد) من ناحية أخرى إشارة إلى التغييرات الكثيرة التي حصلت منذ بداية تكوين الأرض، وتهيتها لحياة الإنسان، وجعلها كالمهد أو فراش الراحة.

كل هذه دلائل على ذلك العلم والقدرة الأزلية.

ونقرأ في الآية الحادية عشرة تعبيراً جديداً حول خلق السماء إذ يقول: «وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا».

(١) بداية ونهاية العالم، ص ٧٧ (مع الاختصار).

(٢) حدود النجوم، ص ٣٣٨.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٣٨

فهل هناك سماء في العالم على هيئة سقف يُحفظ من نفوذ الكائنات الخارجية؟ نعم ..

فالسما هنا يمكن أن تكون إشارة إلى الفضاء الذي يحيط بالأرض ويبلغ سمكه مئات الكيلو مترات، فهذه الطبقة التي تتألف من الهواء المضغوط اللطيف وبقية الغازات المحيطة بجوانب الكرة الأرضية على هيئة سقف دائري، قوية بالقدر الذي يصفها بعض العلماء بأن لها مقاومة بقدر سقف فولاذي بسُمك عشرة أمتار، وهي لا تمنع نفوذ الاشعاعات المدمرة فحسب، بل تمنع سقوط الصخور الفضائية التي تنجذب نحو الأرض باستمرار، لاصطدامها بهذه الطبقة الجوية بسرعتها الخارقة، فتكون مانعاً لحركة تلك الصخور، كما ويؤدي هذا الاصطدام إلى احتراق تلك الصخور وانصهارها.

فلو لم تكن هذه الطبقة الجوية العظيمة لأصبح أهل الأرض عُرضةً للملايين من قذائف الصخور الفضائية الصغيرة والكبيرة ليل نهار، فماذا سيحصل؟ وهل يكون هناك وجود للاستقرار في «مهد الأرض»؟ وهل سيكون اسم المهد والمرقد لائقاً بها؟.

لا ضير أن نقرأ هذا الكلام الوارد على لسان عالم معروف يُدعى (فرانك آلن) حيث يقول في كتابه (النجوم للجميع): «إنّ الجوّ الذي تألّف من الغازات التي تحفظ الحياة على سطح الأرض له من المقدار والسمك «بحدود ٨٠٠ كم» بحيث يستطيع أن يكون كالدرع للأرض يصونها من شر اصطدام ٢٠ مليون صخرة فضائية مدمرة تبلغ سرعتها ٥٠ كيلو متراً في الثانية يوماً!» (١).

صحيح أنّ وزن بعض هذه الشهب التي تتقاطر نحو الأرض يعادل ١٠٠٠٠ من الغرام إلا أنّ القوة الناتجة عن سرعتها تعادل قوة انطلاق ذرات القنبلة النووية! .. وقد يبلغ حجم ووزن بعض هذه الشهب مقداراً كبيراً بحيث تجتاز هذه الطبقة وتصيب الأرض، ومن الشهب التي اجتازت الغلاف الغازي ووصلت إلى الأرض شهاب «سيبريا» العظيم المعروف الذي أصاب الأرض عام ١٩٠٨ م وكان قطرُه بقدر كبير حيث احتل (٤٠ كم) تقريباً من الأرض، وأدى إلى حدوث اضرارٍ جسيمة «وكانّ الله تعالى يُنذرننا بهذا

(١) النجوم للجميع، ص ٧٤.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٣٩

الاسلوب .. لتصور حالنا فيما لو تعرضنا لقصف الصخور السماوية يوماً».

فلو كان الغلاف الجوي حول الأرض بشكل أرقّ ممّا هو عليه «لأصابت الأرض يوماً عدّة ملايين من الأجرام السماوية والشهب

الثابتة، كما يقول (غرسى مورسين) مؤلف كتاب (سُرُّ الخَلْق): «ولم تُعد الأرض صالحاً للحياة» (١).

ولا ينبغي طبعاً نسيان الآثار المدمرة الناتجة عن اصطدام الأشعة فوق البنفسجية بالأرض في حالة عدم وجود هذا الغلاف فهي أكثر بكثير من أخطار آثار هذه الصخور، ولعل هذا الأمر كان السبب في أن يقول البارئ تعالى في نهاية الآية: «وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ». ويشير في الآية الثانية عشرة والأخيرة إلى خاصية أخرى من خصائص السماوات، وهي من المعجزات العلمية للقرآن الكريم إذ يقول: «اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا».

ويبرهن هذا التعبير على أن للسَّمَوَاتِ عموداً إلا أنه غير قابل للرؤية، فهو عمود غير مرئي، فأى شىء يمكن أن يكون هذا العمود سوى توازن قانون «الجذب» و «الدفع»، أى «القوة الدافعة المركزية»؟ أجل إن تعادل الجذب والدفع هذا هو عمود قوى بحيث يرفع جميع كرات المنظومة الشمسية وبقية المنظومات في مداراتها بإحكام، مع أنه غير مرئي، كما ويمنع تساقطها على بعضها، أو الابتعاد عن بعضها فيختل نظامها.

وينبغي الانتباه إلى أن «عَمَدٌ» (على وزن صَمَدٌ) اسم جمع من مادة «عمود»، ولو أراد القرآن أن يقول: «إن السماء مرفوعة بلا عمد»، لكان يكفي أن يقول: «رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ»، إلا أن إضافته عبارة «تَرَوْنَهَا» يدل على أن المقصود هو نفى الاعمدة المرئية، ويستلزم ذلك إثبات العمود اللامرئي.

(١) سُرُّ خلق الإنسان، ص ٣٤.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٤٠

لذلك نقرأ في الحديث المشهور عن الإمام الرضا عليه السلام حيث كان يتحدث إلى بعض الجهلاء الذين كانوا يقولون: إن السماء بلا-عمود، فقال الإمام عليه السلام: «سبحان الله أليس الله يقول بغير عَمَدٍ تَرَوْنَهَا»، ويجب ذلك الشخص بنعم، فيقول الإمام عليه السلام مباشرة: «ثُمَّ عَمَدٌ وَلَكِنْ لَا تَرَوْنَهَا» (١).

وقد روى هذا المعنى بتعبير «عمود من نور» في حديث شقيق لأمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول: «هذه النجوم التي في السماء مدائنٌ مثل المدائن التي في الأرض مربوطَةٌ كُلُّ مَدِينَةٍ إِلَى عَمُودٍ مِنْ نُورٍ» (٢).

والذى يثير الانتباه هنا هو بالرغم من أن قانون الجذب والدفع لم يكن مذكوراً في تفاسير القدماء والسالفين، فإن منهم من فسّر الآية كما ذكرنا آنفاً، حيث قال بوجود عمود غير منظور للسماء، بالرغم من أن البعض عبّر عن هذا العمود غير المنظور بقدره الله (٣).

على أية حال، فهذه إحدى آيات الله العظيمة، حيث رفع السموات بهذه الأعمدة القوية غير المنظورة، والأنظمة المهيمنة على قانون الجذب والدفع، بحيث لو حصل أقل تغيير في هذه المعادلة، فسوف يختل توازنها أو تتصادم فيما بينها بشدة وتختفى أو تبتعد نهائياً وينفصم الارتباط بينها.

النتيجة:

مع أن الآيات المتعلقة بخلق السموات والأرض في القرآن الكريم ليست محصورة بما اوردها آنفاً، وإذا تقرر أن تُبحث كموضوع مستقل تحت عنوان: «السماء والأرض في

(١) تفسير البرهان، ج ٢، ص ٢٧٨.

(٢) بحار الأنوار، ج ٥٥، ص ٩١؛ تفسير القرطبي ج ٩ ص ٢٧٩.

(٣) تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ٢٤٧؛ تفسير روح المعاني، ج ١٣، ص ٧٨؛ تفسير الكبير، ج ١٨ ص ٢٣٢؛ و تفسير القرطبي، ج ٥ ص ٣٥٠٨.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٤١

القرآن الكريم» فإنها تُولف كتاباً مستقلاً «١»، إلّا أننا إختارنا هذه الآيات الاثنتي عشرة من بينها واوردناها، ومن المؤمل أن يفتح هذا البحث- أى بحث معرفة الله وآيات وجوده فى هذا العالم الكبير- الطريق أماننا، ويوضح لنا بأنّ فى هذا الخلق العظيم دلائل وافرة للسائرين فى طريق الله، يُمكنهم من خلال التمعن فى هذا الكتاب العظيم الملىء بالأسرار أن يزدادوا قرباً منه، وتُملأ أوعيه قلوبهم وأنفسهم من حُبِّه أكثر فأكثر، فيرددون هذا الكلام القرآنى باستمرار: «رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا!».

توضيحات

١- عَظْمَةٌ وَوَسْعَةُ السَّمَوَاتِ

لا عِلْمَ لأحدٍ بحدود سَعَةِ وامتدادِ السماوات، إنّ الشىء الذى نعلمه هو أنّه كلما ازداد علم وتفكير الإنسان وتطور فإنّ عظمة السماوات سوف تكون فى نظره أكبر وسوف يكتشف أبعاداً جديدة عن عظمة السماوات وأسرارها، وتقول آخر معلومات علماء الفلك بهذا الخصوص:

«إنّ منظومتنا الشمسية ترتبط ب «درب التبانة» التى هى فى الواقع احدى المجرات، وقد توصل العلماء فى بحوثهم إلى أنّها تتألف من مائة مليار نجمة احداها شمسنا هذه والتى تُعتبر أوسطها حجماً (لا تُنسى أنّ الشمس أكبر من الأرض بأكثر من مليون مرّة)، وإذا ضربنا هذا العدد بمائة تصبح النتيجة مائة مليون مليار، أى أنّ حجم مجموع كرات هذه المجرة يعادل الكرة الأرضية بهذا المقدار!». وإذا أضفنا هذا العدد إلى العدد الذى اكتشفه العلماء فى هذا العالم وفقاً لبحوثهم، وهو مليار مجرة على الأقل، يقف العقل والعلم البشرى متحيراً أمام عظمة الاله الذى خلق هذا العالم اللامتناهى، (تفحصوا الأرقام أعلاه وتفكروا فى عظمتها).
علماً أنّ هذه الأعداد والأرقام هى ضمن حدود علم واطلاع البشر فى الوقت الحاضر،

(١) فى القرآن الكريم ذُكرت «السما» أكثر من ثلاثمائة مرّة بصيغة مفردة أو جمع (السّموات).

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٤٢

وليس واضحاً ما سيكتشف من معالم جديدة فى المستقبل».

وهناك شهادةً لطيفةً جداً لمرصد (بالومار) بخصوص عظمة السماوات حيث يقول:

«فى الوقت الذى لم تتم صناعة عدسة مرصد (بالومار) العملاق لم تكن سعة الدنيا حسب علمنا أكثر من ٥٠٠ سنة ضوئية (والمقصود من السنة الضوئية هو مقدار المسافة التى يقطعها الضوء بسرعة ثلاثمائة الف كيلو متر فى الثانية خلال سنة واحدة، وثلاثمائة الف كيلو متر فى الثانية تعنى الدوران حول الأرض سبع مرات خلال طرفه عين).

ولكن هذه العدسة ضاعفت دنيانا إلى الف مليون سنة ضوئية، وفى النتيجة تم اكتشاف الملايين من المجرات الجديدة، حيث يبعد بعضها عنّا مليار سنة ضوئية، ولكن هناك فضاءً عظيماً مهيباً ومظلماً بحيث لم يُر شىء من خلاله أبداً ويبعد الف مليون سنة ضوئية ... إلماً أنّ مِمّا لا-شك فيه هو وجود مئات الملايين من المجرات فى ذلك الفضاء المهيب المظلم حيث تُصان الدنيا من خلال جاذبية تلك المجرات، ويُعتقد أنّ هذه الدنيا العظيمة التى نراها ليست سوى ذرة صغيرة متناهية من عالم أعظم، ولسنا نقطع بعدم وجود عالم

آخر في مكانٍ آخر من الدنيا! «١».

٢- الدقة العجيبة في القوانين التي تحكم السماء والأرض

من المعروف أنه كلما تعاظمت الموجودات فلا بد من أن تتضاءل دقة القوانين السائدة فيها، بينما لا يصدق هذا المعنى على هذا العالم الشاسع أبداً، أي أنه مع عظمته وسعته العجيبة وإثارته للجدل، فهو ذو انظمةٍ دقيقةٍ وظريفه، ومن أجل إدراك هذه الحقيقة يكفينا الالتفات إلى المسائل الآتية:

أ) نحن نعلم أن الإنسان قد أفلح في نهاية المطاف أن يُنزل سفينة الفضاء بطاقم يتألف من شخصين في النقطة التي حددها العلماء في كوكب القمر، ثم عادا إلى الأرض (تأمل

(١) مجلة الفضاء، العدد ٥٦ فروردين ١٣٥١.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٤٣

جيداً..) فعلى مدى الأيام الثلاثة التي قضتها السفينة في قطع المسافة بين الأرض والقمر، كانت الأرض تدور حول نفسها وتغير مكانها في السماء حول الشمس، وكوكب القمر كان يدور حول نفسه وحول الأرض أيضاً، فكم يجب أن تكون هذه الحركات مُنظمةً ودقيقةً ومحبوكةً وثابتةً بحيث يستطيع العلماء أن يحسبوا حساب هذه الحركات ويقدروها من خلال العقول الالكترونية حتى تحط سفينة الفضاء في المكان الذي حددوه على سطح كوكب القمر، ومن ثمَّ المكان الذي عيّنوه لعودتها إلى كوكب الأرض؟ فإذا اختلفت إحدى هذه الحركات وتداخلت فيما بينها ونقصت أو ازدادت مقداراً ثانياً واحدةً فمن المسلم به أن حسابات العلماء سترتبك ويكون عملهم غير ناجح.

أجل.. إن نظام عالم الوجود الدقيق هو الذي يمنح الإنسان فرصة القيام بهذا العمل، أي الهبوط على سطح كوكب القمر وفي المكان الذي حدده.

ب) يستطيع علماء الفلك أن يخسّبوا ويقدرُوا أحداث المستقبل التي تتعلق بـ «الخسوف» و «الكسوف» في الكرة الأرضية قبل عشرات السنين، وعدد ساعات الليل والنهار وشروق وغروب الشمس ووزوغ وافول القمر، وهذا يعود إلى التنظيم الدقيق لحركاتها ليس إلّا.

ج) كما اشرنا سابقاً أن قوة الجاذبية تجذب الأجرام السماوية نحو بعضها، بيد أن القوة الدافعة التي تحصل من حركة الدوران والتي تسمى بالقوة الطاردة تُبعدها عن بعضها.

إذا اريد أن تتحرك الكرة في مدارها ملايين السنين حركةً دقيقةً وفي مدارٍ معيّن فيجب أن تتوازن هاتان القوتان تماماً، وهذا ما نعرفه أيضاً حيث إن الجاذبية تتناسب طردياً مع حجم الموجودات، وعكسياً مع الجذر التربيعي للمسافة بينها (فلو ازداد الحجم فإن الجاذبية تتضاعف، وإذا تضاعفت المسافات تضعف الجاذبية طبقاً للمعادلة أعلاه).

وبناءً على ذلك فمن أجل أن تدور الأرض حول الشمس لمدةٍ طويلةٍ جداً في مدارٍ ثابت، ينبغي أن يكون حجم الشمس والأرض وكذلك المسافة بينهما، وسرعة حركة الأرض حول الشمس وفق حسابٍ دقيق، كي يتم التوازن بينهما، وهذه المسائل ليست ممكنة دون تدخلٍ من عالمٍ ذو علمٍ غير متناهٍ وعقلٍ مدبرٍ.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٤٤

مايلفت النظر هو أن الحديث عن (السموات السبع) ورد في سبع آياتٍ من القرآن الكريم (١).
وتَمَّت الإشارة في إحدى هذه الآيات إلى طبقات الأرض السبع أيضاً، حيث يقول تعالى «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ
مِثْلَهُنَّ». (الطلاق / ١٢)

ومن بين جميع التفاسير المختلفة التي ذُكرت عن السموات السبع، يظهر أن التفسير الصحيح هو أن المقصود من «السموات السبع» هو
المعنى الحقيقي للسموات السبع، أي السماء لا تعني الكرات، بل مجموعة النجوم والكواكب في العالم العلوي، والمقصود من العدد
(سبعة) هو الرقم المعروف، وليس هو للكثرة.

إنَّه ما يظهر من الآيات الأخرى هو أن كل ما نراه من نجوم ثابتة، وسيارة، ومجرات، وسُحُبٍ يتعلق (بالمجموعة السماوية الأولى وعليه
فهناك ست مجاميع عظيمة أخرى (ست سموات) تلي هذه المجموعة العظيمة، حيث إن بعضها أكبر من البعض الآخر، وتلك خارجة
عن تناول علم الإنسان (لحد الآن على الأقل).

نقرأ في قوله تعالى «إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ». (الصافات / ٦)

وجاء في قوله تعالى «وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ». (فصلت / ١٢)

وورد هذا المعنى أيضاً باختلافٍ طفيفٍ في الآية الخامسة من سورة الملوك.

والجدير بالذكر أن المرحوم العلامة المجلسي قد ذكر هذا الاحتمال كأحد التفاسير لهذه الآية إذ يقول: «الثالث: ما خطر بالبال القاصر،
وهو أن تكون جميع الافلاك الثمانية التي أثبتوها لجميع الكواكب فلماً واحداً مسمى بالسماء الدنيا» (٢).

(١) البقرة، ٢٩؛ الاسراء، ٤٤؛ المؤمنون، ٨٦؛ فصلت، ١٢؛ الطلاق، ١٢؛ الملوك، ٣؛ نوح، ١٥ (واشهر في آيتين (المؤمنون، ١٧؛ النبا، ١٢)
إلى (سبع طرائق) وسبعاً شداداً أيضاً حيث يمكن أن يكونا إشارة إلى السموات السبع أيضاً.

(٢) بحار الأنوار، ج ٥٨، ص ٧٨.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٤٥

صحيح أن معدتنا العلمية الحديثة لم تكشف الحجب عن العوالم الستة الأخرى غير أنه ليس هنالك من دليل ينفيها من الناحية العلمية
أيضاً، ويحتمل أن يكشف النقاب عن هذا السر في المستقبل.

بل يظهر من اكتشافات بعض علماء الفلك أن هناك الآن براهين تلوح في الأفق عن وجود عوالم أخرى شبيهة لما نقلناه آنفاً عن
مرصد (بالومار) الشهير فيما يتعلق بعظمة العالم، ونكرر الجملة التي تشهد على كلامنا هذا «تم اكتشاف الملايين من المجرات
الجديدة حيث يبعد بعضها عنّا مليار سنة ضوئية، لكن هناك فضاءً عظيماً مهيباً ومظلماً لم يُرَ أيُّ شيء من خلاله أبداً ويبعد مسافة
مليار سنة ضوئية، إلّا أنّ ممّا لا شك فيه وجود مئات الملايين من المجرات في ذلك الفضاء المهيب المظلم، حيث تصان الدنيا من
خلال جاذبية تلك المجرات، ويُعتقد أن هذه الدنيا العظيمة التي نراها ليست سوى ذرّة صغيرة متناهية من عالم أعظم، ولسنا نقطع
بعدم وجود عالم آخر في مكان آخر من الدنيا» (١).

يقول أحد العلماء في مقالٍ كتبه حول عظمة عالم الوجود، بعد ذكر المسافات الهائلة والمذهلة للمجرات، وبيان الأرقام المدهشة
المحددة طبقاً إلى السنة الضوئية ما يأتي:

«لا زال المنجمون يعتقدون أنهم لم يقطعوا سوى منتصف طريق ما يُمكن رؤيته من العالم العظيم، ولا زال عليهم اكتشاف فضاءات
أخر غير مكتشفة» (٢).

وعليه فإنّ العوالم التي تكشفت للبشر لحدّ الآن مع عظمتها ما هي إلّا زاوية صغيرة من هذا العالم الكبير، وتصلح للمطابقة مع مسألة

السموات السبع «٣».

٤- لِمَ لَا تَنْظُرُونَ إِلَى السَّمَاءِ!؟

إنَّ كثرةً ووفرةً آياتِ الله في عرض السموات، وجمال السماء في الليل، دَفَع القرآن

(١) مجلة الفضاء، العدد ٥٦ فروردين ١٣٥١.

(٢) مجلة (نيوز ويك) السنة ١٩٦٤ (لا ينبغي أن ننسى إنَّ هذه الشهادة تعود إلى ما قبل ٢٤ سنة).

(٣) من أجل المزيد من الايضاح حول التفاسير المختلفة التي ذكرت فيما يخص السموات السبع، يُراجع التفسير الامثل (ذيل الآية ٢٩ من سورة البقرة).

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٤٦

الكريم والأحاديث إلى دعوة الناس باسرههم وخص المؤمنين منهم إلى التفكر في السموات من أجل كسب المزيد من الإيمان، فيقول القرآن الكريم في الآية ٦ من سورة ق: «أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ؟!». وقد أمرت الروايات «المستيقظين في الاسحار» خاصة، أن ينظروا إلى السماء أولًا حين ينهضون «لصلاة الليل»، وأن يقرأوا الآيات الاخيرة من سورة آل عمران التي تنعكس فيها جميع هذه الحقائق بنحو عرفاني: «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...» ثم يتوجهون نحو العبادة (حيث يمتليء الدعاء بعطر التوحيد ومعرفة الله) «١».

وروى أَنَّ النبي صلى الله عليه و آله حينما كان يستيقظ لصلاة الليل يتبدىء بالمسواك ثم يلقي نظرةً على السماء، ويردد هذه الآيات «٢».

وورد في صفات أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً عن أحد أصحابه ويدعى (حبة العرنى) حيث قال: «بينا أنا ونوف (أحد أصحاب الإمام على عليه السلام) نائمين في رحبة القصر إذ نحن بأمر المؤمنين عليه السلام في بقية من الليل، واضعاً يديه على الحائط شبيه الواله، وهو يقول: «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» إلى آخر الآية، قال: ثم جعل يقرأ هذه الآيات ويمر شبه الطائر عقله، فقال لى: أراقد أنت يا حبة أم راق؟ قال: قلت: راقمٌ هذا أنت تعمل هذا العمل فكيف نحن؟ فأرخى عينيه فبكى ثم قال لى: يا حبة، إنَّ لله موقفاً ولنا بين يديه موقف لا يخفى عليه شىء من أعمالنا، يا حبة إنَّ الله أقرب إلّى واليك من جبل الوريد، يا حبة إنَّه لن يحجبني ولا إياك عن الله شىء....» «٣».

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٢، ص ٥٥٤ الآيات الأخيرة من سورة آل عمران.

(٢) المصدر السابق.

(٣) بحار الأنوار، ج ٤١، ص ٢٢.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٤٧

٨- آياته في خلق الشمس والقمر والنجوم

تمهيد:

مع أن الشمس والقمر تُعدّان من كواكب وكرات السماء، وقد تمّ الحديث بشكلٍ منفصلٍ عن عظمة السموات، ولكن لقربهما من كرتنا الأرضية فإنّ لهما تأثيراتٍ جمّةٍ على حياتنا، وقد أشار القرآن الكريم إليهما بشكلٍ خاصٍ، ووصف كلاً منهما بآيةٍ عظيمةٍ من آيات الله، وإشار إلى الفوائد الخاصة للنجوم إذ اعتبرها من آيات الله، وأنّ التفحص في كلٍ منها لا سيما في ظل اكتشافات العصر من الممكن أن يوضح لنا عظمة البارئ تعالى من جهةٍ وعظمة تعاليم القرآن الكريم من جهةٍ أخرى وبعد التمهيد المختصر نتأمل خاشعين في الآيات الشريفة الآتية:

- ١- «هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عِدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ». (يونس / ٥)
 - ٢- «أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا* وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا». (نوح / ١٥ و ١٦)
 - ٣- «وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ». (ابراهيم / ٣٣)
 - ٤- «وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى». (فاطر / ١٣)
 - ٥- «وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ». (فصلت / ٣٧)
 - ٦- «وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ* وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ
- نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٤٨
- حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ* لَالشَّمْسُ يَتَّبِعِي لَهَا أَنْ تَدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ». (يس / ٣٨ - ٤٠)
 - ٧- «وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ». (الانبيا / ٣٣)
 - ٨- «فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ». (المعارج / ٤٠)
 - ٩- «كَلَّا وَالْقَمَرَ* وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ* وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ* إِنَّهَا لَلِأُخْدَى الْكُبْرِ». (المدثر / ٣٢ - ٣٥)
 - ١٠- «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ». (الانعام / ٩٧)

جمع الآيات وتفسيرها

القسم بالشمس والقمر والنجوم:

بالرغم من أن زمان نزول الآيات المتعلقة بالشمس والقمر كان في وقت لا يملك فيه الإنسان إلّا القليل من المعلومات عن هذين الكوكبين العظيمين، وتقارن نزول هذه الآيات مع شيوع الخرافات الكثيرة «وبالأخص في مهد نزول هذه الآيات» بالرغم من كل ذلك فإنّ القرآن أشار إلى القمر والشمس والنجوم بعظمة ملفته للنظر، وذكر الكثير من خصوصياتها وبشكل عام فإنّ القرآن اعتبرها من آيات الحق الإلهية والبراهين على إثبات الذات المقدسة.

فيقول تعالى في الآية الأولى التي نبحتها: «هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا».

يقول بعضُ أرباب اللغّة (ومنهم الطريحي في مجمع البحرين) وعددٌ من المفسرين: إنّ الفَرْقَ بين «الضياء» و «النور» هو أنّ «الضياء» يُطلق على النور الذي ينبعث من ذات

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٤٩

الشيء، ويُطلق النور على الضوء الذي يُكسب من الغير، وعليه فإن الآية أعلاه إشارة لطيفة إلى هذه المسألة حيث إن نور الشمس ينطلق منها، في الوقت الذي يحصل نور القمر عن طريق ضوء الشمس الذي يَشعُّ عليه، ويتحدث القرآن الكريم بهذا في زمان لم يكن للناس اطلاع عليه.

ومما لا شك فيه أنه لا يمكن انكار أن كلاً من هذين المفهومين قد يُستعمل بمعنى اعم من النور «الذاتي» أو «الاكتسابي»، ومشاهدة حالات استعمال هذين المفهومين في القرآن الكريم وفي كلام العرب يشهد على ذلك، وقد يكون لهما معنيان مختلفان فيما إذا تزامنا معاً، كما جاء في الآية أعلاه.

وورد هذا المعنى في الآية الثانية بتعبير آخر، فبعد الإشارة إلى خلق السموات السبع يضيف قائلاً: «وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا» وقد عرّف عن الشمس ب «السراج» في آيتين أخريين من القرآن الكريم أيضاً (الفرقان / ٦١، النبأ / ١٣)، ونحن نعلم أن نور المصباح ينبعث من داخله وليس مكتسباً من الخارج، وقد جاء في بعض نصوص اللغة أن الضياء أكثر شدة من النور «١»، ولعل هذا الاختلاف مُستمد من الاختلاف الأول ويعود إليه «٢».

على أيّة حال، فقد اشير هنا وقبل كل شيء إلى نور «الشمس» و «القمر» كآيات حق من آيات الله وبراهين على قدرته وآلائه جلّ وعلا.

فالشمس بضوئها المشرق على الكون لا تقوم بتدفئة وانارة مهد الكائنات في العالم فحسب، بل لها نصيب اساسي في نمو النباتات وحياة الحيوانات.

(١) تفسير الكشاف، ج ٢، ص ٣٢٩؛ و تفسير روح البيان، ج ٤، ص ١٢.

(٢) ينبغى الانتباه إلى أن «الضياء» يأتي بصيغة «المفرد» و «الجمع» أيضاً، ويعتقد بعض المفسرين أن له صيغة الجمع في الآية أعلاه، وأنه إشارة لطيفة إلى تركيب ضوء الشمس من سبعة ألوان.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٥٠

واليوم قد ثبتت هذه الحقيقة، إذ إن كل حركة تُشاهد في الأرض هي من بركات ضوء الشمس، فلو فكرنا بامعان في حركة الرياح، والغيوم وأمواج البحار وجريان الأنهار، والشلالات، والحيوانات والناس لوجدناها تنبع من ضوء الشمس بدون استثناء.

ولو انطفأت الشمس وانقطعت هذه الاشعة التي تهب الحياة عن الأرض فسَيُعَمُّ الموت والسكوت والظلام كل مكان خلال فترة قصيرة جداً.

كما أن نور القمر الجميل لا يعتبر مصباحاً في ليالينا الحالكة ودليلاً؛ لقاطعي الصحراء ليلاً فقط، بل إن نوره اللطيف والمناسب يبعث الطمأنينة والنشاط لدى البشر بأسرهم.

ويرى بعض المزارعين أن (نور القمر) له دور حساس في نمو الفواكه والنباتات أيضاً.

وطبعاً أن كل ما ذكرناه يختص بنور الشمس والقمر فقط، وسنقوم ببحث ما يخص بقية بركاتهما بشكل مستقل.

ثم يشير القرآن الكريم في نهاية هذه الآية إلى إحدى البركات والفوائد المهمة لهاتين الكرتين السماويتين حيث يضيف: «وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ».

فالقمر بسيره المنظم، وحركته الدقيقة يُعتبر تقويماً واضحاً وحيثاً وطبيعياً للغاية، تسهل قراءته على العالم والجاهل، ويُنظّم برامج حياته على اساسه، ولو أمعنا التفكير لوجدنا مسألة تنظيم حياة الإنسان ترتبط بقوة بحساب السنين والشهور ووجود تقويم طبيعي، حيث يتكفل القمر والشمس ودوران الأرض المنظم حول نفسها وحول الشمس بانجاز هذا الدور، وأن التقويمات الحالية التي نُظمت استناداً إلى

حسابات المنجمين لا تنفع إلا الذين لديهم إمكانية فهمها، والتقويم الوحيد المفهوم والمعلوم والمفيد للجميع هو التقويم الطبيعي الذي يتوفر لدينا من حركة القمر، منذ مرحلة (الهلال) وحتى وصوله إلى مرحلة (البدر الكامل)، ومن ثم إلى (المحاق)، ولو تفحص الإنسان قليلاً لاستطاع أن يُحدّد ليالي الشهر من خلال ملاحظة حجم القمر، لأنّ القمر لا يستقر على حالٍ واحدة في السماء على مدى ليلتين أبداً، ولعلّ تنظيم العبادات الإسلامية وفقاً للأشهر القمرية نابع من هذا الأمر.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٥١

وكل هذه الدوافع أدت إلى أن يقول القرآن الكريم في نهاية هذه الآية: «يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ».

والحديث في الآية الثالثة والرابعة عن تسخير الشمس والقمر للإنسان: «وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ».

بيد أنه عبّر في الآية بكلمة «دائنين» أي (الحركة وفقاً لشيئته ثابتة) «١» وفي الأخرى ورد تعبير «كُلُّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى» أي «إنّ كلّاً منهما يستمر في حركته إلى حدٍ مُعَيَّن».

وهذه الجملة تشير إلى أنّ حركة الشمس والقمر ستنتهي على المدى البعيد، ويتغير نظام المنظومة الشمسية بعد ملايين السنين، وهذا بحد ذاته أحد المعجزات العلمية للقرآن الكريم.

وفي الحقيقة أنّ المقصود بحركة الشمس هو دوران الأرض حول الشمس طبعاً، لأنّ ما يظهر للعيان أنّ الشمس هي التي تتحرك، حيث إنّ الأرض في الواقع هي التي توجد هذا الشعور لدى الإنسان، إذ إنّ الشمس تتحرك باستمرار مع المنظومة الشمسية داخل المجرات، وسوف نشير إلى ذلك لاحقاً.

والمقصود بتسخير الشمس والقمر وبقية الكائنات التي يعتبرها القرآن الكريم مسخرة للإنسان، هو أنّها تتحرك في مجال مصالح الإنسان وخدمته، فكما قلنا سابقاً أنّ ل ضوء الشمس والقمر دوراً مهماً في حياة الإنسان وكافة الكائنات الحية، لا سيما ضياء الشمس إذ تستحيل الحياة على سطح الأرض بدون لحظة واحدة، وحتى في الليالي المظلمة فإننا نستفيد من الحرارة المتبقية عن ضوء الشمس في الأرض والجو ولولاها لانجمدت الكائنات الحية بأسرها، إضافة إلى الفوائد الأخرى كالمدّ والجزر في المحيطات، فهو مصدرٌ للكثير من الخدمات، وسنشير إلى ذلك في بحث آياته في البحار- إن شاء الله-، وكذلك وضع تقويم طبيعي وخدمات أخرى

(١) «دائنين» من مادة «دؤوب» وتعني استمرار العمل وفقاً لعادةٍ وسينته دائماً وهو تعبيرٌ للحركة المنظمة والمتسعة للشمس والقمر، ولا يُعتقد بوجود تعبير أفضل من هذا التعبير.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٥٢

وبلا شك فإنّ ما نعرفه اليوم من بركات الشمس والقمر أكثر ممّا كان يعرفه السالفون والمخاطبون بهذه الآيات عند نزولها، ولهذا فإنّ دروس التوحيد التي نقرأها على صفحاتها أكثر ممّا كان يقرأه السابقون، لهذا يقول في نهاية هذه الآية: «إِنَّ رَبَّكُمْ هُوَ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ كُلَّ هَذِهِ الْمَوْجُودَاتِ، أَمَّا الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ فَمَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ» (١)

وقد عبرت الآية الخامسة بصراحة عن خلق الليل والنهار والشمس والقمر ووصفت هذه الظاهرة بأنّها من آياته، إلّا أنّه يأمر في نفس الوقت بضرورة عدم الاعتقاد بأنّ هذه هي الإله كما يتصور عبدة الشمس والقمر.. كلا.. «لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ».

وهنا نرى الدقة التي يتحدث بها القرآن الكريم، إذ إنّ ذكر القوائد المختلفة للشمس والقمر والليل والنهار وكافة الموجودات في هذا العالم من شأنه أن يترك أثراً في أذهان ذوى العقول الضيقة ويتصورون بأنهم مدينون للنعم التي اسبغتها عليهم هذه الموجودات

فيسجدون لها ويخضعون ويعظمونها، وهذا ما ابتلى به الوثنيون على مر التاريخ، لكن القرآن يقول لهؤلاء: افتحوا أعينكم جيداً وانظروا بدقّة وتبحر، وعندها سترون من وراء الحجب العليل، وسترون الذات القدسيّة لعلّة العليل وعندها سوف تعرفون جباهكم بالسجود إليه وسوف لن تخدعكم أو تضلّكم هذه المظاهر.

ويتحدث في الآيتين السادسة والسابعة عن حركة الشمس والقمر ومنازلهما، ويصرّح

(١) «القطمير»، بتعبير بعض المفسّرين هو القشر الخفيف الذي يغطي نواة التمر، ويقول البعض إنّه التواء الصغير الموجود خلف نواة التمر، وعلى أيّة حال فهو كناية عن موجودات متصاغرة ودينئة.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٥٣

في نهاية هاتين الآيتين بأن كلّاً من هذين الجرمين يسبح في فلكه ومداره وخطه: «وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ» (١) ، وهذه التعبيرات من عجائب القرآن من ناحيته، ومن عجائب عالم الخلق وعلم وقدره البارئ تعالى من ناحية أخرى وتوجد هنا عدّة تفاسير لما تعنيه جملة «وَالشَّمْسُ تَجْرِي» ومفهوم «لِالمُسْتَقَرِّ لَهَا».

اولها: إنّ المقصود هي الحركة الظاهرية للشمس التي تبدأ منذ شروق الشمس وحتى استقرارها عند الغروب، حيث يظهر للعيان أنّها تختفي (ونعلم جيداً إنّ حركة الأرض حول نفسها هي التي تُجسّد لنا مثل هذه الظاهرة في الواقع).

الثاني: إنّ المقصود هي حركات الشمس المحورية، حيث تنحرف نحو الجزء الشمالي للكرة الأرضية مع بداية فصل الربيع، وتستمر هذه الحركة حتى بداية فصل الصيف حيث تستقر (في النصف الشمالي للكرة الأرضية) محاذية لمدار السرطان ٢٣ شمالاً وهو ما يصطلح عليه بالميل الأعظم الشمالي، ثم تبدأ حركتها نحو الجنوب وتصل إلى محاذة خط الاستواء أوائل فصل الخريف، ثم تنحرف نحو جنوب الكرة الأرضية، وتستمر هذه الحركة حتى بداية فصل الشتاء حيث تصل إلى محاذة مدار رأس الجدى ٢٣ جنوباً ويعبرون عن هذا الانحراف بالميل الأعظم الجنوبي، ثم تبدأ حركتها نحو الشمال وتكون بمحاذة خط الاستواء في فصل الربيع.

بناءً على ذلك فإنّ المقصود من جريان الشمس هو هذا الانحراف نحو الشمال والجنوب، والمقصود من المستقر هو آخر نقطة للانحراف الجنوبي والشمالي أي (مدار رأس السرطان ومدار رأس الجدى).

والمعروف (طبعاً) أنّ هذه الحركة ناتجة عن دوران الأرض حول الشمس ومع الأخذ بنظر الاعتبار انحراف محور الأرض بمقدار ٢٣، ولكن ما يبدو لنا هو أنّ الشمس لها مثل هذه الحركة.

الثالث: المقصود هو الحركة الموضعية للشمس حول نفسها، فقد ثبت اليوم أنّ الشمس

(١) «يسبحون» من مادة «سباحة» وتعني الحركة السريعة في الماء أو الهواء (مفردات الراغب).

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٥٤

تدور حول مركزها أيضاً (إذ ذكروا أنّ مدّة هذه الحركة في دورة كاملة تعادل ٢٥ يوماً ونصف اليوم)، وفي هذه الحالة ستكون اللام في «لِالمُسْتَقَرِّ لَهَا» بمعنى (في) أي أنّ الشمس تتحرك في مكانها (وطبعاً فقد اشكّل بعض المفسّرين على هذا التفسير باعتباره لا يتناسب مع مفهوم كلمة جريان).

الرابع: المقصود هو حركة الشمس في أبراج السماء على مدى أشهر السنة، والتي تقابل في كل شهر أحد هذه الصور الفلكية الاثنا عشر ومن هنا تظهر السنة باثنتي عشر شهراً بعدد هذه الابراج «١»، وعليه فإنّ المقصود من المستقر هو نهاية هذه الدورة.

الخامس والسادس: الحركتان اللتان اكتشفهما العلماء مؤخراً للشمس، إحداها مع مجموعة المنظومة الشمسية في دورتها حول مجرتنا التي تأخذها باتجاه إحدى الصور الفلكية المعروفة ب (صورة الجاثي) الواقعة في جهة الشمال بالنسبة للشمس، إذ تقطع أثناء هذه

الحركة أكثر من (٦٠٠ مليون كم سنوياً) وهذا ما يشبه تماماً جلوس مجموعة في طائرة وانشغالهم بالدوران حول مركز واحد بينما تسير الطائرة بسرعة نحو اتجاه ما، وقد تكون حركة الطائرة هادئة وخفيفة بالقدر الذي لا يحس الإنسان بهذه الحركة السريعة. والحركة الأخرى هي دوران المنظومة الشمسية مع بقية المجرات حول المركز الأصلي لهذه المجرات التي ترتبط بها، ومما يثير العجب فقد ذكروا أن سرعة هذه الحركة المذهلة تقدر بـ ٩٠٠ الف كيلو متر في الساعة (بل أكثر من ذلك قليلاً) «٢».

وطبقاً لهذا التفسير فإن المقصود من المستقر هو المستقر الذي تبلغه الشمس عند نهاية العالم وحلول القيامة، حينها تصبح الشمس بلا ضياء ويزول نظامها.

و (طبعاً) لا تتعارض هذه التفاسير مع بعضها، فيمكن أن تجتمع كل هذه التفاسير الستة

(١) المقصود من «البرج» هنا مجموعة النجوم المتجمعة والتي تكون شكلاً خاصاً، والابراج الاثنا عشر كما يلي: الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت.

(٢) راجعوا كتاب العوالم البعيدة، ص ٢٩٣؛ وتسخير النجوم، ص ٣٩٢.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٥٥

في مفهوم هذه الآية، لأن حركة كل من الأرض والشمس ليست نوعاً واحداً.

وتعبير «يُسَبِّحُونَ» تعبيرٌ لطيفٌ حيث يعبر عن حركة الشمس والقمر السريعة والريفة والمتوازنة في نفس الوقت.

وذكر في الآيات أعلاه منازل معينة للقمر حيث قال: «وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ».

والمقصود تلك المنازل الثمانية والعشرون التي يطويها القمر كل شهر منذ بداية مرحلة الهلال وحتى المحاق (الظلام المطلق)، وفي الليلة الثامنة والعشرين يظهر ثانية على هيئة هلالٍ أصفر رفيع جداً وقليل الأشعاع والنور ويبقى ليلتين حيث يقال له (محاق) إذ تتعذر رؤيته.

ويشبه القرآن الكريم هلال آخر الشهر بـ «العُرْجُونِ الْقَدِيمِ» (١)

، وهذا التعبير لطيفٌ وجذابٌ للغاية من عدة وجوه.

ونختتم هذا البحث الذي قد طال بعض الشيء بذكر هاتين المسألتين:

أولاً: إن المقصود من الفلك في الآيات المذكورة هو المعنى اللغوي وليس المعنى الذي يقصده علماء الفلك في قديم الزمان، لأن الفلك في اللغة يعني مدار النجوم، وأحياناً يقال لكل موجود يشبه الدائرة ويكون عالياً من أطرافه.

ويعتقد «الراغب» أنها في الأصل من مادة «فُلُك» (على وزن قُفْل) والتي تعني «السفن»، لأن السفن لها حركات دائرية أثناء مسيرها في البحار.

ولكن المنجمين القدامى سلكوا نهج بطليموس إذ كانوا يعتقدون أن السماء تتألف من تسع طبقاتٍ مركبة بعضها فوق بعض كقشرة البصل، ولأن هذه الطبقات تتكون من مادة شفافة كالبلور فقد التصقت النجوم والكواكب في وسطها وتدور مع دوران الافلاك فيظهر دوران النجوم فقط، ولا يظهر شيء من دوران الافلاك، وقد بطل هذا الاعتقاد بنحو كامل اليوم، واصبح من المسلم به أن النجوم معلقة في فضاء غير محدودٍ وتتحرك تحت تأثير

(١) «العرجون» من مادة «انعراج» أي الاعوجاج والانحناء، ويصفه البعض بذلك القسم من القرن المقوس الذي يتبقى على النخل بعد قطف التمر، و «القديم» تعني العتيق.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٥٦

قانون الجذب والدفع في مسيرته معينه، والجدير بالذكر أن القرآن الكريم نزل في زمانٍ كانت تحكّم فيه نظرية بطليموس على جميع المحافل العلمية بكل قوة، إلّا أنّ تعابير القرآن (كالتعبير «الجريان» و«السباحة» التي وردت في الآيات أعلاه) لا تتلائم مع النظرية القديمة بأيّ نحوٍ وتتطابق مع آخر الاكتشافات العلمية في هذا العصر.

ورود في الآيتين الثامنة والتاسعة (أَيْمَانٌ) تَبَعْتُ عَلَى التَّأْمَلِ فيقول في إحداهما: «فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ»، فيمكن أن يكون هذا التعبير إشارة إلى المشارق والمغرب و«المكانية» المختلفة، لأنّ كروية الأرض تؤدي إلى وجود مشرقٍ ومغربٍ بعدد نقاط سطح الأرض، أو أن يكون إشارة إلى المشارق والمغرب «الزمانية»، لأننا نعلم أنّ حركة الأرض حول الشمس تؤدي إلى استحالة شروق الشمس وغروبها من نقطةٍ واحدةٍ خلال يومين متتاليين.

هذا الاختلاف في المشارق والمغرب الذي يتم من خلال نظامٍ دقيقٍ ومنهجي سبب في حدوث «الفصول الأربعة» بما فيها من بركات من جهة، ومن جهةٍ أخرى فهو يؤدي موازنة الحرارة والبرودة والرطوبة على سطح الأرض، ويمنح حياة الإنسان والحيوانات والنباتات نظاماً وترتيباً، وكلّ منها آية من آيات الله وبرهان من براهينه.

وفي مكانٍ آخر يُقسّم بالقمر «كَلَّا وَالْقَمَرَ* وَاللَّيْلَ إِذْ أَدْبَرَ* وَالصُّبْحَ إِذَا اسْفَرَ» ثم يضيف: أن هذه الأيمان تُنبئ عن تحذير في أمر المعاد فيقول: «إِنَّ أَحْدَاثَ الْقِيَامَةِ وَجَهَنَّمَ مِنْ عَظِيمَاتِ الْأُمُورِ «إِنَّهَا لِأَحْدَى الْكُبْرَى» (١)». وأقسّم في بداية سورة الشمس بالشمس أيضاً، واشعتها التي تُحيي الأرواح، والقمر الذي يبرّغ بعد غروب الشمس.

(١) يقول الفخر الرازي: «إِنَّ جَهَنَّمَ لَهَا سَبْعَ مَقَامَاتٍ وَدَرَكَاتٍ وَهِيَ كَمَا يَلِي، جَهَنَّمَ، وَلُطَى وَالْحَطْمَةَ، وَالسَّعِيرَ، وَسَقَرَ، وَالْجَحِيمَ، وَالْهَآوِيَةَ» (تفسير الكبير، ج ٣٠ ص ٢٠٩).

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٥٧

وهذا ما نفهمه أيضاً بأنّ القسّم بشيء ما يدل على أهميته الخاصة، وإذا صدر هذا القسّم عن شخصٍ عظيمٍ ستتضاعف أهميته، وإذا اقسّم به من أجل موضوعٍ مهمٍ ستزداد أهمية هذا الموضوع أيضاً.

والآن تأملوا جيداً عندما يُقسّم الباري جلّ وعلا بالشمس والقمر من أجل مسألة المعاد المهمة، فهذا دليل على العظمة الفائقة لهذين الكوكبين، ويشهد على هذه الحقيقة كون أن كلاً من هذين الكوكبين ذو أهمية في نظر القرآن الكريم.

فلماذا يُقسّم الباري تعالى بكواكب السماء والليل والنهار من أجل اثبات القيامة والحساب؟ وذلك لأنّ النظام الحاكم على هذه الأشياء يبرهن على أنّ لجميع ذرات العالم حساباً خاصاً، بناءً على ذلك كيف يمكن أن تكون أعمال الإنسان الذي هو زهرة عالم الوجود بلا حسابٍ ولا كتابٍ، ولا وجود للمعاد والمحكمة العادلة؟.

وجاءت الآية العاشرة الأخيرة في بحثنا هذا عن نعمة وجود النجوم والنظام الدقيق الذي يحكمها فيقول: «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ» ثم يضيف: «قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ».

لقد كانت النجوم دائماً وعلى مدى مراحل التاريخ من أهم وسائل إرشاد الإنسان في الليالي المظلمة، حيث كان يهتدى بمساعدتها في أسفاره البحرية والبرية، حتى أنّ بعض العلماء يظنون أنّ الطيور المهاجرة، أي الطيور التي تقطع آلاف الكيلو مترات في السنة أحياناً، وبعضها يستمر في طيرانه ليلاً ونهاراً بلا توقف، تحدد طريقها نهاراً عن طريق الشمس، وليلاً عن طريق نجوم السماء، ولهذا فإنّها تتوقف عن مواصلة الطيران مؤقتاً إذا كان الجو غائماً تماماً حتى تنكشف الغيوم وتظهر السماء والنجوم!

والعجب إنّ إمكانية تحديد فصول السنة أيضاً من خلال الاستفادة من النجوم.

على أيّ حال، فإنّ هذه الآية تُلفت نظر كلّ المفكرين إلى هذه المسألة وهي أنّ حركة

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٥٨

النجوم في السماء واستقرارها في هذا الميدان العظيم تتمتع بنظام وحساب خاص، وإلا لما استطاع أي أحد العثور على طريقه في ظلمة الليل من دونها.

وهذا النظام يدل على أن الخالق المدبر قد خطَّط له بكل حكمته، ولهذا فإنَّ النظام السائد على نجوم السماء هو الذي يُحررنا من ظلمات الشرك والكفر أيضاً!

ومع تطور علم الفلك، فقد نجح العلماء في تقدير سرعة الكثير من كواكب السماء، وحجمها ومسافاتها وبقية خصائصها، وتوصلوا عن هذا الطريق إلى حقائق جديدة عن هذا النظام العظيم.

صحيحٌ قد تم اختراع آلات ووسائل دقيقة يستطيع الإنسان بمساعدتها أن يعثر على طريقه في البر والبحر، ولكن لا ينبغي نسيان عدم إمكانية استخدام جميع المسافرين لهذه الوسائل العلمية المتنوعة، إضافة إلى حدوث الخلل في هذه المعدات والآلات الدقيقة أحياناً مما يسبب الانحراف عن الطريق، فإذا كان الإنسان مطلعاً على مواقع ومواضع النجوم يستطيع من خلال ذلك إصلاح أخطاء هذه المعدات.

ورد في بعض الروايات تفسير آخر لهذه الآية عن أهل البيت (عليهم السلام) يمكن أن يُعدَّ جزءاً من المعاني الباطنية والثانوية لهذه الآية، وذلك أن المقصود من «النجوم» هم القادة الربانيون والأئمة المعصومون الذين ينجو الناس بهم من ظلمات الحياة كما ورد في تفسير علي بن إبراهيم في بيان معنى الآية: «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ» حيث قال: «النجوم هم آل محمد» (١)

، و طبعاً- من المستطاع الجمع بين هذين المعنيين، أي النجوم المادية والنجوم المعنوية والهداية الظاهرية والباطنية.

توضيحات

١- هوية الشمس

لقد اتضح لنا اليوم تقريباً أن الشمس عبارة عن كرة، وأنها أكبر من الأرض بمليون

(١) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٧٥٠ ح ٢٠٣.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٥٩

وثلاثمائة الف مرة، أي لو كانت الشمس مقعرة الوسط لكان من الممكن أن تستوعب مليوناً وثلاثمائة الف كرة أرضية! وتوضح هذه العظمة المذهلة من خلال التأمل في قطر الشمس عند الوسط الذي يقرب من (مليون وأربعمائة الف كيلو متر).

وتبلغ الفاصلة بيننا وبينها ١٥٠ مليون كيلومتراً تقريباً، وأن نورها الذي يقطع طريقه بسرعة ٣٠٠ الف كيلومتر في الثانية يصل إلينا خلال ٨ دقائق تقريباً.

إنَّ جرمَ الشمس العظيم يؤدي إلى زيادة وزن الأشياء فيها، فمثلاً إنَّ الإنسان الذي يبلغ وزنه ٦٠ كيلوغراماً على سطح الأرض سيكون وزنه ١٥٠٠ كغم فيما إذا كان على سطح الشمس!

لقد قدر العلماء وزن الشمس بما يعادل:

٠٠٠، ٠٠٠، ٠٠٠، ٠٠٠، ٠٠٠، ٠٠٠، ٠٠٠، ٠٠٠، ٢ طن.

وأخيراً فهم يُقدِّرون عمر الشمس منذ تكونها بشكلها الحالي بما يقارب ٥ مليارات سنة.

إنَّ للشمس ثلاثة أنواع من الحركة تقريباً، حركةً حول نفسها (كلَّ ٢٥ يوماً مرَّةً واحدةً تقريباً، وحركةً مع المنظومة الشمسية في قلب المجزآت نحو الصورة الفلكية (الجاثي) حيث تبعد عن مكانها أكثر من ٦٠٠ كم كل ساعة، وحركةً حول مركز المجزآت، وتدور حول هذا المركز خلال هذه الحركة مرَّةً واحدةً كل ٢٥٠ مليون سنة.

أما حرارة سطح ومركز الشمس فهي عجيبة للغاية، وتبين حسابات العلماء أنَّ حرارة سطح الشمس تعادل ٦٠٠٠ سانتغراد تقريباً، ولا تحصل هذه الحرارة على الأرض في أيِّ مختبرٍ أو فرنٍ أبداً، ودليل ذلك واضحٌ جداً لأنَّ جميع المواد بطيئة الذوبان التي نعرفها والتي يمكن بناء فرنٍ منها لا تذوب في مثل هذه الحرارة فقط، بل تصبح بخاراً، ولهذا فإنَّ جميع المواد الموجودة على سطح الشمس ذائبةً على هيئة بخار.

والأعجب من ذلك حرارة عمقها التي تبلغ ٢ مليون درجة سانتغراد! وتندلع من سطح الشمس السنة نيران يبلغ ارتفاعها أحياناً ١٦٠ ألف كم، ومن السهولة أن تضع الكرة نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٦٠ الأرضية فيها (لأنَّ قطر الأرض ليس أكثر من ١٢ ألف كيلو متر).

إنَّ هذه الحرارة لا تحصل بسبب الاحتراق، وإلَّا لو كان جرم الشمس قد صُنِعَ من الفحم الحجري الخالص لانتهدت تماماً على مدى عدة آلاف من السنين كما يقول «جورج غاموف» في كتاب «تكوُّن وموت الشمس»، ولا يبقى شيء سوى الرماد. فالحقيقة أنَّ مفهوم الاحتراق لا يصدق بخصوص الشمس وما يصدق هو الطاقة الناتجة عن الانشطار النووي، ولكن بهذا الحال وطبقاً للحسابات العلمية فإنَّ كلَّ ثانية تمرُّ على الشمس ينقص من وزنها ٤ ملايين طن، أي إنَّ هذا المقدار من ذراتها يتحول إلى طاقة، وبالرغم من أنَّ هذا الأمر ليس له تأثيرٌ على المدى القريب، إلَّا أنَّه من المسلَّم به سيساعد في فناء الشمس على المدى البعيد، وهذا ما صرَّح به القرآن الكريم في آياته، حيث سيأتي اليوم الذي ينطفىء هذا المصباح السماوي العظيم المنير «١».

٢- البركات العظيمة للشمس

مهما تحدثنا حول فوائد وجود هذا النجم السماوي وتأثيره البالغ في حياة الإنسان وبقية موجودات الأرض، فإننا لا نستطيع أن نفى بالغرض، وفي الحقيقة يمكنُ تأليف كتابٍ كبيرٍ في هذا المجال بالترتيب التالي:

١- إنَّ جاذبية الشمس تؤدي إلى دوام استمرار الأرض في دورانها في مدارها الثابت وإلَّا لسقطت في إحدى زوايا هذا الفضاء اللا متناهي ككرة مضطربة.

٢- إنَّ الحرارة التي تصلنا من الشمس بصورة مباشرةً نهاراً والتي تخزن في الأجسام وتنعكس علينا ليلاً، لها تأثير في نمو النباتات وديمومة الحركة والحياة لدى الحيوانات.

٣- إنَّ الشمس تَضَعُ في خدمة الإنسان نوراً سليماً ومجانياً وغير حارٍ أو مُحرقٍ ولا

(١) اقتباس من كتب ١- تركيبات الشمس، ٢- نجوم بلا-منظار، ٣- تكوُّن وموت الشمس، ٤- تاريخ العلوم، ٥- من العوالم البعيدة، ٦- الإسلام والهيئة.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٦١

باردٍ وخالٍ من الأثر، بشكلٍ دائمٍ، وإذا قارنا قيمة الطاقة التي نحصل عليها من الشمس مع قيمة مصادر الطاقة الأخرى فلا بدَّ أن تدفع البشرية أموالاً عوضاً عن النور والحرارة التي تستلمها من الشمس مقارنةً مع ثمن «الكهرباء» بمقدار (ملياراً و ٧٠٠ ألف دولار كل

ساعة).

عندئذٍ يجب أن نفكر كم ستكون هذه الميزانية على مدى سنة كاملة؟

وبتعبير آخر، لو أراد أهل الأرض تأمين الحرارة التي تمنحها إياهم الشمس، عن طريق شراء الفحم الحجري فيجب عليهم توفير ٦١ الف مليار طن منه سنوياً، أو بعبارة أخرى توفير ٢٠ ألف طن لكل شخص، أي تأمين ميزانية باهضة.

٣- نحن نعلم أن ضوء الشمس يتركب من ٧ ألوان مُزجت مع بعضها وظهرت على هيئة هذا النور الأبيض والشعاع الحالى، وهذا النور يُعتبر عاملاً مساعداً للنباتات حيثُ يمتصُّ غاز ثانى اوكسيد الكاربون من الجو ويطرُحُ فى المقابل غاز الاوكسجين الذى هو عمادُ حياتنا، فهو يساعد النباتات فى نموها بسحب ثانى اوكسيد الكاربون.

ونحن نميز الأشياء حسب العادة عن طريق ألوانها، وهذه الألوان تحصلُ فى شعاع الشمس، لأنَّ كلَّ موجودٍ يقوم وحسب تكوينه بامتصاص جانبٍ من ألوان الشمس فنطلقُ على اللون الذى لم يُسحب لونَ الشيء، أى أنَّ الورق الأخضر للنباتات يمتص جميع ألوان الشمس عدا اللون الأخضر، إذن فنورُ الشمس هو الذى يُظهرُ جميع الألوان.

٤- إنَّ الاشعة فوق البنفسجية والتي هى من اشاعات الشمس تُفيدُ فى القضاء على ٩٠ خ من الجراثيم، وتقوم بدورٍ منع التعفن بنجوى تام، ولولاها لتبدلت الأرض إلى مستشفى كبير، ولعلَّ أشعة الشمس اعتبرت لهذا السبب من المطهرات فى الإسلام «مع شروط خاصة طبعاً».

٥- لقد استطاع العلماء من خلال استخدامهم للعدسات المحدبة الفخمة من توليد حرارة هائلة بإمكانها تشغيل المصانع المهمة، ولعل الكثير من المؤسسات الصناعية الحساسة سيتم تشغيلها فى المستقبل القريب بالاستفادة من نور الشمس، وتحلُّ الطاقة

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٦٢

الشمسية عندئذٍ محلَّ الكهرباء فى البيوت.

٦- إنَّ تكوُّن الغيوم نتيجة لسقوط أشعة الشمس على سطح المحيطات وهبوب الرياح نتيجة لاختلاف درجات الحرارة على الأرض بسبب أشعة الشمس، ثم حركة الغيوم نحو اليابسة وهطول الأمطار التى تبعث الحياة، هى احدى الفوائد المهمة للغاية لنور وحرارة الشمس.

٧- إنَّ حركة الشمس المنظمة فى أبراج السماء (الصور الفلكية) وشروقها وغروبها المنهجي الذى يجرى بنظامٍ وتعاقبٍ دقيقٍ ومحسوبٍ على مدى أيام السنة، إضافة إلى مساعدتها فى تكوين الفصول المتعددة، فهى تساعد فى إيجاد تقويمٍ وحسابٍ منظمٍ للزمان الضرورى جداً للحياة الاجتماعية للبشر «١».

٣- القمر وبركانه

إنَّ القمر كوكبٌ صغيرٌ نسبياً فهو اصغر من الأرض ب (٤٩ مرة) وفقاً لحسابات العلماء، لهذا فإنَّ قوة جاذبيته تعادل ١ ٦ قوة جاذبية الأرض، ومتوسط بُعده عن الأرض أكثر من ٣٨٤ الف كيلومتر، لذلك فإنَّ نور القمر يصل إلينا خلال أكثر من ثانية واحدةً بقليل.

وتبلغ سرعة حركته فى دورته حول الأرض كيلو متراً واحداً فى الثانية، ويدور حول الأرض مرّة واحدة على مدى شهرٍ قمرى واحد أى «أكثر من ٢٩ يوماً بقليل»، ويدور حول نفسه أيضاً مرّة واحدة خلال نفس هذه الفترة، وبما أن هاتين الحركتين متناسقتان فإنَّ جانب القمر الذى يقابل الأرض يكون ثابتاً على الدوام، ولا عجب إذا قلنا إنَّ نور القمر حين اكتماله ليلاً البدر أقل من ضوء الشمس ب (٤٦٠) ألف مرّة، إلّا أنَّ هذا النور الضئيل

(١) فكما قلنا إنَّ السبب الرئيسي لحصول هذه الامور هو في الواقع دوران الأرض حول الشمس، ولكن بما أنَّ حركة الشمس هي التي تُرى كسبب لهذا حسب الظاهر، فإنَّ القرآن الكريم يعتبر كلا من الشمس والقمر (حسبان) أي (وسيلةً للنظام والحساب) - الأنعام، ٩٦. نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٦٣

يضيء الليالي المقمرة، ويظهر كمصباح جميل كثيف الشعاع ومُريح للفؤاد وبمنظرٍ شاعريٍّ محبَّب. ولم تكن الإشارة إلى القمر في الآيات السابقة فقط، فقد تمت الإشارة إلى القمر وبركاته وفوائده في آياتٍ كثيرةٍ من القرآن الكريم، وورد القَسَمُ به في آياتٍ أخرى أيضاً، وجاء الحديث عن «القمر» في ما مجموعه ٢٧ آية من القرآن الكريم، واشير إلى تسخير القمر في سبع آياتٍ من هذه الآيات التي تُبيِّن أهميَّة فوائده في حياة البشر (١).

إنَّ فوائد وبركات القمر كثيرةٌ للغاية، حيث نشير هنا إلى عددٍ منها:

١- إنَّ دوران القمر حول الأرض يُشكِّل تقويماً طبيعياً لطيفاً، وقد مرَّ شرحه في الأبحاث السابقة.
٢- إنَّ الضياء المناسب الذي يمنحه القمر بالرغم من أنه لا- يزيل ظلمة الليل كلياً (ولا ينبغي أن يزيلها لأنَّ نفس الظلمة لها فلسفة مهمة)، ولكن يُمكن أن يساعد الإنسان إلى حدٍ ما في الكثير من الليالي على اكتشاف طريقه في المدن والصحارى والبحار، لا سيما أنَّ نور القمر مناسبٌ وملائم بحيث لا يزعج الإنسان والموجودات الأخرى أثناء النوم والراحة ليلاً، بل يشعر الإنسان باطمئنان خاص من خلال نور القمر.

٣- إنَّ مسألة المدّ والجزر في البحار إحدى الآثار البارزة لوجود القمر، فالذين ذهبوا إلى البحار كان بإمكانهم ملاحظة هذا الأمر في الليل والنهار حيث يرتفع وينخفض منسوب المياه مرتين كل يوم، ويُعبَّر عن ذلك بالمد والجزر، ويستمر كلُّ منهما لمدة ٦ ساعات تقريباً.

فأثناء المدّ يرتفع منسوب المياه ويغطي معظم سواحل البحر، وخلال الجزر تنكشف سواحل البحار.

ولهذا المدّ والجزر فوائد مهمة في حياة البشر منها: تراجع مياه الأنهار التي تصب المياه العذبة في البحار ممَّا يؤدي إلى رى الأراضي الواسعة عن طريق ذلك كما يشاهد في بساتين

(١) الاعراف، ٥٤؛ الرعد، ٢؛ ابراهيم، ٣٣؛ النحل، ١٢؛ لقمان، ٢٩؛ فاطر، ١٣؛ الزمر، ٥.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٦٤

النخيل الساحلية الواسعة في خوزستان.

ومن الفوائد الأخرى للمد والجزر هي حركة المكائن في المصانع ونشاط المولدات الكهربائية، وكذلك الإبحار، حيث إنَّ السفن الكبيرة تستطيع خلال المد أن ترسو في معظم السواحل حيث يتم تحميل وتفريغ حمولتها، وتنظيف الموانئ، وصيد الأسماك، وتحريك مياه البحر وموازنة حرارته ومركباته أيضاً وامور أخرى (١).

٤- الشمس والقمر في كلام الأنمة المعصومين عليهم السلام

عندما تقع عين الإمام السجّاد عليه السلام على القمر فهو يخاطبه، وهذه الكلمات درس في التوحيد ومعرفة الله حيث يقول: «أيها الخلق المطيع! الدائب السريع المتردد في منازل التقدير المتصرف في فلك التدبير، آمنت بمن نور بك الظلم، وأوضح بك البهيم، وجعلك آية من آيات ملكه، وعلامة من علامات سلطانه ... سبحانه ما أعجب ما دبّر في أمرك، وألطف ما صنع في شأنك جعلك مفتاح شهر حادث لامر حادث ...» (٢).

وفى توحيد المفضل عن الإمام الصادق عليه السلام:

«فكر يا مفضل فى طلوع الشمس وغروبها لإقامة دولتى النهار والليل، فلولا طلوعها لبطل أمر العالم كله فلم يكن الناس يسعون فى معاشهم، ويتصرفون فى أمورهم، والدنيا مظلمة عليهم ولم يكونوا يتهنأون بالعيش مع فقدهم لذة النور وروحه، والإرب فى طلوعها ظاهر مستغن بظهوره عن الإطناب فى ذكره، والزيادة فى شرحه، بل تأمل المنفعة فى غروبها، فلولا غروبها لم يكن للناس هدوء ولا قرار مع عظم حاجتهم إلى الهدوء والراحة ...»

(١) اعجاز القرآن فى نظر العلوم المعاصرة، ودائرة المعارف للمصاحف وكتب اخرى

(٢) بحار الأنوار، ج ٥٨، ص ١٧٨، ح ٣٦.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٦٥

ثم فكر بعد هذا فى ارتفاع الشمس وانحطاطها لإقامة هذه الأزمنة الأربعة من السنة وما فى ذلك من التدبير والمصلحة ...
فكر الآن فى تنقل الشمس فى البروج الاثنى عشر لإقامة دور السنة ... وفى هذا المقدار من دوران الشمس تدرك الغلات والثمار، وتنتهى إلى غاياتها، ثم تعود فيستأنف النشوء والنمو ...
انظر إلى شروقها على العالم كيف دبر أن يكون، فأنها لو كانت تبرز فى موضع من السماء فتقف لا تعدوه لما وصل شعاعها ومنفعتها إلى كثير من الجهات.

أفلا- يرى الناس كيف أن هذه الامور الجليله؟ التى لم تكن عندهم فيها حيلة صارت تجرى على مجاريها، لا تعتل ولا تتخلف عن موافقتها لصلاح العالم وما فيه بقاؤه؟

استدلّ بالقمر، فيه دلالة جليله تستعملها العامة فى معرفه الشهور، ولا يقوم عليه حساب السنة ... فكر فى انارته فى ظلمة الليل والإرب فى ذلك، فأنه مع الحاجة إلى الظلمة لهدوء الحيوان وبرد الهواء على النبات لم يكن صلاح فى أن يكون الليل ظلمة داجية لا ضياء فيها فلا يمكن فيه شىء من العمل، لأنه ربما احتاج الناس إلى العمل بالليل لضيق الوقت عليهم فى تقصير الأعمال بالنهار، أو لشدة الحر وافراطه ... وجعل طلوعه فى بعض الليل دون بعض، ونقص مع ذلك من نور الشمس وضيائها لكيلا ينسب الناس فى العمل انبساطهم بالنهار، ويمتنعوا من الهدوء والقرار ...» (١).

(١) بحار الأنوار، ج ٥٥، ص ١٧٥، ح ٣٦ «مع الاختصار».

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٦٧

٩- آياته فى خلق الليل والنهار

تمهيد:

بالرغم من أن الليل والنهار من الظواهر التى تحصل نتيجة لضوء الشمس وحركة الأرض، ويعتبران من بركاتهما، لكن نظراً لاهتمام القرآن بهما فى آيات التوحيد بشكل خاص، واستناده إلى هاتين الظاهرتين فى الكثير من الآيات، لذلك من الواجب الاهتمام بهما بشكل مستقل، كى نرى فيهما آيات تلك الذات غير المعروفة، ونتعرف أكثر على خالق وإله عالم الوجود، ونزداد حباً له، ونتشرف بالنظر إلى حضرته المقدسة.

بعد هذا التمهيد نقرأ خاشعين الآيات الاثنى عشرة الآتية:

١- «وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ». (الانبياء / ٣٣)

٢- «يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ». (النور / ٤٤)

٣- «هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ». (يونس / ٦٧)

٤- «وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ». (فصلت / ٣٧)

٥- «وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ». (الاسراء / ١٢)

٦- «وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا». (النبأ / ١٠ و ١١)

٧- «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَن أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا».

(الفرقان / ٦٢)

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٦٨

٨- «وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ». (النحل / ١٢)

٩- «إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ». (يونس / ٦)

١٠- «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ

عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُونُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ

لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ». (القصص / ٧١-٧٣)

١١- «وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى . (الليل / ١-٢)

١٢- «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ». (الحج / ٦١)

جمع الآيات وتفسيرها

النظام العجيب الليل والنهار:

لقد تكررت كلمة «الليل» في القرآن الكريم أكثر من «٧٠» مرّة، وكلمة «النهار» أكثر من «٥٠» مرّة، والآيات السابقة تُعتبر نماذج مختلفة

لهذه الآيات، حيث تمت الإشارة فيها إلى البعد التوحيدي لخلق الليل والنهار على وجه الخصوص.

ففي الآية الأولى ذكر أصل خلق الليل والنهار، والشمس والقمر، اللذين يرتبطان بهما بعلاقة قريبة كبرهان لسالكى خط التوحيد ومعرفة

الله، حيث يقول: «هُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ».

وجاء هذا المعنى بنحو آخر في الآية الرابعة، إذ يقول: «وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ».

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٦٩

في الوقت الذي يقول في الآية الثانية: «يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ».

وقد يكون هذا التغيير في التعبير إشارة إلى حصول الليل والنهار، أو زيادة ونقصان مقدارهما، أو اختلافهما من حيث البرودة والحرارة

الذي يحدث خلالهما «١»، ولكن لا مانع من شمول هذا التغيير كل هذه المعاني أبدأ.

وأشار في الآية الثالثة إلى إحدى فوائد «الليل» و «النهار» المهمة، حيث يقول: «هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا».

والواضح أن الاطمئنان في ظلمة الليل أحد أهم النعم الإلهية، كما أن نور النهار الضروري لمختلف النشاطات يُعتبر نعمة مهمة أخرى

والملاحظ في هذه الآية أن النهار اعتُبر «مُبَصَّرًا»، والمُبَصَّرُ في الأصل تعنى البصير، ونحن نعلم أن النهار ليس بصيرًا في نفسه، ولكن بما أنه يؤدي إلى أن يُبَصَّرَ الآخرون، فلعل هذا التعبير اطلق عليه للتأكيد والمبالغة.

وفي الحقيقة لولا بريق النور فلا فائدة لألف عين مبصرة، لهذا فهو يضيف في ختام الآية: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَشْكُرُونَ»، أى اولئك الذين يستمعون هذه الآيات ويتفكرون فيها.

في حين أنه يعتبر كلاً من الليل والنهار في الآية الخامسة آيةً من آيات الله تعالى ويقول: «فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً»، ثم يشير إلى فائدتي ذلك حيث يقول:

(١) وردت هذه الاحتمالات الثلاثة في تفسير روح المعاني، ج ١٨، ص ١٧٣، وتفسير الكبير ج ٢٤ ص ١٥، ولكن ذكر التفسير الأول والثاني فقط في تفسير مجمع البيان ج ٧ ص ١٤٨.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٧٠

«لَتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ».

فهل أن فوائد النهار تقتصر على ابتغاء فضل الله ومعرفة حساب السنه والشهور من آثار الليل والنهار معاً؟ أم أن كلا المنفعتين لهما علاقة وثيقة بالليل والنهار معاً؟ لأن الراحة في الليل لها أثر واضح في إمكانية العمل والابتغاء من فضل الله نهاراً، والظاهر أن المعنى الثاني أكثر تناسباً من حيث تناسقه مع الآية، بالرغم من أن العديد من المفسرين ذكر المعنى الأول.

وفي الآية السادسة إشارة إلى هذا المعنى وبنحو آخر حيث يقول: «وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَاسًا وَالنَّهَارَ مَعَاشًا».

وقد يكون «المعاش» اسم زمانٍ أو مكانٍ أو مصدرًا ميميًا، وهو يلائم المعنى المصدرى «١».

ووصف الليل ب «اللباس» يعتبر من التعابير اللطيفة جداً، حيث إن الليل كاللباس بالنسبة لنصف الكرة الأرضية، وهو كذلك بالنسبة للإنسان، فكما أن اللباس يحفظ جسم الإنسان من بعض الاضرار ويمنحه جمالاً ورونقاً، فإن ظلمة الليل والنوم العميق أثناء الليل يمنح روح الإنسان وجسمه طراوةً ونشاطاً ويصونه من مختلف الأمراض.

والحديث في الآية السابعة عن استخلاف الليل والنهار لبعضهما البعض، فيقول: «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً».

(١) قال بعض المفسرين: إن التعبير ب «المعاش» أى «الحياة» بخصوص النهار هو لأجل أن النوم في الليل يشبه الموت كما يقول العرب في أمثالهم «النوم أخ الموت»، وعليه فإن النقطة المقابلة له أى النهار هو أساس الصحوه والحياة، (الحياة بكل أبعادها).

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٧١

و «خِلْفَةً»: على وزن (فنته)، وكما يقول الراغب في «المفردات» فإنها تُطلق على شيئين يخلف أحدهما الآخر باستمرار، لكن «خلفه» تعنى «مختلف» وفقاً لرأى الفيروز آبادى في «قاموس اللغة»، ففي الحالة الاولى ينصب الاهتمام على تناوب الليل والنهار، فلو لم يكن هذا التناوب دقيقاً ومحسوباً، فإما أن تحترق موجودات الأرض من شدة حرارة ضوء الشمس أو تنجمد من شدة البرودة، وفي الحالة الثانية إشارة إلى اختلاف الليل والنهار وحصول فصول السنة الأربعة التى لها آثار خاصة في حياة الإنسان.

واختار بعض المفسرين المعنى الأول، بينما ذهب البعض الآخر إلى المعنى الثانى، ولكن ليس هنالك من مانع في الجمع بين هذين المعنيين.

وورد في الروايات أن الإنسان يستطيع أن يقضى في النهار ما فاته من عبادات الليل وبالعكس، واعتُبر أن الآية تشير إلى هذا المعنى «١».

ولا يتعارض هذا التفسير مع التفاسير السابقة أيضاً، وعلى أية حال، فإن الآية تشير إلى نظام خاص ومتناوب لظاهرة ليل والنهار حيث

تدل على العلم والقدرة اللامتناهية للخالق جلّ وعلا، بشكلٍ لو كانت دورة الأرض حول نفسها أسرع بقليلٍ أو أكثر بطءً مما عليه الآن لطلال الليل والنهار وتعرضت حياة الناس بل كافة الموجودات على الأرض إلى الخطر. والحديث في الآية الثامنة عن تسخير الليل والنهار وخدمتهما للإنسان إذ يقول: «وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ». وبما أن شرح معنى التسخير قد مرَّ سابقاً في موارد مشابهة فلا نرى حاجةً للإعادة.

(١) ورد هذا التفسير في حديث عن النبي صلى الله عليه وآله «طبقاً» لما نُقل في تفسير الفخر الرازي، وفي حديث عن الصادق عليه السلام «طبقاً» لما نُقل في تفسير نور الثقلين، ج ٣، الآية المورد البحث.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٧٢

وأشار في الآية التاسعة، أولاً إلى مسألة اختلاف الليل والنهار، ثم إلى كافة مخلوقات الأرض والسماء التي خلقها الله تعالى كبرهانٍ على عظمته وعلمه وقدرته فيقول: «أَنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ». وهذا التعبير دليلٌ على مدى أهميته خلقهما.

وفي القسم العاشر أشار في ثلاث آيات بتعابير جميلة إلى الفوائد المهمة لليل والنهار فقال تعالى: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ* قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ* وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ». والجدير بالذكر أنه يقول في نهاية إحدى الآيات: «أَفَلَا تَسْمَعُونَ»، وفي نهاية آية أخرى «أَفَلَا تُبْصِرُونَ».

ولعل هذه التعابير إشارةً إلى أن هناك دلائل حسيّة في هذا النظام الدقيق لليل والنهار يجب أن تُنظر بالعين، وكذلك هناك دلائل نقلية يجب أن تُسمع، وهذا جديرٌ بالتأمل أيضاً، يقول في مورد خلود الليل: «أَفَلَا تَسْمَعُونَ»، وفي مورد خلود النهار: «أَفَلَا تُبْصِرُونَ»، لأنّ الأذن تستخدم غالباً في الليل والعين في النهار.

إنّ أهميته موضوع الليل والنهار بلغت إلى الحد الذي يُقسم الله تعالى في القرآن بهما في آياتٍ عديدةٍ من بينها ما يقوله في القسم الحادي عشر من هذه الآيات: «وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى».

وورد هذا المعنى في مكانٍ ثانٍ وبتعبيرٍ آخر فيقول: «وَاللَّيْلُ إِذَا أَدْبَرَ وَالصُّبْحُ إِذَا أَشْفَرَ». (المدثر / ٣٣)

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٧٣

ويقول في مكانٍ آخر: «وَاللَّيْلُ إِذَا عَسَسَ* وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ». (التكوير / ١٧)

ويضيف في مكانٍ آخر: «وَالضُّحَى وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى». (الضحى ١ - ٢)

وأيماناً أخرى من هذا القبيل حيث تحكى كلها عن الأهمية الفائقة التي يوليها القرآن الكريم لليل والنهار كي يتمعن الإنسان بهما ويرى آيات الله في كل موقع منهما، لأنّ القسم دليلٌ على أهميته وقيمه وحقيقته التأمل دائماً.

وفي الآية الثانية عشرة والأخيرة نواجه تعبيراً جديداً في هذا المجال إذ يقول: «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ».

«يُولِجُ»: من مادة «يلاج» وتعنى الإدخال، وبما أنّها جاءت بصيغة «الفعل المضارع» وحيث اننا نعلم أنّ الفعل المضارع يفيد الاستمرار، فقد تكون إشارةً إلى طول وقصر الليل والنهار التدريجي والمنظم على مدى فصول السنة المختلفة حيث ينقض أحدهما ويضاف إلى الآخر، فهذا النظام التدريجي عاملٌ مؤثرٌ في نمو النباتات وتكامل الكائنات الحيّة، فلو حدثت فجأةً سيختل توازن هذه الموجودات فيكون مضرّاً، لهذا فقد جعله الباري تعالى أمراً تدريجياً.

ومن الممكن أن تكون إشارة إلى مسألة شروق وغروب الشمس، لأنَّ الشمس حينما تقتربُ من الشروق يشعُّ نورُها نحو الطرف الأعلى من الجو، ويضئُ الجو قليلاً، وكلما ارتفعت الشمس من وراء الأفق يزداد هذا الضياء، وعلى العكس أثناء الغروب، فلا يحلُّ الليلُ دفعةً واحدةً، بل تختفي أشعةُ الشمس رويداً رويداً في الطبقات السفلى من الجو، ويحلُّ الظلامُ محلَّها، فهذا الانتقال التدريجي من النور إلى الظلام وبالعكس يؤدِّي إلى أن يتأقلم الإنسان معه من الناحية الجسمية والروحية، ولو حلَّ الليلُ أو النهارُ بشكلٍ مفاجئٍ لترك آثاراً سيئةً.

والجدير بالذكر أن ظاهر الآية هو أن دخول الليل في النهار والنهار في الليل يحدث في

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٧٤

آن واحدٍ، والواقع هو كذلك، لأنَّ الليلَ يقلُّ تدريجياً أثناء فصل الصيف في المناطق الواقعة شمال خط الاستواء ويصبح جزءاً من النهار أي إنه مصداقٌ لـ «يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ»، وفي ذات الوقت يقلُّ النهار في جنوب خط الاستواء ويصبح جزءاً من الليل حيث يكون مصداقاً لـ «يُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ» (١)

وجاء في الحديث المشهور عن المفضل، أن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«فكر في دخول أحدهما - الليل والنهار - على الآخر بهذا التدرج والترسل، فانك ترى أحدهما ينقص شيئاً بعد شيء، والآخر يزيد مثل ذلك حتى ينتهي كل واحد منهما منتهاه في الزيادة والنقصان، ولو كان دخول أحدهما على الآخر مفاجئاً، لأضر ذلك بالأبدان وأسقمها، كما أن أحدكم لو خرج من حمام حار إلى موضع البرودة لضره ذلك وأسقم بدنه، فلم يجعل الله عز وجل هذا الترسل في الحر والبرد إلا للسلامة من ضرر المفاجأة؟» (٢).

توضيحان

١- أهمية النور والظلام وفوائد الليل والنهار

لاحظنا في الآيات الآنفة كيف أن الله تبارك وتعالى يدعو الناس إلى دراسة هاتين الظاهرتين اللتين تبدوان عاديتين للعيان، ويعدهما من آياته، والحقيقة أننا كلما امعنا النظر في هذا المجال نتوصل إلى أمورٍ جديدة:

(أ) فنحن نعلم أن الليل والنهار في جميع أنحاء العالم يختلفان تماماً، فطول الليل عند خط الاستواء ١٢ ساعة، وطول النهار ١٢ ساعة أيضاً في كافة الفصول، إلا أن السنة كلها في المنطقة الجنوبية وعلى خط ٩٠ ليست أكثر من يوم واحدٍ وليله واحدة حيث تكون مدة كل منهما ستة أشهر تقريباً «ومثل هذه المناطق غير مأهولة طبعاً»، وهنالك مراحل وسط

(١) لقد ذكر «الطريحي» في «مجمع البحرين» هذه النكتة في مادة (ولج).

(٢) بحار الأنوار، ج ٣، ص ١١٨.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٧٥

بين هذين الوضعين في باقى بقاع العالم.

إلا أن ما يثير العجب هو بالرغم من هذا الاختلاف فإن جميع بقاع الأرض تستفيد من أشعة الشمس بنفس النسبة على مدار السنة وهذا نظامٌ عادلٌ للغاية!

ب) إنَّ النهارَ أكثرُ طولاً أثناء الصيف والليل أكثرُ طولاً في الشتاء، أى أنَّ هذين الأمرين يسيران بشكلٍ متزامنٍ، زيادةً طول النهار، والاشعاع العمودى «أو شبه العمودى» للشمس، فيكمل أحدهما أثر الآخر، ويؤدیان إلى زيادة حرارة الجو فتشمرُّ الفواكه والمحاصيل الزراعية، وفي الشتاء يؤدَّى إلى زيادة البرودة وتساقط أوراق الأشجار والنباتات، واللطيف أنَّه في المناطق الاستوائية حيث يشع ضوء الشمس عمودياً لا يطول النهار أبداً، وإلَّا لداهما خطر الحرارة الشديدة واحترقت النباتات.

ج) إنَّ ضوء الشمس يسبب اليقظة والجد والسعى والحركة باستمرار، على العكس من الليل الذى يبعث على السكون والاستقرار والنوم، ويُلاحظُ هذا الأمر على وجه الخصوص في عالم الحيوانات، حيث تستيقظ الطيور مع سفور الصبح وتتجه نحو الصحراء، وتعود وتستريح في أوكارها عند غياب الشمس، وفي الارياف حيث إنَّ لمعظم الناس حياةً طبيعيةً، ويكون برنامج حياتهم كذلك أيضاً، ولكن نظراً لتطور الآلة، وصناعة النور الاصطناعى، فإنَّ الكثير من الأشخاص يسهرون جزءاً من الليل وينامون بعض النهار، وهذا أحد الأسباب لبعض أنواع الأمراض، وفي الحقيقة أنَّ القرآن يُحذِّرُ مثل هؤلاء الأفراد بأنَّ ترك النوم ليلاً يؤدَّى إلى فقدان الاطمئنان الروحي وذلك من خلال عبارة: «هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً». (يونس / ٦٧)

٢- ظاهرة الليل والنهار في القرآن الكريم

لقد ذُكرت ظاهرة الليل والنهار أكثر من ثلاثين مرّة في القرآن الكريم كبرهانٍ على وجود الله ودليلٍ على عظمته وقدرته، حيث يقول أحياناً: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي النَّفْسِ» (النور / ٤٤).

ويقول كذلك: «لَا يَأْتِيَنَّكُمْ يَتَّقُونَ». (يونس / ٦)

ويقول: «لَا يَأْتِيَنَّكُمْ يُؤْمِنُونَ». (النمل / ٨٦)

وفي الواقع، أنَّ العلاقة بين هذه الامور الثلاثة تتضح هنا حيث إنَّ التفكير والتأمل الناضجين والعميقين كما ورد في حق «أولوا الألباب» يؤدیان إلى ظهور الإيمان ورسوخه، والإيمان بدوره يؤدَّى إلى ظهور التقوى في القلب والروح أيضاً.

ولهذا فإنَّ التمعّن في آيات عظمة الله وعلمه وقدرته في عرض عالم الوجود، يُرسِّخ العقيدة ويُربِّي الإنسان من الناحية العملية أيضاً.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٧٧

١٠- آياته في خلق الجبال

تمهيد:

الكلُّ يعرفُ بشكل عام أنَّ القرى واغلب المدن المهمة تقع في سفوح الجبال الشامخة وتقع فيما بينها، وأنَّ الأنهار الكبيرة التي هي عمادُ ازدهار المدن تنبع من الجبال الشاهقة، إنَّ دور الجبال في حياة الإنسان لا ينحصر بذلك فقط على الرغم من أهميته هذا الدور. فالجبال لها دورٌ مهمٌ جداً في حياة الإنسان بل جميع الموجودات التي تعيش على الأرض، وفوائدها وبركاتها عديدة جداً، ولا يُبالغ إذا قلنا باستحالة الحياة على الأرض بدون وجود الجبال.

ولهذا فإنَّ القرآن الكريم أشار في آيات كثيرة إلى مسألة خلق الجبال كاحدى آيات التوحيد وبراهينه على علم وقدره الخالق جلَّ وعلا.

بعد هذه المقدمة نقرأ خاشعين الآيات الآتية:

- ١- «أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ* وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ* وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ». (الغاشية/ ١٧- ١٩)
 - ٢- «أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا* وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا». (النبا/ ٦- ٧)
 - ٣- «وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا». (الرعد/ ٣)
 - ٤- «وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ». (النحل/ ١٥)
 - ٥- «وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ». (الانبيا/ ٣١)
- نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٧٨
- ٦- «وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّاتِلِينَ». (فصلت/ ١٠)
 - ٧- «وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا». (المرسلات/ ٢٧)
 - ٨- «أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَكْثَرُهُمْ لَيَعْلَمُونَ». (النمل/ ٦١)
 - ٩- «وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا». (النحل/ ٨١)
 - ١٠- «وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ». (فاطر/ ٢٧)

شرح المفردات:

«جبل»: على وزن (عَسَلٌ)، بالرغم من أن بعض أرباب اللغة فسرها بأنها المفردة التي تقابل الأراضي المنبسطة، وفسرها بعضهم بالأجزاء المرتفعة من الأرض حيث تكون عالية وشامخة، فالظاهر أن جميع هذه التعبيرات تشير إلى معنى واحد.

وطبعاً قد يُستعمل هذا اللفظ في المعاني الكنائية أيضاً، فقد يُقال (جبل) للأشخاص الصامدين والعظماء، و«جِبَلِي» للصفات الثابتة في طبيعة الإنسان والتي لا تتبدل ولا تتغير «كالجبل»، وكذلك يُقال (جِبَلٌ) بكسر الجيم والباء وتشديد اللام، للرهط والمجموعة في لغة العرب من باب التشبيه بالجبل في العظمة «١».

و«الرواسي»: جمع «راسية» أي الجبال الثابتة الراسخة، وهي في الأصل من «الرَسْو» (على وزن رَسْمٌ وغلُوٌ) وهي مأخوذة من الثبات والرسوخ، ويُطلق على الاواني الضخمة الراسخة والثابتة في مكان العمل ب (الراسية) أيضاً، كالقُدور الراسية التي وردت في قصة سليمان عليه السلام في القرآن الكريم، ويُطلق لفظ (رسي) على الأعمدة الثابتة في وسط الخيمة أيضاً، ويقال لمكان رسو السفن ب «المرساء» حيث تثبت وتستقر السفينة في مكانها.

(١) المفردات للراغب؛ ومجمع البحرين؛ ولسان العرب.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٧٩

وقد يُستخدم هذا اللفظ بمعنى ارساء السُّلم في المجتمع أيضاً لأنَّ السُّلم أساسُ ثبات كلِّ بلد.

جمع الآيات وتفسيرها

البركات والأسرار العجيبة للجبال:

فى القسم الأول من هذه الآيات يدعو البارى تعالى الناس إلى البحث والتأمل فى آيات الله فى السماء والأرض، ثم يشير إلى كيفية خلق الابل وكذلك ارتفاع السموات حيث ارتفعت بدون عمدٍ مع مالها من عظمتها، وأشار إلى نصب الجبال فقال: «وإلى الجبال كيف نُصِبَتْ».

ولعل هذا التعبير إشارة إلى ثبات واستقرار الجبال فى أمكنتها ومنع حدوث الزلازل التى سيشار إليها فى الآيات القادمة أو اشير إليه آنفاً، أو الوقوف أمام الأعاصير والعواصف، وتوفير الملاجىء الآمنة للبشر، ومستودعات حفظ المياه على هيئة ينابيع وقنوات وأنهار. ويمكن أن يكون هذا التعبير إشارةً ظريفةً إلى مسألة طبيعة تكوين الجبال ووجودها حيث كشف العلم المعاصر الستار عنها، إذ يقول: إن الجبال تكونت نتيجة لعوامل معينة فقد يكون بسبب تعرُّج الأرض، وأحياناً بسبب البراكين، أو نتيجة الترسبات الناتجة عن الأمطار التى تغمر الأرض وتجرف بعضها معها ويبقى الجزء القوى والصلب ثابتاً فى مكانه.

وفى أعماق البحار تتكون الكثير من الجبال نتيجة الترسبات الحيوانية كالمرجان حيث يطلق عليها الجبال أو الجُزُر المرجانية. ومن الممكن جمع كل هذه المعانى فى عبارة «كَيْفَ نُصِبَتْ».

ويقول فى القسم الثانى من الآيات كياناً للنعم الإلهية: «أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا* وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا؟»

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٨٠

«الاوْتَاد»: جمع (وَتَدٌ) (على وزن حَسَدٌ)، وتُطَلَّقُ على المسامير الضخمة القوية جداً، وقد فسَّرها البعض بالمسامير التى تغور فى الأرض وتُربط إليها جبال الخيمة (١).

وهنا كيف تكون الجبال بمثابة أوتاد الأرض؟ هناك تفاسير متعددة: أولها وهو ما ثبت اليوم بأن الجبال لها جذورٌ عظيمة فى أعماق الأرض، وهذه الجذور متشابكة معاً وتُمسكُ بقشرة الأرض كالدرع وتحفظها فى مواجهة الضغوط الناشئة عن الحرارة الداخلية، ولولاها لما كان لسطح الأرض من قرار.

وفضلاً عن ذلك فكما أن جاذبية القمر والشمس تترك تأثيراتها على المحيطات، وتسبب المد والجزر، فإن اليابسة لها تأثيرها أيضاً، فيمنح درع الجبال قشرة الأرض قدرة المقاومة أمام هذا الضغط الهائل.

ومن ناحيةٍ ثالثة فإن الجبال تصون بقاع الأرض المختلفة من العواصف والسيول وتقف أمامها كالسور العالى، بحيث لو كان وجه الأرض كله على هيئة صحراء لتعسرت حياة الإنسان على سطحها أمام هذه السيول العارمة.

وأهم من كل ما مضى فإن الجبال تعتبر بمنزلة الأوتاد القوية لنظام حياة البشر لكونها مركزاً لدخائر المياه.

وجاء فى تفسير الميزان أن الأوتاد جمع وتد وهو المسمار إلا أنه أغلظ منه (٢) كما فى المجمع ولعل عد الجبال أوتاداً مبنى على أن أكثر جبال الأرض ناتجة من البراكين التى تنطلق من أعماق الأرض فتخرج مواد ارضية مذابة تستقر على فم الشق متراكمة كهيئة الوتد المنصوب على الأرض تسكن به فورة البركان التى تحتها فيرتفع به ما فى الأرض من الاضطراب والتزلزل.

(١) تفسير المراغى، ج ٣٠، ص ٤.

(٢) تفسير الميزان، ج ٢٠، ص ٢٥٩.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٨١

وفى الآيات الثالثة والرابعة والخامسة عُبِّرَ عن الجبال ب «الرواسى» حيث يقول:

«وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي وَأَنْهَارًا».

ويقول فى مكان آخر: «وَأَلْفَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ».

ويشاهد هذا المعنى فى الآية الخامسة أيضاً.

ويستفاد من مجموع هذه الآيات أن أحد أهم فوائد الجبال هو منع الحركات غير الطبيعية والزلازل الأرضية. و«تميد»: من مادة (مَيِّد) (على وزن صَيِّد) أى إهتزاز الأشياء الضخمة، وقال البعض إنها الحركة المترامنة مع التمايل يمينا وشمالا، كحركة السفن الخالية بسبب أمواج البحر، ولهذا يقال «مَيِّدان» أثناء المسابقات أو الحروب. وقد تحدثنا فى شرح الآيات السابقة عن تأثير الجبال فى منع حركات قشرة الأرض أثر الضغط الداخلى، وجاذبية المد والجزر للشمس والقمر، والاضطرابات الناتجة عن السيول المستمرة، ولا حاجة إلى التكرار.

ويُفهم من هذه الآيات بصورة عامة أيضاً، أن لتكوين الأنهار علاقةً بوجود الجبال، وهو الصحيح، فالأنهار الكبيرة التى تجرى على مدى السنة وتسقى الأراضى اليابسة هى من بركة المياه التى تجمعت فى أعماق الجبال أو قممها على هيئة جليد أو ثلج، ولهذا تُعتبر الجبال العملاقة فى العالم ينابيع لأنهار العالم العظيمة. وربما يحدث لدى البعض شبهة فى كون وجود الجبال يكون حائلاً فى عزل الأراضى عن بعضها وسبباً فى غلق طرق العبور والمرور، لكن الآيات الواردة أعلاه صرحت بأن الله سبحانه وتعالى جعل طرقاً واودية يسلكها الناس ليهتدوا إلى بلوغ مقاصدهم ونيل مآربهم.

وهذه نقطة ظريفة جداً حيث توجد على الدوام فى أعماق الجبال العظيمة الشاهقة ممرات وطرق يستطيع الناس من خلالها المرور والعبور، أى أنها فى ذات الوقت الذى تشكل سداً قوياً أمام العواصف والأعاصير، فهى لا تمنع عبور ومرور الناس، ونادراً ما تقوم هذه الجبال بعزل أجزاء من الأرض بشكل كامل.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٨٢

وهناك نقطة بالغة الأهمية وهى لو كان سطح الأرض مستوياً، فسوف تكون درجة الحرارة على الأرض عالية جداً ومحركة وذلك بسبب حركة الأرض السريعة حول نفسها وحركة الهواء على سطح الأرض وبذلك تتعذر الحياة على سطح الأرض. لكن البارى تعالى الذى جَعَلَ الأرض مهداً لراحة الإنسان، أمر الجبال أن تكون مرتفعة فى طبقات الجو، وتدور حول نفسها تبعاً لدوران الأرض، كى تمنع اهتزاز الجو وحصول الحرارة.

بناءً على ذلك نلاحظ جيداً أهمية الدور الذى يلعبه وجود هذه القطع الصخرية الصماء فى حياة الموجودات.

بالإضافة إلى ذلك فإن الجبال تُوجد مساحات مسطحة شاسعة بسبب التعرجات والانكسارات وتؤدي إلى مضاعفة الجزء الذى يمكن استغلاله من الأرض لعدة مرات، وفى نفس الوقت فإن أغلبها يعتبر مكاناً لنمو أشجار الغابات الكثيفة وأنواع النباتات الطبية والغذائية والمراعى.

ولعل لهذا السبب جاء الحديث فى الآية السادسة عن بركات الأرض واقواتها بعد نصب الجبال فى الأرض إذ يقول: «وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا».

لأنّ ممّا لا شك فيه أنّ الجبال نفسها وكذلك المياه التى تسيل من بطونها لها دورٌ حساسٌ للغاية فى إنتاج المواد الغذائية.

ومما يلفت الانتباه قوله فى نهاية الآية: «سِوَاءَ لِلسَّائِلِينَ»، فلعله إشارة إلى هذا المعنى وهو أنّ المواد الغذائية تعادل ما يحتاجه السائلون والمحتاجون تماماً، ويمكن أن يكون تعبير «السائلين» إشارة إلى كافة الحيوانات والناس والنباتات (وإذا جاء بصيغة جمع المذكر للعاقل فهو من باب التغليب) نعم فالكل يسأل عن «الاقوات» بلسان حاله.

و «أقوات»: جمع (قوت) وتعنى الغذاء، وقد فسرها بعض المفسرين ب «الأمطار» فقط، والبعض الآخر فسرها بالمواد الغذائية المدخرة فى باطن الأرض، إلّا أنّ الظاهر هو أنّها

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٨٣

إشارة إلى كافة المواد الغذائية التى تخرج من الأرض أو التى تنمو عليها، ولعلّ التعبير ب «قَدَّرَ» وهى من «التقدير»، إشارة إلى أنّه قد تمّ تقدير وتخطيط كافة احتياجات الإنسان وبقية الموجودات قبل خلقها.

وقد ورد مضمون الآية السابعة في الآيات الآنفه.

وأشار في الآية الثامنة إلى أربع نِعَمِ الهية: فالأرضُ مستقرَةٌ بنحوٍ يستطيع الإنسان والموجودات الأخرى من العيش عليها براحةٍ واطمئنان، وتكوين الأنهار التي تشق سطح الأرض، وخلق الجبال العظيمة الراسخة، وتكوين البرزخ بين البحرين (من الماء العذب والمالح) كي لا يختلط أحدهما بالآخر.

وهذه النعم الأربع ترتبط مع بعضها بنحوٍ مدهش، فالجبال أساسُ استقرار الأرض، ومصدر مياه الأنهار، وهذه الأنهار عندما تصبُ مياهها في البحر فهي تبقى منفصلةً بواسطة حاجزٍ غير منظورٍ لفترةٍ طويلةٍ لا تختلط مع المياه المالحة، وهذا الحاجز ليس سوى اختلاف كثافة الماء «المالح» و«العذب»، وبتعبير آخر أن اختلاف كثافتهما يؤدي إلى عدم امتزاج مياه الأنهار العذبة بالمياه المالحة لمدةٍ طويلةٍ، ولهذا فائدةٌ ضروريةٌ للزراعة في المناطق الساحلية، لأن هذه المياه العذبة تتراجع إلى الخلف عن طريق المد والجزر وتُغطى معظم الأراضي الزراعية فتغمر البساتين النظرة والمزارع المزدهرة.

فليس جزافاً أن يقول في نهاية هذه الآية: «أإلهٌ معَ الله؟» «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ».

أَجِلْ ... فهؤلاء يجهلون أسرار هذه النعم والبركات، النعم الموجودة في كل زوايا وبقاع العالم، وكل منها برهانٌ على تلك الذات المقدسة، إلّا أن هؤلاء الجهلة محجوبون عنها.

وفي الآيتين التاسعة والعاشره أشار إلى مجموعةٍ أخرى من خصائص ومانع الجبال، فبعد أن ذكر خلق الجبال التي تقى الإنسان حرارة الشمس المحرقة، يشير إلى الملاجىء

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٨٤

الموجودة فيها حيث يقول: «وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا».

و «الاكنان»: جمع (كن) على وزن (جن) وكما قال صاحب مجمع البيان هو المكان الذي يضم الإنسان بداخله، إلّا أن البعض ذكر ذلك بمعنى كل نوع من اللباس، حتى أنهم اعتبروا «الرداء» «كنياً» للإنسان، والمقصود ب «اكنان الجبال» المغارات والكهوف التي يستطيع الإنسان أن يستخدمها كملجأ له، قد تكون أهميّة الملاجىء الجبلية والمغارات مجهولة بالنسبة لسكنة المدن، غير أنّها ذات أهميّة حساسة جداً للمسافرين العزل، وقاطعي الصحراء، والرعاة، والسائرين ليلاً، وغالباً ما تنقذهم من الموت المحتوم، لا سيما وإن هذه الملاجىء دافئة في الشتاء وباردة في الصيف.

فضلاً عن ذلك فإن بعض الناس منذ غابر الأزمان وحتى يومنا هذا ينحتون بيوتهم في وسط الجبال، وهي مُحكَمَةٌ جداً وآمنة تماماً في مواجهة الحوادث الطبيعية، كما ورد في القرآن الكريم حول «أصحاب الحجر» (قوم ثمود): «وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ».

(الحجر / ٨٢)

وهذه فائدة أخرى للجبال.

وفي قسم آخر من هذه الآيات إشارة إلى الطرق التي صنعها البارئ تعالى بالوانٍ مختلفة بيضاء وحمراء وأحياناً سوداء بكاملها: «وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ».

و «جُدَدٌ»: جمع (جِدَّة) (كجُدَّةٌ وغُدَّة) بمعنى الطريق والجادة، و «بَيَضٌ» جمع «أبيض»، و «حُمْرٌ» جمع «أحمر»، و «غَرَابِيبُ» جمع «غريب» وتعني شديد السواد، ولهذا يقال «غراب»، و «سود» جمع «أسود» ووردت هنا بعد كلمة «غرابيب» للتأكيد.

فطرق الجبال المختلفة، بألوانها المتباينة تماماً، لها أهميّة كبيرة حيث تساعد المسافرين في العثور على مقاصدهم، وتنقذهم من التيه، إضافة إلى أن تعدد الألوان يدل على اختلاف مركبات الصخور، وقد تكون دليلاً على وجود المعادن المختلفة التي تختفي فيها.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٨٥

يستفاد جيداً من تسلسل هذه الآيات أن خلق الجبال بفوائدها الحياتية والضرورية جداً والمصيرية، من البراهين المهمة على علم وقدره

البارى تعالى وآيات حكمته ورأفته بالإنسان، ويوضح جيداً أن خلقَ هذا العالم وذرات موجوداته، ملئٌ بالمعنى والمحتوى إلى حدٍ كلما تم التمعُّن به تنكشفُ للإنسان أسرارٌ جديدةٌ ويتولد على أثرها حبُّ وارتباطٌ بالخالقِ جلَّ وعلا.

توضيحات

١- الجبال والاعجاز العلمي للقرآن

١- لعلَّ إلى ما قبل قرنٍ من الزمان كانت نظرية العلماء تنصُّ على سطحية الجبال، وكان الاعتقاد السائد هو أنَّ كلَّ الجبال عبارة عن قطع صخرية كبيرة تستقر على سطح الأرض، ولكن مع مرور الزمان ازيلَ الحجابُ عن سرِّ مهم، وتوصلَ العلماء إلى هذه الحقيقة، وهى أنَّ الجزءَ الأعظم من كلِّ جبلٍ يقع تحت الأرض! وكما يقول «جورج غاموف» فى كتاب «قصة الأرض»: «طبقاً للنظريات المعاصرة فإنَّ جبال الأرض لها أوضاع تشبه الجبال الجليدية التى تتكون تحت تأثير ضغط الثلوج فى المناطق القطبية، فكلُّ من زار المناطق القطبية يعرف جيداً أنَّ القطع الثلجية الضخمة حينما تتكسر تحت تأثير الضغط تتراكم على بعضها، وتندفع نحو البحار- وأثناء ذلك- تنهار اغلب كميات الثلج فى المياه، (ولعلَّ عُشرها فقط خارج المياه وتسعة اعشارها تحت الماء)، ولهذا ففى مقابل كلِّ جبلٍ يرتفع على سطح الأرض هنالك جبلٌ تحت سطح الأرض، متكون من مادة حجر الغرانيت يَغوص فى ثنايا طبقة من الصخور التحتية الناعمة» (١).

وهنا نصل إلى هذه المسألة الاعجازية فى القرآن حيث يطلق على الجبال «اوتاد» ومسامير الأرض، وذلك لأننا نعلم أنَّ القسمَ الأعظم من المسمار يغور فى الجدار أو الأشياء الاخرى دائماً.

(١) قصة الأرض، تأليف جورج غاموف، ص ١٢٦ مع شىء من الاختصار.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٨٦

وهنا حيث تستخدم المسامير فى تثبيت شىء ما، أو ربط القطع المختلفة مع بعضها أيضاً، فهذا التعبير يعتبر إشارة لطيفة إلى التأثير المهم للجبال فى منع تبعثر قطع الأرض أثر الضغط الداخلى للكرة الأرضية والضغط الناتج عن حالات المد والجزر.

٢- لا يقتصر دور الجبال على حفظ استقرار وثبات الأرض فحسب، بل تساعد فى استقرار المناخ المحيط بالأرض أيضاً، والكل يعلم مدى صعوبة العيش فى الصحراء الشاسعة لأنَّ الهواء دائماً فى حالة من السرعة المقرونة بالغبار والرمال، فيصبح الاستقرار فى هذه المناطق عسيراً والتنفس صعباً مقروناً بعدم الراحة.

نعم .. فهذه القمم الشاهقة للجبال هى التى تقف أمام هذه العواصف الهوجاء، وتصدها، أو تُرسلها إلى طبقات الجو العليا.

٣- إضافة إلى ذلك فإنَّ للجبال تأثيراً بالغاً فى نزول الثلوج وهطول الأمطار، لأنها تقف فى طريق الغيوم والرطوبة الصاعدة من البحر، فتوقفها وتدفعها إلى الهطول فينحدر بعض هذه الأمطار من سفوحها، وتحتفظ بالقسم الآخر فى هذه السفوح، أو تحتفظ بها على هيئة ثلج وجليد فى قممها.

٤- وكذلك فإنَّ للجبال دوراً مهماً فى تعديل حرارة الجو لا سيما فى المناطق الاستوائية، لأنَّ ارتفاع الجبال يؤدى إلى ابتعاد المناطق المجاورة لها عن سطح الأرض ونحن نعلم أننا كلما ابتعدنا عن سطح الأرض تزداد برودة الجو.

٥- إنَّ الجبال مصدرٌ مهمٌ لانواع المعادن والثروات الهائلة التى تختفى فى أعماقها، ومن أجل أن يظفر الناس بهذه الثروات فهم يتجهون إلى الجبال دائماً للبحث عنها.

٦- للجبال دورٌ مهمٌ آخر في إيقاف حركة الكتلان الرملية، فنحن نعلم أن الكتلان الرملية تتحرك أثناء هبوب الرياح في الصحراء القاحلة، وقد تدفُن تحتها الأشجار والناس والقوافل وحتى القرى وتصبح سبباً في هلاك النباتات والحيوانات، فإذا لم تتم السيطرة عليها فسوف تأتي على جميع أنحاء الأرض، فأى عاملٍ أفضل من الجبال يُمكنه السيطرة عليها؟! إن هذه الفوائد العظيمة إضافةً إلى فوائد أخرى كثيرة ذكرناها في تفسير الآيات السابقة

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٨٧

توضح لنا الدور المهم للجبال من جهة، وعظمة آيات القرآن الكريم في هذا المجال من جهة أخرى

٢- حديث للإمام الصادق عليه السلام حول الجبال

وفي حديث توحيد المفضل وهو حديث ملىء بالمعاني، وكاشفٌ لأسرار الخلق في مختلف الجوانب لمعرفة الله، جاء ما يلي:

«انظر يا مفضل إلى هذه الجبال المركومة من الطين والحجارة التي يحسبها الغافلون فضلاً لا حاجة إليها، والمنافع فيها كثيرة: فمن ذلك أن تسقط عليها الثلوج فيبقى في قلالها لمن يحتاج إليه، ويذوب ما ذاب منه فتجرى منه العيون الغزيرة التي تجتمع منها الأنهار العظام، وينبت فيها ضروب من النبات والعقاقير التي لا ينبت مثلها في السهل، ويكون فيها كهوف ومقاييل للوحوش من السباع العادية. ويتخذ منها الحصون والقلاع المنيعه للتحرز من الأعداء، وينحت منها الحجارة للبناء والأرحاء، ويوجد فيها معادن لضروب من الجواهر، وفيها خلال أخرى لا يعرفها إلا المقدر لها في سابق علمه» (١).

وقد تكون العبارة التي جاءت في ختام حديث الإمام عليه السلام إشارة إلى الفوائد المهمة الأخرى التي اكتشفت تدريجياً مع تطور العلوم وتمت الإشارة إليها في البحوث الماضية، المنافع التي لا زالت خافيةً عن أنظار العلم البشري.

٣- كلام عالم كبير

عندما يتعرض العلماء المرحوم المجلسي رحمه الله إلى البحث حول الجبال في كتابه بحار الأنوار، يذكر في تفسير الآية: «والجبال أو تاداً» سبعة آراء، نذكر ثالثها:

«ما يخطر بالبال وهو أن يكون مدخلة الجبال لعدم اضطراب الأرض بسبب اشتباكها

(١) بحار الأنوار، ج ٣، ص ١٢٧.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٨٨

واتصال بعضها ببعض في أعماق الأرض بحيث تمنعها عن تفتت أجزائها وتفرقتها، فهي بمنزلة الأوتاد المغروزة المثبتة في الأبواب المركبة من قطع الخشب الكثيرة بحيث تصير سبباً لالتصاق بعضها ببعض وعدم تفرقتها وهذا معلوم ظاهر لمن حفر الآبار في الأرض فأنها تنتهي عند المبالغة في حفرها إلى الأحجار الصلبة، وأنت ترى أكثر قطع الأرض واقعةً بين جبال محيطه بها، فكأنها مع ما يتصل بها من القطعة الحجرية المتصلة بها من تحت تلك القطعات كالظرف لها تمنعها عن التفتت والتفرق والاضطراب عن عروض الأسباب الداعية إلى ذلك» (١).

إن هذا الحديث واستناداً إلى التصريح الذي أوردناه آنفاً لآحد العلماء المتأخرين، والذي هو من اكتشافات القرن الأخير، يعتبر أمراً مثيراً جداً حيث يشير هذا العالم الإسلامي الكبير إلى ذلك قبل أكثر من ٣٠٠ سنة.

٤- حديث اعجازي حول تكوين الجبال

وهذه نقطة جديرة بالاهتمام أيضاً حيث ورد في روايته أن شخصاً سأل أمير المؤمنين عليه السلام قائلاً: مم خلقت الجبال؟ فقال الإمام عليه السلام في جوابه: «من الأمواج» (٢).

وهذا الحديث يتطابق تماماً مع النظرية المشهورة للعلماء المعاصرين إذ يعتقدون بأن أغلب الجبال تكونت نتيجة لتعرج قشرة الأرض بسبب انجمادها كالتجعدات التي تظهر على قشرة التفاح عند جفافها وهذه التعرجات تشبه الأمواج التي تحدث على سطح الماء، وقد يكون تعبير: «وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي». (النحل / ١٥) إشارة إلى خلق الجبال بعد خلق الأرض أيضاً.

(١) بحار الانوار، ج ٣، ص ١٢٧.

(٢) بحار الانوار، ج ٥٧، ص ٧٣ و ج ٦٠، ص ١٢٠.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٨٩

١١- آياته في تكوين الغيوم والرياح والأمطار

تمهيد:

إن دور الغيوم، والرياح والأمطار، في حياة الإنسان وكافة الكائنات الحيّة واضح إلى حد لا يحتاج معه إلى شرح أو تفصيل، صحيح أن الماء يغمر ثلاثة أرباع الكرة الأرضية، ولكن أولاً: أن المياه المالحة لا تصلح للرى، ولا لشرب الإنسان والحيوانات، وثانياً: لو فرضنا أن كل مياه البحار كانت عذبة فبأي طريقة يمكن نقلها إلى المناطق والأراضى التي قد ترتفع عن مستوى سطح البحر عدة آلاف من الأمتار؟

هنا نرى بجلاء القدرة العظيمة لمبدىء الخلق، حيث القى هذا التكليف المهم على عاتق أشعة الشمس لتشرق على المحيطات وتقوم بتبخير وتصفيه مياهها، فيظهر على هيئة قطع من الغيوم، ثم تتجه به نحو المناطق الجافة بمساعدة الرياح، وتُنزله عليها بصورة قطرات مطر لطيفة وصغيرة وبهدوء، حيث تدب الحياة في جميع أرجاء المعمورة، فينتشر الإزدهار والإعمار والخضرة في كل مكان، وهذا يأتي من خلال نظام دقيق ومحسوب مقرون بظرافة بالغة.

وبعد هذا التمهيد القصير نتجه نحو آيات القرآن الكريم بهذا الخصوص فنقرأ خاشعين الآيات الآتية:

١- «اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيُبْسِطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٩٠

فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ».

(الروم / ٤٨)

٢- «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ». (الروم / ٤٦)

٣- «وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ». (الاعراف / ٥٧)

٤- «وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسْقِنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا. (فاطر / ٩)

٥- «أَنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلُوكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ». (البقرة/ ١٦٤)

٦- «أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ* أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ* لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ». (الواقعة/ ٦٨- ٧٠)

٧- «أَمْ مَنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلَيْهَ اللَّهُ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ». (النمل/ ٦٣)

٨- «وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ». (الحجر/ ٢٢)

٩- «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ... إِنَّ فِي ذَلِكَ لَمَذَكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ». (الزمر/ ٢١)

١٠- «وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً نَبَّاجًا* لَنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا* وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا».

(النبا/ ١٤- ١٦)

١١- «وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٩١

طهوراً». (الفرقان/ ٤٨)

١٢- «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ». (١)

(السجدة/ ٢٧)

شرح المفردات:

«الرياح»: تكرر هذا اللفظ عشر مرات في القرآن الكريم، تسع منها إشارة إلى الرياح التي تحرك الغيوم وتُعدها لتنزل الأمطار. و «الرياح»: في الأصل جمع (ريح) وتعني الهواء المتحرك، وأصلها «رَوْحٌ»، وغالباً ما تعتبر مؤنثاً لفظياً، والجدير بالذكر أنها تستخدم بصيغة الجمع دائماً في الآيات التي تتعلق بحركة الغيوم ونزول الأمطار في القرآن الكريم، وذكر البعض دليلاً على ذلك بأن الرياح إذا تحركت بشكل جماعي فإنها تنشر الغيوم وتكوّن أمطاراً غزيرة ومليئة بالبركة، وإذا تحركت على هيئة أجزاء متفرقة فإنها تكون عقيمة وغير مفيدة، بل مضرّة عندئذ، لذلك ورد في الدعاء: «اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً» (٢).

ويقول «الراغب في المفردات»: في جميع الموارد التي ذكر الله تعالى لفظه «الريح» بصورة مفردة (في القرآن) فهي تحكي عن «العذاب»، وأينما ذكرت بصيغة الجمع فهي تحكي عن الرحمة.

وقول الراغب صائب في ما يخص «الرياح» في صيغة الجمع، ولكن ليس هناك تعميم في مورد «الريح» بصيغة المفرد، لأن «الريح» استخدمت في القرآن بصيغة المفرد في مورد

(١) توجد في القرآن الكريم آيات كثيرة في هذا المجال، وما ورد أعلاه مقتطفات من هذه الآيات بإمكانها تبيان ابعاد هذه الامور الثلاثة المهمة وهي كما يلي: الانعام، ٩٩؛ ابراهيم، ٣٢؛ النحل، ٦٥؛ طه، ٥٣؛ الحج، ٦٣؛ النمل، ٦٠؛ العنكبوت، ٦٣؛ لقمان، ١٠ و ١١؛ فاطر، ٢٧؛ فصلت، ٣٩؛ الرعد، ١٧؛ الأعراف، ٥٧؛ الحجر، ٢٢؛ النمل، ٦٣.

(٢) مجمع البحرين - مادة (ريح).

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٩٢

النعمة أيضاً، كما في قوله تعالى: «حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينِ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا». (يونس / ٢٢)

ونقرأ أيضاً بخصوص سليمان عليه السلام: «وَلَسَلِيمَانَ الرِّيحُ غَدُوًّا شَهْرًا وَرَوَّاحَهَا شَهْرًا». (سبأ / ١٢)

و «تَضْرِيْفِ الرِّيحِ» تعنى نقل الرياح من حالٍ إلى حالٍ (من الشمال إلى الجنوب ومن الجنوب إلى الشمال)، وهى من مادة (صرف) (على وزن حرف) أى تحويل الشيء من حالةٍ إلى حالةٍ اخرى أو إبداله بشيءٍ آخر «١».

وقد يكون هذا التعبير إشارة إلى أن الرياح لو سارت باتجاه واحدٍ باستمرارٍ فمن الممكن أن تدفع بالرطوبة والغيوم المتصاعدة من البحار نحو جهةٍ واحدةٍ فقط أما تغير الرياح فإنه يؤدى إلى أن تتحرك الغيوم من مكانٍ إلى مكانٍ آخر، وتستفيد أغلب المناطق الجافة من الأمطار إلى اقصى حد.

فضلاً عن ذلك وكما سيأتى فإن فائدة الرياح لا تنحصر بحركة الغيوم، بل لها منافع كثيرة اخرى سنشير إليها فى تفسير الآيات- إن شاء الله- «٢».

و «السَّحَابُ»: من مادة «سَحَب» (على وزن مَحْو)، وتعنى فى الأصل الجَرَّ، حيث تُسحبُ الغيوم بواسطة الرياح، أو أن الغيوم تسحبُ المياه نحو أى اتجاهٍ، فيُطلقُ اسم «السحاب» عليها، وقد يُستخدم هذا المفهوم بمعنى الظل أو الظلام من باب التشبيه. واللطيف إنه قد تمَّ التعبير فى الآيات أعلاه ب «سُدُقناه» من مادة «سوق» أى «الدفع» وقد استعمل هذا التعبير لأنَّ الله تبارك وتعالى يدفعها نحو اتجاهٍ معيَّن (بالرغم من أن السحاب يتحرك طبيعياً).

و «مُزَن»: على وزن «حُزن» وتعنى «الغيوم الواضحة»، وفسرها البعض ب (الغيوم الممطرة) «٣».

(١) مجمع البحرين، ومفردات الراغب.

(٢) يُقسَّمُ العربُ الرياحَ إلى اربعة اقسام: «الشمالية» التى تهب من الشمال، و «الجنوبية» التى تهب من الجنوب، و «الصبأ» التى تهب من الشرق، و «الدبور» التى تهب من الغرب.

(٣) مفردات الراغب ولسان العرب، مادة (مُزن).

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٩٣

ولهذا يُطلقُ على الهلال الذى يبرز من بين الغيوم ب (ابن مُزنة)، و (مازن) تعبيراً يطلق على بيض النمل.

و «بُشْر»: (على وزن عُشْر)، وحسب ما جاء فى (مصباح اللغة) فهى مأخوذة من (بَشْر) (على وزن سَقَر) أى السرور والفرح «١».

والسبب فى تسمية القرآن الكريم للغيوم ب «بُشْر» و «مُبَشَّرات» لأنها غالباً ما تكون مبشَّرات بهطول المطر الذى يهب الحياة.

جمع الآيات وتفسيرها

ظاهرة الرياح والأمطار والأسرار الكامنة فيها:

أشارت الآية الاولى من البحث وكتعريفٍ بالذات الإلهية المقدسة إلى مسألة هبوب الرياح وحركة الغيوم بواسطتها حيث يقول: «اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتَنفِثُ سَحَابًا».

ثمَّ تعرضت إلى بسط الغيوم فى كبد السماء، وتراكمها فوق بعضها، وفى الختام أشارت إلى خروج قطرات الأمطار من وسطها، فيقول: «فَيَبْسُطُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَنَزَلَ الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ».

و «الكِسْف»: على وزن (قَمَم) تعنى هنا تراكم قطع الغيوم حيث تستعد لنزول المطر، و «الودق» (على وزن خَلَق) تُطلق على الرذاذ الذى

يشبه الماء، وفَسَّرَهَا البعض بأنها قطرات المطر.
وفى نهاية الآية أُشير إلى استبشار عباد الله أثر نزول المطر فيقول: «فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ». وعليه فإنَّ الرياح لا تُحرِّكُ الغيومَ فقط، بل تبسطها في السماء ثم تضعها على بعضها

(١) «بُشِّرَ» اسم مصدر وتأتى بمعنى اسم فاعل (مُبَشِّرٌ) أيضاً.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٩٤

وتقوم بتبريد أطراف الغيوم وإعدادها لانزال المطر.
فالرياح شأنها شأن الرعاة ذوى الخبرة والتجربة حين يقومون بجمع قطع الماشية فى وقتٍ محدّدٍ من أطراف الصحراء ويسوقونها فى طريقٍ معيّن، ثم يحضّرونها للحلب.
فلا سيمكّ الغيوم يكون بحد بحيث يمنع خروج قطرات المطر، ولا شدة الرياح بالقدر الذى تمنع نزول هذه القطرات إلى الأرض. ولا تكون قطرات الأمطار صغيرة بالقدر الذى يجعلها تبقى معلقة فى السماء، ولا كبيرة حيث تؤدّى إلى تدمير المزارع والبيوت، ولا يقتصر نزول المطر على بشارة الناس بالإعمار والازدهار فقط، بل إنّه يُصَفَّى ويُطْفَأُ الجو ويعثُ على النشاط.
والملفت للنظر أن الآيات التى تلى هذه الآية من سورة الروم تُذكر بالرحمة الإلهية فى إحياء الأرض بعد موتها: «فَأَنْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا». (الروم / ٥٠)

ومن أجل إدراك مفهوم هذه الآية يكفيننا مشاهدة صورٍ من بعض الصحارى والمزارع فى بعض المناطق فى أفريقيا كيف خيم عليها شبح الموت أثر الجفاف المستمر، ورحلت عنها ملائكة الرحمة والحياة.
وفى المقابل فإنّ هذه الأمواج اللطيفة للرياح التى تخترقها قطرات الأمطار بسهولة، تقوم أحياناً باقتلاع الأشجار الضخمة، وتدمّر المباني، وتختطف الإنسان معها إلى السماء ثم تقذفه إلى مكانٍ آخر إذا ما أمرت بذلك.
وتتعقب الآية الثانية هذا الموضوع أيضاً بشيءٍ من الاختلاف، فهى تصف الرياح بالمبشّرات، وبالإضافة إلى مسألة نزول الأمطار فهى تشير إلى حركة السفن بواسطة الهبوب المنظم للرياح أيضاً، فجاء فى النهاية: «وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ». ومن الممكن أن تكون عبارة «وَلْيَذِيقْكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ» إشارة إلى بقيه فوائد الرياح، كتلقيح الأشجار، ودفع العفونات وتصفيه الأجواء وغيرها كما تمّ توضيحه فى تفسير الميزان «١».

(١) تفسير الميزان، ج ١٦، ص ٢٠٩.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٩٥

والحقيقة أن الإنسان لا يعرف قَدْرَ النعمة إلا إذا سلبت منه، فلو توقفت هذه الرياح والنسمات يوماً واحداً لأصبح العيش فى أجمل البساتين والمزارع اسوأ من العيش فى مطامير السجون المظلمة، ولو هبّت نسمة على طامورة انفرادية فهى تضفى عليها صبغة الفضاء الطلق. ولو توقفت الرياح فوق سطح المحيطات، وتوقفت الامواج، فإن حياة الكثير من الاحياء المائية تتعرض إلى الخطر بسبب نقص الاوكسجين، وتبدّل البحار إلى مستنقعات متعفنة رهيبة.

واهتم فى الآية الثالثة بهذا الأمر أيضاً مع هذا التفاوت وهو اعتبار الرياح مقدمة لرحمته، ووصف الغيوم ب «الثقال» أى (الأحمال الثقيلة، جمع ثقل) لأن الغيوم الممطرة اثقل من بقيه الغيوم، وتكون قريية من الأرض، لذلك عبّر عنها القرآن الكريم ب «الثقال». و «أقلت»: من مادة «إقلال» وتعنى حملُ شىءٍ يكون خفيفاً بالنسبة لقدرة الحامل، فهو يعتبره قليلاً ولا قيمة له، إن وجود هذا التعبير فى الآية أعلاه يبرهن على أن الغيوم الثقيلة التى قد تحمل معها ملايين الاطنان من المياه لا تُحمل الرياح ثقلاً كبيراً، وهذا عرض لقدرة الله

تعالى

وقد أشارت الآية الرابعة إلى أن إرسال الرياح لأداء هذا الدور العظيم هو أحد آثار عظمته الذات الإلهية المقدسة، إذ يحيى الأراضى الميته بواسطة هذه الرياح.

والجدير بالذكر هنا هو أن الآية استعملت كلمة «تثير» أى أن الرياح تُثير السحب، وقد يكون هذا التعبير إشارة إلى تكوّن الغيوم بسبب هبوب رياح المناطق الحارة على سطح المحيطات حيث تؤدي إلى تكاثف الغيوم، لأنّ مسألة حركة الغيوم أخذت بالاعتبار في نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٩٦

عبارة «فسقناه»، وعليه فإنّ الرياح لها أثر مهم في حصول الغيوم، وكذلك في تحريكها نحو المناطق الجافة، ورفعها إلى اعالي الجو وتهيئة الظروف لهطول الأمطار.

وذكر هذه العبارة بصيغة الفعل المضارع «تثير» إشارة إلى عمل السحب الدائم والمستمر أيضاً.

على أيّة حال فإنّ هذه المسألة تُعتبر برهاناً على علم وقدره الخالق جلّ وعلا وكذلك دليل على قدرته في المعاد، ولهذا تمت الإشارة إلى مسألة المعاد في ختام بعض هذه الآيات.

واستند في الآية الخامسة من بحثنا إلى خلق سبعة أشياء مختلفة كآيات ودلائل على علم وقدره الله تعالى ليستفيد منها المفكرون والعقلاء وهي: خلق السماء، والأرض، واختلاف الليل والنهار، والفلك التي تجرى في البحر بما ينفع الناس، والأمطار، وهبوب الرياح واختلافها، والسحب المعلقة بين الأرض والسماء.

واستند في هذه الآية على مسألة الحركات المختلفة للرياح: «وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ»، وكذلك الغيوم المعلقة بين الأرض والسماء: «وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»، السحب التي تحمل ماء البحار في أوساطها، وهي في ذات الوقت معلقة بين الأرض والسماء، فهي تمثل في الواقع أعظم آيات الله، «فتحيى الأرض بزول المطر وتبث أنواعاً مختلفة من الدواب على وجه الأرض»: «فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ».

وعندما نشاهد أن الرياح والغيوم قد ذكرت في هذه الآية بعد نزول الأمطار فلعلها من أجل الإشارة إلى هذه النقطة، وهي أن فائدة الرياح لا تنحصر بتحريك الغيوم وانزال المطر فحسب، بل لها فوائد جمة أخرى تمت الإشارة إليها سابقاً، وسيشار إليها في نهاية الموضوع أيضاً.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٩٧

وبغض النظر عن كون الغيوم هي السبب في هطول الأمطار، فإنّ الغيوم لوحدها تعتبر ظاهرة عجيبة أيضاً، لأنها تحتفظ ببحار من المياه وهي معلقة بين الأرض والسماء (١).

وتستند الآية السادسة إلى مسألة مياه شرب الإنسان، وتذكر موضوعاً جديداً حيث تقول: «أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ»؟ ثم يضيف تعالى «لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَمَا تَشْكُرُونَ» فلو أن ماء البحر يسطح أثناء تبخره إلى السماء ذرات الأملاح الصغيرة، وتنزل المياه المالحة والمرّة من الغيوم لتحوّلت الأرض إلى مملحة، فلا ينمو نبات، أو شجر، وإذا أراد الإنسان أن يدفع الموت عنه أثر العطش لم يستطع أن يتجرع شربة من هذا الماء أبداً.

إنّ القدرة التي جعلت الماء يتبخر والأملاح الموجودة في مياه البحار تبقى في مكانها، هذه العملية التي أثرت على حياة الإنسان وغيرت مجراها بل أثرت على أوضاع كل المخلوقات على وجه الكرة الأرضية، هل يستطيع الإنسان أن يشكر هذه النعمة طيلة بقائه حياً في هذه الدنيا؟

وكما قلنا فإنّ «المُزْن» تعني الغيوم الممطرة و «الأجاج» تعني الماء الشديد الملوحة أو المرارة.

وأشار في الآية السابعة إلى هبتين عظيمتين أخريين من هبات الله إلى عباده وهما: هبة الهداية في ظلمات البر والبحر «بواسطة النجوم»،

وهبة ارسال الرياح كمبشراتٍ قبل نزول أمطار رحمته، فحيثما تنزل الأمطار تصدح الحياة بنغماتها وتكون أساساً لأنواع الخير والبركة.

(١) يجب الانتباه إلى أن السحاب: البخار المتراكم وتسميه العرب (ضباباً) - بالفتح - مالم ينفصل من الأرض فإذا انفصل وعلا سُمي (سحاباً وغيماً وغماماً)، (تفسير الميزان ج ١، ص ٤١١).

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٩٨

ويستند في نهاية الآية على هذين الموضوعين كوثيقه لإثبات وحدانية الله تعالى ويخاطب المشركين: «أَلِلهِ مَعَ اللّهِ تَعَالَى اللّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ»، ولعلّ ذكر هاتين الهيتين معاً إشارة إلى هذا المعنى وهو عندما يكون الجو صافياً يمكن الاستفادة من النجوم ليلاً في الإهداء إلى الطريق للوصول إلى الهدف، وإذا كان الجو غائماً فثمة رحمة أخرى وهي المطر ينالها الإنسان، إذن ففي كلا الحالتين هناك موهبة ورحمة، وهو برهان لمعرفة الذات الإلهية المقدسة.

وفي الآية الثامنة إشارة إلى مسألة الرياح ونزول الأمطار بتعبير جديد، فيقول: «وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ».

هل أن المقصود من الآية الكريمة هو حمل جوب اللقاح بواسطة الرياح لتلقيح النباتات التي ستحمل الفواكه والثمار من بعد ذلك، أم المقصود هو تلقيح السحاب لكي يحمل المطر؟

وبالنظر لقوله في تكملة الآية: «فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَشْرَقْنَا كَمَا نُورُهُ»، فيظهر أن المعنى الثاني أكثر تناسباً، بالرغم من إمكانية الاستفادة من المعنيين معاً.

على أية حال، فإنّ التعبير أعلاه بتعبير لطيف جداً حيث شَبَّهَ قَطْعَ الغيوم بالامهات والآباء، فتتلاقح هذه الغيوم عن طريق الرياح ثم تحمل، وتضع جنينها أي قطرات الأمطار على الأرض!

ويشير في ختام الآية إلى المياه الجوفية المخزونة تحت الأرض، والتي هي من الذخائر الإلهية للناس، فيقول: «وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ».

فنحن الذين أمرنا بطبقات الأرض أن تحتفظ بمياه الأمطار الصافية في داخلها، وقد تكون الآبار والقنوات التي تستخدمونها اليوم هي من احتياطي المياه التي دُخرت لكم منذ ملايين السنين في باطن الأرض، من غير أن تتلوث أو تتعفن.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ١٩٩

وقد نقوم بخزنها عن طريق تجميدها في قمم الجبال على هيئة جليد وثلج كي تصبح ماءً بشكلٍ تدريجي، ونسقيكم أنتم وحيواناتكم ومزارعكم، وربما تكون المياه التي تنحدر من القمم الفلانية اليوم مخزونة منذ ملايين السنين.

وفي الآية التاسعة، فبالإضافة إلى إشارته إلى نزول الأمطار من السماء، فهو يشير إلى مسألة تكوّن الينابيع، فيقول: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ».

و «ينابيع»: جمع «ينبوع» وتعني العين، وهي في الأصل مأخوذة من مادة (نَبَع) وتعني انبثاق الماء من الأرض، ومن الطبيعي إن تكوّن الينابيع في الأرض الذي يجعل الإنسان يستفيد من الماء الجارى بدون الحاجة إلى قوة أخرى يتبع ظروفاً خاصة أولها: أن تكون طبقة الأرض قابلة للاختراق كي يتغلغل الماء خلالها، ثم يجب أن يكون ما تحت هذه الطبقة صلباً كي يتوقف الماء ويخزن هناك، وأن يكون هناك فارق في المستوى بين خزانات المياه والمناطق الأخرى حتى ينساب الماء من هناك إلى بقية النقاط، ومن المسلم به استحالة تناسق هذه الأمور لولا تخطيط مبدىء العلم والقدرة.

ويضيف في سياق الآية: «ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ».

فيمكن أن يكون اختلاف الألوان هذا إشارة إلى ألوان النباتات المختلفة تماماً، أو إشارة إلى أنواع النباتات وأزهار الزينة والاعشاب الطبية والصناعية والخضروات التي يأكلها الإنسان والتي لها أنواع لا تحصى في الواقع.

أجل .. إنَّ الله تعالى يستخرج من هذا الماء الذي لا لون له مئات الآلاف من ألوان الورود والنباتات المنتشرة في هذه الرياض الكثيرة، وكما يقول الشاعر نقلاً عن اللغة الفارسية:

فإذا توصلت إلى أسرارها ستعرف أن هذا هو سر الأسرار حيث هناك واحدٌ ولا يوجد غيره «وحده لا إله إلا هو» لهذا فهو يقول في نهاية الآية: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لَأُولَى الْأَلْبَابِ».

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٠٠

وقد أُشير في الآية العاشرة إلى نكتة جديدة أخرى فيقول: «وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا».

و «مُعْصِرَاتٍ»: جمع (مُعْصِرٍ) من مادة «عَصِرَ» وتعني الضغط، والمُعْصِرَاتُ تعني الضاغطات، وما هو المقصود هنا بهذا التعبير؟ لقد ذكروا تفاسير متعددة: فالبعض اتخذها صفةً للغيوم، إذ اعتبرها إشارةً إلى نظام خاص يتحكم بها عندما تتراكم على بعضها، فكأنما تعصر نفسها كي تجرى الأمطار منها، واعتبر هذا التعبير من المعاجز العلمية للقرآن الكريم (١).

إلما أن البعض الآخر اتخذها صفةً للرياح، واعتبرها إشارةً إلى العواصف الرملية والأعاصير الشديدة والزوابع الترابية، حيث لها تأثير عميق في تكوين الأمطار والرعد والبرق (علماء أن «الإعصار» يعني ريح ترتفع بالتراب أو بمياه البحار).

فيقول هؤلاء .. أثناء هبوب العواصف الرملية الشديدة على سطح البحار والمحيطات فإنها تحمل معها البخار من على سطح المحيط، وحينما تصل به إلى نقاط الجو العليا الباردة جداً، وحيث تكون قدرة إشباع البخار هناك ضعيفة، يحصل الرعد والبرق الشديد، وبما أن «ثَجَّاجًا» صيغة للمبالغة، وهي من مادة «ثَجَّجَ» على وزن (حَجَّجَ) وتعني سكب الماء تتابعاً وبكثرة فهي تتناسب كثيراً مع مثل هذا الرعد والبرق (٢).

واعتبرها البعض إشارةً إلى الغيوم التي تتزامن مع العواصف الرملية والأعاصير (٣)، فهذه العواصف تسوق الغيوم نحو الأعلى وتأخذها نحو مناطق الجو الباردة حيث تتبدل هناك إلى قطرات من الماء، وبما أن هذا العمل يتم سريعاً فهو يولد زوابع رعدية شديدة و «الماء الثَجَّاج»، ونلاحظ كثرة مثل هذه الزوابع الرعدية في فصل الربيع ولعله بسبب كثرة حالات الزوابع الرعدية والعواصف في هذا الفصل.

(١) راجع كتاب الريح والمطر، ص ١٢٦.

(٢) اعجاز القرآن في نظر العلوم المعاصرة، ص ٦٧.

(٣) التفسير الكبير، ج ٣١، ص ٨ إذ ذكر هذا المعنى كأحد التفاسير لهذه الآية.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٠١

ويضيف في سياق هذه الآيات: «لَنُخْرِجَ بِهِ حَيًّا وَبَاتًا* وَجَنَاتٍ أَلْفَافًا»، ويشمل هذا التعبير جميع أنواع النباتات والحبوب وأشجار الفاكهة.

وفي الآية الحادية عشرة، وبعد بيان ما جاء في الآيات السابقة: «وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ»، يرد ما يلي: «وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا».

وهذا موضوع جديد حيث يستند إليه في هذه الآية.

و «الطهور»: صيغة مبالغة من «الطهارة» والنقاوة حيث تفيد طهارة الماء وكذلك كونه مطهراً، ولو لم تكن للماء صفة التطهير لتلوث كل مقومات حياتنا وأجسامنا وأرواحنا خلال يوم واحد، ويمكن أن نلمس حقيقة هذا الكلام إذا ما ابتلينا تارةً بفقدان ماء للتنظيف، حينها يصعب توفير الغذاء، وسنفقد نظافة الجسم والنشاط والطراوة والصحة والسلامة.

صحيح أن الماء لا يقتل الجراثيم ولكنه (مُيَذِب) جيد فهو يقوم بتحليل أنواع الجراثيم وإزالتها، ولهذا فهو عامل مؤثر في تأمين السلامة، ويظهر روح الإنسان من الأدران عن طريق الوضوء والغسل أيضاً.

وليس عبثاً أن يأتي في الآية: «لُنْحَى بِهِ بَلَدَهُ مَيْتًا».

ثم نواجه في الآية الثانية عشرة والأخيرة مسألةً جديدةً وهي أن الله تعالى يسوق المياه إلى الأرض «الجُرُز» أى الجافة اليابسة الخالية من الكلاء فيقول: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمِيَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ؟! «فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ»، فيأكلون الحبوب وتأكل بهائمهم السوق والأوراد والجذور.

ويستفاد من كلام أرباب اللغة أن «الجُرُز» ماخوذة في الأصل من مادة (جَزَز) على وزن (مَرَضُ) وتعنى (الانقطاع) أى انقطاع الماء، والنبات، والإعمار والطراوة، ولذا يقال

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٠٢

للناقة التى تأكل وتقطع كل شىء ب «ناقة جروز»، ولمن يأكل كل ما موجود على خوان الطعام ويفرغها تماماً ب «رجل جروز» (١)

ويقول فى نهاية الآية داعياً إلى التفحص فى هذه النعم الإلهية العظيمة وآيات التوحيد:
«أَفَلَا يُبْصِرُونَ».

ولكن لماذا تقدمت «الانعام» على الإنسان فى الآية المذكورة؟ يقول بعض المفسرين:

لأنَّ الزرعَ أول ما ينبت يصلح للدواب ولا يصلح للإنسان بالإضافة إلى أنَّ الزرعَ غذاء الدَّواب وهو لا بدَّ منه، فى حين أنَّ للإنسان اغذيةً اخرى «٢».

النتيجة:

يستفاد جيداً من الآيات الآنفه وبالانتباه إلى المسائل الدقيقة والظريفة التى انعكست فيها، أن هناك نظاماً دقيقاً جداً ومضبوطاً يسود وجود الرياح والغيوم والأمطار، حيث كلما أطلَّ الإنسان التمعن فيها تزداد معرفته بالظرافة والمنافع والبركات الكامنه فيها. فقد اعتبر الماء فى بعض هذه الآيات أساساً للحياة، وفى بعضها وسيلةً للنظافة، وفى بعضها كموجودٍ مباركٍ (سورة ق، ٩)، وفى البعض الآخر كمشروبٍ سائغٍ «ماءً فُرَاتًا».

(المرسلات / ٢٧)

ومن مجموع ذلك فاننا أينما وجهنا النظر وحدقنا نعرثر على آثار حكمه الله البالغه، وأينما يقع بصرنا تتجلى لنا صورة من العظمة الإلهية.

توضيحات

١- تكوين الرياح وفوائدها

إنَّ مصدرَ حصولِ الرياحِ هو الاختلاف فى درجة الحرارة بين منطقتين مختلفتين من

(١) التحقيق فى كلمات القرآن الكريم، و مصباح اللغة.

(٢) تفسير الكبير، ج ٢٥، ص ١٨٧.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٠٣

الأرض، ويمكن تجربته هذا أثناء فصل الشتاء حيث يكون هواء الغرفة حاراً وفي خارجها بارداً، فلو وضعنا شمعتي إضاءة عند طرفي الباب العلوي والسفلي وفتحنا الباب قليلاً سيتضح هذا الأمر جيداً إذ إنَّ الهواء البارد وبسبب ثقله يدخل من الاسفل والهواء الحار يخرج من الأعلى لخفته فيحرك شعله الشمعة باتجاهه (إنَّ الهواء الحار يكون ممدداً وخفيفاً والهواء البارد مضغوطاً ثقيلًا)، ولو لم تكن هذه الصفة وتتوقف الرياح عن الحركة فأيُّ بلاءٍ عظيم سينزل على الإنسان!؟).

كما نعرف أيضاً أن للكورة الأرضية ثلاث مناطق، فالمنطقة الباردة (الأطراف القطبية)، والحارة جداً (المناطق الاستوائية)، والمعتدلة (المناطق التي تتوسط هاتين المنطقتين).

وهذا الاختلاف في درجات الحرارة على الأرض يكون سبباً في انتقال الهواء من جهةٍ إلى اخرى وأهمه الرياح التي تُسمى «الرياح القطبية» (وهي الرياح التي تهبُّ من القطب نحو المنطقة الاستوائية ولأنها تكون باردةً فهي تسير بالقرب من سطح الأرض)، والرياح «الاستوائية» (وهي الرياح التي تهبُّ من المنطقة الاستوائية نحو القطب وبما أنها تكون حارةً فهي تتحرك في طبقات الجو العليا) «١».

فضلاً عن أن ماء المحيطات لا يكون حاراً كحرارة السواحل أثناء شروق الشمس، إضافةً إلى أن ماء البحر يفقد حرارته ليلاً أسرع مما يفقده الساحل، فهذا الاختلاف في درجات الحرارة بين ماء البحر والساحل يتسبب أيضاً في هبوب الرياح باستمرار من البر إلى البحر ومن البحر إلى البر أيضاً.

وإضافةً إلى كل هذا فإن كروية الأرض تؤدي إلى أن تقع بعض المناطق في مواجهة الشمس مباشرة (أثناء الظهر)، وأن تشع الشمس على المناطق الاخرى بشكلٍ مائل (أثناء الشروق والغروب)، فهذا الاختلاف في درجات الحرارة أحد أسباب حصول الرياح في مختلف المناطق أيضاً (وكذلك هناك عوامل معقدة اخرى .

وتتظافر هذه الأسباب في تحريك الرياح في سائر انحاء الكورة الأرضية وتترامن معها

(١) اعجاز القرآن في نظر العلوم المعاصرة، ص ٦٥.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٠٤

الفوائد الجمة التالية التي تمت الإشارة إليها في الآيات السابقة:

- ١- للرياح نصيبٌ مهمٌ في تكوين الغيوم بسبب هبوبها على المحيطات.
- ٢- إنَّ الرياح تصطحبُ معها الغيوم إلى المناطق الجافة واليابسة ولولاها لاحترق جانبٌ كبير من الكورة الأرضية بسبب الجفاف.
- ٣- إنَّ الرياح تُلطفُ الجوَّ وتجلبُ الاوكسجين الضروري من المناطق البعيدة.
- ٤- إنَّ الرياح تأخذ معها التلوث حيث تساعد في تنقية الجو عن هذا الطريق.
- ٥- إنَّ الرياح تُقللُ من شدة حرارة الشمس على أوراق النباتات، وتمنع احتراقها بهذه الأشعة، وبصورة عامة فإنها وسيلةٌ مهمةٌ لاعتدال الجو في بقاع الأرض.
- ٦- إنَّ الرياح - وكما قلنا في تفسير الآيات - تعصرُ الغيوم وتُعدها لانزالِ المطر.
- ٧- إنَّ الرياح تسوقُ الغيوم نحو طبقات الجو العليا، وبسبب البرودة وفقدان قدره تحمل الاشباع تتحول إلى قطرات مطرٍ تهبُّ الحياة.
- ٨- إنَّ الرياح تُحرِّك السفن الشراعية في المحيطات، كما أنها تُعتبر أحد المصادر المهمة للطاقة.
- ٩- تُستخدم الرياح لتشغيل الطاحونات الهوائية.
- ١٠- إنَّ الرياح تُعتبرُ وسيلةً مهمةً جداً للمزارعين في تصفية الحنطة وغيرها وعزلها عن التبن.
- ١١- إنَّ الرياح تعملُ على تحريك مياه البحر فتحصل الأمواج وهذه الأمواج تؤدي بدورها إلى اختلاط الهواء مع الماء، فيكون أساساً

لحياة الموجودات في البحر، ولولا الرياح والأمواج لتبدل البحر إلى مستنقع آسن لا حياة فيه.

١٢- وختاماً فإنَّ الرياح تساهم في تلقيح النباتات، إذ تحمل حبوب اللقاح إلى الأجزاء الانثوية، ولو تقاعست عاماً واحداً لتناقصت كمية الفاكهة المنتجة لدينا!

هذا جانبٌ من بركات هبوب الرياح الذي توصلَ إليه العلمُ البشري حتى الآن ومن المسلمَّ به أنَّ بركاتها لا تنحصر بما قلناه، وينبغي الانتظار حتى يرفع العلمُ الحجابَ عن

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٠٥

أسرار جديدة، ولكن كلاً من الامور المذكورة أعلاه يكفي لوحده أن يبرهن لنا على علم وقدره الخالق جلَّ وعلا، ناهيك عن مجموعها، فكم هو رحيم ورؤوف ذلك الإله الذي يُكُنُّ لعباده كلَّ هذا العطف والمحبة، وكم مليئهُ ب (البركة) تلك «الحركة» التي تترك كل هذه الآثار الايجابية المهمة أثناء هبوب ذرات الهواء؟.

٢- أسرار تكوين الغيوم وهطول الأمطار

لا يخفى أنَّ الغيوم هي ذرات بخار الماء، أو بتعبير أكثر دقة هي ذرات الماء التي انفصلت جزئياتها عن بعضها وتحولت إلى بخار.

إنَّ التمعنَ في ما يخصُّ تكوُّن الرياح والأمطار يكشف لنا أسراراً لطيفةً عن هاتين الظاهرتين العجيبتين، منها:

١- إنَّ أغلب السوائل لا تبخر إذا لم تصل إلى درجة الغليان، إلَّا أنَّ الماء من السوائل المستثناء حيث يتبخر في أي درجة من الحرارة، ولولا هذه الميزة في الماء لما تبخرت قطرة واحدة من ماء البحر، ولما تكوَّنت الغيوم، ولما نزلت المطر ولا حترقت اليابسة من الجفاف.

٢- وهذا ما يجدر بالاهتمام أيضاً، فأثناء عملية التبخر يتبخر الماء الصافي فقط، وتبقى الأملاح والذرات الأخرى التي فيه في مكانها، أي أنَّ هناك عملية تصفية طبيعية كى ينال البشر المياه الصالحة.

٣- لو لم تكن الطبقات العليا من الجو أكثر برودة من الطبقات السفلى لما امطرت الغيوم المضطربة في الجو أبداً، ولكن هذا الاختلاف في درجات الحرارة هو الذي يؤدي إلى نزول الأمطار، وكذلك لو كانت قدرة إشباع ذرات البخار متساوية في الهواء البارد والحرار لما نزلت الأمطار، ولكن بما أنَّ الهواء البارد له قدرة إشباعٍ ضعيفة فأنَّه يُنزلُ البخار الذي تحول إلى ماء.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٠٦

٤- إنَّ الأمطار إضافة إلى توفيرها للماء الضروري لنمو النباتات، تقوم بغسل الأرض وتحمل الأوساخ معها نحو البحار.

٥- إنَّ الأمطار تُنظفُ الجوَّ أيضاً، وتقوم بإزالة التراب والغبار والذرات المعلقة في الجو التي تذوب فيها إلى الأرض، ولولا هطول الأمطار لتلوَّثَ الجو بعد مدةٍ قصيرة واستحال التنفس على الإنسان.

٦- إنَّ الأمطار تغسلُ صخور الجبال شيئاً فشيئاً، ليخرج منها التراب الذي يمكن استثماره، فتمتد السهول الواسعة على سطح الأرض.

٧- إنَّ الأمطار تحمل معها الاتربة الغنية من المناطق البعيدة وتنشرها في المزارع لتقويتها، كما يجلب جريان الماء معه أفضل الاسمدة الطبيعية للنباتات إلى بعض المناطق (كسواحل النيل).

٨- إنَّ الأمطار لا تهبُّ الحياة في المناطق الجافة فحسب، بل إنَّ هطول الأمطار على البحار يُعتبر مؤثراً للغاية أيضاً، وليس أقل من تأثيره في المناطق اليابسة كما يقول بعض العلماء، لأنَّ سقوط الأمطار في البحر يساعد على نمو النباتات الصغيرة في وسط أمواج المياه، حيث تكون طعاماً مناسباً جداً للأسماك والحياء البحرية، وفي السنة التي يقلُّ فيها نزول الأمطار يسوء فيها وضع الصيد.

٩- إنَّ ارتفاع الغيوم عن سطح الأرض أكثر من ارتفاع اعلى نقاط الأرض ولهذا فلا تُحرم أية بقعة من الاستفادة من ماء المطر.

١٠- إنَّ العديد من أشجار الغابات والأعشاب الطيبة والغذائية تنمو على سفوح الجبال الشاهقة، وهذا يدل على أنَّ الأمطار تقوم

يأصال الكمية اللازمة من الماء إليها، ولولا الأمطار لاصبحت هشيماً يابساً.

١١- لو تأملنا جيداً بالسدود الضخمة التي أنشئت في عصرنا هذا والتي تُؤمّن جانباً مهماً من الطاقة الكهربائية في العالم، وتقوم بتشغيل المعامل العملاقة لوجدناها من بركات هطول الأمطار على المناطق الجبلية.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٠٧

١٢- إن بعض ترشحات الغيوم تنزل إلى الأرض على هيئة جليد فتتراكم على قمم الجبال كمصادر للمياه، وتقوم بتغذية خزانات المياه الموجودة تحت الأرض أيضاً لأنها تذوب تدريجياً وتتفد داخل الأرض، ولكن لو تساقط الجليد باستمرار بدلاً من المطر تنعدم عندئذ الكثير من المنافع التي ذكرت.

١٣- الغيوم بحار معلقة في السماء، وما أعظم الإله الذي يرسل كل هذا الماء إلى السماء خلافاً لقانون الجاذبية، ويقوم بنقله بسهولة من نقطة إلى أخرى

١٤- بالإضافة إلى كل هذا فإن للغيوم تأثيراً ملموساً في خفض درجة الحرارة شتاءً وخفض درجة الحرارة صيفاً.

١٥- إن الغيوم تحمل الشحنات الكهربائية المختلفة حيث تؤدي إلى وقوع الرعد والبرق، وسوف نتحدث عن هاتين الظاهرتين في البحث الذي يتعلق بالرعد والبرق إن شاء الله.

وعلى العموم فإن هاتين الظاهرتين اللتين نعتبرهما من الأمور العادية جداً نتيجة لأنسنتنا بهما، مدهشتان ومليتان بالأسرار، ويمكن مشاهدة آيات التوحيد العظيمة في أعماق أسرارهما، والوصول إلى عظمة تلك الذات المقدسة من خلال هذه الآيات العظيمة.

٣- الرياح والأمطار في الروايات

نقرأ في الحديث المعروف بتوحيد المفضل عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«وانبهك يا مفضل على الريح وما فيها، ألسنت ترى ركودها إذا ركبت كيف يحدث الكرب الذي يكاد أن يأتي على النفوس، ويمرّض الأصحاء وينهك المرضى ويفسد الثمار، ويعفن البقول، ويعقب الوباء في الأبدان، والآفة في الغلات ففي هذا بيان أن هبوب الريح من تدبير الحكيم في صلاح الخلق.

ولو أن ملكاً من الملوك قسم في أهل مملكته قناطير من ذهب وفضة ألم يكن سيعظم

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٠٨

عندهم ويذهب له به الصوت؟ فأين هذا من مطرة رواء؟ إذ يعمر به البلاد ويزيد في الغلات أكثر من قناطير الذهب والفضة في أقاليم الأرض كلها.

تأمل نزوله على الأرض والتدبير في ذلك فإنه جعل ينحدر عليها من علو ليتفشى ما غلظ وارتفع منها فيرويه ولو كان إنما يأتيها من بعض نواحيها لما علا على المواضع المشرفة منها ويقل ما يزرع في الأرض وبها يسقط عن الناس في كثير من البلدان مؤونة سياق الماء من موضع إلى موضع، وما جرى في ذلك بينهم من التشاجر والتظالم حتى يستأثر بالماء ذوو العزة والقوة ويحرمه الضعفاء. ثم إنه حين قدر أن ينحدر على الأرض انحداراً جعل ذلك قطراً شبيهاً بالرش ليغور في قطر الأرض فيرويه ولو كان يسكب انسكاباً كان ينزل على وجه الأرض فلا يغور فيها ثم كان يحطم الزرع القائمة إذا اندفق عليها فصار ينزل نزولاً رقيقاً فينبت الحب المزروع وفي نزوله أيضاً مصالح أخرى فإنه يلين الأبدان ويجلو كدر الهواء فيرتفع الوباء الحادث من ذلك ويغسل ما يسقط على الشجر والزرع من الداء».

ويقول في جانب آخر من الرواية:

«فكر يا مفضل في الصحو والمطر كيف يعتقان على هذا العالم لما فيه صلاحه، ولو دام واحد منهما عليه كان في ذلك فساد، ألا ترى أن الأمطار إذا توالى عفت البقول والخضر واسترخت أبدان الحيوان وخصر الهواء فأحدث ضرراً من الأمراض وفسدت الطرق والمسالك وأن الصحو إذا دام جفت الأرض واحترق النبات وغيض ماء العيون والأودية فأضر ذلك بالناس وغلب اليبس على الهواء فأحدث ضرراً أخرى من الأمراض فإذا تعاقبا على العالم هذا التعاقب اعتدل الهواء ودفع كل واحد منهما عاديته الآخر فصلحت الأشياء واستقامت» (١).

ونقرأ في حديث آخر عن الإمام السجاد عليه السلام:

«أنزل من السماء ماءً يعني المطر ينزله من أعلى ليبلغ قلل جبالكم وتلالكم وهضابكم

(١) بحار الأنوار، ج ٣، ص ١١٩-١٢٦ (مع الاختصار).

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٠٩

واوهادكم ثم فرقه رذاذاً ووابلاً وهطلاً لتنشفه ارضوكم، ولم يجعل ذلك المطر نازلاً عليكم قطعة واحدة فيفسد ارضيكم وأشجاركم وزروعكم وثماركم» (١).

٤- لقد كشفت البحوث الحديثة للعلماء النقاب عن أسرار جديدة وبيّنت التأثيرات المهمة للرياح في نزول الأمطار بكيفية جديدة حيث يُعتبر التوضيح الآتي نموذجاً منه (يجب توفر شرطين لتكوين الغيوم وهطول الأمطار) وهما:

١- وجود بخار الماء في الهواء.

٢- تشبّع الهواء بالبخر والتقطيره.

أمّا فيما يتعلق بالشرط الأول فبالرغم من أن الهواء لا يخلو على الإطلاق من بخار الماء وتبلغ ادنى نسبة له نحو ٥٠ غراماً في المتر المكعب، إلّا أنّ هذا المقدار من الرطوبة لا يكفي لتكوين الغيوم ونزول الأمطار، بل يجب امدادها باستمرار، أى يجب أن يصل هواءً جديدٌ مُحمّلٌ ببخار الماء بعد تكوين الغيوم ونزول الأمطار تبعاً، ويستمر هبوب الرياح، ويكون انطلاقها أو مسيرتها من البحر أو الغابات الكثيفة كى تتزود من الرطوبة بالمقدار اللازم.

وأمّا الشرط الثانى أى الوصول إلى حالة الاشباع وحصول ظاهرة التقطير (تعرق الهواء وتحول البخار إلى سائل) فهذا يستلزم برودة الهواء، كما يحدث فى الشتاء إذ يتعرق زجاج شبايكك الغرف التى تحتوى على ما يكون البخار كالسماور والقدر

والعامل الوحيد المؤثر فى برودة الهواء والذى يوصله إلى مرحلة تكوين الغيوم والتقطير هو ارتفاع الهواء وعلوه، ويحدث ارتفاع الهواء على ثلاثة أشكال أو فى ثلاث حالات، وينزل فى كل حالةٍ منها مطرٌ خاصٌ وهى:

أ) اصطدام الهواء بالأجزاء البارزة من الأرض والصعود من وسط الجبال حيث تنتج عنه الأمطار الجبلية.

ب) حرارة وخفّة الهواء وصعوده السريع اثر اشعة الشمس وملامسة المناطق الحارة وتنتج عنه (أمطار العواصف).

(١) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٤١؛ بحار الأنوار، ج ٥٦، ص ٣٤٤-٣٧٤ أيضاً وردت رواية أشارت إلى أسرار تكوّن الغيوم والمطر.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢١٠

ج) اصطدام جناحى الهواء الحار والبارد وتقلبهما وتنتج عنه (الأمطار الغزيرة)، وأنّ الغيوم والأمطار كافة تنشأ عن أحد هذه الحالات الثلاث واهمها النوع الأخير.

اذن فالهواء يرتبط بالغيوم والأمطار فى كل المراحل فهو يتدخل ابتداءً من حمل البخار وايصاله إلى المناطق الجافة، مروراً وانتهاً بهزّ الغيوم وانزال المطر، وليس من الممكن حصول الغيوم والأمطار بدون الهواء، والمعروف أنّ الغيوم ليست سوى الهواء (أى الهواء

المحمّل بالماء).

وورد في قسم آخر من هذا البحث: «إن قطرات الأمطار تهطل من الغيوم المتكونة من عدّة طبقات والتي ترتفع أكثر من عشرة كيلو مترات، وهذه الغيوم العارية الصاخبة تظهر على هيئة جبالٍ حيث يُغطى القسم الأعلى منها بقضبان الثلج وقطع الجليد وقد تكون ممتلئة بالبرد».

وحتى قبل الحرب العالمية الأولى حيث تمكنت الطائرات حينذاك من الارتفاع فوق الغيوم وشاهد الطيارون الستائر المتكونة من الجليد والناشئة من الغيوم المتصاعدة، لم يكن لأى شخصٍ علمٌ بوجود الجليد والبرد في غيوم السماء.

«فالصعود المتقلّب الاطبقى للرياح الرطبة والحارة يؤدى إلى تكوين جبالٍ عاليةٍ من الغيوم المتجمدة التي تتزامن مع الزوابع الشديدة وسط الرعد والبرق المتتابعين» (١).

ويمكن أن يعطى هذا التوضيح تفسيراً جديداً للآية ٤٣ من سورة النور ويرفع الحجاب عن معجزة علمية لطيفة للقرآن الكريم، حيث يقول: «وَيُنزَلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصَبُّ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ» فأى جبلٍ فى السماء توجد فيه قطع البرد؟ هذا السؤال الذى كان صعباً ومعقداً بالنسبة للكثيرين، ولهذا فقد ذكروا له عدة تفسيرات.

ولكن من خلال الاكتشافات أعلاه يتضح عدم الحاجة إلى التبرير والتقدير والمجاز وامثال ذلك لتفسير الآية المذكورة، ويتبين معنى الآية فى ظل هذا الأمر (٢).

(١) الهواء والمطر، ص ٥٧-٦٥ (مع الاختصار).

(٢) من أجل المزيد من الايضاح يراجع التفسير الأمثل، ذيل الآية ٤٣ من سورة النور.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢١١

١٢- آياته فى حدوث الرعد والبرق

التمهيد:

هنالك القليل ممن يولى ادنى اهتمام لهاتين الظاهرتين السماويتين قبل دراسة أسرار الرعد والبرق، وعادةً ما يمرُّ الجميع عليها مرور الكرام، ولعلَّ بعضهم ينظرُ إليها وكأنَّها مزاح الطبيعة، كما يتحدث بعض آخر حولها بقصص خرافية، إلَّا أنَّ الحقيقة هي أنَّ هاتين الظاهرتين تحدثان من خلال نظام خاص، ولهما آثارٌ وبركاتٌ جديرةٌ باهتمام الإنسان حيث سيأتى شرحها فى تفسير الآيات الآتية.

بعد هذا التمهيد نقرأ خاشعين بعض آيات القرآن الكريم فى هذا المجال:

١- «وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبُرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعِيدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ». (الروم/ ٢٤)

٢- «هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبُرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ». (الرعد/ ١٢)

٣- «وَيَسْبُحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَايِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ». (الرعد/ ١٣)

شرح المفردات:

«البرق»: كما يقول الراغب فى المفردات تعنى فى الأصل النور الذى يظهر من الغيوم، ثم استعملت للتعبير عن كل شىءٍ ساطعٍ، فمثلاً يقال للسيف اللامع: (السيفُ البارِق).

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢١٢

إضافه إلى ذلك، يستفاد من «مقاييس اللغة» أن «البرق» له معنى آخر، وهو اجتماع السواد والبياض في شىء واحد، ولكن الظاهر أن المعنى الثانى يعود إلى المعنى الأول، السواد عندما يكون إلى جانب البياض يُبدي بريقاً أكثر، كما اعتبر بعض مفهوماً الشدة والضغط جزءاً من معنى البرق أيضاً فيقولون: إن البرق واللمعان يحدثان بشكل خاص من خلال الشدة والضغط «١».

ويقول «الراغب» إن «الرعد» هو صوت الغيوم، ويستعمل كناية أيضاً عن تحطم وسقوط الشىء الثقيل المتزامن مع الصوت، إلبا أن صاحب «مقاييس اللغة» ذكر أن معناه الحقيقى هو الحركة والاضطراب، ولكن بصورة عامة، يستفاد جيداً من كتب اللغة أن المعنى الحقيقى هو الصوت الذى ينطلق من الغيوم، وبقية المعانى لها صبغة كناية.

و «الصواعق»: جمع «صاعقة»، وتعنى فى الأصل الصوت الشديد المهيب الذى ينطلق من الجو مصحوباً ببريق نارى عظيم، وجاءت هذه المادة أيضاً بمعنى الدهول بسبب سماع الاصوات القوية، وقد تستعمل بمعنى الهلاك أيضاً.

وقال بعض أرباب اللغة: إن موارد استعمال الصاعقة ثلاثة وهى: «الموت» و «العذاب» و «النار» «٢»

إلّا أن الظاهر أن جميعها من لوازم المعنى الحقيقى.

جمع الآيات وتفسيرها

أسرار خلق الرعد والبرق:

تعتبر الآية الاولى من البحث بشكل صريح، أن برق السماء من آيات الله فتقول: «وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا». هذه الآية تارة تذكر الخوف وأحياناً الأمل والرجاء.

الخوف الناتج عن الصوت المهيب الذى يرافق الرعد، واحتمال تزامنه مع صاعقة

(١) التحقيق فى كلمات القرآن الكريم، مادة (برق).

(٢) مفردات الراغب، ولسان العرب؛ والتحقيق فى كلمات القرآن الكريم.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢١٣

مميته، والأمل والطمع بسبب احتمال نزول المطر، لأنه فى كثير من الحالات يعقب الرعد والبرق زواج مليئة بالبركة.

ولعله لهذا السبب يضيف فى سياق هذه الآية: «وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا».

فالأرض اليابسة والمحترقة تحى بقليل من المطر والغيث الذى يهب الحياه، بحيث تنتعش الأزهار والنباتات فيها وكأنها ليست تلك الأرض السابقة.

ولهذا يضيف فى نهاية الآية للتأكيد فيقول: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ».

فهم يفهمون أن هذه الظواهر ليست ظواهر عاديه تحدث صدفة، فيتفكرون فيها ويتعرفون على أسرارها.

وورد هذا المعنى فى الآية الثانية من بحثنا بتعبير آخر تعريفاً بالذات الإلهية المقدسه عن طريق آثاره فيقول تعالى «هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا».

الخوف من الصواعق والتفاؤل بنزول المطر، أو خوف المسافرين، وتفاؤل المقيمين فى المدن والارياف.

واللطيف أنه يقول بعد ذلك مباشرة: «وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثَّقَالَ».

وقيل في بيان هذه الجملة (تتزامن مع العواصف القويّة كُتْل من الغيوم، فتغطي اعالي الجو القريبة من الأرض، فيصبح الجو مظلماً، وتولد شحنات كهربائية نتيجة تلاطم الرياح، وتهتز الأرض والجو بسبب صوت الرعد المتتابع، وأخيراً فإنّ الغيوم المتراكمة في طبقات الجو السفلى كثيفة ومحملة بكثير من قطرات الماء الكبيرة لذلك تكون ثقيلة للغاية على الرياح المحركة «١».

(١) الريح والمطر، ص ١٣٨.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢١٤

ويشير في الآية الثالثة والأخيرة من بحثنا إلى ظاهرة «الرعد» فيقول: «وَيُسِّحُّ الرِّعْدُ بِحَمْدِهِ».

ويبيّن هذا التعبير أنّ هذه الظاهرة السماوية ليست مسألة عادية، بل تُنبئ عن علم وقدرة الله تعالى لأنّ «التسيح» يعنى التنزيه عن كل عيب ونقص، و «الحمد» تعنى شكره مقابل الكمالات، وعليه فإنّ صوت الرعد يتحدث عن الأوصاف الجمالية والجلالية لله تعالى ويمكن أن يكون هذا الكلام بلسان الحال، كما يتحدث اختراع مهم عن علم ووعى المخترع، أو لوحه جميله جداً عن الذوق الحاد للرسام، أو قطعة شعرية عن الذوق الأدبي للشاعر، فتمدحه وتشكره، فتكون لسان حال، كما قال بعض المفسرين بأنّ لدى ذرات هذا العالم كافة عقلاً وشعوراً، كل حسب حظه، وتسيحها وحمدها ينبع من العقل والشعور والإدراك.

يقول الفخر الرازي في تفسيره:

«فلا يبعد من الله تعالى أن يخلق الحياة والعلم والقدرة والنطق في أجزاء السحاب فيكون هذا الصوت المسموع من الأفعال الاختيارية لله سبحانه وتعالى».

وكما هو تسيح الجبال في زمن داود عليه السلام وتسيح الحصى في زمان محمد صلى الله عليه وآله «١».

فليكن أيّ الاحتمالين، فليس هنالك اختلاف في بحثنا، وعلى كل حال فإنّ هناك أسراراً خفية في هذه الظاهرة السماوية حيث تكشف عن عظمة الخالق وتمثل آية من آياته.

والمعروف أنّ الماء والبخار، والغيوم الناتجة منهما عناصر لا تنسجم مع النار، ولكن بقدرة الخالق تنطلق منها نار هائلة أكثر احراقاً من أنواع النيران الموجودة على الأرض كافة، وكذلك البخار، الجسم اللطيف جداً، ولكن ينطلق منه صوت لا ينطلق من سقوط أثقل وأقوى الأجسام.

(١) التفسير الكبير، ج ١٩، ص ٢٥.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢١٥

ويستفاد من مجموع هذه الآيات أنّ كلّاً من «الرعد» و «البرق» من ظواهر عالم الوجود الجديرة بالاهتمام ويجب دراستها بجدية، للتوصل إلى أسرارها، والتعرف على عظمة الخالق عن طريقها، وسيأتي هذا الأمر في قسم التوضيحات إن شاء الله تعالى

توضيحات

١- الرعد والبرق في نظر العلم المعاصر

يعتقد العلماء المعاصرون أنّ بريق السماء يحدث من خلال تقارب كتلتين من الغيوم المحملة بالشحنات الكهربائية المختلفة واحدة موجبة والاخرى سالبة، فتحدثان بريقاً كما يحصل من اقتراب قطبي الموصل الكهربائي تماماً.

وحيث تتحمل قطع الغيوم بالشحنات الكهربائية العظيمة يكون بريقها عظيماً أيضاً، ونحن نعلم أن لكل بريق صوتاً، وكلما اشتد البرق كلما تعظم صوته، ولهذا قد يكون الصوت المهيب لهذا البرق من الشدة بحيث يهز جميع المباني ويحدث صوتاً كالقنابل الشديدة الانفجار.

ولكن البرق لا ينتج نتيجة اقتراب كتلتين من الغيوم دائماً لتكون بعيدة عن تناول الإنسان ولا تسبب أي خطر، بل قد تقترب الغيوم الحاوية على الشحنات الموجبة من الأرض، وبما أن الأرض تحتوى على الشحنات السالبة لذلك يحدث البرق بين «الأرض» و «الغيوم»، وهذا البرق العظيم الذى يسمى بالصاعقة خطيراً للغاية، فهو يحدث هزة شديدة فى المنطقة التى يقع فيها، وكذلك يولد حرارة عالية جداً بحيث إذا أصابت أى شىء تجعله رماداً «١».

(١) مع أن مدة الصاعقة لا تتجاوز عشر الثانية وقد تكون ١١٠٠ من الثانية، ولكن الحرارة التى تنتج منها تصل إلى ١٥٠٠٠ (سانتيغراد) بامكانها التسبب فى حدوث اخطارٍ بالغه الشدة (حرارة سطح الشمس ٨٠٠٠ فقط) (اعجاز القرآن، ص ٧٨).

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢١٦

ونظراً لتجمع الشحنات على الأجزاء المدببة للأجسام فى الصحارى التى تحدث فيها الصواعق، يظهر البرق فى النقاط المرتفعة كرووس الأشجار، وحتى رأس الإنسان المار عبرها، لذلك يعتبر التوقف فى الصحارى أثناء الجو العاصف الملىء بالرعد والبرق خطيراً للغاية، وفى مثل هذه الحالات يمكن أن يزيل اللجوء إلى الوديان أو الاقتراب من الأشجار واسفل الجبال والتلال الخطر إلى حد ما (إن الاتكاء على الأشجار والشبائيك الحديدية لا يخلو من خطورة أيضاً).

ويتضح جيداً من خلال الإشارة أعلاه اخطار البرق وعامل الخوف الذى اشير إليه فى الآيات الآنفه.

٢- فوائد وبركات الرعد والبرق

بالرغم من الاخطار التى تصحب الرعد والبرق أحياناً إلا أن لهذه الظاهرة فوائد جمه سنشير إلى بعضها هنا:

(أ) الرى- من المعروف أن البرق يولد حرارة عالية جداً، قد تبلغ ١٥ ألف درجة سانتيجراد، وهذه الحرارة كافية لاحتراق مقدار كبير من الهواء المحيط مما يؤدى إلى هبوط الضغط الجوى مباشرة، ونحن نعلم أن الغيوم تُمطر أثناء هبوط الضغط، ولهذا فعلاً ما يبدأ نزول المطر عقب حدوث البرق وتنزل قطرات الأمطار الكبيرة، وفى الواقع يعتبر الرى من هذا الجانب أحد بركات البرق.

(ب) رش السموم- عندما يظهر البرق بتلك الحرارة، تتروذ قطرات المطر بكميات إضافية من الاوكسجين، فيحصل الماء الثقيل أى الماء المؤكسد (O₂H₂)، ونحن نعلم أن من آثار هذا الماء هو القضاء على الجراثيم، ولهذا يستعمل طبيياً فى تنظيف الجروح، فهذه القطرات تقضى على بيوض الآفات المسببة لأمراض النباتات عندما تنزل إلى الأرض، وتقوم برش السموم على أحسن وجه، لذلك فقد قالوا: فى كل سنة يقل فيها الرعد والبرق تزداد الآفات النباتية.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢١٧

(ج) التغذية والتسميد- إن قطرات المطر وأثر حدوث البرق وحصول الحرارة الشديدة الناتجة عنه وتركيبها الخاص، تحصل على حالة من حامض الكاربونيك، فتقوم بتكوين سماذ نباتي مؤثر أثناء تناثرها على الأرض وتخللها فيها، فتغذى النباتات عن هذا الطريق. ويقول بعض العلماء: إن كمية السماد الحاصل من حالات البرق فى السماء خلال سنة واحدة يبلغ عشرات الملايين من الاطنان، وهذا رقم مرتفع للغاية.

بناءً على ذلك نرى أن هذه الظاهرة الطبيعية العادية وغير المهمة إلى أى حد مفيدة ومليئة بالبركة؟ فهى تسقى، وترش السموم أيضاً،

وتقوم بالتغذية، وهذا نموذج صغير من الأسرار العجيبة لعالم الوجود حيث يصلح أن يكون دليلاً في الطريق لمعرفة الله. كل هذا من بركات البرق، ولكن الحرائق التي تنتج عن نوع منه وهي الصواعق من جانب آخر قد تحرق الإنسان أو الحيوان والمزارع والأشجار، بالرغم من أن هذا الأمر قليل ونادر الوقوع ويُمكن اجتنابه، إلا أنه بإمكانه أن يصبح عامل خوفٍ وهلعٍ، وعليه فإن ما قرأناه في الآية السالفة بأن البرق أساسٌ للخوف وأساسٌ للأمل أيضاً قد يكون إشارة إلى مجمل هذه الامور.

ومن الممكن أن تكون عبارة «وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثَّقَالَ» الواردة في نهاية الآية لها ارتباطٌ بميزة البرق هذه التي تؤدي إلى تحمُّل الغيوم بقطرات الأمطار.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢١٩

١٣- آياته في خلق البحار والفلك

تمهيد:

نحنُ نعلمُ أن الماءَ يغطي ثلاثة ارباع سطح الكرة الأرضية، وأن المحيطات والبحار ترتبط مع بعضها، كما نعلم أن الإنسان قد استثمر البحار للحمل والنقل منذ غابر الأيام على أفضل وجه، بالإضافة إلى استغلاله لجانبٍ مهمٍ من المواد الغذائية الكامنة في البحر، وكذلك فإن القسم الأعظم من مختلف المواد التي تُستعمل في الصناعات تُستخرج من البحار.

والأهم من كل ذلك، أنه لا يخفى على أي شخص دور البحار في تكوّن الغيوم وسقي الاراضي اليابسة كافة، وواضح للجميع تقريباً وضع حيوانات البحار وتنوعها وعجائبها.

لهذه الأسباب اعتبر القرآن الكريم البحار والفلك من آيات الله، ودعا الناس إلى التمعن في أسرارها.

بعد هذا التمهيد نيّم وجوهنا صوب القرآن الكريم ونقرأ خاشعين الآيات الآتية:

١- «وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِيَتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ». (النحل / ١٤)

٢- «وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ اجْجٌ وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاحِرَ لِيَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ». (فاطر / ١٢)

٣- «اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِنَجْرِ الْفُلْكَ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِيَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ». (الجاثية / ١٢)

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٢٠

٤- «وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ* إِنَّ يَسَاءَ يَسِرُّنَ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ». (الشورى ٣٢-٣٣)

٥- «أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ أَنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ». (لقمان / ٣١)

٦- «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ... وَالْفُلْكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ... لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ». (البقرة / ١٦٤)

٧- «رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا».

(الاسراء / ٦٦)

شرح المفردات:

«البحر»: حسب قول الراغب في «المفردات»، هو المكان الواسع الذي يتجمع فيه ماءٌ كثير، كما يطلق على كل شيءٍ واسع، و «متبحر» أو

«مستبحر»: يقال للشخص الذي يمتلك علماً واسعاً، ويقال للتغير الذي يحدث للليل فجأة ب «بحران» (ثم اطلق لفظ «بحران» على الحوادث الحادة) واعتبر بعض أن الملوحة تدخل في مفهوم «البحر» علماً أن البحر يُطلق على الماء العذب أيضاً «١»، و «الفلك» (على وزن قفل) وتعني السفن، ويستوى فيها المفرد والجمع والمذكر والمؤنث، ولفظ «فلك» (على وزن فدك) يعني مسير ومدار النجوم تفرع من هذا الأصل.

و «الجوارى»: جمع «جارية» وهي مأخوذة في الأصل من «الجرى» أى العبور السريع، ويقال «جارية» للسفن التي تجرى وتتحرك في البحار، ويقال للشاببة في لغة العرب «جارية» أيضاً وذلك لنشاط الشباب الذي يملأ كل وجودها، وجاء في «المصباح المنير» أن اطلاق لفظ «الجارية» على الخادمة لكونها مسخرة لأوامر مولايها وتجرى لانجاز الأعمال باستمرار.

(١) صحاح اللغة، والمقاييس؛ ومفردات الراغب؛ ومجمع البحرين؛ ولسان العرب.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٢١

و «مواخر»: جمع «ماخرة» وتعني السفينة وهي من مادة «مخز» (على وزن فخر) كما تطلق على جريان الماء في الأرض وانفطارها، وكذلك تطاير الماء من على جانبي السفينة، كما تستعمل هذه المفردة لأصوات هبوب الرياح، والظاهر أنها من لوازم المعنى الأول «١».

جمع الآيات وتفسيرها

عجائب البحار!

تقول الآية الاولى معرفه بالذات الإلهية المقدسة: «وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ».

ويدل هذا التعبير على أن البحر بكل وجوده في خدمة الإنسان، والحق كذلك، فاول براعم الحياة تفتح في البحار، وقد كان البحر فيما مضى وحاضراً مصدراً مهماً لأنواع حاجات الإنسان وديمومه حياته.

ونلاحظ من سياق هذه الآية أنها أكدت على ثلاثة مواضع:

أولها: يستطيع الإنسان أن يستخرج من البحر لحماً طرياً إذ يقول: «لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا».

لحم كثير لم يتحمل الإنسان عناء تربيته مصدره أبداً، ويكون طرياً بشكل كامل وفي متناول يده في أغلب نقاط الأرض.

إن التأكيد على طراوة وطراوة هذا اللحم، إضافة إلى إشارته إلى لذة لحم الأسماك، فهو تذكير بهذه النكته، وهي أن الناس في تلك العصور والازمان كانوا يستفيدون من اللحوم المجففة بسبب المشكلات التي تواجههم في الحصول على اللحوم الطرية، وهذه النعمة ذات أهمية خاصة، وفي عصرنا وزماننا حيث تتوفر اللحوم القديمة والمجمدة لأسباب مختلفة تتضح أهميته هذا التعبير.

ويقول بعض المفسرين: هذا التعبير إشارة إلى عظمة الله عز وجل وقدرته في خلق اللحوم الطرية اللذيذة في المياه المالحة «٢».

(١) مفردات الراغب، والمصباح المنير، التحقيق في كلمات القرآن، ولسان العرب.

(٢) تفسير روح المعاني، ج ١٤، ص ١٠٢.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٢٢

ويمكن أن يكون التعبير ب «اللحم» إشارة إلى أن القسم الأعظم من جسم السمك يتكون من اللحم وفيه قليل من العظام، على

العكس من بقية الحيوانات.

وتتضح أهميته هذه النعمة الإلهية أكثر من خلال الالتفات إلى أن استغلال لحوم الأسماك لتغذية البشر أصبحت تحظى باهتمام بالغ بسبب ندرة المواد الغذائية.

وثانيها: يذكر فائدة البحر في استخراج وسائل الزينة لا سيما الجواهر «وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا».

فكأنه يقول: يخرج من البحر المواد الغذائية الضرورية جداً وحتى الحاجات غير الضرورية والكمالية، «وكلها مسخرة لكم».

وثالثها: يخاطب النبي صلى الله عليه وآله قائلاً: «وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ».

«إِنَّ اللَّهَ قَدْ مَنَحَكُمْ هَذِهِ النِّعَمَ كَيْ تَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ، لَعَلَّكُمْ تُوَدُّونَ شُكْرَ نِعْمَائِهِ» «وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

ومن أجل أن تتمكن السفن من الإبحار في المحيطات والبحار واستخدامها كأفضل وسيلة لحمل ونقل السلع التجارية وتقل البشر لا بد من تظافر عدة عوامل:

نوعية القوانين التي تسود المواد الثقيلة والخفيفة التي تصونها على سطح الماء، وتموج الماء، وهبوب الرياح المنظم على سطح المحيطات، والعمق اللازم للبحار، فتتظافر كلها كي تتحرك السفن العملاقة على سطح المحيطات، أما السفن التي تعمل بقوة البخار فهي أعظم ما صنعه الإنسان، وقد يكون حجم أحدها بقدر مدينة وتستطيع انجاز ما يعادل عمل عشرات الآلاف من السيارات لوحدتها (إن السفن التي تستوعب خمسمائة الف طن تحمل ما يعادل حمولة ١٥٠ ألف سيارة ذات حمولة ١٠ أطنان!).

إن هذه المسألة بالاضافة إلى مسألة استخراج أنواع المواد الغذائية وغير الغذائية ومواد الزينة، تعتبر دليلاً على علم وقدره خالق الكون الذي وضع كل هذه النعم في متناول يد الإنسان مجاناً.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٢٣

وفي الآية الثانية تكررت ذات النعم الثلاث التي اشير إليها في الآية السابقة (اللحم الطرى، والحلى، وحركة السفن في عرض البحار) أيضاً، واستند إليها، مع هذا الاختلاف حيث يشير في مطلع الآية إلى بحار الماء العذب والماء المالح فيقول: «وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ اجْجٌ».

ومع أن أكثر مياه البحار على سطح الأرض مالحة إلا أن بحار وبحيرات المياه العذبة ليست قليلة أيضاً، حيث تُشاهد نماذج عديدة منها في الولايات المتحدة، وكثيراً ما يستفاد منها، إضافة إلى الأنهار الكبيرة التي تصب في البحار المالحة وتتوغل فيها، فتدفع المياه المالحة إلى الخلف ولا تختلط معها لفترة طويلة فتشكّل بحراً من الماء العذب حيث يسقى كثيراً من السواحل أثناء المد والجزر، مما يؤدي إلى ازدهار البساتين والمزارع الواسعة.

ويعتبر الفخر الرازي في تفسيره هذين البحرين إشارة إلى المؤمنين والكافرين، إلا أن التمعن في لحن الآيات يدل على أنه لا يقصد هذا المعنى بل إن الهدف هو بيان آيات وآلاء الله في عرض الخلق.

وجاء الحديث في الآية الثالثة عن تسخير البحار للإنسان: «اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ».

ولكن استند إلى مسألة الإبحار فقط من بين مختلف بركات البحر، والتي تمت الإشارة إليها في الآيات السابقة.

وفي الآية الرابعة اعتبر السفن العملاقة التي تشبه الجبال المتحركة والتي تظهر على سطح البحر من آيات وآلاء الله، فيقول: «وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ».

حقاً.. من خلق المحيطات بهذه السعة والعمق والخصائص؟ ومن الذي منح الخشب

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٢٤

والحديد هذه الميزة بحيث يطفو على وجه الماء؟ ومن الذي أمر الرياح أن تهب بشكل منظم على سطح البحار وتمنح الإنسان فرصة الانتقال من نقطة إلى أخرى ويستخرج ملايين الثروات عن طريق البحر؟

أليس هذا نظام مُتقن ومُحكّم، وكذلك النظام السائد على قوة البخار والبرق دليل جلي على علم وحكمة الخالق جلّ وعلا؟ هنا يشبّه القرآن الكريم الشِّفْنَ الضخمة بـ «الأعلام» و «الأعلام» جمع «عَلَم» (على وزن قَلَم) وتعني في الأصل (كما يقول الراغب في المفردات) الاثر الذي يحصلُ منه علمٌ بوجود شيءٍ، كالعلامات التي توضع على الطرق، وعلم العسكر، ولهذا اطلق على الجبل اسم «عَلَم» حيث يعتبر دليلاً واضحاً يبرُز من بعيد، ولهذا السبب شُبّهت الشِّفْنُ العملاقة بالجبال حيث تتضح من بعيد كالجبال. واللطيف أن القرآن يقول عقب هذه الآية: «إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ».

ولو شاء جعلَ الرياح مضطربةً وغير منظمةٍ بحيث لا تستطيع أيُّ سفينةٍ بلوغ هدفها، بل يغرقها في البحر، لذلك يكرر التأكيد في نهاية الآية: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ».

اولئك الذين استوعبوا آيات الآفاق من خلال الصبر والتحمل، ويؤدّون شكر هذه النعمة بعد إدراك الحقيقة، ويركعون على اعتاب ساحة القدس الإلهية العظيمة.

وأشار في الآية الخامسة إلى هذا الموضوع أي حركة السفن في البحار كأحد النعم الإلهية العظيمة أيضاً، مع هذا الفارق حيث يقول: «لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِنَا».

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٢٥

وفي الآية السادسة أيضاً حيث يأتي البحث عن سبع آياتٍ من آيات الله، فهو يذكر الفلك كآيةٍ ثالثةٍ حيث تجرى في البحر بما ينفع الناس: «وَالْفُلُوكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ»، ويؤكد في ختام هذه الآية أن في هذه الامور آياتٍ من الذات الإلهية المقدسة وآياتٍ عن وحدانية الله لقوم يعقلون: «لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ».

وفي الآية السابعة يستند إلى ربوبيته تعالى فيقول: «رَبُّكُمْ الَّذِي يُرْجِي لَكُمْ الْفُلُوكَ فِي الْبَحْرِ» فلا تتبعوا الأوثان لأنها ليست بربكم. وهنا نواجه تعبيراً جديداً «يُرْجِي» وهو من مادة «إزجاء» التي تعني «تسيير الشيء بمداراةٍ ورِقْمَةً» بالنحو الذي ورد في «مصباح اللغة»، ويُستفاد من «مقاييس اللغة» بأنها تعني «التسيير الدائم والمستمر»، وهاتان المسألتان في حركة الشِّفْنِ على سطح المحيطات جديرتان بالاهتمام، لا سيما في السفن الشراعية، فالمعروف أن الرياح تسوق الشِّفْنَ برفقٍ واستمرارٍ.

فلو كان للرياح هبوبٌ شديدٌ، أو تكون متقطعةً فأنها تجعل السفن تواجه حركاتٍ واضطراباتٍ قوية، وقد تتوقف وتضيع في وسط البحر أيضاً، إن هذا التعبير يبيّن أسراراً جديدةً عن هذه الآية الإلهية.

ولهذا يستفاد من مجموع الآيات السالفة أن لخلق البحار فوائد مختلفة حيث تعتبر كل منها آيةً من آياته تعالى لا سيما حركة السفن الدقيقة على سطح المحيطات.

وتُعرف النعمة دائماً بعد فقدانها، فلولا البحار لم يتكدّس القسم الأعظم من السلع التجارية التي تُنقلُ عبر المياه فحسب، بل تختفي كميات كبيرة من المواد الغذائية والحلى أيضاً، وأهم من ذلك، تنعدم الغيوم ولا تهطل الأمطار، ويجر الهواء الجاف والحار جميع الكائنات الحية إلى الفناء.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٢٦

توضيحات

١- البحر مركز لأنواع النعم

لم يكن هنالك أحدٌ عندما تكونت البحار، كي يرى طريقة تكوينها، إلّا أنّ العلماء يعتقدون أن كرتنا الأرضية بعد انفصالها عن

الشمس كانت حارةً وساخنه، وبردت رويداً رويداً، كالتفاحه الناضجه تعرج قشرها وتجد وحصل الانخفاض والارتفاع، برزت الجبال والوديان والبحار.

ومن الممكن أن يرد هذا التساؤل وهو: من أين جاءت مياه البحار؟ هنالك رأيان: يعتقد بعض أنها تكونت نتيجة لتفاعل الاوكسجين والهيدروجين الموجودين في أعماق الأرض وانثقت كالينابيع التي تندفق حالياً، وملأت منخفضات الأرض تدريجاً.

إلماً أن أشهر الآراء هو أن السماء غطت جوانب الكرة الأرضية بالغيوم المترامكة، وحينما انخفضت حرارتها سالت على هيئة أمطار غزيرة، وهطل المطر لآلاف السنين، وغمرت السيول كافة أنحاء الكرة الأرضية بنحو لا يمكن تصوره، وحصلت البحار، وحتى أمد طويل كانت أمواجه تغسل أعماقه وكذلك الصخور والسواحل، ثم هدأت تدريجاً، واستقر على هيئته الحالية.

على أية حال فإن البحر له تاريخ قديم جداً وملئ بالأسرار، ولكن الأهم من ذلك هي البركات والمنافع التي ينالها الإنسان اليوم من البحار حيث بإمكاننا أن ندرج قسماً منها، ولا يتسع هذا البحث المختصر لبيانها كلها:

١- إن البحر له أهمية بالغة في الإبحار وحمل ونقل الناس والسلع التجارية، وكما اشرنا فإن البحار تعتبر اهم وسائل البشر للحمل والنقل. لا سيما الخطوط البحرية التي تمتد بشكل طبيعي إلى بقاع الأرض كافة، ويكفي الالتفات إلى هذه الحقيقة وهي صناعة البواخر العملاقة التي تستطيع أن تستوعب (خمسمائة الف طن) من النفط وتنقله إلى أي نقطة في العالم.

وهذا يلزم توفر (خمس وعشرين الف سيارة ذات حمولة ٢٠ طناً) لحمل هذه البضاعة.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٢٧

٢- المواد الغذائية- ومن أهم الفوائد الاخرى للبحار هي المواد الغذائية التي يحصل عليها الإنسان منها.

فمن أجل معرفة أهميته هذا الأمر يكفيننا العلم بأنه يتم صيد ست وعشرين مليون طن من الأسماك سنوياً، علماً أن هذا الاحصاء يتعلق بثلاثين عاماً مضت، ومن المسلم به أن هذا الرقم قد تضاعف كثيراً في الوقت الحاضر.

وليس الإنسان وحده بل إن الكثير من الطيور تحصل على طعامها من البحار أيضاً، وهذا بحد ذاته اقتصاد في استهلاك المواد الغذائية الجافة.

فيقول بعض العلماء من خلال الاحصاءات التي قاموا بها: إن الطيور البحرية التي تعيش على الجبال الساحلية والجزر الصخرية تستهلك لوحدها مليونين وخمسمائة الف طن من الأسماك سنوياً!

ونعلم أيضاً أن جانباً مهماً من علف الدواجن يتم تأمينه من عظام أسماك البحر، (نفس هذه الأسماك المصطادة)، أي أنها تتدخل بصورة غير مباشرة في تغذية الإنسان.

٣- الاعشاب والادوية- يحصل من كل هكتار من البحر خمسمائة طن من العلف الاخضر، في حين أن أفضل مزارعنا لا تنتج أكثر من أربعة أطنان وفي بعض البلدان يُستغل هذا العلف لتغذية المواشي، ويُستعمل رماده سماداً للمزارع أيضاً.

ويستخرجون من الاعلاف البحرية مختلف المواد، كالكحول الجامد والسلولوز والنشاء والمواد الجلوتينية، حيث تُستثمر في الصناعات الكيماوية واعداد الطعام (وبعض الادوية).

٤- المعدن والنفط- إن البحار غنية بالمعادن، ويكمن جانب من هذه المعادن في أعماقها، ويعوم الجزء الاعظم منها على سطحها، ومنها الفلزات التي يمكن استخلاصها من ماء البحر «كالمغنيسيوم» الذي يُستعمل في الصناعات، وكذلك «البوتاسيوم» و «البروم» و «سلفات الصوديوم» وغيرها.

يقول العلماء إن أكثر من أربعين عنصراً (عدا ما ذكر) موجود في ماء البحر، لها قيمة

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٢٨

صناعية جديدة بالاهتمام، كما ويعثر على الذهب في ماء البحر أيضاً، غير أن استخراج الكثير من الغازات ما زال يحتاج إلى ميزانية

هائلة لا يمكن مقارنتها بالاستهلاك، وقد يأتي اليوم الذي يتمكن فيه الإنسان من أن ينالها من خلال طرقٍ أكثر يسراً. وتقوم بعض الشركات العملاقة بتصنيع أكثر من خمسمائة مادةٍ مختلفةٍ من معادن البحر، حيث هنالك مليارات الأطنان من المعادن. ويعتبر النفط- وهو من أثمن المستخلصات- من هدايا البحر، لأنَّ المليارات من الموجودات البحرية توجد في أعماق البحار العظيمة، وبما أنَّ القارات ارتفعت فيما بعد فقد دُفنت هذه الموجودات تحت الرمال التي تحوَّلت إلى صخورٍ بعد ذلك، وبقي النفط الناتج عنها في أعماق الأرض.

والملح هو أحد أهم المواد المعدنية التي تُستخرج من البحر، له دورٌ مهمٌ في حياة الإنسان، وقد ذكروا في السابق أنَّ الملح بلغ من الأهمية بحيث إنَّ جنود الروم كانوا يتقاضون رواتبهم على هيئة ملح، وحتى في روسيا فقد اندلعت «ثورة الملح» بسبب ارتفاع سعره. إنَّ أهم مصادر استخراج الملح هو البحر، وحتى أنَّ بعض المناطق الملحية الموجودة على اليابسة والتي يبلغ قطرها ٨٠٠ م هي من آثار البحار عندما كانت تغمر جميع بقاع الأرض.

لقد قدَّروا الاستهلاك العالمي للملح ب ٢٢ مليون طن سنوياً، بحيث لو أراد الإنسان استهلاك مخزون الملح الموجود على اليابسة لَنفد عاجلاً أو آجلاً في حين أنَّ البحر مصدرٌ لا ينفد للملح، فيمكن أن تؤمِّن أملاح البحر ما يحتاجه البشر لمدة مليون وسبعمئة الف سنة.

٥- أفضل منتج للطاقة- لقد انتبه الإنسان منذ القدم إلى هذا الأمر، وهو إمكانية إنتاج الطاقة من خلال السيطرة على المياه المتراكمة بسبب المد، وتسحب أثناء حدوث الجزر، فتستغل لتحريك المطاحن وغيرها.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٢٩

وتفيد بحوث العلماء المعاصرين أنَّه يُمكن إنتاج الكهرباء بكمية كبيرة من هذه البحار، وأنَّ يستعان بها بصفتها أهم مصدرٍ لإنتاج الطاقة، فالجزر والمد اللذان يحدثان مرتين ليلاً ونهاراً بتأثير جاذبية القمر يقومان برفع وخفض ماء البحار بمقدار كبير، وهذا الأمر إضافة إلى مسألة الطاقة التي اشير إليها فهو يؤثر في سقى المناطق الساحلية، لأنَّ مصبات الانهار التي تصب في البحار تمثل بحراً من الماء العذب، فيندفع ماء الساحل العذب إلى الخلف ويغطي كثيراً من الأراضي، لذلك سيخسر البشر منذ القدم أراضي واسعة للزراعة من خلال شق الأنهار في مثل هذه المناطق.

ولعلَّ هنالك الملايين من أشجار النخيل في سواحل الخليج الفارسي حيث تُسقى بنفس هذه الطريقة فقط، لأنَّ الماء يتراجع إلى مسافات بعيدة عن الساحل، فهذا الماء العذب الفرات الذي يجاور الماء المالح الاجاج ولا يختلط معه يعتبر ثروة عظيمة لسكان السواحل.

٦- وسائل الزينة المختلفة- من المنافع الاخرى للبحار التي ذُكرت بشكل خاص في الآيات المذكورة هي وسائل الزينة التي تُستخرج من البحر، كاللؤلؤ الذي ينمو في نوع خاص من الصدف، والمرجان الذي هو نوع من الاحياء البحرية، ولكن على هيئة اغصان أشجار لها منظر جميل ومرغوب، إضافة إلى صفة الزينة فهو يُستعمل في الطب أيضاً.

٧- تلطيف الجو عن طريق البحر- ليست الرياح التي تهبُّ من البحار نحو اليابسة هي التي تُرطب وتلطِّف الجو فقط، بل هنالك أنهاراً عظيمة متحركة في قلب محيطات العالم تتحرك من المناطق الحارة إلى المناطق الباردة وبالعكس، وبصورة عامة لها أثرٌ بالغ في تلطيف الهواء على الكرة الأرضية.

وواحدٌ من أعظمها هو «غولف استريم»، هذا النهر العظيم الذي يتحرك من سواحل أمريكا الوسطى ويطوى المحيط الأطلسي، ثم يصل إلى سواحل شمال اوربا، وهذه المياه تكون حارةً حينما تتحرك من المناطق القريبة من خط الاستواء، حتى أنَّ لونها يختلف أحياناً عن لون المياه المجاورة لها، واللطيف أنَّ عُرِض هذا النهر البحري العظيم أي «غولف

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٣٠

استريم» نحو مائة وخمسين كيلو متراً، وعمقه عدة مئات من الأمتار «١»، وتبلغ سرعته في بعض المناطق حداً بحيث يقطع مائة وستين كيلو متراً في اليوم، وتختلف درجة حرارته عن حرارة المياه المجاورة ب ١٠-١٥ درجة.

إنَّ «غولف استريم» يتسبب في حصول رياح حارة، ويعطى نسبةً كبيرة من حرارته إلى البلدان الواقعة شمال أوربا، فيعمل على تحسين جوها، ولولا هذا الجريان لتعسرت الحياة كثيراً في هذه البلدان واستحالت في بعضها.

والعجيب أن هذه الأنهار البحرية العظيمة والتي يكمن السبب الرئيس وراء ظهورها في التفاوت في درجة حرارة المناطق الاستوائية والمناطق القطبية قليل ما تمتزج بالمياه المحيطة بها، وتطوى آلاف الكيلو مترات بهذا الشكل، فهي مصداقاً لطيف لـ «مَرَجِ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ». «٢» (الرحمن / ١٩ و ٢٠)

٨- استثمار ماء البحر طيباً- لا حاجة لتوضيح أن ماء البحر له آثارٌ مفيدةٌ لجسم واعصاب الإنسان، ولهذا ينتشر اليوم وفي معظم مناطق العالم استثمار ماء البحر لعلاج بعض الأمراض الجلدية والعصبية، أو لحفظ الصحة والسلامة، ولو تمَّ القضاء على التلوث الأخلاقي في هذا المجال لأصبح استثمار ماء البحر مصدراً لسلامة ونشاط الناس.

٩- المصدر الرئيس للمياه الجوفية- إنَّ أهمَّ وأعظمَ وأكثر فوائد البحر هي الابخرة التي تتصاعد منه، ثم تولفُ الغيوم، وتساقُ هذه الغيوم نحو المناطق اليابسة والجافة، فتحييها، حيث ذكر ذلك في فصل الرياح والأمطار بشكلٍ مفصّلٍ.

١٠- توفير الماء العذب- يتمُّ في الكثير من المناطق التي يصعب الحصول على الماء العذب، تأمين هذه المادة الحياتية من خلال تقطير ماء البحر فتصبح المناطق المهجورة مسكونة بسبب ذلك.

هذا جانبٌ من منافع وبركات البحار التي وقف عليها الإنسان حتى هذا اليوم، وليس

(١) وقد ذكر في بعض الكتب أن عمقه يصل في بعض المناطق إلى (٨٠٠ م) (البحر والعجائب، ص ٤٦).

(٢) لمزيد من التوضيح في هذا المجال يراجع التفسير الامثل، ذيل الآية ١٩ و ٢٠ من سورة الرحمن.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٣١

معلوماً ما حجم المنافع التي سينالها الإنسان في المستقبل، وهنا نقف على عظمة هذا التعبير القرآني: «وَسَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ» «١»

٢- البحر عالم العجائب

لو فكرنا جيداً فإنَّ جميع الموجودات في العالم تبعث على الدهشة، ولكن لا يشبه أيُّ منها الاحياء التي في أعماق البحار، وقد ذكر بعض العلماء أن عدد أنواع الاحياء البحرية التي تمت معرفتها مائة وأربعون الف نوع، علماً أن عدد هذه الأنواع كثيرٌ للغاية على سطح المحيطات، ولكن كلُّما نفذنا في الأعماق فإنَّها تقلُّ، أو على الأقل تقلُّ معلوماتنا عنها.

والمسألة المهمة التي تخص البحار هي أن التصوُّر كان ينصبُّ على عدم وجود أيِّ كائن حيٍّ في أعماق البحار، لأنَّ أشعة الشمس تنفذ إلى عمق «٦٠٠» متر في الماء فقط، وتختفي نهاية الأشعة في مثل هذا العمق، فيغُطُّ كلُّ شيءٍ في «ظلام دامس».

بالإضافة إلى أن ماء البحر يكون بارداً جداً في هذه المنطقة، والأهم من ذلك الضغط الذي يولده الماء على موجودات تلك المنطقة، لأنَّ ضغط الماء في عمق كيلو متر واحد يكون في نحو من مائة كيلو غرام لكل سنتيمتر مربع واحد، ومن المسلم به لو كان الإنسان هناك مجرّداً من ملابس الوقاية لتحطمت وسُحقت عظامه «٢»، ولهذا لا يمكن النزول في البحار بعمق عشرة أمتار فأكثر بدون ملابس واقية، ولا بد من استخدام الواقيات الفولاذية السميكة أثناء الغوص في الاعماق، وإلا لدُمِّرَ ضغطُ البحر كلَّ شيء، ولا يمكن الذهاب

بكل وسيلة إلى الأعماق في بعض المراحل بسبب عدم وجود شيء يقاوم الضغط.

(١) تراجع كتب: البحر دار العجائب؛ وأسرار البحر؛ وعجائب البحر؛ ونشرة الميناء والبحر؛ رسالة الثقافة، ج ١٢؛ وأفضل الطرق لمعرفة الله.

(٢) إن الغواصين يغوصون إلى عمق ٣٠ متراً فقط بدون ملابس الغوص وإلى عمق ١٥٠ متراً بملابس الغوص، في حين أن ضغط الماء يبلغ ٧ أطنان لكل انج مربع في أعماق نقاط البحر (البحر دار العجائب، ص ٨٩).

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٣٢

على أية حال فقد اثبتت بحوث العلماء فيما بعد أن هنالك في أعماق البحر موجودات حية كثيرة وعجيبة، حيث تقوم بإبطال مفعول الضغط العجيب للماء من خلال الضغط الداخلي الموجود فيها.

ولا تنمو الحشائش هناك كى تستفيد منها الاحياء الموجودة في قاع البحر، لكن يد القدرة الإلهية تقوم بتهيئة الغذاء اللازم لها والذي هو عبارة عن المواد النباتية المختلفة على سطح المحيط وتحت ضوء الشمس، وبعد إعداده ينزل إلى سبكان أعماق البحر على هيئة مائدة سماوية، وترسب هناك، بالإضافة إلى الاحياء الموجودة على سطح الماء التي تموت حيث تُعدّ جثتها طعاماً لذيذاً للموجودات الحية في قاع البحر.

ولكن لَنر كيف تُحلُّ مشكلة الظلام الدامس؟ فقد وفّرت القدرة التي خلقت هذه الموجودات للعيش في هذه المنطقة والنور اللازم لها، لأن أغلب هذه الاحياء تقوم باشعاع النور منها، نورٌ كنور ليلة مغمرة من ليالى الصيف فتضيء ذلك المحيط.

وينطلق نور احمر من رأس نوع من الأسماك، ومن ذيل اخرى نور أزرق، وينشر بعض الأسماك نوراً باللون الاحمر والابيض والازرق.

يقول أحد العلماء: إن أكثر المناطق عجباً في البحر ليست قرب سطح الماء ولا قاع المحيط، بل هي المنطقة التي تتوسطهما، فليس لها سماء فوقها ولا أرض تحتها، وانما يحيط الماء بكل شيء، ولا مأوى للموجودات التي تحيي هناك، فهي في حركة مستمرة، وهنالك الأسماك التي تُحَيِّرُ العقول، فاسنان بعضها طويلٌ بالقدر الذي لا تتمكن من أن تغلق فمها أبداً ونوع من الأسماك يتسع بطنه بحيث يتمكن من ابتلاع سمكة تعادل حجمه ثلاث مرات، وقد اطلق على هذه الأسماك أسماء عجيبة وغريبة مثل «البالغ الأسود» و «الأفعى البحرية» و «ثعبان السمك»!

لنترك قعر المحيط ونأت إلى سطح الماء فهناك عجائب أيضاً، وهنالك أسماك كل منها اعجب من الآخر، منها الأسماك ذوات الشحنة الكهربائية حيث تستطيع انتاج كميات كبيرة من الكهرباء بايعاز من الدماغ، إذ تصيب العدو أو الفريسة بالشلل، تلك الشحنات الخطيرة حتى على الإنسان أيضاً.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٣٣

و «الأسماك الطائرة» التي تخرج من الماء وتطير إلى مسافة ستين متراً، وتقفز أحياناً أعلى من الأشجار.

و «السمك ذو الدواة» الذي يفرز مادة سوداء اللون في ماء البحر للاختفاء عن العدو والافلات منه، كما يُصنع اليوم في الحروب التقليدية، حيث يُملأ ميدان المعركة بالدخان كى يتوارى الأشخاص عن العدو.

و «السمك المائدة» أحد الأنواع العجيبة للسمك، حيث تكون عريضة وكبيرة جداً، إذ تبسط نفسها على سطح المحيط فتشكل مائدة، وبمجرد وقوع الفريسة على هذه المائدة تجمع أطرافها المبسوطة عليها وتنشغل بأكلها.

يعيش في البحر أصغر الاحياء، وأكبرها أيضاً، إذ يبلغ طول الحيتان الموجودة في البحر ثلاثين متراً، وقطرها أكثر من أربعة عشر متراً، ويبلغ طول فكها أكثر من سبعة أمتار، ووزن لسانها ثلاثة أطنان، ووزن قلبها نصف طن، ووزن كبدها طناً واحداً، ويبلغ طول وليدها

سبعة أمتار أحياناً» (١).

وكان طول احدى الحيتان التى تم اصطيادها فى جزائر «نيو جورجيا» ثلاثاً وثلاثين متراً، ووزنها مائة وخمسة وعشرين الف كيلو غرام (٢).

وكذلك هناك نباتات مجهرية، ونباتات يبلغ طولها خمسين متراً تعيش فى البحار أيضاً.

٣- البحر فى كلام المعصومين عليهم السلام

وهنا نترنم بهذه الجملة المشهورة فى دعاء الجوشن من خلال عالم من الخشوع والإخلاص ولتقل: «يا مَنْ فى البحار عجايبه» (٣).

(١) عجائب البحر، ورسالة الثقافة.

(٢) البحر دار العجائب، ص ١٢١.

(٣) دعاء الجوشن الكبير، الفقرة ٥٨.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٣٤

فى ذلك اليوم حيث رويت هذه العبارة فى دعاء الجوشن عن النبى صلى الله عليه و آله لم تزل أسرار البحار غير مكشوفة لأحد، واليوم تتجلى لنا عظمة هذه العبارة أكثر من أى وقت.

وورد فى دعاء ومناجاة اخرى لأمر المؤمنين عليه السلام حيث يقول:

«أنت الذى فى السماء عَظَمْتُكَ، وفى الأرض قُدْرَتُكَ، وفى البحار عَجَائِبُكَ» (١).

ونواصل هذا البحث بحديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول:

«سَخَّرَ لَكُمْ المَاءَ يَغْدُو عَلَيْكُمْ وَيَرُوحُ صَلاَحاً لِمَعَايِشِكُمْ وَالبَحْرَ سَبَباً لِكَثْرَةِ أَمْوَالِكُمْ» (٢).

ونختم هذا البحث بمقطع من الحديث المشهور ب «توحيد المفضل» عن الصادق عليه السلام، إذ يقول عليه السلام:

«فإذا أردت أن تعرف سعة حكمة الخالق وقصر علم المخلوقين، فانظر إلى ما فى البحار من ضروب السمك ودواب الماء، والاصداف والاصناف التى لا تحصى ولا تعرف منافعها إلا الشىء بعد الشىء يدركه الناس بأسباب تحدث؛ مثل القرمز فإنه إنما عرف الناس صبغه بأن كلبه تجول على شاطئ البحر فوجدت شيئاً من الصدف الذى يسمى «الحلزون» فاكلته فاخضب خطمها بدمه فنظر الناس إلى حسنه فاتخذوه صبغاً...» (٣).

نعم .. ففى البحر وموجوداته ونباتاته وغيرها منافع وبركات تتكشف عنها المزيد من الأسرار فى كل يوم يمر من حياة البشر، وتظهر له فوائد جديدة بحيث تجبر الإنسان على الخضوع إلى خالق هذه النعم.

(١) بحار الأنوار، ج ٩٧، ص ٢٠٢.

(٢) المصدر السابق، ج ٦٠، ص ٣٩، ح ٣ (باب الماء وانواعه والبحار).

(٣) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٠٩ (حديث المفضل).

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٣٥

١٤- آياته فى خلق الظلال

تمهيد:

هل أن الظل شيء يمكن من خلاله أن تستدل على خالق العالم؟ نعم .. فقد تمت الإشارة في آيات القرآن الكريم إلى هذه المسألة التي تبدو عادية أثناء وصف نعم الخالق جلّ وعلا والتعريف بالذات الإلهية المقدسة، فهو تعالى يريد بيان هذه الحقيقة، وهي أينما يقع بصرك في هذا العالم المليء بالعجائب والأسرار فإن عظمته تتجلى فيه، وبراهين حكمته وقدرته مكتوبة في جبين كل الموجودات صغيرها وكبيرها.

بعد هذا التمهيد نتأمل خاشعين في الآيات الآتية:

١- «أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظَّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا* ثُمَّ قَبَضْنَا إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا». (الفرقان / ٤٥-٤٦)

٢- «وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بِالْأَسْبَاطِ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ». (النحل / ٨١)

٣- «أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالَهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ». (النحل / ٤٨)

٤- «وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ». (الرعد / ١٥)

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٣٦

شرح المفردات:

«ظلال»: جمع «ظِلٌّ» إلّا أنّ العالم والمفسر المعروف «الراغب» يقول في كتاب «المفردات»: أي مكان لا تشرق فيه الشمس يُعتبر ظلًا سواء أشرقت عليه سابقاً أم لا، ولكن «الفيء» على وزن (شيء)، يقال للمكان الذي أشرقت عليه الشمس سابقاً ثم غطاه الظل. في حين أنّ بعض أرباب اللغة اتخذ الاثنين بمعنى واحد، وقال البعض إنّ «الظل» هي الظلال التي تنزل أثناء الصباح، و «الفيء» يُطلق على الظلال التي تنزل عصرًا، إلّا أنّ المعنى الأول يتناسب كثيراً مع حالات استعمال هذين اللفظين. ويطلق لفظ «الظل» كنايةً في مورد العزّة والمنعّة والرفاه والراحة لأنّ من المعروف أنّ هذه الأحوال تحصل في الظل «١».

جمع الآيات وتفسيرها

هل إنّ الظلّ نعمَةٌ عظيمةٌ؟

هل إنّ الظلّ نعمَةٌ عظيمةٌ؟

إنّ الحديث في هذه الآيات عن الظلال، والمسألة تبدو وكأنها عادية لكنّ التفحص فيها يمكن أن يُقربنا ويُعرفنا أكثر بخالق هذا العالم. ففي الآية الأولى يخاطب النبي صلى الله عليه وآله قائلاً: «أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظَّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا». ويضيف في نهاية الآية قائلاً: «ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا»، ويضيف في الآية التي تليها: «ثُمَّ قَبَضْنَا إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا». وهنا ما المقصود بهذا الظلّ الذي يُمدّه الباري تعالى ثم يجمعه تدريجياً؟ قال بعض المفسرين: المقصود هو ظلّ الليل حيث ينسبط على جميع سطح الأرض وينقبض بنحوٍ متناوب، ويعتبر وجود الشمس دليلاً وإشارةً عليه، إذ «تُعرفُ الأشياءُ باضدادِها».

ويعتبره البعض إشارةً إلى الظل الذي يمتد بين الطلوعين (بين طلوع الصبح وطلوع

(١) لسان العرب؛ ومفردات الراجز.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٣٧

الشمس)، فيغطي وجه الأرض وهو افضل الظلال والساعات.

واعتبره البعض بمعنى الظلال التي تحصل أثناء النهار بسبب اصطدام ضوء الشمس بالجبال والأشجار وبقية الاجسام، ثم ينتقل تدريجياً.

من هنا حيث لا تتعارض هذه التفاسير الثلاثة، وبما أن تعبير الآية مُطلق وجامع، فيمكن أن يكون إشارةً إليها كلها إذ إنَّ كلاً منها نعمةٌ ثمينةٌ.

إننا نعلمُ أنَّ اللَّيْلَ في الواقع هو ظل نصف الكرة الأرضية الذي يقع أزاء الشمس، الظلُّ المخروطي الشكل الذي يمتد في الفضاء في الجهة المقابلة ويتحرك باستمرار، ولولا ظلَّ اللَّيْلِ لاحتُرقت كافة الكائنات الحية بفعل ضوء الشمس والحرارة الناتجة عنه، وهلكَ النسل البشري بسرعة.

وكذلك لولا وجود سائر أنواع الظلال، ولو كان الإنسان مجبوراً على قضاء النَّهار تحت الشمس لوقَّع في حَرَجٍ بالغ، ولأصبحت الحياة شاقَّةً بالنسبة له لاسيما في فصل الصيف، إنَّ الله تعالى فتح الظل للإنسان كي ينال الراحة والاستقرار هو ومن يتعلق به.

وبتعبير آخر فإنَّ بعض الأشياء خلقت «معتمة»، والبعض خلقت «شفافاً» بحيث يعبرُ النور من خلاله، فلو كانت كل الأشياء شفافةً فلا وجود للظلِّ إطلاقاً وستتبدل حياة الإنسان مقابل ضوء الشمس المستمر إلى جهنم محرقة، وإذا تفكَّر الإنسان قليلاً في هذا المجال فسيتعرف على عظمته وأهميته هذه النعمة ويتمكن من خلال ذلك الوصول إلى الخالق الحكيم.

ولعلَّ التصريح ب «النظام التدريجي للظل» في الآية أعلاه إشارةً إلى هذه الحقيقة وهي لو أنَّ الظلال تحصل أو تزول فجأةً لأدت إلى اضرار جسيمة، إذ لا يخفى على أحد الاضرار الناتجة عن الانتقال المفاجيء من النور إلى الظلام وبالعكس، أو من الحر إلى البرد وبالعكس.

ولكنَّ «الظل» بما له من بركاتٍ ولطفٍ، مضرٌ أيضاً فيما إذا دام وحلَّدَ لأنَّه يحرم الإنسان من نعمة النور، لهذا يقول في الآية أعلاه: «وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا»، (ولكنه للطفه وكرمه لم يفعل ذلك كي ينعَم العباد بنعمة النور والظل على السواء).

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٣٨

ويقول في الآية الثانية التي تمَّ بيانها ضمن آيات التوحيد في سورة النحل، بعد تعداد بعض آيات الآفاق ونعم الخالق جلَّ وعلا: «وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا».

قال بعض المفسري إنَّ المقصود هنا الأشياء التي تتسبب في ايجاد الظلال، كالجبال والأشجار، والغيوم، والسقوف والجدران «١». وممَّا لا شكَّ فيه لو كانت جميع الاشياء - كما المحنا سابقاً - شفافةً ومضيئة كالبلور، ولا وجود للظل في العالم لكانت الحياة غير ممكنة بالنسبة للإنسان.

ويشير سياق الآية إلى سائر النعم التي هي في الواقع مكملَةٌ لوجود الظلِّ، كالملاحيء المستحدثه في الجبال على هيئة مغاراتٍ وكهوف، والتي تقى الإنسان من حرارة الشمس المحرقة، كالدرع حين يصدُّ طعنات العدو في ساحة الحرب: «وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بِأَسْكُمْ» «٢».

وهنا لماذا أشار في الآية الأنفة إلى اللباس كوقاءٍ للحفاظ من الحرِّ فقط، من دون الإشارة إلى البرد؟ يقول بعض المفسرين: لأنَّ المناطق التي نزلت فيها هذه الآيات، المتداول فيها مسألة الحر بكثرة، أو لكثرة وزيادة اخطار الحرارة والاحتراق عند مواجهة الشمس، في حين

تتزايد طرق وقاية الإنسان لمواجهة البرد.

ولكن لا يجب نسيان أن في آداب العرب حينما يريدون التلميح إلى ضدين فهم يحذفون أحدهما في أغلب الموارد ويذكرون واحداً فقط، وهذا الأثر له قرائن كثيرة.

والجدير بالاهتمام أنه يقول في نهاية هذه الآية بعد ذكر هذه النعم الثلاث (الظلال، والمسكن، والملابس): «كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسَلِّمُونَ».

نعم .. فالتأمل بهذه النعم وأسرارها المختلفة يعرّف الإنسان بعلم وقدره الله تعالى من ناحية، ومن ناحية أخرى يدفع إلى التسليم إلى أوامر الخالق جلّ وعلا ذى اللطف والرحمة، من خلال تحريك الشعور بالشكر له.

(١) تفسير روح المعاني، ج ١٤، ص ١٨٦؛ و تفسير القرطبي، ج ٦، ص ٣٧٧٥.

(٢) «سرايل» جمع «سربال» (على وزن مثقال) وقد فسرها البعض بكل أنواع الملابس، واعتبرها البعض بمعنى الرداء (حيث يرتدون الدرع كالرداء) إلّا أن المعنى الأول أكثر تناسباً هنا.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٣٩

وفي الآية الثالثة يوجه اللوم والتوبيخ للمشركين في آيات التوحيد فيقول:

«أُولَئِكَ يَرْوُونَ إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَتَّيُوا ظِلَالَهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ» (١).

أى تعبير لطيف هذا؟ فقد خضعت الظلال بأسرها وسجدت أمام ذاته المقدسة، لأنها مُسَلِّمَةٌ لأمره وهذا التسليم والخضوع أمام قوانين الخالق هو سجودها لحضرة تعالى

فكيف يتضاءل الإنسان أمام الظلال، ويسجد للأصنام، ولا يسجد للخالق جلّ وعلا؟!

إنّ سجود الظلال جزء من سجود كافة الكائنات في السماء والأرض، ولهذا فقد أشار في سياق هذه الآية إلى هذا السجود العام، فقال:

«وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ».

وهنا سيُتطرّق بحوث مفصلة خلال بحث السجود العام لموجودات العالم أمام الباري عزّ وجل، على أيّ حال ففي هذه الآية إشارة لطيفة إلى أهميّة الظلال وآثارها حيث تصلح كمصدرٍ لإلهام التوحيد.

وفي الآية الرابعة يضع الظلال في جملة موجودات السماء والأرض التي تخضع وتسجد لله تعالى فيقول: «وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ».

وربما يكون التعبير ب «طَوْعًا وَكَرْهًا» إشارة إلى تسليم الموجودات العاقلة وذات الاحساس رغبةً وطوعاً، وإلى تسليم الموجودات غير العاقلة كالظلال للأوامر الإلهية فتسجد قوانين الخلق الاجبارية.

(١) «يَتَفَتَّيُوا» من مادة «فء» وتعني العودة والرجوع، ويحصرها بعض أرباب اللغة بمعنى ظلال الأشياء حين عودة الشمس عصرًا، واطلاقها على غنائم الحرب يعود إمّا بسبب رجوع المسلمين بها، أو زوالها أو فنائها النهائي كالظلال، و «داخر» تعني المتواضع.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٤٠

أو إلى أنّ المؤمنين يسجدون رغبةً وطوعاً، وغير المؤمنين الذين ليس لديهم الاستعداد للسجود طوعاً فإنّ جميع ذرات وجودهم مسلّمة لله تعالى بحكم قوانين الخلق الاجبارية، وقد جبلوا على السجود التكويني أمام ذاته المقدسة.

أو أنّ المؤمنين يُمرّغون جباههم بالتراب أزاءه في كل الأحوال (في الراحة وعند حلول المشكلات، مطمئنين كانوا أم مضطربين)، إلّا أنّ الكافرين لا يتوجهون نحوه إلّا حينما تباغتهم المشاكل.

ومما لا شك فيه أنه ليس هنالك تعارض بين هذه التفسيرات الثلاثة، ويمكن جمعها في مفهوم واحد. والتعبير بـ «مَنْ» في الآية أعلاه مع أنه يختص بأصحاب العقول حسب الظاهر، إلّا أنّ من المحتمل أن يكون له مفهوم عامّ يشمل كافة الموجودات العاقلة وغير العاقلة، فيصبح التعبير بـ «مَنْ» من باب التغليب. وأما تعبير «الغدو» و «الأصال» (الصباح والمساء) فلعله كان بسبب إمكانية زوال الظلال وسط النهار، أو كونها ضئيلة جداً ومحدودة، في حين أنها ليست كذلك في الصباح والمساء، وفضلاً عن ذلك، فإنّ هذا التعبير جاء في الكثير من الحالات لبيان الديمومة والتعميم، فمثلاً تقول: إنّ الشخص الفلاني يدرس صباحاً ومساءً، أو إنه يؤدي شخصاً آخر، أي إنه كذلك على الدوام. يُستفاد من مجموع هذه الآيات أنّ القرآن الكريم يولي اهتماماً خاصاً حتى للظلال، ويعتبرها من آيات عظمة الله، والتعبير بـ «السجود» الذي هو غاية الخضوع إشارة إلى هذا المعنى

توضيح

لو لم تكن هناك الظلال...!؟

من أجل ادراك أهمية أيّ موجودٍ لابدّ من احتمال زواله تماماً في لحظةٍ أو يومٍ أو شهرٍ
نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٤١
ما، ثم الالتفات إلى آثاره.

والأمر كذلك في مسألة الظلال التي تبدو موضوعاً عادياً وغير مهم للوهلة الأولى، ولكن افرضوا أنّ كل أنواع الظلّ والمظلات رُفعت عن الكرة الأرضية لمدة اسبوعٍ، فلا-جبال، ولا أشجار، ولا حائط بيتٍ ولا سقف، ولا حتى ظلّ نصف الكرة الأرضية الذي يُغطي النصف الآخر وهو الليل، واختفت كلّها بصورة مفاجئة، وتبدلت جميع الأجسام في هذا العالم إلى حالة كالبور ونفذ ضوء الشمس من خلالها، فكم ستصبح الحياة صعبةً وغير قابلة للتحمّل؟ إذ يشع ضوء الشمس باستمرار، ويتعرض له كل شيء، ويسلب كل أشكال الاستقرار والاطمئنان والراحة من الإنسان وسائر الموجودات، ولو حدثت مثل هذه الفرضية في فصل الصيف فسوف تهلك جميع الكائنات الحية خلال فترة قصيرة.

بناءً على ذلك يمكن القول أنّ لوجود الظلال دوراً مؤثراً جداً في حياة الإنسان للأسباب الآتية:

١- إنّ وجود الظلال ضروريٌ للغاية من أجل تخفيف ضوء وحرارة الشمس، لأنّ الأشعة الحياتية للشمس لو لم تُخفّف بالظهور المتناوب للظلال ستُفنى كل شيء وتحرقه خلال فترة قصيرة.

يقول الفخر الرازي في تفسيره: «إنّ الظل هو الأمر المتوسط بين الضوء الخالص وبين الظلمة الخالصة، وهو ما بين ظهور الفجر إلى طلوع الشمس، وكذا الكيفيات الحاصلة داخل السقف وأفنية الجدران، وهذه الحالة أطيب الأحوال، لأنّ الظلمة الخالصة يكرهها الطبع وينفر عنها الحس، وأما الضوء الخالص وهو الكيفية الفائضة من الشمس فهي لقوتها تبهر الحس البصري وتفيد السخونة القوية وهي مؤذية، فاذن أطيب الأحوال هو الظل، ولذلك وصف تعالى الجنة به فقال: «وظلّ ممدودٌ» (١).

٢- يبدو أنّ دور الظلال لاسيما الظلال المتحركة حيويٌّ جداً بالنسبة للمسافرين وقاطعي الصحراء، فهؤلاء يستطيعون الاستعانة بالخيام ووسائل النقل المسقّفة من وقاية

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٤٢

انفسهم أزاء أخطار أشعة الشمس المباشرة.

٣- والمسألة الاخرى الجديرة بالاهتمام، هي أنه خلافاً للتصور العام فإنّ النور لا يكفي لوحده لرؤية الأشياء، بل يجب أن يكون مترامناً مع «الظلال» كي تتوفر إمكانية رؤية الأشياء، وبعبارة أكثر جلاءً:

لو أنّ النور يشعّ على موجودٍ ما من أربعة جهات بحيث لا يوجد أيّ شكل للظل أو بعضه، فلا يمكن رؤية ذلك الشيء الذي يغرق في النور المتساوي من جميع الجهات، اذن فكما لا يستطيع الإنسان رؤية الأشياء في الظلام المطلق فهو غير قادرٍ على رؤية الأشياء في النور المطلق أيضاً، بل يجب أن يتظافرا معاً كي تيسر رؤية الأشياء (فتأمل جيداً).

فالخالق الذي أناط هذه الأدوار المهمة والحيوية لموجودٍ عاديّ بهذا المستوى جديرٌ بالعبودية والخضوع والسجود.

نختتم هذا الحديث بعبارة لأحد المفسرين، إذ يقول لمن عَفَلَ عن السجود لله تعالى

«أما ظلك فسجد لربك وأما أنت فلا تسجد له بثما صنعت» (١).

(١) التفسير الكبير، ج ٢٠، ص ٤٣.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٤٣

١٥- آياته في عالم النباتات والثمار

تمهيد:

إنّ النباتات هي أكثر الكائنات الحيّة الموجودة على الأرض، وتحتل المرتبة الاولى من حيث التنوع والكثرة، والعجائب والزينة، وكذلك من حيث الآثار المفيدة والثمينة أيضاً.

لهذا فقد استند القرآن الكريم في آياته التوحيدية مراراً على مسألة خلق النباتات، ومزاياها المختلفة، ودعا الإنسان إلى التفحص في أسرار هذه الموجودات الرائعة في عالم الخلق، الموجودات التي يُمكن أن تُقدّم ورقة واحدة منها كتاباً عن معرفة الله تعالى بعد هذا التمهيد نتمعن خاشعين في الآيات الآتية ومواضيعها اللطيفة:

١- «أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم* ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين». (الشعراء / ٧-٨)

٢- «أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماءً فأنبتنا به حياضاً ذات بهجة ما كان لكم أن تُنبثوا شجرهاً إلا مع الله بل هم قوم يعدلون». (النمل / ٦٠)

٣- «خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماءً فأنبتنا فيها من كل زوج كريم* هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلالٍ مبين». (لقمان / ١٠-١١)

٤- «وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون* وجعلنا فيها جناتٍ من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون* ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون* سبحانه الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٤٤

يعلمون». (يس / ٣٣-٣٦)

٥- «وهو الذي أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حبا متراكباً ومن النخل من طلعها فنؤان دابةً وجناتٍ من أعنابٍ والزيتون والرمان مشابهاً وغير متشابهه أنظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآياتٍ لقوم يؤمنون».

(الانعام / ٩٩)

٦- «وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِهْنُونَ وَعَيْرٌ صِهْنُونَ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَّضَ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ». (الرعد / ٤)

٧- «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجْرٌ فِيهِ تُسَيِّمُونَ * يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ». (النحل / ١٠-١١)

٨- «وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ». (الانعام / ١٤١)

٩- «وَالْأَرْضُ مَدَدُنَاهَا وَالْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ * وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ». (الحجر / ١٩-٢٠)

١٠- «إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ... ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُوَفَّكُونَ». (١)

(الانعام / ٩٥)

شرح المفردات:

«النبات»: يعنى فى الأصل كل نوع من الزرع الذى يخرج من الأرض سواء كان له ساق كالشجر، أو بدون ساق والذى يُسميه العرب ب «النجم»، إلّا أنّ هذا اللفظ غالباً ما يُطلق على

(١) هناك آيات كثيرة فى القرآن الكريم تشير إلى هذا المعنى كآيات التالية: النبأ؛ ١٥؛ طه؛ ٥٣؛ عبس؛ ٢٧؛ ق؛ ٧؛ البقرة؛ ٢٦١؛ البقرة؛ ٢٢؛ ابراهيم؛ ٣٢؛ الانعام؛ ١٤١؛ الاعراف؛ ٥٧؛ النحل؛ ٦٧.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٤٥

الزرع الذى ليس له ساق، وفى التعابير الأكثر شمولاً يُطلق «النبات» على كل موجودٍ نام سواء كان نباتاً أم حيواناً أم إنساناً «١». و «الشجر»: تعنى النباتات ذات السيقان، ولهذا جاء فى القرآن الكريم آزاء «النجم» الذى يعنى النبات الذى لا ساق له: «والنجم والشجر يسجدان». (الرحمن / ٦)

وورد فى «مقاييس اللغة» أنّ «الشجر» له معنيان فى الأصل: هما الارتفاع والعلو، وتداخل أجزاء الشئ مع بعضها، وحيث إنّ الأشجار ترتفع عن الأرض، كذلك فإنّ أغصانها تتداخل فيما بينها، لذلك اطلق عليها «شجر»، و «مشجرة»: تعنى النزاع والاختلاف والمحادثة لأنّ حديث الجانبين يتداخل مع بعضه.

إلّا أنّ البعض يعتقد أنّ أصل هذه المادة يعنى الشئ الذى ينمو ويرتفع وتتفرع منه أوراق وأغصان، وقد يُطلق على الامور المعنوية أيضاً كما فى: «والشجرة الملعونة فى القرآن». (الاسراء / ٦٠)

(التي تمّ تفسيرها بمعنى «شجرة الزقوم» أو «اليهود» أو «بنى امية») «٢».

وكما يفهم من كتب اللغة المختلفة فإنّ «الزرع» تعنى فى الأصل نثر البذور والحبوب فى الأرض، ومن هنا حيث سيتبع نثر البذور نمو النبات وحصاده، فيُطلق على كل واحد من هذه العمليات «زرعاً».

ويقول بعض اللغويين: إنّ الزرع تعنى الإنماء، وهذا فى الحقيقة هو فعلُ الله تعالى وإذا اطلق لفظ الزارع على العباد فهو بسبب توفيرهم لأسباب ومقدمات ذلك، وقد يقال ل «المزروع» زرعاً أيضاً.

وغالباً ما يُطلق لفظ «زرع» على الحنطة والشعير، إلّا أنّ مفهومه أكثر شمولاً، حيث يشملهما وغيرهما «٣».

(١) «النبات» لها معنى مصدرى، واسم مصدرى أيضاً.

(٢) مفردات الراغب؛ مقاييس اللغة؛ مصباح اللغة؛ والتحقيق فى كلمات القرآن الكريم.

(٣) مفردات الراغب؛ لسان العرب؛ والتحقيق فى كلمات القرآن الكريم؛ وصحاح اللغة.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٤٦

وأما ال «تَمَرٌ» فقد جاء فى «مقاييس اللغة» أن هذا اللفظ يعنى فى الأصل كلَّ شىءٍ يتولد من شىءٍ آخر، وقال بعض اللغويين، أنه يعنى ما يحصل من الشجرة فقط.

وصرَّح قسم آخر من ارباب اللغة، بان كل موجود يحصل ويتولد عن موجودٍ آخر مأكولاً كان أم غير مأكول، مرغوباً كان أم غير مرغوب، حلواً كان أم مرأ، يسمى «تَمَرًا».

لكن الظاهر أن الثمر كان له فى الأصل مفهومٌ محدودٌ وهو الفاكهة الحاصلة من الشجر، لكنَّ هذا المفهوم اتَّسع فيما بعد واطلق مجازاً على محصول ومنتوج أى شىء، حتى أصبح يقال إنَّ ثمره هذا المذهب وهذه التعاليم كانت كذا وكذا، وجاء فى الرواية: «أَمْكُ أَعْطَكَ مِنْ ثَمَرَةِ قَلْبِهَا»، إشارة إلى حليب الام أو محبتها، وفى الروايات أيضاً اطلق على الولد بانه ثمره الفؤاد.

جمع الآيات وتفسيرها

الورق الأخضر للأشجار:

أشار فى الآية الاولى إلى المشركين أو الجاحدين، فقال: «أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ أَبْتَنَّا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ». ثم صرح قائلاً: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ».

أَجْرِلْ ... فلو تَمَعَّنْ هؤلاء فى هذه النباتات الملونة، والأزهار، والثمار، والأشجار، والخضار، والسنبال، وأنواع الزروع الاخرى سَيَرُونَ آيات الله فيها بكلِّ جلاء، فهؤلاء لا يريدون أن يؤمنوا وينظروا إلى صورة ذاته المقدَّسه ببصيرة القلوب، وإلا فأنَّ جماله لا يخفى على أحد، نعم فهؤلاء ليست لديهم آذان للاستماع إلى آيات الله التشريعية ولا أبصار لمشاهدة آياته التكوينية.

وهنا ما المقصود من «زوج»؟ فالكثير من المفسرين فسَّر ذلك بمعنى النوع والصنف، واعتبروه إشارة إلى تنوع وتشعب النباتات، حيث إنَّ عددها غير محدود ولا يمكن حصره،

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٤٧

وأياً منها يُعتبر آيةً من آيات البارى عزوجل.

فى حين احتملها البعض إشارة إلى «الزوجية» (أى الذكر والانثى الموجودة فى عالم النباتات، وهذه الحقيقة اكتشفت لأول مرة على نطاق واسع على يد عالم النبات السويدي المعروف «لينه» أواسط القرن الثامن عشر الميلادى، حيث إنَّ النباتات -على الأغلب- تحمل وتثمر كاليحوانات عن طريق تلاقح الذكر والانثى فى الوقت الذى وردت هذه الحقيقة فى القرآن الكريم قبل قرون عديدة.

ومن هنا حيث لا تعارض بين هذين المعنيين فيمكن أن تكون إشارة اليهما معاً.

إنَّ وصف «الزَّوْجِ» ب «الكريم» علماً بأنَّ لفظ «كريم» يعنى الموجود الثمين، إشارة إلى أهميَّة أنواع النباتات وقيمتها الفائقة.

إنَّ تنوع النباتات كثيرٌ إلى الحد الذى يقول بعض العلماء: إنَّ «النخل» أكثر من ثلاثة آلاف نوع، و «الكاكتى» أو «التين الهندى» ألف وسبعمائه نوع، و «ورد الثعلب» ألف ومائتا نوع، ونسبوا ل «الكَمَأ» مائة الف نوع، ول «الطحالب» أربعة آلاف نوع، ول «التفاح» سبعة

آلاف نوع، وذكروا ل «الحنطة» خمساً وثلاثين الف نوع! (١).

حقاً ... كم هو عجيب عالم النباتات الفسيح بكل هذا التنوع؟ وكم هو عظيم خالقه ومدبره!

وفى الآية الثانية ومن أجل إثبات «وحدانية المعبود» يدعو الناس إلى تفحص أسرار خلق السموات والأرض ثم نزول المطر، ثم يقول: «فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ (٢) ذات بَهْجَةٍ»، وليس فى إمكانكم أبداً أن تُنبِتوا أشجارَ هذا البستان الجميلة: «مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا»،

(١) عالم الزهور، ص ٩٩ إلى ١١٨.

(٢) «الحدائق» جمع «حديقة» وتعنى «البستان»، وهى تعنى فى الأصل قطعة الأرض التى تجتمع فيها الماء، وقد فسرها الكثير من المفسرين بأنها البستان الذى ضرب حوله سور وفيه ما يكفى من الماء.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٤٨

ومع هذا تقولون هناك إله مع الله: «أ إله مع الله».

إلا أن هؤلاء أفراد يجهلون حيث يعدلون عن الخالق العظيم الذى أبدع كل هذه العجائب والغرائب ويجعلون الموجودات التى لا حول لها ولا قوة نداً لله: «بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ».

ومن الممكن أن يكون التعبير ب «يعدلون» بمعنى عدولهم عن الله الواحد المنفرد، أو اختلاق مثلٍ ونظيرٍ له.

أجل ... فعمل الإنسان نثر البذور والرّى وأمثال ذلك، والله وحده الذى خلق الروح فى جنين هذه البذرة الصغيرة، واعطاها القدرة على أن تتحول إلى شجرة عملاقة مثمرة مزدهرة نظرة حيث يبعث منظرها فى البساتين الفرح والسرور فى نفس الإنسان، ولو وضع الإنسان قدمه وسط أحد هذه البساتين المزدهرة النظرة فى أحد أيام الربيع، وفتح بصيرته إلى جانب بصره الظاهري، ليرى كل هذا التنوع والعجائب والمناظر الخلابه والأزهار الملونة والأوراق والثمار المختلفة، لاستنشق عطر التوحيد وارتوى من كأس العبودية واصبح مسحوراً مفتوناً، بنحو يجعله يترنم بلحن التوحيد ويعترف بهذه الحقيقة.

وهذا الشعر المنقول من اللغة الفارسية يقول:

هنالك واحد لا أحد سواه وحده لا إله إلا هو وهنا يثمر هذا الأمر:

كل نبات ينمو من الأرض يقول وحده لا- شريك له وفى القسم الثالث من الآيات أعلاه وضمن تعرضه لخمسة أقسام من براهين توحيد الخالق جلّ وعلا وآيات الآفاق (خلق السموات بغير عمد ترونها، وخلق الجبال، وخلق الدواب والحيوانات، وخلق المطر، وخلق النباتات)، خاطب المشركين قائلاً: «هَذَا خَلَقَ اللَّهُ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ».

وأضاف فى ختام الآية: «بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ».

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٤٩

فكيف يمكن لمن يملك بصراً ويرى آثار قدره وحكمه وعظمه الخالق فى عرض عالم الوجود، ثم يخضع تعظيماً لغيره!؟

ونواجه فى هذه الآيات مرة أخرى التعبير ب «كل زوج كريم» بخصوص النباتات، حيث يتحدث عن التنوع الضرورى جداً للنباتات، وعن الزوجية فى عالمها، ويشعر سالكى طريق التوحيد بأهميته هذا الموضوع.

لفظة «ظلم» لها معنى واسع حيث يشمل وضع أى شىء فى غير محله، وحيث كان المشركون يعتبرون تدبير الكون بيد الأصنام، أو يتصورونها واسطة بين المخلوق والخالق ويسجدون لها، فقد ضلوا وارتكبوا ظلماً عظيماً، ولهذا جاءت هذه الكلمة فى الآية أعلاه بمعنى الشرك، أو بمعنى واسع حيث إن الشرك مصداق واضح له.

لا يخفى أن عبارة «فأروني»- فى الواقع- جاءت على لسان النبى صلى الله عليه وآله، وبتعبير آخر:

أنه مكلف بأن يقول هذه الجملة للمشركين، لأن الآراء لله لا يمكن أن يكون لها مفهوم.

ويقول بصراحة في الجزء الرابع من هذه الآيات التي وردت في سورة يس: «وَأَيُّ لُحْمٍ يُسْقَى الْبَشَرُ مِنَ الْغَنِيِّ بِالْأَسْرَارِ».

وفي الحقيقة أن مسألة الحياة من أهم أدلة التوحيد، سواء كانت في عالم النباتات، أم الحيوانات والبشر، أنها المسألة الغنية بالأسرار والمدهشة التي حيرت عقول كبار العلماء، ومع كل النجاحات التي حققها الإنسان في مختلف الحقول العلمية، لم يفلح أي شخص من حل لغز الحياة حتى الآن، ولا علم لأي أحد كيف وتحت تأثير أية عوامل تبدلت الجمادات إلى كائنات حية؟!

ثم أشار خلال بيان مسألة احياء الأرض الميتة، إلى إنماء المحاصيل الغذائية (كالحنطة والشعير والذرة و...)، وبساتين العنب والنخيل النظرة، وتكوين ينابيع الماء الصافي، وقال في الختام: «لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ».

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٥٠

إن عبارة «ما عملته أيديهم» إشارة لطيفة إلى أن هذه الثمار الطازجة، غذاء كامل مهيب للأكل دون الحاجة إلى طبخه وإضافه المواد الأخرى إليه، فليس للإنسان تدخل في أصل وجودها، ولا في اعدادها للأكل، فعمل الإنسان لا يتعدى نثر البذور وسقي الأشجار فحسب (١).

على أية حال، لم يكن الهدف من خلق كل هذه النعم المختلفة انهماك الإنسان بالأكل كالحيوانات، وأن يقضى عمره على هذه الحال، ثم يموت ويصبح تراباً، كلا، فالهدف ليس هذا، بل إن الهدف هو أن يرى ذلك ويعيش في ذاته الشعور بالشكر، ومن خلال «شكر المنعم» يصل إلى معرفة واهب النعم حيث ينال اسمى المواهب وأرفع مراحل تكامل الإنسان.

والمسألة الجديرة بالاهتمام في الآيات أعلاه هي أنها تضع الزوجية في عالم النباتات إلى جانب الزوجية في عالم الإنسان فتقول: «سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ».

فهذا التعبير دليل على أن الزوجية هنا تعني جنس الذكر والانثى ووجودها على نطاق واسع في عالم النباتات، وهذا من المعاجز العلمية للقرآن الكريم، لأن هذا المعنى لم يكن آنذاك واضحاً لدى الإنسان بأن هنالك وجود لقوام الذكر والجزء الانثوية في عالم النباتات، وتنطلق الخلايا التي هي نطف الذكور لتستقر في الأجزاء الانثوية وتتلاقح معها وتنعد نطفه النبات.

ويمكن أن تكون عبارة «وممّا لا يعلمون» إشارة إلى أن مسألة الزوجية لها نطاق واسع، وما أكثر الموجودات التي تجهلون وجود الزوجية فيها، وسيزيل تطور العلم النقاب عنها (كما ثبتت هذه المسألة في الدرات حيث تتركب من قسمين مختلفين يكمل أحدهما الآخر

(١) وهذا في حالة كون «ما» في عبارة (وما عملته) نافية (وهذا هو الظاهر)، إلا أنهم احتملوا أن تكون موصولة، تلميحاً إلى الثمار التي تنتج عن طريق التطعيم والتي للإنسان دخل فيها، أو إلى المشتقات التي يأخذونها من الفاكهة كالعصير والخل التي تؤخذ من العنب والتمر، وممّا لا شك فيه أن المعنى الأول أكثر تناسلاً.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٥١

كالزوجين: ف «الالكترونات» تحمل الشحنات السالبة، و «البروتونات» تحمل الشحنات الموجبة، ومواضيع اخرى لم يتوصل إليها العلم البشري حتى الآن.

وفي الآية الخامسة حيث تبدأ بالتعريف بالله من خلال الآيات المختلفة، أشارت أولاً إلى نزول المطر من السماء، ثم قالت: «فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ».

وربما يكون التعبير ب «نبات كل شيء» إشارة إلى أنواع النباتات المختلفة، حيث تُسقى بماءٍ واحدٍ، وتنمو على أرضٍ واحدةٍ، ومع هذا فهي تختلف في الشكل والطعم والخواص وأحياناً تتعارض في ذلك، وهذا من عجائب خلق الله.

أو أن المقصود هو النباتات التي تحتاجها الطيور والبهاائم البرية والبحرية وكذا الإنسان (١)، (ويمكن الجمع بين هذين المعنيين أيضاً).

ثم يتطرق إلى ذكر مسألة أخرى فيضيف: «فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا»، وبهذا يشير إلى مادة «الكلوروفيل» الخضراء التي هي من أهم وانفع اجزاء النبات، هذه الخُضرة التي تبعث الحيوية، واللطافة، والجمال، وتسلب القلوب والتي تخرج من التراب الغامق اللون والماء الراق الشفاف.

إنَّ التعبير بـ «خَضِرًا» بالرغم من اطلاقه، إلّا أنه استناداً إلى الجملة التالية التي تقول: «نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا»، يشير بالأساس إلى سيقان وسنابل الحنطة والشعير والذرة وما شابه ذلك «٢». ثم يُلفتُ النظر إلى أشجار النخيل، فيقول: «وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ». «قنوان»: جمع «قنوّ» على وزن (حزب)، وتعني الفروع الرفيعة التي تخرج من الطلع بعد

(١) في هذه الحالة يكون مفهوم الجملة «فاخرجنا به نباتاً لكل شيء».

(٢) «مُتَرَاكِب» مأخوذة من مادة «ركوب» وتعني الصعود، وهي إشارة إلى الحبوب التي تتراكب على بعضها على هيئة سنبلة ذات منظرٍ جميلٍ ومحَبَّبٍ للغاية.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٥٢

تَفْتِيحِهِ، وهي التي تُكْوَنُ عذوق التمر فيما بعد.

وقد يكون التعبير بـ «دانية» إشارة إلى قرب هذه العذوق من بعضها أو انحائها نحو الأسفل بسبب ثقل ثمار الرطب.

ويقول بعض المفسرين بما أنّ عذوق التمر تختلف أيضاً، فالبعض يكون في الجزء الأسفل من النخل ويمكن استثماره يُيسر، والبعض الآخر بعيداً عن تناول اليد فتكون الاستفادة منه صعبةً بعض الشيء، فقد أشار الباري تعالى إلى الصنف الأول باعتباره أكثر فائدة «١». وأشار في سياق هذه الآية إلى بساتين العنب والزيتون والرمان: «وَجَيَاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ»، التي تتشابه في نفس الوقت الذي تختلف فيه، وتختلف فيما بينهما في حين أنّها متشابهة «مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ».

يقول بعض المفسرين إنّ هذه الثمار تتشابه في المنظر، إلّا أنّها تختلف في الطعم (كانواع العنب والرمان الحامض والحلو).

وقال البعض الآخر إنّ أوراق أشجارها تتشابه أحياناً (كاوراق الزيتون والرمان)، في حين أنّ ثمارها مختلفة.

ولكن المناسب اعطاء أوسع مفهوم لتوضيح الآية وهو الإشارة إلى أنواع التشابه والتفاوت.

واللطيف أنّه يدعو الجميع للتمعّن في الثمار فيقول: «انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ».

«لأنّ في هذا، آياتٌ وبراهين عن عظمته وقدرته وحكمته الباري تعالى لأهل الإيمان» «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».

وليست آية واحدة بل فيها آيات جمّة لله تعالى لأنّ تكون الثمار كولد الصغار في عالم الحيوانات، حيث تتنقل حبوب لقاح الذكور إلى الأقسام الانثوية عن طريق الرياح أو الحشرات، وبعد انجاز عملية التلقيح والاختلاط فيما بينهما يتم تشكيل البويضة والنطفة

(١) تفسير القرطبي، ج ٤، ص ٢٤٨٤.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٥٣

أولاً، ثم تظهر في جوانبها خلايا الثمار والالياف واللبن والفروع الجذابة التي تغذيها.

وفي داخل هذه الثمار تكمن هناك أعظم المختبرات الخفية التي تعمل باستمرار في صناعة المركبات الحديثة بمزايا جديدة، وقد يكون الثمر بلا طعم في بداية الأمر، ثم حامض الطعم تماماً، ثم يصبح حلواً، وفي كل وقت يحدث فيها انشطاراً وتفاعل جديد، كما تتغير ألوانها باستمرار وهذه من عجائب خلق الله التي يدعو القرآن الكريم - لاسيما في الآية الآنفه - الإنسان إلى التمعّن فيها.

وأشار في الآية السادسة من البحث في بادئ الأمر إلى قطع الأرض المختلفة التي تملك قابليات متفاوتة لتربية أنواع الأشجار

والنباتات وغيرها، إذ يقول: «وفى الأرضِ قِطْعٌ مُتجاوِراتٌ» مع أن هذه القطع يلتصق بعضها ببعض الآخر، فبعضها خصبٌ ومستعدٌ لأى شكلٍ من الزراعة، وبعضها مالحٌ لا تنبت فيه سنبلةٌ أبداً، وقد يناسب بعض هذه القطع زراعة الأشجار أو نوع خاصٍ منها فقط، ويناسب البعض الآخر نوعاً خاصاً من الزراعة، وهذا عجيبٌ حيث تتفاوت الأراضي المترابطة بشكلٍ تستعد للقيام بواجباتٍ مختلفة.

وبعد ذكر هذه المقدمة أشار إلى أنواع الأشجار والزراعات، فاضاف قائلاً: «وَجَنَاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرَءٌ وَنَخِيلٌ صِهْنَوَانٌ وَغَيْرُ صِهْنَوَانٍ». «أعناب»: جمع عنب وتعنى الكرم و «نخيل» جمع «نخل» و «نخيلة» وتعنى شجرة التمر، وذكرهما بصيغة الجمع يُحتمل أن يكون إشارة إلى الأنواع المختلفة للعنب والتمر، لأن لهاتين الفاكهتين مئات أو آلاف الأنواع المختلفة.

والتعبير ب «صِهْنَوَانٌ وَغَيْرُ صِهْنَوَانٍ» بالالتفات إلى أن «صنوان» جمع «صنو» وتعنى الفرع الذى يخرج من البدن الأصل للشجرة، من الممكن أن يكون إشارة إلى قابلية الشجرة على تغذية الثمار المختلفة عن طريق التطعيم، لهذا تظهر على أغصان شجرة واحدة لها ساق واحد وجذر واحد وتتغذى من ماء وأرضٍ واحدةٍ أنواعٍ مختلفةٍ من الثمار، وهذا من عجائب الخلق.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٥٤

ومن الممكن أن يكون هذا التفاوت إشارة إلى تفاوت الأغصان التى تنمو على أصل واحد، وتتفاوت من حيث الثمار الطبيعية. ثم يُصرِّح بأن هذه الأشجار مع هذا الاختلاف فإنها تُسقى بماءٍ واحدٍ: «يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ»، وفى نفس الوقت فإننا نُفضِّل بعضها على البعض الآخر من حيث الثمر «ونُفضِّل بعضها على بعضٍ فى الأكل».

ومن المسلم به أن فى هذا الأمر آيات وبراهين للمتفكرين: «إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ».

حقاً إنَّه مدهشٌ، فالماء واحدٌ، والترابٌ واحدٌ أيضاً، أما الاختلاف بين الثمار فكثيرٌ بحيث إنَّ أحدها حلوٌ والآخرٌ حامضٌ تماماً (ففى الكثير من المناطق تنمو أشجار الليمون الحامض إلى جانب أشجار النخيل) أو تنمو المحاصيل الزيتية والمحاصيل النشوية وغيرها فى مزرعةٍ واحدةٍ، وتتفاوت تماماً، حتى أن لهذه الفواكه والمحاصيل أنواعاً مختلفةً بالكامل.

ما هذا الجهاز العجيب المكون فى أغصان الأشجار وجذورها الذى لديه القدرة على صنع المواد الكيميائية المختلفة الخواص من خلال استغلال نوع واحدٍ من المواد (نوعٌ واحدٍ من الماء والتراب)؟! فلو لم يكن هنالك دليلٌ على علم وحكمة خالق الكون سوى هذه المسألة لكانت كافية لمعرفة هذا الخالق العظيم، وكما يقول أحد شعراء العرب «١»:

والأرضُ فيها عبرةٌ للمُعْتَبِرِ تُخْبِرُ عن صُنْعِ مَلِكٍ مَقْتَدِرٍ تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ أَشْجَارُهَا وَبِقَعَّةٍ وَاحِدَةٍ قَرَارُهَا وَالشَّمْسُ وَالهُوَاءُ لَيْسَ يَخْتَلِفُ وَأَكْلُهَا مُخْتَلِفٌ لَا يَأْتَلِفُ فَمَا الَّذِى أَوْجَبَ ذَا التَّفَاضُلِ إِلَّا حَكِيمٌ لَمْ يَرُدَّهُ بِاطْلَا

(١) تفسير روح المعانى، ج ١٣، ص ٩٣.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٥٥

وفى الآية السابعة يتطرق إلى شرح أدلة التوحيد ومعرفة الله بقرينه بدايتها ونهايتها، فيقول: «هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شُرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ».

فليس كل ماء صالحٍ لشرب الإنسان، ولا كل ماء صالحٍ لنمو النبات والشجر، إلّا أن هذا الماء السماوى مفيدٌ لكل وأساسٌ لحياة كل شىء.

«شجر»: كما قلنا له معنىً شامل فى اللغة، حيث يشمل أنواع النباتات سواء كانت ذات سيقان أم لا، و (تسيمون) من «اسامة» وهى من مادة «سوم» وتعنى رعى الحيوانات «١»، وحيث إن الحيوانات تتناول كلاً من الأعشاب وأوراق الأشجار عند رعيها فالتعبير ب «شجر» يبدو مناسباً جداً لاشتماله على كليهما.

ثم يضيف: «يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ».

واللطيف أن الآية أعلاه مع أنها تتحدث عن كافة الثمار وجميع أنواع المحاصيل الزراعية بما فيها الحبوب، فهي تستند خاصة إلى ثلاثة ثمار هي: الزيتون، والتمر، والعنب.

وهذا يعود للأهمية الفائقة لهذه الثمار من حيث المواد الغذائية، وأنواع الفيتامينات والميزات الدوائية التي تمت معرفتها مع تطور العلوم الغذائية في هذا العصر «٢».

لهذا يعود ويؤكد في نهاية الآية بأن في هذه الامور برهاناً واضحاً عن حكمه وقدره وعظمه الله لأولئك الذين يتفكرون: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ».

والذين لا يتفكرون في هذه الآيات الجليّة لا يستحقون أن تطلق عليهم كلمة الإنسانية، كما يقول الشاعر نقلاً عن الفارسية: عجب لهذا الرسم على باب و جدار الوجود فكلما فعّل فكرك كان رسماً على الحائط

(١) وطبعاً أن المعنى اللغوي ل «السوم» هو وضع العلامة، وبما أن الحيوانات حين العلف تترك أثراً على الأرض اطلق عليه هذا الاصطلاح.

(٢) طالعوا شرح هذا الكلام في التفسير الأمثل، ذيل الآية ١١ من سورة النمل.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٥٦

هل يتمكن أن يعطى فاكهة ملونة من الخشب؟ أم يقدر أن يستخرج من الشوك ورداً بمائه لون؟ لقد تناثر الارجوان على عتبه المرج الخضراء عيوناً تبقى الابصار حيرى فيه! وفي الآية الثامنة نواجه تنوعاً آخر في عالم النباتات والأشجار الذي يطرح كأحد ادله التوحيد ومعرفة عظمه الله، إذ يقول: «وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ».

«معروش»: من مادة (عزّش) وتعنى السرير المرتفع أو السقف، وفي ما يعنيه هذا المفهوم في هذه الآية، هنالك خلاف بين المفسرين: فقال بعضهم: إن «المعروشات» تعنى النباتات التي تنساب على الأرض أو تتسلق على الأبنية أو على هيكل من حديد أو خشب يصنع لها، مثل الأعناب والخيار والبطيخ. و «غَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ» ما قام على ساق مثل النخل وسائر الأشجار: وقال البعض الآخر: المعروشات ما ارتفعت أشجارها وأصل التعريش الرفع، عن ابن عباس، وقالوا أيضاً: المعروشات ما أثبتته ورفعها الناس - واحيط بسور-، وغير المعروشات ما خرج في البرارى والجبال من الثمار «١».

ولكن يظهر أن التفسير الأول أكثر ملائمة.

على أية حال، فالعجب أن بعض الأشجار كالسرو والصنوبر ترتفع في السماء برتابة ولا تستطيع الرياح العاتية والعواصف من التأثير على قامتها، في حين أن البعض الآخر كأشجار الكروم لا تملك غصناً مستقيماً واحداً، وتهتر وتنحن باستمرار، وكل منها له عالمه الخاص. فأشجار العنب بعناقيدها الثقيلة لو كانت لها قامه كأشجار الصنوبر لانكسرت ولم

(١) وردت هذه التفاسير الثلاثة في تفسير القرطبي، ج ٤، ص ٢٥٣٤.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٥٧

تستمر يوماً واحداً، فضلاً عن ابتعادها عن تناول يد الإنسان، في حين أن طفلاً صغيراً باستطاعته اقتطاف جميع الثمار في بساتين العنب. ثم يضيف مستنداً إلى أربعة أنواع من الثمار والزرع: «وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالزَّيْتُونَ وَالزَّيْتُونَ وَالزَّيْتُونَ»، لابد من الانتباه إلى أن «جنت» جمع «جنة» تطلق على البستان، وعلى الأراضي التي يغطيها الزرع، و «أكل» على وزن (ذهل) من مادة «أكل» على وزن (مكر) وتطلق على جميع المأكولات.

على أية حال، فالأشجار والزرع والنباتات لا تختلف كثيراً من ناحية الظاهر فقط، بل إن ثمارها ومحاصيلها تتفاوت للغاية أيضاً، من

حيث اللون والطعم والشكل الظاهري، وكذلك من حيث ما فيها من مواد غذائية وخصائص متنوعة، إضافة إلى أن منها المرغوب والمتوسط، وهذا بيان لقدرة الخالق جلّ وعلا الذي أوجده مثل هذا التنوع العظيم الواسع في عالم النباتات، وكلّ نوع يُسَبِّح بحمده وثنائه.

وفي نهاية الآية يُصدّرُ أمره: «كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ».

وعليه فإنّ الأمر بـ «كُلُوا» دليل على حليتها الكاملة ولكن بشرطين: الإيفاء بحقوق المحتاجين، وعدم الاسراف.

وبالرغم من أنّ بعض المفسرين قالوا إنّ المقصود بـ «حقّ» هنا هو الزكاة، إلّا أنّ أغلب المفسرين واستلهاماً من الروايات الواردة عن طريق أهل البيت عليهم السلام وأهل السنة، صرّحوا بأنّ المقصود بهذا الحق ليس الزكاة «١».

بناءً على ذلك لا بدّ أن يُخصّص أصحاب المزارع والبساتين نصيباً للمحتاجين أثناء قطف الثمار، وحصاد المحاصيل كحكم إلهي، وهذا النصيب ليس له حدّ معين في الشرع، بل يتعلق بهمة المالكين. وعليه فإنّ ذيل الآية تتحدث عن حكم أخلاقي وصدورها يشتمل على دورس توحيدية.

(١) يُراجع سنن البيهقي، ج ٤، ص ١٣٢؛ ووسائل الشيعة، ج ٦ كتاب الزكاة «أبواب زكاة الغلات»؛ وتفسير الميزان؛ و تفسير القرطبي فيما يخص الآية.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٥٨

ويشير في الآية التاسعة إلى موضوع آخر من عجائب عالم النباتات والأشجار، فيقول بعد ذكر مسألة بسط الأرض وتكوّن الجبال: «وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ».

بالرغم من أنّ «موزون» من مادة «وزن»، إلّا أنّها هنا إشارة إلى النظام الدقيق والمحدّد، والتقدير المتلائمة والمتناسقة التي تحكم جميع ذرات النباتات، إضافة إلى أنّ «وزن» كما أوردها الراغب في المفردات تعني في الأصل معرفة قدر الشيء. وقال بعض المفسرين أيضاً إنّ المراد من هذا التعبير هو أنّ الله خلق من كلّ نباتٍ بقدر حاجة الإنسان «١».

كما قالوا إنّ المراد من «موزون» هو وجوب تظافر كميات محدّدة من الماء والهواء والتراب وضوء الشمس كي تنمو النباتات.

واحتمل بعض المفسرين أنّ التعبير بـ «كُلِّ شَيْءٍ» يشتمل على المعادن أيضاً، ولكن من خلال الفهم بأنّ عبارة «أنبتنا» لا تتناسب كثيراً مع المعادن، فإنّ هذا التفسير يبدو بعيداً، وأنّ الجمع بين التفسيرين ممكن، وورد في بعض الروايات إشارة إلى التفسير الثاني أيضاً «٢».

ويردّها الإشارة إلى توفير الوسائل المعاشية والحياتية للناس ولحيواناتهم ولاولئك الذين يرتزقون على مائدة الخالق الواسعة فيقول: «وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ». «معايش»: جمع «معيشة» ولها معنى واسع جداً، فتشمل كلّ شيءٍ يعدّ من وسائل حياة الناس، وجملة «وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ» إشارة إلى الحيوانات والكائنات الحيّة التي ليس بمقدور الإنسان أن يُطعمها، فوضع البارئ تعالى الطعام المناسب لكلّ منها في اختيارها على أساس النظام الخاص الذي يسود العالم، ولو فتحنا أعيننا وتأملنا طريقة تغذية أنواع الحيوانات من النباتات، لوجدنا فيه عالماً من أدلّة معرفة الله.

(١) ذكر الفخر الرازي هذا في تفسيره كاحتمال أول، والتفسير الثاني كالثالث احتمال، (التفسير الكبير، ج ١٩، ص ١٧١).

(٢) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٦، أشار الإمام علي عليه السلام في هذه الرواية إلى المعادن المختلفة التي أوجدها الله في الجبال وتباع وتشتري بالوزن.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٥٩

فبعضها يستفيد من الثمار، وبعضها من الحبوب، ومجموعة من أوراق الأشجار، وطائفة من السيقان، وآخر من القشور، والبعض من

رحيق الأزهار، وقسم آخر يأكل الجذر فقط.

وفى الآية العاشرة والاخيرة من البحث اشير إلى ميزة اخرى لعالم النباتات، وهى مسأله انفلاق حبوب ونوى النباتات تحت الأرض.

وقد وُصِفَ البارى تعالى فى هذه الآية كما يلى: «إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى»، ويقول فى نهاية الآية: «ذَلِكُمْ اللَّهُ فَالِقُ نُوِّ التَّمْرِ فَتَوَفَّكُونَ».

«فالق»: من مادة (فَلَقَ)، وكما يقول الراغب فى المفردات فهى تعنى انفطار الشىء، وانفصال جزء عن جزء آخر «الحب» تعنى حبوب الطعام والغذاء أو كل أشكال الحبوب النباتية، و«النوى» تعنى نوى الثمار، وإذا حَصِرَها البعض بمعنى نوى التمر فذلك بسبب تكاثره فى ذلك المحيط.

على أَيْه حال، فإنَّ أهم والطف مراحل حياة النباتات هى مرحلة انفلاق الحب والنوى وفى الحقيقة فإنَّ هذه الحالة تشبه حالة ولادة الطفل، والعجيب أنَّ هذا البرعم النباتى بما فيه من رَقْمَةٍ وظرافه يشقُّ هذا الجدار القوى الذى يحيط به، ويخرج إلى العالم الخارجى، فيولد هذا الكائن الحى الذى كان محبوباً إلى ما قبل لحظات فى القشرة والنوى ولم تكن له علاقة بالعالم الخارجى، ويقيم علاقاته مع الخارج فوراً، فيتغذى من المواد الغذائية الموجودة فى الأرض، ويرتوى من الماء والرطوبة التى تحيط به، ويبدأ بالحركة بسرعة فى اتجاهين متعاكسين فمن جهه ينفذ فى الأرض على هيئه جذر، ومن جهه اخرى يستقيم فوق الأرض على هيئه ساق. فالقوانين الدقيقة التى تسود هذه المرحلة من حياة النبات مدهشة حقاً، وتعتبر دليلاً

(١) قد يستعمل هذا اللفظ بمعنى «الخلق» كأنَّ حجب ظلمة العدم تتمزق وينكشف نور الوجود عنها (تفسير روح المعانى، ج ٧، ص ١٩٦)، ولنفس هذا الشىء يسمى بياض الصبح «فلق» على وزن «شَفَقَ» أيضاً.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٦٠

حياً على علم وقدره الخالق جلَّ وعلا.

يستفاد من مجموع ما ورد فى هذه الآيات القرآنية حول خلق النباتات وخصائصها المختلفة ابتداءً من رشد النباتات إلى تنوعها ومسألة اللقاح والزوجية، وأنواع المواد الغذائية للإنسان والحيوانات، حتى كيفية نمو طلع التمر، والحبوب المرتبة بعضها فوق بعض كالحنطة والشعير، وتكاثر الثمار والزروع المتباينة تماماً الناتجة عن ماء واحد وأرض واحدة وسيادة القوانين الموزونة على جميع المراحل وانفلاق الحبوب والنوى أنها جميعاً آيات لتلك الذات المقدسة، ودليل حى على وحدانية الرب ونفى كل أشكال الشرك.

توضيحات

١- التركيب المذهل للنباتات

من الطبيعى أن ننسى عجائب وأسرار كل شىء إذا بدا لنا واضحاً فيكون مصداقاً للآية الشريفة: «وَكَايُنْ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ». (يوسف / ١٠٥)

فمن عليها مرور الكرام فى الوقت الذى يكمن فيها عالم من عجائب وقدره وعظمة الخالق جلَّ وعلا.

لنبدأ من جذور النباتات، فالجذر بلطافته ورِقته له قدرة مذهلة، فهو ينفذ فى طبقات الصخور والأراضى الصلدة، وأحياناً يغور تحت قطع صخرية تزُنُّ عدة اطنان ويرفعها عن مكانها وتتحرك العمارات والأحواض التى أُنشئت من القوالب والطبقات المسلحة نتيجة نمو الأشجار حولها.

فعملُ الجذر هو امتصاص المواد الغذائية والرطوبة من كل ناحية، وكأنَّها تعرف مراكز الرطوبة والمواد الغذائية من خلال شعورها

العجيب فتسعى نحوها.

ولكل جذرٍ جهازٌ عظيمٌ له قدرةٌ خاصةٌ في انتخاب نوع الغذاء وتغييره وتبديله، ثم

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٦١

يدفعه إلى داخل الأغصان بعد التغييرات التي يحدثها فيه، ومنها إلى الثمار، وتجرى عليها تفاعلات كيميائية جديدة في كل مرحلة، كى يصنع من التراب فاكهةً طيبةً كالعسل، أو يصنع دواءً شافياً وصحياً.

ومن أهم واجبات الجذر امتصاص - التروجين المذاب - الضروري لبناء النبات الذي لا تتمكن بقية أجزاء النبات من جذبها.

وبناء الأوراق أكثر عجباً منه، فلو وضعنا ورقةً أمام أشعة الشمس ستلت نظرنا الفروع الدقيقة جداً الممتدة فيها والتي يكون واجبها إيصال الماء والغذاء إلى كافة خلايا الورقة.

وفي الواقع أن كل ورقةٍ تعتبر بحد ذاتها مدينةً كاملةً، وهذه الفروع هي الأنابيب المنظمة لهذه المدينة ابتداءً من الأنبوب الرئيسي، وحتى أصغر التفرعات.

والورقة مع رقتها لها سبع طبقات، وكل طبقة لها بناءً وبرنامج خاص يبعث على الدهشة، والغلاف الذي يغطي الورقة كجلد الإنسان ذو مساماتٍ دقيقة جداً، وكل من هذه المسامات لها خلايا للصيانة تقوم بتنظيم انفتاح وانغلاق المسامات.

وتتنفس الورقة من خلال هذه المسامات، فتستنشق الهواء وتفصل عنه غاز ثاني اوكسيد الكربون، لتصنع به «الكلوروفيل» النباتي، وفي المقابل تطرح الاوكسجين وكميةً من الرطوبة لتلطيف وتطهير الجو كموهبتين عظيمتين لدنيا الإنسانية.

والأرقام التي يقدمها العلماء هنا تبث على الحيرة إذ يقولون: من أجل أن يتمكن النبات من صناعة رطل واحد من الشكر يجب أن تستنشق الأوراق ما يعادل ثلاثمائة الف لتر من الهواء وتحلله.

وبناء الأزهار ومن ثم الثمار أعجب من ذلك أيضاً، فهناك الأقسام الذكورية والانثوية، وتفاعل الذرات الذكورية الدقيقة جداً مع الأجزاء الانثوية، ثم تكوين البويضة في رحم النبات بعد هذا الزواج الصامت، وكيفيه نموه، أنه عالمٌ عجيبٌ يسلب معه روح وعقل الإنسان، ويجعله غارقاً في محيطٍ من العجائب.

إن تفصيل بناء هيكل النباتات والأزهار والثمار لا يفى بالغرض المطلوب في هذا

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٦٢

البحث المختصر، فقد تم تأليف العديد من الكتب من قبل العلماء حول هذا الموضوع، وظهر علمٌ واسعٌ بإسم (علم النبات)، فمن الأولى أن نكتفي هنا بكلام لأحد خبراء الزراعة ونغلق هذا الملف الضخم على عجل، يقول عالم النبات «تشرالدت»: «إن الآله يظهر من خلال القوانين الثابتة والرمزية التي يدير بها عالم النبات إنه يظهر ويتجلى من خلال هذه الطرق:

١- النظام والترتيب: ويشمل التكاثر والانقسامات الخلوية وبناء الأجزاء المختلفة من النبات حيث يتم بشكل منظم ومرتب.

٢- التعقيد: فلا تقاس أي ماكنه من صنع الإنسان مع الترتيب المعقد والمذهل لنباتٍ عادي.

٣- الجمال: إن جمال الساق، والورق والزهر أمرٌ الهَي، إذ لا يقدر أي نحاحٍ ماهرٍ ورسامٍ مجربٍ من تقديم تمثالٍ أو لوحةٍ بهذا الجمال.

٤- الوراثة: فكل نباتٌ يولد مثله وهذا هو إنتاج المثل، وهو يجري وفقاً لارادةٍ وتخطيطٍ، فبأي مكان زرعوا وكيفما زرعوا فإن «الحنطة تنبت من الحنطة والشعير من الشعير».

ثم يضيف: باعتقادي، أن هذه المظاهر دليلٌ على وجود الخالق ذي الحكمة البالغة والقدرة اللامتناهية» (١).

يقول «تايلر» استاذ علم البيئة السابق في جامعة مانشستر: «تأملوا النباتات والحشائش التي نبتت على جانبي الطريق، فهل تستطيع الآلات

الحديثة التي صنعها البشر حتى الآن أن تضاهي صنع هذا النبات الطبيعي؟!»

فهذه الحشائش الطبيعية بكل معنى الكلمة مذهلة ومدهشة حيث تنمو باستمرار وتقوم يومياً بالآلاف الأفعال والتفاعلات الفيزيائية والكيميائية، وكل ذلك يجرى بإشراف المادة البروتوبلازمية التي تكوّنت فيها كل حياة الطبيعة، فهذه الآلة الحيّة العجيبة من صنّيع أئى قدرة؟!».

(١) عالم الأزهار (اقتباس وتلخيص).

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٦٣

٢- فوائد وبركات النباتات

إنّ النباتات تُمثّل الركن الأساس للحياة على الكرة الأرضية، وكافّة الكائنات الحيّة الاخرى بحاجة إلى النباتات، ففوائد النباتات كثيرة ووفيرة للغاية حيث يمكن الإشارة إلى اثنتى عشرة فائدة متسلسلة:

١- أفضل مادة غذائية: يتمّ تحضير افضل اطعمتنا نحن البشر من النباتات والحبوب والفاكهة، فطاقتنا وقدرتنا وسلامتنا تُؤمّن عن طريق الغذاء النباتى، والكثير من الطيور والدّواب واللبائن والأسماك فى البحر تستفيد من النباتات، لهذا فكلّ بلدٍ يتمكن من تأمين منتجاته الغذائية عن طريق النباتات فانه يبلغ الاكتفاء الذاتى فى الواقع.

٢- التهوية: نحن نعلم أنّ الإنسان واغلب الموجودات الحيّة تستخدم اوكسجين الهواء بنحوٍ دائم وتقوم بإحراقه، ولولا وجود مصدرٍ يعوّض ذلك فسيُستهلك هذا الاوكسجين الموجود فى الجو والأرض خلال مدة قصيرة، ويهلك هذا الصنف من الموجودات أثر الاختناق، إلّا أنّ الإله الحكيم اناط مسؤوليه تعويض هذه الخسارة بالنباتات، فهى تنفس على العكس من الإنسان، إذ تأخذ غاز ثانى اوكسيد الكاربون وتُحلّله وتطرح غاز الاوكسجين، لهذا فإنّ هواء البساتين والمزارع منعش ومُنشّط، كما يوصون لنفس هذا السبب بأنّ تقام فى كلّ مدينةٍ متنزهاتٍ مُشجّرة، وتخصّص لكلّ شخصٍ مساحةً من هذه المتنزهات، ويطلقون على هذه المتنزهات «رئة المدينة».

٣- الملابس: إنّ الجانب الأعظم من ملابسنا يتمّ تصنيعه من ألياف بعض النباتات، وفى الواقع فإنّ المصدر الذى لا ينفد لملابس الإنسان فى الدرجة الاولى هو النبات.

٤- البيت وأثاثه: لو ألقينا نظرة على ما حولنا فى البيت لوجدنا أنّ أغلب الأبواب والشبابيك واللوازم الاخرى هى من أخشاب الأشجار، بنحوٍ لو أردنا الغاءها من حياتنا فستصبح الحياة صعبةً بالنسبة لنا، وفى الكثير من المناطق يصنعون بيوتهم من الخشب بشكلٍ كامل، ولهذه البيوت مزايا كثيرة، وأحد اللوازم المهمّة للحياة المعاصرة هو النايلون، ونحن نعلم إن مادته الاصلية تُستخرج من عصير شجر (المطاط).

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٦٤

٥- الأعشاب الطبية: كانت أغلب الأدوية فى السابق تُستخلص من النباتات، واليوم فإنّ القسم الكبير منها يستخرج من النباتات أيضاً، ونظراً للآثار السلبية للأدوية الكيميائية فقد بدأت الآن حملة للعودة إلى الأدوية النباتية، وهنالك صيدليات جميع أدويتها من النباتات.

٦- السيطرة على الكثبان الرملية: إنّ أحد الأخطار الجديّة التى تهدد المدن لا سيما القريبة من الصحارى الرملية هى الكثبان الرملية حيث تدفن تحتها أحياناً قريةً كاملة، وأفضل سبيلٍ لتثبيت هذه الرمال هو استخدام النباتات المختلفة التى توقف حركتها وتقدّمها.

٧- تحضير الورق: نحن نعلم أنّ اختراع الورق كان له نصيب مهم للغاية فى تطور الحضارة والعلم البشرى، والنباتات هى المصدر الأساس لصناعة الورق.

٨- معادله الحرارة والبرودة: إنّ النباتات وبسبب الرطوبة المناسبة والمعتدلة التى تلقيها فى الفضاء تقوم بالحدّ من شدّة البرد، وكذلك

الحدّ من شدّة الحرارة، ولهذا فإنّ الجو في المناطق كثيفة الأشجار يكون معتدلاً دائماً.

٩- وسائط النقل: إنّ الكثير من البواخر والقوارب كانت تصنع سابقاً وتصنع حالياً من الخشب، وهي تعتبر من أفضل وسائط النقل التي يستخدمها الإنسان سابقاً وفي الوقت الحاضر.

١٠- الجمال والطراوة: لا يخفى هذا الأثر اللطيف للأشجار والنباتات والزهور على أحد حيث تبهّر روح الإنسان بجمالها المدهش، وتريح القلب وترزع الطمأنينة في نفس الإنسان لمواجهة الضغوط الشديدة للحياة، لهذا يقومون بتزيين المستشفيات بأنواع النباتات والأشجار من أجل تحسين أحوال وأوضاع المرضى وبلغاً الإنسان باستمرار إلى أحضان الطبيعة في وسط الأشجار والبساتين ومزارع الحنطة من أجل إزالة المتاعب وتجديد النشاط.

١١- المصدر المهم للطاقة: إنّ الخشب والورق وجذور النباتات كانت ولا زالت إحدى

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٦٥

المصادر المهمة للطاقة وتأمين الحرارة، وحتى الفحم الحجري الذي هو أحد مصادر الطاقة المهمة فهو من منتوجات الأشجار والنباتات أيضاً، والحرارة التي تحصل من الخشب وأوراق الأشجار ملائمة، وتلويثها للبيئة ضئيل جداً، وحتى الرماد المتبقى منها يصلح كسماد للأشجار يستفاد منه مجدداً.

١٢- أصناف العطور والمواد الكيميائية: نحن نعلم أنّ أفضل العطور الملوقة لروح الإنسان كانت ولا زالت تُستخلص من رحيق الأزهار، والأشجار والنباتات ذات الورق والخشب المعطر ذا الرائحة الطيبة، ليست بالقليلة.

ناهيك عن كثير من المواد الكيميائية المستخلصة من النباتات التي تستخدم في مختلف الصناعات.

عظيم ذلك الأله الذي أودع كلّ هذه الآثار والفوائد والبركات في هذا المخلوق، وجعله آية عظيمة من آيات علمه وقدرته.

إنّ التعابير الشاملة التي تلوّناها في الآيات المذكورة، يمكن أن تجمع كلّ هذه الفوائد في عبارة «معايش» جمع «معيشة» وتعني وسيلة الحياة.

٣- الأنواع غير المحدودة للنباتات

كما أشرنا سابقاً فإنّ أنواع النباتات كثيرة بالقدر الذي لا يمكن حصرها، وقد تمّ حتى الآن احصاء ثلاثة آلاف نوع من النخيل، والف وسبعمئة نوع من التين الهندي، والف ومائتي نوع من ورد الثعلب.

يذكر مؤلف كتاب «عالم الأزهار» (فرديناندلين) أنّ عدد النباتات ذات الحبّ المغطى يبلغ مائة وخمسين الف نوع وقد تم بيان صفات أكثر من ثمانية عشر الف نوع من النباتات في بعض كتب علم النباتات «١».

(١) تاريخ العلوم، ص ٣٥٢.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٦٦

وقد تم بحث الف نوع من الكمأة من التي تمّ احصاؤها، وأكثر من أربعين الف نوع من الطحالب، وسبعة آلاف نوع من التفاح، وخمسة وثلاثين الف صنف من الحنطة «١».

ومن بين النباتات، هنالك نباتات لا تُرى بالعين المجردة، وهنالك نباتات يصل طولها إلى خمسين متراً، وبعضها ينمو في وسط الصخور، وبعضها يعوم وسط الماء، وجذور بعضها يتفرع تحت الماء وأزهاره فوق سطح الماء، ولكلّ منها منظره البديع واللطيف في عالمه حيث يصدق بلحن التوحيد.

٤- عجائب عالم النباتات

لو تركنا كل ما قيل بخصوص النباتات بشكل عام، سنلاحظ أن هناك عجائب جمة في عالم النباتات، حيث صار بعضها طي النسيان لاعتيادنا عليها.

فأوراق وسيقان النباتات الضخمة ترفع يومياً مليارات الأطنان من الماء من الأرض خلافاً لقانون الجاذبية، ثم تنثره بخاراً في الفضاء المحيط بها، أي قانون يسمح للنباتات أن تستعرض قوتها هكذا خلافاً لقانون الجاذبية التي تجذب كل شيء نحو الأسفل - لا سيما الماء؟- هنالك الكثير من النباتات كورد عباد الشمس تدور مع حركة الشمس فتتحرك أزهارها الكبيرة نحو الشرق في أول الصباح ونحو الغرب أثناء الغروب.

والنباتات آكلة اللحوم من أكثر ظواهر عالم النباتات إثارةً.

وقد أجرى البروفسور «ليون برتن» مدير «متحف التاريخ الوطني الطبيعي الفرنسي» تحقيقاتٍ بخصوص هذه النباتات آكلة اللحوم حيث يوجد منها عشرة أنواع فقط في فرنسا، وأشهرها النباتات الآتية:

(أ) «آلدروفوندا»: ويكثر في ولاية «جيرفوندا» الواقعة غرب فرنسا على سواحل المحيط

(١) معرفة الله، ص ٢٩١ و ٢٩٢.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٦٧

الأطلسي، فهذا النبات ذو ورقية تتكون من قطعتين خاصيتين متقابلتين كصفحتي كتابٍ مفتوح، تتصلان من الأسفل بواسطة مفصلٍ خاص، وتغطي سطح الأوراق طبقة حساسة.

وعندما تقترب ذبابة منه وتمس أرجلها أو جسها هذه الطبقة، تنطبق الصفحتان المذكورتان بسرعة، فيقع الحيوان في وسط ذلك السجن، وفي النهاية يهضم تدريجياً ويصبح جزءاً من جسم النبات أثر افراز مادة لاصقة خاصة حيث تفرز من الورق.

(ب) «دروزرا»: وهذا النبات له أوراق حمراء اللون تشاهد عليها نتوءات رفيعة تشبه الشعير، وحينما تضلّ الذبابة طريقها، تقف على أوراق هذا النبات ظناً منها بأنها قد عثرت على المكان الآمن الخالي، وفجأة تنطبق المخالب من ناحية رأسها، فتجرها مخفورة إلى داخل الورقة فهضم ويمتصها النبات وسط الافرازات اللزجة للورقة.

(ج) «نيانتس»: وهو أكثر النباتات الآكلة للحوم عجباً، حيث يوجد في نهاية الفرع الدقيق ما يشبه الوعاء الصغير، تكون فوهته نحو الأعلى وله بابٌ خاصٌ مفتوحٌ خلال الأوضاع العادية.

ويعتبر هذا الوعاء فخاً خطيراً للحشرات الغافلة والهائمة في الجو، فهو يحتوي باستمرار على العسل اللزج الحلو حيث يدعو الحشرات «عابدة البطن» نحوه، وكذلك فإنّ جمال وشفافية لون الوعاء ذو جذبٍ خاصٍ للحشرات «ذات الذوق الجيد».

فإذا وقعت حشرة ما أسيرةً لهواها ودخلت الوعاء فإنّ فوهته ستنغلق على الفور وستبتلى بسجنٍ لا خلاص منه أبداً.

على أية حال، هذا الوعاء يعتبر كالمعدة بالنسبة لهذا النبات، والافراز الداخلي كافرازاتها، ويجعل الحشرة قابلةً للامتصاص.

يقول العلماء: إنّ قيام هذه النباتات باصطياد الحشرات يعود لعدم قدرة جذورها لامتصاص (التروجين)، لهذا فهي تعوض هذا النقص عن هذا الطريق.

ويأمل العلماء بأن يأتي اليوم الذي يستطيعون فيه تربيته كميّة كبيرة من هذه النباتات في حدائق البيوت أو إلى جانب الأحواض، ويقضون بهذه الطريقة الصحية والطبيعية على الذباب والحشرات الضارة الموجودة في بيئة الإنسان.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٦٨

وورد في مذكرات السِّيَاح والرِّحَالَة قصصٌ عجيبةٌ حول النباتات التي تأكل البشر، فيقول بعض العلماء من الممكن أن تكون هذه النباتات من النباتات آكلة الحشرات إلا أنها أكبر حجماً لنموها في أرضٍ غنيّة، وتستطيع أن تقتنصَ احياءً أكبر في بطن فروعها واوراقها وتمتصها تدريجياً (ولكن لا يمكن تأكيد وقبول ذلك بسهولة) «١».

ومن أعجب وألطف جوانب وجود النباتات هو انتاج الثمار.

وواحد من مئات الامور الظريفة فيها وجود سائل حلو ولذيذ في الكثير منها مخزون في أوعية صغيرة خاصةً مربوطةً بإحكام، حيث يبدو أفضل طرق الربط في عصرنا الحاضر، بدائيةً جداً أزاءها.

افتحوا برتقالةً واحدةً، ستجدون كأنَّ شقاً منها يتكون من مئات القطع الزجاجية الصغيرة الظريفة التي تفيضُ بسائلٍ لذيذٍ ومعطرٍ، الزجاجات التي تجمعت معاً دون أيّ فاصلةٍ (ولو كان هنالك فاصلةٌ وهواء فيما بينها لفسدت بسرعة).

لكن هذه الزجاجات لا تتكسر أبداً، وتحمل صعوبات الحمل والنقل، واللطيف هو إمكانية أكلها مع محتوياتها.

وكلُّ مجموعةٍ من هذه الزجاجات الصغيرة والظريفة مغلقةٌ بقشرة سميكة وهي بمثابة الغلاف، وتظهر على هيئة شقٍ (وهذا الوعاء قابلٌ للاكل مع محتوياته أيضاً، بل هو مفيدٌ للجهاز الهضمي).

وهذه الأغلفة الصغيرة تجمعت بدونِ أقلِّ فاصلةٍ مع تفرغٍ كاملٍ من الهواء، والتوتُّ وسط عدّة لفافاتٍ من أجل السلامة والأمان، وفي النهاية أصبحت معدة على هيئة حملٍ صالحٍ جاهزٍ للشحن لمسافات نائية.

ويلاحظ هذا الأمر على نحو أكثر طرافةً داخل ثمار الرمان والعنب والتين أيضاً.

تأملوا جيداً لو أنّ عصارة أيّ من هذه الثمار وُضعت في الهواء الطلق ستتغير بعد مرور ساعة واحدة، وقد تتعفن خلال عدّة ساعات، إلا أنّ تغليفها دقيقٌ ومحبوكٌ بنحو لا يسمح

(١) نظرة على الطبيعة وأسرارها، تأليف البروفسور ليون بر تن، ص ١٣١-١٣٤ (مع الاختصار والاقتباس).

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٦٩

بنفوذ الهواء إلى داخلها أبداً، ولهذا فهي تبقى سالمةً لعدة شهور دون أقلِّ تغييرٍ في طعمها.

وهذا يتعلق بمسألة التغليف العادية فقط، وأما المركبات الكيميائية لكلِّ فاكهة وخواصها الغذائية والطبية وأنواع الفيتامينات وموادها الغذائية فهي بحد ذاتها ذات قصة مفصلة حيث يختص ببحثها المتخصصون بعلم الغذاء، وقد تم تأليف كتب كثيرة في هذا المجال، ولو أردنا أن نطرق كلَّ هذه المسائل فسنخرج عن إطار كتابنا التفسيري، فضلاً عن أن «وزن كتاب كهذا سيبلغ الأطنان».

٥- أسرار خلق النباتات في توحيد المفضل

ونقرأ في حديث توحيد المفضل عن الإمام الصادق عليه السلام حيث قال:

«فكر يا مفضل في هذا النبات وما فيه من ضروب المآرب، فالثمار للغذاء، والأتبان للعلف، والحطب للوقود، والخشب لكل شيء من أنواع النجارة وغيرها، واللحاء والورق والاصول والعروق والصمغ لضروب من المنافع، أرأيت لو كنّا نجد الثمار التي نتغذى بها مجموعة على وجه الأرض ولم تكن تنبت على هذه الأغصان الحاملة لها كم كان يدخل علينا من الخلل في معاشنا، وإن كان الغذاء موجوداً فإن المنافع بالخشب والحطب والأتبان وسائر ما عددها كثيرة، عظيم قدرها جليل موقعها هذا مع ما في النبات من التلذذ بحسن منظره ونضارته التي لا يعد لها شيء من مناظر العالم وملاهيته.

فَكَرَّ يا مفضل في هذا الريح الذي جعل في الزرع فصارت الحبة الواحدة تخلف مائة حبة وأكثر وأقل وكان يجوز أن يكون الحبة تأتي بمثلها فلم صارت تريخ هذا الريح إلا ليكون في الغلة متسع لما يرد في الأرض من البذر وما يتقوت الزراع إلى إدراك زرعها المستقبل ... تأمّل نبات هذه الحبوب من العدس والماش والبقلاء وما أشبه ذلك فأنها تخرج في أوعية مثل الخرائط لتصونها وتحجبها من الآفات إلى أن تشدّ وتستحكم كما قد تكون المشيمة على الجنين لهذا المعنى بعينه، فأما البُرّ وما أشبهه فإنه يخرج مدرّجاً في نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٧٠

قشور صلاب على رؤوسها مثال الأسنة من السنبل ليمنع الطير منه ليتوفّر على الزراع ... تأمل الحكمة في خلق الشجر وأصناف النبات فأنها لما كانت تحتاج إلى الغذاء الدائم كحاجة الحيوان ولم يكن لها أفواه كأفواه الحيوان ولا حركة تبعث بها لتناول الغذاء جعلت اصولها مركوزة في الأرض لتتزع منه الغذاء فتؤديه إلى الاغصان وما عليها من الورق والثمر فصارت الأرض كالأم المربية لها وصارت اصولها التي هي كالأفواه ملتقمة للأرض لتتزع منها الغذاء كما يرضع أصناف الحيوان امهاتها.

تأمل يا مفضل خلق الورق فانك ترى في الورقة شبه العروق مبنوثة فيها أجمع، فمنها غلاظ ممتدة في طولها وعرضها، ومنها دقاق تتخلل الغلاظ منسوجة نسجاً دقيقاً معجماً لو كان ممّا يصنع بالأيدى كصنعة البشر لما فرغ من ورق شجرة واحدة في عالم كامل ولاحتيج إلى آلات وحركة وعلاج وكلام فصار يأتي منه في أيام قلائل من الربيع ما يملأ الجبال والسهل وبقاع الأرض كلها بلا حركة ولا كلام إلا بالإرادة النافذة في كل شيء والأمر المطاع».

ثم أشار الإمام عليه السلام في سياق هذا الحديث إلى عجائب الثمار والنوى وموت وحياء النباتات في كل عام، وتلقيح وحمل الأجزاء الانثوية عن طريق الالتحام مع الأجزاء الذكورية، وكذلك أدوية العلاج التي تستخلص من أصناف النباتات، والحبوب والنباتات التي يُعتبر كل منها غذاء لأحد الحيوانات، وقدّم شرحاً لطيفاً حول كل منها، حيث إن ذكرها جميعاً لن يكون ممكناً، وبمقدور الراغبين مراجعة الحديث أعلاه (١).

نظرتُ هنا إلى طي هذا البحث الطويل ونختمه ببعض الايات من الشعر التوحيدى الأصيل، فلو اطلقَ عنانُ العلمِ فيجبُ تأليفُ كتب عديدة، في هذا المجال يقول الشاعر نقلًا عن الفارسية:

إنَّ جميعَ خلقِ اللهِ اندازُ للقلب ليس له قلبٌ من لا يُقرُّ باللهِ فالجبال والبحار والأشجار كلها تسبِّحُ ولا يفهمُ كلُّ مستمعٍ هذه الأسرار!

(١) بحار الأنوار، ج ٣، ص ١٢٩-١٣٦ «مع الاختصار».

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٧١

والعقل متحيرٌ من عنقود العنب الذهبى والذهن يعجزُ عن حقيقة ياقوته الزمان وتدلّى عناقيد الرطب من النخل والنخل من صنع قضاء وقدر ماهرٍ ولكي لا يصبح ظلاماً ظلُّ الأشجار الكثيف فقد وضع تحت كل ورقه مصباحاً من نور الزمان وهبط الندى على الزهرة عند حلول السحر يشبه عرق المحبوب المعطر! فافتح بصرك وانظر خلق النارج يا مَنْ لا تصدقُ أنّ «فى الشجر الاخضر نار» مقدرٌ منزّة الا—له الـذى س—خرّ الش—مس والقمر بتقـديـرٍ وك—ذلك الـليل والنهار (١)

(١) هذه الايات مترجمة من «كليات سعدى»، فصل القصائد، ص ٤٤٣.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٧٣

تمهيد:

إنَّ لكلِّ كائنٍ حَيٍّ احتياجاتٍ من أجل استمرار حياته، أو بتعبيرٍ آخر إنَّ النشاطات الحياتية تتطلب مواداً تولد الطاقة يجب أن تصل إلى الكائن الحي دائماً، ويُطلق عليها بالاصطلاح (التلافي)، وتعويض ما يتحلل.

ويجب أن تكون هذه المواد ملائمة تماماً لذلك المخلوق من جميع الجوانب كي يتمكن من الاستفادة منها بيسر. إنَّ نظامَ الرزق في عالم الخلق، وكيفية إعدادهِ، ثم كيفية وضعهِ في متناول كلِّ موجود، وكذلك الاستفادة منها، نظامٌ جميل ودقيقٌ للغاية، وملئٌ بالأسرار أحياناً، حيث يختفي فيه جمع من الآيات المهمة لتوحيد الله وعلمه وقدرته، لهذا استند عليه القرآن الكريم مراراً في مختلف الآيات.

بعد هذا التمهيد نعود إلى القرآن الكريم ونتأمل خاشعين في الآيات الآتية:

١- «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ». (فاطر / ٣)
 ٢- «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شَرِكَاكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ». (الروم / ٤٠)

٣- «أَمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِينُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلِلَّهِ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ». (النمل / ٦٤)
 نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٧٤

٤- «أَمْ مَنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ». (الملك / ٢١)

٥- «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ». (الروم / ٣٧)

٦- «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ». (الذاريات / ٥٨)

٧- «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ». (هود / ٦)

٨- «قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ». (سبأ / ٢٤)

٩- «وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ* وَالنَّخْلَ بَاسْقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ* رِزْقًا لِلْعِبَادِ». (ق الآيات / ٩- ١١)

١٠- «فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ* أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا* ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقَاقًا* فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا* وَعِنَبًا وَقَضْبًا* وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا* وَحَدَائِقَ غُلْبًا* وَفَاكِهَةً وَأَبًّا* مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ». (١)

(عبس الآيات / ٢٤- ٣٢)

شرح المفردات:

«الرزق»: كما يقول الراغب في كتاب «المفردات» يعنى البذل والعطاء المستمر، دنيوياً كان أو آخروياً، كما يُقال للحظ والنصيب رزقاً، وكذلك للمواد الغذائية التي تصل إلى جوف الإنسان.

يقول «ابن منظور» في «لسان العرب» أيضاً: «الرزق» نوعان: ظاهر للأبدان كالأقوات، وباطن للقلوب والنفوس، كأنواع المعارف والعلوم.

(١) هناك آيات كثيرة أخرى وردت في هذا المجال لها شبهة بالآيات أعلاه منها ٣١، يونس؛ ١٧٢، البقرة؛ ٢٨، الشورى ٢٦، الرعد؛ ١٢، الشورى ٢٧، الشورى ٢٢، البقرة؛ ٣٢، ابراهيم؛ ٧٣، النحل؛ ١٧، العنكبوت؛ ١٣، غافر.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٧٥

وورد في كتاب «التحقيق» أيضاً أن الرزقَ يعنى «العطاء الخاص الذى يناسبُ متطلبات وضع المقابل ويطلق حاجته لاستمرار حياته». وفي القرآن الكريم استعملَ فى كلاً- المعنيين فنقرأ قوله تعالى: «هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ». (الملك / ١٥)

وورد قوله تعالى فى خصوص الشهداء: «بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ».

(آل عمران / ١٦٩)

إلما أنه يُستخدم غالباً بخصوص الأرزاق المادية، بالرغم من أن استعماله بخصوص الأرزاق المعنوية ليس قليلاً أيضاً، وحيث إن الله تعالى واهب جميع النعم المادية والمعنوية فإن لفظ «الرزاق» من صفاته الخاصة «١».

و «الطعام»: له معنى مصدرى واسم مصدرى معاً، أى أنه يُطلق على «أكل الغذاء»، وكذلك على نفس «الغذاء»، وقد يُستعمل هذا اللفظ بخصوص الحنطة، كما ورد فى الرواية إن النبي صلى الله عليه وآله أمرَ باعطاءِ صاع من «الطعام» أو صاع من «الشعير» (وهنا استُخدمَ الطعام بمعنى الحنطة فى مقابل الشعير).

وذكر صاحب «لسان العرب» أن الطعامَ اسمٌ جامعٌ لكل ما يؤكل، إلّا أنه هو والزَّاعِبُ فى المفردات صرّحاً بأن هذا اللفظ قد يُستخدمُ للمشروبات أيضاً كما فى: «فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي». (البقرة / ٢٤٩)

يقول الخليل بن احمد فى كتاب «العين» أيضاً: يقالُ الطعامُ فى كلام العرب للبر خاصة، (إلّا أنه يعود على ما يبدو إلى أن الطعام الأساس غالباً ما يكون من الخبز الذى يُصنعُ بدوره من الحنطة، وإلّا فإن الكثير من أرباب اللغة ذكروا أن للطعام مفهوماً عاماً) «٢»، وقال بعض اللغويين إنَّ الطعامَ يعنى التمرَ أيضاً، ويبدو أن هذا الكلام يعود إلى أن التمر كان هو الطعام الأساس فى ذلك الزمان وتلك البيئة.

(١) لسان العرب؛ المفردات؛ مجمع البحرين؛ والتحقيق فى كلمات القرآن الكريم.

(٢) لسان العرب؛ المفردات؛ كتاب العين؛ والنهية لابن اثير.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٧٦

جمع الآيات وتفسيرها

الكل يتنعم بهذه المائدة عدواً كان أم صديقاً:

لقد قلنا مراراً أن مشركى العرب لم يعتبروا الأصنامَ كخالقٍ لهم أبداً، إلّا أنهم كانوا يعتقدون أن الاوثان لها يدٌ فى تدبير هذا العالم وحل مشكلات الناس فيبدلون العطاء لها، لهذا يعتبرونها شفيعةً لدى الله، أو بسبب إناطة مسؤوليته تدبير العالم فى هذه الجوانب لها. لذلك فقد تمّ التأكيد فى الآيات القرآنية المذكورة على هذه المسألة بتعابير مختلفة من أجل رد هذه العقائد الخرافية، والتأكيد بأن الخالقَ والرازقَ واحدٌ، وجميع أنواع الأرزاق تأتي من ناحيته.

من البديهي إذا ما دُعِيَ الإنسان إلى مائدةٍ وكان فيها من الأطعمة ما لذ وطاب، أن يتقدم بالشكر قبل كل شيء إلى صاحب هذه النعم، لذلك فهو يذهب وراء صاحب تلك المائدة لمعرفة، فهل هناك مائدةٌ أوسع من مائدة الخالق؟ وهل يجب معرفة صاحب هذه المائدة التى يتنعم بها العدو والصديق؟ وتقديم الشكر له لعطاياه التى غمّرتنا ظاهراً وباطناً من أعلى رؤوسنا وحتى أخمص أقدامنا؟ بناءً على ذلك فإنَّ أهمَّ الدوافع «لمعرفة الله» وكذلك أحد الطرق لمعرفة هذه الأرزاق.

لذلك خاطب القرآن في أول آية من البحث كافة الناس قائلاً: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ». «هَيْلٌ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ».

فهو يرسل لكم من السماء نور الشمس الذي يهب الحياة، وقطرات المطر التي تحيي الأرض، والنسيم الذي ينمي الأرواح، ومن الأرض ينبت لكم أنواع النباتات والفواكه والمواد الغذائية، وفي باطنها أنواع المعادن والثروات.

مع هذا يجب أن تعرفوا أن لا معبود سواه، وهو وحده الجدير بالعبادة، فكيف تنحرفون عن الصراط المستقيم وتجعلون هذا الخالق العظيم واهب الرزق وراء ظهوركم، وتسجدون

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٧٧

للأصنام: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآَنِي تُؤَفَّكُونَ» (١).

ويستند في الآية الثانية على أربعة أمور لإثبات توحيد الربوبية: «وحدانية الخالق»، وكذلك التوحيد في العبادة، وهي: خلق الإنسان، ورزقه، وموته، وإعادة أحيائه، وقد تم تعريفها من قبل الله تعالى لأنها جميعاً ذات نظام دقيق حيث تُبرهن أنها تصدر عن مبدأ العلم والقدرة، فيقول: «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتَكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ». «هَيْلٌ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَمْ مَنْ شَيْءٍ» بناءً على ذلك يجب أن تسلموا لنزاهته وعلوه عما يُشركون به: «سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ».

فحيثما نعلم أن خلقنا وموتنا وحياتنا بيده، فلا معنى بأن نلهث وراء غيره، ونخضع ونسلم لسواه.

والجدير بالذكر أن الخلق يشمل الرزق والموت والحياة، لأن كافة أنواع الرزق تعود إلى خلق الله تعالى وكذلك فإن الحياة جزء من الخلق وتعقبها الأرزاق والموت، وعليه فإن الاستناد إلى هذه الجوانب الثلاثة ليس لكونها شيئاً منفصلاً عن الخلق، بل لأنها في الحقيقة توضح مصاديق مهمّة عن ذلك الموضوع العام.

وهذه النكتة جديرة بالتأمل أيضاً، إذ بالرغم من أن الإحياء بعد الموت لم يكن مقبولاً لدى مشركي العرب، إلا أن هذه الآية تُعتبر إشارة لطيفة لهذا الاستدلال، وهو أن الخلق الأول ونعمة الحياة في بداية الأمر دليل واضح على إمكانية تكراره يوم القيامة والبعث، بل لو تأملنا جيداً فإن مسألة الموت والحياة مستمرة في هذا العالم، فوجود الإنسان يعتبر ساحة للموت والحياة في كل عام وشهر بل في كل يوم وساعة، تموت الملايين من الخلايا، وتحل مكانها ملايين أخرى فتتجدد مسألة المعاد باستمرار في هذه الدنيا، إذن ما العجب في أن يرجع الاموات إلى الحياة من جديد في الآخرة؟

(١) «تؤفكون» من مادة «إفك»، وتعني تغيير الشيء عن وضعه الحقيقي، ولهذا يقال للكذب والانتهاك والانحراف عن الحق نحو الباطل «إفك»، وكذلك يُطلق على الرياح التي تنحرف عن مسيرها المنظم (مؤفكة) (مفردات الراغب).

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٧٨

وفي الآية الثالثة حيث جاءت في ترتيب آيات «التوحيد» إذ تُحصي آياته المختلفة في السماء والأرض، تم الاستناد أيضاً إلى ثلاث مسائل هي: بداية الخلق، ورجوعه، والرزق والاقوات التي تصل الإنسان من السماء والأرض فيقول: أيهما أفضل ... من تعبدون من دون الله أم من بدأ الخلق ثم يعيده؟ «أَمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ» (١) «وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ».

ويضيف في النهاية «أَلَمْ يَخْلُقْكُمْ مِنْ نَارٍ».

«قُلْ: لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِدَلِيلٍ عَلَى رَبِّيْتِهِ فَهَاتُوا دَلِيلَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

«قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

وبتعبير آخر: «إِنَّ هَذِهِ الْبَرَكَاتُ تَصْدُرُ عَنِ الذَّاتِ الْإِلَهِيَّةِ الْمُقَدَّسَةِ، أَمَا هَذِهِ الْأَصْنَامُ فَهِيَ لَا تَمْلِكُ شَيْئاً كِي تَسْتَحِقَّ الْعِبَادَةَ».

والتعبير ب «خَيْرٍ» أي (أفضل) الذي حُذِفَ من هذه الآية والذي يتجلى بقرينه الآيات السابقة ليس المقصود منه أن للأصنام خيراً

وبركات قليلة قياساً إلى خير الله وبركاته بل إن هذا التعبير يُستعمل أيضاً في الحالات التي لا يكون هنالك خيرٌ في الفعل أبداً، فمثلاً يقال لك امتنع عن تناول طعام معين كي تحافظ على صحتك أو ليس الصحة أفضل من المرض؟
من المسلم به أن لا فضل في المرض بحيث تكون الصحة أفضل منه، ونقرأ في القرآن الكريم أيضاً: «وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ».
(البقرة/ ٢٢١)

ويقول في مكانٍ آخر: «قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جِنَّةُ الْخُلْدِ». (الفرقان/ ١٥)

وخلاصة الأمر أن لفظ «خير» بالرغم من أنه من «افعل التفضيل» ويجب أن يستعمل في مورد شيئين أحدهما حسنٌ والآخرُ أحسن منه إلّا أن الهدف في أغلب الحالات هو اغراق المخاطب في التفكير وجعله يشعر بأن ما يختاره ليس منشأً لأي خيرٍ ومنفعة.

(١) هنالك جملةٌ محذوفةٌ حيث تتضح بقرينة الآيات الآتية (الآية ٥٩ من نفس السورة) وتقدّر كما يلي «أَمَّنْ يبدء الخلق ثم يُعيده ... خيرٌ أم ما يشركون».

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٧٩

إن الاستناد إلى قضية المعاد بالرغم من عدم إيمان المشركين بها إنّما هو لأجل كون الخلق أول دليل على المعاد.

وطرح هذا المعنى في الآية الرابعة بنحوٍ آخر، إذ يقول: «أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ» (١).

تلميحاً إلى أنه لو امتنعت السماء عن المطر بأمر الله، ولم ينم نبات ما، وعمّ الجذب والقحط كل مكان، فهل تستطيع هذه الأصنام أو أي موجودٍ آخر أن يرزقكم ويطعمكم؟ ولو انقطعت عنكم الأمزاق المعنوية والروحية بأمر من الله، فهل من هادٍ يرشدكم؟ ينبغي القول أن الجواب على كل هذه التساؤلات سلبي، فكيف اذن يتمادى الوثنيون في عملهم القبيح هذا؟ فهل من سبب هنا سوى العناد والتعصب؟

لهذا يقول في خاتمة الآية: «بَلْ لَّجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ» (٢).

وفي الآية الخامسة استند إلى أمرٍ آخر يتعلق بمسألة الأرزاق، إذ يؤكد أن بسط وقبض الرزق هو بمشيئة الله، فيقول: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ»؟!

صحيح أن سعى ومثابرة الناس والمؤهلات والاستحقاقات تؤثر في تحصيل الرزق.

وصحيح أن العالم، عالم الأسباب، وغالباً ما يستفيد المثابرون أكثر من الكسالى في تحصيل الأرزاق.

إلّا أننا نرى استثناءات كثيرة قبالة هذه القاعدة، فقد نرى أناساً مُقعدين قد فتحت أمامهم

(١) بالرغم من احتمال بعضهم بتقدير محذوف من الآية إلّا أن ظاهر الأمر يشير إلى أن لا محذوف هناك فيكون المعنى كما يلي «إن أمسك الله رزقه من هذا الذي يرزقكم فتكون أم» هنا بمعنى «بل» (فتأمل جيداً).

(٢) «لجوا» من مادة اللجاجة و«العتو» تعنى الطغيان و«النفور» تعنى الابتعاد والهروب من الشيء.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٨٠

أبواب الرزق، وبالعكس فقد نرى مثابرين ومستحقين أينما يولّوا وجوههم فإن الأبواب مغلقة أمامهم، كما يقول الشاعر العربي المعروف:

كم عاقلٍ عاقلٍ أعيت مذهبُهُ وجاهلٍ جاهلٍ تلقاه مرزوقاً وهذا من أجل أن لا يضيع الإنسان في عالم الأسباب وليعلم أن وراء هذا العالم، يداً قادرةً تديره وتعلو قدرتها فوق جميع القدرات، وكي لا يصيب الغرور المتنعمين والمستفيدين بسبب إمكانياتهم، فيظلموا ويطغوا، وحتى لا يئأس ذوو الإمكانيات المحدودة، لأنّه من الممكن أن يتغير الوضع في كل لحظة حسب الإرادة والمشيئة الإلهية.

وبتعبير آخر: من أجل توفر الرزق والقوت لكل إنسان تتطافر عشرات الأسباب أحدها سعى الإنسان ومثابرتة، حتى أن الله قد منح القدرة على السعى والمثابرة ودوافعهما أيضاً.

وهنا يتمكن الإنسان من فهم نفحات من الذات الإلهية المقدسة من خلال مسألة سعة الرزق وضيقة، فقد قال في نهاية الآية: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» اولئك الذين لديهم استعداد لقبول الحق بسبب إيمانهم، ويتعرفون أكثر على الذات المقدسة من خلال مشاهدة هذه الميادين يومياً.

وفي الحقيقة أن الآية أعلاه قد تكرر مضمونها ومحتواها عشر مرات في القرآن الكريم تشبه ما نُقل عن أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول: «عَرَفْتُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بِفَسْخِ الْعَزَائِمِ وَحُلِّ الْعُقُودِ وَنَقْضِ الْهَمَمِ» (١).

وتشابه ما نُقل عن بعض المفسرين أن أحد العلماء سُئل عن الدليل على وحدانية الله؟ فقال: «ثلاثة أدلة: ذلُّ اللبيب وفقرُّ الأديب وسقمُ الطبيب» (٢).

والتعبير بـ «أولم يروا» إشارة إلى أن لو تعمّن الإنسان قليلاً في حياة الناس لرأى هذه الاختلافات جيداً. ولا بد من ذكر هذه النكتة وهي أن إرتباط سعة وضيقة الرزق بالإرادة الإلهية يعني

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٢٥٠.

(٢) تفسير روح البيان، ج ٧، ص ٣٩.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٨١

الإرادة الممتزجة مع الحكمة وإلا ليس لله مشيئة بدون حكمه سواء كان هنا أم في باقي الموارد.

علماً أن ضيق الرزق في هذه الآية (والآيات العشر) المذكورة لا يعني مُطلق الحرمان من الرزق، حتى يتعارض مع الآيات الآتية التي تقول: «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا». (هود/ ٦)

بل المقصود قلّة الرزق وفي نفس الوقت وجود الحد الأدنى والكافي منه.

وفي الآية السادسة بعد أن يؤكّد على هذه النكتة وهي: أن الله لا يحتاج عبادةً وحينما يدعوهم إلى عبادته فليس بسبب حاجته فيقول تعالى: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ». (الذاريات/ ٥٦-٥٧)

و «الرزاق»: صيغته مبالغية تعني كثير العطاء، وهذا يصدق بخصوص ذاته المقدسة فقط، حيث جلست الكائنات الحية في كل زاوية من هذا العالم العريض: على الجبال، في بطون الصخور، في أعماق الوديان، في قاع البحار، وباختصار في كل زاوية وجانب من هذا العالم العظيم على مائدة احسانه، متنعمه بامداداته وفيضه.

وبما أن مثل هذا العطاء والبذل الواسع وغير المحدود يحتاج إلى قدرته وقوته تامة، فقد ذكر بعد هذا وصفين آخرين: «ذُو الْقُوَّةِ» و «الْمَتِينُ» وهي من مادة «متن» وتعني في الأصل العضلتين اللتين تحيطان بالعمود الفقري، وتقومان بشد عضلات ظهر الإنسان من أجل انجاز الأعمال الشاقة، وهنا كناية عن القوة والاقترار الخارق.

وفي الواقع أن هذه الجملة وصف للذات الإلهية المقدسة في بذل الأرزاق، لأن هذه الصفة تخصه فقط، وأما الآخرون فكل ما يملكون فهو منه جلّ وعلا، وإذا استعمل وصف «الرزاق» لبعض الناس أو للأسباب الطبيعية فهو يعني في الحقيقة الواسطة في انتقال فيوضاته وليس الفيض وخالق النعم.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٨٢

واستند في الآية السابعة إلى موضوع آخر وهو شمول رزق الله لكل الدواب، هذا العمل الذي لا يمكن حصوله بدون احاطة وعلم كامل بجميع موجودات العالم، فلا بد أن يعرف المضيف عدد ضيوفه سلفاً، وكذلك مقدار حاجاتهم وأذواقهم، كي يتمكن من

تقديم الطعام الملائم لهم، لهذا يقول في هذه الآية: «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا».

ويشير هذا التعبير بجلاء إلى أنه قد تكفل برزق عباده، كي يحد من حرص وطمع بعض الناس واضطراب وقلق بعضهم الآخر من جانب، ومن جانب آخر يبرهن على أنه لو شوهدت شحة في الأرزاق، فهي مفتعلة ومن المؤكد أنها حصلت نتيجة لظلم جماعة من الناس وهضم الحقوق، والاحتكار وافتعال الأزمات الكاذبة أو في النهاية بسبب عدم السعي للاستفادة من هذه المائدة الإلهية المبسوطة، تلك هي الأسباب التي يؤدي كل منها أو مجتمعة، إلى حرمان بعض الناس من رزقهم وقوتهم، وإلا فإن الله قد ضمن رزق كل الدواب.

وبما أن إيصال الرزق لهم يعد متعذراً بدون علم كامل بأماكنهم وخصائصهم فهو يقول في سياق الآية: «وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا». وكل ذلك مسجل في كتاب جلّي (هو اللوح المحفوظ، لوح علم الخالق) «كُلُّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ».

و «دَابَّة»: من مادة «ديب» وتعني المشى البطيء) ويطلق هذا اللفظ (دَابَّة) على البهائم والحيوانات والحشرات، بالرغم من استعماله بخصوص الخيل في بعض الموارد، إلا أن المسلم به هنا أنه ذو معنى واسع وشامل حيث يشمل جميع البهائم (١). ولفظ «مُسْتَقَرٌّ» يعني المقر، والمكان الثابت، وهو مأخوذ في الأصل من مادة «قَرَّ» على وزن (حَرَّ) وتعني البرد القارص الذي يجعل الإنسان جليسا للدار.

و «مُسْتَوْدَعٌ»: يعني المكان غير الثابت، وهي من مادة «وديعه» وتعني في الأصل ترك واطلاق الشيء، ولهذا يقال للامور غير المستقرة «مستودع».

(١) إن «التاء» في «دَابَّة» لا تدل على التأنيث، بل تشمل جميع الحيوانات مذكرها ومؤنثها، وبتعبير آخر أن تأنيثها لفظي وليس حقيقياً (مفردات الراغب وتفسير الكبير، ج ١٧، ص ١٨٥).

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٨٣

وهذه الألفاظ تلمح إلى أنه لا تظنوا أن الله يوفّر الرزق للموجودات في مستقرها فقط، بل أينما تكون وفي أي نقطة من الأرض والسماء، فهو يعلم ويرى مكانها ويعطيها رزقها هناك!

روى بعض المفسرين في ذيل هذه الآية حديثاً مفاده: «أن موسى عليه السلام عند نزول الوحي عليه وكان برفقه طفله وزوجته في ليلة ظلماء في وادٍ بطور سيناء، حيث أمره الله سبحانه وتعالى أن يذهب إلى فرعون، فانصرف ذهنه إلى زوجته وطفله، كيف سيكون مصيرهم بعده.

فأمره الله تعالى أن يضرب بعصاه صخرة فانفلقت وخرجت منها صخرة ثانية؛ ثم ضربها بعصاه مرة أخرى فانفلقت وخرجت صخرة ثالثة، ثم ضربها بعصاه فانفلقت فخرجت منها دودة كأصغر ما تكون عليه النملة وفي فمها شيء يجري مجرى الغذاء لها، وعند ذاك رفع الحجاب عن سمع موسى عليه السلام فسمع الدودة تقول: سبحان من يراني، ويسمع كلامي، ويعرف مكاني، ويدكرني ولا ينساني» (١).

كما ورد في حديث أن الإمام الحسين عليه السلام كان له سيف كتب عليه: «الرزق مقسومٌ والحريصٌ محرومٌ، والبخيل مذمومٌ، والحاسدٌ مغمومٌ» (٢).

ونختتم هذا الحديث بشعر لأحد شعراء العرب، إذ يقول:

وكيف أخافُ الفقرَ والله رازقُ ورازقُ هذا الخلق في العسرِ واليسرِ تكفَّلَ بالأرزاق للخلق كلِّهم وللصَّبِ في البيداءِ والحوثِ في البحرِ وفي الآية الثامنة، يبدو وكأنه يحاكمُ المشركين، ويبيِّنُ بطلان عقائدهم عن طريق مسألة إيصال الرزق إلى الخلائق، ويوضح وحدانية الرب، فيقول: «قُلْ مَنْ يُرْزِقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» من ضوء الشمس، من قطرات المطر الذي يهب الحياة، ومن هذا الهواء

(١) تفسير الكبير؛ ج ١٧، ص ١٨٦؛ تفسير روح البيان، ج ٤، ص ٩٧؛ و تفسير روح المعاني، ج ١٢، ص ٢.

(٢) تفسير روح البيان، ج ٤، ص ٩٧.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٨٤

الذى يمد الكائنات بالحياة، ومن أنواع المواد الغذائية الموجودة فى أعماق الأرض وتظهر على هيئة ثمراتٍ وغلاةٍ وخضروات. ثم لا يدعُ النبى صلى الله عليه و آله ينتظر جوابهم فيردّ الجواب قائلاً: «قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ». ولأنه لا تجتمع عقيدتان متناقضتان، وبما أنكم لا تملكون دليلاً يثبت أن الأصنام هى منشأ البركات، يتضح اذن أننا نتبع الحق وأنتم فى ضلالٍ مبينٍ.

ولو لاحظنا هنا أن النبى صلى الله عليه و آله لم ينتظر جوابهم، لأنهم فى الواقع لا يملكون جواباً لهذا التساؤل، سوى السكوت الممزوج بالخجل، وعليه يجب على المتكلم الفصيح أن يمسك بزمام الحديث فى مثل هذه الحالات ويقدم الجواب بنفسه. وأحد فنون الفصاحة هو أن يُلقى الكلام الغامض على الخصوم من خلال الحوار ويترك الفصل لهم، لهذا يقول هنا: «وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» ومن المسلم به أن الضال والمهتدى يتضح هنا، ومن الأفضل أن تبقى العبارة غامضة فى الظاهر كى لا يتمادى هؤلاء فى عنادهم، وأن يكلفوا أنفسهم عناء الاستنتاج.

والعجيب أن بعض المفسرين يعتقدون أن هذه العبارة من قبيل «التقية» فى الوقت الذى لا مجال للتقية هنا، والأمْر مشكوفٌ بجلاء- ولكن بشىء من اللطافة-، وحيث يقول فى البداية: «إننا» ثم يقول: «أنتم» ويتابع قائلاً على «هدى» أو على «ضلال»، وهذا التسلسل يوضح الأمر أكثر.

وفى الآية التاسعة، بعد أن أشار إلى نزول المطر المبارك من السماء، استند إلى ثلاثة أصنافٍ من الارزاق التى يستفيد الجميع منها، فيقول: «وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ».

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٨٥

«وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ» (١) «رِزْقًا لِلْعِبَادِ».

وفى الواقع فقد استند فى هذه الآية إلى الثمار والمحاصيل الغذائية لأنها تمثل أهم وأصلح جانبٍ من المواد الغذائية للناس، واستند إلى التمر بالخصوص من بين الثمار، بسبب أهميته الغذائية الفائقة، حيث بحثناه بالتفصيل فى محله «٢».

والجدير بالذكر: إن بعض المفسرين يعتقد أن استناد القرآن إلى هذه الأنواع الثلاثة من الأرزاق جاء بسبب خصائص كل منها على حدة، لأن بعض النباتات يُثمر سنوياً، دون الحاجة إلى بذر البذور، كأنواع أشجار الفاكهة، وبعضها يحتاج إلى بذر البذور سنوياً كالحنطة والشعير والرز والذرة وبعضها وسطاً بينهما كالنخيل الذى يكون أصله ثابتاً إلا أنه يحتاج فى كل عام إلى «التلقيح»، بالنحو الذى يرفعون طلع الذكر وينثرونه على ثمار النخلة كى تحمل بشكلٍ كامل، ومن الممكن أن تلقح بطريقة اخرى (عن طريق الرياح والحشرات) إلا أنها لن تكون غزيرة الثمار.

وهذه النكتة جديرة بالاهتمام أيضاً حيث إن فى تعبير «رِزْقًا لِلْعِبَادِ»، «٣» إشارة لطيفة إلى هذه الحقيقة وهى وجوب استثمار النعم الإلهية لسلوك طريق عبودية الله، وهذه الموجودات مدعنة ومطبعة للإنسان كى ينال الرزق ولا يأكله غافلاً عن الله، كما قال الحكماء: أنت تعيش لتأكل وأنا آكل لأعيش وأذكر الله.

(١) «حصيد» تعنى المحصود (أو الجاهز للحصاد)، و «باسقات» جمع «باسقة» وتعنى الطويلة و «طلع» تعنى ثمرة النخيل فى بداية

تكوينها، و «نضيد» تعنى المتراكم والكثيف الذى يبعث على التعجب لا سيما فى ثمار النخيل أى التمر.

(٢) يُراجع التفسير الأمثل، ذيل الآية ٢٥ من سورة مريم.

(٣) إنَّ نصبَ «رزقاً» جاء لكونه «مفعولاً لاجله»، ويُستبعد احتمال كونه «مفعولاً مطلقاً» أو «حالاً».

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٨٦

وفى الآية العاشرة وآخر الآيات فى بحثنا استند إلى الأنواع المتباينة من الاطعمة التى وضعها البارىء، تعالى فى تناول الإنسان والدواب، ودعا الإنسان إلى التفحص فيها، كى يُعدهُ لمعرفة المنعم ومعرفة الله من خلال تحريضه على الشعور بالشكر. فيقول: «فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ».

ليرى كيف تظافت مختلف العوامل من الشمس والأرض والهواء والمطر كى تضع فى خدمته هذه النعم. فيجب أن ينظر ويرى كيف: «أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبَابًا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقَاقًا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا *» (٢).

مع أن «فاكهة» تشمل جميع أنواع الثمار، و«حدائق» تتضمن جميع البساتين، إلما أن الاستناد إلى «العنب» و«الزيتون» و«التمر» يأتى بسبب مزاياها المهمة للغاية التى ثبتت الآن فى علم النبات بالنسبة لكل منها.

وبالرغم من أن «طعام» تعنى عادةً الغذاء المادى، لا سيما بخصوص الآية التى تعقبها، فقد ذكرت موارد عديدة للاطعمة المادية، الفواكه والحبوب، إلآ أنه وكما ورد فى بعض الروايات، يمكن أن يكون للطعام معنى واسع وشامل حيث يشمل الغذاء المعنوى أيضاً، ويجب أن ينظر الإنسان جيداً مم يكتسب العلم الذى هو غذاؤه الروحى، فلا ينبغى أن يكون مشتتاً على علوم سامه وهادمة.

والكلام الأخير حول هذه الآية الشريفة، هو من الممكن أن تكون عبارة «فَلْيَنْظُرِ» هى النظر من أجل إدراك أسرار المبدأ والمعاد، وكذلك النظر لتمييز الصنف الطيب والطاهر، من الخبيث والملوث، والمشروع من اللامشروع والمفيد من الضار.

يستفاد جيداً من مجموع ما قيل فى شرح هذه الآيات أن أنواع الرزق الإلهى آياتٌ

(١) «قضب» على وزن (جذب) وتعنى القطع والقطف، وقد فسرها المفسرون بأنها الخضر التى تُقطع عدّة مرات.

(٢) «حدائق» جمع «حديقة» وتعنى البساتين المحصورة بين الجدران، و«عُلب» جمع «اغلب» من مادة «غلبه» وتعنى الضخم الجثّه، و«أب» تعنى النباتات الطبيعية والمراتع الطبيعية، أو الثمار التى تُجفف وتحفظ. (والآية ٣١ من سورة عبس).

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٨٧

وآثاراً على عظمتها، وكيفية ظهورها، والنظام المدهش الذى استعمل فى بنائها، والصفات المميزة لكل منها، والمواد المعاشية الموجودة فى كل منها، وكذلك كيفية إيصال هذه الأرزاق إلى المحتاجين ومطابقتها لحاجتهم، فكل منها آية ودليل عن حكمه وعظمته الذات الإلهية المقدسة.

توضيحات

١- من عجائب عالم الأرزاق

حقاً لو تأملنا فى النظام العجيب الموجود فى ارتزاق مختلف الموجودات من المصادر الطبيعية، لتجلت لنا أمورٌ لطيفةٌ ومدهشةٌ عن قدرة الخالق جلّ وعلا.

الأمر الأول منها هو لماذا لا تتخلص كمية المواد الغذائية الموجودة على الأرض مع قتلها واستفادة الناس والحيوانات على مدى آلاف الآلاف من السنين؟! كيف لا تنتهى هذه المائدة الممتدة فى كل مكان؟!!

حينما نتأمل جيداً نرى أنّ المواد الغذائية في هذه الدنيا لها شكلٌ خاصٌ بحيث لو استُفيدَ منها لملايين الملايين من السنين، لم ينقص منها بقدر رأس الأبره، وهذا بسبب «حركتها الدائرية» فمثلاً أنّ المياه تتبخر من البحر ثم تظهر على هيئة غيوم وامطار، فيهطل قسمٌ من ماء المطر إلى البحر ثانيةً، والقسم الآخر يصبحُ جزءاً من جسم الإنسان والحيوانات والنباتات ويتبخر وينتشر في الجو، وتستمر هذه الحركة الدائرية دائماً.

فالاشجار تمتص المواد الغذائية من الأرض وتتكون الفروع والأوراق، ثم تتساقط الأوراق وتتفسخ وتتحوّل فيما بعد إلى سماءٍ ومواد غذائيةٍ لنفس الأشجار، وتستفيد الحيوانات من المواد الغذائية ثم تُصبحُ تراباً، وجزءاً من المواد الغذائية في الأرض.

ويتنفس الإنسان والحيوانات غاز «الاو كسجين» ويطرح غاز «ثاني او كسيد الكاربون»، ولكن الأشجار على العكس من ذلك فهي تأخذ غاز «ثاني او كسيد الكاربون» وتطرح غاز

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٨٨

«الاو كسجين»، ويتكرر هذا التبادل دائماً، هنا نشاهد أنّ هذه المائدة الإلهية السرمديه مبسوطة باستمرار لتجلس كافة المخلوقات إليها للارتزاق منها دون أن يصيبها النقصان.

وكيفية إعداد الرزق للحيوانات عجيبة أيضاً، فالبعض يتغذى على النباتات والرطوبة الموجودة على الأرض، وبعض يحصل على غذائه من الماء «النباتات العائمة» وبعض من الجو، وبعض عن طريق الالتحام بنباتاتٍ اخرى «كبعض الطفيليات» وتعيش حيوانات أعماق البحار في مكانٍ لا ينمو فيه نباتٌ أبداً، لأنّ اشعة الشمس تتلاشى تماماً في عمق ٦٠٠-٧٠٠ م ثم يسود ماء البحر بعدها ليلاً حالكٌ وسرمديٌّ، إلّا أنّ الباري تعالى يهيء ويعدُّ رزقها على سطح البحر ويرسله إليها في أعماق البحر فالنباتات التي تنمو بكثرة على سطح البحر وسط الأمواج تصبح ثقيلةً وتهبط إلى قاعه بعد نضوجها وتخصيص قسم منها للموجودات الحية على سطحه، وكذلك تنزل بقايا الموجودات التي تعيش على سطح البحر على هيئة مائدةٍ سماويةٍ إلى الموجودات في قاعه.

فقد تصبح الطيور طعمةً لأسماك البحر، واسماك البحر طعمةً للطيور، وقد يجعل النباتات غذاءً للحيوانات، أو الحيوانات غذاءً للنباتات التي تأكل اللحوم! وقد يصنع من فضلات ولعاب بعض الموجودات غذاءً لذيذاً لموجودٍ آخر (كما في بعض حيتان البحر حيث تخرج إلى ساحل البحر بعد تغذيتها على أسماك البحر المختلفة، فتبقى الفضلات بين أسنانها، فتفتح فمها الذي يشبه الغار، فتدخل مجموعةً من طيور الساحل إلى فمها وتقوم باخراج اللحوم المتبقية من بين اسنانها وتتخذها طعاماً لذيذاً لها، فتقوم بدور المسواك في تنظيف أسنان هذا الحيوان، الذي لا يسىء ردّ الجميل، فلا يطبقُ فاه حتى خروج آخر طيرٍ من فمه، وحينما ينتهي الأمر ويتخلص من المواد المزعجة، وتمتلىء بطون الطيور من الطعام حينئذ يطبقُ فمه ويتجه نحو أعماق البحر (١).

وباختصار: كلما دققنا في هذه المسألة أكثر، سنحصل على نقاطٍ جديدةٍ في مجال علم

(١) يضيف الفخر الرازي في تفسيره ضمن إشارته المختصرة لهذا الموضوع، أنّه على رأس هذا الطائر شيءٌ يشبه الشوك، فلو قرّر التمساح ابتلاع هذا الطائر فسيؤلمه ذلك «تفسير الكبير، ج ٢٤، ص ١١).

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٨٩

وحكمة الخالق جلّ وعلا، والتدبير الذي صُرف في مجال الأرزاق، بشكلٍ لا يبقى مجالاً لأي نوع من الصدفة. يكفيننا التأمل في وضع الإنسان خلال المراحل الثلاث: الجنين، الرضاعة، والأكل، كيف أنّ الله تعالى وضع في متناوله ما يناسب حاله في كلِّ واحدةٍ من هذه المراحل الحساسة بدون نقص، فيتغذى طيلةً مكوثه في رحم الام عن طريق جهاز الحبل السرى المعقد والإرتباط المباشر بدم الام، وبعده الولادة، وعندما لا توجد أسنانٌ لمضغ الطعام، ومعدته وامعاؤه غير مستعدةٍ لاستقبال الطعام، يهييء له ثدى امه المليء بالحليب، غذاءً مناسباً، غنياً بكافة المواد الغذائية، معتدل الحرارة، لا تغلب عليه الحلاوة أو الملوحة، ولا يحتاج إلى

مضغ ونشاطٍ لمعدته كي تهضمه.

وفى المرحلة الثالثة، يضع فى متناوله أنواعاً من الاطعمة «المناسبة»، فلو لم تكن أطعمة الإنسان وباقي الحيوانات «ملائمة» ويكون مجبوراً على تناولها كالأدوية المرّة، فأتى مأزق سينشأ فى حياته، ألا يفنى معظم الناس بسبب عدم توفر الطعام السليم لهم؟ ومن جانب آخر، فقد أودع فى الإنسان الشعور بالجوع والعطش، كي ينجذب نحوهما بشكل آلى عندما يحس بالحاجة إلى هاتين المادتين الحيويتين، فتأملوا ما يحصل لولا هذا الشعور؟!

وكما يقول الإمام الصادق عليه السلام فى الحديث المعروف عن المفضل:

«فكر يا مفضل فى الأفعال التى جعلت فى الإنسان من الطعام والنوم والجماع وما دبر فيها فإنه جعل لكل واحد منها فى الطباع نفسه محرّك يقتضيه ويستحث به فالجوع يقتضى الطعام الذى به حياة البدن وقوامه والكرى تقتضى النوم الذى فيه راحة البدن وإجمام قواه والشبق يقتضى الجماع الذى فيه دوام النسل وبقاؤه، ولو كان الإنسان إنّما يصير إلى أكل الطعام لمعرفة حاجته بدنه إليه ولم يجد من طباعه شيئاً يضطره إلى ذلك كان خليقاً أن يتوانى عنه أحياناً بالثقل والكسل حتى ينحل بدنه فيهلك...، فانظر كيف جعل لكل واحد من هذه الأفعال التى بها قوام الإنسان وصلاحه محرّك من نفس الطبع يحركه لذلك ويحدوه عليه» (١).

(١) بحار الأنوار، ج ٣، ص ٧٨ و ٧٩، توحيد المفضل.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٩٠

لهذا تُعتبر الرغبة فى نوع من الطعام بالنسبة للاصحاء من الناس دليلاً على حاجة الجسم إلى ذلك الغذاء على نحو الخصوص، ويجب على مثل هؤلاء الأشخاص كذلك النزول عند هذه الرغبات الداخلية؛ يقول العالم الروسى المعروف «باولف»: «إنّ الغذاء الطبيعى والمفيد، هو الغذاء الذى يؤكل بشهيّة وتلذذ».

ولهذا أيضاً لا معنى للالتزام بنظام خاص فى الامتناع عن الأطعمة التى يرغب الإنسان بتناولها لأنّ تلك الرغبة تعتبر بحد ذاتها أفضل دليل على حاجة الجسم لها.

ما هذه التركيبات المحبوبة التى تحدد بنفسها نوع حاجتها، ووقودها، وصنعها؟

وبمجرد أن يحصل نقص توقظ شعور الإنسان وتدفعه نحو ذلك؟ هل يمكن حمل مثل هذه الامور على سبيل الصدفة؟ وهل هنالك إمكانية لوجود مثل هذا البرنامج المنظم لولا وجود عقلٍ وتديبيرٍ واسعٍ؟

٢- هل أنّ الرزق مقسوم؟

وردت هذه النكتة فى بعض الآيات أعلاه وهى أنّ رزق كل دابة على الله، وقد تكفل الله به: «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا...». (هود/ ٦)

وورد فى بعض آخر أنّ سعة الرزق وضيقه مشيئة الهية. (الروم/ ٣٧ وآيات اخرى .

واشير إلى هذا المعنى فى الروايات أيضاً، فيقول امير المؤمنين عليه السلام: «وَقَدَّرَ الْأَرْزَاقَ فَكَثَّرَهَا وَقَلَّلَهَا وَقَسَّمَهَا عَلَى الضَّيِّقِ وَالسَّعَةِ» (١).

وفى حديث آخر عنه عليه السلام نقرأ فى حثّه على طلب العلم إذ يقول:

«إِنَّ طَلَبَ الْعِلْمِ أَوْجِبَ عَلَيْكُمْ مِنْ طَلَبِ الْمَالِ، إِنَّ الْمَالَ مَقْسُومٌ مَضْمُونٌ لَكُمْ قَدْ قَسَّمَهُ عَادِلٌ بَيْنَكُمْ وَضَمَّنَهُ وَسَيَفِي لَكُمْ وَالْعِلْمُ مَخزُونٌ عِنْدَ أَهْلِهِ قَدْ أَمَرْتُمْ بِطَلَبِهِ» (٢).

(١) نهج البلاغة خطبة ٩١.

(٢) معالم الدين، ص ٩.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٩١

والآن يبرز هذا التساؤل وهو: لو كان الأمر كذلك فما هو مفهوم السعي والاجتهاد لطلب الرزق والتخطيط لتحسين الوضع الاقتصادي للمجتمع؟

ولكن من خلال التمعن في الآيات والروايات فيما إذا جمعت مع بعضها يتضح الجواب على هذا السؤال بأن المقصود من ضمان الرزق من قبل الله تعالى وتكفله والتزامه بتقسيمه هو اعداد الأرضية اللازمة، ومتى ما تظافت الأرضية الخارجة عن طاقة الإنسان، والاستعدادات الموجودة في ذاته، يستلم الإنسان نصيبه من الرزق.

وهذا يشبه تماماً رواتب العاملين في مؤسسه ما والتي يحددها المدير إلا أنه لا يجلب تلك الرواتب إلى بيوتهم بل يجب عليهم أن يعملوا، ثم يذهب كل منهم لملء بطاقه راتبه ليستلمه.

ولا يجب نسيان هذه الحقيقة بأن الله تعالى ومن أجل أن لا يضيع الناس في «عالم الأسباب» ويعتبروا أن حاصل الرزق يأتي عن طريق السعي والاجتهاد فقط، فهو يوصل الرزق أحياناً لانس لم يذلوا جهداً جهيداً وقد يسلب الرزق من أشخاص مجتهدين كي يوضح أن وراء هذا العالم قدرة أخرى (ولكن يجب أن لا ننسى أن هذا مجرد استثناء، وأما القاعدة الأساسية فهي السعي والاجتهاد).

ولعله لهذا الأمر ورد في حديث عن الرسول صلى الله عليه وآله أنه قال:

«واعلموا أن الرزق رزقان: فرزق تطلبونه ورزق يطلبكم فاطلبوا أرزاقكم من حلال، فانكم إن طلبتموها من جوهها أكلتموها حلالاً وإن طلبتموها من غير جوهها أكلتموها حراماً» (١).

هذا الفارق في الرزق يعتبر في الواقع دليلاً على الجمع بين الآيات والروايات التي تعتبر الرزق مضموناً ومضموناً، والروايات التي تعاكسها، التي تعتبر الجهد والاجتهاد والمثابرة شرطاً للاستفادة من الرزق (٢).

(١) وسائل الشيعة، ج ١٧، ص ٤٧.

(٢) من أجل التعرف على هذه الروايات يراجع، وسائل الشيعة ج ١٢، كتاب التجارة، ص ٩ و ١٦ و ١٨ و ٢٢ و ٢٤ و ٢٦.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٩٢

بالإضافة إلى أن التعرف على هذا الاختلاف في الرزق يدفع الحريصين إلى التخلي عن حرصهم، ولا يتلوث المؤمنون بتحصيل الرزق من الحرام، ولا ييأس المحرومون أيضاً.

٣- إذا كان الرزق مضموناً للجميع فلماذا يموت البعض جوعاً؟

في الآيات أعلاه تتجسد هذه الحقيقة جيداً بأن الله تعالى قد تكفل برزق جميع الموجودات الحيّة، وايصاله إليها أينما كانت، ولكن يبرز هذا السؤال وهو: لماذا ماتت وتموت مجاميع من الناس جوعاً الآن وعلى طول التاريخ؟ ألم يؤمن رزقها؟!.

في الرد على هذا التساؤل يجب أخذ النقاط الآتية بنظر الاعتبار: أولاً: إن تأمين وضمان الرزق لا يعنى اعداده للإنسان العاقل والمكلف وارساله إلى بيته، أو وضعه في فمه كاللقمة، بل قد اعدت الأرضية اللازمة، وسعى الإنسان واجتهاده يعتبر شرطاً لتحقيق هذه الأرضية وايصالها إلى مرحلة الفعل، حتى مريم (عليها السلام) عندما كانت في ذلك الوضع الصعب وفي تلك الصحراء القاحلة حيث هيا لها

اللَّهُ تعالى رزقها رطباً جنباً على جذع النخلة أمرها بأن تسعى وخاطبها: «وَهَزَى إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ».

ثانياً: لو أن الناس - في الماضي والمستقبل - يقومون بهضم حقوق الآخرين ويسلبون أرزاقهم ظلماً فهذا ليس دليلاً على عدم تأمين الباري تعالى للرزق، وبتعبير آخر: إضافة إلى مسألة السعي والاجتهاد فإن وجود العدالة الاجتماعية يعتبر سراً في التوزيع العادل للأرزاق، وإذا قيل: لماذا لا - يمنع الله ظلم الظالمين؟ نقول: إن أساس حياة البشر يقوم على الحرية وليس على الاجبار والاكراه كي يخضع الجميع للامتحان، وإلا فلا يحصل التكامل «فتأمل جيداً».

ثالثاً: هناك مصادر كثيرة لتأمين طعام البشر على هذه الكرة الأرضية ولكن يجب أن تكتشف وتستخدم بدكائهم ومعرفتهم، وإذا قصر الإنسان في هذا المجال فالذنب ذنبه.

لا يجب أن ننسى أن بعض مناطق أفريقيا التي يموت شعبها جوعاً تعتبر من اغنى

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٩٣

مناطق العالم، إلا أن العوامل المدمرة التي أشرنا إليها آنفا جعلتهم يهيمنون في ليلٍ مظلم.

نختم هذا البحث المختصر بحديث عن الإمام على عليه السلام ورد في نهج البلاغة، يقول:

«انظروا إلى النملة في صغر جثتها ولطافه هيتها لا تكاد تُنال بلحظ البصر ولا بمستدرك الفكر كيف دبّت على أرضها، وصبّت على رزقها تنقل الحبة إلى جحرها وتعدّها في مستقرها، تجمع في حرّها لبردها، وفي وريدها، لصدرها» (١).

٤- سعة الرزق وضيقه

ورد في الآيات أعلاه أن الله تعالى ييسر الرزق لمن يشاء ويضيقه على من يشاء، وهذا التعبير الذي تكرّر في آيات عديدة يمكن أن يوجد هذا الخلط وهو أن نظام الرزق خارج عن إرادة الإنسان بشكل كامل، طبقاً لذلك فلو تنعم قومٌ وحرم آخرون فهذه مشيئة الله وليس ما كسبته أيدينا وليس لنا حول ولا قوة! ويمكن أن يكون هذا مكسباً جيداً لأولئك الذين يشكلون على أصل الدين ويعتبرونه وليداً للحركات والمشاريع الاستعمارية.

ولكن لو تأملنا في هذه الآيات والروايات وفكرنا في أسباب ضيق الرزق وسعته لتجلى لنا تفسير هذه الآيات وأسرارها وسيتم القضاء على تلك الأفكار الهدامة، ونتوصل إلى امور مهمة وقيمة للغاية.

لقد قلنا مراراً أن التعبير ب «الارادة الإلهية» لا يعنى الإرادة التي تخلو من الحساب والكتاب، بل الإرادة الممتزجة ب «الحكمة».

إن حكمه الله تقتضى أن من يسعى ويجتهد ويخلص ويضحى أكثر، يكون رزقه أوسع:

«وَأَنْ لَيْسَ لِلنَّاسِ إِلَّا مَا سَعَى . (النجم / ٣٩)

و «كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ». (المدثر / ٣٨)

«وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ». (الطلاق / ٢-٣)

(١) نهج البلاغة خ ١٨٥.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٩٤

فالتقوى تؤدي إلى سيادة العدالة الاجتماعية ومن ثم تؤدي إلى سعة الرزق، كما أن السعي والمثابرة تعدّ الأرضية اللازمة للازدهار الاقتصادي وتعتبر سبباً في سعة الرزق، وبناءً على ذلك فإنّ التعاليم أعلاه ونظراً لجذورها واصولها لا تعتبر سبباً في الخمول وترك السعي، بل إنّها من العوامل المؤثرة في السعي والاجتهاد.

والشاهد هو هذا الحديث القيم الذي نُقل عن الإمام على عليه السلام، حيث يقول:

«إِنَّ الْأَشْيَاءَ لَمَّا أَزْدَوَجَتْ إِزْدَوْجَ الْكَسَلِ وَالْعَجْزُ فَتَنَجَا بَيْنَهُمَا الْفَقْرُ» (١).

نعم .. ففقر كل قوم، نتيجة مباشرة لضعفهم وحمولهم، وقد اقتضت الحكمة الإلهية أن يضيق الرزق على مثل هؤلاء.

إِنَّ التَّأَمَّلَ فِي أَسْبَابِ ضَيْقِ وَسَعَةِ الرِّزْقِ فِي الرِّوَايَاتِ شَاهِدٌ نَاطِقٌ آخَرَ عَلَى الْقَوْلِ السَّابِقِ.

ومن جملة الامور التي ذكرتها في الروايات كاسباب لسعة وبسط الرزق ما يلي:

صلة الرحم، نظافة الدار والأواني والجسم، مواساة المسلمين، السعي مبكراً لطلب الرزق، شكر النعمة، الاقلاع عن البخل، اجتناب

اليمين الكاذبة، الاستغفار والتوبة من الذنوب، حسن النية في الأعمال، الاحسان إلى الجيران وذكر الله (٢).

نقرأ في حديث عن النبي صلى الله عليه و آله: طيب الكلام يزيد في الارزاق (٣).

وجاء في حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: «في سعة الاخلاق كنوز الأرزاق» (٤).

وورد في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام: «كثره الشح يحقق الرزق» (٥).

(١) وسائل الشيعة، ج ١٧، ص ٦٠.

(٢) بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٣١٤ (باب ما يورث الفقر والغنى، و سفينة البحار، ج ١، ص ٥١٩ و ٥٢٠).

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٩٥

١٧- آياته في خلق الطيور

تمهيد:

لقد أحبَّ الإنسان على مر التاريخ الطيور وتمتع بتربيتها ومشاهدتها تحلق فوق رأسه في السماء بشكل جميل، وكانت هذه الظاهرة

تبعث على دهشته دائماً، وهي كيفية امكان أن يحلق جسم ثقيل في السماء ويتحرك بتلك السرعة خلافاً لقانون جاذبية الأرض؟!.

وليست هذه الصفة فقط بل صفات اخرى كالريش والجنحين، التغريد اللطيف لبعضها، طراز بناء البيت والعش، تربية الفراخ

واطعامها، الهجرة الطويلة لقسم منها، وامور اخرى من هذا القبيل كانت مصدراً لدهشته، بالرغم من أن تكرار هذه الحالات المثيرة

أدى وبالتدرج- إلى أن يمرَّ بعض الناس عليها مرور الكرام.

وقد أشار القرآن الكريم في جانب من آيات التوحيد إلى هذه المسألة، ودعا الجميع مشاهدة عالم الطيور، كي يروا آيات وبراهين

الباري تعالى

بهذا التمهيد نتأمل خاشعين في الآيات الآتية.

١- «أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ». (النحل / ٧٩)

٢- «أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ». (الملك / ١٩)

٣- «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَاتٍ كُلِّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ». (النور / ٢١)

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٩٦

٤- «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أَمَّمْ أَمْثَالَكُم مَّا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ». (الانعام / ٣٨)

شرح المفردات:

«طير»: جمع (طائر) وتُقَال لكل حيوانٍ ذى جناحٍ وريشٍ، ويحلقُ فى الهواء، ومصدرها «الطيران» (١) و «تَطِيرُ» تُقال لطالعِ السوء الذى كانوا يستلهمونه فى الجاهلية من حركة الطيور، ولكن اطلق فيما بعد على كل أشكال التشاؤم وسوء الطالع.

كما جاء لفظ «تَطَائِرُ» بمعنى الحركة بسرعة أيضاً «٢».

«صافات»: من مادة «صف» وتعنى وضع الأشياء فى خطٍ مستقيم، كالناس أو الأشجار حينما يكونون فى خطٍ واحد، فعندما يُطلق هذا اللفظ وصفاً أو حالاً للطيور: «والطَيْرُ صَافَاتٍ»، فهو إشارة إلى بسط الأجنحة فى السماء أثناء الحركة، ويعاكسها: «ويَقْبِضْنَ». ولفظ «إصطفاف» كناية عن التسليم والطاعة المحضة والخضوع التام، وإشارة للخدم الذين يقفون فى صفٍ واحدٍ استعداداً لتقديم الخدمة «٣».

وبطبيعة الحال أن احتمال: «والطير صافات» إشارة إلى مجموعة من الطيور التى تتحرك بشكلٍ جماعى فى صفٍ أو عدة صفوف حيث تلفت الانتباه بتناسقها واردة أيضاً، إلا أن عبارة «ويقبضن» تمنع هذا التفسير.

(١) وقد قالوا إن مصدر هذا الفعل «طير» أيضاً، وطيور جمع الجمع (جمع طير) وذكر بعضهم أن «طيور» جمع «طائر».

(٢) مفردات الراغب؛ لسان العرب؛ كتاب العين؛ ومجمع البحرين.

(٣) التحقيق فى كلمات القرآن الكريم؛ ومفردات الراغب.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٩٧

جمع الآيات وتفسيرها

الطيرُ يَسْبِخُ وأنا صامت!

أكدت الآية الأولى على أن تحليق الطيور فى جو السماء خلافاً للجاذبية الأرضية هو آية من آيات الله: «أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ» (١)

ونظراً لطبيعة الأجسام فى الانجذاب نحو الأرض فإن حركة الطيور فى أعالي الجو تبدو شيئاً عجبياً، ويجب أن تؤخذ مأخذ جد، فمن المسلم به أن هناك مجموعة من المزايا لدى الطيور تمكنها من الطيران بيسر فى السماء مستثمرة مختلف القوانين الطبيعية المعقدة، إنه لشيء يبعث على الدهشة بلا شك.

إن لهذا الميدان العجيب والقوانين التى تسبب هذه الظاهرة المدهشة رباً قادراً حكيماً مطلعاً على أسرار العلوم، بل ليست العلوم إلا شيئاً من القوانين التى وضعها، لهذا يقول فى سياق الآية: «مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ».

ويضيف فى ختام الآية: «إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».

وسنرى فى الايضاحات التى ستأتى فى نهاية هذه الآيات - إن شاء الله - ما هى القوانين التى يجب أن تتظافر كى تحصل هذه الظاهرة

التي تُدعى «الطيران»، لذلك نواجه في كل خطوة آيةً جديدةً من آيات مُبدىء الوجود العظيم. والآية الثانية تتشابه مع الاولى من عدة وجوه، إلا أنه يُلاحظ فيما بينهما اختلافات أيضاً، ففي هذه الآية يدعو الناس «لا سيما المشركين» إلى تفحص اوضاع الطيور، هذه الموجودات التي تنطلق من الأرض خلافاً لقانون الجاذبية الأرضية، وتتحرك مسرعةً بكل

(١) لقد اتخذ بعضهم لفظ «جَوَّ» بمعنى الفضاء الذي يحيط بالأرض، وبعضُ بمعنى «الهواء» قريباً كان أم بعيداً عن الأرض، ولكن يبدو أن ما يستعمل عادةً هو المعنى الأول، وهو الذي يناسب الآية أعلاه حيث يمكن أن يكون مصدراً للعجاب.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٩٨

يسر في جو السماء لساعاتٍ وأحياناً لأسابيع، وحتى أحياناً لعدة شهور بدون توقفٍ، حركةً مرنةً وسريعةً، بنحوٍ تيرهن على أنها لا تواجه مشكلةً في عملها.

فيقول: «أولم يروا إلى الطير فوقهم صافاتٍ ويقبضن» (١)

فلا أحد سوى الرحمن الذي عمّت رحمته كل شيء، يستطيع أن يُمسكهن هناك: «ما يُمسكهن إلا الرحمن».

أجل .. الله الذي منحها كل أدوات الطيران، وعلمها طريقته واسلوبه، كما وضع قوانين وانظمةً تستفيدها فتحلق بيسر وسهولة، فهو العليم بحاجات كل الموجودات والبصير بكل شيء: «إنه بكل شيء بصير».

وابتداءً من الذرات حتى المنظومة الشمسية، والمنظومات الأخرى الجبارة، ومن النباتات والحيوانات المجهرية، حتى الموجودات العملاقة، والكل يستمر في وجوده بتدبيره جلّ وعلا، التدبير الذي يُطلعنا في كل مرحلةٍ منه على آيةٍ جديدةٍ من علمه وقدرته تبارك وتعالى وينفى كل أشكال الاحتمال بوجود الصدفة وقدرتها على الخلق، ويملاً القلب بحبه والإيمان به.

ويمكن أن يكون التعبير ب «صافاتٍ» و «يقبضن» إشارةً إلى وضع الطير، حيث يسطن أجنحتها تارةً، ويجمعها أخرى ويقدرن على الطيران من خلال هذين الفعلين، ويرد هذا الاحتمال أيضاً بأن يكون إشارةً إلى صنفين من الطيور: الطيور التي غالباً ما تكون أجنحتها مبسوطة، وتركب أمواج الهواء، وفي نفس الوقت تسيّر في كل اتجاهٍ بسرعة، فكأنما هناك قدرةً خفيةً تُحركها لا نراها بأعيننا، والطيور التي تخفق أجنحتها باستمرار أثناء طيرانها، ولبعض الطيور حالةً وسطً بين هاتين الحالتين أثناء الطيران (٢).

(١) يقول بعض المفسرين لو تعدت «الرؤية» ب «إلى فهي تعنى الرؤية الحسية، وإذا تعدت ب «في» فهي تعنى المشاهدة القلبية والمطالعة العقلية (تفسير روح البيان، ج ١٠، ص ٩١).

(٢) لماذا جاءت «صافاتٍ» بصيغة الاسم الفاعل، و «يقبضن» بصيغة الفعل المضارع؟ وردت تفسيرات كثيرة أفضلها: يقال إنه عند انبساط الأجنحة يأخذ وضع الطائر نسقاً واحداً، بينما يتكرر رفيف أجنحته عند خفقاتها، وهذا ما يناسب الفعل المضارع ويكسبه صفة الاستمرارية. وذكر تفسير آخر في «الكشاف» وأيده بعض المفسرين: بأن منشأ هذا التفاوت ينبع من أن الطيران هو الحالة الأصلية الاولى للطيور، والحالة الثانية هي عرضية. غير أن الغموض يكتنف هذا التفسير.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٩٩

وفي الآية الثالثة نواجه صياغةً جديدةً بصدد الآيات التوحيدية لحياة الطيور إذ يخاطبُ النبي صلى الله عليه وآله قائلاً: «ألم تر أن الله يُسبِّحُ له من في السموات والأرض» «والطير صافاتٍ».

الطيور التي تتحرك في الجو صفوفاً، بجلالٍ وعظمةٍ وجمالٍ ولا تتعب العين من مشاهدتها أبداً، فهي ترسم أشكالاً هندسيةً مختلفةً على صفحة السماء بحيث تذهل الإنسان، إذ قد تطير المئات بل الآلاف من الطيور وتغيّر طريقها باستمرار من خلال أمرٍ خفيٍّ من دون

أن يحدث اصطدام فيما بينها.

ويضيف في سياق الآية: «كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَشْيِخَهُ» (١)

نعم .. فلكل منها صلاةً وابتهاً ومناجات ودعاءً وحاجاتٍ في عالمها الخاص، ولكلٍ تسيحه وتعظيمه وثناؤه، ومن المعروف أن ذرات وجود أي منها وبناء مختلف أعضائه وحركاته وسكناته تُخبر عن مُبديٍ عظيمٍ يجمعُ كافة الكمالات ومُنزّه عن جميع النواقص، وهي دائماً التسيح بحمده بلسان حالها.

ويعتقد بعضهم أن حمدّها وتسيحها وصلاتها عن وعي، ويعتبرون لكلٍّ موجودٍ حتى الذي نحسبه جماداً وبلا روح، عقلاً واحساساً، بالرغم من جهلنا به، كما نقرأ في مكانٍ آخر: «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَأَتَفَقَهُونَ تَشْيِخَهُمْ». (الاسراء / ٤٤) وكل تفسير من ذينك التفسيرين الصحيحين يصلح أن يكون شاهداً على ادعائنا بأن جميع الموجودات في هذا العالم، لا سيما الطيور التي تطير في جو السماء، آياتٌ وبراهينٌ على قدره وعلم خالق الكون.

(١) هنا حيث يعود الضمير في «عَلِمَ» إلى «اللّه» أو إلى «كلّ» هنالك جدالٌ بين المفسرين، ولكن ما يناسب وضع الآية هو أن يعود الضمير إلى «كل» فيعني: «كل واحد» أي أن كل واحد من موجودات الأرض والسماء والطيور يعرف صلواته وتسيحه جيداً.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٠٠

ويقول في نهاية الآية: «وَاللّٰهُ عَلَيَّكُمْ بِمَا يَفْعَلُونَ».

فهو يعلم كل أعمالهم ونواياهم وجميع حاجاتهم، وهنا لماذا استند في هذه الآية إلى بسط أجنحة الطيور فقط «صافات»؟ لعل السبب هو هذا الوضع العجيب والمدهش حيث تستطيع أن تتحرك في جو السماء بسرعة بدون تحريك أجنحتها كما أشرنا إلى ذلك سابقاً. والاحتمال الوارد أيضاً هو أن الطيور تتحرك في السماء بشكلٍ جماعي بنحوٍ يبعث على الحيرة، حركة هندسية منظمّة، متناسقة تماماً، وبلا قيادة ظاهرة.

وأشار في الآية الرابعة والأخيرة من البحث إلى مسألةٍ جديدةٍ أخرى من عجائب عالم الطيور فقال: «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أَمَّمْ أَمْثَالَكُم».

والتعبير بـ «أمم» جمع «امه» يدلُّ على أن لها عقلاً واحساساً في عالمها، والتعبير بـ «أمثالكم» يؤكد هذا المعنى أيضاً، لأنها تشابه الإنسان في مسألة الإدراك والفهم والشعور، وهذا تأكيد مجدد للتفسير الذي ورد في الآية السابقة، بأن لها تسيحاً ودعاءً عن وعيٍ في عالمها الخاص بها (١).

إن القرائن المتوفرة لدى الطيور، وباقي الحيوانات، تؤيد بأنّها ذات ذكاءٍ وشعور.

لأنّ: أولاً: الكثير من الحيوانات تعمل بمهارةٍ ودقةٍ في بناء بيوتها وجمع غذائها وتربية فراخها، ورعايتها، وسعيها لسد حاجات حياتها الاخرى بدقه ومهارة لا يُصدق معها، صدور هذا العمل عن غير عقلٍ وشعور؟

وهي تبدي ردود فعلٍ مناسبةٍ ازاء الاحداث التي لا تمتلك تجربةً سابقةً حيالها، فمثلاً نرى أن الخروف الذي لم يرَ ذباً طيلة حياته له وعيٌ كاملٌ عن خطر هذا العدو ويدافع عن نفسه بكلِّ وسيلةٍ يستطيعها.

(١) لقد اعطى المفسرون احتمالات كثيرة في تفسير تشبيهها بالإنسان حيث يبدو أن ما اوردناه أعلاه أكثر تناسباً بالرغم من عدم وجود تعارض بين هذه الاحتمالات. يراجع تفسير المنار، ج ٧، ص ٣٩٢؛ وتفسير القرطبي، ج ٤، ص ٢٤١٧.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٠١

لقد قاموا بتربية الحيوانات من أجل غاياتٍ مهمّةٍ، كالطيور التي تنقل الرسائل، والحيوانات التي تُرسلُ إلى السوق للشراء، وحيوانات الصيد، وكلاب الشرطة التي تستعمل للكشف عن المخدرات، وملاحقة المجرمين وامثال ذلك، فتربّي هذه الحيوانات بنحوٍ قد تكون أفضل وأكثر ذكاءً من الإنسان في انجاز مهمتها، حتى في هذا العصر الذي تنوعت فيه معدات كشف الجرائم لم يجدوا في انفسهم غنى عن هذه الكلاب!

خصوصاً أنّ بعض الحيوانات كالنحل والنمل والأرضة، وبعض الطيور كالطيور المهاجرة، وبعض حيوانات البحر كالأسماك الحرّة التي تقطع آلاف الأميال في اعماق البحر باتجاه منشئها الأصلي أثناء وضع البيوض، تعيش حياةً دقيقةً ومليئةً بالأسرار بحيث لا يمكن نسبتها إلى الغريزة، لأنّ الغرائز تُعتبر عادةً مصدرًا للأعمال ذات النسق الواحد، في حين أنّ حياة هذه الحيوانات ليست كذلك، وأعمالها دليلٌ على فهمها واحساسها النسبي.

يقول مؤلف تفسير «روح المعاني»:

أنا لا- أرى مانعاً من القول بأنّ للحيوانات نفوساً ناطقةً وهي متفاوتة الإدراك حسب تفاوتها في أفراد الإنسان وهي مع ذلك كيفما كانت لا تصل في إدراكها وتصرفها إلى غاية يصلها الإنسان، والشواهد على هذا كثيرة وليس في مقابقتها دليل يجب تأويلها لأجله. (١)

والظاهر أنّ مقصوده من الشواهد هذه التلميحات أو التصريحات التي جاءت في القرآن الكريم في قصة «الهدهد وسليمان» وكذلك «النملة وسليمان»، وكذلك الروايات التي نُقلت في تفسير آية البعث بأنّ الحيوانات تُحشّر وتُنشّر وتحاسب يوم القيامة أيضاً (٢). ولكن على أيّ حال فسواء كانت أعمالها وتصرفاتها ناتجة عن عقل وإرادة أو عن غريزة فلا أثر لذلك على بحثنا، فهي بأيّ نحو آية من آيات الله وبرهاناً من براهين علمه وقدرته.

(١) تفسير روح المعاني، ج ٧، ص ١٤٧.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٢٩٨.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٠٢

واللطيف أنّه يقول في نهاية الآية: «مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ» (١). «ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ».

والتعبير بـ «حشّر» يشير أيضاً إلى أنّها ذات عقل وإرادة نوعاً ما.

يُستفاد من الآيات أعلاه أنّ الطيور ومن عدة جوانب تعتبر من آيات الله ولا- يمكن نسبة هذه الظواهر الدقيقة والمعقدة والمليئة بالأسرار إلى الصدفة العمياء والصماء أو إلى الطبيعة التي لا عقل ولا شعور لها.

توضيحات

١- فنّ الطيران المعقد

منذ سنواتٍ والإنسان يُفكر: ما هذه القوة الخفية التي تساعد الطيور الثقيلة نسيباً على الطيران خلافاً لجاذبية الأرض وتجعلها تطير بانسيابية ويسرٍ ومهارةٍ في أعالي السماء، وتتقلّب بسرعةٍ؟ ولكن باختراع الطائرة وصناعتها تمّ اكتشاف هذا السرّ بأنّ هناك قوة تسمى (القوة الرافعة) تستطيع أن ترفع الأجسام الثقيلة جداً وتجعلها تطير في السماء، فضلاً عن الطيور. ويمكن توضيح ذلك في عبارةٍ بسيطةٍ وخاليةٍ من المصطلحات الفنية بما يلي:

لو كان لجسم سطحان مختلفان (كاجنحة الطيور أو اجنحة الطائرة حيث يكون سطحها العلوى منحنياً وبارزاً، فلو تحرك هذا الجسم أفقياً ستولد قوة خاصة ترفعه إلى الأعلى وهذا يعود إلى أن ضغط الهواء سيتضاعف على السطح السفلى أكثر من العلوى (لأن السطح العلوى أوسع من السفلى).

وتعد الاستفادة من هذا القانون السبب الرئيس في تحليق الاجسام الثقيلة في الجو، ولو

(١) «فَرَطْنَا» من مادة «تفريط» أى التقصير في اداء العمل وتضييعه بنحو يضيع (صاح اللغته) ويرد هذا الاحتمال أيضاً بأن المقصود من عدم التفريط في هذا الكتاب السماوى يعنى أن للقرآن مفهوماً جامعاً حيث يشمل كافة حاجات الإنسان إلّا أنه نظراً إلى ذيل الآية فإن المعنى أعلاه يعتبر أكثر مناسبة.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٠٣

تأملنا اجنحة الطيور جيداً للمسنا هذا القانون الفيزيائى بكل دقة.

غير أن هذه مسألة واحدة فقط من عشرات المسائل المهمّة فى الطيران، ومن أجل تصور أوسع له لابد من التطرق إلى الامور الآتية:
١- السرعة الأولية لحصول القوة الرافعة (فلاطائرة تسيّر وقتاً طويلاً على الأرض للحصول على هذه السرعة، أما الطيور فقد تركض قليلاً أو يقفز سريعاً فى الهواء فتصل هذه الغاية!).

٢- كيفية التحكم بهذه القوة أثناء الهبوط (وهذا الأمر يجرى فى الطيور والطائرة بتقليل السرعة وتغيير هيئة الجناح!).

٣- كيفية تغيير الاتجاه أثناء الطيران (ويتم هذا الأمر عن طريق الاستفادة من حركات مؤخره الطائرة أو الريش الخاص فى قوافى الطيور التى تحدث حركات فى مختلف الاتجاهات وتسوق الطائر نحو أى اتجاه).

٤- اتخاذ الشكل المناسب للطيران بالنحو الذى يجعل مقاومة الهواء على جسم الطائر تصل إلى الحد الأدنى (وهذا الأمر تم تأمينه من خلال الهيكل المغزلى للطيور، والرأس البيضوى، والمنقار المدبب والحاد، وهيئة الطائرة تقليد له!).

٥- أدوات التنسيق مع الطيران (وهذا المعنى متوفّر من خلال الريش الذى يسمح للطيور أن تسبح فى الهواء، ووضع البيوض بدلاً من الحمل، كى لا يصبح جسمها ثقيلاً، والعيون الحادة حيث ترى الفريسة أو الصيد جيداً من مكان بعيد وأمثلة ذلك).

٦- لقد كان العلماء ولمدة من الزمن يلاحظون أن عجالات الطائرات علاوة على تخفيفها لسرعتها فهى لا تخلو من الأخطار أثناء طيرانها، حتى شاهدوا الطيور تجمع أرجلها أثناء الطيران وتفتحها قبل الهبوط بقليل فادركوا أنه يجب الاستفادة من العجلات المتحركة التى تجمع بعد الارتفاع، وتفتح قبيل الهبوط!

ولا عجب فى إجراء العلماء لبحوث كثيرة ولسنواتٍ متتالية على مختلف أنواع الطيور مهتمين بكيفية الطيران، والهبوط، وشكل الأجنحة والأذنان، وقاموا بصناعة أنواع مختلفة

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٠٤

من الطائرات تقليداً لمختلف الطيور.

فهل يمكن أن تكون الاسس الضرورية المذكورة فى الطيران وليدة للطبيعة العمياء والصماء؟ أو ليس جملة: «مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرِّحْمَنُ» إشارة دقيقة وجميلة إلى جميع تلك الاسس؟ لا سيما وأن المعنى يتم بعد جملة: «إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ».

٢- «عجائب الطيور» و «الطيور العجيبة»

لطيور أنواع مختلفة وعجيبة، وبعضها أكثر عجبا، إذ يقول بعض العلماء: شوهد ٢٨٩ نوعاً من الحمام و ٢٠٩ نوع من الحجل و ١٠٠

ألف نوع من الفراشة لحد الآن (١).

ويمكن ذكر «الخفاش» مثلاً من بين الطيور العجيبة، فهو يضجر من ضوء الشمس على عكس سائر الطيور، ويطير في ظلام الليل بكل شجاعة وجرأة وبأى اتجاه شاء، وجسمه خالٍ من الريش تماماً واجنحته متشكلة من جلد رقيق، وهو ليونٌ ولودٌ، فيحيضُ، ويأكل اللحم، ويقالُ إنَّ الطيور تنصبُّ له العدا، كما أنه يعاديهما أيضاً! لهذا فهو يقضى حياته منعزلاً.

وحركته السريعة والجريئة في ظلمة الليل من دون أن يصطدمَ بمانعٍ تبعث على الحيرة، فهو يمر من خلال انحناءاتٍ والتواءاتٍ كثيرة بدون أن يضل طريقه، ويوفر طعامه بدقة أينما كان مختلفياً ومن دون خطأ، لامتلاكه لجهازٍ خفى يشبه «الرادار».

فهو يرى بأذنه «أخجلُ بأذنه!» لأنَّ الأمواج الخاصة التي يصدرها من حنجرتة ويرسلها إلى الخارج عبر أنفه ترتطم بكل ما يصادفها وتعود، وهو يلتقط الأمواج المنعكسة بأذنه، ويتحسس الوضع في جميع الجهات فيتجنب العقبات.

إنَّ بناء حنجرتة وانفه وأذنه عجيبي، دقيق لا يوجد له مثل في أى من اللبائن.

والأمواج التي يرسلها إلى الخارج هي أمواج ما وراء الصوت، التي لا نستطيع سماعها، وفي كل ثانية يرسل ٣٠ - ٦٠ مرة إلى كل الاتجاهات المحيطة به ويستلم ردها.

(١) يراجع كتاب أسرار حياة الحيوانات، ص ١٤٢ إلى ١٩٦.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٠٥

لقد اجروا بحوثاً كثيرة حول «الخفاش» وألّفوا مقالاتٍ عديدةً، تتشكل منها دروس حقه لمعرفة الله.

ولهذا يتحدث أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة في خطبةٍ معروفةٍ باسم «خطبة الخفاش» عن هذا الحيوان، ويبيّن مهارته ودقته في بيانه العظيم والبلّغ، حيث يقول:

«من لطائف صنعته، وعجائب خلقته، ما أرانا من غوامض الحكمة في هذه الخفافيش...» (١)

ثم يضيف بصدده قائلاً:

«وقيل من الحيوانات من يحتضن صغاره، ويحمله تحت جناحه وربما قبض عليه بفيه وهو في حنوه عليه واشفاقه عليه وربما ارضعت الانثى ولدها وهي طائره...» (٢).

ومن عجائب الخلق طائر آخر يُسمى «الطاووس»، بريشه الجميل الذي تصيب الدهشة من يتمعن بألوانه، فكأنما خرج لتوه من تحت يد رسّام ماهر مليئاً بالألوان الخلابه الزاهية الشفافة والجذابة، مصففاً ريشه بمظلة عجيبة التي إذا رأيتها فسوف لن تغيب عن بالك، أن ذلك لآية اخرى من آيات خلق الله.

لهذا أكد معلّم التوحيد ومعرفة الله، الإمام على عليه السلام في احدى خطب نهج البلاغة «خطبة الطاووس» على هذا الأمر قائلاً:

«ومن أعجبها خلقاً الطاووس الذي أقامه في أحكم تعديل، ونصد ألوانه في أحسن تنضيد بجناح أشرح قصيبه وذنب أطال مسحبه إذا درج إلى الانثى نثره من طيه وسما به مطلقاً على رأسه كأنه قلع دارى عنجه نوتية يختال بألوانه...» (٣).

و «الطيور المهاجرة» من أكثر أنواع الطيور إثارة للدهشة أيضاً، فهي تقطع أحياناً كل المسافة بين القطب الشمالى والقطب الجنوبى، ثم تعود إلى مكانها الأول، قاطعةً سफراً طويلاً بعيداً قد يبلغ آلاف الأميال، والعجيب أنها تستخدم في هذه المسافة الشاسعة آلات

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٥٥.

(٢) سفينة البحار، ج ١، ص ٤٠٣.

(٣) تراجع بقية هذا الحديث في الخطبة ١٦٥ من نهج البلاغة.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٠٦

خفية تستطيع بها تشخيص طريقها بين الجبال والغابات والصحارى والبحار.

والأعجب من كل هذا مواصلة طيرانها لعدة أسابيع بدون توقف ليلاً ونهاراً دون الحاجة إلى غذاء، لأنها تبدأ بالأكل قبل بداية سفرها - بدافع داخلي - أكثر من الحد اللازم، وتختزن هذه الأطعمة على هيئة دهون في جسمها، كي تكتسب الطاقة اللازمة لهذا الطيران الطويل المستمر.

فهل تستفيد من الجاذبية المغناطيسية للأرض من أجل تشخيص طريقها؟ أو من استقرار الشمس في السماء والنجوم أثناء الليل؟ وفي هذه الحالة يجب أن تكون هذه الطيور من الفلكيين المرموقين، أو تستفيد من طريقة خفية أخرى نجهلها لحد الآن؟ والأهم من ذلك أنها تنام في السماء أحياناً وهي طائفة وتواصل مسيرتها نحو هدفها! كما أنها تتوقع التحولات في الجو قبل حصولها من خلال تنبؤ ذاتي، فتستعد للحركة.

لعلكم شاهدتم بأعينكم أن الطيور المهاجرة تتحرك بشكل جماعي وتُشكّل نسقاً على هيئة رقم ٧، فهل هذا حدث صدفة؟ لقد أثبتت بحوث العلماء أن الطير عندما يحرك جناحيه في الهواء فهو يخفضه مما يسهل عملية تحريك جناح الطائر الذي يليه، لهذا فإن الطيور حينما تتحرك بالشكل أعلاه قليلاً ما تتعب، وتختزن كمية لا بأس بها من طاقتها، فأى معلم اعطاها هذا الدرس الدقيق؟

٣- الطيور في خدمة الإنسان والبيئة

يقول أحد العلماء: إن شقاء وقسوة الإنسان، وغفلته وجهله لا عد ولا حدود لها، فيجب أن يعلم أن قتل الطيور يكلفه خسارة فادحة، ويحرمه عون ونصرة أعز وأعلى الاصدقاء والرفاق في صراعه مع الحشرات الضارة.

فلإنسان طريقتان في مكافحته للحشرات الضارة: إحداها الاسلوب البدائي وهو عبارة عن إبادة اليرقات في البساتين والمزارع وقتلها، والقضاء على الجراد وحشرة المن، عن طريق السموم، والاخرى الصراع العلمى عن طريق «البيولوجيا» بواسطة الفايروسات

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٠٧

والطفيليات الخاصة التي يتم تكثيرها لهذا الغرض.

إلا أنه يدفع ثمناً غالياً في هذين الاسلوبين من الصراع ويتحمل المتاعب والمشقة، بينما لو ترك الطيور سالمه، وقام بتكثير الطيور التي تقتل الحشرات كالبوم، وبعض الطيور التي تتغذى على الحشرات فستكون المكافحة أسهل وافضل (وارخص).

يقول عالم يُدعى «ميشيل»: «لولا وجود الطيور ستصبح الأرض فريسة للحشرات»، ويكتب آخر يُسمى «فابر» في تأييده: «لولا وجود الطيور سيقضى القحط على البشر»!

وتحدثنا الاحصاءات، بأن لو حصلنا على حسابات دقيقة نسبياً عن معدل اليرقات والحشرات التي تستهلكها الطيور الصغيرة سنوياً في طعامها وطعام فراخها فستضح هذه المسألة كثيراً.

فهناك طيرٌ صغيرٌ يُدعى «رواتوله» يأكل سنوياً «ثلاثة ملايين» من هذه الحشرات المهاجمة! وهناك نوع من الطيور يُسمى «الطائر الازرق» يأكل سنوياً «ستة ملايين ونصف المليون» من الحشرات، ويستهلك «أربعاً وعشرين مليوناً» لاطعام فراخه التي لا تقل عادةً عن اثني عشر أو ستة عشر فرخاً ...

والسنونو تطوى يومياً أكثر من ستمائة كيلو متر وتأكل «الملايين» من الذباب، وهناك طيرٌ يُدعى «تروغلوديت» يتغذى على «تسعة ملايين» حشرة منذ أن يخرج من البيضة وحتى طيرانه من العش! وغالباً ما يعتبر الناس أن الغراب الاسود مضر، ولكن لو ذبحتم أحد الغرابان وتفحصتم حوصلته تجدونه مليئاً بنوع من الديدان البيضاء «١».

هذا جانبٌ من خدمات الطيور للمزارعين والبيئة، فافرضوا الآن لو أنها تأخذ نصيباً من محاصيلنا الغذائية الذي لا يساوى واحداً بالالف ممّا تستحقه من هدية! فهل يؤدّي بنا هذا إلى اعتبارها حيواناتٍ ضارةً ومؤذية؟
فَمَنْ أودَعَ هذا التكليف لدى هذه الطيور بأن تتكفّل بدورٍ مهمٍّ بموازنة القوى في عالم الحيوانات والحشرات التي لها فوائدها أيضاً.

(١) نظرةٌ إلى الطبيعة وأسرارها، ص ١٩٥-١٩٧ «مع الاختصار».

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٠٨

٤- دروس التوحيد في وجود الطيور

يقول الإمام الصادق عليه السلام معلّم التوحيد العظيم في الحديث المشهور ب «المفضل»: «تأمل يا مفضل جسم الطائر وخلقته فإنه حين قدّر أن يكون طائراً في الجو خفّف جسمه وادمج خلقه فأقتصر به من القوائم الأربع على اثنتين ومن الأصابع الخمس على أربع، ومن منفذين للزبل والبول على واحد يجمعهما ثم خلق ذا جؤجؤٍ محدد ليسهل عليه أن يخرق الهواء كيف ما أخذ فيه كما جعل السفينة بهذه الهيئة لتشق الماء وتنفذ فيه وجعل في جناحيه وذنبه ريشات طوال متان لينهض بها للطيران وكسّى كله بالريش ليدخله الهواء فيقله، ولما قدّر أن يكون طعمه الحبّ واللحم يبلعه بلعاً بلا مضغٍ نقص من خلقه الأسنان وخلق له منقار صلب جاس يتناول به طعمه فلا ينسجج من لقط الحب ولا يتقصّف من نهش اللحم، ولما عدم الاسنان وصار يزدرد الحبّ صحيحاً واللحم غريضاً أعين بفضل حرارة في الجوف تطحن له الطعم طحناً يستغنى به عن المضغ؛ واعتبر ذلك بأنّ عجم العنب وغيره يخرج من أجواف الانس صحيحاً ويطحن في أجواف الطير لا يرى له أثر ثم جعل ممّا يبيض بيضاً ولا يلد ولادةً لكيلا يتقل عن الطيران...» (١).

ثمّ يشرّح الإمام عليه السلام بعد ذلك، الامور المهمّة والدقيقة الأخرى حول الطيور حيث نُعرض عنها مراعاةً للاختصار.

(١) بحار الأنوار، ج ٣، ص ١٠٣ وما بعدها.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٠٩

١٨- آياته في حياة النحل

تمهيد:

إنّ حياة النحل من أكثر ظواهر الخلق دهشةً، وقد اكتشفت عجائب عن حياة هذه الحشرة الصغيرة من خلال بحوث العلماء، إذ يعتقد البعض أنّ حضارتها وحياتها الاجتماعية أكثر تطوراً من حياة الإنسان، فانتهم لا تعثرون على أي مجتمع متطورٍ قد حلّ مشكلة «البطالة» و «المجاعة» بشكلٍ كاملٍ، إلّا أنّ هذه المسألة حلّت تماماً في عالم النحل (خلايا النحل)، فلا يُعثر في هذه المدينة على زنبورٍ عاطلٍ عن العمل أو زنبورٍ جائعٍ أيضاً.

فبناء الخلية، وكيفية جمع رحيق الورود، وصناعة العسل وخزنه، وتربية الصغار واكتشاف المناطق المليئة بالأزهار، واعطاء عنوان السكن لباقي النحل، والعثور على الخليّة من بين مئات أو آلاف الخلايا كل ذلك دليلٌ على الذكاء الخارق لهذه الحشرة.

إلّا أنّ من المسلّم به أنّ الإنسان لم يكن يمتلك مثل هذه المعلومات عن النحل سابقاً، ولكن القرآن الكريم أشار في السورة المسماة

باسم هذه الحشرة «النحل» بإشاراتٍ مليئةٍ بالمعاني إلى الحياة المعقدة والمدهشة لهذه الحشرة.

بهذا التمهيد نتأمل خاشعين في الآيات الآتية:

١- «وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ». (النحل / ٦٨)

٢- «ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلًّا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣١٠

مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ». (النحل / ٦٨-٦٩)

شرح المفردات:

«النحل»: اسمُ زنبور العسل و «نحلة» (على وزن قيلة) تعنى العطاء بلا عوض، ومفهومها محدودٌ أكثر من مفهوم الهبة، لأنَّ «الهبة» تشمل العطاء بعوض وبغير عوض بينما تشمل النحلة العطاء بلا عوض فقط، و «نحول» تعنى الضعف، تشبيهاً بهزال زنابير العسل، و «نواحل» تطلق على السيوف الحادة «الرفيعة».

وقد يُحتمل أنَّ المنشأ الأصلي ل «نحلة» يعنى العطاء، وإذا اطلقَ على زنبور العسل «نحل» فلائنه يصطحبُ معه عطاءً وهبَةً حلوةً لعالم الإنسانية. (١)

و (أوحى : من مادة «وحى» ولها معانٍ كثيرة وقد ذكرنا شرحها في الجزء الأول من «نفحات القرآن» في بحث «مصادر المعرفة»، وأصلها يعنى «الإشارة السريعة» وبالنظر إلى أنَّ أمر الله تعالى فيما يتعلق بالنشاطات المختلفة والمعقدة للنحل قريب الشبه من الإشارة السريعة أو الالهام القلبي فهذا المعنى استخدم أيضاً فيما يخص النحل، لأنَّ جميع هذه الأعمال المعقدة قد تُنجز من خلال إشارة الهبة سريعة.

لنزور بلاد النحل:

لقد استند القرآن الكريم في آيات عديدة إلى جوانب مختلفة من حياة النحل حيث كلُّ منها اعجبٌ من الآخر، فقد أشارَ أولاً إلى مسألة بناء بيوتها، قائلاً: «وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ».

وقد يكون التعبير ب «أتخذى» بصيغة الفعل المؤنث إشارة إلى أنَّ النحلَ عندما يهاجر

(١) مفردات الراغب.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣١١

لاختيار بيتٍ جديدٍ فهو يسير خلف «الملكة» التي هي بمنزلة القائد في الخلية، وعليه فإنَّ المتنفذ الحقيقي هي «الملكة». والتعبير ب «أوحى» تعبيرٌ جميلٌ حيث يبرهنُ على أنَّ الله تعالى قد علّمَ هذا الحيوان طراز بناء البيت الذى يُعدُّ من أروع أعمال هذه الحشرة بواسطة الهام خفىً وسيأتى شرحه في «التوضيحات» إن شاء الله، وهي تقوم بانجاز واجباتها على أفضل وجهٍ وفقاً لهذا الوحي الإلهي، فقد تختار صخور الجبال، أو بطون الكهوف لبناء بيوتها، وتضع الخلية بين أغصان الأشجار أحياناً، وقد تستخدم الخلايا الاصطناعية التي يصنعها الإنسان لها على القصب، أو أنها هي التي تقوم ببناء البيت على القصب.

إنَّ ألفاظ الآية تدلُّ جيداً على أنَّ بناء البيت هذا ليس بناءً عادياً وإلاً لما عبّر عنه القرآن بالوحي، وسنرى عاجلاً أنَّ الأمر هكذا.

وفي الآية الثانية توجّه نحو صناعة عسل النحل مضيفاً: أنَّ الله قد أوحى لها أن تأكل من جميع الثمار: «ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ»

«واقطعى الطرق التى يسرها وسخرها لك ربك لتكوين العسل الحلو»: «فأسلكى سبيل ربك ذللاً».

«سبيل»: جمع «سبيل» وتعنى «الطريق اليسير» (١)

وهنا: ما المقصود من هذه السبيل فى الآية أعلاه؟ لقد أبدى المفسرون احتمالات مختلفة:

فقال بعضهم: المقصود هى الطرق التى يطويها النحل نحو الأزهار، والتعبير بـ «ذللاً» (جمع «ذلول» وتعنى التسليم والطاعة) «٢» يدل على أن هذه الطرق تُعَيَّنُ بدقة بحيث يكون ارتيادها سهلاً وعادياً للنحل؛ وتؤيد دراسات خبراء النحل هذا المعنى أيضاً، فهم يقولون:

(١) كما أوردها الراغب فى المفردات.

(٢) من الممكن أن تكون «ذللاً» حالاً لـ «سبيل»، أو لـ «النحل»، ويبدو أن الاحتمال الأول أكثر صحةً.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣١٢

تخرج مجموعة من النحل مكلفةً بتشخيص مكان الأزهار صباحاً، من الخلية، وبعد اكتشاف المناطق المليئة بالأزهار ترجع، وتعطى للباقيين العنوان الكامل لذلك المكان بشكلٍ سرى ومدهش، وقد تشخص الطريق بوضعها علاماتٍ عليه متكونة من مواد ذات رائحة خاصة، وبنحو لا تفضل أية نحلة باتباعها.

وقال بعضهم الآخر أيضاً: إن المقصود هو طريق العودة إلى الخلية، لأن النحل قد يجبر على قطع مسافاتٍ طويلة، ولا يبتلى بالتيه عند عودته، فهو يتجه نحو الخلية بدقة، بل وأنه يعثر على خليته يسيراً من بين عشرات الخلايا المشابهة.

وقال آخرون: إن «السبيل» هنا لها معنى مجازىً فهى تشير إلى الأساليب التى يتبعها النحل لإعداد العسل من رحيق الأزهار، فهى تمتص رحيق الأزهار بنحو خاص ترسله «حوصلتها» وهناك حيث تكون كمخبر للمواد الكيميائية يتبدل إلى «عسل» من خلال التغيرات والتطورات التى تجرى عليه، ثم يستخرجه الزنبور من حوصلته.

أجل .. إنه يعرف الأسلوب اللازم لاجراء هذا العمل جيداً، من خلال أمرٍ إلهى فيسلك هذا الطريق بدقة.

ونظراً إلى أن هذه التفسيرات الثلاثة لا تتعارض فيما بينها وكون ظاهر الآية عاماً، فيمكن القول: بشمول جميع هذه المفاهيم، إذ يقطع النحل هذه الطرق الملتوية والمنحنية بالاستفادة من الشعور الذى منحه الله له، أو بالالهام الغريزى، ويستخدم هذه الأساليب بكل مهارة واقتدار.

وفى المرحلة الآتية أشار إلى صفات «العسل» وفوائده وبركاته قائلاً: «يُخْرَجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ».

وقد حمل بعضهم التعبير بـ «بُطُونٍ» (جمع بطن) على معنى مجازىً وقالوا: إنها تعنى الأفواه، وقالوا إن العسل الذى هو رحيق الأزهار مخزون فى فم النحل ثم ينتقل إلى الخلية (١).

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٦، ص ٣٧٢.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣١٣

بينما يعتقد بعضهم أن العسل هو فضلات النحل!

ويعتبره بعضهم الآخر من المسائل الخفية التى لم تُكتشف لحد الآن (١).

ولكن بحوث العلماء برهنت على عدم صواب أى من هذه الآراء - كما أشرنا - بل إن النحل يُرسل رحيق الأزهار إلى مكان خاص فى جسمه يسمى «الحوصلة» وبعد أن يجرى عليه تغييرات وتطورات يقذفه خارجاً من فمه (٢).

والتعبير بـ «بُطُونٍ» شاهدٌ على هذا المعنى واجلى منه التعبير بـ «كلى»، لأن العرب لا يقولون لحفظ الشيء فى الفم «أكل» أبداً، وحمل

هذه الجملة على المجاز تفسيراً مجازياً لا ضرورة له.

وأما المقصود من «ألوان مختلفة» هنا فهي ذات تفاسير متباينة أيضاً، فقد اعتبرها بعضهم بمعنى هذا «اللون» الظاهري الذي يتفاوت فيه العسل فبعضه أبيض شفاف، وبعض أصفر، والآخر أحمر اللون، وبعضه يميل إلى السواد، ويمكن أن يكون هذا التباين مرتبطاً باختلاف أعمار النحل، أو مصادر الأزهار التي يتغذى عليها، أو كليهما.

وقد احتمل أيضاً أن يكون المقصود من هذا التفاوت (نوعية) العسل، فبعض غليظ، وبعض خفيف، أو أن عسل الأزهار المختلفة له آثار ومزايا مختلفة أيضاً، كما يختلف العسل العادي كثيراً عن «الشهد» (العسل الخاص الذي يُصنع لملكة الخلية)، لأن المشهور أن ل «الشهد» قيمة من الناحية الغذائية بحيث يزيد كثيراً في عمر الملكة ولو تمكن الإنسان أن يتغذى عليها فإنها تترك أثراً عميقاً في طول عمره.

وفي بعض البلدان هناك حدائق من ورود متشابهة حيث تُنصب فيها الخلايا الخاصة بالنحل، وبهذا تُستخلص أنواع مختلفة من العسل كل منها مستخرج من زهر خاص، ويتمكن الراغبون من شراء العسل من الورد الذي يرغبونه، وبهذا نواجه ألواناً مختلفة من

(١) وفي تفسير القرطبي ينقل عن ارسطو أنه صنع خلية من الزجاج كي يرى كيفية صناعة العسل غير أن النحل كان يُعتم الزجاجة لكي لا ينكشف السر حينما يريد مزاوله عمله (المصدر السابق ليرى .

(٢) تربية النحل، لمحمد مشيري، ص ١١٣؛ وكتاب نظرة على الطبيعة وأسرارها، ص ١٢٦.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣١٤

العسل تدخل في المفهوم الواسع والعام للآية.

والتعبير ب «شراب» جاء لأن العرب لا يستخدمون لفظ «أكل» بخصوص العسل كما يقول بعض شراح لغة العرب، ويُعبر عنه بالشرب دائماً (ولعله بسبب أن العسل في تلك المناطق يكون خفيفاً) «١».

وفي الختام أشار إلى تأثير العسل في العلاج قائلاً: «فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ».

والتعبير ب «شفاء» بصيغة النكرة، إشارة إلى أهميته الفائقة، وكما سيأتي في التوضيحات إن شاء الله، فللعسل الكثير من المزايا العلاجية الجاهزة التي تحتوي عليها الأزهار والنباتات الطيبة الموجودة على الكرة الأرضية، وقد ذكر العلماء لا سيما في هذا العصر خصائص عديدة له تشمل الجانب العلاجي وجانب الوقاية من الأمراض أيضاً.

فللعسل تأثيرات مذهلة في علاج الكثير من الأمراض وهذا يعود إلى الفيتامينات والمواد الأساسية التي يحتويها، حيث يمكن القول: (إنَّ العسلَ يخدم الإنسانَ علاجياً وصحياً وجمالياً).

وفي نهاية الآية أشار إلى الجوانب الثلاثة الآنف (بناء خلية النحل، طريقة جمع رحيق الأزهار وصناعة العسل، وخصائصه العلاجية) فيقول: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ».

وعليه ففي كل مراحل حياة النحل، واستخراج محصول هذه الحشرة الذكية والمتابرة، تظهر للعيان آية بل آيات لعلم وقدره الخالق جلَّ وعلا الذي ابتدع مثل هذه الظواهر المذهلة.

توضيحات

١- حضارة النحل العجيبة!

مع اتساع علم الحيوان وعلم الاحياء والدراسات المستفيضة للعلماء تم اكتشاف

(١) تفسير روح المعاني، ج ١٤، ص ١٦٨.

نقحات القرآن، ج ٢، ص: ٣١٥

مسائل عجيبة وحديثه عن حياة هذه الحشرة الصغيرة أذهلت الإنسان بشده، ولا يُصدّق أبداً بأن يسود حياة النحل مثل هذا النظام والتدبير والتخطيط بلا أى احساسٍ طبيعيّ.

يقول أحد العلماء المختصين بعلم الاحياء ويدعى «مترلينغ» الذى كانت له دراسات كثيرة على مدى سنوات طويلة حول حياة النحل، والنظام العجيب الذى يحكم ممالكها يقول: «إنّ الملكة فى مدينة النحل ليست هى الزعيم كما نتصورها، بل هى كسائر أفراد هذه المدينة تخضع لسلسلة من القوانين والأنظمة العامة أيضاً».

ثم يضيف: «نحن لا- نعرف مصدر هذه القوانين وبأية طريقة توضع، ونحن ننتظر اليوم الذى تتوصل فيه إلى معرفه واضح هذه المقررات، إلّا أننا نطلق عليه حالياً اسم «روح الخلية»، ولا ندري أين تكمن «روح الخلية» وفى أى من سكان الخلية حلت، إلّا أننا نعرف أنّ الملكة كالآخرين تطيع روح الخلية أيضاً!».

«إنّ روح الخلية لا تشبه غريزة الطيور، ولا تعمل بالية وإرادته عمياء، فهى تشخص تكليف كل واحد من سكان هذه المدينة العملاقة حسب قابليته وتعطى لكل منها واجباً، فقد تأمر مجموعة ببناء البيت، وأحياناً تصدر أمر الرحيل والهجرة»
«والخلاصة إننا لا نستطيع إدراك أنّ قوانين مملكة النحل التى توضع من قبل روح الخلية هل ستطرح فى «مجلس شورى ويصادق عليها ويتخذ القرار بتنفيذها؟، ومن الذى يصدر أمر الحركة فى اليوم المحدد؟!» (١)

إلّا أنّ القرآن الكريم أعطى جواباً لجميع هذه التساؤلات بتعبير جميل ودقيق جداً إذ يقول: «وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ! وهو نفس التعبير الذى ذكره بخصوص الأنبياء (عليهم السلام)، صحيح أنّ هذا الوحي يختلف عن ذلك الوحي كثيراً، إلّا أنّ تناسق التعبير دليل على أهميّة العلم الذى أودعه الله لدى النحل، كى يدعو مفكرى العالم إلى دراسته أوضاعها.
فمن المسلم به أنّ بناء خلية النحل يجرى بالهام الهى، لأنّها تبنى تشكيلات سداسية

(١) كتاب النحل، تأليف مترلينغ، ص ٣٥ و ٣٦ مع الاختصار.

نقحات القرآن، ج ٢، ص: ٣١٦

منظمة واسعة من كمية قليلة من الشمع (حيث يمكن استغلال جميع زواياه ويكون مقاوماً أمام الضغط أيضاً) وتتكون بيوتها من طبقتين، وعندما تبنى بيتاً فى الجبال أو على الأشجار فهى تقتصر على هاتين الطبقتين إلّا أنّها تضيف طبقتين أخريين فى الخلايا الاصطناعية وبما يمكن استيعابه منها.

ويتخذ قعر البيت شكلاً هرمياً حيث يتألف من ثلاثة سطوح لوزية الشكل ويغور الرأس والأجزاء البارزة بكل طبقة فى قعر الطبقة السفلى

وقد أثبت التجارب أنه لو كان سطح الشمع مربع الشكل أو باى شكل آخر وُصّب فى قوالب اصطناعية ووضعت النحل فى داخله فسوف لا يرتضى مثل تلك الجدران غير المطابقة للمواصفات، بل يرفع الجدران إلى الأعلى ويعيدها إلى وضعها الصحيح.

لقد قاس أحد العلماء، قعر بيت النحل، فكانت زاويته الكبيرة تُقدّر ب ٩.١ درجة و ٢٨ دقيقة، ثم طرحت هذه المسألة على مهندس المانى كبير يُدعى «كنيك» كسؤال عام بأن لو أراد إنسان بناء هرم بأقل كمية من مواد البناء وباكبر ظرفية بحيث يتشكل من ثلاثة سطوح لوزية فما مقدار زواياه؟.

فقام بحل هذه المسألة المعقدة بالاستعانة بحساب «ديفرانسيل» وكتب في الجواب، مائة وتسعة درجات وستة وعشرين دقيقة بدون علم منه بأن هذا يرتبط بيت النحل ومتفاوت معه بدقيقتين فقط.

ثم تلامه مهندس آخر يُدعى «ماغ لورن» فاجرى حسابات دقيقة وتأكّد بأن تلك الدقيقتين كانتا نتيجة لاهمال المهندس الأول، والجواب الصحيح كما في عمل النحل! «١»

ينقل العالم البلجيكي المعروف «متر لينغ» في كتاب «النحل» عن أحد العلماء ويُدعى «رأيت» ما يلي: لدينا ثلاثة طرق علمية فقط في الهندسة لتقسيم الفواصل المنظمة وربطها وتكوين الأشكال الكبيرة والصغيرة، وهذه الطرق الثلاثة عبارة عن (المثلث القائم الزوايا) و (المربّع) و (المسدّس) وتستخدم الطريقة الثالثة أي «المسدّس» في بناء غرف النحل،

(١) تفسير روح الجنان هامش المرحوم الشعراي، ج ٧، ص ١٢٣ «مع شيء من الاختصار».

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣١٧

وهذا الشكل أكثر ملاءمة لاستحكام البناء (لأننا لو دققنا قليلاً نجد أنّ الشكل السداسي يشبه الأقواس من جميع الجهات حيث يمتلك الحد الأقصى لمقاومة الضغط، بينما تتضرر المثلثات والمربعات أمام الضغط كثيراً).

بالإضافة إلى أنّ جسم النحل اسطواني الشكل تقريباً ويتلاءم كثيراً مع الخروج والدخول في مثل هذه البيوت.

على أيّة حال، كلّما تحقّقنا بخصوص ما أشار إليه القرآن الكريم في مسأله بناء بيت النحل نحصل على مسائل عجيبة جديدة، تجعلنا نعظم خالق ومبدع ومربّي هذه الحشرة العجيبة.

٢- جمع رحيق الأزهار وصناعة العسل

الأمر الثاني الذي استند إليه القرآن هو جمع العسل من رحيق الأزهار، وهو من المسائل المدهشة والمحيّرة حقاً.

يقول بعض العلماء: يجب أن تسافر ٥٠ الف نحلة من أجل إعداد كيلو غرام واحد من العسل!

وتؤكد حسابات العلماء أيضاً أنّه من أجل إعداد كيلو غرام واحد من الرحيق يجب أن يمتصّ النحل سبعة آلاف وخمسمائة زهرة

كمعدلٍ ويستخرج رحيقها (وطبقاً لهذه المعادلة يجب امتصاص ٥، ٧ مليون زهرة لإعداد كيلو غرام واحد من العسل!) «١».

ولابدّ أن نعلم أيضاً أنّ النحل يسافر يومياً حوالي ١٧-٢٤ مرّة من أجل جمع رحيق الأزهار.

ولا عجب أن نعلم أنّ النحل لم يذق طعامه الراحه طول عمره، وأنّه لا يرى النوم أبداً، فهو يقظ طول عمره! «٢».

(١) تربية النحل، ص ١١٢.

(٢) المصدر السابق، ص ١١٥.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣١٨

ومن أجل أن ندرك العمل المرهق لهذه الحشرة الكادحة يجب أن نقول أنّه يتعين على النحل أن يسافر ٨٠ ألف مرّة ذهاباً وإياباً على

الاقبل من أجل كل اربعمائة غرام من العسل الذي يحصل عليه، ولو ربطنا هذا الذهاب والاياب معاً وقدّرنا مسافه كل مرّة (كمعدل)

بكيلو متر واحد، ستكون المسافة التي يقطعها النحل من أجل الحصول على اربعمائة غرام من العسل تعادل ضعف محيط الكرة

الأرضية، أي أنّ هذه الحشرة الكادحة تقطع مسافة ما يعادل ضعف محيط الكرة الأرضية من أجل جمع شرابٍ يُصنّع من اربعمائة غرام

من العسل! «١».

ومن الضروري الانتباه إلى هذه النكتة وهي أن معظم الأزهار لا تمتلك الرحيق باستمرار كي يستطيع النحل امتصاصه، بل إنها تقدم رحيقها مرة واحدة في اليوم وفي ساعات معينة تتبع نوع الزهرة، فبعض الأزهار تعطي رحيقها صباحاً، وبعضها ظهراً، وبعضها الآخر بعد الظهر، والعجيب أن النحل يعرف هذه البرامج جيداً فيتوجه نحو الأزهار وفقاً لها تماماً فلا يذهب وقته هدرًا! «٢».

وحرى بالإنسان أن يخجل عندما يشاهد هذه الأرقام والاعداد في مجال جمع العسل وعدد مرات الطيران وعدد الأزهار المستهلكة من أجل جرام واحد من هذه المادة الغذائية المهمة، ولكن لو فكر بامعان في نفس الوقت بعظمة خالق هذه الحشرة الكادحة وتحقق بعلمه وقدرته لخضع امامه مؤدياً شكر هذه النعمة، ويمكن أن يكون كل ذلك مقدمة لهذه الغاية السامية.

والنكتة الأخيرة التي يجب أن نذكرها ونغلق هذا الملف الكبير قبل أن نخرج عن مضمون البحث التفسيري، هي أن النحل علاوة على امتصاصه للرحيق فهو مكلف بجمع «الحبوب الصفراء» للأزهار المسماة «بولن» ومزجها مع العسل.

ولهذه الحبوب آثار حياتية فائقة، فهي تحتوي على ٢١ نوعاً من حامض الامونيك

(١) عالم الحشرات وفقاً لنقل عجائب الخلق، ص ١٤٣.

(٢) الحواس الخفية للحيوانات تأليف فيتوس دروشر، ص ١٥٧ (مع الاختصار).

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣١٩

وأشكال الزيوت، وهورمونات النمو، والسكر، والانزيمات، كما تستخدم عصارة الحبوب تلك في معالجة التهابات والاورام المزمنة التي تعجز المضادات الحيوية عن علاجها، كما أن لها آثاراً منشطة أيضاً «١».

وللأرجل الخلفية للنحل نتوءات كأسنان المشط يثير بها غبار الأزهار، ويصنع منه ذرات كروية، وهنالك أيضاً إلى جانب تلك النتوءات ما يشبه «السلة» وآخر يشبه «الملقط» حيث يجمع ذرات غبار الورد هناك ويحفظها، وحينما يعود إلى الخلية يجلب معه بالاضافة إلى رحيق الأزهار كرتين صفراوين كانتاج لعمله اليومي «٢».

٣- العسل غذاء مفيد ودواء شاف

لقد تحدث القرآن الكريم في الجزء الثالث من الآيات المذكورة عن مسألة التأثير المهم للعسل في شفاء المرضى بتعبير مختصر وغامض ويتم في هذا العصر كشف النقاب عن أسرارها من خلال دراسات المختصين بعلم الغذاء، إذ يذكر هؤلاء مزايا وآثاراً لا تُحصى للعسل تبعث على دهشة الإنسان.

فهم يقولون: إن العسل مادة لا تفسد أبداً وتبقى صالحة لآلاف السنين فيما إذا كان صافياً، لأن أي مكروب لا يمكنه أن يعيش فيه أبداً «٣».

وقد عُثر في قبور الفراعنة على ظروف من العسل تعود إلى آلاف خلت من السنين، وقد بقي هذا العسل صالحاً وطبيعياً بشكل كامل، وهذا بحد ذاته دليل على صدق الادعاء أعلاه.

العسل ونظراً لأنه يُستخرج من رحيق الأزهار المختلفة (ونحن نعلم أن كل نوع من

(١) الجامعة الأولى ج ٥، ص ٥٧ إلى ٥٩ (مع الاختصار).

(٢) نظرة على الطبيعة وأسرارها، ص ١٢٧.

(٣) مجلة السلامة.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٢٠

الأزهار يحتوى على مواصفات علاجية خاصة) فيمكن أن يحمل معه صفات هذه الأزهار.

يقول العلماء: يعتبر العسل مادةً حيّةً بسبب احتوائه على الفيتامينات و «الانزيمات» و «حامض الفورميك» فهو يحتوى على الفيتامينات: أ، ب، ث، د، ك، آى، ومواد معدنية كالبوتاسيوم، والحديد، والفسفور، و «الرصاص» و «المنغنيز» و «الالمنيوم» و «النحاس» و «الكبريت» و «الصدوديوم» ومواد اخرى متفرقة، وكذلك يحتوى على مختلف الحوامض «١».

ونحن نعلم أن لكل من هذه المواد الحياتية دوراً اساساً فى حياة الإنسان، ولهذا فإن العسل يحتوى على المواصفات الآتية: يؤثر العسل فى تركيب الدم.

للعسل أثر جيد فى ازالة التعب وتقلص العضلات.

يحد العسل من حدوث الالتهابات فى المعدة والامعاء.

ويؤدى إلى أن يتمتع الوليد بجهاز عصبى متين إذا ما تناولته المرأة الحامل.

والعسل مفيد لمن لديهم جهاز هضمى ضعيف.

ويعتبر العسل مرمماً قوياً.

ويؤثر فى تقوية القلب.

ويولد العسل طاقةً لا بأس بها لدى المسنين.

ينفع لعلاج قرحة المعدة والاثنى عشرى.

ويفيد العسل لعلاج مرض الربو «ضيق التنفس».

ويعتبر عاملاً مساعداً فى علاج الأمراض الرئوية.

ويعتبر دواء لعلاج مرض الروماتيزم، وضعف نمو العضلات، والمتاعب العصبية.

ويعد العسل مفيداً للمصابين بالاسهال نظراً لميزته فى قتل الجراثيم.

(١) الجامعة الاولى ج ٥، ص ١٢٩ (مع شىء من الاختصار).

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٢١

وتُصنع منه ادويةٌ تؤثر فى نومه وجمال الجلد وازالة الحروق والتجعدات.

ويُصنع من العسل دواءٌ يعالج ورم الفم ويُعطرُ التنفس.

ويستثمر العسل أيضاً فى معالجة ذبول الجلد، والتشققات، والحروق، والرمد، واللدغات المؤلمة للحيوانات، وورم العين، والسعال.

وقد قام بعض العلماء بصناعة اقراص من رحيق الأزهار تحتوى على مواصفات تشبه مواصفات العسل واهم آثارها مضاعفة طاقة الشباب وتنشيط الخلايا ومن ثم يؤدى إلى الراحة وطول العمر «١».

ولهذا فقد عرف أن «فيثا غورس» كان يوصى طلباته «كلوا العسل والخبز ما استطعتم» وكان «بقراط» يقول: «لو أردتم عمراً طويلاً فعليكم بالعسل».

إن الآثار المنشّطة والخواص العلاجية والترميمية للعسل أكثر مما تم بحثه فى هذا المختصر، حتى دون بعض العلماء كتباً مستقلة حول الميزات الغذائية والعلاجية للعسل.

وقد جمع القرآن الكريم كل هذه المطالب فى جملة: «فيه شفاء للناس» بشكل دقيق.

ولا عجب إن كانت لدغة النحل والسم الموجود فيها علاجاً للكثير من الأمراض أيضاً، كالروماتيزم، والملاريا، وتضخم الغدة الدرقية،

وألم الأعصاب، وبعض أمراض العين، وغيرها، ويجب أن يكون التداوى يوخز النحل حسب برنامج خاص ويأشرف الطبيب، فمثلاً فى اليوم الأول مرّة واحدة، وفى الثانى اثنتان، وحتى اليوم العاشر يستفاد من عشرة زنابير، وتلك هى المرحلة الأولى من العلاج، وأما فى المراحل الثانى فيتخذ العلاج شكلاً آخر، وإذا تجاوز وخز النحل الحدّ المعين فمن الممكن طبعاً أن تتمخض عنه أخطار، كما أن قليلاً مضر بالأشخاص الذين لديهم حساسية اتجاهه.

لقد كتب بعض العلماء مقالاً أو مقالات بهذا الخصوص، واختار بعضهم رسالته للدكتوراه تحت عنوان «مستخرجات سمّ النحل وخواصها العلاجية» (٢).

(١) الجامعة الأولى ج ٥، ص ٢١٢ - ٢٩٠، نشرة الطب والدواء وكتب اخرى

(٢) المصدر السابق، ص ١٧٤.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٢٢

٤ - خدمات اخرى للنحل أنمن من العسل!

إنّ حياة النحل مليئة بالعجائب والاحداث، وما تحدثنا عنه لحد الآن كان جانباً منها، فقصه بناء الشمع - تلك المادة التى يُشيد منها بيت النحل بشكل كامل - بحد ذاتها قصة مفصلة، والعجيب أنّها لا تستثمر هذا الشمع لبناء البيت فقط، فقد تقوم بتحنيط اجساد الحشرات المؤذية التى لا تستطيع دفعها إلى الخارج كى تأمن شرّها!

يقول أحد خبراء النحل: أنّه لفت انتباهه فى أحد الأيام وجود كرة كبيرة نسبياً داخل خلية نحل، وعندما فتحها وجد فيها جثة جرادة حنطها النحل.

وقال بعضهم عن الشمع، أنّه روح العسل والوعسل روح الزهر وهو خفيف، بحيث إنّ وزن خمسمائة بيت من مدينة النحل لا يتجاوز بضعة غرامات، ولا شكّ فى صعوبة معرفتنا بكيفية ترشح هذا الشمع بالنسبة للنحل، غير أننا نعرف جيداً أنّ للشمع استعمالاً هاماً. وعملية تلقيح وحمل الأزهار، من أهم أعمال النحل.

يقول أحد العلماء: «لولا وجود الحشرات، لخلت سلأنا من الفاكهة، لأنّ الحشرات التى تستفيد من الأزهار يمكن أن تلقحها افضل من بقية عوامل نقل حبوب اللقاح، فعندما تمّد احدى الحشرات التى تعشق الأزهار خرطومها فى الزهرة، فهى إمّا أن تدخل اغلبه، أو أن تدخل جزءاً من جسمها فى الزهرة كما يحدث غالباً، وفى خروجها يتغذى جسمها بالغبار ذى اللون الأصفر وهو غبار الورد، فتقله مباشرة إلى زهرة اخرى وكما نعلم - أن غبار الأزهار عامل مؤثر فلا تتبدل البذور إلى حبوب، ولا المبيض إلى ثمار بدونه.

وهذه النكتة جديرة بالاهتمام من الناحية الفلسفية إذ إنّ الحشرات التى تعشق الأزهار تميل إليها منذ بدء التكوين ... كل منها بموازة الاخرى ينمو ويتكامل، وقد وصل الحال بها اليوم إلى عدم قدرتها على الحياة منفصلة عن بعضها ... ومن أهم الحشرات التى تعشق الأزهار - ولابد أنّكم تعرفونها - هى: الفراشة، والنحل، والزنبور الذهبى و ... لكن النحل أكثر استعداداً وتجهيزاً من بين هذه الحشرات لاجراج الغبار والرحيق من الأزهار» (١).

(١) نظرة على الطبيعة وأسرارها، ص ١٢٦.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٢٣

ومن الضرورى الانتباه إلى أنّ الأشجار التى تحتوى على الأزهار الذكورية والانثوية صنفان: الأشجار العقيمة غير المثمرة، والأشجار

المثمرة التي لها القدرة على ذلك.

ومن أجل تكون الثمار في الصنف الأول لابد من وجود واسطة للتلقيح، وهذه الواسطة عبارة عن النحل، وقد ثبت أن ٨٠ خ من عملية تلقيح الأزهار يجرى عن طريق النحل، ومن أجل المزيد من الاطلاع على دور النحل يجب الانتباه إلى أن جميع أنواع التفاح، والاجاص، والكرز، واللوز وأمثالها تعتبر من الأشجار العقيمة!

وقد واجهت المساعي التي بُذلت بصدد إجراء التلقيح بالطرق الكيميائية والميكانيكية والاصطناعية فشلاً ذريعاً، ومن هنا يتضح دور النحل «١».

ويضيف العلماء: «إنَّ النحل يساعدنا بكلفة لا تقل عن مائتي الف درهم في الزراعة مقابل كل الف درهم من العسل والشمع الذي يصنعه لنا!» «٢».

ونختم هذا الحديث بجملةٍ عجيبةٍ عن «متر لينغ» استاذ علم البيئه، بقوله: «لو هلك النحل (سواء الوحشى منه أو الأليف)، فسيفنى مائة الف نوع من النباتات والأزهار والثمار وما يدريك بأن لا تزول حضارتنا أصلاً!!» «٣».

٥- البناء الجسمي للنحل عجبٌ أيضاً!

إنَّ تركيب النحل ذاته ذو قصةٍ طويلةٍ ومدهشةٍ وعيونها بالذات أكثرُ عجباً إذ يقول العلماء: تتألف عيون النحل من الفين وخمسائة طبقةٍ صغيرة! تُشكّل مع بعضها زاويةً من ٢-٣ درجة، وهذه العيون قادرةٌ على تعيين موقع الشمس فيما إذا حجبتها الغيوم، عن طريق الأشعة فوق البنفسجية التي تؤثر فيها.

(١) تربية النحل، ص ٢٣٣ و ٢٣٤ «مع الاختصار».

(٢) اقتباس عن عالم الحشرات.

(٣) الجامعة الأولى ج ٥، ص ٥٥.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٢٤

لغة النحل وتشاورها مع بعضها تعد من الحقائق العلمية التي تم اكتشافها في السنوات الأخيرة أيضاً «١».

إنَّ النحل لا يرى الأزهار الملونة بشكلها ولونها الذي نراه، بل إنه يرى بواسطة الأشعة فوق البنفسجية، وهذا النور يضاعف في جمال الأزهار فيجذبها نحوها «٢».

وللأسف فإنَّ طبيعة البحث لا تسمح لنا بمزيد من الكلام في هذا المضمار، ولكن يجب القول بأنه كلما سمعنا عن هذه الحشرة ونشاطاتها التي أشار إليها القرآن الكريم تتكشف لنا أسرارٌ جديدةٌ عن قدرة الإله العظيم خالق كل هذه العجائب.

و «مسك الختام» نُيْمُ باسماعنا وقلوبنا صوب كلام الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول في توحيد «المفضل»:

«انظر إلى النحل واحتشاده في صنعة العسل، وتهيئة البيوت المسدسة وما ترى في ذلك اجتماعه من دقائق الفطنة فانك إذا تأملت العمل رأيت عجباً لطيفاً وإذا رأيت المعمول وجدته عظيماً شريفاً موقعه من الناس، وإذا رجعت إلى الفاعل الفيته غيباً جاهلاً بنفسه فضلاً عما سوى ذلك، ففي هذا أوضح الدلالة على أن الصواب والحكمة في هذه الصنعة ليس للنحل بل هي للذي طبعه عليها وسخره فيها لمصلحة الناس...» «٣».

(١) الحواس الغامضة للحيوانات، ص ١٣٧ و ١٤٠ و ١٤٣.

(٢) سُرُّ خَلْقِ الْإِنْسَانِ، ص ٩٣.

(٣) بحار الأنوار، ج ٣، ص ١٠٨.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٢٥

١٩- آياته في خلق الحيوانات

تمهيد:

إنَّ الحيوانات تُمثل جانباً عظيماً من الموجودات الحيَّة في العالم، وهي تجلب اهتمام كلِّ ناظرٍ إليها لتراكيبها المختلفة وأشكالها المتنوعة وتباينها الكثير، وعجائبها العظيمة، ودراسة كلِّ منها، تُعرِّف الإنسان على العلم والقدرة اللامتناهية لخالقها. وتتجلى أهميَّة هذه المسألة عندما نرى هذه الحيوانات في مكانٍ واحدٍ، فمثلاً لو ذهبنا إلى حديقة الحيوانات، وزرنا غرفَ الأسماك وأنواع الطيور، والقردة، والاسد والفهد والنمر والزرافة والفيل، وننظر عادات وعجائب خلق كلِّ منها، فلا يمكن لمن يمتلك قليلاً من العقل والفضيلة، أن لا يغرق بتفكيره بها، ولا يُدعن أمام خالق هذه الموجودات المتنوعة والعجيبة. ومن بين هذه الحيوانات، هنالك حيوانات أليفة تخدم الإنسان وذات منافع وبركات مختلفة للبشر، جديرة بالاهتمام أكثر من غيرها، لهذا فقد استند القرآن الكريم في آياته التوحيدية إلى جميع الدواب بشكلٍ عام وإلى الأنعام والبهائم بشكلٍ خاص، وذكر جوانب من عجائبها في آياتٍ عديدة.

بهذا التمهيد نُمعن خاشعين في الآيات الآتية:

١- «وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ». (الشورى ٢٩)

٢- «إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٢٦

آياتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ». (الجاثية/ ٣-٤)

٣- «أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ». (الغاشية ١٧)

٤- «وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ». (المؤمنون/

٢١-٢٢)

٥- «وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ». (النحل / ٦٦)

٦- «وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا

وَأَشْعَارِهَا أَثَانًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ». (النحل / ٨٠)

٧- «وَمِنَ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ». (فاطر / ٢٨)

٨- «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ

وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ».

(يس / ٧١-٧٣)

٩- «وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْبِتُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ

وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ». (الزخرف / ١٢-١٣)

١٠- «اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُودْرِكُمْ وَعَلَيْهَا الْفُلْكِ

تُحْمَلُونَ* وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ» (١)

. (غافر / ٧٩ - ٨١)

(١) هنالك آيات اخرى فى هذا المجال أيضاً مثل: الشعراء، ٣٣؛ والانعام، ١٤٢؛ والزمر، ٦؛ والزخرف، ١١.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٢٧

شرح المفردات:

«دَابَّةٌ»: كما قلنا سابقاً من مادة «دبب» أى السير ببطءٍ وهدوء، إلا أنها تُطلقُ عادةً على جميع الحيوانات، وعلى المذكر والمؤنث والموجودات التى تَدْبُ على الأرض وحتى طيور السماء، وجمعها «دوابٌ» وتعنى البهائم.

وقد تستعملُ أحياناً بصدد نفوذٍ وحلولٍ شىءٍ فى موجودٍ آخر، فيقال مثلاً: دبَّ الشرابُ فى الجسمِ ودبَّ السُّقْمُ فى البدن.

وهذا المفهوم يشملُ حتى الإنسان، وموارد استعماله فى القرآن الكريم تشهدُ على ذلك «١».

«انعام»: جمع «نعم» (على وزن قَلَم) وهى ماخوذة فى الأصل من مادة «نعمه» ثم اطلقت على «الجَمَل»، لأنَّ الجَمَلَ كان من أفضلِ النعمِ لدى العرب، ويُطلقُ هذا اللفظ على الدواب الاخرى كالبقر والماشية بشرط أن يكون الجملُ جزءاً منها «٢».

وصرَّحَ رهطٌ من ارباب اللغة أنَّ «النَّعم» ذات معنى جمعى ولا مفرد لها، و «انعام» جمع الجمع «٣».

يقول «ابن منظور» فى «لسان العرب»: إنَّ «النَّعم» تعنى الحيوان المجتر، ثم ينقل عن آخرين أنَّ «النَّعم» تُقالُ بخصوص الجمل، وعن بعضهم الآخر أنها تُطلقُ على الجمال والماشية.

وسُميت «النَّعامُ» بهذا الاسم لأنها تشبه «البعير» كثيراً لضخامة جسمها، ولذلك اطلقت على ظلال الجبال وغيرها، أو الاعلام التى تُثبَّت فى الصحارى لتحديد الطريق.

على أئمةٍ حال .. مهما كان المعنى الأول للفظ «انعام» فهو يطلقُ فى الاستعمالات العادية على الحيوانات المجترَّة (البقر والأغنام والجمال).

(١) لسان العرب، مفردات الراغب، ومجمع البحرين مادة (دب).

(٢) مفردات الراغب.

(٣) مجمع البحرين، وأقرب الموارد.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٢٨

جمع الآيات وتفسيرها

ماذا يجرى فى عالم الحيوانات؟

بعد الإشارة فى الآية الاولى والثانية إلى آيات الله فى خلق السماوات والأرض، وكذلك خلق الإنسان أشار إلى خلق كافة الحيوانات الموجودة فى السماوات والأرض، قائلاً «وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ».

«بَتَّ»: تعنى فى الأصل تفريق الشىء كما يُفَرِّقُ الهواء الاتربة، وهذا التعبير فى الآية يعنى تكوين وخلق وابرار الموجودات المختلفة،

ونشرها في مختلف المناطق.

على أزيدة حال .. فإنَّ هذا التعبير يشملُ جميع البهائم والحيوانات والإنسان، ابتداءً من الموجودات المجهرية التي تتحرك حركةً دقيقةً وخفيّةً وحتى الحيوانات العملاقة التي يبلغ طولها عشرات الامتار وقد تزن أكثر من مائة طن «١» ويضم كل أنواع الطيور ومئات الآلاف من أنواع الحشرات المختلفة، وآلاف الآلاف من أنواع الحيوانات الوحشية والأليفة والحيوانات المفترسة والزواحف والأسماك الصغيرة والكبيرة والموجودات الحيّة في البحار.

ولو تأملنا قليلاً في سعة مفهوم «دابة» وشموله بالنسبة لجميع أنواع البهائم لتجسد أمامنا عالمٌ من العجائب والغرائب ومناظرٌ من القدرة، حيث يكفي كل منها أن يُعرفنا على علمٍ وقدرة الخالق العظيم لهذا الخلق.

لقد دُوّنت الملايين من الكتب وبمختلف اللغات حول خصائص بناء وحياء أنواع الاحياء، واعدوا الكثير من الاشرطه المصوره في هذا المجال، واصدروا مجلاتٍ مختلفه وبلغاتٍ متباينه بخصوص هذا الموضوع، حيث تجعل مطالعتها الإنسان يغرق في بحرٍ من

(١) يصل وزن بعض الحيتان إلى مائة وعشرين طناً، وكما يقول صاحب كتاب «نظرة على الطبيعة وأسرارها» (البروفسور ليون برتن) فإنَّ هذا الوزن يعادل وزن الف وخمسائة رجلٍ ضخم الجثة! أو اربعة وعشرين فيلاً ضخماً! وقد أجريت حساباتٍ على وزن أعضاء جسمها: فقلبه يزن ستمائة كيلو غرام، والدم يزن ثمانية آلاف كيلو غرام، والرئتان طناً واحداً، والعضلات خمسين طناً، والجلد والعظام والامعاء والاحشاء تزن ستين طناً، (ص ٢٣٨).

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٢٩

العجائب والغرائب، وقد أزلت المساعي التي بُذلت من قبل العلماء على مدى آلاف السنين لمعرفة الحجاب عن جانبٍ واحدٍ فقط من حياتها، ومن المسلم به أنَّ المستقبل سيشهد في كل يوم انكشاف اسرارٍ جديدة من حياتها. فبعض العلماء قضى عشرين عاماً من عمره لدراسة حياة النمل فقط، وإذا أرادوا دراسة حياة كافة أنواع الحيوانات بهذا الاسلوب فمن غير المعروف أن يكفي عمر البشرية لمعرفة أسرارها.

والجدير بالذكر أنَّ ما نتحدث عنه هو الكائنات الحيّة الموجودة في الأرض، بينما يستفاد من تعبير «فيهما» (في السماء والأرض) أنَّ هنالك احياء كثيرة في السماوات أيضاً ليست في متناول دراسات علمائنا، وربما يعثر الإنسان على موجوداتٍ حيّةٍ عجيبةٍ وغريبةٍ اخرى في باقى الكواكب من خلال الرحلات الفضائية حيث يصعب علينا الآن تصور شكلها ومواصفاتها.

وقال بعض المفسرين إنَّ المقصود من حيوانات السماوات هي الملائكة، بينما لا تُطلق كلمة «دابة» على الملائكة ويعتقد بعضهم أيضاً بعدم وجود أي كائنٍ حيٍّ في السماوات غير الملائكة، وقد ذكروا تبريرات وتفسيرات اخرى للآية، بينما يتضح هذا المعنى لدينا اليوم إذ إنَّ الكائنات لا تقتصر على الكرة الأرضية فقط، وكما يقول العلماء هنالك ملايين الملايين من الكواكب في هذا الفضاء الفسيح يمكنُ السكنُ فيها من قبل الدواب والاحياء.

والجدير بالذكر أيضاً أنَّ الحيوانات لا تعتبر آية من آيات الله في خلقها وطرز حياتها وجوانبها المختلفة فحسب، بل لفوائدها العديدة وخيراتها الكثيرة التي تفيض بها على الإنسان.

وإذا قال: «آياتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ» فهو إشارة إلى الذين لديهم الاستعداد لقبول الحق والإيمان ولم يقصد المعاندين والمتكبرين والأنانيين.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٣٠

ويقول في الآية الثالثة من البحث بصيغته استفهام توبيخي: «أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ».

واللطيف أنه تمت الإشارة بعد ذلك إلى عظمة خلق السماء، ثم الجبال ومن بعدها الأرض، فوضع الإبل إلى جانب هذه الاشياء، يُعتبر دليلاً على أهميّة خلق هذا الحيوان.

إنَّ التأملَ في أوضاع هذا الحيوان، يدلُّ على أنَّه ذو مواصفاتٍ متباينة تجعله يختلف عن باقي الحيوانات الأخرى ويتضح جيداً من خلال الانتباه إلى هذه المواصفات لماذا استند القرآن الكريم إلى هذا الموضوع بشكلٍ خاص ومن جملتها:

١- إنَّ مقاومة الجَمَل لا نظير لها، لا سيما ازاء الجوع والعطش، وشدة التحمُّل، وقد يقاوم العطش وهو اصعبُ من الجوعٍ لعشرة أيام أو أكثر ولهذا يعتبرُ أفضل وسيلة لقطع الصحراء القاحلة، لذلك فقد اطلقوا عليه «سفينه الصحراء». لأنَّه يتمكن من خزن الغذاء والماء لمدةٍ طويلةٍ في بطنه ويقتصد في استهلاكها أيضاً.

٢- لا يتقيد بنوع خاص من الغذاء في طعامه، وغالبا ما يتغذى على كل ما ينمو في الصحراء.

٣- والأعجب من ذلك أنَّه يواصل طريقه شاقاً العواصف الترابية المليئة برمال تعمي العيون وتصم الآذان، وهو يستطيع سدَّ منخريه مؤقتاً، ويحافظ على اذنيه من الغبار، ولعينيه هدايا يطبق أحدهما على الآخر في هذه الظروف، وينظر من خلفهما، وما قاله بعضهم بأنَّ الجَمَل يسير مغمض العينين فإنَّ هذا هو المقصود.

حتى ذكر بعض المفسرين إنَّه يُحسنُ تشخيص الطريق في الليالي المظلمة أيضاً!

٤- إنَّ الحيوانات تتباين فيما بينها، فبعضها يستفاد من لحمه ومنها ما يفيد في الركوب، وبعض يستفاد من لبنه فقط، وبعضها الآخر للحمل، إلَّا أنَّ الجَمَل يجمع بين هذه الجوانب الأربعة جميعها، فيستفاد منه للركوب ولحمل الأمتعة ومن لبنه وجلده ووبره.

٥- ومن العجائب المتميزة لهذا الحيوان هي أنَّ الحمل يوضَع على ظهره أو يُركب أثناء بروكه، وينهض وبحركةٍ واحدةٍ من مكانه ليقف على أرجله، بينما تنعدم هذه القدرة لدى باقي الحيوانات.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٣١

وقد ذكر بعضهم أنَّ هذا يعود إلى القدرة العجيبة الكامنة في رقبته الطويلة التي تعمل طبقاً لقانون «الرافعة» الذي اكتشفه «ارخميدس» لأول مرّة، (فهو يقول: لو وجدتُ نقطة للاتكاء خارج الكرة الأرضية لتمكنتُ برافعة ضخمة من تحريك هذه الكرة عن مكانها! وهذا هو الواقع، فطبقاً لقانون الرافعة أنَّ الضغط الوارد على أحد طرفي الرافعة الذي يضرب في المسافة بينه وبين نقطة الاتكاء يوجد في الطرف الآخر للرافعة الاقرب إلى نقطة الاتكاء ضغطاً عظيماً).

وانطلاقاً من هذا فإنَّ رقبه البعير تكتسب صفة الرافعة استناداً إلى نقطة ارتكازها المتمثلة في الأرجل الإمامية ومن خلال حركةٍ سريعةٍ وقويةٍ تعمل على تخفيف الاحمال الموجودة على ظهر البعير وتسمح له باطلاق رجليه الخلفيتين وينهض من مكانه! «١».

كلُّ هذا وعجائب ومواصفات أخرى أدت إلى أن يُستند إليه بوصفه آيةً من آيات الله العظيمة، وليس فقط لأنَّ الجَمَل كان من الأركان المهمة في حياة العرب الذين كانوا أول من خوطب بهذه الآيات.

فمن يستطيع أن يخلق كلَّ هذه العجائب والبركات في مخلوقٍ واحدٍ؟ ومن ثمَّ يجعله مطيعاً للإنسان بحيث لو أخذَ طفلٌ صغيرٌ بعنان قافلته من الأبل لكان بمقدوره أن يأخذه إلى المكان الذي يصبوا إليه، والعجيب أن الأنعام الموزونة (كالحدى) تترك أثراً في نفسه أيضاً وتدفعه إلى الحركة بحيويةٍ ونشاطٍ وشوقٍ.

أولست هذه آيات عن عظمته وقدره الخالق؟ أجل؛ فاولئك الذين لا يمرُّون على هذه الآيات مرور الكرام باستطاعتهم أن يدركوا أسرارها (لا تنسوا أن جملة: «أفلا ينظرون» من مادة «نظر» إلَّا أنَّها ليست النظر العادي، بل النظر المترامن مع التفكير والتأمل).

(١) اشير إشارة قصيرة في كتاب الجامعة الأولى ج ٦، ص ٣٢ إلى هذه المسافة، وكما اشير في كتبٍ أخرى بإشاراتٍ مفصلة.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٣٢

ويقول في الآية الرابعة والخامسة ضمن إشارته إلى المنافع المختلفة للحيوانات بالنسبة للإنسان: «وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً». وذكر «عبرة» هنا بصيغة «نكرة» حيث تعتبر دليلاً على أهميته الفاتحة، وكما يقول الراغب في كتاب المفردات «عبرة» من مادة (عبر)

وتعنى العبور والانتقال من حالةٍ إلى أخرى وهنا حيث يرى المعتبر حالةً يدلّك من خلالها على حقيقة لا يمكن ملاحظتها فاطلقوا على ذلك «عبرة».

وعليه فإن مفهوم الآية يشير إلى أنه بمقدوركم أن تصلوا إلى معرفة الله وعظمه وعلم وقدره مبدىء الخلق العظيم من خلال ملاحظة أسرار وعجائب الحيوانات.

ثم أشار القرآن في شرحه لهذا المعنى إلى أربعة جوانب من الفوائد المهمّة للحيوانات فيقول ابتداءً: «نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا» نعم، اللبن هذه المادة السائغة الطعم التي تخرج من الحيوانات ومن بين دمها ولحمها شراباً مغذياً كاملاً، وورد هذا المعنى مع تأكيد أكثر في الآية الخامسة إذ يقول: «نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ» (١)

فأى قدرة تلك التي تُخرج مثل هذا الغذاء الطاهر الصافي اللذيذ من بين تلك الأشياء الملوثة؟ لونه ابيض، طعمه حلو، رائحته عطرة، ومقبول من جميع الجهات.

والعجيب ما يذكره العلماء.. فمن أجل إنتاج لتر واحد من الحليب في ثدى الحيوان يجب أن يمر ما يقارب خمسمائة لتر من الدم خلال هذا العضو كي يتم امتصاص المواد اللازمة من الدم لتكوين ذلك اللتر من اللبن! ومن أجل إنتاج لتر واحد من الدم في الشرايين

(١) «فرث» بمعنى الغذاء المهضوم، والجدير بالذكر أن «بطونها» ذكرت في سورة المؤمنون مع ضمير مؤنث حيث لها معنى يفيد الجمع في مثل هذه الموارد، وفي سورة النحل «بطونه» بضمير المذكر إذ لها معنى فردي، وقال بعض المفسرين أن «انعام» اسم جمع ولو لوحظ ظاهر اللفظ فإن ضمير المفرد يعود إليها، ولو لوحظ معناه فإنه ضمير جمع ولو لوحظ ظاهر اللفظ فإن ضمير المفرد يعود إليها، ولو لوحظ معناه فإنه ضمير جمع وقال بعضهم أن ضمير المفرد لمفهوم الجمع وضمير المؤنث لمفهوم الجماعة، (يراجع تفاسير الكشاف والكبير وروح المعاني و ابو الفتوح الرازي).

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٣٣

لا بد أن تمرّ الكثير من المواد الغذائية خلال الامعاء هنا حيث يتجلى مفهوم: «مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ». وقد قيل الكثير حول تركيب اللبن وكيفية تكوينه في الأثداء، وأنواع المواد الأولية والفيتامينات الموجودة فيه، ومزاياه التي تمنح الطاقة، والمستخرجات المتعددة التي تنتج منه، وفائدته لكل الأعمار، بحيث لو جمعت لألفت كتاباً معتبراً، يُخرجنا التطرق إليه عن اطار البحث التفسيري.

ونكتفي هنا بذكر رواية مليئة بالمعاني عن النبي صلى الله عليه وآله حيث يقول: «إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ طَعَامًا فَلْيَقُلْ اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ، وَأَطْعِمْنَا خَيْرًا مِنْهُ، وَإِذَا شَرِبَ لَبَنًا فَلْيَقُلْ اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ، وَزِدْنَا مِنْهُ، فَإِنِّي لَا أَعْلَمُ شَيْئًا أَنْفَعُ فِي الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ مِنْهُ» (١).

ثم يتطرق إلى الفائدة الثانية للحيوانات ذوات الأربع، فيقول في جملة قصيرة وغامضة: «وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ».

وهذا التعبير يُمكن أن يكون إشارة إلى الصوف والوبر والشعر في الحيوانات والتي يُصنع منها أنواع الملابس والفرش باستمرار، وكذلك إشارة إلى الجلود والامعاء والعظام والقرون التي تُصنع منها وسائل الحياة المختلفة، وحتى فضلاتها يمكن استخدامها كأسمدة في تنمية الأشجار وتنشيط الزراعة والنباتات.

وفي المرحلة الثالثة أشار إلى فائدة أخرى قائلاً: «وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ».

مع ما ذكره خبراء الغذاء من كل أضرار اللحم، وبالرغم من المؤاخذات الواردة على آكلي اللحوم في العالم من الناحية الطبية

والاخلاقية وغيرها، فأن الكثير يعتقدون أن استهلاك اللحم بكمية قليلة ليس غير مضر فحسب بل وأنه ضروري بالنسبة لجسم الإنسان، وتبرهن تجارب الذين يعيشون على النباتات بأنهم مصابون بالاضطرابات والنواقص وتؤيد وجوههم الصفراء ذلك، وهذا يعود إلى أن البروتين وبعض العناصر الأساسية الموجودة في اللحم لا يمكن الحصول عليها في أي نبات أبداً، والأهمية التي

(١) تفسير روح البيان، ج ٥، ص ٤٨.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٣٤

يعطيها القرآن لهذه المسألة تحكى عن هذا المعنى

ولكن مما لا شك فيه أن الإفراط في اكل اللحوم شيء مذموم في نظر الإسلام ومن وجهة النظر الطبية أيضاً.

وأشار في الجزء الرابع والأخير من هذه الآية إلى الاستفادة من الحيوانات للركوب.

فيقول: «وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ».

فقد كانت هذه الحيوانات على الدوام خير وسيلة للحمل والركوب، واليوم في عصر السيارات والشاحنات لم يستغن البشر أيضاً عن وجود هذه الحيوانات للركوب وحمل الأمتعة، لا سيما في بعض المناطق الجبلية والطرق التي لا يمكن استغلال وسائل النقل الحديثة فيها، فيستفاد من الحيوانات في الحمل والنقل فهناك حيوانات كالبغال تعتبر افضل وسيلة لارسال العتاد إلى جبهات الحرب على اعالي الجبال الوعرة، ولولاها لاصبح من الصعوبة السيطرة على الجبال الشاهقة الواسعة.

وبهذا فقد أودع البارئ تعالى فوائد جمّة في هذه الحيوانات، ويبيّن آثار عظمتها وفضله على الإنسان من خلالها.

واللطيف أن الحيوانات جاءت في هذه العبارة من الآية في مقابل السفن وهذا دليل على أنها بمثابة سفن في اليابسة! «١».

وفي الآية السادسة وكتعريف بالذات الإلهية، أو ذكر النعم التي تجر الإنسان إلى معرفته، أشار إلى ما يستفاده الإنسان من جلود واصواف الحيوانات، فيقول: «وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا».

ثم يضيف: «وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ».

أجل .. فالبيوت الثابتة لا تلبى حاجة الإنسان باستمرار، ففي الكثير من الحالات يحتاج الإنسان إلى بيوت متنقلة كي يستطيع حملها ونقلها بسهولة وتقاوم في نفس الوقت

(١) وورد ما يشابه هذا المضمون في الآيات ٥ إلى ٨ من سورة النحل حيث يشير إلى المنافع المتعددة للحيوانات.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٣٥

البرد والحرّ والرياح والعواصف وأمثال ذلك، ومن افضل البيوت المتنقلة هي الخيام التي تصنع من الجلود التي تمت الإشارة إليها في هذه الآية، وهي اقوى من الخيام المصنوعة من الصوف أو القطن وأكثر مقاومة وراحة.

ويتطرق في ختام الآية إلى جانب آخر من منافعها المهمة، إذ يضيف: «وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ» «١».

ونحن نعلم طبعاً أن الصوف من الأغنام، والوبر من الابل، والشعر من الماعز، ونعلم أيضاً أن أنواع الملابس، والفرش، والاعطية، والستائر، والخيام، والسفر، والحبال، وأمثالها مما يلعب دوراً مهماً في حياة الإنسان، تُصنع جميعها من هذه المواد الثلاث.

وبالرغم من أنهم قاموا في هذا العصر بصناعة أنواع الملابس والفرش من المواد الصناعية والنفطية، إلا أن دراسات العلماء أثبتت أنها لا تعتبر صالحة لحياة الإنسان، وغالباً ما تؤدي إلى مضاعفات غير ملائمة له، بينما تعتبر الملابس الصوفية والوبرية والشعرية من أصلح الملابس.

وقد اعتبر بعضهم التعبير ب «إلى حين» إشارة إلى دوام الآلات التي تُصنع من هذه المواد الثلاث، ويعتبرها بعضهم إشارة إلى أن جميع

ذلك الأثاث معرض للزوال ولا يجب التعلق به، ويبدو أن هذا المعنى أكثر تناسباً.

وفي الآية السابعة التي وردت ضمن الآيات التوحيدية في سورة فاطر، حيث أثارَت انتباه النبي صلى الله عليه وآله إلى خلق الإنسان والدواب والأنعام، قائلاً: «وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ»

(١) «بيوت» جمع «بيت» ويعنى حجرة أو بيت الإنسان الذى يأوى إليه ليلاً، ولفظة «بيتوته» التى تعنى «المبيت ليلاً» مأخوذة من ذلك أيضاً، «ظعن» تعنى الرحيل والتنقل من مكان إلى آخر وهى تقابل «الاقامة»، ... «اثاث» مأخوذة من مادة «اث» وتعنى الكثرة والاضطراب وتطلق على لوازم البيت نظراً لكثرتها واعتبرها بعضهم بمعنى الغطاء واللباس وبعضهم بمعنى البساط فى حين اعتبرها بعضهم الآخر راجعة إلى «المتاع» الذى يعد وسيلة للتمتع والاستفادة وأنهما بمعنى واحد.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٣٦

وَالْأَنْعَامَ مُخْتَلِفٍ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ» (١).

أى كما خلق الله تعالى انواع الثمار وبالوان متباينة، وتباين الوان الجبال فيما بينها، فقد خلق ألواناً مختلفة من الاحياء سواء الإنسان أم الدواب أم الأنعام، بالرغم من أن اغلب المفسرين اتخذوا الألوان هنا بمعنى الألوان الظاهرية المختلفة (٢)، ولكن يبدو أن التعبير المذكور ذو معنى واسع، ويُعتبر إشارة إلى تفاوت أنواع واصناف الناس والدواب والأنعام، الذى يعتبر من اهم عجائب وغرائب الخلق. لا شك أننا نعلم أن هنالك اليوم مئات الآلاف من أنواع الدواب والحيوانات فى العالم، بل يذكر بعض العلماء أن أنواعها يبلغ مليوناً وخمسمائة الف نوع!، وهذا التباين العجيب وبهذه المواصفات التى تتصف بها كل منها يعتبر آية عظيمة من آيات الله، وبراهين على علمه وقدرته.

نعم ... فقد ابدع هذا الرسام الماهر بقلم واحد ولون واحد فى رسم انواع لا تُحصى من الرسوم ونماذج ملونة من الألواح كل منها آية فى صنع الخلق.

غير أن المفكرين والعلماء هم الذين فتحوا بصائرهم ليرَوْحَ العالم فى هذه الميادين البديعة، و «يَرَوْنَ مَا لَا يُرَى» ، لذلك يقول فى ذيل الآية: «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ».

إن ألوانها الظاهرية المختلفة تشغل أهل الظاهر، وألوانها الباطنية وخلقها المتباين تشغل أهل الباطن والمعنى

فالألوان الظاهرية للأزهار تجذب نحوها النحل، كى يساعدها فى التلقيح، كما تتجاذب الإناث والذكور من الحيوانات فيما بينها «لا سيما فى الطيور»، إلا أن ألوانها الباطنية وبناءها المتفاوت يدعو العلماء وأصحاب الفكر نحوه، كى يُلَقِّحَ فكرة من بذر التوحيد.

(١) «من الناس» خبرٌ لمبتدأ محذوف، والتقدير هو: «ما هو مختلف ألوانه»، و «كذلك» أشار إلى الثمار المختلفة وألوان الجبال المتفاوتة التى وردت فى الآية السالفة.

(٢) تفسير الميزان، وتفسير روح الجنان، وتفسير فى ظلال القرآن، وتفسير القرطبي وغيره.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٣٧

و «حَشِيَّة»: تعنى «الخوف الممزوج بالتعظيم الناتج عن علم ووعى»، وفى الحقيقة هى مزيج من الرهبة والرجاء لهذا وصف الله نفسه بعد هذا الكلام مباشرة بصفتي «عزیز» و «غفور» حيث إنَّ الأول منشأ للرهبه والثانى مصدر للرجاء، وعليه فإنَّ ذيل الآية مركب فى الحقيقة من العلة والمعلول.

علماً أن ذكر «الإنعام» بعد الدواب، جاء من باب ذكر الخاص بعد العام، لأهميته الانعام فى حياة الناس.

وفى الآية الثامنة وجه اللوم من خلال استفهام توبيخى للمشركين والكافرين الذين ضلُّوا وتركوا خالق الكون وتوجهوا نحو الأصنام،

فقال: «أولم يروا أننا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون».

إن التعبير «لهم» ذو مفهوم واسع للغاية حيث يشمل المنافع المختلفة لجميع أجزاء هذه الانعام، أجل.. فقد اقتضى لطف الله أن يكون هو «الخالق» والآخرون هم «المالكون»!

ثم أشار إلى نكتة أخرى فيما يخص الانعام، مضيفاً: «وَدَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ». ويقول في الختام «فهلا يشكرون هذه النعم التي وهبها الله للناس؟ ولا يسعون لمعرفة ذاته المقدسة؟ «أفلا يشكرون».

ويمكن أن يكون التعبير «مما عملت أيدينا» إشارة إلى تعقيد مسألة الحياة التي لم ينكشف لغزها للبشر لحد الآن، وهذا نابغ من قدرته الازليّة فقط.

والتعبير «المشارب» بعد ذكر «المنافع» من قبيل ذكر الخاص بعد العام حيث تم الاستناد إليه بسبب أهميته.

علماً أن «مشارب» جمع «مشرّب» (لأنها جاءت مصدراً ميميّاً بمعنى اسم المفعول،

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٣٨

ويمكن أن تكون إشارة إلى أنواع حليب الانعام المختلفة، التي لكل منها آثاره ومزاياه الخاصة به، أو إشارة إلى مستخلصات الحليب التي نحصل عليها، وبما أن أصلها هو الحليب فقد اطلق عليها لفظ «مشارب»، ونحن نعلم أن الحليب ومستخرجاته يمثل جانباً مهماً من غذاء الناس (١).

ولنا بحث مناسب حول «دلّلناها» سيأتي في قسم التوضيحات إن شاء الله.

والآية التاسعة من البحث وقعت ضمن سلسلة الآيات التي تتعلق بمعرفة الله والتوحيد لأنه قال في الآيات التي سبقتها: «وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ»، ثم تطرّق إلى وصف الله القدير قائلاً: «وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ»، ثم يضيف في آية البحث: «وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا».

ويبدو أن المقصود من «أزواج» هنا هو أزواج الاناث والذكور من الحيوانات والاحياء، لا سيما وأنه يضيف بعد ذلك: «وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ» (أى الفلك في البحار والانعام في اليابسة).

وبهذا فإن ذكر «انعام» بعد «الأزواج» جاء من باب ذكر الخاص بعد العام.

إلا أن بعض المفسرين يعتقدون أن «الأزواج» هنا إشارة إلى «الاصناف المتفاوتة» للموجودات، سواء كانت حيوانات أم نباتات أم جمادات، لأن كل ما منها له جنس يقابله، ففي الحيوانات هنالك الذكر والانثى وفي غيرها النور والظلام، السماء والأرض، والشمس والقمر، اليابس والرطب، وحتى داخل أفكار الإنسان هنالك الخير والشر، الكفر والإيمان، التقوى والفجور، وامثال ذلك، والوجود الوحيد الذي لا اختلاف فيه هو ذاته

(١) يعتبر بعض المفسرين أن «مشارب» إشارة إلى الأواني التي تُصنع من جلد الحيوانات كأنواع القرب والأواني الأخرى إلا أن هذا التفسير يبدو بعيداً إذ ليس لهذا الأمر أهمية بالغة بحيث يُستند إليه بعد ذكر المنافع.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٣٩

المقدّسة، وهو متفرد في كافة النواحي، إلا أن التفسير الأول يبدو أكثر صواباً من خلال ما ذكرناه من قرينه.

على أيّة حال، فقد ذكر خلق الأزواج من جانب وخلق الانعام للركوب من جانب آخر في هذه الآية براهين عن الوجود المقدّس لله تبارك وتعالى

إنّ النظام الدقيق الذي يسود مسألة التكاثر في الموجودات الحيّة والحيوانات نظام معقّد وعجيب للغاية، فما هي العوامل التي تؤدّي إلى أن يكون الجنين في رحم امه ذكراً أو انثى وما هي العوامل التي تؤدّي إلى حفظ التوازن بين جنس الذكر والانثى وما هي

العوامل التي تؤدي إلى أن يجذب أحدهما نحو الآخر كي تحصل مُقدماتُ الحمل؟ وما هي العوامل التي تعمل على تكامله في مرحلة الحياة الجنينية المعقدة؟

فإذا تأملنا جيداً، لوقع بصرنا على آياتٍ عظيمةٍ من آياتِ الله في هذا الطريق الطويل، وفيما يخص تدليل الحيوانات لركوبها. ثم تحدّث عن تسخير هذه الحيوانات القوية والضخمة للإنسان، قائلاً: «لَسَيَتَوَوُّوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ».

صحيح أننا ننظر إلى هذه المسألة نظرةً بسيطةً جزاءً اعتيادنا عليها يومياً، حيث نرى قوافل كبيرة من الابل والخيول، وحتى حيوانات ضخمة كالفيلة مسيخةً بيد طفلٍ صغيرٍ، وأحياناً يودعُ عنانُ قافلةٍ منها بيد طفلٍ فيقودها حيث يشاء، إلّا أنّها في الحقيقة ليست أمراً هيناً، فلو كان لأحدها أقلُّ حالةٍ من التمرد والمواجهة فلا يستفاد منها في الركوب أبداً بل لأصبحت تربيتها من قبل الإنسان خطيرةً جداً. فنحن لا نستطيع أن نربّي بازاً مشاجراً، وحتى قطعةً غاضبةً وهائجةً، فكيف نربّي هذه الحيوانات الكبيرة القوية التي يمتلك بعضها قروناً وبعضها ذات اسنانٍ قاطعةٍ وفكٍ قوياً، وارجل بعضها قويةً وكبيرةً تستخدمها للضرب والركل، فإذا لم تكن مطيعةً فكيف

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٤٠

نستخدمها للركوب؟ ولولا التسخير الإلهي حقاً لم نستفد منها أبداً: «مَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ» (١)

والنكتة الجديرة بالذكر أيضاً أنّ ظهر الأنعام خلق بحيث يكون مناسباً ومعدداً لركوب الإنسان. ومما يلفت النظر أنه يذكر الركوب عليها هدفاً أولاً، وذكر نعم الخالق يعتبره الهدف الثاني، وتعد معرفة الذات الإلهية المقدسة وتسيبحة وتقديسه هي الهدف النهائي، فذكر النعم يضع الإنسان دائماً في طريق معرفتها، ومن ثم كل مواهب الخلق دافع ومقدمة لمعرفة الله سبحانه.

وذكر هذا المعنى في الآية العاشرة والأخيرة بالإضافة إلى منافع أخرى وقد تمت الإشارة في هذه الآية إلى خمس فوائد أساسية للأنعام، واعتبرها من آيات الله.

فيقول في البداية: «اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا» (وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ).

ثم أشار إلى الفوائد المختلفة، كاللبن والصوف والجلد والمواد الطبية وامثال ذلك، فيقول إجمالاً: «وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ» (٢). ويقول في المرحلة الأخيرة: «وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ».

إنّ ذكر هذا المعنى على هيئة منفعةٍ مستقلة، مع أنّ مسألة الركوب قد ذكرت سابقاً، يُمكن أن يكون المقصود منه حمل ونقل الامتعة وضروريات الحياة (٣)، أو لاغراض التنزه والسياحة والمسابقات أو كسب القوة في ساحة الجهاد، أو الصراع مع بعض الحيوانات الوحشية، أو عبور الأنهار عن طريق سباحة الحيوانات، لأنّها جميعاً تندرج في لفظ «حاجة» الشامل، وهذه الضروريات لا شأن لها مع مسألة الركوب في الأسفار.

(١) إنّ الضمير المفرد في «ظهوره» و «عليه» و «له» يعود إلى «الانعام» لأنّ «الانعام» - وكما قلنا سابقاً - ذات معنى جمعي، إلّا أنّها تلفظ مفردة، وظن بعضهم أنّ هذه الضمائر تعود إلى «ما» في «ما تركبون»، وفي هذه الحالة تشمل «الانعام» و «السفن» علماً أنّ «مقرنين» من مادة «إقران» وتعنى الاقتدار على الشيء، وفسرها بعضهم بمعنى القبض والحفظ.

(٢) ذكرت منافع بصيغة النكرة كي تُبرهن على أهميتها.

(٣) كما تمت الإشارة إلى ذلك في الآية ٦ من سورة النحل.

ويقول في الفائدة الخامسة والأخيرة: «وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ».

ولتعبير «حَمَلٌ» مفهوم غير «الركوب» ويبدو أن المقصود منه هو المحامل والهوارج التي توضع على ظهور الأنعام ويجلس فيها النساء والأطفال الذين لا طاقة لهم على الركوب، كما يستفاد منها للمرضى والعجزة والضعفاء.

إن ذكر «تُحْمَلُونَ» بصيغته «الفعل المجهول»، وجعلها إلى جانب الفلك حيث يوضح تشابههما مع بعضهما (الفلك في البحر والانعام على الأرض) يعتبر من القرائن أيضاً على التفسير أعلاه، وبهذا يتضح اختلاف هذه العبارات الثلاث: «لَتَرْكَبُوا- وَلَتَبْلَغُوا- وعليها وعلى الفلك تُحْمَلُونَ»، وطالما وقع بعض المفسرين في معضلات تفسيرها، وقد فسروها بمعنى واحد!

ومع أن بعضهم يعتقد أن الانعام في هذه الآية تعني الأبل فقط، ولكن نظراً لسعة مفهوم «الانعام» وعدم وجود قيد في الآية فلا دليل لحصرها، لا سيما أن تكرار «منها» (علماً إن «مِنْ» في مثل هذه الموارد تُفيد التبويض) يبرهن على أن بعض الانعام يفيد في الركوب، وبعضها يفيد في الأكل، بينما لو كان المقصود هو الأبل فإنها تُفيد في جميع هذه الجوانب.

واللطيف أنه يقول في الآية الآتية باستنتاج عام: «وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ».

إشارة إلى أن كل ما من هذه الامور يعتبر آيةً من آيات الله بالنسبة للمتفكرين والعقلاء، آيةً بينة ولا يمكن انكارها، والمنكرون يستحقون كل اشكال اللوم والتوبيخ.

وهكذا نرى أننا نواجه في كل خطوة نخطوها في هذا الجانب آية من آياته في عالم الاحياء والحيوانات خصوصاً الأنعام، ونواجه برهاناً من براهين علمه وقدرته وحكمته ولطفه ورحمته، وكل يحكى بلا لسان ويُعطينا درساً في التوحيد ومعرفة الله، ويُثبِتُ فينا دافع الشكر الذي يدعونا إلى معرفته.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٤٢

توضيحات

١- عجائب عالم الحيوانات

إن كتاب الخلق العظيم كتاب تكمن في كل جملة- بل في كل كلمة وكل حرف منه- نكات، بنحو لا يشعر الإنسان بالتعب من مطالعتها، فلو طالع أحد جمل هذا الكتاب العظيم مائة مرة فسينكشف له في كل مرة مفهوم جديد واسرار جديدة. فعالم «الحيوانات والانعام» الذي يُمثل جانباً من هذا الكتاب العظيم مليء بالأسرار والعجائب، نكتفي ببعض منها ويجب أن نوكل الامعان في التفصيل إلى الكتب المدونة في هذا المجال.

٢- ترويض الحيوانات

إن استعداد الحيوانات للترويض مسألة مهمة للغاية.

ومن أجل إدراك أهميته كل نعمه، لابد من تصوّر الحالة التي تتحوّل فيها الحيوانات الاليفة إلى حيوانات وحشية، «فالجمل» يشن هجماته كالفهد ويمزق الإنسان بفكيه القويتين، ويستخدم «البقر» قرنه، وتضرب الخيل بحوافرها من يقترب منها، حينها لا يمكن اعتبار هذا القطيع من الأغنام والأبل والبقر أساسى الوجود فحسب، بل وسنستعين بأية آله قاتله من أجل الخلاص من شرّها والقضاء عليها، وفي الوقت الحاضر أيضاً تغضب هذه الحيوانات الاليفة أحياناً فتشكل خطورةً بالغة، فمثلاً تُلَقِّنُ الفيلة الهنود دروساً، وتشن الجمال

الغاضبة هجماتها على أصحابها، ومن الممكن أن تنتهي بالقضاء عليهم إذا ما غفلوا، وكأن الله تعالى يريد أن يُبرهن على أن لو اردت سلبها أمر الطاعة والتسليم والخضوع فسترون باى صورة تظهرا!

وقد عبّر القرآن الكريم عن هذه الحقيقة بتعبير مختلفه، فيقول أحياناً: «وَدَلَّلْنَاهَا لَهُمْ». (يس / ٧٢)

وحيثاً يقول: «سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرْنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ». (الزخرف / ١٣)

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٤٣

وقد أشار الإمام الصادق عليه السلام إلى هذه المسألة في توحيد المفضل، فيقول بعد بيان خلق الأنعام: ... «ثُمَّ مُنِعَتِ الذُّهْنَ وَالْعَقْلَ لِتَذِلَّ لِلنَّاسِ فَلَا تَمْتَنِعَ عَلَيْهِ إِذَا كَدَّهَا الْكَدَّ الشَّدِيدَ وَحَمَلَهَا الْحِمْلَ الثَّقِيلَ» (١).

وبالطبع أن عدم امتلاكها للعقل جزء من الدليل على تألفها، علاوة على هذا أن الله تعالى خلقها بشكلٍ تألفت فيه بسرعه وتبقى على هذا الحال إلى الأبد، بينما نجد أن بعض الحيوانات التي تماثلها في الذكاء والعقل (كالذئب والنمر) إذا ما ألفت فبمشقة تكون مؤقتة، ومع ذلك يجب الحذر منها، وأحياناً تفترس أصحابها إذا ما غفلوا عنها.

٣- ذكاء الحيوانات

لعل اختيار هذا العنوان بعد الذي قيل في البحث السابق يبدو عجباً ومتناقضاً، والحال أنه ليس كذلك، مع أن الحيوانات تبدو بلا عقل أو قليلة العقل، ونحن نشبه البلداء بالبهائم، إلا أنها تبدى ذكاءً ووعياً في بعض المسائل بحيث تبعث على الدهشة.

فقد شاهدنا اغلبنا قطع الأغنام عندما يعود من الصحراء، فهناك عدد من الغنم والماعز تعود إلى عائله ما وبمجرد اقترابها من القرية يسلك كل منها فروع وازقة القرية ويتجه نحو بيت صاحبه بدون أى اختلاف.

كما شاهدنا أن النعجة لا تسمح أبداً لغير وليدها أن يرتضع من ثديها، وعندما تطلق الصغار في ظلمة الليل وتدخل في القطيع يذهب كل منها إلى امه، فتعرفه وتستعد لإضاعه، وهذه المعرفة تحصل عن طريق «الشَّم» فقط، وهذا يعني أن عدد روائح الأغنام تضاهي عددها، وكل نعجة تشخص رائحة صغيرها من بين هذه الروائح!

يقول «غرسى موريسن» في كتاب «سر خلق الإنسان»: (إن أغلب الحيوانات تُشخص طريقها في الليالي المظلمة، وتسير بيسر، وإذا كانت لا تبصر في الظلمة الحالكة فهي تعرفه من تفاوت الهواء المحيط بالطريق، ويؤثر النور الضعيف جداً للأشعة مافوق الحمراء الذي

(١) بحار الأنوار، ج ٣، ص ٩١، توحيد المفضل.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٤٤

يشع من سطح الطريق على عيونها).

إن طراز بناء البيت، وتربية الصغار، وكيفية مقاومة العدو، وحتى معالجة نفسها أثناء المرض من الامور العجيبة في الحيوانات، وشرح كل منها يحتاج إلى بحث مفصل.

ذكر أحد علماء البيئه ويدعى «البروفسور هانر منرو» في كتابه في خصوص استعداد بعض الحيوانات لمعالجة أمراضها قائلاً:

«اجريت بعض الكشوفات الطيبة على علاجاتها، فمثلاً هناك نوع من الطيور التي تأكل الأسماك، تتضرر أرجلها أثناء الطيران الجماعى أو الهبوط على الأرض، بسبب طولها، فوجدت أنها على اطلاع تام بالتجبير وعلاج الكسور، فتذهب إلى ساحل البحر والمناطق الموحلة التي يمتزج طينها مع النورة الخاصة بالتجبير، وتغمس أرجلها بالنورة الرطبة، ثم تجلس تحت أشعة الشمس كي تجف النورة، وتبقى تراقب أرجلها بهذا الحال حتى يلتحم مكان الكسر تماماً ...

ومن الصدفة أن النور التي يستخدمها الأطباء في المستشفيات من نفس هذا النوع الذي يستخدمه هذا الطائر الذي يأكل السمك لعلاج نفسه، لأنه لزج ومتماسك جداً» (١).

يعتقد العلماء أن معظم الحيوانات لديها لغة خاصة بها، وتتفاهم فيما بينها عن طريقها، فالنمل يتحدث فيما بينه من خلال اللمس، أو من خلال اصطدام لوامسها، وتبادل الرسائل، وبعضها تخاثر أثناء حلول الخطر من خلال ضرب أرجلها على باب الخلية لترسل بركات بهذه الطريقة إلى بعضها الآخر.

إن أغلب الأحياء علاوة على امتلاكها للغة خاصة فهي تملك لغة عامة تستطيع من خلالها فهم لغة بعضها البعض الآخر، فهذه اللغة التي يصدرها الغراب أثناء حصول الخطر حيث يحدّر بقية الحيوانات بصوت خاص كي يتعد سرياً عن منطقة الخطر، ويعتبر الغراب في الواقع بمنزلة جاسوس من جواسيس الغابة!

لقد توصل علماء البيئة في دراساتهم إلى هذه النتيجة وهي أن الحشرات تلي الإنسان

(١) أفضل طرق معرفة الله، ص ١٩٧.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٤٥

في امتلاك جهاز اتصالات متكامل، لا سيما التكلم وجهاز اتصالات النحل، فهو أكثرها عجباً وندرةً (١).

لقى عالم أحياء سويدي محاضرة تثير الاهتمام في جامعة «لاند» حول لغة النحل وكانت نتيجة هذا التحقيق والتجربة التي أجراها عالم الأحياء هذا بمساعدة الأجهزة وعن طريق المقايسة، أنها لغة يمكن فهم معناها (٢).

إن عجائب عالم الحيوانات أكثر من أن يؤدي حقاها في كتاب واحد أو عشر كتب.

والأفضل أن نكتفي بهذا المقدار ونغلق الملف ونقول بكل خضوع وخشوع أمام الحضرة الإلهية المقدسة: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ لَا تُحْصِي عَجَائِبُ خَلْقِكَ وَإِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

(١) مجلة الصيد والطبيعة، العدد ٧٢.

(٢) تربية النحل، ص ٦٠.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٤٧

٢٠- آياته في خلق أعضاء جسم الإنسان

تمهيد:

من أجل أن يتمكن الإنسان من إقامة الأواصر مع العالم الخارجي فهو يحتاج إلى أدوات مختلفة، حيث جهزه الله بها، فقد جهزه بحاسة البصر لرؤية هيئة ولون وكمية ونوعية الموجودات، وبحاسة السمع من أجل معرفة أنواع الأصوات كما جهزه بحواس أخرى من أجل الاحساس بالروائح، البرد والحر، الخشونة والنعومة و ...

إن بناء هذه الآلات معقد ودقيق بالقدر الذي يمكن أن يكون شرح كل منها موضوعاً لعلم مستقل، وقد دونت كتب كثيرة بهذا الخصوص حيث تُعتبر في الحقيقة مجموعة من أسرار التوحيد، ودروس، وبلاغات ونبغات لمعرفة الله تُرددها هذه الأعضاء في مسامع روح الإنسان، فمن غير الممكن أن يتأمل المرء في بناء هذه الأعضاء ولا يخضع اجلالاً امام قدرة وعظمة خالقها، سواء اعترف بلسانه أم لا.

بهذا التمهيد نيمم وجوهنا صوب القرآن الكريم ونتأمل خاشعين في الآيات التالية:

١- «وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ». (النحل / ٧٨)

٢- «وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ».

(المؤمنون / ٧٨)

٣- «قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ.... وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ». (يونس / ٣١)

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٤٨

٤- «أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ* وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ». (البلد ٨ و ٩)

٥- «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ هِيَ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَيِّرُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ». (الانعام / ٤٦)

٦- «سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ».

(فصلت / ٥٣)

شرح المفردات:

«السَّمْع»: تعنى فى الأصل قوة السَّمْع، وقد تطلق على الأذن أيضاً، وقد وردَ هذا اللفظ بمعنى الاستماع، واستجابة الدعوة والقبول والتجسس أيضاً، وإذا ما استخدمت فى ما يخص البارى تعالى فهى تعنى علمه واطلاعه على المسموعات، و «اسماع» جمع «سمع» إلّا أنّ هذا اللفظ لم يُستخدم فى القرآن الكريم اطلاقاً، ولعله بسبب أنّ «السمع» تستعمل فى معنى الجمع أيضاً «١». «بَصِيرَةٌ»: وتعنى (العين) وتستخدم أيضاً بمعنى «قوة النظر»، ويُستعمل هذا اللفظ فى معنى قوة العقل والفهم أيضاً، فيقال لها «بصر» و «بصيرة» (جمع بصر، «ابصار» وجمع بصيرة «بصائر»).

إلّا أنّ لفظ بصيرة لا يُطلق على العين أبداً، بل يُقال لها «بَصْرٌ» والعجيب أنّ لفظ البصير يُطلق أحياناً على المكفوفين، ولكن يظهر أنّ هذا الاستعمال ليس بسبب علاقة التضاد، بل لأنّ المكفوفين غالباً ما يتميزون بقوة إدراكٍ فائقة، ويتلافون فقدانهم لقوة البصر بقوة التفكير والبصيرة «٢».

واعتبر بعضُ أرباب اللغة كمؤلف «المصباح» أنّ المعنى الأصلي ل «بَصْر» هو النور

(١) لسان العرب، المفردات، مجمع البحرين، والتحقيق فى كلمات القرآن الكريم.

(٢) مفردات الراغب.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٤٩

الذى تتمكن من خلاله من رؤية الموجودات، وفى «المقاييس» ذكر لها معنيان: الأول الاطلاق على الشىء، والثانى ضخامة وسمك الشىء، ولكن يبدو أنّ المعنى الأول والذى أوردته الراغب فى المفردات أيضاً أكثر صواباً وتناسباً مع موارد هذا اللفظ.

و «افئدة»: جمع «فؤاد» من مادة «فأد» (على وزن وَعَد) وتعنى فى الأصل «الشوى»، لذا يُقال «فؤاد» للأفكار والعقول الناضجة، وقد يأتى هذا اللفظ بمعنى القلب، أو غلاف القلب أيضاً، وقال بعضهم أيضاً أنّ هذا اللفظ يطلق على القلب والعقل حينما يكون متنوراً ومشرقاً، وقال بعضهم إنّ «فؤاد» تعنى مركز القلب يُطلق على مجموعته.

و «العَيْن»: ذات معانٍ كثيرة والمعروف أنّ لهذا اللفظ سبعين معنىً فى لغة العرب.

إلّا أنّ المعنى الأصلي ل «العين» هو العضو الخاص بالنظر، وقد يأتى أيضاً بمعنى قوة البصر.

ولكن لها معانٍ كنايةً ومجازيةً كثيرة برزت على هيئة معانٍ حقيقية نتيجةً لكثرة الاستعمال، فمثلاً يقال للينوع «عين» لأنه يشبه العين، ويقال للجاسوس والمكلف بالتجسس والاستطلاع «عين» أيضاً، كما يُطلق هذا اللفظ على ذوى المكانة وعلى الشمس والذهب أيضاً لأنَّ الذهبَ من بين الفلزات كالعين بين الأعضاء، وكذلك «الشمس» بين النجوم، وكالمرموقين من بين أبناء قومهم، كما يُطلق هذا اللفظ أيضاً على الثروة والمتاع الذى يمكن الاستفادة منه، وثقب الحلقة، والبصيرة والاطلاع على الشيء كلُّ فى محلّه، وسُميت الحور العين بهذا الاسم لأنها ذات عيونٍ جميلةٍ وواسعة.

و «اللسان»: تعنى عضو التكلم، ووردت أيضاً بمعنى قوة البيان، وتُطلق أيضاً ككنايةٍ على الأشخاص المتكلمين نيابةً عن جماعة ما، كما يُقال ل «ألْسِنَةُ» (جمع لسان) أيضاً، ويُستخدم هذا اللفظ بصيغته المذكر والمؤنث إلا أنه جاء فى القرآن الكريم بصيغته المذكر. و «شَفَّة»: على وزن (سَعَّة) وتستخدم بصيغته التثنية «شفتان» (١)

ومفهوم «مشافهة» يعنى مقابلة الشخص والاستماع إلى شىء ما من شفّيته، وورد هذا اللفظ بمعنى شاطيء «النهر» وساحل «البحر» لأنه شفّة له.

(١) لقد ذكر بعضهم أنّ أصلها «شَفُو» (ناقصة الواو) وبعض «شَفَّة» لأنَّ مصغرها «شفيهة» وجمعها «شفاه».

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٥٠

جمع الآيات وتفسيرها

الدور الحساس لآيات المعرفة:

يقول فى الآية الاولى كتعريفٍ بالذات الإلهية المقدسة وبيان آياته فى خلق الإنسان:

«وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَتَعْلَمُونَ شَيْئاً».

إنَّ هذا التعبير يُبيِّن بجلاء أنّ صفحة القلب تخلو من جميع المعارف عند الولادة، إلّا أنّ بعض المفسرين قالوا إنّ المقصود ليس العلم الحضورى للإنسان بذاته، أو بتعبير آخر إنّ المقصود هو العلم بالأشياء الخارجية، وذكروا ذلك كشاهدٍ فى قوله تعالى: «وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً». (النحل / ٧٠)

والإنسان فى سن الشيخوخة يعلم بوجوده إلّا أنّه يُحتمل جهل الوليد بوجوده فى بداية الولادة وأول ما يُدرّكه هو وجوده. ثم يضيف: «وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

لقد جعل الله العين والاذن كى يُدركا المحسوسات، والعقل لإدراك المعقولات، وتطلعون على العالم الخارجى من خلال وسائل المعرفة الثلاث هذه، ثمَّ تقومون بشكر هذه النعم وتتوجهون قبل كلِّ شىء لمعرفة ذلك الخالق الذى منحكم وسائل العلم والمعرفة. ولإدراك أهميّة العين والاذن والعقل يكفى تصور الحالة التى تتمخض عن فقدان أحدهما (فضلاً عن كليهما)، فما هو حال مكفوف البصر، أو الأخرس أو المجنون أو جميعهم؟ وكم ينأى عن مواهب هذا العالم العظيم؟ وقبل كلِّ شىء يفقد موهبة العلم والاطلاع التى هى أفضل المواهب ومقدمه للتّعمُّ بالمواهب الأخرى

وقال بعضهم إنّ المقصود من «شَيْئاً» فى الآية أعلاه هو حق المنعم، وقال بعض آخر: إنّ المقصود هو مصالحه، وفسرها قسم منهم على أنّها السعادة والشقاء، أو الميثاق الإلهى فى يوم: «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ»، إلّا أنّ إطلاق الآية ينفى كلَّ اشكال التقييد فتشمل كلِّ شىء.

وهنا لماذا تقدّم «السمع» على «الأبصار»؟ ففعل ذلك يرجع إلى استخدام الاذن قبل العين، لأنّ العين لم تكن لديها القابلية على الرؤية في محيط رحم الام الذي يسوده ظلام

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٥١

مطبّق، وتكون حساسه جداً ازاء النور إلى حين بعد الولادة، لذلك فهي غالباً ما تكون مغمضه، حتى تستعد تدريجاً لمواجهة النور، إلّا أنّ الاذن ليست كذلك فباعتماد بعضهم أنّها تسمع الأصوات في عالم الجنين أيضاً، وتعرف على انغام قلب الأم!.
بالإضافة إلى أنّ الاذن تعتبر وسيلة لسماع رسالة الوحي الإلهي الذي هو أشرف المسموعات، وكذلك وسيلة عامه لنقل العلوم من جيل إلى جيل آخر، بينما ليست العين كذلك، لا شك أنّ القراءة والكتابة وسيلة لنقل العلوم إلّا أنّها ليست عامه وشاملة.
وجعل «الافئدة» وراءهما واضح الدليل أيضاً، لأنّ البشر ينقلون المشاهدات والمسموعات إلى العقل، ومن ثمّ يقوم بتحليلها وتفكيكها ويتلقى منها معلومات حديثه ويكتشف القوانين العامه للعالم «١».

وفي الآية الثانية يتابع الحقيقة التي وردت في الآية الآنفه، وأشار إلى مسألة خلق الاذن والعين والقلب، من أجل معرفة الله، مثيراً في الإنسان الشعور بالشكر الذي هو السّلم لمعرفة الله تعالى مع هذا الاختلاف حيث يُعبّر عن خلق هذه الأعضاء بتعبير «انشاء» وفي الختام يوجّه اللوم والتأنيب لأولئك الذين قليلاً ما يشكرون الله، فيقول: «وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ». و «الإنشاء»: كما يقول الراغب تعني في الأصل إيجاد الشيء وانماثه، ولهذا يقال «ناشئه» للشباب.

إنّ التعبير بإنشاء غالباً ما يخص الحيوانات، بالرغم من استخدامها أحياناً في غير هذا المورد مثل: «أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ». (الواقعة / ٧٢)

ومن الممكن أن يكون هذا التعبير في الآية أعلاه إشارة إلى المسيرة التكاملية للعين

(١) إنّ «سمع» تطلق على المفرد والجمع، بالرغم من أنّهم يجمعونها بصيغته «اسماع» أيضاً.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٥٢

والاذن والعقل خلال مرحلة الجنين ثم في مرحلة الطفولة، حيث أوجدها الباري تعالى ثم يقوم بتربيتها.
ويقول في الآية الثالثة «كاستفهام تقريرى» من المشركين الذين انفصلوا عن الله وضلوا في وادى عبوديه الأوثان: «قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ».

من المسلم به أنّ الأرزاق التي يحصل عليها الإنسان إمّا أنّ تكون من السماء (كالامطار والهواء وضوء الشمس) أو من الأرض (كالنباتات والأشجار والمعادن المختلفة) فكذلك العلوم والمعارف فغالباً ما يحصل عليها الإنسان عن طريق العين والاذن، لأنّ هاتين الحاستين المهمتين تُعتبران وسيلة اتصال الإنسان بالعالم الخارجى، وكلّ هذه الأرزاق المادية والمعنوية من الله تبارك وتعالى واللطف أنّه عبّر هنا بتعبير المالكية، وبما أنّ المالكية هنا تكوينية فانها لن تنفصل عن مسألة «الخلق» وفي الحقيقة أصبح هذا التعبير من لوازمه، وكذلك لن تكون منفصلة عن مسألة «تدبير الامور» لذا يقول مستفسراً في نهاية الآية: «وَمَنْ يُدَبِّرِ الْأَمْرَ» (١)

فيضيف مباشرة: «أنهم وبالهام من وحى فطرتهم يقولون بسرعة: إنّ الله هو مالك وخالق ومدبّر هذه الامور» (فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ، فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ).

أى ترك عبادة الأوثان والتوجه إلى غير الله، والابتعاد عن الذنوب والظلم.

(١) قال بعض ارباب اللغة إنّ «ملك» (بفتح الميم وكسر اللام، تعنى من يتصرف بعامه الناس من خلال أمره ونهيه وهذا يستلزم السلطة

والاقتدار والتدبير).

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٥٣

ويقول في الآية الرابعة ضمن إشارته إلى جانب من نِعِمَّ اللهُ على الإنسان لتحريك الاحساس بالشكر الذي هو مقدمه ل «معرفة الله»: «أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ».

العينان اللتان يتمكن من خلالهما أن يرى عالم الوجود، وأن يشاهد عجائب الخلق، وأن ينظر إلى الشمس والقمر والنجوم وأنواع النباتات وأنواع الموجودات الحيّة والحيوانات، وأن يتفرّج على عجائب صنيع الله، وأن يُميز الخير من الشر، ويُشخص الصديق من العدو، وأن ينقذ نفسه من مخالب الحوادث.

ثم يضيف «وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ».

اللسان الذي يُمثل وسيلة اتصاله بالآخرين، اللسان الذي يعتبر عاملاً في نقل العلوم والمعارف من جيل إلى آخر ومن قوم إلى آخرين، اللسان الذي يردد ما يحتاجه، وبه يدعو ويتوسل إلى المعبود جلّ وعلا، وهو الذي ينطق عن جميع ذرات وجوده.

وكذلك الشفاه التي تلعب دوراً مهماً في النطق، وتتحمل مسؤولية تلفظ كثير من مخارج الحروف «١» بالإضافة إلى مساعدتها في شرب الماء واكل الطعام وهضمه والحفاظ على سائل الفم، بنحو لو جُدع جانب من الشفاه فلن تصبح هذه الامور صعبة بالنسبة للإنسان فحسب، بل وسيكون منظرة وصورتها باعثة على الحسرة.

واللطيف أن القرآن يتحدث بعد هاتين الآيتين عن هداية الإنسان إلى الخير و (الشر)، قائلاً: «وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ».

إن هذا التعبير البليغ يشير إلى علاقة العين واللسان والشفاه بمسألة الهداية ومعرفة الخير والشر، لأنها تعتبر آليات لهذا الهدف العظيم.

وفي الآية الخامسة يلفت الانتباه إلى الحالة التي تحصل لدى الإنسان بسبب فقدانه

(١) وهذه أربعة حروف بالعربية (ب- ف- م- و) وهي (حروف شفوية) بكثرة وفقدان الشفاه يؤدي إلى أن يفقد المرء قدرة التكلم إلى حد ما.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٥٤

للاذن والعين والعقل، فيقول: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ» (١)

ثم يضيف في نهاية الآية: «انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ» (٢)

وفي الحقيقة أن القرآن يريد أن يقول: إن آيات المعرفة المهمة تلك ليست ملكاً لكم لأنها لو كانت كذلك لما سلبت منكم فليس بالقليل اولئك الذين فقدوا نعمة السمع والبصر والعقل نتيجة لتأثير عوامل مختلفة، اذن فهي ملك لخالق آخر، هذا من جهة.

ومن جهة اخرى بما أن الأشياء تعرف باضدادها فإن القرآن يريد أن يلفت نظر الإنسان إلى عظمة الخالق وواهب هذه النعم، من خلال تذكيره بالوضع المؤلم الذي يطرأ للإنسان بسبب فقدان هذه النعم التي لا مثيل لها، ويرشده عن هذا الطريق ويحفزه إلى الخضوع أمام عظمتة تعالى

ويمكن أن يكون التعبير ب «أخذ» الاذن والعين بمعنى أخذ هذه الاعضاء، أو أخذ قوة السمع والبصر أو كليهما.

وفي الآية الأخيرة من البحث التي تعتبر من آيات التوحيد ومعرفة الله يُسلطُ الانظار على آياته قاطبةً في عالم الخلق بأسره، فيقول: «سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ».

«آفاق»: جمع «أفق» وتعني الأطراف، وعليه فإن «آفاق الأرض» تعني أطراف

(١) لقد فسّر المفسّرون جملة «أرأيتم» وكذلك «أرأيتمكم» بمعنى اخبروني أو «هل علمتم» ولكن باعتقاد بعض المحققين فإنّ هذه الجملة تتسامح مع المعنى الأصلي فمثلاً جملة «أرأيتم» بمعنى (هل شاهدتم)، ولكن حيث تكون المشاهدة في مثل هذه الموارد للعلم والأخبار فقد فسّرت بلازم المعنى وعلى اية حال فإنّ الغاية من ذكر هذه الجملة هو التذكير والتأكيد على دقة المخاطب، ولو أردنا أن نفسرها بلازم المعنى فيمكننا القول بأنّ هذا هو مفهومها.

(٢) «نصّرف» من مادة «تصريف» وتعني التغيير، وتعني هنا ذكر حقيقة ما بلباس وبيان مختلف، و «يصدفون» من مادة «صَدَف» (على وزن هدف) وتعني هنا الإعراض.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٥٥

الأرض، و «آفاق السماء» تعني أطراف السماء، وبما أنّها ذُكرت في آية البحث بشكلٍ مطلق، فهي تشمل كل الأطراف شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً.

و «أنفس»: لها هنا معنى واسع حيث تتضمن الروح والجسم أيضاً، وجميع اعضاء الجسم التي هي موضوع بحثنا.

وهنا إلى من يعود الضمير في «أنه الحق»؟ قال بعض المفسّرين: المقصود هو القرآن، والمقصود من آيات الآفاق الانتصارات التي حققها المسلمون في أطراف العالم، والمقصود من آيات الانفس، انتصاراتهم في بلاد العرب أي اننا نُرِيهم الانتصارات في أطراف العالم وفي بلاد العرب كي يعلموا أنّ القرآن حقّ.

وقال بعضهم: المقصود هو «رسول الله» صلى الله عليه وآله أو دينه، حيث لا يتفاوت كثيراً مع التفسير الأول.

لكن الظاهر هو (كما فهمه عددٌ من المفسّرين) أنّ المقصود هو الله، أي أننا نُرِيهم آيات الآفاق والأنفس كي يتجلّى لهم أنّ الله هو الحق.

يُعدّ التعبير ب «آيات» من جانب، والتعبير ب «الآفاق والانفس» من جانبٍ آخر بالإضافة إلى الآية التي تليها والتي تتحدث عن التوحيد شواهد على هذا التفسير، علماً أنّ هذه الآية تتوافق مع عدة آيات في القرآن الكريم التي تعرض آيات الله في عرض الخلق ووجود الإنسان، مثل: «وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ». (الذاريات / ٢٠-٢١)

وقد ذُكر هذا المعنى أيضاً في تفسير علي بن إبراهيم، على الرغم من أنّ بعض الروايات ذكرت أنّ ضمير، (أنّه) يقصّد به الإمام المهدي «عج» ولكن الظاهر أنّه تفسيرٌ لبطون الآيات (والجمع بين التفاسير ممكن أيضاً)، على أية حال ... ففي أيّ منها تمعنا نرى من خلاله آثار علمه وقدرته تعالى وكلّ نباتٍ ينبت من الأرض ينطق بنفسه ب «لا شريك له» و «قلب كلّ ذرة نفتحها - نرى شمسّه في وسطه».

والتعبير ب «سنريهم» (نظراً لأنّ الفعل المضارع في مثل هذه الموارد يعني الاستمرارية)

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٥٦

يُعتبر إشارة لطيفة إلى هذه الحقيقة وهي أنّ كلّ يوم يمُر من عمر الإنسان تنكشف له حقائق جديدة عن هذا العالم، وتتجلى أسرارٌ خافية، ففي كلّ يوم يتوصل العلماء في مختبراتهم ومكتباتهم إلى اكتشافٍ حديث، وتوضح آيات جديدة من آيات الله، ومن المسلم به أنّ هذه المسألة ستستمر حتى لو انقضت ملايين السنين من عمر الخليقة، فكم هو عجيب عالم الخلق الواسع، وكم عظيم خالقه؟

ومن ثمّ فإننا لا نعلم شيئاً عن مليارات السنين السابقة وما تلاها، وليس لدينا أدنى اطلاع عن هذا الكتاب العتيق الذي فقد فصلاه (الأول والأخير) وكلّ ما نعلمه هو نزرٌ يسيرٌ يتعلق بجانب من هذا العالم الواسع وفصل من هذا الكتاب الكبير: «العظمة لله الواحد القهار».

نستنتج من مجموع ما مضى من الآيات أنّ كلّ عضوٍ من اعضاء جسم الإنسان، بل كلّ جزءٍ منها، يعتبر مرآة واضحة للحق تعالى وآية مستقلةً وجليّة من علم وقدره وحكمه وتدبير خالق الكون.

توضيحات

١- عجائب أعضاء الجسم

لو لم يكن في كل الكون موجود سوى الإنسان، ولم يكن في جميع كيان هذا الإنسان شئ سوى عين أو أذن واحدة، لصار ذلك سبباً لمعرفة الذات الإلهية المقدسة وعلمه وقدرته، لأن بناءها دقيق ومعقد ومحبوك بقدر لا يصدق أئى عقل أنها من صنع الصدفة أو الطبيعة العمياء والصماء، بل نواجه في كل مرحلة من دراستها، آية جديدة من علم وقدره ذلك الصانع الحكيم. فمن بين مئات الخصائص ومن خلال الدقة في حاسة البصر، أى العين، يكفينا ذكر المواضع الآتية كى نعرف الغرابة المذهلة في هذا العضو:

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٥٧

١- العدسة المتغيرة: من المعروف أن العين تُشَبَّهُ بآلة التصوير، بينما لا تصل أحدث آلات التصوير فى العالم ان تكون كألوية أمام عين الإنسان، لأنها تحتوى على عدسة ثابتة، حيث يجب أن تُنظَّم وتُدار من قبل مصورٍ باستمرار من أجل التقاط الصور من عدة جهات، إلّا أن عدسة العين الواقعة خلف إنسان العين مباشرة، تتغير دائماً بشكل آلى، فقد يتقلص قطرها أحياناً فيبلغ ١/٥ ملمتر وأحياناً يتسع حيث يبلغ ٨ ملمترات فيسمح لها بالتقاط الصور من مناظر بعيدة وقريبة جداً.

٢- طبقات العين السبع: إن العين تتألف أساساً من سبعة حُجُب أو سبع طبقات وتسمى «الصلبية» و «العينية» و «المشيمية» و «الجلدية» و «الزلائية» و «الزجاجية» و «الشبكية»، حيث لكل منها بناؤها الخاص بها وواجبها الذى تتحمله، وشرحها يجرنا إلى الاطالة، فيكفينا أن نعلم أن أقل اختلاف فيها يؤدى إلى اختلال النظر، طبعاً تكمن خلف «الشبكية» أعصاب بصرية تنقل الصور التى تقع على الشبكية إلى الدماغ.

٣- الحساسية ازاء الضوء: إن تنظيم النور بالنسبة للمصورين يعتبر عملاً شاقاً، وكثيراً ما تكلف مجموعة متخصصة بهذا العمل، بينما تستطيع العين من خلال تغيير حساسيتها ازاء شدة الضوء أن تلتقط الصور من مناظر مختلفة وفى نورٍ ضعيفٍ أو قوى جداً.

٤- الحركة المستمرة: إن المصورين يديرون اجهزتهم باستمرار نحو اليمين واليسار وإلى الأعلى والأسفل، ويستخدمون مختلف الآلات لهذا العمل، بينما نجد أن العضلات التى تحيط بكره العين تُدير هذا الجهاز بحركةٍ خاطفةٍ إلى الجهات الأربع بشكلٍ كاملٍ، وتضاعف قدرة المناورة لديها للتصوير فى جميع الجهات.

٥- المركبات البسيطة والدقيقة: فمن أجل إعداد أجهزة التصوير يستفاد من أقوى العدسات والفلزات، بينما تم صنع العين من مواد لطيفة وفى نفس الوقت قد تستمر فى العمل مائة عام لأنها جهاز حى يستطيع بناء نفسه وتجديد قواه باستمرار، بينما تعتبر الأجهزة التى يصنعها البشر اجهزة ميتة!

٦- اعداد شريط التصوير: يعتبر اعداد شريط التصوير بالنسبة لاجهزة التصوير عملاً

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٥٨

صعباً ويجب استعمال حلقاتٍ متباينةً باستمرار من أجل التصوير، بينما تصوّر شبكية العين ذاتياً على الدوام، وبعد انتقاله وحفظه فى الدماغ يُمحا وتستعد لتصوير منظرٍ آخر، ويُجز هذا العمل بسرعةٍ عجيبةٍ ومدهشةٍ للغاية، علماً أن مسألة اخراج شريط التصوير التى تعتبر عملاً شاقاً ومستهلكاً للوقت لم تُطرح هنا.

٧- الأجهزة الجانبية: من أجل أن تقوم العين بانجاز واجباتها فقد جُهزت بالكثير من اللوازم التى يعتبر كل منها مدهشاً أيضاً. إن وجود الغدد «الفؤارة» التى تصب السائل الخاص والشفاف بشكلٍ دائمٍ فى العين، ويسمح للاجفان أن تتحرك فوق فص العين

بدون أقل تماسٍ خشنٍ، وتسوق فضلات الماء الموجودة في أسفلها إلى الخارج، فينحدر إلى بؤبؤ العين، وللأجفان ردود فعل سريعةً مقابل الحوادث المختلفة حيث تحافظ على العين من الصدمات، وهجوم التراب والغبار، أو الضوء الشديد، وبناء «الأهداب» التي هي بمنزلة ستائر تسمح للعين بالاستنارة قليلاً مع كون العين مفتوحةً وتحفظها من دخول الغبار والتراب، واستقرار العين في صندوقٍ عظمي قويٍّ جداً كالقلعة المنيعه، ووضع هذا الصندوق في مكانٍ مرتفعٍ من الجسم حيث يسمح لها أن ترى جوانبها كالراصد الذي يتركز في المرصد، ووجود الحواجب التي تُمثلُ درعاً لحمايتها، وأمور جمّةٍ أخرى حيث لكلٍ منها قصةً لطيفةً ومدهشةً وغنيةً بالمعاني.

لو جمعنا كل هذه الأمور وتمعنا فيها قليلاً فمن المسلم به اننا سندعُن أن صانع العين كان مطلعاً على جميع الأنظمة المتعلقة بالعدسات، وانعكاس الضوء، ومسائل أخرى معقدة من هذا القبيل، وخلق مثل هذا الموجود العجيب بعلمه وقدرته الأزلية.

٢- اللسان، هذا العضو المحترف!

إن من بين الأعضاء التي تمت الإشارة إليها في الآيات المذكورة هو اللسان، الذي يعتبر بحقٍ من عجائب خلق الله، ولو كان لهذا اللسان لسانٌ ينطقُ عنه، لشرح لنا ما فيه من

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٥٩

عجائب، حينها يتضح لنا لماذا استند إليه القرآن الكريم.

لو القينا نظرةً قصيرةً على واجبات ومسؤوليات اللسان، لاظهرت لنا جانباً من هذه الحقائق، وإجمالاً فللسان ستة واجبات أساسية هي:

١- دور اللسان في هضم الطعام: لولا اللسان لما تمت عملية هضم الغذاء بشكل كامل، ولبقى قسم من الغذاء غير مهضوم، وسوف نضطر إلى تحريك الأكل باصابعنا لتتم عملية مضغه بواسطة الأسنان فاللسان يُقلب الطعام باستمرار من ثلاث جهات بين الأسنان بحركاته السريعة الماهرة، دون أن يبقى في وسطها! أجل قد يصيبه التعب والعجز أحياناً فتقتنصه الأسنان فيصاب بشدة، وكأن الله يريد أن يثبت لنا بأن اللسان لو لم يمنح تلك المهارة الفائقة لتكرر هذا المشهد يومياً ولتعرض اللسان للجرح دائماً.

٢- خلط الطعام بلعاب الفم: اللعاب هو ذلك السائل اللزج الذي يعمل على ترقيق وانزلاق الطعام وإعداده للبلع، من جهة، ومن جهة أخرى يجري عليه تفاعلات كيميائية خاصة، ويُعدّه للبلع والهضم، فاللسان هو الذي يتكفل بمسؤولية مزجه بهذا السائل الحيوي.

٣- المساعدة في ابتلاع الطعام والماء: إن اللسان يلعب دوراً أساسياً في نفوذ الطعام والماء، فبالتمعن والاتصاق بسقف الفم والضغط على الماء والطعام يدفعه سريعاً نحو البلعوم، ولو أصيب بشلل ليومٍ واحدٍ على سبيل المثال لتعسر ابتلاع لقمةٍ واحدةٍ ولعله يصبح مستحيلًا.

٤- السيطرة على المواد الغذائية: يستطيع اللسان - وبسبب قوة التذوق الشديدة فيه - أن يشخص الكثير من المواد الضارة والسامة للجسم، ويقذفها خارجاً، ولولا دور اللسان في السيطرة الماهرة على باب الدخول إلى الجسم لأصيب الإنسان بالأمراض بسرعة نتيجة لأكله الأطعمة المضرة، ولأصبح عرضة للأخطار، فالطعام المر والمالح، أو المتبل، أو الفاسد والمتعفن يميزه اللسان أولاً، فيمنعه من الورود إلى الجسم، أجل - هذا الحارس الغذائي مكلفٌ بالسيطرة على جميع المأكولات والمشروبات ليلاً ونهاراً.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٦٠

٥- تنظيف الفم: لا بد أنكم قد تفحصتم يوماً أن الفم واللسان ينشغلان بالحركة بعد الانتهاء من الطعام، فهذه الحركة هي لتحريك وإزالة بقايا الطعام حيث تُجمع في فضاء الفم ثم تُرسل إلى القناة الهضمية، وهذا العمل يتحمّله اللسان بشكلٍ أساسي وحتى أنه ينظف الأسنان إلى حدٍ ما، وخلاصة الأمر: يعتبر اللسان منظفاً ماهراً للفم.

٦- النطق: وأخيراً فإنَّ أهمَّ وادقَّ واجبٍ للسان هو البيان الذي استند إليه القرآن لا- سيما في بداية سورة الرحمن لتعريف الله قائلاً: «الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ». ومع أنَّ النطق يعتبر أمراً بسيطاً بسبب كثرة ممارسته، إلَّا أنه يعتبر في الحقيقة من أكثر الأعمال تعقيداً حيث ينجزه الإنسان ب «لسانه» و «عقله».

فيجب أن يختار أولاً الكلمة المناسبة من بين عشرات الآلاف أو مئات الآلاف من الكلمات وأحياناً أكثر من هذا العدد، ثم يصدر الأوامر إلى اللسان أن يتحرك على مقاطع الحروف بحركاته الملتوية السريعة الماهرة، وأن يُركَّب الحروف المطلوبة بمساعدة الرئة والحنجرة والأوتار الصوتية ويربطها فيما بينها وأن يكونَ كلمةً واحدةً، ثم يختار الكلمة الثانية بنفس السرعة، ويولد أصواتاً معينة، ويستمر هكذا حتى تكتمل الجملة، ولو اخطأ الذهن قليلاً في اختيار الكلمات فإنه يقصر عن استيعاب المعنى ولو حدث أدنى خطأ في حركات اللسان السريعة في فضاء الفم لما كانت هناك جملة واحدة مفيدة.

تأملوا الآن متكلماً يتحدث باتزانٍ وفصاحةٍ وبلاغةٍ ساعةً كاملةً، لقد أدار لسانه في أطراف الفم آلاف المرّات واستند إلى مقاطع الحروف تماماً وذلك في محيطٍ صغيرٍ تنقلص إمكانية المناورة فيه كثيراً فأى عملٍ عجيبٍ واعجازيٍّ يؤديه؟ وهذا ليس إلّا عرضٌ لقدرة الخالق العظيم.

ومن المسلم به أن الشفاء تكمل عمل اللسان، وتقوم بتكوين بعض الحروف، وهذا التنسيق بين هذين العضوين يمثل عملاً لطيفاً ومدهشاً وأهم منه العمل الفكري الذي يلازمه.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٦١

والخلاصة أن لكلِّ عضو من الأعضاء الظاهرية أو الأجهزة الداخلية للجسم كالقلب والدماع والشرابين وشبكة الأعصاب قصةً مفصلةً ومثيرةً، ولو أردنا أن نتطرق إلى أسرارها واحد تلو الآخر لاستلزم سبعين متناً من الورق لأنَّ من اليسير أن تمتلىء آلاف الكتب بأسرارها، فالأفضل لنا أن نعترف بقصورنا في هذا المجال ونخضع إجلالاً على أعتاب قدرة الخالق العظيم، وترنم بقول الشاعر بصدد الخلق ونقول أيها الإنسان: عجباً لك إذ لم يكن للعالم مجال لمشاهدتك فلماذا لا تنظر إلى نفسك متعجباً: أو نقول:

أترعّمُ أنّك جرمٌ صغيرٌ وفيك انطوى العالم الأكبر! نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٦٣

٢١- آياته في الحياة الاجتماعية للإنسان

تمهيد:

مياً لا- شك فيه أن الإنسان موجوداً اجتماعياً بالطبع، ويحصل على ما يحتاج إليه في الحياة الجماعية، فتكامل الإنسان معنوياً ومادياً، في العلوم والمعارف، الحضارات والصناعات، الآداب والتقاليد، يحصل من خلال الحياة الجماعية، بنحوٍ يمكننا من القول أنه لو فقد الإنسان هذا الطراز من الحياة فسيفقد كلَّ شيءٍ، ويهبط إلى مستوى الحيوان.

إنَّ اهتمام الإنسان بهذا الطراز من الحياة علاوةً على فطريته، فهو نابع من كثرة وتباين حاجاته، وهمته العالية لبلوغ مراحل اعظم وأكمل، ولا يمكن تأمين هذه الحاجات الجسمية والروحية بدون الحياة الاجتماعية، وإلّا فما هو دور الإنسان منفرداً؟

ولكن يجب أن لا ننسى أن الإنسان يحتاج إلى عوامل نفسية وبدنية كثيرة من أجل التعايش اجتماعياً، حيث وضعها الخالق في متناول يديه، وإذا تمَّ تحليل هذا الجانب من حياة الإنسان تحليلاً موضوعياً فسيوضح أنه من أكثر آيات الله عجباً.

بهذا التمهيد نتجه نحو آيات القرآن التي تستند إلى هذا الأمر ونتمتع خاشعين في الآيات التالية:

١- «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ». (الروم/

(٢١)

٢- «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا».

(الاعراف / ١٨٩)

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٦٤

٣- «إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا». (الإنسان / ٢)

٤- «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ». (الحجرات / ١٣)

٥- «هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِبَصِيرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَالْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا * مَا آَلَفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ آَلَفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ». (الانفال / ٦٢-٦٣)

جمع الآيات وتفسيرها**شرح المفردات:**

«زوج»: تعنى فى الأصل الحيوان المذكر والمؤنث حيث يُطلق هذا اللفظ على كل منهما، ويُطلق - أحياناً بمعنى أكثر شموليةً - على كلِّ شيئين متناظرين، سواء كان من ناحية التشابه أو التضاد، كزوج الحذاء، أو الجوارب، أو الليل والنهار والخير والشَّر وأمثالها، أو الأرقام التى تقبل القسمة على اثنين متساويين، لأنَّ كلاً منها يناظر الآخر، إلّا أنها تُقال فى خصوص البشر لمن أبرم عقد الزواج بينهما. وقال بعض أرباب اللغة إنَّ معنى «زوج» عبارة عن الشكل الذى يكون له مثل، كالألوان والألوان المختلفة، أو الشىء الذى له مضاد، كالرطب والجاف، المذكر والمؤنث، الليل والنهار، الحلو والمر، كما صرَّحوا أنَّ «زوج» تعنى كلَّ فردٍ من الزوجين، لا الاثنين معاً بل يجب أن يقال للاثنين «زوجان»، واطلاق زوج على الاثنين هو من كلام الجهلة «١».

«لَتَسْكُنُوا»: من مادة «سكون» وتعنى فى الأصل ثبات الشىء بعد الحركة، وجاء فى «مقاييس اللغة» أنَّ أصلها بمعنى الاطمئنان، والحالة التى تعاكس الاضطراب والحركة، وتطلق أحياناً على تخفيف ضغط العاصفة والحر والبرد، والمطر والغضب أيضاً، ولهذا سُمِّيَ «سكان» السفينة بهذا الاسم حيث يعتبر أساس واطمئنان السفينة ووضعها فى

(١) المفردات، مصباح اللغة، التحقيق ولسان العرب.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٦٥

الطريق الصحيح، ومن هذا الجانب سميت «السكينة» بهذا الاسم، حيث تُسكن حركات الحيوان بقطع رأسه، كما يقال لحالة الاطمئنان والاستقرار النفسى «سكينة» أيضاً، وتُطلق «مسكين» على من يبدو ساكناً فى محله لشدة الفقر الذى يعانىه، ويقال لمكان سكن واستقرار الإنسان «مَسْكَن» «١»

و «شُعُوب»: طبقاً لقول بعضهم، جمع «شَعْب» (على وزن صَعْب)، وجمع «شَعْب» (على وزن فِعْل) طبقاً لقول بعضهم الآخر، بينما يعتقد البعض كصاحب مجمع البحرين أنَّ جمع الأول «شعوب» وجمع الثانى «شعاب»، وعلى أَيْهٍ حالٍ فإنَّها تعنى كما يقول صاحب «لسان العرب» الجمع والتفريق، أو الإصلاح والافساد (وذلك يصور إلى أنَّ معناها الأصلى هو الوادى الذى يتجمع فى الجانب الآخر من الجبل ويتسع فى الجانب السفلى وكما يقول الراغب فى المفردات أنَّ المفهومين اجتماعاً فيه) لذلك يقال «شعب» للقبيلة التى انفصلت

عن طائفة كبيرة (فلها صفة جمعية تفرقية) وقال بعض أيضاً أن «شعوب» تستخدم بخصوص العجم و «قبائل» للعرب «٢».

ولهذا تأتي «تَشَعْب» أيضاً بمعنى التفرق وكذلك الاجتماع، والإصلاح والافساد.

«أَلْف»: من مادة «إِلْف» على وزن (جِلْف) وتعني الاجتماع المتقارن بالانسجام والوثام، وتأليف القلوب يعنى إيجاد الالف والأواصر والصلة بينها (وعلى هذا الأساس اطلقوا على تأليف الكتاب هذا الاسم حيث يتم إيجاد نوع من التآلف والانسجام بين الألفاظ والمعاني والموضوعات) ولهذا يقولون للعدد أَلْف حيث يعتقد العرف أن كافة الأعداد مجموعة فيه لأنه يتكون من عدد واحد والعشرات والمئات والآلاف، ولم تكن هناك أعداد بعده بل تتكرر نفس الأرقام، عشرة آلاف ومائة ألف و «٣».

(١) التحقيق، لسان العرب، المفردات، مجمع البحرين، وكتاب العين.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ١٣٨.

(٣) مجمع البحرين، لسان العرب، مفردات الراغب.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٦٦

تفسير وتحليل

الروح الاجتماعية للبشر واحدة من أعظم المواهب الإلهية:

في سورة «الروم» وأثناء تعداد الآيات الإلهية في سبع آيات متقاربة «١» حيث تبدأ كل منها بتعبير «ومن آياته» أوضح جانباً من براهين عظمة الله في عالم الوجود بلحن مرغوب وجذاب ونغمه لطيف ومحببة والآية الأولى في البحث إحداها فقد أشارت إلى اللبنة الأولى في بناء المجتمع البشري، أي وحدة الأسرة والعلاقة التي تسودها، فيقول: «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا». واللطف أنه لم يذكر هنا أن الهدف من الحياة الزوجية هو بقاء النسل، بل يذكر نيل الاطمئنان والسكينة، الذي يحصل من خلال الحياة الزوجية، لأن هذين الجنسين يكمل أحدهما الآخر، ويكونان سبباً لفتح وانقاذ وتربيته كل منهما، بنحو يبدو كل منهما ناقصاً بدون الآخر، وينال تكامله عن هذا الطريق.

إن هذا الاطمئنان والسكون لا يقتصر على الجانب الجسدي بل إن جانبه الروحي أهم وأقوى

والاضطرابات النفسية وفقدان التوازن الروحي، والأمراض المختلفة المتمخضة عن الزهد في الزواج، شاهد ناطق على هذا المعنى ثم يضيف: «وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً».

هذه المودة والرحمة التي تعتبر في الحقيقة الركن الأساس وحلقة الوصل والارتباط ما بين الناس، فتربط الأشخاص المتفرقين والمتباعدين، وتخلق من ذلك مجتمعاً قوياً، تقوم المواد الأساسية في البناء بشد قطع الطابوق والحجر ويشيد منها بناءً ضخماً وعظيماً. واللطف كذلك أنه استند مره ثانية في نهاية الآية إلى هذه النكتة التوحيدية: قائلاً: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ».

(١) تبدأ هذه الآيات من الآية ٢٠ من السورة وحتى الآية ٢٥ (ست آيات متتابعة) والآية ٧ والآية ٤٦ من نفس السورة.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٦٧

ولو تأملنا في تشكيل الحياة الزوجية وهي أول وحدة اجتماعية، في الرابطة القوية التي تتكون بين هذين الجنسين المختلفين، ومن ثم لو تأملنا في الوحدات الاجتماعية الأكبر:

العائلة، الأقارب، الطائفة والعشيرة، ثم في المدن والاقطار وفي كل المجتمع البشرى، فاننا سنواجه في كل خطوة نخطوها آية من آيات الله العظيمة.

فمن الذى خلق المحبة والمودة بين المرأة والرجل، والأب والام وابنهما، والعشيرة والأقارب، وكل الناس بشكل عام؟ من الذى وضع التوازن بين جنس المرأة والرجل فى المجتمع البشرى؟ بشكل يتم الحفاظ على هذا التوازن رغم الحوادث المعقدة التى تطرأ فى المجتمعات كالموت والولادات!

من الذى خلق الأذواق المختلفة فى العقول، والرغبات المتباينة فى القلوب؟ وأخذ بيد كل صنف نحو عمل وبرنامج، كى يتكون من مجموعهم مجتمع إنسانى ككتلة واحدة متكاملة من جميع الجوانب.

ولعلله لهذا السبب أشار فى الآية الآتية إلى اختلاف اللسان وتباين الألوان ويعتبر ذلك من آيات الله. فيقول: «وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ السِّتِّكُمْ وَالْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ». (الروم / ٢٢)

ومما لا شك فيه أن أحد التفاسير لاختلاف اللسان والألوان، هو هذا التباين الموجود فى النطق والأذواق والجذب الفكرى للأشخاص، مما يؤدى إلى أن يتحلى المجتمع البشرى بالانسجام التام، بنحو لا يحصل معه فراغ فى أى من الحاجات المعنوية والمادية للبشر.

«مَوَدَّةٌ»: من مادة «وَدَّ» (على وزن حَبَّ) وتعنى المحبة كما تطلق على «الأمل فى تحقيق الشىء» (وكلا المعنيين قريبان لبعضهما) ولفظ «وَدَّ» (على وزن حَدَّ) اسم لأحد اصنام الجاهلية، وسمى بذلك الاسم لمحبتهم الشديدة له، أو لأنهم كانوا يظنون بوجود مودة بين الله وهذا الصنم، كما يُطلق هذا اللفظ على «المسمار»، حتى قال بعض إن لفظ «وَدَّ»

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٦٨

الذى يعنى فى لغة العرب «المسمار» مأخوذ من أصل «وَدَّ» لأن المسامير تلتصق بالجدار أو الأشياء الاخرى ومن هنا فهى تشابه مع مفهوم المحبة «١».

«رَحْمَةٌ»: وتعنى حالة الليونة التى تحصل فى قلب الإنسان فتجعله يميل إلى الاحسان تجاه من يستحق الرحمة، ومن المسلم به أنها حينما تُستخدَم فى مورد البارى تعالى فإنها تعنى الإنعام والعطاء والاحسان.

وهنا ما الفرق بين الاثنين (المودة والرحمة) فى هذه الآية؟ لقد اعطى المفسرون عدّة احتمالات، ويُمكن القول أن الجامع بينها هو أن «المودة» تُقال لشيء له مقابل، كالمحبة التى بين المرأة والرجل أو الاخوين، حيث تدفع كلاً منهما إلى تقديم الخدمة إلى الآخر، إلا أن «الرحمة» من جانب واحد وتشتمل على التضحية، كعلاقة الحب بين الوالدين وابنهما، أو أحد الزوجين نحو الآخر عندما يعجز عن العمل.

وهنا تكمن نكتة مهمة، وهى يجب أن يقوم فى الحياة الزوجية وكذلك الحياة الاجتماعية بشكل عام نوعان من العلاقة المعنوية:

الأول: العلاقة التى تتخذ طابع الخدمات المتقابلة، فيقوم كل فرد أو طبقة بخدمات متقابلة تجاه الأفراد أو الطبقات الاخرى

والثانى: «الخدمات المجانية»، لأن المجتمعات البشرية أو الاسر التى هى مجتمع مصغر تعج بالأطفال والضعفاء والعجزة باستمرار ولو شاؤا انتظار الخدمات المتقابلة لظلوا يعانون الحرمان، هنا حيث يعطى مفهوم «المودة» مكانة إلى «الرحمة»، وتحل الخدمات التضحية محل الخدمات المتقابلة، وكم لطيف هذا التعبير القرآنى الذى لن ترى المجتمعات البشرية صورة الاطمئنان والراحة إلا بالعمل به.

والآية الثانية من البحث تردد هذه الحقيقة التى وردت فى الآية الآنفه مع هذا الفارق

(١) مفردات الراغب مادة (ود).

حيث تقول: «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا».

والمقصود من «نفس واحدة» باعتقاد اغلب المفسرين هو آدم عليه السلام «١»، ومن المسلم به أن التعابير التي جاءت في ذيل الآية وتُشَمُّ منها رائحة الشرك، لا تعنى الشرك في الاعتقاد ولا في العبادة، بل يُمكن أن يكون المقصود منها هو ميل آدم إلى ابناؤه، الميل الذي قد يجذب الإنسان نحوه في لحظات خاطفة ويجعله يغفل عن غيره.

ويُحتمل أن يكون المراد من «نفس واحدة» هو «الوحدة النوعية»، أي (خلقكم من نوع واحد).

وليس المقصود من عبارة: «جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا» أن زوجة آدم «حواء» قد خُلقت من جزء من جسمه، كما نُقل في الرواية الموضوعه أن حواء خُلقت من ضلع آدم الأيسر، ولهذا يقل عدد الاضلع في الجانب الايسر عنها في الجانب الأيمن بضع واحد، لدى الرجال، ولا شك أن عدد الأضلع في كلا جانبي الرجل لا يتفاوت أبداً، ومن السهولة تجربة ذلك، بل إن المقصود هو:

إنه خلق زوجة آدم من جنسه، كي تكون بينهما الجاذبة الجنسية، وليس من جنس بعيدٍ وغريبٍ، كما نقرأ بخصوص النبي صلى الله عليه وآله في القرآن الكريم: «هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ».

ويشير في الآية الثالثة إلى خلق الإنسان من نطفة مختلطة، فيقول: «إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا».

وتم التلميح في هذه الآية إلى ثلاث مزايا للإنسان: الأولى امتزاج النطفة، ويستفاد هذا الامتزاج من لفظ «أَمْشَاجٍ» جمع «مشيج» أو «مَشَج» (على وزن مَدَدٌ) وتعنى الشيء

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٥٠٨؛ و التفسير الكبير، ج ١٥، ص ٨٥؛ و تفسير روح البيان، ج ٣، ص ٢٠٩٤؛ تفسير الميزان، ج ٨، ص ٣٩١، ونقل هذا المعنى في تفسير القرطبي (ج ٤، ص ٢٧٧٣) عن جمهور المفسرين.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٧٠

الممزوج، ولهذا معنى واسع حيث يشمل اختلاط النطفة من «البيضة» و «الحيمين»، وكذلك المواد المعدنية المختلفة وغيرها من المواد التي تتظافر لصنع النطفة، كما يمكن أن تكون إشارة إلى القوى المختلفة والقابليات المتباينة والأذواق المتفاوتة الموجودة في نطفة الإنسان وتُعدُّ للحياة الاجتماعية في المجالات كافة.

والثاني عبارة «نبتليه» التي تشير إلى انتقال الإنسان من حالة إلى أخرى والتحويلات المستمرة وأنواع الابتلاءات والاختبارات التي تأخذ بيده في مسيرته التكاملية وتعتبر دليلاً على تكليف الإنسان ومسؤوليته، لأن الاختبار غير ممكن بدون حرية الإرادة، والقابلية على أداء التكليف.

والثالث امتلاك الأدوات المهمة للمعرفة ومن أهمها السمع والبصر، فالسمع للاستفادة من العلوم النقلية وأفكار الآخرين، والعين للمشاهدة والاتصال المباشر بحقائق العالم.

فهكذا إنسان وبمثل هذه المواصفات جديرٌ بأن يرتقى إلى مقام خليفة الله وقادرٌ على الحياة الجماعية.

وفي الآية الرابعة وجَّه الكلام إلى الناس قاطبةً، قائلاً: «إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى».

بناءً على ذلك ليس هنالك أي تمايز بين الأجناس والقبائل والشعوب، لأنهم يرجعون إلى أصل واحد: «أبوهم آدم وأمهم حواء».

ثم أشار إلى فلسفة تصنيف الناس إلى شعوب وطوائف مضيفاً: «وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا».

لا شك أن أول شروط الحياة الاجتماعية هي معرفة الأشخاص ببعضهم، إذ لولاها لاختل نظام المجتمع البشري خلال يوم واحد، فلم يُعرف المجرم من البري، ولا الدائن من المدين، ولا القائد من المقود، ولا الأئمة من التابعين، و... أجل.. الله الذي خلق الإنسان لمثل

هذه الحياة وجَّعه أجناساً وقبائل وجماعاتٍ تتباين تماماً بالمواصفات وجَّعه في كل

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٧١

قبيلة أشخاصاً يمتازون بمزايا شخصيه خاصه كى تُحل مسألة «التعارف».

ويقول فى نهاية الآيه كاستنتاج أخلاقى من هذه المسأله الاجتماعيه: إن الانتساب للقبائل والجماعات ليس دليلاً على أى تفاضل أبداً بل: «أَنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتِّفَاكُكُمْ».

فالتقوى لا- تُعتبر مسألة أخلاقية فحسب، بل مسألة اجتماعية لا- تستقيم الحياه الاجتماعيه للبشر إلمان خلالها، التقوى فى جميع المجالات، التقوى الاقتصاديه، التقوى السياسيه، تقوى اللسان والتقوى الفكرية.

وفى الآيه الخامسه والاخيره من البحث يعتبر «تأليف القلوب» احد الأدله المهمه على انتصار نبى الإسلام صلى الله عليه و آله، فيقول: «هُوَ الَّذِي آتَىكَ بِنُصْرِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ * وَاللَّفَّ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ».

ويثبت هذا التعبير بوضوح أن تأليف القلوب يعتبر أمراً حتمياً من أجل التغلب على المشكلات الاجتماعيه، وقد خلق الله هذا الاستعداد لدى البشر ولولاه لم يتسن التأليف بين القلوب، ولو لم يحصل فستضطرب حياه البشر الاجتماعيه.

ثم يلمح إلى مسأله لطيفه وهى أن تأليف القلوب لا- يتحقق بالطرق الماديه، بل يمكن تحقيقه من خلال الإيمان والأساليب المعنويه والقيم الإنسانيه الساميه، فيقول: «لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

صحيح أن هذه الآيه نزلت بخصوص أصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله، إلا أن من الواضح أن مفهومها عام ويشمل المؤمنين قاطبه، كما اشير إلى هذا المعنى فى تفسير الميزان (١).

إن المسائل الماديه وبسبب ضيقها تكون مصدراً للنزاعات والصراعات، ولو فرضنا أن تكون عاملاً للوحده يوماً ما، فستكون وحده غير راسخه، فالوحده الراسخه تتحقق فى ظل الإيمان والتقوى والقيم الروحيه فقط.

(١) تفسير الميزان، ج ٩، ص ١٢٠.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٧٢

وورد قرين هذا المعنى بتعابير اخرى فى قوله تعالى حيث يقول حول أصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله: «أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ». (الفتح / ٢٩)

وما يثير اهتمامنا هنا هو التعبير ب «هو الذى» فى بدايه الآيه، حيث تُعرّف البارى من خلال نصره رسول الله صلى الله عليه و آله والتأليف بين قلوب المؤمنين، ويعدّها من آيات وجود الله تعالى التآلف الذى يسمو على جميع انواع التآلف، حتى على الروابط النسيبه والسببيه، ولهذا فقد هيمنت أواصر العصبية القبليه وبنحو مذهل على العلاقات التى كانت تسود المجتمع العربى أبان العصر الجاهلى لكن أواصر الإيمان والتقوى طغت على جميع أنواع الروابط، وظهرت آثار هذا التآلف الروحى والمعنوى فى جميع جوانب حياتهم الفرديه والاجتماعيه، وأدعّن العالم بأسره أمام عظمتهم.

توضيح

هل للمجتمع روح؟

إن الأحياء على قسمين وأغلبها يعيش منفرداً ولا وجود اجتماعى فيما بينها ولو على صعيد اصغر وحده اجتماعيه أى العائله، وبعضها قد تخطى هذه الحياه قليلاً وأخذ يعيش مع قرينه، ولكن قليلاً من الحيوانات تعيش حياه جماعيه، وبعضها قد كون حضاره، كالنحل، والنمل، والأرضه وغيرها من الحيوانات.

إلّا أنّ هذا الصنف (الحيوانات الاجتماعية) لها نوعان من النقص أيضاً: الأول: هو استحالة الحياة المشتركة بين المجاميع المتباينة (كنحلّ خليتين أو بضع خلايا)، والثاني:

إنّ حياتها الاجتماعية تتخذُ طابعاً واحداً باستمرار، أي أنّ النحلّ يعيشُ اليوم كما يعيش قبل مليون سنة.

فالكائن الوحيد الذي يعيش حياةً جماعيةً غير مقيّدة ويسير نحو التطور والتكامل هو الإنسان، والدليل على ذلك هذا النمو والتطور وسيادة العلم والعقل على حياته الاجتماعية.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٧٣

وهنا بحوث كثيرة لو أردنا الولوج فيها سنخرج من اطار البحث التفسيري ولكن يبدو من الضروري التذكير ببعض الامور:

١- ما هو منشأ رغبة الإنسان للحياة الاجتماعية؟- هنالك آراء مختلفة، ويبدو أكثرها صواباً هو أنّه مزيجٌ من الحوافز «الغريزية» و «العاطفية» و «الفكرية» فالعقل يقول إنّ التكامل ممكنٌ في ظل الحياة الاجتماعية فقط سواء كان معنوياً أو عادياً، لأنّه من البديهي إذا أراد فردٌ أو أسرة أن تعيش بم عزل عن الآخرين، فلا وجود لهذه العلوم والمعارف ولا هذه الصناعات والاختراعات والابداعات، فلا شك أنّها حصلت من خلال استثمار تكدّس الطاقات الفكرية والجسمية، ونقل كلّ جيل تجاربه إلى الأجيال الاخرى واثمرت هذه الظواهر الجبارة من خلال تجمعها وتظافرها.

ومن ناحيةٍ اخرى فإنّ الإنسان يميل إلى هذه الحياة من خلال حافزٍ ذاتيٍ وعاطفي، فهو يضجر من العزلة، ويشعر باللذّة من خلال حديثه وجلوسه وقيامه مع رفاقه، وسجنُ الوحدة يمثل أقسى عذابٍ بالنسبة له، وقد اثبتت تجارب العلماء أنّ العزلة لو استمرت فستؤدّي إلى اضطرابات نفسية على مدى فترةٍ قصيرة، وبغض النظر عن منافع التعايش الجماعي فإنّ هذا يؤكّد على أنّ الإنسان يرغب بطبعه في هذا التعايش.

٢- لقد اعتبر الإسلام الحياة الاجتماعية للبشر من أهم مبادئه، ولم يهتم بها في العلاقات السياسية والاقتصادية فقط بل حتى في مسألة العبادات التي تعتبر علاقة بين الخلق والخالق، فاعطى للعبادات الجماعية (صلاة الجماعة) وصلاة الجمعة ومناسك الحج، أهميّة لا مثيل لها.

فماهيّة الصلاة، والاذان والاقامة تُحفزُ الجميع للصلاة الجماعة، ويبرهن ضميرُ الجمع الوارد في سورة الفاتحة، والسلام الذي في خاتمة الصلاة، على أنّ الصلاة ذات صفةٍ اجتماعيةٍ وادائها فرادي يُعد صيغةً فرعيةً.

وقد اعطيت الحياة الاجتماعية اهميةً بالغه في الإسلام بحيث اعتبّر كل ما يؤدّي إلى الاختلاف والتفرقة (كالحسد، قول الزور، والغيبة، والنفاق و...) من الذنوب الكبيرة، وكلّ

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٧٤

ما يؤدّي إلى السّلام والوئام والإصلاح بين الناس جزءاً من أفضل العبادات.

٣- أنّ تحقيق الحياة الاجتماعية للبشر ليس امراً بسيطاً، لأنّه يحتاج إلى توزيع القابليات والقدرات العقلية والجسمية المختلفة، وتخطيطٍ دقيقٍ، وتوزيع للأعمال، والتنسيق والتآلف بين القلوب، وطبقاً للتعبير الذي ورد في تفسير الآيات فإنّ البشر كمواد البناء- الطابوق والحديد والمواد الإنشائية الاخرى التي إذا لم تكن فيما بينها وسيلة للربط والالتحام لم يتشيد منها بناءً شامخ، وهنا جاءت يد القدرة الإلهية لمساعدة الإنسان، ووضعت الخطة الدقيقة الرامية إلى تأليف القلوب، وتوزيع القابليات العقلية والجسمية، وأنواع الأذواق والفنون، ورفدت الإنسان بالموهب العظيمة التي لن تدور عجلة الحياة الاجتماعية للبشر بدونها أبداً، ويُعبّر عن مجموع هذه الامور أحياناً ب «روح المجتمع» وإلّا فاننا نعلم أنّ ليس للمجتمع روح خاصةً غير ما ذكر.

من يا ترى أوّجِد هذه الروح الاجتماعية بكل ما فيها من مواصفاتٍ من أجل دفع الإنسان نحو التكامل؟ فهل تستطيع الطبيعة العمياء الصمّاء التي لا عقل ولا احساس لها أنّ تُوجد هذا التخطيط، وهذه المودة والرحمة، وهذه السكينة والاطمئنان، ونطفة الامشاج، وهذا

التعارف العام، وهذا التآلف بين القلوب؟!

لهذا تعتبر الآيات المذكورة هذه الامور من آيات عظمه وعلم وقدره الله تعالى ونختتم هذا الكلام بالحديث الذي ورد عن النبي صلى الله عليه وآله فيما يخص اهتمام الإسلام بتقوية الأواصر الاجتماعية بين أبناء البشر، إذ يقول صلى الله عليه وآله:

«إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا لَقِيَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ فَاخْتَدَّ بِيَدِهِ تَحَاتَّ عَنْهُمَا ذُنُوبُهُمَا كَمَا تَتَحَاتُّ الْوَرَقُ عَنِ الشَّجَرَةِ الْيَابِسَةِ فِي يَوْمِ رِيحٍ عَاصِفٍ وَ «لَا يَفْتَرِقَانِ» إِلَّا غَفِرَ لَهُمَا ذُنُوبُهُمَا وَلَوْ كَانَ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحَارِ!» (١).

كلمة الختام:

من مجموع ما جاء في بحوث هذا الكتاب المختلفه تتضح هذه الحقيقة بجلاء وهي أن

(١) الطبراني، نقلًا عن تفسير في ظلال القرآن، ج ٤، ص ٥٧.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٣٧٥

المعشوق يتجلى من كل باب وجدار، وافاض بأنواره على كل موجودات الدنيا، ورسم اسماءه وصفاته على جبين كل الكائنات. فقد تجلى بمائه الف من الأنوار، كى نراه بمائه الف من الابصار، وهو قد اضاء شمساً في قلب كل ذرة، واطهر آثار علمه وقدرته في السماء والأرض.

وقد وُصفَ في آيات القرآن بهذا الطريق وأحصى آياته في الآفاق والانفس.

فتكفى عينان، واذنان، وقلب يقظ كى يرى المرء هذه الأنوار، وأن يسمع انغام التوحيد، وان يدعو خير المحسنين إلى القلب، ويستضيفه في هذه الخلوة الانيسة، وهذا العرش العظيم، ويخاطبه في جذبه روحية ويطرئ بما يلي من الاشعار:

لَيْبِكَ يَا عَالِمًا سَرَى وَنَجَوَائِي لَيْبِكَ لَيْبِكَ يَا فَقْرِي وَمُغْنَائِي أَدْعُوكَ بَلْ أَنْتَ تَدْعُونِي فَهَلْ نَاجَيْتُ إِيَّاكَ أَوْ نَاجَيْتَ إِيَّائِي حُبِّي لِمَوْلَايَ أَضْنَانِي وَأَسْتَقِمَّنِي فَكَيْفَ أَشْكُوا إِلَى مَوْلَايَ مَوْلَائِي يَا وَيْحَ رُوحِي مِنْ رُوحِي وَيَا أَسْفِي عِلِّيَّ مَنِّي فَإِنِّي أَصِلُ بَلْوَائِي «١» الهى! املاؤ قلوبنا من حبك ومعرفتك والإيمان بك.

ربنا! إفض علينا نحن العطاشى من كؤوس معرفتك واجعلنا سكارى إلى الأبد فى جذبه روحية من جذباتك.

يا مولاى! من الصعب طئ طريق معرفه ذاتك المقدسه إلا بلطفك ورعايتك وتوفيقك، فاجعلنا مشمولين برعايتك وفضلك وتوفيقك.

آمين يا رب العالمين

ختام الجزء الثانى من نفحات القرآن

١١ / ٤ / ١٣٦٧

الموافق ل ١٧ ذى القعدة ١٤٠٨

(١) روضات الجنان، ج ٣، ص ١٤٨، الشعر لحسين بن منصور الحلاج.

الجزء الثالث

المقدمة

الطرق إلى الله ...

كما ورد في بداية هذا الكتاب فإن هناك حبلاً ممتداً من أعماق قلب كل إنسان متصلًا بالله عزّوجل، فتنتقل في روضه روح كل إنسان انشودةً تعبر عن هذا الارتباط، ولهذا السبب، ونظراً لكثرة النفوس الإنسانية، فإن الطرق إلى الله لا حصر لها، ولكل إنسان نوع خاص به من الإدراك والشعور بالنسبة لله سبحانه وتعالى.

ولكن مع كل هذه الاختلافات فإن وجهه الجميع واحدة، العالم بأسره منقاد له، وينمو في أعماق روح كل إنسان برعم من معرفة ذاته وصفاته، وتزهر في قلب كل إنسان زهرةً من أزهار معرفته.

ويرتفع دائماً من «الوادي الأيمن» نداءً «إني أنا ربك» ويدعو الفطرة السوية الكامنة في كل النفوس الإنسانية إليه بصوت: «فأخَلَع نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى . (طه / ١٢) يأمر الجميع بأن يسيروا بكل خضوع وخشوع واحترام وحذر شديد في الوادي المقدس.

ويوصي جميع بني آدم بأن يعملوا بوصيته مثلما عملت مريم عليها السلام عندما أوصاها بقوله:

«وَهَزَى بِيَدَيْهَا النَّخْلَةَ». (مريم / ٢٥)

فيهزؤون الأغصان المثمرة لشجرة التوحيد لتساقط عليهم ثمرات الإيمان والمعرفة الطيبة.

وأن لا يخشون أبداً من نيران شرك النمروديين، وأن يكونوا إبراهيميين فيدخلونها بكل اطمئنان وهدوء ليطفئوا نيران الشرك المحرقة ويحولونها إلى روضة للتوحيد.

وأن يركبوا في سفينة المعرفة المنجية كما ركبها نوح، ليغرق كل الذين يدعون ويلهجون بغيره - حتى الكنعانيين منهم -.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٦

وأن ينهالوا بالضرب على رأس «السامري» دون وجل، ويحرقوا بنار غضبهم المقدسة عجله الذهبي المنمق الذي يتسبب في جذب قلوب المتعلقين بالدنيا ومحبي الثروة واكتناز الذهب ويثروا رماده في بحر الفناء!

أجل فإن سالكي هذا الطريق يكثرزون ما قام به الأنبياء المرسلون في سيرهم الظاهري في هذا العالم من خلال سيرهم الباطني للوصول إلى الهدف والمراد وهو «معرفة الله».

وفي نهاية المطاف يلبون النداء الروحي لنبي الإسلام صلى الله عليه وآله: «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»، فيقتربون من أعلى مقامات الفلاح والفوز من خلال ترديدهم لنغمة التوحيد الروحية السامية بجميع أجزاء وجودهم «حتى الوريد والشريان».

فيخرجون بهذا السير والسلوك الإلهي من «دار الطبيعة» ليجدوا طريقهم إلى «دار الحقيقة» ومقام القرب الإلهي.

ولكن النقطة المهمة تكمن في أن هذا الطريق يمتاز بكثرة المنحدرات والمرتفعات والمنعطفات التي تكمن في مسالكها شياطين الجن والإنس، الذين يبذلون الجهد الجهد و «بزخرف القول» لحرف سالكي هذا الطريق عن مسيرتهم لأن إمامهم وزعيمهم إبليس أقسم بعزة الله وجلاله منذ البدء لإغواء بني آدم، ولعلمه بأنه «رجيم» ومطرود من حضرته، فإنه يدعو الآخرين لاتباعه والاصطباغ بصبغته.

إن «الوسواس الخناس» هي صفة للشياطين الذين يضعون النقاب على وجوههم، كالغول الاسطوري في قصص العرب، يسيرون عدّة أيام في جادة الصواب، وبعد أن يجذبوا مجموعة من الناس إلى صفوفهم، ينحرفون عن الصراط المستقيم، ويلقون بهم في الأودية السحيقة «للضالين» و «المغضوب عليهم».

إذن ماذا ينبغي القيام به؟

وأي طريق النجاة؟

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٧

يا ترى، هل يمكن طي هذا الطريق بواسطة العقل المجرد، على الرغم من أن العقل يعد وسيلة من الوسائل التي وهبها الله تعالى للإنسان فهو نور من الأنوار الإلهية؟!

أم يجب ركوب أجنحة الوحي والصعود إلى سماء المعرفة، فتتجاوز ضوء الشمع والمصباح، ونمد أيدينا نحو الشمس المتلألئة، فنستمد العون من نورها للوصول إليه، لنحصل على الدليل من ذاته على ذاته؟

حيث إن مضمون حديث رسول الله صلى الله عليه وآله: «مَنْ ابْتَغَى الْعِلْمَ فِي غَيْرِهِ (غير القرآن) أَضَلَّهُ اللَّهُ» (١)

، ينص على ذلك، وهل يوجد غيره، يعرفه حق معرفته ليتمكن من تعريفه للآخرين؟

إن هذا الكتاب وهو المجلد الثالث من التفسير الموضوعي ل «نفحات القرآن» هو عبارة عن جهد متواضع في هذا المجال لمعرفة الله في مختلف الطرق بتوجيه آيات القرآن المجيد، وتأييد حكم العقل بلسان النقل، وترسيخ اسس البرهان بآيات الوحي.

محرم الحرام ١٤١٠ هـ ق قم المقدسة - الحوزة العلمية

مرداد ١٣٦٨ هـ ش - ناصر مكارم الشيرازي

(١) بحار الأنوار، ج ٨٩، ص ٢٧.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٩

براهين معرفة الله

إشارة

١- برهان النظم (قد ذكر سابقاً)

٢- برهان التغيير والحركة

٣- برهان الوجوب والإمكان (الغنى والفقير)

٤- برهان العلة والمعلول

٥- برهان الصديقين

٦- الطريق الباطني لمعرفة الله (الفطرة)

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١١

تمهيد:

بالرغم من أن الطرق إلى الله لا حصر ولا حدود لها- وكما يقول بعض العلماء: إن السبل إلى الله هي بعدد الخلائق: «الطرق إلى الله بعدد نفوس الخلائق» (١)

- إلا أنه توجد خمس طرق عقلية رئيسية وطريق فطري واحد لإثبات ذات الله المقدسة، والطرق العقلية هذه عبارة عن:

١- برهان النظم.

٢- برهان الحركة.

٣- برهان الوجوب والإمكان (الغنى والفقير).

٤- طريق العلة والمعلول.

٥- برهان الصديقين.

والطريق السادس هو طريق (الفطرة) والسلوك (الباطن) والبحث في أعماق الروح الإنسانية، ومن الملاحظ أن القرآن الكريم قد استند إلى هذه الطرق أجمع، غير أن أشمل البراهين التي يطرحها للمعارضين هو (برهان النظم) الذي يثبت وجود ذلك المبدئ الأزلي وما يملكه من علم وقدره، وذلك من خلال عرض عجائب الخلق والآثار البديعة والأنظمة العجيبة في عالم الوجود ولذا خصّص أكثر الجزء الثاني من (نفحات القرآن) لشرح هذا البرهان وتبيان موارده- وشواهد في القرآن الكريم.

(١) نقله البعض بعبارة (عدد أنفاس الخلائق) ويعنى أن كل نفس يتنفسه الإنسان هو طريق الله. ولكن هذه الجملة لم نجد لها بصورة حديث في مصادرها بل وردت في كلمات العلماء.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٢

والآن نتابع سائر الطرق القرآنية لإثبات وجود الله، ثم نتحدث عن قضيتة الفطرة في ظل التوجيهات القرآنية. هذه صورة إجمالية عن أبحاث هذا الجزء.

نؤكد مرة أخرى ونكرر بأن هذه الأبحاث لا تُقدم كأبحاث فلسفية أو كلامية، بل كأبحاث في التفسير الموضوعي كما تقتضيه طبيعة الكتاب، أي أننا نسير في هدى الآيات القرآنية ونستضيء بتوجيهات هذا النور الإلهي، ولو كانت ثمّة قضايا أخرى فإننا سوف نتحدث عنها تحت عنوان (إيضاحات)، وأبحاثنا- في الحقيقة- لا تستوجب غير ذلك، لأنها في غير هذه الحالة سوف تفقد أصالتها كأبحاث تفسيرية.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٣

٢- برهان التغير والحركة

تمهيد:

إنّ عالمنا الذي نعيش فيه هو في حالة تغيير وتغير دائم، فلا يبقى الوجود على حالة واحدة، وكلّ شيء يعيش حالة من التغير والتغيير. ويبدو أنّ نطاق حياة البشر والحيوانات والنباتات المقترنة بالتغيير والحركة أوسع وليس بوسع أحد أن ينكر هذا التغير والتبدل على صعيد نفس الإنسان أو على صعيد عالم المادة، فالإنسان يواجه مشاهد مختلفة من هذا التغير ليلاً ونهاراً، بل إنّ ظاهرتي (الليل والنهار) هما من أوضح النماذج عن التغير والتبدل في العالم. هذه التغيرات والتغيرات والحركات التي تحكم العالم تدلّ بوضوح على وجود مركز ثابت تنشأ منه، وكأنّ الجميع يدور حول هذا المركز الثابت على محيط دائرة.

والتغيير والحركة في الموجودات يعدان بمثابة شاهد على حدوث الموجودات، كما أنّ حدوثها دليل على وجود خالقها. هذا الاستدلال- الذي سيُردُّ شرحه بالتفصيل مستقبلاً- ورد في الآيات القرآنية بلطافة خاصّة، وبهذه الإشارة نرجع إلى القرآن الكريم كي نقرأ هذه الآيات:

«وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لِمَ أَجِبُ الْإِفْلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ».

(الأنعام / ٧٥-٧٩)

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٤

شرح المفردات:

١- «أفل»: و (أفلت) مشتقة من مادة (افول) وتعني الإختفاء كما يقول جمع من اللغويين، ولكن (الراغب) في (المفردات) أكثر دقة حيث يقول: الافول يعني اختفاء الأجسام الثيرة كالشمس والقمر، والصحيح هو ما يذهب إليه الراغب، لأن هذا المعنى هو المتبادر من إطلاق هذا اللفظ، كما أنه ذو معنى كنائي في بعض المجالات، فمثلاً يعبر عن موت العالم ب (الافول)، وفي ذلك- في الحقيقة- تشبيه بالشمس أو النجم، والتعبير بالافول والغروب هو بهذا اللحاظ.

٢- كلمة «بازغ» و (بازغ) مشتقة من المصدر (بزوغ) بمعنى الشروق وانتشار النور، كما يذهب إليه الراغب في المفردات فيقول هو في الأصل يعني اخراج دم الحيوان بغية العلاج ثم استعمل بمعنى الطلوع.

أمّا ابن منظور فإنه يقول في (لسان العرب): الأصل فيه بمعنى الفتق ويستعمل في موارد فتق العروق في الإنسان أو الحيوان من أجل العلاج وبما أن طلوع الفجر وأمثاله يشقّ ظلام الليل لذا استعمل هذا اللفظ في هذا المعنى.

٣- «كوكب»: مشتق من (وكب) أو (كوب) وقد فسّره الكثير بمعنى (النجم)، ولكن الراغب في المفردات فسّره بمعنى (النجم عند الطلوع)، وعندما يفسّره البعض بمعنى كوكب (الزهرة) فهو من قبيل المصداق الواضح له، لأن كوكب الزهرة هو أشد النجوم تألؤاً ولمعاناً.

كما يطلق هذا اللفظ أحياناً على الوسيم والجميل، أو الجزء المهم من كل شيء، وعلى كبير القوم أيضاً، ولكنها معانٍ مجازية في الظاهر.

أمّا «قمر»: وإن كان معروفاً، ولكن توجد هنا نقطة جديرة بالإلتفات وهي أن الكثير من اللغويين صرّحوا بأن لفظ (القمر) يطلق في فترة تمتد من الليلة الثالثة وحتى الليلتين الأخيرتين من الشهر، وعليه لا- يطلق لفظ القمر في الليلتين الأوليين ولا في الليلتين الأخيرتين بل يطلق لفظ (الهلال)، لأنّ اللغويين يعتقدون بأن (القمر) و (القمار) من أصل

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٥

واحد ويعني الغلبة، وبما أن نور القمر في الليلة الثالثة يتغلب على أنوار النجوم المجاورة، لذا أطلق عليه هذا اللفظ «١».

«شمس»: هذا اللفظ وإن كان له معنى معروف ولكن من الجدير أن نذكر هذه الملاحظة وهي أن لفظ الشمس يطلق على الكوكب نفسه وعلى النور الساطع منه أيضاً.

وبما أن الشمس غير ثابتة في السماء وهي في حركة دائبة (بالنسبة لنا سكان الأرض) لذا يطلق هذا الاصطلاح على الأشخاص الفوضويين والحيوانات الجموحه فتعرف ب (الشموس).

جمع الآيات وتفسيرها**إبراهيم عليه السلام يواجه عبدة الأصنام بمنطق قوي:**

تحدثت الآية الاولى عن إراءة الله سبحانه (ملكوت) السماوات والأرض لإبراهيم عليه السلام كي ينبعث اليقين في نفسه بمشاهدتها، وتتجدد الحياة في إيمانه الفطري حيث تقول «وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلِكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ» «٢».

إنَّ المقصود من (إراءة ملكوت السماوات والأرض) هو مشاهدة حكومة الله ومالكيته لعالم الوجود بملاحظة الموجودات المتغيرة في هذا العالم [لأنَّ لفظ (ملكوت) مشتق من (ملك) بمعنى الحكومة والمالكية، وزيادة الواو والتاء للتأكيد] هذه الحاكمية المطلقة والمالكية المسلمة لله على العالم جاءت بالتفصيل في الآيات اللاحقة، وهذه الآيات - في الحقيقة - جاءت على صورة البيان (الإجمالي) و (التفصيلي) وهو من الأساليب القرآنية المعروفة في بيان القضايا المهمة، ففي البداية تذكر القضية بشكل مغلق كي يستعد السامع ثم تشرع بشرحها [التعبير بفاء التفرغ في (فلما) إشارة واضحة إلى هذا الأمر].

(١) لسان العرب؛ مفردات الراغب؛ كتاب العين.

(٢) يقول بعض المفسرين بأنَّ في تشبيه الآية إشارة إلى أننا كما أريناك - يانبي الإسلام - ملكوت السماوات والأرض فأننا قد أريناها إبراهيم أيضاً (و عليه ففي الآية جملة مقدرة).

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٦

على أية حال فإنَّ القرآن اعتمد تبيان هذا الإجمال في الآيات اللاحقة، فبدأ أولاً بالنجوم وبين استدلال إبراهيم عليه السلام في إبطال مذهب عبدة النجوم بهذا النحو: «فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي».

التعبير ب «رأى كوكباً» مع أن نجوماً كثيرة تظهر في الليل - فيه إشارة إلى نجم كبير ولامع لفت نظره إليه، وبما أن كوكب (الزهرة) يظهر أول الليل و (كوكب) يعنى (النجم عند طلوعه) يتعزز بذلك التفسير الذى يميل إليه أغلب المفسرين وهو أن النجم كان الزهرة أو المشترى اللذين كانا يعتبران في العصور القديمة من الآلهة المعبودة عند المشركين، ويؤيد ذلك ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في إحدى الروايات بأنَّ هذا النجم هو كوكب الزهرة.

على كل حال فإنَّ هذا النجم لم يدم طويلاً حتى أفل، فقال إبراهيم عليه السلام: «... لَأَجِبَّ الْآفِلِينَ».

مرة أخرى التفت إبراهيم إلى بزوغ (القمر) من وراء الافق فأضاء السماء والأرض بنوره الأخاذ والجميل فقال إبراهيم عليه السلام: «هَذَا رَبِّي».

ولكن لم يدم طويلاً حتى تعرّض القمر إلى مصير النجم واختفى وراء الافق وعادت السماء مظلمة، (عندئذ قال إبراهيم عليه السلام الذى كان يسعى للوصول إلى حقيقة وكنه المعبود:

«لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ».

وبهذه الطريقة تبين أن سعى الإنسان لا- يكفى للوصول إلى الحق، بل يجب أن يتعزز بالعون والعناية الإلهية وكى لا- يكون من الضالين، ومن المؤكد أن هذا الإمداد والعون يشمل الذين يجهدون أنفسهم فى ابتغاء الحق، وطلب معرفة الله سبحانه وتعالى.

وأخيراً انتهى الليل، وأخذ الظلام يلم ستائره التى أسدلها على السماء، وبزغت الشمس فجاءً بوجهها التير المتلألئ من الشرق وألقت بأشعتها الذهبية على الجبال والصحارى، «فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ» (١).

(١) «الشمس» وإن كانت مؤنثاً مجازياً ويجب أن يشار إليها ب (هذه) ولكن نعلم أن قضيتي المذكر والمؤنث سهله وهنا يمكن أن يكون (هذا) إشارة إلى (الموجود) أو (المشاهد).

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٧

ولكن بانتهاء النهار وسقوط الشمس فى جوف الليل المظلم واختفاء صورتها خلف حجاب الغروب، نادى إبراهيم عليه السلام: «يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ».

لقد فهم إبراهيم عليه السلام من خلال مشاهدته لغروب الشمس وأفول النجم وغياب القمر، بأنَّ كل ما رأى ما هى إلامخلوقات

خاضعة لقوانين الخلقه كالأفول والغروب والتغيير، وفهم بأن هناك قوة خفية لا يعترتها التغيير والغروب والأفول أبداً، وهذه القوة تتمثل بالذات الإلهية المقدسة.

وقال: إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ إِلَىٰ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَلَا أَذْعَنُ لِلشَّرْكِ أَبَدًا، إِنِّي مُوحِّدٌ كَامِلٌ التَّوْحِيدِ وَعَابِدٌ وَعَبْدٌ مُخْلِصٌ: «إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ».

هل وقعت الحوادث الثلاثة في ليلة واحدة أم في ليلتين؟

قال بعض المفسرين - نظراً لعجزهم عن تصوّر وقوعها في ليلة واحدة - أو في ليلتين، فقد قالوا إنّ ظاهر الآيات يدل على أنّها تعاقبت في ليلة واحدة ونهار واحد وهذا ممكن تماماً، لأنّ كوكب الزهرة يظهر منتصف الشهر وبوضوح في أوّل الليل ثمّ يأفل سريعاً، ثمّ يظهر القمر بداراً من افق الشرق [والتعبير ب (بازغ) يدلّ على أنّ القمر كان بداراً أو قريباً منه وعندما يختفي القمر في افق الغروب لا تلبث الشمس حتّى تشرق، وبهذا الترتيب تكون الوقائع الثلاث قد حصلت في ليلة واحدة ونهار واحد.

وهذا الأمر ليس مهماً، المهم أن نعرف هو كيف يمكن لشخص مثل إبراهيم عليه السلام وبهذه المكانة العلمية والعرفانية ومع الأخذ بنظر الاعتبار عصمة ومقام الأنبياء وحتى قبل بعثتهم، أن يجرى على لسانه مثل هذا الكلام والذي يحمل في طياته شركاً ظاهراً؟ يمكن الإجابة عن هذا السؤال بطريقتين:

الأول: بقرينة الآيات الواردة حيث يقول: «يَأْقُومِ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ» يفهم أنّه كان

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٨

في حالة التحدّث والكلام والجدال مع المشركين ونعلم أنّ مدينة بابل كانت تضم عبدة النجوم والقمر والشمس. إنّ المعلّم الذكي والمتحدّث الماهر عندما يواجه المعارض اللجوج المعاند فلا يقابله بمعارضة عقيدته فوراً بل يماشيه فترة، وبتعبير آخر يتحرّك مع الموجه قليلاً ثمّ يركبها، وبهذا النحو يكون إبراهيم عليه السلام في بداية الأمر معهم ظاهراً لكي يريهم ضعف عقيدتهم ومنطقهم عند افول هذه الأجرام السماوية، وهذا الأسلوب في النقاش مؤثّر ونافذ ومقبول كثيراً ولا يتنافى مع ما لإبراهيم عليه السلام من مقام في التوحيد والمعرفة.

في رواية عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام في جوابه للمأمون الذي كان يعتقد بتعارض هذه الآيات مع عصمة الأنبياء أنّه قال: «... إنّ إبراهيم عليه السلام وقع إلى ثلاثة أصناف:

صنف يعبد الزهرة، وصنف يعبد القمر، وصنف يعبد الشمس ... وكان قوله هذا على الإنكار والإستخبار ...» (١).

والتفسير الآخر هو أنّ إبراهيم عليه السلام ألقى هذا الكلام بشكل فرضي، والمحققون يواجهون ذلك في الغالب عند التحقيق. للإيضاح نقول: يتوصّل الإنسان تارةً إلى قضية ما عن طريق الاستدلال الوجداني والشواهد الفطرية ولكنّه يريد أن يجعلها في إطار البرهان العقلي، فيستعين بفرضيات مختلفة ويدرس مستلزمات كلّ فرضية حتّى يصل إلى ما يريد.

فمثلاً: يتوصّل المحقّق إلى أصالة الروح بوجدانه ويرغب في إقامة البرهان على ذلك فيفترض الروح مادّية أو أنّ المادّية من خواصها ثمّ يدرس اعراض المادّة وخواصها ومستلزماتها فيصل أخيراً إلى أنّ المادّية (أو اعراض المادّة) لا تنسجم مع الظواهر الروحية فينفيها الواحدة تلو الاخرى حتّى يبلغ تجرّد الروح.

وإبراهيم عليه السلام أيضاً ولكي يسلك طريق التوحيد المنطقي والذي توصل إليه بوضوح في أعماق روحه يفترض فرضيات مختلفة ويقول (هذا ربّي) و (هذا ربّي) ثمّ يصل إلى بطلان

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام باختصار، بنقل من تفسير الميزان، ج ٧، ص ٢١٤.

هذه الاحتمالات بافولها وغروبها حتى يقول أخيراً: «إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ» (١) ويكمل توحيدة المستدل.

ونلاحظ في بعض الروايات إشارات خفيفة إلى هذا المضمون، كما نقرأ عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالى: «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً» الآية في حديث طويل ... وفي آخره يقول الراوي: قلت له: أفي ضلال كانوا قبل النبي أم على هدى؟ قال عليه السلام: «لم يكونوا على هدى بل كانوا على فطرة الله التي فطرهم عليها لا تبديل لخلق الله، ولم يكونوا ليهدتوا حتى يهديهم الله أما تسمع لقول إبراهيم عليه السلام: (لئن لم يهدني ربِّي لأكوننَّ من القوم الضَّالِّينَ) أي ناسياً للميثاق» (٢). ولكن القرائن الموجودة في الآيات والروايات التي وردت عن الإمام الرضا عليه السلام في هذا المجال أكثر تلائماً مع التفسير الأول.

العلاقة بين الأفول والحدوث:

لقد استدل إبراهيم عليه السلام بافول الكواكب والشمس وغروبها على نفى الوهيتها، وقال بأن هذه الموجودات لا يمكنها أن تكون آلهة للعالم، والكلام هنا كيف يمكن توضيح هذه العلاقة؟ توجد هنا آراء مختلفة:

١- (الأفول) علامة التغيير، بل هو لون من التغيير، والتغيير دليل على نقص الموجود، لأن الموجود الكامل من كل جهاته لا تتصور فيه الحركة ولا التغيير لأنه لا يفقد شيئاً ولا

(١) وردت احتمالات أخرى في تفسير الآيات أعلاه منها الإستفهام الإستكاري والإستفهام بقصد الإستهزاء وأمثاله، وخاصة في تفسير التبيان وتفسير الفخر الرازي حيث أوردا احتمالات عديدة، ولكن لا ينسجم أي منها مع لحن الآية.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٧٣٦، ح ١٤٨.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٠

يكتسب شيئاً فهو الكمال المطلق، وعلى ذلك فإن الموجودات المتغيرة والمتحركة تكون ناقصة حتماً فهي إما تفقد كمالاً، أو أنها تبحث عن كمال جديد، والموجود الناقص لا يمكن أن يكون واجب الوجود.

٢- الموجود المقرون ب (الافول) معروض للحوادث، وكل ما كان معروضاً للحوادث لا يمكن أن يكون قديماً وأزلياً وواجب الوجود لاستلزامه الجمع بين (الحدوث) و (الأزلية) وبين هاتين الظاهرتين حالة من التضاد.

٣- كل حركة تحتاج إلى محرّك من الخارج، فإن كان ذلك المحرّك متحرّكاً فعلياً أن نبحت عن محرّك آخر حتى نصل إلى وجود ليس فيه حركة مطلقاً.

٤- الحركة- وخاصة الحركة نحو الافول- دليل على أن عالم المادة صائر إلى الفناء [وهو أصل الكهولة و (الأتروبي) الذي سنشير إليه وكل ما كان مصيره الفناء لا يكون أبدياً حتماً، ومثل هذا الموجود لا يكون أزلياً قطعاً، وبذلك لا يمكن أن يكون واجب الوجود.

إن كل واحدة من هذه الاستدلالات التي ذكرت يمكن أن تكون لها القابلية على استدلال النبي إبراهيم عليه السلام بها، ويمكن أن يكون كلام إبراهيم إشارة طريفة إليها جميعاً.

ينقل (الفخر الرازي) عن بعض المحققين: أن استدلال إبراهيم من السمو والشمول ما يجعله مورداً لاستفادة الخاصية والمتوسّطين والعوام.

أما الخاصية فإنهم يفهمون حقيقة (الإمكان) من (الافول) وكل موجود ممكن هو بحاجة إلى خالق، وهذه السلسلة متصلة حتى تنتهي

بالباهر المنزه من الإمكان ولا سبيل إلى ذاته، كما نقرأ في قوله تعالى «وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ . (النجم / ٤٢) وأما المتوسيطون فإنهم يفهمون من الافول مطلق الحركة وأن كل متحرك حادث وكل حادث محتاج إلى وجود القديم الأزلي، وأما العوام فإنهم يفهمون الغروب من الافول ويشاهدون الشمس والقمر والكواكب تمحى وتضمحل عند الغروب وتزول سلطتها وحكومتها، ومثل هذه الأشياء لا تصلح للالوهية، إذن جملة: «لا احبُّ الأفلين» كلام يستفيد منه (المقربون) و (أصحاب اليمين) و (أصحاب الشمال) وهذا أكمل وأوضح برهان «١».

(١) تفسير الكبير، ج ١٣، ص ٥٢.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢١

ومن هنا يتضح لماذا لم يستند إبراهيم عليه السلام إلى طلوع هذه الكواكب مع أن الطلوع والغروب كلاهما مصداقان للحركة؟ وذلك لأن ظاهرة الزوال والفناء وانقطاع الفيض والبركة يشاهد في الغروب تماماً في حين لا يشاهد ذلك في الطلوع. وعليه فإن الفصاحة والبلاغة تقتضيان أن يكون الإعتماد على (الغروب) لكي تتوضح القضية أكثر، وتكون مقبولة تماماً لدى جميع الطبقات، وهذه النقطة جديرة بالملاحظة أيضاً وهي أن الحركة - كما سيأتي - لها أنواع وأوضحها هي (الحركة في المكان) وقد استند إليها في الآية (الحركة المكانية هنا مقترنة بالحركة الكيفية، لأن كيفية النور في هذه الكواكب تتغير مع الحركة وتكون ضعيفة النور عند الغروب حتى تختفي عن الأنظار).

يعتقد بعض الفلاسفة أن هذه الآية تتضمن إشارة إلى برهان الحركة حيث يقول تعالى:

«وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ». (النمل / ٨٨)

فيقول أولئك بأن هذا التعبير ناظر إلى (الحركة الجوهرية) وهي الحركة التي تكون في ذات الأشياء وباطنها، الحركة التي تدل على أن عالم المادة بأجمعه حادث ويحتاج إلى خالق [سيأتي شرح هذا الكلام في باب الإيضاحات بإذن الله ولكن بناءً على أن الآية ناظرة إلى حقيقة (الحركة الجوهرية) فإنها لا تشير إلى الاستدلال التوحيدي ولا إلى الاستفادة من ظاهرة الحركة لإثبات وجود الله (تأمل جيداً).

ويعتقد أغلب المفسرين بأن هذه الآية ترتبط بأشراط الساعة (أشراط الساعة هي الأحداث المروعة التي تحدث عند قيام القيامة وخاصة تحرك الجبال وتلاشيها ثم صيرورتها غباراً كما جاء في آيات عديدة من القرآن الكريم) «١».

(١) للمزيد من التفاصيل يمكن مراجعة التفسير الأمثل، ذيل الآية ٨٨ من سورة النمل.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٢

ولكن كما قلنا في التفسير الأمثل: إن هذا المعنى لا ينسجم مع ظاهر الآية، لأن تلاشي الجبال قبيل قيام الساعة مروّع إلى درجة يجعل الإنسان يعيش وحشة عظيمة في حين تقول الآية بأنك لا تعلم بحركة الجبال.

ولهذا نعتقد أن الآية تشير إلى حركة الجبال المواكبة لحركة الأرض في الدنيا وتشبيها بحركة السحاب، وجملة (ترى فيها إشارة إلى الوضع الموجود والتعبير ب «صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ» وذيل الآية: «إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ» كلاهما دليلان على أن الآية ترتبط بحركة الجبال في هذه الدنيا «١».

ويعتقد البعض الآخر بأن الآية ٢٩ من سورة الرحمن: «يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ» إشارة إلى مسألة الحركة الجوهرية التي يمكن عن طريقها الوصول إلى وجود الله (عن طريق برهان الحركة).

ولكن دلالة هذه الآية على الدعوى المذكورة غير واضحة أيضاً، بل إن ظاهرها هو أن الله يخلق كل يوم أمراً جديداً، خلقه دائم

ومستمر، وهو يبتكر في كل زمان أمراً جديداً، ويقدر كل يوم نعمته جديدة، وعمله هو الإستجابة لقضاء حوائج السائلين. كما أن الظاهر من تعبير الآية وكذلك الروايات الواردة في تفسيرها هو ما ذكر أيضاً (تحدثنا عن هذا الموضوع مفصلاً في التفسير الأمثل) «٢».

ويستنتج من مجموع ما تقدم أن أبرز الآيات الدالة على برهان الحركة هي آيات إبراهيم عليه السلام التي استدلت بها على نفى الوهية النجوم وذلك بافولها وغروبها واحتياجها إلى الخالق كذلك.

توضيحات

١- برهان الحركة ومقدماته

إشارة

الفهم الصحيح لبرهان الحركة وكيفية استخدامه في مسألة إثبات وجود الله يقتضى ملاحظة الامور التالية إجمالاً:

(١) لاحظ التفاصيل في التفسير الأمثل، ذيل الآية ٨٨، سورة النمل.

(٢) التفسير الأمثل ذيل الآية ٢٩ من سورة الرحمن.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٣

(أ) تعريف الحركة.

(ب) وجود الحركة.

(ج) أركان الحركة.

(د) المقولات التي تقع فيها الحركة.

(أ) تعريف الحركة

ذكرت عدة تعاريف للحركة، أوضحها التعريفان الآتيان.

١- خروج الشيء من القوة إلى الفعل بصورة تدريجية.

٢- الزوال والحدوث المستمر.

عندما تتساقط قطرات المطر من السماء فالنتيجة هي إما أن ينبت نبات أو ينضج ثم تدريجياً، وفي هذه الموارد كلها يكون للجسم وضع فعلى كما أن له القابلية في ذات الوقت لاتخاذ وضع آخر، وعندما يفقد الوضع الموجود تدريجياً ويتقبل وضعاً جديداً (ما كان فيه بالقوة يصبح فعلياً) فإن ذلك الموجود وفق سلسلة من الزوال والحدوث المستمر يكون قد انتقل من حال إلى حال، غير أن هذا لا يعنى أن الحركة مركبة من أجزاء إسمها (السكون) أو أنها مركبة من (الوجود) و (العدم) بل إن الحركة أمر واحد مستمر في الخارج وله أجزاء في التحليل العقلي.

مما قدمنا يمكن استنتاج أن الشيء إذا كانت له فعلية تامة ووجود مطلق فلا تتصور فيه الحركة، بل سيكون ذا ثبات تام، وبتعبير آخر أن الحركة تكون مقرونة بنوع من النقصان، وعليه لا توجد في ذات الله سبحانه حركة على الإطلاق.

(ب) وجود الحركة

لا تواجه مشكلة مهمّة في إثبات الوجود للحركة فذلك من الامور البديهية، حيث نلاحظ بأم أعيننا وبوضوح ونحسّ بحواسنا الاخرى باستمرار وجود حركات في الخارج،
نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٤

وعليه فإن أدلة المنكرين لوجود الحركة ومنهم (الفيلسوف اليوناني ذنون وأتباعه) لا قيمة لها وأنها تواجه أمراً بديهياً، وذلك لأننا لا يمكن أن نعتبر الماء الجارى في النهر، أو التفاحة التي تنضج في الشجرة تدريجياً، أو عندما نركب السيارة ونسافر من مدينه إلى اخرى اموراً خيالية قد ابتلينا بها، وأنها امور ذهنية وليست خارجية لأن هذا الأمر هو أشبه بإنكار البديهيات، ونحن في غنى عن الاستدلال لإثبات ذلك.

ولكن لا- يمكن إنكار أن فهم الحركة بدون قوّة حافظه أمر غير مقدور، لأنّ الحركة لا- يمكن إدراكها بإحساس آنى لأنها أمر تدريجى.

ج) أركان الحركة

ذكر الفلاسفة ستة أركان للحركة:

١- المبدأ ٢- الغاية ٣- المتحرّك ٤- المتحرّك ٥- موضوع الحركة ٦- زمن الحركة (ستعرف أنّ الزمان ليس سوى مقدار الحركة) وبتعبير آخر أنّ الزمان وليد الحركة وليس والدها).
وسنرى أيضاً أنّ هذه الأركان الستة تطابق نظرية شهيرة ذهب إليها الأقدمون وعليه فإننا لا نحتاج موضوعاً للحركة بعد الإقرار بالحركة الجوهرية.

د) مجالات الحركة

كان الفلاسفة في السابق يعتقدون بأنّ الحركة تحدث في أربع مقولات من مجموع تسع مقولات عرضية هي «١».

١- الحركة في (المكان)، نظير حركة قطرات المطر وحركة السيارة في الطريق.

٢- الحركة في (الكمية) نظير زيادة حجم النبات النامى.

(١) المقولات العرضية التسع هي: الكم، الكيف، الوضع، المتى الأين، أن يفعل، أن ينفعل، ملك، والإضافة وشروحها في محالها.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٥

٣- الحركة في (الوضع) نظير حركة الأرض حول نفسها.

٤- الحركة في (الكيفية) نظير التغير التدريجى في لون وطعم ورائحة الفاكهة في الشجرة.

وكانوا يعتقدون بعدم وجود حركة في غير هذه الموضوعات الأربعة (غير ممكنة في جوهر الأشياء من باب أولى) فكان فلاسفة اليونان لا سيّما (ارسطو) وأتباعه وكذلك بعض الفلاسفة المسلمين ومنهم ابن سينا وآخرون يعتقدون باستحالة الحركة في الجوهر، وكما قلنا في البحث الماضى: إنهم كانوا يتصوّرون أنّ ذات المتحرّك هي من أركان الحركة، ويعتقدون بأنّ الحركة لا مفهوم لها ما لم يوجد موجود ثابت يتعرّض للحركة.

ولكن صدر المتألّهين (الفيلسوف الإسلامى الشهير) قدّم نظرية جديدة وقال: بأنّ الحركة في الجوهر ليست غير مستحيلة فحسب بل لا يمكن أن توجد حركة في الاعراض ما لم تكن مستندة إلى حركة في الجوهر.

وبتعبير آخر إنَّ (الحركات العرضية) تنشأ من (الحركة في الجوهر)، قال صدر المتألهين:
لماذا نفترض هنا أمراً ثابتاً؟ وما المانع من أن يكون (الجوهر) متحركاً في ذاته؟ بمعنى أنه يفقد نفسه باستمرار ويكتسب تشخيصاً
جديداً.

هذا الموضوع يبدو عجباً لأول مرّة - طبعاً - لأنه يستلزم أن يكون (المتحرك) مع (الحركة) شيئاً واحداً، وأن يكون الموجود نفسه سبباً
لتحركه، لكنّه يقول: لو دققنا قليلاً لوجدنا أن الأمر ليس عجباً فحسب بل هو أمر لازم وملفت للنظر أيضاً.
ويصّر صدر المتألهين على أن أصل الحركة الجوهرية موجود في أقوال السلف ويذهب إلى أبعد من ذلك حيث يستعين بآيات قرآنية
كشواهد على هذا الموضوع (كي لا تكون حادثة هذه النظرية سبباً لتزاع المعارضين كما هو الحال في أية نظرية جديدة).
ولو افترضنا أن هذه النظرية ليست جديدة، غير أن عرضها بهذه السعة يعتبر أمراً جديداً.
نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٦

٢- أدلة وجود الحركة الجوهرية

يعتقد صدر المتألهين بأن الوجود على صورتين:

١- الوجود مستقر وثابت وعديم الحركة مطلقاً لا في ذاته أو صفاته.
٢- الوجود سيال وتمدوج في ذاته، أي أن السيلان جزء من ذاته وليس له سكون ولا قرار، وقد يلاحظ هذا الاضطراب الذاتى بوضوح
في اضطراب الاعراض، وقد لا يلاحظ تغير في ظاهر الذات في حين تتجدد في باطنها باستمرار.
وبتعبير آخر إنَّ هذه الموجودات السائلة لها وجود جديد في كل آن، وهى أشياء جديدة، ولكن هناك لون من الاتصال بينها يجعلها
تبدو كوجود واحد.

وقد ذكر المناصرون ل (الحركة الجوهرية) أدلة لإثبات مرادهم، وإن لم يسمح المجال لبيان هذه القضايا، غير أننا نشير إلى ثلاثة أدلة
رئيسية هي:

١- من القاعدة القائلة (كل ما بالعرض ينتهي إلى ما بالذات)، هناك أصل عام وهو أن كل موجود استعار صفة من غيره وأنها لا بد أن
تنتهي إلى مصدر تنشأ منه، وبدون ذلك سواجه مشكلة (التسلسل)، أي أن الحرارة في الماء الحار مستعارة ولا بد لها أن تنتهي إلى
النار التي تولد الحرارة من ذاتها.

بناءً على هذا الأصل فإنَّ الحركة التي نلاحظها في أعراض الجسم (نظير الكمية والكيفية) لا بد لنا أن نعرف أن هذه الحركة ناشئة من
اضطراب الذات والباطن، فمثلاً: لو كانت التفاحة ثابتة في ذاتها ومستقرّة فكيف إذن يتغير لون أعراضها؟ هذه الحركة الظاهرية إذن
تخبر عن حركة الداخل.

٢- كل (معلول متغير) بحاجة إلى (علة متغيرة)، فلو جلسنا في ظل شجرة في بستان ولاحظنا التحرك المستمر للظلّ فالواجب أن نعلم
أنّ علة وهى أشعة الشمس في حالة تحرك، ومن هناك ندرک الحركة في ذات الجسم عن طريق الحركة في أعراضه.

٣- الزمان دليل آخر على الحركة الجوهرية، لأننا نلاحظ جيداً أن حوادث العالم لا تكون مجتمعة، فحوادث اليوم تتحقق بعد حوادث
أمس وقبل حوادث غد، وهذا أمر واقعي،

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٧

وهذا الاختلاف هو ما نطلق عليه عنوان تفاوت (الزمان).

من خلال نظرة سطحية وابتدائية للزمان فإنه يبدو واقعاً مستقلاً عن الموجودات ووعاء للحوادث، ولكن لو افترضنا - ولو للحظة واحدة -

عدم وجود الموجودات المادية لوجدنا أن الزمان لا مفهوم له، وبتعبير أوضح (الزمان) (وليد المادة) أو (الزمان) هو (مقدار الحركة). ومن جهة أخرى إذا اعتقدنا بأن الموضوعات التي تقع فيها الحركة تنحصر في الموضوعات الأربعة السابقة فإنه يعني أن الموجود الفاقد لهذه الحركات، أي لا يلحظ وجود للحركة في ظاهره، فإن هذا الموجود ينبغي أن لا يكون زمانياً، في حين أن وجدنا يحكم بأننا نشعر بالزمان رغم عدم هذه الحركات الرباعية، وليس ذلك إلا لأن المادة ذات حركة في ذاتها لكي تتقبل أجزاء الزمان. هذه هي أهم الأدلة لدى أنصار الحركة الجوهرية وقد اعتمدنا الاختصار في عرضها.

وهناك سؤال لا- يزال قائماً عند البعض: كيف يمكن أن نتصور أن (المتحرك) هو عين (الحركة) مع عدم وجود موضوع للحركة مطلقاً؟! وكيف يمكن التصديق بشيء يكون تصوّره محل سؤال؟

والعجيب أن القائل بالحركة الجوهرية بنفسه تملكه الحيرة أمام هذه المعضلة العويصة، وتباين أقواله مما يدل على أن حلها غير يسير. (١)

وباختصار أن أبحاث الحركة الجوهرية بأجمعها تنفّج عن قابلية تصوّر الحركة بدون موضوع، ويقول البعض: إن هذا أمر غير معقول، كما يعتقد البعض أن تصوّر هذا المعنى يقتضى إخلاء الذهن والإبتعاد عن المفاهيم التي يأنس الإنسان بها في مجال الحركة حتى يتصور وجوداً هو عين الحركة والمتحرك والحركة واحدة، كانت هذه خلاصة عن أبحاث الحركة.

(١) للمزيد من المعرفة حول هذا الأمر راجع كتاب الأسفار في بحث الحركة أو دروس المرحوم الشهيد مطهري حول بحث الحركة في الأسفار، ج ١، ص ٤٤٧. نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٨

٣- إثبات وجود الله بواسطة برهان الحركة

لا- شك في أن الحركة لا تنحصر في الحركة الجوهرية، ولذا لا يتحدّد برهان الحركة لإثبات ذات واجب الوجود ببحث الحركة الجوهرية، على الرغم من أن برهان الحركة- بعد الإيمان بالحركة الجوهرية- أكثر وضوحاً في معرفة الله، ومن أجل ذلك نقول: إن الحركة الجوهرية تقول بأن عالم المادة بأسره عبارة عن حركة، أي أنه في حالة حدوث وتجدد متواصل، وله في كل آن وجود جديد، وهذا الحدوث المستمرّ يثبت الارتباط الدائم للعالم بمبدأ غير حادث، أي أنه يثبت الأزلية والأبدية لواجب الوجود. وبتعبير آخر: إن العالم في حال (صيرورة) دائمة لا (كينونة)، وليس ذلك في الأعراض فحسب بل هو متأصل في أعماق ذاته، ولذا يكون محتاجاً إلى المبدأ باستمرار لكي يخلقه كل آن.

من خلال هذا البحث يمكن التوصل إلى نتيجة ظريفة وهي أن خلق العالم لم يحدث في البداية ثم انتهى، بل إن عملية الخلق مستمرة في كل آن، ولذا فإن حاجة العالم إلى علّة أزلية، أبدية لم تكن في البداية فقط، لأنه في حالة حدوث وخلق مستمرّ وفي كل آن، وهذا المعنى كامن في أعماق مفهوم الحركة.

ولهذا فبواسطة الحركة الجوهرية يثبت حاجة العالم إلى واجب الوجود عند نشوئه وحاجته إليه في البقاء تبقى قائمة ومستمرة أيضاً، بل وكما ترى نظرية الحركة الجوهرية فإنه لا مفهوم للبقاء أصلاً والحدوث دائم، غير أنه حدوث متواصل ومتسلسل ولهذا يطلق على الاتصال مصطلح البقاء.

هنا يمكن أن نذكر تشبيهاً ناقصاً لكيفية ارتباط الأشياء بالمبدى الأزلي للعالم وهو أن الموجودات في العالم تشبه المصايح التي يتواصل وجودها من خلال ارتباطها بالمصدر الكهربائي، وبما أن النور يتجدّد في كل آن فإنه بحاجة إلى العلة في كل آن والتعرّف

على كيفية انبعاث النور في المصابيح يكفي لمعرفة حاجتها المستمرة للمصدر المولد للطاقة الكهربائية.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٩

صحيح أن (برهان الحركة) له علاقة ب (برهان الإمكان والوجوب) غير أنه يُبحث بصورة مستقلة من أجل الحصول على صورة جديدة عنه.

٤- العالم متغير وكل متغير حادث

استند الكثير من المتكلمين (علماء العقيدة) على هذا الدليل (دليل التغير) لإثبات وجود الله دون ملاحظة نظرية الحركة الجوهرية لأن التغيرات التي تشاهد في ظاهر الموجودات في العالم باستمرار تكفي لإثبات آرائهم.

و لتوضيح ذلك نقول: لا يبقى في عالم المادة شيء على حالة واحدة، فكل الأشياء - دون استثناء - في حالة تغير.

ومن جهة أخرى، أن التغير والحركة حادثان، وبما أن المادة متعرضة لهذه التغيرات والتحويلات دائماً فينبغي أن تكون حادثه أيضاً فمن غير الممكن أن تكون المادة أزلية وتعرض للحدوث والتغير منذ الأزل لأن ذلك يستلزم اجتماع (الحدوث) و (الأزلية) وهما متضادان كما نعلم.

إن هذا الاستدلال ومن خلال ملاحظة النظريات الجديدة بشأن المادة يرد بصورة أوضح، فكل مادة - وفق النظرية الفيزيائية الجديدة - تتركب من ذرات، والذرة عبارة عن مجموعة من الحركات، وكل حركة حادثه، فالمادة - إذن - والتي هي عبارة عن مجموعة حركات (الالكترونات) و (البروتونات) لا يمكن أن تكون أزلية، وبعبارة أخرى أن كل حركة لها بداية ونهاية، وكل ما له بداية ونهاية لا يكون أزلياً.

هذه المسألة جاءت بشكل ملفت للنظر في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام في مناظرة مع (ابن أبي العوجاء) حيث قال له الإمام عليه السلام: اسأل ما شئت، فقال (ابن أبي العوجاء): ما الدليل على حدث الأجسام؟ فقال الإمام عليه السلام: «إني ما وجدت شيئاً صغيراً ولا كبيراً إلا إذا ضُم إليه مثله صار أكبر، وفي ذلك زوال وانتقال عن الحالة الأولى، ولو كان قديماً ما زال

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٣٠

ولا حال، لأن الذي يزول ويحول يجوز أن يوجد ويبطل، فيكون بوجوده بعد عدمه دخول في الحدث، وفي كونه في الأزل دخوله في القدم، ولن تجتمع صفة الأزل والحدوث والقدم والعدم في شيء واحد» (١).

٥- حدوث العالم والقوانين العلمية الحديثة

لقد ثبت في البحوث العلمية الحديثة [خاصية بحوث (الثرموديناميك) والقانون الثاني المعروف بقانون (الانتروبي) أو ما يسمى (بالكهولة) أو (الإضمحلال)] ثبت:

«أن الحرارة تنتقل من الأجسام الحارة إلى الباردة دائماً ولا يحدث العكس بنفسه أبداً، و (الانتروبي) في الحقيقة هي نسبة الطاقة التي لا يمكن الانتفاع بها إلى الطاقة القابلة للانتفاع، ومن ناحية ثانية نحن نعلم أن هذا الانتقال والانتروبي في العالم في حالة تزايد، فلو كان العالم أزلياً لكانت الحرارة في الأجسام كلها متساوية منذ عصور قديمة ولم تبقى طاقة نافع وبالتالي لم يتحقق في العالم أي فعل أو تفاعل كيميائي، ولا استحال الحياة على الأرض، لكننا نلاحظ بأن التفاعلات الكيميائية مستمرة والحياة على الأرض ممكنة، ولذا فإن العلوم تثبت البداية للعالم - دونما قصد - وبهذا تثبت ضرورة وجود الله نظراً إلى أن الحادث لا يحدث لوحده بل يحتاج إلى

المحرّك الأول» (٢).

والطريق الآخر الذي سلكوه لإثبات الحدوث للعالم هو التحقيق في الأجسام (المشعة) (و هي أجسام لها ذرات غير مستقرّة وفي حالة اضمحلال وزوال مستمرّ حتّى تتبدّل إلى ذرات مستقرّة، ولها عدد ذرّي أكبر من ٨٠! وتكون على شكل أجسام ثقيلة وغير مستقرّة، وفي حالة إشعاع ذرّي، وكأنّها تلقى بنفاياتها إلى الخارج حتّى تتحوّل إلى عناصر مستقرّة. إنّ وجود هذه العناصر في الطبيعة دليل على أنّ العالم حادث وذو تاريخ، وكما يقول

(١) بحار الأنوار، ج ٣، ص ٤٦؛ اصول الكافي، ج ١، ص ٧٧ باب حدوث العالم.

(٢) كتاب إثبات وجود الله، لادوارد لوثر كيسل، ص ٥٥ (باختصار طفيف).

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٣١

المفكر الشهير (دونالد روبرت كار) والمتخصّص في (الكيمياء الحياتية) كاتب كتاب (الأرض) وهو كتاب يعيّن عمر الأرض بحساب كاربون الإشعاع الطبيعي: «لو كان العالم أزلياً وأبدياً لما وجدنا عنصراً مشعاً وذلك لتبدّله إلى عناصر مستقرّة» (١). ونستنتج من ذلك أنّ العلوم الطبيعية تثبت حدوث العالم أيضاً بطرق مختلفة، ومن هنا تتضح ضرورة وجود خالق أزلي أبدي لتفسير ظهور عالم الوجود.

وبتعبير أوضح: إنّ اضمحلال المادة (الانتروبي) دليل على أنّ للعالم تاريخاً ينبيء عن بداية حدوثه، فلو كان عالم المادة أزلياً لكان قد مضى عليه زمان غير محدود، ولكانت الحرارة فيه متساوية وانعدم النشاط فيه وتعرض للفناء. ويشبه هذا إذا وضعنا وعاءً مليئاً بالماء الحارّ في غرفة، فما دامت الحرارة في الوعاء تختلف عن حرارة الجوّ فإنّ الهواء حوله يكون متحرّكاً باستمرار ويزداد حرارة ويتصاعد إلى الأعلى ويحلّ محلّه الهواء المجاور له وهذا يحدث حركة مستمرة في الفضاء المجاور، وعندما تتساوى الحرارة في الغرفة فلن تكون أيّة حركة.

وهذا هو مصير العالم أخيراً، والحركة الموجودة حالياً دليل على عدم مرور زمان لا محدود عليه، أي أنّ له تاريخ ظهور وحدوث. وهو يشبه الأواني المستطرقة المتصلة فإذا سكبنا الماء في أحدها فأنّه سوف يتحرّك في الأواني كلّها حتّى يتساوى فيها وبذلك يحلّ السكون، ويقول العالم الفلكي (استونتر):

«قام العلم باحتساب أعمار الكثير من الأشياء مثل: عمر الأرض، والصخور الشهابية، والقمر والشمس، والمجرّة وأخيراً عمر الدنيا، والعمر اللازم- لتركيبة العناصر المختلفة وتفكّكها- وظهر أنّ هذه الأعمار متقاربة وتقدر ب ٦٠٠٠ مليون سنة منذ بداية حدوث العالم» (٢).

(١) كتاب إثبات وجود الله، لادوارد لوثر كيسل، ص ١٥٥.

(٢) المصدر السابق، ص ١٦٠.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٣٢

وفي الختام نعود لنقول: إنّ حديث إبراهيم عليه السلام في الآيات المذكورة يستهدف مسألة إثبات وجود الله عن طريق الحكم العقلي القائل بأنّ الشيء المتغيّر لا يمكن أن يكون خالداً وإن كانت براهين أخرى للحركة كامنّة في طيّات استدلال إبراهيم عليه السلام.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٣٣

تمهيد:

استدل الفلاسفة والمتكلمون (علماء العقيدة) بأدلةٍ مختلفةٍ لإثبات وجود الله سبحانه، والبعض منها ذات اصول مشتركة، ومن هذه الأدلة برهان (الوجوب والإمكان) وبرهان (العلّة والمعلول)، وستأتى تفصيلاتهما تباعاً بإذن الله.

وبما أن هذه الاستدلالات تكون ذات شروح مختلفةٍ لذا فإننا نشير إليها بصورةٍ مستقلةٍ مع الإشارة إلى اصولها المشتركة. إن الأساس في برهان «الوجوب والإمكان» أو «الغنى والفقر» يرتكز على مبدأ حاجة وفقر المخلوقات، فعندما ننظر إلى أنفسنا وسائر الموجودات في العالم، نراها دائماً في حالة عوزٍ وحاجةٍ، فالحاجة إلى ما حولها يكاد يكون أمراً بديهياً. إن الحاجة والفقر الشامل في هذا العالم يدل على وجود مصدر عظيم للغنى وعدم الحاجة، وهذا المصدر نطلق عليه لفظ الجلالة «الله» سبحانه وتعالى (١).

وبعبارة أخرى إننا نجد كلّ موجود في هذا العالم تابع، ولا يمكن لهذه التبعية أن تكون إلى ما لا نهاية، والعالم عبارة عن مجموعة من التبعية، ممّا يدلّ على وجود ذات مستقلة قائمة بذاتها في هذا العالم تتبعه هذه (التبعية) وتستند إليه. بعد هذا التمهيد نرجع إلى القرآن الكريم لتأمل خاشعين في الآيات التالية:

(١) التعبير «إن الله غنى حميد» وأمثاله جاء في عشر آيات قرآنية، في البقرة، ٢٦٧؛ إبراهيم، ٨؛ الحج، ٦٤؛ لقمان، ١٢؛ لقمان، ٢٦؛ الحديد، ٢٤؛ الممتحنة، ٦؛ التغابن، ٦؛ النساء، ١٣١؛ والآية أعلاه كما أن وصف الله بالغنى ورد في آيات أكثر عدداً، وهذا التأكيد والتكرار القرآني في هذا الصدد يحكى أهميّة المضمون في هذا التعبير.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٣٤

١- «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ». (فاطر / ١٥)

٢- «وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ». (محمد / ٣٨)

٣- «يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ». (الرحمن / ٢٩)

شرح المفردات:

(فقراء) جمع (فقير)، وأصله كما يقول (الراغب) في (المفردات) هو الذي كسرت فقرات ظهره، وبما أن البؤساء يشبهون حال من تعرّض لكسر الفقرات لذا اطلق عليه هذا المصطلح.

كما أن (مسكين) مشتق من (السكون) ويعنى العجز عن المشى ولذا اطلق على الفقراء المُعْدِمِينَ، ولذا تطلق كلمة (فاقر) على الحادثة أو المصيبة العظيمة التي من شأنها أن تهشم الفقرات.

وقد ورد في (مجمع البحرين) بأن (فقير) يُطلق على الذي هو أفضل حالاً من (المسكين)، ولذا قيل لرجل في الصحراء أفقر أنت؟ قال: لا والله بل مسكين (١).

وعلى أي حال فإنهم ذكروا ل (الفقر) أربعة معانٍ هي:

١- الحاجة الضرورية التي تشمل جميع البشر بل كل الموجودات في العالم، والآية:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ» يذهبون إلى أنها تشير إلى ذلك.

٢- الإحتياج إلى الحد الأدنى من مستلزمات الحياة، ويعتقدون أن الآية: «أَنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ...» تشير إلى ذلك.

٣- فقر النفس والذي يعنى الطمع، وقد عدّه الحديث المعروف كفراً (كاد الفقر أن يكون كفراً) ويقابله غنى النفس.

٤- الحاجة إلى الله كما جاء في الحديث المعروف (اللهم أغنى بالافتقار إليك ولا تفقرني بالإستغناء عنك) «٢».

(١) يذهب البعض إلى العكس في ذلك.

(٢) مفردات الراغب، مادة (فقر).

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٣٥

وقد جاء في كتاب (العين) كلمة (فقره) على وزن (نقره) بمعنى الحفرة التي يوجد فيها الإنسان في الأرض من أجل غرس الشتلات، ومن الممكن أن يكون الأصل في (فقير) هو هذا المعنى وهو نشوء فجوة في حياته، ومن المحتمل أن يكون استعمال هذا اللفظ في العمود الفقري وذلك لوجود التقعرات فيه.

«غنى: من مادة (غناء) وتعني عدم الإحتياج ويقابله الفقر، ولذا ذكروا له هذه الموارد الأربعة في استعمالاته:

١- الغنى بمعنى عدم الإحتياج إلى أى شىء وهذا مختص في الله سبحانه.

٢- عدم النقص في مستلزمات الحياة.

٣- الغنى وعدم احتياج النفس أى القناعة.

٤- الاستغناء عن الله وهذا المعنى محال، ولكن قد تخطر هذه الفكرة لدى بعض الناس وتكون سبباً للطغيان: «كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ»

أَنْ رَّأَاهُ اسْتَعْنَى . (العلق / ٦- ٧)

ويقول ابن منظور في (لسان العرب): (الغناء) بالفتح: يعنى المنفعة وغناء بمعنى التطريب وغنى (بلا مد) يعنى الإستغناء وعدم الحاجة، ومن الممكن أن يعتقد بوجود أصل مشترك بين هذه المعانى كلها ويقول بأن الغناء يطلق عندما يرفع الإنسان صوته ويملاً به الجوّ كالأغنياء الذين لهم وفرة من المال والثروات!

حاجة الجميع إلى الله:

الآية الاولى تخاطب جميع الناس وبدون استثناء: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ»، إن (الفقر) هنا معانٍ واسعة وتشمل كل احتياج لأى شىء فى الوجود، فأننا ومن أجل مواصلة حياتنا المادية بحاجة إلى ضوء الشمس، والماء، والهواء، وأنواع من الغذاء والملبس والسكن.

ومن أجل بقاء الحياة فى أجسامنا نحن بحاجة إلى الأجهزة الداخلية من قلب وعروق

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٣٦

وجهاز للتنفس والمخ والأعصاب.

ونحتاج فى الحياة المعنوية- من أجل أن نميز الطريق السليم عن غيره ونعرف الحق من الباطل- إلى قوّة عاقله، وأرقى من ذلك نحن بحاجة إلى القادة الإلهيين والكتب السماوية.

وبما أن منشأ كل هذه الامور يعود كله إلى الله لذا فأننا بحاجة إليه فى وجودنا كله.

إنّ الشهيق والزفير فى عملية التنفس يحدثان بتعاوض الآلاف من العوامل وبدونها لا يحدثان، وكلّ هذه العوامل هى هبات إلهية، ففى كلّ نفس هناك آلاف النعم، وينبغى الشكر على كلّ نعمة.

هذه الآية وإن كانت تقصد كلام الذين يستغربون من إصرار النبى صلى الله عليه وآله على عبادة الله تعالى كما يذهب إلى ذلك

بعض المفسرين «١» ويقولون هل أن الله بحاجة إلى عبادتنا؟

فيجيبهم القرآن: أنتم الفقراء إلى الله وعبادته تتكامل أرواحكم.

ولكن هذا الكلام لا يحدّد من سعة مفهوم الآية في جهاتها المختلفة، لأنّ قضيّة استغناء الله واحتياجنا هي الأساس في حلّ الكثير من المشكلات.

وعلى أيّة حال فإنّ الفقر نافذ إلى أعماق ذات البشر أجمع، بل وكلّ الموجودات، ولا تقتصر الحاجة إليه في الرزق ومستلزمات الحياة فقط، بل إنّ وجودها يحتاج إلى فيضه في كلّ لحظة وأنّ (فلو توقّف لحظة تهدّمت الهياكل).

أجل، إنّ الغنى في عالم الوجود هو الذات المقدّسة، ولما كان البشر - وهم تحفة عالم الخلق - بحاجة إليه في كلّ وجودهم فإنّ حال سائر الموجودات واضحة ولا تحتاج إلى بيان، ولذا فإنّ الآية تضيف في ذيلها: «وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ» وبملاحظة أنّ التعبير أعلاه يدلّ على الحصر - وفق القواعد الأدبية - فإنّ مفهومه ليس إلّاهذا، وهو إنّ الغنى المطلق هو الذات المقدّسة لله سبحانه، ولو قسمنا البشر إلى (فقير) و (غني) فإنّ هذا أمر نسبي غير حقيقي.

وبتعبير آخر، إنّ الموجودات كلّها فقيرة ومحتاجة، وإنّ ذات الله المقدّسة تمثل الغنى

(١) تفسير الكبير؛ وتفسير روح المعاني في ذيل آية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٣٧

والإستغناء، وهذا هو أوّل الكلام وآخره.

على هذا الأساس فإنّ الله سبحانه لا يحتاج إلى عبادتنا وطاعتنا أبداً، كما لا يحتاج إلى مدح وثناء، بل إنّ طاعتنا وعبادتنا له ومدحنا وثناءنا عليه هي جزء من احتياجنا إليه وسبب لتكاملنا المعنوي والروحي، حيث إنّنا كلّما اقتربنا من منبع النور فإنّنا نزداد نوراً، وكلما اقتربنا من المصدر الفياض ذاك فإنّنا نستفيد أكثر، وبتمثيل ناقص إنّنا كالنباتات والأشجار التي تستقبل نور الشمس دون أن تحتاج إليها الشمس.

إنّ فهم هذه الحقيقة يقدّم للبشر درساً في التوحيد حتّى لا يخضعوا إلّا إلى الله ولا يُطأطئوا رؤوسهم ويستسلموا لغيره وأنّ يمدّوا يد الحاجة إليه لأنّه (غني وكريم وودود).

إنّ الإنتباه إلى هذه الحقيقة له الأثر البالغ في تربية الإنسان، فمن جهة يخرج من حالة الغرور وعبادة هوى النفس، ومن جهة أخرى يحزّره من جميع القيود ويجعله غنياً عن سواه، وبهذه الرؤية والفهم سوف لا- يضع في عالم الماديات، ويتوجّه دائماً إلى مسبب الأسباب.

وهنا لابدّ من الإلتفات إلى أمرين:

الأوّل: أنّ الله هنا (في الآية) قد وُصف ب (الحميد) بعد وصفه ب (الغني)، وكما أشرنا أنّ هذا التعبير قد تكرر في عشر آيات ممّا يدلّ على وجود نقطة مهمّة فيه - هي كما يحتمل:-

إنّ الكثير من الأغنياء يتصفون بصفات ذميمة نظير الكبر والغرور والحرص والبخل، حتّى لو كان لدى أحد إخوانهم نعمة واحدة ولديهم ٩٩ نعمة فإنّهم سيصرون على أن يسلبوه نعجته، إلى حدّ يتبادر في ذهن الكثير بأنّ لفظ (الغني) تعني الظلم والكبر والبخل، في حين أنّ الله سبحانه في عين كونه غني فهو رحيم وعتو وغفور، ولذا هو أهل لكلّ مدح وثناء.

أجل، إنّ (الغني) الوحيد المبرراً من كلّ عيب ونقص وذو الفضل واللطف والرحمة هي الذات المقدّسة.

الثاني: أنّ المخاطبين في الآية هم البشر فقط: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ» فلماذا لم تذكر الموجودات الاخرى في حين أنّها فقيرة إلى الله أيضاً؟

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٣٨

قال الكثير من المفسرين إنّ ذلك ناشى من سعة حاجة الإنسان، فكلمّا كان الموجود أكمل فأنّه أكثر احتياجاً في مسيرته ويزداد شعوراً بالحاجة كما هو الحال في الإحتياج المادّي، فالطير يقنع بشيء من الماء والحبّ والعشّ البسيط في حين لا يقنع الإنسان بألوان الطعام

واللباس والبيوت والقصور! (١).

والآية الثانية تحدثت عن (الإنفاق في سبيل الله) وبخل البعض في الإنفاق في سبيل الله وانعكاس بخل البخلاء على أنفسهم لأنهم محرومون من فيض الله ورحمته اللامحدودة، فتقول: «وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ».

قد يكون هذا التعبير من أجل رفع التصور بأن الله تعالى عندما يدعو الناس إلى الإنفاق في سبيل الله فإنه محتاج إلى إنفاقهم، أو أن هذه الجملة تتنافى مع الجملة التي وردت في آيات سابقة حيث تقول: «وَلَا يَسْتَلْكُمُ أَمْوَالُكُمْ».

فتقول الآية: إن الله غني على الإطلاق والجميع محتاجون إليه، فعندما يأمرهم بالإنفاق فليس ذلك لحاجته، بل لأنهم هم المحتاجون، ويصلون إلى الكمال عن هذه الطرق ويتقربون إلى ذلك الوجود اللامحدود.

صحيح أن بداية الآية ترتبط ب (الفقر والغنى الماليين) وتنظر إلى الإنفاق في سبيل الله، غير أن الإطلاق في ذيل الآية يعطى مفهوماً واسعاً، ففي الوقت الذي تعرّف الله سبحانه بالغنى المطلق فإنها تعتبر البشر محتاجين في كل وجودهم، وقد نفذ الفقر إلى أعماق ذواتهم ولهذا يمكن استخدامه للاستدلال في هذا البحث.

(١) انتبه بعض المفسرين إلى هذه النقطة أيضاً وهي أن ذكر (الفقراء) بصورة معرفة (مع أن الخبر يكون نكرة عادةً فلو كان معرفة لما احتاج المخاطب إلى الخبر) هو للتنبيه والتذكير، أي أن المخاطب نفسه يعلم بأنه فقير إلى الله وهذا تذكير ليس إلّا، وقد جاء في علم البلاغة أيضاً أن المخاطب العالم الذي لا يعمل بعلمه يعتبر جاهلاً وينذر عن طريق الأخبار (تأمل جيداً).

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٣٩

على أي حال فإن من الملفت أنه هو الذي تفضّل بالهبات كلّها ووهبها للعباد ثم يطلب منهم أن ينفقوا في سبيل الله، وهذه مقدمه لهبات أكبر.

ولا ينحصر هذا في قضية الإنفاق فحسب، بل يجري في كل التكاليف وتعود بنتائجها على العباد أنفسهم. وقد جاء هذا المضمون في آيات عديدة منها ما تضمنته هذه الآية حيث نقرأ: «قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ». (سبأ / ٤٧)

وكما جاء في قوله تعالى «وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ، إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ».

(العنكبوت / ٦)

والآية الثالثة والأخيرة من بحثنا تصوّر هذا المضمون (الفقر العام للموجودات والغنى المطلق لله) في حله جديدة وجميلة وتقول: «يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ».

وكل يوم هو في شأن ومنح مواهب جديدة: «كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ».

وبملاحظة الفعل المضارع (يسأل) والذي يدل على الاستمرار، وملاحظة ما للآية من معنى واسع يشمل البشر جميعاً والملائكة وسكنة السماء والأرض (وباحتمال قوى يشمل كل الموجودات العاقلة وغير العاقلة، والتعبير ب (من) الذي يستعمل للعاقل هو للتغليب) وملاحظة أن الآية لم تذكر الموضوع المسؤول عنه فيدل ذلك على شمولية الآية، وسيكون مفهوم الآية هو أن كل الموجودات في عالم الخليفة تستمد الفيض من مبدأ الفيض بلسان حالها بصورة دائمة ومستمرّة، (فيض الوجود ومتعلقاته).

وليس هذا الطلب من ذات ممكن الوجود في حالة الحدوث فحسب، بل في البقاء أيضاً يكون محتاجاً إلى واجب الوجود وفي كل لحظة يطلب منه الوجود.

وقد ورد هذا المعنى بتعبير واحد تقريباً في تفسير (روح البيان) و (روح المعاني) حيث جاء فيهما «.. قاطبة ما يحتاجون إليه في ذواتهم ووجوداتهم حدوداً وبقاءً وسائر أحوالهم

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٤٠

سؤالاً مستمراً بلسان المقال ولسان الحال فإنهم كافة من حيث حقائقهم الممكنة بمعزل عن استحقاق الوجود وما يتفرع عليه من الكمالات بالمرّة بحيث لو انقطع ما بينهم من العناية الإلهية من العلائق لم يشموا رائحة الوجود أصلاً فهم في كل آن مستمرّون على الإستدعاء والسؤال» (١) من هنا يتضح أنّ اعتقاد البعض بأنّ السؤال يرتبط ب (الرزق) أو (الرحمة الإلهية) أو (متطلبات الدين والدنيا) أو (العلم بعاقبة العمل وصلاح النفس وفسادها) فقط لا دليل عليه وإنّ اندرجت في المفهوم الواسع للآية.

توضيحات

١- برهان الوجوب والإمكان من الناحية الفلسفية

وهو من البراهين القابلة للفهم، حيث يمكن بيانه بلسان عامية الناس، وكذلك بواسطة التعبيرات والاصطلاحات الفلسفية الخاصة، وتعبير بسيط عندما نرجع إلى وجودنا نجد أنّ وجودنا برمته في حالة احتياج ولا يؤمن الاحتياج من الداخل، ومن أجل تأمين هذا الاحتياج يجب أن نمد الدنيا خارج وجودنا، وكما يقول المثل كلما ازداد الغنى ازدادت الحاجة فكلما تضاعفت قوة الإنسان في الظاهر (مادياً أو معنوياً) توسّعت دائرة احتياجاته، فالطير في الصحراء يكتفى بقليل من الماء والحبّ وعشّ مؤلف من بعض الأوراق، في حين تحتاج حياة سلطان مقتدر إلى آلاف الحاجات، وهكذا لوقارنا الحياة العلمية لمحقق كبير بالنسبة لطالب مبتدىء. ومن خلال ملاحظة هذا الاحتياج وبالهام باطنى يدرك الإنسان أنّ لهذا العالم مبدئاً غتياً يتجه الجميع إليه لنيل حوائجهم وهو الذى نطلق عليه (الله) تبارك وتعالى.

أما فى العبارات الفلسفية وبحوث المتكلمين فإنّ الوجود يقسم إلى قسمين: (ممكّن) و (واجب).

(١) تفسير روح البيان، ج ٩، ص ٢٩٩؛ وتفسير روح المعاني، ج ٢٧، ص ٩٥.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٤١

فواجب الوجود يكون وجوده ذاتياً، وذاته المقدّسة غير محتاجة إطلافاً، فى حين لا يملك الممكّن فى ذاته شيئاً فهو محتاج. وبهذا يُعدّ احتياج الممكّن إلى العلة من القضايا البديهية والأولية التى لا تحتاج إلى إقامة البرهان، ومن يتردّد فى هذا الأمر فإنّ ذلك يعود إلى عدم الفهم الجيد لمفهوم الممكّن.

ثمّ يُطرح هذا السؤال: ما هو سبب احتياج الممكّن إلى العلة؟ هل السبب هو الوجود أو مسألة الحدوث؟ أى هل أنّ الأشياء تحتاج إلى العلة بسبب كونها حادثه أو بسبب كونها موجودة؟ أو أنّ الملاك الأصل وهو (الإمكان)؟ وبناء على هذا الدليل فإنّ الإحتياج إلى العلة يجب أن لا يبحث فى أصل وجود الشيء أو فى حدوثه، بل إنّ العلة الأساسية هى الإمكان.

ولا ريب فى أنّ الإجابة الصحيحة والدقيقة هى الإجابة الثالثة، لأننا إذا- بحثنا عن معنى الإمكان وجدنا أنّ الإحتياج إلى العلة متحقّق فيه، لأنّ- (الممكّن) وجود (غير اقتضائى) أى أنّ ذاته لا تقتضى الوجود ولا العدم.

وبملاحظة هذا الإستواء الذاتى يكون فى وجوده وعدمه بحاجة إلى عامل ولذا فإنّ الفلاسفة يقولون بأنّ حاجة الممكّن أولية، «حاجة ممكّن الوجود إلى العلة أمرٌ بديهي».

ويُستنتج من ذلك أنّ حاجة الممكّن إلى واجب الوجود لا- تقتصر على ابتداء الوجود فحسب، بل هى ثابتة فى مراحل البقاء كلّها لثبوت الإمكان فى حقّ الممكّن دائماً لذا فإنّ الحاجة إلى العلة أمرٌ باقٍ وثابت.

وللمثال على ذلك فأننا حينما نمسك القلم ونحرّكه على قرطاس نجد أنّ حركة القلم تحتاج إلى محرّك من الخارج ويتمثل في أصابعنا، فما دامت الحركة في اليد والأصابع فإنّ القلم يتحرّك كذلك، ويتوقّف بتوقّفها. وأوضح من ذلك ما يوجد في أفعال أرواحنا، فحينما نعزم على العمل ببرنامج ما نجد أنّ الإرادة والعزم - وهما من فعل الروح - يرتبطان بها ويختفیان حال انقطاع هذا الارتباط.

إننا مرتبطون بوجود الله كذلك وهذا الوجود الارتباطي لا يستقرّ لحظة واحدة بدون ذلك.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٤٢

ويقول الشاعر:

لم أسلم النفس للاسقام تبلغها إلّا لعلمي بأنّ الوصل يحييها نفس المحبّ على الآلام صابرةً لعلّ مسقمها يوماً يداويها قد يقال: إننا نشاهد البناء باقياً بعد موت بانيه فكيف إذن تستغنى الأفعال عن الفاعل في بقائها؟ فنقول: إنّ ذلك يحصل بسبب حلول علمه محلّ علمه اخرى، ففي البداية تقوم يد البناء الماهر بوضع لبنة على لبنة اخرى ثمّ يبقى البناء مستقرّاً بفضل جاذبية الأرض وعوامل الالتصاق من جصّ وإسمنت.

وباختصار، أنّ وجود (الممكن) وجود ارتباطي ولا يستمرّ دون الإتكال على وجود مستقلّ، وعليه فإنّ تعريف معنى الوجود الارتباطي كافٍ في التعرّف على الوجود المستقلّ دون الحاجة إلى بحوث واسعة في «الدور والتسلسل» (تأمل جيّداً).

يُستبطن في مفهوم الوجود الارتباطي والتبعي معنى الإستناد إلى واجب الوجود فهل للوجود الارتباطي معنى دون الوجود المستقلّ؟

٢- برهان الغنى والفقير في الروايات الإسلامية

نقرأ في دعاء الإمام الحسين عليه السلام يوم عرفه - وهو من أعمق وأثرى الأدعية الواردة عن المعصومين - خاصة في بحث التوحيد إذ يقول عليه السلام:

«كيف يُستدلّ عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟ أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتّى يكون هو المُظهِر لك؟» (١).

ونقرأ في موضع آخر من الدعاء نفسه:

«إلهي أنا الفقير في غناي فكيف لا أكون فقيراً في فقرى؟!».

(١) يستفاد من هذه الجملة في (برهان الصديقين) أيضاً فيشار إليها في بحثه إن شاء الله.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٤٣

ونجد في حديث نبوي: «الفقر فخري وبه أفتخر» (١).

إنّ أحد التفسيرات المعروفة لهذه الرواية هو الشعور بالفقر الذاتي تجاه الله سبحانه وهو الداعي إلى الفخر، وليس الفقر هنا بمعنى ضنك المعيشة والإفتقار إلى المخلوق وهو ممّا تدمّه الروايات، كالحديث الذي ينصّ:

«كاد الفقر أن يكون كفراً» (٢).

ولذا نقرأ عنه عليه السلام في حديث آخر: «اللهم أغنني بالإفتقار إليك ولا تفقرني بالإستغناء عنك» (٣).

كانت لقلبي أهواءً مفرغةً فاستجمعت إذ رأتك العين أهوائى تركت للناس دنياهم ودينهم شغلاً بذكرك ياديني وديناي

(٢) بحار الأنوار، ج ٦٩، ص ٣٠.

(٣) سفينة البحار، ج ٢، ص ٣٧٨؛ وتفسير روح البيان، ج ٧، ص ٣٣٤.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٤٥

٤- برهان العلة والمعلول

تمهيد:

لا شك أن العالم الذي نعيش فيه يشتمل على مجموعة من العلل والمعلولات، والعلية هي من أوضح القوانين في هذا العالم. كما لا شك في أننا والأرض التي نعيش عليها لم نكن موجودين بصورة دائمة بل أننا معلولون لعلّة أخرى، فهل لهذه السلسلة من العلل والمعلولات أن تستمرّ بلا نهاية وتبقى في حالة تسلسل؟ وبعبارة أخرى أتكون كلّ علّة معلولة لعلّة أخرى ولا تنتهي في موضع ما؟

إنها قضية لا يتقبلها أي وجدان، فكيف يمكن لأصفارٍ توضع جنباً إلى جنب وإلى ما لا نهاية من أن تكون رقماً ما؟ (المقصود من الصفر هو الموجود الذي لا وجود له من ذاته بل وجوده مكتسب من علته)، وكيف يمكن أن يصطف الفقراء- والمعوزون إلى ما لا نهاية ثم يحصل منهم وجود غني؟!

يجب الإذعان- إذن- إلى أن هذه السلسلة من العلل والمعلولات تنتهي بوجود، وهذا الوجود هو علّة غير معلول حيث ينبع الوجود من ذاته، وبتعبير أدقّ هو عين الوجود اللامتناهي وواجب الوجود. إنه أوضح دليل على إثبات الوجود الأزلي والأبدى لله سبحانه.

والملاحظ أن الاستدلالات الأخرى لإثبات وجود الله تنتهي كذلك ببرهان (العلّة والمعلول) وبدونه تكون ناقصة.

بعد هذا التمهيد نمنع خاشعين في الآيات القرآنية التالية:

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٤٦

١- «أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ». (الطور / ٣٥)

٢- «أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِلَا لُؤْيُقُونَ». (الطور / ٣٦)

٣- «أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ». (الطور / ٤٣)

شرح المفردات:

«خلقوا»: من (الخلق) ويعنى في الأصل: التقدير المباشر، وبما أن صُيِّع وإيجاد شيء غير موجود في الماضي، وليس له أصل ومادّة يكون صنعاً وإيجاداً بكل معنى الكلمة، لذا اطلقت هذه المفردة على الإبداع والإيجاد.

كما تستعمل هذه الكلمة في عملية إيجاد شيء من شيء آخر نظيره:

«خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ». (النحل / ٤)

من البديهي أن (الخلق) بمعنى (الإبداع والإيجاد من العدم) مختصّ بالله، ولذا ينفي هذه القدرة عن غيره حيث يقول تعالى:

«أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ». (النحل / ١٧)

في حين يصدق المعنى الثاني (وهو إيجاد شيء من شيء آخر والتقدير له)، على غير الله تعالى، ناظرة إلى هذا المعنى: «فَتَبَارَكَ اللَّهُ

أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ». (المؤمنون / ١٤)

وقد تستعمل هذه الكلمة بمعنى الكذب أيضاً، ولعل ذلك لما يختلقه من أشياء لا واقع ولا وجود لها. وقد ذكروا ل (الخلق) أصلين في مقياس اللغة أحدهما: التقدير، وثانيهما: الليونة والنعومة، ولذا يطلق على الصخرة الملساء (الصخرة الخلقاء) كما يطلق فعل (خَلَقَ) على الأشياء القديمة حينما تكون ملساء نتيجة لتعاقب الأزمنة عليها. أمّا (الأخلاق) والتي تعنى الصفات والسجايا الإنسانية الثابتة فإنها مشتقة من المعنى الأول وهو التقدير (لأنها تحدّد أبعاد الشخصية والروح الإنسانية وقدرها).

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٤٧

جمع الآيات وتفسيرها

استجاب عجيب!

لقد جاءت الآيات المذكورة أعلاه ضمن تسع آيات في سورة (الطور)، ووردت في نطاق ١١ سؤال على صورة الإستفهام الإستنكارى. وهذه الآيات تضع الإنسان أمام مجموعة من الأسئلة المتسلسلة العجيبة ثم تسدّ عليه طريق الفرار كى يدعن للحق. وتتابع هذه الأسئلة الأحد عشر ثلاثة أهداف مهمّة هي:

إثبات التوحيد، المعاد، ورساله نبي الإسلام، غير أن الأساس فيها يتمحور حول توحيد الخالق المعبود.

الآية الأولى من الآيات الثلاث التي تقدّمت تقول: «أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ».

وبعبارة اخرى: إن كل إنسان لا شك في أنه مخلوق وحادث ولا يخرج من ثلاث حالات: أمّا مخلوق من دون علمه أو هو علمه وجوده أو أن علمه هو الوجود الأزلي والأبدى وهو الله سبحانه.

وبما أن الاحتمالين الأول والثاني لا يتوافقان مع العقل والوجدان فالاحتمال الثالث هو الثابت حتماً، ولذا ذكر الاحتمالين الأول والثاني بصيغة «الإستفهام الإستنكارى»، وحينما ينفيهما العقل والوجدان، يثبت الاحتمال الثالث لا محالة.

هذا جوهر الاستدلال الشهير ب (العلّة والمعلول) حيث يعرض في جملتين قصيرتين ومرکزتين ذات معنى واسع.

وقد يبرز هنا احتمال رابع وهو أن يكون الإنسان معلولاً لعلّة اخرى وهذه العلة معلولة لعلّة اخرى وهكذا تستمرّ هذه السلسلة إلى ما لا نهاية.

وهذا الاحتمال يبرز لدى الفلاسفة عادةً وليس لعامة الناس، ولعلّ الآية لم تذكره لهذا السبب.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٤٨

على أيّة حال فإنّ هذا الاحتمال واضح البطلان أيضاً، لاستحالة (تسلسل العلل والمعلولات) منطقياً ووجداناً، وسيأتى إيضاح ذلك بإذن الله.

وقد ذكر الكثير من المفسّرين تفسيرات اخرى للآية، ترتبط بصورة أساسية بالهدف من الخلق وإن كانت بعبارات مختلفة وتفسيرات متعدّدة، حيث يقولون بأن المراد هو أن البشر لم يخلقوا دونما تكليف وأمر ونهى وثواب وعقاب، ويعتبرونها نظير قوله تعالى: «أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا» (١). (المؤمنون/ ١١٥)

ولكن بملاحظة ذيل الآية يضمحل هذا الاحتمال تماماً لأنه تعالى يقول: «أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ»، وهذا التعبير يدلّ على أن الجملة الأولى ناظرة إلى سبب الخلق وعلّة ظهور الإنسان لا الغاية من خلقه، وبعبارة اخرى أن الآية تلاحظ العلة الفاعلية لا الغائية.

الآية الثانية تُشير إلى خلق السماوات وتعيد استدلال العلة والمعلول هذا في مورد خلق السماوات والأرض وتقول: «أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضَ».

ويعنى هذا أن السماوات والأرض حادثه دون شك لتعرضها إلى الحوادث باستمرار وحدوث أنواع التغييرات عليها وكل شيء معرض للتغيير لا يمكن أن يكون أزلياً.

فى هذه الحالة يجرى السؤال عن خالق السماوات والأرض فهل هى خلقت نفسها؟ أو لا خالق لها أبداً وقد وجدت صدفة؟ أم أن خالقها هو البشر؟ وبما أن الإجابة عن هذه الأسئلة بالنفى، يعلم أن لها خالقاً ليس مخلوقاً بل هو أزلى أبدي. والملاحظ أن من بين هذه الاحتمالات يتوجه الاستفهام الإنكارى إلى احتمال خالقيه الإنسان للسماوات والأرضين فقط، وذلك لان الاحتمالات الأخرى وردت فى الآيات السابقة، وعدم التكرار هو مقتضى الفصاحة والبلاغة.

(١) تفسير مجمع البيان؛ تفسير الكبير؛ تفسير القرطبي؛ تفسير الميزان؛ تفسير روح المعاني وتفسير روح البيان؛ حيث ذكروا هذا المعنى كمعنى رئيس فى الآية أو كاحتمال.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٤٩

من هنا فإن الآيتين أعلاه أقامتا برهان العلة والمعلول فى الآفاق والأنفس، وعليه فإن الآية الثانية تشهد كذلك على أن الحديث يدور حول العلة الفاعلية لا الغائية.

فى الختام تشير هذه الآية إلى هذه الحقيقة وهى أن القضايا فى هذا الصدد واضحة، ولكن العيب هو أنهم لا يستعدون للإيمان واليقين: «بل لا يوقنون».

أجل، إن الحق بين، بيد أنهم معاندون وأعداء للحق.

وفى الحقيقة فإن هذه الجملة تشابه ما ورد فى قوله تعالى

«وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ». (الجاثية/ ٤)

أو تشابه ما ورد فى قوله تعالى «وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ». (الذاريات/ ٢٠)

وواضح أن اولئك لو كانوا من الموقنين لما احتاجوا إلى الآيات، وعليه فإن الحديث يدور حول الذين لا يقين لديهم ولكنهم على استعداد لقبوله.

وذهب جمع من المفسرين إلى أن المقصود هو أن اولئك لا يقولون بأنهم خلقوا السماوات والأرض، بل يعتقدون بأن الله هو الخالق،

نظير ما جاء فى قوله تعالى «وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ» «١». (لقمان/ ٢٥)

بيد أن هذا التفسير يبدو بعيداً.

والأضعف من هذا الاحتمال هو ما يقوله الذين يعتقدون أن معنى الآية هو: «أنهم لا يقين لهم بما يقولون وهو أن الله خالق السماوات والأرض» وهو اليقين الذى يدعوهم إلى العبودية والطاعة.

ويتضح خطأ هذا التفسير من أن الآيات هذه لم تطرح قضية خلق الله للسماوات والأرض، فكيف يمكن أن تكون هذه الجملة إشارة إليها؟ «٢»

وأخيراً تقول الآية الثالثة كاستنتاج دون ذكر للاستدلال: «أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ».

(١) أقر الزمخشري هذا التفسير فى الكشاف وقد احتمله الفخر الرازى فى الكبير وجمع آخر من المفسرين.

(٢) جاءت عبارة «وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ» فى العنكبوت، ٦١؛ الزمر، ٣٨؛ الزخرف، ٩ و ٨٧؛ لقمان، ٢٥.

إنه في الحقيقة استدلال على توحيد المعبود، أى عندما يكون هو الخالق للعالم فإنَّ العبادة يجب أن تقتصر عليه أيضاً لا على غيره، كالأصنام والشمس والقمر والنجوم وغيرها.
وكما أسلفنا فإنَّ هناك سبعة أسئلة أخرى إضافة إلى هذه الأسئلة الثلاثة الواردة على صورة الاستفهام الإنكارى فى آيات ثلاث ترتبط بقضيَّة النبوة وأمور أخرى لا حاجة لذكرها فى هذا البحث التوحيدى «١».

توضيحان

١- برهان العلة والمعلول فى الفلسفة والكلام

إشارة

١- برهان العلة والمعلول فى الفلسفة والكلام
يعدُّ هذا البرهان من أقدم وأشهر الاستدلالات على إثبات وجود الله ابتداءً من فلاسفة اليونان القدماء ومنهم أرسطو الذى عاش فى القرن الرابع قبل الميلاد وحتى يومنا هذا حيث كانوا يستندون إليه، وكما أشرنا من قبل فإنَّ أغلب الأدلَّة على التوحيد تعتبر غير تامة إذا لم تستند إلى برهان العليَّة.
ولكى تتوضَّح قواعد هذا الاستدلال، ينبغى ملاحظة عدَّة أمور:

١- تعريف أصل العليَّة

(العليَّة) هى العلاقة الوجودية بين شيئين بشكل يكون أحدهما تبعاً للآخر، ومن يرى أن علاقة العليَّة عبارة عن ظهور حادثين على التعاقب فإنَّ هذا التعريف يكون ناقصاً، فصحيح أن المعلول يحدث بعد علته ولكن ذلك لا يكفى لتوضيح مفهوم العليَّة، بل لابد أن يكون هذا الأمر ناشئاً من العلاقة بينهما ومن تبعية الوجود الثانى إلى الوجود الأول.

(١) للمزيد من الإيضاح راجع التفسير الأمثل ذيل الآية ٣٥ من سورة الطور.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٥١

٢- شمولية قانون العليَّة وسعة تطبيقاتها

طبقاً لما يقوله بعض المحققين، كان قانون العلة والمعلول أول قضية شغلت الفكر البشرى من بين القضايا الفلسفية ماضياً وحاضراً ودفعت البشر للتفكير من أجل اكتشاف أغاز الوجود، وأهم دافع للتفكير لدى الإنسان الذى يمتلك القدرة على التفكير هو فهم قانون (العلة والمعلول العام) الذى يثبت أن لكلِّ حادثه علمه وهو السبب فى تبادر مفهوم (لماذا) فى الذهن البشرى، ولو لم يتعرَّف الذهن البشرى على مفهوم العلة والمعلول العام ولم يدعن لقانون العليَّة لم يكن ليخطر فى ذهنه مفهوم (لماذا)؟ «١»
هذه ال (لماذا) هى الأساس لكلِّ العلوم والأفكار البشرية التى دفعت الإنسان للبحث عن الجذور والنتائج لهذا العالم وحوادثه المختلفة.

وبعبارة أخرى: إنَّ جميع العلوم البشرية انعكاس لقانون العليَّة، ولو سلب هذا القانون من البشر فإنَّ هذه العلوم سوف تفقد كل محتوياتها.

وكذلك لو فقدنا قانون (العلية) فإن (الفلسفة) أيضاً سوف تتزعزع بكل فروعها، وعليه فإن العلوم والأفكار والفلسفة مبنية على هذا القانون.

٣- جذور معرفة قانون العلية

كيف توصل الإنسان إلى قانون العلية؟

للإجابة عن هذا السؤال لابد أن نرجع إلى الوراء لنستقرىء حياتنا في الصغر، عندما ينضج عقل الإنسان وتكتمل قابلية التمييز لديه، فالطفل عندما يمدّ يده إلى النار فيحسّ بألم الإحتراق، وعندما يعيد هذا العمل ويتكرر الإحساس نفسه يتيقن شيئاً فشيئاً بوجود علاقة بين أمرين (مسّ النار والشعور بألم الإحتراق).

وهكذا حينما يحس بالعطش ويشرب الماء فإنه يشعر بالراحة وزوال العطش ويتكرر هذا العمل حتى يتيقن بوجود علاقة بين العطش وشرب الماء، وعندما تتكرر هذه التجارب

(١) أصول الفلسفة، ج ٣، ص ١٧٥ (اقتباس واختصار).

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٥٢

في مجالات كثيرة وموضوعات مختلفة يتيقن بأن لكلّ حادثه علمه وبهذا يكشف قانون العلية بشكله العادي البسيط، ويتقدم عمره وبواسطة التجارب التي يمرّ بها سواء على صعيد الحياة الاعتيادية أو على صعيد العلوم والأفكار - سيدرك سعة هذا القانون وقوته أكثر فأكثر (كما يصل إلى هذا المبدأ وهو أن لكلّ حادثه علمه عن طريق الفلسفة).

نحن لا نقول بأن تعاقب حادثين يعنى العلية بل نقول إن القضية لابد من تكرارها حتى يتضح وجود علاقة بينهما، وأنّ الثاني تابع للأول.

والظاهر أن القائلين: إن قانون العلية خاضع للتجربة. يذهبون إلى أن الإنسان يتوصل إلى الجذور والاصول عن طريق التجربة والحسّ ومن ثمّ يكشف علاقة العلية من خلال (التحليل العقلي)، وهو في الحقيقة يتوصل إلى مقدّمة من خلال (الحسّ) واخرى من خلال (العقل) وذلك لأنّ القوانين الكلية توجد في العقل بصورة بديهية، ودور الحسّ هو إدراك الموضوعات المتفرقة ثم يقوم العقل بجمعها فيتوصل إلى النتائج.

ويتصوّر البعض أن مبدأ العلية - هو عبارة عن علم حصولي - يستحصل من العلم الحضوري (النفس) بالنسبة إلى (أفعال النفس).

وفي توضيح كلامهم هذا يقولون أن الروح الإنسانية تحسّ بأمور في أعماقها تابعة لها وقائمة بها كالتصوّر والأفكار والإرادات والقرارات .. هذه كلّها أفعال الروح الإنسانية ومعلولة لها، ومن خلال العلاقة بين هذه الأفعال والروح يمكن أن نكتشف قانون العلية، ثمّ يستندون في ذلك إلى قول لابن سينا حيث يقول: «فإنّ ما لم نثبت وجود الأسباب لمسببات من الامور ياثبات أن لوجودها تعلقاً بما يتقدّمها في الوجود، لم يلزم عند العقل وجود السبب المطلق، وأنّ ههنا سبباً ما، وأمّا الحسّ فلا يؤدّي إلّا إلى الموافاة وليس إذا توافى شيئان وجب أن يكون أحدهما سبباً للآخر ...» (١).

ولا شكّ في أن هذا خطأ كبير ومن المستبعد أن يقصد ابن سينا هذا المعنى لأنّ هذه التحليلات بشأن الروح وأفعالها هي من اختصاص الفلاسفة لا عموم الناس، في حين أنّ

(١) الشفاء، الفصل ١، مقالة الإلهيات الاولى، ص ٨.

عامية الناس يعرفون قانون العلية حتى الأطفال منهم، ولا شك في أن ذلك حصل لهم من خلال التجارب الخارجية والحسية كما أسلفنا، غير أن العقل ما لم يحلل هذه التجارب وما لم يجعل من القضايا الجزئية أمراً عاماً، فنحن لا ندرك (قانون العلية)، وعليه فإن الأساس في معرفة هذا القانون هو التجربة إضافة إلى العقل، ولعل ابن سينا يقصد ذلك ولا يمكن قبول غيره، بيد أننا لا ننكر أن الفلاسفة والعلماء يسهل عليهم معرفة العلية من خلال الأفعال النفسية كما يمكن ذلك عن طريق الحس.

كما أن ثمة طريق استدلال واضح يوصل إلى هذا الأمر، وهو أننا لو أنكرنا قانون العلية وجب أن لا يكون شيء شرطاً لشيء، وسوف ينشأ كل شيء من أي شيء، بل يجب رفض مناهج الاستدلالات العقلية أيضاً، وللوصول إلى نتيجة منطقية - مثلاً - يجب أن لا نستفيد من أدلة خاصة، بل إننا نصل من كل مقدمة إلى أية نتيجة نتوخاها، وهذا ما لا يتقبله أي عاقل قطعاً. ينبغي إذن أن نذعن بعلاقة العلية في الخارج وفي الأمور العقلية.

٤- أقسام العلة

العلّة لها مفهوم واسع وأقسام عديدة:
العلّة التامة وتعني أن الشيء إذا وجد فإن معلوله سوف يوجد مباشرة.
والعلّة الناقصة وتعني أن الشيء يحتاج - في وصوله إلى المعلول - انضمام أمور أخرى، كما تقسم العلة إلى (العلّة الفاعلية) و (الغائية) و (المادية) و (الصورية) وهذه تقسيمات مشهورة يمكن إيضاحها بمثال بسيط:

لو لاحظنا ملابسنا التي نرتديها لوجدناها لكي توجد يجب توفر المادّة (كالقطن والصوف) ثم تحويلها إلى قماش مناسب ثم تباشرها يد الخياط لخياطتها، ومن الأكيد أن الخياط يصنع اللباس لهدف خاص وهو الإنتفاع منه. تعتبر المادّة الأصلية هي (العلّة المادية) والصورة التي اعطيت لها هي (العلّة الصورية)

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٥٤

والذي جعلها على صورة اللباس هو (العلّة الفاعلية) والدافع لهذا الشيء هو (العلّة الغائية).
ومن المعلوم أننا استندنا في برهان (العلّة والمعلول) الذي نتابعه إلى العلة الفاعلية وخاصة العلة التامة.

٢- إيضاح برهان العلية

بعد أتضح هذه المقدمات نرجع إلى أصل برهان العلية.
إن برهان العلة والمعلول في الحقيقة مبني على أساسين هما:
١- أن العالم الذي نعيش فيه (حادث) و (ممکن الوجود).
٢- كل موجود حادث و ممکن الوجود يجب أن ينتهي إلى واجب الوجود، وبعبارة أخرى يجب أن تنتهي الوجودات الإرتباطية إلى الوجود المستقل.

وقد تكلمنا بما فيه الكفاية عن المقدمه الاولى وهي حدوث العالم، يبقى أن نثبت الآن المقدمه الثانية:
إنها قضيه واضحه وحتى الماديون والمنكرون لوجود الله يقرون بها، بيد أنهم يقولون: إن (المادّة) لها وجود أزلي وأبدى ومستقل بالذات، لكن هذا الكلام باطل استناداً إلى الأدلة التي تثبت استحالة أزلية المادّة وأبديتها وقد أشرنا إلى ذلك.
ولتوضيح هذه المقدمه من المناسب أن نقول: مع الإقرار بأن العالم حادث فسواجه خمسة افتراضات لا سادس لها:
فإنما أن يوجد العالم بدون علّة، أو أن يكون هو علّة لوجوده، أو أن يكون معلوله علّة له، أو أن يكون العالم معلولاً لعلّة وهي معلولة

لعلّة اخرى وهكذا إلى ما لا نهاية.

أو أن نقرباً بأنّ كلّ هذه الموجودات الحادثة مستندة إلى موجود أزلى أبدي فوق المادّة، وهذه السلسلة من العلل والمعلولات تنتهي أخيراً إلى (واجب الوجود).

الفرضية الاولى: وهي حدوث العالم بدون علّة وتسمّى بفرضية (الصدفة) وهي فرضية

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٥٥

باطلة، لأنّ الحادث إن لم يحتج إلى علّة فإنّ كلّ موجود يجب أن يوجد في كلّ زمان وأى ظرف، في حين نرى بوضوح أنّ الأمر ليس كذلك، حيث يحتاج كلّ حادث لحدوثه إلى توفّر الشرائط والظروف الخاصّة.

وهكذا بطلان الفرضية الثانية وهي (أن يكون الشئ نفسه علّة لوجوده) يعتبر أمراً بديهياً، لأنّ العلة يجب أن تكون قبل المعلول ولو كان الشئ علّة لنفسه فلا بدّ أن يكون موجوداً قبل وجوده ممّا يستلزم اجتماع (الوجود) و (العدم) وهو ما يطلق عليه بالمصطلح العلمي (الدور).

وهكذا بالنسبة لبطلان الفرضية الثالثة، حيث يكون معلول الشئ علّة لوجوده، وهو أمر واضح لا يحتاج إلى توضيح.

وأما بطلان الفرضية الرابعة التي تعنى استمرار سلسلة العلل والمعلولات إلى ما لا نهاية فأنّه بحاجة إلى إيضاح: (التسلسل) يعنى استمرار سلسلة العلل والمعلولات إلى ما لا نهاية وهذا باطل عقلاً لأنّ كلّ معلول يحتاج إلى علّة، ولو استمرت هذه السلسلة إلى ما لا نهاية ولم تنته بواجب الوجود فأنّه يعنى أنّ مجموعة من ذوات الحاجة غير محتاجة، في حين أنّ ما لا نهاية من الفقراء والمحتاجين محتاجون حتماً.

فلو تراكمت ما لا- نهاية من الظلمات لا- تتحوّل إلى (نور)، وما لا نهاية من (الجهل) لا يكون (علماً)، وما لا نهاية من (الأصفار) لا يكون (رقماً).

لابدّ إذن من انتهاء سلسلة العلل والمعلولات إلى موجود يحتاج شيئاً آخر .. وجود مستقلّ وغنى، وجوده من ذاته، وبعبارة أصحّ أن يكون عين الوجود والوجود المطلق.

وممّا ذكر نستنتج أنّ وجود الممكنات والحوادث في العالم لابدّ أن ينتهي بوجود واجب أزلى نسميه (الله) سبحانه وتعالى.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٥٧

٥- برهان الصديقين

تمهيد:

برهان الصديقين من أدلّة إثبات وجود الله بالاستفادة من القرآن الكريم والروايات، والذي اهتمّ به العلماء والفلاسفة الإسلاميون، وكما يبدو من إسمه أنه ليس دليلاً عاماً بل يختصّ بالذين يحظون بمعلومات وفهم أوسع في العقيدة والفلسفة، ولهم قسط وافر من الذوق ودقّة الملاحظة.

دليل يتّصف بالتعقيد قليلاً وفي الوقت نفسه لطيف وجميل ومربّب للروح.

ومحور هذا الدليل أنّنا بدلاً من دراسة المخلوقات من أجل معرفة الله، نتوجّه للتدبّر في ذاته المقدّسة للوصول إلى ذاته، وكما يقتضيه الدعاء: «يا من دلّ على ذاته بذاته» نتخذ منه تعالى طريقاً للوصول إليه، وكلّ ما في هذا البرهان من تعقيد وظرافة ناشىء عن كيفية إمكان اتّحاد الدليل والإدعاء.

القضية هي أنّ في هذا العالم وجوداً فنبادر بتحليل أصل هذا الوجود ومن خلال تحليل دقيق نصل إلى أنّ أصل الوجود يجب أن

يكون واجباً.

هذه إشارة سريعة ولو أنها غير كافية حيث سنتكلم عن ذلك بالتفصيل ونعود الآن إلى القرآن لنمعن خاشعين في الآيات التالية:

١- «أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ». (فصلت / ٥٣)

٢- «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ». (آل عمران / ١٨)

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٥٨

٣- «وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ». (البروج / ٢٠)

٥- «هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ». (الحديد / ٣)

٦- «اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» «١». (النور / ٣٥)

شرح المفردات:

«شَهِدَ»: مشتق من (شهود) وهو في الأصل - كما يقول الراغب في المفردات - بمعنى (الحضور المقرون بالمشاهدة) سواء كان ذلك بالعين الباصرة أو بعين القلب، وقد يعنى (الحضور) مجرداً عن مفهوم المشاهدة بيد أن استعمال (شهود) بمعنى الحضور، و (الشهادة) بمعنى الحضور المقرون بالمشاهدة أولى.

وقد وردت في (مقاييس اللغة) ثلاثة اصول في معنى (الشهادة) هي: الحضور والعلم والإعلام للآخرين، وإطلاق (شَهِدَ) على من يقتل في طريقه هو لحضور ملائكة الرحمة عليه، أو بسبب حضوره في ساحة الجهاد، أو بسبب مشاهدة النعم العظيمة التي أعدها الله له، أو بسبب حضوره بين يدي الله.

وقد جاء في كتاب العين أن (الشَّهَدَ) يعنى (العسل) قبل استخراجها من الشمع وهو المعنى الذي اتَّخذه صاحب الكتاب الأصل الأول لهذه المادة، فهل يرى ذلك هو الأصل اللغوي؟ وفي هذه الحالة ما هو وجه العلاقة بما نحن فيه؟ إنه لم يذكر توضيحاً لذلك «٢».

(محيط) ومصدرها (الإحاطة) وتعنى الضمّ ويستفاد من بعض الكتب اللغوية بأن الإحاطة على نوعين:

إحداهما: تكون في الأجسام ولذا يطلق على البناء المحيط بمكان (حائط).

وثانيهما: (الإحاطة المعنوية) وتعنى الحفظ والحراسة أو العلم والإطلاع على شيء ما.

وقد تستعمل هذه المفردة بمعنى الإمتناع من شيء، وكأنّ الإنسان محاط من كلّ جهة

(١) هناك آيات قرآنية أخرى تحمل نفس هذا المضمون من جملتها سورة الحجّ، ١٧ وسبأ، ٤٧ والمجادلة، ٦ والبروج، ٩ والنساء، ٣٣ والأحزاب، ٥٥.

(٢) المفردات، لسان العرب، مقاييس اللغة، كتاب العين.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٥٩

لئلا يصل إلى ذلك الشيء، وكلمة (الإحتياط) تستعمل في المجالات التي يحاول الإنسان فيها أن يعمل عملاً يصونه من الخطأ والإشتباه والمعصية والمخالفة.

وقد ورد في (مقاييس اللغة) أن الأصل في هذه المفردة هو من مادة (حوط) ويعنى دوران شيء حول شيء آخر.

كما أن كلمة (محيط) يمكن أن تكون بمعنى الإحاطة الوجودية أو إحاطة القدرة والعلم «١».

«نور»: يعنى الأشعة المنتشرة التي تعين العين على النظر وهو على نوعين:

مادى وهو النور الذى تبصره العيون المجردة، ومعنوى وهو النور الذى تراه عين البصيرة كنور العقل ونور القرآن، وقد جاء إطلاق

(نائرة) على الفتنة وذلك لانتشارها واتساعها.

والأقرب أن هذه المفردة تعنى فى أصلها الضياء المحسوس، ثم استعملت فى الامور المعنوية كالإيمان والعلم والعقل والقرآن حتى ذات الله المقدسة.

«نار»: هى من هذا الأصل أيضاً ويقتربان فى كثير من الموارد.

وكلمة (منارة) تعنى الموضع المتخذ لإشعال الشموع، أو لأجل نشر نور المعنويات الذى يئته (الأذان) إلى مختلف الجهات. «نور»: ويطلق على براعم الأشجار وخاصة البيض منها لما فيها من نور خاص منذ ظهورها.

جمع الآيات وتفسيرها

القرآن وبرهان الصديقين: «٢»

تقول الآية الاولى التى وردت فى هذا البحث بعد الإشارة إلى آيات الآفاق والأنفس

(١) التحقيق فى كلمات القرآن، المفردات، مقاييس اللغة، ولسان العرب.

(٢) قال البعض: إن تسمية هذا البرهان ب (برهان الصديقين) لأن صديق هو صيغة مبالغة ويعنى كثير الصدق. صحيح أن الأدلة الاخرى التى أوردناها لإثبات وجود الله صادقة بيد أن هذا البرهان أشد صدقاً نظراً إلى أنا نصل فى البرهان من ذات الله سبحانه وتعالى إلى الله ولا نسمح لغيره فى هذا الطريق.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٦٠

الدالة على حقانية وجود الله سبحانه وتعالى: «أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ».

يمكن أن تكون كلمة (شاهد) هنا بمعنى الشاهد أو الحاضر والمراقب، أو تعنى كلا المعنيين وذلك لصدقهما فى الله سبحانه، والآية المذكورة أعلاه مطلقه من هذه الجهة.

واستناداً إلى هذا التفسير يكفى لإثبات ذاته المقدسة أن يكون شاهداً وحاضراً فى كل مكان، فكل موجود ممكن نجد إلى جانبه ذات واجب الوجود، وحيثما نظرنا كان الوجود المطلق ظاهراً، وكل ما وقع عليه نظرنا وجدنا وجهه فيه، ونحس بخضوع العظماء لعظمته، وهو مصداق حديث أمير المؤمنين عليه السلام: «ما رأيت شيئاً إلّا ورأيت الله قبله وبعده ومعاً» (١).

وفى تفسير الميزان أن (شاهد) تعنى (مشهود) وبذلك يكون معنى الآية:

«أَوْ لَمْ يَكْفِ فِي تَبْيِينِ الْحَقِّ كَوْنُ رَبِّكَ مُشْهُوداً عَلَى كُلِّ شَيْءٍ إِذْ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا وَهُوَ فَقِيرٌ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ إِلَيْهِ مُتَعَلِّقٌ بِهِ وَهُوَ تَعَالَى قَائِمٌ بِهِ قَاهِرٌ فَوْقَهُ فَهُوَ تَعَالَى مَعْلُومٌ لِكُلِّ شَيْءٍ وَإِنْ لَمْ يَعْرِفْهُ بَعْضُ الْأَشْيَاءِ» (٢).

ونتيجة هذا التفسير هو إثبات وجود الله من الآية أعلاه أيضاً، ولكن عن طريق برهان الغنى والفقر.

يقول الفخر الرازى: «أو لم تكفهم هذه الدلائل الكثيرة التى أوضحتها الله تعالى وقررها، الدالة على التوحيد والتنزيه...» (٣) (وعلى هذا فالآية ناظرة إلى إثبات وجود الله عن طريق برهان النظم).

ويرى بعض المفسرين أن الآية ناظرة إلى قضيتة إثبات المعاد حيث يقولون:

«أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ شَاهِدٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، مِمَّا يَفْعَلُهُ الْعَبْدُ فِي هَذَا كِفَايَةً لِمَحْكَمَةِ يَوْمِ الْجَزَاءِ» (٤).

(١) يعتقد الكثير من المفسرين بأن الباء في «بربك» زائدة وتفيد التأكيد، وقد حلت (ربك) محلّ الفاعل، وجملة «على كل شيء شهيد» هي بدل منه والجملة تعنى (أو لم يكفهم أن ربك على كل شيء شهيد).

(٢) تفسير الميزان، ج ١٧، ص ٤٠٥.

(٣) تفسير الكبير، ج ٢٧، ص ١٤٠.

(٤) تفسير القرطبي، ج ٨، ص ٥٨١٩.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٦١

ويعتقد البعض الآخر أن الآية ناظرة إلى حقانية القرآن الكريم، ونبوة الرسل، ويقولون: «أولم يكف ربك شاهداً أن القرآن من عند الله» (١).

ويبدو أن التفاسير الثلاثة الأولى من بين التفاسير الخمسة هذه والتي ترى أن الآية ناظرة إلى قضية التوحيد وإثبات وجود الله هي أكثر صحّة، ويبدو التفسير الأول منها أكثر انسجاماً مع معانى الألفاظ الواردة في الآية، وبذلك يكون شاهداً على (برهان الصديقين). ونهى هذا الكلام بحديث معتبر للإمام الصادق عليه السلام.

عن منصور بن حازم قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إنى ناظرت قوماً فقلت لهم: إن الله جلّ جلاله أجل وأعز وأكرم من أن يُعرف بخلقه بل العباد يُعرفون بالله، فقال: «رحمك الله» (٢).

ومن الطبيعي أن هذا الكلام لا يتنافى أبداً مع استخدام برهان النظم وأدلة التوحيد وعظمة الله في موجودات العالم، في الحقيقة فإن برهان النظم في مستوى، وهذا البرهان (برهان الصديقين) هو في مستوى أعلى وأرفع.

بزوغ الشمس دليل عليها:

في الآية الثانية يدور الحديث حول شهادة الله سبحانه على وحدانيته ثم شهادة الملائكة والعلماء حيث تقول: «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ»، وتضيف: أن ذلك يكون مع قيام الله سبحانه بالعدل وإدارة العالم على محور العدل: «قَائِمًا بِالْقِسْطِ». وبما أن القيام بالقسط والعدل يحتاج إلى أصليين هما: القدرة والعلم لكي تتحدّد موازين العدل بالعلم أولاً وتطبّق بالقدرة ثانياً، أضافت الآية في ذيلها: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

والمراد من شهادة الملائكة وأولو العلم واضح، ولكن ما هو المراد من شهادة الله؟ هناك خلاف بين المفسرين، حيث اعتقد البعض أن المراد هو الشهادة (الفعليّة)

(١) راجع تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٠.

(٢) اصول الكافي، ج ١، ص ٨٦، باب أنه لا يعرف إلا به، ح ٣.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٦٢

و (القولية) أي أنه شهد على وحدانيته بعرض آيات عظمته في عالم الوجود وفي الآفاق وفي الأنفس من جهته، وكذلك من خلال آيات التوحيد النازلة في الكتب السماوية من جهة أخرى.

في حين ذكر بعض المفسرين الشهادة القولية وحدها، وذكر بعض آخر الشهادة الفعلية، بيد أن مفهوم الآية يتضمّن - بالتأكيد - شهادة أعلى وأرفع من هذه، بل هي أهمّ مصداق للشهادة وهي أن ذاته شاهدة على ذاته كمصداق لما ورد: «يامن دلّ على ذاته بذاته» أنه سبحانه أفضل دليل على وجوده وهو الهدف الذي يقصده برهان الصديقين.

ولا مانع من اجتماع المعاني الثلاثة (الشهادة الذاتية والفعلية والقولية) في مفهوم الآية. وقد استنتج البعض من عبارة (قائماً بالقسط) بأن آيات العدل والنظم والتقدير في عالم المخلوقات هي مصداق بين لشهادته سبحانه وتعالى على وحدانيته، وهو استدلال جيد (ولا ضير في انفصال الملائكة عن (اولو العلم) كما يشير تفسير الميزان إلى هذا المعنى)، كما لا يمنع من عمومية الآية وسعة مفهومها وشمول ما قلنا. وكما ذكرنا من قبل فإن القائم بالعدل يحتاج إلى العلم والقدرة، وهاتان الصفتان موجودتان في ذاته المقدسة وتتصاف البارى ب (العزیز الحكيم) في ذيل الآية إشارة إلى هذا المعنى الدقيق.

إحاطة الوجود الإلهي:

الآية الثالثة- بعد الإشارة إلى الجيوش الجوّارة التي واجهت أنبياء الله وحاربتهم وذكر نموذجين متميزين أحدهما في العصور القديمة وهم (قوم ثمود) وثانيهما في العصور المتأخرة وهم (قوم فرعون): «بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ». التعبير ب (في)- ويستعمل عادةً لبيان الظرف والمظروف- تعبير جميل وفيه إشارة إلى أن الكفار غارقون في تكذيب الحقائق، والمراد من الكفار هم الكفار المعاندون في عصر

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٦٣

النبي الأكرم صلى الله عليه وآله الذين كانوا ينكرون وحدانية الله سبحانه ونبوّة رسول الإسلام صلى الله عليه وآله والمعاد كذلك، ولا يستبعد أن تشمل الآية هؤلاء جميعاً، لأن قوم فرعون و ثمود الذين ذكروا من قبل كانوا كذلك، كما أن استعمال (تكذيب) على صورة نكرة والذي يدل في مثل هذه الحوادث على الأهمية والعظمة هو شاهد آخر على هذا المعنى. ثم تقول الآية: «وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ».

التعبير ب (ورائهم) إشارة إلى أنهم محاطون من كل جهة، والله محيط من كل جهة وجانب، وقد وقع كلام بين المفسرين بشأن المراد من (الإحاطة الإلهية) حيث احتمل البعض أنها إحاطة الله العلمية على أعمالهم، واعتقد البعض الآخر أنها إحاطة القدرة حيث الجميع في قبضته، وليس لهم القدرة على الفرار من عقابه، وذهب البعض الآخر إلى أنها الإحاطة العلمية، وإحاطة القدرة معاً. يبدأ أن مفهوم الآية أوسع مما ذكر حيث يشمل إحاطته الوجودية أيضاً، نعم، لله تعالى إحاطة وجودية لجميع الممكنات والكائنات، وليست هذه الإحاطة- طبعاً- من قبيل إحاطة الظرف بالمظروف (كإحاطة الحائط بالبيت) وليست من قبيل إحاطة الكل بالجزء، بل هي (الإحاطة القيومية)، أي أنه سبحانه وجود مستقل وقائم بالذات والموجودات الاخرى قائمه به وتابعة له. وهذا المعنى يفتح الطريق أمام برهان الصديقين في مسألة إثبات وجود الله، وسنقدم شرحاً لذلك في المستقبل.

هو الأول والآخر:

تقول الآية الرابعة- وهي من الآيات الاولى من سورة الحديد وفيها ذكر لصفات الله سبحانه بشكل عميق وواسع: «هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ».

إن هذه الصفات الخمس التي اجتمعت في الآية بيان جلي لذاته المقدسة اللامتناهية.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٦٤

هو (الأول) أي هو الأزلي دون أن تكون له بداية، وهو (الآخر) أي الأبدى الذي لا نهاية له، وهو (الظاهر) أي البين دون أن يكون

خافياً على أحد، وهو (الباطن) أى أن ذاته ليست ظاهرة لأحد (لعدم قدرة الموجودات المحدودة كالإنسان على إدراك الحقيقة اللامتناهية) دون أن يكون محجوباً عن عباده.

ولذا فإنه سبحانه عالم بكلّ شيء لأنه موجود في البداية، وسوف يبقى حتى النهاية وحاضر في ظاهر العالم وباطنه. وهناك تفسيرات متعدّدة ذكرها المفسّرون في تفسير الصفات الأربع: (الأوّل) و (الآخر) و (الظاهر) و (الباطن) إلّا أنّها غير متنافية ويمكن جمعها في مفهوم الآيه.

فتارة قالوا: إنه الأوّل قبل وجود أى شيء وهو الآخر بعد هلاك كلّ شيء، ودلائل وجوده ظاهرة ولا يمكن إدراك باطن ذاته. وتارة قالوا: هو الأوّل ببرّه حيث هدانا، والآخر بعفوه حيث يقبل التوبه، والظاهر بإحسانه وتوفيقه عند طاعته والباطن في ستر عيوب العباد عند المعصية (الأوّل ببرّه إذ هداك والآخر بعفوه إذ قبل توبتك، والظاهر بإحسانه وتوفيقه إذا أطعته، والباطن بستره إذا عصيته) «١» وقد ورد أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان يقول في دعائه: «اللهم أنت الأوّل فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء» «٢».

على أيّ حال، فإنّ الآيه الكريمه أعلاه، في عين إثباتها بطلان أفكار الصوفيه في استقلاله الخالق عن المخلوق والمخلوق عن الخالق، فإنّها تبين حقيقه وهى أنّ الذات الإلهيه المقدسه مطلقه ولا نهايه ولا حدود لها. أى هو وجود بلا-عدم، ولو أننا تدبّرنا حقيقه الوجود جيّداً ونزهناه من العدم فسوف نصل إلى ذاته المقدسه، وهذا جوهر برهان الصديقين وروحه.

(١) راجع تفاسير مجمع البيان؛ الميزان؛ الكبير؛ روح البيان.

(٢) تفسير القرطبي، ج ٩، ص ٦٤٠٦.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٦٥

ومن البديهي أنّ الموجود المحدود يكون موضعه إمّا في البداية أو النهايه، وإمّا في ظاهر الأشياء أو باطنها، واتّصاف الله سبحانه بأنّه الأوّل والآخر والظاهر والباطن هو لكونه وجوداً غير متناه ولا محدود.

هو نور العالم:

في الآيه الخامسه والأخيره نقرأ في جملته قصيره وغزيره المعنى:

«اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ».

ويعقب هذه العبارة تشبيه جميل وجذاب لهذا النور الإلهي يشكّل ميداناً واسعاً لبحوث المفسرين الأعلام للقرآن، وبما أنّ الشاهد في هذا البحث هو العبارة الاولى، فإننا نشرح بتبيانها وشرحها:

من الطرق الهاميه في تفهيم الحقائق المعقده هو استعمال التشبيهات البليغه بغية تقريب الحقائق العلميه إلى الذهن بضرب الأمثله الحسيه، وهنا قد استفيد من هذه الطريقيه (وإن كانت الأمثله بشأن الله تعالى ناقصه لعدم وجود مثل لذاته) ولإدراك حقيقه هذا المثال لا بدّ من التدبّر في معنى النور وصفاته وخصائصه وبركاته، ولا-ريب في أنّ النور من أجمل الموجودات الماديه وأطفها وأكثرها بركه، وتنتشر منه البركات والجمال في عالم الماده.

فنور الشمس منبع الحياة والسّر في بقاء الموجودات الحيه والعنصر الفاعل في نمو النبات والزهور وجميع الأحياء.

النور هو المصدر الأساس للطاقت، نظير حركة الرياح، وهطول الأمطار، والعنصر الأساس في وجود المحروقات (البتروال والفحم

(الحجرى) ولو تبدل نور الشمس إلى ظلام فسوف تتوقف كل حركة في العالم.

والنور واسطة لمشاهدة الموجودات المختلفة والمظهر لها، هذا وان حركة الأمواج والذرات الضوئية هي أسرع الحركات المتصورة في عالم المادة، حيث تبلغ سرعتها (٣٠٠ ألف كم) في الثانية، وهذا يعنى أن النور في طرفه عين يدور حول الأرض سبع مّرات.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٦٦

وأخيراً فإن نور الشمس أفضل عامل على تلطيف البيئة والقضاء على مختلف أنواع الجراثيم الضارة وإزالة الموانع عن طريق الحياة البشرية، وبملاحظة هذه الخصائص التي يتصف بها النور المحسوس يتضح عمق تشبيه ذات الله المقدسة بالنور.

نعم، إن وجوده تعالى هو النور الذى يظهر الوجودات ويحفظها، ومنه تنبع الحياة المعنوية والمادية، ويصدر كل جمال فى العالم، وكل حركة نحو الكمال تنبع من وجوده المقدس، وكل هداية تتحقق برعايته.

وهو الذى يرفع الموانع عن طريق عباده، وهو الهادى للإنسان فى طريق الكمال والقرب لذاته، وبكلمة واحدة كل ما فى العالم قائم بذاته المقدسة.

وهناك سؤال يطرح نفسه وهو: هل النور الذى يُظهر الأشياء يحتاج إلى مظهر؟ وهل الموجودات التى يُظهرها النور تكون أكثر ظهوراً من النور نفسه لتكون معرفه له؟

وبتعبير أدق: ما هى الوسيلة التى يمكن مشاهدة النور بها غير النور نفسه؟ وهذا هو الأساس فى برهان الصديقين.

وقد ذكر المفسرون عدّة احتمالات فى تفسير هذه الآية لا تنافى بينها، نظير الموارد الكثيرة الاخرى، ويمكن الجمع بينها، أى أن كل مفسر منهم لاحظ - فى الحقيقة - الآية من زاوية معينة.

وقد قال الكثير بأن جملة: «اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» تعنى (المنور للسموات والأرض).

وقد فسرها البعض الآخر ب (الهادى لمن فى السموات والأرض) تبعاً للرواية التى وردت عن الإمام الرضا عليه السلام فى هذا الشأن حيث قال:

«هادٍ لأهل الأرض» أو «هادٍ لأهل السموات وهاذٍ لأهل الأرض» (١).

وفسرها البعض الآخر بمعنى الطاهر المنزه من كل عيب فى جميع السموات والأرض.

وفسرها آخرون بمعنى المُدبر لشؤون السموات والأرض.

(١) تفسير البرهان، ج ٣، ص ١٣٣، ح ١ و ٢؛ وتفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٦٠٣.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٦٧

وفُسرت بمعنى الإضاءة بواسطة الشمس والقمر والنجوم، وبواسطة الأنبياء والملائكة والعلماء والمفكرين.

وفسرها بعض بمعنى المنظم للعالم العلوى والسفلى.

وفُسرت بمعنى المفيض بالجمال على الكونين.

وفُسرت بمعنى خالق السموات والأرض.

وكما أسلفنا فإن هذه المعانى موجودة فى الآية الكريمة: «اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ»، بل إن الآية تنطق بما هو أعلى وأوسع، حيث

إنّ النور نير ذاتاً وهو الدليل على وجوده ولا يحتاج إلى مظهر آخر، لأنّ الآخرين ظاهرون بأجمعهم ببركته وكما قال العرفاء:

«كفى بك جهلاً بأن تهجر الشمس الساطعة وتبحث فى الوديان بنور الشمع، واعلم بأنّ الكون طراً من شعاع الحق».

١- برهان الصديقين في الروايات الإسلامية والأدعية

هناك طريق آخر لمعرفة ذات الله المقدسة أقصر وأدق من البحث في موجودات العالم، وهو معرفة الذات المقدسة بذاتها، أي الوصول منه إليه، وقد ورد هذا المضمون بشكل واسع في الروايات الإسلامية وأدعية المعصومين ويشكل هذا المضمون جوهر برهان الصديقين.

ولا- نقول أن لا- يمكن التعرف على ذاته عن طريق الموجودات في العالم، كما لا نقول بأن آيات (الآفاق والأنفس) ليست علائم على علمه وقدرته وعظمته فإن هذا المعنى جلي في القرآن كله، ولكن نقول إن تيمه طريق أرقى وأعلى وألطف وهو البحث في أصل الوجود والوصول إليه عن طريق ذاته المقدسة، وهذا الطريق هو طريق الخواص والعرفاء الحقيقيين غالباً، فمثلاً:

١- نقرأ في دعاء الصباح الشهير: «يا من دلّ على ذاته بذاته وتنزه عن مجانس مخلوقاته».

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٦٨

٢- ونقرأ في دعاء أبي حمزة الثمالي المعروف: «بك عرفتك وأنت دلتني عليك».

٣- وقد ورد في دعاء عرفه أيضاً: «كيف يستدلّ عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك؟!»

٤- وورد في الدعاء نفسه: «متى غبت- حتى تحتاج إلى دليل يدلّ عليك، ومتى بعدت- حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك، عميت عين لا تراك عليها رقيباً».

٥- وقد ورد في حديث أن أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام وإسمه منصور بن حازم قال له: إنني دخلت في مناظرة- مع جماعة وقلت لهم: «إن الله أجل وأكرم من أن يُعرف بخلقه بل العباد يعرفون بالله»، فقال له الإمام الصادق عليه السلام مصدقاً إياه: «رحمك الله» (١).

٦- وقد ورد في حديث عن الإمام أمير المؤمنين قوله: «اعرفوا الله بالله، والرسول بالرسالة، واولى الأمر بالأمر بالمعروف والعدل والإحسان» (٢).

٧- وفي حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام حينما سأله أحدهم: بم عرفت ربك؟

فأجاب: «بما عرّفتي نفسه» (٣).

أجل، إنّه معرّف ذاته (شروق الشمس دليل على الشمس) وذاته المقدسة دليل ذاته دون الحاجة إلى معرّف، وخفاؤه على البعض بسبب شدة ظهوره، كالنور الذي لا يقدر الإنسان على النظر إليه لو تجاوز حدّه، وكما قيل: نور وجهك الحاجب عن ظهورك.

٢- إيضاح برهان الصديقين

من المناسب أن نفضّل هذا البرهان كما يراه الفلاسفة الإسلاميون، وبسبب تعقيد البحث

(١) أصول الكافي، ج ١، ص ٨٦، باب أنّه لا يعرف إلبه، ح ٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٨٥، باب أنّه لا يعرف إلبه، ح ١.

(٣) المصدر السابق، ح ٢.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٦٩

فإننا سوف نبينه قدر الإمكان بتعبيرات واضحة دون استعمال الإصطلاحات الفلسفية.

ويجب الانتباه قبل كل شيء إلى أن مزايًا برهان الصديقيين تتمثل في عدم التطرق إلى الدور والتسلسل أو معرفة المؤثر من خلال الأثر، ومن المخلوق إلى الخالق، ومن الممكن إلى الواجب في إثبات وجود الله، بل هو تحليل للوجود نفسه وحقيقة الوجود، وبذلك نصل إليه من خلال ذاته، وهذا هو المهم (وان لاحظ وجود خلط في عبارات البعض بين هذا الاستدلال واستدلال الوجوب والإمكان وبرهان العلة والمعلول - كما بيناه في السابق - ووضعوا بعضها موضع البعض الآخر) «١».

وقد ذكرت تعاريف مختلفة لبرهان الصديقيين منها: (تقدير صدر المتألهين في الأسفار، ثم المحقق السبزواري في حاشية الأسفار، ثم المرحوم العلامة الطباطبائي في نهاية الحكمة وغيرهم في كتب أخرى)، والبيان الأوضح والأنسب دون الرجوع إلى استعمال برهان الوجوب والإمكان، والعلّة والمعلول وبدون الاستناد إلى مسألة الدور والتسلسل أن يقال:

إن حقيقة الوجود هي (العينية) في الخارج، وبتعبير آخر هي (الواقعية) وعدم قبول العدم، لأن كل شيء لا يتقبل ضده، وبما أن (العدم) ضدّ (الوجود) فحقيقة الوجود - إذن - ترفض العدم.

ومن هنا نستنتج أن (الوجود) ذاتاً هو (واجب الوجود) أي أزلي أبدي، وبتعبير آخر إن التدبر في حقيقة (الوجود) يرشدنا إلى أن (العدم) لا ينفذ إليه أبداً، وكل ما لا يطاله العدم فإنه واجب الوجود (فتأمل جيداً).

وأما صدر المتألهين - وهو من السابقين إلى هذا الاستدلال - فيقول: «واعلم أن الطرق إلى الله كثيرة لأنه ذو فضائل وجهات كثيرة، ولكل وجهه هو موليها» لكن بعضها أوثق وأشرف وأنور من بعض، وأشد البراهين وأشرفها إليه هو الذي لا يكون في الوسط في البرهان غيره بالحقيقة، فيكون الطريق إلى المقصود هو عين المقصود وهو سبيل

(١) راجع نهاية الحكمة، ص ٢٦٨، وشرح مختصر المنظومة ص ٨ و ٩ للشهيد المطهري.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٧٠

(الصديقيين) الذين يستشهدون به (تعالى) عليه، ثم يستشهدون بذاته على صفاته وبصفاته على أفعاله، واحداً بعد واحد، وغير هؤلاء (كالمتكلمين، والطبيين وغيرهم) يتوسلون إلى معرفته (تعالى) وصفاته بواسطة اعتبار أمر آخر غيره (كالإمكان للمهيبة، والحدوث للخلق، والحركة للجسم، أو غير ذلك) وهي أيضاً دلائل على ذاته، وشواهد على صفاته، لكن هذا المنهج أحكم وأشرف.

وقد اشير في الكتاب الإلهي إلى تلك الطرق بقوله (تعالى): «سَبِّحْهُمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ» وإلى هذه الطريقة بقوله (تعالى): «أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ».

ثم يضيف: وذلك لأن الرّبانيين ينظرون إلى الوجود، ويحققونه ويعلمون أنه أصل كل شيء، ثم يصلون بالنظر إليه إلى أنه بحسب أصل حقيقته واجب الوجود، وأما الإمكان والحاجة والمعلولية وغير ذلك فإنما تلحقه لا - لأجل حقيقته بما هي حقيقته، بل لأجل نقائص وأعدام خارجة عن أصل حقيقته «١».

وباختصار عند ملاحظة الوجود الحقيقي نجد أنه لا يجتمع مع العدم أبداً، ولا يسمح للعدم أن يتطرق إليه وذلك لأن الوجود والعدم متقابلان، وهكذا إذا لاحظنا العدم فإننا نجده يطرده الوجود عن ذاته، وعليه فإن حقيقة الوجود واجبة الوجود، والعدم ممتنع الوجود.

والإشكال المهم الذي يتبادر إلى الذهن والذي يادر صدر المتألهين للإجابة عنه في الأسفار هو أن كل موجود - وفق هذا الاستدلال - يجب أن يكون واجب الوجود، لأن هذا الاستدلال يجري في كل مورد في حين نرى أن الممكنات حادثة وليست أزلية ولا أبدية ولا واجبة الوجود.

الإجابة: لا بد من الالتفات إلى هذه النقطة وهي أن الوجودات الممكنة ليست وجودات أصيلة، بل هي وجودات محدودة ومصحوبة

بالعدم وهذا العدم ناشىء من محدوديتها، وما

(١) راجع الأسفار، ج ١، ص ١٥ (بتلخيص سير)، كما ورد نظير هذا المعنى فى حاشية الأسفار للمحقق السبزواري، ج ٨، ص ١٤.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٧١

يقال: إن الوجودات الممكنة تتركب من شيئين فإنه يعنى أن الوجودات الممكنة فيها نوع من العدم بسبب محدوديتها، وعليه فإن الوجود الممكن ليس وجوداً أصيلاً وحقيقياً، لأن حقيقة الوجود هى عين الواقعية ولا سبيل لأى قيد أو شرط ونقصان إليها، ولهذا يكون الوجود الأصيل واجب الوجود حتماً.

ونؤكد- بأن الوصول إلى حقيقة هذا الاستدلال- بالرغم من هذه الإيضاحات- يحتاج إلى رياضة فكرية ودقة وتعمق كبير (فتأمل جيداً).

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٧٣

٦- الطريق الباطنى لمعرفة الله (الفترة)

تمهيد:

(الإدراكات العقلية)- كما نعلم- تشكل جزءاً من المضمون الروحى لدى الإنسان، أى أن الإنسان لا يصل إلى كل شىء عن طريق الدليل العقلى، بل إن المتطلبات والمكتسبات الفطرية الغريزية تشكل جزءاً مهماً من المحتوى الروحى فيه، حتى أن الأساس فى الكثير من الأدلة العقلية قائم على هذه المكتسبات الفطرية، فى حين تنشأ المتطلبات والمكتسبات فى الحيوانات عن طريق الغريزة فقط.

وفى الحقيقة فإن الذين قاموا بتحديد الإنسان بالبعد العقلى لم يعرفوا تمام الأبعاد الوجودية للإنسان.

ومن المتفق عليه أن طريق الباطن من الطرق المهمة فى مسألة (معرفة الله) التى لها طرق لا تحصى، والإنسان هنا يسلك أقصر الطرق، بدلاً من (المعرفة) يصل إلى (الوجدان)، ومن (التفكير) إلى (الرؤية)، وبدلاً من إعداد (المقدمات) يصل إلى ذى المقدمات.

إنه طريق عظيم، مثير للنشاط والحيوية ومريح.

وقد اعتمدت آيات قرآنية عديدة على هذا المعنى وجاءت بتعبير جميلة.

بعد هذا التمهيد نتأمل خاشعين فى الآيات الآتية:

١- «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ». (الروم / ٣٠)

٢- «وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ». (الروم / ٣٣)

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٧٤

٣- «فَإِذَا رَكبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ». (العنكبوت / ٦٥)

٤- «هُوَ الَّذِي يَسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَّتْ بِكُمْ بِهِمْ بِرِيحٍ طَبِيبَةٍ وَقَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ

فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ». (يونس / ٢٢-٢٣)

٥- «وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لِيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ».

(الزخرف / ٩)

٦- «وَلَيْتَ سَأَلْتَهُمْ مِّنْ خَلْقِهِمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ». (الزخرف / ٨٧)

٧- «وَلَيْتَ سَأَلْتَهُمْ مِّنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ». (العنكبوت / ٦١)

٨- «قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ».

(يونس / ٣١)

٩- «قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ».

(المؤمنون / ٨٤-٨٩)

١٠- «وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بلى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ». (الأعراف / ١٧٢)

شرح المفردات:

«الفطرة»: من مادة (فَطَرَ) وتعنى - كما أسلفنا- شق الشيء طولياً، ثم أطلق على كل شق،

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٧٥

والشق ربما يكون للتخريب وربما للإصلاح ولذا يستعمل للمعنيين.

وبما أن (الخلق) بمثابة كشف حجاب ظلمات العدم، فيكون أحد المعاني المهمة لهذه المفردة هو الإيجاد والخلق، ولنفس السبب يعطى معنى الإبداع والاختراع أيضاً.

ويطلق لفظ (الإفطار) على تناول الغذاء بعد أذان المغرب أو إبطال الصوم، فالصوم يُعد حالة متصله ومستمره وعند تناول المفطر فإن هذه الحالة تُقطع أو تُهدم، ولهذا سميت حالة إبطال أو قطع الصوم بالإفطار.

كما يستعمل هذا اللفظ فى إنبات النباتات أيضاً وذلك لانفطار الأرض أثناء خروج النباتات منها، كما يطلق على عملية استخراج اللبن من الضرع باصبعين، فكأنه ينشق ويخرج منه اللبن.

نقل عن ابن عباس قوله: لم أعرف معنى (فاطر السماوات والأرض) جيداً حتى جاء إلى رجلان أعرابيان يتنازعان على بئر، فقال أحدهما لإثبات ملكيته:

أنا فطرتها بمعنى (أنا حفرتها)، هنا أدركت أن (الفطر) يعنى الإيجاد والابتداء فى الشيء.

ويطلق على البثور التى تظهر فى وجوه الشباب من البنين والبنات اسم (تفاطير) أو (تفاطير) «١».

وإذا ما لاحظنا اعتبار بعض اللغويين مفردة (فطرة) بمعنى الدين والشرع إنما هو لوجودها فى خلقه الإنسان منذ البداية كما سيأتى.

جمع الآيات وتفسيرها

الخلق الثابت والراسخ:

الآية الاولى التى تصرّح بأن (الدين) هو أمر فطرى وتخطب النبى صلى الله عليه وآله: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً» «٢».

(١) لسان العرب؛ مفردات الراغب؛ نهاية ابن الأثير؛ ومجمع البحرين.

(٢) «حنيف» من «حنف» ويعنى كل ميل أو انحراف، وجاء بمعنى الميل من الضلال إلى الهدى ومن الباطل إلى الحق والتعبير ب (وجه) هنا كناية عن الذات، لأن الوجه أهم عضو في الجسم وتقع فيه الحواس الهامة كحاسة البصر والسمع والذوق والشم.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٧٦

ومن أجل التعليل أو التشجيع على هذا الأمر تقول الآية بعد ذلك: «فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا» (١).

وبما أن الإنسجام والتنسيق بين (التشريع) و (التكوين) يعتبر من المسلمات حيث لا يمكن وجود أمر متأصل في خلق الإنسان غير منسجم مع سلوكه، فيمكن أن يكون هذا التعبير دليلاً على وجوب العمل بأصل التوحيد ونفى كل شرك. وللمزيد من التأكيد تقول الآية بعد ذلك: «لَا تَبْدِيلَ لِحَلْقِ اللَّهِ».

وهذا يعنى أن ما يتجدد في أعماق الوجود الإنساني يستمر كأصل ثابت وراسخ - وسوف يتضح لنا بأن لهذه الجملة معنى غزير واعجازي، حيث تشير الدراسات الحديثة التي يجربها المفكرون إلى أن العلاقات الدينية هي من أشد العلاقات الإنسانية تجذراً ورسوخاً وبقاءً على مر التاريخ.

بيد أن فئه جاهله وغافله تقوم بإفساد هذه الفطرة الطاهرة بالشرك، ولذا فإن القرآن يؤكد على المحافظة عليها بذكر كلمة (حنيفاً) (٢). وللمزيد من التأكيد تضيف الآية: «ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ».

كلمة «قيم» من مادة (قيام) واستقامه بمعنى الثابت والراسخ والمستقيم كما جاءت بمعنى القائم بشؤون المعاد والمعاش في الإنسان (٣). وبما أن الكثير من الناس يغفلون عن هذه الحقيقة وبيتلون بأنواع من عبادة الأصنام، لذا فقد ورد في آخر الآية قوله سبحانه وتعالى: «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ»، والجدير بالذكر أن الفطرة التي جاءت في الآية لا تشمل التوحيد فقط بل تشمل الدين بجميع أصوله وفروعه وستتطرق إلى هذا البحث الطريف إن شاء الله تعالى.

(١) توجد أقوال كثيرة حول تعليل النصب في (فطرة الله) ومنها أنها بتقدير (اتبع) و (الزم).

(٢) يقول بعض المفسرين بأن «لا» في «لَا تَبْدِيلَ لِحَلْقِ اللَّهِ» نافية وتعطى معنى النهي (راجع تفاسير مجمع البيان والميزان وروح الجنان) ولكن كما قلنا فإن النفي أنسب وأجمل (فتأمل جيداً).

(٣) مفردات الراغب وكتب لغوية أخرى.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٧٧

عند مواجهة الأزمات:

في الآيات الثانية والثالثة والرابعة التي يدور البحث حولها (وبتعبير مختلفه) هناك إشارة إلى قضية عامة وهي أن الإنسان حينما يواجه الصعوبات والبلاء الشديد ويعجز عن استخدام الوسائل الطبيعية يلجأ إلى فطرته الأصلية فيشرق في أعماق قلبه نور المعرفة الإلهية بعد اختفائه، ويتذكر مبدأ العلم والقدرة الذي لا نظير له والذي يسهل عليه حل المشكلات كلها.

ورد في قسم من الآية قوله: «وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ».

ولكن بعد انتهاء الأزمة وهبوب رياح الرحمة، فإن مجموعة منهم يعودون إلى شركهم «ثُمَّ إِذَا إِذَا أَذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ».

وفي موضع آخر يذكر هذا المعنى مقروناً بذكر مصداق واضح من الصعاب والمشكلات حيث تقول الآية: «فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ»

«وأحاطت بهم الأمواج العظيمة والأعاصير المخيفة وامتلات قلوبهم رعباً وهلعاً» «دَعَا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ».

وقد أشارت آية أخرى إلى أخطار البحر هذه، بصورة جميلة أخرى حيث تقول بأن الله هو الذى يُسَيِّرُكم فى الصحارى والبحار وعندما تركبون السفينة وتحرّركم الرياح الطيبة الهادئة إلى أهدافكم والجميع يغمرهم الفرح والسرور، وفجأة تهبّ الأعاصير ويهيج البحر وتأتى الأمواج من كلّ جهة فتهدد الراكبين فى السفينة حتّى يروا الموت بأعينهم وينتابهم اليأس من الحياة يتذكرون الله فيدعونه مخلصين ويعاهدونه على أن يكونوا شاكرين له إذا نجاهم من الهلاك (شكراً مصحوباً بالمعرفة):

«هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِن أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ».

ولكن هؤلاء عندما ينجّهم الله من الأخطار الموحشة ويوصلهم إلى ساحل الأمان

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٧٨

ينسون عهدهم مع الله فيشرعون مرّة أخرى بالظلم بدون حقّ فيسلكون طريق الشرك وهو من أعظم الظلم ويظلمون الذين تحت أيديهم مغرورين بالنعمة التى هم فيها: «فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ».

كما يلاحظ هذا المعنى فى آيتين اخريين، فى موضع تقول الآية:

«فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ».

(الزمر / ٤٩)

وفى موضع آخر تقول الآية: «وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّهِ مَسَّهُ».

(يونس / ١٢)

هذه الآيات الخمس مع أنها تقصد حقيقة واحدة، بيد أن كلّ آية تتمتع بخصوصية ولطافة ولحن خاص، فى بعضها ذكر لأنواع الأضرار والمشكلات والأذى التى تشمل أنواع الأمراض والبلاء والقحط والآفات والمشكلات.

وفى البعض الآخر إشارة إلى أخطار البحر فقط (من قبيل الأعاصير والأمواج ودوران المياه والحيوانات الخطرة الموجودة فى أعماقه والضلال عن الطريق وأمثالها).

وفى الأخرى تركيز على أخطار الأعاصير والأمواج.

وفى آية أخرى حديث عن عودة الإنسان للسير فى طريق الشرك.

وفى آية أخرى ذكر لطريق البغى والظلم الذى له مفهوم أوسع من الشرك.

وفى آية أخرى إشارة إلى أنهم يعتبرون المشاكل ناشئة من الله أما النعم فأنها منهم، ونقرأ فى آية، أنهم يشركون بأجمعهم، وتذكر آية أخرى فئة منهم، وذلك لاختلاف المجتمعات البشرية قسم من الفئة الأولى وبعضها قسم من الفئة الثانية.

وتقول آية أخرى: إنهم يعاهدون الله عند البلاء عهداً ينسونه عند استقرار الأوضاع وزوال البلاء، وفى آية أخرى يكون الحديث عن الدعاء والطلب من الله تعالى.

وتقول آية أخرى: إنهم إذا أصابهم شىء من الضرر (التعبير ب «مس» فيه إشارة إلى هذا المعنى)، ولكن فى آية أخرى أنهم عندما يتتابهم اليأس من الحياة يقبلون على الله، ولعلّ هذا

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٧٩

الاختلاف إشارة إلى مختلف أفراد البشر حيث يكون البعض من القسم الأول والبعض الآخر من القسم الثانى.

وقد ذكرت كلمة (الإخلاص) فى الكثير من الآيات، حيث تشير إلى رفض كلّ معبود سوى الله الواحد، وتدلّ على أنهم حين الدعاء

والراحة يعبدون الله أيضاً، ولكنهم يجعلون لله أنداداً سرعان ما ينسونهم عند ارتفاع الأمواج العاتية أو الأعاصير الموحشة، ويغمر نور التوحيد والوحدانية قلوبهم ويضىء وجودهم.

ورد في تفسير «روح البيان» بأن عبدة الأوثان وفي أثناء رحلاتهم البحرية (حيث كانت رحلاتهم محفوفة بالمخاطر، باعتبار أن السفر عن طريق البحر مملوء بالحوادث وفي ذلك الزمان أكثر خطراً بالنسبة لعصرنا الحاضر وذلك لافتقارهم للمعدات البحرية المتطورة). فكانوا يحملون معهم الأصنام، وعند هبوب الأعاصير العنيفة فأنهم كانوا يلقون أصنامهم في البحر ويستغيثون بأصوات عالية، يارب! يارب! (١).

والأعجب أنهم كانوا يسمعون من النبي صلى الله عليه وآله جميع الأدلة المنطقية الناصعة، لكنهم لم يؤمنوا، في حين كانوا يقبلون على الله بكل وجودهم عندما يتعرضون للبلاء الشديد، وهذا مما يشير إلى أن طريق الفطرة أسمح وأيسر للكثير من الناس من الطرق الأخرى.

والجدري بالذكر أن القرآن الكريم يحذر الذين يستجيبون لنداء الفطرة عند الشدة وينسونه عند الرخاء، ويلفت أنظارهم ببيان جميل بقوله: «أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً» (٢). هل هناك إلهان أحدهما للبحر والآخر للبر؟! أم أن الله قادر في البحر ولا قدرة له في البر؟! إن الله قادر على أن يأمر الأرض بأن تبتلع كل ما موجود عليها في لحظة واحدة وبواسطة زلزال واحد (٣).

(١) روح البيان، ج ٦، ص ٤٩٣.

(٢) الإسراء، ٦٨.

(٣) قبل عدة سنوات وقع زلزال في شمال أفريقيا وفيه ابتلعت الأرض قرية كاملة ولم يعثروا حتى على خرائبها!

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٨٠

وقد حدث مراراً أن تهب الأعاصير وتحمل الحصى والرمال إلى السماء وتلقيها في نقاط أخرى، وقد تطمر تحتها قافلة بأكملها. الله الذي يأمر الأمواج في البحار- إذن- قادر على أن يتخذ من الأعاصير والزلازل في الصحارى جنوداً يهلك بهم الفاسدين. ويتبع هذه الآية جواب آخر حيث يقول:

«أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا». (الإسراء / ٦٩) أى أنكم تظنون أن هذه هي رحلتكم البحرية الأخيرة؟ إنه خطأ كبير.

إقرار المشركين:

وتتضمن الآية الخامسة حتى التاسعة من آيات البحث حديثاً حول هذا المضمون:

«وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ».

وأيضاً: «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ».

وأيضاً: «قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْنَ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ».

ولو سألت عبدة الأوثان- عن خلق كل فرد من المخلوقات وكيفية تدبير أمورها فأنهم يقرون بأن الله وحده هو الخالق والمدبر!! إن هذه الآيات القرآنية وأمثالها (١) من الشواهد الحية على التوحيد الفطري، ومن الممكن أن تكون هذه الإجابة المتناسقة نتيجة

للاستدلال العقلي أيضاً وذلك عن طريق برهان النظم، ولكن بملاحظة أن المشركين العرب اناسٌ أميون ويعيدون عن العلم والفكر والاستدلال، فإن هذا التناقض في الإجابة يدل على أنها كانت تتبع من فطرتهم وهم في ذلك

(١) العنكبوت، ٦٣؛ لقمان، ٢٥؛ الزمر، ٣٨.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٨١

سواء وبدون استثناء، وإلا فإن الاستدلالات العقلية مهما كانت واضحة فإنها لا يمكن أن تكون شاملة وعامة إلى هذه الدرجة وخاصة بين جماعة بعيدة عن العلم والفكر.

من هنا فإننا نعتقد أن الآيات الخمس أو أمثالها تشكل أدلة على التوحيد الفطري.

ولذا يقول صاحب تفسير «روح البيان» في ذيل الآية ٩ من سورة الزخرف:

«وفي الآية إشارة إلى أن في جبله الإنسان معرفة لله مركوزة» (١).

وفي تفسير «الفخر الرازي» في ذيل الآية ٨٧ من سورة الزخرف عرض لهذا المضمون على صورة سؤال وجواب فيقول: «ظن قوم أن

هذه الآية وأمثالها في القرآن تدل على أن القوم مضطرون إلى الإعراف بوجود الإله للعالم، وقوم إبراهيم قالوا: «وَأَنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا

تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ». (إبراهيم / ٩)

فيقال لهم: لا- نسلم أن قوم فرعون كانوا منكرين لوجود الإله، والدليل على قولنا، قوله تعالى: «وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا

وَعُلُوًّا». (النمل / ١٤)

وجاء في قوله تعالى حيث قال موسى عليه السلام لفرعون: «لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رِبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ». (الاسراء /

١٠٢)

فالقراءة بفتح التاء في علمت تدل على أن فرعون كان عارفاً بالله، وأما قوم إبراهيم عليه السلام حيث قالوا: «وَأَنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا

إِلَيْهِ» فهو مصروف إلى إثبات القيامة وإثبات التكليف وإثبات النبوة» (٢).

وفي التعبير ب (لقد علمت) إشارة واضحة إلى هذا المعنى.

والطريف أن آيتين من هذه الآيات تذكيران في النهاية بعد أخذ الإقرار من الكفار والمشركين بأن الله هو الخالق للإنسان والأرض

والسماوات: «فَأَنِّي يُؤْفَكُونَ» (٣).

وبناء الجملة للمجهول إشارة إلى أن ذواتهم تسير في طريق الفطرة، غير أن أسباباً خارجية وهي (شياطين الجن والإنس)، وأسباباً

داخليه وهي (أهواء النفس والعصية

(١) تفسير روح البيان، ج ٨، ص ٣٥٣، ذيل الآية ٨٧ من سورة الزخرف إشارة إلى هذا المعنى أيضاً.

(٢) التفسير الكبير، ج ٨، ص ٣٩٩، ج ٢٧، ص ٢٣٣.

(٣) «تؤفكون» مشتق من «الإفك» ويعني الإرجاع والحرف ولذا يطلق «الإفك» على الكذب أيضاً كما تطلق «المؤتفكات» على الرياح

المعارضة.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٨٢

الجاهلية) تحرفهم عن الحق رغم تجذره في أعماق فطرتهم.

في حين جاء التعبير في موضع آخر ب «فَأَنِّي تُسْحَرُونَ» بصيغة المبني للمجهول، وهي عبارة تطلق على من يتبع أمراً دون إرادته.

ويوجد احتمال آخر في تفسير هذه الآيات وهو أنهم كانوا يقولون بأن رسول الإسلام صلى الله عليه وآله يريد أن يحرفنا عن طريق

الحقّ أو أنّه ساحر قد سحرنا، فردّ عليهم القرآن: مع أنّكم تُقرّون بأنّ الله هو خالق السماء والأرض والشمس والقمر والبشر، وهو المدبّر لهذا الكون فكيف يحرفكم أو يسحركم من يدعوكم إلى عبادته ونبذ عبادة غيره؟ أى عقل يحكم بهذا؟! إنّ الكثير من المفسّرين ومنهم (الطبرسى فى مجمع البيان والعلامة الطباطبائى فى الميزان والفخر الرازى فى التفسير الكبير والآلوسى فى روح المعانى والقرطبى فى تفسيره) اختاروا التفسير الأول ولو أنّ التفسير الثانى غير بعيد عن مفهوم الآية.

عهد عالم الذر:

الآية العاشرة والأخيرة فى هذا البحث تذكر تعبيراً آخر بصياغة جديدة حول التوحيد الفطرى ولا نظير لها فى الآيات القرآنية الأخرى، وبسبب المحتوى المعقّد لهذه الآية دارت حولها أحاديث مطوّلة بين العلماء والمفسّرين والمتكلّمين وأرباب الحديث، نورد- بصورة إجمالية- آراءهم المختلفة ثمّ رأينا المختار بعد الفراغ من تفسيرها.

تقول الآية الكريمة: «وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ» فقالوا جميعاً: «بلى شهدنا» وتضيف الآية بأنّ الله تعالى فعل ذلك لئلا يقولوا يوم القيامة إنّنا غفلنا عن هذا الأمر (وهو التوحيد ومعرفة الله): «أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ» أو تشبثوا بحجّة (التقليد) بدلاً عن حجّة (الغفلة) وتقولوا: «إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ» (الأعراف / ١٧٣)

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٨٣

هذه الآيات تكشف عن حقائق بصورة إجمالية، منها:

١- أنّ الله تعالى أظهر جميع ذرّيّة آدم إلى يوم القيامة فى مرحلة واحدة من الخلق.

٢- أنّ الله سبحانه أشهدهم على أنفسهم وأخذ الإقرار منهم بربوبيته.

٣- الهدف من أخذ الإقرار والإعتراف والشهادة لأمرين:

أولاً: عدم السماح للمشركين لادّعاء الغفلة والجهل عن حقيقة التوحيد ووحدانية الله يوم القيامة.

وثانياً: منعهم من اتّخاذ التقليد لآبائهم ذريعة لارتكاب المعاصى.

وأهمّ سؤال يطرح هنا هو: متى وقع هذا (الظهور)؟ وبأية صورة تمّ ذلك؟ وما المراد من (عالم الذر)؟ وكيف تحقّق هذا الأمر؟

للإجابة عن هذا السؤال هناك ستّة آراء على الأقل، وقد أيد كل واحد منها جماعة من المفكرين الإسلاميين:

١- طريق المحدثين وأهل الظاهر، حيث يقولون: إنّ المراد هو ما ورد فى بعض الأحاديث من أنّ ذرّيّة آدم بأجمعهم قد خرجوا من

ظهره على شكل ذرّات دقيقة وملأت الفضاء وكانت تتمتع بالعقل والإحساس والقدرة على النطق، فخاطبهم الله عزّوجلّ وسألهم:

(ألسنتم برّبكم؟) فقالوا جميعاً: (بلى)؛ وبذلك أخذ العهد الأوّل على التوحيد، وكان بنو الإنسان بأنفسهم شاهدين على ذلك «١».

٢- المراد من عالم الذرّ وتفسير الآية أعلاه هو الذرّات الأولى لوجود الإنسان، أى النطفة التى انتقلت من ظهور الآباء إلى أرحام

الأمّهات وتبدّلت فى المراحل الجنينية إلى صورة إنسان كامل تدريجياً، وقد أعطاه الله عزّوجلّ فى ذلك الحال القوى والقابليات

المختلفة كى تدرك حقيقة التوحيد ومنهاج الحقّ، وقد جعل هذه الفطرة التوحيدية ملتحمه بوجوده.

(١) يقول العلامة المجلسى رحمه الله فى شرح أصول الكافى (مرآة العقول، ج ٧، ص ٣٨) عن هذه الحقيقة: (طريقة المحدثين

والمؤرّعين فإنهم يقولون تؤمن بظاهرها ولا نخوض فيها، ولا نطرق فيها التوجيه والتأويل)؛ والفخر الرازى ينسب ذلك إلى المفسّرين

والمحدّثين تفسير الكبير، ج ١٥، ص ٤٦.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٨٤

يذهب إلى هذا التفسير جمع من المفسرين كصاحب تفسير (المنار) و (في ظلال القرآن) ونقلوا ذلك عن الكثير من المفسرين «١». وبهذا يكون (عالم الذرّ) هو عالم الجنين ويكون السؤال والجواب بلسان الحال لا القول؛ ولهذا الأمر شواهد ونظائر كثيرة وردت في كلمات العرب وغيرهم؛ كما نقل السيّد المرتضى في كلامه عن بعض الحكماء حيث يقول: «سَلَّ الأَرْضُ مِنْ شَقِّ أَنْهَارِكِ وَغَرَسَ أَشْجَارِكِ وَجَنَى ثَمَارِكِ؟ فَإِنَّ لَمْ تُجِبِكِ حَوَاراً أَجَابَتِكَ عَتَبَاراً».

هذا القول يشابه ما ذكره جمع من المفسرين حول الحمد والتسبيح اللذين يعمّان موجودات العالم حتّى الجمادات أيضاً. ٣- المراد من (عالم الذرّ) هو (عالم الأرواح) ويعنى ذلك أنّ الله عزّوجلّ خلق في البداية أرواح البشر قبل أجسادهم، وخاطبها وأخذ الإقرار منها على وحدانيته.

وقد استخلص هذا التفسير من بعض الروايات كما سنشير إليه.

والجدير ذكره أنّ كلمة (ذريّة) في آية البحث مشتقّة من (ذرّ) وهى تعنى ذرّات الغبار الدقيقة، أو النمل الدقيق أو أجزاء النطفة أو من (ذرو) ويعنى التفريق أو من (ذرة) ويعنى الخلق.

بناءً على ذلك لا نسلم بأنّ الأصل في (ذريّة) هو (ذرّ) بمعنى الأجزاء الدقيقة (فتأمل جيّداً).

٤- إنّ هذا السؤال والجواب وقع بين جمع من البشر وبين الله عزّوجلّ بواسطة الأنبياء ولسان القول حيث استمع جمع من البشر إلى أدلّة التوحيد- بعد ولادتهم وإكمال عقولهم- من الأنبياء واستجابوا لها وقالوا (بلى).

فإن قيل إنّ (ذريّة) مشتقّة من (ذرّ) وتعنى الاجسام الصغيرة جدّاً فلا تنجسم مع هذا المعنى فيردّ أصحاب هذا القول: بأنّ أحد المعانى المعروفة ل (ذريّة) هو الأبناء- صغاراً وكباراً- وأنّ إطلاق (ذريّة) على العقلاء والبالغين في القرآن الكريم ليس بالقليل.

(١) تفسير المنار، ج ٩، ص ٣٨٧ (تعبيره ينسجم مع القول الخامس)؛ تفسير في ظلال القرآن، ج ٣، ص ٦٧١.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٨٥

وقد ذكر السيّد المرتضى رحمه الله هذا التفسير- فى بعض كلماته- على شكل احتمال فى إيضاح الآية المذكورة، كما أنّ أبا الفتوح الرازى قد أورد هذا التفسير كاحتمال فى تفسيره إضافةً إلى وجود إشارة إلى ذلك فى تفسير الفخر الرازى فى ذيل الآية «١».

٥- أنّ هذا السؤال والجواب هو مع البشر بأجمعهم بلسان الحال وذلك بعد البلوغ والكمال والعقل، فكلّ إنسان يقرّ بعد اكتمال عقله ومشاهدته لآيات الله فى الآفاق والأنفس بوحدانية الله بلسان حاله، وكأنّ الله عزّوجلّ يسألهم بإرائه هذه الآيات: «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟»

فيجيبون بلسان الحال: «بلى»، وأمّا الحديث بلسان القول فإنّ له شواهد ونظائر كثيرة.

وهذا التفسير ينقله الشيخ الطوسى رحمه الله فى التبيان عن البلخى والرمانى «٢».

٦- وهو التفسير الذى اختاره العلامة الطباطبائى رحمه الله فى «الميزان»: بعد أن ذهب إلى استحالة أن يكون للبشر وجود مستقل سابقاً مقروناً بالحياة والعقل والشعور وقد أخذ الله منهم العهد على وحدانيته ثمّ أعادهم إلى حالتهم السابقة كى يجتازوا مسيرتهم الطبيعية، وبذلك يأتون إلى الدنيا مرّتين فقال:

وأثبت بقوله: «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ. (يس / ٨٢-٨٣)

وقوله: «وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمَحٍ بِالْبَصْرِ». (القمر / ٥٠)

إنّ هذا الوجود التدريجى للأشياء ومنها الإنسان هو أمر من الله يفيضه على الشىء ويلقيه إليه بكلمة (كن) إفاضةً دفعيةً والقاء غير تدريجى، فوجود هذه الأشياء وجهان، وجه إلى الدنيا وحكمه أن يحصل بالخروج من القوّة إلى الفعل تدريجاً، ومن العدم إلى

الوجود شيئاً فشيئاً ويظهر ناقصاً ثم لا- يزال يتكامل حتى يفنى ويرجع إلى ربه، ووجه إلى الله سبحانه وهو بحسب هذا الوجه امور تدريجية وكل ما لها فهو لها في أول وجودها من غير أن تحتمل قوة تسوقها إلى الفعل ... وبعبارة اخرى: أن الموجودات لها نوعان من

(١) تفسير روح الجنان، ج ٥، ص ٣٢٦.

(٢) تفسير التبيان، ج ٥، ص ٢٧ (وفي تفسير المنارج ج ٩، ص ٣٨٦ تعبير يقرب من هذا المعنى).

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٨٦

الوجود، الأول: الوجود الجمعي عند الله تعالى والذي يعبر عنه القرآن الكريم بالملكوت، والآخر: الوجودات المتناثرة التي تظهر تدريجياً بمرور الزمان.

وبهذا تكون حياة الإنسان في الدنيا مسبقة بحياة إنسانية اخرى لا يكون فيها أحد محجوباً عن الله تعالى، وقد شاهدته هناك كل موجود بالشهود الباطني وأقر بربوبيته.

ثم يضيف رحمه الله: لو دققنا في الآيات الآنفه الذكر لرأينا أنها تشير إلى هذا المعنى.

بعد ائضاح التفاسير الستة بصورة إجمالية نشرع بدراستها ونقدها:

القول الأول هو أضعف الأقوال لدى الكثير من المحققين، ووجهوا إليه أغلب الإشكالات، حيث أشكل عليه الطبرسي في «مجمع البيان» والسيد المرتضى - كما نقله العلامة المجلسي رحمه الله في مرآة العقول - كما أن الفخر الرازي أورد ١٢ إشكالاً على هذا القول!

غير أن بعضها ليس جديراً بالاهتمام وبعضها مكرر أو قابل للإندماج مع غيره، وبصورة عامة تتوجه خمسة إشكالات إلى هذا القول: (أ) إن هذا التفسير لا ينسجم مع كلمة (بنى آدم) أبداً، وكذلك مع ضمائر الجمع في الآية، وكلها تتحدث عن بنى آدم لا آدم نفسه، كما لا يتطابق مع لفظه «ظهور» جمع «ظهر»، والخلاصة هي أن الآية تقول: إن «الذرية» ظهرت من ظهور «بنى آدم» لا من ظهر «آدم»، في حين أن الروايات تدور حول نفس آدم.

(ب) لو صح أخذ مثل هذا العهد الصريح في عالم سابق لهذا العالم فكيف يعقل نسيان ذلك من قبل البشر بأجمعهم؟! وهذا النسيان العام دليل على استبعاد هذا التفسير، لأنّ الاستفادة من الآيات القرآنية هو أن البشر لا ينسون حوادث الدنيا حين تقوم الساعة ولهم حوار بشأنها غالباً، فهل الفاصل الزمني بين عالم الدرّ والدنيا هو أكثر من الفترة بين الدنيا والآخرة؟

(ج) لو سلمنا - فرضاً - بأنّ هذا النسيان العام يمكن تبريره بالنسبة لعالم الدرّ، ولكن النتيجة هي عليه هذا العهد، لأنه يكون مؤثراً حينما يتذكره الناس، أما ما ينساه كافة البشر

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٨٧

فانه يفقد تأثيره التربوي ولا ينفع في إلقاء الحجة وسدّ باب الاعذار.

(د) استفاد من قوله تعالى: «رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَخِيَّتْنَا اثْنَتَيْنِ». (المؤمنون/ ١١)

إنّ للبشر موتتين وحياتين (حيث كانوا موجودات ميتة فأحييت ثم يموتون ثم يحيون يوم القيامة) في حين يكون لهم - وفق هذا التفسير - أكثر من موتتين وحياتين: (موت وحياء في عالم الدرّ وموتان وحياتان آخران).

(ه) يستلزم هذا التفسير (التناسخ)، لأننا نعلم بأنّ التناسخ ليس إلّاحلول روح واحدة في جسمين أو أكثر، وطبقاً لهذا التفسير فإنّ الروح الاولى تعلقت أولاً بالذرات الدقيقة جداً والتي خرجت من ظهر آدم ثم خرجت لتتعلق بالأجسام الحاضرة، وهذا هو عين التناسخ.

وبطلان التناسخ هو من المسلّمات في الدين، ولذا فإنّ الشيخ المفيد رحمه الله في كتابه «جواب المسائل السروية» عندما يذكر التفسير أعلاه مقروناً ببعض الروايات يضيف: «هذه أخبار القائلين بالتناسخ وفيه جمعوا بين الحقّ والباطل» (١).

وقد ورد هذا الكلام بنفسه في كلام شيخ المفسرين الطبرسي رحمه الله (٢).

وسنلاحظ بإذن الله لدى مطالعة أخبار عالم الذرّ أنّ الأخبار الدالّة على هذا التفسير معارضةً بأخبار أخرى. وأمّا القول الثاني الذي يتحدّث عن خلق فطرة التوحيد والقابلية الخاصّة لمعرفة الله في عالم الرحم فإنّه أقلّ الأقوال إشكالاً، والإشكال الوحيد الذي أورده عليه هو أنّ ظاهر الآية المبحوث عنها هو أنّ السؤال والجواب جاء بلسان القال لا الحال، وهو ضرب من التشبيه والمجاز، مضافاً إلى أنّ جملة (أخذ) دليل على أنّ هذا الأمر قد أخذ في الماضي، في حين

(١) مرآة العقول، ج ٧، ص ٤١.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٤٩٧.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٨٨

أنّ فطرة التوحيد للأجنّة هي أمر مستمرّ ويتحقّق في كلّ زمان، والإشكالات يمكن الإجابة عليهما وذلك لعدم مانعية حمل هذا الكلام على لسان الحال مع القرينة، وقد كثر ذلك في اللغة العربية نثراً وشعراً و...، والإشكالات المهمّة التي ترد على التفسير الأوّل قرينة واضحة على هذا التفسير، والفعل الماضي قد يستعمل في الاستمرار أيضاً، وهذا - طبعاً - يحتاج إلى قرينة أيضاً، وهذه القرينة موجودة في موضوع البحث «١».

أمّا التفسير الثالث القائل بأنّ المراد هو: سؤال الأرواح فإنّه لا ينسجم مع آية البحث أبداً، لأنّ الآية تتحدّث عن أخذ الذريّة من ظهور بنى آدم ولا يرتبط هذا بقضية الأرواح.

وأمّا التفسير الرابع القائل بأنّ السؤال والجواب كان بهذا اللسان الطبيعي ويرتبط بمجموعة من البشر قد سئلوا بعد إبلاغهم بواسطة الأنبياء عن مسألة التوحيد وأجابوا بالإيجاب عليه، فإنّ عليه إشكالات رئيسية منها:

إنّ الآية تتحدّث عن جميع البشر لا مجموعة صغيرة منهم آمنوا بالأنبياء أوّلًا ثمّ كفروا، مضافاً إلى أنّ ظاهر الآية هو كون السؤال من قبل الله لا من قبل الأنبياء.

ولا يصحّ ما يظنّه البعض من أنّ جملة: «إنّما أشرك آباؤنا من قبل» دليل على أنّ الآية تقصد المجموعة التي أشرك آباؤها، لأنّ الآية تذكر عذرين غير موجّهين للكفّار، الأوّل هو الغفلة والثاني التقليد للآباء المشركين.

ويمكن أن يكون كلّ عذر لمجموعة خاصّة وأنهما معطوفان بكلمة (أو).

وأمّا التفسير الخامس فإنّه يشابه التفسير الثاني من جهات مع وجود فارق وهو: أنّ التفسير الثاني يتحدّث عن الفطرة القلبية، بينما يتحدّث التفسير الخامس عن فطرة العقل وكما أسلفنا فإنّ هذا التفسير قد مال إليه كثير من المفسرين الأعلام.

وأمّا التفسير السادس الذي ورد في «تفسير الميزان» فإنّه يواجه إشكالتين كبيرتين:

الأوّل: هو إثبات عالمين (عالم جمعي وعالم تفصيلي) ولا دليل واضح لهما حسب ما ورد من البيان.

(١) شوهدت هذه العبارة كثيراً في الآيات القرآنية: فاطر، ٤٤؛ الشورى، ٥١؛ الفتح، ١١؛ الفتح، ١٩.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٨٩

والثاني: أنّ تطبيق الآية على هذا العالم (بافتراض ثبوته) يبدو بعيداً جداً ولا يسلم أصل القضية وفرعها من الإيراد.

حصيلة البحث عن عالم الذرّ:

نصل ممّا ذكر إلى هذه النتيجة وهي: أنّ التفسير الثاني والخامس - بعد الدراسة الدقيقة - هما أقلّ التفاسير إشكالاً، وأمّا الإشكالات الواردة

فى أنه يخالف الظاهر فى بعض الجهات فإنه يمكن التغاضى عنه مع توفر القرينة والنظائر الكثيرة لذلك فى اللغة العربية وغيرها، ولذا فإن الكثير من المفسرين المشهورين وعلماء العقائد والكلام قد اختاروهما، كما تتضمن الروايات إشارات واضحة إلى هذا المضمون وسيأتى ذلك فى البحث المقبل بإذن الله.

وباختصار: إن أغلب المحققين يعتقدون بأن هذا السؤال والجواب الإلهى قد تم مع جميع البشر ولسان الحال لا القال، أو عن طريق الإستعداد الفطرى المودع فى الجنين أو عن طريق الإستعداد العقلى الذى أوجده فىهم بعد البلوغ والكمال العقلى، أحدهما يتحدث عن الفطرة القلبية (دون الحاجة إلى استدلال) والثانى يتحدث عن الفطرة العقلية التى تعتبر معرفة الله من البديهيات العقلية، حيث إن دلائله من الوضوح ما يجعل كافة البشر يدركون ذلك، صحيح أن مجموعته من البشر ينكرون ذلك بلسان القال ويؤيدون المادية، ولكننا حينما نحلل كلامهم نراهم يجعلون للمادة والطبيعة نوعاً من العقل والإحساس، وبعبارة أخرى أنهم أطلقوا كلمة (الطبيعة) على (الله)، ونعتقد أن الإشارة إلى الفطرة القلبية هى الأنسب (فتأمل جيداً).

توضيحات

١- (عالم الذر) فى الروايات الإسلامية

إن المصادر الإسلامية (السيئة والشيعة) تتضمن روايات جمّة عن (عالم الذر) تبدو

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٩٠

وكأنها روايات متواترة، فمثلاً يتضمن تفسير نور الثقلين ٣٠ رواية، وتفسير البرهان ٣٧ رواية ولعلها تتجاوز الأربعين فى مجموعها (مع حذف المكررات)، كما يتضمن تفسير (الذرّ المنشور) روايات عديدة، مما يشير إلى أن مضامين الروايات لا تنحصر فى مذهب إسلامى خاص.

غير أن كثيراً منها منقوله عن راو واحد ولذا يشملها حكم الخبر الواحد (يلاحظ أن كثيراً منها مروى عن زرارة، وعدداً منها عن أبى بصير، وبعضاً منها عن جابر، كما تلاحظ روايات عن عبدالله بن سنان وصالح بن سهل) وبهذا فإن العدد الحقيقى للروايات ينخفض بشكل ملحوظ.

هذا وإن مضامين هذه الروايات متباينة تماماً فبعضها يتفق مع التفسير الثانى القائل بأن هذا العهد عهد فطرى ويرجع إلى إيداع المعرفة الفطرية فى الإنسان نظير الرواية التى ينقلها عبدالله بن سنان عن الإمام الصادق عليه السلام: «قال: سألته عن قول الله عزّوجلّ «فطرة الله التى فطر الناس عليها» ما تلك الفطرة؟» قال: هى الإسلام، فطرهم الله حين أخذ ميثاقهم على التوحيد، قال «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ» وفيه المؤمن والكافر» (١).

وكما تلاحظ فإن الحديث يتضمن بياناً عن الإرتباط الوثيق بين آية (الفطرة) وآية (عالم الذرّ)، وقد روى زرارة هذا المعنى بعبارة أخرى عن الإمام الصادق عليه السلام، فإنه عندما سأل الإمام عليه السلام عن تفسير الآية «وإذ أخذ ربك...» أجابه عليه السلام: «ثبتت المعرفة فى قلوبهم ونسوا الموقف، ويذكرونه يوماً، ولولا ذلك لم يدر أحد من خلقه ومن رازقه؟» (٢).

فى حين أن بعضاً آخر من الروايات يتفق مع التفسير الأول حيث تذكر أن ذرية آدم خرجوا من ظهره على صورة ذرات، وقد أخذ الله هذا العهد منهم بلسان القال، كالروايات التى وردت فى تفسير البرهان المرقمة ب ٣، ٤، ٨، ١١، ٢٩ (وقد روى زرارة هذه الروايات عن الإمام الباقر عليه السلام وهى - فى الحقيقة - رواية واحدة).

(١) تفسير البرهان، ج ٢، ص ٤٧، ح ٧؛ و تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٩٥، ح ٣٤٥.

(٢) تفسير البرهان، ج ٢، ص ٤٨، ح ١٥.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٩١

وقد ورد هذا المعنى في تفسير الدر المنثور عن ابن عباس بطرق متعدّدة ولكن يطول ذكرها وهي ذات مضمون واحد في الحقيقة وتتلخص في حديث واحد عن ابن عباس وليس عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، وفي كتب أخرى نقل هذا المعنى بطرق أخرى.

والإشكال المهم الذي يرد على هذه الأحاديث هو أنّها مخالفة لظاهر وصريح كتاب الله لأنها تقول بأجمعها: أنّ ذرية آدم خرجت من ظهر آدم على صورة ذرات، في حين يقول القرآن الكريم بأنّ الذرات هذه خرجت من ظهور بني آدم: «مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ».

وإضافة إلى ذلك فإنّ ثمة إشكالات عديدة أخرى ترد على مضامين هذه الأحاديث تمّت الإشارة إليها وتجعلها في المجموع في عداد الأحاديث الضعيفة.

والمجموعة الثالثة من الأحاديث مبهمّة وتلائم التفاسير المختلفة، مثل الحديث الذي يرويه أبو بصير عن الإمام الصادق عليه السلام حيث سأله: كيف أجابوا وهم ذرّ؟! فقال عليه السلام: «جعل الله فيهم ما إذا سألتهم أجابوه، يعني في الميثاق» (١).

وهناك مجموعة رابعة من الأحاديث تقول بأنّ هذا السؤال والجواب قد جرى مع أرواح البشر، وهذا يوافق التفسير الثالث فقط، كرواية المفصل بن عمر عن الإمام الصادق عليه السلام حيث قال: «قال الله عزّوجلّ لجمع أرواح (بني آدم) ألسنت برّبكم؟ قالوا: بلى» (٢).

كما يستفاد من مجموعة روائية خامسة أنّ الله سبحانه أوقف الأرواح البشرية في ذلك اليوم على نفس الهيئة التي تخلق عليها وأخذ منها العهد (٣).

بناءً على ما ذكر وبملاحظة التعارض بين هذه الروايات وضعف السند في كثير منها، لا يمكن الإعتماد عليها كمستمسك معتبر أبداً، والأفضل كما يقول العلماء العظام هو أن نترك

(١) تفسير البرهان، ج ٢، ص ٤٩، ح ٢٢.

(٢) المصدر السابق، ح ٢٠.

(٣) تفسير در المنثور، ج ٣، ص ١٤٢.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٩٢

في مثل هذه الموارد الحكم بشأنها وندع العلم بها إلى أهلها (١).

نقى والآية أعلاه وما يستفاد منها بمعونة القرائن المختلفة، وكما أشرنا فإنّ التفسير الثاني - كما يبدو - هو الأنسب من بين التفاسير الستة المذكورة للآية، وهو التفسير الذي يعتبر عالم الذرّ منسجماً مع فطرة المعرفة الإلهية والإسلام، وعليه فإنّ ذرات النطفة منذ خروجها من ظهور الآباء واستقرارها في أرحام الأمهات تكون قد استقرت فيها نور المعرفة والتوحيد والقانون الإلهي على صورة قابلية ذاتية.

٢- فطرة العقل أم القلب؟

الحصيلة من كلمات العلماء في بحث فطرية المعرفة الإلهية هي أنّهم سلكوا طريقين، فبعض اعتبر الفطرة هنا بمعنى الاستدلال العقلي

الواضح، وهو أن كل إنسان بعد اكتمال عقله وملاحظته لنظام عالم الوجود وبعض الأسرار في الخلق ينتقل إلى هذه الحقيقة فوراً وهي استحالة نشوء هذا النظام البديع ذي الأسرار العجيبة من مبدأ فاقد للعقل والإحساس، وعليه فإن الفطرة تعني: (العقل الفطري) الذي يكفيه استدلال واضح للوصول إلى الحقيقة ولا يحتاج إلى استاذ أو معلم، كما يحكم الإنسان بأن (الكل أكبر من الجزء) حيث أدركه باستدلال عقلي واضح وهكذا عندما يقول بأن (المساويين لشيء متساويان).

من هنا نلاحظ أن علماء المنطق يقسمون بديهيات المنطق إلى ستة أقسام:
الأوليات، المشاهدات، التجريبات، المتواترات، الحدسيات، الفطريات، وقالوا في تعريف (الفطريات): بأنها القضايا التي لا يصدق بها العقل بمجرد تصوّرها بل يحتاج إلى حدّ أوسط وهو حاضر لدى الذهن دائماً، وللفطرة معنى آخر وهو أصحّ وأفضل في البحوث

(١) للمزيد من المعلومات عن الروايات المرتبطة بعالم الذرّ يمكن مراجعة الكتب الخمسة الآتية: بحار الأنوار، ج ٣، ص ٢٧٧؛ مرآة العقول، ج ٧، ص ٣٦؛ تفسير البرهان، ج ٢، ص ٤٦؛ تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٩٣؛ وتفسير درّ المنثور، ج ٣، ص ١٤١، وما بعدها.
نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٩٣

المعنية وهو: إدراك الحقائق من دون الحاجة إلى أي استدلال (معقد أو بسيط) ويفهمها بوضوح ويتقبلها، فهو حينما يشاهد - مثلاً - باقة من الورد الجميل ذات عطر زكيّ يقرّ بجمالها، دونما حاجة إلى إقامة الدليل أبداً، ويقول بأنها جميلة حقاً ولا تحتاج إلى دليل. والفهم الفطري في مجال المعرفة الإلهية من هذا القبيل، فالإنسان حينما يتدبّر من أعماق روحه يبصر نور الحقّ ويسمع نداءه بقلبه، يدعوه إلى مبدأ العلم والقدرة التي لا مثيل لها في عالم الوجود، مبدأ الكمال المطلق ومطلق الكمال، وهو في الفهم الوجداني - كما في جمال الورد - لا يشعر بحاجة إلى إقامة الدليل.

٣- شواهد حيّة على فطرية الإيمان بالله

إشارة

ربّما يقال بأن هذه كلّها ادّعاءات ولا سبيل لإثبات مثل هذه الفطرة في المعرفة الإلهية، فمن الممكن أن ادّعى بأنّي أشعر بهذا الإحساس في قلبي أي من أعماق روحي، ولكن كيف أقنع شخصاً يرفض هذا الكلام؟ لدينا شواهد كثيرة بإمكانها إثبات فطرية المعرفة الإلهية بشكل واضح جداً، بنحو يفهم المنكرين، ويمكن تلخيصها في أقسام خمسة:

(أ) الحقائق التاريخية

إنّ الحقائق التاريخية التي تمت دراستها من قبل أقدم المؤرخين في العالم تدلّ على عدم وجود دين لدى الأقسام السابقة، بل كان كلّ قوم يؤمنون بمبدأ العلم والقدرة في عالم الوجود ويعبدونه، ولو سلّمنا بوجود حالات نادرة في هذا الأمر، فإنّ هذه القضية لا تضرّ بالأصل العام الذي يحكم بأنّ المجتمعات البشرية كلّها كانت دائماً على طريق عبادة الله (كل قاعدة كليّة لها استثناءات نادرة).

المؤرخ الغربي الشهير (ويل ديورانت) في كتابه (قصة الحضارة) يُقرّ بهذه الحقيقة بعد الإشارة إلى بعض الموارد في الإلحاد الديني ويقول: «إلى جانب هذه القضايا التي ذكرناها فإنّ الإلحاد الديني من الحالات النادرة، وهذا الاعتقاد القديم بأنّ التدين حالة بشرية عامّة يتطابق مع الحقيقة...».

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٩٤

«تعتبر هذه القضية من القضايا التاريخية والنفسية الأساسية لدى الفيلسوف، فهو لا يقول بأنّ الأديان مملوءة باللغو والباطل بل يلتفت

إلى هذه الحقيقة وهي أن الدين كان مع التاريخ منذ أقدم العصور» (١).

ويقول في تعبير آخر بهذا الشأن: «أين تكمن التقوى التي لا تفارق قلب الإنسان أبداً؟» (٢).

كما يقول في كتابه (دروس التاريخ) وبتعبير ساخط ومتألم: «للدين مائة روح، كلما تقتله فإنه يسترجع الحياة مرة أخرى!» (٣). ولو كان الإيمان بالله والدين ناشئاً عن تقليد أو تلقين أو دعاية من قبل الآخرين لما كان عاماً وشاملاً بهذا الحجم ولما استمر طيلة التاريخ، وهذا أفضل دليل على أنه أمر فطري.

ب) الآثار التاريخية

إن الآثار المتبقية من عصور ما قبل التاريخ (أى ما قبل اختراع الخطّ وكتابة أحوال الإنسان) تدلّ على أن البشر ما قبل التاريخ كانوا يعتقدون بالدين ويؤمنون بالله والمعاد والحياة بعد الموت، بدليل أنهم كانوا يدفنون الأشياء التي يحبونها معهم كي يستفيدوا منها بعد الموت! كما أن تحنيط أجساد الأموات حفظاً لها من الإندثار، وبناء المقابر نظير (أهرام مصر) لتبقى أزماناً متمادية دليل على إيمان الأسلاف بالمبدأ والمعاد.

صحيح أن هذه الأعمال تدلّ على اقتران إيمانهم الديني بخرافات كثيرة إلا أنها دليل على أن الإيمان الديني في مراحل ما قبل التاريخ لا يمكن إنكاره.

ج) الدراسات النفسية واكتشافات علماء النفس

إن الأبعاد الروحية للإنسان وميوله الأساسية هي أيضاً دليل واضح على فطرية العقائد

(١) قصة الحضارة، ويل ديورانت، ج ١، ص ٨٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٨٩.

(٣) الفطرة للشهيد المطهري، ص ١٥٣.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٩٥

الدينية، وهي أربعة ميولات سامية وأصيلة عبر عنها بعض علماء النفس بأنها الأبعاد الأربعة لروح الإنسان وتشمل: (١- حبّ العلم، ٢- حبّ الجمال، ٣- حبّ الخير، ٤- حبّ الدين) وتمثّل شاهداً حياً على هذا الأمر «١».

وقد اعتبرها بعض العلماء خمسة أبعاد هي: (١- مقولة البحث عن الحقيقة، ٢- مقولة الخير الأخلاقية، ٣- مقولة الجمال، ٤- مقولة الإبداع، ٥- مقولة العشق والعبادة) «٢».

ويبدو أن مقولة الإبداع لا تنفك عن مقولة البحث عن الحقيقة.

على أية حال فإن حبّ العلم يوجد في الإنسان ميلاً شديداً نحو العلم وفهم أسرار عالم الوجود، وهذا الإحساس يشمل الامور المؤثرة وغيرها في حياته.

ونريد أن نعلم كيف كانت الدنيا قبل مليار عام وكيف ستكون بعد مليار عام؟ دون أن تكون لهذه الامور في فهمها على الحياة الفردية والاجتماعية تأثيرات عملية، فهذا الحسّ هو السبب في ظهور العلوم والمعارف.

إنّ الجمال الذي يشعر به كلّ إنسان في أعماقه هو الذي يدفعه إلى الإبداع وهو المصدر الأساس لكلّ الفنون.

وإنّ حبّ الخير هو السبب في ظهور الأخلاق والالتزام في الإنسان تجاه المبادئ من قبيل العدل، الحرية، الصدق، وأمثالها، ومن الممكن أن لا يلتزم كثير بهذه المبادئ عملياً غير أنه لا ريب في ارتياح قلوبهم لها.

البعد الرابع لروح الإنسان والمعبر عنه أحياناً بالميل نحو الكمال المطلق أو البعد المقدس والإلهي هو الذي يدفع الإنسان نحو الدين، وهو يؤمن بوجود ذلك المبدى العظيم بدون حاجة إلى دليل خاص، ويمكن أن يقترن هذا الإيمان الديني بألوان من الخرافات وينتهي بعبارة الأصنام والشمس والقمر، غير أن بحثنا يدور حول الأساس فيه.

(١) راجع مقالة (كونتائم) في كتاب (الحسّ الديني أو البعد الرابع لروح الإنسان).

(٢) الفطرة، للشهيد المطهري، ص ٦٤.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٩٦

(د) فشل الدعاية ضدّ الدين

نحن نعلم بأنّ دعايات شديدة لا-مثيل لها من حيث السعة شُنت ضدّ الدين في القرون الأخيرة وخاصية في الغرب بالاستفادة من الأساليب والوسائل المختلفة.

وكانت بداياتها في مرحلة النهضة العلمية في اوربا (رنسانس) وفيها تحرّرت المحافل العلمية والسياسية من ضغوط الكنيسة وطغى التيار المعارض للدين (كان الدين المسيحي هو السائد وقتئذ في اوربا) إلى درجة تُطرح فيها الأفكار الملحده في كلّ مكان واستغلّوا مكانة الفلاسفة وعلماء العلوم الطبيعية بشكل خاصّ لرفض الاسس الدينية كلّها حتّى فقدت الكنيسة مكانتها المرموقة، وانعزل رجال الدين في اوربا وأصبح الإيمان بوجود الله والمعجزات والمعاد والكتب السماوية في عداد الخرافات.

وغدا من المسلّمات لدى كثير منهم أنّ البشرية مرّت بمراحل أربع هي: (مرحلة الأساطير، مرحلة الدين، مرحلة الفلسفة، ومرحلة العلم) وحسب هذا التقسيم يكون الدين قد انقرض في مرحلة سابقة!

والعجيب أنّ كتب علم الاجتماع الحديثه التي تمثّل الصورة المتكامله لعلم الاجتماع السائد آنذاك تفترض هذه القضية من المسلّمات، وهي أنّ الدين يمثل عاملاً طبيعياً يتردّد بين الجهل والخوف والمتطلّبات الاجتماعية والامور الاقتصادية، فهناك اختلاف بصدها!

صحيح أنّ السلطه الدينيه الحاكمه (أى الكنيسة) في القرون الوسطى هي التي يجب أن تدفع الثمن بسبب استبدادها وظلمها وتعاملها السيّ مع الناس بصورة عامية وعلماء الطبيعة بصورة خاصية، إضافة إلى اهتمام الكنيسة بالشكليات والمظاهر وبالامور التي لا تستحقّ الإهتمام ونسيان المحرومين من طبقات المجتمع، لكن العيب في هذا الأمر هو أنّ الكلام لم يكن عن البابا والكنيسة فحسب بل عن المذاهب في العالم كلّها.

وقد دخل (الشيوعيون) كغيرهم الميدان ليقضوا على الدين بكلّ ما يمتلكون من قوّة، وسخّروا جميع الأجهزة الإعلامية وأفكار فلاسفتهم من أجل ذلك وسعّوا سعيهم لإظهار الدين وكأنّه أفيون الشعوب!

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٩٧

بيد أنّا نشهد أنّ هذه التيارات العاتية ضدّ الدين لم توفّق لاجتثاث الجذور الدينيه المغروسة في القلوب والقضاء على النشاط الديني، وها نحن اليوم نرى بأمّ أعيننا انتشار الوعي الديني بشكل واسع من جديد حتّى في البلدان الشيوعية، والأخبار التي تتناقلها وسائل الإعلام تحكى عن الرعب المتزايد الذي يعيشه الحكّام في هذه المناطق إزاء الميول الدينيه وخاصه الإسلاميه، كما نلاحظ في الأقطار الشيوعيه- التي تبذل محاولات يائسه وفاشله للقضاء على الدين- ظهور حركات تطالب بانتشار الدين.

هذه الحقائق تدلّ بصورة واضحه على تجدّر الدين في أعماق (الفطرة) البشرية، وبذلك استطاع أن يواجه التيارات الإعلامية المعارضة العاتية ولولاها لانقرض تماماً.

هـ) التجارب الشخصية في الأزمات

إنَّ أغلب الناس جَرَّبوا هذه الحقيقة في حياتهم وهي: أنَّ الإنسان حينما يواجه مشكلات قاتلة، وشدائد الحياة الصعبة، ويبتلى بدوامات البلاء وحينما توصلد بوجهه الأبواب ويبلغ السيل الزبي، ففي هذه اللحظات المضطربة يورق أمل في أعماق روحه، فيتجه إلى الله سبحانه القادر على حلِّ المشكلات كلها فيتعلَّق به ويستمدِّ العون منه.

ولا يستثنى من ذلك حتَّى الأشخاص الذين ليس لديهم ميول دينية حيث تصدر منهم ردود فعل روحية عند تعرُّضهم للأمراض الخطرة والهزائم الماحقة وهذه شواهد على الحقيقة التي تتحدَّث عنها الآيات القرآنية السابقة حول فطرية المعرفة الإلهية. نعم، في زوايا قلب الإنسان وأعماق روحه نداء لطيف ملء بالرحمة وقوى ويبيِّن يدعوه إلى الحقيقة الكبرى، وهي (الله) القادر والمتعالى والعالم، وبحثنا يدور حول الإيمان بتلك الحقيقة لا عن تسميتها.

و) شهادة العلماء على فطرية الدين

ليست قضية فطرة (معرفة الله) قضية مطروحة في القرآن الكريم والروايات الإسلامية

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٩٨

فحسب، بل إنَّ كلمات العلماء والفلاسفة من غير المسلمين والشعراء عامرة بها:

فمثلاً، يقول اينشتاين في حديث طويل: «إنَّ العقيدة والدين موجودان في الجميع دون استثناء ... إنَّي اسميه (الشعور الديني للخلق) .. في هذا الدين يشعر الإنسان الصغير بآمال وأهداف البشرية العظيمة والجلال الكامن خلف هذه القضايا والظواهر، إنَّه يرى وجوده كسجن، وكأنَّه يريد التحرُّر من سجن الجسم ليدرك الوجود كله كحقيقة واحدة» (١).

ويقول العالم الشهير باسكال:

«للقلب أدلة لا يدرکها العقل» (٢).

ويقول ويليم جيمز:

«إنَّي أقرُّ تماماً بأنَّ القلب هو المصدر للحياة الدينية، كما أقرُّ بأنَّ القواعد الفلسفية تشابه موضوعاً مترجماً كُتِبَ نصُّه بلغة أخرى» (٣).

ويقول ماكس مولر:

«لقد خضع أسلافنا لله في عصور لم يكونوا قادرين فيها حتَّى على إطلاق اسم على الله» (٤).

وهو القائل في موضع آخر: «خلافاً لما تقوله النظرية الشهيرة بأنَّ الدين ظهر أولاً بعبادة الطبيعة والأشياء والأصنام ثم وصل إلى عبادة الله الواحد، فلقد أثبت علم الآثار بأنَّ عبادة الله الواحد كانت سائدة منذ أقدم الأيام» (٥).

ويقول المؤرِّخ الشهير (بلوتارك):

«لو لاحظتم العالم فإنَّكم ستجدون أماكن كثيرة لا عمران فيها ولا علم وصناعة وسياسة ودولة، ولكنكم لا تجدون موضعاً ليس فيه الله» (٦).

(١) العالم الذي أراه، ص ٥٣ (بتلخيص).

(٢) مسيرة الحكمة في اوربا، ج ٢، ص ١٤.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٢١.

(٤) مقدِّمة الدعاء، ص ٣١.

(٥) الفطرة للشهيد المطهري، ص ١٤٨.

(٦) مقدمة الدعاء، ص ٣١.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٩٩

ويقول صموئيل كينغ في كتاب (علم الاجتماع): «كان لجميع المجتمعات البشرية لون من الدين وإن قام علماء الأنساب والرحالة والمبشرون (المسيحيون) الأوائل بذكر أسماء مجموعات لا تدين بدين أو مذهب، ولكن أقوالهم - كما علم فيما بعد - لم يكن لها أساس من الصحة فأحكامهم ناشئة فقط من ظنهم بأن أديان اولئك يجب أن تشابه ديننا» (١). ونختم هذا البحث بكلام ل (ويل ديورانت) المؤرخ المعاصر الشهير حيث قال: «إن لم نتصور للأديان جذوراً في عصر ما قبل التاريخ، فإننا لا يمكن أن نتعرف على حقيقتها في التاريخ» (٢).

٤ - الفطرة في الروايات الإسلامية

إن قضية فطرية التوحيد في العبادة بشكل خاص، أو الدين والمذهب بصورة عامة، أمر فطري ذو انعكاس كبير في الروايات الإسلامية بالرغم من اختلاف التعبير فيها، ففي بعضها عرض لقضية التوحيد وتوحيد العبادة كأمر فطري كما في الحديث الآتي، حيث سأل أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام - وهو علاء بن فضيل - عن الآية الكريمة: «فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا»، فأجاب عليه السلام: «التوحيد» (٣).

كما ورد هذا المضمون في أحاديث عديدة أخرى (٤).

وفي القسم الآخر من هذه الأحاديث اعتبرت (معرفة الله) أمراً فطرياً، كالحديث الذي يرويه زرارة عن الإمام الباقر عليه السلام حينما سأله عن تفسير الآية: «حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ»: «أهل الفطرة التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله؟ قال عليه السلام: فطرهم الله على المعرفة».

(١) علم الاجتماع لصموئيل كينغ، ص ١٩١.

(٢) قصة الحضارة، ج ١، ص ٨٨.

(٣) بحار الأنوار، ج ٣، ص ٢٧٧، ح ٤.

(٤) المصدر السابق، ح ٥، ٦، ٨، ١٠.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٠٠

وقال: قال رسول الله عليه السلام: كل مولود يولد على الفطرة يعني على المعرفة بأن الله عز وجل خالقه» (١).

وقد ورد هذا المضمون أيضاً في أحاديث أخرى (٢).

وبعض الروايات تعرف (الاصول الإسلامية) كلها أمراً فطرياً، كما نقرأ في الحديث النبوي الشريف: «كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه وينصرانه» (٣).

وقد نقلت النصوص الشيعية والسنية هذا الحديث بكثرة وهو من الأحاديث الشهيرة جداً.

ويلاحظ نظير هذا المضمون في روايات أخرى وفيها تأكيد على قضية التوحيد ونبوة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وولايته على عليه السلام (٤).

وختاماً فإن بعض الروايات تؤكد على قضية الولاية، كما نقرأ الحديث الذي يرويه أبو بصير عن الإمام الباقر عليه السلام في آية البحث

حيث عبّر عن المقصود في الآية بأنّه: «الولاية» (٥).
 وواضح أنّ هذه التفاسير لا تتنافى فيما بينها أبداً، فالاصول الدينيه- في الحقيقة- توجد في الفطرة البشريه بصورة مركّزة، غير أنّ بعض الروايات تشير إليها كلّها وبعضها الآخر يشير إلى قسم منها.
 وفي الحقيقة فإنّ فطرة التوحيد لا يمكن أن تنفصل عن اصول العقيدة لأنّ الله الحكيم لم يخلق العباد عبثاً، ومن البديهي أنّه وضع تكاليف ومناهج لتكامل العباد يجب إبلاغها عن طريق الرسل، ويحفظها أوصياؤهم وتنفيذ عن طريق الولاية وتشكيل الحكومه الإسلاميه وتظهر نتائجها في عالم الآخرة.

(١) بحار الانوار، ج ٣، ص ٢٧٩، ح ١١.

(٢) المصدر السابق، ح ١٢، ١٣.

(٣) غوالي اللآلي، طبقاً لبحار الأنوار، ج ٣، ص ٢٨١، ح ٢٢.

(٤) بحار الأنوار، ج ٢، ص ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٨٠، ح ٣، ٩، ١٨.

(٥) المصدر السابق، ح ٢.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٠١

وباختصار فإنّ في متناول أيدينا روايات كثيرة حول فطرة التوحيد والإسلام وللمزيد يمكن مراجعة مصادر اخرى مثل:

تفسير البرهان الجزء ٢، صفحة ٤٦ وما بعدها.

مرآة العقول الجزء ٧، صفحة ٥٤ وما بعدها.

تفسير نور الثقلين الجزء ٤، صفحة ١٨١ وما بعدها.

تفسير الدرّ المشور الجزء ٣، صفحة ١٤٢ وما بعدها.

بحار الأنوار الجزء ٣، صفحة ٢٧٦ وما بعدها.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٠٣

وحدانية الذات المقدسة «أهم أصل في معرفة الله»

إشارة

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٠٥

تمهيد:

توصّلنا فيما سبق من أبحاث إلى إثبات وجود الله سبحانه بطرق مختلفة (خمسة أدلّة عقليه رئيسه) إضافةً إلى طريق الفطرة الذاتية. الآن وبعد الإيمان بأصل وجوده سبحانه فإنّ البحث يدور حول معرفته، والموضوع المهمّ فيه هو بحث التوحيد والوحدانية، لأنّه من جهة يعتبر أصلاً لبقية الصفات، ومن جهة اخرى يشكّل الأساس في كلّ الأديان السماوية خصوصاً القرآن حتّى أنّ أغلب ما تتضمّنه هذه الكتب السماوية بصدد وجود الله تدور حول محور هذا البحث، إلى الحدّ الذي ظنّ فيه البعض بأنّ القرآن لا يتحدّث عن (أصل وجود الله) بل إنّّه يتحدّث عن توحيده والاستدلال على ذلك، وهذا الكلام مبالغ فيه.

ومن جهة ثالثة تُستمدّ جميع العقائد الإسلاميه والأحكام والقوانين والامور الاجتماعيه والأخلاقية والعبادية من هذا الأصل، لذلك

أولى القرآن الكريم اهتمامه الخاص لقضيته (التوحيد والشرك) وعكس القرآن برمته النظرية الإسلامية بهذا الصدد، بل يمكن القول بعدم وجود موضوع حظي بهذه الدرجة من الإهتمام في القرآن الكريم مثلما حظي بها ذلك الموضوع. كما أن قضية التوحيد ومحاربه الشرك لم تكن محوراً أساسياً في حركة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله فحسب، بل وفي حركة سائر الأنبياء عليهم السلام.

بهذا التمهيد نطلع أولاً على عظم معصية الشرك في القرآن المجيد، ثم نذكر الأدلة القرآنية المختلفة على إثبات حقيقة التوحيد وبطلان الشرك.

في البديهة نتأمل خاشعين في الآيات الآتية:

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٠٦

- ١- «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا». (النساء / ٤٨)
- ٢- «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا». (النساء / ١١٦)
- ٣- «وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ». (الزمر / ٦٥)
- ٤- «وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ».

(لقمان / ١٣)

- ٥- «وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَىٰ بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ». (الحج / ٣١)
- ٦- «قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا». (الأنعام / ١٥١)
- ٧- «إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ». (المائدة / ٧٢)
- ٨- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا...». (التوبة / ٢٨)
- ٩- «وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ...». (التوبة / ٣)
- ١٠- «الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ...». (النور / ٣)
- ١١- «قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَأْبٌ».

(الرعد / ٣٦)

١٢- «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٠٧

أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ» (١). (هود / ٢٥-٢٦)

١٣- «قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أُنْتُمْ مُسْلِمُونَ». (الأنبياء / ١٠٨)

١٤- «فَدَكَانَتْ لَكُمْ آسُوءَ حَسَنَةٍ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ...». (المتحنه / ٤)

شرح المفردات:

«شرك»: ذكر لها في مقاييس اللغة معنيان:

الأول: هو التعاون والمقارنه والشركه ويقابله الإنفراد.

والثاني: هو الشيء المستقيم والممتد.

والمعروف من مشتقات هذه المفردة هو المعنى الأول، وللمعنى الثاني مصطلحات خاصية منها (شركاء) للحذاء، و (شرك) الطرق

الضَيْقَةُ المستقيمة التي تتفرّع من الطريق العام أو بمعنى القسم الأوسط من الطريق المستقيم، كما يعنى الفخّ الذى ينصبه الصياد. ويُصَرّ بعض اللغويين على إرجاع المعنيين إلى المعنى الأول، إلّا أنه لا يخلو من تكلف، كما لا دليل يدعو للإصرار على ذلك «٢». وقد استعمل (الشرك) فى القرآن الكريم عادةً بمعنى الاعتقاد بوجود ندّ لله سبحانه والتوافق على وجود المثل والشريك فى الذات أو الصفات أو الخلق والتدبير أو المماثل له

(١) جاء هذا المضمون فى آيات قرآنية أخرى مثل هود، ٢؛ الإسراء، ٢٣؛ يس، ٦٠؛ فصلت، ١٤؛ إضافة إلى آيات عديدة أخرى عبارات مختلفة تتعلّق بأهميّة التوحيد وقبح الشرك بجميع صورته وأشكاله، لو جمعت وفسّرت لتألّف منها كتاب كبير، وما ورد أعلاه هى النماذج المهمّة منها.

(٢) راجع كتاب (التحقيق فى كلمات القرآن الكريم)، صحيح أنّ أغلب الكلمات المشتركة ترجع إلى مصدر واحد ولكن لا يمكن القول أنّ ذلك يصدق فى جميع الموارد، فقد تضع طائفتان كلمة واحدة لمعنيين متباينين دون أن تعلم إحداها بالأخرى. نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٠٨ فى العبودية.

يقول الراغب فى المفردات: الشرك فى الدين ضربان:

أحدهما: الشرك العظيم وهو إثبات شريك لله تعالى وذلك أعظم كفر.

والثانى: الشرك الصغير وهو مراعاة غير الله فى بعض الامور وهو الرياء والنفاق «١».

«واحد»: مشتقّ من (وحدة) ويعنى فى الأصل - كما يقول الراغب فى المفردات -: الشىء الذى لا جزء له، ثم اتسع استعماله حتّى أخذ يطلق على كلّ شىء يتّصف بالوحدانية، ويضيف:

فالواحد لفظ مشترك يستعمل على سته أوجه: ١- ما كان واحد فى الجنس أو فى النوع كقولنا الإنسان والفرس واحد فى الجنس وزيد وعمرو واحد فى النوع.

٢- ما كان واحداً بالاتصال إمّا من حيث الحلقة كقولك شخص واحد وإمّا من حيث الصناعة كقولك حرفه واحدة.

٣- ما كان واحداً لعدم نظيره.

٤- ما كان واحداً لامتناع التجزى.

٥- لمبدأ العدد كقولك واحد إثنان.

٦- لمبدأ الخطّ كقولك النقطة الواحدة وإذا وصف الله تعالى بالواحد فمعناه هو الذى لا يصحّ عليه التجزى ولا التكثر «٢».

«وأحد وصف مأخوذ من الوحدة كالواحد، غير أنّ الأحد إنّما يطلق على ما لا يقبل الكثرة لا خارجاً ولا ذهنياً ولذلك لا يقبل العدّ، ولا يدخل فى العدد بخلاف الواحد فإنّ كلّ واحد له ثانٍ وثالثٌ إمّا خارجاً أو ذهنياً [ك] قولك: ما جاءنى من القوم أحد، فإنّك تنفى به مجيء إثنين منهم وأكثر كما تنفى مجيء واحد منهم بخلاف ما لو قلت: ما جاءنى واحد منهم فإنّك إنّما تنفى به مجيء واحد منهم بالعدد ولا ينافيه مجيء إثنين منهم أو أكثر...» «٣».

(١) مفردات الراغب، ص ٢٦١ مادة (شرك)، لسان العرب؛ التحقيق؛ مقاييس اللغة؛ جمهرة اللغة وكتب أخرى.

(٢) مفردات الراغب، ص ٥٥١ مادة (واحد)؛ لسان العرب؛ التحقيق؛ مقاييس اللغة؛ جمهرة اللغة وكتب أخرى.

(٣) تفسير الميزان، ج ٢٠، ص ٣٨٧.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٠٩

واحتمل بعض أن (أحد) يقابل المركب و (واحد) يقابل المتعدد، غير أن الاستفادة من موارد الاستعمال في القرآن أنهما بمعنى واحد، وسنفضل ذلك في المستقبل بإذن الله.

جمع الآيات وتفسيرها

الذنب الذي لا يُغتفر:

تصرح آية البحث الأولى بأن الشرك هو الذنب الوحيد الذي لا يغتفر حيث تقول: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ».

ومفهوم هذه العبارة هو أن جميع الذنوب الكبيرة والمظالم والجرائم والقبائح لو وضعت في كفة ميزان ووضع الشرك في الكفة الأخرى لرجحت كفة الشرك.

ولذا يقول ذيل الآية من أجل التأكيد أو إقامة الدليل: «وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا».

ويعتقد بعض المفسرين أن الآية نزلت في اليهود (بقريته الآيات التي بعدها) حيث اتحد بعضهم مع المشركين العرب وكانوا يقصدون أصنامهم ويعتقدون- في الوقت ذاته- أنهم من أهل النجاة! ولو سلمنا بسبب النزول هذا فإنه لا يضيق دائرة مفهومها.

وقال بعض: إن الآية نزلت في جمع من المشركين (كوحشى قاتل حمزة عم النبي، وأمثاله) وقد ندموا على ما فعلوا بعد مدة وكتبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنا قد ندمنا على الذى صنعناه وليس يمنعنا عن الإسلام إلا إذا سمعناك تقول وأنت بمكة: «وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ...» (الفرقان / ٦٨) وقد دعونا مع الله إلهاً آخر وقتلنا النفس التى حرم الله وزينا فلولا هذه لا تبعناك فنزلت هذه الآية: «إِلَّا مَنْ تَابَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا...» (الفرقان / ٦٩)

فبعث بهم رسول الله صلى الله عليه وآله إلى وحشى وأصحابه، فلما قرؤوها كتبوا إليه: إن هذا شرط شديد نخاف أن لا نعمل عملاً صالحاً فلا- نكون من أهل هذه الآية فنزلت: «إِنَّ اللَّهَ لَمَّا يَغْفِرُ...» فبعث بها إليهم فقرأوها فبعثوا إليه: إنا نخاف أن لا نكون من أهل مشيئته فنزلت:

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١١٠

«قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ». (الزمر / ٥٣)

فبعث بها إليهم فلما قرأوها دخل هو وأصحابه في الإسلام ورجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقبل منهم... «١».

على أية حال فإن الآية كما يقول كثير من المفسرين- هى إحدى الآيات القرآنية التى تبعث روح الأمل حيث تقول: إن الإنسان إذا خرج من الدنيا بإيمانه فإنه سوف لا ييأس من رحمة الله، ولكن إذا خرج بلا إيمان أى فى حالة شرك فإنه لا سبيل له إلى النجاة.

الآية الثانية تتحدث عن مضمون الآية السابقة ذاته مع فارق هو أنها تقول فى ذيلها:

«وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا»، والكلام فى الآية السابقة دار حول الإثم العظيم وأما هنا فهو يدور حول الضلال البعيد، وهذان أمران متلازمان إذ أن الذنب كلما كان أعظم فإنه يبعد الإنسان أكثر ويزيده ضلالاً.

والآية السابقة لاحظت الجانب العلمى والعقائدى من الشرك وهنا لاحظت الآثار العملية له، ومن الأكد أن هذه الآثار تنشأ من تلك الجذور.

الآية الثالثة تحمل أوضح التعابير وأفساها عن عاقبة الشرك والانحراف عن التوحيد حيث تخاطب النبى الأكرم صلى الله عليه وآله:

«لقد اوجى اليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين».

ومن الثابت أن رسول الإسلام صلى الله عليه وآله وكل نبي من الأنبياء، لم يسلكوا - لعصمتهم - طريق الشرك أبداً، إلا أن الآية ومن أجل بيان أهميَّة المسألة ولكي يحسب الآخرون حسابهم

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٥٦.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١١١

قامت ببيان أخطار الشرك بهذه الدرجة من الحزم.

واستناداً إلى هذه الآية فلو أفنى الإنسان حياته في العبادة وعبودية الله ومارس الأعمال الصالحة ولكنه أشرك في آخر عمره لحظة واحدة ومات بتلك الحالة فإن أعماله سوف تُحبط، فالشرك بمنزلة صاعقه محرقه تلتهم حصيلة عمره وتصيره رماداً، وكما أشار القرآن الكريم في الآية ١٨ من سورة إبراهيم إلى أنه رماد اشتدت به الريح في يوم عاصف.

«ليحبطن»: من (حبط) وأصله (حَيط) ويطلق على الحيوان حينما يأكل الكلاً حتى ينتفخ فيمرض ثم يموت، ثم استعمل في الأعمال الكثيرة ذات المظهر الجميل ولكن باطنها فاسد وتؤول إلى الفناء (١).

وقد جاء نظير ذلك في (لسان العرب) و (مصباح اللغة)، غير أن لسان العرب ذكر أن أحد معاني (إحباط) هو جفاف ماء البئر وعدم توقفه.

وفي (مقاييس اللغة) أن الأصل في معناه هو (البطلان) أو (الألم) كما أن (حبط) يطلق كذلك على الجرح بعد شفائه.

على أية حال فإن هذه المفردة في آية البحث والكثير من الآيات والروايات تعنى محق ثواب الأعمال الصالحة وزوال آثارها الإيجابية. وهناك أبحاث حول حقيقة حبط الأعمال وكيفيته ولكن لا مجال لبيانها.

أعظم الظلم:

نقرأ في الآية الرابعة تعبيراً مهولاً حول الشرك على لسان لقمان حينما كان يعظ ابنه بقوله: «يَابُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشُّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ».

ولقمان وإن لم يكن نبياً - كما هو المشهور - إلا أنه كان رجلاً حكيماً ومفكراً لله وقد أيد القرآن علمه وحكمته وجعل كلامه في عرض كلام الله عز وجل، وبالتأكيد أن مثل هذا

(١) مفردات الراغب، مادة (حبط).

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١١٢

الرجل بعلمه وحكمته وإحساسه بمنتهى المسؤولية تجاه ابنه فإنه يقدم له أخلص النصائح والمواعظ.

النصيحة الأولى من النصائح العشر التي ينقلها القرآن الكريم عن هذا الرجل الحكيم لابنه هي النصيحة بالإحترام المطلق من الشرك، مما يدل على أن الأساس في بناء الفرد والإصلاحات الفردية والاجتماعية والأخلاقية كلها، هو مقارعة الشرك بكل أشكاله وصوره، وسيكون لنا كلام - بإذن الله - في بيان العلاقة بين الشرك وبين هذه القضايا.

وقد احتمل البعض أن ابن لقمان كان مشركاً فنهاه أبوه ولكن - كما يقول بعض المفسرين -: يمكن أن يكون الكلام على شكل تحذير وذلك لأهميَّة القضية نظير ما ورد في الآية السابقة من تحذير إلهي للأنبياء.

والتعبير ب (ظلم عظيم) ذو مضمون كبير، فالظلم في الأصل يعنى كل انحراف عن الحق ووضع الشيء في غير محله، وأسوأ أنواع

الظلم هو الظلم الذي يكون بحق الله، عباده ونفسه، وهكذا الشرك.

فأى ظلم وانحراف أشد من جعلهم موجودات لا قيمة لها بمستوى خالق السماوات والأرض وجميع الموجودات؟ وأي ظلم أشد على عباد الله من انحرافهم عن جادة التوحيد النورانية إلى ظلمات الشرك؟ وأي ظلم أشد على النفس من أن يؤخج الإنسان ناراً ليحرق فيها حصيلة أعماله الصالحة ويحولها إلى رماد؟!

السقوط الموحش:

تصرّح الآية الخامسة بعد أن أمرت المسلمين بأن يكونوا موحدين مخلصين وأن يتركوا طريق الضلالة والشرك ومن خلال تشبيه ذى معنى كبير: «وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ» (١).

(١) «تخطف» من «خطف» وهو الاستلاب بسرعة و (سحيق) من (سحق) وهو طحن الشيء وقد تعطى هذه المفردة معنى (الملابس البالية) أو (المكان البعيد) والأخير هو الأنسب في مورد الآية من غيره.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١١٣

وقد شبّهت الآية (الإيمان) ب (السماء العالیه) و (الشرك) ب (السقوط من هذه السماء) [لاحظوا أن (خرّ) كما يقول اللغويون: يعنى السقوط المقرون بضجّه وليس المجرد منها!].

وليس هذا السقوط سقوطاً بسيطاً بل مكثف بخطرین عظیمین هما:

أن الساقط إما أن يكون فريسة للطيور الكاسرة أو يتلاشى بسبب هبوب الرياح العاصفة التي تقذفه في مكان بعيد عن الماء والمناطق المسكونة.

وهذه العبارات المخيفة توضّح الأبعاد الخطيرة والكبيرة للشرك.

وهذه الطيور في الحقيقة هي الصفات القبيحة الباطنية أو الفئات المنحرفة في الخارج والتي تنصب الكمين لتجذب من ينحرف عن جادة التوحيد، و (الريح) هي تلك الشياطين الذين عبرت عنهم تعالى: «أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تُوَزُّهُمْ أَزًّا».

(مریم/ ٨٣)

حيث تتجه نحو المشركين وتضع السلاسل في رقابهم وتسحبهم إلى كل جانب، أو أنّها العواصف الاجتماعية العاتية والفتن السياسية والفكرية والأخلاقية التي لا يصمد أمامها إلا من ثبتت قدمه في طريق التوحيد.

في الآية السادسة يؤمر النبي صلى الله عليه وآله بتبيان المحرّمات للناس وفي مقدّمها الشرك حيث تقول: «قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ...» (١).

ثم تذكر أوامر إلهية عشرة عرفت ب (أوامر النبي العشرة)؛ وأولها هو الدعوة إلى التوحيد حيث تقول: «أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا» راجع التفسير الأمثل للإطلاع على الشروح والأوامر التسعة المتبقية في ذيل هذه الآيات.

(١) «تعالوا» من «علو» ويعنى أن يقف شخص على مرتفع ثم يدعو الآخرين إليه (أى أضعوا) ثم توسّع استعماله وشمل كل دعوة

(تفسير المنار، ج ٨، ص ١٨٣) ومن الممكن أن يكون المراد في هذه الدعوات الإلهية هو المعنى الأصلي حيث يريد النبي أن يصعد بالناس إلى مستوى أرفع وأسمى.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١١٤

الجنة محرمة على المشركين:

الآية السابعة تشير بتعبير جديد إلى خطر الشرك، حيث تنقل عن السيد المسيح عليه السلام خطابه إلى بنى اسرائيل: «إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ».

وفي الجملة الاولى يلاحظ ذكر لفظ الجلالة كما يلاحظ تكرارها في الجملة الثانية: «فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»، وهي تقتضى استعمال الضمير، وذلك للتأكيد على أهميَّة المسألة. وتضيف الآية في ذيلها: «وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ». وهذا دليل آخر على ظلم المشركين وليس لأحد الجراء في الدفاع عنهم يوم القيامة.

الله براء من المشركين:

نواجه في الآية الثامنة قضيه جديدة بهذا الصدد حيث تخاطب المؤمنين: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ» ثم تقول: «فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا».

وتتضمن الآية التأكيد على عدَّة جهات:

الأول: أنها استعملت (إنما) والتي تدل على الحصر، ومفهومها أن المشركين ليسوا إلا موجودات فاسدة ونجسة وفي ذلك أكبر تأكيد ومبالغة،

والثاني: أن (نَجَسٌ) يتضمَّن معنى المصدر، أى أن المشركين هم عين النجاسة! كما يقال فلان عين العدل، وهذا غاية في المبالغة «(١)». والثالث: أنها لم تقل: «فلا- يُدْخَلُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ» بل «فلا- يقربوا» بمعنى أن المشركين من القذارة ما يخشى على هذا المكان المقدس أن يتعرَّض لها عند اقترابهم منه!

(١) «نَجَسٌ» مصدر و «نَجَسٌ» صفة وهذه الكلمة كما يقول الراغب في المفردات:

النجاسة: القذارة وذلك ضربان: ضرب يدرك بالحاسة وضرب يدرك بالبصيرة (المفردات مادة (نَجَسٌ)، ص ٥٠٣) وفي التفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ٢٠ كل مستقذر نجس، يقال: رجل نجس وامرأة نجس، المجمع.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١١٥

في الآية التاسعة التي نزلت- مع مجموعة من الآيات في السنة التاسعة للهجرة- بصفتها إعلاناً عاماً، نلاحظ إشارة إلى نقطة اخرى امر أمير المؤمنين عليه السلام بتلاوتها على الناس في موسم الحج: «وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ» (١).

والتعبير بالبراءة من قبل الله ورسوله من المشركين بوصفه إعلاناً عاماً في أكثر أيام الحج حساسية دليل على النفور من المشركين وبيان لضخامة معصية الشرك بأجلى صورته.

ونلاحظ في الآية العاشرة تعبيراً جديداً، حيث اعتبرت الشرك والمشركة في عرض الزانى وقال: «الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ...».

وهذا التعبير سواء كان لبيان حكم شرعى وإلهى وهو حرمة الزواج من أهل الزنا والشرك أو كان إشارة إلى واقع خارجى وهو أن القدر يتبع القدر دائماً، والطيور على أمثالها تقع فهو شاهد بلوغ على قبح معصية الشرك، لأنها اعتبرت المشركين كالمولوثين بالزنا والفاقدين للقيم الخلقية والسجايا الإنسانية.

والحديث الوارد عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن فإنه إذا فعل ذلك خلع عنه الإيمان كخلع القميص» (٢) ، وهناك شاهد آخر على العلاقة بين هذين، وسيأتى شرحه بإذن الله.

(١) فسر الكثير من المفسرين (يوم الحج الأكبر) بعيد الأضحى وهو أهم أيام الحج، والروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام وأبناء السنة تؤيد هذا المعنى، في حين فسره بعضهم بيوم عرفه وبعضهم الآخر بمجموع أيام الحج التي يطلق عليها (الحج الأكبر) وتقابل العمرة وهي (الحج الأصغر)، وقد خصصها آخرون بسنة نزول الآية حيث شارك المسلمون والمشركون في مراسم الحج في تلك السنة، وواضح أن التفسير الأول هو الأرجح من هذه الاحتمالات الأربعة.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٥٧١، ح ٢٠.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١١٦

ومن الواضح أن زواج المؤمنين من المشركين باطل وحرام، وأما الزواج بأهل الزنا فإن بعضاً يرى بأنهم إن اشتهروا به ولم يتوبوا كان الزواج بهم باطلاً أيضاً.

والأحاديث العديدة التي نقلت عن النبي صلى الله عليه وآله والإمام الباقر عليه السلام والإمام الصادق عليه السلام شاهد آخر على هذا المعنى.

وقد كتب بعض المفسرين في شأن نزول هذه الآية ما يلي: أن رجلاً من المسلمين استأذن النبي صلى الله عليه وآله في أن يتزوج (أم مهزول) وهي امرأة كانت تسافح ولها راية على بابها تعرف بها، فنزلت الآية «١».

الآية الحادية عشرة بينت أهمية التوحيد وقبح الشرك ولكن بتعبير آخر، حيث وجهت أمراً إلى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله «قل أنما أمروا أن أعبد الله ولا أشرك به».

والتعبير ب (إنما) الدالة على الحصر عادة دليل على أن دعوة النبي صلى الله عليه وآله في قضية التوحيد ورفض الشرك «٢»، وهو الحق، لأن التوحيد قوام التعليمات السماوية كلها، كما أن الشرك هو أساس الوسوس الشيطانية كلها. وتؤكد الآية في ذيلها تأكيداً مضاعفاً: «إليه أذعوا وإليه مآب».

الآية الثانية عشرة تتحدث عن النبي نوح عليه السلام وهو أول الأنبياء من اولى العزم حيث جعل الأساس في دعوته هو الدعوة إلى التوحيد ورفض الشرك، والملاحظ أن هذا التعبير ورد أيضاً عن الكثير من الأنبياء، قال تعالى: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٧، ص ١٢٥.

(٢) ولو افترضنا هذا الحصر حصراً إضافياً فإنه يدل أيضاً على أن العبودية كلها تتلخص في العبودية لله (فتأمل جيداً).

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١١٧

مُبين» وتضيف: «أَنْ لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ».

وتكرار هذا الكلام من قبل الأنبياء من لدن نوح وحتى رسول الإسلام الأكرم صلى الله عليه وآله دليل على أن السنام الأعلى في دعوة الأنبياء، هو قضية التوحيد ومقارعة الشرك وهو القاسم المشترك بين الديانات السماوية، ولذا نقرأ في قوله تعالى: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ». (آل عمران / ٦٤)

وهذا أصل ثابت لم يتغير بمرور الزمان ولم يكن أمراً وقتياً، بل هو الأساس الثابت في الديانات السماوية كلها، وكل ما يتعرض له أهل

الديانات المختلفة من مآسٍ، ناشيء من الانحراف عن هذا الأصل.

وفى الآية الثالثة عشرة تعبير جديد عن هذا المعنى وتلخص دعوة الأنبياء عليهم السلام باستخدام الأداة (إنما) الدالة على الحصر في قضية التوحيد حيث تقول: «قُلْ إِنَّمَا يُوحى إِلَيَّ أَنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ».

إبراهيم عليه السلام الأسوة الحسنة في مقارعة الشرك:

الآية الرابعة عشرة تذكر هذا المضمون في قالب جميل آخر حيث تعرّف النبي إبراهيم عليه السلام المقدم والمكسر للأصنام بالقدوة في الدفاع عن قضية التوحيد ومحاربة الشرك محاربة لا هوادة فيها حيث قالت: «قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ»، ثم تقدم توضيحاً عن الاسوة الحسنة هذه بقوله تعالى: «إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ...»، وأضافت - للتأكيد المكرر- «كَفَرْنَا بِكُمْ...».

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١١٨

إن الكفر بالأشخاص يعنى إعلان البراءة منهم، لأن هذه المفردة (الكفر) ذات معانٍ خمسة حسب الروايات الإسلامية، أحدها كفر البراءة، ولم تكتف بذلك بل أضافت: «وَبَدَأَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ».

وإن هذه التعابير (البراءة أولاً ثم إعلانها ثم الإعلان عن العداوة الدائمة) لشاهد صريح على صلابه الموحدين تجاه القذرين الملوئين بالشرك وعبادة الأوثان، وحينما نلاحظ أن القرآن يذكر كلام النبي إبراهيم عليه السلام وأتباعه كقدوة للمسلمين فإن ذلك يعنى أن الإسلام لا يعرف أية مهادنة بين التوحيد والشرك في أية مرحلة.

ومن التعمق في تعبير الآية تنكشف الأهمية البالغة لهذه القضية، فالتعبير ب (قومهم) دليل على أن غالبية القوم هم من عبدة الأصنام وأن الموحدين قليلون، ويبدو أن هذا الحوار جرى في (بابل)، التي هي مركز عبدة الأصنام في ظل سلطة الطاغية (النمرود)، ولم تعد هذه المجموعة الصغيرة المؤمنة إلى مسaire الوضع السائد، ولم تعمل بالتقية تجاه المشركين في مسألة التوحيد.

ففي جانب تقول: «إِنَّا بُرءُؤُا مِنْكُمْ».

و في جانب آخر: «كَفَرْنَا بِكُمْ...».

و في ثالث: (نتبرأ من أصنامكم).

ومن جهة: (أنا نعتبركم أعداء لنا).

و من أخرى: (إننا نكن لكم العداء).

وفى كل جملة من الآية تعبير جديد عن عدم المداينة والمسالمة.

والفرق بين (العداوة) و (البغضاء) - كما هو المستفاد من كلمات اللغويين - هو أن (العداوة) لها جانب عملي في الغالب، أما (البغضاء) فلها جانب قلبى، وإن استعمل كل منهما مكان الآخر.

وبهذا أعلنوا أنهم برء من الشرك بكل وجودهم وصامدون أمامه مهما كانت الظروف، وينبغى أن يكون ذلك اسوة حسنة لكل المؤمنين فى العصور كلها.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١١٩

و «الاسوة»: تعنى فى الأصل - كما ورد فى (مقاييس اللغة): العلاج والإصلاح، ولذا يطلق على الطبيب (أسى).

و «أسى»: تعنى الغم والحزن، ومن المحتمل أن يكون بسبب اقتران علاج المريض والجريح - عادةً - بالغم والوجع، ومن ثم استعملت بمعنى الإتياع والمتابعة نظراً لاستدعاء العلاج وإصلاح المتتابعين.

إلا أن الراغب فى مفرداته يعبر عن المعنى الأصلي ل (اسوة) قائلاً بالإتياع فى الصالحات أو السيئات «١».

يتضح من الآيات الأربع عشرة المتقدمة والتي كثرت نظائرها في القرآن الكريم أن قضية التوحيد والشرك هي القضية المركزية والمهمّة في نظر القرآن بشكل لا تجوز معه أية مهادنة أو مهادنة أو محاباة مع الشرك والمشركين، ولا بدّ من اجتثاث جذور الشرك بجميع صورته، فإنّ تحقّق ذلك عن طريق التعليم الثقافى والمنطق والاستدلال فهو وإلّا فإنّ الواجب هو الحزم العملى تجاهه. إنّ التوحيد رأس مال المؤمن والبضاعة المرموقة في سوق القيامة، والشرك ذنب لا يغتفر، والمشرك موجود قدر يجب التبرّء منه كلياً حتّى يعدل عن انحرافه ويعود إلى الإيمان.

توضيح

لماذا هذا الإهتمام الكبير بقضية التوحيد والشرك؟

نحن نعلم بصورة إجمالية إنّ للإسلام بل والديانات السماوية كلّها حساسية غير

(١) يعتقد البعض أنّ (أسى يستعمل كفعل ناقص واوى ويائى، فإن كان ناقصاً يائياً فإنه يعنى الحزن والغم، ولذا تطلق المأساء على الفاجعة العظيمة، ولو كان ناقصاً واوياً فهو يعنى المعالجة والإصلاح.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٢٠

اعتيادية تجاه الشرك، غير أنّ الدليل على ذلك ليس واضحاً للكثير، ويمكن تقديم أربعة أدلّة أساسية على هذه الحساسية والإهتمام بقضية التوحيد والشرك المصيرية:

١- التوحيد هو الأساس لمعرفة صفات الله ولا- يمكن إدراك الصفات دون ملاحظة أصل التوحيد، لأنّ وحدانيته- كما سيأتى توضيحها- تنشأ من لا محدوديته، والوجود جامع لكلّ الكمالات وخالٍ من كلّ عيب ونقص، والحقيقة أنّنا لو عرفناه بتوحيده الحقيقى فسوف نعرف صفاته كلّها، بيد أنّ الاعتقاد بالشرك هو الذى يصدنا عن ذلك.

٢- فروع التوحيد تبلغ عالم الوجود ذات الله المقدّسة، حيث أنّ عالم الوجود واحد وهو متّصل الأجزاء وتحتاج معرفته الصحيحة إلى دراسة أجزائه مجتمعة، ولو تصوّرنا موجودات العالم كوجودات متفرّقة فإننا سوف نخطئ كثيراً فى معرفة العالم وإذا سألنا أنفسنا: من أين تلقينا هذا الدرس، وهو أنّ عالم الوجود كتلة واحدة؟

الجواب: من وحدانية الله، لأنّ وحدة الله دليل على وحدة العالم، ووحدة العالم دليل على وحدته تعالى: «مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ». (الملك/ ٣)

٣- إنّ أهمّ العناصر التى تبعث على تطوّر العالم الإنسانى وتكامله هو وحدة المجتمع البشرى، فالاختلاف والتفرّق- كان وسيبقى- هو العامل على الدمار والضعف والتخلّف، فى حين يشكل الإتحاد والوحدة الحجر الأساس للقوة والإقتدار والعمران والبناء.

إنّ الإيمان بالله بمثابة حلقة الوصل التى تؤلّف بين الملايين من البشر وتزيل الفوارق العنصرية والجغرافية والقومية واللغوية. إنّ سبب الانحراف عن أصل التوحيد والإيمان جعل كلّ قبيلة عربية فى زمن الجاهلية تعبد صنماً يختلف عن أصنام القبائل الاخرى وهم فى غاية الضعف والانحطاط، ف جاء الإسلام وحطّم الأصنام وربط القلوب بحبل التوحيد فى فترة قصيرة وصنع منها مجتمعاً قوياً ومتطوراً ذا حكومة امتدّت لتشمل العالم فضلاً عن الجزيرة العربية.

٤- التربية على الأخلاق والقيم الإنسانية تتوفّر فى ظلّ التوحيد أيضاً لأنّ الأساس فى

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٢١

الأخلاق الفاضلة هو الإخلاص وتنزيه القلب من الشرك، والأساس هو جعل الدوافع العملية دوافع إلهية فقط، أى التحرك من أجله

فقط والجهاد فى سبيله والسير نحوه والإحتراز من أى دافع آخر.

فالتوحيد هو الذى يعلم الإنسان درس الإخلاص فى التية، درس مقارعة كل رياء وشرك، ومحاربة هوى النفس والجاه والدنيا والشيطان.

وبهذا ترى كلاً من التوحيد والشرك يترك تأثيره العميق على العقائد والأعمال والنيات والأخلاق فى الفرد والمجتمع.

ولذا وجه الإسلام إهتماماته تجاه هذه القضية، وهنا نختم البحث بحدِيثين:

فى حديث عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال لعبدالله بن مسعود: «يا ابن مسعود: إياك أن تشرك بالله طرفه عين، وإن نشرت بالمنشار أو قطعت، أو سلبت أو احرقت بالنار» (١).

وفى هذا الحديث الشريف تبرز الأهمية القصوى للتوحيد.

وفى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام: «ان بنى امية أطلقوا للناس تعليم الإيمان ولم يطلقوا تعليم الشرك لكى إذا حملوهم عليه لم يعرفوه» (٢).

وهذا الحديث شاهد واضح على أن الشرك يمكن أن يكون وسيلة هدامة سياسياً واجتماعياً بيد فئة ظالمة، وفى المقابل يمكن أن يقوم الإيمان بالتوحيد وفروعه باجتثاث جذور هؤلاء الظالمين.

نتطرق فى بحث التوحيد لمهمتين:

الاولى: أن ذات الله لا تتركب من أجزاء (خارجية أو عقلية).

والثانية: هى أن ذاته لا شبيه لها ولا مثيل، لذا فهو واحد من كل جهة.

ونجد فى القرآن أدلة فى هذا المجال منها:

(١) بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١٠٧.

(٢) أصول الكافى، ج ٢، ص ٤١٥، ح ١.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٢٣

دلائل التوحيد

إشارة

١- شهادة الفطرة على وحدانية الله (عز وجل)

٢- تناسق العالم

٣- دليل صرف الوجود

٤- دليل الفيض والهداية

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٢٥

١- شهادة الفطرة على وحدانية الله (عز وجل)

تمهيد:

ذكرنا فى مستهل هذا الجزء وفى بحث «استخدام برهان الفطرة فى مسألة معرفة الله» أن هذا البرهان يمكن أن يكون نافعاً ومرشداً فى

البحث عن صفات الله، بل وفي مسألة النبوة والمعاد، ولهذا لنا عهد عملي مع هذا البرهان حيث نراجعه في أغلب المباحث. وفي بحث وحدانية ذات الله وصفاته يمكن أن يكون هذا البرهان مفيداً، أي أننا وفي أعماق الروح والقلب لا نسمع نداء وجوده فحسب بل لا يوجد في أعماق الروح نداء آخر.

فعندما تبلغ المشكلات والإبتلاءات ذروتها وحينما توصل أبواب عالم الأسباب أمامنا يقرع أسماعنا هدير التوحيد في أعماق وجودنا ويدعونا إلى (المبدأ الواحد) ذي القدرة التي تفوق المشكلات وتتجاوز عالم الأسباب كله.

وهناك آيات قرآنية عديدة تشير إلى هذا المضمون، وبما أننا ذكرنا بعض هذه الآيات بصورة مفصلة في بحث (إثبات وجود الله) فسنشير إليها هنا باختصار ونمعن خاشعين في عدد من الآيات:

١- «فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ». (العنكبوت/ ٦٥)

٢- «وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ». (الروم/ ٣)

٣- «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ آتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ».

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٢٦

(الأنعام/ ٤٠-٤١)

٤- «وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْرُدُونَ * ثُمَّ إِذَا كَسَفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ». (النحل/ ٥٣-٥٤)

٥- «قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ».

(الأنعام/ ٦٣-٦٤)

جمع الآيات وتفسيرها

حينما يشرق نور التوحيد:

بما أن تفسير الآية الأولى والثانية قد مرَّ في مقدمته الكتاب خلال بحث الاستدلال على معرفة الله عن طريق الفطرة فإننا نذكرهما باختصار.

الآية الأولى تتحدث عن أشخاص يدعون الله سبحانه باخلاص عند ركوب السفينة، والآية الثانية تطرح القضية بصورة عامة وتتحدث عن أشخاص يدعون الله عند مواجهته ضنك الحياة وتحيط بهم أمواج المشكلات فيتركون الأصنام التي نحتوها ويلجأون إلى ظلال لطفه، ولكن بعد إذاقتهم حلاوة رحمته تسلك جماعة منهم طريق الشرك مرة أخرى، ومن الملاحظ أن في الآيتين تركيزاً على الإخلاص والإنابة حيث يتمسك بهما أغلب الناس عند هبوب عواصف الأحداث إضافةً إلى التركيز على حالة الرجوع إلى الشرك لدى جماعة كبيرة بعد سكون هذه العواصف.

وبهذا يشير القرآن الكريم إلى أن معرفة الله من مكونات الفطرة الإنسانية وهكذا التوحيد في العبادة، ويعتبر الشرك ظاهرة تنشأ من الحياة المترفة، ومن خلال دراسة سطحية وعابرة لعالم الأسباب، وعند تغير الظروف الإعتيادية للحياة وظهور عدم فاعلية عالم الأسباب يقوم الإنسان بقطع أمله منها وتبرز فطرة عبادة الواحد من وراء سحب العادات المعاشة والغفلة.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٢٧

إنّ هذه الآيات تبّلع نداء الفطرة إلى الغافلين من بنى الإنسان عن طريق واضح وتوصل الإنسان إلى حيث لا- يوجد صخب عالم الأسباب ولا الغرق في لذات الحياة.

نعم في مثل هذه البيئته الطبيعية والهادئة يسمع نداء الوجدان الذى يلقنه درس معرفة الله وعبادة الواحد ولكن هذا النداء يضعف ويعجز عن بلوغ الأسماع حينما يمتلىء الجو بصخب اللذات الماديّة وعالم الأسباب.

هذه الآيات الشريفة تمسك بيد الإنسان تارة وتلقى به في وسط الأمواج العاتية وتمسك بيده تارة أخرى لتودعه خلف قضبان السجن وميدان الأمراض المستعصية وطرق مسدودة تبعث اليأس في الحياة، مكان تخمد فيه أصوات الشياطين من الجنّ والإنس ويسمع فيه نداء الوجدان والفطرة فقط، ما أجمل وأروع هذا النداء وهذا الصوت!

الآية الثالثة تخاطب المشركين وتدعوهم إلى فطرة عبادة الواحد، وبتعبير آخر تقول:

«قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ آتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

والمراد من عذاب الله هو عذاب الدنيا والمراد من (أتكم الساعة) هو ظهور أسرار الساعة (وهي علامات نهاية العالم الموحشة جداً وابتداء يوم القيامة) التى أخبر عنها القرآن الكريم فى آيات عديدة واعتبرتها مقرونه بالخوف والوحشة الشديدين.

إنّ الكثير من المشركين- طبعاً- لم يؤمنوا بالقيامة وأسرار الساعة غير أنّهم كان يوسعهم تصديق نزول العذاب الإلهي وذلك بملاحظة الآثار التى خلفتها الامم السابقة فى أطراف الحجاز والجزيرة العربية، وهذا هو أحد أساليب الفصاحة حيث يبين القائل قضية صادقة لا يتقبلها المخاطب مقرونه بما يقبله فى عبارة واحدة كى يثبتا معاً.

ولا ينتظر القرآن ليستمع إجابتهم عن هذا السؤال بل يجب عنه بما ينبغى عليهم بيانه ويقول: «بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ».

وقد أسلفنا أنّ الكثير من المفسرين فسّر جملة (أرأيتكم) بمعنى (أخبروني)، ولكن

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٢٨

الظاهر هو الإحتفاظ بالمعنى الرئيس للجملة وتفسيرهم هذا يلازمه (المعنى الرئيس للجملة هو: هل شاهدتم؟ هل فكّرتم؟) «١».

على أية حال فإنّ القرآن فى هذه الآيات يلزم المشركين بأعمالهم ويحاججهم بها.

اللجوء إلى الله فى الشدائد:

الآية الرابعة تطرح هذه القضية فى قالب جميل آخر فتقول: «وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ»، فماذا صنعت لكم الأصنام ومعبوداتكم المزيّفة؟ وأى رزق بسّطته لكم وأية هدية وهبتها لكم؟

هذه الأصنام التى تحتاج إليكم فى صنعها وبقائها (حيث يجب أن تحتوها وتحافظوا عليها) أية بركة وموهبة وهبتها لكم؟ وتضيف الآية: «ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْرَوْنَ».

«تجأرون»: من مادة (جأر) وتعنى فى الأصل أصوات الوحوش والحيوانات فى الصحارى دون اختيار منها عندما تحس بالألم، ثم استعملت كناية عن الأنين والإستغاثة والصرخة التى تصدر من الإنسان حينما يواجه المشكلات.

يقول الراغب فى مفرداته:

ومن الواضح أنّ الإنسان يرجع إلى فطرته فى هذه الحالة وتتكسر القيود والسلاسل المفتعلة وتنهار الأبنية الوهمية ويبقى الإنسان مع فطرته، الإنسان ووجدانه الصريح ويتّجه صوب نقطة واحدة، نعم نقطة واحدة نسّمياها (الله) عزّوجلّ.

انتبهوا إلى جملة (إليه تجثرون) فهي تتضمن معنى الحصر والدلالة على الوحدانية، أي أنكم تتوسلون إليه فقط وتطلبون منه حلّ مشاكلكم.

وتضيف: «ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ»، وفي التعبير

(١) الأولى تعنى الرؤية بالعين المجردة والثانية تعنى الرؤية القلبية.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٢٩

ب (فريق) إشارة إلى أنّ فريقاً آخر سيغيّر مسيرته بعد هذا الحادث حقاً، وتبدأ صفحة جديدة في حياته ويستبدل الشرك بالتوحيد في العبادة، وهذا هو أحد الحكم في وجود الآفات والابتلاءات والأوجاع والآلام التي يكرهاها البشر وفيها إيقاظ لفريق وتربيتهم «١». «ضُرٌّ»: و (ضُرٌّ) لهما معنى واحد كما يعتقد بعض اللغويين، ومفهومهما هو كلّ ما ينافي النفع، وقد فسّر بعض الأول بمعنى سوء الحال، والثاني بمعنى الضرر.

ويقول الراغب في المفردات:

«الضُرُّ»: سوء الحال إمّا في نفسه لقلّة العلم والفضل والعفة، وإمّا في بدنه لمرض أو نقص وإمّا في حاله ظاهرة من قلّة مال وجاه «٢».

على كلّ حال فهذا اللفظ مضمون واسع حيث يشمل المصائب والأمراض والنقائص والآلام.

وينبغي ملاحظة هذه النقطة وهي أنّ (الكشف) - كما جاء في لسان العرب - تعنى رفع الحجاب عن الشيء المستور، ويلزمه ظهور ذلك الشيء ثمّ استعمل في رفع الغم والحزن والابتلاءات وكأنّ هذه الامور تمثّل حجباً على روح الإنسان وجسمه وترفع من قبل الإنسان وغيره.

النور الوهاج في الظلمات:

في الآية الخامسة والأخيرة التي نبحتها نلاحظ أنّ محتوى الآيات السابقة نفسه ولكن في اطار جديد وجميل حيث تقول: «قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً»، في هذه الحالة تنأى عنكم المعبودات المزيّفة وتلجأون إلى لطف الله وحده وتقولون: «لَيْسَ أَنْجَانًا مِنْ هَذِهِ لَنْكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ».

(١) احتمال البعض من أنّ «من» في «فريق منكم» بيانية لا تبعية بعيداً ويخالف ما ورد في الآية ٣٢ من سورة لقمان (فلما نجّاهم إلى البرّ فمنهم مقتصد) راجع تفسير روح المعاني ذيل هذه الآية.

(٢) لسان العرب؛ مجمع البحرين؛ مفردات الراغب.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٣٠

والتعبير ب «ظلمات البرّ والبحر» تعبیر جميل يمكن أن يكون إشارة إلى الظلام الظاهري الذي يحدث في الليل أو عند هبوب الأعاصير والرياح المحملة بالغبار وعند ظهور السحب السوداء في السماء، وهذا الظلام مربع ومخيف وخاصّة إذا كان في البحر والصحراء، أو حصول الخوف من هجوم الحيوانات الوحشية في الصحراء.

ويمكن أن يكون له - كما ذكر ذلك بعض المفسرين - معنى كئيب فيشمل المشكلات والشدائد والآلام «١».

كما يحتمل تضمّن الآية الظلامين: الظلام الظاهري الذي يفرض الوحشة على الإنسان والظلام المعنوي الموحش المؤلم أيضاً، وعلى كلّ حال فإنّ هذه الآلام تحصل في السفر غالباً، والآية تقصد هذا المعنى أيضاً.

والتعبير بـ «تَضَرَّعاً وخفية» تعبير جميل أيضاً لأنَّ (التَضَرَّع) يعنى الدعاء والطلب الصريح وإظهار التذلل «٢»، فى حين تشير (خفية) إلى الدعاء الكامن فى أعماق القلب، ويحتمل أن يقصد التعبير الحالتين فى الإنسان، حيث يدعو الله فى قلبه حينما تبدو ظلمات المشكلات، وعندما يُبتلى بمشكلات عويصة وكبيرة يقوم بإظهار ما فى قلبه ويتضرَّع إلى الله ويلتمسه. ومن المحتمل أن يقصد هذا التعبير حالات الفئات المختلفة، فبعضها يدعو الله جهاراً فى مثل هذه الأحوال وبعضها تدعوه خفاءً وكأنها تشعر بالخجل أمام الأصنام! أو من الناس الذين عرفوا أنها تعبد الأصنام فلماذا لا تلجأ إلى الأصنام فى المشكلات؟! على كلِّ حال فإنها ترجع إلى فطرتها فى مثل هذه الأحوال وتستضىء قلوبها بنور التوحيد وعبادة الواحد، وترفض كلَّ ما سواه وتنسى كلَّ ما يذكرها به وتستيقن بأنَّ الأصنام ليست أهلاً، وعبارة الأصنام لا فائدة فيها ولا سبيل إلَّا التوحيد. فى مثل هذه الأحوال تعاهد الله وتندر وتتعهَّد بأنه إذا نجاها من هذه الشدائد والآلام

(١) تفسير الميزان، ج ٧، ص ١٣٦؛ وتفسير فى ظلال القرآن، ج ٣، ص ٢٦٩.

(٢) مفردات الراغب: تَضَرَّع، أظهر الضراعة.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٣١

وأذاقها حلاوة اللطف والرحمة فإنها ستبقى شاكراً ومدينة ورهينة للطفه، ولكنها بعد الخلاص من المضائق تنسى - فى الغالب - كلَّ عهودها وتعهداتها، كما يشير إلى ذلك ذيل الآية: «قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ» (١). وكما ذكرنا فإنَّ هذه الحالة هى حالة أغلب المشركين، وأمَّا الفئة التى لها قابلية أكبر فإنها تتيقظ بصورة دائمة وتبصر طريقها وتهجر الشرك.

من مجموع الآيات التى ذكرت تظهر هذه الحقيقة وهى: أن القرآن الكريم لا يعدُّ غريزة المعرفة الإلهية فى الإنسان أمراً فطرياً وحسب بل يعتبر الإيمان بوحدانيته من الامور الفطرية أيضاً، وبما أن الفطرة الأصيلة فى الإنسان تتعرض فى الغالب إلى حجاب الرسوم والعادات والأفكار المنحرفة والتعاليم المغلوطة فينبغى انتظار تلك الساعة التى تزول فيها هذه الحجب، من هنا فإنَّ القرآن يشير إلى لحظات حساسة فى حياة الإنسان وذلك عندما تزول الحجب بواسطة عواصف الأحداث ويبقى الإنسان وفطرته وصريح وجدانه فيدعو حينئذٍ ربه لوحده ويزول عنه ما سواه، ويدلُّ هذا جيداً على أنَّ عبادة الواحد والتوحيد مستودعة فى أعماق روحه، وفى هذا المجال مرّت بحوث تكميلية اخرى فى أول الكتاب فى بحث الفطرة والمعرفة الإلهية.

(١) «الكرب» يعنى الغمّ والهَمّ الشديد.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٣٣

٢- تناق العالم

تمهيد:

من السبل التى سلكها علماء العقيدة والفلسفة فى سيرهم وسلوكهم من أجل القرب من ذات الله المقدسة هى دراسة عالم الوجود الذى هو عبارة عن مجموعته متناسقة وكتلة مترابطة، هذا الاتحاد والتناسق ينبثق عن وحدانية الخالق، ولذا اطلق على هذا الدليل (برهان الوحدة والتناسق) وقد يُطرح هذا البرهان بصورة اخرى حيث يقال: إذا كانت هناك إرادتان تحكمان عالم الوجود، ولو كان فى عالم الخليفة تدبيران لظهر الفساد والانظام حتماً، وبما أن هذا الأمر - عدم النظم والفساد غير موجود - يمثل دليلاً على وحدة الخالق والمدير

والمُدبر لعالم الخليقة، ولذا اطلق على الاستدلال عنوان (برهان التمانع).

من هنا فإنَّ برهان (الوحدة والتناسق) و (برهان التمانع) متّحداً جوهراً ومحتوى ولكن لهما تعبيران، وبعبارة أدق: أنّهما ينظران إلى قضية واحدة ولكن من زاويتين، فنحن نصل تارةً عن طريق وحدة العالم إلى وحدة المبدىء، واخرى من طريق عدم الفساد الناشئ من الإرادتين، وفي الحقيقة إنّنا ننظر من الأعلى إلى الأسفل تارةً واخرى من الأسفل إلى الأعلى.

وعلى كلّ حال فإنّه من أفضل دلائل التوحيد التي استندت إليها الآيات القرآنية.

بهذا التمهيد نرجع إلى القرآن الكريم لتأمل خاشعين في الآيات التالية:

١- «مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصِيرَ هَيْلَ تَرَى مِنْ فُطُورٍ* ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصِيرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصِيرُ خَاسِتًا وَهُوَ حَسِيرٌ». (الملك / ٣- ٤)

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٣٤

٢- «أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِئُونَ* لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ». (الأنبياء / ٢١- ٢٢)

٣- «مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ». (المؤمنون / ٩١)

شرح المفردات:

«فُطور»: من (فَطَرَ) على وزن سَطر وهي في الأصل: الفتق، وقد فسره البعض كالراغب في المفردات بالشق طولاً ومن ثم أطلق على كلّ إبداع وإيجاد وخلق، لما فيه من انشقاق حجاب العدم وإبداع الشيء وإيجاده أو اختراعه كما يطلق هذا اللفظ على عملية استخراج الحليب من الغنم باصبعين، وكذلك على هدم الصيام (وقد وردت إيضاحات أكثر حول ذلك في بداية هذا الجزء في بحث برهان الفطرة في موضوع معرفة الله).

«إله»: يعني - كما يقول اللغويون - المعبود، وقالوا باشتقاقه من (إلاهة) بمعنى العبادة وقد ذكرنا آراء الكثير منهم في الهامش «١». وقد استعمل هذا المعنى في مواضع كثيرة من (القرآن الكريم)، كما نقرأ في قصة بني اسرائيل عندما شاهدوا جماعة يعبدون الأصنام فقالوا لموسى: «يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ». (الأعراف / ١٣٨) وقد جاء في قصة السامري: «وَانظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ». (طه / ٩٧)

(١) مصباح اللغة، «أله، له، آلِهَةٌ» على وزن «تعب» يعني عبد عبادة، تأله (تعبد) والإله، (المعبود)، وقد ورد في (صباح اللغة) هذا المعنى مع فارق بسيط، ويقول الراغب في المفردات (اله)، جعلوه إسمًا لكلِّ معبود لهم و (اله فلان يأله): (عبد)، ويقول صاحب لسان العرب: (الإله) كلّ ما اتّخذ من دونه معبوداً، وفي التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ورد بعد ذكر كلمات جمع من اللغويين (فظهر من هذه الكلمات أنّ الإله بمعنى العبادة)، وقد ورد في مجمع البحرين، «الآلهة»: الأصنام سُمّوا بذلك لاعتقادهم بأنّ العبادة تحقّق لها، وجاء في كتاب العين للخليل بن أحمد أيضاً (التأله): (التعبد)، وقد جاء هذا المعنى صريحاً في قاموس اللغة، (وعلى ذلك فإنّ عقيدة أهل اللغة قاطبة هي أنّ الإله تعنى المعبود).

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٣٥

وباختصار فإنّ أرباب اللغة قاطبة وجمع كبير من المفسّرين اعتبروا (اله) بمعنى المعبود وهو الغالب في موارد استعماله، وحينما نلاحظ

أنّ (اله) قد استعمل في بعض الحالات بمعنى الخالق أو المدبّر لعالم الوجود فهو لوجود ملازمة- في بعض الحالات- بين هذه المعانى وبين المعبود، ولا يكون الاستعمال في بعض الموارد دليلاً على الحقيقة أبداً، وخاصّة مع تصريح اللغويين على خلاف ذلك، وموارد الاستعمال شاهدة على ذلك أيضاً.

ويمكن القول: أنّ جملة (لا إله إلا الله) لا تنسجم مع هذا المعنى وذلك لوجود معبودات غير الله الواحد بين العرب والأقوام الأخرى، ولكن الإجابة على هذا السؤال واضحة لأنّ المراد هو المعبود الحق لا المعبودات بالباطل، أى: لا معبود حقاً غير (الله)، والأصنام ليست أهلاً للعبادة، وقرائن هذا المعنى موجودة في هذه الجملة، كقولنا: لا علم إلا ما نفع.

هناك ملاحظة جديرة بالتدقيق وهي أنّ البعض اعتبر (إله) من (وله) وتعنى (تحير) وفيها إشارة إلى الذات التي تحيرت فيها العقول، بيد أنّ المشهور بين اللغويين هو المعنى الأول أى أنّه من مادّة (أله) بمعنى العبادة. وقد توضح ممّا ذكرنا أنّ إصرار البعض على أنّ (اله) لا يعنى (معبود) غير مقبول أبداً.

جمع الآيات وتفسيرها

مظاهر التنسيق:

تقول الآية الأولى بعد الإشارة إلى خلق السماوات: «مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ».

إنّ هذا العالم الواسع بكلّ ما يتضمّنه من عظمة فهو متناسق ومنسجم ومترابط ومتّحد ومنظّم، وإنّ وجود الاختلاف في اللون والشكل والوزن وسائر الكيفيات الظاهرية والباطنية أو الكميّة أمر طبيعي جدّاً، ولكن الشىء الذي لا وجود له هو عدم التناسق واللاتنظيم والاختلال.

ولذا تقول الآية في ذيلها: «فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ» والمراد من «فَارْجِعِ

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٣٦

البَصِير» هو النظر الدقيق والعميق، والمخاطب في هذه الآية وإن كان هو النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ولكن من الواضح أنّ المراد هم البشر جميعاً، وتضيف الآية: «ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ» «١».

بهذا الأسلوب يقوم القرآن الكريم وبتعابير مختلفة بدعوة البشر إلى النظر في عالم الوجود ولا يكتفى بالدعوة بل يرغبهم ويحرّزهم ويحرّزهم على هذا العمل، كى يعلموا أنّهم لا يجدون خللاً أو نقصاً فيه، وعندما لا يرون ذلك فسوف يتعرّفون على حقيقة توحيد المبدىء والوحدانية ويردّدون جملة (لا إله إلا الله) قلباً ولساناً.

هناك نقطة جديرة بالاهتمام وهي أنّ (نفي الاختلاف) من بين الموجودات في العالم والذي ورد في الآية أعلاه يعنى حسب اعتقاد البعض: نفي العيب والنقص، وقد فسّره البعض بمعنى نفي عدم الإنسجام، وفسّره آخرون بنفي الإضطراب والتزعزع، وبعض بنفي الإعوجاج، وبعض بنفي التناقض، في حين أنّ الآية لها مفهوم واسع يشمل كلّ هذه المعانى (هذه المفردة مشتقة من (فوت) لأنّ المتفاوتين يفقد كلّ منهما الصفات المختصّة بالآخر).

تعدد الآلهة:

الآية الثانية تعرض هذا المضمون في إطار آخر وصورة أخرى حيث تقول: «أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُشْرِكُونَ» «٢».

وفى التعبير ب «من الأرض» إشارة لطيفة وهى أنهم (أى المشركون) كانوا يصنعون

(١) «ارجع البصر» كناية عن النظر المتكزّر والمقرون بالدقّة والإهتمام، و (خاسىء) من (خسناً) ويعنى الانقباض والإنغلاق المقرون بالدلّة ويمكن أن يكون هنا كناية عن الحرمان والفشل، و (حسير) من (حسر) ويعنى الضعف وافتقاد القدرة وتعنى فى الأصل: الاختفاء، وبما أن الشىء إذا ضعف فإنه يتجرّد عن قدرته وطاقته وقد استعمل هذا اللفظ بمعنى الضعف.

(٢) لفظ (أم) فى الآية- كما يقول جمع من المفسّرين- منقطعاً وتعنى (بل)، فى حين اعتقد البعض بأنّها بمعنى هل الإستفهامية، وبما أن المشركين لم يدّعوا أن الأصنام خالقة، كان بمعنى الإستفهام الإنكارى أكثر مناسبة.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٣٧

ألتهم من الحجر والخشب والمعادن وهى موجودات أرضية، فهل بإمكان هذه الموجودات أن تكون خالقة للسماوات الواسعة وأن تكون الحاكمة والمدبرة والمديره لها؟!

ثمّ تضيف الآية فى مقام الاستدلال على بطلان عقيدتهم: «لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا».

«فساد»: يعنى فى الأصل- كما يقول الراغب فى المفردات: خروج الشىء عن حدّ الاعتدال كثيراً أم قليلاً، فى الروح أو الجسم أو الأشياء الاخرى فى العالم، ويقابله (الصلاح).

و (الفساد) هنا يعنى الدمار والخراب واللا نظام والهرج والمرج

وتضيف الآية فى آخرها- كاستنتاج: «فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ».

وخلصه الاستدلال هى: لو تعدّد المدير والمدبّر والخالق والحاكم والمتصرّف فى هذا العالم فإنّ العالم لا يمكن أن يتّسم بالنظام والتناسق، وذلك لانتهاء التعدّد فى الآلهة إلى تعدّد التدبير والتصرّف، وبذلك يختلّ عالم الوجود ويتعرّض للفساد والدمار حيث يريد كلّ واحد منهما تطبيق نظام العالم على مشيئته وإرادته.

وهنا يرد هذا الإشكال المعروف وهو: ما المانع من تعاضد الآلهة الحكيمية فيما بينها لإيجاد نظام واحد منسجم؟ والإجابة على ذلك ستأتى فى الإيضاحات بإذن الله.

الآية الثالثة والأخيرة التى نبهت عليها تقدّم هذا البرهان فى إطار جديد حيث تقول: «مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ».

ولو كان كذلك فإنّ كلّ إله ينفرد بمخلوقاته الخاصّة ويفرض عليها تدبيره وتصرفه الخاصّ، وسوف تكون الأنظمة المختلفه والقوانين اللامنسجمه هى الحاكمة على العالم، وسيكون هو السبب فى وانهيار الوحدة والتعادل فى العالم: «إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ».

ويكفى هذا الدليل على إثبات وحدانيته تعالى حيث يتألف من المقدمتين المشار إليهما سالفاً وهما: إنّ عالم الوجود منظم ومتربط الأجزاء وتحكمه قوانين معينه (هذا من جهة)

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٣٨

ولو كان فى العالم خالقان ومدبّران ومتصرّفان لحصل الخلل وعمت الفوضى نتيجة لتعدّد مراكز القرار والتدبير والتصرّف (من جهة ثانية).

والآية تشير فى ذيلها إلى أمر آخر بقولها: «وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ».

ويعدّ هذا سبباً فى اختلال النظام فى العالم واتّصافه بالفوضى وعدم الإنسجام.

وهنا- أيضاً- يثار هذا الإشكال فى الأذهان وهو: أن هذه الآلهة الحكيمية بإمكانها أن تنسّق برامجها فيما بينها بشكل لا يعرّض وحدة العالم إلى الإختلال وفقد النظام، وسيأتى- كما أسلفنا- الجواب على هذا الإشكال فى البحوث القادمة.

وتستنتج الآية الكريمة أخيراً من هذين الدليلين حيث تقول فى ذيلها: «سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ».

توضيحات

١- النظرة العلمية لوحدة عالم الخلق

عندما نلاحظ هذا العالم الواسع نراه على شكل موجودات متفرقة: الشمس، القمر، السماء، النجوم الثابتة والمتحركة، الإنسان، الحيوانات، أنواع النباتات والعناصر المختلفة، ولكن بعد قليل من الدقة والدراسة نجد أن ذرات هذا العالم مترابطة ومتصلة الأجزاء حتى تبدو وكأنها شيء واحد، وكلما تعمقت دراستنا وتركزت إزدادنا إيماناً بهذا التنسيق والإتحاد للأسباب التالية:

١- إن أجرام المجموعة الشمسية مترابطة فيما بينها إلى حدّ تكون فيه كاسرة واحدة كما هي عليه نظريات العلماء التي تعتقد أنها كانت في البداية شيئاً واحداً متّصل الأجزاء ثم انفصلت تدريجياً وبقيت مترابطة حتى بعد افتراقها. وتقول الأبحاث الفلكية في هذا المجال: إن مجموعتنا الشمسية غير مستقلة أيضاً، حيث إنها جزء من مجرة كبيرة تشكّل مع المجرات الأخرى مجموعة واحدة يعمل فيها

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٣٩

قانون الجاذبية حيث يجعلها كسلسلة مترابطة الحلقات كما يعتقد العلماء بأن هذه المجرات كانت بأجمعها شيئاً واحداً متّصلاً فانفصلت أجزاؤها تدريجاً.

٢- الأجسام المختلفة والمتباينة تماماً تتركب - كما يبدو بالتحليل النهائي لها - من عدد من العناصر المعينة وهي تلك - الموجودات البسيطة التي اكتشف منها أكثر من ١٠٠ عنصر لحدّ الآن، وهذه العناصر رغم اختلافها الشديد في الظاهر نراها عند تحليلها إلى أجزاء صغيرة - أي الذرة - أنها متشابهة والفارق فيها هو عدد الألكترونات والبروتونات.

٣- من العجيب أن يكون النظام الحاكم على هذه الذرة هو الحاكم على العالم الواسع أي المجموعات والمجرات أيضاً حيث تجمع قوة الجذب والطرده هذه السيارات في مجموعة واحدة أو الالكترونات في ذرة واحدة وفي مدارات خاصة تدور حول النواة الأصلية دون أن تنفصل عن بعضها أو تتجاذب فيما بينها.

٤- الكائنات في الأرض وإن بدت لنا متنوّعة، كما في الألوان التي نشاهدها شديدة الاختلاف فيما بينها إلّا أنّنا وبالتحليل النهائي نصل إلى أن كلّ الألوان ترجع إلى أمواج تختلف في شدّة ذبذبتها وطول أمواجها وقصرها.

٥- إنّنا نسمع أصواتاً مختلفة تماماً، ولكن علم الفيزياء الحديث يقول: بأنّ هذه الأصوات كلّها، الجميلة منها والقيحة، الخفيفة والصاخبة ترجع إلى مبدىء واحد هو عبارة عن أمواج خاصة تنشأ هذه الأنواع من اختلاف الذبذبة فيها.

٦- للأحياء أنواع كثيرة جداً، فالحشرات وحدها لها مئات الآلاف من الأنواع، والنباتات لها أنواع تفوق ذلك، غير أن علماء النبات والحيوان يقولون: إنّها مركّبة من مادّة واحدة، ومؤلفه من الخلايا التي يحكمها نظام واحد، ولذا تجرّب الأدوية التي يراد معرفة درجته تأثيرها في الإنسان على الحيوانات أولاً في الغالب.

٧- توصل العلماء من خلال تحليل النور المنبعث من الكواكب البعيدة والقريبة إلى هذه النتيجة وهي: أن العناصر التي تتركب منها الكواكب السماوية تشابه الأجزاء التي تتركب منها كرتنا الأرضية، وهذا يعني وجود تناسق عجيب حاكم على مجموعة الأجرام والنجوم في الكون.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٤٠

٨- القوانين المختلفة التي تحكم الكون مثل، قانون الجاذبية، وسرعة النور، وقانون الحركة وأمثالها توجد بنفسها في كلّ مكان وتتبع منهجاً واحداً، ولذا فإنّ العلماء ويأجرو تجارب على نموذج واحد أو عدّة نماذج في الأرض اكتشفوا قانوناً شاملاً يحكم عالم الوجود

كله، كما نجد أن «نيوتن» اكتشف قانون الجاذبية السارى فى كل المجموعات والمجرات من رؤية تفاحة تسقط من شجرة! وباختصار، كما قرأنا فى الآية الاولى من آيات هذا البحث، أننا لا نرى أى اختلاف فى خلق الرحمن ولا فطور أو خلل، وكلما تقدّم العلم والفكر البشرى كلما تجلّت عظمة هذه الآية وعمقها أكثر فأكثر، وهذا التناسق والوحدة دليل واضح على وحدة الخالق للعالم.

٢- إيضاح برهان التمانع

إشارة

إنّ برهان التمانع الذى يعبر عنه ب (برهان الممانعة) أو (برهان الوحدة والتناسق) يتألف من مقدمتين: الاولى: الإنسجام والوحدة والتناسق فى عالم الخلق الذى تقدّم بحته.

الثانية: لو كانت القوى الحاكمة على هذا الكون قوتين أو أكثر فإن ذلك سيؤدى إلى حدوث الاختلاف والإختلال، وبما أننا لا نلاحظ أى اختلال أو عدم تعادل فى هذا الكون والقوانين الحاكمة فيه، ندرك أنها تنشأ من مبدىء واحد وأنها مخلوقة ومدبرة ومنظمة من خالق واحد.

الآية الاولى من بين الآيات السابقة تشير فى الحقيقة إلى المقدمه الاولى، والآية الثانية والثالثة تشيران إلى المقدمه الثانية، ولذا قد يطلق على هذا البرهان: (برهان الوحدة والتناسق) بالنظر إلى المقدمه الاولى.

وقد يعبر عنه ب (برهان التمانع) بالنظر إلى المقدمه الثانية، وبناءً على ذلك فإنهما يرجعان إلى دليل واحد، غير أن النظر إليه يتم من زاويتين مختلفتين.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٤١

الإجابة عن سؤاليين:

السؤال الأول: إنّ هذا السؤال يُطرح من قبل الكثير وهو أنّ تعدّد المبدأ لا يكون سبباً لاختلال النظام دائماً فإننا نشاهد مجموعات تطبق برنامجاً صحيحاً ومتناسقاً بنجاح وذلك بالتشاور فيما بينها، فلو افترضنا أنّ للعالم آلهة فإنّ التعدّد هذا يكون منشأً للفساد فى العالم حين وقوع النزاع فيما بينها، ولكن إذا أقرنا أنّها حكيمة وواعية فإنّها تدبر أمور الكون بنظام خاصّ وبتعاون فيما بينها حتماً.

الجواب: هذا السؤال والإشكال وإن كان ملفتاً للنظر ابتداءً ولكنه يتضح بعد التدقيق أنّه ناشىء من عدم ملاحظة مفهوم (التعدّد).

وللتوضيح نقول: إنّنا عندما نقول آلهة متعدّدة فإنّها تعنى أنّها ليست واحدة من كلّ جهة، فلو كانت واحدة من جميع الجهات فإنّها تكون ذات وجود واحد، وبعبارة اخرى: أينما وجد التعدّد والإثنية وجب أن نقرّ بوجود اختلاف فى الأمر، وإلاّ فإنّه من المستحيل أن يكون الموجودان واحداً من جميع الجهات.

ومن جهة اخرى يوجد (تناسب) و (سوخية) بين (الفعل) و (الفاعل) دائماً، فكلّ فعل يكون من آثار فاعله ويتّصف بلونه - شئنا أم أبينا - وبهذا يستحيل أن يصدر فعلان من فاعلين ثم يكونان واحداً من جميع الجهات، كما يستحيل أن يكون الفاعلان متساويين من حيث الإرادة والعمل، واختلافهما فى الوجود يترك أثره على إرادتهما وعملهما حتماً.

النتيجة هى أنّه لا يمكن أن يصدر نظام واحد وخال من الإثنية من مبدأ متعدّد.

وأما ما يقال عن الأعمال الجماعية فلا بدّ أن نلتفت إلى أنّ هذه الأعمال وإن اتّصفت بنظام نسبي إلاّ أنّها لا تتّصف بنظام حقيقى ومطلق حيث يتنازل المتشاورون عن بعض آرائهم ورغباتهم للتعاون فيما بينهم لا أنّ رغباتهم وآراءهم واحدة دائماً، إضافةً إلى أنّ الأنظمة القائمة على الشورى قليلاً ما تعمل بصورة متّفقة، بل إنّها تتّبع النسبة الغالبة عادةً وهذا دليل على صحّة ما ندّعيه.

إضافةً إلى أن هذه الغالبية لا تكون أشخاصاً ثابتين دائماً بل متغيّرين، فتارةً تكون

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٤٢

الغالبية أربعة أشخاص من سبعة أشخاص، وتارةً أحد هؤلاء مع ثلاثة آخرين، وبما أن الغالبية متغيّرة فلا يمكن إذن أن تكون أعمالها واحدة.

بهذه الأدلّة الثلاثة تتّصف هذه الأنظمة القائمة على الشورى بشيء من عدم الانسجام ولكّنها بسبب القناعة بالنظام النسبي يقال أنّها منظمة! لكننا لا نرى في عالم الوجود نظاماً نسبياً بل نظاماً واحداً وانسجاماً كاملاً وتاماً.

وبعبارة أخرى: لو افترضنا وجود مبدئين للكون فإنّهما إمّا متساويان من جميع الجهات (فهما إذن واحد) أو مختلفان ومتباينان من جميع الجهات (حينئذٍ يكون تقابل في خلقهما وتدييرهما) ولو كانا متشابهين من بعض الجهات ومختلفين في البعض الآخر فإنّ هذا الاختلاف والتمايز سوف يترك أثره على أفعالهما لأنّ الفعل انعكاس لوجود الفاعل وظلّ وجوده.

السؤال الثاني: وي طرح هنا سؤال ثانٍ بملاحظة جملة (ولعلا بعضهم على بعض) التي جاءت في الآيات المذكورة وهو: كيف يمكن وقوع النزاع بين آلهة يفترض أنّها حكيمة؟

ويميل بعضها للتغلب على البعض الآخر؟ ولماذا يفترضهما المفسرون كسلطانين أنانيين في زمن واحد يتنازعان بصورة دائمة لتضارب المصالح؟

الجواب: ينشأ هذا السؤال من أنّهم تصوّروا أنّ الاختلاف بين المبدئين يجب أن ينشأ من هوى النفس والأنانية دائماً، في حين يمكن أن ينشأ الاختلاف من الاختلاف في التشخيص والقرار والإرادة بين شخصين مهما كانا.

ويلزم أن نكسر هذه الحقيقة ونؤكّد عليها وهي: أنّنا حينما نفترض وجود مبدئين للكون فإنّ الإثنية تعنى أنّهما وجودان مختلفان من بعض الجهات تماماً وإلاّ فإنّ وجودهما واحد، وبهذا لا يمكن أن يكون فعلهما واحداً وعليه فإنّ هذا الإله يجعل تكامل الكون ونظامه وتدييره الصحيح في شيء في حين يجعل الثاني النظام والتكامل في شيء آخر، ومن الخطأ الكبير أن يتصوّر أنّهما كاملان من جميع الجهات، فإنّ افتراض الإثنية يعنى

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٤٣

افتقاد كلّ واحد منهما كمالات الآخر المختصّة به، فلا يتصوّر لهما حينئذٍ الكمال المطلق، بل إنّ نقصانهما النسبي حتمي، فلا عجب في أن يختلفا في العمل والإرادة والقدرة، ورغبة كلّ واحد في إدارة الكون وفق ما يراه أيضاً كاملاً.

٣- برهان الوحدة والتمانع في الروايات الإسلامية

لقد ورد الدليل أعلاه بشكل واضح ومختصر في الروايات الإسلامية، حيث جاء في حديث أن هشام بن الحكم سأل الإمام الصادق عليه السلام: ما الدليل على أن الله واحد؟

فأجاب الإمام عليه السلام: «اتّصال التدبير وتماص الصنع كما قال الله عزّ وجلّ: لو كان فيهما آلهة إلاّ الله لفسدتا» (١).

وفي حديث آخر نقله الكليني رحمه الله في الكافي عن هشام أن الإمام الصادق عليه السلام قال في مسألة التوحيد جواباً للرجل الزنديق: «لما رأينا الخلق منتظماً والفلك جارياً والتدبير واحداً والليل والنهار والشمس والقمر دلّ صحّة الأمر والتدبير واتّلاف الأمر على أن المدبّر واحد» (٢).

(١) تفسير البرهان، ج ٣، ص ٥٥، ح ٢.

(٢) المصدر السابق، ح ١.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٤٥

٣- دليل صرف الوجود

تمهيد:

إنَّ الله سبحانه وتعالى يمثل وجوداً لا نهاية له من كل جهة- كما سيأتى شرحه لاحقاً- ومن المؤكّد أنّ مثل هذا الوجود لا سبيل للإثنية إليه، فمن غير الممكن وجود موجودين لا نهائيين، لأنّ الحديث إذا كان عن الإثنية فإنّ كلّ واحد يكون فاقداً للوجود الثانى وبتعبير آخر أننا نصل إلى حدّ ينتهى فيه الوجود الأوّل ويبدأ وجود الثانى، وعليه فإنّ الوجود الأوّل محدود وهكذا الوجود الثانى لأنّ كلّ واحد يكون ذا بداية ونهاية، ولنوضّح هذه القضية بمثال:

شخصان يملك كلّ واحد منهما بستاناً، ومن الطبيعى والحتمى أنّ لكلّ بستان حدوداً معينة، ولو فرضنا أنّ مساحة البستان الأوّل تشمل كلّ الأرض فأين تكون مساحة البستان الثانى؟ إذن، سيكون أمامنا بستان واحد فى الأرض. وعليه فإنّ الحديث عن اللامحدود يعنى الحديث عن الوحدة.

والمراد من برهان (صرف الوجود) هو أنّ الله سبحانه وجود مطلق ومجرّد عن القيد والشرط وغير محدود، ولا يفترض الثانى له أبداً. بهذا التمهيد نتوجه إلى القرآن الكريم ونستمع خاشعين إلى الآيات التالية:

١- «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ». (آل عمران / ١٨)

٢- «لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ* هُوَ الْأَوَّلُ

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٤٦

وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ». (الحديد / ٢-٣)

٣- «يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ». (يوسف / ٣٩)

جمع الآيات وتفسيرها

الله شاهد على وحدانية ذاته:

تمّ تفسير آية البحث الاولى فى مباحث (برهان الصديقين) السالفه ونمرّ عليها هنا باختصار.

إنّ مضمون هذه الآية هو أنّ الله عزّوجلّ يشهد على وحدانيته وكذلك الملائكة والعلماء (كلّ واحد بشكل): «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ».

ومن علامات وحدانية ذاته المقدّسه هى حاكمية النظم والعدل على الكون، ولعلّ الآية تشير إلى هذا الجانب فى ذيلها: «قَائِمًا بِالْقِسْطِ» ثمّ تستند إلى وحدانية ذاته المقدّسه مرّة اخرى وتقول: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

ومن البديهى أنّ لو كانت ثبوت آلهة تحكّم الكون، فإنّ منطقته كلّ إله لا تكون فى اختيار الثانى، وبتعبير آخر يكون كلّ واحد فاقداً لقدرة الثانى، وهذا لا ينسجم اتّصافه ب (العزیز).

كما أنّ حكمتها التى تحكّم العالم آية اخرى على وحدانيته، فلو تعدّدت الأكوان كانت نهايتها الفساد والدمار.

أمّا كيفية شهادة الملائكة بوحدانية الله عزّوجلّ فإنّها واضحة، ولكن هناك كلام بين المفسّرين حول كيفية شهادة الله على وحدانية

ذاته، فبعض يقول: المراد هو الشهادة اللفظية التي وردت في آيات قرآنية مختلفة، وبعض يقول: إن آثار وحدانيته ظاهرة في عالم الوجود في الآفاق والأنفس لأن النظام الواحد هو الحاكم على الجميع وهذا هو معنى شهادة الله على وحدانيته. إن كل ذلك صحيح، ولكن تضاف إليها شهادة أخرى وتستحق التفصيل فيها وهي أن ذاته المقدسة بنحو أبي التعدد، وجود لا نهاية له، والوجود اللانهائي واحد فقط، فذاته إذن دليل

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٤٧

على وحدانيته ذاته (فتأمل جيداً).

ولا منافاة- طبعاً- بين التفسيرات الثلاثة ويمكن أن تكمن في مفهوم الآية، وعليه فإن إصرار بعض المفسرين مثل صاحب (الميزان) في أن تفسير الآية ينحصر في المعنى الأول (الشهادة اللفظية) مع ملاحظة إطلاق لفظ الآية مما لا يوجد دليل واضح عليه. أما السبب في تكرار جملة (لا إله إلا الله) في الآية، فالظاهر هو أن الأولى بمثابة المقدمة، والثانية النتيجة، ولعل في الرواية التي وردت في تفسير القرطبي (المفسر السنّي المعروف) عن الإمام الصادق عليه السلام إشارة إلى هذا المعنى حيث يقول فيها: الأولى وصف وتوحيد، والثانية رسم وتعليم يعني «قولوا لا إله إلا الله العزيز الحكيم» (١).

هو الأول والآخِر والظاهر والباطن:

الآية الثانية وهي من الآيات الأولى من سورة الحديد- ونعلم أن هذه الآيات تتضمن بياناً دقيقاً وظريفاً عن صفات الله الجمالية والجلالية لذوى الأفكار الثاقبة، كما يستفاد من الحديث الوارد عن الإمام على بن الحسين عليه السلام- يقول عز وجل: «لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» (٢)

ولذلك فإن الحياة والموت في قبضته أيضاً: «يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

وعليه فإن المدير والمدبر لهذا الكون هو ذاته المقدسة فقط.

وفي ذيل الآية توجد قضية يمكن أن تكون دليلاً على التوحيد في مالكيته وحاكميته وتديره حيث تقول: «هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ».

في هذه الآية بيان لخمس صفات من صفاته المقدسة وتدلل بمجموعها على أن ذاته المقدسة لا نهاية لها، فهو أول كل شيء، وآخر كل شيء، وهو الموجود في الظاهر والباطن،

(١) تفسير القرطبي، ج ٢، ص ١٢٨٥.

(٢) لاحظ أن في تقديم (له) إشارة إلى الحصر، ويعني أن ملك السماوات والأرض منحصر في ذاته المقدسة.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٤٨

وله الحضور العلمي في كل مكان، وأن مثل هذا الموجد لا يتصور أن يكون له ثان، فلو كان الإله الثاني موجوداً فإنه يعني أن الإثنين محدودان وذلك لانتهاء كل واحد عندما يصل إلى الآخر، ويبدأ الثاني.

إذن عدم محدوديته دليل على وحدانيته.

يقول الفخر الرازي في تفسيره: استدلل الكثير من العلماء على إثبات وحدانيته بعبارة:

(هو الأول) (١).

وقد كثر الكلام حول مفهوم (الأول والآخِر والظاهر والباطن) وستأتي لاحقاً أبحاث الصفات الثبوتية بإذن الله، وينبغي أن نذكر هنا

هذه النقطة وهي: أن الأول في الموجودات المحدودة لا يمكن أن يكون آخرًا وما كان آخرًا لا يكون أولًا، كما أن الوجود الظاهر لا يكون باطنًا، والوجود الباطن لا يكون ظاهرًا، وعندما يكون الحديث عن اللامحدود فإن هذه المفاهيم تكون مجتمعة فيه. الآية الثالثة والأخيرة التي وردت في بحثنا تتحدث عن لسان يوسف عليه السلام عندما فسّر للسجينين معه مناميهما بعد أن طلبا التفسير منه وتشير إلى أن يوسف عليه السلام عرج من كلامه عن الحلم وتفسيره إلى البحث عن التوحيد الذي يتضمّن أصل السعادات برمتها وقال لهما:

«يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَرَأَيْتَ أَزْرَابًا مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ».

والملاحظ أن صفة (قهار) قد تكررت في القرآن الكريم ستّ مرّات «٢» وقد وردت في كلّ مورد بعد الصفة (واحد) ممّا يدلّ على وجود علاقة بينهما وأنّ قاهريته دليل على وحدانيته (فتأمل جيّدًا).

قام يوسف عليه السلام بطرح المسألة أولًا على وجدانيهما، وبما أن حقيقة التوحيد - كما أشرنا سالفًا - كامنة في أعماق الفطرة الإنسانية فقد أقام المحكمه بين يدي الوجدان وسأل:

(١) تفسير الكبير، ج ٢٩، ص ٢١٣ (وجاء هذا المضمون في تفسير روح البيان، ج ٩، ص ٣٤٧ أيضًا).

(٢) الرعد، ١٦؛ إبراهيم، ٤٨؛ ص، ٦٥؛ الزمر، ٤؛ غافر، ١٦ وآية البحث.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٤٩

أرباب متفرّقون، إله البحر، إله الصحراء، إله الأرض، إله السماء، إله الماء، إله النار، وهكذا الملائكة والجنّ والفراعنة والأصنام الحجرية والخشبية والمعدنية التي تعبدونها خير أم الله الواحد المهيمن على كلّ شيء؟ وكلمة (قهار) صيغة مبالغة من (القهر) ويعنى كما يقول الراغب في المفردات: الغلبة وإذلال الطرف المقابل، ولكن هذا اللفظ يستعمل في كلّ واحد من هذين المعنيين (الغلبة والإذلال) مستقلًا، وكما يقول الطبرسي رحمه الله في مجمع البيان:

«القاهر هو القادر الذي لا يمتنع عليه شيء» «١»، من هنا تتضح العلاقة بين صفة الوحدة والقاهريّة، فحينما ندعن بقدرته الغالبة على كلّ شيء أي أنّها غير محدودة فإننا لا- نصوّر له ثانيًا، لأنّ كلّ ما سواه مغلوب له ومقهور، ولذلك لا يمكن أن يكون ما سواه واجب الوجود وغير محدود (فتأمل جيّدًا).

توضيحات

١- إنه حقيقة لا متناهية

القضية الأولى والأكثر أهميّة في باب (صفات الله) الواجب إثباتها لإيضاح مسألة التوحيد وصفات الله الأخرى كالعلم والقدرة وأمثالها هي أن ذاته المقدّسة لا متناهية، فإن ثبتت هذه القضية وفُهمت جيّدًا تيسّر الطريق إلى جميع الصفات الجمالية والجلالية (الصفات الثبوتية والسلبية).

ولإثبات هذا الأمر وهو أنه تعالى وجود لا نهاية له، لابدّ من ملاحظة النقاط التالية:

(أ) محدودية الوجود تعنى التقارب مع (العدم) فلو لا العدم لا يستقرّ مفهوم للمحدودية، فعندما نقول: إنّ عمر فلان محدود فإنّه يعنى أن عمره سينتهى إلى العدم ومقرون بالعدم، وهكذا بالنسبة لمحدودية القدرة أو العلم وأمثالها.

(ب) الوجود ضدّ العدم ولو كان الشيء مقتضياً للوجود ذاتاً فإنّه لا يقتضى العدم أبداً.

(ج) ثبت في برهان العلة والمعلول أن سلسلة العلة والمعلول في هذا الكتاب يجب أن

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ٤٠٣.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٥٠

تنتهي إلى نقطة ثابتة وأزلية نسميها واجب الوجود، أي وجوده ناشىء من أعماق ذاته لا خارجها، وعليه تكون العلة الأولى للكون تقتضى الوجود ذاتاً.

أعد قراءة هذه المقدمات الثلاث بدقّة وفكر فيها جيّداً، فسوف يتّضح أنّ واجب الوجود إذا تحدّد فإنّه يجب أن يكون من الخارج، لأنّ المحدودية طبق هذه المقدمات تعنى الاقتران بالعدم، والشىء المقتضى للوجود ذاته لا يقتضى العدم أبداً، ولو اتّصف بالمحدودية فإنّه راجع إلى عامل خارجي، ويستلزم هذا القول أنّه ليس واجب الوجود لأنّه مخلوق لغيره من حيث حدّه الوجودي ومعلول لغيره.

وبعبارة أخرى: لدينا واجب الوجود دون شكّ (لأنّ البحث في التوحيد والوحدانية بعد إثبات واجب الوجود) فإن كان واجب الوجود غير محدود فمدعانا ثابت، وإن كان محدوداً فإنّ هذه المحدودية ليست مقتضى ذاته أبداً، لاقتضاء ذاته الوجود دون اقتران بالعدم، فلا بدّ من فرضه عليه من الخارج، ومفهوم هذا الكلام هو وجود علة خارج ذاته وهو معلول تلك العلة، وبهذا الحال لا يكون واجب الوجود، والنتيجة هي أنّه وجود غير محدود من كلّ جهة.

٢- الحقيقة اللامتناهية واحدة قطعاً

ثبت في البحث السابق أنّ الله عزّ وجلّ وجود غير محدود وغير متناهٍ، وهنا نقول: أنّ مثل هذه الحقيقة تأبى الإثنية ولا تكون إلا واحدة لما قلنا مراراً أنّه لا يمكن تصوّر شيئين غير محدودين أبداً، حيث تقتزن الإثنية بالمحدودية دائماً وهذا أمر واضح لأنّ تصوّر الوجودين ممكن حينما يكون كلّ وجود منفصلاً عن الآخر، فكلّ واحد ينتهى عند الوصول إلى الثاني ويبدأ الآخر.

واختبار هذا الأمر يسير، تصوّر على سبيل المثال ضوءاً غير مقيد أو مشروط بزمان أو مكان أو سعة أو مصدر وغير محدود من أيّة جهة، فهل يمكنك أن تتصوّر ضوءاً ثانياً مثيلاً له؟! بالتأكيد سيكون الجواب: كلاً، لأنّ كلّ ما تتصوّره هو الأوّل إلّا أن تضيف إليه شرطاً أو قيداً وتقول: الضوء هنا أو هناك من هذا المصدر أو ذاك.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٥١

وبعبارة أخرى عندما نقول: يوجد ضوءان في الخارج فإنّه إمّا بملاحظة زمنيتهما أو مكانيتهما أو مصدريهما أو شدة نوريتهما، ولو تجرّدا من كلّ قيد أو شرط فإنّهما سيكونان واحداً قطعاً (فتأمل جيّداً).

ولعلّ الآية الكريمة التي تقول: «وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ آخَرَ لَابْرَهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَأَيْفُلِحُ الْكَافِرُونَ». (المؤمنون/ ١١٧) تشير إلى هذا المعنى حيث لا يمكن الاستدلال على وجود ندّ لله سبحانه أبداً، فكيف يمكن الاستدلال على أمر لا يمكن تصوّره؟

٣- دليل صرف الوجود في الأحاديث الإسلامية

إنّ البرهان المذكور نقل بقول جميل في رواية عن الإمام السجّاد عليه السلام حيث قال: «إنّ الله لا يوصف بمحدودية، عظم ربنا عن الصفة وكيف يوصف بمحدودية من لا يُحد» (١).

ونقرأ في حديث آخر عن الإمام الرضا عليه السلام: «هو أجلّ من أن تدركه الأبصار أو يحيط به وهم أو يضبطه عقل» فسأل سائل: فما حدّه؟ فقال عليه السلام: «إنّه لا يحدّ، قال: لِمَ؟ قال عليه السلام: لأنّ كلّ محدود متناه إلى حدّ، فإذا احتتم التحديد احتتم الزيادة، وإذا احتتم الزيادة احتتم النقصان، فهو غير محدود، ولا متزايد ولا متجزّء ولا متوهّم» (٢).

(١) اصول الكافي، ج ١، ص ١٠٠، باب النهي عن الصفه، ح ٢.

(٢) بحار الأنوار، ج ٣، ص ١٥، ح ١.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٥٣

٤- دليل الفيض والهداية

إشارة

(دعوة الأنبياء جميعاً إلى الله الواحد)

تمهيد:

إنّ الله سبحانه وجود كامل، ومثل هذا الوجود يكون مصدراً للفيض على الموجودات وكمالها، فهل يعقل أنّ مصدر الكمال يحرم الموجودات الاخرى من فيضه ولا يعرفهم - على الأقل - نفسه؟ مع أنّ هذه المعرفة سبب لرفيتهم وكمالهم يدفعهم نحو ذلك الوجود الكامل والفياض.

وعلى ضوء هذا البيان يتضح أنّه لو كان هناك عدّة آلهة لوجب أن يكون لكلّ إله منهم رسل، وأن يعرف نفسه إلى مخلوقاته، وأن يشملهم بفيضه التكويني والتشريعي.

والنتيجة هي: أنّنا لو وجدنا أنّ الرسل بأجمعهم يخبرون عن إله واحد، لا يتضح أنّ غيره لا وجود له.

بهذا التمهيد نرجع إلى القرآن الكريم ونمعن خاشعين في الآيات الكريمة التالية:

١- «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ».

(الأنبياء / ٢٥)

٢- «وَاسْتَلْ مِنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبُدُونَ».

(الزخرف / ٤٥)

٣- «قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ اتَّخَذُوا مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْثَانَةً مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» (الأحقاف / ٤)

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٥٤

جمع الآيات وتفسيرها

دعوة الأنبياء العامة إلى الله الواحد:

إِنَّ الْآيَةَ الْاُولَى فِي بَحْثِنَا هَذَا تُشِيرُ إِلَى تَارِيخِ الْمَاضِينَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَتَقُولُ: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ».

أَجَلٌ فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ جَمِيعًا كَانُوا يَنَادُونَ بِالتَّوْحِيدِ وَيَدْعُونَ النَّاسَ إِلَى اللَّهِ الْوَاحِدِ وَيَشْهَدُ تَارِيخُهُمْ بِهَذَا الْأَمْرِ، فَكَيْفَ يَعْقِلُ أَنْ يَكُونَ لِلشَّرْكَ حَقِيقَةٌ وَجَمِيعُ الْأَنْبِيَاءِ يَدْعُونَ إِلَى التَّوْحِيدِ؟!

فَهَلْ كَانَ هُنَاكَ إِلَهٌ آخَرَ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَعْرِفْ نَفْسَهُ؟ أَوْ أَنَّ الرِّسْلَ قَصَّرُوا فِي إِبْلَاحِ أَمْرِهِ؟ وَالْعَقْلُ السَّلِيمُ لَا يُقَرَّرُ بِقَوْلٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقْوَالِ. وَكَمَا يَقُولُ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ: يَقُومُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ فِي آيَاتِ هَذِهِ السُّورَةِ (الْأَنْبِيَاءِ) بِالِاسْتِدْلَالِ الْعَقْلِيِّ أَوَّلًا لِإثْبَاتِ التَّوْحِيدِ: «لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ...»، ثُمَّ بِالدَّلِيلِ النَّقْلِيِّ (آيَةُ الْبَحْثِ) حَيْثُ دَعَا جَمِيعُ الْأَنْبِيَاءِ الْمَاضِينَ إِلَى التَّوْحِيدِ «١».

أَمَّا الْآيَةُ الثَّانِيَةُ فَهِيَ: تَطْرَحُ هَذَا الْمَضْمُونُ فِي إِطَارٍ آخَرَ حَيْثُ تَخَاطَبَ النَّبِيُّ الْأَكْرَمُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ (الْمُرَادُ هُمُ النَّاسُ طَبْعًا) وَتَقُولُ: «وَأَسْئَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مَنْ رُسُلِنَا أَجْعَلُنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ».

وَقَدْ احْتَمَلَ الْمَفْسِّرُونَ عِدَّةَ احْتِمَالَاتٍ فِي كَيْفِيَةِ أَمْرِ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِأَنْ يَسْأَلَ الْأَنْبِيَاءَ السَّابِقِينَ مَعَ عَدَمِ حُضُورِ أَحَدِهِمْ فِي عَصْرِهِ، فَقَدْ قَالَ الْبَعْضُ: إِنَّ الْمُرَادَ هُوَ السُّؤَالُ مِنَ الْأُمَّمِ السَّابِقَةِ كَيْ تَتَبَّحَ الْقَضِيَّةُ عَنْ طَرِيقِ الْخَبَرِ الْمُتَوَاتِرِ، فَالْأَمْرُ حَتَّى التِّي تَعْتَقِدُ بِالتَّثْلِيثِ وَأَمْثَالِهِ، عِنْدَمَا تَسْأَلُ عَنْ ذَلِكَ فَإِنَّهَا تَعْلَنُ عَنْ اعْتِقَادِهَا بِالتَّوْحِيدِ وَتَعْبُرُ عَنْ ذَلِكَ بِ (التَّثْلِيثِ فِي الْوَحْدَةِ).

(١) تفسير القرطبي، ج ٦، ص ٤٣٢٠.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٥٥

وهذه الآية تعطى - في الحقيقة - مفهوم الآية التالية حيث خاطبه تعالى بقوله: «فَأَسْئَلِ الَّذِينَ يَفْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ». (يونس / ٩٤) وقد احتمل هذا أيضاً وهو: أن المراد هو مراجعته كتبهم المتبقية في أممهم، فإن استخراج القضايا منها بمثابة السؤال عن اولئك الأنبياء. وقال جماعة أيضاً: إن المراد هو سؤال النبي صلى الله عليه وآله من أرواح الأنبياء عليهم السلام السابقين ليله المعراج بل في غير ليلة المعراج، لأن روح نبي الإسلام صلى الله عليه وآله من العظمة ما لا يعيقها البعد الزمني والمكاني فكان بإمكانه أن يتصل بأرواح الأنبياء السابقين.

وبما أن الهدف الرئيس من الآية هو الاستدلال أمام المشركين، فقد كان المعنى الأول والثاني هو المناسب وذلك لأن الارتباط المعنوي للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله مع أرواح الأنبياء السابقين لم يتقبله المشركون وكان مفيداً للنبي صلى الله عليه وآله نفسه، وإننا نعلم أن إيمان النبي بالتوحيد كان بدرجة لا يحتاج فيها إلى طرح مثل هذا السؤال نفسه.

والتفسير الثالث يمكن أن يكون من التفسير الباطني للآية وقد تضمنت روايات متعددة الإشارة إلى ذلك «١».

على كل حال فإن المراد هو أن دعوة نبي الإسلام صلى الله عليه وآله إلى التوحيد ليس أمراً جديداً أو عجيباً بل أمر قد اتفق عليه جميع الأنبياء الإلهيين وهذا بنفسه دليل واضح على قضية التوحيد.

والاستناد إلى الاسم المقدس (الرحمن) في هذه الآية إشارة إلى أن من يستحق العبودية هو الإله الذي تشمل رحمته العاقية حتى الكافرين المشركين والبشر جميعاً، فكيف يمكنهم أن يتركوا ولي نعمتهم الذي غمرهم إحسانه ويتوجهوا إلى الأصنام الخاوية؟

هل تمتلكون دليلاً على الشرك؟!

إِنَّ الْآيَةَ الثَّلَاثَةَ وَالْآخِرَةَ صَمَّتِ الدَّلِيلَ النَّقْلِي الْمَذْكُورَ إِلَى جَانِبِ دَلِيلِ عَقْلِي آخَرَ إِذْ

(١) تفسير البرهان، ج ٤، ص ١٤٧؛ تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٦٠٦-٦٠٧.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٥٦

تقول: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ».

فلو كانت تلك المعبودات معبودات حقيقية فإنها ينبغي أن تكون مبدأ للفيض، وعلى الأقل أن تخلق قسماً من الأرض وتساهم في خلق السماوات، فهل يعقل أن يكون الإله فاقداً للفيض؟

ومن جهة أخرى: أي نبي دعا الناس إلى آلهة متعددة؟: «أَتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

وهذا التعبير يشير إلى أن الأنبياء عليهم السلام أجمعوا على التوحيد، وهذا الإجماع أو الاتفاق دليل واضح على القضية، وبهذا يكون كتاب الخلق دليلاً على التوحيد وكذلك كتب الأنبياء السابقين.

«أثارة من علم»: من مادة (أثر) ولهذا اللفظ - كما في (مقاييس اللغة) - ثلاثة معانٍ:

التقديم، الذكر وأثر الشيء.

وقد ورد هذا المضمون في تفسير الفخر الرازي ولكن بتعبير آخر حيث ينقل المعاني الثلاثة ل (اثر) «١».

توضيحات

١- الفيض والهداية في الروايات الإسلامية

ورد (برهان الهداية والفيض) في الروايات الإسلامية إلى جانب القرآن الكريم، فقد تحدّث الإمام علي عليه السلام في وصيته المعروفة إلى الإمام الحسن عليه السلام عن هذا البرهان بيان جميل وواضح حيث قال: «واعلم يا بني أنه لو كان لربك شريك لأتتك رسله، ولرأيت آثار ملكه وسلطانه، ولعرفت أفعاله وصفاته ولكنّه إله واحد كما وصف نفسه» «٢».

(١) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، مادة (أثر).

(٢) نهج البلاغة، الرسالة ٣١.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٥٧

توضيحه: إنّ الله حكيم، والإله الحكيم له آثار الهداية والفيض حتماً، في عالم التكوين والخلق وفي عالم التشريع والدين، فكيف يمكن أن يوجد إله آخر ولا نرى آثار صنعه في ساحة الوجود ولا نشاهد علامة من رسله؟ وهذا لا ينسجم مع حكمته أبداً لأنّ في ذلك حرمان البشر من معرفته وعظمته وقدرته.

ثمّ إنّ دعوة الأنبياء المرسلين من قبل الله جميعاً لا تنسجم مع فرض وجود إلهين، فهل يعقل أن يطرح الإله الذي يرسل الأنبياء قضية غير صحيحة ويدعو إلى التوحيد كذباً؟! فهذا لا ينسجم مع حكمته أيضاً.

ولا ينحصر طريق إثبات وحدانية الله في هذا الدليل فقط لوجود أدلة أخرى أشرنا إليها سابقاً، أمّا إجماع الأنبياء عليهم السلام واتفاقهم على الدعوة إلى الله الواحد فهو يعدّ دليلاً مستقلاً.

٢- برهان التركيب

ذكر الفلاسفة وعلماء الكلام دليلاً خامساً على إثبات وحدانية ذات الله المقدسة ولم نعر على آية قرآنية تصرح بذلك، ولذا نوره على شكل إيضاح في ختام هذا البحث و خلاصته:

لو كان لله مثيل فهما متشابهان من حيث الوجود ولكنَّ إثنيتهما توجب أن تكون لكل واحد منهما خصوصيات، وبهذا يكون كل واحد مركباً من جزأين، (ما به الاشتراك) و (ما به الإمتياز) وحينئذ لابد أن ندعن بأن كل واحد منهما محتاج إلى أجزائه، لأن المركب لا يكون بدون أجزائه، ولو كان محتاجاً فإنه لا يكون واجب الوجود، لأن واجب الوجود والمبدي الأول للكون غنى عن كل شىء.

فهو إذن لا مثيل له كما أنه لا أجزاء له، ولو كان له مثيل فإنه سيكون ذا أجزاء قطعاً، فهو إذن وجود بسيط من كل جهة ولا شريك ولا مثل له من كل جهة.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٥٨

٣- التوحيد والأدلة النقلية

إن الأدلة الخمسة المذكورة هي أدلة عقلية لإثبات وحدانية ذات الله المقدسة، ويمكن هنا الاستفادة من الدليل النقلى أيضاً، لأنه بعد إثبات وجود الله وإثبات نبوة رسول الإسلام صلى الله عليه وآله وصدق دعوته، فإن ما جاء فى هذا الكتاب السماوى (أى القرآن الكريم) هو تبيان للحقائق التى لا تُنكر، هو رسول صادق ومعصوم ومبعوث من قبل الله الحكيم والصادق، ومثل هذا الإنسان لا يقول قضية خاطئة.

من هنا يمكن الإستعانة بآيات القرآن التوحيدية لإثبات وحدانية ذات الله المقدسة، والقرآن الكريم زاخر بهذه الآيات، بل إن أى موضوع لم يتكرر بتعابير مختلفة مثل هذا الموضوع ولم يتأكد صفة من صفات الله إلى هذا الحد.

يقول المرحوم العلامة المجلسى قدس سره فى بحار الأنوار لدى استدلاله بهذا الدليل.

من الواضح أن وجود الدليل النقلى لا يتعارض مع الاستدلالات العقلية (الأدلة السمعية من الكتاب والسنة وهى أكثر من أن تحصى ولا محذور فى التمسك بالأدلة السمعية فى باب التوحيد وهذه هى المعتمد عليها عندي) «١».

خاصة وأن الأدلة العقلية المذكورة لها جذور فى الكتاب والسنة الشريفة.

(١) بحار الأنوار، ج ٣، ص ٢٣٤.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٥٩

مصادر الشرك الهامة

إشارة

١- إتباع الأوهام

٢- إتباع الحواس

٣- المصالح الوهمية

٤ و ٥- عاملى التقليد والاستعمار

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٦١

١- إبتاع الأوهام

تمهيد:

بما أن الفطرة الإنسانية- كما أسلفنا في بداية بحث التوحيد- قد نشأت على التوحيد والوحدانية، كما أن الأدلة العقلية والنقلية الواضحة تعزّر هذه الفكرة، فإن هذا السؤال يطرح نفسه وهو: ما السبب في أن ينبت الشرك وينمو كالشوك في طريق معرفة الله لدى الإنسان؟ وما هي جذور هذا الانحراف الكبير أو الانحراف الفكري الأكبر لدى الإنسان؟

من خلال دراسة تاريخ الأنبياء عليهم السلام والاقوام البشرية المختلفة وادعاءات عبدة الأوثان على مرّ التاريخ نستطيع كشف الستار عن الجذور الأساسية للشرك، ومن المسلم أن معرفة مصادر وجذور الشرك ستكون عاملاً مساعداً ومؤثراً في مواجهة هذه الآفة الكبرى لأن معرفة أسباب أى مرض تكون كفيلاً بعلاج ذلك المرض.

وبهذا التمهيد نراجع القرآن الكريم لتأمل الآيات التالية:

- ١- «وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ». (المؤمنون / ١١٧)
- ٢- «مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ». (يوسف / ٤٠)
- ٣- «وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ». (الحجج / ٧١)

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٦٢

- ٤- «أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ». (يونس / ٦٦)
- ٥- «وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنْ الظَّنَّ لَأِيْغُنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ». (يونس / ٣٦)
- ٦- «إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ». (النجم / ٢٣)
- ٧- «أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِي وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ». (الأنبياء / ٢٤)

شرح المفردات:

«الظن»: يعنى - كما يقول الراغب في المفردات-: الحالة الحاصلة من ملاحظة علامة شىء، فإن قوى صار علماً وإن كان ضعيفاً فإنه لا يتجاوز حدّ الوهم، وأمّا ابن منظور فإنه يقول في لسان العرب: يستعمل الظنّ بمعنى الشكّ واليقين كليهما إلا أنه ليس اليقين الحاصل بالنظر بل بالتدبر، وأمّا الحاصل عن طريق المشاهدة فإنه يطلق عليه ب (العلم).

ويقول ابن الأثير في النهاية: إنّ الظنّ يستعمل تارة بمعنى العلم واخرى بمعنى الشكّ وتارة بمعنى التهمة.

وقد استعمل هذا اللفظ في آيات البحث بمعنى الأوهام الواهية وعديمة الأساس (الآيات نفسها تتضمن قرائن على هذا المعنى وستتم الإشارة إليها).

«خرص»: على وزن (غرس) يعنى كما يقول صاحب (صحاح اللغة) تخمين وزن التمر الذى يحصل من رطب النخيل، كما أورد

الراغب هذا المضمون في مفرداته.

ثم أطلق على كلّ حدس وتخمين وبما أنّهما لا يصيبان دائماً، فإنّه استعمل بمعنى الكذب أيضاً، وهذا اللفظ يطلق في الأساس على كلّ ظنّ لا أساس راسخ له.

كما أنّ هناك معانٍ أخرى لمشتقاته مثل (الرمح) (الحلقة) و (الحوض الكبير الذي يكون نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٦٣

على ساحل النهر ويدخل فيه ماءه ويرجع منه) ولا- يبعد أن ترجع هذه المعاني كلّها إلى الجذر نفسه حيث يقترن التخمين والظنّ بالتزلزل وعدم الثبات ويتّصف الرمح والحلقة والحوض الخاصّ المذكور بهذا الوصف «١».

«برهان»: هو الدليل القطعي المحكم وجاء أيضاً بمعنى الدليل والإيضاح، ويقول الراغب في المفردات: البرهان يعني البرهان المحكم، ويعتقد البعض أنّه مشتقّ من (برّه) ويعني الإيضاح، ثم أطلق على كلّ كلام واضح وصریح ليس فيه أي إبهام، أو الامور الواضحة التي لا خفاء فيها «٢».

وما ورد في الحديث: (الصدقة برهان) لعلّه لما للإتفاق في سبيل الله من دلالة على صحّة إيمان الإنسان.

«سلطان»: ويعني في الأصل - كما في مقاييس اللغة- القوّة والقدرة المصحوبة بالغلبة وبما أنّ الاستدلال القوي يكون سبباً لتغلب الإنسان على طرفه المقابل فإنّ لفظ (سلطان) اطلق على الدليل المحكم أيضاً.

«سليط»: ورد تارةً بمعنى الرجل الفصيح، واخرى بمعنى الإنسان المزعج والبذء اللسان و (سليطة) الذي يستعمل في النساء يحمل على هذا المعنى الأخير وكلّها مشتقة من مادّة (سلطة).

جمع الآيات وتفسيرها

الغور في عالم الأوهام!

تؤكد الآية الشريفة الاولى - من خلال الإشارة إلى عقوبة المشركين - على حقيقة أنّ

(١) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، مادّة (خرص).

(٢) التحقيق في كلمات القرآن الكريم والكلمات التي نلاحظها مثل (برهن، يبرهن) أو الوصف (مبرهن) فإنّه لون من الإشتقاق الإنتزاعي نظير كلمة (سلطان) المشتقة من سلط (سلطن يسلطن).

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٦٤

(الشرك) ليس له أي دليل أو برهان وعليه يكون وليداً للظنون والأوهام فتقول: «وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ هَا آخَرَ لَابْرَهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ أَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ».

ومن الملاحظ أنّ عقوبة المشركين هنا غير موضحة بل تقول الآية: «حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ» وهو أكبر تهديد، لأنّ العظيم والقاهر هو المحاسب فيكون عقابه شديداً قطعاً وعبارة (لا برهان له) تفيد- في الواقع - هذا الأمر وهو: أنّ الشرك لا يدلّ عليه أي دليل سواء كان عقلياً أو نقلياً ولا تنسجم الفطرة معه ولا المنطق، بل كلّما أمعنا النظر في هذه القضية ظهر بطلانها أكثر.

والتعبير ب «لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ» شامل ينفي كلّ فلاح عن الكافرين في الحياة المادية والمعنوية، في الدنيا والآخرة، ويؤيد هذه الدعوى مشاهدتنا اليومية للذين لا يؤمنون.

أسماء بلا عناوين:

طرحت الآية الثانية هذا المضمون في إطار جميل آخر وتقول عن لسان يوسف عليه السلام وهو يخاطب صاحبيه في السجن: «مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ» والشاهد على ذلك هو أنها «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ»، فلو كانت حقائق لقام عليها الدليل العقلي والنقلي، فمن المحال أن يفقد الدليل أمرٌ بهذه الدرجة من الأهمية (وهو وجود الشريك لله عز وجل)، وعدم الدليل هذا دليل على العدم!

من هنا تستنتج الآية في الخاتمة: «إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ» و «أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ» و «ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ». وكل جملة - في الحقيقة - في هذه الآية بمثابة دليل على نفى الشرك، حيث تقول من جهة: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَنْزِلْ أَى دَلِيلَ عَلَى وَجُودِ آلِهَتِكُمْ، وتقول من جهة أخرى: «إِنَّ حَاكِمِيَةَ الْعَالَمِ وَتَدْبِيرَهُ مَخْتَصَّ بِهِ حَيْثُ تَلَاخُظُ عِلَامَاتُ الْوَحْدَةِ فِي التَّدْبِيرِ فِي كُلِّ مَكَانٍ. وتقول من جهة ثالثة: «إِنَّهُ أَمْرٌ بِعِبَادَةِ الْإِلَهِ الْوَاحِدِ، فَهَلْ يَعْقِلُ أَنْ يَأْمُرَ الْإِلَهِ الْحَكِيمَ بِأَمْرٍ كَاذِبٍ؟

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٦٥

وفي الختام فإن الآية تعتبر الشرك ناشئاً من الجهل.

ونقل بعض المفسرين بأن عبدة الأصنام كانوا يعتقدون بأن الله هو النور الأعظم، ويعتقدون بأن الملائكة أنوار صغيرة، وأما الأصنام في الأرض فإنها مظهر للأنوار السماوية تلك ويطلقون عليها (المعبود) وبذلك تكون معبوداتهم أسماء بدون مسمى (١). ولو تغافلنا عن هذا المعنى أيضاً وسلمنا بأن الأصنام هي الآلهة لديهم لا مظاهر لها فإنها كانت أسماء دون مسميات أيضاً، وذلك لعدم وجود أثر من آثار الألوهية في هذه الأحجار والأخشاب الجامدة.

وقد تضمنت الآية الثالثة محتوي شبيهاً لما في الآية السابقة حيث تقول في ذم عبدة الأوثان: «وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا».

وهو في الحقيقة نفى لوجود دليل نقلي، وتضيف الآية: «وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ»، وفي ذلك إشارة إلى نفى لوجود دليل عقلي.

وتقول الآية في الخاتمة: «وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ».

فلا معين لهم على دفع عذاب الله ولا رشد لهم في طريق الهداية ولا ينصرهم الدليل العقلي (ويمكن أن تجتمع التفسيرات الثلاثة في مفهوم الآية).

الاستناد إلى الحدس والتخمين:

تحدثت الآية الرابعة في أولها عن مالكية الله لجميع من في السماوات والأرض حيث تقول: «أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ».

وهذا التعبير يمكن أن يكون إشارة إلى عقيدة المشركين الذين أقروا بأن المالك والحاكم الأصلي هو الله، ومع ذلك فإنهم كانوا يعبدون الأصنام، كما يمكن أن يكون إشارة إلى أن النظام الواحد لعالم الوجود دليل على أن المدبر الواحد هو الحاكم عليه. ثم تضيف: «وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ».

(١) التفسير الكبير، ج ١٨، ص ١٤١.

بل إنهم يتبعون أوهامهم وظنونهم فقط: «إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ» (١).

«يخرصون»: - كما اشير سالفاً - مشتق من (خرص) ويأتي بمعنى (التخمين) و (الكذب) لأن التخمين لا يصيب في أكثر الموارد، وآية البحث تحتل المعنيين.

وقد ورد هذا المضمون وبفارق يسير في الآية الخامسة التي تقول بعد ذكر انحراف عبدة الأوهام: «وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا»، ثم تهدد هؤلاء الظانين بتعير ذي معنى كبير: «إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ».

أجل، إن الظنّ والوهم كالسهم في الظلام، لا يمكن أن نصيب به الهدف، ولو أصاب الهدف أحيانا فإنه يكون محض صدفة، من دون معرفة للهدف.

«الظن»: في اللغة يشمل كل ظنّ ووهم، وإن أطلق أحياناً على اليقين أيضاً إلا أن المراد في آية البحث هو المعنى الأول.

ومن الملاحظ إن اتباع الظنّ ينسب إلى أكثرهم لا إلى جميعهم، وقد لفت هذا المعنى نظر الكثير من المفسرين.

فقال البعض إن (أكثر) هنا تعني الجميع (ولم يقد على هذا التفسير دليل).

ومن الأفضل: أن يقال إن الآية تقصد الغالبية الجاهلة التي تتأثر بالأوهام الخاطئة وتتعرض للشرك، وتقابلها الفئة القليلة من رؤوس الضلال الذين يدعون الناس إلى الضلال (٢) على علم منهم، والأمل في الهداية موجود طبعاً في الفئة الأولى فقط والخطاب موجه إليهم.

كما احتل البعض أن في (أكثر) إشارة إلى جماعة تتبع الظنّ والوهم طيلة حياتها ومن جملتها (الشرك) فهي تطفو فوق أمواج من الأوهام وحجب الظلام والخيال (٣).

(١) وفقاً لهذا التفسير تكون (ما) في «وما يتبع» نافية وفاعل (يتبع) هو (الذين) ومفعول (شركاء) أي أن المشركين لا يتبعون في الحقيقة شريكاً لله تعالى (لأن الله لا شريك له وهؤلاء الشركاء من صنع الأوهام)، ولكن احتل جمع من المفسرين بأن (ما) هنا إستفهامية فيكون معنى الجملة هو: أي شيء يتبعونه من دون الله ويجعلونه شريكاً له؟ فهل هناك إلا الظنّ؟ (النتيجة في الإثنين واحدة تقريباً). راجع تفسير مجمع البيان؛ وتفسير الكبير؛ والقرطبي؛ وتفسير الكشاف؛ وروح المعاني في ذيل آية البحث وقد احتل البعض أن (ما) هنا موصولة إلا أنه يبدو بعيداً.

(٢) ورد ما يشابه هذا المضمون في تفسير روح البيان، ج ٤، ص ٤٥؛ وتفسير روح المعاني، ج ١١، ص ١٠٣.

(٣) وقد ورد هذا الاحتمال أيضاً في تفسير روح المعاني.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٦٧

الآية السادسة تُشبه الآية الثانية في مضمونها من جهات، حيث تقول: «إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ» وهذه الجملة توضّح هيمنة روح التقليد الأعمى على المشركين حيث اتبعوا أسلافهم بعيون وآذان مغلقة ثم تضيف: «إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ».

والملاحظة الجديدة هنا هي عطف (هوى النفس) على (الظنّ) وهو تعبير كثير المعنى وفيه إشارة إلى أن هذه الظنون الواهية تنشأ من

هوى النفس الذي يجعل من الباطل حقاً في منظارهم، فهم إذن يعبدون أهواء أنفسهم في الواقع والأصنام الأخرى وليدها لها!

وعليه يكون مصدر الانحراف والضلال لديهم في الواقع أمرين: عدم الاستناد إلى اليقين من الناحية العقلية والعقائدية والتمسك بالظنون والإنصراف عن فطرة التوحيد الصحيحة من الناحية العاطفية والاستناد إلى هوى النفس.

وهذه النقطة جديرة بالاهتمام أيضاً وهي أن (يتبعون) و (تهوى فعلاً مضارعاً، ويعني ذلك أن هؤلاء يستمرّ اتباعهم للظنّ وهوى

النفس ويتلونون كل يوم بلون جديد!

والملاحظ إنَّ أوَّل الآية تخاطب المشركين وآخرها تذكرهم باستخدامه ضمير الغائب (التفات من المخاطب إلى الغائب) وفي ذلك إشارة إلى أنَّهم لا شأن لهم حتَّى يستحقُّون الخطاب.

أظهرت الآية السابعة والأخيرة الحقيقة نفسها ولكن في إطار جديد حيث تقول: «أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً» «قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ». ولعدم امتلاككم دليلاً واضحاً وموجَّهاً على الشرك فإنكم مدانون.

ثمَّ تقوم الآية بتوضيح الدليل على بطلان عقيدتهم وتقول: «هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي» (١). والتعبير ب (ذکر) بدلاً عن الكتب السماوية إشارة إلى أنَّ جميع هذه الكتب عامل تذكير

(١) في هذه الآية استدلال بالدليل النقلى في حين استدلل في الآيتين السابقتين بالدليل العقلى وبرهان التمانع (تدبر).

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٦٨

ووعى، وقد ذكر بعض المفسرين معانى اخرى لكلمة «ذكر» ولكنها لا تبدو مناسبة.

وقد أكد ذيل الآية مرّة اخرى على هذا المضمون حيث يقول: «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ»، وإن كانت هناك فته قليلة تدرك القضايا، إلا أنها لا تظهر الحق لإحساسها بالخطر على مصالحها اللامشروعة.

ويمكن الاستنتاج جيِّداً من مجموع الآيات الواردة بأنَّ الشرك وعبادة واتخاذ آلهة من دون الله ليس له دليل عقلى ولا برهان نقلى، ومن المحال أن تكون مثل هذه القضية المهمة موجودة ولا يوجد لها دليل عقلى أو نقلى، وعليه فإنَّ فقدان الدليل هذا، دليل قاطع على بطلانه.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٦٩

٢- أتباع الحواس

تمهيد:

عندما يولد الإنسان في هذا الكون فإنه يرى المحسوسات ويميل إليها ويتخذها أساساً لمعلوماته، وعندما يسمو في فكره وعلمه فإنه يتعرّف تدريجياً على القضايا العقلية والفكرية.

إنَّ البعض وبسبب التخلف الثقافى فإن إدراكهم يتوقف على مرحلة الحس، فلا يمكنهم أن يفكروا أو يؤمنوا بشيء سوى المحسوسات، فهم يتوقعون بأنَّ الله وجود حسى، فيمكنهم أن يرونه أو يلمسونه! وهذا التوجه يمثل عاملاً مهماً فى توجيههم لعبادة الأصنام والآلهة المحسوسة، وعلى مرّ التاريخ.

وبهذه الإشارة نتوجه إلى القرآن الكريم لنمعن خاشعين فى الآيات التالية:

١- «وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا انزَل عَلَيْنَا الملائكةُ أو نرى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فى أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا». (الفرقان / ٢١)

٢- «يَسْأَلُكَ أَهْلُ الكِتَابِ أن تَنْزِلَ عَلَيْهِم كِتَاباً مِّن السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا العِجْلَ مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُّبِينًا». (النساء / ١٥٣)

٣- «وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا المَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّن إِلَهٍ غَيْرى فَأَوْقِدْ لى يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لى صِيراً لعلى أَطَّلِعَ إِلَى إِلهِ مُوسَى وَأَنى لِأُظنَّهُ مِّن الكاذِبِينَ».

(القصص / ٣٨)

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٧٠

٤- «وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَثْبُوعًا* ... أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَنَا بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا». (الإسراء / ٩٠-٩٢)

٥- «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْعَمَامِ وَالْمَلَائِكَةِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ». (البقرة / ٢١٠)

جمع الآيات وتفسيرها

لماذا لا نرى الله؟

إنَّ الآيَةَ الأولى نقلت ما قاله الكفار والمشركون والذي يشير بوضوح إلى امنيتهم في أن يكون الله مثلهم ذا جسم ويمكن النظر إليه حيث تقول: «وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا». إنهم طالبوا برؤية ملائكة الوحي أولاً، ثم سألوا لهم أمانيتهم أن يطالبوا برؤية الله، ويبدو أنهم لا يقرون بالإله المجرد وغير المحسوس، والظاهر أن هذا الكلام كان لرؤوس الشرك وعبدة الأصنام وقد علموا بالحقيقة إلا أنه ومن أجل إغفال عامة الناس الذين يرون كل شيء في إطار الحس قاموا بطرح هذا الكلام أمام النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لكي يهزموه حسب زعمهم ولذا وصفهم القرآن الكريم بأنهم قوم لا يؤمنون بالقيامة ولا يشعرون بالمسؤولية، ولهذا تقول الآية في ذيلها: «لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا». وقد ذكر المفسرون للآية ٢٧ من هذه السورة الفرقان سبباً للنزول يدل على أن هذه الآيات نزلت في جمع من أئمة الشرك في قريش. وذيل الآية يشير أيضاً إلى أن مصدر هذه الادعاءات الضخمة والخاطئة هو ابتلاؤهم بالكبر والغرور أولاً وسلوك طريق (العتو) وهو التمرّد المصحوب بالعناد واللجاجه في أمر الله ثانياً، ولم يختص بذلك العرب فحسب، بل ما زال جمع من علماء عصرنا المغرورين والمتمردين الماديين الذين يعتقدون أن كل شيء يجب إجراء التجربة عليه ورؤيته في المختبر وبالوسائل الحسية، ويقولون: إننا لا نؤمن بالله حتى نراه جهرة، وبهذا تكون

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٧١

المجموعتان محصورتين في إطار الحس، في حين تكون العوالم الخارجة عن الحس أوسع بكثير من عالم الحس.

طلبوا ذلك من موسى!

تحدثت الآية الثانية أولاً عن حجج اليهود وتقول: «يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ». قال جماعة في تفسيرها أن مرادهم كان بأن ينزل عليهم كتاباً مخطوطاً على قراطيس معلومة من السماء ليشاهدوه بعيونهم ويلمسوه بأيديهم «١».

وقالت جماعة اخرى: إن مرادهم هو لماذا لم ينزل جميع القرآن مرة واحدة على النبي صلى الله عليه وآله؟! والقرآن يجيبهم: لا عجب من هذا الطلب الخاوي لهؤلاء المعاندين للجوجين بعد مشاهدة المعجزات والقرائن التي تصدق دعوة نبي الإسلام صلى الله عليه وآله: «فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً!» وبسبب هذا الطلب الخاطيء: «فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ».

أجل، إنهم ظلموا أنفسهم وراحوا يتعللون، وحسبوا عقولهم في إطار الحس ولم يسمحوا لها بالتجرّد من هذا النطاق الضيق إلى افق عالم ما وراء الطبيعة، ولهذا أنزلت عليهم صاعقة من السماء وأهلكتهم غير أن اللطف الإلهي ودعاء موسى عليه السلام قد أدركهم أخيراً وواصلوا حياتهم مرة اخرى، والعجيب أن هذا الحدث العجيب لم يوقظهم، حيث مالوا إلى السامري في اقتراحه بعبادة العجل! ونقرأ في الآية: «ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ»، وكأنهم لم يؤمنوا إلا بالإله المحسوس، ولم تقو أرواحهم على العروج

إلى عالم ما وراء الطبيعة.

ومرّة أخرى شملهم اللطف الإلهي حيث تقول الآية في ذيلها: «فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُّبِينًا».

(١) وقد وافق على هذا صاحب التفسير في ظلال القرآن، ج ٢، ص ٥٨٣ وقد نقله الفخر الرازي ويبدو تفسيراً مناسباً وإن لم يتعارض مع التفسير الثاني.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٧٢

والمراد من (سلطان مبین) هنا هي الحكومة التي أعطاها الله عزوجل لموسى عليه السلام فقد غلب المعارضين من الناحية الظاهرية ومن الناحية المنطقية والاستدلالية، ويعتقد بعض المفسرين كالطبرسي في مجمع البيان بأن النصر هنا من الناحية المنطقية فقط «١».

دعني أرى الله في السماء!

في الآية الثالثة مقاله تفوه بها فرعون في هذا الشأن، وهي توضح أفكار الشعب المصري آنذ، فقد ألقى هذه المقالة في عصر كان لإسم موسى وانتصاره على السحرة صداه في مصر بأسرها، ولما شعر فرعون بخيبة أمل شديدة رأى أن يعمل شيئاً يصرف به أنظار الناس عن موسى عليه السلام ومعجزاته: «وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي» «٢»

، ولذا أرى أن دعوة موسى إلى رب السماء والأرض خاطئه، وبما أتى من أهل التحقيق، فقد خطر ببالي شيء يظهر به صدق موسى أو كذبه، قم ياهامان: «فَاوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى» «٣» ، «وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ».

ولا شك أن فرعون كان شديد المكر والدهاء وهو يدرك هذه القضايا الواضحة وهي أنه ليس إلهاً، وأن ما يقصده موسى من إله السماء، هو خالقه لا أن الله يسكن السماء حقيقة، ولو تجاوزنا هذا الأمر وافترضنا أن الله يسكن السماء فإنه لا يمكن الوصول إليه ببناء برج عالٍ، فمنظر السماء من على قمم الجبال في العالم هو المنظر الذي يشاهد من فوق سطح الأرض، ولم تخف هذه القضايا على فرعون.

ولكن فرعون كان يفكر في مخطط آخر وأراد صرف الرأي العام الذي مال إلى موسى بشده وذلك بطرح هذه القضية المثيرة، كما أراد أن يشغل مجموعة من الناس ولمدة طويلة

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ١٣٤.

(٢) يقول اللغويون في تفسير «ملا»: يطلق هذا اللفظ على جماعة قد اجتمعوا على عقيدة واحدة وظاهرهم يملأ العيون (من مادة ملا) ومن هنا يستعمل هذا اللفظ بمعنى أشرف القوم ورؤسائهم وحواشي الملوك أيضاً.

(٣) «صرح»: في الأصل تعني الخلو من الشوائب ثم تطلق على القصور والبيوت العالية والجميلة لأنها بلغت من الكمال في بنائها إلى درجة لا يوجد فيها عيب أو نقص.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٧٣

بناء برج عالٍ جداً، وفي النهاية يصعد إلى أعلى البرج ليحرك نفسه ويقول: إنني بحثت عن إله موسى عليه السلام في السماء فلم أجد له أثراً!

إن هذه القضية توضح أمراً مهماً وهو إن مستوى التفكير العام في مصر كان بسيطاً إلى حد أنهم لم يكونوا ليصدقوا إلهاً محسوساً،

وبالتالي يصدقون فرعون بادعائه الالوهية وتوقعوا أن يكون إله موسى جسماً في أعالي السماء! وفي مثل هذه الأجواء تشيع روح الصنمية وعبادة الأصنام قطعاً!

الآية الرابعة تنقل أقوال المشركين واحتجاجاتهم المتنوعة والغريبة حيث طرح كل واحد اقتراحاً على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وتمسك بحجة معينة حيث تقول الآية: «وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً» (١) ، وقد تمسك البعض الآخر بحجج أخرى وقالوا أخيراً: «أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتُمْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَنَا بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةَ قَبِيلًا» (٢). والمطالبة الأخيرة توضح جيداً أنهم تصوّروا أن الله والملائكة ذوو أجسام وموجودات جسمانية، ولم يتحمّلوا تصوّر وجود خارج عن إطار عالم الجسم والطبيعة، ويعتقد بعض المفسّرين بأن مرادهم من الإتيان بالملائكة هو أن تأتي لتعين الله! (٣) أو تشهد على الوهيته، وتشير هذه كلّها إلى المستوى الفكري المتخلف لؤلئك القوم المعاندين.

أيتوقعون أن يأتي الله إليهم!

تحدثت الآية الخامسة والأخيرة عن الكفار والمشركين وأفكارهم المنحطّة فتقول:

- (١) «ينبوع» من «نبع» وتعني عين الماء.
- (٢) فسّرت كلمة «قبيل» تارةً بمعنى «المقابل»، وتارةً بمعنى الكفيل والشاهد، وتارةً بمعنى الجماعة والفئة، ويمكن الموافقة على المعاني الثلاثة في مورد الآية أعلاه.
- (٣) تفسير في ظلال القرآن، ج ٥، ص ٣٥٩.
- نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٧٤
- «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ» (١).
- وقد اضطرب المفسّرون بشدّة في تفسير هذه الآية، فقد عدّها بعضهم من متشابهات القرآن فيلزم تفسيرها في ضوء المحكمات (٢)، وقد ذكر البعض سبعة تفاسير لها (٣).
- وكان تصوّرهم عن مضمون الآية هو أنّه سيأتي اليوم الذي يأتي فيه الله والملائكة في ظلّ الغيوم، ولا ينسجم هذا المعنى قطعاً مع ما يستفاد من آيات القرآن الصريحة في أنّه ليس بجسم ولا يمكن مشاهدته ولذا يجب تأويله.
- في حين أنّ مضمون الآية شيء آخر، والمراد منه هو الإستفهام الإنكاري ويشبه قولنا للذين يتماهلون في تحصيل العلم: أتتوقع أن يجعل العلم لقمه سائغة توضع في فمك؟! إن هذا التوقع ليس في محله.
- إنّ الآية أعلاه تقول أيضاً: هل أنهم يتوقعون أن يأتي الله والملائكة للقائهم ويقفون أمامهم ويشهدون لهم؟! إنّ توقع خاطئ وفي غير محله، فليس الله بجسم ولا مكان ولا رواح أو مجيء له، وبهذا ليس في الآية - كما نلاحظ - مشكلة خاصية حتى تحتاج إلى تأويل وتفسير معقد أو أن تحسب من المتشابهات.

وتقول الآية في آخرها مهدّدة هذه الفئة المعاندة بالعقاب الشديد: «وَقُضِيَ الْأَمْرُ»، وكان العذاب متحقّق الآن، ولذا جاءت بصيغة الفعل الماضي ثم تقول: «وَالِإِلَهِ اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ»، وليس لأحد القدرة على مواجهته وليس لأحد أن يقاوم أمره، وإذا تعلقت مشيئته بعقوبة جماعة فكأنّها متحقّقة.

هل يتعلّق هذا التهديد بيوم القيامة أو الدنيا أم الإثنين معاً؟ لا يبعد أن يتعلّق بالإنّيين، لأنّ الآية ذات مفهوم واسع ولا يوجد دليل على تحديده بعذاب الدنيا أو الآخرة.

يُتضح مما أوردناه في تفسير الآيات المذكورة بأن الميل إلى الحس وتأثيره في تكوين

(١) يقول الفخر الرازي في التفسير الكبير: ج ٥، ص ٢١٢ اتفق المفسرون على أن أحد معاني (النظر) هو الانتظار.

(٢) تفسير الميزان، ج ٢، ص ١٠٥.

(٣) تفسير الكبير، ج ٥، ص ٢١٣-٢١٦.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٧٥

عقيدة الشرك والانحراف عن محور التوحيد طيلة تاريخ الأنبياء والامم السالفة مما لا يمكن إنكاره، وأن الأقوام المتخلفة فكراً وثقافياً، أو بقيت متخلفة بفعل إعلام الطغاة، قد اعتقدوا أن الوجود منحصر في المحسوسات وتنتهي الفطرة الإلهية بالاله المحسوس وهذا هو أحد العوامل المهمة في نشوء عقيدة الشرك في التاريخ.

توضيح

لماذا أنفوا عالم الحس؟!

من الواضح أن أصول المعلومات لدى الإنسان بأجمعها تستمد من المحسوسات أولاً، لأن الإنسان حينما يفتح عينيه يلاحظ عالم المادة ويتعرف على عالم المحسوسات والطريق الموصل إلى ما وراء الحس، بل وتصور الوجود المجرد عن الزمان والمكان والمادة يتم بعد الدراسة والتحليل في المسائل الفكرية والعقلية والروحانية، فلا غرو إذن أن تكون عبادة الأصنام مذهباً للامم المتخلفة.

فمن جهة يعلو نداء عبادة الله من باطن فطرتهم وتدعوهم قوى المعرفة الإلهية إليه، ومن جهة أخرى وبسبب مغلوبتهم أمام عالم الحس والمادة تصعب عليهم معرفة الله المجرد عن الزمان والمكان والمادة، ولذلك فإنهم يسرون في طريق الشرك ويشفون ظمأ أرواحهم بالآلهة الخيالية بصورة كاذبة.

وبما أن مجموعة من خدمه معبد الأصنام بل الكثير من الحكام الطغاة ينتفعون من هذا الأمر فإنهم يرغبون فيه، وفي النهاية يصبح كدين رسمي للبلاد.

ومن العجيب أن ترسب هذه الأفكار أحياناً في أعماق الكثير من عباد الله الحقيقيين، وللمثال على ذلك أن بعض الناس يقول في قسيمة: قسماً بالله الذي هو في السماء!! ويتصورون أننا حينما نرفع أيدينا إلى السماء حين الدعاء أن ذلك إشارة إلى الله وأنه يجلس على كرسی الإقتدار وقد اجتمعت الملائكة من حوله!

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٧٦

إن هؤلاء غافلون حقاً، فليس الله في السماء وليس في رفع اليد في الدعاء إشارة إلى مركزه، بل إن رفع اليد يعني التسليم والإضطرار، أو كما ورد في بعض الروايات إن السبب هو نزول النعم الإلهية من السماء، فالمطر وضوء الشمس - وهما العمدة في حياة كل موجود حي - مصدرهما من السماء والتوجه إلى السماء توجه إلى الخالق العظيم لهذه النعم.

وعلى كل حال، ما لم ينضج الإنسان فكراً يصعب زوال آثار الشرك عنه، فبنو اسرائيل الذين تربوا في مدرسة التوحيد سنين طوال عند نبي من اولى العزم موسى عليه السلام وشاهدوا آثار عظمتهم بأعينهم عند نجاتهم من قبضة الفراعنة واجتيازهم النيل، وبمجرد مرورهم على عبدة الأصنام وملاحظتهم الأصنام رجعوا وطالبوا موسى عليه السلام بأن يجعل لهم صنماً، فواجههم موسى برد فعل شديد وندموا على مقاتلتهم، ولم يمض وقت طويل عندما توجه موسى عليه السلام إلى جبل الطور بصورة مؤقتة لكي يأخذ الألواح

وأحكام الشريعة حتى استغل السامري هذه الغيبة ليصنع لهم صنماً ودعا بني اسرائيل لعبادته، فترك أكثرهم طريق التوحيد وركعوا لعجل السامري وبقيت فئة قليلة مع أخ موسى (هارون) ملتزمةً بنهج التوحيد وهذا يشير إلى أن القادة السائرين في طريق التوحيد وخصوصاً أمام الأقوام المتخلفة التي ترعرت في أجواء الشرك يواجهون مشكلات كبيرة، وغسل آثار الشرك أساساً من القلوب ليس باليسير ويحتاج إلى تربية فكرية وتربية ثقافية صحيحة.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٧٧

٣- المصالح الوهمية

تمهيد:

إنّ الوهم أساس الشرك، وكلّما ازدادت قوّة الوهم والخيال ونشطت لدى الإنسان اتّسع افق اعتقاده في الأصنام وبركاتها وآثارها إلى حدّ يضع الموجودات الفاقدة للشعور والعقل، الموجودات الجامدة والتافهة والمصنوعة من الحجر والخشب على جناح الوهم والخيال ويطير بها بشكل ينسب لها كلّ قدره ويتذلل لها كي ينعم ببركتها! أجل، إنّ المصالح الوهمية في الأصنام عامل آخر من عوامل الشرك على مرّ التاريخ، وبهذا التمهيد نتأمل خاشعين في الآيات القرآنية التالية:

- ١- «وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَتَّبِعُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ». (يونس / ١٨)
- ٢- «وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ». (يس / ٧٤)
- ٣- «وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا». (مریم / ٨١)
- ٤- «أَلَمْ لِلَّهِ الدِّينَ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ». (الزمر / ٣)

شرح المفردات:

«شفعاء»: جمع (شفيع) من (الشفع) ويعنى كما يقول صاحب (مصباح اللغة): ضمّ شيء

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٧٨

إلى شيء آخر وكما يقول صاحب المفردات: يعنى ضمّ شيء إلى مثيله، وأما صاحب (مقاييس اللغة) فإنه يذهب إلى أن أصله هو المقارنة بين شيئين.

هذه التعبيرات تعود كلّها إلى معنى واحد تقريباً ومن ثم أطلق على حالة انضمام شخص قوى ومكين إلى شخص أضعف من أجل إنقاذه وإعانته، وقد ورد بهذا المعنى في آية البحث هذه وكثير من الآيات القرآنية، كما جاء عدد (الشفع) بمعنى (زوج) في قبالة (الوتر) بمعنى الفرد.

«زُلْفَى»: من (الزلف) ويعنى في الأصل القرب والمنزلة والدرجة كما يطلق هذا اللفظ على الخطوة لما للخطوات من تقرب للهدف، وقد استعمل في آيات البحث بمعنى القرب المعنوي الذي توخاه المشركون من عبادة الأصنام إلا أنّ بعض المحققين يعتقد بأنّ (زُلْفَى) أكمل من معنى القرب فهي المرتبة العالية من معنى القرب في الحقيقة «١»، ولكنّه رأى بعيد كما يبدو عند ملاحظة موارد الاستعمال، ويطلق هذا اللفظ على الساعات الاولى من الليل كما في قوله تعالى: «أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرْفَى النَّهَارِ وَزُلْفَىٰ مِنَ اللَّيْلِ». (هود / ١١٤)

جمع الآيات وتفسيرها

الأصنام شفاعونا؟!!

تشير آية البحث الاولى إلى إحدى المعتقدات المعروفة لدى المشركين في الأصنام حيث تقول الآية: «وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَبْصُرُهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ».

الكلام في أن هؤلاء كيف اعتقدوا بأن هذه الموجودات الجامدة لها الشفاعة عند الله؟

للإجابة على السؤال قال بعض العلماء: إن المشركين كانوا يعتقدون أن عبادة الأصنام بمنزلة عبادة الله ووسيلة للتقرب إليه، وقد ظهر هذا الاعتقاد من طرق مختلفة.

وكانت فئة تقول: لسنا أهلاً لعبادة الله دون واسطة، لأنه عظيم جداً ولذا نعبد الأصنام

(١) التحقق في كلمات القرآن الكريم.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٧٩

كمظهر وصورة عن الملائكة لكي تقربنا إلى الله، بينما قالت فئة أخرى بأن الأصنام هي القبلة لنا لدى عبادة الله كما يستقبل المسلمون القبلة عند العبادة، وقد اعتقدت فئة أخرى بأن كل صنم يقترن به شيطان وكل من يعبد الصنم ويؤدي حق عبادته فإن ذلك الشيطان يلبي حوائجه بأمر الله وإن لم يعبده فإن الشيطان يسيء إليه «١»، وإلى ما شاكل من هذه الخرافات والأوهام.

وتشير الآية الثانية إلى عقيدة أخرى عند المشركين حيث تقول: «وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ»، وذلك من أجل أن تبادر إلى حل مشاكلهم وإعانتهم في الإبتلاءات والحروب والأمراض، وتدفع عنهم خطر الجوع والقحط والجفاف، وتدافع عنهم في الآخرة؛ ويا له من خطأ فادح! فإن القضية كانت معكوسة حيث يهرعون لإنقاذ أصنامهم من الأخطار ويحفظونها من الأعداء والناهبين! كما نقرأ في قصة إبراهيم عليه السلام: «قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ». (الأنبياء / ٦٨)

إن اعتقادهم بأن الأصنام تحميهم وتعينهم لم يكن سوى خيال ووهم قطعاً، ولهذا الاعتقاد سبب في الإنحطاط الفكري والتخلف الثقافي، وهذا الأمر هو أحد مصادر الشرك على مر التاريخ.

وقد طرحت الآية الثالثة هذا المضمون بشكل آخر حيث تقول: «وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا»، وليس المراد من العزة هو السمعة، بل اكتساب القوة والنصر والشفاعة من عند الله، وكان هذا أيضاً وليداً لتوهمهم، ولذا نلاحظ في هذه الآية من سورة مريم نفسها أن حجب الأوهام حينما تزول ويتبته العقل فإن المشركين يدركون خطأهم الفظيع وسرعان ما ينكرون عبادة الأصنام وينقمون عليها، كما ورد بأن المشركين يقولون يوم القيامة: «وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ». (الأنعام / ٢٣)

(١) بلوغ الإرب، ج ٢، ص ١٩٧.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٨٠

وأخيراً فإن الآية الرابعة والأخيرة بعد الإعلان عن: «أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ» فهي تهدد المشركين وتضيف: «وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرَّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ» «١».

١- منشأ الاعتقاد بالشفاعة

يعجب كل عاقل عندما يواجه قضية الشرك لأول مرة، فكيف يمكن أن يخضع إنسان عاقل ذو شعور لتمثال حجري أو خشبي قام بصنعه بيده؟ فلو كان يمتلك قليلاً من العقل لكان هذا غير مقبول لديه، ولو عرفنا أسباب ذلك لوجدنا أن القضية ليست بسيطة كما نرى، فإن مجموعة من الأوهام والفسطحة والخيال والعادات طرحت كأدلة عقلية وخذعت المشركين.

يقول الفخر الرازي في ذيل تفسير الآية ١٨ من سورة يونس:

فيمن قالوا في الأصنام هؤلاء شفعأؤنا عند الله وذكروا فيه أقوالاً كثيرة.

١- إنَّ قسماً من عبدة الأوثان اعتقدوا أنَّ المدبّر لشؤون أقليم من أقاليم العالم، روح معين من أرواح عالم الأفلاك، ولأنهم لا يصلون إلى تلك الروح صنعوا لها صنماً معيناً واشتغلوا بعبادته، وكلّ قصدهم هو عبادة تلك الروح، ثمَّ اعتقدوا أنَّ تلك الروح عبد للإله الأعظم ومشتغل بعبوديته.

٢- والقسم الآخر كانوا يعبدون الكواكب وزعموا أنَّ الكواكب هي التي لها أهلية عبودية الله تعالى، ثمَّ لما رأوا أنَّها تطلع وتغرب وضعوا لها أصناماً معيناً واشتغلوا بعبادتها وحرصهم عبادة تلك الكواكب.

٣- أما القسم الثالث، فقد وضعوا طلاسماً معينة على تلك الأصنام وأخذوا يتقربون إلى

(١) قال كثير من المفسرين بأنَّ «والذين» مبتدأ وخبره «إنَّ الله يحكم بينهم» وجمله «ما نعبدهم» فيها محذوف هو بمنزلة الحال والتقدير «قائلين ما نعبدهم...».

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٨١

الأصنام بواسطة هذه الطلاسماً «والطلاسماً: نوع من السحر، ويقول بعض المفسرين أنَّ «الطلاسماً» عبارة عن أشكال ورسومات يعتقدون بأنَّها تمثل سلطات سماوية اختلطت مع الأرض، وأصبحت مصدراً لآثار عجيبة وغريبة! وهذه النقوش مفضلة على أشياء مختلفة، حيث يعتقدون بأنَّها وسيلة لدفع الموجودات المؤذية وإبعاد أذاها عنهم» (١).

٤- والبعض منهم صنعوا هذه الأصنام والأوثان على صور أنبيائهم وأكابرهم وزعموا أنَّهم متى ما اشتغلوا بعبادة هذه التماثيل فإنَّ اولئك الأكابر يكونون شفعاء لهم عند الله تعالى.

٥- وآخرون اعتقدوا أنَّ الإله نور عظيم وأنَّ الملائكة أنوار فوضعوا على صور الإله الأكبر الصنم الأكبر وعلى صور الملائكة صوراً أخرى.

٦- لعلَّ من بين عبدة الاصنام طائفة من الحلولية حيث يعتقدون أنَّ الله يحل في الأجسام الشريفة ولذلك فإنَّهم دأبوا على عبادة هذه الاجسام (٢).

و يقول مفسر آخر: إنَّ أول ما عُبِدت الأصنام في قوم نوح عليه السلام وذلك أنَّ آدم كان له خمسة أولاد صلحاء وهم «ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر» فمات «ود» فحزن الناس عليه حزناً شديداً فاجتمعوا حول قبره في أرض بابل لا يكادون يفارقونه فلما رأى إبليس ذلك جاء إليهم في صورة إنسان وقال لهم: هل تريدون أن أصنع لكم ما إن نظرتم إليه ذكرتموه؟ قالوا: نعم، فصنع لهم تماثلاً. وهكذا كلَّما مات واحد من أبناء آدم صنعوا له تماثلاً وسمَّوه باسمه، وبتقادم الزمان وبنسيان الأجيال أعاد الشيطان قائلاً: إنَّ أجدادكم كانوا يعبدون هذه الأصنام فاعبدوها، فأرسل الله إليهم نوحاً عليه السلام فنهاهم عن عبادتهم فلم يجيبوه لذلك ... (٣).

(١) دائرة المعارف دهخدا ج ٣٢، ودائرة المعارف مصاحب، ج ٢، مادة (طلسم).

(٢) التفسير الكبير، ج ١٧، ص ٦٠٠ (مع الإختصار اليسير).

(٣) تفسير روح البيان، ج ٤، ص ٢٦ (باختصار).

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٨٢

٢- تاريخ عبادة الأصنام والأوثان

إنَّ أوَّل من أقام عبادة الأصنام بين العرب هو عمرو بن لُحى من قبيلة خزاعة، فقد خرج من مكَّة إلى الشام فى بعض اموره فلما قدم ما ب من أرض البلقاء رآهم يعبدون الأصنام فقال لهم: ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدون؟ قالوا له: هذه أصنام نعبدها، نستمطرها فتمطرنا ونستنصرها فتنصرنا؛ فقال لهم: أفلا تعطوننى منها صنماً فأسير به إلى أرض العرب فيعبده؟ فأعطوه صنماً يقال له (هُبَل)، فقدم به مكَّة فنصبه، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه وكانت هناك صخرة يلى عليها السويق للحجاج رجل من ثقيف وكانت تسمى صخرة اللات، مات الرجل فقال لهم عمرو: إنَّه لم يمت ولكن دخل فى الصخرة وأمرهم بعبادتها ... «١».

ونقل بعض آخر، إنَّ ظهور عبادة الأصنام ابتدأته جماعة كانت تنزّه الله إلى درجة لم تسمح لهم بعبادته ولذا صنعت صنماً أجلّ للتقرّب إليه! أو أنّها اعتقدت إنَّ الإله عندما يخفى عن الحسّ والعقل بعبادته غير ممكنة، ولذا يجب التقرب إليه من خلال المحسوسات!

وقال بعض المؤرخين:

«ويزعمون أن أوَّل ما كانت عبادة الحجارة فى بنى إسماعيل إنَّه كان لا- يظعن من مكَّة ظاعن منهم، حتّى ضاقت عليهم، والتمسوا الفسح فى البلاد لإلحاحه معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم فحيثما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة حتّى سلخ ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسبوا من الحجارة وأعجبهم «٢» حتّى خلق الخُلف ...».

كما ورد فى تفسير الميزان:

وقد كان عبدة الأصنام يعبدون الأصنام ليتقرّبوا بعبادتها إلى أربابها وبأربابها إلى ربِّ

(١) تفسير روح البيان، ج ٤، ص ٢٦ (مع اختصار يسير) وقد ذكر العلامة المجلسى فى بحار الأنوار، ج ٣، ص ٢٤٨ بعد الروايات: ١، ٧، ٨ قصّة ظهور الشرك فى قوم نوح هذا وقد ورد فى (بلوغ الإرب ج ٢، ص ٢٠٠) قصّة عمرو بن لحي وهديته الخبيثة التى جاء بها من الشام كما نقل ابن هشام فى السيرة النبوية ج ١، ص ٧٨. موضوعاً قريباً من هذا المضمون.

(٢) سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٧٩.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٨٣

الأرباب وهو الله سبحانه ويقولون: «إننا على ما بنا من ألوات البشرية المادية وقذارات الذنوب والآثام لا سبيل إلى ربِّ الأرباب لطهارة ساحته وقدسها ولا نسبة بينها وبينه.

فمن الواجب أن نتقرّب إليه بأحبّ خلانقه إليه وهم أرباب الأصنام الذين فوّض الله إليهم أمر تدبير خلقه، ونتقرّب إليهم بأصنامهم وتمثيلهم وإنّما نعبد الأصنام لتكون شفعاء لنا عند الله لتجلب إلينا الخير وتدفع عنا الشرّ فتقع العبادة للأصنام حقيقة، والشفاعة لأربابها وربّما نسبت إليها» «١».

وبهذا ألبسوا معتقداتهم الخاطئة والخرافية ثوباً منطقياً فى الظاهر، وظهر الضلال على صورة الهدى واحتلت وساوس الشيطان مواقع المنطق والبرهان.

٣- عوامل اخرى للشرك وعبادة الأصنام

في الحقيقة أنّ الشرك وعبادة الأصنام قضية معقدة وليس وراءها عامل واحد كسائر القضايا الاجتماعية المعقدة، بل هناك عوامل مختلفة تعاضدت على حدوثها. فمثلاً نجد أنّ أقواماً عبدوا الشمس والقمر والكواكب وهناك جماعة عبدت النار، وجماعات عبدت الأنهار الكبيرة كالنيل في مصر، والكنج في الهند، ويعنى ذلك أنّ كلّ ما فيه الخير والبركة، يكون مقدساً، وكانت تتضاعف قدسيته تدريجياً إلى حدّ اعتبارها آلهة! وبتعبير آخر: كانوا يتيهون في عالم الأسباب وينسون الله وهو (مسبب الأسباب)، لافتقادهم البصيرة النافذة التي تجتاز الأسباب لتصل إلى خالق الأسباب وانتهى هذا بهم إلى عبادة الأصنام.

(١) تفسير الميزان، ج ١٠، ص ٢٧ ذيل الآية ١٨ من سورة يونس.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٨٥

٤ و ٥- عاملى التقليد والاستعمار

تمهيد:

لا شكّ في أنّ عامل التقليد من العوامل المؤثرة في توارث عبادة الأصنام جيلاً بعد جيل بل وانتشارها في العالم، ويستند القرآن الكريم إلى ذلك مراراً ويطرحة تحت عنوان الدليل الوحيد الذى يتمسك به مشركو العرب.

إنّ العيش في أجواء الشرك واحترام الأجداد والأسلاف والتأثر بالتلقين في مرحلة الطفولة قد تعاضدت فيما بينها على إبراز عمل خرافى وخواص تماماً وهو عبادة مجموعة من الأحجار والأخشاب الفاقدة لكلّ شىء بشكل منطقى ووجيه بل ومقدّس.

وبهذا التمهيد نراجع القرآن الكريم لتأمل خاشعين في الآيات التالية:

١- «بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ» * وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ». (الزخرف / ٢٢-٢٣)

٢- «قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُ لَهَا عَاكِفِينَ» * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ». (الشعراء / ٧١-٧٤)

٣- «قَالُوا أَجِئْنَا لِنُلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ». (يونس / ٧٨)

٤- «وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَيَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ». (البقرة / ١٧٠)

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٨٦

٥- «وَإِذَا تَنَادَىٰ آيَاتُنَا بَيْنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ» * (سورة سبأ / ٤٣)

شرح المفردات:

«صنم»: كما يقول الراغب في المفردات: تمثال من فضة أو نحاس أو خشب يعبدونه ويتقربون به إلى الله، وفي (لسان العرب): هذا اللفظ أخذ في أصله من (شَمَنَ) وهى كلمة فارسية أو آرامية أو عبرية «٢».

وتعتقد جماعة من اللغويين أن الفرق بين (الصنم) و (الوثن) هو أن صنم يطلق على أصنام لها شكل وصورة خاصة ولو لم يكن لها شكل وصورة خاصة أطلق عليه (وثن).

«أب»: ويعنى الوالد ويطلق أحياناً على السبب في حدوث شيء أو (يقوم باصلاحه أو إظهاره) إلا أن هذه المعانى لها خصائص كنائية في الظاهر، وقد جاء في (مقاييس اللغة): إن هذا اللفظ يدل في أصله على التريية والتغذية وبما أن الوالد يغذى الإبن فقد أطلق عليه هذا اللفظ.

ونقرأ في «كليات أبي اللقاء» إن أصحاب الشرائع السابقة كانوا يطلقون (أب) على الله لأنه السبب الأول للخلق، ثم اعتقد الجهلاء والغافلون بأن (أب) هنا تعنى الولادة (وبذلك سلكوا طريق الكفر).

وفي كتاب (التحقيق في كلمات القرآن الكريم) وبعد اعتبار الأصل في هذه المادة هو التريية والتغذية ورد: بلحظ هذا المفهوم أن للأب مصاديق كثيرة مثل الله المتعالى، الوالد، النبي، المعلم، الجد، العم وغيرها (ولذا فإن «أب» له مفهوم أوسع من معنى الوالد).

(١) وهناك آيات عديدة تتضمن مضمون هذه الآيات نشير إلى مواضعها: الأعراف، ٧٠ و ١٧٣؛ إبراهيم، ١٠.

(٢) ورد لفظ «شمن» في المصادر الفارسية بمعنى عابد الصنم (راجع دائرة معارف دهخدا وقاموس معين وغيث اللغة).

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٨٧

جمع الآيات وتفسيرها

عبادة الأصنام دين أجدادنا!

إعتقدت طائفة من مشركى العرب أن الملائكة بنات الله وعكفت على عبادتها، والآية الاولى في هذا البحث ترد على هذا الفكر الجاهلى من جوانب مختلفة فتخاطبهم تارة: إنكم تفرحون بالوليد إذا كان ذكراً ولكن تحزنون إذا كان أنثى فكيف تنسبون إلى الله البنات؟ (هذا الجواب يناسب طبعاً - درجة فهمهم وأفكارهم) وتذكر تارة أخرى حججهم الواهية لهذه العبادة وترددهم وتصل إلى هذا الدليل أخيراً: «بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ» (١)

ولكن القرآن يخاطب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله مباشرة ويقول: إن التقليد الأعمى هذا والإتباع اللامشروط واللامقتيد يمثل عقيدة سلفية وهذه الأعذار الواهية التي لا أساس لها لا تنحصر في مشركى العرب فحسب بل: «وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ».

وبذلك أشاروا إلى أن أحد العوامل الرئيسة في إنتشار خرافة الشرك جيلًا بعد جيل هو التقليد الأعمى واللامشروط واللامقتيد والتحجير على العقل والإدراك وعدم بذل جهود في التحقيق والتدبر والإستسلام أمام خرافات الأسلاف.

والاستناد إلى عنوان (مترفون) كما يقول بعض المفسرين فيه إشارة إلى أن التشبث بالدنيا والإستمتاع باللذائذ المادية والمتنوعة والكسل أو الجزع من جهود التحقيق والاستدلال هو السبب لهذا التقليد الأعمى القبيح، فلو أنهم تخلصوا من هذا الحجاب المظلم لم يصعب عليهم رؤية وجه الحقيقة، ولهذا يقول النبي الكريم صلى الله عليه وآله: «حب الدنيا رأس كل خطيئة» (٢).

(١) «أمة» في الآية - كما يعتقد جمع من المفسرين - عبارة عن المنهج المتفق عليه لدى طائفة وقد فسرها بعض المفسرين بمعنى

الجماعة والفئة، والمعنى الأول هو المشهور وإن وردت (أمة) في آيات أخرى بمعنى الجماعة وقد تأتي بمعنى المدة الزمنية.

(٢) التفسير الكبير، ج ٢٧، ص ٢٠٦، كما توجد إشارة إلى هذا الأمر في تفسير روح البيان وتفسير الميزان في ذيل آية البحث.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٨٨

والجدير ذكره أن ذيل الآية الاولى تنقل عنهم قولهم: «إِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ» وقولهم في ذيل الآية الثانية «إِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ» وهذا الاختلاف في التعبير قد يكون من قبيل (العلمة والمعلول) بمعنى أنهم ادعوا أننا إنما نفتدى بأسلافنا لأن ذلك هو طريق الهدى والوصول إلى الحق!

على كل حال فإن القرآن الكريم في طول هذه الآيات يرد على هذا الفكر الباطل بشكل منطقي جميل ومحكم وينقل عن الأنبياء السابقين قولهم للمشركين المقلدين الخرافيين:

«قَالَ أَوْلَوْ جِئْتُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءُكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ». (الزخرف / ٢٤)

وللتقليد - كما سنبين - أنواع وأقسام، فبعضه منطقي ويكون سبباً لانتقال العلوم من جيل إلى جيل آخر، وبعضه خرافة وحمق وسبب لانتقال الخرافات والقبائح ولكل ذلك علامات سوف نشير إليها لاحقاً.

الآية الثانية من مجموعة الآيات المتعلقة بمواجهة إبراهيم عليه السلام مع عبدة الأصنام في بابل حيث سألهم بمنطقه الرصين الصريح: ما تعبدون؟ فكان جوابهم: «قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَافِيَةً».

وبهذه الكلمات لم يقروا بالشرك فحسب بل راحوا يتفاخرون ويتباهون به، وقد سد إبراهيم عليه السلام الطريق عليهم من خلال سؤال واحد: «قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يُضُرُّونَ»، أي أنها (الأصنام) إن لم تنفع ولم تضر فلا بد من أن تسمع نداء عبادةها على الأقل وإلا لا معنى لعبادتها.

ولكن اولئك الذين لم يجرأوا على الادعاء بأن الأصنام الحجرية والخشبية تسمع دعاءهم وتضرعهم، كما أنهم لم يمتلكوا دليلاً على إثبات ضررها ونفعها لتبرير عملهم، اضطروا للتمسك بأسلافهم والتشبث بالتقليد الأعمى وقالوا: «بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ».

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٨٩

وهذا الجواب وإن كان مخجلاً إلا أنهم لم يملكو شيئاً ليقدموه.

وفي طول هذه الآيات يردهم إبراهيم عليه السلام بمنطق رصين: «قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ». (الشعراء / ٧٥-٨٢)

أي أنه أهل للعبادة فهو المبدىء لكل الخيرات والبركات، لا تلك الموجودات الخاوية والفاقدة للقيمة.

وتنقل الآية الثالثة كلاماً لقوم فرعون وفيها انعكاس لهذا المضمون بشكل آخر حيث تقول: «قَالُوا اجِئْنَا لِنَتْلِفَنَّ عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ» «١»

وعليه «وَمَا نَحْنُ بِمُؤْمِنِينَ».

أنهم استندوا - في الحقيقة - إلى هذه النقطة فقط لإثبات صحته مسلكتهم وقداسته وهي أن هذا هو طريق الأسلاف ودينهم وعاداتهم، ولكي يتهموا موسى وهارون بأنهما يتآمران قالوا: إنكما تبغيان الحكومة عن طريق الدعوة إلى التوحيد وهدم الشرك وعبادة الأصنام من أساسها ولا نسمح بذلك! ويبدو أن هذا الكلام القى من قبل زبانية فرعون حيث عارضوا دعوة موسى وهارون للتوحيد بطريقتين شيطانيين:

أحدهما: هو إثارة العواطف لدى عامة الناس الجاهلين وذلك بالتحذير من أن دين أسلافهم في خطر، والآخر: هو إثارة سوء الظن فيهم بوصف دعوة موسى وهارون أنها تجرى وفق مخطط مسبق للوصول إلى الحكم وإلا فإنها لا واقعية لها.

وقد استخدم هؤلاء الجبابرة والطغاة هذين الطريقتين لاستغلال الناس ومواصلة حكمهم

(١) «لتلفتنا» من «لفت» وهو الصرف عن الشيء أو الإلفات إلى الشيء لو تعدت ب (من) فإنها تعنى الإنصراف و ب (إلى) فإنها تعنى (التوجه).

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٩٠

الاستبدادى، كما يلاحظ فى الآية حيث جاء التعبير أكثر صراحة: «قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَى . (طه / ٦٣)

الجواب الدائم للمشركين:

إِنَّ الآية الرابعة تنقل هذا المضمون على صورة إجابة دائمة من قبل مشركى مكة حيث تقول: «وَأَذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا».

وهذا فى الحقيقة هو منطق كل معاند لجوج حيث يتوسل بالتقليد حينما يعجز عن كل شىء، التقليد الأعمى للأسلاف الضالين والجاهلين والتفاخر بذلك دون امتلاك أى جواب تجاه الأدلة المحكمه التى أقامها الأنبياء لإثبات حقايقه دعوتهم وبطلان الشرك وعبادة الأصنام.

والقرآن الكريم يردّ هذا المنطق بجملة قصيرة واحدة حيث تقول فى طول هذه الآية بشكل سؤال: «أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ» (١).

أى أن تقليدهم لو كان كتقليد الجاهل للعالم لكان مقبولاً، ولكنه ليس كذلك بل هو تقليد جاهل لجاهل آخر، واتباع ضال لضال آخر، فمثلهم كالأعمى الذى يقوده أعمى آخر.

إنّ هذه الآية وما سبقها من آيات تتحدّث - كما يفهم من سياقها - عن مشركى العرب، وما احتمله بعض المفسرين من أنّها تقصد اليهود وما ورد عن ابن عباس بشأن سبب نزولها يعدّ أمراً بعيداً.

(١) فى الآية جملة مقدّرة معناها: «أيتبعون ما ألفوا عليه آباءهم فى كلّ حال وفى كلّ شىء ولو كان آبأؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون».

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٩١

تحدّثت الآية الخامسة والأخيرة عن مشركى العرب أيضاً حيث كانوا: «وإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ».

والملفت للنظر أنّ القرآن الكريم يقول: إنهم كانوا يواجهون (الآيات البيّنات) بمنطق (التقليد) والاستهزاء بالنبي الأكرم صلى الله عليه و آله فكانو يدعونه بكلمة «رجل» ولكى يستميلوا عامّة الناس إليهم يخاطبونهم ب (أسلافكم) بدلاً من (أسلافنا) ليشيروا عصبيتهم فى مواجهة النبي الأكرم صلى الله عليه و آله.

ومن مجموع هذه الآيات نستنتج أنّ ظاهرة التقليد الأعمى تعدّ من العوامل المؤثّرة فى تناقل الاعتقاد بالصنم فى العصور والقرون السالفة، ولم يكن الرسول الكريم صلى الله عليه و آله الوحيد من الأنبياء الذى تعرض لهذا الاسلوب عندما صدع بدعوته ونهض لمقارعة الشرك وعبادة الأصنام، فقد واجهه قومه بحجة تقليد الآباء والأجداد ومن سلفوا، وقد جاء هذا المعنى فى الآية ٤٣ من سورة سبأ والآية ٢٢ من سورة الزخرف بل إنّ أنبياءاً ورسلاً أمثال موسى عليه السلام، كما ورد فى الآية ٧٨ من سورة يونس و ابراهيم عليه

السلام، وكما ورد في الآيات ٧٠ إلى ٧٤ من سورة الشعراء وهوود عليه السلام، وكما ورد في الآية ٧٠ من سورة الاعراف وصالح عليه السلام، وكما ورد في الآية ٦٢ من سورة هود تعرضوا إلى مثل ما تعرض له الرسول صلى الله عليه وآله حيث واجههم أقوامهم بحجة تقليد الاسلاف والسير على عاداتهم التي ألفوها منهم.

وهذه الحجة الواهية والمزيفة تثار في أوساط جميع الأقسام وعلى مرّ العصور، فعبدة الأصنام وفي كافة انحاء العالم ومن أجل مواجهته الأنبياء والرسل وحملته راية التوحيد، فانهم يثيرون مثل هذه الحجة الجاهله، وقد أشارت الآية ٢٣ من سورة الزخرف إلى هذا المعنى ومن الواضح أنّ التقليد الأعمى لم يكن العامل الأوّل لظهور الشرك، بل يشكّل عاملاً لاستمراره وانتقاله من جماعة إلى اخرى ومن جيل إلى جيل.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٩٢

توضيحات

١- التقليد، عامل للتقدم أم للانحطاط؟

مما لا شكّ فيه أنّ التقليد إذا تمثّل في اتباع وإقتباس عديمي الاطلاع من العلماء فإنّه عامل على إيجاد حركة تكاملية في المجتمعات البشرية وأساساً نجد أنّ العلوم والأفكار والآداب والعادات البناءة، كما أنّ الشؤون التربوية والإنسانية قد انتقلت من جيل إلى جيل عبر هذا الطريق.

إنّ الأطفال يكتسبون جلّ معلوماتهم من المجتمع عن هذا الطريق تقريباً، كما أنّ الصناعات والحرف والفنون تتوسّع وتتكامل بهذا الطريق أيضاً، ولولا روح التقليد الإيجابية والبناءة لم تحدث هذه الحركة التكاملية أبداً.

إنّ تقليد «الجاهل للجاهل» أو «العالم للجاهل» يكون سبباً لشيوع الفساد والانحراف والاخلاق الفاسدة، والخرافات، والانحرافات الفكرية من قوم إلى قوم أو جيل إلى جيل، ومثل ذلك كمثل الماء الصافي والذي يمثل عصب الحياة، فإذا ما تلوث بالأمراض والميكروبات فسوف يصبح وسيلة لانتشار الميكروبات والأمراض والأوبئة.

وكثيراً ما ينشأ التقليد من الكسل والتعصب، فالذين لا يتحمّلون جهود التحقيق لما فيهم من كسل يقبلون على التقليد، والمعاندون المتعصبون الذين لا يهتمون للبحث عن نقاط القوة لدى الأقسام الاخرى والإذعان لها، يألفون نقاط الضعف الموجودة في مجموعتهم، وقد كان هذا النمط من التقليد الأعمى والمتعصب والرجعي هو العامل المهمّ لشيوع الشرك وعبادة الأصنام على مرّ التاريخ «١».

٢- تزيين الشياطين وهوى النفس

يستفاد من الآيات القرآنية أنّ (اتباع الهوى) كان من عوامل الشرك أيضاً، كما نقرأ في

(١) هناك بحوث حول أنواع التقليد وشرائط التقليد الإيجابي ودوافع التقليد الأعمى وشرحت كلمة (تقليد) في الجزء الأوّل من هذا التفسير في موضوع (حجاب التقليد)، ج ١، ص ٢٧٣.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٩٣

قصة السامري جوابه حينما سأله موسى عليه السلام عن الدافع لعمله بأنّه لاحظ اموراً لم يلاحظها غيره فقال: أخذت بعض آثار الرسول

وألقيتها خارجاً وأقبلت على الشرك: «وَكَذَلِكَ سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي».

كما يستفاد من الآيات القرآنية أن تزيين الشيطان ووساوسه هي العوامل الممهدة للشرك أو استمرارها، كما نقرأ في قصة ملكة سبأ أن الهدهد عندما أخبر سليمان عليه السلام عن شرك قوم سبأ قال: «وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ». (النمل / ٢٤)

وما ينبغي ملاحظته هو أن هوى النفس ووساوس الشيطان تظهر في إطار العوامل السابقة كعبادة الأوهام (التقليد الأعمى) (العصية اللجوج) ولذا لم نورد هنا عامل هوى النفس كعامل مستقل.

٣- عامل الاستضعاف والاستعمار الفكري

يعتبر الشرك وعبادة الأصنام من الوسائل التي استخدمها المستكبرون والمستعمرون بشكل دائم لأنه: أولاً: إن البسطاء من الناس يُعتبرون وسائل طيعة للمستكبرين، ولذا يكون التحرك الاستعماري دائماً باتجاه الجهل والغفلة في أوساط المستضعفين، ويسعى باستمرار إلى صد الناس عن الوعي واليقظة والعلم والفكر وغلق أى نافذة للتحقيق في وجوههم وإغراقهم في التقليد الأعمى الذى ينشأ منه الجهل المطبق كما يقول القرآن عن فرعون:

«فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ». (الزخرف / ٥٤)

وبما أن الشرك قائم على عبادة الأوهام والظنون فإنه عامل مؤثر في استغفال الجماهير، وهو أداة نافعة لتحقيق أهداف المستكبرين.

ثانياً: يعتبر الشرك عاملاً من عوامل الاختلاف والتفرق فيوعز لكل قوم بأن يتخذوا

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٩٤

معبوداً لهم، فيدفع مجموعة لعبادة الشمس، ومجموعة لعبادة القمر، ويشغل مجموعة ب (هبل)، ومجموعة ب (اللات) و (العزى)، حتى انقسم المجتمع العربى الصغير فى الجزيرة إلى مئات المجموعات بسبب عبادة الأصنام المختلفة، على عكس التوحيد الذى يمثل حلقة الوصل بين القلوب ورباطاً وثيقاً بين الأفكار.

ونعلم أيضاً أن الاختلاف ما دام قائماً فإن المستعمرين فى راحة بال، وأن مقولة (فرق تسد) تعد من أقدم المبادئ الاستعمارية، فلا عجب فى أن يكون الفراعنة ونمرود وأبو سفيان وأمثالهم من أنصار الشرك وعبادة الأصنام.

ثالثاً: يهدف المستكبرون دائماً إلى أن يخضع الناس لهم وكأنهم آلهة ويتلقون أوامرهم كأوامر مقدسة لا نقاش فيها.

ومن الواضح أن من يسجد للحجر والخشب يكون أكثر تقبلاً للآلهة البشرية، ولذا أخذ فرعون ينادى فى مصر (أنا ربكم الأعلى) واعتبر نفسه أعلى من الآلهة كلها.

بناءً على هذه الجوانب الثلاثة فلا عجب أن تتواكب الأفكار الاستعمارية مع الشرك وعبادة الأصنام، وأن يكون خط الأنبياء الذى يمثل خط القضاء على الاستعمار والاستضعاف هو خط التوحيد واليقظة والوعى، لتتذكر مرة أخرى الحديث المروى عن الإمام الصادق عليه السلام الذى قال فيه: «إن بنى امية أطلقوا للناس تعليم الإيمان ولم يطلقوا تعليم الشرك لكى إذا حملوهم عليه لم يعرفوه» (١).

إن هذا المضمون وان لم يصرح به فى الآيات القرآنية إلا أنه اشير إليه كما نقرأ فى الآية:

«وَلَوْ تَرَى اذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضِعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا اَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ».

(سبأ / ٣)

٤- كلمة أخيرة حول عوامل الشرك

من خلال البحوث التي أوردناها تتضح هذه الحقيقة وهي: إن الشرك وعبادة الأصنام

(١) اصول الكافي، ج ٢، ص ٤١٥.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٩٥

كسائر الظواهر الاجتماعية لا تنشأ من عامل واحد بل توجد عوامل مختلفة تعاضدت على ايجاده، من بينها. الميل إلى المحسوسات والإستئناس بها والمطالبة بإله محسوس.

واللجوء إلى الأوهام في المجتمعات المتخلفة (الظن بتأثير الأصنام في الشفاعة والعزة والنصر والتقرب إلى الله والظن بعدم إمكانية عبادة الله بصورة مباشرة ووجوب استخدام الوسائط والظن بقداسة التماثيل المصنوعة على هيئة الأنبياء والصلحاء وأوهام اخرى). وهكذا التقليد الأعمى للأسلاف وعدم الإستعداد للتحقيق في قضية المعرفة الإلهية.

كذلك استغلال المستكبرين والمستعمرين للميل إلى الشرك وعبادة الأصنام للوصول إلى أهدافهم الشيطانية، واستغلال الناس كانت عوامل مختلفة سببت نشوء فكرة الشرك أو استمراره وبقائه على طول التاريخ.

وقد واجهت هذه التيارات المنحرفة القويّة خطّ الأنبياء الذي يدعو البشر من جهة إلى التحرّر من إطار الحس وإدراك ما وراء الطبيعة، ومن جهة اخرى يدعوهم إلى عبادة الله مباشرة والخضوع بين يدي ربّ الكون كلّ واللجوء إلى ذاته المقدّسة في كلّ حال والقضاء على الأوهام.

ومن جهة ثالثة يدعو لكسر طوق التقليد الأعمى والإقبال على البحث في عالم الوجود ومعرفة الآيات الإلهية في الآفاق والأنفس.

ومن جهة رابعة يدعو عالم البشرية إلى الوحدة وتحطيم الأصنام المفرّقة والتحرّر من نير الإستغلال والاستعمار والغفلة والاستضعاف. هذه هي الخطوط العامة للكفر والإيمان والشرك والتوحيد.

ونختم هذا الكلام بما أورده العلامة الطباطبائي رحمه الله في تفسير الميزان في ذيل الآيات ٣٦-٤٩ من سورة هود تحت عنوان (كيف وُجد الشرك): «أتضح من الفصل المتقدّم أنّ الإنسان في مزلة من تجسيم الامور المعنوية وسبك غير المحسوس في قالب المحسوس بالتمثيل والتصوير وهو مع ذلك مفطور للخضوع أمام أي قوة فائقة قاهرة والإعتناء بشأنها،

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٩٦

ولذا كانت روح الشرك والوثنية سارية في المجتمع الإنساني سراية تكاد لا تقبل التحرّز والإجتناّب في المجتمعات الراقية الحاضرة وحتى في المجتمعات المبنية على أساس رفض الدين، فترى فيها من النصب وتماثيل الرجال وتعظيمها واحترامها والمبالغة في الخضوع لها ما يمثّل لك وثنية العهود الاولى والإنسان الأولى، على أنّ اليوم من الوثنية على ظهر الأرض ما يبلغ مئات الملايين قاطنين في شرقها وغربها.

ومن هنا يتأيد بحسب الاعتبار أن تكون الوثنية مبتدئة بين الناس باتخاذ تماثيل الرجال العظماء ونصب أصنامهم وخاصة بعد الموت ليكون في ذلك ذكرى لهم، وكان ربّ البيت في الرومان واليونانيين القدماء- على ما يذكره التاريخ- يُعبد في بيته، فإذا مات اتّخذ له صنم يعبده أهل بيته، وكان كثير من الملوك والعظماء معبودين في أقوامهم، وقد ذكر القرآن الكريم منهم نمرود الملك المعاصر لإبراهيم عليه السلام... وهو ذا يوجد في بيوت الأصنام الموجودة اليوم، وكذا بين الآثار العتيقة المحفوظة عنهم أصنام كثير من عظماء رجال الدين كبوذا وأصنام كثير من البراهمة وغيرهم، واتّخاذهم الموتى وعبادتهم لها من الشواهد على أنّهم كانوا يرون أنّهم لا يبطلون بالموت وإنّ أرواحهم باقية بعده، لها من العناية والأثر ما كان في حال حياتهم بل هي بعد الموت أقوى وجوداً وأنفذ إرادة

وأشدّ تأثيراً من شوب المادّة ونجت من التأثيرات الجسمانية والإنفعالات الجرمانية، وكان فرعون موسى يعبد أصناماً له وهو إله معبود في قومه: «وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكْ وَآلِهَتَكَ» (١). وما جاء في هذا البحث هو بعض عوامل الشرك، ولا بأس من الإشارة أخيراً إلى نقطة تثير العجب ذكرها المؤرخ الغربي الشهير (ويل ديورانت) في كتابه التاريخي (قصة الحضارة) وأيده الكثير من الذين سافروا إلى خارج البلاد في هذا العصر بملاحظاتهم في تلك البلدان وهو وجود أصنام كثيرة صنعت على صورة الأجهزة التناسلية للذكر والانثى! حيث تعبد من قبل مجموعة كبيرة!

(١) تفسير الميزان، ج ١٠، ص ٢٧٥-٢٧٧ (مع التلخيص).

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٩٧

ويكتب: لعلّ (القمر) هو أول شيء كانت له أولوية العبادة، فقد كان الإله المحبوب لدى النساء وعبدنه حامياً لهنّ، واعتقدن بأنّ للقمر حكومته على الأنواء الجويّة وينزل هذا الجرم السماوي المطر والتلوج، حتّى أنّ الضفادع- كما في الأساطير- تنضرع إليه كي ينزل المطر.

وبعد التفصيل في هذا المجال وفي عبادة الشمس والأرض والجبال والبحار يضيف: بما أنّ الإنسان الأوّل لم يدرك أنّ حقيقة انعقاد نطفة الإنسان من (الحيمن) و (البويضة)، فلذلك كانوا يعتقدون بأنّ المبدأ الوحيد في وجود البشر هو هذا الموجود العجيب أي (الآلة التناسلية لدى الرجل والمرأة) اعتقدوا وجود روح عجيبه فيهما هي المبدأ لهذا الأثر العجيب، وهذا الأمر كان سبباً في الاعتقاد التدريجي بالوهيتهما وتحولهم إلى عبدة لتماثيل الآلة التناسلية!!

والأعجب أنّه يكتب: قلّمنا نجد قوماً لا يعبدون هذا الصنم بشكل ما! (١).

وكما أشرنا فإنّ عبادة الأصنام لا تزال منتشرة في الهند واليابان في الوقت الحاضر.

ومن هنا يتضح جيّداً أنّ الإنسان إذا انحرف عن تعليمات الأنبياء: سيقع في مستنقعات متعفّنة وسيرتكب أعمالاً مضحكة ومخجلة. أمّا الموحّدون ذوو الدين الحقّ والقلب السليم فعليهم أن يشكروا الله كثيراً على تحرّرههم بفضل تعليمات الأنبياء من التلوّث بالشرك والسقوط في هذه الأودية الموحشة.

(١) تاريخ ويل ديورانت، ج ١، ص ٩٥ (مع التلخيص).

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ١٩٩

أقسام التوحيد

إشارة

١ و ٢- توحيد الذات والصفات

٣- توحيد العبادة

٤- توحيد الأفعال

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٠١

التقسيمات الأساسية:

قرأنا في البحوث السابقة أن الأساس في دعوة جميع الأنبياء والكتب السماوية كما يشهد بذلك القرآن الكريم - هو التوحيد - وقد شرحنا الأدلة عليه من القرآن والمنطق العقلي، وقد آن الأوان هنا لمراجعة الأبعاد المختلفة والفروع المتنوعة والغنية للتوحيد، ومن هنا تتجلى أهمية هذه المسألة.

ومن المعروف لدى علماء العقائد أن التوحيد ذو اقسام أساسية أربعة:

- ١- توحيد الذات (ذات الله واحدة ولا مثل لها).
- ٢- توحيد الصفات (صفات الله عزوجل ترجع كلها إلى حقيقة واحدة هي ذاته).
- ٣- توحيد العبادة (تليق العبادة بذاته المقدسة فقط).
- ٤- توحيد الأفعال (هو المبدىء لكل خلق ونظام الكون وكل حركة وفعل في هذا العالم ولا مؤثر في الوجود إلا الله سبحانه ولا يتنافى هذا مع اختيار الإنسان أبدأً وتوحيد الأفعال له فروع أخرى أهمها:
 - ١- توحيد الخالقية (الخلق منه فقط).
 - ٢- توحيد الربوبية (تدبير الكون إليه فقط).
 - ٣- توحيد المالكية والحاكمية التكوينية.
 - ٤- توحيد الحاكمية التشريعية والتقنينية.
- ٥- توحيد الطاعة (تجب طاعة أوامره فقط أو أوامر الذين أمر بطاعتهم) ولا شك في أن أفعال الله لا تنحصر في ما ذكر، ولذا فإن فروع توحيد الأفعال لا تنحصر فيما ذكر ولكن هذه الفروع الخمسة هي الفروع الرئيسة.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٠٢

وضروري أن نذكر بأن التوحيد يمكن تقسيمه من جهة إلى قسمين: التوحيد (الخاص) والتوحيد (العام).

التوحيد الخاص: هو فروع التوحيد التي اشير إليها بصورة إجمالية.

أما التوحيد العام فهو عبارة عن:

- ١- التوحيد في النبوة (فجميع الأنبياء: تابعوا هدفاً واحداً وكان لهم منهج أساسي واحد، ولذا لا نفرق بينهم من حيث الدعوة والمهمة): «لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْ رُّسُلِهِ».
 - ٢- التوحيد في المعاد (يحشر جميع البشر في يوم واحد ويحضرون محكمة واحدة).
 - ٣- التوحيد في الإمامة (مبدأ الأئمة واحد ويسعون وراء حقيقة واحدة وهم نور واحد).
 - ٤- التوحيد في النظم والعدل (القانون الإلهي واحد بالنسبة لجميع البشر).
 - ٥- التوحيد في المجتمع البشري (الجميع عباد الله ومن أب واحد وأم واحدة لا- يختلفون باختلاف اللون والعنصر واللسان وأمثالها ويشكلون مجتمعاً واحداً).
- وبهذه المقدمة نراجع الآيات القرآنية ونبحث حول كل فرع من هذه الفروع بصورة مستقلة.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٠٣

١ و ٢- توحيد الذات والصفات

تمهيد:

المراد من توحيد الذات - حيثما كان الحديث عنه - هو أن ذات الله المقدسة لا شبيه ولا نظير لها، وهي واحدة لا مثل لها من أي

جهة.

وبما أن الأبحاث السابقة كانت تدور - عادةً - حول محور توحيد الذات وقد اقيمت أدلةً مختلفة لإثبات التوحيد والآيات القرآنية التي تم تفسيرها كانت تقصد التوحيد بهذا المضمون، لذا ننصرف عن تكرار البحث بصددها ونتابع التفسير الدقيق لمعنى توحيد الذات، فتأمل خاشعين أولًا في الآيات الآتية:

١- «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ». (الشورى / ١١)

٢- «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثٌ ثَلَاثَةٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ». (المائدة / ٧٣)

٣- «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ* اللَّهُ الصَّمَدُ* لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ* وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ».

(التوحيد / ١-٤)

جمع الآيات وتفسيرها

يامن تعالى عن الخيال والقياس والظن والوهم:

تفسر الآية الأولى توحيد الذات في جملة واحدة تفسيراً بليغاً ورسيناً غنى المعنى حيث تقول «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ».

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٠٤

ومثل هذا الشيء - بالتأكيد - يكون أعلى من الخيال والقياس والظن والوهم، وليس بمقدورنا تصوّر ذاته، لأن الأشياء الممكن تصوورها هي التي لاحظنا أمثالها أو تحصيلت بعد التركب والتجزئة، أما الشيء الذي ليس له أى مثل فلا يتناوله الوهم والعقل أبداً، ومعرفتنا تكون بمقدار أنه موجود ونرى أفعاله وآثاره في عالم الوجود الواسع، ومن هذه الأوصاف ندرك صفاته إجمالياً، ولكن ليس بمقدور حتى الأنبياء المرسلين والملائكة المقربين أن يدركوا حقيقة ذاته.

والإقرار بهذه الحقيقة هو آخر مرحلة في سلم معرفة الإنسان لله عزوجل والحديث المعروف: «ما عرفناك حق معرفتك» (١)

المروى عن النبي صلى الله عليه وآله بيان لذروة العرفان البشرى بالله عزوجل.

والدليل على ذلك واضح لأنه كما ذكر في بحث أدلة التوحيد هو وجود لا متناهٍ ولا نهاية له من كل جهة، وكل ما سواه محدود ومتناهٍ من كل جهة، ولذا لا يمكن قياسه إلى غيره، وبما أن وجودنا وعقولنا وأفكارنا محدودة فإننا لا نصل إلى كنه تلك الحقيقة اللامحدودة أبداً.

استناداً إلى هذا التفسير فإن (الكاف) في (ليس كمثل شىء) تكون زائدة وللتأكيد (٢)، أى لا يوجد شىء شبيه له أبداً، نعم يمكن أن يفيض سبحانه من وجوده وعلمه وقدرته في عالم الممكنات ولكن مخلوقاته الممكنة ليست مثله أبداً.

ولكن بعض المفسرين لم يعتبر (الكاف) زائدة وقالوا: مفهوم الآية هو (لا يوجد مثل لله) أى أن (مثل) هنا تعنى (الذات) كما نقول: مثلك لا يسلك هذا الطريق المعوج، أى لا ينبغي لك أن تفعل هذا.

وقال البعض أيضاً: إن (مثل) هنا بمعنى الصفات، أى لا يوجد موجود يتّصف بأوصاف الله.

(١) بحار الأنوار، ج ٣، ص ١٤.

(٢) جاء في تفسير روح المعاني: إن بعض المفسرين اعتبر (مثل) زائدة ولكن أشكل عليه أبو حيان وقال: الإسم لا يكون زائداً فى اللغة

العربية أبداً.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٠٥

وواضح أن نتيجة هذه التفاسير الثلاثة في بحثنا تكون واحدة وإن كانت تبحث الموضوع من طرق متباينة. والجدير ذكره هو أننا نقرأ في حديث أن رجلاً جاء إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسأل: ما رأس العلم؟ فأجاب صلى الله عليه وآله: «معرفة الله حق معرفته وأضاف: أن تعرفه بلا مثال ولا شبه وتعرفه إلهاً واحداً خالقاً قادراً أولاً وآخرراً وظاهراً وباطناً، لا كفو له ولا مثل له فذاك معرفة الله حق معرفته» (١)

ومن الواضح أن (حق معرفته) هذه نسيه وإلّا- كما قلنا- لا يعرفه على ما هو عليه أحد.

في الآية الثانية يعتبر القرآن الكريم القائلين بأن الله ثالث أقنوم من الأقانيم الثلاثة «٢» كفاراً: «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثَةٌ».

وينبغي الالتفات إلى أن الآية لم تقل: إن الذين يعتقدون بالآلهة الثلاثة كفار، بل قالت:

(إن الذين يعتبرون الله أقنوماً ثالثاً أو ذاتاً ثالثاً كفار)، وقد سلك المفسرون في فهم مضمون الآية مسالك مختلفة.

فقال بعضهم: إن المراد هم الذين يعتقدون أن الله جوهر واحد في الذات الثلاثة (الأب) و (الإبن) و (روح القدس)، ويقولون: إنه واحد في عين تعدده، كما أن لفظ الشمس يشمل قرص الشمس ونورها وحرارتها والثلاثة واحدة «٣».

وبعبارة أخرى: المراد هو عقيدة (التوحيد في التثليث) القائلة بأن الله في عين كونه ثلاثة يكون واحداً (وهذا كلام غير معقول طبعاً لأن العدد «ثلاثة» لا يساوي «واحداً» أبداً، إلّا أن يكون أحدهما مجازياً والآخر حقيقةً).

(١) بحار الأنوار، ج ٣، ص ١٤.

(٢) «الأقنوم» بمعنى الأصل والذات وجمعه أقانيم، وهو تعبير يطلقه النصارى على الآلهة الثلاثة في مسألة التثليث.

(٣) تفسير الكبير، ج ١٢، ص ٦٠.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٠٦

وقد جاء في تفسير القرطبي: إن الآية تشير إلى فرق النصارى من الملكية (أو الملكانية) والنسطورية واليعقوبية لأنهم يقولون: أب وابن وروح القدس إله واحد «١».

ولكن الظاهر أنه خطأ لأنهم نسبوا هذه العقيدة إلى جميع النصارى في القول بالتثليث والتوحيد معاً.

والعلامة الطباطبائي رحمه الله يقول: إن ثالث ثلاثة يعني أن كل واحد من هذه الثلاثة: (الأب والإبن وروح القدس، هو إله ينطبق على كل واحد منها وهي ثلاث ذوات وفي الوقت نفسه ذات واحدة) «٢».

ولكن الآية تتحدث في الظاهر عن غير هذا كله، فالكلام يدور حول الاعتقاد بأن الله ذات ثلثة كفر، أي ليس الاعتقاد بالآلهة الثلاثة موجباً للكفر بل جعل الله تعالى في عرض الموجودات الأخرى واعتباره الثالث من الذات الثلاثة، وبعبارة أخرى اعتبار (الوحدة العددية) له موجب للكفر (فتأمل جيداً).

وقد ورد بيان هذا المعنى بشكل لطيف في حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام حيث نقرأ بأن أعرابياً جاء إلى أمير المؤمنين في يوم حرب الجمل فقال: يا أمير المؤمنين أتقول: إن الله واحد؟

فحمل الناس عليه وقالوا: يا أعرابي أما ترى ما فيه أمير المؤمنين من تقسم القلب؟ فقال أمير المؤمنين عليه السلام: دعوه فإن الذي يريد الأعرابي هو الذي نريده من القوم؛ ثم قال:

«يا أعرابي إن القول في أن الله واحد على أربعة أقسام، فوجهان منها لا يجوزان على الله عز وجل، ووجهان يثبتان فيه، فأما اللذان لا يجوزان عليه فقول القائل: واحد يقصد به باب الأعداد فهذا ما لا يجوز، لأن ما لا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد أما ترى أنه كفر

من قال إنه ثالث ثلاثة؛ وقول القائل: هو واحد من الناس يريد به النوع من الجنس فهذا ما لا

(١) تفسير القرطبي، ج ٤٤، ص ٢٢٤٦، وقد جاء هذا المعنى أيضاً في تفاسير أخرى مثل روح البيان والمنار في ذيل آية البحث.

(٢) تفسير الميزان، ج ٦، ص ٧٣.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٠٧

يجوز لأنه تشبيه وجلّ ربنا وتعالى عن ذلك وأما الوجهان اللذان يثبتان فيه فقول القائل: هو واحد ليس له في الأشياء شبه كذلك ربنا؛

وقول القائل: إنه عزّ وجلّ أحدى المعنى يعنى به أنه لا ينقسم في وجود ولا عقل ولا وهم كذلك ربنا عزّ وجلّ «١».

القسم الثالث والأخير عبارة عن سورة التوحيد التي ترسم وحدانية الله بأروع الصور وتتضمن كلاماً جامعاً ينفي تثليث النصارى

والثنوية (عبادة الإثنين) لدى المجوس وشرك المشركين، فتقول أولاً: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ»، وهو تعبير يدل على أن أسئلة مختلفة قد

طُرحت على نبي الإسلام صلى الله عليه وآله حول المعبود الذي يدعوه لهم إليه، فامر أن يشرح لهم جميعاً حقيقة التوحيد بهذه الجمل

القصيرة المركزة المعنى.

«أحد»: وأصلها (وَاحِد) من (وحدة) إستبدلت الواو فيها بالهمزة ولذا يعتبر الكثير أن (أحد) و (واحد) بمعنى واحد، وقد اشير إلى هذا

المضمون في بعض الروايات وكلاهما إشارة إلى الذات التي لا مثل لها «٢».

وقد فرق البعض بين (أحد) و (واحد)، فقالوا تارة: إن (أحد) من الصفات المختصة بالله لأنه لا يطلق على الإنسان وغيره، أما (واحد)

فإنه ليس كذلك.

وقالوا تارة أخرى: إن (واحد) يستعمل في الإثبات والنفي ولكن (أحد) يستعمل في النفي فقط.

وقالوا تارة ثالثة: إن (أحد) إشارة إلى وحدة الذات و (واحد) إشارة إلى وحدة الصفات.

وقالوا رابعة: إن (أحد) يطلق على الذات التي لا تتقبل الكثرة لا في الخارج ولا في الذهن، ولذا لا يمكن عدّه بعكس الواحد الذي

يتصوّر له الثاني والثالث.

وقالوا خامسة: إن (أحد) إشارة إلى بساطة ذات الله عزّ وجلّ ونفى أى جزء عنه، في حين أن (واحد) فيه إشارة إلى وحدانية ذاته قبالة

أن يكون له مثل، غير أن تلك التفاسير الخمسة لا تمتلك دليلاً واضحاً، فمثلاً يقال: يوم الأحد، ويطلق الواحد على الله في القرآن:

«إِلَهُ وَاحِدٌ». (البقرة/١٦٣)

(١) بحار الأنوار، ج ٣، ص ٢٠٦، ح ١.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٢٢.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٠٨

وكما أن «أحد» استعمل في جملة ثبوتية كما في سورة البحث وآيات قرآنية أخرى «١».

فالصحيح هو أن نقول بأن الإثنين يشيران إلى معنى واحد.

على كلّ حال، يعتقد بعض المفسرين أن جملة (الله أحد) هي أكمل وصف لمعرفة الله يمكن أن يستقرّ في عقل الإنسان، لأنّ كلمة

(الله) تشير إلى الذات التي لها صفات الكمال كلّها وفي (أحد) إشارة إلى نفي الصفات السلبية كلّها «٢».

والقرآن الكريم في إكمال هذه الآيات يقول: «اللَّهُ الصَّمَدُ» فهو إله قائم بالذات وغنى ويقصده كلّ المحتاجين ويتوجهون إليه.

وكلمة «صمد» كما في (مقاييس اللغة) لها أصلان: أحدهما يعنى القصد، والثاني الصلابة والإستحكام، وعندما تستعمل بصدد الله

تعالى فإنّ معناها هو الغنى المطلق الذي يتوجه إليه كلّ المحتاجين، وتعنى أيضاً الذات الواجبة الوجود والقائمة بذاتها.

ومن الممكن أن يرجع الأصلان إلى أصل واحد، لأنّ الذات المستحكمة والصلبة والقائمة بذاتها تكون غنيّة- طبعاً- وموضعاً لتوجه جميع المحتاجين، وعليه فإنّ (صمد) يمكن أن يكون إشارة إجمالية إلى جميع الصفات الثبوتية والسلبية لله تعالى، ولعله لهذا الدليل ذُكرت معانٍ كثيرة ل (صمد) في الروايات الإسلامية حيث يشير كلّ واحد منها إلى إحدى صفات الله «٣».

على أيّ حال، لا تخفى العلاقة بين هذه الآية والآية السابقة لها التي تتحدّث عن وحدانية الله، لأنّ واجب الوجود والغنى وحاجه جميع الموجودات إليه تستلزم أن يكون واحداً وأحدًا.

وفى الآية اللاحقة تأكيد آخر على حقيقة التوحيد حيث ترد عقيدة النصارى في الآلهة الثلاثة (الأب، والإبن، والواسطة بينهما)، وتبطل عقيدة اليهود بأنّ عزير ابن الله، كما تبطل

(١) الآيات: التوبة، ٦؛ النساء، ٤٣؛ مريم، ٢٦؛ البقرة، ١٨٠؛ الكهف، ١٩؛ وآيات كثيرة أخرى.

(٢) تفسير الكبير، ج ٣٢، ص ١٨٠.

(٣) راجع التفسير الأمثل، ذيل الآية ٢ من سورة الاخلاص.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٠٩

عقيدة المشركين العرب في أنّ الملائكة بنات الله، أجل، إنّها ومن أجل نفى هذه الامور كلّها وأمثالها تقول: «لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ». ومن المسلم به أن يكون للوجود الذى له ولد أو والد شبيه ومثيل، لعدم إمكانية إنكار الشبه بين الأب والإبن، وعليه لا يمكن أن يكون واحداً ولا مثيل له.

ولذا يقول بعد هذه الآية: «وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ».

وعليه فإنّ الآيات الثلاثة من هذه السورة تؤكّد على أحديّة الله المقدّسة ووحديته وعدم الشبيه والمثيل له، وبعبارة أخرى تكون كلّ آية في هذه السورة تفسيراً للآية السابقة لها، وبمجموعها أوضحت مسألة التوحيد بشكل جامع وتامّ وتجسّدت شجرة التوحيد الطيبة بكلّ أغصانها وأوراقها.

توضيحات

١- المفهوم الدقيق لتوحيد الذات

يذهب الكثير إلى أنّ معنى توحيد الذات هو أنّ الله واحد وليس إثنين، وهذه العبارة غير صحيحة وغير مطابقة لما ورد في الرواية عن أمير المؤمنين عليه السلام في تفسير هذه الآيات، لأنّ مفهومها الواحد العددي (أى أن يتصوّر الثانى لله عزّ وجلّ ولكن لا وجود خارجي له) ومن المسلم أنّ هذا كلام غير صحيح، والصحيح هو أن يقال: إنّ توحيد الذات هو أنّ الله واحد ولا يتصوّر له الثانى، وبعبارة أخرى: إنّ الله لا- شبيه له ولا نظير ولا مثيل، فلا يشبهه شيء ولا هو يشبه شيئاً لأنّ هذا الوجود اللامتناهى الكامل هو الذى يتّصف بهذه الصفة.

ولذا نقرأ في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام حينما سأل أحد أصحابه: أى شيء أكبر من الله؟ فأجاب: «الله أكبر من كلّ شيء»، ثمّ قال الإمام عليه السلام: «فكان ثمّ شيء فيكون أكبر منه؟!»، فقال: فما هو (ما المراد من هذه الكلمة)؟ فأجاب عليه السلام: «الله أكبر من أن يوصف» «١».

(١) معاني الأخبار للصدوق، ص ٧، ح ١.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢١٠

٢- مفهوم توحيد الصفات

حينما نقول: إن توحيد الصفات هو فرع من فروع التوحيد فإن مفهومه هو: كما أن ذات الله عز وجل أزلية وأبدية فإن صفاته كالعلم والقدرة وأمثالها أزلية وأبدية أيضاً، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، هذه الصفات ليست زائدة على ذاته فلا يوجد فيها عارض ومعرض بل هي عين ذاته.

ومن جهة ثالثة لا تفصل الصفات عن بعضها، أي أن علمه وقدرته شيء واحد والإثان عين ذاته! بيان: عندما نراجع أنفسنا نرى أننا كنا نفقد الكثير من الصفات، فلم نملك حين الولادة علماً ولا قدرة، ولكن هذه الصفات نمت فينا تدريجياً، ولذا نقول: إن هذه أمور زائدة على ذواتنا، ولذا يمكن أن يمر بنا اليوم الذي نفقد فيه القوة العضلية والعلوم والأفكار التي نملكها ونرى بوضوح أيضاً إن علمنا وقدرتنا منفصلتان، فالقدرة الجسمية في عضلاتنا ولكن العلم موجود في الروح! ولا يتصور في الله أي معنى من هذه المعاني، فذاته كعلمه وقدرته وكل شيء في ذاته واحد، ونسلم طبعاً بأن تصور هذه المعاني - بالنسبة لنا نظراً لفقداننا لهذه الصفة - معقد وغير مألوف ولا سبيل إليه إلا القوة المنطق والاستدلال الدقيق واللطيف.

٣- الدليل على توحيد الصفات

إن الخوض في صفات المخلوقات وعدم القدرة على استيعاب مفهوم توحيد الصفات هو السبب في انحراف بعض المتكلمين وعلماء العقيدة عن المسير الصحيح في موضوع صفات الله، أمثال طائفة (الكرامية) وهم أتباع محمد بن كرام السيستاني الذين اعتقدوا بأن صفات الله حادثه، وكذلك كانوا يعتقدون أن الله لم يكن مالكا لهذه الصفات ابتداءً ثم امتلكها! وهذا الكلام في غاية القبح! ولا يمكن لأحد أن يصدق، من يصدق بأن الله كان عاجزاً في البداية ثم اقتدر؟ فمن الذي أعطاه القدرة! ومن الذي وهبه العلم؟!

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢١١

ولذا يحتمل أن يكون مرادهم هو صفات الفعل كخالقية والرازقية، لأن الله قبل أن يخلق موجوداً ويرزقه لا معنى للخالقية أو الرازقية بالنسبة إليه (طبعاً كان قادراً على الخلق والرزق ولكن القدرة على شيء غير إيجاده) إلا أن البحث في توحيد الصفات لا يرتبط بصفات الفعل والكلام هو في صفات الذات كالعلم والقدرة، وكما سيأتي مفصلاً بأن صفات الفعل مستقلة عن صفات ذات الله، فصفات الفعل شيء ينتزعه العقل بعد مشاهدة أفعال الله وينسبها إلى الله (سنقرأ تفصيل ذلك لاحقاً).

وأوضح إشارة في باب إثبات وحدة الصفات في الآيات القرآنية هي الآية القائلة:

«لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» و «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ...» التي تقدم تفسيرها وتدل على أن ذاته المقدسة لا تتصف بأية إثنية.

ويمكن في الاستدلالات العقلية الاستناد إلى بعض النقاط:

١- ثبت في الأبحاث السابقة أن الله غير متناه من جمع الجهات ولذا لا توجد خارج ذاته أية صفة كمال، فكل ما يوجد مجموع في ذاته، وعندما نرى أن صفاتنا حادثه أو أنها غير ذاتها فإن السبب هو أننا موجودات محدودة، ولهذه المحدودية تكون الأوصاف والكمالات خارج ذواتنا وهي مما نكتسبها أحياناً، أما ذات الله وهو الكمال المطلق فأى صفة يمكن تصورها خارج ذاته المقدسة؟

٢- لو قلنا بأن صفاته مضافة إلى ذاته أو إعتقنا بأن صفاته كالعلم والقدرة منفصلة عنه فإن النتيجة هي التركيب (تركيب من الجوهر والعرض بل عوارض متعدّدة) في حين ثبت مسبقاً أنه لا سبيل لأي تركيب في ذاته خارجياً أو عقلياً.

وقد أشار أمير المؤمنين عليه السلام إلى هذا المضمون في الخطبة الأولى من نهج البلاغة بعبارة جميلة جداً في باب توحيد الصفات: «وكمال الإخلاص له نفى الصفات عنه، لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة، فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثناه، ومن ثناه فقد جزّاه، ومن جزّاه فقد جهله».

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢١٣

٣- التوحيد في العبادة

تمهيد:

إنّ التوحيد في العبادة هو من أكثر فروع التوحيد حساسية ويعنى أن لا نعبد غيره ولا نركع لغيره ولا نسجد لإله. ويمكن القول: إنّ عنوان دعوة الأنبياء عليهم السلام والقاعدة الأولى لشرائعهم هو قضية التوحيد في العبادة، وغالباً ما كانت مواجهاتهم مع المشركين تنشأ من هذه النقطة. صحيح أنّ (التوحيد في العبادة) يلازم (توحيد الذات والصفات) حيث تقرّر أنّ واجب الوجود كلّ ما سواه ممكن ومحتاج إليه فلا سبيل إلّا أن تكون العبادة مختصة به.

إنّه هو الكمال المطلق، ولا يوجد كمال مطلق سواه، والعبادة تعتبر طريقاً للوصول إليه، فلا بدّ أن تكون مختصة به. والملاحظ أنّ الآيات القرآنية مليئة بالدعوة إلى التوحيد في العبادة ونحن نذكر هنا أقسامها الحساسة بغية الوصول إلى هذا النداء القرآني المهمّ ونهتّم بالبقية ضمن إشارات بليغة.

بهذا التمهيد نعمن خاشعين في الآيات القرآنية الآتية:

١- «وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسَبِّحُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ».

(النحل / ٣٦)

٢- «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ».

(الأنبياء / ٢٥)

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢١٤

٣- «لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ».

٤- «... وَمَا أَمُرُوا إِلَّا لِيعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ».

(التوبة / ٣١)

٥- «قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَأَتَّبِعَ أَهْوَاءَ كُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ».

٦- «وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ».

(حجر / ٩٩)

٧- «وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ».

٨- «وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ».

٩- «يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي آتِيكُمْ فَاعْبُدُونِ».

(عنكبوت / ٥٦)

- ١٠- «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ». (نور/ ٥٥)
- ١١- «وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ». (آل عمران / ٨٠)
- ١٢- «وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ». (رعد/ ١٥)

شرح المفردات:

المفهوم الدقيق للعبادة:

«العبادة»: و (العبودية) كلمتان تعنيان إبراز الخضوع، وعلى ما يذهب إليه الراغب في المفردات، فإنَّ للعبادة مفهوماً أعمق وتعنى غاية الخضوع بين يدي من له غاية الإنعام والإكرام وهو الله عزوجل.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢١٥

ويبدو أنَّ الأصل في هذا اللفظ مشتق من (عبد) إلَّا أنَّ (عبد) كما في (لسان العرب) و (كتاب العين) يطلق على كلِّ إنسان عبداً كان أم حراً (لأنَّ البشر كلهم عبيد الله) ويطلق تارةً على العبيد خاصَّةً.

ويضيف الراغب: العبد أربعة أضرب:

١- عبدٌ بحكم الشرع وهو الإنسان الذي يصحَّ بيعه وشراؤه.

٢- عبدٌ بمعنى مخلوق.

٣- عبدٌ بالعبادة والخدمة، والناس في هذا ضربان: عباد الله وعباد الدنيا (وعباد الرحمن) و (عبيد الدنيا).

وفي مجمع البحرين إنَّ هذه الكلمة تستعمل تارةً بمعنى (الحزب والفئة) والآية:

«فَادْخُلِي فِي عِبَادِي». (الفجر / ٢٩)

فيها إشارة إلى ذلك.

وهذه النقطة جديرة بالإهتمام وهي أنَّهم قَسَموا العبادة إلى نوعين:

العبادة الإختيارية التي أمرت بها الآيات القرآنية، والعبادة غير الإختيارية، كما يقول القرآن الكريم: «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ». (الاسراء / ٤٤)

ويقول الطريحي في (مجمع البحرين): إنَّ الحكماء قَسَموا العبادة إلى ثلاثة أقسام وهي:

الأول: ما يجب على الأبدان كالصلاة والصيام والسعي في المواقع الشريفة لمناجاته جلَّ ذكره (عبادة جسمانية).

الثاني: ما يجب على النفوس كالإعتقادات الصحيحة من العلم بتوحيد الله وما يستحقُّه من الثناء والتمجيد والتفكير فيما أفاضه الله سبحانه على العالم من وجوده وحكمته ثمَّ الإلتساع في هذه المعارف (عبادة روحانية).

الثالث: ما يجب عند مشاركات الناس في المدن وهي في المعاملات والمزارعات والمناكح وتأديئة الأمانات ونصح بعض لبعض بضروب المعاونات وجهاد الأعداء وحماية الحوزة «١» (عبادة اجتماعية).

(١) مجمع البحرين للطريحي، ج ٣، ص ١٠٨.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢١٦

«طاغوت»: صيغة مبالغة من (الطغيان) «١»

، والطغيان كما نعلم هو: تجاوز كل حد، ولذا تطلق كلمة طاغوت على كل موجود متمرد ومعتد كالشيطان، والسحرة، والجبارين، والحكام الظالمين، والتيارات التي تنتهي بغير الحق.

وتأتى هذه الكلمة بمعنى المفرد والجمع.

وذكر (الطبرسى) فى (مجمع البيان) فى تفسير آية الكرسي خمسة معانٍ للطاغوت هى:

الشيطان، الكاهن، الساحر، الإنس والجن المتمردون والأصنام (ومن الواضح أن هذه الأقوال ترجع كلها إلى معنى جامع واحد اشير إليه).

جمع الآيات وتفسيرها

هو المعبود وحده:

إن آية البحث الاولى تعتبر الدعوة إلى التوحيد هى المنهج الأساسى لرسول الله أجمعين حيث تقول: «وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ».

وهذه الكلمات تُطرح فى مواجهة الذين تنقل عنهم (هذه الآيه) تبريراتهم فى عبادة الأصنام: «وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ...» (النحل / ٣٥)

والقرآن يقول فى ردهم: «وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ» فقد دعا الأنبياء عليهم السلام جميعاً إلى التوحيد فى العبادة وعارضوا عبادة أى موجود غير الله، فما هذه الفرية التى تنسبونها إلى الله!؟

وتضيف: إن الناس انقسموا إلى طائفتين تجاه دعوة الأنبياء عليهم السلام، طائفة استعدت للهداية وكانت تطلبها فهداها الله، «فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ»، وطائفة خالفت: «وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ»، ثم تأمر الآيه: «فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ»، أجل، إنهم وبسبب انحرافهم عن جادة التوحيد وبسبب الطغاة وقعوا فى وحل الفساد والشقاء، فنزل عليهم العذاب الإلهى.

(١) قال البعض: إن الأصل هو «طغووت» ثم جاء لام الفعل بدلاً عن عين الفعل وانقلبت الواو المفتوحة قبلها إلى الف وصارت (طاغوت).

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢١٧

والملاحظ أن الآيه تنسب الهداية إلى الله عزوجل، فلولا- التوفيق والإمداد الإلهى لما كان لأحد أن يبلغ الهدف بقدرته، فى حين تنسب الضلالة لهم لأنها نتيجة أعمالهم.

الآيه الثانية توافق الآيه الاولى بعبارة اخرى وتقول كفضية عامه وخالده: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ».

والملفت أن (نوحى) فعل مضارع ويدل على الاستمرار، أى إننا أوحينا التوحيد فى العبادة إلى كل نبي وقد أمر جميع الأنبياء بإبلاغ ذلك طيلة دعوتهم.

وعليه فإن هذه المسألة استمرت أصلاً أساسياً فى تاريخ الأنبياء عليهم السلام.

الآيه الثالثة تنقل كلاماً عن أول نبي من اولى العزم وهو شيخ الأنبياء نوح عليه السلام الذى لم تتضمن دعوته منذ بدايتها نداء سوى نداء التوحيد فى العبادة ونبد عبادة الأصنام حيث يقول: «لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ».

ويستفاد من هذه الجملة بأن الشرك وعبادة الاصنام كان ولا يزال أسوأ شوكة في طريق سعادة البشرية، والأنبياء الذين يمثلون الرعاة لبستان التوحيد كانوا يهتمون قبل كل شيء بزرع وبرعاية زهور الفضيلة في روح البشر ويقتلعون الأشواك التي تعترض طريقهم بسلاح التوحيد، وخاصة في عصر نوح عليه السلام، كما يستفاد من الآية ٢٣ من سورة نوح حيث كانت هناك أصنام عديدة ومتنوعة بإسم (ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر).

وكانت على هيئة رجل، وامرأة، وأسد، وفرس، ونسر على التوالي، وكانوا يعبدونها بجميع وجودهم، ولما رأى نوح منهم العناد والإصرار هددهم بعذاب الله، كما نقرأ في ذيل الآية: «أَنْى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ»، أى إننى أخاف عليكم عاقبة الشرك. والظاهر أن المراد من اليوم العظيم هو يوم الطوفان الذى لم يحدث نظيره فى تاريخ

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢١٨

العقوبات التى نزلت على الأقسام السابقة، كما احتمل أن (يوم عظيم) إشارة إلى يوم القيامة «١».

وقد جاء فى تفسير الميزان بأن هذه الآية قد جمعت أصلين من اصول الدين فى جملة قصيرة هما: (التوحيد والمعاد) كما جاء الأصل الثالث وهو (النبوة) فى آية، «يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ» «٢».

الآية الرابعة تتحدث عن اليهود والنصارى الذين انحرفوا عن جادة التوحيد، فقد اعتبر اليهود أحبارهم (علماء الدين اليهود) واعتبر النصارى رهبانهم والسيد المسيح معبودات لهم!

ثم تقول: «وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيُعْبَدُوا إِلَهًا وَاحِدًا» وتؤكد:

«لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» وللتأكيد تضيف: «سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ».

وبهذا فإن الدين الذى أقامه نوح عليه السلام قواعد واصل طريقه فى دعوة موسى عليه السلام والسيد المسيح عليه السلام بكل قوة وثبات.

صحيح أن النصارى كانوا يعبدون السيد المسيح وما زالوا ولكن اليهود لم يعبدوا الأحرار، والنصارى لم يعبدوا الرهبان، بل لإطاعتهم المطلقة لهم واستسلامهم لتحريفهم وتغييرهم الأحكام الإلهية أطلق على ذلك عنوان الشرك، ولذا جاء فى الأحاديث: «أما والله ما

صاموا لهم ولا صلوا ولكنهم أحلوا لهم حراماً وحرموا عليهم حلالاً فاتبعوهم وعبدوهم من حيث لا يشعرون» «٣»

وسياتى تفصيل هذا الموضوع فى بحث (توحيد الطاعة) بإذن الله.

(١) هذان التفسيران قد صرح بهما فى كلمات المفسرين السابقين ومنها ما أشار إليها الفخر الرازى فى التفسير الكبير، ج ١٤، ص ١٤٩ فى ذيل آيات البحث.

(٢) تفسير الميزان، ج ٨، ص ١٨٠.

(٣) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٢٠٩.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢١٩

لا أعبد غير الله:

فى الآية الخامسة يصل الدور إلى النبى الأكرم صلى الله عليه وآله حيث يأمره الله عز وجل: «قُلْ إِنِّى نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ».

والاستفادة من لفظ (الذين) الذى يستعمل لجمع المذكر العاقل فى معبوداتهم هو إما لتصورهم فى عالم وهمهم وخيالهم أن الأصنام

ذات روح وعقل وشعور، وأما لوجود أشخاص كالمسيح أو الملائكة والجن بين هذه المعبودات. ولتبيان الدليل على هذا المنع والنهي الإلهي تضيف الآية: «قُلْ لَأَتَّبِعْ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ». ويعنى هذا أن جذور الشرك كلها ترجع إلى عبادة الهوى والظن والوهم، ومن المسلم به أن اتباع الهوى يستتبع الضلال ولا ينتهى بالسعادة والهداية أبداً.

الآية السادسة توجه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وآله وتأمره بأن يثبت ويواصل عبادة الله الواحد واجتناب كل شرك وعبادة للأصنام حيث تقول: «وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ».

وقد فسّر المفسرون (اليقين) هنا بمعنى الموت، واعتبروه نظير قول السيد المسيح عليه السلام:

«وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا». (مريم / ٣١)

ونقرأ في موضع آخر من القرآن على لسان أهل النار: «وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ». (المدثر / ٤٦-٤٧)

كما جاء التعبير عن (الموت) ب (اليقين) في الروايات الإسلامية، ففي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام نقرأ قوله عن الموت: «لم يخلق الله يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت» (١)

، (لأنّ الناس لا يكثرثون به وكأنهم لا يصدقون أنهم سيموتون)!

والتعبير عن (الموت) ب (اليقين) إما لما اشير إليه في الحديث المذكور أى هو مسألة يقطع

(١) تحف العقول، ص ٢٧١.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٢٠

بها جميع الناس ولا اختلاف بين المذاهب والعقائد المتباينة في هذه المسألة، وإما أن الإنسان يتيقن بالكثير من القضايا التي يتردد فيها وذلك عند زوال الحجب عنه عند الموت وظهور الحقائق (من الممكن طبعاً الجمع بين هذين المعنيين).

والتعبير ب (بأتيك) أيضاً إشارة لطيفة إلى هذا الموضوع وهو أن الموت سيقع على الإنسان شاء أم أبى!

في الآية السابعة يلاحظ هذا المضمون نفسه مع إضافات أخرى، وفيها إشارة إلى طائفة من أهل الكتاب الذين انحرفوا عن التوحيد وجعلوا لله أنداداً في العبودية حيث تقول: «وَمَا امْرُؤًا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ» (١).

والملاحظ أن الآية تحصر الأوامر الإلهية كلها في العبادة المخلصة ثم في إقامة الصلاة وأدائها: «وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ»، وهذا يدل على أن الأصل في التعاليم الدينية يرجع إلى الإخلاص في العبودية، والملاحظ أيضاً أن الآية تضيف في ذيلها: «وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ» (٢).

الآية الثامنة تنقل نكتة وردت في قول السيد المسيح عليه السلام حيث قال: «وَأَنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ».

ونعلم أن الخط المستقيم الذي يصل بين نقطتين واحد لا أكثر، في حين توجد آلاف

(١) يقول الراغب في المفردات: «حنف» على وزن «كنف» تعنى الميل من الضلال إلى الصراط المستقيم وإنما يقال للإسلام (الدين الحنيف) لأنه يمنع المسلمين عن أى انحراف عن الصراط السوى.

(٢) «قيمة» مشتقة من القيام بمعنى القائم والثابت والمستقيم وكما يقول الراغب في المفردات: إن معناها هي الامّة التي تقوم بالقسط والعدل كما جاء في الآية .. «كونوا قوامين بالقسط».

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٢١

الخطوط المنحرفة بينهما، فخط التوحيد واحد وكل ما سواه فهو شرك وعبادة أصنام.

(مستقيم) من (الإستقامة) ومشتقة في الأصل من (القيام)، وبما أن الإنسان يقف مستوياً في قيامه فإن هذه الكلمة استعملت بمعنى كل طريق ومنهج معتدل ومستوٍ وخالٍ من الانحراف.

والملاحظ أن القرآن وفي سورة الحمد قد جعل النقطة المقابلة للصراف المستقيم هو طريق المغضوب عليهم و (الضالين)، والطائفة الاولى هم الضالون من أهل العناد واللجاجة والذين يصرون على مسيرتهم ومسيرة غيرهم المنحرفة، والطائفة الثانية هم الضالون البسطاء.

إن عجزتم عن عبادة الله فهاجروا:

نواجه في الآية التاسعة نقطة جديدة حيث يتوجه الأمر إلى المؤمنين، وذلك عندما يكون البقاء في مكان - حتى أوطانهم الخاصة - مانعاً من عبادة الله ومزعزعةً لتوحيد عبادته فعليهم أن يهجروا ذلك المكان تقول الآية: «يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ».

أجل، أن أرض الله واسعة ولا- يمكن أبداً الإذعان لذل الشرك وأسر الكفر وعبادة الأصنام من أجل امور من قبيل القوم والقبيلة والبيت والوطن الحبيب، بل إن واجب كل مؤمن موحد هو أن يهجر وطنه في مثل هذه الظروف ويحل في وطن مناسب ويبقى شمعة التوحيد مضيئة في روحه، وقد يُوقَف - كالمهاجرين في صدر الإسلام- لإعداد القوة اللازمة ويرجع إلى وطنه ويزيل آثار الشرك وعبادة الأصنام من ربوعه.

والتعبير ب (يا عبادي)، و (أرضي)، و (إيأي فاعبدون) في الآية مقرون بالرحمة واللفظ الإلهي وإشارة إلى نصره المستمر للموحدين أينما كانوا وفي كل زمان «١».

والملاحظ أن المخاطب في الآية هم (العباد)، ومع ذلك فالآية تأمرهم بعبادة الله الواحد،

(١) لاحظوا أن «إيأي فاعبدون» بسبب تقدم المفعول على الفعل تدل على الحصر وتبين انحصار العبادة في الله.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٢٢

وفي ذلك إشارة إلى أن العباد ينبغي أن يواصلوا مسيرة التوحيد إلى آخر العمر ولا ينحرفوا لحظة واحدة، وهذا نظير تكرار الجملة: «اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ»، لدى المؤمنين، حيث يطلبون فيها استمرار هذه النعمة إلى جانب الهداية، على أية حال، فإن الآية دليل على وجوب الهجرة من أرض الشرك وعبادة الأصنام إلى دار الإيمان، إلّا أن يُوقَف الإنسان لتغيير الأوضاع السائدة على تلك الأرض. آية البحث هي من آيات سورة العنكبوت التي يقول عنها المفسرون: إن الآيات الإحدى عشرة الاولى منها نزلت في المدينة بصدد الذين كانوا في مكة وأظهروا الإسلام ولكنهم لم يعزموا على الهجرة إلى المدينة، والآية التي بعدها تقول: «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ» وفيها إشارة إلى هذا المعنى وهو أن الجميع سيموتون وينفصلون عن الوطن والزوج والمال، فلا تظنوا أنكم إن بقيتم في أجواء ملوثة بالشرك فإنكم سوف تبقون إلى جنب أحبائكم أبداً «١».

وتستند الآية العاشرة إلى نقطة جديدة أخرى في هذا المجال، وتعد المؤمنين جميعاً بأنهم سيكونون مالكين وحكاماً للأرض كلها، كما أن التوحيد سينتشر في العالم بأسره وسوف لن يعبد إلا الله، وعلى هذا فإنها تبشر بتوحيد العبادة الخالصة كبادرة كبرى لكل المؤمنين وتقول: «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ»، وهناك بحث بين المفسرين في تحديد ماهية هذه الطائفة التي ورثت الأرض وعاشت في عصور قديمة، والمناسب أن يقال: إنها إشارة إلى بني إسرائيل الذين أصبحوا ملوكاً وحكاماً على مساحة واسعة من الأرض بعد نهضة موسى عليه السلام وانهيار حكومة الفراعنة، وكما

يقول القرآن الكريم في قوله تعالى: «وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا» (٢). (الأعراف/ ١٣٧)

(١) راجع تفسير روح البيان؛ وروح المعاني؛ والقرطبي في ذيل آية البحث.

(٢) هناك بحث مفصل آخر في هذا المجال قد ورد في تفسير الأمل، ذيل الآية ٥٥ من سورة النور، تحت عنوان الحكومة العالمية للمستضعفين وكان لها نموذج صغير بعد فتح مكة والإنتصارات الواسعة بعد النبي صلى الله عليه وآله والنموذج الأتم والكامل سيتحقق عند قيام الإمام المهدي (عج).

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٢٣

وتتضمن الآية الحادية عشرة إشارة إلى نقطة جديدة في هذا المجال حيث تؤكد أن الأنبياء العظام والملائكة المقربين لا يستحقون العبادة فضلاً عن الأصنام، فالعبادة مختصة بالله عز وجل وتقول: «وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا» (١). ولمزيد من التأكيد تضيف الآية: «أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ».

«أرباب»: جمع (رب) ويعنى في الأصل المالك المصلح، أى المالك الذى يسعى فى تدبير ملكه وتربيته وإصلاحه، ولذا فإن (رب) الدار) و (رب الإبل) جاء بمعنى المالك والمدبر للبيت أو الإبل، وقد ندر استعمال كلمة «رب» فى القرآن الكريم فى غير الله، منها الآية ٤٢ و ٥٠ من سورة يوسف حيث استعملت كلمة (رب) فى نعت ملك مصر، ويستفاد من عبارات هذه السورة بأن هذه الكلمة كانت كثيرة الاستعمال كسمة للشخصيات المصرية الكبيرة.

وفى المقابل استعملت هذه الكلمة التى وردت مئات المرات فى القرآن الكريم- فى كل المواطن تقريباً- كصفة لله عز وجل، لأنه هو المالك الأصلي- فى الواقع- والمدبر والمربي لموجودات الكون كله، المهم أن الكثير من الأقسام كانوا يعتقدون بألهة صغيرة يطلقون عليها (رب) أو (رب النوع) ويطلقون على الله (رب الأرباب) وكانت هذه العقيدة لدى بعض الأقسام تجاه الملائكة أو بعض الأنبياء، وآية البحث تنفى بصراحة هذه العقائد الباطلة وتعزف الله وحده رباً وليس رب الأرباب، لأنها تعتبر انتخاب أى رب سواه كفراً والإسلام على طرف نقيض معه.

(١) لاحظ أن «أمر» منصوب لأنه معطوف على (أن يؤتية الله).

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٢٤

آية البحث الثانية عشرة والأخيرة تشير إلى الكلام الأخير فى هذا البحث وهو أن التوحيد فى العبادة لا يختص بالبشر بل: «وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظُلماً لَهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ».

«من»: وان كانت إشارة إلى العقلاء عادةً ولذا يعتقد جمع من المفسرين بأن آية البحث تقصد بنى الإنسان والملائكة وأمثالهم، إلّا أن فى الآية قرائن تدل على أن هذه الكلمة تشير إلى الموجودات كلها وتعم العاقل وغير العاقل والنبات والجماد، والمراد من السجدة ما يعم السجدة التكوينية (غاية الخضوع والتسليم فى الموجودات تجاه قانون الخلق) والسجدة التشريعية (السجود والعبادة الإعتيادية) لأن: أولاً: التعبير (طوعاً وكرهاً) دليل على عمومية الآية.

ثانياً: اشتراك (ظلال) فى هذه السجدة والعبادة العامة دليل آخر على هذا المعنى.

ثالثاً: ورد هذا المعنى بجلاء فى آيات قرآنية أخرى: «وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» (النحل / ٤٩)

وهكذا فى الآية: «وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ» (الرحمن / ٦)

وعلى هذا فإن موجودات الكون كلها وبدون استثناء لها سجود تكويني وتسليم للأوامر الإلهية، ومن بينها المؤمنون حيث لهم - مضافاً

إلى السجود التكويني الذي لا يتّصف بالإختيار- سجود اختياري تشريعي أيضاً. وتعميم هذا الحكم إلى (ظلال) تعبير كبير المعنى، لأنّ الظلال تتّصف بالعدم في الواقع (لأنّ الظلّ هو المكان الذي لا يسقط الضوء عليه) ولكن بما أنّ الظلال تابعة للأجسام في وجود النور فإنّ لها قسماً ضعيفاً من الوجود، ويقول القرآن: إنّ هذه الأعداء الشبيهة بالوجود تسجد لله أيضاً فكيف بالموجودات الحقيقية؟ وهذا يشابه العبارة التي نقولها وهي أنّ عداوته لفلان بلغت إلى حدّ أنّه يرمى ظلّه بالسهم.

ثمّ إنّ الظلال تسقط عادة على الأرض والتعبير بالسجود أليق بها. وما تقوله الآية: «بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ» فأنّه من الممكن أن يكون وصفاً خاصاً للظلال،

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٢٥

واختيار هذين الزميين هو لأنّ كلّ شيء في هذين الوقتين يكون ذا ظلّ، ظلّ طويل وممتدّ على العكس من منتصف النهار إذ يكون له ظلّ أو له ظلّ قصير.

ويحتمل أيضاً أن يكون هذان الوصفان لكلّ الموجودات في السماء والأرض والمراد هو الإشارة إلى استمرار هذا السجود، كما نقول في عباراتنا اليومية: يجب أن نلقى فلاناً صباحاً ومساءً، أي، دائماً وباستمرار «١».

أخيراً وبمراجعة عامّة لما تقدم نصل إلى أنّ مسألة (التوحيد في العبادة) لها من الأهمية ما جعلها في صدارة دعوة الأنبياء والرسل عليهم السلام، ومن أهمّ الفقرات في تعليماتهم، وقد أقام جميع الأنبياء أولى العزم دعوتهم عليها، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله طيلة عمره الشريف يدعو للتوحيد بعبارات مختلفة، وصراط الهداية المستقيم يمرّ عبر هذا الطريق، ولتحقيق هذا المنهج الإسلامي المهمّ ينبغي - عند الحاجة - ترك الأوطان وهجر أجواء الشرك وعبادة الأصنام.

ومن الخصائص المهمّة لذلك اليوم الذي تهيمن فيه حكومة العدل الإلهي في العالم بأسره هو ظهور عقيدة التوحيد في العبادة هذه والتي تسود العالم كلّه، وليس البشر فقط بل وكلّ الموجودات في الأرض والسماء تسجد لله وفي كلّ الأحوال، وإذا لم تسجد باختيارها فإنّها تسجد من حيث تكوينها ولسان حالها وتسبح له.

توضيحات

١- شجرة توحيد العبادة المشرقة

لا بدّ من ملاحظة هذه النقطة قبل كلّ شيء وهي: أنّ الإحترام والتواضع والخضوع

(١) على الصورة الأولى يكون الجار والمجرور متعلّقاً بالفعل أو الوصف المقدر (وفيه امتياز أنّه يعود للأقرب) وفي الصورة الثانية يكون الجار والمجرور متعلّقاً بالفعل يسجد وفيه امتياز أنّه مذكور.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٢٦

والثناء صفات لها مراتب ودرجات آخرها وذروتها العبادة والعبودية.

ومن البديهي أن يخضع الإنسان لأوامر من يحترمه إلى هذه الدرجة وينقاد له بكلّ وجوده انقياداً تاماً ويهوى إلى الأرض ويسجد له.

هل من الممكن أن ينفصل الخضوع الذي يصل حدّ العبودية والثناء والإحترام اللامحدود عن الطاعة والتسليم للأمر؟

ومن هنا نقول: إنّ الإنسان إذا استوعب روح العبادة الخالصة فإنّه يكون قد خطا خطوة كبيرة في طريق الطاعة لأمر الله والعمل

بالصالحات والإبتعاد عن السيئات، ومثل هذه العبادة- خاصة إذا كانت دائمة ومستمرّة- تكون رمزاً لتربية الإنسان وتكامله. مثل هذه العبادة الخالصة المقرونة بعشق المحبوب، الذي يشكّل عاملاً مهماً للحركة إليه، وكما أنّ التحرك نحو ذلك الكمال المطلق عامل على ترك القبائح والذنوب والتلوث بالمعاصي.

ولهذا حازت مسألة العبادة الخالصة على هذه الدرجة من الأهمية إلى الحدّ الذي يقول القرآن فيها: «إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ». (المؤمن / ٦٠)

إنّ العابد بدافع من خضوعه اللامحدود بين يدي الله يسعى إلى نيل رضاه والتقرب إليه ولأنّه يعلم أنّ تحصيل رضاه يتم عن طريق طاعة أمره فإنّه يسعى في هذا الطريق ويتقبل أوامره بطيب نفس تام. العابد الحقيقي يسعى للتشبه وتقليد صفات معبوده ومعشوقه الحقيقي ويعكس في هذا الطريق قبساً من صفات جماله وجلاله في نفسه، ولا ينكر ما لهذه الامور من تأثيرات على تكامل الإنسان وتربيته.

٢- روح العبادة والإحتراز من الإفراط والتفريط

هناك إفراط وتفريط عجيبان في معنى العبادة كما هو الحال في الكثير من القضايا الاخرى حتى أنّ بعضاً أفرط إلى حدّ جوز فيه السجود لغير الله (مع عدم الاعتقاد بالمالكية نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٢٧)

وربوبيّة المسجود له)، وذكر سجود الملائكة لآدم وسجود اخوة يوسف بين يديه كشاهدين على ذلك. وفي المقابل اعتبر بعض آخر أنّ الاستغاثة والتوسل بالنبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام وطلب الشفاعة وأداء الاحترام لهم، شركاً، واعتقدوا بأنّ فاعله مشرك. وفي الحقيقة أنّه لا يمكن التوفيق بين هاتين العقيدتين.

وللإيضاح نقول: إنّ حقيقة العبادة كما نقلنا عن اللغويين في بداية البحث في شرح المفردات هي: الخضوع المطلق وغايته التواضع والتذلّل أمام المعبود، وهذا العمل مختصّ بالله من وجهه نظر إسلامية ويكون شركاً في العبادة إن كان موجهاً إلى معبود آخر. وبعبارة اخرى إنّ للخضوع والتواضع درجات، درجة منها تحدث أمام الأصدقاء ويقابلها التكبر عليهم، ودرجة اخرى تكون أمام أفراد محترمين كالوالدين كما يقول القرآن:

«وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ». (الاسراء / ٢٤)

والدرجة الأكمل تكون أمام الأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام حتى أنّ المسلمين لم يحقّ لهم رفع أصواتهم فوق صوت النبي صلى الله عليه وآله بدليل قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ». (الحجرات / ٢)

ولكن آخر مرحلة من الخضوع والتواضع والتذلّل التي نطلق عليها كلمة العبادة والعبودية هو (السجود). وعليه فإنّ الخضوع المطلق وغايته التذلّل (وإن لم يقترن بالإعتقاد بالربوبيّة والمملوكية) يكون عبادة ومختصاً بالله ولهذا لا يجوز السجود لغيره.

ولصاحب تفسير (المنار) في تفسير سورة الحمد كلام في معنى العبادة ملخصه: أنّ العبادة ضربٌ من الخضوع بالغ حدّ النهاية، ناشئ عن استشعار القلب عظمة المعبود لا يعرف منشأها، واعتقاده بسلطة له لا يدرك كنهها وماهيّتها، وقصارى ما يعرفه منها أنّها محيطه به ولكنها فوق إدراكه، فمن ينتهى إلى أقصى الذلّ لملك من الملوكة لا يقال أنّه عبده وإن قبّل موطئ أقدامه، ما دام سبب الذلّ

والخضوع معروفاً وهو الخوف من ظلمه المعهود،

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٢٨

أو رجاء كرمه المحدود، اللهم إلابالنسبة إلى الذين يعتقدون أن الملك قوة غيبية سماوية افيضت على الملوك من الملائكة الأعلى، واختارتهم للإستعلاء على سائر أهل الدنيا، لأنهم أطيب الناس عنصراً وأكرمهم جوهرأً، وهؤلاء هم الذين انتهى بهم هذا الإعتقاد إلى الكفر والإلحاد فاتخذوا الملوك آلهة وأرباباً وعبدوهم عبادة حقيقية «١».

وللمفسر الكبير العلامة الطباطبائي رحمه الله كلام قريب منه في تفسير سورة الحمد في تفسير (الميزان) حيث يقول: «الرب مقصور في المالكية والعبد مقصور في العبودية».

قد عرفت من سورة الفاتحة أن العبادة هي نصب العبد نفسه في مقام العبودية وإتيان ما يثبت ويستتبت به ذلك، فالفعل العبادي يجب أن يكون فيه صلاحية إظهار مولوية المولى، أو عبودية العبد كالسجود والرکوع والقيام أمامه حينما يقعد والمشى خلفه حينما يمشى وغير ذلك، وكلما زادت الصلاحية ازدادت العبادة تعيناً للعبودية وأوضح الأفعال في الدلالة على عز المولوية وذل العبودية، السجدة ... لكن الذوق الديني المتخذ من الإستيناس بظواهره يقضى باختصاص هذا الفعل به تعالى، والمنع عن استعماله في غير هذا المورد «٢».

وبناءً على ذلك يستفاد من التدبر في موارد استعمال كلمة العبادة في القرآن والسنة والاستعمالات اليومية وشهادة اللغويين أن المفهوم اللغوي لهذه الكلمة هو نهاية الخضوع لا الإعتقاد بربوبية المعبود ومالكته، ولذا إذا سجد شخص للشمس أو القمر أو النار بسبب برکاتها، أطلق على فعله هذا عبادة الشمس والقمر والنار، وهكذا إذا سجد إنسان لتماثيل الأسلاف أو الملوك والسلاطين وأعلى منه إذا للأئمة عليهم السلام لمقامهم الرفيع فإن تلك العبادة غير جائزة.

ولهذا ينهى القرآن الكريم بصراحة في آية السجدة بقوله تعالى: «لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ». (فصلت / ٣٧)

(١) تفسير المنار، ج ١، ص ٥٦ و ٥٧.

(٢) تفسير الميزان، ج ١، ص ٢٢ و ١٢٤.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٢٩

ولهذا أيضاً تكرر النهي في الروايات الإسلامية عن السجود لغير الله ومنها:

الروايات السبع التي وردت في (وسائل الشيعة) في أبواب السجود الباب ٢٧ حيث نقرأ في إحدى الروايات أن النبي صلى الله عليه وآله خاطب مشركي العرب: «أخبروني عنكم إذا عبدتم صور من كان يعبد الله فسجدتم له أو صليتم ووضعتم الوجوه الكريمة على التراب بالسجود بها فما الذي بَقِيْتُمْ لرب العالمين؟ أما علمتم أن من حق من يلزم تعظيمه وعبادته أن لا يساوى عبده؟» «١».

وهناك روايات عديدة تتضمن الإجابة على السؤال حول كيفية سجود يعقوب وأبنائه بين يدي يوسف، أو كيفية جواز سجود الملائكة لآدم.

١- عن أبي الحسن الرضا عليه السلام: «أما سجود يعقوب وولده فإنه لم يكن ليوسف إنما كان ذلك منهم طاعة لله وتحتية ليوسف، كما كان السجود من الملائكة لآدم، ولم يكن لآدم إنما كان ذلك منهم طاعة لله وتحتية لآدم فسجد يعقوب وولده ويوسف معهم شكراً لله لاجتماع شملهم ألا ترى إنه يقول في شكره في ذلك الوقت: «رب قد آتيتني من الملك» الآية.

٢- عن الإمام العسكري عليه السلام قال: «لم يكن له سجودهم - يعني الملائكة لآدم إنما كان آدم قبله لهم يسجدون نحوه لله عز وجل، وكان بذلك معظماً مبعجلاً له، ولا ينبغي لأحد أن يسجد لأحد من دون الله يخضع له كخضوعه لله ويعظمه بالسجود له كتعظيمه لله، ولو أمرت أحداً أن يسجد هكذا لغير الله لأمرت ضعفاء شيعتنا وسائر المكلفين من متبعينا أن يسجدوا لمن توسط في

علوم على عليه السلام وحى رسول الله صلى الله عليه وآله ومحض وداد خير خلق الله على عليه السلام بعد محمد رسول الله صلى الله عليه وآله... الحديث.

والنتيجة من هذه الروايات واحدة تقريباً وهي نفى السجود لغير الله، وقد نقل العلامة المجلسي في (بحار الأنوار) روايات عديدة في هذا الباب «٢».

وقد ورد في القصّة المعروفة حول هجرة المسلمين إلى الحبشة، إنهم حينما دخلوا على

(١) وسائل الشيعة، ج ٦، ص ٣٨٦، ح ٣.

(٢) بحار الأنوار، ج ١١، ص ١٣٨ و ١٣٩، ح ٢، ٣، ٤، ٥، ٦.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٣٠

النجاشي أمرهم الرهبان المسيحيون بأن يسجدوا للملك، فقال لهم جعفر بن أبي طالب: لا نسجدُ إلهاً «١». إن هذه الروايات تؤكد عدم جواز السجود لغير الله وتفسر حقيقة العبادة.

٣- توحيد الوهابين المشوب بالشرك

«الوهابيون»: جماعة لا تزال تحكم الحجاز وهم أتباع (محمّد بن عبد الوهاب) الذي استمد أفكاره من (ابن تيمية، أحمد بن عبد الحميد الدمشقي) المتوفى عام ٧٢٨ هـ.

استطاع محمد بن عبد الوهاب خلال السنوات ما بين عام ١١٦٠ إلى ١٢٠٦ هـ التي مات فيها وبتعاون مع الحكام المحليين وإثارة نيران العصبية القاسية بين القبائل التي تجوب صحارى الجزيرة أن يدمر معارضيه ويستلم زمام الحكم بصورة مباشرة وغير مباشرة وقد أريق دماء كثير من المسلمين في الجزيرة وغيرها.

وبعد موته هاجم أتباعه العراق عن طرق صحراء الجزيرة ودخلوا كربلاء واستغلوا عطلة عيد الغدير وسفر الكثير من أهاليها إلى النجف فاقتحموا سور المدينة و نفذوا إلى داخلها وشرعوا بهدم صحن الإمام الحسين عليه السلام والأماكن المقدسة الأخرى ونهبوا الأبواب الثمينة والهدايا النفيسة من المرقد الحسيني وأموال الناس!

لقد قام اولئك بهدم قبور عظماء الإسلام في الحجاز عام ١٣٤٤ هـ بحيث استوت مع الأرض باستثناء قبر النبي صلى الله عليه وآله خوفاً من سخط المسلمين!

ويمتاز الوهابيون بالتعصب والقسوة والفظاظة وعدم الرحمة والتجبر والسطحية ويعتقدون بأنهم المدافعون عن التوحيد الخالص في هذا المجال، وينكرون الشفاعة وزيارة القبور والتوسل بالقادة العظام ويصتوبون جلّ اهتماماتهم تقريباً في هذا السبيل، وقد رفض

(١) بحار الانوار، ج ١٨، ص ٤٢٠، ح ٨ (نقلًا عن خرائج الراوندى).

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٣١

المسلمون قاطبة (سنّة وشيعة) أفكار هذه المجموعة بل وكفرهم بعض العلماء «١».

ولم يختص البحث هنا عن هذه المجموعة وعقائدها وقبائحها وسيكون لنا كلام مختصر هنا بمقدار ما يرتبط ببحث عقائدهم في التوحيد في العبادة.

إنهم يقولون: لا يحقّ لأحد أن يطلب الشفاعة من النبي صلى الله عليه وآله لأنّ الله تعالى يقول:

«لا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا».

ويقول مؤلف كتاب (الهدية السنّية) وهو من الوهابيين: من جعل الملائكة والأنبياء وسائط بينه وبين الله لما لهم من قرب إلهي فهو كافر ومشرك ويباح دمه وماله وإن نطق بالشهادتين وصلّى وصام! «٢»
وله منطق مشابه في التوسّل وزيارة قبور الأنبياء والأئمّة والصالحين.

إنّ الخطأ الكبير الذى يرتكبه الوهابيون القشريون هو أنّهم تصوّروا أنّ موجودات هذا العالم لها تأثير مستقل ولذا اعتقدوا أنّها تراحم توحيد الأفعال والتوحيد العبادى لله فى حين أنّ هذا المعتقد هو نوع من الشرك!

وللإيضاح نقول: الموحّد الكامل يرى أنّ الوجود المستقلّ القائم بذاته فى الكون واحد فقط وهو الله عزّوجلّ، وسائر عالم الوجود ممكن ومرتبطة بوجوده، فكّل انعكاس لشمس وجوده وليس له استقلالية من نفسه فكما كان محتاجاً فى حدوثه فإنّه محتاج إليه ومتعلّق به فى بقائه أيضاً، فكّل ما يملكه الموجود فإنّه منه، وتأثير الأسباب منه فهو مسبّب الأسباب، وهذا هو معنى جملة (لا مؤثّر فى الوجود إلّا الله)، لا أن نسقط الأسباب من سببها أو نعتقد أنّها مستقلّة فكلاهما خطأ وغير صحيح وبعيد عن حقيقة التوحيد.
بناءً على ذلك إذا كان النبى الأكرم صلى الله عليه وآله مالكا للشفاعة فإنّ ذلك ياذنه كما يقول القرآن:

(١) كتب أحد العلماء السنّة وهو (إحسان عبداللطيف البكرى) رسالة يأسم (الوهابية فى نظر علماء المسلمين) أوضح فيها آراء علماء الإسلام العظام حول الوهابية ومحمّد بن عبدالوهاب ودون الوثائق كلّها بدقّة فى آخر الكتاب وقائمة بعناوين الكتب التى تردّهم حيث تبلغ ٥٠ كتاباً لمحقّقى البلدان الإسلاميه المختلفه، وهذا الكتاب دليل واضح على تنفّر المسلمين عموماً من هذه المجموعه المنحرفه.
(٢) الهدية السنّية، ص ٦٦.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٣٢

«مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَذْنِهِ». (يونس / ٣)

وعندما يحيى السيد المسيح عليه السلام الموتى ويبرئ الأعمى والمبتلين بالأمراض المستعصية فإنّ ذلك ياذن الله أيضاً: «وابرئى الأكمه والأبرص وأخى الموتى ياذن الله». (آل عمران / ٤٩)

وعندما يستطيع (أصف بن برخيا) وهو وزير سليمان ومن وصفه القرآن ب: «الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ» أن يأتي بعرش بلقيس فى طرفه عين - كما يصرّح به القرآن - من بلاد سبأ إلى سليمان فى الشام فإنّه كما قال: «مِنْ فَضْلِ رَبِّي». (النمل / ٤٠)

ولكن الوهابيين الغرباء عن القرآن وقعوا فى خلط كبير وتصوّروا أنّ هذه الأعمال التى تصدر عن هؤلاء العظام تصدر منهم بالإستقلال، ولذا قاموا من أجل حلّ المشكل بإنكار بعض الضرورات فى الدين مثل مسألة الشفاعة.

وعليه فإنّ هؤلاء ومن أجل تثبيت قواعد التوحيد كما يزعمون سقطوا فى وادى الشرك ووادى إنكار ضرورات الدين والقرآن، وللشهيد المطهري رحمه الله كلام جميل فى هذا المجال نقل خلاصته حيث قال تحت عنوان (حدود التوحيد والشرك):

١- الإعتقاد بوجود غير الله سبحانه ليس شركاً ذاتياً كما يعتقد أنصار الوحدة النوعية للوجود، لأنّ هذه الموجودات مخلوقة ومرتبطة به لا أنّها نظيره له.

٢- لا يعتبر الإعتقاد بتأثير المخلوقات شركاً فى الخالقيه (كما يعتقد الأشاعرة والجبريون) لأنّ المخلوقات كما أنّها ليست مستقلّة ذاتياً فإنّها غير مستقلّة فى تأثيراتها أيضاً، بل أنّها تابعه له.

٣- لو اعتقدنا بالتأثير المستقلّ للمخلوقات وقلنا أنّ عالم الخلق أمام الله كالماكنه والساعه التى يصنعها الصانع فهى بحاجة إليه فى حدوثها ولا- تحتاجه بعد صنعها لأنّها تعمل حتى لو ارتحل صانعها من الدنيا، فهذا هو الإعتقاد بالتفويض وهو لون من الشرك (إعتقاد المعتزله).

٤- الإعتقاد بقدره الموجودات التي تفوق الطبيعة وتأثيراتها في العالم بإذن الله وأمره

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٣٣

ليس شركاً كما يظنّ الوهابيون، بل إن اعتقادهم يمثل أسوأ ألوان الشرك، لأننا لو اعتبرنا ذلك شركاً لكان الإعتقاد بأصل وجود الموجودات شركاً أيضاً.

وهكذا فإن الإعتقاد بقدره الإنسان وتأثيره بعد رحيله من الدنيا لا يعدّ شركاً، لأن الإنسان لا يكون جماداً بعد موته.

ثم إن اعتقاد الوهابيين يتسم باللاإنسانية حيث ينزلون الإنسان منزلة الحيوان الطبيعي وهو الذي اعتبره الله خليفه له وأعلى منزله من الملائكة الذين سجدوا له.

وهنا نصل إلى حقيقة الحديث الشهير الوارد عن رسول الله صلى الله عليه وآله ويقول فيه ما نصّه: «إنّ الشرك أخفى من ديب النمل على صفاة سوداء، في ليلة ظلماء» (١).

والطريف أنّ الرّد على الوهابيين موجود في الآية التي يستدلّون بها على إنكار الشفاعة و (التوسيل)، لأنّ القرآن الكريم يقول: «فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا». (الجن / ١٨)

ويعنى المثل الذي يكون في عرضه وعلى هيئته الموجود المستقلّ كذاته المقدّسه، ولكن إذا كان تأثيره بإذنه وأمره لا في عرضه فإنّ ذلك ليس شركاً فحسب بل فيه تأكيد جديد على أصل التوحيد الذي ينتهي كلّ شيء إليه.

وهذا يشابه ما طلبه اخوة يوسف من أبيهم يعقوب وكان نبياً عظيماً وقد تقبل ذلك منهم حيث قالوا: «يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا». (يوسف / ٩٧) فاستجاب لهم وقال: «سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي». (يوسف / ٩٨)

هذه هي حقيقة التوحيد في العبادة، وتوحيد الأفعال التي ستمّ الإشارة إليها وليس كما يظنّه الوهابيون المتحجّرون.

(١) مقدمة في الرؤية الكونية للشهيد المطهري، ص ١١٣ (مع الإختصار).

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٣٥

٤- توحيد الأفعال

(أ) توحيد الخالقية

تمهيد:

إنّ مفهوم (توحيد الأفعال) في تفسير مبسط وواضح يعنى أنّ الكون بأسره هو فعل الله، وكلّ الأفعال، والحركات، والتأثيرات، والتأثرات تنتهي إلى ذاته المقدّسه، وفي الحقيقة (لا- مؤثّر في الوجود إلّا الله)، فالسيف حينما يقطع والنار حينما تحرق والماء حينما يروى الناس والنباتات كل ذلك بإرادته وأمره، وباختصار فإنّ أثر كلّ موجود يكون مصدره الله سبحانه.

وبعبارة اخرى: إنّ الموجودات كما أنّها تابعة في أصل وجودها إلى ذاته فإنّها كذلك في تأثيرها وفعلها.

ولكن هذا المعنى لا ينفى عالم الأسباب وحاكمية قانون العلية، وطبقاً للحديث المعروف عن الإمام الصادق عليه السلام «أبى الله أن يُجرى الأشياء إلّا بأسباب» (١).

كما أنّ الإعتقاد بتوحيد الأفعال لا يستوجب الإعتقاد بأصل الجبر وسلب الحرّية من إرادة الإنسان، كما ستمّ الإشارة إلى ذلك لاحقاً بإذن الله.

بهذا التمهيد نراجع القرآن الكريم ونبحث عن فروع توحيد الأفعال ونذهب أولاً إلى توحيد الخالقية فنأمل خاشعين في الآيات الآتية:

١- «ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ».

(انعام / ١٠٢)

(١) اصول الكافي، ج ١، ص ١٨٣، باب معرفة الإمام، ح ٧.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٣٦

٢- «قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ». (رعد / ١٦)

٣- «هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرِزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَانِّي تُؤفِكُونَ».

(فاطر / ٣)

٤- «وَلَيْسَ سَاءَتْهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ فَنَئِي يُؤفِكُونَ». (عنكبوت / ٦١)

٥- «وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ». (صافات / ٩٦)

٦- «أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ». (اعراف / ٥٤)

شرح المفردات:

(خلق) في الأصل كما يقول الراغب في المفردات يعنى التقدير المباشر ويستعمل عادةً في الإيجاد والإبداع لشيء من دون أن يكون له سابق ومثيل، وعلى ما ورد في (مقاييس اللغة) فإن (خلق) لها معنيان أصليان: الأول هو التقدير، والثاني هو استواء الشيء، ولذا يطلق على الحجر المستوي (خلقاء) وعلى الصفات الباطنة (أخلاق) لأنه يحكى عن نوع من الخلق، وعلى كل حال بما أن الخلق يعنى التقدير والتنظيم والتسوية فإن هذه الكلمة استعملت في خلق الله الإبداعى.

جمع الآيات وتفسيرها

هو الخالق لكل شيء:

تقول آية البحث الاولى بعد تبيان صفات الله الجلالية والجمالية:

«ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ»، لا- الأصنام التافهة ولا المعبودات من الملائكة والجنّ التي هي من المخلوقات والمربوبات، والله عزّوجلّ هو ربّ الجميع «١».

(١) جملة «ذلكم الله ربكم» فيها (ذلكم) وهو اسم إشارة إلى البعيد وفي مثل هذه الموارد يكون كناية عن العظمة غير الاعتيادية لمقامه الخارج عن حدود الأفكار.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٣٧

وتضيف: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ».

لأن اللائق للعبادة هو الذى يكون (رباً) أى مالكاً ومرتبياً ومدبراً لكل شيء، وللمزيد من التأكيد وإقامة دليل آخر على إنحصار المعبود فيه تضيف الآية: «خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ»، ثم تستنتج لتقول: «فَاعْبُدُوهُ».

ولقطع كل أمل بغير الله وصدّ البشر عن التعلّق بعالم الأسباب وإجتثاث جذور الشرك تقول الآية: «وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ». كلمة (شئ) كما يقول اللغويون: تعني كل أمر يمكن أن يناله علم الإنسان «(١)»، إلّا أنّها في آية البحث تعني كل الموجودات ما سوى الله سبحانه.

وعلى أيّة حال فإنّ لهذه الكلمة مفهوماً واسعاً يشمل كل الموجودات الماديّة والمجرّدة والذهنيّة والخارجيّة والجوهر والعرض، وباختصار: إنّها تشمل كل شئ، وهذه الآية دليل واضح على عموميّة الخلق الإلهي بالنسبة لكل شئ.

وقد وقع هنا نزاع معروف بسبب شمول (شئ) لأعمال الإنسان بين جماعة تقول بالجبر - كالفخر الرازي - حيث يقول: (إنّ أعمالنا داخله في كلمة (شئ) أيضاً، فالله إذن هو خالقها)، وهذه الآية دليل على الجبر عندهم، ولكن المؤيدين لحرية الإرادة لهم إجابة واضحة ومستدلّة وستأتي في الإيضاحات.

وقد استدلت جماعة بهذه الآية على نفى الصفات الزائدة على الذات في مواجهة الأشاعرة القائلين بأنّ الله ذو صفات منفصلة عن ذاته، فلو كان الأمر كذلك فإنّ كلمة (شئ) تشملها ويجب - حينئذ - أن تكون مخلوقة لله، ولا معنى لأن يخلق الله صفاته كالقدرة والعلم و... ولا ينسجم هذا مع وجوب الوجود أساساً.

فأجاب بعض الأشاعرة بتخصيص عموم الآية بأن نقول: إنّ (خالق كل شئ) لا يشمل صفات الله! ولكن الآية تأبى الإستثناء ولم يرد عليها أي تخصيص كما سنبيّن ذلك بإذن الله.

(١) هذه الكلمة مصدر (شاء) وتكون تارةً بمعنى اسم الفاعل وتارةً بمعنى اسم المفعول (فتأمل جيداً).

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٣٨

الآية الثانية تبين محتوى الآية السابقة إضافة إلى تأكيدها على وحدانية الله وقهاريته حيث جاء فيها: «أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ».

«قهار»: من (قهر) ويعني في الأصل الغلبة المقرونة بتحقيق الطرف المقابل ولذا، تستعمل في هذين المعنيين كليهما، ونظراً لاستعمالها هنا بصيغة المبالغة فإنّها تعني غلبة الله والنصر المطلق - دون قيد أو شرط - على كل شئ وكلّ فعل حتّى معبوداتهم وأصنامهم غير مستثناء، وعليه كيف تكون شريكاً لله!؟

الآية الثالثة تطرح الموضوع بصورة أخرى وهي صورة الإستفهام الإستنكاري حيث تقول: «هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرِزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»، كلاً، فهو الذي بدأ خلقكم، وبقاؤكم مستند إلى رزقه المتواصل.

فبأمره تشرق الشمس عليكم من السماء، وينزل المطر لحياء الأرض ويسخر الرياح، وهو الذي يتفضّل عليكم بالنباتات والثمار والغذاء والمعادن والثروات الثمينة.

وعليه عندما لا يوجد خالق ورازق سواه فبداية الجميع ونهايتهم إذن بيده: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَإِنِّي تُؤَفِّكُونَ».

خالق الله للكون:

لا ينكر حتّى المشركون أنّ الله هو الخالق للكون، والآية الرابعة تطرح مسألة التوحيد في إطار آخر وهو أنّ المشركين أنفسهم يُقرّون أنّ الأصنام ليست خالقة للسماء والأرض والشمس والقمر أبداً وتقول: «وَلَيْسَ سَيِّئُهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَيَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ».

فقد كان المشركون يعتقدون أنّ الأصنام شريكه لله في العبادة أو لها التأثير على مصير

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٣٩

الإنسان في الخالقية، فلا يصدق عاقل بأن كتلة من الحجر والخشب مصنوعة بيد الإنسان على هيئة الصنم تكون خالقاً للسماء والأرض وحتى أنهم لم يعتقدوا أن للأنبياء والأولياء هذا المقام أيضاً.

يحتمل أن تكون هذه الآية إشارة إلى نفوذ هذه العقيدة في أعماق الفطرة الإنسانية، وعلى أية حال فإن الفصل بين (توحيد الخالقية) و (توحيد العبادة) تناقض صريح، لأن الخالق والرازق هو اللاتق بالعبودية فهو الذي سخر الشمس والقمر لينعم بهما الإنسان وجعلهما في خدمته.

بناءً على ذلك لا تنفصل (الخالقية) عن (الربوبية) ولا (الربوبية) عن (الالوهية)، وبعبارة أوضح: هو الخالق وهو المدبر للعالم وهو أهل لعبودية العباد.

وقد حاول بعض المفسرين مثل مؤلف تفسير (في ظلال القرآن) أن يعتبر التفات مشركي العرب إلى (توحيد الخالقية) ناشيء من تعليمات الأنبياء كالنبي إبراهيم عليه السلام (١).

إلا أنه لا ضرورة لهذا الإصرار، حيث يقر كل إنسان بهذه الحقيقة عند مراجعته للعقل والوجدان، كما اشير إلى هذا المضمون في تفسير روح البيان (٢).

إن الاستناد إلى مسألة الخلق ثم التسخير إشارة إلى مسألتى (الخلق) و (التدبير) حيث يكون الجميع بأمره والمراد من (التسخير) في هذه الآية - بقرينة آيات التسخير الأخرى الواردة في القرآن الكريم - هو استخدامها في سبيل المصالح البشرية.

وعبارة «فَأَنى يُؤَفِّكُونَ» مع ملاحظة اشتقاقه من (افك) بمعنى (إرجاع الشيء عن مسيره الأصلي) يمكن أن يكون إشارة إلى أن المسار الصحيح والمنطقي هو أنهم بعد الإقرار بخالقية الله وتدبيره في عالم الوجود «أن لا يعبدوا سواه»، إلا أنهم انحرفوا عن الطريق فتعرضوا إلى العواصف العاتية للشيطان والنفس التي رمت بهم - كالكثبة - من الطريق المستقيم إلى التيه والضلالة (لاحظ أن المؤتفكات تعنى الرياح المضادة).

(١) تفسير في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٤٢٨.

(٢) تفسير روح البيان، ج ٦، ص ٤٨٨.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٤٠

في الآية الخامسة استناد خاص إلى كون الأصنام مصنوعة باليد حيث تقول: «وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ» وذلك لما ورد في الآية السابقة لها عن قول إبراهيم عليه السلام - رمز التوحيد - للمشركين: «اتَّعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ»؟ ويقول في هذه الآية: «وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ» فلا تستحق أى منها العبادة، بل إن أصنامكم موجودات أخط منكم لأنها مصنوعة بأيديكم.

و «ما»: في جملة (وما تعملون) في هذه الحالة تكون موصولة. وقد احتمل بعض أو أصروا على أن اعتبار (ما) هنا مصدرية فيكون معنى الآية: إن الله خلقكم وخلق أعمالكم، في حين لا يتناسب هذا المعنى لأنه:

أولاً: إن الله يوبخ الكفار في الآية على عبادتهم للأصنام فلو كان الله خالقاً لأعمالهم فلماذا التوبيخ؟! ثانياً: إن جملة (ما تعملون) دليل على أنهم خلقوا أعمالهم، وعليه لا تنسجم مع الخلق الإلهي.

ثالثاً: في الآية السابقة ورد حديث عن الأصنام التي كانوا يصنعونها بأيديهم فالمناسب أن تكون (ما) هي المراد هنا، وإلا فإن الآيات تفقد ترابطها، ولذا اختار كثير من المفسرين التفسير الأول أمثال الزمخشري، في الكشاف والآلوسى في روح المعاني، والعلامة الطباطبائي في الميزان وغيرهم.

وهنا سؤال يطرح نفسه وهو: كيف يمكن أن تكون الأصنام مصنوعة لله والبشر في الوقت ذاته؟!؟

يقول الزمخشري: إن موادها مخلوقة لله وصورتها مخلوقة لصانعي الأصنام (١).

إلا أن الصورة والشكل مخلوقة لله من إحدى الجهات، لأن الله سبحانه أعطى الإنسان القدرة وخلق فيه هذا العلم والمهارة وإنهاء عن سوء الاستفادة منها.

وأخيراً نواجه في الآية السادسة والأخيرة عبارة جديدة في باب توحيد الخالقية حيث تقول: «لَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ» و«تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ».

(١) تفسير الكشاف، ج ٤، ص ٥١.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٤١

ولا شك في أن الآية دليل على انحصار (الخلق) و (الأمر) في الله عزوجل (١)، وعليه فإن الآية تبين (توحيد الخالقية) بوضوح. ولكن وقع بين المفسرين كلام حول المراد من (الأمر)، فبعض فسره بمعنى تدبير العالم والأنظمة والقوانين الجارية وذلك بقرينة الآيات الكثيرة التي ورد فيها هذا المعنى نظير «فَالْمَدَبَّرَاتِ أَمْرًا». (النازعات / ٥) والآية: «اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لَتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ». (الجاثية / ١٢) الآية: «النُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ». (النحل / ١٢) وآيات عديدة أخرى.

أما بعضهم الآخر فقد اعتبرها بمعنى الأمر التشريعي والدستور الإلهي المقابل للنهي، فيكون معنى الآية: أن الخلق خاص بالله والأمر والدستور التشريعي يصدر عنه أيضاً، مثل:

«فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ». (النور / ٦٣)

وفي تفسير ثالث فُسر (الأمر) بمعنى الإرادة مثل: «إِنَّ اللَّهَ بِالْبُعْثِ أَمْرِهِ». (الطلاق / ٣)

وفي تفسير رابع فسّر عالم (الخلق) بعالم المادة، وعالم (الأمر) بعالم المجردات وذلك بقرينة قوله تعالى: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي». (الاسراء / ٨٥)

والواضح أن التفسير الأول من بين هذه التفاسير أكثر انسجاماً مع الآيات القرآنية الأخرى ومع آية البحث أيضاً، لأن القرآن الكريم يريد أن يذكر المشركين بهذه الحقيقة، وهي أن الخلق وتدبير المخلوقات مختص بالله والشاهد على ذلك قوله: «رَبُّ الْعَالَمِينَ» في ذيل الآية، وعليه فإن الأصنام لا دور لها لا في الخلق ولا في التدبير والربوبية، فلماذا تعبد إذن؟!!

(١) تقديم (له) على الخلق والأمر دليل على الحصر.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٤٢

توضيحان

١- الخطوة الأولى نحو الشرك في الخالقية

لعلّ المجوس ليسوا أول من جعل لله شريكاً في الخالقية، ولكنهم أكثر شهرة من غيرهم على الأقل. إنهم قسموا الموجودات إلى مجموعتين: حسنة وسيئة (خير وشر) وافترضوا لكل مجموعة إلهاً (يزدان وأهريمن) أو النور والظلمة، ودليلهم هو أن مخلوق الإله تكون له نسخة معه، وعليه لا يمكن أن يكون إله الخير وإله الشر واحداً، فإله الخير خير، وإله الشر شر!

لو كانت موجودات العالم مقسمة على هذا النحو لأمكن أن يكون الاستدلال صحيحاً، لكن الحقيقة هي أنه لا يوجد في عالم الوجود إلا الخير، وما يطلق عليه (الشر) أمر عدمي أو أنه ذو جهة نسبية، فمثلاً نقول: الفقر شرّ، في حين أن الشر ليس إلا فقدان لمستلزمات الحياة، والفقدان أمر عدمي والعدم ليس شيئاً ليكون له خالق.

أو نقول: إن لسعة النحل ومخالب الحيوان المفترس شرّ وذلك عندما نجعل أنفسنا محوراً ثم نحكم بهذا النحو، في حين لو نظرنا إلى النحل نجد أن الأبره فيه وسيلة للدفاع وطرد المهاجمين، والأنياب والمخالب في الحيوانات المفترسة وسيلة للصيد والتغذى ولها جانب حيوي بالنسبة إليها فهي إذن خير، وعليه فإن الكثير من الموجودات تتخذ صورة (شريرة) نتيجة لأفكارنا.

وقد يكون جهلنا هو السبب في اعتبار الأشياء شرّاً وذلك لعدم علمنا بفوائدها، فمثلاً من الممكن أن نعتبر وجود الجراثيم شرّاً لأنها تسبب الأمراض ولكن إذا لاحظنا نظرية بعض العلماء في أن الجراثيم المسببة للأمراض تدعو خلايا الإنسان إلى معركة دائمة وفيها تكون أكثر نشاطاً ونمواً ورشداً، ولولا الجراثيم لكان معدل طول الإنسان لا يتجاوز الثمانين سنماً، ولأصبح ذا جسم ضعيف وعاجز، سندعن عندما ندرک ذلك أن إطلاق الشرّ عليها ناشىء من جهلنا، وبخاصة أن الذى خلق الجراثيم قد أوجد طرق معالجتها في حالة استفحالها أيضاً.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٤٣

ونعلم كذلك أن بعض الأدوية في عصرنا الراهن تستخرج من سموم الحيوانات ولهذا الغرض يُربى كثير من الأفاعى والحيوانات السامة الأخرى، وعلى هذا فإن أبرها وسمومها ليست شرّاً مطلقاً، وستأتى تفاصيل أكثر حول هذا الموضوع في بحث العدل، بإذن الله.

٢- خطوة أخرى على طريق الشرك

في هذا الموضوع انحرفت مجموعتان إسلاميتان هما (الأشاعرة) و (المعتزلة) أى المفوضة، المجموعة الأولى تتبع «أبا الحسن الأشعري» المتوفى عام ٣٢٤ هـ وقد أنكرت التأثير والعلم والمعلول في عالم الخلق إنكاراً تاماً وتقول: إذا كانت النار محرقة فإنه مجرد تصوّر ولا غير! فالمحرق الأصلي هو الله، ولكن إرادته حكمت بشكل إذا مسّت النار- مثلاً- يد الإنسان فإن الله يوجد الإحترق مباشرة في يده! وبهذا النحو أنكروا عالم العلّة والمعلول تماماً واعتبروا الله تعالى علّة لكلّ شىء مباشرة دون واسطة.

إنهم أنكروا هذه القضية المحسوسة بل والأكثر من المحسوسة «١» بسبب إيمانهم بأن الاعتقاد بوجود عالم الأسباب يخلّ في توحيد الخالق.

بسبب هذا الخطأ الكبير تعرّضت مجموعة الأشاعرة إلى انحراف كبير آخر وهو أنها تعتبر أفعال الإنسان وأعماله مخلوقة لله أيضاً، وهذا أسوأ أنواع الجبر!

وبعبارة أخرى أنه شىء أعلى من الجبر لأن الأشاعرة يقولون: لسنا نحن الفاعلين للأعمال الصالحة والسيئة بل إن الخالق لها كلّها هو الله سبحانه، فهي في الحقيقة أعماله المباشرة لا أعمالنا الجبرية (فتأمل جيّداً)، وفي النقطة المقابلة يقف المعتزلة الذين لا يعتقدون بوجود تأثير للأسباب والعلل فحسب بل يعتبرونها مستقلة في تأثيراتها، فمثلاً أن الله خلق بعض الأنبياء والأولياء وأوكل إليهم أمر الخلق، كما يعتقدون أن الإنسان مستقلّ

(١) ليس لقانون العلية بعد حسي فقط بل يمكن التوصل إليه عن طريق الوجدان والعلم الحسوري، لأن كلّ شخص يرى بوضوح أن روحه توجد الإرادة والتفكير.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٤٤

في أعماله تماماً، وبهذا يعتبرون الإنسان خالقاً صغيراً والله عزّوجلّ خالقاً كبيراً!

ولا شك في أن المجموعتين على خطأ، وقد وقعا في لون من الشرك، شرك جلي وصریح، وشرك خفي، فالقائلون ب (التفويض) ابتلوا بشرك جلي لأنهم اعتقدوا بأن الإنسان مستقل في أفعاله أو اعتقدوا بأن الله قد أوكل إلى أوليائه خلق السماء والأرض وتنحى جانباً! وهذا ما يعارض صريح الآيات القرآنية التي تعتبر الله خالقاً لكل شيء ورباً ومدبراً لجميع الامور، ومن العجيب أن الإنسان المسلم المرتبط بالقرآن كيف يتبع مثل هذه الأبحاث المنحرفة؟!

أما الأشاعرة فقد ابتلوا بلون آخر من الانحراف والشرك، لأنهم أنكروا أولاً: أصل العلية في عالم الخلق خلافاً للوجدان والحس، وثانياً: إذا كان الاعتراف بأصل العلية شركاً فإن الاعتقاد بأصل وجود الإنسان شرك أيضاً، إن الإنسان مختار وحر في فعله ولكن يجب أن لا ننسى أن قدرته وقوته كلها وحتى حرية إرادته هي من الله تعالى، فهو الذي أودع كل هذه القوى في الإنسان وهو الذي شاء أن يكون الإنسان حراً، وعلى هذا فإن أعمال الإنسان في الوقت الذي تستند فيه إلى الإنسان فإنها تكون مستندة إلى الله أيضاً، ولا تخرج عن دائرة خلقه، كالاعتقاد بأصل وجود الإنسان فإنه وجود تابع ومتعلق بغيره، ولذلك لا يستوجب الشرك.

وبملاحظة المثال الآتي يمكن أن تتضح الحقيقة: إن كثيراً من القطارات تعمل بالطاقة الكهربائية، وهذه الطاقة تجرى في شبكه على طول الطريق ويرتبط القطار بها عن طريق حلقة، السائق في مثل هذا القطار حر في عمله ولكن في الوقت ذاته يكون عمله مرتبطاً بيد شخص آخر وهو الذي يراقب الطاقة الكهربائية على طول السلك، فيمكنه أن يقطع التيار الكهربائي بإرادته في أية لحظة شاء وذلك بالضغط على زر معين فيتوقف القطار في مكانه.

وبإمكانه - إذن - أن يقول إنني حررت القطار بإرادتي، كما يمكن لسائق القطار أن يقول ذلك ويصدق الإثنين، إلا أنهما فاعلان طوليان الأول في المرحلة الأولى والعليا والثاني في المرحلة الثانية والسفلى التابعة، فالفعل ينسب إذن إلى الإثنين ومع ذلك فإن سائق القطار

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٤٥

مسؤول عن عمله وليس بمجبر.

وعليه لا يكون الاعتقاد بحرية إرادة الإنسان شركاً في الخالقية.

وبعبارة أوضح: مثلما يرتبط أصل وجود الإنسان بالله تعالى والإيمان بوجود الإنسان لا يستلزم الشرك فأفعاله كذلك.

والأشاعرة كأنهم يرون أصل وجود الإنسان مستقلاً في حين أن هذا نوع من الشرك، وإلا فإن الوجود التابع إن لم يتعارض مع التوحيد فإن الأفعال التابعة للإنسان لا تكون معارضة للتوحيد أيضاً.

ولا بأس أن يتوضح هذا البحث بضرب مثال:

جاء إنكار الأشاعرة للعلية والسببية نتيجة لتوهم وقوع الشرك، أي إذا اعتبرنا الإحراق من النار فإنهم يقولون: إن هذا شرك! في حين يبقى هذا السؤال: أليس الاعتقاد بوجود أصل النار أمام وجود الله شركاً؟

سيقولون: لا حتماً، لأن هذا الوجود تابع لذاته المقدسة (كالضوء المنبعث من المصباح المتوقف على ارتباطه بالطاقة الكهربائية ويطفأ عند انقطاعها)، ونذكر هذا الكلام ذاته في تأثير الأسباب ونقول: إنها تكون في النهاية تابعة لله تعالى، وقدوة الإنسان واختياره تابع له أيضاً، وعليه فإن التوحيد يحتفظ بمعناه تماماً في هذا المجال، فالله خالق كل شيء مع ثبوت أصل العلية والحرية في إرادة الإنسان. وستأتي إيضاحات أكثر بهذا الشأن في بحث الجبر والإختيار، بإذن الله.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٤٧

(ب) توحيد الربوبية

تمهيد:

إنَّ توحيد الربوبية يعنى أنَّ المدير والمدبّر والمربّي والمنظّم لعالم الوجود هو ذات الله المقدّسه فقط. وكلمة (ربّ) التي هي من صفات الله عزّوجلّ قد تكرّرت في القرآن الكريم أكثر من غيرها حتّى بلغت ٩٠٠ مرّة بألفاظ: (ربّ، ربّك، ربّكم، ربّنا، ربّي وأمثالها)، والعديد من الآيت القرآنية تعرّف الله ب (ربّ العالمين) ويدلّل ذلك على أنَّ القرآن يولى اهتماماً خاصّاً بتوحيد الربوبية، حيث كان أغلب المشركين يجعلون مع الله تعالى موجودات اخرى تشاركه في تدبير العالم، وأغلبهم - كما أسلفنا - آمنوا بتوحيد الخالقية ولكنهم تورّطوا بالشرك في الربوبية، ولذا يقوم القرآن بدفع هذا الانحراف العقائدي الكبير لدى أقوام مختلفة مكرّراً وباستمرار، والشرك في الربوبية طبعاً يكون مصدراً لانحرافات خطيرة اخرى ستعرض لها في بحوث مقبلة.

بهذا التمهيد نعمن خاشعين في آيات قرآنية تمثّل نماذج من آيات توحيد الربوبية في القرآن الكريم:

- ١- «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ». (الفاتحة / ٢)
- ٢- «قُلْ أَعْيَرَ اللَّهُ أَبْنِي رِبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ». (الأنعام / ١٦٤)
- ٣- «قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ». (الرعد / ١٦)
- ٤- «فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ». (المؤمنون / ١١٦)
- ٥- «اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ». (الصفات / ١٢٦)
- ٦- «قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ».

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٤٨

(يونس / ٣١)

شرح المفردات:

«ربّ»: له أصل واحد وفروع وشعب كثيرة وموارد استعمال كثيرة.

والأصل كما يقول الراغب في المفردات يعنى التربية وسوق الشيء إلى الكمال، وفي (مقاييس اللغة) ذكر عدداً من الاصول له هي: المصلح والقائم على الإصلاح الملازم والمقيم على الشيء، الإدغام بين الشئيين ولكن كما ورد في (التحقيق في كلمات القرآن الكريم) فإنّ هذه ترجع جميعها إلى أصل واحد وهو عبارة عن سوق الشيء إلى الكمال ورفع النقائص في أبعاد مختلفة: مادية ومعنوية، ذاتية وعرضية، وفي الاعتقاد والصفات والأخلاق.

وبما أنّ أداء هذا العمل يقترن بمفاهيم اخرى نظير: الإصلاح، التدبير، الحكومة، المالكية، الصحة، السيادة، الإجتماع، التعليم، والتغذية فإنه يطلق على هذه المعاني أيضاً.

من هنا ذكرت له كتب اللغة معاني متعدّدة، فقد جاء في (لسان العرب) مثلاً: إنّ (ربّ) إضافة إلى إطلاقه على ذات الله المقدّسه فإنه يعنى المالك والسيد والمدبّر والمربّي والقيم والمنعم أيضاً، وجوهر الكلام هو أنّ هذه الكلمة تعنى في الأصل التربية والسوق إلى الكمال ثم اطلقت على المعاني الملازمة له «١».

ولكن كما يستفاد من أقوال اللغويين إذا استعملت هذه الكلمة مطلقاً فإنها تستعمل فيما يخصّ الله تعالى فقط لأنه المالك الحقيقي والمربّي والمصلح لكلّ شيء، وإذا استعملت في سوى الله تعالى فالواجب هو أن تكون مضافة مثل (ربّ الدار) (ربّ الإبل) و (ربّ الصبي) «٢».

(١) ينبغي ملاحظة أن «رب» مشتقة من «رب» في حين أن «التربية» مشتقة من «ربو» ويستفاد من التفسير التي وردت حول كلمة رب في كتب اللغة أن (ربو) و (رب) لهما تشابه شديد في المعنى وقد اعتبر الطبرسي رحمه الله في مجمع البيان ج ١، ص ٢٢، هاتين الكلمتين بمعنى واحد.

(٢) راجع، لسان العرب؛ مفردات الراغب؛ وقاموس اللغة مادة (رب).

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٤٩

إن هذه الكلمة عندما تطلق على الله عزوجل يمكن أن تكون فيها إشارة إلى أبعاد الربوبية المختلفة أى المالكية والتدبير والإصلاح والتربية والقيومة والإنعام.

«تدبير»: من (دبر) ويعنى المجيء خلف شىء، والتدبير يعنى جعل الشىء ذا عاقبة حسنة ونتيجة مرغوبة، العمل الذى لا يمكن إنجازه إلّبالعلم والوعى وبهذا فإن لفظ (مدبر) يطلق على أشخاص يتدبرون عواقب الأعمال ويوصلونها إلى نهاياتها المطلوبة ويمتلكون رؤية ثاقبة ووعياً كافياً (١).

جمع الآيات وتفسيرها

الله سبحانه وتعالى رب العالمين:

إن الآية الاولى التى نرددها صباحاً ومساءً تقول: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» قد تكررت فى سور قرآنية عديدة من قبل العباد أو من قبل الله تعالى، وتكون تارة مرتبطة بالدنيا، واخرى بيوم القيامة (٢).

هذه الآية تتضمن فى الحقيقة استدلالاً لطيفاً على أن الله عز وجل أهل لكل حمدٍ وثناء، لأنه المربى الحقيقى للعالمين أجمعين، فهو الخالق وهو الرازق وهو المالك وهو المربى وهو المدير والمدبر وهو المرشد والمعلم والهادى، والملاحظ أن (الحمد) استعمل كجنس يشمل كل أنواع الثناء، و (العالمين) كذلك، فإنه جاء على هيئة الجمع المحلى بالألف واللام فإنه يشمل موجودات العالم كلها من عقلاء وغير عقلاء مادية وغير مادية (واستعمالها بصورة الجمع العاقل فإنه من باب التغليب) (٣).

(١) مقاييس اللغة والتحقيق فى كلمات القرآن الكريم ومفردات الراغب.

(٢) الأنعام، ١٠.

(٣) لهذا فإنه حينما وصف موسى عليه السلام الله تعالى أمام فرعون بأنه (رب العالمين) سأل فرعون: ومن رب العالمين؟ فأجاب موسى: رب السماوات والأرض وما بينهما.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٥٠

وعليه إن ما يقوم به الآخرون من تعليم وتربية وإنعام فى زاوية من العالم فإن ذلك قبس من فيضه سبحانه، ومن كان مالكاً فإن ذلك شعاع من مالكيته المطلقة، ولذا علينا قبل أن نشكر عباده ونحمدهم ونثنى عليهم يجب أن نحمد الله ونشكر ذاته المقدسة.

والفخر الرازى يقدم شرحاً إجمالياً لِنِعَمِ اللَّهِ نَظراً إلى أن الحمد والثناء يكون إزاء النعمة ويقول: «... ثم أن أصحاب التشريح وجدوا قريباً من ٥ آلاف نوع من المنافع والمصالح التى ذكرها الله عزوجل بحكمته فى تخليق بدن الإنسان ثم إن من وقف على هذه الأصناف المذكورة فى كتب التشريح عرف أن نسبة هذا القدر المعلوم المذكور إلى ما لم يعلم وما لم يذكر كالقطرة فى البحر المحيط» ثم يذكر آثار الربوبية فى بقتية أنحاء العالم، ويقول: «إن هذا المجموع «مجموع نعم الله» مشتمل على ألف مسألة أو

أكثر أو أقل، ثم إنه تعالى تبه على أن أكثرها مخلوق لمنفعة الإنسان أو كما قال تعالى: «وَسَيَخْرُ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ».
(الجاثية/ ١٣)

وحيث يظهر أن قوله جلّ جلاله «الحمد لله» مشتمل على ألف مسألة أو أكثر أو أقل» (١).

المفسر المذكور تحدّث طبعاً في إطار العلوم السائدة في عصره، وبملاحظة الإكتشافات الحاصلة في عصرنا في المجالات العلمية المختلفة يتّضح صغر وتفاهة هذه الأرقام والأعداد، ففي جسم الإنسان وحده ١٠ ملايين مليار خلية! كلّ خلية منها تعدّ من خدماته ومشموله ربوبيه الخالق سبحانه وتستلزم الشكر والحمد، ولو أراد الإنسان أن يعدّ هذه الخلايا ليلاً ونهاراً فضلاً عن حمدها والثناء عليها لاحتاج إلى ٣٠٠ ألف سنة!

الآية الثانية التي تخاطب النبي صلى الله عليه وآله تقول: «قُلْ أَعْيَزَ اللَّهُ أَبْغَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ».

كيف تريدون الإستقلال لأنفسكم عن النظام العامّ لعالم الخلق؟ فالله ربّ الموجودات كلّها فكيف لا نعتقد بأنّه (ربنا)؟ فهل من الممكن أن نجعل شيئاً تحت ربوبيه الله شريكاً له

(١) تفسير الكبير، ج ١، ص ٦.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٥١

ونعتبر المربوب ربّاً والمخلوق شريكاً للخالق، والعبد في عرض المولى؟ فأى حكم هذا؟!

وبملاحظة سعة مفهوم (شئ) الذي يشمل كلّ ما سوى الله سبحانه فإنّ توحيد الربوبية في هذه الآية ظاهر بصورة كاملة فالله سبحانه يأمر النبي صلى الله عليه وآله ضمن آيتين سابقتين بأن يخاطب المشركين بصراحة: «قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ». (انعام/ ١٦٢)

لماذا أعبد غيره؟ ولماذا أسجد لغيره؟ وكيف أبقى حياً بذكر غيره؟ أو أموت فداءً لغيره؟

في حين أنّه وحده هو الخالق والمالك والمربى لى.

ونرى هنا التلاحم والتآلف بين (توحيد العبادة) و (توحيد الربوبية) حيث أوجدا خليطاً مرتباً للروح (١).

في الآية الثالثة خطاب للنبي صلى الله عليه وآله أيضاً ولكن الكلام هنا جاء عن ربّ السماء والأرض والذي لا يختلف في الحقيقة عن (ربّ العالمين) و (ربّ كلّ شئ) كثيراً، وإن ذكر بعبارات مختلفة فتقول الآية: «قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ»، ولأنّهم ليس بوسعهم الإدعاء بأنّ الأصنام أو المعبودات البشرية وأمثالها مدبرة ومربيّة ومنظمة للسماء والأرض فإنّ الآية تأمر النبي صلى الله عليه وآله مباشرة: أجب عن هذا السؤال و «قُلِ اللَّهُ».

ينبغي لك أن تهجر كلّ ما سواه وتعرض عن غيره وتعتمد على ذاته المقدّسة فقط، واجعل قلبك مرتبطاً به وعفّر خدك له، لأنّ جميع الموجودات لا تملك لنفسها ضرراً ولا نفعاً فضلاً عن غيرها: «لَا يَمْلِكُونَ لِنَفْسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا». (الفرقان/ ٣)

(١) «نسك» مفرد وفسيره الكثير من اللغويين بمعنى كلّ عبادة في حين فسّره البعض بمعنى الهدى ولكن لا توجد آية قرينة عليها بل إنّ ظاهر الآية يدلّ على أنّ المراد هو كلّ العبادات وعليه يكون ذكره بعد الصلاة من قبل العام بعد الخاص.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٥٢

الآية الرابعة تتحدّث عن ربوبيه الله للعرش ولكنها تبدأ بحاكمية الله وتقول: «فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ».

وهذه جملة تكمل ما ورد في الآية السابقة لها وفيها: «أَفْحَسِبْتُمْ أَنْ مَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ». (المؤمنون/ ١١٥)

ويستفاد منها بأنّه لولا المعاد والقيامة فإنّ خلق الإنسان يكون عبثاً، لأنّ الحياة لعدّة أيام في الدنيا ليست هدفاً سامياً للخلق وهذا من

الدلائل المهمة للمعاد، سيكون لنا حديث مفصل عنها في بحث المعاد ياذن الله.

ثم تضيف الآية: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ».

«ملك»: يعنى الحاكم والمالك، ولا يصدق ذلك بمعناه الحقيقى إلفى الله سبحانه لأنه من شؤون الخالقىة ومستلزماتىة ولعدم وجود خالق سواه فإنه لا مالك ومملك غيره.

ولذا تصفه الآية بعبارة (الحق)، ثم تحصر المعبود فيه لأن العبادة تليق بالملك الحق وتكمل ذلك بوصفه ب «رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ»، هذه الصفات الأربع جاءت لدعم عقيدة المعاد والقيامه الواردة فى الآيات السابقة.

«العرش الكريم»: إشارة إلى عالم الوجود كله، لأن العرش يعنى كرسى السلاطين العالى، وكرسى الحكومه الإلهية كناية عن مجموعة عالم الخلق وعلى هذا ينسجم مع جملة: «رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ» التى جاءت فى الآيات السابقة، وأتصاف العرش ب (الكريم) الذى يعنى الشريف والمفيد والجيد بسبب أن كرسى الحكومه الإلهية مصداق كامل لهذه الصفات.

ولكن بعضاً اعتقد أن (الكريم) يعنى الصاحب الكريم، ولأن هذا المعنى لا- يصدق فى العرش فإن هذه الصفة تكون لذات الله المقدسة لا العرش، فى حين أن كريم يمكن أن يكون وصفاً لغير الموجودات العاقله أيضاً مثل: «لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ». (الحج / ٥٠) أى كثير الفائدة والشريف «١».

(١) هنا أبحاث مفصلة فى معنى «العرش» فى اللغة والقرآن الكريم ومنها فى تفسير الأمثل، ذيل الآية ٥٤ من سورة الأعراف و ذيل الآية ٣ من سورة يونس.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٥٣

الآية الخامسة تتحدث عن ربوبية الله للبشر وتنقل عن النبى العظيم «إلياس عليه السلام» خطابه لقومه، وفيه وبخهم على عبادة صنمهم المعروف ب (بعل) وقال لهم: «أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ» وأضاف: «اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ» «١».

وهذا فى الواقع لجميع الوثنيين الذين كانوا يبزون عبادة الأصنام حينما يسألون عنها بقولهم: إن هذه سنة آباءنا ولا نتركها، وفى المقابل استند النبى إلياس عليه السلام إلى هذا المعنى وهو: أن اللائق للعبودية هو رب العالم ومدبره والمرتبى الحقيقى للإنسان، والله ربكم ورب آبائكم وأجدادكم فإذا كان اولئك على خطأ فى معرفة المعبود الحقيقى وربهم فلماذا تسلكون نفس الطريق الخاطىء؟

هو المدبر للامور:

تحدثت الآية السادسة والأخيرة عن تدبير الأمر بدلاً من استخدام كلمة (الرب) وهو مفهوم شبيه بالربوبية، وليس عينه تماماً، فتخاطب النبى صلى الله عليه وآله: «قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ».

من الذى سخر لكم نور الشمس الضرورى لوجودكم والأمطار التى تنزل من السماء لتهب الحياة فى كل مكان والهواء الذى تتنفسونه فيمنحكم طراوة ولطافة؟

وهكذا النباتات التى تنبت فى الأرض، وتوفر المواد الغذائية والفواكه اللذيذة والمعادن الثمينة التى تستخرجونها من باطن الأرض، من الذى أعطاها لكم؟ هل هذه الأرزاق من الأصنام؟!

ثم تذكر الآية جسم الإنسان وتشير إلى مجموعتين من أهم أعضائه بعنوان الطريق الأصلى فى ارتباط الإنسان مع العالم الخارجى والمبدأ الأساس للعلوم والأفكار حيث تقول: «أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ»، ثم تتناول أهم ظاهرة فى عالم الخلقه وهى قضيه

(١) «الله» منصوب لأنه بدل من «أحسن الخالقين» فى الآية السابقة وقال بعض إنّه عطف بيان.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٥٤

الحياة والموت وتقول: «وَمَنْ يُخْرِجِ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجِ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ»، فهل هذا من فعل الأصنام أيضاً؟! والآية في آخرها بعد ذكر المسائل المهمة الثلاث (الأرزاق السماوية والأرضية، السمع والبصر، الحياة والموت) تذكر القضية بصورة كلية وجامعة وتقول: «وَمَنْ يُدَبِّرِ الْأَمْرَ».

ومن المسلم به أنهم لو راجعوا عقولهم وضمائرهم لم يكن لهم جواب إلا أن يقولوا الله: «فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ».

ثم تقول الآية خذ من هذا الجواب مستمسكاً وقل: «أَفَلَا تَتَّقُونَ».

إن جميع الأرزاق المعنوية والمادية للإنسان وتدير العالم كله قد اجتمعت في الحقيقة في هذه الآية، فإن الأرزاق المادية إما تكون من السماء أو من الأرض، والأرزاق المعنوية عادة تكون عن طريق البصر والسمع اللذين ينقلان العلوم الحسية والعقلية والنقلية إلى الإنسان، وتدير العالم يشمل هذه كلها وغيرها، فمن يستطيع أن يدعى أن العباد الضعفاء أو الموجودات الحقيرة كالأصنام هي الخالقة لهذه الأرزاق والمدبرة لهذه الامور؟ إن توحيد الربوبية ليس قضية معقدة حتى بالنسبة لعباد الأصنام فيما لو فكروا قليلاً. والتعبير ب (يملك السمع والأبصار) يمكن أن يكون إشارة إلى خلقها أو حفظ نظامها وتديرها أو هذه الامور كلها.

من مجموع الآيات المذكورة والآيات المشابهة لها في القرآن الكريم وهي كثيرة وواسعة نحصل على هذه الحقيقة، وهي أن القرآن الكريم يعرّف الله القادر المتعال بأنه هو المالك والمربي والمدير والمدبر لعالم الوجود كله وكل شيء، وكل موجود في السماء والأرض والعرش والكرسي والبشر في الزمان الحاضر والماضي، ونقول بصراحة لا ربّ لعالم الوجود غيره.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٥٥

توضيحات

١- التوحيد يعني حذف الوسائط!

من خلال مطالعة دقيقة للآيات القرآنية نستنتج أن القرآن يصرّ مؤكداً بأن لا يضيع الناس بين الوسائط وعليهم أن يتوجهوا إلى ذات الله المقدّسة مباشرة، ويتحدّثوا معه ولتتعلق قلوبهم به وحده ولا- يعبدوا غيره، والتعبير ب (ربّ العالمين) في سورة الحمد والسور القرآنية الاخرى إشارة إلى هذه الحقيقة، وتكرار ذكر الركوع والسجود (سبحان ربّي العظيم) و (سبحان ربّي الأعلى) كله لبيان هذه الحقيقة وهي: ليس خلقنا بيده فحسب بل وبقاؤنا وتربيتنا وتكاملنا وتدير امورنا.

وقد أوضح القرآن الكريم ذلك بدقّة وهو أن، (الخالق) و (الرب) لا يمكن أن ينفصلا، ولو دققنا جيّداً في الإنسان لوجدنا له خلقاً جديداً في كلّ لحظة، وكلّ ذلك منه سبحانه.

إنّ موجودات العالم بأسرها محتاجة وفقيرة وهو الغني المطلق من كلّ جهة.

وتاريخ الديانات يشير إلى أنّ البشرية بسبب التيه في الوسائط والخرافات التي ابتليت بها، وكم من الموجودات المنحطة التي جعلتها آلهة تتحكم بمصائرنا، وهذا التعدد في الأرباب والآلهة قد جلب للبشرية كلّ هذا التفريق والاختلافات والشقاء.

ولكن عندما نهجر هذه الوسائط ونعتبر أنّ الله هو الربّ المطلق كما تقول الدلائل والبراهين العقلية، نعرف أنّ كلّ شيء محتاج إليه فإننا سنصل إلى مبدأ النور والعظمة والوحدة والوحدانية.

ولذا فإنّ صفة (رب) تكررت أكثر من ٩٠٠ مرّة في الآيات القرآنية ولم تتأكد صفة أخرى من الصفات الإلهية إلى هذه الدرجة.

وفي الحقيقة يجب معرفته ومطالعة الإخلاص في توحيد الإسلام قبل كلّ شيء في هذا التوحيد الربوبي.

٢- تاريخ الديانات وخرافة الوسائط

إشارة

كلّما تعمّقنا في دراسة تاريخ المذاهب والديانات تتجلى أمامنا هذه الحقيقة أكثر فأكثر

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٥٦

وهي شيوع الشرك وتعدّد الآلهة (الإله بمعنى الربّ) بين المجتمعات البشرية المختلفة منذ أقدم العصور بشكل أوسع، ولو قمنا بجمع أسماء هذه الآلهة وعقائد المجتمعات البشرية المختلفة لحصلنا على كتاب مفصّل مليء بالعقائد العجيبة والغريبة والخرافية، ولا بأس في الإشارة إليها بصورة مختصرة، ليطلع القراء على تلك القصّة الطويلة من خلال هذه المقدّمة المتواضعة.

(أ) آلهة الروم

كُتِبَ أحد المؤرّخين الغربيين بهذا الصدد: «لم تكن الديانة الروميّة تشابه ما نصلح عليه «دين» أبداً، ولم تتضمّن أى تشريع لمعتقديها، ولم تكن بصدد إصلاح التفسّخ الأخلاقي بين الناس، بل كانت تعلّمهم أفضل السبل لاكتساب رضا الآلهة وعونها. ... وكانت آلهة الروم كثيرة جداً ممّا جعل كلّ إله يحظى باتجاه معين! وله دور في قضية معيّنة، فلم يكن لأبواب البيوت إله فحسب، بل والعبّته منها وقواعدها كانت لها أرباب، كما أنّ هناك آلهة مستقلّة تتولّى أمر المحافظة على كلّ فرد من أفراد البشر، فوجود رب النوع الخاص الذي يعلم الطفل أوّل صرخة، وآخر يعلمه شرب الماء، وآخر يعلمه الخروج من البيت وآخر يعلمه كيف يرجع! وهناك إله خاص لحراثة الأرض وإله آخر خاص بالزراعة وآخر لبذر البذور و (أعداد كبيرة من الآلهة)، ولا عجب في أن يكون للروم (٣٠) ألف إله! حتّى أنّ أحد شخصياتهم مازح بقوله: إنّ آلهة بلادنا في الشوارع والمجتمعات هي أكثر من أفراد شعبنا! «١».

(ب) آلهة اليونان

ويكتب ذلك المؤرّخ أيضاً: (لقد اعتقد المجتمع اليوناني - كالكثير من الامم - بالوهية الظواهر الطبيعيّة كلّها نظير الشمس والرعد والمحيطات والأعاصير والأنهار والعيون

(١) تاريخ آلبرماله، تاريخ الروم، ج ١، ص ٢٩ و ٣٠، (علامة التعجّب منّا).

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٥٧

والرياح والأمطار، وقام بعبادتها واعتقد أنّ هذه الآثار تنشأ من وجود خفي، واعتقد أنّها منشأ الخير والشرّ ومن هنا قام بعبادتها كي يحصل على كرمها أو يدفع الشرّ بها.

ثمّ يذكر إله اليونان المعروف وهو (زيوس) ابن (كرونوس) وهو المتصوّر لديهم على شكل إنسان، له الهيمنة التامة والجبروت وذو جهة عريضة وشعر كثيف ولحية كثة طويلة على شكل حلقات!

كان زيوس ربّ الأرباب وإله البشر في اليونان ويحيطه عدد كبير من الآلهة وأرباب الأنواع، وكانت زوجة زيوس (هيرا) تعيش في السماء.

ويعتقدون أنّ لزيوس أبناء ثلاثة هم: (هرمس) و (آرتميس) و (آبولون) وهم على التوالي مظاهر المطر وربّ النوع للقمر والشمس!

كما اعتقدوا بالهة عديده اخرى نظير آلهة البحر وآلهة الأرض وآلهة جوف الأرض وآلهة العمل «١».

ج) آلهة مصر

أغلب المصريين القدماء اعتقدوا بديانة تؤمن بتعدد الآلهة، واعتقدوا أنّ إلهاً واحداً هو أعلى من الآخرين عرف ب (إله الآلهة). في مصر القديمة كان للناس في كلّ منطقة آلهة ومعبد خاصّ تجاوزت ال ٢٠٠٠ معبود! تسعة منهم يحظون بذكر أكبر، أحدهم إله الشمس، ثمّ إله الهواء، وإله الفضاء والفرّاح، وإله الأرض وهكذا هناك إله الصحراء والأراضي الخصبة والموت «٢». يقول المؤرّخ الشهير ويل ديورانت في (قصة الحضارة):

«لم تكن في العالم منطقة تناظر مصر في تعدّد الآلهة، وكان المصري يعتقد أنّ الخلق ابتدأ من السماء، وكانت سماء نهر النيل أعظم ربّ الأنواع.

(١) تاريخ آلبرماله، تاريخ امم الشرق، ج ٢، من ص ١٧١ إلى ص ١٧٩ (باختصار).

(٢) الإسلام والعقائد والآراء البشرية، ص ٤٦.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٥٨

وقد اعتقد المصريون بأنّ كواكب السماء ليست أجساماً فحسب بل إنّها تعكس الصورة الخارجية لأرواح الآلهة الكبيرة مثل آلهة السماء والحيوان والنبات، وقد بلغت حدّاً أصبحت فيه المعابد المصرية معارض للحيوانات المختلفة» «١».

د) آلهة ايران

اعتقد الإيرانيون قديماً بالثنوية ثمّ بتعدّد الآلهة وشاع بينهم بصورة تدريجية عبادة (امشاسبندان) أو الآلهة السنّة، آلهة الحيوانات الأليفة والبيضاء، إله النار، إله المعادن، إله الأرض، وإله المياه والحيوانات وإله الثوابت والسيارات السماوية «٢».

هـ) آلهة الصين

اعتقد الصينيون القدماء أيضاً بأنّ العالم يحكمه أصلان أحدهما (المذكر) أو (الموجب) أو (النور) والآخر (الأنثى) أو (السالب) أو (الظلام) وتبعه التفكير بالثنوية (شانكتي) وهو فحل مظهر لأصل المذكورة وكان يدعى إله الأفلاك، واعتقدوا أنّه هو الذي يجازي الإنسان على أعماله الصالحة والسيئة في هذه الدنيا وينزل البلاء الشديد عند العصيان العامّ. وكانت (هاتن) إلهاً مؤنثاً ويشي عليه، ثمّ ظهرت آلهة أخرى تدريجاً وتبدّلت الثنوية إلى تعدّد الآلهة: إله الخصوبة، إله المطر، إله الرياح، إله الثلج، إله النار، إله الجبل و... «٣».

و) مشركو العرب

يؤكد بعض المؤرّخين والمفسّرين بأنّ العرب كانوا يعتقدون بأنّ الخالق والرّزاق والرّبّ والمدبّر للعالم إله واحد ويستشهدون بآيات قرآنية تتحدّث عن إقرارهم في قضيتهم خالقية الله ورازقته، وعليه فإنّ عبادة الأصنام بينهم لم تنشأ من الاعتقاد بتعدّد الآلهة، بل من

(١) تاريخ الحضارة، ويل دورانت، ج ١، ص ٢٩٨ و ٣٠٠ (باختصار).

(٢) الإسلام والعقائد والآراء البشرية، ص ٣٤ (باختصار).

(٣) المصدر السابق، ص ١٥٧.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٥٩

اعتبارهم الأصنام ذات مقام ومكانة عند الله يرجون منها الشفاعة والقرب من الله، حتى اعتقد البعض منهم أن إلى جانب كل صنم شيطان موكل به من قبل الله، وكل من يعبد الصنم حقَّ عبادته فإن ذلك الشيطان يبادر بقضاء حوائجه بأمر من الله!! «١» ولا يمكن إنكار أن طائفة من العرب كانت ترجح عبادة النجوم، وتعتقد أن كواكب خاصة حين الغروب والشروق تقوم بإنزال المطر وقد عبروا عنها ب (الأنواء) وهو جمع نوء ويعنى النجم الذى يميل إلى الغروب، وقد اعتقدوا بارتباط الحركة والسكون والسفر والإقامة بهذه النجوم (واعتقدوا بتأثيرها على مصائرهم) وقد شيدوا معابد كبيرة للشمس والقمر والزهرة وسائر الكواكب «٢».

وفى اليمن كان من بين القبائل العربية من يعبد الكواكب السماوية، فكانت طائفة منها تعبد الشمس وقد أشار القرآن الكريم إليها فى قصة ملكة سبأ، وطائفة أخرى عبت القمر، وأخرى عبت نجمة الشعراء، كما عبت قبائل أخرى نجومًا أخرى «٣».

ز) آلهة بلدان أخرى

فى بلدان أخرى مثل الهند واليابان وغيرها ساد الاعتقاد بأرباب الأنواع والآلهة المتعددة، كما اعتقد الصابئة (عباد النجوم) بأن السيارات السبع هى التى تحرس الأقاليم السبعة وتحافظ عليها (حيث قسّموا الأرض قديماً إلى سبعة أقسام أطلق على كل قسم منها اقليم) «٤» واعتقدوا أنها مبدأ الخيرات ودافعة للأضرار عن أهل الأرض.

والإعتقاد ب (توتم) الذى ساد فى مناطق شاسعة من العالم كان مشابهاً للاعتقاد برّب الأنواع أيضاً، حيث كان لكل قبيلة (توتم) بمثابة الأب وروح القبيلة واعتقد بأنه على صورة الحيوانات أو ما شاكله.

(١) بلوغ الأرب، ج ٢، ص ١٩٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٢٣.

(٣) الإسلام والجاهلية، ص ٢٩٥.

(٤) يمكن مراجعته معجم البلدان، ج ١، ص ٢٧ للمعرفة التفصيلية بالأقاليم السبعة وحدودها.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٦٠

ح) الاعتقاد بالمثل الأفلاطونية

يفترض افلاطون لكل نوع من أنواع عالم الطبيعة فرداً عقلياً، واعتقد أنه قائم بالذات وبما أن هذه الأفراد المجردة اعتبرت أمثالا ومظاهر لأسماء وصفات الله وشبيهة للأنواع الطبيعية فقد اطلق عليها عنوان (مثال) وجمعه مُثَل على وزن رُسل.

يعتقد افلاطون أن ما له الحقيقة هو المثال وهو المطلق الذى لا يتغير ومجرد من الزمان والمكان وأبدى وكلّى، وأما هذه الأجسام الجسمانية والمادية التى نشاهدها متعددة وذات زمان ومكان وفانية فإنها إنعكاس لتلك، وعليه تكون نسبة الإنسان الجسمانى لمثاله هو نسبة الظل إلى ذى الظل.

ولأفراد الإنسان قسط من الحقيقة ما يناسب قربها من المثال، ومن هنا اعتبر افلاطون العالم المحسوس مجازاً وعالم المعقولات حقيقة «١».

إن الاعتقاد بالمثل اليونانية وإن تغاير مع الاعتقاد بأرباب الأنواع لكنه لا يخلو من تشابه من عدّة جهات ويعتبر شكلاً فلسفياً من أرباب الأنواع اليونانية.

كما أن الاعتقاد بالعقول الفلكية المجردة له تشابه مع أرباب الأنواع من جهة.

وإيضاحه: أن جماعة من الفلاسفة اعتقدوا بأن الله - بسبب بساطته من كل جهة - له مخلوق واحد لا أكثر، وهو مخلوق مجرد أطلقوا

عليه (العقل الأول) ثم اعتقدوا بأنّ العقل الأوّل لتركيبه من وجود وماهية فهو الخالق للعقل الثاني والفلك الأوّل، وبهذا الترتيب اعتقدوا بخلق عشرة عقول وتسعة أفلاك!

وقد اعتقد البعض منهم أنّ عدد العقول لا حصر لها، كما اعتقدوا ب (العقول العرضية) إلى جانب العقول الطولية (العقول العشرة التي يكون أحدها مخلوقاً للآخر)، واعتبروها وسائط لفيض الصور النوعية والمرتبئة العليا للموجودات الجسمية (مثل أبواب الأنواع والمثل الافلاطونية)، ولكلّ مفردة من هذه المسائل بحوث مطوّلة ننصرف عنها لأنّها خارجة عن موضوع بحثنا.

(١) كليات الفلسفة الإسلامية وسير الحكمة في اوربا وكتب اخرى.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٦١

المهمّ هنا هو أن نعلم بأنّ القرآن الكريم واجه هذه الأفكار كلّها وفي هذا الوسط الواسع من الأفكار العجيبة والغريبة والملوّثة بالشرك وأمام هذه العقائد والمذاهب الفلسفية المختلفة التي تُشَمُّ منها رائحة الشرك قام بعرض توحيد خالص في مسألة الخالق وتدير العالم وربوبيته وهو بحق من معجزات القرآن الكريم.

لقد أبطل القرآن هذه الآلهة الوهمية وربّ الأنواع الخيالية وعزّف (الله عزّوجلّ) كربّ للعالمين فقط، واعتبر كلّ شيء وكلّ إنسان مخلوقاً له وتحت تربيته وتديره، وقام بإفاضة الصفاء على قلوب البشر وأرواحهم بنور الوحدة ووجه أنظار البشر المشتتة إلى ذلك الواحد الأبدى.

أجل، إنّ دراسة تلك العقائد المشوبة بالشرك ومطالعتها تفصح عن قيمة التوحيد الإسلامي في منظار أتباع الحقّ.

والطريف أنّ الإسلام قد انبعث من أجواء لا يتحكّم فيها سوى الجهل، وكان الشرك يفرض قوّته على عقول الناس، ولم يكن العالم الخارج عن حدود الجزيرة العربية متخلّفاً عنها، فقد أشرنا سالفاً إلى أنّ الفلاسفة والمفكرين كانوا متورّطين بلون من الأفكار المشوبة بالشرك.

ويدلّ ذلك على أنّ طريق التوحيد الأصيل ليس أمراً يسمح للإنسان أن يسير فيه بنفسه، بل لابدّ من يد غيبية تمتدّ إليه عن طريق الوحي، ومن أنبياء يقودونه من وادي الظلمات ويوصلونه إلى معين التوحيد الخالص.

٣- التفويض لون من الشرك

بالرغم من أنّ للتفويض معاني مختلفة تبلغ سبعة عند بعض، ووجود بحوث واسعة مرتبطة به، إلّا أنّ من اللازم التذكير بأنّ جمعاً من المسلمين القائلين بالتفويض قد ظهروا وهم يحملون عقيدة بأنّ الله تعالى خلق النبي صلى الله عليه وآله والأئمّة المعصومين عليهم السلام ثمّ أوكل إليهم

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٦٢

أمر الخلق والرزق والموت والحياة لسائر الموجودات في العالم.

وأفضل ما قيل عن هذه العقيدة هو ما ذكره العلامة المجلسي رحمه الله في مرآة العقول: «ثم اعلم أنّ التفويض يطلق على معانٍ بعضها منفي عنهم عليهم السلام وبعضها مثبت لهم، فالأوّل: إنّ التفويض في الخلق والرزق والتربية والإمامة والإحياء، فإنّ قوماً قالوا: إنّ الله خلقهم وفوّض إليهم أمر الخلق فهم يخلقون ويرزقون ويحيون ويميتون وهذا يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يقال: إنّهم يفعلون جميع ذلك بقدرتهم وإرادتهم وهم الفاعلون لها حقيقة وهذا كفر صريح، دلّت على استحالة الأدلّة العقلية والنقلية ولا يستريب عقل في كفر من قال به.

وثانيهما: إنّ الله تعالى يفعلها مقارناً لإرادتهم كشقّ القمر وإحياء الموتى وقلب العصا حيّة وغير ذلك من المعجزات، فإنّها جميعها إنّما

تقع بقدرته سبحانه مقارناً لإرادتهم لظهور صدقهم فلا يأبى العقل من أن يكون الله تعالى خلقهم وأكملهم وألهمهم ما يصلح في نظام العالم ثم خلق كل شيء مقارناً لإرادتهم ومشيتهم، وهذا وإن كان العقل لا يعارضه بتاتاً لكن الأخبار الكثيرة مما أوردناها في كتاب (بحار الأنوار) يمنع من القول به فيما عدا المعجزات ظاهراً بل صريحاً «(١)».

وعليه فإن الاحتمال الثانى غير محال عقلاً، إلا أن الأدلة النقلية لا ترتضيه، وقد كثرت الامور التي ليست محالة عقلاً ولكن الشرع يرفضها، فمن الممكن - مثلاً - أن يكون عدد الأنبياء أو الأئمة أكثر من المعروف إلا أن الأدلة النقلية قد حددت أعدادهم بما نعلمه. وهناك احتمال ثالث وهو أن الله عز وجل يوهب النبى أو الإمام قدرة يستطيع بها إحياء الميت أو إبراء المريض من مرضه المستعصى بإذنه والظاهر من الآيات القرآنية حول السيد المسيح هو ما ذكرنا، وهذا كله ممكن أيضاً بالنسبة للمعصومين، ولكن كما وردت في العبارات المذكورة تكون هذه المسألة في إطار المعجزات والكرامات فقط، لا في مورد خلق السماء والأرض وتدير امور الكائنات، لأن القرآن الكريم قد صرح في حصر أمر الخلق والتدبير والربوبية في الله عز وجل، والآيات التي ذكرناها في هذا الفصل حول

(١) مرآة العقول، ج ٣، ص ١٤٣ (باختصار).

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٦٣

التوحيد والربوبية شاهدة على هذا المعنى.

وبما أن الإنسان الكامل هو الغاية الأساسية من الخلق وبما أن المعصومين هم أفضل البشر، يمكن القول أن عالم الوجود قد خلق من أجلهم، وبتعبير آخر، أنهم بمثابة العلة الغائية لعالم الوجود.

٤- هل أن الملائكة تدبر الامور؟

يقسم القرآن الكريم في سورة النازعات الآية ٥ ب (المدبرات أمراً)، والمشهور بين المفسرين هو أن الملائكة هي التي تدبر امور العالم، فهل هذا يتنافى مع توحيد الربوبية؟

الإجابة عن هذا السؤال واضحة، فلو كانت الملائكة لها الإستقلال في التأثير لم يكن ذلك منسجماً مع توحيد الربوبية ولكننا نعلم أنها منقذة للأمر الإلهي وقد أوكلت إليها الامور بإرادته ومشيتته نظير الأسباب في عالم الطبيعة التي لها تأثيراتها بأمر الله.

وقد لاحظ الكثير من المفسرين هذه النقطة في هذه الآية ولم يجدوا تناقضاً بين القول بأن الله (رب العالمين) و (رب كل شيء) وبين تأثيرات عالم الأسباب أو تدبير الملائكة بإذن الله، فكما ينص القرآن الكريم على أن الرازق لجميع الموجودات هي الذات المقدسة لله عز وجل: «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا». (هود / ٦)

في حين يقول في موضع آخر: «وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ». (البقرة / ٢٣٣)

ومن المسلم به أن إطلاق الرازق على والد المولود لا يتنافى مع إطلاقه على الله سبحانه، فهذا مستقل بالذات وذلك بالعرض والتبع.

عندما نقول: إن في العسل شفاء: «فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ». (النحل / ٦٩)

فإن ذلك لا يتنافى مع أن الشافي هو الله فقط، كما يقول رمز التوحيد، إبراهيم عليه السلام: «وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ». (الشعراء / ٨٠)

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٦٤

هذه كلها تبين سلسلة العلة والمعلول، أى تبدأ بالعلة غير المستقلة حتى تصل إلى علة العلل ومسبب الأسباب، أى الذات المقدسة لله تبارك وتعالى حيث يكون كل سبب مديناً له في تأثيره.

٥- «توحيد الربوبية» في الأحاديث الإسلامية

لقد انعكس هذا المضمون بصورة واسعة في الروايات والأدعية المأثورة عن المعصومين: ومنها الأدعية المختلفة التي وردت في الجزء الثاني من اصول الكافي، حيث تلاحظ هذه العبارات خلال الأدعية: «اللهم ربّ السماوات السبع وربّ الأرضين السبع ... ربّ العرش العظيم ... ربّ المشعر الحرام وربّ البلد الحرام وربّ الحل والحرام ... الحمد لله ربّ الصباح ... ربّ الملائكة والروح .. ربّ المستضعفين .. ربّ جبرئيل وميكائيل وإسرافيل وربّ القرآن العظيم وربّ محمّد خاتم النبيين» (١). كما وردت هذه التعابير في روايات أهل السنّة (٢).

وعليه فلا ربّ للسماء والأرض والملائكة والنبيين والأغنياء والمستضعفين والصباح والمساء والكعبة ومكة والعرش العظيم إلا الله القادر الواحد.

والتنسيق في شؤون الكون وتنفيذ الأنظمة الحاكمة عليه دليل واحد على وحدة المدبّر، ولذا نقرأ في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام قوله للزناديق الملحد الذي سأله عن وحدانية الله عزّ وجلّ: «فلما رأينا الخلق منتظماً، والفلك جارياً، واختلاف الليل والنهار والشمس والقمر، دلّ صحّة الأمر والتدبير واتتلاف الأمر على أنّ المدبّر واحد» (٣).

(١) اصول الكافي، ج ٢، ص ٥١٤-٥٨٥.

(٢) للمزيد من الإيضاح راجع المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، ج ٣، ص ٢٠٧.

(٣) توحيد الصدوق، ص ٢٤٤، باب ٣٦ (باب الردّ على الثنوية والزنادقة).

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٦٥

ج) توحيد المالكية (الحاكمية التكوينية)

تمهيد:

من الأقسام المهمّة الأخرى ل (توحيد الأفعال) هو التوحيد في المالكية، ويعنى أنّ المالك الحقيقي تكويناً وتشريعاً هو الذات الإلهية المقدّسة، والمالكيات الأخرى مجازية وغير مستقلة.

إيضاح ذلك: أنّ المالكية على قسمين: مالكية حقيقية (تكوينية) ومالكية حقوقية (تشريعية).

المالك الحقيقي هو من له السلطة التكوينية والخارجية على الأشياء، وأما المالكية الحقوقية والتشريعية فإنّها العقود التي تمضى عليها السلطة القانونية نظير مالكية الإنسان لأمواله.

والقسمان من المالكية لله تعالى في الدرجة الأولى من منظار الموحّد لعالم الوجود، فهو تعالى المالك للسلطة الوجودية على جميع الأشياء في الكون، لأنّ الموجودات كلّها منه وتستمدّ منه فيض الوجود آنأ بعد آن، والجميع تبع له، وبهذا تثبت مالكيته الحقيقية على كلّ شيء من كلّ جهة.

وأما المالكية القانونية فإنّ كلّ شيء له لأنّه الخالق والموجود لجميع الأشياء، بل حتّى ما نصنعه فأنّه هو الذي أعطانا وسائل الإنتاج كلّها، وعليه: فإنّ المالك الأوّل في الحقيقة هو الله، وإن مالكيته ما هي إلّا ودعيّة لأيام معدودة.

وبهذا التمهيد نراجع القرآن الكريم لتأمل خاشعين في الآيات التالية:

١- «قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ». (آل عمران / ٢٦)

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٦٦

٢- «أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ». (بقره/ ١٠٧)

٣- «ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَانِي تُصْرَفُونَ». (زمر/ ٦)

٤- «وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكُهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ». (بقره/ ٢٤٧)

٥- «ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ». (فاطر/ ١٣)

٦- «قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ». (١)

(سبا/ ٢٢)

شرح المفردات:

(الملك) بناءً على ما ورد في المقاييس هو في الأصل: القوّة على الشيء، ولذا ورد التملك بمعنى التقوية، ثم استعمل هذا التعبير في ما يصحبه الإنسان من أشياء وذلك لما له من قدرة وقوّة عليها.

ولذا يطلق على الماء الذي يحمله المسافر (ملك)، لأنّ المسافر الذي يصطحب الماء (خصوصاً في الصحارى الحارّة) يكون قوياً ومهيماً على عمله.

«ملك»: هو السلطان لقدرته في بلاده.

«ملكوت»: يعنى العزّة والسلطنة.

«إملاك»: في العربية يعنى التزويج، لاعتبارهم الزوجة ملكاً لهم!

وأخيراً (مملكة) هي الحكومة وعزّة السلطنة، ومن ثم أطلق على الوطن.

(١) وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة اخرى حول هذا الموضوع متّفقه مع الآيات أعلاه مثل: المائدة، ١٧- ١٨- ٤٠- ١٢٠؛

الأعراف، ١٥٨؛ التوبة، ١١٦؛ الإسراء، ١١١؛ النور، ٤٢؛ الفرقان، ٢؛ ص، ١٠؛ الزمر، ٤٤؛ الشورى، ٤٩؛ الزخرف، ٨٥ وغيرها.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٦٧

جمع الآيات وتفسيرها

الله مالك الملك:

قال المفسّرون: إنّ الآية الاولى نزلت بعد فتح مكّة، أو حينما كان النبي الكريم صلى الله عليه وآله مشغولاً بحفر الخندق قبيل معركة الأحزاب حيث بشر المسلمين بفتح بلاد فارس والروم وقد اعتبر المنافقون ذلك تخيلات وتكهّنات وتشبّهًا بالمحالات «١».

وفي هذه الأثناء نزلت الآية المذكورة وأندرت الجهلاء بأنّ الله مالك كلّ البلدان حيث قالت: «قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ» وليس الحكومات فقط وليس العزّة والذلّة بل: «بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» «٢».

وقدره الله عزّوجلّ على كلّ شيء هي- في الحقيقة- دليل حاكميته على الأرض والسماء.

ومن الواضح أن لمالكية الله بُعداً عامياً وحقيقياً، في حين ما جاء في المورد الآخر في جملة: «تؤتى الملك من تشاء» يكون له بعد جزئي ومجازي.

ولا- دليل على تحديد مفهوم الآية بفتوحات الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أو عزّة المؤمنين وذلة اليهود وما شاكل - كما يعتقد بعض المفسرين - بأنّ للآية مفهوماً واسعاً يشمل كلّ الحكومات وكلّ عزّة وذلة، وما قالوه فهو من مصاديقها الواضحة، والجملة الأخيرة: «إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» هي في الواقع بمثابة الدليل على هذه المالكية الإلهية العامة والمطلقة. وواضح أنّ المشيئة والإرادة الإلهية التي استند إليها في هذه الآيات لا تعني أنّ الله يعزّ أو يذلّ أو يعطي الحكومة ويسلبها بدون حساب، بل إنّ وضعه في عالم الأسباب مجموعة من عوامل النصر والهزيمة وهي مظاهر مشيئته وإرادته.

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٢، ص ٤٢٧؛ وتفسير الكبير، ج ٨، ص ٤.

(٢) قال بعض اللغويين: الخير والاختيار لهما مادة واحدة، والحسنات خير لأنّ كلّ إنسان يختارها (التحقيق، المفردات، تفسير الميزان في ذيل آية البحث).

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٦٨

فحينما يوقّف المسلمون يوماً لفتح الأندلس وهي بوابة أوربا أو يخرجون من تلك الديار المعمورة يوماً آخر فإنّ ذلك حديث وفق تلك الأسباب التي هي مظاهر لمشيئته الإلهية. وعندما يتسلّط أمثال يزيد وجنكيزخان على الناس فلعلّه نتيجة لأعمال الناس أنفسهم حيث إنهم يستحقون مثل هذه الحكومات فقد ورد: «كيفما تكونوا يولى عليكم».

من هنا يتّضح الجواب على الأسئلة التي تطرح حول آية البحث وليست بحاجة إلى توضيح أكثر.

الآية الثانية تنظر إلى الإشكالات الواهية التي أثرت من قبل اليهود حول تغيير القبلة بقولهم: هل بإمكان الله أن ينسخ حكماً ويحلّ حكماً آخر محلّه؟ أن يرفع حكم القبلة من بيت المقدس ويجعله للكعبة؟ فتقول: «أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ». وعليه هل يكون عجباً أن يقوم مثل هذا الحاكم العظيم بنسخ حكم؟

إنّه ليس مطلقاً على مصالح العباد فحسب بل له الحاكمية أيضاً وهو مالك التدبير والتصرّف المطلق في الكون وفي عباده.

ولذا تضيف الآية في ذيلها: «وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ».

إنّه يعينكم في ضوء علمه بالمصالح والمفاسد وفي ظلّ حاكميته يسنّ القوانين، ثمّ أنّ الله تعالى ليس له مكان لكي تتوجّهوا إليه في الصلاة، وعليه فإن قيمة المكان المتخذ كقبلة - مع أنّ الكون بأسره ملك له - ناشئة من أمره بذلك.

وقد ورد وصف الله تعالى بأنّه (ولى) و (نصير) في القرآن بكثرة، ويمكن أن يكون الاختلاف بينهما من جهتين: الاولى أن (ولى) يعنى حافظ المصالح و (نصير) هو الذى ينصر الإنسان على عدوه، والاخرى: أن (ولى) هو الذى يؤدّى عملاً لشخص تحت ولايته، ولكن (نصير) هو الذى يعين الإنسان ليتغلب على مشكلته.

الآية الثالثة ومن خلال الإشارة إلى خلق الإنسان والحيوانات والتطوّرات العجيبة

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٦٩

تقول: «ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ»، فهو الخالق وهو المربى ولذا فهو المالك والحاكم، ثمّ تجعل الآية هذه القضية مقدّمة لإثبات توحيد العبادة وتضيف: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَانَّى تُصْرَفُونَ».

فيا أيها الغافلون الجاهلون ويا أيها التائهون في وادى الضلالة! كيف تحيدون مع وجود هذه الدلائل الواضحة عن الإعتراف بخالقية الله وربوبيته ومالكيته؟! هذا الجزء من الآية يثبت في الحقيقة (توحيد العبادة) استناداً إلى (توحيد الحاكمية) لله تعالى وحاكميته بالإستناد

إلى مسألة الخلق التي يدعن حتى المشركون بأنها مختصة بالله عز وجل.

الآية الرابعة تنظر إلى قصة طالوت وجالوت، فقد كان جالوت جباراً ومجرماً وحاكماً على بني إسرائيل وقد آذاهم كثيراً.

وقد قام النبي (اشموئيل) «١»

بطلب من بني إسرائيل بتنصيب (طالوت) الذي كان من القرويين الفقراء قائداً للجيش وحاكماً على بني إسرائيل!

أما الملاء من بني إسرائيل فقد احتجوا على هذا الانتخاب واعتبروا أنفسهم أرحح منه، وذلك لما لهم من ثروة وفخامة! إلا أن نبيهم قال لهم بصراحة: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا» وأضاف: «إِنَّ اللَّهَ اضْطَفَاكُمْ عَلَيْهِمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ». (البقرة/ ٢٤٧)

وعليه فإنه لا- يكون حاكماً تكوينياً على عالم الوجود فحسب، بل إن الحاكمية القانونية والتشريعية على المجتمع البشري هي لذاته المقدسة ويمنحها لمن يشاء وإن كانت إرادته ومشيئته قائمة على أساس الأهلية واللياقة.

(١) احتمال بعض المفسرين أنه النبي شمعون أو يوشع ولكنهما بيدوان بعيدين، أما بالنسبة ليوشع الذي كان وصياً لموسى عليه السلام فهو غير ممكن تقريباً.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٧٠

الآية الخامسة تبين هذه المسألة في إطار جديد، فبعد بيان حاكمية الله على الشمس والقمر ونظام النور والظلم تستنتج بهذا النحو بقولها: «ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ».

في حين ليس للمعبودات من دونه حاكمية ولا مالكية حتى بحجم الغشاء الرقيق الذي يغلف نوى التمر: «وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ».

وقد ذكر المفسرون واللغويون معاني مختلفة لكلمة قطمير، أشهرها هو الغشاء الرقيق الذي يفصل النوى عن التمر.

وقد فسره البعض بأنه يعني التجوف الأبيض الصغير الذي يوجد على ظهر النوى وينمو منه نبات التمر، وفسره البعض بأنه رأس التمرة، وفسره بعض آخر بمعنى الشق الموجود على بطن النوى، أو بمعنى النطفة الحية الموجودة في بطن النوى.

ترتبط هذه المعاني الخمسة بنوى التمر التي كانت في متناول العرب، وهناك تفسير آخر ذكر لهذه الكلمة وهو غشاء البصل، ولكن الأشهر- كما ذكرنا- هو المعنى الأول وعلى كل حال هو كناية عن الشيء الصغير والتافه الذي لا يؤبه له «١».

والآية هذه دليل واضح على أن المالكية والحاكمية لا تكون لأحد سوى الله عز وجل إلا أن تكون بمشيئته وهبته.

وفي الآية السادسة والأخيرة جاء هذا المضمون في إطار جديد، حيث تخاطب النبي صلى الله عليه وآله: «قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ» هل بإمكانهم أن يحلوا عقده من مشكلاتكم؟

ثم تقيم دليلاً على عجزهم في حل المشكلات وتضيف: «لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ».

(١) راجع تفاسير مجمع البيان؛ روح المعاني؛ القرطبي؛ الميزان؛ المراغي؛ ومفردات الراغب، لسان العرب؛ ومجمع البحرين.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٧١

وعليه فإنهم ليسوا مالكيين مستقلين ولا شركاء ولا معاونين، فأى عمل هم قادرون على إنجازه حتى تسجدوا لهم وتعبدوهم!؟

بهذه الاستدلالات الواضحة ينفي القرآن الكريم كل شريك في المالكية والحاكمية في عالم الوجود الواسع بصورة مستقلة ومشتركة ومتعاضدة، وتعتبر ذلك كله مختصاً في الله، وبيّره الله عن كل شريك ومعين وناصر في عالم الوجود كله.

المستفاد من مجموع هذه الآيات الست والآيات القرآنية المشابهة لها هو أن المالك والحاكم على عالم الوجود بأسره لا يكون في منظار الموحد الكامل إلا الله، ولا يملك أحد في أى موضع ومنصب جزءاً صغيراً، وبهذا لا يبقى للمشركين أى مبرر لعبادة الأصنام أو ربّ الأنواع أو الملائكة وغيرها.

توضيحان

١- الآثار التربوية للإيمان بتوحيد المالكية والحاكمية

الطغيان والغرور والتمرد والبخل والحسد حالات نفسية تنشأ غالباً من عقيدة الإنسان بأنه المالك الحقيقي للأموال التي بحوزته، ويرى نفسه حراً فيما إذا استلم زمام الحكم في نطاق واسع أو ضيق، وهذه حالة مشوبة بالشرك وهي منشأ لألوان المعاصي والفساد الاجتماعي.

ولكن إذا ما نظر الإنسان إلى هذا العالم بمنظار توحيدى، واعتقد - كما في الآيات - أن العالم ملك مطلق لله واعتبر نفسه - كما جاء في الآية ٧ من سورة الحديد: «وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ» - أميناً بين يدي الله، وإستوعب هذا المعنى بوجوده كله، فكيف يمكن أن يقصر في أداء ما يريده صاحب الأمانة الأصلي أو يبخل أو يحسد؟ وكيف تكون هذه الأموال سبباً لغروره وطغيانه، إن ما يملك من مال وثروة ليس له! فهل يعتز الموظف في أحد المصارف بالملايين التي تكون تحت تصرفه كل يوم؟

وهكذا بالنسبة للحكومات والمناصب التي يتولأها البعض، فإنهم ليسوا مستخلفين في

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٧٢

جزء صغير من عالم الوجود هذا، وعلى أساس هذا الفهم والرؤية، فلماذا الغرور والطغيان؟

ولماذا الظلم والفساد؟

إن هذه الرؤية التوحيدية للعالم تعطى للإنسانية صبغة أخرى صبغة إلهية، صبغة السلام والصفاء والأمن ولون الإنفاق والإيثار.

٢- استغلال مفهوم (ملكية الله)

لا شك - وكما تقدم - أن الله تعالى مالك لعالم الوجود بأسره - وبغض النظر عن الآيات القرآنية الكثيرة الواردة بهذا الخصوص فإن الدليل العقلي شاهد على هذا الأمر، فانهصار واجب الوجود في ذاته المقدسة واحتياج الموجودات كلها إلى الله سبحانه وتعالى يكفي لإثبات هذا المفهوم ولا يتنافى مع هذا المعنى من المالكية الحقوقية والقانونية لبنى الإنسان في الإطار الذي يسمح به الله أبداً، وما يتشبت به البعض في قضيه (ملكية الله) لنفى آية (الملكية الخاصة) فإنه استغلال ليس إلا، والعجيب إن ذلك يُطرح تحت عنوان الفقه الإسلامى، ويعطى - فى الحقيقة - للإشترائية أو الشيوعية لوناً إسلامياً.

وبوضوح أكثر نقول: إن القرآن الكريم الذى أكد على مالكية الله لعالم الوجود الواسع بأسره فيه آيات تتعلق ب (الإرث والخمس والزكاة والتجارة) أيضاً ويضفى الشرعية على الأموال المشروعة التي يتصرف بها القطاع الخاص، فقد جاء التعبير ب (أموالكم) فى ١٤ آية قرآنية، والتعبير ب (أموالهم) فى ٣١ آية - وقد وردت الكثير من التعاليم الإلهية فى العديد من الآيات تأمرهم فى كيفية التصرف فى أموالهم، فلو كان مفهوم الملكية الإلهية ينفى ملكية الإنسان، فما هو إذن مفهوم الآيات التي وردت فى هذه ال ٤٥ آية إضافة إلى آيات كثيرة أخرى تتعلق بهذا الموضوع؟

فالقرآن الكريم يقول: «وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ... وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ».

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٧٣

وفى موضع آخر: «أَنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا...».

وفى موضع ثالث يقول: «الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَمْ يَتَّبِعُوا مِمَّا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَدَّى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ...». (البقرة/ ٢٦٢)

ويخاطب المرابين: «وَإِنْ تُبْتِغُوا فَكْرًا مِنْ أَمْوَالِكُمْ...». (البقرة/ ٢٧٩)

أو كما ورد فى الآية الكريمة: «وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسِّرْ تَعْفُفًا وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا». (النساء/ ٦)

وقد وردت تعابير كثيرة تشير إلى هذا النوع من المالكية.

بالطبع، فى الشريعة الإسلامية هناك أقسام أخرى من المالكية مثل «الملكية العامة» و «ملكية الحكومة» بالإضافة إلى «الملكية الخاصة»، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك، ولكن لا يوجد لأى من هذه الملكيات علاقة بملكية الله سبحانه وتعالى، وبتعبير مختصر وهو أن توحيد الملكية لا يتعارض ولا يتنافى مع ملكية أفراد البشر أو طبقه من المجتمع، أو المجتمع لأى شىء، بشرط أن تكون هذه الملكية مشروعة.

ولهذا الأمر شروط وأسباب وردت فى كتب الفقه الإسلامى بشكل مفصل وواضح.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٧٥

(د) توحيد التقنين (الحاكمية التشريعية)

تمهيد:

من المعلوم إنه ومن أجل تنظيم شؤون المجتمعات البشرية نحتاج إلى ثلاث سلطات، (السلطة التشريعية) التى تتكفل سنّ القوانين الكفيلة بحفظ النظام فى المجتمع والحيلولة دون ضياع الحقوق، و (السلطة التنفيذية) التى تنفذ ما صادقت عليه السلطة التشريعية وتتولاها عادة الحكومات المؤلفة من الوزراء والدوائر الحكومية.

و (السلطة القضائية) المسؤولة عن معاقبة المتخلفين عن القانون والمجرمين والمعتدين.

فى الرؤية التوحيدية الإسلامية تستمد هذه السلطات الثلاث من تعاليم الذات المقدسة الالهية ولا يكون فيها حكماً جائزاً إلا بإذنه وأمره فهو الذى شرع القوانين وهو الذى يجيز تشكيل الحكومات وتنفيذ القوانين، وهو الذى يمنح الشرعية لعمل القضاء، وعليه فإن هذه السلطات الثلاث لا بد أن تستمد شرعيتها من حضرة القدس الإلهى طبق الشرائط والأوامر، وهذا المعنى له انعكاس واسع فى الآيات القرآنية إضافة إلى إمكانية الاستدلال عليه عقلياً.

بهذا التمهيد نراجع القرآن الكريم لنمعن خاشعين فى الآيات القرآنية:

١- «وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ». (المائدة/ ٤٤)

٢- «وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ». (المائدة/ ٤٥)

٣- «وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ». (المائدة/ ٤٧)

٤- «وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ». (المائدة/ ٤٩)

٥- «فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا». (النساء / ٦٥)

٦- «إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ». (الأنعام / ٥٧) (يوسف / ٦٥)

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٧٦

٧- «وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ». (القصص / ٧٠)

٨- «وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ». (القصص / ٨٨)

٩- «وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ».

(الشورى / ١٠)

١٠- «أَفَعَبِّرَ اللَّهُ بِتَّبَعِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا». «١» (الأنعام / ١١٤)

شرح المفردات:

«حُكْمٌ»: على وزن (قُفْل) ويعنى فى الأصل - كما يقول الكثير من كبار اللغويين - المنع والصد «٢» ومن ثم اطلق على (القضاء) و (الحكومة)، لأن القاضي والحاكم يمنعان الناس بأحكامهما الحازمة من مخالفتها أو ارتكاب الأعمال الممنوعة. «حَكَمَةٌ»: تعنى الحديدية التى توضع فى فم الحيوان أو أنفه كلبجام، ولدى سحبه يتألم الحيوان ويستسلم ويوجد هنا معنى المنع نفسه أيضاً.

وفى (لسان العرب): ل (حكّم) معانٍ مختلفة كالعلم والفهم والقضاء بالحق والعدل (حيث تصدّ هذه الامور الإنسان عن المخالفة) ويطلق (حكيم) على من كان ذا معرفة كافية تصدّه عن ارتكاب الأعمال السيئة. ومن اللازم التذكير بهذه النقطة وهى أنّ هذه الكلمة تستعمل فى الموارد الثلاثة (التشريعية والقضائية والتنفيذية) حيث يطلق الحاكم على الموارد الثلاثة، ولذا فإنّ البعض

(١) هنالك آيات قرآنية كثيرة وردت بهذا المضمون أيضاً مثل المائدة، ٤٨، و ٥٠؛ الكهف، ٢٦؛ الأعراف، ٨٧؛ يوسف، ١٠٩؛ هود، ٤٥؛ يوسف، ٨٠؛ التين، ٨؛ النساء، ٦٠.

(٢) المفردات؛ مقاييس اللغة؛ ومصباح المنير للفيومي.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٧٧

من كتب اللغة تذكر أنّ أحد معانى (حكّم) هو تفويض الأمر والفعل لشخص ما.

ورد فى كتاب (العين) أنّ لفظ (حكمة) يرجع إلى مفهوم العدل والعلم والحلم، ويقول صاحب الكتاب: إنّ هذه الكلمة فسّرت بمعنى (المنع) أو (المنع من الفساد)، وهذا ينسجم مع ما نقلناه عن اللغويين، والآيات المحكمات اطلق عليها هذا اللفظ لأنّ صراحتها ووضوحها يمنع من أى تفسير أو تأويل خاطئ.

جمع الايات وتفسيرها

من لم يحكم بما أنزل الله:

فى الآيات الأربعة الاولى (الآية ٤٤، ٤٥، ٤٧، و ٤٩ من سورة المائدة) عرض لمسألة توحيد الحاكمية بأوضح وجوهه.

تقول الآية الاولى والثانية والثالثة: «وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ... هُمُ الظَّالِمُونَ ... هُمُ الْفَاسِقُونَ».

وللمفسرين أقوال في هذه العبارات هل أنها تتضمن مفاهيم مختلفة أو أنها تشير إلى مفهوم واحد؟

فبعض يعتقد أنها تنظر إلى جماعة واحدة، وأنها صفات متعددة لموصوف واحد ويمكن تفسيرها بهذا الترتيب: من يحكم بخلاف ما أنزل الله فإنه يخالف الله وينهض بوجه الله فهو كافر من هذه الجهة.

ومن جهة ثانية أنه يوجه ضربه للحق الإنساني فهو ظالم.

ومن جهة ثالثة أنه يخرج من نطاق واجباته فهو فاسق (لاحظ أن الفسق يعنى الخروج عن واجبات العبودية).

وقال بعض آخر: إن الآية الاولى والثانية- وبقرينة ما قبلها- تقصدان اليهود، في حين تتحدث الآية الثالثة عن النصارى، وبما أن عداء اليهود للأحكام الإلهية أشد من النصارى فقد حكم عليهم بالكفر والظلم بينما حكم على النصارى بالفسق.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٧٨

ولكننا نعلم أن نزول الآيات في موارد خاصة لا- يحدد مفاهيمها الكلية بتلك الموارد، وعليه فإن الآيات هذه تشمل جميع الذين يحكمون بغير ما أنزل الله.

إن صدق الظلم والفسق فيمن يرتكب هذه المعصية واضح ولكن الحكم بالكفر يكون في حالة الرد لحكم الله والإعتقاد بطلانه، لأن ذلك أما إعتقاد يلازمه إنكار الذات المقدسة أو علمه وحكمته وعدله، وهذا يستوجب الكفر قطعاً، وهكذا إذا رجع إنكار هذا الحكم

إلى إنكار القرآن أو رسالته نبي الإسلام صلى الله عليه وآله.

ولكنه إذا حكم بغير ما أنزل الله فقط وكان المنشأ فيه هوى النفس مثلاً لا إنكار التوحيد أو النبوة فإنه لا يستوجب الكفر.

وقد ورد في قوله تعالى: «فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ». (المائدة/ ٤٨)

وقوله تعالى: «وَأَن أَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ». (المائدة/ ٤٩)

وقوله تعالى: «أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ».

(المائدة/ ٥٠)

إن الآيات الست هذه تؤكد على هذا المعنى وهو (الحكم حكم الله فقط).

إن هذه التعابير المختلفة وهذا التأكيد المثالي الذي ورد في هذه الآيات الست في سورة واحدة وبصورة متقاربة لدليل على هذه الحقيقة وهي أنه لا- يحق التشريع لأي مقام إلا الله، وكل من يفتى أو يقضى أو يحكم على خلاف حكم الله فإنه يقترب إثماً عظيماً وظلماً وينزع عنه ثوب الإيمان أيضاً.

بهذه يثبت توحيد الحاكمية التشريعية وحصر التشريع في ذات الله المقدسة وحصر الحكم في حكم الله.

الآية الخامسة تتحدث عن مقام القضاء وتعتبره من مختصات رسول الله صلى الله عليه وآله (الذين ينصبون من قبله أئمة بالمعنى المطلق أو في خصوص القضاء) وتقول: «فَلَمَّا وَرَبَّكَ لَمَّا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَزَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا».

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٧٩

وعليه تكون علامات الإيمان الحقيقي ثلاث: الإحتكام إلى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في كل اختلاف وعدم الشعور بالأذى من حكمه وتنفيذه بالكامل في الخارج، وبهذا فإن الآية تعتبر فرعاً آخر من الحاكمية، أي الحاكمية في القضاء منحصرة في الله عز وجل (لأن النبي صلى الله عليه وآله ممثل عن الله).

الحكم لله فقط:

الآية السادسة تقول بتعبير قصير: «إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ».

لقد تكررت هذه الجملة في القرآن الكريم مراراً ولها مفهوم واسع حيث تتضمن الحكم بمعنى التشريع والحكومة والقضاء والحكم التكويني والأحكام التشريعية، غير أن هذا التعبير في سورة الأنعام الآية ٥٧ وسورة يوسف الآية ٦٧ جاء في مورد الحكم الإلهي بالعذاب على الكافرين ومعاقبتهم.

على كل حال فإن الاختلاف في موارد التعبير هذه دليل واضح على أن مفهوم الآية واسع كما قلنا، ويعتبر كل حكم وأمر مختصاً في الله، في عالم التكوين وعالم التشريع.

الآية السابعة وبعد أن وصفت الله عز وجل باستحقاق العبودية والحمد والثناء في الدنيا والآخرة تقول: «وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ».

وعبارة (وله الحكم) في الحقيقة دليل على انحصار الأهلية للعبادة والحمد والثناء فيه عز وجل، لأن (المعبود) و (المحمود) هو من كان حكمه نافذاً في كل شيء وفي الجميع، وإن قال بعض المفسرين أمثال ابن عباس: إن المراد من (حكم) هنا هو القضاء بين العباد يوم نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٨٠

القيامة «١» وليس بأيدينا أى دليل على تحديد معنى الآية، وقلنا مراراً: إن خصوصية المورد لا تمنع عمومية مفهوم الآية. وعليه فإن الآية أعلاه تشمل توحيد حاكمية الله في عالم التكوين وفي عالم التشريع والتقنين والحكومة والقضاء (في تفسير الميزان إشارة إلى عمومية مفهوم الآية) «٢».

وينبغي ملاحظة أن عبارة (له الحكم) تدل على الحصر من جهتين: إحداهما من جهة أن (له) مقدم، والاخرى من جهة أن كلمة (الحكم) جاءت مطلقة أى أنها تشمل أنواع الحاكمية كلها.

والجدير ذكره أن انحصار المالكية في الله لا يمنع من أن يضعها الله في اختيار الأنبياء والأئمة المعصومين وعباده الصالحين، فالبحث يدور حول المبدأ الأصلي للحاكمية، كما أن إختصاص الحمد والثناء في ذاته المقدسة لا يمنع من أن يثنى الإنسان على العباد الصالحين أو الوالدين أو المعلم، فهم يمثلون الوساطة في النعمة ولا بد من ملاحظة أن هذه الامور كلها من الله وهذا هو معنى توحيد الحاكمية.

الآية الثامنة تتحدث أولاً عن توحيد العبادة ثم توحيد الحاكمية حيث تقول: «وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» ثم تقول بما يتضمنه الدليل على هذا الحكم: «كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ» وتضيف أخيراً: «لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ».

هذه الآية تخصيص العبادة في الله وهكذا البقاء والحكم والقضاء وإن اعتبر البعض الحكم فيها بمعنى الحكم التكويني وإرادة الله النافذة في كل شيء، واعتبرها البعض الآخر بمعنى

(١) تفسير روح المعاني، ج ٢٠، ص ٩٢.

(٢) تفسير الميزان، ج ١٦، ص ٧٠.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٨١

القضاء يوم القيامة.

وقال البعض: إن الحكم هنا له جانب تشريعي فقط، غير أن الإطلاق هو الظاهر من الآية ويشمل كل حكم في عالم الوجود وعالم الشريعة والدنيا والآخرة.

أما المراد من (الوجه) في العبارة: «كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ» فإن البعض فسره بمعني الأعمال الصالحة التي تنجز لله تعالى، فيما فسره البعض الآخر بمعنى الدين والقانون، والبعض الآخر بمعنى مقام الرب.

ولكننا نعلم أن (وجه) يعنى فى الأصل (الصورة) وكما يقول الراغب: أن الوجه هو أول ما يواجه الأشخاص الآخريين وهو أشرف الأعضاء فى الإنسان، ولذا اطلقت هذه الكلمة على الموجودات الشريفة، وبهذه المناسبة يطلق على ذات الله المقدسة وقد استعملت بهذا المعنى فى الآية ظاهراً.

وبما أن كل موجود يرتبط بهذه الذات الباقية والأبدية، فإنه يتلون بلون الأبدية فإن دين الله وشريعته والأعمال المنجزة من أجله والأنبياء تكون خالدة وباقية لارتباطها بالله تعالى، وبهذا تجتمع التفاسير المذكورة فى مضمون الآية.

عند الاختلاف ارجعوا إلى الله:

الآية التاسعة ترى (الحاكمية) بمعنى القضاء حيث تقول: «وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ». أجل، إنه وحده القادر على رفع الاختلاف فيما بينهم لأنه عالم بكل شيء وله الولاية على الجميع. وتضيف الآية: «ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ».

وهناك أقوال عديدة فى تفسير هذه الآية، فالبعض اعتبرها ناظرة إلى الاختلافات والخصومات بين الناس الذين وجب عليهم الإحتكام إلى النبى صلى الله عليه وآله، فيما اعتبرها البعض الآخر إشارة إلى الاختلاف فى تأويل الآيات وتفسيرها، فى حين اعتبرها آخرون ناظرة إلى الاختلاف فى العلوم المرتبطة بالمفاهيم الدينيه والتكاليف وواجبات الناس مثل معرفة الروح وأمثالها «١».

(١) نقلت هذه التفاسير الثلاثة عن المفسرين فى تفسير روح المعانى، ج ٢٥، ص ١٥.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٨٢

ولكننا لا نرى دليلاً لتحديد مفهوم الآية، بل كما قال بعض المحققين: إن الآية تشمل كل قضاء سواء كان فى الأحكام أو فى المفاهيم الدينيه أو فى معنى الآيات المتشابهة أو غيرها.

إن الآية هذه من الآيات التى تثبت هذه الحقيقة بوضوح وهى أن كل المسائل التى يحتاجها الناس قد وردت فى الكتاب والسنة، ويكون كل قياس وتشريع وأمثلة باطلاً، فلولا وجود هذه الأحكام كلها فى الكتاب والسنة فلا معنى لإرجاع جميع الاختلافات إلى الله فيها (تأمل جيداً).

والملاحظ أن الفخر الرازى وبعض المفسرين قد أقرّوا بهذه الحقيقة واعتبروا هذه الآية من جملة الأدلة المبطلة للقياس فى الأحكام الفقهيّة «١».

فالآية تقول: يجب إرجاع الحكم فى جميع الاختلافات إلى الله، وبالطبع فإن النبى صلى الله عليه وآله هو خليفة الله المصطفى من بين الناس، فلو لم يتضمن الكتاب والسنة طرق حل للاختلافات فى الأحكام والعقائد وما يتعلق بالشرع لكان إرجاع الاختلافات إلى الله عز وجل لا معنى له.

الآية العاشرة والأخيرة تقول كاستنتاج عام عن لسان النبى صلى الله عليه وآله: «أَفْعَيْرِ اللَّهُ أَبْتغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا» وعليه فإن (الحكم والحاكم والقاضى) هو ذاته المقدسة فقط لأنه عالم بكل شيء، والقرآن أفضل دليل على علمه «٢».

وأما السؤال عن أن الحكمية فى أى شيء تكون؟ فإن القرائن تشير إلى أن المقصود هو

(١) تفسير الكبير، ج ٢٧، ص ١٤٩.

(٢) «حكم»: كما يعتقد المرحوم الطبرسى فى مجمع البيان والشيخ الطوسى فى (التبيان) يطلق على من لا يحكم إلا بالحق فى حين أن (الحاكم) يمكن أن يحكم بغير الحق، ولكن لم يتوضح من أين استفيد هذا المعنى إلا أن القدر المسلم به هو أنه صفة مشبهة وتدل

على الدوام والاستمرار ويطلق على من يحكم باستمرار، والقضية المعروفة عن (الحكمين) في حرب صفين شاهد على نفى هذا المعنى، غير أن هذه الكلمة أو كلمة (حاكم) إذا استعملت في الله فإنها إشارة إلى القضاء والحكم المنزه عن كل ظلم وخطأ وليس لهذا ارتباط بالأصل اللغوي.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٨٣

الإحتكام إلى الله في حقانية الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله.

وسبب النزول الذي ينقل في هذا المجال شاهد على هذا المعنى حيث قيل: إن مشركي قريش إقترحوا على النبي صلى الله عليه و آله أن اجعل بيننا وبينك حكماً من اليهود أو قساوسة النصارى؟

كى يخبرونا عنك بما يتوقّر لديهم من كتب سماوية «١».

فزلت الآية كجواب على إشكالهم: هل يوجد غير الله حكماً!

وذيل الآية شاهد على هذا المعنى أيضاً بقولها: «وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ».

على كل حال فإن مفهوم الآية واسع ويحصر الحكمة في جميع الامور دون استثناء في ذات الله المقدسة لأننا نعلم أن مورد الآية لا يحدّد مفهوم الآية أبداً.

المستفاد جيداً من الآيات العشر السالفة هو أن الحاكمة ونفوذ الحكم والأمر في عالم الوجود وفي عالم الشريعة مختص في ذات الله المقدسة.

والحاكمة بمعنى التشريع وهكذا القضاء والحكومة بمعنى التنفيذ كلها تنشأ منه تعالى ومن يرغب في التصدي لبعض هذه الامور فلا بد أن يكون ذلك بإذنه وأمره سبحانه.

غير أن الآيات المذكورة مختلفة، فبعضها يلاحظ فروع الحاكمة كلها وبعضها يلاحظ مسألة القضاء أو التشريع فقط، ولكن المستفاد من المجموع هو مسألة (توحيد الحاكمة) بجميع أبعادها من هذه الآيات.

توضيحات

١- حاكمة الله في المنطق العقلي

لا شك أن كل عارف بالله مقرّ بتوحيد الخالق يدعن بنفاد أمره في عالم الوجود، وعندما

(١) تفسير روح المعاني، ج ٨، ص ٧.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٨٤

يتقبّل حاكميته على عالم الوجود فإنه سوف لا- يتردد في ولايته وحكومته التشريعية لأنه حينما يكون هو الخالق والمالك والمدير والمدبّر فغيره لا يكون أهلاً للتشريع ولا يتمكن من وضع قوانين تنسجم مع نظام التكوين والخلق.

وهكذا عندما يكون هو الخالق والمدبّر فإنه هو الذي يجب أن يحكم في مسألة الحكومة القانونية على العباد ويقضى في الاختلافات، وبدونه سيكون هناك تدخل في نطاق مالكية الله عزّ وجلّ وتدييره بدون إذنه، من جهة اخرى يكون القانون الصحيح هو القانون الذي ينسجم مع التركيب الجسمي للإنسان وروحه ويلبى حاجاته الماديّة والمعنوية ولا- يترك آثاراً سلبية في فترة زمنية قصيرة وطويلة، وأن يكون ذا ضمان تنفيذي كافٍ وذا تقبل وانشداد في المجتمع الإنساني.

وتعبير آخر يكون المشرّع الحقيقي عالماً بالإنسان بصورة كاملة من جهة وعالماً بالكون من جهة اخرى كى يلاحظ بدقّة العلاقات

التي تربط الإنسان مع العالم الخارجى والداخلى ويضع القوانين مضافاً إلى عدم وجود مصالح شخصية من وضع تلك القوانين. وما نشاهده من اختلال كبير فى القوانين البشرية فإنه ناشىء من:

أولاً: فقدان البشرية لمن يعرف الإنسان بجميع جزئياته الجسمية والروحية ويعلم جميع القوانين والعلاقات التي تحكم العالم، فلا زالت تؤلف كتب من قبل المفكرين تحت عنوان (الإنسان موجود مجهول) وما شاكل، فإذا كانت معرفة الإنسان بنفسه إلى هذه الدرجة من الضعف فكيف تكون معرفته بالعالم الواسع؟

ثانياً: الإنسان موجود محتاج إلى غيره، ولذلك نجد أن كل مجموعة تسن القوانين فى إحدى المجتمعات البشرية تأخذ بنظر الاعتبار منافع تلك المجموعة أو الحزب.

ثالثاً: الإنسان غير مصون عن الخطأ والإشتباه ولذا تكون القوانين البشرية عرضة للتغير المستمر وذلك لظهور عيوبها ونقائصها وأخطائها بمرور الزمان فيبادر لإصلاحها ولكن سوف تظهر عيوب أخرى، ومن هنا أصبحت المجالس التشريعية البشرية مختبرات تختبر فيها القوانين بشكل دائم اختباراً لا طائل فيه ولا نهاية!

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٨٥

وبقطع النظر عن مسألة مالكيه الله وخالفته لا- يصلح أحد للتشريع أصلاً إلامن كان خالقاً للإنسان وعالمًا بكل متطلباته الجسمية والروحية وغتياً عن كل شىء وكل إنسان ومنزهاً عن كل خطأ واشتباه.

وواجبنا الوحيد هو تطبيق اصول القوانين الإلهية العامة على مصاديقها وجعل الأحكام العامة أحكاماً جزئية قابلة للتنفيذ.

٢- الحكومة ودبعة إلهية

من الآيات السابقة يستنتج بصورة جيدة أن الحكومة ودبعة إلهية، وعلى الحكام والمسؤولين العمل كنواب عن الله تعالى، المفهوم من هذا الكلام هو وجوب رعاية أوامر المالك الأصلي للحكومة، أى الله سبحانه وتعالى فى جميع المجالات.

وقد خاطب الله عز وجل النبي داود عليه السلام وهو ملك لأحد أوسع الحكومات فى التاريخ البشرى: «يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ». (ص / ٢٦)

إن هذا التعبير يشير من جهة إلى أن الحكومة ودبعة، وإلى المنهج والطريقة للحكومة الإلهية الشرعية والصحيحة من جهة أخرى.

٣- شرعية الحكومات تستمد من الله فقط

فى الإسلام والرؤية التوحيدية تُنصب الحكومة من الأعلى وليس من الأسفل، أى من قبل الله عز وجل لا من قبل الناس، ويضمن الجانب الاجتماعى لها بأمره أيضاً.

توضيح ذلك: إن إحدى الفوارق الواضحة بين الرؤية التوحيدية وبين الرؤية المشوبة بالشرك فى قضية الحكومة هى أن الموحد يعتقد أن الحكومة فى جميع أبعادها (التشريعية

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٨٦

والتنفيذية والقضائية) نشأت من الله ومن ثم انتقلت إلى الأنبياء وأوصيائهم ثم الصالحين والعلماء فى الامم.

لابد أن يشعر هؤلاء الحكام بالمسؤولية أمام الله عز وجل، ويراعوا رضاه قبل كل شىء، وأن يكونوا خداماً مخلصين وامناء لعباده.

إن مثل هذه الحكومة وبوحى من الرسالة الإلهية يمكنها قيادة البشر، لا- أن تكون تابعة لأهواء هذا أو ذاك ولرغباتهم المنحرفة والمشوبة بالمعاصى.

ومن الممكن أن يقال: إن الحكومة الإسلامية إذن ليس لها بعد شعبى بل هى أكثر ما تكون نوعاً من دكتاتورية الصالحين، ولكن هذا

خطأ كبير لأن مبدأ الشورى الذى تقرّر فى الشرائع التوحيدية كقضيته الأساسية فى الحكومة وأكد عليها النصّ القرآنى ويشهد له فعل نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وهو صاحب مقام (العقل الكلّ) يدلّ على أن الله هو (مالك الملك) و (أحكم الحاكمين) وهو الذى أمر بالمشورة مع الناس فى أمر الحكومة وإشراكهم فى هذا الشأن.

من هنا تكون الحكومة التوحيدية والإسلامية حكومة (شعبية دينية) ويعنى ذلك الإهتمام بآراء الناس بأمر إلهى وذلك فى إطار مبادئ العقيدة والأحكام الإلهية طبعاً، وسيأتى تفصيل هذا الكلام بشكل كامل فى مباحث الحكومة فى الإسلام بإذن الله.

النتيجة هى أن الناس - مثلاً - عندما يتوجهون إلى صناديق الاقتراع فى الحكومة الإسلامية لانتخاب رئيس الجمهورية أو نواب المجلس فإنهم يلاحظون هذه النقطة وهى أنهم امناء الله تعالى، فالواجب هو أن يضعوا هذه الوديعه الإلهية التى تسمى بالحكومة فى يد من تجسد به القيم الإلهية، وإلا فإنهم يخونون الأمانة.

قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ». (النساء / ٥٨)

وقد ورد فى الروايات الإسلامية، إن إحدى المصاديق المهمة للأمانة هى الحكومة، وقد تأكد هذا الأمر فى تفسير الدر المنثور حيث قال: «حقّ على الإمام أن يحكم بما أنزل الله وأن يؤدى الأمانة» (١).

(١) تفسير در المنثور، ج ٢، ص ١٧٥.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٨٧

وعليه فإنهم لا- يفكرون أبداً بأى نائب أو رئيس للحكومة يقوم برعاية مصالحهم الشخصية أو الفئوية أو من هو الذى تربطهم معه الصداقه أو القرابه؟ من الذى يستأنسون به أم لا يستأنسون؟ بل ينبغى أن يراعوا الله عزّ وجلّ ورضاه والقيم الإنسانية والدينية السامية فى كلّ موقف.

أمّا فى الحكومات الديمقراطية والشعبية فى العالم المادى فيمكن أن تنظر هذه الامور فى آراء المقترعين من قبيل الميول الشخصية والفئوية، الصراعات السياسية، المصالح المادية اللامشروعة والعلاقات الخاصة وأمثالها.

لاحظ الفارق من أين وإلى أين؟

٤- الإيمان بتوحيد المالكية وتأثيراته التربوية

مما ذكر يتضح جانب من تأثير الإيمان بهذا النوع من التوحيد وهو مدى تأثير الاعتقاد بحاكمية الله فى جميع الأبعاد، وأن الحكومة وديعه إلهية عند الناس، فعند التعيين سواء كان فى المسؤوليات الكبيرة فى الحكومة أو الصغيرة ينبغى أن يراعى فيه مبدأ الأمانة والوديعه الإلهية وعدم التضحية بالضوابط فداءً للعلاقات وعدم التضحية بمصالح المجتمع من أجل المصالح الشخصية.

وأما من جهة الحكام فإنا نعلم بأن المشكلة الهامة فى العالم هى مشكلة الحكام المستبدّين الذين أضرموا النيران طيلة التاريخ فى مناطق واسعة من العالم، أو فى العالم بأسره وجلبوا المصائب والشقاء الكبير للبشرية.

فى هذا العصر قام (هتلر) بقتل عشرات الملايين، و (ستالين) مسؤول عن مقتل ٣٠ مليون إنسان! حسب الإحصاءات المرّوعة التى نشرت من قبل شعبه، ولا تزال أوضاع العالم بهذا النحو وان كانت بصور اخرى.

فى حين لو كان الإنسان ذا رؤية توحيدية لآمن بأن الحكومة المطلقة مختصة بالله تعالى

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٨٨

وقد فوّضت إليه بإذنه عزّ وجلّ وإعانة عباده وأنه خليفة الله فى الأرض وعليه يجب أن لا يكون إنساناً مستبدّاً مغروراً وظالماً أبداً، وعندما يصل إلى الحكومة يقول كما قال على عليه السلام: «... وما أخذ الله على العلماء ألا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم

لألقيت حبلها على غاربها ولسقيت آخرها بكأس أولها، ولألفيتم دنياكم هذه أزهده عندي من عطفة عنز» (١).
أجل إنه يرى الحكومة في كل الأحوال وديعة إلهية وهو أمينها ومسؤول أمام صاحبها الأول، وهذه الرؤية يمكن لها أن تقلب صورة الحكومة في العالم بشرط أن تنفذ إلى أعماق الروح وتتلون الروح الإنسانية بلونها.
ولا- يصدق هذا الأمر على المتصدين في الحكومة فحسب، بل يصدق على جميع العاملين في الحكومة والامراء والقادة والمدراء والقضاء.

المعلوم من مجموع ما مر من أبحاث هو أن الحكومة في الإسلام ليس لها شكل استبدادي وليست من الطراز الديمقراطي الغربي، بل هي نوع من الحكومة الشعبية التي تعمل في إطار العقيدة ولها لون إلهي في أساسها، عن هذا الطريق تكتسب لونا شعبيا وتنشأ كل امتيازاتها من هنا.

وهناك كلام طويل حول (الحكومة في القرآن) وموضوع البحث هنا هو (التوحيد في الحاكمية) و (نشوء الحكومة من الله) ولذا نوكل الباقي إلى البحث العام حول الحكومة بإذن الله.

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٣.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٨٩

هـ) توحيد الطاعة

تمهيد:

الكلام الأخير في باب أقسام التوحيد هو أن الإنسان الموحّد يعتقد بأنّ الله وحده واجب الطاعة ولذا يضع طوق العبودية في رقبته ويفتخر بقوله: إني عبد ويستعدّ للتضحية بنفسه ويعلن عن استعداده لتنفيذ أوامر الله تعالى ويقوم بطاعة الأنبياء والمرسلين وأوصيائهم المعصومين ومبعوثيهم بوصفها فرعا لعبادة الله عزّ وجلّ ويحترم أوامرهم. إنه يفكر بأمر واحد فقط هو رضا المحبوب الحقيقي وامتثال أوامر المولى الحقيقي، إنه لا يشتري (رضا الناس) ب (سخط الله) ولا (إطاعة المخلوق) ب (معصية الخالق)، لأنه يرى ذلك شعبة من الشرك.

إنّ هذا الفرع من التوحيد وهو (توحيد الطاعة) ينشأ في الواقع من التوحيد في الحاكمية الذي مرّ في البحث السابق.

وبهذا التمهيد نراجع القرآن الكريم لتأمل بخشوع في الآيات التالية:

١- «وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ». (المائدة/ ٩٢)

٢- «قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِن اللَّهَ لَأُحِبُّ الْكَافِرِينَ».

(آل عمران / ٣٢)

٣- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ». (النساء / ٥٩)

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٩٠

٤- «فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا». (التغابن / ١٦)

٥- «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ».

(الشعراء / ١٠٨، ١٢٦، ١٤٤، ١٦٣، ١٧٩) (آل عمران / ٥٠) (الزخرف / ٦٣)

٦- «اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ». (الأعراف / ٣)

٧- «وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا». (الأحزاب / ٣٦)

٨- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ». (الحجرات / ١)

٩- «اتَّخِذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهَيْبَاتِهِمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمِمَّا أُمِرُوا إِلَّا لِيُعْبَدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لِّمَالِهِ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ». (التوبة / ٣١)

١٠- «أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ». «١»

(يس / ٦٠ - ٦١)

شرح المفردات:

(إطاعة) تعنى فى الأصل الإنقياد والتسليم (وقد صرح بذلك الكثير من اللغويين) ومن ثم أُطلق على أتباع الأمر. وقد فرّق البعض بين (الإطاعة) و (المطوعة) ففسّر الإطاعة بمعنى الإنقياد وتنفيذ الأمر، والمطوعة بمعنى الموافقة والإنسجام، ولذا يقول الخليل ابن أحمد فى كتاب (العين): تستعمل (الإطاعة) فى مورد الرعية بالنسبة للقائد، وفى مورد المرأة بالنسبة لزوجها تستعمل (طواعية) أو (مطوعة).

(١) هنالك آيات قرآنية كثيرة أخرى تتفق مع الآيات أعلاه مضموناً منها: الأنفال، ٢٠، ٤٦؛ النور، ٥٤؛ محمد، ٣٣؛ المجادلة، ١٣؛ النساء، ١٦؛ الأنعام، ١٥؛ يونس، ١٥؛ الزمر، ١٣. نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٩١

جمع الآيات وتفسيرها

إلها نطيع أمرك وحدك:

إن آية البحث الأولى وإن جاءت بعد تحريم الخمر والقمار والأنصاب والأزلام إلّا أنّ محتواها لا يخفى كونه حكماً عاماً حيث تقول: «وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَآخِذُوا»، وتضيف لدى تأكيدها على هذا الأمر: «فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَيَّ رَسُولُنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ» «١». ومن الواضح أنّ طاعة الرسول رشحة من رشحات طاعة الله تعالى وطاعته طاعة الله، لأنه لا يبين سوى كلام الله وأمره، ولعلّ تكرار جملة (أطيعوا) إشارة إلى هذا المعنى، أى أنّ الطاعة الأولى لها جانب ذاتى وأصلى والثانية لها جانب عرضى وفرعى. والآية الثانية تعكس هذا المضمون من خلال توجيه خطاب للنبي صلى الله عليه وآله: «قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَأُحِبُّ الْكَافِرِينَ» ذيل الآية يشهد جيداً بأنّ التمرد يستوجب الكفر، التمرد الحادث عناداً وعداءً لأمر الله تعالى والنبي صلى الله عليه وآله، أو تتوسع فى معنى الكفر حتى يشمل كلّ معصية.

على أية حال فإنّ الآية تؤكد على وجوب طاعة الله ونبيه أى أتباع الكتاب والسنة. النبي صلى الله عليه وآله فى هذه الآية وإن كان معطوفاً على الله تعالى بدون واسطة ولكن بملاحظة الآية السابقة التى تقول: «قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي»، يتضح أنّ طاعة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله هى فرع لطاعة الله تعالى.

(١) جزء الشرط في الآية محذوف يقدر ب (قامت الحجة عليكم) أو (استحققت العقاب) أو (لم تضروا بتوليكم الرسول) (تفاسير مجمع البيان؛ الكبير؛ روح المعاني والمراغي في ذيل آية مورد البحث).

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٩٢

وهذه الآية تدل بوضوح على أن علامة الحب الحقيقي لله ورسوله هي طاعتهما واتباعهما وإلا كان حبا كاذبا أو ضعيفا جدا. الآية الثالثة تضيف طاعة اولي الأمر إلى طاعة الله ورسوله وتأمر: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ».

وهذا التعبير يدل بوضوح على أن الطاعة مختصة في الله ثم رسوله واولي الأمر، ولحل أي نزاع لابد من الاستعانة بهم، وبدون ذلك فإن قواعد الإيمان بالمبدأ والمعاد ستترزع في قلب الإنسان وروحه.

الآية الرابعة تتحدث عن طاعة الله فقط حيث تقول: «فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتِطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا»، فهي تأمر بالتقوى أولاً وتجنب المعاصي لأن (التحلية) والتطهير يتقدمان على (التخلي)، ثم تأمرنا ثانياً بالاستماع لأمر الله استماعاً يكون مقدماً للطاعة، وتأمر أخيراً بإطاعة أمره دون قيد أو شرط، وهذه الطاعة المطلقة مختصة في الله عز وجل، وما يظنه البعض من أن عبارة: «فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتِطَعْتُمْ» نسخت الآية «اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ» (آل عمران/ ١٠٢) خطأ كبير لأن الآيتين تتحدثان عن حقيقة واحدة، لأن حق التقوى ليس سوى أن يكون الإنسان متقياً قدر ما يستطيع.

الآية الخامسة التي جاءت على لسان الكثير من الأنبياء عليهم السلام تأمر أولاً بالتقوى ثم طاعة الأنبياء وتقول: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا» وقد نقلت هذه العبارة نفسها عن لسان نوح وهود وصالح ولوط وشعيب والسيد المسيح عليهم السلام في القرآن الكريم (مرة واحدة على لسان نوح (الشعراء/ ١٠٨) ومزتين على لسان هود (الشعراء/ ١٢٦ و ١٣١) ومزتين على لسان صالح

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٩٣

(الشعراء/ ١٤٤، ١٥٥) ومرة على لسان لوط (الشعراء/ ١٦٣) وشعيب (الشعراء/ ١٧٩) ومزتين على لسان المسيح (آل عمران/ ٥٠) والزرخرف/ ٦٣) ومن المسلم به هنا هو أن الطاعة ترتبط بالدرجة الأولى بمبدأ التوحيد وترك الوثنية ثم سائر التعاليم الدينية، ومثل هذه الطاعة هي طاعة لأمر الله لأنهم لم يتحدثوا إلا عنه تعالى.

في الآية السادسة حديث عن متابعة الأحكام الإلهية، وهي تعبير آخر عن الطاعة إضافة إلى تصريح الآية بعدم اتباع غيره، وهذا النفي والإثبات يوضحان (توحيد الطاعة) وتقول:

«اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَمَّا تَنَبَّأُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ»، هذه الآية تبطل طاعة الغير أيأ كان وفي أيه حال إلا أن ترجع طاعته إلى طاعة أمر الله عز وجل.

وهذه الآية وأمثالها تشهد جيداً أن أحكام البشر وآراءهم مهما كانت فهي ليست أهلاً للإتباع (لامتلائها بالأخطاء إضافة إلى عدم وجود دليل على وجوب طاعة الآخرين).

الآية السابعة وبعد التصريح بعدم امتلاك أي رجل مؤمن أو امرأة مؤمنة أي خيار أمام أمر الله ورسوله تقول: «وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا».

إن الآية تبيّن في أولها وآخرها توحيد الطاعة وتعتبره علامة الإيمان ومعارضته تكون (ضلالاً مبيناً) وأي ضلال هو أوضح من أن يترك الإنسان أمر الله العالم الحكيم والرحمن والرحيم ويتوجه لطاعة الآخرين!؟

الآية الثامنة تخاطب المؤمنين، وقد ذكرت شؤون مختلفة في نزولها وكلها تشهد على أن بعض الأشخاص يتقدمون أحياناً على الله ورسوله بالإقتراحات ويقولون: لو أصدر

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٩٤

الأمر الفلاني لكان أفضل، فنزلت الآية تنذرهم بقولها: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ». ومن المسلم به أن الله لا مكان له حتى يقول: لا تتقدموا عليه، بل أن ذلك كناية عن عدم التقدم عليه في أى عمل أو كلام «١».

على أية حال فإن الآية لا تعتبر طاعة الأمر الإلهي واجباً فحسب، بل تقول: كونوا بانتظار أوامره في كل عمل، وبعد إصدار الأمر لا ينبغي عليكم التقدم عليه أو التريث في امتثاله فالمسرعون والمبطلون مخطئون. وقد جاء في تفسير المراغي القول عن بعض علماء الأدب العربي: إن مفهوم التعبير (لا تقدم بين يدي الإمام) هو: لا تعجل عليه في أداء الأعمال.

عبادة القادة والعلماء:

الآية التاسعة تدم اليهود والنصارى لكونهم جعلوا من علمائهم ورهبانهم آلهة من دون الله الواحد: «اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ» «٢».

وقد جعلوا من المسيح بن مريم معبوداً لهم أيضاً: «وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ» في حين: «وَمَا

(١) المراد من «تقدموا» هنا هل هو بمعنى لا تتقدموا أم لا؟ وقع كلام بين المفسرين (الأول من باب التفعيل والثاني من باب التفعّل) ولكن جملة (بين يدي الله ورسوله) في الحالة الأولى يكون معناها عدم التقدم على الله ورسوله، وفي الحالة الثانية يكون مفهومها هو لا تقدموا شيئاً على الله ورسوله وأوامرهما والمعنى الأول هو الأنسب.

(٢) «احبار» جمع «حبر» أو «حبر» ويعنى في الأصل الأثر الجميل ثم اطلق على العالم والمفكر بسبب الآثار الجميلة التي تبقى منهما بين الناس وهذه الكلمة تستعمل في الغالب في علماء اليهود وقد تطلق أحياناً على غيرهم كما لقبوا ابن عباس ب (حبر الائمة). «رهبان» جمع «راهب» وقال البعض: إن هذه الكلمة لها معنى المفرد والجمع وتعنى في الأصل الشخص الذي يتصف بخوف الله ويظهر ذلك على أعماله، وتطلق عادةً على مجموعة (التاركين للدنيا) من النصارى وهي مجموعة هجرت الحياة والإكتساب والعمل بل والزواج أيضاً واشتغلوا بالعبادة في الدير (مفردات الراغب، العين، نهاية ابن الأثير، وتفاسير الميزان، الكبير، روح المعاني؛ وروح البيان؛ والمراغي).

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٩٥

امْرُؤًا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لِمَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ»، ومن المسلم به أن اليهود والنصارى لم يعتقدوا بالوهية علمائهم ورهبانهم ولم يعبدوهم كما نعبد الله تعالى أبداً، فلماذا إذن استعمل القرآن الكريم كلمة (رب) و (إله) فيهم؟! وردت الإجابة عن ذلك في رواية عن الإمام الباقر عليه السلام والإمام الصادق عليه السلام: «أما والله ما صاموا لهم ولا صلّوا ولكنهم أحلّوا لهم حراماً وحرموا عليهم حلالاً فاتبعوهم وعبدوهم من حيث لا يشعرون» «١».

وقد ورد هذا الحديث بطرق متعددة أخرى في المصادر الشيعية والسنية ومنها ما نقرأه في كتب عديدة: «عن عدى بن حاتم قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وآله وفي عنقي صليب من ذهب فقال: يا عدى: اطرح عنك هذا الوثن وسمعته يقرأ آية: اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ. فقلت له: يا رسول الله لم يكونوا يعبدونهم فقال: أليس يحرمون ما أحلّ الله تعالى فيحرمونه ويحلّون ما حرم الله فيستحلّونه؟ فقلت: بلى، قال: ذلك عبادتهم» «٢».

وبهذا يتضح أن اتباع وإطاعة أشخاص يأمرهم على خلاف حكم الله يكون لوناً من الشرك.

الآية العاشرة والأخيرة تخاطب جميع البشر: «أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ» «وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ».

ومن المسلم به أنه لا أحد يعبد الشيطان بمعنى الركوع والسجود والصلاة والصيام، فما هي العبادة التي نُهي عنها؟ هل هي شيء غير الطاعة؟ أجل، إنهم حينما يستسلمون لما يريد الشيطان ويقدمون أمره على أمر الله فإنهم مشركون وعباد الشيطان، والشرك هنا

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ٢٣؛ وتفسير البرهان، ج ٢، ص ١٢٠ و ١٢١.

(٢) تفسير روح المعاني، ج ١٠، ص ٧٥ وورد هذا المعنى في تفسيرات متعددة أخرى منها تفسير در المنتور بفارق طفيف.

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٩٦

بمعنى طاعة الأمر لا الركوع والسجود.

أين أخذ الله تعالى هذا العهد من بني آدم؟ فسره البعض بأنه (عالم الذر) وفسره بعض أنه وصايا الأنبياء لأقوامهم، ولكن الظاهر أن الآية تشير إلى الوصايا التي تشبه العهد الذي كان لله تعالى عند هبوط آدم مع أولاده إلى الأرض، وقد قامت هذه الآية بتبيان ذلك: «يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ». (الاعراف / ٢٧)

وهكذا في خطابها لآدم وزوجته بقولها «إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ». (الاعراف / ٢٢)

والآية ١١٧ من سورة طه تخاطب آدم عليه السلام: «فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ».

ومن المسلم به أن مثل هذا العدو يكون عدواً لأبنائه أيضاً، لأن مخالفته لم تكن مع آدم فقط بل مع جميع نسله، ولذا أقسم من البداية: «قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لِنِئْنِ أَخْرَجْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا». (الاسراء / ٦٢)

وقوله الله تعالى: «قَالَ فِعْزَتِكَ لِأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ».

(ص / ٨٢-٨٣)

توضيحان

١- الله تعالى هو المطاع المطلق

من مجموع الآيات السابقة يستفاد جيداً أن الله تعالى وحده هو (واجب الطاعة) في النظرية الإسلامية وفي المنظار القرآني وهكذا الذين تُعتبر طاعتهم طاعة لله تعالى، وكل طاعة وتسليم أمام الأحكام والأوامر المخالفة لأمر الله يُعدّ لوناً من الشرك والوثنية في المنظار القرآني.

وعليه فإن لزوم طاعة النبي والأئمة: والوالدين هو بأمر الله كما يقول القرآن: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ». (النساء / ٦٤)

كما يمكن إثبات هذه المسألة بالدليل العقلي، لأن المطاع المطلق هو من يكون عالماً

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٩٧

بكل شيء وحكيماً وخبيراً ومنزهاً عن كل خطأ ورحيماً وقد اجتمعت هذه الصفات في ذات الله المقدسة فقط.

وإرادة الحكام والأصدقاء والأبناء والأرحام والامنيات القلبية إن لم تتناسق مع إرادة الله فإن طاعتها تكون شركاً.

يقول الإنسان الموحّد: لو انحرفت عن طاعة الله قيد أنملة فإني قد أشركت لأنني جعلت له نداً في طاعته.

٢- توحيد الطاعة في الروايات الإسلامية

٢- توحيد الطاعة في الروايات الإسلامية

إنَّ الأحاديث المختلفة التي وردت في مصادرنا الإسلامية أكّدت على هذه المسألة أيضاً وهي أنَّ أحد شعب الشرك هو الشرك في الطاعة ومن هذه الروايات:

- (أ) ورد في الحديث النبوي: «لا طاعة في معصية الله إنما الطاعة في المعروف» (١).
- (ب) ونقرأ في نهج البلاغة عن أمير المؤمنين عليه السلام: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» (٢).
- (ج) وحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «من أطاع رجلاً في معصية فقد عبده» (٣).
- (د) في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام وهكذا عن الإمام الجواد عليه السلام: «من أصغى إلى ناطق فقد عبده، فإن كان الناطق يؤدّي عن الله فقد عبد الله، وإن كان الناطق يؤدّي عن الشيطان فقد عبد الشيطان» (٤).
- (هـ) ونختم هذا الكلام بحديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام: «لا دين لمن دان بطاعة المخلوق في معصية الخالق» (٥).

- (١) صحيح مسلم، ج ٣، ص ١٤٦٩.
- (٢) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ١٦٥.
- (٣) وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ٩١، ح ٨.
- (٤) وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ٩١، ح ٩، وتحف العقول، ص ٣٣٩ (باختلاف يسير).
- (٥) بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٣٩٣، ح ٦ (وهذا المضمون ورد أيضاً عن الإمام الباقر عليه السلام في أصول الكافي، ج ٢، ص ٢٧٣، ح ٤).

نفحات القرآن، ج ٣، ص: ٢٩٨

تتضح من هذه الروايات الصريحة والقاطعة النظرية الإسلامية في مسألة الشرك وتمييز الموازين الإسلامية في توحيد الطاعة. إلهنا: إنَّ سلوك طريق التوحيد معقد ومشكل، فاهدنا أنت في هذا الطريق الملتوي. إلهنا: إنَّ جهات مختلفة تدعوننا لطاعتها من كلِّ جهة، فالهوى من الداخل، وشياطين الجنِّ والإنس من الخارج، ونحن نرغب في طاعة أمرك وحدك، فكن لنا عوناً وناصراً في هذا الطريق.

الجزء الرابع

إشارة

الاهداء:

إلى الذين يعشقون القرآن.

إلى الذين يريدون أن يشربوا من عين الحياة الصافية أكثر.

وإلى الذين يريدون أن يعرفوا القرآن ويفهموه أكثر.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٤

بمساعدة العلماء الافاضل وحجج الإسلام السادة:

محمد رضا الآشتياني.

محمد جعفر الامامي.

عبد الرسول الحسنى .
 محمد الأسدى .
 حسين الطوسى .
 سيد شمس الدين الروحانى .
 محمد محمدي الاشتهاردى .
 نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٥

معرفة صفات جمال وجلال الله سبحانه

إشارة

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٧

تمهيد:

هناك ثلاث مسائل تعترضنا لدى البحث عن معرفة الله سبحانه وتعالى وهى: «البحث عن ذات الله» و «إدراك وجود الله» و «معرفة الله».

ف (البحث عن ذات الله) يشير إلى دوافع معرفة الله .
 و (ادراك وجود الله) يشير إلى مسألة إثبات وجود الله .
 و (معرفة الله) يعنى البحث عن صفاته عز وجل .
 وكمثال بسيط فإنه يمكن تشبيه البشر بالعطاشى الذين يبحثون عن الماء فى الصحراء، فبعد أن يعثروا على عين الماء فإنهم يحاولون التعرف على صفات ذلك الماء الصافى .

«البحث عن ذات الله»: أمر فطرى تدعمه وتقويه الدلائل العقلية، فكما أن العطاشى ينطلقون للبحث عن الماء بدافع غريزى وآخر عقلى نابع من استدلالهم على توقف حياتهم على شرب الماء، فكذلك الإنسان يبحث عن الكمال المطلق المتمثل بذات البارى سبحانه وتعالى، وذلك لأنه «أى الإنسان» مجبول على عشق الكمال .

وكذلك بالنسبة إلى «إدراك وجود الله»، فإنه بسبب دلائله الواضحة، وبالأخص الدلائل النابعة من التفكير بأسرار الخلق، فليس بالأمر العسير أو المعقد .

أما العسير والمعقد فهو «معرفة الله»، لأن نفس مخلوقات الطبيعة التى تعد أفضل دليل ومرشد للإنسان فى مسير إدراك وجود الله، يمكنها أن تخدعه فى سلوكه إلى (معرفة الله)، وتجّره إلى هاوية القياس والتشبيه الخطرة (كما سيأتى شرح ذلك فيما بعد).

ينبغى الإشارة إلى هذه النقطة أيضاً، وهى: أن صفات الله هى عين ذاته غير متناهية وأسماءه التى توضح صفاته لا تعد ولا تحصى أيضاً، لأن كل اسم من أسمائه عز وجل يدل

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٨

على أحد كمالات ذاته المقدسة، فذاته غير محدودة وكمالاته غير محدودة كذلك، ومن البديهى أن الصفات الكمالية والأسماء التى تحكى عنها لا حصر لها أيضاً، لكن مع ذلك فإنّ قسماً من هذه الأسماء والصفات تعدّ أصولاً، وما سواها فهو فرع من تلك الاصول .
 فمثلاً كون الله سبحانه وتعالى «سميعاً» و «بصيراً»، فهذا يعد فرعاً من علمه عز وجل، لأنّ المقصود هو اطلاعه على المسموعات

والمشهودات لا امتلاكه للعين والاذن. وكذلك كونه تعالى «أرحم الراحمين» و«أشد المعاقبين»، فهذه متفرعة من حكمته، وذلك لأن الحكمة هي التي تقتضى أن يرسل رحمته في مكانٍ ونقمة في مكانٍ آخر.

طريق مملوء بالورود والأشواك:

إن من السهل معرفة الله وإدراك وجوده عز وجل - وخاصة عن طريق التفكير بعالم الوجود-، ولكن بقدر ما تكون معرفته تعالى سهلاً، فإن فهم وإدراك صفاته صعب للغاية، وذلك لأننا نمتلك في مرحلة إدراك وجود الله أدلة بعدد نجوم السماء وأوراق الأشجار وأنواع النباتات والحيوانات، بل بعدد خلايا كل نبات وحيوان، وبعده ذرات الكون، وكلها تدل على أصل وجوده عز وجل. وبما أن سلوك الطريق الصحيح المتمثل بتزيهه عز وجل عن صفات مخلوقاته وترك تشبيهه تعالى بمخلوقاته هو الشرط الأول في معرفة صفاته، فإن الأمر يصبح معقداً.

والدليل على ذلك واضح أيضاً، فقد ترعرعنا في أحضان الطبيعة وتطبنا بطباعها، وكل ما رأيناه وسمعناه ينحصر في إطار الحوادث الطبيعية، وهذه الطبيعة بذاتها أعانتنا على معرفة الله أيضاً.

ولكننا عندما نصل إلى بحث صفاته تعالى فإننا لا نجد حتى صفة واحدة من صفاته يمكن قياسها ومقارنتها بما رأيناه وسمعناه، وذلك لأن صفات المخلوقين ينقصها الكمال دائماً، وصفاته عز وجل منزّهة عن أى نقص وهي عين الكمال.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٩

وعليه فإن نفس هذه الطبيعة التي تعتبر أفضل معين ومرشد لنا في طريق معرفة وإدراك وجوده تعالى فإنها تصبح أحياناً عائقاً لنا في طريق معرفة صفاته.

لذلك يجب علينا رعاية جوانب الاحتياط عند سلوك طريق معرفة صفات الله قدر الإمكان كي نكون في مأمن من الوقوع في محذور التشبيه والقياس.

إن ما ذكرناه يمثل لمحة خاطفة، ولننطلق الآن إلى مطالعة الآيات النازلة في هذا المجال:

١- «وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ».

(الاعراف / ١٨٠)

٢- «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ». (الشورى ١١)

٣- «فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَإِنَّكُمْ لَاتَعْلَمُونَ». (النحل / ٧٤)

٤- «وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ». (الاحلاص / ٤)

٥- «سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ». (الصافات / ١٥٩)

٦- «مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ». (الحج / ٧٤)

٧- «يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا». (طه / ١١٠)

شرح المفردات:

«مَثَلٌ»: فى الأصل من مادة (المثول)، وهو بمعنى الوقوف باعتدال، ويُطلق على الصور التى تلتقط أو ترسم من شىء معين اسمه (التمثال)، أى وكأنه بنفسه واقفٌ هناك، ويُطلق على أى شىء مشابه لشيءٍ آخر (مثال)، وأمّا الحديث الذى يشابه حديثاً آخر ويوضّحه فيُطلق عليه كلمة (مَثَل).

وقال جماعة: إن الفرق بين (المماثل) و (المساوي) هو أن الأول يُطلق على الشئيين المتشابهين في الجنس، أمّا الثاني فيُطلق على الشئيين المتشابهين في الكمية والحجم، لكنهما قد يكونان متشابهين وقد يكونان مختلفين في الجنس.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٠

وقد وردت كلمة (مُتَلِّ) بمعنى (الصفة)، وقد تُطلق أحياناً على الصفات الجذابة والقصص العجيبة أيضاً، لذا فإن كلمة (مُتَلِّ) تأتي بمعنى (نموذج).

و «المُتَلِّه»: تعني قطع بعض أعضاء بدن شخص لتعذيبه ومعاقبته، وبالواقع إن من يرتكب هذا العمل (التمثيل بالغير)، يقصد إفهام الآخرين وتحذيرهم من ملاقاته نفس هذه العقوبة في حال ارتكابهم (مُتَلِّ) ما ارتكب هذا الشخص، لذا فقد وردت كلمة (مُتَلِّات) بمعنى (العقوبات)، العقوبات التي تصير عبراً للآخرين لكي لا يرتكبوا (مُتَلِّ) أعمال الماضين «١».

«كُفُو»: تعني الشباهة في المنزلة والمقام، و (المكافاة) أيضاً مأخوذة من نفس هذا المعنى لأنها بمعنى المساواة والمقابلة بالمثل، (إكفاء) تأتي بمعنى قلب الإناء رأساً على عقب، أي وكأنّ الظاهر والباطن يتشابهان.

وقد ورد في مقاييس اللغة بأن لهذه الكلمة معنيين، فأحياناً تأتي بمعنى (المساواة) بين شئيين، وأحياناً أخرى بمعنى (التمائل والإنحراف)، في حين نجد أن الراغب أرجعها إلى معنى واحد، وهو ما ذكرناه أعلاه.

«الصفة»: من مادة (وصف)، وهي في الأصل بمعنى ذكر محاسن ومحسنات شيء معين، ويُطلق على هذه الحالة كلمة (وصف).

وهي ذات معنى أوسع فتُطلق على كل ألوان التوصيف الصالح والظالم.

يقول (ابن منظور) في (لسان العرب): (التوصيف) بمعنى (التزيين)، و (الصفة) تعني (الزينة).

وقد ورد نفس هذا المعنى في (مقاييس اللغة) أيضاً، لكنه وكما ذكرنا أعلاه فقد استعملت بمعنى أوسع فيما بعد.

وقد يُطلق أحياناً على (الخدّام) و (الخدّامة) لفظ (الوصيف) و (الوصيفة)، وسبب ذلك هو أن الغلام أو الأميّة عندما كانا يُباعان ويُشتريان تُذكر صفاتهما ومزاياهما للزبائن.

(١) مفردات الراغب؛ مقاييس اللغة؛ لسان العرب؛ ومجمع البحرين.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١١

جمع الآيات وتفسيرها

ليس كمثله شيء:

تُشير الآية الأولى إلى حالة المشركين الذين كانوا يُحرّفون أسماء الله التي كانت تبيّن صفاته، وتحذّرهم من هذا العمل: «وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ أَسْمَاءٌ تَعَكِّسُ صِفَاتِهِ كَمَا هِيَ:

«فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُّوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ».

«الإلحاد»: و (لَحِد) على وزن (مَهْد)، بمعنى الانحراف عن حد الاعتدال (الحد الوسط) إلى أحد الجانبين، وسمّي (اللحد) الذي يحفر في القبر بهذا الاسم لأنه يُحفر في أحد جانبي القبر لتوضع الجنازة فيه حتى لا يصلها التراب الذي يُهال على القبر «١».

وأما معنى «الإلحاد في أسماء الله تعالى في هذه الآية، فالكثير من المفسرين يرون بأنه ذو مفهوم عام يشمل ثلاثة أمور:

الأول: هو أن المشركين كانوا يشتقون أسماء أصنامهم من أسماء الله كاللات والعزى ومناة التي كانوا يعتقدون بأنها مشتقة من كلمة الله، والعزى، والمنان على الترتيب.

الثاني: هو أنه ينبغي أن لا يُدعى الله بالأسماء التي لا يرضيها لذاته ولا تليق به عز وجل أو مشوبة بالنقائص والعيوب الخاصية بالممكنات (المخلوقات) مثل كلمة أب التي أطلقها المسيحيون على الله تعالى الثالث: أن لا يُسمى الله بالأسماء المبهمة.

وبتعبير آخر فإنه لا يجوز تشبيه الله بما سواه ولا تعطيل فهم صفاته ولا تسميته من سواه بأسمائه عز وجل. كل ذلك يُشير بصورة واضحة إلى وجوب ملازمة جانب الاحتياط التام في بحث صفات الله والحذر من تسميته ووصف ذاته المقدسة بأسماء وصفات هي من شأن الموجودات الناقصة. لذا فقد اعتقد الكثير من العلماء بأن أسماء الله توقيفية، أي لا يمكن وصفه وتسميته إلا

(١) مقاييس اللغة؛ ومفردات الراغب.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٢

بالصفات والأسماء الواردة في الآيات والروايات المعتمدة فقط. (وسياتى شرح هذا الكلام في قسم التوضيحات إن شاء الله تعالى . أما الآية الثانية فقد نفت ولاية وربوبية وألوهية من سواه، وأكدت خالقيته للسموات والأرض. قال تعالى «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ».

ونظراً لكون كاف التشبيه في كلمة «كمثله» هي بذاتها تعنى المثل فإنها جاءت مع «مثله» للتأكيد (وقد عبر عنها البعض بالحرف الزائد وهو يستعمل للتأكيد أيضاً).

على هذا يكون معنى الآية هو: ليس كمثل شئ وما نعرفه وما لا نعرفه، فهو تعالى ليس له نظير من أي جهة، وذلك لأنه وجود مستقل بذاته ولا نهاية له وغير محدود من جميع الجهات، لا في علمه، ولا في قدرته، ولا في حياته، ولا في إرادته و.... وأما ما سواه من الموجودات فهي تابعة ومحدودة ومتناهية وناقصة. لذا لا يوجد وجه شبه بين وجوده الذي يمثل الكمال المطلق وبين النقصان المطلق (أي الموجودات الإمكانية)، فهو الغنى المطلق، ومن سواه فقير ومحتاج في كل شئ.

وما نقله بعض المفسرين من أن نفى التشبيه الوارد في الآية أعلاه يختص بنفى التشبيه في الذات، أي ليس كذاته المقدسة شئ، ولا يشمل الصفات، من حيث وجود بعض صفاته كالعلم والقدرة و... في الإنسان أيضاً فهو خطأ كبير، فإنه سيأتي في بحث العلم والقدرة وغيرهما بأن مثل هذه الصفات ليس بينها وبين علمنا وقدرتنا أي لون من الشبه، فإن الله تعالى موجود، ونحن موجودون أيضاً، لكن الفرق شاسع جداً بين الوجودين؟! وهكذا صفاته وصفات مخلوقاته.

وعلى أية حال فهذا أصل أساسي في بحث معرفة الله ومعرفة صفاته، وهو أن ننزهه تعالى عن المثل والشبيه ونعده أكبر من القياس والظن والوهم، وأن نلتفت إلى أن الأوصاف

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٣

التي نصفه بها يجب أن تكون خالية من كل عيب ونقص وعارض مادي وجسماني وإمكانى.

جَلَّ الْمُهِمِّنُ أَنْ تُدْرَى حَقِيقَتُهُ مَنْ لَالَهُ الْمِثْلُ لَا تُضْرِبُ لَهُ مَثَلًا وَالْآيَةُ الثَّلَاثَةُ تُشِيرُ إِلَى نَفْسٍ مَحْتَوَى الْآيَةُ الثَّانِيَةَ بِشَكْلِ آخَرَ، فَبَعْدَ أَنْ سَفِهَتِ الْآيَةُ آلِهَةَ الْوَثْنِيِّينَ الَّتِي لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَهَبَ لِلْبَشَرِ أَى رِزْقٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَالَتْ: «فَلَا تُضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَانْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ».

وبديهى فإن الوجود إذا كان واحداً متفرداً من جميع الجهات فإنه ليس له شبيه أو كفو لى يكون له مثلاً.

ولقد جاء في بعض التفاسير بأن هذه الآية تشير إلى قول مشركى الجاهلية وحتى بعض مشركى عصرنا الحاضر فى أن الله أكبر من أن نعبدُه نحن، لذا فنحن يجب أن نعبد موجودات من سنخنا وفى متناول أيدينا، فهو بالضبط كالملك الكبير العظيم الذى لا يستطيع عامة

الناس الوصول إليه، لذا تراهم يقصدون وزراهه وخواصه ومقربيه الذين يُمكن الوصول إليهم. القرآن الكريم يقول: لا تضربوا لله مثلاً من قبيل هذه الأمثال، فهو أعزُّ وأجلُّ من أن يشبه بالملك الضعيف، فهو موجودٌ في كل مكان، في قلوبكم وأقرب إليكم من أنفسكم، علاوةً على ذلك فهو لا- شبيه له ولا- مثيل لكى يعكس وجوده فتعبده، فالأصنام وجميع المخلوقات الاخرى مثلكم مخلوقه وتابعه ومحتاجه إلى وجوده عز وجل.

ويُمكن أن تكون جملة: «إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَإَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» إشارةً وتنبيهاً إلى أنكم لا تعلمون كنه ذاته وصفاته، وضرب الأمثلة له ينبع من جهلكم هذا، فالله تعالى يحذركم من ترديد هذا الكلام.

ومن هنا يتضح أن ما ورد في قوله تعالى: «اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» (النور/ ٣٥)

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٤

أو في قوله تعالى: «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ». (ق/ ١٦)

لا يتنافى أبداً مع عدم وجود مثل له سبحانه، وذلك لأن المراد هو نفى وجود مثل أو مثال حقيقى له، فهذه جميعاً أمثلة مجازية أنتقت لتقريب تلك الحقيقة، التى لا مثيل لها، فى الأذهان.

لذا فقد قال تعالى فى ذيل نفس هذه الآية: «وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ».

(النور/ ٣٥)

ليدرکوا الحقائق طبعاً.

وفى الآية الرابعة من بحثنا وهى الآية الأخيرة من سورة التوحيد، نفى سبحانه وجود أى شبيه أو مثيل أو نظير أو كفو له حيث قال: «وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ».

نفى الله تعالى عن ذاته أنواع الكثرة بقوله: (أحد)، ونفى النقص والمغلوبيه بلفظ (الصمد)، ونفى المعلوليه والعليه ب «لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ»، ونفى الأضداد والأنداد بقوله: «وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ».

وبهذا فقد نفى سبحانه عن ذاته المقدسه جميع صفات المخلوقات وعوارض الموجودات المختلفه وأى لونٍ من المحدوديه والنقص والتغير والتحول، التى هى من عوارض الممكنات.

ولقد جاء فى تفسير الفخر الرازى بأن الآية الأولى من سورة التوحيد نفى بها الله تعالى عن ذاته أنواع الكثرة بقوله: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ»، ونفت كلمه (صمد) النقص والمغلوبيه، و: «لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ» المعلوليه والعليه: «وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ» الأضداد والأمثال عن ذاته المقدسه، وذلك لأن الكفو بمعنى النظير ويُمكن أن تشمل كلا المعنيين (المثل والضد) «١».

ويقول أيضاً: بأن الآية التى هى محل بحثنا تبطل مذهب المشركين حيث يزعمون بأن

(١) تفسير الكبير، ج ٣٢، ص ١٨٥.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٥

الأصنام أكفاء له وشركاء، فى الوقت الذى نفت الآيات التى سبقتها مذهب اليهود والنصارى الذين جعلوا له ولداً، ومذهب المجوس الذين كانوا يعتقدون بالهين (إله النور وإله الظلام) «١».

وفى الآية الخامسة نواجه تعبيراً جديداً فى هذا المجال، حيث قال تعالى: «سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ».

وبالرغم من أن هذه الجملة قد وردت بتفاوتٍ مختصر فى ست آياتٍ من القرآن الكريم «٢» تنفى الولد والصاحبه لله تعالى أو تنفى الكفو والنضير من الأصنام- بقرينه الآيات التى سبقتها، لكنها فى الواقع تحتوى على معنى عميق يشمل كل ألوان التوصيف، لأن التوصيف الذى يصدر من عادة يكون شبيهاً لما فى المخلوقات والممكنات، وآخر ما يمكن أن نصفه به سبحانه هو أن نقول: (الله أكبر

من أن يوصف) وأعلى من الخيال والقياس والظن والوهم، وأعظم ممّا رأينا وسمعنا وقرأنا وكتبنا، أجل إنّه منزّه عن الوصف. ولو جئنا إلى الآية السادسة من بحثنا نلاحظ تعبيراً جديداً في هذا المجال أيضاً حيث يقول: «مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ» أي المشركون لأنّهم قد قاسوه بمخلوقاته وجعلوا له شريكاً وكفوّاً في حين أنّه ليس له كفوّاً أحد. ومن سواه ضعيفٌ ومغلوب، ونقل بعض المفسرين بأنّ هذه الآية نزلت بخصوص جماعة من اليهود الذين كانوا يقولون بأنّ الله عندما فرغ من خلق السموات والأرضين تعب! واستلقى على ظهره واستراح! ووضع إحدى رجليه على الأخرى. فنزلت هذه الآية فوبختهم وخطأتهم لأنّهم لم يقدرُوا الله عزّ وجلّ حق قدره وشبّهوه بمخلوقاته. ومع أنّ الآية المذكورة تنفي كلام المشركين (عبدة الأوثان) إلّا أنّها ذات مفهوم عميق

(١) تفسير الكبير، ج ٣٢، ص ١٨٥.

(٢) تفسير الكبير، ج ٣٢، ص ١٨٥.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٦

وواضح، لذا فإنّ الإمام الصادق عليه السلام قال: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُوصَفُ وَكَيْفَ يُوصَفُ وَقَدْ قَالَ فِي كِتَابِهِ: «إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ» فَلَا يُوصَفُ بِقَدْرِ إِلَّا كَانَ أَعْظَمَ مِنْ ذَلِكَ» (١)

وكذلك فقد ورد في الخطبة ٩١ من نهج البلاغة:

«كَذَبَ الْعَادِلُونَ بِكَ، إِذْ شَبَّهُوكَ بِأَصْنَانِهِمْ، وَنَحَلُّوكَ حِلْيَةَ الْمَخْلُوقِينَ بِأَوْهَامِهِمْ وَجَزَأُوكَ تَجْزِئَةَ الْمُجَسَّمَاتِ بِخَوَاطِرِهِمْ وَقَدَّرُوكَ عَلَى الْخِلْقَةِ الْمُخْتَلِفَةِ الْقَوِيَّ بِقَرَائِحِ عُقُولِهِمْ» (٢).

وفي الآية السابعة والأخيرة من بحثنا، نلاحظ أنّه تعالى قال ضمن إشارته إلى حال المجرمين والمدننين يوم القيامة ومثولهم في محكمة العدل الإلهية الكبيرة: «يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا».

لقد ذكرت في تفسير هذه الآية عدا ما ذكرناه أعلاه احتمالات أخرى من جملتها هي أنّها تعني بأنّ الله عليم بأعمالهم وجزائهم، لكنهم ليس لهم علم واطلاع كامل لا على أعمالهم ولا على جزائهم وما أكثر ما تناسوه منها، لكن التفسير الأول أقرب - حسب نظرنا. وعليه فإنّ هذه الآية تقول: بأنّ البشر عاجزون عن الاحاطة العلمية بكنه ذاته المقدسة أو بكنه صفاته، وذلك لأنّه أعلى وأعظم من ظنوننا وعقولنا، فكيف يمكن أن تحيط به الخلائق، في حين أنّ هذه الاحاطة تستلزم محدوديته تعالى وهو منزّه عن كل أنواعها!؟

نتيجة البحث:

يتبين ممّا ورد في الآيات أعلاه بأنّ صفات المخلوقين ليست لها أدنى شبه بصفات ربّ

(١) اصول الكافي، ج ١ (باب النهي عن الصفة بغير ما وصف به نفسه)، ح ٨١- لاحظوا أنّ الآية أعلاه قد وردت في ثلاث مواضع من

القرآن الكريم هي: الأنعام، ٩١؛ الحج، ٧٤؛ الزمر، ٦٧، وفي موردين منها بحرف واو.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ٩١ (خطبة الأشباح).

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٧

العالمين، وإنّ أي لون من قياسه بمن سواه يؤدّي إلى الضياع والضلال والسقوط في هاوية التشبيه.

فهو ليس كمثلته شيء.

وليس له كفوٌّ أو نظير.

ولا يسعه وصف.

ولا يستطيع أحد أن يُحيط به علماً.

وعليه يجب رعاية الاحتياط التام عند سلوك طريق معرفة صفاته.

أجل فإنَّ كنهه وحقيقته صفاته لا- تتجلى لأحد، وما يُمكن أن يحصل عليه البشر هو العلم الإجمالي بها بشرط نفى المحدوديات الموجودة في صفات المخلوقين عنه، وصياغته مفهوم جديد في قالب هذه الألفاظ.

ونختم الكلام بحديثٍ منقولٍ عن أمير المؤمنين على عليه السلام ورد في تفسير الآية الأخيرة:

سأل رجلُ أمير المؤمنين عليه السلام عن تفسير هذه الآية فأجابه عليه السلام: «لا- يُحيطُ الخلائقُ بالله عزَّ وجلَّ علماً إذ هو تَبَارَكَ وَتَعَالَى جَعَلَ عَلَى أَبْصَارِ الْقُلُوبِ الْغِطَاءَ، فَلَا- فَهَمُ يَنَالُهُ بِالْكَيفِ، وَلَا قَلْبٌ يَثْبُتُهُ بِالْخُدُودِ، فَلَا تَصِفُهُ إِلَّا كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ...» (١).

توضيحات

١- لا تشبيه ولا تعطيل

لقد سلكت كل جماعةٍ طريقاً خاصاً في البحث حول صفات الله الذي يُعَدُّ من أعقد وأصعب مباحث معرفة الله فوقوعوا في ورطة الافراط والتفريط.

فالبعض قد غاصوا في دوامة التعطيل إلى درجة أنهم قالوا: إننا لا نفهم شيئاً من صفات الله تعالى سوى تلك المفاهيم السلبية، فمثلاً عندما نقول بأنَّ الله عالمٌ فإننا نفهم من ذلك نفى

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٣٩٤.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٨

الجهل عنه، وعندما نقول بأنه قادر فإننا نفهم منه نزاهته عن العجز، أما ماهيته علم الله وقدرته فإننا لا نفهم عنها شيئاً على الإطلاق، وهذه العقيدة تُدعى بعقيدة التعطيل (أى تعطيل معرفة الصفات).

ومن جهةٍ أخرى فقد غار آخرون في دوامة التشبيه لدرجة بحيث لم يكتفوا فقط بوصف الله تعالى بصفات الماهيات الممكنة فقط، بل جسّموه وذكروا له يداً ورجلاً ووجهاً وما شاكل ذلك، فقد أوجدوا في مخيلتهم إلهاً كالإنسان بالضبط بجميع صفاته الظاهرية والباطنية، إلهاً يمكن رؤيته ومشاهدته، وله مكان محدود وتعرضه حالات مختلفة! وبهذا فقد تورطوا بأعس أنواع الشرك.

ومن أجل أن نعلم إلى أيّة درجة سقطت هذه الجماعة في هاوية الكفر والشرك، يكفي أن نسمع المقالة المعروفة للمحقق الدوّاني بخصوص المشبهه، حيث قال:

«اعتقد جماعة منهم بأنَّ لله جسماً حقاً، وهؤلاء بذاتهم ينقسمون إلى عدّة فئات، فنه تقول: إنَّ جسمه مركّب من لحم ودم، وقالت فئه: بأنّه- تعالى نور لامع كسيكّة الفضه البيضاء! وطول قامته سبعة أشبار من أشباره!».

وقالت جماعة أخرى: بأنّه يشبه الإنسان، وهم ينقسمون إلى عدّة فئات، فنه اعتقدت بأنّه فتى في ريعان شبابه لم ينبت الشعر في وجهه بعد، وشعر رأسه مجعّد قصير: والفئه الأخرى اعتقدت بأنّه رجلٌ كهلٌ ذو لحيه بيضاء سوداء وغيرها من قبيل هذه الخرافات» (١).

ومما يُفهم من الآيات القرآنية، فإنَّ كلا المعتقدين- التعطيل والتشبيه- باطلان، لأنَّ القرآن دعا الناس إلى معرفة الله من جهه، وعزّف

ذاته وصفاته المقدسة في العديد من الآيات الشريفة مما يدل على إمكانية معرفة الله الإجمالية وبتلان معتقد التعطيل. ومن جهة أخرى فقد نزه القرآن الذات المقدسة من أى شبيه ومثل ونظير وكفاء، مما يدل على بتلان معتقد التشبيه. وعليه فالحق هو ذلك الطريق الدقيق الواقع بين هذين الأثنين. والذي يقول: بأن معرفة

(١) بحار الانوار، ج ٣، ص ٢٨٩.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٩

الله الإجمالية ليست ممكنة فقط بل لازمة أيضاً، أمّا معرفة الله التفصيلية، أى التوصل إلى حقيقة وكنه الصفات والذات الإلهية المقدسة، والاحاطة العلمية بها، فهي غير ممكنة.

٢- لم لا يصل العقل إلى كنه ذاته وصفاته؟

لقد أشرنا سابقاً إلى دليل هذا الموضوع، ونذكره هنا بشى من التفصيل فنقول: إنَّ النقطة الأساسية تكمن في نزاهة الذات الإلهية المقدسة عن المحدودية من جهة، ومحدودية عقولنا وعلومنا من جهة أخرى فالله عز وجل وجوداً لا نهاية له من جميع الجهات (كما أثبتنا ذلك في البحوث السابقة)، فذاته كصفاته غير محدودة وغير متناهية، ومن جهة أخرى فنحن محدودون، وجميع ما يتعلق بنا من علمنا وقدرتنا وحياتنا والمكان والزمان الذى نعيش فيه، محدود أيضاً. وعلى هذا فكيف يمكننا مع هذه المحدودية أن نحيط بذلك الوجود اللامحدود وصفاته؟ وكيف يستطيع علمنا المحدود أن يخبر عن ذلك الوجود اللامحدود؟

أجل، إنه بإمكاننا في عالم الفكر والتفكير أن نلمح شبحاً من بعيد، ونشير إجمالاً إلى ذاته وصفاته، أما الوصول إلى كنه ذاته وصفاته، أى الاحاطة التفصيلية به، فهي غير ممكنة بالنسبة لنا- هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى فإنَّ الوجود اللامتناهى ليس له مثل أو نظير من كل ناحية، وفرد لا كفو له، فلو كان له كفو أو نظير لكان كلاهما محدودين (ورد تفسير هذا المعنى بصورة كاملة في أبحاث التوحيد فى المجلد الثالث من هذا التفسير). فكيف يمكننا أن ندرك وجوداً لا- نعرف له كفوً ولا نظيراً أبداً؟، وكل ما نراه من الممكنات هو غيره، وصفاته تتفاوت تماماً عن صفات واجب الوجود «١».

(١) إن لم يكن عجباً فإننا لانستطيع أن نتصور حتى مفهوم (اللامتناهى) فإن قيل لنا كيف تستعملون كلمة (اللامتناهى) إذن؟ وتحدثون عنها وعن أحكامها؟ فهل يمكن التصديق بدون التصور؟!

فى الاجابة عن ذلك نقول: إننا أخذنا هذا المصطلح من كلمتين هما (لا) أى النفي والعدم و (متناهى) أى بمعنى (المحدود)، أى أن نتصور هاتين الكلمتين منفصلتين عن بعضهما (لا ومتناهى) اولاً ثم تركيبهما مع بعضهما لنشير بهما إلى موجود لايسعه الخيال والتصور فنحصل منها على معنى إجمالى (تأمل جيداً).

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٠

نحن لا نقول بأننا نجهل أصل وجوده- سبحانه- ولا نعرف شيئاً عن علمه وقدرته وإرادته وحياته، بل نقول بأن لدينا معرفة إجمالية عن جميع هذه الامور ولا يمكننا أن ندرك كنهها وعمقها بتاتاً، وقد حارت عقول جميع عقلاء وحكماء العالم- دون استثناء- فى هذا الطريق.

٣- النهى عن التشبيه فى الروايات الإسلامية

بما أن منزلق التشبيه الخطر يواجه جميع السائرين فى طريق معرفة الله، فإننا نجد تحذيرات كثيرة وردت فى الروايات الإسلامية فى هذا المجال مع العلم أن كنوزاً وفيرة من العلم والحكمة والإرشادات الدقيقة وردت فى الأحاديث الشريفة المروية عن أهل البيت عليهم السلام بهذا الصدد، وكنموذج منها نقل عدة روايات من الكافى:

١- قال أمير المؤمنين فى خطبة الأشباح:

«وَأَشْهَدُ أَنَّ مِنْ سَاوَاكِ بِشَىءٍ مِنْ خَلْقِكَ فَقَدْ عَدِلَ بِكَ، وَالْعَادِلُ بِكَ كَافِرٌ بِمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ مُحْكَمَاتُ آيَاتِكَ، وَنَطَقَتْ عَنْهُ شَوَاهِدُ حُجَجِ بَيِّنَاتِكَ، وَإِنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ الَّذِي لَمْ تَتَنَاهَ فِي الْعُقُولِ فَتَكُونُ فِي مَهَبِّ فِكْرِهَا مُكَيِّفًا، وَلَا فِي رَوَايَاتِ خَوَاطِرِهَا فَتَكُونُ مَحْدُودًا مُصَرِّفًا» (١).

٢- ورد فى الحديث الشريف عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام فى هذا المجال توضيح جميل فى جوابه لأحد المحدثين باسم (أبو قرّة) عند سؤاله عن التوحيد، حيث قال أبو قرّة للإمام: إنا روينا أن الله عز وجل قسم الرؤية والكلام بين اثنين فقسم لموسى عليه السلام الكلام ولمحمد صلى الله عليه وآله الرؤية، فقال أبو الحسن عليه السلام: «فمن المبلغ عن الله عز وجل إلى الثقلين الجن والأنس لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ» «وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا» «وَلَيْسَ

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٩١.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢١

كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» أليس محمداً صلى الله عليه وآله؟ قال: بلى قال: فكيف يجى رجل إلى الخلق جميعاً فيخبرهم أنه جاء من عند الله وأنه يدعوهم إلى الله بأمر الله ويقول: «لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ» «وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا» «وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» ثم يقول: أنا رأيته بعينى، وأحطت به علماً وهو على صورة البشر، أما تستحيون، ما قدرت الزنادقة أن ترميه بهذا أن يكون ياتى عن الله بشىء، ثم ياتى بخلافه من وجه آخر!

قال أبو قرّة: فأنه يقول: «وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزَلَةً أُخْرَى» فقال أبو الحسن عليه السلام: «إِنَّ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ مَا يَدُلُّ عَلَى مَا رَأَى حَيْثُ قَالَ: «مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى يَقُولُ مَا كَذَبَ فُؤَادُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مَا رَأَتْ عَيْنَاهُ، ثُمَّ أَخْبَرَ بِمَا رَأَى فَقَالَ: لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى فَأَيَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ غَيْرِ اللَّهِ: وَقَدْ قَالَ: «وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا»، فَإِذَا رَأَتْهُ الْأَبْصَارُ فَقَدْ أَحَاطَتْ بِهِ الْعِلْمُ وَوَقَعَتِ الْمَعْرِفَةُ»، فقال أبو قرّة: فتكذب بالروايات؟ فقال أبو الحسن عليه السلام: «إِذَا كَانَتْ الرِّوَايَاتُ مُخَالَفَةً لِلْقُرْآنِ كَذَّبْتُ بِهَا وَمَا أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ أَنَّهُ لَا يَحَاطُ بِهِ عِلْمٌ وَلَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ، وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» (١)

٣- وفى هذا المحتوى ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ عَظِيمٌ رَفِيعٌ لَا يُقَدَّرُ الْعِبَادُ عَلَى صِفَتِهِ وَلَا يُبْلَغُونَ كُنْهَ عَظَمَتِهِ، لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ» (٢).

٤- هل إن أسماء الله توقيفية؟

أشرنا سابقاً إلى أن أسماء الله سبحانه وتعالى تحكى عن صفاته، وكما أن صفات الله لا متناهية فإن أسماءه غير متناهية أيضاً، إلا أنه يُسْتَنْجَجُ من روايات كثيرة بأنه لا يحق لاحد أن يُسمى ربه ويصفه بشىء إلا ما ورد فى الكتاب والسنة (الأحاديث المعتمدة)، وسبب ذلك

(١) التوحيد للصدوق، ص ١١٠ عن اصول الكافي.

(٢) اصول الكافي، ج ١، ص ١٠٣.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٢

هو ما ذكرناه في بحوثنا السابقة، وهو أنّ الكثير من الأسماء والأوصاف ممزوجة بمفاهيم تحكى عن نقائص المخلوقات ومحدوديتهم، واطلاق هذه الأسماء على الله يبعدها عن معرفته ويُلقي بنا في هاوية الشرك.

لذا فقد اشتهر بين العلماء بأنّ (أسماء الله توقيفية) أى لا يجوز اطلاق اسم عليه دون إجازة شرعية، لذا فهم لا يجوزون دعوته بأسماء من قبيل، «العاقل»، «الفقيه»، «الطيب»، «السخي»، وذلك لأنّها لم ترد في الآيات والروايات المعتمدة (١).

يقول المفسّر المرحوم العلامة الطبرسي حول تفسير ذيل الآية ١٨٠ من سورة الأعراف: «تدل هذه الآية على أنّه لا يجوز لنا أن ندعو الله سوى بالأسماء التي انتخبها لنفسه فقط» (٢).

ولذلك أيضاً قال العلامة المجلسي قدس سره: «لا يُسمّى الله بالسخي بل يُسمّى بالجواد، وذلك لأنّ السخاوة في الأساس بمعنى الليونة، وهذه الكلمة (السخاء) تُطلق على الأسخياء من حيث أنّهم يلينون ازاء عرض الحوائج عليهم (والليونة والخشونة لا معنى لهما بخصوص الله، بل هي من صفات المخلوقات» (٣).

أمّا المرحوم العلامة الطباطبائي في تفسير (الميزان) فإنّه لا يرى دليلاً في القرآن وفن التفسير على كون أسماء الله توقيفية، والآية ١٨٠ من سورة الأعراف: «وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ...» لا تدلّ على هذا المعنى ولكنه قدس سره لم يُبد رأياً فقهيّاً في هذا المجال وأرجعه إلى الفقه، فأضاف قائلاً:

«الاحتياط يقتضى بالاختصار على الأسماء التي وردت في الكتاب والسنة في مجال تسمية الله سبحانه ولكن إذا كان القصد مجرد توصيف وإطلاق لفظي دون تسمية فلا بأس» (٤).

أمّا المرحوم الكليني في المجلد الأول من أصول الكافي، فقد نقل روايات عديدة في

(١) تفسير الكبير، ج ١٥، ص ٧٠، لكن بعضاً من هذه الصفات قد ورد في بعض الأدعية، وممنوعيتها غير ثابتة.

(٢) مجمع البيان، ج ٤، ص ٥٠٣.

(٣) بحار الأنوار، ج ٤، ص ٢٠٦.

(٤) تفسير الميزان، ج ٨، ص ٣٧٥ ذيل الآية ١٨٠ من سورة الأعراف.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٣

باب «النهى عن الصفة بغير ما وصف به نفسه تعالى يُسْتَنْج منها بأنّ أسماء الله توقيفية.

من جملتها ماورد عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام قال: «إِنَّ اللَّهَ أَعْلَىٰ وَأَجَلُّ وَأَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُبْلَغَ كُنْهُ صِفَتِهِ، فَصِفُوهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَكُفُّوا عَمَّا سِوَىٰ ذَلِكَ» (١).

وورد في حديث آخر عن الإمام أبي الحسن عليه السلام في جوابه للمفضل عندما سأله عن بعض صفات الله قال عليه السلام: «لا تجاوز ما في القرآن» (٢).

وكذلك في الحديث الذي كتبه الإمام الصادق عليه السلام لبعض اصحابه «فاعلم رحمك الله - أنّ المذهب الصحيح في التوحيد ما نزل به القرآن من صفات الله عزّ وجلّ فانف عن الله تعالى البطلان والتشبيه، فلا نفى ولا تشبيه، هو الله الثابت الموجود تعالى الله عمّا يصفه الواصفون ولا تعدوا القرآن فتضلوا بعد البيان» (٣).

يُستنتج من هذه الروايات وأمثالها بأن تسمية الله بغير ماورد في الكتاب والسنة فيه اشكال، واستعمال أصل البراءة لإثبات جواز تسمية الله بأسماء أخرى لا يخلو من الإشكال أيضاً، فالأحوط عدم استعمال أوصاف وأسماء أخرى غير الأوصاف والأسماء الثابتة في الشريعة المقدسة.

ويُستدل أحياناً ببعض الآيات القرآنية أيضاً وثبات كون أسماء الله توقيفيه، كما ورد في قصة نوح عليه السلام عندما خاطب سبحانه وتعالى المشركين حيث قال: «أَتُجَادِلُونِي فِي أَسْمَاءِ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ». (الأعراف / ٧١) وكذلك قال في سورة يوسف في قصة نوح عليه السلام: «مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ». (يوسف / ٤٠)

ولكن دلالة هذه الآيات على المقصود لا تخلو من ضعف، لأن المراد منها نفى الشرك وعبادة الأصنام وتسمية الأصنام بالآلهة، فهي لا تدل على أن أسماء الله توقيفيه ولا يجوز

(١) اصول الكافي، ج ١، ص ١٢، ح ٦.

(٢) المصدر السابق، ح ٧.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٥٠، ح ٦.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٤

تعديها.

وقد استدلو أيضاً بأن التسمية فرع من المعرفة، والمعرفة فرع من الإدراك. وبما أننا لا ندرك كنه ذاته وصفاته المقدسة، فإن الطريق الوحيد لتسمية ذاته المقدسة هو الله سبحانه، وخلفاؤه.

ونختم هذا البحث بمجموعه من الآيات الشعرية التي وردت على شكل أرجوزة في كتاب معارف الأئمة في هذا المجال حيث تقول: وَالْوَقْفُ مَشْهُورٌ لَدَى الْأَصْحَابِ وَالْعَقْلُ يَسْتَحْسِنُهُ فِي الْبَابِ فَإِنَّمَا التَّوْصِيْفُ فَرْعُ الْمَعْرِفَةِ وَالْحَقُّ فِي الْعِرْفَانِ مَا قَدَّ وَصَفَهُ وَدُونَهُ لَا يَصْدُقُ التَّنْزِيَهُ بَلْ جُرْتُهُ لَا يُؤْمِنُ التَّشْبِيَهُ وَيَلْزَمُ الْقَوْلُ بِغَيْرِ الْعِلْمِ مَعْفَقٌ لِمَطَانٍ عَلَيْهِ عِلْمِي «١»

(١) معرفة الأئمة، ص ٧٤٣.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٥

أسماء الله الحسنى والاسم الأعظم

إشارة

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٧

تمهيد:

يلاحظ في الآيات القرآنية والروايات الإسلامية تعبير تحت عنوان «الأسماء الحسنى»، وهذا العنوان جاء في القرآن بشكل مجمل لكنه ورد في الروايات بشكل مفصل، وهذه الأسماء تدل بأجمعها على صفاته، ونظراً لكون جميع أسمائه وصفاته حسنى فإن انتخاب هذا

العنوان يدل على امتياز هذه الأسماء.

ولكن من أين تتبع هذه الخصوصية؟ هذا ما سنوضحه بعد تفسير الآيات والروايات التي وردت في هذا المجال، فلنتوجه الآن إلى

القرآن ونتأمل خاشعين في الآيات القرآنية الكريمة:

١- «وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ».

(الاعراف / ١٨٠)

٢- «قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ .

(الاسراء / ١١٠)

٣- «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ . (طه / ٨)

٤- «هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ . (الحشر / ٢٤)

جمع الآيات وتفسيرها

أسماء الله الخاصة:

لقد تقدم تفسير الآية الأولى في البحث السابق، وخلاصته أنها حذرت الناس من تحريف أسماء الله حيث تقول: «وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ».

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٨

وأشارت الآية الثانية أيضاً إلى تعلق المشركين الذين كانوا يشكلون على رسول الله في تسميته لله تعالى بأسماء متعددة وخاصة اسم الرحمن الذي كان غير مألوف عند العرب المشركين آنذاك، مع أنه كان يدعوهم للتوحيد فالآية تقول: «قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ .

وصفت الآية الثالثة الباري بالخالقية والمالكية وتدير عالم الوجود والعلم والاطلاع على الظاهر والباطن، حيث قالت: «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ .

أجل فهو سبحانه بامتلاكه هذه الأسماء والصفات الحسنى التي لا نظير لها يليق لمقام الألوهية والربوبية ولا أحد يليق لهذا المقام سواه. وأخيراً فقد وصفت الآية الرابعة والأخيرة- من بحثنا- رب العالمين بأوصاف متعددة، بعد أن وصفته الآيات التي سبقتها بأكثر من عشرة أوصاف، فقال: «هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ . وبعد ذلك وصفته بأوصاف مهمة أخرى بلغ مجموعها ثمان عشرة صفة.

ونستنتج من مجموع هذه الآيات أن الأسماء الحسنى كناية عن صفات الجمال والجلال الخاصة به سبحانه، والذي يعبر كل واحد منها عن كمال متميز أو تنفى عنه سبحانه نقصاً معيناً، وهي ليست تسمية بسيطة وعادية، وقد انعكست هذه الأسماء والصفات في مختلف الآيات القرآنية وصارت محل اعتماد.

ولنتطرق الآن لبحث هذا الموضوع ونرى ما هي الأسماء الحسنى هل هي محدودة عددياً؟ وإن كانت كذلك فكم عددها؟

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٩

توضيحات

١- ماهى حقيقة الأسماء الحسنى

وكما أشرنا سابقاً إلى أن جميع أسماء الله حسنى لذا فإن هذا التعبير يشمل جميع الأسماء الإلهية، وكما ورد في سبب نزول الآية الثانية من بحثنا هذا (الآية ١١٠ من سورة الإسراء)، فقد نُقِلَ بأنها نزلت عندما سمع المشركون رسول الله يقول: يا الله يارحمن! فقالوا باستهزاء: إنه ينهانا عن عبادة معبودين لكنه انتخب لنفسه معبوداً آخر... فنزلت هذه الآية في تلك اللحظة ودحضت ظن التعدد هذا، وقالت: بأن هذه أسماء حسنى مختلفة تُشير بأجمعها إلى الذات الإلهية المقدسة الواحدة.

لذا فإن هذه الأسماء بأجمعها تعبيرات مختلفة تحكى عن الكمالات اللامتناهية لتلك الذات المقدسة الواحدة وقد عبّر عنها الشاعر بقوله:

عِبَارَاتُنَا شَتَّى وَحُسْنُكَ وَاحِدٌ وَكُلُّهُ إِلَى ذَاكَ الْجَمَالِ يُشِيرُ وَيُسْتَنْجِجُ مِنَ الْعِبَارَاتِ الَّتِي وَرَدَتْ فِي آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَنَّ جَمِيعَ أَسْمَائِهِ هِيَ مَفْرَدَاتٌ مِنْ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى «وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا»، (الآية الأولى من بحثنا).

والدليل على ذلك واضح أيضاً، لأن أسماء «عز وجل» إما تعبّر عن كمال ذاته (كالعالم والقادر) أو عن نزاهة تلك الذات الأحديّة عن أى لونٍ من النقص (كالقدوس) أو تحكى عن أفعاله التي تعكس فيض الوجود من جهاتٍ مختلفة (كالرحمن والرحيم والخالق والمدبّر والرازق).

وتعبير الآيات أعلاه، الذى يدلّ على الحصر، يُبين بأن الأسماء الحسنى خاصّة به تعالى لأن أسماءه تُعبّر عن كماله، وكما نعلم فإن واجب الوجود هو عين الكمال والكمال المطلق، لذا فالكمال الحقيقى من شأنه وخاص به وكلّ ما سواه ممكن الوجود ومحض الحاجة والفقر.

وهنا يتبادر إلى الذهن السؤال التالى، وهو: أن الروايات الشريفة ذكرت - كما سنشير إليه فى البحث القادم - عدداً معيناً للأسماء الحسنى ممّا يشير إلى أن تعبير الأسماء

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٠

الحسنى لا يشمل جميع الأسماء الإلهية، بل يشمل قسماً منها، فما معنى ذلك؟

فى الإجابة عن هذا السؤال نستطيع القول: إن السبب فى ذكر عدد معين من الأسماء والصفات قد يكون لبيان أهميتها لا انحصارها، مضافاً إلى أن الكثير من الأسماء الإلهية كما سيتضح فى البحوث المقبلة تشبه الأغصان الأصلية الرئيسة، والبقية تتشعب منها، فمثلاً نلاحظ أن (الرازق) فرع من صفة الربّ (أى المالك والمدبّر).

وهكذا حال بقية الأوصاف من قبيل (المحيى والمميت).

وبعيداً جداً أن تكون الأسماء الحسنى ذات مفهوم خاص فى الشرع (أى لها حقيقة شرعية)، بل هى اصطلاح لغوى يشمل جميع الأسماء والأوصاف الإلهية.

وتعبير القرآن الكريم ب: «وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا» هو دعوة - فى الحقيقة - إلى ترك الإلحاد وتحريف هذه الأسماء كتسمية الاصنام بأسماء الله، أو دعوة إلى اجتناب تسمية الله بالأسماء ذات المفاهيم الممزوجة بالنقائص والخاصة بالمخلوقات. أو هو إشارة إلى عدم تنافى تعدد الأسماء الحسنى مع وحدانية ذاته المقدسة أبداً، لأن تعدد الأسماء ناجم عن قصر نظرنا لإدراك ذلك الكمال المطلق، فأحياناً نُنظر من زاوية اطلاعه على كلّ شىء فنسميه (بالعالم) وأحياناً أخرى نُنظر من زاوية قدرته على كلّ شىء فنسميه (بالقادر).

وعلى أية حال فإن جميع القرائن تدل على أن جميع الأسماء الإلهية المقدسة حسنى بالرغم من أن بعضها ذات أهمية خاصة.

ذكرت روايات عديدة منقولة عن مصادر الشيعة وأهل السنة أن عدد الأسماء الحسنی تسع وتسعون اسماً، ومن جملة هذه الروايات رواية مشهورة عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «إن له

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣١

تسعاً وتسعين اسماً .. مائة إلا واحداً - من أحصاها دخل الجنة، إنه وتتر يحب الوتر» (١)

وفى رواية اخرى منقولة فى توحيد الصدوق بنفس هذا المضمون (مع اختلاف طفيف)، عن على عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «وهي الله، الأله، الواحد، الأحد، الصمد، الأول، الآخر، السميع، القدير، القاهر، العلي، الأعلى الباقي، البديع، البارئ، الأكرم، الظاهر، الباطن، الحى، الحكيم، العليم، الحليم، الحفيظ، الحق، الحسيب، الحميد، الحفي، الرب، الرحمن، الرحيم، الدارر، الرزاق، الزقيب، الرؤف، الزانى، السلام، المؤمن، المهيم، العزيز، الجبار، المتكبر، السيد، السبوح، الشهيد، الصادق، الصانع، الطاهر، العدل، العفو، الغفور، العنى، العياث، الفاطر، الفرد، الفتاح، الفالق، القديم، الملك، القدوس، القوى، القريب، القويم، القابض، الباسط، قاضى الحاجات، المجيد، المولى المنان، المحييط، المبين، المقيت، المصور، الكريم، الكبير، الكافي، كاشف الضر، الوتر، النور، الوهاب، الناصر، الواسع، الودود، الهادي، الواقى، الوكيل، الوارث، البر، الباعث، التواب، الجليل، الجواد، الخبير، الخالق، خير الناسرين، الديان، الشكور، العظيم، اللطيف، الشافي» (٢)

والجدير بالذكر هو أن إحصاء وعد الأسماء الحسنی وتلفظها باللسان لايعنى أن يكون سبباً فى دخول الجنة بدون حساب، بل بمعنى معرفة محتوى هذه الأسماء والإيمان بها فلا بد أن يعرف الإنسان الله بهذه الصفات الإلهية، فضلاً عن التخلق بها، أى أن يشع فى وجوده شعاع من علم الله وقدرته ورحمته ورأفته وغيرها من الصفات، لأن التخلق بهذه الصفات الكمالية يلازم الإيمان بها. وفى رواية اخرى فى توحيد الصدوق عن الامام على بن موسى الرضا عليه السلام عن آباءه عن على بن أبى طالب عليه السلام أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لله عز وجل تسع وتسعون اسماً، من

(١) تفسير الدر المنثور (ج ٣، ص ١٤٧) عن صحيح البخارى ومسلم ومسنند أحمد وسنن الترمذى وكتب اخرى.

(٢) توحيد الصدوق، ص ١٩٤، (باب أسماء الله تعالى)، ح ٨، ونلفت الانتباه إلى أن عدد الأسماء المذكورة فى الحديث أعلاه مائة اسم ولكون لفظ الجلالة (الله) جامع لجميع هذه الصفات فإنه لم يحسب وصار عدد الأسماء الحسنی تسعاً وتسعين اسماً، وقد وضع البعض اسم الرائي بدل الرؤوف.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٢

دعا الله بها استجاب له، ومن أحصاها دخل الجنة».

يقول المرحوم الصدوق بعد ذكر هذه الرواية: «المقصود من احصائها هو الاحاطة بها ومعرفة معانيها لا عدّها» (١).

والجدير بالذكر أن بعض الروايات ذكرت الأسماء الحسنی بأكثر من هذا العدد، حتى أن فى بعض الأدعية كدعاء الجوشن الكبير قد بلغت الأسماء المقدسة المذكورة فيها الألف، ولا تنافى بين هذه الروايات، لأنه كما ذكرنا بأن التسع والتسعين المذكورة تشير إلى الأسماء والصفات الأكثر أهمية وخصوصية، وذكر المرحوم الصدوق «ره» فى كتاب «التوحيد» شرحاً مفصلاً حول تفسير هذه الأسماء التسعة والتسعين، نذكرها هنا بصورة مختصرة لتكملة هذا البحث وزيادة المعرفة بحقيقة هذه الأسماء والصفات:

١- ٢- «الله واله»: أى (الجامع لجميع الكمالات)، وهو المستحق للعبادة، والذى لا يستحق العبادة إلا هو.

٣- ٤- «الواحد الأحد»: أنه واحد فى ذاته ليس له أجزاء ولا شبيه ولا نظير ولا مثل.

- ٥- «الصمد»: السيد والمصمود إليه أى المقصود فى الحوائج، الغنى عن كل موجود.
- ٦- ٧- «الأول والآخر»: أنه الأول بغير ابتداء والآخر بغير انتهاء، وبعبارة أخرى الذات الازلية والأبدية.
- ٨- «السميع»: المحيط بجميع المسموعات.
- ٩- «البصير»: المحيط بجميع المبصرات.
- ١٠- «القدير»: القادر على كل شىء.
- ١١- «القاهر»: الذى انقاد له كل شىء وخضع لأوامره.
- ١٢- «العالى»: ذو المنزلة والمقام العالى الرفيع.
- ١٣- «الأعلى»: الغالب المنتصر، أو المتسلط على كل شىء.
- ١٤- «الباقى»: الذات الباقية التى لا تفنى
- ١٥- «البديع»: أى مبدع ومحدث كل شىء فى عالم الوجود من غير مثال واحتذاء.

(١) توحيد الصدوق، ص ١٩٥، ح ٩.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٣

١٦- «البارىء»: بارىء البرايا أى خالق الخلائق.

١٧- «الاکرم»: بمعنى أكرم الكرماء.

١٨- «الظاهر»: وهو الظاهر بذاته وبآياته التى هى شواهد على قدرته وآثار حكمته وبيانات حجته.

١٩- «الباطن»: الذى لا تحيط بكنه ذاته الأفكار والعقول.

٢٠- «الحى»: الفعال المدبر. (ذى العلم والقدرة).

٢١- «الحكيم»: الذى تكون كافة أفعاله صحيحة وثابتة ومنزهة من الفساد.

٢٢- «العليم»: العليم بنفسه، العالم بالسرائر المطلع على الضمائر الذى لا تخفى عليه خافية ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى السماء والأرض.

٢٣- «الحليم»: الممهّل الصبور عن عصاه، الذى لا يعجل عليهم بعقوبته.

٢٤- «الحفيظ»: الذى يحفظ المخلوقات ويصرف عنها البلاء.

٢٥- «الحق»: معناه الصامد الدائم الثابت والمستحکم ذو الحقيقة والواقع.

«فهو الحقيقة المطلقة وما عداه مجازى».

٢٦- «الحسبى»: المحصى لكل شىء العالم به الذى لا يخفى عليه شىء من أفعال عباده، والمحاسب والمكافىء لهم على أعمالهم.

والكافى «والله حسبى وحسبى، أى كافينا».

٢٧- «الحميد»: وهو المحمود المستحق لكل حمد وثناء.

٢٨- «الحفى»: العالم المطلع أو أنه اللطيف بالآخرين والمحسن إليهم.

٢٩- «الرب»: أى المالك والمدبر والمصلح.

٣٠- «الرحمن»: معناه الواسع الرحمة الذى شمل عباده بالرزق والانعام والرحمة.

٣١- «الرحيم»: الذى خصت رحمته المؤمنين وشملتهم.

٣٢- «الذارىء»: الخالق، يُقال: ذرأ الله الخلق وبرأهم أى خلقهم.

٣٣- «الرازق»: الشامل بالرزق كافة العباد، محسنهم ومسيئهم.

- نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٤
- ٣٤- «الرقيب»: أى الحافظ، ورقيب القوم، حارسهم.
- ٣٥- «الرؤوف»: أى الرحيم العطوف، «وقد يرى البعض أن هناك اختلاف بين الرأفة والرحمة، فالرأفة شاملة للمطيعين، والرحمة شاملة للمذنبين».
- ٣٦- «الرائى»: بمعنى المبصر والمطلع العالم.
- ٣٧- «السلام»: مصدر السلامة وينبوع فيض كل سلامة.
- ٣٨- «المؤمن»: المحقق والمصدق وعده، والذى آياته وعلاماته وعجائب تدبيره ولطائف تقديره سبباً لإيمان القلوب والأفئدة بذاته المقدسة، والذى آمن عباده من الظلم والجور، وأجار المؤمنين من العذاب.
- ٣٩- «المهيمن»: الشاهد الناظر أو الأمين والحافظ لكل شىء.
- ٤٠- «الجبار»: أى القاهر الذى لا يُتال، الذى تعجز الافكار عن بلوغ عظمته، والذى يصلح الامور بإرادته النافذة.
- ٤١- «المتكبر»: مأخوذ من الكبرياء، وهو اسم للتكبر والتعظم، فلا شىء أكبر منه، ولا تليق الكبرياء إلابه.
- ٤٢- «السيد»: معناه العظيم الأعظم وهو الملك الواجب الطاعة.
- ٤٣- «السبوح»: معناه المنزه له عن كل عيب ونقص وما لا ينبغي أن يوصف به «١».
- ٤٤- «الشهيد»: أى الشاهد والحاضر فى كل مكان صانعاً ومدبراً.
- ٤٥- «الصادق»: معناه أنه صادق فى وعده لا يبخس ثواب من يفى بعهده.
- ٤٦- «الصانع»: معناه أنه صانع كل مصنوع وخالق كل مخلوق ومبدع كل بديع.
- ٤٧- «الطاهر»: وهو المنزه عن الأشباه والأنداد والأضداد والأمثال والحدود لأن كل ما عداه حادث ومخلوق وعاجز من جميع الجهات.
- ٤٨- «العدل»: القاضى وهو الحاكم بالعدل والحق المطلق.
- ٤٩- «العفو»: مشتق من العفو، والعفو المحو كقوله تعالى «عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ»

(١) لا يخفى أنه ليس فى كلام العرب لفظ على وزن فَعُولٌ إِلَّاسُبُوحٌ وقدوس، ومعناها واحد.

- نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٥
- أى محا الله عنك إذنك لهم، فهو تعالى يمحو ذنوب عباده.
- ٥٠- «الغفور»: أى الغافر والغفار وأصله فى اللغة التغطية والستر.
- ٥١- «الغنى»: الغنى بنفسه غير محتاج لسواه والغنى عن الاستعانة بالآلات والأدوات.
- ٥٢- «الغياث»: معناه المغيث والمنجد، سمي به توسعاً لأنه مصدر.
- ٥٣- «الفاطر»: الخالق، فطر الخلق أى خلقهم وابتدأ صنعة الأشياء وابتدعها فهو فاطرها أى خالقها ومبدعها من العدم.
- ٥٤- «الفرد»: المتفرد بالربوبية والأمر دون خلقه ومعنى ثانٍ: أنه الموجود المطلق لا موجود سواه.
- ٥٥- «الفتاح»: الحاكم ومنه قوله عز وجل فى الآية ٨٩ من سورة الأعراف: «وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ»، الذى يحل عُقد المكاره والمشاكل.
- ٥٦- «الفالق»: مشتق من الفلق وهو الشق، فلق الحب والنوى فخرج النبات من أعماق الأرض، وأخرج الأجنه من بطون الامهات، وفلق الظلام فانبلج عنه الصبح المنير وخرق حُجب العدم بخلقه للموجودات.
- ٥٧- «القديم»: وهو المتقدم للأشياء كلها بلا أول ولا نهاية.
- ٥٨- «المليك»: أى مالك الملك قد مَلَكَ كل شىء، الحاكم على الكون.

- ٥٩- «القدوس»: الطاهر، والتقديس، التطهير والتزويه عن كل عيب أو نقص.
- ٦٠- «القوى»: وهو المقندر بلا معاناه ولا استعانه الذى لا يحتاج إلى معين فى أفعاله.
- ٦١- «القريب»: معناه المجيب فهو أقرب إلينا من كل شىء، يسمع كلامنا ويوجب دعاءنا.
- ٦٢- «القيوم»: أى القائم بذاته الذى يقوم به غيره.
- ٦٣- «القابض»: الذى يتوفى الأنفس يقال للميت: قبضه الله إليه ومنه قوله عز وجل فى الآيات ٤٥ و ٤٦ من سورة الفرقان: «ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا* ثُمَّ قَبْضْنَا إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا»، فالشمس لا تقبض بالبراجم والله تبارك وتعالى قابضها ومطلقها، وهو تعالى الذى يقبض رزق شخص ويوسع رزق آخر حسب ما تقتضيه المصلحة.
- نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٦
- ٦٤- «الباسط»: يقابل القابض فهو المنعم المتفضل الذى غمر الوجود بفيض رحمته، وقد بسط على عباده فضله واحسانه واسبغ عليهم نعمه.
- ٦٥- «قاضى الحاجات»: معناه مشتق من القضاء، ومعنى القضاء من الله عز وجل على ثلاثة أوجه: فوجه منها الحكم والإلزام، والثانى الإخبار والثالث الاتمام كقولك قضى الله حاجتى أى أتم حاجتى على ما سألته، وهنا يعنى قضاء حاجات الخلق.
- ٦٦- «المجيد»: أى الكريم العزيز، وصاحب المجد والعظمة.
- ٦٧- «المولى»: الناصر والمشرف.
- ٦٨- «المنان»: وهو المعطى المنعم، وواهب النعم.
- ٦٩- «المحيط»: المحيط بالأشياء والعالم بها كلها.
- ٧٠- «المبين»: البادية آثار قدرته فى كل مكان، والظاهر حكمه فى عالم «التشريع» و «التكوين».
- ٧١- «المقيت»: أى الحافظ والحارس والحامى.
- ٧٢- «المصوّر»: اسم مشتق من التصوير يصور الصور فى الأرحام كيف يشاء، الذى يهب للخلق صورهم.
- ٧٣- «الكريم»: العزيز ومعنى ثانٍ أنه الجواد المتفضل.
- ٧٤- «الكبير»: معناه السيد العظيم ويقال لسيد القوم كبيرهم والكبرياء اسم التكبر والعظمة.
- ٧٥- «الكافى»: اسم مشتق من الكفاية، الكافى عباده وكل من توكل عليه كفاه ولا يلجئه إلى غيره.
- ٧٦- «كاشف الضر»: المفرج، دافع البلاء والهم والغم يجب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء.
- ٧٧- «الوتر»: معناه الفرد وليس له نظير أو مماثل.
- ٧٨- «التور»: معناه المنير، كقوله تعالى فى الآية ٣٥ من سورة النور: «اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» أى منير لهم وآمرهم وهاديهم.
- نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٧
- ٧٩- «الوهاب»: من الهبة، يهب لعباده ما يشاء ويمن عليهم بما يشاء.
- ٨٠- «الناصر»: النصير، والنصرة حسن المعونة.
- ٨١- «الواسع»: أى الغنى، والسعة الغنى فهو الواسع الغنى عن كل شىء.
- ٨٢- «الودود»: معناه أنه مودود ومحبوب، ويُقال: بل فعول بمعنى فاعل كقولك: غفور بمعنى غافر أى يود عباده الصالحين ويحبهم والود والوداد مصدر المودة.
- ٨٣- «الهادى»: ومعناه، المرشد عباده للحق والعدل، بل الهادى لكل موجود فى عالم الخليقة وكل ذى عقل فى عالم التشريع.
- ٨٤- «الوفى»: معناه الذى يفى بعهده وميثاقه.

- ٨٥- «الوكيل»: المتولى أى القائم بحفظنا ومعنى ثانٍ أنه المعتمد والملجأ.
- ٨٦- «الوارث»: معناه أن كل من ملكه الله شيئاً يموت ويبقى ما كان فى ملكه ولا يملكه إلا الله تبارك وتعالى
- ٨٧- «البر»: الصادق، يقال: برّب يمين فلان إذا صدقت وأبرها الله أى أمضاها على الصدق، كما يعنى المحسن الواهب.
- ٨٨- «الباعث»: أى أنه يبعث من فى القبور ويحييهم يوم القيامة وينشرهم للجزاء ومنهم الأنبياء.
- ٨٩- «التوّاب»: معناه أنه يقبل التوبة ويعفو عن الحوبة إذا تاب منها العبد، يقال: تاب العبد إلى الله عزّ وجلّ فهو تائب إليه وتاب الله عليه أى قبل توبته فهو تواب عليه.
- ٩٠- «الجليل»: السيّد، يقال لسيد القوم جليلهم وعظيمهم وجلّ جلال الله فهو الجليل ذو الجلال والإكرام.
- ٩١- «الجواد»: المحسن المنعم الكثير الإنعام والاحسان.
- ٩٢- «الخبير»: العالم المطّلع، يقال لى به خبر أى علم، فهو المطّلع على بواطن الأمور والأسرار والاعلان.
- ٩٣- «الخالق»: الخلاق، والخلق فى اللغة تقدير الشىء، خلق الخلائق خلقاً؛ وخليقاً: الخلق، والجمع الخلائق.
- نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٨
- ٩٤- «خير الناصرين»: معناه أنه فاعل الخير إذا كثر منه سمى خيراً توسّعاً، فنصرته خالية عن العيب والنقص ولا حد لها.
- ٩٥- «الدّيّان»: وهو الذى يدين العباد ويجزيهم بأعمالهم، والدين الجزاء.
- ٩٦- «الشكور»: معناه أنه يشكر للعبد عمله وهو المحسن إلى عباده المنعم عليهم بأفضل النعم.
- ٩٧- «العظيم»: السيّد ومعنى ثانٍ: أنه يوصف بالعظمة لغلبته على الأشياء وقدرته عليها ومعنى ثالث: أنه عظيم لأن ما سواه كله له ذليل خاضع فهو عظيم السلطان.
- ٩٨- «اللطيف»: أى أنه لطيف بعباده، بارٌّ بهم منعّم عليهم ومعنى آخر أنه لطيف فى تدبيره وفعله.
- ٩٩- «الشافى»: معناه معروف وهو من الشفاء الشافى من الأمراض والآلام والأوجاع «١».
- كان هذا مجموع الأسماء التسعة والتسعين المُعبّر عنها فى الروايات الإسلاميّة بالأسماء الحسنى لكنّه وكما أشرنا سابقاً فإنّ تعبير الروايات حول هذا الموضوع ليس واحداً.
- ونذكر مرّة اخرى بأنّ قسماً من هذه الصفات تعبّر عن كمالات الذات الإلهيّة المقدّسة (صفات الجمال)، وقسماً آخر يتزّه ذاته المقدّسة عن أى نقص أو عيب (صفات الجلال) وقسمٌ كبير منها مشتقّة من أفعاله (صفات الأفعال).
- نضيف إلى ذلك أنّ قسماً من هذه الصفات متقاربة مع بعضها من حيث المعنى على الرغم من التفاوت الظريف والدقيق الموجود بينها فى الغالب.

(١) توحيد الصدوق، ص ١٩٥-٢١٧ (بالإضافة إلى تفاسير اخرى مستفادة من كتب اللغويين والمفسرين).

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٩

٣- أى واحد منها اسم الله الأعظم؟

تناسباً مع بحثنا حول الأسماء الحسنى نتكلم حول الاسم الأعظم أيضاً.

لقد ورد التأكيد فى روايات كثيرة على موضوع «اسم الله الأعظم»، ويستنتج منها أن من دعا الله باسمه الأعظم استجاب له ولبى حاجته، لذا فقد ورد فى ذيل بعض هذه الروايات:

«والذى نفسى بيده لقد سئل الله باسمه الأعظم الذى إذا سُئل به أعطاه وإذا دُعِيَ به أجاب» (١)

. وتعابير اخرى من هذا القبيل، وكذلك فقد ورد فى الروايات بأنَّ (آصف بن برخيا) - وزير سليمان عليه السلام، الذى جاء بعرش بلقيس من اليمن إلى الشام بلمحة بصر، كان يعرف الاسم الأعظم (٢)، وكذلك (بلعم بن باعورا) عالم وزاهد بنى اسرائيل - الذى كان مستجاب الدعوة - كان يعرف الاسم الأعظم أيضاً (٣).

وقد نقل العلّامة المجلسى روايات كثيرة حول الاسم الأعظم وأى الأسماء هو من بين أسماء الله الحسنى لا مجال لذكرها هنا، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «اسم الله الأعظم مقطّع فى أم الكتاب» (٤).

وكذلك ما نقل فى بعض الروايات: عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «بسم الله الرحمن الرحيم أقرب إلى اسم الله الأعظم من سواد العين إلى بياضها» (٥).

وقد ذكرت الروايات وآيات قرآنية أسماء مقدّسة اخرى من أسماء الله، والأسماء الحسنى يفوق بعضها البعض الآخر من حيث المعنى (ولزيادة الاطلاع راجع الجزء الثالث والتسعين من كتاب بحار الأنوار).

لكن محور البحث هنا يكمن فى أن الاسم الأعظم هل هو كلمة، أم جملة، أم آية قرآنية معينة؟ وهل هذه التأثيرات والقدرة كامنة فى الألفاظ والحروف بدون قيد أو شرط؟ أم أن

(١) بحار الأنوار، ج ٩٣، ص ٢٢٥.

(٢) سفينة البحار، ج ١، ص ٢٣؛ وبحار الأنوار، ج ١٤، ص ١١٣.

(٣) بحار الأنوار، ج ١٣، ص ٣٧٧.

(٤) بحار الأنوار، ج ٩٠، ص ٢٢٣.

(٥) بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٣٧١.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٤٠

تأثيرها ينبع من صياغتها اللفظية إضافة إلى حالات وشروط خاصية بالشخص الذى يرفع يديه بالدعاء من حيث التقوى والطهارة، وحضور القلب، والتوجه الخالص لله، وقطع الأمل عمّن سواه، والتوكل الكامل على ذاته المقدّسة؟

أم أن الاسم الأعظم ليس من سنخ اللفظ؟ وما استعمال الألفاظ للإشارة إلى حقيقتها ومحتواها، وبتعبير آخر فإنّ مفاهيم هذه الألفاظ. يجب أن تنفذ إلى روح الإنسان فيتخلق بمعناها حتى يصل إلى مرحلة من الكمال بحيث يصير مستجاب الدعوة بل يمكنه - بالإضافة إلى ذلك - أن يتصرف فى الموجودات التكوينية بإذن الله.

من هذه الاحتمالات الثلاثة، يستبعد جداً أن يكون لهذه الحروف والألفاظ أثر بدون أن يكون لمحتواها ولأوصاف وحالات الشخص دخل فى الموضوع، ومع أنه ورد فى بعض القصص الخرافية التى نقلت شعراً ونثراً فى بعض الكتب من أن عفريت الجن كان يستطيع الاستيلاء على عرش سليمان وأداء أعماله عن طريق معرفته بالاسم الأعظم!! فإنّ مثل هذا التّصوّر عن اسم الله الأعظم بعيد جداً عن روح التعليمات الإسلامية، علاوة على هذا فإنّ نفس قصة (بلعم بن باعورا)، التى أخبرت عن أنه فقد الاسم الأعظم بعد أن انحرف عن التقوى والطريق الصحيح، تدل على أن لهذا الاسم علاقة وثيقة جداً بأوصاف وحالات الداعي، لذا فالاحتمال الصحيح هو أحد التفسيرين الأخيرين أو كلاهما.

يقول العلّامة الطباطبائى رحمه الله فى تفسير الميزان، بعد أن أشار إلى مسألة الاسم الأعظم:

«مع أن أسماء الله عموماً واسمه الأعظم خصوصاً مؤثرة فى عالم الوجود وتعد وسائل وأسباباً لنزول الفيوضات فى هذا العالم، إلّا أنّ تأثيرها منوط بحقائقها لا بنفس ألفاظها التى تدلّ عليها ولا بمعانيها المرسومة فى الذهن» (١). وهذا الكلام يؤيد أيضاً صحة ما ذكرنا.

وتوجد نقطة جديرة بالالتفات أيضاً وهي أن هناك تعابير مختلفة للإسم الأعظم في روايات هذا الباب، وكل واحد منها حصر الاسم الأعظم بمعنى معيّن.

فبعضها عدّت البسملة أقرب شيء إلى الاسم الأعظم وبعضها حددت اسم الله الأعظم

(١) تفسير الميزان، ج ٨، ص ٣٧٢.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٤١

في ذكر هذه العبارات: «بسم الله الرحمن الرحيم لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» مائة مرّة بعد صلاة الصبح. وبعضها الآخر في سورة «الحمد» و«التوحيد» و«آية الكرسي» و«القدر».

وبعضها في الآيات الست الأواخر من سورة الحشر.

وبالتالي فبعضها الآخر في: «قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ» إلى قوله: «وَتَرَزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ». (آل عمران / ٢٦-٢٧) وغير هذه التعابير «١».

ويمكن أن يكون سبب هذا التفاوت هو تعدّد الاسم الأعظم، أو تفاوت المقاصد، ولكن المهم في الوقت ذاته هو أن طهارة القلب، وخصوص التّوبة، والتوجّه إلى الله، وقطع الأمل عن سواه، والتخلّق بهذه الصفات هي التي تخلق روح الاسم الأعظم.

(١) بحار الانوار، ج ٩٣، ص ٢٢٣؛ اصول الكافي، ج ١، ص ١٠٧.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٤٣

صفات الله تعالى

إشارة

١- صفات ذات الله

أ) صفات جمال الله

ب) صفات جلال الله

٢- صفات فعل الله

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٤٥

أقسام صفات الله تعالى

كما هو المتعارف فإن صفات الله سبحانه وتعالى تنقسم إلى قسمين:

«صفات الذات»، و «صفات الفعل».

وصفات الذات تنقسم إلى قسمين أيضاً: صفات الجمال، وصفات الجلال.

والمراد من صفات الجمال، الصفات الثابتة له تعالى كالعلم والقدرة والأزليّة والأبدية، لذا تُسمى «بالصفات الثبوتية». أمّا صفات الجلال فيُراد بها الصفات التي تنزه ذاته المقدّسة عنها، كالجهل والعجز والجسمانية وما شاكل. لذا تُسمى ب «الصفات السلبية». وكلا النوعين يسميان بصفات الذات، وبغض النظر عن أفعاله سبحانه فهي قابلة الإدراك (أي يُمكن إدراكها).

ويقصد بصفات الفعل الصفات التي لها علاقة بأفعال الله، أي لا تطلق عليه قبل صدور فعل منه، وبعد صدوره يُتصف بها كخالق والرازق والمحيي والمميت.

وتؤكد مرة أخرى بأن صفات ذاته وصفات فعله لا متناهية، لأن كمالاته غير متناهية، وكذلك أفعاله ومخلوقاته لا متناهية ولا محدودة أيضاً.

ولكن مع هذا فإنّ قسماً من هذه الصفات يُعدُّ أساساً لبقية الصفات، والصفات الأخيرة تعتبر فروعاً، وبالالتفات إلى هذه النقطة يمكن القول: بأن الصفات الخمس التالية تُعدُّ أصلاً لجميع الأسماء والصفات الإلهية المقدسة، وما سواها تُعدُّ فروعاً لها، وهذه الصفات الخمس هي:

(الوحدانية، العلم، القدرة، الأزلية، الأبدية).

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٤٧

(أ) صفات جمال الله

إشارة

(العلم - القدرة - الأزلية - الأبدية)

ونظراً لما قلنا آنفاً، نحاول الآن شرح هذه الصفات الأساسية الخمس، وبما أننا شرحنا الوحدانية سابقاً فإننا سنتعرض إلى شرح الصفات الأربعة المتبقية.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٤٩

١ - علم الله المطلق

تمهيد:

إن من أهم صفات الله سبحانه وتعالى بعد التوحيد تتمثل في علمه اللامحدود وإحاطته بكافة أسرار عالم الوجود المترامي الأطراف، وذاته المقدسة، فلا تخفى عليه خافية ولا شاردة ولا واردة ولا ذرة في هذا العالم الواسع.

لقد أحاط علمه - جلّ وعلا - بكل قطرة غيثٍ تنزل من السماء، وبكل زهرة تتفتح في أغصان الأشجار، وبكل حبة في ظلمات الأرض، وبكل موجود وكائن حتى يسبح في أعماق البحار العميقة المظلمة، وبكل شهاب يضيء وينطفئ في هذه السماء الواسعة، وبكل موجٍ يرتفع ويهدر على سطح المحيطات، وبكل نطفةٍ تنعقد في ظلمات الرحم، وبالتالي بكل فكرةٍ تخطر على بال أحد.

وعلمه بالأزل والأبد واحد، وإحاطته العلمية بملايين مليارات السنوات الماضية والمستقبلية كإحاطته بالحاضر، وبحضوره في كل مكانٍ وزمان فلم يبق للبعيد والقريب والماضي والحاضر والمستقبل معنى، فجميعها متساوية لديه جلّ شأنه.

هذه هي الحقيقة التي تُنتقى من مجموع الآيات القرآنية، والتفكر بها له أثر كبير في عقائدنا وأعمالنا. وبعد هذه الإشارة نعود إلى القرآن الكريم لتأمل خاشعين في الآيات القرآنية التالية:

١- «وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ». (البقرة / ٢٣١)

٢- «قُلْ إِنْ تُحْسِنُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُسُوءُوا يَعْزِمُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ». (آل عمران / ٢٩)

٣- «وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ».

(الانعام / ٣)

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٥٠

٤- «وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ».

(الانعام / ٥٩)

٥- «أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ». (التوبة / ٧٨)

٦- «وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ». (يونس / ٦١)

٧- «يَعْلَمُ مَا يَلْجَأُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ».

(الحديد / ٤)

٨- «أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ». (الملوك / ١٤)

٩- «وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ». (لقمان / ٢٧)

١٠- «إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ». (لقمان / ٣٤)

١١- «وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ* وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ». (النمل / ٧٤-٧٥)

١٢- «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَمُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ». (ق / ١٦)

شرح المفردات:

«العلم»: في الأصل بمعنى إدراك حقيقة شيء معين، وهو على نوعين، إدراك ذات الشيء، وإدراك صفات الشيء، والأول يتعدى إلى مفعول واحد كقولك: (علمته)، والثاني يتعدى إلى مفعولين، كقوله تعالى «فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ»، (المتحنه / ١٠)

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٥١

ومن جهة أخرى فإن العلم على قسمين: لأنه تارة يراد منه الجانب (النظري) وهو ما يرتبط بالمسائل الفكرية والعقائدية، وأحياناً أخرى الجانب (العملي) وهو ما يرتبط بالمسائل العملية كالعبادات والمسائل الاجتماعية.

ومن جهة ثالثة أيضاً يُقسَّم العلم إلى قسمين: (عقلي) و (سمعي)، فالأول يُستحصل بالدليل العقلي، والثاني من لسان الوحي، وقد ورد في مقاييس اللغة بأن العلم في الأصل بمعنى ذلك الأثر الذي بواسطته يُعرف شيء معين، لذا فقد وردت كلمة (التعليم) بمعنى وضع العلامات وكلمة (العَلَم) بمعنى الرأية.

«علم»: - على وزن جَبَّار- وعلامة كلاهما تعنيان العالم الغزير العلم.

و «العَلَم»: - على وزن قَلَم- ورد بمعنى الجبل الشاهق أيضاً، و (العَيْلَم) بمعنى البحر أو البئر الملي بالمياه، كان هذا مجمل ما قاله المحققون حول تفسير كلمة (العَلَم).

جمع الآيات وتفسيرها

اللَّهُ عز وجل عالم بكل شيء:

بينت الآية الأولى بتعبير مختصر وذى معنى أن الله بكل شىء عليم، بدون استثناء، فقالت: «وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ».

وقد تكرر هذا التعبير والتأكيد، فى أكثر من عشر مرات فى السور القرآنية المختلفة، بنفس هذه العبارة أو عبارات مشابهة لها، وهو يمثل أصلاً قرآنياً كلياً فى وصف علم الله.

إن هذه العبارة من هذه الآية- التى هى محلُّ بحثنا- قد وردت بعد أن ذكرت قسماً من حقوق النساء والأحكام الإلهية الخاصة بها، والتى ورد فيها تحذير لذوى الاغراض الخبيثة الذين يرومون استغلال هذه القوانين الإلهية بصورة سيئة، وقد بين القرآن هذه الجملة فى آيات اخرى أيضاً بعد تذكيره بضرورة التزام التقوى أو أحكام اخرى، أو ذكره لبعض الصفات الإلهية وما شاكل ذلك، كل هذا من أجل بيان هذه الحقيقة، وهى أن الأحكام التى

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٥٢

وضعها الله حكيمة وذات مصالح وأغراض وفلسفة معينة من جهة، وأيضاً فإنها تحذير لجميع المتخلفين عنها، الذين يعلم الله أعمالهم ونياتهم من جهة اخرى والأثر التربوى لهذا الاعتقاد بالنسبة للإنسان واضح، فمن البديهي أن الذى يعلم ويدرك بأن الأمر صادرٌ ممن أحاط علمه بجميع أسرار الوجود وكل ما يحتاجه الإنسان، وكذلك يعلم أن من يراقبه عالم بكل شىء، فمن البديهي أن لا يجوز لنفسه ارتكاب أدنى مخالفة.

يَعْلَمُ نَبَاتِكُمْ:

تحدثت الآية الثانية عن اطلاع الله سبحانه على نبات البشر، وعلى أسرار جميع موجودات عالم الوجود، فقالت: «قُلْ إِنْ تَخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ».

وكذلك: «وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ».

فهذه الآية أيضاً تحذّر الناس من التهرّب من إنجاز وظائفهم ومسؤولياتهم باختلاق حُجج مختلفة (كحجة التقيّة التى ورد ذكرها فى الآية التى سبقتها)، لأنّ الذى يحاسبهم لا يعلم أسرارهم التى يضمرونها فى قلوبهم وما فى صدورهم فحسب، بل يعلم جميع أسرار السموات والأرض.

ولقد ورد نفس هذا المفهوم والمعنى فى سورة البقرة أيضاً، لكنّه - سبحانه - قال هناك:

«وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ». (البقرة/ ٢٨٤)

ومن المسلم به هو أن المحاسبة فرع من العلم والاطلاع، وتعبير (صدور) الذى ورد فى الآية السابقة بمعنى النفوس بقرينه هذه الآية، ثم أن وقوع القلب فى الصدر، ووجود علاقة وثيقة بين ضربات هذا القلب وبين بقاء الإنسان على قيد الحياة، علاوة على أن أى تغيير نفسى يترك أثراً فى القلب، كان استعمال القرآن الكريم فى آياته لكلمة (القلب) كناية عن الروح والنفس.

وتعبير آخر، فإنّ أى انفعال نفسى وروحى يقع للإنسان، من قبيل الميول والاعراض

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٥٣

الحب والبغض، الفرح والحزن، الخوف والهلع، الهدوء وراحة البال، الجهر والأسرار، سوف تكون له آثار مادية على القلب أولاً، ويكون لهذه الآثار ردود فعل من بينها زيادة أو قلة ضربان القلب، هدوء القلب أو اضطرابه واختلال فى ضغط الدم، كل ذلك استجابة للحالة الروحية التى يتعرض لها الإنسان.

وبغير ذلك فمن البديهي أنه لا القلب مركز الاحساسات الروحية ولا الصدر، ولا حتى الدماغ، وجميع هذه الامور ترتبط بروح الإنسان التى ما وراء هذه الأعضاء ولهذا فقد قيل:

إن القلب قد يأتي بمعنى العقل أحياناً «١».

يعلم السر والجهر:

الآية الثالثة- علاوة على ما ورد في الآيات السابقة- تتعرض إلى مسألة علم الله بأعمال الإنسان بشكل خاص، حيث قالت: «وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ». وقد أوضح القسم الأول من الآية حضور الله في كل نقطة من عالم الوجود، أما القسم الثاني فقد ذكر علمه سبحانه، والقسم الثالث إحاطته جلّ وعلا بأعمال الناس وهي بصورة عامة انذار لجميع الناس «٢». ومن البديهي أن المقصود من حضوره- جلّ وعلا- في السموات والأرض لا- يُراد منه الحضور المكاني، لأنّه ليس جسمًا ليحلّ بمكان، فحضوره بمعنى الإحاطة الوجودية، فهو سبحانه قد أحاط بكلّ شيء علمًا، وكلّ شيء حاضر عنده. وأما معنى قوله تعالى «ويعلم ما تكسبون»؟ فقد قال بعض المفسرين: بأنّه دليل على

(١) لزيادة التوضيح راجع التفسير الأمثل، ذيل الآية ٧ من سورة البقرة.

(٢) تفسير المنار، والمراعي، في ذيل الآية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٥٤

اطلاع الله على السر والجهر «١» (الباطن والظاهر)، وبتعبير آخر اطلاعه على النيات القلبية والأعمال الظاهرية، وقال الآخرون بأنها إشارة إلى حالات وصفات روحية ومعنوية يبلغها الإنسان بأعماله، وعليه فهي ذات مفهوم جديد مغاير للسر والجهر «٢». وقال آخرون أيضاً: «السر هذا بمعنى النيات والجهر بمعنى الحالات وما تكسبون بمعنى الأعمال» «٣»

إنّ هذه التفاسير الثلاثة مناسبة كلها، ولكن من خلال تتبع موارد استعمال مادة «كسب» في القرآن الكريم، فإنّ التفسير الثالث يعتبر أقرب إلى الصواب.

وعنده مفاتيح الغيب:

بيّنت الآية الرابعة سعة علم الله اللامحدود بتعابير لطيفة أخرى مع ذكر شيء من التفصيل، فقالت أولاً: «وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ».

ثم أشارت إلى جوانب من الغيب فقالت: «وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ» و: «وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ»، حتى قال في كلمته شاملة ورائعة: «وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ».

تعدّ هذه الآية الشريفة من أشمل الآيات القرآنية التي تحدثت عن علم الله اللامتناهي بأسلوب دقيق جداً. فابتدأت من علم الغيب إلى ما في البر وأعماق البحر وما تسقط من الأشجار من أوراق، ثم الحبات الخفية في ظلمات الأرض والبراري والجبال والأودية والغابات، التي تنتظر

(١) تفسير روح المعاني، ج ٧، ص ٧٩.

(٢) تفسير الميزان، ج ٧، ص ٩.

(٣) تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٢٧٤.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٥٥

الغيث لتثبت، فعدتها جميعاً ضمن دائرة علم الله المطلق.

لو أمعنا النظر في مفاهيم هذه الآيات وتصورنا آلاف الملايين من الكائنات الحية الموجودة في البر والبحر بأنواعها العجيبة المذهلة. ولو تصورنا مجموع أشجار الكرة الأرضية مع جميع أوراقها وعدد ما يسقط منها في كل يوم وكل ساعة وكل لحظة، والمكان الذي تسقط فيه، وكذلك لو تصورنا مجموع حبوب النباتات التي تنتقل على سطح الأرض - بواسطة البشر، والرياح وأنواع الحشرات والسيول وما شاكل ذلك - وتنتظر دورها في ظلمات الأرض للإنبات والنمو، وعلمنا بأن الله سبحانه وتعالى قد أحاط علماً بجميع هذه الامور وبجميع مشخصاتها وجزئياتها، لأدركنا سهولة إحاطته تعالى بأعمالنا.

لقد فسرت روايات عديدة، منقولة عن أهل البيت عليهم السلام، «ظلمات الأرض» بالرحم و «الحبة» بمعنى الولد، و «الورقة» بمعنى الأجنة الساقطة، و «الرطب» بمعنى النطف التي تعيش و «اليابس» بمعنى النطف التي تموت وتجف.

وأشار بعض مفسري أهل السنة كالآلوسي في كتابه (روح المعاني) إلى هذا الحديث بتعجب، واعتبره على خلاف ظاهر الآية. صحيح أنه وبالنظر الأولى يبدو من ظاهر الآية أنها تشير إلى حبات النباتات، لكن الحديث أعلاه أشار إلى مفاهيم تستنبط من هذه الآية بالدلالة الالتزامية، لأنه لا يوجد تفاوت جذري بين النطفة والحبة، وهكذا بين باطن الأرض وظلمات الرحم، والعالم بالاولى هو عالم بالثانية بسهولة لأنهما متشابهتان مع بعضهما «١».

وعلاوة على ذلك فإن أئمة أهل البيت عليهم السلام كانوا يعلمون باطن القرآن كظاهره، وهذا التفسير يحتمل أن يكون جزءاً من الباطن.

وقد فسّر المفسرون الرطب واليابس بمعان كثيرة، منها أنهم قالوا: بأن الرطب بمعنى الكائن الحي: واليابس بمعنى الميت، أو الرطب بمعنى المؤمن، واليابس بمعنى الكافر، أو الرطب بمعنى الكائن الحي، واليابس بمعنى الجماد، أو الرطب بمعنى العالم، واليابس بمعنى الجاهل «٢».

(١) ورد في تفسير البرهان خمسة أحاديث في هذا المجال منقولة عن الإمام الصادق والكاظم والرضا عليهم السلام.

(٢) تفسير روح البيان، ج ٣، ص ٤٤؛ و تفسير روح المعاني، ج ٧، ص ١٤٩.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٥٦

لكن الظاهر أن هذا التعبير كناية عن العموم والشمول في عالم المادة، كما يستعمل أحياناً في التعبيرات اليومية التي تحتاج إلى هذا المعنى

إنه عالم الغيوب:

تشير الآية الخامسة - بقرينة الآيات السابقة لها إلى المنافقين، فتقول: «أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ» و: «أَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ». وتعبر «عَلَّامُ الْغُيُوبِ» تعبير جديد يمر علينا في هذه الآية، ونظراً لكون «عَلَّام» صيغة من صيغ المبالغة ولفظ «الغيوب» لفظاً عاماً، فإنه يشمل جميع خفيات عالم الوجود بأكمله وعالمي الطبيعة وما وراء الطبيعة.

واللطيف هو أن جميع الآيات القرآنية التي تناولناها في بحثنا لحد الآن حول علم الله، وردت كتحذير للناس لكي يراقبوا أعمالهم

وأقوالهم ونياتهم، أى أنها أشارت إلى المسائل التربوية قبل كل شىء.

«النجوى»: من نجوة و «نجاه» فى الأصل بمعنى المكان المرتفع، ومن حيث إنَّ الشخص إذا أراد أن يحدث صاحبه بسرٍّ معين فإنه ينفرد به فى مكان منعزل، فإنَّ هذه الكلمة وردت هنا بمعنى الهمس فى الاذن.

موجودٌ فى كل مكان:

تحدثت الآية السادسة فى البداية عن شهادة الله على أعمال وأقوال وحالات الإنسان، ثم عن سعة علمه واحاطته بكل شىء فى الوجود، وفى الحقيقة فإنَّ لهاتين المسألتين ارتباطاً لطيفاً مع بعضهما، قال سبحانه: «وَمَا تَكُونُ فى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ» (١)

(١) ذكر المفسِّرون ثلاثة احتمالات حول مرجع ضمير (منه): الأول أنه يعود إلى (الله) والثانى ضمير (الشأن) والثالث على (القرآن) لكننا نعتقد بأنَّ الاحتمال الأول أقوى ويصير مفهوم الآية كالتالى: (وما تتلو أى قسم من القرآن عن الله عزوجل إلّا....) والدليل على هذا التفسير هو الآية السابقة لهذه الآية والتى تقول: (ما معناه) (بأن ما كان ينسب الكفار إلى الله تعالى إنما هو كذب وافتراء) فقالت هذه الآية: بأنَّ نبي الإسلام منزّه عن القيام بمثل هذه الأعمال وأنَّ جميع ما يخبر به هو من عند الله.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٥٧

والجدير بالذكر هو أنَّ المخاطب فى الجملتين الأولىين هو الرسول صلى الله عليه وآله، حيث أشارت إلى الشأن، (أى الحالات والأعمال المهمة)، وتلاوة القرآن الكريم، أمّا المخاطب فى الجملة الثالثة التى تحدثت عن مطلق الأعمال، فهم الناس بأجمعهم. وعلى أيّة حال، بما أنَّ المخاطب فى بداية الآية هو الرسول صلى الله عليه وآله وفى الذيل هم جميع الناس، فإنها تدل على العموم والشمول.

وعلاوة على ذلك فهى تشمل حالات الإنسان وأقواله وأعماله (الاستناد إلى تعابير الشأن والتلاوة والعمل).

و «الشهود»: جمع «شاهد»، وهو بمعنى الحاضر والناظر والمراقب (واستعمال صيغة الجمع بخصوص البارى - كما وضّحنا هذه المسألة كراراً- إنما هو كناية عن عظمتها وعلو مقامه سبحانه وتعالى، ولهذا التعبير مفهوم أوسع من مفهوم العلم، وهو فى الواقع يشير إلى حقيقة كون علم الله علماً حضورياً، وسنشرح ذلك فى قسم التوضيحات.

«تفيضون»: من «الافاضة» وهى فى الأصل بمعنى امتلاء الإناء بالماء بحيث ينساب من حافته، وهذه الكلمة تستعمل بمعنى الشروع بالأعمال باقتدار أو بصورة جماعة، وقد وردت فى هذه الآية بهذا المعنى أيضاً.

ثم أضاف سبحانه قائله: «وَمَا يَعزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فى الأَرْضِ وَلَا فى السَّمَاءِ وَلَا أَصِغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فى كِتَابٍ مُبِينٍ».

«يعزب»: من «العزوب» - على وزن «غروب» - وهو بمعنى البعد والانسواء والغيبه، وقال بعض اللغويين والمفسِّرين: بأنَّه بمعنى الابتعاد عن العائلة وفراق الأهل لتحصيل مرتع للمواشى، ويُطلق «عزب» و «عازب» على كل من يبقى بعيداً عن أهله، أو كل من لم

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٥٨

يتزوج أيضاً، وكذلك يُطلق على أى لون من الفراق والغيبه (١).

ويعد هذا التعبير فى هذه الآية إشارة لطيفة إلى حضور جميع الأشياء بين يدي الله، فحقيقه علم الله هو هذا «العلم الحضورى، كما

سندكره فيما بعد.

وكما قلنا سابقاً فإن المقصود من «الكتاب المبين» هو علم الله الذي يعبر عنه بـ «اللوح المحفوظ» أيضاً، والمثقال معناه، «الوزن» و «الذرة» فسرت بعده وجوه منها: الديدان الصغار والغبار الذي يلتصق باليد، وذرات الغبار العالقة في الفضاء والتي تُرى عندما تدخل أشعة الشمس في الغرفة المظلمة، وأيا كان من هذه التعابير فإنه كناية عن منتهى الصغر والدقة في الحجم وتلويح بسعة علم الله سبحانه وتعالى

وهو معكم أينما كنتم:

في الآية السابعة نلاحظ نقطتين جديدتين في مجال علم الله: «يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا».

وعليه فهو يعلم بكل ما يلج في الأرض من جميع بذور النباتات وقطرات الغيث وجذور الأشجار والمعادن والذخائر والكنوز والدفائن وأجساد الموتى وأنواع الحشرات التي تتخذ من أعماق الأرض بيوتاً لها. وكذلك يعلم بكل النباتات التي تنبت في الأرض وتخرج منها، والكائنات الحيّة التي تخرج منها، والمعادن والكنوز التي تظهر، والمواد المنصهرة التي تخرج من بطون الأرض على صورة براكين، وعيون الماء الصافية أو المياه المعدنية الساخنة التي تنبع من الأرض، وأشعة الشمس الحيوية، وقطرات الغيث التي تسقط من السماء، والشهب والنيازك

(١) مقاييس اللغة؛ مفردات الراغب؛ لسان العرب.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٥٩

والحبات التي تنقلها الرياح من مكان إلى آخر، وكذلك يعلم بما يعرج إلى السماء من الملائكة وأرواح الناس، وأنواع الطيور والغيوم التي تتكون من مياه المحيطات والبحار، وبالتالي فهو سبحانه قد أحاط علماً بأدعية وأعمال الناس التي تعرج إلى السماء. ولو أمعنا النظر في هذه الحقيقة أي بأنواع الكائنات الموجودة في هذه العناوين الأربعة، لأدركنا عظمة وسعة علم الله. والنقطة الأخرى هي قوله سبحانه في نهاية الآية: «وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ».

فما أجمله وألطفه من تعبير؟ إنه تعالى يقول: إن كان الحديث في بداية الآية عن علم الله بمختلف الموجودات الأرضية والسموية فإن هذا لا يعنى أبداً أن تعبدوه بعيداً عنكم، فإنه معكم أينما كنتم، وهو يرى أعمالكم، فإنه لم يقل: «يعلم» بل قال: «بصير» وهذا دليل على الحضور والمشاهدة.

واللطيف في هذه الآية هو الاستعانة بمسألة علم الله لتربية الإنسان أيضاً.

فمن جهة تقول - هذه الآية - للإنسان: إنك لست وحيداً فهو تعالى معك أينما كنت، فتمنح بذلك لروحه السكينة، ولقلبه الصفاء، ومن جهة أخرى تقول له: أنت بين يدي الله والعالم كله في قبضته فراقب أعمالك جيداً. وبهذا الترتيب تجعله دائماً بين الخوف والرجاء.

ومن البديهي فإن هذه المعية لا تعنى الحضور المكاني بل هي إشارة إلى احاطة علم الله بكل شيء.

الخالق عليم بخلقه:

جاءت الآية الثامنة باستدلال واضح، ملموس لإثبات علم الله المحيط بكل شيء وبجملة مختصرة وغنية جداً، كما هو شأن القرآن الكريم - حيث قال تعالى «أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ» (١)

(١) يوجد احتمالان في معنى هذه الجملة في الآية الشريفة، الأول: أن تكون (من) فاعل ل (يعلم). والآخر: أن تكون (من) مفعولاً وفاعله ضمير مستتر يعود على (الله). ففي الصورة الاولى يكون معنى الآية هكذا: «هل أن الخالق لا يعلم؟» وفي الصورة الثانية يكون المعنى «هل أن خالق الكائنات لا يعلم بها» والنتيجة واحدة بالرغم من أن الأول أقرب.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٦٠

لو أردنا أن نشرح هذا الدليل بشكل بسيط نقول: بأن نظام موجودات الكون يدل على أنها - الموجودات - خلقت وفق خطة وأهداف معينة وبرنامج دقيق، وعليه فإن خالق هذه الموجودات يعلم بجميع أسرارها حتى قبل خلقها.

ولو التفتنا إلى مسألة ديمومة واستمرار خلق الله، وأن جميع الممكنات مرتبطة مع واجب الوجود في الوجود وفي البقاء، وفيض الوجود يفيض من ذلك المبدأ الفيض على المخلوقات في كل آن، لأدركنا بأن علمه وإحاطته بجميع موجودات عالم الوجود دائم وسرمدى وفي كل مكان وزمان، فتأمل.

والجدير بالالتفات هو أن الآية ابتدأت باستفهام استنكارى، فهي تطلب الإجابة من سامعها، أى أن الموضوع بدرجة من الوضوح بحيث إن كل من يراجع عقله ووجدانه يعلم أو يدرك بأن الخالق لأى شيء خبير به حتماً (١).

و «لطيف»: من ماء «لطف»، وهو هنا بمعنى خالق الموجودات اللطيفة والأشياء الظريفة والدقيقة جداً، أو بمعنى من أحاط بها علماً. وقالوا أيضاً في معنى الخبير: بأنه من يعلم بالأسرار الخفية، ووصفه تعالى بهاتين الصفتين تلويح عن علمه بأسرار الكون ورموزه الخفية. والجدير بالملاحظة هو أن الله قد خاطب الناس قبل هذه الآية فقال: «وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ». (الملك/ ٣)

ثم طرح الاستدلال المذكور أعلاه لإثبات هذه القضية. وعليه فإن الاستناد إلى هذه الآية في الاستدلال على إثبات علم الله سبحانه يدل على أثرها التربوي أيضاً.

يتضح مما قيل حول تفسير هذه الآية بأن مفهومها واسع جداً، وينبغي أن لا تحدد بعلم الله بأعمال الناس ونياتهم وعقائدهم فحسب، بل هي في الحقيقة دليل كلى ومنطقي على علم الله، وقد جاءت لتوضيح جانب تربوي معين.

(١) الاستفهام الاستنكارى يعطى معنى النفي، ووجود لا النافية في الآية يصبح نفي النفي إثبات.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٦١

ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام و ...

تناولت الآية التاسعة مسألة سعة علم الله سبحانه، حيث جسمت هذه المسألة أمام نظر الجميع بالأعداد والأرقام حيث قالت: «وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

قد وردت في سورة الكهف آية مشابهة لهذه الآية مع فارق بسيط، فلنبدأ بالاحصاء هنا ولنتأمل قليلاً لنرى هل من الممكن أن نحصل على عشرات الأقلام من شجرة واحدة تكفى - الأقلام التي حصلنا عليها من عدد من الأشجار - لكتابة علوم الإنسان المدونة في

الآف الكتب منذ الآف السنين ولحد الآن؟ من المحتمل أننا نحتاج لحل هذه المعضلة إلى حوض من الحبر بحجم المسابح الصغيرة. فلنتصور إذن المقدار الخيالي لجميع الغابات والأشجار في جميع البساتين، والكثير من البراري والجبال ولنتصور ملايين الأمتار المكعبة من مياه المحيطات والبحار، الذي يبلغ ثلاثة أرباع حجم الكرة الأرضية، بعمقه الكبير، ثم نضيف على هذا الرقم الخيالي سبعة أمثاله (هذا إذا اعتبرنا العدد ٧ يدل على نفس العدد لا على قصد الكثرة) لنتج لنا رقماً خيالياً عجباً! فأى علم يحيط به؟ والأكثر من هذا أن القرآن الكريم يقول: إنها جميعاً تنفذ ولا تنفذ كلمات الله، فهل يوجد تعبير أقوى وأبلغ من هذا التعبير الدال على لامحدودية علم الله؟ فذكر الأعداد والأرقام، وإضافة الأصفار إلى جانب عدد معين لا يمكنه أن يعكس عظمه ذلك العدد، فكأن الأعداد جامدة لا قيمة لها، لكن العدد الذي ورد في هذه الآية، كناية عن اللانهاية هو عدد محسوس وناطق وغنى. أما كلمة «البحر» فنظراً لكون الالف واللام الموجودة فيه تدل على العموم في مثل هذه الحالات، لذا فهي تعم جميع البحار الموجودة على سطح الأرض. وبغض النظر عن ذلك فإن جميع بحار الأرض متصلة مع بعضها، فهي تعتبر بحراً واحداً ويصح استعمال صيغة المفرد فيها.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٦٢

لذا فإن المقصود من «سبعة أبحر» هو إضافة سبعة أمثال جميع البحار الموجودة على سطح هذه الأرض إلى مقدارها الأصلي، و «كلمات الله» علمه سبحانه، أو الموجودات التي أحاط بها علمه. ومن حيث إن علمه لامتناهٍ وجميع البحار والأشجار - الموجودة - متناهية، لذا من البديهي أن تكون عاجزة عن احصاء علمه. واللطيف هو تعبيره سبحانه في الآية بكلمة «شجرة» بصيغة المفرد، و «أقلام» بصيغة الجمع للدلالة على إمكان صياغة الأقلام الكثيرة من ساق وجذع واحد.

وبالرغم من أن هناك احتمالين حول المقصود من العدد سبعة وهما: «العدد» و «الكثرة»، لكنّه يظهر من الآية بأن المقصود منه الكثرة لا العدد، أي مهما أضيفت إليه أبحر أخرى أيضاً فإن كلمات الله بالرغم من ذلك لانفاد لها. والجملة الأخيرة من هذه الآية «إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» تؤكد هذه المسألة أيضاً، لأن الله تعنى قدرته اللامتناهية في الخلق والإيجاد، وحكمته أيضاً تدل على إحاطته علماً بدقائق وأسرار موجودات العالم. والأخير حول هذه الآية هو أنه نقل عن شأن نزولها بأن جماعة من اليهود قالوا: بأن الله قد ذكر كل شى في التوراة ولم يُبق شيئاً فقال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: مثل ما ورد في التوراة بالنسبة إلى كلام الله كالقطرة من البحر، فنزلت هذه الآية وبيّنت سعة علم الله.

وروى كذلك بأن هذه الآية نزلت عندما قال جماعة من الكفار: إن ما يأتي به محمد سينتهي قريباً، فردهم الرسول صلى الله عليه وآله: بأن هذا كلام الله ولا نفاذ له، فنزلت هذه الآية لتبيان هذا المعنى «١».

عنده مفاتيح الغيب الخمسة:

لقد عرضت الآية العاشرة أيضاً قسماً آخر من علم الله تعالى وهو العلوم الغيبية المخصوصة بذاته المقدسة، وأكدت بأن لا أحد يحيط بحقيقتها سواه، قال تعالى «إِنَّ اللَّهَ

(١) تفسير الكبير، ج ٢٥، ص ١١٧؛ و تفسير القرطبي، ج ٨، ص ٥١٥٨.

عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ». (من حيث نوع الجنس وما يتعلق به والسلامة، ومن حيث سائر الاستعدادات والقدرات الاخرى . «وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ».)
 ما ذكر في هذه الآية من علم الله يعكس بوضوح موعد القيامة، لكن لحن الآية يدل على اختصاص علم الامور الأربعة المذكورة بعد هذا الأمر بالله سبحانه أيضاً، لأنه لا يرى تشابه بين هذه المواضيع الخمسة سوى من حيث كونها علوماً خاصّةً بالله سبحانه، علاوة على ما صرحت به الكثير من الروايات المنقولة من طرق الشيعة والسنة عن رسول الله صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام، حول اختصاص هذه العلوم الخمسة بذاته المقدّسة جلّ وعلا، وكنموذج نقل هنا حديثاً من تفسير (الدر المنثور) وآخر من تفسير «نور الثقلين»:

١- ورد في (الدر المنثور) عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «ومفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله، لا يعلم ما في غدٍ إلا الله، ولا متى تقوم الساعة إلا الله، ولا يعلم ما في الأرحام إلا الله، ولا متى ينزل الغيث إلا الله، وما تدرى نفس بأى أرض تموت إلا الله» (١)

٢- ورد في (نور الثقلين) عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «ألا أخبركم بخمسة لم يُطلع الله عليها أحداً من خلقه؟ قلت: بلى قال: إن الله عنده علم الساعة ويُنزّل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليمٌ خبير» (٢)

وقد وردت روايات كثيرة اخرى أيضاً في كتب الحديث حول هذا الموضوع (٣).

الإجابة عن سؤالين:

السؤال الأول: كيف أنّ هذه العلوم الخمسة مختصةً بالله سبحانه وتعالى مع أنّه من الممكن تشخيص جنس الجنين (ذكر أم انثى بوسائل معينة؟ وإن لم تكن هذه المسألة

(١) تفسير درّ المنثور، ج ٥، ص ١٦٩.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٢١٨.

(٣) للمزيد من الاطلاع يرجع تفسير درّ المنثور، ج ٥، ص ١٦٩ وما بعدها؛ وتفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٢١٨ وما بعدها؛ وتفسير البرهان ج ٣، ص ٢٨٠.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٦٤

قطعية لحد الآن، وكذلك نزول الغيث حيث يستنبأ بنزوله قبل هطوله بقليل.

الجواب: الكلام لا يدور فقط حول جنس الجنين بل إنّ الله سبحانه يعلم عدد الأجنة الموجودة في الأرحام، ووضعيتها واستعداداتها وأذواقها، ومواهبها، وقدراتها وضعفها وجميع خصوصياتها، وهكذا عن الغيث، فقد أحاط علمه بكمية الغيث ونوعيته وعدد قطراته ووزنها ومحل سقوطها. ولا أحد يمكنه أن يحيط علماً بهذه الأمور وبأى وسيلة كانت.

والشاهد على كلامنا هذا هو حديث ورد في نهج البلاغة حول تفسير هذه الآية:

«فَعَلِمَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مَا فِي الْأَرْحَامِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَقَبِيحٍ أَوْ جَمِيلٍ وَسَخِيٍّ أَوْ بَخِيلٍ ... فَهَذَا عِلْمُ الْغَيْبِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ» (١).

تدلّ هذه العبارة بوضوح على أنّ المقصود هو العلم بجميع صفات الجنين الجسمية والروحية، لا جنس الجنين فقط.

السؤال الثاني: كيف يمكن الجمع بين هذه الآية والروايات الكثيرة التي وردت في تفسيرها وبين الروايات الكثيرة التي صرحت بأنّ

الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام كانوا يُخبرون عن حوادث المستقبل، أو يوم وفاتهم، ومحل دفنهم، وسائر الامور المستقبلية، ألا يوجد تعارض بين هاتين المجموعتين؟ لأن الآية تقول: «وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ؟»

الجواب: يمكن الإجابة عن هذا الإشكال بأن الفرق هو في الإجمال والتفصيل بتوضيح أن ما يخبر به أولياء الله أو الملائكة عن حوادث المستقبل وعلم الغيب ليس إجمالاً إجمالاً، فمثلاً يعلمون بأن الشخص الفلاني سيموت في الغد، أما العلم بساعة ولحظة وفاته وبقية خصائصها فهو مختص به سبحانه، فهذا علم تفصيلي وكلي وشامل، في حين أن علم أولياء الله علم إجمالي وجزئي. وقد أراد بعض المفسرين الرد على هذا الإشكال عن طريق العلم الذاتي والعرضي

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٢٨.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٦٥

فقالوا: إن علم الله بهذه الامور ذاتي، وأن أولياء الله لا يملكون لأنفسهم شيئاً، فعلمهم إنما هو بتعليم الله (أي أن علمهم عرضي). لكن هذا الجواب لا يتناسب مع الكثير من الروايات المنقولة من طرق الشيعة والسنة في هذا المجال، بل وحتى لا يتطابق مع ظاهر الآية في ثلاثة موارد: أحدها انحصار علم الساعة به سبحانه، وكذلك ما تدرى نفس ماذا تكسب غداً، وما تدرى نفس بأي أرض تموت.

وكل شيء في كتاب مبین:

أشارت الآية الحادية عشرة إلى علم الله بسر الإنسان وعلايته، وغيب السموات والأرض، قال تعالى «وَأَنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ* وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ». وتعبيره سبحانه «ربك» إشارة لطيفة إلى هذه الحقيقة: فهل يمكن أن يكون المربي ومالك التدبير والتصرف لكل المخلوقات أن لا يحيط علماً بالحالات الباطنية والظاهرية لمن يربيه ومن هو تحت تصرفه؟ وهذه الربوبية هي بذاتها الدليل على علم الله سبحانه وتعالى «تكن» من مادة «كن» على وزن «جن». بمعنى الستارة وكل ما يمكنه أن يحجب الأشياء، وقد وردت الصدور هنا كغطاء ساتر على الأسرار الباطنية، وكما أشرنا سابقاً فإن كلمتي الصدر والقلب قد وردتا في الكثير من التعبيرات القرآنية بمعنى الروح والعقل. وكلمة «غائبة» إذا كانت ذات معنى وصفي فهي كناية عن الامور المحجوبة والخفية جداً. (لأن التاء المربوطة تأتي في مثل هذه الحالات للمبالغة كما في (علامة) «١»).

(١) اعتقد بعض المفسرين كالزمخشري في كشافه بأن لهذه الكلمة معنى اسماً لا وصفاً مثل (عاقبة)، و (ذبيحة)، ولو أنه احتمل المعنى الوصفي أيضاً (تفسير الكشاف، ج ٣، ص ٣٨٢)، وذكر البعض الآخر كلا الاحتمالين للآية المذكورة.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٦٦

وقد وردت كلمة «مبين» بمعنى واضح، وبمعنى موضح (لازم ومتعدى)، والمعنى الثاني هنا أقرب، أي أن اللوح المحفوظ أو لوح علم الله مبين وكاشف للحقائق «١».

ونحن أقرب اليكم:

وفى الآية الثانية عشرة تعابير جديدة ولطيفة حول علم الله، فقد طرحت فيها أيضاً مسألة علم الله كتحذير لجميع الناس ليراقبوا أفكارهم ونياتهم، وماتكن صدورهم، قال تعالى «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمُ مَا تُوسِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ». أشارت هذه الآية إلى قسمين من علم الله تعالى

الأول: يعتمد على مسألة خلق الإنسان، أى كيف يمكن أن يجهل الخالق الحكيم فعله؟

خصوصاً وأن خلقه مستمر وفيضه ينزل كل لحظة على جميع موجودات عالم الوجود، وبتشبيه ناقص، هو التيار الذى ينبعث من المولد الكهربائي ويزود المصابيح بالنور باستمرار.

والثانى: هو أنه غير بعيد عن مخلوقاته، فهو أقرب إليهم من أنفسهم، لذا فحضوره الدائمى وقربه يعد دليلاً آخر على إحاطته بجميع الامور.

وقد ذكرت فى كتب التفسير واللغة تفاسير متعددة بخصوص كلمة «وريد» منها: أن (الراغب) فسره بمعنى الشريان الذى يتصل بالقلب والكبد، وقال جماعة: إنه بمعنى وريد الرقبة.

وقال آخرون: إنه بمعنى الوريد الذى يتصل بالفم أو تحت اللسان وفسره جماعة بأنه بمعنى جميع الأوعية الدموية الموجودة فى البدن. وبديهي فإن المعنى الأول (الشريان

(١) قال جماعة بأن «مبين» من مادة «بيان» وهى فى الأصل بمعنى الانكشاف والوضوح بعد الابهام والإجمال بوسيلة منفصلة لذا فهى تعطى معنى الانفصال ومعنى الوضوح معاً.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٦٧

الرئيسى الأبهري) أكثر تناسباً مع مفهوم الآية، لأنه أراد أن يبين قرب الله الشديد من الإنسان، وهذا المعنى أقرب خصوصاً مع ملاحظة وجود وريدين فى الرقبة.

والتعبير بكلمة «حبل» يُشير أيضاً إلى أن المقصود ليس جميع أوردة البدن، بل الرئيسة منها، وكما عبر البعض حيث قالوا: بأن المقصود هو الأوردة التى لها منزلة الأنهار لا الجداول.

وعلى أية حال فهذه الكلمة مشتقة من كلمة (ورود) أى بمعنى الوصول إلى الماء- التى لها تناسب واضح مع أوردة الدم.

ومن هنا يعبر عن الأزهار بالورد، أى الثمرة الاولى التى ترد من الشجرة «١».

«توسوس»: من الوسوسة والوسواس، وهو بمعنى الصوت الهادى الخارج من آلات الطرب، والنداء والصوت الخفى، والخواطر القلبية، والتصورات الفكرية الخاطفة، والأفكار غير المرغوبة «٢».

وعلى أى حال، فعندما يحيط الله تعالى بالخواطر الفكرية الخاطفة، فإنه لا يبقى مجالاً للشك والترديد بأنه سبحانه يحيط علماً بسائر أعمالنا وأفعالنا واعتقاداتنا. وتعبيره: ونحن أقرب إليه من حبل الوريد، إضافة إلى كونه تحذيراً، فهو ينزل علينا نوعاً من السكينة الباعثة للأمل، ونور هذا الأمل هو الذى ملأ جميع أجزاء وجودنا.

أليس عجباً أن يتعد الإنسان من محبوبه بعد أن يعلم بأنه أقرب إليه من نفسه؟ من الذى يقاسمنا ألم هذه المصيبة عندما يكون المحبوب قريباً من الإنسان ولكن الإنسان يحترق بنار الهجران؟

نحن أقرب قال من حبل الوريد أنت قد هاجرت عنه وتوغلت بعيد أيها المالى قوساً من نبال قرب الصيد وترمى للجبال!! وبضم الآيات القرآنية المذكورة إلى بعضها، يتضح بأن القرآن الكريم قد وضع برنامجاً دقيقاً واسعاً لتبيان علم الله وإحاطته اللامحدودة بجميع

الامور بذكر أدلة دقيقة ضمن عبارات مختلفة، وجعلها أساساً لتربية الإنسان فى جميع الاحوال!

توضيحات

١- تأثير علم الله في بُعدي العرفان والتربية

إنَّ الأهميَّة الخاصَّة التي أُولاهَا القرآن الكريم لهذه المسألة تنبع أولاً من الدور المهم لمسألة علم الله في بحث معرفة الله، حيث تقرب الإنسان إلى ربه وتعرفه به، وتجعله يراه في كل مكان، وأنَّ معرفة الله بدون معرفة جوانب علمه تعتبر ناقصةً وضعيفةً جداً. ومن حيث إنَّ لجميع المعارف انعكاساً على أعمالنا وتصرفاتنا الفردية والاجتماعية، وكون هذه المسألة تنبع من العلاقة الوثيقة بين (الأيدولوجية) و (النظرة العالمية) فإنَّ لإدراك علم الله اللامحدود آثاراً تربوية وهي كالتالي:

فمن جهة نجد أنَّ الاعتقاد بوجود رقيب عليم عظيم له تأثير في ترغيب وردع الإنسان في انجاز أعماله، فعندما يقول سبحانه: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمَا مَا تَوْسَّوْسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» وقوله: «وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ» وقوله: «وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مَّثَلٍ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ...» وقوله «وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ... وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ»، أو قوله سبحانه: «وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا». (الإسراء/ ١٧)

فإنَّه تحذير شديد لجميع بنى البشر وإشعار بالخوف والرجاء في كل ما يصدر منهم من عمل. ومن جهة أخرى فإنَّ الاعتقاد بأنَّ الناظر والرقيب علينا هو ولي نعمتنا، كأنَّه يقول لنا:

(١) مفردات الراغب؛ ومقاييس اللغة؛ ولسان العرب؛ وتفسير الميزان؛ والفخر الرازي؛ والقرطبي؛ وفي ظلال القرآن وغيرها من التفاسير.
(٢) «وسواس» اسم مصدرى، و «الوسواس» بكسر الواو ذو معنى مصدرى، وقد تأتي الكلمة (اسم فاعل) أى الشيطان، (لسان العرب).

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٦٩

«كيف تستعينون بنعم الله وعطاياه على معصيته؟!»

ومن جانب ثالث فإنَّ هذه المراقبة تُحيي بصيص الأمل في قلب الإنسان، ويشعر بعدم كونه وحيداً في مواجهة الحوادث، بل يشعر بأنَّ الرقيب هو من يحيط علماً بجميع الكون ومشاكله وأسراره الباطنية والعلنية، وهو سبحانه وتعالى قدير ورحيم في نفس الوقت.

وهذه العقيدة ترفد الإنسان بالقوة والاستقامة في مواجهة المواقف الصعبة.

ومن جانب رابع فإنَّ الالتفات إلى سعة علم الله تعالى يدلنا على سعة وعظمة عالم الوجود، وعمق أسرار عالم الخلق والتكوين، وهذا بحد ذاته يمكن أن يكون دافعاً مهماً نحو التطور العلمى.

٢- الأدلة على علم الله

إشارة

ذكر الفلاسفة والمتكلمون أدلته عديدة لإثبات علم الله بجميع الأمور، أهمها الأدلة الثلاثة التالية: (والطريف هو أنَّ الآيات المذكورة أشارت إلى جميع هذه الأدلة):

أ) برهان الخلق والنظم

إنّ النظام المذهل الموجود في هذا الكون، والقوانين الدقيقة التي تُسَيِّر جميع ذرات الوجود، ابتداءً من الذرّة وانتهاءً بالمنظومات والكواكب السّيّارة، وابتداءً من الموجودات المجهرية وانتهاءً بالإنسان الذي هو أرقى نموذج في الخلق، ومن الأعشاب الاحادية الخلية التي تعيش في أعماق المحيطات، وحتى الأشجار العظيمة التي يبلغ طولها خمسين متراً! وهكذا النظم المعقدة العجيبة التي تسيطر على روح الإنسان وقلبه، والتنوع المذهل الملحوظ في الكائنات الحية، من النباتات والحيوانات، والذي تبلغ أنواعها مئات الآلاف، فهذه جميعاً تدل على علم الله اللامحدود.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٧٠

فهل يمكن أن يصنع أحد شيئاً ويجعل أسرارها؟

فخالق العين ونظام المخ المعقد، والمدارات الألكترونية العجيبة التي تدور حول نواة الذرّة، فهو عالم ومحيط بها جميعاً. وعليه فكما يدلنا برهان النظم على وجود الله فإنّه يثبت عدم محدودية علمه أيضاً. ونظراً إلى أنّ مسألة الخلق أمرٌ مستمر ودائم فإنّ الموجودات في حال «السيرورة» المستمرة لا «الإيجاد» الأول فحسب، وأنّ ارتباطهم مع منشى الخلق لا يمكن أن يكون في البداية فقط، بل هو مستمر مع استمرار حياتهم ووجودهم، فسوف تثبت إحاطته العلمية بجميع الأشياء وفي كل حالٍ ومكان وزمان أيضاً.

(ب) برهان الإمكان والوجوب

ثبت في بحوث معرفة الله أن واجب الوجود هو الله وحده سبحانه، وما سواه ممكن الوجود، وثبت أيضاً بأنّ الممكنات محتاجة وتابعة له في الوجود والبقاء معاً، وبتعبير آخر الجميع حاضر بين يديه، وهذا الحضور الدائم دليلٌ على علمه بجميع الأمور، لأنّ العلم بحقيقة المعلوم ليست إلّا حضور ذات المعلوم عند العالم.

(ج) برهان اللاتناهي

بغض النظر عن مسألة العلة والمعلول، فإنّ الله سبحانه وتعالى وجود غير مُتناهٍ من جميع الجوانب، لذا لا يخلو منه مكانٌ أو زمان (مع أنّه لا يحده مكان أو زمان)، لأننا لو افترضنا خلو مكان أو زمان من وجوده تعالى فقد حددناه. لذا فعدم تناهيه يدلّ على حضوره وإحاطته بجميع الوجود، أو بتعبير آخر كلُّ شيء مائل بين يديه. فهل يمكن أن يكون العلم غير هذا الحضور؟

وفي الحقيقة أنّ موانع العلم إمّا أن تكون حجب مادية، وإمّا بُعد المسافة، ونحن نعلم انتفاء هذه الامور عن ذات البارئ.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٧١

وكما أشرنا في بداية هذا البحث فإنّ في الآيات المذكورة أعلاه إشارات واضحة حول هذه الأدلة العقلية التي تعبّر عن متانة الدليل القرآني ومنطقه المتفوق، وقد أشرنا إليها ضمن تفسير الآيات.

٣- إن علم الله حضوري

كما أنّ حقيقة العلم من البديهيّات، وهذا المعنى من الواضحات أيضاً، حيث إنّنا نمتلك نوعين من العلم وهما مختلفان تماماً: النوع الأول: نحن نعلم وندرك وجودنا، وإرادتنا، وميولنا، حُبنا وبغضنا، ما يدور في اذهاننا، بدون حاجة إلى أي وساطة، ونحيط علماً بأنفسنا، وأفكارنا وحالاتنا الروحية ماثلة بين أيدينا، ولا حجاب فيما بيننا وبينها. (ويدعى هذا النوع بالعلم الحضوري).

النوع الثاني: نحن نعلم بما يُحيط بنا من الموجودات أيضاً ولكن من المسلمّ به أنّ السماء والأرض والنجوم لا توجد في اعماق وجودنا وفي دخائل أرواحنا وأفكارنا، بل نفذت صورها إلى أذهاننا عن طريق آثارها، وفي الحقيقة أنّ ما عرفناه عنها هو تلك المفاهيم التي نفذت إلى أعماقنا، وهذا النوع من العلم يدعى بالعلم الحسولي.

وعلم الله بجميع موجودات العالم من النوع الأول، لأنه موجود في كل مكان، ويحيط بكل شيء احاطة وجودية، ولا شيء بعيد عنه سبحانه.

فهو سبحانه لا يحتاج إلى الحواس وانعكاس صور الموجودات في الذهن، ولا إلى المفاهيم الذهنية أبداً، وعلمه بكل شيء علم حضوري.

٤- لا حصر ولا نهاية لعلم الله

إنّ محاولات الإنسان المستمرة لكشف أسرار الوجود، التي شغلته منذ اليوم الأول من

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٧٢

حياته. والتي لها وقعاً في قلبه قد اصطحبت معها كنوز من العلوم والمعارف التي يمكن أن ندرك أبعادها بمشاهدة ملايين الكتب الموجودة على رفوف المكتبات العالمية الكبيرة، والتي بلغ عدد الكتب في بعضها خمسين مليون كتاب. صحيح أنّ بعض هذه الكتب مكررة أو مترجمة عن بعضها الآخر، لكنه لا ريب في احتوائها على حقائق كثيرة غير مكررة ناجمة عن المساعي الفكرية والتجريبية لكل المجتمع البشري على مدى التاريخ، بغض النظر عن العلوم التي بقيت في أذهان العلماء ودفنت معهم.

لكن جميع هذه العلوم بالنسبة إلى المجهولات بمنزلة القطرة من البحر أو الذرة من الجبل.

ويمكن بيان أسباب هذه المحدودية بالأمر التالي:

(أ) محدودية قدرتنا الحسية، فنحن نستطيع إدراك قسم صغير من موجودات عالمنا الحسي فقط، كما أنّ قدرتنا على التحليل العقلي أيضاً ليست قادرة إلا على إدراك قسم صغير من المسائل العقلية.

(ب) إنّ عمر الإنسان بالنسبة إلى عمر عالم الوجود كساعة واحدة لا أكثر.

(ج) يعدّ المحل الذي نعيش فيه أي الكرة الأرضية صغيراً ومحدوداً جداً بالمقارنة مع كواكب المجرات التي لا تعدّ ولا تحصى (ويقدر العلماء عدد النجوم الموجودة في مجرتنا فقط بمئة ألف مليار كوكب، وقد بلغ عدد المجرات التي اكتشفها البشر بهذه الأجهزة البسيطة لحد الآن مليار مجرة!).

ومن هنا يمكن إدراك سعة علم الله، وما أجمل التعبير القرآني في هذا المجال: «وَلَوْ أَنَّ فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ». (لقمان/ ٢٧)

والأهم من كل ذلك هو أنّ الله تعالى عالم بذاته المقدسة أيضاً، ولأنّ ذاته المقدسة لا متناهية، فإنّ علمه بهذه الذات اللامتناهية لا متناهية أيضاً، ولا تستطيع الأعداد أو الأرقام أن تفصح عن عظمتها.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٧٣

٥- أسئلة مهمة حول علم الله

هنالك أسئلة على شكل مناظرات بين الفلاسفة والمتكلمين حول علم الله منذ قديم العصور، وقد اتسعت فيما بعد، وذلك لكون مسألة العلم بصورة عامة ومسألة علم الله بصورة خاصة، معقدة، وأهم هذه الاسئلة ما يلي:

١- كيف يمكن أن يحيط الله علماً بذاته المقدسة، في حين أن العالم والمعلوم يجب أن يكونا شيئين؟ فهل يوجد تفاوت بين علم الله وذاته المقدسة؟ وبعبارة أخرى هل يمكن أن يكون الله عالماً ومعلوماً في نفس الوقت؟

الجواب: أولاً: إن هذا السؤال لا- ينحصر بعلم الله بذاته المقدسة، فهو يجرى حتى على علمنا بوجودنا، فنحن نعلم يقيناً بوجودنا وندرك بأننا موجودون، فهل يجب أن يكون العالم والمعلوم هنا شيئين أيضاً؟ في حين أننا لسنا بأكثر من شيء واحد، خصوصاً وإن علمنا بأنفسنا من النوع الحضورى أيضاً.

ثانياً: نورد هنا ما أجاب به العلامة المرحوم (الخواجه نصير الدين الطوسي) على نفس هذا السؤال، قال: إنه يكفي التغير الاعتبارى أى أن موجوداً واحداً من حيث كونه مبدعاً عاقلاً يستطيع أن يُدرك حضوره بذاته، فهو عالم، ومن حيث كونه حاضراً عند ذاته، يكون معلوماً، وبتعبير آخر ننظر إلى هذا الوجود الواحد من زاويتين: من زاوية إدراكه لذاته فنسميه عالماً، ومن زاوية أنه مُدرك فنسميه معلوماً (فتأمل).

٢- كيف يحيط الله علماً بموجودات العالم وهى فى حالة تغيّر دائم، فهل أن ذاته المقدسة تتغير أيضاً؟

الجواب: يصح هذا الإشكال فيما إذا كان علم الله بالأشياء الخارجية كعلمنا حاصل عن طريق (انعكاس صور الأشياء)، لأنّ تغيّر هذه الموجودات يؤدى إلى تغيّر هذه المفاهيم والصور لكن بما أن علم الله علم حضورى، وجميع الأشياء ماثلة بين يديه، فإنّ هذا الإشكال لا معنى له. لأنّ التغيّر يحصل فى موجودات هذا الكون فقط، لا فى ذاته المقدسة

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٧٤

فوجودها ثابت ومحيط بها جميعاً والمتغيّر هو الموجودات المحاطة، كما هو الحال فيما لو تحرك شخص مُعين أمامنا فإن صورته سوف تقع على شبكية العين، وستتغير هذه الصورة بتغير حاله، فتتغير المفاهيم الذهنية الموجودة عنه فى أذهاننا تبعاً للتغيرات، وكل هذا لسبب كون علمنا هنا انعكاساً للأشياء الخارجية فينا، فلو كان علمنا بالأشياء الخارجية علماً ناجماً من الاحاطة بجمعها، لما حصل أى نوع من التغير، بل لكان التغير فيها فقط (فتأمل).

٣- كيف يحصل علم الله بالجزئيات، مع أن الجزئيات متعددة ومتكثرة، وذاته المقدسة واحدة لا تعرف التعدد؟

الجواب: إن هذا الخطأ أيضاً نجم عن مقايسة علم الله بعلمنا الذى نحصل عليه عن طريق انتقال المفاهيم والصور الذهنية، فى حين أن علمه بالموجودات ليس علماً حصولياً، بل حضورى، أى أن جميع الموجودات ماثلة بذاتها بين يديه عزّ وجلّ، وهو يحيط بها جميعاً دون الحاجة إلى مفاهيم أو صور ذهنية معينة «١».

٤- كيف يمكن تصور علم الله بالحوادث المستقبلية التى ليس لها وجود خارجى فى الوقت الحاضر حتى تقع فى دائرة علم الله؟ فهل توجد لدى الله مفاهيم وصور ذهنية عنها؟

مع تقدسه سبحانه عن أن يكون له ذهن، أو أن يكون علمه حصولياً؟ إذن ما علينا إلّا أن نستسلم ونقول: بأنّه سبحانه لا يعلم بالحوادث المستقبلية! لأنّ العلم الحضورى منتفٍ بالنسبة إلى المعدوم، وبذلك يصبح العلم الحضورى لله تعالى أمر لا يمكن تصوّره أيضاً.

على الرغم من أن هذا السؤال والإشكال قد طرح حول العلم بالحوادث المستقبلية، إلّا أنّه يرد بنفسه حول الحوادث الماضية المعدومة أيضاً، لأنّ الحوادث الماضية لا وجود لها الآن، فصورة (فرعون) أو بنى إسرائيل وأصحاب (موسى) مثلاً لا وجود لها حالياً وقد تلاشت، كما أنّ تاريخها قد فات أيضاً، فنحن نستطيع الوقوف على الماضى بمجرد أن

(١) الفرق الموجود بين هذه الإشكالات الثلاثة هو أن الأول يتعلق بتعدد العالم والمعلوم، والثانى بتغيّر الموجودات، والثالث بتكثرها.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٧٥

نستحضر في أذهاننا صورته فحسب، لأن علمنا علم حصولي يتحقق بواسطة المفاهيم والصور الذهنية فقط، وبما أن علم الله علم حضوري فهو لا يعرف أي لون من الوساطة والمفاهيم، فكيف يمكن تصوّر علمه بالحوادث الماضية؟
الجواب: يمكن الإجابة عن هذا السؤال والإشكال بثلاث طرق:

١- إن الله محيط دائماً بذاته المقدّسة التي هي علّة جميع الكائنات، وهذا العلم الإجمالي بجميع حوادث وموجودات الوجود أزلي وأبدى (أي قبل الإيجاد وبعده).

وبتعبير آخر لو علمنا علل الأشياء، لاستطعنا أن نعلم نتائجها ومعلولاتها أيضاً، لأن كل علّة تستبطن جميع كمالات معلولها وأكثر. ويمكن شرح هذا الكلام بشكل أوضح كما يلي: إن الحوادث الماضية لم تتمح تماماً، فإن آثارها موجودة في طيات الحوادث الآتية، وكذلك بالنسبة إلى الحوادث المستقبلية فهي غير منفصلة عن الحوادث الآتية، ولها علاقة معها، وعليه ف «الماضي» و «الحاضر» و «المستقبل» يشكلون معاً سلسلة شبيهة بالعلّة والمعلول، بحيث لو أطلعنا على كل واحدة منها بدقّة، لشاهدنا فيها الحلقات القبلية والبعديّة لهذه السلسلة.

فمثلاً لو أخطت علماً وبدقّة بمناخ جميع الكرة الأرضية، وبكل مميزاته، وجزئياته، وعلله، ومعلولاته، وحركة الكرة الأرضية، ومسألة الفعل ورد الفعل، لاستطعت أن احيط علماً بوضعية المناخ قبل أو بعد ملايين السنين بصورة دقيقة. لأن شواهد الماضي والمستقبل موجودة فعلاً، لا الشواهد الإجمالية بل تفصيلات الشواهد المنعكسة في جزئيات الحاضر. فالحاضر يعكس الماضي، والمستقبل يعكس الحاضر، والاحاطة العلمية الكاملة بجزئيات الحاضر، معناها الإحاطة الكاملة بحوادث الماضي والمستقبل.

لذا فعندنا تكون حوادث الحاضر ماثلة بين يدي الله تعالى بجميع خصوصياتها، فإنها بمعنى مثول الماضي والمستقبل أيضاً بين يديه عز وجل.

فالحاضر مرآة للماضي والمستقبل، ويمكن مشاهدة جميع الحوادث الماضية والمستقبلية في مرآة الحاضر (فتأمل).

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٧٦

٢- ويوجد طريق آخر للإجابة على هذا السؤال نوضحه بالمثل التالي: تصوروا أن شخصاً محبوباً في غرفة صغيرة لا يوجد فيها سوى نافذة صغيرة على الخارج، فعندما تمر قافلة من الإبل من أمام هذه النافذة، فإن هذا السجين سوف يشاهد رأس البعير أولاً، ثم رقبته، ثم سنامه، ثم أرجله، ثم ذنبه، وهكذا الحال بالنسبة لسائر الإبل الأخرى فصغر النافذة هذه هو السبب في إيجاد حالات من الماضي والحاضر والمستقبل لدى الناظر السجين، لكن المسألة تختلف تماماً بالنسبة للواقف على سطح الغرفة وينظر إلى الصحراء نظرة شاملة، فهو يشاهد جميع إبل القافلة في وقت واحد.

ومن هنا يتضح أن إيجاد مفاهيم الماضي والحال والمستقبل ناجمة عن محدودية نظرة الإنسان، فما هو ماضٍ بالنسبة لنا كان مستقبلاً لأقوام قد سبقونا، وما هو مستقبل بالنسبة لنا الآن فهو ماضٍ بالنسبة لأقوام ستأتي فيما بعد.

أمّا الذات الموجودة في كل مكان والتي أحاطت بالأزل والأبد، فإن الماضي والحاضر والمستقبل بالنسبة لها لا معنى له، فجميع حوادث الدهر ماثلة بين يديها (ولكن كل واحدة في موقعها الخاص)، وهي محيطة علماً بجميع الحوادث وموجودات العالم، سواءً بالماضي، وبالحاضر، وبالمستقبل بصورة متساوية.

ونحن نقرّ طبعاً بأن تصوّر هذه المسألة بالنسبة لنا نحن المحبوسين في سجن الزمان والمكان، أمر صعب ومعقد، ولكنه في نفس الوقت قابل للتدقيق والمطالعة.

٣- الطريق الآخر الذي استند إليه الكثير من الفلاسفة، هو أن الله تعالى عالم بذاته المقدّسة، وبما أن ذاته علّة جميع المخلوقات، فإن

العلم بالعلمة سيكون سبباً للعلم بالمعلول، وبتعبير آخر فإن الله تعالى جامع لجميع الكمالات الموجودة في جميع المخلوقات بأتم صورة، وما هو غير موجود في ذاته المقدسة هو نقائص المخلوقات فقط. اذن، فعلمه تعالى بذاته هو بالحقيقة علمه بجميع المخلوقات. (وهناك فرق دقيق بين هذا الطريق والطريق الأول يتضح من خلال التأمل).

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٧٧

٦- علم الله في الروايات الإسلامية

وردت في الروايات الإسلامية تعابير لطيفة جداً، حول علم الله منها ما جاء في نهج البلاغة، حيث يمكن الاستعانة بها لفهم البحوث بصورة أفضل، نذكر أدناه نماذج منها:

١- قول أمير المؤمنين علي عليه السلام في باب علم الله:

«يَعْلَمُ عَجِيحَ الْوُحُوشِ فِي الْفَلَوَاتِ، وَمَعَاصِيَ الْعِبَادِ فِي الْخَلَوَاتِ، وَاخْتِلَافَ النَّيْنَانِ فِي الْبِحَارِ الْغَامِرَاتِ، وَتَلَاطَمَ الْمَاءِ بِالرِّيَّاحِ الْعَاصِفَاتِ» (١)

٢- وقال عليه السلام في كلام آخر:

«عَالِمٌ إِذْ لَا مَعْلُومَ، وَرَبٌّ إِذْ لَا مَرْبُوبَ، وَقَادِرٌ إِذْ لَا مَقْدُورَ» (٢)

٣- وقال عليه السلام أيضاً في كلام آخر:

«قَدْ عَلِمَ السَّرَائِرَ، وَخَبَرَ الصَّمَائِرَ لَهُ الْإِحَاطَةُ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَالْغَلْبَةُ لِكُلِّ شَيْءٍ» (٣)

٤- وفي الكافي في باب صفات الذات عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «لَمْ يَزَلِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رَبُّنَا وَالْعِلْمُ ذَاتُهُ وَلَا مَعْلُومٌ ... فَلَمَّا أَحْدَثَ الْأَشْيَاءَ وَكَانَ الْمَعْلُومُ، وَقَعَ الْعِلْمُ مِنْهُ عَلَى الْمَعْلُومِ» (٤).

يحتمل أن يكون هذا التعبير إشارة إلى العلم الإجمالي السابق لحدوث الأشياء والعلم التفصيلي اللاحق لحدوثها.

٥- وفي حديث آخر ورد أن أحد أصحاب الإمام الرضا عليه السلام كتب إليه رسالة يسأل فيها عن الله عز وجل: «أَكَانَ يَعْلَمُ الْأَشْيَاءَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْأَشْيَاءَ وَكَوْنَهَا؟ أَوْ لَمْ يَعْلَمْ ذَلِكَ حَتَّى يَخْلُقَهَا وَأَرَادَ خَلْقَهَا وَتَكْوِينَهَا؟ فَعَلِمَ مَا خَلَقَ عِنْدَ مَا خَلَقَ، وَمَا كَوَّنَ عِنْدَ مَا كَوَّنَ؟ فَوَقَعَ بِخَطِّهِ: لَمْ يَزَلِ اللَّهُ عَالِماً بِالْأَشْيَاءِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْأَشْيَاءَ كَعِلْمِهِ بِالْأَشْيَاءِ بَعْدَ مَا خَلَقَ الْأَشْيَاءَ» (٥).

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٨.

(٢) المصدر السابق، الخطبة ١٥٢.

(٣) المصدر السابق، الخطبة ٨٦.

(٤) اصول الكافي، ج ١، ص ١٠٧.

(٥) المصدر السابق.

إن كل واحد من التعابير الدقيقة والظريفة التي وردت في هذه الروايات يُعدُّ باباً من البحوث العلمية والمنطقية التي تدور حول مسألة علم الله تعالى والتي ذكرناها سابقاً.

وقد بلغت الروايات الواردة في علم الله من الكثرة بحيث لو جمعت لصارت كتاباً مستقلاً.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٧٩

أقسام علم الله

أ و ب) إن الله سميع وبصير

تمهيد:

كما نعلم فإن صفات الله عين ذاته، وذاته عين صفاته، وبتعبير آخر فإن الله ذات كل علم، وكلها قدره، وكلها أزليته وأبديته، أى هناك كمال مطلق غير متناهٍ جامع لجميع هذه الصفات.

وعليه فإن تفكيك الصفات تابع لمنظرنا وإدراكنا العقلي.

لذا فقد تكون احدى هذه الصفات الإلهية أحيانا ذات فروع كثيرة، وهذه الفروع أيضاً تكون تابعة لزاوية نظرنا كوصفه تعالى بصفتي «السميع» و «البصير»، واللذان يعتبران من الصفات الإلهية المعروفة التي تكرر ذكرها في القرآن الكريم عشرات المرات.

«السميع»: كناية عن علم الله ب «المسموعات»، و «البصير» كناية عن علمه تعالى ب «المبصرات» من الحوادث والأشخاص والأعمال وغيرها.

وعندما تستعمل هذه الألفاظ بخصوص البشر فإنها بصدد عضوى العين والاذن، لكنّها عندما تستعمل بخصوص البارى تعالى فإنها تتجرد من هذه المفاهيم وتفيد حقيقة العلم بالمسموعات والمبصرات، وسنوضح ذلك فى قسم التوضيحات إن شاء الله تعالى.

بعد هذا التمهيد نعود إلى القرآن الكريم لنتمعن فى الآيات التالية:

١- «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ». (الشورى ١١)

٢- «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً». (النساء / ٥٨)

٣- «لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٨٠

عَلِيماً». (النساء / ١٤٨)

٤- «وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ». (البقرة / ٢٤٤)

٥- «وَأَنْ هَتَدْتُمْ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيْ رَبِّي أَنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ». (سبأ / ٥٠)

٦- «هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ». (آل عمران / ٣٨)

٧- «وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ». (البقرة / ٢٣٣)

٨- «إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ». (فاطر / ٣١)

٩- «فَسْتَدْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَؤُضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ».

(غافر / ٤٤)

١٠- «أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ» (١). (الملك / ١٩)

شرح المفردات:

(سميع) من مادة «سَمِعَ» على وزن «مَنَع» وفي الأصل بمعنى القوَّة السامعة التي بواسطتها يسمع الإنسان الأصوات (تأتى بمعنى المصدر، وتأتى بمعنى الاسم المصدرى أيضاً)، وقد تُطلق هذه الكلمة على عضو السمع أى الأذن أحياناً. واتسع هذا المفهوم فشمَل استعمالات أخرى، فهو يُطلق أيضاً على الإدراكات الباطنية

(١) الآيات أعلاه نماذج حول وصفى «السميع» و «البصير»، حيث إنها تشتمل على نقاط كثيرة. كما أن هنالك آيات قرآنية كثيرة أخرى حول هذا الموضوع، سنشير إليها أدناه، أما تفسيرها فسيوضح من الآيات أعلاه:

البقرة، ١٨١ و ٢٢٤ و ٢٢٧ و ٢٥٦؛ آل عمران، ٣٤ و ٣٥ و ١٢١؛ المائدة، ٧١؛ الأنعام، ١٣ و ١١٥؛ الأنفال، ١٧ و ٤٢ و ٥٣ و ٦١؛ التوبة، ٩٨ و ١٠٣؛ يونس، ٦٥؛ الاسراء، ١؛ الأنبياء، ٤؛ الحج، ٦١ و ٧٥؛ النور، ٢١ و ٦٠؛ لقمان، ٢٨؛ غافر، ٢٠ و ٥٦؛ الصف، ٣٦؛ الدخان، ٦؛ الحجرات، ١؛ المجادلة، ١؛ النساء، ١٣٤ و ١٤٨؛ البقرة، ٩٦ و ١١٠ و ١٥٦ و ١٦٣؛ الأنعام، ٢٩ و ٧٢؛ هود، ١١٢؛ الاسراء، ١٧ و ٣٠ و ٩٦؛ سبأ، ١١؛ فاطر، ٤٥؛ فصلت، ٤٠؛ الشورى، ٢٧؛ الحجرات، ١٨؛ الحديد، ٤؛ الممتحنة، ٢؛ التغابن، ٢؛ الفرقان، ٢٠؛ الأحزاب، ٩؛ الفتح، ٢٤؛ الانشقاق، ١٥.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٨١

الروحية، واتسع أكثر فاستُخدم للإشارة إلى إحاطة الله الوجودية بجميع الأصوات.

وقد تستعمل هذه الكلمة بمعنى الفهم والإدراك أحياناً، كما ورد في الآية: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ» (١). (الأنفال / ٢١)

«بصير»: من «بصر» (على وزن سَفَر) وتعنى العين كما قال الراغب في مفرداته، وقد تأتى بمعنى حدَّة النَّظَر أحياناً، لذا قد تستعمل بمعنى قوَّة الإدراك والبصيرة الباطنية «البصر والبصيرة» أحياناً، كما ورد في قوله تعالى: «فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ». (ق / ٢٢)

وقد ذكر «ابن منظور» في «لسان العرب» أيضاً نفس هذه المعانى لكلمة «بصر»، في حين نجد أن «صحاح اللغة» فسرها بمعنى حاسية النظر، وبمعنى العلم أيضاً، وفسرها «المصباح» بمعنى النور الذى يُمكن للعين رؤية المبصرات عن طريقه. لكنه يُستنتج من مجموع كلمات أصحاب اللغة وموارد استعمال هذه الكلمة، أنها تعنى أولاً عضو النظر، ثم قوَّة النظر، وبعدها استعملت بمعنى الإدراك الباطنى والعلم، وفي خصوص البارى تعالى تُستعمل بمعنى إحاطته الوجودية بالمبصرات.

جمع الآيات وتفسيرها

هو السميع البصير:

بعد أن نفت الآية الأولى وجود المثل عن الله تعالى وصفته بصفتي السميع والبصير: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ». وواضح أن المقصود من «ليس كمثل شىء» يشمل كلاً من ذاته وصفاته وأفعاله، لأنَّ ذاته واجبة الوجود، وصفاته وأفعاله لامتناهية، وما اعتقده بعض المفسرين من أن نفى المثل والشبيه الوارد في هذه الآية يشمل الذات المقدسة فقط ولا يشمل الصفات، محض اشتباه.

(١) مفردات الراغب؛ مقاييس اللغة؛ لسان العرب والتحقيق في كلمات القرآن الكريم.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٨٢

صحيح أن هنالك صفات كالعالم والقادر والسميع والبصير، تطلق على الخالق والمخلوق، لكنّه لا ريب في أن مفاهيمها متفاوتة في هاتين الحالتين. لذا فقد قال بعض المفسرين: إن الآية أعلاه تفيد الحصر، أي أن الله تعالى هو السميع والبصير فقط، لأنه تعالى سميع بكل ما تعنيه هذه الكلمة، وبصير كذلك، أي يعلم جميع المسموعات والمبصرات ولا أحد غيره مثله في هاتين الصفتين. فالبشر وسائر الاحياء التي تمتلك عيوناً وآذاناً تدرك فقط أجزاء محدودة من الألوان والأصوات، وقد ثبت الآن علمياً أن الامواج الصوتية التي تعجز اذن الإنسان والحيوانات عن سماعها تفوق بكثير ما يمكن إدراكه، وهكذا في مورد الألوان والمرئيات.

يعلم ما تعملون:

بعد أن أمر الله سبحانه وتعالى عباده في الآية الثانية بأداء الأمانات إلى أهلها والحكم بين الناس بالعدل، وصف نفسه بهاتين الصفتين اللتين لهما علاقة وثيقة ولطيفة بالأمرين الواردين في بداية الآية حيث قال تعالى «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا». وكما نعلم فإن الأمانات الواردة في الآية ذات معنى واسع وعميق، وقد ورد في روايات أهل البيت عليهم السلام بأنها تشمل حتى مسألة إمامة وقيادة الناس، فهي أمانات إلهية ويجب أن تودع عند أهلها «١». وكذلك فإن تعبيره سبحانه بكلمة (الناس) يشمل جميع البشر حتى من هم غير مسلمين، أي ينبغي رعاية اسس العدالة بين جميع بنى البشر، ومعاملة الصديق والعدو، والغريب والقريب بالتساوى.

(١) وردت روايات كثيرة في هذا المجال، ولزيادة الاطلاع راجع تفسير البرهان، ج ١، ص ٣٨٠؛ وتفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٤٩٦.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٨٣

للبحث حول مسألتى الأمانة والعدالة، اللتين هما روح المجتمع الإنساني وروح الحكومة الإسلامية، محل آخر طبعاً، وستناول ذلك فيما بعد. الغرض هنا هو معرفة علاقة هاتين المسألتين بصفتي «السميع» و«البصير» المنسوبتين إلى الله تعالى. وهذه الجملة بالحقيقة هي تحذير لكل من يتولى منصباً رئاسياً، أو يأخذ على عاتقه حمل أمانة معينة، أو قضاءً وحكماً بين الناس، وهذا التحذير كأنه يقول لنا: إعلموا بأن الله تعالى رقيب عليكم يعلم ما تعملون، ويسمع ما تقولون، وهذا يثبت بأن لصفات الله جانباً تربوياً بالإضافة إلى مسألة العقيدة.

بالإضافة إلى أنه من المحتمل أن تكون هاتين الصفتين إشارة إلى نقطة اخرى، وهي أن مسألة أداء الأمانة والحكم بين الناس تحتاج إلى اذن سميعة وعين بصيرة، فلا يمكن البت في الامور بدون سماع صوت المظلومين، ومعرفة حقيقة مظالمهم، والتمعن الكامل في هذه الأمور، ويجدر الالتفات إلى أن فعل (كان) يدل على ملازمة هذه الصفات للذات الالهية المقدسة، فهو سبحانه وتعالى سميع بصير دائماً وأبداً.

وما يجدر ذكره هو تقارن هاتين الصفتين (السميع والبصير) في مواضع اخرى أيضاً من القرآن.

والملفت للنظر هو تقدم صفة السميع على البصير في كل مواضع القرآن التي وردت فيها هاتان الصفتان سوياً، ولعل السير في ذلك يكمن في كون القول يسبق العمل، وحيث إن هذه الآيات تهدف إلى تنمية الحالات التربوية للإنسان، فهي تريد أن تخاطب الإنسان وتقول:

«يأيتها الإنسان إن ربك يسمع أقوالك ثم يرى أعمالك».

هو السميع والعليم:

دار الحديث في الآية الثالثة عن «السميع» و «العليم» حيث ذكرت المظلومين وسمحت لهم بالاعلان عن مظلوميتهم وفضح الظالمين، قال تعالى «لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا».

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٨٤

أما المقصود من «الجهر بالسوء»، فقد قال بعض المفسرين: إنه بمعنى لعن المظلوم للظالم، وفسره البعض الآخر بالسب والشتم، والبعض الآخر بمعنى الترافع إلى القاضى، أو بمعنى تعرية ظلم الظالمين أمام الناس فى الغيبة والحضور.

«لكن مناسبة الحكم للموضوع» توجب إباحة هذه الأمور فى مجال دفع الظلم، وكسب الرأى العام ضد الظالم فقط، لذا فمن الأفضل أن تنحصر مسألة سب وشتم الظالمين بالمجال الذى تكون عاملاً مساعداً للنهى عن المنكر ومحاربة الظلم والفساد.

وجمله «وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا» تصلح فى أن تكون مستثنى كما تصلح أن تكون مستثنى منه أيضاً، أى أنها تحذير للمغتائبين الذين لم يتعرضوا للظلم، كما أنها تحذير للمظلومين لئلا يتعدوا حدود الله، ويراعوا العدل والانصاف.

والجدير بالذكر هو أن السب فى ذكر صفتى السميع والعليم يكمن فى تحدث الآية عن الجهر بالسوء ودوافعه الذاتية الخفية، فقالت: بأن الله يسمع هذا الكلام، وهو عليم بتيات المظلومين الذين يجهرون بمظلوميتهم.

وأما مقاله البعض: من أن مفهوم الآية هو جواز رد الشتم بالمثل، كما لو قال أحد لشخص: (أيتها الزانى)، يجوز لهذا الشخص أن يرد عليه بذلك، خطأ كبير. لأنه يجب مواجهه ظلم الظالم بإحقاق الحق، لا بارتكاب ظلم آخر، ويجب النهى عن المنكر ودفع شر الظالم، لا ارتكاب منكر آخر وإيجاد ظالم آخر.

على أية حال، فإن هذه الآية تدل على رفض الإسلام الركون إلى الظالمين، بعكس مانسبه البعض إلى السيد المسيح عليه السلام من أنه قال: «لو ضربك أحد على خدك الأيمن، فقدم له خدك الأيسر!»

جهادكم:

الله يرى ويعلم، فى الآية الرابعة نلاحظ تعبيراً جديداً أيضاً، حيث أمرت الناس بالالتفات إلى هاتين الصفتين الإلهيتين (السميع والعليم)، قال تعالى «وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ».

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٨٥

والتعبير بعبارة «فِي سَبِيلِ اللَّهِ» تعبير لطيف وغنى جداً، حيث وضح للجميع بأن الهدف من الجهاد الإسلامى ليس كسب السلطة الدنيوية واحتلال الدول - كما اتهمنا به الكثير من مفكرى الغرب، بل فتح الطرق إلى الله - طرق الطهارة والتقوى والحق والعدالة -.

وجمله «وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» تحذّر جميع المجاهدين المسلمين لكى يراقبوا أقوالهم وتياتهم، ويتجنبوا كُمل مايشوه المعنى السامى والجميل لكلمة: «فِي سَبِيلِ اللَّهِ»، وكذلك فإنها تزيد من معنوياتهم عندما يتقون بأن الله معهم أينما كانوا، ويعلم حالهم.

إنه قريب منكم:

وفى الآية الخامسة يطالنا تعبير جديد، وهو اقتران مفهوم «السميع» مع مفهوم «البصير»، حيث قال سبحانه مخاطباً رسوله الكريم صلى الله عليه وآله: «وَأَنْ اهْتَدَيْتُمْ فِيمَا يُؤْتِيهِ رَبِّي أَنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ».

وهذه الآية تشير إلى احتمال ضلال الرسول بدون الوحي الإلهى، وأن الذى يعصمه صلى الله عليه وآله من الخطأ ويهديه إلى الحق

والصواب هو الوحي الإلهي، لا التفكير والاستدلال البشري المعرض للخطأ.

وقد ورد في بعض التفاسير بأن جماعة من المشركين قالوا للرسول الأعظم صلى الله عليه وآله: لقد ظلمت يا محمد، لأنك تركت دين أجدادك، فنزلت هذه الآية وأجابتهم عن لسان رسول الله صلى الله عليه وآله: بأنه لو كنت أعتد على نفسي في هذا الأمر لكتمت محقين في اتهامكم لي بهذه الاتهامات، ولكن ارتباطي بالوحي الإلهي لا يبقى معنى للضلال في هذه الحالة، وذلك لأنه تعالى يعلم أسرار الغيب، (وهي العبارة التي وردت في الآيتين السابقتين)، وهو السميع البصير (العبارة الواردة في الآيات الثلاث السابقة) وهو السميع القريب (هذه العبارة الواردة في ذيل هذه الآية المعنى في بحثنا هذا).

ويستنتج من هذه الآية أيضاً أن الاعتماد على النفس هو الذي يقود الإنسان إلى الضلال، وأن الاعتماد على القوة العقلية أيضاً لا يوصله إلى مكان معين، وأنه يحتاج لبلوغ

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٨٦

مراده إلى الاستنارة بنور الوحي الإلهي.

والملاحظة الأخيرة هي أن قرب الله منا ليس كقرب بعضنا من بعض، بل هو أقرب إلينا من أنفسنا، كما سنبحث هذا في محله إن شاء الله تعالى

إنه سميع الدعاء:

طرحنا الآية السادسة تعبيراً جديداً أيضاً، حيث وصفته تعالى بسميع الدعاء، فنقلت عن زكريا عليه السلام عندما رأى مقاماً ومنزلة مريم عليها السلام، فقال: «هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ» (١)

وبالرغم من أن السميع من السمع، لكنها في مثل هذه الحالات تعطي معنى السامع ومعنى المجيب. وذلك لأن من لم يستجب لنداء معين كأنه لم يسمعه (٢).

إنه تعالى بصير:

أكدت الآية السابعة على مفهوم البصير بما يعمل الإنسان، والذي يُعد المحور الأساس للمسائل التربوية، قال تعالى «وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلِّمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ».

وذكر هذه الجملة بعد إصدار سبعة أوامر حول رخصة الأولاد، وحق الأولاد والأمهات والمرضعات، ومسؤولية الوالد تجاههم، وبديهي أن فقدان التقوى هنا، وعدم خوف الإنسان من المراقبة الإلهية سوف يكون مانعاً من إيجاد علاقات اجتماعية سليمة داخل الأسرة لحفظ حقوق الجميع، وقد أثبت التجارب صعوبة توطيد أسس الحق والعدالة في النظام الأسري باستعمال قوة القانون والخوف والعقوبات، وأن السبيل الوحيد لذلك هو حلول روح التقوى والإيمان بالله سبحانه وتعالى وبأنه بكل شيء بصير.

(١) «الذرية» بمعنى الولد وتطلق على المفرد والجمع بلفظ واحد، لكنها اطلقت هنا واريدها منها المفرد وذلك بقريته «ولياً» التي جاءت في الآية ٥ من هذه السورة.

(٢) تفسير القرطبي، ج ٢، ص ١٣١٤؛ و تفسير روح البيان، ج ٢، ص ٣٠؛ و تفسير روح المعاني، ج ٣، ص ١٢٨ في ذيل الآية مورد البحث.

إن الله خير بأحوال العباد:

يُلاحظ في الآية الثامنة تعبيراً جديداً أيضاً، وهو اقتران مفهومى الخير والبصير مع بعضهما، فقد تحدثت الآية في بدايتها عن الوحي الإلهي، وانزال القرآن الكريم بعد الكتب السماوية السابقة له، ثم قال تعالى «إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ».

إن هذه الجملة تشير إلى أن هذا الكتاب السماوي يتناغم مع وضعيته البشر واحتياجاته في جميع المجالات، لأنه نزل من لدن خير بكل شيء وبصير بكل حوائج الإنسان.

وقد فسرت هذه الآية أيضاً بأنها ردٌ على إشكال من كانوا يعترضون على انزال القرآن على محمد صلى الله عليه وآله لكونه يتيماً وفقيراً، فقال تعالى بأنه الخير والبصير بعباده ويعلم أيهم أكثر استعداداً لتحمل عبء الرسالة الشريفة. (ولا يمكن الاستدلال على هذا المعنى بقريته الآية التي تلت هذه الآية) «١».

ولا بأس بالجمع بين التفسيرين.

وذهب بعض المفسرين: إلى أن كلمة خير هنا كناية عن الاحاطة بالأمر المعنوية والروحانية، وبصير كناية عن الاحاطة بالأمر الجسمانية، ولهذا السبب تقدمت كلمة الخير على كلمة البصير.

وبالرغم من أن كلمة الخير المشتقة من الخبر ذات معنى واسع جداً يشمل كل احاطة بظواهر الامور وبواطنها، إلا أن اقترانها بصفة البصير يوحى إلى كونها كناية عن الاحاطة بباطن الأمور (وقد ذكر الراغب في مفرداته بأن أحد معاني هذه الكلمة هو العلم بباطن الأمور).

إنه بصير بالمشاكل التي تواجه عباده:

ذكرت الآية التاسعة صفة البصير فقط، وأما ما جاء من أنه بصير بعباده وحاجتهم إلى الامداد الإلهي. فهذا جاء نقلاً لخطاب مؤمن آل فرعون الذي كان يكتنم إيمانه عن آل

(١) التفسير الكبير، ج ٢٧، ص ٢٤؛ في تفسير روح البيان، ج ٧، ص ٣٤٦، فيه إشارة إلى هذا المطلب.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٨٨

فرعون وبذل النصيح لقوم موسى عليه السلام عندما كانوا يخططون لقتله، وهذدهم بالعذاب الإلهي وصرههم عن هذا العمل فقال لهم: «فَسْتَدْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ»، فإن حملتم كلامي هذا على التعاون مع موسى عليه السلام وقصدتم ايدائي فاني: «وَأُقَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ».

وبالتالى فقد نجى الله سبحانه هذا العبد المؤمن المجاهد من المؤامرات العديدة التي حيكت ضده (والتي كان من جملتها التعذيب والاعدام).

وبالحقيقة، أن التذكير بكون الله بصيراً بالعباد هنا إنما هو كناية عن عدم تخلى مثل هذا الرب عن عباده المجاهدين المخلصين، وأن مثل هؤلاء العباد بإيمانهم يمثل هذا الرب سوف لا يهابون الصعاب، ومن هذه الجهة فقد أشارت الآية التي بعدها إلى نجاته من مخالب الاعداء فى ظل اللطف الإلهي.

وهذه المسألة جديرة بالذكر أيضاً، وهى الآصرة الوثيقة الموجودة بين كون الله سبحانه بصيراً بعباده وبين تفويض الامور له، لأنه كيف يمكن أن يدافع عن الإنسان من لا يعلم مشاكل الإنسان وحوائجه الظاهرية والباطنية؟ وبتعبير آخر فالتفويض بمعنى ثمره الإيمان بكون الله بصيراً بالعباد وأمورهم، والتفويض هنا طبعاً لا- يعنى أن يتعاس الإنسان ويتكاسل أبداً، لأن هذا الكلام صدر من رجل

مجاهد جازف بحياته من أجل الدفاع عن موسى عليه السلام ورسالته، بل المقصود هو أداء التكليف ثم تفويض الأمر إلى الله سبحانه وتعالى

الطير فوقهم صافات:

وأخيراً نجد أن المسألة خرجت من دائرة أعمال العباد في الآية العاشرة والأخيرة من آيات البحث، حيث أشارت الآية إلى جميع عالم الوجود وكون الله بصيراً بتنظيم قوانينه: «وَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ وَيَقْبِضْنَ». فمن الذي يُمسك هذه الأجسام الثقيلة في الجو التي تقاوم قانون الجاذبية، لساعات أو أسابيع أو أشهر؟ وقد تواصل بعض الطيور المهاجرة طيرانها لمدة أسابيع وأشهر متواصلة

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٨٩

وبدون أدنى توقف: «مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ». لماذا؟ ل «أَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ».

فهو يعلم جميع القوانين التي تساعد على الطيران باطمئنان وسكينه تامّة، لأنه هو خالق هذه القوانين ومنظمها. أجل، إنه هو الرحمن الذي وسعت رحمته العامة جميع الوجود، وهو الذي منح هذه الطيور شكلاً مناسباً ووزناً مناسباً وأرجلاً وعيوناً وحواس مناسبة لكي تتمكن من التحليق في كبد السماء العالية.

والملفت هو أن أسلوب الطيران وكيفية ابتدائه وانتهائه متفاوت جداً لدى أنواع الطيور طبقاً لهيكلها واسلوب معيشتها والمحيط الذي تتواجد فيه، والأعجب من ذلك هو أن أنواعاً من الطائرات قد صُممت وصنعت لحد الآن بالاقتراب من أشكال وأجنحة الطيور المختلفة، وهذا هو تجلي معنى الآية «أَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ»، وإن لم يتجل لنا هذا المعنى بأن كنا متطبعين على عجائب هذا العالم، فإن مشاهدة الطيور الجميلة العائمة في الفضاء بحركاتها الجذابة الماهرة التي تجذب إليها الانظار، كافية لإدراك قدرة وعلم هذا الخالق البصير.

نتيجة البحث:

نستنتج من مجموع الآيات المذكورة أعلاه بأن الله لا يخفى عليه مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض، والإيمان بهذه الحقيقة يحتمل أن يكون له تأثيرٌ بليغ في ايقاظ الإنسان وتربيته، لذا، فالآيات أعلاه أيضاً تدور غالباً حول محور المسائل الإنسانية التربوية.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٩٠

توضيحات

١- معنى كون الله سمياً بصيراً

إن جميع علماء الإسلام يذكرون الله تعالى بصفات «السميع» و «البصير»، وذلك لتكرار ذكر هذه الصفات - كما نعلم - في القرآن الكريم.

ولكنهم اختلفوا في تأويلهما.

اعتقد المحققون بأن كون الله سمياً وبصيراً بحيث لا- تتعدى قدره احاطته وعلمه المسموعات والمرئيات، ولأن لهاتين الكلمتين

مفهومان يستعملان للتعبير عن قوة سمعنا وبصرنا، فلذلك يتبادر إلى الذهن عضوا الأذن والعين، ولكن من البديهي أنهما عندما تُستعملان لوصف البارئ سبحانه وتعالى تتجردان عن مفاهيم الآلات والأدوات والأعضاء الجسمانية، لأن ذاته المقدسة أسمى وأجل من الجسم والجسمانيات.

وهذا ليس تعبيراً مجازياً طبعاً، وإن سَمِيناه مجازياً فهو مجازي مافوق الحقيقة، لأنه يعلم ويحيط بالمسموعات والمبصرات وهي ماثلة بين يديه تعالى بحيث يسبق ويفوق كل سمع وبصر، لذا فقد ورد وصفه تعالى في الأدعية باسمع السامعين وأبصر الناظرين. لكن جماعة من قدماء المتكلمين اعتقدوا بأن صفتي السميع والبصير، تختلفان عن صفة «العلم»، وهؤلاء لا بد لهم من الاعتقاد بأن صفتي السميع والبصير من الصفات الزائدة على ذات الله، وهذا يعنى الاقرار بتعدد الصفات الأزليّة، وهو نوع من الشرك، وإلا فكون الله سميعاً بصيراً لا يمكن أن يكون سوى علمه بالمسموعات والمرثيات.

٢- السميع والبصير الواردة في نهج البلاغة والروايات

بحثت الروايات الإسلامية هذه الصفات الإلهية بشكل عميق ودقيق، ونتطرق هنا إلى ذكر نموذجٍ منها لتكملة البحث.

١- في خطبه لأمير المؤمنين على عليه السلام قال:

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٩١

«كُلُّ سَمِيعٍ غَيْرُهُ يَصْمُ عَنْ لَطِيفِ الْأَصْوَاتِ، وَيُصَمُّهُ كَبِيرُهَا، وَيَذْهَبُ عَنْهُ مَا بَعْدَ مِنْهَا، وَكُلُّ بَصِيرٍ غَيْرُهُ يَعْمَى عَنْ خَفِيِّ الْأَلْوَانِ وَلَطِيفِ الْأَجْسَامِ» (١)

٢- وفي مكان آخر قال عليه السلام:

«وَالسَّمِيعِ لَا بَأْدَاءَ، وَالْبَصِيرِ لَا بَتَفْرِيقِ آلِهَةٍ» (٢)

٣- وفي خطبه أخرى قال:

«فَاعِلٌ لَا بَمَعْنَى الْحَرَكَاتِ وَالْآلَةِ، بَصِيرٌ إِذْ لَا مَنْظُورَ إِلَيْهِ مِنْ خَلْقِهِ» (٣)

٤- وورد عن الإمام الصادق عليه السلام عندما سأله زنديق عن الله عز وجل كيف أنه سميع بصير قال:

«هُوَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ، سَمِيعٌ بَعِيرٍ جَارِحَةٍ، وَبَصِيرٌ بَعِيرِ آلِهَةٍ، بَلْ يَسْمَعُ بِنَفْسِهِ وَيَبْصُرُ بِنَفْسِهِ...» (٤)

٥- في البحار عن الإمام الصادق عليه السلام عن أحد أصحابه قال له: إن رجلاً ينتحل موالاةكم أهل البيت يقول: إن الله تبارك وتعالى لم يزل سميعاً بسمع، وبصيراً ببصر، وعليماً بعلم، وقادراً بقدره.

قال: فغضب عليه السلام ثم قال:

«من قال ذلك ودان به فهو مشرك، وليس من ولايتنا على شيء، إن الله تبارك وتعالى ذاتٌ علّامةٌ سميعهٌ بصيرهٌ قادرةٌ» (٥)

٣- الأثر التربوي للإيمان بكون الله سميعاً بصيراً

إن تأكيد القرآن على وصف البارئ تعالى بهاتين الصفتين له آثار تربوية مهمة، فهو يرفع

(١) نهج البلاغه، الخطبة ٦٥.

(٢) المصدر السابق، الخطبة ١٥٢.

(٣) المصدر السابق، الخطبة ١.

(٤) اصول الكافي، ج ١، ص ٨٣، ح ١.

(٥) بحار الأنوار، ج ٤، ص ٦٢ عن أمالي الصدوق وكذلك التوحيد.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٩٢

الوعى لدى المسلمين للوصول إلى معرفة الله من جهة، ومن جهة أخرى يدعوهم جميعاً إلى التخلق بهذا الخلق الكريم والتشبه بهاتين الصفتين الإلهيتين، ومن جهة ثالثة يلقي في قلوب المؤمنين السكينه من حيث كون يد العناية والحماية الإلهية معهم في كل حال، ومن جهة رابعة تحذير للمؤمنين ليراقبوا أقوالهم وأعمالهم لأن الله محيط بها علماً.

وقد أكدت الروايات الإسلامية الشريفة أيضاً على هذه المسألة التربوية المهمة ومن جملة هذه الروايات.

١- ورد عن الإمام الصادق عليه السلام حديث يعرض به أحد خواصه وهو (اسحاق بن عمار) قال عليه السلام: «يا اسحاق خف الله كأنك تراه وإن كنت لا تراه فإنه يراك، فإن كنت ترى أنه لا يراك فقد كفرت وإن كنت تعلم أنه يراك ثم برزت له بالمعصية فقد جعلته من أهون الناظرين عليك» (١)

٢- وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير الآية: «ولمن خاف مقام ربه جنتان» قال:

«من علم أن الله يراه ويسمع ما يقول ويعلم ما يعمل من خير أو شر، فيحجزه ذلك عن القبيح من الأعمال، فذلك الذي خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى» (٢).

٣- وكذلك ماورد في تفسير (علي بن ابراهيم) عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «لما همت به وهم بها قامت إلى صنم في بيتها فألقت عليه ملاءة لها فقال لها يوسف: ما تعملين؟ قالت: ألقى على هذا الصنم ثوباً لا يرانا فاني استحي منه. فقال يوسف: فأنت تستحين من صنم لا يسمع ولا يبصر ولا استحي أنا من ربي؟» (٣)

٤- ورد في تفسير روح البيان في ذيل الآية «وَأَفْوُضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ». (غافر/ ٤٤)

(١) اصول الكافي، ج ٢، ص ٦٧، ح ٢.

(٢) اصول الكافي، ج ٢، ص ٧، ح ١٠ ذيل الحديث يفيد أن الإمام قال هذا الكلام في تفسير الآية «وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى».

(٣) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٤٢٢.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٩٣

خرج بعض الأصحاب (رضى الله عنهم) إلى الصحراء فطبخوا الطعام، فلما تهيأوا للأكل رأوا هنالك راعياً يرعى أغناماً فدعوه إلى الطعام، فقال الراعي: كلوا أنتم فأنى صائم. فقالوا له على سبيل الاختبار: كيف تصوم في مثل هذا اليوم الشديد الحرارة؟ فقال لهم: إن نار جهنم أشد حرّاً منه، فأعجبهم كلامه فقالوا له: بع لنا غنماً من هذه الأغنام نعطك ثمنه مع حصه من لحمه، فقال لهم: هذه الأغنام ليست لي وإنما هي لسيدى ومالكى، فكيف أبيع لكم مال الغير؟ فقالوا له: قل لسيدك إنه أكله الذئب أو ضاع: فقال: أين الله؟!!

فأعجبهم كلامه زيادة الإعجاب، ثم لما عادوا إلى المدينة اشتراه ابن مسعود من مالكه مع الأغنام فأعتقه، ووهب الأغنام له، وكان ابن مسعود يقول له في بعض الأحيان بطريقة الملاطفة: «أين الله» (١).
وهناك نماذج كثيرة من هذا القبيل، منقولة في التأريخ والروايات الإسلامية، تدل على الأثر التربوي البليغ التابع من الإيمان بعلم الله وتواجده في كل مكان، وبكونه سمياً وبصيراً، في الحجز عن المعاصي والذنوب.

٤- الله المدرك

عدّ علماء العقائد صفة «المدرك» من إحدى صفات الله، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى حيث قال: «لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ».
(الأنعام/ ١٠٣)

قال المتكلمون: إنَّ المدرك بمعنى السميع والبصير، وعليه فهذه الكلمة تجمع كلتا الصفتين (٢).
وقد قال الراغب في المفردات: بأنَّ «الإدراك» معناه الوصول إلى نهاية الشيء، لكن البعض فسروها بالمشاهدة العينية، والبعض الآخر قالوا: إنها بمعنى المشاهدة ببصيرة القلب.

(١) تفسير روح البيان، ج ٨، ص ١٨٨.

(٢) شرح التجريد: «في أن الله سميع بصير».

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٩٤

وفي الحقيقة فإنه لا شيء في اللغة يدل على أن معنى الإدراك هو الإدراك الحسي، بل وكما قلنا فإنَّ الإدراك معناه الوصول إلى نهاية الشيء والاحاطة به، سواء كان حسياً أم عقلياً، وما يثير العجب أكثر هو أنه على الرغم من أن الآية المذكورة قالت وبعبارة صريحة:

«لا تدركه الأبصار» (سواء في الدنيا أم في الآخرة، وسواء في ذلك الرسول صلى الله عليه وآله في ليلة المعراج أم غيره) فمع ذلك أصرَّ بعض المفسرين على حمل الآية على خلاف معناها الظاهري، وقالوا: إنه يمكن رؤية الله في الآخرة على الأقل، وذكروا عدّة توجيهات في هذا المجال، وقد ذكر الفخر الرازي أربعة نماذج منها في تعليقه على هذه الآية (١)، جميعها ضعيفة جداً وتبعث على التأسف وتدل على ميل البعض في فرض آرائهم الباطلة على القرآن بأيِّ ثمن كان.

وسنبحث هذا الموضوع بتفصيل أكثر في شرح الصفات الإلهية السلبية إن شاء الله تعالى وسوف نلاحظ عكس ذلك تماماً في روايات أهل البيت عليهم السلام حيث لم تكتفِ فقط بنفى قدرة الإنسان على رؤيته تعالى بل حتى نفت قدرة العقل البشري على إدراك كنه ذاته المقدسة.

(١) تفسير الكبير، ج ١٣، ص ١٢٤.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٩٥

ج) إن الله حكيم

الجدير بالذكر هو أنّ القرآن الكريم وصف الذات الإلهية المقدّسة بـ «الحكيم» في تسعين موضعاً! وقد اقترنت في كثير من المواضع مع صفة «العزیز».

وأحياناً مع صفة «الخبير».

واخرى مع صفة «العليم».

واخرى مع صفة «الواسع».

وأحياناً مع صفة «التوّاب».

وأحياناً مع صفة «العلی».

وأحياناً اخرى مع صفة «الحميد».

وكما سنرى فيما بعد فإنّ كل واحدة من هذه الصفات تعطى مفهوماً أكمل وأشمل عندما تأتي مع صفة الحكيم. وعلى أيّة حال فإنّ حكمه الله ما هي إلّا علمه واحاطته بتدبير الوجود ونظم الخلق.

بعد هذا التمهيد نعمن خاشعين في الآيات التالية:

١- «إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ». (التوبه / ٧١)

٢- «وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ». (التوبه / ١٠٦)

٣- «كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ». (هود / ١)

٤- «وَلَوْ لَأَفْضَلُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَإِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ». (النور / ١٠)

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٩٦

٥- «تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ». (فصلت / ٤٢)

٦- «أَنَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ». (الشورى / ٥١)

٧- «وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا» (١)

(النساء / ١٣٠)

شرح المفردات:

لفظ «حكيم»، كما ورد في كتاب «العين» للخليل بن أحمد الفراهيدي مأخوذ من مادة «الحكمة»، وهي تفيد معنى «العلم» و «الحلم» و «العدالة»، وحسب ماورد في مفردات الراغب، فإنّ «الحكيم» بمعنى المنع من شىء لغرض إصلاحه، أمّا في مقاييس اللغة فقد فسر لفظ الحكيم بمعنى المنع من الظلم، وعلى هذا الأساس فإنّ عنان أو لجام الحيوان يسمى «حكمة» على وزن «صدمه»، وأيضاً يقال للعلم والمعرفة «حكمة»، لأنّها تمنع الشخص من القيام بالأعمال غير اللائقة.

ويقال أحياناً «للحكيم» «حكومة»، وذلك لأنّ الحكومة تمنع الناس من القيام بالأعمال غير القانونية.

ورد في «لسان العرب»، أنّ «الحكم» تعنى العلم والفقه والقضاء بالحق والعدل.

وقال صاحب «صحاح اللغة»: أنّ «الحكيم» هو الشخص الذى ينجز أعماله بصورة صحيحة وطبق اصول وأسس معينة أمّا فى «النهاية» لابن الأثير، وفى «لسان العرب» فقد ورد معنى «الحكمة» بأنّه: معرفة أفضل الأشياء وأفضل الأساليب وأحسن كيفية ويقال للشخص الذى ينجز أعماله بدقة واتقان، «حكيم»، «نقول، إنّ فلان دلنا على أحسن مزرعة وبأقرب طريق، فهو حكيم، وكذلك بالنسبة للشخص الذى ينتج أفضل المنتجات بأفضل الطرق والأساليب، فهو حكيم أيضاً».

(١) وكما قلنا فلفظة «حكيم» قد وردت في آيات مختلفة من القرآن الكريم أكثر من تسعين مرة، لكن الآيات أعلاه شاملة لمختلف التعابير حول هذا الموضوع.
نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٩٧

جمع الآيات وتفسيرها

قدرته مقرونة بحكمته:

الجدير بالذكر أن الصفات التي وصف الله تعالى ذاته المقدسة بها في ذيل الآيات القرآنية المذكورة لها علاقة وثيقة وخاصة مع محتوى هذه الآيات، بحيث إن التدقيق في هذه المسألة يُرشد إلى نقاط مهمّة، ومع أخذ هذه الالتفاتة بنظر الاعتبار نحاول تفسير الآيات المذكورة.

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى في الآية الأولى قسماً من الواجبات الإسلامية حول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الصلاة وأداء الزكاة وما شاكل ذلك، وبعد التذكير بشمول رحمته عباده المطيعين، قال عز وجل: «إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ». «العزیز»: من «العزّة» أي عدم المغلوبيّة، والأصل في استعمالها هو في التعبير عن الأشياء الصلبة التي لا ينفذ فيها شيء، وعليه فإنّ صفتي «عزیز وحكيم» هنا تدلان على قدرته وعلمه اللامتناهين.

والجدير بالذكر هو أن هاتين الصفتين قد وردتا معاً في الكثير من الآيات القرآنية، وأكثر ماورد ذكرهما في الآيات التي تحدّثت حول تشريع الأحكام، وبعث الأنبياء، ونزول القرآن (كآيات ١٢٩ و ٢٠٩ و ٢٢٨ من سورة البقرة، والآية ٢ من سورتي الجاثية والأحقاف)، وذلك للتذكير بأنّ الله تعالى قد فضّل جميع ما يحتاجه البشر بتشريع القوانين وإنزال القرآن بدقّة متناهية، لأنّه علاوةً على كونه حكيماً وعليماً، فهو قادر على هذا العمل أيضاً.

وبتعبير آخر، إنّ أفضل القوانين يُشرعها من هو أعلم وأكثر اقتداراً من الجميع، وهو الله ولا أحد غيره.

وما ذكر في قسم من الآيات التي ختمت بصفتي «عزیز حكيم» عن خلق السماء والأرض، وتسييح الكائنات لله تعالى أو تنظيم خلقه الجنين، وما شاكل ذلك (كآية ١ من سورة الحديد، والآية ٢٤ من سورة الحشر، والآية ٦ من سورة آل عمران)، بمثابة كناية عن كون عالم التشريع ليس لوحده قائماً في ظلّ علم الله تعالى وحكمته، بل إنّ عالم التكوين كذلك أيضاً.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٩٨

وفي قسم آخر من الآيات ورد الحديث عن أفعال الله تعالى كالقيام بالقسط، وخلق المسيح عليه السلام، ونصر المؤمنين في القتال، وتأليف قلوب المؤمنين، وختمت بعبارة «عزیز حكيم» وهي (كآيات ١٨، ٦٢ و ١٢٦ من سورة آل عمران، والآية ٦٣ من سورة الأنفال).

وهذه الآيات تشير إلى أنّ أفعال الله تعالى أيضاً تتفرّع من علمه اللامحدود وقدرته المطلقة.

وأحياناً نجد أنّ بعض الآيات تتحدث عن الثواب والعقاب وتختتم ب (العزیز الحكيم) كما ورد في سورة (المائدة، ١٨)، كناية عن كون العطايا الإلهية أيضاً قائمة على أساس الحكمة والحساب الدقيق، وكذلك إشارة إلى قدرة الله تعالى على تنفيذ ما وعد به عباده المؤمنين من العطايا العظيمة، وإلى عجز المجرمين عن الفرار من عقابه تعالى

وأخيراً فقد يكون تلازم هاتين الصفتين من أجل إضاءة بصيص الأمل في قلوب المؤمنين وتهدئة خواطرهم، ليدركوا بأنهم ليسوا لوحدهم أبداً في الصعاب وعند مواجهة الأعداء، كما ورد في الآية الشريفة: «وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

(الأنفال / ٤٩)

وخلاصة الكلام فإنَّ عَزَّةَ الله تعالى وقدرته لا تبقى مجالاً لأي مانع دون تنفيذ إرادته ومشيتته سبحانه، فهو على كل شيء قدير، فله تعالى القدرة على إدارة نظام التكوين ونظام التشريع، وعلى الدفاع عن أوليائه وأحبابه سبحانه. ولكونه سبحانه حكيماً، فإنه خير بكل أسرار الوجود، وبمصالح الأمور ومفاسدها، وبحوائج عباده، واتصافه سبحانه وتعالى بهاتين الصفتين هو السر في تواجد أفضل الأنظمة في عالم الوجود.

جميع أفعاله تتسم بالحكمة:

وفي الآية الثانية يمر علينا التعبير القرآني الثاني في هذا المجال، حيث مزج علم الله

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٩٩

تعالى مع حكمته، ووصفه بصفتي العليم والحكيم في آن واحد، وبعد أن تحدثت عن جماعة من المسلمين خلطوا عملاً صالحاً وآخر طالحاً، قال تعالى «وَأَخْرَجُوا مَرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ». إنَّ الله تعالى عليم يعلم هذه الجماعة جيداً، وحكيم من حيث معاملته كل فرد بما يستحقه، فتارة يرحم وتارة أخرى يعذب، وبذلك يجعلهم بين الخوف والرجاء، وهذه الحالة تعد من العوامل التربوية للإنسان. والواقع إنَّ التعبير بكلمة «عليم» إشارة إلى إحاطته تعالى بالموضوع، و«حكيم» إشارة إلى إطلاعه على الحكم «١». ومن البديهي أنَّ كلنا من العذاب أو العفو الإلهي ليس من دون حساب، بل هو قائم على أسس اللياقات العملية والأخلاقية والنيات الذاتية للأفراد.

والجدير بالذكر هو أنَّ بعض الآيات التي سبقت هذه الآية عن جماعة أخرى من الذين خلطوا الطاعات بالمعاصي، خُتمت بالوعد بالمغفرة: «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»، وذلك من أجل التأكيد على تلك المغفرة، ويعتقد أنَّ تلك الآيات تحدثت عن الذين تابوا من ذنوبهم حالاً وأصلحوا نفوسهم بعد اقرار المعاصي مباشرة، لكن الجماعة المذكورة في آية بحثنا لم تكن كذلك. ويلاحظ في آيات كثيرة أخرى أيضاً بأنَّ صفتي «عليم وحكيم» لهما علاقة وثيقة بمحتوى الآية في جميع تلك الآيات، لأنَّ الكثير منها قد تحدثت عن الأحكام والقوانين الإلهية التي لها علاقة واضحة بعلم الله تعالى وحكمته. والبعض الآخر منها تحدثت عن القوانين التكوينية التي لا يمكن تشريعها أيضاً بدون العلم والحكمة. وبعضها تحدثت عن التوبة والثواب والعقاب، والعدل في هذه الأمور يحتاج إلى العلم والحكمة، العلم بأعمال ونيات العباد، والحكمة في تقدير الثواب والعقاب حتماً.

(١) في تفسير الكبير، ج ١٦، ص ١٩٣؛ وتفسير روح المعاني، ج ١١، ص ١٦، إشارة خفيفة إلى هذا المطلوب.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٠٠

هو الحكيم الخبير:

ونلاحظ استعمال الآية الثالثة تعبيراً آخر وهو ذكر صفتي «الحكيم والخبير» في موضع واحد، قال تعالى «كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ».

قال الزمخشري في كشافه: «تشير هاتان الصفتان إلى فعلين إلهيين ذكرتهما الآية في البداية، أي أنَّ الآيات القرآنية محكمة ومتوازنة لأنها صادرة من لدن حكيم، ومفصلة لأنها صادرة من لدن خبير وعليم بكل شيء» «١».

حكيم لأنه وضع طريقاً للرجعة:

في الآية الرابعة نلاحظ وجود تعبير قرآني جديد وهو اقتران صفة «الحكيم» بصفة «التواب»، قال تعالى «وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَإِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ».

وردت هذه الآية بعد مجموعة من الآيات المتعلقة بمسألة اللعان (وهو إذا اتهم رجل زوجته بالزنا- والخروج عن جادة العفاف ولم يكن لديه أربعة شهود على ادعائه: وجب أن يجلد ثمانين جلدة وفق قانون القذف، لكن القرآن أسقط عن الزوج هذا الحكم شريطة أن يحلف بالله خمسا كما ورد تفصيله في آيات سورة النور، لكن زوجته ستكون محل تهمة في هذه الحالة، وتدرء الاتهام عنها في حال أدائها اليمين الخماسي أيضاً، وفي هذه الحالة فسوف تحرم الزوجة على زوجها إلى الأبد.

بالالتفات إلى هذه المسألة يتضح أن علاقة صفتي «التواب» و «الحكيم» مع محتوى الآية وثيقة جداً، حيث وضع سبحانه وتعالى أمام الطرفين طريقاً للتوبة والرجوع، لكي يتمكن الذي افترى على صاحبه من العودة إلى مواصلة الحياة الزوجية وبتحمل عقوبة القذف، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى ونظراً لكون الزوجين أكثر اطلاعاً على بعضهما، ولتعضر إقامة الدليل على مثل هذه المسائل الخاصة غالباً، فإن الله تعالى قد صان حقوق

(١) تفسير الكشاف، ج ٢، ص ٣٧٧.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٠١

الزوجين وحق أولادهما، وسان الزواج من أي لون من التلوث بالاستفادة من سنة أحكام اللعان الحكيمه هذه).

هو الحكيم الحميد:

يلاحظ في الآية الخامسة اقتران صفة «الحكيم» بصفة «الحميد»، بعد أن بينت الآية عظمة القرآن الكريم، قال تعالى «لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ».

وردت تفاسير عديدة حول معنى كلمة «الباطل» وجملة «من بين يديه ومن خلفه»، لكن الظاهر هو أن «الباطل» يشمل كل ما يبطل ويسقط هذا الكتاب السماوي من الاعتبار، وجملة «من بين يديه ومن خلفه» كناية عن جميع الجهات، أي أن غبار البطلان لن يترسب على هذا الكتاب السماوي، لا من حيث اللفظ ولا من حيث المعنى سواء كان في الكتب السابقة أم المقالات اللاحقة.

والدليل على ذلك هو أنه تنزيل من لدن رب حكيم يحيط بجميع أسرار خلق الإنسان والكون، والهدف منه هو الامتتان على الإنسان بأكبر النعم الإلهية، نعمه تستحق أعلى مراتب الحمد، لذا فقد وردت صفة الحميد بعد صفة الحكيم.

ولهذا لا يمكن أن نجد نقطة ضعف في مضمونه ولا في معانيه ولا تستبدل بمرور الزمان، أو يستطيع أحد تحريفه أو تغيير محتوياته.

إنه على حكيم:

بعد أن أشارت الآية الخامسة إلى مسألة الوحي وارتباط الأنبياء مع الذات الإلهية المقدسة بطرق مختلفة (الالهام القلبي، التكليم بايجاد أمواج صوتية أو إرسال الوحي)

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٠٢

قالت الآية السادسة: «إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ».

إن علوه تعالى يستوجب أن لا يتصل مع عباده الذين هم موجودات جسمانية ومخلوقات إمكنية، إلبالطرق التي ذكرناها، وحكمته

تستوجب أن يفيض الوحي بالمعارف والتعاليم التي تعبد طريق الإنسان إلى الله تعالى هنا تتضح الآصرة الوثيقة الموجودة بين هاتين الصفتين، ويتضح محتوى الآية.

الطلاق نابع من الحكمة الإلهية:

وبالتالى فالآية السابعة والأخيرة من بحثنا، بعد أن سمحت للزوج والزوجة بالطلاق عند فقدان الالفه، أمّلتها بالحياة المستقبلية لكي لا يئسا ويسلكا طريق المعاصي. قال تعالى «وَأَنْ تَتَفَرَّقَا يُعْنِ اللَّهُ كُلًّا مَنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا». فمن جهة يبشّرهما تعالى بالغنى من فضله وكرمه (وهذا يتناسب مع وصفه تعالى بالواسع)، ومن جهة أخرى فقد شرع الطلاق وسمح للزوجين بالافتراق فى حالات خاصية (وهذا مقتضى حكمته سبحانه)، لأنه لو لم يشرع قانون الطلاق - كما فى القوانين المسيحية المشرعة فى عصرنا الحاضر - لواجه الزوجان طريقاً مسدوداً فى حالات الطلاق الضرورية، ولتورطتا بنارٍ محرقة لا مفرّ منها، ولتهيات الأرضية لوقوع كل ألوان الانحرافات الأخلاقية والجرائم وتضيع حقوق الزوجين وأبنائهما.

نتيجة البحث:

يستنتج من مجموع الآيات المذكورة بوضوح أن حكمه الله تعالى التى هى إحدى فروع علمه، تدل على أن الوجود بكل أبعاده قائم على أساس نظام وحساب دقيق وقوانين موزونة ومنسجمة، وأن أفعال الله تعالى بكل أبعادها مقرونة بالحكمة، وهذا هو ما يعبر عنه بالنظام الأحسن فى بعض الأحيان.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٠٣

وهذا النظام الأحسن قد تجلى فى عالم التشريع والتقنين والأحكام الشرعية، وفى طيات تشريع هذه القوانين والاحكام أسراراً وفلسفات لا يعلمها إلا الله الحكيم الذى أرانا قسماً منها أيضاً.

توضيحان

١- الأدلة على حكمه الله تعالى

لم يكن اتصاف الله تعالى بالحكمة مستتباً من عشرات الآيات القرآنية، التى وصفته بالحكيم فحسب، بل يمكن إثباته بالأدلة العقلية أيضاً.

لأنه وكما أشرنا سابقاً فإنّ صفه الحكيم تطلق على من يؤدى افعاله بأفضل وجه، وأقرب طريق، ويتحرز عن أى عملٍ غير موزون وغير صالح. وبالْحَقِيقَةُ أَنَّ الْحِكْمَةَ تَشْمَلُ الْحَالَاتِ الْعَمَلِيَّةَ فِي الْغَالِبِ، بَيْنَمَا نَجِدُ أَنَّ الْعِلْمَ يَشْمَلُ الْحَالَاتِ النَّظَرِيَّةَ.

لذا فإنّ جميع الأدلة التى تثبت علم الله تعالى أثبتت حكمته أيضاً، ولكن يجدر الالتفات إلى التفاوت الموجود بين وصف البارى بالحكيم والإنسان بنفس هذه الصفة، فالأخير هو من تنسجم أعماله مع قوانين عالم الوجود، لكن قولنا: الله حكيم، يعنى الذى أوجد القوانين التى هى مصداق للنظام الأحسن، وبتعبير أدق: إنّ الله تعالى هو الذى يقنن القانون ويشرعه ونحن نطبقه.

ومن جهة أخرى فإنّ نظرة واحدة إلى عالم الوجود - من المنظومات الشمسية والكواكب والنجوم، حتى مكونات الذرة، ومن الكائنات الحية الاحادية الخلية، وحتى الحيوانات العملاقة، والأشجار العظيمة - كافية لإدراك حكمه الخالق ومؤسس هذا البناء البديع.

إنّ جميع الكتب التى كتبت حول العلوم الطبيعية، والفيزياء، والكيمياء، والتشريع، وعلم الحيوان، والنبات، وعلم الفلك والنجوم، هى فى الأساس تشرح حكمه الله تعالى وكما قال العلماء: إنّ جميع هذه العلوم هى فى الواقع ورقة واحدة من كتاب أسرار عالم الوجود

العظيم.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٠٤

وهذا بحد ذاته أفضل دليل على حكمته سبحانه.

وبتعبير آخر: فكما أن برهان النظم يثبت وجود الله سبحانه وتعالى فهو يثبت علمه وحكمته أيضاً.

والجدير بالذكر أن روايات كثيرة، ومن جملتها رواية «توحيد المفضل» المعروفة، تحتوي على إشارات قيمة كثيرة حول حكمه الله تعالى في خلق الإنسان، والحيوان، والطيور، والأسماك، والسماء، والشمس والقمر والنجوم، والماء والنار، والمعادن، والنباتات، والأشجار، وغيرها، وقد وضحت بأجمعها ما قلناه.

٢- الآثار التربوية لمعرفة حكمه الله تعالى

غالباً ما يُنظر إلى صفات الله تعالى من بعد «معرفة الله»، وهذا صحيح في محله طبعاً، لكن القرآن الكريم استعمل هنا نقطة ظريفة أخرى وهي استعانتها بهذه الصفات لتربية الإنسان في الغالب، والتي تجلت نماذج منها في الآيات التي ذكرناها، لذا يجب أن نعمل بهذا الكتاب الإلهي، ونتخذ من معرفة صفات الله تعالى أساساً لتهديب نفوسنا وتكامل عقولنا.

إنّ للإيمان بحكمه الله تعالى انعكاسات وآثار تربوية في نفس الإنسان، وهذه الآثار هي كالتالي:

أ) الإيمان بحكمته تعالى يمكنه أن يترك آثاراً بليغة في التطورات العلمية للإنسان ومعرفته بأسرار عالم الوجود، ويزيد في سرعة العلم البشري بالسير إلى الأمام قُدماً.

لأننا عندما نعلم أن صانع هذا البناء البديع العظيم معمار ماهر، وأودع كل موضع منه أسرار الحكمة، فإننا سوف لا ننظر إلى موجودات وحوادث هذا العالم بنظرة عادية، بل سوف نتعمق في كل ظاهرة كموضوع مهم، بحيث نتوصل إلى اكتشاف قانون الجاذبية العام المهم جداً، وقوانين مهمة أخرى بمجرد سقوط تفاحة من شجرة ما.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٠٥

ولا تعجب عند سماعك بأنّ (إنشتاين) كان يعتقد بأنّ العلماء والمكتشفين العظام كانوا جميعاً يؤمنون نوعاً ما بوجود المبدئ العظيم، وبحكمه الوجود، وهذا الأمر هو الذي كان يشجعهم على بذل مساع أكبر.

ب) إنّ الاعتقاد بحكمه الله تعالى في التشريع والتقنين يهون الصّعب الموجد في تعاليم تلك الشرائع، ويلتذ الإنسان في تحمل الشدائد في طريق امتثال أوامره سبحانه، لأنّه يدرك بأنّ جميع هذه البرامج والقوانين صادرة من ذلك الحكيم العظيم. فتجوز به سبحانه وتعالى دواءً مُراً مثلاً، إنّما هو لدور ذلك الدواء في شفاء الإنسان، وتشريعه لتكليف شاق معين، إنّما هو من أجل سعادة الإنسان وتكامله المترتبة عليه.

ج) إيمان الإنسان بهذه الصفة الإلهية يزيد من صبره وتحمله وقدرته، ومقاومته في مواجهة المصائب والحوادث المرة، وذلك لأنّه يدرك وجود حكمه معينه في كل واحدة منها، وهذا الاحساس يعينه في التغلب على المشاكل المذهلة، لأننا نعلم بأنّ الشرط الأول للتغلب على المشاكل هو التمتع بالمعنوية العالية، والتي لا تتحقق إلّا في ظل معرفة حكمه الله تعالى

د) وكما نعلم أنّ أفضل مقام مرموق يبلغه الإنسان هو وصوله إلى مقام القرب منه تعالى ولا يتحقق القرب منه سبحانه إلّا بالتخلق بأخلاقه تعالى والاقْتِباس من نور صفاته.

والإيمان بحكمه الله تعالى يدعو الإنسان إلى سلوك طريق العلم والحكمة والتخلق بالأخلاق الإلهية، ولعل هذا هو السر في تعبير القرآن عن الحكمة بعبارة (خيراً كثيراً) حيث قال: «وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا». (البقرة/ ٢٦٩)

ورد عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قوله: «الحكمة ضياء المعرفة وميراث التقوى وثمره الصدق وما أنعم الله على عبده

من عباده نعمة أنعم وأعظم وأرفع وأجزل وأبهي من الحكمة» (١)

ونختم كلامنا هذا بكلام العلامة المجلسي رحمه الله، والذي يوضح البحوث السابقة وخصوصاً البحث الأخير.

(١) بحار الانوار، ج ١، ص ٢١٥، ح ٢٦.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٠٦

فقد نقل العلامة المجلسي رحمه الله معنى الحكمة عن العلماء بأنهم قالوا: الحكمة تحقيق العلم وإتقان العمل، وقيل: ما يمنع من الجهل، وقيل: هي الإجابة في القول، وقيل: هي طاعة الله، وقيل: هي الفقه في الدين، وقال ابن دريد: كل ما يؤدي إلى مكرمة، أو يمنع من قبيح، وقيل: ما يتضمن صلاح الشأطين (١).

(١) بحار الانوار، ج ١، ص ٢١٥، ح ٢٦.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٠٧

(د) إرادة الله ومشيتته

تمهيد:

هناك آيات قرآنية كثيرة تحدثت عن إرادة الله سبحانه سواءً في عالم الخلق والوجود، أو في تشريع القوانين والأحكام وتكاليف العباد ومصيرهم.

لا ريب في أن لله تعالى إرادتين، تكوينية وتشريعية، وظهور الحوادث المختلفة في أوقات مختلفة يُعد دليلاً واضحاً على إرادته في إيجاد موجود أو حادثه ما في يوم كذا، لا قبله ولا بعده.

وهكذا فإنه تعالى أراد أن يؤدي عباده الطاعة الفلانية ويتركوا المسائل الأخرى

لكن ماهو معنى وحقيقة إرادة الله تعالى

تعد هذه المسألة من أعقد المسائل الكلامية والعقائدية والفلسفية، ولكن بعد التحليل النهائي ستوصل إلى أن إرادة الله تعالى ومشيتته فرع من فروع علمه سبحانه. أما كيف؟

فهذا ما سنعرفه بعد تتبع الآيات القرآنية التي وردت حول إرادته ومشيتته تعالى.

ولنتأمل خاشعين في الآيات الكريمة التالية:

١- «أَتَمَّا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ». (النحل / ٤٠)

٢- «قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أَنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبيراً». (الفتح / ١١)

٣- «وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ».

(القصص / ٥)

٤- «يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ». (البقرة / ١٨٥)

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٠٨

٥- «يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ». (النور/ ٤٥)

٦- «وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا* إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ». (الكهف/ ٢٣/ ٢٤)

٧- «وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأْذَنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ». (الشورى ٥١)

شرح المفردات:

«الإرادة»: من مادة (رود) (على وزن مَوْج)، وهى فى الأصل بمعنى التردد المصحوب بالهدوء لتحصيل شىء، وتطلق على الذى يبحث عن مرتع لرعى المواشى.

وكلمة «الإرادة» المأخوذة من هذا الأصل هى بالواقع مركبة من ثلاثة عناصر: «إرادة الشىء عن رغبة» و «مع الأصل فى الوصول إليه» و «الأمر بفعله من قبله أو الآخرين» (٢).

يعتقد الكثير من الغويين والمتكلمين أن «المشيئة» تعنى «الإرادة»، لذا فقد قال الراغب فى المفردات: يعتقد أكثر المتكلمين أن المشيئة تعنى «الإرادة» تماماً، واعتقد البعض منهم أن المشيئة تعنى إيجاد الشىء والوصول إليه، ولو أنها حلت محل الإرادة فى الاستعمالات المتعارفة، وعلى هذا تكون المشيئة بالنسبة إلى الله سبحانه وتعالى بمعنى الإيجاد، وبالنسبة إلى الناس بمعنى الوصول إلى شىء معين (٣).

لكنه ورد فى بعض كتب اللغة أن «المشيئة» غير «الإرادة»، فالمشيئة هى الميل الذى يحصل للإنسان بعد التصور والتصديق، ثم يصل بعدها العزم والتصميم، ثم تتحقق الإرادة (وعليه فإن المشيئة) تطلق على المراحل الأولى و «الإرادة» على المرحلة الأخيرة وتتصل بالفعل (٤).

(١) وهناك آيات اخرى تتضمن هذا المعنى وهى: المائدة، ١٧؛ الرعد، ١١؛ الكهف، ٨٢؛ الاحزاب، ١٧ و ٣٣ و ٣٨؛ الاسراء، ١٦؛ الانعام، ١٢٥؛ البقرة، ١٨٥؛ آل عمران، ١٧٦؛ النساء، ٢٦ و ٢٧ و ٢٨؛ المائدة، ١ و ٦ و ٤١؛ الانفال، ٧؛ التوبة، ٥٥؛ هود، ١٠٧؛ الحج، ١٤ و ١٦؛ فاطر، ١٠؛ البروج، ١٦.

(٢) مفردات الراغب؛ مقاييس اللغة؛ لسان العرب.

(٣) مفردات الراغب؛ ونهاية ابن الأثير؛ ومصباح اللغة؛ وصحاح اللغة؛ ولسان العرب؛ ومجمع البحرين.

(٤) التحقيق فى كلمات القرآن الكريم.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٠٩

وقد ورد فى الروايات الإسلامية أيضاً أن «المشيئة» مرحلة قبل «الإرادة»، وسيأتى شرح ذلك فى قسم التوضيحات إن شاء الله.

جمع الآيات وتفسيرها

إرادته نافذة فى كل شىء:

أخبرت الآية الأولى بحقيقته عدم انفصال إرادة الله تعالى عن وجود الأشياء، فبمجرد قوله سبحانه للشىء الذى يريد، كُنْ، فإنه سيتحقق: «أَنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ».

وطبعاً إن هذا الكلام لا يعنى وجود الحوادث والموجودات فى لحظة واحدة، بل يعنى وجودها وحدوثها وفق الإرادة الإلهية والأمر

الإلهي بدون تقديم أو تأخير حتى ولو لحظة واحدة.

أى إذا أراد الله تعالى أن يبقى جنين فى بطن امه تسعة أشهر وتسعة أيام بالضبط، فإنه سيولد فى الموعد المحدد وبدون لحظة من التقديم أو التأخير، وهكذا إذا أراد سبحانه أن يمكث هذا الجنين أقل أو أكثر من هذه المدة، وإذا أراد الله إيجاد منظومة كالمنظومة الشمسية، أو عالم عظيم آخر كالعالم الحالى فإنه سوف يوجد على الفور.

والتعبير بكلمة (كن) أيضاً إنما جاء بسبب عجز اللفظ عن بيان المعنى أى أنه تعبير كنائى وإلا فلا توجد فاصله بين إرادة الله تعالى وتحقق الشئ المراد.

والعجيب هو أن بعض المفسرين القدماء فسروا كلمة (كن) كأمر صادر من الله تعالى فواجهوا هذا السؤال: من هو المخاطب؟ أى يمكن مخاطبة العدم؟

وعليه اضطروا لتوجيه مخاطبة العدم، أو القول بوجود المعدومات، أو الاستدلال بالآية على كون كلام الله تعالى قديماً. فى حين أن هذا الكلام كله خاطى، وتشير القرائن إلى كون هذه الجملة كناية عن عدم وجود فاصله بين إرادة الله وتحقق الشئ المراد.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١١٠

وبالحقيقة فإن الآية قد تحدثت عن إرادة الله تعالى وإيجاد الأشياء لا غير، وكما سنعلم فإن إرادة الله تعالى تكون على معنيين، فمن جهة تكون عين ذاته، ومن جهة أخرى تكون عين فعله أيضاً، (فتأمل جيداً).

وقد ورد شئ من هذا القبيل فى الآيات: ١١٧ من سورة البقرة، ٨٢ من سورة يس، ٥٩ و ٤٧ من سورة آل عمران، ٣٥ من سورة مريم، ٦٨ من سورة غافر.

ويجدر الالتفات إلى أن بعض الآيات المذكورة قد نزلت بخصوص منكرى المعاد لتذكيرهم بعدم وجود شئ يصعب على الإرادة الإلهية إيجاده. (كالآية ٨٢ من سورة يس، والآية المذكورة فى بحثنا).

وبعضها نزلت بخصوص خلق آدم عليه السلام من التراب (كالآية ٥٩ من سورة آل عمران).

أو خلق المسيح من دون أب (كالآية ٤٧ من سورة آل عمران، والآية ٣٥ من سورة مريم).

أو بخصوص الابداع فى خلق السموات والأرض (كالآية ١١٧ من سورة البقرة).

لا شئ يحول بينه وبين إرادته تعالى

تحدثت الآية الثانية عن إرادة الله فى الثواب والعقاب ومصير الناس، وأشارت إلى هذه الحقيقة التى تفصح عن عدم وجود شئ يمنعه عن إمضاء إرادته بخصوص مكافأة ومعاقبة عباده، قال تعالى «قُلْ مَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا».

إن سبب تقاعسكم عن الجهاد هو إما لتوقى الحوادث المؤلمة لكم ولأهليكم، وإما للحصول على منافع مادية وحفظ الأموال، وجميع هذه الامور ترتبط بإرادة الله ومشيئته، ولا أحد يملك لكم من الله شيئاً.

إن رسوخ هذه العقيدة فى قلب الإنسان يؤدى إلى ممارسته الأوامر الإلهية من دون الخوف من ضرر معين أو فوت منفعة وما شاكل ذلك، لأن مقاليد جميع هذه الامور بيده تعالى

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١١١

وعليه يتضح لنا أثر الإيمان بالإرادة والمشيئة الإلهية على أعمال الإنسان واستعداده لأداء التكاليف الإلهية.

وعلى أية حال فالحديث هنا يدور حول الإرادة التكوينية أيضاً.

إرادته سبحانه في نصره المستضعفين:

تحدثت الآية الثالثة عن أثر الإرادة الإلهية في مصير الأقوام، وأنارت بصيص الأمل في نفوس الامم المظلومة، قال تعالى «وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ».

إن التعبير بالفعل المضارع «نريد» الذي يدل على الاستمرار هو للدلالة على ديمومة وخلود هذه السنة الإلهية المتمثلة بتسلط المستضعفين وسيطرتهم على زمام الامور في الأرض واندحار الطواغيت المستكبرين.

ولكن يجب الالتفات إلى أن الآية قد تحدثت عن «المستضعفين» لا «الضعفاء»، أي عن الذين يجاهدون ويقاتلون دوماً؛ وقد استضعفوا من قبل أعدائهم لا عن الذين استسلموا للذلة والضعف.

وبضم هذه الآية إلى الآية من سورة الأنبياء: «أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ»، نستنتج بأن المستضعفين هم اولئك الصالحون المؤمنون المجاهدون.

ويجب الالتفات إلى أن كلمة (نمُنُّ) مشتقة من أصل (من) وهو في الأساس بمعنى الوزن الثقيل، ثم اطلق على النعم ذات الأهمية، واستعمال هذا التعبير بخصوص الباري عز وجل يدل على اعطائه عز وجل للنعم الثقيلة العظيمة بدون عوض، أما عندما يستعمل بخصوص العباد فهو يعنى التذكير بالنعم بقصد المن.

وطبعاً هنالك بحوث كثيرة حول هذه السنة الإلهية، أي حكومة المستضعفين، وسندكرها في محلها إن شاء الله تعالى والجدير بالذكر هنا هو أن للإيمان بإرادة الله التكوينية أثراً تربوياً عميقاً يلهم المؤمنين الصالحين القوة والأمل والافتقار، ويزيدهم في مواجهة الظالمين رسوخاً وقوة.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١١٢

يريد الله بكم اليسر:

تحدثت الآية الرابعة عن إرادة الله تعالى التشريعية، والتي وردت في مواضع عديدة من القرآن، أي إرادته في التقنين، فبعد الحديث عن فريضة الصيام في شهر رمضان واستثناء المسافرين والمرضى من هذا الحكم، قال تعالى «يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ». وتعد هذه الآية من الآيات التي نفت التكاليف التي لا تطاق و«التكاليف الشاقة» في نفس الوقت، ومقاله الفخر الرازي في عدم دلالة ذيل الآية على العموم اشتباه محض، لأن الألف واللام الواردة في كلمتي «اليسر» و«العسر» للجنس، تدل في مثل هذه الحالات على العموم.

ويمكن طبعاً أن يكون هنالك استثناءات معينة في هذا القانون، كبقية القوانين الاخرى مثل الأمر بالجهاد وماشاكله، فالجهاد ضدّ الخنوع والذل تحت سلطة الأعداء، يُعدّ من مصاديق اليسر أيضاً لا العسر.

فبعد أن ذكر سبحانه وتعالى نوعين من الأحكام الإلهية في الآية الاولى من سورة المائدة، في مجال الالتزام بجميع العقود والمواثيق، وحلية أكل لحوم المواشى حيث قال:

«إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ» وهذا التعبير يوضح شمول الإرادة الإلهية التشريعية لكل الأشياء.

وبخصوص جزاء الأعمال، نلاحظ أنه تعالى بعد أن ذكر دخول المؤمنين الصالحين الجنة، قال: «أَنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ». (الحج/ ١٤) وبديهي أن شمولية إرادة الله في التشريع، وفي الأثابة والمعاقبة، وهكذا في عالم الوجود، لا تعنى انفصال إرادته عن حكمته سبحانه، أو أن يكون خلقه أو محاكمته أو إثابته بدون حكمه ومصالحه.

إن الله يخلق ما يشاء:

تحدثت الآية الخامسة عن المشيئة الإلهية وشمولها لكافة مخلوقات عالم الوجود

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١١٣

(المشيئة الإلهية العامة التكوينية)، قال تعالى «يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

وردت هذه الجملة في القرآن الكريم بعد أن أشار تعالى إلى خلق مختلف أنواع الدواب من ماء، فمنهم من يمشى على بطنه، ومنهم من يمشى على رجلين، ومنهم من يمشى على أربع، ونحن نعلم بأن تنوع الاحياء بلغ من الكثرة والتشعب بحيث يتجاوز عدد أنواع الحشرات التي درسها العلماء عدده ملايين، وهكذا بالنسبة لأنواع النباتات بتركيباتها وخصائصها المتفاوتة، فإن أنواعها بلغت مئات الآلاف، مما تدل بأجمعها على سعة مفهوم الآية المذكورة أعلاه.

والجدير بالذكر أن هنالك أنواعاً جديدة من الأحياء تكتشف بمرور الزمان لم تكن موجودة سابقاً، أى أن إيجاد وخلق الحيوانات والنباتات لا يتعطل حتى ولا لحظة واحدة! وأساساً أن تنوع الظواهر يعدُّ دليلاً على إرادة ومشيئة المظهر المبدى، لأن الصانع العديم الإرادة يخلق اموراً متساوية ومتشابهة، بينما كلما حلت الإرادة في موضع اصطحبت معها التنوع «١».

المشيئة الإلهية:

والآية السادسة تحدثت عن المشيئة الإلهية أيضاً، والحديث هذه المرة يدور حول مصير العباد وأعمالهم، فالتفت عز وجل بالخطاب إلى رسوله الكريم صلى الله عليه وآله بقوله: «وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا* أَلَا إِنَّ يَشَاءُ اللَّهُ». أى عندما تتحدث عن عزمك بالقيام بعمل مافى المستقبل فتوكل على المشيئة الإلهية دائماً وقل: «إن شاء الله». وهذه الجملة تدل على تقدم مشيئة الله على بقية المشيئات وعدم وقوع أى شىء دون مشيئته سبحانه.

وواضح أن هذا الكلام لا يشير أدنى إشارة إلى مسألة الجبر، بل يشير إلى غلبة المشيئة

(١) أشار القرطبي في تفسيره ج ٧، ص ٤٧٤ إلى هذا الموضوع.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١١٤

الإلهية التي لا يستطيع أى فرد بلوغ هدفه بدونها، وما الحرية التي منحها الله للإنسان إلا لاختباره وتربيته والعروج به في سبيل الكمال، وحرية الإرادة الإنسانية لا تعنى سلب القدرة الإلهية.

إضافة إلى هذا فإن إرادة ومشيئة الإنسان هي إحدى عوامل وصوله وبلوغه أهدافه، وهنالك مئات من العوامل الأخرى خارجة عن قدرته، ولا ترتبط إلا بالله تعالى

ومن هنا فإن أدب الكلام والخضوع للأمر الواقع يفرض على الإنسان أن لا ينسى عبارة: «إن شاء الله» في برامج الخاضعة أبداً. وجاء التأكيد هنا أيضاً على أثر «المعرفة» على أعمال الإنسان، فإيمانه بالارتباط بالمشيئة الإلهية يجعله يشعر دائماً بالفقر إلى الله وعدم الاستقلال عنه سبحانه، فلا يصيبه الغرور أبداً، ولا يركب مركب الأنانية، ويزيده استقامة وصلابة في مواجهة الصعاب والمشاكل، وينقذه من الوقوع في مخالب اليأس والقنوط لأنه يعلم أن مشيئة الله أكبر من كل شىء.

الوحى والمشيئة الإلهية:

وأخيراً تحدثت الآية السابعة والأخيرة من بحثنا عن المشيئة الإلهية التشريعية وبصورة ظريفة، ومن الضروري الالتفات إلى أن القرآن الكريم قد استعمل كلمة (الإرادة) في التكوين والتشريع بكثرة، لكن استعمل كلمة (المشيئة) في المسائل التكوينية عادةً، وقد استعملها في مجال التشريع والتقنين بندرة مما يدل على شمول مفهوم المشيئة للجانب التكويني بصورة أكثر). قال تعالى «وَمَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ

يُكَلِّمُهُ اللَّهُ الْآ (بثلاثة طرق) وَخِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ (كما تحدث مع موسى في جبل طور، والحجاب هنا بمعنى حجاب المادة) أَوْ يُزِيلُ رَسُولًا رَسُولًا فَيُوحِي بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ أَنَّهُ عَلَيَّ حَكِيمٌ»، فسموه يقتضى أن لا يُرى أو يكلمه بشر، وحكمته تقتضى أن يرسل الرسل لهداية الخلق، ويرتبط برسله بالطرق الثلاثة المذكورة في الآية أعلاه.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١١٥

يستنتج من مجموع الآيات المذكورة بأن إرادة الله سبحانه التكوينية والتشريعية تشمل جميع الممكنات، كل ماتقتضيه حكمته. وإن كان للانسان إرادة لعمل شيء معين فأنما هي بإذن الله. ولا شيء يمنع عن تحقق إرادته سبحانه، ومشيتته غير منفصلة عن خلق الأشياء. ومصيرنا جميعاً بيده سبحانه، فالخير والفائدة والسعادة كلها هي فيض من وجوده عز وجل. فبالاعتماد على إرادة الله ومشيتته تهون علينا الحوادث الصعبة. هذا ماتفيضه علينا هذه الصفات الإلهية من معطيات.

توضيحات

١- الدلائل العقلية على الإرادة الإلهية

عندما ننظر إلى عالم التكوين نجد أن في كل يوم يحدث أمر جديد، ولكل موجود ظاهرة وتاريخ معين، بل العالم بذاته يمثل مجموعة من الظواهر والحوادث. وهنا يطرح هذا السؤال: بما أن الله عالم لأنه علته العلة لجميع الكائنات، فهو قديم وأزلي، إذن كيف يمكن أن يوجد كل موجود في زمان معين أو أن تقع كل حادثه في زمان معين؟ والجواب على هذا السؤال هو أن الله فاعل غير مجبور، بل فاعل لما يريد وما يشاء، وما انفصال الكرة الأرضية عن الشمس قبل خمسة مليارات سنة مثلاً، أو ظهور الأحياء على سطح الكرة الأرضية قبل عدة ملايين من السنين، أو دخول الإنسان إلى عالم الوجود قبل آلاف السنين، إلآامثالاً لإرادته المتميزة سبحانه. وخلاصة الكلام هو أن وجود بعض الممكنات وعدم وجود بعضها الآخر، أو حدوثها في موعد محدد (مع أن الله قادر على كل شيء بصورة متساوية) يدل على انتصاف ذاته المقدسة بصفة اخرى غير القدرة، وهي الإرادة والمشية الإلهية.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١١٦

٢- مامعنى إرادة الله سبحانه؟

لا- شك في عدم إمكانية مقايسته مفهوم إرادة الإنسان بالإرادة الإلهية، لأن الإنسان يتصور الفعل في البداية (مثل شرب الماء)، ثم فوائده، ثم يعتقد بفوائده، ثم يشاق ويرغب إلى القيام بذلك الفعل، فعندما يصل شوقه هذا مراحلته النهائية يصدر أوامره إلى العضلات، فيتحرك الإنسان لانجاز هذا العمل.

لكننا نعلم أن كل هذه المفاهيم (التصور والاعتقاد، والشوق والامور وحركة العضلات) لا معنى لها بخصوص البارى، لأنها جميعاً حادثه، فأين إرادته منها إذن؟

من أجل هذا ذهب علماء الكلام والفلاسفة المسلمون- صوب مفهوم يتناسب مع الوجود البسيط المجرد، وبنفس الوقت يتناسب مع أى نوع من أنواع التعبير الحاصل لدى الله تعالى فقالوا: إن إرادة الله تعالى على نوعين:

١- الإرادة الذاتية.

٢- الإرادة الفعلية.

١- الإرادة الإلهية الذاتية: هي علمه بالنظام الاصلاح لعالم التكوين، وعلمه بخير وصلاح العباد في الأحكام والقوانين الشرعية. إنه يعلم أى نظام أفضل وأصلح لعالم الوجود، ويعلم أفضل الأوقات المناسبة لايجاد الموجودات، وهذا العلم منبع تحقق الموجودات وحدوث الظواهر في الأزمنة المختلفة.

وكذلك فإنه سبحانه وتعالى يعلم مصلحة عباده الكامنة في هذه القوانين والأحكام، وأن روح هذه القوانين والأحكام هي علمه بالمصالح والمفاسد.

٢- إرادته الفعلية عين اليجاد وتعدّ من صفاته الفعلية لذا فإن إرادته في خلق السموات والأرض هي عين حدوثها، وإرادته في فرض الصلاة هي عين وجوبها وفي تحريم الكذب هي عين حرمة.

وخلاصة الكلام هي أن إرادة الله الذاتية عين علمه، وعين ذاته، لذلك اعتبرناها من فروع العلم وإرادته الفعلية عين اليجاد والتحقق.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١١٧

وستوضح الموضوع بصورة أفضل عند نقل بعض الأحاديث الشريفة الواردة في هذا المجال، إن شاء الله تعالى

٣- الإرادة الإلهية التكوينية والتشريعية

كما ذكرنا آنفاً بأن المقصود من الإرادة التكوينية هي الإرادة التي يفيض منها وجود جميع الكائنات والموجودات، أو بتعبير آخر عين إيجادها جميعاً.

أما الإرادة التشريعية فهي الإرادة التي تفيض منها جميع الأوامر والنواهي الإلهية، وجميع الأحكام والقوانين الشرعية، وبتعبير آخر عين هذه الأحكام والقوانين.

ومن خلال متابعة الآيات القرآنية يتضح بأن كلمة (إرادة) مستعملة بكلا المعنيين بشكل واسع، في حين نجد أن (المشيئة) مستعملة في مجال الخلق والتكوين في الغالب، أما في مجال التشريع فيندر مجيئها، مما يدل على كون (المشيئة) أقرب إلى مفهوم التكوين.

٤- الإرادة الإلهية في الروايات الإسلامية

وردت في روايات أهل البيت ايضاحات كثيرة في هذا المجال، نذكر مجموعة منها كنموذج:

١- ورد في توحيد الصدوق و «عيون اخبار الرضا» عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام جوابه عن سؤال حول إرادة الله تعالى في خلقه أنه قال: «الإرادة من المخلوق الضمير وما يبدو له بعد ذلك من الفعل، وأما من الله عز وجل فارادته احداثه لا غير ذلك لأنه لا يُروى ولا يهَم ولا يتفكر، وهذه الصفات منفية عنه، وهي من صفات الخلق، فارادة الله هي الفعل لا غير ذلك. يقول له كن فيكون بلا لفظ، ولا نطقٍ بلسان، ولا همٍ ولا تفكر ولا كيفٍ لذلك، كما أنه بلا كيف» (١).

(١) بحار الأنوار، ج ٤، ص ١٣٧، ح ٤.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١١٨

وقد أورد هذا الحديث الشريف المرحوم الكليني في «اصول الكافي» (١). ومن الواضح أن هذا الحديث يشير إلى إرادة الله الفعلية وأما الإرادة الذاتية فهي علمه بالنظام الأحسن كما مر بيانه.

٢- وقد ورد أيضاً في هذا الكتاب عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام أنه قال:

«المشيئة والإرادة من صفات الأفعال، فمن زعم أن الله تعالى لم يزل مريداً شائئاً فليس بموحد» (٢)

ومن الواضح أيضاً أن هذا الحديث ناظر إلى الإرادة الفعلية، التي تقدم بيانها، فعندما ينفي «الإرادة الازلية» فالمقصود هو نفى مقالة من يقول: إن الإرادة زائدة على الذات وإنها أزلية، فيكون مفهومها تعدد الوجود الازلي إلى اثنين أو أكثر، وهذا المعنى لا يتلائم مع التوحيد.

أما الإرادة الذاتية التي هي عين العلم، والعلم بدوره عين الذات المقدسة فهو عين التوحيد لا الشرك «فتأمل جيداً».

٣- ورد في كتاب الكافي حديث عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام جاء فيه: «قال الله: يا ابن آدم بمشيئتي كنت أنت الذي تشاء لنفسك ما تشاء وبقوتي أديت فرائضي، وبنعمتي قويت على معصيتي جعلتك سميعاً بصيراً قوياً ما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك» (٣)

وهذا الحديث ناظر إلى الإرادة التكوينية لله تعالى المتعلقة باختيار وحرية إرادة الإنسان والتي جعلت الإنسان حاكماً على مقدراته، غاية الأمر أن الإنسان يُسئء الاستفادة منها في بعض الأحيان، ويستعمل نعم الله تعالى في معصيته، وهذا من عمل الإنسان نفسه، أما حسن الاستفادة من نعم الله تعالى فهو من توفيق الله ومعونته لعبده.

(١) اصول الكافي، ج ١، ص ١٠٩ باب الإرادة أنها من صفات الفعل وسائر صفات الفعل، ح ٣.

(٢) توحيد الصدوق، ص ٣٣٧ باب المشيئة والإرادة، ح ٥.

(٣) اصول الكافي، ج ١، ص ١٥٢ باب المشيئة والإرادة، ح ٦.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١١٩

٤- القدرة الإلهية المطلقة

تمهيد:

يعتبر موضوع القدرة الإلهية من أهم مباحث صفات الكمال والجمال الإلهية بعد بحث العلم، تلك القدرة اللامحدودة من كل ناحية والشاملة لجميع الممكنات والملازمة للإرادة والمشيئة، فهو سبحانه وتعالى يفعل ما يريد ويمحو ما يشاء في أي وقت وزمان. والوجود بأكمله بمظاهره العظيمة المذهلة وبدقائقه الظرفية، يدل على القدرة الإلهية المطلقة.

وللدخول في صلب الموضوع ينبغي طي المراحل التالية:

١- دلائل القدرة الإلهية المطلقة.

٢- الله فاعل ومختار.

٣- رأى الذين أشكلوا على تعميم القدرة الإلهية.

٤- عدم شمول القدرة الإلهية للمستحيلات.

لندخل الآن في بحث الموضوع الأول ونتمتع خاشعين في الآيات القرآنية الشريفة:

١- «تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ». (الملك / ١)

٢- «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ». (الطلاق / ١٢)

٣- «لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ». (الحديد / ٢)

٤- «... يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ». (الروم / ٥٤)

٥- «لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

(المائدة / ١٢٠)

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٢٠

٦- «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ».

(الاسراء / ٩٩)

٧- «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِمَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَيِّتَ بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

(الاحقاف / ٣٣)

٨- «فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ». (المعارج / ٤٠)

٩- «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا» «١»

(فاطر / ٤٤)

١٠- «قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ». (آل عمران / ٧٣)

شرح المفردات:

لفظ «قدير»: من مادة «قدرة»، بمعنى من يفعل كل ما يريد بمقتضى حكمته، لا أقل ولا أكثر من ذلك، لذا فإن هذه الصفة لا يوصف بها إلا الله تعالى وأساساً إن صفة القدرة المطلقة لا يجوز استعمالها إلا في وصف قدرة الله تعالى وكلما استعملت مع غيره فإنها ينبغي أن تكون محدودة ومقتيدة، لأن غيره لو كان قادراً من جهة معينة فهو عاجز من جهة أخرى «٢».

(١) يجب الالتفات إلى أن صفة (القدير) وردت في القرآن المجيد (٤٥) مرة تقريباً بالنسبة إلى الله تعالى، فتارة بشكل: «إِنَّ اللَّهَ عَلَى

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

وتارة: «وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»،

وتارة: «أَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»،

وتارة: «وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»،

وتارة: «وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ»،

وتارة: «وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ». وتعابير أخرى.

وقد وردت كلمة «القادر» سبع مرات، ويلاحظ أيضاً في بعض الآيات «قادرين» و«قادرين» بالنسبة إلى الله تعالى، وكذلك ورد نفى العجز عن الله تعالى والقدرة الواسعة له عز وجل والمأخوذة من مادة «القدرة والعجز والسعة» وهي مذكورة في معجم اللغة، وما ذكر من الآيات العشر إنما هي تعابير جامعة للاقسام الثلاثة.

(٢) مفردات الراغب، مادة (قدر).

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٢١

وأصل هذه الكلمة مأخوذ من «قدر» وهو بمعنى مقياس شيء وكنهه ونهايته، والسير في استعمال هذه الكلمة بخصوص البارئ تعالى

هو فعله كل ما يريد وبأى مقدار كان، واعطائه عباده أى مقدار يريد هو سبحانه «١».

و «قدير»: و «قادر» كلاهما صفتان من صفات الله سبحانه، وهما مأخوذان في الأصل من «التقدير» في الكميّة، و «قادر» اسم فاعل، و «قدير» صفة مشبّهة بالفعل أو صيغة مبالغة، و «المقتدر» أبلغ منها (٢).

«يُعجزه»: في الأصل من مادّة «عَجَزَ» «بضم الجيم»، وهي بمعنى ذيل الشيء و «عَجَزَ» على وزن «حَبَسَ» بمعنى التأخر عن شيء معين والوقوع في متابعه عمل ما، وتأتي أيضاً بمعنى القصور والعجز عن أداء عمل ما في مقابل القدرة على ذلك العمل، و «مُعجَز» بمعنى الشخص أو الشيء الذي يُعجز الآخرين، وإطلاق كلمة «عجوز» على المرأة المُسنّة إنّما هو لعجزها وقصورها (ومن خلال تتبع مصادر اللغة المعروفة كمقاييس اللغة ومفردات الراغب نجد أنّ هذه الكلمة تُستعمل بخصوص النساء المُسنّات فحسب) (٣).

«واسع»: من مادّة «سَعَهُ»، و «وَسَعَ» وهي بمعنى السعة في مُقابل الضيق وتُستعمل بخصوص الأمكنة والحالات والأفعال، لذا يُطلق على القدرة والتمكّن والإيجاد «الوسعة».

أمّا سعة الله تعالى فهي إما أن تكون نابعة من سعة رزقه ورحمته التي وسعت كل شيء، أو من إحاطته تعالى بكل شيء علماً، أو من إحاطته الوجوديّة بجميع الأشياء، يعنى كثير العطايا وكثير العلم أيضاً. و «الواسع» كما ورد تعبير ال «موسع» أيضاً في القرآن الكريم بخصوص الباري، والذي فسره بعض أرباب اللغة أيضاً بمعنى القادر والغني (٤).

وهناك تفسير آخر لهذه الكلمة يخرج عن موضوع هذا البحث (٥).

(١) مقاييس اللغة، مادة (قدر).

(٢) لسان العرب، مادة (قدر).

(٣) مقاييس اللغة؛ مفردات الراغب؛ ولسان العرب.

(٤) المصادر السابقة.

(٥) راجع التفسير الأمثل، ذيل الآية ٤٧ من سورة الذاريات.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٢٢

جمع الآيات وتفسيرها

إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ:

بعد أن أشارت الآية الاولى إلى الملك الإلهي الأبدى وتسلطه تعالى على جميع عالم الوجود، أكدت على قدرته المطلقة: «تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

(الملك / ١)

«تبارك»: من مادة (برك) وهي في الأساس بمعنى صدر البعير، لذا عندما يضع البعير صدره على الأرض يُقال: (برك البعير)، وهذه الكلمة جاءت هنا بمعنى البقاء وعدم الزوال.

ويُطلق على النعمة الدائمة الباقية (النعمة المباركة)، وإطلاق هذه الصفة على الذات الإلهية المقدسة لازليتها وأبديتها.

وجملة: «بيده الملك» تُفيد الحصر، أي أنّ الملك ومُقدّرات عالم الوجود بيده تعالى فقط.

وجملة: (وهو على كل شيء قدير) ذات مفهوم واسع وعميق جداً، فهي تعنى أن القدرة الإلهية تشمل جميع مايمكن أن يكون في عالم الإمكان.

والجدير بالذكر أن هذه الكلمة (شئ) تُطلق على المعدوم بالقياس لإمكانية وجوده، لذا فقولنا بأن الله قادر على الشئ الفلاني المعدوم فعلاً، يعنى قدرته تعالى على إيجاده، وإلا فالقدرة على المعدوم لا معنى لها.

ويستعمل الإنسان مفهوم القدرة في دائرة محدودة خاصّة، نظراً لحياته المحدودة وافقه الفكرى الضيق ووقوعه في أسر الظروف التى تطبع عليها، في حين نجد أن الآيه أعلاه قد كسرت جميع هذه القيود وبيّنت امتداد وشمول قدرة البارى إلى ما وراء هذه القيود والظروف، والشئ الوحيد الخارج عن دائرة القدرة الإلهية هو الامور المستحيله فقط، وذلك لأنها بذاتها لا تقبل الوجود، ولا يصح عادة استعمال لفظه القدرة بشأنها.

وقد تقدم في البحث اللغوى أن كلمة (قدير) ولكونها صفة مشبّهة أو من صيغ المبالغة،

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٢٣

فهى تفيد المبالغة وذات مفهوم أوسع من مفهوم (قادر)، ولعلّ هذا هو السر في استعمال أغلب الآيات القرآنية لهذه الكلمة عند وصف القدرة الإلهية.

لذا فقد تحدثت الآيات التى تلت هذه الآيه عن خلق الإنسان، والموت والحياة، وخلق السموات السبع، والنجوم، ودفع الشياطين والتى تعتبر كل منها نموذجاً من عجائب عالم الوجود.

الهدف من خلق الكون هو معرفة قدرته سبحانه:

بعد أن ذكرت الآيه الثانية خلق السموات والأرض، بيّنت أن الهدف الأصلي من جميع ذلك هو إطلاع العباد على سعة قدرة الله وعلمه سبحانه: «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ». (الطلاق / ١٢)

وعليه فإنّ خلق السموات العريضة والأرضين الواسعة، والتدبير الدائم والمستمر الموجود فيما بينها، يُعتبر بحد ذاته أفضل دليل على عموميّة وشموليّة القدرة الإلهية لكل شئ، لأنّ هذه المجموعة المتنوعة تحتوى على كل ألوان الممكنات. وهناك بحوث كثيرة حول معنى السموات السبع، والأرضين السبع، ذكرناها في التفسير الأمثل «١».

بيده الحياة والموت:

أمّا الآيه الثالثة، فعلاوة على طرحها مسألة اختصاص تلك السموات والأرض بالبارى تعالى، ذكرت استمرار ظاهرتى حياة وموت الموجودات كواحدة من أدلة قدرته سبحانه:

(١) راجع التفسير الأمثل ذيل الآيه ١٢ من سورة الطلاق.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٢٤

«لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ». (الحديد / ٢)

إنّ مسألة إيجاد الحياة والموت معقّدة وعجيبه إلى درجة أن القدرة عليها تعتبر دليلاً على اطلاق وعموميّة القدرة الإلهية. أجل، هذه هى المسألة التى حارت فيها عقول العلماء، وشاروا في معرفة القوانين المتحكّمة بها لعلهم يتمكّنون من خلق خلية حيّة من الجمادات وبالاستعانة بوسائل معينة، فى الوقت الذى نجد أنّهم توصّلوا إلى أسرار معقّدة جدّاً من قبيل (غزو الفضاء والصناعات العظيمة وصناعة العقول الألكترونية الدقيقة).

أَجَل، فمن حولنا يوجد مئات الألوف بل الملايين من أنواع الكائنات الحيّة التي يحارُّ البشر آلاف السنين في فهم أسرار تركيب إحداها!

ألا تدل هذه الخلائق العجيبة على أن قدرة البارى مطلقه وغير محدوده؟!

تطورات الحياة دليل على قدرته تعالى:

تطرت الآيه الرابعه إلى هذه المسأله من طريق آخر، وضمن ذكرها لحالات الإنسان المختلفه، وانتقاله من حال إلى آخر بإذن الله تعالى وذكرها لخلق مختلف المخلوقات، فقد بينت عموميه القدرة والعلم الإلهي: «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ». (الروم/ ٥٤)

حقاً، إن ملاحظه تطورات الجنين ومراحل حياة الإنسان المختلفه ومنحنى قدرته التصاعدي والتنازلي الذي يبدأ من نطفه ويصل في قمه المنحنى إلى إنسان قوى ومتفكر وذكى ذى قدرة على تخيل وإنجاز مسائل كثيره، ثم ينزل حتى يصير موجوداً عاجزاً حتى أعجز من الطفل أحياناً من حيث القدرة الجسميه والفكريه، وملاحظه جميع هذه التحويلات السريعه العجيبه، يوحى ويحكى عن قدرته تعالى على كل شىء.

لذا نجد أن القرآن الكريم ومن أجل إثبات عموميه العلم الإلهي والقدرة الإلهيه، قد دعا

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٢٥

الإنسان للتفكر في السموات العلى تارة، وللتفكر في وجوده الشخصى والتحويلات العظيمة التى تلازمه منذ انعقاد النطفه إلى حين الموت تارة أخرى.

وتعبيره بعبارة (خلقكم من ضعف) بدرجة من المتانه حتى كأن الإنسان مخلوق من مادتي الضعف والعجز! والحق كذلك، فنطفه الإنسان بدرجة من الضعف بحيث تفنى لأدنى سبب.

ولكن أرجع البصر وانظر إلى حقيقه ذلك الموجود القوى الذى ينشأ من هذه النطفه الحقيقه، ويطوى آفاق السماء والأرض، ولا يقنع بحد معين من القدرة والتطور العلمى والصناعى، وعندما يطوى المرحله التنازليه من منحنى القدرة، يعود إلى نفس ذلك الضعف البدائى!

إن كل هذا يدل على قدرة ذلك الخالق الحكيم اللامحدوده.

المالكه والقدرة:

وفى الآيه الخامسه يلاحظ بعد ذكرها مالكيه وحاكميه البارى على السموات والأرض وما فيهن، بينت أنه سبحانه على كل شىء قدير: «اللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ». (المائدة/ ١٢٠)

وبديهى أن سبب هذه الحاكميه والمالكه هو خالقيته تعالى، وقطعاً أن من خلق جميع هذه المخلوقات المتنوعه هو على كل شىء قدير، وبالحقيقه أن صدر الآيه دليل على ذيلها.

ويحتمل أن يكون هذا التعبير لقطع أمل المشركين بالأصنام وهدايتهم إلى البارى، ليعلموا أن مقدرات جميع الأمور ومقاليدها بيده تعالى، أو لنفى ودحض عقيدة المسيحيين فى تأليه عيسى عليه السلام، والتى ورد ذكرها فى الآيات السابقه لهذه الآيه من نفس السوره.

وعلى أيّ حال فهو أساس لقلع جذور الشرك بجميع أشكاله.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٢٦

ويجدر الالتفات إلى أنّ كلمة (ملك) - بكسر الميم - تعنى سلطة الإنسان على شيء معين، و (ملك) - بضم الميم - تعنى التحكم بنظام اجتماعى معين، وبتعبير آخر فالمصطلح الأول له حالة فردية والثانى له حالة اجتماعية وهو نفس ما يرد فى تعابيرنا اليومية عندما نعبر عنه ب (المالك) و (الحاكم).

قدرته تعالى على إعادة الخلق:

أشارت الآية السادسة إلى مسألة (المعاد) وقدره البارى على إحياء الموتى فى الآخرة، لتكون رداً على من شككوا فى المعاد الجسمانى وورد ذكرهم فى الآية السابقة لهذه الآية فى قوله تعالى: «ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا إِنْ نَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا» فأجابهم القرآن فى قوله تعالى: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ». (الاسراء / ٩٨-٩٩)

جملة (أو لم يروا) بمعنى (أولم يعلموا؟) باعتبار أن المقصود من الرؤية المذكورة فيها هو الرؤية القلبية، ومصدر هذا العلم والإطلاع هو نفس تلك القاعدة العقلية التى تقول: (حكم الأمثال فيما يجوز وفيما لايجوز واحد)، أى أن الموضوعات المتشابهة لها حكم واحد دائماً، فإن كان أحدها ممكناً فإنه يسرى على سائر الموضوعات فتكون ممكنة جميعاً، وإن كان محالاً فالجميع محال.

قدرته تعالى على إحياء الموتى:

بعد أن أشارت الآية السابعة إلى قدرة الله تعالى على إحياء الموتى فى عالم الآخرة، ذكرت هذا المعنى بتعبير آخر حيث قال تعالى: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغَىٰ بِخَلْقِهِنَّ بِضَآئِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَيُوتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (١). (الأحقاف / ٣٣)

(١) «يعى» من مادة «عى» بمعنى العجز عن أداء عمل ما، وتطلق هذه اللفظة على حالة العجز عن الكلام أيضاً.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٢٧

أكدت هذه الآية أيضاً على أن خلق السموات والأرض بعظمتها وتنوعها دليل على قدرة البارى على إحياء الموتى من جهة، وقدرته على كل شيء من جهة أخرى، لأنّ جميع ما يمكننا تصوّره إنما هى نماذج فى عالم الوجود. والموت والحياة، وكذلك الكائنات المجهرية والمخلوقات العظيمة جداً بكل أبعادها ومن كل شكل ولون ونوع وجنس، فخلقها من قبل البارى تعالى، يُعد أفضل دليل على شمولية وهيمنة القدرة الإلهية.

قدرته تعالى على تبديل الأقوام:

ذكرت الآية الثامنة مسألة القدرة الإلهية بقسم إلهى عميق المغزى، قال تعالى: «فَلَمَّا أَفْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ».

(المعارج / ٤٠)

قد يُشكّل ذوى الملاحظة السطحية ويقولون: كيف يصح إثبات القدرة الإلهية بقسمه سبحانه؟ ويتضح الجواب عن هذا السؤال من محتوى القسم (ربّ المشارق والمغارب)، لأنّ (المشارق والمغارب) إشارة غتية جداً إلى خلق العالم العظيم بنظامه الدقيق، ففي كلّ يوم تشرق الشمس من مشرق جديد وتغرب في مغرب جديد، واستمرار هذه العملية على مدى ملايين السنين، وخلق الشمس بعظمتها هذه، وخلق الكرة الأرضية بكل أسرارها، والنظام الدقيق الذي يتحكم في حركتهما، لخير دليل على شمول القدرة الإلهية لكلّ شيء، ومنها تبديل جماعة من الكفار المعاندين بأناسٍ خيرٍ منهم.

هذا فيما إذا فسّرنا القسم الوارد في هذه الآية بأنه يتعلّق بمشارق الأرض ومغاربها طبعاً، أمّا إذا فسّرناه بمشارق ومغارب الكرات والمنظومات الشمسية الفضائية، لانتضح سعة معناه بصورة أفضل.

والنكتة اللطيفة في أنّ الله تعالى يُقسم نيابة عنهم برب المشارق والمغارب بأنه قادر على تبديل الأقوام بأخرين خيرٍ منهم، هي التنبيه إلى أنّ القادر على إخفاء هذه الشمس العظيمة في افق المغرب وإظهارها في اليوم التالي من مشرقٍ جديد، لقادر على تبديل هؤلاء القوم بخيرٍ منهم.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٢٨

وما كان الله ليعجزه من شيء:

طرحت الآية التاسعة مسألة عموميّة القدرة الإلهية في بُعدين:
الأول: نفى كل ألوان العجز عنه سبحانه، والثاني: قدرته على كلّ شيء ليكون المعاندون على بصيرةٍ من أمرهم من هذه الناحية، قال تعالى: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا». (فاطر / ٤٤)
وفي هذه الآية لا نجد استدلالاً صريحاً على قدرة الله تعالى في أيّ من جملتي هذه الآية، لكن الإشارة الإجمالية إلى السموات والأرض والنظام الدقيق الموجود فيهنّ، بمثابة دليل على علم الله سبحانه وقدرته المطلقة.

والهدف من ذكر هذا الموضوع في الآية الشريفة وبقريته صدر الآية، هو تحذير المشركين، والمعاندين والظالمين، وإعلامهم بأن سلب قوتهم وقدرتهم ليسير جداً على الله تعالى كما حصل في الأمم السابقة.

وتجدر الإشارة أيضاً إلى أنّ منشأ العجز عن شيءٍ إمّا الجهل الذي يسلب من الشخص القدرة على مواجهة الحوادث، وإمّا الضعف وعدم القدرة، أمّا العالم القادر فلا يغفل عن الحوادث ولا يعجز عن مواجهتها.

هو الوهاب القدير:

وبالتالي فقد طرحت الآية العاشرة والأخيرة من بحثنا نفس هذا المعنى بشكل آخر، وبدون أن تذكر مصطلح القدرة أو تنفى العجز عن الله تعالى، قال سبحانه: «قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ». (آل عمران / ٧٣)

مع أنّ أكثر المفسّرين قالوا: إنّ كلمته (واسع) هنا تُشير إلى سعة الرحمة الإلهية، أو سعة قدرته، أو كرمه ووجوده سبحانه، ولكن من المسلم أن تفسيراً كهذا يحتاج إلى تقدير شيء محذوف، في حين أنّ الحذف والتقدير على خلاف القاعدة ولا يصح بدون قرينه.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٢٩

فظاهر الآية يوحي أنّها تتحدث عن سعة وجود الباري تعالى، وطبعاً أنّ سعة وجوده تضمّ كافة هذه المعاني والمفاهيم، من قدرته

المطلقة ورحمته الواسعة وكرمه اللامحدود.

لذا قال الفخر الرازي في تفسيره: لأنَّ كونه واسعاً يدل على كمال القدرة، وكونه عليمًا على كمال العلم، فيصح منه لمكان القدرة أن يتفضل على أي عبد شاء بأي تفضل شاء، ويصح منه لمكان كمال العلم أن لا يكون شيء من أفعاله إلأعلى وجه الحكمة والصواب. (١).

نتيجة البحث:

يُمكن الاستنتاج من مجموع الآيات السابقة أنَّ القدرة الإلهية لا تعرف أي لونٍ من التحديد والتحديد، وخلق السموات والأرض وأنواع الموجودات وخصوصاً مسألة الحياة والموت، خير دليل على هذا المفهوم. والغاية من تأكيد الآيات القرآنية على هذه المسألة هي إثبات المعاد والحياة بعد الموت تارةً، ولتحذير المغرورين الأنايين تارةً أخرى، وكذلك لزرع الاطمئنان في قلوب الصالحين والمؤمنين ليسألوه حل مشاكلهم ويلتجئوا إليه في أمورهم، ويخشونه ولا يخشون أحداً غيره.

توضيح

الأدلة على القدرة الإلهية المطلقة:

هنالك أدلة مختلفة لإثبات هذه المسألة بعضها علمية، والآخرى فلسفية:

١- الدليل العلمي: (والمقصود من العلم هنا هو العلوم التجريبية): عندما نجلس في بيتنا ونفكر في محيطنا المحدود الضيق فقط، نجد أنَّ الدنيا صغيرة وبسيطة. ولكن لو خرجنا من هذه الدائرة الضيقة وذهبنا إلى الغابات والمزارع والحقول، وقمم الجبال

(١) التفسير الكبير، ج ٨، ص ١٠٥.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٣٠

الشاهقة، وأعماق البحار الواسعة، ولو طرنا بأجنحة الخيال وتصورنا عظمة الفضاء والكواكب السيارة، ثم نزلنا وتوغلنا في أعماق الذرة وأسرارها لتجسست لنا عظمة الوجود العجيب.

فهناك آلاف الأنواع من النباتات المختلفة في التركيب بصورة تامة ولها خواص متنوعة، ابتداءً من النباتات المجهرية السابحة في أمواج البحار، وانتهاءً بالأشجار التي يبلغ طولها خمسين متراً أو أكثر! ومن قصب السكر الحلو وحتى الحنظل المر، ومن العقاقير الحياتية المودعة في أوراقها وأزهارها وجذورها إلى أنواع السموم القاتلة.

وكذلك ملايين الأنواع من الحيوانات والحشرات والأحياء التي تبلغ من الصغر أحياناً بحيث لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة، ومن الكبير أحياناً أخرى بحيث يتعدى طول بعضها الثلاثين متراً (كبعض الحيتان التي تعتبر أكبر الحيوانات على الأرض).

وقد بلغ وزن القلب لدى بعضها ألف كيلو غرام! في حين أنه أصغر من حبة الحمص في البعض الآخر.

وبعضها بدرجة من الخفة بحيث تحلق في جو السماء بسرعة، وبعضها الآخر أقوى من الفولاذ بحيث تتحمل ضغط الماء العظيم في أعماق البحار.

وهناك نجوم متفاوتة مع بعضها من حيث الكبر والصغر، والبعد والقرب، والوزن وسرعة الحركة وبقية الصفات الاخرى، وكل واحدة ذات عالم خاص.

وكذلك تركيب الخلايا والذرات ونظامها العجيب المذهل، فكل واحدة منها تُجسّم لنا عالماً جديداً.

والألطف من جميع ذلك هو أنّ جميع هذه الموجودات العجيبة الموجودة في عالم الوجود مركّبة من أصل واحد، والكائنات الحيّة مركّبة جميعها من الخلايا الصغيرة، وكل عالم المادة مركب من وحدات صغيرة تُدعى الذرّة!

إنّ هذا التنوع البسيط والمحكم في نفس الوقت الذي نراه في الكتاب التكويني يشبه بالضبط ذلك النوع الملحوظ في الكتاب التدويني أي (القرآن الكريم)، فكل تلك

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٣١

المحتويات والمعارف الإلهية العظيمة مصبوبة في قالب ألفاظٍ مركّبة من هذه الحروف الأبجدية البسيطة!

ومن مطالعة مجموع هذه المسائل، نتوصل إلى أنّ مبدى عالم الوجود ذو قدرة لا محدودة، ولا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض.

٢- برهان الوجوب والامكان (برهان فلسفي): عرفنا في بحث إثبات وجود الله أنّ الوجود لا يتعدى إحدى حالتين: إما مستقلّ بالذات ويُدعى (واجب الوجود)، أو محتاج إلى غيره ويدعى (ممکن الوجود).

وكذلك ثبت في بحث التوحيد ووحدة الذات الإلهية المقدّسة بأنّ (واجب الوجود) في هذا العالم واحد لا أكثر، وكل ما سواه (ممکن الوجود)، وجميع الممكنات محتاجة إليه تعالى لا في بداية إيجادها فحسب، بل في بقائها واستمرارها. وهذا بحد ذاته مظهر وبرهان على قدرة الله على كل شيء (فتأمل جيداً).

٣- برهان سعة الوجود (برهان فلسفي): من المؤكد أنّ سبب عجزنا عن إنجاز عملٍ معين هو نقصنا، فمثلاً لو عجزنا عن زراعة أرض معينة فالسبب في ذلك إمّا لكون مساحة الأرض أكبر من قدرتنا وطاقتنا، أو لعدم امتلاكنا الوسائل اللازمة لزراعتها، أو لأنّ الأرض سيّخة وليس بمقدورنا تحويلها إلى أرض زراعية.

لذا فلو كانت قدرتنا على الزراعة مطلقاً، وكانت الأرض بالنسبة لنا صالحة للزراعة مهما كانت مساحتها، وكنا في غنى عن الوسائل الزراعية لاستطعنا زراعة أي أرض وبدون استثناء.

لذا فأى مشكلة تحدث في طريقنا هي في الواقع تنبع من محدودية وجودنا.

إذن، كيف يُمكن أن يعجز الوجود المطلق من كل ناحية عن شيء معين؟! وتعبير آخر إنّ الله سبحانه حاضر في كل مكان وبإيده مقدّرات جميع الأمور، لذا فهو قادر على إزالة كافة الموانع، وهذا دليل قدرته على كل شيء.

٤- الله قادر مختار: كما أشرنا سابقاً إلى أنّ المقصود بالقدرة الإلهية هي القدرة المقرونة مع الاختيار.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٣٢

وقد استدلل الفلاسفة وعلماء الكلام على كون الله تعالى فاعلاً مختاراً بأنّ الفاعل على نوعين: إمّا (مخيّر)، وإمّا (مُسَيّر) كتأثير الشمس في المنظومة الشمسية وموجوداتها.

فلو قلنا: إنّ خالق العالم فاعل مسيّر، لوجب التسليم بأحد الأمرين: إمّا بأنّ الوجود قديم، وإمّا بأنّ الذات الإلهية حادثه، لأنّ الفاعل المسيّر لا ينفصل عن فعله أبداً.

أمّا كون هذا العالم أزلي فغير ممكن، لأننا عرفنا دلائل حدوث العالم في بحث وجود الله سبحانه.

والقول بحدوث الذات الإلهية المقدّسة يستلزم إنكار وجوده تعالى، لأنّها لو كانت حادثه لاحتاجت إلى علّة، إذن فهو ليس بواجب الوجود والحالة هذه.

وبتعبير آخر لو كانت خالقية الباري كأشعة الشمس لاستلزم أن يكون هذا الكون قديماً وازلياً، لأن إرسال الشمس لأشعتها لا إرادى وهو ملازم لوجودها دائماً وأبداً.

لذا نستنتج بأن الله تعالى فاعل مختار، وأن ذاته المقدسة أزلية وفعلة حادث، وكلما أراد شيئاً يتحقق بدون فاصلة زمنية.

سؤال: من المعلوم أن كلمة الفاعل المختار تعنى المرید، ونعلم أن الإرادة كيفية نفسانية تعرض على صاحبها، وهذا المفهوم يتعارض مع حقيقة ذات الباري تعالى، لأن ذاته لا تقع محلاً للحوادث، فكيف نفسر إرادة الله تعالى؟

الجواب: بالرجوع إلى ما ذكرناه فى بحث الإرادة الإلهية (فى ذيل صفة علم الله تعالى يتضح جواب هذا السؤال، وهو عدم إمكانية تطبيق ومقايسة مفهوم الإرادة الذى نجده فى أنفسنا مع مفهومها بالنسبة للذات الإلهية، كما هو الحال فى صفة العلم، فالعلم الحسولى الموجود فىنا والحادث بالنسبة لنا لا معنى له أبداً بخصوص الذات الإلهية المقدسة.

والإرادة الإلهية الذاتية - كما شرحنا ذلك سابقاً تشعب من علمه سبحانه، وهى عبارة عن (علمه بالنظام التكويني الأحسن) الذى هو علته خلق الأشياء والأحداث الواقعة فى الأزمنة المختلفة.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٣٣

إذن إرادته أزلية وآثارها تدريجية (تمعن بدقة).

ولزيادة الإطلاع حول هذا الموضوع، وحول التفاوت الموجود بين الإرادة الإلهية «الذاتية» و «الفعلية» راجع بحث الإرادة فى نفس هذا الجزء.

٥- المخالفون لشمول القدرة الإلهية: فى نفس الوقت الذى أقر بعض الفلاسفة والمتكلمين بالقدرة الإلهية بدون أى مناقشة، نجدهم قد توقفوا فى مسألة عموميتها - بسبب مواجهتهم لبعض الإشكالات التى عجزوا عن حلها، ومن جملة هؤلاء:

١- الفلاسفة والمتكلمين المجوس: ومن المعلوم أنهم قسموا جميع موجودات العالم إلى مجموعتين: (الخير) و (الشر)، واعتقدوا بأن لكل واحدة منها خالقاً خاصاً، فخالق الخير لا يمكن أن يخلق الشر، والعكس صحيح، لذا فقد اعتقدوا بتعدد المبدى: إله الخير (يزدان)، وإله الشر (أهريمن)، بيد أن خطأهم الفادح ناجم من تقسيم الموجودات منذ البداية إلى مجموعتى الخير والشر، لأن التحقيقات الدقيقة تشير إلى عدم وجود (الشر المطلق) فى عالم الوجود، بل مانسميه نحن بالشر قد يكون ذا جنبه عدمية كالفقر والجهل، فالأول بمعنى عدم المال والثروة، والثانى بمعنى عدم العلم، ونحن نعلم بأن عدم ليس شيئاً يحتاج إلى خالق.

وأما ما كان ذا جنبه نسبية كلسعة الحشرات التى تعتبر شراً بالنسبة للشخص الملسوع فهى فى الحقيقة وسيلة دفاعية بالنسبة للحشرات اللاسعة، وتعتبر خيراً لأنها وسيلة لتأمين بقائها.

علاوة على أن الكثير من الأمور الوجودية نعتبرها شراً بسبب جهلنا لأسرارها، لذا وبعد حصول التطور العلمى واكتشاف أسرارها نُقر بضرورتها، كالعواصف الثلجية الباردة التى تقضى على الكثير من الآفات النباتية، أو الحر الشديد الذى يؤدى إلى نمو أنواع النباتات وتبخر كميات كبيرة من مياه البحار الذى يؤدى بالتالى إلى هطول الأمطار المفيدة وما شاكل ذلك. لذا فعندما نترع نظارات الشر عن أنظارنا، وننظر إلى الوجود بنظرة خير ينتفى موضوع هذه العقيدة الثنوية، وهناك توضيحات أوسع حول هذا الموضوع سنطرحها فى

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٣٤

بحث العدل الإلهي إن شاء الله تعالى

٢- المفوضة: قالت هذه الجماعة: إن الله سبحانه ليست له قدرة على أعمالنا، أو بعبارة أخرى: إن أفعال الإنسان خارجة عن دائرة قدرته تعالى، وإلا لزم (الجبر)، لأن أفعال الإنسان لو كانت فى دائرة القدرة الإلهية لحصل التضاد، حيث يحتمل أن يريد الله تعالى فعلاً معيناً، ويريد عبادة غير ذلك!.

وخطأ هذه الجماعة ينشأ من اعتقادهم بأن قدرة الله تعالى على أفعالنا تتعارض مع قدرتنا على أساس أنهما فى عرض واحد، غافلين

عن أن هاتين القدرتين تقعان في طول واحد.

توضيح ذلك: إن الله تعالى قد خلق البشر ومنحهم الحرية والقدرة على اتخاذ القرار، وقادر على سلبها منهم متى شاء، لذا فإنه سبحانه هو الذى أراد أن يكونوا فاعلين مختارين، وعليه فإن أفعالهم غير خارجة عن دائرة قدرته، لأن هذه الحرية من عطائه ومتطابقة مع إرادته ومشيئته سبحانه.

وسياتى توضيح أكثر حول هذا الموضوع فى بحث الجبر والتفويض.

٣- إعتقد بعض أهل السنة: (جماعة النظام) بأن الله تعالى غير قادر على فعل القبيح، لأن الأفعال القبيحة إما أن تكون بسبب الجهل، وإما بسبب الحاجات الكاذبة، وبما أن الله تعالى منزّه عن الجهل والحاجة، لذا فهو غير قادر على فعل القبيح أبداً والخطأ الذى وقعت فيه هذه الجماعة ينشأ من عدم تمييزهم بين (الإمكان الذاتى) و (الإمكان الوقوعى).

توضيح ذلك: إن بعض الأمور مستحيلة ذاتاً كاجتماع الضدين، أو النقيضين، وهو الجمع بين الوجود والعدم فى حالة واحدة، ويُطلق على هذا النوع بالمستحيل الذاتى.

أمّا الأمور غير المستحيلة ذاتاً لكنها لا تصدر من حكيم كالبارى تعالى مثل الظلم والفساد والأفعال القبيحة الأخرى، فيطلق عليها بالمستحيل الوقوعى.

ومن المسلم به هو أن الله تعالى قادر على الظلم لكن حكمته تمنعه من ذلك.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٣٥

وقد يصدق هذا الكلام بخصوصنا أحياناً، فنحن نستطيع أن نلقى بأنفسنا فى النار، أو نضع جذوة من النار فى أفواهنا، أو عيوننا، ولسنا بعاجزين عن القيام بهذا الفعل، لكننا لانقوم به أبداً، لأن عقولنا لا تسمح لنا بمثل ذلك، فهذا مستحيل وقوعى لا ذاتى.

٤- اعتقد بعض الفلاسفة: بأن الذات الإلهية المقدسة، ولكونها واحدة من كل ناحية ولا تقبل الكثرة والتعدد، فلا يصدر منها سوى مخلوق مجرد واحد رفيع جداً سموه «العقل الأول»، واستندوا فى معتقدهم هذا على القاعدة المعروفة التى تقول «الواحد لا يصدر منه إلا الواحد».

لذا فهم يقولون: إن المخلوق الإلهى الوحيد هو ذلك الموجود المجرد الأول، لذا ومن حيث إن «العقل الأول» ذو جهات متعددة (له وجود من جهة، وماهية من جهة أخرى، ذاتاً «ممکن الوجود» من جهة، و «واجب الوجود» بالعرض من جهة أخرى)، فبسبب جهات الكثرة هذه، نشأت منه معلولات مختلفة، لذا فمناً الكثرة فى عالم الوجود هى الكثرة الموجودة فى العقل الأول والمراتب البعدية حاصله منه.

وقد اعتمدوا لإثبات القاعدة أعلاه على مسألة «السنخية بين العلة والمعلول»، وقالوا:

لولا ضرورة السنخية بين العلة والمعلول، لأمكن أن يكون كل موجود علةً لأى معلول، لكن لزوم السنخية يحول دون هذا الأمر، وعندما نقر بوجود السنخية بين العلة والمعلول، يجب علينا أن نقر بأن العلة الواحدة من كل ناحية تستلزم أن لا يكون لها أكثر من معلول واحد. (تأمل جيداً) «١».

ويمكن الرد على هؤلاء بعدة طرق:

أ) على فرض صحة هذا الاستدلال، فإنه لا يُفهم منه محدودية القدرة الإلهية، بل هو على كل شىء قدير، لكن قدرته بالنسبة «للعقل الأول» بدون واسطة، وبالنسبة للموجودات الأخرى مع وجود واسطة، وكلاهما يعتبران فى حدود المقدور، فما الفرق بين أن يُباشر الإنسان عملاً معيناً بيده، أو بوسيلة وأداة معينة من صنعه؟ فالفعل فعله فى كلتا الحالتين.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٣٦

(ب) ما قيل بخصوص قاعدة (الواحد لا يصدر منه إلّا الواحد) لا يصح تطبيقه على الفاعل المختار بنظر بعض المحققين. لذا فقد طرح المرحوم «العلامة الخلی رحمه الله» هذه المسألة في «كشف المراد» بشكل أمر بديهی وقال: «المؤثر إن كان مختاراً جاز أن يتكثّر أثره مع وحدته، وإن كان موجباً فذهب الأكثر إلى استحالة تكثّر معلوله» (١).

وعليه فقد جعل (الفاعل الموجب) مركز بحثه لا (الفاعل المختار)، ثم نقل استدلال القائلين بوحدة الأثر في الفاعل الموجب وردّه (٢). والحقيقة أنه لا يوجد أي دليل على شمول القاعدة المذكورة للفاعل المختار، فهو مجرد ادعاء محض.

(ج) بغض النظر عن جميع ذلك فإنّ قانون «السنخية بين العلّة والمعلول» محل إشكال حتّى في غير الفاعل المختار، لأنّه لو كان المراد من السنخية هو السنخية والتشابه من جميع الجهات، فهو مستحيل التحقق بين «واجب الوجود» و «ممكن الوجود»، فالممكنات مهما تكن فهي متباينة مع واجب الوجود في جهات كثيرة، فلو اشترطنا السنخية التامة وفي جميع الجهات، فكيف يمكن أن يخلق وجود غير مادي موجودات مادية؟

ولو كان المراد منها السنخية الإجمالية، فهي متحققة بين الخالق والموجودات المتكثّرة والمتعددة، لأنها جميعاً تشترك في الوجود والكمال النوعي الذي يُعدّ قطرةً من بحر كمال الله اللامحدود.

(د) علاوة على جميع ما ذكرنا يُمكن القول: إنّ الكون نسخ واحد لا أكثر على الرغم من احتوائه ظاهراً على موجودات متعددة ومتكثّرة، وبتعبير آخر، فإنّ عالم التكوين كبحر عظيم لامحدود توجد على سطحه أمواج، وهذه الأمواج والتعرجات بمثابة تلك الموجودات المتعددة والمتكثّرة، والمقصود هنا عالم الوجود، لا الذات الإلهية المقدّسة.

(١) كشف المراد، ص ٨٤.

(٢) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٣٧

وباختصار فإننا لو أمعنا النظر لعلمنا بأنّ مجموع عالم الوجود موجود واحد متصل ومترابط، وعلى الرغم من كل تنوعاته وكثرة قوانينه المؤثرة فيه فهو واحد، وهذا الموجود الواحد يفيض من الوجود الإلهي الواحد، وهذا المخلوق الواحد له خالق واحد. والبعض الآخر الذين شكّكوا في شمول القدرة الإلهية قالوا: لو افترضنا أنّ الله تعالى على كل شيء قدير، لواجهنا تعارضاً في بعض الحالات لا نستطيع حلّه.

فمثلاً تساءل البعض: هل يستطيع الله تعالى أن يخلق موجوداً مثله؟! فإن قلتم: نعم، لكان تعدد الآلهة ممكناً! وإن قلتم: لا، فقد رته محدودة!.

أو يتساءل: هل يقدر الله تعالى أن يدخل جميع هذا العالم الواسع، وجميع كراته وكواكبه في بيضه، من غير أن يصغر العالم أو تكبر البيضة؟! فإن قلتم: بلى، فغير مقبول، وإن قلتم: لا، فقد أقرتم بعجزه - سبحانه -.

أو: هل يستطيع الله تعالى أن يخلق موجوداً لا يقدر على إفناؤه؟! أيما الطريقتين انتخبتم فقد أقرتم بعجزه، والكثير من هذه الأسئلة. إنّ مصدر اشتباه هؤلاء هو عدم إلمامهم بالمسائل الفلسفية، وغفلتهم عن هذه الحقيقة الواضحة، وهو أنّه عندما يدور الحديث حول «القدرة»، فمعناه القدرة على الامور الممكنة، لأنّ القدرة لا تشمل المستحيلات لأنها لا شيء.

توضيح ذلك: إنّ معنى تساؤلنا عن اقتدار الله تعالى على شيء معين أحياناً، هو كون ذلك الشيء من الممكنات، وقصدنا إكساؤه حله الوجود بالقدرة الإلهية، أمّا لو كان ذلك الشيء مستحيلاً ذاتاً فإنّ تساؤلنا عن إمكانية إيجاده غير صحيح بتاتاً، ولا معنى له أبداً. وهذا ما يُسمّى بالسؤال المتناقض.

كأن يكون لدينا عشرون برتقاله ونريد توزيعها على أربعين شخصاً، بحيث يحصل كل واحدٍ منهم على واحدة؟! فهل يُمكن ذلك؟ فالسؤال المطروح متناقض بحدّ ذاته وغير صحيح، لأنّ قولنا عشرون برتقاله يعنى أنها ليست أربعيناً، وقولنا: إن أربعين شخصاً يحصل كل واحدٍ منهم على برتقاله، معناه وجود

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٣٨

أربعين برتقاله، ممّا يلزم تحقق العددين عشرين وأربعين فى نفس الكمية من البرتقال وفى آنٍ واحد! وبديهي أنه لا يوجد إنسان عاقل يتفوّه بمثل هذا الكلام.

وبعد التحقيق فى جميع الأسئلة التى ذكرناها يتضح أنّها من هذا القبيل، أى أنّها متناقضة وغير مقبولة، لذا ينتفى جوابها. فمثلاً عندما نقول: هل يستطيع الله تعالى أن يخلق إلهاً آخر مثله؟ معناه أنّ ذلك الإله غير مخلوق، فيصبح السؤال متناقضاً، لأنّه سؤال عن خلق شيء لا يُمكن أن يكون مخلوقاً، وبمجرّد أن يخلق الله سبحانه شيئاً فهو مخلوق، ولا يمكن أن يكون إلهاً. وهكذا عندما يُقال: هل يستطيع الله تعالى أن يُدخل الدنيا فى مكان صغير من غير أن تصغر الدنيا أو يكبر ذلك المكان، فمعناه أن يكون العالم صغيراً وكبيراً جدّاً فى آنٍ واحد، وهذا شيء متناقض.

واللطيف أنّ رجلاً سأل أمير المؤمنين عليه السلام نفس هذا السؤال: «هل يقدر ربُّك أن يُدخل الدنيا فى بيضه من غير أن تُصغر أو تكبر البيضة؟» فأجابه الإمام عليه السلام: «إنّ الله تبارك وتعالى لا يُنسب إلى العجز والذى سألتنى لا يكون» (١).

وما نجده فى الرواية المنقولة عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام عندما يجيب على هذا السؤال فيقول عليه السلام: «نعم وقد جعلها فى عينك وهى أقلُّ من البيضة» (٢).

، فهو فى الحقيقة جواب إقناعي، وذلك لأنّ السائل لم يكن ذا قدرة على تحليل مثل هذه المسائل، وقد أجابه الإمام عليه السلام بهذه الطريقة مراعاةً لحاله من الفهم، وإلّا فالجواب الأصلى على هذا السؤال هو نفس ماورد فى كلام أمير المؤمنين عليه السلام.

(١) بحار الأنوار، ج ٤، ص ١٤٣، ح ١٠.

(٢) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٣٩

٣ و ٤ - أزليته وأبدية الله تعالى

تمهيد:

يعتقد جميع من يؤمن بوجود الله تعالى بأزليته وأبديته سبحانه، وهاتان الصفتان عين بعضهما، لأنّ الوجود الأزلى لا يمكن أن يكون ذا عمرٍ وزمانٍ محدود، وإلّا لما كان أزلياً، وعندما يكون الوجود غير محدد بزمان فذلك يعنى أبدية أيضاً. وبتعبيرٍ آخر، إنّ جميع الأدلّة الموجودة على إثبات وجود الله تعالى تدل بصورة مباشرة أو غير مباشرة على كونه سبحانه وتعالى واجب الوجود.

وبديهي أنّ واجب الوجود الذى وجوده عين ذاته لا بدّ وأن يكون أزلياً وأبدياً، فالممكنات هى الحادثه، أى أنّها لم تكن فى زمان معين ثم وُجدت وستفنى بعد مدّة، وواجب الوجود منزه عن الحدوث كلياً.

بعد هذا التمهيد نعود إلى القرآن الكريم لتأمل فى الآيات المباركة التالية ونصغى إليها بأسماع قلوبنا:

١- «هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ». (الحديد/ ٣)

٢- «كُلُّ مَنْ عَلَيَّهَا فَإِنَّ * وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ». (الرحمن / ٢٦ - ٢٧)

٣- «وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى . (طه / ٧٣)

٤- «كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ». (القصص / ٨٨)

جمع الآيات وتفسيرها

يلاحظ في بداية سورة الحديد «آيات ست» اجتمعت فيها الكثير من الصفات الإلهية

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٤٠

وتعابير غنية وعميقة، لذا فقد ورد في بعض الأحاديث الإسلامية المنقولة عن الإمام على بن الحسين عليه السلام، أنه سُئِلَ عن التوحيد فقال: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَلَّمَ أَنَّهُ يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ أَقْوَامٌ مُتَعَمِّقُونَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: سُورَةَ «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ»، وَالآيَاتُ مِنْ سُورَةِ الْحَدِيدِ إِلَى قَوْلِهِ: «وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ» (١)»

والآية التي يدور بحثنا حولها هي إحدى الآيات الست المذكورة.

قال تعالى: «هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ».

اختلف المفسرون حول المقصود من (الأول) و (الآخر)، ولكن تعابيرهم قريبة من بعضها:

فقد قال البعض: هو الأول من غير ابتداء، والآخر من غير انتهاء.

وقال البعض الآخر: هو الأول في التكوين، والآخر في إعطاء الرزق.

وقال جماعة: هو أول الأولين، وآخر الآخرين.

وقال آخرون: هو الأول بأزليته، والآخر بأبديته.

وقال البعض الآخر: هو الأول بالخير والإحسان، والآخر بالعفو والمغفرة (٢).

ولكن على أية حال فإن مفهوم الآية واضح، والمقصود من الأول هو كونه أزلياً، ومن الآخر هو كونه أبدياً، لذا فقد ورد في نهج

البلاغه: «لم يزل أولاً قبل الأشياء بلا أولية، وآخرًا بعد الأشياء بلا نهاية» (٣).

وكذلك ورد في خطبة الأشباح: «الأول الذي لم يكن له قبل فيكون شيء قبله والآخر الذي ليس له بعد فيكون شيء بعده» (٤).

وفي حديث نبوي أنه صلى الله عليه وآله قال: «اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء» (٥).

(١) اصول الكافي، ج ١، ص ٩١ باب النسبة، ح ٣.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٣٠.

(٣) نهج البلاغه؛ عن تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٢٣٧. ويحتمل أن يكون في بعض النسخ الخطية.

(٤) نهج البلاغه، الخطبة ٩١.

(٥) تفسير القرطبي، ج ٩، ص ٦٤٠٦.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٤١

وقال بعض المفسرين: إن (الأول) و (الآخر) يشمل كل زمان، و (الظاهر) و (الباطن) يشمل جميع حقيقة المكان، لذا فالآية المذكورة

كناية عن حضور الله تعالى الدائم في كل مكان وزمان (١).

وواضح أن تعبير «الزمان» وما شاكل في العبارات المذكورة هو لضيق البيان، وإلا فالله سبحانه فوق الزمان والمكان.

وفى الآية الثانية وبالرغم من أن الحديث عن فناء سكان الأرض، لكنها بالحقيقة لا تنحصر بأهل الأرض فقط، يقول تبارك وتعالى: «كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ».

صحيح أن التعبير بعبارة (من عليها) إشارة إلى الموجودات العاقلة من الجن والإنس، لكنه وكما احتل بعض المفسرين لا يستبعد أن يكون المقصود منها جميع الكائنات الحية الأرضية (من باب التغليب)، وعلى أية حال فالهدف الأساس من الآية هو بيان فناء جميع الموجودات وبقاء الذات الإلهية المقدسة.

ولو أن (وجه) فى اللغة يعنى قرص الوجه، لكنه فى مثل هذه الحالات يعنى الوجود والذات.

ولا- يُستبعد أن يكون التعبير بعبارة «ذو الجلال والإكرام» إشارة إلى الصفات الإلهية السلبية والثبوتية، لأن (ذو الجلال) تحكى عن الصفات السلبية، بمعنى أن الله تعالى أجيّل وأعلى من أن يوصف بها، و (الإكرام) إشارة إلى الصفات المظهره لكمال الشى، وهى الصفات الإلهية الثبوتية، كعلم الله وقدرته.

أجل، إن الإله صاحب الجمال والجلال باقٍ دائماً، ومن سواه فانٍ.

(١) تفسير فى ظلال القرآن، ج ٧، ص ٧١٨.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٤٢

والجدير بالذكر هو كون الآية من «سورة الرحمن» التى يفيض محتواها بذكر النعم الإلهية المختلفة، فهل إن مسألة فناء وموت الكائنات الحية هى أيضاً من جملة النعم الإلهية؟!

نعم، إنها من النعم، لأنها من جهة تخلع عن الإنسان لباس الشرك وتدعوه إلى التوحيد الخالص وتُفهمه بأن المستحق للعبادة والإلهية هو ذات «ذو الجلال والإكرام» الباقية فقط، لا الموجودات الفانية الزائلة. ومن جهة أخرى تحذّر الإنسان ليستفيد من ساعات عمره بأفضل وجهٍ وأكملة.

ومن جهةٍ ثالثة تُعزى الإنسان وتُصبره لكى يقف أمام مصائب ومشكلات الدهر التى تواجهه فى الحياة الدنيا من حيث كونها زائلة أيضاً، ومن جهةٍ أخرى فإنّ هذا الفناء مقدمة للبقاء وطريق الخلاص من سجن هذه الدنيا والانتقال إلى عالم الآخرة ونعيمها الذى لا يزول.

أما الآية الثالثة فقد وردت فى ذيل قصّة إيمان سحره فرعون وتهديد فرعون لهم بالقتل، وهى ذات مفهوم عميقٍ وواسع، حيث نقلت كلام اولئك السحرة الذين آمنوا وقالوا لفرعون:

«إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيُغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السَّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى .

البقاء المطلق»: يعنى الأبدية، وكما قلنا سابقاً فإنّ «الأبدية» لا تنفصل عن الأزلية أيضاً.

ومن المسلم به أن أبدية ذاته المقدسة ملازمة لأبدية لطفه وإنعامه، لذا فقد علم اولئك السحرة الذين آمنوا بوجوب ترجيح هذه النعمة الخالدة على النعم الفرعونية الحقيرة الزائلة.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٤٣

بعد أن أبطلت الآية الرابعة والأخيرة من بحثنا كل ألوان الشرك، فبُدت ماسواه من المعبودات، حيث قالت: «كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ».

وهذه الجملة بالحقيقة هى بمنزلة الدليل على الحكم السابق، لأنّ الموجودات الفانية الزائلة لا تليق بالالوهية والعبادة، والوجود الوحيد الذى يليق بهذا المقام هو الباقي والقائم دائماً فقط.

وقد قلنا: إنّ (الوجه) فى اللغة يعنى قرص الوجه، لكنها تستعمل فى بعض الأحيان أيضاً بمعنى (الذات) - كما هو فى بحثنا هذا، وما

فسره البعض بمعنى الدين أو العمل الصالح وما شاكله لا دليل عليه، إلا أن يُؤَلَّ بمعنى الذات الإلهية المقدسة.

وعلى أية حال، فإن هذه الآية دليل واضح على أبدية الذات الإلهية المقدسة، ونعلم جميعاً أن الأبدية غير مفصولة عن الأزلية. والموجودات الاخرى من الأموال، الثروات، والمقامات والسماوات والأرض، جميعها في زمرة الممكنات ولا تفنى وتهلك في النهاية فحسب، بل هي فانية وهالكه حتى في حالها الحاضر، لأنها لا تملك في ذاتها شيئاً، ولولا الذات الإلهية المقدسة التي تفيض عليها بالوجود لحظة بعد اخرى، لفنت وهلكت.

ويظهر أن (الفناء) هنا بمعنى موت الموجودات الحية، أو بمعنى تلاشي الموجودات الاخرى، وعليه فلا تضاد بينها وبين الآيات التي تقول: بأن تراب الإنسان يبقى ليصير مصدراً لحياته في الآخرة، أو التي تقول: بأن أجزاء الأرض والجبال تبقى بعد أن تتلاشى لينشأ منها عالم جديد.

ويرد هنا السؤال التالي وهو: يُستنتج من الآيات القرآنية أن كلاً من الجنة والنار موجودتان حالياً ومعدتان، حيث قال تعالى بخصوص الجنة: «أعدت للمتقين».

(آل عمران / ١٣٣)

وقال بخصوص النار: «أعدت للكافرين». (آل عمران / ١٣١)

أفهل تفنيان في النهاية أيضاً؟

وفي الجواب على هذا السؤال، قيل: إنه لا تنافي بين عمومية الآية أعلاه مع استثناء

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٤٤

بعض الموارد الخاصة التي تحصل بإرادة الله تعالى أيضاً! «١».

علاوة على ذلك وكما قلنا سابقاً: إن الموجودات الإمكانية هي فانية في حال وجودها أيضاً، لأن بقاءها قائم بقاء الله سبحانه. (تأمل جيداً).

يتضح من مجموع ما ذكرناه أن القرآن الكريم وضح مسألة أزلية وأبدية وجود الله تعالى بصورة تامة، على الرغم من عدم استعماله كلمتي (الأبد) و (الأزل)، لكنه استعمل تعابير من قبيل (الأول) و (الآخر) و (الباقي) و (عدم الفناء والهلاك) والتي تُفصح عن مفهومي الأزلية والأبدية.

واللطيف أن البعض قالوا: إن كلمة (أزل) مأخوذة من جملة (لا يزال)، والتي هي بالأصل مأخوذة من مادة (زوال)، أي التحول والتغير، ولعل هذا هو السر في عدم استعمالها في الآيات القرآنية، بل استعملت كلمة (أول) بدلاً عنها، والتي لها مفهوم أوضح وأبقى.

و (الأبد) في اللغة أيضاً بمعنى (الزمن الطويل) ولا تعطى مفهوم (الآخر)، لذا فما ذكر في القرآن الكريم بخصوص الله سبحانه (الأول) والآخر والباقي وغير الفاني) أبلغ من كلمة (الأزل) وكلمة (الأبد) من كل ناحية، ولو أن هاتين الكلمتين قد وصلتا مرحلة الوضوح في عصرنا وزماننا الحاضر على أثر كثرة استعمالهما في هذين المفهومين.

توضيحات

١- النظرة الفلسفية لأزلية وأبدية الله تعالى

لقد ذكرنا سابقاً بأنه لا يوجد أحد من المؤمنين يُنكر أزلية وجود الله عز وجل وأبديته، لأنه لو لم يكن أزلياً لاستلزم أن يكون حادثاً، وإن كان حادثاً لاحتاج إلى علّة اخرى،

(١) تفسير الكبير، ج ٢٥، ص ٢٤.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٤٥

لاستحالة وجود المعلول بدون علته. وإذا آمنا بأزليته سبحانه فإنها مصحوبة أيضاً بأبديته، لأن الوجود الأزلي لا محدود حتماً، ووجود كهذا سيكون أبدياً بالطبع، مضافاً إلى ذلك فإن نفس التفكير في حقيقة وجود الله تعالى يوصل إلى هاتين الصفتين بسهولة، لأن دلائل إثبات وجود الله تفيد كونه (واجب الوجود)، ونعلم أن واجب الوجود لا يمكن أن يكون منفصلاً عن الوجود أبداً، أو بعبارة أصح، الوجود عين ذاته، ولم يُعطَ له من الخارج لئُوخذ منه في زمانٍ ما، ووجود كهذا كان منذ الأزل وسيبقى إلى الأبد. وقد تُجمع هاتان الصفتان في صفة واحدة هي (السرمدية)، لأن الوجود السرمدى هو الوجود الذى لا بداية له ولا نهاية كما قال بعض أرباب اللغة.

وما قاله بعض ذوى الأفكار الضيقة من إمكانية تصوّر ذات تكون وجوداً واجب الوجود في زمانٍ، وغير واجب للوجود في زمان آخر، إنما هو كلام واه جداً ولا أساس له، ويدل على عدم فهمهم معنى (واجب الوجود) بصورة صحيحة، لأنه وكما قلنا سابقاً: فإن واجب الوجود هو عين الوجود، فكيف يُمكن أن ينفصل عن الوجود؟! وكذلك ما نُقِلَ عن بعض الأشاعرة من اعتقادهم بأن صفة البقاء والأبديّة زائدة على الذات الإلهية المقدّسة، إنما يدل على عدم دقّتهم في معنى ومفهوم واجب الوجود.

٢- أزلية الله تعالى وأبديته في الروايات الإسلامية

هنالك خُطب عديدة في نهج البلاغة أكّدت على هذا المعنى، وكمثال على ذلك:

نقرأ في الخطبة ١٦٣: «ليس لأوليته ابتداءً، ولا لأزليته انقضاءً».

وجاء في الخطبة ١٨٥: «مُستشهدٌ بحدوث الأشياء على أزليته».

كما نقرأ في نفس الخطبة: «واحدٌ لا بعدد، ودائمٌ لا بأمد».

وجاء في اصول الكافي في فصل «معانى أسماء الله» في تفسير «هو الأول والآخر» عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «هو الأول قبل كل شيء وهو الآخر على ما لم يزل ولا تختلف

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٤٦

عليه الصفات والأسماء، كما تختلف على غيره» (١).

وجاء في حديث آخر عن نفس الإمام عليه السلام في تفسير وصف «الأول»: «الأول لا عن أول قبله، ولا عن بدءٍ سبقه، والآخر لا عن نهاية... ولم يزل ولا يزول بلا بدءٍ ولا نهاية» (٢).

٣- الإجابة عن سؤال

يرد هذا السؤال عادةً في مباحث معرفة الله تعالى ومن قبل الأفراد قليلي الخبرة وهو:

أنتم تقولون: إن لكل شيء خالقاً ومبدعاً، إذن فمن خلق الله عز وجل؟

والعجيب هو أن بعض فلاسفة الغرب طرحوا هذه الأسئلة أيضاً، وهي علامة على مقدار تصورهم السطحي في المباحث الفلسفية وتفكيرهم البدائي.

يقول الفيلسوف الإنجليزي الشهير (برتراند راسل) في كتابه (لِمَ لا أكون مسيحياً؟):

«كنت اعتقد بالله في شبابي، وكنت أعتقد ببرهان علة العلل كأفضل دليل عليه، وهو أن كل ما نراه في الوجود ذو علة معينة، ولو تتبعنا سلسلة العلل لانتهد بالعلة الأولى، وهي ما نسميه بالله.

لكنني تراجع عن هذه العقيدة بالمرّة فيما بعد، لأنني فكرت بأنه لو كان لكل شيء علة وخالق، لوجب أن يكون لله علة وخالق أيضاً» (٣).

لكننا لا نعتقد بأنّ أحداً له أدنى اطلاع على المسائل الفلسفية الخاصة بمباحث معرفة الله تعالى وما وراء الطبيعة، يحار في الإجابة عن هذا السؤال، فالمسألة واضحة جداً، فعندما نقول: إنّ لكل شيء خالقاً وموجداً، نقصد (كل شيء حادثٍ وممكن الوجود)، لذا

(١) اصول الكافي، ج ١ ص ١١٥ (باب معاني الأسماء) ح ٥.

(٢) المصدر السابق، ص ١١٦، ح ٦.

(٣) برتراند راسل، في كتابه (لم لم أكن مسيحياً).

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٤٧

فهذه القاعدة الكلية صادقة فقط بخصوص الأشياء التي لم تكن من قبل وحدثت فيما بعد، لا بخصوص واجب الوجود الذي كان موجوداً منذ الأزل وسيبقى إلى الأبد، فوجود أزلي لا يحتاج إلى خالق، لكي نسأل عن خالقه؟! فهو قائم بذاته ولم يكن معدوماً من قبل أبداً، لكي يحتاج إلى علة وجودية.

وبتعبير آخر: إنّ وجوده من ذاته لا- من خارج ذاته، وهو لم يكن مخلوقاً، هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان من الأفضل ل (برتراند راسل) ومؤيديه أن يسألوا أنفسهم هذا السؤال:

لو كان لله خالقٌ فسيرد نفس هذا الإشكال مع الخالق المفترض، وهو: من خلق ذلك الخالق؟! ولو تكررت هذه المسألة وافترضنا أنّ لكل خالق خالقاً لأدى ذلك إلى التسلسل، وبطلانه من الواضحات، ولو توصلنا إلى وجود يكون وجوده من ذاته ولا يحتاج إلى موجدٍ وخالقٍ آخر (أي واجب الوجود)، فذلك هو الله رب العالمين.

ويمكن توضيح هذه المسألة ببيانٍ آخر وهو: إننا لو لم نكن من المؤمنين على سبيل الفرض وكنا نؤيد عقيدة الماديين، لواجهنا نفس هذا السؤال، فبتصديقنا قانون العلية في الطبيعة، وأنّ كل شيء في العالم معلول لآخر، سيرد هذا السؤال الذي واجهه المؤمنون بالله تعالى وهو: لو كانت جميع الأشياء معلولة للمادة فما هي العلة التي أوجدت المادة إذن؟

وسيضطرون أيضاً للقول: إنّ المادة أزلية، وكانت موجودة منذ الأزل، وستبقى إلى الأبد، ولا تحتاج إلى علة وجودية، وبتعبيرٍ آخر هي (واجب الوجود).

وعلى هذا الأساس نلاحظ أنّ جميع فلاسفة العالم سواء الإلهيين منهم أو الماديين يؤمنون بوجودٍ أزليٍّ واحدٍ، وجودٍ لا يحتاج إلى خالقٍ وموجدٍ، بل كان موجوداً منذ الأزل.

والتفاوت الوحيد هو أنّ الماديين يعتقدون بأنّ العلة الأولى فاقدة للعلم والمعرفة والعقل والشعور، ويعتقدون بأنّها جسم ولها زمان ومكان. لكن المؤمنين يعتقدون بأنّ العلة الأولى ذات علم وإرادة وهدف، وهو الله تعالى وينزهونه عن الجسميّة والزمان والمكان، بل يعتقدون بأنّه فوق الزمان والمكان.

وجميع الأدلة التي أوردناها سابقاً في بحوث معرفة الله تعالى تؤيد هذه الحقيقة، وهي

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٤٨

أنّ المبدئ الأول لهذا العالم ذو علم واطلاع غير محدود.

وعليه فقد أخطأ (راسل) في تصوره بأنّه يستطيع التهرب من مخالاب هذا السؤال بترك زمرة المؤمنين والإلتحاق بالماديين، لأنّ هذا

السؤال ملازم له دائماً، حيث إن الماديين يعتقدون أيضاً بقانون العلية ويقولون: إن لكل حادثه علّة معينة. إذن، فالطريق الوحيد في حلّ هذه المشكلة هو إدراك الفرق جيداً بين (الحادث) و (الأزلي)، وبين (ممكن الوجود) و (واجب الوجود)، لكي نعلم أنّ الذي يحتاج إلى خالق هو الموجودات الحادثه والممكنه، أى أنّ كل مخلوق يحتاج إلى خالق، وما ليس بمخلوق فلا يحتاج إلى خالق.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٤٩

الله الحي القيوم

تمهيد:

وردت صفتي «الحي» و «القيوم» كراراً في الآيات القرآنية والروايات الإسلامية في وصف البارى عزوجل، فحياته خالده وثابته، وهو قائم بذاته وكل شيء قائم به.

ولكن من البديهي أنّ كلمة الحياة بالنسبة للبارى ذات مفهوم يختلف عن المفهوم الذي يصدق علينا والكائنات الحية الاخرى، لأنّ حياتنا تُعرف عن طريق آثار معينه من قبيل التنفس، دقات القلب، الاحساس والحركة، النمو والتناسل وما شاكل ذلك، في حين أنّها جميعاً لا معنى لها بالنسبة إلى الله سبحانه وتعالى.

إذن، علينا أن نبحث عن مفهوم ومعنى الحياة بالنسبة إلى الله عزّ وجلّ.

ومن المسلم أنّها حياة أسمى وأرفع من الحياة المادية، وستتطرق إلى شرحها بعد تفسير الآيات إن شاء الله تعالى.

بعد هذا التمهيد المختصر نتوجه إلى القرآن الكريم ونمعن خاشعين في الآيات التالية بأسماع قلوبنا:

١- «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ». (البقرة / ٢٥٥)

٢- «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ». (آل عمران / ٢)

٣- «وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا». (طه / ١١١)

٤- «وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ». (الفرقان / ٥٨)

٥- «هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ». (غافر / ٦٥)

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٥٠

شرح المفردات:

«حي»: من مادّة «حياة»، وكما قال صاحب مقاييس اللغة: فإنّ هذه المادّة بالأصل ذات معنيين، أحدهما (الحياة) في مقابل الموت، والآخر (الحياة) في مقابل الوقاحة وعدم الخجل.

ولكن بعض محققى اللغة أرجعوها إلى أصل واحد، فقالوا: إنّ الحياء والاستحياء أيضاً نوع من طلب الحياة والسلامة في مقابل الوقاحة وعدم الخجل والذي يُعتبر نوعاً من فقدان الحياة والسلامة.

وعلى أيّة حال، فكلمة (الحياة) ذات معنى واسع، فقد تُستعمل بخصوص الأرض والنباتات مثل: «وَيُخَيِّ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا». (الروم /

(١٩)

وقد تُستعمل بخصوص الحيوانات كقول إبراهيم عليه السلام: «رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى». (البقرة / ٢٦٠)

أو قد تستعمل للإنسان، مثل: «وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ». (الحج / ٦٦)

أو بخصوص مُطلق الحياة والممات مثل: «يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ». (الروم / ١٩)
 أو بخصوص الحياة المعنوية مثل: «اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ...».
 (الأنفال / ٢٤)

وأحياناً تُستعمل بخصوص الحياة الأخروية مثل: «وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ...».
 (العنكبوت / ٦٤)

والأسمى من الجميع استعمالها بخصوص البارى جلّ وعلا، كما هو فى الآيات السابقة، وسنرى أن الحياة الحقيقية والأزلية والأبدية والقائمة والثابتة التى لا يشوبها أى لونٍ من ألوان الموت والهلاك هى حياة الله عزّ وجلّ فقط.

«قيوم»: صيغته مبالغة من مادة «قيام»، والقيام يعنى الوقوف، أو التصميم، والمعنى الثانى يعود على المعنى الأول، لأنّ الإنسان عندما يُصمم على فعلٍ معين ينهض للقيام به، لذا فقد استعملت هذه الكلمة بمعنى التصميم.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٥١

واعتقد البعض أن كلمة (قيوم) تُعطى معنى القائم، والحافظ، والمدير، والمدبّر، لأنّه يؤمّن للأفراد أو بقية الموجودات الاخرى ما يقومهم.

وعندما تُستعمل هذه الكلمة بخصوص البارى تعالى فإنّها تعنى من يقوم بأمر المخلوقات وأرزاقهم وأعمارهم وحياتهم وموتهم، ويُدبّر أمورهم المختلفة، ويؤمّن احتياجاتهم.

وقد فسرها البعض بمعنى القائم بالذات ومقوم الموجودات الاخرى، والذى لا يتفاوت مع المعنى السابق تفاوتاً ملحوظاً «١».

جمع الآيات وتفسيرها

الله قائم بذاته والإنسان قائم بالله:

يُلاحظ فى الايتين الأولى والثانية أنّهما - وضمن إشارتهما إلى وحدانية الله تعالى - تحدثتا عن حياة البارى وقيمومته، قال تعالى: «اللَّهُ لَإِلَهِ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ».

وكما أشرنا سابقاً فإنّ حياة البارى تتفاوت كثيراً عن حياة الإنسان والحيوان والنبات، فحياته حياة حقيقية لأنّها عين ذاته، لا عارضة ولا مؤقتة.

حياته بمعنى العلم والقدرة (نفس الصفتين اللتين شرحناهما فى البحوث السابقة)، لأنّهما العلامة الأصلية للحياة.

فهو ليس قائم بذاته فحسب، بل إنّ قيام الموجودات الاخرى ومربوبيتها وتدير جميع أمورها بيده سبحانه.

وخلاصة الكلام، إنّ حياته ليس لها أدنى شبهة بحياء سائر الموجودات الحيّة، حياته (ذاتية)، (أزلية)، (أبدية) (ثابتة) و (خالية من كل ألوان النقص والمحدودية)، حياته تدل على إحاطته العلمية بكلّ شىء، وقدرته على كل شىء.

(١) مقاييس اللغة؛ مفردات الراغب؛ لسان العرب.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٥٢

أما الآية الثالثة، فبعد أن أشارت إلى يوم القيامة قالت: «وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا».

«عنت»: من مادة (عنوة) وقد وردت بمعنى الخضوع والذلة، لذلك يُطلق على الأسير «عاني»، لأنّه ذليل وخاضع بيد الأسير.

وقد نُسب الخضوع والذل هنا للوجوه، لأنّ الوجه أشرف عضو فى الإنسان، علاوة على أنّ ردود الفعل النفسية ومن جملتها الخضوع

تظهر على وجه الإنسان قبل كل شيء.

والتأكيد على صفتي (الحي) و (القيوم) في مسائل عالم الآخرة يُعَدُّ إشارةً لطيفةً إلى هذه الحقيقة، وهي أن حياة الله تعالى الخالدة وقيومته الشاملة ستظهر وتتجلى في ذلك اليوم بصورة أفضل، وسيتجلى أيضاً ضعف الإنسان وعجزه واحتياجه للذات الإلهية المقدسة بصورة أوضح. لأن جميع الناس قد بُعثوا بعد موتهم وقد يظهر عليهم العجز والضعف والحاجة إلى لطف الله تعالى في تلك المحكمة الإلهية العظيمة.

وأما الآية الرابعة فقد وصفت البارى سبحانه وتعالى بالوجود الحى الذى لا يموت أبداً، وأمرت الرسول بالتوكل عليه حيث قالت: «وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ».

وبديهى أن الإنسان المؤمن بامتلاكه لهذا الأساس المتين سوف لا يخشى من أى أحد، ولا يهاب، أو يستوحش من أى حادثه. يتضح هنا أن هذه الآية مع أنها تبين أصلاً عقائدياً، فهي ذات مردودات أخلاقية وعملية في نفس الوقت، وتقوى أسس التوكل في روح الإنسان وقلبه.

وفي الآية الخامسة والأخيرة نلاحظ انعكاس نفس هذا المعنى والمفهوم بمردودات عملية وأخلاقية أخرى، قال تعالى: «هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»، ولأنه كذلك «فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ».

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٥٣

يظهر من لحن الآية - كما قال الفخر الرازى في تفسيره أنها تُفيد الحصر «١»، أى أن الحى حقيقةً هو الله وحده، وإن كان للآخرين حياة فهي زائلة ومقرونه بالموت التدريجى، ولذلك ليست لهم اللياقة للالوهية والمعبودية، ومن هنا يتضح ضرورة الإخلاص له فى الدين والعبادة ونفى كل أنواع الشرك عنه.

يستفاد من مجموع الآيات المذكورة أن وصف الله عز وجل بالحياة الباقية لا يقصد منه الحياة المشوبة بالموت والهلاك والفناء أو التغير، بل هى الحياة الملازمة لقيامه بذاته وقيام الموجودات الأخرى به، الحياة التى تشع على المخلوقات، وتلهم التوكل والإخلاص، وبالنتيجة حياة تعطى درساً فى التوحيد وتنفى كل ألوان الشرك.

توضيحان

١- حقيقة الحياة

إن تقسيم الموجودات إلى قسمين، موجودات حيةً وموجودات ميتة، تقسيم يفهمه كل واحد من الناس مهما كان مستواه من الفهم والشعور، لأنه يرى بعينه التفاوت الموجود بين الموجودات الحية والميتة، ومع ذلك فقد عجز أذكى العلماء عن الإجابة عن هذا السؤال: ما هى حقيقة الحياة؟ فهم يقرّون أن الحياة ظاهرة معقدة جداً وذات أسرارٍ لم يتوصل العلم والعقل البشرى إلى أعماقها لحد الآن!

لذا يُعَدُّ خلق موجودٍ حيٍ (وحتى خلية واحدة بسيطة لها أبسط صور الحياة) عملاً شاقاً ومعقداً جداً بالنسبة للإنسان، وقد طالع العلماء سنوات عديدة فى هذا المجال ولا يزالون عاجزين عن القيام بذلك، وعلى فرض أنهم سيستطيعون يوماً ما وبالإستعانة بوسائل وطرق طبيعية مختلفة خلق خلية حية من موادٍ طبيعية ميتة فسواجوهون العجز أيضاً فى

(١) تفسير الميزان، ج ١٧، ص ٣٦٦؛ وتفسير الكبير، ج ٢٧، ص ٨٤.

إدراك تنوع الحياة وكيفية ظهور الصور المختلفة لها.

ويمكن القول باختصار: إنَّ مُظهِرِ الحياة بصورها المختلفة ذو علمٍ لا محدود وقدره مطلقه، ويُعدُّ ظهور أنواع الكائنات الحيَّة أوضح دليلٍ على علم الله عزَّ وجلَّ وقدرته العظيمة.

وكما تقدم فإنَّ الحياة لها عدَّة أقسام، ابتداءً من حياة النبات وحتى حياة الإنسان فصاعداً، وهذه الحياة المتنوعة لها آثار مختلفة أيضاً. وعندما يصل العلماء إلى حياة الإنسان يقولون: هي الحالة المقرونة بالعلم والشعور والقدرة والفعالية. ومن الواضح إنَّ علمنا وقدرتنا لا تمثل حقيقة الحياة، بل هي من مستلزماتها، لذا قد يكون الإنسان حياً من دون علمٍ وقدره. ومن المسلم أنَّ حياة الإنسان والتي هي من عوارض الجسم، لا يمكن تصورها للبارى جل وعلا. والتصور المقبول عن حياة البارى تعالى هو العلم اللامحدود وقدرته على كل شيء، وبهما يمكن إثبات أعلى مفهوم للحياة له عزَّ وجلَّ.

٢- الأدلة على حياته سبحانه

أ) اعتبر عامية علماء الإسلام صفة الحياة من الصفات الإلهية المسلمة، ووصفوه سبحانه بالحي القيوم. وكما عرفنا آنفاً فإن الآيات القرآنية أكدت هذا المعنى والمفهوم كإراراً بالرغم من أن للمفسرين تعابير مختلفة في تصوير حياة الله سبحانه وتعالى. وأكثرها وضوحاً ومقبوليةً هو ما ذكرناه آنفاً من كون حياة البارى تعنى إحاطته بكل شيء علماً، واقتداره على فعل كل شيء، وإلا فالحس والحركة ودقات القلب والتنفس والتفكير وأمثال ذلك لا مفهوم لها بالنسبة إلى الله عزَّ وجلَّ.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٥٥

ومن هنا يتضح الدليل على أنه عز وجل حيٌّ وقيوم، لأنه عندما يكون علم الإنسان المحدود وقدرته الحقيرة دليلاً على حياة الإنسان، فكيف بمن يكون علمه غير محدود وقدرته مطلقه؟ فلا بد وأن تكون حياته أسمى وأكمل من غيره، بل الحياة عين ذاته.

ب) علاوة على هذا، فهو سبحانه خالق الحياة، فهل يُمكن أن يكون واهب الشيء مفتقر إليه؟

وأما قيموميته التي قالوا في تفسيرها: (هو القائم بذاته المقوم لغيره)، فهي أيضاً من صفاته الملازمة لوجوب وجوده وخالقيته وربوبيته سبحانه.

وقد عدَّ البعض مسألة حفظ سائر الموجودات وإعطائهم جميع حاجاتهم ضمن مفهوم «القيوم»، ولكنها لا تزيد على ما قلناه بطبيعة الحال.

يقول المرحوم العلامة «الطباطبائي» في تفسير «الميزان»: «اسم القيوم أمُّ الأسماء الاضافية الثابتة له تعالى جميعاً (صفات الفعل) وهي الأسماء التي تدل على معان خارجة عن الذات بوجه، كالخالق والرازق والمبدأ والمعيد والمحيي والمميت والغفور والرحيم والودود وغيرها» (١)

وعليه يُعتبر ذكر (ياحيُّ ياقيوم) من الأذكار الإلهية الجامعة، لأنَّ صفة (الحي) هي الأساس لجميع صفات الذات أى العلم والقدرة، و (القيوم) تضم جميع صفات الفعل.

نختم هذا الكلام بحديث غنى عن أمير المؤمنين على عليه السلام حيث قال: «لَمَّا كان يوم بدرٍ جئتُ أنظر ما يصنع النبيُّ فإذا هو ساجد يقول يا حيُّ يا قيوم فترددتُ مرَّاتٍ وهو على حاله لا يزيد على ذلك إلى أن فتح الله له» (٢)

ومن هذا الحديث نفهم الآثار المفيدة والمباركة لهذا الذكر الشريف لذا قال أمير المؤمنين عليه السلام في الخطبة ١٦٠ من نهج

البلاغة: «فلسنا نعلمُ كنه عظمتك إلا إنا نعلمُ أنك حَيٌّ قَيُّومٌ لا تأخذُك سنَةٌ ولا نومٌ».

(١) تفسير الميزان، ج ٢، ص ٣٤٨.

(٢) تفسير روح البيان، ج ١، ص ٤٠٠، في ذيل آية الكرسي الآية ٢٥٥ من سورة البقرة.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٥٧

ب) صفات الجلال لله سبحانه وتعالى (الصفات السلبية)

إشارة

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٥٩

تمهيد:

إشارة

يُعبَّر عن الصفات السلبية بـ «صفات الجلال» عادةً، لأنَّ الله سبحانه (أجلُّ) من أن يوصف بمثل هذه الصفات التي تُعبَّر جميعها عن وجود النقائص والعيوب.

وهذه الصفات تقع في مقابل «صفات الجمال» التي تدعى بـ «الصفات الثبوتية» وتحكى عن جمال ومحاسن الذات الإلهية المقدسة. وبعبارة أخرى يمكن القول: بأنَّ جميع الصفات السلبية مجموعة في هذه الجملة وهي (إنَّ الله مقدَّسٌ ومنزَّهٌ عن كل ألوان العيوب والنقائص وعوارض وصفات الممكنات).

وقد بُحثت أقسام مهمَّة من هذه الصفات في علم الكلام بالإستلهام من الآيات القرآنية، منها: إنَّه تعالى ليس «مُرْكَبًا».

ليس له جسم.

لا يُرى.

لا يسعه مكان أو زمان.

منزَّهٌ عن كل ألوان الفقر والحاجة.

ذاته ليست محلًّا للحوادث والعوارض والتغيُّر والتحوُّل أبداً.

وصفاته عين ذاته لا زائدة عليها.

وعليه ينبغي من جهةٍ طرح مسألة (صفات الجلال) بشكلٍ كلِّيٍّ وشامل، ومن جهةٍ أخرى التحقيق في الصفات الحساسة بتفصيل أكثر. بعد هذا التمهيد نتوجه إلى القرآن الكريم ونتأمل خاشعين في الآيات التالية:

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٦٠

١- «يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ».

(الجمعة / ١)

٢- «هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ». (الحشر / ٢٣)

٣- «سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ». (المؤمنون / ٩١)

٤- «سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ». (١)

(الصفات / ١٨٠)

شرح المفردات:

«القدوس»: صيغة مبالغة من مادة «قدس»، وهى فى الأصل بمعنى النزاهة والطهارة، وكما قال صاحب (مقاييس اللغة): فإن سبب إطلاق هذه الصفة على الله عز وجل هو لقداسة ونزاهة ذاته عن الأضداد والأكفاء والصاحبة والولد. ويستنتج من كلام الراغب فى (المفردات)، وابن منظور فى (لسان العرب)، أن هذه الكلمة تستعمل عادةً للتزنية الإلهى أو لتطهير عباده، وحتى صاحب مقاييس اللغة يقول: فى الأغلب أن هذه الكلمة من المصطلحات الإسلاميه الخاصه. وسميت أرض (القادسيه) بهذا الاسم لأن إبراهيم الخليل عليه السلام دعا الله عز وجل لتطهيرها وتقديسها. ومن الجدير بالذكر أن الراغب يعتقد بأن هذه الكلمة تستعمل فقط بخصوص التطهير المعنوى لا التطهير الظاهرى وإزالة الخبائث. وتقديس العباد لله تعالى بأن ينزهوه من كل نقص وعيب. و أما (التسييح) وكما يقول بعض أرباب اللغة: فذو معنيين: الأول: النفى، وقد ورد فى الآيات القرآنيه بمعنى نفى كل ألوان العيوب والنقائص عن الله تعالى.

(١) ورد هذا التعبير وكذلك تعبير الآيه التى قبلها فى ستة موارد فى القرآن الكريم، حيث ينزه الله تعالى عما يصفه به المشركون والجاهلون (الانعام، ١٠٠؛ الأنبياء، ٢٢؛ المؤمنون، ٩١؛ الصفات، ١٥٩، و ١٨٠، الزخرف ٨٢) ومضافاً إلى الآيات التى تشتمل على عنوان (تسييح الله) فكلها توضح مقصودنا، وقد ذكرنا منها نماذج مختلفه أعلاه.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٦١

والثانى: بمعنى السباحه والتحرك السريع فى الماء، (من مادة سبح وسباحه).

ولكن يمكن إرجاع كلا هذين المعنيين إلى أصل واحد وهو الحركة السريعه، سواء فى طريق العباده والتعبُد، وتزنيه وتقديس الله تعالى عن كل عيب ونقص، أو فى الحركة السريعه فى الماء، أو الهواء، أو على الأرض. لأن الحركة تقرب الإنسان من شىء وتبعده عن شىء آخر.

ففى الموقع الذى تعنى فيه التزنيه عن العيب تأخذ جانب الابتعاد، وفى الموقع الذى تأتى فيه بمعنى السباحه وشق الماء والهواء تأخذ جانب التُّحرك «١».

جمع الآيات وتفسيرها

كل الخلائق تسبح لله:

الآيه الأولى من بحثنا وارده فى تسييح عاميه موجودات العالم، وهذا ما أكدته الكثير من الآيات القرآنيه بتعابير مختلفه، ويُعتبر هذا البحث من البحوث القرآنيه الطريفه جداً، قال تعالى: «يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فى السَّمَاوَاتِ وَمَا فى الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ».

فلسان حال الكون وأسراره المذهله تحكى عن علم الله تعالى اللامحدود وقدرته اللامتناهيه وكماله المطلق، والجميع يقصدون الله عز

وجلّ وينزهونه وينفون عن ذاته المقدّسة كلّ عيبٍ ونقص، لأنّ كل من ينظر إلى هذه الموجودات بدقّة يقف على عظمتها خالقها ومديرتها ومدبرها.

ويعتقد جماعة من المحققين أيضاً أنّ موجودات العالم المختلفة تُسبح الله تعالى حقيقةً، ولسان القول لا بلسان الحال فقط، لأنّ لكل نوعٍ منها حصّة من الإدراك والشعور والكيفيّة الخاصّة لتقديس الباري تعالى، وما المانع في تحقّق كلا الأمرين (لسان الحال والقول) في بيان هذه الحقيقة؟

لذا فإنّ كلمتي (يُسبّح) و (القدوس) في هذه الآية الشريفة تُعدان كلاهما إشارة لطيفة

(١) مقاييس اللغة؛ مفردات الراغب؛ مصباح اللغة؛ لسان العرب؛ والتحقيق في كلمات القرآن الكريم مادّة (سبح).

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٦٢

إلى جميع صفات الله تعالى السليبيّة، وهي من الأمور التي يشترك في ذكرها جميع موجودات عالم الوجود.

واستعمال صيغة الفعل المضارع المستمر في فعل (يُسبّح) يدل على استمرار وديموميّة هذا الأمر، منذ بدء الخلق وسيبقى حتى النهاية، ويجب أن يكون كذلك، لأنّ وجود الأفعال يُبيّن دائماً صفات الفاعل.

والطريف أنّ هذه الآية هي الآية الأولى من سورة الجمعة، وتُعدّ مقدّمة لبيان فريضة صلاة الجمعة العباديّة السياسيّة. لأنّها تلفت أذهان الناس إلى كون مسألة العبادة والتقديس لله سبحانه برنامجاً عاماً ومستمرّاً من قبل جميع ذرات الوجود، وتحثهم على الإنضمام معها في هذا الذّكر، ومواكبة أمواج الوجود في هذا البرنامج المقدّس، والخضوع لساحة الباري الحاكم القدوس والقادر الحكيم «١».

وفي الآية الثانية تجلّى هذا الكلام بلباسٍ آخر، فضمن تأكيدها على توحيد الله تعالى وبيانها لبعض صفاته وأسمائه الحسنی، وصفته بصفته (القدوس) المبيّنة لجميع الصفات السليبيّة، قال تعالى: «هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ».

وكما أشرنا في شرح مفردات الآيات فإنّ (القدوس) صيغة مبالغه للقداسة، وتعني منتهى نزاهة الذات والصفات والأفعال والأحكام الإلهيّة من كلّ عيبٍ ونقص، وهي تعبير مختصر وغني جامع لجميع الصفات السليبيّة.

فهو ليس منزّه عن وجود نقصٍ في ذاته فحسب، بل إنّ إيجاده وخلقته وتكوّنه وتشريعهُ منزّه عن أي عيب ونقص أيضاً، لأنّها جميعاً تنبع من ذلك الكمال المطلق، ومن فيوضاته وإفاضاته سبحانه، وجميعها ذات صبغة إلهيّة، وجميعها كاملة.

(١) أوردنا في التفسير الامثل بحثاً عديده حول عموم التسبيح لموجودات العالم وبيان كيفية هذه المسألة المهمّة. راجع ذيل الآية ٤٤

من سورة الإسراء، وذيل الآية ١٤١ من سورة النور.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٦٣

أما الآية الثالثة، فبعد أن نفت أيّ ولدٍ وكُفٍّ عن الذات الإلهيّة المقدّسة قالت: «سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ».

وقد وردت هذه الجملة في آيات عديدة من القرآن الكريم، وجاءت لتنفى أيّ شريكٍ وكُفٍّ أو صاحبةٍ وولدٍ عن الله عزّ وجلّ كما كان يعتقد ذوو الأفكار الضيقة، ولها معنى واسع يشمل كل وصفٍ لا يليق بذاته وصفاته وأفعاله وأحكامه، بل يشمل كل وصفنا له أيضاً، لأننا وجميع المخلوقات الأخرى وبسبب اتصافنا بالنقصان والمحدودية، عاجزون عن فهم كنه صفاته، لذا نعجز عن شرحها في الوقت الذي نعرف صفاته المقدّسة بصورة إجماليّة.

وعليه فهو منزّه عن كل وصفنا له ومنزّه عمّا يصف الواصفون: «سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ».

وبذلك نجد في بعض الروايات الواردة عن الإمام الصادق عليه السلام وضمن بيانه المذهب الصحيح في التوحيد أنّه عليه السلام قال:

«تعالى الله عما يصفه الواصفون» «١».

ثم أكد عليه السلام في ذيل نفس هذا الحديث على عدم التجاوز في وصف البارى عن الصفات التي وردت في القرآن الكريم. وفي الآية الرابعة والأخيرة من بحثنا قال تعالى - وبكلامٍ مطلقٍ ومجردٍ عن أى قيدٍ وشرطٍ -: «سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ». وكما قلنا: فإنَّ هذا التعبير يُمكن أن يكون إشارةً إلى تنزيه الله عزَّ وجلَّ عَمَّا وصفه به ذوو الأفكار الضيقة، فأحياناً يتخذون من المسيح ولدًا له، وأحياناً أخرى يتخذون من الملائكة بناتٍ له! وأحياناً كانوا يعتقدون بوجود صلة قرابة بينه وبين الجن، وأحياناً كانوا يُعرِّفون الأصنام كشركاء وأكفء له أو شفعاء عنده، وأحياناً كانوا يصفونه بأوصاف الأجسام المادية.

(١) اصول الكافي، ج ١، ص ١٠٠، باب النهى عن الصفة بغير ما وصف به نفسه، ح ١.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٦٤

وبعبارة اخرى إنَّ هذه الآية الشريفة تنفى عنه جميع هذه الأوهام الخاطئة وتبطلها. ويمكن أن يكون المقصود هو تنزيهه سبحانه عن كل وصف صادر من أى أحدٍ، لأنَّ البشر لا يقدر على إدراك كنه صفاته، كما أنَّه عاجز عن إدراك كنه ذاته.

ويتضح من مجموع هذه الآيات أنَّ الذات الإلهية منزَّهة عن أى صفةٍ تحمل أقل درجة من النقصان، أو أدنى عيب.

ومعرفتنا بالصفات الثبوتية الإلهية إنما هي بقدر طاقاتنا وقدرتنا لا بقدر ما يليق بالذات الإلهية المقدسة.

وهذا التنزيه مضافاً إلى شموله لذات البارى وصفاته، فإنَّه يشمل أحكامه وتشريعاته أيضاً، فكُلُّها منزَّهة عن النقصان والعيب، لأنَّها نابعة من ذاتٍ هي عين الكمال والكمال المطلق.

توضيح

«التشبيه» من أعظم الذنوب!

إنَّ تنزيه وتقديس البارى تعالى عن صفات المخلوقين المشوبة بالنقائص دائماً، هو ما أكدنا عليه كراراً، وهو ما حثَّ عليه الأحاديث الإسلامية بصورة مستمرة، لأنه لا يُمكن التوصل إلى حقيقة معرفة الله تعالى بدونها، أو بتعبيرٍ آخر سيكون التوحيد مقترناً مع الشرك. ومن جهةٍ اخرى فإنَّ فصل الصفات «الثبوتية» عن «السلبية» يحصل في افق أذهاننا فقط، وإلا فالذات الإلهية المقدسة حقيقة واحدة، فقد نظر إليها من زاوية الوجود فنرى كماله المطلق، وعلمه المطلق، وقدرته المطلقة سبحانه، وأحياناً من زاوية نزاهتها عن الحاجة والنقص، فنراها منزَّهة عن الجهل والعجز، وكل ألوان النقصان.

لذا فعدم معرفة الصفات السلبية يؤدي إلى عدم معرفة الصفات الثبوتية، ونقصان المعرفة في مرحلة يؤدي إلى نقصانها في مرحلة اخرى.

وفي هذا المجال لا بد لنا من التوجه إلى بعض الإشارات الواردة في الأحاديث الإسلامية التالية:

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٦٥

١- قال أمير المؤمنين على عليه السلام في بداية خطبة له: «لَا يَسْغَلُهُ شَأْنٌ وَلَا يُعَيِّرُهُ زَمَانٌ وَلَا يَحْوِيهِ مَكَانٌ وَلَا يَصِفُهُ لِسَانٌ» (١).

٢- وقال عليه السلام في خطبةٍ اخرى ضمن إشارته إلى عجز الإنسان عن فهم المسائل المرتبطة بالحياة والموت: «كَيْفَ يَصِفُ إِلَهَهُ مَنْ يَعْجَزُ عَنْ صِفَةِ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ؟» (٢).

٣- وورد في حديثٍ أنَّ رجلاً من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام سأل الإمام عليه السلام: أخبرني أى الأعمال أفضل؟ فأجاب عليه

السلام: «تَوْحِيدُكَ لِرَبِّكَ» فسأل الرجل: «فما أعظم الذنوب؟»

فقال عليه السلام: «تشبيهك لخالقك!» «٣».

٤- وورد في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا يُوصَفُ بِزَمَانٍ وَلَا مَكَانٍ وَلَا حَرَكَةٍ وَلَا انْتِقَالٍ وَلَا سَكُونٍ بَلْ هُوَ خَالِقُ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ وَالْحَرَكَةِ وَالسَّكُونِ وَالانْتِقَالَ، تَعَالَى عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا» «٤».

٥- وورد أيضاً في حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام في تفسير صفة (الصمد) أنه قال:

«تَأْوِيلُ الصَّمَدِ لَا إِسْمَ وَلَا جِسْمَ وَلَا مَثَلَ وَلَا شَبَهَ وَلَا صُورَةَ وَلَا تَمَثَالَ وَلَا حَدَّ وَلَا حُدُودَ وَلَا مَوْضِعَ وَلَا مَكَانَ وَلَا كَيْفَ وَلَا أَيْنَ وَلَا هُنَا وَلَا ثَمَّةَ وَلَا مَلَأَ وَلَا خَلَأَ، وَلَا قِيَامَ وَلَا قُعُودَ، وَلَا سَكُونًا وَلَا حَرَكَةً، وَلَا ظِلْمَانِيَّ وَلَا نُورَانِيَّ، وَلَا رُوحَانِيَّ وَلَا نَفْسَانِيَّ وَلَا يَخْلُو مِنْهُ مَوْضِعٌ وَلَا يَسَعُهُ مَوْضِعٌ وَلَا عَلَى لَوْنٍ، وَلَا عَلَى خَطَرِ قَلْبٍ، وَلَا عَلَى شَمِّ رَائِحَةٍ، مَنْفِيٌّ عَنْهُ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ» «٥».

ولا يخفى أن المقصود من نفى الاسم عن الله سبحانه هو نفى أسماء المخلوقات.

وبهذه المعرفة الإجمالية التي حصلنا عليها عن الصفات السلبية ننتقل إلى معرفتها بالتفصيل.

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٧٨.

(٢) المصدر السابق، الخطبة ١١٢.

(٣) بحار الأنوار، ج ٣ ص ٢٨٧.

(٤) المصدر السابق، ص ٣٠٩، ح ١.

(٥) المصدر السابق، ص ٢٣٠، ح ٢١.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٦٧

١ و ٢- نفى الرؤية والجسمية

تمهيد:

مر علينا قسم من الصفات السلبية في مباحث التوحيد ضمن بيان وحدانية الذات الإلهية وبساطة وجوده تعالى، ونفى الجزئية والتشبيه عنه.

إن الموضوع الأكثر أهمية في هذا البحث والذي صار معرضاً للنقاش والجدل على مر تاريخ علم الكلام، هو المسائل التي سنطرحها في هذا الفصل.

ومنها: إن الله عز وجل ليس له جسم ولا يمكن رؤيته، ولا يسعه محل ومكان، وهذه الصفات السلبية الثلاثة متلازمة، أي لو كان مرثياً لاستلزم أن يكون له جسم ومكان، وإن لم يكن له مكان لم يكن جسماً حتماً، ولم يكن مرثياً بطريق أولى

وإدراك هذا المفهوم وهو أن الله تعالى لا يمكن أن يكون من سنخ الأجسام - بالالتفات إلى دلائل معرفة الله تعالى لا يُعدُّ مسألة معقّدة، ولكن، وبسبب بحث ذوى الأفكار الضيقة، واولئك الذين لم تخرج عقولهم عن إطار الحس فيبحثون غالباً عن إله جسماني،

كان لعقيدة جسمانية الله مؤيدون في الأقوام الماضية، وحتى من قبل جماعة من المسلمين «القشريين المتحجرين».

لذا فقد أكد القرآن الكريم على مسألة نفى الجسمية والمكان والجهة عن الله سبحانه وتعالى.

بهذا التمهيد. ننتقل إلى القرآن الكريم لتأمل خاشعين في الآيات القرآنية التالية:

١- «لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ». (الأنعام/ ١٠٣)

٢- «وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرَ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَلَكِنْ

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٦٨

أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صِعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ».

(الأعراف / ١٤٣)

٣- «يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُّبِينًا». (النساء / ١٥٣)

٤- «وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا». (الفرقان / ٢١)

جمع الآيات وتفسيرها

العين لا تطيق مشاهدة جماله:

ورد في الآية الأولى من البحث بصراحة: «لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ»، ثم تضيف: «وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ».

وعليه فإن هذه الآية تنفي كل إمكانية لرؤيته تعالى سواء في هذا العالم أم في العالم الآخر.

وبديهي أن المقصود من معنى (لا- تدركه الأبصار) هو عدم قدرة البشر على رؤيته بواسطة العين، وجلّي أيضاً أن كلمة (الأبصار)

وردت بصيغة الجمع هنا من أجل التعميم والشمول لتشمل أي عينٍ مهما كانت قدرتها البصريّة شديدة.

وبالرغم من الصراحة التامة الموجودة في تعبير هذه الآية في بيان المقصود، نلاحظ أن «الفخر الرازي» ومؤيديه استدلوا بهذه الآية على

إمكانية رؤية الله، وتشبنوا لإثبات هذا المدعى بتعابير واهية ومضحكة.

فقد قال الفخر الرازي في بعض كلامه في ذيل الآية أعلاه: «استدل أصحابنا بهذه الآية لإثبات إمكانية رؤية الله يوم القيامة بطرق

متعددة منها!!

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٦٩

١- إن قول القرآن الكريم (لا تدركه الابصار) يفيد المدح وثبت أن ذلك إنما يفيد المدح لو كان صحيح الرؤية، وهذا يدل على أن

قوله تعالى: (ولا- تدركه الابصار) يفيد كونه تعالى جائر الرؤية، وتمام التحقيق فيه أن الشئ إذا كان في نفسه بحيث تمتنع رؤيته،

فحينئذ لا يلزم من عدم رؤيته مدح وتعظيم للشئ.

وبعدما ثبتت إمكانية رؤية الله يجب التسليم بأن هذه المسألة تحدث في يوم القيامة! لأنه ليس لدينا سوى رأيين حول هذه المسألة:

الأول: جواز الرؤية مع أن المؤمنين لا- يرونه ولا- تجوز رؤيته مطلقاً فأما القول بأنه تعالى تجوز رؤيته مع أنه لا يراه أحد من المؤمنين

فهو قول لم يقل به أحد من الامّة فكان باطلاً.

فثبت بما ذكرنا أن هذه الآية تدل على أنه تعالى جائر الرؤية في ذاته.

الثاني: لا يرى بالعين وإنما يرى بحاسة سادسة يخلقها الله تعالى يوم القيامة.

الثالث: قوله: (لا تدركه الأبصار) يفيد أنه لا يراه جميع الأبصار فهذا بعينه سلب العموم ولا يفيد عموم السلب «١».

كان ذلك قسماً من استدلالاته بصورة ملخصة وموجزة، والحق أنه يبعث على الأسف في أن يحوكم مفسّر مثله ويخلط المسائل مع

بعضها بصورة محيرة، على الرغم من قدرته الفكرية، عندما يتورط في أسر التعصبات الطائفية ويستدل من دليل واضح على ضده!

ونحن لا نرغب أبداً في ذكر مثل هذه التعابير بشأن أى أحدٍ، ولكن لو شاع هذا الاسلوب، أى أن يتشبه الإنسان لإثبات مطلب معين بأمورٍ تدل بالضبط على عكس ذلك المطلب، ويستدل بكل شىء لإثبات كل شىء لتعرضت الحقائق للاندثار والضياع، ولأمكن إيجاد استدلالٍ قرآنيٍّ لأى موضوع، ولذا كان لابد لنا من الحديث بهذه الطريقة، ولزيادة توضيح هذا البحث نتطرق إلى رد تلك الاستدلالات الثلاثة المذكورة أعلاه.

أولاً: إننا نمدح الله تعالى بصفات سلبية كثيرةٍ وجميعها محال بشأنه، كقولنا بأن الله لا يفنى ولا يهلك أبداً «كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ»، ومن المسلم به أن هلاك واجب الوجود

(١) تفسير الكبير، ج ١٣، ص ١٢٥ و ١٢٦.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٧٠

محال، فهل يُمكن أن يستدل أحد بها على إمكانية هلاك وفناء الله تعالى؟ بحجة أنه لو كان محالاً لما صحَّ مدحه بعدم الهلاك كما يدعى: فهل يتفوه عاقل بمثل هذا!؟

وكذلك مدح القرآن لله تعالى بتنزيهه عن الأب والصاحبه والولد والشريك: «أَنْتَى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً». (الأنعام/ ١٠١) وقال سبحانه: «لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ». (التوحيد/ ٣)

وعلى هذا الأساس فإن جميع الصفات السلبية أمور محال بشأن الله تعالى، لأنها من صفات الممكنات، والله واجب الوجود. ثانياً: لا يوجد فى الآية المذكورة أى إشارة إلى الحاسة السادسة وما شاكلها، ولا تدخل فى إطار أى من المفاهيم المعروفة الموجودة فى كتب الأصول، إذن فليس اثبات الشىء بمعنى نفي غيره، ولا نفي الشىء يثبت شيئاً آخر، وعليه فإذا قالت الآية: «لا تدركه الأبصار» فليس مفهومها: إمكانية رؤية الله بواسطة اخرى! علاوةً على ذلك فما هو المقصود من الحاسة السادسة؟

فإن كان المقصود منها المشاهدة القلبية والرؤية بعين العقل فلا أحد يُنكرها، ولا علاقة لها بالرؤية البصرية، وإن كان المقصود شيئاً آخر فينبغى توضيحه وتشخيصه ليتمكن بحثه، لأن التكلم فى موضوع مبهم وغير مفهوم يعتبر لغواً. ثالثاً: إن قول الآية: «لا تدركه الأبصار» معناه عدم قدرة أى بصيرٍ على رؤيته، وهو من قبيل (العموم الإفرادى)، ويمر علينا مثل هذا التعبير فى كلامنا اليومي بكثرة، كقولنا لا تطوله الأيدي، أو: لا يعرف الناس قدره، أى، أى يدٍ وأى إنسان. كما ورد فى بعض الأدعية: «كَلَّتِ الْأَلْسُنُ عَنْ غَايَةِ صِفَتِهِ، وَالْعُقُولُ عَنْ كُنْهِ مَعْرِفَتِهِ» (١)

وكذلك نقرأ فى نهج البلاغة: «وأعجز الألسن عن تلخيص صفته» (٢).

والحاصل أن دلالة الآية على عدم امكان الرؤية واضح جداً ولا يمكن باى سفسطة اتخاذها دليلاً على إمكان الرؤية.

(١) دعاء يوم الأثنين للإمام السجاد عليه السلام.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٦٥.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٧١

ياموسى ارنا الله جهرة!

تحدثت الآية الثانية عن القصة المعروفة لبنى إسرائيل الذين ألحوا على موسى عليه السلام ليريهم الله تعالى، فأخذهم موسى بأمر من البارى عز وجل إلى جبل (طور) ليحصلوا على جواب ماسألوا، فحدثت هناك حادثه عجيبة انكشفت فيها جميع الحقائق المرتبطة بهذا الموضوع.

قال تعالى: «وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي إِلَيْكَ». فسمع موسى عليه السلام هذا الجواب الجلى الواضح من ربه: «قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي».

فنظر موسى عليه السلام وسبعون رجلاً¹ من بنى اسرائيل، الذين كانوا معه إلى الجبل فتجلى الله للجبل: «فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا».

وكذلك الحال بالنسبة لمن معه من بنى اسرائيل: «فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ». ولتكمله تفسير هذه الآية ينبغي الإجابة هنا عن عدّه أسئلة:

الأول: إذا كانت مشاهدته جمال الله محالاً (كما يستنتج من عبارة «لَنْ تَرَانِي» فَلِمَ سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ الرَّؤْيَةَ مَعَ أَنَّهُ كَانَ رَسُولًا؟" يُمكن الإجابة عن هذا السؤال بسهولة وذلك بالإستعانة بآيات قرآنية أخرى، وهو: إن هذا السؤال صدر من جهلاء بنى إسرائيل الذين كانوا يُشكلون الأغلبية، كما نجد فى القرآن الكريم أن موسى عليه السلام قال بعد هذه الحادثه مخاطباً ربه: «أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا؟»

(الأعراف / ١٥٥)

فيستنتج من هذا التعبير أن هذا السؤال لم يصدر من موسى عليه السلام، بل قد تعرض لضغوط أجبرته على طرح سؤال أولئك الجهلاء ليحصل لهم على جواب من ربه وكذلك لألقاء الحجج عليهم. ويستفاد بوضوح من قوله تعالى «يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٧٢

فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ».

(النساء / ١٥٣)

وقال أيضاً: «وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ». (البقرة / ٥٥)

إن تعنت سفهاء بنى اسرائيل هو الذى دفعهم لتوجيه مثل هذا السؤال إلى موسى عليه السلام وكان عليه السلام قام بنقل سؤالهم فقط، ليسمعوا الجواب الإلهى الرادع.

وإن أصير أمثال الفخر الرازى على كون هذا السؤال قد صدر من موسى عليه السلام فاستفاد منه الفخر الرازى إمكانية رؤية الله تعالى البصريّة، حيث يقول: «وإلا لما سأل رسول عظيم كموسى عليه السلام مثل هذا السؤال»، فهو إصرار فى غير محله، وقد أبطلته الآيات أعلاه بوضوح.

عجيب حقاً، فبالرغم من أن الآية الشريفة تصرح: (لن ترانى) وكون (لن) أداة للنفى الأبدى، أى إنك لن ترانى أبداً، وعدت الآية هذا السؤال من قبل بنى إسرائيل تعدياً ووقاحةً، وأنذرت بالصاعقة عقاباً عليه، مع كل ذلك نجد أن جماعة من المتعصبين يُصرون على عدم دلالة الآية بأى شكل على نفى رؤية الله، بل بالعكس!

ويجب الإعراف أن آفة التعصّب آفة عجيبة بامكانها أن تحط حتى من مستوى عالم كبير إذا أصيب بها وتجعله يتوسل بأدله غير منطقية وبعيدة عن العقل والصواب.

والنقطة الأخرى: هى أن المقصود من التجلى الإلهى فى هذه الآية هى (الصاعقة) بذاتها، والتى تُعد مخلوقاً من المخلوقات، وشُعباً من الأفعال الإلهية، وهى كناية عن أنكم إذا لم تقدروا على رؤية الصاعقة التى تُعد شرارة صغيرة فى هذا الوجود العظيم وما لها من

تأثير عليكم، حيث تكون مصحوبة بالهول والرعب، فهي قادرة على أن تصرعكم جميعاً، وتدكّ الجبل، وتزلزل الأرض. فكيف تُريدون رؤية الذات الإلهية المنقطعة النظر؟! والحقيقة إنّ التجلى الإلهي كان إجابةً وعقوبةً لهم في نفس الوقت!

وآخر الكلام هو: لماذا طلب موسى عليه السلام التوبة من البارى بعد أن أفاق؟ إنّ هذا الطلب يُمكن أن يحمل على احتمالين:

الأول: كما أنّ طلب موسى عليه السلام الرؤية كان نيايةً عن بنى اسرائيل فإنّ طلبه التوبة من نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٧٣
البارى كان نيايةً عن قومه أيضاً.

الثاني: أنّ موسى عليه السلام كان يخشى من أنّ هذا المقدار من (النيابة عن بنى اسرائيل) يُمكن أن يؤثر سلبياً على إيمانه وقدسيتها اعتقاده، لذا فإنه أعلن توبته وإيمانه لتسمو قداسته قدر الإمكان.

وكذلك نجد أنّ الفخر الرازى غرق في دوامة تعصّب أيضاً، ولم ينكر دلالة الآية على استحالة رؤية الله تعالى فحسب، بل أصير في قوله على أنّ جوانب عديده من الآية تدل على إمكانية الرؤية! ثم أدرج أموراً لا تستحق صرف الوقت لعرضها من جهة، ولا هي أهلاً للإجابة عليها من جهة أخرى؟ وقد لاحظتم نماذج منها في تفسيره للآية الماضية.

ويتضح تفسير الآية الثالثة من خلال تفسير الآية الثانية، ولزيادة التوضيح نضيف: إنّ الله سبحانه وتعالى عدّ طلب بنى اسرائيل الذين قالوا لموسى عليه السلام: «أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً» ذنباً عظيماً وظلماً فاحشاً؟ وإنّ الذنب الذى أعقبه نزول العذاب الإلهي، لذا قال الله تعالى: «يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ».

ماذا ارتكب اليهود من ظلم في هذا المجال؟ إنهم اعتبروا ربهم العظيم بمستوى موجود جسماني مادى، وطلبوا مشاهدته. وبسبب اساءتهم الأدب فى اعتبارهم هذا أخذتهم الصاعقة لتكون عقوبةً وعبرةً لهم فى نفس الوقت، وليعلموا أنّهم عندما لا يقدرّون على مشاهدة هذا المخلوق الإلهي الصغير الذى لا يساوى أكثر من شرارة فى عالم الوجود العظيم، فكيف يُريدون مشاهدة خالق الشمس والقمر والنجوم وعالم الوجود؟! إنّ هذه المسألة يستطيع كل واحد أن يتوصل إليها بدون أن يطالع ويُحقق فى قرائن الآية.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٧٤

وما ورد فى بعض كلام (الأشاعرة) أنّ هذا التوبيخ والعقاب الذى نزل بهم كان بسبب طلبهم هذا الشى من الله تعالى فى الدنيا، مع كون الآخرة هى محل المشاهدة! «١» يُعدّ كلاماً ضعيفاً جداً.

لأنّ التفاوت الموجود بين الدنيا والآخرة فى مثل هذه الموارد موضوع لا يستحق التوبيخ والعقاب، ولحن الآية يدل على أنّهم قد ارتكبوا إساءة فظيعة تجاه ساحة القدس الإلهية، وهى وصفهم الذات الإلهية بصفة لا تليق به سبحانه، بل هى خاصّة بالممكنات، وإنّهم سلكوا طريق الشرك.

وأما ماهو مقصود أهل الكتاب بطلبهم إنزال كتاب من السماء عليهم؟ فهناك تفاسير متعددة:

قيل: إنّ مقصودهم هو الإستهانة بالقرآن، وسألوا الرسول أن يُنزل عليهم ألواحاً كالألواح التى نزلت على موسى عليه السلام.

وقيل: إنّهم كانوا يريدون كتاباً خاصاً بهم أو برؤسائهم وكبرائهم!

وقيل أيضاً: إنّهم كانوا يريدون كتاباً خاصاً من الله تعالى يدعوهم إلى الإيمان بالرسول الأكرم صلى الله عليه وآله.

وأياً كان من هذه المعانى فإنّه يدل على عنادهم والحاحهم وعدم تسليمهم للحق، وبديهي أنّ مثل هذا الطلب يستحق التوبيخ والعقوبة.

عدم امكانية رؤية الله!

وأما الآية الرابعة والأخيرة فقد وبخت وبشده أولئك الذين سألوها الرؤية. قال تعالى: «وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا». إن استكبارهم وعدم إيمانهم بالمعاد كان وراء طلبهم هذين الأمرين، ثم يضيف تعالى: «لَقَدْ

(١) تفسير الكبير، ذيل الآية ٥٥ من سورة البقرة.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٧٥

اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا».

فهم قد سألوها أحد أمرين: إما نزول الملائكة عليهم أو رؤية الله عز وجل، والمقصود من الملائكة هو ملك الوحي جبرائيل، أى أن ينزل عليهم بصورة مباشرة بدلا "من رسول الإسلام محمد صلى الله عليه وآله، أو أن ينزل عليهم ليشهد على صدق الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله!

وقد نزل الجواب القرآني على شطرين أيضاً، والذي يُعتقد بأن الأول يخص سؤال نزول الملائكة فيقول: «لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ» بسؤالهم هذا.

والشطر الثاني يخص سؤال رؤية الله حيث قال: «وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا».

وأى عتو أكبر من مقارنة الذات الإلهية الفريدة بالأجسام المادية والموجودات الممكنة الوجود، وجعلها عرضة للزمان والمكان والعوارض الجسمانية؟

ويشير لحن الآية بوضوح إلى عدم إمكانية رؤية الله عز وجل، لأنه لو كان ممكناً لما كان هنالك خلل وإشكال في سؤالهم ذاك.

النتيجة:

يُستفاد من مجموع الآيات المذكورة عدم إمكانية رؤية الله عز وجل بأى شكل، على خلاف عقيدة البعض الذين يقولون: إن مراد هذه الآيات هو الحياة الدنيا ولا يشمل الآخرة).

فالآيات التي ذكرت ذات مفهوم واسع وعميق يشمل كلا- الحياتين، ولحنها يدل على استحالة تحقق هذا الأمر، والمحال محال في كليهما. (فتأمل جيداً).

توضيحات**١ - لماذا تستحيل رؤية الله تعالى؟**

إن الدلائل العقلية الواردة في الآيات الآنفه الذكر أثبتت بأن المرئي أو المُشاهد لا بد أن يحدد بمكان وزمان وجهه، وهذه الأمور غير ممكنة بشأن الباري سبحانه. لأننا نعلم بأن

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٧٦

لكل جسم أجزاء، علاوةً على خضوع جميع الأجسام للتغيّر والتحوّل، وكونها ذات عوارض كاللون والحجم والأبعاد. في حين أنّ واجب الوجود ليس له جزء، وغير خاضع للتغيّر والتحول؟ ولا يقع محلًّا للحوادث، ولا يعترضه شيء، فجميعها من صفات الممكنات.

قال بعض مؤيدي عقيدة إمكانية الرؤية في مقابل هذا الاستدلال: (ليس لدينا أي دليل على كون الرؤية البصريّة مخصوصةً بالأجسام؟ فما المانع في أن تُرى الأمور غير الماديّة بالعين؟ وخاصةً إذا ما تغيرت القدرة البصريّة وصارت بمستوى أقوى ممّا هي عليه الآن؟ إنّ بطلان هذا الكلام بيّن، لأنّ الرؤية البصريّة ذات حالة ماديّة، وهذا الأمر المادي يتعلّق بالأمور الماديّة حتمًا، وليس من المعقول أن يرى الإنسان ما وراء المادّة بالوسائل الماديّة.

يقول العلامة الطباطبائي رحمه الله حول هذه المسألة في تفسير الميزان: «الرؤية البصريّة سواءً كانت على هذه الصفة التي هي عليها اليوم أو تحولت إلى أي صفة أخرى، هي معها ماديّة طبيعيّة متعلّقة بقدر وشكل ولون وضوء تعملها أداة ماديّة طبيعيّة فإنّها مستحيلّة التعلّق بالله سبحانه في الدنيا والآخرة» (١).

علاوةً على هذا فالآيات القرآنيّة صرحت: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ». (الشورى / الآية ١١)

لذا فهو ليس له شبهةً بالأجسام الماديّة؟ وليس شيئاً مادياً يمكن مشاهدته، فلا يحده مكان ولا زمان، ولا يمكن الإشارة إليه بشكل محسوس.

٢- منطق القائمين بإمكانية الرؤية

انقسم المسلمون في مسألة رؤية الله إلى ثلاث طوائف:

الطائفة الأولى: التي انضم إليها الفلاسفة والمحققون العظام، حيث تعتقد بأن رؤية الله أمر محال مطلقاً.

(١) تفسير الميزان، ج ٨، ص ٢٦٩.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٧٧

الطائفة الثانية: وهم المجسمون الذين يعتقدون بأنّ لله جسمًا، وعليه يُمكن رؤيته.

الطائفة الثالثة: وهم جماعة (أبو الحسن الأشعري) (١): أحد متكلمي القرن الثالث، ولهم كلام عجيب حول هذه المسألة، فهم يقولون: «بالرغم من أن الله عزّ وجلّ مجرّد عن الجسميّة والمادّة ولكن يُمكن رؤيته، وهذه الرؤية تتحقّق في الآخرة فقط، لا في الدنيا، فهناك يرى المؤمنون الله تعالى بالعين المجردة!».

يقول (فاضل القوشجي) في (شرح تجريد العقائد للشيخ الطوسي): «اعتقد الأشاعرة بإمكانية رؤية الله، فالمؤمنون يرونه في الجنّة؟ لكنها رؤية منزّهة عن المقابلة وخالية من الجهة والمكان.

ثم أضاف: اتفق جميع القائمين باستحالة الرؤية البصريّة على أنّ الانكشاف العلمي التام ممكن (إمكانية رؤيته تعالى بعين العقل والقلب)، هذا من جهة، ومن جهة أخرى اتفق القائلون بإمكانية الرؤية البصريّة أيضاً على استحالة تشكّل صورة الباري تعالى في عين الإنسان، أو رؤيته بواسطة الأشعة الخارجة من العين» (٢).

ويجدر الانتباه إلى وجود رأيين بين الفلاسفة الماضين حول حقيقة الرؤية، فجماعة كانوا يؤيدون خروج الشعاع ويقولون: الرؤية هي خروج شعاع من عين الإنسان ووصوله إلى الشيء المرئي فيراه الإنسان).

وجماعة آخرون اعتقدوا بأنّ حقيقة الرؤية هي تشكّل صورة المرئي في العين، ونحن نعلم أنّ علماء العلوم الطبيعيّة اليوم يؤيدون

النظرية الثانية، وأثبتوها بأدلة حسيّة وقالوا:

(إنّ تركيب العين من هذه الناحية يشبه بالضبط آلة التصوير، فلا بدّ أن ينعكس النور

(١) كان اسمه على بن اسماعيل، ويرجع نسبه إلى أبي موسى الأشعري، ولد في البصرة عام ٢٦٠ أو ٢٧٠، وفي البداية كان يميل إلى مباني مذهب المعتزلة، ثم عدل إلى مذهب الله ومخلوقيه القرآن، وابتدع مذهباً جديداً في أصول الدين كان أقرب إلى ذهن العامة وأكثر استحساناً من قبل المتعصبين، لذا فقد اعتنق الكثير مذهبه، وسلك طريقه جمع من العلماء كالغزالي وأبي بكر الباقلاني والفخر الرازي والشهرستاني وأبي اسحاق الشيرازي وقام بترويج عقائده بعض أرباب السلطة الذين اتخذوا من الدين وسيلة لنيل مآربهم السياسيّة أمثال الأيوبيين في مصر والشام والموحدين في المغرب. (دائرة المعارف، أبو الحسن الأشعري - بتلخيص بسيط).

(٢) شرح القوشجي، ص ٤٣٥ و ٤٣٦.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٧٨

الخارجي عن الجسم المرئي ليدخل العين أو آلة التصوير فتطبع صورته على شبكية العين أو فلم التصوير).
والعجيب أنّ الأشاعرة في مقابل هذا الكلام - وهو عدم إمكانية أي واحد من المعنيين المذكورين للرؤية بالنسبة إلى الله عز وجلّ المجرد عن المادة - يقولون: لا تنحصر الرؤية بهذه الأمور، خصوصاً عندما يدور الكلام حول رؤية الأمور الغيبية أو الغائبة! فيمكن أن يرى الأعمى الأشياء التي تبعد عنه بفاصلة مكانية كبيرة، فمثلاً "يمكن أن يرى عمارات الأندلس من هذه النقطة من العالم!! تدل هذه التعابير بوضوح على المغالطة اللفظية التي يستعملها هؤلاء، واعتبارهم للرؤية مفهوماً مغايراً لما هو موجود في العرف واللغة. فإنّ كان مقصودهم من الرؤية، الرؤية بعين القلب (البصيرة) والإدراك العقلي، فهذا ما اتفق عليه جميع العلماء ولا حاجة للجدال والمناقشة فيه.

وإن كان مقصودهم هو الرؤية بالعين الظاهرية، فهو لا يتحقق سوى بانعكاس نور الأجسام على شبكية العين.
وإن كان هناك نوع ثالث من الرؤية، فهو ادعاء مبهم، وغير معقول، وغير قابل للتصوّر، نعلم أنّ التصديق بلا تصوّر أمر محال. ويظهر أنّ الأشاعرة تخلّوا عن ادعائهم تدريجياً عندما عجزوا عن الإتيان بدليل واقعي، واقتصروا على استعمال لفظ الرؤية فقط من دون أن يكون لها مفهوم غير المشاهدة بعين العقل، لأننا عندما نقول: إنّ رؤية الله مجردة عن المكان والجهة وانعكاس صورة المرئي في العين، وأنّ مثل هذه الرؤية قد تتحقق حتى عند الأعمى أيضاً، فإنّها لا تعني سوى الرؤية الباطنية والقلبية. والاعراب من ذلك هو أنّ البعض منهم قد جعلوا المسألة أكثر غموضاً فقالوا: إنّ الله يهب للمؤمنين حاسة سادسة يوم القيامة ليتمكّنوا من رؤيته بها!

وبغض النظر عن كون التعبير بالحاسة السادسة تعبيراً مبهماً وغامضاً، فإنّه لا يحل

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٧٩

مشكلة المشاهدة والرؤية، ولا يصحّ استعمال لفظ الرؤية هنا سوى بالمعنى المجازي.
والسبب الذي أدى بالأشاعرة وأمثالهم إلى الاعتقاد بمسألة رؤية الله يوم القيامة هو التقيّد ببعض الروايات التي يوهم ظاهرها بشيء من هذا القبيل، وستعرض لها في البحث الذي يلي هذا البحث إن شاء الله.

٣- الروايات الدالة على انتفاء رؤية الله

هنالك روايات وردت في نهج البلاغة، وكذلك سائر مصادر علوم أهل البيت عليهم السلام تُصرّح بانتفاء رؤية الله تعالى بالعين

الظاهرية، وتتخذ من الرؤية عين البصيرة بديلاً لها، نذكر قسماً منها كنموذج:

١- نقرأ في الرواية المعروفة الواردة في نهج البلاغة؟

وقد سأله ذعبل اليماني فقال: هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين؟ فقال عليه السلام: «أفأعبد مالا أرى» فقال: وكيف تراه؟ فقال عليه السلام: «لا تدركه (تراه) العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان» (١)

٢- ورد في رواية: إنّ أبا هاشم الجعفرى سأل الإمام الباقر عليه السلام، وكان من أصحابه عليه السلام عن تفسير قوله تعالى: «لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار»؟ فقال: «يا أبا هاشم أوهام القلوب أدقُّ من أبصار العيون، أنت قد تدرك بوهمك السند والهند والبلدان التي لم تدخلها، ولا تدركها ببصرك، وأوهام القلوب لا تدركه فكيف أبصار العيون؟!» (٢)

٣- ونقرأ في حديث آخر أن أحد الخوارج سأل الإمام الباقر عليه السلام: أي شيء تعبد؟ قال: «اللّه تعالى»، قال: رأيت؟ قال: «بل لم تره العيون بمشاهدة الأبصار ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان، لا يعرف بالقياس ولا يُدرك بالحواس ولا يُشبه بالناس؛ موصوف بالآيات،

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٧٩.

(٢) اصول الكافي، ج ١، ص ٩٩، (باب في ابطال الرؤية) ح ١١.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٨٠

معروف بالعلامات لا يجوز في حكمه؛ ذلك الله، لا إله إلا هو»؛ قال: فخرج الرجل وهو يقول: «اللّه أعلم حيث يجعل رسالته» (١).

٤- في حديث آخر نقل جواب الإمام الحسن العسكري عليه السلام عن سؤال: كيف يعبد العبد ربّه وهو لا يراه؟ فوقع «٢» عليه السلام: «يا أبا يوسف جلّ سيدى ومولاي والمنعم على وعلى آبائى أن يرى . قال (الراوى): وسألته هل رأى رسول صلى الله عليه وآله ربّه؟ فوقع عليه السلام: «إنّ الله تبارك وتعالى أرى رسوله بقلبه من نور عظمتة ما أحب» (٣).

٥- في حديث آخر عن عاصم بن حميد، قال: ذكرت أبا عبد الله عليه السلام فيما يروون من الرؤية (أهل السنة)، فقال: «الشمس جزء من سبعين جزءاً من نور الكرسي، والكرسي جزء من سبعين جزءاً من نور العرش، والعرش جزء من سبعين جزءاً من نور الحجاب، والحجاب جزء من سبعين جزءاً من نور الستر، فإن كانوا صادقين فليملأوا أعينهم من الشمس ليست دونها سحاب» (٤)

فالعرش، والكرسي، والحجاب، والستر، كناية عن العوالم الغيبية الإلهية المختلفة، أى أنّ الشمس بعظمتها هي إحدى موجودات عالم الوجود، والإنسان الذي لا يقدر أن يرى هذا الموجود الصغير بعينه كيف يقدر على مشاهدة ذات البارى المقدسة؟ وهذا بالحقيقة شبيه ماورد في سورة الأعراف في قصة موسى عليه السلام، وبنى اسرائيل، ودك الجبل بالصاعقة، وعدم قدرة بنى اسرائيل على مشاهدة هذه الشرارة الصغيرة من عالم الوجود.

٦- في حديث آخر عن صفوان بن يحيى قال: سألتني أبو قرّة المحدث أن أدخله على أبي الحسن الرضا عليه السلام فاستأذنته في ذلك فأذن لي، فدخل عليه فسأله عن الحلال والحرام حتى بلغ سؤاله التوحيد، فقال أبو قرّة: «إنّا روينا أنّ الله عزّ وجلّ قسم الرؤية والكلام بين اثنين، فقسم لموسى عليه السلام الكلام ولمحمد صلى الله عليه وآله الرؤية، فقال أبو الحسن عليه السلام: «فمن المبلغ

(١) اصول الكافي، ج ١، ص ٩٩، ح ٥.

(٢) فوقَّع، أى كتب.

(٣) توحيد الصدوق، ص ١٠٨، ح ٢.

(٤) توحيد الصدوق، ص ١٠٨، ح ٣؛ وأصول الكافي، ج ١، ص ٩٨.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٨١

عن الله عز وجل إلى الثقلين الجن والانس «لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار» «ولا يحيطون به علماً» «وليس كمثله شيء» أليس محمد صلى الله عليه وآله قال: بلى قال: «فكيف يجيء رجل إلى الخلق جميعاً فيخبرهم أنه جاء من عند الله وأنه يدعوهم إلى الله بأمر الله ويقول «لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار» «ولا يحيطون به علماً» «وليس كمثله شيء» ثم يقول: أنا رأيت به عيني، وأحطت به علماً وهو على صورة البشر، أما تستحيون؟ ما قدرت الزنادقة أن ترميه بهذا أن يكون يأتي عن الله بشيء، ثم يأتي بخلافه من وجه آخر» (١)

إن الأحاديث الواردة حول هذا الموضوع كثيرة، فقد ذكر المرحوم العلامة المجلسي في بحار الأنوار حوالى ٣٤ حديثاً، والمرحوم الصدوق في كتاب التوحيد ٢٤ حديثاً، والمرحوم الكليني في اصول الكافي ١٢ حديثاً، وكلها تدل على خلوص وطهارة المذهب التوحيدي لأهل بيت الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، الذى انتشر بين المسلمين، وما ذكرنا أعلاه يُعدُّ جانباً منه، والذى يفند خرافة (رؤية الله) بالعين الظاهرية (٢).

خلاصة الكلام هو أن بطلان مسألة (رؤية الله) بالعين الظاهرية أمرين وواضح من حيث الدليل العقلي، وكذلك من خلال القرآن والروايات الإسلامية الصحيحة.

والآن نتوجه إلى شبهات القائلين بإمكان الرؤية وأجوبتها:

٤- أدلة القائلين بالرؤية الظاهرية

وكما أشرنا فيما مضى، فإن هناك جماعة من علماء أهل السنة الماضين وحتى المعاصرين المؤيدين لمسألة الرؤية، يصرحون أحياناً بإمكانية رؤية الله بالعين الظاهرية هذه، ولكن لا- فى الدنيا، بل فى الآخرة! وأحياناً أخرى يؤولون ذلك بقولهم: (إن الله يرى فى الآخرة بواسطة الحاسة السادسة التى يخلقها لعباده المؤمنين، أو بعين غير هذه العين

(١) توحيد الصدوق، ص ١١١، ح ٩.

(٢) راجع بحار الأنوار، ج ٤ ص ٢٦؛ و توحيد الصدوق، ص ١٠٧-١٢٢؛ وأصول الكافي، ج ١، ص ٩٥-٩٩.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٨٢

والتى يمتلكها حتى الأعمى.

ويظهر أن الشيء الأساس الذى قادهم إلى التسليم بهذا المعتقد والإشتباه فى تفسير الرؤية وتوجيه كلامهم بتوجيهات عجيبة، هو الروايات الواردة فى كُتُبهم عن الرسول محمد صلى الله عليه وآله، بالدرجة الأولى، وبالدرجة الثانية هو ظواهر بعض الآيات القرآنية التى لم تفسر بصورة صحيحة.

١- ورد فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون فى رؤيته» (١)

٢- وفي حديث آخر عن ابي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه و آله سأل أصحابه: «تضامون في رؤية القمر ليلة البدر؟ فقالوا: كلاً أي اننا نرى القمر بدون أن نزدحم في رؤيته».

فقال صلى الله عليه و آله: «كذلك لا تضامون في رؤية ربكم يوم القيامة» (٢).

٣- وفي رواية اخرى في نفس هذا الكتاب عن «ابو رزين» عن رسول الله صلى الله عليه و آله أنه قال: «ضحك ربنا من قنوط عباده وقرب غيره».

فقال الراوى: فسألته هل يضحك ربنا يا رسول الله؟

فقال: نعم، فقلت: لن نعدم من رب يضحك خيراً» (٣).

٤- وفي حديث آخر عن «أبو عاصم العبادانى» ... عن جابر بن عبد الله، عن رسول الله صلى الله عليه و آله أنه قال: «بيننا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطر لهم نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب قد أشرف عليهم من فوقهم فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة! قال وذلك قول الله سلاماً قولاً من رب رحيم، فينظر إليهم وينظرون إليه» (٤).

بعد أن نقل ابن ماجه الحديث المذكورة نقل عن السيوطى في مصباح الزجاجة كلاماً

(١) سنن ابن ماجه، ج ١ (المقدمة- الباب ١٣، ح ١٧٧) نلاحظ في مجمع البحرين (تضام القوم أى انضم بعضهم إلى بعض).

(٢) المصدر السابق، ح ١٧٨.

(٣) المصدر السابق، ص ٦٤، ح ١٨١.

(٤) المصدر السابق، ص ٦٥، ح ١٨٤.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٨٣

يدل على عدم الوثوق بأحاديث أبى عاصم العبادانى.

وقد ورد الحديث الأول أيضاً فى صحيح البخارى، الذى يُعَدُّ من أشهر مصادر الحديث لدى أهل السنّة، عن (جرير بن عبد الله) فى كتاب (مواقيت الصلاة) فى باين مختلفين مع اختلافٍ بسيط (١).

وقد نُقلَ بصراحة فى قسم تفسير الآيات من المجلد السادس لصحيح البخارى أيضاً مسألة رؤية الله يوم القيامة (٢).

٥- يُلاحظ فى كتاب الصلاة من «صحيح مسلم» وجود عدّة روايات منقولة عن «أبى هريرة» حول نزول الله تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا، من جملتها عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله أنه قال: «ينزل الله إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يمضى ثلث الليل الأول...» (٣).

مع أن هذه الرواية لا تتحدث عن مسألة الرؤية لكنّها تشتمل على مسألة تجسيم الله عزّ وجلّ، ونسب العوارض إليه أيضاً، كالمكان والحركة والنزول والصعود!

إنّ هذه الروايات- ومع الاسف- قد وردت مراراً فى مصادرهم الشهيرة التى ذكرنا قسماً منها أعلاه، وبما أنّها تخالف صراحة الآيات القرآنية التى تقول «لا- تدركه الأبصار» و «قالَ لَنْ تَرانى» ومخالفة لحكم العقل أيضاً فيجب أن تُهمل، وإن لم يُعثر لها على تفسير وتوجيه واضح، فيجب القول: إنّها روايات مجهولة ونسبت إلى رسول الله صلى الله عليه و آله).

والعجيب، أن أكثر هذه الروايات منقولة عن طريق أبى هريرة المشكوك فى أمره من عدّة جوانب.

وكما نقلنا فى رواية الإمام الرضا عليه السلام: كيف يُمكن لأجير أن يُبلّغ عن الله عبارات صريحة تقول بعدم إمكانية رؤية الله أبداً، ثم يدعى بأنّ المؤمنين يرون الله فى القيامة، أو بأنّ الله ينزل إلى السماء الدنيا كل ليلة؟ وهذا تضادّ غير ممكن، إضافة إلى هذا،

فالروايات

(١) صحيح البخارى، ج ١، ص ١٤٥ و ١٥٠.

(٢) المصدر السابق، ج ٦، ص ٥٦ تفسير سورة النساء.

(٣) صحيح مسلم، ج ٢، ص ١٧٥، كتاب صلاة المسافرين، (باب الترغيب فى الدعاء).

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٨٤

الآنفة الذكر كما تقول بإمكانية رؤية الله، تُصرح أيضاً بجسمانية الله، وتنسب إليه الصعود والنزول والضحك والقهقهة، وهذا شيء لا يتقبله حتى الأشاعرة الذين يعتقدون بالرؤية، وذلك لأنهم يقولون بصراحة: إن رؤية الله لا تعنى تجسيمه، وهذا شاهد آخر على كون هذه الروايات موضوعة.

وكذلك ماورد فى (سنن ابن ماجه) عن عبد الله بن عمر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«يُدننى المؤمن من ربه يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه...» (١).

فلو لم تحمل هذه التعبيرات على المعانى المجازية والكنائية، فهى حتماً تدل على مجهولية هذه الروايات التى تجعل لله ذراعاً وصدراً وجناحاً، وبواسطتها تُعرض الأفكار المنحطة للقائلين بالجسمية، فى قالب أحاديث مَجعولة.

والأعجب من ذلك وهو وجود جماعة لحد الآن يؤيدون مسألة رؤية الله، وذلك بسبب تقيدهم بمثل هذه الروايات المبتدعة.

فى حين أن مذهب أهل البيت عليه السلام قد نفى هذه العقيدة مطلقاً لأنها مرفوضة من قبل العقل والآيات القرآنية.

ومن بين الآيات الشريفة التى يستند عليها القائلون بالرؤية هى «وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ». (القيامة/ ٢٢-٢٣)

فى حين أن كلمة (ناظرة) المشتقة من مادة (نظر) تأتى بمعنى المشاهدة، وبمعنى الإنتظار، وعلى أية حال يجب أن توضع هذه الآية إلى جنب الآيات القرآنية الأخرى التى تقول «لا تدركه الأبصار» وأن تُفسر هذه المتشابهة بتلك المحكمة.

وتستعمل هذه التعبيرات الكنائية بكثرة، كقولنا: (فلان ينظر إليك فقط، أو عينه عليك) أى يتوقع منك المحبة واللطف والرأفة، فأصحاب الجنة أيضاً ينظرون يوم القيامة إلى ربهم ويرجون منه اللطف والرحمة.

والملفت أن تقدم الجار والمجرور فى جملة «إلى ربها ناظرة» يعطى معنى الحصر (أى

(١) سنن ابن ماجه، ج ١، ص ٦٥، المقدمة، ح ١٨٣- كنف على وزن هدف، له معانٍ عديدة من جملتها الذراع، الصدر، الجناح، الجانب، والظل.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٨٥

إنها ناظرة إلى ربها فقط)، فى حين أنهم يُشاهدون أنواع نعيم الجنة بأعينهم، كالأشجار والأنهر والثمار والحدود العيون وغير ذلك بنفس الوقت، مما يدل بحد ذاته على أن هذه النظرة إليه تعالى والمختصة بذاته المقدسة، هى انتظار كرمه وعفوه.

والاحتمال الآخر الوارد فى تفسير الآية، هو أن المقصود من النظرة هى الشهود الباطنى، والرؤية الصريحة بعين القلب والبصيرة، والخالية من كل ألوان الشك والترديد.

والحديث النبوى المنقول عن أنس بن مالك يُعدُّ خير دليل على هذا الإدعاء وهو:

«ينظرون إلى ربهم بلا كيفية ولا حد محدود ولا صفة معلومة» (١).

ومن المسلم أنه لو كان المقصود من الرؤية هو الرؤية البصرية الظاهرية فهى مستحيلة بدون وجود كيفية وصفة معلومة.

يقول العلامة الكبير المرحوم (السيد شرف الدين) فى كتاب (كلمة حول الرؤية)- بعد أن تطرق إلى الأحاديث التى نقلها محدثو أهل السنة بخصوص رؤية الله يوم القيامة:- (إنهم بحملهم هذه الروايات على الصحة اضطروا إلى سلوك الطريق الذى سلكه القائلون

بجسمانية الله، الطريق المخالف للعقل والنقل، في حين أنه لا هذه الأحاديث صحيحة، ولا ماورد فيها شيء يقبله العقل والشرع، ولكن كثرتها أدت بهم إلى تعطيل حكم العقل، وحتى إلى تطبيق آيات من القرآن الكريم معها.

إنه عمل غير متوقع، إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ!.

ثم تطرق إلى آية: «وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ* إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ»، وأضاف قائلاً: "التعبير بكلمة (نظر) خصوصاً عندما تتعدى ب (إلى) لا يعنى الرؤية والمشاهدة أبداً، بل يعنى صرف النظر إلى شيء حتى وإن لم يكن مرئياً، كما صرح بذلك أرباب اللغة، مضافاً إلى ذلك وورد فى القرآن الكريم: «وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ» (الأعراف / ١٩٨) والذى يتبادر إلى الذهن من الآية أعلاه هو ذلك الانتظار للفضل الإلهى يوم القيامة، (وكما أشرنا سابقاً) فإن استعمال هذه الكلمة بهذا المعنى والمفهوم يُعدُّ حقيقةً لا مجازاً،

(١) تفسير الميزان، ج ٢٠ ص ٢٠٤.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٨٦

وهى ملحوظة فى الأشعار والكلمات اليومية التى تمر علينا كقول الشاعر:

وجوه ناظرات يوم بدرٍ إلى الرحمن تنتظر الخلاصا ويقول الشاعر الآخر:

إِنِّي إِلَيْكَ لِمَا وَعَدْتَ لَنَاظِرٌ نَظَرَ الْفَقِيرِ إِلَى الْغَنِيِّ الْمَوْسِرِ ثُمَّ أَضَافُ قَائِلاً: إِنِّي أَتَعْجَبُ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَخْوَةِ كَيْفَ اسْتَدَلُّوا بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَىٰ إِمْكَانِيَّةِ رُؤْيَا اللَّهِ وَحُصُولِهَا، وَغَابَ عَنْهُمْ مَعْنَاهَا الظَّاهِرِي؟ فَيَحِينُ أَنَّهُمْ عِنْدَمَا يَصِلُونَ إِلَى الْآيَاتِ الْمَشَابِهَةِ لِهَذِهِ الْآيَةِ يُؤْوِلُونَهَا، كَالآيَةِ: «الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى . (طه / ٥)

و «يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ» (الفتح / ١٠)

ولا يحملون هذه الآيات على معنى جسمانية الله والمكان والحركة، بل يعتبرون الأولى بمعنى سلطة الله الربوبية على العرش، والثانية كناية عن قدرته الفائقة جلّ وعلا.

ولا يُعَلِّمُ سَبَبَ هَجْرِهِمُ لِلْمَعْنَى الْجَلِيَّةِ لِجُمْلَةٍ «إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ» واندفاعهم نحو مسألة الرؤية.

مضافاً إلى ذلك فيمكن أن تكون هذه الآية كناية عن الرؤية بعين البصيرة، كما ورد فى كلام أمير المؤمنين على عليه السلام عندما قال: «لَوْ كُشِفَ لِي الْغَطَاءُ مَا زِدْتُ يَقِينًا». أو يقول فى موضعٍ آخر: «أَوْ أُعْبِدُ رَبًّا لَمْ أَرَهُ؟» ثم صرح قائلاً: «لا تراه العيون بمشاهدة العيان ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان».

أو ماورد فى كلام ولده الإمام سيد الشهداء الحسين عليه السلام فى دعاء عرفه مخاطباً ربه:

«عميت عين لا تراك عليها رقيباً!» (١).

والآية الاخرى التى استندوا عليها لإثبات مقصودهم هى «كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ». (المطففين / ١٥)

ويستفيدون منها كون المؤمنين غير محجوبين عن الرؤية، ويرون ربهم حتماً.

ولكن كما أن كلمة (حجاب) تُستعمل للحجاب الظاهري، فكذلك تستعمل للحجاب

(١) كلمة حول الرؤية، ص ٤٨-٥٣ باختصار.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٨٧

المعنى أيضاً، والمقصود فى هذه الآية هو المعنى الثانى لا-الأول، وذلك بقربنة الآية التى سبقتها حيث تقول: «كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» (المطففين / ١٤)

إن المقصود هنا من الرّين هو الرّين المعنوي لا الظاهري.

والشاهد الآخر هو الآية الخامسة من سورة فُصِّلَت التي تخبر عن قول الكفار: «وَمِنْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ». ومن المُسَلَّم أن الحجاب الذي كان بين الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله والكفار لم يكن حجاباً ظاهرياً. وفي قوله تعالى: «جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا». (الاسراء / ٤٥)

وعليه فإن الكفار محرومون من اللقاء المعنوي مع ذلك المحبوب، وذلك لوجود الحجاب بينهم وبين الله تعالى، والآية الثالثة التي استعانوا بها لإثبات مقصودهم هي: «أَنَّهُمْ مُّالِقُوا رَبِّهِمْ». (البقرة / ٤٦) وقالوا: إن الملاقاة تعني المشاهدة.

في حين أن الآيات القرآنية تدل بوضوح على أن اللقاء يوم القيامة بأى مفهوم كان لا يخص المؤمنين، بل يتساوى فيه المؤمن والكافر، بينما نجد أنهم يعتقدون بأن رؤية الله في القيامة خاصة بالمؤمنين فقط، والدليل على عمومية اللقاء ما ورد في قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ». (الانشقاق / ٦)

إذن فالمخاطب في هذه الآية جميع الناس. و كما ورد في قوله تعالى: «فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ». (التوبة / ٧٧)

فهذه الآية خاصة بالمنافقين، وفي نفس الوقت فإنها تثبت أن لهم لقاء الله، وعلى هذا يتضح أن لقاء الله، بأى مفهوم كان، يشمل كلاً من المؤمنين والكافرين، في حين أنهم يعتقدون باختصاص هذا الموضوع بالمؤمنين. والجدير بالذكر أن كلمة (لقاء) في الأصل اللغوي بمعنى حدوث تماس بين شيئين، لا بمعنى الرؤية والمشاهدة، ونحن نعلم باستحالة تحقق هذا الأمر بخصوص البارئ تعالى،

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٨٨

والأشاعر أيضاً لا يقولون بذلك، لذا يجب أن يُحمَل على المعنى الكنائى.

وما يُستفاد من الآيات القرآنية المختلفة هو أن (يوم لقاء الله)، كناية عن يوم القيامة الذى سيلقى الناس فيه الجزاء والحساب والقصاص الإلهي، لذا فقد ورد في آيات متعددة بدلا " عن (لقاء الله): «لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا». (الأعراف / ٥١) أو «لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا». (السجدة / ١٤) (الجاثية / ٣٤)

وورد التعبير عنه في آيات أخرى بملاقاة يوم الحساب ويؤول باللقاء مثل: «أَنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهِ». (الحاقة / ٢٠)

لهذا فقد حمل الكثير من أرباب اللغة آيات لقاء الله على هذا المعنى.

يقول الراغب في المفردات: «ملاقاة الله عز وجل عبارة عن القيامة».

وكذلك يقول ابن الأثير في النهاية: «المراد بلقاء الله المسير إلى دار الآخرة».

وقد نقل ابن منظور في لسان العرب نفس هذا المعنى أيضاً.

ويلاحظ نفس هذا المعنى في الروايات أيضاً، كما ورد في الحديث النبوي أنه صلى الله عليه وآله قال:

«من حلف على يمينٍ ليقطع بها مال امرئٍ مسلم لَقِيَ الله وهو عليه غضبان» (١).

والظاهر أن التعبير عن القيامة ب (يوم لقاء الله) ينبع من هذا المعنى، وهو: أن الإنسان- في ذلك اليوم- يشعر بالأمر الإلهي في كل مكان، في الحساب، في عرصة المحشر، في الجنة والنار، وبتجلّي وجود الله عز وجل للجميع، بحيث يراه المؤمن والكافر بعين القلب والبصيرة.

والعجب هو استدلال الأشاعر بآيات أخرى لا تدل على مقصودهم أدنى دلالة مما يؤيد أنهم مصرون على تحميل الآيات القرآنية

على آرائهم، كالأية: «لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ». (يونس / ٢٦)

فقالوا: إنَّ المقصود من (زيادة) رؤية الله!!

في حين عدم وجود أدنى إشارة في هذه الآية الشريفة على هذا المفهوم، بل إنَّ الآية

(١) تفسير الكبير، ج ٣، ص ٥١، ذيل الآية ٤٦ من سورة البقرة.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٨٩

تشير إلى نفس ذلك الشئ الذي ورد بهذا المضمون حيث قال تعالى: «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا». (الانعام / ٦)

وكذلك استدلوا بالآية: «لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ». (ق / ٣٥)

فقالوا: إنَّ المقصود من (لدينا مزيد) هو رؤية الخالق! في حين أننا لا نرى أدنى إشارة إلى هذا المفهوم.

وخلاصة الكلام هو أن مسألة رؤية الله، -علاوة على كونها مخالفة للدليل القطعي العقلي والنقلي- كانت تستلزم جسمانية الله (إلا أن يكون المقصود منها الرؤية بعين القلب والباطن فلا أحد يناقش في ذلك).

ولا يوجد دليل روائي أو قرآني عليها، والأمر الوحيد هو استعانتهم بالمشابهات لتصديق معتقدتهم هذا، في حين أن القرآن أمرنا بمطابقة وتفسير المشابهات بالمحكمات.

وإنَّ قسماً من الروايات المنقولة في كتب هؤلاء القوم بخصوص هذا الموضوع، هي روايات تتنافى مع حكم العقل والقرآن، ونحن مأمورون بتركها وعدم الإهتمام بها.

وقد انتقد المرحوم العلامة السيد شرف الدين بدوره اسناد هذه الأحاديث أيضاً في كتابه القيم «كلمة حول الرؤية» وأثبت بأنها موضوعة (ولزيادة التوضيح راجع الكتاب المذكور) «١».

فما أقيح عصرنا الحاضر إذ يوجد فيه من لا يزالون يؤيدون خرافة (رؤية الله بالعين الظاهرية في القيامة)، على الرغم من كون البحوث العقائدية فيه تدور حول محور الأدلة العقلية، وقد اتضحت المسألة بصورة كافية من خلال آيات القرآن.

(١) كلمة حول الرؤية، ص ٦٧-٨٠.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٩٠

٥- الله عز وجل ليس جسماً

هناك جماعة بين المسلمين وغير المسلمين تدعى ب (المجسمة)، والتي تعتقد بجسمانية الله، وتنسب إليه جميع عوارض الأجسام، وقد نُقلت عنهم مطالب مُضحكة ومُخجلة في نفس الوقت، إلى درجة أن الشهرستاني في كتاب «الملل والنحل» ينقل عنهم أنهم يقولون حتى بإمكانية لمس الله، ومصافحته ومعانقته، من قبل المسلمين الخُصَّص!! حتى أنه نُقلَ عن (داود الجواربي)، الذي كان من القائلين بهذا المذهب، أنه قال: «اعفوني من الفرج واللحية وأسألوني عمّا وراء ذلك، فمعبودى جسم ودم ولحم، وله جوارح وأعضاء، من يدٍ ورجلٍ، ورأس، ولسان، وعينين، وأذنين، ومع ذلك فهو جسم لا كالأجسام وليس كمثلته شئ، ولحم لا كاللحم»!

وكذلك نُقلَ عنه أيضاً بأنه كان يقول: «إنَّه «١» أجوف من أعلاه إلى صدره، مصمت ما سوى ذلك، وإنَّ له وفرة سوداء «٢» وله شعر قط «٣»».

ويذكر (المحقق الدواني) عنهم عجائب أخرى فيقول: «إنَّهم طوائف مختلفة، فبعضهم يقول: إنَّه (عز وجل) مركب من لحم ودم!!

ويقول البعض الآخر: إنه نور متلالي كصحيفة بيضاء طوله سبعة أشبار من أشباره هو!

ويقول البعض: إنه شاب أمرد ذو شعر مجعد!

والبعض يقولون: إنه بشكل شيخ كبير لون شعر رأسه ولحيته سوداء بيضاء» (٤).

إن هذا الكلام غير العقلاني يشير بوضوح إلى مقدار ما تحمله هذه الطائفة من انحطاط فكري، فعبروا عن الله تعالى بتعابير لا تصدر حتى من الأطفال الصغار، ولم يخلجوا من ذكر هذه الأمور.

طبعاً لا يمكن التصديق الآن بوجود أحد من المسلمين أو غير المسلمين يحمل مثل هذه الاعتقادات.

(١) الملل والنحل، ج ١، ص ٩٦-٩٧.

(٢) «الوفرة» (بفتح وسكون) شعر الرأس إذا وصل إلى شحمة الأذن.

(٣) «شعر قط» (بالفتح والتشديد) و«قطط» (الفتحتين) وقيل قصير كثير الجعودة، حسن التجاعيد.

(٤) بحار الأنوار، ج ٣، ص ٢٨٩.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٩١

وبما أن كل إفراط يتبعه تفريط، فقد ظهر في مقابل هؤلاء جماعة احترزوا عن التشبيه إلى درجة أنهم كانوا يقولون: إذا حرّك أحد يديه أثناء قراءة آية «حَلَقْتُ يَدَيَّ» وجب قطع يديه! أو إذا أشار بأصبعه عند قراءة هذه الرواية الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «لَبَّ الْمُؤْمِنِينَ بَيْنَ إصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ». وجب قطع كلا إصبعيه! «١».

وعلى أي حال يظهر أن هذه العقائد السخيفة الركيكة بخصوص جسمية الله تعالى تتبع من أحد أمرين:

الأول: الأنس المفرط بعالم المادة والمحسوسات، الأنس المصحوب بالسداجة والجهل الذي لا يسمح للإنسان تقبل شيء غير المادة، الأنس الذي يؤدي إلى مقايضة الله عز وجل بالإنسان وصفاته.

الثاني: التعابير الكنائية والمجازية الملحوظة في القرآن الكريم والروايات الإسلامية، حيث يمكن أن يتوهم السذج منها الجسمية.

ولكن بالالتفات إلى نقطة واحدة يتضح بأن قبول فكرة الجسمية بالنسبة لله تعالى يساوي نفى إلهيته، ونفى وجوده، لأن كل جسم يتشكل من أجزاء، ولا بد له من لزوم المكان والزمان، وكونه معرضاً للحوادث والتغيرات ويتجه دائماً نحو الهلاك والفناء، وتكفى كل واحدة من هذه الصفات لنفى إلهية الله ووجوب وجوده.

مضافاً إلى ذلك أنه لو كان جسماً لكان له شبيه ومثيل، ونحن نعلم أن آيات متعددة من القرآن الكريم نفت عن الله تعالى أي شبيه أو مثيل.

ونختم هذا الكلام بحديث منقول عن الإمام الكاظم عليه السلام: «ذكر عنده قوم زعموا أن الله تبارك وتعالى ينزل إلى السماء الدنيا؟ فقال: إن الله لا ينزل ولا يحتاج إلى أن ينزل، إنما منظره في القرب والبعد سواء)....، ولم يحتاج إلى شيء بل يحتاج إليه، أما قول الواصفين:

إنه ينزل تبارك وتعالى عن ذلك فإنما يقول ذلك من ينسبه إلى نقص أو زيادة، وكل متحرك محتاج إلى من يحركه أو يتحرك به فمن ظن بالله الظنون فقد هلك وأهلك، فاحذروا في

(١) الملل والنحل، ج ١، ص ٩٧.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٩٢

صفاته من أن تقفوا له على حد من نقص أو زيادة، أو تحريك أو تحرك، أو زوال أو استئزال، أو نهوض أو قعود فإن الله عز وجل

عن صفة الواصفين ونعت الناعتين وتوهم المتوهمين» (١)

وهناك روايات كثيرة في هذا المجال ولكن وضوح الموضوع يغنيننا عن التوغل في البحث (٢).
والعجب من إصرار بعض أرباب الملل والنحل على نسب مسألة الاعتقاد بجسمانية الله تعالى إلى الشيعة اتباع مذهب أهل البيت عليه السلام، لكن مطالعة كتب الشيعة تشير بوضوح إلى انهم بلغوا القمّة في تنزيه الله تعالى عن الجسمانية، وأى صفة من صفات الأجسام وعوارضها، لذا فقد قال الإمام الرضا عليه السلام: «إنه ليس منّا من زعم أن الله عزّ وجلّ جسم ونحن منه براء في الدنيا والآخرة» (٣).

(١) بحار الأنوار، ج ٣، ص ٣١١، ح ٥ باختصار.

(٢) لزيادة الأطلاع على روايات هذا الموضوع راجع توحيد الصدوق، ص ٩٧ - ١٠٤ - باب أنه عزّ وجلّ ليس بجسم ولا - صورة (فهناك عشرون رواية منقولة حول هذا الموضوع ٢٠٥).

(٣) توحيد الصدوق، نفس الباب السابق، ح ٢٠.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٩٣

٣- ليس له محل وهو موجود في كل مكان

تمهيد:

ليس من اليسير على أفراد يعيشون دائماً في أسر عالم المادة وقد جبلوا على هذا التفكير ولم يتجاوز نطاق تفكيرهم هذا الحد أن يتصوروا وجوداً مجرداً من المادة.

ولكن وكما قلنا في بدايه بحث الصفات الإلهية، فإن أول خطوة في طريق معرفته هي تنزيهه عن صفات مخلوقاته، خاصة عن صفات الموجودات المادية من قبيل الزمان، المكان، التغيير، والحركة.

ومن هنا يبدو واضحاً أن من لوازم معرفة الله معرفة حقيقته هو تنزيهه عن المكان والمحل.

فمن البديهي أن الاتصاف بالمحل ملازم للقول بالتجسيم، وقد عرفنا في البحوث السابقة أن الله عزّ وجلّ ليس بجسم ولا يتصف بصفات الأجسام، ولا يحيطه مكان ولا يسعه زمان، وفي نفس الوقت يحيط بجميع الأمكنة والأزمنة!

بهذا التمهيد نتوجه إلى القرآن الكريم لتأمل في الآيات التالية بأسماع قلوبنا:

١- «وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ».

(البقرة/ ١١٥)

٢- «وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ». (الزخرف/ ٨٤)

٣- «وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ». (الحديد/ ٤)

٤- «مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثِهِ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا حَمِيَّةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا».

(المجادلة/ ٧)

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٩٤

٥- «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمُ مَا تُوسِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ». (ق/ ١٦)

٦- «هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ». (الحديد/ ٣)

٧- «وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ* وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ» (١).

(الواقعة / ٨٤-٨٥)

جمع الآيات وتفسيرها

أينما تولوا فثم وجه الله:

حاول اليهود بعد مسألة تغيير القبلة (من بيت المقدس نحو الكعبة) إلى إيجاد شبهة في إذهان المسلمين من خلال هذه المسألة، واعتبار تغيير القبلة دليلاً على عدم ثبات الرسول محمد صلى الله عليه وآله على رسالته، فنزلت الآية الأولى من بحثنا وبيّنت: «وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُّوا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ».

فهو حاضر في كل مكان وبكل شيء عليم، لذا فأينما تولوا فثم وجهه، وإما الغرض من التوجه نحو القبلة فهو لتمرکز توجه المؤمنين إلى أن الله عز وجل له محل خاص أو جهة معينة وهي القبلة، فوجوده واسع إلى درجة كونه حاضراً ورقيباً في كل مكان، وفي نفس الوقت ليس له محل أو مكان خاص!

وطبعاً ليس المقصود من كلمتي المشرق والمغرب في الآية المذكورة الجهتين الجغرافيتين، بل هو تعبير كناية عن جميع العالم، كما أننا عندما نريد أن نقول: إن أعداء على عليه السلام حاولوا إخفاء فضائله، وشيعته أخفوها أيضاً خوفاً من أعدائه، ومع ذلك فإن فضائله ملأت العالم، نقول: (إن فضائله ملأت الشرق والغرب!).

وعلى أية حال فإن تعبير «فَأَيْنَمَا تُولُّوا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ» هو تعبير حتى وواضح على عدم إحاطة المكان بالله تعالى.

(١) ما ذكر أعلاه هو قسم مجمل من هذه الآيات، وتوجد آيات قرآنية مشابهة للتي ذكرناها كآية ٢٠ من سورة البروج؛ والآية ٣ من سورة الأنعام.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٩٥

لأن التواجد في كل مكان إما يعني امتلاك الموجود أبعاداً واسعة وأجزاء كثيرة تملأ المكان، وكل جزء منه موجود في جهة معينة، ونحن نعلم باستحالة هذا المعنى بالنسبة إلى الله تعالى، لأنه سبحانه ليس له أجزاء، وقول القرآن: (هو معكم) لا يعني أن جزءاً من وجود الله تعالى هناك (فتأمل جيداً).

أو يعني عدم إحاطة المكان به، أي هو فوق الزمان المكان، وطبعاً مثل هذا الوجود تتساوى فيه جميع الأمكنة والأزمنة ولا معنى للبعد والقرب عنده.

والملاحظة المهمة هنا هي أن التعبير بعبارته (وجه الله) تعني في القرآن الذات الإلهية المقدسة.

ولكون (الوجه) أشرف أعضاء الإنسان ويحتوي على أهم حواسه، فإن هذه الكلمة تستعمل كناية عن (الذات)، ولكن بعض المفسرين فسروها بمعنى الرضا الإلهي، أو الثواب الإلهي، أو القبلة، ولا نعتقد بصحة أي من هذه المعاني.

قال تعالى في الآية الثانية - ضمن رده على المشركين والذين جعلوا له ولداً، وتزيه ذاته المقدسة عن هذه الصفات: «وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ».

إن إلهية الله تعالى لا تخص جهة معينة، أو مكاناً خاصاً، ومساحة إلهيته وسعت كل مكان، وبسبب وجوده في كل مكان فهو بكل شيء عليم وخبير، وأفعاله حكيمه، بل إن هذا التعبير يشير إلى أن (العليم) و (الحكيم) الوحيد في عالم الوجود هو الله سبحانه، لأن

علم وحكمته من سواه قاصرة وناقصة ومشوبة بالجهل.

ولكنّ المشركين على مدى التاريخ قالوا: إنّ لكل واحد من موجودات العالم إلهاً وربّاً:

إله السماء، إله الأرض، إله البحر، إله البر، إله الحرب وإله السلام، وما شاكل ذلك، والآية أعلاه تنفي جميع هذه المعتقدات الباطلة، وتؤكد على ربوبيّة الله الواحد الأحد على جميع عالم الوجود.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٩٦

قال بعض المفسرين: إنّ هذه الآية خير دليل على هذا الموضوع، وهو عدم تواجد الله في السماء، لأنّه يقول: «فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ» ويعنى أنّ نسبة وجوده في السماء وفي الأرض متساوية، وبما أنّ الأرض لا تعتبر مكاناً له، فكذلك السماء أيضاً «١». وقال البعض الآخر من المفسرين: إنّ مقصود هذه الآية هو أنّه معبود في السماء وفي الأرض، فالملائكة تعبد في السماء وفي الأرض تسجد له موجوداتها.

وفي حديثٍ ظريف ورد أنّ أحد زنادقة عصر الإمام الصادق عليه السلام وهو «أبو شاعر الديصاني» قال لهشام بن الحكم: إنّ في القرآن آية هي قولنا. قلت: وما هي؟ فقال: «وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ»، فلم أدر بما أجيبه! فحججت فخبرت أبا عبد الله عليه السلام فقال: هذا كلام زنديق خبيث إذا رجعت إليه فقل: ما إسمك بالكوفة فأنه يقول: فلان، فقل له: ما اسمك بالبصرة؟ فأنه يقول: فلان، فقل كذلك الله ربنا في السماء إله، وفي الأرض إله، وفي البحار إله وفي القفار إله، وفي كل مكان إله، قال: فقدمت فأتيت أبا شاعر فأخبرته فقال: هذه نقلت من الحجاز «٢».

إنّ هذا التعبير يُعَدُّ إشارةً إلى أنّ الله تعالى لا مكان له من جهة، وحضوره في كل مكان من جهةٍ أخرى، كقولنا: (إثنان زائد اثنين يساوي أربعة)، فإنّ هذه المعادلة الرياضية كما أنّها في الأرض، كذلك فإنّها في السماء وفي جميع المجرات، وفي نفس الوقت ليس لهذه المعادلة الرياضية محلّ معين، فيمكن أن نقول: بأنّها في كل مكان وليس لها مكان في آنٍ واحد.

و هو معكم أينما كنتم!

تقول الآية الثالثة بصراحة «وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ». ولأنّه كذلك فهو بما تعملون بصير: «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ».

(١) تفسير الكبير، ج ٢٧، ص ٢٣٢.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٦١٧، ح ٩٨.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٩٧

يُشير هذا التعبير بوضوح إلى أنّه جلّ وعلا لا مكان له، أو بتعبيرٍ آخر، هو فوق الزمان والمكان، ولهذا فهو حاضر في كلّ مكان وقد أحاط بكلّ شيءٍ علماً.

قال بعض المفسرين - كما ورد في تفسير (روح المعاني): يجب تأويل هذه الآية وحملها على المعنى المجازي والقول بأنّ المقصود منها هو: (علمه بنا لا ذاته المقدسة).

وهؤلاء غافلون عن أنّ علم الله تعالى علم حضوري، لا كعلمنا الذي يتم عن طريق تصوير الأشياء في الذهن، والعلم الحضوري معناه حضور كل شيءٍ بين يديه، وبحضور ذاته في كل مكان فهي تحيط بها جميعاً «١».

وقال بعض المفسرين في تفسير هذه الآية: كل ممكن فوجوده من الواجب، فاذن وصول الماهية الممكنة إلى وجودها بواسطة فيض الواجب الحق ذلك الوجود لتلك الماهية فالحق سبحانه هو المتوسط بين كل ماهية وبين وجودها، فهو إلى كل ماهية أقرب من

وجود تلك الماهية (٢).

وقد ورد في تفسير الميزان أنّ هذه المعية نابعة من إحاطته بكم، فلا تغيبون عنه اينما كنتم، وفي أى زمان عشتم، وفي أى حال فرضتم، فذكر عموم الامكنة «أين ما كنتم» لأن الاعرف في مفارقة شىء شيئاً، وغيبته عنه أن يتوسل إلى ذلك بتغيير المكان، وإلا فنسبته تعالى إلى الأمكنة والأزمنة والأحوال سواء (٣).

ولكن من لم يستطيعوا فهم إحاطة الله الوجودية بجميع الممكنات بصورة صحيحة، حملوا هذه الآية على المعنى المجازى فقالوا: إنّ المراد من معية الله للموجودات، هو شمول علمه وقدرته وحاكميته عليهم (٤).

(١) ورد توضيح أكثر حول علم الله في بحث علم الله في نفس هذا المجلد.

(٢) تفسير الكبير، ج ٢٩، ص ٢١٤.

(٣) تفسير الميزان، ج ١٩، ص ١٦٧.

(٤) تفسير القرطبي، ج ٩، ص ٦٤٠٧، ويلاحظ وجود معنى قريب من هذا التفسير في تفسير روح الجنان ج ١١، ص ٣٨، وقد نُقل أيضاً في تفسير الكبير، ج ٢٩، ص ٢١٥، عن المتكلمين بأن هذه المعية إما من جهة العلم أو من جهة الحفظ والحراسة.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٩٨

أما الآية الرابعة فقد أشارت إلى مسألة النجوى فقالت: «مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا».

«النجوى»: فى الأصل بمعنى المكان المرتفع المنزّل عمياً حوله لارتفاعه، ولكون إذا أراد شخص أن يُسرّ شيئاً لصاحبه يأخذه إلى معزل عن الناس. فإن كلمة نجوى استعملت بمعنى الهمس فى الأذن.

يعتقد البعض بوجود وجود ثلاثة أشخاص أو أكثر لتحقق معنى (النجوى)، وإن كانا اثنين يُطلق على هذا العمل (إسرار)، لكن هذه المسألة لم تثبت، خصوصاً أنّ كلمة نجوى وردت فى آيات سورة المجادلة للتعبير عن الذين كانوا يناجون الرسول صلى الله عليه وآله بصورة انفرادية.

وللمفسرين بيانات متعددة بسبب ذكر ثلاثة وخمسة أشخاص بالخصوص وعدم ذكر الأربعة التى تقع بين الثلاثة والخمسة، أقواها هو أنّه لو ذكر الأربعة أشخاص لتكرر العدد (أربعة) فى الجملة الأولى والثانية، وهو ينافى البلاغة والفصاحة (سوى فى حالات خاصة)، مضافاً إلى ذلك فإن قوله تعالى فى نهاية الآية: «وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ» سيشمل مالم يُذكر بين هذين العددين، وعليه يشمل ما قبل العدد ثلاثة (أى اثنين) وما بعده (أى أربعة)، وكذلك الأكثر من الخمسة، وهذه نقطة اخرى تدل على فصاحة هذه الآية، وعلى أن تعبير (نجوى) يشمل الشخصين أيضاً.

وقال البعض الآخر: إنّ الآية أعلاه تتحدث عن حادثين قام بها المنافقون اشترك فى الاولى ثلاثة أشخاص، وخمسة أشخاص فى الثانية.

وعلى أية حال فإن المراد من المعية (معية الله لعباده فى نجواهم) هو نفس الإحاطة الوجودية المشار إليها فى الآية السابقة، والعجب من بعض المفسرين الذين أيدوا هذا المفهوم فى الآية السابقة، لكنهم فسروا المعية هنا بمعنى الإحاطة العلمية، ولعل ذلك بسبب تحدّث الآية فى البداية عن سعة علم الله وشموله جميع ما فى السموات والأرض: «أَلَمْ تَرَ

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ١٩٩

أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ». (المجادلة/ ٧)

ولكن من البديهي أن إحاطة الله الوجودية بكل شىء هى عين إحاطته العلمية، لأنّه وكما أشرنا سابقاً فإن علم الله علم حضوري،

ولازمه حضوره عز وجل في كل مكان (فتأمل جيداً).

نلاحظ نفس هذا المفهوم في الآية الخامسة وبتعبير جديد، حيث قال تعالى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمُ مَا تَوْسُوْسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ».

تُطلق كلمة (وريد) على أى نوع من أنواع عروق البدن، لكن الكثير من المفسرين فسروها بمعنى الوريدين الرئيسين الموجودين فى جانبى الرقبة، وفسرها جماعة بمعنى الوريد الرئيس المتصل بالقلب.

ولكن عندما نضيف كلمة (حبل) إلى كلمة (وريد) فلا يراد منه الأوردة الصغيرة والعادية الموجودة فى البدن، بل يقصد به أحد الأوردة الكبيرة والمعروفة فى البدن، وقد ورد كلا التفسيرين فى تفسير ذيل هذه الآية فى كلام المفسرين وأرباب اللغة «١».

لكن المناسب لهذه الآية هنا، هو الوريد الرئيس فى القلب لأنه ورد أيضاً فى الآية:

من سورة الأنفال: «وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ». (الأنفال / ٢٤)

وكلا الآيتين كناية عن منتهى قرب الله تعالى لجميع عباده، لأننا لو اعتبرنا قلب الإنسان مركز وجوده، لما كان هنالك شىء أقرب إليه من وريد القلب، فالقرآن يريد أن يقول:

(ونحن أقرب إليه حتى من هذا أيضاً).

وعلاوة على هذا فإن الآية قد تحدثت فى البداية عن علم الله بما توسوس به نفس الإنسان، مما يتناسب مع القلب لا الرقبة.

على أية حال، إن هذه المسألة تصوّر عموم المكان لله تعالى بأفضل وجه، لأنها تقول:

(١) التحقيق، مفردات الراغب، مجمع البحرين، لسان العرب، تفسير الميزان والقرطبي وغيرها.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٠٠

إنه تعالى أقرب إلى كل إنسان من وريد قلبه، إذن فهو حاضر فى كل مكان، حتى فى أرواحنا وقلوبنا، ومن الواضح أن وجوداً كهذا هو فوق المكان، لأن الشىء الواحد لا يمكن أن يكون بجميع وجوده فى مكانات متعددة، إلا أن يكون ذا أعضاء يشغل كل واحد منها مكاناً معيناً.

وقد ورد نفس هذا المفهوم فى الآية السادسة والأخيرة من بحثنا والذى يخص المحترزين الذين أشرفوا على نهاية حياتهم، قال تعالى: «وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ* وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَّا تُبْصِرُونَ».

فيقول نحن نعلم جيداً بما يجرى فى باطن ذلك المحترز، وأى غوغاء قائمة فى عمق وجوده! هل هو سرور لتحرره من سجن البدن وانطلاقه إلى رياض الجنة، أم هموم لمشاهدته العقوبات الإلهية بسبب أعماله الظلامية التى ارتكبها؟!

لكنكم لا ترون أى واحدة من هذه المسائل ولا تعرفونها.

وقد حمل بعض المفسرين -الذين لم يدركوا مفهوم القرب الإلهي من الإنسان بصورة صحيحة- هذه الآية على المعنى المجازي، فقالوا: إن ملائكة الموت أقرب إليه منكم ولكنكم لا تبصرونهم.

ولكن بالالتفات إلى كون هذا التعبير وأمثاله - كما عرفنا ذلك فى الآيات السابقة - لا ينحصر بالشخص المحترز، حيث شمل جميع الناس بتعابير مختلفة، فقد اتضح بطلان هذا التفسير.

وتأكيد الآية على قرب الله تعالى من المحترز فقط، دلالة على أن الكلام يدور حول هذا الموضوع، وبصورة عامة فإن هذه الآية تُعدُّ دليلاً "واضحاً آخر على انعدام المكان بالنسبة إلى الله تعالى.

يتضح جلياً من مجموع الآيات الآنفه الذكر أنها تتطرق إلى حقيقة واحدة بتعابير متنوعه، وهي أن الله موجود في كل مكان، ويُشرف على الكون، في الوقت الذي ليس له

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٠١

مكان معين يحده، وأن وجوده فوق الزمان والمكان، ولكون جميع الموجودات تستمد وجودها من وجوده، ولا تستغنى عنه أبداً، فإنه تعالى يُحيط بجميع موجودات العالم إحاطة وجودية، هي عين إحاطته الربوبية والقيومية. (فتأمل جيداً).

توضيحات

١- الله عز وجل فوق المكان والزمان

للفلاسفة بحوث عديدة حول حقيقة (المكان) و (الزمان)، وبالرغم من أن هذا الموضوع من المواضيع التي تلازمنا دائماً إلا أن معرفة حقيقتهما لا تزال من المشكلات حتى بالنسبة للفلاسفة! وهذه من العجائب.

فقد اعتقد جماعة بأن المكان- والذي يعطى معنى الفضاء، أو هو بُعد خاص تسبح فيه الأجسام،- موجود مخلوق قبل الجسم، وكلّ جسم بحاجة إليه.

وقال آخرون: إن الفضاء الخالي من كلّ شيء ليس إلماوهمّ وخيال، وبالأساس، فإنّ عدم وجود الجسم يعنى عدم وجود المكان، وبتعبير آخر: المكان يوجد بعد الجسم لا قبله، ويُنتزع من مقياسه جسمين مع بعضهما، وكيفية استقرارهما، وليس من المناسب هنا انتقاد هاتين النظريتين الفلسفتين وتحليلهما، بل يجب القول: إن المكان بأى واحدٍ من هذين المفهومين، محال بالنسبة إلى الله عزّ وجلّ.

لأنه لا يمكن أن يكون هناك موجود قبل الله، وفق التفسير الأول، القائل: إن (المكان موجود يسبق وجود الجسم)، وإذا قطعنا بأن الاجسام تحتاج إلى مكان، فهل يُمكن أن يحتاج واجب الوجود الغنى عن الوجود إلى شيءٍ آخر؟

وعليه يتضح استحالة تحقق مفهوم المكان طبق التفسير الأول بخصوص الباري الغنى عن كلّ شيء والمنشئ لجميع الوجودات، وأما وفق التفسير الثانى فهو يستلزم وجود النظير الكفو لله تعالى لقياس به، ويُنتزع المكان من قياس هذين الإثنين مع بعضهما، فى حين أننا عرفنا فى مباحث التوحيد أنه تعالى ليس له كفؤ أبداً.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٠٢

ومن جهة اخرى، لا يمكن تصور المكان بدون محدودية، لأنه ينبغى تصور جسمين بصورة منفصلة عن بعضهما ليُتضح مفهوم المكان من مقياسيهما مع بعضهما، لذا يقول هؤلاء الفلاسفة: إنّ كلّ العالم ليس له مكان لأنه لا يوجد شيء خارج عنه لقياس به، أما المكان فلاجزء العالم فقط.

ومن جهةٍ ثالثة إذا كان لله مكان لا يستلزم أن يكون له أعضاء وأجزاء، لأنّ ذرات الجسم- بالقياس مع بعضها- تمتلك أمكنة مختلفة، كأن تكون إحداها فى الأعلى والاخرى فى الأسفل، إحداها فى جهة اليمين والاخرى فى جهة اليسار، وإذا اعتقدنا بتركيب الله تعالى فستبرز مسألة حاجته إلى هذه الأجزاء والتي لا تتناسب مع وجوب وجوده.

ونفس هذا البحث يرد فى مفهوم الزمان، فالذين يعتقدون بأنّ الزمان ظرف مخلوق قبل الأشياء، والأشياء المادية تدخله بعد الخلق والتكوّن وتحتاج إليه، وبتعبيرٍ آخر: الزمان حقيقة مستقلة سيّالة مخلوقة قبل جميع الأشياء المادية، ويُمكن أن يكون موجوداً حتّى بعد فنائها، فى هذه الحالة يتّضح عدم إحاطة الزمان بالله تعالى، لأنه يستلزم الحاجة إلى شيء وهو الغنى عن كلّ شيء.

وإن اعتقدنا،- طبقاً لنظرية الفلاسفة المتأخرين،- بأنه وليد حركة أشياء العالم أو الحركة الجوهرية للأشياء، فإنه محال بشأن البارى، لأنه وجود كامل وغير محدود من كل ناحية، ووجود كهذا لا يمكن تصور الحركة بشأنه (أى لا مفهوم لها)، إذن لا يسعه الزمان.

٢- لا يحلُّ الله في شيء

يعتقد جماعة من المسيحيين بأن الله تعالى قد حل في المسيح عليه السلام، واعتقد جماعة من المتصوفة بمثل ذلك في أقطابهم، إذ قالوا إنَّ الله تعالى قد حلَّ في وجودهم.

وكما قال العلامة المرحوم الحلّي رحمه الله في (كشف المراد): «لا- ريب في سخافة وزيف هذه العقيدة، لأنَّ ما يُمكن تصوُّره من الحلول هو: أنَّ يحل موجود قائم في موجودٍ آخر- كقولنا:

حلَّ العطر في الورد- وهذا المعنى لا يُمكن تصوُّره بخصوص الله، لأنه يشتلزم اشغال حيز

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٠٣

من المكان والحاجة إليه، وهو أمر محال بالنسبة لواجب الوجود، والذين يعتقدون بحلول الله في شيء سيتورطون بنوع من الشرك، وهم خارجون عن سلك الموحدين» (١).

٣- معنى حضور الله تعالى في كل مكان!

يُمكن أن يتصور البعض حضور الله سبحانه في كل مكان كوجود قوة الجاذبية أو وجود الأثير وهى موجات مفترضة ليس لها وزن ولا لون تملأ الوجود بأكمله وموجودة حتى في الفراغ)، في حين أن جميع هذه الامور هى من قبيل الوجود في مكان، أى وجود قسم من أمواج الجاذبية أو امواج الأثير فى كل زاوية من زوايا العالم، وهذا الموضوع يستلزم: وجود الأجزاء المركبة من ناحيه، والحاجة إلى المكان من ناحية اخرى

فى حين أن مفهوم وجود الله سبحانه فى كل مكان هو أنه تعالى فوق المكان، لذا فلا معنى للبعد والقرب عنده، وإذا أردنا أن نتصور مثلاً- مع أنه لا يفى بالغرض- حول هذا المفهوم، يجب أن نشبه حضوره بحضور المعادلات العلمية، والمسائل العقلية فى كل مكان، كقولنا: الكل أكبر من الجزء، واستحالة اجتماع النقيضين، و ٢ * ٢ / ٤.

وتصدق مثل هذه الأمور فى الكرة الأرضية، وفى كوكب القمر، وفى كوكب المريخ، وفى ما وراء المجرات، فالكل أكبر من الجزء فى جميع هذه الأمكنة، واجتماع النقيضين محال فيها أيضاً، فى حين أنه لا يوجد مكان ومحل معين لهما.

ومن الأهمية بمكان الالتفات إلى هذه الصفة الإلهية: وهى مثول العالم بأكمله بين يدى الله سبحانه له تأثير تربوي عميق فى نفس الإنسان، فكيف يُمكن أن يكون لأحدٍ إيماناً بمثل هذا الأمر ويرى حضور مولاه العظيم الحكيم وولى نعمته، ويسلك طريق الخطايا ويلوث نفسه بالذنوب المشينه ويعصى أوامره!؟

واللطيف هو أن الآيات التى ذكرناها بخصوص حضور الله تعالى فى كل مكان، تؤكد

(١) كشف المراد فى شرح تجريد الاعتقاد للعلامة الحلّي، ص ٢٢٧.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٠٤

غالباً على نفس هذا الأثر التربوي، لذلك فقد ورد فى بعضها: «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ»، وفى البعض الأخر: «وَنَعَلِمُ مَا تُؤْسِسُ بِهِ

نَفْسُهُ».

فليس الحضور الإلهي خارج وجودنا فقط، فهو تعالى موجودٌ في نفوسنا وقلوبنا وأعماق أرواحنا أيضاً، كما قال مولى المتقين على عليه السلام، في وصف الله عز وجل «الباطن لكل خفية، والحاضر لكل سريرة، العالم بما تكنُّ الصدور وما تخون العيون» (١). وقال عليه السلام في خطبةٍ أخرى «فاتقوا الله الذي أنتم بعينه، ونواصيكم بيده، وتقلبكم في قبضته، إن أسررتُم علمه، وإن أعلنتم كتبه» (٢).

٤- لماذا نرفع أيدينا إلى السماء أثناء الدعاء؟

غالباً ما يُطرح هذا السؤال من قبل عامّة الناس وهو: إذا لم يكن لله تعالى مكانٌ معينٌ فلماذا ننظر إلى السماء أثناء الدعاء؟ ونرفع أيدينا نحو السماء؟ فهل هو سبحانه موجودٌ في السماء «والعياذ بالله»؟ وقد طُرح هذا السؤال في زمان الأئمة المعصومين عليهم السلام أيضاً، فقد روى «هشام بن الحكم» أن زنديقاً دخل على الإمام الصادق عليه السلام وسأله عن آية «الرحمن على العرش استوى». فأجابه الإمام عليه السلام موضحاً: «.... ونفينا أن يكون العرش أو الكرسي حاوياً له، وأن يكون عزّ وجلّ محتاجاً إلى شيء مما خلق، بل خلقه محتاجون إليه». فقال السائل: إذن، لا فرق في أن ترفعوا أيديكم أثناء الدعاء إلى السماء أو تنزلوها إلى الأرض! فقال الإمام عليه السلام: «ذلك في علمه واحاطته وقدرته سواء، ولكنه عزّ وجلّ أمر أولياءه

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٣٢.

(٢) المصدر السابق، الخطبة ١٨٣.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٠٥

وعباده برفع أيديهم إلى السماء نحو العرش، لأنّه جعله معدن الرزق، فثبتنا ما ثبته القرآن والأخبار عن الرسول صلى الله عليه وآله حيث قال: ارفعوا أيديكم إلى الله عزّ وجلّ، وهذا يجمع عليه فرق الأمة كلها» (١). ورد في الخصال عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، في حديثٍ آخر أنّه قال: «إذا فرغ أحدكم من الصلوة فليرفع يديه إلى السماء، ولينصب في الدعاء. فقال ابن سبأ: يا أمير المؤمنين أليس الله عزّ وجلّ في كل مكان؟ قال: بلى قال: فلم يرفع يديه إلى السماء؟ فقال: أو ما تقرأ: «وفي السماء رزقكم وما توعدون» فمن أين تطلب الرزق إلّا من موضع الرزق وما وعد الله عزّ وجلّ في السماء» (٢). وطبقاً لما جاء في هذه الروايات فإنّ أغلب أرزاق الناس تنزل من السماء، (فالمطر الذي يحيى الأرض الميتة ينزل من السماء، ونور الشمس الذي يُعدُّ منبعاً للحياة، يشع من السماء، والهواء الذي يُعد العامل المهم الثالث للحياة، موجود في السماء، فإنّ السماء عُرفت كمعدن للبركات والأرزاق الإلهية، وتُرفع الأيدي نحوها عند الدعاء طلباً ورجاءً من خالق ومالك كل تلك الأرزاق في حل المعضلات.

ويُستنتج من بعض الأخبار أيضاً أنّ هذا المفهوم لا ينحصر بالمسلمين فقط، بل كان موجوداً في بقية الأمم كذلك، كما نقل المرحوم (الفيض الكاشاني) في كتاب المحجّة البيضاء عن (مالك بن دينار) أنّه قال: أصاب الناس من بني إسرائيل قحط، فخرجوا مراراً فأوحى الله تعالى إلى نبيهم أن أخبرهم: «إنّما تخرجون إليّ بأبدان نجسه، وترفعون إليّ اكفاً قد سفكتم بها الدماء، وملاّتكم بطونكم من الحرام الآن قد اشتد غضبي عليكم ولن تردادوا منّي إلّا بعداً» (٣).

ويستنتج من بعض الروايات وجود فلسفة اخرى لهذا العمل وهو إظهار الخضوع

- (١) بحار الأنوار، ج ٣، ص ٣٣٠؛ توحيد الصدوق، ج ١، ص ٢٤٨، الباب ٣٦.
 (٢) بحار الأنوار، ج ٩٠، ص ٣٠٨، ح ٧، وقد ورد الحديثان السابقان في تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ١٢٤-١٢٥.
 (٣) المحجبة البيضاء، ج ٢، ص ٢٩٨.
 نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٠٦
 والتدلل للباري، لأنَّ الإنسان يرفع يديه حينما يظهر خضوعه واستسلامه لشخص أو شيء معين.
 وفي حديثٍ للإمام الباقر عليه السلام في تفسير آية «فما استكانوا لرَّبِّهم وما يتضرَّعون».
 فقال عليه السلام: «الاستكانة هو الخضوع، والتضرع هو رفع اليدين والتضرع بهما» (١).

٥- نفى المكانية عن الله في الروايات الإسلامية

- طُرحت هذه المسألة بشكل واسع في الروايات الإسلامية في: أصول الكافي، بحار الأنوار، نهج البلاغة، توحيد الصدوق، وغيرها، وذكَّرها جميعاً لا يتناسب مع طريقة اختصار الكتاب، لذا نكتفي بنفحات منها:
- ١- عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال: «إنَّ الله تبارك وتعالى لا- يوصف بزمان، ولا مكان، ولا حركة، ولا انتقال، ولا سكون؛ بل هو خالق الزمان والمكان والحركة والسكون والانتقال، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً» (٢).
- ٢- وجاء في حديث آخر أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام سمع رجلاً يقول: «والذي احتجب بسبع طباق؛ فعلاه بالدره، ثم قال له: يا ويلك إنَّ الله أجلُّ من أن يحتجب عن شيء، أو يحتجب عنه شيء سبحان الذي لا يحويه مكان، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؛ فقال الرجل: أفأكفر عن يميني يا أمير المؤمنين؟ قال: لا لم تحلف بالله فيلزمك الكفارة، وإنَّما حلفت بغيره» (٣).
- ٣- وورد في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام: «إنَّ سليمان بن مهران سأله هل يجوز أن نقول: إنَّ الله عزَّ وجلَّ في مكان؟ فقال: سبحان الله وتعالى عن ذلك إنَّه لو كان في مكان لكان مُحدَّثاً، لأنَّ الكائن في مكان محتاج إلى المكان والاحتياج من صفات المحدث لا من صفات القديم» (٤).

(١) أصول الكافي، ج ٢، ص ٤٧٩ (باب الرغبة والرجعة) ح ٢.

(٢) بحار الأنوار، ج ٣، ص ٣٠٩.

(٣) المصدر السابق، ج ٣، ص ٣١٠.

(٤) التوحيد للصدوق، ص ١٧٨، ح ١١.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٠٧

٤- سئل أمير المؤمنين عليه السلام: «أين كان ربنا قبل أن يخلق سماءً وأرضاً؟ فقال عليه السلام: (أين) سؤال عن مكان، وكان الله ولا مكان» (١).

٥- وجاء في حديث عن الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام أنه قال: «إنَّ الله تبارك وتعالى كان لم يزل بلا زمان ولا مكان وهو الآن كما كان، لا- يخلو منه مكان ولا يشغل به مكان، ولا يحل في مكان، ما يكون من نجوى ثلاثة إلَّا هو رابعهم ولا خمسة إلَّا هو سادسهم ولا- أدنى من ذلك ولا- أكثر إلَّا هو معهم اينما كانوا ليس بينه وبين خلقه حجاب غير خلقه، احتجب بغير حجاب محبوب،

واستتر بغير ستر مستور لا إله إلا هو الكبير المتعال» (٢).

تدل هذه الأحاديث بمنتهى الوضوح على أن كل من سأل الأئمة المعصومين عليهم السلام عن مكان الله، سمع رداً سليماً وتعابير متناغمة، غنية صريحة، وواضحة تدفع كل ابهام في هذا المجال عن قلوب المشتاقين.

٦- ورد في (الإرشاد) و (الاحتجاج): «أن اثنين من أبحار اليهود دخلا المدينة وسألا عن الخليفة، فأرشدوا إلى أبي بكر، فلما نظرا إليه قال: ليس هذا صاحبنا، ثم قال له: ما قرابتك من رسول الله صلى الله عليه وآله قال: إني رجل من عشيرته، وهو زوج ابنتي عائشة، قال: هل غير هذا؟ قال: لا، قال: ليست هذه بقراة، قال: فأخبرنا أين ربك؟ قال فوق سبع سموات، قال: هل غير هذا؟ قال: لا، قال: دلنا على من هو أعلم منك؟ فأنت لست بالرجل الذي نجد صفته في التوراة أنه وصى هذا النبي وخليفته! قال: فتعظ من قولهما وهم بهما، ثم أرشدهما إلى عمر، وذلك أنه عرف من عمر أنهما إن استقبلاه بشيء بطش بهما، فلما أتياه قال: ما قرابتك من هذا النبي؟ قال: أنا من عشيرته، وهو زوج ابنتي حفصة، قال: هل غير هذا؟ قال: لا، قال: ليست هذه بقراة، وليست هذه الصفة التي نجدها في التوراة! ثم قال:

فاين ربك؟ قال: فوق سبع سموات، قال: هل غير هذا؟ قال: لا، قال: دلنا على من هو أعلم منك؟ فأرشداهما إلى علي عليه السلام، فلما جاءه فنظرا إليه قال أحدهما لصاحبه: إنه الرجل

(١) توحيد الصدوق، ص ١٧٥، ح ٤.

(٢) المصدر السابق، ص ١٧٨، ح ١٢.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٠٨

الذي نجد صفته في التوراة: أنه وصى هذا النبي وخليفته وزوج ابنته وأبو السبطين والقائم بالحق من بعده، ثم قال لعل علي عليه السلام: أيها الرجل ما قرابتك من رسول الله؟ قال: هو أخي، وأنا وارثه ووصيه وأول من آمن به وأنا زوج ابنته فاطمة، قال له: هذه القراة الفاخرة والمنزلة القريبة، وهذه الصفة التي نجدها في التوراة ثم قال له: فاين ربك عز وجل؟ قال لهما علي عليه السلام: إن شئتما أنباتكما بالذي كان علي عهد نبيكما موسى عليه السلام وإن شئتما انبئتكما بالذي كان علي عهد نبينا محمد صلى الله عليه وآله، قال: أنبئنا بالذي كان علي عهد نبينا موسى عليه السلام؟ قال علي عليه السلام: أقبل أربعة أملاك: ملك من المشرق، وملك من المغرب، وملك من السماء، وملك من الأرض، فقال صاحب المشرق لصاحب المغرب: من أين أقبلت؟ قال: أقبلت من عند ربي، وقال صاحب المغرب لصاحب المشرق: من أين أقبلت؟ قال: أقبلت من عند ربي، وقال النازل من السماء للخارج من الأرض: من أين أقبلت؟ قال: أقبلت من عند ربي، وهذا ما كان علي عهد نبيكما موسى عليه السلام... قال اليهوديان: ما منع صاحبك أن يكونا جعلاك في موضعك الذي أنت أهله؟ فوالذي أنزل التوراة على موسى أنك لأنك الخليفة حقاً نجد صفتك في كتبنا ونقرأه في كنائسنا، وأنتك لأحق لهذا الأمر وأولى به ممن قد غلبك عليه، فقال علي عليه السلام: قدما وأخرا وحسابهما على الله عز وجل يوقفان ويُسالان» (١).

٧- نختم هذا البحث بجمل واضحة من نهج البلاغة عن أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام:

قال علي عليه السلام في الخطبة ١٧٨ من نهج البلاغة: «لا يغيره زمان، ولا يحويه مكان، ولا يصفه لسان».

وقال علي عليه السلام في الخطبة ١٨٦ من نهج البلاغة: «وإن الله سبحانه يعود بعد فناء الدنيا وحده، لا شيء معه، كما كان قبل ابتدائها... بلا وقت ولا مكان ولا حين ولا زمان».

وفي الخطبة ٤٩ من نهج البلاغة قال علي عليه السلام: «سبق في العلو فلا شيء أعلى منه، وقرب في الدنو فلا شيء أقرب منه، فلا استعلاؤه باعده عن شيء من خلقه، ولا قربه ساواهم في المكان به».

(١) كتاب التوحيد للصدوق، ص ١٨٠، ح ١٥.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٠٩

هذا هو ما وصلنا من المنطق الصحيح والمعارف الحقّة لأهل البيت عليهم السلام حول الله سبحانه وتعالى.

٦- تبريرات المخالفين

أثبت تاريخ العقائد الإسلاميّة بأنّ المنحرفين عن أصول الدين المعروفه كانوا يشيِّعونون بالآيات المتشابهة لإثبات مقاصدهم دون أن يلتفتوا إلى القانون الذي طرحه القرآن في هذا المجال، وهو تفسير المتشابهات في ظل المحكمات.

وقد لجأ القائلون بوجود مكان لله تعالى، والقائلون بوجود جسم له أيضاً إلى بعض الآيات المتشابهات واعتبروها كافيةً لإثبات ادعائهم بصورة منفصلة عن بقيّة الآيات القرآنيّة، إليكم أهمها:

١- «الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى . (طه / ٥)

تصور هؤلاء بأنّ (العرش) سريرٌ في أعلى السموات، يجلس الله عليه، ويصدر أوامره إلى الملائكة! فهم يتغافلون عن أنّ هذا تعبيرٌ كنايةٌ يُستعمل في الكثير من العبارات المتداولة، وهو كنايةٌ عن السلطنة والقدرة.

ويجدر التوضيح بأنّ الملوك القدماء كانوا يمتلكون نوعين من العرش:

الأول: مرتفع يطلق عليه العرب اسم (العرش)، يجلس عليه الملك في الأيام الخاصّة ذات الطابع الرسمي.

والثاني: منخفض، يأتي إليه الملك كل يوم ويجلس عليه في الحالات الطبيعيّة ليمارس عمله ويصدر أحكامه وأوامره ويدبّر أمور البلاد، ويُطلق عليه العرب (الكرسى).

واستعملت كلمتا (العرش) و (الكرسى) رويداً رويداً كرمزين وكنائين عن السلطنة، وهذا المفهوم واضح في التعابير التالية:

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢١٠

يقال: نَحَوَا الشَّخْصَ الْفُلَانِيَّ عَنْ عَرْشِهِ أَيْ سَلَبَتْ سُلْطَنَتُهُ. أَوْ فُلَانٌ قُلَّ عَرْشُهُ، أَيْ انْتَهَتْ حُكُومَتُهُ، أَوْ إِنَّ الْحَادِثَةَ الْفُلَانِيَّةَ هَزَّتْ أَرْكَانَ عَرْشِ فُلَانٍ أَيْ زَلَزَلَتْ سُلْطَنَتَهُ، وَمِنْ قَبِيلِ هَذِهِ التَّعَابِيرِ.

وعليه فعرش الله معناه العالم العلوي، وكرسيه معناه العالم السفلي، أو إنّ العرش إشارةٌ إلى عالم ما وراء الطبيعة والمجردات، والكرسى إشارةٌ إلى عالم المادّة، والشاهد على هذا الكلام آية: «وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ». (البقرة / ٢٥٥)

فعندما يكون كُرسى الله قد وسع جميع السموات والأرض فإنه يعني أنّ عرشه ما وراء السموات والأرض، أي ما وراء عالم الطبيعة «١». بناءً على ذلك فحينما يُقال: الرحمن على العرش استوى، فالمقصود منه أنّ حاكميته، ومالكيته، وسلطته شملت العالم العلوي بوسعه، والعالم السفلي بتمامه.

وهذا الأمر واضحٌ جدّاً، ويُمكن للآيات القرآنيّة التي تنفي وجود مكان لله (وأوردناها في بداية الكلام)، أن تكون خير دليلٍ على تفسير هذا الأمر.

ورد في تفسير الميزان أنّ الآية التي تلت هذه الآية (طه / ٦) تقول: «لَهُ مَآ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ، وهي قرينة واضحة لتفسيرها «٢».

وردّ الفخر الرازي في تفسيره على استدلال المشبّهة، بهذه الآية على جلوس الله على عرشه، بعشر أدلّة عقليّة ونقليّة، من جملتها: إنّ الله كان موجوداً قبل خلق العرش أو أي مكانٍ آخر، فهو لم يكن محتاجاً إلى المكان منذ الأزل، فكيف يُمكن أن يحتاج إلى مكان

بعد خلق العرش!؟

والآخر هو: لو أن الله تعالى جالس على عرشه وفقاً لتصور هذه الجماعة لاستلزم أن يكون جزء من وجوده الكائن على يمين العرش غير الجزء الموجود على يساره! ولاستلزم

(١) لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك ممياً يردف الملك، جعلوه كنايةً عن الملك فقالوا: استوى فلان على العرش يريدون ملكاً وإن لم يقعد على السرير البتة، الكشاف ج ٣، ص ٥٢.

(٢) تفسير الميزان، ج ١٤، ص ١٣١.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢١١

التركيب، والأخير يحتاج إلى الأجزاء بدوره، (وهذا محال).

والآخر هو قول القرآن عن إبراهيم عليه السلام: «لَأَأْتِيَنَّكَ مِنَ الْآفَلِينَ». (الأنعام / ٧٦)

يُشير إلى حضوره تعالى في كل مكان، فلو كان جالساً على عرشه للزم أن يكون غائباً ومختفياً دائماً، وهذا عين الأفول!

ومن جهةٍ أخرى يشير القرآن الكريم في الآية ١٧ من سورة الحاقة إلى حملة العرش من الملائكة، وبناءً على معتقد جماعة (المشبهة) يستلزم أن يكون الله بحاجة إلى ملائكة العرش ليحفظوه! في حين أن الله على كل شيء حفيظ.

علامة على كون جميع آيات التوحيد ونفى التشبيه من المحكمات، ونحن نعلم بأن ما يلزم التوحيد ونفى الكفؤ عنه تعالى هو نفى الجزئية عنه بكل ألوانها، وهذا لا يتناسب مع استقراره في مكان معين.... (ودلائل أخرى) «١».

ومن جملة الآيات التي استعان بها هؤلاء الجماعة، هي الآية ٢٢ من سورة الفجر، فبعد أن شرح سبحانه حوادث نهاية الدنيا وقيام القيامة قال: «وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا».

طبعاً، كما قال أكثر المفسرين: إن المقصود من الآية هو مجي الأمر الإلهي لمحاسبة الناس، أو حلول آيات عظمته، لأن هذه الآيات والدلائل عظيمة لدرجة بحيث وكأن مجيها يُعتبر عن مجي الذات الإلهية المقدسة وتجلو كل أنواع الريب والشك من القلوب «٢».

من هنا فقد ورد بصريح العبارة في الآيات التي قرأناها سابقاً أن الله موجود في كل مكان، ولا يخلو مكاناً من ذاته المقدسة، ولا يسعه مكان في نفس الوقت: «وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ».

مع هذا فكيف يُمكن أن ينتقل من محلٍ لآخر، كما استنتج (جماعة المشبهة) من ظاهر كلمة (جاء) منها: «وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ». (الحديد / ٤)

ومنها: «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ». (ق / ١٦)

(١) تفسير الكبير، ج ٢٢، ص ٥.

(٢) تفاسير، مجمع البيان، الميزان، القرطبي، روح الجنان وغيرها.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢١٢

ومنها: «فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ». (البقرة / ١١٥)

ومنها: «هُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ». (الزخرف / ٨٤)

كيف يُتصور انتقاله من مكانٍ لآخر؟

علاوة على أن التغيير، والزوال، والغروب، والأفول، والحاجة إلى المكان، تعتبر من لوازم الانتقال.

والشاهد على هذا التفسير، قوله تعالى: «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ». (أى الموت أو العذاب الإلهي). (النحل /

(٣٣)

ولكن تلاحظ تعابير من هذا القبيل في بعض الآيات القرآنية أيضاً مثل: «إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ». (فاطر / ١٠)

و: «تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ». (المعارج / ٤)

و: «لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ». (الحج / ٣٧)

ومن المسلم به أن جميع هذه التعابير تُشير إلى الصعود المعنوي، والعروج الروحي، والقرب الباطني، بقرائن نفس الآيات، لأن العمل ليس بالشيء الذي يصعد إلى السموات الظاهرية، وكذلك التقوى ليس لها عروج جسماني، (تأمل جيداً).

لكن الذين لا ينتبهون إلى هذه الحقائق ويتقيدون بالألفاظ فقط يسلكون طريق الخرافات ظناً بأنهم يرون الحقيقة.

وقد وردت تعابير في بعض الآيات أيضاً تبيّن في الواقع عقيدة الكافرين، لكن الجهلاء اتخذوها مبرراً للقول بوجود جسم ومكان لله تعالى من دون الإنتباه إلى ذلك، فمثلاً نقرأ في قوله تعالى: «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْعَمَامِ وَالْمَلَائِكَةِ». (البقرة /

(٢١٠

ما أسخفه من مُعتقد وتصوّر ساذج).

وعليه فإن الإستفهام الموجود في الآية هو بالحقيقة استفهام إستنكاري، أي عدم إمكانية تحقق مثل هذا الشيء «١».

(١) فسّر بعض المفسّرين الاستفهام الموجود في الآية بأنه استفهام تحذيري، وقدّروا كلمه (أمر) محذوفه كما مرّ في بعض الآيات السابقة، وقالوا: إن على هذه الجماعة من الكفار أن ينتظروا مجي أمر الله بالعذاب ومجي ملائكة الحساب لمحاسبتهم.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢١٣

وخلاصة الكلام هو أن وضوح تفسير مثل هذه الآيات موقوف على قليل من الدقة، والرجوع إلى الآيات المحكمات بالنسبة إلى نفى الجسم، والمكان، والزمان لله سبحانه وتعالى، فلا يبقى محل للاشتباه والشك والريب.

٧- المتصوفة ومسألة الحلول

قال العلامة الحلّي رحمه الله في كتاب نهج الحق: «إنّ اتحاد الله مع غيره بحيث يصيران شيئاً واحداً باطل، بل وبطلانه يُعَدُّ من البدييات»، ثم أضاف قائلاً: رفض جماعة من متصوفة أهل السنة هذه الحقيقة وقالوا: إنّ الله يتحد مع بدن العرفاء ويصيرا شيئاً واحداً!! وحتى قال بعضهم: الله عين الموجودات وكل موجود هو الله، إشارة إلى مسأله وحده الوجود المصادقية، ثم قال: هذا عين الكفر والإلحاد، والحمد لله الذي أبعدنا عن أصحاب هذه العقائد الباطلة بركة الإلتزام بمذهب أئمة أهل البيت عليهم السلام.

وقال في بحث الحلول: من المسائل المسلم بها أنّ أيّ موجود يريد أن يحلّ في آخر يحتاج إلى مكان، ولأنّ الله واجب الوجود ولا يحتاج إلى شيء، إذن فحلوله في الأشياء مُحال.

ثم أضاف قائلاً: «رفض متصوفة أهل السنة هذه المسألة واعتقدوا بإمكانية حلول الله في بدن العرفاء»، ثم ذمّ هذه الجماعة بشدة وقال: ولقد شاهدت جماعة من الصوفية في حضرة الإمام الحسين عليه السلام وقد صلّوا صلاة المغرب سوى شخص واحد منهم كان جالساً لم يُصلّ، ثم صلّوا بعد ساعة صلاة العشاء سوى ذلك الشخص الذي ظلّ جالساً!!

فسألْتُ بعضهم عن ترك صلاة ذلك الشخص فقال: ما حاجة هذا إلى الصلاة وقد وصل! أفهل يجوز أن يجعل بينه وبين الله تعالى حاجباً؟ فقلت: لا، فقال: الصلاة حاجب بين العبد وربّه! «١».

(١) نهج الحق، ص ٥٨ و ٥٩.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢١٤

وقد ورد نفس هذا المفهوم في مقدمة الدفتر الخامس لكتاب المثنوى بنحو آخر، يقول:

«يصح ذلك إذا بلغت المقصود، لذا فقد قالوا: لو ظهرت الحقائق بطلت الشرائع!، وشبه الشريعة بعلم الكيمياء (العلم الذي يمكن بواسطته استخلاص الذهب من النحاس) فقال:

ما حاجة الذهب الأصيل، أو الذهب المستخلص إلى علم الكيمياء؟! فكما قالوا: طلب الدليل بعد الوصول إلى المدلول قبيح! «١».

وقد نُقلَ عن (صاحب المواقف) في كتاب (دلائل الصدق) في شرح (نهج الحق) قوله بأن نفي (الحلول) و (الإتحاد) ثلاث طوائف، واعتبر بعض المتصوفة من الجماعة الثانية وقال: إن كلامهم متذبذب بين الحلول والإتحاد (يقصد بالحلول نفوذ الله في الأشياء ويُقصد بالإتحاد الوحدة بينه وبين الأشياء).

ثم أضاف قائلاً: رأيتُ بعض (المتصوفة الوجوديين) يُنكرون الحلول والإتحاد، ويقولون: توحى هاتان الكلمتان بمغايرة الله للمخلوقين، ونحن لا نؤمن بذلك! فنحن نقول:

(ليس في دار الوجود غيره ديار)!!

وهنا يقول صاحب المواقف: إن هذا العذر أقبح من الذنب «٢».

وبالطبع فإن للمتصوفة الكثير من قبيل هذا الكلام الذي لا يتناسب مع الموازين ومنطق العقل، ولا مع منطق الشرع.

وعلى أيّة حال فإنّ الأتحاد الحقيقي بين شيئين محال، كما ورد في كلام المرحوم العلامة، لأنّ هذا الكلام عين التّضاد، فكيف يُمكن لشيئين أن يصيرا شيئاً واحداً، إضافةً إلى ذلك فلو اعتقد أحدٌ باتحاد الله مع جميع المخلوقات أو خواص العرفاء والواصلين، لاستلزم أن يتصف بصفات الممكنات كالزمان، والمكان، والتغيّر، وما شاكل ذلك.

وأما بخصوص (الحلول)، أي نفوذ الله في الأشياء، فيستلزم خضوعه للمكان، وهذا

(١) دفتر المثنوى الخامس، ص ٨١٨.

(٢) دلائل الصدوق، ج ١، ص ١٣٧.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢١٥

شيء لا يتناسب أبداً مع وجود وجود الله سبحانه وتعالى «١».

والخلاصة أنّ الصوفيين يعتقدون بعدم إمكانية إثبات مثل هذه الإدعاءات بالأدلة العقلية، وغالباً ما يفصلون طريقهم عن طريق العقل، ويستعينون بسلسلة من المسائل الذوقية الخيالية التي يسمونها (طريق القلب)، ومن المسلم به أنّه لا يمكن التوقّع ممن يرفض منطق العقل سوى هذا الكلام المتناقض.

ولذلك فقد ابتعد عنهم كبار العلماء وطردهم دائماً وفي جميع العصور.

فالقرآن الكريم يستند في الكثير من آياته إلى العقل والبرهان ويعدهما طريقاً لمعرفة الله.

وبهذا الكلام، وبالبحوث التي أوردناها بصدد (نفي الشريك والشبه)، و (نفي الصفات الزائدة عن الذات الإلهية المقدسة)، نصل إلى نهاية بحث (صفات جلال الله) بصورة كليّة وأساسية، وقد انضحت لنا جزئياته في ظل الأصول التي ذُكرت، بصورة جيدة.

ولنبحث الآن صفات الفعل الإلهي بعونه تعالى.

(١) يجدر الانتباه إلى أنّ نفس هذا المفهوم بخصوص بطلان الحلول والإتحاد قد ورد في شرح تجريد العقائد للعلامة الحلّي باستدلال

مفصل. (كشف المراد، ص ٢٢٧، باب أنه تعالى ليس بحال في غيره ونفى الإتحاد عنه).

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢١٧

٢- صفات فعل الله

إشارة

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢١٩

تمهيد:

إشارة

يُعد تقسيم صفات الله إلى صفات الذات وصفات الفعل من أشهر تقسيمات بحث الصفات، وقد ذكرنا ذلك سابقاً. ف (صفات الذات) وهي الصفات التي هي نفس الذات الإلهية المقدسة كانت ثابتة لله حتى قبل صدور الأفعال منه تعالى، كأزليته وأبديته وعلمه وسلطانه.

أما (صفات الفعل) فهي الصفات التي تُطلق عليه بملاحظة صدور فعل معين من ذاته المقدسة كالخالق والرازق، فمن المسلم أن هذه الصفة لم تكن تُطلق عليه قبل أن يخلق مخلوقاً ويرزقه، وبالطبع فقد كانت له القدرة على الخلق والرزق، إلّا أنّ صفة الخالق والرازق لم تكن تصدق عليه.

وعليه فصفات الفعل حادثه، وهي ليست نفس ذات الله طبعاً، وبالْحَقِيقَةُ هي مفاهيم موجودة في أذهاننا. فما هو موجود في الخارج هو الذات الإلهية المقدسة والأفعال الإلهية، وعندما نلاحظ صدور هذه الأفعال من الذات المقدسة ننتزع هذه الصفات في أذهاننا- بتعبير علمائنا الكبار- ونقول هو الخالق والرازق والمحى والمميت، (وسنوضح ذلك فيما بعد).

ولأنّ أفعال الله غير محدودة، فإنّ صفاته الفعلية غير محدودة كذلك. أمّا أهم الصفات الفعلية التي وصف القرآن الكريم الذات الإلهية المقدسة بها والتي لها آثار تربوية عميقة جداً على حياة البشر علاوة على اكمال معرفتهم بالله، وكلّ منها تهدي الإنسان وتعيّنه على سلوك مراحل تكامل الصفات الإنسانية، هي مايلي: ١- الخالق، ٢- الخلاق، ٣- أحسن الخالقين، ٤- الفاطر، ٥- الباري، ٦- الفالق، ٧- البديع، ٨- المصور، ٩- المالك، ١٠- الملك، ١١- الحاكم، ١٢- الحكيم، ١٣- الرب، ١٤- الولي، ١٥- الوالي، ١٦- المولى

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٢٠

١٧- الحافظ، ١٨- الحفيظ، ١٩- الرقيب، ٢٠- المهيمن، ٢١- الرازق، ٢٢- الرزاق، ٢٣- الكريم، ٢٤- الحميد، ٢٥- الفتاح، ٢٦- الرحمن، ٢٧- الرحيم، ٢٨- ارحم الراحمين، ٢٩- الودود، ٣٠- الرؤوف، ٣١- اللطيف، ٣٢- الحفي، ٣٣- الغافر، ٣٤- الغفور، ٣٥- الغفار، ٣٦- العفو، ٣٧- التّواب، ٣٨- الجبار، ٣٩- الشكور، ٤٠- الشاكر، ٤١- الشفيع، ٤٢- الوكيل، ٤٣- الكافي، ٤٤- الحسيب، ٤٥- سريع الحساب، ٤٦- اسرع الحاسبين، ٤٧- سريع العقاب، ٤٨- شديد العقاب، ٤٩- النصير، ٥٠- نعم النصير، ٥١- خير النصيرين، ٥٢- القاهر، ٥٣- القهار، ٥٤- الغالب، ٥٥- السلام، ٥٦- المؤمن، ٥٧- المحي، ٥٨- الشهيد، ٥٩- الهادي و ٦٠- الخير.

ويجدر الإنتباه أيضاً إلى هذه المسألة وهي: إنّ الصفات الستين المذكورة أعلاه والتي وردت في الآيات القرآنية المختلفة ذات مفاهيم قريبة من بعضها، لذا سنبحث كل مجموعة متقاربة في فصلٍ خاص.

وهناك بعض الصفات أيضاً ذات مفهومين متفاوتين، تبعاً لإرجاعها إلى (صفات الذات) و (صفات الفعل) كما سنتطرق إلى ذلك في قسم التوضيحات إن شاء الله.

١- الخالق ٢- الخالق ٣- أحسن الخالقين

إشارة

وردت هذه الصفات في آيات قرآنية عديدة وفي حالات مختلفة:

١- «قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ». (الرعد / ١٦)

فالآية أعلاه تشير إلى خلق جميع موجودات عالم الوجود.

٢- «إِنِّي خَالِقُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ». (ص / ٧١)

تشير هذه الآية إلى خلق الإنسان- الذي يعتبر أفضل مافي عالم الوجود- من موجودٍ حقير كالطين.

٣- «هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ». (الحشر / ٢٤)

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٢١

استعملت صفة الخالقية هنا بصورتها المطلقة، ولم يذكر أي اسم من المخلوقات.

٤- «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ». (الحجر / ٨٦)

أشارت الآية إلى الخلق الإلهي الواسع والمنتوع.

٥- «ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ». (المؤمنون / ١٤)

وهنا إشارة إلى أهم وأرفع مخلوقات الله، أي الإنسان، وذلك في مرحلة نفخ الروح، لذا فقد وُصِفَ الباري هنا بصفة أحسن الخالقين.

توضيح وبلاغ:

إن كلمة (الخالق) مشتقة من مادة (خَلَقَ) وهي في الأصل بمعنى (القياس المباشر) و (الإيجاد والإبداع لأول مرة) «١».

وأرجعها بعض أرباب اللغة إلى أصلين: الأول هو المعنى الذي ذكرناه أعلاه، والثاني هو بمعنى الإستواء والتسطح «٢».

قال في مقاييس اللغة: وأما الأصل الثاني فصخرة خلقاء أي ملساء ويقال: اخلوق السحاب أي استوى

ولكن لا يُستبعد صدور المعنيين من أصل واحد، وهو القياس والتنظيم والإبداع.

وعلى أي حال فالفرق شاسع ما بين تعبير الخالقية الذي قد يُستعمل أحياناً بالنسبة إلى العباد، وبين تعبير الخالقية الذي يُستعمل بالنسبة

إلى الله تعالى، والمشمول أيضاً بتعبير أحسن الخالقين، بل يصدق تعبير (الخلق) بمعناه الحقيقي بالنسبة إلى الله فقط الذي يوجد

الموجودات من العدم دون وجود أي أثر مُسبق، في حين لو ابتدع الإنسان أثراً صناعياً أو فنياً أو معمارياً فإنما هو نتيجة تركيب ومزج

مواد مختلفة مأخوذة من عالم الطبيعة،

(١) مفردات الراغب الأصفهاني.

(٢) مقاييس اللغة.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٢٢

فيصنعها بأشكال كان قد رآها من قبل في عالم الوجود (أو يركب أشكالاً مختلفة سوية)، وعليه، فلا المادة من ابداعه ولا شكلها.

ويجب الالتفات إلى كون صفة (الخالق) أو (الخالق) من أوسع صفات الفعل الإلهي، والتي تشمل جميع عالم الوجود بأكمله، ومظهره السماء والأرض وعالم المادة وما وراء المادة.

وخلق الله يُعَدُّ من أعظم الآيات الدالة على وجوده، لأننا أينما نحط رحالنا نشاهد نماذج من خلقه ومخلوقاته التي تدل على وجوده. ولذلك فكل واحد من الصفات الإلهية تحمل في معناها بلاغاً للناس، وهذا أحد الأهداف المهمة من طرحها في القرآن الكريم الذي هو كتاب معرفة وتربية، إذ تقول هذه الصفة للإنسان: إن آثار الموجودات دليل على وجود الله، كأن تخرع أو تصنع شيئاً من الآثار العلمية والاجتماعية وما شاكلها. فإن لم تترك أثراً من عندك فإنك لا تمتلك أي شيء مع تلك الذات الإلهية الفريدة، ولم تتخلق بأخلاقه، ولم تتوفق لسلوك طريق القرب منه تعالى. حاول أنت أيضاً أن تصنع آثاراً وتشتير بهذه الصفة الإلهية البارزة.

٤- الفاطر ٥- الباري ٦- الخالق ٧- البديع ٨- المصور

إن الصفات الخمس المذكورة أعلاه هي بالحقيقة مشابهة لصفة (الخالق)، لكنها ممزوجة مع مفاهيم ومعانٍ ومسائل جديدة، لنتمعن خاشعين في الآيات التالية:

١- «فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ». «١» (يوسف / ١٠١)

(١) ورد هذا التعبير في ست آيات من القرآن الكريم: الأنعام، ٤؛ إبراهيم، ١٠؛ فاطر، ١؛ الزمر، ٤٦؛ الشورى، ١١؛ والآية الواردة في البحث.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٢٣

٢- «هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ». «١» (الحشر / ٢٤)

٣- «إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى». (الأنعام / ٩٥)

٤- «فَالِقُ الْبُصْبَاحِ». (الأنعام / ٩٦)

٥- «بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ». «٢» (الأنعام / ١٠١)

توضيح وبلاغ:

إن كلمة (فاطر) مشتقة من مادة (فَطَرَ) (على وزن سَطَرَ)، وتعني الإنفطار أو (الإنفطار الطولي)، كما ورد في الآية: «إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ». (الإنفطار / ١)

وقد وردت هذه الكلمة أيضاً بمعنى حَلْبِ الشاة، وإفطار الصوم، وابتداع وإيجاد شيء لأول مرة وقد يراد بها انفطار حجاب ظلمات العدم ودخول الموجود إلى عالم الوجود.

وجاءت كلمة (الباري) من مادة (بَرَى) (على وزن قَفَلَ) وهي في الأصل بمعنى الشفاء من مرض أو التخلص من الأمور غير المرضية، وأطلقت فيما بعد على الخالق الذي يوجد الأشياء دون نقيضه أو خلل وبصورة موزونة تماماً.

ويعتبرها البعض بأنها مشتقة من مادة (بَرَى) أي برى الخشب، ومن الواضح أن المقصود من برى الخشب هو صقله وتعديله وموازنة أضلاعه، وهذا ما يصدق تماماً بالنسبة إلى الخالق الحكيم لأنه يخلق كل شيء بصورة موزونة.

وصرح البعض الآخر أيضاً بأنّ (البارى) معناها مَنْ يُوجِد الأشياء دون أن يكون لها نموذج سابق. و (الفالق) من مادّة (فلق) على وزن (خلق) ومعناه: فلق الشىء وفصل جزءٍ عن آخر، ويستعمل هذا التعبير فى فلق النباتات (إنباتها) إذ ينفلق قشرُ بذورها ونواها بأمر البارى

(١) ورد هذا الوصف فى الآية ٥٤ من سورة البقرة أيضاً.

(٢) ورد نفس هذا التعبير فى الآية ١١٧ من سورة البقرة.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٢٤

تعالى على الرغم من استحكامها وشمكها، وتخرج براعم لطيفة وظريفة جداً من ذلك الخفاء! وبالحقيقة أنّ انفلاق بذور النباتات أثناء تفتحها يُعدُّ من أدق وأجمل لحظات وجود النبات وتشبه بالضبط لحظة خروج الإنسان من بطن أمه، وهذه اللحظة الحساسة تُعد من عجائب قدرة الله، إنّها لحظة التحول والتغيّر الشكلى والانتقال من عالم إلى عالم آخر. ماهذه القوة التى تمنح هذا البرعم الظريف جداً القوة على اختراق جدار النواة المحكم ليبرز منتصباً من ذلك المهّد، ويخرج من ظلمات رحم أمه إلى عالم الظهور؟!

وكلمة (بديع) من مادّة (بدع) على وزن (منع)، وكما أشرنا سابقاً فهى بالأصل بمعنى إيجاد الشىء دون وجود نموذج سابق، لذا يُطلق على البئر المحفور حديثاً (بديع)، وعلى الأعمال والشئنى التى لا سابقة لها (بدعة). وعندما تُستعمل هذه الكلمة بالنسبة إلى البارى فإنّها تعنى إيجاد الشىء دون الحاجة إلى الآلات والمكان والزمان، وهى تصدق فقط بحقه سبحانه.

وكلمة (بديع) صفةٌ مشبهةٌ تدلّ على ثبوت واستمرار هذه الصفة لتلك الذات المقدّسة «١».

وجاءت كلمة (مصوّر) من مادّة (صورة)، بمعنى رسم وشكل الشىء، وجمعها (صُور) وهى على نوعين: (الصورة المحسوسة) كصورة الإنسان والحيوانات والموجودات الماديّة الأخرى، و (الصورة المعقولة) وهى التصورات العقليّة والفكريّة والمفاهيم الخاصّة بكل شىء.

وتستعمل كلمة (المصوّر) بخصوص البارى سبحانه وتعالى عندما يُراد الإشارة إلى الصور التى وهبها للموجودات المختلفة. إلّا أنّ بعض أرباب اللغة يعتقد بأنّ هذه الكلمة تعنى فى لغة العرب التغيّر والتحوير، و (الصورة) بمعنى (الشكل والهيئة)، مأخوذة من الأصل العبرى (صواه).

(١) المفردات؛ لسان العرب؛ التحقيق؛ ومقاييس اللغة (وقد ذُكر فى مقاييس اللغة مفهوم آخر لها وهو الإنقطاع والتعب).

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٢٥

توضيح وبلاغ:

يُستنتج جيداً من مجموع ما ذكر أنّ صفات (الفاطر)، (البارى)، (البديع) تشير جميعاً إلى خلق الشىء بلا أى سابقة إلّا أنّ هذا المعنى أكثر وضوحاً وبيانياً فى بعض الكلمات، وأقلّ بيانياً فى بعضها الآخر، وعلى أيّة حال فهو يدلّ على أهميّة هذه النقطة وهى خلق الله بالقياس مع ما يقوم به بعض بنى البشر، والتى قد يُطلق عليها مصطلح (الخلق) مجازاً، علاوةً على سعتها الخارقة، وعدم محدوديتها من حيث كون المادّة والشكل فى جميع مخلوقات الله غير مسبوقه بحدّث مُسبق.

لذلك لا يُمكن قياسها إطلاقاً مع تغيير الأشكال التي يُمارسها الإنسان في مواد هذا العالم والمسبوقة بعمل مُسبق. بل إن كلمة (الخلق) بمفهومها الحقيقي لاتصدق أبداً بالنسبة لأعمال البشر.

نقل المرحوم الكفعمي في المصباح عن الغزالي حول تفسير الأسماء الحسنی، بأن البعض اعتقد بأن ألفاظ (الخالق) و (البارئ) و (المصور) ألفاظ مترادفة، وتعني جميعها (الخلق) و (الإبداع) في حين أنها ليست كذلك، بل الأشياء المخلوقة من العدم ذات ثلاث مراحل: (التقدير) و (الإيجاد) و (التصوير)، ثم ضرب مثلاً حول هذا المفهوم فقال: يلزم، لإحداث عمارة مرموقة، أن يرسم خارتها مهندسٌ قدير، ثم يُشيدُها البناء، وبعد ذلك يزيئها الصباغ وأرباب النقوش الماهرون. وعلى هذا فكلمة (الخالق) تُشير إلى المعنى الأول، في حين أن (البارئ) تُشير إلى المعنى الثاني و (المصور) إلى المعنى الثالث «١». وعلى أية حال فالبلوغ الذي تحمله هذه الصفات الإلهية في طياتها يشبه ما بيناه في الصفات السابقة، إضافةً إلى الخصوصيات الموجودة في صفات بحثنا هذه.

(١) مصباح الكفعمي، ص ٣١٩.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٢٦

٩- المالك ١٠- الملك ١١- الحاكم ١٢- الحكيم ١٣- الرب

إن لهذه الصفات الإلهية الفعلية الأربع مفهوماً واسعاً جداً يشمل جميع الموجودات في العالم، وتأتي بعد الخلق والإيجاد من حيث التسلسل المنطقي، لذا فقد صممنا أن نبحثها بعد أن بحثنا خلق الله، بعد أن نعمن خاشعين في الآيات التالية.

١- «قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمَلِكِ». (آل عمران / ٢٦)

٢- «مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» «١». (الحمد / ٤) ٣- «فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ» «٢». (طه / ١١٤)

٤- «.... وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ» «٣». (الأعراف / ٨٧)

٥- «قُلْ أَعْيَبَ اللَّهُ رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ» «٤». (الأنعام / ١٦٤)

٦- «فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» «٥». (البقرة / ٢٠٩)

توضيح وبلاغ:

إن كلمة (مَلِك) و (مَالِك) و (مَلِك) و (مَلِك) جميعها مشتقة من مادة (مَلِك)، وكما قال صاحب مقاييس اللغة: فهي تدل بالأصل على القوة والسلطة، أُطلقت هذه الصفات على الأثرياء والحكام والسلاطين لتمتعهم بالقوة والسلطة. يقول الراغب في مفرداته: تُطلق كلمة (مَلِك) على الذي يتصرف في عامة الناس عن طريق الأمر والنهي. وتطلق كلمة (مَلِك) عادةً في الملكية السياسية، و (مالك) في المسائل المائية، وقال

(١) تكررت كلمة مالك ثلاث مرّات فقط في القرآن، إثنان منها تخص البارئ تعالى ومرة تخص (مالكاً) ملك النار.

(٢) وردت كلمة «ملك» في القرآن إحدى عشرة مرّة، خمس منها في وصف الله (طه، ١١٤؛ المؤمنون، ١١٦؛ الحشر، ٢٣؛ الجمعة، ١؛ الناس، ٢).

(٣) وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم خمس مرات فقط جميعها في وصف الباري تعالى، (الأعراف، ٨٧؛ يونس، ١٠٩؛ هود، ٤٥؛ يوسف، ٨٠؛ التين، ٨).

(٤) تكررت كلمة «رب» في القرآن الكريم أكثر من تسعمائة مرة وهذا يدل على الأهمية الفائقة لهذه الصفة الإلهية!

(٥) تكررت هذه الكلمة في القرآن لمئة مرة تقريباً، أغلبها لوصف الله سبحانه وتعالى.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٢٧

البعض: بأنّ (الملك) اشمل من (المالك) لأنّ مالك الشىء حاكمٌ وملكٌ عليه، ولكن ليس كلّ مالك يكون ملكاً «١».

وقال البعض أيضاً: إنّ (المالك) مخيرٌ ليعمل ما يشاء في ملكه: في حين أنّ (الملك) لا يمتلك مطلق الخيار في تصرفاته.

علاوةً على عدم استطاعة المملوك التمرد على مالكيه، في حين أنّ الرعيّة يستطيعون الخروج على حكومتهم (ملكهم)

«٢»

بالطبع عندما تُستعمل هاتان الكلمتان كصفتين لله فإتّما يُراد منهما الإشارة إلى المصداق الأتم والأكمل، وبكلمة واحدة الإشارة إلى مصداقهما الوحيد وهو الله تعالى لذلك فحينما يصلّ المرحوم (الكفعمي) - في كتاب (المصباح) - إلى كلمة (ملك) يقول: هو التام الملك، الجامع لأصناف المملوكات، وله مطلق التصرف والأمر والنهي فيما يريد من مأموريه، هو الغني عن جميع الموجودات في ذاته وصفاته، وتحتاج إليه جميع الموجودات في ذاتها وصفاتها «٣».

وتجدر الإشارة إلى هذه النقطة أيضاً، وهي: أنّ المالكية والحاكمية وليدة الخلق، ولأنّ (الخالق) بمعناه الحقيقي في عالم الوجود هو الله وحده (فالمالك الأصلي) هو أيضاً، وإطلاق كلمة (مالك) و (ملك) على غيره له صبغة كناية من هذه الناحية.

و (الحاكم) من مادة (حكم) طبقاً لما قاله صاحب مقاييس اللغة: وهي في الأصل بمعنى (المنع)، وقبل كل شىء (المنع من الظلم)، وإنّما يُسمى (الحكيم) بهذا الاسم لامتلاكه قوة رادعة تحجبه عن الخطايا والمعاصي.

والسر في وصف الله بهذه الصفة هو منعه ونهيه جميع الموجودات عن الأعمال السيئة سواءً في عالم التكوين أم في عالم التشريع.

وتعتبر كلمة (حكيم) من صفات الذات من حيث حكايتها عن علم الله، ومن صفات

(١) تفسير مجمع البيان، ج ١، ص ٢٣.

(٢) نقل هذا الاختلاف بين مصطلح (الملك) و (المالك) الفخر الرازي في تفسيره، ج ١، ص ٢٣٧، عن بعض المصادر.

(٣) مصباح الكفعمي، ص ٣١٨.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٢٨

الفعل من حيث إشارتها إلى خلق موجودات الوجود على أساس تنظيم وترتيب خاص، وتشريع القوانين وفق مصالح كاملة ومُتقنة.

وقد ورد في كتاب التحقيق: أنّ الفرق بين (الحاكم) و (الحكيم) و (الحكم) ينشأ من الاختلافات الموجودة بين مشتقات هذه الكلمات، فالحكيم تعني من هو ثابت الحكم والحاكم هو من يصدر منه الحكم، والحكم ذو معنى مشابه مع ثبات أكثر.

يقول ابن الأثير في النهاية: (الحكم) و (الحكيم) في أسماء الله تعني (الحاكم)، ثم ذكر لها عدة معانٍ منها الذي يوجد الأشياء بأحسن وجه، والذي يعلم بأفضل الأشياء على أفضل وجه، والذي يمنع عن الأعمال السيئة - وخاصةً الظلم -.

وكما أشرنا سابقاً فإنّ كلمة (رب) ذات مفهوم أصلي واحد، وسلسلة من اللوازم والأغصان والأوراق (الفروع)، لهذا فهي لها حالات استعمال كثيرة.

فكما ورد في المفردات فإنّ مفهومها الأصلي هو (التربية) والسُّوق نحو الكمال، ولأنّ هذا العمل رافقه مفاهيم أخرى، كالإصلاح،

والتدبير، والمالكية، والحكومة، والسيادة، والتعليم، والتغذية، فإنها تُطلق أيضاً على أى واحدٍ من هذه المفاهيم. وقد ورد في (لسان العرب) أنّ كلمة (الرب) علاوةً على إطلاقها على الذات الإلهية المقدسة، فإنها تأتي أيضاً بمعنى: المالك، السيد، المدبر، المربي، القيم، والمنعم.

وقد ورد في مصباح الكفعمي أيضاً أنّ كلمة (رب) تعني في الأصل التربية والسوق التدريجي نحو الكمال، ثم استعمل هذا المعنى المصدرى للمبالغة في المعنى الوصفي.

وبعد ذلك ذكر لها أربعة آراء حول مفهومها الأصلي هي: المالك، السيد، المدبر، والمربي، واستعان بأمثلة منها: ربّ الدار: «أمّا أحدكم كما فيسقي ربه خمراً». (يوسف / ٤١)

و (ربانيون) و (ربائب) - أى ابن الزوجة من رجلٍ آخر -.

والذي نستخلصه مما تقدم أنّ كل هذه المعاني لها علاقة بمفهوم «التربية».

اتضح من مجموع ما ورد أعلاه أن هذه الصفات الخمس (الملك) و (المالك)، و (الحاكم)،

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٢٩

و (الحكيم) و (الرب)، التي هي بأجمعها صفات فعلية ماعدا «الحكيم» التي يُمكن اعتبارها من صفات الفعل و صفات الذات أيضاً (كالعالم). وهي ذات مفاهيم قريبة من بعضها ومتلازمة مع بعضها تقريباً ولا تنفصل (ربوبية الله) عن (ملكه) و (حكيمه) وقد امتزجت مالكيته وحاكميته مع ربوبيته.

إنّ الإيمان والتفكير بهذه الصفات بمثابة إشارات وتجليات لها آثار تربوية كبيرة على نفس الإنسان بالطبع بعد التعرف على المعنى الحقيقي لهذه الصفات والتي، تخص الذات الإلهية المقدسة، فإيماني بمالكية الله يبعث على الشعور بأنني أمينٌ على اموالي وينبغي عليّ التصرف فيها وفق أوامر مالكيها الأصلي.

والإيمان بحاكمية الله يمنعني من الخضوع لسلطة الظالمين والطواغيت.

والإيمان بربوية الله يمنعني عن سواه، واعتبر جميع العالم من نفحاته، وآراه منقاداً لأوامره تعالى، وبالتالي فإنّ هذا الإيمان يمنعني من السقوط في دوامة عبودية المخلوقات.

١٤- الولى ١٥- الوالى ١٦- المولى ١٧- الحافظ ١٨- الحفيظ ١٩- الرقيب ٢٠- المهيمن

إنّ الصفات المذكورة أعلاه ذات مفاهيم مهمّة ومتقاربة وجميعها من صفات الفعل، لذا فقد بحثناها في محلّ واحد ليتضح ويكتمل تفسيرها في ظل بعضها البعض، وفي الواقع أنّ هذه المجموعة هي من الصفات الخالقية والربوبية.

وقد أشار القرآن الكريم إلى جميع هذه الصفات (حيث ذكرت أحيانا مرّة واحدة وأحياناً أخرى عدّة مرّات) والآن لتأمل خاشعين في الآيات التالية:

١- «أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ». (الشورى ٩)

٢- «وَمَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ». (الرعد / ١١)

٣- «بَلِ اللّٰهُ مَوْلَاكُمْ». (آل عمران / ١٥٠)

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٣٠

٤- «قَالَ اللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ». (يوسف / ٦٤)

٥- «إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ». (هود / ٥٧)

٦- «وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا». (الأحزاب / ٥٢)

٧- «هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ». (الحشر / ٢٣)

توضيح وبلاغ:

«الولى»: من (الولاء)، بالأصل بمعنى استقرار شيئين إلى جوار بعضهما، وتأتى بمعنى القرب، سواءً من حيث المكان أم القرابة النسبية، أم من حيث الدين والصدقة والنصرة والإعتقاد.

هذا ما صرح به الراغب فى مفرداته، وأضاف: (الولاية) بكسر الواو تعنى المساعدة والنصرة (والولاية) بفتح الواو تعنى تدبير الأمور «١». وقد اعتبر صاحب مقاييس اللغة أيضاً أن أصل هذه الكلمة يعود إلى مفهوم القرب، وفسّر صاحب كتاب لسان العرب أيضاً كلمة (ولى) بمعنى الناصر والمتولى لأمور العالم والخلائق.

وعلى أية حال، فهذه الكلمة معانٍ كثيرة، لكنها عندما تُستعمل بخصوص الله تعالى لا ريب فى أنها تعنى الولاية وتدبير أمور العالم ونصرة العباد ومؤازرتهم.

وكلمة (مولى) مشتقة أيضاً من هذه المادة، وذُكرت لها معانٍ كثيرة تعود جميعها إلى الأصل الذى ذكرناه أعلاه (وهو القرب).

وقد ذكر المرحوم العلامة الأمينى رحمه الله - لهذه الكلمة - سبعاً وعشرين معنىً مختلفاً

(١) ذكر المرحوم الكفعمى فى المصباح عكس هذا، وكذلك ابن الأثير فى النهاية، فقد ذكر أن الولاية تعنى تصدى إدارة الأمور، والولاية بمعنى النصرة والمساعدة، ولا يُستبعد أن يكون هنالك خطأ فى نقل كتاب المفردات.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٣١

مستخلصاً من كتب اللغة وموارد استعمالها «١».

وكذلك فقد ذكر ابن الأثير فى النهاية ستة عشر معنىً لها.

وصرح فى إحدى عباراته: بأن (مولى) تعنى (ولى)، واستشهد فى ذلك بقول عمر لعلى عليه السلام: (أصبحت مولى كل مؤمن).

وأضاف قائلاً: قال جماعة بأن سبب هذا الأمر هو قول أسامة لعلى عليه السلام: أنت لست بمولاي! بل مولاي رسول الله صلى الله عليه وآله، فسمع الرسول هذا الكلام فقال: «من كنت مولاه فعلىّ مولاه» «٢».

ومما ذكرناه يتضح أن معنى كلمة (والى) أيضاً والتي هى اسم فاعل من هذه المادة.

لهذا فالله (ولئى) و (مولى) و (والى) فى نفس الوقت، فهو مدبّر أمورنا ومخيّر فيها وحاكماً وناصرنا، وهكذا شأنه مع بقية موجودات عالم الوجود.

وكلمة (حافظ) مشتقة من مادة (حفظ) وهى ذات معنى مشهور وواضح، وهو الحفظ، وقال الراغب: إنها تعنى رعاية ومراقبة شىء معين، لذلك يُطلق على حالة كظم الغضب (حفيظة) لأنها تستلزم أن يهتم الإنسان بمراقبة نفسه.

وقد ورد تعبير جامع حول هذا المجال فى كتاب التحقيق:

وتعطى كلمة حفظ معانٍ مختلفة تبعاً لاختلاف الموارد والموضوعات على الرغم من كون أصلها واحد، فقد يُقال: حفظَ المال، أى من التلف، وحفظَ الأمانة، أى من الخيانة، وحفظَ الصلاة، أى من القوت، وحفظَ فلاناً، أى رعاه، وحفظَ يمينه وعهده، أى من مخالفته، وحفظَ الأمر الفلانى، أى أودعه فى ذهنه (بحيث لا ينساه) ... «٣».

- (١) من معانيها رب، عم وأولاد العم، ولد، ابن الأخت، مطلق سراح العبد، مالك، تابع، المنعم عليه، شريك، زوج، صاحب، جار، ضيف، زوج البنت، قريب، مُنعم، عقيد، ولي، أولى، سيد، صديق، ناصر، المتصرف في الأمور، مدبر الأمور. الغدير، ج ١، ص ٣٦٢.
- (٢) نهاية ابن الأثير، ج ٥، ص ٢٢٨، مادة (ولى).
- (٣) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، مادة (حفظ).

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٣٢

ومن هنا يتضح معنى كلمة (حافظ) أيضاً، وتعتبر كلمة (حفيظ) التي هي صفة مشبهة أبلغ معنى وأكثر ثباتاً من كلمة (حافظ) التي هي اسم فاعل.

وعلى أئمة حال، فعندما تختص هذه الصفة بالله تعالى فإنها تُعطى معنىً واسعاً يشمل حفظ الله ورعايته لجميع الموجودات المادية والمعنوية، والسموات والأرض، وكذلك حفظ أعمال العباد، والشرائع والكتب السماوية، وحفظ الأنبياء والأئمة المعصومين من المزالق (الخطايا)، وحفظ أى عهد عاهد به عباده.

وعليه فإن (حافظية) الله و (حفيظيته) تشمل مفاهيم أخرى (كالقيومية).

ولولا- الحفظ الإلهي لما بقى في السماء والأرض موجودٌ على قيد الحياة لحظه واحده، كما ورد في الآية: «وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرَطُونَ». (الأنعام / ٦١)

يتضح من هذه الآية أن الله قد أمر الملائكة بحفظ الناس من الحوادث والبلايا حتى وصول الأجل المعين.

وقد ورد شبيه لهذا المعنى في قوله تعالى: «لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ». (الرعد / ١١)

ونظيره ما جاء عن أمير المؤمنين على عليه السلام في نهج البلاغة: «إِنَّ مَعَ كُلِّ إِنْسَانٍ مَلَكَيْنِ يَحْفَظَانِهِ فَإِذَا جَاءَ الْقَدْرُ خَلِئَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ» (١).

وقد ورد في سورة الإنفطار أيضاً ما يخص الملائكة المكلفين بحفظ وتسجيل أعمال العباد، قال تعالى: «وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كَرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ».

(الإنفطار / ١٠-١٢)

وعليه فإن حفظ الله، بالمعنى الواسع للكلمة، يتحقق عن طريق علمه وقدرته سبحانه من جهة، وعن طريق الملائكة المكلفين بإداء هذه المهمة من جهة أخرى.

وكلمة (رقيب) كما ورد في المفردات هي بالأصل مشتقة من مادة (رقة) أى العنق، وأطلقت فيما بعد على المحافظين والمراقبين، إما لكونهم يحفظون رقبه من يراعونه

(١) نهج البلاغة، القصار الكلمات، الكلمة ٢٠١.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٣٣

ويحمونه (لأن الرقبه من أهم أعضاء البدن فإنها تعد كناية عن كل وجود الإنسان)، وإما لأنهم يمدون رقابهم وينظرون إلى ما حولهم بحذر تحسباً من المخاطر، لذلك يُطلق على المحل الذى يقف فيه مثل هؤلاء الأفراد (المرقب) (١).

إلا أنه ذكر في بعض كتب اللغة عكس هذا المفهوم، أى أن المفهوم الأصلي لهذه الكلمة هو الحراسة والإشراف على الشىء، وإنما سمي العنق (بالرقبة) لأنه يُستعان بحركاتها عند الحراسة والمراقبة بواسطة العين والأذن (٢).

وقد ورد في كتاب (العين) بأن أصل هذه الكلمة يعنى (الانتظار)، وفي كتاب مقاييس اللغة بأنه يعنى (الإستطالة برعايته شىء وحراسته).

وعلى أيّ حال فعندما تختصّ هذه الصفة بالبارى تعالى فإنّها تعنى الحافظ الذى لا يخفى عليه شيء. ومن الطبيعى أنّ رعاية الله وحفظه لما فى الوجود، وجميع العباد، وأعمالهم، تكون بواسطة وجوده فى كل مكان، فلا حاجة له إلى نظرٍ أو مدّ رقيبٍ، ولا ما شاكل ذلك من عوارض الموجودات الماديّة. ووردت كلمة (مهيمن) فى موضعين من القرآن الكريم، الأول فى الآية ٢٣ من سورة الحشر، كصفة لله، والتي ذكرناها أعلاه، والثانى فى الآية ٤٨ من سورة المائدة، كصفة للقرآن الكريم. وهناك رأيان حول أصل هذه الكلمة، يتمثل الأول باعتقاد جماعة بأنّها مأخوذة من مادّة (هَيْمَنَ) أى بمعنى الرعاية والحفظ، لكن الكثير من أرباب اللغة يعتقدون بأنّها مشتقة من مادّة (إيمان) التي تبدلت همزتها إلى هاء، وتعنى الواهب للسكينة والأمان، وعندما تختصّ هذه الكلمة بالبارى تعالى فإنّها تأتى بمعنى الحفيظ.

(١) المصباح المنير للفيومي.

(٢) التحقيق فى كلمات القرآن الكريم.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٣٤

وفسرها البعض بمعنى الشاهد والناظر أو القَيوم بأمر الخلائق «١».

وقد ورد فى مصباح الكفعمى عن بعض العلماء - حول تفسير هذه الكلمة -: إنّها تعنى الحافظ لأعمال العباد ومقدرات أعمارهم وأرزاقهم «٢»، ولكن كما قلنا: إنّ لهذه الكلمة معنىً أوسع.

من مجموع ما ذكرناه فى تفسير هذه الصفات السبع، التي لها مفاهيم متقاربة أو متلاصقة مع بعضها، تتجلى أمامنا صفحة أخرى من المعارف وصفات الفعل الإلهية، صفحة ذات آثار تربويّة ثمينه وقيمه جدّاً.

إنّها تدعو الناس إلى فعل الخيرات واجتناب أى لونٍ من القبائح والسيئات، وذلك لأنّهم يعلمون بأنّ الله يراهم حيثما كانوا، وتطمئنهم إزاء الحوادث الصعبة، لأنّهم يعلمون بأنّ الله هو الحافظ.

لهذا فإننا نقول: إنّ ذكر الصفات الإلهية فى القرآن الكريم ذو هدفين اساسيين: أحدهما رفع مستوى معرفة الإنسان برّبه، والآخر تربيته فى مختلف الجوانب.

٢١- الرزاق ٢٢- الرزاق ٢٣- الكريم ٢٤- الحميد ٢٥- الفتح

إنّ لهذه الصفات الخمس - المذكورة أعلاه - مفاهيم متقاربة ومتلازمة مع بعضها، وتحكى جميعها عن تأمين أرزاق بنى البشر، بل حتى جميع الكائنات الحيّة، وتدل على أنّ

(١) لسان العرب، مقاييس اللغة، ونهاية ابن الأثير. وقد نُقل فى بعض التفاسير عن أبى عبيدة أحد علماء اللغة بأنّه قال: يوجد فى كلام العرب خمسة أسماء فقط على هذا الوزن هي: (المهيمن) (المبيطر)، (المسيطر)، (المبيقر)، و (المخيمر) ... عن تفسير روح الجنان.

(٢) مصباح الكفعمى، ص ٣١٨.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٣٥

المتولى لأمر خلق الموجودات يلتزم تأمين ما يديم حياتها أيضاً، وأنّ آثار نعمته الوفيرة وسعت كل شيء، ورحمته اللامتناهية شملت الجميع.

وعلى ضوء تلك المفاهيم نُعَمِّنُ خاشعين في الآيات التالية:

- ١- «وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ». (الحج / ٥٨)
- ٢- «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ». (الذاريات / ٥٨)
- ٣- «يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا عَزَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ» (١). (الإنفطار / ٦)
- ٤- «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ» (٢). (البقرة / ٢٦٧)
- ٥- «وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ». (سبأ / ٢٦)

توضيح وبلاغ:

جاءت كلمة (رزاق) و (رازق) من مادة (رزق)، وفي الأصل بمعنى العطاء المستمر وفي أوقات معينة، سواءً كان دنيوياً أم أخروياً ومعنوياً، وقد يطلق الرزق أحياناً على (النصيب والريح). وقال البعض أيضاً: إنَّ (الرزق) في الأصل بمعنى (الإنعام والعطاء) الخاص المناسب لحال الفرد وحاجته، لتستمر حياته ومعيشته، وهنا يفتقر مفهوم الرزق عن مفهوم (الإحسان) و (الإنعام) و (العطاء) و (الريح والنصيب) و (الإنفاق) «٣». والجدير بالذكر أن التعبير الفارسي المقابل لكلمة (رزق) وهو (روزي) يعطى مفهوم الإنعام والعطاء اليومي وفي أوقات معينة ليشمل جميع الأشخاص. ولا يخفى أن الرزق الحقيقي هو الأشياء التي يحصل عليها الإنسان بالطرق المحللة، وأمّا ما يحصل عليه من الطرق المحرّمة فهو بالحقيقة رزق كاذب.

(١) يجدر الانتباه إلى أنّ كلمة «كريم» قد وردت في سبعة وعشرين موضعاً من القرآن الكريم، لكنها ذكرت كصفة للباري في موارد محدودة جداً.

(٢) وردت كلمة حميد في سبعين موضعاً من القرآن، مصحوبة غالباً بكلمة غني وذكرتا كصفتين من الصفات الإلهية.

(٣) مفردات الراغب، مقياس اللغة، والتحقيق في كلمات القرآن الكريم.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٣٦

يُستنتج ممّا ذكرناه أنّ الرزق يأتي بالمرحلة التي تلي الخلق وإيجاد الإنسان، ويرتبط باستمرار حياته الماديّة والمعنويّة، ولذا اعتبر البعض أنّ أصل وجود الإنسان أو قواه وامكانياته جزء من الرزق (كالمرحوم الكفعمي في المصباح حيث يقول: إن رزق الله يعني بأنّه خلق الأرزاق والمرتقين)، وهذا في الحقيقة نوع من المجاز والانتساع في المعنى الحقيقي.

وعلى أيّة حال فإنّ وصف الباري في الآيات المذكورة بصفة: (خير الرازقين) يشير إلى الأبعاد المختلفة التالية:

فالبعد الأول: إنّ أي شيء يعطيه الباري إنّما هو من عنده، وكل ما يمنحه الآخرون فهو ليس منهم، بل هم واسطه لانتقال الأرزاق.

البعد الثاني: إنّ سبحانه يُعطي كلّ شيء من أنواع النعم الماديّة والمعنويّة والروحيّة، الدنيويّة والأخرويّة، الظاهريّة والباطنيّة، العلنيّة والخفيّة و....، في حين أنّ كل شيء يعطيه الآخرون محدودٌ من جميع النواحي.

والبعد الثالث: إنّ تعالى يأخذ بنظر الاعتبار حاجة العباد عند تقدير أرزاقهم ويرزقهم بما يُناسب حالهم، لأنّه عليم بأسرار المرتقين الظاهريّة والباطنيّة، ونعلم أنّ الآخرين ليسوا كذلك.

والبعد الرابع: إنّ الرزاق الذي لا تنفذ خزائنه أبداً لأنّ خزائن كل الأشياء بيده: «وَإِنَّ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ». (الحجر / ٢١)

وفى حين يتصف الآخرون بالمحدودية التامة من هذه الجهة.

أما البعد الخامس: إنه الرزاق الذى يتناول من مائدته الصديق والعدو، وجميعهم يتزودون من نعمته بمقتضى كونه الرحمن والرحيم.

لكن الآخرين لا يفكرون سوى بأصدقائهم وأقربائهم.

والبعد السادس: إنه لا ينتظر لقاء عطائه وإنعامه جزاءً ولا شكوراً، لأنه غنى من كل ناحية، لكن الآخرين ينتظرون ألف لونٍ من قبيل ذلك.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٣٧

أما البعد السابع: فهو أن رزقه بدرجه من السعة والشمول بحيث يبدأ منذ لحظة انعقاد النطفة فى عالم الرحم، ويستمر طيلة مرحلة وجود الجنين فى بطن أمه، وبعد الولادة من خلال حليبها وحنانها أيضاً، حتى لحظات الموت الأخيرة، فهل من رازقٍ يُناظره؟ أجل هذا سر قوله سبحانه (خير الرازقين).

واللطيف هو ماورد فى روايات عديدة منقولة عن أهل البيت عليهم السلام حول تفسير الآية الشريفة التالية: «ثُمَّ لَتَشْتَكِلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ». (التكاثر / ٨)

(إن الله أجل من أن يسأل الناس يوم القيامة عن ماكلهم ومشربهم، فهذا فضله على عباده ولن يسألهم عنه بل عن (العقائد الحقة) ومن جملتها (نعمه الولاية) «١».

وعليه فقد عكست لنا هذه الرواية معنى آخر من معانى (خير الرازقين) لأنه سبحانه - طبق ما جاء فى الحديث - لا يسأل عن هذه الأرزاق!

أما السير من اطلاق كلمة (الرزاق) على البارئ تعالى، ثم (ذو القوة المتين) فهو لأن كلمة (الرزاق) صيغة من صيغ المبالغة، وترمز إلى أنواع الأرزاق التى يهبها الله المنان لجميع المرتزقين، لذا لا تليق هذه الكلمة إلا بشأنه، بل وكما أشرنا سابقاً من أن سواه لا يمكن أن يكون (رازقاً) ناهيك عن أن يكون رزاقاً.

لأن أولئك لا يملكون شيئاً ليمنحوه للغير، بل يمكنهم أن يكونوا واسطة لإيصال الأرزاق إلى الآخرين.

وكلمة (متين) تعنى المحكم، وأخذت من مادة (متن) التى هى فى الأصل تعنى العضلتين

(١) واليك نماذج من تلك الاحاديث:

أ) عن أبى خالد الكابلى قال: دخلت على أبى جعفر عليه السلام فدعا بالغداء فأكلت منه طعاماً ما اكلت طعاماً قط اطيب منه ولا الطيف فلما فرغنا من الطعام قال: يا ابا خالد كيف رأيت طعامك او قال طعامنا؟ قلت: جعلت فداك ما اكلت طعاماً اطيب منه قط ولا أنظف ولكن ذكرت الآية فى كتاب الله عز وجل «ثُمَّ لَتَشْتَكِلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ» فقال أبو جعفر عليه السلام: «إنما يسئلكم عما أنتم عليه من الحق».

ب) عن الإمام جعفر بن محمد عليه السلام أنه قال: «ثُمَّ لَتَشْتَكِلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ» والله ما هو الطعام والشراب ولكن ولايتنا أهل البيت.

تفسير البرهان، ج ٤، ص ٥٠٢، ح ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ١١، ١٢، ١٣.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٣٨

القويتين الموجودتين على جانبى العمود الفقرى اللتين تقويان ظهر الإنسان وتجعلانه مستعداً لممارسة الأعمال الثقيلة، لذا فقد وردت بمعنى منتهى القدرة والقوة.

ووصف البارئ بهاتين الصفتين يرمز إلى قدرته التامة على إيصال الرزق إلى عباده أينما كانوا، ولا يحتاج إلى شيء.

إن التمتع فى هذه الصفات الإلهية الخاصة يمنح المؤمنين السكينة، ويغنيهم عن السير فى الطرق المخرمة لتحصيل أرزاقهم، بل يحثهم

على طلب الرزق الحلال، إيماناً بلطفه سبحانه.

كلمة (كريم) مأخوذة من مادة (كرم) والتي تعني: الشرف والقيمة الذاتية أو الأخلاقية- حسب رأى مقاييس اللغة- لذا يطلق على الغيوم الممطرة (كريمة) وعلى الأرض المنتجة الخصبه (مكرمة).

ويقول الراغب أيضاً: إذا كانت كلمة (كرم) صفة للإنسان فإنها تعني الأخلاق والأفعال الحميدة التي تبدر منه، وإذا كانت صفة لله فإنها تعني الإحسان والإنعام العلى الواضح.

وللمفسرين تعابير مختلفة حول تفسير كلمة (كريم) عندما تأتي كصفة لله سبحانه وتعالى.

فقد قال جماعة: إن كلمة (كريم) تعني الواهب الذى لا يفعل إلا الإحسان، ولا يقصد من وراء ذلك الحصول على أى ربح.

وقال جماعة آخرون: (الكريم) هو من يقبل القليل ويجزى إزاءه بالكثير.

وقال بعضهم: (الكريم) هو الذى لا ينفذ عطائه أبداً.

وقال آخرون أيضاً: (الكريم) هو من يعطى ما يجب عليه وما لا يجب.

ولا- يوجد دليل خاص حول ترجيح أى من هذه التفاسير، ولكن بما أن كرم الله أكمل أنواع الكرم، فإنه يشتمل على جميع هذه المفاهيم وغيرها.

ويجدر الإنتباه إلى هذه المسألة أيضاً وهى أن هذه الكلمة قد وردت فى القرآن الكريم على عدّة وجوه، فأحياناً كصفة للرزق مثل:

«وَرَزَقٌ كَرِيمٌ». (الأنفال / ٤)

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٣٩

وأحياناً كصفة للملائكة مثل: «مَلَكٌ كَرِيمٌ». (يوسف / ٣١)

وأحياناً كصفة للعرش مثل «رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ». (المؤمنون / ١١٤)

وأحياناً كصفة للقرآن مثل: «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ». (الواقعة / ٧٧)

ولكل واحدة من هذه الأمور نوع من (الكرامة) والقيمة السامية.

واشتقت كلمة (حميد) من مادة (حمد) وتعنى الثناء، وبعكسها الظم والتويخ، لذا (فالحميد) هنا يأتى بمعنى (المحمود)، ويرمز إلى استحقاق الله لكل أنواع الثناء، الثناء على ذاته المقدسة المنقطعة النظير، الثناء على صفاته وأسمائه، الثناء على أفعاله وأعماله الحميدة، وبالنهاية الثناء على كل تلك المواهب والأرزاق المادية والمعنوية المتنوعة التى وهبها لجميع عباده.

قال المرحوم الكفعمى فى مصباحه: (الحميد) هو من يستحق الثناء على أفعاله فى السراء والضراء والأفراح والأحزان «١».

وقال ابن الأثير فى النهاية: (الحميد) كصفة من صفات الخالق تعنى المستحق للحمد والثناء فى جميع الأحوال وأضاف قائلاً:

مفهوما (الحمد) و (الشكر) متقاربان من بعضهما، ولو أن الحمد أكثر عموماً، لأن الحمد يشمل كلاً من الصفات الذاتية والعطايا والمواهب، فى حين أن الشكر يشمل المواهب والعطايا فقط لا الصفات.

وعلى أية حال، فإنّ تعبير (الحمد) كما قلنا: ذو مفهوم واسع يشمل الثناء على كل من الذات والصفات والأفعال.

ويجدر الإنتباه إلى أن كلمة (حميد) قد تكررت فى ستة عشر موضعاً من القرآن، وغالباً مارافقتها صفة (الغنى) أو (العزیز)، ولعل

السبب فى ذلك هو كون الأثرياء والأقوياء يقودهم غرورهم فى الغالب إلى ممارسة الأفعال غير المتزنة والذميمة التى هى محل

للمذمة والتويخ، أما الله سبحانه فى نفس الوقت الذى نجده غنياً وعزيزاً، لا يصدر منه سوى

(١) مصباح الكفعمى، ص ٣٢٧.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٤٠

الأفعال المحمودة، ولا يوجد من بين صفات جماله وكماله أى صفةٍ ذميمة، إذن فهو (حميد) من كل ناحية ويستحق الثناء. وجاءت كلمة (الفتاح) من مادة (فتح)، كما قال الراغب فى المفردات وابن فارس فى مقاييس اللغة: إنَّها تعنى بالأصل فتح كلِّ مغلقٍ سواء فتح بابٍ أم حل مشاكل أخرى.

لذلك يُطلق مصطلح (الفتح) على النصر، لأنَّه يحل مشكلة الحرب، ويُطلق على الحكم أيضاً، لأنَّه يحل النزاع. ولهذا التعبير معنىً واسعاً جداً عندما يُعبَّر به عن الخالق جلَّ وعلا، فهو يشمل كل من فتح الأبواب المسدودة، وحل جميع معضلات العباد المعنوية والمادية، والحكم بالحق، والحكم الفصل.

قال المرحوم الكفعمى فى مصباحه: (الفتاح) معناه الحاكم بين عباده، وفتح الحاكم بين خصمين إذا قضى بينهما، وأيضاً، الذى يفتح أبواب الرزق والرحمة لعباده، وهو الذى بعنايته يفتح كل مغلق «١».

والأثر التربوى الناجم عن التمتع بهذه الصفة الإلهية واضح جداً، فمن يعتقد بأنَّ الله وحده هو الحاكم، ويعتقد بأنَّ حل المشاكل وفتح الأبواب المغلقة يسير عليه سبحانه، لا يهاب حجم المشاكل وصعوبتها أبداً، ولا تتراكم على قلبه ذرات غبار اليأس والقنوط، ولا يكف عن الجِدِّ والإجتهاد المصحوبين بالإيمان بالنصر بلطفه سبحانه.

و يجدر الانتباه إلى أن كلمة (الفتاح) لم تتكرر أكثر من مرّة فى القرآن وقد رافقتها صفة (العليم) وهذا يوضح صلتها بصفة (الفتاح)، وذلك لأنَّ حل المشاكل وفتح عُقد المعضلات يحتاج إلى علم وفير، فالعليم بكل شىء هو الذى يستطيع حل جميع المشاكل، وإذا ما أردت - أيها الإنسان - أن تحل مشكلة فى حياتك أو حياة الآخرين فعليك أن تحيط بها علماً بالمستوى المطلوب! ولعل وصف البارى بصفة (خير الفاتحين)، فى الآية الشريفة عن لسان قوم شُعيب: «رَبَّنَا

(١) مصباح الكفعمى، ص ٣٢١.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٤١

افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ». (الأعراف / ٨٩)

يعود إلى التأكيد على هذا المفهوم أيضاً، لأنَّ الفاتحين الجهلاء لا يمكنهم دائماً أداء أفعالهم بشكل لائق، لذا فخير الفاتحين هو الفتح العليم بكل شىء وفى جميع الأحوال.

٢٦- الرحمن ٢٧- الرحيم ٢٨- أرحم الراحمين ٢٩- الودود ٣٠- الرؤوف ٣١- اللطيف ٣٢- الحفي

تعد صفتا (الرحمن) و (الرحيم) من جملة صفات الفعل الإلهية التى ترد على الألسن دائماً، وتتكرر باستمرار فى كل صلاة، وبداية السور القرآنية، بل وفى بداية كل عمل فهى تُنبئ عن لطف البارى ورحمته اللامحدودة تجاه عباده، بل تجاه جميع الموجودات وهى رمز كونه أرحم الراحمين.

ومن مستلزمات هذا المفهوم وُدّه ومحبه ولطفه وعنايته ورأفته، وقد تكررت هذه الصفات السبع كثيراً فى الآيات القرآنية، فلنتأمل خاشعين فى نماذج منها:

١- «قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى «١».

(الإسراء / ١١٠)

٢- «إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا». «٢»

(النساء / ٢٩)

٣- «وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ». (٣)

(الأعراف / ١٥١)

٤- «وَهُوَ الْعَفُورُ الْوَدُودُ». (البروج / ١٤)

(١) تكررت كلمة «رحمن» في ٥٦ موضعاً من القرآن- عدا البسملة- مما يدل على اهتمام القرآن البليغ بهذه الصفة.

(٢) تكررت كلمة «رحيم» في ١١٤ موضعاً من القرآن- عدا البسملة- مما يحكى أيضاً عن أهميتها البليغة.

(٣) وردت كلمة الراحمين أربع مَرَّات في القرآن الكريم، أحياناً بنحو الخطاب كما ورد في الآية أعلاه، وأحياناً كضمير غائب مثل «وهو أرحم الراحمين». (يوسف / ٦٤ / ٩٢).

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٤٢

٥- «إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَّحِيمٌ». (١)

(البقرة / ١٤٣)

٦- «... وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ». (٢)

(الأنعام / ١٠٣)

٧- «... إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا». (٣)

(مريم / ٤٧)

توضيح وبلاغ:

بحثنا مفهوم كلمتي (الرحمن) و (الرحيم) في المجلد الأول من هذا التفسير بصورة مفصلة، ولا حاجة إلى التكرار، ونكتفي هنا بالقول: إنَّ كلتيهما مأخوذتان من مادة (الرحمة).

ومعروف بين العلماء أنَّ صفة (الرحمن) ترمز إلى الرحمة الإلهية العامة التي تشمل الموالى والمعادى، والمؤمن والكافر، والمحسن والمسي، (كأنواع النعم والمواهب الإلهية العامة التي ينتفع منها جميع العباد).

و (الرحيم): ترمز إلى (الرحمة الخاصة) الإلهية التي خص بها عباده المؤمنين وجعلها من نصيب المحسنين والملتقين.

وأما عبارة (أرحم الراحمين) فإنها استعملت كصفة من الصفات الإلهية، لأنَّ شعاعاً من رحمته قد دخل في قلوب عباده أيضاً، فالوالدان رحيمان وعطوفان على ولدهما، والكثير من الناس يكتون في قلوبهم الرحمة والمحبة تجاه أصدقائهم وأحبائهم، إلَّا أنَّ هؤلاء جميعهم يمثلون شعاعاً ضعيفاً من رحمة الله، بل في الحقيقة إنَّ جميع هذه الرحمات مجازية، ورحمة الله هي الرحمة الحقيقية، لأنَّ ذاته المقدسة غنية عن كلِّ شيء، في حين أنَّ المحبة والرحمة الموجودة فيما بين الناس غالباً ماتبع من تأثيرهم في مصير بعضهم وحاجتهم إلى بعضهم.

(١) وردت كلمة «رؤوف» في أربعة عشر موضعاً من القرآن مصحوبة في أغلبها بصفة الرحمة كما هو الحال في الآية المذكورة أعلاه، وأحياناً في عبارة (رؤوف بالعباد).

(٢) وردت كلمة «لطيف» في سبعة مواضع من القرآن استعملت في جميعها كصفة لله سبحانه.

(٣) وردت كلمة «حفي» في موضعين فقط من القرآن وفي واحدٍ منهما فقط كصفة لله سبحانه وتعالى (وهو الآية أعلاه).

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٤٣

علاوةً على هذا، فإنَّ رحمةً غيره محدودةً في أُطرٍ خاصَّة، إلَّا رحمته فهي غير محدودة من كل ناحية.

يُستنتج بشكلٍ إجماليٍّ من موارد استعمال هذه الصفة التي وردت في أربع آيات قرآنية، أنَّها استعملت في الحالات التي وصلت بها المشكلة حدَّها الأقصى، فقد وردت هذه الصفة في قصة النبي أيوب عليه السلام بعد تحمُّله كل تلك الخطوب المنهكة، وفي قصَّة يوسف عليه السلام عندما كان أخوته بمنتهى القسوة «قَالَ هَيْلَ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمَتُّكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ». (يوسف / ٦٤)

أو بعد معرفتهم أخاهم يوسف إذ خجلوا وندموا كثيراً على ما فعلوا «قَالَ لَمَّا تَثَرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ». (يوسف / ٩٢)

وما ورد في قصة موسى عليه السلام عندما رجع إلى قومه وراهم يعبدون العجل وعاتب أخاه هارون «قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ». (الأعراف / ١٥١)

ومن هنا يتضح لزوم الإعتصام بهذه الصفة الإلهية الملهمة للأمل والرجاء، في الظروف العصية، والأحداث المعقَّدة جدًّا والأليمة، والتفويض بظل رحمته، علاوةً على لزوم السعي لكي نكون مظهرًا لهذه الصفة الإلهية وبعث شعاع منها في وجودنا على الأقل.

الرحمة الإلهية الواسعة في الأحاديث الإسلامية:

لسعة رحمة الله انعكاسات واسعة في الأحاديث الإسلامية، والنماذج التالية تحكي عن هذه الحقيقة:

١- في حديث عن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: «اللَّهُ رَحِيمٌ بَعَادَهُ، وَمِنْ رَحْمَتِهِ أَنَّهُ خَلَقَ مِائَةَ رَحْمَةٍ وَاحِدَةً فِي الْخَلْقِ كُلِّهِمْ فِيهَا يَتَرَحَّمُ النَّاسُ، وَتَرَحَّمُ الْوَالِدَةُ وَلَدَهَا فَإِذَا كَانَ يَوْمُ

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٤٤

القيامة أضاف هذه الرحمة الواحدة إلى تسع وتسعين رحمةً فيرحم بها أمه محمد صلى الله عليه وآله» (١)

٢- في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَشَرَ اللَّهُ تَعَالَى رَحْمَتَهُ حَتَّى يَطْمَعَ ابْلِيسُ فِي رَحْمَتِهِ» (٢).

٣- قيل لعلي بن الحسين عليه السلام يوماً أنَّ الحسن البصرى قال: ليس العجب ممن هلك كيف هلك إنَّما العجب ممن نجا كيف نجا فقال عليه السلام: «ليس العجب ممن نجا كيف نجا، وإنَّما العجب ممن هلك كيف هلك مع سعة رحمة الله» (٣).

إلهي لا يعز علي كرمك اللامتاهي أن تشملنا بزايوة من رحمتك الواسعة هذه.

و كلمة (ودود) مشتقة من مادة (ود) - بضم الواو - التي هي في الأصل بمعنى حب الشيء وتمنى وجوده، لذا تستعمل في كلا المعنيين (المحبة والتمنى).

هذا ماورد في المفردات ومقاييس اللغة، لكن لسان العرب ذكرها بمعنى المحبة فقط، في حين أنَّ موارد استعمالها في القرآن الكريم تدل بوضوح على أنَّها استعملت في معنى التمنى والمحبة أيضاً.

وعلى أية حال فإنَّ هذه الكلمة صيغة من صيغ المبالغة وتعني الشخص الكثير المحبة، واللطيف أنَّ هذه الصفة قد وردت في القرآن الكريم مصحوبةً بصفة الغفور مرّة، وبصفة الرحيم مرّة أخرى، وكلاهما تتأكدان بصفة (الودود).

يقول المرحوم الكفعمي في مصباحه: عندما تستعمل كلمة (ودود) كصفة من الصفات الإلهية، فإنها تعنى من يجب عباده فيرضى عنهم ويتقبل أعمالهم ... أو بمعنى مَنْ يلقي حب عبده في قلوب الآخرين حيث قال: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا» (٤) . (مريم / ٩٦)

(١) مستدرک سفینه النجاة نمازی شاهرودی، ج ٤، ص ١٣٥.
 (٢) بحار الأنوار، ج ٧، ص ٢٨٧، (باب ما يظهر من رحمته تعالى في القيامة).
 (٣) سفینه البحار، ج ١ ص ٥١٧.
 (٤) مصباح الكفعمي، ص ٣٢٥.
 نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٤٥
 «الودود»: (الودود) فعول بمعنى (مفعول) كما يقال: هبوب بمعنى مهيب، يراد به أنه مودود ومحبوب، ويقال: بل فعول بمعنى فاعل كقولك: غفور بمعنى غافر، أي يود عباده الصالحين ويحبهم، والود والوداد مصدره المودة، وفلان ودك ووديدك أي حبك وحببيك «١».
 واحتمل بعض أرباب اللغة كذلك أن كلمة (ودود) هنا تُعطى مفهوم اسم المفعول، وترمز إلى محبوبية الله من قبل عباده المؤمنين «٢».
 لكننا نعتقد بأن المعنيين الثاني والثالث ضعيفان، ويظهر من موارد استعمال هذه الكلمة أن معناها الدقيق هو (المحبة والتمنى) الذي ذكرناه.

ومن البديهي اختلاف مفهوم المحبة الإلهية مع مفهوم المحبة الإنسانية، فالمحبة في الإنسان نوع من التوجه القلبي والرغبة الروحية، في حين أن الله ليس له قلب ولا روح، لهذا فإن محبته لعباده تأتي بمعنى فعله لما يسبب خير البشر وسعادتهم، وتدل على لطفه وعنايته. ويظهر أن السبب في تفسير البعض كلمة (ودود) كإسم مفعول هو أنهم لاحظوا بأن المحبة بمعنى اسم الفاعل لا تليق بشأن البارئ، لأنها من عوارض الموجودات الإمكانية.

لكنها عندما تختص بالبارئ تعالى فأنما يُقصد منها آثارها الخارجية، وليس هذا هو المكان الوحيد الذي يستوجب هذا المعنى والتفسير، بل هنالك الكثير من الصفات والأفعال الإلهية من هذا القبيل بالضبط، كقولنا: إن الله يغضب على المذنبين، أي يتصرف معهم تصرف الغضبان، وإلا فالغضب الذي يُعطى معنى الهياج والاضطراب في نفس الإنسان لا يصدق أن يكون في البارئ تعالى أبداً. وعلى أية حال فإن الإيمان بهذه الصفة الإلهية له أثره التربوي العميق (كما هو الحال في بقية الصفات)، لأن محبة الله لعباده تؤدي إلى إيجاد محبة العباد له، فالمحبة الحقيقية لا تكون من طرف واحد أبداً.

وعندما تدخل محبته في قلوب عباده ويعشقونه سيسرون باتجاه رضاه، لأن العاشق يخطو وفق ما يرتضيه معشوقه دائماً.

(١) توحيد الصدوق، ص ٢١٤.
 (٢) مجمع البحرين، مادة (ود)؛ توحيد الصدوق، ص ٢١٤.
 نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٤٦
 وجاءت كلمة (رؤوف) من مادة (رأفة) وتعني (الرحمة) - حسب قول الراغب الإصفهاني - والجدير بالذكر أن تسعة حالات من الإحدى عشرة حالة التي وردت فيها هذه الصفة الإلهية في القرآن الكريم رافقتها صفة (الرحيم) «١»

، لذا فإنَّ صِفَتِي (رحيم) و (رؤوف) توَكِّدان مفهوم بعضهما البعض.

وهنالكَ جدال بين المفسِّرين والمتكلِّمين حول الاختلاف الموجود بين صفتي (رؤوف) و (رحيم)؟ فاعتقد البعض منهم بأنهما تعطيان مفهوماً واحداً، وعليه فإنَّ ذكرهما إلى جنب بعضهما ذو صبغة تأكيد على الرحمة الإلهية اللامتناهية. في حين وضَع البعض الآخر - كابن الأثير في نهايته - فرقاً بينهما، وهو: إنَّ الرَّأفَةَ مرحلة أدقُّ وأسمى من الرحمة، ولا تستعمل أبداً في المسائل الرديئة، لكن الرحمة تستعمل في المسائل المكروهة التي توجد من ورائها مصلحة معينة (فقد يُمكن أن يُقال: إنَّ الرحمة التي يحملها فلان دفعت به إلى قطع إصبعه المتعفن وقايةً من سريان العفونة إلى بقية أعضاء بدنه، لكنه لا يصح استعمال تعبير «الرأفة» هنا) (٢).

يقول المرحوم الكفعمي في مصباحه حول تفسير هذه الكلمة: (قال البعض: إنَّ الرَّأفَةَ مرحلة أسمى من الرحمة، في حين اعتقد البعض الآخر بأنَّ دائرتها أكثر محدودية من دائرة الرحمة).

يقول المفسِّر الكبير المرحوم الطبرسي في ذيل الآية ١٢٨ من سورة التوبة: يعتقد البعض بأنَّ صفتي (رؤوف) و (رحيم) لهما مفهوم واحد، ماعدا كون الرَّأفَةَ مرحلة أقوى من الرحمة، في حين قال جماعة آخرون: (تستعمل كلمة (رؤوف) في المطيعين و (رحيم) في المذنبين، ثم نقل عن بعض العلماء السالفين قولهم إنَّ الله لم يجمع بين هاتين الصفتين بحقٍ أيُّ من أنبيائه، لكنَّه فعل ذلك كرامةً لنبيِّ الإسلام محمد صلى الله عليه و آله حيث وصفه في هذه الآية: «بِالْمُؤْمِنِينَ رُؤُوفٌ رَحِيمٌ»، وكذلك وصف ذاته جلَّ وعلا حيث قال: «إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ». (٣)

(البقرة/ ١٤٣)

(١) البقرة، ١٤٣؛ التوبة، ١١٧؛ التوبة، ١٢٨؛ النحل، ٧ و ٤٧؛ الحج، ٦٥؛ النور، ٢٠؛ الحديد، ٩؛ الحشر، ١٠.

(٢) نهاية ابن الأثير، مادة (رأف)، ونفس هذه المادة في (لسان العرب) و (مجمع البحرين).

(٣) تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ٨٦.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٤٧

قال الطبرسي في مجمع البيان في ذيل الآية: «بِالْمُؤْمِنِينَ رُؤُوفٌ رَحِيمٌ». (التوبة/ ١٢٨)

قيل: هما واحد، والرأفة شدة الرحمة، وقيل: رؤوف بالمطيعين منهم، رحيم بالمذنبين، وقيل: رؤوف بأقربائه، رحيم بأوليائه، رؤوف لمن رآه، رحيم بمن لم يره، وقال بعض السلف: لم يجمع الله سبحانه لأحد من الأنبياء بين اسمين من اسمائه إلَّا النبي صلى الله عليه و آله فإنه قال: بالمؤمنين رؤوف رحيم.

وكذلك نلاحظ هنا ما لهذه الصفة الإلهية من الأثر التربوي والبلاغ الخاص في قلوب المؤمنين، لأننا نرى بأنَّ الله رؤوف رحيم، ورسوله صلى الله عليه و آله رؤوف رحيم أيضاً، لذا يجب أن يكون شيعتهم ومحبوهم رؤوفين رحماً أيضاً، وينعكس على وجودهم شعاع من الرحمة الإلهية العامة والخاصة.

تكررت كلمة «لطيف» سبع مرّات في القرآن الكريم، وقد وردت كصفة من صفات الله في جميع هذه الموارد وغالباً ما اقترنت بصفة (خبير) (١)

. ووردت لوحدها في موضعين فقط (٢).

وعلى أيّة حال فإنَّ هذه الكلمة مشتقة من مادة (لطف)، وتعني: العمل الظريف والدقيق والمحبة والحنان، وتُطلق أيضاً على كلِّ من الموجودات الصغيرة اللينة، والحركات الظريفة، والقيام بالأعمال الدقيقة، والأمور التي لاتدرکہا حواس الإنسان.

وعندما تختص هذه الصفة بالبارى تعالى فإنها تعطى معنى الرفق والمداراة الإلهية بينه وبين عباده، وتوفيقهم وحفظهم من المشاكل (٣).

يقول ابن الأثير في تفسير هذه الكلمة: اللطيف من يجمع بين (الرفق في العمل) و (العلم بدقائق المنافع وإيصالها إلى أصحابها). ويقول المرحوم الكفعمي رحمه الله في (المصباح): «إن دعوة البارى، في المشكلات، بهذه

(١) الأنعام، ١٠٣؛ الحج، ٦٣؛ لقمان، ١٦؛ الملك، ١٤؛ الأحزاب، ٣٤.

(٢) يوسف، ١٠٠؛ الشورى، ١٩.

(٣) مفردات الراغب الأصفهاني ولسان العرب، مادة (لطف).

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٤٨

الصفة له أثر عميق في رفع وإزالة المنغصات» (١).

وقد فسّر المرحوم العلامة الصدوق رحمه الله، في كتاب التوحيد، هذه الصفة الإلهية كما يلي:

«إنه لطيف بعباده، يُحسن إليهم، ويُنعم عليهم، ثم أضاف قائلاً: اللطف هو نفس الإحسان والعزّة، ثم ذكر الحديث الشهير الذي يقول: «إن معنى اللطيف إنه هو الخالق للخلق اللطيف» كما أنه سمى «العظيم لأنه الخالق للخلق العظيم».

ومن الممكن الجمع بين كل هذه المعاني في مفهوم كلمة (لطيف) الواسع.

أما السير من اقتران صفة (اللطيف) ب (الخبير) في أغلب الآيات القرآنية فهو أن صفة (الخبير) - طبقاً لما قاله بعض المحققين تشير إلى الإطلاع العميق والعلم والإحاطة الدقيقة بالحقائق، مما يتناسب مع مفهوم صفة (اللطيف).

إنّ البلاغ والأثر التربوي الذي يتركه الإيمان بهذه الصفة واضح جداً لأنه يؤمل الإنسان بالألطف الإلهية الخفية والجلية من جهة، ومن جهة أخرى يحث بنى البشر للتلفظ والترحم على بعضهم البعض، ومن جهة ثالثة يدفعهم إلى الاطلاع على مخلوقات الله الظريفة جداً والتفكر فيها، ولكل واحدٍ من هذه الأمور الثلاثة أثر بليغ في تربية الناس.

وكلمة (حفي) مشتقة من مادة (حفاء) على وزن (سماء) ومن مادة (حفا) على وزن (جفا) ولها عدّة معانٍ ذكرتها مصادر اللغة، من جملتها: سير الإنسان حافي القدمين، والإلحاح في السؤال، العلم والإطلاع على شيء، الإلحاح في عمل الخير.

وقال جماعة أيضاً: إنها تعطى معنى ترقق جلد القدم، وكعب الحذاء، وحافر الجواد، بسبب كثرة السير (٢).

إلا أنه ليس مستبعداً أن يكون الأصل الحقيقي لكل هذه المعاني هو الإلحاح في السير بشكل يصبح جلد القدم أو الحذاء رقيقاً أو مُستهلكاً، ثم استعملت في حالة الإلحاح والمبالغة في كل شيء من قبيل: الإلحاح في السؤال عن شيء ما بقصد الإطلاع، والإلحاح في طلب علم الخير.

(١) مصباح الكفعمي، ص ٣٢٢.

(٢) مفردات الراغب؛ لسان العرب؛ مقاييس اللغة؛ نهاية ابن الأثير؛ تاج العروس؛ وكتاب العين.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٤٩

ووردت هذه الكلمة في القرآن في ثلاثة موارد، الأول في مورد الإلحاح في السؤال، كما في قوله تعالى «إِنْ يَسْأَلْكُمْوهيَا فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّلُوا»! (محمد/ ٣٧)

وفي مورد العلم والمعرفة كما في قوله تعالى «يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ كَافٍ بِهَا».

(الأعراف / ١٨٧)

وفى مورد الإلحاح فى عمل الخير كما فى الآيه: «سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا». (مريم/ ٤٧) وعلى أئيه حال فعندما تختص هذه الكلمه بالبارى تعالى فإنها يمكن أن تعطى معنى العالم والخير، وفى هذه الحاله تكون من صفات الذات وليس الفعل، وربما تأتى بمعنى منتهى الإحسان والمحبه أيضاً، فتعد فى هذه الحاله من صفات الفعل الإلهى. وبالمناسبه فإنها وردت فى القرآن كصفه مره واحده فقط، وبمعنى منتهى الإحسان والمحبه التى وردت فى قصه إبراهيم وعمه التى ذكرناها سابقاً.

ويتضح البلاغ التربوى الذى تحمله هذه الصفه الإلهيه فى طياتها، بقريته ما ذكرناه فى الصفات المشابهه لها، وذلك لأنها تحبى بصيص الأمل فى قلوب العباد وتقربهم نحوه- سبحانه- من جهه، ومن جهه اخرى تعطى درساً فى الإحسان والمحبه والحنان.

٣٣- الغافر ٣٤- الغفور ٣٥- الغفار ٣٦- العفو ٣٧- التواب ٣٨- الجنار

يُعد الغفران والرحمه الإلهيه وعفو البارى عن المذنبين وقبول توبتهم، أصول مجموعه من صفات فعل الله التى أوردنا ستها نماذج منها أعلاه.

وقد وردت هذه الصفات الإلهيه فى آيات قرآنيه عديده سنطلع عليها بعد أن نتأمل خاشعين فى الآيات التاليه:

١- «غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ». (١)

(غافر/ ٣)

(١) وردت هذه الصفه فى آيه واحده من القرآن الكريم.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٥٠

٢- «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ». (١)

(البقره/ ١٧٣)

٣- «... أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْعَفَّارُ». (٢)

(الزمر/ ٥)

٤- «... إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ». (٣)

(الحج/ ٦٠)

٥- «... إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ». (٤)

(البقره/ ٣٧)

٦- «... الْمُهَيِّمِينَ الْعَزِيزِينَ الْجَبَّارِ الْمُتَكَبِّرِ». (٥)

(الحشر/ ٢٣)

توضيح وبلاغ:

اشتقت كلمه (غافر) و (غفور) و (غفار) من مادّه (غَفَر) وهى بالأصل تعنى (التغطيه)، و بخاصيه تغطيه الشىء عن التلوث، وكلمه (غفير) تعنى الذائبه أو الظفيره الطويله التى تغطى الرقبه، و (مغفر) تعنى الخوذه التى تستعمل لتغطيه الرأس فى القتال.

وهذه الكلمة عندما تختص بالله سبحانه فإنها تعني المغفرة وستر الذنب، ولكن (غافر) اسم فاعل، و (غفور) و (غفار) من صيغ المبالغة. وقال جماعة: عندما تستعمل كلمة (غفور) كصفة من الصفات الإلهية فإنها تعني الساتر على عباده بغطاء رحمته، وقد ورد هذا التعبير أيضاً في كلام بعض العلماء وهو: أُطلقت صفة (غفار) على الله لأنه يستر ذنوب عباده بمغفرته متى ما أذنب العبد ورجع إليه بالتوبة «٤».

وكلمة (عفو) مشتقة من مادة (عَفُو) وكما قال ابن منظور في (لسان العرب) وابن أثير في

(١) تكررت صفة «غفور» في القرآن ٩١ مرة، واقتربت بصفة «رحيم» في أغلب الموارد كما في الآية أعلاه.

(٢) وردت صفة «غفار» في القرآن أربع مَرَّاتٍ فقط، اقتربت في ثلاثٍ منها بصفة «عزيز» كما في الآية المذكورة أعلاه (ص، ٦٦؛ الزمر، ٥؛ غافر، ٤٢) ووردت لوحدها في موضعين فقط (طه، ٨٢؛ نوح، ١٠).

(٣) وردت هذه الصفة في القرآن خمس مَرَّاتٍ اقتربت في أربعٍ منها بصفة غفور (الحج - ٦٠، المجادلة، ٢؛ النساء، ٤٣ و ٩٩)، وفي واحدٍ منها فقط بصفة (قدير) (النساء، ١٤٩).

(٤) استعملت كلمة «تواب» في القرآن الكريم في أحد عشر مرةً كصفة من صفات الله واقتربت جميعها بصفة (رحيم) عدا موردين منها وفي موردٍ بصفة (حكيم) (النور، ١٠)، ولوحدها في موردٍ واحدٍ فقط (النصر، ٣).

(٥) وردت كلمة «متكبر» في القرآن ثمان مَرَّاتٍ، وكصفة من صفات الباري في موضعٍ واحدٍ فقط.

(٦) مصباح الكفعمي ص ٣٢٠؛ توحيد الصدوق ص ٢٠٨؛ مفردات الراغب؛ لسان العرب؛ مقاييس اللغة، مادة (غفر).

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٥١

(النهاية): هي بالأصل تعني المحو، لكن الراغب في مفرداته اعتقد بأن هذا المعنى ليس أصل الكلمة، بل أصلها الأساسى هو (القصد لأخذ الشيء)، لذا تُطلق على الرياح العاصفة التي تسبب الدمار أو الذهاب بالأشياء المختلفة، وإن أُطلقت (عفو) على (المحو) فلائنه نوعٌ من القصد لأخذ شيء معين.

وأطلقت كلمة (عفو) على نمو النبات لأنه يشق التراب ويظهر.

وقد ذكر في مقاييس اللغة اصلان لهذه الكلمة هما: ترك الشيء أو طلبه، ثم أرجع بقيه المعانى إلى هذين المفهومين، ومن جملتها (العفو) بمعنى المحو والإبادة، و (العفاء) بمعنى التراب المتروك.

وعلى أئيه حال عندما تستعمل هذه الكلمة بخصوص الباري تعالى فإنها تُعطى معنى غفران الذنوب، ومحو آثار المعصية، وترك المعاقبة عليها، لكن بما أن (عفو) صيغة مبالغة فإنها تعني (كثير العفو) «١»

وسبب التأكيد على هذه الصفة الإلهية هو أنه تعالى لولا عفو له لما نجا أحدٌ من تبعات الذنوب، قال أمير المؤمنين على عليه السلام: «اللهم احملنى على عفوك ولا تحملنى على عدلك» «٢».

وفى وصية له عليه السلام لمالك الأشتر: «ولا غنى بك عن عفو ورحمته» «٣»

إن عفو الله من السعة بحيث لا يحده شيء، والشيء الوحيد الذى استثناه القرآن منه هو الشرك، لذا فقد ورد حديث عن الإمام الحسن العسكري أنه عليه السلام قال: «إن الله ليعفو يوم القيامة عفواً يحيط على العباد حتى يقول أهل الشرك والله ربنا ما كنا مشركين» «٤».

ومن جهةٍ اخرى فإنه تعالى يلقن عباده درس العفو والصفح، ويوصيهم بالعفو عن بعضهم مهما أمكنهم، راجين بذلك من الله أن يعفو

عن ذنوبهم.

(١) «عُفُو» على وزن «فَعُول» أدغم واؤها.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٧.

(٣) المصدر السابق، الكتاب ٥٣.

(٤) بحار الأنوار، ج ٦، ص ٦، ح ١٢، الباب ١٩ عفو الله.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٥٢

وقد ورد في حديث نبوي تعبير عجب يبين أهمية العفو، قال صلى الله عليه وآله: «إِنَّهُ يُنَادِي مُنَادٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ كَانَ لَهُ عَلَى اللَّهِ أَجْرٌ فَلِيَقُمْ، فَلَا يَقُومُ إِلَّا الْعَافُونَ، أَلَمْ تَسْمَعُوا قَوْلَهُ تَعَالَى «فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ»» (١). (الشورى ٤٠)

طبعاً أن العفو ليس مسألة أخلاقية فقط، بل هو مسألة اجتماعية مهمة، لأنه لو بُنى مجتمع معين على أساس الإنتقام وسفك الدماء لحل الجدل والنزاع الذى يحدث بينهم ولما عُرِفَ طعمُ للعزَّة والسكينة أبداً، لذا فقد ورد في حديث نبوي، أنه صلى الله عليه وآله قال: «عليكم بالعفو فإن العفو لا يزيد العبد إلا عزاً» (٢).

و اصطلاح (تَوَاب) هي صيغة مبالغة مشتقة من مادة (توبه) و (التوبة) - حسب رأى مقاييس اللغة - تعنى (العودة والرجوع)، وتستعمل عادةً في مجال (الرجوع عن الذنب)، كما ورد ذلك في لسان العرب.

لكن للراغب الإصفهاني تعبير آخر في المفردات حول تفسير هذه الكلمة، وهو: (التوبة) ترك الذنب بأفضل وجه ممكن، وقسيم الإعتذار ثلاثة أقسام:

الأول: هو أن يقول أحد: (إنني لم أرتكب هذا الذنب أبداً)، الثانى: أن يقول: (قد فعلت ذلك ولكن بديل كذا وكذا أى يُبرر فعلته)، والثالث: أن يقول: (فعلت وأساءت ولن أفعل هذا فيما بعد) فمعنى التوبة هذا (أى الوجه الثالث) ولا رابع لها.

وعلى أيّة حال، فعندما تختص هذه الصفة بالله تعالى فإنها تعنى إمّا قبول توبة العباد، أو توفيقهم إلى التوبة، كما قال المرحوم الكفعمى في مصباحه.

والجدير بالإنتباه أن كلمة (توبه) في القرآن الكريم عندما تُنسب إلى العباد تتعدى بحرف (إلى) مثل: «تُوبُوا إِلَى اللَّهِ». (التحریم / ٨) وعندما تُنسب إلى الله تتعدى عادة بحرف الجر (على).

وهذا التفاوت في التعبير يشير ظاهراً إلى نقطة لطيفة وهي: أن التوبة على أيّة حال تعنى

(١) سفينة البحار، ج ٢، ص ٢٠٨.

(٢) اصول الكافي، ج ٢، ص ١٠٨، باب العفو، ح ٥.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٥٣

الرجوع من الذنب، ولكن رجوع العباد من الذنب يتحقق بترك الذنب والإعتذار، أما رجوع الله فيتحقق بإرجاعه لهم اللطف والرحمة اللتين منعهما عنهم بسبب اقترافهم ذلك الذنب المعين، ولأن الرجوع هنا يخص مقاماً عالياً وسامياً عُبر عنه بكلمة (على) التى تستعمل في موارد العلو عادةً.

وذكر هذه الصفة (تَوَاب) بشكل صيغة مبالغة يشير أيضاً إلى هذه النقطة وهي: لو أذنب العبد وتاب مرّة أو مرّات، ثم تراجع عن توبته فلا ييأس من عفو الله ورحمته لأنه تعالى تَوَاب أى (كثير التوبة).

والأثر التربوي للتوبة غير خافٍ على أحد، لأنه لو كانت أبواب التوبة مغلقة في وجه العباد لكفى ذنب واحد لإقناتهم من اللطف الإلهي، والرمى بهم في دوامة ذنوبٍ أكبر، أما عندما يُشاهدون هذا الباب مفتوحاً أمامهم، وبحر الرحمة الإلهية واسعاً (بحكم كونه تعالى تواباً)، فسيندفعون إلى الرجوع من ذنوبهم وإصلاح وجبران ما صدر منهم، ويُعدُّ هذا بحد ذاته سُلماً للتكامل الإنساني. ومن جهةٍ أخرى فإنها تعطي الناس هذا الدرس وهو أن لا يتشددوا تجاه أخطاء أصحابهم، ويفتحوا أمامهم طريق العودة والإصلاح، ويعطوا لغيرهم ما يؤملونه من ربهم، أي العفو.

والتعبير الواردة في الروايات الإسلامية بصدد التوبة من الظرافة والجمال بحيث تجذب الإنسان إلى مثل هذا الخالق التواب، وتوقد في قلبه جذوة العشق الإلهي.

ورد في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «إنَّ الله تعالى أشدُّ فرحاً بتوبة عبده من رجلٍ أضلَّ راحلته وزادته في ليلةٍ ظلماءٍ فوجدَها» (١).

وفي حديثٍ آخرٍ عن النبي صلى الله عليه وآله وصف به التوبة بأنها أحبُّ الأعمال إلى الله تعالى حيث قال: «وليس شيء أحبُّ إلى الله من مؤمنٍ تائبٍ أو مؤمنةٍ تائبةٍ» (٢).

(١) أصول الكافي، ج ٢، ص ٤٣٥ باب التوبة، ح ٨.

(٢) مستدرک الکلام البحار، ج ٦، ص ٢١، باب التوبة وأنواعها، ح ١٥.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٥٤

واشتقت كلمة «جبار» من مادة (جبر) ومعناها الأصلي - كما قال الراغب -: إصلاح الشيء بضرب من القهر، ولهذا فقد تستعمل هذه الكلمة أحياناً بمعنى الإصلاح، كقول الذي يُصلح العظم: «جبرتُ العظم»، وورد في الدعاء المأثور: «يا جابر العظم الكسير». وأحياناً تستعمل بمعنى القهر والغلبة، وكما قال صاحب مقاييس اللغة: هو جنس من العظمة والعلو والاستقامة، يقال: نخله جباره للتي طالت وخرجت عن تناول اليد.

«الجبر»: يعنى إرغام الشخص على فعلٍ معين، وهي مأخوذة أيضاً من أصل القهر والغلبة.

وعلى أيّة حال، فعندما تُستعمل كلمة (جبار) بخصوص البارئ سبحانه فإنها تعنى - كما قال المرحوم الصدوق في كتاب التوحيد: «القاهر الذي لا يُنال، وله التجبر والجبروت أيّ التعظم والعظمة» (١)، أو يعنى الذي جبر مفاقر الخلق وكفاهم أسباب المعاش والرزق. كما ذكر ذلك المرحوم الكفعمي في «مصباحه» ضمن ذكره لمعانٍ أخرى (٢).

وكذلك جابر الكسر، والقنوط، والندم الحاصل من اقتراف الذنوب.

قال المرحوم الطبرسي في «مجمع البيان»: «لا يستحق أن يوصف به على هذا الاطلاق إلاّ الله تعالى فإن وصف به العباد فأنما يوضع اللفظ في غير موضعه ويكون ذمّاً لأنها تحكى عن حب الرئاسة والتكبر والظلم والفساد».

إنّ هذه الصفة الإلهية ترشدنا من جهة إلى عظمة وعلو المقام الإلهي، ومن جهةٍ أخرى إلى رحمته وعطفه وعنايته في جبر الكسر والحرمان والذنوب.

(٢) مصباح الكفعمي، ص ٣١٩.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٥٥

إن الصفات الخمس المذكورة أعلاه من صفات الفعل أيضاً، وهي مجموعة من الصفات المبينة لأنواع النعم والمواهب الإلهية، وحماية ودفاع الباري تعالى عن عباده، لهذا يُلاحظ وجود ترابط وثيق فيما بينها، ولهذا السبب أوردناها هنا في مجموعة واحدة. لنعود إلى القرآن الكريم ونمعن خاشعين في الآيات التالية:

١- «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ». (١)

(الشورى ٢٣)

٢- «فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ». (٢)

(البقرة/ ١٥٨)

٣- «لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ». (٣)

(الأنعام/ ٥١)

٤- «وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ». (٤)

(الأنعام/ ١٠٢)

٥- «أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ». (٥)

(الزمر/ ٣٦)

جمع الآيات وتفسيرها

إن كلمتي (شاكِر) و (شكور) مشتقتان من مادة (شكر) وهي تعنى - كما جاء في (فروق اللغة) - الإعراف بالنعمة من باب تعظيم المنعم، وقال صاحب (مصباح اللغة): الشكر هو الإعراف بالنعمة واداء الطاعة وترك المعصية، لهذا فقد يحصل أحياناً باللسان وأحياناً اخرى بالعمل. وقال الراغب في مفرداته: إن معناه الأصلي هو «تصوّر النعمة وإظهارها»، ويقابله (الكفر) و (الكفران): وهو نسيان النعمة وسترّها، ويُطلق تعبير (الشكور) على الحيوان الذي يُظهر آثار عناية واهتمام صاحبه من خلال السمنه، ثم قسّم الشكر إلى ثلاثة

(١) وردت كلمة «شكور» في تسعة مواضع من القرآن، أربعة منها كصفة للباري (فاطر، ٣٠ و ٣٤؛ الشورى ٢٣؛ التغابن، ١٧).

(٢) وردت كلمة «شاكِر» في أربعة مواضع من القرآن، إثنان منها فقط كصفة لله سبحانه (البقرة، ١٥٨؛ النساء، ١٤٧).

(٣) وردت كلمة «شفيع» في خمسة مواضع من القرآن، في ثلاثة منها فقط كصفة للباري سبحانه (الأنعام، ٥١ و ٧٠؛ السجدة، ٤).

(٤) وردت كلمة «وكيل» في أربعة وعشرين موضعاً من القرآن، وفي بعض هذه المواضع فقط كصفة للباري مثل: (آل عمران، ١٧٣؛ هود، ١٢؛ يوسف، ٦٦؛ القصص، ٢٨؛ النساء، ٨١ و ١٠٩؛ و...).

(٥) وردت كلمة «كافي» في موضع واحد فقط من القرآن الكريم وهو المذكور أعلاه.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٥٦

أقسام: الشكر القلبي، الشكر اللساني، والشكر العملي.

ولهذه الكلمة عدّة معان في حالة استعمالها في ما يخص الباري تعالى منها:

إنّه يتقبّل القليل من الطاعة ويعطى الكثير من الثواب، أو الذي يُعطى جزيل النعم ويرضى بما قلّ من الشكر. وهو في الحقيقة يعنى

المجازاة والمكافأة على العمل، ولكن ليس بمقدار العمل بل بمقدار لطف الخالق تعالى واعتقد البعض كالمرحوم الكفعمي في «المصباح» والمرحوم الصدوق في «التوحيد» بأن كلمة (الشكر) عندما تُستعمل بخصوص البارى تعالى تكون ذات صفة مجازية.

ولكن لو قلنا بأن معناها اللغوى هو ما ورد في كتاب (العين) أى (معرفة الإحسان)، لصدق استعمالها الحقيقي بالنسبة إلى البارى تعالى إن الوحي الإلهي الذى بين لنا هذه الصفة الإلهية يدعوننا من جهة إلى معرفة الحق تعالى الذى هو من العظمة بحيث يكافىء بالشواب الجزيل على أقل الأعمال الحسنة، فيتشكر بهذه الطريقة من عباده، ومعرفة هذه الحقيقة من قبل العباد يُعد حافزاً مهماً باتجاه عمل البر والخير، ومن جهة أخرى تعلمنا كيفية رد جميل وإحسان الآخرين، وأن لا يقتصر الرد على مقابلة ما قدمه الآخرون لنا بالمثل، بل يتعدى رد الجميل إلى مضاعفة الاحسان والبر.

وقد ورد في الدعاء المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام: «يا مَنْ يَشْكُرُ الْيَسِيرَ وَيَعْفُو عَنِ الْكَثِيرِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، إِغْفِرْ لِي الذُّنُوبَ الَّتِي ذَهَبَتْ لِدُنِّيَّهَا وَبَقِيَتْ تَبَعْتُهَا» (١).

كما ورد عنه عليه السلام أنه كُتِبَ في التوراة: «اشكرك على مَنْ أَنْعَمَ عَلَيْكَ، وَأَنْعَمَ عَلَى مَنْ شَكَرَكَ» (٢).

اشتقت كلمة (شفيع) من مادة (شفع) على وزن نفع- التي هي فى الأصل تعنى ضم شىء إلى آخر للحصول على نتيجة مطلوبة، وفى مقابلها (وتر). ويقال للشاة التى يرافقها وليدها فى التقل: (شافع)، ويُستعمل مصطلح حق الشفعة بخصوص شريكين باع أحدهما حصته

(١) اصول الكافي، ج ٢، ص ٥٨٩، باب الدعوات الموجزات، ح ٢٨.

(٢) سفينة البحار، ج ١، ص ٧١١، مادة (شكر)؛ وأصول الكافي ج ٢، ص ٩٤، باب الشكر، ح ٣.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٥٧

لرجل ثالث، لكن شريكه يريد شراء الحصّة التى باعها للشخص الثالث بنفس المبلغ، ليضم حصّة شريكه إلى حصته بهذه الطريقة.

ويُطلق على العين الحولاء (شافعة) أيضاً، لأنها ترى الواحد إثنيين، وقد وردت هذه الكلمة بمعنى المعين والمساعد أيضاً (١).

واستعملت كلمة (الشفاعة) فى مورد «طلب العفو عن ذنب شخص من قبل فرد ذى شخصيّة مرموقة»، وكأنّ الشخص المحترم- صاحب المقام- يقف إلى جوار المذنب ليتلطف صاحب الحق على المذنب ويرقّ له.

والشفاعة فى القرآن ذات بحوث واسعة، وسنبحثها بصورة مفصّلة فى سلسلة مباحث التفسير الموضوعى إن شاء الله (٢)، وما نبخته هنا هو انتخاب هذه الصفة كواحدة من الصفات الإلهية.

وعلى أيّة حال فإنّ إطلاق كلمة (شفيع) على الله سبحانه، وخاصة فى يوم القيامة، يشقّ من سلطته المطلقة، وعدم قدرة أى أحد على فعل شىء دون إذنه سبحانه، وحتى شفاعة الشفعاء كالأنبياء والأئمة والملائكة والمؤمنين المخلصين فإنها لا تُقبل إلّا بإذنه: «مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ». (البقرة/ ٢٥٥)

ولهذا السبب خاطب سبحانه رسوله الكريم فى الآية: «قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ». (الزمر/ ٤٤)

ولأنه سبحانه يُعطى إذن الشفاعة، فالشفيع الواقعى هو تعالى وكأنه سبحانه يشفع عند ذاته المقدّسة لعباده المذنبين، وهذه أسمى مراتب العظمة.

وقال جماعة أيضاً: إنّ سبب إطلاق اسم شفع او (شفيع) على الله سبحانه هو حضوره مع عباده فى كل مكان، حيث قال: «مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ» (٣)

(١) مصباح اللغة، مقاييس اللغة، لسان العرب، نهاية ابن الأثير، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، وكتاب العين.

(٢) هنالك بحث مفصل حول هذه المسألة في التفسير الأمثل، ذيل الآية ٤٨ من سورة البقرة.

(٣) مصباح الكفعمي، ص ٣٤٤، قاموس اللغة مادة (شفع).

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٥٨

لكننا نستبعد هذا المعنى لأن كلمة الشفيع تُعطى في مفهومها نوعاً من المساعدة والحماية والتكامل والتربية.

وتجدر الإشارة إلى وجود نوعين من الشفاعة: «تكوينية وتشريعية»، فالشفاعة التشريعية هي ما عُرف من شفاعة شخص وجيه عند صاحب حق لتخليص مذب من عقوبة معينة، وأمّا الشفاعة التكوينية فهي ربوبية الله على الموجودات وسوقهم نحو التكامل وفق قوانين الخلق والتكوين.

وما توحى لنا هذه الصفة من بلاغ تربوي: هو الإنتباه إلى هذه الحقيقة، وهي عدم جواز القنوط من لطف الله وعفوه ورحمته، لأنه يشفع عند ذاته المقدسة لعباده أيضاً، ويأمر الأنبياء والملائكة والأئمة أيضاً ليشفَعوا لمذنبى الأمم (طبعاً في المحل اللائق للشفاعة).

ومن المعلوم أن الإنتباه إلى هذه المسألة له أثر عميق في المنع من تكرار الذنب لكي يبقى الأمل في الشفاعة، وتبقى قابليته لنيلها محفوظة. هذا من جهة، ومن جهة أخرى أنها تعلّم العباد ليتأسوا بذلك أيضاً ويشفَعوا للنادمين والمحرومين والضعفاء.

وقد ورد في الحديث الشريف «إشفَعوا تؤجروا» (١)

أمّا كلمة (وكيل) فهي مشتقة من مادة (وَكَل) - على وزن وصل - وهي في الأصل تعنى الإعتماد على الآخرين، ولكون لازم هذا المعنى الضعف والعجز في بعض الجوانب فقد أُطلقت كلمة (وكل) على الضعفاء والعاجزين، ويُطلق (وكال) على الدواب التي تسير دائماً في مؤخره القافلة أو القطيع، وكأنها تعتمد في المسير على غيرها (٢).

وطبقاً لذلك فإن «وكيل» من يعتمد عليه، ويلتجأ إليه الإنسان في حل مشكله.

وعليه عندما تستعمل هذه الكلمة بخصوص البارى تعالى كما قال المرحوم الصدوق في كتاب التوحيد: «فإنها تعنى حافظنا وحامينا ومعتمدنا وملجأنا، نحن وجميع موجودات عالم الوجود» (٣).

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٨٤، ذيل الآية ٨٥ من سورة النساء.

(٢) مقاييس اللغة؛ مفردات الراغب؛ ولسان العرب.

(٣) توحيد الصدوق، ص ٢١٥.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٥٩

قال المرحوم الكفعمي في المصباح: «بأنها تعنى من وُكِلَتْ إليه جميع أمورنا» (١). وما قاله البعض في تفسيرها بتكفل الرزق هو في الواقع تبيان مصداق واحد، وإلا فهي ليست محدودة بالرزق فقط.

يقول الزبيدي في تاج العروس في شرح القاموس: (التوكّل) هو إظهار العجز والإتكاء على الغير، هذا من حيث اللغة، وأمّا عند أصحاب الحقيقة، فهو الأعتدال على ما عند الله واليأس ممّا في أيدي الناس، «المتوكّل على الله» يُطلق على من يعتقد بأن الله يكفيه رزقه وجميع أموره، يتكّل على الله وحده لا على غيره (٢).

يُستنتج من الآيات القرآنية بوضوح أن توكل المؤمنين على الله وحده من شؤون التوحيد، لأن كل شىء وكل أمر يرجع إليه، كما ورد في قوله تعالى: «وَالِيهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ». (هود/ ١٢٣)

وكذا في قوله تعالى «وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ». (إبراهيم / ١٢)

لَمْ لَا تَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَنَعْتَمِدُ عَلَيْهِ فِي جَمِيعِ أُمُورِنَا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ!؟ قَالَ تَعَالَى «وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ». (الشعراء / ٢١٧)

إنَّ البلاغ الذي تعطينا إياه هذه الصفة الإلهية هو أنها توصينا بعدم الضياع في عالم الماديات وعدم الإنخداع بالقدرات المادية الظاهرية، وعدم الاعتماد والإتكال على المخلوقات الضعيفة العاجزة، بل التوكُّل فقط على الذات الإلهية المقدسة، والإستعانة به سبحانه فقط والثوق به والخضوع لحضرة جلّ وعلا فقط.

ومن جهةٍ أخرى علينا أن نسعى ونبدل ما في وسعنا لنكون عوناً للآخرين من باب التخلُّق بأخلاق الله، ونحاول حل مشاكلهم تقريباً إلى الله تعالى

وقد ورد في حديثٍ عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «التوَكُّل على الله نجاةٌ من كُلِّ سوءٍ وحرزٌ من كُلِّ عدوٍ» «٣».

(١) مصباح الكفعمي، ص ٣٢٦.

(٢) تاج العروس، مادة (وكل).

(٣) بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٧٩، باب ما جُمع من جوامع الكلم، ح ٥٦.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٦٠

أمّا كلمة (كافي) فهي مأخوذة من مادة (كفاية) طبقاً لما جاء في مقاييس اللغة ولسان العرب- وهي تعني الإقدام على عملٍ معينٍ والتمكُّن منه، ولكن الراغب يقول في مفرداته: (الكفاية) هي رفع حاجةٍ والوصول إلى المقصود، و (كُفِيَة)- على وزن كنية- تعني الغذاء الكافي، و (كفَى)- على وزن (خفَى)- تعني المطر الذي يحلُّ مشكلة الجفاف «١».

وعندما تُستعمل هذه الكلمة بخصوص الله سبحانه فإنها تعني المدير لأُمور عباده وحلال مشاكلهم والمبَلِّغ- من يتوَكَّل عليه- مناه دون أن يكله إلى غيره.

وقد مرّ علينا في الدعاء: (يا كافي المهمات) أو مثله (يا كافي من كُلِّ شَيْء).

إنَّ مفهوم هذه الصفة الإلهية ذو جانبين، فمن جهةٍ يزيل سُحْب اليأس والقنوط المظلمة عن سماء روح الإنسان، ويمنع من استسلام وركوع الإنسان لعظمة حجم المشاكل، لأنَّه (أى الإنسان المؤمن) يعلم أنَّ معبوده يُدعى بالكافي ويكفيه ما يهَمُّه من أموره ومشكلاته، قال تعالى «أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ؟!». (الزمر / ٣٦)

ومن جهةٍ أخرى، ومن باب التخلُّق بأخلاق الله، يلهمه الجِدُّ والاجتهاد في كفاية الضعفاء والمحرومين أمورهم مهما أمكنه، ويعكس شعاعاً من أنوار الصفات الإلهية في نفسه في هذا المجال.

٤٤- الحسيب ٤٥- سريع الحساب ٤٦- أسرع الحاسبين ٤٧- سريع العقاب ٤٨- شديد العقاب

تشير الصفات الخمس المذكورة أعلاه، والتي هي من صفات الفعل، إلى مسألتي الحساب والعقاب بصورةٍ عامّة، وتُعدُّ تحذيراً للعباد ليراقبوا أعمالهم خشيةً اقتراف الذنوب والتخلُّف عن أداء الوظائف والتعدّي على حقوق الآخرين، ولا ينسوا في حالات الضعف

(١) تاج العروس في شرح القاموس، مادة (كفى).

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٦١

والقدرة، والفقر والغنى حقيقةً كونهم دائماً بين يدي الله الحسيب، سريع العقاب، وشديد العقاب، وقد وردت هذه الصفات الإلهية في

آيات قرآنية عديدة، لتأمل في قسم منها خاشعين:

- ١- «وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا» (١). (النساء / ٦)
- ٢- «وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ» (٢). (البقرة / ٢٠٢)
- ٣- «وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ» (٣). (الأنعام / ٦٢)
- ٤- «إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ». (٤) (الأنعام / ١٦٥)
- ٥- «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ» (٥). (البقرة / ١٩٦)

جمع الآيات وتفسيرها

كلمة (حسيب) مشتقة من مادة (حساب)، وقد ذكر في مقاييس اللغة عدّة معانٍ لها هي:

العدّ، الكفاية، و (حسبان) تعنى نوع من الوسائد الصغيرة، و (أحسب) تعنى مرض جلدى، لكن كتاب التحقيق أرجع جميع هذه المعانى إلى معنى واحد وهو البحث للإطلاع على حال شىء معيّن والتحقيق عنه، ولكون العدّ وسيلةً لتحقيق هذا المعنى كما أنّ الكفاية من لوازمه ونتائجه، فإنّها استعملت في هذا المجال أيضاً.

- (١) وردت كلمة «حسيب» في أربعة مواضع من القرآن الكريم، في ثلاثه منها كصفة للبارى تعالى (النساء، ٦ و ٨٦؛ الأحزاب، ٣٩) وفي موضع واحد كصفة من صفات الإنسان في يوم القيامة عندما يُعطى كتابه بيده. (الاسراء، ١٤).
- (٢) وردت هذه الصفة في ثمانية مواضع من القرآن الكريم ممّا يدلّ دليلاً واضحاً على أهميتها (سورة البقرة، ٢٠٢؛ سورة آل عمران، ١٩ و ١٩٩؛ سورة المائدة، ٤؛ سورة الرعد، ٤١؛ سورة ابراهيم، ٥١؛ سورة النور، ٣٩؛ سورة غافر، ١٧).
- (٣) وردت هذه الصفة في موضع واحد فقط من القرآن الكريم وهو المذكور أعلاه.
- (٤) وردت هذه الصفة في موضعين من القرآن الكريم هما: الآية المذكورة أعلاه والآية ١٦٧ من سورة الأعراف.
- (٥) تكررت هذه الصفة أربع عشرة مرّة في القرآن مما يُعدّ دليلاً على أهميتها (سورة البقرة، ٢١١ و ١٩٦؛ سورة آل عمران، ١١؛ سورة المائدة، ٢ و ٩٨؛ سورة الأنفال، ١٣٣، ٢٥، ٤٨ و ٥٢؛ سورة الرعد، ٦؛ سورة غافر، ٣ و ٢٢؛ سورة الحشر، ٤ و ٧).

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٦٢

فكلمة (حسب) على وزن نسب، تعنى كون الآباء والأجداد ذوى شخصيات ومقامات يُمكن ذكرها! وكذا (احتساب المصيبة) فإنّها تعنى احتساب المصيبة على الله وطلب ثوابه.

«حسبان»: على وزن (غفران) وتعنى الصاعقة والعذاب، لأنّها العقوبة التى يلقاها بعض الأقوام بعد حساب أعمالهم.

وعلى آية حال، عندما تُستعمل كلمة (حسيب) بخصوص البارى سبحانه- كما قال المرحوم الصدوق رحمه الله- فإنّها تعطى أحد المعانى الثلاثة التالية: الذى أحصى كل شىء فى الوجود وهو عليم وخبير به، والذى يتولّى محاسبة العباد فى القيامة ومجازاتهم، والذى يكفى أمور العباد (١).

ولكن يُفهم من الآيات القرآنية أنّ هذه الكلمة تعنى «تولّى الحساب» لأنّها جاءت بهذا المعنى على الأقل فى ثلاثة مواضع من المواضع الأربعة المذكورة فى القرآن الكريم.

ومن هنا يتضح أنّ كلمة (حسيب) متقاربة مع صفتى (سريع العقاب)، و (أسرع الحاسبين)

وللمفسرين آراء مختلفة حول سبب اتصاف البارى بصفة (أسرع الحاسبين).
يقول القرطبي في تفسيره: (لأنه لا تحتاج محاسبته إلى أى نوع من التفكير) «٢».
ويقول الألوسى فى روح المعانى: لأنه سبحانه يحاسب جميع الخلق بأسرع وقتٍ دون أن تشغله محاسبه فردٍ عن محاسبه غيره «٣».
وقد أورد المرحوم الطبرسى نفس هذا المعنى فى مجمع البيان «٤».
وقد وردت تعابير ظريفة حول هذا الموضوع فى الأحاديث الإسلامية أيضاً، فقد نُقِلَ عن أمير المؤمنين على عليه السلام أنه قال: «معناه انه يحاسب الخلق دفعةً كما يرزقهم دفعةً» «٥».

(١) توحيد الصدوق، ص ٢٠٢، ووردت هذه المعانى الثلاثة فى كتاب مصباح الكفعمى أيضاً، ص ٣٢٤.

(٢) تفسير القرطبي، ج ٤، ص ٢٤٤٣.

(٣) تفسير روح المعانى، ج ٧، ص ١٥٤.

(٤) تفسير مجمع البيان، ج ٢، ص ٢٩٨، ذيل الآية ٢٠٢ من سورة البقرة.

(٥) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٦٣

وفى حديثٍ آخر: «إنَّه تعالى يُحاسب الخلائق كلَّهم فى مقدار لمح البصر» «١».

وورد فى حديثٍ آخر: «إنَّه سبحانه يُحاسب جميع عباده على مقدار حلب شاء» «٢».

وقد اورد المفسرون الآخرون أيضاً نفس هذه التعابير تقريباً ولكن الحق أن أى واحدٍ منها لا يمكنه تبيان عمق الكلمات المذكورة،
والحقيقة يجب القول: إنَّ الله لا يحتاج إلى حساب لأنَّ جميع أعمال العباد ماثلة بين يديه فى آنٍ واحد.

والظريف هو ما توصلت إليه العقول الألكترونية المصنوعة التى تستطيع القيام بمئات الملايين أو المليارات من الحسابات الرياضيه فى
ثانية واحدة أو عدَّة ثوان، ممَّا يدل على عمق ما توصلت إليه سرعة الحساب فى عصرنا الحالى!

ففى الوقت الذى يستطيع البشر - بكل ضعفه ونقصه - التوصل إلى هذه السرعة الحسائية، فلا توجد حاجة إذن إلى توضيح (إثبات)
سرعة حساب القادر العلى الذى قدرته غير محدودة وعلمه غير متناه.

وكما أشرنا فى التفسير الأمثل أيضاً، أن آثار أعمال الإنسان ستبقى وتتضاعف وتصير بذاتها خير وسيلة للحساب، وهى على وجه
التشبيه كالمعامل التى تحتوى مكائنها على عدادات لإحصاء عدد دورات الماكنة أو كالمسيارات التى يتصاعد العدد الذى يعده عداد
المسافة الموجود فيها كلما قطعت مسافة أكبر، فلا توجد حاجة إلى الحساب لمعرفة معدّل عمل مكائن ذلك المعمل أو المسافة التى
قطعتها هذه السيارة، فكل شىء واضح ومُهَيَّأ.

لهذا يجب أن ندرك إن علم الله اللامحدود وأن ديمومه حضور البارى فى كل مكانٍ من عالم الوجود من جهة، وبقاء آثار الأعمال
وتراكمها من جهةٍ اخرى سيؤدى إلى تسريع حساب الخلائق كلَّها كلمح البصر.

إنَّ التعليمات التى تحملها هذه الصفات الإلهية (حسيب، سريع الحساب، أسرع الحاسبين) هو أنها تحذّر جميع الناس من تناسى أبسط
الذنوب وأصغرها، وتجعلهم على

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٢، ص ٢٩٨، ذيل الآية ٢٠٢ من سورة البقرة.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٣١٣ وروح المعانى، ج ٧، ص ١٥٤.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٦٤

يقين بأن الذي يحاسبهم هو مَنْ لا تخفى عليه ذرّة من أعمال الناس الصالحة والطالحة، وأن النسيان لا يجدى نفعاً في محوها، وسينهى تعالى حساب جميع هذه الأعمال يوم القيامة بلمحة بصر، هذا من جهة، ومن جهة أخرى تلقن الناس درس المحاسبة في جميع أمور الحياة، ليحسبوا لكل عملٍ وكل شيءٍ وكل أمرٍ من حياتهم حسابه دون أن يتركوه سُدىً.

أمّا كلمة «عقاب» فهي مشتقة من مادة (عَقِب) على وزن (حَسِن) المستعملة بمعنى كعب القدم، وأطلقت فيما بعد على مؤخره كل شيء، ولكن ذكر لها في مقاييس اللغة معنيان:

الأول تعاقب شيء مع آخر، والثاني: المرتفع والشدة والصعوبة (لذا وردت عَقَبَةٌ بمعنى منعطف).
وإنما أُطلق على عقوبات الأعمال (عقاب) لكونه عذاباً يصيب الإنسان عقب ارتكابه الأعمال السيئة.
وكذلك يُطلق على الأولاد والأحفاد (أعقاب) لأنهم يأتون عقب الأب والجد، ويطلقون على الطير المعروف اسم العقاب لأنه يعقب فريسته بسرعة.

وعلى أيّة حال فإن وصف البارى بصفه (شديد العقاب) لا يعنى أبداً أن يتجاوز عقابُه على مقتضى أصول العدالة بل لكون مجازاته وعقوباته دنيويةً وأخرويةً، جسميةً وروحيةً، ولا يأمن منها أى أحد من المجرمين، ولا تقوى أيّة قدرةٍ على التصدى لها.
فقد يهلك الله قريّةً ظالمةً في لحظةٍ واحدةٍ أحياناً، فيمطر حجارةً على الأشرار، وأحياناً يأمر أمواج البحر لتغرق فرعون وجنده والمتغطرسين في زمن قصير لتحيلهم طعاماً لأسماك البحر.

وأحياناً يأمر الريح العاصفة لتهلك الظالمين وتذرى قصورهم في الفضاء وترمى بها في نقاطٍ نائيةٍ.
وأحياناً يرسل طيراً أبابيل لترمى أصحاب الفيل بحجارةٍ من سجيلٍ وتهلكهم وتجعلهم كعصفٍ مأكولٍ لئلا تمنعهم من التقدم لهدم الكعبة.
وبالتالى يأمر الله تعالى السماء لتمطر مطراً غزيراً ويأمر عيون الأرض لتتفجر بالماء فيغطي سطح الأرض سيلٌ عظيمٌ ولا يُبقى عليها إلا سفينة النجاة للأطهار المحسنين!

أجل إنّه شديد العقاب في المحل المناسب، وهذه الصفة تُعدُّ تحذيراً لكل الذين

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٦٥

يستهيون بمعصية البارى ويرتكبون ما شاؤوا من الذنوب دون أن يتفكروا في عواقبها، مستغلين لطف البارى وكرمه.
أجل إنّه «أرحم الراحمين» ولكن في موضع العفو والرحمة، وأشد المعاقبين في موضع النكال والنقمة!
اللهم عاملنا بلطفك ورحمتك، وخلصنا من أسر عذابك، فنحن نُقرُّ لك بذنوبنا، ونعتذر إلى جنابك من تقصيرنا.

٤٩- نصير ٥٠- نعم النصير ٥١- خير الناصرين

لا شك أن قدرة الإنسان المحدودة غير قادرة على حلّ المشاكل اللامتناهية، ولولا عناية البارى في عالم التكوين والتشريع، لما وصل الإنسان إلى مقصوده ولصّل الهدف العظيم الذى خُلِقَ من أجله، وهو التكامل والتقرّب من الله، في هذا العالم المتلاطم.
فالله العظيم هو الذى يعين الإنسان ويمدّه بعنايته عن طريق القوانين التكوينية والتشريعية وإمداده الظاهر والخفى، ويأخذ بيده إلى حيث بلوغ الهدف المنشود متجنباً طرق الحياة الملتوية.

لنمعن خاشعين في الآيات التالية الواردة في هذا المجال:

١- «وَكَفَى بِاللَّهِ وَبِئَا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا» (١). (النساء / ٤٥)

٢- «وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ» (٢). (الحج / ٧٨)

٣- «بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ» (٣). (آل عمران / ١٥٠)

(١) وردت كلمة «نصير» في أربعة وعشرين موضعاً من القرآن، وفي عدة مواضع منها فقط كصفة لله، مثل (النساء، ٤٥؛ الفرقان، ٣١؛ البقرة، ١٠٧).

(٢) وردت صفة نعم النصير في موضعين من القرآن وفي كليهما وردت كصفة لله، أحدهما الآية المذكورة أعلاه والاخر الآية ٤٠ من سورة الانفال.

(٣) وردت صفة «خير الناصرين» مرّة واحدة فقط في القرآن وهي كصفة للباري تعالى

نفحات القرآن، ج٤، ص: ٢٦٦

جمع الآيات وتفسيرها

كلمة (نصير) و (ناصر) من مادّة (نصر) على وزن (عصر) وهي بالأصل تعنى عمل الخير وإعطائه- كما قال صاحب مقاييس اللغة-، أمّا الراغب الاصفهاني فقد قال: إنها تعنى المعونة، وقال صاحب كتاب لسان العرب بأنها تعنى معونة المظلوم، وجميع هذه التفاسير تعود إلى معنى واحد تقريباً.

وأحياناً يُطلق على المطر (نصر)، وعلى الأرض التي تعرّضت للأمطار (منصورة)، وعلى مسير ومجاري المياه (نواصر)، وكلّ ذلك بسبب الإمدادات التي توصلها الأمطار للموجودات الحيّة.

وهذه الكلمة عندما تستعمل كصفة من الصفات الإلهية فإنها ترمز إلى الامداد الإلهي اللامتناهي الذي يمدّ به سبحانه عباده.

فالنطفة تنتهل من منهل الامداد الإلهي منذ اللحظة الأولى لدخولها الرحم، وتُحاط من كل جانب بالنصر الإلهي عن طريق القوانين التكوينية، وتقضى بعنايته سبحانه مراحل التكامل بسرعة، حتى تنتهي من مرحلة الجنين ويأتي الإذن الإلهي في الولادة.

ولا تزال يد العناية الإلهية محيطةً به وترعاه كراعية الأم التي توفر له الحليب ذلك الغذاء الكامل الشامل لأنواع مواهب الحياة، فكل هذه الأمور أشعةً وأنواراً من ألوان النصر الإلهية في هذه اللحظات الحساسة.

وعندما يبلغ هذا الإنسان ويخضع للقوانين الإلهية التشريعية يضع يده في يد الأنبياء ويُظله الله بظلّ الوحي والكتب السماوية.

وهو- أي الإنسان- مُهدّدٌ طيلة حياته بالموانع والآفات من جهة، والشياطين والأهواء النفسانية من جهةٍ اخرى، فلولا نصره (خير الناصرين) لما نجا أحدٌ من هذه المخاطر العظيمة.

والتفكر بهذه الحقيقة يُلهم الإنسان الأمل من جهة، ويكشف عن سماء روحه سُحب اليأس والقنوط المظلمة في مواجهته المشاكل طيلة حياته، ويثبت أقدامه ويقوى عزمه

نفحات القرآن، ج٤، ص: ٢٦٧

وإرادته ويجعل قراراته حديّة قوية لطيّ طريق التربية والتكامل.

ومن جهةٍ اخرى فإنّ (التخلق بأخلاق الله) يعلمه هذه الحقيقة، وهي أن يكون للمظلومين عوناً، وللمحرومين ناصراً ونصيراً.

٥٢- القاهر ٥٣- القهار ٥٤- الغالب

أشرنا فيما مضى إلى أنّ بعض الصفات الإلهية يمكن أن تكون ذات بعدين، ذاتي وفعلي ولكن بمفهومين.

ويُمكن أن تكون صفتا (القاهر) و (القهار) من هذا القبيل، فلو اعتبرناها مرادفةً لصفتي (قادر) و (قدير) لصارت من صفات الذات، أمّا

لو حُمِلَتْ على مفهوم القهر والغلبة الفعلية الخارجية لصارت من صفات الفعل.

وعلى أية حال فإن قدرته غير متناهية ومن جميع الجوانب فهو قاهر وغالب لكل شيء بالطبع، ومسيطر على جميع الأمور، لا مانع يحول دون مشيئته، ولا يصعب عليه أى أمر.

وقد وردت هذه الصفات الإلهية الثلاث فى الآيات القرآنية، فلنتأمل خاشعين فى الآيات التالية:

١- «وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ». (١)

(الانعام / ١٨)

٢- «أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ». (٢)

(يوسف / ٣٩)

٣- «وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ». (٣)

(يوسف / ٢١)

(١) وردت كلمة «قاهر» فى موضعين من القرآن الكريم (الانعام، ١٨ و ٦١).

(٢) وردت كلمة «قَهَّار» فى ستة مواضع من القرآن الكريم جميعها كصفة من صفات البارئ. (يوسف، ٣٩؛ الرعد، ١٦؛ ابراهيم، ٤٨؛ ص، ٦٥؛ الزمر، ٤؛ غافر، ١٦).

(٣) وردت كلمة «غالب» فى ثلاثة مواضع من القرآن الكريم، ولكن فى موضع واحد منها فقط كصفة لله سبحانه، وتكررت كلمة (غالبون) - بصيغة الجمع - ست مرات.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٦٨

جمع الآيات وتفسيرها

كلمة (قاهر) و (قَهَّار) من مادة (قهر)، وهى بالأصل - كما جاء فى (مقاييس اللغة) - تأتى بمعنى الغلبة والتفوق، لذا يُطلق على الصخور القويّة (قَهقر)، وقال الراغب فى مفرداته: إنَّ (القهر) معناه النصر المصحوب بإذلال الطرف المقابل، لذلك تستخدم فى كلا المعنيين، وقال الخليل بن أحمد فى كتاب العين: (القهر) معناه الغلبة والتسلط على أحد أو شىء معيّن، وجاء بهذا المعنى فى «لسان العرب» و «تاج العروس».

وعندما تُستعمل كلمة (قاهر) و (قَهَّار) بخصوص الله سبحانه وتعالى فإنّها تأتى بمعنى التغلب على جميع الجبابرة، والتسلط على جميع المخلوقات، وعجزها جميعاً إزاء إرادته وأمره عزّ وجلّ، بحيث لا يستطيع أى موجود أن يحول دون مشيئته وإرادته، ولكن لكون (قَهَّار) من صيغ المبالغة فإنّها تعطى نفس هذا المفهوم وتبيّنه بتوكيد أكثر.

والبلاغ الذى تحمله هاتان الصفتان الإلهيتان فى طياتهما للمؤمنين، هو أنّهما تحدّران المؤمنين من غرور النفس والظلم والشعور بالتسلط والغلبة، لأنّ غرور السلطة كان مصدر الكثير من التعاسة وحالات الفشل على مدى التاريخ، بل يجب عليهم أن يعتبروا أنفسهم خاضعين لإرادة الله، ويعتقدوا بأنّ ليس لقدرتهم أدنى تأثير على الإرادة الإلهية، ولا ريب من أنّ الإنتباه إلى قاهريه وقهاريه الله يمكنها أن تصدّ الإنسان عن التهور عند الغلبة.

أمّا كلمة (غالب) فهى من مادة (غلبه) وتأتى بنفس معنى القهر، وتدلل على القوة والشدة والغلبة، لهذا يُطلق على الأفراد المتمرّدين (أغلب)، و (مغلب) وتعنى المنتصر على عدوّه (١).

ولكون مفهوم (غالب) يشبه مفهوم (قاهر)، فإن هذه الصفة الإلهية تعطى نفس البلاغ السابق أيضاً للعباد وأهل المعرفة والسلوك. والظريف بالأمر هو أن الأديان المذكورة عندما تتحدث عن قاهريه وغلبه الله على جميع الأشياء تختتم بالعبارة التالية: «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ». أجل لأنهم لا يعلمون بأن زمام عالم الوجود بيد الله تعالى!

(١) مقاييس اللغة؛ ومفردات الراغب؛ ولسان العرب.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٦٩

أجل إن أمر الله تعالى نافذ، فالماء والهواء والتراب كلها مُسلمة لأوامره تعالى ولأنهم لا يلتفتون إلى هذه الحقيقة يتيهون في عالم الأسباب فيفرحون إذا ما كانت الأسباب مساعده ويقنطون بخلافها، في حين لو كان لهم إيمان بغلبة الباري وقاهريته لما دب اليأس في قلوبهم أبداً، ولما غرّتهم الانتصارات أيضاً. وبالمناسبة، إن الآية المذكورة تحدثت عن يوسف عليه السلام الذي أراد إخوته أن يقتلوه ولكنهم ألقوه في غيابة الجب، آملين أن يخلو لهم وجه أبيهم (أى حبه)، لكن الله جعل كيدهم سبباً في وصوله إلى السلطنة! أجل، إن من إحدى أشكال قاهريه الله، هي أن يجعل وسائل غلبه ونجاة الإنسان على يد عدوه في أكثر الأحيان، وهذه هي الحقيقة التي يجهلها أغلب الناس ولا يعلمونها.

٥٥- السلام ٥٦- المؤمن

إن صفة (السلام) هي اسم آخر من أسماء الله الحسنى التي لها معنيان، فعلى أساس تعتبر من صفات الذات، وعلى أساس آخر تُعد من صفات الفعل، فإذا كانت صفة (السلام) بمعنى السلامة من أى لونٍ من العيوب والنقائص والآفات- فهي من صفات الذات (الصفات السلبيّة) وهي تناظر صفة (القدوس) تقريباً، أما لو كانت بمعنى سلامة الناس من ناحيته تعالى وتركه لأى لونٍ من ظلم العباد ورعايته للعدل والإنصاف معهم- لصارت من صفات الفعل.

أجل، إنّه سلامٌ لدرجةٍ بحيث لا يستوحش أو يهاب سالكو طريق قربه من صدور ظلم أو إجحافٍ من ناحيته سبحانه، علاوةً على ذلك، فهو المؤمن الذى يمنح أحبائه السكنية والأمان، وقد وردت هذه الصفة في موضعٍ واحدٍ فقط من القرآن الكريم وهو قوله تعالى «هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ». (الحشر/ ٢٣)

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٧٠

جمع الآيات وتفسيرها

إن كلمة (سلام) ذات مفهوم مصدرى، وأحياناً يستعمل هذا المصدر كصفة، فمعناه فى الحالة الأولى كما ورد فى مقاييس اللغة- (الصحة والعافية)، وإنما سمى (الإسلام) بهذا الاسم لأنه يمنع الإنسان من معصية الحق ومخالفته، يُحفّزه على الانقياد والطاعة، وكذلك سميت (التحية) سلاماً لأنها دعاء للسلامة.

وتستعمل كلمة (سلام) بمعنى (الصلح) أيضاً، لأنه سلامٌ من الحرب وسفك الدماء، ويُسمى المبلغ الذى يُدفع كمقدمة لشراء شىء (سَلَم) لعدم امتناع المشتري عن دفع المبلغ المذكور على الرغم من عدم استلامه ذلك الشىء الذى اشتراه، وسمى السَلَمُ بهذا الاسم

لكونه الوسيلة التي يصعد وينزل بها الإنسان من المكان المرتفع بسلام.

وعلى أية حال، عندما تستعمل هذه الكلمة كصفة من صفات البارئ تعالى تكون ذات معانٍ مختلفة:

فقد قال البعض: إنها تعني المنزه عن كل عيبٍ ونقصٍ وفناءٍ وعدمٍ يصيب المخلوقات «١».

وقال البعض الآخر: إنها تعني الذي يواجهك بسلام دون أن يؤذيك «٢».

وقال آخرون: إنها تعني الوجود الذي يفيض على الآخرين بالسلامة والسكينة والأمان «٣».

ولكن لا يوجد أي دليل على تحديد هذه الصفة وحصرها بأحد المعاني المذكورة، بل إنها ذات مفهوم أوسع وأشمل بحيث يضم جميع هذه المعاني، فهو سالمٌ من أي عيبٍ ونقصٍ، وسالمٌ من الفناء والعدم، وسالمٌ من الظلم والجور على عباده، وهو واهب السلامة. وبلاغ هذه الصفة هو أنها تمنح الإنسان المؤمن الشعور بالأمن والإطمئنان من العدل الإلهي، ويدفع به إلى الاحتراز من الاعمال التي تمس سلامة روحه وبدنه، هذا من جهة،

(١) مقاييس اللغة، مصباح الكفعمي، لسان العرب، مجمع البحرين.

(٢) تفسير الميزان، ج ١٩، ص ٢٥٦.

(٣) مصباح الكفعمي، ص ٣١٨؛ وفي ظلال القرآن، ج ٨، ص ٥٠.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٧١

ومن جهةٍ أخرى فإنَّ التخلق بهذه الصفة الإلهية يقول للإنسان: كُن بحيث يسلم من لسانك وبدنك جميع الناس وكن ذا صلحٍ وصفاءٍ معهم جميعاً.

أما كلمة (مؤمن) فهي مأخوذة من مادة (أمن)، كما قال صاحب مقاييس اللغة، وهي ذات معنيين متقاربتين من بعضهما: أحدهما هو الأمانة في مقابل الخيانة التي تبعث على سكون القلب، والآخر هو التصديق بشيءٍ معين.

ولكن لم يذكر الراغب في مفرداته سوى معنى واحد وهو سكون النفس وزوال الإضطراب والخوف، ولكون قبول الأصول العقائدية يمنح الإنسان السكينة والأمان فإنه سُمي بمصطلح (الإيمان)، وقولنا آمين بعد الدعاء معناه: «اللهم صدق ذلك وحقِّقه»، لذا فقد فسروه بمعنى طلب الاستجابة، وكذلك يُسمى البعير المطمئنُ النشط الذي لا يزلُّ (أمون).

وعلى أية حال، عندما تستعمل هذه الكلمة كأسم من أسماء الله وندعوه بـ «المؤمن» فإنها تعني من يمنح أوليائه وأحباءه الأمان ويترحم عليهم بالإيمان، وقال البعض: إنه تعالى يدعى بهذا الاسم لأنه أول من آمن بذاته المقدسة وصدقها.

وقد احتل الفخر الرازي، في تفسيره، هذا الإحتمال أيضاً وهو أن وصف البارئ بصفة المؤمن معناه المصدقُ رسلاً بإعطائهم المعجز «١». وقد قال المرحوم الكفعمي في مصباحه:

«يحتمل أن يكون مفهومها من يُصدق وعوده التي وعد عباده بها، ويحققها»، ثم نقل حديثاً عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «سُمي سبحانه مؤمناً لأنه يؤمنُ عذابه من أطاعه»، وقال البعض الآخر من المفسرين: «المؤمن من يؤمنُ ظلمه وجوره عباده» «٢»، وقد ذكر لها في تفسير «روح البيان» معنىً جامعٌ يضم أغلب المعاني المذكورة أعلاه وهو: المؤمن والذي لا يتحقق أي أمانٍ وسكينةٍ إلا من عنده.

وقد ذكر المرحوم الصدوق في كتاب التوحيد ثلاثة معانٍ لها: «من يحقق وعوده، ومن

(١) تفسير الكبير، ج ٢٩، ص ٢٩٣.

(٢) تفسير القرطبي، ج ٩، ص ٦٥٢٥ (ذكر هذا المعنى كأحد الاحتمالات).

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٧٢

يعلم عباده حقيقة الإيمان عن طريق آياته ودلائله، ومن يؤمن ظلمه وجوره عباده» (١).

ولكن الحق هو أن مفهوم (المؤمن) لا يتحدد بأى واحد من هذه المعاني، بل لها معنى جامعٌ يشتمل على جميع ما ذكرناه، واستعمال كلمة (مؤمن)، كصفه من صفات الله، في هذا المعنى الشامل لا يستوجب استعمال اللفظ في معانٍ مختلفة، لأنها شاملة بما فيه الكفاية (علاوة على عدم وجود مانع من استعمال لفظ مشترك في معانٍ متعددة).

لذلك فهو (المؤمن)، لأنه يؤمن عباده المؤمنين من عبدة نواح، وأيضاً لأنه يوجد روح الإيمان في قلوب عباده عن طريق إراءتهم آياته في الافاق وفي أنفسهم، علاوة على أنه يصدق ويؤيد رُسله عن طريق إظهار المعجزات، وكذلك لأنه يفى بما وَعَدَ به عباده من الثواب والعقاب.

أما البلاغ الذي تحمله هذه الصفة الإلهية في طياتها فهو أنها تبين عظمة مقام (المؤمن)، لأن هذا الاسم هو أحد أسماء الله، هذا من جهة، ومن جهة أخرى إن الإنسان المؤمن يحس بالأمن والسكينة في ظل هذه الصفة لأنها مصدر جميع أنواع الأمان. ومن جهة ثالثة أن الإنسان المؤمن في حال التخلق بهذه الصفة الإلهية، يسعى لمشاركة الآخرين في هذا الأمان فيؤمن الناس من لسانه ويده وفكره أيضاً!

لذا فقد ورد في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «المؤمن من آمن جازةً بوائقه».

وقال أيضاً: «المؤمن الذي يأتمنه المسلمون على أموالهم وأنفسهم» (٢).

٥٧- المحيي

تعد مسألة الحياة من أبرز آيات الله في عالم الوجود، فالحق أن الكائنات الحية أعقد

(١) توحيد الصدوق، ص ٢٠٥ (باب أسماء الله تعالى .

(٢) كلا الحديثين عن توحيد الصدوق، ص ٢٠٥، والحديث الأول ورد أيضاً في أصول الكافي، ج ٢، ص ٦٦٨ (باب حق الجوار، ح ١٢).

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٧٣

وأعجب آثار عظمتها (جلّ وعلا)، لهذا فقد استند إليها القرآن كثيراً في مباحث التوحيد وذكر الله سبحانه وتعالى باسم (محيي الموتى

مع أن كلمة (محيي) لم ترد في القرآن سوى مرتين: «إِنَّ ذَلِكَ لُمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ». (١) (الروم/ ٥٠)

وهي كما تلاحظون تتحدث عن إحياء الموتى لكن مشتقاتها وردت تكراراً في آيات عديدة من القرآن حول حياة وموت النباتات، الحيوانات، البشر، وتعتبر من أهم صفات الفعل الإلهي.

جمع الآيات وتفسيرها

إن كلمة (محيي) مشتقة من مادة (حياة) التي لها معنيان - كما ذكر ذلك في مقاييس اللغة:

الأول: بمعنى الحياة أى ضد الموت، والثانى: بمعنى الحياء أى ضد الوقاحة والتهور.

ولكن بعض المحققين أرجعوا المعنى الثانى إلى المعنى الأول وقالوا: الحياء أو الخجل بمعنى انقباض النفس إزاء الرذائل من آثار الكائن الحى، أو بتعبير آخر الحياء هو حفظ النفس من الضعف والنقصان والعيب والسوء.

والجدير بالذكر هو أن (حى) أحد أسماء المطر، لأنه مادة حياة الأرض، ويطلق أيضاً على القبيلة اسم (حى) لأنها تحتوى على حياة اجتماعية، ويطلق على الأفعى الكبيرة (حية) أيضاً لأنها تتمتع بكامل صور الحياء ولها قابلية كبيرة على الانتقال والتحرك «٢».

وقد ذكر الراغب فى مفرداته ستة مصاديق للحياة هي:

١- الحياة النباتية، ٢- الحياة الحيوانية، ٣- الحياة العقلية للإنسان، ٤- الحياة العاطفية (زوال الهم وحصول النشاط واللذة)، ٥- الحياة الأخروية الخالدة، ٦- الحياة التى هى إحدى صفات الله (وتعتبر أكمل وأتم أنواع الحياة أى كمال العلم والقدرة).

(١) (الموضع الثانى) سورة فصلت الآية ٣٩: «إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

(٢) مقاييس اللغة؛ المفردات؛ لسان العرب؛ نهاية ابن الأثير؛ والتحقيق فى كلمات القرآن الكريم.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٧٤

ويمكن تصور أنواع اخرى من الحياة، ومن جملتها الحياة المعنوية أى الإيمان، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى فى آيات عديدة.

وعلى أية حال فقد تجلت صفة «المحى» فى الله سبحانه وتعالى من عدة جهات: فى عالم النبات حيث نلاحظ أن الكرة الأرضية مغطاة من أقصاها إلى أقصاها بأنواع مختلفة من الأشجار، الأزهار، الأعشاب الصغيرة والكبيرة، المائية والبرية، فى الغابات وفى الصحراء، الطيبة والغذائية، بحيث إن التدقيق فى تنوعها وعجائبها يهدى الإنسان إلى ذلك المبدى العظيم لعالم الوجود. وأما فى عالم الحيوان فقد خلق سبحانه أنواع وأقسام الأحياء المائية والبرية، الطيور، الحشرات، الحيوانات الوحشية والأليفة، الأحياء المجهرية والعملاقة، وبالتالي الإنسان الذى يعد النموذج الأتم للحياة.

ومن البديهي أنه كلما ازدادت الحياة تعقيداً ازدادت أسرارها وصارت أكثر دهشة، وهذا فى الحال الذى لا يزال أصل حقيقة الحياة وكيفية خروج الحى من الميت مجهولة، ولم تزل مساعى وجهود آلاف العلماء الفطاحل فاشلة فى طريق حل هذا اللغز.

وعندما نجتاز هذه المرحلة، تبدأ مرحلة الحياة المعنوية الروحانية التى وضع الله أسسها عن طريق الوحي وانزال الكتب السماوية وإرسال الأنبياء والرسل، كما قال سبحانه: «أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ». (الأنعام / ١٢٢)

وقوله تعالى: «مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً». (النحل / ٩٧)

وقد أشارت الآيات القرآنية وأكدت مراراً على هذا النوع من الإحياء الإلهي.

والأعلى من هذه المرحلة أيضاً، هو مرحلة الإحياء الأخروية، حيث يحيى سبحانه العظام وهى رميم، يحييها حياة خالدة لا تعرف بعدها أى لونٍ من الموت.

وعلى هذا الترتيب يكون اتصاف البارى بصفة الحياة (المحى) فى الدنيا والآخرة مصدراً لأهم وأوسع مظاهر خلقه، وأما بلاغ هذه الصفة الإلهية، فمن جهة الانتباه إلى هذه

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٧٥

الحقيقة، وهى كونه سبحانه (منبع) كل ألوان الحياة، لذا يجب أن نتوجه إليه سبحانه فى حفظ الحياة الظاهرية والحياة الباطنية، ونطلب منه الحياة، لأنه محيى كل شىء.

ومن جهة اخرى إن التخلق بهذه الصفة يُعيد مصدراً لاعائه الحياة المادية والمعنوية للبشر، وتخليص عباد الله من الموت، ولمحاولة

هدايتهم إلى الله وأعمال الخير.

٥٨- الشهيد

تُعد صفة (شهيد) من الصفات التي لها معانٍ مختلفة، وهي من صفات الذات طبقاً لبعض هذه المعاني (لأنَّ أحد هذه المعاني هو «العلم المصحوب بالحضور والشهود»، فهي فرعٌ من صفة العلم في هذه الحالة). وإذا كانت بمعنى الشهادة على أعمال العباد فُتَحَسَّب من صفات الفعل، وذكرها هنا أيضاً وفق هذا المعنى ولنمعن خاشعين في الآيتين التاليتين:-

١- «وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ». (آل عمران / ٩٨)

٢- «قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ». (الأنعام / ١٩)

جمع الآيات وتفسيرها

«شهيد»: من مادة (شهود وشهادة)، وهي بالأصل - كما ورد في مقاييس اللغة - تعني «الحضور» و «العلم» و «الإعلام»، والشهادة تستلزم كلاً من العلم والحضور والإعلام.

لكن الراغب قال في مفرداته: إنَّ هذه الكلمة تعني الحضور المقارن للمشاهدة سواءً بالعين الظاهرة أم بعين القلب.

و (مشاهد الحج) هي الأمكنة المقدسة التي يحضر فيها المؤمنون والملائكة.

ويُسمى المقتول في سبيل الله (شهيداً) إمَّا لحضور ملائكة الرحمة عنده، أو لمشاهدته

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٧٦

التعم العظيمة التي أعدت له، أو لحضوره بين يدي الله، أو لكون جهاده في سبيل الشهادة بالحق، أو لسقوطه على الأرض، لأنَّ إحدى أسماء الأرض (شاهدة).

ويُسمى يوم الجمعة أيضاً (شاهداً) لأنه يشهد اجتماع المسلمين، ويُسمى يوم عرفة (مشهوداً) لحضور حجاج بيت الله الحرام فيه.

وعلى أيَّة حال، إنَّ إطلاق هذه الصفة على الذات الإلهية المقدسة إمَّا بسبب حضوره في كل مكان، أو لشهادته على جميع أعمال العباد «١».

والبلاغ الذي تحمله هذه الصفة الإلهية إلى الجميع هو أنَّها تلفتهم إلى حضوره جل وعلا في كل مكان، وإطلاعه على أعمال العباد، فليس الملائكة وكتبه الأعمال فقط، ولا أعضاء بدن الإنسان والزمان والمكان الذي يعيش فيه يشهدون أعماله، بل الأدهى من ذلك كُله هو شهادة الذات الإلهية المقدسة، ومن المسلم به هو أنَّ الالتفات إلى هذه الحقيقة والإيمان بها له أثر بليغ في أن يصلح الإنسان أعماله وحرركاته.

أجل، إنَّ الإيمان بالله سبحانه وتعالى ومعرفة صفاته يُعدُّ من أهم وسائل تربيتنا.

٥٩- الهادي

الهداية كُلُّها من عند الله، سواءً كانت من حيث التكوين وقوانين الخلق، أم من ناحية التشريع والتعليم والتربية والأحكام الشرعية.

فهو الذى يرمى النطفة الحقيمة ويهدىها فى مراحل تكامل الجنين ويصنع منها إنساناً عظيماً. وهو الذى يأخذ بأيدي العباد ويخلصهم من وادى الضلال ويهديهم إلى جادة الهداية

(١) يقول ابن منظور فى لسان العرب والزيدى فى شرح القاموس: «الشهيد» من بين أسماء الله يعنى الأمين فى شهادته، وقال البعض: الشهيد: هو مَنْ لا يخفى عن علمه شيء، والشهيد معناه الحاضر (طبعاً لا بمعنى الحضور) (المكانى) بل بمعنى الإحاطة الوجودية. نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٧٧

عن طريق إنزال الوحي وبعث الأنبياء والرسل، لذا ندعوه فى كُلِّ صلاة ونقول: «إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ» ... (سورة الحمد)، وثبت أقدامنا، و... لأنه هو الهادى، ولنتأمل خاشعين فى الآيات التالية: وُصِفَ اللهُ سبحانه بصفة «الهادى» مرتين فقط فى القرآن هما:
١- «وَكَفَىٰ بَرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا». (الفرقان / ٣١)
٢- «وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» «١». (الحج / ٥٤)

جمع الآيات وتفسيرها

إنَّ كلمة (هادى) مشتقة من مادة (هداية)، وتأتى بالأصل بمعنى الدلالة والإرشاد المصحوب باللفظ، وسميت (الهدية) بهذا الاسم لهذا السبب أيضاً، هذا ما ذكره الراغب فى مفرداته، أمّا فى «مقاييس اللغة» فقد ذكر لها معنيين هما: الإرشاد، وإرسال الهدية، ولو أن الرأى الأول الذى يرجع كلا المعنيين إلى أصل واحد أكثر تناسباً من غيره. ويُطلق فى العربية على اليوم (هادى) أيضاً، لأنه وسيلة لاهتداء الناس، ويُطلق على العصا التى يهتدى بها العمى (هادية)، وتسمى الحيوانات التى تسير فى مقدمته القطيع (هوادى) وكذا رقاب الخيول. ويُطلق على البعير والنيق التى يؤتى بها إلى بيت الله كقرايين (هدى) - على وزن سعى - لأنها هدايا المؤمنين إلى بيت الله الحرام «٢». وعلى أية حال، عندما تستعمل هذه الكلمة كصفة من صفات الفعل الإلهى فإنها تدلّ على مسألة هدايته فى جميع شؤون الحياة المادية والمعنوية، الظاهرية والباطنية، التكوينية والتشريعية.

(١) وردت كلمة «هادى» - وأحياناً بلفظ (هاد) - فى عشرة مواضع من القرآن الكريم فى اثنتين منها فقط كصفة للبارى تعالى (٢) كتاب العين؛ مفردات الراغب؛ مقاييس اللغة؛ تاج العروس؛ لسان العرب؛ مجمع البحرين مادة (هدى).

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٧٨

إنَّ الله الذى غطت أمواج هدايته جميع مَنْ فى الوجود، لو حُرِّمنا من هدايته التكوينية والتشريعية لحظة لزللنا وهلكنا. وقد ذُكر فى المفردات للهداية أربع مراحل (بالاستشهاد بالآيات القرآنية).

١- الهداية العامة التى تشمل جميع المكلفين، وهى نوع من (الهداية التكوينية) التى تشمل العقل، والذكاء، والمعلومات الفطرية والضرورية، وهى ماوردت فى الآية ٥٠ من سورة طه: «رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ». والهداية التى تتحقق بواسطة أنبياء الله ورسله والكتب السماوية (الهداية التشريعية)، وقد أشارت إليها الآية ٢٤ من سورة السجدة: «وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا».

٣- الهداية بمعنى (التوفيق) الخاص بجماعة من العباد، وقد أشارت القرآن اى هذا المعنى فى قوله تعالى «وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ

هُدَى». (محمد / ١٧)

٤- الهداية الأخروية إلى الجنة (أى بمعنى الثواب الإلهي)، كما ورد عن لسان أهل الجنة: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا». (الأعراف / ٤٣)

وهذه المراحل الأربع المتتالية، فإن لم تحصل الأولى لن تحصل الثانية وإن لم تحصل الثانية، لن تحصل الثالثة، وهكذا وأخيراً، إن البلاغ الذى تحمله هذه الصفة الإلهية فى طياتها هو إنها تقول لنا من جهة: أن كل ما فى الوجود مسخرٌ بأمر الله لهدايتكم، وعليكم أنتم أن تستعينوا بهذه السبل، وتلبوا هذا النداء الإلهي، وتطووا هذه المرحلة بالطاعة التكوينية والتشريعية لتنجوا من الظلمات والضلال.

ومن جهةٍ اخرى: إن التخلق بهذه الصفة الإلهية يوجب على أى واحدٍ منا أن يسعى لهداية الآخرين، ويُعين أبناء نوعه، ويسلك بهم مراحل الكمال المختلفة ليوصلهم إلى الهدف المنشود (بيت القصيد)، أى معرفة الله وتجلي أسمائه وصفاته. نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٧٩

٦٠- خير

تستعمل كلمة (خير) أحياناً بمعنى (حسن) وفى الكثير من الأحيان بمعنى (أحسن)، وقد وردت فى عشرة مواضع من القرآن الكريم بهذا المعنى الأخير، مضافةً إلى صفات اخرى، وسنطالع ذلك فى الآيات القادمة. «الخير»: مساوٍ للوجود، والوجود مساوٍ للخير، ولكون وجود الله وجوداً مطلقاً لا-محدوداً فهو أحسن (خير) الوجود، أجل هو «خير الحاكمين» وخير الرازقين وخير الناصرين وجميع هذه الصفات من صفات الفعل الإلهي، وقد جمعناها هنا فى مكانٍ واحدٍ لنختتم بحثنا بخير. ولنتأمل خاشعين فى الآيات التالية:

١- «وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ». (المؤمنون / ١٠٩)

لأن رحمتك العامة والخاصة شملت الجميع، خصوصاً عبادك المؤمنين.

٢- «وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ». (الأعراف / ٨٧)

٣- «وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ». (الأنعام / ٥٧)

٤- «وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ». (الأعراف / ٨٩)

٥- «وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ». (الجمعة / ١١)

٦- «بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ». (آل عمران / ١٥٠)

٧- «فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ». (الأعراف / ١٥٥)

٨- «وَقُلْ رَبِّ أُنزِلْنِي مُنْزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ». (المؤمنون / ٢٩)

٩- «وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ». (الأنفال / ٣٠)

١٠- «رَبِّ لَاتَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ» «١». (الأنبياء / ٨٩)

(١) يلاحظ فى القرآن الكريم وجود بعض التعبيرات الاخرى الحاوية على كلمة (خير) وكشفة من الصفات الإلهية، مع أن المضاف إليه العائد لم يذكر بصيغة الجمع، وهو فى موردٍ واحدٍ فقط: «فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» (يوسف / ٦٤).

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٨٠

جمع الآيات وتفسيرها

إنَّ كلمة (خير) وفق المشهور بين أرباب اللغة والنحويين هي من (أفعل التفضيل)، وقد كانت بالأصل (أخَيْرُ) - على وزن أفضل - فحُذفت همزتها وانتقلت الفتحة إلى الخاء فصارت (خَيْرُ).

وطبقاً لما قاله الراغب في مفرداته فإنَّ كلمة (خَيْرُ) تعني الشيء المفضل لدى الجميع، كالعقل، والعدل، والفضيلة، والأشياء المفيدة، وضدّه (شَرٌّ)، ثم قسّم (خير) إلى نوعين:

الخير المطلق الذي يميل إليه الجميع، كالجنة، والخير النسبي المفيد بالنسبة لبعض الأفراد كالمال الذي قد يصير منشأً لسعادة البعض، وتعاسة البعض الآخر!

ولكن ذَكَر في مقاييس اللغة بأنَّ معناه الأصلي هو: (الرغبة إلى شيء معين)، ثم أُطلق على «الأشياء المحببة»، وفي مقابله (شَرٌّ)، وقد فسره بعض أرباب اللغة أيضاً بمعنى الكرم والإنعام، في حين اقتنع البعض الآخر بأنَّ الخير هو النقطة المقابلة (المعاكسة) للشَّرِّ. وأحياناً استعملت هذه الكلمة بمعنى خاص (مثلاً بمعنى المال، أو هو نهر في الجنة ينبع من عين الكوثر، أو المنازل الخاصة في الجنة)، وكلمة (خيار) أو (اختيار) المشتقة من هذه الكلمة تعني انتخاب الشيء الأفضل.

وعندما تُطلق هذه الكلمة على الذات الإلهية المقدسة فلها حالتان: فأحياناً تكون مطلقة ومجردة عن أي قيد أو شرط، مثل قوله تعالى «وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى . (طه / ٧٣)

هذا ما قاله سَحَرَة فرعون بعد أن آمنوا بموسى عليه السلام.

ففي هذه الحالة تعني الأفضلية من جميع الجهات، وفي الواقع، ليس هناك خير مطلق في عالم الوجود سوى الله سبحانه وتعالى فهو الأفضل والأحسن والأشرف وجوداً من جميع النواحي، وأحياناً أخرى تُطلق هذه الكلمة على الذات الإلهية المقدسة بعد أن تُضاف إلى شيء كالأسماء المقدسة المذكورة في الآيات العشر.

وفي جميع هذه الموارد ذَكَر الله في القياس مع الآخرين، وطبعاً أنَّ هذا القياس من قسم من الجهات فقط وإلّا فالذات الإلهية المقدسة لا تُقاس أبداً مع سائر الموجودات.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٨١

فوصفت الآية الأولى الله سبحانه بـ «خَيْرِ الرَّاحِمِينَ»، لأنَّ رحمته لا متناهية وتشمل المحب والمبغض، الصالح والطالح، فرحمته العامة شملت الجميع، ورحمته الخاصة خصَّ بها عباده المؤمنين، وهو على أيِّ حال لا يريد منهم أي جزاء أو رد للجميل.

وقد وُصِفَ البارى في الآية الثانية بصفة «خَيْرِ الْحَاكِمِينَ»، لأنَّ ما يحكم به الآخرون مقرون بأنواع الأخطاء والانحرافات الناتجة عن الميول الشخصية والطائفية، أو الأهواء المادية، لكنَّ حُكْمَهُ جَلٌّ وعلا منزّه عن أي خطأ وأي إفراطٍ وتفريط، وأي ميلٍ إلى الباطل، لأنَّ علمه غير محدود وهو غنيٌّ عن العالمين.

وقد ذَكَر في الآية الثالثة باسم «خَيْرِ الْفَاصِلِينَ»، لأنَّ الناس لو أرادوا أن يميزوا الحق من الباطل فيما أن يقعوا في الكثير من الإشتباهاً ولا- يميزوا بينهما بصورة صحيحة، وإمّا أن يلتبس عليهم التمييز بين الحق والباطل بسبب جهلهم، أو يخلطوا بينهما بسبب تحكيم أهوائهم النفسانية.

أمّا الذي يعلم السرّ وما تخفى الصدور، وأحاط بكل شيءٍ علماً فلا معنى عنده سبحانه لكل هذه الأمور، فهو خير الفاصلين.

علاوةً على هذا فقد يشخص الإنسان الحق من الباطل بصورة جيّدة لكنّه عاجزٌ عن أعمال علمه ومعرفته، ولكن الله تعالى هو القادر

الأزلى الوحيد الذى يستطيع إعمال علمه فى كلِّ حال.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٨٢

والآية الرابعة تحدّثت عن «خَيْرِ الْفَاتِحِينَ»، وكلمة (فاتح) مشتقة من مادّة (فتح)، فإن كانت بمعنى الحكم والقضاء فإنّ مفهومها يعنى «اللّه خير الحاكمين»، وقد ذكرنا سبب ذلك فيما مضى وإن كانت (فتح) بمعنى فتح كل شىء مغلق، لكان سبحانه وتعالى أيضاً «خير الفاتحين»، لأنّه لا يصعب شىء مقابل قدرته، وإن كان المقصود منها فتح أبواب الرحمة فهو ذو رحمة وسعت كل شىء فى الوجود، فى حين لو كانت هنالك رحمة فى الموجودات الأخرى فهى محدودة وجزئية.

وبالحقيقة أنّ لكلمة (فتح) معانى كثيرة جداً تعود جميعها إلى أصل الفتح المطلق، فأحياناً فتح أبواب العلم والرحمة، وأحياناً حلّ عقدة النزاع بين شخصين، أو فتح (حل) عقدة الحرب، ويظهر أنّ تعبير «خَيْرِ الْفَاتِحِينَ» ذو معنى واسع جداً يشتمل على جميع هذه المعانى والمفاهيم.

وقد وصفت الآية الخامسة البارى تعالى بصفه «خَيْرِ الرَّازِقِينَ»، فالأرزاق التى يعطيها البعض لغيرهم (إنّ أمكن أن نسميها بهذا الاسم) مشوبة بنقائص عديده: محدوده، سريعه الزوال، لا يؤمّل مستقبلها، وأحياناً تعقبها المنّة والأذى الجسمانى أو الروحانى، وأحياناً مصحوبة بالتحقير أو توقّع ردّ الجميل.

فى حين أنّ الأرزاق الإلهية لا تعرف الحدود، ولا يخشى عليها من الزوال، ولا فيها أدنى شىء من المنّة والأذى وانتظار ردّ الجميل، بل هى تشمل حال الإنسان أو غيره منذ لحظة انعقاده كمنطقه تكوينه فى رحم أمه، وحتى آخر لحظات حياته، وتشمل حال المستحقين والمؤهلين لها فى يوم القيامة أيضاً، وبمستوى أعلى وأسمى

نقل أحد المفسرين حكاية عن أحد خلفاء بغداد مع (بهلول) تعكس المباحث الواردة بصورة لطيفة.

يقول: قال خليفة بغداد لبهلول: تعال أعطك رزقك كل يوم لأريحك من التفكير فى طلب الرزق، فأجابه بهلول قائلاً: لولا بعض النقاط السليبة فى عملك لقبلت! أولاً: إنك لا تعرف ما احتاجه، ثانياً: إنك لا تعرف وقت حاجتى، ثالثاً: ولا تعلم مقدارها، رابعاً: قد

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٨٣

تغضب على ذات يوم فتسترجعها منى، لكنّ الله الذى يرزقنى منزهة عن جميع هذه النقائص والعيوب ويرزقنى حتى فى اليوم الذى أعصيه فيه! (١).

وكم يكون رائعاً لو أضاف بهلول هذه الجملة أيضاً: من يضمن بقاءك فى السلطة إلى الغد حتى تقدر على رزقى أو رزق الآخرين؟

نختتم هذا الكلام بحديث مبارك منقول عن أمير المؤمنين الإمام على عليه السلام، حيث قال فى بداية خطبة الأشباح:

«الحمد لله الذى لا يفرّقه المنع والجمود ولا يكديه الإعطاء والوجود، إذ كل معطٍ منتقص سواه، وكل مانع مذموم ما خلاه، وهو المئان بفوائد النعم، وعوائد المزيد والقسم، عياله الخلاق، ضمّن أرزاقهم وقدر أوقاتهم ونهج سبيل الراغبين إليه والطالبين ما لديه، وليس بما سئل بأجود منه بما لم يسأل» (٢).

وفى الآية السادسة وصّفت ذاته المقدّسة بصفه «خير الناصرين»، لأنّ الناصر الحقيقى هو من يقدر على النصره ضدّ كل عدوّ، وفى أى مكان وزمان، وفى أى ظرف، هو الناصر الذى لا يغلب أبداً، ولا تستطيع أيّة قدرة من الوقوف ضده، إضافةً إلى ذلك فهو يحيط علماً بجميع مؤامرات الأعداء، ونقاط ضعف من يحتمى بهم، وبغض النظر عن جميع هذا، فهو سبحانه لا ينتظر ردّاً للجميل الذى يصنعه (النصرة).

ونحن نعلم أنّ هذه الصفات لم تجتمع إلّا فى الذات الإلهية المقدّسة، فى حين نلاحظ أنّ الناصرين الآخرين فاقدون لهذه الصفات.

علاوةً على جميع ذلك فإن استطاع أحد ما أن يصيّر آخر فنصرته محدودة بدار الدنيا فقط، أمّا الله سبحانه وتعالى فهو الناصر الوحيد الذى يقدر على النصره الدنيوية والاخروية.

(١) تفسير روح البيان، ج ٩، ص ٥٢٨.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ٩١.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٨٤

أما الآية السابعة فقد وُصِفَ فيها البارى بصفة «خَيْرُ الْغَافِرِينَ»، يقول الفخر الرازى حول هذا الموضوع: «إن سبب وصفه تعالى بهذه الصفة هو لكون الآخرين إن غفروا ذنباً إما لكسب مدح وثناء الناس، أو للحصول على الثواب الإلهى الجزيل، أو لدفع قساوة القلب، وخالصة الكلام إن عفوا وغفروا الناس لبعضهم إما لكسب منفعة، أو لدفع ضررٍ ما، فى حين أن الغفران الإلهى ليس كذلك أبداً، بل هو نابع من فضله وكرمه لا غير» (١). وعلاوة على هذا فإن حقوق الناس على بعضهم حقيرة جداً بالقياس مع الحقوق الإلهية، وعفوهم فى هذه الحقوق الحقيرة قليل جداً أيضاً، والوحيد الذى يتجاوز عن عظيم الحقوق والخطايا، ورحمته ومغفرته غير مشروطة بشيء هو الله سبحانه وتعالى لذا هو «خَيْرُ الْغَافِرِينَ».

أضف إلى ذلك أنه تعالى لا يغفر ذنوب عباده فقط، بل ويستر عليهم أيضاً ليحفظ كرامتهم فى الدنيا والآخرة، ولا يُفتضحون أمام الخلائق، بل وأحياناً يُبدل سيئاتهم حسنات شريطة أن لا يخرقوا جميع الحجب، وأن يكون لديهم استعداد قليل لتقبل كل هذا اللطف والإحسان.

إن معرفة سبب نزول الآية المذكورة، التى تحكى عن بنى إسرائيل وارتكابهم أحد أكبر الذنوب وهو طلبهم رؤية الله بالعين الظاهرية كشرط مُسبق لإيمانهم به، يُبين عمق مفهوم هذه الصفة الإلهية أى (خير الغافرين).

وُوصِفَ البارى فى الآية الثامنة بصفة: «خَيْرُ الْمُتَزِلِينَ».

فبعد أن أشارت الآية إلى قصبة نوح والطوفان العظيم الذى أصاب قومه، ذكرت دعاء نوح عليه السلام بعد أن هداً الطوفان ورست سفينته: «ربّ انزلنى مُنزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين».

ويمكن أن تكون كلمة «منزل» اسم مكان أى (مَنَزِلًا) أو مصدر ميمي بمعنى (التزول والهبوط).

وعلى أية حال: فمن الواضح أن النزول من السفينة فى تلك الظروف العصبية، وبالنظر

(١) تفسير الكبير، ج ١٥، ص ٢٠.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٨٥

لعدم وجود بيت ولا مظلة ولا قوت ولا غداء لا يمكن أن يتحقق سوى فى ظل لطف الله «خَيْرُ الْمُتَزِلِينَ»، ويُنجيهم من المخاطر التى كانت تهددهم بعد رسوّ السفينة.

وكذلك تتسبب قدرة الله اللامحدودة وعلمه بحاجات ضيوفه فى أن يكون «خَيْرُ الْمُتَزِلِينَ».

وتحدثت الآية التاسعة عن المكر الإلهى الفريد إزاء مؤامرات المنحرفين والظالمين ووصفته جلّ وعلا بصفة «خَيْرُ الْمَاكِرِينَ».

فكلمة (ماكر) مشتقة من مادة «مكر»، وكما قال الراغب: إنها تعنى بالأصل صرف الغير عن الوصول إلى المقصود عن طريق المكر والحيلة، وهو على قسمين: ممدوح، وهو ما كان الهدف منه الوصول إلى مقصود حسن، ومذموم: وهو ما كان هدفه قبيحاً.

ومن هنا يتضح أن ما يختلج فى أذهاننا حول اقتران كلمة (مكر) دائماً بنوع من الشرّ والفساد ليس صحيحاً، كما هو الحال فى كلمة (حيلة) التى لها مفاهيم مشتركة عديدة بالرغم من تداعى المفهوم السلبي منها إلى أذهان عامة الناس.

يقول القرطبي فى تفسيره: (المكر) معناه (التدبير الخفى فى داء عمل معين).

ولكن يشيّدنتج من بعض كلام أرباب اللغة أنهم يعتقدون باقتران كلمة المكر بنوع من المذمّة، لذا فهم يقولون «إنّ هذه الكلمة ذات

معنى مجازى عندما تستعمل بخصوص البارى تعالى ، ولكن تعميم مفهوم (المكر) كما يُلاحظ عند الكثير من المفسرين والمتكلمين، يبدو أصح بنظرنا.

وعلى أية حال فإنَّ السَّرَّ في وصفه تعالى بصفة «خَيْرِ الْمَاكِرِينَ» إمَّا لكون قدرته على المكر والحيلة أكبر ممن سواه، أو لأنَّ (مكر) من سواه يُحتمل فيه الخير والسَّرَّ، لكن المكر الإلهى ممدوح دائماً.

وقد ذكر الزبيدى فى شرح القاموس عدَّة معانٍ للمكر، عندما يُنسَبُ إلى الله سبحانه

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٨٦

وتعالى من جُمَلتها: إنزال البلاء على العدو لا على الصديق والعقوبات الاستدراجية أى الإنعام مقابل الأعمال السيئة (ليحسب) الشخص المسىء أنه يُحسن صنعاً، ثمَّ يعاقبه بعدها، والثالث: مجازاة العباد على أعمالهم «١».

وعلى أية حال فإنَّ المكر الصحيح هو ما يصدر عن العالم بعواقب الأمور وحقائق الأشياء الماضية والمستقبلية، إضافةً إلى قدرته المطلقة على القيام بتدبيره، ولكون هاتين الصفتين (العلم والقدرة اللامحدودتين) منحصرتين بذات البارى جلَّ وعلا- فهو «خير الماكرين».

والظريف هو أن وصف البارى بصفة «خَيْرِ الْمَاكِرِينَ» قد ورد فقط فى موضعين من القرآن الكريم، أحدهما فى قصَّة الهجرة التى تُعدُّ من أهم مراحل حياة الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وآله فى قوله تعالى «وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ». (الأنفال / ٣٠)

وكما نعلم فإنَّ مؤامرة قريش على قتل الرسول صلى الله عليه وآله زادت من عزيمته وقوت من إرادته على الهجرة، الهجرة التى صارت سبباً فى حدوث أكبر التحوُّلات فى تاريخ الإسلام وانتشار الحكومة الإسلامية فى أنحاء العالم، وهنا يتضح غلبه المكر الإلهى. والآخر فى المؤامرات المشتركة التى حاكها اليهود والنصارى فى محاربة الإسلام والرسول الأكرم صلى الله عليه وآله- الآية ٥٤ من سورة آل عمران- التى كانت من أخطر المؤامرات، لكن الله سبحانه قد أبطلها جميعاً. وأخيراً فقد وُصِفَ البارى تعالى فى الآية العاشرة والأخيرة بصفة: «خَيْرِ الْوَارِثِينَ».

وهذه الصفة وردت مرَّة واحدة فقط فى القرآن الكريم عن قول زكريَّا عليه السلام، فى حين يُلاحظ تكرار وصف البارى بصفة «وارث».

والسِّر من وراء وصف البارى بهذه الصفة واضح تماماً لأنَّه الوحيد الذى يبقى ويدوم ويرث العالمين، وأمَّا سواه من الوارثين فسيكونون موروثين يوماً ما.

(١) تاج العروس فى شرح القاموس، مادَّة (مكر).

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٨٧

علاوة على هذا فإنَّ ما يرثه الورثة العاديون محدود وهم بحاجةٍ إليه، إضافةً إلى بخلهم فى صرفه غالباً، لذا يُلاحظ حصول الكثير من المشاكل والنزاعات بين الأقرباء من أجل أموالٍ ورثوها، أمَّا الله تعالى وهو الوارث النهائى للجميع فهو غير محتاج، ولا يوجد حدٌ لصفته هذه، ولا طريق للبخل إلى وجوده فهو «خَيْرُ الْوَارِثِينَ».

وكما قال «الآلوسى» فى «روح المعانى»: «إنَّ هذه الصفة تُشير إلى بقاء الذات الإلهية المقدَّسة، وفناء جميع الأشياء» «١».

وتعتبر طبعاً من صفات الذات إذا كانت تشير فقط إلى مسألة البقاء (أى أبدية وجوده المقدَّس)، ومن صفات الفعل إذا كانت تشير إلى مفهوم تملك ما يبقى من الآخرين (فتأمل).

الله خير من كل شيء:

كما لاحظنا في الآيات العشر التي ذكرناها، فقد وُصِفَ اللهُ سبحانه وتعالى بصفات: «خير الراحمين والحاكمين والرازقين والناصرين و...».

فهل يُمكن قياس البارى مع غيره؟! (نظراً إلى كون كلمة (خير) فى مثل هذه الموارد ذات صبغة تفصيلية). هناك جوابان عن هذا السؤال:

الأول: إنَّ كلمة (خير) تفقد مفهومها التفصيلي فى مثل هذه الموارد، وتعطى معنى الكثرة، وعليه فالصفات أعلاه تُشير إلى رحمة الله الواسعة، وحكومته الواسعة، ورزقه الوفير، ونُصرتِه اللامحدودة، دون أن يكون هنالك قياس فى الموضوع، «ما للتراب وربّ الأرباب»؟
«٢»

(١) تفسير روح المعانى، ج ١٧، ص ١٨٠.

(٢) يقول المرحوم الكفعمي فى مصباحه حول تفسير «خير الناصرين»: «معناه كثرة تكرار النصر منه كما قيل خير الراحمين لكثرة رحمته» (المصباح، ص ٣٤٦).

- ورد نفس هذا المعنى فى توحيد الصدوق مع فاروقٍ قليل. (توحيد الصدوق، ص ٢١٦).

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٨٨

الثانى: إنَّ هذه الصفات لها مفهوم تفضيل وقياس، لكنّه قياسٌ صوريٌّ وظاهريٌّ كما هو الحال فى «أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ»، والحقيقة فقد اعتبَرَ الذين هم واسطة لإيصال الأرزاق إلى غيرهم «رازقين»، وحملت الرحمات الجزئية الصادرة من البشر على حساب «الرحمة»، وهكذا بخصوص النصر والحاكمة والغفران، ومن قبيل هذه التعابير ليست قليلة فى القرآن الكريم (انتخب المرحوم العلامة المجلسي فى بحار الأنوار التفسير الثانى) «١».

وبتعبيرٍ آخر: (من الناحية الفلسفية) فإنَّ الوجود الحقيقى المستقل القائم بذاته هو الذات الإلهية المقدسة، وما سواه عدم، وجود ظاهري، كسراب الماء، لذا فإنَّ الموجودات الممكنة لا هى خالقة ولا ناصرة ولا راحمة ولا رازقة، فجميع هذه الأمور تخص تلك الذات المقدسة الفريدة، ومن سواه يأكلون من فتات مائدة إحسانه جل وعلا، لذا فقد قيل:

«ليس فى الدار غيره دياراً!».

ولكن من حيث التحليل العادى المتعارف فإنَّ الممكنات لها وجودها الخاص أيضاً، ورحمتها ونصرتها وقدرتها وحاكمتها الخاصة، وورود مثل هذه التعابير فى القرآن الكريم إنّما هو من باب تكليم الناس بلسانهم: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ».

(ابراهيم / ٤)

جمع الآيات وتفسيرها**١- العالم مظهر لصفاته وأسمائه**

من المتعارف عليه أنّ عالم الوجود محلُّ بروز وظهور الصفات الإلهية، وهذه المسألة واضحة تماماً خصوصاً بالإلتفات إلى صفات الفعل، لأنَّ جميع ما نشاهده فى هذا العالم من الخلق والتكوين مظهر لخالقته سبحانه وتعالى وجميع ما نشاهده من الرحمة المادية والمعنوية مظهر لرحمانيته.

(١) بحار الأنوار، ج ٤، ص ٢٠٧ (يقول: الخير بمعنى التفضيل ولا حاجة إلى ما تكلفه).

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٨٩

وكل تدبير في هذا العالم يدل على ربوبيته، وجميع الأرزاق الظاهرية والباطنية هي مظاهر لرازقته سبحانه.

وكما أشرنا سابقاً، ونظراً لكون صفات الفعل مشتقة من أفعاله جلّ وعلا، وأفعاله لا تعد ولا تحصى فإن صفاته الفعلية لا تعد ولا تحصى أيضاً.

وقد ذكرنا في البحوث السابقة ستين صفة من أهم (صفات الفعل) الواردة في القرآن الكريم، والتي تشعب من كل منها صفات اخرى، وتطرقتنا إلى تفسيرها وتحليلها.

إنّ الانتباه إلى هذه الصفات لا يُعرفنا بالأفعال الإلهية فحسب، بل إنّ معرفه أفعاله تؤدى إلى تخلّقنا بها وتربية نفوسنا وتهذيب أرواحنا، (فتأمل).

وينبغي التذكير بهذه المسألة أيضاً وهي أنّ بعض الصفات الإلهية لا ريب في انتسابها إلى صفات الذات (مثل عالم) وبعضها إلى صفات الفعل (كالرازق والخالق)، وبعضها الآخر ذات جانبيين؛ ذاتية من ناحية، وفعليّة من ناحية اخرى كالقيوم مثلاً فإن فسّرت بمعنى (القائم بالذات) صارت من صفات الذات، وان فسّرت بمعنى (مقوم الموجودات) صارت من صفات الفعل.

٢- الصفات الاخرى التي تعتبر من زمرة الصفات الفعلية

هنالك أفعال في القرآن الكريم تنسب إلى الله تعالى دون ذكر مصطلحها الوصفي، وقد ذكرها علماء العقائد بعنوان صفات الفعل أو أسماء الله الحسنى ولأنه كان من المقرر أن نبحت في مباحثنا الصفات المذكورة في القرآن الكريم فقط، لذا لم نتطرق إليها ضمن الأسماء والصفات التي ذكرناها، في الوقت الذي نعتقد بوجود الإشارة إلى أهمها هنا، ومن جملتها (متكلم) و (صادق).

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٩١

(أ) الله المتكلم

تمهيد:

لم يُصرح القرآن الكريم بصفة «المتكلم» لكنّه ذكر الفعل الدال عليها: «وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا». (النساء/ ١٦٤) ولذا عرّف موسى عليه السلام بأنه (كليم الله).

علاوة على هذا فقد ورد في القرآن الكريم تعبير (كلام الله) في ثلاثة مواضع «١»، وتعبير (كلامى) في موضع واحد «٢». ويُلاحظ أيضاً تعبير (كلمة ربك) أو (كلمة الله) في موارد عديدة.

يُمكن الإستنتاج من مجموع هذه الموارد بأن صفة (متكلم) هي من إحدى صفات الله سبحانه وتعالى

وكما قال «القوشجى» في «شرح تجريد العقائد»:

«إنّ وصف الله بصفة (المتكلم) لا ينحصر بالمسلمين فقط، بل إنّ جميع أرباب الملك والمذاهب يعتقدون بكلام الله بالرغم من اختلاف وجهات نظرهم في تفسير معنى كلام الله وتكلمه سبحانه».

جمع الآيات وتفسيرها

١- ما المقصود من كلام الله؟

هنالك اختلاف شديد بين المسلمين حول تفسير معنى كلام الله، وفسرتة كل طائفة

(١) البقرة، الآية ٧٥؛ التوبة، الآية ٦؛ الفتح، الآية ١٥.

(٢) الأعراف، ١٤٤.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٩٢

بشكل معيّن: فقد قال جماعة من الحنابلة: إنّ كلام الله مرّكب من الحروف والأصوات القديمة والقائمة بذاته المقدّسة، ثم أصرّوا على هذا الكلام التافه إلى الحدّ الذي قالوا: إنّ جلد القرآن أيضاً قديم وأزلى ناهيك عن رسوم حروفه. وقالت جماعة أخرى: إنّ كلام الله معناه تلك الحروف والأصوات، وهى أمور حادثه وقائمة بالذات الإلهية المقدّسة فى نفس الوقت، وتفاهة كلام هؤلاء ليس بأقلّ من الحنابلة.

وذهبت طائفة ثالثة إلى أنّ كلام الله معناه تلك الحروف والأصوات، وهى حادثه وغير قائمة بذاته المقدّسة، بل هى من زمرة مخلوقاته التى أوجدها الله فى وجود جبرائيل أو الرسول محمّد صلى الله عليه وآله، أو شجرة موسى عليه السلام. وقالت جماعة رابعة وهم «الاشاعرة»: إنّ كلام الله ليس من سنخ الأصوات والحروف، بل هو مفاهيم قائمة بذاته ويسمونه (كلام نفسى)، ويعتقدون بكونه قديماً «١»، وحتى كانوا يعتقدون بكفر من يعتقد بحديث كلام الله (أى القرآن) (وأوجبوا قتله!) «٢». وقد شهدت القرون الأولى من تاريخ الإسلام نزاعات شديدة ودموية حول (كلام الله) وكونه حادثاً أو قديماً، ووصلت الحالة إلى تكفير بعضهم الآخر، نزاعات وقفنا اليوم على بطلانها، ويمكننا القول وبجراة: إنّها كانت من سياسة حكومات ذلك الوقت لتخدير الشعب المسلم والعمل بسياسة (فرق تشد).

٢- الإستنتاج النهائى

على أية حال فهنا توجد مطالب عديدة، جميعها واضحة، ونعتقد بأن لا محلّ للمناقشة فيها.

١- إنّ الله قادرٌ على إحداث أمواج صوتية فى الفضاء، وإيصالها إلى مسامع أنبيائه

(١) شرح تجريد العقائد للقوشجى، ص ٤١٧.

(٢) الملل والنحل للشهرستانى، ج ١، ص ١٠٦.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٩٣

ورسله لإبلاغهم بهذه الطريقة، كما ذكر القرآن حول تكليم الله موسى بن عمران عليه السلام فى الوادى (الأيمن)؛ حيث أوجد الله فى تلك الشجرة المباركة الخاصّة أصواتاً دعا موسى بواسطتها إليه.

٢- (التكلم) بمعنى التحدّث باللسان وعن طريق الأوتار الصوتية، من عوارض الأجسام، ولا معنى له بخصوص الله المنزه عن الجسمانية، سوى ما ذكرناه من إيجاد أمواج صوتية فى الأجسام.

٣- القرآن الكريم الذى فى متناول أيدينا هو عين هذه الألفاظ والحروف التى قد تظهر فى قالب الكلام أحياناً، وفى قالب الكتابة أحياناً أخرى، ولا ريب فى أنّ كليهما من الحوادث، وما قاله البعض من كون هذه الألفاظ والحروف قديمة أو وجوب الاعتقاد حتى بقدم جلد القرآن وأزليته، خرافات لا تستحق أن نبحثها.

ويبدو أن الذين اعتقدوا بقدّم كلام الله، كان منشأ اعتقادهم هو ذكر القرآن الكريم (التكلم) كإحدى صفات الله، ومن هنا سمي القرآن بكلام الله، هذا من جهة، ومن جهة أخرى هو كون وجود الله أزلياً، إذن فصفاته يجب أن تكون أزلية أيضاً، ومنه استنتجوا بأن كلام الله أزلي أيضاً.

إنّ هؤلاء وبسبب ضعف إدراكهم وقلمه معلوماتهم لم يستطيعوا التمييز بين (صفات الذات) و (صفات الفعل)، فصفات ذاته أزلية (كالعلم والقدرة)، أما الصفات التي ينتزعا عقلاً بسبب صدور أفعال معينة من قبله جلّ وعلا، فهي أمور حادثه، لأنّ هذه الصفات غير قائمة بالذات الإلهية، بل هي مفاهيم عقلية منتزعة تحصل من ملاحظة أفعاله.

وبتعبير آخر لا شك من وجود أفعال إلهية حادثه كخلق السموات والأرض، وخلق آدم، ومسألة الرزق، وغفران ذنوب العباد، وإرسال الأنبياء والرسل، وعندما يُشاهد العقل صدور هذه الأفعال من جهته ينتزع منها صفات لله سبحانه (كالخالقية والرازقية والغفارية)، ومن المسلم به أنّ هذه الصفات لم تكن تصدق على الله قبل أن يخلق موجوداً أو يعطيه رزقاً أو يشملها بمغفرته، (طبعاً كان قادراً على هذه الأمور، لكن الحديث لا يدور حول القدرة بل حول صدور عين هذه الأفعال).

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٩٤

وبناءً على هذا فإنّ هذه الصفات التي تُدعى (صفات الفعل) تختلف عن (صفات الذات) القائمة بالذات الإلهية المقدّسة، بل هي عين ذاته، وعدم فهم هذه الحقيقة من قبل المعتقدين بقدّم كلام الله وأزليته جرّهم إلى معتقدات مُضحكة كقدم جلد القرآن.

٤- اضطرّ جماعة من الأشاعرة، ممن كانوا يُدركون هذه المسائل، إلى طرح مسألة (الكلام النفسى)، الكلام الذى يُمكن أن يكون قديماً وقائماً بذات الله، وقد تمسّك هؤلاء لإثبات هذا المطلب بالآية القرآنية التالية التي تتحدّث عن جماعة من المنافقين:

«وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ». (المجادلة/ ٨)

أو بالشعر المعروف عن (الأخطل) أحد شعراء العصر الأموى:

إنّ الكلام لفى الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً وأرادوا بهذا التخلّص من التّضادّ الموجود بين حدوث كلام الله وقدم صفاته. ولكنهم تورّطوا بهذا فى مشكلة أكبر، وهى أنّ لو كان المقصود من الكلام النفسى هو (تصوير الألفاظ والجمل وإمرارها من الذهن والفكر)، فإنّ هذه الأمور لا معنى لها بخصوص الله تعالى لأنّ ذاته المقدّسة ليست محلّاً لمثل هذه العوارض الجسمانية.

وإن كان المقصود منه علم الله الأزلى بمحتوى القرآن الكريم، فلا ريب فى أنّه تعالى قد أحاط علماً بجميع هذه الأمور منذ الأزل، ولكن فى هذه الحالة يعود الكلام النفسى إلى علم الله ولن يكون صفةً مُستقلةً.

والخلاصة هى أنّ محتوى الكتب السماوية كانت فى علم الله دائماً (منذ الأزل)، وهذا الشىء لا يخرج عن صفة (العلم) وأمّا عين الألفاظ والحروف فلا ريب من كونها حادثه، ولا يوجد هنا شىء ثالث تحت عنوان (الكلام النفسى) ليكون قديماً ومغايراً لصفة (علم الله).

إنّ هذه الأمور واضحة كلها، لكنّه ومع الأسف الشديد فقد سوّدت النزاعات حول كون كلام الله قديماً أم حادثاً، صفحات كثيرة من تاريخ الإسلام، وسببت حوادث دامية.

فأحياناً مالت الحكومات إلى جماعة المعتزلة (كبعض خلفاء بنى العباس)، فأجبرت الجميع على الاعتقاد بحدوث كلام الله، وضرّبوا أعناق البعض بسبب عدم اعترافهم بذلك.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٩٥

وفى المقابل، كان الكثير من حكام بنى العباس يميلون إلى الأشاعرة، ويضربون أعناق القائلين بحدوث كلام الله، فى حين أننا اليوم نعلم بأنّ كل هذه الأمور كانت ألعاب سياسية ظهرت بشكل مسائل عقائدية، وكان الحكام الجبابرة آنذاك يلعبون بمعتقدات المسلمين من أجل بلوغ مقاصدهم المشؤومة ومواصلة تسلّطهم على رقاب الناس.

٣- (التكلم) في الروايات الإسلامية

نواصل هذا الكلام برواية منقولة عن الإمام الصادق عليه السلام، نقلها الشيخ الطوسي رحمه الله في (الأمالي) عن أبي بصير عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«لم يزل الله جلّ اسمه عالماً بذاته، ولا معلوم، ولم يزل قادراً بذاته ولا مقدور، قلتُ:

جُعِلَتْ فداك: فلم يزل متكلماً؟ قال: الكلامُ محدث، كان الله عزّوجلّ ليس بمتكلم ثمّ أحدث الكلام» (١).

وقد نقل المرحوم الكليني قدس سره نفس هذا الحديث في الكافي مع تفاوتٍ بسيط، حيث ورد في ذيله بصراحة: «إنّ الكلام صفةٌ مُحدثةٌ ليست بأزليّة، كان الله عزّوجلّ ولا متكلم» (٢).

تبيّن هذه العبارات بوضوح الفرق الموجود بين (صفات الذات) و (صفات الفعل)، صفات الذات التي كانت منذ الأزل كالعلم والقدرة، ولا تحتاج (في تحقّقها) إلى وجود المخلوقات، أمّا (صفات الفعل) فهي صفات خارجة عن الذات الإلهية وقد انتزعتها العقل عند صدور الأفعال من قبل الله تعالى ومنسوبة إليه (كالخالقية والرازقية)، وصفة (التكلم) من هذا القبيل أيضاً لأنها نوع من الفعل والحركة، ونحن نعلم بأن ليس للحركة طريقاً إلى الذات الإلهية المقدّسة.

(١) بحار الأنوار، ج ٤، ص ٦٨، الباب ١، ح ١١.

(٢) أصول الكافي، ج ١، ص ١٠٧ (باب صفات الذات).

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٩٧

ب) الله عزّوجلّ صادق

تمهيد:

بعد وصف الباري تعالى بصفة التكلم تتوجّه الأنظار إلى هذه الصفة وهي: «صدق الله» في كلامه.

إنّ هذه الصفة، التي تعد من أهم الصفات الفعلية، تشكل العمود الأساس في الوثوق بدعوات الأنبياء، لأنه -نعوذ بالله- لو كان يُمكن تصور صدور الكذب عنه جلّ وعلا -لما بقيت هنالك ثقة لا بمسألة الوحي، ولا بالوعود الأخروية، ولا بالأخبار التي تتحدث عن المعارف الدينية، أو عن عوامل سعادة البشر وشقاوتهم، وبتعبيرٍ آخر فإنّ أسس المسائل الدينية تنهار بصورة تامّة بنفي هذه الصفة. ومن هنا يتضح مدى تأثير الإيمان بصدق الله في فهم حقائق الدين.

ولعل هذا هو السر من ملاحظة وصف الباري في آيات قرآنية عديدة بالصادق وبتعابير متنوعة ومختلفة تماماً، ومن زوايا متنوّعة.

بعد هذا التمهيد نعود إلى القرآن لنمعن خاشعين في الآيات القرآنية التالية:

١- «وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا». (النساء / ٨٧)

٢- «وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا». (النساء / ١٢٢)

٣- «وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ». (آل عمران / ١٥٢)

٤- «قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ» (١). (الأحزاب / ٢٢)

(١) وقد وردت نفس هذه المفاهيم في آيات قرآنية أخرى (كالذاريات، ٥؛ الأنعام، ١١٥؛ الزمر، ٧٤؛ الفتح، ٢٧؛ وكذا ورد تعبير «إنا

لصادقون» في الآية ١٤٦ من سورة الأنعام؛ والآية ٦٤ من سورة الحجر).

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٩٨

شرح المفردات:

إشتقت كلمة «صادق» من مادة «صدق»، وكما قال الراغب: إنها ضد الكذب، وبالأصل من أوصاف الكلام والأخبار، فأحياناً صادقة وأحياناً كاذبة، وأحياناً تستعمل عرضاً في الإستفهام والأمر والدعاء أيضاً، كأن يقول أحد: (أفلان في الدار) أي إنه يقصد بأنه لا يدرى بوجود فلان في الدار أو عدم وجوده، (لذا فقد نقول أحياناً: إنه يكذب، فهو يعلم بوجود فلان في الدار).

وحقيقته الصدق هي تطابق الحديث مع الاعتقاد والواقع، لذا فلو تحدث أحد طبق الواقع ولكن خلاف ما يعتقد به فهو كاذب، كقول المنافقين لرسول الله صلى الله عليه وآله: «نشهد أنك لرسول الله»، فقال تعالى رداً عليهم: «والله يشهد إن المنافقين لكاذبون». (المنافقون / ١)

وقد يستعمل الكذب والصدق في مورد الأفعال والأعمال أيضاً، فمن يؤدي أعماله وفق وظيفته الواجبة يدعى صادقاً، وإذا عمل على خلافها يدعى كاذباً، فمثلاً يقال لمن يؤدي حق الحرب والقتال: (صدق في القتال) وإن لم يفعل يقال (كذب في القتال)، وآية: «لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق»، التي نزلت بشأن تحقق رؤيا الرسول صلى الله عليه وآله بخصوص فتح مكة ودخول المسلمين المسجد الحرام منتصرين، نموذج على هذا المطلب «١».

وكلمة «صدقة» التي تستعمل بخصوص الأموال التي يبذلها الإنسان في سبيل الله بقصد القربة، إنما سُميت بهذا الاسم لأن الإنسان يُصدق بواسطتها إخلاصه بعمله، وكذلك تسمية المهر «صداق» لأنه دليل عملي على صدق الزوج إزاء زوجته. ولكن ما قاله الراغب حول عناصر الصدق الأساسية، ووجوب مطابقتها للكلام للواقع، واعتقاد المتكلم، محل اختلاف شديد بين العلماء، فاعتقد البعض منهم كفاية تطابقه مع المعتقد فقط، واشترط البعض الآخر تطابقه مع الواقع فقط، ولا محل هنا لشرح ذلك. هذا في حين اعتقد (ابن فارس) في (مقاييس اللغة) بأن أصل «الصدق» هو القوة الموجودة في شيء وإنما سُمي الكلام المطابق للواقع صدقاً بسبب قوته، لذا يُسمى المرح

(١) المفردات، مادة (صدق)، باختصار.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٢٩٩

القوى (زُبح صدق)، ومهر المرأة (صداق) لأنه حق مفروض وذو قوة.

ولكننا نعتقد بأن ما ورد في مفردات الراغب حول أصل هذه الكلمة أصح.

ولسائر أرباب اللغة نفس هذا الرأي أيضاً، ويُنقل في (شرح القاموس) عن (الخليل) أنه قال: (الصدق) معناه: الكمال من كل شيء، وأضاف قائلاً: إن إطلاق (صدق) على الأشياء المستوية القويّة (كالمرح القوى) ينشأ من معنى الجودة والقوة (الصلابة)، أي ما يُقال بخصوص صلابته وجودته يُطابق الحقيقة، وإذا كان ال (صدق) يعني الصلابة والقوة لأُطلق على كل شيء قوى (صدق)، في حين أنه ليس كذلك.

«صديق»: معناه كثير الصدق أو من لا يكذب أبداً أو استحالة صدور الكذب منه لأنه اعتاد على الصدق، أو من يصدق في كل من الإعتقاد والقول والعمل، (كل هذا لكون كلمة صديق من صيغ المبالغة والتي يُمكن أن تكون في إحدى الأمور المختلفة المذكورة أعلاه).

ويستعمل تعبير «لسان صدق» بخصوص الشخص الصالح من جميع النواحي، وإن مُدِحَ وأُثِنَ عليه فهو عين الواقع. وعلى أزيه حال، فإنَّ وصف البارى بالصادق ينشأ من جهات متعددة: من جهة صدقه في أخباره، وفي عوده بإثابة المحسنين ومعاقبة المسيئين.

ومن جهة تنفيذه لجميع ما صرَّح به في القرآن الكريم، وسيأتى شرحه في تفسير آيات البحث.

جمع الآيات وتفسيرها

تحدثت الآيتان الأولى والثانية حول أن الله سبحانه وتعالى أصدق كل شيء حيث قال تعالى وباستفهام استنكارى: «وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا» و «وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا» (١).

(١) قيل وقول: مصدر.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٠٠

وقد اعتقد بعض المفسرين بأن التعبير بكلمة (أصدق) يخص الكمية فقط (أى من هو أكثر صدقاً في الموارد)، لا الكيفية، لأنَّ الكلام الصادق هو ما يطابق الواقع وإلا فهو كذب، ولا يمكن تصوُّر الزيادة والنقصان في كفيته (١).

ولكن الحق هو إمكانية تصوُّر درجات مختلفة للصدق من حيث الكيفية، وهو عندما يكون الواقع ذا أبعاد مختلفة، فمن المسلم أنَّ المتكلم الذى يطابق كلامه الواقع فى جميع الأبعاد يُعتبر أصدق ممن يطابق كلامه الواقع فى أبعاد معينة.

فمثلاً عندما يُشبَّه مؤمنٌ (بمسلمان الفارسى)، والآخر يُشبَّه (بأبى ذر)، فمن المسلم أن أصدقهما هو من أخذ بنظر الإعتبار فى تشبيهه أبعاداً أكثر.

والله أصدق حديثاً ممن سواه، إنما هو كذلك، لكون منشأ الكذب إمراً من الجهل وعدم معرفة الواقع، أو من الضعف والعجز والحاجة، ولكون ذاته المقدسة منزَّهة عن جميع هذه الصفات، فهو أصدق حديثاً.

وتحدثت الآيتان الثالثة والرابعة عن صدق الله فى وعوده، لكن الآية الثالثة تحدثت عن الوعد الإلهى حول النصر على الأعداء فى معركة أحد، حيث انتصر المسلمون فى البداية طبق هذا الوعد، لكن ثاقل وعصيان جماعة منهم أدت إلى انكسارهم فى نهاية الأمر، قال تعالى: «وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ»، ولكن اختلافكم وتماهلكم وعصيانكم فى نهاية الأمر أدى إلى انكساركم، والتقصير إنما جاء من عندكم، ولم يخلف الله وعده.

وكان هذا رداً على من كانوا يعتقدون بأن هزيمتهم فى معركة أحد، هى خلاف للوعد الإلهى.

أما الآية الرابعة فقد تحدثت عن لسان حال المؤمنين حول واقعة الأحزاب، حيث إنهم عندما وقفوا أمام جيش الأحزاب قالوا: «هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ».

(١) تفسير روح المعانى، ج ٥، ص ٩٥، ذيل الآية ٨٧ من سورة النساء.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٠١

والكلام هنا يدور حول كَلِّ مَنْ صَدَقَ اللَّهُ وَصَدَقَ رَسُولُهُ الَّذِي: «وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ»، وقوله قول الله، ووعدته وعد الله أيضاً.

وهناك عدَّة احتمالات حول ما وعد به الله ورسوله المؤمنين وتحقق عند مشاهدتهم جيش الأحزاب: الأول: إنَّ الرسول صلى الله عليه

و آله كان قد قال لهم: ستقصدكم جيوش الأحزاب بعد تسعة أو عشرة أيام، فعندما حضرت جيوش الأحزاب في الموعد المقرر قال المؤمنون قولهم هذا: «هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ» «١». (النجم / ٣-٤)

و الأمر الآخر هو أنه تعالى قال مخاطباً المسلمين: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ». (البقرة / ٢١٤)

وجدوا أنفسهم مقابل ذلك الجيش العظيم عرفوا تحقق الوعد الإلهي وإشرافهم على دخول امتحانٍ عظيم «٢».

وقال البعض أيضاً: إِنَّ الرسول صلى الله عليه و آله كان قد بشر المؤمنين بالنصر بعد محاصرته من قبل جيش الأحزاب، وانتشار الإسلام في أرجاء العالم وسقوط قصور (الحيرة) و (المدائن) و (كسرى في أيدي المسلمين فيما بعد.

فعندما رأى المسلمون القسم الأول من هذا الوعد فرحوا وقالوا: أبشروا بالنصر النهائي «٣».

توضيح

دلائل صدق الله:

قال علماء العقائد: إِنَّ جميع المسلمين يتفقون على مسألة صدق الله، لكن الأشاعرة

(١) تفسير روح المعاني، ج ٢١، ص ١٥١.

(٢) تفسير الميزان، ج ١٦، ص ٣٠٦، وقد ورد نفس هذا التفسير في تفسير الكبير بشكل مختصر.

(٣) تفسير القرطبي، ج ٨، ص ٥٢٣٩.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٠٢

الذين لا يعتقدون (بالحسن والتبجح) يعجزون عن إثبات هذه المسألة، لأنه لا ينفع معهم الدليل العقلي، والدليل النقلى ينفع في بحثنا هذا، لأنهم إن استندوا على الآيات القرآنية الدالة على صدق الله يجر الكلام حتى يصل إلى هذه الآيات. وبعبارة أخرى فإن الاستدلال بالآيات يستلزم الدور (تأمل جيداً).

وهنا يعجزون عن الجواب وإثبات مدعاهم.

وبما أن مسألة الحسن والتبجح العقليين - بغض النظر عن التعصب والأذواق المنحرفة - من المسائل، فإن أفضل طريق لإثبات صدق الله هو هذه المسألة.

يُعد الكذب، حتى من قبل الإنسان العادى، من أقبح الأعمال، بل يعتبر بؤرة أغلب القبائح، ودليلاً بارزاً على انحطاط الشخصية، فمن المسلم به قبح مثل هذا العمل من كل ناحية بالنسبة إلى البارى تعالى، أى أن يكذب سبحانه أو يعد كذباً - معاذ الله.

وإن احتمل أحد مثل هذا الإحتمال اللامعقول بالنسبة إلى الذات الإلهية المقدسة لتهدمت جميع مباني معتقداته، لأن القسم الرئيس من هذه المباني مأخوذ عن الوحي، ولو وجد احتمال الكذب ومخالفة الواقع إليه سبيلاً، لما بقيت هنالك ثقة بالوحي، والأخبار الإلهية، والوعد والوعيد، ولتزلزلت جميع المعتقدات الدينية وتعرضت للعدم، وهذه المسألة من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى توضيح.

وقد أشرنا سابقاً إلى أن عوامل الكذب أى (الجهل) و (الحاجة) ليس لها إلى ذات البارى من سبيل، وهذا بحد ذاته دليل آخر.

آخر الكلام حول الصفات الإلهية:

لا-ريب أن لبحث صفات الله طابعاً عقائدياً، والهدف منه هو تكميل المعارف الإلهية، ولكن ينبغي أن لا يُغفلَ عن أثره التربوي في تكامل النفوس الإنسانية، وغالباً ما كان هذا هو هدف القرآن من طرح هذه الصفات.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٠٣

فعندما نصف الله بالذات الكاملة، وبأنه سبحانه أمل جميع العباد، وتبذل جميع الجهود والمساعى من أجل التقرب منه، وإليه تنتهى جميع الخطوط التكاملية، فإن من الواضح أن هذا البحث يقول للإنسان بكل صراحة وجزم: (إنك ستنتصر وتنجح في جهودك ومسايعك، وستبلغ السعادة عندما تستطيع أن توهج نوراً في قلبك من صفات الجلال والجمال الإلهية تلك). أو بتعبير آخر، فإنك تصير مظهراً لأسماء الله وصفاته وتطغى عليك صبغته، وتصير روحك ونفسك مرآةً لأسمائه، ومظهراً لصفات جلاله وجماله.

وأن تحاول التشبّه به من حيث العلم، القدرة، الإرادة والمشية، المديرية والربوبية، والرحمانية والرحيمية، و... ولو بمقدار قليل. ويلاحظ وجود إشارة لطيفة إلى هذه المسألة التربوية المهمة وردت في الأحاديث الإسلامية، ومن جملتها ما ورد في (تنبيه الخواطر) عن الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وآله أنه قال:

«جعل الله سبحانه وتعالى مكارم الأخلاق صلّةً بينه وبين عباده فحسب أحدكم أن يتمسك بخلق متصل بالله» (١).
وفي حديث آخر عنه صلى الله عليه وآله أنه قال: «تخلّقوا بأخلاق الله» (٢).

(١) تنبيه الخواطر، ص ٢ و ٣، طبق ماورد في ميزان الحكمة، ج ٣، ص ١٤٩.

(٢) زبدة المعارف في أصول العقائد، ص ٨٧، المحقق اللاهيجي.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٠٥

العدل الإلهي

إشارة

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٠٧

تمهيد:

إن لصفة (العدالة) خصوصيات خاصّة من بين صفات الفعل الإلهي، ممّا حدى بعلماء العقائد إلى بحثها بالتفصيل وبصورة مستقلة، إلى الدرجة التي نلاحظ استقلالها من بين أصول الدين، وأنها ذكّرت كأحد أصول الدين العقائدية الخمسة، في حين أنّها لا تتفاوت عن بقية الصفات حسب الظاهر، وينبغي دمجها في مباحث معرفة الله، في بحث (الأسماء والصفات).

إنّ شرح هذه الخصوصيات قبل البحث حول أصل المسألة غير ممكن، لذا سوف نوكله إلى ما بعد، ونكتفى هنا بالقول: إنّ لمسألة العدل الإلهي علاقة بأصل الإيمان بوجود الله من جهة، وبمسألة المعاد من جهةٍ أخرى، وبمسألة التوبة من جهةٍ ثالثة، وبمسائل من قبيل، الثواب والعقاب، الجبر والتفويض، التوحيد والثنوية، فلسفة الأحكام، وغيرها، من جهةٍ رابعة، لذا فقد يُمكن أن يُغيّر الاعتقاد بهذا الأصل أو نفيه شكل جميع المعارف والعقائد الديتية.

إضافةً إلى هذا فإن أثر العدل الإلهي في المجتمع البشري، في مسألة العدالة الاجتماعية، والعدالة الأخلاقية والمسائل التربوية، غير قابل للإنكار.

وبسبب المسائل التي ذكرناها أعلاه، فإننا أيضاً نبحث هذه الصفة على حدة وأكثر تفصيلاً، ولكن، وكما يستوجب أسلوب التفسير الموضوعي، ينبغي علينا قبل كل شيء أن نتعرض إلى الآيات القرآنية الواردة في هذا المجال، لنستتير بها في طريق حل المشاكل المعقدة لهذه المسألة المهمة، بعد هذا التمهيد نعمن خاشعين في الآيات القرآنية التالية.

١- «إِنَّ اللَّهَ لَا يُظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ». (يونس / ٤٤)

٢- «وَلَا يُظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً». (الكهف / ٤٩)

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٠٨

٣- «فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ».

(التوبة / ٧٠) (الروم / ٩)

٤- «فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ». (يس / ٥٤)

٥- «وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ ... يُوفِّ إِلَيْكُمْ وَانْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ». (البقرة / ٢٧٢)

٦- «بَلِ اللَّهُ يَرْكُى مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً». (النساء / ٤٩)

٧- «وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلماً لِّلْعَالَمِينَ». (آل عمران / ١٠٨)

٨- «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ».

(آل عمران / ١٨)

٩- «أَنَّهُ يَبْدُوُ الْخَلْقِ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ».

(يونس / ٤)

١٠- «وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً».

(الأنبياء / ٤٧)

١١- «وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ». (فصلت / ٤٦)

١٢- «أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ». (١)

(ص / ٢٨)

شرح المفردات:

إِنَّ كلمة (ظلم)- كما ورد في مقاييس اللغة- في الأصل ذات معنيين متفاوتين: أحدهما (الظلمة)، والآخر: (وضع الشيء في غير محله)، وفي مقابله (العدل) وهو وضع الشيء في محله المناسب.

(١) وردت آيات قرآنية كثيرة أخرى بصدد هذا المجال، وقد انتخبنا من الآيات ذات المضمون الواحد ولكن بعبارتين متفاوتين، ونموذجاً من الآيات ذات العبارات المتشابهة، من جملتها الآيات التالية: «النساء، ٤٠ و ٧٧؛ العنكبوت، ٤٠؛ الأنفال، ٦٠؛ البقرة، ٢٨١ (إضافة إلى أربع عشرة آية تحتوي كل منها على تعبير «لا يُظلمون»، وتشير بدون استثناء إلى نفي الظلم عن الله تعالى ويونس، ٤٧ و ٥٤.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٠٩

ويُحتمل أن يعود كلا- المعنيين إلى أصل واحد لأن الظلم (ضد العدالة) سبب الظلمة أينما كان، ولعل هذا هو السبب الذي دفع بالراغب في مفرداته، إلى اعتبار (الظلمة) أصل هذه الكلمة.

وقد وردت في لسان العرب أنّ أصل الظلم هو: «الجور والتجاوز عن الحد»، وأضاف في تعبير آخر: الظلم معناه: (الانحراف عن الحد المتوسط).

طبعاً: إنّ هذه المعاني الثلاثة للظلم أى (وضع الشيء في غير محله) و (التجاوز عن الحد) و (الانحراف عن الحد المتوسط)، تعود إلى أصل واحد).

وقد قسّم بعض العلماء الظلم إلى ثلاثة أقسام: ظلم الإنسان ربّه، وأظهر مصاديقه الكفر والشرك والنفاق، وظلم الإنسان الآخرين، وظلمه نفسه، وذكروا لكلّ منها شواهد قرآنية، ولكن من زاوية معينة نرى أنّ الأقسام الثلاثة تعود إلى أصل ظلم النفس، لأنّ الإنسان منذ اللحظة الأولى من تصميمه على الظلم يوجّه الضربة الأولى إلى نفسه، كما قال تعالى: «وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ».

(الأعراف / ١٦٠)

و ضدّ الظلم (العدل)، وقد ذكروا له معنيين متضادين هما:

الأول: هو معناه المعروف أى وضع الشيء في محله المناسب، ولهذا المفهوم الواسع مصاديق كثيرة من جملتها العدل بمعنى الإعتدال، العدالة بمعنى رعاية المساواة ونفى كل ألوان (التمييز)، العدالة بمعنى رعاية حقوق الآخرين، والعدالة بمعنى رعاية الحقوق والإستحقاقات، وأخيراً العدالة بمعنى التزكية والتطهير.

وإن استعملها القرآن الكريم أحياناً بمعنى الشرك فسببه أن المشرك يتخذ لله نداً وعديلاً، قال تعالى في الآية الأولى من سورة الأنعام: «ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ».

الثاني: كما ورد في المقاييس: هو الإعوجاج والانحراف.

وقال بعض أرباب اللغة: إنّ معنى الظلم (أى) أنّ العدل من الألفاظ التي لها معنيان متضادان، لذا يُطلق على الانحراف عن شيء (عدول).

وكلمة (قسط) في الأصل تعني الحصّة والنصيب العادل، ولذلك فإنّها قد تأتي أحياناً

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣١٠

بمعنى (العدالة)، وهو عندما يُعطى نصيب كل واحد بالعدل، وأحياناً أخرى تأتي بمعنى (الظلم)، وهو عندما يُسلب منه نصيبه العادل. ويُستعمل الأول عادةً بصيغة (افعال)، لذا فقد سُمي الله باسم (المقسط)، والثاني بلفظة (قسط) (من الثلاثي المجرد) لذا فالقاسط يعنى (الظالم)، قال تعالى «وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا...» (١)

(الجن / ١٥)

وكذلك قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ...» (المائدة / ٤٢)

ويجدر ذكر هذه المسألة أيضاً وهى أنّ كلمتي (القسط) و (العدل) كلمتان قد تُستعملان أحياناً بصورة منفصلة وبمفهوميّين متقابلين مع بعضهما تقريباً، ولكن تستعملان أحياناً أخرى في موضع واحد، كالحديث الشهير المنقول عن مصادر الشيعة وأهل السنة.

عن الرسول صلى الله عليه وآله أنه قال: «لو لم يبق من الدنيا إلّا يوم واحد لطول الله ذلك اليوم حتى يخرج رجل من وُلدى فيملأها عدلاً وقسطاً كما مُلئت جوراً وظلماً» (٢).

فقد ذُكر (العدل) و (القسط) إلى جوار بعضهما في هذه الرواية، كما هو حال كلمتي (الجور) و (الظلم).

وحول ماهية التفاوت الموجود بين هذين التعبيرين؟

يُمكن القول: إنّ (القسط) - كما ذكرنا هذا في تفسير مفهومه اللغوي - معناه التقسيم العادل وضده (التمييز)، وعليه فإنّ القسط معناه اعطاء كل ذي حقّ حقه لا غير.

لكن العدالة ضدّ الجور والتجاوز على حقوق الآخرين، كأن يغصب أحد حقّ الغير ويستولى عليه، ونحن نعلم بأنّ العدالة الكاملة في

المجتمع البشرى تتحقق عندما لا يكون هنالك تجاوز من قبل أحد على حقوق الآخرين، ولا يُعطى حق أحدٍ لغيره. ويُستنتج (تبايناً) آخر أيضاً من التعبير الوارد في بعض الأحاديث وهو كون العدالة

(١) لسان العرب، مفردات الراغب؛ مقياس اللغة؛ ومجمع البحرين.

(٢) منتخب الأثر، ص ٢٤٧؛ وقد نُقل في هذا الكتاب ١٢٣ حديثاً بهذا المضمون (مع تفاوتٍ قليل)، وقد ورد هذا المضمون أيضاً في كتاب نور الأبصار للكاتب محمد الشبلنجي، من خلال روايات متعددة، ص ١٨٧-١٨٩.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣١١

تخص الحكم والقضاء والقسط يخص تقسيم الحقوق، وقد ورد في لسان العرب نقلًا عن بعض الأحاديث «إذا حكموا عدلوا وإذا قسّموا أقسطوا» (١).

ويُحتمل أيضاً أن يكون العدل ذا مفهومٍ أوسع وأعمق من القسط، لأنّ القسط يُستعمل بخصوص التقسيم، والعدل يُستعمل فيه وفي موارد أخرى.

جمع الآيات وتفسيرها

إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ أَحَدًا:

الجدير بالانتباه هو استعمال القرآن الكريم كلمة (العدل) في المواضع المتعلقة بوظيفة العباد، وعدم استعماله هذه الكلمة بخصوص البارى تعالى وبالمقابل يلاحظ تعبير (نفي الظلم) عن الله بكثرة، وتعبير إقامة الله القسط ليس بقليل أيضاً. وأما ترك استعمال كلمة (عدل) بخصوص الذات الإلهية المقدسة فيحتمل أن يكون سببه هو ما أشرنا إليه سابقاً وهو كون كلمة (العدل) قد تُعطى معنى (الشرك) أحياناً، (أى اتخاذ الكفوء والند لله تعالى، فما أراد سبحانه أن يُستعمل هذا اللفظ المشترك بخصوص ذاته المقدسة!

وعلى أية حال فقد قال تعالى في الآية الأولى من البحث: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ».

يُمكن أن يكون هذا التعبير إشارة إلى الكلام الذى ورد في الآيات التى سبقتها، من قوله تعالى: «وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَمَا يَعْقِلُونَ» وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا لَأَبْصِرُونَ» إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ».

وبتعبير آخر: إنها سنّة إلهية أن لو لم تُستعمل الأبصار والأسماع السليمة فى الاتجاه

(١) لسان العرب، ج ٧، مادة (قسط).

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣١٢

المخلوقة من أجله لفقدت قدراتها، لذا فلو لم ينتبه أحدٌ إلى مثل هذه الحالة لكان قد ظلم نفسه بنفسه، لا مظلوماً من قبل الله تعالى.

وقد أيد الكثير من المفسرين هذا التفسير، ولكن العجب من ترك البعض الآخر منهم (كالفخر الرازى) هذا المطلب الواضح وانصياعهم لعصبيّتهم المذهبية فى مسألة العدالة، فقالوا: (لأنّ كل ما فى الوجود ملكٌ له، فكل ما يعملهُ ليس بظلم).

فى حين أنّ الآية تشير بدقّة إلى خلاف هذا المطلب، فظاهر الآية يُفهم منه انتفاء تصوّر الظلم بشأنه جلاً وعلاً، بل إنه لن يظلم أحداً فى نفس الوقت الذى يقدر فيه على ذلك.

ومن قبيل هذا التعبير كثير، فلو قيل: إِنَّ الطيب الفلاني، لم يُعالج المريض الفلاني فإنه يعني، أنه كان قادراً على علاجه، لكنه لم يفعل، فلا يُقال أبداً: إِنَّ الأُمِّيَّ الفلاني لم يُعالج فلاناً من الناس.

أما الآية الثانية فقد أشارت إلى هذا المعنى بتعبير آخر، حيث قالت: «وَلَا يَظْلِمُ رَبِّكَ أَحَدًا» ويُمكن أن يكون ذكر تعبير (رب) إشارة إلى رعايته تعالى للإنسان بالتربية والتكامل، لا الظلم والجور الذي يؤدي إلى النقصان والتخلف (الذي هو خلاف اصول الربوبية).

وقد ذكرت هذه الجملة بعد بيان حال المجرمين في القيامة، عندما يرون كتبهم فيقولون:

«يَا وَيْلَتَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَ وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا». (الكهف / ٤١)

لذا فإنهم هم الذين ظلموا أنفسهم لا الله سبحانه وتعالى، وتتضح مسألة انتفاء الظلم عن الله سبحانه وتعالى نهائياً من خلال تصريحه تعالى في القرآن بتجسّم أعمالهم هناك (أي يوم القيامة).

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣١٣

وأشارت الآية الثالثة إلى العذاب الدنيوي الذي أصاب ستة من الأقسام السالفة بسبب طغيانهم وظلمهم وعنادهم «١»، قال تعالى «فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ».

لقد منَّ الله عليهم بالعقل والفهم والمعرفة، وأرسل إليهم الأنبياء والكتب السماوية الواحد تلو الآخر، وحذّره مراراً، فعندما لم ينفع معهم أي واحدٍ من هذه الأمور، أنزل عليهم العذاب وأهلكهم، فمنهم من أغرقه بالماء، ومنهم بالريح العاصفة، ومنهم بالزلزلة، ومنهم من أخذته الصيحة.

وهذا الكلام تحذيرٌ ضمنّي للأقسام الحالية، والطغاة، والمتمردين العصاة، ليكونوا على وجل لئلا يحطّموا أنفسهم بأيديهم ويحرقوا حاصل حياتهم بنار أعمالهم.

وجملة: «فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ»، التي اجتمع فيها الفعل الماضي (كان) والمضارع (ليظلمهم)، تشير إلى نفي ظلم الله لأي أحدٍ وفي أيّ من الأزمنة الماضية، واستمرار هذه الصفة والسنة الإلهية وثباتها وعدم كونها أمراً مقطوعاً مؤقتاً وعابراً.

أما الآية الرابعة فقد أشارت إلى الجزاء الأخروي وأحوال يوم القيامة، حيث قال تعالى:

«فَالْيَوْمَ لَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ».

مع أنّ فعل (تُظلم) في هذه الآية قد ذُكر بصيغته المجهول، لكنه من الواضح أنّ الحاكم الوحيد في محكمة القيامة هو الله سبحانه وتعالى، إذن يُعتبر نفي الظلم في هذه الآية نفيّاً للظلم عن ساحة قدسه تعالى وعليه فإنه لا يرتضى الظلم لأحدٍ لا في الدنيا ولا في الآخرة، إنها أعمال الناس التي سوف تتجسّم أمامهم هناك وترافقهم، فإن كانت صالحة منحتم اللذة والنشاط والبهجة، وإن كانت طالحة صارت سبب عذابهم وأذاهم، لذا قال سبحانه: «وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ».

(١) قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم وقوم شعيب وقوم لوط.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣١٤

وقالت الآية الخامسة بصراحة- والتي وردت بخصوص حاله خاصة وهي الإنفاق- «وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ ... يُؤَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظَلَّمُونَ». فسّر جماعة من المفسرين (الظلم) هنا بمعنى النقصان، (أي لا تُنقصون)، ولكن يبدو بأنّ (الظلم) هنا له نفس ذلك المعنى الواسع على الرغم من كون مصداقه هنا النقصان الكمي أو الكيفي.

والملفت للإنبته هو أنّ- كما لوح به صدر الآية، وصرّح به شأن النزول- هذه الآية نزلت بخصوص الإنفاق حتى على فقراء الكفار، فشوق القرآن جميع المسلمين لينفقوا عليهم أيضاً عند حاجتهم، إنهم غير مسؤولين عن إيمان الكفار، فهدايتهم وتوفيقهم للإسلام بيد الله، فليطمئن المسلمون بأنّ كل انفاقٍ خالص لمساعدة الفقراء الحقيقيين سيوفى إلى المنفقين يوماً ما ويعود إلى حوزتهم.

أما في الدنيا فلأنه (أى الإنفاق) يؤمن ويحفظ أموالهم، حيث عندما يضغط الفقر على طائفة من المجتمع فستسوده الفوضى، وينعدم الأمن في المجتمع، وستعرض الأموال للتلف ليست لوحدها فقط، بل الأرواح أيضاً.

أما في الآخرة فانهم سيحصلون على أضعافه المضاعفة من الرحمة الإلهية والثواب العظيم.

وبالمناسبة إن هذا التعبير يُعدُّ ترغيباً للمنفقين لإنفاق أفضل مقدار ونوع من أموالهم في سبيل الله، لأنه سيوفى إليهم، فهل يُحبُّ أحدٌ أن يسترجع ثياباً رثّةً أو أموالاً غثّة؟ إذن يجب أن لا يكون سعيه الوحيد هو إنفاق أمواله الحقيمة في سبيل الله.

وتحدثت الآية السادسة عن الذين كانوا يزكون أنفسهم ويعتقدون بأفضليتهم على من سواهم، كاليهود الذين قالوا: نحن أبناء الله، وكانوا يعتقدون بأن الله يغفر في الليل ما يرتكبونه من الخطايا في النهار، ويغفر في النهار ما يرتكبونه من الخطايا في الليل! أو

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣١٥

النصارى الذين كانوا يعتقدون لأنفسهم من قبيل هذه الأمور (حول شأن نزول هذه الآية، أشار الكثير من المفسرين إلى إدعاءات هاتين الفئتين).

فالقرآن يقول (إن هذه التزكية الناشئة من التعصب والعجب والغرور، لا قيمة لها، إنما القيمة في تزكية الله من يشاء من عباده)، قال تعالى: «بِإِذْنِ اللَّهِ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا».

أجل، إن علمه بجميع وجود الإنسان، ظاهره وباطنه، خلقه وطبعه، أعماله السرية والعلنية، يؤدي إلى أن تكون تزكيته لفردٍ ما حقانية، أى لا أقل ولا أكثر من اللازم، فى حين أن تزكية الآخرين مشوبة بالجهل فى أبعاد مختلفة، ومصحوبة بأنواع الحب والبغض والغفلة والغرور.

وعليه فإن الكلام فى هذه الآية يدور فقط حول الظلم وتجاوز الحد بالنسبة إلى تزكية الأشخاص من قبل الله سبحانه وتعالى، ولكن يُحتمل أيضاً أن تكون هذه الجملة إشارة إلى الذنب الكبير الذى كان يرتكبه المزكون أنفسهم بسبب عجبهم، لأنهم كانوا يعتقدون بخصوصيتهم عن غيرهم واستحقاقهم لكل ألوان الكرم الإلهي.

فالقرآن يقول: إن من وراء هذا الكلام عقوبة ثقيلة ولكن لا ظلم فيها.

ولكن يبدو أن التفسير الأول أقرب إلى المعنى.

أمّا مادّة (قتل) على وزن (قتل) فهى تعنى البرم، لذا فإنّ (فتيل) يعنى الحبل المبروم، وتُطلق عادةً على ذلك (الخيطة) الرقيق الموجود فى شق نواة التمر، وهو كناية عن الشىء القليل جداً.

ويلاحظ فى الآية السابعة نفس هذا المعنى بتعبير جديد، فإن كانت الآيات الاخرى قد نفت ظلم الله لعباده، فهذه الآية نفت ظلمه للعالمين جميعاً، فليس فقط لا يظلم، بل حتى لا تتعلق إرادته بالظلم، قال سبحانه: «وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ».

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣١٦

ولو اعتبرنا كلمة (عالمين) جمع عاقل، لشمّلت جميع الموجودات العاقلة فى الوجود، من الناس، والجن والملائكة، وإن حملناها على (التغليب) لشمّلت جميع موجودات عالم الوجود، من العاقلة وغير العاقلة، ومن الحيّة وغير الحيّة (الجمادات)، ولأثبتت العدل الإلهي بخصوصها جميعاً (أى وضع كل شىء فى محله المناسب).

والتعبير بكلمة (ظلماً) وبصيغة المفرد النكرة وسبقه بالنفي، إنما هو من أجل التعميم، ويشمل أدنى وأقلّ ظلمٍ وجور.

وقد ورد فى تفسير الميزان أنّ التعبير بكلمة (العالمين) يُشير إلى هذه الحقيقة، وهو:

انعكاس أثر الظلم فى جميع العالم بأى مقدارٍ كان ومن أى إنسان صدر. (لأنّ العالم وحدة مترابطة) «١».

والجدير بالإلتفات هو أنّ جماعةً من العلماء توسّلوا بهذه الآية لإبطال مذهب الجبر وما يتفرع منه، فقالوا: إذا كانت أعمال العباد من فعل الله وصادرة من ذاته المقدّسة، لا ستوجب أن يكون ظلمهم بعضهم أو أنفسهم من فعله تعالى، ولكن الآية المذكورة أعلاه عندما

نفت أى ظلم من قبل الله للعالمين فإنها تدل على انتفاء كون هذه المظالم من فعله تعالى، بل هي من أنفسهم، لأنها لو كانت من فعله لتعلقت بها الإرادة الإلهية، وقوله: «وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا» يدل على نزاهة ذاته المقدسة عن هذه المظالم.

والعجيب هو أن الفخر الرازي قد نقل هذا الكلام في تفسيره من دون أن يكون له جواب عنه، على الرغم من تعارضه مع عقيدته حول الجبر والتفويض «٢».

وعلى أية حال، إن هذه الآية لها صيغته تعميمية من ثلاث جهات: (العالمين) و (الظلم) و (الإرادة) وتعد من أجمع آيات نفي الظلم عن الله تعالى.

(١) تفسير الميزان، ج ٣، ص ١٤١٤ (مع شيء من الإقتباس).

(٢) تفسير الكبير، ج ٨، ص ١٧٤.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣١٧

أما الآية الثامنة فعلى خلاف الآيات السابقة، التي كانت تتحدث عن نفي الظلم، أكدت إثبات القسط والعدل كسببته دائميته وأبديته، قال تعالى: «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ».

والجدير بالانتباه هو كون العدالة الإلهية من أحد شروط (الشهادة)، وعدالته شرط لمنع عباده عن أى انحراف عن طريق الحق، وتم التأكيد هنا على عدالة الله لتكميل شهادته، وهذه العدالة تثبت بوضوح بنظرة عميقة واحدة إلى عالم الوجود، لأننا نرى كل شيء في محله، ونشاهد منتهى الدقة والإستحكام فى النظام الموجود فى الوجود، وإذا لاحظنا وجود بعض العيوب فى بعض حوادث وأشياء العالم، فإنها تتضح لنا شيئاً فشيئاً بزيادة التدقيق والتطور العلمى، وإن بقيت حالات نادرة فى قيد الإبهام، فإننا وبأخذنا بنظر الاعتبار الحوادث المكتشفة فى العالم، سنعلم بأن سبب بقاء إبهامها هو جهلنا وقلة علمنا.

ومن جهة أخرى، إن عدالة الله دليل أيضاً على وحدانيته، لأنه لو كان هنالك خالقٌ وحاكمٌ فى الوجود سواه لأدى إلى حدوث اختلاف فى التدبير والفساد بالنتيجة، وعليه فإن النظم الموجودة، ووحدة التدبير خير دليل على وحدانيته.

وبهذا فإن وحدانيته تدل على عدله، وعدله يدل على وحدانيته، وهذا مطلب ظريف يُستحصل من الآية أعلاه «١».

والظريف (هو استدلال الزمخشري فى الكشاف بهذه الآية على نفي الجبر، لأن الجبر يتنافى مع عدالة الله).

وهذا مطلب واضح سنتطرق إليه فى البحوث القادمة إن شاء الله، فأى ظلم أكبر من أن يجبر شخصٌ أحداً على فعلٍ معين ثم يؤاخذه عليه ويعاقبه؟

لكن الفخر الرازي، وانطلاقاً من تعصبه الخاص حول هذه المسألة، تهجم بشدة على صاحب الكشاف ووصفه عدو مرات بالمسكين أو بغير المحيط بجميع رموز العلم، وتوسل بالإشكال الشهير المعروف (بعلم الله) فى مسألة الجبر، وهو إن لم يعص المذنبون ولم

(١) تفسير الميزان، ج ٣، ص ١١٩ (مع شيء من الأقتباس).

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣١٨

يرتكبوا الذنوب الموجودة فى علم الله منذ الأزل، لصار علم الله جهلاً! «١»

فى حين أن الرد على هذا الإشكال من البساطة والوضوح بحيث يعلمه جميع من لهم أدنى اطلاع حول مسألة الجبر والتفويض، وسيأتى شرحه فى البحوث القادمة إن شاء الله تعالى.

وأما الآية التاسعة فقد أشارت أيضاً إلى مسألة عدالة الله فى القيامة فى مسألة الثواب والعقاب، وأكدت على كلمة (القسط)، قال تعالى: «إِنَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ».

وهذه الآية بالواقع تشير إلى كُـلِّ من الدليل العقلي على إمكان المعاد، ودليل وقوعه، أما إمكانه فلأنَّ مَنْ بَدَأَ الخلق قادر قطعاً على إعادته وإحيائه من جديد.

أمّا وقوعه، فلو لم يكن (المعاد) لما تحقق القسط والعدل، فهناك الكثير من المحسنين ممن لم يحصلوا في هذه الدنيا على ثواب عملهم، ومن المسيئين الذين لم يذوقوا- في هذه الحياة الدنيا- قصاص أعمالهم، فلولا المعاد لما تحقق العدل والقسط. والجدير بالانتباه هو أن الآية قد أشارت في نهايتها إلى العذاب الأليم الذي سيلقاه الكافرون في الآخرة: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ». (يونس / ٤)

دون أن تتطرق إلى مسألة القسط والعدل، والسبب في هذا هو أن إجراء القسط والعدل في جزاء الكافرين واضح من قرينة بداية الآية، علاوة على كون جملة: «بما كانوا يكفرون» دليلاً واضحاً على كون ما يلقونه من العذاب جزاء ولقاء ما كانوا يعملون، وكأن المقصود من ذكر (القسط) بعد جزاء الصالحين هو بيان كونه الهدف الأصلي للخلق والإيجاد، وما يوم القيامة والحساب إلّا أجلهم وله حالة تبعية تخص الآخرين.

واحتمل بعض المفسرين حول تفسير هذه الآية أن القسط هنا يخص أعمال المؤمنين،

(١) تفسير الكبير، ٧، ص ٢٠٦.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣١٩

أى: إن الله سيجزي المؤمنين في يوم القيامة لقيامهم بالعدل والقسط الذي يقتضيه الإيمان (١). لكن المفسر هذا لم ينتبه إلى هذه الحقيقة وهي كون (العمل الصالح) يتماشى مع أسس العدالة، ولا تحتاج إلى قيد أو شرط، إلّا أن يكون ذا حالة تأكيدية، ونحن نعلم بأن حمل الكلام على التأكيد خلاف الظاهر ويحتاج إلى قرينة. وأشارت الآية العاشرة إلى نفس هذا المعنى مع وجود هذا التفاوت، وهو بيانها القسط والعدل كصفتين لموازين الأعمال، ونحن نعلم بأن مقيم هذه الموازين هو الله العادل، إذن لا بد من التسليم بأنها من صفات ذاته المقدسة. والتفاوت الآخر في هذه الآية عن الآية السابقة هو كون مفهوم هذه الآية عاماً، ويشمل كلاً من المؤمن والكافر، لأن (ميزان القسط) لا يزن إلّا قسطاً وعدلاً، ولا يظلم أحداً. قال تعالى: «وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً». والظريف هو وصفه تعالى هذه الموازين (بالقسط)- (العدل بالمعنى المصدرى)- وقوله:

إن هذه الموازين عين العدل، ممّا يعكس نهاية التأكيد كقولنا: (زيدٌ عدلٌ)، أى أنه عين العدل، فعليه لا حاجة في هذه الآية إلى التقدير.

وسياتى هذا المطلب في المجلد الخامس من هذا التفسير في بحوث المعاد إن شاء الله، وهو كون المقصود من (الميزان) هنا شيئاً مماثلًا للموازين المادية ليصير مجالاً لطرح هذا الإشكال، وهو كون أعمال الإنسان ليست ذات وزن يُذكَرُ، فكيف يمكن وزنها بهذه الموازين؟ فنضطر إلى القول كما قال الفخر الرازي: إن المقصود منها وزن كتب الأعمال! أو الحسنات تتجسم بشكل جواهر بيضاء نورانية! والسيئات تتجسم بشكل جواهر سوداء ظلمانية! (٢)

(١) تفسير المنار، ج ١١، ص ٢٩٩.

(٢) تفسير الكبير، ج ٢٢، ص ١٧٦.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٢٠

بل المقصود من (الموازن) هو وسيلة القياس، وكما نعلم أن وسيلة قياس كل شيء تتناسب مع ماهية ذلك الشيء، كقياس الوزن، قياس الحرارة، وقياس ضغط الدم، و... لذا فإن وسيلة قياس الأعمال أيضاً هي تلك المعايير الخاصة التي تُقاس بواسطتها، كما ورد في زيارة أمير المؤمنين عليه السلام: «السلام على ميزان الأعمال!».

أجل، إن الإنسان الكامل ميزان قياس أعمال مختلف الأفراد، لأن وزن كل إنسان يُعادل نظيره! والظريف هو ما ورد في بعض التفاسير بأن داود عليه السلام طلب من الله أن يُريه (ميزان الأعمال)، فعندما رآه صريعاً فلما أفاق قال: إلهي ميزان بهذه العظمة؟! من ذا الذي يقدر أن يملأ كفته بالحسنات؟ فقال سبحانه وتعالى مخاطباً إياه: «يا داود إذا رَضِيتُ عَنْ عَبْدِي مَلَأْتُهَا بِتَمْرَةٍ!».

(أجل إن المعيار هناك هو نوعيته العمل لا كميته) «١».

ما الله بظلام:

استعملت الآية الحادية عشر مصطلح (ظلام) الذي هو من صيغ المبالغة، ويعني كثير الظلم، قال تعالى: «وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ». ذكر القرآن هذه الجملة بعد أن أخبر بأن كل إنسان مرتَهَنٌ بعمله، إن عمل صالحاً فلنفسه و إن أساء فعليها، وإن تورط الناس بعواقب مشؤومة فما كسبت أيديهم، وأن الله ليس بظالم لهم. ونفى صفة (ظلام) - كثير الظلم - عن الله تعالى - مع كونه لا يظلم أحداً أدنى شيء - فيه كلام، فقد قال البعض: إن صدور (ادنى شيء من الظلم) ممن يعلم بقبحه وليس له أي حاجة إليه، يُعدُّ ظلماً عظيماً «٢».

(١) تفسير الكبير، ج ٢٢، ص ١٧٦.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ١٨.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٢١

ويُحتمل أيضاً أن يؤدي ترابط عالم الوجود، وبالأخص حياة البشر، مع بعضه إلى أنه لو افترضنا صدور ظلم معين من ذاته المقدسة بشأن أحد ما، لسرى إلى الآخرين واتخذ صفة (ظلام).

كيف يُمكن أن يوصف الله، المنزه عن كل عيب ونقص، والموصوف بجميع صفات الجمال والجلال، بصفة (الظلام)؟ والتفسير الرابع هنا، والذي يبدو أفضل من جميع هذه التفاسير، والمشار إليه في بعض الروايات الواردة عن المعصومين عليهم السلام، هو أن الآية المذكورة - ونظراً لما ورد في صدرها - تبطل عقيدة الجبر: فتقول: «مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا». (فصلت/ ٤٦)

فعلية الجميع مفوضون في ممارسة الأعمال، وإذا أجبرهم الله على ارتكاب الذنوب وآخذهم عليها لكان ظلماً قطعاً، ولأن الله ليس بظلام للعبيد فهو لا يجبرهم على ارتكاب القبائح ويؤاخذهم عليها فيما بعد.

ورد في حديث عن الإمام الرضا عليه السلام أنه سُئِلَ من قِبَل أحد أصحابه: هل يجبر الله عباده على الذنب؟ فأجابه عليه السلام: «لا، بل خيرهم وأمهلهم ليتوبوا»، فسأله كذلك: فهل يكلفهم ما لا يُطيقونه؟ فقال الإمام عليه السلام: «كيف يفعل ذلك وهو يقول: «وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ»».

(لاحظوا أن الاعتقاد بالجبر يوجب التكليف بما لا يُطاق، لأن العبد المجبور على المعصية، لا طاقة له على الترك، في حين أن الله قد فرض عليه تركها) «١».

والجدير بالالتفات هو أن كلمة (ظلام) قد وردت. خمس مرّات في القرآن الكريم أربع منها بخصوص مسألة حرية إرادة العباد «٢».

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٥٥٥، ح ٧١.

(٢) وردت عبارة «وما ربك بظلام للعبيد»، في آل عمران، ١٨٢؛ وفصلت، ٤٦ والتي يدور البحث حولها و الانفال، ١٥١.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٢٢

كيف يمكن أن يساوي بين المحسن والمسيء؟

أشارت الآية الأخيرة الثانية عشر من بحثنا إلى نفس هذه الحقيقة من خلال تعبير ظريف آخر، دون أن تُصرَّح بكلمة العدل، أو القسط، أو مصطلحات نفى الظلم، وما شاكل ذلك.

قال تعالى: «امْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ».

إنَّ هذا الاستفهام هو نوعٌ من الاستفهام الإستنكاري، أي: إنَّ مثل هذا الشيء غير مُمكن، لأنَّ المساواة بين المصلح والمفسد، والمتقى والفاجر، ظلمٌ فاحش، والله العادل لا يفعل ذلك أبداً.

وإن كانت المسألة كما اعتقد البعض من الجهلاء، في كون العالم ملكاً لله والعباد عباده، وكل ما يفعله بحقهم هو عين العدالة، لفقدت الآية أعلاه معناها.

ويجدر الالتفات إلى أنَّ الآية أعلاه قد عرضت المسألة على الوجدان البشري الحي، وخاطبته بصيغة الاستفهام الإستنكاري: (فهل يُمكن أن يفعل الله هذا؟).

وقد أشارت هذه الآية بصورةً ضمنيةً إلى مسألة المعاد، لأنه لو لم يكن هناك معاد لتساوى المصلح والمفسد، ففي الدار الدنيا يُمكن أن لا يلقي أيُّ منهم جزاء عمله، وهذا ممَّا لا يتلائم مع عدله تعالى إذن يجب أن يكون هنالك يومٌ للحساب لتحقق أسس العدالة.

ثمرة البحث:

نستنتج من مجموع الآيات التي ذكرناها أنَّ الذات الإلهية المقدسة منزَّهة عن الظلم والجور بكل أشكاله، وبكل مقاديره، قليله أم كثيره، في الدنيا أم في الآخرة، وبحق أيِّ أحدٍ كان.

إنَّه تعالى لا يظلم أحداً بصورة مباشرة وغير مباشرة، ولا يعمل عملاً يؤدي (ولو بمنات

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٢٣

الوسائط) إلى ظلم أحد، وهذه المسألة طُرِحَتْ في الآيات المختلفة الآنفه الذكر بتعابير وعبارات متنوعة.

وهنالكَ بحوث كثيرة حول هذه المسألة، سواءً من الناحية الفلسفية والكلامية والعقائدية، أو من الناحية الروائية، أو التاريخية، ونتطرق إليها في البحوث القادمة.

توضيحات

١- مسألة العدل الإلهي لدى المذاهب والفرق الإسلامية

تشير القرائن إلى وجود مخالفين ومؤيدين للعدل الإلهي من بين الفلاسفة وعامة الناس منذ أقدم العصور، وبشكل ملحوظ. وتأييد العدل نشأ من كونه من صفات الكمال وعدم تجرّد الله الذي هو منبع كلّ الكمالات منه أبداً.

وانصار نفى هذه الصفة نشأ تصورهم هذا من وجود قسم من العيوب الظاهرية، والآفات، والبلايا، والمصائب التي تبدو ولأول وهلة على الأقل متنافية مع مسألة العدل الإلهي.

لكن هذه المسألة اتخذت طابعاً آخر بين المسلمين، فجماعة منهم يدعون (بالأشاعرة) خالفوا هذه الأصل الديني لا من حيث إنكارهم عدالة الله، بل من حيث كونه تعالى مالك الوجود، وعدم تحقق صفة الظلم من قبله، فكل شيء يفعل هو عين العدالة (حتى معاقبة جميع المحسنين وإثابة جميع المسيئين)!

إن الدافع الأساس للاتجاه نحو هذا النوع من التفكير هو الوقوع في أسر التفكير بمسألة الجبر وعدم التفويض من جهة، لأن الأشاعرة من المؤيدين المتعصبين لمسألة «الجبر وعدم تفويض العباد في أفعالهم».

ومن جهة أخرى وحسب ما صرحت به الآيات القرآنية، وطبقاً لضرورة الدين الإسلامي فإن الله يدخل المحسنين الجنة والمسيئين النار. نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٢٤

وهنا واجهوا هذا الإشكال وهو: إذا كان الإنسان مجبراً على أفعاله فما معنى الثواب والعقاب على هذه الأعمال الإجبارية وغير الاختيارية؟ وكيف يتناسب هذا مع عدالة الله سبحانه؟ لذا فقد اضطرّوا إلى إنكار مسألة العدالة الإلهية بالشكل الذي ذكرناه آنفاً. ومن جهة ثالثة أنهم كانوا يعتقدون بأن إنكار العدل الإلهي نوع من التوحيد الكامل، وكانوا يظنون الوصول إلى مرحلة التوحيد العليا إذا ما اعتقدوا بأن الله فوق مسألة العدل والظلم.

وفي مقابل هذه الجماعة كانت تقف جماعة (المعتزلة) الذين كانوا يعتقدون بأن العدل الإلهي من أهم المسائل العقائدية، وبإمكانية تصوّر كل من العدل والظلم بالنسبة إلى الله تعالى، لكن الله لا يظلم أبداً، والعدالة بمعنى الكلمة موجودة فيه. أما الشيعة ومعتقو مذهب أهل البيت عليهم السلام فإنهم وقفوا في زمرة مؤيدي العدل الإلهي، لذا يُطلق عليهم وعلى المعتزلة اسم (العدلية).

إن الأهمية التي يوليها شيعة أهل البيت عليهم السلام لمسألة العدل الإلهي من العمق بحيث اعتقدوا بأن (العدل) و (الإمامة) رُكنان أساسيان في مذهبهم، في مقابل (التوحيد) و (التبوة) و (المعاد) التي تُعد الأركان الأساسية الثلاثة للدين الإسلامي. وسنلاحظ في البحوث القادمة إن شاء الله أن إنكار مسألة العدل الإلهي قد يؤدي أحياناً إلى إنكار علم الله أو قدرته، ويؤثر على الصفات الإلهية الأخرى أيضاً، لهذا فقد عُرف (العدل) كصفة مرتبطة ببقية الصفات.

ولعل هذا هو دليل ما ورد في الرواية التي مفادها أن رجلاً دخل على الإمام الصادق عليه السلام فقال له: «إن أساس الدين التوحيد والعدل» وأضاف قائلاً: «أود أن تبين لي شيئاً في هذا المجال يسهل حفظه».

فقال الإمام عليه السلام: «أما التوحيد فإن لا تجوز على ربك ما جاز عليك، وأما العدل فإن لا تنسب إلى خالقك ما لامك عليه» (١).

(١) بحار الأنوار، ج ٥، ص ١٧، الباب ١، ح ٢٣.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٢٥

إن هذا الجواب المُتَقَن جداً هو بالواقع دليل على (التوحيد) و (العدل) ملخص في عبارات موجزة، لأن صفات الممكنات لا يمكن أن تكون صفات لله الذي هو واجب الوجود لأن هذه الصفات مقرونة بالنقص والمحدودية، في حين أنه جلّ وعلا كامل وغير محدود من كل الجهات، وكذا كيف يمكن أن يؤاخذنا الله على أفعال تنسب إليه ونحن نقوم بها.

ولكن على أية حال، فإن جواب الإمام عليه السلام هذا يدل على تأييده عليه السلام لكلام الراوي: «إن أساس الدين التوحيد والعدل». وقد جمع أمير المؤمنين على عليه السلام هذين الركنين في عبارته المختصرة والمفيدة جداً، وشرح حقيقة التوحيد والعدل بأسلوب رائع جداً، حيث قال: «التوحيد أن لا تتوهمه والعدل أن لا تتهمه». (فما تحيط به الأوهام محدود ومخلوق والله تعالى أكبر من ذلك).

(والعدل أن لا تتهمه يعني أن لا تنسب إليه ما كسبت يداك من قبائح الأعمال) «١».

٢- الأدلة العقلية على مسألة العدل الإلهي

اعتقد أغلب علماء المسلمين بأن هذه المسألة من ناحية البعد العقلي هي فرع من مسألة (الحسن والقبح)، لذا يتوجب علينا هنا متابعة هذه المسألة، وذكرنا عصاره منها هنا:

كان الأشاعرة (جماعة أبو الحسن الأشعري المدعو على بن اسماعيل والذي كان من متكلمي أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجري) يُنكرون (الحسن والقبح) العقليين بالمرّة، ويقولون: إنّ عقلنا ليس بقادر لوحده على إدراك الصالح والطالح، والحسن والقبح من الأشياء، ومعياري معرفتهما هو الشرع.

فما يستحسنه الشرع فهو حسنٌ، وما يستقبحه فهو قبيح، حتى الأمور التي نعتقد اليوم

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٤٧٠.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٢٦

بِحُسْنها وقُبْحها، فإذا قال الشرع خلاف ما نعتقد لقلنا مثل قوله، حتى وإن سُئلوا: هل يُدرك العقل حُسن العدالة والإحسان، وقبح الظلم والبخل، وقتل الأبرياء؟ لقالوا: لا! فيجب الاستعانة فقط بتوجيهات الأنبياء وأولياء الله.

وفي مقابل هؤلاء يقف (المعتزلة) و (الشيعة) الذين يعتقدون باستقلال العقل في إدراك الحسن والقبح، فمثلاً يعتبرون حُسن الإحسان، وقبح الظلم من بديهيات حكم العقل.

طبعاً إنهم لا يقولون: إنّ العقل قادرٌ على إدراك جميع المحاسن والمساوي، لأنّ إدراكه محدود على أيّة حال، بل يقولون: إنّ العقل يدرك القسم الواضح جداً منها، ويُعدّونها من المستقلات العقلية.

ذكر (فاضل القوشجي) ثلاثة معانٍ للحسن والقبح:

١- (صفه الكمال والنقص)، كقولنا: العلمُ حسنٌ، والجهل قبيحٌ، لأنّ العلم يمنح صاحبه الكمال، والجهل يخلف النقصان.

٢- الحسن بمعنى (التنسيق مع المقصود)، والقبح بمعنى (عدم التنسيق مع المقصود).

هذا هو ما يُعبّر عنه أحياناً ب (المصلحة) أو (المفسدة) فنقول: العمل الفلاني حسن ومن ورائه مصلحة، أي يُقربنا أو يقرب المجتمع الإنساني من أهدافه، أو الأمر الفلاني فيه مفسدة وقبيح، لأنّه يُبعدنا عن الأهداف الأساسية، سواءً كانت هذه الأهداف ماديةً أو معنويةً.

٣- الحسن بمعنى (الأمر المستحقة للثناء والثواب الإلهي)، والقبح بمعنى (الأمر المستحقة للتوبيخ والعقاب).

ثم أضاف قائلاً: وموضع الشجار والنزاع بين الأشاعرة والمعتزلة هو هذا المعنى الثالث «١» «٢».

ولكن الحق هو أنّ هذه المعاني الثلاثة غير منفصلة عن بعضها، لأنّ الثواب والثناء يعود إلى الأفعال والأعمال التي فيها مصلحة معينة، وتقرب الإنسان إلى مراحل الكمال طبعاً،

(١) شرح تجريد القوشجي، ص ٤٤١.

(٢) هنالك معنى رابعٌ للحسن والقبح والذي هو خارج عن بحثنا، وهو الحسن بمعنى موافقة الطبع (الوجه الجميل) والقبيح بمعنى منافرة الطبع.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٢٧

كما هو حال الصفات الكمالية كالعلم الذي يُقرب الإنسان من هذه الأهداف.

وعليه فإن هذه المعاني الثلاثة لازمة وملزومة ببعضها، وإن فُرق «فاضل القوشجى» بينها فإنما هو لتعبيد الطريق للإجابة على استدلالات جماعة (الحسن والقبح العقلين)، فمثلاً يَرُدُّ على استدلالهم هذا عندما يقولون: (نحن ندرك حسن الإحسان وقبح الظلم بحكم ضرورة الوجدان). فيقول: إن هذا الكلام صحيح بالمعنى الأول والثانى، وغير صحيح بالمعنى الثالث.

لذا يُمكن القول فى تعريف (الحسن والقبح) بأن الأفعال الحسنه هى الأفعال التى تقرب الفرد أو المجتمع البشرى من الكمال المطلوب، أو تربي فيه الصفات الكمالية، وتقربه من الأهداف التكاملية، ومثل هذه الأعمال فيها مصلحة طبعاً ومحبة من قبل الله سبحانه وتعالى وتستحق الثواب، وعكسها الأفعال القبيحة.

الآن وبعد أن عرفنا معنى (الحسن والقبح) والآراء المختلفة حول عقلانيتهما وعدم عقلانيتهما، لننظر أياً منهما أحق من صاحبه. لا-ريب فى أنّ الذهن الفارغ من تأثيرات هذا وذاك يعتقد إجمالاً بعقلانية الحسن والقبح، ويبدو أنّ المنكرين كانوا قد خضعوا لتأثيرات مسائل اخرى أدت بهم إلى الوصول إلى هذه النتيجة (كالطريق المسدود الذى وصل إليه دعاء مسألة الجبر والتفويض التى أشرنا إليها سابقاً)، والدليل على إثبات هذا الموضوع إجمالاً أمران:

أ) عندما نراجع وجداننا نلاحظ أنّهُ حتى على فرض عدم ارسال الله أى رسولٍ أو نبي، تبقى مسائل الظلم والجور وإراقة دماء الأبرياء وسلب الأموال، وحرق بيوت الأبرياء ونقض العهود وإثابة المسيء، من القبائح، وبالعكس، فالإحسان، التضحية، الفداء، السخاء، مساعدة الضعفاء، الدفاع عن المظلومين، حسن وذو قيمة.

فنحن نعتقد بأنّ هذه الأعمال- التى ذكرناها أخيراً- ناشئة من صفات الكمال، وباتجاه أهداف المجتمع البشرى وتستحق الثناء والثواب، فى حين أنّنا نعتبر أعمال المجموعة الأولى ناشئة من النقص، وتؤدى إلى الدمار والفساد الفردى والاجتماعى وتستحق التوبيخ والعقاب.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٢٨

لذا فإنّ جميع العقلاء، حتى اولئك الذين لا يدينون بشريعة أو دين معين وينكرون جميع الأديان، يعترفون بهذه الأمور، ويؤسسون نظامهم الاجتماعى (ولو فى الظاهر) وفقها، ويعتبرون أى نعمة مخالفة قد تظهر من زاوية معينة، بأنّها حتماً ناشئة من (الأخطاء) أو نوع من النزاع اللفظى واللعب بالألفاظ.

فأى عقلٍ يشمخ بأن نقتل جميع المحسنين والصالحين ونلقى بهم فى البحر، ونفتح أبواب السجون أمام الجناة والأشقياء ونمنحهم الحرية ونسلمهم مقاليد الأمور؟!

ب) إن أنكرنا مسألة الحسن والقبح لتزلزلت أسس جميع الأديان والشرائع السماوية، ولما أمكن إثبات أى دين، لأنّ من يُنكر الحسن والقبح عليه أن يقبل بكذب الوعود الإلهية التى أعطاهها الله فى جميع الأديان، وإن كان الله قد قال: إنّ الجنة مأوى المحسنين، والنار مثوى المسيئين، فما المانع لو كان الأمر بعكس ذلك؟!

وكذب الله (العاياذ بالله) فى جميع هذه المسائل، ولا قباحة فى الكذب!!

وكذا ما المانع من أن يجعل الله المعاجز فى تصرف الكذابين؟ ليخدعوا عباده ويحرفوهم عن الطريق الصحيح! وعليه فلا تبقى هنالك ثقة بالمعاجز، ولا بما يأتى به وحى السماء، إلّا أن نقبل بقباحة هذه الأمور، ونزاهة الله عن فعل القبيح، فتقوى الأسس الشرعية وتصير المعجزة دليلاً على النبوة، ويصير الوحي دليلاً على بيان الحقائق.

٣- ملاحظتان مهمتان

١- تنقسم الأفعال الإنسانية إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: هى التى يسهل إدراك حسنها وقبحها للجميع، أو التى تُعدُّ اصطلاحاً من (المستقلات العقلية)، ولا-تتغير أيضاً بتغير

الظروف (كحسن الإحسان وقبح الظلم).

والقسم الثاني: هي التي يسهل على الجميع إدراك حسنها وقبحها، لكنها تتأثر بالظروف

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٢٩

المختلفة، كقولنا بحسن الصدق وقبح الكذب، في حين أننا نعلم بأن الكذب المصلحي ليس قبيحاً في بعض الأحيان، لا سيما إذا كان للمحافظة على أهداف أهم وأسمى (كإصلاح ذات البين)، وبعبارة الصدق الذي يؤدي إلى الفساد وسفك الدماء والاختلاف، فهو قبيح ومذموم.

أما القسم الثالث: فهي الأفعال التي ليس لحسنها وقبحها صبغة ضرورية، بل نظرية، فالبعض يقولون بحسنها وغيرهم يقولون بقبحها، أو يسكتون بتأناً عن تشخيص حسنها وقبحها، فلا سبيل في مثل هذه الموارد سوى اللجوء إلى أحضان الوحي.

ومن خلال ملاحظة الأقسام الثلاثة، تتضح أجوبة الكثير من الإشكالات حول مسألة الحسن والقبح، التي وقع فيها البعض.

٢- يعتقد البعض بأن اتفاق العقلاء في تعريف الحسن والقبح وتشخيص موارده ومصاديقه هو شرط. وقالوا: الحسن هو ما اتفق العقلاء على مدح فاعله، والقبح هو ما اتفق العقلاء على ذم فاعله، في حين أن هذا التعريف خطأ، فإن اتفاق العقلاء يكون في أمر يتعلق بالقوانين الوضعية المصطلح عليها بالتشريعية، كما لو اتفق جميع العقلاء على قبول أصل المالكية (بالرغم من اختلافهم في حدّها وحدودها ومصاديقها)، أما الأمور التي تخلو من الأبعاد التشريعية ولها أبعاد عينية وتكوينية، فإن المعيار فيها هو إدراك أي إنسان.

فهل ينتظر أحد اتفاق العقلاء في تشخيص جمال زهرة معينة، أو قصيدة طويلة رائعة؟!

وكذا في مسألة إدراك جمال وقبح الإحسان والظلم، فلا توجد أي حاجة إلى انتظار اتفاق العقلاء وحكمهم العام، هذا هو ما ندرکه بصراحة الوجدان، كسائر إدراكاتنا بخصوص القبائح والمحاسن.

طبعاً إن من الممكن أن تتفق عقيدة الأفراد في تشخيص الحسن والقبح في بعض الموارد، وتختلف في موارد أخرى، لكن هذا لا ينحصر بمسألة (الحسن والقبح) فقط، بل يُلاحظ في جميع الأمور التي يحكم بها العقل أيضاً.

ومن الممكن أن يتفق جميع العقلاء على قبول استدلال عقلي معين، ويختلفوا في

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٣٠

آخر، فمن قبل ذلك الاستدلال وتيقن من صحته لا ينتظر موافقة الآخرين أبداً، وإن قال أحد خلاف ذلك لخطأه، لا أن يتراجع عن عقيدته.

وخلاصة الكلام هو أن الحسن والقبح عقليان لا عقلانيان، والفرق شاسع بين هذين الأمرين، فدائرة أحدهما تشمل الحقائق الخارجية، والآخرى تشمل العقود القانونية.

ونختتم هذا الكلام بجملة قصيرة حول أصل مسألة الحسن والقبح وهي: إن منكرى هذه المسألة شأنهم شأن منكرى الكثير من المسائل العقلية الأخرى - فهم عادة يُنكرونها باللسان أو عندما يتعرضون لضغط المسائل الأخرى التي لا يجدون لها حلاً - فيتكلمون بمثل هذا الكلام، وإلا فهم من مؤيدي هذه العقيدة بعملهم، فلو وجه إليهم أحد صفة قوية، أو أهان كرامتهم في المجتمع دون مبرر، أو قتل أبناءهم أمام أعينهم، لما تردّدوا حتى لحظة واحدة في توبيخه وذمه ولجؤوا لأنفسهم معاقبته؟! سواء كان هنالك قانون أو شريعة نازلة من قبل الله أم لم تكن.

٤- الرجوع إلى أدلة العدل الإلهي

بعد اتضاح مسألة الحسن والقبح، نعود إلى أصل الكلام، أي: الأدلة العقلية على العدل الإلهي، ويوجد هنا دليلان مهمان يُمكن إرجاع الأدلة الأخرى إليهما.

الدليل الأول: ومصدره نفس نظرية الحسن والقبح تلك، فالظلم قبيح، والله الحكيم لا يفعل القبيح أبداً، والظالم يستحق التوبيخ والملامة، ومُسَلَّمٌ أن وجوداً كاملاً لا يفعل شيئاً من هذا القبيل ليستحق اللوم والتوبيخ. والعدل عكس ذلك، فهو دليل كمال الوجود وحكمته، والوجود الكامل من كل ناحية، والمنزه عن كل عيبٍ ونقصٍ لن يتخلى عن مثل هذا الشيء.

وهذا الدليل بقدرٍ من الوضوح بحيث لا- يحتاج إلى شرحٍ وتفصيلٍ أكثر، فهل يحتمل أحدٌ أن يلقي الله جميع الأنبياء والأبرار والصالحين في نار جهنم، ويرسل جميع أشقياء وظالمة العالم إلى الجنة؟! نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٣١

أفسيِّقَم الأفراد حتى أنكروا كل حقيقة، أم اضطّر الذين وقعوا في حصار مسائل اخرى (كمسألة الجبر والتفويض)، إلى إنكار مثل هذه الأمور؟

الدليل الثاني: يُمكن تلخيص منابع الظلم في عدّة أمور من خلال تحليل واضح:

وينشأ الظلم أحياناً من (احتياج الإنسان)، وعضواً من أن يصل الظالم إلى مقصوده ويسد حاجته ببذل الجهود والمساعى الصحيحة، يسعى لتأمين حوائجه عن طريق غضب حقوق الآخرين.

وأحياناً ينشأ من (الجهل) وعدم الإطلاع، فالظلم لا يعلم الحق ولا يدري ماذا يصنع وأى ذنبٍ يرتكب!

وأحياناً ينشأ الظلم من (عبادة الهوى) و (الأنايئة)، لأن الظالم يعجز عن الوصول إلى مقصوده، ولا يستطيع أن يضبط نفسه أمام فقدان الشيء فيلتجىء إلى الظلم.

وأحياناً ينشأ الظلم من (دافع الإنتقام) و (الحقد)، فينتقم الإنسان أضعاف ما لاقاه من الظلم.

وقد يكون الظلم صادراً من الضعف والعجز، فحين يعجز الظالم من تحقيق أهدافه ولا يتمكن من السيطرة على نفسه، يلتجىء إلى ظلم الآخرين.

وأحياناً قد ينبع الظلم من (الحسد)، فالحسود الذي يُعاني من نواقص معينة، ولا يستطيع أن يشاهد غيره منعماً ومرقهاً فينازعه ليسلب منه النعمة بالظلم والجور، وما شاكل هذه العوامل والدوافع التي تحكى جميعها عن وجود نوع من النقصان والانحطاط.

اذن، فكيف يُمكن في هذه الحالة أن يصدر الظلم والجور من الوجود الذي هو عين الكمال المطلق، في حين أنه منزّه عن الحاجة والجهل والضعف والأنايئة والغرور والحقد والانتقام، ولا يوجد من هو أكمل منه ليحسده، ولا يستطيع أحد أن يسلب منه الكمال لكي يدفعه ذلك إلى الإنتقام؟

فهل يصدر شيء من مثل هذا الرب سوى الخير والعدل والرأفة والرحمة؟

وإن يعاقب الظالمين فيما كسبت أيديهم، فما هو بحاجة إلى معاقبتهم، ولا ذنب المذنبين يمس ساحة كبريائه.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٣٢

والظريف هو أن القرآن الكريم قد استعان بالوجدان البشري العام حول هذا الموضوع، وطلب منهم أن يحكموا بأنفسهم في هذه المسألة، خلاف ما يعتقد الأشاعرة من كون الحسن والقبح ذا أبعادٍ شرعية فقط لا وجدانية.

يقول تعالى: «أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ». (القلم / ٣٥-٣٦)

لا-حظوا أن القرآن الكريم قد بين هذا الكلام بعد ذكره عظيم ثواب المتقين، ممّا يدل بوضوح على اعتراف القرآن الكامل بمسألة تحكيم العقل في موضوع العدل والظلم، حيث شجب الظلم واستحسن العدل، بحكم العقل.

- أولت الروايات الإسلامية أهميته كبيرة إلى معرفة العدل الإلهي، ومسائل كثيرة أخرى تتشعب منه، بشكل بحيث يتضح من مجموعها أن مسألة العدل الإلهي كانت أمراً أذعن له الجميع، وتعتبر من الأمور الفطرية والضرورية في وجدان بني البشر.
- ١- عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «ارتفع عن ظلم عباده، وقام بالقسط في خلقه، وعدل عليهم في حكمه» (١).
- ٢- وقال عليه السلام في موضع آخر: «واشهد أنه عدل وحكم فضل» (٢).
- ٣- وقال أيضاً: «الذي عظم حلمه فعفى وعدل في كل ما قضى» (٣).
- ٤- وفي حديث نبوي شهير أنه صلى الله عليه وآله قال: «بالعدل قامت السموات والأرض» (٤).
- ومن الواضح أن العدالة مستعملة هنا بمعناها الواسع وتعني: «وضع كل شيء في موضعه»، وتشمل كلاً من العدالة مع العباد، والعدالة والنظم في مجموعة عالم الوجود.
- ٥- وفي حديث نقله المرحوم العلامة المجلسي قدس سره في بحار الأنوار، حول وصف

(١) نهج البلاغه، الخطبة ١٨٥، ص ٤٢٨.

(٢) المصدر السابق، الخطبة ٢١٤.

(٣) المصدر السابق، الخطبة ١٩١.

(٤) تفسير الصافي، ذيل الآية ٩ من سورة الرحمن.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٣٣

الباري، عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «هو نور ليس فيه ظلمة، وصدق ليس فيه كذب، وعدل ليس فيه جور، وحق ليس فيه باطل» (١).

٦- ورد في صحيح الترمذي: «هو الله... العدل اللطيف» (٢).

٧- ورد في كتاب الخمس من صحيح البخاري أن النبي صلى الله عليه وآله ضمن رده على رجل جسور شكك بعدالته، قال: «فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورؤوه» (٣).

٨- ورد في الدعاء الخامس والأربعين من الصحيفة السجادية أن الإمام السجاد عليه السلام كان يناجي ربه ويقول: «وعفوك تفضل وعقوبتك عدل».

٩- يلاحظ وجود تعابير في الكثير من الروايات المنقولة عن مصادر الشيعة وأهل السنة حول المسائل المتعلقة ببطلان الجبر، والعقوبات الإلهية، تدل على اتفاق الجميع القطعي على مسألة العدل الإلهي، وأنه كان متركز الاستدلالات، ومن جملتها (أن أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام سأل الإمام عليه السلام وقال: أيجبر الله عباده على أعمالهم؟ فاجابه الإمام عليه السلام: «الله أعدل من أن يجبر عبداً على فعل ثم يعذبه عليه» (٤).

١٠- وفي حديث نبوي منقول من مسند أحمد بن حنبل أنه صلى الله عليه وآله قال: «من أذنب في الدنيا ذنباً فعوقب عليه فالله أعدل من أن يُنتى عقوبته على عبده» (٥).

١١- عن الإمام الرضا عليه السلام في توضيح «أمر بين أمرين»، (نفى الجبر والتفويض)، في إجابته عن سؤال أحد أصحابه: هل فوض الله الأمور إلى عباده؟ فقال عليه السلام: «الله أعز من ذلك» (أي أعز من أن يترك تدبير أمور العالم أو عباده كلياً ويكله إليهم)، فسأله: فهل أجبرهم على المعاصي؟ فقال عليه السلام: «الله أعدل وأحكم من ذلك»، (أي أن هذا العمل يتنافى نهائياً مع عدل الله وحكمته) (٦).

- (١) بحار الأنوار، ج ٣، ص ٣٠٦، الباب ١٣، ح ٤٤.
 (٢) المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوي، ج ٤، ص ١٥٥.
 (٣) المصدر السابق، ص ١٥٢.
 (٤) بحار الأنوار، ج ٥، ص ٥١، ح ٨٣.
 (٥) مسند أحمد بن حنبل، ج ١، ص ٩٩.
 (٦) اصول الكافي، ج ١، ص ١٥٧، باب الجبر والقدرة، ح ٣.
 نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٣٤

١٢- وأخيراً نختم هذا البحث بمقتطفات من الأدعية المأثورة عن الأئمة المعصومين عليهم السلام:
 ورد في دعاء يُقرأ بعد الفراغ من صلاة الليل: «وقد علمت يا إلهي أنه ليس في نعمتك عجلة ولا في حكمك ظلم، وإنما يعجل من يخاف الفوت، وإنما يحتاج إلى الظلم الضعيف، وقد تعاليت يا إلهي عن ذلك علواً كبيراً» (١).
 إن الروايات والأحاديث الموجودة في هذا المجال كثيرة، وما نقلناه يُعدُّ مقتطفاً من نماذج هذه الروايات المختلفة.

٦- أدلة منكري العدل الإلهي

قلنا فيما مضى: إن منكري مسألة العدل الإلهي قد تعرّضوا لضغوط مسائل أخرى جرّتهم إلى سلوك هذا الطريق، وهي إجمالاً ما يلي:
 ١- إنكار المستقلات العقلية- إنهم يقولون: إن العقل لا يميز بين الحسن والقبيح، بدون حكم الشرع، فالحسن والقبح، الصالح والطالح، الواجب وغير الواجب جميعها تُؤخّذ من الشرع وتصلنا عن طريق الوحي، حتى الحكم بحسن العدالة وقبح الظلم، فلا شيء يُدرَك عن طريق العقل!
 ٢- الوجود بأكمله ملك لله- وهو حاكم وولي وصاحب كل شيء، وبإمكانه أن يفعل في ملكه ما يشاء، ولا يحق لأحد أن يسأله حول ذلك، وفعله عين العدالة حتى وإن عاقب المحسنين أو أثاب المسيئين.
 يقول الشهرستاني في (الملل والنحل): كان أبو الحسن الأشعري يعتقد ويقول: (إن الله غير ملزم بفعل شيء معين يفرضه العقل، لا الصالح ولا الأصلح ولا اللطف.. ثم أضاف: إن

(١) مصباح المتجهد للشيخ الطوسي، ص ١٧٣ تعقيبات صلاة الليل.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٣٥

الله غير ملزم بأصل التكليف لأنه لا- ينفعه ولا- يدفع عنه ضرراً، فهو بإمكانه أن يُجازى عباده إما الثواب وإما العقاب، وبإمكانه أن يشملهم بعفوه، وبأنواع الثواب والنعم من دون أي سبب، فلطفه تمام الفضل وعقابه تمام العقاب، لا- يُسئل عما يفعل وهم يُسئلون» (١).

٣- إنهم يقولون: لا- يُمكن وضع معيار ومقياس معين لأفعال الله، وبتعبير آخر، لا- تعني عدالة الله التزامه بقوانين تدعى: (قوانين العدل)، بل تعني: أنه تعالى عين العدل وما يفعله عين العدالة، فالعدل ليس بمقياس لتشخيص فعل الله، بل إن فعل الله ميزان ومقياس للعدل:

فلو أدخل جميع جُناة العالم الجنة فهو عين العدالة، وكذا لو ألقى جميع المحسنين، والظاهرين، والأئمة، والأنبياء المعصومين في النار فهو عين العدالة أيضاً!

٤- يعتقد الأشاعرة بأن الإنسان غير مختير أبداً في أعماله، وكل ما يفعله فإنما هو بارادة الله!

وعندما واجهوا هذا السؤال وهو: كيف يُمكن أن يُصدّق العقل بأنّ الله يجبرنا على المعصية ثم يؤاخذنا عليها؟ حيث إنّ هذا أمرٌ يُنافى عدالته تعالى.

ومن أجل الرد على هذا الإشكال أنكروا مسألة العدل والظلم وقالوا: (كل ما يفعل فهو عين العدل، ولا يحق لأحد أن يسأله عمّا يفعل).
٥- يُمكن أن يكون اتجاه بعضهم إلى نظرية نفي العدالة ناتجاً عن قوهم حائرين أمام هذا السؤال الذي يرتبط بالمسائل المتعلقة بالمعاد، والعذاب، ومجازاة الكافرين، وهو: كيف يُمكن أن يخلد في نار الغضب الإلهي مَنْ أذنب وكفر وأشرك بربه خمسين سنهً مثلاً؟ وكيف يتمشى هذا مع أصل العدل؟!

ولأنه لم يكن لديهم جواب على هذا السؤال فقد أنكروا أصل مسألة العدل.

٦- إنّ شك البعض الآخر منهم في هذه المسألة ناشىء من مشاهدتهم بعض النقائص الظاهرية، من قبيل الآفات، والبلايا، والعواصف والزلازل، وحوادث أخرى من هذا القبيل، وكذا الأمراض، الاحباطات، وحالات الفشل في حياة البشر، ولأنهم باتوا عاجزين عن تفسير هذه الأمور الفلسفية، فقد سلكوا طريق إنكار العدالة.

(١) الملل والنحل، ص ١٠٢.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٣٦

كانت هذه مجموعة من الأمور التي تشكل دوافع وأسس مذهب منكري العدل في الماضي والحاضر.

نقد وتحليل

لنتطرق الآن إلى نقد وتحليل هذه الإشكالات:

١- أما فيما يخصّ الدليل الأول فقد تحدثنا بما فيه الكفاية عن كون إنكار العدل يقود إلى إنكار المستقلات العقلية، ويلزم أن نؤكد من جديد بأنّ منكري الحسن والقبح، لا ينكرون هذا المعنى أبداً من الناحية العملية، فما يقولونه لا يتجاوز ألسنتهم وحواراتهم ونقاشاتهم، وأما لو وجه أحدٌ صفةً إلى أحد أطفالهم الصغار، أو أحرق دارهم من دون مبرر، لا ستقبحوا هذا العمل، ولما تردّدوا في التسليم بقبحه عن طريق تشخيص الوجدان، وسيحكمون قطعاً بوجوب معاقبة هذا الشخص، ولما صبروا أبداً لينظروا إلى كون قباحة هذا العمل وردت في آية أو رواية أم لا.

ولو أصابهم الجوع والعطش في الصحراء، وجاءهم أحدٌ بالماء أو الغذاء، أو حمل مريضهم على كتفه عدّة كيلومترات ليوصله إلى المستشفى، وينجيه من الموت المحتّم، لما تردد أحدٌ منهم في حُسن هذا العمل والثناء على فاعله، ولما قالوا: أمهلونا لرى فيما إذا كانت الروايات والآيات قد مدحته وشكرته ومجّده أم لا!

ويوجد الكثير من قبيل هذه البحوث في المباحث العقلية وهو أن يتعرض أفرادٌ مُعيّنون لضغوط مسائل جانبية فينكرون حقائق معينة بألسنتهم، في حين أنّهم يؤمنون بها تماماً من الناحية العملية (كالسوفسطائيين الذين ينكرون الوجود الخارجي لجميع الأشياء، لكنهم عملاً يجتنبون النار ويذهبون لتناول الماء عند العطش).

علاوة على هذا فإنّ قبول المستقلات العقلية هو العمود الأساس في قبول نبوة الأنبياء، وبدونها لا يمكن تصديق كلام أي نبي، ولما كانت معجزاتهم دليلاً على صدقهم، لأنّ بإنكار

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٣٧

المستقلات العقلية لا يُستبعد احتمال افتراءهم، وظهور المعجزات على أيدي دعاة الباطل.

٢- إن مسألة مالكية الله لجميع عالم الوجود وجميع ذرات وجودنا ليست مطلباً خافياً على أحد، ولكن المالكية ليست دليلاً على صدور تصرفات غير حكيمة منه، أى أن صفة المالكية تقترب بالحكمة، فلا يمكن التصديق بأحدها وإنكار الأخرى.

من الممكن أن يدخر شخص أموالاً من أتعابه المشروعة خلال سنوات طويلة ويكون مالكةا، لكنه لا يحق له أن يحرقها بأكملها، لأن العقل يحكم بقباحتها هذا العمل، حتى وإن صدر من مالكة.

كذلك الله الحكيم أيضاً، فلا يفعل مثل ذلك، كأن يهلك كل ما فى الوجود، أو يحرقه من دون سبب، أو كما قال الأشاعرة: يُلقى جميع الأنبياء والصالحين والطاهرين فى أعماق نار جهنم، ويدخل الأشقياء والأشرار فى الجنان العلى، فهذا العمل قبيح وينافى الحكمة، حتى وإن صدر من المالك.

إذن، فالمالكية ليست دليلاً على حسن جميع أفعال المالك، سواء كان حقيقياً وتكوينياً أى الله، أم صورياً وظاهرياً كالإنسان.

إن الأشاعرة يعتقدون بأنه: لو آمننا بكون الله (فعلًا لما يشاء) بسبب مالكيته، وكلامهم هذا يعنى إلغاء لحكمة الله.

ومن المسلمات أن الإله غير الحكيم ليس لأقواله اعتبار، ولا لوعوده ثقته، لأنه من الممكن أن تكون أقواله فاقده المحتوى، ومغايرة للواقع. «سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً».

٣- إن قولهم: إن الله فوق الحسن والقبح ولا يمكن قياس أفعاله بهذه الضوابط - بل هو سبحانه المعيار والمحور فى تعيين الضوابط - ليس إلامغالطة ولا أكثر، وهو موضوع متناقض معروض بزى جميل، فهذا الكلام يخص القوانين التكوينية، وقد استعمل خطأ فى مجال القوانين التشريعية.

ويجدر التوضيح فى عدم وجود قوانين قبل الخلق والتكوين الإلهي، وبخلق الأشياء،

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٣٨

المقارن للنظام والحساب، ظهرت مسألة التقنين، فمثلاً قبل خلق المجرات، لم يكن هناك قانون الجاذبية لكى يستعمله الله فى خلقه، ولكن انبثق بعد خلق المجرات، وبتعبير آخر: إن قانون الجاذبية خلق بعد خلق المجرات مباشرة.

ويصدق هذا الكلام بخصوص جميع قوانين عالم الخلق والتكوين.

أما بالنسبة إلى القوانين التشريعية، فالمسألة ذات طابع آخر، لأن الله عندما خلق الإنسان، الذى يعد النموذج الأتم للخلق، لكى يسير فى طريق التكامل، وأودع فيه جميع وسائل الوصول إلى الكمال، فمن المسلم لزوم تناسب قوانينه التشريعية مع هذا الهدف، أى أن تكون القوانين بشكل تسوق الإنسان نحو الكمال، وإلا لتنافى مع حكمه الله.

أيمكن أن تتناقض وتتضاد أفعال الحكيم!؟

فالظلم سبب فساد وسقوط وتأخر العالم، والعدل سبب تكامله وارتقائه، وما الله بظالم ولا بمخرب قواعد تكامل الإنسان.

وبتعبير آخر فإن أفعال الله التشريعية تنبع من أفعاله التكوينية، ومن هنا ينشأ الحسن والقبح بالضبط، لا أن يكون الله خاضعاً لقانون آخر، بل إن جميع القوانين الموجودة فى عالم الدين والشريعة متناغمة مع قوانينه فى عالم الوجود، وإلا لكان ناقصاً لقوانينه بذاته، وهذا ليس من فعل الحكيم.

وقول البعض: (إن الله لا يخضع لحكم العقل، ولا يمكن للعقل أن يفرض عليه شيئاً معيناً) يُعد مغالطة صيبانية، لأن وظيفة العقل هى الإدراك لا تعيين الوظيفة، أى التفكير والفهم لا التقنين والتشريع.

فالعقل يقول: إننى أفهم أن الحكيم لا يفعل الأفعال المتناقضة والمتضادة، أفهم أن الله لا ينتقض وعده، وأفهم أن الموجود الكامل من جميع النواحي لا يظلم، أى لا يضع الشئ فى غير محله المناسب.

إن كل هذه الأمور هى من إدراك وفهم العقل، لا تعيين التكليف والوظيفة لله تعالى، لذا فكما يدرك العقل أن ٢ + ٢ = ٤، كذلك يدرك أن الحكمة تتنافى مع نقض الغرض، فالله

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٣٩

الحكيم الذى خلق الوجود من أجل الصلاح والكمال لن يدفع به نحو الإنحطاط والفساد، فلم يقنن العقل بأن ٢ + ٢ = ٤، إنما هو فقط من إدراكه.

وكذا الحال فى مسائل الحسن والقبح التى تعود جذورها إلى المسائل التكوينية، فدور العقل فيها هو إدراك الحسن والقبح فقط لالتقنين، (فتأمل).

ولا يخفى أن العقل يحاول إدراك الموجودات والمعدّات، الواجبات وغير الواجبات، وهو ذو بعد إرشادى، بالضبط كأوامر الطبيب، فعندما يُدرك الطبيب ضرر غذاء ما للمريض يقول له: يجب عليك أن تتجنب تناول هذا الغذاء، فكلمة (يجب) هذه ليست قانوناً تترتب على تركه عقوبة معينة، بل هى مجرد إرشاد وتوجيه لا-غير، وإن لم يعمل ذلك المريض بموجبه فإنه سوف لن يؤدّى سوى إلى ضرره (ولكن من الواضح أن أوامر العقل الإرشادية ليس لها علاقة بساحة القدس الإلهية).

وخلاصة الكلام هو أن دور العقل بالنسبة إلى الأفعال الإلهية هو فهم الحقائق، لا تعيين تكليف لله تعالى ليقال: إن الله أكبر من أن تعين عقولنا له تلكيفاً معيناً.

٤- يجب أن لا يصير الاعتقاد بمسألة الجبر منشأً لإنكار العدالة والظلم - صحيح أن الأخطاء تؤدّى إلى أخطاء، اخرى دائماً، والزلات تصدر من زلات اخرى، ولكن ينبغى عدم الإصرار على الأخطاء بحيث يؤدّى إلى إنكار الواضحات.

لا ريب فى أن مسألة (العدل الإلهي) أو (حسن العدل) و (قبح الظلم) أوضح من مسألة حرية إرادة الإنسان، وعلى فرض عدم وضوح مسألة الجبر والتفويض بالنسبة للبعض فإنها لا تكون دليلاً لإنكار مسألة العدل.

لقد واجه (الجبريون) هذه المعضلة دائماً، وهى كيف يمكن التصديق بأن الله يجبر عباده على المعاصى ثم يؤاخذهم عليها؟ وهذا يتنافى مع عدالته!

هذا دليلٌ منطقي واضح، لكن الجبريين وبدلاً من أن يقوموا بتصحيح آرائهم فى مسألة الجبر، ذهبوا إلى إنكار العدل الإلهي أو قالوا: كل ما يصدر منه عين العدل حتى معاقبة المجبرين.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٤٠

إن الصورة التى رسمها هؤلاء فى أذهانهم عن الله عجيبه ورهيبه حقاً، الله الذى من الممكن أن يلقى جميع الأنبياء، والمرسلين، والملائكة المقربين، والشهداء، والصدّيقين فى قعر جهنم، ويدخل جميع الأشقياء والظالمين، وأشرار التاريخ البشرى، والشياطين فى أعلى عِلين فى الجنة، الله الذى يجبر جماعة على المعصية وجماعة اخرى على الطاعة، دون مبرر، ثم يثيب المحسن ويعاقب المسيء، والحال أنه لا يوجد أى تفاوت بين حقيقة حالهم!

ومن المسلم به أن هذه الصورة القبيحة والموحشة تُبعّد الناس عن الله وتغلق باب معرفه الله، وستؤدّى إلى نشوء كل ألوان القبائح والمظالم فى المجتمع البشرى، وتُظهر الدين بمظهر الأفيون والفساد والفوضى، وتُسبب سوء الظن تجاه جميع عالم الوجود.

وخلاصة الكلام هو أن الإصرار على مسألة الجبر يجب ألا يؤدّى إلى إنكار العدل، بل بالعكس، يجب أن يؤدّى إلى وضوح مسألة العدل الإلهي إلى تجديد نظر الجبريين فى عقيدة الجبر.

وما أكثر المسائل البديهية الواضحة التى اختفت خلف حجب الإنكار بسبب الإصرار والعناد فى إثبات بعض المسائل النظرية غير الواقعية.

٥- ذكرنا سابقاً أن إشكالات بحوث المعاد قد تؤدّى أحياناً إلى التشكيك فى مسألة العدل الإلهي، فعندما يدور الكلام حول مسألة خلود جماعة من المذنبين فى النار يُطرح هذا السؤال: كم كان مجموع عمر هذه الجماعة؟ ٥٠ سنة، ٧٠ سنة، أو مائة سنة، فالعدالة تفرض تساوى الذنب والعقوبة، فما معنى العذاب الأبدى مقابل هذا العمر القصير إذن؟

لكن وكما قلنا يجب التفكير بأسلوب منطقي لحل المسائل في مثل هذه الإشكالات، وبالمناسبة فإن حل إشكال الخلود له طرق واضحة، لأن الإشكال أعلاه ينشأ من خطأ قياس العقوبات الإلهية- التي هي نتيجة أعمال نفس الإنسان- مع العقوبات الوضعية. ويجدر توضيح ما يبدو من الآيات والروايات والشواهد العقلية أن العقوبات الأخروية لها شبه كبير بالآثار الطبيعية لأعمال الإنسان الدنيوية، فمثلاً أن من يُفرط في تناول

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٤١

المشروبات الكحولية يُصَبُّ بقرحة المعدة، وضعف القلب والأعصاب، ويُمكن أن تُرافقه هذه الأمراض طيلة عمره أحياناً. فلو قال أحدُ الآن: أَمِنَ العدل أن يُعاني مَنْ تعاطى المشروبات الكحولية شهراً واحداً مِنْ قرحة المعدة واضطراب القلب والأعصاب طيلة عمره؟!

في الزد على ذلك يُقال له: هذا ما قَدَّمت يداه، وليست هذه الأمراض عقوبة وضعية، لاسيما وأن هذا الشخص قد نُهي عن هذا العمل وذكُر بهذه العواقب الإلهية.

فلو كان لهذا الشخص عمرٌ خالدٌ في دار الدنيا، لوجب أن يُعاني من هذه الأمراض إلى الأبد، دون أن يمَسَّ موضوعه مسألة العدل الإلهي (تأمل جيداً).

وكذا الحال بالنسبة إلى مسألة الخلود في النار، فأعمال الإنسان لا تمحى أبداً، بل تبقى وتترك آثاراً في جسمه وروحه أيضاً، وهذه الآثار سترافق الإنسان في جميع العوالم، وسينال العذاب والاذى بسببها إن كانت طالحة، وستنطرق إلى تفصيل هذه المسألة بصورة أكثر في بحوث المعاد إن شاء الله تعالى.

٦- إنَّ مشكلة حوادث الحياة الأليمة: كالأفات والبلايا والعواصف والزلازل والآلام والمتاعب وحالات الفشل والاحباط لا تتنافى مع أصل العدل، وتحتاج إلى توضيح نذكره أدناه:

إنَّ لكلِّ واحدة من هذه الأمور فلسفة تتضح بقليل من الدقَّة، فعندها يُصدَّق الإنسان بكون هذه الأمور في اتجاه العدل الإلهي لا بعكسه.

ويلاحظ وجود مسائل في حياة الإنسان لا نجد لها تفسيراً واضحاً في بادئ الأمر، وقد يتزلزل إيمان البعض بالعدل الإلهي أحياناً، أو باثبات وجود الله أحياناً أخرى عندما يواجهون مثل هذه المسائل من دون أن يبذلوا جهوداً لزيادة المطالعة أو التدقيق فيها.

وتشير القرائن المختلفة إلى وجود هذا النوع من التفكير بين بعض الفلاسفة منذ قديم الزمان.

بل وكان موجوداً عند بعض الأدباء نوعاً ما أيضاً، وقد أنشد بعضهم أبياتاً من الشعر

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٤٢

العربي والفارسي في هذا الخصوص، ظهر من خلالها شكهم في هذه المسألة أو إنكارهم لها.

ويُمكن تلخيص الظواهر غير المحبذة بعدة نقاط:

١- الفرق في القابليات: تختلف درجة الذكاء من إنسان لآخر، فمنهم من يتمتع بذكاء خارق، ومنهم ذو ذكاء متوسط، وبعضهم أقل مستوى من الطرفين، وهذا التفاوت موجودٌ أيضاً في القوى الجسمانية، وكذلك الحال بالنسبة لظاهر الناس، فمنهم القبيح، ومنهم الحسن، وهكذا التفاوت في اقتناء الثروات والأموال فهو موجودٌ أيضاً.

٢- النقائص والعيوب: إنَّ أغلبية الناس يولدون سالمين، في حين يُعاني البعض من نقص عضوٍ معين، وهذا النقص يجعله يعيش في أزمةٍ نفسيةٍ حادةٍ طيلة حياته.

٣- الإنكسارات والهزائم: إنَّ الحياة الإنسانية مفعمة دائماً بأنواع المشاكل المُنهكة، كالأمرض، حالات الفشل، الاحباطات، وما شاكل ذلك، فكيف يرتضى عدل الله أن يُعاني الإنسان من هذه الأمور، وتتحول حلاوة الحياة في فمه إلى حنظل؟

٤- الحوادث المُرّة: تحدث في حياة الإنسان حوادث طبيعيّة مفاجئة ينتج عنها هلاك الحرث والنسل، فَمَن الذي لم يسمع بدمار وضحايا الزلازل، والعواصف، وسنوات الجفاف والمجاعات؟ وعند حلول هكذا كوارث مُدمرّة يُطرح هذا السؤال عادةً: أو لَم تكن جميع العوامل والأسباب الطبيعيّة منقاداً لأمر الله تعالى؟

وإذا كان كذلك ألم يكن الماء والهواء والنار من جنوده تعالى، ويُطيعون ما يأمرهم به؟ ألا تتنافى مثل هذه الأمور مع أصل العدل والحكمة الإلهية؟ إن الإجابة عن مسألة الحوادث المُرّة هي:

إننا نعتزف بأن الإنسان المؤمن عندما يواجه من قبيل هذه الأسئلة يقع في ضيق، إلى الدرجة التي لا يسلم البعض من هذا المنزلق، وربما يقع في هاوية الكفر والإنكار.

لكن الظريف في هذا الأمر هو أننا كلما تفكرنا ودرشنا جوانب هذه المسألة أكثر، توصلنا إلى آفاق أكثر وضوحاً.

بالضبط كالمسافرين الراكبين في القطار الذي يجتاز نفقاً مظلماً حيث يملكهم القلق

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٤٣

والإضطراب، ولكن بتقدم القطار إلى الأمام يلوح بصيص نورٍ شيئاً فشيئاً، ثم يتسع مع استمرار التقدم، حتى يتلاشى ظلام النفق تماماً بخروج القطار.

وعلى أئمة حال هنالك جوابان إجمالين في مقابل هذه الأسئلة المحيرة، مال البعض إلى الجواب الأول، والبعض الآخر إلى الثاني، وجماعة إلى كليهما.

والمهم هو أن نعز الأجابة بإيضاحات جديدة، والاستعانة بالآيات القرآنية أيضاً بشكل يتناسب مع البحث التفسيري.

الجواب الإجمالي المختصر

بمراجعة النقاط التالية نحصل على جواب واضح وقصير لجميع هذه الأسئلة، والذي يُمكن أن يُخرجنا من هذا المأزق:

١- ريب في كون ما نعلمه من المجهولات قليلاً جداً، وما نعلمه عن أسرار الخلق والوجود بالقياس إلى ما نجهله منها كقطرة من بحرٍ عظيم.

هذه حقيقة اعترف بها جميع العلماء الإلهيين والماديّين، لذا، فإن جميع وجهات نظرنا تجاه حوادث هذا العالم تقع في حدود دائرة معلوماتنا وليست مُطلقة بتاتاً.

فإذا عجزنا عن معرفة أسرار هبوب العواصف، أو حدوث الزلازل فإننا لا نستطيع أن نتهم مسببها بشيء، فهل نحن متيقنون من عدم وجود أثر إيجابي من الدمار الناشء عن العاصفة أو الزلزلة يطغى على سلبات هذا الدمار؟

كُنّا في الماضي نعتد الكثير من المسائل من الآفات والبلايا، لكننا اليوم وفي ظل التطورات العلمية وكشف أسرار جديدة عن الكون نعتقد بفائدتها، فمثلاً كان الرأي السائد في السابق هو أن بكاء الأطفال المواليد لا ينجم إلا عن ألم أو أذى لا غير، في حين يُقال اليوم بأنه لولا هذا البكاء لكان من المحتمل أن يفقد هذا المولود سلامته بالمرّة، وأن البكاء خير رياضاً لبدنه، فهو ينشط الجهاز التنفسي ويسرع جريان الدم في عروقه، ويغذي جميع ألياف البدن، ويقوى عضلات اليدين والرجلين والصدر والبطن، علاوة على طرده الرطوبة

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٤٤

الزائدة الموجودة في دماغه والتي يُمكن أن تحدث التهابات معينة فيه.

وما إلى ذلك من قبيل هذه النماذج.

ومن جهةٍ أخرى، إننا نقف على النظام الدقيق المدهش الحاكم على أغلب الموجودات، عندما ننظر إلى عالم الوجود، وقد ذكرنا

شرحه بصورة تامة في بحوث معرفه الله، وليس لهذا النظام من تفسير سوى وجود عقل كَلْبِي وعلم غير محدود في ما وراءه. علاوة على ذلك، فإننا في البحوث المنطقية في مجال صفات الله، توصلنا إلى أنه تعالى لا يحتاج إلى أي أحد وهو بكل شيء عليم، لذا فذاته المقدسة منزّهة عن الظلم الناشئ من الجهل والعجز، فما المبرر في أن يظلم أصغر عباده؟ إذن، إن ما نعتقد بكونه ظلماً أو خلافاً للعدل ناجم قطعاً عن محدودية اطلاعنا وعلمانا.

وبتعبير أوضح: كما يحتوي القرآن الكريم (كتاب التدوين) على آيات محكمات وأخر متشابهات، أي أن أغلب الآيات مجمله لا تخلو من الإبهام لو حدها، فعلمنا القرآن هنا اسلوباً منطقياً لحل ابهام واجمال المتشابهات، وأمرنا بالاستعانة بالمحكمات في تفسير وتحليل المتشابهات، وأمرنا بالمقارنة فيما بينها لدفع جميع الإشكالات.

وتوجد في (كتاب التكوين) أي عالم الكائنات- آيات محكمات كثيرة أيضاً، وهي النظم والقوانين المفيدة الحاكمة فيه، وإلى جنب هذه المحكمات يلاحظ وجود بعض المتشابهات كالزلازل والعواصف، التي تحدث أحياناً، وبغض النظر عن بعض المشوّهين للحقائق الذين يشكّلون نسبة ضئيلة بين الناس فإنّ الإنسان العاقل والمدرّك يؤمن بأنّ لهذه الآيات التكوينية الواضحة مسائل وحسابات معينة، مع أنّنا نجهلها بسبب محدودية علمنا.

فلو أعطينا كتاباً ضخماً (يحتوي على ألف صفحة مثلاً) مليئاً بالعناوين البديعة، والبحوث الغنيّة، والحقائق القيّمة الواضحة، لكننا تحيّرنا في تفسير عدّة جملٍ منه لأنّ فيها شيئاً من الإبهام والإجمال، فهل من الصحيح أن ننفي علم ومعرفة ومنطق الكاتب بسبب بعض العبارات التي لا ندرك تفسيرها؟ بل بالعكس فبالنظر إلى كثرة المطالب العلمية في الكتاب سنعتزف بعجزنا عن تفسير تلك العبارات المعدودة.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٤٥

إذا وجدنا عمارة عظيمة تجلّى فيها رونق الفن المعماري بكل أشكاله، وصادفنا جانباً صغيراً منها لم نستطع أن نفهم فلسفته، فهل نخطفىء المعمار؟ أم أنفسنا؟ لا سيّما إذا عرفنا من القرائن الأخرى مهارة معمار تلك البناية وكماله العلمي، وصفو وصدق نيّته أيضاً. وخلصه القول: هو أنّنا لو ألقينا نظرة على هذه الحوادث الخاصّة، بل ولو نظرنا إليها إلى جانب مجموعة نظام العالم، وحكّمنا حكماً شمولياً لتوصلنا مجملًا إلى هذه النتيجة وهي:

إنّ هذه الأمور ذات أسرار خاصّة أيضاً، بالرغم من جهلنا، ويحتمل انكشاف قسم منها بمرور الزمان وتطوّر العلم، كما انكشف قسم منها لحد الآن، وفي نفس الوقت يُحتمل أن يبقى قسم آخر منها مستوراً عنّا إلى الأبد، لكننا مع ذلك نعلم بأنّ في جميع هذه الأمور أسراراً خفيّة.

القرآن والجواب الإجمالي على مسألة الآفات والبلايا:

إنّ القرآن الكريم الذي يرى الطريق ويُعين في الوصول إلى المقصود في جميع المسائل الفكرية، له إشارات كثيرة أيضاً في هذا المجال من جملتها:

١- قال تعالى في موضع: «وَمَا أوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا». (الأسراء / ٨٥)

فاحذروا أن تحاولوا بعلمكم المحدود أن تُنظروا في كلّ شيء، وتتصوروا بجهلكم بأسرار الحوادث عدم وجود تلك الأسرار.

٢- بعد أن أشار تعالى في سورة النساء إلى قسم من الاختلافات التي قد تحدث بين الزوجين، أمر الرجال بحسن معاملته النساء فقال: «فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا». (النساء / ١٩)

وقد ورد نفس هذا المفهوم بتعبير آخر، بالنسبة إلى الجهاد في سورة البقرة، كقوله تعالى:

«كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ».

(البقرة / ٢١٦)

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٤٦

مع أن الآية الأولى تخص المعاشرة الزوجية، والآية الثانية تخص الجهاد المسلح ضد العدو، لكن ما ورد في نهايتهما قانون كُتبي حيث يقول: إن محدودية علمكم في الكثير من الموارد تحول دون تمييزكم الخير والشر، وعليه لا- يمكن النظر فقط إلى ظاهر الحوادث والقضاء بشأنها، فمن المسلم أن الحوادث البشرية المُرّة تقع في دائرة هذا القانون الكلي أيضاً.

٣- إن قصة الخضر وموسى عليهما السلام التي وردت في سورة الكهف والتي تُعدّ من القصص القرآنية الغيبيّة الرامية إلى أهداف متعددة، تشير بوضوح إلى بحثنا، والتي يُمكن القول: إن أحد الأهداف الأساسية من طرحها هو هذه المسألة وهي: عندما يصدر فعل معين من حكيم، يجب عدم الحكم بظاهره والقضاء بشأنه استناداً إلى ذلك، فما أكثر الحالات التي يبدو فيها ظاهر العمل قبيحاً، لكنّه يحتوى في باطنه على أسرار عميقة.

فمثلاً حرق سفينة المساكين المستضعفين التي كانت تشكّل مصدر عيشهم (رزقهم) المحدود، أو قتل الغلام الذي كان يبدو بريئاً ولم يرتكب جرماً وخيانته ظاهراً، أو إقامة الجدار الذي أو شك على الانهيار بدون ثمن، في قرية البخلاء الذين أبوا أن يضيّفوا (موسى وصاحبه عليهما السلام) كانت جميعها أعمالاً يُعد كل منها أقيح من الآخر.

ولهذا السبب كان موسى عليه السلام يعترض كلما ارتكب الخضر عليه السلام أحد هذه الأعمال ويقول له: لِمَ فعلت هذا!!؟

ففي الموقف الأول قال له: «أَخْرَقْتُهَا لِتُغْرَقَ أَهْلُهَا لَقَدْ جِئْتُ شَيْئاً إِمْرًا». (١) (الكهف / ٧١)

وفي الموقف الثاني استنكر قائلاً: «أَقْتَلْتُ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتُ شَيْئاً نُكْرًا».

(الكهف / ٧٤)

وفي الموقف الثالث أراد من الخضر عليه السلام أن يتقاضى أجراً مقابل عمله «قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا». (الكهف / ٧٧)

(١) «إمر» على وزن «بئر» تُطلق على العمل المهم والعجيب، أو المبعوض والقيح جداً.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٤٧

وكان يبدو لموسى عليه السلام أن العمل الأول اتلاف مال الغير، والثاني اتلاف النفوس، والثالث اتلاف الحق الخاص. ولكن عندما كشف (الخضر عليه السلام)، ذلك العالم الكبير الذي كان يُعدّ في هذه الواقعة بمنزلة استاذ ومعلم لموسى عليه السلام، حجباً عن أسرار عمله تأسف موسى عليه السلام على استعجاله في القضاء بشأن تلك الأمور، لأنه عرف أن من وراء ظاهر هذا العمل القبيح أسراراً خفية تعود بالمصلحة للمستضعفين في النهاية!

فحرق السفينة وإعابتها المؤقتة حال دون غضبها من قبل سلطان جبار غاصب كان يغضب جميع السفن السليمة. وبقتل ذلك الشاب غير المؤمن والكافر الظالم (الذي كان مستحقاً لمثل هذه العقوبة حسب القوانين الإلهية) قد خلّص أبويه المؤمنين من الخطر.

وبترميمه ذلك الجدار الذي كان مُشرفاً على الانهيار كان قد حفظَ كترًا لطفلين يتيمين، والذي كان يُعدّ إرثاً خلفه لهما أبوهما المؤمن ليستفيدا من أوان بلوغهما سنّ الرشد.

كان الخضر عليه السلام إنساناً عاقلاً حكيماً ولكنه بالقياس إلى علم الله وحكمته لا يُساوي شيئاً مذكوراً، وكانت أعماله في الظاهر بدرجة من القباحة بحيث لا يُمكن في بادئ الأمر توجيهها بأي بيان، وكان هذا هو السبب في استنكار موسى واعتراضه عليها، لكن أسرارها الإنسانية والمنطقية انكشفت تماماً بتوضيح قصير ومختصر من قبل الخضر عليه السلام، واقتنع بها موسى عليه السلام بصورة تامة.

يمكن الاستفادة من هذا البيان القرآني كقانون كَلِّي، والاستتارة به لمعرفة حقائق الأمور الظاهرية التي قد نشاهدها أحياناً في عالم الوجود، واعتباره جواباً إجمالياً لنستيقن بالأسرار الخفية المحتمل وجودها من وراء هذه الظواهر.

٤- وتلاحظ إشارة أخرى إلى هذا الموضوع في قصيدة قارون، ذلك الرجل الثرى والأناى الظالم من بنى إسرائيل، في الموضوع الذى استعرض قارون يوماً ما كان يملكه من الثروات الطائلة والنفيسة (من الخيول والغلمان والإماء والمجوهرات الذهبية) أمام أنظار نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٤٨

بنى إسرائيل، فدهش جماعه من الأفراد ذوى النظرة الظاهرية، من هذا المشهد بحيث قالوا:

«يَأْلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ». (القصص / ٧٩)

ولكن فى اليوم التالى الذى حُسفت فيه الأرض بقارون وأمواله وتبين بأن من وراء ذلك الجمال الظاهرى قبْح باطنى وعقوبه أليمة، قالوا مستوحشين: «لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا». (القصص / ٨٢)

علاوة على ما تحمله هذه القصّة من التجليات التربوية فإنها تُشير إلى هذه المسألة وهى: استحالة إمكانية القضاء بشأن أمر معين خيراً كان أو شراً على أساس ظواهر الأمور.

فأحياناً ما يراه الإنسان خيراً فى الظاهر فأنه شرفى باطنه بحيث لو عرف نتائجه لولى منه فراراً. ومن قبيل هذه الحوادث تُعدّ الأرضيات المنطقية للجواب الإجمالى على الأسئلة المطروحة فى داخل روح الإنسان.

٥- فى المسائل المتعلقة بالوصية فى القرآن الكريم، بعد أن أشار تعالى إلى إرث الطبقة الأولى (الأبناء والوالدين) قال: «آبَائِكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَاتَنْدُرُونَ أَيْهِمْ أَقْرَبَ لَكُمْ نَفَعًا». (النساء / ١١)

مع كون الأب والأم والولد اقرب إلى الإنسان ممن سواهم، ويقضى أغلب سنين عمره معهم، إلّا أنّ القرآن يقول: أنتم لا تدرون أيّاً من آباءكم وأبنائكم أقرب لكم نفعاً، وأيهم صاحب الدور فى حياتكم، لذا لم يوكل أمر تعيين حصّة الارث إليكم.

فالإنسان الذى لا تسمح له محدودية علمه فى أن يحكم حكماً قطعياً فى مثل هذه المسائل كيف يُمكنه أن يحكم سِلفاً على حدّ ينتج عنه الألم فى الظاهر بأنّها مسألة غير موزونة فى عالم الخلق؟

خلاصة الكلام هو أنّ الأدلة العقلية بل والآيات القرآنية أيضاً تدل بوضوح على هذا الجواب الإجمالى الكلى حول الأسئلة المطروحة أعلاه، وعلى الأقل إنها قد منعت الإنسان من القضاء القطعى بشأن الأمور، وحثته على التريث والتفكر بصورة أكثر.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٤٩

الحوادث الأليمة فى الروايات الإسلامية:

وردت فى المصادر الإسلامية روايات كثيرة عن المعصومين عليهم السلام حول بحث الرضا والتسليم، وبالرغم من كونها تُشير إلى بحث أخلاقي واسع، فهى تحتوى أيضاً على إشارات حول بحثنا، ومن جملتها ما روى عن الإمام على عليه السلام أنه قال: «إنّ الله سبحانه وتعالى يُجرى الأمور على ما يقتضيه لا على ما ترتضيه» (١).

أى لا تقلقوا من كون الشئ خلافاً لرغبتكم ورضاكم، فهناك أسرار ومصالح لا تعلمون بها.

وفى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إنّ أعلم الناس بالله أرضاهم بقضاء الله» (٢).

أجل، إنّ الذى يؤمن بعلم الله وحكمته ولطفه ورحمته وإحاطته بهذه الأمور، على يقين بأنّ (كل ما يأتى منه خير) ولو أنه لم يدرك أسرارها بدقّة.

وفى حديث آخر عن أمير المؤمنين على عليه السلام: «أجدر الأشياء بصدق الإيمان الرضا والتسليم» (٣).

أى أنّ أوضح أثر على صدق الإيمان بعلم الله وحكمته ورحمته هو التسليم لإرادته التكوينية والتشريعية. لا تسليمياً عن كراهة، بل عن

رضى، لأنَّ المسلم يعلم بأنَّ كل ما يصدر من الله تعالى يحتوي في طياته على حكمة خفية.

تحذير!!

طبعاً إنَّ هذا الكلام لا يعنى أبداً أن نحتسب مصائبنا وعدم الموفقيه والفشل و... التي تحصل بما كسبت أيدينا، على القضاء الإلهي ونُسَلِّم ونرضى بها.

(١) غرر الحكم، الفصل ٩، الحكمة ٥٦.

(٢) بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ١٤٤، ح ٤٢.

(٣) غرر الحكم.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٥٠

ولا يعنى أيضاً أن نتعاس عن التصدى للآفات والحوادث والمشاكل، لأنَّ بروز هذه الحوادث ناتج من أعمالنا وتعود نتائجها علينا في هذه الحالة، ولا يمكن احتسابها على الإرادة الإلهية، لأنه إن أوجد الألم فهو قد خلق العلاج أيضاً. فإذا قصّرنا في مثل هذه الحالات فإننا ليس لم نبلغ مقام الرضا والتسليم فقط، بل نتحمل مسؤولية أمام الله سبحانه وتعالى، لأننا بتقصيرنا نكون قد ألقينا بأنفسنا في التهلكة، وسيأتي شرح مفصل بخصوص هذا الكلام في بحث الرضا والتسليم إن شاء الله تعالى.

الجواب التفصيلي عن الحوادث الأليمة

١- فلسفة التفاوت

غالباً ما يُشبه بين (التفاوت) و (التبعض) ويأخذ الثاني الذي له صفة سلبية مكان الأول الذي له صفة إيجابية في الكثير من المواقع. ولزيادة التوضيح: يُقصد من (التبعض) هو أن نُفَرِّق بين موجودين يحملان نفس الشروط تماماً، مثلاً أن نُعْطى أحد العاملين اللذين أنجزا عملاً متشابهاً أجراً ضعفاً أجر الآخر، أو نعاقب أحدهما نصف عقوبة الآخر إذا ارتكبا عملاً قبيحاً، وهما يحملان نفس الشروط أيضاً، أو أن نعفو عن أحدهما تماماً ونعاقب الآخر أشد العقاب.

ولكن إذا كانت الأعمال الإيجابية والسلبية متفاوتة مع بعضها أو اختلف الفاعلون عن بعضهم، لكان التفريق فيما بينهم عين العدالة. هذا من حيث الثواب والعقاب، أما من حيث الخلق والتكوين فإنَّ عالم الخلق مجموعة من الموجودات المتفاوتة تماماً، لأنَّ لكل منها وظيفتها الخاصة، ويلزم تناغم الخلق والوسائل والإستعدادات معها.

ومن خلال نظرة إلى أعضاء بدن الإنسان تُشاهد أن بعض خلايا البدن بدرجته من الظرافة بحيث يختل نظامها لأقل ضربه، أو حتى هبوب نسيم معين، أو انبعاث نور شديد،

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٥١

(كشبيكية العين) لذا نجد أنها موضوعة في محفظة قوية جداً لكي تكون بعيدة تماماً عن ساحة الحوادث، وهذه الخلق اللطيفة والظرفية جداً، إنما هي بسبب الواجب الحساس جداً الملقى على عاتقها وهو (التصوير المستمر للمشاهد المختلفة من مسافات بعيدة وقريبة وفي أجواء متفاوتة).

وهناك خلايا صلبة ومحكمة ومقاومة جداً، كخلايا عظام كعب القدم، أو عظام الساق التي علاوةً على تحملها جميع وزن البدن، يجب أن تكون مقاومة للضربات القوية والصدمات.

فلا يُمكن إذن لأى عاقل أن يعترض على تفاوت بُنية هذين العضوين؟ أو يعترض على عدم خلق جميع خلايا البدن بنفس ظرافة خلايا شبكية العين، أو بنفس صلابة خلايا الساق، أو القدم، أو بنفس سُمك جلد كعب القدم؟

ويُمكن إجراء نفس هذه الحسابات بخصوص أعضاء شجرة أزهار صغيرة مع شجرة كبيرة ابتداءً من جذورها القويّة، إلى سيقانها، وأغصانها الصغيرة والكبيرة، وبالتالي أوراقها مع الأزهار والشعيرات الصغيرة الدقيقة الموجودة في داخل كلّ زهرة.

ولو أمعنا النظر جيداً لوجدنا أنّ أقسام المجتمع البشرى تشبه تماماً أعضاء بدن الإنسان أو شجيرة أزهار صغيرة وشجرة كبيرة.

فصنع النظام الأحسن يفرض وجود التفاوت في استعدادات وأذواق أفراد المجتمع وبنائهم الروحاني والجسماني، ليتناسب كلّ واحدٍ منهم مع الواجب الذي يُلقيه نظام الخلق على عاتقه ويتمكّن منه، وإلّا لتبعثر كلّ شيء، ولما كان هنالك نظام أحسن، ولصار الوجود كالشجرة التي جميعها جذور أو سيقان أو أوراق فقط، ومن قبيل هذه الشجرة لا تستطيع أن تواصل الحياة لأكثر من فترة قصيرة، وإن كانت قادرة فلا فائدة منها.

فلا يُمكن أن يتساوى تركيب وجود الأم، التي يجب أن تكون كتلة من العواطف لتقوى على تحمل كل مشقات حفظ وتربية الأولاد، مع تركيب وجود الأب، الذي يجب أن يُمارس عمله دائماً في قلب المجتمع، لأنّ العكس معناه إمّا تلاشى دور الأمومة أو تعطيل دور الأبوة.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٥٢

وكذا لا يُمكن أن يتساوى تركيب أعصاب جراح للقلب مع أعصاب شاعرٍ دقيق النظر، أو عالم في الرياضيات مع مهندسٍ زراعي، أو كلاهما مع عامل صناعاتٍ ثقيلة، وهؤلاء الثلاثة مع جندي أو ضابطٍ عسكري، وهؤلاء الأربعة مع قاضٍ مُعيّن، لأنّ لكل واحدٍ منهم وظيفته الخاصّة في المجتمع وله ذوق واستعداد وبناء جسماني روحاني خاص مناسب لذلك.

وهذا المطلب بدرجة من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى زيادة في التوضيح، وبالأساس أنّ من إحدى دلائل عظمة الله هي هذا التقسيم الدقيق للأذواق والاستعدادات التي تُشكّل جميعها مجموعته متعادلة ومتوازنة كلّ في محله الخاص!

وخلاصة الكلام هي أنّ البشر ليس كالأواني المتشابهة التي تُصنع في معملٍ واحد، ولجميعها فائدة واحدة، فلو كان كذلك لما استطاعوا العيش مع بعضهم حتى يوماً واحداً، فالمهم في حياة البشر وجميع عالم الخلق هو العدالة لا المساواة، ووضع كل شيء في محله لا التشابه.

وللقرآن الكريم إشارات غنيّة في هذا المجال، حيث قال في موضع: «وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سِيخْرِيًّا» (الزخرف / ٣٢)

«سِيخْرِيًّا»: مشتقّة من مادّة (تَسَيَّر)، ومفهوم الآية هو: إنّ تفاوت درجات الناس تؤدّي إلى تسخير بعضهم بعضاً، أو تدفع بهم إلى التعاون المتقابل، فالمرضى مُسَيَّرٌ للطبيب والطبيب مُسَخَّرٌ للمعمار في حوائج اخرى، أو الفلاح مسخّر للتاجر، لأنّ لكل واحدٍ منهم أفضليّة على الآخر من جهة معينة، وهذه بذاتها تُوجد (الخدمات المتقابلة) أو (التسخير) وفق التعبير القرآني.

وقد اتفق أغلب المفسرين الإسلاميين من الشيعة والسنة على تفسير الآية بهذا الشكل، أي كون المقصود من (سُخْرِيًّا) هنا هو التسخير في الخدمات المتقابلة «١».

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ٤٦؛ تفسير الميزان، ج ١٨، ص ١٠٤؛ القرطبي، ج ٩، ص ٥٩٠٣؛ تفسير الكبير، ج ٢٧، ص ٢٠٩؛ تفسير روح المعاني، ج ٢٥، ص ٧٢؛ تفسير المراغي، ج ٢٥، ص ٨٥.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٥٣

والقول بأنّ المقصود من (سُخْرِيًّا) هو (الإستهزاء) احتمالٌ ضعيفٌ جدّاً طرح في بعض التفاسير بعنوان رأى غير مقبول.

ونلاحظ في موضع آخر: «وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ». (الأنعام/ ١٦٥)

ونظراً إلى عدم كون هدف الامتحان الإلهي معرفته حقيقة الأشخاص واكتشاف الأمور الخفية، لأن الله محيط بكل شيء علماً، بل المقصود منه تربية البشر في البلاء والامتحان ليخلصوا ويقوى تحملهم، وبتعبير آخر: إنه وسيلة لتكاملهم، لذا فالآية تقول: إن هذا سبب التكامل (المادى والمعنوى).

وهناك نموذج آخر: هو ما جاء في الآيات التي تشير إلى تفاوت واختلاف نصيب الناس من الأرزاق، فغالباً ما يسأل بعض الأفراد: لم هذا غنى وذاك فقير؟ والقرآن يجيب عن هذا السؤال بصورة إجمالية من خلال الآيات المختلفة ويقول: إن تقسيم الرزق بين العباد يجرى وفق حساب دقيق وبرنامج منظم مفعم بالأسرار، ولو أن الناس لا يعلمونه، كما ورد في سورة الإسراء: «إِنَّ رَبَّكَ يَسُطُّ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا».

(الإسراء / ٣٠)

طبعاً يجب عدم خلط التفاوت الإلهي الواقعي والطبيعي مع التفاوت الوضعي الناشئ عن الإستثمار والاستعمار، واحتسابها جميعاً على إرادة الله، فالمسألة تتخذ طابعاً آخر في هذه الحالة وتخرج بشكل تفسير انحرافي وتؤدي إلى التخلف الأقتصادي والاجتماعي، والقرآن مخالف جداً للنوع الثاني، بل ويحاربه أيضاً.

ويلاحظ في الروايات الإسلامية وجود إشارات غتية بشأن هذا المطلب، كقول علي عليه السلام:

«لا يزال الناس بخير ما تفاوتوا فإذا استتوا هلكوا» (١).

(١) منتهى الأمال، ج ٢، ص ٢٢٩.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٥٤

٢- المشاكل هي من صنع الإنسان!

إشارة

يُصاب الإنسان في حياته بمصائب كثيرة هي بالواقع من صنعه هو، ولكن الكثير من الأفراد ولأجل تبرئة أنفسهم، والتغاضي عن تقصيرهم، واهمالهم اللذين ينتج عنهما حدوث المشاكل، نراهم يحتسبون على قضاء الله وقدره، ويوجهون التقصير إلى المشيئة الإلهية، وبعدها يشككون في عدالة الله أحياناً، في حين أننا لو دققنا جيداً لوجدنا أن الكثير من الحوادث الأليمة، والفسل، والمصائب التي يعاني منها الناس، هي بما كسبت أيديهم، وأن الفرد أو المجتمع هو العامل الأصلي والمقصر الحقيقي فيها، مع أنهم يُبرئون أنفسهم ظاهرياً.

والمصائب التي تصيب الناس بسبب تعسف الحكومات الظالمة والمستبدة، هي من هذا القبيل عادةً، لأن الظلمة والجباية أفراد معدودون، وسكوت الناس حيال جرائمهم البشعة وتعاون بعض الناس معهم هو السبب الذي يكسبهم القدرة والقوة للتسلط على رقاب الناس، وخلق المشاكل الكثيرة لهم.

والكثير من الأمراض منشأها هوى النفس، والكثير من الاحباط وحالات الفشل تنبع من ترك المطالعة والاستشارة المطلوبة، وعاملها الأساسي أنانية واستبداد الإنسان برأيه.

وسبب الكثير من حالات الفشل التقاعس وترك الجهاد والسعي.

وكانت الفوضى دائماً سبب الفاقة والاختلاف، والفرقة سبب المصيبة والبلاء.

والعجب هو أن كثيراً من الناس نَسُوا علاقة العلة بالمعلول واحتسبوا جميع الأمور على الخالق!

علاوة على هذا فإن من المصائب التي تلاحظ في المجتمعات البشرية ناتجة من ظلمهم لبعضهم، أو ظلم جماعة لجماعة أخرى، فمثلاً إذا سمعنا بأن هنالك خمسين مليون انسان تقريباً في عصرنا الحاضر يموتون جوعاً، أو بإصابة أكثر من هذا العدد بأنواع الأمراض بسبب سوء التغذية، فإنه لا يعنى بأن سببه هو أن الله قد حرّمهم من لطفه، بل سببه هو سوء استغلال جماعة أخرى من أبناء الدنيا للحرية الإلهية، وقيامهم بغصب حقوق الآخرين.

فصار استعمار واستثمار هذه الجماعة.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٥٥

إن الأمراض والموت الناشيء من الجوع، يحصل في الوقت الذي تلقى الكثير من الدول الثرية- الغافلة عن ذكر الله- كثيراً من المواد الغذائية في البحر، أو يلقونها في المزابل، ويعانون من أنواع الأمراض الناشئة من الإفراط في الشبع. وكذا إذا رأينا أن أطفالاً يعانون من أمراض أو نقص أعضاء معينة بسبب ذنوب آبائهم وأمهاتهم الذين أسرفوا في تناول المشروبات الكحولية أو سوء التغذية وما شاكل ذلك، فهو ظلم صادر من آباء أو أمهات هؤلاء الأطفال أو مسؤولي مجتمعهم بحقهم، وبالضبط كأن يأخذ أبٌ خنجراً ويفقأ به عين طفله الرضيع، أو كذبح الأطفال من قبل الجابرة كفرعون مثلاً. حينئذ لا يمكن احتساب أى عملٍ من هذه الأعمال على فعل الله، بل جميعها ممّا كسبت يد الإنسان ذاته، والتي أعدّها الإنسان لنفسه أو للآخرين.

القرآن والمصائب الذاتية الصنع:

١- يلاحظ وجود آيات قرآنية كثيرة توضح بصراحة علاقة قسم عظيم من المصائب بأعمال الإنسان السيئة، إلى الحد الذي يلاحظ فيه أن تعبير بعض الآيات جاء بصيغةٍ عموميةٍ تشمل جميع المصائب: قال تعالى: «مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ». (النساء / ٧٩)

والظريف هو أن المخاطب في هذه الآية هو شخص الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، لتأكيد وبيان أهمية الموضوع، فعندما يكون الرسول صلى الله عليه وآله مخاطباً بهكذا أسلوب يتضح أن التكليف واقع على الآخرين حتماً، وإلا فمن المعلوم أن الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وآله لا يفعل فعلاً يؤدي إلى ابتلائه بمصيبةٍ من نفسه.

ونسب (الحسنات) إلى الله إنما هو لأن الله قد وضع جميع إمكاناتها تحت تصرف الإنسان، ونسب (السيئات) إلى الإنسان إنما هو لأنها تحرف هذه الإمكانيات عن الأهداف

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٥٦

التي خلقها الله لأجلها، وإلا فمن حيث كونه مسبب الأسباب يمكن نسبها إليه جميعاً.

ولعل هذا هو السبب في نسب بعض الآيات القرآنية جميع الأعمال إلى الله، لذا فإن التفاوت الموجود إنما هو بسبب تفاوت جهات البحث وزوايا النظر، (تأمل جيداً).

ولا- يمكن إنكار كون الكثير من الحوادث الأليمة الموجودة في حياة الإنسان من صنع نفس الإنسان، فمثلاً إن سبب الكثير من الأمراض هو عدم الاهتمام بأصول الصحة وقواعدها، أو الإفراط في تناول الغذاء إلى حد التخمة، أو عدم التدقيق في النظافة، أو الإنزواء وعدم التحرك، أو عدم الإحتراز من المناطق الملوثة أو الأفراد الملوّثين. ولو راعى الإنسان الأسس والقوانين التي وضعها الله

في عالم الخلق والتكوين لما أصيب بها.

ولكن مع هذا لا يمكن انكار كون قسم من الأمراض التي تُصيب الناس ذات عوامل خارجة عن قدرتهم، كالتغير المفاجيء في حالات الطقس التي تحصل خلافاً لمقتضى طبيعة الفصل، فيصابُ البعض بمختلف الأمراض. ويمكن ملاحظة نفس هذا التقسيم بخصوص بقتية المصائب والحوادث الاخرى، لذا فإننا نقول: بالرغم من كون صيغة الآية الآنفه الذكر عامّة لكن مقصودها الأصلي أغلب الموارد.

ولأنّ (الفخر الرازي) لم يستطع حل هذه المعضلة، فقد فسّر (السيئة) الواردة في الآية بمعنى (المعصية) في الوقت الذي نجد بأنه معني غير مترن جداً، لأنّ مفهوم الآية سيصير كالتالي (ما أصابك من معصية فمن نفسك)، وهذا الشيء من قبيل توضيح الواضحات، وعليه فإنّ تعبير (سيئة) له مفهوم عام.

٢- وفي موضع آخر اعتبر الفساد الذي يظهر في البر والبحر كنتيجة لأعمال الناس، حيث قال: «ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ». (الروم / ٤١)

ونظراً لكون الفساد المذكور في الآية معرّف بألف لام التعريف ويفيد العموم، فإنّه يدل على كون الفساد الذي يظهر في البر والبحر من صنّع الإنسان، وتشير إلى المفاصد الاجتماعية.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٥٧

ويُضيف قائلاً في تكلمه الآية: «لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ».

اعتقد بعض المفسرين بأنّ هذه الآية تُشير إلى العقوبات والمجازاة الإلهية التي تصيب الناس بسبب (أعمالهم السيئة)، ولكن يبدو أن صدر الآية يُشير إلى وجود نوع من الرابطة التكوينية فيما بين (الفساد) و (الذنب)، وذيل الآية يُصدّق هذا المعنى أيضاً، لأنّه لم تُذكر كلمة (عقوبة) فيها، بل: «لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا» لا (جزاء الذي عملوا)، ويمكن أن يكون سبب استعمال كلمة «بعض» هو إبطال الله مفعول بعض هذه النتائج الطبيعية بلطفه ورحمته.

وعلى أئيه حال فإنّ الآية أعلاه تدلّ على أنّ المفاصد الاجتماعية: كانهدام الأمن، الحروب، تسلّط الظالمين، ابتلاء المظلومين، وأمثال ذلك وليدة عمل الإنسان نفسه، ويجب أن لا تُحتسب أبداً على الخالق ويُشكك بالعدل الإلهي بسببها. (تأمل جيداً).

٣- يُفهم من آيات أخرى أن سبب تعيير النعم الإلهية هو تعيير أحوال الناس، حيث قال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَمَائِعِيٌّ مَا يَقُومُ حَتَّى يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ». (الرعد / ١١)

وقد بين نفس هذا المطلب في موضع آخر مستعملاً كلمة (النعمة) بصريح العبارة، حيث قال تعالى: «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُعَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ». (الأنفال / ٥٣)

وبتعبير آخر أوضح: إنّ الفيض والرحمة الإلهية عامّة وواسعة، لكنها تُقسّم بين الناس وفق الإستعدادات والاستحقاقات، فإن استفادوا من النعم بصورة صحيحة كانت دائمية أبدية، وإن صارت وسيلةً للطغيان والظلم والجور والغرور والكفر، فلا ريب في أنّها تكون بلاءً، وهذا تأكيد على أنّ الكثير من المصائب التي تصيب الإنسان هي ممّا كسبت يدها.

٤- وفي موردٍ آخر، وضمن الإشارة إلى ضيق صدور الناس، أشارت الآية التالية إشارةً لطيفةً إلى العلاقة بين (المصائب) و (أعمال الناس).

قال تعالى: «وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ». (الروم / ٣٦)

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٥٨

إنّ أكثر المفسرين اعتقدوا بأنّ مثل هذه الآيات تُشير إلى العذاب الإلهي، ولكن يبدو من ظاهر الآيات أنّ المصائب ناتجة عن أعمال الإنسان نفسه، وبتعبيرٍ آخر ذُكرت الأعمال بعنوان (سبب)، والمصائب بعنوان (مُسبب).

وإن حصلت هنا عقوبة معينة فهي أكثر طبيعي للعمل، وانعكاس عن أفعال وتصرفات الناس، ولا يوجد دليل واضح على تأويل كلمة العقوبة والعذاب في جميع هذه الموارد، كما ورد ذلك في كلام أغلب المفسرين.

٣- مصائب العقوبات الإلهية

إن البعض الآخر من المصائب التي تُصيب الإنسان عبارة عن عقوبات إلهية تصدر منه تعالى وفق استحقاق الأفراد، وهي تخص الأفراد الذين ارتكبوا ذنوباً إما كثيرةً وكبيرةً جداً، بحيث تستوجب العذاب الدنيوي والعذاب الأخروي، وإما طفيفةً بحيث تُمحي بالعذاب الدنيوي فقط، وهو بالواقع نوع من اللطف الإلهي بحق هؤلاء الأفراد.

ويُحتمل أن تكون هناك فاصلة زمنية بين (الذنب) و (العقوبة) لكن العلاقة محفوظة، وأحياناً أخرى تنزل العقوبة مباشرة ويكون الحساب سريعاً.

وتفاوت هذا البحث عن البحث السابق هو أننا تحدثنا في البحث السابق عن الأثر الطبيعي للأعمال، وفي هذا البحث عن العقوبة الإلهية.

وعلى أية حال فإنه لا يُمكن للمؤمنين والمعتقدين بالعدل الإلهي إنكار وجود هذه المسألة، وهي تحقق العقوبة الإلهية الدنيوية بحق فئة معينة على الأقل، ولكن يُمكن أن تكون تلك المصيبة بالنسبة للذين يجهلون سببها عجيبةً وأليمةً. وصفحات التاريخ تُخبر عن حال الذين ارتكبوا جنایات فجيعة عند الاقتدار، وكان مصيرهم أن هلكوا بعقوبات أليمة ومصائب موجعة، بحيث لا يكفي كتاب أو عدة كتب لذكرها بالتفصيل.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٥٩

وغالباً ما رأينا بأم أعيننا في حياتنا اليومية نماذج من هذه المسألة بحيث لا يبقى لنا مجال للشك في وجود هذه العلاقة والآصرة بصورة إجمالية.

والقرآن المجيد أيضاً علاوة على إشارته إلى هذه المسألة كأصل كُلي، فقد وضع إصبعاً على مواضع خاصة أيضاً، وأشار إلى الأقوام الذين ذاقوا أشد العذاب كعقوبة دنيوية، وإليكم أدناه نماذج من كلا القسمين:

١- «وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرِيَةً كَانَتْ آمَنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ». (النحل / ١١٢)

إن هذه الحادثة سواء كانت تُشير إلى مصير جماعة من بني إسرائيل، أو إلى قوم سبأ، أو كانت مثلاً عاماً- وردت كل من هذه الاحتمالات في كلام المفسرين- فإنها شاهدٌ حي على موضوع بحثنا، وتوضح وجود العلاقة فيما بين الذنب وقسم من المصائب.

فلو دخل جماعة مدينة معينة أثناء إصابتها بالقحط، والخوف، والبلاء، دون أن يعرفوا ماضيها، لكان من الممكن أن يتعجبوا، ويستوحشوا، ويسألوا أنفسهم قائلين: كيف يُمكن أن تتناسب كل هذه التعاسة والبلاء مع عدالة الله سبحانه!؟

ولكنهم عندما يطلعون على ماضيها يُقرّون بعدالة الجزاء، وأحياناً يرونه أقل من الإستحقاق.

٢- بخصوص (فئات) من الأمم السابقة أُصيبت كل فئة منها بعقوبة معينة بسبب ما ارتكبت من الذنوب.

قال تعالى: «كَفَلَّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ». (العنكبوت / ٤٠)

ووفقاً لهذه السنة فقد أصاب قوم عادٍ حاصبٌ هدم منازلهم، وهلك قومٌ ثمود بالصاعقة، وخسفت الأرض بقارون، وغرق فرعون ووزيره هامان في البحر، فإن هذا البلاء المتنوع لا يُنافي أصل العدل الإلهي فقط، بل يعتبر عين العدالة لأن الجميع كانوا مستحقين

لذلك.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٦٠

وقد نقلت بعض التفاسير قصّة لطيفة في تفسير ذيل الآية (٩٠/ يونس) بخصوص فرعون تُعدُّ شاهداً حياً على موضوع بحثنا، وهي: دخل جبرائيل عليه السلام على فرعون ذات يوم بهيئة إنسان واشتكى إليه قائلاً: يا صاحب الجلالة! كان لى غلامٌ على سائر عبيدى، وسلّمته مفاتيح كنوزى، فعادانى وعادى من يُحِبِّنى وأحبَّ أعدائى، وقربهم إليه، فاقض أنت بشأنه وعين عقوبته!

فقال فرعون: لو كان هذا غلامى لأغرقته فى البحر!

فقال جبرئيل عليه السلام: اكتب لى هذا الأمر (الحكم) يا صاحب الجلالة (لكى استفيد من خطك)، فأمر فرعون باحضار دواءٍ وقلمٍ وورقٍ فكتب: (إننى أحكم على العبد الذى يتمرد على مولاه ويكفر بأنعمه بأن يقتل غرقاً).

(انتهت هذه الحادثة) وعندما أوشك فرعون وجنوده على الغرق فى البحر، ظهر إليه جبرئيل وأراه خطه وقال له: «هذا ما حكمت بنفسك» (١).

والجدير بالذكر هو أنه لو كان أحدٌ حاضراً فى هذه الأقوام عند نزول البلاء كالعاصفة والصاعقة، والسيول، والزلزلة، من دون أن يعرف شيئاً عن ماضيهم، ويرى بأم عينيه الدمار الناجم عن السيل وكيفيته تهدم المنازل على رؤوس أصحابها بسبب العواصف، وكيف تحوّل الصاعقة كل شىء إلى رماد فى لحظة واحدة، لتعجب ودُهِش ولأمكن أن يُشكك فى مسألة العدل الإلهى فى عالم الوجود.

ولكن لو أطلع على الحوادث السابقة وأعمال تلك الأقوام الماضية لزال شكّه.

وهذه فلسفة قسم من الآفات والبلايا (وسبب قولنا - قسم - هو وجود فلسفة خاصّة لكل قسم من أقسام البلاء).

٣- أشار القرآن الكريم فى سورة سبأ إلى قصّة مفصلة وغيّية وموقظة بشأن قوم من اليمن ذوى تمدّن ملحوظ، وكان هذا التمدّن ناتجاً عن وجود سدّ عظيم محدّث بين الجبال يحصر مياه البرارى والجبال ليوزعها بتنظيم دقيق على المزارع والحقول، فصارت أرضاً خصبة مليئة بالنعمة الإلهية (جنّة).

(١) تفسير روح البيان، ج ٤، ص ٧٧.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٦١

إضافة إلى ذلك فقد ساد الأمن فيها، وابتعدت عنها الآفات والبلايا والجفاف والمجاعة والخوف والوحشة، وحتى قيل: إن الحشرات المؤذية قد هجرت تلك الديار أيضاً.

ولكن لم تمض مدّة قليلة حتى أصيبوا بغرور النعمة وغفلة الرفاه، فطغوا وكفروا بالنعمة فى عدّة جوانب.

قال تعالى فى هذا المجال: «فَاعْرَضُوا فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىٰ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَىٰءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكُمْ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ». (١)

(سبأ/ ١٦-١٧)

العجيب هو ماورد فى بعض الروايات بأنّ مقدمات انهيار ذلك السدّ الترايبى العظيم قد حدثت مسبقاً من قبل الفئران البرية التى نفذت فى السد وأحدثت فيه ثقباً كان يتسع لحظةً بلحظةً على أثر جريان الماء منه.

أجل، إنّ سيلاً عظيماً متشكلاً بالحقيقه من قطرات المطر، وفعل عدد من الفئران البرية قد أفنى حضارةً عظيمة، وأهلك القوم الطغاة المتجبرين.

ومن قبيل هذه الحوادث حوادث كثيرة توضح علاقة قسم من البلايا مع أعمال الإنسان وعقوبته، بحيث لو جمعت لصارت كتاباً عظيماً. وخلاصة الكلام ووفقاً للاستدلالات العقلية والمنطقية، وآيات قرآنية كثيرة، ووفقاً للروايات والتاريخ، فإنه لا يمكن إنكار كون قسم

ملحوظ من المصائب والبلايا النازلة بالظالمين والطواغيت ذات صيغة جزائية، بالرغم من عدم إدراك الجهلاء والغافلين العلاقة بين العلة والمعلول هذه.

وَمَسِيئًا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيُظْلَمَهُمْ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَوَارِدِ بَلْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ، كما قال تعالى: «ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ* وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ». (هود/ ١٠٠-١٠١)

(١) ورد تفسير هذه الآيات وشرح هذه القصة في التفسير الامثل ذيل الآية المذكورة من سورة السبا.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٦٢

العلاقة بين الذنوب والبلاء في الروايات الإسلامية:

ما ذكرناه آنفاً ملحوظ أيضاً في الروايات الإسلامية بشكل واسع بحيث إن قسماً ملحوظاً على الأقل من المصائب والبلايا التي تُصيب المجتمعات الإنسانية ذات صيغة جزائية وقصاص للذنوب: وكنموذج على ذلك:

١- عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إن الله تعالى إذا غضب على أمية، ثم لم يُنزل بها العذاب أعلى أسعارها وقصير أعمارها ولم تريح تجارتها ولم تغزر أنهارها ولم تُزك ثمارها وسلط عليها شرارها وحبس عليها أمطارها» (١).

٢- ورد في حديث آخر عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال: «كلما احدث العباد من الذنوب ما لم يكونوا يعلمون أحدث لهم من البلاء ما لم يكونوا يعرفون» (٢).

٣- في رواية أخرى عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «من يموت بالذنوب أكثر ممّن يموت بالآجال، ومن يعيش بالإحسان أكثر ممّن يعيش بالأعمار» (٣).

٤- وعنه أيضاً عليه السلام: «إن الرجل لِيُذنب الذنب فيحرم صلاة الليل وإن عمل الشّر أسرع في صاحبه من السكين في اللحم!» (٤). يُمكن لهذه الأحاديث أن تكون شاهداً على هذا البحث أو البحث السابق بخصوص العلاقة الطبيعية بين الذنوب والحوادث المُرّة، (تأمل جيداً).

٥- عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «وجدنا في كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله (الروايات النبوية) أنه قال: «إذا ظهر الزنا من بعدى كثر موت الفجأة، وإذا طُفّف المكيال والميزان أخذهم الله بالسنين والنقص، وإذا منعوا الزكاة منعت الأرض بركتها من الزرع والثمار والمعادن كُلّها، وإذا جاروا في الأحكام تعاونوا على الظلم والعدوان، وإذا نقضوا العهد سلط الله عليهم عدوهم، وإذا قطعوا الأرحام جعلت الأموال في أيدي الأشرار، وإذا لم يأمرُوا بالمعروف ولم

(١) بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ٣٥٣.

(٢) المصدر السابق، ج ٧، ص ٣٤٥.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٥٤.

(٤) المصدر السابق، ص ٣٥٨، ح ٧٤.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٦٣

ينهُوا عن المنكر، ولم يتبعوا الأخيار من أهل بيتي، سلط الله عليهم شرارهم، فإدعوا خيارهم فلا يُستجاب لهم!» (١).

٦- يُقَالُ - في تفسير سورة نوح عليه السلام - حديث لطيف في هذا المجال عن أمير المؤمنين على عليه السلام: نقل القلانسي وهو

(أحد كبار علماء أهل السنة) في تفسيره أن رجلاً جاء إلى علي عليه السلام وقال له: يا أمير المؤمنين! أذنبت كثيراً من الذنوب وسوّدت بها صحيفه أعمالي فادعو ليغفر لي ربّي، فقال عليه السلام: «عليك بالاستغفار». وجاءه رجل آخر وقال: أصاب مزارعي الجفاف بسبب قلة المياه فادعو الله ليُنزّل الغيث، فقال عليه السلام: «عليك بالاستغفار». وجاءه آخر وقال: أنا رجل فقير وقد أنهكني الفقر فادعو الله ليمنّ عليّ من عميم لطفه، فقال له: «عليك بالاستغفار». وجاءه رابع وقال: لي ثروة طائلة ولكن لا ذرية لي فادعو الله سبحانه وتعالى ليهب لي ذرية، فقال له: «عليك بالاستغفار!». وقام إليه آخر وقال: يا سيّد الوصيين، إنّ بستانى شحيح الثمار، فادعو الله ليبارك فيها، فقال عليه السلام: «عليك بالاستغفار». وقال آخر: يا علي! جفّت عيون المياه في أرضنا، وشحّت فروع الأنهار، وحلّ بنا القحط، فأسألك الدعاء يا سيدي، فقال عليه السلام: «عليك بالاستغفار!».

يقول ابن عباس: كنت حاضراً عند أمير المؤمنين عليه السلام فقلت له: يا أمير المؤمنين سألوكم أسئلة مختلفة وأجبتهم جواباً واحداً (ووصفت دواءً واحداً لجميع هؤلاء المرضى وهو الاستغفار!) فقال عليه السلام: «يا ابن عمّي! أولم تسمع هذه الآيات (عن لسان نوح عليه السلام) التي تقول: «فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا* يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا* وَيُمِدُّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِيَنَّ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا...» (٢)».

(١) اصول الكافي، ج ٢، ص ٣٧٤، ح ٢.

(٢) تفسير منهج الصادقين، ج ١٠، ص ١١٩، في تفسير الآية ١٢ في سورة نوح. (مع شيء من الإختصار).

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٦٤

وقد نقل جمعٌ من المفسّرين الحديث المذكور عن الحسن البصري، وإن كان منقولاً عنه حقاً، فإنّه على الأقوى قد سمعه عن أمير المؤمنين علي عليه السلام مباشرةً لأنه استفاض من نور الإمام عليه السلام كثيراً. إنّ الروايات المذكورة والروايات الكثيرة الأخرى المنقولة في التواريخ وكتب الأخبار تُعدُّ من أفضل الشواهد على وجود علاقة بين قسم من المصائب مع الذنوب والمعاصي (طبعاً إنّ قسماً من هذه الروايات يشير إلى الأثر الوضعي للأعمال، وقسماً آخر يُشير إلى العقوبات الإلهية وبعضها الآخر يحمل كلا المعنيين).

٤- المصائب الموقظة

لا ريب أن لقسم من الحوادث المزعجة أثراً إيجابياً في تمزيق حُجب الغرور، وإيقاظ الإنسان من نوم الغفلة، وتخليصه من مخالب عبادة الهوى والتشبُّث بالرأى، وتعتبر الكثير منها منعطفاً في حياة الأفراد ذوى الاستعداد للهداية. فوفرة النعمة، وقدرة السلطنة، والعافية قد تُغرّ الإنسان لدرجة بحيث ينسى نفسه بالمرّة، فيعتقد بكونه مصدراً لجميع المواهب، وبأفضليته على الآخرين، وكأنّه يتصوّر خلود الحياة فيتبدّل في هذا الحال إلى موجودٍ خطير، ظالم، أناني، عنيد وعابث، ويستمر على هذه الصفات مالم يُصادف مشكله في حياته، فيخسر حياته ويخسر الآخرين.

فها هنا تخرج يد العناية الإلهية من كُم رحمانية الباري لتعين الإنسان، فتحدث مصيبة عظيمة ثقيلة، كأن يفقد أحد أعزّائه، أو يفشل في مساعيه وجهوده، أو تهدم زلزلة قصر آماله، أو تُحرق صاعقه قسماً من أمواله. فيتعرّض لوخزة قد توقظه فيدخل في عالم التفكير، ويعود من التيه والضياع فيخطو في جادة الصواب.

وقد لاحظنا المطبات الإصطناعية التي توضع في الطرق المستوية بهدف الحد من نوم

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٦٥

قادة السيارات والحيلولة دون سقوطهم في المزالق.

وقسم من المصائب بمثابة المطبات في طريق حياة الإنسان التي تهز كيانه بقوة لتمنعه من نوم الغفلة الذي يؤدي إلى هلاكه.

ويمكن أن يصدّق هذا الكلام بخصوص الإنسان، أو مجتمع معين، أو جميع المجتمعات البشرية، ويُعطى فلسفة قيمة لقسم من حوادث الحياة الأليمة.

ولقد وصل الإنسان اليوم، في ظل التقدم الصناعي، إلى درجة من القدرة بحيث سخر السماء والأرض وكشفت أجهزته الفضائية الستر عن أسرار أبعد سيارت المنظومة الشمسية أيضاً، وحصل منها على أخبار عجيبة مذهلة.

وضجت أصداة العقول الألكترونية، بحيث صار تركيب أعضاء الإنسان عملاً بسيطاً.

ويُحتمل أن تؤدي مجموعة هذه الظواهر إلى اغترار الكثير من العلماء، لكنهم عندما يرون بقاء مرض السرطان يفتك بالناس بالرغم من كثافة جهود آلاف بل ملايين العلماء المبذولة على مدى التاريخ، أو مرض (الأيدز) الحديث الظهور الذي ينشأ من مكروب أو فيروس صغير جداً وقد حير الجميع وأرعبهم - والجدير بالإشارة إلى أنّ هذا المرض يأخذ قرابين من الدول الصناعية المتقدمة أكثر من غيرها - سيتعرضون لهزه فكرية عنيفة، وسينتبهون لحظة إلى ضعف وعجز هذا الإنسان القوي مقابل عظمة الكون وخالقه.

ولا يُمكن إنكار أنّ قسماً عظيماً من سكان العالم لا يعتبرون من هذه الحوادث أبداً، ولا يعيرون لها اهتماماً، بل يستمرون في مواصلة سلوكهم المنحرف، ويبقون منغمسين في عالم الخيال، ولكن من المُسَلِّم أنّ قسماً منهم يعتبرون بها ويتوجهون إلى إصلاح أنفسهم. وهذه فلسفة مهمة جديرة بالملاحظة.

ولا يلتبس الأمر عليك فإننا لا نقصد بأن جميع المصائب والحوادث الأليمة من هذا القبيل، ولا نُقر بوجود الاستسلام أمام الحوادث والتفاعس عن مكافحة المشاكل والمصائب، بل نقول: إنّ قسماً من الحوادث مُرة لدرجة بحيث إنّ الإنسان لا يستطيع التكهن بها ولا يستطيع مواجهتها، وقسم من هذا النوع يدخل في موضوع بحثنا وفي زمرة المصائب الموقظة والحوادث الأليمة المتبّهة.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٦٦

القرآن والمصائب الموقظة:

نعود الآن إلى القرآن لتأمل في ما يقول في هذا الخصوص، حتى يتسنى لنا وضع الدليل العقلي على محك البيان النقلى لتؤيده بواسطته.

ولكون القرآن كتاباً تربوياً عظيماً، ولارتباط موضوع بحثنا بالمسائل التربوية ارتباطاً وثيقاً جداً فقد تحدّث القرآن كثيراً حول هذه المسألة وبتعابير متنوعة ومختلفة من جملتها:

١- «وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ». «١» «٢»

(الأعراف / ٩٤)

يُستنتج من هذه الآية بوضوح أنّ الإيقاظ والتنبيه هو أحد أهداف الحوادث المزعجة التي كانت تُصيب الأقوام الغارقة في بحار الذنوب، وكان ستر مقارنة هذه الحوادث مع دعوات الأنبياء هو تهيئة الأرضية الخصبة لقبول دعواتهم، وتناغم (التكوين) مع (التشريع) يقوى تأثير مواعظهم.

٢- «ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ». (الروم / ٤١)

يُمكن الاستفادة من هذه الآية في بُعدين مُختلفين هما:

تُعدّ البلياء الذاتية (التي يُسببها الإنسان بنفسه) وتُعدّ البلياء والمصائب الموقظة، وتوضّح تناغم هذا القسم من المصائب والحوادث غير المطلوبة، مع المسائل التربوية وبرامج التكامل الإلهية.

٣- «وَلَنذِيقَنَّهُمْ مِّنَ الْعَذَابِ الْأَذْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ». (السجدة/ ٢١)

إنّ تعبير (العذاب الأدنى) ذو مفهوم واسع يشمل أغلب الاحتمالات التي ذكرها المفسّرون، كلّاً على حدة، (المصائب والآلام والمتاعب، الاضرار المائيّة، الجفاف، القحط

(١) وردت آية مماثلة لهذه الآية في سورة الأنعام، الآية ٤٢.

(٢) «يَضْرَعُونَ» من مادة «تَضْرَعُ» وتعني الخضوع والطلب المصحوب بالتواضع (و هي بالأصل مأخوذة من مادة ضرع وتعني نزول الحليب في الثدي).

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٦٧

والجوع، الهزائم في الحروب، وما شاكل ذلك).

ولكنّ ما ورد في كلام بعض المفسّرين من احتمال كون المقصود من العذاب الأدنى هو عذاب القبر لا يتناسب مع ظاهر الآية، لأنّ جملة لعلهم يرجعون تُحدّد هدف هذا العذاب (العودة والرجوع) ممّا لا يتناسب مع عذاب القبر (تأمل جيداً) «١».

وبخصوص آل فرعون ورد ما يلي:

٤- «وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ».

(الأعراف / ١٣٠)

بالرغم من أنّ هذه الآية خاصّة بآل فرعون، إلّا أنّنا نعلم عدم اختلافهم عن بقية الأقسام بإصابتهم بمشاكل مُنهكة ليستيقظوا وينزلوا من مركب الغرور، ويعودوا إلى طريق الحق.

والظريف هو أنّ بعض الآيات المذكورة قد ذكرت هدف هذه المسألة (التذكّر)، وبعضها الآخر (التضرّع)، وبعضها (الرجوع والعودة) والتي هي بالحقيقة تُشكل المراتب المختلفة والمنظمة للرجوع إلى الله، فأولها يتذكّر الإنسان، ثم يتضرّع إلى الله، ويرجع إليه منياً مستغفراً.

أو بتعبير آخر فالمرحلة الأولى (الفكر) والمرحلة الثانية (الذكر) والمرحلة الثالثة (العمل)، ومن قبيل هذه النقاط تُعطى بلاغاً جديداً من هذا الكتاب السماوي عندما تُقارن الآيات القرآنية مع بعضها وتُفسّر بصورة موضوعية.

طبعاً كما أشار التاريخ وكما صرّح القرآن أيضاً فإنّ الكثير من الأقسام المنحرفة السالفة لم تُبدِ رد فعل إيجابي إزاء هذه المصائب والعذاب، واستمرت في غيها حتى هلكت بالعذاب الإلهي النهائي، كما ورد في الآية: «وَلَقَدْ أَخَذْنَاَهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ». (المؤمنون/ ٧٦)

(١) ورد نظير هذا المعنى في سورة الاعراف، الآية ١٦٨؛ سورة الزخرف، الآية ٤٨.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٦٨

مع هذا فقد كان هنالك أقوامٌ أبدؤا ردود فعل ايجابية إزاء مثل هذه الحوادث، أو خرج من بين هذه الأقسام العنيدة افرادٌ اعتبروا واهتدؤا، لذا كانت مثل هذه المصائب عامل ايقاظ للبعض، وعامل إتمام الحجّة للبعض الآخر.

الحوادث الموقظة في الروايات الإسلامية:

يلاحظ في الروايات الإسلامية أيضاً وجود تعابير واضحة تحكى عن العلاقة بين بعض مصائب ومشاكل الحياة، والمسائل التربوية، وتؤيد ما استنتجناه عن طريق العقل والآيات القرآنية، مثل:

- ١- ورد في إحدى خطب نهج البلاغة عن أمير المؤمنين على عليه السلام أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ يَبْتَلِي عِبَادَهُ عِنْدَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةَ بِنَقْصِ الثَّمَرَاتِ وَحَبْسِ الْبَرَكَاتِ وَإِعْلَاقِ خَزَائِنِ الْخَيْرَاتِ لِيَتُوبَ تَائِبٌ، وَيُقْلَعُ مُقْلَعٌ وَيَتَذَكَّرُ مَتَذَكَّرٌ وَيَزْدَجُرُ مُزْدَجِرٌ!» (١).
- ٢- وعنه عليه السلام: «إِنَّ الْبَلَاءَ لِلظَّالِمِ أَدَبٌ، وَلِلْمُؤْمِنِ امْتِحَانٌ وَلِلْأَنْبِيَاءِ دَرَجَةٌ وَلِلْأَوْلِيَاءِ كَرَامَةٌ!» (٢).
- ٣- وفي حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «الْمُؤْمِنُ لَا يَمْضِي عَلَيْهِ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً إِلَّا عَرَضَ لَهُ أَمْرٌ يُحْزِنُهُ يَذَكِّرُ بِهِ» (٣).
- ٤- وعنه عليه السلام: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ بَعْدَ خَيْرٍ فَأَذْنَبَ ذَنْبًا تَبِعَهُ بِنِقْمَةٍ فَيَذَكِّرُهُ الْإِسْتِغْفَارَ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بَعْدَ شَرٍّ فَأَذْنَبَ ذَنْبًا تَبِعَهُ بِنِعْمَةٍ لِيَنْسِيَهُ الْإِسْتِغْفَارَ، وَيَتِمَادَى بِهِ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: «سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ» بِالنِّعَمِ عِنْدَ الْمَعَاصِي!» (٤).
- ٥- نختم هذا البحث بحديث آخر عن الإمام على عليه السلام: «إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يُتَابِعُ عَلَيْكَ الْبَلَاءَ فَقَدْ أَيْقَظَكَ، وَإِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يُتَابِعُ عَلَيْكَ النِّعَمَ مَعَ الْمَعَاصِي فَهُوَ اسْتِدْرَاجٌ لَكَ» (٥).

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٤٣.

(٢) بحار الأنوار، ج ٦٤، ص ٢٣٥، ح ٥٤.

(٣) المصدر السابق، ص ٢١١، ح ١٤.

(٤) اصول الكافي، ج ٢، ص ٤٥٢ باب الاستدراج، ح ١.

(٥) غرر الحكم، عن (ميزان الحكمة) ج ١، ص ٤٨٩.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٦٩

٥- الإبتلاء عن طريق المشاكل

نحن نعلم تفاوت الابتلاء الإلهي عن الإبتلاء البشري بصورة تامة، فالناس يمتحنون شخصاً أو شيئاً لتوضّح لهم بعض المجهولات، وتبين قيمة وقابلية واستعداد ذلك الشخص أو ذلك الشيء خلال الإمتحان.

لكن الله لا يخفي عليه شيء في جميع عالم الوجود، في الأرض والسماء وما وراء السموات، وفي داخل وخارج الأشياء لكي يعرفه عن طريق الإمتحان.

إذن لم وكيف يمتحن؟!

إنّ للإبتلاء الإلهي صيغة تربوية، إنّ الذهب عندما يلقي في النار فمن أجل تهذيبه وتنقيته من الشوائب أو عندما يُدرب الجنود بالأعمال الشاقة على تمرين المقاومة والإستقامة فمن أجل رفع مستوى لياقتهم البدنية، فالإبتلاء الإلهي مثله مثل هذه الحالات بالضبط. فهي تزيد من تحمّل ومعرفة ونقاء البشر، وبكلمة واحدة، إنّ الإبتلاء وسيلة لتكامل وتربية روح الإنسان وجسمه.

لذا فلا عجب من كون قسم من مصائب ومشاكل الحياة في هذا الصدد من الامتحان والاختبار، (نكرر بأنّ قسماً من المصائب داخله في هذا النوع وليس جميعها).

لا يوجد شعب في العالم تمكن من التقدم والرقى في الميادين الصناعية والعسكرية والعلمية دون أن يتعرض لضغوط معينة، وكما قال الفيلسوف والمفسر التاريخي المعروف (تواين بى):

الحضارات اللامعة التي ظهرت في العالم كان سبب ظهورها هو تعرض شعب لهجوم شديد من قبل عدوٍ خارجي (فاستعمل ذلك الشعب جميع قدراته واستعداداته واستعان بمُدخراته في مواجهته ذلك العدو).

فالقادة الذين يخوضون الحروب يمتازون بالعظمة والقوة والصبر، والتجار الذين يمرون بأزمات اقتصادية شديدة يتعلمون تجارب قيّمة، والسياسيون الذين يجتازون أزمات مختلفة سيكونون أقوياء ومقتردين.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٧٠

وتزداد صلابة الثوريين في السجون وتحت التعذيب، لا نقول بوجوب دخولهم السجن، بل نقول بأن السجن يزيدهم قوة وصلابة. أعتقد بأن علاقة مشاكل ومصائب الحياة مع تربية وتكامل الإنسان قد اتضحت بهذه الأمثلة والتحليلات، وطبعاً لا ينبغي هنا حساب (المصائب الذاتية)، وما ذكرناه لم يكن عُذراً من أجل ترك مواجهته المشاكل والمصائب.

القرآن والابتلاءات العصبية:

نعود الآن إلى القرآن الكريم مرة أخرى لنرى ما لهذه المسألة من أصداء في الآيات القرآنية:

١- «وَلَبَلُّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ». (الأنبياء / ٣٥)

إنّ كلمتي (الشر) و (الخير) هنا ذواتا معنى واسع يشمل أنواع المصائب والأمراض والمشاكل والابتلاء والفقر والفاقة، وكذا أنواع الإنتصارات والصحة والعافية والغنى وما شاكل ذلك.

ويجدر الالتفات إلى تقدم ذكر (الشر) على (الخير) في الموارد الامتحانية التي يواجهها الإنسان، لأنّ الإمتحان بالبلاء أصعب وأعقد (ينبغي الانتباه إلى أنّ هذه الشرور ذات صيغة نسبية).

وجملة (ولينا ترجعون) المذكورة في ذيل الآية تُعد إشارة لطيفة إلى حقيقة كون الدنيا دار ابتلاء واختبار لا دار مقرٍ وخلود.

وعلى أية حال تُعد الآية دليلاً واضحاً على كون قسم من المصائب والآلام ذات صبغة ابتلاء وامتحان لتمحّص صبر الإنسان، كما هو الحال في كون قسم من النعم امتحانية أيضاً لمعرفة مقدار شكره إزاء النعم الإلهية.

٢- «وَلَبَلُّوْكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٧١

الصَّابِرِينَ». (البقرة/ ١٥٥)

ذكرت هذه الآية خمسة أنواع من مصائب ومشاكل الحياة كخمس موادّ من مواد الامتحان الإلهي، ففي المقدمة يأتي (الخوف)، والذي هو أهم من الجميع، ثم (الجوع): ثم (نقص من الأموال) ثم (الأنفس) ثم (الثمرات).

ويجدر التذكير إلى كون ذيل الآية يدل على أنّ هذا الابتلاء يرفع من مستوى قوة مقاومة تحمّل الإنسان، ويزيده صلابةً وهو يمرّ بهذه الحالات العصبية (يجدر الانتباه إلى أنّ تعبير (نقص الثمرات) قد فسّر بمعنى فقد الأولاد الذين هم ثمرات قلب الإنسان، ويمكن أن يكون ذا تفسيرٍ واسع يشمل كلا المعنيين، وكذلك فسّر (نقص الأنفس) بمعنى المرض أيضاً).

وفي الحقيقة إنّ من أهم مواهب الحياة هي: الأيمن والأنفس والأموال ومنابع الإنتاج، واللّه سبحانه وتعالى يمتحن الإنسان بواسطة الآفات التي تُصيب هذه الأمور ليتضح مقدار صبره وتحمله.

والتعبير بكلمة (شيء) يُعدّ شاهداً حياً على هذا المعنى وهو عدم كون جميع حالات الخوف والجوع ونقص الأنفس ذات صيغة

إمتحانية إلهية، بل إنّ قسماً منها فقط من هذا النوع، ومن المسلم به أنّ الابتلاء لا يشمل أبداً المصائب الذاتية والناشئة من الجهل والتفاعس والتهاون، وهذه الآية يجب أن لا يتخذها البعض حجةً لترك الجهاد والسعى، والتوجّه إلى الكسل والخمول.

٣- «وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ». (الفجر / ١٦)

من المسلم به أنّ هذه الآية تخص الذين يُبدون ضعفاً وخمولاً في ساحة الإمتحان وبمستوى من ضيق التحمل، بحيث إذا نزلت عليهم نعمة أصابهم الغرور، وبمجرد أن تصيبهم مصيبة معينة يأخذهم اليأس والقنوط، ولكن على أيّ حال، تعتبر هذه الآية دليلاً واضحاً على كون قسم من مشاكل الحياة ذات فلسفة إمتحانية.

٤- «هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا». (الأحزاب / ١١)

تشير هذه الآية إلى واقعة الأحزاب التي كانت واحدةً من أعظم ميادين الإمتحان الإلهي

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٧٢

لمسلمي صدر الإسلام، ففي ذلك اليوم الذي هجم جيش الأحزاب الجزار على المدينة من الأعلى والأسفل، وحاصر جمع المسلمين القليلين عدداً، وزاد الطين بله إشاعات منافقة الداخل، فتعقدت الأمور من كل ناحية، إلى الحد الذي قال القرآن في وصفه: «وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ». (الأحزاب / ١٠)

يقول القرآن: إنّ هذه المصيبة والعاصفة الشديدة التي زلزلت جماعة من المؤمنين كانت مظهراً من الإمتحان الإلهي...، وهذه الآية تأكيد آخر على ما ذكرناه.

يلاحظ في الروايات الإسلامية أيضاً وجود إشارات واضحة إلى هذه الحقيقة، وهي كون قسم من المصائب والبلايا ذات صيغة إمتحانية:

١- ورد في الحديث الذي نقلناه سابقاً بمناسبة أخرى عن علي عليه السلام: «إنّ البلاء للظالم أدب، وللمؤمن امتحان» (١).

٢- قال الإمام علي عليه السلام في إحدى خطبه في وصف الأنبياء: «قد اختبرهم الله بالمخمصه وابتلاهم بالمجهدّة وامتحنهم بالمخاوف، ومحضهم بالمكاره» (٢).

٣- وذكر عليه السلام من قبيل هذا الكلام بالنسبة لعامة الناس بتعابير أخرى في نفس الخطبة:

«ولكن الله يختبر عباده بأنواع الشدائد ويتعبدهم بأنواع المجاهد ويبتليهم بضروب المكاره» (٣).

(١) بحار الأنوار، ج ٦٤، ص ٢٣٥، ح ٥٤.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢ (القاصعة).

(٣) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٧٣

٦- معرفة النعم في المصائب

لا يمكن لأحد أن ينكر هذه الحقيقة، وهي عدم معرفة الإنسان قيمة النعمة عندما يكون غارقاً فيها، ولا يلتذ بها، ولا يؤدي شكرها، وأحياناً قد لا ينتبه إلى أصل وجودها!

فلو لم يمرض الإنسان أبداً لما عرف نعمة السلامة بكل مالها من أهميته وعظمته، وكموهبة إلهية عظيمة.

ولو لم تهترّ الأرض أحياناً لما عُرف قدر هذا السكون العجيب الذي يسودها طيلة السنة ويدور في ظلّه كل شيء حول محوره.

ولا تعرف حقيقة الظلمة والنور إلا إلى جنب بعضهما، وإن لم تهيج عواصف الحوادث بحر افكار الإنسان أحياناً لما فهم قدر ساعات الهدوء والسكون.

أو بتعبير أدق إن بعض المشاكل بمثابة ظل نور الحياة الذي لا يمكن للإنسان أن يرى شيئاً بدونه، يقول العلماء اليوم: بأنه (لو وُضِعَ جسمٌ كروئى وسلطَ عليه نورٌ متساوٍ من جميع الجهات لما أمكن رؤيته!):

إنّ وعورة سطح الجسم واختلاف زوايا انعكاس النور هي التي تُمكن الإنسان من رؤية الجسم، وكذا النعم الإلهية بالضبط، فلو كانت على وتيرة واحدة وبصورة دائمية لما أمكن معرفتها.

ومن حيث كون الله قد خلق هذه المواهب العظيمة متاعاً للإنسان من جهة، ووسيلةً للتقرب إليه من جهةٍ أخرى (عن طريق شكر النعمة)، فمن المنطقي جداً أن يقبضها ويبسطها أحياناً ليتحقق الهدفان أعلاه.

ويلاحظ وجود إشارات ظريفة وغنية في الآيات القرآنية إلى هذه الحقيقة - ولو بصورة غير صريحة - والتي تُبين قدر النعم بالقياس مع لحظات سلبها، ومن جملتها:

١- «قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِّنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ». (الأنعام / ٦٣)

أجل، لم يكن هؤلاء ليعرفوا قدر النور والأمن قبل أن يُبتلوا بظلمات البر والبحر

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٧٤

الرهيبه، ولكنهم عندما يُشَلَبون هذه النعمة سيذكرون مُبدئها ويعلنون عن إستعدادهم للشكر.

٢- «وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَّسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورًا». (هود / ١٠)

وتأكيد القرآن على إذاقه النعماء بعد الضراء هدفه تبيان قدر النعمة بصورة جيدة ليرفع بالعباد إلى الشكر، ولو أنّ جماعة من المغرورين والمُعجبين بأنفسهم فسروه بشكل آخر.

٣- «وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا». (آل عمران / ١٠٣)

إنّ القرآن الكريم ومن أجل أن يُبين في هذه الآية قدر نعمة الإتحاد وتأليف القلوب قارنها بالوقت الذي كانت هذه النعمة مسلوقة نهائياً، وعندما كانت نار الفرقة والنفاق تلتهم كل شىء، وذكر المسلمين بمعرفة هاتين الحالتين بالقياس إلى بعضهما ليعرفوا قدر هذه النعمة الإلهية الحقيقي.

ويلاحظ وجود بعض الإشارات إلى هذا القسم من المصائب والآلام في الروايات الإسلامية أيضاً، ومن جملتها: ماورد في حديث المفصل عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إنّ هذه الآفات وإن كانت تنال الصالح والطالح جميعاً، فإنّ الله جعل ذلك صلاحاً للصنفين كليهما، أما الصالحون فإنّ الذي يُصيبهم من هذا يرُدُّهم (يذكّرهم) نعم ربهم عندهم في سالف أيامهم، فيحدوهم ذلك على الشكر والصبر، وأما الطالحون فإنّ مثل هذا إذا نالهم كسر شرتهم وردعهم عن المعاصي والفواحش» (١).

٧- موقع الخير والشّر في عالم الوجود

إشارة

ذكرنا فيما مضى أن من جملة المسائل التي أوجدت التشكيك في مسألة عدالة الخالق

(١) بحار الأنوار، ج ٣، ص ١٣٩.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٧٥

إزاء إشكال البعض هي التركيب الثنائي للعالم من (الخير) و (الشر)، بحيث يتعدى الإشكال أحياناً إلى أبعد من مسألة العدالة ليلبغ حد التشكيك في أصل وجود الخالق.

تعد هذه المسألة من المباحث الفلسفية والكلامية التي توحى للإنسان بنوع من الظلمة والإبهام عندما يدخلها، لكنه كلما تعمق فيها بتأنٍ، ودقق أكثر في تحليلها، ظهرت أمامه آفاق جديدة واضحة، إلى أن يُحسَّ في قلبه بالسكينة اللازمة، بعدما يحصل على الحل النهائي لمسألة الخير والشر.

وبهذه المناسبة ولحل هذه القضية، نجد من الضروري الالتفات إلى النقاط الموجزة التالية:

١- ما معنى الخير والشر؟

(الخير) هو كل ما يتناغم مع وجودنا ويُسبب تكامله وتقدمه، و (الشر) هو كل ما لا يتناغم معه، ويُسبب الانحطاط والتخلف، ومن هنا يتضح جيداً بأن الخير والشر ذوا صبغة نسبية، فيمكن أن يكون أمرٌ ما خيراً لنا وشرّاً للآخرين، أو خيراً لجميع الناس، وشرّاً بالنسبة لنوع من الحيوانات.

كأن تظهر في السماء غيومٌ، فتمطر السماء، وتنمو مزارعٌ وتتلقح أشجارٌ معينة، ولكن نفس هذه الأمطار تُسبب سيلاً في نقطةٍ أخرى وتؤدي إلى الدمار، أو يتهدم عش طائرٍ بقطرات بسيطة من المطر، في حين أنها تُلطف لنا الجو. فكل جماعة هنا تنظر إلى هذه الظاهرة بمقياس وجودها ومنافعها الخاصة، وتسميها خيراً أو شرّاً. فإبرة الحشرات، ومخالب وقواطع الحيوانات المفترسة خيرٌ بالنسبة لها لأنها وسيلة دفاعية أو للحصول على الصيد والغذاء، ولكن قد تكون شرّاً بالنسبة لنا نحن البشر.

من هذا البيان يُمكن الاستنتاج جيداً أنه ليس من السهل الحكم على كون الحادثة المعينة شرّاً، فيجب أن نأخذ بنظر الاعتبار مجموع آثارها في مجموع المحيطات، بل في

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٧٦

مجموع الأزمنة من الحال والمستقبل، أو جذورها الماضية، لكي نتمكن من القول: إن أضرارها أكثر من منافعها مثلاً ويجب التصديق بأن هذا الحكم ليس سهلاً.

ومن جهةٍ أخرى يُمكن تقسيم الخير والشر إلى مايلي:

(أ) الخير المطلق. (ب) الشر المطلق. (ج) الخير والشر النسبيان.

الخير المطلق: هو الخير الخالي من أي صفة سلبية، وضده الشر المطلق الذي ليس له أي صفة إيجابية، ونادراً ما يوجد مصداق لهذين النوعين، فغالباً ما نواجه أشياء أو حوادث أو ظواهر مركبة من صيغ إيجابية وسلبية، فما فيها صفحات إيجابية أكثر تُسمى خيراً، وما فيها حالات سلبية أكثر تُسمى شرّاً، وإذا تعادلت حالات الخير والشر فيها فهي لا خير ولا شر.

طبعاً يجب الالتفات إلى أن حالات الخير والشر متفاوتة بين الأفراد والأقوام، والمهم هو وجوب الأخذ بنظر الاعتبار في الحكم النهائي مجموع آثار تلك الظاهرة في جميع العالم وفي جميع الأزمنة والأمكنة.

ومن وجهة نظر المؤمن يُمكن وجود قسمين فقط من هذه الأقسام (الخير المحض) أو (الأكثر خيراً) أو (الشر المحض) أو (الأكثر شرّاً) أو (ما تساوى خيره وشره) فيستحيل وجودها، نظراً لكون الله تعالى حكيم لأن صدور هذه الأقسام الثلاثة من (الحكيم المطلق) قبيح وغير مُمكن.

٢- هل للشرور حالة عدمية؟

عُرِف بين الفلاسفة والعلماء أن (الشَّر) يعود في النهاية إلى (أمرٍ عدمي)، (أو إلى أمرٍ وجودي يؤدي إلى العدم)، ولعل أول من صرَّح بهذا الرأي هو (أفلاطون) والذي وصف الشَّر بالعدم.

وعليه فضده، أي الخير، لا يحكى إلّا عن الوجود، وكلما كان الوجود أوسع وأكمل كان

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٧٧

منبعاً لخيرٍ أكثر، إلى أن يصل إلى الوجود الإلهي المطلق اللامحدود الذي هو عين الخير المحض، ومصدر جميع الخيرات والبركات. وعادةً ما يلتجئون إلى هذا المثال البسيط لتوضيح عدمية الشَّر وهو: أننا نقول: (ذبح إنسانٍ برىء شراً)، ولكن لنرى ما هو الشر هنا؟ هل هو قوة ذراع القاتل، أم قاطعية السكين وجودة عملها، أم تأثر رقبة المقتول وظرافتها التي يستطيع الإنسان بواسطتها ممارسة كل أنواع الحركة (حركات الرقبة)؟ فمن المسلم به أن أياً من هذه الأمور ليست بشرٌ ونقص، فالشَّر هنا هو انفصال أجزاء الرقبة والأوداج والعظام عن بعضها، ونحن نعلم بأنّ الانفصال ليس إلّا أمراً عدمياً.

وكذا قد يؤدي أمر وجودي أحياناً - كغذاءٍ مسموم - إلى الموت، الذي هو أمر عدمي، لذا فهو شر، أو يؤدي مكروب معين، الذي هو أمر وجودي، إلى الإصابة بمرض معين، ونحن نعلم بأنّ الموت ليس سوى انعدام الحياة، والمرض ليس إلّا فقد السلامة.

ومن هنا يتضح للجميع جواب هذا السؤال وهو: (من خلق الشرور)؟

لأنه عندما تكون الشرور أموراً عدمية لا يصح أساساً تصوّر وجودها أو موجدتها.

نعم، يُمكن أحياناً أن تكون الأمور المسببة للعدم أموراً وجودية (كالغذاء المسموم)، ولكن وكما قلنا لو تساوى خيرا وشرها أو غلب شرها أو كان شرها مطلقاً فإنه لا يُمكن أن تلبس خلعة الوجود.

ويجدر التركيز في هذه النقطة أيضاً وهي: تساوى (الشر المطلق) مع (العدم المطلق) الذي ليس له وجود خارجي بتاتاً، لأنّ العدم المطلق نقيض الوجود.

أمّا (الشر النسبي) (الشيء الذي يُعد خيراً من جهةٍ وشراً من جهةٍ ثانية) فله حصّة من الوجود طبعاً، أو بتعبيرٍ آخر: فهو خليط من الوجود والعدم، ولكن كما قلنا فإنّ قسماً واحداً من الشَّر النسبي يتماشى مع حكمه الله وهو الشيء الذي تغلب عليه حالة الخير، (تأمل جيداً).

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٧٨

٣- الخيرات التي تأتي من الشرور

نظراً لنسبية الخير والشَّر، والتأثير المتقابل للأشياء في بعضها الآخر: كثيراً ما يتفق أن تصير الحوادث والظواهر التي تُعدُّ شروراً في الظاهر منبعاً لخيرات وبركاتٍ مختلفة.

فكثير من حالات الحرمان تصير سبباً في تفتح الاستعدادات والجهود العظيمة، لأنّ الإنسان على أيّة حال ينتفض ويُجنّد جميع ما يمتلكه في باطن وجوده للحصول على ما يصبوا إليه، وهذه المسألة بالذات ستصير سبباً في القفزات العلمية والاجتماعية.

وكثير من حالات الحرمان صارت سبباً للوصول إلى اختراعات كبيرة، وكثير من حالات النقصان صارت مقدمة للتوصل إلى منابع مهمة جديدة.

فالأشجار التي تنمو في المناطق الصخرية، والنباتات البرية التي تنمو بالرغم من افتقارها لكثير من مسببات النمو، فهي أصلب عوداً، وأقوى وقوداً من النباتات التي تنمو على ضفاف الأنهار بعدة أضعاف، والبشر يخضعون لهذا القانون أيضاً.

والبدو الذين يواجهون أنواع المشاكل دائماً، ويصارعون أنواع الحيوانات الوحشية، يتصفون بالشجاعة والقوة وشدة التحمل، في حين نجد سكان المدن الذين يتمتعون بالتعم الوفيرة والأمان نجدهم ضعفاء بالقياس إلى البدو.

وللقرآن الكريم بيان لطيف في هذا الخصوص حيث يقول: «فإنّ مع العسر يُسراً* إنَّ مع العسر يُسراً». (ألم الشرح / ٥- ٦)

يجدر الإشارة إلى أن تلازم هذين الأمرين بدرجة من القوّة والقرب بحيث وكأنهما متجاوران، كما يُستنتج من كلمة (مع). وهذه المسألة أيضاً جديرة بالانتباه وهي كون (العسر) معرّفاً بالف لام التعريف، وتعبير (يسر) مذكور بصيغة النكرة، والمقصود منه تبيان العظمة أي مع العسر يسراً عظيم.

يعتقد بعض المؤرخين بأن سبل المشاكل كان من أحد العوامل المهمة لتقدّم المسلمين الأوائل السريع، حيث ترعرع المسلمون في وسط تلك المشاكل، وصاروا في ظلّها مجاهدين أقوياء ومقتردين، في حين كان من أحد عوامل تراجع وتخلف المسلمين في نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٧٩

القرون المتأخرة هو العيش المرّفه، والتلذذ بأنواع النعم، والركون إلى الدعة. ونختتم هذا الكلام بعدة جملٍ مقتطفة من آراء العلماء العظام حول هذا الأمر. يقول أحد الكتاب الغربيين: «لا اعتقد بوجود تحمل كل فرد لمصيبة معينة، ولكن أعلم بكون المصيبة مفيدة في الغالب بل ضرورية، ولكن شريطة أن يُتقن كل فرد كيفية مواجهته المشاكل، وأن يعتبر هذا العمل من الأعمال الأساسية والمفيدة» (١). وهذا التعبير دقيق جداً، وهو عدم لزوم استقبال الإنسان للمصائب، أو الجلوس إزاءها مكتوف اليدين، وعدم مكافحة عوامل المصيبة، ولكن مع هذا يجب عدم نسيان إمكانية تحويل قسم من المصائب اللا إراديه، التي نعجز عن مواجهتها، إلى عوامل بناءة في حياتنا. يقول الفيلسوف والطبيب الفرنسي المعروف (ألكيس كارل) في كتابه (الإنسان ذلك المجهول): «غالباً ما ينزوي أبناء الأثرياء، الذين قضوا عمراً بالثروة والنعمة وكانوا مقتردين في كل الجوانب، عن العمل اتكالياً على ثروة آبائهم، ويخلقون في أنفسهم أسباب الضعف وسحق قواهم واستعداداتهم الخلاقه» (٢).

وبالعكس فهناك كثير من الذين يتعرّعون أبناءهم وسط خضم من المشاكل، فإنهم يحققون انتصارات ملحوظة ونجاحاً كبيراً. نختتم هذا الكلام بكلام أمير المؤمنين على عليه السلام. قال عليه السلام في الكتاب الخامس والأربعين من نهج البلاغه في الإجابة عن سؤالٍ وجه إليه وهو: كيفية قدرته عليه السلام على مبارزة شجعان العرب بالرغم من تناوله أغذية بسيطة جداً؟! «ألا وإن الشجرة البرية أصلب عوداً، والرواح الخضرة أرقّ جلوداً، والنباتات العزّية أقوى وقوداً وأبطأ خموداً».

٤- الخير والشر في القرآن الكريم

للخير والشر معنى واسع في القرآن الكريم يشمل مصاديق متنوعة وأفراداً متفاوتين.

(١) سرّ النجاح.

(٢) الإنسان ذلك المجهول، ص ١٥٢.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٨٠

ورد الخير في القرآن بمعنى (المال) (البقرة / ١٨٠) وبمعنى (العلم) (البقرة / ٢٦٩)، وبمعنى (الجهاد) (النساء / ١٩)، وبمعنى (الأعمال الصالحة) (النساء / ١٤٩)، وبمعنى (الإيمان) (الأنفال / ٢٣)، وبمعنى (القرآن) (النحل / ٣٠).

وبمعانٍ أخرى أيضاً مثل (الناس الأخيار)، (الظن الحسن) (الولد الصالح)، (البستان والزرع) وما شاكل ذلك.

ويجدر الالتفات إلى أنّ هذه الكلمة قد ذُكرت في القرآن ١٧٦ مرّة بصيغة المفرد و ١٢ مرّة بصيغة الجمع، في حين نجد أنّ الشر مذکور ٣٠ مرّة فقط بصيغتي المفرد والجمع!

وكلمة (شر) المضادة لكلمة (خير) وردت بمعنى البلاء والمصيبة، العذاب، أنواع المكارّه والشدائد، وجميع أنواع الوسوسة والفساد.

والمسألة الأخرى التي يلزم الالتفات إليها هي أن القرآن قد اعتبر (الشّر) من مخلوقات الله في قوله تعالى «مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ». (العلق / ٢) ويتبادر إلى الأذهان هنا سؤالان:

الأول: كيف يتناسب هذا التعبير مع عدمية الشرور؟

والثاني: قول القرآن في آية أخرى: «الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ». (السجدة / ٧)

فكيف تتناسب هاتان الآيتان مع بعضهما؟ وبتعبير آخر: يظهر من الآية الثانية أن كل ما في الوجود ويصدق عليه تعبير (شئ) ومن مخلوقات الله فهو حسن، في حين أن الآية الأولى تأمر بالاستعاذة من (شر ما خلق).

وفي الإجابة عن السؤال الأول يجب القول: إن الآية المذكورة لم تعتبر أي مخلوق شرّاً، بل تقول بإمكانية صيرورة بعض المخلوقات سبباً للشّر، أي بأن تعدم كمالاً، أو تغضب حقاً، أو تُبعثر نظاماً معيناً، لذا يبقى الشّر بنفس مفهومه العدمي الذي يُمكن أن يتحقق من قبل الناس الأشرار أو الشياطين. (تأمل جيداً).

ويُحتمل أيضاً أن يكون قصد الآية هو الشّر النسبي لا المطلق، أو الشّر الغالب كأنياب الأفعى التي هي وسيلة دفاعية بالنسبة لها، ووسيلة شر بالنسبة للإنسان (أحياناً)، فالإنسان يعوذ بالله من قبيل هذه الموجودات.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٨١

وقد فسّر بعض المفسرين (الشّر) هنا بمعنى: الشياطين أو جهنّم، أو أنواع الحيوانات المؤذية، أو الناس والشياطين الأشرار، وأنواع الأمراض والآلام والمتاعب والقحط والبلايا.

ولكن كما ذكرنا فإن الآية ذات مفهوم عام، ونحن نعلم بأن أي واحدة من هذه الأمور ليست شرّاً مطلقاً أو شرّاً غالباً، كما شرحنا ذلك في البحوث السابقة، ولكن يُمكن أن تصير سبباً للشّر، فيعوذ الإنسان بالله من شرّها.

ومن هنا يتضح جواب السؤال الثاني أيضاً وهو أن جميع ما خلق البارئ سبحانه خيراً، «إما مطلقاً أو غالباً»، وما نُسميه نحن بالشّر إما هو ذو صبغة عدمية لا يسعه مفهوم الخلق، وإما ذو صبغة نسبية أو من الأمور الوجودية التي تُسبب العدم، كالسموم القاتلة التي لها استعمالات طيبة كثيرة أيضاً في نفس الوقت.

وبهذا تتضح جميع التعابير القرآنية في الخير والشّر، ويتضح ردّ الإشكالات الأخرى المختلفة المطروحة في هذا المجال، ومن جملتها الإشكالات التي نقلها الفخر الرازي عن بعض الملحدين والماديين وتركها دون جواب.

٥- الخير والشّر في الروايات الإسلامية

وردت هاتان الكلمتان في الروايات الإسلامية الواردة عن الرسول صلى الله عليه وآله، والأئمّة المعصومين عليه السلام، بشكل واسع وفي صيغ مختلفة.

ما يتناسب مع موضوع بحثنا أولاً هو تصريح الكثير من الروايات بكون الخير والشر مخلوقين إلهيين، من جملتها:

ورد عن الإمام الباقر، عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا، خَالِقُ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَهُمَا خَلْقَانِ مِنْ خَلْقِي ...» «١».

وقد ورد نفس هذا المعنى في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام، حيث قال: «إِنِّي أَنَا

(١) بحار الانوار، ج ٥، ص ١٦٠، ح ٢٠.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٨٢

اللّه لا إله إلا أنا، خلقت الخلق، وخلقت الخير وأجرته على يدي من أحبّ، فطوبى لمن أجرته على يديه، وأنا الله لا إله إلا أنا، خلقت الخلق وخلقت الشّر وأجرته على يدي من أريده، فويل لمن أجرته على يديه» «١».

وعن الإمام الصادق عليه السلام، أيضاً: «الخير والشر كُلُّهُ من الله» (٢).

وهناك أحاديث عديدة أخرى في المصادر الإسلامية، وذكرها بأجمعها يخرجنا عن صلب الموضوع (٣).

وقد طرحت أسئلة مختلفة بصدده هذه الأحاديث أهمها السؤال التالي:

أولاً: إذا كان الشر أمراً عديمياً فكيف عبّر عنه بالخلق هنا؟

يُمكن العثور على جواب هذا السؤال في البحوث السابقة، وهو كثيراً ما يحدث أن تُطلق لفظه الشر على الأمور الوجودية التي تُسبب العدم، كأنواع المكروبات والمواد السامة والأسلحة المخزبة والتي تعتبر جميعها أموراً وجودية لكنها مصدر «الأمراض» و «الموت» و «الخراب»، التي هي أمور عديمية، «دقق جيداً».

علاوة على هذا فإنه يُحتمل أن يكون التعبير الوارد يشير إلى الشرور النسبية ذات الصبغة الوجودية والتي يغلب خيرها على الرغم من تركها آثاراً سلبية لبعض الأفراد.

يقول العلامة المرحوم المجلسي (رضوان الله تعالى عليه) في «مرآة العقول» عن المحقق الشيخ الطوسي، في شرح أمثال هذه الروايات: المقصود من الشر هو الأمور التي لا تناسب طبع الإنسان على الرغم من وجود مصلحة معينة فيها. ثم أضاف في توضيحه عن كلام المحقق: «للشر معنيان».

١- الشيء الذي يخالف الطبع ولا يتناسب معه كالحوانات المؤذية.

٢- الشيء المؤدى إلى الفساد وليس فيه مصلحة ما.

وما يُنفى عن الله سبحانه هو الشر بالمعنى الثاني لا الأول، ثم أضاف قائلاً: يعتقد

(١) اصول الكافي، ج ١، ص ١٥٤، باب الخير والشر، ح ١.

(٢) بحار الانوار، ج ٥، ص ١٦١، ح ٢١.

(٣) لزيادة الإطلاع راجع المجلد الأول من اصول الكافي: باب الخير والشر، والمجلد الثاني من كتاب الدعاء: باب ما يمجد به الرب، الحديث الأول والثاني، ص ٥١٥ و ٥١٦، وبحار الانوار، ج ٥، باب السعادة والشقاوة.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٨٣

الفلاسفة بأن الأمور على خمسة أنواع: الأشياء التامة الخير والتي يُستلزم صدورها من الله عزوجل، والأشياء التامة الشر التي يستحيل صدورها من الله عزوجل، والأشياء التي يغلب خيرها وهي ضرورية الصدور من الله أيضاً، والأشياء الغالبة الشر أو التي تساوى خيرها وشرها، فكلاهما لا يصدران من الله تعالى وما نراه من الحيوانات المؤذية في عالما فإن فوائده الوجودية أكثر من شره، «ولذلك خُلقوا» (١).

. لذا يُحتمل أن يكون المقصود من خلق الشر من قبل الله تعالى هو الأمور التي فيها نسبة من الشر، لكن خيرها غالب في المجموع. والسؤال الآخر المطروح بصدده هذه الرواية هو: أن الرواية تقول بأن الله يجري الخير والشر على يد فئات مُختلفة من الناس، أفلا تُعطى هذه المسألة راحة الجبر؟ وكيف يمكن للخالق الحكيم أن يجعل أفراداً وسيلة للشر والفساد؟ والجواب على هذا السؤال أيضاً، بالنظر لما مضى سابقاً، ليس بأمر مُعقّد، لأن هذه التعابير تُشير إلى التوحيد الأفعالي الإلهي، أي أن ذاته منتهى كل شيء ولكن الله قد منح الإنسان حرية الإرادة وخيارها ومكّنه من أسباب الخير والشر والصلاح والفساد ليتلوه، فالبشر هم الذين يُصمّمون التصميم النهائي في انتخاب نوع الطريق، ونوع البرنامج السلوكي، ومُسَلِّماً أن الله يجري أنواع الخير على يد الذين ينتهجون طريق الإيمان والعمل الصالح.

ومن هنا يتضح تفسير الآيات التي تقول: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ». (الزلزال / ٧-٨)

وخلاصة الكلام هو أن الشر بمفهومه العدمي ليس بمخلوق إلهي، وما هو مخلوق شيان:

١- الأمور الوجودية الأصل لكنها أسباب الأمور العدمية، وقد ذكرنا أمثلتها.

٢- الأمور التي خيرها يغلب شرّها، أو بتعبير آخر شرها نسبي، كالكثير من سموم الحيوانات التي تؤدي إلى موت وهلاك الإنسان في حالات معينة، لكنها وكما نعلم مادة صناعة الكثير من العقاقير الشافية من جهة أخرى، ويوجد في مراكز صناعة الأدوية أقسام لحفظ الثعابين الخطرة وذلك للاستفادة من سمومها، علاوة على هذا فإن أنياب وسم هذه

(١) مرآة العقول، ج ٢، ص ١٧١، باب الخير والشر، ح ١.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٨٤

الحيوانات هي وسيلتها الدفاعية لمواجهة الأعداء، أو جمع الغذاء من أجل البقاء.

وكذا المكروبات المعروفة بالشر هي أمور وجودية، فبالإضافة إلى آثارها السلبية فإن لها آثاراً إيجابية أيضاً، وتعمل الكثير من هذه الموجودات المجهزية على تفسيح أجساد الموتى وجثث الحيوانات، ولولاها لما مضت إلامدة وجيزة حتى تمتلىء الأرض بالأجساد المتعفنة وتلوث بسببها، ولحلّ الدمار الشديد بالبيئة الإنسانية.

وأيضاً تعمل مجموعته منها على إحداث افعال وانفعالات معينة داخل التربة لتهيئها للزرع.

وحتى المكروبات المؤذية المسببة للأمراض فإن هجماتها المستمرة على بدن الإنسان، عن طريق الغذاء والماء والهواء، تُنشط جميع خلاياه وتجعلها في حالة دفاعية دائماً وتكون سبباً في اقتدارها، إلى الدرجة التي يعتقد البعض بأنه لو لم تكن هذه المكروبات الهجومية لكان بدن الإنسان ضعيفاً جداً وكان أطول إنسان لا يتجاوز طول قامته الثمانين سنتماً!

والسؤال الأخير المطروح بصدد خلق الشر هو: لم لا تنحصر مخلوقات الله بالخير المحض؟ وتوجد أشياء غالبه الخير، فمثلاً نجد أن النار مادة حارقة ينتج منها الكثير من شؤون الحضارة الإنسانية، والمواد الحياتية والأشياء المفيدة، لكنها أحياناً قد تُحرق أفراداً، أو تحول بيتاً بأكمله إلى رماد بسبب سوء استخدامها.

ولكن يجب الإنتباه في مثل هذه الموارد إلى أنها لو جردت عن صيغته الشر فقدت محتواها، أي أن لا يخلق الله ناراً، لأن النار التي تُحرق أحياناً ولا تُحرق أحياناً أخرى ليست بنار.

وبتعبير آخر: يحتوى عالم المادة بطبيعته على مثل هذه النقائص إلى جنب كمالاته، وإذا كان من المقرر حذف هذه النقائص لصار معناه نقض خلق عالم المادة أساساً، «أي أن لا يُخلَق»، في حين أنه ذو خيرٍ غالب وكمال نسبي، وخلق عين الحكمة (تأمل جيداً).

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٨٥

«سؤالان مهمان عن العدل الإلهي»

في نهاية هذه المباحث بقي هنالك سؤالان جديران بالاهتمام والإلتفات:

١- لماذا طرَحَ العدل كواحد من أصول الدين؟

كما نعلم ووفق تقسيم الصفات الإلهية، تقع صفة العدل في قسم الصفات الفعلية، وتعتبر واحدة منها، لأنها صفة للفعل الإلهي، ويخطر هنا السؤال الثاني: لأي الخصوصيات فصلت هذه الصفة عن سائر الصفات، وأخذت مكانها كأصل مُستقل من أصول الدين الخمسة؛ وأحياناً توصف مع، «الإمامة»، كأصلين خاصين في المذهب الشيعي؟

للإجابة عن هذا السؤال يجب الإلتفات إلى عدّة أمور:

١- الظرف الزماني لهذه المسألة، التي مرّت علينا في بداية البحوث من ناحية أصل ظهورها التاريخي هي من أوضح أسباب انفصال

هذه الصفة عن بقية الصفات الإلهية.

لأنه كما ذكرنا فقد شهد القرن الأول الهجري نزاعاً شديداً بين علماء العقائد الإسلامية، حيث كان في أحد طرفيه جماعة الأشاعرة الذين كانوا يعتقدون بعدم إمكانية وصف الأفعال الإلهية بالعدل والظلم، فهي فوق هذه الأمور، وكل ما يصدر من الله هو عين العدل، حتى وإن أدخل جميع الأنبياء في النار، وجميع الأشقياء في الجنة؛ وكان طرفه الآخر جماعة الشيعة وجماعة المعتزلة، «جماعة كانت تعتبر العقل كأحد المصادر الإسلامية»، الذين كانوا يقولون ويعتقدون بحكمة الله وعدله وعدم صدور شيء منه خلاف ذلك، فلن يثيب الظالم ولن يعاقب المظلوم، وعقلنا يدرك الحسن والقيح بمقدار واسع، ولا يصدر من الله العادل والحكيم إلا الفعل الحسن. وكما لاحظنا فإن كثيراً من الآيات القرآنية أيدت هذه الحقيقة أيضاً.

وأدى هذا الاختلاف إلى ظهور جماعة عُرفت باسم «العدلية»، وعُرف أصل العدل، وأصل الإمامة كأصلين خاصين في المذهب الشيعي.

٢- علاوة على هذا، فإن الكثير من صفات الفعل الإلهي تعود بالحقيقة إلى أصل العدل،

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٨٦

فمثلاً حكمه الله ورازقته ورحمانيته ورحميته جميعاً واقعة في ظل عدالته، وبالأساس إن العدالة بمفهومها الحقيقي الواسع، أي وضع كل شيء في موضعه المناسب، تشمل جميع الصفات الفعلية، والأهم من الجميع هو أن مسألة «المعاد»، و«مالكية الله ليوم الدين»، تنشأ بالحقيقة من عدالته سبحانه، وهذه الخصوصية تستلزم الإلتفات إلى هذا الأصل بصورة مستقلة.

٣- للعدل مفهوم واسع بحيث يشمل كلاً من العدالة العقائدية، والعدالة الأخلاقية، والعدالة الاجتماعية، وبذلك سينعكس من مسألة العدل الإلهي نورٌ على الملكيات الأخلاقية الإنسانية، وعلى كافة القوانين الاجتماعية، وكم لا توثق بمثل هذا الأصل العقائدي الذي له مثل هذا الانعكاس الواسع أن يُعرف كأحد أركان الإسلام، ولو أننا لم نعثر في المصادر الإسلامية على آية أو رواية تدل بوضوح على صدور هذا الانتخاب من قبل الأئمة المعصومين عليهم السلام، ويبدو انه انتخاب صادرٌ من قبل علماء الكلام والعقائد، ولكن الدافع الأساسي له هو التأكيد والإهتمام الكثير الذي أولته الآيات والروايات لهذه المسألة بشكل كُلي (١).

٢- هل تتعارض هذه الأمور مع العدل الإلهي؟

يلاحظ وجود مواضيع مختلفة في القرآن والروايات الإسلامية تبدو بأنها غير متناغمة مع مسألة العدل الإلهي من الناحية الإسلامية أحياناً، ومن وجهة نظر بعض العلماء أحياناً أخرى، مثل:

١- مسألة الشفاعة.

٢- مسألة الجبر والتفويض.

٣- مسألة القضاء والقدر.

٤- تفاوت تقسيم الأرزاق، ووجود الغنى والفقير معاً في المجتمعات الإنسانية.

(١) ورد تأكيد ضمنى فقط لهذا الكلام في الرواية المنقولة عن الإمام الصادق عليه السلام عندما سأله رجل: «إن أساس الدين التوحيد والعدل» وطلب منه توضيحاً أكثر حول ذلك. (راجع بحار الأنوار، ج ٥، ص ١٧).

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٨٧

ومن المسلم أن لكل واحدة من هذه المسائل من حيث الماهية والمحتوى بحثاً خاصاً ومفصلاً سنتطرق إليها جميعاً في محلها الخاص، ولكن يتوجب هنا فقط أن نبينها من ناحية عدم وجود تضاد فيما بينها وبين مسألة العدل الإلهي.

أما بالنسبة للشفاعة فالذين يعتقدون بأن الشفاعة معناها أن يشفع النبي صلى الله عليه وآله، أو إمام معصوم عليه السلام، أو ملك مقرب في دخول مذنب معين الجنة، في حين من المقرر أن يدخل نظيره في الذنب والظروف النار، يحق لهم أن يعتقدوا بتضاد مثل هذه الشفاعة مع أصل العدل.

ولكن نظراً لكون الشفاعة تخص الذين أبدوا من ناحيتهم لياقة خاصة في هذا المجال، وحازوا على حق شفاعة الشافعين بالأعمال الصالحة، بحيث صار وعد الشفاعة من الناحية العملية درساً تربوياً لإصلاح المذنبين وسوقهم نحو الصراط المستقيم أو مانعاً لهم على الأقل من زيادة التلوث بالذنوب، يتضح جيداً عدم انتفاء مسألة الشفاعة مع عدالة الله وحكمته، بل تؤكد ذلك «١».

وأما مسألة «الجبر والتفويض»، فالذي يتنافى مع العدل هو مسألة «الجبر»، فإما أن نقول بالجبر وننكر العدالة، وإما الاقرار «بالعدل» وترك «الجبر» وكما لاحظتم في البحوث السابقة فقد اضطرّ المعتقدون بالجبر إلى مسألة العدالة، وهذه إحدى أكبر الإشكالات على مذهبهم.

نكرر بأن ليس الهدف هو طرح مسألة الجبر والتفويض ودلائل بطلان الجبر، فلها محل آخر خاص بها، والهدف الوحيد هنا هو النظر إليها بمنظار مسألة العدالة لنرى هل يمكن أن يُجبر أحدٌ على ذنبٍ معين ثم يُعاقب عليه، فمن الواضح أن هذا السؤال يجب عنه بالنفي، وأما بالنسبة إلى مسألة «القضاء والقدر» و «مصير الإنسان» بالشكل الذي سيمر علينا في بحث القضاء والقدر، فإن المفهوم الواقعي والمنطقي «للقضاء والقدر»، ليس بمعنى التقدير المُسبق لمصير الإنسان، من حيث السعادة والشقاء، والطاعة والمعصية، بشكل إجباري

(١) لزيادة الإطلاع راجع التفسير الأمثل، ذيل الآيتين ٤٧ و ٤٨ من سورة البقرة.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٨٨

وحتمى وغير قابل للتغيير، فليست هذه المسألة بأكثر من خرافة، أي حمل بعض الجهلاء مسألة «القضاء والقدر الإلهي»، على هذا المعنى فالقضاء والقدر الإلهي يشير من جهة إلى قانون العلية، أي أن الله قدّر نجاح وتوفيق الساعين العاملين، وأفضل الكسالي والخاملين «ووجود بعض الاستثناءات المحدودة لا تلغى كُليّة هذه المسألة».

وكذا تعلق القضاء والقدر الإلهي بعمل الإنسان بأن يسعد المطيعون، ويشقى العاصون ويهزم الذين يسلكون طريق الفرقة والاختلاف. والقضاء والقدر الإلهي هكذا دائماً، ومن المسلم تناغمه الكامل مع مسألة العدل الإلهي إن فُسّر بهذا الشكل، وإن حملناه على ما فسره بعض الجهلاء فسوف يتنافى مع العدل الإلهي، وليس هنالك طريق لحل هذه المعضلة «١».

وأما مسألة تفاوت الناس من حيث الفقر والغنى فهي أيضاً مسألة من قبيل القضاء والقدر الإلهي المشروط، أي أن الأفراد أو الشعوب المثابرة، المنظمة، والمتحدة أغنى من الأفراد والشعوب الكسولة العديمة النظم والاتحاد عادة، ونحن نلاحظ نماذج عينية لها في مجتمعنا والمجتمعات العالمية، ولا يمكن للموارد الاستثنائية أن تلغى هذا الأصل الكلي.

أجل، فهنالك موارد أيضاً يفرض الفقر فيها على فرد أو مجتمع معين من الخارج، ويؤدى الاستعمار والاستثمار من قبل جماعة إلى فقر واستضعاف جماعة أخرى، وهذه المسألة أيضاً لا تفسح المجال للتشكيك بمسألة العدل الإلهي، فلا ريب في أن الله قد منح الإنسان الحرّية، لأنه تعالى لو لم يفعل لما أمكن سلوك طريق التكامل تحت ظروف الجبر، ولا ريب أيضاً في قيام جماعة باستغلال هذه المسألة بصورة سيئة، وطبعاً سينتصر الله للمظلوم من الظالم، ولكن إذا كان من المقرر أن تؤدى الإستغلالات السيئة إلى سلب الله الناس الحرّية بصورة تامة لتعطلت قافلة السير التكاملي الإنساني، هذا من جهة ومن جهة أخرى، إن سوء استغلال العباد لنعمة الحرية لا تخدش عدالة الله أصلاً «٢».

(١) ولتمام التوضيح حول مسألة القضاء والقدر والمصير راجع كتاب دوافع ظهور المذاهب، ص ١٧-٤١، والتفسير الامثل ذيل الآية ٤٩ من سورة القمر.

(٢) ورد توضيح أكثر حول هذا البحث في نفحات القرآن، ج ٢، ص ٢٩٠-٢٩٤.

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٨٩

آخر الكلام حول مسألة العدل الإلهي: انعكاس العدل الإلهي في «الأخلاق» و «العمل».

فقد أشرنا سابقاً إلى عدم انفصال «المسائل العقائدية» عن «المسائل العلمية» في الإسلام، وإلى كون التفكير بالصفات الإلهية يؤدي إلى تفتُّح بصيرة الإنسان، وربطها بذلك الكمال المطلق، والسعي للتقرب إليه تعالى بالسير الظاهري والباطني، وهذا القرب سيؤدي بالنتيجة إلى تخلق الإنسان بالأخلاق الإلهية، وانعكاس صفاته تعالى في أخلاقه واعماله.

لذا فكلما تقرب الإنسان إليه أكثر، تأصلت هذه الصفات فيه أكثر، لا سيما في مسألة العدل الإلهي، «سواءً أفشّرنا العدالة بمفهومها الواسع أي وضع كل شيء في محله المناسب، أم بمعنى أداء الحقوق ومحاربة كل ألوان التبعيض والإجحاف»، فهذه العقيدة تترك أثراً في الفرد المسلم والمجتمعات الإسلامية، وتدعوهم نحو إدارة الأعمال بصورة صحيحة، ورفع راية العدل ليس فقط في المجتمعات الإسلامية، بل في العالم أجمع.

ومسألة العدالة في الإسلام بدرجة من الأهمية بحيث لا يحول دونها شيء، فلا أثر للحب والعداوة والقرابة والأرحام، البعد والقرب فيها وأى انحراف عنها يُعدّ اتباعاً للهوى كما ورد في قوله تعالى «يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» (ص / ٢٦)

قوله تعالى: «وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ آلَا تَعْدِلُوا». (المائدة / ٨)

وهذا الموضوع بدرجة من الأهمية بحيث لو لم يتيسر تطبيق العدالة بالطرق السلمية لجاز تعبئة المظلومين ودعوتهم إلى الثورة العامة من جهة، ومقاتلة الظالم للدفاع عن حقهم من جهة أخرى، كما ورد في الآية: «وَمَا لَكُمْ لَأْتَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ». (النساء / ٧٥)

نفحات القرآن، ج ٤، ص: ٣٩٠

نختم هذا البحث بعدة روايات موثوقة تزين خاتمة هذا المجلد:

١- قال الإمام علي عليه السلام في كلام مختصرٍ وتعبيرٍ لطيف غني: «العدل حياة» «١» ٢- في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «العدل أحلى من الماء يُصبه الظمآن» «٢».

٣- وعن الإمام علي عليه السلام أيضاً: «جعل الله العدل قواماً للأنام وتنزيهاً من المظالم والاثام وتسنيةً للإسلام».

٤- وعنه عليه السلام أيضاً: «العدل رأس الإيمان وجماع الاحسان وأعلى مراتب الإيمان».

وأخيراً ورد تعبير سام عن نبي الإسلام محمد صلى الله عليه وآله: «عدل ساعة خيرٌ من عبادة سبعين سنة، قيام ليلها وصيامُ نهارها، وجورُ ساعة أشدُّ وأعظم عند الله من معاصي ستين سنة».

اللهم! أنر قلوبنا بنور معرفه ذاتك، وصفات جمالك وجلالك، لكي لا نعبد سواك، ولا نسلك إلا سبيلك.

اللهم! نور أرواحنا وقلوبنا بعشق جمالك لتصطبغ أعمالنا وأخلاقنا بصبغتك وتقرن بها «صَبَغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صَبَغَةً». (البقرة /

١٣٨)

اللهم! هب لنا تقوىً مقرونةً بالإيمان بأسمائك الحسنى تصوننا عن الإفتراق عن خط العدالة، وسلوك خط الانحراف، ولو بمقدار رأس إبرة.

أمين رب العالمين

(١) غررالحكم نقل عنه ميزان الحكمة، ج ٦، ص ٨١.

(٢) بحار الانوار، ج ٧٢، ص ٣٦، ح ٣٢، وقد نقل نفس هذا المضمون بشكل آخر عنه عليه السلام حيث قال: «العدل أحلى من الشهد، وألين من الزبد، وأطيب ريحاً من المسك».

الجزء الخامس

أهمية بحث المعاد

إشارة

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٧

أهمية بحث المعاد في المنظور القرآني

تمهيد:

لو ألقينا نظرة إجمالية على آيات القرآن المجيد لما وجدنا بحثاً يتصدّر جميع البحوث العقائدية للدين الإسلامي بعد بحث التوحيد، مثل بحث المعاد والحياة الآخرة وجزاء الأعمال والثواب والعقاب وإجراء العدالة.

إن وجود ما يقارب ١٢٠٠ آية من مجموع آيات القرآن المجيد تهتم ببحث المعاد وهو ما يساوي ثلث آيات القرآن تقريباً، وما جاء من ذكر للمعاد في جميع صفحات القرآن تقريباً وبلا استثناء، وتكريس الكثير من السور الأخيرة في القرآن بأجمعها أو بغالبيتها للمعاد ومقدماته وعلاماته ونتائجه، ما هي إلا أدلة مؤيدة لهذا الادعاء.

فالقرآن المجيد يتحدث عن عالم الآخرة في كل مقطع تطرّق فيه لموضوع الإيمان بالله، وقد اقترن ذكر الموضوعين معاً في ٣٠ آية تقريباً: «وَيُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» أو بتعبيرات مشابهة، وأشار لليوم الآخر أو في أكثر من ١٠٠ موضع ولم لا يكون كذلك؟ في حين أن:

- ١- كمال الإيمان بالله وحكمته وعدالته وقدرته لا يتم بدون الإيمان بالمعاد.
- ٢- الإيمان بالمعاد يُعطي لحياة الإنسان قيمةً، ويُخرج الحياة الدنيا عن اللغو والعبثية.
- ٣- الإيمان بالمعاد يخطّ طريقاً واضحاً لتكامل الحياة الإنسانية.
- ٤- الإيمان بالمعاد يضمن تطبيق كلّ السنن الإلهية، وهو الدافع الرئيسي لتهديب النفوس واحترام الحقوق والعمل بالواجبات وإيثار الشهداء وتضحية المضحين، وهو الذي يدفع الإنسان لمحاسبته نفسه.
- ٥- الإيمان بالمعاد يُضعف حبّ الدنيا التي هي رأس كل خطيئة، ويُخرج الدنيا عن نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٨

كونها «هدفاً نهائياً» ويجعل منها «وسيلة» لنيل السعادة الأبدية، وكم الفارق شاسع بين هذين المنظرين!

٦- الإيمان بالمعاد يعطي للإنسان القوة لمواجهة الشدائد، ويحيل صورة الموت المرعبة - التي تخطر على فكر الإنسان على هيئة كابوسٍ ثقيلٍ وتسلبه راحته - من مفهوم الفناء والعدم إلى نافذة نحو عالم الخلود.

٧- الكلام الفصل هو أن الإيمان بالمعاد- إضافة إلى الإيمان بمبدأ عالم الوجود- يُعدّ الخط الفاصل بين الإلهيين والماديين.

بعد هذه الإشارة نعود إلى القرآن لتأمل خاشعين في الآيات التالية:

- ١- «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا». (النساء / ٨٧)
- ٢- «رَعِمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكُمْ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ». (التغابن / ٧)
- ٣- «وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقُّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ». (يونس / ٥٣)
- ٤- «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَأَتَاتِنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ». (سبأ / ٣)

٥- «رَبَّنَا أَنْتَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ».

(آل عمران / ٩)

٦- «أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ». (الشورى ١٨)

٧- «وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ». (الاعراف / ١٤٧)

٨- «وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا». (الاسراء / ١٠)

٩- «وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسَيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ». (الجمعة / ٣٤)

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٩

- ١٠- «وَأَنْ تَعَجَبَ فَعَجِبَ قَوْلُهُمْ إِذَا كُنَّا تَرَابًا ءَأَنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَعْلَامُ فِي اعْتِقَابِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ». (الرعد / ٥)

جمع الآيات وتفسيرها

التأكيد على المعاد:

لقد ذكر المعاد والحياة بعد الموت بشكلٍ مؤكد وبصور مختلفة في الآيات الآتية الذكر، كل ذلك من أجل بيان الأهمية البالغة التي يوليها القرآن لهذا الأمر.

الخطاب في الآية الأولى يؤكد على جمع البشر في ذلك اليوم الذي لا ريب فيه.

قال تعالى: «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ»، ثم يبالغ بالتأكيد فيقول: «وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا».

إن بداية الآية ونهايتها وجميع إجزائها تؤكد على هذه المسألة، وتشكل مقياساً للأهمية التي يكتنفها القرآن لذلك الموضوع «١»، ومن الجدير بالذكر أن «الريب» يعنى أساساً كما ورد في مقاييس اللغة هو الشك، أو الشك، المشوب بالخوف والقلق، أما إطلاق كلمة ريب على «الحاجة» فذلك لأن المحتاج إلى شيء عادة يشك في الحصول على ذلك الشيء فيكون شكّه مشوباً بالخوف من الحرمان!

وفي «فوارق اللغة» ذكرت عدّة فروق بين «الشك» و «الريب»، منها أن «الارتباب» شك مشوب بالتهمة.

فمن المحتمل أن يكون السبب في استعمال القرآن الكريم لهذا الاصطلاح بشأن المعاد هو أن المعارضين لأمر المعاد كانوا بالإضافة إلى تظاهرهم بالشك في عقيدة المعاد يتهمون النبي الأكرم صلى الله عليه وآله باختلاق تلك الامور.

(١) وهنالك آيات كثيرة اخرى في القرآن أيضاً تؤكد جميعها على هذا الموضوع وهو أنه لا شك في الرجعة، مثل آية ٧ من سورة الحج؛ والآية ٩، ٢٥ من سورة آل عمران؛ والآية ١٢ من الانعام؛ والآية ٢١ من الكهف؛ والآية ٥٩ من غافر؛ والآية ٧ من الشورى والآية ٢٦ و ٣٣ من سورة الجاثية.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٠

ولكن يبقى هنالك سؤال يحتاج إلى الإجابة وهو: لِمَ اكتفى القرآن في هذه المواضع وفي مواضع مُشابهة بالمدعى من دون ذكر دليلٍ عليه؟

وأسباب ذلك كثيرة؛ وأولها: إن أدلته إثبات المعاد وردت في مواضع كثيرة من القرآن المجيد وُبُحثت باستمرار، فلم يكن من الضرورة تكرارها في هذه الآيات، وثانياً: كأن القرآن يريد أن يوضح هذه الحقيقة وهو أن الشواهد على إثبات المعاد بلغت من الوضوح حداً بحيث لم تبق مجالاً للشك أو التردد «١».

وفي الآية الثانية أمر النبي صلى الله عليه وآله بأن يُقسم مؤكداً على أن هنالك قيامه وحشراً ونشراً حيث قال تعالى: «زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ».

نحن نعلم بأن القسم عادةً من الأعمال غير المحيضة، على الأخص عندما يكون القسم بالله تعالى من أجل هذا نهى القرآن الناس عنه في الآية الكريمة: «وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ». (البقرة/ ٢٢٤)

ولكن أحياناً وعندما يكون الأمر مهماً جداً فإن القسم لدعم ذلك الأمر لا يكون غير مستحسن فحسب بل يكون لازماً. وفي هذه الآيات، علاوة على ذكر التأكيد في «لتبعثن» و «لتنبئن» فإن الآية في آخرها تُصرِّح على أن هذا الأمر يسير على الله، ولذلك فلا يجب أن ترتابوا أو تترددوا فيه «٢».

(١) يجب الانتباه إلى «اللام» في «ليجمعنكم» للقسم، ثم صاحبها نون التوكيد الثقيلة، وبعد ذلك أكَّدت بجملة «لاريب فيه» وأخيراً اشتدَّ التأكيد بجملة: «ومن أصدق من الله حديثاً». (ولكن لماذا تعدت «ليجمعن» هنا ب «إلى» ، مع أن القاعدة تقتضى التعدى ب «في»؟ فإن المفسرين اجابوا: إنَّ السبب هو أن كلمة «ليجمعن» أتت بمعنى «ليحشرن» التي تعدى ب «إلى» ، أو أن تكون «إلى هنا بمعنى «في».

(٢) «زعم» على وزن «طعم» في الأصل بمعنى الخطاب المحتمل كذبه أو المتيقن من كذبه، وأحياناً تأتي بمعنى الظن الكاذب أيضاً من دون أن يكون هنالك أى خطاب، روى بعض المفسرين مثل الشيخ الطوسي في «التيبان» والقرطبي مؤلف كتاب «روح البيان» بأن «زعم» كناية عن الكذب.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١١

وفي الآية الثالثة طرحت هذه المسألة على شكل استفسار ومحاورة تجرى بين النبي صلى الله عليه وآله والمشركين: «وَيَسْتَنْبِؤُنَكَ أَحَقُّ هُوَ؟!»

ويجب الالتفات إلى أن «يستنبؤنك» من «النبأ» وهو «الخبر المهم».

قال «الراغب» في «المفردات» النبأ هو الإخبار النافع المصاحب للهول والعظمة لدى الإنسان الذي لديه علمٌ أو ظنٌ غالباً بذلك الإخبار، ومادام الخبر لا يتصف بهذه الامور الثلاثة (الفائدة والعظمة والعلم) فإنه لا يسمى «نبأ»، بناءً على هذا فالخير المشكوك أو قليل الأهمية أو عديم الفائدة لا يسمى «نبأ» وأما ما نراه في سورة النبأ من وصف النبأ ب «العظيم» فإنه لشدة التأكيد) وعندما يطلق على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ذلك فبسبب اتصاف ما أخبر به بهذه الصفات الثلاث أيضاً.

ثم يأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله: «قُلْ أَيْ وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقُّ»، والملفت للنظر هنا هو استعمال كلمة «الرب» في الآية الكريمة

للاشارة إلى أن القيامة هي دوام ربوبية الخالق واستمرارها، وإن القيامة هي من مظاهر الربوبية، وسيأتى توضيح هذا الكلام عند البحث فى أدلة المعاد بإذن الله.

وإزداد التأكيد شدةً فى آخر الآية فى جملة: «وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ».

ويعتقد عدد من المفسرين بأن هذه الآية تشير إلى صدق القرآن أو نبوة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، بينما تصرح الآية السابقة والآية اللاحقة لهذه الآية بوضوح أن المراد من النبا هو مسألة المعاد ومجازاة المذنبين فى يوم القيامة التى طرحت بعنوان أمر واقع لا شك فيه من خلال اضماء أنواع التأكيدات عليها.

إنّ كلّاً من كلمة «إي»، والقسم «ربى» و«إنّ» و«اللام» فى «لحق»، ونفس كلمة «حق» وكون الجملة اسمية، وجملة «وما أنتم بمعجزين» هى تأكيدات لبيان أهمية هذه المسألة.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٢

وفى الآية الرابعة طرحت هذه المسألة بشكل جديد فهى تنقل قول الكافرين أولاً «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَأَتَأْتِينَا السَّاعَةُ».

ثم يأمر النبى الأكرم صلى الله عليه وآله: «قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَأَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ».

من الممكن أن يكون ذكر «عالم الغيب» هو للثغرات إلى السبب الذى أدى إلى إنكار المعاد من قبل الكافرين وذلك لأنهم كانوا يقولون: من يقدر على جمع الرفات المتناثرة فى أكناف الأرض على شكل ذرات؟ ومن يقدر على إحصاء أعمال الإنسان التى بادت وانمحت ولم يبق منها أى أثر لثاب ويعاقب عليها؟ يجب القرآن هنا بجملة وجيزة، ويقول: الله الذى يعلم الغيب ويعرف خفايا الإنسان يتكفل بذلك.

ولكن لماذا اطلق اسم «الساعة» على القيامة فى أحد اسمائها؟ لأن «الساعة» بتصريح أصحاب اللغة وضعت فى الأصل للجزء الصغير من أجزاء الزمن أو بتعبير آخر هى اللحظة السريعة الانقضاء، وبما أن حساب العباد فى يوم القيامة أو أصل قيام القيامة يتم بسرعة اطلق هذا الاسم على يوم القيامة «١».

ومن الجدير بالذكر أيضاً هو أن كلمة «ساعة» كما جاء فى لسان العرب تطلق على لحظة انتهاء العالم المفاجئة وعلى قيام يوم القيامة معاً؛ لأن قيام يوم القيامة يكون مفاجئاً أيضاً.

وقسم البعض «الساعة» إلى ثلاثة أنواع: «الساعة الكبرى» و«الساعة الوسطى» و«الساعة الصغرى».

فالساعة الكبرى هى يوم الحشر، والساعة الوسطى هى الموت المفاجيء لقوم فى أحد الأزمنة (مثل قوم نوح الذين غرقوا فى وقت الفيضان) والساعة الصغرى هى ساعة الموت لكل إنسان «٢».

(١) فعل «ساع» أتى بمعنى زوال، والزوال يحمل فى طياته مفهوم سرعة الانقضاء، قال فى المنار: ساعة فى الأصل بمعنى الزمان القصير الذى يُعَيَّن بواسطة مقدار عملٍ معيّن حدث فى خلال ذلك الوقت. (تفسير المنار، ج ٧، ص ٣٥٩).

(٢) تاج العروس فى شرح القاموس ومفردات الراغب.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٣

وفى الآية الخامسة جاء هذا المعنى على لسان «الراسخين فى العلم» فهؤلاء أيضاً خلال مناجاتهم مع الله أكدوا على أمر المعاد والحشر واعتبروه من أوضح الامور المسلّمه حين قالوا: «رَبَّنَا أَنْتَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّارْيَبَ فِيهِ».

ولشدة التأكيد أضافت الآية إلى ذلك: «أَنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ».

وفى هذه الآية أيضاً جاء عدد من التأكيدات مثل كلمة «إنّ» و«الجملة الاسمية» وجملة «لاريب فيه» وجملة «إنّ الله لا يخلف الميعاد».

إنكار المعاد هو عين الضلال:

إلى هنا كان الكلام فى التأكيدات على مسألة المعاد، ولكن الآيات الخمس المتبقية من آيات بحثنا تشتمل على تهديدات مختلفة وجّهت إلى جاحدى الحشر والمعاد وكل آية لها تعبير خاص، وفى الآية السادسة مثلاً قال تعالى: «الْإِنِّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ».

«يمارون»: من «المراء» أو «المريء»، قال فى «مقاييس اللغة» إنها على معنيين: الأول: شدّ اليد على تذى الحيوان لحلب اللبن، والمعنى.

الثانى: الصلابة والرصانة، لكن الراغب لم يذكر فى المفردات إلّا المعنى الأول.

ثم إن هذه الكلمة جاءت بمعنى الشك والترديد، وإن قال الراغب إن لها مفهوماً أضيق دائرة من الشك (من المحتمل أن يكون السبب فى ذلك هو أن «المريء» يفهم منها معنى الشك المقرون بالبحث والتحقيق، كما هو الحال فى حالب اللبن فإنه يبذل جهداً لاستخراج اللبن من الثدي).

أمّا «المماراة» فهى بمعنى المجادلة فى البحث والتعصب فى الجدل أو أن كلّاً من الطرفين يريد أن يقرأ أفكار الطرف الآخر، أو كما قال صاحب المقاييس إن كلا المعنيين يشتملان على الصلابة والتزمّت فى البحث، كما اشير أعلاه بأن الصلابة هى أحد معانى المريء. نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٤

ومن الجدير بالذكر أن استعمال «ضلالٍ بعيد» جاء فى عشر آيات فى القرآن المجيد، وكانت أغلبها خطاباً للكفار والمشركين وجاهدى المعاد، وهذا التعبير يبيّن بوضوح بأن الضلال البعيد يختص بهذه المجموعة، وذلك لأن الإيمان بالله ويوم الحساب إن وجد يجعل وجود الضلال سطحياً ويزيد من احتمال العودة إلى طريق الحق، بينما يقود جحد التوحيد والمعاد الإنسان ويجرّه إلى آخر درجة من الضلال ويبعده عن صراط الهداية القويم إلى أدنى حد، أو بتعبير آخر إن الأدلة على معرفة الله وإثبات المعاد على حد من الوضوح يجعلها تشابه الامور الحسية الملموسة، والذى يصاب بالضلال فى هذين الأمرين فضلاله عظيم.

وفى الآية السابعة اشير إلى مسألة «حبط الأعمال» أى أعمال الجاحدين للمعاد فى قوله تعالى «وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْرُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

«الحبط»: فى الأصل بمعنى البطلان أو التمرض «١»، وفى تعبير الآيات والروايات جاء بمعنى محو ثواب الأعمال بسبب إرتكاب عدد من الذنوب.

وجاء فى «لسان العرب» إن «الحبط» هو أن ينجز الإنسان عملاً ما ثم يبطله.

ولعلماء علم الكلام نقاش فى مسألة هل يكون «الحبط» حاكماً دائماً فى تأثير المعاصى والطاعات على بعضها الآخر أم لا؟ وسوف نتعرض بالبحث مفصلاً فى هذه المسألة فى محلها إن شاء الله، ولكن لا يوجد على نحو القضية الجزئية شك فى صحة هذه المسألة، فإن بعض الامور مثل «الكفر» تكون سبباً فى حبط ثواب جميع الأعمال الصالحة، فلو مات أحد على الكفر فإن جميع أعماله الصالحة سوف تتلاشى كثر الرماد فى ريح عاصف، إن الآيات الآنفه الذكر تنسب هذا الاحباط لجاهدى الآيات الدالّة على إثبات الله والمعاد، وهذا دليل واضح على أهميّة المعاد فى رأى القرآن المجيد.

(١) مقاييس اللغة مادة (حبط).

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٥

وفى الآية الثامنة هدد القرآن بشكل صريح بتعذيب الذين لا يؤمنون بالآخرة عذاباً أليماً، قال تعالى «وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ

اعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا».

فهو من جانب يقول: إنَّ الجزاء مُعدُّ وجاهز كى لا يظنُّ أحدٌ أنَّ الجزاء وعد مؤجلٌ، ومن جانبٍ آخر يصف العذاب الإلهى بـ «الأليم» وهذا الوصف من أجل المبالغة في بيان أهمية الإيمان بالمعاد.

وكلمة «عذابٌ أليم» تكرر ذكرها في القرآن المجيد عشرات المرّات وفي آياتٍ مختلفة، وخوِّطَبَ بها الكفّار والمنافقون غالباً، ووردت أحياناً في تهديد من يقترب الذنوب الكبيرة مثل ترك الجهاد (سورة التوبة / ٣٩) والاجحاف عند القصاص (البقرة / ١٧٨) أو اشاعة الفحشاء (النور / ١٩) أو الظلم والعدوان (الزخرف / ٦٥) وما شابه ذلك من الكبائر.

وفي الآية التاسعة ذُكرت ثلاث عقوبات أليمة للذين لا يبالون بيوم القيامة، قال تعالى:

«وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا». «وَمَا أَوَّلُكُمْ النَّارُ». «وَمَا لَكُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ».

إنَّ الغفلة عن يوم القيامة أو نسيانه هو مصدر جميع أنواع الضلال في الواقع، كما جاء في القرآن! «..... إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ» (١).

(ص / ٢٦)

من الطبيعي أن الله موجودٌ في كل مكان، وأن جميع الأشياء حاضرة بين يديه، ولا معنى لنسبة النسيان إليه، فالمراد من النسيان هنا هو أن الله تعالى يحرم هؤلاء من رحمته إلى أبعد الحدود بحيث يتصوّر أنه نسيهم!

(١) تفسير الميزان، ج ١٣، ص ٥٠.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٦

وأخيراً ففي الآية العاشرة والأخيرة وعدَّ الله عزَّ وجلَّ جاحدى المعاد بالخلود في النار وهَدَّدهم بالعذاب الدائم.

قال تعالى بعد أن وجه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وآله: «وَأَنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ إِذْ أُنزِلَتْ آيَاتُنَا لَنَفِي حَلْقٍ جَدِيدٍ».

ثم يضيف إلى ذلك: «أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

الحديث في بداية الآية عن تعجّب الكفّار، ثم يعدُّ هذا التعجب من غرائب الامور، أى هل هناك عجبٌ من هذا الأمر الواضح المُعزز بكل هذه الأدلة؟ ويصورهم في نهاية الآية بصورة السجناء المكبلين بالأغلال والسلاسل في أعناقهم، وأى أغلال وأى سلاسل أكثر تقييداً من التعصب والجهل والهوى الذى يسلبهم كل أنواع حرية التفكير إلى حدٍ تصبح فيه المسألة الواضحة كل الوضوح مدعاة لعجبهم، وذلك لأنها لا توافق هواهم وتقليدهم الأعمى

فيجب الالتفات إلى أن ظاهر الآية هو التقييد بالأغلال والسلاسل في الوقت الحاضر لا بعد ذلك في يوم القيامة، كما جاء في الشعر العربى: لَهُمْ عَنِ الرَّشْدِ أَغْلَالٌ وَأَقْيَادٌ، ولكن بعض المفسرين يرى أن الآية تشير إلى حالهم يوم القيامة ويعتقد بأن الأغلال والسلاسل ستوضع على أعناقهم في ذلك اليوم (١)، وذكر البعض الآخر كلا الاحتمالين (٢) ولكن عدداً من المفسرين يعتقد بأن الآية تشير إلى حالهم في الدنيا، كما صرح بذلك المرحوم العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان فإنه قال: «وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ» إشارة إلى اللزوم الثانى وهو الاخلاص إلى الأرض والركون إلى الهوى والتقييد بقيود الجهل وأغلال الجحد والإنكار (٣).

ومن الواضح أن قيوداً وأغلالاً من هذا القبيل والتي يضعها الإنسان في يديه ورجليه

(١) تفسير مجمع البيان ذيل الآية ٥ من سورة الرعد؛ وتفسير القرطبي، ج ٥، ص ٣٥١٣.

(٢) تفسير الكبير، ج ١٩، ص ٩.

(٣) تفسير الميزان، ج ١١، ص ٣٠٠.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٧

وعنقه سوف تظهر له يوم القيامة على صورة أغلال وسلاسل من نار، وسوف تصدّه عن الارتقاء إلى درجة القرب الإلهي.

نتيجة البحث:

يتضح جيداً من مجموع الآيات السابقة- وآيات اخرى سوف تُذكر في الأبحاث اللاحقة- مدى اهتمام القرآن المجيد بالإيمان بالمعاد، وكيف يُعدُّه من أركان واسبس الإيمان التي يسبب تركها الضلال البعيد والابتعاد عن الحق والخلود في النار والعذاب الأليم، ويُعدُّ إنكار المعاد دليلاً على فقدان حرية التفكير والتكُّبُّل بسلاسل الجهل والعناد.

وبالتأكيد فإنّ هذه الامور هي السبب في احتلال بحث المعاد المرتبة الثانية بعد بحوث التوحيد ومعرفة الله بالنسبة لسعة البحوث في القرآن الكريم.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٩

أسماء المعاد في القرآن الكريم

إشارة

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢١

أسماء المعاد في القرآن الكريم

تمهيد:

ورد ذكر المعاد في القرآن المجيد في مئات من الآيات وبتعابير متنوعة، ويُعد كل تعبير من تلك التعابير بمثابة إشارة إلى بعدٍ من أبعاد مفهوم المعاد، وتلك التعبيرات بمجموعها توضح عمق هذه المسألة وأهداف الحياة الآخرة. وبما أنّ مطالعة عبارات القرآن المتنوعة للمعاد تفتح أمامنا آفاقاً جديدة في هذه المسألة العقائدية المهمة، فإننا نتعرض لدراسة تلك العبارات.

وأهم العبارات القرآنية في هذه المسألة هي العبارات الثمانية التالية والتي تشكّل أساس الآيات الشريفة:

١- «قيام الساعة».

٢- «إحياء الموتى».

٣- «البعث».

٤- «الحشر».

٥- «النشر».

٦- «المعاد».

٧- «لقاء الرب».

٨- «الرجوع».

بعد هذه الإشارة نعود إلى القرآن لنمعن خاشعين في نماذج من التعبيرات الآنفه الذكر:

١- «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْلِسُ الْمُجْرِمُونَ». (الروم / ١٢)

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٢

٢- «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّمُ الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ». (الحج / ٦)

٣- «وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّارْتَيْبٍ فِيهَا وَإِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ». (الحج / ٧)

٤- «وَأَنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ أَنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ». (الحجر / ٢٥)

٥- «وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ». (فاطر / ٩)

٦- «كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ». (الاعراف / ٢٩)

٧- «قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ». (يونس / ٤٥)

٨- «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ». (العنكبوت / ٥٧)

جمع الآيات وتفسيرها

١- القيامة

«القيامة»: هي أكثر العبارات شيوعاً عن المعاد وهي مأخوذة من مادة «القيام»، وقد عبر القرآن المجيد عن ذلك اليوم العظيم في ٧٠ مورداً بتعبير «يوم القيامة»، وفي بعض الآيات مثل الآية الأولى من آيات بحثنا ذكره بتعبير «يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ»، حيث قال تعالى: «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْلِسُ الْمُجْرِمُونَ» (١).

ومن الطبيعي أن ييأس المذنبون ويكتئبوا في ذلك اليوم ويلزموا جانب الصمت؛ لأنهم يرون نتائج أعمالهم بعد أن لم يبق أمامهم طريق لتدارك ما مضى يقول الفخر الرازي في تفسيره بعد أن يقسم اليأس إلى نوعين:

«يوم تقوم الساعة يكون للمجرم يأس محير لا- يأس هو احدى راحتين، وهذا لأنَّ الطمع إذا انقطع باليأس فإذا كان المرجو أمراً غير ضروري يستريح الطامع من الانتظار وإن

(١) «يبلس» من مادة «ابلاس»، قال الراغب: الابلاس هو الغم والههم الحاصل من شدة اليأس والقنوط، وفسر البعض الابلاس باليأس بينما فسره البعض الآخر من المفسرين واللغويين بأنه يعني السكوت الناشئ من عدم وجود الأدلة. (المفردات؛ والصحاح؛ والتحقيق؛ وتفسير روح المعاني؛ وتفسير الميزان).

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٣

كان ضرورياً بالبقاء له ينفطر فؤاده أشد انقطاعاً، ومثل هذا اليأس هو الابلاس» (١).

فأحياناً، يحلُّ اليأس في مواردٍ يحتاج الإنسان إلى مقصوده احتياجاً مبرماً، فمن البديهي في مثل هذه الموارد يكون اليأس سبباً للحيرة والضياغ ومصدراً للألم والغم القاتل، فكلمة «إبلاس» تستعمل في المعنى الثاني (بينما كلمة «يأس» ليست كذلك).

ثم إنَّ القرآن الكريم يعبر عن المعاد أيضاً بـ «يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ». (إبراهيم / ٤١)

وتارةً يقول: «يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ». (المطففين / ٦)

وتارةً يذكره بعبارة: «يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ». (النبأ / ٣٨)

وأخرى بعبارة: «وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ». (غافر / ٥١)

بلى إن ذلك اليوم هو يوم القيامة، يوم قيام الساعة وقيام الحساب وقيام الناس وقيام الملائكة وقيام الأشهاد ويوم قيام كل شيء. والملفت للنظر هو أن التعبير بقيام الساعة له مفهوم خاص من بين هذه التعبيرات؛ لأن الساعة - كما قلنا سابقاً - تعنى الجزء من الزمان فهل يعنى هذا أن للزمان قيام؟ يعتقد البعض أن هذا التعبير يدل على أن يوم القيامة يمكن أن يتصور له التلبس بالقيام والنهوض كما هو الحال في الموجودات الحية (فتأمل).

٢- احياء الموتى

احياء الأموات هو عنوان آخر يُشاهد بشكل واسع في الآيات المختصة بالمعاد، وكما سيأتى - بإذن الله - فى بحث أدلة المعاد أن عدداً كبيراً من هذه الأدلة تُؤكّد على هذا العنوان، وتُصور إمكان الإحياء بعد الممات بطرق مختلفة.

(١) تفسير الكبير، ج ٢٥، ص ١٠١.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٤

ومن جملتها الآية التى هى مورد بحثنا، فبعد أن ذكر القرآن المجيد ثلاثة أمور مهمّة هى (مسألة خلق الإنسان من التراب، والتطورات المختلفة للجنين، وإحياء الأرض بعد نزول الغيث) قال تعالى: «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ». «الحق»: يعنى الواقع والثبوت، والتعبير السابق - على حد قول «الميزان» يُشير إلى أن الله عزوجل هو عين الواقع لا أنه وجود له واقع، إنه عين الثبوت والواقع، وبالاحرى أن واقعيه وثبوت كل شىء فى العالم مترشح من فيض وجوده «١».

وما يقابل الحق هو الباطل، فإنه لا واقع ولا ثبوت له، بل هو خيال وظن باطل وسراب لا غير.

والملفت للنظر فى هذه الآية هو الامور الثلاثة المذكورة أعلاه (خلق آدم من التراب، وتطورات الجنين، واحياء الأرض الميتة) فإنها جاءت كدليل على إثبات المبدأ الأول أى إثبات أصل وجود الله، وعلى إثبات المعاد وإثبات صفات الله (مثل القدرة).

إن هذه التغييرات الواسعة والمهيمنة على كل موجودات العالم هى فى الواقع دليل على وجود محور ثابت فى عالم الوجود، وهذا النظم العجيب الذى يهيمن على الظواهر المختلفة هو دليل على حكمه وقدره ذلك المحور، وتدلل كل هذه الامور بوضوح على إمكان الحياة بعد الموت.

وكما أشرنا سابقاً بأن تعبير «احياء الموتى ورد بشكل واسع فى آيات المعاد، فإن هذا التعبير يدل بوضوح على كون المعاد جسمائياً، لا عودة الروح فحسب، بل يعاد فى الآخرة الجسم المتعلق بها أيضاً (ولكن على مستوى أعلا وأرقى كما ستأتى الإشارة إليه لاحقاً) فلو كان المعاد بالروح فقط لما كان للحياة الآخرة مفهوم أصلاً، لأن الروح بعد انفصالها عن البدن تستمر فى الحياة وتحافظ على بقائها.

٣- البعث

ومن التعابير الاخرى التى وردت فى آيات القرآن عن القيامة هو «البعث»، ففى الآية

(١) تفسير الميزان، ج ١٤، ص ٣٧٨.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٥

اللاحقة لتلك الآية السابقة من سورة الحج من آيات البحث قال تعالى «وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ».

لقد ورد هذا التعبير في القرآن بشكل واسع جداً فأحد أسماء القيامة هو «يوم البعث» (الروم / ٥٦)، أو «يوم يُبعثون» وجاء هذا التعبير في ست آيات من القرآن «١».

وهذا التعبير تكرر ذكره كثيراً حتى في أسئلة المشركين التي كانوا يسألونها من النبي الأكرم مثل: «أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ» «٢». (الصفات / ١٦)

«البعث»: له مفهوم واسع في اللغة، فقد حمله البعض على أنه بمعنى «الارسال» والبعض الآخر على أنه بمعنى «الايصال»، وفسره آخرون، ب «النشر» ولكن يظهر من موارد استعماله المختلفة أن له مفهوماً واحداً، إلا أنه يتغير تبعاً لمورد استعماله بما يناسبه، كارسال النبي صلى الله عليه وآله لابلاغ الرسالة، وبعث الجيش للجهاد، أو الإنسان النائم لأداء وظيفته، أو نشر الأموات للحساب، أو ارسال الحيوان للحركة «٣».

والسبب في اطلاق هذا التعبير على القيامة للمناسبة الموجودة بين البعث وابتداء الحركة في الأموات الذين يخرجهم الله من القبور، ومن ثم يبعثهم للحساب نحو محاكم القيامة، وبعدها نحو الجنة أو النار، فكل واحد من هذه المراحل هو مصداق «للبعث». ويلاحظ أن هناك تعبير آخر في آيات القرآن يقارب في أفقه مادة «البعث» وهو مادة «بعثه» (على وزن مَنَقَبَه).

ولم يأت هذا التعبير في القرآن إلا في آيتين، الموضع الأول: «وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ». (الانفطار / ٤)

وفي الموضع الآخر هو الآية: «أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ مَافِي الْقُبُورِ». (العدايات / ٩)

وبالرغم من أن ارباب اللغة فسروا مادة «بعثه» بالتقليب والنشر، لكن الراغب في المفردات احتمل أن تكون هذه الكلمة مركبة من كلمتي «بعث» واثيرت، فتكون الاولى

(١) الأعراف، ١٤؛ الحجر، ١٦؛ المؤمنون، ١٠٠؛ الشعراء، ٨٦؛ الصفات، ١٤٤؛ ص، ٧٩.

(٢) جاء هذا المعنى في الآيات التالية: الاسراء، ٤٩ و ٩٨؛ المؤمنون، ٨٣؛ الواقعة، ٤٧؛ الانعام، ٢٩؛ المؤمنون، ٣٧.

(٣) المفردات للراغب؛ ومقاييس اللغة؛ والتحقيق في كلمات القرآن الكريم.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٦

بمعنى الانهاض، والثانية بمعنى النشر، ولذلك اشتملت هذه الكلمة «بعثه» على المعنيين.

أما «البيضاوي» فإنه نقل هذا المطلب بتعبير آخر وهو أن «بعثه» مركبة من «بعث» و «رأى في اثاره» «١».

٤- الحشر

لقد ورد تعبير آخر عن القيامة في آيات عديدة من القرآن المجيد وهو «الحشر» كما جاء في آية بحثنا: «وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ».

«حكمته»: توجب أن لا ينتهي كل شيء بموت الإنسان، وإلا فإن الحياة الدنيا والنوم والأكل والشرب واللبس لا قيمة لها حتى تكون الهدف من خلق الإنسان الرفيع المستوى ويكون الهدف من خلق هذا العالم الواسع، «علمه» أيضاً يكون رافعاً للعقبات في أمر معاد العباد وحشرهم ونشرهم وحسابهم (جمع ذرات أبدانهم المنتشرة في التراب وكذلك جمع أعمالهم وأقوالهم)، وذلك لأنه عالم بكل شيء وقد أحصى كل شيء.

التعبير ب «الحشر» عن القيامة استخدم فيما يقارب ٣٠ مرة في آيات القرآن المجيد وفي سور مختلفة، وهذا المقدار من الاستعمال هو دليل على أهميته الحشر في القرآن.

«الحشر» في اللغة- نقلًا عن «مقاييس اللغة»- بمعنى الجمع المقارن للسوق والقوود، ويطلق أحياناً على كل جمع أيضاً، وعن «مفردات الراغب» بمعنى اخراج مجموعة من مقررهم لساحة الحرب أو ما شابه ذلك، ولذا جاء في الروايات: «النساء لا يُحشَرْنَ» أى لا يُسَقَّنَ نحو سوح القتال.

وجاء في «التحقيق» إن مادة «حشر» تحمل في طياتها ثلاثة معانٍ: «البعث» و «السوق» و «الجمع». فحشرات الأرض تعنى الدواب الصغيرة وُسِّمَت بذلك لكثرتها وتحركها ولكونها منبوذة.

(١) تفسير البيضاوى ذيل الآية ٤ من سورة الانفطار.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٧

واستُخدم هذا التعبير للمعاد ويوم القيامة لأنَّ جميع البشر الذين عاشوا على مَرِّ التاريخ الإنسانى سوف يجمعون في ذلك اليوم في مكانٍ واحد، ويساقون للحساب نحو محكمة العدل الإلهى، ثم يساقون نحو الجنة أو النار. علاوةً على هذا فإنَّ ذرات بدن كل إنسان والتي انتشرت في مناطق مختلفة من الكرة الأرضية وحتى التي انتشرت أحياناً في البحر والفضاء فإنها سوف تجمَع في ذلك اليوم بأمر الله، وتعاد الروح إليها، ولا يقتصر الأمر على جمع الذرات فقط بل يشمل جمع الأعمال أيضاً، وعلى هذا فإنَّ يوم القيامة هو يوم الجمع والحشر في أبعادٍ مختلفة. بل يستفاد أيضاً من الروايات الإسلامية أنَّ الأمر لا يختص بأهل الأرض فقط بل يجتمع معهم في هذا الأمر سكان السماوات أيضاً ولهذا السبب جاء في تفسير «يوم التلاق» الذى هو أحد أسماء القيامة الوارد في سورة غافر الآية ١٥ عن الإمام الصادق عليه السلام: «يوم يلتقى أهل السماء وأهل الأرض» (١).

٥- النشر

«النشر»: أو «النشور» هو تعبير آخر ليوم القيامة ورد في القرآن المجيد في آياتٍ متعددة، يُبينُ بعداً آخرًا من أبعاد حياة الإنسان بعد الموت، كما تشير إلى ذلك الآية الخامسة من آيات بحثنا هذا: «وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُبْرِئُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ». (فاطر / ٩)

«النشر»: و «النشور» فى الأصل - على مقاله الراغب فى المفردات - بمعنى التوسيع والبسط، كما هو المستعمل فى بسط القماش وصفحات الورق والغمام والنعم فى تعبيرات الأحاديث. ورد فى «مقاييس اللغة»: «النشر فى الأصل «يدل على فتح شىء وانتشاره».

(١) بحار الأنوار، ج ٧، ص ٥٩، ح ٥.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٨

ومن أجل هذا اطلق لفظ «النشر» على انتشار العطور الطيبة فى الهواء.

واطلق هذا التعبير على المعاد إما لأجل انتشار البشر فى نقاط مختلفة فى محشرهم، كما اشير إلى ذلك فى الآية المذكورة، أو لأجل انتشار كتب الأعمال، كما جاء فى قوله تعالى «وَأِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ». (التكوير / ١٠)

وقد جاء فى بعض الروايات عن الإمام الصادق عليه السلام: «إذا أراد الله عز وجل أن يبعث الخلق أمطر السماء أربعين صباحاً فاجتمعت الأوصال ونبت اللحوم» (١).

وبذلك تنشق الأرض ويخرج الموتى من تحت التراب (وكان الأرض بمثابة الرحم لهم).
ونقرأ في حديث آخر أن شخصاً سأل رسول الله صلى الله عليه وآله: «كيف يحيى الله الموتى؟ فقال ما مضمونه: هل مررت على أرض يابسة لاماء فيها ولا- كلاً، ثم مررت عليها مرة أخرى وهي مخضرة؟ فقال السائل: نعم يا رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال صلى الله عليه وآله: هكذا يحيى الله الموتى أو قال «هكذا الحشر» (٢)».

٦- المعاد

عبرت مجموعة أخرى من الآيات عن يوم القيامة ب «العود» ورجوع البشر، والمراد هنا هو العود إلى الحياة مرة أخرى كما جاء في الآية السادسة من آيات بحثنا: «كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ». وسنرى بإذن الله- من خلال البحث عن أدلة المعاد أن هذه الجملة أقصر وبنفس الوقت أوضح دليل على إمكان المعاد، إذ تجعل إمكان الخلق ابتداءً دليلاً على إمكان الخلق مرة أخرى

(١) تفسير روح البيان، ج ٧، ص ٣٢٣ (باختصار)؛ وبحار الأنوار، ج ٧، ص ٣٣.

(٢) تفسير روح البيان، ج ٧، ص ٣٢٣.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٩

ومن الملفت للنظر أن التعبير ب «العود» جاء على لسان المشركين وجاحدى المعاد أيضاً:

«فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ». (الاسراء / ٥١)

والتعبير ب «المعاد» اخذ من هنا أيضاً، بالطبع أن هذا التعبير دليل واضح على مسألة المعاد الجسماني، وذلك لأن الروح لا معاد لها، بل إنها تحافظ على بقائها حتى ما بعد الموت، والذي يعاد في يوم القيامة هي الحياة الجسمانية للجسم، حيث تحل الروح بالجسم ثانية.

والنقطة المهمة التي تجب الإشارة إليها هي أن التشبيه هنا طبقاً للتفسير الوارد في آية بحثنا هذه هو تشبيه لأصل العود إلى الحياة (أتى بهذا التفسير المرحوم الطبرسى في أول كلامه عن هذه الآية، وورد هذا التفسير في روح البيان أيضاً).

ولكن عدداً من المفسرين من بينهم الفخر الرازى في «التفسير الكبير» والعلماء الطباطبائى في «الميزان» وصاحب المنار في تفسيره وآخرون قالوا: إن التشبيه هنا بالنحو التالي، وهو أن الله خلق الناس في البداية على فريقين: فريق مؤمن وفريق كافر (انتخب فريق طريق الهداية تحت ظل هداية الأنبياء، وانتخب الآخر طريق الضلالة تحت تأثير وساوس الشيطان) وفي يوم القيامة أيضاً يحشرهم على شكل فريقين: فريق مؤمن سعيد وفريق كافر شقى مستشهدين بالآية التالية: «فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ».

(الاعراف / ٣٠)

والأعجب من ذلك هو أن الفخر الرازى جعل هذه الآية دليلاً على الجبر في السعادة والشقاء الذاتيين!

بينما لو دققنا النظر في آيات القرآن الأخرى المشابهة لهذه الآية لوجدنا أن التشبيه إنما هو في مسألة الهداية بعد الموت لا في الهداية

والضلالة الحاصلين في الدنيا، جاء في قوله تعالى «اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ». (الروم / ١١)

وفي الآية (٢٧) من نفس السورة قال تعالى «وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ». (الروم / ٢٧)

وهناك آيات أخرى أيضاً تعطى نفس هذا المعنى (سورة يونس / ٤، النمل / ٦٤، العنكبوت / ١٩).

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٠

ومن الممكن أن يقال هنا أن تفسير الآية بمسألة السعادة والشقاء هو الوارد في التفسير المنقول عن علي بن إبراهيم عن أبي الجارود عن الإمام الباقر عليه السلام حيث قال: «خَلَقَهُمْ حِينَ خَلَقَهُمْ مُؤْمِنًا وَكَافِرًا وَسَعِيدًا وَشَقِيًّا وَكَذَلِكَ يَعُودُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُهْتَدِيًا وَضَالًّا...» (١).

ولكن لا شك في كون هذا الحديث من المتشابه، وراويها «أبو الجارود» وهو «زياد بن المنذر» وهو مذموم بشدة في كتب الرجال حتى أن البعض اطلقوا عليه اسم «سِرِّحُوب» وهو أحد أسماء الشيطان وفي بعض الروايات عُدَّ كذاباً وكافراً، وينسبون إليه تأسيس الفرقة «الجارودية» المنحرفة وهي (فرقة من الزيدية). وعلى هذا فالتفسير الأول هو الصحيح.

٧- لقاء الله

التعبير الآخر الذي ورد في آيات متعددة من القرآن الكريم والذي أشار إلى يوم القيامة والبحث، هو تعبير «لقاء الله» و «لقاء الرب»، حيث نلاحظ هذا في الآية السابعة التي وردت في بحثنا هذا. حيث قال تعالى: «قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ» (٢). والتعبير ب «لقاء الله» و «لقاء الرب» الذي تكرر ذكره في آيات القرآن له معنى عميق جداً، رغم أن عدداً من المفسرين قد مرّوا عليه مرور الكرام.

فقالوا حيناً: إن المراد من «لقاء الله» ملاقاته ملائكة الله في يوم القيامة، وقالوا حيناً آخر: إن المراد هو تلقي حسابه وجزاءه وثوابه.

وقالوا حيناً ثالثاً: إنه بمعنى ملاقاته حكمه وأمره.

وعلى هذا الترتيب فإن كل واحد منهم جاء بكلمة لتقدير المعنى مع أننا نعلم بأن التقدير

(١) تفسير القمي، ج ١، ص ٢٢٦؛ وتفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ١٨.

(٢) جاء هذا التعبير أيضاً في آيات أخرى مثل: الانعام، ٣١ و ١٤٥؛ يونس، ٧ و ١١ و ١٥؛ الرعد، ٢؛ الكهف، ١٠٥ و ١١٠؛ الفرقان، ٢١؛ العنكبوت، ٥ و ٢٣؛ الروم، ٨؛ السجدة، ٢٣؛ فصلت، ٥٤؛ السجدة، ١٠ و ٢٠.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣١

خلاف الأصل وما لم يتوفر الدليل على التقدير فلا يجب الأخذ به.

وبناءً على هذه الحقيقة نعود إلى التفسير الأول، فمما لا شك فيه أن ملاقاته الرب ليست حسية، وذلك لأن الملاقاة الحسية تصدق في موارد الجسم الذي له مكان وزمان ولون وكميات أخرى على نحو يمكن مشاهدتها بواسطة العين. بل المراد هو المشاهدة الباطنية والملاقاة الروحية والمعنوية مع الله، وذلك لأن الحُجُب تُرفع يوم القيامة، وتظهر آيات الله في المحشر وجميع مشاهد ومواقف القيامة بنحو يجعل الكافرين أيضاً يشاهدون الله ويلاقونه ببصائر القلوب! (وإن كانت تلك اللقاءات متفاوتة كيفية).

يقول المرحوم العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان: «ينبىء أنه تعالى هو الحق لا ستره عليه بوجه من الوجوه ولا على تقدير من التقادير فهو أبده البديهييات التي لا يتعلق بها جهل لكن البديهي ربما يغفل عنه فالعلم به تعالى هو ارتفاع الغفلة عنه الذي ربما يعبر عنه بالعلم وهذا هو الذي يبدو لهم يوم القيامة فيعلمون أن الله هو الحق المبين، كما أشار إلى ذلك الآية الكريمة: «وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ

المُتَّيِّنُ» (١). (النور/ ٢٥)

وفى حديث طويل أتى رجل إلى الإمام على أمير المؤمنين عليه السلام وقال: حصل لى شك فى القرآن المجيد!

قال له الإمام عليه السلام: «ثكلتك أمك وكيف شككت فى كتاب الله المنزل؟».

قال الرجل: إنى وجدت الكتاب يكذبُ بعضه بعضاً ... ثم قال بعد طرحه عدّة إشكالات:

يقول القرآن الكريم: «وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ»، ويقول فى موضع آخر:

«لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ»، فقال له الإمام عليه السلام: «اللقاء هنا ليس بالزُّورِيَّة، بل اللقاء هنا بمعنى البعث فافهم جميع ما

فى كتاب الله من لقاءه فأنه يعنى بذلك البعث» (٢).

وفى الحقيقة أن أمير المؤمنين عليه السلام يفسر مسألة لقاء الله تعالى بشيء يكون الله تعالى من

(١) تفسير الميزان، ج ١٥، ص ٩٥ و ج ١٠، ص ٦٩.

(٢) توحيد الصدوق، ص ٢٦٧ (مع التلخيص).

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٢

لوازمه، أجل، فيوم القيامة يوم زوال الحجب وظهور آيات الحق جلّ وعلا، وتجليه للقلوب، ومن تعبير الإمام هذا، يدرك كل شخص ما المقصود منه كل حسب استعداده واختلاف مستواه، وكما قلنا سابقاً إن الشهود الباطنى لأولياء الله يوم القيامة يختلف كثيراً عن شهود الأفراد العاديين.

٨- الرجوع إلى الله

وأخيراً، ورد تعبير آخر بصورة واسعة (عشرات المرات) فى الآيات القرآنية لوصف القيامة، وهو عبارة «الرجوع إلى الله» أو عبارة

«العود إلى الله» ومشتقاتها ومن ضمنها الآية الأخيرة من آيات بحثنا، قال تعالى: «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ».

التعبير بالرجوع والعود- كما قلنا- تكرر ذكره فى الآيات فقد ورد أحياناً: «إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً». (المائدة/ ٤٨)

وأحياناً خاطب به النفس المطمئنة والروح المتكاملة حيث قال تعالى «ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ». (الفجر/ ٢٨)

وأحياناً لبيان قدرة الله يقول: «أَنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ». (الطارق/ ٨)

وأحياناً يقول نقلًا عن لسان المؤمنين: «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ». (البقرة/ ١٥٦)

ويقول أحياناً: «إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ». (العلق/ ٨)

هذه التعبيرات التى لها نظائر كثيرة فى القرآن المجيد تُشير إلى أن القيامة والحشر فى نظر القرآن هى نوع من الرجوع، ويتضح من مفهوم تلك الكلمة أن الشيء الذى يأتى من نقطة ما، يعود إلى تلك النقطة.

وهناك سؤال يطرح نفسه وهو كيف ينطبق هذا المعنى على يوم القيامة؟ وبأى نحو أتينا من عند الله وكيف نرجع إليه؟!

للجواب عن هذا السؤال قدّر بعض المفسرين كلمة فى الآية وقالوا: إن التقدير هو «إلى

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٣

حُكْمه ترجعون» كما يقال أحياناً: «رَجِعْ أَمْرُ الْقَوْمِ إِلَى الْأَمِيرِ».

ولكن هل من الصحيح أن نعتبر حذف مثل هذه الكلمة فى جميع الآيات؟ وما هو الداعى أساساً للتقدير والقول بالحذف؟، بل إن

هناك سبب خاص لهذا التعبير القرآنى حتماً والذى يجب علينا البحث عنه من خلال سعيينا المتواصل، ومن أجل الحصول على جواب

لهذا السؤال علينا أن نعود إلى بداية خلق الإنسان.

خاطب تعالى الملائكة في القرآن بقوله: «فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ». (الحجر / ٢٩)

مِمَّا لا شك فيه أنه لا يُقَصِّد من الروح في الآية الروح التي انفصلت عن ذاته تعالى وذلك لأنه واجب الوجود وأنه بسيط وفاقدا للأجزاء التركيبية في جميع الأبعاد، بل المقصود هو نفخ روح منفصلة عن روح عظيمه، والتي هي من أشرف مخلوقات الله، (وباصطلاح الحكماء إن هذه الإضافة هي «إضافة تشريفية»).

وعلى هذا فإن روح الإنسان الرفيعة سيقت من العالم العلوي إلى العالم الترابي واتحدت بهذا التراب المظلم، كي ترقى إلى درجات الكمال ثم تنفصل عن التراب وتعود إلى العالم العلوي ثانية.

ومن الصحيح أن الجسم والروح كلاهما يعادان في يوم القيامة طبقاً لمبنى المعاد الجسماني، ولكن ينبغي الالتفات إلى أن الروح هناك لا تعود إلى الجسم بل الجسم هو الذي يعود إليها فيرتقى ويتكامل! ولذلك فإن الجسم الاخرى يخلو من النواقص والعاهات الجسمية التي حلت به في الدنيا، فتلف وفساد الأبدان والكهولة وقابلية الفناء والألم والمرض والتعب كلها تزول في ذلك اليوم (فتأمل).

ولتصوير مسألة حلول الروح في البدن ومن ثم العودة إلى العالم العلوي فقد شبه بعض العلماء روح الإنسان بالغواص الذي يربط في رجله جسم ثقيل للغوص في أعماق البحر لاستخراج الجواهر الثمينة، فإنه عندما يصل إلى قعر البحر ويجمع الجواهر يلقى بذلك الجسم الثقيل من أجل العود إلى سطح البحر، وهذا هو معنى «الرجوع» (فتأمل).

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٤

النتيجة:

وخلاصة البحث أن يوم الحساب له مراحل ومواقف عبر القرآن المجيد عن كل منها بتعبير خاص.

فأولاً: جرى البحث عن «قيام الساعة» وتحولات العالم.

ثم يصل البحث إلى مرحلة «احياء الموتى» .

بعد ذلك يبعثهم الله وتبدأ مرحلة «البعث».

ثم يجمعهم، وهذه هي مرحلة «الحشر» وبعد ذلك يفرقهم وهذه هي مرحلة «النشر».

ثم يعيدهم إليه وهذه هي مرحلة «المعاد».

ثم يسوقهم إلى لقائه وهذه هي مرحلة «لقاء الله».

وأخيراً يتجهون نحو ذلك الوجود اللامتناهي والكمال المطلق وهذه مرحلة «الرجوع» إلى الرب.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٥

للقيامة سبعون عنواناً في القرآن

إشارة

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٧

للقيامة سبعون عنواناً في القرآن

تمهيد:

إشارة

بعد أن تعرضنا للتعبيرات العامة التي أوردناها في البحث الماضي نلاحظ أن القرآن انتخب «للمعاد» أسماء كثيرة تشير جميعها إلى جزئيات أوصاف ذلك اليوم العظيم، والمسألة الملفتة للنظر هي أن القرآن المجيد لا يعبر عن القيامة بتعبير واحد وذلك بسبب ما يظهر في يوم القيامة من حوادث مختلفة ومتنوعة كثيرة، وكل واحد من تلك الأحداث تمثل وجهاً وبعداً من أبعاد ذلك اليوم. إن القرآن ومن أجل توضيح هذه الخصائص والمميزات، ذات الآثار التربوية العميقة استخدم أسماء متنوعة؛ وذلك لإعطاء صورة دقيقة من خلال الآيات لذلك اليوم العظيم والأحداث المهيبة جداً.

ولا شك أن المقصود من «الاسم» هنا ليس هو «الاسم العَلَم الشخصي» بل ما هو أوسع معنى والذي يشمل «الأسماء الوصفية» أيضاً، أى العناوين التي تعتبر عن صفات ذلك اليوم ومميزات تلك الحياة.

بعد هذه الإشارة نذهب لتتعرف على أسماء القيامة في القرآن، ونود أن نذكر القراء الكرام ثانيةً بهذه المسألة وهي أن التعمق في هذه الأسماء له آثار تربوية عميقة وله تأثير كبير في تهذيب النفوس وإصلاح القلوب والدعوة إلى التقوى والردع عن ارتكاب السيئات في الصحو والغفلة.

قال المرحوم «الفيض الكاشاني» في «المحجّة البيضاء»: «... تحت كل اسم من أسماء القيامة سرّ، وفي كلّ نعتٍ من نعوتها معنى، فاحرص على معرفة معانيها، ونحن الآن نجمع

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٨

لك أساميها...». ثم ذكر مائة اسم ليوم القيامة (١).

ولم يأت ذكر هذه الأسماء جميعها في القرآن المجيد، بل استخرج قسم منها من الأحاديث الشريفة، لذلك فهي خارجة عن بحثنا التفسيري، ونحن لا نتابع فعلاً إلا أسماء القيامة الواردة في القرآن. هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن الأسماء التي ذكرها الفيض الكاشاني لم ترد لا في صريح القرآن ولا في صريح الأحاديث، بل هي استنباطات إجمالية من الكتاب والسنة، لذا من الأفضل متابعة الأسماء التي صرّح بها في القرآن المجيد (وليس المهم أن تكون تلك الأسماء من الأسماء الخاصة التي لها عدد محدد أو مما يقصد بها الوصف والبيان لخصوصيات ذلك اليوم).

ويمكن تقسيم تلك الأسماء إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول:

إشارة

الأسماء المركبة من كلمة «يوم» بإضافة كلمة أخرى وهذه الأسماء تبين أحد أبعاد أو خصوصيات ذلك اليوم، وهي عبارة عن:

١- يوم القيامة

هذا الاسم هو من أشهر أسماء ذلك اليوم، وقد تكرر ذكره بالتحديد سبعين مرّة في القرآن المجيد، فمنها قوله تعالى: «وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ». (الأنبياء / ٤٧)

وللجواب عن سبب تسميته بيوم القيامة فالقرآن نفسه يميّط اللثام عن هذا السر فيقول: لأَنَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ هُوَ: «يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ». (المطففين / ٦)

وهو يومٌ يقوم فيه أشرف ملائكة الله الذي يسمى «الروح» مع سائر الملائكة، وفيه أيضاً

(١) المحجّة البيضاء، ج ٨، ص ٣٣١.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٩

يقوم الشهود للشهادة على أعمال الناس: «وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ». (غافر / ٥١)

وأخيراً في ذلك اليوم يقوم الحساب: «يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ». (إبراهيم / ٤١)

إنّ هذا الأمر من الامور المتبّعة في المحاكم، فعند اعلان رأى المحكمة يقوم جميع الحاضرين من القضاة والمتهمين وغيرهم ثم يُعلن الرأى النهائى، فهذا القيام لأجل احترام رأى المحكمة والخضوع أمامه.

وفضلاً عن هذا الأمر فإنّ الإنسان إذا أراد أن ينجز عملاً جاداً فإنه يقوم حتى يتهيأ لإنجازه، لذلك فإنّ مسألة «القيام» تدل على الإرادة الصلبة والتهيؤ والاحترام لانجاز مثل هذا العمل، ومن المحتمل إن تكرار كلمة «القيام» في القرآن المجيد هو لهذه العلة.

بالإضافة إلى ذلك فإنّ قيام الموتى وخروجهم من القبور من أحد أسباب تلك التسمية.

جاء في حديث عن الإمام على بن الحسين عليه السلام: «أشدُّ ساعات ابن آدم ثلاث ساعات:

الساعة التي يُعابن فيها ملك الموت، والساعة التي يقوم فيها من قبره، والساعة التي يقف فيها بين يدي الله تبارك وتعالى «١».

٢- اليوم الآخر

اليوم الآخر هو الاسم الثانى، وهو مشهور ومعروف وورد بشكل واسع في القرآن المجيد مثل: «الدار الآخرة» و «اليوم الآخر» وجاء باختصار مثل «الآخرة» وقد تكرر ذكر هذه الأسماء مائة وأربعين مرّة في القرآن المجيد وفي سورٍ مختلفة.

ورد في توضيح معنى البرّ، قوله تعالى «وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ». (البقرة / ١٧٧)

وفي عبارة اخرى قال تعالى «تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا». (القصص / ٨٣)

(١) بحار الانوار، ج ٧، ص ١٠٥، ح ١٩.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٤٠

وفي تعبير آخر أيضاً قال تعالى: «وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ». (البقرة / ٤)

أمّا التعبير ب «اليوم الآخر» أو «الدار الآخرة» أو «الآخرة» فيقع مقابل التعبير عن دار الدنيا ب «النشأة الاولى كما جاء في قوله تعالى «وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ».

(الواقعة / ٦٢)

وفي آية أخرى أيضاً: «وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ». (الضحى / ٤)

قال فقهاء اللغة: إنّ «الآخر» هو ما يقابل الاول، و «الآخر» هو ما يقابل «الواحد».

قال المرحوم الطبرسى في مجمع البيان: سميت الآخرة بذلك لكونها بعد الدنيا، والدنيا من أجل دنوّها من الناس سميت بالدنيا (من مادة دُنُو) وقال آخرون من أجل دنائتها وضععتها بالنسبة للآخرة «١».

وجاء في تفسير روح البيان وتفسير الفخر الرازى أيضاً ما يشابه ذلك «٢».

وهذا التعبير يبين هذه الحقيقة، وهي أن مسير تكامل الإنسان يبدأ من هذا العالم ويستمر، وأن العالم الآخر هو نهاية هذا المسير، فالدنيا هي بمثابة منزل استراحة في وسط ذلك الطريق، والآخرة هي المقر النهائي والأبدى. وهذا هو تحذير لجميع البشر كي لا- يعتبروا الدنيا منزلاً للخلود وكي لا- تتعلق بها قلوبهم ولا يعتبرونها الهدف الرئيسي ولا يبذلوا قصارى جهدهم للحصول على نعيمها، بل يجعلوها ممراً للوصول إلى دار الآخرة.

٣- يوم الحساب

«يوم الحساب»: أيضاً من الاسماء المشهورة للقيامة، وقد ورد في خمس آيات من القرآن الكريم، والسبب في هذه التسمية هو أن جميع أعمال الإنسان صغيرها أو كبيرها،

(١) تفسير مجمع البيان، ج ١، ص ٤٠.

(٢) تفسير روح البيان، ج ١، ص ٤١؛ وتفسير الكبير، ج ٢، ص ٣٢.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٤١

جزئية أو كلية، معنوية أو مادية، من أعمال الجوارح أو الجوانح، يشملها الحساب بدون استثناء في ذلك اليوم. جاء في قوله تعالى على لسان موسى بن عمران عليه السلام: «وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ». (غافر/ ٢٧)

وعبر عن ذلك تارة ب «يَوْمُ يَقُومُ الْحِسَابُ». (إبراهيم/ ٤١)

ورد في مقاييس اللغة أربعة معان لمادة «حساب»: «العدُّ» و «الاكتفاء» و «الحسبان» بمعنى الوسادة الصغيرة و «احسب» أى الذى ابيض لون بشرته وسقط شعر رأسه إثر المرض.

وذكر عدد من أصحاب اللغة معانى أكثر للحساب، وقد بلغت سبعة معانٍ، منها الجزاء والعذاب «١».

ولكن الظاهر على ما يفهم إجمالاً من مفردات الراغب إن جميع تلك المعانى المذكورة تعود إلى معنى واحد وهو المحاسبة، وإن استعمل بمعنى الاكتفاء فهو يعنى أن هناك محاسبة وصلت إلى حد الاكتفاء، وهكذا فى الجزاء فإنه يعنى أن الجزاء يأتى بعد الحساب، والمعانى الأخرى أيضاً تعود إلى هذا المعنى بنحو ما (فمثلاً، السبب فى اطلاقه على نوع من الأمراض الجلدية هو تشبيهه بالمجازاة الإلهية التى تتم بعد الحساب، ومن المحتمل أن اطلاق حسابان على الوسادة الصغيرة لأن المحاسبين عند انجاز عملية الحساب يتكثرون عليها).

على أية حال فإن الحساب الإلهي- الذى سيأتى توضيح كيفيته بعون الله فى أبحاث منازل الآخرة- من أبرز الأعمال التى تمارس يوم القيامة، وفى الواقع أن قيام يوم القيامة إنما هو لأجل الحساب.

(١) نهاية ابن الأثير؛ ولسان العرب.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٤٢

٤- يوم الدين

استعمل هذا الاسم أيضاً بشكل واسع فى القرآن الكريم، وقد بلغ عدد الآيات التى ورد فيها التعبير ب «يوم الدين» ثلاثة عشر آية، وأكثر ما يرد على الألسن هو ما جاء فى سورة الحمد: «مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ».

يعتقد بعض أصحاب اللغة أن «دين في الأصل بمعنى الخضوع والطاعة والانقياد، وإذا اطلقت هذه الكلمة على معنى الجزاء فإنه إما من أجل وجوب قبول الجزاء أو من أجل أن الجزاء من مخلفات الطاعة».

وفُسِّر يوم الدين أيضاً بمعنى يوم الحساب في بعض الروايات، وهو في الواقع من قبيل ذكر العلة واردة المعلول؛ وذلك لأنَّ الحساب مقدمة للجزاء.

٥- يوم الجمع

ورد هذا التعبير مرتين في القرآن المجيد، منها قال تعالى «يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ». (التغابن / ٩) وأخرى «لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ». (الشورى / ٧)

وكيف لا يكون ذلك اليوم يوم الجمع حيث إنَّ جميع الاولين والآخرين وجميع الجن والانس وحتى الملائكة المقربين يجمعون في ذلك اليوم، ولم يُجْمَعوا لوحدهم فحسب بل يجمعون مع جميع أعمالهم، فيتأهبون للمثول امام محكمة العدل الإلهي.

وقد ورد هذا الاسم بصورة أخرى «ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ». (هود / ١٠٣)

٦- يوم الفصل

«يوم الفصل» (يوم الافتراق) هو اسم آخر من اسماء يوم القيامة، وقد تكرر ذكر هذا نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٤٣

الاسم في القرآن المجيد ست مرات «١»، قال تعالى «إِنَّ يَوْمَ الْفُضْلِ كَانَ مِيقَاتًا». (النبأ / ١٧)

إنَّ هذا التعبير عميق جداً يدلُّ على الافتراق في ذلك اليوم العظيم مثل: افتراق الحق عن الباطل وافتراق صفوف المؤمنين والصالحين عن صفوف الكفار والمجرمين وافتراق الأخ عن أخيه والام والأب عن الأبناء وافتراق مصير الصالحين عن مصير (الطالحين) الفاسقين. ويأتي هذا التعبير تارةً بمعنى يوم القضاء والتحكيم؛ ذلك لأنَّ القاضى يفصل النزاع بحكمه، لذا أُطلق «الفصل» على الحكم والقضاء لأنه السبب في نهاية النزاع.

٧- يوم الخروج

جاء هذا التعبير في آية واحدة من القرآن المجيد في سورة ق الآية ٤٢ وذلك من خلال الإشارة إلى نفخ الصور الثاني، قال تعالى «ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ». (ق / ٤٢)

نعم، إنه يوم الخروج من الموت إلى الحياة ومن عالم البرزخ إلى عالم الآخرة ومن الباطن إلى الظاهر ومن الخفاء إلى العلن!

وجاء هذا المعنى بصورة أخرى قال تعالى «يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ» «٢». (المعارج / ٤٣)

ويدلُّ هذا التعبير على أن أحداث يوم القيامة في أول الأمر تمرُّ بسرعة هائلة، وفي نفس الوقت استعمل هذا التعبير للطعن والاستهزاء بعبدة الأوثان الذين يعتبرون الأوثان من أهم الامور في حياتهم، وقد استقطبت الأوثان أكثر أصحاب العقول الناقصة، فقد وصلوا إلى حدِّ

(١) الصافات، ٢١؛ الدخان، ٤٠؛ المرسلات، ١٣ و ١٤، ٣٨؛ النبأ، ١٧.

(٢) «سراع» جمع «سريع» (على وزن ظراف وظريف) بمعنى الشخص أو الشئ الذي يسير بسرعة. و «نُصْب» جمع «نصيب» و «نُصْب» «نُصْب» على وزن (كشِب) في الأصل بمعنى الشئ الذي ينصب في مكان ما، لذا لم يطلق إلا على المحل الذي يُنصب فيه. قالوا إن

الفرق بين النصب والصنم هو أن الصنم له شكل معين لكن النصب حجر خالٍ من أى صورة، وكانوا يعظمونه ويذبحون له القرابين. نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٤٤

من الجهل جعلهم يعتبرون الهرولة نحو الأصنام من اوضح مصاديق «الاسراع» فى العبادة، إذ كانوا يعدون بسرعه نحو الأوثان فى أيام الفرح أو أيام العزاء أو عند العوده من السفر ومن هنا يظهر السر المكنون فى هذه الآيه.

٨- اليوم الموعود

ورد هذا التعبير مرّة واحدة فى آية واحدة من القرآن أيضاً بصورة قسّم عظيم حيث قال تعالى: «وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ»، (أى اليوم الذى هو موعد الجميع وقد وعد جميع الأنبياء بذلك).

(البروج / ٢)

وفسّر بعض المفسرين اليوم الموعود على أنه إشارة ليوم الخروج من القبور أو اليوم الذى يشفع فيه النبى الأكرم صلى الله عليه وآله، ولكن المعنى الأول يشمل جميع هذه المعانى «١».

وورد هذا القسّم فى القرآن المجيد بعد القسم: «وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ»، هو إشارة إلى عظمه ذلك اليوم وأنّ عظمته كعظمه السماء، أو إشارة إلى أن خلق هذه السماء العظيمة وذلك النظام الدقيق المهيم عليها لا يتم إلّا من أجل ذلك اليوم الموعود؛ ذلك لأنّ هذه الدنيا الفانية لوحدها لا تستحق مثل هذا النظام العظيم المترامى الأطراف.

ومهما يكن من أمر فقد ورد تعبير آخر يشابه هذا التعبير، قال تعالى «فَسَدَرُهُمْ يُخَوِّضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ» «٢». (الزخرف / ٨٣)

٩- يوم الخلود

لم يرد هذا التعبير فى آيات القرآن إلّا مرّة واحدة فى قوله تعالى: «أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ

(١) تفسير روح المعانى، ج ٣٠، ص ٨٦.

(٢) ورد ما يشابه هذا التعبير فى الآية ٤٣ من سورة المعارج؛ والآية ٦٠ من سورة الذاريات أيضاً.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٤٥

يَوْمِ الْخُلُودِ». (ق / ٣٤)

ورد هذا التعبير بعد وصف «الجنة» فى آيات سورة ق، وإن دلّ على شىء فإنّه يدلّ على خلود ودوام تلك النعمة الإلهية والمكافأة العظيمة وجميع نعمه تعالى التى وهبها للمحسنين إلى الأبد، وفى الحقيقة إنّ يوم الخلود يبدأ من وقت الدخول إلى الجنة.

وهذا التعبير يؤيد بوضوح ما قلناه مسبقاً وهو أنّ كلّ واحد من أسماء وصفات القيامة يحمل فى طياته إشارة إلى أحد أبعادها، والكلام هنا عن الدوام الأبدى، ومن الطبيعى أنّ عذاب جهنم كذلك ولكن لم يعبر القرآن ب «يوم الخلود» إلّا فى هذا المورد، أمّا بشأن جهنم فيوجد تعبير مشابه آخر وهو «دار الخلد» قال تعالى «ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ». (فصلت / ٢٨)

١٠- يوم عظيم

ورد اطلاق وصف اليوم العظيم فى آيات متعددة من القرآن المجيد، منها: قوله تعالى

«فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ» «١». (مریم / ٣٧)

ومن الجدير بالذكر أنّ التعبير بـ «عذاب يوم عظيم» جاء أيضاً في آيات القرآن في موارد العذاب الدنيوي المهيب، وبمجرد البحث في الآيات السابقة واللاحقة يمكن تمييزه عن عذاب يوم القيامة بسهولة. على أية حال فإنّ نعت ذلك اليوم بالعظمة إنّما جاء لأمرٍ مهمّة كثيرة تحصل في ذلك اليوم العظيم مثل: المكافأة والمجازاة العظيمة، والقضاء والحساب العظيم، والحضور العظيم للمخلوقات في ذلك اليوم، وعظمة امتداد ذلك اليوم، وعظمة الخوف والرهبّة والفرع، وهيبّة المحشر والحساب، وفي عبارة مختصرة هي العظمة في جميع جوانبها.

(١) جاء أيضاً ما يشابه هذا التعبير في الآية ١٥، يونس؛ ١٥، الانعام؛ ٥٩، الاعراف؛ ١٣٥، الشعراء؛ ٢١، الاحقاف؛ ١٣؛ الزمر؛ ٥، المطففين.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٤٦

١١- يوم الحسرة

ورد هذا التعبير في آية واحدة من القرآن وهو من التعبيرات التي تهز المشاعر عن يوم القيامة، فهو يوم الحسرة والأسف والندامة، قال تعالى: «وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ». (مريم / ٣٩) «الحسرة»: من مادة «حَسِرَ»، قال صاحب (المفردات) وصاحب (مقاييس اللغة) وعدد آخر من اللغويين: إنّها بمعنى الكشف، فمعنى حسرت عن الذراع كشفت عنها ورفعت عنها الكُم، ثم اطلقت كلمة حسرة على الغم والهم الحاصل من ضياع الفرص أو بعض الامور، فكأن حجاب الجهل يُرفع عن الإنسان فيكتشف اضرار الأعمال التي كان يمارسها وتظهر له الحقيقة على ما هي. لكن البعض الآخر يعتبر الأصل في الحسر هو «الانسحاب»، ولكن الحقيقة أنّ الانسحاب من لوازم المعنى الأول، فعندما ينسحب ماء البحر إلى الخلف مثلاً فإنّ من الطبيعي أن تظهر السواحل التي كان يغطيها الماء، أو عندما يسحب الإنسان كُمّه إلى الخلف فإنّ ذراعه سوف تنكشف «١».

على أية حال فإنّ الحزن والأسف والندامة من لوازم مفهومه، وأنّ يوم القيامة هو يوم الهم والندامة والحسرة حقاً، لا للمذنبين فحسب بل للمحسنين أيضاً؛ ذلك لأنّهم عندما يشاهدون المكافآت الإلهية العظيمة فإنّهم يتأسفون على أنّهم لماذا لم يحسنوا أكثر ممّا احسنوا؟!.

وقد صرح بهذا عدد من المفسرين «٢»، إلّا أنّ الفخر الرازي يقول: إنّ الحسرة لا تشمل أصحاب الجنّة بل تكون من نصيب المسيئين فقط وذلك لعدم إمكان وجود أي غم أو هم في الجنّة «٣».

(١) التحقيق، ج ٢.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٦، ص ٥١٥؛ وتفسير روح البيان، ج ٥، ص ٣٣٥؛ وتفسير روح المعاني، ج ١٦، ص ٨٥.

(٣) تفسير الكبير، ج ٢١، ص ٢٢١.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٤٧

ولكن يجب الاعتراف بأنّ غمًا كهذا هو نوع من الكمال وليس منبعاً للعذاب الروحي، وبناءً على هذا فإنّ وجوده في الجنّة لا مانع منه (فتأمل).

فإن كان التأسف والحسرة ممّا يجبر في هذه الدنيا فإنّه لا مجال لذلك هناك، ولذا يجب أن يسمى ذلك اليوم بيوم الحسرة الحقيقية والحسرة الكبرى وقد جاء نفس هذا المعنى ولكن بصورة اخرى «أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ» «١».

(الزمر / ٥٦)

١٢- يوم التغابن

ورد هذا التعبير في القرآن مرة واحدة وذلك في قوله تعالى: «يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ». (التغابن / ٩)

«التغابن»: من مادة «غَبَنَ» وهنا جاءت بمعنى انكشاف الغبن، أى يظهر فى ذلك اليوم من هو المغبون «٢».

قال المرحوم الطبرسى فى مجمع البيان: «وهو تفاعل من الغبن وهو أخذ شر وترك خير أو العكس، فالمؤمن ترك حظه من الدنيا وأخذ حظه من الآخرة فترك ما هو شر له وأخذ ما هو خير له فكان غابناً، والكافر ترك حظه من الآخرة وأخذ حظه من الدنيا فترك الخير وأخذ الشر فكان مغبوناً، فيظهر فى ذلك اليوم الغابن والمغبون».

وفى صحاح اللغة «الغبن» بمعنى الخدعة والمكر، والمغبون من وقع ضحية الخداع والمكر، وعندما تستخدم فى موارد التفكير والتعقل فإنها تعنى الضعف وعدم الاقتدار، لذا «غبن» جاءت بمعنى ضعيف الفكر.

على أية حال ففى يوم القيامة يكشف عن الحُجب وتظهر نتائج الأعمال والاعتقادات

(١) ورد أيضاً ما يشابه هذا المعنى فى سورة الانعام الآية ٣١.

(٢) مفردات الراغب.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٤٨

والتيات، ويرى الإنسان نفسه بين كميته عظيمة من نتائج وآثار أعماله، وهناك يُخبر المسيئون عن خسارتهم وفشلهم وعن خداع ومكر الشيطان وعن ضياع رأس مالٍ عظيم وعن فقدانهم للسعادة الخالدة والوقوع فى مخاطب العذاب الإلهي، وهذا هو الغبن الحقيقي.

١٣- يوم التناد

ورد هذا التعبير مرة واحدة أيضاً فى القرآن المجيد عندما كان مؤمن آل فرعون يحذّر الفراعنة من العذاب الإلهي الذى يحلُّ بهم فى الدنيا والآخرة، قال تعالى «وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ». (غافر / ٣٢)

«التناد»: جاء فى الأصل من «التنادى» حذفت ياءه وضيفت الكسرة فى آخره للدلالة على حذف الياء، وهو من مادة «نداء».

ذهب كثير من المفسرين إلى أن «يوم التناد» من أسماء القيامة «١»، وجاء كل منهم بدليل لاثبات مدعاه.

قال بعضهم: إن الدليل عليه هو أن أصحاب النار ينادون أصحاب الجنة كما فى الآية الكريمة: «وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ» فيجيبهم أهل الجنة: «قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ». (الاعراف / ٥٠)

نقل هذا المعنى فى كتاب «معانى الأخبار» خلال حديث روى عن الإمام الصادق عليه السلام.

وقال آخرون: إن العلة فى هذه التسمية هى أن الناس فى يوم الحشر ينادى بعضهم بعضاً يطلبون العون.

أو أن الملائكة تنادى الناس للحساب وينادى الناس الملائكة لطلب العون! أو لأن المؤمن عندما يرى صحيفة أعماله ينادى من شدة الفرح: «هَأْوُمُ اقْرَأُوا كِتَابِيهِ». (الحاقة / ١٩)

وينادى الكافر عندما يعطى كتابه بيده من شدة الفزع: «يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهِ».

(١) ادعى الفخر الرازى فى تفسيره (الكبير ج ٢٧، ص ٦١) الإجماع واتفق المفسرين على هذا القول.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٤٩

(الحاقه/ ٢٥)

وهناك وجوه اخرى ذكرت لهذه التسمية، ففي بعض التفاسير عدوها ثمانية وجوه، ولكن بعض تلك الوجوه ضعيفه، ومن الممكن أن جميع هذه المعاني قد جمعت في مفهوم الآية وذلك لعدم المنافاه.

١٤- يوم التلاق

ورد هذا التعبير مره واحده في القرآن المجيد في قوله تعالى: «يُلَقَى الرُّوحُ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ». (المؤمن/ ١٥)

المراد من لقاء الروح بقرينه الآيات الاخرى هو الوحي والكتب السماويه، كما جاء في خطابه تعالى للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله في قرآن الكريم: «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا». (الشورى/ ٥٢)

وعلى هذا الأساس فإن القرآن المجيد روحٌ نُفِخَتْ في المجتمع الإنساني من قبل الله عزوجل! قال الراغب في المفردات: سُمِيَ القرآن روحاً لأنه هو السبب في إيجاد الحياه المعنويه. والهدف من لقاء هذه الروح هو الانذار من هول يوم التلاقي العظيم.

إن كل أنواع اللقاءات التي جمعت في مفهوم الآية تحصل في ذلك اليوم، وإن أشار المفسرون إلى بعض زوايا تلك اللقاءات. إنه اليوم الذي يلتقى فيه العباد بربهم: «يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ». (الانشقاق/ ٦) وهو اليوم الذي يلتقى فيه الإنسان بملائكته الحساب والثواب والعقاب: «وَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ». (الأنبياء/ ١٠٣) وهو اليوم الذي يلتقى فيه الإنسان بحساب الأعمال والأقوال: «إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٥٠

حَسَابِيهِ». (الحاقه/ ٢٠)

إنه اليوم الذي يلتقى فيه الأولون والآخرون.

يوم تلاقى دعاه الحق ودعاه الباطل بأعوانهم.

يوم تلاقى الظالم والمظلوم.

يوم تلاقى أهل الجنة وأهل النار!

نعم، إن الهدف الرئيس من بعث الأنبياء ونزول الكتب السماويه هو تحذير وانذار العباد من ذلك اليوم، يوم التلاقي العظيم وما أعجبه من مفهوم واسع ورهيب.

١٥- يوم ثقيل

وهذا الاسم أيضاً من الأسماء التي وردت مره واحده في قوله تعالى: «إِنَّ هَؤُلَاءِ يُجِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا». (الإنسان/ ٢٧)

إن نعت ذلك اليوم بالثقل هو وصف واسع وعميق المعنى ثقيل من حيث المحاسبه و ثقيل من حيث المجازات و ثقيل من حيث الفضائح و ثقيل من حيث شدائد الحشر و ثقل المسؤوليات و ثقيل من حيث الذنوب التي تثقل كاهل المجرمين! و يعتبر ب «يذرون وراءهم» مع أن القاعدة تقتضى أن يقال «أمامهم» وذلك من أجل الإشعار بأن المجرمين نسوا ذلك اليوم إلى حدٍ كأنه تركوه وراءهم.

١٦- يوم الآزفة

إن كل اسم من أسماء يوم القيامة يحمل في طياته خطاباً متميزاً، ومنها اسم «يوم الآزفة» الذي ورد مرة واحدة في القرآن المجيد (التعبير ب «الازفة» ورد مرتين، ولكن «يوم الازفة» مرة واحدة) قال تعالى «وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطْمِينٍ».

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٥١

(المؤمن / ١٨)

«الآزفة»: من مادة «أزف» على وزن (صدف)، قال في مقاييس اللغة والمفردات ومصباح اللغة وكتب اخرى أزف بمعنى اقترب، ولكن البعض الآخر قال إنها بمعنى الاقتراب المشوب بضيق الوقت.

هذه التسمية تشير إلى هذه الحقيقة وهي أن موعد وقوع القيامة اقرب مما يتصوره الناس، كى لا يقول الغافلون لدينا متسع من الوقت وأن يوم القيامة موعد مؤجل! فإنه يوم قريب تصل القلوب فيه إلى الحناجر من شدة الخوف وتبلغ الروح الحلقوم، إن الهم المشوب بالخوف فى ذلك اليوم يخنق الناس.

نعم يجب التأهب فى كل لحظة لمثل هذا اليوم.

وقد أشار القرآن الكريم وبتعبير آخر إلى نفس هذا المعنى فى الآية الاولى من سورة الأنبياء: «اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ»، وهو إشارة إلى أن حساب يوم القيامة قريب جداً.

ولابد من الالتفات إلى أن جملة (اقترب) فيها تأكيد للمعنى أكثر من (قرب) وهو إشارة إلى أن يوم الحساب قريب جداً.

فالقرآن الكريم - لقب القيامة وحتمية وقوعها - أخبر عنها بصيغة الماضى فى كثير من تعبيراته، مثل قوله تعالى «إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا» * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا».

(الفرقان / ٦٥-٦٦)

وغيرها من الآيات الشريفة.

١٧- يوم عسير

ورد هذا التعبير مرتين فى القرآن المجيد فى الآية الاولى: «فَذَلِكِ يُؤْمِنُ يَوْمَ عَسِيرٍ».

(المدثر / ٩)

وفى الآية الثانية: «وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا». (الفرقان / ٢٦)

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٥٢

وورد هذا التعبير مرة واحدة بلفظ «عسير» (على وزن حشن) قال تعالى «يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ» «١». (القمر / ٨)

من البديهي أن يكون ذلك اليوم منهكاً ومؤلماً ومحزناً للكافرين، بنحو ينهار فيه القوى منهم ويصبح عاجزاً ذليلاً منهك القوى يقول الفخر الرازى فى تفسيره: «عسر ذلك اليوم على الكافرين لأنهم يناقشون فى الحساب ويعطون كتبهم بشمائلهم وتسود وجوههم ويحشرون زرقاً وتتكلم جوارحهم فيفتضحون على رؤوس الاشهاد» «٢».

وهذه إحدى مراحل صعوبات المحشر، والمراحل الاخرى أصعب واكبر بلاءً من تلك المرحلة عندما يساقون إلى جهنم ثم يرون أنواع العذاب ويقعون فى نار الغضب الإلهي، فذلك اليوم ليس بيسير حتى على المؤمنين، إن حساب جميع الأعمال حتى إذا كان بمثابة ذرة والعبور من تلك المسالك الصعبة أمر عسير جداً.

١٨- يوم اليم

ورد هذا التعبير مرتين أيضاً في القرآن المجيد (وإن وردت كلمة «أليم» مجردة عشرات المرات في وصف عذاب القيامة في سور مختلفة من القرآن الكريم).

إحداها في سورة هود نقلاً عن لسان النبي نوح عليه السلام عندما كان يخاطب قومه، قال تعالى:

«إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ». (هود/ ٢٦)

والاخرى في سورة الزخرف عن لسان الوحي الإلهي: «قَوْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ أَلِيمٍ». (الزخرف / ٦٥)
إن وصف ذلك اليوم بالأليم ليس من حيث العذاب المؤلم فحسب، بل علاوة على

(١) «عسير» و «عسر» كلاهما صفة مشبهة.

(٢) تفسير الكبير، ج ٣٠، ص ١٩٧.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٥٣

هذا فإن ذلك اليوم هو مصدر الألم والعذاب من عذة وجوه، من حيث الفضيحة ومن حيث الندامة والحسرة القائلة، ومن حيث أنواع الآلام الروحية الاخرى فمثلاً الإنسان الذي يرى الآخرين قد دخلوا الجنة بواسطته في حين يجد نفسه من أهل النار، وأليم لعدم إمكان العودة ثانية وأليم لدوام العذاب في ذلك اليوم.

ومن الجدير بالذكر هو أن إحدى الآيتين السابقتين تحدثت عن المشركين والاخرى تحدثت عن الظالمين، ونحن نعلم بأن الشرك نوع من الظلم، وأن الظلم والاضطهاد أيضاً هو من دوافع الشرك على نوعيه الجلي والخفي.

١٩- يوم الوعيد

وردت هذه التسمية مرة واحدة في القرآن المجيد بأجمعه حيث قال تعالى: «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ». (ق / ٢٠)

ولا يخفى أن كلمة «وعيد» تكرر ذكرها في القرآن كثيراً، ولكن التعبير «يوم الوعيد» لم يرد إلأى مرة واحدة.

كلمة «وعيد» اشتقت من مادة «وعد»، قال الراغب في المفردات: «وعد» تستعمل في موارد الخير والشر معاً، ولكن «وعيد» لا تستعمل إلأى موارد الشر، ولذا فسرها «ابن منظور» في لسان العرب بالتهديد، وكلمة «إيعاد» جاءت بهذا المعنى أيضاً.

على أية حال فإن هذا التعبير إشارة عميقة إلى جميع أنواع عقوبات يوم القيامة، فهو إشارة إلى عقوبات المحشر وإلى محكمة العدل الإلهية وإلى عقوبات النار وجميع العقوبات المادية والمعنوية مثل الخزي أمام الناس والبعد عن فيض وقرب الرب.

وللمفسرين أقوال في مسألة نفخ الصور التي وردت في هذه الآية، فهل هو نفخة الموت وانتهاء الحياة الدنيا، أم هي نفخة عودة الحياة وبداية الآخرة؟ ولكن جاء في الآية التالية لهذه الآية: «وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ». (ق / ٢١)

وهذا دليل على أن المراد منها هو النفخ الثاني وهذا اليوم (يوم الوعيد) هو نفس ذلك

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٥٤

اليوم أيضاً «١».

٢٠- اليوم الحق

ورد هذا التعبير مرة واحدة أيضاً في القرآن المجيد، وقد عبّر به عن يوم القيامة، قال تعالى: «ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ». (النبأ/ ٣٩)

نعم إنها حقيقة لا تنكر، وحقيقتها تعطى مفهوماً لفلسفة خلق كل ما في الدنيا، ولولا ذلك اليوم لما بقي هدف ومفهوم لخلق هذا العالم. إن الدنيا في الواقع ليست أكثر من سراب، وهي «مجاز» وليست «حقيقة»، بل هي فناء لا بقاء، وموت لا حياة، نعم إن حقيقة المفهوم

الرئيسى للحياة يتجلى فى يوم القيامة «وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ». (العنكبوت / ٦٤)

وأشار بعض المفسرين فى تفسيرهم لحقانية ذلك اليوم إلى ثلاثة أمور:

- ١- ذلك اليوم هو الحق وغيره باطل، وذلك لأن باطل أيام الدنيا أكثر من حقها.
- ٢- الحق بمعنى الوجود الثابت ولذا اطلقوا كلمة الحق على الله تعالى لأنهم قالوا باستحالة تصور الفناء له، ويوم القيامة كذلك أيضاً، وعلى هذا فإن القيامة حق.
- ٣- إن ذلك اليوم يستحق اطلاق كلمة اليوم (بمعنى النهار) عليه وذلك لأن فى ذلك اليوم المنير يُكشف عن الأسرار الخفية بينما تكون أحوال الخلق مجهولة ومكتومة فى الدنيا (كما هو الحال فى الليل) «٢».

٢١- يوم مشهود

(١) رَجَّحَ هذا المعنى كثير من المفسرين مثل أبو الفتوح الرازى والعلامة الطباطبائى والفخر الرازى والآلوسى فى روح المعانى والمراعى فى تفسيره عند تعليقه على تلك الآية.

(٢) التفسير الكبير، ج ٣١، ص ٢٥.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٥٥

ورد هذا الوصف مرّة واحدة أيضاً فى القرآن المجيد وذكر ذلك اليوم بعد ذكر عذاب الآخرة، قال تعالى: «وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ». (هود/ ١٠٣)

ولا يكون ذلك اليوم مشهوداً من قبل الأولين والآخرين فحسب، بل سوف تشاهد فى ذلك اليوم الأعمال والحساب ومحكمة العدل الإلهى ومكافآت وعقوبات الأعمال أيضاً.

وعن المرحوم الطبرسى فى مجمع البيان والعلامة الطباطبائى فى الميزان أنهم قالوا: إن هذه الآية تدل على أن الإنسان لا يحضر لوحده ويشاهد ذلك اليوم بل إن الجن والملائكة أيضاً سوف يحضرون ويشهدون ذلك اليوم فإنه يوم الجمع الشامل «١».

وقال القرطبى أيضاً إن سكان السموات يحضرون ويشهدون ذلك اليوم أيضاً.

ومن البديهي أن جميع الأيام يمكن مشاهدتها، ولكن انتخاب هذا الوصف ليوم القيامة يقع تارة من حيث الدلالة على حتمية وقوعه، واخرى للدلالة على أهميته تلك الأحداث التى تقع فى ذلك اليوم والحضور الشامل لسائر الخلق فيه.

٢٢- يوم معلوم

ورد هذا التعبير مرّة واحدة أيضاً فى القرآن الكريم فى جواب استفسار الكفار عن الحياة ما بعد الموت، قال تعالى: «قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ».

(الواقعة / ٤٩- ٥٠)

إن العلم بذلك اليوم يمكن أن يكون له مفهومان:

- ١- «العلم التفصيلي» أى العلم بذلك اليوم وتاريخ وقوعه الدقيق، ونحن نعلم بأن هذا العلم يختص بالله تعالى، ولا أحد يعلم بذلك حتى الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين، لكنّه ثابت ومقطع به ومعلوم من جميع الجهات فى علم الله عز وجل.
- ٢- «العلم الإجمالى» أى العلم بأننا سوف نواجه جميعاً مثل هذا اليوم، فيما أن علمنا نابع من أعماق فطرتنا- كما سيأتى فى الأبحاث اللاحقة إن شاء الله- ومع وجود الدلائل المتعددة عن طريق العقل التى يمكن أن يحصل عليها العالم والعامى بالإجمال، وبإضافة علم

جميع الرسل والأنبياء، يكون ذلك اليوم معلوماً وحتمياً وضرورياً وإن لم يعلم

(١) تفسير الميزان، ج ١١، ص ٧؛ وتفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ١٩١ ورجح «المراعى» هذا القول في تفسيره أيضاً.
نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٥٦
أحد تاريخه بالدقة.

وأكثر المفسرين رجحوا المعنى الأول، لكن الأكثرية أخذوا بالمعنى الثانى واستدلوا على شمولية هذا العلم بكلمة «قل» وذلك لأن مفهومها يتضمن تبليغ هذا الأمر للجميع «١».

لكن يمكن الجمع بين التفسيرين فى مفهوم الآية أيضاً.
إنّ الخطاب الذى يوجهه لنا تعبير (يوم معلوم) هو أن نكون صادقين فى تعاملنا مع هذا اليوم وأن نتأهب للقائه، وأن نعلم علم اليقين بأن القيامة على أية حال واقعه بجميع آثارها وتئاتجها، وهذا العلم واليقين له أثر كبير فى التربية.

٢٣- يوماً عبوساً قمطيراً

ورد هذا التعبير مرّة واحدة أيضاً فى القرآن المجيد فى نقل خطاب «الأبرار» «٢» عند قولهم: «إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطِيرًا».
(الانسان / ١٠)

كلمة «عبوس» هى من صفات الإنسان وهذا ممّا لا يحتاج إلى تفسير، وتطلق هذه العبارة على الإنسان الذى تقطّب وجهه وكان حاله على غير مايرام، ووصف ذلك اليوم ب «عبوس» كناية حية عن وضع ذلك اليوم الرهيب المرعب، أى أنّ وقائع ذلك اليوم بلغت من الصعوبة والإيلام حدّاً كبيراً لا يكون الإنسان لوحده عبوساً فى ذلك اليوم، بل كأن اليوم بنفسه عبوسٌ مقطّب بشدّة!
و «القمطير»: عند كثير من المفسرين بمعنى «الصعب الشديد» أو الإنسان العبوس السيئ الخلق، وبناءً على هذا يكون مفهومه قريباً من مفهوم العبوس، ثم إنّ هذه الكلمة مشتقة من مادة «قطر» على وزن (قفل) والميم زائدة فيها، وقيل إنّها مشتقة من مادة «قمطر» (عى وزن خنجر).

(١) تفسير الكبير، ج ٢٩، ص ١٧٢.

(٢) والمعلوم أنّ هذه السورة نزلت فى بيان شأن الإمام على وفاطمة والحسن والحسين (سلام الله عليهم أجمعين) الذين هم فى الركب الأول من «الأبرار والصالحين».

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٥٧

على أئمة حال فإنّ التعبير المذكور يشير إلى أن أحداث ذلك اليوم تبلغ من الصعوبة والشدّة والألم درجة يجعل آثارها تظهر من بواطن الناس على وجوههم، ويسيطر الخوف والاضطراب على تمام وجودهم، وذلك لأنّ أحداثاً لا يعلم إلى أين ينتهى مصيره، والجميع ينتظرون الحساب وينتظرون لطف الله.

قال بعض المفسرين فى شدّة هذا اليوم: سبحان الله ما أشدّ اسم هذا اليوم وهو من اسمه أشد.

٢٤- يوم البعث

ورد هذا التعبير مرّتين فى القرآن المجيد وذلك فى آية واحدة وهى: «وَقَالَ الَّذِينَ اتُّوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبُعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبُعْثِ وَلَكِنَّا كُنَّا نَتَعَلَّمُونَ». (الروم / ٥٦)

من الواضح أن التعبير عن احياء الموتى ب «البعث» (والأفعال المشتقة منه) في آيات القرآن المجيد كثير جداً واستعمل استعمالاً واسع النطاق كما أشرنا إليه سابقاً، وكل تلك التعبيرات تبين هذه الحقيقة وهي أن ذلك اليوم يوم حياة الجميع بعد موتهم، وبما أننا أشرنا إليه بما فيه الكفاية في هذا الصدد فلا نرى تَمَّة حاجة إلى توضيح أكثر.

إلى هنا ينتهي القسم الأول: ومن خلال الأسماء والادوصاف والتعبيرات المختلفة التي وردت في هذا القسم تتجلى لنا بوضوح هذه الحقيقة وهي أن القرآن جاء ليبيّن الناس من غفلتهم، ومن أجل تربيتهم وتعليمهم وهدايتهم إلى التكامل والسمو، وكذلك من أجل عرض وتوضيح الصور المختلفة للمعاد، فقد انتخب للمعاد أسماءً متنوعة يشير كل واحد منها إلى بُعدٍ من أبعاد ووقائع ذلك اليوم وأحداثه العظيمة المزلزلة التي لا نظير لها، فكل واحد من هذه الأسماء، أو بتعبير آخر كل واحد من أوصاف ذلك اليوم يحمل في طياته خطاباً متميزاً

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٥٨

لجميع البشر وعلى مّ القرون والعصور.

خطابٌ إذا ما اعتُبر به فإنه سيكون عاملاً مؤثراً في الردع عن الانحرافات والسيئات والخطايا والجرائم والمنكرات والمظالم. إنه خطاب يكشف البحث فيه بوضوح عن أبعاد فصاحة وبلاغه القرآن في الميادين المختلفة وخصوصاً في المواضيع التربوية، وهو أفضل هادٍ لسالكى طريق الحق وللباحثين عن طريق القرب الإلهي (فتأمل).

القسم الثاني:

إشارة

والآن نبحت في قسم آخر من أسماء القيامة والتي لا تصف القيامة في كلمة واحدة بل من خلال جملة كاملة.

٢٥- يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ

بعض هذه التعبيرات تتحدّث عن الوقائع التي تحدث في العالم عند ظهور مقدمات القيامة، والبعض الآخر يتعلق بأحوال البشر في ذلك اليوم، ويخبر قسم آخر عن انتهاء كل شى.

التعبير أعلاه هو من ضمن التعبيرات التي تتعلق ب «مقدمات القيامة» بعد الإشارة إلى عدد من مكافآت المحسنين وعقوبات المسيئين، قال تعالى «يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ». (الانباء/ ١٠٤) «السجل»: من مادة (سَجَل) على وزن (سَطَل) بمعنى الدلو الكبير المملوء بالماء، وقيل إنه بمعنى «الجمع والادّخار لأجل الاراقة والنثر»، من أجل هذا اطلقوا كلمة «سَجَل» على الدلو الكبير، واطلقوا كلمة «سَجَل» (بكسر السين والجيم وتشديد اللام) على الصحف نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٥٩

التي تكتب عليها المطالب وتطوى أحياناً كما كانت تطوى «الوثائق» في السابق، ويستعمل طى السجل في هذا المورد. ويعتقد البعض أن السَجَل بمعنى الملقّات التي تكتب وتحفظ فيها الدعاوى وامور اخرى مشابهة، لذا جاء التسجيل بمعنى التقرير والإثبات «١».

على أية حال فإنّ ظاهر الآية يشير إلى أن السماء كلها تطوى عندما يفنى العالم وتبدأ القيامة، فتصير بصورة قطعة واحدة كما كانت عليه في البداية، وهذا ممّا صرح به العلم الحديث، وهو أن العالم في البداية كان على شكل حزمة واحدة ثم دار حول نفسه بسرعة تحت تأثير علل خفية وتناثرت اجزاءه تحت تأثير القوة الطاردة عن المركز وهو الآن في حال الاتساع والانبساط ثم يعود ثانية وبسرعة

إلى الانقباض والاتجاه نحو المركز، ثم أخيراً تعود الأجزاء إلى بعضها وتشكل حزمة واحدة، وهذه هي نهاية نظام هذا الكون. ثم تبدأ حركة جديدة وتظهر سموات وأرض جديدة لعالم آخر، وعلى هذا المعنى فلا حاجة إلى تفسير الآية بالمعنى الكنائسي، ولو أن كثيراً من المفسرين مالوا إليه، وربما كان ذلك بسبب عدم وجود هذا التفسير في ذلك الزمان. لكن انطواء السموات في أئمة صورته كان، لا- يعنى فناءها المطلق وانعدام العالم المادى؛ وذلك لأن القرآن أشار في آيات متعددة وبصراحة إلى أن الناس يخرجون من القبور وتعود الحياة إلى رفاتهم وتبقى الذرات الحاصلة من تفسخ أبدانهم وتجمع وتبدأ حياة جديدة.

٢٦- يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات

من خلال ما قيل في البحث السابق بشأن القيامة يتضح معنى هذا التعبير القرآني أيضاً، هذا التعبير الذى ورد مرة واحدة لا غير في القرآن المجيد، يدل على الانتقام الإلهي من الظالمين والمجرمين، قال تعالى: «يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ».

(١) القاموس؛ والمفردات؛ والتحقيق وكتب اخرى

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٦٠

(ابراهيم / ٤٨)

في أول الأمر يُبَعَثُ كل شىء، ثم يضع باني عالم الوجود تصميماً جديداً، ويبدع أرضاً وسماً جديدة تكونان أرقى وأعلى مرتبةً من سابقتيهما حتى تليق بطبيعة يوم القيامة.

وللمفسرين نقاش حول المُبَدَّل، هل هو ظاهر الأرض وصفتها أم هو ذاتها؟ فقال بعضهم: إن جميع الاجبال والغابات وغيرها تُبَدَّل وتصبح الأرض مستوية بيضاء اللون كالفضة، وكأنما لم يُرَقْ على تلك الأرض دم ولم يرتكب عليها ذنب قط، وتبدل السموات بذلك النحو أيضاً.

وقال البعض الآخر: إن هذه الأرض وهذه السماء تفتيان بالمرّة ويحلّ محلّهما أرضٌ وسماً جديدتان، لكن هذا الاحتمال- كما أشرنا سابقاً- لا يتلائم مع الآيات القرآنية الاخرى التى تتحدث عن قبور الناس وعن تراب ابدانهم التى تبقى كما كانت عليه، فإن قيل إن تبديل الأرض هذا يتم بعد انتهاء الحياة البشرية، قلنا إن هذا الكلام ينافى ذيل الآية، لأنّ ظاهرها يدل على ظهور وبروز الخلق بعد تبديل الأرض. حيث قال الله تعالى «وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ». (ابراهيم / ٤٨)

٢٧- يوم تمور السماء مورا

ورد هذا التعبير مرّة واحدة فقط في القرآن الكريم، وقد جاء بعد بيان وقوع العذاب الإلهي حيث لا مانع ولا دافع لوقوعه، قال تعالى:

«إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَالَهُ مِنْ دَافِعٍ * يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا». (الطور / ٧-١٠)

«المور»: على وزن (موج) وله معانٍ مختلفة- على حد قول أصحاب اللغة-: حيث جاء بمعنى الحركة الدائرية وبمعنى الموج وبمعنى الحركة السريعة وبمعنى الذهاب والاياب وبمعنى الغبار الذى يذهب به الريح فى كل جانب «١»، وأكثر المعانى مناسبةً هنا هو الحركة

(١) لسان العرب؛ ومفردات الراغب؛ وتفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ١٦٣؛ وتفسير روح البيان، ج ٩، ص ١٨٩.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٦١

السريعة.

فمن الممكن أن تكون هذه الحركة بياناً لتلك الحركة السريعة نحو مركز الكون التي تحدث عند انقباض أجزاء عالم المادة كما أشرنا إليها في الصفحات السابقة، ومن الممكن أيضاً أن تكون بياناً لحركة العالم المستديرة في مسير انبساط وانقباض المجموعة الكونية.

وقال الفخر الرازي خلال تعليقه على هذه الآية: وقوله «وتسير الجبال» يُحتمل أن يكون بياناً لكيفية مور السماء، وذلك لأن الجبال إذا سارت وسير معها سكانها يظهر أن السماء كالسيارة إلى خلاف تلك الجهة كما يشاهده راكب السفينة، فإنه يرى الجبل الساكن متحركاً (١).

مفهوم هذا الكلام هو أن السموات ثابتة في الحقيقة ولكنها تبدو للانظار متحركة، لكن هذا على خلاف ظاهر الآية.

٢٨- يوم تشقق السماء بالغمام

٢٩- يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً

هذان التعبيران عن يوم القيامة متشابهان في أحد أبعادهما.

ففي الآية الأولى قال تعالى: «وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ». (الفرقان / ٢٥)

وفي الآية الثانية قال تعالى: «يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً». (ق / ٤٤)

إن انشقاق الأرض من فوق الناس له مفهوم واضح وهو بيان لزلزال القيامة الذي يشق القبور ويحيى الناس بأمر الله ويخرجون بسرعة للحساب والجزاء.

أمّا تمزق السموات بالغمام فيمكن أن يكون بياناً للانفجارات الهائلة التي تحدث في الأجرام السماوية عند فناء الكون وأن الغمام الحاصل من هذه الانفجارات يملأ السماء (هذا على أن «الباء» في «بالغمام» باء الملابس أي يلبس ويصطحب مع الغمام). أو أن السموات أي «الأجرام السماوية» تتمزق بتأثير الغيوم التي تحمل أمواجاً قوية هائلة حاصلة من الانفجارات النووية أو غيرها (وفي هذه الحالة تكون الباء سببية) «٢»- «٣».

(١) تفسير الكبير، ج ٢٨، ص ٢٤٣.

(٢) قال بعض المفسرين إن «الباء» بمعنى «عن» فيكون المعنى هو أن تتمزق وتتحنى عن واجهه السماء لكن هذا المعنى بعيد جداً.

(٣) «الغمام» من مادة «غم» بمعنى الحجب، ومن حيث إن الغيوم تحجب السماء فإنهم اطلقوا عليها «الغمام» ومن حيث إن الهم والحزن يملأ قلب الإنسان فإنهم اطلقوا على ذلك الغم.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٦٢

قال المرحوم العلامة الطباطبائي في تعليقه على هذه الآية: «ليس من البعيد أن يكون هذا الكلام كناية عن انكشاف غمة الجهل وبروز عالم السماء وهو من الغيب وبروز سكانها وهم الملائكة ونزولهم إلى العالم الأرضي موطن الإنسان» (١).

ولكن بما أن الحمل على الكناية يحتاج إلى قرينه ولا قرينه عليه في الآية فإن التفسير الأول يظهر على أنه أكثر مناسبة، وهكذا في الآية الثانية أيضاً فإن انشقاق الأرض يحمل المعنى الظاهري لا الكنائي والمعنوي.

والشاهد الآخر وجود الآيات الكثيرة في القرآن المجيد والتي تدل على حدوث تغيرات وانقلابات شديدة في جميع شؤون عالم المادة لا في السماء والأرض والجبال والبحار فقط.

٣٠- يوم تكون السماء كالمهل

هذا وصف آخر ليوم القيامة والتغيرات الحادة التي تطرأ على العالم، وقد ورد هذا التعبير مرّة واحدة في القرآن حيث قال تعالى: «يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ». (المعارج / ٨)

و «مُهْلٍ»: على وزن (فُحْل) فسروها تارة بمعنى المعادن المنصهرة، وتارة بمعنى الثقل أو الرسوبات التي تترسب في قعر إناء الزيت وأمثاله، وتارة أخرى بمعنى الفضّة المذابة وتارة بمعنى رسوبات الزيت «٢»، هذا ولكن المعنى الأول أرجح عند إمعان النظر في آيات أخرى تحدثت عن وقائع يوم القيامة.

والمراد بالسما هنا هو إما الأجرام السماوية أو واجهه السماء التي تصبح على هيئة

(١) تفسير الميزان، ج ١٥، ص ٢٠٢.

(٢) تفاسير مجمع البيان؛ الكبير؛ الميزان وتفسير أخرى في التعليق على الآية.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٦٣

معدن منصهر بفعل انفجار الأجرام.

قال بعض المفسرين: من المحتمل أن عدداً كبيراً من الأجرام السماوية والتي هي حالياً على هيئة غازات مضغوطة تتبدل صورها يوم القيامة وتتحول إلى أشكال ذائبة، وهي الصورة الجديدة لتلك الغازات والتي تكون مقدمة لحدوث القيامة «١».

٣١- يوم ترجف الأرض والجبال

لوحظ هذا الوصف في آيتين من القرآن المجيد على تفاوت ضئيل بينهما في وصف يوم القيامة، وجاء هذا الوصف في الآية: «يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَّهِلًا». (المزمل / ١٤)

و كذلك قوله تعالى «يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ». (النازعات / ٦)

اليوم الذي تتعرض فيه كل الأرض للزلازل العنيفة وتتحطم الجبال بشدة حتى تصبح أكواماً من الرمل، فما هو حال الإنسان الضعيف المنهك في ذلك اليوم!؟

جميع تلك الامور تتعلق بالوقائع التي تؤدي إلى فناء هذا العالم، ثم تبدأ مرحلة العالم الآخر، فالقرآن جمع بين هاتين المرحلتين ووضعهما في وصف واحد.

فتارةً يبين ضعف الإنسان وأخرى يُخبر عن التطورات الرهيبة عند فناء العالم وثالثةً يصور تغييرات العالم الممهدة لقيام القيامة، كل هذه التعبيرات جاءت من أجل تربية الإنسان وتشكل انذاراً مؤكداً ومتواصلاً له.

إن «ترجف وراجفة» من مادة «رَجِيف» بمعنى الاهتزاز الشديد ولذا اطلق على البحر المائج «بحرٌ رَجِيف»، و «ارجاف» بمعنى بث الشائعات التي تهز المجتمع، و «ارجيف» تطلق على جذور الفتن والوقائع.

(١) تفسير في ظلال القرآن، ج ٨، ص ٢٧٨ و ٢٧٩.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٦٤

وقد احتملوا لمعنى «الراجفة» في الآية السابقة معانٍ مختلفة منها الواقعة والصيحة الكبرى و...، ولكن الآية الأخرى تشكل قرينه على أنها الأرض التي تُزلزل بشدة في ذلك اليوم.

و «الكثيب»: بمعنى «الرمل المتراكم» والبعض حملها على معنى «التل الكبير من الرمل».

و «المهيل»: بمعنى الرمل الناعم جداً الذي يتطاير عند وضع القدم عليه، وإذا ما خلّى جانبه انهال ما تبقى منه، ولذا فسّره البعض بالرمل

السَّيَال (١).

٣٢- يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ**٣٣- يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ**

التعبيران أعلاه، واللذان يتقاربان في الافق هما أيضاً وصفان آخران لذلك اليوم العظيم، ففي الآية الاولى «يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ». (ق / ٤٢)

نحن نعلم بأنه عند انتهاء الدنيا وابتداء القيامة تطلق هنالك صيحتان على حد تعبير القرآن المجيد واللذان عبر عنهما أحياناً ب «نفخ الصور» وهما: «الصيحة الاولى» وهى صيحة فناء العالم والموت الشامل، و «الصيحة الثانية» صيحة الحياة الجديدة والقيامة، والآية التى وردت أعلاه تدل على الصيحة الثانية وذلك بقريته «ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ» التى جاءت فى آخر الآية.

أمّا ما هى كيفية هذه «الصيحة العظيمة»؟ وبأى الوسائل يحدث هذا الصوت؟ وما هو تأثيره فى احياء الموتى فإن هذه الامور لا يعلم أحد تفاصيلها، بيد أن القرآن أشار إليها إشارةً اجماليةً، ولا-عجب من جهلنا بها فى هذا الزمان؛ وذلك لأن كل ما يتعلق بالقيامة يختلف اختلافاً تاماً عما فى الدنيا، ومحفوف بهالة من الابهام، كما هو الحال فى الجنين فإنه

(١) مفردات الراغب؛ وتفسير مجمع البيان؛ وتفسير الكبير وتفسير اخرى فى التعليق على آيات البحث.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٦٥

لا يمكن أن يدرك حياة هذه الدنيا وإن كان بالفرض يمتلك قدرة فكرية عظيمة.

وفى الآية الثانية قال تعالى: «فَذَرُهُمْ حَتَّى يَلْقَاوَا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ».

(الطور / ٤٥)

«يصعقون»: من مادة «اصعاق» اشتقت فى الأصل من «الصاعقة»، وبما أن الصاعقة لها صوت عظيم بالإضافة إلى أنها مهلكة فقد فسرت هذه الجملة بهذين المعنيين معاً، فإن كانت بمعنى الهلاك فتكون دليلاً على إرادة النفخة الاولى وفناء الكون، كما جاء فى الآية:

«وَنُفِّخَ فِي الصُّورِ فَصَعَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ». (الزمر / ٦٨)

وإن كانت كلمة (صعق) بمعنى الصوت فإنها من الممكن أن تكون دليلاً على النفخة الاولى أو الثانية التى هى نفخة يوم القيامة، فعلى هذا تكون مرادفة للآية السابقة.

ورجح كثير من المفسرين المعنى الأول، وفى نفس الوقت لم يهجروا المعنى الثانى (١).

وأما ما احتمله البعض من أن الآية تشير إلى هلاك مجموعة من المشركين فى غزوة بدر فيبدو بعيداً جداً (بدليل الآية ٦٨ من سورة الزمر التى مر ذكرها).

٣٤- يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ

ورد هذا التعبير أربع مرات فى القرآن المجيد وفى الآية الاولى قال تعالى «وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ». (الانعام / ٧٣)

وفى الآية الثانية قال تعالى «يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا».

(طه / ١٠٢)

وفى الآية الثالثة قال تعالى: «وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ». (النمل / ٨٧)

وفى الآية الرابعة قال تعالى: «يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا». (النبا / ١٨)

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ١٦٩؛ وتفسير القرطبي، ج ٩، ص ٦٢٤٧؛ وتفسير روح المعاني، ج ٣٧، ص ٣٤؛ وتفسير الميزان، ج ١٩، ص ٢٣؛ وتفسير روح البيان، ج ٩، ص ٢٠٥.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٦٦

يتحدث القرآن المجيد- كما سيأتي في بحث «نفخ الصور» إن شاء الله- عن نوعين من نفخ الصور: ففي النفخ الأول تموت جميع الاحياء الموجودة في الأرض والسماء، وفي النفخ الثاني والذي هو نفخة الحياة يحيا الجميع ويتأهبون للحساب والكتاب، لكن الآيات الاربع السابقة الذكر كلها أو جلها تتعلق بالنفخ الثاني أى نفخ الحياة فى القيامة.

ومهما يكن من شىء فإن هذا التصوير للقيامة من قبل القرآن يصور للانظار الوقائع العديدة التى تقع عند ذلك اليوم، وهذا التعبير هو أحد التعبيرات العديدة التى تحتوى على معنى دقيق والتى تصوّر للضمائر وقائع ذلك اليوم الصعبة المرعبة فتتبهها من غفلتها.

أما البحث عن معنى «الصور» ومفهوم «النفخ» والخصوصيات الاخرى فسوف نتناوله فى محله إن شاء الله، ولكن ولأجل الاطلاع على محتوى هذا التعبير نتطرق لذكر الحديث النبوى الشريف الذى يذكر مجموعته من تلك الوقائع الذى ورد فى تفسير الآية الرابعة من بحثنا هذا (الآية ١٨ من سورة النبأ):

قال «معاذ بن جبل» سألت رسول الله صلى الله عليه وآله عن تفسير الآية: «يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا» فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يامعاذ بن جبل سألت عن أمر عظيم» ثم أرسل عينيه باكياً، ثم قال: «يحشر عشرة أصناف من أمتى أشتاتاً قد ميزهم الله تعالى من جماعات المسلمين، وبدل صورهم، فمنهم على صورة القردة وبعضهم على صورة الخنازير وبعضهم منكسون، أرجلهم أعلاهم، ووجوههم يسحبون عليها،،، وبعضهم يمضغون ألسنتهم، فهى مدلاة على صدورهم، يسيل القيح من أفواههم لعاباً، يتقذرهم أهل الجمع،، وبعضهم مصلبون على جذوع من نار، وبعضهم أشد نتناً من الجيف، وبعضهم ملبسون جلابيب سابعة من القطران لاصقة بجلودهم؛ فأما الذين على صورة القردة فالقنات من الناس - يعنى النمام - وأما الذين على صورة الخنازير، فأهل السحت والحرام والمكس، وأما المنكسون رؤوسهم ووجوههم، فأكله الربا،،، والذين يمضغون ألسنتهم: فالعلماء والقصاص الذين يخالف قولهم فعلهم، ...، والمصلبون على جذوع النار: فالسعاة بالناس إلى السلطان والذين هم أشد نتناً من الجيف فالذين يتمتعون بالشهوات واللذات ويمنعون حق الله من أموالهم، والذين يلبسون الجلابيب: فأهل الكبر والفخر والخيلاء» (١) ب.

(١) ذكر هذا الحديث عدد كبير من المفسرين مثل أبى الفتوح الرازى والقرطبي وروح البيان وقد أوردنا الحديث باختصار.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٦٧

٣٥- يوم كان مقداراً خمسين الف سنة

وصف القرآن المجيد وفى آيتين يوم القيامة بأنه يوم طويل للغاية، قال الله تعالى فى أحد الآيتين: «تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ». (المعارج / ٤)

وقال فى محل آخر: «يُدَبَّرُ الْأَمْرُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ». (السجدة / ٥) لا شك فى أن الآية الاولى تختص ببيان يوم القيامة، والآيات التى أتت بعدها تتعرض لصفات القيامة ولعذاب المجرمين فى ذلك اليوم وكذلك إلى أوصاف جهنم.

وقد اختلف المفسرون فى مورد الآية الثانية فهناك عدة آراء «١» فالبعض قالوا: إنها إشارة إلى المنحنى النزولى والصعودى للتدبير الإلهى فى هذه الدنيا، أو بتعبير آخر إشارة إلى مراحل التدبير الإلهى فى هذا العالم والتى تتم كل مرحلة منها فى مدة الف عام على يد

الملائكة المكلفين بأمر من الله بإجراء هذا التدبير التكويني، ثم بعد انتهاء هذه المرحلة تبدأ مرحلة أخرى وهلمّ جزاً. لكن بعد البحث في الآيات القرآنية التي تحدثت عن انطواء السماء والأرض، وكذلك الروايات التي وردت في شرح هذه الآية يفهم منها أنها تتحدث عن يوم القيامة.

ولذا رجح المرحوم العلامة الطباطبائي في الميزان هذا التفسير أيضاً بعد أن ذكر عدّة احتمالات لهذه الآية (٢). لكن يبقى هنالك سؤال وهو كيف قدر ذلك اليوم في الآية الأولى بخمسين الف سنة- من سنين الدنيا- وفي الآية الثانية بالف سنة؟ اجيب بوضوح عن هذا السؤال في حديث نقله المرحوم الشيخ الطوسي في أماليه عن

(١) ذكر الآلوسي في تفسير روح المعاني، ج ٢١، ص ١٠٧ سبعة تفاسير للآية، أحدها هو القيامة.

(٢) تفسير الميزان، ج ١٦، ص ٢٦١، وجاء نفس هذا المعنى أيضاً في تفسير ظلال القرآن ج ٦، ص ٥١١.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٦٨

الإمام الصادق عليه السلام، قال عليه السلام: «إن في القيامة خمسين موقفاً؛ كل موقفٍ مثل ألف سنة مما تعدون ثم تلا هذه الآية: «في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة»».

والكلام في أن العددين (الف وخمسين الف) سنة هل جاءت هنا لبيان العدد أم للدلالة على الكثرة؟ فيه احتمالان، ولكن على أية حال فإن مضمون خطاب هذه الآية هو أن ذلك اليوم يومٌ صعبٌ جداً ومعضل، ولا يتيسر لأحد تجاوزه بسهولة، ويجب على الجميع أن يتأهبوا لمثل هذا اليوم الطويل الملي بالمخاطر.

وهناك أمرٌ يثير الاهتمام وهو أن اليوم (أي دوران الكواكب السماوية حول محورها دورة كاملة) يختلف تماماً من كوكب لآخر، فالكرة الأرضية تدور حول محورها في كل ٢٤ ساعة دورة كاملة بينما تطول مدة الدوران الموضعي في القمر لمدة شهر تقريباً (فالنهار فيه يبلغ اسبوعين والليل فيه يبلغ اسبوعين تقريباً) وهكذا الحال في الكواكب الشمسية الأخرى فكل منها له ليلٌ ونهار يختص به ويمتد زمانه بمقدار متميز، والآن في هذا الزمان من الممكن أن تكون في عالم الوجود كواكب يمتد دورانها الموضعي إلى مئات أو آلاف من السنين، بناءً على هذا فلا عجب من أن يكون امتداد كل يوم في القيامة يعادل خمسين الف سنة. ونواصل التأكيد على أن هدف القرآن الرئيسي هو الجانب التربوي الكامن في مثل هذه التعبيرات.

القسم الثالث:

٣٦- يوم يكون الناس كالفراش المبثوث

كل ما قرأنا لحد الآن في وصف ذلك اليوم كان يتحدث عن الوقائع المزلزلة التي تقع في مقدمه ذلك اليوم في عالم الدنيا وإن كل وصف يحمل في طياته خطاباً خاصاً، ففي الوصف الأخير طرحت مسألة طول وامتداد ذلك اليوم وهذا أيضاً يحمل اندازاً متميزاً. والآن نذهب صوب الأوصاف التي تصوّر حال الناس في ذلك اليوم، ونلتفت إلى أن

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٦٩

تعبيرات كل واحد منها أقوى تأثيراً من الآخر وكأنها تأخذ بيد الإنسان وتسير به في اروقته المحشر وتعرفه على كل موضع منه فتجسيم له وقائع ذلك اليوم العظيم وكأنه يراه بعينه المجردة.

في الوصف الذي تناوله بالبحث والذي ورد مرة واحدة في القرآن المجيد فقط حيث يصور وضع الناس المروع في ذلك اليوم بهذا النحو: «يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ».

(القارعة / ٤)

وجاء مثل هذا التعبير ولكن باختلاف ضئيل عندما قال تعالى «كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ».

(القمر / ٧)

وللمفسرين آراء مختلفة في سبب تشبيه الناس في ذلك اليوم بالفراش، ومن جملة ما قالوا هو أن السبب في هذا التشبيه هو كثرة الناس واضطرابهم وخوفهم وفرارهم في كل صوب وضعفهم وتخبطهم.

ومن الممكن أيضاً أن تكون هذه المسألة من مكونات التعبير المذكور أعلاه وهي أن الفراش عادةً يرمى بنفسه باتجاه نور الشمع والمصباح بصورة جنونية فيحترق، وأن المجرمين أيضاً في ذلك اليوم تعذبهم هذه الحالة عند مواجهتهم لنار جهنم، وكل هذا يدل على الحيرة والضلال الشديد والاضطراب والرعب العظيم الحاصل في ذلك اليوم.

على أية حال فإنه تعبير ناطق وتصوير واضح عن حالة الناس العجيبة الحاصلة في ذلك اليوم والتي عبر عنها القرآن بتعبير وجيز، ويرى البعض أن السبب في دوران الفراش حول النار حتى الاحتراق هو فقدانها للذاكرة، فإنها تقترب من الشعلة وتحس بحرارتها فتهرب ولكنها تنسى بسرعة وتعود ثانية وتقترب من شعلة النار وتكرر هذا العمل حتى تلقى بنفسها في النار وتحترق.

وكذلك الحال بالنسبة للمسيئين والمجرمين، فمن شدة الاضطراب والجزع كأنهم يفقدون صوابهم ويلقون أنفسهم في النار كما تفعل الفراشات.

وذكر أهل اللغة والمفسرون معاني متعددة لـ «الفراش»: فالبعض فسره بمعنى الجراد الذي

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٧٠

ينتشر بكثافة في السماء، والبعض فسرها بمعنى البعوض الذي يطير على شكل أفواج، ولكن أغلب المفسرين واللغويين فسروها بذلك المعنى وهو الفراش، على الأخص ما قاله «الخليل بن أحمد» في كتاب «العين» فإنه قال: «الفراش التي تطير طالبة للضوء» وقال في صحاح اللغة أيضاً: «الفراش» جمع «فراشه» تلك الحشرة الطائرة التي تطير وتقع في النار.

٣٧- يوم تبلى السرائر**٣٨- يوم هم بارزون**

هذان الوصفان يبيان خلال تعبيرين اثنين حقيقة واحدة عن ذلك اليوم العظيم (وقد وردا في الآية ٩ من سورة الطارق والآية ١٦ من سورة المؤمن)، ويقران أمراً خطيراً إذا ما آمن به الناس كان له أثر عميق في تربيتهم.

ففي ذلك اليوم لا تخفى خافية؛ وذلك لارتفاع الاستار الطبيعية مثل الجبال والتلال، وتكون الأرض كما أشار إلى ذلك في الآية: «قَاعًا صَفْصَفًا»، (أي صافية خالية من المرتفعات). (طه / ١٠٦)

ومن ناحية أخرى يخرج الناس من القبور وتخرج الأرض ما في باطنها: «وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا». (الزلزال / ٢)

وثالثه، تنشر صحف أعمال الناس والامم ويعلن عن محتواها أمام الملأ: «وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ». (التكوير / ١٠)

وتنطق الأيدي والأرجل وجميع الجوارح حتى الجلود، وتبدأ بالعويل وعلان الفضايح.

فالأرض والدهر كلها تنطق وشهداء الأعمال يشهدون على أعمال الناس، ففي ذلك اليوم يعلن أمام الملأ- حتى عن نيات الناس واعتقاداتهم فضلاً عن أعمالهم، إنه يوم الفضيحة الكبرى للمسيئين ويوم الفخر العظيم للمحسنين حقاً.

ويجب الانتباه إلى أن «تبلى» من مادة «بلاء» بمعنى الامتحان وبما أن حقائق الأشياء تظهر عند الاختبار فقد فسّر البلاء هنا بمعنى الاتضاح.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٧١

جاء في الحديث عن «معاذ بن جبل» أنه قال: (سألت رسول الله صلى الله عليه وآله، وما هذه السرائر التي تبلى بها العباد في الآخرة، فقال: «سرائركم هي أعمالكم من الصلاة والصيام والزكاة والوضوء والغسل من الجنابة وكل مفروض لأن الأعمال كلها سرائر خفية فإن شاء قال الرجل صليت ولم يصل وإن شاء قال توضأت ولم يتوضأ، فذلك قوله يوم تبلى السرائر» (١)).
والجدير بالذكر هو أن ما جاء في الحديث الشريف المذكور هو بيان أمثلة من هذه الحقيقة الكلية، وإلا فإن الآية الشريفة تشتمل على جميع «العقائد» و «النيات» وأعمال الناس» سواء الحسن منها أم السيء.

ومن هنا يظهر أن العناوين البراقة الكاذبة التي حصلت عليها الكثير من الشخصيات بواسطة التضليل والتستر في هذه الدنيا سوف تذهب هباءً بفعل زواج المحشر وتحل محلها الفضيحة العظمى وما أروع من سقوط هؤلاء الأفراد وأصحاب الواقع السي المتلبسين بالظاهر الأنيق، من أوج العزة والكرامة إلى قعر الدلة والمهانة!

وما أحلى الكرامة التي حاز عليها المؤمنون المخلصون الذين لم يراؤوا وحافظوا على إخفاء ارتباطهم بالله في هذه الدنيا وما أجمل ظهورهم في ذلك اليوم وجلسهم على عرش العزة والعظمة!
هذا هو النداء الذي يقدم لنا الوصف المذكور أعلاه وهو انذار لجميع الناس العالم منهم والجاهل.

٣٩- يوم ينظر المرء ما قدمت يداه

٤٠- يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوءٍ

هذان التعبيران أيضاً يوضحان أحد الحقائق التي صُبت في قالبين، وبينان حقيقة مهمة أخرى لذلك اليوم تقصم الظهر وتزلزل القلوب وتجعل الإنسان يسرح في تأمل عميق.

(١) تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٧١.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٧٢

ففي الآية الأولى قال تعالى: «يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ». (النبا / ٤٠)

بما أن مسألة تصور الأعمال في ذلك اليوم العظيم ومشاهدة جميع الأعمال التي ارتكبتها الإنسان في هذه الدنيا يُعتبر أمراً غير معقول لكثير من المفسرين فإنهم فسروا «ينظر» حيناً بمعنى «ينتظر»، وحيناً آخر بمعنى مشاهدة كتاب الأعمال أو مشاهدة ثوابها وعقابها. والسبب الذي دفعهم إلى ذلك هو أن المفسرين في تلك العصور لم يمعنوا النظر في مسألة تجسم الأعمال، وإلا فما الضرورة لهذه التقديرات والتأويلات؛ وذلك لأن القرآن يقول: إن الإنسان سوف يشاهد بعينه في ذلك اليوم كل ما ارتكب من قبل، أي أن نفس أعماله التي فئت مادياً في الظاهر لم تفن في الواقع وسوف تبقى وتظهر للعيان بصورة ما، وليس بالضرورة أن يراها جميع أهل المحشر، كما جاء نفس هذا المعنى أكثر وضوحاً في الآية: «وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا!» (الكهف / ٤٩)

وورد نفس هذا المعنى بجلاء في الآية الثانية أيضاً قال تعالى: «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحَضَّرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا».

(آل عمران / ٣٠)

ومما يثير الاهتمام هنا هو ما قاله المرحوم «الطبرسي» في «مجمع البيان» في تعليقه على الآية الثانية، قال: «فأما أعمالهم فهي اعراض قد بطلت ولا يجوز عليها الاعادة، فيستحيل أن ترى محضرة»، لذا ذهب إلى تفسيرين آخرين أحدهما حضور كتب الأعمال، والثاني حضور جزاء الأعمال من ثواب وعقاب.

ولكن كما أشرنا في كتاب (التفسير الأمثل)، أن أعمال الإنسان هي نوع من الطاقة مثل جميع أنواع الطاقة الموجودة في العالم، فإنها لا

تفنى أبدأ بل تتغير اشكالها وهي باقية قطعاً.

وقلنا أيضاً بأنَّ تحوّل «المادة إلى «طاقة» والطاقة» إلى «مادة» كلاهما أمر ممكن من الناحية العلمية، فعلى هذا لا مانع من بقاء أعمال الإنسان وتحولها في ذلك اليوم إلى مادة، وظهور كل واحد منها على هيئة مناسبة لحاله، وبناءً على هذا فإنَّ الآيات المذكورة تُمثّل في الواقع جزءاً من المعجزات العلمية للقرآن والتي لم تكن حين نزول القرآن معروفة لأحد،

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٧٣

وهذه الحقيقة اتضحت لنا بسبب الاكتشافات العلمية الحديثة.

ومما يثير الاهتمام أيضاً أنّ الروايات الإسلامية تحدثت كثيراً أيضاً عن تجسّم الأعمال في البرزخ والقيامة، ولكن لا يعلم علمه عدم اهتمام المفسرين السابقين بهذه الروايات، ومن المحتمل أن يكون السبب في ذلك هو اعتقادهم بأنَّ الأعمال «اعراض» وبأنها فانية وبأنَّ إعادة المعدم محال، بينما اتضح لنا في هذا الزمان بطلان هذا الاستدلال كلياً (وسوف نقرأ في بحث تجسّم الأعمال تفصيلاً أكثر في هذا المجال).

٤١- يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار

٤٢- يوم تشخص فيه الأبصار

التعبيران المذكوران في الآيتين أعلاه واللذان يجمعهما شبه كبير يرفعان الستار عن أسرار اخرى من أسرار ذلك اليوم العظيم، ويحملان لجميع الناس نداءات جديدة.

ففي الآية الأولى قال تعالى «يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ». (النور/ ٣٧)

وفي الآية الثانية قال تعالى «إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ». (إبراهيم/ ٤٢)

حلبة المحشر رهيبه من عدة جوانب: من جانب ما يستجد فيها من الوقائع الرهيبة التي تقع عند قيام القيامة، ومن جانب استعداد الملائكة مع حضور الاشهاد لمحاسبة العباد، ومن جانب نشر الصحف التي تحتوى على سائر أعمال الإنسان التي ارتكبها خلال حياته صغيرها وكبيرها، ومن جانب اتضاح ملامح النار والعذاب الإلهي واستحالة العودة لإصلاح مافات وعدم وجود خليلٍ ومنقذ!

إنَّ هذه الوقائع والتي يكفى كل واحد منها بوحده لقلب افئدة الناس، تقع جميعها في وقت واحد، تجعل الإنسان في حصار شديد ممّا يؤدى به إلى أن يقلب عينيه في كل جانب بدون إرادة ويتلفت إلى كل جانب باضطراب يطلب العون، وعلى حد تعبير القرآن أنّها تقلب الأبصار وأحياناً تقف عن الحركة نهائياً وتبقى الأجفان مفتوحة وكأن روح الإنسان فارقت جسده!

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٧٤

ومن الجدير بالذكر أنّ الآية الأولى تختص بالمؤمنين والآية الثانية بالظالمين، وهذا يدل بوضوح على أنّ الجميع من المحسنين والمسيئين سوف يستولى عليهم الرعب في ذلك اليوم المفزع، وذلك (لجهل الناس بعواقب أعمالهم بسبب الدقة والشدة في الحساب الإلهي فلا أحد يعلم بالضبط إلى أين ينتهى مصيره.

«تقلب»: بمعنى انقلاب الشيء رأساً على عقب وبمعنى التحوّل، وللمفسرين تعابير مختلفة في تفسير هذه الجملة تشير جميعها إلى الخوف والاضطراب الشديد الذى يهيمن على ظاهر وباطن الإنسان وعلى بصره وبصيرته.

«تَشْخَصُ»: من مادة «شخوص» بمعنى توقف العين والأجفان عن الحركة والتركيز بالنظر على نقطة دون التفات.

والأصل في «شخوص» على وزن (خلوص) هو بمعنى القيام أو الخروج، و «الشخص» من حيث إنّه يبدو من بعيد على هيئة بارزة اطلق عليه كلمة شخص، وخروج الإنسان من محل آخر يطلق عليه الشخوص أيضاً.

و «شاخص»: المشتق من نفس هذه المادة أيضاً بمعنى الجسم المرتفع الذى يستخدم لقياس الوقت وأمثال ذلك «١».

وبما أن عين الإنسان حين التعجب والتحديق كأنها تريد أن تخرج من حدقتها فقد استعمل هذا التعبير في عدة موارد، بلى إن الناس في عرصه المحشر يصبحون أسارى الخوف بنحوٍ يجعل عيونهم تتوقف عن الحركة وتشخص وكأنها تريد أن تخرج من حدقتها، وهذه الحالة تظهر لدى الإنسان أحياناً في حال الاحتضار.

ومن البديهي أن تكون هذه الحالات أشد بكثير عند المذنبين والمجرمين، ولذا جاء في القرآن المجيد: «وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا». (الأنبياء / ٩٧)

(١) مفردات الراغب؛ ومقاييس اللغة؛ والمصباح؛ والتحقيق في كلمات القرآن الكريم.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٧٥

٤٣- يوم يتذكر الإنسان ما سعى

هذا التعبير أيضاً من التعبيرات التربوية التي وردت مرة واحدة في القرآن المجيد، قال تعالى: «يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى . (النازعات / ٣٥)

هذا التذكّر والانتباه إما أن يحصل بسبب مشاهدة صحيفة الأعمال، وإما بسبب تجسم الأعمال، أو بسبب شهادة الجوارح أو الملائكة التي تشهد على الأعمال أمام الله، أو بسبب ارتفاع الحُجُب عن قلب وروح الإنسان وزوال ما يسبب الغفلة والنسيان.

ولذا تبرز جميع الحقائق المكنونة ويتذكر الإنسان كل سعيه ومحاولاته، ولكن باللحسرة فلا مجال أمامه لجبران الخطايا والتقصير والغفلة.

وجاء هذا التعبير بصورة أخرى في الآية «وَجِئَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذُّكْرَى ، ثم يضيف إلى ذلك: «يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي». (الفجر / ٢٣)

إنه أسف وحسرة لا فائدة منها هناك أبداً سوى مضاعفة المعاناة والألم.

وكلمة «لحياتي» تثير الانتباه، وهي تدل على أن الحياة الحقيقية هي الحياة الآخرة، وأن الحياة الدنيا لا تستحق حتى اطلاق اسم الحياة عليها، وعلى حد تعبير القرآن ماهي إلّالهُو ولعب.

والهدف هو انذار سائر بنى الإنسان بأن يستفيدوا من الفرصة المتاحة أمامهم قبل الابتلاء بمثل هذا البلاء فالتذكر في ذلك اليوم لا ينفع مثقال ذرة.

٤٤- يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها

هذا التعبير يرسم صورة أخرى لذلك اليوم العظيم، قال تعالى «يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا». (النحل / ١١١)

نعم إن الرعب والخوف من العذاب والعقاب الإلهي يسيطر على وجود الإنسان ممّا

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٧٦

يجعله ينسى أعزّ أحبائه، فهو لا يهتم بالأبناء ولا بالزوجه ولا بالوالدين ولا بأعز الأصدقاء، ولا يهتم إلّابانقاذ نفسه لا غير.

وجاء في الحديث الشريف: «كُلُّ أَحَدٍ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَفْسِي نَفْسِي مِنْ شِدَّةِ هَوْلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ سِوَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَإِنَّهُ يُسْأَلُ فِي أُمَّتِهِ» (١).

٤٥- يوم يقوم الناس لرب العالمين

هذا التعبير في الواقع هو توضيح لاسم (القيامة) في قوله تعالى: «يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ». (المطففين / ٦) إنه قيام يدل على جدية الموقف في ذلك اليوم، ودليل على الحضور في محكمة كبرى ودليل على خضوع جميع الأعمال للحساب. ومن الجدير بالذكر أن القرآن المجيد أتى بهذا التعبير في سورة المطففين لتحذير وتنبية الذين يبخسون الميزان، قال تعالى «أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ* لِيَوْمٍ عَظِيمٍ» ثم يضيف «يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ». (المطففين / ٤-٥) أي أنهم لو كانوا على يقين بأن مثل هذا «الحضور» و «القيام» في يوم كهذا واقع حتماً لما ارتكبوا السيئات أبداً، ولكن للأسف أن حب الدنيا والغفلة والغرور وطول الأمل ظلل على أفكارهم وقلوبهم وأرواحهم ظل الشؤم والظلام مما جعلهم يغفلون هذه الحقائق. جاء في احدي الروايات «عن ابن عمر وهو من أصحاب الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أنه وعند قراءته لسورة المطففين: لما بلغ قوله «يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ» بكى بكاءً شديداً أعجزه عن مواصلة القراءة» (٢).

(١) تفسير القرطبي، ج ٦، ص ٣٨٠٩.

(٢) تفسير الكبير، ج ٣١ ص ٩٠؛ تفسير القرطبي، ج ١٠، ص ٧٠٤٦.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٧٧

٤٦- يوم يقوم الاشهاد

٤٧- يوم يقوم الروح والملائكة صفاً

التعبيران المذكوران أعلاه يذكّران بجانب آخر من أبعاد ذلك اليوم العظيم ويتركان أثراً أخلاقياً كبيراً لدى الإنسان، ويشتملان على مناجاة تستهوى القلب والروح.

في التعبير الأول يصف ذلك اليوم ب «وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ». (المؤمن / ٥١)

و «أشهاد»: جمع «شاهد» أو «شهيد» (مثل «أصحاب» التي هي جمع «صاحب»، و «أشرف» جمع «شريف») والأشهاد هنا هم شهود يوم القيامة، ويرى بعض المفسرين أن المراد من الأشهاد هم فقط الملائكة الذين يراقبون الأعمال، ويرى البعض الآخر أن المراد بهم الأنبياء عليهم السلام والمؤمنون جميعاً.

ويرى آخرون أن المراد منهم جميع ماذكر بالإضافة إلى الجوارح التي تشهد على أعمال الإنسان أيضاً، ولكن نظراً لوجود التعبير «يقوم» فإن هذا التفسير يبدو بعيد الاحتمال.

والتعبير ب «قيام» في موارد كهذه هو بيان للوضع الخاص المتعارف عليه في المحاكم وهو قيام الشهود عند الادلاء بشهادتهم؛ وذلك تأكيداً لجدهم وحزمهم في أداء الشهادة واحتراماً لرسمية ووضع المحكمة.

على أية حال فهو يوم لا يكفي فيه شاهد واحد فحسب بل يشهد فيه شهود كثيرون في تلك المحكمة العظمى شهادة تكون مصدر عز وفخر للمؤمنين وتأتي بالخزي والذلة للمجرمين، شهادة تحيط بكل شيء ولا يخفى على شهودها شيء، شهادة لا يسع المجرمون انكارها أبداً وتكون مدعومة بالقرائن الكثيرة حتى لا يبقى أمامهم طريق إلا التسليم والاذعان.

ومن هنا ينبغي الامعان في المعاني التي يحملها هذا الوصف عن القيامة وإلى مدى ما بلغت من التأثير والجدابية.

وفي الآية الثانية عبر عن ذلك اليوم ب «يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا». (النبا / ٣٨)

بما أن «الصف» له معني مصدرى ويستعمل في الجمع والمفرد على السواء، فقد رأى

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٧٨

جمع من المفسرين احتمال أن يكون المراد من الصف هو بيان صفوف مختلف الملائكة، أو المراد منه صفان على الأقل يستقر الروح

فى الصف الأول وفى الصف الثانى بقية الملائكة.

وفى الجواب عن ما هو المراد من «الروح» هنا؟ اختلفوا على أقوال عدّة بلغت الثمانية أقوال أو أكثر، ومن بين هذه التفاسير المشهورة:

١- الروح هو أحد ملائكة الله المقربين، وهو أفضل من جميع الملائكة حتى جبرائيل عليه السلام، وهو الذى كان يرافق الأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام.

٢- المراد به هو جبرائيل الأمين حامل وحي الله.

٣- المراد به هو أرواح الموتى ولكن قبل إلحاقها بالأبدان.

٤- المراد به هو مخلوق عظيم لا من صنف البشر ولا من صنف الملائكة.

٥- المراد به هو القرآن المجيد، ومعنى قيامه هو ظهور آثاره فى مشهد المحشر.

وقد استدل على كل من هذه التفاسير المذكورة ببعض آيات القرآن.

مع أنّ للروح معانٍ مختلفة فى مختلف آيات القرآن، وأكثر هذه التفاسير قرباً للصحة كما يبدو هو التفسير الأول، وقد ورد هذا التفسير صريحاً فى بعض روايات المعصومين عليهم السلام.

فمن على بن إبراهيم باسناده عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «هو ملك أعظم من جبرائيل وميكائيل» (١).

وروى عن ابن عباس أيضاً بأنه قال: أنّ النبى صلى الله عليه وآله قال: «الروح جند من جنود الله ليسوا بملائكة لهم رؤوس وأيد وأرجل، ثم قرأ: «يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا» قال: هؤلاء جند وهؤلاء جند» (٢).

(١) تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٢٧.

(٢) تفسير القرطبي، ج ١٠، ص ٦٧٧٧.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٧٩

٤٨- يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ

٤٩- يَوْمَ لَا يَنْفَعُ فِيهِ وَلَا خِلالٌ

ينعكس فى هذين التعبيرين نداء ان آخرا متقاربان فى الافق حول اوضاع ذلك اليوم العظيم، فى التعبير الأول قال تعالى: «يَوْمَ لَا يَنْفَعُ

مَالٌ وَلَا بَنُونَ* إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ». (الشعراء/ ٨٨- ٨٩)

وفى التعبير الثانى قال تعالى: «يَوْمَ لَا يَنْفَعُ فِيهِ وَلَا خِلالٌ». (إبراهيم/ ٣١)

فى الواقع أنّ رأسمال هذه الدنيا يتلخص فى ثلاثة أشياء: المال والثروة، والأولاد الراشدون، والأصدقاء الأوفياء، لكن معضلات المحشر وابتلاءاته المهيبه لا يمكن الخلاص منها بالمال والثروة ولا بمعونة الأولاد ولا الأصدقاء، ولو افترضنا أنّ جميع أموال الإنسان تنقل إلى هناك وكان جميع الأولاد والأصدقاء إلى جانبه فهذا لا يحل حتى عقده واحده من مشاكله، وذلك لأنّ المقاييس والمعايير هناك شىء آخر، والمنفذ فى المحشر هو الإيمان والعمل الصالح والقلب السليم، القلب الخالى من أى شرك ورياء ولا يوجد فيه مكان لما سوى الله.

أغلب المشكلات فى هذه الدنيا يمكن حلّها عن طريق المال والثروة وتقديم الفديه والخسائر والرشوة وما شابه ذلك بصورة مشروعه أو غير مشروعه، ويمكن حل كثير من المصاعب أيضاً بواسطة الجهود الإنسانية بالأخص الأولاد الطيبين والأصدقاء المخلصين، وبناءً على ذلك فإنّ أغلب مشاكل هذا العالم تُحل بهذه السبل، بينما لا يكون لهذه الامور أى تأثير هناك.

ولا شك فى أنّ المراد من المال والأولاد هنا هو غير الأولاد الذين استخدموا فى الطريق المؤدى إلى رضوان الله، أو الأصدقاء الذين

يمكنهم الشفاعة عند الله، بل المراد هو أن هذه الامور لو نقلت إلى هناك بمجرد أنها فهي لا تغني شيئاً. ولذا جاء في قوله تعالى: «الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ!» (الزخرف / ٦٧)

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٨٠

٥٠- ... يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً

٥١- يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً

٥٢- يوم لا يجزي والد عن ولده

أحد طرق الاخلاص من مخاطب العقوبات في هذه الدنيا هو أن يتقبل شخص التبعات التي تترتب على الآخِر نيابة عنه ويؤدى الغرامات المالية التي تحملها الشخص الآخر ويتقبل عقوبة ذنبه برحابة صدر وطيب نفس.

يبين القرآن الكريم في الآيات المذكورة أعلاه والتي هي من صفات يوم القيامة عدم جواز إلقاء أوزار أعمال أحد على عاتق الآخرين مطلقاً، فالكل مسؤول عن أعماله وهو لوحده يتحمل جزاءها فيؤدى ثمن ما اقترف من جرائم وذنوب.

ففي الآية الأولى التي وردت في القرآن المجيد مرتين قال تعالى: «وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا». (البقرة / ٤٨-١٢٣)

وجاء هذا المعنى باختلاف ضئيل في الآية الثانية، قال تعالى: «يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا». (الانفطار / ١٩)

وفي الآية الثالثة ركز على مورد متميز فقال: «وَإِخْشَا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا». (لقمان / ٣٣)

إنَّ العلاقة بين الأب والأولاد تقوم على أساس «العاطفة والمحبة»، وتقوم العلاقة بين الأولاد والأب على أساس «الاحترام والمحبة»، وفي الواقع أن هاتين العلاقتين هما أقرب وأقوى الروابط العاطفية لدى الإنسان، ولكن رعب وخوف يوم القيامة يبلغ حداً من الهول العظيم مما يجعل هذه الروابط تتلاشى وتذوى وتبلغ حداً يؤدى إلى أن لا يفكر أحد إلا بنفسه، دون غيره.

وأفاد عدد من المفسرين في تفسير الآيات المذكورة بأن «لا تجزي» أتت بمعنى «لا تغني» «١».

(١) تفسير مجمع البيان، ج ١، ص ١٠٣؛ وتفسير الميزان، ج ١٦، ص ٢٥١؛ وتفسير روح البيان، ج ١، ص ١٢٧.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٨١

قال «الراغب» في «المفردات»: الجزء في الأصل بمعنى الاستغناء والاكتفاء، واطلقوا على الثواب والعقاب جزاء لأنهما يكفيان لإصلاح العمل المرتكب، وجاء نفس هذا المعنى في مقاييس اللغة أيضاً.

ومن الجدير بالذكر أن الخطاب في الآيتين الأولىين موجّه إلى بنى اسرائيل الذين يضرب بهم المثل على مدى الدهور بالتعصّب العرقي والقومي، فالقرآن يندبهم بقوله: أنتم الذين تحملون روح التعصب فيما بينكم فسوف تنسون كل شيء في ذلك اليوم العظيم، كل شيء إلا أنفسكم.

والحقائق الناصعة التي تحملها هذه الآيات لا تحتاج إلى توضيح؛ وذلك لأنها تُثبت بوضوح أن أهوال يوم القيامة والوقائع الصعبة التي تقع في ذلك اليوم العظيم لا- مثل لها في هذه الدنيا، ففي هذه الدنيا يوجد الكثير ممن يضحى للآخرين بنفسه من أجل الروابط العاطفية، ولكن هذا الأمر لا يصدّق في يوم القيامة على أحد.

٥٣- يوم تبيض وجوه وتسود وجوه

هذا التعبير الذى جاء فى مورد واحد من القرآن المجيد هو بيانٌ لبعْدِ آخر من أبعاد ذلك اليوم العظيم ويعكس صورةً اخرى عن يوم المحشر، قال تعالى: «يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ». (آل عمران / ١٠٦)

والوجوه المنيرة هي لأولئك الذين تنعموا بنور الإيمان فيظهر هذا النور على وجوههم لأن يوم «القيامة هو يوم تبرز فيه السرائر» قال تعالى: «وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ». (آل عمران / ١٠٧)

أما أصحاب القلوب المظلمة الذين خَلَّتْ قلوبهم من النور، والكفار والمجرمون الذين اسودت قلوبهم فإن ظلمات باطنهم تخرج إلى ظاهرهم، ويُعمرون فى عذاب الله ويقال لهم:

«فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ». (آل عمران / ١٠٦)

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٨٢

وهذا التعبير المذكور أعلاه انعكس بصورةً اخرى فى آيات القرآن المجيد أيضاً، وفى احدى الصور قال تعالى «كَأَنَّمَا اغْشَيْتَ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا». (يونس / ٢٧)

وجاء فى صورةً اخرى قال تعالى «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ». (عبس / ٣٨ - ٣٩)

وفى الثالثة: «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيَّهَا غَبْرَةٌ * تَرَهَقَهَا قَتْرَةٌ». (عبس / ٤٠ - ٤١)

متى تَحِلُّ هذه الواقعة؟ ومتى تبيض وجوه وتسود وجوه اخرى يرى البعض أن هذا سيقع عندما تتفرق الصفوف عن بعضها للورود إلى الجنة أو الدخول إلى النار، ويرى البعض الآخر أن هذا سيقع عند مشاهدة صحائف الأعمال، ويرى آخرون أنه سيقع عند الخروج من القبور أو عند الوقوف إزاء ميزان العدل الإلهي.

ولكن بما أن ذلك اليوم هو يوم إبراز وظهور حقائق الأفراد والأعمال فإنه يبدو أن وقوع هذا الأمر يتم فى أول وهلة عند خروج الناس من القبور ويستمر فيما بعد.

من هم أصحاب الوجوه البيض ومن هم أصحاب الوجوه السود؟

للمفسرين فى الجواب على ذلك احتمالات عديدة، وأحياناً حصروا ذلك فى أشخاص محدودين، ولكن الظاهر أن جميع المؤمنين أصحاب العمل الصالح يكونون فى صف أصحاب الوجوه المبيضة وجميع أهل الكفر والمجرمين فى صف أصحاب الوجوه المسودة. وأخيراً أراد بعض المفسرين أن يحمل هذين التعبيرين على مفهومهما المجازى فقالوا البياض هو لبيان السرور والفرح والسواد لبيان الغم والهم «١».

ولكن لا يوجد هناك ضرورة لارتكاب مثل هذه المخالفة للظاهر، بل يجب حمل الآية على المعنى الحقيقى لها، فعندما يقول القرآن:

«يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ». (حديد / ١٢)

فما الذى يثير العجب من أن تكون هناك وجوه بيض منيرة ووجوه سود مظلمة؟

(١) تفسير المراغى، ج ٤، ص ٢٥.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٨٣

وما أعظم خوف ذلك اليوم حقاً! عندما يظهر ما فى قلب الإنسان وروحه على وجهه، إنه يوم الخزي العظيم لسود القلوب ويوم الكرامة الكبرى لبيض القلوب، ولهذا السبب يكون المؤمنون فى ذلك اليوم موضع احترام وتكريم فى المحشر ويكون الكافرون مورد لعنٍ وطرده!

هذا التعبير جاء في مورد واحد من القرآن الكريم عند وصف الأبرار والمحسنين، قال تعالى: «وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا».
(الإنسان / ٧)

«مستطير»: من مادة «طيران» وهي هنا بمعنى واسع ومذدب، لذا فسرها البعض بمعنى الشئ الذى أتسع بشكل خارق للعادة، واطلق هذا التعبير على الفجر عندما ينبسط فى الافق فقالوا: «فجرٌ مستطيرٌ».

و «الشر»: جاء هنا بمعنى عذاب يوم القيامة، أو الخوف والرعب من ذلك اليوم الذى ينتشر حتى يغطى جميع الأرض والسماء مما يجعل الملائكة أيضاً يتملكهم الخوف، هناك يتملك الخوف الجميع لا المجرمين والمسيئين فحسب، بل حتى المؤمنين والمحسنين يتملكهم الخوف وذلك لأنهم لا يعلمون ما ينتهى إليه مصيرهم أو مآلهم.
والجدير بالذكر أنه يُعتبر في الآية المذكورة الخوف من مثل هذا اليوم من الصفات الممدوحة والامور الايجابية فى أخلاق الأبرار الطاهرين؛ وذلك لأنّ خوفاً كهذا يكون نابعاً من التقوى والتوجه إلى الطاعة المطلقة للخالق جل شأنه.

٥٥- يوم يفز المرء من أخيه

التعبير أعلاه والذى ورد ذكره مرّة واحدة فى القرآن المجيد هو تجسيم آخر بيّن لمشهد يوم القيامة، قال تعالى «يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبْنَيْهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٨٤

إِمْرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ». (عبس / ٣٤-٣٧)

من الطبيعى أن يكون أقرب وأحب الأفراد للإنسان هم الأخواه والأم والأب والزوجة والأولاد، ومن العجيب أن القرآن لم يقل إن الإنسان فى غفلة عن هؤلاء فى ذلك اليوم بل قال: إنه يفز من الأم التى كان يحبها كثيراً أو الأب الذى يكن له التقدير والاحترام ومن الزوجة التى كان يعشقها، والأولاد الذين كانوا ثمره قلبه ونور عينيه! بل إنّه يفز منهم جميعاً!

إنّ هؤلاء كانوا ملجأً له من مشاكل الدنيا، وسكناً له فى المصائب الشدائد ولكن ما الذى يحدث هناك بحيث يفز منهم؟! إن صيحة يوم البعث والذى عبر عنها القرآن الكريم ب «الصاخة» التى وردت فى الآية التى سبقت الآيات المذكورة فى موضوع بحثنا، حيث وصفت هذه الصيحة بالعظمة بحيث تمزق عرى كافة الأواصر، وهذا الصوت من الرهبة بحيث يدخل الرعب والرهبه على القلوب ويصم الآذان.

فلماذا يفز المرء؟

هل يفز خوفاً من الفضيحة أمام أقرب الخلق إليه؟

أو خوفاً من تبعات الذنوب التى ارتكبتها؟

أو يفز من حقوق الناس التى تثقل عاتقه؟ فمن المحتمل أن يطالبه هؤلاء بحقوقهم فى ذلك اليوم الذى تكون فيه يد الإنسان خالية من كلّ شئ!

أو لا- هذا ولا- ذاك بل إنّه يهرب من شدة الخوف والرعب فى المحشر حيث إن هذا الموقف يُرغم كل إنسان على الهرب أحبته والاهتمام بنفسه ولا غير، كى يجد لها مخلصاً ممّا هى فيه.

إنّ كل واحد من هذه الامور الأربعة يكفى لوحده أن يكون مدعاة للهرب والخلص فكيف الحال إذا اجتمعت معاً؟

جاء فى الحديث الشريف إنّ أحد أقرباء النبى الأكرم صلى الله عليه وآله سأله عن: ثلاثة مواقف يوم القيامة لا يفكر أحد إلاّ بنفسه: ١- الميزان ٢- الصراط ٣- تطاير الكتب «١».

(١) تفسير البرهان، ج ٤، ص ٤٢٩، ح ١.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٨٥

٥٦- يوماً يجعل الولدان شيباً

هذا التعبير الذى ورد ذكره فى القرآن المجيد مرّة واحدة تصوير أو تجسيد آخر للوقائع المروعة لذلك اليوم العظيم، فقد خاطب الكفار والمشركين فقال تعالى «فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا» (١) - (المزمل / ١٧)

إنّ هذا التعبير من أبلغ التعبيرات التى تميط اللثام عن الوقائع المرعبة لذلك اليوم كما تؤثر تلك الوقائع على عالم الطبيعة وعلى الجبال والصحراء وتجعلها هباء وتؤثر كذلك فى هذا الإنسان الترابى بحيث الاضطراب والخوف والانقباض إلى درجة تشيب الولدان من هولها.

وحمل بعض المفسرين هذا التعبير على معناه الحقيقى أى أنّ آثار المشيب تظهر على الأطفال حقيقه وإن كانت الفاصلة الزمنية بين الطفولة والمشيب كبيرة، وجاءوا لإثبات ذلك بأدلة أيضاً، فإننا فى هذه الدنيا نشاهد أفراداً يبيض شعر رؤوسهم خلال عدّة أيام أو حتى لعدّة ساعات من شدّة المصاب الذى يحلّ بهم، فإن كان بوسع أحداث هذه الدنيا أن تؤثر مثل هذا التأثير على الإنسان فإنّ وقائع المحشر التى هى أشدّ وأصعب كثيراً ستؤثر مثل هذا التأثير لا محالة.

ولكنّ جمعاً من المفسرين حملوه على المعنى المجازى لأنّ مثل هذه الكناية من الامور الشائعة على ألسنة العرب وغيرهم، فإنّهم من أجل بيان عظمة احدى الشدائد يقولون:

«شيبنى هذا الأمر»!

وكلا التفسيرين وجيه بالنسبة لهذه الآية، أما ما قيل بأنّ مشيب الأطفال يحصل من طول ذلك اليوم فهذا بعيد، لأنّ هذه الآية مثل كثير من الآيات الاخرى المختصة بالقيامة ناظرة إلى الوقائع المروعة لذلك اليوم، والآيات السابقة لهذه الآية والتى تتحدث عن ذلك الجبال تصلح دليلاً مؤيداً لهذا القول.

(١) يرى جمع من المفسرين أنّ «يوماً» الذى جاء فى الآية المذكورة أعلاه هو ظرف ل «يتقون»، ولكن اُحتِمِلَ بأنّه «مفعول به» ليتقون، ففي هذه الصورة قدّروا كلمة عذاب فى الآية فتصبح الآية على هذا بهذه الصورة: فكيف تتقون إن كفرتم (عذاب) يوم يجعل الولدان شيباً.

(٢) «شيب» على وزن (فعل) جمع «أشيب» بمعنى الشيخ المُسن، ومادة شيب على وزن (فعل) بمعنى تغيير لون الشعر من الاسود إلى الابيض.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٨٦

٥٧- هذا يومٌ لا ينطقون

ورد ذكر هذا التعبير مرّة واحدة أيضاً فى سورة المرسلات، قال تعالى «هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ». (المرسلات / ٣٥)

هل يكون الفزع والخوف العظيم الحاصل فى القيامة السبب فى توقف ألسنتهم عن النطق كما هو الحال فى الدنيا عندما تصيب الإنسان داهية تجعله لا يستطيع الكلام؟!

أم لأنّهم لا يمتلكون خطاباً ولا عذراً وحقه؟! أم تتوقف الألسن عن التكلم بأمر الله وتشهد الجوارح على أعمالهم؟ كما جاء فى الآية

الكريمة: «الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ». (يس / ٦٥)

من الممكن أن تجتمع هذه التفاسير الثلاثة معاً في الآية، وإن كان التفسير الثالث أكثر مناسبة، على أيه حال فإن هذا لا يمنع من أن يتكلم الإنسان في بعض مواقف القيامة بأمر الله، لأن القيامة لها مواقف مختلفة، وقد اتضح من خلال الآيات القرآنية أن المجرمين في بعض هذه المواقف يكونون صُمًّا بكمًّا لا ينطقون وأنهم في مواقف أخرى يتكلمون بأمر الله.

٥٨- يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ

ونواجه هنا أيضاً من خلال هذا التعبير الدقيق والفريد من نوعه وجهاً عبوساً آخر لذلك اليوم العظيم، قال تعالى: «يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ». (القلم / ٤٢)

يرى الكثير أو جمع من المفسرين بأن التعبير: «يُكْشَفُ عَن سَاقٍ» هو كناية عن هول المطع وشدة الخوف والفرع، وذلك لأن الناس قديماً كانوا يرفعون الأكمام عن أذرعهم ويرفعون أذيال ثيابهم إلى المحزم تأهباً عند مواجهة الشدائد والحوادث وفي هذه الحالة تكون السيقان مكشوفة طبعاً.

ويرى بعض من المفسرين أن هناك احتمالاً آخر في تفسير هذه الآية وهو إن «ساق»

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٨٧

بمعنى الأصل والأساس لكل شيء (مثل ساق الشجرة)، وبناءً على هذا تكون جملة «يُكْشَفُ عَن سَاقٍ» دليل على ظهور وبروز حقائق الأشياء في ذلك اليوم «١».

وعلى أي حال فإن الجميع يدعون في ذلك اليوم المرعب للسجود أمام عظمة خالق الكون فيسجد المؤمنون، ومن المحتمل أن تكون هذه السجدة من بواعث اطمئنان القلب والروح، أما من تلوث قلبه بالكفر والذنوب فلا يستطيع السجود.

جاء في الحديث عن الإمام الرضا عليه السلام في قوله: «يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ» قال: «حجاب من نور يكشف فيقع المؤمنون سجداً وتدمج اصلاب المنافقين فلا يستطيعون السجود» «٢».

وقال البعض إن المراد من «يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ» هو ظهور النور الإلهي.

٥٩- يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعذرتهم

هذا التعبير أيضاً يوضح واقعه أخرى مؤلمة من وقائع ذلك اليوم، قال تعالى «يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعذرتهم وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ». (غافر / ٥٢)

من المتعارف في هذه الدنيا اللجوء إلى الاعتذار وطلب المغفرة من أهل النجاة من مخالبا العقوبات، لكن طبيعة يوم القيامة تكون على نحو لا مجال فيه لعذر الظالمين، لأن ذلك اليوم وُضِعَ أساساً لجنى الأعمال لا لترميم الماضي الذي يعتبر نوعاً من العمل.

في بعض الآيات السابقة اتضح لنا عدم الاذن لهم بالاعتذار في ذلك اليوم، وفي البعض الآخر من الآيات اتضح أنهم وإن اعتذروا بألستهم إلا أن ذلك الاعتذار أيضاً لا ينفعهم، فبناءً على هذا لا يبقى أمامهم إلا طريق الاستسلام للغضب الإلهي وبئس المصير.

ويخاطب القرآن الكريم جميع الناس في هذا التعبير بأن يسارعوا لطلب العفو من الله

(١) تفسير روح المعاني، ج ٢٩، ص ٣٥؛ تفسير القرطبي، ج ١٠، ص ٦٧٢٨.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٣٩٥، ح ٤٩.

لمحو آثار الذنوب فإنّ محوها غير ممكن إلّا في هذه الدنيا، ومحو آثار الظلم عن طريق أداء حق المظلومين، فيجب الاستفادة من هذه الفرصة وإلا فإنّ في ذلك الموقف العظيم والمحكمة الكبرى لا ينفع الندم ولا الاعتذار ولا البكاء والعيول.

٦٠- يَوْمَ يَعِضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ

هذا التعبير من التعبيرات الرهيبة أيضاً، وقد ورد ذكره مرّة واحدة في القرآن المجيد، قال تعالى «وَيَوْمَ يَعِضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا» ثم أعقبه تعالى «يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا». (الفرقان / ٢٧-٢٨)

يعضّ الإنسان أحياناً على أصابعه عند الندم للتأسّف الشديد من الأعمال الماضية، ويعضّ أحياناً على ظاهر كفّه أيضاً، وعندما يكون الندم والتحرّس شديداً جداً فإنه يعضّ على كلتا يديه بالتناوب، وهذا أروع تعبير لبيان شدة الندامة والأسف.

بلى إنّ الظالمين يعضّون على أيديهم في ذلك اليوم العظيم بصورة مستمرة، لأننا نعلم بأنّ أحد أسماء ذلك اليوم هو: «يَوْمُ الْحَسِيرَةِ». (مريم / ٣٩)

ولكن ما الفائدة من ذلك؟ هل أنّ إدماء الأيدي بالأسنان والذي هو نوع من الانتقام من النفس يصلح لحلّ المشكلة، أو لجلب الاطمئنان؟ أم يزيد من ألم الظالمين ويجعل فضيحتهم اشنع؟! جاء في تفسير «الميزان» إنّ «الظالم» في هذه الآية يشمل جميع الظالمين، كما أنّ «الرسول» أيضاً يشمل جميع الرّسل، (أى اللام فيهما للاستغراق) وإن كان الخطاب في هذه الآية موجهاً إلى ظالمي هذه الامة والمراد من الرسول هو رسول الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله.

وقد ذكروا أسباباً مختلفة ل نزول هذه الآية يطول تفصيلها، ولكننا نعتقد بأنّ أسباب النزول لا تحدد مفهوم الآيات «١».

(١) للاطلاع أكثر راجع التفسير الأمثل، ذيل الآية ٢٨ من سورة الفرقان.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٨٩

٦١- يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ

٦٢- يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ

يلاحظ هنا أيضاً تعبيران متشابهان ومتقاربان لوصف مشهد ذلك اليوم العظيم: ففي التعبير الأول والذي ورد ذكره مرّتين قوله تعالى «وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ».

(الاحقاف / ٢٠-٣٤)

ففي الآية الاولى بعد ذكر هذا المقطع قال تعالى «أَذْهَبْتُمْ طَيْبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْرَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ».

وفي الآية الثانية قال تعالى «وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبَّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ».

لقد ورد التأكيد في الآية الاولى لبيان أنّ السبب يقع على الجانب العملي، أى تلك اللذات اللامشروعة والاستفادة المحرمة من الهبات الإلهية، وفي الآية الثانية جاء التأكيد على الجانب الاعتقادي الذي يكون سبباً في هلاك أهل النار.

ومن الملفت للنظر: إنّ بعض الآيات القرآنية تذكر بأنّ يوم القيامة يؤتى بالنار صوب المجرمين «وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ». (الفجر / ٢٣)

ولكن في هذه الآية التي هي محلّ بحثنا ذكر بأنّ الكفار هم الذين يساقون تجاه النار، وكأنّما هنالك قوّة جذب بينهما، فتارة يؤتى بجهنم صوبهم وأخرى يؤتى بهم إلى النار! ليتجرّعوا العذاب.

وفى التعبير الثانى يُشار إلى نوع آخر من أنواع العذاب المؤلم ليوم القيامة ويسمى ذلك اليوم باسم ذلك العذاب، قال تعالى «يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ». (الاحزاب / ٦٦)

وللمفسرين اقوال عدّة فى المراد من تقلب الوجوه فى ذلك اليوم، فتارةً قيل إنّ المراد من التقلب هو تغيير لون الوجوه، فتكون مصفرةً وذابلةً وأخرى تصير محمّرةً كالنار وثالثةً تسودُ وتصبح كقطع الليل.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٩٠

وقال البعض منهم إنّ المراد من التقلب هو تقلب الوجوه كما تقلب الأشياء على النار للطهى من طرفٍ إلى آخر، فهكذا يُفعل بوجوه المجرمين أيضاً فى ذلك اليوم العظيم.

وقيل إنّ المراد إلقاؤهم على وجوههم فى النار، والحكمة من ذكر الوجوه هنا هو إنّ الوجوه أشرف أعضاء بدن الإنسان وأجلّها لديه. وهناك احتمال آخر أيضاً وهو الجمع بين التفسير الثلاثة فى هذه الآية وإن كان التفسير الأول والثانى أقرب للصحة فعلى أية حال فإنّ الآية تُنبئ عن الفاجعة الكبرى والعذاب العظيم الذى يواجهه المجرمون والكافرون والمعاندون يوم القيامة.

والخطاب الذى تحمله هذه الآية هو دعوة الناس إلى الاجتهاد فى طاعة الله ورسوله فى الدنيا قبل حسرة ذلك اليوم العظيم وقولهم ياليتنى ... والتى لا تعود عليهم بأية فائدة حينئذٍ! لماذا يرجحون اليوم طاعة العباد الذين يتخلقون بأخلاق الشيطان وطواغيت العصر على طاعة الله؟ الأمر الذى يكون السبب الرئيسى فى ندمهم يوم القيامة.

٦٣- يَوْمَ يُدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً

هذا التعبير أيضاً له شبه كبير بالتعبيرات السابقة، قال تعالى «يَوْمَ يُدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً». (الطور / ١٣)

ثم يقال لهم: «هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكذَّبُونَ» * أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَأَتَّبِعُرُونَ».

(الطور / ١٤-١٥)

«يُدْعُونَ»: من مادة «دَعَّ» كما قال الراغب فى المفردات بمعنى «الطرد الشديد»، فهذا التعبير يدل على أنّ نفس الأخذ إلى جهنم أيضاً يكون مقروناً بالشدة والفرع والخوف والاضطراب الشديد فى يوم القيامة العظيم، إن تصوّر هذا التعبير يكفى لأنّ يرتعد الإنسان ويفكر فى عاقبة أمره، ويوضح للإنسان عظم المصير الذى سوف يلاقه.

وما أكثر التباين بين أصحاب جهنم وأصحاب الجنة، حتى فى كيفية انتقالهم إلى مقرهم

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٩١

النهائى! فقد جاء فى القرآن الكريم عن كيفية انتقال أهل الجنة إليها: «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ». (النحل / ٣٢)

وجاء فى موضع آخر بأنّ الملائكة تقول لهم: «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ». (الرعد / ٢٤)

٦٤- يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى

٦٥- يَوْمَ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ

التعبير الأول تعبيرٌ مروّج عن ذلك اليوم العظيم، وذلك لأنّ الله عزوجل بعظمته وقدرته الخالدة يهدد الكافرين والمجرمين بأشدّ

اسلوب فيقول: «يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ». (الدخان / ١٦)

فكلما أمعن الإنسان النظر فى مفردات هذه الآية؟ كالتعبير ب «البطش» الذى يعنى الأخذ بالقوة والمصحوب بالهجوم، والتعبير ب «الكبرى» الذى هو دليل على قوة البطش أو عظمته، والتعبير ب «إنا منتقمون» الذى هو جملة اسمية وبنفس الوقت مؤكّد ب «إنّ»

فسوف يرتعد له بدنه، لأنّ الله الرحيم الغفور والله القادر القاهر يهدد بمثل هذا التهديد.

قال جمع من المفسرين واحتمل آخرون أن الآية تدل على العقاب الشديد الذي أصاب المشركين في غزوة بدر الكبرى لكن مفردات الآية تتناسب مع عذاب أكبر وأشد وأشمَل، وهذا مما لا يصدق إلا على عذاب الآخرة، بالإضافة إلى أن الآيات السابقة لها لا تناسب النزول في غزوة بدر الكبرى

وفى التعبير الثانى أشير إلى بُعد آخر من أبعاد ذلك اليوم، قال تعالى «يَوْمَ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ». (الشورى ٤٧) فلا يوجد هناك سبيل لجبران الماضى ولا سبيل للعودة إلى هذه الدنيا لتدارك ما فات. ويرى بعض المفسرين أن هذه الجملة تدل على حتمية وقوع ذلك اليوم لأنه تعالى قال:

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٩٢

«يَوْمَ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ»، أى أنه واقع حتماً، فعلى هذا المعنى يكون مفهوم الآية قريباً من جملة «لا ريب فيه» التى وردت للتعبير عن يوم القيامة، لكن ذيل الآية: «مَالِكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَالِكُمْ مِنْ نَكِيرٍ» يناسب التفسير الأول. وهناك احتمال آخر هو أن المراد من الآية أن أحداً لا يستطيع فى ذلك اليوم منَع وإيقاف العذاب الإلهى عنكم، وهذا المعنى يتناسب مع ذيل الآية.

فعلى أية حال فإن أى تفسير نرجحه من بين هذه التفاسير فهو يحمل خطاباً بليغاً وشديداً.

٦٦- يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَكْرٍ

هذا التعبير الذى ورد ذكره فى القرآن المجيد مرّة واحدة هو تعبير غامض ومُفْرَعٌ، ويتبّه الإنسان إلى امور مهمّة فيما يتعلق بذلك اليوم، قال تعالى «يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَكْرٍ». (القمر / ٦) وللمفسرين احتمالات عدّة فى مسألة من هو «الداعى» فهل هو الله؟ أم الملائكة المقربون؟ مثل جبرئيل، أو اسرافيل الذى يدعو الناس إلى القيامة بواسطة نفخ الصور، فلو أخذنا بنظر الاعتبار الآية الشريفة: «يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ». (الاسراء / ٥٢) فإن المعنى الأول يكون مناسباً، وإن كانت الآيات اللاحقة أكثر تناسباً مع الملائكة وعمال الحساب والجزاء. ما هو المراد من «شئ نكر»؟

هل يكمن هذا الشئ فى أنواع العذاب الرهيب التى لم تخطر على بال أحد من البشر؟ أم هو الحساب الدقيق للأعمال الذى لم يكن يتوقعه أحد من قبل؟ أم هو مجموع هذين؟ فمهما يكن من شئ فهو أمر رهيب ومُفْرَعٌ وعسير ومؤلم.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٩٣

٦٧- يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وجوههم

إنّ الانذار الشديد الذى يحتوى عليه هذا التعبير عن القيامة عجيب حقاً، قال تعالى «يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وجوههم ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ». (القمر / ٤٨)

نحن نعلم بأنّ الوجه أشرف محل فى الإنسان وفى نفس الوقت أطف جزء من أعضاء البدن، ونعلم بأنّ كثيراً من الأجزاء المهمّة مثل العين والفم والأنف توجد فى الوجه، ومن جانب آخر نعلم بأنّ نار جهنم أشد من نار الدنيا بكثير فإنّ نار الدنيا فى مقابل تلك النار ضئيلة أو محدودة جداً.

تصوروا ماذا سيحدث إذا سحِبَ أحدٌ فى النار على وجهه؟ بالإضافة إلى ذلك فإنّ هذا العمل دليل على شدّة التحقير لهؤلاء المستكبرين عبّاد الذات، فعلى هذا يجتمع هناك العذاب الجسمى والعذاب الروحى فى آن واحد.

ويوجد هناك احتمالان في معنى «سَقَر» التي هي على وزن (سَفَر):

الاحتمال الأول: هو أنها نفس جهنم

الاحتمال الثاني: أن المراد منها قسم معين من جهنم الذي هو مقر المتكبرين وذو حرارة عالية واحراق شديد، والاحتمال الثاني تؤيده رواية الإمام الصادق عليه السلام، قال عليه السلام: «إن في جهنم لوادٍ للمتكبرين يقال له سقر شكا إلى الله شدة حره وسأله أن يأذن له أن يتنفس فأحرق جهنم» (١).

٦٨- يوم نقول لجهنم هل امتلأت

هذا التعبير الذي ورد ذكره مرة واحدة في القرآن المجيد يعتبر من جملة صفات يوم القيامة ومن التعبيرات التي تبعث على الرهبة والهلع أيضاً، ويشير إلى حجم النار الكبير وكثرة أصحاب جهنم، هذا المشهد يبعث الرعب والخوف في قلب كل إنسان لئلا يكون أحد

(١) تفسير الصافي، ج ٥، ص ١٠٤-١٠٥ في تعليقه على الآية.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٩٤

هؤلاء، قال تعالى «يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ». (ق / ٣٠)

ويوجد في تفسير هذه الآية رأيان: الأول هو أن الاستفهام هنا «استفهام إنكارى»، أى أن جهنم فى الجواب عن هذا السؤال هل امتلأت؟ تقول بتعجب هل هناك زيادة على هذا؟
للدلالة على أنه لم يبق فيها مكان فارغ.

والاحتمال الثانى أن الاستفهام «استفهام تقييى»، أى هل هناك أفراد آخرون يردون جهنم؟ على هذا المعنى تكون النار دائماً فى حالة البحث عن الظالمين المجرمين، ويشبه حالها حال الإنسان الشره الذى يطلب دائماً طعاماً كثيراً ولا يشبع من ذلك أبداً، ولا عجب أن لا تشبع النار من المذنبين الظالمين ولا تشبع الجنة من الصالحين.
إلا أن بعض المفسرين أوردوا على هذا التفسير إشكالاً بأنه لا يتناسب مع هذه الآية:

«لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ». (السجدة/ ١٣)

وعلى هذا الأساس فلا بد من الرجوع إلى التفسير الأول «١»، ولكن يمكن الجواب على هذا الإشكال بأن الامتلاء له درجات، كما لو ملئ صحن من الطعام وأعطى لشخص فيطلب أن يزداد له فيه.

وفى مسألة كيفية الاستفسار من جهنم وجوابها قال البعض: إنه سؤال من خزنة وحفظه جهنم وجوابهم، وقال البعض إن هذا الاستفسار والجواب هو بلسان الحال وقيل أيضاً إنه يفهم من مجموع آيات القرآن وبعض الأخبار بأن جهنم موجود حتى قادرة على النطق ونبأ على هذا فإنه من الممكن تفسير الآية بنفس المعنى الظاهرى لها «٢».

وعلى أية حال فإن هذه الآية توحى بكثرة أصحاب النار وجدية التهديد الإلهى لهم، وتندرج الجميع أن لا يكونوا من هذه الزمرة فيها فهذه التحذيرات من الممكن أن توقظ الإنسان وتجعله يراجع نفسه ويتوقف عن الاستمرار فى ارتكاب الذنوب والخطايا.

(١) هذا الإشكال فى تفسير الكبير، ج ٢٨، ص ١٧٤؛ وتفسير روح المعانى ج ٢٦، ص ١٧؛ وتفسير الميزان، ج ١٨ ص ٣٨٤ نقلًا عن بعض المفسرين.

(٢) ذكر فى تفسير روح البيان ج ٩، ص ١٢٧، شواهد من الآيات والروايات لإثبات هذا المعنى

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٩٥

٦٩- يوم يقول المنافقون والمنافقات ...

هذا التعبير عن يوم القيامة ورد ذكره مرّة واحدة في القرآن المجيد في قال تعالى «يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ»، (أى ألقوا علينا نظرة حتى نستلهم من نوركم، أو أمهلونا حتى نستفيد من نوركم). (الحديد/ ١٣)

هذا والحال أنّ المؤمنين والمؤمنات يمرّون على الصراط بسرعة خاطفة وأشعة أنوارهم تسطع أمامهم وعن أيّمانهم: «يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ...». (الحديد/ ١٢)

أما المنافقون فإنهم ينظرون إلى المؤمنين بحسرة ولهفة يطلبون حزمه أو قبضة من نور المؤمنين ولكنهم يجابون حينها «قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا». (الحديد/ ١٣)

إنّ القيامة وساحة المحشر ليستا محلًا لكسب النور، بل محل ذلك هو الدنيا فارجعوا إليها إن استطعتم واطلبوا النور والضياء لأنفسكم من مصباح الهداية المنير والعمل الصالح، فما أسوأ حال المنافقين أصحاب القلوب الغلف والأفكار المظلمة! وما أجمل نور الإيمان والعمل الصالح وما اعظم فحوى هذا الخطاب الذي تحمله لنا الآية الكريمة في بيانها لحال الفريقين معاً!

٧٠- يوم لا ريب فيه

التعبير السبعون وهو الأخير في وصف يوم القيامة هو التعبير المذكور أعلاه الذي ورد ذكره مرّتين في سورة آل عمران، قال تعالى «رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ».

(آل عمران/ ٩)

وورد هذا التعبير في نفس هذه السورة أيضاً، قال تعالى «فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ». (آل عمران/ ٢٥)

وبما أننا تحدثنا في بحث «حتمية يوم القيامة في نظر القرآن الكريم»- بالقدر الكافي-

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٩٦

في موارد هذه الآيات (في هذا الجزء من الكتاب، فلانرى ضرورة لتكرار ذلك، لكننا نشير إلى مسألة واحدة فقط وهي أنّ حتمية وقوع ذلك اليوم وتحقق الوعود الإلهية فيه ليست من المسلمات والبداهيات في القرآن الكريم فحسب، بل هي كذلك عند جميع المؤمنين الراسخين في إيمانهم، فإنهم يعترفون ويجمعون على أنّ المقولات السابقة ليوم القيامة تخبر عن وقائع ذلك اليوم العصيب، بينما يخبر هذا التعبير عن حتمية وقوعه بلا شك، وفي الواقع فهذا التعبير تأكيد لجميع تلك التعبيرات ولهذا انتخبنا هذا الوصف ليكون آخر حلقة تذكّر من سلسلة التعبيرات الواردة في يوم القيامة.

وهذه المسألة من المسائل الجديرة بالذكر لأنّ المؤمنين عندما يتحدثون عن ذلك اليوم العظيم فإنهم يأتون بالدليل عليه ودليلهم ماجاء في ذيل الآية الاولى «إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ»، وهذا دليل على حتمية وقوع ذلك اليوم وعدم إمكان الشك فيه.

نمرة البحث:

من خلال هذا البحث الواسع حول «أسماء القيامة في القرآن» اتضح لنا بأنّ «ليوم القيامة» في القرآن المجيد على الأقل «سبعون اسماً»، وبديهيّ إن ما نريده من الاسم هنا ليس هو الاسم العلم بل جميع التعبيرات التي وردت في مورد اسم القيامة في القرآن الكريم التي ابتدأت بكلمة «يوم» (اسم توصيفي).

لكننا قسّمنا هذه الأسماء إلى مجموعتين إحداهما الأسماء التي احتوت على كلمته واحدة فقط للتعبير عن ذلك اليوم العظيم، مثل «يوم البعث ويوم القيامة ويوم الدين ويوم الحساب» البالغة أربعة وعشرين اسماً، والآخرى الأسماء التي وصفت يوم القيامة من خلال جملة واحدة (وهي بقية التعبيرات).

وهذه الأسماء والصفات السبعون غنيّة جداً بالمواضيع فهي تنظر إلى يوم القيامة من نوافذ وزوايا مختلفه، وقد كشفت عن جميع الوقائع التي تقع في ذلك اليوم العظيم من بدايته

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٩٧

التي هي إحياء الموتى حتى نهايته عندما يُساق أصحاب الجنة إلى الجنة وأصحاب النار إلى النار.

إنّ هذه الأسماء السبعين ترسم لنا لوحة عجيبة ورهيبة وواضحة وناطقة عن ذلك اليوم العظيم، وتحدث عن كل ما يمكن أن يقال عنه، وتخبّر عن عاقبة جميع البشر في مواقف المحشر جميعاً.

إنّه ليس من المعقول أن يتأمل الإنسان في هذه الاسماء وينظر إليها نظرة موضوعية فلا تؤثر فيه الأثر التربوي العميق، فالهدف منها في الواقع هو ايقاظ الإنسان من خلال هذه التعبيرات التي صوّر كل واحد منها زاوية معينة من المعاد، فإنّها تدعوه إلى الخروج من الضلال إلى الهدى ومن الرجس إلى الطهارة، ومن حبّ الدنيا إلى الزهد فيها، ومن الفسق إلى التقوى ومن الظلمة إلى النور ومن الكفر إلى الإيمان ومن الشرك إلى التوحيد.

إنّ هذا القرآن كتاب هداية حقّاً، وما أعجب سبله التربوية العالية.

ضُعموا هذه الأسماء إلى جنب بعضها مرّة أخرى ومزّوا بها على نوافذ قلوبكم، وتأمّلوا في كل موردٍ وردت فيه، وماهى العواقب التي يصوّرها للإنسان؟ ثم استفيدوا منها في تربية أنفسكم.

اللهم أعطنا إدراكاً وبصيرة نرى ذلك اليوم العظيم من جميع زواياه التي بينتها لنا في القرآن الكريم.

ونصغى لنداء هذه الآيات.

ونحفظ فحوى هذه الأسماء.

ووقفنا للتأهب لذلك اليوم العظيم آمين يا ربّ العالمين.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٩٩

الأدلة على المعاد

إشارة

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٠١

أدلة إثبات المعاد

تمهيد:

نظراً للأهميّة الفائقة التي أولاها القرآن الكريم للمعاد في بعد المعارف الدينية ومن حيث التأثير التربوي لها في الآخرين معاً، فإنّه خصص آيات متعددة لبيان أدلة إثبات المعاد.

وهذه الأدلة في الواقع تنقسم إلى قسمين رئيسيين:

القسم الأول: الأدلة التي استدلت بها على إثبات وقوع المعاد وإثبات وجود الحياة بعد الموت من طرق متعددة.

القسم الثاني: الأدلة التي تُمثل في الواقع جواباً على الإشكالات التي أوردها المخالفون، الذين يعتقدون باستحالة الحياة بعد الموت.

وآدعوا من خلال تعبيرات مختلفة «عدم إمكان» وقوعها.

لقد طرح القرآن المجيد في مقابل ذلك مجموعة من الأدلة «العقلية» و «الحسية التجريبية» واثبت لهم «إمكان المعاد الاخرى» ودحض ادعاءهم.

إنّ الاسلوب الطبيعي للبحث يوجب علينا طبعاً أن نطرح أولاً أدلة «إمكان» المعاد، فنبتدئ بالإنطلاق من مرحلة «الجحود المطلق» إلى مرحلة «الإمكان المطلق»، بعد ذلك نطرح «أدلة حتمية» على المعاد و «أدلة إثبات الوقوع» كي نتعرف من خلال ذلك وبصورة صحيحة ومنطقية على حقيقة المعاد ومراحله جميعها.

والملاحظة المهمة التي يجب أن نؤكد عليها هنا: إنّ جميع مناظرات القرآن الكريم في مجال إمكان المعاد جاءت لاقناع منكري المعاد الجسماني، والقرآن الكريم يؤكد على

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٠٢

مسألة إعادة «الروح» و «الجسم» معاً في الدار الآخرة وأنه امر ممكن بلا شك وذلك لأننا نشاهد في هذا العالم نماذج مختلفة لمصاديق ذلك.

على أية حال فإنّ الطرق التي يسلكها القرآن لإثبات ذلك كثيرة جداً ومتنوعة ويمكن تلخيصها في ست طرق:

١- آيات الخلق الأول (خلق العالم والإنسان).

٢- آيات شمول القدرة الإلهية.

٣- آيات احياء الأرض.

٤- آيات تطور مراحل الجنين.

٥- آيات عودة الطاقة.

٦- آيات النماذج الحية والتأريخية للمعاد في هذه الدنيا.

ومن أجل التعرف على هوية المخالفين الذين يعنهم القرآن الكريم وعلى مقصود الآيات في ذلك يجب قبل الدخول في البحث أن نطرح بعض الجوانب من منطق المخالفين الذي بينته آيات القرآن الكريم، ذلك المنطق الذي يطرحه المخالفون في يومنا هذا أحياناً ويؤكدون عليه.

بعد هذا التوضيح نتوجه للبحث في أدلة (إمكان المعاد) ونتحدث أولاً في تحديد منطق المخالفين ووجه نظرهم فيه:

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٠٣

إمكان المعاد ومنطق المخالفين:

إشارة:

قلنا بأنّ القرآن المجيد من أجل تهيئة الأرضية الفكرية اللازمة لاستيعاب هذه المسألة يبدأ أولاً بالحديث عن «إمكان المعاد»، ويثبت ذلك بطرق مختلفة (الطرق الست)، بعد ذلك يبدأ بذكر أدلة «وقوع المعاد».

ويحتمل أن لا تكون هناك ضرورة للتنبيه على أنّ المخالفين للمعاد لا يمتلكون دليلاً معيناً لإثبات مقصدهم فهم عادةً يؤكدون على

مسألة استحالة الحياة بعد الموت بسبب عقليتهم الساذجة، حتى يعتبرون الاعتقاد بمسألة الحياة بعد الموت من علامات الجنون وكانوا يسخرون ممن يقول بذلك ويتهمونه بالافتراء على الله.

بعد ذكر هذه المقدمة نعود إلى القرآن الكريم لتأمل خاشعين في الآيات التالية:

١- «وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا ءَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا». (الاسراء / ٤٩-٩٨)

٢- «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هِيلَ نَدْلُكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُبْنِيكُمْ إِذَا مُرِّتُمْ كُلَّ مَرْجٍ إِنَّكُمْ لَنفَى خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ». (سبأ / ٧-٨)

٣- «وَقَالُوا إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ ءَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ». (السجدة / ١٠)

٤- «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا ءَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ * لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ». (النمل / ٤٧-٤٨)

٥- «فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * ءَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ». (ق / ٢-٣)

٦- «أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٠٤

لِمَا تُوَعَّدُونَ * إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ». (المؤمنون / ٣٥-٣٧)

٧- «إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ * إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ» (١). (الدخان / ٣٤-٣٥)

جمع الآيات وتفسيرها

هل يستحيل التراب إلى إنسان مرة أخرى !

هذه الآيات وإن كانت ذات مضامين مشتركة إلا أن هناك تفاوتاً في تعبيراتها ومحتوياتها وتحتاج إلى الدقة والإمعان. ففي الآية الأولى إشارة إلى مقوله مشركى العرب، قال تعالى «وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا ءَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا». كيف يمكن للإنسان بعد أن يتفسخ لحمه ويصبح تراباً ثم تندرس عظامه وتصبح رميمًا ورفاتاً أن تجميع ثانياً ثم تلبس ثوب الحياة من جديد فأين العظام الرميمة والمتلاشية من الإنسان الحي المتحرك القوى؟!

«رُفَات»: من مادة «رَفَت» (على وزن فَعَلَ) بمعنى حطام، وعدّ البعض «الالتواء» من معانيه أيضاً، وقال البعض إنّ «الرفات» بمعنى الذرات العتيقة المتفسخة وهى الحالة التى تحصل للعظام بعد أن تمضى عليها سنون متمادية وهذه التفسيرات جميعها كثيرة الشبه ببعضها (٢). وما فسّره البعض - نقلًا عن روح المعانى - بأنه بمعنى التراب أو الغبار أو ما أصبح دقيقاً إثر الدقّ الكثير فهو فى الواقع بيان لبعض مصاديقه.

(١) يوجد فى هذا المجال آيات متعددة أخرى متقاربة الأفق مع هذه الآيات المذكورة مثلما ما جاء فى سورة الواقعة الآية ٤٧ و ٤٨؛ وفى سورة الصافات الآية ٥٣؛ وسورة يس الآية ٧٨ و ...

(٢) مفردات الراغب ومقاييس اللغة والتحقيق وتفسير روح المعاني.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٠٥

الإنسان العاقل لا يتحدث بمثل هذا!

والآية الثانية تصور الأسلوب الخشن، المعاند والأكثر غروراً للمشركين في قوله تعالى «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُبَيِّنُ لَكُمْ إِذَا مَزَقْتُمْ كُلَّ مُمَزَقٍ لَئِن كُنْتُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا» (لأنه يدعى أن هذا الخبر من الله) «أَمْ بِهِ جِنَّةٌ» (فكلامه كلام المجانين) (والعياذ بالله).

هكذا كان يتصور هؤلاء بأن أخبار النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عن المعاد الجسماني ناتج عن أحد أمرين فكانوا يقولون: إما أن يكون هذا الرجل عاقلاً وفضلاً وفضلاً ولكن من أجل الطموحات الشخصية نَسَبَ هذه الامور إلى الله كذباً كي يجمع الناس حوله، وإما أن لا يكون لديه غرض شخصي ولكنه (والعياذ بالله) اصيب بالجنون! وإلا فإن العاقل لا يمكن أن يقول بأن العظام البالية والتراب المنثور الذي ركب ذراته أمواج الرياح وذهبت في كل صوب أن تجتمع يوماً وتحى من جديد!

إن هؤلاء الحمقى المغرورين الذين لم يذكروا النبي إلباعنوان «رَجُلٍ» وبصيغته نكرة قد نسوا نشأتهم الاولى بالمرة وخيتمت على بصائرهم حجب الجهل فمعتهم من مشاهدة مصاديق المعاد في حياتهم اليومية، وسوف نتطرق للبحث في هذا المجال ياذن الله بعد ذكر هذه الآيات.

و «مَزَقْتُمْ»: من مادة «تمزيق» بمعنى الشق والتقطيع، وجاءت هنا للدلالة على تحلل الإنسان وتناثر عناصره واختلاطها بالتراب والماء والهواء.

وفي الآية الثالثة نجد تعبيراً جديداً في هذا المجال، قال تعالى «وَقَالُوا إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ».

التعبير بالضلال في الأرض يكون تارةً للدلالة على تحول أعضاء جسم الإنسان إلى تراب بحيث تكون كالارض، وتارةً اخرى للدلالة على تشتتها في مناطق متوارية من العالم على نحو لا يمكن تمييزها أبداً. بهذا الأسلوب كانوا يريدون أن يثبتوا بأن عودة كهذه أمرٌ محال جداً! بينما قد تحقق

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٠٦

نفس هذا الأمر في بداية خلق الإنسان، فإن العناصر المنبثقة في عالم الطبيعة اجتمعت بقدره الله ووجد منها الإنسان (والوقوع أفضل دليل على الإمكان).

إنها أساطير فحسب:

ورد ذكر هذا الإدعاء في الآية الرابعة مع بعض الإضافات الاخرى قال تعالى «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاءُنَا ءِإِنَّا لَمُخْرَجُونَ * لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ» (١).

يفهم من هذا التعبير أن مسألة المعاد وبالتحديد المعاد الجسماني لم تكن من مختصات القرآن والشريعة الإسلامية فحسب، بل مما أخبر عنه الأنبياء المتقدمون أيضاً، ولكن للأسباب التي سوف نذكرها لاحقاً- إن شاء الله- لم يخضع متكبرو الامم للحق أبداً، وكانوا يعتبرونه أمراً خرافياً واسطورياً بعيداً عن العقل والمنطق، فالآية الشريفة ذكرت أن هؤلاء تمسكوا بأمرين لانكار المعاد: الأول: أن عودة الحياة للتراب تبدو أمراً مستبعداً.

والثاني: بما أن جميع الأنبياء السابقين وعدوا الامم السالفة ولم يتحقق وعدهم أبداً، فهذا دليل على أن هذا الأمر اسطورة وخرافة لا غير، (وكأنهم يتوقعون بأن القيامة يجب أن تتحقق على الفور وإلا فهي كذب وافتراء).

(١) «اساطير» جمع «اسطورة» ويرى بعض اللغويين أنها جمع «أسطار» وهي بدورها جمع «سطر» بمعنى الشئ المدون كذباً، وقال البعض أيضاً: بما أن «اسطورة» من الصيغ «المزيد فيها» فإنها تدل على زيادة في السطر المعهود، ولذا اعتبروها بمعنى «السطر الممتق»، ومهما يكن من أمر فإن الاسطورة بمعنى المقولة الباطلة الخرافية التي لا أصل لها. (مقاييس اللغة- المفردات- مصباح اللغة- التحقيق).

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٠٧

وفي الآية الخامسة يراد تعبير آخر عن ذلك الإنكار والاستبعاد، قال تعالى «فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكُمْ رَجْعٌ بَعِيدٌ» (١).

فهم في مبتدأ مقولتهم يعتبرون ذلك أمراً «عجيباً»، وفي ذيل مقولتهم يعتبرونه «بعيداً» ولكنهم لم يفكروا بخلقهم وإن هذا الأمر «العجيب والبعيد» قد تحقق بوضوح في خلقهم الأول، بل كما سوف يأتي لاحقاً بأن مسألة المعاد وتجدد الحياة من الامور التي شاهدناها ونشاهدها دائماً في هذه الدنيا، فكيف يكون هذا الأمر عجيباً وبعيداً؟

وفي الآية السادسة نرى المخالفين يكررون هذا اللون من الانكار ولكن بأسلوب آخر، فكانوا يقولون لقرنائهم وأقربائهم مشككين متخذين أسلوب الاشاعة والاثارة: «أَيَعِدُكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ».

ثم إن هؤلاء الحمقى لا يخالون أن هناك حاجة للاستدلال فيقولون بتعسف: «إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ». وهذا من أشد تعبيرات المنكرين المعاندين في مجال إنكار المعاد، وذلك من دون أن يفكروا في فلسفة خلق الإنسان وأنه هل من الممكن أن تكون هذه الحياة القصيرة المليئة بالمصائب والمشاكل الهدف والغرض الرئيسي من خلق الإنسان؟ ومن دون أن يفكروا بفلسفة الأوامر الإلهية وأنه هل من الممكن أن يعامل الله العادل، الصالحين والطلحين على حد سواء؟ وأن لا يفرق بينهم لا في الدنيا ولا في الآخرة، ومن دون أن يفكروا بنشأتهم الاولى حين كانوا في البداية تراباً وعناصر متفرقة.

قد يكون تقدم كلمة التراب على العظام في الآية الكريمة- مع أن بدن الإنسان يتحول إلى عظام رميمة أولاً ثم يكون تراباً- وذلك للإشارة بالتراب إلى اللحم الذي يصبح تراباً

(١) بعض المفسرين لا يرون فرقاً بين «رَجْع» و «رجوع» (مثل صاحب الميزان) بينما يعتقد البعض الآخر بأن «رَجْع» استعمل متعدياً و «رجوع» لازم (تفسير روح البيان، ج ٩، ص ١٠٣) وجاء في تفسير فخر الرازي أيضاً الفرق بين هذين التعبيرين، ولكن الآية تحتمل كلا المعنيين (تفسير الكبير، ج ٢٨، ص ١٥٢).

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٠٨

قبل العظام، أو الذكر له بالتراب على الأجداد والماضين الذين تحولت أبدانهم إلى تراب تماماً، وللدلالة بالعظام إلى الأباء والامهات الذين فارقوا الحياة قريباً، أو لأن عودة الحياة إلى التراب أبعد إلى التصديق من عودته إلى العظام، لذا تقدمت كلمة التراب، وفي كل الأحوال فيه بيان لشدة معارضتهم لهذه المسألة.

إن هي إلا حياة واحدة وموتة واحدة:

وفي الآية السابعة والاخيرة نلاحظ تعبيراً جديداً أيضاً، وهو إن مشركي العرب ومنكري المعاد من دون أن يتحدثوا عن الرفات والتراب

وأمثال هذه الامور، ادعوا بدون دليل: «إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ* إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتْنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ».

الأمر العجيب في هذه الآية أن هؤلاء قالوا إن هي إلا موتتنا الاولى فلماذا اتوا بهذا التعبير بينما كان عليهم أن يقولوا: إن هي إلا حياتنا الاولى

وقد أجاب المفسرون عن هذا السؤال بأجوبة مختلفة، ولكن الجواب الأكثر مناسبة أن يقال إنهم كانوا يقصدون من كلامهم هذا إنه لا يوجد بعد هذه الحياة إلا الموت ولا شيء يحدث بعد الموت، أي لا يوجد هناك حياة اخرى

وآخر الكلام في هذه الآية قال الزمخشري بعد أن طرح هذا الإشكال في الكشاف: إنه قيل لهم إنكم تموتون موتة تتبعها حياة، كما تقدمتكم موتة قد تعقبها حياة، وذلك قوله عزوجل: «وَكُنْتُمْ أََمْواتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ». (البقرة/ ٢٨)

فقالوا: «إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتْنَا الْأُولَىٰ يريدون: ما الموتة التي من شأنها أن يتعقبها حياة إلا الموتة الاولى دون الموتة الثانية وما الصفة التي تصفون بها الموتة من تعقب الحياة لها إلا للموتة الاولى خاصة (١).

لكن التكلف واضح على هذا التفسير، والتفسير الأول هو المناسب (فتأمل).

(١) تفسير الكشاف، ج ٤، ص ٢٧٩ في ذيل الآية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٠٩

السؤال الآخر الذى طرح فى مورد هذه الآية إن كل «أول» يجب أن يكون له «ثان» فعلى هذا كيف يمكن أن لا يتلو «الموت الأول» «موت ثان»؟

والجواب على هذا السؤال واضح، وهو أنه ليس من الضرورى أن يكون لكل أول ثان، فمثلاً لو نذر الإنسان على نفسه أن يسمي أول ابن يهبه الله له «محمدًا»، فمن الممكن أن لا يهب الله له إلا ذلك الابن، أو أن ينذر لله على نفسه أن يهدى أول كتاب يؤلفه إلى أبيه، ومن الممكن أن لا يؤلف كتاباً غيره، ونحن نعلم أيضاً أن أحد أسماء الله تعالى هو الأول مع أنه لا يوجد هناك إله ثان.

نتيجة البحث:

تعرفنا من خلال الآيات السبع المذكورة والآيات الاخرى المقاربة لها على منطق منكرى المعاد وبالأخص اولئك الذين عاصروا نزول القرآن، ويمكن تلخيص اقوالهم فى مجال إنكار المعاد الجسماني غالباً فى عدّه جمل ادعائيه:

كيف يمكن للعظام الرميم أن تلبس ثوب الحياة من جديد؟

كيف يمكن للحمينا وعظامنا التي تحولت إلى تراب وتفرقت عناصرها فى كل صوب وتحللت واختلطت بالأرض وتلاشت أن تجمع ثانية وتدبّ فيها الحياة من جديد؟ أليس هذا افتراء على الله أو من علامات الجنون؟!

لا يوجد هناك غير هذه الحياة الدنيا وهذا الموت، فهل قام أحد من مرقدته كى نصدق هذا الادعاء؟ إن هذا الادعاء لا أساس له وهو أمر عجيب وغير ممكن فلا يمكن تصديقه!

إن هؤلاء المنكرين الغرورين الذين لم يتأملوا حتى فى خلقهم الأول، ولم يعوا نماذج الحياة بعد الموت التي يشاهدونها باستمرار فى حياتهم، وهؤلاء الذين يعتمدون على الادعاءات الواهية، لا شيء إلا من أجل العناد والحمية لا يختصون بذلك الزمان فحسب ولا بأى زمان معين، فنحن فى هذه الأيام أيضاً نسمع مثل هذه الأقاويل على لسان أفراد آخرين من الذين حشروا أنفسهم بين الفلاسفة والعلماء.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١١٠

وعلى أيّة حال فإنّ القرآن المجيد أجاب عن هذه الادّعاءات بكل قوّة كما سوف يأتي ذلك في البحوث القادمة، فهي إجابات لجميع فرق منكرى المعاد وعلى جميع المستويات العلميّة، ومن الممكن أن تقنع هذه الأجوبة حتى اولئك الذين لم يمتلكوا شيئاً من العلم، ولكن على شرط أن يكونوا من طلاب الحقيقة. والآن نستمتع لبيانات القرآن في مجال أدلة إمكان المعاد. نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١١١

أدلة إمكان المعاد

إشارة

- ١- الخلق الأول
 - ٢- القدرة الإلهية المطلقة
 - ٣- آيات احياء الأرض
 - ٤- التطورات الجنينية
 - ٥- المعاد في عالم الطاقة
- نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١١٣

١- الخلق الأول

تمهيد:

لقد وردت طرق كثيرة لإثبات إمكان المعاد في القرآن المجيد جميعها على شكل استدلالات منطقية، فصوّرها القرآن بتعابير راقية جداً.

ويمكن تلخيص ما جاء في القرآن- كما أشرنا سابقاً- إلى ستة مواضيع:

- ١- الخلق الأول.
 - ٢- شمول القدرة الإلهية.
 - ٣- تكرر حدوث الموت والحياء في عالم النباتات.
 - ٤- التطورات الجنينية.
 - ٥- إعادة الطاقة.
 - ٦- النماذج الحيّة لوقوع المعاد.
- إنّ القرآن الكريم أورد آيات متعددة لكل من العناوين المذكورة، والتدبير في هذه الآيات لا يوصلنا إلى إثبات إمكان المعاد فحسب، بل وبدلنا على مواضيع مهمّة أخرى أيضاً.

بعد هذه الإشارة الوجيزة نعود إلى القرآن المجيد فنمنع النظر خاشعين في القسم الأول من الآيات المتعلقة بالخلق الأول:

١- (وَصَرَبَ لَنَا مِثْلَمَا وَنَسَبَى خَلَقَهُ قَمَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ* قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ). (يس / ٧٨-

٢- «أَفَعِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ». (ق / ١٥)

٣- «وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ». (الروم / ٢٧)

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١١٤

٤- «وَأَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ».

(العنكبوت / ١٩)

٥- «كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ». (الاعراف / ٢٩)

جمع الآيات وتفسيرها

من يحيى العظام وهي رميم؟!!

تبدأ الآية الأولى بسرد القصة المعروفة للرجل المشرك وهو إماماً «أبي بن خلف» أو «العاصم بن وائل» أو «أمية بن خلف» الذي جاء يحمل بيده عظماً رميماً وهو يقول سأذهب وأخاصم محمداً صلى الله عليه وآله بهذا الدليل القاطع! وابطل ما جاء به عن المعاد! فذهب إلى النبي صلى الله عليه وآله ونادى قائلاً: «من الذي يحيى هذا العظم الرميم؟» ومن يصدق هذه الدعوى ومن المحتمل أنه من أجل التأكيد على خطابه سحق جزءاً من ذلك العظم ونثره على الأرض: «قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ».

وبعد وقوع تلك الحادثة خاطب القرآن النبي صلى الله عليه وآله (في خمس آيات) وأمره أن يجيب على هذا الرجل وأمثاله بقوة ومن طرق متعددة إحداها الإشارة إلى الخلق الأول وقد بينها القرآن بعبارة وجيزة ولطيفة جداً، قال تعالى: «وَنَسِيَ خَلْقَهُ!» ثم قام تعالى بشرحها فقال: «قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ» فإن كنت تتصور أن العظام بعد أن تبلى وتنتشر كل ذرة منها في ناحية فإعادة جميع الأوصاف الأولى إليها أمرٌ محال حيث لا يوجد أحدٌ يحيط بها علماً، فإنك في ضلالٍ بعيد، لأن الله تعالى الذي خلق كل شيء: «وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ».

و «انشأها»: من مادة «انشاء» بمعنى الإيجاد والهداية وهي هنا كأنها إشارة لهذه الحقيقة وهي أن الذي خلقها في البداية من لا شيء فإنه من الأولى أن يتمكن من خلقها مرة أخرى من التراب.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١١٥

وهناك احتمالان في المراد من نسيان الخلق في هذه الآية، الاحتمال الأول: إن الإنسان نسي خلقه الأول الذي بدأ من نطفة حقيرة وقطرة ماء مهين ثم بدأ يتردد ويشكك بقدره الله على الإحياء الجديد.

والاحتمال الثاني: إن هذه الآية تشير إلى خلق آدم من التراب، وكأنها تريد أن تقول: ألم نخلق الإنسان من تراب في بادئ الأمر؟ فكيف يكون من المحال تكرار هذا الأمر؟ وذلك لأن «حكم الأمثال فيما يجوز وفيما لا يجوز واحد».

ومن اليديهي أن «النسيان» هنا إما جاء بمعنى النسيان الحقيقي الواقعي أو تنزيل الشخص منزلة الناسي وإن لم يكن في الواقع كذلك، وذلك لأنه لم يعمل وفق علمه بل اتخذ موقف المنكر (١).

وفي الآية الثانية أشير إلى هذه الحقيقة ببيانٍ آخر، فقد قال تعالى في جواب منكري المعاد: «أَفَعِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ؟» حتى نعجز عن خلقه مرة أخرى

ثم يضيف تعالى إن هؤلاء لم يشكوا في قدرة الله تعالى على الخلق الأول، بل ترددوا وشككوا بالاحياء المجدد بسبب غفلتهم ونسيانهم أو بسبب تعصبهم وعنادهم أو أنهم اعتادوا على ما يشاهدونه في حياتهم أنهم لم يروا أحداً خرج من قبره حياً بعد موته: «بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ».

وهكذا ورتوا أنفسهم في تناقض واضح لا يجدون له مخرجاً أبداً.

«عيننا»: من مادة «عنى» تأتي أحياناً بمعنى العجز وعدم القدرة وأحياناً بمعنى التعب والألم، وقد جاءت هنا على المعنى الأول، أى أننا لم نعجز عن الخلق الأول.

والمراد من «الخلق الأول» إمّا الإيجاد الأول لكل إنسان أو يختص بخلق آدم، وأمّا ما احتمله بعض المفسرين من أن المراد من الخلق الأول هو خلق عالم الوجود فإنه لا يتناسب مع بحثنا.

(١) جاء هذان الاحتمالان في تفسير روح المعاني، ج ٢٣، ص ٥٠.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١١٦

و «لبس»: على وزن «حَبَس» فى الأصل بمعنى ستر الشىء واللباس سُمِّيَ بذلك لأنه يستر ويغطى البدن، أمّا الراغب فإنه يرى أنه يستعمل فى الامور المعنوية أيضاً، فيدلّ على ستر الحقائق، وفى الآية المعنىة جاء هذا المعنى أى أن أمر المعاد هو حقيقة التبتست عليهم.

وفى الآية الثالثة نلاحظ تعبيراً آخر فى هذا المجال، هو إجراء المقارنة بين «مبدأ» الحياة و «المعاد»، قال تعالى «وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ».

فسير عدد من المفسرين جملة «يبدأ» على أنها تدل على الماضى، أى أن الله تعالى بدأ الخلق، لكن ماهو المانع من تفسير «يبدأ» بمعناه الحقيقى بما أنه فعل مضارع؟ وبما أن الفعل المضارع يدل على الاستمرار فيكون معنى الآية هنا: «إن الله يخلق ويعيد على الدوام» أى أن عالم الوجود هو عبارة عن تكرار الحياة والموت واستمرار المبدأ والمعاد، فعلى هذا الأساس لا يمكن الشك فى إمكان وقوع المعاد.

فعالنا يموت ويحى ويخلق من جديد باستمرار، ومن هنا تكون الإعادة إلى حياة جديدة أمراً غير مستغرب، فيكون هذا جواباً دقيقاً وجميلاً للجاحدين.

و جملة «و هو أهون عليه» تبيين هذا المفهوم، وهو: أنه لا يوجد فى قاموس القدرة الإلهية المطلقة واللامحدودة أى معنى للسهل والصعب فكل شىء لديه سهل يسير، ولا فرق بين قلع جبل من أعظم جبال العالم من مكانه وبين رفع قشء صغيرة، وخلق منظومة شمسية وخلق ذرة من تراب، لأن السهل والصعب فى مقابل القدرة الإلهية لا معنى له، طبعاً بالنسبة لنا أصحاب القدرة المحدودة، فإن رفع حجر صغير أمر سهل أمّا رفع حجر كبير يعد من المصاعب.

فما هو المراد من قوله «أهون»؟ هل هناك شىء صعب عليه وآخر أهون منه مع أن قدرته واحدة بالنسبة لجميع الأشياء؟

وقد أجاب المفسرون عن هذا السؤال بعدة أجوبة فقالوا: إن أفضل جواب هو أن هذا

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١١٧

الخطاب ذكره الله تعالى من أجل استئناس العباد بهذا المنظر وهذا المنطق، لأن من ينجز عملاً يكون عليه إنجاز ذلك العمل فى المرة الثانية أهون، وإن كانت جميع الأشياء متساوية بالنسبة للقادر المتعال.

واجيب تارةً أخرى إن «أهون» لم تأت هنا بصيغة فعل التفضيل، بل أتت بمعنى «هين» أى سهل.

وقد أتوا بتفسيرات اخرى أعرضنا عن ذكرها لعدم مناسبتها المقام.

على أية حال فإن مفهوم سهل وأسهل يصدق على الناس، وإن كل شىء بالنسبة لقدرة الله سبحانه السر مديء متساوٍ، ولا يوجد هنالك اسهل أو أصعب بالنسبة له تعالى

والآية الرابعة تحمل مضمون الآية السابقة بنحو آخر، وماهى فى الحقيقة إلتفسير وتوضيح لما جاء فى تلك الآية، حيث قال تعالى

«أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ» (١).

والإتيان بصيغته المضارع «يبدأ» و «يعيد» من المحتمل أن يكون تأكيداً لما جاء في الآية المذكورة سابقاً من أن الله يُبدئ ويعيد الخلق على الدوام وبصورة مستمرة فيتجدد العالم ويتغير ويتكرر وقوع الإيجاد والمعاد في كل آن وخاصة عندما اتى بهذا التعبير: أولم يروا ... الذى يشير إلى أن مشاهدة هذا الإيجاد المستمر والاعادة المتكررة أمر ممكن لجميع الناس. ويوجد هناك احتمال آخر هو أن «يُعيد» بيان للمعاد الحاصل في يوم القيامة لا غير، ففي هذه الحالة يكون معنى الآية بهذا النحو: أولم يروا كيف يُبدئ الله الخلق؟ فإنَّ المُبدئ للخلق يمكنه أن يعيده مرة أخرى

(١) يجب الانتباه إلى أن يُبدئ (من باب الأفعال) وَيَبْدَأُ (من الثلاثى المجرد) كلاهما لهما معنى واحد وهو ابداء واطهار الشىء.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١١٨

وجملة «إنَّ ذلك على الله يسير» تشير إلى أن كل شىء سهل ويسير على الله تعالى ومن الممكن أن تكون دليلاً للذين فسروا «أهون» بمعنى «هين» فى الآية السابقة.

على أية حال فإنَّ جميع منكرى المعاد يرون بأعينهم كيف تنبت النباتات فى الأرض الميتة؟ وكيف يضع البشر أقدامهم فى عالم الوجود؟ وكيف تورق وتثمر الأشجار من جذع يابس؟ وكيف تتكرر عملية الخلق والإيجاد فى هذا العالم فى كل آن؟ فهل تكون هذه الاعادة لجميع الموجودات أمراً عسيراً على خالقها؟ مع أن الإيجاد والاعادة كلاهما واحد بالنسبة لشمول قدرته، ووجود الشىء أفضل دليل على إمكانه؟

وقد بين سبحانه فى الآية الخامسة الأخيرة لبَّ المطلب من خلال تعبير وجيز ومختصر جداً، حيث قال تعالى: «كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ» (الأعراف / ٢٩)

إنَّ هذه العبارة فى الحقيقة أقصر تعبير وواضح استدلال للقرآن الكريم فى مجال إمكان المعاد، فإنه قاس إمكان الحياة الثانية على إمكان الحياة الاولى وهذا قياس منطقي لقضية عقلية، أما اولئك الذين يعتبرون مثل هذه الآيات دليلاً على جواز القياس فى الأحكام التعبديّة فإنهم قد وقعوا فى خطأ فاحش، لأنَّ القياس لا يجوز إعماله إلا إذا كان دليل الحكم الأول وعلته وحكمته واضحاً مبيّناً، ويجب أن تكون هذه العلة موجودة فى الحكم الثانى أيضاً، كما هو الحال فى الآية المذكورة، فى بحث المعاد وغيرها من الامور، لأننا نعلم بأنَّ المؤثر فى الخلق الأول هو القدرة الإلهية، وهذا الأمر بنفسه يكون مؤثراً فى الخلق المستأنف، أمّا بالنسبة للقياس فى الأحكام الفرعية التى لم تتضح عللها ولم يُصرح عنها فى ذلك الدليل فإنه لا قيمة له، وذلك لأنه قياس ظنى وتخمينى لا يقينى وعقلى.

على أية حال فإنَّ التفسير المذكور أعلاه واضح جداً إذا ما استعنا بالآيات الاخرى التى وردت فى هذا المجال، ولكن العجيب تفسير بعض المفسرين من أن المراد من هذه الآية هو: كما بدأكم أول الأمر وخلق منكم السعداء والأشقياء والكفار والمؤمنين فإنه سوف يعيدكم فى الآخرة على تلك الحال «١».

(١) ذكر الفخر الرازى هذا التفسير واعتبره أحد الاحتمالين فى تفسير هذه الآية (تفسير الكبير، ج ١٤، ص ٥٨).

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١١٩

ومن المحتمل أن يكون السبب فى هذا التفسير هو أن البعض أرادوا عن هذا الطريق أن يجدوا دليلاً لتعزيز عقيدتهم الباطلة فى مسألة الجبر، بينما لم يكن الحديث فى هذه الآية إلماً عن أصل خلقه الإنسان وإيجاده، ثم اعادته إلى حياة جديدة، ولم تأت حتى إشارة واحدة للسعادة والشقاء الجبرى فى هذه الآية ولم يرد فيها شىء عن ذاتية الكفر والإيمان.

اتضح جيداً من خلال هذه الآيات أن السبب الرئيسي في إنكار المعاد من قبل المنكرين هو غفلتهم وعدم توجيههم للخلق الأول لهذا العالم والإنسان، وذلك لأنهم لو تمعنوا قليلاً في ذلك الأمر لحصلوا على الجواب المطلوب. فهل من الممكن أن يكون (الخلق الأول للإنسان من التراب أمراً يسيراً بينما لا تكون إعادته كذلك)؟!

توضيح

اليوم الذي خلق فيه الإنسان:

يقول العلماء إن الكرة الأرضية بعد انفصالها عن الشمس قبل خمسة مليارات عام تقريباً كانت على شكل كتلة من نار، وبمرور عدة مليارات من السنين أخذت درجة حرارتها بالانخفاض تدريجياً، ثم تحولت الغيوم التي كانت تحيط بالأرض بكثافة إلى أمطار، وتلك الأمطار التي كانت تهطل بغزارة على الأرض كانت تغلي لشدة حرارة الأرض وتتبخّر ثانياً فتتحول إلى غيوم مرّة أخرى واستمرت هذه العملية واستمر معها انخفاض درجة حرارة الأرض.

بعد ذلك بدأت إنسيائية المياه إلى المناطق المنخفضة من الأرض وكوّنت البحار والمحيطات، ولم يكن آنذاك للحياة أثر.

نقحات القرآن، ج ٥، ص: ١٢٠

ولم يكن للنبات أثر.

ولم يخفق طائر بجناحه أو يعرّذ.

ولم يتحرك في تلك المحيطات العظيمة أي موجود حي.

وذلك لأن محيط الكرة الأرضية لم يزل حاراً للغاية ممّا لم يفسح المجال لظهور الحياة عليها.

ثم أخذت درجة الحرارة بالانخفاض أكثر فأكثر حتى ظهرت بقدرة الله أول براعم الحياة في البحار والصحارى ثم ظهرت بعد ذلك موجودات حيّة كثيرة وأخيراً خلق الإنسان.

وبناءً على هذا لا يوجد أي شك في أن الإنسان خلق من التراب ثم يعود إليه فما المانع في أن يعاد ثانياً من التراب؟!

إن استئناس الإنسان بهذه الحياة وقصر نظره وحجب العناد والتعصب الفكري أحياناً تمنع الإنسان من أن يرى هذه الحقائق الواضحة وأن يصدق أو يعترف بها.

نقحات القرآن، ج ٥، ص: ١٢١

٢- القدرة الإلهية المطلقة

تمهيد:

الطريق الآخر لإثبات إمكان إعادة الخلق مرة أخرى في يوم القيامة هو ثبوت القدرة الإلهية غير المحدودة.

لأنّ البحث عن المعاد يأتي بعد إثبات أصل التوحيد وقبوله والتصديق بالصفات الثبوتية والآخرى السلبية للحق تعالى نحن نعلم بأنّ أحد صفاته الثبوتية هي «القدرة المطلقة» وهيمنتته على كل شيء، وأنّ أفضل طريق لإثبات قدرته هي التمعن في عظمه عالم الخلق، بالإضافة إلى أنّ واجب الوجود له وجود غير محدود فمن الطبيعي أن تكون قدرته غير محدودة أيضاً.

إنَّ سعةَ السماواتِ وعظمتها المنظومات السماوية وعظمتها المجزآت وكثرة الكواكب المحورية والسيارات التي تدور حولها وتنوع المخلوقات الحيية من نباتات وحيوانات والأعمال الدقيقة العجيبة التي تؤدّيها الخلايا الحيية ومكونات الذرة، كل هذه الامور دليل على القدرة اللامتناهية لله تعالى

فعند الاعتقاد بهذه الامور وتصديقها لا يبقى مورد للشك والترديد في من هو القادر على احياء العظام الرميم؟ أو كيف يمكن للتراب المنتشر أن يُجمع ويلبس ثوب الحياة؟!

لقد كانت هذه نبذة مختصرة عن المواضيع التي سنبحثها في هذا الباب، وقد اشير إلى هذه المواضيع في آيات متعددة من القرآن الكريم، وقبل أن نعطي توضيحاً أكثر نتأمل أولاً في هذه الآيات خاشعين:

١- «لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ». (المؤمن / ٥٧)

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٢٢

٢- «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَمَّارِبٍ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا». (الاسراء / ٩٩)

٣- «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَعْصِ بِخَلْقِهِمْ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ». (الاحقاف / ٣٣)

٤- «أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ». (يس / ٨١)

٥- «قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (١). (العنكبوت / ٢٠)

جمع الآيات وتفسيرها

إنه على كل شيء قدير:

في الآية الاولى يقيس الله تعالى احياء الموتى بخلق السموات والأرض، قال تعالى

«لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ».

فحتماً يكون قادراً على إعادة الإنسان الذي خلقه أولاً، فهذا برهان جلي في إفادة هذا الأمر.

قال الفخر الرازي في تفسيره لهذه الآية: وكان من حقهم أن يقرروا بأنه القادر على خلق السموات والأرض ... فقد ظهر بهذا المثال أن هؤلاء الكفار يجادلون في آيات الله بغير سلطان ولا حجة، بل بمجرد الحسد والجهل والكبر والتعصب «٢».

وصيّر آخرون مثل «الطبرسي» في مجمع البيان و «القرطبي» و «روح البيان» بأن هذه الآية خوطب بها منكرو المعاد وهي تقول: من

قدر على خلق السموات والأرض

(١) أشير إلى هذا المعنى في آيات اخرى أيضاً مثل الآية ٩ من سورة الشورى والآية ٢ من الحديد.

(٢) تفسير الكبير، ج ٢٧، ص ٧٩.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٢٣

واختراعهما مع عظمهما وكثرة أجزائهما يقدر على إعادة خلق البشر «١».

والإتيان بجملة: «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» كما قال كثير من المفسرين: ليس بمعنى أنهم في الواقع لا يعلمون بأن «خلق السموات

بتلك الدقة والعظمة أرقى من إعادة خلق الإنسان»، بل قد نزلوا منزلة الجاهل في هذه الامور لأنهم غفلوا عنها ولم يفكروا ويؤمنوا فيها

وذلك لتعصبهم واتباعهم الهوى فضلوا في أمر المعاد «٢».

والعجيب هنا هو أن في تلك العصور لم تكتشف بعدُ عظمة السماوات كما هو الحال في عصرنا الحاضر، والقليل من الناس كان له اطلاع آنذاك على الأسرار العظيمة التي كُشفت عن طريق التقدم العلمي في العصور الحديثة، وكانوا لا يعلمون منها إلا ظاهرها، لكن القرآن الكريم المترشح من علم الله اللامحدود رفع الحجاب عن تلك الأسرار.

وهناك ملاحظة هي: أن اللام في «لخلق» هي «لام الابتداء» ظاهراً وقد جاءت هنا للتأكيد.

وفي الآية الثانية وبعد أن نقل كلام المنكرين الذين أنكروا إعادة خلق الإنسان بعد استحالة عظامه وصيرورتها تراباً، قال تعالى «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ».

التعبير بـ «مثل» هنا من الممكن أن يكون للدلالة على خلق البشر ثانياً، لأنَّ خلقهم يكون كالسابق، ومن الممكن أيضاً أن يكون للدلالة على أن الله تعالى قادرٌ على خلق آخرين من البشر من جديد كما خلق هؤلاء، فكأنه يقول عندما يكون الله قادر على خلق هؤلاء فإنه قادرٌ على خلق غيرهم.

وهناك احتمال آخر هو أن الأبدان المخلوقة من جديد مهما كانت فهي ليست عين تلك الأبدان السابقة، وذلك لأنَّ مادتها الأولى تعود مع كيفية وهيئة جديدة غير تلك

(١) تفسير الطبرسي، ج ٨، ص ٥٢٩؛ وتفسير القرطبي ج ٨، ص ٥٧٦٩؛ وتفسير روح البيان ج ٨، ص ١٩٩.

(٢) تفاسير مجمع البيان؛ الكشاف؛ وروح المعاني ذيل الآية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٢٤

الصورة السابقة، فمن أجل هذا عبّر القرآن بـ «مثل»، ولكن روح الإنسان هي تلك الروح، فبعد أن تتعلّق بالبدن تحافظ على وحدة شخصيتها السابقة واللاحقة، بناءً على هذا فإنَّ الناس بعد إعادتهم يكونون عينهم من ناحية، ومثلهم من ناحية أخرى (فتأمل). ثم يجيب في ذيل الآية عن سؤال آخر للمنكرين، فأولئك كانوا يقولون: إذا كانت القيامة حق فليَم لا تقع، قال تعالى في جوابهم: «وَجَعَلْ لَهُمْ أَجْلاً لَّازِيَةً فِيهِ».

وبتعبير آخر إنه تعالى مع الحفاظ على كامل قدرته عين وقت قيام القيامة بالدقة حيث ستقع في ذلك الزمان المعين من دون أي تأخير.

«فَأَبَى الظَّالِمُونَ الْإِكْفُوراً» لأنَّ هوى النفس والتعصب والعداء للحق أرخى على أفكارهم حُجبه وسدوله.

وفي الآية الثالثة ورد نفس هذا المعنى بتعبير آخر، قال تعالى «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُعْجِزَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

عبارة «أَوَلَمْ يَرَوْا» المراد منها المشاهدة بعين البصيرة والعقل، لذلك فسرها المفسرون بمعنى أولم يعلموا، والبعض الآخر فسرها بمعنى العلم والاطلاع المصحوب بالدقة والتمعن.

و «يَعْزِ»: من مادة «عزى» بمعنى العجز وعدم القدرة على المشى عند الإنسان، واستعملت أيضاً للدلالة على شمول العجز وعدم القدرة على إنجاز عملٍ ما، أو العجز عن بيان أمرٍ ما عن طريق التحدّث للآخرين، و «دَاءٌ عِيَاءٌ» المرض الذي لاعلاج له سُمّي بذلك لأنه متعب ومسبب للعجز.

وفسر بعضهم «العي» بـ «الجهل» ولكن هذا المعنى لا يناسب هذه الآية.

ومن البديهي أن يُتصوّر العجز وعدم القدرة في الأشخاص الذين تكون قدرتهم محدودة، ولكن هذا غير مُتصوّر بالنسبة لله تعالى الذي لا حدَّ لقدرته، فالعجز والتعب لا معنى لهما في هذا المورد.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٢٥

وعلى أية حال فإنه من الممكن أن يكون هذا التعبير بياناً لخرافات اليهود الذين كانوا يقولون: إن الله بعد أن خلق السماوات والأرض عيى وتعب! فخصص يوم السبت للاستراحة ومنذ ذلك الحين أصبح هذا الأمر سنّة لهم. وسخافه هذا القول من الوضوح إلى درجة أنه لا يستحق أى بحث.

وفى الآية الرابعة ومن خلال أجوبة متعددة لمنكرى المعاد وللشخص الذى جاء عند الرسول صلى الله عليه وآله يحمل العظم الريم الذى قال: «مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ»، قال تعالى

«أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ».

وعندما يكون الحديث عن السماوات فمن البديهي أن يراد منها جميع ما تحتوية من سيارات ونجوم ومجرات، ونحن نعلم بأن الاكتشافات الأخيرة لعلماء الفلك تنص على أن منظومتنا الشمسية تقع ضمن مجرة درب التبانة المعروفة، وقالوا: إن هذه المجرة تحتوى على عدد من النجوم يبلغ مائة مليار نجمة! والشمس التى نراها إحدى النجوم المتوسطة الحجم لتلك المجرة!

وقالوا أيضاً: إن التلسكوبات العملاقة تمكنت حتى الآن من اكتشاف ما يقارب المليار مجرة!

فلو ضربنا هذه الأعداد ببعضها لحصلنا إجمالاً على رقم هائل من تلك الأجرام السماوية، مع العلم أن هذه الأرقام هى ما توصل إليه علم البشر لحد الآن ومن الممكن أن نكتشف فى الأزمنة القادمة عوالم أخرى كثيرة مما يجعل ما اكتشف الآن بالنسبة لها شيئاً قليلاً لا يعتد به، كل هذا كان بالنسبة للحديث عن السماء، أما عندما يكون الحديث عن الأرض فإنه يشمل جميع أسرارها وعجائبها أيضاً.

فهل يعجز ويكل خالق هذا العالم العظيم العجيب الذى يحتوى على نظام دقيق أن يعيد خلق الإنسان تانياً؟!

والتعبير بـ «خلاق» (أى كثير الخلق) من الممكن أن يكون للدلالة على أن الله تعالى فى

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٢٦

حالة إيجاد الخلق على الدوام، وفى حالة خلق موجودات جديدة فى كل يوم، وكذلك فى حالة إفناء وإعدام مخلوقات أخرى فى كل يوم، من أجل هذا استخدمت كلمة «خلاق» بصيغة المبالغة.

ومن الممكن أيضاً أن يكون التعبير بـ «عليم» للدلالة على أن جمع ذرات البشر الذين يموتون ويصبحون تراباً وينتشر ترابهم فى كل مكان ليس بأمر صعب على الله العالم المطلع على كل شىء، كما أنه ليس من الصعب أيضاً محاسبتهم على أعمالهم التى ارتكبوها طيلة حياتهم (يجب الالتفات إلى أن «عليم» صفة مشبهة، وبما أنها جاءت مقارنة لصيغة المبالغة خلاق فإنها هنا تفيد التأكيد).

الآية الخامسة والأخيرة فى هذا المجال تضع أمام منكرى المعاد دليلاً حسيماً وتجريبياً.

قال تعالى مخاطباً الرسول صلى الله عليه وآله: «قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ». و «السير فى الأرض»: يزيد الإنسان علماً بمعرفة نشأة وظهور الحياة على الكرة الأرضية، وذلك لأن الموجودات الحية التى وجدت منذ ظهور الحياة على هذا الكوكب بقيت آثارها فى طيات القشرة الأرضية، والعلماء فى هذا اليوم - عن طريق مطالعة تلك الآثار - توصلوا إلى كشف الكثير من أسرار خلق الموجودات الحية.

ومن الممكن أيضاً أن يكون الهدف من السير فى الأرض كشف أسرار تكون الكرة الأرضية الذى يتم عن طريق فحص الطبقات المختلفة للأرض والعناصر المختلفة الموجودة فيها.

ومن الممكن كذلك أن يكون دليلاً على الخلق الذى يتكرر وقوعه فى كل يوم على الكرة الأرضية، ففى كل يوم تظهر إلى الوجود موجودات حية كثيرة وتغيب عن الأنظار موجودات أخرى

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٢٧

فكيف يعجز عن إحياء الموتى الله قادر على الإتيان بخلق كهذا وتطورات كهذه؟ وهكذا اعتبرت قدره الحق المطلقة دليلاً على إثبات

إمكان إحياء الإنسان ثانياً.

ولكن يبقى هناك احتمال أيضاً هو أن الآية المذكورة دليل على النشأة الأولى للإنسان، وقياس عقلي لإثبات الخلق المستأنف على الخلق الأول، ففي هذه الصورة تكون الآية في عداد الآيات المذكورة سابقاً، وعلى أى تقدير تكون دليلاً على نفس المدعى يبقى هناك تساؤل وهو: كيف أمر القرآن الكريم البشر بالسير في الأرض لاكتشاف أسرار ظهور الحياة عليها، مع أن بداية ظهور الحياة على هذه المعمورة تعود إلى مليارات خلت من السنين ولا يمكن مشاهدتها في هذا اليوم؟ والجواب عن هذا التساؤل يتضح بصورة جليئة من خلال التفسير الذى ذكرناه لهذه الآية آنفاً، فقد ذكرنا فيما سبق ثلاثة أجوبة عن هذا التساؤل «فتأمل».

والجدير بالذكر التعبير عن المعاد هنا بـ «النشأة الآخرة» و «نشأة» كما قال الراغب: هى بمعنى إيجاد وتربية الشئ، وهذا يدل على أن فى يوم القيامة يوجد خلق جديد وتربية جديدة أيضاً.

ثمرة البحث:

هذا القسم من الآيات بمثابة تذكُّر لمنكرى المعاد، لعلهم يعون قدرة الله المطلقة، فتقول لهم: فإن لم تؤمنوا فألقوا بنظرة فاحصة على عالم خلق السماوات والنجوم الثابتة والكواكب السيارة والمجرات والمنظومات السماوية، ثم انظروا إلى الأرض ولما تحويه من عجائب وأسرار وإلى النظام المهيم على كليهما جميعاً.

فهل فى ذلك شك بعد مشاهدة كل هذه الدلائل؟ وهل يمكنكم أن تنكروا قدرة الله المطلقة؟! فإن آمنتم بقدرته المطلقة فكيف تشكون فى مسألة المعاد وإحياء الموتى وتعتبرون ذلك من الامور العجيبة التى لا يمكن التصديق بها؟! نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٢٩

٣- آيات إحياء الأرض

إشارة:

الإحياء بعد الموت الحاصل فى عالم النباتات يمثل ظاهرة اخرى من ظواهر المعاد التى أشار إليها القرآن المجيد مرّات متعدّدة، وقد رسم منها لوحة جميلة لاثبات هذا الأمر ووضعها امام أنظار الجميع.

فهذه الظاهرة يتكرر حدوثها فى كل عام امام الملاء، ونحن نشاهد ذلك مراراً بعدد السنين التى نعيشها فى هذه الدنيا.

القانون السائد بالنسبة للحياة والموت هو نظام موحد فى كل زمان ومكان، فإن كان احياء الإنسان بعد موته وتحوله إلى تراب من المستحيلات فكيف يُنم إحياء النباتات التى تموت وتتفسخ مرة اخرى!

وما بال هذه الأرض الميتة تهتز وتربو بعد نزول المطر وتلبس ثوب الحياة وتخرج النباتات من أعماقها وتنمو وتُظهر أزهارها وتبتسم ورودها؟ إن كل مشاهد الحياة تدل على أن هناك حشراً وحياة جديدة.

إن القرآن الكريم لفت أنظار جميع البشر لهذا الأمر، والآيات الآتية من أهم النماذج لذلك، فلنمعن فيها خاشعين:

١- «وَنَزَّلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَانْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ». (ق / ٩ - ١١)

٢- «يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ». (الروم / ١٩)

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٣٠

- ٣- «فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لُمُحْيِ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ». (الروم / ٥٠)
- ٤- «وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكُمْ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ». (الحج / ٥- ٦)
- ٥- «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْتَكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لُمُحْيِ الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ». (فصلت / ٣٩)
- ٦- «وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ». (فاطر / ٩)
- ٧- «وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَتْ سَحَابًا نُقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ». (الاعراف / ٥٧)

جمع الآيات وتفسيرها

هل رأيتم كيف تحيي الأرض الميتة؟ فهكذا النشور!

لقد اهتم القرآن الكريم في الآية الأولى من هذا البحث بشرح جذور الحياة الرئيسية أى قطرات المطر، قال تعالى: «وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مَبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جِبَاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ».

أشار القرآن الكريم بهذه الآية إلى جميع بساتين الفواكه ومزارع الغلات والبقول «١».

ثم أشار إلى النخيل الباسقات التي تحمل ثمرًا كثيرًا وهذا النوع من النخيل يعتبر من أرقى واكمل أنواع النخيل، فأضاف تعالى «وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ» «٢».

(١) يجب الالتفات إلى أن المراد من «حب الحصيد» الحبوب القابلة للحصد (و «حصيد» بمعنى «محصول»).

(٢) «باسقات» جمع «باسق» أى المرتفع.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٣١

والجدير بالذكر أنه ذكر النخيل الباسقات من جهة أنها خلقت ونشأت من تلك الأرض الميتة، وتلك البذور الصغيرة التي نمت وأصبحت بهذه الهيئة العجيبة.

ومن ناحية أخرى أشار إلى ثمارها المتراسة التي تحملها في ارتفاع شاهق، تلك الثمار اللذيذة المغذية «الحيوية»، تحتوي على أنواع من المواد الضرورية التي يحتاج إليها جسم الإنسان «١».

وأخيراً نصل إلى هذه النتيجة وهي:، إن الهدف من هذا أن الله سبحانه يهب (رزقاً لعباد)، «وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا» «٢» «ك» مقدمه لك الخروج عيد مبارك».

إن هذه الآية تكشف عن حقيقة وهي أن خروج الإنسان يوم القيامة تابع لتلك القوانين المهيمنة على النباتات والبذور والأشجار بفواكهها المتنوعة، ذلك الأمر الذي نشاهده كل عام بأعيننا، ولكن بما أننا اعتدنا على ذلك فإننا نعتبره أمراً عادياً، وبما أننا لم نشاهد عودة البشر إلى الحياة بأعيننا فإن البعض يعتقد بأن ذلك امر غير معقول وأحياناً يعتقد بأنه من المحالات، مع أن النظام المهيمن على الأمرين واحد.

وفي الآية الثانية طرحت نفس المسألة ولكن بتعبير آخر، قال تعالى «يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ».

إنَّ الفاصلةَ الزمانيةَ التي ترونها بين الحياةِ والموتِ لا تكونُ امرأً يُعتنى به بالنسبةِ للذاتِ المقدَّسةِ الإلهيةِ، فهو على الدوامِ يُخرُجُ الحيَّ من الميتِ وبالعكسِ، (يجب الانتباه إلى أن «يُخرج» فعل مضارع وهو يدل على الاستمرارية، أى أن هذا العمل مستمر ودائم) على هذا فإنَّ منظرَ نهايةِ هذا العالمِ الذى هو عبارةٌ عن خروجِ الموتِ من باطنِ الحياةِ، وكذلك منظرَ

(١) «الطلع» هو اسم ثمار النخيل فى بدء ظهورها، و «نضيد» بمعنى متراكم، ومن الغرائب هو أن الأشجار نادراً ما تحتوى على فواكه عنقودية الشكل والأكثر غرابه من ذلك أن عناقيد ثمار النخيل ثقيلة.

(٢) جاء هنا بالصفة «ميتاً» بصيغة المذكر مع أن الموصوف «بلدة» مؤنث والسر فى ذلك هو أن «بلدة» هنا جاءت بمعنى المكان.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٣٢

المعاد الذى هو عبارة عن خروج الحياة من باطن الموت امرٌ مستمر ويتكرر وقوعه أمام أعيننا دائماً ولو على مستوى محدود، فما المانع من أن تموت جميع الموجودات الحية مرة واحدة ويُعاد البشر إلى حياة جديدة فى يوم الحشر؟ أى أن يتحقَّق قانونُ تبديل الموت بالحياة والحياة بالموت بصورة أوسع وأشمل ممَّا عليه حالياً.

وأما بالنسبة لعروض الموت على الحياة فإنه أمرٌ بديهي وواضح لدى الجميع، ولكن بما أن عروض الحياة بعد الموت يخفى على البعض ويحتاج إلى شيء من التأمل فقد قال تعالى فى ذيل الآية: «وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ».

وجملة «كذلك تُخرجون» تشير بوضوح إلى هذه الحقيقة وهى أنه لا يوجد هناك أى تفاوت بين القيامة الصغيرة التى تحدث فى عالم النباتات والأرض الميتة وبين تلك القيامة الكبرى الشاملة.

وبمجرد أن يتأمل الإنسان قليلاً فى هذا الموضوع فإنه سوف تزول عنه كل ظنونه الخاطئة والوساوس الشيطانية التى تنتابه فى أمر المعاد.

إنَّ فى كل لحظة تمرُّ على هذا العالم الواسع تنفلق فيها الآلاف المؤلفة من البذور وتخرج منها براعم جديدة للحياة، وفى كل لحظة تبدأ أرض واسعة بالحياة بعد أن كانت ميتة، إنها سِنَّةُ اللَّهِ السرمديَّةِ التى تُوحى بها الآية الثالثة وبعد بيان كيفية تكوُّن الأمطار بعد تسيير الرياح وتراكم الغمام على بعضها، قال تعالى: «فَمَا نُظِرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا»، «إِنَّ ذَلِكَ لُمَحْيِ الْمَوْتَى، نَعَمْ إِنَّهُ: «عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ». و «آثار»: جمع «أثر»، قال فى «مقاييس اللغة»: إن الأثر له ثلاثة معانٍ، الشى الذى له سابق، والذكر الباقى بعد الموت، وما بقى من رسم الشى، لكن بعض علماء اللغة حَصَرُوا معنى الأثر فى المعنى الثالث، وذلك لأنَّ المعنيين الأولين ناتجان عن الآثار الباقية من أجل الفضيلة وعوامل علو الشأن.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٣٣

والمراد من «رحمة الله» هنا هو المطر الواهب للحياة الذى يعتبر نموذجاً حياً وبيئاً للرحمة الإلهية التى تتجلى آثارها فى كل مكان، فهو يحيى الأرض الميتة ويفيض بالحياة على القلوب الميتة ويهب النشاط والحياة للهواء الملوَّث الميت وأخيراً وجود بنور الحياة على جسم الإنسان.

واستعمال كلمة «ذلك» فى الآية للإشارة إلى الله تعالى فى حين أنه يستعمل للإشارة إلى البعيد للدلالة على عظمه مقامه وعلى أنه لا تدركه العقول والأبصار.

والإتيان ب «أن» التى تفيد التوكيد و «اللام» فى «لمحي» الذى يفيد التوكيد أيضاً بالإضافة إلى «الجملة الإسمية» التى تفيد التوكيد كذلك، كل هذا من أجل إثبات حقيقة إنَّ الذى يحيى الأرض الميتة عن طريق إنزال مطر رحمة به باستمرار بإمكانه أن يحيى أموات البشر وبعيد لهم الحياة من جديد.

واستعمال كلمة «انظر» تجلب الانتباه من جهة أنها تشير إلى أن مسألة المعاد أمرٌ حسى مشاهد، ظاهرٌ للعيان دائماً، فكيف تُنكرون

ذلك أو تتخذونه سخرية؟!)

وفى الآية الرابعة بعد أن ذكر المراحل التكاملية للنطفة فى الرحم وبعد ذكر تطورات الجنين بأنها دليل واضح على مسألة إمكان المعاد، ينتقل إلى الحديث عن بذور النباتات التى تنمو فى أعماق الأرض، قال تعالى «وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً» (١).
«فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَبْتَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيحٍ».

إن القرآن المجيد كتاب عجيب حقاً، فإنه عندما يريد أن يؤكد على احدى الحقائق ويرسخها فى الأذهان ويكرر ذكرها يصورها بألوان مختلفة، فيشعر الإنسان عند سماع تلك

(١) «هامدة» من مادة «همود» قال الراغب فى المفردات: الهمود فى الأصل بمعنى انطفاء النار (وذهاب حرارتها ونورها)، لكن عدداً من أصحاب اللغة والمفسرين ذكروا لها معانى اخرى أيضاً، ومن جملة معانيها: الجفاف، والسكوت، والموت، وصيرورة الشئ بالياً عتيقاً، وهذه المعانى جميعها يمكن أن تنطبق على هذه الآية، فالأرض تموت وتخمّد وتطفأ فى فصل الشتاء، بينما تدبّ الروح فيها وتأخذ بالحركة فى فصل الربيع وكأنها تصرخ!

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٣٤

الحقيقة كأنه يواجه حقيقة غير التى سمعها سابقاً ويجد نفسه أمام صورة جديدة من صور تلك الحقيقة، فلا يصبح تكرارها مملاً أو غير نافع له، فالإنسان يتلقى دروساً جديدة باستمرار، ونحن نشاهد فى مسألة احياء الأرض الميتة فى الآيات المعتيّة بالبحث نموذجاً لذلك.

ومن الجدير بالذكر أن القرآن الكريم فى هذه الآية التى عطفها على مسألة التطورات الجنينية يؤكد على أن حياة الإنسان والحيوان والنبات تقع جميعها تحت مقولة واحدة، وكل نموذج نراه ونلمسه فى هذه الثلاثة، يكون دليلاً على إمكان المعاد لغيرها من المخلوقات، فالتعبير ب «ترى كالتعبير ب «انظر» فى الآية السابقة وكلاهما للتأكيد على أن قيامه النباتات أمر محسوس ومشاهد. و «اهتزت»: من مادة «اهتزاز» المشتقة من «هز» بمعنى الحركة الشديدة، وفسرها البعض بمعنى الحركة الجميلة الجذابة، وقد جاءت هنا للدلالة على التغيرات الجميلة والحركات المختلفة التى تحصل بفعل نمو أنواع النباتات التى تظهر على سطح التربة.

و «رَبَّتْ»: من مادة «ربو» وجاءت هنا بمعنى نمو الأرض لا- نمو النباتات، والمراد من نمو الأرض هنا هو بروز اجزاء من التربة بفعل خروج النباتات وتوغّل الجذور وظهور سيقان النباتات، أما الذين فسروا هذه الجملة بأنها تدلّ على نمو النباتات فإنهم فى الحقيقة غفلوا عن مفاد الجملة المتأخرة عنها، لأنه تعالى يقول: «وَأَبْتَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيحٍ».

وتحمل الآية الخامسة فى طياتها نفس محتويات الآية السابقة ولكنها تختلف عنها بعدة أمور: أولاً أنها اعتبرت احياء الأرض الميتة دليلاً على أصل التوحيد بالإضافة إلى دلالتها على المعاد، قال تعالى «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَرَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ»، (إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لُمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

وثانياً عبرت عن الأرض الميتة ب «الخشعة»، قال فى «الميزان» هى الأرض القاحلة،

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٣٥

وقد شبّهها هنا بالفقير الدليل المسكين الذى لا يمتلك شيئاً، ثم شبّهها بعد نزول المطر بالذى أوتى مالا كثيراً ولبس أفضل الثياب، حيث يمشى بنشاط مرتفع الرأس مستقيماً تبدو آثار النعمة على وجهه (١).

وهناك أمر آخر يمكن أن نستخلصه من هذا التعبير وهو درس من دروس الأخلاق، فكما أن الأرض الخاشعة الخاضعة تشملها رحمة الله فتحصل على كل آثار البركات والنمو والنشاط، فإن عباد الله الخاشعين والخاضعين تالهم رحمة الله الواسعة أيضاً، وتنمو فى

نفوسهم براعم العلم والإيمان والتقوى

ووردت هذه المسألة في الآية السادسة بتعبير جديد من خلال بيان كيفية نزول المطر، قال تعالى «وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا»، «كَذَلِكَ النُّشُورُ».

وهذه الآية في الحقيقة من أدلة إثبات المبدئ تعالى أيضاً، أى إثبات الذات الإلهية المقدسة، وفي نفس الوقت تستعمل دليلاً على المعاد، فهو يشير في البداية إلى الآيات والبراهين الدالة على وجوده تعالى عن طريق بيان النظام الدقيق المهيمن على حركة الرياح والسحاب وسقى الأرض الميتة وإحيائها، وأخيراً يشير إلى دليل حي وعميق المعنى لإثبات المعاد.

وجملته «كذلك النشور» بالإضافة إلى أنها تشبه إحياء الإنسان بإحياء الأرض الميتة، إلا أنها من الممكن أن تكون دليلاً على سوق الأرواح إلى الأبدان في يوم القيامة ويساق التراب المنتشر فيجمع وتحل فيه الروح، كما هو الحال في سوق الرياح للسحب وجمعها إلى بعضها كى تتلاقح وتهطل ثمارها التي هي عبارة عن قطرات المطر.

وفي الحديث الشريف أن أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله سأل قائلاً: كيف يحيى الله

(١) تفسير الميزان، ج ١٧، ص ٤١٩.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٣٦

الموتى وما آية ذلك في خلقه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أما مررت بوادي أهلِكَ مُمَجَّلًا ثُمَّ مَرَرْتُ بِهِ يَهْتَرُ خَضِرًا؟» (١) فقال الصحابي: بلى يا رسول الله: فقال صلى الله عليه وآله: «فكذلك يحيى الله الموتى وتلك آيته في خلقه» (٢).

وفي الآية السابعة والأخيرة تحدت سبحانه أيضاً عن إرسال الرياح واعتبرها تبشيراً عن نزول مطر رحمته، قال تعالى «وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ» (٣).

وبعد ذلك مباشرة قال تعالى: «فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ».

وجملته «لعلكم تذكرون» جاءت للدلالة على أن الله يريكم هذه المشاهد في هذه الدنيا كى يثبت لكم وجوده تعالى من ناحية، ومن ناحية أخرى يثبت لكم أن هناك معاداً وقيامه في العالم الآخر.

والعجيب ما جاء في الحديث المنقول عن رسول الله صلى الله عليه وآله، حيث قال: «ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ فَتُبْتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمُّوا إِلَى رَبِّكُمْ، وَفَقَوْهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ» (٤).

ويستفاد من أقوال بعض المفسرين إن ذلك المطر ليس كالمطر المعتاد، بل له شبه بماء النطفة التي يتكون الإنسان منها! ويستمر هطول هذا المطر مدة أربعين يوماً، فيؤثر في أجزاء الإنسان الميتة بشكل عجيب وينفخ فيها الروح.

(١) «محل» من مادة «محل» على وزن «نخل» ويعنى سنه الجفاف وانقطاع الأمطار، وموت النباتات، مجمع البحرين، مادة (محل).

(٢) تفسير القرطبي وتفسير روح البيان في ذيل الآية مورد البحث.

(٣) يجب الانتباه إلى أن «سحاب» تفيد الجمع من جهة المفهوم لذلك جاءت الصفة «ثقال» بصيغة الجمع، لكنها من جهة اللفظ مفردة لذلك جاء الضمير في «سقناه» مفرداً.

(٤) تفسير القرطبي، ج ٤، ص ٢٦٦٧.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٣٧

جواب عن سؤال:

أعطى القرآن المجيد في الآيات المذكورة آنفاً جواباً قاطعاً لمنكرى المعاد وذلك عن طريق مثال حسى واضح، وجعل «الشاهد» دليلاً على «الغائب» و «اليوم» دليلاً على «الغد».

وذلك لأنَّ الأرض الميّتة تحيي في كل عام مرّة أو مرتين أو أكثر بفعل هطول مطر الرحمة الإلهية، بل يمكن القول بأنَّ هذا الأمر يتكرر وقوعه في كلِّ يوم في العالم، فینبت في كل يوم نبتٌ جديد في الأرض الميّتة، وتظهر في كل يوم ظاهرة المعاد أمام نظر الإنسان.

ومن هنا يُطرح هذا السؤال: إنَّ العلماء المعاصرين اتفقوا على أنَّ جميع التجارب أعطت نتيجة واحدة هي أنَّ الموجودات الحيّة لا تولد إلّا من موجودات حيّة أخرى فإن لم توجد في الأرض بذور نباتية فسوف لن يكون نزول المطر مؤثراً أبداً.

ومن ناحية أخرى إنَّ البذور تتكوّن من قسمين، وأحد هذين القسمين والذي يعتبر القسم الأكبر من البذرة يشكّل المادة الغذائية فيها، والقسم الآخر أي القسم الأصغر من البذرة عبارة عن خلية حيّة، وهذه الخلية إذا توفرت لها الظروف المساعدة (على الأخص الماء) فإنّها سوف تنمو وترعرع بواسطة التغذّي على المادة الغذائية الموجودة في البذرة والمواد الموجودة في التربة، فإذا ما عُرِدمت هذه الخلية الحيّة فإنّه من المستحيل أن تحيي الأرض الميّتة.

وجوابنا عن ذلك هو: إنَّ هذا ممّا لا شكّ فيه، وهو كما تقولون وإنَّ تلك الخلية الحيّة الصغيرة تتغذى على الأجزاء الميّتة التي تمتصها من التربة وتحولها إلى جسم حيّ وموجود حيّ (فتأمل).

وبتعبير آخر: إنَّ النخلة التي يصل وزنها أحياناً إلى طن واحد كانت في البداية خلية صغيرة تأخذ مكانها في النواة، ووزنها لا يتعدّى المليغرام الواحد، ثم بعد ذلك امتصّت ما يقارب الطنّ الواحد من المواد الميّتة الموجودة في التربة والماء والهواء التي تعتبر جميعها موجودات غير حيّة، فأعطت الحياة لجميع هذه الموجودات، وهذا في الواقع هو معنى

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٣٨

تبدیل الأرض الميّتة إلى موجودات حيّة.

والجدیر بالذکر أنّ القرآن الكريم يقول: تُحیی الأرض الميّتة (ولا يقول تُحیی الأشجار والبذور الميّتة، لأنّ هذه لم تُمتْ بالكامل) أي أنّ هذه الأرض الميّتة أصبحت جزءاً من بدن النباتات والشجر ثم تبدّلت إلى خلايا حيّة.

ومن البديهي إننا لو أمعنا النظر في ظهور الحياة على الكرة الأرضية لصار الأمر أكثر وضوحاً، لأنَّ الأرض بعد انفصالها عن الشمس كانت كتلة من النار ولم يوجد أيّ موجود حي في ذلك الحين طبعاً، ولكن بعد أن بردت الأرض وأصبحت مستعدة لاستقبال الموجودات الحيّة وهطلت الأمطار بغزارة عليها فبردت الأرض بفعل هطول المطر أكثر وأعدّها ذلك المطر لاستقبال الحياة فظهرت آنذاك أول براعم الحياة النباتية التي لم يكتشف لحدّ الآن سرّ ظهورها، وبقي هذا السرّ مخفياً عن العلماء وكأنّ ظهورها من تلك المواد الميّتة التي تحتوى عليها التربة، وبهذا النحو غمرت الحياة تلك الموجودات الميّتة (فتأمل جيّداً).

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٣٩

٤- التطورات الجينية

تمهيد:

الطريقة الأخرى التي اتبعها القرآن في إثبات إمكان المعاد بالاستفادة من آيات متعددة هي طريقة التغييرات التي تطرأ على «النطفة» منذ استقرارها في عالم «الرحم» العجيب والغامض حتى مرحلة الولادة، وكل مرحلة من هذه المراحل في الحقيقة هي حياة جديدة ونموذج من نماذج المعاد! فالمراحل الكيفية لهذه التطورات كثيرة جداً، ممّا تثير مطالعتها ومشاهدتها تعجّب الإنسان وتجعله يغرق في التمعّن في كيفية هذا التحول العجيب الذي يطرأ على النطفة الحقيرة في هذه المدّة الوجيزة.

من هنا تعتبر هذه التحولات العجيبة التي لا- تتوقف في أى وقت دليلاً على وجود بارى هذا العالم القادر، الذى أوجد جميع هذه العجائب فى ظلمات الرحم الثالث، ومن ناحية اخرى فإن هذه التحولات لها شبة كبير بمسألة الحياة بعد الموت، والقرآن المجيد فى كلا الأمرين (التوحيد والمعاد) يعتمد على هذه الآيات والدلالات، وحقاً إن مثل هذه الظاهرة تستحق أن يعتمد عليها بهذا الشكل.

بعد هذه الإشارة نعود إلى القرآن المجيد ونمعن خاشعين فى الآيات التى وردت فى هذا المجال:

١- «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُّرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لَّئِبِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مِمَّا نَشَاءُ إِلَىٰ آجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً... * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ». (الحج / ٥- ٦)

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٤٠

٢- «الَّذِي يَكُن نُّطْفَةً مِّن مَّيِّ يُمْنِي ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ لَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ». (القيامة / ٣٧- ٤٠)

٣- «وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ وَأَنَّهُ عَلَيْهِ النَّشَاءُ الْآخِرَىٰ». (النجم / ٤٥- ٤٧)

٤- «قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا اكْفُرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ». (عبس / ١٧- ٢٢)

٥- «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَائِلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا * ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ». (المؤمنون / ١٢- ١٦)

جمع الآيات وتفسيرها

إن شكتم بأمر القيامة فانظروا إلى الجنين!

فالآية الاولى فى هذا الباب هى نداء لجميع البشر، البشر الذين لا يحدهم زمان ولا مكان، قال تعالى «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُّرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لَّئِبِّنَ لَكُمْ».

فهو يشير إلى أربع مراحل من خلق الإنسان (وهى مرحلة التراب، ثم النطفة، ومن بعدها العلقه، ثم المضغه، وكل مرحلة هى بنفسها تعتبر عالماً عجيباً وصعب المنال).

ثم يواصل البيان فيقول تعالى «وَنُقَرِّ فِي الْأَرْحَامِ مِمَّا نَشَاءُ إِلَىٰ آجَلٍ مُّسَمًّى»، وأخيراً وبعد سلوك هذا الطريق الوعر «ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً». بعد ذلك يبين المراحل المختلفة لحياة الإنسان فى هذه الدنيا، ثم يلتفت إلى عالم النبات ويأتى بمثال آخر من امثلة استقرار البذور النباتية فى باطن الأرض ويشير إلى إحياء

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٤١

الأرض الميتة بواسطة المطر فيضيف تعالى قائلاً: «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

فهو يسلط الأضواء على البعد التوحيدى لهذه الظواهر المهمة للوجود حيناً، ويسلط الأضواء على بُعد المعاد حيناً آخر.

وفى هذه الآية توجد إشارات دقيقة ولطيفة تساعدنا على التوصل إلى هذه الغايات وهى:

١- مع أن منكرى المعاد يقطعون بنفى المعاد إلا أن القرآن يخاطبهم بالقول: «إن كنتم فى ريب...» وهنا يدل على أنه لا يوجد هناك أى دليل على إنكار هذه الحقيقة، وأكثر ما هنالك هو أنكم من الممكن أن ترتابوا فى أمر المعاد، ومن الواضح أن المرتاب ما عليه

إلّا الفحص والتحقيق لا الإنكار!

والجدير بالذكر هنا أن «ريب» جاءت بصورة النكرة، وفي هذه الموارد تأتي لبيان حقاارة الأمر، أى إن شككم فى هذا المجال هو شكٌ سقيم ولا يعتدُّ به أيضاً، لأن أدلة المعادِ نشاهدها جليئةً التردد.

٢- قد يكون شروع الآية بالحديث عن خلق الإنسان من التراب إشارةً إلى خلق آدم عليه السلام أو جميع الناس منه، لأن أصل المواد التى تشكل القسم المهم من جسم الإنسان من التراب، وعلى أية حال فإن خلق الإنسان من تراب دليل واضح على إمكان إحياء الموتى

٣- الحديث فى هذه الآية كان أولاً عن خلق الإنسان من التراب، وبعد ذلك تحدثت الآية عن مسألة «البلوغ الجسمى والروحى» ثم عن «الكهولة والمشيب» فيصلح عدد تلك المراحل المختلفة سبع مراحل، وإن كان هدفنا هو المراحل الخمس الأولى التى تمثل كل واحدة منها حياة جديدة وولادة جديدة ومنظر من المعاد.

٤- وجملته «لنبيين لكم» يمكن حملها على محملين، فمن الممكن أن يكون المراد من البيان هو بيان علم وقدرة الخالق ومسألة التوحيد، كما أنه من الممكن أن يكون المراد هو بيان مسألة المعاد أى الحياة بعد الموت.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٤٢

٥- والظريف فى الأمر هو أن كافة التحولات الهائلة والعجيبة التى تحدث فى مرحلة الحياة الجنينية، حيث إن الفترة التى تمر بها النطفة، تلك الذرة الصغيرة حتى تصل إلى مرحلة الإنسان الكامل، تمثل فترة قصيرة تساوى التسعة أشهر، وفى هذه الفترة تحدث أمور عجيبة وغريبة، لو سطرناها فى كتاب فإن الوقت اللازم لقراءة هذا الكتاب يستغرق زماناً أطول من تسعة أشهر، فأمام هذه الآيات والعلامات الواضحة، هل يمكن لأحد أن يفسح مجالاً للشك والريبه فى مسألة إمكان المعاد؟!

وفى الآية الثانية جى بنفس هذا المعنى ولكنها أتت بنحو آخر وهى فى الحقيقة بيان لما جاء فى بداية سورة القيامة فى قوله تعالى «أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ؟!»

فإنه تعالى يتحداهم ويقول لهم ماذا تظنون؟ «ألم يك نطفةً من منى يُمنى ثم كان عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجِينَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى . «أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى .

فهو يكتفى فى هذه الآية بذكر أربع مراحل لتطورات الجنين فقط: مرحلة النطفة، فالعلقة، فتسوية الأعضاء، وظهور جنس الجنين ذكراً هو أم انثى

و «النطفة»: على ما قاله بعض أصحاب اللغة هى بمعنى الماء الصافى، ولهذا اطلقوا كلمة نطفة على اللؤلؤ (١).

لكن البعض فسروها بمعنى الكمية القليلة من ماء، أو ما تبقى من الماء فى الأثناء (٢).

وصرح البعض الآخر أيضاً بأن النطفة هى بمعنى الماء الصافى، قليلة أم كثيرة (٣).

والبعض الآخر اعتبر هذه المعانى كلها جزءاً من معانى النطفة ولكن الفرق هو أن «النطفة» بمعنى الماء الصافى أو الماء القليل و «النطفة» بمعنى اللؤلؤ.

(١) مقاييس اللغة ومفردات الراغب.

(٢) لسان العرب.

(٣) قاموس اللغة ومجمع البحرين ولسان العرب.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٤٣

ومن الجدير بالذكر أنه طبقاً للتحقيقات التى اجراها مؤخراً بعض العلماء هو أن هذا الماء القليل الذى يسمى «بالنطفة» مركب من مياه

مختلفة ترشّح من غدد مختلفة في الجسم، فقسّم منه يترشّح من البيضتين اللتين تحتويان على مادّة «الاسبرماتوزويد»، وقسّم منه يترشّح من أكياس البيض التي توجد بالقرب من غدّة «البروستات»، القسم الثالث يترشّح من نفس غدّة «البروستات» فيستمدّ شكله الظاهري ورائحته الخاصّة من تلك الغدّة والقسم الرابع يترشّح من غدد «الكوبر» وغدد «الليتر» اللتين تقعان جنب مجارى الادرار. وهذه المياه الخمسة تختلط مع بعضها بنسب دقيقة ومبرمجة وتشكّل مادّة الحياء، ومكتشف هذه المعلومات عالم فرنسى شُغف بحب القرآن والإسلام وكتب كتاباً في هذا المجال، ويعتقد هذا العالم بأنّ كلمة «امشاج» (أى مختلط) التي ورد ذكرها في القرآن كان محتواها خفياً على الناس والعلماء. أقتبست هذه العبارات من كتاب (المقايسة بين التوراء، والانجيل والقرآن والعلم) تأليف الدكتور بوكارى وترجمته المهندس ذبيح الله دبير (ص ٢٧١).

وعلى أيّة حال فإنّ اطلاق هذه العبارة على الماء الذّي يتدفّق من الرجل عند ممارسته العملية الجنسية هو من أجل التناسب الواضح الموجود بينها وبين المعنى الرئيسى.

و «مَنَى»: من مادة «مَنَى» (على وزن مَنَعَ) وهى بمعنى تعيين العاقبة والتقدير، لذلك أطلقوا «المَنَى» على الموت و «الأمّية» على الآمال، والسبب فى اطلاق هذه الكلمة على الماء الذى يخرج من صلب الرجل لأنه قُدّر له أن يكون إنساناً «١».

بناءً على هذا يكون مفهوم جملة: «أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةٌ مِنْ مَنَى يُمْنَى هُوَ: أَلَمْ يَكُنْ الْإِنْسَانُ فِي بَدَايَتِهِ مَاءً مَهِينًا قُدِّرَ أَنْ يُخْلَقَ الْإِنْسَانُ مِنْهُ» (٢)؟

إنّ كل مرحلة من المراحل الأربع التى بينتها هذه الآية نموذج واشعاع جديد من الحياة الدنيا والحياة بعد الموت، ومن الممكن أن تكون كل مرحلة دليلاً واضحاً على قدره الخالق

(١) تاج العروس فى شرح القاموس.

(٢) لكنّ عدداً من المفسرين لم يفسروا «يُمْنَى» بمعنى التقدير، بل فسّروها بمعنى تدفّق ذلك الماء فى الرحم. على أيّة حال فإنّ «من» هنا بيانية لا تبعيضية.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٤٤

من جهة، ودليلاً على إمكان مسألة المعاد والحياة بعد الموت من جهة اخرى على الخصوص فى مجال تعيين جنس النطفة من ذكر أو أنثى

إنّ المسائل المتعلقة بعلم الجنين من أعقد وأعجب المسائل، والقانون المهيمن على هذا العلم لم يتضح لحدّ الآن حتى لدى الحاذقين من العلماء، وكل ما لدينا من العلم أنّ مسألة تشخيص جنس الجنين فى رحم الام غير ممكن أبداً، ولا يتميّز إلّا بعد وصول الجنين إلى المراحل النهائية من الحمل، ونحن نعلم أيضاً بوجود قوانين دقيقة تهيمن على تلك الأمور، هذه القوانين التى توجد التعادل والتقارب بين تعداد كل من الجنسين، لكنّ جزئيات وتفصيل تلك الامور ظلت مخفية وراء حجاب الابهام.

فلو افترضنا أنّ فى كل عشر ولايدات تسع منها إناث وواحد منها ذكر أو بالعكس، فسوف يحدث اختلال عجيب وفوضى مخيفة وصراع رهيب فى المجتمع الإنسانى!

وفى الآية الثالثة بعد أن بين الله تعالى قدرته، قال: «وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ .

فالقرآن وإن لم يصرّح بهذه الحقيقة وأنّه يمكن أن تتوصل إلى إثبات النشأة الآخرة عن طريق المقايسة بينها وبين تطورات الجنين، إلّا أنّه يمكننا عن طريق ارتباط الآيات فيما بينها أن نجعل الأمر الأول دليلاً وشاهداً على الأمر الثانى كما انتبه إلى ذلك بعض المفسرين أيضاً «١».

و «النشأة الآخرة»: بمعنى «الايجاد الآخر» والمراد منه برأى الأكثرية الساحقة من المفسرين «الحياة الاخرى لكنّ البعض أصرّ على أنّ

المراد منه مرحلة نفخ الروح في الجنين وجعلوا آية: «فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ». (المؤمنون/ ١٤) دليلاً على مدعاهم الآنف.

(١) تفسير في ظلال القرآن، ج ٧، ص ٦٣١.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٤٥

لكن عند مراجعته هذا التعبير: «قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النِّشَاءَ الْآخِرَةَ». (العنكبوت/ ٢٠) وما شابه هذا التعبير في آيات أخرى من القرآن يتضح لنا جلياً أن المراد من النشأة الآخرة يوم القيامة، حيث قال تعالى: «وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشَأَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ».

(الواقعة/ ٦٢)

وفي الآية الرابعة وردت هذه الحقيقة أيضاً وبشكل آخر وبصورة اجمل وواضح، قال تعالى «قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا كَفَرَهُ» * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ».

أشارت هذه الآيات أولاً إلى خلق الإنسان من نطفة، ثم أشارت إلى تكامل الجنين إشارة مبهمه، بعد ذلك أشارت إلى مسألة الموت، ثم إلى الحياة بعد الموت، أما العلاقة والرابطة الموجودة بين هذه المسائل فهي إمكان الاستدلال بكل واحد من هذه الأمور على إثبات الأمر الآخر.

وهنا توجد عدّة أمور تجلب الانتباه:

١- إن جملة «خلقه فقدّره» جملة عميقة المغزى فقد صيبت فيها جميع مراحل تطورات الجنين في مرحلة الحمل، فالتقدير في أصل وجوده، وفي أعضاء بدنه، وفي تركيب أجزائه، وفي احتياجاته المتعددة وفي الفواصل الزمانية المختلفة التي عليه أن يقطعها للوصول إلى مراحل تكامله، إن الله تعالى قدر كل ذلك له، ووضع له نظاماً متقناً.

بناءً على هذا جيء بجملة «خلقه» للدلالة على المرحلة الأولى لخلق الإنسان من النطفة وجملة «قدّره» للدلالة على جميع المراحل التي تلي فيما بعد.

٢- وجملة «ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ» أيضاً من الجمل العميقة المغزى ومن الجمل الجذابة التي يمكن أن تكون دليلاً على الأمور الآتية:

تسهيل طريق الولادة أمامه بعد خوض مراحل التكامل، فالجنين الذي يكون رأسه إلى

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٤٦

الأعلى في حالته الطبيعية يتغير وضعه فجأة ويتدلّى رأسه إلى الأسفل، وذلك لإعداده للولادة الطبيعية وفي نفس الوقت ترتخي عضلات الأم الموجودة في طريق الولادة وتتهيأ لوضع هذا المولود، ثم يحصل ضغط على الجنين من جميع أنحاء الرحم كي يتيسر عليه طريق الخروج من الرحم، بعد ذلك يتمزق فجأة الكيس المملوء بالماء الذي كان يسبح فيه الجنين أيام الحمل العادية فيترطب مسير الخروج المعد للمولود، وخلاصة الكلام إن جميع الأمور تُعدّ وتيسر له من أجل دخوله إلى دنيا جديدة.

ومن جهة أخرى أودعه الله العقل وأنواع الغرائز، وكل واحد من هذه الأمور يفتح أمامه طريق الحياة.

ومن ناحية أخرى أرسل إليه الرسل والكتب السماوية كي يتيسر له سبيل الطاعة وعبادة الله وطريق سعاده.

إضافة إلى ذلك دلّ هذا التعبير على أن الإنسان خُلق مريداً ومختاراً في تصرفه، لأنه تعالى لم يقل وسلكناه السبيل بل قال يسرنا له السبيل، فهو مختار في سلوكه.

وفي الآية الخامسة والأخيرة إشارة إلى مراحل تكامل الجنين أيضاً بصورٍ مفضّله، بل جاء هنا بتفاصيل أكثر ممّا جاء في جميع الآيات التي تحدثت عن ذلك، فعرضت هذه المرّة إلى جزئيات دقيقة، قال تعالى «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي

قَرَارٍ مَكِينٍ (الرحم) * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً (دم متخثر) فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً (تَشْبَهُ اللحم الممضوغ) فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا».

وبعد أن بين المراحل الخمس (النطفة والعلقة والمضغة والعظام واللحم) أشار إلى امرٍ آخر والذي يعتبر من أهم المراحل وهو مرحلة نفخ الروح الإنسانية، فقال تعالى «ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ» «فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ».

وجملة «فكسونا العظام لحماً» لم تذكر ضمن مراحل تكامل الجنين إلّا في هذه الآية

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٤٧

التي كشفت الستار عن أهميّة خلق العظام.

ولقد ثبت حديثاً بأنّ العظام لا تكون هيكلًا لحفظ استقامة البدن وحفظ أعضاء الإنسان فحسب، بل إنّ في عهدها أهمّ الوظائف الحياتية والبايولوجية للبدن.

فالعظام تحتوي على جميع ما يحتاجه الجسم من قبيل الفسفور والكالسيوم والاملاح الاخرى التي تنظم الأعمال الحياتية لجسم الإنسان وضربات القلب وتقويم حركة العضلات، والأهمّ من ذلك أنّ العظام تُقدّم للجسم ما يحتاجه من كريات الدّم الحمر والبيض طيلة عمر الإنسان! ويكفي أن نعلم بأنّ في الدقيقة الواحدة تموت ما يقارب ١٨٠ مليون كرية حمراء وأنّ العظام تملأ الفراغ الحاصل من موت هذه الكريات بواسطة كريات جديدة ونشطة! (١).

والجدير بالذكر أنّ بعض المفسرين قالوا: ثبت حديثاً أنّ أول ما يظهر في الجنين هي خلايا العظام، ثم خلايا اللحم، وهذه الحقيقة رفع القرآن الستار عنها قبل أربعة عشر قرناً عندما لم يكن لأحد علم بها (٢).

والتعبير «الكسوة» عن اللحم هو تعبير جميل وجذاب، فالملابس تُجمل جسم الإنسان وفي نفس الوقت تحفظه من اضرار مختلفة، والعضلات كذلك فلو عُدّت وبقيت العظام لوحدها فما أقبح منظرها! ومن ناحية اخرى إنّ العظام تتأثر بأدنى ضغط يرد عليها من أيّ جانب وتصاب بعطب كبير جزاء ذلك، والذي يحفظ العظام تلك الكسوة التي هي العضلات.

وهذا التعبير: «ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ» الذي ورد ذكره بعد مرحلة تكامل الجنين لم يأت إلّا في هذه الآية من القرآن، وهذا البيان العجيب وإن كان قد ذُكر سابقاً إلّا أنّه يختلف كثيراً عن ذلك، ذلك لأنّه سُمّي هنا «خلقاً آخر»، حيث يرى أكثر المفسرين أنّ هذه الجملة جاءت للدلالة على خلق الروح، لأننا نعلم بأنّ الجنين من يومه الأول وحتى يبلغ ما يقارب

(١) قرآن برفراز اعصار، ص ١٨٧.

(٢) تفسير في ظلال القرآن، ج ٦، ص ١٦.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٤٨

الشهر الرابع من الحمل أكثر ما يشبه النبات، فهو ينمو بسرعة من غير أن يمتلك أيّ حسّ أو حركة، ثم تبدأ الأعضاء المُعدّة لإدراك الحقائق بالظهور تدريجاً وهذا التحول المفاجي (الذي يشبه الطفرة) ظلّ مبهماً على جميع العلماء ولا يعلم ما يطرأ على الجنين حينما ينتقل من مرحلة إلى اخرى إلّا الله العالم القادر.

على أيّة حال فإنّ اجتياز هذه المراحل خلال هذه المدّة الوجيزة دليل على عظمة مُبدئ عالم الوجود الذي هو الله احسن الخالقين، وفي نفس الوقت دليل على إثبات وقوع الحياة بعد الموت التي اشير إليها في ذيل تلك الآيات.

ثمره البحث:

من خلال الآيات المذكورة التي صورت مراحل تكامل الجنين ووضعتها أمام انظار الإنسان الذي من طبيعته أن يكون باحثاً عن

الحقيقة، أجب منكرى المعاد بوضوح، وهذه المراحل فى الواقع تُعَبِّرُ كل واحدة منها حياةً جديدةً ومظهرًا من مظاهر المعاد، ويكفى التمتع فى مرحلة واحدة من هذه المراحل فى إثبات هذه الحقيقة.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٤٩

٥- المعاد فى عالم الطاقة

تمهيد:

عندما تموت الكائنات الحية فى هذا العالم المترامى الاطراف تُخَلَّف وراءها دائماً بقايا وآثاراً، لكن بالنسبة لتبدد الطاقة فالأمر عجيب، لأنها فى الظاهر عندما تتلاشى تفنى كلياً فلا يبقى لها أى أثر، فلو لاحظنا الشمس كمثال لكلامنا هذا لوجدنا ضوءها وحرارتها هما عبارة عن طاقة تبعثها نحو كرتنا الأرضية والسيارات الاخرى التابعة للمنظومة الشمسية، وبعد انحسار الإشعاع تفنى تلك الطاقة ولا يبقى لها أى أثر، وإذا لم يستمر مصدر الإشعاع أى الشمس على إرسال الأشعة، فإنه سوف لن يبقى أثر للنور والضوء وتفنى الحرارة. لكن العلم الحديث أثبت بأن الطاقة أيضاً لا تفنى بالكامل، بل تكمن وتحوّل من حالة إلى اخرى وعندما تتوفر الظروف المناسبة فإنها تعود ثانياً وتبعث من جديد بصورة عظيمة.

المثير للدهشة هو أن القرآن المجيد من أجل إثبات مسألة إمكان المعاد يعتمد على هذه المسألة، ويتخذ من تحوّل الطاقة الضوئية والحرارية فى هذا العالم دليلاً على القيامة العظمى الحاصلة للبشر فى العالم الآخر.

وبعد هذه الإشارة الوجيزة نذهب إلى آيات القرآن ونأمل فيها خاشعين كى تتضح لنا تلك الحقيقة:

١- «قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ* الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ». (يس / ٧٩-٨٠)

٢- «أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ* ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ* نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ». (الواقعة / ٧١-٧٣)

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٥٠

جمع الآيات وتفسيرها

استئناف عود الطاقة يتجدد امام انظارنا!

فى آواخر سورة «يس» هناك بحوث جامعة ومتنوعة وعميقة فى مجال المعاد، واحد هذه البحوث الحث عن معاد الطاقة. لقد أجب القرآن على شبهة من كانوا يتعجبون من إمكان اعادة العظم الرميم إلى الحياة بعدةً أجوبة، فقال تعالى «قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ».

وهذا القسم من الأجوبة يتعلّق بمقايسة المعاد بالنشأة الاولى التى بحثناها سابقاً.

ثم يضيف تعالى بعد ذلك: «الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ».

ومن البديهي أن يكون هذا البيان دليلاً على مسألة المعاد وأن يكون جواباً آخر لمنكرى المعاد.

ولكن كيف يكون ذلك، وبأى بيان يتم؟

للمفسرين عدة آراء فى هذا المجال هي:

١- الكثير من المفسرين اعتبروا هذه الآية إشارة إلى الشجرتين المشهورتين لدى العرب وهما «مَرْخ» و«عَفَار» وكان العرب يستخدمونهما لإيقاد النار بدلاً من الكبريت المستخدم في عصرنا الحاضر، فكانوا يضربون الخَشْبَتَيْنِ ببعضهما بشدة ليحصلوا منها على قدحه أو شرارة ليتمكنوا بواسطتها من إيقاد النار، وفي الحقيقة كانوا يستخدمون ذلك بدلاً عن حجر القدحة الذي كان يُستخدم في العصور الغابرة.

فالقرآن يقول: إن الذي يقدر على أن يُخرج النار من تلك الخشبين الخضراوين بإمكانه أن يحيى الموتى فمن يتمكن من جمع النار مع الماء كيف لا يتمكن من خلق الحياة بعد الموت؟ ألا يشبه التضاد بين «الحياة» و«الموت» التضاد بين الماء والنار؟

٢- وتجاوز آخرون هذا الحد فقالوا: إن خاصية إيقاد النار لا تنحصر بـخشب تلك الشجرتين (مَرْخ وعفار)، بل تعم جميع أشجار العالم، ولكنها تشتد في أخشاب تلك

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٥١

الشجرتين، لذا جاء في المثل العربي: «في كل شجر نار»!

فخلاصة الكلام أن أخشاب الأشجار عندما تصطدم ببعضها بقوة تخرج منها شرارة من النار، وهذا الأمر يصدق حتى في أخشاب الأشجار الطرية! وبسبب هذه الظاهرة تحدث حرائق هائلة ومرعبة في الغابات من دون أن يكون للإنسان أي تدخل فيها. وهذه الحرائق تحدث بفعل الرياح الشديدة التي تضرب أغصان الأشجار ببعضها بشدة فتسقط شراراتها أحياناً على أوراق الشجر الجافة فتحرقها، ثم تتسع بعد ذلك رقعة النار بسبب هبوب الرياح، فنرى فجأة التهام النار لمناطق شاسعة من الغابات.

وأما تفسير هذه الظاهرة من وجهة نظر العلم الحديث فهي جلية وواضحة، لأننا نعلم بأن الأشجار ليست الوحيدة التي تولد شرارة من النار عند ارتطامها ببعضها بقوة بل تولد شرارة كهربائية من ارتطام كل جسمين ببعضهما، وهذه النار موجودة في جميع ذرات العالم المادى حتى في باطن الأشجار الخضراء.

إنه أمرٌ عجيبٌ حقاً، فما القدرة التي تخلط النار في الماء؟ ومن أصلح فيما بين هذين العدوين اللدودين اللذين عرّفهما القدماء بأن طبع أحدهما بارد رطب والآخر حار جاف؟

فهل يكون الإصلاح بين الموت والحياة أمرٌ عسير على هذه القدرة؟ أو هل يصعب على القدرة أن تجعل أحدهما في مكان الآخر؟! وبتعبير آخر: هل يمكن لأحد أن يجمع النار والماء في مكان واحد بحيث لا يُطفى الماء النار ولا تُحرق النار الشجر، وهل يكون إحياء الشجر اليابس مرة أخرى أمراً عسيراً؟!

٣- وهناك تفسير آخر لهذه الآية قد خفى على المفسرين السابقين، لكنه أصبح واضحاً لنا بعد تطور العلم الحديث، ومن المحتمل أن يكون أنسب التفسير، وهو: إن الأشجار خلال فترة حياتها تمتص ضوء وحرارة الشمس باستمرار وتذخرهما في باطنها، وعندما نحرق الخشب الجاف تنبعث الحرارة والضوء اللتان امتصتهما الشجرة في مدة طويلة وتنفذ في مدة وجيزة ونستفيد نحن منهما، أي أن الطاقة الخاملة تعود في هذه القيامة وتُظهر وجودها، فبناءً على ذلك نحن نرى منظر المعاد أمام أعيننا إذا أجبنا ناراً!

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٥٢

وتوضيح ذلك: إن «السيلولوز» يشكّل المادة الرئيسية للأشجار، وهو مركب من «الكاربون» و«الأكسجين» و«الهيدروجين».

فالنباتات تحصل على الأكسجين والهيدروجين من الماء، وتحصل على الكاربون من الهواء، أي أنها تأخذ ثاني أكسيد الكاربون الذي هو عبارة عن تركيب من الأكسجين والكاربون وتحلل ذلك المركب فتحتفظ بالكاربون وتطلق الأكسجين، ثم تصنع الخشب بواسطة تركيب الكاربون مع الماء.

ومن الجدير بالذكر هنا بناءً على القواعد المتبعة في علم الكيمياء إن الكثير من التركيبات الكيميائية لا تتم إلا عند توفر نوع من أنواع الطاقة، والأشجار أيضاً تتبع هذا القانون وتستخدم ضوء وحرارة الشمس في انجاز التركيبات الكيميائية (فتأمل).

على هذا فالأشجار عندما تنمو وتكبر وتقوى سيقانها يوماً بعد يوم فإنها تدخر كمية كبيرة من الطاقة الشمسية في داخلها، تلك هي الضوء والحرارة التي تظهر عند احتراق الخشب، فنفس تلك الطاقة المدخرة التي قد كُمنّت في الظاهر تعود مرة أخرى من خلال معادٍ موزون ودقيق.

والدليل الذي يؤيد هذا التفسير هو التعبير الوارد في القرآن لبيان هذه الامور وهو جملة:
«فإذا أنتم منه توقدون».

ولنر ما المراد من كلمة «وقود» لغوياً؟

بناءً على تصريح أكثر كتب اللغة أنّ «الوقود» بمعنى الحطب أو الشئ المحترق «١».

بينما اطلقوا على الأشياء التي تُوجد القدحة اسم «الزند» أو «الزناد»، قال في المقاييس:

«الزند» في الأصل بمعنى زند اليد، وأطلق على القدحة أو الشرارة للملازمة الموجودة سابقاً بين زند اليد والآلات التي كانت تستخدم قديماً في اشعال النار.

و «القدح»: استعمل أيضاً في هذا المجال، لكن الأمر المهم تأكيد القرآن على ذكر الوقود لا «الزند» أو «القدح»، بينما فات القدماء الانتباه إلى هذه المسألة، وفسروا الآية على أنّ المراد

(١) مفردات الراغب؛ ولسان العرب؛ ومقاييس اللغة.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٥٣

منها هو القدح، لكنّ ماجاء في تفسيرنا الثالث ينطبق تماماً مع التعبير ب «الوقود» (فتأمل).

والسؤال الوحيد الذي لم يجب عنه إنّ الخشب الذي يستخدم في الحرق يكون جافاً، بينما عبر عنه القرآن ب «الشجر الاخضر».

هناك جوابان لهذا السؤال: الأول إنّ الخشب الاخضر قابل للاحتراق أيضاً وإنّ إحراقه أصعب من إحراق الخشب الجاف، جاء في المثل المشهور: إذا اشتعلت النار فسوف تحرق الأخضر واليابس معاً للإشارة إلى هذا الأمر.

ولو تجاوزنا هذا، فهناك مسألة مهمة هي إنّ الأشجار الخضراء هي الوحيدة التي يمكنها أن تجذب وتدخر ضوء وحرارة الشمس، ويحتمل أن يكون القرآن في صدد بيان هذه المسألة العلمية الدقيقة، لأنّ الأشجار عندما تجفّ تتوقف فيها عملية جذب الكربون نهائياً، ولا تدخر الطاقة الشمسية بأي نحوٍ كان.

على أية حال فإنّ الآية المذكورة تعتبر من الآيات الرائعة في مجال إثبات المعاد، وإنّ كلّ واحد من هذه التفسيرات الثلاثة يجسّم منظر المعاد أمام الانظار، ولا يوجد أيّ مانع في أن تكون هذه التفسيرات الثلاثة مجموعة في مفهوم هذه الآية، فهذه التفسيرات منها ما يختصّ بالعوام من الناس، ومنها ما يختصّ بالخواص منهم، ومنها ما يختصّ بخواص الخواص، وبعضها يختصّ بالناس الذين عاشوا في العصور الغابرة، وبعضها يختصّ بالناس المعاصرين، ومن المحتمل أن تكون هنالك تفسيرات أعمق وأدقّ لعلماء المستقبل في هذه الآية.

والآية الثانية من آيات سورة الواقعة، والتي يختصّ قسم كبير من آياتها بأدلة المعاد والقيامة، على الأخصّ ماجاء في الآية ٥٧ فيما بعد في جواب منكري المعاد (المسائل السبع) الذين ذكرت ادعاءاتهم في نفس هذه السورة في الآية ٤٧ حيث كان كلّ واحد من تلك الأجوبة دليلاً على مسألة المعاد بنفسه «١».

(١) ذكرت هذه الأدلة السبعة في تفسير الامثل، ذيل الآية ٥٧ من سورة الواقعة.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٥٤

والآية التي يدور بحثنا حولها تعتبر في الواقع الدليل السابع والأخير، قال تعالى

«أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿١﴾ * أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ﴿٢﴾». (الواقعة/ ٧٣-٧١)

وفي تفسير معنى المراد من شجرة النار هنا، يوجد تفسيران رئيسيان:

الأول: إن المراد من شجرة النار الشجرتان المعروفتان «مَرْخ» و «عَفَار» اللتان كانتا تُستخدمان لدى العرب في إيجاد القدح، حيث كانتا تُستخدمان بدلاً عن «الكبريت» لإشعال النار.

والثاني: إن المراد منها جميع الأشجار لأنها لها قابلية توفير الحطب والوقود «٣».

وللمفسرين آراء في معنى المراد من «تذكرة»، فعدد منهم يرى أن المراد منها التذكُّر بنار جهنم عند رؤية نار الدنيا، ففي هذه الصورة تصلح هذه الآية لأن تكون دليلاً لإثبات المعاد.

والرأى الثاني هو أن المراد منها التذكير بأمر المعاد، وذلك لأن الذي يقدر على أن يودع النار المحرقة في قلب الشجر الأخضر فإنه لا يعجز عن ارجاع الحرارة الغريزية لبدن الأموات، والذي يقدر على جمع الصُّدَّين كالماء والنار فإنه بطريق أولى يمكنه أن يجمع بين الموت والحياة على التوالي، أي إيجادهما الواحد بعد الآخر.

أو بتعبير آخر كيف لا يتمكن من يُعيد الطاقة الكامنة والضوء والحرارة من أن يهب حياة جديدة للأموات من بني الإنسان؟ والتفسير الأخير هو أكثر تناسباً مع آيات هذه السورة التي تتصدى للجواب عن شبهات منكري المعاد طبعاً، كما إن الجمع بين هذه التفاسير ممكن أيضاً.

(١) «تورون» من مادة «ايراء» بمعنى اشعال النار، قال الراغب في المفردات: ايراء في الأصل بمعنى الستر والتغشية، لذا اطلق على ما في الخلف «وراء» وبما أن النار تكمن في الحطب أو في القدح اطلق العرب كلمة «ورى أو «ايراء» على اخراجها من مخبئها.

(٢) «المقوين» من مادة «قواء» (على وزن كتاب) بمعنى الصحراء القاحلة، وتطلق على المسافرين الذين يقطعون الصحارى من دون متاع أيضاً.

(٣) ورد هذان التفسيران في تفسير روح المعاني، ج ٢٧، ص ١٢٩؛ وفي تفسير الكبير، ج ٢٩، ص ١٨٤ في ذيل الآيات مورد البحث.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٥٥

والتعبير ب «متاعاً للمقوين» هو تلميح لفوائد وأهميته النار في حياة الإنسان ذلك لأن المفسرين وأصحاب اللغة ذكروا معاني متعددة ل «المقوين» هي:

أولاً: ما ذكرناه آنفاً أنها من مادة «قواء» على وزن (كتاب) بمعنى الصحراء القاحلة، بناءً على هذا يصبح مصداق «المقوين» هم الذين يقتحمون الصحارى القاحلة، وهؤلاء يحتاجون بشدة إلى الحطب والخشب الجاف لإيقاد النار، أما احتياجهم لخشب القدح فلا يخفى على أحد.

ومن البديهي أن الإنسان يحتاج إلى ذلك في المدن أيضاً، ولكن بما أن إيقاد النار في المدن أمرٌ يسير، لأن الذي يريد أن يوقد ناراً يمكنه أن يستفيد في ذلك من نار الآخرين، بالإضافة إلى ذلك لا يشكّل عدم وجود النار في المدينة خطراً جسيماً على الإنسان، بينما تعدّ النار بالنسبة لقاطعي الصحراء أمراً مصيرياً بسبب الحاجة إلى إعداد الطعام ودفع البرد والاستنارة.

والرأى الآخر أن المراد من «المقوين» هم الفقراء، وعُدّ هذا من أحد معانيها في اللغة، ومن المحتمل أن يكون السبب في ذلك أن سُكَّان الصحراء فقراء في الغالب، وقد ذكرنا أن «قواء» بمعنى الصحراء القاحلة، وأن احتياج الجميع للنار امر بديهي إلا أن احتياج الفقراء لها أشد من غيرهم، ذلك لأن النار تأخذ مكان الملابس أحياناً بالنسبة لهم.

وقال البعض أيضاً: إن «المقوين» بمعنى «الاقوياء»! لأن الكلمة المذكورة من الكلمات التي لها معانٍ متضادة، فيحتمل أن تكون من

مادة القوة والقدرة.

ففي هذه الحالة تكون للدلالة على استخدام الاغنياء للنار بكثرة، على الأخص في دنيانا هذا اليوم، فإن الحرارة والنار كلُّ منهما المحور الرئيسي الذي تدور عليه عجالات الصناعة والمحركات، فإذا ما نَفَدَ الوقود الذي تعتبر الأشجار والنباتات المنبع الرئيسي له (سواء كان بصورة مباشرة كالخشب والفحم الحجري أو غير مباشرة كالبترول) فإنَّ عجالات الحضارة البشريَّة سوف تتوقف عن الحركة، وتذهب الثروات أدراج الرياح، فلا تطفأ شعله الحضارة فحسب بل سوف تطفأ شعله حياة جميع البشر.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٥٧

النماذج التاريخية الحيَّة للمعاد

تمهيد:

إشارة

بالإضافة إلى ما ذكر في البحوث السابقة حول أدلة إمكان المعاد فإنَّ القرآن المجيد يشير إلى عدد من النماذج التاريخية الحيَّة للمعاد من خلال آيات مُتَعَدِّدَة، وكلُّ هذه النماذج مصاديق واقعيَّة للحياة بعد الموت، ويمكن الاستعانة بها على إثبات إمكانية المعاد، والنماذج عبارة عن:

١- قصة النبي عَزِيزٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي وَهَبَ الْحَيَاةَ بَعْدَ مَوْتِهِ بِمِائَةِ عَامٍ.

٢- قصة إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَاحْيَاءِ الطُّيُورِ الْأَرْبَعَةِ.

٣- قصة أصحاب الكهف.

٤- قصة قتيل بنى اسرائيل وقصة البقرة.

من البديهي إن الاستدلال بهذه الحوادث التاريخية يتوقف على الاطمئنان بصحة وقوعها، وبما أن منكري المعاد يعتقدون بصحة وقوع أغلب هذه الحوادث أو على الأقل كانت مدونة في كتبهم التاريخية وكانت مشهورة بين الناس، فإنَّ القرآن المجيد يستدلُّ بها.

بعد هذه الإشارة نعود إلى القرآن ونمنع خاشعين في القسم الأول من هذه الآيات المتعلقة بقصة عَزِيزٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

١- قصة حياة عَزِيزٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ مَوْتِهِ

تحدَّث القرآن الكريم عن هذه القصة العجيبة في أواخر سورة البقرة من خلال آية واحدة تعتبر في الواقع دليلاً تاريخياً لدحض ادعاءات منكري المعاد، قال تعالى

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٥٨

«أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوسِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَسْتَمِنَّهُ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (١). (البقرة/ ٢٥٩)

وتوجد هنا عدَّة أمور تحتاج إلى الدقة والتأمل:

١- من كان هذا الرجل؟ وأين تقع هذه القرية؟ (يجب الالتفات إلى أن المراد من القرية هنا التجمُّع السكاني سواء أكان قرية أو مدينة).

فالقرآن لم يوضح ذلك، والمستفاد من سياق الآية أنه رجل أوحى إليه، أى كان من أحد انبياء الله لكن المفسرين وبالاستناد إلى الروايات الواردة في هذا المجال يذكرون اسمه بالتعيين، ففي كثير من الروايات وعبارات المفسرين ذكر أن اسمه «عزير» نبي بنى اسرائيل المعروف، وذكر آخرون بأن اسمه «الخضر» وآخرون، قالوا إن اسمه «اشعيا» (٢).
وأياً كان فإنه لا يؤثر على معنى ومحتوى الآية، أما ما احتمله البعض من أنه كان رجلاً غير مؤمن وقد شك في أمر المعاد فإن هذا كلام مردود، لأن الآية تدلّ بجلاء على أن الوحي نزل على هذا الرجل.

أما «القرية» فهي «بيت المقدس» طبقاً لما جاء في الروايات، وهذه الحادثة التي وقعت بعد هدم بيت المقدس على يد «نبوخذ نصر». ٢- هل أن هذا الرجل المؤمن (أياً كان) قد مات حقاً أم ذهب في سبات عميق؟ ظاهر الآية يدل على أنه مات حقاً وعاد إلى الحياة مرة أخرى بإذن الله بعد أن مضى على موته مائة عام، وأكثر المفسرين يعتقدون بهذا الرأي، والبعض منهم فسّر «الموت» في هذه الآية

(١) جملة (أو كالمذى مَرَّ ...) طبقاً لتصريح كثير من المفسرين هي عطف على الآية التي قبلها «الم تر إلى الذي حاج إبراهيم ...» بناءً على هذا يكون معنى هذه الجملة كالتالي «الم تر إلى الذي مَرَّ على قرية ...».

(٢) تفاسير البرهان؛ نور الثقلين؛ مجمع البيان؛ روح المعاني؛ روح البيان؛ والكبير والقرطبي في ذيل الآية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٥٩

بالنوم العميق المشابه للموت، كما هو الحال في نوم بعض الحيوانات التي تغط في سبات عميق في فصل الشتاء وتخرج من سباتها في فصل الربيع فتبدأ بالحركة.

وفي مثل هذا النوم تكون النشاطات الحيوية بطيئة إلى حد ما ويقل ماتحتاجه من طاقة بكثير عما كان عليه في حالاتها العادية، لكنه لا يُطْفِئ البصيص من الحياة على أية حال.

وقد رجح هذا الاحتمال (اي احتمال السبات) صاحب «المنار» و «المراغي» وصاحب «أعلام القرآن» حتى أنه ذكر في أعلام القرآن أن المراد من «مائة عام» ليس من الضروري أن يكون مائة سنة! بل من المحتمل أن يراد منها مائة يوم أو مائة ساعة!! إن بعض المثقفين الذين يصعب عليهم تصديق هذه الامور الخارقة للعادة، فإنهم كلما شاهدوا شيئاً من هذا القبيل سعوا للإتيان بالتبريرات والمغالطات بينما لا توجد أي ضرورة لهذا التكلف أبداً.

إن القرآن المجيد والروايات الصحيحة وباختصار كل محتويات المذاهب السماوية مليئة بهذه الامور الخارقة للنواميس الطبيعية التي لا يمكن إنكارها ولا السعي في تبريرها، فإننا لو آمنّا بقدره الله تعالى على الإتيان بمثل هذه الخوارق لكان التصديق بمثل هذه الامور أمراً يسيراً، وكل ما في الأمر أن نتعد عن المبالغة، وعن تجاوز الحدود، وألاً ننسب كل امر إلى الاعجاز أو خرق النواميس الطبيعية. وحتى بالنسبة للعلماء الماديين، هناك امور خارقة لا يمكن تفسيرها بالأساليب العلمية المعروفة فما هو الداعي لتحريف أية ظاهرة خارقة للعادة بمجرد العجز عن كشف سرها.

والقضية المذكورة، وبغض النظر عن الرجل المؤمن المذكور فيها والذي مات وبُعث من جديد وبغض النظر عن الهدف منها وهو الرغبة في تقديم مثال لحياء الموتى يوم القيامة، تشير إلى حماره أيضاً، وقد أخبر القرآن بأنه قد مات وتلاشت عظامه، لأن الآية صريحة في جمع العظام بإذن الله وتغطيتها باللحم ثم نفخ الحياة فيها، فهل يجب تعليل كل ذلك؟

٣- وأما ما يتعلق بالمدينة التي وقعت فيها تلك القصة فإن أغلب المفسرين يعتقدون بأنها وقعت في بيت المقدس بعد أن هُدمت على يد «نبوخذ نصر» وخربت عن آخرها وقد عبّر عنها القرآن ب «خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا» أي بعد تهديم سقوفها وتخريب جدرانها

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٦٠

ومساواتها بالأرض؟ وقيل هي قرية مجاورة لبيت المقدس.

أما ما يتعلق بحديث ذلك الرجل المؤمن مع نفسه فإنه لم يكن بسبب الإنكار ولا التعجب والشك بل أراد أن يشاهد احياء الموتى بأم عينيه كي يطمئن قلبه كما أراد إبراهيم عليه السلام ذلك في القصة التي سوف نذكرها عمّا قريب.

ومن الممكن أيضاً أن يكون طلبه هذا من أجل أن يقدم دليلاً مقنعاً للمنكرين والمشككين، لأنه في بعض الأحيان لا تكفي الاستدلالات العقلية ولا حتى نداء الفطرة والوجدان في اقناع بعض الناس، فهم يصيرون على مشاهدة النماذج الحيّة لكي يأخذ الاستدلال طابع الحس وتزول جميع الوسوس عن قلوبهم ونفوسهم.

٤- وأما ما يتعلق بنوع طعامه وشرابه فإن القرآن لم يصرح بشيء عنه، ولكن يظهر من جملة: «لَمْ يَتَسَنَّه» التي هي من مادة «سنه» والتي يفهم منها عدم فساد الطعام والشراب على الرغم من مرور سنين طويلة أنهما كانا من الأغذية والأشربة التي لا تفسد بمرور الزمان، وقيل بأن الطعام الذي كان يحمله هو «التين» و«العنب» والشراب هو «عصير الفواكه» أو «الحليب».

والملاحظ هنا أن الله تعالى ومن أجل اظهار قدرته، حفظ المواد السريعة الفساد من التلف، بينما ترك حماره الذي يقاوم الفساد عادةً عرضةً للفساد، وبهذا أصبح دليلاً على المكوث مائة سنة ودليلاً آخر على إمكان الحياة بعد الموت، وذلك من أجل أن يشاهد الرجل المؤمن تلك الحقيقة بأم عينيه في كلا الأمرين (وجود نفسه ووجود حماره بعد الموت).

٥- عبارة: «وَلَنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ» تدلّ على أن الفائدة المرجوة من هذه الحادثة لا تختص بذلك الرجل المؤمن لوحده، بل لتكون عبرة نافعة لجميع الناس، لأنّ الناس قد عرفوا «عزير عليه السلام» بالقرائن المختلفة، وتيقنوا من أنه قد مات وبُعث ثانية بعد مرور مائة عام على موته، فإن كان الجيل المعاصر لحياة عزير قد مات وفنى فإنّ الجيل الجديد عرفوا حقيقة الأمر بواسطة المعلومات التي حصلوا عليها من آبائهم.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٦١

٢- إبراهيم عليه السلام والمعاد

إشارة

إنّ قصة إبراهيم عليه السلام و«الطيور الأربعة» تعتبر من النماذج التاريخية الحيّة التي استدلت بها القرآن الكريم على قضية المعاد، وقد ورد ذكر هذه القصة بعد ذكر قصة عزير عليه السلام مباشرة، قال تعالى

«وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُتُؤْمِنٌ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ». (سورة البقرة/ ٢٦٠)

لو أمعنا النظر في ظاهر الآية بعيداً عن أي حكم مسبق وبعيداً عن تأثير آراء ونظرات الآخرين نراها تدلّ بوضوح على أن إبراهيم عليه السلام كان يريد أن يرى كيفية احياء الموتى ليطمئن قلبه، فأمر أن يمارس عملياً نموذجاً حياً لحياء الموتى بإذن الله، وهو أن يجعل أجساد الطيور الأربعة بعد ذبحها وسحقها كالعجين ثم يجعل عدّة أجزاء من العجين على عدّة جبال وبعد أن يدعو هذه الأجزاء إليه تصبح طيوراً أربعة كما كانت بإذن الله وتعاد إليها الحياة من جديد.

كما أن السبب الذي أشار إليه الكثير من المفسرين في شأن نزول هذه الآية الشريفة يؤيد هذا المدعى فقد مرّ إبراهيم عليه السلام على ساحل البحر فوجد جيفة نصفها في الماء والنصف الآخر على الساحل تأكل منها حيوانات البحر من جانب والطيور من جانب آخر، فأثر هذا المنظر في نفسه عليه السلام وغرق في التفكير في كيفية جمع أجزاء هذا الجسد وإحيائه من جديد بعد أن صار جزءاً من حيوانات كثيرة أخرى

إنّ إبراهيم عليه السلام كان مؤمناً بالمعاد وكل ما يرتبط به لأنه نبي وله ارتباط مع الوحي وكان إيمانه أعمق من الإيمان الحاصل عن طريق الاستدلال العقلي، لكنّه كان يبغى شاهداً حسيّاً في هذا المجال ولهذا جسّد له الله هذا المشهد كي يتجسّد أمامه المعاد

الجسماني بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى وليشاهده بأَم عينيه كي يطمئن قلبه.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٦٢

وهنا ينبغي أن نشير إلى عدّة أمور:

أولاً: إنّ جملة: «فَصِرْهُنَّ» كما صّرح بذلك بعض اللغويين وعدد من المفسرين هي من مادّة «صور» على وزن (قول) بمعنى التقطيع والتمزيق، وهي دليل على أنّ إبراهيم عليه السلام أمر بأن يذبح تلك الطيور الأربعة ثم يقطعها ويخلط أجزائها. لكنّ بعض اللغويين فسروها بمعنى التعويد والتربية (على الأخص عندما تتعدى ب «إلى») ومن أجل هذا أكّد بعض المفسرين الذين يسمّون أنفسهم بذوى الأفكار التّيرة على أنّ إبراهيم عليه السلام لم يقطع تلك الطيور أبداً، بل أمر بأن تعود تلك الطيور إليه وبعد أن تأنس به يضع كل واحد منها على جبل ثم يناديها كي تسعى إليه جميعاً فيحصل من خلال هذا العمل على دليل لإحياء الموتى ولكي يعلم أنّ إحياء الموتى على الله يبلغ من السهولة ما يبلغه نداء إبراهيم عليه السلام لتلك الطيور ومجيئها إليه بمجرد أن يناديها (١). وقد فات هؤلاء أنّ إبراهيم عليه السلام أراد مشاهدة إحياء الموتى وأنّ الله تعالى استجاب دعوته من هذا الباب كي يطمئن قلبه، فلو كانت المسألة تحلّ بتربية الطيور وإتيانها بعد دعوتها لما تحقق ما أراه إبراهيم عليه السلام من مشاهدة إحياء الموتى ولما اطمئن قلبه بذلك، بل لا علاقة لهذا الأمر بما طلبه إبراهيم عليه السلام فإنّ مثل هذا الجواب لمثل هذا الطلب قبيح وغير لائق لو صدر من الفرد العادي، فكيف يصدر ذلك من الله تعالى وبالأخص عندما يرد في كلام فصيح ككلام القرآن...؟

ثانياً: الظاهر أن تفسير كلمة «جزء» باطلاقها على كلّ واحد من الطيور الأربعة، غير مناسب أبداً.

ثالثاً: إنّ سبب نزول هذه الآية الشريفة والوارد في روايات متعددة لا يتناسب مع هذا المعنى بل صرحت جميعها بالحقيقة التالية، وهي أنّ إبراهيم عليه السلام أخذ أربعة من الطير فذبحها وخط أوصالها ببعضها ثم قسّمها حصصاً فوضع كل منها على جبل (٢).

(١) وهذا التفسير في الأساس مقتبس من أحد المفسرين المعروف باسم (أبو مسلم) وقد نقل عنه هذا التفسير في «المنار» ودافع عنه وأيده (ج ٣ ص ٥٦).

(٢) للاطلاع أكثر على هذه الروايات راجع تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٢٧٥-٢٨٢؛ وتفسير الدر المنثور، ج ١، ص ٣٣٥.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٦٣

وأما جملة «فصرهن» فهي لا تؤثر في محتوى الآية إن كانت بمعنى التقطيع أو بمعنى التعود، لأنّ الآية- على أية حال- جاءت لتوضيح كيفية إحياء الموتى بإذن الله.

وكما قلنا آنفاً إنّ السبب الرئيسي في نزوع هؤلاء إلى مثل هذه التفاسير هو عدم استيعابهم للمعجزات الخارقة للنواميس الطبيعية، ولإرضاء المدافعين عن العقيدة المادية ولذلك ورطوا أنفسهم في هذه المتاهات، بينما تعتبر هذه الخوارق ووقوع المعجزات من البديهيّات لدى جميع الأديان، ونحن في عالم الطبيعة نشاهد الكثير من هذه الخوارق التي عجز عن تفسيرها العلم الحديث (فتأمل).

٢- والمعروف من أنواع الطيور الأربعة هي: الطاووس والديك والحمام والغراب، وكلّ واحد من هذه الطيور يحمل صفات متميّزة وقد شبّهوا حركات الإنسان بحركات هذه الطيور، فالطاووس هو مظهر الكبرياء والرياء، والديك هو مظهر الشره الجنسي، والحمام هو مظهر اللهو واللعب، والغراب هو مظهر الآمال البعيدة المنال!

وجاء في كثير من التفاسير احتمالات أخرى أيضاً منها: أنّ تلك الطيور هي الهدهد والبوم والقصر والنسر (١).

ومن البديهي أنّ خصوصيات تلك الطيور المذكورة لا علاقة لها بأصل المسألة، غاية ما نعلم هو أنّ أنواع الطيور كانت مختلفة وهذا الاختلاف جاء من أجل الحكاية عن اختلاط تراب البشر مع بعضه.

أما عدد الجبال التي وضع إبراهيم عليه السلام عليها أجزاء تلك الطيور فهي عشرة طبقاً لما ذكر في الروايات ويحتمل أن يكون وقوع هذه الحادثة بعد ذهاب إبراهيم عليه السلام إلى الشام، لأن أرض بابل خالية من الجبال.

٣- قصة أصحاب الكهف

ورد محتوى هذه القصة في سورة الكهف خلال أربع عشرة آية، وجاء في بعضها:

(١) تفاسير مجمع البيان والقرطبي والكبير ونور الثقلين في ذيل الآية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٦٤

«وَكَذَلِكَ اعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيُغْلَمُوا أَنَّ وَعَدَ اللَّهُ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَأَرِيْبٌ فِيهَا». (الكهف / ٢١)

نستفيد بوضوح من هذا التعبير بأن أحد الأهداف المتوخاه من هذا السبب العجيب والطويل الذي له شبه كبير بالموت هو أن هذه الحادثة تعتبر درساً لجاحدى المعاد أو للذين ينتابهم الشك والترديد في هذا المجال.

ويعين على ذلك بالخصوص ما استنبطوه من جملة: «اذ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ»، من أن الناس اختلفوا في ذلك الزمان في مسألة المعاد (المعاد الجسماني) فالمخالفون كانوا يسعون لمحو آثار قصة أصحاب الكهف كي يسلبوا هذا البرهان القاطع من أيدي المؤمنين بالمعاد (لقد احتملوا في تفسير هذه الجملة احتمالات جمّة، وماقلناه هو أحد هذه الاحتمالات).

وقد ذكر الفخر الرازي في تفسيره خمس احتمالات اخرى في تفسير هذه العبارة، منها الاختلاف في عدد أصحاب الكهف، ومنها الاختلاف في أسمائهم أو في مدّة نومهم وفي مسألة المعبد الذي سُئِدَ بالقرب من الغار هل كان على غرار معابد المشركين أو معابد الموحدين «١».

فآيات الواردة في هذه السورة من القرآن صرحت بوضوح بأن مدّة نومهم امتدّت إلى ثلاثمائة وتسع سنين: «وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا». (الكهف / ٢٥)

إنّ نوماً عميقاً كهذا يشبه الموت، والنهوض بعده أشبه بالحياة بعد الموت بلا شك، لذا فهو يصلح أن يكون نموذجاً حياً للمعاد من وجهة نظر التاريخ.

توضيحات

إشارة

هناك حديث طويل يدور حول هذه القصة، إلّا أنّ ما يتعلق بموضوع بحثنا هو عدّة أمور:

(١) التفسير الكبير، ج ٣١، ص ١٠٥.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٦٥

١- ملخص الحادثة

إنّ ما جاء في القرآن المجيد والروايات المستفيضة في هذا المجال هو مايلي: كان هناك ملك ظالم يدعى «دقيانوس» وقيل إنّ اسمه

«دسيوس» وكان متسلطاً على شعب وثني حوالى الفترة ما بين القرن الأول إلى القرن الثالث الميلادى، وكانت عاصمة البلاد تدعى «أفسوس»، وكان لهذا الملك عدّة وزراء قد بانت لهم سخافة الوثنية من خلال أحد الحوادث فرجّحوا التحرر من قيود هذه الخرافات على الاحتفاظ بمناصبهم، فهجروا ديارهم سرّاً من دون أن يعينوا هدفاً لمسيرهم، وأخيراً عثروا على غارٍ فاختبؤا فيه فالقى الله عليهم نوماً عميقاً يثير العجب حتى إذا استيقضوا من نومهم العميق هذا تساءلوا فى ما بينهم فظنّوا أنّهم لبثوا فى نومهم يوماً أو بعض يوم ولكن مظاهر وسمات أطراف الغار كانت تُنبئ عن شيءٍ آخر لذا تسرب الشك إليهم.

ولكونهم جوعاً بعثوا أحدهم إلى المدينة ليأتيهم بالطعام سرّاً، لكن المسكوكات النقدية كشفت سرّهم وساعدت فى ذلك أكثر تصرفاتهم وعاداتهم غير المألوفة لدى الناس فى ذلك العصر، بالإضافة إلى أنّ قصة توارى عدد من الشبان من أصحاب المناصب الرفيعة عن الأنظار كانت متداولة بين الناس فى تاريخهم المعاصر، فاتحدت جميع هذه الشواهد للدلالة على أنّ هؤلاءهم الذين تواروا عن الأنظار فى تلك الفترة!

فسمع المألـ بهذا الخبر والتفوا حولهم، لكن اولئك الشبان عادوا إلى كهفهم وتواروا إلى الأبد فبنى الناس هناك معبداً لتخليد ذكراهم.

٢- قصة أصحاب الكهف فى كتب التاريخ

هل ورد ذكر لهذه القصة فى كتاب آخر غير القرآن أم لا؟ وهل ذكر فى التوراة والانجيل الحاليين شيئاً عنها؟ إنّ الجواب عن السؤال الأول بنعم، أمّا الجواب عن السؤال الثانى فهو لا.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٦٦

لأنّ وقوع هذه الحادثة كما ذكر المؤرخون- يتعلق بالفترة التى تلت ميلاد المسيح عليه السلام، وقد صرّح البعض بأنّ وقوع هذه الحادثة حصل فى الفترة ما بين عام ٢٤٩- ٢٥١ ميلادى، فعلى هذا لا يمكن أن تكون مذكورة فى التوراة والانجيل، نلاحظ ماورد فى كتاب أعلام القرآن:

«إنّ خلاصة ما نقله المؤرخون الاوربيون عن قصة أصحاب الكهف هو: فى عصر دكيوس (٢٤٩ م- ٢٥١ م) الذى كان يسوم المسيحيين سوء العذاب، هرب سبعة شبان من النبلاء ولجأوا إلى غار، فأمر دكيوس أن يغلقوا فوهة الغار ببناء جدار عليه ليهلكوا جوعاً وعطشاً، لكن هؤلاء السبعة غرقوا فى نوم عميق، وبعد مرور ١٥٧ عام استيقظوا من نومهم فى عصر الملك «تيوذر الثانى» ويطلق المؤرخون الاوربيون على هؤلاء اسم النيام السبعة فى أفسوس».

وجاء فى فصل آخر من هذا الكتاب: إنّ أول من سرد هذه القصة هو «جاك» فى القرن الخامس الميلادى، وهو من سكنة «ساروك» الذى كان يرأس الكنيسة فى سوريا خلال رسالة كتبت بالسريانية، وترجم هذه الرسالة من السريانية إلى اللاتينية شخص يدعى «غوغويوس» وانتخب لها اسم «جلال الشهداء» (١).

لقد احتلت هذه القصة مقاماً متميزاً فى التاريخ الإسلامى والادب الشرقى والغربى، وتمكنت هذه القصة من وضع بصماتها على الادب «الروسى» و «الجبشى» أيضاً (٢).

بناءً على هذا فإنّ القرآن الكريم لم ينفرد بذكر هذه الحادثة، بل ورد ذكرها فى الكتب التاريخية الأخرى

٣- مكان الغار

المشهوره أنّ الغار يقع بالقرب من مدينة «أفسوس» أحد مدن آسيا الصغرى (تركيا

(١) أعلام القرآن، ص ١٧١-١٧٢.

(٢) المصدر السابق، ص ١٨١.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٦٧

الحالية التي تشتمل على قسم من بلاد الروم الشرقية القديمة)، بالقرب من نهر «كايستر» الواقع على بعد ما يقارب أربعين ميلاً إلى جنوب شرق «أزمير» (١).

وقد كسبت مدينة «افسوس» شهرتها العالمية من المعبد ومجمع الأصنام الشهير «اوطاميس» الذي يعتبر من عجائب الدنيا السبع (٢).

لكن البعض يرى بأن غار أصحاب الكهف يقع في موضع بالقرب من الشام يدعى «طرطوس» (٣).

ويوجد حالياً موضع بالقرب من دمشق يزوره الناس اشتهر باسم غار أصحاب الكهف.

لكن الرأي الأول أشهر.

٤- قصة أصحاب الكهف في تصور العلم الحديث

هل يمكن للإنسان أن يعمّر ولعدة قرون ويتساوى لديه أن يكون في حالة اليقظة أم في حالة النوم؟

ولو سلّمنا بإمكانية ذلك في اليقظة فإنّ المعضلة تزداد تعقيداً في حالة النوم، لأنّ هذا يعني أنّ الإنسان يمكنه البقاء حيّاً من دون أن يتناول طعاماً أو ماءً، بينما يحتمل أن يحتاج الإنسان خلال هذه المدّة وفي الظروف العادية إلى أكثر من مائة طن من الغذاء ومائة الف لتر من الماء!

هذه هي التساؤلات التي طرحها العلم حول هذه الحادثة، ويحتمل أن تكون هذه التساؤلات هي السبب في سلوك طريق الجحود من قبل لم يجدوا جواباً لها، واعتبروا هذه القصة «اسطورة» من الأساطير.

لكنّ البحوث الأخيرة للعلماء من ناحية، والاكتشافات التي وصلت إلينا عن

(١) فريهنگ قصص القرآن، ص ٣٥١.

(٢) القاموس المقدّس، ص ٨٧.

(٣) دائرة المعارف، دهخدا، مادة (أصحاب الكهف).

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٦٨

الموجودات الحيّة من ناحية أخرى تؤكّد على إنكار هذا الأمر ليس بهذه البساطة.

ومن أجل أن نتعرف إجمالاً على المنهج العلمي للعلماء المعاصرين في هذا المجال نلقى نظرة خاطفة على الصحف العلمية التي نشرت حديثاً:

جاء في إحدى هذه الصحف في موضوع تحت عنوان هل (ينتصر الإنسان على الموت)؟

في عام ١٩٣٠ سعى عالم الأحياء الشهير «متالينكف» لأن يثبت بأنّ الحياة الخالدة موجودة بالقوة في نفس الطبيعة، وأنّ مهمة العلم هي أن يصل إلى كشف أسرار الحياة الخالدة.

فهو يقول: إنّ الأحياء البسيطة مثل أحاديات الخلايا لا تموت في الواقع، لأنها تبقى حيّة إلى ما لا نهاية عن طريق انشطار الخليّة الحيّة... فلماذا نستغرب أن تكون هناك موجودات حيّة مركّبة من ملايين من الخلايا الخالدة وأنّ علينا نحن العلماء أن نتوصل إلى كشف أسرارها.

وجاء في فصل آخر من هذه المقالة موضوع بعنوان (نوم ستمائة عام) مايلي: مثل هذه الأفكار كانت تقوى يوماً بعد آخر حتى جاء

البروفسور «ايتنجر» فصاغها بصيغته علمية، قال ايتنجر: بإمكاننا الآن أن نتحدث عن الحياة الخالدة بلا تردد، لأن الحياة الخالدة ثبتت امكانيتها نظرياً، وقد بلغنا من التقنية ما يساعدنا على تحقيق ذلك عملياً.

ثم تحدّث عن استمرار الحياة بواسطة التجميد فأضاف: عندما تنخفض درجة حرارة الجسم بشدة فإن سير الحياة يبطأ حتى كأنه يتحرر من قيود الزمان، وعندما يقترب انخفاض درجة حرارة جسمنا من «الصفر المطلق»، (الصفر المطلق / (٢٧٠) درجة سانتيجراد تحت الصفر في المحرار المئوي!) فإن مقدار الحرارة الكافي لاستمرار الحياة لمدة ثانية واحدة في الظروف الاعتيادية يكفي حينئذٍ لإدامة الحياة عدة قرون!

ثم تحدّث عن جزيئات الملح البلورية الشكل التي تحتوي في داخلها على خلايا متحجرة من البكتريا والعائده لعصور مضت قبل مائة مليون عام، وقد هيأ هذا العالم لها
نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٦٩

الظروف الملائمة فعادت إلى الحياة ثانية وبدأت بالتكاثر (وهذا في الحقيقة يعنى أن تلك البكتريا نهضت من رقادها بعد مائة مليون عام) وبعد هذه التجربة قام هذا العالم بجمع بلورات الملح من جميع أرجاء العالم ومن مناطق مضى عليها ستمائة مليون عام! فهياً لها الظروف الملائمة ورأى ببالغ العجب بأن هذه المتحجرات انبعثت من نومها العميق! وبهذا سجّل رقماً قياسياً آخر «ستمائة مليون عام» لحياة هذه الموجودات الحيّة المجهرية!

وهذا العالم يرى أن هذا الأمر يمكن أن ينطبق على الإنسان أيضاً من وجهه نظر العلم (وهذا الإنجماد يحصل خلال اللحظة التي تسبق الموت طبقاً لظروف معينة بحيث تصان اجهزة البدن من حدوث أى تلف) «١».

إننا لا نرى أن أصحاب الكهف كانوا منجمدين، بل نقول بالتحديد إن النوم العميق يؤدي إلى بقاء فعالية اجهزة الجسم إلى ادنى حد ومن المحتمل في هذه الحالة أن تكفي الطاقة المخزونة لديه لإدامة الحياة عدة قرون، لأن نوماً كهذا ليس أمراً معتاداً وقد تحقق بإذن الله وفي ظروف خاصة غير طبيعية.

يقول القرآن الكريم إن نور الشمس لم يمسه أبداً: «وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشُّمَالِ». (الكهف / ١٧)

أما مسألة السبات (لو تتبعنا حياة كثير من الحيوانات لوجدنا أنها تغرق في سبات عميق طيلة الشتاء) في عصرنا الحاضر من الامور البديهية، ففي هذا النوع من الرقاد تتوقف الحياة في الأجسام تقريباً ولا يبقى إلا بصيص منها، فضربات القلب تهبط إلى حدٍ وكأنه قد توقف عن العمل، ويمكن تشبيه جسم الحيوان في هذه الحالة بأفران ضخمة لم يبق فيها بعد خمود نارها إلا شعلة صغيرة، ومما لا ريب فيه هو أن مقدار الوقود الذي تحتاجه الافران لحرقه في يوم واحد قد تتغذى عليه تلك الشعلة الصغيرة مئات السنين.

إن العلماء يرون أن السبات لا يختص بالحيوانات التي لا تتناسب درجة حرارة أبدانها مع درجة حرارة محيطها بل يحصل السبات لدى الحيوانات ذات درجة الحرارة الثابتة

(١) مجلة (دانستينا) تشرين الثاني - ١٩٨٢، العدد ٨٠.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٧٠

أيضاً، ففي مرحلة السبات تصح الفعاليات الحياتية بطيئة كثيراً وتتغذى تلك الحيوانات على الشحم الذي تدخره في أجسامها «١».

وليس غرضنا هنا التعرض لكيفية نوم أصحاب الكهف، بل الغرض الرئيسي هو بيان أمرين:

الأول: هو أن نومهم بنحو الإجمال لم يكن نوماً طبيعياً، على الأخص لو استندنا إلى ما قاله القرآن: «لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُغْباً». (الكهف / ١٨)

والأمر الثاني: هو أن القوانين الحاكمة على النوم المعتاد لا تنطبق على هذا النوع من النوم، فمن المحتمل في هذا النمط من النوم أن تبلغ مسألة استهلاك الطاقة في البدن من الانخفاض حدًا ينتفي معها موضوع التغذية كلياً.

٥- قصة هزيمة بني اسرائيل

النموذج الآخر الذي ذكره القرآن الكريم هو القصّة الواردة في سورة البقرة بخصوص مجموعة مؤلفه من آلاف الأشخاص فزوا حذر الموت وهجروا ديارهم، لكن فرارهم هذا لم ينقذهم، فوقعوا في مخالاب الموت بإذن الله، وبعد ذلك احياهم الله مرّة اخرى قال تعالى

«الْم تَرَى إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أَلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ». (البقرة/ ٢٤٣)

ادعى المفسرون بأن هؤلاء كانوا فريقاً من بني اسرائيل فزوا من ديارهم خوفاً من الملاريا أو الطاعون، لكنهم ما برحوا حتى ماتوا بذلك الوباء فمرّ أحد انبياء بني اسرائيل ويدعى «حزقييل» ودعا الله عزوجل أن يمنّ عليهم بالحياة، فأحياهم الله ليكونوا دليلاً على احياء الموتى (في مقابل جاحدى المعاد).

وجاء في بعض الروايات أن هؤلاء كانوا يسكنون احدى مدن الشام وكان الطاعون

(١) دائرة المعارف «فرهنگ نامه» مادّة (زمستان خوابی).

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٧١

يصيبهم بين الحين والآخر، فكلمّا بان لهم أثر الوباء غادر المدينة أثرياًؤهم وبقى الفقراء فريسةً للهلاك فموت منهم الكثير، أمّا الفارزون فإنّهم غالباً ما ينجون.

بعد ذلك قرروا أن يهاجروا جميعاً بمجرد ظهور آثار الطاعون وهكذا خرجوا فراراً من الموت.

إلّا أنّه لم ينج أحد منهم وماتوا جميعاً بأمر الله «١».

إنّ الآية المذكورة لم تشر إلى أنّ الغرض من احيائهم هو اجراء مشهد المعاد في الدنيا، لكن بعض الروايات الواردة في هذه الحادثة صرّحت بذلك «٢».

ونواجه هنا مرّة اخرى تفسيراً منحرفاً لبعض المفسرين الذين يصطلح عليهم بالمتقفين ونحن نعلم بأنّ فهم مثل هذه الحوادث ذات الأبعاد الاعجازية صعب على أفراد من هذا القبيل لذا فإنّهم رفضوا بالمرّة حكاية وقوع هذه الحادثة بالشكل الوارد في ظاهر القرآن الكريم واعتبروا بيان تلك الحادثة مجرّد مثال لحياة وموت الامم الذي يعتبر كناية عن النصر والهزيمة.

فقالوا: إنّ الآية المذكورة تخبر عن جماعة من الناس فقدوا سيادتهم واستقلالهم كلياً فأصبحوا كأمّة ميتة، ثم نهضوا من نومهم وشمروا عن سواعدهم وحصلوا على استقلالهم وسيادتهم بما مَنَّ الله عليهم «٣».

لكننا نعلم بأنّ مثل هذه التفاسير والآراء إذا دخلت إطار القرآن الكريم فإنّ كثيراً من حقائقه سوف تكون عرضةً للانكار، وحينئذٍ يستطيع كل شخص أن يفسّر الآيات الشريفة بتفسيرات ملائمة لميوله ورغباته ويصبح القرآن الذي يعتبر هادياً ومسيراً للناس وسيلةً لدعم أفكار وميول هذا وذاك! فيكون تابعاً بدلاً عن أن يكون متبوعاً.

وعندما تنهى الروايات بشدّة عن التفسير بالرأى، وتُشبه من يفسر القرآن برأيه بالذى يهوى من السماء إلى الأرض، فالمراد منه مثل هذا التفسير المنحرف الخارج عن الضوابط والقواعد السليمة لفهم القرآن.

(١) تفسير مجمع البيان؛ وتفسير الكبير؛ وتفسير نورالثقلين في تعليقهم على ذيل الآية مورد البحث.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج ١، ص ٣٤٧.

(٣) تفسير المنار، ج ٢، ص ٤٥٨.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٧٢

فإن أراد هؤلاء- بهذه التفاسير- اقناع الماديين، فإنهم لن يقتنعوا بها، وإن أرادوا نفى وقوع الظواهر الخارقة للقوانين الطبيعية فهذا ممّا لا يرضيه المؤمنون ولا المخالفون أيضاً.

قصة قتيل بنى اسرائيل:

الحدث الأخير الذى ورد ذكره فى القرآن المجيد كمشال ملموس لإحياء الموتى فى هذه الدنيا هو القصة المتعلقة بفئة من بنى اسرائيل.

فى هذه القصة يُقتل أحد الشخصيات البارزة منهم غيلةً، فيقع بينهم شجار عنيف من أجل العثور على القاتل، فكل قبيلة منهم تتهم القبيلة الاخرى بارتكاب القتل، وخوفاً من اتساع رقعة النزاع بينهم بما يهدد بخطر جسيم، لذا فإنهم ذهبوا إلى موسى عليه السلام راجين منه الحل، فما كان من موسى عليه السلام إلا أن حل هذه المعضلة بواسطة الاستعانة بلطف الله تعالى عن طريق معجزة آمن بها الجميع.

فقد أمرهم بذبح بقرة لكن ذبحها لم يتم بسهولة طبعاً، فقد عاد إليه المتدرعون من بنى اسرائيل كراراً للسؤال عن اوصاف تلك البقرة وأخروا انجاز ذلك العمل بهذه الأسئلة التافهة الفارغة، وأخيراً ذبحوا بقرة تحمل أوصاف معينة وضربوا القاتل بجزء منها فعاد مدّة وجيزة إلى الحياة وكشف عن قاتله.

وجاء فى القرآن الكريم فى القسم الأخير من هذه القصة قوله تعالى: «وَأَذِّقْتُمْ نَفْسًا فَاذَّارَ أُنْتُمْ فِيهَا (فتنازعتهم فيها) وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ* فَكُلْنَا اضْرِبُوهُ بَعْضَهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ». (البقرة/ ٧٢-٧٣)

والعجيب فى هذه القصة هو أن الضرب بقطعة من جسم «ميت» بجسد «ميت آخر» يؤدى إلى إحيائه لإحقاق الحقيقة!، فما هى العلاقة بين هذين الأمرين؟ وما هو المؤثر فى ذلك؟ بديهى أن هذا من الأسرار الإلهية التى لا يعلمها أحد إلا ذاته المقدسة، فهو لا يوضح أكثر من ذلك بل يقتصر على الاستدلال بهذا وهو أن إحياء الموتى فى عالم الآخرة أمر يسير

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٧٣

بالنسبة لقدرته، فلا توجد هناك ضرورة لأن يولد «الموجود الحى» من موجود حى آخر، بل يمكن أن تنبعث شرارة الحياة من تلاقى عضوين ميتين!

وجملة: «كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى تَدَلُّ بوضوح على هذه الحقيقة وهو أن القاتل فى هذه القصة قد عادت له الحياة واصبح نموذجاً محسوساً للدلالة على بعث البشر بعد موتهم.

ونواجه هنا أيضاً بعض الكتاب من أمثال مؤلف «المنار» الذى يصرّ على حمل جملة تامة الوضوح على خلاف ظاهرها من دون وجود أى قرينة عقلية أو لفظية على ذلك، ومن دون أن تكون هناك أى ضرورة.

قال صاحب المنار: «يحتمل وجود سنة لديهم وهى أنهم كانوا إذا وجدوا قتيلاً بالقرب من أحد المدن ولم يعثروا على قاتله كان كل واحد منهم يغسل يده خلال طقوس معينة ليبراً من القتل، وكل من يمتنع من أداء ذلك فإنهم يعتبرونه هو القاتل، والمراد من احياء الموتى هنا هو حقن الدماء التى كانت تراق بسبب هذه الاختلافات أى أن الله حقن الدماء بواسطة هذا التشريع!» (١).

وكما أشرنا إلى ذلك سابقاً فإن هذه التفاسير هى نوع من التلاعب بالالفاظ تحط من شأن «كلام الله» وتفسح المجال لأن نستدل بكل

الآيات على كل شيء وأن نحمل الألفاظ على الكناية والمجاز من دون وجود أى قرينة، ومن غير أى مبرر لهذا العمل، لأن المتدينين فى كل الأحوال يؤمنون بالمعجزات والخوارق؟ فما هى الضرورة لهذا التكليف. ونضيف أيضاً: إن انتخاب البقرة للذبح يحتمل أن يكون من أجل تقديم قربان لله تعالى أما ما يتعلق بدوافع ارتكاب هذه الجريمة، فقد جاء فى الروايات أن شاباً قتل عمه من أجل الحصول على أمواله (أو من أجل أن يتزوج منه ابنته) على هذا يكون سبب تلك الجناية هو حب المال أو النساء (هذه هى الدوافع الرئيسية لارتكاب جرائم القتل فى العالم)، وتحتوى هذه الحادثة العجيبة وعلى الأخص تفاصيلها- على بنود تربوية كثيرة عرضنا عن ذكرها لخروجها عن دائرة موضوع بحث المعاد ومن أجل الاطلاع راجع تفسير

(١) تفسير المنار، ج ١، ص ٣٥١.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٧٤

الامثل ذيل الآية ٥٥ و ٥٦ من سورة البقرة. «١»

كانت هذه هى النماذج المتعددة المحسوسة من إحياء الموتى التى ذكرها القرآن المجيد وبهذا الحديث ينتهى بحث إمكان المعاد، ونتوجه إلى بحث الأدلة العقلية لوقوع المعاد.

(١) جاءت فى سورة البقرة إشارة إلى نموذج آخر من مشاهد الحياة المستأنفة بعد الموت عندما رافق وجهاء بنى اسرائيل موسى عليه السلام إلى جبل الطور وطلبوا منه أن يروا الله فأصابته الجبل صاعقة اندك لها الجبل وصعق موسى عليه السلام ومات بنو اسرائيل، ثم بعثهم الله لعلهم يشكرون «ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ». (البقرة/ ٥٦)

بما أن هذه الآية لم تأت من أجل إثبات المعاد، فلذلك لم نجعلها من ضمن آيات البحث، وعلى الأخص بعدما احتدل عدد من المفسرين أن بنى اسرائيل لم يموتوا عندما شاهدوا الصاعقة، بل اغمى عليهم، وفسر آخر الموت هنا بمعنى الجهل والبعث بمعنى العلم (ذكر الألوسى هذين التفسيرين فى روح المعانى نقلاً عن بعض المفسرين، ج ١ ص ٢٣٩) وإن كانت هذه التفاسير على خلاف ظاهر الآية وغير مقبولة.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٧٥

دلائل وقوع المعاد

إشارة

- ١- برهان الفطرة
- ٢- برهان الحكمة
- ٣- برهان العدالة
- ٤- برهان الغاية والحركة
- ٥- برهان الرحمة
- ٦- برهان الوحدة

٧- برهان خلود الروح

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٧٧

دلائل وقوع المعاد

تمهيد:

يوجد في القرآن الكريم أدلة منطقية وعقلية متعددة لإثبات المعاد، فهو يصرّح بها حيناً ويلمح إليها حيناً آخر، وبعبارة أخرى أنّ القرآن من خلال تلميحاته وإشاراتهِ ارشد المسلمين إلى تتبع هذه الأدلة والبراهين.

فالقرآن المجيد لم يعتمد في الامور الاعتقادية على التعبد والكلام غير المستند، بل ارشد إلى الأدلة العقلية، لذا فقد تشكل الآية القصيرة أحياناً جسراً للوصول إلى دليل عقلي مهم، ولدنيا في مباحث التوحيد نماذج عديدة من هذا القبيل وسوف نلاحظ ذلك في مباحث المعاد أيضاً- بإذن الله- من خلال بحثنا هذا.

والأدلة الصريحة والتلميحية الرئيسية في القرآن المجيد هي سبعة براهين:

١- برهان الفطرة.

٢- برهان الحكمة.

٣- برهان العدالة.

٤- برهان الغاية والحركة.

٥- برهان الرحمة.

٦- برهان الوحدة.

٧- برهان خلود الروح.

وسوف نتناول بالشرح كل واحد من هذه البراهين السبعة:

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٧٩

١- برهان الفطرة

إشارة

المراد من برهان الفطرة هنا (كما هو المراد من الاستدلال بالفطرة في جميع الموارد) هو أنّ الإنسان يرى في أعماقه عقيدة وإيماناً بحقيقته ما، ويشعر من خلال الإيمان بوجود عالم الآخرة والقيامة والعدالة الإلهية.

ولا- ريب أنّ هذا المعنى يمكن توضيحه وبيانه بعدة طرق، وبعد شرح آيات القرآن المجيد سوف نتعرض لهذا الأمر في فصل التوضيحات، والآن لتأمل خاشعين في الآيات الكريمة التالية:

١- «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ». (الروم / ٣٠)

٢- «لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ* وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ* أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعُ عِظَامَهُ». (القيامة / ١- ٣)

جمع الآيات وتفسيرها

المعاد يكمن في أعماق الروح:

قد يحتمل البعض بأن الآية الأولى المذكورة أعلاه لا تشير إلّا إلى الفطرة التي تهدي إلى معرفة الله، لكن التعمق في الآية يهدي إلى أن موضوع دلالتها عام، وأنها تعتبر الدين كله فطرياً، بمعنى جميع الاصول الاعتقادية، بل حتى عموم فروع الدين فطرية وأن الأحكام الشرعية موجودة في أعماق الفطرة بصورة إجمالية.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٨٠

قال تعالى «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَاتَبَدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ».

وهكذا نلاحظ أن كلمة «دين» قد تكرر ذكرها مرتين في الآية، وليس ذلك إلّا لأجل الدلالة على جميع الحقائق الدينية، وهو سبحانه وتعالى يؤكد بالقول: «فطرة الله» ثم يضيف إلى ذلك: «لا تبديل لخلق الله» ويؤكد ثالثاً، على هذه المسألة ويقول: «ذلك الدين القيم».

وبهذا يستخدم التأكيد ثلاث مرات على أن الدين امر فطري بالنسبة للإنسان «١».

ويستفاد من مجموع ماورد في هذه الآية أن مسألة معرفة الله ليست هي القضية الوحيدة التي فطر الله الإنسان عليها، بل إن الاعتقاد بالقيامة ومحكمة العدل الإلهية كذلك.

والجدير بالذكر هو أن الروايات التي وردت في تفسير هذه الآية قد أشارت إلى هذا المعنى أيضاً.

جاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه عندما سُئل عن معنى الفطرة في هذه الآية، أجاب: هي الإسلام «٢».

وجاء في الدر المنثور نقلاً عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: فطرة الله التي فطر الناس عليها: دين الله «٣».

وجاء في حديث مشهور روى من طرق الشيعة والسنة عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«ممن مولود إلّا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه...» «٤».

(١) «حنيف» بمعنى خالص أو لا- يوجد فيه أي منعطف نحو الضلالة، والأصل في الاستعمال هو «الميل» إلّا أنها جاءت هنا بمعنى الانعطاف نحو الحق، و«الفطرة» من مادة «فطر» على وزن (سَـطَرَ) بمعنى الشق، وبما أن الإنشاء والخلق كأنه شق لحجاب العدم فقد استخدمت هذه الكلمة في الخلق والإنشاء، و«قيم» بمعنى ثابت وذو استقامة.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ١٨٤، ح ٥٤.

(٣) تفسير در المنثور، ج ٥، ص ١٥٥.

(٤) تفسير در المنثور، ج ٥، ص ١٥٥؛ وتفسير جامع الجوامع في تعليقه على الآية المعنية؛ وكذلك في تفسير الميزان، ج ٢١، ص ١٨٨.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٨١

وفي الآية الثانية اقسام تعالى بأمرين: «لَأُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ* وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ».

يرى البعض أن «لا» تحمل معنى النفي في هذه الآية، فيكون مفهومها هو أنني لا أقسم بهذين الأمرين، والغرض من ذلك هو التأكيد، كما لو نقل لأحد: أنا لا أقسم بحياتك من أجل بيان أن حياتك أرقى من أن ينالها قسمي.

لكن أكثر المفسرين يرى أن «لا» زائدة جاءت من أجل التأكيد، فبناءً على هذا أقسم الله ب «يوم القيامة» كما أنه أقسم ب «النفس اللوامة» أيضاً.

و «النفس اللوامة»: هي وجدان الإنسان وضميره الذي يلومه على ارتكاب الذنوب، وكلما كانت الخطيئة أكبر كان توبيخ الضمير

وعذاب الوجدان أشدّ، وقد يقدم بعض الناس على الانتحار من أجل الخلاص من العذاب الحاصل من ارتكاب الذنوب العظيمة أو الجرائم البشعة، وقد سمع أو رأى أكثرنا بهذا الأمر بالنسبة للقتلة الذين ارتكبوا جرائم عظيمة أو الذين اقترفوا ذنوباً كبيرة. وذكر هذين الأمرين (يوم القيامة النفس اللوامة) مقترنين بعنوان موضوعين عظيمين وقيمين يستحقان القسم بهما إنما هو من أجل الدلالة على الرابطة الموجودة بينهما... فيوم القيامة هو المحكمة الإلهية الكبرى و«النفس اللوامة» هي محكمة مصغرة وقيامه تستقر في أعماق روح كل إنسان، أو بتعبير آخر كأنّ هذا التقارن يقول بلسان الحال كيف تشكّون في محكمة يوم القيامة وأنتم تشاهدون في أعماقكم نموذجاً مصغراً منه؟ إنكم تلمسون ذلك كثيراً فعندما تعملون عملاً صالحاً تمتلئون نشاطاً وبهجةً، فهذه السكينة وارتياح الضمير هو ثواب تمنحه أياكم روحكم، وعندما تقترفون ذنباً تألمون وتنهال عليكم سياط الضمير من أعماقكم، فهذا العذاب هو عقاب تعينه لكم محكمة الضمير!

فإن كانت هناك محكمة في أعماق كل واحد منكم فكيف لا توجد هناك محكمة الهية عظيمة على مستوى الكون العظيم؟! ومما يجلب الانتباه هو القسم بنفس يوم القيامة لإثبات يوم القيامة، فكأنه يقول: قسماً بيوم القيامة إنّ القيامة حق «١».

(١) يجب الالتفات إلى أنّ «ما جاء القسم من أجله» محذوف في الآية، والدليل عليه في الجملة اللاحقة فيكون التقدير «لتبعثن يوم القيامة».

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٨٢

وهنا يطرح السؤال الثاني نفسه وهو: إن كان هذا القسم موجه للمؤمنين فلا داعي له هنا، وإن كان موجه للمنكرين فكيف يقسم بما لا يؤمنون به؟! وللتخلص من هذه المعضلة قدّر بعض المفسرين كلمة «رب» وقالوا إنّ التقدير هو اقسام برّب القيامة بأنّ القيامة واقعة «١».

واحتمل أيضاً أنّ هذا القسم جاء تأكيداً للذين يؤمنون بأصل يوم القيامة إلا أنّهم يشكّون في تفاصيلها، فالقرآن يقسم بأصل يوم القيامة لإثبات التفاصيل التي وردت بعد القسم في الآية.

وهناك تفسير آخر يحتمل أن يكون أفضل من التفسيرين السابقين، وهو: إنّ القرآن أشار بذلك إلى أنّ الاعتقاد بيوم القيامة بلغ من البداهة حدّاً كبيراً حتى أنّه يُقسم به في مقابل المعاندين، وبتعبير آخر أنّه استعان بفطرتهم على دحض آرائهم. وأمّا بالنسبة ل«النفس اللوامة» فللمفسرين أقوال كثيرة فيها حتى نقل أحدهم ستة تفسيرات لها، منها: إنّها للدلالة على النفس المؤمنة التي تلوم نفسها حين التقصير.

ومنها: أنّها للدلالة على النفس الكافرة التي تلوم نفسها يوم القيامة عندما تشاهد أعمالها.

ومنها: أنّها ذات مفهوم اشمل من المؤمن والكافر.

ومنها: أنّها إشارة إلى آدم عليه السلام بعد طرده من الجنة.

لكنّ المناسب للمقام ووجود القسم الدال على السموّ، والشرف للاقتران بيوم القيامة هو أنّ النفس اللوامة هي نفوس المؤمنين الذين لم يبلغوا بعد حدّ الكمال.

توضيح ذلك: إنّ النفوس الإنسانية على ثلاثة أنواع: فنوع من النفوس «مظلمة» لا ترى قيمة للقسم ولا تبدو عليها آثار السير نحو الكمال ولا التنبيه من الغفلة ولا تحمل شيئاً من آثار يوم القيامة، فهؤلاء هم أصحاب «النفوس الأمارة» النفوس التي تأمرهم دوماً بالإساءة واقتراف الخطايا.

وهناك نفوس أخرى «نصف نورانية» تسير نحو الكمال على منهج الحق، وهذه النفوس

(١) تفسير الكبير، ج ٣٠، ص ٢١٦.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٨٣

كلما ارتكبت خطيئته بمقتضى الحيثية المظلمة فإنها تصحو من غفلتها بفعل نور الإيمان وتبدأ بلوم نفسها وتوبخها ... ذلك اللوم الذى يصبح سبيلاً لنيل الكمال، وهى نفس رفيعة ونموذج مصغر من مشاهد القيامة التى تُدعى بـ «النفس اللوامة». وثالثاً النفوس النورانية تماماً، فكلها «نور وشفاء» فقد تجاوزت النفس اللوامة إلى مرحلة الاطمئنان والسكينة فجاءها خطاب: «يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ» وقد أمرت بالرجوع إلى منبع الكمال المطلق بـ «ارْجِعِي» فدخلت فى روضه عباد الله الصالحين فهى: «رَاضِيَةٌ مَرْضِيَّةٌ».

وقصارى الكلام فى تفسير هذه الآية وكيفية دلالتها على المراد هو إن هذا التقارن بين القسمين مع الأخذ بنظر الاعتبار فصاحة القرآن وبلاغته لا يمكن أن يكون مصادفة، بل يجب أن تكون هناك علاقة بين يوم القيامة وبين النفس اللوامة، وهذه النسبة هى أن كل إنسان (إن لم تنحرف فطرته بفعل التربية الخاطئة) له وجدانٌ يؤنبه عند ركوب الخطايا ويستحسن فعله للخير. وهذا الوجدان الشخصى الذى هو عبارة عن محكمة صغيرة تستقر فى روح الإنسان، دليل على ضرورة وجود ضمير كبير لهذا العالم العظيم يحاكم ويلوم المجرمين ويعاقبهم، وما هذا الضمير الكبير إلا يوم القيامة.

توضيح

المعاد يتجلى فى الفطرة

إن المسائل الفطرية وإن كانت إدراكية لا استدلالية، واضحة ومرئية لا مسموعة، بل يجب على كل شخص البحث عنها فى أعماقه ليعثر عليها، ولكن مع ذلك ومن أجل مساعدة الجميع فى البحث وسماع صوت الوجدان بسهولة، ومن أجل قراءة كتاب الفطرة بتأني، وكذلك للحصول على بيان مُقنع للتحدث به أمام المعاندين فإن التوضيحات التالية تعتبر ضرورية:

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٨٤

١- إذا كنا خلقنا للفناء فما معنى حبّ البقاء؟

لا يمكن لأحد أن ينكر هذه الحقيقة وهى فراره الدائم من الموت الذى يعتبره «العدم»، وحبه لطول العمر، بل حبه للخلود. إن السعى من أجل البقاء والسعى من أجل الحصول على «إكسير الشباب» والسعى للحصول على «ماء الحياة» الذى ذكرت له نماذج فى طيات كتب تاريخ البشرية ومساعى العلماء وأشعار الشعراء كلها بسبب حب البقاء عند الإنسان كما أن حب الإنسان لأبنائه يعتبر امتداداً لحياته وهو دليل على الحب الغريزى للبقاء أيضاً.

فلو كنا مخلوقين من أجل الفناء فإن وجود هذه الغريزة لدينا يكون عبثاً، ولا يكون فى الحقيقة إلحاحاً مضرراً لاهداف من وجوده، فكيف يضيف الخالق الحكيم إلى وجودنا مثل هذا الأمر المضر الزائد: (يرجى الالتفات إلى أن بحث المعاد يأتى بعد إثبات بحوث التوحيد والإيمان بالذات المقدسة الإلهية).

فى الواقع أن وجود الغريزة فى الإنسان يدل على وجود طريق لاشباعها وتلبية متطلباتها، فالعطش دليل على وجود الماء، والجوع دليل على وجود الغذاء، وحب الجنس الآخر دليل على وجوده، فإن يكن الأمر كذلك فهو لا يتلائم مع حكمته تعالى بناءً على هذا يعتبر حبّ البقاء المغروس فى فطرة الإنسان دليلاً واضحاً على الحياة الخالدة.

وللعالم المعروف المرحوم الفيض الكاشانى حديث ظريف فى هذا المجال، فقد قال:

«كيف تفنى الروح الإنسانية وقد اودع في طبيعتها حب الوجود والبقاء بمقتضى حركته كما أنه اودع في نفس الإنسان بغض العدم والفناء؟! بينما قد ثبت استحالة البقاء والخلود في هذا العالم، فإن لم يكن هناك عالم آخر ينتقل إليه الإنسان فإن هذه المسألة الغريزية الارتكازية التي اودعها الله في فطرة الإنسان، أي حب البقاء الدائم والحياة الخالدة سوف تصبح عبثاً، والخالق الحكيم قد تنزه عن اللغو والعبث» (١).

(١) علم اليقين، المرحوم الفيض الكاشاني، ج ٢، ص ٨٣٧.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٨٥

أو على حدّ تعبير أحد العلماء المعاصرين: إن تعطش البشر لحياة خالدة بلغ من السعة والقوة بما لا يمكن معه القبول بأن مثل هذه الآمال لا تتحقق.

٢- إن لم يكن المعاد أمراً فطرياً فلماذا لا يزول الاعتقاد به من نفس الإنسان على مرّ العصور؟

إنّ عادات وتقاليد الشعوب في تغيير دائم، فالثقافة بصورة عامّة تابعة للتغيير، فلا يبقى شيء ثابت على مرّ العصور من دون أن يتأثر بمسار الزمان إلّا أمور تأصلت جذورها في أعماق الفطرة.

وبناءً على هذا التوضيح فإنّ فصل المسائل الفطرية عن الامور المعتادة أمرٌ عسير، وبتعبير آخر فإنّ كل شيء يحافظ على بقائه على مرّ التاريخ (وإن اختلفت مظاهره) يمثل بقاؤه أفضل دليل على كونه أمراً فطرياً، وما قلناه يصدق تماماً على مسألة اهتمام الإنسان بالحياة بعد الموت (فتأمل).

يقول علماء النفس المعاصرون: إنّ العقائد الدينية، والتي تعتبر مسألة الاعتقاد بالمعاد واحدة منها، رافقت الإنسان على الدوام حتى في عصور ما قبل التاريخ.

وكمثال على ذلك ننقل كلام «صاموئيل كنيغ» الذي ورد ذكره في كتاب علم الاجتماع، قال: «العقائد الدينية لا تختصّ بعالمنا المعاصر فحسب، بل ثبت من خلال التحقيقات التاريخية الموثقة بأنّ المجتمع البشري القديم كانت لديه نوع من العقائد الدينية، فالأسلاف البشرية القديمة، أو ما يسمى بانسان (النياندرتال) كان لهم دين أيضاً لأنهم كانوا يدفنون أمواتهم تحت التراب بصورة خاصّة، ويدفنون معهم الآلات التي كانوا يستخدمونها في أعمالهم خلال حياتهم، وقد أثبتوا بسلو كههم هذا بأنّ هناك عالماً آخر» (١). إنّ التجذر العميق للعقائد الدينية لدى بنى الإنسان يعد بحد ذاته دليلاً على أنّ العقائد

(١) جامعة شناسي «علم الاجتماع»، ص ١٩٢.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٨٦

الدينية امور فطرية.

٣- هل يعقل أن توجد في أعماقنا محكمة صغيرة بينما لا توجد في هذا الكون الكبير محكمة عادلة؟

إنّ وجود الوجدان الأخلاقي أو بتعبير آخر وجود محكمة الضمير أمرٌ محسوس لدى الجميع، فكل إنسان يطير فرحاً ويشعر بالرضا العميق عندما يقدم خدمة إنسانية عظيمة وينقذ مجموعة من المظلومين والمحرومين، وكل من يقترن بجريمة فيقع فريسة في مخالب الاضطراب ويشعر بالآلام عميقة، (إنّ الحديث هنا لا يشمل المجرمين المدمنين على الاجرام الذين مسخت فطرتهم بسبب تكرار ارتكابهم للذنوب، بل الحديث عن سائر الناس).

فيتضح حينئذٍ أنّ الاعتقاد بالمعاد يكمن في أعماق فطرة البشر من دون حاجة إلى استدلال آخر لإثباته مع توفر ما لا يحصى من الأدلة العقلية لإثباته.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٨٧

٢- برهان الحكمة

تمهيد:

لو ألقينا نظرةً اجماليةً على عالم الوجود لرأينا أنّ كل المخلوقات لم تخلق إلّا لغرضٍ معينٍ موافقٍ للحكمة وخاضعٍ لقوانينٍ ومساراتٍ محدّدة.

ثم لنلقى نظرةً على حياة الإنسان ولنفترض بأنّ «الموت» هو نهاية كل شيء بالنسبة له، فبقاء الإنسان لمُدّةٍ معيَّنةٍ مع ما يواجهه من صعوباتٍ مع تناول مقدارٍ من الغذاء والماء ثم يموت وينتهي كل شيء سيكون عبثاً وبلا هدف، ومن البديهيّ فإنّ شيئاً كهذا لا يمكن أن يعتبر هدفاً من خلق الإنسان، كما أنّه لا يمكن أبداً أن يتلائم أمر كهذا مع حكمة الخالق الحكيم.

وقد جاء هذا المعنى بصورة حية وملموسة في آيات القرآن المجيد فلتتفكّر فيما جاء في هذا المجال من آياتٍ قرآنيّةٍ كريمة:

١- «أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ». (المؤمنون / ١١٥)

٢- «وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ» (١).

(الحجر / ٨٥)

٣- «أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ... أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى .

(القيامة / ٣٦-٤٠)

(١) وهناك آياتٍ أخرى في القرآن المجيد مثل الآية ٢٧ من سورة ص؛ الآية ٣٨ من سورة الدخان؛ والآية ١٩١ من سورة آل عمران حيث تحدثت أيضاً عن أهداف الخلق، ولكن بما أنّها لم تُشر بصراحةٍ لمسألة المعاد ومحكمة القيامة فقد عرضنا عن ذكرها ولم نجعلها ضمن الآيات المذكورة أعلاه.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٨٨

جمع الآيات وتفسيرها

الحياة بلا معاد لا معنى لها:

أشار القرآن المجيد إلى أوضح أدلة المعاد من خلال جملة قصيرة نافذة المعنى قال تعالى «أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ».

أي: إنّ لم تكن هناك قيامه وكانت حياتكم تتلخّص في هذه الأيام المعدودة، لكانت حياتكم عبثاً ولم يكن لها أيّ قيمة، والحياة الخالدة هي التي تعطى لحياتكم معنىً في هذه الدنيا وتخرجها من دائرة العبث وتجعلها متسقةً مع الحكمة الإلهية.

ولأجل هذا ختم تعالى هذه الآية بقوله: «فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ». (طه / ١١٤)

فوجوده حقّ من جميع الجهات، ولا يجد الباطل منفذاً إليه، وإنّ العبث واللاهديه أمرٌ باطل، والحق لا يتلائم مع الباطل.

و «عبث»: على حدّ قول صاحب مقاييس اللغة وصاحب «المفردات»: في الأصل بمعنى الشوب والخلط، ثم أطلقت على الأمور غير الهادفة والتي لا تحمل أيّ هدف صحيح.

وقال في «لسان العرب»: هي بمعنى اللعب، وإن عدوا الخلط من معانيها، واطلقت اجمالاً على الأعمال غير الهادفة والباطلة والخالية من الأغراض العقلانية، ولا شيء من هذه المعاني يصدق على خلق الإنسان.

وقد ورد نفس هذا المعنى في الآية الثانية وبقلب آخر، قال تعالى «وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ»، ثم أضاف على الفور: «وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ».

من المحتمل أن يكون ذكره لهاتين العبارتين مقترنتين دليلاً على هذا الأمر فإن كان الهدف من خلق هذا العالم العظيم مع كل ما فيه من العجائب والبركات والنعم وكل هذه الأسرار الخفية من أجل عدة أيام من الحياة المادية الدنيوية فحسب، فهو أمرٌ باطل ولا يتلائم مع الحق إذن، فالحياة الأخرى تعطى معنى وحقانية لهذه الحياة.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٨٩

ففي الآية السابقة كان الحديث يدور حول «سلب العبث» من خلق الإنسان، وفي هذه الآية يدور الحديث حول «حقانية» خلق كل العالم، وكلاهما يرميان نحو هدف واحد، وهو إن الحياة الدنيا إذا ما جردت عن الحياة الآخرة فإنها سوف تكون أمراً باطلاً لا غرض منه وخالياً من كل معنى وهذا ممّا لا يصدر عن الحكيم أبداً.

وجاء في تفسير الميزان: إن المراد من الحق في هذه الآية هو ما قابل اللعب والباطل، والدليل على ذلك هو جملة «وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ»، وتفسير «الحق» بمعنى «العدل والانصاف» غير صحيح (١).

والجدير بالالتفات هو أن الله تعالى أمر رسوله بالعبث والصفح... ذلك الصفح الجميل الخالص الذي لا يشوبه حتى اللوم والعتاب، قال تعالى «فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ».

(الحجر / ٨٥)

ومن المحتمل أن يكون هذا التعبير إشارة إلى هذا المعنى وهو: يا أيها النبي بما أن الهدف من الخلق هو تربية البشر وإعدادهم لمرحلة الآخرة، فعليك أن تراعى جميع أسس التربية التي يعتبر الصفح والرفق واللين من ضمنها، وبالأخص مراعاة ذلك مع الجهلة والمتعصبين.

ومن الجدير بالذكر أيضاً أن مفهوم الآية الأولى هو إن لم تكن هناك آخرة فإن خلق الإنسان يكون «من العبث»، ومفهوم الآية الثانية (طبقاً للتفسير المذكور أعلاه) هو: إن لم تكن هناك آخرة فإن خلق كل العالم يكون باطلاً وعبثاً، فمن المحتمل أن يكون السبب في ذلك هو بيان سمو ثمره الخلق وهي الإنسان وسمو شجرة الخلق وهي العالم، فإن لم تكن هناك حياة خالدة تتمثل في الآخرة فسوف يكون خلق «الثمره» و«الشجرة» كلاهما أمراً عبثاً وغير هادف.

والمراد من تعبير «ما بينهما» شمول جميع أصناف الملائكة وكذلك النور والحرارة والسحاب والهواء وأنواع الغازات، بل تشمل في أحد أبعادها اصناف الموجودات التي تعيش على وجه الأرض من البشر وجميع أنواع الحيوانات الأخرى والنباتات.

(١) تفسير الميزان، ج ١٢، ص ١٩٩.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٩٠

وفي الآية الثالثة والأخيرة أشار تعالى إلى الهدف من خلق الإنسان، وأوضح العلاقة التي تربطه بالمعاد، قال تعالى «أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى»، ثم أشار إلى خلق الإنسان من ماء مهين (النطفة) وأشار إلى مراحل تكامله في الرحم فأضاف: «أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى».

وبهذا يتضح أن الهدف من خلق الإنسان لا يحصل إذا جرد من الحياة الآخرة.

فإن فعل الخالق الحكيم لا يخلو من الهدف وهذا أمرٌ بديهي، ومن البديهي أيضاً أن النفع الحاصل من أفعاله لا يعود إليه بفائدة،

وذلك لأنه غير محدود وغنى بالذات من جميع الجهات، إذن فلا يعود النفع إلى العبادة، ولكن هل من الممكن أن تكون هذه الحياة القصيرة المشوبة بأنواع المصائب هي الهدف من هذا الخلق العظيم؟ كلاً طبعاً.

لذا لا يبقى أمامنا طريق إلا القبول بثبوت الآخرة واعتبارها هي الهدف من هذا المسير التكاملي للإنسان.

و «سُدَى»: على وزن (هُدَى) - نقلًا عن كتاب «التحقيق»: في الأصل بمعنى التحرك العبثي الخالي عن الفكر والتدبير والبرمجة الصحيحة، من أجل هذا اطلقوا على الجمال التي تجول في الصحراء من دون راع «إبل سُدى، وقيل: إن «سُدَى» على وزن (وَفَا) وقد اطلقت على قطرات الندى التي تتساقط ليلاً، لأنها لا تتساقط بنظم معين، واطلقوا «سُدَى» على ما مُدَّ من خيوط القماش قبل أن تُحاك بالكامل، لأنه قبل الحياكة يكون مهملاً وغير مفيد.

وقصارى القول هو: إن الآية تقول - من خلال استفهام إنكارى - أي يمكن أن يترك الإنسان مع كل هذه الاستعدادات والطاقات الفكرية والجسمية والإمكانات المختلفة بدون أن يوضع له برنامج معين؟ ثم تستنتج من كل ذلك مسألة حتمية التكليف والمسؤولية ثم حتمية وجود المعاد.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٩١

توضيح

هل يمكن للعقل أن يعتبر الأيام المعدودة من هذه الحياة هي الهدف من الخلق؟

إنّ ممّا لا ريب فيه أنّ العالم الذي نعيش فيه عظيم جداً ودقيق ومنظم، فالكرة الأرضية هي إحدى كواكب المنظومة الشمسية، ثم المنظومة الشمسية بدورها تعتبر أحد أجزاء المجرة، ومجرتنا أيضاً واحدة من المجرات اللامتناهية في العدد الموجودة في هذا العالم. جاء في كتاب (جولة في أعماق العالم) لمؤلفه البروفسور «كارل فليسييس» الذي يسافر إلى أطراف هذا الكون الفسيح عبر أجنحة الخيال:

«إنّ هذه المجموعات الضخمة التي تدور حول محورها تسبح في الفضاء بفواصل عظيمة جداً ممّا يجعل تصورها أمراً عسيراً. فكل واحدة من هذه المجرات تتألف من عدّة مليارات من النجوم، والمسافة الفاصلة بين هذه النجوم تبلغ من العظمة حداً، أحياناً يحتاج النور (مع مألديه من سرعة هائلة) لاجتياز هذه الفواصل الموجودة بين نجمتين متقابلتين واقعتين في محيط تلك المجرة إلى مئات السنين من الزمان» (١).

وإذا أضفنا لهذا الكلام هذه الجملة وهي: إنّ علماء الفلك المعاصرين توصلوا من خلال تحقيقاتهم إلى أنّ ما تحويه مجرتنا من النجوم يقارب مائة مليار نجمة على الأقل، وما توصل إليه العلم الحديث هو اكتشاف ألف مليون مجرة في هذا العالم، - هذا من ناحية العظمة -.

وأما من ناحية الدقّة الموجودة في كل جزء من أجزاء هذا العالم فإننا إذا قارنا الدقّة الموجودة في خلية واحدة بالدقّة الموجودة في مدينة صناعية كبيرة بجميع ما تحويه من مصانع فسوف يمكننا حينذاك تصور هذه الدقّة.

ومن بين المخلوقات يعتبر الإنسان أكمل الموجودات التي نعرفها على أقل تقدير، لما فيه من نظام خاص للروح وللجسم، ولاحتوائه على العجائب والدقّة والظرافة، فإذا كانت

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٩٢

جوهره عالم الخلق (أى الإنسان) هى عبارة عن عيشه لأيام معدودة فى هذا العالم لقضاء حياته فى دور الطفولة والضعف حيناً وفى دور الشيخوخة والعجز حيناً آخر وتتأرجح به أمواج الشباب مدّة وفى مدّة اخرى يكون سالمًا وأخرى مريضاً ويقضى أكثر مدّة حياته فى توفير متطلباته الحياتية التى تتلخص فى «الغذاء والنوم» ثم فى نهاية المطاف يموت ويفنى فياله من أمر قبيح وبعيد عن الحكمة، فإننا عندما نقول: إن الله حكيم فهذا يعنى أن جميع أفعاله مطابقتها للحكمة، أو ليس من الحكمة أن تكون جميع أفعاله ذات أهداف واضحة ومبرمجة؟ وهل يجوز أن يكون هدفه جلب النفع لنفسه مع أنه غنى من جميع الجهات ولديه جميع الكمالات من غير أن تكون محدودة بحد، فإن كان النفع من أفعاله لا يعود على العباد فمن البديهي أن لا تكون تلك الحياة المادية المحدودة فى هذه الدنيا هى الهدف الرئيسى من هذا الخلق العظيم، تلك الحياة التى ينطفئ بصيصها فى طرفه عين.

أليس مثل هذا كمثل المهندس الذى يصنع محركاً صناعياً عظيماً ودقيقاً خلال سنين متمادية فيحطمه فور تشغيله والانهاء منه؟ فهل هذا من الحكمة؟

ألا يشبه هذا الأمر أن نقوم بتربية طفلٍ فى رحمٍ صناعي وبذل جهود مضية فى سبيل ذلك حتى يوشك على الاكتمال ويستعد للحياة فنعمد إلى قتله!

إن الماديين الذين لا يؤمنون بالله والمعاد، يرون أن الحياة غير هادفة وأنها خالية من أى مفهوم، وهم محقّين فى ذلك بهذه النظرة! لأن الحياة عند تجريدها عن المعاد تصبح غير هادفة وعديمة المعنى

لذا فإن من آمن بالله وحكمته ليس له إلا الإقرار بأن حياة الإنسان لا تنتهى بالموت، وإن هذا العالم يشبه رحم الأم الذى يحمل الإنسان ويُعده للخروج إلى عالم آخر، ومن البديهي أن الحياة داخل رحم الأم لا تُعتبر الهدف النهائى، بل تُعتبر مقدمة لحياة أخرى أوسع.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٩٣

٣- برهان العدالة

تمهيد:

إننا نعلم بأن «العدل» أحد صفات البارئ تعالى تلك العدالة التى يدل عليها كل جزء من أجزاء عالم الوجود كالسماوات والأرض، ووجود الإنسان وضربات قلبه وجريان دمه فى عروقه ... إلخ، وذلك لأنه: «بِالْعَدْلِ قَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ» (١).

فهل يمكن أن يُستثنى الإنسان من هذا العالم الواسع؟ ولا تشمل العدالة المهيمنة على هذا العالم؟ ومن ناحية أخرى إن التاريخ البشرى والأحداث المعاصرة أثبتت بوضوح أن إحقاق حق المظلومين ومعاقبة الظالمين لا يتم بصورة كاملة فى هذا العالم وليس بالإمكان حتى مشاهدة ذلك إلا بنحو «القضية الجزئية» إذن بمقتضى العدالة الحاكمة على هذا العالم والتى تعتبر جزءاً من عدالة الله تعالى يجب أن يكون هناك يوم لمحاسبة أعمال جميع البشر بدقة متناهية ومن دون أى استثناء، وذلك اليوم هو الذى نطلق عليه اسم (القيامة).

بعد هذه الإشارة نعود إلى القرآن المجيد لتأمل خاشعين فى الآيات الشريفة التالية:

١- «فَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ». (القلم / ٣٥-٣٦)

٢- «أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ». (ص / ٢٨)

٣- «أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِالْحَقِّ وَلَتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ» (٢). (الجاثية / ٢١-٢٢)

(١) تفسير الصافي، ذيل الآية ٧ من سورة الرحمن.

(٢) وقد استدلووا في هذا المجال بآيات اخرى أيضاً مثل: سورة يس، ٥٩؛ الزلزال، ٧ و ٨؛ الانبياء، ٤٧، ولكن بما أن دلالاتها غامضة فقد أعرضنا عن ذكرها.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٩٤

جمع الآيات وتفسيرها

العدالة لا تتحقق بدون القيامة:

قال تعالى في الآية الاولى بعد أن أشار إلى ثواب المتقين العظيم في سورة القلم: «فَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ».

فهل من الصحيح المساواة بين هذين الفريقين؟ وهل تقتضي العدالة ذلك؟ ثم أضاف وقال: «مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ». لا يمكن للعاقل القبول بأن عاقبة المسلم والمجرم، والمطيع والعاصي، والعاقل والظالم تكون واحدة، أو أن ينسب هذا الأمر إلى الله الذي راعي الدقة والعدالة في جميع افعاله.

وهناك احتمالان للمفسرين في تفسير هذه الآية:

الاحتمال الأول: إن هذه الآية تشير إلى مسألة المعاد، لأننا نرى المسلم والمجرم متساويين غالباً في هذه الدنيا، بل قد يحصل المجرم على امتيازات لا مشروعة في هذه الدنيا أكثر مما يحصل عليه المسلم، إذن يجب أن يتفوق «المسلم» على «المجرم» في الآخرة، لأنها من مقتضيات العدالة.

الاحتمال الثاني: إن هذه الآية أتت جواباً لقوم مشركين كانوا يقولون: لو كانت هناك قيامة فإنتنا سوف نتمتع بظروف حسنة كما نحن عليه في هذه الدنيا كما يقال: (السَّيِّئَةُ الْجَيِّدَةُ تَعْرِفُ مِنْ رِبْعِهَا) فأجابهم القرآن: هل من الممكن أن يساوي الله العادل بين المسلمين والمجرمين؟

ولا- يوجد هناك منافاة بين هذين التفسيرين على الظاهر، بل يمكن حمل مفهوم الآية كلا المعنيين، وتبقى هناك ملاحظة وهي أن هذه الآية الشريفة تثبت حكم العقل بالحسن والقبح والإدراكات العقلية الاخرى بقطع النظر عن تأييد الشرع لذلك، (فتأمل).

والملفت للنظر أن الفخر الرازي في بداية حديثه عد هذه الآية من أدلة ما نقل عن مذاهب أهل السنة أنه يجوز لله أن يدخل العاصين الجنة وأن يدخل المطيعين النار، «الحسن والقبح العقلين» قال: ويقبح بحكم العقل طبقاً للآية ولكن بما أن الرازي من

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٩٥

الأشاعرة ومن منكرى الحسن والقبح العقلين فقد أجاب: إن إنكار هذه المساواة من باب الفضل والاحسان الإلهي لا من باب أن لأحد حقاً عليه تعالى «١».

إن ضعف هذا الرأي لا يحتاج إلى دليل فقد أمرهم القرآن بصراحة بأن يُحكّموا العقل في هذه الموارد ثم خاطبهم بخطاب مقرون باللوم والتوبيخ في قوله: «مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ»؟

أي أن هذا الرأي لا يليق بالإنسان العادل، وهذا دليل واضح على إثبات حاكمية العقل والمنطق في مثل هذه الامور.

وفي الآية الثانية تابع القرآن الكريم هذا المعنى بصراحة أكثر وبصورة أوسع، قال تعالى

«أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ».

والملاحظة النظرية هنا هو أن الآية السابقة لهذه الآية وضحت الهدف من خلق السماء والأرض وما بينهما في قوله تعالى: «وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا». (ص / ٢٧)

إن خلق السماء والأرض بالحق من ناحية وعدم المساواة بين المؤمنين الصالحين والمفسدين الفجار من ناحية أخرى يقتضى أن تكون هناك قيامه ومحكمه عادله، وبهذا اندمج «برهان الحكمة» وبرهان العدالة في هاتين الآيتين.

أجل إن من ينكر المعاد هو الذى يشك في حكمه الله وعدالته معاً، لأنه لا يبقى في هذه الحالة هدف يليق بخلق الدنيا ولا يبقى هناك ما يميز المطيعين من الفاسقين.

ومن الجدير بالذكر هو أن «المفسدين» في هذه الآية يقابلهم «المؤمنون الصالحون» وإن «الفجار» يقابلهم «المتقون» وهذه المقابلة إشارة لطيفة إلى هذه الحقيقة وهي أن الإنسان إذا فقد الإيمان والعمل الصالح فإنه سوف يكون في زمرة المفسدين شاء ذلك أم أبى وإذا ما فقد التقوى أى القوة الرادعة عن ارتكاب الذنوب فسيقع في زمرة الفجار.

(١) تفسير الكبير، ج ٣٠، ص ٩٢.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٩٦

و «الفجار»: من مادة «فجر» بمعنى الشق الواسع، وكأن الفجور شق لحجاب الدين والطاعة.

وقد تحدثت هذه الآية بوضوح عن حاكمية العقل وحجية الإدراكات العقلية في مجال الحسن والقبح، وهي دليل واضح لإثبات أن العقل يدرك بعض الحسن وبعض القبح قبل أن يصل إليه حكم الشرع، والعجيب هو أن الفخر الرازى - في هذه الآية - سلم بهذا الأمر ضمناً، بينما أنكره في الآية السابقة! (١).

وهذا يعنى أن الإنسان إذا راجع وجدانه فسوف ترتفع عنه حجب التعصب ويعترف في قرارة نفسه بهذا الواقع.

وفي الآية الثالثة ورد نفس هذا المعنى ولكن في قالب آخر، قال تعالى «أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَخْلُوفًا وَمَمَاتُهُمْ».

إن هذا لا يمت إلى عدالة الله بصله، وصدور أمر كهذا عنه قبيح وهو محال: «سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ»، فهل يمكن أن يتساوى الحسن والقبح أو الطهارة والرجس أو الصالح والطالح أو المؤمن والفاسق أو الظلمات والنور ... إن هذا الأمر محال.

أما في ما هو المراد من (سواء محياهم مماتهم)؟ فقد احتمل المفسرون في تفسيرها عدة احتمالات!

فقالوا تارة: إن المراد من الحياة والموت في هذه الآية هو الحياة والموت في دار الدنيا، وذلك لأن الإيمان والعمل الصالح له آثار إيجابية على كيان الإنسان فهو ينير القلب وينير الفكر مضافاً إلى أن المؤمن ينال هداية الله ونصره وحمايته، بينما لا يكون الأمر كذلك في حالة الكفر والعصيان، فإن الكفر يخيم بظلامه على القلب والروح ويحرم الإنسان من المدد الإلهي.

(١) التفسير الكبير، ج ٢٦، ص ٢٠١.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٩٧

وقالوا تارة أخرى إن هذه الآية تشير إلى الموت في هذه الدنيا للانتقال إلى الآخرة، أى ان الفريق الأول يعتبر مصداقاً لهذه الآية: «الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ». (النحل / ٣٢)

بينما يعتبر المذنبون مصداقاً لهذه الآية: «فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَارَهُمْ». (محمد / ٢٧)

وهناك احتمالات أخرى لا تستحق الذكر في تفسير هذه الآية، لكن الجمع بين التفسيرين المذكورين سهل، وإن كانت الآية التالية لها

تتناسب مع التفسير الثانى، لأنه تعالى قال: «وَوَخَّلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ». «وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ» (١). وبما أن الحديث عن العدالة الإلهية وحقانية خلق السموات والأرض وعن ثواب وعقاب كل إنسان على قدر عمله من ناحية، ومن ناحية أخرى وكما قلنا سابقاً- إن هذا الأمر لا يتم في الدنيا بصورة شاملة، إذن يجب أن تكون هناك حياة أخرى بعد الموت لإقامة العدالة وإحقاق الحق.

توضيح

العدل هو النظام الحاكم على الخلق:

إن كل من لديه إلمام بسيط بالعلوم الطبيعية بإمكانه أن يلاحظ أن جميع الكائنات في هذا العالم تخضع لنظم وقوانين معينة، ودقة هذه القوانين جعلت علماء الطبيعة يدونون فيها الكتب طبقاً لهذه المعادلات الدقيقة، ففي مجال الرحلات الفضائية مثلاً نجد العلماء قد نظموا جميع برامجهم العلمية الدقيقة بالاعتماد على هذه القوانين الطبيعية.

(١) قال الزمخشري في تفسير الكشاف، ج ٤، ص ٢٩٠: جملة «ولتجزى» معطوفه على قوله «بالحق»، لأنها تحمل معنى التعليل (بناءً على هذا يكون مفهوم الآية بهذا النحو: خلق الله السموات والأرض ليحق الحق ولتجزى...). ثم قال ويحتمل أن تكون معطوفة على جملة محذوفة فيكون التقدير: خلق الله السموات والأرض بالحق ليدل بها على قدرته وتجزى كل نفس.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٩٨

وبتعبير آخر: إن كل ما تقع عليه أنظارنا يخضع للنظم والعدالة، وقد شملت هذه القوانين كل شىء ابتداءً بالمنظومات الشمسية وانتهاءً بأصغر ذرة.

ومن ناحية أخرى لا يمكن استثناء الإنسان من قانون العدالة السائد بمشيئة الله على جميع عالم الوجود، ولا يتسنى له عدم الانسجام مع أجزاء الكون الأخرى لأن هذا الاستثناء إن وجد يكون من دون مرجح، وبهذا ستوقن من وجود محكمة أعدت للإنسان أيضاً يحضر فيها جميع البشر ليتقاسموا حصصهم من العدالة الشاملة لكل عالم الوجود.

كان علماء العقائد في السابق يستدلون بهذا الدليل لإثبات مسألة المعاد، وكانوا يحتجون بأمثله من مظالم البشر التي انتهت في هذه الدنيا من دون تحكيم العدالة فيها، فالتاريخ يحفل بكثير من الظلمة الذين عاشوا مرفهين طيلة حياتهم حتى غادروا الدنيا، ومظلومين ظلوا يعانون الظلم والعذاب حتى لفظوا أنفاسهم الأخيرة.

فهل من الممكن أن يرضى الله العادل بهذه الامور؟ ألا تتنافى هذه المشاهد وعدالته؟

وهكذا يصل العلماء إلى هذه النتيجة بسهولة وهي ضرورة وجود عالم آخر لتطبيق العدالة الإلهية في خصوص البشر، وفي إطار مبدأ الآية القرآنية: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ». (الزلزلة/ ٧-٨)

وبناء على هذا فإن القيامة تعتبر الموضوع الذى يتجلى فيه العدل الإلهي، وهناك يجاب عن جميع هذه الاستفهامات.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ١٩٩

٤- برهان الغاية والحركة

مما لا شك فيه أن الإنسان قد خلق لهدفٍ معين، خلافاً لما يتصوره الماديون أن خلق العالم ليس له هدف ولا غاية، فالرؤية الكونية للإلهيين ترى وجود هدف من خلق الإنسان وأنه خلال سعيه وحركته التكاملية يسير نحو هذا الهدف. فإن كانت الحياة تنتهي بالموت فمن البديهي أن لا يصل الإنسان إلى هذا الهدف، أو بتعبير آخر: إن حياة الإنسان يجب أن تستمر وتمتد إلى ما بعد الموت كي يصل الإنسان إلى التكامل اللائق به وليحصد هناك ما زرعه في هذه المزرعة. وقصارى القول: إن قبول وجود هدفٍ من الخلق لا- يجتمع وإنكار المعاد، فإننا لو جردنا ارتباط حياة الإنسان عن عالم ما بعد الموت فإن كل الامور تأخذ طابع الإبهام وترتدى لباس الغموض.

وبهذه الإشارة نعود إلى القرآن لنمعن خاشعين في الآيات الكريمة التالية:

١- «يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ». (الانشقاق / ٦)

٢- «وَمَنْ تَرَكَّىٰ فَاِنَّمَا يَتَرَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَىٰ اللَّهِ الْمَصِيرُ». (فاطر / ١٨)

٣- «إِنَّا لِلَّهِ وَأَنَا لِيَّهِ رَاجِعُونَ». (البقرة / ١٥٦)

٤- «إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ». (القيامة / ١٢)

٥- «إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ» «١». (القيامة / ٣٠)

(١) هناك آيات اخرى متعددة في القرآن تتناسب مع الآيات المذكورة أعلاه ترى أن الكل يرجع إلى الله مثل: العلق، ٨؛ المؤمنون، ١٠٨؛ الانعام، ١٠٨، الأنبياء، ٩٣؛ الجاثية، ١٥.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٠٠

جمع الآيات وتفسيرها

الجميع يسير نحو الله:

وجه تعالى خطابه في الآية الاولى إلى جميع البشر فقال: «يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ».

و «كدح»: على وزن (مَدَح) - على حد قول عدد من المفسرين - وهو فى الأصل بمعنى الخدش الوارد على الجلد، لذا اطلقت هذه الكلمة على السعى وبذل الجهد لأنه يؤثر على الروح والبدن «١».

وجاء فى مفردات الراغب: إن الكدح بمعنى السعى المشوب بالمعاناة والتعب.

ولكن جاء فى الميزان: بما أن «كدح» تعدت ب «إلى» فهى تعنى السير والحركة (ولا تضاد طبعاً بين هذين المعنيين) «٢».

ومن مجموع ما تقدم نستنتج أن القرآن المجيد شبه البشر بقافلة بدأت مسيرها من نقطة العدم فوضعت أقدامها فى أقليم الوجود، ثم اتجهت من هناك نحو الرب كى تصل إلى لقائه، ويشير إلى هذا المعنى التعبير ب «وَإِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ». (النجم / ٤٢)

من الممكن أن ينحرف فريق عن هذا المسير ولا ينالوا لقاء الله أبداً، لكن الأساس فى خلق الإنسان هو الوصول إلى هذا الهدف.

و «لقاء الله»: - كما أشرنا سابقاً - يعنى مشاهدة الرب مشاهدة قلبية والوصول إلى مقام الشهود القلبية الذى يصل إليه الإنسان عن طريق سيره التكاملية، وهو من أهم مقامات القرب إلى الله.

وفى الآية الثانية تحدث سبحانه عن الطهارة والتقوى وتركية البشر التى يعود نفعها عليهم جميعاً، قال تعالى «وَمَنْ تَرَكَّىٰ فَاِنَّمَا يَتَرَكَّىٰ لِنَفْسِهِ». ثم يضيف: «وَإِلَىٰ اللَّهِ الْمَصِيرُ».

والجملة الأخيرة جاءت للدلالة على أن الصالحين والطاهرين إن لم يدركوا كل

(١) تفاسير الكشاف؛ وروح المعاني؛ والكبير، في تعليقهم على الآية مورد البحث.

(٢) تفسير الميزان، ج ٢٠، ص ٣٦٠.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٠١

مقومات التقوى والنزاهة فإنهم سوف يعودون إلى الله وسوف يرون نتائج أعمالهم في دار البقاء.

على أية حال فإن جملة «وإلى الله المصير» هي تقرير لهذه الحقيقة وهي أن سير الإنسان التكاملي لا ينتهي بالموت وسوف يستمر حتى يلاقى الله.

قال المفسر الكبير المرحوم الطبرسي في تفسير الآية الثالثة من آيات بحثنا: «قالوا إنا لله» هذا إقرار بالعبودية أي نحن عبيد الله وملكه «وإنا إليه راجعون» هذا إقرار بالبعث والنشور، أي نحن إلى حكم الله نصير، ولهذا قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إنا قولنا «إنا لله» إقرار على أنفسنا بالملك، وقولنا «وإنا إليه راجعون» إقرار على أنفسنا بالهلك» (١).

ومن الجدير بالذكر إن القرآن المجيد ذكر هذه العبارة بعنوان كأفضل ما يقوله الصابرون عند حلول المصائب بهم ... فهي عبارة تزيل الهم عن الإنسان عند حلول المصائب وتوقظ قلبه وروحه عند مواجهة الصعاب وتطرد وساوس الشيطان عن روح الإنسان في تلك اللحظات الحساسة، وذلك لأنه يعترف من ناحية بأنه وجميع ما يملك ملك لله، فهو الذي يعطي النعم وهو الذي يسلبها، وقد قال بعض المفسرين في مجال سلب النعم: بما أن الكريم لا يسلب ما وهب فإن سلبه يعتبر ادخار ذلك لموضع أفضل، وهذا بعينه يعتبر مواساة لمن حلت به المصيبة.

ومن ناحية أخرى فإنه عندما يعترف بالرجوع إليه فإن هذا التعبير هو مواساة أخرى لأنه يعنى الرجوع إلى مركز فيضه ولطفه ورحمته والرجوع نحو دار الخلد وموعد اللقاء مع الله.

لذا قال البعض: إن هذه العبارة من المواهب الإلهية العظيمة التي من بها الله على هذه الأمة كي يستعينوا بها في المصائب، وكم من فرق شاسع بين هذه الآية وبين كلام نبي الله يعقوب عليه السلام الذي قال عندما فقد يوسف عليه السلام: «وقال يا سيدي على يوسف». (يوسف / ٨٤) أجل إن جملة الاسترجاع هذه لم تكن نازلة حينذاك.

(١) تفسير مجمع البيان، ج ١، ص ٢٣٨، وقد وردت هذه العبارة أيضاً في نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٩٩.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٠٢

وعلى أية حال فإن هذه العبارة هي عصارة التوحيد الكامل والمعاد والتوكل على الذات المقدسة الإلهية في جميع الاحوال وفي كل زمان (١).

وفي الآية الرابعة تجلت هذه الحقيقة بلباس جديد بعد أن أشار تعالى في الآية التي سبقتها إلى الأحداث العجيبة التي يواجهها العالم عند تأهبه للقيامة، قال تعالى «إلى ربك يومئذ المستقر».

وأشار بذلك إلى أن الدنيا ليست مقرأ، وأن جميع العلائم تدل على أن الدنيا هي دار فناء وعدم، وتغيير وزوال، وعلى هذا فمن البديهي أن لا تكون الدنيا هي الهدف الرئيسي من السير التكاملي للإنسان، إذا لا بد أن يكون مقر الإنسان في عالم آخر.

لكن بعض المفسرين قدروا كلمة محذوفة وقالوا: المراد هو «إلى حكم ربك» أي إلى حكم ربك يومئذ المستقر فبحكم الله يقوم العدل ويتحقق أو بحكم الله يستقر فريق في الجنة وفريق في النار.

ولكن بما أن التقدير خلاف القاعدة، بالإضافة إلى أنه لا ضرورة له هنا فإننا لا نرى دليلاً واضحاً لمثل هذه التفسير.

وفى الآية الخامسة والأخيرة ورد ما ذكر فى الآية السابقة بتعبير جديد بعد أن أشار إلى حالات المحتضر ولحظات الاحتضار وطى سجل حياة الإنسان، قال تعالى «إلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ».

و «المساق»: مصدر ميمي بمعنى «السوق» وهذا يدل على أن جهة سير البشر التكاملى

(١) من خلال هذا التفسير يتضح تفسير الآيات المتشابهة لهذه مثل: المائدة، ١٠٥؛ العلق، ٨؛ الانعام، ٣٦؛ الغاشية، ٢٥.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٠٣

يكون نحو الله أى نحو الكمال المطلق والكمال اللامتناهى.

وهنا أيضاً قدّر البعض كلمة «حكم» أو «جزاء» وقالوا: المراد هو سوق الجميع نحو حكم الله وجزائه، ولكن وكما أشرنا فى تفسير الآية

السابقة فإننا لا نرى أية ضرورة لمثل هذه التقديرات، فالتحرك يكون نحو الله تعالى

وفى بعض آيات القرآن أشير أيضاً إلى أن الذات المقدسة الإلهية هى منتهى السير التكاملى والهدف النهائى، قال تعالى «وَأَنَّ إِلَى

رَبِّكَ الْمُنْتَهَى . (النجم / ٤٢)

وهذا دليل آخر على الحقيقة المذكورة.

توضيح

نهاية المطاف:

ينصب التأكيد فى الآيات المذكورة على (رجوع جميع البشر إلى الله) ... ذلك الأمر الذى يمكن إثباته بواسطة العقل أيضاً، لأن المجتمع البشرى يشبه القافلة التى بدأت مسيرها من نقطة العدم المظلمة واتجهت نحو النور المطلق، وهذا المسير يتم تحت ظل الربوبية ويأذننا (يجب الالتفات إلى أن هذه البحوث تأتى بعد قبول مبدأ التوحيد والصفات الإلهية).

وكلمة «الرب» الواردة فى هذه الآيات تدل على أن هذه الحركة تكون تحت ظل ربوبية الله تعالى وبصورة دقيقة.

ومن ناحية أخرى لو كان الموت نقطة النهاية للحركة فأنها ستكون حركة غير هادفة ولا مقرر لها، وبتعبير آخر تعتبر حركة عشوائية، بينما يكون السير الإلهى ذا هدف مناسب يسير نحوه يقيناً.

فلو تأملنا جيداً لوجدنا أن كل حركة تكاملية تسير بغية الوصول إلى مرحلة أعلى ونحو نقطة وجودية أرقى هى الذات الإلهية المقدسة، بناءً على هذا فإن جميع هذه التحركات تستهدف الوصول إليه، ومادام الهدف النهائى لم يتحقق بعد فسوف لن يهدأ الإنسان ولا يقر

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٠٤

له قرار إلّا بعد بلوغ جوار الله وحتى يصل إلى مقام شهود الذات المقدسة فى زمرة المقربين، (فتأمل).

وهذا الحديث فى جميع أبعاده يدل على أن السير التصاعدى للإنسان لا يتوقف بالموت، بل يستمر فى العالم الآخر أيضاً، بناءً على

هذا فإن وجود الحركة والهدف يعتبر بحد ذاته دليلاً ملموساً على مسألة الحياة بعد الموت.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٠٥

٥- برهان الرحمة

تمهيد:

«الرحمة»: من صفات الله الواضحة والمعروفة، ومن البديهي أن الرحمة تعني اعطاء الفيض والنعم لمن له القابلية والاستعداد لاستيعابها. وبما أن الإنسان له كيان خاص وله روحٌ ولجت بدنه ببركة النفخة الإلهية فهو يمتلك الاستعداد للخلود وبلوغ الكمالات الرفيعة، لذا فإن الله الموصوف بصفات الرحمن والرحيم لا- يمكن أن يمنع النسان من هذا الفيض وهذه الرحمة، ولن يقطع عنه فيضه ورحمته بسبب موته.

وهذا ما نسميه ب «برهان الرحمة» بعد هذا نعود إلى القرآن ونتأمل خاشعين في هذه الآية المباركة:
 «قُلْ لِّمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ». (الانعام/ ١٢)

جمع الآيات وتفسيرها

تنقسم هذه الآية في الحقيقة إلى أربعة أقسام: ففي القسم الأول ابتدأ سبحانه وتعالى بالاستفهام مخاطباً الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله فقال: «قُلْ لِّمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»، ثم أضاف بلا فاصلة: «قُلْ لِلَّهِ» أى إنَّ أمراً كهذا لا يحتاج إلى مناقشة واستدلال. وفي القسم الثاني قال تعالى «كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ» (كى يشمل برحمته الواسعة ولطفه وعنايته اللامتناهية جميع العباد).
 نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٠٦

وفي القسم الثالث يوجَّه الأنظار نحو مسألة المعاد فيقول تعالى «لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ». وفي القسم الرابع يلفت النظر إلى هذه النتيجة: «الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ».

ويرى عدد من المفسرين بالنسبة إلى الرابطة التي تربط هذه الأقسام الأربعة مع بعضها بأن القسم الأول يختص بأمر التوحيد، والقسم الآخر بالمعاد (أو بالنبوة والمعاد معاً) لبيان أبعاد اصول الدين الرئيسية «١».

لكنَّ المرحوم العلامة الطباطبائي يرى بأن الآية برمتها تختص ببيان أمر المعاد، وهذا التفسير أقرب إلى الصَّحَّة، ولتوضيحه نقول: إنَّ الله تعالى بين في القسم الأول من الآية مالكيته وحاكميته على عالم الوجود من خلال طرح سؤالٍ واحدٍ والإجابة عليه، فهو يوضح ذلك الأمر بواسطة سؤالٍ ينبع جوابه من صميم الفطرة والروح حتى أن المشركين أيضاً يخفصون جناحهم له كما لو قال الأب لولده: ألم أوفر لك جميع متطلبات طلب العلم والارتقاء؟ ومن دون أن ينتظر الجواب يقول: لقد فعلتُ وذلك حقاً). وبهذا يثبت أنه لا يوجد في عالم الوجود أى شىء يمكنه الوقوف أمام إرادة الحق تعالى وأوامره. ثم يضيف: إنَّ الله القادر كتب على نفسه الرحمة، وكيف لا يكتب ذلك على نفسه عندما يكون مصدراً للفيض الذى لا يتخلله بخلٌ ولا ينقصه العطاء الدائم شيئاً.

فهل الرحمة إعطاء النعم لمن يستحقها ويليق بها؟ وهل هى إالايصال كل موجودٍ إلى كماله المطلوب وفقاً لاستعداده؟ وبعد أن أثبت هاتين المقدمتين (أى أن الله العالم منبع الرحمة من جهة، ومن جهة اخرى لا يمكن أن يمنع فيضه ورحمته أى مانع) ذكر النتيجة في الجملة الثالثة

(١) تفسير الكبير، ج ١٢، ص ١٦٤؛ وتفسير القرطبي، ج ٤، ص ٢٣٩٢.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٠٧

«لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ» لأنَّ الموت ان كان نهاية الإنسان فهذا يعنى أن الإنسان لم يصل إلى الكمال المطلوب فيبقى استعداداً للحياة الخالدة من دون اشباع أو يعنى عدم وصول الرحمة الإلهية إليه لوجود مانع، ولكن بما أن المانع غير موجود وأن وصول رحمته أمرٌ حتمى فإن الوصول إلى الحياة الخالدة فى الدار الآخرة ومجاورة الحق للبشر أمرٌ لا شك فيه.

ومن الطبيعى أن بعض الناس يفقدون استعدادهم الخاص لنيل الحياة الخالدة ويكونون فى عداد الخاسرين، لذلك نراهم لا يؤمنون

بالمعاد.

بناءً على هذا فإن «برهان الرحمة» الذي يعتبر عصاره هذه الآية هو برهان منطقي ذو استدلال تام، وبرهان آخر غير برهان العدالة وبرهان الحكمة، (فتأمل).

وقد يُطرح هذا السؤال: بما أن القيامة تعتبر رحمةً لبعض البشر ونقمةً على البعض الآخر، فكيف يمكن التوفيق بين هذا المعنى وبين الرحمة الإلهية؟

والجواب عن هذا السؤال جاء في ذيل الآية تلميحاً إلى أن الله تعالى منَّ على جميع البشر باستعداد نيل الرحمة ووضع بين أيديهم السبل المعدَّة للوصول إليه، فلو أضع فريق من البشر هذا العطاء على الرغم من امتلاكهم العقل وعلى الرغم من وصول تعاليم الوحي إليهم - فسوف يكونون السبب في خروجهم عن دائرة الرحمة ولا تنزل اللاتمة إلاً عليهم!

وكل هبات الله تعالى من هذا القبيل، ففريق يستمتعون بها وفريق يستبقون في ضياعها ويصبح هذا الأمر حاجزاً أمام وصول الفيض والرحمة الإلهية للفريق الآخر، ومن الجدير بالذكر إن جملةً ليجمعنكم ... جاءت مقرونه ب «لام القسم» و «نون التوكيد الثقيلة» معاً وبجملة «لا ريب فيه» التي تأتي جميعها للتوكيد، فهي مؤكدة بثلاثة توكيدات في آن واحد، وهذا لأجل الدلالة على أن وقوع القيامة بالنظر إلى الرحمة الإلهية أمرٌ حتمي من جميع الأبعاد.

وبما أن ما قدّمناه من التوضيح يكفي لاثبات هذا البرهان فإننا لا نرى حاجةً لذكر توضيحات أكثر في هذا المجال.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٠٩

٦- برهان الوحدة

تمهيد:

إن وجود الاختلاف في الآراء والأفكار من مميزات الحياة الدنيا، حتى أن أصحاب المذهب الواحد غالباً ما ينقسمون إلى فرقٍ متعددة ذات عقائد مختلفة.

وهذا الاختلاف ينتقل أحياناً من المجتمع الكبير إلى الأسر، وترى كل واحد من أعضاء الأسرة يحمل عقيدة معينة ويدافع عن فكر معين.

لا شك أن كل إنسان يتألم لوجود هذه الاختلافات في هذه الدنيا، ويتمنى الجميع أن يأتي اليوم الذي تطلع فيه جذور جميع هذه الاختلافات.

ومن البديهي إن الذي خلق الإنسان من أجل التكامل والهداية سوف لن يحرمه من نيل هذه الأمانى بمقتضى مقام ربوبيته، وبما أن هذا الهدف لم يتحقق في هذه الدنيا - للأسباب التي سوف نطرحها فيما بعد وللشواهد الدالة على هذا المعنى أيضاً، فإن رفع الاختلافات والوصول إلى الوحدة سوف يتحقق في الدار الآخرة.

فالقرآن المجيد أكد كثيراً على هذا الأمر، وهناك أكثر من عشر آيات في القرآن تشير إلى هذا الموضوع وهو أن إزالة الاختلافات لا تتم إلاً في الدار الآخرة، وإن الله تعالى سوف ينجز هذا الأمر.

بعد هذه الإشارة نعود إلى القرآن لنتمعن خاشعين في الآيات الكريمة الآتية:

١- «وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَيَبْعَثَنَّ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعِوَادًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ* لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ». (النحل / ٣٨-٣٩)

٢- «ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُبَيِّنُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ». (الانعام / ١٦٤)

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢١٠

٣- «انَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ». (يونس / ٩٣)

٤- «اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ». (الحج / ٦٩)

٥- «انَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا انَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ انَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ» (١). (الحج / ١٧)

جمع الآيات وتفسيرها

متى تحل هذه الاختلافات؟

بدأت الآية الاولى بنقل قسَم منكرى المعاد الذى ورد فى نفي تحقق الدار الآخرة، قال تعالى «وَأَقْسِمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ».

ثم يجب تعالى بهذا الجواب: «بَلَى وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ».

بعد ذلك يبين الهدف من البعث فيقول تعالى «لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ».

وبهذا يتضح بأن «رفع الاختلافات والعودة إلى الاتحاد هو أحد أهداف المعاد» وذلك لأن طبيعة هذه الدنيا التى تحتوى على أنواع الحجب لا- تسمح بزوال هذه الاختلافات، ولكن بما أن يوم القيامة يوم رفع الحجب وكشف الغطاء وكشف الأسرار والسرائر فإنه سوف يتضح كل شئ فى ذلك اليوم وبذلك ينتهى الاختلاف.

فالمؤمنون يرسخ إيمانهم ويصلون إلى مقام عين اليقين، والكافرون واتباع المذاهب الباطلة يعترفون بخطئهم ويرجعون إلى الحق.

(١) وهناك آيات اخرى فى القرآن يشبه مضمونها الآيات المذكورة مثل: آل عمران، ٥٥؛ المائدة، ٤٨؛ النحل، ١٢٤؛ البقرة، ١١٣؛ الزمر، ٣؛ الجاثية، ١٧؛ الحج، ٦٩؛ الدخان، ٤٠؛ النبأ، ١٧؛ المرسلات، ١٣ و ١٤؛ والسجدة، ٢٥.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢١١

وفى الآية الثانية ورد نفس هذا المعنى ولكن بأسلوب آخر، فبعد أن أبطل ربوبية آلهة المشركين وذكر بأن كل إنسان رهين عمله وأن المذنب لا يحمل اصره غيره، قال تعالى «ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُبَيِّنُ لَكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ».

فالآية الاولى تتحدث عن بيان الاختلاف وهذه الآية اخبرت عن ذلك الاختلاف فالإخبار فى الواقع تليل لما جاء فى الآية الاولى وذلك لأن الإخبار الإلهى فى يوم القيامة يعتبر المصوّر الرئيسى لبيان الحقائق، أو يكون «التبيين» متعلقاً بالامور المرئية و «الإنباء» متعلقاً بالامور المسموعة.

وفى الآية الثالثة طرحت مسألة الحكم والقضاء الإلهى فيما اختلف فيه الناس يوم القيامة، قال تعالى «انَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ».

ومن البديهي أن الله تعالى عندما يحكم بينهم بنفسه فى ذلك اليوم فسوف تزول الاختلافات وتتضح الحقائق كما هى.

وهذه الآية إما أن تكون إشارة لاختلاف بنى اسرائيل فيما بينهم فى العصور الغابرة أو أنها تشير إلى اختلافهم الذى ظهر فى عصر الرسالة ونزول القرآن بسبب علائم ظهور الإسلام وعلائم النبى الأكرم صلى الله عليه وآله التى آمن بها فريق منهم وجحدها آخرون حفظاً لمصالحهم الشخصية.

وقد تكون إشارة لاختلافهم الذي وقع في عصر موسى عليه السلام بعد نجاتهم من مخالبا الفراعنة ومشاهدتهم هذه المعجزة العظيمة، أو إشارة إلى اختلافهم الذي حصل عند ذهاب موسى عليه السلام إلى جبل الطور وظهور السامري بعجله. وبالرغم من أن أكثر المفسرين رجّحوا الاحتمال الأول إلّا أنّ الآيات المتقدمة على هذه الآية ترجّح الاحتمال الثاني «١»، كما أن الجمع بين التفسير الثلاثة ممكن أيضاً.

(١) وقد تبني التفسير الأول الفخر الرازي في تفسير الكبير وتفسير القرطبي والمرحوم الطبرسي في تفسير مجمع البيان، لكنّ تفسير صاحب الميزان أكثر انسجاماً مع التفسير الثاني.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢١٢

وعلى أية حال يرى بعض المفسرين المشهورين أنّ الاختلافات من هذا القبيل لا يمكن القضاء عليها في الدار الدنيا، ولا تنتهي إلّا في الآخرة عندما يقضى الله عزّ وجل بين الناس ويُميّز الحق من الباطل والصادق من الكاذب «١». وفي الآية الرابعة ورد التعبير بالحكم، بعد الإشارة إلى نبذة من اختلافات بني اسرائيل قال تعالى «اللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ».

ولمعرفة الأمر الذي اختلف فيه اليهود يستفاد من بداية الآية حيث إنهم اختلفوا في يوم السبت الذي يعتبر يوم العطلة الاسبوعية لليهود (واختلافهم في حكم الصيد في ذلك اليوم هل هو حرام أو حلال على الرغم من أن نبيهم عليه السلام قد حرّم عليهم ذلك، أو كان الاختلاف في ترجيح ذلك اليوم على يوم الجمعة أو ماشابه ذلك).

إنّ تاريخ بني اسرائيل يشهد على أنّهم كانوا بؤرة للخلاف والتشتت على العكس تماماً من تاريخهم المعاصر، فهم اليوم أصبحوا يداً واحدة بسبب بعض الأحداث التي هدّدت مصيرهم لاسيما مجابتهم لمسلمي العالم.

وفي الآية الخامسة والاخيرة جاء مجموع ماورد في الآيات السابقة لكن بصورة اجمالية وعامة وتحت عنوان آخر، فهي تشير إلى الاختلافات الواسعة الحاصلة بين المؤمنين وأصناف من الكفّار، قال تعالى «أَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ».

والجدير بالذكر إنّ «يوم الفصل» أحد الأسماء المعروفة ليوم القيامة، قال تعالى «إِنَّ

(١) التفسير الكبير، ج ١٧، ص ١٥٩.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢١٣

يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا». (النبا/ ١٧)

وورد نفس التعبير عن يوم القيامة في آيات متعددة اخرى من آيات القرآن أيضاً.

و «الفصل»: في الأصل بمعنى افتراق شيئين عن بعضهما؛ ولهذا اطلق على يوم القيامة يوم الفصل، لأنّ الحق يُفصل عن الباطل في ذلك اليوم وترفع جميع الاختلافات بواسطة القضاء الإلهي وبهذا يُفصل الصالحون والطاهرون عن الطالحين والأرجاس.

قال المرحوم الطبرسي في «مجمع البيان»: «سوف تبيّض هناك وجوه أصحاب الحق وتمتلئ بالنور وتسودّ وجوه أهل الباطل ويعمّها الظلام» «١».

فهل يبقى داع للاختلاف بين الحق والباطل عند ظهور مثل هذه العلامات البيّنة؟

أشارت هذه الآية إلى سته أديان كانت سائدة في عصر نزول القرآن وكانت تمثّل الاديان الرئيسية آنذاك، قال تعالى الذين آمنوا (المسلمون) واليهود والصابئة (وهم اتباع يحيى عليه السلام إلّا أنّهم انحرفوا عن رسالته فأطلقوا عليهم اسم عبدة النجوم) والنصارى

(المسيحيون) والمجوس (الزرادشتيون) والمشركين وعبدة الاوثان، ثم قال تعالى «إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ...». فإذا كان الإنسان في هذه الدنيا بحاجة إلى الاستدلال والمنطق من أجل التمييز بين أهل الحق وأهل الباطل فهو في ذلك اليوم يستغنى عن كل ذلك فإذا كان المصداق العيان فما الحاجة للبيان لأن لون الوجوه يدل على سرائر أصحابها!

توضيح

من خلال الآيات الخمس المذكورة وذكر خمسة عناوين مختلفة: «الانباء» و «التبيين» و «الحكم» و «القضاء» و «الفصل» اتضحت الحقيقة بأفضل أساليب البيان وأن يوم القيامة يوم انتهاء الاختلافات ويوم تجلّى الحقائق وفرز الحق عن الباطل ويوم الحكم والقضاء النهائي.

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٧، ص ٧٦.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢١٤

وكيف لا يكون الأمر كذلك ويوم القيامة يوم البروز ويوم الظهور: «وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ». (إبراهيم / ٤٨)

ويوم رفع الحجب وكشف الغطاء: «فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصُرَكَ الْيَوْمَ حَدِيدًا». (ق / ٢٢)

إن الطبيعة المظلمة لعالم الدنيا أو التي يمتزج فيها النور بالظلمة لا تفسح المجال لظهور الحقائق على ماهيتها، كالليل بالضبط، فالإنسان مهما يبذل جُهدَهُ لكشف الحقائق بواسطة المصاييح إلا أن قسماً كبيراً منها يبقى في دائرة الظلام، أما القيامة فهي تشبه سطوع الشمس التي تكشف بأشعتها كل شيء.

من الممكن أن يكتشف فريق طريقهم في الظلام إلا أن فريقاً آخر يضل عن الطريق، كما أنه من الممكن للذين سلكوا طريقاً ما أن يصفه كل واحد منهم بوصفٍ يتناسب مع منظاره الخاص، وهناك مثال معروف في توضيح هذا الأمر وهو إن عدداً من الأشخاص الذين لم يشاهدوا الفيل من قبل دخلوا في غرفة مظلمة فيها ذلك الحيوان، ثم لمس كل واحد منهم عضواً من أعضاء الفيل، ولما خرجوا أخذ كل واحد منهم يصف ذلك الحيوان فوصفوه بصفات متناقضة، فالذي لمس رجل الفيل وصفه بأنه يشبه العمود! ومن لمس خرطوم الفيل وصفه بأنه انبوب كبير، والثالث الذي لمس صدر الفيل وصفه بأنه يشبه السقف، ولكن عندما أُخرج الفيل من الظلام بانت الحقيقة لهم ورفعت تلك التناقضات وعلم الجميع أن وصفهم كان قاصراً!

فالإنسان - وكما أشرنا سابقاً - لديه الاستعداد التام للخروج من خضم أمواج الاختلافات وأن يضع قدمه في عالم اليقين وعدم الاختلاف، ومن البديهي أن الله تعالى الذي خلق الإنسان سوف لن يحرمه من هذا الفيض.

فالاختلاف يسلب الطمأنينة وهو من موانع الوصول إلى التكامل، والسبب في نفوذ الشك إلى جذور المعتقدات في بعض الأحيان، بناءً على هذا علينا السعي لبلوغ المرحلة التي تنتهي فيها هذه المؤثرات السلبية.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢١٥

ومن الطبيعي أن الأنبياء والأوصياء عليهم السلام وضحوا الحقائق على قدر ما تسمح به طبيعة الحياة الدنيا بالاعتماد على الكتب السماوية، ولكن هؤلاء لم يكونوا إلا كمثل المصاييح التي تثير الطريق للإنسان، لذا يحلُّ الاختلاف محلَّ الإتحاد بمجرد غياب ذلك النور عنهم، قال تعالى في قرآنه المجيد: «وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ». (النحل / ٦٤)

وقال تعالى في موضع آخر: «فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ». (الجاثية / ١٧)

وهذا دليل على أن الأنبياء عليهم السلام قد سعوا في إزالة الاختلاف الموجود بين الناس إلا أنه لم ينته كلياً.

إن حب الماديات وجموح الشهوات والبغضاء والعداوة في هذه الدنيا هي الأسس الحاكمة على الناس وهذه الامور هي اعظم

الحجب، وما لم ترفع لا- يستطيع الإنسان أن يتقدم خطوة صوب الوحدة، لكن هذه الحجب سوف تفتنى وتحترق جميعها فتكشف الحقائق على ما هي عليه يوم القيامة.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢١٧

٧- برهان خلود الروح

تمهيد:

تعرّض الكثير من الفلاسفة في بحث المعاد لمسألة خلود الروح واعتبروها من الأدلة الحية في هذا المجال. ومما لا شك فيه إن الاعتقاد ببقاء الروح يعيد لنا طريق الوصول إلى إثبات المعاد والحياة الآخرة، ولكن هذا لا يعنى أن لا يعتقد بخلود الروح لا يمكنه الإيمان بالمعاد، بل يمكن إثبات المعاد من دون أن يكون لمسألة بقاء الروح أى أثر فى ذلك. ومن المحتمل أن يكون هذا سبب عدم تأكيد القرآن على مسألة بقاء الروح، وبتعبير آخر إن القرآن لا يعتقد بأن هناك صلة ورابطة بين مسألة خلود الروح وبين المعاد- كما سنرى ، ولكن لا- يخفى أن إثبات مسألة المعاد بالاعتماد على مسألة خلود الروح تكون اوضح وايسر كما أنه لا- يمكن إنكار الإشارات الظرفية واللطيفة التى وردت فى مسألة خلود الروح فى القرآن المجيد، لذا من المناسب أن نلقى نظرة إجمالية على مسألة خلود الروح من دون التوغل فى أعماق هذه المسألة، لأن البحوث المتعلقة بالروح بحوث واسعة ولها ميدان عريض وتحتاج لوحدها إلى تأليف كتاب مستقل أو عدّة كتب لبحثها بصورة مستقلة.

نعود بعد هذه المقدمة إلى القرآن المجيد ونستمع خاشعين إلى الآيات الآتية:

١- «وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ».
(آل عمران / ١٦٩)

٢- «وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أحيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ».
(البقرة / ١٥٤)

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢١٨

٣- «النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ». (المؤمن / ٤٦)

٤- «قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ». (السجدة / ١١)

٥- «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمَسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» (١).

(الزمر / ٤٢)

جمع الآيات وتفسيرها

استقلالية الروح:

دار الحديث فى الآية الاولى حول الشهداء. فقد كان هناك عدد من ضعفاء الإيمان يتألمون لهؤلاء الشهداء لأنهم ماتوا ودفنوا وحرموا من كل شىء، لقد خاطب القرآن فى هذه المناسبة الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله (كى يتعص الآخرون) قال تعالى «وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ».

وبهذا غير نظرة الناس حول الموت تغييراً جذرياً وبالأخصّ نظرتهم إلى «موت الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله»، وأبان لهم أنّ هؤلاء يرقدون في جوار رحمة الله ويملاً وجودهم الفرح وينادون الآخرين بأنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. فهذا التعبير الحي الواضح يدل بجلاء على أنّ الروح خالدة وأنّ الشهداء احياء في عالم أرقى واعلى بكثير من هذا العالم. فإذا كانت حياة الإنسان تفنى بالموت إلى الأبد تصبح هذه التعبيرات مبهمه وغير مفهومه حتى في مجال اطلاقها على الشهداء، ولن تكون سوى حفته من المجازات اللغوية لا غير.

(١) هناك آيات عديدة في القرآن المجيد تعبّر عن الموت بالتوفى، وهذه دلالة لطيفة على مسألة خلود الروح، مثل: النساء، ٩٧؛ الانعام، ٦١؛ النحل، ٢٧ و ٣٢ و ٧٠؛ يونس، ٤٦؛ الرعد، ٤٠؛ غافر، ٦٧ و ٧٧؛ الانفال، ٥٠؛ الاعراف، ٣٧؛ الحج، ٥. نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢١٩

أما الذين لم يتمكنوا من إدراك مغزى ومفهوم هذه الآية فقد اتبعوا رأى ضعاف الإيمان الذين عاصروا الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وفسّروا هذه التعبيرات بمعنى خلود اسم الشهداء وخلود معتقدتهم! أو ما شابه ذلك، بينما تبطل الآية مثل هذه النظريات قطعاً، وقد أكدت على أنّ للشهداء حياة خالدة، ومن البديهي أن لا تكون هذه الحياة حياةً جسمانية ومادية لأنّ أجساد الشهداء الدائمة قد دُفنت تحت التراب، فلن يبقى أمامنا إذن إلّا أن نعتبرها حياةً تختصّ بالروح عن طريق خلودها في البرزخ. وعلى الرغم من اصرار البعض - على حدّ قول صاحب الميزان على أنّ الآية نزلت في حق شهداء بدر (و على رأى البعض أنّها تتعلق بشهداء أحد) إلّا أنّ البديهي تفترض أنّ الآية ذات مفهوم واسع وشامل، يشمل جميع الشهداء دون أى استثناء، بالإضافة إلى أنّها لا تنفى الانطباق على غير الشهداء أيضاً.

وعلى أيّة حال فإنّ لهجة الخطاب في هذه الآية والآيات التالية لها تدلّ على خلود أرواح الشهداء والتنعم بالرزق المعنوي عند ربهم وسرورهم الحاصل من نيلهم تلك النعم وذلك الفضل الإلهي، وهذه الآيات تبطل جميع الآراء والتفسيرات المنحرفة.

عن الشهداء في سبيل الله أيضاً:

ورد نفس هذا المعنى في الآية الثانية من آيات البحث بتعبير آخر، والفرق بينهما أنّ الآية الاولى نزلت في شهداء احد والآية الثانية نزلت في شهداء بدر، إلّا أنّ محتواهما يدل على العموم والشمول، وهناك فرق آخر بينهما هو أنّ الخطاب في الآية الاولى كان موجّهاً للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله أما في هذه الآية فقد وجهت تعالي لعامة المسلمين، قال تعالى «وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أحياءٌ وَلَكِنْ لَاتَشْعُرُونَ».

فعلى الرغم من احتواء الآية الاولى على تأكيدات أكثر على مسألة الحياة الروحية للشهداء من خلال ضمّها إلى الآيات الاخرى إلّا أنّ الآية الثانية بدورها تعبّر عن ذلك نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٢٠

المفهوم أيضاً على الأخص في قوله تعالى «بَلْ أحياءٌ وَلَكِنْ لَاتَشْعُرُونَ».

وفي هذه الآية أيضاً تواجها أقوال لبعض قاصري التفكير الذين يرون أنّ الحياة في هذه الآية تعنى الهداية أو بقاء اسماء الشهداء حيّة أو بقاء معتقدتهم، وهكذا اعتبروا استخدم عبارة احياء عند ربهم يرزقون من باب المجاز وانحرفوا في تفسيرهم وهم لا يملكون أى دليل لدعم ادعاءاتهم.

وكأنّ هؤلاء المفسرين لم ينتبهوا للكلمات هاتين الآيتين أبداً وإنّ الشهداء بالإضافة إلى وصفهم بأنهم احياء فقد ذكر بأنهم يرزقون

ويفرحون ويتمتعون بأنواع النعم الإلهية ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وخاصة في قوله تعالى ولكن لا تشعرون! فلو كان المراد خلود اسمهم أو معتقدتهم أو احياءهم يوم القيامة لما كان اطلاق أى واحد من هذه التعبيرات المذكورة بحقهم صحيحاً.

وبهذا شيد القرآن أساس بحث خلود الروح وبدأه بذكر خلود حياة الشهداء.

عذاب آل فرعون في البرزخ:

تَحَدَّثَتِ الْآيَةُ الثَّلَاثَةُ عَنْ عَاقِبَةُ طَائِفَةٍ ظَالِمَةٍ وَهِيَ «طَائِفَةُ آلِ فِرْعَوْنَ» وَصَوَّرَتْ حَالَهَا فِي الْبَرْزَخِ فِي قِبَالِ حَالِ الشَّهَدَاءِ، فَهِيَ تَصِفُهَا بَعْدَ الْمَوْتِ عَلَى هَذَا النَّحْوِ: «النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ». إِنَّ مِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ النَّارَ الَّتِي يُعْرَضُ عَلَيْهَا آلُ فِرْعَوْنَ فِي الصَّبَاحِ وَالْمَسَاءِ نَارَ الْبَرْزَخِ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ مَاتُوا وَلَمْ تَقُمْ الْقِيَامَةُ حَتَّى الْآنَ، بِالْإِضَافَةِ إِلَى ذَلِكَ فَإِنَّ الْقِيَامَةَ لَيْسَ فِيهَا صَبَاحٌ وَمَسَاءٌ بَلْ هُمْ فِي أَشَدِّ الْعَذَابِ عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ (كما يشهد على ذلك ما جاء في ذيل الآية).

وهذا التعبير شاهد حي وملموس آخر على خلود الروح، لأن ما يعرض على جهنم صباحاً ومساءً إن لم يكن الروح فما هو إذن؟ هل هو الجسد المجرد عن الروح الذي أصبح تراباً؟ كلا طبعاً، لأن هذا لا يتأثر أبداً، إذن يجب أن تبقى ارواحهم خالدة حتى يعرضوا نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٢١

على العذاب غدواً وعشياً في عالم البرزخ.

ويحتمل أن يكون السبب في استخدام كلمتي «الغدو» و «العشى» في الآية الشريفة أن هذين الوقتين من الأوقات التي كان الطواغيت يتجهون خلالها ويرزون سطوتهم ومن الأوقات التي يستغلونها في اللهو والبذخ.

وأما التعبير «يعرضون» فإنه لا يعنى دخولهم النار وهذا مما لا شك فيه، وهو غير ما يريد في ذيل الآية، ومن المحتمل أن المراد منه الدلالة على اقتراب النار منهم، فهم يقتربون من النار في عالم البرزخ ويلجونها يوم القيامة!

لقد استدلل الكثير من المفسرين بهذه الآية على عذاب القبر أو البرزخ «١»، ومن البديهي أن عذاب القبر (أو البرزخ) لا معنى له من دون خلود الروح.

جاء في الحديث المروى عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله أنه قال: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عَرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ الْجَنَّةِ وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ النَّارِ يُقَالُ هَذَا مَقْعَدُكَ حِينَ يَبْعَثُكَ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» «٢».

وهذا الحديث يشير إلى أن الثواب والعقاب البرزخي لا يختص بالشهداء وآل فرعون بل يشمل الجميع.

قبض الأرواح!

وفي الآية الرابعة (والآيات المشابهة لها) نلاحظ تعبيراً آخر في هذا المجال، قال تعالى «قُلْ يَتُوفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ».

والتعبير الجديد واللطيف في هذه الآية «يتوفاكم» من مادة «التوفى» على وزن (الترقى).

قال الراغب في المفردات «وافى» في الأصل بمعنى وصول الشيء إلى الكمال، بناءً

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٧، ص ٥٢٥؛ تفسير الكبير، ج ٣٧، ص ٧٣؛ تفسير القرطبي، ج ٨، ص ٥٧٦٣؛ تفسير الميزان، ج ١٧، ص ٣٥٤.

(٢) نقل هذا الحديث صاحب مجمع البيان عن صحيح البخارى ومسلم (ج ٧ و ٨، ص ٥٢٦).

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٢٢

على هذا فإن «التوفى» يكون بمعنى أخذ الشئ بصورة كاملة وهذا التعبير يدل بوضوح على هذه الحقيقة وهي أن الموت لا يعنى الفناء أبداً، بل نوع تام من أنواع القبض، والأخذ أخذ روح الإنسان بصورة تامة، دليل واضح وملحوس على أن روح الإنسان لا تفنى بعد «التوفى» (أى الأخذ الكامل) لها.

ومن الجدير بالذكر أن هذه الآية وردت فى الجواب عن تساؤل منكرى المعاد، وقد نقل عنهم فى الآية السابقة قولهم: «وقالوا آذا ضللنا فى الأرض إنا لفي خلق جديد».

فأجابهم تعالى فى هذه الآية: «أنكم لستم أجساداً فحسب كى تضلوا بعد الموت، بل إن الروح هى الأصل فى وجودكم والتى تتوفاها الملائكة، وسوف تُعادون وتحشرون يوم القيامة (بالجسم والروح معاً) وكما قلنا آنفاً: إن هذا التعبير قد تكرر ذكره فى آيات متعددة فى القرآن وقد أكد عليه كثيراً».

إن خطاب الآيات القرآنية فيه ارشاد للاثبات بعدم النظر إلى الموت من منظار مادي أبداً، فالماديون يعتقدون بأن الموت نهاية الطريق بالنسبة للإنسان وينادون دائماً بهذا الشعار: «إن هى الأحياتنا الدنيا نموت ونحيا» بينما لا يكون الموت إلا عبارة عن الانتقال من «الحياة الدنيئة» إلى «الحياة الراقية» ويتم ذلك الانتقال بواسطة ملائكة الله.

وفى بعض الموارد نسب الله التوفى إلى نفسه: قال تعالى «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا». (الزمر / ٤٢)

وقال من موضع آخر: «وَلَكِنْ اغْبُدُّ لِلَّهِ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ». (يونس / ١٠٤)

ومن البديهي أن لا يوجد هناك تناقض بين تعبيرات القرآن الثلاثة المذكورة (التوفى من قبل الله والتوفى بواسطة ملك الموت والتوفى بواسطة الملائكة)، لأن هؤلاء جميعهم يطيعون أمر الله، والله عز وجل هو الفاعل الحقيقى، كما أن الملائكة التى تتوفى الأرواح لهم رئيس أيضاً الذى يسمى بملك الموت وسائر الملائكة الموكلين بقبض الأرواح يعتبرون مسيرين من قبل هذا الملك.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٢٣

وفى الآية الخامسة والاخيرة ورد هذا المعنى نفسه مع مقارنته وضع الإنسان عند النوم مع وضعه عند الموت، وقد عبر ب «التوفى» عن كلتا الحالتين، قال تعالى «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ».

و «انفس»: جمع «نفس» بمعنى الروح، والمراد من الروح هنا الروح الإنسانية ويستفاد من الآية المذكورة إن روح الإنسان تقبض فى كلتا الحالتين، حالة الموت وحالة النوم، مع فارق واحد أن التوفى فى حالة النوم غير تام حيث تعود الروح ثانية إلى الجسد، أما فى حالة الموت فلا عودة لها، (وهناك طبعاً من ينتقل من حالة النوم إلى الموت مباشرة ولا يستيقظ من نومه أبداً، وقد أشارت الآية المذكورة لهذه الحالة أيضاً).

وعلى حد تعبير بعض المفسرين: «إن للروح ثلاث حالات، فتارة يشع نورها على ظاهر البدن وباطنه، واخرى على الظاهر فقط، وثالثة، ينقطع اشعاعها عن الظاهر والباطن معاً.

فالحالة الاولى حالة اليقظة، والثانية حالة النوم، والثالثة حالة الموت» (١).

ولمزيد من الايضاح يجب الالتفات إلى هذه الحقيقة وهي أن الإنسان له ثلاثة أنواع من الحياة.

«الحياة النباتية» وهذا يعنى أن خلايا البدن تتغذى وتنمو وتتكاثر (كما هو الحال فى النباتات).

«الحياة الحيوانية» التي تشتمل على الحس والحركة، والحركة هنا تشمل الحركة الارادية كالمشى وحركة اليد والرجل أو الحركات غير الارادية كضربات القلب وغيرها من الحركات.

«الحياة الإنسانية» التي تختص بالإدراكات الرفيعة التي يمتلكها الإنسان والتي تتعلق بالإرادة وتحليل المسائل المختلفة والابداع والابتكار والشعور بالمسؤولية.

ومما لا شك فيه أن النوعين الأول والثاني من أنواع الحياة لا يُسلب من الإنسان في

(١) التفسير الكبير، ج ٢٦، ص ٢٨٤.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٢٤

حالة النوم، والنوع الثالث الوحيد الذي يخرج عن اختيار الإنسان في تلك الحالة.

ومما يجدر ذكره أن هذه الآية تفيد بأن النوم «موت مخفف» أو بتعبير آخر إن الموت «نموذج كامل من النوم» كما يفهم أيضاً بأن الإنسان مركب من الروح والجسد وأن الجسد مادي والروح جوهر لا يخضع للقوانين المادية:

ومن خلال ما تقدم يمكن التوصل إلى معرفة نبذة من أسرار الأحلام والرؤيا وما يدركه الإنسان من حقائق جديدة في تلك الحالة، لأن روح الإنسان في حالة النوم تنفصل عن الجسد وتنجز فعالياتها بحرية أكثر، إذن فهي تحوم في عوالم جديدة.

جاء في الحديث عن أمير المؤمنين على عليه السلام: «إن الروح يخرج عند النوم، ويبقى شعاعه في الجسد، فلذلك يرى الرؤيا، فإذا انتبه عادَ روحه إلى جسده بأسرع من لحظة!» (١).

وعلى أية حال فإن هذه الآيات لا تفسر إلا بمسألة بقاء الروح، وذلك لأن توفى الشيء أى أخذه بصورة تامة عند الموت لا يصدق على التوفى الجسدى، فالحياة النباتية والحيوانية تفنى بواسطة الموت ولا يبقى منها شيء فلا يمكن أن تكون مصداقاً لعنوان «التوفى»، فبناءً على هذا تكون النتيجة أن المراد من التوفى توفى الروح الإنسانية التي تعتبر العامل الرئيسى في حياة الإنسان.

توضيحات

١- خلود الروح

إن مسألة خلود الروح لها علاقة وثيقة بمسألة استقلالها وأصالتها، لأن الروح إن كانت مستقلة فيحتمل أن تبقى على حالها بعد الموت، لكنّها لو كانت تابعة لقوانين المادة وكانت تشبه في خواصها المادة فإنها سوف تفنى تبعاً لفناء الجسم (كما هو الحال في حركة عقارب

(١) تفسير روح البيان، ج ٨، ص ١١٥.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٢٥

الساعة التي تتبع في وجودها وعدمها نفس الساعة).

لذا علينا وقبل كل شيء أن نبحث في هذه القاعدة هل أن روح الإنسان جوهر مستقل أم شيء مشابه للخواص الفيزيائية والكيميائية التي تمتلكها خلايا المخ التي تفنى تبعاً لفناء المخ، كما هو الحال في الروح الحيوانية والنباتية التي هي عبارة عن التغذية والنمو والتكاثر والحس والحركة؟

إنّ ممّا لا شك فيه أنّ التغذية والنمو والتكاثر لا تبقى بعد فناء الجسم وكذلك تنعدم فيه الحركة والحس (فتأمل). ولكن لدينا أدلة كثيرة تثبت أنّ الروح الإنسانية لا تشبه الروح النباتية والحيوانية، بل هي حقيقة مستقلة تتعلق بالبدن تارةً وتنفصل عنه أخرى من هنا نطلق لبحث الأدلة العقلية التي أتى بها الفلاسفة لإثبات أصالة الروح واستقلالها أولاً، وبعد ذلك نشرح بذكر أدلة المنكرين أي الماديين ثم نشرح بنقد تلك الأدلة. ومع أنّ مجرد إثبات خلود الروح لا يثبت جميع ما نريد إثباته في مباحث المعاد- كما أشرنا إلى ذلك سابقاً- (لوجود قسم كبير من مسائل المعاد يرتبط بجانب المعاد الجسماني) إلّا أنّه يُمهد امامنا نصف الطريق على الأقل ويكبح جماح المنكرين.

٢- هل الروح مستقلة عن البدن؟

يشهد تاريخ العلم والحضارة البشرية على أنّ الروح وهيئتها وخواصها الغريبة كانت موضع اهتمام العلماء دائماً. وقد ساهم واحد منهم بجهوده ليكشف بُعداً من أبعاد دائرة الروح التي تعتبر لغز الالغاز وسر الخفايا ولهذا السبب كانت آراء العلماء في مجال الروح متنوعة وكثيرة جداً. ورغم أنّ أرواحنا أقرب إلينا من كل شيء في هذا العالم، إلّا أنّه قد لا تتمكن جميع علومنا المعاصرة- بل حتى علوم اللاحقين لعصرنا- أن تكتشف جميع أسرار الروح، وليس

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٢٦

هذا من الامور الغريبة لأنّ جوهر الروح يختلف كثيراً عمّا أنسنه من عالم المادة، ولاعجب في إخفاقتنا في الاطلاع على أسرار وكنه هذا المخلوق العجيب الذي لا يخضع لقوانين المادة. ولكن هذا- على أيّة حال- لا يمنعنا من مشاهدة ظل الروح بواسطة منظار العقل الثاقب ولا يمنعنا من التعرف على مجمل القوانين المهمة عليها.

وأهم ما ينبغي لنا معرفته هنا مسألة أصالة واستقلال الروح، وعلينا أن نثبت ذلك في مقابل رأي الماديين الذين يرون أنّ الروح أمرٌ ماديّ وأنها من افرازات خلايا المخ والخلايا العصبية ولا شيء وراء ذلك! ونحن نتعرض بدورنا لهذا البحث هنا ونمعن النظر فيه، لأنّ بحث «خلود الروح» و «مسألة التجرد الكامل أو التجرد البرزخي» تعتمد على هذا الأمر.

إلّا أنّه قبلولوج في هذا البحث نرى من الضروري ذكر هذه الملاحظة وهي أن تعلق الروح ببدن الإنسان ليس من قبيل حلول الهواء في المنطاد مثلاً- كما يعتقد البعض- بل هو نوع من الارتباط القائم على اساس هيمنة الروح على البدن في التصرف والتدبير، وقد شبه بعضهم هذه الرابطة بالعلاقة الموجودة بين «اللفظ» و «المعنى» وسوف تتضح هذه المسألة بجلاء خلال بحث مسألة استقلال الروح فلنعد إلى صلب البحث.

ممّا لا شك فيه أنّ الإنسان يختلف عن الجمادات كالحجر والخشب، لأننا نشعر في قرارة أنفسنا بأننا نختلف عن سائر الموجودات غير الحية، بل حتى عن النباتات، فنحن بإمكاننا أن نفهم شيئاً أو نتصور شيئاً أو نريد شيئاً ونمتلك إرادة ونحب ونبغض و...، أمّا بالنسبة للجمادات والنباتات فهي لا تمتلك شيئاً من هذه الأحاسيس، إذن هناك شيء أساسي تميز به عن هذه الموجودات، ذلك الشيء هو ما نسميه الروح.

لا أحد ينكر أصل وجود «الروح» و «النفس» أبداً، لا الماديون ولا غيرهم ولهذا فالجميع يعتقد بأن علم النفس (السيكولوجي) وعلم

التحليل النفسى (البيسكاناليزى) من العلوم الثابتة، وهذان العلمان على الرغم من كونهما فى مرحلة النشوء وفى المراحل

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٢٧

البداية إلاً أنهما من العلوم التى تُدرس فى الجامعات الكبيرة فى العالم ويتابع تطورها الاساتذة والمحققون، وكما سنلاحظ فإن «الروح» و «النفس» هما حقيقتان غير منفصلتين عن بعضهما بل تمثلان حقيقة واحدة لمراحل مختلفة.

وسوف نطلق اسم «النفس» فى المجالات التى تتعلق بارتباط الروح بالجسم والتأثيرات المتبادلة كما نطلق اسم «الروح» عند الحديث عن الروح المستقلة عن الجسم.

وقصارى الكلام هو عدم وجود من ينكر امتلاكنا روحاً ونفساً، فمن هنا علينا أن نحدد دائرة النزاع المحتدم بين «الماديين» و «الميتافيزيقيين».

ولتحديد دائرة النزاع نقول: إن العلماء الالهييين والفلاسفة الميتافيزيقيين يرون أن الإنسان بالإضافة إلى امتلاكه لجسم مادى يمتلك جوهراً آخر غير مادى، والجسم يتلقى أوامره من ذلك الجوهرة بصورة مباشرة.

وبعبارة أخرى إن الروح من الحقائق المتعلقة بعالم ما وراء الطبيعة وتختلف عن عالم المادة من ناحية وجودها ونشاطها معاً ورغم ارتباطها الدائم بعالم المادة إلاً أنها ليست مادة ولا تملك صفات المادة!

والرأى المقابل لهذا هو رأى الماديين حيث يقولون: إن كياننا خالٍ من وجود شىء مستقل عن المادة يسمى ب «الروح» أو أى اسم آخر وما كياننا إلاً هذا الجسم المادى والآثار الفيزيائية والكيميائية المختصة به فنحن لدينا جهاز نسميه «المخ والأعصاب» وهو ينجز لنا قسماً كبيراً من أعمالنا الحياتية وهذا الجهاز مادى كسائر أجهزة البدن الأخرى ويخضع فى نشاطاته لقوانين المادة.

فالإنسان لديه مثلاً غدد تحت اللسان تسمى «الغدد اللعابية» وهذه الغدد تمارس أفعالاً فيزيائية وكيميائية فى آن واحد، فعندما يدخل الطعام الفم تمارس هذه الغدد نشاطاتها بصورة ذاتية لا إراديه، وتضخ من الماء الكميّة اللازمة لمضغ الطعام بصورة دقيقة، فالغذاء الجاف يحصل على ما يكفيه من الماء من هذه الغدد وكذلك الغذاء الرطب، فكل واحد منهما

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٢٨

يحصل على ما يناسبه من كميّة الماء لا أكثر ولا أقل!

والأغذية الحامضة بالخصوص تثير هذه الغدد لفرز كميات أكبر من الماء إذا كان تركيز الحموضة كبيراً فيها، وذلك من أجل خفض نسبة الحموضة كى لا تؤثر على جدار المعدة والجهاز الهضمى.

وبعد بلع الطعام تعطل هذه الغدد عن العمل وإذا اختل نظام هذه الغدد لساعة من الزمان فإما أن يجف الفم فلا يتمكن الإنسان من بلع الطعام، أو يسيل اللعاب بصورة مستمرة من الفم!

وهذه هى المهمة «الفيزيائية» لهذه الغدد، لكننا نعلم أن المهمة الأكثر أهمية لهذه الغدد هى الإفرازات الكيميائية، فاللعاب يحتوى على مواد مختلفة تتفاعل مع الغذاء لهضمه ولتسهيل عمل المعدة فى هضمه.

فالماديون يقولون: إن الجهاز الهضمى والمخ يشبهان فى عملهما النشاطات الفيزيائية والكيميائية للغدد اللعابية، (التي تسمى النشاطات (الفيزيائية) الكيميائية) التى نسميها «مظاهر الروح» أو «الروح».

فهؤلاء يقولون: عندما يمارس الإنسان عملية التفكير تشع من المخ مجموعة خاصة من الأمواج الالكترونية، وهذه الأمواج فى عصرنا الحاضر تُسجل على شريط من الورق بواسطة أجهزة معينة متوفرة فى المستشفيات وبالأخص فى المصحات المعدة لعلاج الأمراض النفسية، ويواكب الأطباء مطالعة هذه الأمواج المسجلة على الشريط لتشخيص الأمراض النفسية التى يعانى منها المرضى لغرض علاجها، وهذه هى النشاطات الفيزيائية للمخ.

وبالإضافة إلى هذه النشاطات تحدث فى خلايا المخ تفاعلات كيميائية عند ممارسة التفكير أو عند حدوث الانفعالات النفسية.

وبناءً على هذا ليست الروح والمظاهر الروحية إلتلك النشاطات الفيزيائية أو تلك التغييرات الكيميائية لا غير.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٢٩

وتوصل هؤلاء من خلال هذا البحث إلى النتائج الآتية:

- ١- كما أنّ أفعال الغدد اللعابية وآثارها المختلفة لا توجد قبل وجود البدن وتفتى بفنائها، فكذلك الحال في الروح التي توجد مع وجود المخ والجهاز العصبى وتفتى بفنائها!.
- ٢- إنّ الروح من مختصات الجسم، فهي مادية وليس لها بعدٌ ميتافيزيقى.
- ٣- إنّ الروح تخضع لجميع القوانين التي تتحكم بالجسم.
- ٤- لا يمكن وجود الروح بصورة مستقلة عن الجسم أو أن تستقل عنه.

٣- أدلة الماديين على عدم استقلالية الروح

إشارة

وقد ذكر الماديون عدّة أدلة لإثبات زعمهم بأنّ الروح والفكر وسائر الظواهر الروحية الاخرى إنّما هي امور مادية: أى أنّها من الخواص الفيزيائية والكيميائية للخلايا العصبية وخلايا المخ، وهي كما يلي:

- ١- «نحن نرى بوضوح أنّ مجموعة من الآثار الروحية تعطلّ بمجرد أصابه قسم من المخ أو مجموعة من الخلايا العصبية» «١».
- فمثلاً شوهد عند قطع قسم معين من مخ الطير- كما أثبتت التجربة- أنّ هذا الحيوان لا يموت بل يفقد قسماً كبيراً من معلوماته، فعندما يوضع الغذاء في فمه فإنّه يبلع الغذاء ويهضمه ولكن عندما توضع الحبوب أمامه فإنّه لا يتناولها ولا يهتم لها ويظل على هذا الحال حتى يموت جوعاً!.
- وكذلك الحال عند عطب قسم من خلايا المخ عقب اصابته بضربة أو مرض معين، والإنسان يفقد قسماً من ذاكرته بفعل هذه الأسباب.
- فقد ذكرت احدى الصحف أنّ شاباً معلماً فقد ذاكرته إثر ضربة شديدة اصابته دماغه فى حادثه اصطدام، وأصبح لا يعرف أحداً من أقربائه حتى أنّه لم يعرف امّه واخته! وعندما

(١) البيسكولوجيا، الدكتور أرانى، ص ٢٣.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٣٠

أخذه إلى الدار التي ولد وترعرع فيها لم يُبد أى انفعال وأنكر أن يكون قد رأى أو دخل هذه الدار سابقاً!

فهذه الامور ونظائرها تدل على أنّ هناك علاقة وثيقة بين «عمل خلايا المخ» وبين «الظواهر الروحية».

- ٢- «عندما يفكر الإنسان تحدث تغييرات مادية على سطح الدماغ، حيث يفرز فسفوراً أكثر ممّا يفرزه فى حالة عدم التفكير، ويحتاج بذلك إلى غذاء أكثر، وعندما ينام الإنسان ولا يمارس الذهن عملية التفكير فإنّه يحتاج إلى غذاء أقل، وهذا دليل واضح على أنّ آثار الفكر مادية» «١».

٣- أثبت التجارب أنّ وزن المخ عند المفكرين غالباً ما يكون أكثر من الحدّ المتوسط لوزن المخ عند الآخرين (الحد المتوسط لوزن المخ عند الرجال ١٤٠٠ غرام تقريباً، والحدّ المتوسط عند النساء أقل من ذلك) وهذا دليل آخر على كون الروح مادية.

٤- إذا كان التفكير والظواهر الروحية دليلاً على وجود روح مستقلة فهذا يعنى أنّ الحيوانات لها روح مستقلة كذلك، لأنّ الحيوانات

لها إدراك محدود أيضاً. وخلصه القول في رأى هؤلاء إننا لا نشعر بوجود روح مستقلة لدينا، بالإضافة إلى أن علم النفس الحديث قد أكد على صحة هذه النظرية أيضاً. ومن خلال هذه الأدلة يخرجون بالنتيجة الآتية: إن تطور علم الفسلجة المستمر توصل إلى وجود علاقة وثيقة وجليئة بين الظواهر الروحية وخلايا المخ.

النقاط المبهمة في هذا الاستدلال:

إن الخطأ الفضيع الذى ابتلى به الماديون كان نتيجة لاستنادهم على هذا النمط من الأدلة وخلطهم بين «آلة الفعل» وبين «فاعل الفعل».

(١) بشر از نظر مادى، الدكتور أرانى، ص ٢.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٣١

ولبيان كيفية خلطهم بين الآلة والفاعل والتباس الأمر عليهم نضرب مثلاً لتقريب هذا الموضوع إلى الأذهان.

لقد طرأ تطور كبير على علم الفلك منذ عصر «غاليليو» فقد تمكن العالم الايطالى غاليليو بمساعدة رجل يمتحن صناعة النظارات من صنع تلسكوب صغير وقد غمر الفرح كيانه إثر هذا الانجاز، وعند المساء كان غاليليو يشاهد النجوم بواسطة ذلك التلسكوب الصغير فظهرت أمامه أعاجيب لم يرها أحد من قبل، وعندما علم غاليليو بأنه توصل إلى كشف سر عظيم، اعتبر أن فى ذلك اليوم حصل الإنسان على مفتاح كشف أسرار العالم العلوى!

فالإنسان قبل اكتشاف التلسكوب كان كالفراشة العاجزة عن رؤية ما حولها باستثناء أغصان معدودة من أغصان الأشجار المحيطة بها، ولكنه عندما أمسك بالتلسكوب بيده صار بإمكانه مشاهدة عالم كبير من الأشجار الموجودة حوله فى غابة الكون العظيم. ثم استمر هذا الاكتشاف والتكامل حتى صنعت التلسكوبات الفلكية العظيمة التى بلغ قطر عدساتها عدة أمتار، وقد نصبت هذه التلسكوبات على مناطق مرتفعة بعيداً عن الهواء الملوث.

واستطاعت هذه التلسكوبات التى تبلغ من الضخامة أحياناً بحجم بناء متعدد الطوابق أن تيسر للإنسان مشاهدة حقائق كثيرة فى العالم العلوى لم يسبق له أن شاهد منها بعينه المجردة بنسبة واحد من الألف.

هذا ما توصل إليه الإنسان حتى عصرنا الحاضر، فإذا تطورت التقنيّة وتمكن الإنسان من صنع تلسكوبات يبلغ قطر عدساتها مائة متر واصبحت ملحقاتها تملأ رقعة من الأرض بسعة مدينة كاملة فإلى أى مدى سيصل الإنسان فى اكتشافاته فى مثل هذه الحالة؟! وهنا يتبادر هذا السؤال إلى الأذهان: إذا ما فقدنا هذه التلسكوبات فإننا سوف نفقد قسماً كبيراً من معلوماتنا ومشاهداتنا الفلكية قطعاً، ولكن يا ترى من المشاهد الحقيقى؟

فهل هو التلسكوب أم الإنسان؟! وهل يعتبر التلسكوب هو الناظر الحقيقى أم هو آلة ننظر نحن من خلالها؟!!

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٣٢

فأما بالنسبة للمخ فإنه لا أحد ينكر أن التفكير والأمور الأخرى لا تحصل من دون توفر الخلايا العصبية، ولكن السؤال هو: هل المخ آلة تستخدمها الروح لانجاز فعاليتها أم هو نفس الروح؟!!

وخلصه الكلام: إن جميع الأدلة التى جاء بها الماديون هنا لا تثبت إلا شيئاً واحداً وهو وجود علاقة بين خلايا المخ وإدراكات الإنسان لا غير، ولكنها لا تثبت لنا بأن المخ هو الفاعل الرئيسى للإدراك، (فتأمل).

ومن هنا يتضح أن السبب فى عدم إدراك الجسد الميت هو انقطاع اتصاله بالروح، وليس السبب فناء الروح، كما هو الحال بالضبط

بالنسبة للباخرة أو الطائرة التي تفقد اتصالها اللاسلكي بالقاعدة، فالباخرة لم تفن ولم يفن الزبان والطاقم أيضاً ولكنهم مع ذلك غير قادرين على الاتصال بالساحل وكل مافي الأمر أنهم فقدوا وسيلة الاتصال بالقاعدة.

٤- أدلة أنصار نظرية استقلال الروح

(أ) خصوصية كشف الواقع (اي الاطلاع على العالم الخارجى)

إشارة

إنّ أوّل سؤال يمكن أن يطرح على الماديين هو: إذا كانت خواص المخ «الفيزيوكيميائية» نفس الأفكار والظواهر الروحية فينبغي أن لا يكون هناك «فرق مهم» بين عمل المخ وبين عمل المعدة أو الكلية أو الكبد مثلاً، لأنّ عمل المعدة «مثلاً» يتمثل في مجموعة من النشاطات الفيزيائية والكيميائية، فالمعدة بواسطة حركاتها الخاصة وضخ الافرازات الحامضية تهضم الغذاء وتعدّه لعملية الامتصاص، وهكذا الحال في واجبات اللعاب الذى تقدم ذكره فهي مركز من أعمال فيزيائية واخرى كيميائية، لكننا نرى بالوجدان بأنّ أعمال الروح تختلف عن جميع هذه الأعمال.

فجميع أعمال أجهزة الجسم لها شبه ببعضها البعض إلّا «المخ» فهو لا يشبه فى أفعاله أى واحدة من تلك الأجهزة لأنّ أجهزة الجسم ترتبط بالامور الداخلية للجسم بينما ترتبط الظواهر الروحية بالخارج أى أنّها تخبرنا عمّا هو خارج وجودنا.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٣٣

وتوضيح ذلك يجب الالتفات إلى النقاط الآتية:

أولاً: هل يوجد هناك عالم وواقع خارج وجودنا أم لا؟

بالطبع إنّ وجود العالم الخارجى يُعد من الامور البديهية، أمّا المثاليون فقد انكروا وجود عالم خارج عن وجودنا وقالوا إنّ كل ما نراه إنّما هو «نحن» و «تصوراتنا»، ولا يوجد هناك عالم خارجى، والعالم الخارجى ماهو إلّا صور خالية من المحتوى تشبه الصور التى نراها فى المنام عند الرؤيا فليس وجود العالم الخارجى إلّا كوجود تلك الصور لا غير، وقد اخطأ هؤلاء فى اعتقادهم هذا، وافضل دليل على ذلك إيمانهم بالواقع أثناء عملهم، فكل ما يحملونه من نظريات مثالية ينسونها بمجرد أن يخرجوا من مكتبة أفكارهم ويضعوا اقدامهم فى شوارع وأزقة محيطهم الاجتماعى المعتاد، ويتعاملون مع كل شىء على أساس الواقعية!

ثانياً: هل للإنسان علمٌ بالعالم الخارجى أم لا؟

والجواب عن هذا السؤال بالإيجاب أيضاً، وذلك لأننا نمتلك تصوّرات كثيرة عن عالم الخارج ولدينا معلومات جمّة عن الموجودات المحيطة بنا أو عن المناطق النائية.

وهنا نواجه هذا السؤال وهو: هل تحضر الموجودات الخارجية بأعيانها فى ذواتنا؟

وبالطبع فإنّ الجواب بالنفى، فالذى يحضر فى ذواتنا صور تلك الموجودات، ونصل إلى إدراك الحقائق الخارجية بالاستفادة من خصوصية «معادلات كشف الواقع» الموجودة لدى الإنسان.

إنّ معادلات كشف الواقع، لايمكن أن تكون مجرد خواص فيزيوكيميائية بالنسبة للمخ، وحتى لو كانت هذه الخواص نابعة حقاً من تأثيرنا بالعالم الخارجى ونتاجه عنه، إلّا أنّ تأثيرها يشبه تأثير الغذاء على معدة الإنسان، فهل تتمكن المعدة من الحصول على معلومات عن الغذاء بواسطة ممارستها الأفعال الفيزيائية والكيميائية عليه؟ إذن كيف يتمكن ذهننا من إدراك العالم الخارجى؟!

وبتعبير آخر: إن العلم بالموجودات الخارجية والعينية لا يحصل إلا بواسطة حلول هذه

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٣٤

الموجودات في وعاءٍ خاص، مع أن خلايا المخ لا يمكنها أن تكون وعاءً ملائماً لهذه الموجودات بل تتأثر بها خلايا المخ فقط، والتأثر هذا يشبه تأثر سائر أجهزة الجسم بالمؤثرات الخارجية، ونحن ندرك ذلك بوضوح.

فإذا كان علمنا بالموجودات الخارجية يحصل بمجرد التأثر بأيّ نحوٍ كان فهذا يستلزم حصول الإنسان على العلم عن طريق معدته أو لسانه أيضاً، وهذا غير ممكنٍ بالبداهة.

فالخلاصة: إن الوضع الاستثنائي لإدراكاتنا يدل على أن هناك حقيقة خفية لا تخضع مطلقاً للقوانين الفيزيائية والكيميائية أي يجب علينا أن نرضخ أمام هذه الحقيقة وهي إن هناك جوهرًا آخر في ذواتنا وهو ما نطلق عليه اسم الروح يكون السبب في إدراك الحقائق (فتأمل).

(ب) وحدة شخصية الإنسان

إشارة

الدليل الآخر الذي يمكن التعويل عليه في مسألة استقلال الروح مسألة اتحاد شخصية الإنسان طوال عمره.

وتوضيح ذلك: إننا لو شككنا في أيّ شيء فإننا لا نشك في أننا «موجودون».

و «أنا موجود» ولا أشك أبداً في وجودي، كما أن علمي بوجودي من نوع «العلم الحضورى» لا «العلم الحضورى» أي أنني حاضر لدى نفسي ولم أنفصل عنها.

على أية حال فإن علمنا بأنفسنا من أوضح المعلومات لدينا، وهذا الأمر لا يحتاج إلى إقامة البرهان، أما بالنسبة للاستدلال المعروف الذي أتى به الفيلسوف الفرنسي الشهير ديكارت لإثبات وجوده وهو: «أنا أفكر إذن أنا موجود» فهو استدلال غير صحيح وغير مجدى، لأنه اعترف بوجود نفسه مرتين قبل أن يثبت وجودها! فمرة عندما قال «أنا» وأخرى عندما قال «أفكر»، هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى فإن ال «أنا» لها وحدة واحدة لا تتبدل من بداية العمر حتى نهايته، ف «أنا

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٣٥

اليوم» عين «أنا الأمس» ونفس «أنا قبل عشرين عاماً»، «أنا منذ الطفولة حتى اليوم لم أتغير» فأنا كنت ذلك الشخص وسأبقى ذلك الشخص حتى نهاية المطاف، ومن البديهي أنني تعلمت واصبحت مثقفاً وتكاملت وسوف أتكامل لكننى لم أتحوّل إلى شخص آخر، لذا فإن جميع الناس يعتبروننى شخصاً واحداً من البداية حتى النهاية فأنا لا أحمل إلا اسماً واحداً وهويته شخصية واحدة.

فلنرى الآن ما هذا الموجود الواحد الذى يرافقنا طيلة حياتنا، فهل هو خلايا جسمنا أم مجموع خلايا المخ وفعاليتها؟ لا شيء من هذا طبعاً، لأن هذه الأشياء تتبدل عدّة مرات خلال فترة حياتنا ففي كل سبع سنين تقريباً تتبدل جميع خلايا البدن، لأننا نعلم بأن الملايين من الخلايا تموت فى كل يوم وليلة وتحل محلها ملايين أخرى كما هو الحال فى البناء الذى يستبدل حجراً بالترديج ويوضع مكانه حجر جديد، فهذا البناء سوف يتبدل كلياً بعد فترة من الزمن حتى لو كان ذلك التغيير خافياً على الناس أو كالمسيح الكبير الذى يدخله الماء من أحد جهاته بصورة بطيئة ويخرج من الجهة الأخرى بمقدار ما يدخل فيه من ماء جديد، فمن البديهي أن يتبدل جميع ماء المسبح بعد مدّة من الزمان، حتى لو غفل الناس عن ذلك التغيير ولم يدر كوه.

وبصورة عامة فإن كل موجود لا يحافظ على بقائه إلا بواسطة الطعام ويستهلك ذلك الطعام بصورة تدريجية فهو يحتاج إلى «الترميم» و «التبديل».

بناءً على هذا فالإنسان البالغ من العمر سبعين عاماً تكون جميع خلايا جسمه قد تبدلت ما يقارب العشر مرات، لذا فإننا لو اعتبرنا

الإنسان ذلك الجسم والمخ والجهاز العصبي والخواص الفيزيوكيميائية فإن «أنا» ذلك الشخص البالغ من العمر سبعين عاماً قد تبدلت عشر مرات وأنتى غير ذلك الشخص السابق، مع أن هذا الكلام مرفوض بالوجدان. ومن هنا يتضح أن هناك حقيقة واحدة ثابتة في جميع مراحل حياة الإنسان، وهذه الحقيقة غير تلك الأجزاء المادية وليست متغيرة وهي التي تمثل أساس وجودنا وتعتبر العامل الرئيسى في إيجاد وحدة الشخصية.

نقحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٣٤

خطأ ينبغي اجتنابه:

يتصور البعض أن خلايا المخ لا تتبدل أبداً، ويقولون: إننا قرأنا في كتب الفلسفة أن عدد خلايا المخ لا يتبدل من بداية العمر وحتى نهايته، أى أن عددها لا يزيد ولا ينقص أبداً، وكل ما فى الأمر أنها تنمو ويكبر حجمها لكنها لا تتكاثر، لذا فإنها لو اصبحت بعطب فلن ترمم. بناءً على هذا فنحن نمتلك شيئاً ثابتاً هو مجموع خلايا المخ، وهذه الخلايا هي التي تحفظ لنا وحدة الشخصية.

إلما أن هذا التصور يُعتبر خطأ فادحاً، لأن هؤلاء خلطوا بين أمرين، فما توصل إليه العلم الحديث هو إن عدد خلايا المخ، ثابت من بداية الحياة حتى نهايتها فهو لا يزيد ولا ينقص، لا أن أجزاء هذه الخلايا لا تتبدل، لأننا قلنا إن خلايا البدن تتغذى باستمرار وتفقد الأجزاء القديمة وتحل محلها أجزاء جديدة دائماً، كما هو الحال فى المسيح الذى يدخله الماء من أحد جهاته بالتدريج ويخرج من الجهة الاخرى وتتبدل بعد فترة من الزمان جميع محتوياته على الرغم من ثبات مقدار كميته الماء فى المسيح، بناءً على هذا فإن خلايا المخ تتبدل أيضاً «١».

ج) عدم مطابقة الكبير للصغير

إشارة

تصوروا أننا نجلس بالقرب من بحر جميل تطفو على أمواجه عدد من القوارب الصغيرة وتعم فيه باخرة عظيمة والشمس تغرب من أحد جوانبه والقمر يطلع من الجانب الآخر وبعض الطيور المائية فى حالة ذهاب وإياب إلى ماء هذا البحر، وبالقرب من البحر جبل شامخ ذو قمة سامقة.

وهنا نغلق أعيننا لعدة لحظات ونختل كل ما رأيناه فى أذهاننا من الجبل العظيم والبحر

(١) أتى فى كتب علم وظائف الأعضاء هذه المسألة أيضاً، يُراجع على سبيل المثال كتاب الهورمونات، ص ١١، وكتاب علم وظائف أعضاء الحيوان، ص ٣٢ تأليف الدكتور محمود بهزاد وزملاؤه.

نقحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٣٧

الوسيع والباخرة الكبيرة، فكل هذه الصور تتجسد فى أذهاننا وكأنّ هناك لوحة كبيرة رُسمت فى أذهاننا أو فى أعماق أرواحنا. وهناك سؤال يطرح نفسه وهو: أين تستقر هذه الصور الكبيرة؟ فهل تتمكن خلايا الدماغ البالغة فى الصغر أن تحتوى هذه الصور العملاقة؟ كلا- طبعاً، اذن يجب أن يكون هناك قسم آخر من وجودنا لا يخضع لقوانين المادة يبلغ من السعة مبلغاً يجعله يتمكّن من احتواء جميع هذه الصور.

هل يتمكن الإنسان من تشييد بناء تبلغ مساحته ٥٠٠ متر فى أرض مساحتها عدّة أمتار؟! كلا طبعاً، لأنّ الموجود الكبير لا يمكنه أن ينطبق على الموجود الصغير مع حفظ حجمه الكبير، لأنّ من مستلزمات المطابقة إمّا أن يكون الظرف والمظروف متساويين فى الحجم وإمّا أن ينطبق الموجود الكبير على الصغير فى حالة صنع نموذج مصغر منه.

ومهما يكن من شيء يبقى هذا السؤال بلا جواب وهو كيف تتمكن من استيعاب صور كبيرة جداً في خلايا أدمغتنا الصغيرة؟ فنحن نتمكن من تصور محيط الكرة الأرضية الذي يبلغ طوله أربعين مليون متر ونتمكن من تصور الشمس التي تعادل حجم الأرض بمليون وثلاثمائة ألف مرة، وهكذا يمكننا أن نتصور المجرات التي تعادل حجم الشمس بملايين المرات، فمثل هذه الصور لا يمكنها أن تستقر في خلايا الدماغ الصغيرة طبقاً لقانون «عدم مطابقتة الجسم الكبير للجسم الصغير»، إذن يجب أن نعترف بوجود شيء غير هذا الجسم يحتوي هذه الصورة الكبيرة.

تساؤل:

من الممكن أن يقال: إن الصور الذهنية تشبه «الميكروفلم» أو «الخرائط الجغرافية» التي يدون في إحدى زواياها مقياس الرسم الذي هو عبارة عن أعداد كسرية مثل: ١١٠٠٠٠٠٠٠٠ أو ١١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ والتي تدل على مقياس نسبة التصغير، فإذا أردنا الحصول على المساحة الواقعية علينا أن نكبر تلك الخارطة بذلك المقياس، وقد شاهدنا أيضاً الكثير من

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٣٨

صور البواخر العظيمة التي لا يمكن من خلال تلك الصورة أن ندرك حجمها الحقيقي فهم من أجل اظهار حجمها الحقيقي يضعون على متنها إنساناً ثم يلتقطون لها صورة كي تتمكن من خلال مقارنته حجم الإنسان في الصورة من معرفة حجمها الحقيقي. فالصور التي نحملها في أذهاننا صغيرة جداً أيضاً وقد صغرت طبقاً لمقاييس معينة، فإذا ما كبرنا تلك الصور وفقاً لتلك المقاييس فسنحصل على تلك الصور بحجمها الحقيقي ومن البديهي إن هذه الصور الصغيرة تستقر بنحو ما في خلايا الدماغ، (فتأمل).

الجواب:

نحن نواجه هنا مسألة مهمة هي إن الميكروفلم يُكبر عادةً بواسطة المكبرات ثم يعرض على العارضات، ويمكننا أن نتصور الحجم الواقعي في أذهاننا للخارطة الجغرافية بواسطة إجراء عملية الضرب، وهنا يطرح هذا السؤال: أين تقع هذه العارضة الكبيرة التي يُعرض عليها الميكروفلم الذهني الذي كُبر عدّة أضعاف؟ فهل العارضة الكبيرة هي نفس خلايا المخ؟ وبعبارة أوضح: إن الموجود الخارجي في مثال الميكروفلم والخارطة الجغرافية هو الأفلام والخرائط الصغيرة، أما الموجود الذهني منها فهو الصور التي تطابق حجم الموجودات الخارجية لتلك الصور، ومن الطبيعي أن تحتاج تلك الصور المطابقة للواقع إلى مكان مطابق لحجمها، ونحن نعلم بأن خلايا الدماغ لا تتمكن من احتواء تلك الصور العظيمة. وخلاصة الكلام: إننا نتصور تلك الصور في أذهاننا بحجمها الخارجي وإن هذه الصور الكبيرة لا يمكنها أن تستقر في خلايا المخ الصغيرة، إذن فنحن نحتاج إلى مكان مناسب لها لذا فإننا نُدرك أن هناك وجوداً حقيقياً غير هذه الخلايا نسّميه (الروح).

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٣٩

(د) الظواهر الروحية لا تتلائم مع الكيفيات المادية

الدليل الآخر الذي يمكن أن نثبت من خلاله استقلال الروح وكونها غير مادية هو: إننا نشعر بالوجدان بأن الظواهر الروحية وخواص الروح وكيفياتها لا تشبه بأيّ نحو خواص وكيفيات الموجودات المادية، وذلك لما يلي:

أولاً: إن الموجودات المادية تخضع لقيود «الزمان» وتمتاز بالتدرج.

ثانياً: تتلاشى بمرور الزمان.

ثالثاً: قابلة للتحلل إلى أجزاء متعددة.

أما الظواهر الذهنية فلا تتصف بهذه الخصوصيات والآثار، فالمناظر التي انطبعت في ذهننا في مرحلة الطفولة مثلاً لا تتلاشى ولا تبلى

بمرور الزمان وتحافظ على كفيتهها طول هذه المدّة، على الرغم من تلاشى خلايا المخ إلّا أنّ صورة البيت الذى انطبع فى الذهن قبل عشرين سنة لا تفنى وتبقى تحافظ على نوع من الثبات الذى هو من خصوصيات عالم ما وراء الطبيعة.

إنّ روح الإنسان تملك قوّة ابداع عجيبةً فى مجال خلق الصور، ومن دون أى تأمل يمكنها أن تخلق أى صورة شاءت، كخلق صور الكواكب السيّارة والمجّرات أو صور الموجودات الأرضية كالبهار والجبال وأمّالها، ولا تتصف الموجودات الماديّة بشيء من هذا القبيل، بل يعتبر هذا دليلاً على أنّها موجود غير مادي.

وبالإضافة إلى هذا فإننا نعلم مثلاً بأنّ $2 + 2 = 4$ وهذا بديهى، ونتمكن أيضاً من تحليل طرفى المعادلة أى أن نحلل العدد اثنين أو العدد أربعة، ولكن لا يمكننا أن نحلل هذه «المساواة» أى أن نقول: إنّ المساواة تنقسم إلى قسمين يختلف أحدهما عن الآخر، لأنّ التساوى عبارة عن مفهوم وهو غير قابل للتحليل والتجزئة، فهو إمّا أن يكون موجوداً وإمّا أن لا يكون موجوداً ولكن لا يمكن تقسيمه أبداً.

فالمفهوم لا يقبل القسمة ومن أجل هذا لا يمكن أن يكون مادياً، لأنّه لو كان مادياً لقبل الانقسام، ولهذا السبب أيضاً لا يمكن أن تكون الروح مادية لأنّها تعتبر الظرف الذى يحوى هذه المفاهيم غير المادية، إذن فالروح اسمى من المادة، (فتأمل) «١».

(١) راجع تفسير الأمثل، الآية ٨٥ من سورة الاسراء.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٤٠

٥- هل النفس مجردة؟

هل الروح مستقلة ولا غير؟ وهل يمكنها البقاء بعد موت الجسم وفنائها؟ أم لها حالة التجرد عن المادة والاستقلال معاً؟ أى أنّها تفتقد خصوصيات المادة التى هى عبارة عن تقيدها بالزمان والمكان والتركيب.

لقد ذهب جمع من الفلاسفة إلى أنّ الروح مجردة ولا معنى لاحتوائها على كفيّات مادية، واستدلوا على ذلك ببعض الأدلة السابقة التى اقيمت على فرضية استقلال الروح.

والبعض الآخر يرى أنّ الروح مادية لكنها مكوّنه من مادة شفافة وبتعبير آخر إنهم يرون أنّ الروح «نصف مجردة» أى مجردة عن المادة الكثيفة والعناصر المادية.

فنحن نعلم مثلاً بأنّ النور جسم، ولا فرق فى ذلك فى كونه على شكل أمواج أو ذرات «فوتونية»، ولكن ممّا لا شك فيه هو عدم خضوعه للقوانين التى تخضع لها الأجسام العادية، لذا فهو يخترق الأجسام الشفافة ولا فرق بالنسبة له بين الفراغ وغيره.

فهل أنّ روح الإنسان شبيهة بهذا حقاً؟ أم هى مجردة تماماً وأرقى من المادة بشقيها الكثيف والشفاف.

وبما أنّ إثبات مسألة تجرد الروح أو إثبات كونها مادة شفافة هى من الأبواب غير المجديّة فى بحوث المعاد وبما أنّ المهم بالنسبة لنا هو استقلال الروح وبقاؤها بعد فناء الجسم، فإننا نعرض عن ذكر مزيد من التفاصيل فى هذا المجال ونوكل ذلك لعلم الفلاسفة، وكل ما يمكن أن نقوله هنا هو: إنّ الروح مستقلة سواء كانت مجردة أم كانت جسماً مادياً شفافاً وهى تبقى بعد فناء الجسم المؤلف من عناصر مادية وتحافظ على حيويتها، وهذه هى الخطوة الاولى نحو عالم ما بعد الموت، (فتأمل).

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٤١

المعاد الجسماني

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٤٣

المعاد الجسماني

تمهيد:

هل يختص المعاد بالجانب الروحي فقط؟ أى هل يفصل الإنسان بعد موته عن جسمه إلى الأبد فيتفسخ جسمه ويفنى ولا يتعلق خلوده فى الدار الآخرة إلا بالروح؟ أم تتحقق مسألة المعاد بكلا الجانبين فيعاد الجسم والروح معاً ويتحدان مرة أخرى هناك؟ أم لا يعاد إلا الجسم لوحده لأن الروح ماهى إلا آثار الجسم ومتعلقاته؟

أم يعاد الجسم والروح معاً، ولكن الجسم الذى يعاد هناك هو غير الجسم المادى المؤلف من العناصر المادية بل هو جسم شفاف أرقى من الجسم الموجود فى الدنيا فيكون المعاد ذا حيثية «روحية» وحيثية «نصف جسمية»؟ إن لكل واحدة من هذه النظريات الأربع المذكورة أنصاراً كثيرين، لكن ما استفاد من القرآن والذى دلت عليه مئات الآيات هو أن المعاد يتم بالروح والجسم معاً (وبهذا الجسم المادى) وبما أن إعادة الروح من الامور البديهية لدى العلماء والفلاسفة فقد عبروا عن المعاد ب «المعاد الجسماني» مع أن مرادهم من ذلك هو «المعاد الجسماني والروحي».

بعد هذه الإشارة المختصرة نعود إلى القرآن المجيد لنمعن خاشعين فى الآيات التى تحدثت عن المعاد الجسماني: ونظراً لكثرة هذه الآيات فقد قسمناها إلى «تسع مجموعات» واخترنا من كل مجموعة عدده نماذج وهى كما يلي:

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٤٤

المجموعة الاولى

إشارة

وهى الآيات التى تجيب على اعتراضات منكرى المعاد الذين كانوا كثيراً ما يسألون النبى الأكرم صلى الله عليه وآله: كيف نحى ثانية بعد أن نصبح تراباً وعظاماً رميمه؟ فتقول لهم هذه الآيات إن الله قادرٌ على أن يحيى العظام المتفسخة وأن يلبسها ثوب الحياة (أجل إنه يحيى هذه الأجسام المؤلفه من العناصر المادية)، ومن هذه الآيات مايلي:

١- «وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالِ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ* قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ». (يس / ٧٨-٧٩)

٢- «يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعُ عِظَامَهُ* بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نَسُوِيَ بَنَانَهُ».

(القيامة / ٣-٤)

٣- «إِعِدُّكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ* هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ». (المؤمنون / ٣٥-٣٦)

٤- «وَكُنَّا نَقُولُونَ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا ءَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ* أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ* قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ». (الواقعة / ٤٧-٥٠)

٥- «ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا ءَأِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا ءَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا» (١). (الاسراء / ٩٨)

جمع الآيات وتفسيرها

كيف تحيي العظام البالية؟

بما أننا تعرضنا لتفسير الآيات المذكورة وبحثنا في المواضيع السابقة فسوف نكتفي بالتركيز على بحث أجزاء منها تتعلق ببحثنا هذا:

(١) وهناك آيات متعددة أخرى أيضاً وردت في القرآن المجيد ولكن بسبب مشاكلتها في المضمون مع الآيات المذكورة اكتفينا بذكر الآيات أعلاه.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٤٥

فآية الأولى تجيب بصراحة عن هذا السؤال وتقول: «يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ».

وجملة «يُحْيِيهَا» تدل على احياء الأجسام بكل وضوح، ولو لم يكن في القرآن الكريم إلّا هذا التعبير لكان وافيّاً في إثبات هذه المسألة، مع أننا ذكرنا آنفاً بأن هناك مئات الآيات التي وردت للدلالة على إعادة الأجسام. ومما تجدر الإشارة إليه هو أن الآية المذكورة تؤكد على احياء نفس هذا «الجسم المؤلف من العناصر المادية»، لا جسم آخر مشابه له أو جسم برزخي ونصف مادي.

والآية الثانية ابطلت ادعاء اولئك الذين يرون أن الله لا يعيد عظام الإنسان فقالت بكل وضوح: إننا لا نعجز عن إعادة الإنسان مرة أخرى «بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ».

ووضوح هذه الآية في الدلالة على المعاد الجسماني ممّا لا يشوبه أي ريب.

وأشارت الآية الثالثة إلى مجادلته قوم «١» ثمود لنبيهم صالح، إذ قالوا في محاورتهم وهم يقرعون نبيهم: «إِعِدْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ».

فهذه التعبيرات تشير إلى أن نبي هؤلاء القوم وهو صالح أو هود عليه السلام كان يعدهم بأن أجسامهم سوف تعاد يوم القيامة، إلّا أنّهم عارضوه بشدة وأخيراً ابتلاههم الله بعذاب شديد واهلكهم عن آخرهم بسبب تكذيبهم (كما دل على ذلك ما ورد في هذه الآيات من سورة الحج).

وفي الآية الرابعة كان الحديث عن «أصحاب الشمال» وقد كرر القرآن ذكر هذا المعنى فقال: «وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْأَا لَمَبْعُوثُونَ».

وهذا الذم العنيف في الواقع جاء دفاعاً عن هذه الحقيقة وهي أن العظام التي أصبحت تراباً سوف تلبس ثوب الحياة ثانية.

والآية الخامسة والاحيرة تحدثت عن جميع الكفار أيضاً، قال تعالى: «ذَلِكُمْ جَزَاؤُهُمْ

(١) لم يصرح في الآية المذكورة باسم القوم أو اسم نبيهم، فالبعض يرى أن هؤلاء هم قوم ثمود (قوم صالح) والبعض الآخر يرى أنّهم قوم عاد (قوم هود)، ولكن بالالتفات إلى نوع العذاب (وهو الصيحة) الذي ذكرت في ذيل الآية فإنه من المناسب أن يكونوا هم قوم ثمود.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٤٦

بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَأَنْأَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا».

ويستفاد من هذه الآية بالإضافة إلى ماتقدم بأن منكري المعاد الجسماني هم من أصحاب النار، وهذا دليل آخر لإثبات المدعى ومن خلال الآيات المذكورة نصل بسهولة إلى هذه النتيجة وهي إن الجسم بعد فناءه يعود إلى الحياة مرة أخرى

إشارة

وهذه المجموعة هي عبارة عن الآيات التي صرّحت بخروج البشر من القبور يوم القيامة، فالقبور هي محل رقود الأجسام وهذا واضح من دون الحاجة إلى دليل، وهذا التعبير دليل واضح آخر على المعاد الجسماني.

وقد ورد هذا النوع من الآيات في القرآن بكثرة أيضاً إلا أننا نكتفي بذكر نماذج منها:

١- «وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّارْيَبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ» (١). (الحج / ٧)

٢- «وَنُفِّخَ فِي الصُّورِ فَآذًا هُمْ مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ» (٢). (يس / ٥١)

٣- «قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ».

(يس / ٥٢)

جمع الآيات وتفسيرها

كيف يُبعث من في القبور؟

طُرحت الآيات المذكورة أعلاه تحت ثلاثة عناوين (الخروج من القبور والأجدات

(١) جاء نفس المضمون في سورة الانفطار الآية ٤ والعاديات الآية ٩.

(٢) ورد هذا المعنى في آيتين أخريين من القرآن الكريم (المعارج ٤٣؛ والقمر ٧).

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٤٧

والمركد) وإذا شفعناها بالآيات المشابهة لأصبح عددها سبع آيات، وكل هذه الآيات تبحث بوضوح في مسألة المعاد الجسماني.

ففي الآية الأولى قال تعالى «وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّارْيَبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ».

ومما لا شك فيه هو أن ما يَرْقُدُ في القبور هي أجسام البشر، وهذا التعبير يشير إلى أن ما يُحيى هو ذلك الجسم المادي.

وورد التعبير ب «الأجدات» في الآية الثانية بدلاً من القبور، و «الأجدات» جمع «جَدَث» (على وزن فَفَّض) بمعنى القبر، قال بعض

اللغويين إن «جدث» لغة «أهل تهامة» أما «أهل نجد» فإنهم يستعملون كلمة «جدف» بدلاً عن «جدث».

على أية حال فإنّ هذا التعبير لا يدلّ إلّاعلى المعاد الجسماني، وذلك لأنّ القبور تضم في باطنها أجساد البشر أو عظامهم البالية

وترابهم، وخروج الناس من القبور يوم القيامة هو دليلٌ حيّ على احياء تلك الأجساد.

وفي الآية الثالثة نواجه تعبيراً ثالثاً هو مسألة بعث الأموات من «مرقدهم»، ويتم ذلك بهذا النحو وهو إنّ مجموعة من الكفار عندما

يبعثون من مرقدهم ويرون أنهم عادوا للحياة وقامت القيامة يضحجون بالصياح والعيول ويقولون: «يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا». و

«مرقد» من مادّة «رقود» و «رقاد» بمعنى النوم ليلاً أو نهاراً، ويرى بعض اللغويين أنه يختص بالنوم ليلاً، وقيل أيضاً إنه في الأصل بمعنى

الاستقرار والنوم عند نزول البلايا المعضلات (أى النوم المُسكّن) لذا استُخدم في المكث عند معالجة المعضلات أيضاً.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٤٨

بناءً على هذا ف «المركد» بمعنى المقر ومحل الاستراحة ومحل النوم، واطلق على القبر من أجل أن الميت يتحرر من الابتلاءات النازلة

في هذه الدنيا وكأنه يغرق في القبر في نوم مُسكّن ومُهدىء (١).

واستعمال هذا التعبير بشأن القبور لوجود شبه كبير بين النوم والموت، من أجل هذا قالوا النوم أخ الموت.

وقال البعض: إن هدف المنكرين من استعمال هذا التعبير هو أنهم أرادوا بذلك أن يظهروا شكهم مرة أخرى ولسان حالهم يقول هل كنا نياماً فاستيقظنا أم كنا أمواتاً فعدنا للحياة؟! ولكن لا يلبثون حتى يجيبوا عن سؤالهم هذا ويعترفوا بالحق قائلين: «هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ».

فهؤلاء ومن خلال وصفهم الله ب «الرحمن» كأنهم يريدون التمسك بالرحمة الإلهية بالإضافة إلى اعترافهم بخطئهم لعلهم يصلحون ماضيهم الأسود بسلوكهم هذا الطريق.

ومهما يكن من شيء فإن هذا التعبير دليل آخر على صحة المعاد الجسماني، وذلك لأن المعاد إن كان بالروح فإن ذكر «المرقد» لا يكون له أى معنى

المجموعة الثالثة:

إشارة

وهي الآيات التي تتحدث عن خلق الإنسان من التراب وعودته إلى التراب ثانياً وحشره مرة أخرى منه، مثل:

١- «مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى . (طه / ٥٥)

٢- «وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا».

(نوح / ١٧- ١٨)

٣- «قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ». (الاعراف / ٢٥)

(١) مقاييس اللغة؛ وصحاح اللغة؛ والتحقيق في كلمات القرآن مادة (رقد).

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٤٩

جمع الآيات وتفسيرها

من التراب نخرجكم تارة أخرى

تخللت الآية الأولى قصة موسى وفرعون، لكن الخطاب كان من قبل الله تعالى عندما أشار إلى الأرض في الآيات السابقة، قال تعالى «مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى .

فنحن جميعاً خلقنا من التراب، إما لأننا خلقنا من آدم و آدم من تراب، وإما من أجل أن جميع الأغذية (من نباتات أو حيوانات تتغذى على النباتات) التي ينشأ منها لحمنا وجلدنا وعظامنا، قد خلقت من التراب فمن البديهي أن نعود جميعاً إلى التراب ونبعث ثانية من التراب، وهذا دليل واضح على إثبات المعاد الجسماني، وهذا التعبير، بالإضافة إلى كونه جواباً لمن يقول بعدم إمكان تحقق المعاد بعد تحليل الأجسام وتحولها إلى تراب، وجواباً لمن غفلوا عن كونهم خلقوا من التراب، فهو اندازٌ لجميع الطغاة والمستكبرين المتغترسين أمثال فرعون وأعوانه لاعلامهم بأنهم كانوا في بداية الأمر تراباً وسوف يعودون إلى التراب ويخرجون تارة أخرى من التراب ويحضرون في محكمة العدل الإلهية.

إن أدنى تأمل في مراحل وجود الإنسان يكفى لتحطيم غروره وحياء روح التواضع والتسليم أمام الحق في أعماقه.

والآية الثانية جاءت على لسان النبي نوح عليه السلام حيث شبه الإنسان بالنبات الذى ينبت فى التراب، قال تعالى «وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا* ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ أَخْرَاجًا» (١).

إن استعمال «الإنبات» فى مورد الإنسان تعبير لطيف جداً، والمراد منه هو لفت الأنظار

(١) تقتضى القاعدة فى هذه الآيات بوجوب استخدام كلمة «انباتاً» التى هى مصدر لفعال «أنبتكم» لكن بعض المفسرين يرى أن هناك تقديراً فى الآية على النحو التالى: «أنبتكم من الأرض فنبتكم نباتاً- أو- أنبتكم من الأرض انبات النبات» (تفاسير الكبير؛ وروح الجنان؛ والميزان).

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٥٠

إلى التشابه الكبير بين القوانين السائدة على الحياة النباتية وعلى الحياة الإنسانية، بالإضافة إلى أن الله تعالى لا يُعتبر معلماً للإنسان فحسب، بل هو كالفلاح الذى يزرع البذور فى الجوّ الملائم ويستمر فى سقيها ومداراتها حتى تُخرج ثمرها وهو الاستعداد الذى يكمن فيها!

إننا نعلم بأن النباتات التى تستحق الحياة هى النباتات التى تنبت وتنمو كى تعطى ثمراً وظلماً وتساهم فى تنقية الهواء، فإن لم تكن كذلك فهى لا تنفع إلّا فى استعمالها حطباً، وهكذا الحال فى الإنسان، قال الشاعر الفارسى:

لُتُحْرَقَ الْأَشْجَارُ غَيْرَ الْمُثْمِرَةِ هَذَا جِزَاءً لِلَّذِي لَا يَنْفَعُ! وَعَلَى أَيْةٍ حَالٍ فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ تَدُلُّ بوضوح على تحقق المعاد الجسماني، وذلك لأنها تقول: سوف تعودون إلى التراب وتبعثون منه، فأنتم فى بداية الأمر كنتم تراباً وسوف تُبعثون مرةً أخرى من التراب.

وتحدثت الآية الثالثة عن آدم وحواء ونسلهم، قال تعالى «قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ».

وجملة: «وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ» دليل واضح على تحقق المعاد الجسماني من وجهه نظر القرآن المجيد، ولا يمكن بأى وجه أن تدل على معاد الروح فقط أو على المعاد النصف جسماني (أى بالجسم البرزخي).

كما أن هذا التعبير يشير أيضاً إلى أن مسألة المعاد الجسماني كانت مطروحة على طاولة البحث منذ بداية خلق آدم عليه السلام ولا يختصّ طرح هذه المسألة بعصر ظهور الإسلام ونزول القرآن المجيد.

المجموعة الرابعة:

إشارة

وهى الآيات التى تُشبه بعث الإنسان مرةً أخرى بحياة الأرض بعد موتها، مثل:

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٥١

١- «وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَاحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ». (فاطر / ٩)

٢- «وَاحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَهُ مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ». (ق / ١١)

جمع الآيات وتفسيرها

المعاد يشبه إحياء الأرض بعد موتها

لقد تعرضنا فى هذه الآيات فى البحوث السابقة لمناسبات أخرى وهنا نتعرض لبحثها من زاوية أخرى وهى أن القرآن المجيد شبه

نشور الناس بحياة الأرض عند نزول المطر فقال: «كَذَلِكَ النُّشُورُ». وقال في موردٍ آخر: «كَذَلِكَ الخُرُوجُ».

فهذه التعبيرات والتعبيرات المشابهة لها تتطرق للمعاد الجسماني، وذلك لأن الجسم المادي إذا لم يتلبس بالحياة مرةً أخرى فإنه سوف لن يكون له أى شبه بالأرض التي تحيي بعد موتها، لأنَّ معاد الروح بمعنى بقاءها بعد موت الجسم، فما هو العامل المشترك بين احيائها وحياء الأرض ليكون التشبيه صحيحاً؟!

وكما أشرنا آنفاً فإن القرآن يحتوي على آيات أخرى تحمل نفس هذه المضمون أيضاً وردت بعبارات وصورٍ مختلفةً تدل جميعها على تحقق المعاد الجسماني.

المجموعة الخامسة:

إشارة

وهي الآيات التي تشير إلى شدّة مخالفة اعداء نبي الإسلام صلى الله عليه وآله أو سائر الأنبياء في مسألة المعاد، اولئك الذين كانوا يرون أن الاعتقاد بمسألة الاحياء بعد الموت ضربٌ من الجنون (والعياذ بالله) وكانوا يعدّونه من الامور العجيبة غير المألوفة. فلو كان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يدعو الناس للتصديق بمسألة تحقق المعاد بالروح فقط لما كان هذا من العجائب طبعاً، وذلك لأنّ عرب الجاهلية كانوا يعتقدون ببقاء الروح ولم يكن بقاء الروح آنذاك أمراً عجيباً.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٥٢

وبالإضافة إلى ذلك تشير هذه الآيات إلى أن تعجب هؤلاء نابع من عدم تصديقهم بإمكانية جمع أجزاء الإنسان التي تحللت في التراب.

فلنتأمل الآن بهذه الآيات:

١- «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَيْلًا نَدْلُكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُبْتَلِكُمْ إِذَا مَرَّكُمْ كُفْلٌ مُّزَقَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ* افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ». (سبأ/ ٧- ٨)

٢- «إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ». (المؤمنون/ ٣٨)

جمع الآيات وتفسيرها

هل يمكن أن نخلق من التراب ثانية؟

قد تعرضنا سابقاً لتفسير هذه الآيات أيضاً، لكننا هنا ننظر إليها من زاوية أخرى جديدة، وكل ما في الأمر أن المشركين الذين عاصروا النبي صلى الله عليه وآله والذين هتّبوا لمعارضته قالوا: لقد ظهر رجلٌ يدّعى بأنكم سوف تُبعثون مرةً أخرى بعد أن تتحولوا إلى ترابٍ وينتشر ترابكم في كلِّ صوب، ثم يصفون هذا الادّعاء بالافتراء على الله وأن قائله أصابه مسٌ من الجنون، أى أنه إن لم يكن مجنوناً فقد افتري على الله كذباً كى يخدع الناس بذلك، وإلاً فإنه تحدّث بهذا بسبب ما أصابه من الجنون!

وفي الآية الثانية نواجه نفس هذا المعنى أيضاً، فهذه الآية تحدّثت عمّا جاء على لسان قومٍ ثمود عند مقابلتهم لنبيهم صالح، فعندما تحدّث لهم النبي صالح عليه السلام عن المعاد غضبوا عليه وعدّوا ذلك نوعاً من الافتراء والكذب على الله!

لقد كانت جميع هذه الاعتراضات التي جُوبه بها نبي الإسلام صلى الله عليه وآله أو النبي صالح عليه السلام أو سائر الأنبياء منبثقة من دعوة الأنبياء الناس للتصديق بتحقيق المعاد الجسماني، فإن لم يكن الأمر كذلك فما معنى هذه الاعتراضات الشديدة، فهذه الامور

تعتبر أدلة اخرى مما ورد في القرآن المجيد لإثبات تحقق المعاد الجسماني.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٥٣

المجموعة السادسة:

إشارة

وهي الآيات التي تحدثت عن أنواع النعم المادية في الجنة كالفواكه والأنهار والأرائك وأنواع الشراب وأنواع الملابس الفاخرة والظل وأنواع الأشجار وعن جميع الملاذ الجسمية الاخرى وعدد ما ورد في القرآن من هذه الآيات مما لا يحصى ومن البديهي عدم إمكانية حمل جميع معانيها على المجاز فنصرف الألفاظ عن معناها الحقيقي من دون اي قرينه، فرغم اختلاف هذه الفواكه والأشربة والملابس والأطعمة الموجودة في الجنة عن أمثالها في الدنيا وبالرغم من أننا اسارى هذه الدنيا المحدودة وأنا لا نتمكن من درك تلك الآفاق بصورة مثلى إلا أن هذه النعم مهما كانت كفياتها فهي نعم مادية ولا يكون ذكرها مناسباً إلا من أجل تحقق المعاد الجسماني.

بالإضافة إلى عدم انحصار نعم الجنة بالنعم المادية وأن هناك نعماً ومواهب معنوية وروحية لا مثيل لها أيضاً إلا أن هذه النعم لا تتنافى مع وجود النعم المادية.

وبتعبير آخر: بما أن المعاد يتحقق بالجسم والروح معاً فإن نعم الجنة لها حيثية مادية وروحية معاً، بناءً على هذا لا يصح أن نحصرها في البعد الروحي ونغض النظر عن جميع هذه الآيات الواضحة.

أما بالنسبة لعدد هذه الآيات فإنه قد يبلغ المئات، وما نذكره من نماذج فيما يلي هو من سورة واحدة من القرآن المجيد وهي سورة الرحمن فمن أراد تفصيلاً أكثر عليه تتبع باقي الآيات في مواضع اخرى من القرآن:

١- «وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ». (الرحمن / ٤٦)

٢- «ذَوَاتَا أَفْنَانٍ». (الرحمن / ٤٨)

٣- «فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ». (الرحمن / ٥٠)

٤- «فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ». (الرحمن / ٥٢)

٥- «مُتَكَبِّرِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ». (الرحمن / ٥٤)

٦- «وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ». (الرحمن / ٥٤)

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٥٤

٧- «وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ». (الرحمن / ٦٢)

٨- «فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ». (الرحمن / ٦٦)

٩- «فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ». (الرحمن / ٦٨)

١٠- «فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ». (الرحمن / ٧٠)

١١- «حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ». (الرحمن / ٧٢)

١٢- «لَمْ يَطْمِئْتَهُنَّ أَنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ». (الرحمن / ٧٤)

١٣- «مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ». (الرحمن / ٧٦)

جمع الآيات وتفسيرها

نعم الجنة المادية دليل على تحقق المعاد الجسماني

كما لاحظتُمْ فَإِنَّ سورة الرحمن لوحدها والتي تعتبر من قصار السور تقريباً قد احتوت على اثني عشر نوعاً من نعم الجنة المادية على الأقل، وهذه الأنواع هي: بساتين الجنة والأشجار المثمرة المتنوعة والفواكه المختلفة التي تدنو من أهل الجنة ليسهل قطفها، وفرش الجنة المصنوعة من قماش ناعم وجميل والزوجات الباكرات اللواتي يشبهن الياقوت والمرجان لشدة جمالهن والعيون الجارية والخور المستورات في خيام الجنة والأرائك المزينة بأنواع الأقمشة الجميلة التي يتكى عليها أهل الجنة وما شابه هذه النعم.

وقد ورد في القرآن ذكر نماذج أخرى أيضاً في سور أخرى كثيرة جداً كأنهار الجنة التي تحتوى على أشربة مختلفة والأواني المختلفة التي يستخدمها أهل الجنة وغرف الجنة وأرائكها التي يتكئون عليها متقابلين يتسامرون.

فقد ورد ذكر هذه النعم المادية في الآيات بصورة متتالية أحياناً وهذا النحو من ذكر الآيات لا يبقى أى مجال للشك والتردد في أنها نعم مادية فلنتأمل بالإضافة إلى ماسبق في عدة آيات قصيرة وجميلة من سورة «الغاشية»:

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٥٥

«وَجُودٌ يُؤْمِنُ نَاعِمَةً». (الغاشية/ ٨)

«فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ». (الغاشية/ ١٠)

«فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ». (الغاشية/ ١٢)

«فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ». (الغاشية/ ١٣)

«وَإِكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ». (الغاشية/ ١٤)

«وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ». (الغاشية/ ١٥)

«وَزَرَاجِبٌ مَّثْبُوتَةٌ». (الغاشية/ ١٦)

ففي هذه السورة التي بلغ عدد آياتها ستاً وعشرين آيةً قد اختصت سبع آيات منها بالمعاد الجسماني ونعم الجنة المختلفة، فإذا أردنا احصاء جميع آيات القرآن التي اختصت بهذا المبحث فإننا بهذا نحصل على عدد كبير من هذه الآيات.

ومن الضروري هنا أيضاً أن نوضح أمرين:

١- إن نعم الجنة لا تقتصر على النعم المادية فحسب، بل تحتوى على نعم روحية ومعنوية كثيرة أيضاً- سوف نتطرق لبحثها باذن الله في محلها المناسب-، ولكن هل من الممكن أساساً أن يوفّر الله تعالى جميع هذه النعم المادية لتنعّم الجسم بها من دون أن يوفّر النعم والمواهب الملائمة للروح التي تعتبر الجزء الرئيسي في وجود الإنسان والتي هي أرقى وافضل من الجسم من جميع النواحي؟ كلا طبعاً، لكنّ عدم ذكر هذه النعم هو لسبب قصور الألفاظ عن بيانها وشرحها ولعدم امكان دركها إلّا عن طريق الوصول إليها، من أجل هذا لم يأت شرحها في القرآن المجيد، ولكن رغم ذلك فقد وردت عدة تعابير غامضة ومختصرة وجذّابة في هذا المجال لبيان عمق وعظمة هذه النعم، وسوف نتحدث عنها بالتفصيل في بحثٍ مستقل.

٢- إن البعض تجرأ في تاويل جميع هذه الآيات بجساره وحملها على مفاهيم خارجة عن دلالة ظاهر ألفاظها وعدّها كناية عن النعم المعنوية، لكنّ القواعد المعروفة في باب الألفاظ لا تسمح لنا أبداً بأن نرتكب مثل هذا العمل، فإذا ما سمحنا لأنفسنا باستخدام هذه

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٥٦

التأويلات فإنه سوف لن يبقى هناك أى معنى لحجّة الظواهر وسوف تخرج الألفاظ عن كونها وسيلة لنقل المفاهيم وتفقد أصالتها وأهميتها بالمرّة، وهذا العمل نوع من التجزى على الله والقرآن المجيد.

المجموعة السابعة:

إشارة

وهي الآيات التي تحدثت عن جزاء المجرمين وعقابهم يوم القيامة، وهذه العقوبات لها حيثية مادية، فإذا كان المعاد بالروح فقط فإنه يجب أن نحمل جميع هذه التعبيرات على معانيها المجازية، وهو عمل غير مسموح به أبداً. وهنا يجب أن نذكر ثانية بأن عقوبات يوم القيامة على نوعين: عقوبات معنوية وعقوبات مادية، وقد ورد ذكر كلا النوعين في آيات القرآن رغم تركيز القرآن على ذكر العقوبات المادية، وذلك لما أشرنا إليه في البحث السابق.

أما بالنسبة لعدد هذه الآيات فهو كثير جداً، ولنمعن فيما يلي بنماذج منها:

١- «وَاصْحَابُ الشَّمَالِ مَا اصْحَابُ الشَّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٌّ مِّنْ يَحْمُومٍ * لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٍ». (الواقعة / ٤١-٤٤)

٢- «يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ».

(التوبة / ٣٥)

٣- «... وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ».

(التوبة / ٨١)

٤- «... كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ». (محمد / ١٥)

٥- «يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ». (القمر / ٤٨)

٦- «تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً * تُشْقَى مِنْ عَيْنِ آيَةٍ * لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ صَرِيحٍ * لَا يُشْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ». (الغاشية / ٤-٧)

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٥٧

٧- «أَنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ * طَعَامُ النَّائِمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ». (الدخان / ٤٣-٤٦)

جمع الآيات وتفسيرها

دليل آخر على كون العذاب المادي في جهنم

يتضح الجانب الذي يخص بحثنا في تفسير هذه الآيات بشكل كامل، بدون حاجة للاطالة فيه لأن الآيات تحدثت عن نار جهنم التي يسحب المجرمون فيها على وجوههم.

وفيه نار وقودها كنوز الدراهم والدنانير التي لم تدفع الحقوق الإلهية منها فتحمى وتكوى بها جباه أصحابها وجنوبهم وظهورهم.

وكذلك ورد فيها الحديث عن الرياح ذات السموم القاتلة، وماء الحميم، وظلل من النار التي تنتظر المجرمين.

وكذلك جاء الحديث فيها عن الوجوه التي ترد جهنم وعن العيون الآنية التي يسقون منها ولا طعام لهم فيها إلا الصريع.

وتحدثت عن شجرة الزقوم التي هي طعام المذنبين وكذلك عن الشراب الحميم الذي هو كالمهل يغلي في البطن.

هذه الشواهد كلها وما شابهها دلائل واضحة على المعاد الجسماني.

المجموعة الثامنة:

إشارة

وهي الآيات التي تتحدث عن أعضاء جسم الإنسان مثل اليد، والرجل، والعين، والاذن، واللسان، والوجه والجلد، وجميعها تدل على المعاد الجسماني.

ومثل هذه الآيات كثيرة في القرآن الكريم وسنلقى النظر على النماذج التالية.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٥٨

١- «الْيَوْمَ نَخِمْ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ». (يس / ٦٥)

٢- «حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

(فصلت / ٢٠)

٣- «وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ».

(فصلت / ٢١)

٤- «فَأَمَّا مَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَذَا مَا أقرءوا كِتَابِيهِ ... وَأَمَّا مَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُوْتِ كِتَابِيهِ». (الحاقة / ١٩-٢٥)

٥- «وَجُودُهُ يُومِنِدُ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ * وَوَجُودُهُ يُومِنِدُ عَلَيْهَا عَبْرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتْرَةٌ». (عبس / ٣٨-٤١)

جمع الآيات وتفسيرها

تكلّم أعضاء الجسم دليل ملموس آخر

بما أننا سنتعرّض لتفسير هذه الآيات في مباحث أخرى مثل بحث شهود يوم القيامة وبحث كتب الأعمال فإننا هنا نتعرض لتفسيرها بصورة إجمالية ولا نبعتها إلّا من بُعد واحد وهو (كيفية دلالتها على المعاد الجسماني).

فالآية الأولى تحدثت عن ختم الأفواه وتوقف اللسان عن النطق بصورة مؤقتة وتكلّم الأيدي والأرجل للدلاء بالشهادة على الأعمال التي ارتكبتها الإنسان في الدنيا.

ومن البديهي أنّ هذه المسألة لا تنسجم سوى مع المعاد الجسماني، لأنّ المعاد إنّ كان ذا بعد روي فقط لما كان هناك أيدي وأرجل ولما كان هناك لسان وفم ولا أي نوع من التكلم.

وتحدثت الآيتان الثانية والثالثة عن شهادة الأذن والعين والجلد في يوم القيامة على الأعمال التي ارتكبتها الإنسان.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٥٩

وإدلاء تلك الأعضاء بالشهادة قد يكون بواسطة اعطائها القدرة على النطق أو بلسان الحال، وذلك لأنّ الأذن والعين واليد والرجل والجلد تُسجّل الأعمال في داخلها وتحفظ بها وتظهر آثارها في يوم القيامة الذي هو «يوم البروز» (سوف يأتي شرح هذه المطالب- باذن الله- في بحث أشهاد يوم القيامة).

وتحدثت الآية الرابعة عن الذين يأتون يوم القيامة وهم يحملون كتاب أعمالهم بيدهم اليمنى (للدلالة على موفقيتهم وطهارتهم وفوزهم) فيدعون الناس في المحشر بكل فخر واعتزاز لمطالعة كتب أعمالهم! وأمّا الذين يحملون كتب أعمالهم بيدهم اليسرى للدلالة على سوء أعمالهم فإنهم ينادون بأعلى أصواتهم: ليتنا لم نؤت هذه الكتب!

والحديث هنا لم يقتصر على أعضاء البدن المختلفة فحسب بل قد أشير إلى اليد اليسرى واليمنى أيضاً.

وفي الآية الخامسة كان الحديث عن وجوه الصالحين المشرقة ووجوه الطالحين والمذنبين المغبرة المظلمة، وهذه الامور تدلّ أيضاً على أنّ المعاد يتحقق بإعادة الجسم.

وبالإضافة إلى ماتقدم من نماذج هناك آيات كثيرة أخرى في القرآن تحدثت عن الأغلال والسلاسل التي تثقل اعنان المذنبين كما جاء في (سورة إبراهيم / ٤٣) و (الإنسان / ٤).

وهناك آيات أخرى تحدثت عن ظواهر تعرض على الجسم كضحك المؤمنين: «فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ». (المطففين / ٣٤)

كما أشير في بعض الآيات إلى يوم القيامة بأنه يوم رهيب تشخص فيه الأبصار من شدة الخوف وتقف الاعناق عن الحركة وتبقى الوجوه مرتفعة نحو الأعلى ولا يرتد طرفهم وتبقى عيونهم مفتوحة من شدة الخوف والرعب: «أَنَّمَا يُؤَخَّرُهُمْ لِيَوْمَ تَشْخَصُ فِيهِ الْبَصَارُ* مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لَأَيَّرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ». (إبراهيم / ٤٢-٤٣)

وتحدثت بعضها عن عَضِّ الظالمين ايديهم حسرة على ما فاتهم: «وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ». (الفرقان / ٢٧) وأمثال هذه الآيات.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٦٠

فهل يمكن أن تُحمل جميع هذه الآيات على الكناية والمجاز من دون أي دليل واضح، وأن نضرب القواعد المسلمة في استعمال الألفاظ عرض الحائط؟!

المجموعة التاسعة:

إشارة

وهي الآيات التي أشارت إلى نماذج عينية من تحقق المعاد على مَرِّ التاريخ كقصه إبراهيم مع الطيور وقصة عزيز أو أرمينيا عليه السلام وكقصه أصحاب الكهف وأحداث قتل بنى إسرائيل التي مَرَّ شرحها بالتفصيل تحت عنوان «النماذج العينية والتاريخية لتحقيق المعاد» (١).

فجميع هذه النماذج تدل بوضوح على أن المعاد لا يختص بالجانب الروحي فحسب، بل تهتم بالجانب المادى أيضاً، وإن استفسار الناس والأنبياء عن مسألة المعاد يدور حول محور الحيثية المادية للمعاد وإراءة تلك النماذج لم يتم إلّا من أجل إثبات الجانب المادى للمعاد.

وبما أننا تعرضنا بالتفصيل لبيان هذه الآيات فإننا لا نرى ضرورة في إعادة شرحها هنا.

ثمره البحث:

بالاعتماد على المجموعات التسع من آيات القرآن المجيد التي تحدثت عن المعاد الجسماني بكل وضوح وطرحت تلك المسألة بطرق مختلفة وبيانات متنوعة لن يبقى أى مجال للشك في أن مسألة تحقيق المعاد الجسماني (بمحاذاة المعاد الروحي) هي من الامور القطعية الحدوث من وجهة نظر القرآن المجيد وهذه المجموعات هي:

١- الآيات التي تحدثت عن إعادة العظام الرميم إلى الحياة مرة أخرى

(١) راجع الصفحة ١٥٧ من هذا الكتاب.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٦١

٢- الآيات التي تحدثت عن بعث من فى القبور.

٣- الآيات التي تحدثت عن خلق الإنسان من التراب وإنه سوف يعود إليه ثم يبعث منه مرة أخرى

٤- الآيات التي شَبَّهت احياء الموتى باحياء الأرض الميتة.

٥- الآيات التي تحدثت عن مواقف اعداء الإسلام الصارمة ازاء مسألة تحقق المعاد (على الرغم من أن أكثر هؤلاء كانوا يؤمنون بمعاد الروح إلا أنهم كانوا يتعجبون من تحقق المعاد الجسماني).

٦- الآيات التي تحدثت عن أنواع النعم المادية في الجنة.

٧- الآيات التي تحدثت عن أنواع العقوبات المادية في نار جهنم.

٨- الآيات التي تحدثت عن اعضاء جسم الإنسان وما يطرأ عليها يوم القيامة كالعين والاذن واليد والرجل والوجه والعنق، وأخيراً الآيات التي أشارت إلى نماذج عينية من تحقق المعاد.

ونظراً لصراحته وكثرة تلك الآيات يجب الاعتراف بأن المعاد الجسماني هو من الضروريات من وجهة نظر القرآن المجيد، أما اولئك الذين يبحثون عن طريق آخر فإنهم غرباء عن القرآن وتعاليمه.

من هنا نتجه لذكر توضيحات هذا البحث، لنذكر الأدلة التي اقيمت على إثبات المعاد الجسماني ثم نذكر ما أورده المخالفون بقالب منطقي وتعرض لنقد تلك الايرادات.

توضيح

المعاد الجسماني في مقياس العقل:

هل يمكن إثبات المعاد بهذا الجسم المادى المؤلف من العناصر المادية عن طريق العقل أم لا؟

يرى البعض عدم وجود دليل عقلي مقنع لاثبات هذه المسألة كما أنه لا يوجد دليل على

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٦٢

نفيها أيضاً، وبما أننا لانمتلك دليلاً على استحالة ذلك فإننا نكتفى في هذا المجال بأدلة كتاب الله والسنة من دون تأويل ظواهرهما «١» وبتعبير آخر إن دليل العقل يعجز عن إثبات هذه المسألة فعندما يتمكن الدليل العقلي من إثبات ذلك فإنه لا يبقى أمامنا سوى التسليم للدليل النقلى.

هذا بالإضافة إلى ما يراه البعض من أن المعاد الجسماني مطابق للدليل العقلي ويقولون بأن روح الإنسان تنمو بموازاة نمو البدن وترتقى معه إلى الكمال. لذا فإنه توجد هناك رابطة وثيقة بين «الروح» و «البدن» فتؤثر حالات كل منهما في الآخر، فالآلام الجسمية تؤثر على الروح كما أن الآلام الروحية تؤثر على الجسم أيضاً، فالسكينه وراحة البال في كل منهما له تأثير إيجابى على الآخر بصورة تامة.

على هذا فإن الروح والجسم رفيقان حميمان ينشآن وينموان معاً.

ولا شك في أن الموت يقطع هذا الارتباط بصورة مؤقتة، ولكن من أجل إقامة العدالة الإلهية والوصول إلى العقاب والثواب التام يجب أن تعاد تلك الرابطة على مستوى ارقى كى يتم لقاء الروح برفيقها الحميم ليتمكن من التحرك ونيل المواهب المعنوية والمادية التي اعدت لها في الآخرة أو تحمّل العذاب إن كانت تستحق العقاب.

وقصارى القول إن إعادة كل واحد من هذين الاثنين بمفرده يعنى وجود نقص فى المعاد وكمال المعاد لا يتم إلا عن طريق إعادةتهما معاً.

ورغم أن الروح هي التي تتلقى العقاب أو الثواب واللذة أو الألم لكننا نعلم جيداً بأن الكثير من هذه الآلام والملاذ تتلقاها الروح عن

طريق الجسم، فإذا عُدِمَ الجسم فإنَّ قسماً كبيراً من هذه الملاذ أو الآلام لن يبقى لها أى تأثير. بناءً على هذا فالعقل يقول: يجب أن يقترن هذان ببعضهما فى الآخرة كما كانا مقترنين فى الدنيا، وذلك لأنَّ كل واحد منهما يعتبر ناقصاً لو حده (فتأمل).

(١) قال المرحوم العلامة المجلسى فى بحار الأنوار: إنَّ المعاد الجسمانى هو من المسائل المتفق عليها بين الأديان ويعدُّ من ضروريات الدين، ومن أنكر ذلك فقد خرج عن الإسلام. فالآيات صريحة الدلالة على ذلك ولا تقبل التأويل كما أنَّ الأخبار متواترة فى هذا المجال ولا تقبل الإنكار (بحار الأنوار، ج ٧، ص ٤٧).
نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٦٣

شبهات جاحدى المعاد الجسمانى

إشارة

لنرى هنا ما هو السبب الذى دعا عدداً من الفلاسفة وغيرهم لانكار مسألة المعاد الجسمانى؟ وما هى العوامل التى دفعتهم لقبول هذا الاعتقاد؟

ومن خلال تتبع كلماتهم يُلاحظ بأنَّ «العوامل الثمانية» التالية هى السبب فى مخالفتهم لهذا الاعتقاد:

- ١- استحالة إعادة المعدوم.
 - ٢- شبهة الأكل والمأكل.
 - ٣- معضلة تبدل خلايا الجسم طيلة عمر الإنسان.
 - ٤- شحة العناصر الترابية على قشرة الأرض.
 - ٥- إذا ما تحقق المعاد الجسمانى على الكرة الأرضية فسوف تظهر معضلة اخرى وهى شحة المكان.
 - ٦- كيف يحصل الجسم الذى من صفاته الفناء على حياة خالدة؟
 - ٧- لا يمكن الجمع بين عودة الأرواح والأجسام.
 - ٨- نحن نعلم بأنَّ جسم الإنسان يتبدل عدَّة مرَّات طول فترة حياته، فهل تعود إليه جميع تلك المكونات عند المعاد أم لا- يعود إلَّا بعضها؟
- ولنبداً ببحث كل واحد من هذه الإشكالات المذكورة:

١- استحالة «إعادة المعدوم»

إنَّ عدداً من علماء العقائد نقلوا البحث فى مسألة المعاد إلى بحث إعادة المعدوم وقالوا:

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٦٤

بما أنَّ جسم الإنسان يفنى عن آخره فإنَّ إعادته يوم القيامة من قبيل إعادة المعدوم، ونحن نعلم باستحالة إعادة المعدوم، فمن هنا تصبح مسألة المعاد الجسمانى أمراً معضلاً.

ولكننا لو أمعنا النظر فى هذه المسألة لتبين بأنَّ إعادة المعدوم بتلك الصورة ليس بمحال، ويتضح أيضاً بأنَّ المعاد ليس من قبيل إعادة المعدوم.

توضيح ذلك: لقد استدل الفلاسفة بأدلة متعددة على استحالة إعادة المعدوم، حتى أنهم يرون بأن استحالة إعادة المعدوم إلى الوجود من الامور البديهية، وذلك لأن إعادة الشيء يجب أن تكون إعادة من جميع الجهات، ومن البديهى أن الشيء الذى كان موجوداً بالأمس يستحيل أن يعاد اليوم بجميع خصوصياته، وذلك لأن «وجوده بالأمس» هو من أحد خصوصياته فكيف يمكن أن نجتمع بين اليوم والأمس فى آن واحد؟ هذا عين التناقض.

ولكن إذا ما صرفنا «النظر عن هذه الخصوصية بالذات فإنه لا يبقى أى مانع من إعادة عين الموجود الأول بجميع خصوصياته باستثناء خصوصية الزمان. ومن البديهى أن الموجود الجديد لا يكون عين الموجود السابق بالدقة التامة بل هو مثله، بهذا يعود النزاع فى مسألة استحالة أو عدم استحالة المعدوم إلى نزاع لفظى، فالمنكرون يقولون باستحالة إعادة جميع الحثيات، بينما يقول المؤيدون بإمكان الإعادة بجميع الحثيات «باستثناء الزمان».

ومما لا شك فيه أن أنصار تحقق المعاد الجسمانى لا يعتقدون بإعادة نفس الموجود المقيّد بالزمان الماضى، بل بإعادة الشى فى زمان آخر فهو عين الموجود السابق من جهة ومثله من جهة أخرى (فتأمل).

وإذا ما تجاوزنا ذلك لا- يُعتبر المعاد من مصاديق إعادة المعدوم، وذلك لأن الروح لا تفنى وتبقى بعينها، وبالرغم من اضمحلال الجسم وتفزقه فهو «لا يفنى أيضاً، بل يتحوّل إلى تراب، وكل ما فى الأمر أنه يفقد شكله الظاهرى فيعاد إليه يوم القيامة شكله السابق. فإذا كان المراد من إعادة المعدوم إعادة الصورة فحسب فإن ما يعاد يوم القيامة هو صورة مشابهة للصورة السابقة، لكن بقاء الروح مع وحدة مادة الجسم هما العامل الرئيسى لحفظ وحدة

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٦٥

شخصية الإنسان، لذا يمكننا القول: إن الإنسان هو نفس الإنسان السابق، لأن روحه عين تلك الروح ومادة جسمه عين تلك المادة والفارق الوحيد هو إن صورة الجسم تشبه الصورة السابقة لا عينها، ومن المحتمل أن يكون التعبير «مثل» كما فى قوله تعالى: «أَوَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ؟»! يشير إلى هذا المعنى (يس / ٨١) والطريف هو ما روى عن الإمام الصادق عليه السلام فى تفسير هذه الآية: «كَلِمًا نَضَجَتْ جُلُودُهُمْ يَدْلُنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لَيَدُوقُوا الْعَذَابَ». (النساء / ٥٦)

فى جوابه عليه السلام عن سؤال «ابن أبى العوجاء» عندما سأل الإمام عليه السلام: ما ذنبُ الغير؟ (أى الجلود الاخرى ، فأجابه الإمام عليه السلام: «هى وهى غيرها»). فطلب ابن أبى العوجاء توضيحاً أكثر وقال: اضرب لى مثلاً فى هذا المجال ممّا اعتدناه فى هذه الدنيا! قال الإمام عليه السلام:

«أرأيت لو أن رجلاً أخذ لبنه فكسرها ثم ردّها فى ملبنها، فهى هى وهى غيرها!» (١).

٢- شبهة الأكل والمأكول

إشارة

إن شبهة «الأكل والمأكول» هى مسألة اخرى من المسائل التى طرحت على طاولة البحث وهى فى الحقيقة من أكثر معضلات مباحث المعاد الجسمانى من ناحية التعقيد.

و توضيح ذلك: يتفق فى بعض الأحيان أن تحل بعض أجزاء بدن أحد الناس فى بدن شخص آخر، إمّا بصورة مباشرة كما يحصل ذلك عند حصول المجاعات حيث يتغذى بعض الناس على لحوم البشر، وإمّا بصورة غير مباشرة كما لو تحللت أجزاء الإنسان وتحولت إلى تراب فتتغذى النباتات من ذلك الجسم فيأتى إنسان آخر ويتغذى من تلك النباتات (كالخضر والحبوب والفواكه)، أو

أن يتغذى أحد الحيوانات على تلك النباتات يأكل الإنسان الآخر لحم تلك الحيوانات، كما أنه من الممكن أن تتحلل بعض أجزاء جسم

(١) بحار الأنوار، ج ٧، ص ٣٨، ح ٦، وقد جاء نفس هذا المعنى في حديث آخر بصورة مختصرة (المصدر السابق، ص ٣٩، ح ٧) وقد ورد ذكر الحديث المذكور في نور الثقلين أيضاً في التعليق على الآية ٥٦ من سورة النساء.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٦٦

الإنسان وتحوّل إلى بخار وغازات فيستنشقها إنسان آخر فتحلّ في جسمه.

ومن الممكن أيضاً أن تحل جميع أجزاء بدن الإنسان في بدن إنسان آخر بالتدريج.

من هنا يُطرح هذا السؤال وهو: بأيّ جسم تختص هذه الأجزاء عندما تعود الروح إلى البدن؟ فإن كانت مختصة بالجسم الأول فالأجسام الأخرى تكون حينئذٍ ناقصة وإذا ما اختصت بالأجسام الأخرى فسوف لن يبقى للجسم الأول شيء، وبالإضافة إلى هذا من المحتمل، أن يكون أحد الشخصين صالحاً والآخر مذنباً فما مصير هذه الأجزاء في هذه الحالة؟

كما يستفاد أيضاً من سبب نزول الآية ٢٦ من سورة البقرة في قصة إبراهيم عليه السلام والطيور الأربعة أن سؤال إبراهيم عليه السلام كان منحصراً في مجال المعاد الجسماني وشبهه الأكل والمأكل، وذلك لأنّ الحيوان الميت الذي شاهده إبراهيم عليه السلام على ساحل البحر كان قسم منه في ماء البحر وكانت تتغذى عليه حيوانات البحر وكان القسم الآخر على اليابسة وكانت تأكل منه الحيوانات البرية، وهذا المشهد هو الذي جعل إبراهيم عليه السلام يغرق في التفكير ثم عرض طلبه على الله لمشاهدة كيفية إعادة الحياة للموتى الجواب:

قد اجيب عن هذا الإشكال القديم بأجوبة مختلفة، وأشهر هذه الأجوبة هو التمسك بعدم فناء «الأجزاء الأصلية».

قال أنصار هذه النظرية: إنّ جسم الإنسان مركب من أجزاء أصلية وغير أصلية، فالأجزاء الأصلية هي التي لا تعرض عليها الزيادة ولا النقصان، وغير الأصلية ما تعرض عليها الزيادة والنقصان باستمرار.

فالأجزاء الأصلية تحافظ على بقائها بعد موت الإنسان وإذا ما تحولت إلى تراب فإنّ ذلك التراب لن يحل في جسم موجود آخر، وفي يوم القيامة تنمو هذه الأجزاء فيتكون منها

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٦٧

جسم الإنسان ثم تحلّ فيها الروح.

وقد دعموا هذه النظرية بذكر عدّة روايات والتي منها: ما رواه مصدق بن صدقة عن عمار بن موسى عن الإمام الصادق حيث سئل عليه السلام عن الميت يبلى جسده، قال: «نعم حتى لا يبقى لحم ولا عظم إلّا طينته التي خلق منها فأنها لا تبلى، تبقى في القبر مستديرة حتى يخلق منها كما خلق أول مرّة» (١).

وجاء في رواية أخرى مرسله عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً في قصة ذبح بقرة بني اسرائيل أنه قال: «فأخذوا قطعةً وهي عجب الذنوب الذي منه خلق ابن آدم، وعليه يُركب إذا أريد خلقاً جديداً فضرّبوه بها» (٢).

الجدير بالذكر أنّ الرواية الثانية ضعيفة السند لأنها مرسله، أمّا الرواية الأولى فهي ضعيفة أيضاً لحصول الاختلاف بين علماء الرجال في «عمرو بن سعيد» بالإضافة إلى أنّ هذه الروايات مخالفة لظاهر القرآن - كما سيأتي شرحه -، لذا فلا يمكن التعويل عليها.

ومهما يكن من شيء فإنّ العلوم التجريبية الحديثة أبطلت هذا الرأي من الأساس فهي لا ترى أي فرق بين أجزاء الجسم وترى أنّ جميع أجزاء جسم الإنسان تتحول إلى تراب ومن الممكن أن تحل جميعها في أجسام أفراد آخرين.

وقد أثبت التجارب خلاف ما يعتقد أنصار نظرية الأجزاء الأصلية من أنّ الحلقة الأخيرة من العمود الفقري التي تسمى «عجب

الذنب» هي الجزء الأصلي من أجزاء البدن وأنها لا تفنى بمرور الزمان وكثيراً ما شاهدنا تبدل جميع أجزاء البدن إلى رماد عند نشوب الحرائق كما أننا لم نشاهد أى فرق بين أجزاء الرماد المتخلف منها أيضاً.

وحتى لو تجاوزنا ذلك فإن النظرية المذكورة لا توافق ظاهر القرآن، لأن القرآن عندما أجاب عن إشكال الأعرابي الذي كان يحمل بيده عظماً رميمًا قال: «قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ* قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ». (يس / ٧٨-٧٩)

(١) بحار الأنوار، ج ٧، ص ٤٣، ح ٢١.

(٢) المصدر السابق، ح ١٩.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٦٨

فإنه من المستبعد جداً أن الأعرابي كان يحمل الحلقة الأخيرة من العمود الفقري عندما سأل عن ذلك.

كما يستفاد أيضاً من ظاهر قصة إبراهيم عليه السلام مع الطيور الأربعة أن الأجزاء المتفرقة تعود جميعها إلى ما كانت عليه سابقاً. وعلى أية حال لا يمكن الاعتماد على جواب هذه النظرية نظراً لما توصل إليه العلم الحديث، ونظراً للاستناد إلى آيات القرآن الواردة في هذا المجال، كما أنه لا يمكن الاعتماد على خبر الواحد لإثبات هذه النظرية.

وقد سلك آخرون للرد على «شبهه الأكل والمأكول» طريقاً آخر فقالوا: ليس من الضروري أن تعاد نفس الأجزاء السابقة لجسم الإنسان، لأن شخصية الإنسان تكمن في الروح، وإذا ما حلت الروح في جسم ما فسوف يكون ذلك المركب عين الإنسان السابق، على هذا سوف لن يمس وحدة شخصية الإنسان أى ضرر بسبب التحولات التي طرأت على الجسم بسبب طول المدّة وتبدل الأجزاء بأجزاء أخرى

بناءً على هذا فلا يوجد هناك مانع من أن يخلق الله جسماً آخر لتحل فيه الروح، فتنعم الروح بواسطة هذا الجسم بنعم الجنة أو تتعذب بواسطة بعقوبات النار، فنحن نعلم بأن اللذة والألم يتعلقان بالروح وما الجسم إلا واسطة لا أكثر! لكن هذا الجواب غير صحيح أيضاً، لمعارضته ظاهر كثير من الآيات القرآنية، وقد مرّ علينا في البحوث السابقة تصريح القرآن بأن عين تلك العظام المتفسخة تخرج يوم القيامة من عين تلك القبور التي دُفنت فيها، لا أن الله يخلق جسماً آخر لتحل فيه الروح. بناءً على هذا فالجواب المذكور يفتقد القيمة العلمية أيضاً.

الجواب النهائي لشبهه الأكل والمأكول:

إن الجواب المتين الذي أُجيب به عن هذه الشبهة يحتاج إلى ذكر عدّة مقدمات:

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٦٩

١- نحن نعلم بأن أجزاء بدن الإنسان منذ مراحل الطفولة وحتى نهاية العمر تتبدل عدّة مرات، وهذا التبدل يشمل خلايا المخ أيضاً على الرغم من أن البعض يرى أن عددها ثابت إلا أن محتواها متغير، وذلك لأنها تحتاج إلى «التغذية» من جهة و«تحلل» وتتفسخ من جهة أخرى وهذان الأمران هما السبب في تبدل محتوياتها بأكملها على مرّ الزمان.

والخلاصة: إنه بمرور سبع سنين تقريباً لا يبقى أى أثر لخلايا الجسم السابقة وتحل محلها خلايا جديدة.

ولكن يجب الالتفات إلى أن الخلايا السابقة عندما تموت تعطى جميع ما تحمله من صفات وخواص وآثار للخلايا الجديدة، لذا فإن خصوصيات جسم الإنسان من لون وشكل ومواصفات جسمية أخرى تبقى ثابتة على مرّ الزمان، وهذا لا يتم إلا بانتقال صفات الخلايا القديمة إلى الخلايا الجديدة، (فتأمل).

بناءً على هذا سوف تحمل أجزاء جسم الإنسان الأخيرة- عند الموت والتي سوف تتحول إلى تراب- جميع الصفات التي كان يتصف

بها الإنسان طوال عمره وفي طياتها تاريخ ناطق بجميع فعاليات جسم الإنسان التي أداها خلال فترة حياته!

٢- رغم كون الروح هي الأساس في تحقق شخصية الإنسان ولكن يجب الالتفات إلى أن الروح تنمو وتتكامل بموازاة نمو وتكامل الجسم، وإن كلاً منهما له تأثير متبادل على الآخر، وبما أن الجسمين المستقلين عن بعضهما لا يوجد بينهما شبه من جميع الجهات فإنّ الروحين المستقلتين لا- تتشابهان أيضاً بصورة تامّة، لذا لا يمكن لأيّ روح ممارسة نشاطاتها بصورة تامّة بدون الجسم الذي نمت وتكاملت بموازاته، على هذا يجب أن يعاد يوم القيامة عين ذلك الجسم الذي كانت تحلّ فيه تلك الروح لتمارس نشاطها بعد حلولها بذلك الجسم على مستوى أرقى لتمتع بنتائج الأعمال التي ارتكبتها.

٣- كل خلية من خلايا الجسم تحمل جميع خصوصيات ذلك الجسم، فلو تمكنا من تربية أيّ خلية من خلايا الجسم وتنميتها لتحوّل إلى إنسان كامل فإنّ ذلك الإنسان الجديد سوف يحمل جميع الخصوصيات التي كانت تحملها تلك الخلية والتي ورثتها من الإنسان السابق، (فتأمل).

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٧٠

أولم يكن الإنسان في يومه الأول خلية واحدة؟ فتلك النطفة كانت عبارة عن خلية واحدة كانت تحمل جميع صفات ذلك الإنسان ونمت بالتدرج عن طريق الانشطار إلى خليتين ثم إلى أربع وهكذا حتى تكوّنت منها جميع خلايا بدن الإنسان. بناءً على هذا فإنّ كل خلية من خلايا الإنسان هي فرع من تلك الخلية الأولى ولو أنها نمت وتكاملت مثل سابقتها لأصبحت إنساناً يشبه الإنسان السابق ويحمل صفاته من جميع الجهات.

٤- يُستفاد من آيات القرآن في مجال المعاد الجسماني أنّ جسم الإنسان الاخير الذي تحول إلى تراب في القبر يحيى بأمر الله ويُعدّ للجزاء.

ويؤيد هذا المعنى الآيات العديدة التي أشرنا إليها سابقاً في مجال المعاد الجسماني.

٥- لا يمكن لجسم ما أن يحلّ بجسم آخر بصورة تامّة، وبتعبير آخر لا يمكن أن يصبح الجسم الثاني عين الجسم الأول، بل قد يشكل الجسم الأول قسماً من الجسم الثاني، وذلك لأنّ هذا الأمر لا يتمّ إلا بوجود الجسم الثاني أولاً كي يتحول الجسم الأول- أو قسم منه- إلى جزء من الجسم الثاني عن طريق التجزئة.

بناءً على هذا لا يوجد أيّ مانع من حلول جسم بصورة كاملة في جسم ثانٍ ويصبح «جزءاً» منه، ولكن المستحيل أن يصبح «جميع» أجزاء الجسم الثاني، كما يُحتمل حلول أجسام متعددة في جسم آخر لكنها لا يمكن أن تصبح جميع أجزائه، (فتأمل).

وبعد طرح هذه المقدمات الخمس نتجه للجواب الرئيسي في الرد على شبهة الأكل والمأكل:

يقول القرآن بكل وضوح: إنّ مكونات جسم الإنسان التي يمتلكها عند الموت هي التي تبعث يوم القيامة، بناءً على هذا فلو حلت هذه الأجزاء بعد تحولها إلى تراب في جسم إنسان آخر فإنّها سوف تعاد إلى صاحبها الأول يوم القيامة، لكن قد تقولون إنّ جسم الإنسان الثاني سيصبح ناقصاً لأنه فقد قسماً من مكوناته. إلّا أنّه من الأفضل أن يقال إنّ جسم

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٧١

الإنسان الثاني سوف يضم (لا أن يكون ناقصاً) لأنّ أجزاء جسم الإنسان الأول بعد أن تغذى عليها الإنسان الثاني قد انتشرت في جميع أعضاء بدنه لا أنّها حلت في مكان معين من بدنه (لأنّ الغذاء الذي يتناوله الإنسان يوزّع على جميع أعضاء البدن)، بناءً على هذا فإنّه من الممكن أن يفقد الإنسان الذي وزنه سبعون كيلو غرام مثلاً نصف وزنه أو أن يفقد جميع مكوناته باستثناء كيلو غرام واحد منها أو حتى أقل من ذلك ولا يبقى منه إلّا جسم صغير بحجم جسمه الذي ولد به أو بحجم جسمه عندما كان جنيناً.

ومع ذلك فإننا لا نواجه أيّة مشكلة، وذلك لأنّ الجسم الصغير يحمل في طياته جميع خصوصيات ذلك الجسم الكبير، فإذا ما نما فسوف يعود عين ذلك الجسم الكبير.

فالمولود فى يومه الأول لا يمتلك إلّاجسماً صغيراً وقبل ذلك أى عندما كان جنيناً كان جسمه أصغر من ذلك فنما وكبر حتى اصبح يحمل صفات الإنسان الكامل من دون أن تتبدل شخصيته ويتحول إلى شخص آخر.

والسؤال الوحيد الذى ظل من دون اجابته هو: ما هو مصير الأجزاء التى أصبحت جزءاً لجسمين أو عدّة أجسام إذا كان أحد صاحبها مطيعاً والآخر مذنباً؟

والجواب عن هذا السؤال أمرٌ يسيرٌ أيضاً، لأنه كما أشرنا سابقاً فإنّ الثواب والعقاب فى الحقيقة يتعلقان بالروح، والدليل على ذلك هو عندما ينقطع الارتباط الموجود بين الروح والجسم بسبب فقدان الوعى بعد ممارسته عملية التخدير فإننا نرى أنّ الروح لا تتأثر عند استخدام المشروط الحاد حتى لو قطعّ الجسم إرباً.

وبتعبير آخر: إنّ الثواب والعقاب واللذة والألم لا- يختصان بالجسم بل ليس الجسم إلّا واسطةً لإيصال آثار الثواب والعقاب واللذة والألم إلى روح الإنسان.

بهذا يتضح أنّ المعاد الجسمانى- طبقاً لظاهر الآيات- يتحقق بعين هذا الجسم المؤلف من العناصر المادية، وحتى لو فرضنا أنّ شبهة الأكل والمأكل ترد على هذا الاستدلال فإنها سوف لن تخدش فيه أيضاً.

ومن الجدير بالذكر أنّ بعض منكرى المعاد الجسمانى سعوا إلى تغطية حقيقة آرائهم فى

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٧٢

الأوساط الإسلامية لتبرير جحودهم الواضح مخالفه للآيات القرآنية وجاءوا بتعابير فى مجال المعاد الجسمانى تدل فى الواقع على أنّ المعاد يتحقق بالروح فقط أو بالروح مع جسم مادي غير هذا الجسم.

فتمسكوا أحياناً بالجسم النوعى وقالوا: إنّ شخصية الإنسان تتمثل بروحه وهذه الروح إذا ما تعلقت بجسم ما فسوف تشكل نفس ذلك الشخص.

وقالوا أحياناً بإعادة الجسم البرزخى أى الجسم النورانى اللطيف.

وتارة قالوا: إنّ شيئة الشى ووجوده يكمنان فى صورته لا فى مادته، فحيثما وُجِدَت الصورة وُجِدَ ذلك الشى، وإنّ روح الإنسان هى قوام هذه الصورة، بناءً على هذا فأينما وُجِدَت روح الإنسان فسوف تتحقق شيئته ووجوده.

لكن هذه التعابير جميعها لا تتلائم مع تعبيرات القرآن الواردة فى مجال المعاد الجسمانى، والسبب فى سلوك هؤلاء هذا الطريق هو ولعهم بكلام بعض الفلاسفة وعجزهم عن حلّ معضلة شبهة الأكل والمأكل، وهذا ممّا لا يليق بالعالم المسلم الذى يتمسك بتعاليم القرآن.

٣- شخّة العناصر الترابية على سطح الأرض

هناك مسألة اخرى شغلت أذهان البعض واصبحت تمثل معضلة من معضلات المعاد الجسمانى هى مسألة شخّة العناصر الترابية على سطح الأرض.

توضيح ذلك: إننا إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار عدد البشر الذين وضعوا أقدامهم على الكرة الأرضية على مرّ التاريخ وكذلك البشر الذين يلونهم إلى يوم القيامة مع علمنا بأنّ هؤلاء جميعاً سوف يتحولون إلى كميّة هائلة من التراب فإنّه من الصعب جداً أن يكفى تراب الكرة الأرضية لإعادة هؤلاء جميعاً يوم القيامة إلّا أن نقول: إنّ البشر يبعثون يوم القيامة بحجم الدّمى لكنّ هذا غير معقول أيضاً، وعلى أيّة حال فإنّ إعادة هؤلاء البشر بهذه المواصفات تشبه عملية صنع ملايين السيارات مثلاً من كميّة من الحديد لا تزيد على الألف طن.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٧٣

الجواب:

ألم يكن من الأفضل لهؤلاء الذين يطرحون مثل هذه الإشكالات أن يُتبعوا أنفسهم قليلاً قبل طرحها وأن يأتوا بقلم وورق لإجراء احصاء بسيط في هذا المجال ليجدوا أن هذه الإشكالات لا أساس لها من الصحة؟

إنّ الماء يشكّل ٦٥ خ إلى ٧٠ خ من جسم كل إنسان. على هذا لا يشكل التراب إلّا ما يقارب ٣٠ خ من وزن الإنسان، فلو فرضنا أنّ التراب يشكّل كلّ وزن الجسم فيا ترى كم هو وزن كميّة من التراب مقدار حجمها متر مكعب واحد؟ إنّه لا يزيد على طنين أو ثلاثة اطنان!، فلو كان الوزن المتوسط لكل إنسان يبلغ ستين كيلو غرام فسوف يكفي كل متر مكعب واحد من التراب لخلق أربعين إنساناً تقريباً.

وطبقاً لهذه الاحصائية فإنّ الكيلومتر المكعب الواحد من التراب الذي هو عبارة عن «مليار متر مكعب» يكفي لخلق ما يقارب ثمانية اضعاف سكاّن الأرض الحاليين، وبما أنّ عدد سكان الكرة الأرضية كان قليلاً جداً بالنسبة لسكاّن الأرض الحاليين فإنّه من المحتمل أن لا يزيد عدد جميع البشر الذين وطأوا الأرض على أربعين مليار نسمة.

وكل هذه الحسابات تدور حول كيلومتر مكعب واحد من التراب الذي هو كقطرة في بحر بالنسبة لحجم الكرة الأرضية، فإذا ما أجرينا هذه الحسابات على مائة كيلومتر مكعب أو ألف كيلومتر مكعب من التراب وهي نسبة ضئيلة جداً من حجم كل الكرة الأرضية فإننا سوف نحصل على أرقام هائلة جداً وسوف تتضح لنا حقيقة الأمر بكل سهولة.

فبعد أن أجرينا هذه الاحصائيات على التراب تعالوا لنجرى الاحصاءات في هذا المجال من زاوية الزمان.

فنقول: كم هو العمر المتوسط لحياة الإنسان؟ أو بتعبير آخر: كم عمر الجيل الواحد من البشر؟ من المحتمل أن يكون عمر الجيل الواحد ما يقارب الخمسين سنة أو أقل أو أكثر من ذلك بقليل.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٧٤

بناءً على هذا يكفي الكيلومتر المكعب الواحد من التراب لخلق ثمانية أجيال أي يكفي لخلقهم لمدة أربعة قرون تقريباً (هذا لو فرضنا أنّ عدد نفوس الأجيال السابقة بعدد نفوس الجيل الحالي، ومن البديهي أنّه لم يكن كذلك).

على هذا فكل ألفين وخمسمائة كيلومتر مكعب من التراب تكفي لخلق هذا العدد من البشر لمدة مقدارها مليون سنة، ولخلقهم لمدة أربعة ملايين سنة نحتاج عشرة آلاف كيلومتر مكعب من التراب فقط.

ونحن على يقين بعدم وجود أيّة نظرية تُقدّر عمر البشر على الكرة الأرضية بأكثر من أربعة ملايين سنة، لكننا لا نعلم كم هي مدّة الفترة الزمانية الفاصلة بين وقتنا الحاضر وبين نهاية الحياة على الأرض.

لذا فإننا لو أجرينا هذا الاحصاء بأي نحو كان فلن يمثّل التراب المتخلف من جميع البشر على مرّ التاريخ إلّا كميّة ضئيلة جداً لا تُقدّر بأكثر من رقعة صغيرة من الأرض تبلغ مساحتها الف كيلومتر مكعب لا أكثر في بلد صغير.

هذا بالإضافة إلى أنّ احصاءاتنا كانت جميعها بحسابات الحد الأعلى لأننا لم نتقيّد بقيد، فلم نعر أيّة أهميّة للماء الموجود في جسم الإنسان ولم نخفّض من عدد سكاّن الأرض في الأجيال السابقة وهو قليل جداً بالنسبة لعدد نفوس الجيل الحالي، كما أنّنا اطلقنا العنان في حساب السنين الباقية من عمر الحياة على الأرض.

وقصارى القول: إنّ الادّعاء بعدم كفاية تراب الأرض لإعادة الأجسام يوم القيامة لا يصدر إلّا ممن لا يعرفون العمليات الحسابية الأربع! أي الذين يتكلمون بغير حساب ويرجمون بالغيب!

٤- هل تسع مساحة الأرض لحشر جميع البشر؟

لقد شغلت هذه المعضلة أذهان الكثيرين أيضاً وهي إذا كان المعاد يتحقق بالجسم

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٧٥

ويشمل جميع البشر الذين وطأوا الأرض منذ ظهور الحياة عليها حتى نهايتها فلن تسعهم مساحة سطح الأرض، وخلاصة ما يمكن أن يقال: إننا إذا تمكنا من حل جميع المعضلات في مجال المعاد الجسماني فسوف تبقى معضلة شحة المكان على قوتها، وذلك لأن بعض المناطق من الكرة الأرضية تضيق حالياً من تحمل سكانها الذين يعيشون عليها، وقد حذر الخبراء المتخصصون من معبئة استمرار النمو السكاني على هذا السياق وقالوا: إن تزايد السكان إذا ما استمر على هذا المنوال فسوف تضيق الأرض بسكانها خلال فترة وجيزة. وهنا يُطرح هذا السؤال: ماذا سيحدث إذا بُعث جميع البشر السابقين واللاحقين على هذه الكرة الأرضية؟! فلو كان المعاد يتحقق بالروح فقط فإننا لن نواجه مثل هذه المعضلة من ناحية المكان، لأن الأرواح غير متميزة فهي لا تحتاج إلى مكان ولا تتميز بمكان.

الجواب:

لقد فات الذين طرحوا هذا الإشكال أن القرآن قد صرح في آياته المختصة بالمعاد بأن المعاد لا يتحقق على الكرة الأرضية بصورتها الحالية، بل سوف تتبدل بغيرها، قال تعالى «يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ». (إبراهيم / ٤٨) وجاء في القرآن أيضاً أن عرض الجنة يسع السماوات والأرض، قال تعالى «سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ». (الحديد / ٢١)

يستفاد من هذه الآيات وعدد من الآيات الاخرى أن هنالك احتمالين:

وهما: إما أن تتسع الأرض ويصبح حجمها بحجم السماوات والأرض فتضم فيها الجنة والنار وجميع البشر، وإما أن ينتقل الناس يوم القيامة من الكرة الأرضية إلى مكان آخر.

وفي كلتا الحالتين ترتفع مشكلة شحة المكان في مجال المعاد الجسماني لجميع البشر ولا تبقى هناك مشكلة في اسكان أهل الجنة وأهل النار ... هذه المشكلة التي شغلت اذهان «ذوى اللجاج والعناد»!

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٧٦

٥- كيف يتلائم الجسم الذي من صفاته الفناء مع الخلود؟

الإشكال الآخر الذى طرح فى مسألة المعاد الجسماني هو أن الآخرة هي دار الخلد، والآيات التي صرحت بهذا الخلود دليل واضح على الخلود يوم القيامة، بينما نرى بالوجدان أن الجسم المادى - على أية حال - يبلى ويندرس، وفي نهاية المطاف يصل إلى الفناء. فإذا ما تحقق المعاد بالجسم فسوف يحصل التضاد وهو نفوذ «الفناء»، فى عالم «البقاء»، وسوف يخلد الجسم الذى من طبعه الفناء. وقد طرح هذا الإشكال المرحوم العلامة الطباطبائي فى شرح تجريد الاعتقاد بالنحو التالى: إن التناهي والمحدودية هي من ملازمات الجسم، والقول بخلود نعم أهل الجنة يستلزم عدم المحدودية وعدم التناهي «١».

الجواب:

ليس من الصعب أيضاً الإجابة عن هذا السؤال، لأنه لا خلاف فى كون الفناء والاستحالة والتفسخ من طبيعة الأجسام، لكن هذا يتم فى حالة عدم وجود الدعم المستمر من الخارج، فإذا ما شمل الدعم الالهى حال الجسم فإنه من الممكن أن يحافظ على طراوته على الدوام وأن يبقى فى حالة تجدد دائم.

وهذا يشبه حال الشجرة التى ترمم خلاياها المتفسخة وتبدلها بخلايا جديدة لتبقى طرية وجديدة على الدوام وذلك عن طريق تغذيتها المستمرة على نوع خاص من الغذاء، وهذا غير مستحيل.

وبتعبير آخر: إن مقتضى الذات شىء ومقتضى العوامل الخارجة عن الذات شىء آخر، والحديث يدور هنا عن خلايا الجسم التى من

طبيعتها أن لا تعمّر طويلاً أو التي تحصل على

(١) شرح التجريد، ص ٣٢٢.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٧٧

عمر غير محدود بواسطة الترميم الحاصل من الخارج وعن طريق المدد الإلهي، تخلد وتحافظ على بقائها. وهناك مثال من القرآن المجيد يمكن أن يكون دليلاً على ما قلناه، وهو طول عمر النبي (نوح) عليه السلام حيث لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين فيما عدا عمره قبل تكليفه بالنبوة، ومعنى ذلك أن الله تعالى قد جعل خلايا جسمه عليه السلام تتجدد بالحياة دون أن تتفسح وينالها الموت بينما جميع خلايا أجسام الناس تتفسح وتموت بعد عمر يناهز المائة سنة أو أقل أو أكثر وذلك لعدم تدخل المدد الإلهي في تجديد حياة خلايا أجسامهم.

وخلص القول: إن القادر على خلق الإنسان ولم يكن شيئاً مذكوراً، والقادر على إحياء الموتى أليس بقادر على جعل خلايا جسم الإنسان في حيويته متجددة ونشاط دائم وحياء خالدة أبداً في دار الخلد؟! وعندما طرح المرحوم العلامة الحلّي إشكال هؤلاء، بالنحو المذكور لم يكثر به وقال: إن هذه ليست بأدلة بل استبعادات لا غير «١»! أي ماهي إلّا ظنون غير مبرهنة منطقياً.

٦- هل يمكن الجمع بين (معاد) الأجسام والأرواح؟

يتصور أحياناً بأن الجمع بين إعادة الأجسام والأرواح - وهو رأى القائلين بالمعاد الجسماني - أمرٌ عسير، وذلك للزوم وجود الثواب المعنوي والمادى ووجود اللذات بنوعها لمكافأة الروح والجسم معاً، مع أننا نعلم بأن الإنسان إذا ما غرق في عظمة أنوار العالم القدسي فإنه لا يمكن أن يعير أية أهمية للملاذ المادية، وكذلك الحال إذا ما غرق في الملاذ المادية فإنه لا يمكنه التفرغ لنيل الملاذ المعنوية، وقصارى القول إن مقتضى المعادين متضادين فيما بينهما ولا يمكن الجمع بينهما!

(١) شرح التجريد، ص ٣٢٢.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٧٨

الجواب:

إن هذا الإشكال ضعيف جداً، لأن الروح إذا ما كانت تمتلك القدرة الكافية فسيحتاج لها التمتع بالملاذ المادية في نفس الوقت الذي هي مستغرقة في الأنوار الإلهية كما كان الأنبياء والأولياء عليهم السلام. قال المرحوم العلامة المجلسي في بحار الأنوار: «إن السبب في انصراف الإنسان عن الماديات عندما يشتغل بالمعنويات وبالعكس هو ضعف روح الإنسان في الدنيا لكنه بعد الموت وبعد أن يصله المدد من العالم القدسي ويظهر من الدنس فإن روحه تشد وتقوى فيتمكن آنذاك من الجمع بين الاشتغال بالماديات والمعنويات معاً» «١». و على أية حال فهذا الإشكال أيضاً غير مستند إلى دليل منطقي وهو شبه دليل وما هو إلّا استبعاداً لا غير.

٧- أي جسم يُعاد يوم القيامة؟

والإشكال الأخير الذي يمكن طرحه هنا هو ما أشرنا إليه سابقاً من أن العلم الحديث أثبت أن جسم الإنسان في حالة تبدل وتغير دائم، فالخلايا تدرس بالتدريج ويحل محلها خلايا أخرى وبعد مرور سبع سنين تقريباً تتبدل جميع خلايا الإنسان وتحل محلها خلايا

جديدة، كما هو الحال في الحوض الكبير الذي يدخله الماء من أحد جوانبه ويخرج من جانب آخر، ومن الطبيعي أن يتبدل جميع مائه بعد فترة.

بناءً على هذا فإذا ما عمّر جسم الإنسان سبعين سنة فإنه يتبدل عشر مرات، فهل تعاد جميع هذه الأجسام العشرة يوم القيامة ويعاد الإنسان بحجم العمالقة؟! أم لا يعاد إلا بحجم جسم واحد منها؟ وإن قيل: إن أحد هذه الأجسام يعاد يوم القيامة فأيتها سوف يعاد؟ وما هو النصاب في هذا الترجيح؟

(١) بحار الأنوار، ج ٧، ص ٥٠.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٧٩

الجواب:

إنّ هذا السؤال استبعاد أيضاً، فما المانع من أن تعاد جميع هذه الأجسام؟ لكن الحق هو إعادة الجسم الأخير فقط، لأنّ القرآن يقول: «يبعث من في القبور» وتحيي العظام الرميمة والتراب، وهذا لا يعنى إلا إعادة الجسم الأخير.

أمّا ما هو المنطوق في ترجيح هذا الجسم على الأجسام الأخرى فالمنطوق أنّ هذا الجسم يحمل جميع صفات وخصوصيات تلك الأجسام، وذلك لأنّ الخلايا التي تتخلّى عن محلها تعطى بالإضافة إلى ذلك جميع صفاتها للخلايا الجديدة التي تحل محلها، بناءً على هذا فالجسم الأخير يحمل في طياته عصارة جميع الأعمال والأوصاف السابقة، وإذا ما توفر المنظار الثاقب الذي يكشف الحقائق لأمكن مطالعة جميع سوابق الإنسان من خلال بصمات خاصية جسمه الأخير.

ومن البديهي أن لا يتنافى هذا أبداً مع حشر المؤمنين والصالحين على هيئة شباب يمثلون بالحيوية، وهذا يشبه عملية جمع تراب اللبنة البالية ووضعها في قالب جديد لتصبح لبنة جديدة.

ثمرة البحث:

توصلنا من خلال ما مر من البحوث إلى هذه النتيجة، وهي أننا لا نواجه في بحث المعاد مشكلة عسيمة، وما عدّه البعض من المشاكل في الغالب ناتج عن عدم إعمال الدقّة الكافية خصوصاً في هذه المسألة، ولا يستحقّ أي من هذه الإشكالات السبعة الذكر إلا إشكال الأكل والمأكول، أمّا بقية الإشكالات فهي جزئية تتضح الإجابة عنها بمجرد إعمال شيء من الدقّة.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٨١

المعاد في الحضارات السالفة

تمهيد:

كان لعقيدة المعاد صدقاً واسع لدى الأمم السابقة ويلاحظ تجسّد آثار هذه العقيدة بكل وضوح في نفوس الشعوب التي عاشت في العصور الغابرة أي في قرون ما قبل التاريخ ممّا لا يبقى أي شك في أنّ أولئك كانوا يحملون اعتقاداً راسخاً بوجود العالم الآخر. وعندما ندخل في مرحلة ما بعد التاريخ نلاحظ أيضاً أنّ جميع الشعوب والأقوام تقريباً يؤمنون بمسألة المعاد على الرغم من اختلاف ثقافاتهم.

وقبل الخوض في مطالعة هذا الأمر عن طريق مشاهدة أسانيد ووثائق المؤرخين نعود إلى القرآن لنرى ما يقوله في هذا المجال: أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة أيضاً وهي أنّ الاعتقاد بمسألة المعاد والحياة بعد الموت كانت مطروحة منذ خلق آدم عليه

السلام، حتى أن ابليس كان يعترف بذلك، وبعد آدم عليه السلام كان الأنبياء أيضاً- الذين كانت مهمتهم هداية الشعوب- يدعون الناس إلى الإيمان بهذه المسألة (مسألة الحياة بعد الموت وحياة الآخرة)، وقد أدت دعوة الأنبياء إلى أن تصبح هذه المسألة من المسائل المألوفة لدى الناس.

كما أننا نقرُّ بأن هذه المسألة وما يتعلق بها من المعارف التي نزلت عن طريق الوحي قد وردت على لسان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أيضاً وبصورة أوسع مما كانت عليه سابقاً، لذا فإنَّ قسماً مهماً من آيات القرآن المجيد تصدت لشرح مسألة المعاد بجميع فروعها وتفصيلها.

بعد هذا التمهيد نعود إلى القرآن لتأمل خاشعين في نماذج من الآيات المختصة بهذا المجال:

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٨٢

١- «قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ». (الاعراف / ١٤)

٢- «قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ». (الاعراف / ٢٥)

٣- «إِنِّي أَرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِيمِي وَأَثْمِكُ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ». (المائدة / ٢٩)

٤- «أَيَعِدُكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ». (المؤمنون / ٣٥)

٥- «وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ* يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ». (الشعراء / ٨٧-٨٨)

٦- «وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ أَلَا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى». (البقرة / ١١١)

٧- «وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا». (مريم / ٣٣)

٨- «وَالى مَدِينَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ».

(العنكبوت / ٣٤)

٩- «... أَنَّى تَرَكْتُمْ مَلَأَ قَوْمٌ لَأَيُّمُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ* وَأَتَّبَعْتَ مَلَائِكَةَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ». (يوسف / ٣٧-٣٨)

١٠- «لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ هَذَا أَلَّا اسَاطِيرُ الْأُولِينَ». (النمل / ٦٨)

جمع الآيات وتفسيرها

الاعتقاد بالمعاد خلال العصور المختلفة:

الآيات المذكورة أعلاه يرتبط كل منها بأحد العصور.

فالآية الأولى تشير إلى قصة «ابليس» بعد طرده من الجنة، فبدلاً من التوبة إلى الله من فعله الشنيع تمادى فى العناد بسبب وقوعه فى شرك الغرور والأنانية، وكان هذا طلبه من الله تعالى «قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ».

وطلبه هذا لم يكن من أجل التوبة أو أن يعمل صالحاً، بل من أجل أن يكمن لآدم وذريته ليصدهم عن الصراط القويم لكي يطفى نار غضبه الجهنمية وحسده.

ويتضح من خلال هذه الآية أن مسألة القيامة كانت موضع الاهتمام منذ البداية،

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٨٣

فالشيطان كان يعلم علم اليقين بحتمية وقوع مثل هذا اليوم.

أمّا طلب الشيطان فإنه لم يتلق الجواب بالصورة التي أرادها، قال تعالى «فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ* إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ». (الحجر / ٣٧-

وفسر البعض هذا اليوم باليوم الذى تنتهى فيه الحياة الدنيا والذى يرفع فيه التكليف، وفسره آخرون باليوم الذى يظهر فيه المهدي الموعود (عج).

وهناك احتمال أيضاً جاء فى كلمات بعض المفسرين وهو أن المراد من اليوم المعلوم يوم القيامة، لكن هذا الاحتمال بعيد جداً، وذلك لأنه لا يوافق ظاهر آيات القرآن ولا ينسجم مع الروايات الواردة فى تفسير هذه الآية «١». وقد طرحت عدّة أسئلة فى هذا المجال وبالصورة التالية:

١- لماذا أمهل الله إبليس لينفذ خطته المشؤومة لإغواء الناس!؟

الجواب: إن إمهال إبليس كأصل وجوده وهو زاوية من زوايا الامتحانات الإلهية التى أعدها للبشر، فى ظل تلك الامتحانات يصل أولياء الله إلى الكمال ويفترق عنهم اولئك الذين لم يخلص إيمانهم.

٢- ألا يعنى إعطاء الوعد لإبليس باستمرار الحياة حتى انتهاء العالم يشجعه على الاستمرار فى ارتكاب أعماله وعدم الكف عنها إلا عندما يشعر بانتهاء عمره فيتوب إلى الله تعالى

الجواب: إن الطريق الذى سلكه إبليس لا يسمح له بالعودة، وتحت تأثير حالة الطغيان الشديدة تصبح هذه الصفة من طبائعه الثانوية، ولا يمكن العودة فى مثل هذه الحالة.

٣- لماذا يطلب الشيطان البقاء إلى يوم القيامة مع أن أهدافه تتحقق ببقائه إلى الفترة التى تنتهى بها حياة البشر؟

الجواب: جاء فى تفسير الميزان: إن إبليس كان يتمنى أن يستمر بإغوائه للبشر فى عالم

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ١٣.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٨٤

البرزخ أيضاً، أى المدّة الفاصلة بين انتهاء الدنيا وقيام يوم القيامة «١»!

٤- كيف يتوقع إبليس أن تستجاب دعوته مع أنه يعلم بأنه طرد من ساحة الرحمة الإلهية؟

الجواب: قال المرحوم الطبرسى فى مجمع البيان: «إن إبليس كان متيقناً بأن فضل الله وكرمه يتسع لشمول المذنبين والمطرودين أيضاً» «٢».

وجاء فى احدى الروايات أيضاً إن استجابة دعاء إبليس كانت بإزاء العبادات التى أداها قبل ذلك.

وفى الآية الثانية التى تتعلق بقصه هبوط آدم عليه السلام وزوجه حواء من الجنة إلى الأرض وطرده إبليس من مقام القرب الإلهي، قال تعالى «قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ».

وهذه التعبيرات تشير إلى أن المقصود من الاخراج لا يختص بحشر البشر فحسب، بل يشمل حشر الجن أيضاً والذين كان الشيطان من زمريتهم، وتدل على أن هذا الأمر كان يعتبر من الامور البديهية منذ اليوم الأول، أما ما احتمله البعض فى تفاسيرهم أن المخاطب فى هذه الآية هم آدم وحواء عليهما السلام وذريتهما فحسب فلا يؤيده دليل واضح.

ويدل هذا التعبير بوضوح على أن الأرض هى مبدأ حياة الإنسان ومحل موته ومحل بعثه معاً «٣».

(١) تفسير الميزان، ج ٨، ص ٢٨.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٤٠٣.

(٣) جاء شبيه هذا المعنى فى مسألة هبوط آدم والإشارة إلى مسألة الحشر فى سورة طه، الآية ١٢٣ و ١٢٤.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٨٥

وتحدثت الآية الثالثة عن ابناء آدم «هايل» و «قاييل» عندما تقبل الله قربان هايل بسبب إخلاصه ولم يتقبل قربان قاييل لعدم إخلاصه فيه، فتأججت نار الحسد في قلب قاييل وهدد أخاه بالقتل، فقال هايل إن قصدت قتلى فإننى لن أفعل ذلك لأننى أخاف الله، ثم أضاف: «أنى أريد أن تَبْوَأَ بِأَثْمِي وَأَثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ».

وهذا يدل على أن مسألة المعاد كانت من الامور البديهية لدى اولاد آدم منذ ذلك الزمان، لذا هدد هايل أخاه قاييل بعذاب الله فى الدار الآخرة.

و «بَوَأَ، تَبَوَأَ» من مادة «بواء»، قال الراغب فى المفردات: هى فى الأصل بمعنى السطح الصقيل، وتقابلها «نبوة» التى بمعنى السطح غير الصقيل، لذا عندما يقال بَوَأْتُ مَكَانًا فهذا يعنى ساويت له سطح المكان.

وتأتى هذه الكلمة أحياناً بمعنى الإقامة وملازمة المكان أيضاً، لأن الإنسان إذا ما أراد أن يقيم فى مكانٍ ما فإنه ينظم سطحه ويساويه، وقد فسروا هذه الآية بهذا المعنى أيضاً.

لكن صاحب «المصباح المنير» فسرها بمعنى الاعتراف وحمل العبء الكبير، أمّا صاحب المقاييس فقد ذكر لها معنيين هما: عودة الشئين، وتساوى الشئين.

وقال صاحب كتاب «التحقيق»، إن الأصل فيها هو (السفول) والانحطاط، وعدّ جميع المعانى الاخرى من المجاز واعتبرها من لوازم المعنى الحقيقى، وطبقاً لهذا المعنى يصبح مفهوم الآية المعنية بالبحث: إنى اريد أن تسقط من ساحة الرحمة الإلهية يا ثمك وإثمى.

وتتبع موارد استعمال هذه الكلمة فى القرآن المجيد والمصادر الاخرى يؤيد ما ذكره صاحب المقاييس من أن هذه الكلمة لها مفهومان وكلا المفهومين ينطبقان على الآية المعنية، فطبقاً للمعنى الأول تصبح الآية بهذا المعنى «إنى اريد أن تعود (إلى الله) وأنت تحمل إثمك وإثمى»، وطبقاً للمعنى الثانى تصبح بهذا المعنى «إنك تعدّ مكاناً لنفسك بارتكابك هذا الإثم وحملك إثمى».

وهنا يطرح هذا السؤال المهم: ما هو المراد من ذنب هايل الذى قُتِلَ على يد أخيه حتى يثقل كاهل أخيه؟ وكيف يمكن قبول هذا الحديث أساساً مع أن الآية تقول: «الَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ»

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٨٦

وَزَرَ آخَرَ . (النجم / ٣٨)

سلك مشاهير المفسرين عدّة طرق تحتاج أغلبها إلى التقدير فى الآية وقالوا: إن المراد من إثمى هو إثم قتلى.

لكن المناسب عدم التقدير، والمراد فى الآية هو: إنك إن عملت بتهديدك هذا وقتلتنى فإنك سوف تحمل ثقل جميع ما ارتكبتة أنا من إثم، وذلك لأنك يجب أن تدفع غرامة قتلى يوم القيامة وبما أنك لم تعمل صالحاً فى الدنيا فعليك أن تحمل عبء ذنوبى غرامة فعلك!

وقد روى عن الإمام الباقر عليه السلام فى تفسير هذه الآية ما يؤيد هذا المعنى قال عليه السلام: «من قتل مؤمناً متعمداً أثبت الله على قاتله جميع الذنوب وبرئ المقتول منها، وذلك قول الله عزوجل: «أنى أريد أن تَبْوَأَ بِأَثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ» (١).

وروى عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله ما يعزز هذا المعنى (وإن لم تكن الرواية واردة فى تفسير هذه الآية)، قال صلى الله عليه وآله: «يؤتى يوم القيامة بالظالم والمظلوم فيؤخذ من حساب الظالم فترأه فى حسنات المظلوم، حتى يُتتصف، فإن لم تكن له حسنات اخذ من سيئات المظلوم فتطرح عليه» (٢).

والآية الرابعة تشير إلى عصر نوح عليه السلام، فقد نقل القرآن دعوته على لسان الكافرين والجاحدين، قال تعالى: «إِيعِدْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ مُّخْرَجُونَ».

ويدل هذا التعبير بوضوح على أن نوح عليه السلام قد طرح على هؤلاء مسألة المعاد وبالأخص المعاد الجسمانى - وقد ملأت دعوته أذان جميع المخالفين، وبسبب انحطاطهم الفكرى بهتوا لما جاءهم وقالوا محدثين بعضهم البعض: «هِيَهِاتَ هِيَهِاتَ لِمَا تُوَعَدُونَ».

ويستفاد بوضوح من الآيات الواردة في سورة نوح أيضاً أنّ نوحاً عليه السلام حاول رفع

(١) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٦١٣، ح ١٣٣.

(٢) تفسير القرطبي، ج ٣، ص ٢١٣٤.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٨٧

الشبهات والخوف وعدم الاطمئنان الذي جثم على أذهانهم بسبب طرح مسألة المعاد فعمد إلى تشبيه حياة البشر بحياة النباتات ليوضح لهم الأمر، قال تعالى عن لسان نوح: «وَاللَّهُ ابْتَلَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا* ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ أَخْرَاجًا». (نوح/ ١٧-١٨) ويتضح ممّا تقدم أنّ المعاد كان معروفاً لدى قوم نوح عليه السلام بالاسلوب المشابه لاسلوب نبي الإسلام صلى الله عليه وآله الذي استخدمه مع مشركي مكة أيضاً، ونوح صلى الله عليه وآله كان أول الأنبياء من اولى العزم وكان صاحب شريعة. وتحدثت الآية الخامسة عن «إبراهيم عليه السلام» وإيمانه بمسألة المعاد، فقد بينت هذه الآية جانباً من ادعية إبراهيم عليه السلام عندما عاش الآلام بسبب المعارضة الشديدة التي تلقاها من كفار عصره، قال تعالى عن لسان إبراهيم عليه السلام: «وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ* يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ».

وقال في الآية التي سبقت هذه الآية بآيتين: «وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ».

فالادعية المذكورة أعلاه تشير بوضوح إلى أنّ إبراهيم عليه السلام يخاف الخزي يوم القيامة مع ماله من مقام عظيم لأنه كان من أعظم الأنبياء من اولى العزم.

ومن الممكن أن يعتبر البعض هذا التعبير عن أنّه رشاد للاخريين وتعليم لغير المعصومين، وذلك لأنّ المعصوم لا يخزي يوم القيامة، لكن البعض لهم تعبير لطيف في هذا المجال وهو أنّهم قالوا: «حسنات الابرار سيئات المقربين» فالأعمال الصالحة العادية لا تلائم مقام الأنبياء والمعصومين، وكذلك الحال بالنسبة للمقربين فإنهم إن حشروا يوم القيامة مع «الابرار» وهو مقام أدنى من مقام المقربين فهو خزي بالنسبة لهم، وذلك لأنه يتوقع من كل شخص عمل يتناسب معه، كما أنّ لكل شخص مقامه المناسب!

وتحدثت الآية السادسة عن عقيدة «اليهود والنصارى» في المعاد، قال تعالى «وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى .

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٨٨

أجل إنهم كانوا يعتقدون بأنهم أرقى الأمم وأنّ الجنة خصصت لهم ولم يعجبوا بغيرهم حتى لو كانوا مؤمنين.

فأجابهم القرآن أولاً فقال: «تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ» أي آمال بعيدة عن الواقع ولن تتحقق أبداً.

ثم وجه الخطاب إلى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فقال: «قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

(البقرة/ ١١١)

أي أعطوني دليلاً عقلياً يدعم هذا التخصيص وبأى دليل خصص اللطف الإلهي بكم وحرّم الآخرين منه؟ فهل من الممكن أساساً أن يتسق هذا التمييز مع العدالة الإلهية وأن يحرم المؤمنون المحسنون كما تزعمون؟

إن كانوا يدعون بأنّ دينهم لن يمسح إلى الأبد فلماذا حكموا على الامم السابقة التي كانت تتبع أنبياء السلف ويعملون بتكاليفهم بهذا الحكم؟ إن كل هذا يدل على أنّ هؤلاء في تخصيصهم الجنة بهم لم يتبعوا إلّا أوهاهمم النابعة من أنانيتهم.

والجدير بالذكر إنّ «أمانى» جمع «امنية» وهي بمعنى الأمل (وقد صرح عدد من المفسرين بأنّ الأمانى بمعنى الآمال التي يستحيل تحققها).

بناءً على هذا ف «أمانى» بمعنى الآمال وتحمل معنى الجمع، بينما لا يشكل تخصيص الجنة إلّا «أمل واحد». وللاجابة على ذلك قال بعض المفسرين: إنّ الأمل الواحد هذا تتبعه آمال اخرى أيضاً وهي الخلاص من العذاب الإلهي وخوف المحشر وعسر الحساب

ومسائل اخرى من هذا القبيل.

وقال آخرون: إنَّ الأمل كلما كبر يصبح بحكم «الآمال»، وهذا تعبير لطيف يشير إلى مدى بعد هؤلاء عن الواقع!. وهناك احتمال آخر أيضاً وهو إنَّ السبب في عدّها آمالاً هو وجود هذا الأمل في قلب كل واحد منهم، أو أن يكون الواحد منهم تمنى ذلك كثيراً، لذا جرى بصيغته الجمع للدلالة على أن هذا التوهم لا ينحصر بفرد معين منهم أو بمرحلة معينة، بل هو أمر له طابع العموم والدوام.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٨٩

ومهما يكن من شيء فإنَّ هذه الآية تدل بوضوح على وجود الاعتقاد بالمعاد لدى اليهود والنصارى وفي الآية السابعة نلاحظ تعرّض «المسيح» عليه السلام لذكر المعاد عندما تكلم في المهد بإذن الله تعالى فقال في بعض كلامه: «وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا».

والسبب في اختيار هذه الأيام الثلاثة (يوم الولادة ويوم الموت ويوم البعث) هو خطورتها ودورها المهم في تقرير المصير، وبتعبير آخر أن كل يوم من هذه الأيام الثلاثة يشكل بداية لفصل جديد في مسار الإنسان وتعتبر السلامة أمر مهم فيها ولا تيسر إلا بلطف من الله، فطلب المسيح عليه السلام أن يمن الله بلطفه عليه في هذه الأيام الثلاثة.

بالإضافة إلى ذلك فقد وجه نداءه بنفى الوهيته ومد كان في المهد وصرّح بأنه كسائر عباد الله بعثه الله للناس جميعاً.

وجاء في الآية ١٥ من نفس هذه السورة ذكر هذا الموضوع عند الحديث عن النبي يحيى عليه السلام، لكن الفرق بينهما هو كون الخطاب هنا صدر عن المسيح عليه السلام والخطاب هناك عن الله تعالى

جاء في الحديث عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام: «إنَّ أوحش ما يكون هذا الخلق في ثلاثة مواطن: يوم ولد من بطن امه فيرى الدنيا ويوم يموت فيعابن الآخرة وأهلها ويوم يبعث حياً فيرى أحكاماً لم يرها في دار الدنيا».

ثم تعرّض الإمام لذكر الآيات المتعلقة بالنبي يحيى والمسيح عليهما السلام الواردة في هذا المجال «١».

وعلى أيّة حال فقد أشارت الآية المذكورة بوضوح إلى أن مسألة المعاد كانت من الامور البديهية لدى الأقسام السالفة ممّا جعل المسيح يتحدّث عنها وهو في المهد.

إلى هنا تحدثنا بصورة موجزة عن موضوع المعاد في شريعة أربعة أنبياء من «أولى العزم»، وإذا ما أضفنا الآيات الكثيرة الواردة في موضوع المعاد في شريعة نبي الإسلام صلى الله عليه وآله فسوف يختم الحديث عن المعاد في خمس شرائع.

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٣٣٥، ح ٧٥.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٩٠

كما لاحظنا هذا الموضوع أيضاً لدى الأنبياء «غير أولى العزم» في الأحداث التي مرت على آدم عليه السلام وما تعلق بها مثل قصة أولاد آدم وقصة إبليس.

ولا بأس هنا من الاطلاع على هذا الموضوع من خلال ما جاء على لسان سائر الأنبياء عليهم السلام:

عندما بعث شعيب عليه السلام الذي كان يعيش في فترة حياة موسى عليه السلام إلى مدينة (مدين) (مدينة تقع جنوب غرب الاردن اسمها الحالي (معان) وتقع شرق خليج العقبة) قال لقومه:

«فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ». (العنكبوت / ٣٦)

لقد أكد شعيب عليه السلام في بداية دعوته على مبدئين أساسيين تعتمد عليهما جميع الأديان هما «المبدأ» و «المعاد» ودعا الناس للإيمان بهما.

والمراد من رجاء اليوم الآخر هو رجاء نيل الثواب الإلهي في ذلك اليوم، أو أن يكون معنى الرجاء هنا بمعنى الإيمان والاعتقاد بذلك اليوم.

والآية التاسعة تتحدث عن حوار «يوسف عليه السلام» مع صاحبيه في السجن، قال تعالى عن لسان يوسف: «... أَنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّيُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ».

والسبب في استعماله لهذا التعبير هو أن مشركي ذلك الزمان عبدة الأصنام كانوا يعتقدون بالله إلا أنهم كانوا يعتقدون بأن المعاد والجزاء يحصلان بواسطة التناسخ، فهؤلاء كانوا يعتقدون بأن روح الإنسان بعد الموت تحل في جسم إنسان آخر في هذه الدنيا وتتلقى ثوابها وعقابها خلال الحياة الجديدة، لكن دين التوحيد يرفض عقيدة التناسخ وعودة الأرواح في هذه الدنيا كما أنه يرفض عقيدة الشرك أيضاً، لذا عدّهم يوسف مشركين وجاحدين للمعاد «١».

و «الملة»: في الأصل بمعنى (الدين) والفرق بين الملة والدين هو أن الدين يضاف إلى الله وإلى الأشخاص معاً، فيقال دين الله أو دين محمد صلى الله عليه وآله بينما تضاف الملة عادة إلى الأنبياء

(١) تفسير الميزان ج ١١، ص ١٨٩.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٩١

(أو إلى الأقوام الذين بُعث فيهم النبيون أو مدعو النبوة) فيقال ملة إبراهيم وأمثال ذلك «١» ولا يقال «ملة الله».

والمراد من القوم الذين ذكروهم يوسف عليه السلام هم عزيز مصر وزوجته زليخا وتابعوهم وهم شعب مصر بصورة عامة، فهؤلاء لم يكن لديهم اعتقاد صائب لا بالمبدأ ولا بالمعاد.

وعلى أية حال فإن دلّ هذا على شيء فإنه يدل على أن المعاد كان يشكل أحد الركنتين الأساسيين في دين يوسف عليه السلام أيضاً، وقد أشار إلى هذين الركنتين معاً في السجن عند محاورته للسجناء.

ومن الجدير بالذكر أن يوسف عليه السلام قال بعد هذا الحديث: «وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ»، وهذا يدل على أن المبدأ والمعاد كانا ركنتين ثابتين في جميع الأديان الإلهية السابقة.

وتحدثت الآية العاشرة والأخيرة من آيات بحثنا عن خطاب «مشركي مكة» عند معارضتهم دعوة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حين دعاهم للإيمان بالمعاد، فبعد اظهارهم التعجب من عودة الإنسان إلى الحياة بعد تحوله إلى تراب قالوا: «لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ أِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ».

ويشير هذا التعبير بوضوح إلى أن الدعوة إلى الإيمان بالمعاد كانت حاصلة من قبل الإنسان منذ القدم إلى الحد الذي عدّها المشركون من (أساطير الأولين)!

و «اساطير»: جمع «اسطار». واسطار جمع «سطر» بمعنى الصف من الأشجار أو الكلمات وغيرها، ف «أساطير» جمع الجمع وتستعمل بمعنى الروايات المنقولة عن الأقوام السالفة، وبما أن روايات السالفين كانت تزجج بالخرافات فقد استعملوا هذا التعبير عادة في مجال «الخرافات».

(١) مفردات الراغب، مادة (ملة).

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٩٢

وقال البعض: إن «أساطير» جمع «اسطورة» و «اسطارة» و «اسطير» ووجود الزيادة على المصدر الثلاثي دليل على الإضافة في المعنى فيكون المعنى الأصلي هو السطر الطبيعي والمعنى الإضافي هو الأسطر المزيفة والكاذبة «١».

ثمرة البحث:

يستفاد من خلال الآيات المذكورة وكذلك الآيات الكثيرة المشابهة لها في القرآن المجيد أن مسألة المعاد قد طرحت منذ وطأ آدم عليه السلام الأرض وأن جميع الأنبياء دعوا الناس للإيمان بها، خلافاً لزعم المغفلين الذين يرون أن الحديث عن الإيمان بيوم القيامة طرح مؤخراً من قبل المؤمنين.

بل يستفاد من آيات متعددة من القرآن أن الله أيضاً يحتاج المجرمين بمسألة المعاد يوم القيامة، قال تعالى «يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا». (الانعام / ١٣٠)

فهذه الآية تدل بوضوح على أن أنبياء الله دعوا جميع الجن والانس للإيمان بالمعاد.

وجاء هذا المعنى في آية أخرى نقلًا عن لسان خزنة جهنم عند محاورتهم أصحاب النار: «وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا». (الزمر / ٧١)

واللطيف أن أصحاب النار يعترفون جميعاً بهذا المعنى أيضاً، كما يدل على ذلك ما جاء في تنمة هذه الآية: «قَالُوا بَلَى .

بناءً على هذا فالقرآن يرى أن مسألة المعاد تشكل العمود الفقري في دعوة الأنبياء، وان الدعوة للإيمان بالمعاد بدأت منذ خلق آدم عليه السلام واستمرت على مر العصور بواسطة دعوة الأنبياء وأن جميع الشعوب قد تعرّفت على هذا الموضوع. والآن ننتقل إلى بحث الأسانيد التاريخية وتقارير العلماء الواردة في هذا المجال.

(١) التحقيق في كلمات القرآن الكريم.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٩٣

توضيحات

١- المعاد لدى شعوب ما قبل التاريخ

نحن نعلم بأن حياة البشرية تقسم إلى مرحلتين: مرحلة ما بعد اختراع الكتابة عندما تمكن الإنسان من تدوين شيء من نفسه وسميت هذه المرحلة بمرحلة التاريخ، ومرحلة ما قبل اختراع الكتابة، فمن الطبيعي أن الإنسان لم يكن في هذه المرحلة قادراً على تدوين شيء مما كان يدور حوله كي يصبح له تاريخ مدون، وأطلق على هذه المرحلة اسم مرحلة ما قبل التاريخ.

لكن عدم اختراع الكتابة في تلك العصور لم يكن حائلاً أبداً أمام معرفتنا لأوضاع تلك الشعوب، وذلك لأن ما خلفوه من آثار تحت التراب وفي المغارات وغيرها كثير جداً مما يسهل الكشف عن مجهولات كثيرة في أسلوب معيشتهم.

فالعلماء ما زالوا مستمرين في التنقيب في مختلف أنحاء العالم عن الآلات المختلفة التي كان الإنسان يستخدمها في تلك الفترة وما زالوا ينقبون عن بيوتهم وقراهم التي كانوا يسكنونها، كي يطالعوها بدقّة بعد العثور عليها ليدونوا ما يكتشفونه من عاداتهم وتقاليدهم وثقافتهم فيتوصلوا عن هذا الطريق إلى معرفة طقوسهم وعقائدهم الدينية أيضاً.

يقول عالم الاجتماع الشهير «صامويل كينغ» في كتابه: «إن أسلاف الإنسان الحالي (الذين عُثر على آثارهم خلال التنقيب) أي «النياندرتال» كانوا يمارسون طقوساً دينية، والدليل على ذلك هو دفنهم أمواتهم بطريقة خاصة ودفنهم آلات عملهم معهم وهذا ما يكشف عن عقيدتهم بوجود عالم آخر» (١).

ونحن نعلم بأن نسل النياندرتال يتعلق بعصور مضت عليها عشرات الآلاف من السنين في زمانٍ لم تخترع فيه الكتابة ولم تدخل مرحلة

التاريخ البشرى.

إن عملهم هذا كان خرافياً وهذا ممّا لا شك فيه، لأننا نعلم بأنّ آلات العمل لا تنفع الإنسان في الآخرة، لكنّ المحفّز لعملهم هذا هو الإيمان بالحياة بعد الموت كان واقعاً متجسداً بينهم.

(١) علم الاجتماع، سامويل كينغ، ج ١، ص ٢٩١.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٩٤

وجاء في كتاب دائرة معارف القرن العشرين نقلًا عن كتاب «اصول علم الاجتماع» لمؤلفه «هربرت اسبينسر»: «إنّ الإنسان القديم وبسبب عدم قدرتهم على التفكير العميق كانوا يتصورون وضع الحياة في الآخرة على قدر عقولهم، لذا كانوا يحملون اعتقادات عجيبة وغريبة عن جزئيات تلك الحياة تشوبها الخرافات أحياناً، فالكثير منهم وعلى الرغم من اعترافهم بالحياة الآخرة كانوا يعتقدون بأنّ تلك الحياة تختص بمن مات موتاً طبيعياً، وكان البعض منهم يعتقد بأنّ تلك الحياة خاصة بالابطال والأقوياء. فقسم من هؤلاء كان يدفن مع الميت سلاحه، كما كانوا يدفنون الأدوات المنزلية مع النساء ووسائل اللعب مع الأطفال (كى ينتفعوا بها عندما يبعثون ثانياً!). كما كانوا يدفنون أحياناً جميع ما يمتلك الميت من حيوانات معه، ويدفنون معه أحياناً شيئاً من حبوب الذرة والحبوب الأخرى لكى يستفيد منها فى زراعته فى الآخرة!.

كما كانوا يتجاوزون ذلك أحياناً فيدفنون مع الميت نساءه وغلماؤه وبعض أعوانه المقربين كى يتسامر معهم فى الآخرة! حتى وصل الحد فى بعض مناطق المكسيك وأمريكا إلى قتل كاهنٍ (ودفنه) مع أصحاب النفوذ ليشاوروه فى الامور الدينية والمعنوية فى الآخرة!!.

كما كانوا يقتلون مهزّجه ويدفونه معه أيضاً ليلهى سيده فى الآخرة بحركاته وما يقصّه عليه من الطرائف.

فعدد الذين يقتلون ليدفونوا مع الشخصيات يتناسب مع حجم شخصيته ومكانته ذلك الرجل، وقد ذكر أحد المؤرخين: أنّ عدد ضحايا بعض هؤلاء الأموات يصل إلى مائتى شخص!

وفى بعض الأحيان عندما كان يتوفى أحد الأبناء الأعمام كانوا يقتلون أمه وعمته وجدته فيدفنونهن معه كى يكنن إلى جواره فى الآخرة» (١).

ممّا لا شك فيه هو أنّ هذه الخرافات المرعبة كانت وليدة أفكار تلك الشعوب المنحطّة

(١) دائرة المعارف قرن بيستم، ج ١، ص ٩٠-٩٤ (باختصار).

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٩٥

فكرياً، لكن كل تلك الأحداث تتحد فى دلالتها على شىء واحد وهو أنّ الاعتقاد بعالم ماوراء الموت كان ذا جذور عميقة لدى الإنسان القديم.

وجاء أيضاً فى كتاب «تاريخ الحضارات العام» أنّ أجساد الموتى كانت تدفن باهتمام خاص ومراسم خاصة منذ مراحل ما قبل التاريخ وحتى نهاية التاريخ القديم، وكثيراً ما كانوا يدفنون مع الأموات الأدوات المنزلية أو اشكال غريبة أخرى وكان ذووهم يهدونهم الهدايا، وهذه العادات والتقاليد إن دلت على شىء فإنها تدل على إيمانهم بالحياة الآخرة (١).

٢- المعاد فى ضمير شعوب ما بعد التاريخ

تدل الوثائق التاريخية على أن الشعوب التي كانت تعيش في مناطق مختلفة من العالم كانت تشترك مع الشعوب الأخرى في هذه العقيدة، وغالباً ما كانت المجتمعات تؤمن بعقيدة راسخة في مسألة الحياة بعد الموت، وتولي اهتماماً كبيراً بإقامته تلك الشعائر بالرغم من إدخالهم عليها بعض الخرافات، ونحاول أن نلقى نظرة على بعض المعتقدات لدى المجتمعات القديمة.

(أ) المعاد لدى المصريين القدماء

جاء في كتاب تاريخ «آلبر ماله» في هذا المجال: «كان المصريون يعتقدون بأن أرواح الموتى تخرج من القبور، وتمثل بين يدي الرب العظيم «آزيريس».

وعندما تُقاد الروح لتمثل أمام أحكم الحاكمين فإن «آزيريس» يأخذ قلب الشخص ويضعه في ميزان الحقيقة ليزنه، فترسل الروح الطاهرة إلى بستان لا يسع تصور الإنسان خيراته ...

(١) تاريخ الحضارات العام، ج ١، ص ٩٩.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٩٦

وكانوا يضعون إلى جوار كل من الأموات سفراً يُعِينه وَيَهْدِيه في سفره إلى ذلك العالم، وذلك السفر العجيب يحتوي على جُمل ينبغي على الميت أن يقولها أمام الإله العظيم «آزيريس» كي تبرأ ذمته، وهذه الجُمل هي:

إنَّ العظْمَةَ تَلِيْق بِكَ أَيُّهَا الْمَتَعَالِ! إله الحقيقة والعدالة!

إنني لم أراوغ مع الناس الذين كنت أعيش معهم، ولم اضجر امرأة عجوزاً ولم أكذب في محكمته، ولم أدنس نفسي بالحيل وتلفيق الحقائق.

إنني لم احمل العامل أكثر مما يطيق من عمل في يوم واحد، ولم أتماهل في انجاز وظائفى، ولم اتخذ من التواني موضعاً، ولم أرض بهتك المقدسات ولم أنم على عبد لدى سيده، ولم ألق برزق احدٍ إلى القلط! ولم أقتل، ولم أسرق لفائف وأمتعة الموتى «١».

إنني لم اغتصب أرض أحد ولم أصد عن رضع الأطفال، ولم أوقف جريان نهر، إنني طاهر طاهراً! ...

أيها القضاء! افسحوا المجال أمام هذا المرحوم فاليوم يوم الحساب، وهذا لم يقترف ذنباً ولم يكذب ولم يُس، إنه نصر الحق والانصاف في حياته، فكان الناس يحمدون أفعاله وقد أرضى الإله، إنه أطعم الجياع وقدم القرابين في سبيل الإله ومد الموتى بالغذاء، أن فمه طاهر ويديه طاهرتان أيضاً.

قال المؤرخ المذكور (آلبر ماله) في نقد هذا الكلام: يلاحظ بوضوح من خلال هذه العبارات كيفية تصنيف المصريين للذنوب الكبيرة والحسنات والمستحبات «٢».

ويجب أن نضيف إلى هذا الكلام أن هذه العبارات تدل أيضاً على أن هؤلاء كانوا يؤمنون بالحساب الإلهي بالإضافة إلى إيمانهم بتمحيص الأعمال وإيمانهم بوجود الجنان، كما يجب أن نضيف إلى هذا أن هذه الأعمال أشبه ما تكون بتلقين الميت لدى المسلمين، وتشير إلى تطهير السلوك من دنس جميع الذنوب، هذا بالإضافة إلى قياس حجم الذنوب بالنسبة إلى بعضها البعض.

(١) المراد من لفائف الموتى ظاهراً هو القماش الذى يلف على أجسام الموتى لتحنيطهم، وكان ذا قيمة عالية، أما الأمتعة فهى الغذاء الذى كانوا يدفنونه مع الموتى على أمل أن ينفعهم فى حياتهم بعد الموت.

(٢) «آلبر ماله» تاريخ ملل شرق ويونان، ج ١، ص ٧٤.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٩٧

وعلى أى حال فالمصريون بناءً على ما جاء فى تاريخهم، كان لهم اعتقاد راسخ بمسألة الحياة بعد الموت على الرغم من نفوذ خرافات كثيرة فيها، ومن جملة معتقداتهم هو وضعهم الأدوات التى كانوا يستخدمونها فى حياتهم والأمتعة، ووضعهم صور وتمائيل ورسوم الموتى فى القبور، لاعتقادهم بأن هذه الصور والرسوم يمكنها أن تحل محل الموتى ففى بعض المقابر عثر على صورة مزرعة وفى بعضها عثر على صورة تُصوّر كيفية عمل الرغيف، وفى بعضها عثر على صورة تحتوى على منظر ذبح بقرة، واخرى تحتوى على منظر تقديم اللحم المشوى الموضوع فى الأنية للضيوف «١»، كما أن تحنيط الموتى وبناء القبور الرصينة مثل الأهرام، كلها تصب فى هذا الميدان، والهدف منها هو حفظ أجساد الموتى من التفسخ إلى يوم القيامة، كى تتمكن من الحصول بسهولة على وسائل العيش بعد أن تحل فيها الروح (لذا) كانوا يضعون أنواع المأكولات وتمائيل الطباخين والخبازين، وأنواع الأسلحة والجواهر فى القبور إلى جوار الأجساد، ولما كانت هذه القبور عادةً عرضة لعبث الحيوانات الوحشية، أو عرضة لحملات اللصوص لما يوجد فيها من جواهر فقد بادر أصحاب النفوذ والأثرياء إلى بناء الأهرام، أو بناء الأبنية الرفيعة على القبور واطلقوا عليها اسم «بيرموس» أى «مرتفع» «٢».

(ب) «البابلون»

إنّ البابليين أيضاً كانوا من أصحاب الحضارات القديمة، وتدل الآثار الباقية من حضارتهم على أنّهم كانوا يدفنون أجساد الموتى فى قبور على شكل غرف مُسقّفة تحت الأرض، وبالرغم من عدم تحنيطهم الموتى إلّا أنّهم كانوا يلبسونهم الملابس الفاخرة بعد غسلهم، وكانوا يصبغون وجنات الموتى بالألوان ويكحلون أجفانهم باللون الأسود! وكانوا

(١) قصة الحضارة، ول ديورانت، ج ٢، ص ٧١.

(٢) المصدر السابق، ص ٧١.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٩٨

يضعون الخواتم فى أصابعهم، أمّا بالنسبة للنساء فإنّهم كانوا يدفنون معهنّ حقايق الطيب والمشط ودقيق وزيوت التجميل، كى يحتفظن بطيب الرائحة وطراوتهنّ وجمالهنّ فى العالم الآخر «١»!

(ج) «السومريون»

يعتبر السومريون من أصحاب الحضارات السالفة، الذين كانوا يقطنون جنوب العراق، قال المؤرخ «ول ديورانت»: كان السومريون يدفنون الأمتعة والآلات مع الأموات.

وقال فى هذا المجال أيضاً: إنّ السومريين كانوا يدفنون الأمتعة والآلات العمل مع الموتى فإنّ من الممكن أن نفترض بأنّهم كانوا يعتقدون بالدار الآخرة «٢».

(د) «الزراشت»

إنَّ الزرادشت الذين كانوا يقطنون إيران، كالشعوب الأخرى يعتقدون بعودة الحياة بعد الموت، بل قد ذكروا لهذه المسألة جزئيات أكثر ممَّا ذكرته الشعوب الأخرى فهؤلاء لديهم عبارات حول الجنة والنار والصراط، حتَّى أنَّهم كانوا يصنفون أهل النار على دركات تشبه إلى حد كبير المعتقدات المعاصرة.

وعلى حدِّ قول «ول ديورانت» إنَّهم كانوا يعتقدون بالآخرة و «جهنم» و «محلَّ التطهير» (الاعراف) ويعتقدون بوجود الجنة، كما أنَّهم يعتقدون بأنَّ الأرواح عليها أن تتجاوز الصراط، لتمييز الأرواح الخبيثة عن الأرواح الطيبة فتهبط الأرواح المنزَّهة بعد عبور الصراط إلى أرض «السرور»، ليخلدوا إلى جوار «هورامازدا» في النعيم والسعادة، بينما لا

(١) قصة الحضارة، ول ديورانت، ج ٢، ص ٢٢٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٠.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٢٩٩

تتمكَّن الأرواح الخبيثة من عبور الصراط فتَهوى في حفر النار، فالأرواح التي ارتكبت ذنوباً أكثر خلال حياتها تسقط في حفرٍ أعمق من حفر جهنم! «١».

وكما لاحظتم أنَّ هؤلاء كانت لديهم تفصيلات أكثر من غيرهم في مسألة الحياة بعد الموت.

هـ «الصينيون»

والصينيون أيضاً كانوا يؤمنون بوجود الحياة الأخرى في طيات معتقداتهم، قال «ول ديورانت» في هذا المجال: إنَّ عقائد هؤلاء الدينية كانت مليئة بتمنى الوصول إلى الآلهة والجنة، وكانوا يعتبرون الإله «أميتبها» حاكم الجنة (من المحتمل أن يكون الإله هنا هو المَلَك) «٢».

وجاء في مصدر آخر: إنَّ الصينيين كانوا يعتقدون بأنَّ الذين يموتون موتاً طبيعياً إذا ما كانوا صالحين، فسوف تسمو أرواحهم وتصل إلى مراحل راقية بالتدرج من خلال تقديم الهدايا والقرايين، وأخيراً يتحولون إلى آلهة (ملائكة) «٣».

و «اليابانيون»

واليابانيون أيضاً كانوا يشتركون في هذه العقيدة مع الشعوب الأخرى فعندما وصلت الديانة البوذية إلى اليابان كانت مُلبَّدةً بغيوم من التشاؤم، ولكن سرعان ما تغيَّرت تحت السماء اليابانية وأصبحت لها آلهة حفظة (ملائكة حفظة)، وطقوس جذابة وجنة آمنة، ولا يخفى أن هذه الديانة كانت تؤمن بوجود جهنم والوحوش الخرافية أيضاً «٤».

(١) قصة الحضارة، ول ديورانت، ج ٢، ص ٤٣٠.

(٢) المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٦١.

(٣) اسلام وعقائد وآراء بشرى، ص ١٥٨.

(٤) قصة الحضارة، ول ديورانت، ج ٥، ص ٣٥.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٠٠

(ز) «اليونانيون»

أظهرَ اليونانيون (الايغريق) اعتقادهم بالحياة بعد الموت بصور مختلفة، فمن جملتها إنهم كانوا يدفنون مع الموتى بعضاً من الامتعة ووسائل التنظيف ليكونوا سعداء تحت التراب، كما كانوا يدفنون معهم تماثيل فخارية صغيرة بهيئة النساء كي تحافظ عليهم وتسليهم في الدار الآخرة «١».

(ح) «الرومان»

وللرومان أيضاً تعابير مختلفة في هذا المجال. ف «الأترويون» الذين هم احدى الفرق القديمة والذين حكموا روما، كان من أهم اعتقاداتهم هو أن الميت يحشر في المحكمة الإلهية تحت الأرض طبقاً للصورة التي تنقش على قبره، ويمهل في آخر لحظات المحاكمة للدفاع عن أعماله التي ارتكبها في حياته، فإن لم يتمكن من الدفاع عن نفسه فسوف يبتلى بأنواع العذاب ... وهؤلاء أيضاً كانوا يدفنون الموتى أحياناً في قبور تشبه البيوت يحفرونها في الصخور، وكانوا يضعون مع الميت جميع ما يتعلق به من أدوات كالملابس والمزهريات والأسلحة والمجوهرات والمرآة وأدوات التجميل «٢».

وكان المؤرخ اليونانى «بلوتارخس» الذى كان يعيش فى الفترة ما بين (٥٠ - ١٢٠) ميلادى، الذى ألف كتبه فى العقائد وسير مشاهير اليونان كان يعتقد بوجوب الإيمان بخلود الإنسان وبأن الجنة محل الثواب، وأن البرزخ محل التطهير، وجهنم محل العقاب «٣».

(١) يونان القديم، ج ٢، ص ١٨.

(٢) تاريخ تمدن، ول ديورانت، ج ٣، ص ٩ (قيصر ومسيح).

(٣) المصدر السابق، ج ٣، ص ٥٧١.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٠١

٣- الاعتقاد بالمعاد فى كتب اليهود «١»

إن مِمَّا لا-شك فيه هو أن النصرارى واليهود كانوا يؤمنون بعالم ما بعد الموت، وقد اشير إلى هذه المسألة كثيراً فى كتب «العهد الجديد» والأنجيل الكثيرة، بالرغم من قلّة الإشارة إليها فى كتب «العهد القديم» أى كتب اليهود.

ومن «المحتمل» أن يكون السبب فى وجود هذا الفرق، هو حب اليهود المفرط للحياة المادية، والذى أشار إليه تاريخهم بوضوح مما يجعل الاعتقاد بالمعاد يزاحم برامجهم، لذلك عندما كانوا يحرفون كتبهم المأثورة كانوا يثبتون كل ما شاهدوه يتحدث عن الامور المادية فى الحياة بنحو أفضل وأبرز مما ذكر، لكنهم كانوا يحذفون كل ما كانوا يواجهونه من حديث حول القيامة وعقوبة عبدة الدنيا والظلمة!

وقد وصفهم القرآن المجيد بهذا الوصف أيضاً، قال تعالى «وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ». (البقرة/ ٩٦)

ولكن بالرغم من جميع هذه الاحتمالات التى نشاهدها فى كتب العهد القديم بالنسبة لمسألة المعاد، فإننا نواجه عبارات واضحة الدلالة

على الاعتقاد بمثل هذا العالم والتي منها:

- ١- جاء في كتاب «النبى أشعيا»: «سوف تحيا أمواتك وسوف تبعث أجسادى» «٢».
- ٢- وجاء في الكتاب الأول ل «صومائيل» مايلى: «إن الله يميئ ويحيى ويدخل القبور ويبعث» «٣».

(١) تشتمل كتب اليهود المقدسة والتي تسمى بالعهد القديم على ٣٩ كتاباً، خمسة منها اسفار التوراة الخمسة، وسبعة عشر كتاباً منها تسمى بمدونات المؤرخين وكما هو ظاهر من اسمها فهي تحمل فى طياتها ما دونه المؤرخون حول سيرة الملوك والحكام وغيرهم، أما الكتب السبعة عشر الاخرى والتي، تسمى بمدونات الأنبياء فهي تتألف من شرح سيرة الأنبياء وكلماتهم القصار ونصائحهم ومناجاتهم، وأما بالنسبة لكتب المسيح المقدسة (العهد الجديد) فمجموعها سبعة وعشرون كتاباً لا غير، فالانجيل الاربعة دوت على يد تلاميذ المسيح أو تلاميذ تلاميذه وأثنان وعشرون كتاباً منها هي رسائل (بولص) وسائر رموز الدين المسيحي الذين بعثوا للتبشير إلى مناطق مختلفة، وآخرها كتاب الرؤيا (ليوحنا) الذى شرح فيه مشافهاته الغيبية.

(٢) كتاب أشعيا، باب ٢٦، جملة ١٩.

(٣) كتاب صاموئيل الأول، باب ٢، ج ٦.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٠٢

٣- وجاء فى سفر المزامير ل «داود»: «بما أننى أسير تحت ظل الموت دائماً فإننى سوف لن أخاف السوء، لأنك معى، وسوف تتبعنى الرحمة والاحسان فى كل لحظات عمرى، وسوف أسكن بيت الله إلى الأبد» «١».

بهذا أشار كل من الأنبياء «صاموئيل» و «اشعيا» و «داود» إلى القيامة بإشارات بارزة، بالرغم من أن هذه الأحاديث وأمثالها لم يتلقها اليهود بقناعة، ومن المحتمل أن يكون هذا هو السبب فى حذفهم لعبارات كثيرة اخرى فى هذا المجال.

قال بعض المؤرخين فى معرض ذكره لنبذة من عقائد اليهود: «إن هؤلاء كانوا يعتقدون بأن الأموات سوف يبعثون أخيراً (وتحل فيهم الروح من جديد) ... فيأتى المنتقد على الفور، وبعد انتصاره يجتمع المحسنون جميعاً ويلتحق بهم (حتى من كان فى القبور فيحشرون فى الجنة التى هي مقره الأبدى» «٢».

وقد أشار هذا الكاتب فى محل آخر إلى العقيدة الزرادشتية فقال: «سوف يبعث الأموات؛ وتحل الروح فى أجسادهم، ويعود التنفس إلى صدورهم فيتخلص العالم المادى من الكهولة والموت والتفسخ والانقراض، ويبقى على هذه الحالة إلى الأبد».

٤- القيامة من وجهة نظر الأنجيل

وكما أشرنا سابقاً إلى أن مسألة الحياة بعد الموت قد ذكرت بوضوح أكثر فى أنجيل النصارى فمن جملة ذلك:

جاء فى انجيل «متى الذى هو من أقدم الأنجيل»: «عندما يمتلئ ابن آدم بين يدي الأب مع ملائكته، حينئذ يجازى كل على قدر عمله» «٣».

(١) مزامير داود، مزبور ٢٣، جملة ٤ إلى ٦.

(٢) تاريخ تمدن، ول ديورانت، ج ٣، ص ٦٣٧ (باختصار).

(٣) انجيل متى باب ١٦، جملة ٢٧.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٠٣

وجاء فى انجيل «يوحنا» مايلى:

«... تأتي تلك الساعة فيستمع جميع من في القبور نداءها فيخرجون جميعاً، فمن عمل صالحاً يذهب إلى قيامه الحياة، ومن عمل سيئاً يذهب إلى قيامه الجزاء» (المراد من قيامه الحياة ظاهراً هي الحياة في النعيم الإلهي التي هي ثواب الصالحين، والمراد من قيامه الجزاء هو مجازاة المذنبين طبقاً لمقتضى قضاء العدل الإلهي) «١».

ثمره البحث:

من خلال البحوث المذكورة يمكننا بكل وضوح الوصول إلى هذه النتيجة وهي: إن الاعتقاد بالحياة بعد الموت في نظر مؤرخي الأديان وغيرها هو من أقدم المعتقدات لدى الأقسام المختلفة للبشر بل هو أقدم من اختراع الخط وتدوين التاريخ أيضاً، وإن جميع الأقسام والشعوب كان لديهم نوع من هذه الاعتقادات التي لم تؤثر فيها لا القومية ولا الجنس ولا اللغة ولا الخصوصية الجغرافية، بل هي عقيدة شمولية حملها البشر على مر التاريخ وقبل تدوينه. وطبقاً لما جاء مفصلاً في بحث كون المعاد فطرياً، فإن شمولية هذه العقيدة نابعة من كونها ذات جذور فطرية، فهي ذاتية وليست من الامور الطارئة على البشر من الخارج، كي تتطور بمرور الزمان أو بتطور الشعوب.

(١) انجيل يوحنا، الباب ٥، جملة ٢٨ و ٢٩ (اقتباس من ترجمة «وليام غلن» طبع المجتمع البريطاني للترجمة الاجنبية للكتب المقدسة سنة ١٨٧٨).

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٠٥

الإيمان بالمعاد وعلاقته بالتربية

تمهيد:

إن مما لا شك فيه هو أن الإيمان بالمعاد له تأثير بالغ على أعمال البشر، فأعمال الإنسان أساساً ما هي إلالانعكاسات لعقائده، أو بتعبير آخر إن سلوك كل إنسان له علاقة وثيقة بنظرة الكونية.

فمن يعتقد بأن جميع أعماله بلا- استثناء، سوف تناقش قريباً في محكمته يتسم قضاؤها بالعلم بجميع الامور، وأنه لا تنفع في تبديل حكمهم شفاعة الآخرين أو الرشوة، وأنه لا مجال لدخول التعديلات على احكامها الصادرة، التي سوف يثاب أو يعاقب وفق مفادها، بل من ناحية اخرى إن من يعتقد بأن أعماله محفوظة على الدوام وتتسم بصبغة الخلود، وأنها سوف تحشر معه في الآخرة لتعيين مصيره من ناحية الفخر أو الدلة، والطمأنينة أو العذاب، وبأنها تجرّه إلى السعادة الخالدة أو العذاب الأبدى، فإنه من البديهي أن لا يسعى مثل هذا لإصلاح نفسه فحسب، بل يصبح حذراً جداً في ممارسة سلوكه وأعماله المختلفة ويتمعن فيها كثيراً، كما هو الحال في العالم المطّلع على خواص العقاقير الطبية النافعة والسموم القاتلة، فإن هذا يسعى لتجنيد جميع طاقاته للحصول على العقاقير النافعة، كما أنه يحذر كل الحذر من السموم القاتلة، فهذه المسألة تصدق على موارد الاعتقاد بالحياة بعد الموت ومحكمة القيامة.

بعد هذه الإشارة نعود إلى القرآن لتأمل خاشعين في الآيات التالية الواردة في هذا المجال:

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٠٦

١- «فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا».

(الكهف / ١١٠)

٢- «وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا* إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا* إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا

عَبُوسًا قَمَطَرِيًّا».

(الانسان / ٨ - ١٠)

٣- «وَمَا لِي لَأَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ». (يس / ٢٢)

٤- «قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِّنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَهُ كَثِيرَةً يُأْذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ». (البقرة / ٢٤٩)

٥- «قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيْنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا». (طه / ٧٢ - ٧٣)

٦- «فِي جَنَاتٍ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ... وَكُنَّا نُكَذِّبُ بَيُّومَ الدِّينِ». (المدثر / ٤٠ - ٤٦)

٧- «وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ... أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ».

(المطففين / ١ - ٤ - ٥)

٨- «إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ». (التوبة / ٤٥)

٩- «أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِاللَّيْلِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ». (الماعون / ١ - ٢)

١٠- «بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ * يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ». (القيامة / ٥ - ٦)

١١- «إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ». (النمل / ٤)

١٢- «وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا». (الاسراء / ٤٥ - ٤٦)

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٠٧

جمع الآيات وتفسيرها

الإيمان بالمعاد هو المحفز على عمل الصالحات:

لقد عكست لنا الآية الاولى الرابطة الوثيقة بين الإيمان بالآخرة والعمل الصالح، قال تعالى «فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا».

فالإيمان بالآخرة طبقاً لمفاد هذه الآية يمكنه في الواقع أن يؤثر في الإنسان من جهتين، الاولى هي حثه على العمل الصالح، والآخرى على الإخلاص في العبودية. والظريف هو أن هذه الآية اطلقت على يوم القيامة عنوان «لقاء الله»، ونحن نعلم بأن هذا اللقاء المعنوي والشهود الباطني هو قمية التكامل بالنسبة للبشر، وتذكر ذلك اليوم بإمكانه أن يوجد دوافعاً للإخلاص الكامل والعمل الصالح. (وقد اصطالحوا على هذا بتعليق الحكم على وصف مشعر بالعلية).

وهذه الملاحظة أيضاً جديرة بالاهتمام، وهي أن التطرق إلى رجاء المعاد بدل اليقين به، إشارة إلى أن مسألة المعاد، بدرجه بحيث إنه حتى الرجاء بتحقيقه يكفي لوحده لكي يكون منبعاً لمثل هذه الآثار (١).

وبالإضافة إلى ذلك فإن الإتيان بصيغة المضارع «يَرْجُوا» التي تدل على الاستمرارية، ثم الإتيان بعدها بالأمر بالعمل الصالح والإخلاص بصورة مطلقة، كل ذلك من أجل الدلالة على أن ذلك الرجاء وهذا العمل مقترنان ويحاذيان بعضهما على الدوام.

كما يمكن الكشف عن هذه المسألة الظريفة من هذه الآية أيضاً وهي أن القرآن شبه العباد بالمسافرين الذين يعودون ليلاقوا محبوبهم بعد انصرام مدة الفراق، ومن البديهي أنه يجب عليهم بأن يأتوا معهم بهدايا وأن يتصرفوا بما يليق بهذا اللقاء كي لا يقفوا خجلين بين

يدى الحبيب.

جاء فى بعض التفاسير فى سبب نزول هذه الآية: إِنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَقَالَ: إِنِّي أَحْبَبْتُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكِنِّي أَحْبَبْتُ أَنْ أُبْرَزَ مَا لَدَيَّْ مِنْ مَفَاخِرِ أَمَامِ الْآخِرِينَ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ

(١) تفسير الميزان، ج ١٣، ص ٤٠٦.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٠٨

الآية (وَأَكَّدَتْ عَلَى الْإِخْلَاصِ فِي الْعَمَلِ).

وجاء فى رواية اخرى فى سبب نزول هذه الآية أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَقَالَ:

يَارَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَتَصَدَّقُ وَأَصِلُ الرَّحِمَ وَلَا أَصْنَعُ ذَلِكَ إِلَّا لِلَّهِ تَعَالَى فَيَذَكَرُ ذَلِكَ مِنِّي وَأَحْمَدُ عَلَيْهِ فَيَسِّرُنِي ذَلِكَ وَأَعْجَبُ بِهِ، فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى «فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا» (١).

إِنَّ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ الْوَارِدَةَ فِي سَبَبِ نَزُولِ الْآيَةِ تَدُلُّ بوضوح على أَنَّ الْإِخْلَاصَ التَّامَّ يَعْتَبِرُ اسَاسَ الْعِبَادَةِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ ... الْإِخْلَاصَ الَّذِي لَا يَشُوْبُهُ شَيْءٌ مِنَ الرِّيَاءِ وَلَا يَحْتَوِي عَلَى أَيِّ نَوْعٍ مِنَ أَنْوَاعِ الشَّرْكِ.

والآية الثانية تتحدث عن القصة المعروفة وهى نذر اهل بيت النبي الأكرم صلى الله عليه وآله صيام ثلاثة أيام واهدائه طعام الافطار إلى «المسكين» و «اليتيم» و «الأسير»، وهذه الآية تشير بوضوح إلى هذه الحقيقة وهى أَنَّ هَذَا الْإِثَارَ الَّذِي لَا مِثِيلَ لَهُ يَنْبَغُ مِنَ الْإِيمَانِ بِالْمَعَادِ، قَالَ تَعَالَى «وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَشَكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا* إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لِأَتُرِيدُوا مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا* إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا عَبَّوسًا قَمَطِرًا» (٢).

أجل إِنَّ مَنْ يَخَافُ اللَّهَ وَيَخَافُ يَوْمَ الْجَزَاءِ، لَا يَنْفِقُ مِمَّا فَضَّلَ عَنْ حَاجَتِهِ فَحَسَبَ، بَلْ يَنْفِقُ مِمَّا هُوَ بِأَمْسٍ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ وَذَلِكَ فِي سَبِيلِ الْحَبِيبِ الَّذِي لَا مِثِيلَ لَهُ، هَذَا بِالْإِضَافَةِ إِلَى أَنَّهُ يَنْفِقُهُ بِإِخْلَاصٍ تَامٍ، وَلَا يَنْفِقُهُ مِنْ أَجْلِ الْحَصُولِ عَلَى مِكَافَأَةٍ أَوْ إِظْهَارِ الشُّكْرِ عَلَى لِسَانٍ مِنْ أَحْسَنِ إِلَيْهِمْ، وَهَذَا أَمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ بِذَلِكَ الْيَوْمِ الْعَظِيمِ هُوَ مُحَفِّزٌ قَوِيٌّ لِعَمَلِ

(١) تفسير القرطبي، ج ٦، ص ٤١٠٩.

(٢) «عبوس» بمعنى متقطب الوجه و «قمطير» بمعنى صعب وشديد، وتشبيه يوم القيامة بالإنسان العبوس هو تعبير لطيف يصور ما لذلك اليوم من رعب وخوف شديدين، ثم إِنَّ كَلِمَةَ «قَمَطِيرٍ» عَلَى رَأْيِ الْبَعْضِ مُشْتَقَّةٌ مِنْ مَادَّةِ «قَمَطَرٍ» وَعَلَى رَأْيِ الْبَعْضِ الْآخَرِ هِيَ مِنْ مَادَّةِ «قَطْرٍ» (على وزن قُفْل)، وَلَكِنْ الْمَشْهُورُ هُوَ الرَّأْيُ الْأَوَّلُ. الدهر آية ٧-٩.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٠٩

الصالحات والإخلاص فى التبتة.

ومما يجدر بالذكر هنا هو أَنَّ الْآيَةَ السَّابِقَةَ تَحَدَّثَتْ عَنْ تَأْثِيرِ الرَّجَاءِ وَالْأَمَلِ بِتَحَقُّقِ الْقِيَامَةِ، عَلَى الْإِخْلَاصِ وَعَمَلِ الصَّالِحَاتِ، وَفِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ جَاءَ الْحَدِيثُ عَنْ تَأْثِيرِ الْخَوْفِ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ، فَعِنْدَ الْجَمْعِ يَتَشَكَّلُ لَدَيْنَا رَكْنَانِ اسَاسِيَانِ لِلْحَثِّ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ وَالْإِخْلَاصِ وَهُمَا (الرَّجَاءُ وَالْخَوْفُ).

والآية الثالثة تنقل ما جاء على لسان رجل مؤمن نهض فى انطاكيا للدفاع عن مبعوثى المسيح عليه السلام، وليهدى أهل تلك المنطقة للسير على خطى اولئك السفراء، إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ كَانَ يَقُولُ خِلالَ دَعْوَتِهِ لِلنَّاسِ وَكَمَا قَالَ تَعَالَى «وَمَا لِي لَأَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ».

فهو في الحقيقة ذكر خلال دعوته دليلين على وجوب العبودية للرب وهما:

أولاً: لأنه خلقنا وأن وجودنا وعلمنا وقدرتنا كلها منه.

وثانياً: أنه هناك دنيا أخرى أمامنا سوف يلحق بها الجميع، ويمثل الكل بين يدي الله تعالى ومحكمته العادلة.

والملفت للنظر هو أنه نسب الخلق واعطاء المواهب إلى نفسه، أما بالنسبة للمعاد والقيامة فقد نسبها إليهم، وهذا يدل على أن المورد الأول يتضمن شكره للنعمه، والمورد الثاني يتضمن تهديد المخالفين من عذاب الله يوم القيامة.

الإيمان بالمعاد وتأثيره على الثبات:

وفي الآية الرابعة جاء الحديث عن تأثير الإيمان بالمعاد في الثبات والصمود أمام الأعداء في سوح الجهاد، وهي تنقل ما جاء على لسان قوم من مؤمني بني اسرائيل الذين

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣١٠

رافقوا «طالوت» (قائد الجند الذي نُصّب من قبل الباري تعالى في حربهم مع «جالوت» الملك الظالم، وبعد خوضهم لامتحان صعب تخلّف فريق منهم ولم يبق في ساحة القتال إلا عدد ضئيل، ثم إن هذا العدد الضئيل انقسم بدوره إلى قسمين، فقسم منهم استحوذ عليهم الخوف والهلع فقالوا: «قَالُوا لَاطَاقَةٌ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ». (البقرة / ٢٤٩)

وفي قبال هذا القسم، قسم آخر كانوا يعلمون بأنهم ملاقوا الله حيث قالوا: «قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ».

والتعبير بـ «يظنون» - على رأى كثير من المفسرين - وردَ هنا بمعنى «اليقين بقيام يوم القيامة» وهو كذلك؛ لأنّ هذا الحديث صدر عن الذين خاضوا مختلف أنواع الامتحانات، ثم دخلوا ساحة الجهاد بإيمان راسخ.

ولا يخفى أنّ «الظن» بمعنى الاعتقاد الناشئ من الأدلة والشواهد، وكلّما كانت الأدلة قوية، فإنّه سوف ينتهي إلى العلم وكلّما ضعفت شواهده فإنّه لا يتجاوز حدّ الوهم.

وقال بعض المفسرين أيضاً: إنّ الظن هنا لا يصل حدّ العلم، لكن «لقاء الله» لم يأت هنا بمعنى القيامة، بل جاء بمعنى الشهادة في سبيل الله، أى أنّ هذا الحديث كان صادراً عن الذين كانوا يظنون بأنهم سوف ينالون وسام الشهادة الرفيع.

لكنّ هذا المعنى بعيد جداً، وذلك لأنه لا يتناسب مع «غلبة الفئة القليلة على الفئة الكثيرة»، بالإضافة إلى أنّ «لقاء الله» الذى ذكر في آيات القرآن يدل عادةً على القيامة لا على الموت أو الشهادة.

وعلى أيّة حال فمن البديهي أنّ الذين يؤمنون بالقيامة لا يعتبرون الموت نهاية الحياة أبداً، بل يعتبرونه بداية حياة أرقى فمثل هؤلاء لا يخافون الموت بل يذهبون لاستقباله بكل شجاعة وشهامة.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣١١

والآية الخامسة تتضمن ما جاء على لسان سحرة فرعون عندما آمنوا بموسى عليه السلام، بعد أن هددهم فرعون بالعذاب الأليم والتقتيل، قال تعالى نقلًا عن لسانهم: «فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى .

إنّ الإيمان بالقيامة وعدم الإكتراث بقيمة الحياة الدنيا، دفع بالسحرة الفراعنة أن يمارسوا أقوى درجات الإيثار والتضحية، فقد صرفوا أنظارهم عن جميع ما أعده لهم فرعون من الهدايا، وصرفوا أنظارهم عن جميع الماديات وذهبوا لاستقبال القتل والتنكيل، ووقفوا بكل صلابه أمام استفزازات ذلك الطاغية الجبار، وشربوا شهد الشهادة بكل شجاعة.

أجل عندما يبرق الإيمان بالمعاد في القلوب، فإنّه يوجب النار فيها بنحو لا ينفذ معه أى تهديد، فيفقد كل شي أهميته في نظر الإنسان

إِلَّا اللَّهَ وَلِقَاءَ الْآخِرَةِ وَنَعِيمِهَا الْخَالِدِ.

إِنَّ هَذَا الْإِيمَانَ الْقَوِيَّ الْمَتَّقِدَ بَدَّلَ السَّحْرَةَ الَّتِي كَانُوا بِالْأَمْسِ عِبِيدَ الدُّنْيَا وَكَانُوا أَذْلَهُ مَتَمَلِّقِينَ بِدَلْهِمِ الْيَوْمِ وَحَوْلِهِمْ إِلَى رِجَالِ أَقْوِيَاءَ وَشَجْعَانَ صَامِدِينَ «١».

والتعبير بـ «الْحَيَاةَ الدُّنْيَا» هو دليل على إيمانهم بالحياة الآخرة الخالدة السامية، والآيات التي تتلو هذه الآية أيضاً قد صرحت بوضوح أكثر على إيمان هؤلاء بالدار الآخرة ومحكمة العدل الإلهي، والجنة والسعير والدرجات المختلفة لأصحاب الجنة وأنواع النعم الخالدة في الجنة.

إنكار المعاد هو السبب الرئيسي لاقتحام الفجور:

اشير في الآيات الخمس السابقة إلى الآثار الإيجابية للإيمان بالمعاد والحياة بعد الموت

(١) ذَكَرَ فِي تَفْسِيرِ جَمَلِهِ «وَالَّذِي فَطَرْنَا» اِحْتِمَالَانِ الْأَوَّلُ أَنَّ الْجَمْلَةَ تَدُلُّ عَلَى الْقَسْمِ - كَمَا ذَكَرْنَا فِي تَفْسِيرِهَا أَعْلَاهُ - وَالثَّانِي أَنَّ الْجَمْلَةَ مَعْطُوفَةٌ عَلَى جَمْلَةٍ سَابِقَةٍ، فِي هَذِهِ الْحَالَةِ يُصْبِحُ الْمَعْنَى بِهَذَا النِّحْوِ: «قَالُوا لَنْ نُوْتِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيْنَاتِ وَعَلَى الَّذِي فَطَرْنَا» لَكِنَّ الْمَعْنَى الْأَوَّلَ أَقْرَبُ عَلَى الْأَخْصِ إِذَا أَخَذْنَا بِنَظَرِ الْاِعْتِبَارِ أَنَّ السَّحْرَةَ فِي عِدَّةِ آيَاتٍ كَانُوا يَقْسِمُونَ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ، وَهُنَا أَقْسَمُوا بِخَالِقِ جَمِيعِ الْبَشَرِ!

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣١٢

في أبعاد مختلفة وحيات متعددة، وابتداءً من الآية السادسة فما بعدها اشير إلى الآثار السلبية لعدم الإيمان بالمعاد.

ففي الآية السادسة قال تعالى «فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ* عَنِ الْمُجْرِمِينَ* مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ» «١».

فينادي أصحاب السعير ليبيّنوا أسباب دخولهم النار ويلخصونها في أربعة عوامل هي:

ترك الصلاة، وترك اطعام المساكين، ومعاشره أهل الباطل، وأخيراً التكذيب بيوم الجزاء على الدوام، قال تعالى بلسان حالهم «قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ* وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمِسْكِينَ* وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ* وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ».

إِنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ تَدُلُّ بِوُضُوحٍ عَلَى أَنَّ أَحَدَ عَوَامِلِ السَّقُوطِ فِي احْتِضَانِ جَهَنَّمَ، وَالْعَامِلِ الْأَسَاسِ الْمُؤَدِّي إِلَيْهَا هُوَ انْكَارُ يَوْمِ الْجِزَاءِ، الَّذِي يَجْعَلُ مِنَ الْإِنْسَانِ مَوْجُوداً غَيْرَ مَكْتَرِبٍ وَلَا مَسْؤُولٍ وَفَاقِدٍ لِلتَّقْوَى وَالْإِيمَانِ.

والجدير بالذكر هو أن المتسائلين لم يسألوهم: لماذا ألقاكم الله في النار؟ بل كان سؤالهم: ما هو السبب الذي أدى إلى دخولكم النار؟، وذلك لتوضيح القانون الطبيعي الذي يربط «المنكرات والعقائد السيئة» بـ «دخول جهنم».

ومما يجدر الإشارة إليه أيضاً هو أن العامل الأول من هذه العوامل الأربعة، هو ترك الارتباط بالله (الصلاة)، والثاني هو ترك الارتباط بالضعفاء (اطعام المساكين)، والثالث هو معاشره أهل الباطل (الخوض مع الخائضين)، والرابع هو عدم الإيمان بالقيامة.

والتأكيد على «يَوْمِ الدِّينِ» (يوم الإدانة) من بين أسماء القيامة هو للدلالة على هذه الحقيقة وهي أن المحرّك الرئيسي نحو الإيمان والعمل الصالح هو الاعتقاد بأن يوم القيامة هو يوم الإدانة والجزاء.

(١) «سَقَرٌ» عَلَى وَزْنِ «سَقَرٌ» فِي الْأَصْلِ مِنْ مَادَّةِ «سَقَرٌ» عَلَى وَزْنِ «فَقَرٌ» وَهِيَ بِمَعْنَى التَّبَدُّلِ وَالذُّوبَانِ إِثْرَ حَرَارَةِ الشَّمْسِ، وَعَدَّ الْبَعْضُ (مِثْلَ صَاحِبِ مَقَائِيسِ اللَّغَةِ) مِنْ مَعَانِيهَا الْاِحْرَاقَ وَالْاِحْتِرَاقَ أَيْضاً، وَفِي «صِحَاحِ اللَّغَةِ» عَدَّهَا مِنْ أَسْمَاءِ النَّارِ، وَعَلَى أَيْةِ حَالٍ فَإِنَّ اِتْتِحَابَ هَذَا الْاِسْمِ لِيَجْهَنَّمَ هُوَ مِنْ أَجْلِ أَنَّ جَمِيعَ الْمَعَانِي مَجْمُوعَةٌ فِيهَا، وَجَاءَ فِي كِتَابِ «التَّحْقِيقِ» أَنَّ سَقَرَهُ هِيَ نَفْسُ النَّارِ لَا مَحَلَّهَا كَمَا هُوَ الْحَالُ فِي جَهَنَّمَ.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣١٣

وتحدثت الآية السابعة عن «المطففين» (الذين ينقصون الكيل)، قال تعالى «وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ... اَلَا يَظُنُّ اَوْلٰٓئِكَ اَنَّهُمْ مَّبْعُوْثُوْنَ * لِيَوْمٍ عَظِيْمٍ * يَوْمَ يَقُوْمُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعٰلَمِيْنَ».

ومن المحتمل هنا أن يكون الظن بمعنى اليقين، أو بمعنى الظن بالمعنى الثانى، والهدف هو التأكيد على هذا الواقع وهو أن يوم الجزاء يبلغ من الأهمية والعظمة، مما يجعل من يظن وقوعه يحرص على عدم ارتكاب المعصية فضلاً عن أن يكون متيقناً.

لكن الكثير من المفسرين انتخبوا المعنى الأول أيضاً، كما جاء فى بعض الآيات السابقة مثل الآية ٢٤٩ من سورة البقرة، وقد أكدت الروايات على هذا المعنى أيضاً «١».

على أى حال فإننا إن فسرنا الظن باليقين أو بالظن الذى هو أقل درجة من اليقين، ففى كلا الحالتين تعتبر الآية دليلاً على أن الإيمان بالقيامة له أثر احترازى مهم، فى ترك الظلم والكف عن غضب حقوق الناس وأمثال ذلك.

فكلما قطع أحداً، أو حتى لو احتمل أن هناك محكمه عظيمه، يُحاسب فيها على الأعمال الصالحة أو الطالحة حتى لو كان مقدارها «مثقال ذرة»، وينال جزاءه على كل عمل، وأنه لا مفر له من الامتثال أمام تلك المحكمه، فمن البديهي أن يراقب الشخص أعماله فى هذه الدنيا، وإيمانه هذا واعتقاده سوف يؤثر فى تربيته.

ومن الطبيعى أنه ليس المراد هنا بأن كل من ينقص الكيل، أو يرتكب ذنباً آخر لا يؤمن بالمعاد وهو كافر، بل المراد هو أن هؤلاء إما أن يكون إيمانهم ضعيفاً جداً أو أن يكونوا غافلين، وإلا فكيف يؤمن الإنسان إيماناً راسخاً بمثل هذا اليوم وبيتلى بالغفلة أيضاً ويغرق بمثل هذه الذنوب.

لو آمنوا بالمعاد لما ارتكبوا الذنوب:

تحدثت الآية الثامنة عن الذين تقاعسوا عن الاشتراك فى الجهاد عندما صدر الأمر بهذه

(١) ورد فى احدى الأحاديث المرويه عن أمير المؤمنين على عليه السلام أنه قال: «الظن ظنان: ظنُّ شكٍّ وظنُّ يقين، فما كان من أمر المعاد من الظن فهو ظنُّ يقين وما كان من أمر الدنيا فهو على الشك». (تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٥٢٨، ح ٦) كما جاء فى عبارة الراغب أيضاً إن (ظن) فى اللغة تستعمل فى كلا الموردين.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣١٤

الفريضة الإلهية، هؤلاء كانوا يذهبون إلى النبى الأكرم صلى الله عليه وآله ويتحججون بحجج واهية، ليخرجوا النبى صلى الله عليه وآله حتى يأذن لهم بعدم الذهاب إلى سوح القتال، وبهذا كانوا يريدون أن يتخلصوا من ثقل هذه الفريضة المهمه، من دون أن يكونوا فى الظاهر قد ارتكبوا معصية!

قال تعالى «لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ». (التوبة/ ٤٤)

بل عندما يأتى الأمر بالجهاد يذهبون نحو ميادين القتال بكل اشتياق ورغبة، فهل يحتاج القيام بالواجب إلى الاذن؟ ثم يضيف: «إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ».

وهذا لا ينحصر طبعاً بفريضة الجهاد، فالمؤمنون الذين لديهم اعتقاد بالمعاد، يتسلحون بعزم وإرادة قوية لا تتزلزل فى جميع المجالات، عند انجازهم للتكاليف الإلهية الموكلة إليهم، لكن عديمى الإيمان والذين ضعف إيمانهم وتزلزل، وبالأخص المنافقون يسعون دائماً للتخلص من عبء التكاليف، مع أنهم فى نفس الوقت يحاولون أن يظهروا بمظهر من يلتزم بالموازين الشرعية وأن الشرع قد استثناهم من هذا المجال، وبإلها من علامة حسنة للتمييز بين المؤمنين والمنافقين الذين يضمرون الكفر!

وتحدّث الآيَة التاسعة عن الذين يتعاملون بعنف مع الأيتام بسبب عدم إيمانهم بيوم الدين، والذين لا يشجعون الآخرين على اطعام المساكين، قال تعالى «أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكذِّبُ بِالْدينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يُدْعُ الْيَتِيمَ * وَلَا يُحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ». وكلمة «يدع» مشتقة من مادة «دع» (على وزن سدّ) وهى فى الأصل بمعنى الطرد المقرون بالغلظة، وكلمة «يخض» مشتقة من مادة «حض» وهى بمعنى تشجيع الآخرين على القيام بعمل ما، وبما أنّهما جاءتا فى الآيَة المذكورة بصيغة المضارع فهما تدلان على الاستمرار، و «طعام» بمعنى «إطعام».

وبما أنّ «الفاء» فى «فذلك» فى الآيَة المذكورة «للسببية» فهذا يدل بوضوح على أنّ

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣١٥

إنكار يوم الجزاء هو المنيع الرئيسى لهذه الأعمال السيئة والمشؤومة، فهو لا يحرم الأيتام فحسب، بل يمنعهم بغلظة وشدّة، ولا يكف نفسه عن اطعام المساكين فحسب، بل يدفع الآخرين أيضاً على الكف عن اطعامهم، ويقف حائلاً دون تصدّق الآخرين عليهم، وذلك لأنّه لا يخاف عاقبة سوء أعماله.

إنّه لا يؤمن بمحكمه العدل الإلهيّه ولا يؤمن بالحساب والثواب والعقاب، فهو لا يعتقد إلّا بالحياة الدنيوية المحدودة والامور المادية فقط، لذا فهو مشغوف بحبها ولا يفكر بسواها.

وجملة «أَرَأَيْتَ» مأخوذة من مادة «الرؤية»، ويحتمل دلالتها على الشهود العيني أو على الشهود اللبى، وهى بمعنى العلم والمعرفة، وعلى أيّة حال فالآيَة تفيد هذا المعنى وهو:

إنّك إن لم تعرف من ينكر يوم الجزاء فهم يحملون علائم واضحة، إحداها أنّهم قساء القلوب ولا يرحمون اليتيم، والاخرى أنّهم لا يعابون بحال المعدمين، فبهذه الصفات السيئة يمكنك تمييزهم بوضوح، وتلمس حقيقة غياب الإيمان بالمعاد فى وجودهم. وقد ذكر المفسرون أسباباً عديدة فى نزول هذه الآيات، منها: إنّ هذه الآيات نزلت فى شأن (أبو سفيان)، فإنّه كان يذبح فى كل اسبوع إثنين من الابل (لكنّه كان يحتفظ بها لنفسه وذويه)، فجاءه فى أحد الأيام فقير يطلب منه شيئاً، فدفعه أبو سفيان بعصاه إلى الخلف (فنزلت هذه الآيَة إثر تلك الحادثة).

ونقل الفخر الرازى عن «الماوردى» أنّ هذه الآيَة نزلت فى شأن (أبو جهل)، فأبو جهل كانت له وصاية على أحد الأيتام، فجاءه اليتيم وهو عريان، وطلب من أبى جهل أن يمده بشى من أمواله، لكن أباً جهل طرد اليتيم بعنف، فقال وجهاء قريش لليتيم اليانس: اطلب من محمد أن يذهب إلى أبى جهل فيشفع لك عنده، وكانوا يريدون بذلك الاستهزاء والسخرية، فتوجّه الطفل إلى النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وهو لا يعلم الهدف من كلام وجهاء قريش، وطلب من النبى صلى الله عليه وآله أن يشفع له عند أبى جهل، وكان من عادة النبى صلى الله عليه وآله أن لا يردّ طلب محتاج أبداً، فقام صلى الله عليه وآله فاصطحب الطفل وذهب إلى أبى جهل، وعندما وقع نظر أبى جهل على النبى صلى الله عليه وآله و آله رحّب به (وقد ملأ وجوده العجب)، ثم أعطى اليتيم مالاً كثيراً، بعد ذلك وجّه

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣١٦

وجهاء قريش اللوم لأبى جهل على فعله، وقالوا له أملكك حبّ محمد يا أباً جهل؟ فقال كلاً والله إنّ حبه لم يدخل قلبى، لكننى شاهدت حراباً على يمينه وشماله فخفت إنّ لم البّ دعوته أن تمزقنى تلك الحراب «١»!

وعلى أيّة حال فإنّ دلالة الآيَة على تأثير الإيمان بالمعاد على سلوك الإنسان ظاهر بكل وضوح.

وفى الآيَة العاشرة طرحت نفس هذه المسألة أى العلاقة بين «الإيمان بالحياة بعد الموت والحساب والجزاء والقيامة» وبين «أعمال الإنسان فى هذه الدنيا والمسائل المتعلقة بالتربية» ولكن بنحو آخر، قال تعالى «بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ * يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ».

وهل يمكن للإنسان الذى يؤمن بعظمة الله، وقدرته على خلق جميع هذه الأجرام السماوية والمجرات والعوالم العجيبة، أن ينكر قدرته على احياء الموتى!

بناءً على هذا لا يكون الهدف من انكار هذا الإنسان إلا التحرر من القيود من أجل اشباع جميع غرائزه، وليسقط يديه في الظلم وهتك حدود العدالة وارتكاب الذنوب، أنه يريد أن يخدع نفسه بهذا السلوب حتى تصل به القناعة المزيفة بأسلوبه هذا حدًا يجعله يخلق الاعذار والتبريرات لإخفاء قباحة أعماله عن أنظار الناس، إنه يريد أن يحطم السد العظيم الذي أوجده الإيمان بالمعاد لمنع من ارتكاب أى نوع من المعصية، وهذا الأمر لا يختص بالزمان الماضى، فاليوم كالأمس أيضاً. لهذا ذكر في البحوث المتعلقة بالدوافع نحو التمايل إلى المادية وإنكار المبدأ والمعاد، أن إحدى تلك الدوافع هو الهروب من عبء المسؤوليات وتجاوز السنن الإلهية وخداع الوجدان الإنسانى.

(١) تفسير الكبير، ج ٣٢، ص ١١١؛ وتفسير روح البيان، ج ١٠، ص ٥٢٢.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣١٧

والمراد من «الإنسان» فى هذه الآية هو نفس ذلك الإنسان الذى جاء الحديث عنه فى بداية سورة الدهر، ذلك الإنسان الذى انكر القيامة، وكان يظن بأن الله لا يقدر على جمع العظام الرميم وحيائها مرة أخرى والفرق هنا- كما ورد فى تفسير «الميزان»- عدم استخدام الضمير واستبداله بالاسم الظاهر (كلمة الإنسان)، وهذا فى الواقع هو من أحد أشكال اللوم والتحقيق وكأنه قال: كيف لمن حصل على مقام الإنسانية أن يسلك هذا الطريق الخاطيء (١).

أما استعمال صيغة المضارع فى (يريد- يفجر) التى تستعمل عادة للدلالة على الاستمرارية، فقد جاء هنا للدلالة على هذه الحقيقة وهى أن الإنسان انانئى ويحب الذات على الدوام ويريد الاستمرار على المضى فى فجوره.

و «فجور»: من مادة «فجر» بمعنى تمزق الشىء بشدة، وبما أن الذنب يسبب خرق حجب التدين لذا استخدمت هذه الكلمة فى هذا المورد (٢).

وأما كلمة «أمام» (على وزن مقام) فهى فى الأصل بمعنى الجهة الإمامية وهى تقابل «الخلف» وتعبير آخر إن «أمام» بمعنى ما يقابل وجه الإنسان، وبما أن الجهة المقابلة لوجه الإنسان ذات أهمية بالغة بالنسبة له، لذا استخدمت هذه الكلمة هنا (لأن مادة «أم» بمعنى «قصد»).

لكنه من الواضح أن استخدام هذا التعبير هنا هو من أجل الدلالة على مستقبل العمر، وهى ظرف مكان- على حدّ تعبير بعض المفسرين- وقد استخدمت للدلالة على ظرف الزمان من باب الكناية (٣)، والمراد هنا فى الحقيقة هو أن الإنسان المتصف ذاتاً بحب الذات، يتخذ من إنكار المعاد ذريعة لكسب الحرية فى ارتكاب الذنوب خلال فترة حياته.

أما ما احتمله البعض أن «أمام» للدلالة على القيامة فإنه بعيد جداً؛ وذلك لأنها لا تتلاءم مع مادة الفجور، بالإضافة إلى أن هذا المعنى يقطع صلة الترابط الموجود بين الآيات.

(١) تفسير الميزان، ج ٢٠، ص ١٩٠.

(٢) مفردات الراغب مادة (فجر).

(٣) تفسير روح البيان، ج ١٠، ص ٢٤٥، وقد أخذ أيضاً بهذا المعنى صاحب الميزان، ج ٢٠، ص ١٩٠.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣١٨

الإيمان بالمعاد وعلاقته بالرؤية الواقعية:

طرحت هذه المسألة بشكل جديد فى الآية الحادية عشرة، حيث قال تعالى «إِنَّ الَّذِينَ لَمَّا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ

يَعْمَهُونَ».

وكما اشتهر لدى علماء الأدب وعلماء علم اصول الفقه أن هذا هو من باب تعليق الحكم على الوصف، وهو يُشعرُ بعليّة الوصف للحكم، بناء على هذا إن كانت الآية تنسب تزيين الأعمال إلى عدم الإيمان بالآخرة فيكون مفهومها هو: عندما يفقد الإنسان الإيمان بالآخرة فإنه سوف يبتلى بهذه العقاب، (فتأمل).

كما يمكننا الحصول على هذه النتيجة أيضاً بإعمال شيء من التحليل وهي: إن الإيمان بالآخرة بمعنى الإيمان بوجود محكمة عادلة يباشر البارى تعالى فيها القضاء، وإن الشهود هم الملائكة، وإن الكذب والاحتياى والشفاعة والرشوة لا تنفع هناك، فالإيمان بوجود هذه المحكمة يبعث الإنسان على التدقيق فى أعماله، ويجعله ينظر إليها من منظار الواقع.

أمّا بالنسبة لمن يتعد عن هذه الحقيقة ويشعر بأنه حرّ أمام الفوارق الموجودة بين المفاهيم من حسننها وسيئها، فإن ذلك يؤدى بالإنسان الأنانى إلى الإتيان بالاعذار والتبريرات لخداع نفسه وخداع الآخرين فى اصفاء صبغة التقوى والصلاح على شهواته الجموحه، واطهار السيئات بمظهر جميل ممّا يؤدى به فى النهاية إلى الوقوع فى أحضان الحيرة والضياغ، (وهذا يستفاد من فاء التفرغ التى تدل على السببية) وهذا من أخطر النتائج المترتبة على إنكار المحكمة الإلهية العظمى

ومن الجدير بالالتفات هنا هو أن تزيين الأعمال نُسب إلى الله، بينما اسند ذلك إلى الشيطان وحب الهوى فى آيات اخرى من القرآن المجيد (فى ثمانية موارد)، كما ورد بصيغة المجهول «زُين» فى آيات عديدة اخرى (فى عشرة موارد)، وإذا ما تأملنا فى ذلك لوجدنا أنها تشير إلى حقيقة واحدة هي:

إذا اسند التزيين إلى الله فذلك لأن الله هو مسبب الأسباب، لأن كل ما للمخلوقات من أفعال تنتهى أخيراً إلى الله، أو بتعبير آخر إن الله جعل هذا الأثر مترتباً على إنكار يوم القيامة

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣١٩

أو على تكرار أعمال السوء، كى تظهر هذه الأعمال بمظهر حسن فى نظر الإنسان وتُسلب منه قوه التمييز بين الحسن والقيح.

أما إذا اسند التزيين إلى حب الهوى أو إلى الشيطان فذلك لأن هذين هما العلة القريبة والمباشرة فى تزيين الأعمال السيئة.

وأما لو اسند التزيين إلى الفاعل المجهول فذلك للدلالة على أن طبيعة إنكار القيامة أو الاصرار على ارتكاب السيئات، تقتضى اعتياد الإنسان على تلك الأعمال أولاً، ثم تصبح تلك الأعمال محبوبه لديه وتلبس ثوب الحسن فى نظره.

ومن البديهى أن تزيين الأعمال يجر وراءه الضياغ الدائم والحيرة المستمرة فى وادى الضلاله والانحراف؛ وذلك لأن الإنسان لا يكف عن ممارسته عمل ما إلا إذا ما وجده سيئاً ويلحق به الأذى

ويتضح ممّا قلناه أعلاه أن من فسّر الآية بأن الله يُزيّن أعمال هؤلاء فى نظرهم، فيصيبهم الغرور فيبتلون بالضياغ، أن تفسيره غير مناسب، ومن المحتمل إن هؤلاء اتجهوا إلى هذا التفسير بسبب عدم تمكنهم من حل مغزى ما جاء فى الآية من نسبة التزيين إلى الله، ففسروها بهذا التفسير المخالف للظاهر.

وفى الآية الثانية عشرة والأخيرة من الآيات المعنيه بالبحث توجه تعالى بالخطاب إلى النبى صلى الله عليه وآله فقال: «وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتوراً»، ثم اضاف تعالى «وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا».

وهنا أيضاً نواجه مسألة «تعليق الحكم على الوصف» أى أننا نرى أن مسألة وجود الحجب المعنوية بين النبى صلى الله عليه وآله والمشركين وإسدال الحجب على القلوب وانسداد آذانهم تَرْتَبَتْ على وصفهم بعدم الإيمان بالآخرة، وهذا يدل بوضوح على أن عدم الإيمان بالمحكمة الكبرى يؤدى إلى ظهور هذه الحجب والابتعاد عن إدراك الواقع، ودليل ذلك

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٢٠

واضح وهو: إنَّ عدم الاكتراث بالحساب وجزاء الأعمال يؤدّي بالإنسان إلى ركوب مركب الغرور والأنانية والعناد والتعصب وعبادة الهوى ففي مثل هذه الحالة كيف يتمكّن من أن يرى الحقائق كما هي ويؤمن بها.

فهل يوجد حجاب أسوأ من حجاب الهوى وهل يوجد مركب أسوأ من مركب الأنانية والغرور؟

قال بعض المفسّرين: إنَّ المراد من «الحجاب المستور» هو حجاب وجدار غير مرئي كان يحجب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عن أنظار المشركين، حين تلاوته للقرآن كي لا يرونه ليكف عنه أذاهم، وقد روى في سبب نزول الآية ما يشابه ذلك أيضاً.

لكنّ ظاهر الآية ينافي هذا التفسير؛ وذلك لأنّ ظاهرها يدل على أنّ هذا الحجاب يمنع من فهم وإدراك الحقائق واللطائف القرآنية، بناءً على هذا يجب القبول بأنَّ المراد من هذا «الحجاب المستور» هو تلك الحجب المعنوية، التي تمنع عيون وآذان وقلوب المشركين عبادة الهوى الأنانيين المتعصبين من إدراك وفهم المعارف القرآنية السامية.

وهذا هو ما أشارت إليه الآيات المتعددة، والذي بحثناه مفصلاً في الجزء الأول من هذا الكتاب تحت عنوان «حُجُب المعرفة» (١).

وجاء في ما يقارب هذا المعنى أيضاً في قوله تعالى «فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ». (النحل / ٢٢)

فهنا اشير أيضاً إلى أنّ «عدم الإيمان بالآخرة» هو من عوامل «إنكار الحق والمكابرة».

ثمرة البحث:

اتّضح من خلال ما جاء في الآيات الإثنتي عشرة الآنفه الذكر (والآيات المشابهة) أنّ

(١) وصف «الحجاب» ب «مستور» يستخدم أحياناً في معناه الظاهري، أي «الحجاب اللامرئي» وأحياناً قيل: إنّ اسم المفعول هنا جاء بمعنى اسم الفاعل فمستور هنا جاء بمعنى ساتر.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٢١

الإيمان بالآخرة (محكمة العدل الإلهي في الدار الآخرة)، تارةً يبعث على الصحوه والانتباه والتقوى وتهذيب النفس والخوف من ارتكاب الذنوب أو ممارسة الظلم والاستبداد، وتارةً يكون عدم الإيمان بها سبباً في ابتعاد الإنسان عن الحقائق، وسبباً في استكباره على الحق وانغماسه في بحر المفساد والذنوب.

وبهذا يتضح بكل جلاء تأثير الإيمان الراسخ بالمعاد على تربية البشر من وجهة نظر القرآن المجيد.

توضيحات

١- الآثار الإيجابية العميقة للإيمان بالقيامة

إنّ «المراقبة والمحاسبة» هما عاملان مهمّان في التربية. ومن أحد معاني المراقبة هو أن يعلم الإنسان بأنّ هناك من يراقبه وهو يخضع لرقابته في جميع الأحوال، بل يعلم بأنّ جميع أسراره الخفية أيضاً تخضع لرقابته.

فالالتفات إلى هذا الحقيقة يجعل الإنسان في حالة انذار دائم، كما أنّ الالتفات إلى «المحاسبة» وإلى أنّ جميع أعماله الصغير منها والكبير والحسن منها والسيء، سوف يخضع للحساب وسوف تجازى الأعمال بعدالة على قدرها، ممّا يؤدّي إلى أن لا يرى الإنسان نفسه مطلق العنان في إنجاز أعماله وإلى أن لا يهملها ويعدها صغيرة، وكلّما كانت قوّة الرقابة والحساب دقيقة كلّما دقق الإنسان أكثر في إنجاز أعماله.

ففي زماننا الحاضر تخضع بعض الطرق الخارجية في بعض البلدان للمراقبة بواسطة الكاميرات الخفية، ويراقب شرطه المرور تلك

الطرق وهم جالسون في مراكز المراقبة بكل دقة، وتتّم ملاحقته سائقى السيارات المخالفين لقوانين المرور بواسطة اعلام مراكز المراقبة (بواسطة المرسلات اللاسلكية) النقاط المستقرّة في بوابات تلك الطرق أو الدوريات المتجوّلة لايقاف تلك السيارات وتغريم سائقيها.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٢٢

فهذه المراقبة وتلك الغرامات تؤدّي إلى استقرار نظام المرور حتّى في الطرق الخارجيّة.

فإذا كانت المراقبة والمحاسبة من قبل الإنسان غير المعصوم من الوقوع في الخطأ لها هذا الأثر، فإنّ أثر الإيمان بمراقبة الله الدائمة، الذى يعلم أسرار ما يكن الإنسان وما يعلن، والإيمان بمحكمة العدل التى تحاسب على ما مقداره «مثقال ذرّة» والتي لا تنفع معها الشفاعة، فإنّ عمق تأثير هذا الإيمان واضح من دون الحاجة إلى البرهان.

ومن الواضح أنّ هذا الأمر يتبدّل من صورة أفعال متفرّقة إلى عادة دائمة ومن عادة إلى ملكة، وتحوّل الحقيقة التى يطلق عليها اسم «الوجدان الاخلاقي» و «التقوى الإلهية» في قلب الإنسان إلى إيمانٍ راسخ.

إنّ الغاية الاساسية من وجود المحاكم والعقوبات المطبقة وكذلك المكافآت والمدح السائد هي إيجاد الاستقرار وهيمنة القانون وتربية الإنسان، والفرق بين المحاكم الموجودة في هذه الدنيا وبين المحكمة الإلهية هو أنّ هذه المحاكم يمكن استئناف الأحكام الصادرة عنها، وغالباً ما تخضع أحكامها لتأثير الوساطة والرشوة، بالإضافة إلى نقص القوانين المتبعة فيها والاستثناءات والأحكام الفرعية، وإمكان الإتيان بأدلة كاذبة تؤدّي في أكثر الموارد إلى خلاص المجرمين من مخالب العدالة، أو أحياناً إلى تأخير صدور الحكم إلى سنين عديدة بسبب الاستفادة من الروتين، لكنّ محكمة القيامة لا تحتوى على أى شىء من هذه النواقص، بل كما سنشير لاحقاً فإنّ المكافآت والعقوبات هناك تشبه إلى حدّ كبير الآثار والخواص الطبيعية للأشياء، فهل يمكن تبديل آثار الدواء النافع إلى آثار سم قاتل عن طريق الإتيان بأدلة كاذبة واستخدام الوساطة والرشوة؟!!

إنّ ممّا لا شك فيه هو أنّ الإيمان بمثل هذه المحكمة له أثر في تربيته وتطهير الإنسان يفوق كثيراً آثار المحاكم الدنيوية.

ومن ناحية أخرى فإنّ الإيمان بهذه المحكمة يؤجج روح الايثار والتضحية في قلب الإنسان، وذلك لقاعدة: «مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ». (النحل / ٩٦)

فهذه الدنيا ممرٌ ودنيا فانية، بينما سوف يبقى ما دُخر لذلك العالم مستقراً وخالداً، فأى

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٢٣

عاقل يتردد في شراء «المواهب الجمّة»، بل المواهب التى لا تنضب ب «المتاع القليل»؟ من أجل هذا يمكن للإيمان بالمعاد أن يصبح منبعاً لجميع أنواع الإنفاق والإيثار والتضحية.

ومن ناحية ثالثة فإنّ هذا الإيمان يعطى الإنسان روح الشجاعة والشهامة والصبر والاستقامة، فمن يخاف الموت يقول: «إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا». (الانعام / ٢١)

أما من لا يخاف من الموت يعتقد بأنّ «الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ». (العنكبوت / ٦٤)

وكيف يبخل في بذل روحه وماله، أو أن يخاف كثرة صفوف الأعداء من يعتقد بأنّ الشهادة في سبيل الله هي بؤابة للدخول في رحمة الحق تعالى والوصول إلى مقام القرب منه ونيل هبات الجنّة التى لا يسعها الوصف؟!!

وما شاهدناه في حروب صدر الإسلام والحرب المفروضة الأخيرة من صمود المقاتلين الشجعان الذى لم يسبق له مثيل، ومن شجاعة خارقة وانتصارهم على الأعداء بالرغم من كثرة عددهم وعدّتهم فإنّ السرّ في ذلك يكمن في أنّ الإيمان بالمعاد هو الذى صنع منهم اناساً آخرين ... اناساً لا يخافون الموت أبداً، ويعتبرون الشهادة في سبيل الله من أرقى المفخر.

وقصارى القول: إنّنا كلّما أمعنا النظر أكثر في هذه الرابطة (علاقة الإيمان بالمعاد بتربية الإنسان)، فإننا سوف نكتشف أهميتها بصورة أوضح، وكما كررنا القول كثيراً فإنّ تأكيد القرآن على هذه المسألة في آيات عديدة لا تحصى هو في الأساس من أجل هذا الأمر.

ومن المحتمل أن يقال: إن ما قلموه هو بيان للعلاقة الموجودة بين «العمل» و «الإيمان» لا العلاقة الموجودة بين «الأخلاق» والإيمان. لكننا قد أشرنا آنفاً أيضاً إلى أن «العمل» إثر التكرار يتحوّل بالتدرّج إلى «حالة» ثم تتحوّل الحالة إلى «عادة» وأخيراً تتحوّل العادة إلى «ملكة أخلاقية»!

٢- الآثار التربوية للمعاد من وجهة نظر الروايات

إنّ هذا الموضوع لم يذكر في آيات القرآن فحسب، بل له صدق واسع في الروايات

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٢٤

أيضاً، وقد وضّحت الروايات العلاقة الوثيقة والجذرية والدائمة الموجودة بين هذين الموضوعين، ونذكر فيما يلي نموذجاً من هذه الروايات:

١- قال علي عليه السلام في نهج البلاغة: «والله لأنّ أبيت على حسك السعدان مسهداً، أو اجرّ في الأغلال مُصفداً، أحبّ اليّ من أنّ القى الله ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد وغاصباً لشيء من الحطام» (١).

وذكر عليه السلام بعد هذه الجمل قصة أخيه «عقيل» المعروف، إذ لجأ إليه أخوه من شدة ما أصابه من الفقر والفاقة فطلب منه أن يعطيه أكثر ممّا يستحقّه من بيت المال خلافاً لما تقتضيه العدالة الإسلامية.

لكنّ الإمام عليه السلام وضع قطعة من الحديد في النار وبعد أن احمرّ لونها قرّبها من يد أخيه فضجّ أخوه بالعويل، فقال له الإمام عليه السلام: «كيف تصرخ من ألم هذه النار التي هي العوبة يلهي بها؟ وتجزني إلى نار أججها الجبار لغضبه وانتقامه» (٢)!

يلاحظ من خلال هذه الكلمات قوة الإيمان بالمعاد وتأثيرها في الحثّ على إقامة العدالة والوقوف أمام جميع الانحرافات، وهي نموذج حيّ عن تجلّي الإيمان بالقيامة ومحكمة العدل الإلهي في أعمال الإنسان.

٢- وروى عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «من أيقن بالخلف جاد بالعطية» (٣).

وهذه الرواية تدل بوضوح على أنّ الإيمان بالمعاد يجعل الإنسان متصفاً بالجود والسخاء.

٣- وجاء في غرر الحكم نقلًا عن الإمام علي عليه السلام في عبارة صريحة أنّه قال: «اجعل همّك لمعادك تصلح» (٤).

٤- وجاء في ملحمة كربلاء وعاشوراء أنّ الحسين عليه السلام جمع أصحابه يوم عاشوراء وقام

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٤.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٤. (باختصار).

(٣) بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ٣٨٥؛ نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ١٣٨.

(٤) غرر الحكم؛ ميزان الحكمة، ج ١، ص ٣٧، ح ١٣٣.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٢٥

خطيباً فيهم فقال: «صبراً بنى الكرام فما الموت إلّا قنطرةً تعبرُ بكم عن البؤس والضراء إلى الجنان الواسعة والنعيم الدائمة، فأنيكم يكره أن ينتقل من سجنٍ إلى قصرٍ؟»

والذي دعا الإمام للإلقاء خطابه هذا هو أنّه كان كلّما اشتدّ حصار الأعداء عليه وعلى أصحابه وكلّما حمى الوطيس كان وجهه أكثر اشراقاً ونفسه أكثر اطمئناناً، هنا قال أصحابه لبعضهم الآخر: «انظروا إليه إنّهُ لا يبالي بالموت»!

فسمع الإمام هذا منهم فلقى عليهم الخطاب المذكور، ثم أضاف إليه قوله: روى أبي عن جدي رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «إنّ الدنيا سجنٌ المؤمن وجنّة الكافر، والموت جسراً هؤلاء إلى جنانهم وجسر هؤلاء إلى جحيمهم ما كذبت ولا كذبت» (١).

فالسیر فی ملحمة عاشوراء وشجاعة الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه، التي لم يكن لها مثيل والتي سُجّلت في التاريخ بأحرفٍ من ذهب لأممه، يجب أن نبحت عنه في هذا الميدان أي الإيمان الراسخ لهؤلاء بالمعاد والحياة الآخرة الخالدة.

٥- إن تأثير الإيمان بالمعاد في إصلاح الأعمال بلغ من الوضوح حداً جعل أمير المؤمنين علياً عليه السلام يتعجب ممن يؤمن بالآخرة ولا يسعى في إصلاح أعماله، قال عليه السلام:

«عجبتُ لمنْ يَعْلَمُ أنّ للأعمالِ جزاءً كيف لا يُحسِنُ عَمَلَهُ» (٢).

٦- ونختتم كلامنا هذا بحديث عميق المغزى عن مؤسس الإسلام النبي الأكرم صلى الله عليه وآله:

عند حديثه صلى الله عليه وآله عن علامات أهل اليقين قال صلى الله عليه وآله: «ومن علامته أنه: أيقن بأن الجنة حق فاشتاق إليها، وأيقن بأن النار حق فظهر سعيه للنجاة منها، وأيقن بأن الحساب حق فحاسب نفسه» (٣).

إن الروايات المروية في هذا المجال كثيرة جداً وما ذكرناه هنا ما هو إلا قليل منها، وتتفق جميعها على أن الإيمان بالدار الآخرة له أثر عميق في تربية الإنسان.

(١) بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ٢٩٧ (باب فضل الشهداء معه وعلة عدم مبالاتهم بالقتل)، ونقل المرحوم الصدوق هذا الحديث في كتاب «معاني الأخبار» عن علي بن الحسين عليه السلام في باب «معنى الموت» ص ٢٨٨.

(٢) غرر الحكم، ج ٢، ص ٤٩٥.

(٣) تحف العقول، ص ٢٣.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٢٦

٣- الإيمان بالمعاد وعلاقته باطمئنان النفس

إن الاعتقاد بالحياة بعد الموت يؤثر في تهذيب النفس وإخلاص القلوب وسمو الأخلاق وطهارة الأعمال وله أثر كبير في إصلاح حال الإنسان في هذه الدنيا أيضاً.

كلنا يعلم أن القلق هو خطر يهدد حياة الإنسان، فيحوّل حلاوة العيش إلى مرارة لا تطاق، ويصاب الإنسان بالانهيار العصبي جراء القلق الذي يسيطر عليه.

القلق الناشئ من ماضي الإنسان واضاعة الفرص والآلام التي حلت في ساحتها، والقلق بشأن المستقبل ونهاية الحياة وفقدان الأصدقاء والأقارب والاولاد والمال والثروات والقوى الجسميّة والروحيّة... والقلق الناشئ من الأحداث التي لم تكن بالحسبان والتي تعصف بالإنسان فتحطم استقراره.

لذا قال العلماء أصحاب الخبرة: إن البشر في زماننا الحاضر وبالرغم من تطور الطب والجراحة وفي نفس الوقت الذي قضى فيه على الكثير من الأمراض، حتى أن قسماً منها قد تلاشت واجتثت من جذورها، إلا أن الإنسان مازال يعاني من الأمراض النفسية أكثر مما كان عليه في السابق، لذا فإننا نرى أن الاحصاءات تدل على أن هذه الأمراض في تزايد مستمر يوماً بعد يوم.

حتى قال أحد أساتذة علم الاجتماع في جامعة پرينستون الاستاذ «دونالد لايت»:

«يعيش في أميركا لوحدها حالياً ما يقارب خمسة وعشرين مليون فرداً أقدموا على الانتحار خلال حياتهم مرة واحدة على الأقل، ولم يكن لجميع المساعي التي بذلت في هذا المجال من قبل لجان مكافحة الانتحار أثر يعتد به، وهؤلاء يقدمون على هذه الأعمال بسبب

اليأس وشعورهم بتفاهة الحياة، وبسبب الوحدة وعدم ثقتهم بالدنيا والاضطراب والتشويش الناشئ من تدهور المجتمع، وهذا الأمر لا يمكن معالجته بالسبل المذكورة أعلاه» (١).

بالرغم من أن عصرنا الحاضر في أحد أبعاده هو عصر راحة الإنسان فقد انخفض مقدار

(١) غربت غرب، ص ١٨ (باختصار).

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٢٧

ساعات العمل عما كان عليه سابقاً، وازيحت الاعباء التي كانت تثقل كاهل الإنسان وألقى ثقلها على كاهل عجالات المصانع العظيمة، وفي المنازل أيضاً تحملت الآلات الكهربائية أعباء القيام بالأعمال الصعبة فأصبحت المنازل أكثر تطوراً وعدة، والوسائط النقلية أكثر فائدة، فالسفر الذي كان في الماضي يعتبر قطعة من الجحيم أصبح اليوم من أسباب الراحة واللهم، وأخيراً أدخلت وسائل اللهم الحديثة والجيدة على حياته لوناً جديداً.

فعلى غرار هذا التطور فإنه يُتوقع أن يعيش الإنسان في عصرنا الحاضر وهو يتمتع بهدوء تام، وصحة تامه من الناحية البدنية والروحية معاً، لكننا نرى بوضوح أن الاضطراب والقلق يتتابانه أكثر مما كان عليه سابقاً.

والأسباب الرئيسية في هذا الأمر هي الشعور بتفاهة الحياة وعدم كونها هادفة، والشعور بعدم وجود ملجأ عند حلول المعضلات المدمرة ورسم صورة مرعبة للموت والتشاؤم القاتل، والخوف من المستقبل المجهول للعالم وللحياة الشخصية، ومما لا شك فيه هو أن الإيمان بالآخرة، والحياة الخالدة فيها التي تكتنفها العدالة والطمأنينة بإمكانه أن ينهي كل هذا القلق.

قال البروفسور المعروف «يونغ»: إن ثلثي المرضى الذين قدموا إلى من جميع أنحاء العالم للعلاج هم أفراد مثقفون وموفقون في حياتهم لكنهم يعانون من مرضٍ خطير وهو الشعور بتفاهة الحياة، والسبب في ذلك هو أن إنسان القرن العشرين بسبب التقدم التقني وقصور الرؤية والتعصب، فقد الدين فعاد يبحث عن هويته ومالم يعثر على دين فإنه سوف لن يهدأ، «وذلك لأن فقدان الدين يؤدي إلى تفاهة الحياة وفقدانها لمفهومها» (١)!

وهنا نلجأ إلى القرآن ونطلب منه العون: ففي سورة يونس نلاحظ إشارة لطيفة في هذا المجال في قوله تعالى «الَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَأَخَوْفُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ... * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ». (يونس / ٦٢-٦٤) أجل إن هؤلاء تعلقت قلوبهم بالله والتحقوا بركب الأولياء في هذا الوجود، واعتبروا

(١) معاد از نظر روح وجسم، ج ١، ص ٤٤.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٢٨

الدنيا قنطرة للوصول إلى حياة الآخرة الخالدة، لذا فهم لا يشعرون بالوحدة ولا بتفاهة الحياة.

وإلى هنا ننهي الحديث عن الآثار المختلفة المادية والمعنوية للإيمان بالقيامة، على حياة الأفراد والمجتمعات بالرغم من وجود بحوث كثيرة لم نتحدث عنها هنا.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٢٩

المدخل إلى عالم البقاء

إشارة

١- الموت

٢- البرزخ

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٣١

١- الموت

تمهيد:

بالرغم من أن اسم الموت مرعب جداً ومهيب في نظر الكثيرين، إلا أنه لا يتصف بذلك في نظرية المعرفة الإسلامية، وذلك لأن الموت جسر عبور نحو العالم الآخر، بل ويعد الموت في الحقيقة ولادة جديدة.

ويحتمل أن يكون بكاء المولود الشديد عند الولادة وذلك لأنه يحتمل الفناء، بالرغم من كونه قد خرج إلى عالمٍ أوسع بكثير من بطن الام.

وفي نفس الوقت لا يكون العبور من هذه البوابة محبوباً لدى الجميع، بل لا يستحسنه إلا الذين يصطحبون الزاد والعدة الكافية لهذا السفر الصعب، لذا فليس من العجيب أن يسيطر الخوف والهلع من الموت على قلوب المسيئين والمجرمين - حتى لو كانوا يؤمنون بالحياة بعد الموت -.

فهذه النظرة للموت تمنح الإنسان القدرة على الجهاد والإيثار والتضحية، ولا يصبح ذليلاً وحقيراً بسبب الخوف من الموت من جهة، ومن جهة أخرى يكون تحذيراً للبشر من الابتلاء بارتكاب الذنوب، ومن العوامل المؤثرة في تربيتهم.

إن القرآن المجيد أكد على هذه المسألة كثيراً وشرح هذا الحديث المهم الذي يبتلى به جميع البشر من دون استثناء من خلال تعابير مختلفة وقال كل ما يمكن أن يقال حوله.

بعد هذه الإشارة نعود إلى القرآن لنمعن في الآيات الواردة في هذا المجال خاشعين.

(يجب الالتفات إلى أن كل آية من هذه الآيات تسلط الأضواء على أحد أبعاد هذا الموضوع):

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٣٢

- ١- «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». (آل عمران / ١٨٥)
- ٢- «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمَسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى». (الزمر / ٤٢)

٣- «قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ». (السجدة / ١١)

٤- «الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ». (النحل / ٢٨)

٥- «الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ اذْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ». (النحل / ٣٢)

٦- «قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَيُّدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيُّدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ».

(الجمعة / ٦- ٧)

٧- «تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاتَ لِيُبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ».

(الملك / ١- ٢)

٨- «وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ». (ق / ١٩)

٩- «كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ * وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ * وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ * وَالتَّفْتَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ». (القيامة / ٢٦- ٣٠)

١٠- «حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا». (المؤمنون / ٩٩- ١٠٠)

جمع الآيات وتفسيرها

١- الموت قانون شمولي

تحدثت الآية الاولى عن شمولية قانون الموت، الذي هو نهاية جميع البشر وجميع

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٣٣

الموجودات الحية، بل هو أمرٌ حَتَّى بالنسبة للموجودات غير الحية، قال تعالى «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ».

وقد ورد هذا التعبير في ثلاث آيات في القرآن المجيد «١»، والسبب في تكرار هذا الأمر هو التأكيد على حتمية الموت، هذا بالإضافة إلى تحذير جميع البشر كي لا يغفلوا عن حتمية هذه العاقبة.

ولما كان الموت هو نافذة نحو عالم البقاء، فقد اضاف تعالى على الفور: «وإِنَّمَا تُوفَّوْنَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، وذلك للدلالة على أن الدنيا دار عملٍ ولا حساب ولا جزاء وإن الآخرة دار حساب وجزاء ولا عمل.

وعلى الرغم من وجود إثابة محدودة في عالم الدنيا وعالم البرزخ، لكن من البديهي هو أن لا يتم الحصول على الأجر والثواب الكامل إلّا في الدار الآخرة.

وهناك احتمال آخر أيضاً وهو أن التعبير المذكور أعلاه يدل على أن المنقذ الوحيد للإنسان يوم القيامة هو أعماله الصالحة فقط، لأن المال والجاه والمنصب والأولاد والعشيرة لا تعالج حَتَّى معضله واحدة من معضلات الإنسان، وهذا التعبير يشبه ما جاء في سورة

الشعراء: «يَوْمَ لَا يَنْتَفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ». (الشعراء / ٨٩)

لكن التفسير الأول أقرب للصحة، وقد انتخبه الكثير من المفسرين.

إن الإنسان يمكنه أساساً أن يشك في كل شيء، إلّا أنه لا يمكنه أن يشك في تحقق الموت، إن جميع أهل السماء والأرض سوف يموتون وسوف يتلغ الموت جميع الموجودات الحية، فالجميع من دون أي استثناء لهم أجل ونهاية معينة لا تتأخر عن موعدها لحظة

واحدة، أما بالنسبة لدعاء الناس لبعضهم أو لحكامهم بالخلود فما هو إلّا مجاملة خالية من أي محتوى فأى خلود هذا؟ وأى بقاء؟ إن الأنبياء جميعاً مروا بهذه المرحلة، والجميع من دون استثناء عبروا هذا الممر.

ويستفاد من هذه الآية بالإضافة إلى ذلك، أولاً: أن روح الإنسان لا تموت بموته، وذلك

(١) آل عمران، ١٨٥؛ الأنبياء، ٣٥؛ العنكبوت، ٥٧.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٣٤

لأن الآية تقول: «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ»، ومعنى الذوق هو أن الروح باقية فتدرك الموت وتتذوقه، ويستفاد منها ثانياً: أن الروح هي غير الجسد، وذلك لأنها تبقى بعد موت الجسد.

جاء في إحدى الروايات لما نزلت الآية الشريفة «كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ». (الرحمن / ٢٦) قالت الملائكة: «مات أهل الأرض» وعندما نزلت الآية الشريفة «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ» قالت الملائكة: «متنا نحن أيضاً» (١).

بالرغم من أن كلمة «النفس» اطلقت أحياناً على الله كما جاء في حديث عيسى عليه السلام عندما كان بين يدي الله حيث قال: «وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ». (المائدة / ١١٦)

لكن التعبير ب «كل نفس» في الآية المذكورة يراد منه المخلوقات لا الخالق.

٢- حقيقة الموت

يعتبر كثير من الناس الموت فناً وهدماً ونهاية كل شيء، لذا فهم يخافون الموت ويهابونه بشدة، بينما يفسر القرآن المجيد حقيقة الموت بـ «التوفى» (أى قبض واستلام روح الإنسان من قبل الخالق) أو بتعبير آخر هو انتقال من عالم حقيق إلى عالم كبير وسام، قال تعالى فى الآية الثانية: «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا» (٢).

ثم من أجل أن يذكر نموذجاً للموت فى هذه الدنيا أضاف تعالى «وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا»، «فَيُمِسُّكَ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ» أى التى لن تصحو من نومها بعد ذلك أبداً «وَيُرْسِلُ الْأَخْرَى أَى التى يجب أن تستمر فى حياتها «إلى أجلٍ مُّسَمًّى». إن هدف القرآن هو بيان هذه الحقيقة وهى: كما أن روح الإنسان لا تفنى فى عالم النوم، بل يضعف ارتباطها بالبدن بصورة مؤقتة، ومن أجل هذا يمكنها التجول فى عوالم مختلفة، فإنها لا تفنى أيضاً بالموت، بل تتحرر وتتجول فى عوالم كبيرة أخرى

(١) التفسير الكبير، ج ٩، ص ١٢٥.

(٢) الضمير فى «موتها» وإن كان يعود للانفس فى الظاهر لكنه فى الواقع يدل على موت الابدان، وذلك لأن البدن هو الذى يموت لا الروح، وكذلك الحال فى ضمير «منامها».

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٣٥

و «يتوفى»: من مادة «وفى وهى فى الأصل بمعنى الكمال، لذا اطلقوا على الدرهم الكامل «درهماً وافياً» (أى الكامل من حيث الوزن ومقدار الفضة) على هذا يكون التوفى بمعنى القبض التام، وبما أن القابض هو الله فإن هذه الجملة تدل على أن الإنسان سوف يضع قدمه فى عالم أعلى وأرقى

إن هذه النظرة إلى الموت تعزير كثيراً من المعادلات والمفاهيم، ومن أجل هذا عرفوه ببوابة العبور إلى عالم البقاء. ومن الجدير بالذكر هو أن الآية المذكورة تحذر الناس لأنها تعتبر «النوم» مساوياً «للموت» وكأنها تقول: كيف تغفلون عن الموت وهو يأتيكم فى كل يوم وليله وأنتم تلمسونه بأيديكم؟! إنكم فى حالة النوم تنفصلون عن هذا العالم وتفارقون حياتكم ومنصبكم ووجودكم بصورة مؤقتة، فالموت أيضاً هو عبارة عن نوم خالد كما أن النوم هو عبارة عن موت مؤقت، ومن المحتمل أن تكون الجملة الأخيرة فى هذه الآية: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» ناظرة إلى جميع هذه الحيات.

٣- ملائكة الموت

بالرغم من أن الآية السابقة أسندت قبض الأرواح إلى الله، لكنه يستفاد من آيات أخرى من القرآن إسناد هذا العمل إلى الملائكة، وفى الآية الثالثة من آيات البحث وجه الخطاب إلى النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وامر بأن يجب على إنكار المشركين للمعاد بقوله تعالى «قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ».

ومن الجدير بالذكر هو أن الآية هنا تحدت عن ملك الموت، الملك الذى اوكلت إليه هذه المهمة، بينما لاحظنا فى الآية السابقة إسناد القبض إلى الله، وفى الآية اسند القبض إلى مجموعة من الملائكة: «الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ». (الزمر / ٤٢)

كما أسند القبض إلى الرسل: «تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا». (الانعام / ٦١)

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٣٦

إننا إذا ما تمعنا بشي من الدقة فى الآيات المذكورة لا تضح لنا عدم وجود أى تضاد فى هذه المسألة، وذلك لأن المتوفى الرئيسى هو

اللَّهُ تعالى ثُمَّ تناط مهمّة قبض الأرواح بـ «ملك الموت الكبير» (عزرائيل عليه السلام) الذي اوكلت إليه هذه المهمّة وهو بدوره ينجز هذا العمل أيضاً بواسطة «مجموعة من الملائكة» والرّسل الذين هم نفس أولئك الملائكة.

إنّ الأحداث المهمّة في هذا العالم تنجز أساساً بواسطة الملائكة الذين لا هدف لهم إلا الطاعة لله والعمل بأوامره، والموت الذي هو أحد هذه الأحداث المهمّة في هذا العالم لا يستثنى من هذا القانون.

وجملته: «ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ» تدلّ على أنّ الموت مقدّمه العوده نحو الحق في مرحلة السير الصعودي، كما أنّ الولادة هي نافذة نحو عالم الفناء والسير النزولي لروح الإنسان، والتعبير بـ «ثم» من المحتمل أن يكون إشارة لوجود البرزخ.

٤ و ٥- حال المؤمنين والظالمين عند سكرات الموت

إنّ حال المؤمنين والمحسنين لا- يشبه حال الظالمين والمذنبين عند حلول الموت في ساحتهم، أو بتعبير آخر إنّ نتائج أعمالهم وعقائدهم تظهر بالتدرّج في تلك اللحظة، و «الآية الرابعة والخامسة» لهما دلالة عميقة على هذه الحقيقة.

قال تعالى «الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ»، وتدلّ هذه الكلمات على أنّهم لم يخضعوا بالكامل، فهم لا يعلمون بأنّ هذا الانكار لا معنى له أمام الله الذي يعلم الغيب وأمام الشهود من الملائكة، لذا أضاف تعالى في ذيل الآية: «بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ». ثمّ وجه الأمر إليهم فقال: «فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا».

ومما تقدّم يظهر أنّ اعلان التسليم بالنسبة لهؤلاء هنا هو بمعنى اظهار التوحيد والتسليم للحق (كما يرى عدد من المفسرين) ولكن بما أنّ جوّ الدنيا لم يفارقهم بعد ولم يتعرّفوا على

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٣٧

القوانين المهيمنة على مراحل ما بعد الموت فإنّهم ينكرون ما عملوا من سوءٍ ويتوسّلون بالكذب، لكنّهم سرعان ما يتضح لهم أنّ الكذب لا ينفع هناك!

وهناك احتمالان في هل أنّ المراد من «جهنم» هنا هو جهنم عالم البرزخ أم جهنم يوم القيامة؟ والذي يتلاءم مع سكرات الموت هو الدخول في جهنم البرزخ، لكنّ التعبير بالخلود يصلح لأنّ يكون قرينه على أنّ المراد هو جهنم القيامة، إلّا إذا قيل: إنّ المراد هنا هو دخول أبواب جهنم في عالم البرزخ لا دخول نفس جهنم، والخلود هنا هو صفة للكافرين عند دخولهم البرزخ لا عند دخولهم أبواب البرزخ.

وتعبير: «بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ»، يحتمل أن يكون صادراً عن ملائكة الموت لتحذير الكافرين فكأنهم يقولون: لا تسعوا عبثاً في الانكار فإنّه غير نافع لأنّ علم الله الواسع سوف يرفع الستار عن أعمالكم.

وعلى أيّة حال فإنّ هذه الآية تشبه ما جاء في سورة محمد: «فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَارَهُمْ». (محمد/ ٢٧)

بلى سوف تستقبلهم الملائكة بالضرب على وجوههم وأذبارهم، ومن المحتمل أن يكون إقرارهم بالتوحيد والحق هو من أجل مشاهدة هذه المشاهد لا من أجل الإخلاص.

وفي قبال هذا المشهد هناك ملائكة الرّحمة التي تأتي لقبض أرواح المؤمنين، قال تعالى في الآية الثانية: «الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

وفي الواقع لا يمكن أن تكون مكافأة الطهارة والتقوى إلّا بمثل هذا وهو أن تستقبلهم ملائكة الله بالسلام والترحاب، وتدعوهم لدخول الجنّة... تلك الدعوة التي يغمرها اللطف والمحبة والاحترام!

وهنا أيضاً قد يراد من الجنّة جنّة البرزخ كما يحتمل أن يكون المراد جنّة القيامة وجنّة البرزخ تعتبر من أبوابها.

على أيّة حال فإنّ هذا من أحد أبعاد الموت الذي هو بالنسبة للصالحين يختلف تماماً عمّا هو عليه بالنسبة للمذنبين.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٣٨

٦- علة الخوف من الموت

إنّ صورة الموت مرعبة لدى الناس عادةً، والسبب في ذلك يكمن في أمرين، فهو إما أن يكون باعتبار الموت نهاية كلّ شيء أى يساوى معنى الفناء، وإما أن يكون بسبب التلوّث بارتكاب الذنوب وحب الدنيا الشديد، فلماذا يخاف الموت من يعتبره ولادة جديدة وبداية انتقال إلى عالم أوسع وحياء أرقى ومن يحمل في جعبته كمّيّة هائلة من الأعمال الصالحة إعداداً لسفره والذي ليس للدنيا في قلبه موضع يعتنى به؟ وقد أشار تعالى في الآية السادسة إشارة لطيفة لهذا الأمر، قال تعالى «قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ» ثم يضيف «وَلَا يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ».

ومما يجدر بالالتفات هنا هو أنّ المخاطب في هذه الآية هم اليهود، والسبب في ذلك على ما يبدو أمران:

الأول: هو أنّ اليهود يعتبرون أنفسهم شعب الله المختار دائماً- حتى في يومنا هذا- ويتصورون أنّهم يمتازون عن الآخرين بصفات خياليّة، فهم يعتبرون أنفسهم أبناء الله المختار تارةً! وأحياناً إنّهم أولياؤه وأحبّاءه: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ».

(المائدة/ ١٨)

واخرى، يقولون: لن تمسنا النار أبداً مهما ارتكبنا من الذنوب إلّا أياماً معدودة: «وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً». (البقرة/ ٨٠)

فيجيبهم القرآن: إنّ كنتم صادقين في عقيدتكم هذه فلم تخافون الموت بهذه الشدّة إذن؟

فهل يخاف الخليل من لقاء خليله؟ وهل يكون الانتقال من السجن إلى جنة عامرة خضراء أمراً مخيفاً؟!

وجاء ما يشبه هذا المعنى في قوله تعالى «قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ

صَادِقِينَ!» (البقرة/ ٩٤)

والثاني: هو أنّهم كانوا يعبدون الدنيا وتعلقت قلوبهم بعالم المادّة، هذا بالإضافة إلى

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٣٩

ارتكابهم الذنوب الكثيرة وتلوّث أيديهم بدماء الأبرياء، لذا فهم يخافون الموت بشدّة.

لذا قال تعالى «وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِ». (البقرة/ ٩٦)

وقال أيضاً: «وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ». (البقرة/ ٩٥)

وعلى هذا الأساس فقد بيّن القرآن المجيد علل الخوف من الموت بوضوح كما أنّه هدى إلى طرق الخلاص من هذا الخوف والهلع الّذى يعمّ الجميع، ويرى بعض المفسّرين أنّ الآية المذكورة أعلاه والتي نزلت في شأن اليهود هي نوع مباهلة والتي هي إحدى طرق مقارعة الكذّابين، وهي تستخدم في إثبات صدق الدّعوة، وهي أن يطلب المدّعى من الله أن يُخزّيه إن كان كاذباً (فإذا كانت شروط المباهلة متوفّرة فإنها تكون مؤثّرة).

والدليل على هذا التفسير هو ما جاء في الروايات أنّ الكذّابين أي (اليهود) لو كانوا تمّنوا الموت أمام النبي صلى الله عليه وآله لغصوا بريقهم وماتوا!

جاء في الحديث الشريف: «والذّي نفسى بيده لا يقولها أحدٌ منكم إلّا غصّ بريقه» «١».

٧- الغاية من الموت والحياء

إن حياة الإنسان محدودة على أيه حال، والموت يرافق كل حياة، وأول سؤال يُطرح هنا هو: ما هي الغاية من الحياة والموت؟ وقد تحدّث القرآن المجيد في الآية «السابعة» من آيات البحث عن هذا الأمر فقال: «تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاتَ لِيُبْلُوَكُمْ أَتَيْكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ». فالقرآن هنا يبيّن أولاً أن خلق الموت والحياة هما من دلائل قدرته الواسعة، ثم يضيف إلى ذلك: إن الهدف من هذا الخلق هو امتحان لأحسن الأعمال .. امتحان يهدف إلى تربية البشر وهدايتهم إلى منزلة القرب الإلهي.

(١) تفسير روح المعاني، ج ٢٨، ص ٨٥؛ وتفسير المراغي، ج ٢٨، ص ١٠٠.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٤٠

ويستفاد من هذه الآية عدّة امور:

أولاً: إن الموت والحياة كلاهما مخلوقان، فإذا كان الموت بمعنى الفناء والعدم المطلق فإن كونه مخلوقاً سوف لا يكون ذا معنى، والسبب في ذلك هو أن الموت عبارة عن الانتقال من عالم إلى عالم آخر، لذا فهو أمرٌ وجوديٌّ وبالامكان خلقه. ثانياً: إن ذكر الموت قبل الحياة إمّا أن يكون للدلالة على موت الدنيا وحياة عالم الآخرة، وإمّا أن يكون للدلالة على المرحلة التي كان فيها الإنسان تراباً، فتعتبر الحياة بمعنى الخلق من التراب، وإمّا أن يدلّ على كليهما معاً. ثالثاً: قد عُرِفَت الدنيا بأنها ساحة اختبار .. ساحة لانتخاب «أفضل الأفراد من حيث العمل»، ومن البديهي أن شهادة النجاح في هذا الامتحان تُمنح في الدار الآخرة.

رابعاً: إن المقياس الذي يعين قيمة الإنسان لدى الله تعالى هو العمل الصالح، ومن البديهي أيضاً أن الأعمال الصالحة تنبع من العقائد المخلصة والقلب المؤمن والنية الخالصة، وذلك لأن العمل يكون دائماً انعكاساً لهذه الامور.

ومن المحتمل أن يكون هذا هو دليل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عند تفسير جملة «أَحْسَنُ عَمَلًا» في أحد الأحاديث المروية عنه، قال صلى الله عليه وآله في تفسيرها: «أَتَمُّكُمْ عَقْلًا وَأَشَدُّكُمْ لِلَّهِ خَوْفًا وَأَحْسَنُكُمْ فِيمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَنَهَى عَنْهُ نَظْرًا، وَإِنْ كَانَ أَقَلُّكُمْ تَطَوُّعًا» (١).

فمن هنا يتضح أن التفسيرات المختلفة التي فُسِّرَت بها «أَحْسَنُ عَمَلًا» مثل: تفسيرها بالأعمال الخالصة أو الأكثر عقلاً أو الأكثر زهداً أو الأكثر ذكراً للموت أو الأكثر تأهباً لسفر الآخرة، يتضح أنها مترابطة مع بعضها البعض، ولا تعتبر تفسيرات مختلفة، وذلك لأن هذه التفسيرات كالسيقان والأوراق والجذور والجذع والفواكه للشجرة الواحدة.

خامساً: إن القيمة الواقعية تختصّ ب «جوهر الأعمال» لا ب «كمّها وحجمها»، فربّ عملٍ صغيرٍ ذي كفيّة عالية من جهة الإخلاص والإيمان والمعرفة فاق أعمالاً كثيرة، لذا جاء في احدي الروايات عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير أنه «أَحْسَنُ عَمَلًا» قال: «لَيْسَ يَعْني أَكْثَرُ»

(١) تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٣٢٢.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٤١

عَمَلًا وَلَكِنْ أَصَوْبُكُمْ عَمَلًا» (١).

سادساً: إن الأفعال الإلهية هادفة ويصطلح عليها بأنها «معللة بالاغراض»، على خلاف ما يراه المغفلون من أن أفعال الله غير هادفة. سابعاً: ومن أجل احتمال أن يشعر الإنسان بالوحدة والعجز في ساحة الاختبار العظيمة، أو أن يُهيمن عليه اليأس بسبب العثرات وصف

اللَّهُ نفسه في ذيل الآية بالعزير الغفور وذلك للقضاء على هذه المخاوف، فالآية تقول للإنسان: إنك لست وحيداً، فلا تخف من رهبة الاختبار، وليكن قلبك مع الله، فإن عثرت فالجأ إلى عفو الله وغفرانه.

٨ و ٩ - مقدمات الموت وسكراته

يستفاد من مضامين آيات القرآن أن الموت تصاحبُهُ شدائد ومخاوف محيرة، لذا قال تعالى في الآية الثامنة من آيات البحث: «وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ» فيقال للإنسان في هذه الاثناء: «ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ». وكلمة «سَكْرَةُ» مأخوذة من مادة «سِكر» وهي - على حد قول اللغويين - حالة تحوّل بين الإنسان وعقله، وغالباً ما تستخدم في موارد شرب الخمر، وقد استخدمت تارة في الحالات الناجمة عن شدة الغضب أو الحالات الناجمة عن شدة الحب الملتهب. ولكن جاء في «مقاييس اللغة» إن الأصل في هذه المادة بمعنى «الحيرة». كما فسرها آخرون ب «الشدة»، والظاهر هو أن جميع هذه المعاني تعود إلى معنى واحد وإن كانت التعبيرات مختلفة. إن ظهور حالة تشبه حالة السكر عند الإحضرار إما أن تكون بسبب طبيعة الانتقال من عالم إلى عالم آخر مجهول من جهات مختلفة، كما هو الحال في حالة الاضطراب عند المولود عندما ينتقل من عالم الجنين إلى عالم الدنيا، وإما أن يكون بسبب أجواء ما بعد

(١) اصول الكافي، ج ٢، ص ١٦، (باب الإخلاص) ح ٤.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٤٢

الموت ومواجهته نتائج الأعمال والخوف من العاقبة، وإما أن يكون بسبب فراق الدنيا والأقارب والامور التي تعلق قلبه بها. ويستفاد من الروايات أن الأنبياء والالهيين الذين لم تعلق قلوبهم بحب الدنيا ولم يخافوا العاقبة، والذين يمتازون بطمأنينة متميزة بسبب ذلك، إن هؤلاء أيضاً لهم نصيب من هذه المعضلات والشدائد التي تنزل في هذه اللحظة، كما جاء في ذكر حالات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه عند آخر لحظات عمره المبارك، كان يضع يده في إناء فيه ماء ويمسح بيده على وجهه ويقول «لا اله إلا الله»، ثم يقول: «إن للموت سكرات» (١).

وروى عن علي عليه السلام أيضاً أنه قال: «إن للموت غمراتٍ هي أفضح من أن تستغرق بصفه أو تعتدل على عقول أهل الدنيا» (٢). ولو وضعنا كل هذا في جهة، فمن جهة أخرى يستفاد من الآيات أمر آخر أيضاً وهو أن انفصال الروح عن الجسد يتم بصورة تدريجية، وهذا «بنفسه يزيد من الهلع»، فإن كان الانفصال فورياً ويتم خلال لحظة واحدة لكان تحمله أسهل. وقد جاء في الآية التاسعة من آيات البحث قوله تعالى «كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ * وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ * وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ * وَالتَّتَقَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ».

وجاء نفس هذا المعنى في قوله تعالى «فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ». (الواقعة/ ٨٣-٨٤)

و «تراقى»: جمع «ترقوة» وهي العظام التي تحيط بأطراف الرقبة، ووصول الروح إلى الحلقوم هو كناية عن اللحظات الأخيرة من العمر، ويحتمل توقف الأعضاء البعيدة عن القلب والمخ عند انفصال الروح قبل الأعضاء الأخرى وجملة «التفت الساق بالساق» من المحتمل أن تكون للدلالة على ما ذكر (ففي تفسير مجمع البيان جعل توقف السيقان عن العمل من أحد تفاسير هذه الجملة).

(١) تفسير روح البيان، ج ٩، ص ١١٨.

(٢) غرر الحكم.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٤٣

هذا بالإضافة إلى أن وصول الروح الحلقوم هو تعبير آخر عن هذا المعنى ومن البديهي أن جهاز التنفس يقف عن العمل عندما تصل الروح الحلقوم، وعندما يقف جهاز التنفس عن العمل يسبب فقدان الاوكسجين والاختناق ووقوف المخ عن العمل. ففي هذه اللحظات يضطرب الحاضرون عند المحتضر ويصيبهم الجزع والفرع، ويبدلون قصارى جهدهم لإعادة الروح، إلا أن مساعيهم تذهب هباءً، وبعد لحظات ينقطع المحتضر عن هذه الدنيا إلى الأبد، فيستقر جسده جانباً وكأنه لم يكن واحداً من أهل هذه الدنيا. والعجيب هو أن العبور من هذه المراحل التي تطول مدتها تارةً وتمرّ بسرعة تارةً أخرى هو امرٌ حتمى يعم الجميع، فالملوك والجبابرة الظلمة سوف يموتون، كما سوف يموت المستضعفون والمظلومون كذلك، بل تكون لحظات الموت بالنسبة للجبابرة والظلمة أشدّ ألماً، وذلك لأنّ فراق الاموال والمناصب التي بذلوا أعمارهم للحصول عليها يكون صعباً وغيض النظر عنها بالنسبة للذين تعلقت قلوبهم بالدنيا المادية أمرٌ عسير.

١٠- تمنى العودة والإصلاح

بعد اجتياز لحظات الموت، وبعد فراق الدنيا عندما تفتح العيون في البرزخ ويشاهد الإنسان بعض الأسرار التي كانت محتجبة خلف ستار الغيب، ويرى نتائج أعماله بأمّ عينيه ويرى خلوة يديه من الحسنات وتراكم الذنوب الثقيلة يُثقل كاهله، فإنه يندم بشده على ما فعل في الماضي ويفكر في إصلاح ما اقترفه، هنا يلتفت إلى الملائكة الذين قبضوا روحه ويتوسل إلى الله - كما جاء في الآية العاشرة من آيات البحث - ويضج بالعيول ويطلب من الله العودة إلى دار الدنيا، قال تعالى: «حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ* لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ».

لكن السنن الإلهية لا تسمح لأحدٍ بهذا، فلا الصالحون يتمكنون من العودة لإضافة

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٤٤

الصالحات إلى أعمالهم، ولا المسيئون يمكنهم العودة للتوبة والإصلاح، لذا يجب عن هذا الطلب بحزم ويقال له: «كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا».

إنّ جميع المجرمين عندما يقعون بقبضة المقتصّ يتوسلون بمثل هذه الأساليب، ولكن غالباً ما يعودون إلى تكرار أعمالهم فور ارتفاع أمواج البلاء عنهم.

ومما يجلب الإنتباه هنا هو أنّ المخاطب في كلمة «ربّ»، هو الذات المقدّسة الإلهية، لكن المخاطب في «ارجعون» جاء بصيغة الجمع. يرى المفسرون: أنّ هذا إمّا من أجل التعظيم لمقام الحق تعالى وإمّا أن يكون المخاطب في الواقع هم الملائكة الذين يأتون أفواجا لقبض الأرواح.

كما أنّ هذا المعنى محتمل أيضاً وهو أنّهم يتوسلون بساحة اللطف الإلهي أولاً، ثم يلتفتون إلى الملائكة يطلبون منهم العودة «١». وجاء ما يشابه هذا المعنى أيضاً في قوله تعالى: «وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولُ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ».

(المنافقون / ١٠)

وقد اجيبوا هنا بجواب سلبي أيضاً في ذيل الآية، وبصورة أخرى قال تعالى: «وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ».

(المنافقون / ١١)

كما يستفاد من الآية ٢٨ من سورة الأنعام أيضاً أنّ المجرمين يتحدّثون بهذا الحديث عندما يعرضون على جهنّم، وبما أنّ ذلك خارج عن موضوع البحث فإننا نعرض عن ذكره هنا.

ثمره البحث:

إشارة

إتضح بجلاء وجهه نظر القرآن الكريم في مسألة الموت من أبعادها المختلفه، من

(١) واحتمل صاحب تفسير الميزان هذا الاحتمال أيضاً وهو أنّ ضمير الجمع يدل على الجمع في الفعل لا على الجمع في الفاعل، فكانّ المحتضر يريد أن يقول «ارجع، ارجع» عدّة مرات فيأتي بكلمه ارجعوا بدلاً عن التكرار. (تفسير الميزان ج ١٥، ص ٧١) ولكن من البديهي لو جاز هذا في اللغة لكان قليلاً جداً.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٤٥

مجموع ما جاء في الآيات والعناوين العشره المذكوره.

ومما يجدر بالالتفات هو أنّ القرآن سلط الاضواء في جميع هذه الموارد على الآثار التربويه منها، وذلك لأنّ القرآن كتاب تربوي كامل، فهو يعنى بالجانب التربوي عند ذكر اصول وفروع الدين، والمسائل الاجتماعيه والتاريخيه وغيرها، أي أنّه يطرح الواقع بكلّ وضوح ويستخدمه للسيطره على النفس الجموح، في الدعوه نحو التقوى والورع وسلوك الطريق المؤدى إلى مرضاه الله بظرافه ودقه، فما أجمل وألطف ظرافه ودقه القرآن في جميع هذه المجالات!

١- الموت هو مدخل عالم البقاء

إنّ ما جاء في البحوث المذكوره آنفاً معرّزاً بالآيات القرآنيه، غالباً ما يستدلّ عليه بالطرق المنطقيه الصالحه للاستدلال (باستثناء ما يرتبط بالعوامل الغيبيه التي لا نمتلك طريقاً للوصول إليها، فقد رفع القرآن الستار عنها).

إنّ ممّا لا شك فيه هو أنّ نظره الإلهيين والمؤمنين إلى المعاد والموت تختلف عن نظره الماديين والمنكرين للمعاد اختلاف السماء عن الأرض، وهذان المنظاران هما اللذان يؤثران في حياة الأفراد والمجتمعات البشريه، ويميزان هذين الفريقين عن بعضهما. فالماديون يعتبرون الموت عالماً مظلماً ومعتماً جداً.. عالماً ينتهي معه كل شيء، وتختتم به جميع آمال ومساعي وجهود البشر، وعلى هذا الأساس فإنّه ليس من العجب أن يخاف الإنسان المادى من الموت ويتنابه الوهن، وتتبدل لديه حلاوه تلك التصورات عن الحياة إلى ما هو أكثر مراره من السم.

وليس من العجيب أن لا يقدموا على الإيثار والتضحيه وإذا أقدموا على عمل كهذا فتأثير ضغوط من قبل الآخرين أو بتأثير الضغوط الاجتماعيه، وذلك لأنّه لا يوجد بعد الإيثار شيء يحل محله، أو بتعبير آخر إنّ الإيثار سوف لا يكون الهدف الأساسى لهؤلاء.

وليس من العجيب أن يعدّ هؤلاء الحياة أمراً تافهاً خالياً من المحتوى وذلك لأنّ الموت

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٤٦

إنّ كان نهايه لكل شيء فإنّ الحياة الدنيا والتي هي عبارة عن تكرار مجموعه من الأعمال الدنيئه، كالأكل والنوم والكسب

والاستهلاك لا- يمكن أن تعتبر «هدفاً سامياً» لإرواء الروح الإنسانية، لذا فإنّ أفراداً يقدمون على الانتحار ويعتبرون ذلك اختياراً صحيحاً لانتهاء هذا «التكرار والمكررات التافهة»! فهم يعتبرون ذلك عين العقل والمنطق، ويعتبرون استمرار حياتهم حماقة وذلةً وبلادة! بينما يرى الإلهيون الذين يؤمنون بالمعاد، الموت أشبه ما يكون بتولّد الجنين من بطن أمه.

فالجنين يموت في الواقع، أي فقد الحياة في بطن الأم، لكنّه بعد الولادة يضع قدمه في عالم أوسع وأفسح، وإذا ما قيس بالمحيط الضيق والمظلم في بطن الأم، الذي يعدّ عالماً مملوءاً بالنعيم والجمال.

فالموت هو ولادة أخرى أيضاً، والإنسان بواسطة الموت يخرج من محيط هذه الحياة الضيق إلى عالم أكثر اتساعاً.

ومن البديهي هو أنّ الجنين لو كان يعلم اين سيضع قدمه بعد الولادة لظلّ يعدّ اللحظات للخروج، ولما خاف أبداً من ذلك اليوم، ولما عد حياة الأجنّة حياةً تافهة، ولما عزّ عليه الإيثار في سبيل الخروج.

وقصارى القول إنّ نظرة الإنسان للموت باعتباره «باباً ينفذ منه إلى عالم البقاء» تغير لون حياته وتمنحها لوناً جديداً وتعطيها مفهوماً يسكن إليه القلب وتخرجه من الحيرة والكآبة والشعور بالتفاهة واللاهديه التي تقسم آلامها الظهر.

٢- لماذا نخاف الموت؟

اتّضح ممّا قلناه آنفاً: أنّ الخوف من الموت لا معنى له بالنسبة لمن يؤمن بالمعاد، ويستثنى من ذلك من كانت صحيفه أعماله سوداء ومظلمة، الذين يخافون العقوبات الإلهية

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٤٧

التي سوف يُبتَلون بها في الدار الآخرة، وبتعبير آخر: إنّ من يخاف الموت هم ثلاث فرق:

الفرقة الاولى: وهم من يعتبرون الموت أمراً يساوى الفناء والعدم، فالعدم مرعب، والفقر والمرض والضعف والعجز هي من عوامل الرعب؛ لأنّها بمعنى عدم الثروة وعدم السلامة وعدم التمكّن وعدم القدرة، فالإنسان هو من سنخ الوجود، والوجود يأنس بالوجود كما يأنس الحديد بالمغناطيس، لكنّه لا يسانخ العدم ولا يأنس به، فما عليه إلّا أن يهرب منه.

لكننا إذا اعتبرنا الموت سُلماً للصعود إلى «وجودٍ أرقى وكنا نعتبر العالم الذي يلي الموت لا يقاس بهذا العالم من جهة السعة والنعيم، وكنا نعدّ الدنيا سجنًا والموت بمثابة التحرر من هذا السجن، وإذا شبّهنا الحياة بالقفص بالنسبة إلى طائر والموت بانفتاح هذا القفص وتحليق الطائر، فسوف لن يصبح الموت أمراً مرعباً، بل سوف يكون في بعض الموارد محبوباً ومستساغاً، قال أحد الحكماء:

مُتّ أيها الحكيم واقلع عن مثل هذه الحياة فإنّك إن مُتّ فسوف تخلد فيسافر طائر روحك إلى الغلا عندما تحررها من أسرِ الطمع وقال شاعر آخر:

اننى طائر جنّة الملكوت، ولستُ من عالم التراب لقد صنعوا من جسمي قفصاً قصير الامد إنّ أسعد الأيام هو ذلك اليوم الذى أطيّر به نحو الحبيب فترفّ جناحاي بأمل الوصول إلى دياره وأخيراً يستقبل شاعر آخر الموت بصدورٍ رحب، فيدعوه إليه قائلاً:

إن كان الموت إنساناً لقلت له أقبل إليّ لأضمّه إلى صدرى بشوق شديد كما أحصل منه على روح خالدة ويحصل منى على جنّة خلقه ومن الواضح هو أنّ تصوراً كهذا عن مسألة الموت يطرد الخوف والهلع عن الإنسان، كما أننا لا نقول إنّّه ينتحر، لأنّ هذه الحياة هي وسيلة لجمع رأسمال أكثر ولكسب الزاد وتهيئة الرحلة للإعداد للسفر نحو ذلك العالم، بل نقول: إنّّه يبسط جناحيه عندما ينفصل منها، ويذهب إلى استقبال شيء يمدّه بحياة جديدة بكل شهامة وشجاعة.

الفرقة الثانية: وهم الذين يؤمنون بالحياة بعد الموت لا يعتبرون الموت فناً وهدماً أبداً، لكنهم بسبب اسوداد صحائفهم يهربون من الموت، لخوفهم من العقوبات التي ستحل بهم بعده، والتي أعدت لهم في المحشر، فهم يهربون منها كما يهرب المجرمون الذين

يتمنون دائماً تأجيل يوم المحاكمة، والبقاء في السجن من دون محاكمة!
ومن حق هؤلاء أيضاً أن يخافوا من الموت، فالخلاص من السجن بنفسه أمرٌ حسن، ولكنه ليس كذلك بالنسبة لمن يخرج من السجن إلى خشبة الأعدام.
الفرقة الثالثة: وما يجدر بالالتفات أيضاً هو أن حب الدنيا والتعلق بها والحب الشديد للمال والمنصب والمظاهر الأخرى تجعل الإنسان يخاف الموت .. الموت الذي يُخرج جميع هذه الأمور من قبضته.
أمّا بالنسبة لمن لا يعتبرون الموت فناً ولم تسود صحائف أعمالهم، ولم تربطهم بالدنيا المادية جميع العلائق، فلا داعي لأن يخاف هؤلاء الموت حتى لو كان بأقل درجات الخوف.

٣- أسباب الخوف من الموت في نظر الروايات

ذكرت الروايات في مجال الخوف من الموت والفرع منه مسائل لطيفة أيضاً وهذه المسائل تتسم بالاسلوب التربوي، وهي كما يلي:

١- سأل رجل الإمام الحسن المجتبي عليه السلام فقال: يا ابن رسول الله! ما بالنا نكره الموت ولا نحبه؟ فقال عليه السلام: «إنكم أخربتم آخرتكم وعمرتم دنياكم، وأنتم تكرهون النقلة من نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٤٩
العمران إلى الخراب» (١).

٢- قال الإمام الصادق عليه السلام: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسأل: مالي لا أحب الموت؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: «ألك مال؟» فقال الرجل: بلى فقال صلى الله عليه وآله: «فقدمته؟» فقال الرجل: كلاً، فقال صلى الله عليه وآله: «فمن ثم لا تحب الموت» (٢).

٣- وجاء في رواية أخرى عن الإمام الهادي عليه السلام (علي بن محمد) أنه ذهب لعيادة أحد أصحابه فوجده يطيل البكاء ويتضجر من الموت، فقال له الإمام عليه السلام: «يا عبد الله تخاف من الموت لأنك لا تعرفه، ثم شبه الإمام عليه السلام الموت بحمامٍ نظيف يدخله الإنسان الوسخ فيغتسل، ويلقى جميع همومه وآلامه فيعمه السرور والفرح» (٣).

٤- قال الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام: «لما اشتد الأمر بالحسين بن علي بن أبي طالب ... كان الحسين وبعض من معه تُشْرِقُ ألوانهم وتهدأ جوارحهم وتسكن نفوسهم، فقال بعضهم لبعض: انظروا إليه أن لا يبالي بالموت» (٤)!

إن هذه الأحاديث التي وردت في بيان أسباب الخوف من الموت، بدرجته من الوضوح بقدر الكفاية ولا نرى هناك ضرورة لشرحها.

(١) بحار الأنوار، ج ٦، ص ١٢٠، ح ١٨.

(٢) المصدر السابق ٩.

(٣) معاني الأخبار، ص ٢٩٠، ح ٩ (باب في معنى الموت).

(٤) المصدر السابق، ح ٣.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٥١

٢- البرزخ

«البرزخ»: هو الشيء الحائل بين شيئين، ثم توسع هذا المعنى واطلق على كل ما يحول بين الشيئين أو بين المرحلتين «١». والمراد من «البرزخ» هنا هو العالم الذى يتوسط بين الدنيا وعالم الآخرة، أى أن الروح بعد انفصالها عن الجسم وقبل عودتها إليه ثانية يوم القيامة سوف تبقى فى عالم يتوسط العالمين ويطلق عليه اسم البرزخ. والأدلة الرئيسية التى يمكن بواسطتها إثبات وجود عالم البرزخ هى الأدلة النقلية (الآيات والروايات) وإن كان بالإمكان إثبات هذه المسألة بالسبل العقلية أو الحسية (عن طريق احضار الروح) أيضاً. وبالرغم من عدم تعرض القرآن بكثرة لذكر مسألة البرزخ ومروره عليها مَرَّ الكرام، إلما أنه فى نفس الوقت له تصريحات وتعابير واضحة فى هذا المجال وردت خلال آيات متعددة، والتى يمكنها أن تبين لنا القوانين العامة المتعلقة بعالم البرزخ. بعد هذه الإشارة نعود إلى القرآن لنمعن خاشعين فى الآيات الواردة فى هذا المجال:

١- «حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ* لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ». (المؤمنون / ٩٩-١٠٠)

(١) جاء فى الآية ٢٠ من سورة الرحمن حول البحر الذى يضم ماءً عذباً وماءً أجاباً فى آن واحد: بينهما برزخ لا يبغيان.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٥٢

- ٢- «وَلَمَّا تَحَسَّبَ بَنُّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ* فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ». (آل عمران / ١٦٩-١٧٠)
- ٣- «وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَاتَشْعُرُونَ». (البقرة / ١٥٤)
- ٤- «النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ* وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَدُونَ عَنَّا نَصِيحًا مِنَ النَّارِ». (المؤمن / ٤٦-٤٧)
- ٥- «مِمَّا خَطَبْنَا بِهِمْ اَعْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا». (نوح / ٢٥)
- ٦- «قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ* بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ». (يس / ٢٦-٢٧)
- ٧- «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ». (الروم / ٥٥)
- ٨- «قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا آتَيْنِي وَأَخْيَيْنَا آتَيْنِي فَأَعْرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ». (المؤمن / ١١)

جمع الآيات وتفسيرها

ماهية البرزخ وخصائصه:

تحدثت الآية الاولى عن وضع الكفار والظلمة والمجرمين، قال تعالى: «حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ* لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ»، ولكنه سرعان ما يواجه بجواب سلبي مدعوم بالأدلة والبراهين فيقال له: «كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا» ثم نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٥٣

يضاف إلى الجواب: «وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ».

فبداية الآية تشير إلى المنزل الأول أى «الموت» وذيلها يشير إلى المنزل الثانى أى «البرزخ». وبالرغم من اصرار البعض على تفسيرهم البرزخ هنا بمعنى الحائل الذى يحول بين الإنسان ودرجات الجنة العليا، إلا أن جملة «إلى يوم يبعثون» تعتبر قرينة واضحة، على أن عالم البرزخ هو مرحلة تسبق يوم القيامة، وتقع بعد الموت. كما فسر البعض البرزخ أنه بمعنى المانع الذى يحول بين الإنسان والعودة إلى الدنيا، لكن هذا المعنى أيضاً لا يتلاءم مع ذيل الآية وهو التصريح ببقاء هذا البرزخ إلى يوم القيامة، وبهذا أثبتت الآية المذكورة بوضوح وجود عالم يتوسط بين الدنيا والآخرة. وكلمة «وراء» تأتي أحياناً بمعنى «الخلف» وأحياناً أخرى بمعنى «الأمم»، وذلك لأن هذه الكلمة من مادة (ورى على وزن (سعى وهى بمعنى الاخفاء، فمن يقف إلى أحد جانبي الجدار مثلاً يعدّ الطرف الآخر الذى يخفى عليه «وراء» بالنسبة له، بناء على هذا فالإنسان فى أى جهة كان من الجدار يعدّ الطرف المقابل له «وراء» بالنسبة له «١».

جاء فى الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «اتخَوْفَ عليكم من البرزخ». «٢» فسأله الراوى: ما البرزخ؟ فقال عليه السلام: «القبر منذ حين موته إلى يوم القيامة» «٣».

وجاء فى حديث آخر عن الإمام على بن الحسين عليه السلام أنه قال: «إن القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النيران» «٤».

(١) مفردات الراغب، مادة (ورى) .

(٢) منازل الآخرة، ص ١٦١.

(٣) تفسير البرهان، ج ٣، ص ١٢٠، ح ٢ و ١.

(٤) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٥٤

وفى الآية الثالثة توجه تعالى بالخطاب إلى جميع المؤمنين وقال بوضوح: «وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أحيَاءٌ وَلَكِنْ لَأَنْشُرُونَهُ».

فكلا- هاتين الآيتين هما من الأدلة الواضحة على وجود عالم البرزخ (وإن كان الحديث يقتصر على ذكر الشهداء)، وذلك لأنهما تحدثتا عن حياة الشهداء بل حتى عن رزقهم واستقرارهم عند ربهم.

والعجيب هو أن بعض المفسرين ومن دون أن يلتفتوا إلى العبارات الواردة فى الآيات اللاحقة لها والتي تتحدث جميعها عن حياة الشهداء (الحياة بالمعنى الواقعى لهذه الكلمة) حملوا الحياة هنا على معناها المجازى، مثل بقاء أسمائهم وآثارهم، أو بقاء هدايتهم وطاعتهم ومذهبهم، أو بعثهم من القبور وحياتهم يوم القيامة!

فهل غفلوا عن وصف القرآن لهم بأنهم عند ربهم؟

أم غفلوا عن إرزاقهم؟

أم غفلوا عن وصفهم فرحين بما آتاهم الله من فضله ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون؟

فكيف تتلائم جميع هذه التعابير مع المعنى المجازى؟

هذا بالإضافة إلى قوله تعالى بل أحياء ولكن لا تشعرون، فإن كان معنى الحياة هو بقاء الاسم والمنصب والهداية والمذهب فإن هذه الامور قابلة للإدراك.

والظاهر هو أن هؤلاء المفسرين لم يتمكنوا من إدراك حياة البرزخ بدقة، فتوسلوا بالخرافات بعد ما غابت عنهم الحقيقة، لكن الراوى صرح فى تفسيره بالقول: إن أكثر المفسرين على أن الحياة هنا هى الحياة الواقعية «١».

وعلى الرغم من ذكر المرحوم الطبرسى فى مجمع البيان لاربعة تفاسير للآية، إلا أنه رجح التفسير الأول الذى فسر الحياة فى هذه الآية

بالحياة الحقيقية، واعتبره هو الصحيح من بينها «٢».

(١) تفسير الكبير، ج ٤، ص ١٣٥.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج ١ و ٢، ص ٢٣٦.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٥٥

وهناك روايات كثيرة في هذا المجال طبعاً سوف تُشير إليها لاحقاً- إن شاء الله-

ومن العجائب الاخرى هو ما نُقل في تفسير «الميزان» عن بعض المفسرين الذين اعتبروا الآية مختصة ب «شهداء بدر» وادعوا بأنها لا تشمل جميع الشهداء! (يجب الالتفات إلى أن المفسرين صرحوا بأن الآية الاولى نزلت في شهداء اُحد والثانية في شهداء بدر «١»، ولكن على أية حال فإن أسباب النزول لا تحدد مفهوم الآيات مهما كان المورد، فالآية إذن تشمل جميع الشهداء بصورة مطلقة). وما يلفت الانتباه هو أن المرحوم العلامة الطباطبائي بعد أن نقل هذا التفسير أضاف: «إن بعض المفسرين فسروا الآية السابقة لهذه الآية (أى الآية ١٥٣ من سورة البقرة) التي تأمر بالاستعانة بالصبر» «٢».

ولكن على أية حال فإن الآية تحدت عن الشهداء فقط، إلا أنها لم تنف غيرهم، من هنا يطرح هذا السؤال وهو: إن كانت حياة البرزخ تعم جميع البشر فما هو فضل الشهداء على الآخرين؟!

والجواب على هذا السؤال واضح، وهو أن فضلهم على غيرهم هو في كيفية حياتهم ..

الحياة في جوار رحمة الله والتنعم بأنواع النعم والرزق الإلهي، لكن حياة البرزخ للآخرين لا تشمل على هذه البركات طبعاً.

أمّا الآية الرابعة فهي في الواقع تمثل النقطة المقابلة لما جاء في آيات الشهداء، وذلك لأنها تحدت عن عذاب «آل فرعون» في البرزخ، قال تعالى: «وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ»، ثم يبين ماهية هذا العذاب بقوله: «النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ»، ومن الواضح هو إن النار التي ذكرت في

(١) وقال البعض أيضاً: إن الآية المتعلقة بسورة آل عمران نزلت في شهداء بدر بينما نزلت الآية المتعلقة بسورة البقرة في شهداء بدر واحد معاً.

(٢) تفسير الميزان، ج ١، ص ٣٥٢.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٥٦

الآية والتي يُعرض عليها آل فرعون صباحاً ومساءً هي نار البرزخ، وذلك لأن ذيل الآية تحدت عن عذابهم يوم القيامة بصورة مستقلة، لذا فقد فسر أغلب المفسرين هذه الآية بأنها تشير إلى عالم البرزخ وعذاب القبر. ومن الجدير بالالتفات هو أن الآية عندما تحدت عن عذاب البرزخ لآل فرعون قالت: «النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا»، لكنها عندما تحدت عن عذابهم في الآخرة قالت: «أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ».

ويستفاد من اختلاف هذين التعبيرين (العرض والادخال) بأن المراد من النار هي نفس نار البرزخ، إلا أنهم في البرزخ يشاهدونها عن بُعد فيعَمُّ القلق والهم وجودهم، لكنهم يشاهدونها يوم القيامة عن قرب بواسطة الدخول فيها، فهذه العقوبات تحل بهم في البرزخ صباحاً ومساءً، بينما تكون مستمرة ومن دون انقطاع في يوم القيامة.

وقد روى عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في هذا المجال ما يؤيد هذا المعنى بكل وضوح، قال صلى الله عليه وآله: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعِدُهُ بِالْعَمْدَةِ وَالْعَيْشِيِّ فَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَمِنْ الْجَنَّةِ وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ النَّارِ، يُقَالُ هَذَا مَقْعِدُكَ

حِينَ يَبْعَثُكَ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (١).

ويستفاد من هذه الروايات أن الأمر لا يختص بآل فرعون، بل يشمل الجميع.

وهل يعذب أو ينعم أهل البرزخ عن طريق المشاهدة لجهennem أو الجنة فقط؟ أم يكون لهذين تأثير مادّي عليهم أيضاً؟ كما لو مرّ الإنسان بالقرب من حفرة من النار فإنّ النار تحرق وجهه، أو إذا مرّ بالقرب من بستان عامرة خضراء فيدبّ النشاط فيه أثر نسيمها المنعش العطر، أم يثاب أو يعاقب بكلا الوجهين؟ (الروحي والجسمي، والمراد هنا هو الجسم المثالي طبعاً).
الاحتمال الثالث أقوى (فتأمل).

كما يجدر الالتفات إلى هذه المسألة أيضاً وهي أن ظاهر الآية يدل على أن آل فرعون

(١) رُوِيَ هذا الحديث في مجمع البيان، ج ٧ و ٨، ص ٦ عن صحيح البخارى ومسلم في تفسير ذيل الآية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٥٧

يعرضون على النار، لكن بعض المفسرين قالوا: إن هذا كناية عن عكس ذلك الأمر، أى أن النار هي التي تعرض عليهم، كما هو الحال في «عرضت الناقة على الحوض» المراد منه عرض الماء على الناقة. (وما جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله يؤيد هذا المعنى أيضاً، وذلك لأنه صلى الله عليه وآله قال: «إذا مات عُرضَ عليه مقعده من الجنة أو من النار بالغداة والعشي»).
وتحدّثت الآية الخامسة عن «مؤمن إل يس» (الرجل المؤمن الذي ورد ذكر قصته في سورة «يس»)، فقد نهض هذه الرجل لدعم رُشيل المسيح عليه السلام الذين بعثوا إلى مدينته «انطاكية» ودعا الناس ونصحهم باتباع هؤلاء الرُسل، لكن هؤلاء القوم المعاندين الفجار لم يكتفوا بعدم الاكتراث بنصحه فحسب، بل ثاروا عليه وقتلوه). قال تعالى: «قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ».

ومن الواضح هو أن هذه الجنة ليست هي جنة القيامة، بل هي جنة البرزخ، لأن مؤمن إل يس تمنى هنا لو كان قومه الذين هم في هذه الدنيا يعلمون بعاقبته، ويعلمون بما غفر له ربّه وجعله من المكرمين!

قال المرحوم الطبرسي في «مجمع البيان»: «إنّ هذه الآية تشير إلى نعيم القبر (البرزخ)، لأنّ مؤمن إل يس قال هذا عندما كان قومه احياء، فإذا امكنا تصوّر وجود النعيم في القبر، فإنّ تصوّر العذاب سوف يكون ممكناً أيضاً» (١).

وجاء في كثير من التفاسير أن هذا الرجل المؤمن يدعى ب «حبيب التجار» والسبب في اطلاق «مؤمن إل يس» عليه في بعض الروايات (٢) فالظاهر هو لأنّه كان رجلاً مؤمناً بالإضافة إلى ذكره في سورة «يس»، لذا قال البعض: إن «إل» هنا زائدة والمراد هو «مؤمن يس» (٣).

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٧ و ٨، ص ٤٢١.

(٢) تفسير الميزان، ج ١٧، ص ٧٦ نقلًا عن تفسير در المنثور.

(٣) تفسير روح الجنان، ج ٩، ص ٢٧٠ (تعليقه المرحوم العلامة الشعراني).

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٥٨

والآية السادسة تصف وضع المجرمين يوم القيامة، قال تعالى: «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ»، ثم يضيف: «كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ».

وعلى الرغم من أن هذه الآية لم تتحدث عن محل اللبث، إلّا أنّ الآية اللاحقة أشارت إلى أن المراد من محل اللبث هو البرزخ، لأنها تقول: «وَقَالَ الَّذِينَ اوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ».

وهذا التعبير يشير إلى أن مكث هؤلاء يطول أمده إلى يوم القيامة، ولا يصح هذا إلّا في البرزخ.

وقد انتخب هذا التفسير عدد كبير من المفسرين الكبار، وهو أن الآية تشير إلى حياة البرزخ، لكن البعض الآخر يرون أن الآية تشير إلى اللبث الحاصل في الدنيا، الذي يراه المجرم قصيراً جداً كأنصرام ساعة، وادّعى بعضهم بأن هذه الآية تدل على هذا المطلب، وهو ما جاء في قوله تعالى: «كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا!»

(النازعات / ٤٦)

لكن لا يوجد في هذه الآية أى دليل واضح على أن المراد من اللبث هو اللبث في الدنيا، بل يحتمل أيضاً دلالتها على أن اللبث هو في عالم البرزخ.

وإذا تجاوزنا ذلك فإننا لا يمكننا أن نفسّر الآية إلابدلالتها على «البرزخ»، وذلك بالاستناد إلى ما ذكرته الآية من أن يوم القيامة هو اليوم الذي ينتهي فيه اللبث.

وهنا يطرح هذا السؤال نفسه وهو: لماذا يُعدّ هؤلاء الزمان الطويل لعالم البرزخ قصيراً وقليلًا؟

ويتضح الجواب على هذا السؤال من خلال ذكر مقدمته، وهى: عندما يُوعَد الإنسان بوعد جميل وشيق، فإن نار الشوق للوصول إلى تلك اللحظة سوف تستعر في قلبه، فتمر الساعات والدقائق عليه ببطء شديد، فتمرّ عليه الساعة كأنها أيام أو سنين، وعلى العكس من ذلك عندما يتوعد العقاب الشديد فإنه يودّ لو تتوقف عجالات الزمان، لكن تمرّ عليه الأيام والشهور بسرعة في نظره وكأنها لحظات أو دقائق لا أكثر، وهذا هو حال المجرمين

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٥٩

يوم القيامة!

وبالرغم من أن العذاب الإلهي لا يتخطّاهم في عالم البرزخ، لكن اين عذاب البرزخ من عذاب يوم القيامة؟!

ويوجد احتمال آخر أيضاً وهو أن يعتبر البرزخ كالنوم بالنسبة للبعض بعد ابتداء عذاب القبر، ومن البديهي أن لا يعلم هؤلاء مقدار مدّة لبثهم عندما تقوم القيامة، التي هى بمنزلة النهوض من النوم.

وبما أن جميع الحقائق لا تنكشف أسرارها للإنسان في البرزخ، فلا عجب من خفاء هذه الامور عليهم، لكنه من الطبيعي أن تنكشف أسرار الحقائق بجلاء يوم القيامة الذي هو «يوم البروز».

وفي الآية السابعة من آيات البحث جاء ما يرد على لسان الكفار عند مثلهم بين يدي الله يوم القيامة، قال تعالى: «قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا اِثْنَيْنِ وَأُحْيَيْنَا اِثْنَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ».

تدل هذه الآية على وجود عالم البرزخ من جهة أن تصوّر إِمَاتَيْنِ وإِحْيَاءَيْنِ غير ممكن، إلّا إذا سلّمنا بوجود عالم البرزخ، وهما الموت في هذه الدنيا ثم حياة البرزخ ثم الحياة في عالم الآخرة.

وهذا من أجل أن جميع البشر وحتّى الملائكة والجنّ وأرواح الأموات التى هى على هيئة أجسام مثالية في عالم البرزخ يموتون جميعاً عند انتهاء هذا العالم، أى عند نفخ الصور بمقتضى قوله تعالى: «فَصَبَقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ». (الزمر / ٦٨)

ولا يبقى حتّى موجوداً في ذلك اليوم سوى الله تعالى إذن، هناك موت بعد حياة البرزخ أيضاً.

وأما حياة عالم الدنيا فهى خارجة عن المراد، وذلك لأن الآية الشريفة تحدثت عن

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٦٠

حياتين بعد الموت، لا عن حياة الدنيا بعد الموت.

لكن البعض احتمال أن يكون المراد من الموت الأول هو ما قبل وجود الإنسان في الدنيا، أى عندما كان تراباً، بناءً على هذا الاحتمال سوف تكون الحياة الدنيا هى الحياة الاولى أيضاً، والموت الثانى هو الموت الحاصل عند انتهاء هذا العالم، والحياة الثانية هى حياة يوم

القيامة، فيكون هذا شبيه ما جاء في قوله تعالى: «كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْواتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ». (البقرة/ ٢٨)

لكنه من الواضح هو أن التعبير ب «الموت الأول» على هذا التفسير يكون صحيحاً، إلّا أن التعبير ب «الإماتة» غير صحيح، وبتعبير آخر فإن الإنسان عندما كان تراباً فهو ميت لا أن الله أماته، لأن الإماتة يجب أن تكون بعد الحياة، بناءً على هذا لا ينطبق تعبير الآية إلّا على التفسير الأول (أى على وجود عالم البرزخ)، إلّا إذا اعتبرنا الإماتة جاءت هنا بمعناها المجازي، لكن هذا لا يجوز عند غياب القرينة. كما استدلل بعض المفسرين بهذه الآية على حياة القبر أيضاً.. تلك الحياة التي تنتهي بعد مدّة وجيزة بالموت (وفى الواقع أن هذه الحياة هي أيضاً من أنواع الحياة المؤقتة فى البرزخ).

وهناك كلام بين العلماء فى كيفية الحياة فى القبر، فهل هى حياة بالجسم المادى أم بالجسم المثالى فى عالم البرزخ؟ أم بجسم خليط من المادة والمثال؟ وسوف نتحدث لاحقاً عن هذا الموضوع بإذن الله.

ثمرة البحث:

اتّضح إلى حدٍ كبير من خلال الآيات السبع المذكورة وجهة نظر القرآن المجيد حول عالم البرزخ (العالم الذى توسط بين هذه الدنيا وعالم الآخرة).

ولو فرضنا وجود الخلاف فى بعض هذه الآيات، فإنّ وضوح البعض الآخر منها (كآيات الاولى سوف لن يبقى أى مجال للشك والترديد.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٦١

هذا بالإضافة إلى أن استعمال «التوفى» (قبض الأرواح) فى الموت فى آيات متعددة من القرآن، يعتبر دليلاً ملموساً وواضحاً على وجود عالم البرزخ. وكل ما هنالك هو عدم ذكر الكثير من جزئيات عالم البرزخ، ولم يُشر إلّا إلى أصل وجود هذا العالم مع شىء من مكافآت المحسنين وعقوبات المسيئين، ولكن الروايات أشارت إلى تفاصيل كثيرة فى هذا المجال وسوف نتعرّض إلى ذكر قسم منها.

توضيحات

١- البرزخ فى الأحاديث الشريفة

ورد ذكر عالم البرزخ فى الأحاديث الشريفة بصورة واسعة جداً، وقد بلغ حجم هذه الروايات من الكثرة ممّا جعل المرحوم الخواجه الطوسى أن يعدّها فى كتابه تجريد الاعتقاد من المتواترات، فى قوله «وعذابُ القبر واقعٌ بالإمكان وتواتر السمع بوقوعه».

ونشير هنا إلى نماذج واضحة من هذه الروايات:

١- جاء فى الحديث: «القبرُ إمّا روضةٌ من رياض الجنة أو حفرةٌ من حفر النيران».

رواه «الترمذى» فى «صحيحه» عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله، كما رواه المرحوم «العلامة المجلسى» فى «بحار الأنوار» فى موضعٍ عن أمير المؤمنين على عليه السلام وفى موضع آخر عن الإمام على بن الحسين عليه السلام «١».

٢- وجاء فى المشهور عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله: أنه عندما ألقوا بأجساد قتلى مشركى مكّة، الذين قتلوا فى غزوة بدر فى أحد الآبار وقف صلى الله عليه وآله وقال: «يا أهل القليب هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدنى ربي

حقاً. قالوا، يا رسول الله هل يسمعون؟ قال ما أنتم بأسمع لما أقول منهم: ولكنَّ اليوم لا يجيبون» (٢)!

(١) صحيح الترمذى، ج ٤، كتاب صفة القيامة، باب ٢٦، ح ٢٤٦٠؛ بحار الأنوار، ج ٦، ص ٢١٨، و ص ٢١٤.

(٢) كنز العمال، ج ١٠، ص ٣٧٧، ح ٢٩٨٧٦. والقلب: بمعنى البشر.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٦٢

وروى هذا المضمون بتعابير اخرى في روايات متعددة، منها ما جاء في الحديث: نادى رسول الله صلى الله عليه وآله عدداً من المشركين بأسمائهم وقال: يا ابا جهل يا عتبة يا شيبه يا أمية! هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً، فقال عُمرُ: يا رسول الله أما تكلم من أجسادٍ لا أرواح فيها؟ فقال: «واللهي نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم غير أنهم لا يستطيعون جواباً» (١)!

إن هذه الأحاديث لا تدل على وجود عالم البرزخ فحسب بل تدل على وجود نوع من الحياة بعد موت الجسم، بل وتدلل على أنهم لهم نوع من الارتباط بهذا العالم أيضاً، فهم يسمعون بعض الحديث على الأقل.

٣- جاء في نهج البلاغة عن أمير المؤمنين على عليه السلام: أنه عندما عاد من حرب صفين وقف على مقبرة تقع خلف باب الكوفة وتحدث إلى الأموات بهذه الكلمات: «أنتم لنا فرط سابق ونحن لكم تبع لاحق، أما الدور فقد سبكت وأما الأزواج فقد نكحت وأما الأموات فقد قسمت، هذا خبر ما عندنا فما خبر ما عندكم؟»

والنفت إلى أصحابه وقال: «أما لو اذن لهم في الكلام لأخبروكم أن خير الزاد التقوى» (٢).

وهذا الحديث أيضاً يدل على أنه بالإضافة إلى أن عالم البرزخ يتحقق بالنسبة للأموات فإن للموتى نوعاً من الارتباط مع هذا العالم أيضاً.

٤- وهناك خطب متعددة في نهج البلاغة أيضاً تحدثت عن البرزخ بوضوح، فقد جاء في إحدى خطبه عليه السلام حيث ذكر الإمام عدداً من السابقين وقال: «اولئكم سلف غايتكم ... سلكوا في بطون البرزخ سبيلاً» (٣).

وجاء في خطبة اخرى عنه عليه السلام عندما كان يصف «أهل الذكر»: «فكأنما قطعوا الدنيا إلى الآخرة وهم فيها، فشاهدوا ما وراء ذلك، فكأنما اطلعوا عيوب أهل البرزخ في طول الاقامة»

(١) كنز العمال، ج ١٠، ص ٣٧٦، ح ٢٩٨٧٦.

(٢) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ١٣٠.

(٣) المصدر السابق، الخطبة رقم ٢٢١.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٦٣

فيه» (١).

٥- وجاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «والله ما أخاف عليكم إلا البرزخ». (اراد بهذا أن يشير إلى أن المؤمنين تشملهم شفاعته النبي صلى الله عليه وآله، والأئمة المعصومين عليهم السلام يوم القيامة، لكن محاسبه البرزخ تختلف) (٢).

٦- ورؤى عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً أنه قال: «البرزخ القبر، وهو الثواب والعقاب بين الدنيا والآخرة» (٣).

٧- وفي الدر المنثور عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «حينما تقبض روح المؤمن يستقبله عباده الله الذين شملتهم رحمته ويقولون: أهلاً بك أيها الضيف الجديد، استرح لأنك تعبت كثيراً، ثم يسألونه عن بعض معارفهم واصدقائهم، وحينما يلتفتون إلى أن

- بعضهم قد فارق الحياة قبل هذا الضيف الجديد، يقولون (إنَّ الله وإنا إليه راجعون)، لقد أخذوه إلى الجحيم»، (ولذا لا أثر له هنا) «٤».
- ٨- وهناك روايات كثيرة تشير إلى فرح أرواح المؤمنين إثر أعمال الخلف الصالحة، ومن جملة هذه الروايات ما روى عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إنَّ الميت ليفرح بالترحم عليه والاستغفار له كما يفرح الحي بالهدية» «٥».
- وروى هذا المضمون عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حيث قال: «إنَّ هدايا الأحياء للأموات الدعاء والاستغفار» «٦».
- ٩- وروى في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «مَنْ أَنْكَرَ ثَلَاثَةَ أَشْيَاءَ فَلَيْسَ

(١) المصدر السابق، الخطبة رقم ٢٢٢.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٥٥٣، ح ١٢٠.

(٣) المصدر السابق، ح ١٢٢.

(٤) تفسير الميزان، ج ٢٠، ص ٤٩٤ نقلًا عن الدر المنثور (باختصار).

(٥) المحجبة البيضاء، ج ٨، ص ٢٩٧.

(٦) المصدر السابق، ص ٢٩١.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٦٤

من شيعتنا: المعراج والمساءلة في القبر والشفاعة» «١».

ومن الواضح هو أن السؤال في القبر من عالم البرزخ.

- ١٠- ونختتم هذه الروايات بحديث روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله في كثر العمال، (بالرغم من كثرة الأحاديث وتواترها في هذا المجال)، فقد ذكر النبي صلى الله عليه وآله شهداء احد وقال: «أَيُّهَا النَّاسُ زُورُوهُمْ وَأَتُوهُمْ وَسَلِّمُوا عَلَيْهِمْ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُسَلِّمُ عَلَيْهِمْ مُسَلِّمٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلَّا رَدَّوْا عَلَيْهِ السَّلَامَ» «٢».
- وقد تضمّن هذا الكتاب أحاديث متعددة اخرى في هذا المجال.

من هنا يتضح أيضاً مدى جهل من ينكر زيارة أهل القبور ويعدهم جمادات لجهلهم بالأحاديث الشريفة ومدى بعدهم عن تعاليم رسول الله صلى الله عليه وآله.

إنَّ جميع الروايات التي تحدّثت عن سؤال وضغطة القبر، والروايات التي تخبر الإنسان عن نتائج أعماله الحسنه منها والسيئه بعد الموت، والروايات التي تحدّثت عن ارتباط الأرواح بذويهم والإطلاع على أوضاعهم، والروايات التي تحدّثت عن ليلة المعراج ولقاء النبي صلى الله عليه وآله بالرسول والأنبياء، إنَّ جميع هذه الروايات تدلُّ أساساً على وجود عالم البرزخ، فإذا لم نتصور عالماً كهذا فإنَّ جميع هذه الروايات وأمثالها ستصبح مبهمه.

٢- البرزخ في ميزان العقل والحس

بالإضافة إلى وضوح ما دلت عليه الآيات والروايات المذكورة على إثبات وجود عالم يتوسط الدنيا والآخرة، فإنَّ هذا الأمر يمكن إثباته عن طريق العقل والحس أيضاً، وذلك لأنَّ جميع الأدلة التي دلت على وجود الروح وخلودها مستقلة عن البدن تدلُّ على وجود عالم البرزخ، لأنها دلت على عدم فناء الروح بموت الجسم، وذلك لأنها ليست من عوارض الجسم حتى تفنى بفنائها، بل هي جوهر مستقل يمكنها الحفاظ على بقائها من دون بقاء

(١) بحار الأنوار، ج ٦، ص ٢٢٣.

(٢) كنز العمال، ج ١٠، ص ٣٨٢، ح ٢٩٨٩٦.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٦٥

الجسم أيضاً، والاعتراف بهذا يساوى الاعتراف بعالم البرزخ، وذلك لأن الحديث هنا هو عن أصل وجود عالم البرزخ، لا عن كونه روحياً.

وبالإضافة إلى هذا فإن إحصار الروح يدل بوضوح على أن الأرواح بعد انفصالها عن الأجسام تستقر في عالم خاص بها، وتحافظ على بقائها وتتصف بسعة الإدراك هناك، حتى أنها تبوح بشيء من علمها عن طريق اتصالها بالناس الموجودين في هذا العالم.

إن الذين تلقوا نداءات من الأرواح هم كثيرون، وكذلك الذين ادّعوا بأنهم شاهدوا الروح في «قالب مثالي»، ونحن لا نقول: إن جميع هذه الادعاءات صحيحة، وذلك لأن الكذابين والمحتالين المنحرفين كثيراً ما استغلوا هذه المسألة لتمرير اغراضهم، لكن هذا لا يدعو إلى الإنكار، والشك في صحة هذا الموضوع المدعوم بالتجربة والعلم، وذلك لكثرة ما أخبر به الثقات عن نتائج تجاربهم في هذا المجال، وكثرة ما كتبه العلماء الكبار والمجامع العلمية في هذا الميدان، مما لا يبقى محلاً للإنكار في أصل المسألة، وقد بلغت من الكثرة ما لو حاولنا ذكر زاوية منها لطلال الحديث عنها كثيراً (١).

بناءً على هذا يمكننا عن هذا الطريق أيضاً، أن نثبت وجود عالم البرزخ.

٣- قسّات من عالم البرزخ

بغض النظر عن الاختلاف الموجود بين العلماء المسلمين في التفاصيل الجزئية لعالم البرزخ، فإنهم اتفقوا جميعاً على أصل وجود مثل هذا العالم سوى عدد قليل لا يعتد به.

والسبب في ذلك، هو وجود الآيات القرآنية والروايات الكثيرة، التي دلّت على ذلك، وقد تحدثت تلك الآيات بصراحة عن وضع الإنسان بعد الموت، والثواب والعقاب، وارتباط أهل القبور بهذا العالم، وأمثال ذلك (وقد ذكرنا هذا المطلب آنفاً).

بناءً على هذا فلا يوجد هناك اختلاف في أصل وجود عالم البرزخ، والمهم هنا هو الاطلاع على صورة حياة البرزخ، وقد طرح العلماء تصورات مختلفة في هذا الميدان

(١) راجع كتابنا «عود أرواح وارتباط أرواح» لكسب توضيحات أكثر.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٦٦

أوضحها ما كان ينسجم مع ما جاء في الروايات وهو:

إنّ روح الإنسان بعد انتهاء الحياة الدنيا تحلّ في جسم لطيف يفتقد الكثير من اعراض الجسم المادية، ولكن لشبّه هذا الجسم بالمادة اطلق عليه اسم «الجسم المثالي» أو «القالب المثالي» وقيل: إنّه ليس مجرداً بتمام الأبعاد وليس مادياً كذلك، بل له نوع من «التجرد البرزخي». (فتأمل).

ولكن بما أن إدراك حقيقة حياة عالم الآخرة غير ممكن بالنسبة لنا نحن اسارى عالم المادة، فالاطلاع الكامل على عالم البرزخ لا يكون ممكناً أيضاً، وذلك لأنّ عالم البرزخ هو أعلى مرتبة من هذا العالم، وبتعبير آخر: إنّ عالم البرزخ عالمٌ محيط بهذا العالم لا محاط.

ولكن - على حدّ قول بعض العلماء -: يمكننا تشبيهه بعالم الرؤيا، فالروح الإنسانية في الأحلام الصادقة تتجول في نقاط مختلفة، بواسطة

القلب المثالي وتشاهد المناظر وتلذذ بالنعيم، كما أنها أحياناً تشاهد المشاهد المرعبة فتتصجر بشدة، وتصرخ وتصحو من نومها.

وتؤكد صحته هذه الحقيقة قوله تعالى «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا». (الزمر/ ٤٢)

قال المرحوم العلامة المجلسي في بحار الأنوار: «إن تشبيه عالم البرزخ بحالة النوم والرؤيا كثيراً ما ورد في الإخبار.

ثم يضيف: كما يحتمل أن يكون للنفوس القوية العالية اجساماً مثالية متعددة، لذا فإن ما ورد من الروايات على أن الأئمة يحضرون عند كل من يحضر من الناس، سوف لا يحتاج إلى التأويل والتكلف في تفسيرها». (فتاوى) «١».

كما أن البعض يعتقد بأن القلب المثالي موجود في جسم كل إنسان، لكنه يفصل عن الجسم بعد الموت ويبدأ حياته في البرزخ، فالروح في عملية التنويم المغناطيسي تتجول وتذهب إلى مناطق مختلفة، وتمارس كثيراً من الفعاليات، والأكثر من ذلك أن بعض الأرواح القوية تتمكن من السفر إلى مناطق بعيدة في عالم اليقظة أيضاً فتطلع على أسرار

(١) بحار الأنوار، ج ٦، ص ٢٧١.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٦٧

تلك المناطق، وهذه الفعاليات تنجز بواسطة القلب المثالي أيضاً.

وقصارى القول هو أن الجسم المثالي يشابه هذا الجسم المادي - كما هو ظاهر من اسمه ولكن هذه المادة ليست مادة كثيفة ولا تتشكل من العناصر المادية، بل هو جسم لطيف نوراني لا يحتوي على العناصر المادية المعروفة في هذا العالم المادي.

وقد اشتبه الأمر على البعض هنا، ومن المحتمل أن تكون هذه الشبهة هي السبب في انكارهم للجسم المثالي، والشبهة التي وقعوا فيها هي اعتقادهم بأن وجود جسم كهذا سوف يؤدي إلى الاعتقاد بمسألة «التناسخ»، وذلك لأن التناسخ ما هو إلا عبارة عن انتقال الروح إلى أجسام متعددة.

لكننا إذا سلمنا بوجود القلب المثالي في باطن هذا الجسم المادي، فسوف لن نقع في محذور انتقال الروح إلى جسم آخر، وسوف لن يبقى محل محذور التناسخ.

هذا بالإضافة إلى ما قاله «الشيخ البهائي» إن «التناسخ الذي أجمع المسلمون على بطلانه هو عبارة عن انتقال الروح بعد فناء الجسم إلى أجسام أخرى في نفس هذه الدنيا، وأما ما يتعلق بحلول الأرواح في أجسام مثالية في عالم البرزخ وبقائها حتى انتهاء أمد البرزخ لتنتقل بعد ذلك إلى الأجسام الأولى يوم القيامة، فإنه لا يمتُّ بأي صلة لمسألة التناسخ» «١».

ونقل المرحوم «الكليني» في «فروع الكافي» عدة روايات تحدثت عن الجسم المثالي بكل وضوح، منها: ما جاء في الصحيح عن الإمام الصادق عليه السلام عندما سأله أحد أصحابه قائلاً: يرى بعض الناس أن أرواح المؤمنين تجعل في حوصلة طيور خضر تحيط بالعرش!! فقال عليه السلام: «لا، المؤمن أكرم على الله من أن يجعل رُوحه في حوصلة طير، ولكن في أبدان كابدانهم» «٢».

وجاء في حديث آخر عنه عليه السلام أيضاً: «فإذا قبضه الله عز وجل صير تلك الروح في قلب

(١) نقل هذا الكلام العلامة المجلسي عن المرحوم الشيخ البهائي في بحار الأنوار، ج ٦، ص ٢٧٧.

(٢) فروع الكافي، ج ٣، ص ٢٤٤ (باب آخر في أرواح المؤمنين)، ح ١.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٦٨

كقالبه في الدنيا» «١».

وجاء في حديث آخر عن الصادق عليه السلام: عندما سُئل عن أرواح المؤمنين، أجاب: «في حُجراتٍ في الجنة يأكلون من طعامها ويشربون من شربها، ويقولون رَبَّنَا أقم الساعة لنا، وأنجز لنا ما وعدتنا» «٢».

ومن الواضح هو أن المراد من الجنة هنا هي الجنة البرزخ التي هي أدنى بكثير من الجنة القيامة، لذا يتمنى المؤمن قيام القيامة، هذا بالإضافة إلى أن وجودهم في البرزخ المكاني يدل على حلول أرواحهم في القالب المثالي، وذلك لأنها فارقت أجسام هذه الدنيا.

٤ - خصوصيات عالم البرزخ

إشارة

إن القرآن المجيد لم يتعرض كثيراً لذكر هذه الخصوصيات، وكل ما تعرض له هو: أن هناك برزخاً وأن فيه فريقاً يتنعم بنعم الله وفريقاً آخر في العذاب، ولكن ماهي التفاصيل؟
فإنها لم تبين، ومن المحتمل أن يكون السبب في ذلك هو أن سيرة القرآن هي بيان الاصول العامة وترك التفاصيل للسنة. أما ما بينته السنة في هذا المجال فهو ما يلي:

(أ) سؤال القبر

دلّت روايات عديدة على أن الإنسان عندما يوضع في القبر يأتي إليه اثنان من ملائكة الله، فيسألانه عن اصول دينه، التوحيد والنبوة والإمامة، كما أن بعض الروايات أشارت إلى أنه يُسأل حتى عن كيفية قضاء عمره من جوانب عدّة، كالسؤال عن سبيل كسبه للمال وانفاقه إياه، فإن كان من المؤمنين الصادقين فإنه سوف يجيب عمّا سُئل بسهولة، وتغمره الرحمة

(١) المصدر السابق، ح ٦.

(٢) فروع الكافي، ج ٣، ص ٢٤٤ (باب آخر في أرواح المؤمنين)، ح ٤.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٦٩

الإلهية واللفظ، وإن لم يكن كذلك فإنه سوف يفشل في الإجابة ويغرق في عذاب البرزخ الأليم.

وقد اطلق على هذين الملكين في بعض الروايات اسم «ناكر» و «نكير» وفي بعضها الآخر اسم «منكر» و «نكير» (١).

روى عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام أنه كان يعظ الناس في كل جمعة في مسجد الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله بهذه الموعظة: «أيها الناس اتقوا الله واعلموا أنكم إليه ترجعون...»، حتى حفظ الناس ذلك ودونوه.

ثم يشير في قسم آخر من كلماته الشريفة والنافذة إلى الأعماق، إلى حضور الملكين (منكر ونكير) للسؤال في القبور فيقول عليه السلام: «ألا وأن أول ما يسألنك عن ربك الذي كنت تعبده وعن نبيك الذي ارسل اليك وعن دينك الذي كنت تُدين به وعن كتابك الذي كنت تتلوه وعن إمامك الذي كنت تتولاه، ثم عن عمرك فيما أفنيت وما لك من اين اكتسبته وفيما أتلفته، فخذ حذرَكَ وانظر لنفسك واعتمد للجواب قبل الامتحان والمساءلة والاختبار، فإن تك مؤمناً تقياً عارفاً بدينك متبعاً للصادقين، موالياً لأولياء الله لقاءك الله حجتك وانطق لسانك بالصواب فأحسنست الجواب فبشّرت بالجنة والرضوان من الله، والخيرات الحسان، واستقبلتك الملائكة بالروح والريحان، وإن لم تكن كذلك تلجّلت لسانك ودحضت حجتك، وعميت عن الجواب، وبشّرت بالنار واستقبلتك ملائكة العذاب بنزل من حميم وتصلية جحيم» (٢)! ...

وهنا يطرح هذا السؤال وهو: هل يتوجه السؤال هناك إلى الروح التي هي في القالب المثالي والبرزخي أم إلى نفس الجسم المادى على نحو تعود الروح إلى الجسم المادى بصورة مؤقتة (ومن البديهي أننا لا نقصد عودة الروح بصورة تامة، بل على قدر ما يمكنه من

(١) ورد ذكر الاسم الأول في كتاب اصول الكافي، ج ٢، ص ٦٣٣، ح ٢٦ (باب النوادر) والاسم الثاني في كتاب بحار الأنوار، ج ٦، ص ٢٢٢ و ٢٢٣ ح ٢٢ و ٢٤.

(٢) بحار الأنوار، ج ٦، ص ٢٢٣، ح ٢٤. وهناك روايات عديدة في هذا المجال فإن أردت كسب معلومات أكثر عليك بمراجعة نفس الجزء من بحار الأنوار وكذلك مراجعة تفسير البرهان، ج ٢، من ص ٣١٢، فما فوق (في تفسير ذيل الآية ٢٧ من سورة إبراهيم) والمحجبه البيضاء، ج ٨، ص ٣٠٩ فما فوق.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٧٠

الاجابة) فتوجه إليه الأسئلة؟ وما يستفاد من مضمون بعض الروايات هو، أن الروح ترتبط وتتعلق بنفس هذا الجسم المادى بنوع من التعلق على قدر ما يتمكن الميت من فهم الأسئلة، والاجابة عليها «١».

لكن المرحوم العلامة المجلسي في تحقيقه حول أحاديث هذا الباب، قال في إحدى عباراته: «فالمراد بالقبر في أكثر الأخبار ما يكون الروح فيه في عالم البرزخ» «٢».

وهناك مسألة اخرى يجدر الالتفات إليها وهي طبقاً لما جاء من قرائن في الروايات يتضح أن أسئلة وأجوبة القبر هي ليست اسئلة وأجوبة عادية يتمكن الإنسان من الإجابة عليها بما يحلو له، بل هي أسئلة تنبع اجاباتها من أعماق روح الإنسان، ومن صحيح معتقداته، ولا يؤثر تلقين الأموات إلأفى إثارها لا أنه يؤثر في الإجابة بصورة مستقلة، فالجواب كأنه ينبع من عمق التكوين والحقيقة الكامنة في الباطن

(ب) ضغطة القبر

هذه المسألة هي من المسائل التي ورد ذكرها في أحاديث كثيرة أيضاً، كما يستفاد من الروايات أيضاً؛ أن ضغطة القبر تشمل الجميع بدون استثناء، كل ما هنالك أنها تكون شديدة على البعض وتكون من عقوبات الأعمال، وتكون أقل شدة على البعض الآخر وتعتبر كفارةً للذنوب؟

جاء في الحديث الشريف عن النبي الأكرم صلى الله عليه و آله عند دفن الصحابي المعروف (سعد بن معاذ) أنه قال: «إنه ليس من مؤمنٍ إلاله ضمة» «٣».

وفي رواية اخرى عن الإمام الصادق عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه و آله أنه قال: «ضغطة القبر للمؤمن كفارة لما كان منه من تضييع النعم» «٤».

(١) تفسير البرهان، ج ٢، ص ٣١٤، ح ٩، في ذيل الآية ٢٧ من سورة إبراهيم.

(٢) بحار الأنوار، ج ٦، ص ٢٧١.

(٣) المصدر السابق، ح ١٦ و ١٩.

(٤) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٧١

لكن يستفاد من رواية اخرى أن المؤمنين لا تمسهم ضغطة القبر أبداً، وأن ضغطة القبر التي حلت بسعد بن معاذ هي من أجل سوء خلقه مع اهله، جاء في هذه الرواية: «إنه كان في خلقه مع أهله سوء» «١».

لذا جاء في بعض الأخبار أن الذين يمارسون بعض الأعمال الصالحة (مثل حج بيت الله عدة مرات، أو المواظبة على قراءة بعض سور القرآن، أو بعض الأذكار) ينجون من ضغطة القبر «٢».

وعلى أيّة حال فإنّ ضغطه القبر هي أوّل العقوبات في عالم البرزخ، ولكن هل تنزل ضغطه القبر على هذا الجسم المادي ثم تنتقل منه إلى الروح (سبب العلاقة الموجودة بين هذا الجسم والروح على أيّة حال)، أم تنزل على ذلك الجسم المثالي؟ للإجابة عن هذا السؤال يأتي نفس الرأيين السابقين أيضاً، ولكن بما أنّ الدخول في التفاصيل الجزئية لا ثمره منه، لذا نمر عليها مَرّ الكرام، ونقتصر في القول على أنّ أصل وجود ضغطه القبر هي من المسلّمات، وذلك طبقاً لمفاد كثير من الروايات «٣»، وقد جاء في إحداها عند الجواب عن سؤالهم: «إنّ من علّق بخشب الصّلب عدّة أيام كيف تناله ضغطه القبر؟»، قال الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ ربّ الأرض هو ربّ الهواء فيوحى الله عزّ وجلّ إلى الهواء فيضغطه ضغطه أشدّ من ضغطه القبر» «٤».

ج) عن أيّ الأمور يُسأل؟

تدل الأخبار الكثيرة الواردة في موضوع سؤال القبر، على أنّ أسئلة القبر توجّه إلى

- (١) المصدر السابق، ح ١٤.
 - (٢) لكسب معلومات أكثر راجع سفينة البحار، ج ٢، ص ٣٦٧ مادة (قبر).
 - (٣) كالروايات القائلة: «إنّ القبر إما روضه من رياض الجنّة أو حفرة من حفر النيران» التي أشرنا إليها سابقاً، فإنّها يحتمل أن تكون دليلاً على أنّ ضغطه القبر تنزل على القلب المثالي والروح وذلك لأنّ القبر المادي لا يتحول إلى جنّة أو حفرة من النار.
 - (٤) بحار الأنوار، ج ٦، ص ٢٦٦، ح ١١٢.
- نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٧٢
- فريقين هما: الفريق الذي محض الإيمان محضاً، والفريق الذي محض الكفر محضاً، أمّا المستضعفون الذين هم لا لهؤلاء ولا لهؤلاء فإنّ السؤال منهم يُرجأ إلى يوم القيامة.
- جاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «لا يُسأل في القبر إلّا من محض الإيمان محضاً أو محض الكفر محضاً والآخرين يلهون عنهم» «١».
- وجاء نفس هذا المعنى في حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام عندما سأله أحد أصحابه: «من المسؤولون في قبورهم؟ فأجابه الإمام عليه السلام: «مَنْ مَحْضُ الْإِيمَانِ وَمَنْ مَحْضُ الْكُفْرِ».
- فسأله الراوى: وما حال بقيّة الناس؟
- فأجابه الإمام عليه السلام «يُلهى عنهم».
- فسأله الراوى: وعن أيّ شيء يُسألون؟
- فقال الإمام عليه السلام: «عن الحجّة القائمة بين أظهركم» «٢».
- يظن البعض بأنّ السؤال لا يكون إلّا عن العقيدة لا عن الأعمال، واعتبروا جملة «من محض الكفر ومن محض الإيمان» (جاراً ومجروراً) لا «صلةً وموصولاً» فيكون مفهومها في هذه الحالة: «لا يُسأل إلّا عن الإيمان الخالص والكفر الخالص».
- ولكن نظراً إلى أنّ الروايتين المذكورتين تحدثت عن الأفراد بوضوح «لا- عن الأعمال» إذن لا- يكون التفسير الثانى مناسباً، هذا بالإضافة إلى ما جاء في رواية على بن الحسين عليه السلام التي ورد ذكرها سابقاً وهو أنّ السؤال هناك يشمل ساعات العمر وسبل كسب المال أيضاً.

د) ارتباط الروح بهذا العالم

يوجد في هذا المجال روايات متعددة أيضاً تشير إلى أن الروح عندما تنتقل إلى عالم البرزخ لا تنفصل عن الدنيا بالمرّة، بل تطلّ عليها بين الحين والآخر.

وفي المجلد الثالث من كتاب الكافي يوجد هناك باب تحت عنوان «إنّ الميت يزور أهله»، قد ذكر فيه خمس روايات تدلّ على أنّ المؤمنين، وغير المؤمنين أيضاً يزورون

(١) بحار الأنوار، ج ٦، ص ٢٦٠؛ اصول الكافي، ج ٣، ص ٢٣٥ (باب المسألة في القبر، ح ١).

(٢) اصول الكافي، ج ٣، ص ٣٣٧، ح ٨.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٧٣

أهلهم بين الحين والآخر، قال الصادق عليه السلام: «إنّ المؤمن ليزور أهله فيرى ما يحبُّ ويُسْتَرُّ عنه ما يكره، وإنّ الكافر ليزور أهله فيرى ما يكره ويُسْتَرُّ عنه ما يحبُّ» (١).

وقال العلماء الذين تمكنوا من الاتصال بالأرواح بالطرق العلميّة الخاضعة للتجربة: إنّ أرواح البشر بعد موتهم لا تنفصل عن هذا العالم كلياً، بل لديهم معلومات معيّنة عن هذا العالم، كما أنّ الاتصال بهم ممكن أيضاً (ويوجد في هذا المجال تجارب وقصص كثيرة، يخرجنا ذكرها عن صلب الموضوع).

هـ) انتفاع الأرواح بأعمال الآخرين الصالحة

وهناك أمرٌ آخر تجدر الإشارة إليه وهو وجود روايات كثيرة وردت في مصادر إسلامية مختلفة، دلّت على أنّ عمل الخيرات لأرواح الأموات تصل إليهم على شكل هدايا، وهذا الأمر يدلّ من أحد جهاته على وجود عالم البرزخ، ومن جهة أخرى على ارتباط الأرواح بهذا العالم.

جاء في الحديث عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: «ما من عبدٍ زار قبر مؤمنٍ فقرأ عليه أنا انزلناه في ليلة القدر سبع مرّات إلّا غفر الله له ولصاحب القبر» (٢).

بل يستفاد من بعض الروايات: «أنّ المسيح عليه السلام مرّ على أحد القبور فوجد صاحبه في العذاب، وعندما مرّ في العام المقبل عليه وجدته في النعيم، فعندما سأل من الله عن ذلك خوطب بأنّ السبب في هذا هو فعل خيرٍ أدّاه ابنٌ مؤمن له، وهو اصلاحه لاحد الطرق وإيواؤه يتيماً» (٣).

كما يستفاد من روايات متعددة أيضاً أنّ من سنّ سنّة حسنة، أو سنّة سيئة فله ثوابها أو عليه وزرها، كما أنّ الحسنات الجارية تصل بركاتها إليه على الدوام (٤).

(١) المصدر السابق، ص ٢٣٠، ح ١.

(٢) المحجّة البيضاء، ج ٨، ص ٢٩٠.

(٣) بحار الأنوار، ج ٦، ص ٢٢٠، ح ١٥.

(٤) راجع ما جاء في الروايات المتعلقة بالسنّة الحسنه والسنّة السيئة في بحار الأنوار، ج ٦٨ (طبعة الوفاء - بيروت) ص ٢٥٧ باب ٧٣.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٧٤

وجاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «سُتُّ خصال ينتفع بها المؤمن من بعد موته: ولّد صالح يستغفر له، ومصحفٌ يقرأ فيه، وقليب يحفره، وغرسٌ يغرسه، وصدقة ماءٍ يُجرىه، وسنّةٌ حسنةٌ يؤخذ بها بعده» (١).

٥- هل يمر الجميع في مرحلة البرزخ؟

هل يعلم جميع من يفارق الدنيا وينتقل إلى عالم البرزخ بما يدور حولهم؟ أم أنّ فريقاً منهم يقضون حياتهم في البرزخ، وهم لا يعلمون بما يدور من حولهم فهم كالنيام، فينهضون من نومهم يوم القيامة، فيتصورون مرور ألف عام عليهم وكأنه ساعة؟ يستفاد المعنى الثانى من قوله تعالى: «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ». (الروم/ ٥٥) وهذا يتمّ طبعاً في حالة تفسيرنا للآية على أنّ عالم الدنيا أو عالم البرزخ لا يعدّ شيئاً في مقابل القيامة، (فتأمل). ولكن بعض الآيات التي تحدثت عن البرزخ ظاهرها الاطلاق والعموم، مثل الآية التي في شأن الكفار ظاهراً، قال تعالى: «وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ». (المؤمنون/ ١٠٠) (إلّا إذا قيل: إنّ الآية السابقة خاصة، وهذه عامّة فتقيد الأخيرة بها). كما تكرر ذكر هذا المعنى في الروايات أيضاً وهو أنّ سؤال القبر يختص بفريقين فقط: «وهم من محض الإيمان محضاً أو محض الكفر محضاً، أمّا الباقيون فيلهي عنهم».

وقد ورد ذكر هذه الروايات في البحث السابق، ولمزيد من الاطلاع على هذه الروايات راجع المجلد السادس من بحار الأنوار الصفحة ٢٦٠، الأحاديث رقم ٩٧-١٠٠.

أمّا بالنسبة لعبارة «يلهي عنهم» فليس مفهومها عدم شمول البرزخ لهم، بل تدل على عدم توجه الأسئلة لهم في القبر، على عكس ما جاء في روايات ضغطة القبر فهي تشمل الجميع باستثناء بعض أولياء الله (وقد مرّ ذكر الروايات المتعلقة بهذا البحث).

(١) بحار الأنوار، ج ٦، ص ٢٩٣، باب ١٠، ح ١.

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٧٥

٦- الغاية من وجود البرزخ

اتّضحت بجلاء الغاية من الحياة الدنيا، وهي كونها محل ابتلاء وتعليم وتربية وكسب الكمالات العلمية والعملية للإعداد للآخرة، فالدنيا في نظر الروايات وبعض الآيات القرآنية هي مزرعة ومكسب ومدرسة وهي ساحة إعداد، أو بتعبير آخر هي بمنزلة «عالم الجنين» بالنسبة لعالم الآخرة.

والآخرة هي منبع الأنوار الإلهية ومحكمه الحق الكبرى ومحل حساب الأعمال ومنزل القرب والرحمة الإلهية.

ويبقى هنا سؤال يجب الإجابة عنه وهو: ما هي الغاية من وجود «البرزخ»؟

وللإجابة عن هذا السؤال يمكن أن يقال: إنّ الغاية من توسط البرزخ بين الدنيا والآخرة، هي نفس الغاية المتوخاة من كل مرحلة متوسطة أخرى وذلك لأنّ الانتقال من محيط إلى محيط آخر يختلفان تمام الاختلاف مع بعضهما، وسوف لن يتحمّل إلّا بوجود مرحلة متوسطة تحمل بعض خصوصيات المرحلة الاولى مع بعض خصوصيات المرحلة الثانية معاً.

هذا بالإضافة إلى أنّ يوم القيامة بالنسبة لجميع البشر يتحقق في يوم واحد، وذلك لوجوب تبدل الأرض والسماء لإيجاد عالم جديد، وحياة جديدة للبشر في ذلك العالم الجديد، لذا فإنّه لا يوجد أيّ سبيل آخر لتحقيق ذلك إلّا بتوسط البرزخ بين الدنيا والآخرة، وانتقال الأرواح بعد انفصالها من الجسم المادى إلى البرزخ لتبقى هناك حتّى انتهاء الدنيا، وبعد انتهاء الدنيا وقيام القيامة يحشر الجميع معاً، وذلك لعدم إمكان تخصيص قيامة مستقلة لكل إنسان، وذلك لأنّ القيامة لا تتحقق إلّا بعد فناء الدنيا وتبدل الأرض بغير الأرض

والسماء بغير السماء.

بالإضافة إلى ذلك فقد دلت بعض الروايات على إصلاح بعض النواقص العلمية والتربوية للمؤمنين في البرزخ، وعلى الرغم من أن البرزخ لم يُعدّ لعمل الصالحات، لكن ما المانع من أن يكون هناك موضع لا رتقاء المعرفة والعلم؟

نفحات القرآن، ج ٥، ص: ٣٧٦

جاء في الحديث عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: «من مات من أوليائنا وشيعتنا ولم يُحسن القرآن عُلم في قبره ليرفع الله به من درجته، فإن درجات الجنة على قدر آيات القرآن، يقال له اقرأ وارق، فيقرأ ثم يرقى «١».

ملاحظة:

كتبنا نود أن نجمع كل مباحث «المعاد في القرآن» في مجلد واحد كي يسهل تناولها، لكننا عند العمل وجدنا أن البحوث بلغت من السعة ما يقارب التسعمائة إلى الالف صفحة (مع الاختصار!) وأن جمعها في مجلد واحد أمر عسير، لذا لم نبدأ من وضع البحوث المتعلقة بكليات «المعاد» في مجلد والبحوث المتعلقة «بخصوصيات المعاد» في مجلد آخر، على أمل أداء حق جميع البحوث على قدر الإمكان.

اللهم! إننا نعلم بأن أمامنا سفرًا طويلًا ومليئًا بالمخاطر وبأننا لم نعد أنفسنا له، فوفقنا لاعداد أنفسنا إعداداً أكمل وأسرع. يارب! إن عبدك المخلص على عليه السلام كان يذرف الدموع ويقول: آه من قلة الزاد وبعد السفر، فكيف بنا وقد خلت أيدينا من الزاد، فإننا لا نرجو إلّا لطفك الدائم.

لكننا نعلم يارب بأن كل ما لدينا من العلم هو أن هناك عالماً أسمى وأرقى وراء هذا العالم المحدود الضيق المظلم.. عالماً تشع عليه أنوارك على الدوام، وأن آثار قدرتك وعظمتك فيه أكثر وضوحاً واشعاعاً، وهو يبشّرنا بلقائك المعنوي الذي حرمانا منه في هذه الدنيا، ويدعونا إلى المأدبة الكبرى ويبشّرنا بالجلوس على خوان «ملا عين رأيت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»، فلا تحرمانا من ذلك يا عظيم!

انتهى المجلد الخامس

من التفسير الموضوعي «نفحات القرآن» في

١٣ / ١٠ / ١٣٦٩ هـ. ش

١٦ / ج ٢ / ١٤١١ هـ. ق

(١) اصول الكافي، ج ٢، ص ١٠٦، باب فضل حامل القرآن، ح ١٠.

الجزء السادس

منازل الآخرة

المقدمة:

إشارة

إنّ مسألة المعاد مسألة واسعة النطاق والابعد، لأنّ الحديث عنها هو حديث عن عالم واسع، وبما أنّ عالم المعاد عالم مجهول ويختلف من جهات عديدة عن عالمنا هذا، لذلك سيكون البحث في هذا المجال بحثاً معقداً، ومع كونه معقداً فهو ممتع وجذاب في نفس الوقت ويعود ذلك لسببين:

الأول: لكونه موضوعاً مثيراً، وهذا ما يبعث عند كل إنسان حبّ الاطلاع وكشف المجهول.

الثاني: إنّ التوجّه إلى هذه المسألة ومعرفة جزئياتها له أثر نفسى وروحى وتربوى كبير فى بناء النفس الإنسانية، إذ إنّها تشتمل على جميع مراحل حياة الإنسان، وربّما هذا هو السبب الذى جعل القرآن الكريم يتناول الكثير من الموارد والمسائل التى تتعلق بالمعاد، وهذا ما لا نجده فى غيرها من المسائل.

إنّنا فى بادئ الأمر كتبنا قد ارتأينا أن نجتمع جميع البحوث المتعلقة ب (المعاد) وفق المنظور (القرآنى) فى مجموعة واحدة (كتاب واحد) ونضعها بين يدي القارىء الكريم تحت عنوان (تفسير نفحات القرآن).

ولهذا نحن بذلنا جهدنا فى تلخيص هذه البحوث بالقدر الذى لا يؤثر على المحتوى العام، مع الحرص على تلافى أى خلل أو نقص فى المسائل المطروحة فيه، ولكن وبعد أن خضنا فى أعماق الآيات القرآنية- بهذا الفكر القاصر- عثرنا على كنوز من الجواهر النفيسة بحيث لا يمكن جمعها فى كتاب واحد، حيث أصبح عدد صفحاته يزيد على الالف ممّا

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٨

اضطرنا إلى أن نعيد النظر فى هذا الكتاب وندوّنه فى مجلدين.

واتفق أن البحوث المتناولة فى المجلد الأول مغايرة تماماً لبحوث المجلد الثانى، ففى المجلد السابق كان الحديث يدور حول المسائل المرتبطة بالمعاد، أمّا هذا المجلد فيتناول جزئيات وخصوصيات المعاد وفق المنظور القرآنى، وبتعبير آخر لو أننا شبّهنا مسألة المعاد ببناء عظيم شامخ لكان المجلد الأول يمثل أساس هذا البناء، وأمّا المجلد (الثانى) فيتناول جزئيات وتفصيل البناء وما يتعلق به.

ولهذا كان من المناسب أن نسمّى هذا الكتاب باسم (منازل الآخرة) أو منازل القيامة.

ولابدّ لنا من الإشارة إلى أنّ البحث حول المعاد عموماً، وما يرتبط بجزئياته خصوصاً، يثير الكثير من الأسئلة، لهذا فقد سعينا واستطعنا أن نجيب عن جميع الأسئلة من القرآن نفسه أو من الأحاديث الشريفة أو الأدلّة المنطقية الفعلية.

كذلك بذلنا جهدنا لتقريب هذه المفاهيم المهمّة والمعقدة إلى الأذهان بضرب الأمثلة الحية، ولقد استفدنا فى هذا المجال من التجارب التى حصلنا عليها من خلال البحوث العقائدية والتفسيرية، آملين التوفيق فى هذا الطريق، والرأى لكم.

ولا شكّ فى أنّ هذا العمل سيمهد الأرضية لبذل جهود أكبر فى المستقبل، وهو عامل مساعد فى استمرارية هذه الجهود فى هذا المجال، ولا يمكن أن يدعى أحد بأنّه قال فى هذا المجال كل شىء، ولم يبق ما يقال.

نسألّه تعالى أن يعصمنا من الزلل سواء كان فى العلم أو فى العمل، فى القلم أو فى الكلام، كما نطلب منه تعالى أن يسلمنا ويدخلنا فى المنازل الرفيعة منازل الرحمة، رحمته (جنات عدن)، (جنّة الخلد) ولا يمكن لأحد أن يدخلها بسلام إلّا أن تشمله أطفاف وعناية البارى عزّ وجلّ.

قم المقدّسة- ناصر مكارم الشيرازى

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٩

١- علامات القيامة

الفصل الأول: أشرار الساعة

تمهيد:

يبدأ المنزل الأول من منازل الآخرة بظهور علامات القيامة، وهذه الحقيقة الملموسة نجدها بكثرة في القرآن الكريم حيث إن الكثير من الآيات القرآنية تتحدث عن علامات قرب الساعة، وقد عرفت هذه العلامات ب (أشراط الساعة) وقد اخذ هذا العنوان - كما سنرى ذلك - من القرآن الكريم نفسه:

«أشراط» جمع شَرَط على وزن هَدَف بمعنى (العلامة)

و «الساعة» هنا تعنى القيامة، وهذه العلامات عبارة عن حوادث مهمة ورهيبه تحدث قبل يوم القيامة تنذر كل منها بنهاية هذا العالم أو هي البداية لقيام الساعة ولا بد أن نشير هنا إلى أن هذه الحوادث ليست متشابهة بل هناك فوارق واختلافات بينها، وبمنظرة عامه يمكن تقسيم هذه الحوادث إلى ثلاثة أقسام وهي:

١- الحوادث المهمة التي تتحقق «قبل نهاية هذا العالم».

٢- الحوادث المرعبة التي تحدث على «اعتاب نهاية هذا العالم».

٣- الحوادث الرهيبه التي تحصل أيضاً عند «بداية البعث» والعودة إلى حياة جديدة، ولا بد من التأمل في كل واحدة منها. وبعد هذه الإشارة نعود إلى القرآن الكريم ونبدأ «بالقسم الأول» منها ونستعرض الآيات التي تدور حول هذا الموضوع وهي:

١- «فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا». (محمد/ ١٨)

٢- «افْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ». (القمر/ ١)

٣- «فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ». (الدخان/ ١٠)

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٠

جمع الآيات و تفسيرها

ظهور علامات القيامة:

إن الآيه الاولى من آيات هذا البحث تشير إشارة عابرة إلى (أشراط الساعة) من دون بيان مصداقها، فتقول: هل ينتظر هؤلاء (الكفار والمستهزئون) أن تقوم الساعة بغتة حتى يؤمنوا في حين أتتهم علاماتها: «فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا» عندئذ لا ينفع إيمانهم «فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ» وكما أشرنا سابقاً فإن (أشراط) جمع (شَرَط) بمعنى العلامة - وبناءً على هذا فإن معنى (أشراط الساعة): علامات القيامة.

أما ما المراد من تحقيق هذه العلامات التي أخبرت عنها الآيات السابقة الذكر؟ فبينه كالاتي:

للمفسرين آراء مختلفة في ذلك، فيرى أغلبهم أن المقصود من (أشراط) هنا هو مبعث النبي الأكرم صلى الله عليه و آله و قيامه بالدعوة ونزول القرآن الكريم الذي هو آخر كتاب سماوى، والدليل على هذا الرأي هو الأحاديث الواردة عن الرسول صلى الله عليه و آله بهذا الخصوص، كالحديث المشهور الذي روى عنه صلى الله عليه و آله: «بعثت أنا والساعة كهاتين، وضمت السبابة والوسطى» (١). ولقد عدّ البعض الآخر من المفسرين انشقاق القمر من (أشراط الساعة) هذا فيما لو كانت جميع الآيات التي تحدثت حول (أشراط الساعة) تشير إلى قرب الساعة وليس إلى إمكانية المعاد إلا أن البعض اختار المعنى الثانى وقال: إن أصل خلق الإنسان هو من تراب، وإن خلق السموات والأرض كلها علامات على قدرة الله تبارك وتعالى على إعادة الحياة من جديد بعد الممات، وعليه ستكون جميع دلائل إمكانية المعاد جزءاً من علامات القيامة و (أشراط الساعة).

ولكن المعنى الأول هو الأصح خصوصاً أن بعض الروايات الإسلامية عدت بعض

(١) نقل هذا الحديث الكثير من مفسرى الشيعة وأهل السنة بقليل من الاختلاف مثل تفسير مجمع البيان؛ تفسير القرطبي؛ تفسير فى ظلال القرآن؛ و تفسير روح البيان؛ وفى تفاسير اخرى
نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١١

الامور من علامات قرب القيامة و (أشراط الساعة) مثل الحديث المنقول عن الرسول صلى الله عليه و آله:
«من أشراط الساعة أن يرفع العلم، ويظهر الجهل، ويشرب الخمر، ويفشو الزنا» (١).
حتى أن بعض الروايات عدت قيام المهدي (عج) لمقارعة الظلم والفساد جزءاً من أشراط الساعة.

إقتربت الساعة:

تتحدث الآية الثانية عن قرب القيامة وانشقاق القمر، قال تعالى «أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ». (القمر / ١)
وهذا جواب عن سؤال طالما تكرر طرحه على الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله وهو متى تقوم الساعة؟ فيجيب صلى الله عليه و آله:
إنه قريب ومن علاماتها شق القمر، وكما أنها دليل على قدرة الله عز وجل على كل شيء (بضمنهما قدرته على إحياء الموتى كذلك
فهى تتحدث عن صدق دعوى الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله الذى هو آخر السفراء الإلهيين، وتؤخر كذلك عن قرب وقوع
القيامة، كما ذكرنا فى شرح الآية السابقة أن الرسول صلى الله عليه و آله نفسه قال: «بعثت أنا والساعة كهاتين».
ولكن بعض المفسرين المتقدمين والمتأخرين يرون أن الآية تشير إلى حوادث ستقع فى نهاية هذا العالم قبيل القيامة.
ومن جملة هذه الحوادث تكوير الشمس، أى ذهاب ضوئها ونورها وانشقاق القمر، أمّا لماذا عبرت الآية عن هذه الحادثة (انشق)
بصيغة الماضى؟ فجوابه: إن اللغة العربية تعبر عن المسائل المستقبلية الوقوع بصيغة الماضى.
ولكن هذا الرأى (أى إن الآية ناظرة إلى حوادث آخر الزمان لم يأخذ به أكثر المفسرين، لأن ظاهر الآية بصيغة الماضى ومرتبطة به،
وليس من الصحيح أن تفسر الآية بكونها تدلّ

(١). تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٣٧، ح ٤١.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٢

على المستقبل من دون أية قرينة واضحة).

ويقول صاحب تفسير (فى ظلال القرآن): «فهذه روايات متواترة من طرق شتى عن وقوع هذا الحادث وتحديد مكانه فى مكة» (١).
وينقل العلامة المرحوم الطباطبائى فى الميزان: «وقد روى انشقاق القمر بدعاء النبى صلى الله عليه و آله بطرق مختلفة كثيرة» (٢)،
باستثناء بعض المفسرين القدماء غير المعروفين.

ويقول أبو الفتوح الرازى: «إن من يقول إن الآية أعلاه تشير إلى الحوادث المستقبلية هو خلاف لإجماع و اتفاق العلماء» (٣).
وهناك بحوث كثيرة تتعلق بمسألة كيفية شق القمر.. وشرح هذا الاعجاز النبوى والروايات المتعلقة به، وإمكانية وقوعه من الناحية
العلمية، وبما أنها خارجة عن هدفنا الرئيس وهو شرح (أشراط الساعة) لذا فقد صرفنا النظر عنها، وللمزيد من المعلومات فى هذا
المجال راجع تفسير (الأمثل) الجزء ٢٣، ص ١٢-١٩.

يوم تأتى السماء بدخان مبین:

تشير الآية الثالثة إلى علامة اخرى من علامات قرب الساعة وهى (الدخان) حيث يغطى دخان كثيف صفحة السماء فى ذلك اليوم

ويأتى على شكل عذاب: «فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ» (الدخان / ١٠ - ١١) ولقد ذكر المفسرون آراء عديدة في تفسير هذه الآية نذكر ثلاثة منها:

الأول: يرى بعض المفسرين أن الدخان إشارة إلى عذاب يوم القيامة وهو دخان مرعب شره مستطير يظلل رؤوس المجرمين، ولكننا نرى هذا الاحتمال بعيداً لأننا نجد في ذيل الآية أن المجرمين يطلبون رفع هذا العذاب الإلهي ويظهرون الإيمان ويأتيهم الخطاب: «أنا

(١) تفسير في ظلال القرآن، ج ٧، ص ٦٤٤.

(٢) تفسير الميزان، ج ١٩، ص ٦٠ - ٦١.

(٣) تفسير روح الجنان، ج ١٠، ص ٣٦٤.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٣

كَاشِفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا أَنْكُمْ عَائِدُونَ». (الدخان / ١٥)

فلا يمكن تصوّر وقوع هذا المعنى في يوم القيامة خاصة وأن الآية التي بعدها تشير إلى القيامة وعقوباتها بشكل مستقل، وهذا يدل على أن ما ذكر قبلها يتعلق بغير يوم القيامة:

«يَوْمَ نَبِطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ». (الدخان / ١٦)

الثاني: ويرى بعض آخر أن الآية تشير إلى أن الكفار بعد أن حلت بهم المجاعة والجذب جاءوا إلى النبي يطلبون منه الدعاء لرفع هذا العذاب فدعا النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فرفع العذاب عنهم ولكنهم عادوا إلى عتوهم وجحودهم.

وبناءً على ذلك فإنّ الدخان هنا يراد به المعنى المجازي؛ لأنّ الأدب العربي يستخدم كلمة دخان كناية عن الشر والبلاء الغالب، كما ذكر ذلك الفخر الرازي في تفسيره «١».

أو قد يراد بالدخان، الأتربة والغبار الذي يغطي صفحة السماء أثناء سنوات القحط حيث لا وجود للأمطار التي تزيل هذا الغبار وهذه الأتربة «٢»، من هنا يطلق على سنة القحط ب (السنة الغبراء) أو (عام الرماد).

والمأخذ الذي يؤخذ عليه هذا التفسير هو أنّ الدخان الوارد في الآية الكريمة لم يستعمل بمعناه الحقيقي وقد حمل على معناه المجازي بدون أية قرينة.

الثالث: ويرى الآخرون أنّ الآية تشير إلى إحدى علامات قرب القيامة حيث تغطي السماء بدخان مبين فيلجأ الناس إلى لطف الله تعالى ليكشف عنهم العذاب فيرفع بكرمه ولطفه عنهم قليلاً منه ورغم كل هذا لا يؤمن المنكرون.

إنّ هذا التفسير إضافة إلى كونه مطابقاً لظاهر الآية فإنه يتفق مع الأخبار المتعددة التي وردت في مصادر تفسير الشيعة والسنة، ونقرأ هنا حديثاً عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: عن حذيفة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أول الآيات خروج الدجال ونزول عيسى بن مريم ونار تخرج من قعر عدن أبين تسوق الناس إلى المحشر تبيت معهم حيث باتوا وتقبل معهم إذا

(١) التفسير الكبير، ج ٢٧، ص ٢٤٢.

(٢) تفسير روح المعاني، ج ٢٥، ص ١٠٧؛ و تفسير روح البيان، ج ٨، ص ٤٠٦.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٤

قالوا، وتصبح معهم إذا أصبحوا وتمسى معهم إذا أمسوا، قلت: يابني الله وما الدخان؟ قال هذه الآية: «فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ» يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوماً وليلة أما المؤمن فيصيبه منه شبه الزكام وأما الكافر فيكون بمنزلة السكران يخرج الدخان من فمه ومنخره وعينيه وأذنيه ودبره «١».

ولقد ورد هذا المعنى فى مصادر الشيعة بشىء من الاختلاف فقد نقل الإمام على عليه السلام عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله قوله: «عشرة قبل الساعة لابد منها: السفينى، والدجال، والدخان، والدابة، وخروج القائم، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى عليه السلام، وخسف بالمشرق، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر» «٢».

وقد وردت روايات اخرى تؤيد هذا المعنى

وبناءً على ذلك يكون التفسير الثالث للآية الشريفة هو التفسير الأفضل.

هذه هى أهم (أشراط الساعة) التى ذكرها القرآن الكريم.

(١). تفسير القرطبي، ج ١٦، ص ١٣١.

(٢). بحار الأنوار، ج ٥٢، ص ٢٠٩؛ وفى تفسير القرطبي، ج ٩، ص ٥٩٥، وغيرها من الأحاديث تنقل نفس هذا المضمون.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٥

الفصل الثانى: العلامات التى تنذر بنهاية هذا العالم

إشارة

يستفاد من طائفة اخرى من آيات القرآن الكريم حدوث اضطراب عظيم فى نظام الكائنات والأرض والسماء عند نهاية هذا العالم وبتعبير آخر إن انتهاء العالم لا يكون تدريجياً وإنما يكون مباغتاً ومقترناً بمشاهد وحوادث مرعبة. ومن جملة هذه الحوادث التى تعد قسماً من علامات الساعة ما يأتى:

١- تلاشى الجبال

لقد ورد هذا الموضوع فى آيات متعددة من القرآن الكريم وذكرت له مراحل عديدة ومختلفة ويمكن تقسيمها وتلخيصها فى سبعة مراحل هى:

١- المرحلة الاولى اهتزاز الجبال: «يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ». (المزمل / ١٤)

٢- المرحلة الثانية: قلعتها: «وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ». (الحاقة / ١٤)

٣- المرحلة الثالثة: تسييرها: «وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا». (الطور / ١٠)

٤- المرحلة الرابعة: الدك والهدم: «فَدَكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً». (الحاقة / ١٤)

وفى هذه المرحلة تصبح الجبال كالكتبان المتراكمة: «وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيًّا مَهِيلاً».

(المزمل / ١٤)

٥- المرحلة الخامسة: تصبح فيها الجبال كالغبار المتفرق: «وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا» فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا». (الواقعة / ٥ و ٦)

٦- المرحلة السادسة: تكون الجبال فيها كالعهن المنفوش أى كالصوف المندوف المتطاير فى الريح الشديدة ولا يرى فى السماء

إلا لونها: «وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ». (القارعة / ٥)

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٦

٧- المرحلة السابعة: تلاشى الجبال ولا يبقى منها إلا شبح كسبح سراب فى صحراء ففر: «وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا». (النبأ / ٢٠)

وهكذا سوف تزول الجبال تماماً ولا يبقى منها أى أثر وتبدل إلى أرض مستوية لا نرى فيها عوجاً ولا أمثاً: «فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا» «١».

(طه ١٠٦)

والسؤال الذى يطرح هنا هو: هل أن هذه الحوادث العجيبة والمرعبة تقع للجبال على أثر انفجارات داخلية فيها واندثار لنظامها الذرى وتححر الطاقة الكامنة فى داخلها؟ أم أنها على أثر ضربة خارجية توجه إليها من اصطدام الأجرام السماوية بسرعة وجاذبية عالية بعضها مع البعض الآخر..؟ أم هناك علل اخرى لم يكتشفها العلم اليوم..؟

لا يمكن لأى شخص اعطاء جواب صحيح عن هذه الأسئلة، فالعلوم اليوم عاجزة عن تفسير هذه الظواهر. إن هناك انفجارات عظيمة حدثت وتحدث فى الأجرام السماوية، ولكن العلم يعجز عن تفسير علل تلك الانفجارات فنحن لانعرف إلّما أخبرنا عنه القرآن الكريم بأن هذه الحوادث تقع فى نهاية هذا العالم.

٢- انفجار البحار

من العلامات الاخرى لنهاية هذا العالم وقرب قيام الساعة، انفجار البحار، ونقرأ فى هذا الصدد قوله تعالى «وَأَذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ». (الانفطار ٣)

وقال فى موضع آخر: «وَأَذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ». (التكوير / ٦)

وقال فى الآية السادسة من سورة الطور بعد أن أقسم بأيمان متعددة ومتتابعة: «وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ».

(١). «القاع» الأرض الملساء المستوية و (صفصف) الأرض الخالية من أى نبات أو الأرض الملساء المستوية، وفى هذه الحالة يكون المعنيان مترادفين - لغرض التاكيد.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٧

بلا-شك أن الآية الاولى والثانية أشارتا إلى (أشراط الساعة) وذلك لأن الآيات التى وردت بعدها دلّت على هذا المعنى بشكل واضح، أما فيما يتعلق بالآية الثالثة فقبل فى تفسيرها إنها كانت ناظرة إلى علامات القيامة.

ولقد وردت فى إحدى هذه الآيات عبارة (فَجُرَّت) وهذه الكلمة مشتقة من (فَجَر) واستعملت بمعنى الانفجار ومن الممكن أن تكون هذه إشارة إلى انفجار البحار.

لقد أصبحت هذه الحالة اليوم مفهومة نظراً لأنّ الماء يتكون من عنصرين، الأول هو الاوكسجين والثانى هو الهيدروجين وهذان العنصران قابلان للاحتراق فلو كان هناك عامل يسبب فى تجزئة الماء لتبدلت البحار إلى كتلة عظيمة من نيران محرقة، وتكفى قذحة صغيرة لإحراق العالم بأسره.

ويحتمل أن تكون الزلزلة الشديدة التى تقع قبيل القيامة هى السبب فى تشقق الأرض واتصال البحار مع بعضها البعض وعلى أثر ذلك سوف تتصل جميع البحار والبحيرات الموجودة على الأرض وهذا أيضاً أحد الأقوال التى ذكرت فى تفسير هذه الآية.

وهناك تفسير ثالث يقول: عندما تتلاشى الجبال يسقط غبارها فى البحار فتمتلئ ويطغى الماء على اليابسة فتصير كلها بحراً واحداً.

وبهذه المعانى الثلاثة فسّرت الكلمة الثانية (سَجِّرَتْ) المشتقة من مادة (تسجير) وذلك لأنّ التسجير فى الأصل يعنى الإيقاد ويأتى أحياناً بمعنى المل ولذا يقال للتور المملوء بالنار (مسجر).

وقد يكون اشتعال البحار بسبب تجزئتها إلى عنصرين قابلين للاحتراق (الايوكسجين والهيدروجين) أو لعلل اخرى نجعلها، أما امتلاء البحار فهو إما بسبب تلاشى الجبال وسقوطها فى البحار أو بسبب سقوط الأحجار السماوية الكبيرة فيها أو لعلل اخرى غير معروفة.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٨

٣- الزلزال العظيم المدمر

من العلامات الاخرى لنهاية هذا العالم وقرب قيام الساعة حدوث زلزلة عظيمة ليس لها نظير بحيث تهز جميع أنحاء الكرة الأرضية فتدمر كل شيء ويدفن جميع الناس في لحظات.

يقول القرآن: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ». (الحج / ١)

ثم يقول: «يَوْمَ تَرُؤُنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ». (الحج / ٢)

وسنشير في الفصل الثالث تحت عنوان (أشراط الساعة) إلى أن هناك زلزلة اخرى تقع قبيل إحياء الأموات أشارت إليها بعض الآيات الكريمة، ويحتمل أن تكون الآية الكريمة التي نحن بصددنا قد أشارت إلى هذا المعنى بقريئة: «وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ»، وبهذا يجب أن نفسيّر المراد بالمرضعات والحوامل تفسيراً مجازياً، فشدة الهلع والخوف الناشئ من أثر الزلزلة العظيمة تجعل كل امرأة حامل تسقط جنينها تفسيراً على خلاف ظاهر الآية، وعلى أئمة حال إن هذا المعنى ورد أيضاً في قوله تعالى: «يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ». (المزمل / ١٤)

وجاء نظير هذا المعنى في قوله تعالى: «إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا * وَبَسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا».

(الواقعة / ٤)

٤- ذهاب ضوء الشمس والقمر والكواكب

من العلامات الاخرى لقرب الساعة انطفاء قرص الشمس واختفاء ضوء الكواكب كما ذكرت الآية: «إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ». (التكوير / ١-٢)

(١). «ترجف» مشتقة من مادة «رجف» على وزن كشف وهي بمعنى الاضطراب والهزة العنيفة.. من هنا يطلق على الأخبار الكاذبة التي تتسبب في اضطراب المجتمع ب (الأراجيف).

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٩

«كورت»: مشتقة من مادة (تكوير)، وهي بمعنى الطي أو اللف أو جمع الشيء مثل لف العمامة على الرأس وكذلك جاءت هذه الكلمة بمعنى الانطفاء أو الاسقاط، والظاهر من هذين المعنيين فيما يتعلق بالشمس أنهما من باب اللزوم والملزوم، فيذهب ضوء الشمس بالتدريج وتعم الظلمة. أما (انكدرت) فهي مشتقة من مادة (انكدار) وهي الظلمة أو السقوط والتناثر، والظاهر أن كلا المعنيين بخصوص الكواكب من باب اللزوم والملزوم، نعم وحسب شهادة القرآن ينطوي ويجمع في نهاية هذا العالم أعظم مصدر للنور في منظومتنا الشمسية وهو الأساس لإضاءة جميع السيارات وبهذا سيكون مصير الكواكب الاخرى نفس مصير الشمس، ويقول الفخر الرازي: «إن البعض يرى أن كلمة «كورت» مأخوذة من مادة (كور) بمعنى الأعمى وهذا يعني أيضاً ذهاب ضوء الشمس ونورها» (١).

ويعتقد علماء اليوم أن مصدر الطاقة الشمسية هو الانفجارات الذرية (التي يكون وقودها الهيدروجين ورمادها الهليوم) (٢).

وبناءً على ذلك سوف ينقص من وزن هذا الكوكب ٣٥٠ / ١٠٠٠ مليون طن في كل ٢٤ ساعة وهذا الأمر يكون سبباً في ضعف وقلة ضوء الشمس تدريجياً وهذا هو مفهوم جمع نور الشمس وانطفائها وهما المعنيان الكامنان في مادة (تكوير) حسب ما يذكر أرباب اللغة بالرغم من أن نقص هذا المقدار وبحكم الظروف الحالية ليس له تأثير فوري عليها وذلك بسبب كبر حجمها.

فاذا حسبنا سرعة النقصان بمقاييسنا الحالية فمن الممكن أن يطول تحقق ذلك ملايين أو مليارات السنين.

ولا أحد يعلم ماذا يحدث غداً في هذا العالم، فمن الممكن أن تحدث أمور تُعجل في نقصان هذه الأشعة الكونية وتساعد في انطفاء

هذا المصدر العظيم للنور وللحرارة بصورة كلية وفي فترة قصيرة.

(١). التفسير الكبير، ج ٣١، ص ٦٦.

(٢). زندكي ومرك ستاركان، ص ٩٢ (الكتاب باللغة الفارسية).

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٠

ويصدق هذا المعنى على سائر الأجرام السماوية فينحل النظام الذي يجمع الكواكب، وينحل كذلك توازن القوة الجاذبة والدافعة التي لها ارتباط بالأجرام وسرعة حركتها.

ولعل هذا هو نفس الشيء الذي يذكره القرآن في موضع آخر: «وَإِذَا الْكُوكَبَاتُ انْتَثَرَتْ». (الانفطار / ٢) وسوف نتعرض إلى تفسير هذه الآية في بحث لاحق إن شاء الله.

ونقرأ في سورة القيامة: «فَإِذَا بَرِقَ الْبَصْرُ* وَخَسَفَ الْقَمَرُ* وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ* يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُجُ». (القيامة / ٧-١٠) يتضح من خلال هذه الآيات أن جميع هذه الحوادث تقع بصورة مباغته وليست تدريجية وإلا سوف لا يكون هناك إنسان في ذلك الزمان يقول: «أَيْنَ الْمَفْرُجُ»، (فتأمل).

ومن الممكن أن يكون جمع الشمس والقمر بفعل فقدان تعادل القوى الجاذبة والطاردة وسوف ينجذب القمر إلى مركزه الأصلي وهو الشمس.

ونتهي هذا الحديث بالإشارة إلى آية أخرى من القرآن في هذا المجال، قال تعالى «فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ». (المرسلات / ٨) هذا التعبير يتوافق مع الآيات السالفة الذكر ومن لوازمها أيضاً ونذكر في نهاية هذا المطاف أن هذه الامور موجودة في عالمنا وتسير بشكل تدريجي ولكن تزداد شدتها في نهاية الكون حيث تحدث سلسلة حوادث متصلة سريعة ومباغته تزيل هذا النظام وتنتهي عمره بأمر من الله تعالى

٥- انشقاق الأجرام السماوية

من العلامات الاخرى لنهاية العالم اختلال نظام الكواكب وانشقاق الأجرام السماوية، ولقد أشار القرآن الكريم في آيات عديدة وتعبير مختلفة إلى ذلك، فأحياناً عبر عنه ب (الانشقاق): «إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ». (الانشقاق / ١)

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢١

وجاء نظير هذا المعنى في قوله تعالى: «وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ».

(الحاقة / ١٦)

كما ورد نفس هذا المعنى بشيء من الاختلاف في قوله تعالى «وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ». (الفرقان / ٢٥)

والمراد من السماء في هذه الآيات هي الأجرام السماوية حيث تشقق هذه الأجرام في نهاية العالم على أثر الانفجارات المتتالية، أما المقصود من تشقق السماء بالغمام فيحتمل أن يرافق انشقاق السماء حصول غمام كثيف بفعل الأتربة والغبار المتولد عنها، والباء في قوله (.. بالغمام) كما يحتمل ذلك صاحب الميزان، للملابسة أي تفتح السماء متلبسة بالغمام (أي متغيمه) «١».

ولكن المرحوم العلامة الطباطبائي لم يستبعد أن يكون الكلام كناية عن انكشاف غمة الجهل وبروز عالم السماء وهو من الغيب وبروز سكانها وهم الملائكة ونزولهم إلى العالم الأرضي (فالباء في هذه الآية تكون بمعنى (عن) أي تذهب الغيوم جانباً ويظهر غيب العالم). ولكن لما لم يكن هناك دليل على هذا التفسير الكنائي فيكون من الصعب قبوله.

ومن المناسب أن نذكر حديثاً للإمام علي عليه السلام في هذا الصدد حيث يقول: «إنها تنشق من المجزة» «٢».

إنّ هذا التعبير الرائع ينطبق مع آخر الاكتشافات التي توصل إليها العلماء في مجال المجرات، حيث يقولون: إنّ المنظومة الشمسية والكواكب التي نشاهدها هي جزء من مجرات عظيمة «درب التبانة» ويمكن رؤيتها بالعين المجردة ويكون انشقاق الشمس والقمر والكواكب مصاحباً لانشقاق هذه المجرات الكبيرة (تأمل..).
وأحياناً يعبر القرآن بالانفطار: «إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ». (الانفطار / ١)

(١). تفسير الميزان، ج ١٥، ص ٢٠٢.

(٢). تفسير الكبير، ج ٣١، ص ١٠٣.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٢

ولقد ورد نظير هذا المعنى في قوله تعالى: «السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ». (المزمل / ١٨)

وكما ذكرنا سابقاً فإنّ كلمة انفطار مشتقة من مادة (فطر) وهي بمعنى الانشقاق.

وأحياناً يقول تعالى «وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ». (التكوير / ١١)

فيمكن أن يكون هذا التعبير إشارة إلى إزالة الحجب المانع عن رؤية ملكوت السموات والملائكة والجنّة والنار في ذلك اليوم فتزال الحجب وتنكشف للإنسان حقائق عالم الوجود وفي هذه الحالة سوف لا يكون للآية علاقة بتلاشي السموات.

ولقد فسّر بعض المفسرين أمثال المرحوم الطبرسي في مجمع البيان، هذه الآية بقوله:

«أزيلت عن موضعها كالجلد عندما يزال عن الجزور ثم يطويها الله، وقيل: معناها قُلعت كما يُقلع السقف» «١»، وقال تعالى في موضع

آخر: «وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ». (المرسلات / ٩)

إنّ كلمتي (فطر) و (فرج) تدلّان على نفس المعنى بشيء من الاختلاف، فيطلق على حل عقدة المشاكل والمحن، بالفرج وهو ما يقابل الشدة والعسر.

وعبر أحياناً أخرى ب (فتح) كما نقرأ: «وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا». (النبأ / ١٩)

ويمكن أن يكون هذا التعبير إشارة إلى انشقاق السماء، كما ذكر ذلك بعض المفسرين، وفي هذه الحالة تكون هذه الآية منسجمة مع الآيات السالفة الذكر، أي تحدث شقوق عديدة في السماء كأنها أبواب ونوافذ عديدة.

ولكن بعض المفسرين حملوا ذلك على المعنى الكنائى وقالوا: إنّ المراد من فتح السماء هو انفتاح أبواب عالم الغيب وإزالة الحجب وارتباط عالم الملائكة بعالم الناس «٢».

وأحياناً أخرى يقول: «يَوْمَ تُمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا». (الطور / ٩)

«مور»: على وزن (دور) وتأتى أحياناً بمعنى الحركة العنيفة وأحياناً أخرى بمعنى

(١). تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٤٤.

(٢). لقد اختار التفسير الأول- الطبرسي والفخر الرازي ومفسرون آخرون، أمّا التفسير الثاني فقد اختاره صاحب الميزان.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٣

الحركة الدائرية واخرى بمعنى الذهاب والمجي المضطرب، ويطلق على الغبار والأتربة التي تحملها الرياح إلى كل جانب ب (مور).

على كل حال فإنّ هذا التعبير يعنى اضطراب الأجرام السماوية واختلال نظمها وزوالها.

وأحياناً أخرى يقول تعالى «يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ». (المعارج / ٨)

ولقد فسّر المفسرون كلمة (المهل) بردى الزيت أو الفضة إذا ذابت «١»، والمعنى الأخير يناسب الآية أعلاه.

على أيّة حال إنّ حصول مثل هذه الحالة في الأجرام السماوية إنّما هو نتيجة لزوالها. وفي النهاية عبر القرآن بتعبير آخر فقال: «يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ». (الأنبياء / ١٠٤) هذا التعبير يوضح ابعاد تغيير السموات والكواكب في نهاية هذا العالم ويدل أيضاً على أنّ جميع المنظومات والكواكب السيارة والثابتة تطوى كطي السجل للكتاب ويعاد الخلق كما خلقه أول مرّة ويضع الله سبحانه وتعالى نظاماً جديداً لعالم الوجود وتقوم القيامة على هذا العالم الجديد.

فنستنتج من مجموع الآيات السالفة الذكر أنّ القيامة هي ليست استمراراً للحياة الدنيا بل إنّ هذا النظام يتغير تغيراً كاملاً وذلك لوقوع انفجارات عظيمة وزلازل مرعبة تدمر كل شيء ثم يقوم نظام جديد بعد ذلك وتقوم القيامة فيه.

(١) تفسير الكشاف، ج ٤، ص ٦٠٩.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٥

الفصل الثالث: علامات بدء القيامة

عند قيام الساعة تقع حوادث عظيمة، فكما أنّ الدنيا تنتهي بوقوع حوادث عظيمة، كذلك تقترن بداية القيامة بحوادث عظيمة أيضاً، وقد ورد هذا المعنى في آيات مختلفة من القرآن الكريم.

١- قال تعالى في سورة إبراهيم: «يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ». (إبراهيم / ٤٨)

هذا التبديل هو إشارة واضحة إلى المرحلة الثالثة وذلك لأنه تعالى يقول في ذيل الآية «وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ».

وهذه النكتة جديرة بالاهتمام، فليس المراد من تبديل الأرض بأرض أخرى هو تبديل لذات الأرض كما يتصور البعض بل إنّ المقصود هو تبديل صفاتها مثل ازالة الجبال أو استوائها وصيرورتها قاعاً صافياً كما يذكر القرآن الكريم أو زيادة مساحتها وغير ذلك من دون تبديل ذاتها.

ودليل هذا الكلام آيات عديدة عن نشور الأموات من قبورهم وبالخصوص منها: «مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى». (طه / ٥٥)

على كل حال ذكر المفسرون آراء عديدة حول هذه الآية ولا يوجد لديهم أي دليل إلّا بعض الروايات المرسلّة، أو الاستناد إلى بعض أقوال الآخرين، فحياناً يقولون إنّ الأرض تبدل بالفضة والسماء بالذهب وأحياناً أخرى يقولون إنّ الأرض تبدل بالنار والسماء بالجنان أو كل قطعة من الأرض تبدل إمّا إلى فضة أو إلى نار حسب ما يناسب وضعها مع المؤمنين والكفار.

وكل ما نستفيده من هذه الآية بشكل عام: إنّ هناك تغيرات عظيمة لم تتضح تفاصيلها لنا.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٦

٢- قال تعالى في موضع آخر: «إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا* وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا». (الزلزال / ١- ٢)

وهنا يطرح هذا السؤال هل أنّ هذه الزلزلة هي نفس الزلزلة التي تعم جميع أنحاء الكرة الأرضية عند نهاية الكون وتؤدي إلى تدمير العالم بأسره؟ أم أنّها هي التي تقع أثناء يوم القيامة؟ هناك اختلاف بين المفسرين بصدد هذه الآية ولقد نقل الفخر الرازي في تفسيره كلا التفسيرين «١» ولكن إذا تأملنا الآية الثانية من هذه السورة: «وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا» لكان المعنى الثاني هو الأنسب مع سياق الآية، وذلك لأنّ (الاثقال) جمع (ثقل) أي يخرج كل ما دفن في الأرض، وهناك احتمال قوي أنّ المراد بالأثقال الموتى حيث يخرجون من قبورهم كما ورد في قوله تعالى «وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ». (الانشقاق / ٤)

وبهذا المعنى تحدث الزلزلة الثانية قبل إحياء الأموات وشروع القيامة، وهذه الزلزلة تعم كل الكون على خلاف سائر الزلازل التي تتحدد بمنطقة صغيرة، فإنّ تعبير: «إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ» يفيد الاطلاق وتعبير زلزالها يؤكد هذا المعنى ولقد ورد ما يشابه هذا التعبير بل وبصورة أوضح في قوله تعالى: «يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ» (٢). (ق / ٤٤) ويتضح من الآيات أعلاه أنّ انشقاق الأرض بأسرها وخروج الناس دفعة واحدة من قبورهم يكون مترامناً مع وقوع زلزلة عنيفة تشمل كل أرجاء العالم.

إنّ هذه الزلزلة تقع قبيل إحياء الأموات وليس في نهاية العالم خاصة، وقد ورد في الآية تعبير (حشر) بدلاً من إحياء الأموات، والحشر يعنى (اجتماع الناس بعد إحيائهم أو جمع أجزاء الأبدان المتفرقة أو جمع الأرواح والأجساد). إنّ هذه الزلزلة وعلى خلاف سائر أنواع الزلازل زلزلة بناء وإعمار، فهي ليست مدمرة أو مميته بل إنّها تاتي لإخراج الناس من قبورهم ليستأنفوا حياة جديدة.

(١). التفسير الكبير، ج ٣٢، ص ٥٨.

(٢). «تشقق»، كانت في الأصل تشقق فحذفت احدى التائين.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٧

وقد ورد نظير هذا المعنى في الآية: «يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ».

(النازعات / ٦-٧)

ويرى الكثير من المفسرين أنّ الآية الاولى هي إشارة إلى نفخة الصور الاولى (وهي الصيحة العظيمة التي تنهى العالم) أما الآية الثانية فهي إشارة إلى النفخة الثانية (صيحة الاحياء) وهي الصيحة التي تبدأ بها القيامة، وهذا المعنى على خلاف ظاهر الآية وذلك لأنّ الراجفة مشتقة من رجف وهي على ما ذكره صاحب مقاييس اللغة، تعنى الاضطراب.

وقد ذكر الراغب في مفرداته (الرجفة) بمعنى الاضطراب الشديد، ويقال للبحر الهائج (بحر رجاف)، و (أراجيف) هي الأخبار التي تزلزل الأفكار العامة للمجتمع، صحيح أنّ الصيحات العظيمة تفرق عادة مع الزلازل ولكن لا- توجد هناك ضرورة لترك المعنى الحقيقي للزلزلة الاولى والثانية واختيار الكناية أو المعنى اللازم.

٣- إنّ تبدل سطح الكرة الأرضية من احدى علامات شروع القيامة فتصبح الأرض مسطحة ملساء تماماً ويبرز جميع الناس بوضوح على سطح الكرة الأرضية: «يَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشْرْنَاَهُمْ فَلَمْ نُعَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا». (الكهف / ٤٧) إنّ حركة الجبال هي مقدّمة لتدمير الأرض، وعلى أثر هذا التدمير الذي ذكرته الآية التي نحن بصدددها والآيات الاخرى أيضاً تصبح الأرض قاعاً صفصفاً: أي مسطحة ومستوية لا يعلوها شيء ويظهر جميع الناس عليها بشكل واضح.

ولو تأملنا في هذه الآيات: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا * يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَعِوَجَ لَه». (طه ١٠٥-١٠٨)

لاّضح لنا أنّ هذه الآيات تعرض لنا مشاهد من حوادث نهاية العالم ومشاهد اخرى من حوادث قيام الساعة.

هذه خلاصة للبحوث المتعلقة ب (أشراط الساعة) وإمارات القيامة ولقد عرضناها في ثلاثة فصول وذلك بالاستفادة من الآيات القرآنية وكذلك عرضنا مشاهد من التغيرات العظيمة التي تقع في نهاية العالم وبداية القيامة.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٩

نفخة الموت و نفخة الحياة:

تمهيد:

لقد أشارت الكثير من الآيات القرآنية إلى النفخ في الصور، ويستفاد مما ورد فيها أن هناك نفختين بالصور: الأولى وتقع في نهاية العالم وهي التي تسبب موت جميع الخلائق.. وتسمى بنفخة الموت. أما النفخة الثانية: فتقع قبيل يوم القيامة وتعمل على إحياء جميع الأموات وتسمى بنفخة الحياة. وفي الحقيقة أن توقف هذا العالم وبدء حركة عالم آخر يشبه توقف وحركة القطعة العسكرية حيث يتوقف أفرادها عند سماعهم لصوت بوق خاص ويتحركون مرة أخرى عند سماعهم لصوت بوق آخر. وهنا يُطرح هذا السؤال: مامعنى الصور؟ وما المقصود بالنفخة..؟

لقد خصصنا لهذا الموضوع بحثاً مفصلاً سنتطرق إليه فيما بعد- إن شاء الله- والجدير بالذكر أن القرآن ذكر ستة تعابير مختلفة حول هذا الموضوع.

فأحياناً عبر عنه ب (نفخة الصور).

وأحياناً أخرى ب (الصيحة).

وثالثة ب (النقر في الناقور).

ورابعة ب (الصاخة).

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٠

وخامسة ب (القارعة).

وسادسة (الزجرة).

وسوف نشرح هذه العناوين من خلال الآيات الآتية فلنتأمل فيها بخشوع:

١- «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ». (الزمر / ٦٨)

٢- «وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ». (النمل / ٨٧)

٣- «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ». (يس / ٥١)

٤- «إِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً». (الحاقة / ١٣-١٤)

٥- «إِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ». (المؤمنون / ١٠١)

٦- «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا». (الكهف / ٩٩)

٧- «يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا». (طه / ١٠٢)

٨- «يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا». (النبا / ١٨)

٩- «قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ». (الأنعام / ٧٣)

١٠- «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ». (ق / ٢٠)

١١- «ان كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ». (يس / ٥٣)

١٢- «مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ». (يس / ٤٩)

- ١٣- «وَمَا يَنْظُرُ هُوَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ». (ص / ١٥)
- ١٤- «يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ». (ق / ٤٢)
- ١٥- «فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ * فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ». (المدثر / ٨-٩)
- ١٦- «فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ». (عبس / ٣٣-٣٤)
- ١٧- «الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ * يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ
- نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣١
- المبثوث». (القارعة / ١-٤)
- ١٨- «فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ». (الصفافات / ١٩)

جمع الآيات وتفسيرها

نفخة الموت ونفخة الحياة!

لقد عبرت الثمان عشرة آية السالفة الذكر كما أشرنا إلى ذلك سابقاً- عن نفخة الصور تحت ستة عناوين مختلفة، وقد جمعنا هذه الآيات مع بعضها كي نسلط الأضواء على تفسيرها حتى يتضح المفهوم الحقيقي لنفخة الصور من خلال المقارنة بينها.

لقد أشارت الآية الأولى إلى نفخة الصور الأولى وكذلك إلى نفخته الثانية وهذه هي الآية الوحيدة التي جمعت كلا النفختين «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ» ويرى صاحب كتاب (مقاييس اللغة) أن مادة (صعق) على وزن (صيعق) يعنى الصوت الشديد، ويرى أن الصاعقة مشتقة من نفس المعنى وهي سبب الموت والدمار، وجاءت هذه المادة أيضاً بمعنى الموت.. وذكر صاحب كتاب لسان العرب أن المعنى الأول للصعق هو الإغماء، وشل العقل على أثر سماع الصوت الشديد وذكر بأن (الموت) من المعانى الاخرى لهذه الكلمة، حتى أنه ذكر قول بعضهم إن الموت هو أحد معانى الصاعقة.

على أية حال فإن مفهوم الصعق فى الآية يعنى الموت المباغت الذى يعتم جميع أهل السموات والأرض، وذكرت الآية الكريمة: «إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ» فما المقصود من هذه العبارة؟

هناك كلام للمفسرين فى هذا الصدد، قال بعضهم: إن هذه العبارة هى إشارة إلى جمع من ملائكة الله الصالحين وهم (جبرائيل، وميكائيل، واسرافيل، وعزرائيل)، وقال بعض آخر:

إنهم الشهداء، وقيل: إن الآية تشمل أيضاً إضافة إلى الملائكة الأربعة الذين سبق ذكرهم حملة العرش الإلهى، ومع ذلك فالنتيجة أن جميع هؤلاء يذوقون الموت بحكم قوله تعالى

«كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ». (آل عمران / ١٨٥)

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٢

ولم يبق إلّا وجه الله الذى هو حى لا يموت: «وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ». (الرحمن / ٢٧)

ولقد أشار ذيل الآية إلى النفخة الثانية: «ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ». الصور فى الأصل بمعنى البوق الذى يستخدم عادة لايقاف أو لتحريك الجند وأحياناً القوافل.. ولقد استخدم فى هذه الآية بمعنى توقف الحياة بأسرها فى عالم الوجود ومن ثم حركتها مرة اخرى

وهناك شرح مفصل لهذا الموضوع ستعرض إليه- إن شاء الله- فى فقرة (التوضيحات).

وقد أشارت الآية الثانية إلى النفخة الثانية فقط: «وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ».

ولم يستبعد البعض ومنهم العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان أن المراد من هذه الآية كلا النفختين.
ولكن ذيل الآية يذكر: «وَكُلُّ أُمَّةٍ دَاخِرِينَ» وهذا يدل على أن المقصود هو النفخة الثانية، وفي هذه الآية أيضاً نواجه الجملة الاستثنائية: «إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ» حيث أشرنا إلى تفسيرها في ذيل الآية الأولى
أما الآية الثالثة فتشير إلى النفخة الثانية (نفخة الإحياء): «وَنُفِّخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ» (١).
ولقد ذكر المفسرون أن هذه الآية تختص بالنفخة الثانية ويشهد على هذا المعنى ذيل الآية، وما بعدها من آيات.
وربما يطرح البعض هذا السؤال: إذا كان الناس يهلعون في ذلك اليوم من الحساب الإلهي فكيف يفزعون إليه؟

(١). «أجدات» جمع «جَدَّتْ» على وزن «جَدَّتْ» وهو بمعنى القبر، و«ينسلون» من مادة «نَسِلَ» على وزن «فَصِيلَ» وهو بمعنى السير السريع، ويقول الراغب إن المعنى الأصلي لها أخذ من الفصل ويرى أنه من هذه الجهة يطلق «نسل» على بني آدم.
نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٣

ف قيل في جواب ذلك: إن هذه الحالة حالة لا إرادية، وبهذه الوسيلة يدعوهم الله تعالى إلى محكمته عدله.
والآية الرابعة ناظرة إلى النفخة الأولى وهي نفخة إماتة جميع المخلوقات وفناء العالم بأسره: «فَإِذَا نُفِّخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ* وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً* فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ».
إن تعبير (واحدة) الذي تكرر مرتين في هذه الآية يدل على أن هذه الحوادث تتحقق بصورة مباغته على شكل ضربة مميتة، ومن جهة أخرى فإن هذه الآيات تبين القدرة اللامتناهية لله سبحانه وتعالى حيث تفنى جميع المخلوقات بنفخة صور واحدة، بالضبط مثل نفخة البوق التي تحرك جيشاً عظيماً أو توقفه في مكانه.

بلا شك أن الآيات السابقة أشارت إلى النفخة الأولى أما الآيات اللاحقة فقد ورد فيها إضافة إلى ذلك كلام عن حوادث المحشر وصحيفة الأعمال وأوصاف الجنة، وبحكم كون الحوادث المذكورة تقع في نهاية العالم وبداية القيامة ولا توجد فاصلة كبيرة بينهما، لهذا السبب نرى في كثير من الآيات القرآنية أن حوادث نهاية العالم وقيام القيامة جاءت مرادفة لبعضها البعض.
ويرى بعض المفسرين الكبار، ومنهم صاحب الميزان أنها النفخة الثانية، قال: «والذي يسبق إلى الفهم من سياق الآيات أنها النفخة الثانية التي تحيي الموتى (١) ونحن نستبعد أن تكون هذه الآية قد أشارت إلى النفخة الثانية، حيث إنها لا تتوافق مع سياق الآية التي تليها والتي تخبر عن دك الأرض والجبال، ولعل الآيات التي وردت (بفاصلة) عن هذه الآية هي التي ساقته إلى هذا المعنى في حين أن التأمل في الآيات المختلفة التي تتحدث عن القيامة يدل على أن هذه الآيات تذكر أحياناً حوادث هاتين النفختين معاً وتميز بينهما بالقرائن.

أما الآية الخامسة فقد أشارت بوضوح إلى (النفخة الثانية) وذلك لأنها تخبر عن عدم

(١). تفسير الميزان، ج ١٩، ص ٣٩٧.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٤

تأثير روابط الأنساب بين الناس أثناء (نفخة الصور): «فَإِذَا نُفِّخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ» فمن الواضح أن السؤال سواء كان بمعنى التساؤل عن أحوال بعضهم البعض أو بمعنى طلب العون والمساعدة فإن كل هذا يحدث في نفخة القيامة (نفخة الحياة).

ومن الغريب أن نرى بعض المفسرين يحتملون أن المراد في هذه الآية النفخة الأولى على أية حال، فإن عدم سؤال بعضهم للبعض الآخر محمول على كلاً- الاحتمالين بحكم انشغال كل واحد بنفسه وبالأحوال التي

يتعرض إليها فلا يفكر بالآخرين.

من هنا يطرح هذا السؤال وهو كيف تتوافق هذه الآية مع غيرها من الآيات التي تذكر:

«فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ». (الصافات / ٥٠)

وكذلك قوله تعالى: «وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّعْتَدُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ». (إبراهيم / ٢١)

فيتضح الجواب عن هذا السؤال من خلال ملاحظة الآيات الكريمة بالنسبة إلى غيرها.

فيستفاد من الآيات أن هناك مراحل ومواقف متعددة يوم القيامة ولكل مرحلة من هذه المراحل خصائصها، والشاهد على هذا الكلام حديث الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في جوابه عن هذا السؤال نفسه حيث قال صلى الله عليه وآله: «ثلاثة مواطن تذهل فيها كل نفس: حين يرمى إلى كل إنسان كتابه، وعند الموازين، وعلى جسر جهنم» (١).

أما الآية السادسة والسابعة فقد أشارتا أيضاً إلى النفخة الثانية، قال تعالى «وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ». (الكهف / ٩٩) فهل أن هذا المشهد العظيم يكون بسبب كثرة الناس أم بسبب حالة الخوف والهلع أم لسيادة الفوضى في نهاية العالم؟ يرى البعض أن هذه الآية هي إشارة إلى (قوم يأجوج ومأجوج) (٢) بعد بناء سد ذي

(١). تفسير روح البيان، ج ٦، ص ١٠٧.

(٢). راجع قصة يأجوج ومأجوج، تفسير الأمل ذيل الآية ٩٨، من سورة الكهف.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٥

القرنين (حسب سياق ما قبلها من الآيات) ولكننا نستبعد هذا المعنى بقرينة الآيات التالية لها، (تأمل).

على كل حال فإن الله تعالى يضيف في نهاية الآية: «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا» وقال في الآية التي تليها: «يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا».

«زرق»: جمع «ازرق» وفي الأصل بمعنى زرقاء اللون، ومن الممكن أن يكون هذا اللون إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى يحشر المجرمين زرق الأبدان أو عمياً أو عطاشاً لشدة العطش الذي يتعرض له أبدانهم.

إننا نرى أن المعنى الأول هو الأنسب وذلك لأنه معنى حقيقي، أما الثاني والثالث فله بعد كنائي (مجازي).

أما الآيتان التاسعة والعاشره: فقد أشارتا أيضاً إلى النفخة الثانية أي نفخة الحياة والقيامة فقال تعالى «يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا» وقال: «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ».

إن الإتيان أفواجا في ذلك اليوم قد يكون لورود كل امه مع إمامها إلى المحشر (الأنبياء وغيرهم) أو أن كل زمرة من المجرمين الذين اقترفوا ذنباً معيناً يحشرون معاً.

على أية حال فهذه الآية لا تتنافى مع قوله تعالى: «وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا».

(مريم / ٩٥)

وذلك - كما أشرنا سابقاً - أن هناك مواطن ومواقف مختلفة في يوم القيامة فمن الممكن أن يحشر الناس في البداية على شكل مجموعات ثم يحشرون في محكمة العدل الإلهي فرادى (فتأمل).

«الوعيد»: تستعمل هذه المفردة على قول الراغب الإصفهاني ومجموعة من المفسرين وأهل اللغة، في الشر، في حين كلمة «وعد» تستعمل في الخير والشر، واستخدمت الآية الكريمة هذا اللفظ (الوعيد) لإنذار المجرمين من ذلك اليوم بالرغم من أن القيامة تشمل على الوعد بالخير والوعيد بالشر.

الآيات الحادية عشرة والثانية عشرة اللتان وردتا في سورة يس تذران بوقوع صيحة

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٦

شاملة تحدث في نهاية هذا العالم هي (صيحة الموت) أو (صيحة الحياة) التي تقع في بداية القيامة.

وفي مورد واحد أشارت الآية إلى صيحة نهاية العالم.

فقد كانوا يسألون دائماً متى يتحقق الوعد الإلهي..؟ وكانوا يظنون أن هذا الأمر عسير على الله سبحانه وتعالى فيقول الله تبارك

وتعالى ليس الأمر كما يعتقد هؤلاء: «مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ».

وأشار في المورد الثاني إلى الصيحة الثانية (صيحة الإحياء): «إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ».

والصيحة كما يقول الراغب في مفرداته، في الأصل تعني تشقق الخشب أو اللباس المصحوب بالصوت، ويطلق هذا الاصطلاح أيضاً

على كل الأصوات والصرخات المرتفعة، وتأتي أحياناً بمعنى طول القامة، وذلك لأن الشجرة المرتفعة كأنما تصرخ وتدعو الناس

إليها.

ولكن صاحب كتاب مقاييس اللغة ذكر أن المعنى الأصلي للصيحة هو الصوت العالي و (تصيح) بمعنى تشقيق الخشب وهي كلمة

أصلها واوى، ويقول إنها كانت في الأصل (تصوح) (فتأمل).

على أية حال، فإن المفسرين يرون أن الصيحة الأولى هي نفخة الصور الأولى والصيحة الثانية هي نفخته الثانية في حين أن الآية ٥١

من نفس السورة والتي تقع بين هاتين الآيتين قد أشارت صراحة إلى نفخة الصور ونشور السموات من قبورهم، وقيل لا- منافاة بين

الآيتين حيث إن الآية الثانية جاءت موضحة ومفسرة للآية الأولى ويكون مفهومها أن نفخة الصور الثانية ما هي إلا صيحة عظيمة «فَإِذَا

هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ».

إن جميع هذه التعابير تدل على حقيقة واحدة وهي أن نهاية الدنيا وبداية قيام الساعة أمر سهل يسير على الله القادر سبحانه وتعالى

ولا مبرر لعجب المخالفين من وقوع هذا الأمر، فالكل يموت بصيحة واحدة عظيمة ثم يصبحون ريمماً وتراباً وبصيحة عظيمة أخرى

يرجعون مرة أخرى إلى الحياة، ويحضرون جميعاً أمام الله تبارك وتعالى

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٧

الآيات الثالثة عشرة والرابعة عشرة: أشارتا مرة أخرى إلى الصيحتين (صيحة الموت وصيحة الحياة).

تقول الآية الأولى «مَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا هَا مِنْ فَوَاقٍ» وهناك عدّة أقوال في تفسير هذه الآية، فقيل إنها تشير إلى عذاب

الاستئصال (وهو العذاب الدنيوي الذي يستأصل جذور الكافرين والظالمين مثل عذاب قوم نوح ولوط وغيرهما).

وقيل: إن الآية أشارت إلى نفخة الصور والمعنى الأول يتفق مع سياق الآيات السابقة للآية التي تتحدث عن مجازاة قوم نوح وعاد

وتمود وأمثالهم، ولكن مع أخذ ذلك بنظر الاعتبار فإن هذه الآية جاءت تهديداً لكفار مكة مع أن هؤلاء مستثنون من عذاب

الاستئصال بحكم قوله تعالى: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ». (الأنفال / ٣٣)

وعلى هذا الأساس لا يمكن تفسير العذاب في الآية بعذاب الاستئصال فيكون الرأي الثاني هو الأنسب.

وبناء على ذلك فهل أن الآية أشارت إلى نفخة الصور الأولى أم الثانية؟ هناك اختلاف بين المفسرين ولكن وبلا شك أن لحن الآية

يتوافق مع النفخة الأولى ذلك لأن ذيل الآية يقول: «مَّا هَا مِنْ فَوَاقٍ» وهذا التعبير يقال عادة لنفخة الموت ولقد استشهد بحديث نقل

عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله حول هذه الآية لبيان النفخة الأولى «١».

«فواق»: حسب قول الكثير من المفسرين وأهل اللغة، هو ما بين حلبي الناقة وأصله من الرجوع يقال، آفاق من مرضه أى رجوع إلى

الصحّة.

وعلى أية حال فإن صيحة فناء العالم لا تعطى فرصة لأحد، وينتهي كل شيء في وقت قصير ويصبح هشيماً تذرره الرياح ويقوم سد

محكم يحول بين الإنسان وماضيه.

ولقد أشارت الآية اللاحقة إلى صيحة يوم القيامة: «يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ».

ويعتقد المفسرون بأن هذه «الصيحة» هي نفس صيحة القيامة حيث إن ذيل الآية دليل

(١). تفسير القرطبي، ج ٨، ص ٥٦٠١؛ تفسير الكبير، ج ٢، ص ١٨٣.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٨

واضح على ذلك، والمراد من (الحق) كما يقول المرحوم الطبرسي في مجمع البيان والفخر الرازي في التفسير الكبير والآلوسی في روح المعاني، هو نفس البعث والنشور.

ولكن ظاهر الآية أن المراد بالحق الوارد في الآية الكريمة هو نفس معناه الأصلي، وبتعبير (الميزان) يعني القضاء الحتمي، والنشور هو مصداقه، أما تعبير (يوم الخروج) فالمقصود منه يوم خروج الناس من قبورهم.

وهنا يطرح هذا السؤال: ومن الذي يسمع هذه الصيحة؟ هل تسمعها الأرواح قبل ورودها الأجساد؟ أم أن الأبدان تحيي وترجع إليها الأرواح عند الصيحة؟ وبهذا يستمر الناس في سماعهم للصيحة، ومثل ذلك كمثل ساعة الجرس التي تدق قرب شخص نائم فتوقظه، وهناك أقوال أخرى والمعنى الثاني هو الأنسب لسياق الآية.

في الآية الخامسة عشرة نجد تعبيراً جديداً وهو (نقر) قال تعالى «فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ* فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ* عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ» و (نقر) كما يقول أرباب اللغة، في الأصل يعني طرق شيء، والمنقار هي وسيلة الطرق، ومن هنا يكون الطرق ملازماً للصوت و تأتي هذه الكلمة أحياناً بمعنى إيجاد الصوت أو سببه وهو هنا النفخ في الصور، ولذا نجد أن مجموعة من المفسرين فسروا الآية بشكل مباشر بالنفخ في الصور، فالنقر بمعنى النفخ والناقور بمعنى الصور «١».

وهناك احتمال آخر وهو أن تعبير (النقر) جاء لأن الصوت الذي ينبعث من البوق من العظمة والشدة وكأنه ينقر الاذن نقراً ويغوص إلى المخ.

على أية حال، فإن هذا التعبير هو إشارة إلى النفخة الثانية بشهادة الآيات التي بعد هذه الآية والتي تخبر عن الوضع العسير الذي يعيشه الكافرون في ذلك اليوم، ويقول الفخر الرازي: «إذا كان المقصود هو النفخة الاولى (كما يحتمل المفسرون) فسوف لا يكون ذلك اليوم عسيراً على الكافرين لأنهم يموتون في تلك الساعة، إنما اليوم الشديد على الكافرين عند صيحة الإحياء ولذلك يقولون: ياليتها كانت القاضية» «٢».

(١) راجع تفاسير مجمع البيان؛ وروح البيان؛ والكبير في ذيل الآية مورد البحث.

(٢) راجع تفاسير مجمع البيان؛ روح المعاني؛ روح البيان؛ الفخر الكبير.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٩

وفي الآية السادسة عشرة نلاحظ تعبيراً جديداً هو الصاخة، قال تعالى: «فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَةُ* يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ».

«الصاخة»: مشتقة من مادة (صخ) ويقول الراغب هو الصوت الشديد الذي ينبعث من أصحاب النطق.

وقال صاحب مقاييس اللغة، هي الصيحة التي تصم الآذان، وفسرها البعض: بمعنى طرق رأس الإنسان بالحجر «١»، وقيل: الاستماع والانصات، الصاخة هي التي تصخ الآذان حتى تكاد تصمها «٢» وتسمى بالصاخة لشدة صوتها.

وفي كل الأحوال فهذا التعبير إشارة إلى «نفخ الصور» النفخة الثانية، تلك الصيحة العظيمة التي هي صيحة الصحوه والحياة، حيث يساق الجميع إلى عرصات المحشر، وكل واحد مشغول بنفسه إلى الحد الذي يفتر من أخيه وأبيه وامه وأصدقائه.

ونواجه في الآية السابعة عشرة تعبيراً آخر حول مسألة نفخ الصور، يقول تعالى «الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ * يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ * فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ.».

«القارعة»: من مادة (قَرَعَ) على وزن (فَرَعَ) وفي الأصل بمعنى الطرق الشديد الذي ينبعث منه صوت عال، ومنها (المقرعة).
فما المقصود من القارعة في هذه الآيات:

قال بعض المفسرين: إن هذا التعبير هو أحد أسماء القيامة وذلك لأن الحوادث التي تقع فيها حوادث شديدة وتقرع القلوب لشدتها وهولها ولقد صرح البعض من المفسرين بأن هذا التعبير يطلق على مجموعة حوادث القيامة التي تبدأ من نفخ الصور الأولى وتنتهي بخاتمة المحكمة الإلهية (٣).

(١) راجع تفاسير روح المعاني؛ روح البيان؛ الكبير.

(٢) راجع تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٤٠؛ التفسير الكبير، ج ٣١، ص ٤٣؛ تفسير روح المعاني، ج ٣، ص ٤٨؛ و تفسير القرطبي، ج ١٠، ص ٧٠١٥.

(٣) تفسير روح البيان، ج ١٠، ص ٤٩٩؛ و تفسير روح المعاني، ج ٣٠، ص ٢٢٠.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٤٠

يقول الفخر الرازي في تفسيره: واختلفوا في لَمِيَّة هذه التسمية على وجوه:

أحدها: إن سبب ذلك هو الصيحة التي تموت منها الخلائق.

وثانيها: إن الأجرام العلوية والسفلية تصطدم مع بعضها بشدة عند تخريب العالم، فيحدث على أثر هذا الاصطدام تلك القرعة فسميت القيامة بالقارعة.

وثالثها: إن القارعة هي التي تقرع قلوب الناس بالأهوال والخوف.

ورابعها: إنها تقرع أعداء الله بالعذاب والخزي والنكال. (١)

ولكن الآيات التي تأتي بعد هذه الآيات تدل على أن هذا التعبير ناظر إلى النفخة الأولى وهي النفخة التي ترعب جميع الناس ثم تهلكهم وتخرب الجبال، ولقد ذكرت في تعقيب هذا الموضوع حوادث القيامة كتسلسل طبيعي.

على أية حال، فإن التعبير أعلاه إما أنه يشير إلى نفخة الصور الأولى أو أن النفخة الأولى جزء منها، وإما أن يكون قد أشار إلى النفخة الثانية، وهذا ما لا يتوافق مع سياق الآيات، فمن المستبعد جداً أن تكون الآية: «يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ» قد أشارت إلى

النفخة الثانية والآية التي بعدها: «وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ» أشارت إلى النفخة الأولى

أما الآية الثامنة عشرة فنلاحظ فيها تعبيراً جديداً آخر ألا وهو (الزجرة) أو (الصيحة العظيمة)، في جواب من يعجب من رجوع الحياة بعد الموت، إذ تقول الآية لا تعجبوا فذلك ليس بالعسير: «فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ».

«زجرة»: في الأصل بمعنى الطرد وبصوت مرتفع، مثل طرد الإبل، وتأتي بمعنى الصيحة من قولك زجر الراعي الإبل أو الغنم إذا صاح عليها فريعت لصوته (٢).

وفي كشف الزمخشري، زجره يزجره، إذا صاح بمنعه ثم استعملت بمعنى الطراد، وترد أحياناً بمعنى الصوت.

وجملة (ينظرون) ربّما تعني النظر بحيرة من شدة الخوف أو نظر أحدهم إلى الآخر أو انتظار الحكم النهائي.

(١). تفسير الكبير، ج ٣٢، ص ٧٠.

(٢). راجع مقاييس اللغة والمفردات للراغب، مادة (زجر).

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٤١

على أيّة حال فظاهر الآية الكريمة يشير بوضوح إلى نفخة الحياة ونشور الناس من قبورهم وتهيتهم للحساب، وإنّ أغلب المفسرين قد أشاروا إلى هذا المعنى

يستفاد من مجموع الآيات أنّ نهاية وبداية العالم الآخر إنّما تحدثان بصورة مباغتة وتزامنان عند وقوع صيحة عظيمة، ولقد عبّر القرآن الكريم عن ذلك تعابير مختلفة، فأحياناً استخدم الصيحة وأحياناً الزجرة والصاخة والتي هي بمعنى الصيحة وأخرى النقر، كما عبّر عنها في كثير من الموارد بنفخة الصور.

وفي الظاهر لم يلاحظ في هذه الآيات شرحاً أو توضيحاً لكيفية النفخ، وحكم هذه الحادثة في الواقع كحكم سائر الحوادث المتعلقة بمشاهد يوم القيامة التي لم ترسم لنا صورة تفصيلية عنها، إلّا أنّ الأحاديث التي سنوردها بهذا الصدد قد تعرضت إلى هذه الحوادث وفصلتها إلى حدّ ما، ولكنّها لم ترفع الإبهامات بشكل كلي وبعبارة أخرى لم تستطع أن ترفع هذه الإشكالات وذلك لأنّ هذه الأمور من أسرار العالم الآخر من جهة، ومن جهة أخرى أنّ عقولنا المحدودة بحدود هذه الدنيا وعاجزة عن إدراك هذه الحوادث على حقيقتها.

توضيحات

١- ما المراد ب (نفخة الصور) أو صرخة الموت والحياة

علمنا أنّ الصور وحسب قول الكثير من أرباب اللغة يعنى البوق أو القرن العظيم (كانوا يصنعون البوق من قرن الحيوان).

فكانوا ينفخون فيه من جهة فيخرج الصوت عالياً من الجهة الأخرى

فهل أنّ هذا التعبير تعبير مجازي كناية عن الأمر الصادر من قبل الله تبارك وتعالى ينذر بنهاية العالم المباغتة وبداية القيامة؟ هو تشبيه لما اعتاد عليه الناس في إيقاف القطعات العسكرية أو إيقافها أو لدعوتها للتجمع، فهي وسيلة تستعمل لإعلام الجميع بالوقوف أو

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٤٢

الحركة أو التجمع؟ (حيث إنّ لحن بوق الوقوف يختلف عن لحن بوق الحركة) ولا زال هذا الأسلوب معمولاً به في بعض الثكنات والقطعات العسكرية، فهناك بوق النوم وبوق النهوض وبوق التجمع «١»؟ أم أنّ هذا التعبير ليس له بعد كناية وإنما هي نفخة حقيقية؟ ولكن من الواضح أنّ هذا البوق ليس بوقاً عادياً وإنما هو صاعقة وصيحة عظيمة تعم أرجاء السموات والأرض وتسبب موت جميع الموجودات الحية أو إحيائها وبعث الحياة والحركة فيها.

إنّ هذا الاحتمال هو الأرجح، ويتناسب مع ظاهر الآيات: ونقرأ في هذا الصدد حديثاً ورد عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام: «إنّ الصُّورَ قَرْنٌ عَظِيمٌ لَهُ رَأْسٌ وَاحِدٌ وَطَرَفَانِ، وَبَيْنَ الطَّرْفِ الْأَسْفَلِ الَّذِي يَلِي الْأَرْضَ إِلَى الطَّرْفِ الْأَعْلَى الَّذِي يَلِي السَّمَاءَ مِثْلُ مَا بَيْنَ تَحْوِمِ الْأَرْضِينَ السَّعِ إِلَى فَوْقِ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فِيهِ اثْقَابٌ بَعْدَ أَرْوَاحِ الْخَلَائِقِ، وَسِعَ فَمُهُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» «٢».

ولقد ورد في حديث آخر عن الرسول صلى الله عليه وآله: «الصُّورُ قَرْنٌ مِنْ نُورٍ فِيهِ اثْقَابٌ عَلَى عَدَدِ أَرْوَاحِ الْعِبَادِ» «٣».

وهذان الحديثان يؤكّدان أنّ هذا التفسير هو كناية عن موضوع هام يبين في هذا المجال.

ولكن نلاحظ في أقوال بعض المفسرين أنّ (الصور) مأخوذ من جمع (صورة) وقالوا: إنّ المراد النفخ في صور وأبدان الناس فتدب الحياة فيهم.

إنّ هذا التفسير يتناسب مع النفخة الثانية أي نفخة الأحياء وليس النفخة الأولى ولقد رُفض هذا التفسير من قبل بعض أرباب اللغة حيث ورد هذا المعنى في (لسان العرب) عن بعض علماء اللغة قال: هذا خطأ فاحش ونوع من التحريف في كلام الله تعالى وذلك لأنّه ورد

جمع (الصورة) في آيات قرآنية أخرى على (صور) على وزن فَعَلَ وليس (صور) وإذا

(١). ورد هذا الكلام في تفسير روح الجنان، ج ٩، ص ٤٢١.

(٢). لثاليء الأخبار، ج ٥، ص ٥٣.

(٣). علم اليقين، ص ٨٩٢.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٤٣

قرأ أحد جملته «وَنُفِّخَ فِي الصُّورِ» «الصُّورِ» بفتح الواو فقد إفتري على الله وحرف كتابه، فكما أن هذا التفسير لا يتوافق مع الروايات السالفة الذكر كذلك لا يتوافق مع الآيات التي وردت فيها تعابير (صعقة) (وزجرة) و (ناقور) وغيرها. ولا- يستبعد أن يكون هذا ناتجاً عن عدم هضم معنى (نفخ في الصور)، في حين أن الصور ليس بوقاً عادياً وليست النفخة شبيهة بنفختنا.

وعلى أية حال فإن التفسير الثاني هو الأنسب من بين التفاسير الثلاثة التي قيلت بهذا الصدد، حيث إنه ينسجم وسياق ظاهر الآيات ولا بد لنا من الاعتراف بعجزنا عن اعطاء توضيح كامل عن نفخة الصور.

٢- تأثير الأمواج الصوتية على الإنسان وسائر الموجودات

من المعلوم أن الصوت نوع من الأمواج التي تتحرك في الهواء وفي السوائل أو الجمادات والأصوات التي تسمعها اذن الإنسان يجب أن لا تقل ذبذباتها عن ٢٠ ولا تزيد عن ٢٠٠٠٠ في الثانية.. وهناك مخلوقات تسمع الأصوات التي تزيد ذبذباتها عن ذلك، ومن بينها طائر الخفاش حيث إن لهذا الحيوان القابلية على سماع الأصوات التي يبلغ مقدار ذبذباتها ١٤٥ ألف ذبذبة «١» في الثانية، ومن المعروف أن الحيوانات تدرك الهزة الأرضية قبل الإنسان ولعل السبب في ذلك يعود إلى هذا العامل حيث إنها تسمع الأمواج الصوتية المنبعثة منها والتي لا يتمكن الإنسان من إدراكها، وكما هو معلوم فإن الأمواج الصوتية الشديدة تسبب أحياناً تدمير كل شيء، وما تأثير القنابل والمواد المنفجرة على الإنسان والأبنية إلا لبفعل هذه الأمواج الشديدة التي يُعبّر عنها ب (أمواج الانفجار) فهي قادرة في لحظة واحدة على تحطيم أي مقاومة تواجهها، فتحول الإنسان والأبنية إلى حطام متناثر. على هذا الأساس ليس من العجب أن تكون صيحة القيامة هي السبب في إماتة الناس

(١). يراجع كتاب الصوت، ص ٥٧؛ والنجوم للجميع، ص ٩٠.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٤٤

وجميع المخلوقات وازالة الجبال في مدة قصيرة، ويُجبد أن ننقل كلاماً للإمام على عليه السلام ورد في نهج البلاغة: «وَيُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَرْهَقُ كُلُّ مُهْجَةٍ وَتَبْكُمُ كُلُّ لَهْجَةٍ وَتَذُلُّ الشُّمُّ الشَّوَامِخَ وَالصُّمُّ الرِّوَاسِخَ فَيَصِيرُ صُلْدُهَا سَرَاباً رَقْرَقاً وَ مَعْهَدُهَا قَاعاً سَمْلَقاً» «١».

فحري بنا أن ندرك أن هذه الأشياء تخص (نفخة الإماتة) ومن البديهي أن (نفخة الإحياء) شيء آخر فهي صرخة النهوض والحياة والحركة والنشاط.

وتبقى معرفتنا بهذه النفخة وسائر المسائل المتعلقة بيوم القيامة محدودة جداً.

٣- إجابات حول نفخة الصور

١- هل أن نفخة الصور تقع مرتين فقط؟

من المعلوم أن الآيات القرآنية تشير إلى وجود نفختين (نفخة الإماتة ونفخة الإحياء) وقد لاحظنا ذلك في الآيات السالفة الذكر.

ولكن يستفاد من بعض الروايات أن نفخة الصور تتحقق ثلاث مرات حتى أن بعض الروايات تستدل بالقرآن على ذلك ولقد نُقل في كتاب لثالث الأخبار عن المرحوم (الديلمى) في كتاب إرشاد القلوب هذا الحديث: «وله أى «اسرافيل» ثلاث نفخات «نفخة القرع» و «نفخة الموت» و «نفخة البعث» فإذا فئيت الدنيا أمر الله اسرافيل أن يهبط إلى الأرض وينفخ نفخة الفزع كما قال تعالى «وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي السُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ». (النمل / ٨٧)

... وتزلزلت الأرض وتذهل كل مرضعة عمياً أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها ويميد الناس ويقع بعضهم على بعض كأنهم سكارى وما هم بسكارى وأما نفخة الإحياء فقال تعالى «وَنُفِخَ فِي السُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ». (الزمر / ٦٨) وكما قال تعالى «ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ» «٢». (الزمر / ٦٨)

(١). نهج البلاغة، خطبة ١٩٥.

(٢). لثالث الأخبار، ج ٥، ص ٥٤ (مع التلخيص).

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٤٥

ولقد أضاف البعض نفخة رابعة إلى هذه النفخات الثلاث وهي نفخة الجمع والحضور، والظاهر أن هذه النفخة أخذت من قوله تعالى: «إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ» (يس / ٥٣)

ولكن في الواقع أنها نفس هاتين النفختين، اتسعتا وتبدلتا إلى أربع نفخات، وذلك لأن الفزع الأكبر ماهو إلامقدمه لموت الناس الذى يحدث على أثر إدامه واستمرار نفخة الحياة، ويمكن أن تؤكد هذا المعنى بالرجوع إلى قوله تعالى: «يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ» (تأمل). (النازعات / ٦-٧)

٢- من الملك المأمور بنفخة الصور

ورد في الأحاديث الشريفة أن هذا الملك هو اسرافيل، ويعتقد البعض أن هذه الكلمة تعنى فى اللغة السريانية (عبدالله)، ولقد ورد فى حديث عن الإمام السجاد عليه السلام: «أَنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ اسْرَافِيلَ فِيَهْبَطُ إِلَى الدُّنْيَا وَمَعَهُ صُورٌ...» (١).

ويستفاد من بعض الروايات أن اسرافيل هو أقرب الملائكة لله «٢» وهو أول من سجد لآدم من الملائكة «٣».

وما كون نفخة الموت والحياة بيده إلامدليلاً على عظمة منزله هذا الملك، ويستفاد من الرواية الواردة عن الإمام السجاد عليه السلام: «أَنَّ نَفْخَةَ الْمَوْتِ تَكُونُ مِنْ قَبْلِ اسْرَافِيلَ، وَبَعْدَهَا يَقُولُ اللَّهُ لاسْرَافِيلَ: مَت فَيَمُوتُ اسْرَافِيلُ وَتَنْفَخُ نَفْخَةُ الْحَيَاةِ مِنْ قَبْلِ الْخَالِقِ نَفْسَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى «٤»».

(١). بحار الأنوار، ج ٦، ص ٣٢٤، ح ٢.

(٢). لغتنامه دهخدا، مادة (اسرافيل).

(٣). سفينة البحار، ج ١، ص ٤١٤ مادة (سرف).

(٤). تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٥٠٢، ح ١١٦.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٤٦

٣- ما هي الفترة الزمنية بين النفختين

يستفاد من آيات القرآن الكريم بشكل عام أن هناك فترة زمنية بين نفختي الإماتة والإحياء وأن تعبير (ثم) الذى ورد فى الآية ٦٨ من

سورة الزمر يؤكد هذا المعنى ولكن ورد في بعض الروايات أن أمد هذه الفترة أى (أن ما بين النفختين أربعون سنة) ولا أحد يعلم هل أن هذه السنين من سنّي الدنيا أم من سنّي الآخرة التي يعادل كل يوم منها خمسين الف سنة.

وعلى أيّة حال فإنّ هناك حوادث عظيمة تقع ما بين النفختين يتشكل خلالها عالم جديد وحياء جديدة للناس، فلا يبقى في هذه الفترة أى مخلوق حيّ في العالم بأسره إلّا وجه الله الحيّ القيوم، وأما ما جاء في الآيتين ٦٨ من سورة الزمر و ٨٧ من سورة النمل اللتين ذكرتا جملة «إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ» لا يعنى أن هؤلاء لا يشملهم الموت بل إنّ موتهم موكول إلى زمان لاحق، أى أنّ أجلهم يتأخر، والشاهد على ذلك هذه الآية التي وردت في ثلاث آيات من القرآن الكريم: «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ». «١» (آل عمران / ١٨٥)

والجدير بالذكر هنا أنّ (النفس) لها مفهوم واسع يشمل جميع الموجودات الحية، أما من هم الذين استثنتهم الآية؟ فقد ذكر المفسرون احتمالات عديدة في ذلك، فقال البعض: إنّهم مجموعة من ملائكة الله المقربين أمثال (اسرافيل وجبرائيل وميكائيل وعزرائيل)، ولقد أضاف بعضهم جملة العرش،، وقيل أرواح الشهداء (في الأبدان المثالية) وقيل: خزنة الجنة ومالكو النار.

ويستفاد من رواية الإمام السجاد عليه السلام أنّ جميع الكائنات تموت عند الصيحة الأولى ماعدا اسرافيل الذي ينفخ في الصور ثم يموت بعد ذلك بأمر الله تعالى

٤- فلسفة نفخة الصور؟

إذا كانت حقيقة نفخة الصور غير واضحة لنا بشكل تام، فلم تكن فلسفته التربوية خافية

(١) راجع الأنبياء، ٣٥؛ العنكبوت، ٥٧.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٤٧

علينا.. والمهم لنا هو الآثار التربوية لهذه العقائد الحقّة.

فنفخة الصور تبيّن لنا:

١- إمامة واحياء جميع المخلوقات ليست حالة عسيرة على الله تبارك وتعالى فهو تعالى قادر على إمامة جميع الخلائق بأسرها بصيحة واحدة تصعقها جميعاً، وكذلك هو قادر على أن يحيى جميع الخلائق بصيحة عظيمة اخرى وكأنّ المخلوقات كانت في سبات فتبعث هذه الصيحة على ايقاظهم من نومهم العميق، وهذا جواب لمن يشك في المعاد أو لمن يعتقد بأنّ المعاد من الامور المستحيلة الوقوع كما كانوا يسألون رسول الله صلى الله عليه و آله مراراً.

٢- نفخة الصور انذار لجميع الناس بعدم الركون إلى الدنيا والاطمئنان إليها لكي لا يقعوا في الغرور والغفلة، وأن يؤمنوا بأنّ صيحة القيامة ونفخة الموت ممكنة الوقوع في كل حين وأنهم سائرون إلى ديار العدم إلى الموت الذي يطوى جميع آمالهم وأمانهم.

٣- تعتبر نفخة الصور وايعازها بنهاية هذا العالم وبداية عالم آخر من الدروس التربوية العميقة للناس، فالإيمان بذلك يجعلهم مهتأون لاستقبال مثل هذه الحادثة العظيمة وإذا آمنوا بذلك فإنهم لن يتواكلوا بتأخير الأعمال إلى الغد، فليس هناك تاريخ معين لوقوع هذه الحادثة المباغتة التي تقع من غير مقدمات.

ونذكر حديثاً للإمام السجاد عليه السلام في هذا المعنى ينقله الراوى بعد شرح موجز حول نفخة الصور فيقول: عندما يصل الإمام عليه السلام إلى هنا: (رأيت على بن الحسين يبكي عند ذلك بكاءً شديداً) (فالإمام في غاية الوجع من مسألة النهاية المباغتة للدنيا وحلول الآخرة والحضور أمام الله تبارك وتعالى «١»).

(١) تفسير على بن إبراهيم، ذيل الآية ٦٨ من سورة الزمر؛ بحار الأنوار، ج ٦، ص ٣٢٤.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٤٩

٣- صحيفة الأعمال

إشارة

ملاحظة: نجد في الكثير من الآيات القرآنية بحثاً واسعاً حول صحيفة الأعمال وقد ذكرت بتعبير مختلف، فقد ورد في أكثر الآيات تعبير (الكتاب) الذي يحمل مفهوماً واسعاً فهو يشمل الصحيفة ويشمل الكتاب أيضاً. ولقد ورد في البعض الآخر تعبير (زبر) جمع (زبور) وهذا التعبير له مفهوم قريب من الكتاب. وقد جاء في البعض الآخر منها تعبير (طائر) وهو الطير الذي كان العرب يتفاءلون به، وكانوا يعتقدون بأن مصيرهم مرتبط به، فيقول القرآن لهم إن طائر الخير والشر هو نفس صحيفة أعمالكم.

وقد وردت في بعض الآيات إشارة إلى كلام محررى صحف الأعمال وعبرت عنهم بتعبير مختلف كالرقيب والعتيد أو رسل الله أو (كراماً) أو (متلقين) وكل واحد منهم مأمور بعمل خاص، (تأمل).

من هنا نقول: ماهى صحيفة الأعمال؟ وهل أن لكل إنسان صحيفة أعمال واحدة، أم أكثر من ذلك؟ ومن هم كتاب صحف الأعمال؟ وكيف يتم تسجيل هذه الصحف؟ وكيف تعطى باليمين أو بالشمال؟

هناك بحث واسع في هذا الصدد سنتعرض إليه بعد ذكر الآيات التي تدور حول هذا الموضوع، مع عدم الغفلة عن التعرض بالدرجة الأولى للمسائل التربوية والأخلاقية في هذه الآيات:

١- «إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ».

(يس / ١٢)

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٥٠

٢- «وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لِمَا يُعَادِرُ صَاحِبَهُ وَلَا كَبِيرَهُ إِلَّا أَحْصَاهُ».

(الكهف / ٤٩)

٣- «أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ».

(الزخرف / ٨٠)

٤- «وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَائِئَةٍ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

(الجنائين / ٢٨-٢٩)

٥- «وَكُلِّمَ إِبْرَاهِيمَ الرِّمَاءَ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخِرَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا * إِقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا».

(الإسراء / ١٣-١٤)

٦- «وَكُلَّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌّ».

(القمر / ٥٢-٥٣)

٧- «وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا».

(النبا / ٢٩)

٨- «كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سَجِّينٍ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِّينٌ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ * كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ».

(المطففين / ٧-٩ و ١٨-٢١)

٩- «إِذِ يَتَلَقَى الْمُتَلَقِيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ». (ق/ ١٧-١٨)

١٠- «وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ».

(الانفطار/ ١٠-١٢)

١١- «فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَذَا مَا أَدْرَأْتُ * لَلْأُولَى أَكْبَرُ * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتِ كِتَابِيهِ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهِ». (الحاقة/ ١٩-٢٥-٢٦)

١٢- «فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا * وَيَصْلَى سَعِيرًا».

(الانشقاق/ ٧-١٢)

١٣- «فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمِ»

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٥١

نفحات القرآن ج ٦ ٩٩

المشأمة». (الواقعة/ ٨-٩)

١٤- «وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سُمُومٍ وَحَمِيمٍ». (الواقعة/ ٢٧-٢٨ و ٤١-٤٢)

١٥- «وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ * ... «عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا أُخْضِرَتْ». ١ (التكوير/ ١٠-١٤)

جمع الآيات وتفسيرها

تحدث الآيات الأولى عن الحياة بعد الموت وعن كتاب الأعمال، ذلك الكتاب الذي يكتب بيد القدرة الإلهية وتثبت فيه أعمال الناس كلها وعبر عنه ب «الإمام المبين» «إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ». فما المراد بالآثار؟

قيل: إن عبارة (ما قدموا) إشارة إلى الأعمال التي يؤديها الإنسان، (وآثارهم) إشارة إلى السنن التي يخلفها بعد موته أو آثار الخير والصدقات الجارية مثل الأبنية والأوقاف والكتب العلمية والتربوية.

وقيل أيضاً: إن المراد ب (ما قدموا) النيات التي تحصل قبل أداء العمل، و (آثار) إشارة إلى الأعمال التي تنجز بعد التوبة وقيل إن (ما قدموا) إشارة إلى الأعمال الصالحة والسيئة، و (آثار) إشارة إلى الخطوات التي يخطوها الإنسان لانجاز هذه الأعمال، فيقال للقدم من هذه الجهة (أثر) حيث تترك الأقدام أثرها على الأرض وخاصة الترابية.

ونذكر حديثاً حول نزول هذه الآيات، حيث إن فريقاً من الأنصار (طائفة من بني سلمة كانوا في ناحية المدينة فشكوا إلى الرسول بعد منازلهم من المسجد والصلاة معه فأرادوا النقلة فقال صلى الله عليه وآله: «إِنَّ اللَّهَ يَكْتُبُ خَطَوَاتِكُمْ وَيَشِيكُم عَلَيْهِ فَالزُّمُوا بِيُوتِكُمْ» (١).

«الإمام المبين»: هو اللوح المحفوظ الذي تثبت فيه جميع الحقائق حسب قول الكثير من المفسرين وبناءً على ذلك يستفاد من التعبير أعلاه أن الإمام المبين هو غير صحيفته

(١). تفسير مجمع البيان، ج ٤، جزء ٢٢، ص ٤١٨؛ تفسير الكبير، ج ٦، ص ٤٩؛ تفسير القرطبي، ج ٨، ص ٥٤-٥٦.

الأعمال التي تختص بكل فرد، بل هو كتاب عمل عام، فهذا اللوح بمنزلة سجل عام تحصى فيه جميع أعمال الناس، وسوف نوضح هذا الكلام في موضوع (تعدد صحف الأعمال).

عبارة (مبين) إشارة إلى ذكر اللوح المحفوظ وصحيفة الأعمال لجميع الأعمال نظراً لأنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من الأعمال الصالحة أو السيئة إلّا أحصاها.

ولقد جاء في روايات متعددة أنّ المراد من (الإمام المبين هو الإمام المعصوم الذي يبين جميع الحقائق بأمر الله تعالى وبتعليم من الرسول صلى الله عليه وآله، وفي هذا الصدد ورد حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام في تفسير علي بن إبراهيم عليه السلام قال: «أنا والله الإمام المبين! أُبين الحق من الباطل، ورثته من رسول الله صلى الله عليه وآله» (١).

ومن خلال هذه التفاسير يتبين أنّ للإمام المبين مفهوماً واسعاً فكما يشير ظاهره إلى كتاب الأعمال الذي يدون جميع أعمال الناس كذلك يشير باطنه إلى الإمام المعصوم الذي يبين الحق من الباطل من خلال العلم الذي يرثه عن الرسول صلى الله عليه وآله. ولقد أشارت الآية الثانية إلى هذا المعنى بصراحة أكثر: «وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا» فهل أنّ هذا الكتاب هو كتاب أعمال الناس الذي أشارت إليه الآية الأولى أم أنّه كتاب أعمال كل امّة أو كتاب أعمال كل إنسان؟ (وذلك- وكما سنوضح ذلك في البحوث المقبلة إن شاء الله- أنّ هذه الأنواع الثلاثة من كتب الأعمال.. أخذت من آيات القرآن الكريم).

فلاحتمالات الثلاثة ممكنة في تفسير هذه الآية ولو أنّ من الممكن أن يكون ذكر (الكتاب) بصورة المفرد إشارة إلى كتاب أعمال جميع الناس، ويستفاد من الآية الكريمة أنّ هذا الكتاب يعرض جميع جزئيات أعمال الإنسان الصالحة والسيئة، الكبيرة والصغيرة، حتى أنّ أصحابها يصيبهم الوجل والخوف من أعمالهم، وسبب وجلهم يعود إلى حضورهم

(١). تفسير علي بن إبراهيم، ج ٢، ص ٢١٢.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٥٣

في محكمة العدل الإلهي من جهة ومن جهة أخرى أنّهم قد نسوا الكثير من الأعمال ولم يعطوها أهميّه، ولكنّها اليوم تجسدت أمام أعينهم، ومن جهة ثالثة، الفضيحة العظمى أمام الخلائق.

ويجب أن ننتبه إلى هذا المعنى وهو أنّ كلمة (يغادر) مشتقة من مادة (غَدَرَ) بمعنى الترك، و بناء على ذلك يكون مفهوم هذه الجملة هو أنّ هذا الكتاب لا يترك شيئاً إلّا وسجّل، ويقال لنكث العهد غدر وذلك بسبب عدم الوفاء به.

وتتحدث الآية الثالثة عن كتابه رسل الله تبارك وتعالى «أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَنَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ». ومن الواضح أنّه لا يوجد هناك تضارب بين هذه الآية والآية التي تقول: «إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ» نظراً لأنّ عمل الرسل والملائكة إنّما هو في الحقيقة عمل الله تبارك وتعالى لأنّه يجري بأمره، وهناك احتمال بأنّ كتاب أعمال الناس جميعاً (الإمام المبين) يكتب بيد القدرة الإلهية، أي بصورة مباشرة، أمّا كتاب أعمال كل إنسان الذي عرض في هذه الآية فيكتب بواسطة الملائكة، أمّا تعبير (الرسول) وهو جمع رسول فالمراد به هنا الملائكة المأمورون بكتابة الأعمال، وليس المقصود وجود عدد من الملائكة لكل إنسان بل يمكن أن يكون لكل فرد ملك واحد أو ملكان فيكون بصورة الجمع بالنسبة لمجموع الناس.

يقول الزمخشري في الكشاف: (السّر) ما حدّث به الرجل نفسه أو غيره في مكان خال أمّا النجوى ما تكلموا به فيما بينهم همساً (١).

(١). تفسير الكشاف، ج ٤، ص ٢٦٥.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٥٤

الكتاب الذي يتكلم:

الآية الرابعة تنسب عملية تدوين الأعمال إلى الله سبحانه وتعالى إضافة إلى ذلك دلت على أن صحف الأعمال تنطق يوم القيامة: «وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةٌ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا... * هَذَا كِتَابُنَا يُنطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ».

فهى تتحدث بوضوح عن كتاب أعمال الامم والذي هو أحد الأقسام الثلاثة لكتب الأعمال، وتعدد هذه الكتب يؤكد حقيقة تسجيل كل أعمال الإنسان وعدم ترك صغير ولا- كبير منها، ويدل تعبير- تُدعى على أنهم يدعون ليقروا كتبهم، وبالتالي يكونون هم المحاسبين لأنفسهم، كما جاء صراحة في الآية الشريفة: «إِقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا». (الاسراء/ ١٤)

«وجائية»: مشتقة من (الجثو) على وزن (علو) بمعنى الجلوس على الركب والسبب في اتخاذ هذه الجلسة من قبل أهل المحشر يعود إما لشدة الخوف أو هي شبه للحالة التي كان يتخذها المتهمون في قديم الزمان عند الحضور في المحكمة لإبداء الرأي، حيث يجلسون جلوس القرفصاء، وهو الوضع الذي يتخذه الإنسان عند انتظاره للحوادث المهمة.

ومن الملفت للنظر هنا نسبة تسجيل الأعمال إلى الله سبحانه وتعالى وهذا يدل على أن كاتب الأعمال ليس بالذي تتصور فيه الغفلة أو الخطأ وهو عليم ومحيط بكل شيء، و (نستسخ) من مادة (نسخ) وحسب قول أهل اللغة أن النسخ إزالة شيء بواسطة شيء آخر ويلزمه نفي لشيء وإثبات لشيء آخر، وتستعمل هذه الكلمة بمعنى النفي أحياناً وأخرى بمعنى الإثبات وثالثه بمعنى الإثبات والنفي معاً.

من هنا يتبين أن الاستنساخ يعنى إثبات موضوع مع صرف النظر عن آخر.

ونجد في الآية الخامسة تعبيراً آخر هو (الطائر): «وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا» إقرأ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا».

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٥٥

و «الطائر»: في الأساس، هو الطير ويراد به العمل أو كتاب الأعمال حسب قول الكثير من المفسرين، ويعود هذا الربط إلى العادات والتقاليد العربية حيث كانوا يتفاءلون للخير والشر بواسطة الطيور، فبعض الطيور يبشر بالسعادة واليمن والبركة، فاذا عرض لهم هذا الطير أثناء خروجهم من منزلهم أو من مدينتهم استبشروا ورأوا ذلك دليلاً على الانتصار والنجاح، وعلى عكس بعض الطيور التي يعتقدون بأنها نذير شؤم، فالطائر يستخدم للتفاؤل والتشاؤم معاً، لذا فقد قال بعض المفسرين إن ما يقابل كلمة طائر في اللغة الفارسية هو (البخت) ومن هنا يعتبر القرآن الكريم أن العامل الرئيس للسعادة والشقاء هو أعمال الإنسان، وقد استعملت هذه الكلمة للتعبير عن كتاب هذه الأعمال، وبهذا المعنى فقد صنع القرآن الكريم من مفهوم خرافي لا أساس له حقيقة واقعية ودعا الناس إليها، مع الأخذ بنظر الاعتبار جملة: «وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا» حيث يمكن القول أن تفسير الطائر بالعمل أنسب من تفسيره بكتاب الأعمال وذلك لأنه ذكر كتاب الأعمال بشكل مستقل فلكون الأعمال متعلقة بعنق الإنسان فهي لا تنفك عنه أبداً، فإن كان العمل صالحاً فيسعد ويأنس به صاحبه وإن كان سيئاً فيؤذي صاحبه كالغل أو السلسلة.

وهناك مسألتان أخريان في هذه الآية:

الاولى عرض كتاب الأعمال يوم القيامة واطلاع الآخرين عليه، فيكون عاملاً في فضيحة صاحبه لدى جميع الخلائق.

الثانية: إن كتابة صحيفة الأعمال واضحة بحيث لا حاجة إلى الحسب بل يكفي أن يطلع الإنسان على أعماله ويحاسب نفسه بنفسه. فكما يدل اصفرار اللون والكآبة على وجود حالة مرضية كذلك تدلل الطراوة وامتلاء الوجنات والنشاط على الصحة والسلامة، وبهذا يستطيع المريض أن يحكم على نفسه بالمرض أو السلامة ولا حاجة لشهادة الآخرين.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٥٦

في الآية السادسة نلاحظ تعبيراً جديداً بخصوص الأعمال وهو كلمة (زبر)، والزبر جمع زبور وهو بمعنى الكتاب. قال تعالى «وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌّ» ومع أنّ هذه الآية أشارت إلى وضع الأقوام السابقة التي كانت لديها أعمال كأعمال الكفار الذين عاصروا الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله لكن من البديهي أنّه تعالى عندما يصرّح بأنّ جميع أعمالهم مثبتة ومسجلة في كتاب، فهذا المفهوم يعني أنّ أعمال جميع الناس تكون على هذا النحو..

«وزُبرٌ»: مشتق من (زُبرة) على وزن (سُفرة) بمعنى قطعة الحديد الكبيرة ثم اطلقت هذه الكلمة على الخطوط العريضة التي تكتب على الصفحات الكبيرة، لذا يقول الراغب الإصفهاني في مفرداته: كل كتاب غليظ الكتابة يقال له (زُبور) ويستفاد من هذا التعبير أنّ الزبور لا يطلق على كل كتاب بل يشترط فيه عظمة الخط وغلظته، وأنّ اختيار هذا التعبير لكتاب الأعمال يعبر عن عمق المعنى فهو يبيّن ثبوت ووضوح هذا الكتاب.

إنّ تعبير (الصغير) و (الكبير) وتقديم الصغير على الكبير الذي لم يرد في هذا الموضع من القرآن فقط بل في مواضع متعددة، إشارة إلى عدم وجود أي استثناء في تسجيل أي عمل وأي شخص.

أمّا «مستطر» فمأخوذة من مادة (اسطر) وتعني الكتابة، وهذا تأكيد آخر على أنّ تسجيل الأعمال وجميع الأقوال وحتى النيات قد جمع في مفهوم الآية، (تأمل).

وقد صرحت الآية السابعة بأنّ الكافرين يظنون أنّهم لن ينالوا جزاء أعمالهم يوم القيامة، فهم يكذبون الآيات الإلهية في حين: «وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا».

و «أحصيناها»: مأخوذة من مادة (إحصاء) ومشتقة في الأصل من احصى حيث كانوا في الماضي يستعملون الحصى لعد الأشياء بدلاً من أصابع اليد، وكلمة إحصاء بمعنى العد وجاءت لحفظ الحساب.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٥٧

يقول بعض المفسرين: إنّ مفهومها هنا ينطبق مع مفهوم الكتابة ولهذا السبب أعربوا كتاباً، مفعولاً مطلقاً لأحصينا، في حين يجب أن يكون المفعول المطلق من مادة نفس الفعل الذي قبله، وبما أنّ معنى الكلمتين واحد فيمكن أن يحل أحدهما محل الآخر «١».

كتب في عليين وأخرى في سجين:

الآية الثامنة التي وردت في موضعين من سورة المطففين تشير إلى كتاب أعمال الأبرار والفجار، وقد كشفت عن جزئيات أكثر، فقد ذكرت أولاً كتاب أعمال الفجار: «كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سَجِّين * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِّين * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ». وبعد عدّة آيات من نفس السورة جاء كتاب أعمال الأبرار: «كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلِّين * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلِّين * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ».

وقد ورد في هذه الآيات كلام عن (سجين) و (عليين) التي تحفظ فيها كتب أعمال الفجار والأبرار، لذا يجب توضيح معنى هاتين الكلمتين بدقّة:

«سَجِّين»: هي صيغة مبالغه مشتقة من مادة (سجن) بمعنى السجن، ولقد ذكر المفسرون معاني مختلفة لهذه الكلمة مثل النار أو موضع خاص من النار تحفظ فيه كتب الفجار.

و نحن نقول: إنّ أصح الأقوال هو إنّ سجين كتاب جامع تجمع فيه كتب أعمال جميع الفجار، وتعبير أوضح أنّ هذا الكتاب كمثل السجل العام الذي يسجل فيه حساب جميع الدائنين والمدئنين.

أما «عليين» فهي جمع (على) على وزن (ملى) وهو فى الأصل مشتق من العلو، وهو إشارة إلى المكان المرتفع، ولذا يطلق هذا الاسم على الأشخاص الذين يسكنون المناطق المرتفعة من الجبال، وحسب قول بعض المفسرين: إن المراد (بعليين) أعلى أماكن الجنة أو أعلى مكان فى السماء، ومن خلال المقارنة بين الآراء حول سجين يتضح أن عليين كذلك

(١). وقيل إن (كتاباً) حال، ولكن الاحتمال الأول هو الأصح.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٥٨

يعنى السجل الكبير الذى تجمع فيه كتب أعمال الأبرار والصالحين وهو سجل عالى المرتبة والمقام فى جوار الله تبارك وتعالى «١».

الملائكة المراقبون:

الآية التاسعة لم تتحدث فى الظاهر عن كتاب الأعمال لكونها عرضت هذه الحقيقة بتعبير آخر: «أذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ» فمن الواضح أن التلقى هنا إشارة إلى التسجيل فى صحف الأعمال، ثم قال تعالى للتأكيد أكثر «مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ».

«يتلقى»: مشتق من مادة (لقاء) ولكن تلقى الأعمال هنا كناية عن أخذها وتسجيلها.

«المتلقيان»: هما الملكان المأموران بأخذ وتسجيل أعمال الناس.

«قعيد»: من مادة قعود وهو الجلوس، ويراد منها الملازم والمراقب كما نقول فى كلامنا المتداول أن فلان جليس فلان بمعنى الملازم والمراقب له «٢».

«يلفظ»: مشتق من مادة (لفظ) بمعنى قذف الشئ، كما يقال (لفظت الرحي الدقيق) وتطلق هذه الكلمة على ما يخرج الإنسان من فمه، فكأنها أشياء تقذف إلى الخارج.

«رقيب»: كما قال الراغب فى مفرداته مشتق من مادة (رقبة)، ويطلق على الشخص الذى يحافظ ويراقب شيئاً معيناً أو شخصاً.

«عتيد»: مشتق من مادة (عتاد) على وزن (جهاد) بمعنى إعداد عدّه وذخيرة شئ قبل الحاجة، لذا يطلق على الشخص المستعد لأداء فعل معين ب (عتيد).

(١). يجب الالتفات إلى أن عليين جمعت حسب قاعدة جمع المذكر السالم فى حين أن سجين مفرد ولكن هذا لا يمنع من أن يطلق ذلك على المكان المرتفع والمقام العالى بسبب علو مكانته ومنزلة ساكنيه.

(٢). المتلقيان مثنى وعلى هذا فلا بد أن يكون (قعيد) مثنى أيضاً، ولكن هناك حذف فى الآية والتقدير، عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد، وحذفت الأولى بقريته الثانية.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٥٩

ولقد قال صاحب كتاب مقاييس اللغة: إن المعنى الأصلى ل (عتيد) القوة والضرب، وهذا المعنى بالنسبة للمعنى السابق كنسبة اللازم إلى الملزوم، على كل حال فهل أن كل واحد من هذين الوصفين مختص بأحد الملكين والآخر بالملك الثانى فيكون الأول مراقباً والثانى معداً للتدوين والتسجيل أم أن كليهما يدلان على هذا المعنى أى كلاهما يقومان بمراقبة أعمال الإنسان وتسجيل وتثبيت أعماله أيضاً.

يعتقد بعض المفسرين، أن الرقيب هو إسم لملك اليمين (الذى هو مأمور بكتابة أعمال الخير) والعتيد اسم لملك الشمال (الذى هو

مأمور بكتابة أعمال الشر).

ولكن يظهر من أقوال بعض المفسرين، أنهم ذكروا كلاً الوصفين لكلا الملكين، أي إن كل واحد منهما رقيب وفي عين الحال عتيد أيضاً ولقد نقلت حول هذين الملكين روايات عديدة بالغه الأهمية نذكر من جملتها حديثاً عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «صاحب اليمين أمير على صاحب الشمال فإذا عمل حسنة كتبها له اليمين بعشر أمثالها وإذا عمل سيئة فأراد صاحب الشمال أن يكتبها قال له صاحب اليمين امسك فيمسك عنه سبع ساعات فإن استغفر الله منها لم يكتب عليه شيء وإن لم يستغفر الله كتب له سيئة واحدة» (١).

وتحمل مثل هذه الروايات للإنسان رسالة تربوية واضحة، ونستنتج من خلال هذه الرواية وبعض الروايات الأخرى أن عمل كل من هذين الملكين منفصل عن الآخر وسوف نفضّل الموضوع أكثر في فقرة (التوضيحات).

كتاب صحيفة الأعمال:

لقد ورد في نفس هذه الآية كلاماً عن (الكاتبين) وسعة اطلاعهم ومعلوماتهم: «وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ».

(١). تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ١٤٤؛ وكذلك في تفسير روح المعاني، ج ٢٦ ص ١٦٤؛ وكذلك ورد في تفسير المراغي، ج ٢٦، ص ١٦١.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٦٠

فمن الواضح أن المراد ب (حافظين) الملائكة المأمورين بحفظ وتسجيل الأعمال، وليس المراد حفظ الإنسان من الحوادث المختلفة، والله تبارك وتعالى وصف هؤلاء الملائكة بأربعة أوصاف ولكنها لازمة وملزومة لبعضها في نفس الوقت، وهذه الأوصاف هي:

١- حفظ ومراقبة الأعمال.

٢- «الكرام» و «كرام» جمع (كريم) وهي إشارة إلى عظمتهم وعلو شأنهم وإن كانوا مأمورين بإحصاء أعمال الإنسان، لكنهم لا يشوبون هذا العمل بالغلظة والقوة بل يقرنونه باللطف والكرامة.

وقيل إنهم كرام لأنهم يكتبون الأعمال الصالحة مباشرة بعشرة أمثالها، أما الأعمال السيئة وكما ذكر في الرواية السالفة فإنهم يمهلون صاحبها سبع ساعات لعله يتوب.

وقيل: إنهم كرام لأنهم يطهرون بالأعمال الصالحة إلى السموات ويعرضونها على الملائكة، أما الأعمال السيئة وبحكم كونه تعالى (ستار العيوب) فإنهم يتسترون عليها، وكونهم كراماً يجعل الإنسان يراقب أعماله أكثر وذلك لأنه يستحي من أن يرتكب عملاً قبيحاً في محضر شخص كريم.

٣- (كاتبين)، وهذا الوصف يعنى كيفية حفظهم الأعمال بصريح قوله تعالى فهم يكتبون كل الأعمال ولا يعزب عنهم شيء، ومن المعلوم أن الحفظ والكتابة بحاجة إلى اطلاع واسع من جميع الجوانب.

٤- (يعلمون ما تفعلون)، وهذا التعبير يشمل قول الإنسان وأعمال جوارحه وكذلك الأعمال القلبية.

وذكر كلمة (حافظين) بصورة الجمع، إما أن يكون هناك ملكان في النهار وملكان آخرا في الليل يراقبون أعمال الإنسان (كما جاء في بعض الروايات) «١»، أو لكون المخاطب جميع الناس وبهذا فيسكون الملائكة الذين يراقبون الجميع جمعاً.

(١). وسائل الشيعة، ج ٣، ص ١٥٤ و ١٥٥، باب ٢٨ من أبواب المواقيت.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٦١

كتاب الأعمال في اليمين أو في الشمال:

تشير الآية الحادية عشرة إلى موضوع جديد وهو إتيان كتاب الأعمال، فيؤتى الأشرار والأشقياء كتابهم بشمائلهم أما الصالحون والأخيار فيؤتون كتابهم بأيمانهم، وهذه علامة فارقة لتمييز الأخيار من الفجار في محكمه العدل الإلهي: «فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هِيَ أَوْمٌ أَقْرَأُوا كِتَابِيهِ...»، وعلى العكس: «وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهِ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهِ * يَا لَيْتَنِي كَانَتِ الْقَاضِيَةَ»، فهل أن اليد اليمنى واليسرى إشارة إلى هذا العضو الخاص من البدن أم هو كناية عن الخير والشر، ولماذا اليد اليمنى كناية عن الخير، واليسرى كناية عن الشر؟

لقد ورد هذا المعنى (كاحتمال) في تفسير (في ظلال القرآن) ولكن نقول لا- توجد ضرورة لهذا التأويل لأن إتيان كتاب أعمال الصالحين باليد اليمنى والأشرار باليد اليسرى وسيلة لتمييزهم والتعرف عليهم.

أما كلمة (هاؤم) فهي على رأى الكثيرين من المفسرين وأرباب اللغة مركبة من (هاء) وهي اسم فعل (أمر) بمعنى خذ و (ميم) وهو ضمير جمع مذكر مخاطب، وهذه الكلمة تعامل معاملة فعل الأمر فيقال (هاء، هاء، هائماً، هاؤم، هاتن) للمفرد، المذكر والمفرد المؤنث والمثنى وجمع المذكر وجمع المؤنث) وأحياناً تبدل الهمزة بالكاف فيقال: (هاك، هاك، هاك، هاك، هاك) أما الهاء الواردة في آخر كلمتي (كتاييه وحساييه) فيطلق عليها اصطلاحاً ب (هاء السكون) وهي ليست بضمير وإنما هي للاستراحة في الكلام وليس لها مفهوم خاص والأصل: (كتايي) و (حسايي).

ولقد ورد في حديث عن عبدالله بن حنظلة المعروف بغسيل الملائكة وهو من شهداء أحد، قال: إن الله يوقف عبده يوم القيامة فييدى سيئاته في ظهر صحيفته فيقول له أنت عملت هذا، فيقول نعم أي رب، فيقول له: إنني لم أفضحك به وإنني قد غفرت لك، فيقول عند ذلك هاؤم اقرؤا كتابيه إنني ظننت أنني ملاق حساييه، حين نجا من فضيخته يوم القيامة «١».

(١). تفسير در المنثور، ج ٦، ص ٢٦١؛ تفسير في ظلال القرآن، ج ٨، ص ٢٥٦ ولو أن هذا الحديث نقل عن عبدالله بن حنظلة ولكنه قد سمعه بالواسطة عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٦٢

لقد ورد نفس هذا المعنى بشيء من الاختلاف (إتياء كتاب أعمال الأبرار باليمين والفجار بالشمال) في الآية الثانية عشرة من الآيات السالفة الذكر: «فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَاباً يَسيراً * وَيُنْقَلَبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُوراً * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبوراً * وَيَصْلَىٰ سَعيراً».

فذكرت الآيات السابقة أن كتاب أعمال الفجار يؤتى بالشمال، أما هذه الآيات فذكرت أن كتاب الفجار يوتى (وراء الظهر) ويراد بهذا المعنى أن المجرمين عندما يعطون كتبهم بشمائلهم فانهم ولشدة حياهم يجعلون أيديهم وراء ظهورهم حتى تقل رؤية الجمع لهذا السند، سند الجريمة والفضيحة، أو لأن أيدي الشمال مغلوله وراء ظهورهم فكما أنهم جعلوا كتاب الله وراء ظهورهم في الحياة الدنيا فهنا تجعل كتب أعمالهم وراء ظهورهم، أو لكون وجوههم مقلوبة وراء ظهورهم ولأجل رؤية كتب أعمالهم فهم يأخذون كتبهم من وراء ظهورهم ولا منافاة لأى من هذه المعاني الثلاثة للآية وما ورد في الآيات السابقة.

ما المراد ب (الأهل) الذي ذكرته الآية الكريمة؟

قيل: إن المراد بالأهل هم النساء والأولاد والآخريين من أهل الإيمان الذين يدخلون الجنة قبلهم، وقيل: إن الأهل هنا إشارة إلى الحور العين، وقيل: إن المقصود بالأهل هم سائر المؤمنين الذين لهم سبق قدم في الجنة وذلك لأن المؤمنين كلهم أهل لبعضهم البعض، وفي الحقيقة (إنهم جزء من أسرة واحدة)، ونرى أن التفسير الأول هو الأنسب بدليل أن نفس هذا التعبير ورد في الآية ١٣ من نفس السورة ويراد به الأسرة والزوجه والأولاد والأقرباء، واتحاد السياق يدل على أن المعنى واحد.

ولقد قسمت الآية الثالثة عشرة هذا التقسيم (أصحاب اليمين وأصحاب الشمال) بشكل آخر: «أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ* وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمِ».

«الميمنة»: مشتقة من مادة (اليمين) بمعنى السعادة والبركة، ولقد فسرها البعض وقال:

إنها مأخوذة من مادة (يمين) أي اليد اليمنى يقولون: إنهم الأفراد الذين يعطون كتبهم

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٦٣

بأيمانهم (صحيح أن مادة يمن) و (يمين) مشتقة من أصل واحد ولكن معنى أحدهما الخير واليمن والسعادة، ويعنى الآخر اليد اليمنى التى يرونها مظهراً من مظاهر البركة.

ويعتقد الراغب - كما ورد فى مفرداته - أن أساس الكلمتين يحمل نفس مفهوم اليد اليمنى فىرى أن الخير واليمن والبركة تحصل بالأفعال التى تنجز بواسطة اليد اليمنى

فهذه الكلمة جاءت بمعنى الخير والبركة ويقابلها كلمة المشئمة.

«والمشئمة»: مشتقة من (شؤم) وعلى قول صاحب كتاب مقاييس اللغة أن المعنى الأصل لهذه الكلمة هو نفس اليد اليسرى وأنهم يعتقدون بأن اليد اليسرى والأعمال التى تنجز بواسطتها إشارة إلى الشر وسوء الحظ.. ولهذا استعملت كلمة شؤم بهذا المعنى وبهذا السياق، ويكون المراد من (أصحاب الميمنة) و (أصحاب المشئمة) فى الأصل نفس معنى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال الذين يؤتون كتبهم إما باليمين أو بالشمال، وبهذا فإن تفسير الآية بمجموعة تكون (سعيدة مسرورة) وأخرى (شقية تعيسة) بعد المعنى الثانى من معانى الآية الكريمة، ولقد فسر الفخر الرازى أصحاب الميمنة ب (أصحاب الجنة) إذ يقول «١»:

هم أصحاب الجنة وتسميتهم بأصحاب الميمنة إما لكونهم من حملة كتبهم بأيمانهم وإما لكون أيمانهم تستنير بنور من الله تعالى كما قال تعالى «يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ». (الحديد / ١٢)

وإما لكون اليمين يراد به الدليل على الخير، والعرب تتفاءل بالسائح وهو الذى يقصد جانب اليمين من الطيور إذ يتفاءلون بها بالخير، والتى تطير من الشمال، بالشر.

جملة (ما أصحاب الميمنة وما أصحاب المشئمة) جاءت على صيغة استفهامية، وهذه إشارة إلى المقام الرفيع جداً للطائفة الاولى والمقام الدنىء جداً للطائفة الثانية فكان منزلة وبركات الطائفة الاولى من العلو والسمو بحيث تخرج عن مستوى تفكير الإنسان، وهذا التفسير كناية لطيفة عن هذا المعنى على عكس التعبير الثانى الذى هو كناية عن شدة

(١). التفسير الكبير، ج ٢٩، ص ١٤٢.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٦٤

الانحطاط والتدنى، ومع عدم ورود كلام عن كتاب الأعمال فى هذه الآيات إلآ أننا إذا أخذنا سائر الآيات القرآنية التى جاءت فيها هاتان الكلمتان بنظر الاعتبار يكون التفسير أعلاه مناسباً لهذا المعنى

أما الآية الرابعة عشرة من الآيات السالفة الذكر والتى وردت فى نفس سورة الواقعة:

«وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ* فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ» «وَأَصْحَابُ الشَّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشَّمَالِ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ».

فقد ذكر المفسرون في تفسير هذه الآيات نفس المعاني التي وردت في تفسير الآيات السابقة.
فقال: هم الذين يعطون كتبهم بأيمانهم أو بشمائلهم أو هم أصحاب اليمين والبركة أو تيسو الحظ أو الذين يتجهون نحو الجنة من اليمين أو نحو الجحيم من اليسار أو هم الذين يظهر نورهم على يمينهم «١».

صحيفة أعمالنا أمام أنظار الجميع:

نلاحظ في الآية الخامسة عشرة تعبيراً جديداً حول صحف الأعمال وهذا التعبير عميق المحتوى «وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ» «عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ».

«نشرت»: مشتقة من مادة (نشر) بمعنى الفتح، أما سبب ذكر هذا التعبير بخصوص كتاب الأعمال فإما لكون الكتاب يطوى أثناء الموت ويعاد فتحه عند الحساب يوم القيامة ومثله كمثل الملف الذي يُغلق بختم المحقق ثم يفتح أثناء المحكمة، وإما أن تكون الصحف كلها مجموعة عند الله تبارك وتعالى وتنشر وتقسّم بين أصحابها يوم القيامة.

لقد انتخب بعض من المفسرين أحد المعنيين السالفين، واحتمل البعض الآخر كليهما، ونحن نقول: إن التفسير الأول هو الأنسب لسياق الآية، على أيّة حال فإن صحف الأعمال

(١). تفسير التبيان، ج ٩، ص ٤٩٣؛ وتفسير البيان؛ وتفسير الكبير؛ وتفسير في ظلال القرآن، ذيل الآيات مورد البحث.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٦٥

سوف تنشر في ذلك اليوم بحيث لا يطلع عليها أصحابها وحسب بل يطلع عليها أهل المحشر أيضاً وتستذكر جميع الأعمال المنسية، وهذا هو أحد عوامل الفرغ واستبشار الصالحين، وعذاب وثبور وخزي أهل النار، وهذه شهادة على هذا المعنى ولذا تقول الآية: «وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا». (الاسراء/ ١٣)

يستفاد مما ورد في مجموع الآيات السالفة الذكر أنه إضافة إلى إحاطة وعلم الله تبارك وتعالى بأعمال الناس وشهادة الجوارح وسائر شهود يوم القيامة فإن أعمالنا مسجلة في كتاب، وهذا التسجيل يؤدي بواسطة رسل وملائكة الله.

وفي يوم القيامة يؤتى الأخيار صحائف أعمالهم بأيمانهم والأشرار بشمائلهم وتنطق هذه الكتب وتخبر عن كل ما فيها، وتنشر الصحف وتعرض على الخلائق ويطلع أهل المحشر على أسرار وأخبار هذه الصحف، فأصحاب اليمين يتلقون كتبهم مسرورين مستبشرين ويدعون الجميع لقراءة كتبهم، أما أصحاب الشمال فيعلو صراخهم وعويلهم وثبورهم من شدة خوفهم وهلعهم. ونحن نجد في هذه التعابير الكثير من الجوانب التربوية، سنتعرض إليها في فقرة التوضيحات.

توضيحات

١- صحف الأعمال في الروايات الإسلامية

إن لموضوع كتب الأعمال أو صحف الأعمال صدقاً واسعاً في الروايات الإسلامية، وقد جاءت بعض الروايات كتعبير للآيات السابقة، وهناك روايات مستقلة عن الآيات.

وسنشير إلى بعض من هذه الروايات التي تتضمن كل واحدة منها جوانب تربوية هامة:

١- نقرأ حديثاً ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «إذا كان يوم القيامة دفع إلى الإنسان كتابه ثم قيل له اقرأ، قلت: فيعرف ما فيه؟

فقال: إن الله يذكره فما من لحظة ولا كلمة ولا نقل قدم

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٦٦

ولا شيء فعله إلا ذكره كأنه فعله تلك الساعة! فلذلك قالوا يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها» (١).

٢- نقرأ في إحدى خطب نهج البلاغة أن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قال: «ونستغفره مما احاط به علمه وأحصاه كتابه، علم غير قاصر وكتاب غير مغادر» (٢).

٣- جاء في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام: «وليست تشهد الجوارح على مؤمن، إنما تشهد على من حقت عليه كلمة العذاب، فأما المؤمن فيؤتى كتابه بيمينه» (٣).

٤- ونقرأ حديثاً آخر للإمام الصادق عليه السلام: «إن الله تبارك وتعالى إذا أراد أن يحاسب المؤمن أعطاه كتابه بيمينه وحاسبه فيما بينه وبينه فيقول: عبدى فعلت كذا وكذا وعملت كذا وكذا. فيقول: نعم يارب قد فعلت ذلك. فيقول: غفرت لها لك وأبدلتها حسنات. فيقول الناس سبحان الله أما كان لهذا العبد سيئة واحدة؟ وهو قول الله عز وجل: «فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا» (٤).

٥- نقل في سنن الترمذى عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات: فأما عرضتان فجدال ومعاذير، وأما العرضة الثالثة فعند ذلك تطير الصحف فى الأيدي: فأخذ بيمينه وأخذ بشماله» (٥).

إن هذا التعبير تضمن إشارة إلى (تطير الكتب) الذى جاء فى عبارات مختلفة، واتضح من خلال هذا الحديث أن صحف الأعمال تتحرك من محلها الأصل (عند العرش أو عليين أو سجين الذى هو مركز جمعها) فتلقى بيد صاحبها فهذا التعبير يدل بوضوح على أن كتاب الأعمال هو ليس صفحة الروح الإنسانية بل هو الآثار التى تثبت خارج وجوده (تأمل).

(١). بحار الأنوار، ج ٧، ص ٣١٥.

(٢). نهج البلاغة، خطبة ١١٤.

(٣). بحار الأنوار، ج ٧، ص ٣١٨، ح ١٤.

(٤). المصدر السابق، ص ٣٢٤، ح ١٧.

(٥). سنن الترمذى، ج ٤، ص ٦١٧، ح ٢٤٢٥.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٦٧

٢- ماهية صحف الأعمال

مما لا شك فيه أن صحف الأعمال الذى تعرض يوم القيامة ليست كمثل الأوراق والدفاتر والكتب المتداولة وإنما هى نقوش معبرة غير قابلة للانكار، فلو أن كتاب الأعمال كمثل هذه الأوراق والدفاتر المستعملة اليوم لاستوجب الأمر ملايين الأوراق لكتابة أعمال الإنسان خلال فترة عمره ولما أمكن للجميع مطالعة مثل هذا الكتاب ولما كان موجباً لخزى وفضح الأشرار وفخر الأخيار، فى حين استفاد من الآيات والروايات أن أعمال الإنسان مثبتة بحيث يمكن الوقوف عليها بإلقاء نظرة واحدة، إضافة إلى ذلك أن الخطوط والنقوش الاعتيادية ليست بالشكل الذى لا يمكن انكارها، فى حين يتضح من الآيات والروايات أن خطوط هذا الكتاب ليست قابلة للانكار وهى سند حى وواضح لكل شخص وحتى لأصحابها.

نتطرق هنا بدقة إلى بعض التفاسير المختلفة التى قيلت بخصوص صحف الأعمال:

١- قيل فى تفسيرها: (هى بعينها نفس الإنسان التى رسخت فيها آثار أعماله بحيث نقشت بها).

وجاء ما يطابق هذا التعبير في كتاب المرحوم الفيض الكاشاني حيث يقول: «إن كتاب الأعمال هو كناية عن نفس الإنسان التي رسخت فيها آثار أعماله» (١)، إلّا أنّ هذا المعنى الكنائى لا يتوافق مع ظواهر آيات القرآن الكريم وذلك لأنّ القرآن يذكر إتيان كتاب أعمال أصحاب اليمين بأيمانهم وكتاب الفجار بشمائلهم أو من وراء ظهورهم وهذا التعبير لا يتلائم مع التفسير المذكور إلّا إذا حمل تعبير (يمين) و (شمال) وسائر التعبيرات الأخرى على المعنى الكنائى وهذا خلاف الظاهر وهو غير جائر بدون دليل، إضافة إلى ذلك لا يمكن أن يتوافق هذا التعبير مع تطاير الكتب الذى ذكرناه سابقاً.

٢- للمرحوم العلامة الطباطبائى تعبير آخر فى هذا الصدد فيقول فى تفسير الميزان مستفيداً من الآية الشريفة: «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ...» (آل عمران / ٣٠)

(١). تفسير الصافى، ذيل الآية ١٣ من سورة الاسراء.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٦٨

«إن الكتاب يتضمن نفس الأعمال بحقائقها دون الرسوم المخطوطة على حدّ الكتب المعمول بها فيما بيننا فى الدنيا فهى نفس الأعمال يطلع الله الإنسان عليها عياناً ولا- حجّة كالعيان، إن كتاب الأعمال بحقائقها مستور عن إدراك الإنسان محجوب وراء حجب الغفلة وإنما يخرج الله سبحانه وتعالى يوم القيامة فيطلعها على تفاصيله» (١).

كذلك لا ينسجم هذا المعنى بما يتعلق ب (الملائكة الكاتين) وسائر الصفات الأخرى التى وردت فى الآيات والروايات وذلك لأنّ المراد من حقائق الأعمال على الظاهر هو نفس الآثار التى تترك أثراً فى داخل نفس الإنسان، وهنا يرد نفس الإشكال على تفسير المرحوم الفيض الكاشانى.

ولقد ذكر صاحب كتاب (روح المعانى) نفس هذا التفسير بشيء من التفصيل ثم اعترف بأنّ هذا التفسير لا ينسجم مع ظاهر آيات القرآن الكريم (٢)، ومن الممكن أن يقال: كما تترك أعمال الإنسان أثراً فى داخل نفسه كذلك تترك أثراً فى العالم الخارجى أيضاً، وتترك أثراً فى الفضاء والهواء وعلى الأرض التى يعيش عليها وفى كل شىء، وكأنّ أعماله نقشت بها نقشاً طبيعياً غير قابل للانكار.

وهذه النقوش تنقش فى أعماق هذه الموجودات بواسطة قوى عالم الوجود والملائكة، ويوم القيامة يكشف عنها الحجب وتظهر للعيان وتعطى بيد كل إنسان وتكفى نظره واحدة عليها للاطلاع على حال كل شخص.

ومن البديهي أنّ هذه الآثار لا يمكن إدراكها والاحساس بها فى هذه الدنيا رغم أنّها موجودة ومثبتة، وعندما يأتى ذلك اليوم الذى يكشف فيه هذا الغطاء ويصبح البصر حديداً فسوف نراها عياناً ونقرأها فنصدق.

وقد استطاع علماء اليوم من خلال دراسة علم الآثار ودراسة المتحجرات المتبقية من

(١). تفسير الميزان، ج ١٣، ص ٥٨. ذيل الآية ١٣ الاسراء.

(٢). تفسير روح المعانى، ج ١٥، ص ٣٢.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٦٩

الكائنات الحية منذ ملايين السنين أن يكتشفوا- إضافة إلى شكل هياكلها- الكثير من حقائق حياتها مع أنّ المتحجر ليس حيواناً بعينه بل هو بقايا منه بقيت لحقب طويلة داخل الطبقات الأرضية.

الصخور الأرضية هى فى الواقع كتاب أعمال وأشكال تلك الحيوانات مدون بخطوط غير قابلة للانكار.

نحن لا نقول إنّ كتاب الأعمال الذى يعرض يوم القيامة هو على هذه الصورة وذلك لأننا ذكرنا أكثر من مرّة أننا لا ندرك من القيامة

والمسائل المتعلقة بها إلّا نزرًا يسيرًا، ولكن في بعض الأحيان يمكن أن يكون الأثر الطبيعي هو نفس الأثر، ومن المناسب هنا أن نذكر حديثاً للإمام الصادق عليه السلام ورد في تفسير الآية ١٤ من سورة الاسراء: «يذكر العبد جميع ما عمل وما كتب عليه، حتى كأنه فعله تلك الساعة، فلذلك قالوا يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها» (١).

٣- احتمال البعض أنّ كتاب الأعمال هو (الضمير الباطن) للإنسان فقد أثبت علم النفس اليوم أنّ أعمال الإنسان تؤثر في وجدانه أو اللاشعور، وهذا التعبير لا يختلف عن تعبير الفيض الكاشاني وسائر المفسرين الذين أشرنا إليهم سابقاً، وفي الواقع أنّ هذا التعبير هو تعبير جديد مشتق من المعنى القديم، والتفسير الثالث هو الأنسب من بين التفاسير الأربعة. على أيّة حال يجب أن نقول بما أنّ مسألة كتاب الأعمال وردت في القرآن الكريم وأكدت الروايات المختلفة لذا يجب أن نؤمن بها حتى وإن لم ندرك مفهومها ومحتواها بشكل تفصيلي، مثلها كمثل سائر المسائل المتعلقة بيوم القيامة، أو أنّ كتاب الأعمال هو مجموعة الآثار التي خطتها أعمالنا خارج وجودنا وتجمع يوم القيامة وتوضع بين أيدينا حسب الأمر الإلهي، وبتعبير آخر هي مجموعة الآثار التكوينية التي يمكن تشبيهها من بعض الوجوه بالأفلام أو أشرطة التسجيل أو ما شاكلها. ونحن لا نجزم بأنّ الأمر هكذا بل نقول أنّ هناك أوجه للشبه بينها.

(١). تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٢٦٧، ح ١١٥.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٧٠

٣- فلسفة كتاب الأعمال

مِمّا لا شك فيه أنّ البيان المفصل لكتاب الأعمال في الآيات القرآنية والروايات، مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من أعمالنا وأقوالنا ونياتنا إلّا أحصاها يهدف بالدرجة الأولى إلى إيجاد آثار تربوية على نفس الإنسان. ولقد ذكرنا أنّ القرآن اتخذ من بيان جميع المعارف الواقعة وسيلةً لتهديب النفوس وتكامل الأرواح وتنمية مكارم الأخلاق وتقوية عامل التقوى عند الإنسان، كما أنذر الناس كافة ليراقبوا أفعالهم وأقوالهم وسلوكهم وصرّح بأنّ كل شيء في كتاب وسوف تعرض الأعمال من خلاله يوم القيامة من غير نقصان.

حقاً إنّ الاحاطة العلمية لله تعالى هي فوق كل شيء، ومن يؤمن إيماناً كاملاً بالاحاطة العلمية لله وحضوره الوجودي في كل شيء وفي كل زمان لا حاجة له بكتاب الأعمال ولكن في الغالب يمكن أن يكون الالتفات لهذه الحقيقة منشأً لكثير من الآثار على أغلب الناس، فمن يعلم أنّ هناك أشرطة لتسجيل صوته أينما كان وهناك جهاز مجهز بأفلام لتصوير كل حركاته وسكناته، سرّها وعلنها، ظاهرها وباطنها، وأنّ هذه الأشرطة والأفلام سوف تعرض على شكل ملف كامل غير قابل للانكار في إحدى المحاكم الكبيرة، فيقينا أنّ مثل هذا الإنسان سوف يراقب كل أفعاله وأقواله وسلوكه بشكل كامل وتكون التقوى هي الحاكمة على ظاهره وباطنه.

إنّ الإيمان بكتاب الأعمال الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها والإيمان بالملائكة الذين يراقبون الإنسان ليلاً ونهاراً ويحسون عليه كل أعماله، وكذلك الاعتقاد بأنّ هذه الصحف سوف تنشر يوم القيامة في ساحة المحشر ويكشف فيها عن جميع السرائر فتوجب الخزي والفضيحة أمام الأصدقاء والأعداء، كلّها لها أثر عجيب في الكفّ عن الذنوب وارتكاب المآثم.

هذا على عكس كتاب الأبرار الذي يكون موجياً للفخر والكرامة في المحشر وحتى أنّه أفضل وأعلى وأكثر تأثيراً ممّا ذكر في مقال الشريط والفلم، وهذا عامل مهم جداً للتزود من

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٧١

الأعمال الصالحة، ولولا ضعف الإيمان أحياناً ووجود حجب الغفلة التي تكون العامل في أبعاد الإنسان عن هذه الحقائق المهمة لكان

الاعتقاد بهذا المبدأ القرآني كافياً لتربيته وتركيبه كل إنسان.

ونذكر هنا إن بعض الأدعية تتضمن دروساً تربوية للإنسان وتركز على إبراز هذا المعنى فنقرأ في الدعاء المعروف بدعاء كميل: «وكل سيئه أمرت بإثباتها الكرام الكاتبين الذين وكتبتهم بحفظ ما يكون مني، وجعلتهم شهوداً عليّ مع جوارحي، وكنت أنت الرقيب عليّ من ورائهم والشاهد على ما خفي عنهم».

ونختم هذا البحث بذكر حديث للإمام الصادق عليه السلام، جاء في الاحتجاج للطبرسي أنه:

سأل رجل الإمام الصادق عليه السلام: عن علّة وجود الملائكة المأمورين بتثبيت الأعمال الصالحة والسيئة ونحن نعلم بأنّ الله (عالم السر والخفيات وما هو اخفى .

فقال الإمام عليه السلام: «استعبدهم بذلك وجعلهم شهوداً على خلقه ليكون العباد لملازمتهم إياهم أشدّ على طاعة الله مواظبةً وعن معصيته أشدّ انقباضاً، وكم من عبد يهيم بمعصيته فذكر مكانهما فارعوى وكفّ، فيقول ربّي يراني، وحفظتي عليّ بذلك تشهداً!» (١).

٤- أقسام كتب الأعمال

كما أشرنا سابقاً ومن خلال الآيات القرآنية أنّ هناك ثلاثة أنواع من كتب الأعمال:

الأول: هو الكتاب الذي يختص بكل إنسان ويعرض جزئيات الأعمال ويعطى باليمين أو بالشمال.

ولقد ورد هذا المعنى في كثير من الآيات التي سبق ذكرها ومن جملتها: «وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مُمْشُورًا» إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً. (الاسراء / ١٣)

إنّ تعبير (كل إنسان)، وكذلك تعبير (كتابك) إشارة واضحة إلى كتاب الأعمال الخاص،

(١). الاحتجاج، ج ٢، ص ٩٥.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٧٢

وكذلك جملة: «هَذَا وَهُوَ أَقْرَبُ وَأَوْفَى كِتَابِيهِ»، وجملة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْتِ كِتَابِيهِ» وفي سورة الحاقة الآيات ١٩، ٢٥ إشارات أخرى إلى هذا المعنى

الثاني: كتاب أعمال الامم، أي الكتاب الذي تجمع فيه أعمال الامم كما ورد قوله تعالى:

«كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا». (الجاثية / ٢٨)

وقد ورد تعبير كتاب بصيغة المفرد وليس بصيغة الجمع وهذا يدل على أنّ المراد (الامة الواحدة).

الثالث: الكتاب الذي ثبت فيه أعمال جميع الأمم وكافة الناس من الأولين والآخرين، فهو بمثابة السجل المركزي العام الذي تسجل فيه جميع الحسابات، ولقد أشار إليه تعالى:

«وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ». (الكهف / ٤٩)

وجاء هذا التعبير بصورة أوضح في قوله تعالى بعد ذكر الأموات وبيان كتابه الأعمال وآثارها من قبل الله تبارك وتعالى: «وَكُلُّ شَيْءٍ

أَخَصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ». (يس / ١٢)

فورد الكتاب في هذه الآية بصيغة نكرة (التي تفيد الأفراد) وهذا يدل على أحصاء جميع أعمال الخلائق بل إنّ كل الأشياء جمعت في كتاب واحد.

وقد أشار المرحوم العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان إلى هذه الكتب الثلاثة «١»: ولو أنّ هناك اختلاف بين الآيات التي استشهاد بها وبعض هذه الأقسام التي ذكرناها.

ويمكن أن نستفيد من الآيتين ٧، ٨ من سورة المطففين أن (الأبرار) أو (الفجار) كل منهم له كتاب خاص وهذا يعدّ النوع الرابع من كتب الأعمال.

على أية حال فلا توجد أية منافاة بين هذه الكتب، ولا مانع من تسجيل عمل ما في عدّة كتب وسجلات مختلفة لغرض التأكيد والدقّة، وهذا ما نلاحظه في حياتنا اليومية.

إنّ هذه الكتب وعلى اختلاف أنواعها كلّها تؤكد على حقيقة واحدة مفادها أن يكون الإنسان واعياً يقظاً وليعلم بأنّ أعماله لم تسجل في مكان واحد بل إنّها مثبتة في عدّة أماكن وسجلات، ومن غير الممكن أن يصدر من الإنسان عملاً ما ولا يحاسب عليه يوم القيامة، ويجب أن نعلم بأنّ الله تعالى هو الرقيب على الإنسان من وراء كل هذه الكتب والشهود.

(١). تفسير الميزان، ج ٣، ص ٣٤٨.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٧٣

٥- خصائص كتاب الأعمال

من مجموع الآيات والروايات السابقة يمكن تحديد الخصائص الآتية لكتاب الأعمال وهي:

١- كتاب الأعمال هو صحيفة عمل لمجموع عمر الإنسان وهو لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها.

٢- كتاب الأعمال حي ناطق ولا مجال فيه لأدنى شك أو ريب وهو غير قابل للانكار، وكل شخص يتمكن من الفصل والحكم بمشاهدته وحتى المجرمون أنفسهم.

٣- إنّ كاتبى صحيفة الأعمال ملكان وقد عبّر عنهما القرآن ب (رقيب) و (عتيد)- وكما ذكرنا- يستفاد من بعض الروايات أنّ ملائكة الليل والنهار منفصلون عن بعضهم البعض وكل واحد منهم يعطى مكانه للآخر، ولقد أشارت بعض آيات القرآن الكريم إشارة عابرة إلى هذا المعنى

٤- يظهر من بعض الروايات أنّه إضافة إلى ذلك يوجد ملائكة آخرون توكل بهم مهمّة تسجيل بعض الأعمال الخاصة كما ورد في حديث عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المسجد ملائكة يكتبون الأول فالأول، فاذا جلس الإمام طووا الصحف و جاؤوا يستمعون الذكر» (١).

٥- يستفاد من بعض الروايات أنّ الحسنات تكتب فوراً أمّا السيئات فتكتب بعد حين (لعل صاحبها يتوب عن فعله).

ونختم هذا البحث بذكر بعض الجمل القيمة من أدعية الإمام السجاد عليه السلام والتي وردت في (الصحيفة السجادية) ولنردد معه هذا الدعاء: «اللهم يسر على الكرام الكاتبين مؤنتنا، واملأ لنا من حسناتنا صحائفنا ولا تخزنا عندهم بسوء أعمالنا» (٢) وفي مكان آخر قال:

«فصل على محمد وآله واجعل ختام ما تُحصى علينا كتبه أعمالنا توبة مقبولة» (٣).

(١) صحيح مسلم، ج ٢، ص ٥٨٧، ح ٨٥٠، ولعل مفهوم الحديث هو إذا تأخر المصلى عن الوقت المحدد لصلاة الجمعة فسوف لن يكتب اسمه في تلك الصحف.

(٢) الصحيفة السجادية الدعاء ٦.

(٣) المصدر السابق، الدعاء ١١.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٧٥

٤- حضور الأعمال

تمهيد:

المطلعون على الآيات القرآنية يعلمون جيداً بأن بعضاً منها يتحدث عن حضور الأعمال يوم القيامة. أى أن عمل كل شخص يعرض أمامه فى ذلك اليوم خيراً كان أو شراً ويكون موجباً لسروره وسعادته أو عذابه ومعاناته، موجباً للفخر والكرامة أو للفضيحة والعار.

فهل بالإمكان بقاء أعمال الإنسان التى هى عبارة عن مجموعة حركات تمحى وتزول بعد انقضائها؟ وهل من الممكن أن يتحول «العمل» الذى هو جزء من مقومات وجود الإنسان إلى مادة وجسد ويظهر بصورة مستقلة؟ إن الكثير من المفسرين عجزوا عن الإجابة عن هذه الأسئلة، فما كان لهم من حيلة إلا إلى الحدس والتقدير، فقالوا مثلاً إن المراد ب (حضور الأعمال) أو مشاهدة العمل «حضور وشهادة جزاء العمل، ثوابه أو عقابه». ولكننا نعتقد اليوم بأن لكل من هذه المسائل جواب وعلى هذا الأساس لا نجد أى دليل لانكار ظواهر هذه الآيات التى تدل على تجسد أعمال الإنسان.

والجدير بالذكر، أن محتوى هذه الآيات- مع الأخذ بنظر الاعتبار معناها الحقيقى لا المجازى- ذات معنى عميق ونافذ ومؤثر، ويحل لنا الكثير من المشاكل ويوجب عن الكثير من الأسئلة التى تطرح حول عالم القيامة والحساب، كما تترك أثراً كبيراً ومفيداً فى حياة الإنسان من الناحية التربوية، وقبل أن نتناول هذا الموضوع نعمن خاشعين فى بعض الآيات

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٧٦

القرآنية التى تشير إلى مسألة حضور الأعمال:

- ١- «يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لَّيْرُوا أَعْمَالَهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ». (الزلزال / ٦-٨)
- ٢- «وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا». (الكهف / ٤٩)
- ٣- «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا». (آل عمران / ٣٠)
- ٤- «وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ». (١) (الزمر / ٤٨)
- ٥- «سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». (آل عمران / ١٨٠)
- ٦- «وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ * وَإِذَا الْجَنَّةُ أُرْلِفَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أُخْضِرَتْ». (التكوير / ١٢-١٤)
- ٧- «وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُؤْفِيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ». (الاحقاف / ١٩)
- ٨- «وَأُوفِيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ». (الزمر / ٧٠)
- ٩- «وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ». (٢) (البقرة / ٢٧٢)
- ١٠- «ثُمَّ تُؤَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ». (البقرة / ٢٨١) (آل عمران / ١٦١)
- ١١- «يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ». (٣) (التوبة / ٣٥)
- ١٢- «إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ». (٤) (الطور / ١٦) (التحریم / ٧)

- (١). وجاء نظير هذا المعنى في الآية ٥١ من سورة الزمر.
- (٢). هناك آيات اخرى بهذا المضمون، النمل، ١١١؛ آل عمران، ٢٥؛ هود، ١١١.
- (٣). الزمر، ٢٤ تفيد نفس المعنى
- (٤). هناك آيات اخرى بنفس المضمون، وفي الأعراف، ١٤٧ و ١٨٠؛ سبأ، ٣٣.
- نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٧٧

جمع الآيات وتفسيرها

يومئذ كل يرى عمله:

لقد أشارت الآيات الاولى الواردة في آخر سورة الزلزال ثلاث مرات إلى مسألة رؤية الأعمال «يَوْمَئِذٍ يَصِفُّ دُرُّ النَّاسِ أَشْتَاتًا لِّئِرْوَا أَعْمَالَهُمْ» و «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ» ثم «وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ». «اشتاتاً»: جمع (شت) على وزن (شط) بمعنى «التفرق»، وقد يكون سبب تفرق صفوف الناس في ذلك اليوم ورود كل امه يمامها أو أن يتفرق أهل الإيمان عن أهل الكفر والعلماء عن المتعلمين والشهداء عن غيرهم «١».

«مِثْقَالٌ»: بمعنى وزن، والذرة هي الأجزاء الصغيرة جداً، لذا فقد فسّرت الذرة أحياناً بذرات الغبار واخرى بالنملة الصغيرة جداً، ويشير ظاهر الآيات بوضوح إلى أن الأعمال الصالحة أو السيئة تتجسد أمام صاحبها في المحشر، ولو أن بعض المفسرين - وبسبب عدم قبولهم لمسألة تجسم الأعمال للأسباب التي أشرنا إليها في بداية الموضوع - قالوا بالتقدير فقدروا كلمة «جزاء»، والمراد حضور ومشاهدة جزاء الأعمال، وقال البعض: إن الرؤية هنا بمعنى العلم والمعرفة أى المشاهدة بعين العقل، وقال البعض الآخر: المراد مشاهدة كتاب الأعمال.

ومن المسلم أن التفاسير الثلاثة لا تتوافق مع ظاهر الآية وذلك لأن تقدير أخذ (الجزاء) أو (صحف الأعمال)، مخالف لظاهر الآية والرؤية هنا بمعنى المشاهدة بالعين لا بالقلب التي تنصب مفعولين، فمن المعلوم أن الرؤية القلبية تتعدى إلى مفعولين والرؤية الظاهرية تتعدى إلى مفعول واحد، وفي هذه الآية لا نرى إلّا مفعولاً واحداً لا أكثر (فتأمل).

والجدير بالذكر أن ابن عباس وبالرغم من كونه أقدم المفسرين قد قبل هنا بمسألة رؤية الأعمال، فيقول في روايه وردت عنه: «ليس من مؤمن ولا كافر عمل خيراً أو شراً إلّا أراه الله إياه، أمّا المؤمن فيغفر له سيئاته

(١). تاج العروس في شرح القاموس مادة (شت) ويقول البعض أنّها جمع شتيت والبعض الآخر جمع شتات.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٧٨

ويشبهه بحسناته، وأمّا الكافر فيردّ حسناته تحسيراً له» «١».

ونرى في أحاديث المعصومين الواردة في تفسير الآيات تعابير واضحة تدل على رؤية وحضور الأعمال، منها ما قاله أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المعنى

«فمن كان من المؤمنين عمل في هذه الدنيا مثقال ذرة من خير وجده ومن كان من المؤمنين عمل في هذه الدنيا مثقال ذرة من شر وجده» «٢».

ونجد في الآية الثانية تعبيراً آخر في هذا المعنى فبعد الإشارة إلى كتاب الأعمال قال تعالى «وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا». وقال تعالى «وَلَا يَظَلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا».

لقد استبعد جمع من المفسرين فكرة حضور الأعمال في هذه الآية فقد فسروها أحياناً بمعنى حضور أخبار الأعمال في كتاب الأعمال وأحياناً أخرى بمعنى حضور جزاء الأعمال ولكن البعض الآخر احتمل حضور نفس العمل «٣». وعلى حد قول المرحوم العلامة الطباطبائي «يمكن أن يكون ذيل الآية شاهداً على هذا الموضوع، وذلك لأن حضور نفس العمل لإثبات نفى الظلم عنه تعالى أفضل وأوضح» (فتأمل جيداً). ولقد طرحت الآية الثالثة هذا التعبير بصراحة وتفصيل أكثر، وذلك لأن الكلام كان يدور في الآية السابقة حول الكافرين والمجرمين، أما في هذه الآية: «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا»، فهناك قولان في تفسيرها:

(١). تفسير روح البيان، ج ١٠، ص ٤٩٤.

(٢). تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٤٥٠.

(٣). تفسير روح المعاني، ج ١٥، ص ٢٦٧؛ و تفسير روح البيان، ج ٥، ص ٢٥٤.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٧٩

الأول: هو أن يجد كل إنسان ما عمل من أفعال الخير والشر محضرة يوم القيامة.

الثاني: هو أن يجد كل إنسان ما عمل من أعمال الخير محضرة ويود أن تكون هناك فاصلة زمنية بينه وبين أعماله السيئة، ويرجع هذا الاختلاف في تفسير الآية إلى مكان الوقوف فيها، فمنهم من قال: «إن الوقوف بعد (محضراً) ومنهم من قال: إن الوقوف بعد سوء» «١». لكن النتيجة في كلا التفسيرين واحدة، وذلك لأن الاستفادة من المعنى الثاني أيضاً هو حضور أعماله السيئة لديه وإن كان يتمنى وجود فاصلة بينه وبينها.

وقد ورد احتمال آخر لبعض المفسرين فيرى أن المجرمين يودون لو أن بينهم وبين السوء الذي عملوه أمداً بعيداً أو أن بينه وبين هذا اليوم أمداً بعيداً «٢».

ومن المعلوم أن الإنسان يتمنى أن يكون بينه وبين الأمور التي ينفر منها فاصلة مكانية بعيدة، في حين أن المراد ب (أمداً بعيداً) الذي ورد في الآية الكريمة يقصد بها الفاصلة الزمانية البعيدة.

ومن الممكن أن يكون سبب هذا التعبير هو أن احتمال الحضور والتلاقي يكون أكثر في الفواصل المكانية، أما احتمالها في الفواصل الزمانية فهو معدوم.

فمثلاً أن الشخص الذي يعيش خلال سنوات الحرب العالمية يشعر بنوع من القلق والاضطراب، حتى وإن كان بعيداً عن ساحة العمليات العسكرية، أما الذين تفصلهم فواصل زمنية (بعيدة) عن تلك الحرب فهم لا يشعرون بأي قلق أو اضطراب بسببها.

ومن المعلوم أن (الأمدة) تأتي دائماً للزمان، ويقول الراغب في مفرداته: «إن معناه يقترب من معنى (أبد) مع فارق بسيط هو أن (أبد) زمان ليس له أي حد محدود، أما (أمد) فهو زمان له حد مجهول».

(١). الحالة الأولى (الواو) وما عملت من سوء استثنائية، أما الحالة الثانية فلكون الواو: عاطفة فجملته «تود» جملة حالية.

(٢). ورد هذا الاحتمال في تفسير روح البيان، ج ٢، ص ٢١؛ وفي تفسير في ظلال القرآن، ج ١، ص ٥٦٩.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٨٠

فالحديث في الآية السابقة يدور حول حضور الأعمال، وتحدث هذه الآية عن احضار الأعمال، أي إنها تتناول موضوعاً أوسع، ووفقها فإن الله تعالى وبقدرته المطلقة يحضر جميع الأعمال الصالحة والسيئة شاء صاحبها أم أبي ولذا قال بعض المفسرين: إن هذا التعبير هو

أكثر اخافه وفرعاً من تعبير الآية السابقة.

ونواجه في الآية الرابعة تعبيراً جديداً أيضاً حول هذا الموضوع، قال تعالى «وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ». «بدا»: مشتقة من مادة (بدو) بمعنى الظهور التام، ولهذا قالوا للبراري (البادية) لظهورها بعكس المدن التي كانت تحاط بالأسوار والحصون فتختفي وراءها.

«سيئات ما كسبوا»: تعنى أعمال السوء، وقد فسرها البعض بمعنى جزاء هذه الأعمال، أو أنهم قدروا كلمة جزاء، ولكن ظاهر الآية يفيد أن أعمالهم السيئة تظهر واضحة جلية في ذلك اليوم، وذلك لأن السيئات - جمع سيئة - تعنى العمل السيء وليس سوء العمل (تأمل جيداً).

ومن الممكن أن يكون هذا التعبير إشارة إلى أن الكثير من الأعمال السيئة في هذا العالم تخفى صورتها الحقيقية مثل الرياء الذي يراد به غير الله تعالى ولكن في ذلك اليوم وهو يوم الكشف عن السرائر ويوم الظهور يكشف عن الوجه الحقيقي لجميع الأعمال، كما نقرأ في الحديث الوارد عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في تفسير هذه الآية: «هى الأعمال حسبوها حسنات فوجدوها فى كفة السيئات».

وهذا الحديث بدوره شاهد آخر على نظريته تجسم الأعمال «١».

(١). تفسير روح البيان، ج ٨، ص ١٢١.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٨١

ونواجه في الآية الخامسة تعبيراً جديداً أيضاً، فبعد أن ذمّت الآية البخلاء وأخبرت بأنّ البخل ليس خيراً لهم وإنما هو ضرر عليهم: «سَيَطُوفُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

يستفاد من هذا التعبير أنّ الأموال التي لم تدفع الحقوق المفروضة عليها ولم ينتفع بها أحد ستكون على شكل طوق تطوق به رقاب البخلاء يوم القيامة، فكما كان وزرها على عواتق أصحابها دون الانتفاع بها فكذلك الأمر في يوم القيامة.

ولقد ورد في تفسير العياشى نقلًا عن الإمام الباقر عليه السلام فى توضيح معنى هذه الآية قال:

«مامن عبد منع زكاة ماله إلّا جعل الله ذلك يوم القيامة ثعباناً من نار مطوّقاً فى عنقه» (١).

ولكن ما المقصود بالبخل فى الآية الكريمة: ممّا آتاهم الله من فضله؟

يعتقد بعض المفسرين أنّ الآية ناظرة إلى البخل فى العلم والمعرفة وحسب ما جاء فى سبب نزولها حيث نقل عن ابن عباس أنّ الآية نزلت فى كتمان اليهود لعلامات الرسول صلى الله عليه وآله «٢».

فى حين نجد أنّ هناك روايات عديدة ذكرت أنّ الآية تتعلق بمانعى الزكاة ولا يستبعد أن يكون للآية مفهوم واسع بحيث تشمل كل الهبات الإلهية التى ذكرناها والتى لم نذكرها.

ويلاحظ أنّ جمعاً من المفسرين لم يأخذوا بظاهر الآية وفسروها بجزاء الأعمال، وقال البعض منهم: إنّ المراد بالآية الكريمة البخلاء فهم مكلفون يوم القيامة بالإتيان بمثل هذه الأموال ولكنهم لن يتمكنوا من ذلك (أى إنّ الذى سيطوقون به هو التكليف وليس نفس الأموال).

ولكنّ هذا النوع من التفاسير إضافة إلى كونه يفتقر إلى الدليل كذلك فهو مخالف لظاهر الآية ولا يتوافق مع الروايات الكثيرة المنقولة عن أئمة الهدى عليهم السلام فى تفسير هذه الآية.

وتتحدث الآية السادسة عن موضوع جديد وهو (حضور واحضار العمل) قال تعالى

(١). تفسير العياشي، ج ١، ص ٢٠٧، ح ١٥٨.

(٢). لقد وردت رواية ابن عباس في كثير من التفاسير من جملتها تفسير القرطبي؛ تفسير روح المعاني؛ تفسير المنار، ذيل الآية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٨٢

«وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أُخْضِرَتْ».

قال المرحوم الطبرسي في مجمع البيان: «ما احضرت بمعنى ما وجدت حاضراً من عملها، والعجيب أنه يقول على أثرها: إن لإحضار الأعمال معنى مجازياً لأن العمل ليس بالشئ الذي يبقى إذ إنه يفنى بعد الأداء، وقال البعض إن المقصود هو حضور صحيفة الأعمال».

في حين - كما سنوضح ذلك في فقرة (التوضيحات) - أن الأعمال لا تفنى أبداً ولا مانع من تجسمها على شكل صور مناسبة في ذلك اليوم.

إن إحضار العمل سواء كان بمعنى (الإحضار) أو (الحضور) (حيث فسر بكلا المعنيين) يدل على ما نصبو إليه من هذا البحث.

استيفاء الأعمال يوم القيامة:

يلاحظ في الآيات السابعة والثامنة والتاسعة والعاشره تعبيراً آخرأ في مسألة تجسم وحضور الأعمال، حيث ورد في هذه الآيات أن أعمال الإنسان الصالحة والسيئة (الخير والشر) ترجع إلى الإنسان يوم القيامة كاملة غير منقوصة، والظاهر من كل هذه الآيات أن المراد هو استيفاء العمل نفسه وليس جزاء العمل أو كتاب العمل.

قال تعالى في الآية السابعة: «وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ».

وقال تعالى في الآية الثامنة بعد الإشارة إلى محكمة القيامة وكتاب الأعمال والشهود ونفى الظلم: «وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ»، فكأن هذه الآية تبين علمه الحكم بالحق وعدم ظلم الآخرين الذي ورد في الآية التي تسبقها فتقول: كيف يقع الظلم والجور على أحد في حين أن نفس أعماله توفى إليه؟! إضافة إلى ذلك أن هذه المحكمة

(١). تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٤٤.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٨٣

تدار من قبل من هو أعلم بما يفعلون.

ولقد جاء نفس هذا المعنى في الآية التاسعة: «وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ».

وكذلك ورد في الآية العاشرة نفس هذا المعنى أيضاً ولكن بعبارات أكثر عمومية وشمولية: «ثُمَّ تُؤَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ».

«ووفيت وتوفى ويوفى» كلها مشتقة من مادة (وفا) التي تعنى الوصول إلى الكمال و «توفيه»: بمعنى دفع الشئ بصورة كاملة و (توفى) بمعنى أخذ الشئ كاملاً.

ويجب أن نذكر أن القرآن الكريم يشير في بعض الموارد بقوله: «أَنَّمَا يُؤَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ». (الزمر/ ١٠)

ولكنه يقول في الآيات السابقة وبعض الآيات الاخرى إنهم يستوفون نفس أعمالهم، ونحن نقول: إنه لا منافاة بين الاثنين وذلك للاستفادة من مجموع الآيات الكريمة، فبالإضافة إلى تعلق الأجر والجزاء بالأعمال فإن أعمال الإنسان تستوفى في ذلك اليوم، ويمكن أن نشبه هذه المسألة بالسائق الذي يخالف مقررات المرور فكما أنه يتعرض لخسارة الاصطدام كذلك يجب عليه دفع الغرامة.

ولقد فسّر الكثير من المفسّرين هذه الآيات بأنّها كناية عن أخذ جزء الأعمال، لكننا نقول: هذا كلام لا دليل عليه بل وكما لاحظنا أنّ هناك الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة (التي سنشير إليها لاحقاً) تدلّ على تجسّم وحضور أعمال الإنسان يوم القيامة، لذا فنحن ندع الآيات ومعناها الظاهري.

وعلى هذا الأساس نتناول بحث تجسّم الأعمال كما فعل ذلك جمع من أهل التحقيق والتفسير والحديث. وفي الآية الحادية عشرة إشارة إلى الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله، وكذلك إشاراً إلى العذاب الأليم الذي ينتظر هؤلاء، فتذكر هذه الآية بوضوح الدراهم والدنانير التي اكتنزوها ولم ينفقوها في سبيل الله فسوف يؤتى بها يوم القيامة ويحمى عليها

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٨٤

في نار جهنّم وتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، ويقال لهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكذبون. من هنا يطرح هذا السؤال: لماذا خصت الآية هذه الأعضاء الثلاثة دون غيرها؟

قال البعض: لأنّها تشمل معظم البدن (وإنّما خصت هذه الأعضاء لأنّها تمثل معظم البدن) «١».

وقيل: لأنّ صاحب المال إذا رأى الفقير قبضَ جبهته وزوى يمينه وطوى عنه كشحه وولاه ظهره.

وقيل: إنّ المقصود من كسب الأموال حصول فرح في القلب يظهر أثره في الوجوه، وحصول شبع ينتفخ بسببه الجنبان، ولبس ثياب فاخرة يطرحونها على ظهورهم، فلما طلبوا تزيين هذه الأعضاء الثلاثة، لا جرم أن حصل الكى على الجباه والجنوب والظهور «٢». صحيح أنّ هذه الآية لم تذكر صراحة تجسّم الأعمال، ولكنّها دلّلت على حضور الأموال في عرصات يوم القيامة، ويمكن أن نعتبر نفس هذا التعبير إشارة إلى مسألة تجسّم الأعمال، وبالرغم من الزوال والفناء الظاهري لهذه الأموال ولكنها بحكم المعاد سوف تعود وتتجسّد هناك ويحمى عليها في نار جهنّم وتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم.

ثم يطرح هذا السؤال: ما المراد بالكنز هنا؟ هناك آراء عديدة في الإجابة عنه: فمما لا شكّ فيه أنّ للكنز مفهوماً واسعاً يشمل جميع الأموال النفيسة التي تجمع وتدخر في مكان ما، فهل يدلّ مفهوم الآية على أنّ حرمة ادخار جميع الأموال الفائضة عن الحاجة والتي يترتب عليها ماورد في هذه الآية من عقوبات؟ أم أنّ الآية تخصّ الذين يمتنعون من أداء الحقوق الشرعية كالزكاة وغيرها؟ أمّا الذين يؤدّون الحقوق الواجبة فلم تشملهم هذه الآية وماورد فيها من عقوبات؟

(١). تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ٢٦.

(٢). لقد ذكر الفخر الرازي ستّة أوجه في تفسير هذه الآية، تفسير الكبير ج ١٦ ص ٤٨، وأشار إلى هذا المعنى تفاسير روح البيان؛ وروح المعاني؛ والقرطبي.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٨٥

المشهور بين الفقهاء والمفسّرين والمحدّثين: هو المعنى الثاني، ولقد وردت بهذا الخصوص أحاديث كثيرة منقولة عن الطرفين (السنة والشيعه) ومن جملتها الحديث المنقول عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله: «أى مال أدت زكاته فليس بكنز» «١». كما أنّ هناك احتمالاً آخر وهو أنّ المجتمع الإسلامي إذا تعرض نتيجة تجميد رؤوس الأموال إلى أزمة اقتصادية شديدة، فيجب على أصحاب رؤوس الأموال اخراجها، إمّا عن طريق الانفاق أو عن طريق استثمارها في مجالات العمل المختلفة من أجل تأمين المتطلبات الضرورية للمجتمع.

فاذا اكتنزوا أموالهم في مثل هذه الأوضاع ولم يخرجوها للتداول والاستثمار فسوف تشملهم الآية الكريمة، ولعل ما يؤكّد هذا المعنى ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام إذ قال:

«ما زاد على أربعة الآف فهو كثر أدى زكاته أو لم يؤدها وما دونها فهي نفقة فبشرهم بعذاب اليم» (٢).

لا تجزون إلّما كنتم تعملون:

يلاحظ في الآية الثانية عشرة تعبير جديد في هذا الصدد وخلاصته أن جزء كم يوم القيامة هو نفس أعمالكم ونجد هذا التعبير في كثير من الآيات القرآنية فتارة يقول تعالى

«إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ».

ولقد ورد عين هذا التعبير في الآية ١٦ من سورة الطور والآية ٧ من سورة التحريم.

وقال تعالى: «وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ». (يس / ٥٤)

وقال أيضاً: «هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ». (النمل / ٩٠)

(١). تفسير المنار، ج ١٠، ص ٤٠٦ وفي صحيح البخارى هناك باب تحت عنوان (ما أدى زكاته فليس بكنز) ج ١، الجزء ٣، ص ١٣٢، وكذلك تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٢١٣.

(٢). تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٢١٣، ح ١٣٢.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٨٦

وقوله تعالى: «هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ». (يونس / ٥٢)

وهناك تعابير اخرى من هذا القبيل بشيء من الاختلاف، وبناء على ما جاء في ظاهر هذه الآيات فإنّ جزاء الإنسان نفس عمله، فأعماله ترجع إليه فتكون سبباً إمّا في شقائه ومعاناته وإمّا في سعادته وسروره، وهذا دليل واضح على مسألة تجسّم الأعمال وعودتها إلى صاحبها وهذا من العدل الإلهي.

وقد اعتبر بعض المفسّرين أنّ (الباء) هي باء السببية فيصبح المعنى «بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» أى إنّما تجزون بسبب الأعمال التي اقترفتوها (١).

في حين أنّ هذا التعبير على خلاف ظاهر الآية وهو غير جائز من غير دليل ولا علة للتقدير في الآيات السالفة الذكر، فما المانع من أن تحضر هناك نفس أعمال الإنسان لتشكّل القسم الأعظم من جزائه.

يقول المرحوم العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان في ذيل الآية ٧ من سورة التحريم:

«أى إنّ العذاب الذي تعذبون به هو عملكم السيء الذي عملتموه وقد برزت لكم اليوم حقيقته» (٢).

يتضح من مجموع الآيات التي تعرضنا إلى تفسيرها أننا إذا لم نتلاعب بظواهرها ولم نؤولها أو نحملها على معنى آخر ولن نقدر لها أى تقدير كجمله أو كلمه، وبتعبير أوضح إن فسرنا ظواهر الآيات كما هي عليه اتضح لنا أنّ أعمالنا تتجسد في يوم القيامة وفي محكمة العدل الإلهي أو المواقف الاخرى من ذلك اليوم، فتتجسّم وتبرز أمامنا بأشكال تناسب تلك الأعمال فتظهر السيئة على صورة موجودات قبيحة مخيفة ومزعجة، أما الصالحة فتتجسد على صورة موجودات لطيفة مؤنسة وتكون قرين الإنسان.

(١). قدر البعض كلمة (على) فيصبح المعنى (على ما كنتم تعملون).

(٢). تفسير الميزان، ج ١٩، ص ٣٨٨.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٨٧

توضيحات

١- رؤية الأعمال في الروايات الإسلامية

لقد وردت مسألة رؤية الأعمال بنطاق واسع في الروايات الإسلامية المنقولة عن الشيعة وأهل السنة، وهذه الكثرة بلغت إلى حد جعل المرحوم الشيخ البهائي يقول في إحدى محاضراته: «تجسم الأعمال في النشأة الأخروية قد ورد في أحاديث متكررة من طرف المخالف والمؤلف»، وستتطرق هنا إلى بعض من هذه الأحاديث:

١- ورد في حديث عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: روى أصحابنا «رضي الله عنهم» عن قيس بن عاصم قال: وفدت مع جماعة من بني تميم على النبي صلى الله عليه وآله فدخلت عليه وآله فدخلت عليه فقلت: يا نبي الله عظنا موعظة نتفجع بها، فإننا قوم نعب في البرية، فقال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «يا قيس إن مع العز ذلاً، وإن مع الحياة موتاً وإن مع الدنيا آخرة، فإن لكل شيء حسيباً، وإن لكل أجل كتاب وأنه لا بد لك يا قيس من قرين يدفن معك وهو حي وتدفن معه وأنت ميت، فإن كان كريماً أكرمك، وإن كان لثيماً أسلمك ثم لا يحشر إلامعك، ولا تحشر إلامعه، ولا تسأل إلا عنه فلا تجعله إلامعك فإنه إن صلح أنست به وإن فسد لا تستوحش إلامنه وهو فعلك».

وورد في ذيل الرواية أن قيس قال: يارسول الله أحب أن يكون هذا الكلام أياتاً من الشعر نفتخر بها على من يلينا وندخرها فأمر من يأتيه بحسان، فقال الصلصال (و كان حاضراً في المجلس) يارسول الله قد حضرتني آيات أحسبها توافق ما أراد قيس، فقال هاتها، فقال:

تجنب خليطاً من مقالك إتماقرين الفتى في القبر ما كان يفعل

ولن يصحب الإنسان من قبل موته ومن بعده إلا الذي كان يعمل! «١»

٢- في حديث آخر نقله أبو بصير عن الإمام الباقر عليه السلام أو الإمام الصادق عليه السلام: «إذا مات العبد المؤمن دخل معه في قبره ست صور، فيهن صورة أحسنهن وجهاً وأبهائن هيئته، وأطيبهن ريحاً، وانظفهن صورة، قال: فتقف صورة عن يمينه، واخرى عن يساره، واخرى بين يديه، واخرى خلفه، واخرى عند رجليه وتقف التي أحسنهن فوق رأسه، فإن أتى عن يمينه منعتة التي عن يمينه ثم كذلك إلى أن يؤتى من الجهات الست قال: فتقول التي أحسنهن صورة: ومن أنتم جزاكم الله عنى خيراً؟ فتقول التي عن يمين العبد: أنا الصلاة، وتقول التي عن يساره أنا الزكاة وتقول التي بين يديه أنا الصيام، وتقول التي خلفه: أنا الحج والعمرة وتقول التي عند رجليه، أنا بر من وصلت من اخواني؛ ثم يقلن من أنت؟

فأنت أحسننا وجهاً، وأطيبنا ريحاً وأبهانا هيبة فتقول أنا الولاية لآل محمد صلوات الله عليهم أجمعين» «١».

٣- ورد في حديث عن الرسول صلى الله عليه وآله: أنه قال: «قال لي جبرائيل: يا محمد! عش ما شئت فأنتك ميت، واعمل ما شئت فأنتك ملاقيه» «٢».

٤- وفي حديث آخر عن الرسول صلى الله عليه وآله: «إن المؤمن إذا خرج من قبره صور له عمله في صورة حسنة فيقول له من أنت؟ فوالله إنني لأراك امرأ صدق، فيقول له أنا عملك فيكون له نوراً وقائداً إلى الجنة» «٣».

٥- وفي الختام نذكر حديثاً ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «إذا وضع الميت في قبره مثل له شخص وقال له يا هذا كُنَّا ثلاثة، كان رزقك فانقطع بانقطاع أجلك، وكان أهلوك فخلفوك وانصرفوا عنك، وكنت عملك فبقيت معك، أما أتى كنت أهون الثلاثة عليك» «٤».

والأحاديث الواردة في هذا المجال كثيرة ومن جملتها أحاديث المعراج، فلما عرج

(١) كتاب المحاسن طبق نقل بحار الأنوار، ج ٦، ص ٢٣٤، ح ٥٠.

(٢) كنز العمال، ج ١٥، ص ٥٤٦.

(٣) المصدر السابق، ج ١٤، ص ٣٦٦.

(٤) فروع الكافي، ج ٣، (كتاب الجنائز)، ص ٢٤٠، ح ١٤.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٨٩

بالرسول صلى الله عليه و آله مَرَّ عَلَى الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فَرَأَى كُلَّ زَمْرَةٍ مِنَ الْعَاصِينَ تَعَذَّبُ بِعَذَابٍ شَبِيهِه بِأَعْمَالِهِمْ، كذلك شاهد أعمال الصالحين وهم ممنعون برفقة أعمالهم.

وما الأخبار الواردة حول الغيبة وتجسمها على صورة قطعة لحم متعفنة يتناولها المغتاب إلدليلاً آخر على هذا المعنى ويمكن أن نستنتج من مجموع الروايات والآيات السابقة أن أعمال الإنسان تتجسد في عالم البرزخ والقيامة في صور متناسبة مع العمل، وأن تعبير: «إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّهُمْ يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا». (النساء / ١٠) يدل على أن باطن العمل يتمتع بنوع من الحضور، فأكل مال اليتيم يكون في بطنه على شكل نار محرقة ومن لم تكن له عين باصرة لا يرى حقيقة هذا الأمر.

من هنا نقول إنه ليس من الضروري حمل جميع هذه الآيات والروايات على المعنى المجازي والكنائي أو إيجاد تأويل أو تقدير لها مع العلم بأنه لا يوجد أى مانع من العمل بظواهر مثل هذه الآيات وكما سنبين ذلك لاحقاً.

٢- تجسد الأعمال في منطق العقل

الإشكال الأول الذى يرد على مسألة رؤية وحضور الأعمال- كما يتضح من بعض كلمات المرحوم الطبرسى فى مجمع البيان- هو أن العمل من جنس «العرض» لا «الجوهر» فلا يحمل خواص المادة ولا هو مادة بنفسه لذا فهو يندم بعد حدوثه. والإشكال الثانى: هو أن العمل يمحي ويزول بعد وجوده، لذا فإننا لا نجد آثاراً من أحداثنا وأفعالنا الماضية إلّما أحدثت تغييراً فى بعض المواد الموجودة كتحويل الحصى والخشب والجص إلى بيت معين، وهذا ليس بتجسم وإنما هو تحوّل ناشئ من العمل (تأمل).

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٩٠

ولكن إذا أخذنا النكتتين أدناه بنظر الاعتبار فسوف تتضح الإجابة عن الشبهتين السالفتين وكذلك تتضح مسألة تجسم الأعمال: النكتة الأولى لقد ثبت اليوم أن المادة لا تفنى وحتى الأعمال فإنها تتحول إلى صور مختلفة.

فإن تحدثنا فستنتقل أصواتنا على شكل أمواج صوتية إلى الفضاء المحيط بنا وتصطدم بالأجسام التى تعترضها من جدران وأبنية وأجسام اخرى وتتحوّل إلى طاقة اخرى ومن الممكن أن يتغير شكل هذه الطاقة مرّات عديدة ولكنها لن تفنى وما حركات أيدينا وأرجلنا إلّانوع من الطاقة وهذه الطاقة (الميكانيكية) لا تفنى أبداً وإنما تتحول إلى طاقة حرارية أو طاقة اخرى والخلاصة: ليست المادة لا تفنى فقط بل وحتى طاقتها ثابتة ولا تفنى أيضاً بل تتحول من شكل إلى آخر.

النكتة الثانية: وقد تم إثباتها بشكل قاطع من خلال بحوث العلماء وتجاربهم وهى: إن هناك علاقة قريبة بين المادة والطاقة، أى أن المادة والطاقة مظهران لحقيقته واحدة، فالمادة عبارة عن طاقة مخزونة أما الطاقة فهى مادة غير مخزونة (حرّة)، لذا يمكن أن تتحول أحدهما إلى الاخرى تحت شروط معينة، فالطاقة الذرية هى تحول المادة إلى طاقة، وبتعبير آخر أن الطاقة الذرية: هى انشطار نواة الذرة وتحرير طاقتها الكامنة، ولقد أثبت العلماء أن الطاقة الحرارية للشمس تحصل نتيجة الانفجارات الذرية فيها، ولهذا السبب تفقد مقداراً كبيراً من وزنها كل أربع وعشرين ساعة ولو أن هذا النقصان ضئيل قياساً بوزن وحجم الشمس.

بلا شكّ وكما أن المادة قابلة للتحوّل إلى طاقة كذلك الطاقة فإنها قابلة للتحوّل إلى مادة، أى إذا تراكمت الطاقة المنتشرة فإنها تأخذ

حالة الجسم المادى.

وعلى هذا الأساس لا يوجد أى مانع من عدم فناء ومحو أعمالنا وأقوالنا التى هى طاقات مختلفة وارجاعها مرّة اخرى بأمر الله على صورة جسم.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٩١

ومن المسلم به أنّ كل عمل سيكون جسماً بما يتناسب مع خواصه وصفاته، فالطاقات التى تبذل فى سبيل الإصلاح وخدمه الناس والتقوى تظهر على شكل صورة جميلة تتناسب مع ذلك العمل.

أما الطاقات التى تستعمل فى مجال الظلم والجور والقيح والفساد فتتجسم على شكل صورة قبيحة مخيفه.

وعلى هذا الأساس تعتبر حالة تجسّم الأعمال احدى المعاجز العلميه للقرآن، وكما اتضح أنّ بقاء الطاقة وتحويل المادة إليها وبالعكس لم تكن مطروحة آنذاك، لكن الآيات والروايات تحدثت عن هذا الأمر بشكل واضح، وبناءً على ذلك لم تكن هناك مشكله لا من حيث كون الأعمال من جنس «العرض» ولا من حيث كونها- كما أشرنا- لا تبنى وأنّ العرض والجوهر وجهان لحقيقه واحده ويتضح هذا المعنى أكثر بالالتفات إلى حركة الجوهر حيث إنّ القائلين بحركه الجوهر يستدلون بالحركات التى تقع فى العرض ويرون أنّ العرض والجوهر لا ينفكان عن بعضهما البعض.

ومن المناسب أن نشير إلى هذه النكتة فى نهاية الموضوع.

إنّ العالم الفرنسى (لافوازيه) استطاع بعد جهود حثيئه أن يكتشف أصل بقاء المادة وأثبت أنّ مواد العالم لا تبنى أبداً بل تتحول من شكل إلى آخر.

ولم يمر طويلاً إلما واكتشف (بيركورى وزوجته) ولأول مرّة العلاقة بين الطاقة والمادة من خلال تجاربه على المواد النشطه اشعاعياً (وهى أجسام تتكون من ذرات غير ثابتة وتتحوّل بعض أجزائها تدريجياً إلى طاقة) وبهذا الاكتشاف تبدل قانون بقاء المادة إلى قانون بقاء (المادة- الطاقة).

وبهذا تزلزل أصل بقاء المادة وحلّ محله أصل بقاء مجموعة (المادة- الطاقة)، وأخذت عمليه تحول المادة إلى طاقة عن طريق انشطار الذرة بعداً علمياً واسع النطاق.

ومن خلال هذا تبين أنّ هناك علاقة قريبه بين انشطار المادة والطاقة، ويمكن أن تتحول إحدهما إلى الاخرى وبعبارة اخرى أنّ المادة والطاقة شكلان لحقيقه واحده.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٩٢

إنّ هذا الاكتشاف العلمى الكبير أحدث تحولاً واسعاً فى مجال البحوث والتجارب العلميه التى أثبتت وحده العالم أكثر فأكثر.

إنّ هذا المبدأ فى مسأله المعاد وبحث تجسّم الأعمال ودفع الإشكالات التى كان الأقدمون يطرحونها حول هذه المسأله كان له أكبر الأثر فى ازاله موانع إثبات تجسّم الأعمال.

٣- تجسد اخلاق وسجايا الإنسان

يستفاد من الروايات الإسلاميه إضافة إلى مسأله تجسّم الأعمال أنّ أخلاق الإنسان تتجسد أيضاً فى ذلك اليوم على صورة إنسان.

وعلى هذا الأساس فإنّ الناس يردون المحشر على صور مختلفه بما يتناسب مع أخلاقهم وطباعهم، فالذين لهم قلوب مملوءه بنور الإيمان تظهر وجوههم بيضاء ونورانيه منيره، وبالعكس ذلك القلوب المظلمه الذين كانوا يعيشون فى ظلمات الكفر فإنّ وجوههم سوف تكون مسووه وكالحه، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بالقول: «يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ* وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

(آل عمران / ١٠٦-١٠٧)

وقال تعالى فى موضع آخر فيما يتعلق بعاقبة المذنبين والظلمة: «كَأَنَّمَا أَغْشَيْتَ وَجُوهَهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا». (يونس / ٢٧)
 نعم، إن ذلك اليوم هو يوم ظهور وتجسد الأعمال، فتبرز كل الأخلاق والطباع الداخلية والملكات النفسية ويصطبغ جميع جسد الإنسان بلونها الخاص كما قال الشاعر الفارسى:

كُلُّمَا يَسْتَوِطِنُ الْقَلْبَ، لَهُ هَيْئَةٌ يَوْمَ انْبِعَاثِ الْبَشَرِ
 وَالَّذى كُنْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا فِيهِ تُحْشَرُ يَوْمَ الْمَحْشَرِ

ونقل بعض المفسرين الكبار عند تفسيرهم قوله تعالى «يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا». (النبا / ١٨)
 حديثاً عن الرسول صلى الله عليه وآله، وخلاصته:

كان معاذ بن جبل جالساً بالقرب من رسول الله صلى الله عليه وآله فى منزل أبى أيوب الأنصارى، فقال: يارسول الله أرأيت قول الله تعالى «يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا»، فقال:

«يامعاذ سألت عن عظيم من الأمر ثم أرسل عينه ثم قال: عشرة أصناف من أمتى يحشرون أشتاتاً قد ميّزهم الله من المسلمين فبعضهم على صورة القرده وبعضهم على صورة الخنازير، وبعضهم عمى يترددون وبعضهم صم بكم لا يعقلون وبعضهم يمضغون ألسنتهم يسيل القيح من أفواههم لعباباً يتقرزهم أهل الجمع، وبعضهم أشد نتناً من الجيف» الحديث، فأما الذين على صورة القرده، فالقتات من الناس، وأمّا الذين على صورة الخنازير، فأهل السحت، والعمى، الجائرون فى الحكم، والصم البكم، المعجبون بأعمالهم، والذين يمضغون ألسنتهم العلماء والقضاة الذين خالفت أعمالهم أقوالهم، والذين أشد نتناً من الجيف، الذين يتمتعون بالشهوات واللذات ويمنعون حق الله تعالى فى أموالهم «١».

(١) تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٢٣ ولقد نقل هذا الحديث الكثير من المفسرين مثل أبى الفتوح الرازى فى روح الجنان؛ والقرطبي؛ وروح البيان؛ وتفسير الصافى فى ذيل الآيه مورد البحث.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٩٥

٥- محكمة العدل الإلهي

الشهود والميزان والحساب:

تمهيد:

إن أهم منازل يوم القيامة هو مرحلة حساب الخلائق فى محكمة العدل الإلهي بحضور مختلف الشهود، فتوزن الأعمال هناك بميزان خاص.

نعم، هى محكمة يتزلزل الجميع فيها ويغمرهم الخوف والوجل.

قاضيتها وحاكمها هو الله جلّ جلاله، وشهودها الملائكة المقرّبون.

محكمة كتابها لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها فيسأل الإنسان فيها عن كل شىء حتى عن نيّاته.

وآيات المعاد فى هذا المجال كثيرة فأحياناً تشير إلى أصل محكمة الآخرة وإلى قاضيتها سبحانه وتعالى وأحياناً أخرى تشير إلى الشهود

وثالثه إلى الميزان ورابعة إلى كيفية الحساب فى ذلك اليوم.

إن الآيات القرآنية المتعلقة بهذا الموضوع إضافة إلى ماتطرحة من نكات ظريفة ودقيقة في كافة المجالات، فإنها تحمل رسالة تربية هامة لها أبلغ الأثر في تنوير القلوب بنور التقوى والهداية وتدفع الإنسان إلى القيام بمسؤولياته على أكمل وجه لتوصله إلى طريق السعادة والتكامل.

بعد هذه المقدمة نرجع إلى القرآن الكريم ولنقرأ هذه الطائفة من الآيات:

١- «وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ». (يس / ٣٢)

٢- «اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ». (الحج / ٦٩)

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٩٦

٣- «فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ * أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ». (التين / ٧ و ٨)

٤- «فَالْيَنَّا مَرَجَعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ». (يونس / ٤٦)

٥- «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا». (النساء / ٤١)

٦- «وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ». (ق / ٢١)

٧- «يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ». (النور / ٢٤)

٨- «وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ».

(فصلت / ٢١)

٩- «يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا». (الزلزال / ٤-٥)

١٠- «وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ». (الأنبياء / ٤٧)

١١- «وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ». (الأعراف /

٨-٩)

١٢- «هَذَا مَا تُوَعَّدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ». (ص / ٥٣)

١٣- «إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ». (آل عمران / ١٩٩) (المائدة / ٤) (إبراهيم / ٥١) (غافر / ١٧)

١٤- «أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ». (الانعام / ٦٢)

١٥- «إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ». (الغاشية / ٢٥-٢٦)

١٦- «اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا». (الاسراء / ١٤)

جمع الآيات وتفسيرها

الجميع محضرون في تلك المحكمة العظمية

الآية الاولى تتحدث عن حضور جميع الامم أمام الله تعالى في محكمته عدله، فبعد أن أشارت إلى الأقسام السالفة وكيفيه هلاكها بذنوبها، قال تعالى «وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ» (١).

(١). يرى جمع من المفسرين أن الآية تعرب على هذا النحو: إن: نافية، ولما: بمعنى إلّا، وجميع: بمعنى E مجموع خبر (كل)، وتونين كل: بدل من المضاف إليه المحذوف، وكانت في الأصل (كلهم)، ومحضرون: إما هو خبر بعد الخبر أو صفة لجميع، وعلى هذا المعنى تكون الجملة هكذا: (وما كلهم إلّا مجموعون يوم القيمة محضرون لدينا) وهناك احتمالات اخرى في إعراب الآية.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٩٧

صحيح، أن الناس وجميع المخلوقات في هذه الدنيا وفي كافة الأحوال حاضرون دائماً، في محضر الله تبارك وتعالى فهو حاضر في كل مكان وهو معنا أينما كنا، وهو أقرب إلى أنفسنا منا، ولكن هذه المسألة تتخذ بعداً آخر يوم القيامة، فمن جهة يكشف عن جميع حجب الغفلة والجهل فتصبح الأبصار حادة قوية والقلوب ذات بصيرة نافذة ومن جهة أخرى تتجلى في ذلك اليوم آثار الله أكثر من أى وقت آخر فتقام محكمه عدله وتوضع موازين القسط.

حقاً إنه مشهد عظيم، الجميع يحضر ليقف على ما قدم وعمل في الحياة الدنيا، الكل في محضر الله تعالى وتتحدث الآية الثانية عن حكمه وقضائه تبارك وتعالى بين الناس في ذلك اليوم، وعن الفصل بين جميع اختلافات ومنازعات الناس في دار الدنيا بمختلف أشكالها وألوانها (العقائدية، أو اليومية)، قال تعالى «اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ». من البديهي أن أنواع الحجب التي تحيط بفكر وقلب الإنسان في هذه الدنيا (حب الذات، الأنانية، المصالح الشخصية والطائفية، العصبية وحجاب الذنوب) لا تسمح بحل اختلافات الأقوام والشعوب، ولكن عندما ترفع جميع هذه الحجب ويصبح الحكم لله الواحد القهار عند ذلك تنتهي جميع الاختلافات والمنازعات. إن المبطلين بعد إزالة هذه الحجب ينقادون ويرجعون إلى عقولهم بحيث يصبحون هم المحاسبين لأنفسهم، وسنبين ذلك في البحوث المقبلة.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٩٨

أمياً الآية الثالثة فقد أبرزت نفس هذا المعنى بنحو آخر فتحدثت عن الإنسان الجحود الذي خلقه الله سبحانه وتعالى «في أحسن تقويم»، وعلى أثر سوء أعماله سقط في (أسفل سافلين) فتقول الآية: «فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ بِالذِّينِ» (١) «أى شىء يكذبك أيها الإنسان بعد كل هذه الحجج والدلائل بالدين الذى هو الجزاء والحساب (أو أى شىء يكذبك أيها الإنسان بعد كل هذه الحجج والدلائل بالمعاد).

«أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ»، أى (أليس الله بأقضى القاضين فيحكم بينك يا محمد وبين أهل التكذيب بك). أجل فهو أحكم الحاكمين لعلمه المحيط بكل شىء فلا تخفى عليه خافية، فالعلم هو الشرط الأول الذى يجب توفره فى الحاكم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أنه تعالى غير محتاج لأحد وليس له مصلحة فى شىء حتى يقضى لأجله على خلاف الحق. أمياً الناس فهم محتاجون فيقعون تحت تأثير المصالح الشخصية أو الجماعية وأحياناً العواطف والأحاسيس فيحكمون حكماً على خلاف الحق والعدل، وبما أن الله سبحانه وتعالى منزّه عن كل ذلك فهو أحكم الحاكمين وخير الفاصلين. والجدير بالذكر أن كثيراً من التفاسير ذكرت هذه الرواية عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وهى أنه صلى الله عليه وآله عندما كان يكمل هذه الآيات كان يقول: «بلى وأنا على ذلك من الشاهدين». هذا الحديث هو دليل على التفسير الذى ذكرناه سابقاً (تأمل جيداً).

شهود المحشر:

ورد فى الآية الرابعة كلام عن شهود يوم القيامة فأشارت إلى الذات الإلهية المقدسة فهو

(١) عد أغلب المفسرين الخطاب موجهاً إلى الذين سبق ذكرهم فى السورة المباركة واحتمل البعض أنه موجّه إلى النبى الأكرم صلى الله عليه وآله، (تفاسير مجمع البيان؛ الكبير؛ القرطبي؛ وفى ظلال القرآن- وفى الصورة الاولى تفسير كلمه (يكذبك) (يجعلك كاذباً) وفى الصورة الثانية يفسر على معناه الظاهر بمعنى ما ينسبك إلى الكذب، وعلى أية صورة كانت فإن المراد أن لا مجال لانكار المعاد وتكذيب النبى صلى الله عليه وآله لكثرة الآيات والأدلة الواضحة.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٩٩

تعالى الشاهد الأول، قال تعالى «فَالْيَتِيمَ الَّذِي يَتَرَاهُ فِي مَقَامِكُمْ إِتْمَانًا وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ» (١).

فالمحكمة التي يكون حاكمها الله جلّ جلاله وشاهدها الأول ذاته المقدّسة فهل من الممكن أن يغفل عن شيء ويفوته عند الحساب؟!

ومن البديهي أن تكون مثل هذه المحكمة محكمة مثيرة للقلق والوجل لا لاحتمال الحكم بغير الحق بل بسبب سوء أعمالنا. لقد فسّر بعض المفسرين الشهادة هنا بمعنى الجزاء والمجازاة في حين أنه لا ضرورة لمثل هذا التفسير الذي يخالف ظاهر الآية، وذلك لعدم وجود أي مانع لشهادة الذات الإلهية المقدّسة على أعمال العباد في ذلك اليوم وتعيين شهادته تعالى عن طريق الهام الملائكة المأمورين بالحساب.

وقيل: إن شهادة الله تكون بإنطاق أعضاء جسم الإنسان فتجيب عما اقترفت من أعمال في الدنيا.

الآية الخامسة تحدّثت عن شهود المحشر أيضاً ولكن كان الكلام فيها يدور حول شهادة الأنبياء على أممهم وشهادة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله على سائر الأنبياء، قال تعالى «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا». ومع أن هذه الآية لم تذكر صراحة أن شهاد كل أمه هم أنبيائها، ولكن القرائن تؤكد هذه المسألة وذلك لأنّ نبي كل أمه هو أكثر الناس صلاحية للشهادة على أمته كما أن الآية الكريمة لم تذكر من المراد بكلمة (هؤلاء) أي من هم بالدقة؟ ولذا فقد ذكر المفسرون احتمالات لذلك، قال بعضهم: إنها إشارة إلى قوم الرسول صلى الله عليه وآله فهو الشاهد عليهم يوم القيامة (٢).

(١). جاء في تفسير الميزان: أن (ثم) الواردة في الآية أعلاه تُفيد التراخي في البيان لا- التراخي في الزمان في حين أنه يمكن تصور التراخي الزماني في مورد الآية أيضاً، وذلك لأنّ الله تعالى يحشر الناس أولاً وبعدها يشهد على أعمالهم نظراً لأنّ المقصود هو الشهادة عند الحساب.

(٢). ورد هذا الاحتمال في تفسير الكشاف، ج ١، ص ٥١٢ وكذلك في تفسير مجمع البيان ج ٣، ص ٤٩.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٠٠

نفحات القرآن ج ٦ ١٤٩

ولكن الكثير من المفسرين قالوا: (هؤلاء) إشارة إلى الأنبياء الذين أشارت إليهم الجملة السابقة، وبهذا سيكون الرسول صلى الله عليه وآله هو الشاهد على جميع الشهود.

ويطرح هنا هذا السؤال: وهو كيف تكون شهادة الأنبياء عليهم السلام على أممهم أو شهادة الرسول صلى الله عليه وآله على الأنبياء مع العلم أن معنى الشهود مقترن مع الحضور، وأن كل نبي من الأنبياء وبضمنهم الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله جاؤوا في مقطع زمني محدد من تاريخ أممهم؟

من الممكن أن يكون المعنى أن أرواحهم في عالم البرزخ ناظرة إلى أحوال أممهم وهذا يناهض قوله تعالى في الآية التي تتكلم عن لسان المسيح عليه السلام: «وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ»، (المائدة/ ١١٧) فيتضح من خلال هذه الآية الكريمة أن الشهادة تعني الحضور المقترن بالرقابة والتصدي للانحراف وليس بالحضور فقط، أما فيما يتعلق بالرسول الأكرم صلى الله عليه وآله فمن الممكن أن يكون حضور روحه المقدّسة على طول تاريخ البشرية هو السبب لهذه الشهادة كما ورد في الروايات أن أول ما خلق الله تعالى نور محمد صلى الله عليه وآله.

عن علي عليه السلام: «إنّ الله تبارك وتعالى خلق نور محمد صلى الله عليه وآله قبل أن يخلق السموات والأرض والعرش والكرسى واللوح والقلم والجنّة والنار» (١).

وهناك احتمال آخر في معنى الشهادة وهو مقياس الوزن، وذلك لأنّ الإنسان النموذجي يمكن أن يكون بعمله شاهداً على أعمال الصالحين (الأشخاص الذين تشبه أعمالهم أعمال القدوة) وكذلك شاهداً على أعمال الطالحين، وبهذا المعنى لا ينحصر مفهوم الآية بشهود القيامة.

ومن المناسب أن نذكر حديثاً للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في هذا الصدد، فقد روى أنّ النبي صلى الله عليه وآله قال لابن مسعود: «اقرأ القرآن عليّ» قال: قلت: يا رسول الله أنت الذي علمتني.

قال: «أحبّ أن أسمع من غيري». قال ابن مسعود: فافتتحت سورة النساء حتى انتهيت إلى هذه الآية فبكى الرسول صلى الله عليه وآله. قال ابن مسعود: فامسكت عن القراءة «٢».

(١) بحار الأنوار، ج ١٥، ص ٤.

(٢) التفسير الكبير، ج ١٠، ص ١٠٥.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٠١

وفى نقل آخر وفي امتداد هذه الرواية قال صلى الله عليه وآله: «ياربّ هذا على من أنا بين ظهرانيهم فكيف من لم أرهم» «١». والظاهر أنّ بكاء الرسول صلى الله عليه وآله إنّما كان للمواقف المرعبة في يوم المحشر ولثقل المسؤولية التي وضعت على كاهله صلى الله عليه وآله وهي مسؤولية الشهادة على الحاضرين والأهم منها الشهادة على الغائبين والتي سوف يقدر عليها بالتأييد الإلهي.

ولقد جاء في الآية السادسة حديث عن شهادة الملائكة في تلك المحكمة العظيمة، قال تعالى «وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ». «السائق»: هو الذي يسوق النفوس إلى محكمة العدل الإلهي.

«الشهيد»: هو الذي يشهد على أعمالها.

ومع أنّ الآية الكريمة لم تصرّح بأنّ هذا (السائق) و (الشهيد) هو من الملائكة أو من غيرهم؟ وفي حال كونه من الملائكة فأى ملك منهم؟

ولكن القرائن تؤكد أنّه من الملائكة حتماً نظراً لكونهم الأنسب لتحمل مثل هذه المسؤولية الثقيلة وأنّ هذا العمل يناسب نفس الملكين المأمورين بتسجيل «الحسنات» و «السيئات» حيث إنّهما أكثر الملائكة اطلاعاً على أعمال بني آدم.

وقيل: إنّ السائق هو ملك الموت الذي يسوق الإنسان نحو الموت، والشاهد هو عمل الإنسان أو جوارحه أو صحيفته أعماله.

وفسر البعض، السائق (بالشيطان) والشاهد بالملك.

و يلاحظ أنّ جميع هذه التفاسير لا تنسجم مع ظاهر الآية باستثناء التفسير الأول، على أيّة حال فإنّ الملك الأول هو المانع من الفرار، أمّا الملك الثاني فهو المانع من الإنكار

(١) تفسير القرطبي، ج ٣، ص ١٧٦٧. ولقد نقل هذا الحديث الآخرون بشيء من الاختلاف.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٠٢

فيومئذ لا محيص للفرار ولا حيلة لانكار الأعمال.

ويمكن أنّ نشبه حال هؤلاء كمثل حال المجرمين الذين يساقون في هذه الدنيا إلى المحكمة، فهناك مأمور يسوقهم من ورائهم وآخر يتقدمهم بصحيفة أعمالهم.

وجاء في نهج البلاغة: أنّ الإمام أمير المؤمنين على عليه السلام قال بعد هذه الآية: «سائق يسوقها إلى محشرها وشاهد يشهد عليها

بعملها» (١).

ولقد ورد في الآية السابعة كلام عن (شهادة الجوارح) في تلك المحكمة المرعبة، قال تعالى «يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

وقال في موضع آخر: «يَوْمَئِذٍ يُؤْفِيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ». (نور/ ٢٥)

أما الآية الثامنة فهي تشبه الآية السابقة مع شيء من الاختلاف ألا وهو حديثها عن شهادة الجلود، قال تعالى «حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِيُجْلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ». يظهر من الآيات أعلاه أن الله سبحانه وتعالى يعطى لأعضاء البدن وحتى الجلد، القدرة على التكلم والنطق، فكل عضو من الأعضاء يجيب عمياً فعله، فالأذن تجيب عمياً سمعت، والعين عمياً رأت، والجلد عمياً لمس، واللسان عمياً قال، واليد عمياً انجزت، والقدم عن الطريق الذي سلكته، فيعترف كل من الأعضاء الستة بالأعمال التي اكتسبها.

ويقول بعض المفسرين، إن بعض هذه الأعضاء يشهد على جميع أعمال الإنسان كشهادة الزمان وليس على أعمال ذلك العضو فقط، وهذا لا يتناسب مع ظاهر الآيات، ومن هنا يتضح أنه إذا لم تذكر بعض الأعضاء (كالقلب والمخ والشفيتين والأسنان بالنسبة للنيات والأغذية والأقوال) فلا يعنى ذلك أن الشهادة تنحصر بهذه الأعضاء الستة، وعلى ما يبدو أن

(١). نهج البلاغة، خطبة ٨٥.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٠٣

كل عضو يجيب عن أعماله، وأى شاهد أصدق من هذا!

ومن الواضح أن هذه الشهادة (شهادة الجوارح) ولو أنها تنطق بقدرة الله سبحانه وتعالى إلا أنها ليست شهادة الله مباشرة ولقد نقل ذلك الفخر الرازى في تفسيره «١» كأحد التفاسير التي قبلت بشأن هذه الآية.

ومن الطريف، طبق هذه الآيات أن المذنبين يعاتبون جلودهم: «لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا» أو - كيف شهدتم ضدنا- (السؤال الأول سؤال عن السبب أما السؤال الثانى فهو سؤال عن الكيفية).

أما بقية الأعضاء الخمسة فلا تسأل مثل هذا السؤال، ولعل السبب فى ذلك هو أن شهادة الجلود أكثر عجباً من سائر الشهادات وأنها شهادة غير متوقعة تماماً، إضافة إلى ذلك أن الجلود تلمس بشكل من الأشكال جميع الأفعال ولا تختص بعضو معين لا كما قال بعض المفسرين إن هذه إشارة إلى «الفرج» فقط.

ونختم كلامنا فى هذا البحث بالإشارة إلى أنه يستفاد من بعض الآيات الكريمة أن سائر أعضاء الجسم ماعدا «اللسان» تشهد على الإنسان أولاً، وبعد أن تتضح المسائل يعترف اللسان أيضاً بالحقيقة كما ورد ذلك قوله تعالى: «الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ». (يس / ٦٥)

الآية التاسعة تتحدث عن (شهادة الأرض) على الإنسان بما عمل، قال تعالى «يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا» «بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا».

وبهذا تعتبر الأرض التى تؤدى عليها أعمالنا من أهم الشهود فى ذلك اليوم، كما ورد ذلك فى حديث عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله إذ قال: «أخبارها أن تشهد على كل عبد وامه بما عمل

(١). تفسير الكبير، ج ٢٣، ص ١٩٤.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٠٤

على ظهرها تقول عمل كذا وكذا، ويوم كذا وكذا، وهذا أخبارها» (١).

وقال أبو سعيد الخدرى: إذا كنت بالبوادى فارفع صوتك بالاذان فأنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «لا يسمعه جن ولا انس ولا حجر ولا شجر إلا يشهد له» (٢).

وأعطى بعض المفسرين احتمالات أخرى فى تفسير الآية: من جملتها أن الأرض تخبر عن قيام الساعة فى هذه الأثناء وعندما يشاهد الإنسان زلزلة الساعة يقول: ما لها: «وقال الإنسان ما لها» (٣).

وورد هذا الاحتمال أيضاً وهو أن الأرض تُحدث أخبارها بما أخرجت من أثقالها فتقول (هذا جسد فلان وهذا جسد فلان)، مشيرة إلى الأبدان التى تلفظها.

ولكن التفسير الأول إضافة إلى أنه ينسجم مع سياق آيات السورة كذلك يتوافق مع الأحاديث الكثيرة المنقولة عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله.

ولقد وردت أحاديث كثيرة عن الإمام على عليه السلام بخصوص شهادة الأرض على الصلاة وعلى تقسيم بيت المال: حيث قال: «صلوا فى المساجد فى بقاع مختلفة فإن كل بقعة تشهد للمصلى عليها يوم القيامة» (٤).

وهنا يطرح هذا السؤال: كيف تتحدث الأرض عن أخبارها؟ لقد أخذ بعض المفسرين بظاهر الآية فقالوا: إن الأرض ستكون فى ذلك اليوم وبقدرة الله ذات إدراك وشعور وقدرة على النطق فهى تجيب عن الحوادث التى جرت على ظهرها ولا-عجب من هذا الأمر، حيث: «وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ». (العنكبوت / ٦٤)

(١) تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٢٦، ولقد ورد نفس هذا المعنى فى تفسير القرطبي؛ وتفسير روح المعانى؛ وتفسير الكبير، ذيل الآية مورد البحث.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٢٦، العبارة الموضوعية بين الأقواس هى مطابقة لروايته تفسير روح البيان، ج ١٠، ص ٤٩٣.

(٣) تفسير القرطبي، ج ٢٠، ص ١٤٩، ذيل الآية مورد البحث.

(٤) لئالى الأخبار، ج ٥، ص ٧٩.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٠٥

فحياة القيامة هى الحياة الحقيقية وكل شىء يصبح حياً وحتى الأرض فمن الممكن أن يكون لها نوع من الإدراك والشعور. وقيل إن المراد: هو أن الله سبحانه وتعالى يخلق فيها أمواجاً صوتية، فى الواقع أن المتحدث هو الله سبحانه وتعالى (ويمكن أن نشبه هذا المعنى بأشرطة التسجيل، حيث إن المتكلم ليس جهاز التسجيل وإنما هو الإنسان الذى سجل الكلام على الشريط). وهناك احتمال آخر: هو أن المقصود من (حديث الأرض) هو اظهار آثار الأعمال التى اكتسبها الإنسان على ظهرها حيث إن لكل عمل آثاراً.

وانسب هذه التفسير هو التفسير الأول:

نستنتج من مجموع الآيات السالفة الذكر أن فى يوم القيامة بالإضافة إلى شهادة الله تبارك وتعالى بالنسبة لأعمال العباد، كذلك تشهد الأنبياء والملائكة والجوارح والأرض.

ميزان الأعمال:

الآية العاشرة ناضرة إلى مسألة «ميزان الأعمال»، قال تعالى «وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً...».

فكل شىء يوزن بهذا الميزان كبيراً كان أو صغيراً حتى وإن كان بمقدار حبة من خردل فسوف يأتى به الله تعالى للحساب.

و «حبة الخردل»: حبة صغيرة جداً خفيفة الوزن وتضرب بها الأمثال لصغر حجمها وخفتها، وهى إشارة إلى أصغر الأعمال أى كل

شئ في ميزان حتى صغائر الأعمال.

«موازين»: جمع ميزان وهو الوسيلة لقياس الأشياء، وهذا التعبير يدل على أن في ذلك اليوم لا يوجد ميزان واحد للأعمال بل هناك عدّة موازين، قيل: من الممكن أن يكون لكل إنسان، أو امه أو عمل، ميزان، فالصلاة مثلاً توزن بميزان وكذلك الصيام والحج والجهاد أي لكل واحد منها ميزان خاص.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٠٦

وقيل: إن الميزان هو واحد لا أكثر «١»، والدليل على هذا القول بعض الروايات في هذا المجال (وسنعرض لها لاحقاً) وما صيغته الجمع (موازين) إلاليان عظمة الميزان حيث يعادل آلاف الموازين، ولكن - وكما سنتطرق إلى ذلك - لا يوجد أي دليل على هذا التفسير الذي يخالف ظاهر الآية بل هناك عدّة أدلة على تعدد الموازين.

وما يجب معرفته هنا، هو أن ميزان القيامة هو كالموازين الدنيوية، فلكل ميزان كفتان ولكن يختلف عنها بكمبره وعظمتها؟ وإذا كان الأمر كذلك فكيف توزن الأعمال وهي لا وزن لها؟

هناك عدّة آراء في هذا المجال:

ف قيل: إن ما يوزن هو صحيفة الأعمال، وقيل: إن الأعمال تتجسم يوم القيامة. ويصبح لها وزن.

والخلاصة أن الذين يعتقدون بأن موازين القيامة تشبه موازين هذه الدنيا قد اجبروا على القول إن هناك نوعاً من الأوزان والاثقال حتى يمكن وزنها بمثل هذه الموازين.

ولكن القرآن يدل على أن المقصود بالميزان هو وسيلة لقياس الأوزان بمعناها العام وذلك لأننا نعلم أن لكل شئ وسيلة وزن تناسبه، فمثلاً وسيلة قياس الحرارة يقال لها ميزان الحرارة أو المحرار، ووسيلة قياس الهواء «ميزان الهواء» أو المحرار أيضاً. وبناءً على ذلك فإن المراد ب (موازين الأعمال) الوسائل التي بها تقاس أعمال الأخيار والأشوار. وكما ينقل المرحوم العلامة المجلسي عن الشيخ المفيد رحمهما الله: «أن أمير المؤمنين والأئمة من ذريته عليهم السلام هم الموازين» «٢».

وقد نقل في (اصول الكافي ومعاني الأخبار) عن الإمام الصادق عليه السلام أن شخصاً سأل الإمام الصادق عليه السلام عن معنى هذه الآية، فقال: «هم الأنبياء والأوصياء» «٣».

(١) تفسير روح المعاني، ج ١٧، ص ٥٠ - ٥١.

(٢) بحار الأنوار، ج ٧، ص ٢٥٢.

(٣) تفسير البرهان، ج ٣، ص ٦١؛ اصول الكافي، ج ١، ص ٤١٩ وقد ورد نظير هذا الحديث في تفاسير أخرى

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٠٧

ونقرأ في إحدى الزيارات المطلقة لأمير المؤمنين عليه السلام قوله: «السلام على ميزان الأعمال» «١».

فهذه الشخصيات العظيمة هي موازين الأعمال، فالأعمال التي تشابه أعمال هذه الشخصيات تعتبر ثقيلة في الميزان والأعمال التي لا تشابه أعمالهم تعتبر خفيفة أو لا وزن لها أصلاً، فأولياء الله هم موازين الأعمال في هذه الدنيا ولكن تبرز وتتجسد هذه المسألة في العالم الآخر.

ومن هنا اتضح الجواب عن سبب ورود (الموازين) بصيغة الجمع لكون هؤلاء العظماء متعددين.

وهناك روايات ومسائل أخرى في مجال (ميزان الأعمال) وسوف نتعرض لها في فقرة التوضيحات.

الآية الحادية عشرة جاءت مكتملة ومفسرة لموضوع ميزان الأعمال:

«وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا

يَظْلِمُونَ».

والجدير بالذكر أن الله سبحانه وتعالى جعل لكل إنسان عدداً من الموازين، وهذا التعبير يؤيد التفسير الذى يقول: إن لكل عمل ميزاناً، وهناك احتمال: أن لكل من الروح والجسم والأقوال والأفعال ميزاناً خاصاً وهذا المعنى على فرض أن الموازين جمع ميزان، فى حين يرى البعض أن موازين جمع موزون (يعنى الشىء الذى يوزن وهى نفس أعمال الإنسان)، فمن المسلم أن يكون لكل إنسان والحالة هذه موازين، أى أن له أعمال متنوعة توزن فى ذلك اليوم، لكن هذا المعنى يبدو بعيداً نظراً لذهاب أغلب أرباب اللغة والمفسرين إلى أن

(١) المرحوم المحدث القمى فى كتابه (مفاتيح الجنان) ولقد أورد هذه الزيارة. كزيارة أولى من الزيارة المطلقة.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٠٨

الموازين جمع ميزان، وقد دلت الروايات السالفة الذكر على أن الموازين بمعنى وسائل لقياس الوزن، وبناءً على هذا يكون ثقل الموازين بسبب ثقل الأعمال التى توضع فيها. وهناك بحث آخر حول ميزان العدل فى يوم القيامة سنتطرق إليه فى فقرة التوضيحات.

السرعة فى الحساب:

تحدثت الآية الثانية عشرة والثالثة عشرة والرابعة عشرة عن يوم الحساب وسرعة الأعمال فى ذلك اليوم من قبل الله تعالى ولقد تحدثت الآية الاولى بعد أن أشارت إلى الآيات التى قبلها إلى جنات عدن وما فيها من نعم كثيرة من أطعمه وأشربة، وحوار عين. فقالت: «هَذَا مَا تُوَعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ».

إن مسألة الحساب يوم القيامة مسألة واضحة جلية بحيث إن ذلك اليوم يسمى بيوم الحساب «١». ولقد ورد فى الآية التى بعدها حديث عن سرعة الحساب «إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ» وكذلك ورد هذا المعنى فى آيات عديدة من القرآن الكريم «٢»، وهذا التكرار يدل على أهميته وعظمته هذه المسألة، فمن جهة أنها بشرى للصالحين. حيث تخبرهم هذه الآيات بأنهم ينالون جزاءهم بسرعة، ومن جهة أخرى أن هذه المسألة هى وعيد للكافرين والأشرار بأن مجازاتهم لن تتأخر أبداً وسوف ينالون مصيرهم بسرعة.

ولقد وردت حول هذا الموضوع (سرعة الحساب) روايات مثيرة نذكر منها:

ورد فى حديث عن أمير المؤمنين على عليه السلام: «إنه سبحانه يحاسب جميع عباده على مقدار حلب شاة» «٣».

هذا التشبيه فى الحقيقة يدل على قصر فترة الحساب، لذا جاء فى رواية أخرى «إن الله

(١). اللام فى (ليوم الحساب) لام الاختصاص. وقيل: إنها لام التعليل وهذا غير صحيح.

(٢). بالإضافة إلى الآية أعلاه ورد نفس هذا المعنى فى الآية ٤، المائة؛ ٥١ إبراهيم؛ و ١٧ غافر.

(٣). تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٣١٣.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٠٩

يحاسب الخلائق كلهم فى مقدار لمح البصر» «١».

إن سبب هذه السرعة واضح. حيث إن الحساب منوط بالعلم والاطلاع الكامل ومنوط أيضاً بالقدرة الخارقة. ورعاية العدالة.

وبما أن الله سبحانه وتعالى يمتلك الحد الأكمل من هذه الصفات لذا فإنه تعالى له القدرة على محاسبة جميع الناس فى لمح بصير.

إنّ وضع أعمال الإنسان والآثار التي تتركها في روحه وجسمه تذكّره دائماً، فهي تحتفظ بنفسها بحساب جميع الأعمال، ويمكن تشبيهها من هذه الجهة بالسيارات أو الطائرات أو السفن. حيث من الممكن حساب جميع ما قطعته السيارة أو الطائرة طيلة عمرها من خلال العدّاد (جهاز الكيلومتر) فكذلك حساب أعمالنا فلا تحتاج إلّا إلى نظرة واحدة لترى وتقرأ هذا المقياس في وجود الإنسان وعينه وأذنه ويده ورجله وروحه.

إنّ كل هذه التعابير لها أهداف تربوية هامة، ويتضح هذا بشيء من التأمل والتدبر في هذه الآيات.

لقد تحدّث الآية الخامسة عشرة عن حساب أعمال العباد من قبل الله تبارك وتعالى فقالت صراحة: «إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ».

في حين أنّ الآية السادسة عشرة تقول: «اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا»، ولكن لا يوجد أي تضاد أو منافاة بين الاثنتين. فالحسب الأصل هو الله تبارك وتعالى ولكنّه يقول للإنسان أيضاً، أنت تستطيع أن تحاسب نفسك بنفسك، وفي النتيجة تكون جميع المحاسبات واحدة، لا تحيد عن الحق والعدل، لماذا؟

لأنّ أدلة الحساب في غاية الوضوح والجزاء معين، والقوانين الإلهية في ذلك اليوم

(١). تفسير مجمع البيان، ج ١ و ٢، ص ٢٩٨.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١١٠

صريحة جليّة فلا مجال للاستنباطات النظرية التي هي منشأ الاختلافات في أحكام القضاء.

ومن الجدير بالذكر أنّ كلمتي «إلينا» و «علينا» اللتين وردتا في: «إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ»، خبر مقدّم تفيضان الحصر، أي رجوعهم إلينا وحدنا، وسيكون حسابهم علينا فقط، وبهذا الترتيب فإنّ هذا ينفي جميع الاحتمالات والإشكالات الأخرى على أيّة حال فإنّ هذا وعيد للكفار والمجرمين الذين أعرضوا عن آيات الحق، وقد أشارت إلى هذا المعنى الآيات التي تسبق هذه الآية.

ويمكن أن تكون هذه الآيات بشرى لأولياء الله الذين يعلمون بأنّ حسابهم على الله وسوف يرجعون إلى محبوب قلوبهم فيجزئهم الجزاء الأوفى وإن كان عندهم زلل أو خطأ فهو يغفره لهم بلطفه وكرمه، وهناك نكتة أخرى جديرة بالاهتمام حيث ورد في بعض الروايات والزيارات أنّ إياب الخلق وحسابهم على الله عليه السلام والأئمة المعصومين عليهم السلام، ولقد انتقد هذا الاعتقاد بعض مفسري أهل السنّة مثل الآلوسي في روح البيان حيث قال إنّ هذا الكلام يتنافى مع ما ورد في الآيات أعلاه.

في حين نعلم بأنّ الإمام علياً والأئمة المعصومين عليهم السلام كلّهم مطبقون لأوامر الله وأحكامه، وبناءً على ذلك يصبح حسابهم هو حساب الله تعالى وحكمهم كحكم الأعمال التي تقوم بها الملائكة في عالم «التكوين» و «التشريع» وتُنسب جميع هذه الأعمال إلى الله سبحانه وتعالى لحكم حصولها بأمره، وفي نفس الوقت تُنسب إلى الملائكة أيضاً.

وهناك شبهة أخرى مشهورة طرحها هؤلاء في هذا الصدد وهذه الشبهة هي «ما بالعرض» و «ما بالذات»، وبتعبير أوضح أنّه لا أحد يزعم بأنّ حساب الخلائق وإيابها ينسب إلى الله والأئمة عليهم السلام بصورة مستقلة، بل إنّ الكل يقول إنّ هذا الفعل بذاته يختص بالله وينسب بالواسطة إلى الله عليه السلام والأئمة عليهم السلام، وهذه المسألة لا تختلف عن مسألة الشفاعة وعلم الغيب وغيرها من المسائل، فجميع هذه الأمور تُنسب بالذات إلى الله تعالى وتُنسب بالعرض للأنبياء والأوصياء والملائكة.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١١١

ومن العجب أنّ الآلوسي قد التفت في آخر كلامه بشكل عابر إلى هذه النكتة، ولكنه عاد وأدار مسير الحديث معترضاً بقوله: «إن كان المقصود هذا فلماذا يختار علياً عليه السلام لأداء هذا العمل من بين الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين» (١).

إنّ الإجابة عن هذا السؤال واضحة: وهي أنّ الإمام علي عليه السلام رجل شامخ وذو درجة رفيعة وكان مجهول القدر في الامّة

الإسلامية، فشاء الله تعالى وعن هذا الطريق أن يبرز مقامه الرفيع لكافة الناس.

والشاهد على هذا الكلام أن هناك روايات كثيرة رويت عن طرق أهل السنة تدل على أن الرسول صلى الله عليه وآله قال بحق الإمام على عليه السلام: «يا على أنت قسيم النار والجنة». ومن جملة هذه الأحاديث:

١- ينقل «ابن المغازلي» في كتاب «مناقب أمير المؤمنين عليه السلام» عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «إِنَّكَ قَسِيمُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ» (٢).

٢- ورد نفس هذا المعنى أيضاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله في مناقب الخوارزمي (٣).

٣- ينقل ابن حجر في الصواعق المحرقة عن (الدارقطني)، قال الإمام على عليه السلام ضمن خطاب طويل في الشورى التي أوصى بتشكيلها عمر (الستة أشخاص): هل فيكم رجل غيري، قال رسول الله صلى الله عليه وآله بحقه: «يا على أنت قسيم الجنة والنار؟!» فأجاب الجميع: كلا (٤).

٤- لقد خصص «الحافظ سليمان القندوزي الحنفي في كتابه «ينابيع المودة» باباً تحت هذا العنوان (في بيان كون على عليه السلام قسيم الجنة والنار) ونقل في هذا الباب الكثير من الروايات (٥).

(١). تفسير روح المعاني، ج ٣٠، ص ١١٨ و ١١٩.

(٢). احقاق الحق، ج ٤، ص ٢٥٩.

(٣). المناقب، ص ٢٣٤.

(٤). الصواعق المحرقة، ص ١٢٤.

(٥). ينابيع المودة، ص ٨٣.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١١٢

٥- لقد نقل (ابن الأثير) في كتابه «النهاية» هذا الحديث.

٦- يلاحظ هذا المعنى صراحة في الشعر المنسوب للإمام الشافعي:

على حبه جنة قسيم النار والجنة

وصى المصطفى حقاً إمام الانس والجنة (١)

وهناك أحاديث كثيرة في هذا المجال.

مع كل هذه الأدلة فكيف يجرؤ الآلوسى في روح المعاني ويقول إن هذا الحديث كذب وافتراء على على عليه السلام؟ لماذا نسمح للتعصب بأن يحول بيننا وبين التحقيق العلمي؟

توضيحات

١- وصف للمحكمة الكبرى

من البديهي أننا (سجناء هذه الدنيا) لا نستطيع أن ندرك الحقائق المتعلقة بيوم القيامة بشكل تفصيلي، وذلك لأن عالم القيامة من العلو والرفعة بحيث لا يمكننا حتى تصور المفاهيم الحاكمة على ذلك العالم، ويعد هذا الأمر من المشاكل العويصة، ومثل ذلك مثل تصور العلوم والدراسات الجامعية بالنسبة لطفل في المرحلة الابتدائية.

ومع هذا يمكننا أن نتصور صورة اجمالية عن هذه المحكمة على ضوء الآيات والروايات الواردة في هذا المجال.

إنّ عالم الآخرة عالم يكشف عن جميع الحقائق المستورة، عالم تعمّ الحياة فيه كل شيء، وكل مكان، وحتى الجمادات، اليد، الرجل، العين، الاذن، وحتى الجلد وسائر أعضاء البدن كلها تصبح ناطقة وتجب عن الأعمال التي اكتسبها الإنسان في الدنيا، هذا من جهة، ومن جهة اخرى تتجسم أمام الإنسان جميع أعماله، وتعرض صحف الأعمال بخطوط غير قابلة للانكار ويؤتى بالشهود من الملائكة والأنبياء والأوصياء، والأهم من هذا كله شهادة

(١). ينابيع المودة، ص ٨٦. نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١١٣

الذات الإلهية المقدسة على أعمال الإنسان.

نعم، إنّها عرصات مرعبة مخيفة فيحاسب الإنسان على كل شيء وحتى عن الأعمال التي بمقدار حبة خردل أو مثقال ذرة فتبدو في صحف الأعمال حتى النيات، وفي لحظة واحدة يتم حساب جميع الخلائق وتُظلل رايه الحق والعدل جميع أرجاء هذه المحكمة العظيمة، فيحضر فيها الصغير والكبير حتى الأنبياء والمرسلون فتطوى جميع الخلافات وينهى كل جدل ويحق حق جميع مظلومي العالم ويرى الناس بأعينهم الكثير من الحقائق التي ما كانوا يصدقون بها من قبل.

إنّ الإيمان والاعتقاد بهذه الحقائق له آثار تربوية عميقة في الإنسان فتنقذه من الضياع والحيرة وتخدم الشهوات وتقضى على المفاسد وتصنع من هذا الإنسان- المادى- ملاكاً طاهراً. وفي الحقيقة أنّ الهدف من عرض هذه الآيات هو نفس هدف القرآن الكريم في بناء الإنسان وتزكيته.

٢- شهود يوم القيامة

كما قرأنا في الآيات السالفة الذكر أنّ شهداء تلك المحكمة كثيرون وعلى رأسهم الذات الإلهية المقدسة.

ثم الأنبياء والمرسلون.

وبعدهم الملائكة المقربون.

وبعدهم أعضاء وجوارح الإنسان.

ثم الأرض التي نعيش على ظهرها.

إضافة إلى ذلك فقد أشارت الروايات الإسلامية إلى شهداء آخرين ومن جملتهم:

الأوصياء والأئمة المعصومين عليهم السلام:

نقرأ حديثاً ورد عن الإمام الصادق عليه السلام حول قوله تعالى: «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً».

(النساء / ٤١)

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١١٤

قال: «نزلت في امه محمد صلى الله عليه و آله خاصة! في كل قرن منهم إمام منا شاهد عليهم، ومحمد شاهد علينا!» (١).

من الممكن أن يكون ذكر امه محمد صلى الله عليه و آله خاصة للتأكيد، على أنّ هذه الامه خاصة يوجد فيها في كل قرن إمام معصوم يشهد عليها.

وبناءً على ذلك فإنّ هذا لا يتنافى مع شهادة الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله على الأنبياء السابقين.

والشاهد السابع من شهود المحشر كما تنقل بعض الروايات هو «الزمان» فقد ورد في رواية عن أمير المؤمنين على عليه السلام قال: «ما من يوم يمر على ابن آدم إلّا قال له ذلك اليوم يابن آدم أنا يوم جديد وأنا عليك شهيد فقل فيّ خيراً، أو اعمل فيّ خيراً أشهد لك به في يوم القيامة، فإنّك لن تراني بعده أبداً» (٢).

ومن هنا يطرح هذا السؤال: لماذا كل هذه الشهود؟
الأرض والزمان والملائكة والرسول وجوارح الإنسان والأهم من هذا كله شهادة الله تبارك وتعالى ألا تكفى شهادة الله وحدها؟ نعم، إنها كافية لأنه (أحسن الناظرين) و (أحكم الحاكمين) (وعالم السر والخفيات).
ولكن الهدف من كل هذه الشهادات هو تربية الإنسان وتزكيته، فكلما كان عدد الشهود والمراقبين للإنسان أكثر زاد من تأثيرها التربوي على الإنسان، من هنا نرى أن الله سبحانه وتعالى زاد عدد الشهود وجعلهم يحيطون بالإنسان ويقفون على أعماله بشكل تام. بلا شك أنه يكفى للمؤمن الالتفات إلى أحد هؤلاء الشهود ليكون مراقباً لأعماله، فكيف وكل هذه الشهود؟
إن عمل الشهود ليس له بعد تكليفي (إداري) حتى نقول لماذا نصب هذا العدد من الشهود لعمل واحد؟ وإنما هي سلسلة حقائق غيبية خارجية، حيث إن أعمالنا تترك أثراً على أعضاء جسمنا وجلودنا، وجوارحنا، والمحيط الذي يحيط بنا والأرض التي نمشي عليها والزمان الذي نعيش فيه كمثل الشريط يحفظ ويسجل آثار عمرنا بأكمله، إن حضور

(١). اصول الكافي، ج ١، ص ١٩٠.
(٢). بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ١٨١، ح ٣٥.
نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١١٥
الملائكة أو شهادة الأرواح الطاهرة للأتبياء والأوصياء هي احدى الحقائق التي تتبع من قدرة أرواحهم وعظمتها، وإن حضور الله تبارك وتعالى أيضاً في كل مكان وكل زمان حقيقة غير قابلة للإنكار.
لقد تمكن العلماء اليوم من خلال التجارب والبحوث التي أجروها على الطبقات الأرضية والحيوانات المطمورة في باطنها، والآثار الباقية من الإنسان القديم من اكتشاف حقائق عن هذه الحيوانات، فقد وقفوا على كيفية معيشتها وطراز حياتها في تلك العصور السحيقة وكتبوا عنها الكثير من الكتب والمقالات.
فاذا تمكن الإنسان بعلمه المحدود أن يتكلم عن مثل تلك الحوادث ويكتشف الكثير من حقائق الحيوانات، والإنسان القديم من خلال آثارها الباقية، في حين أن الدنيا دار الخفيات و الآخرة دار الظهور ويوم البروز، اذن فكيف ستكون القيامة؟
من هنا عندما يتأمل الإنسان بدقة في هذه المسائل ويفكر في عمقها وعظمتها حقاً حقاً فانها تهزه ولعله يصرخ: واغفلتاه، أهكذا عملت مع كل هذه الشهود!؟

٣- ماهو ميزان العمل؟

يقول المرحوم الشيخ المفيد رحمه الله: «ليس الأمر في معنى ذلك على ماذهب إليه أهل الحشو من أن في القيامة موازين كموازين الدنيا لكل ميزان كفتان توضع الأعمال فيهما، فالخبر الوارد أن أمير المؤمنين والأئمة من ذريته هم الموازين فالمراد أنهم المعدلون بين الأعمال فيما يستحق عليها والحاكمون فيها بالواجب والعدل» (١).
ولكن بعض المفسرين ردوا هذا الكلام. وقالوا: إن الميزان في الآخرة كموازين الدنيا فتوضع الأعمال فيها، حيث تصبح الأعمال ذات وزن أو توزن صحف الأعمال التي لها وزن.

(١). بحار الأنوار، ج ٧، ص ٢٥٢ (مع التلخيص).

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١١٦

ويقول البعض كالعلامة المجلسي رحمه الله: نحن نؤمن إجمالاً بالميزان أما فيما يتعلق بجزئياته وكيفيةه فلا نقول شيئاً من عندنا.

روى أن داود عليه السلام سأل ربه أن يريه الميزان فأراه، كل كفة كما بين المشرق والمغرب، فغشى عليه، ثم أفاق فقال: «الهي! من الذى يقدر أن يملأ كفته حسنات؟ فقال: يا داود إنى إذا رضيت عن عبدى ملأتها بتمر» (١).

وجاء فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام: «إنه سئل عن الميزان، فقال: الميزان العدل» (٢).

من هنا يطرح هذا السؤال: كيف يكون الجمع بين كل هذه الأحاديث؟ فقد ورد فى بعضها: أن الميزان بمعنى الوجود المقدس للأئمة المعصومين عليهم السلام وفى حديث آخر بمعنى العدل وفى حديث داود: (كل كفة كما بين المشرق والمغرب)، وفى الظاهر أن هذه الأحاديث الثلاثة متضادة، ولكن إذا أخذنا هذه النكتة بنظر الاعتبار فسوف يزول هذا الاختلاف الصورى، أن حقيقة الميزان هى العدل الإلهى وأن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله والأئمة الأطهار عليهم السلام هم مظهر عدله تعالى ومن جهة أخرى أننا نعلم أنه (بالعدل قامت السموات والأرض) (٣).

ومن هنا يتضح سبب دهشة داود عليه السلام عند مشاهدته لعظمة الميزان وذلك لأنه رأى عظمة مقام العدل، ومقامات محمد وآله عليهم السلام بحيث وجد أعماله لا شىء قبلها.

ومن الطريف أن هذا الميزان وبهذه العظمة يمتلى بتمر واحدة إذا كان فيها روح الإخلاص فتوجب رضا الله تبارك وتعالى ويعتقد بعض المحققين: أن الأئمة المعصومين وأولياء الله بمنزلة كفة الميزان الأولى

(١). تفسير روح البيان، ج ٥، ص ٤٨٦ ذيل الآية ٤٧ الأنبياء، ولقد ورد نفس المضمون مع شىء من الاختلاف فى تفسير الكبير ذيل الآية مورد البحث، وكذلك فى تفسير روح المعانى الآية نفسها.

(٢). تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٥.

(٣). الفيض الكاشانى، ورد هذا الحديث فى تفسير الصافى ذيل الآية ٧ من سورة الرحمن.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١١٧

وأعمال الإنسان وعقائده ونياته بمنزلة الكفة الأخرى فيوازن بينهما يوم القيامة.

ويمكن أن نستفيد من هذا الكلام من خلال الآيات القرآنية التى تذكر: «وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ» أو «فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ...» أو التعبير الذى ورد فى قوله تعالى: «فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا». (الكهف/ ١٠٥)

إن خفة موازين هذه الطائفة ناشئة من عدم امتلاك الاعتقادات الحقّة والأعمال الصالحة وأما ثقل موازين الطائفة الأخرى فهى ناتجة عن امتلاك الرصيد الثقيل من الأعمال الصالحة والاعتقادات الحقّة، وعلى أيّة حال، تقام الموازنة بين الناس من جهة وأولياء الله من جهة أخرى فكلما كانت أعمالنا وعقائدنا شبيهة ومقاربة لأعمال أولياء الله فسيكون ميزان عملنا ثقيلًا (تأمل).

٤- ماهى الأعمال الثقيلة فى الميزان؟

تلاحظ فى الروايات الإسلامية تعابير مختلفة حول الأعمال الثقيلة فى ميزان العدل الإلهى، وهذه الأعمال هى موجبات النجاة ونيل الكرامة فى يوم القيامة، وتجسد هذه الأعمال نظرية الإسلام فى المسائل المختلفة ومن جملة هذه الأعمال ما يأتى:

١- ورد عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «ما من شىء يوضع فى الميزان أنقل من حسن الخلق وأنّ صاحب حسن الخلق ليلبغ به درجة صاحب الصوم والصلاة» (١).

٢- وجاء فى حديث آخر عن الرسول صلى الله عليه وآله فى باب الشهادة بوحداية الله ونبوة الرسول صلى الله عليه وآله أنه قال: «خف ميزان ترفعان منه وثقل ميزان توضعان فيه» (٢).

٣- وفى حديث آخر عن الإمام الباقر أو الصادق عليهما السلام قال: «ما فى الميزان شىء أثقل من الصلاة على محمد وآل محمد وأنّ

الرجل لتوضع أعماله في الميزان فتميل به فيخرج صلى الله عليه وآله الصلاة عليه فيضعها في ميزانه فيرجح به» (٣).

(١). سنن الترمذى، ج ٤، ص ٣٦٣، ح ٢٠٠٣.

(٢). تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٦٥٩، ح ٨.

(٣). اصول الكافي، ج ٢، ص ٤٩٤ باب الصلاة على النبي، ح ١٥ ورد هذا المعنى نفسه في كتاب بحار الأنوار E في ج ٩، ص ٥٦، ح

٣١.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١١٨

٤- ورد في بعض الروايات: «أن بعض الأذكار مثل الحمد لله وسبحان الله والله أكبر وكذلك لا إله إلا الله تملأ ميزان العمل يوم القيامة» (١).

ويستفاد من الأحاديث السابقة أن العمل قد يكون صغيراً ولكن له أهميته كبيرة يجعل ميزان العمل ثقيلًا ويملاً كفتيه وهذا بسبب الأهمية العظيمة التي يوليها الإسلام لمثل هذه الحقائق (حقيقة التوحيد) (حقيقة محمد صلى الله عليه وآله) (حقيقة التسبيح) وكذلك الإرتباط المعنوي بمحمد وآل محمد صلى الله عليه وآله أو (حسن الخلق) وغيرها.

ولقد قرأنا في بعض الأحاديث السابقة أن ثمرة واحدة تنفق بإخلاص لوجه الله تعالى وابتغاء مرضاته تملأ كفة ميزان العدل الإلهي الذي يملأ ما بين المشرق والمغرب.

٥- يستفاد من بعض الروايات أن الناس يوضعون في الميزان ويوزنون، فذكر المرحوم الطبرسي في مجمع البيان ذيل الآية ١٠٥ من سورة الكهف قال: ورد في رواية صحيحة أن الرسول صلى الله عليه وآله قال: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن جناح بعوضة» (٢).

والسبب واضح وهو أن هؤلاء وعلى الرغم من حسن ظاهريهم لكن أعمالهم وأفكارهم وشخصياتهم كانت في هذا العالم فارغة جوفاء.

٥- المسائل التي يسأل عنها يوم القيامة

هناك روايات كثيرة تتعلق بالأمور التي يسأل عنها يوم القيامة وكل واحدة من هذه الروايات تحتوى على تعابير عميقة المعنى وأن دراسة هذه الروايات له أبلغ الأثر في تربية الإنسان وابرار معالم القيم الإسلامية. ومن هذه الروايات ما يأتي:

١- جاء في حديث للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى

(١). اصول الكافي، ص ٥٤٧، ح ٥.

(٢). تفسير مجمع البيان، ج ٦، ص ٤٩٧.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١١٩

يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وشبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن حبنا أهل البيت» (١).

٢- وجاء في حديث آخر عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله: «أنه تفتح للبعد يوم القيامة على كل يوم من أيام عمره أربعة وعشرون خزنة- عدد ساعات الليل والنهار- فخزانه يجدها مملوءة نوراً وسروراً فينالها عند مشاهدتها من الفرح والسرور ما لو وزع على أهل النار لأدهشهم عن الاحساس بألم النار، وهى الساعة التى فيها اطاع ربّه- ثم يفتح له خزنة اخرى فيراها مظلمة منتنة مفزعة فينالها عند مشاهدتها من الفزع والجزع ما لو قسم على أهل الجنة لنعص عليهم نعيمها وهى الساعة التى عصى فيها ربّه ثم يفتح له خزنة

اخرى فيراها فارغة ليس فيها ما يسره ولا ميسوؤه وهى الساعة التى نام فيها أو اشتغل فيها بشى من مباحات الدنيا فينالها من الغبن والأسف على فواتها حيث كان متمكناً من أن يملأها حسنات ما لا يوصف ومن هذا قوله (ذلك يوم التغابن) «٢».

٣- وجاء فى حديث آخر للرسول الأعظم صلى الله عليه و آله: «أنا أول قادم على الله ثم يقدم على كتاب الله ثم يقدم على أهل بيتى، ثم يقدم على امتى فيقفون، فيسألهم ما فعلتم فى كتابى وأهل بيت نبيكم» «٣».

٤- وجاء فى حديث آخر: «أول ما يحاسب به العبد الصلاة فإن قبلت قبل ماسواها» «٤».

٥- وجاء فى حديث آخر: «ان أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة عن جلسائه» «٥».

فمن الممكن أن يشعر القارى بأن هناك تضاداً فيما يتعلق بأول ما يسأل عنه الإنسان يوم القيامة فإذا كان أحدهما هو الأول فكيف يكون غيره الأول أيضاً، ولكن يظهر أن المراد بأن هناك مجموعة من الأعمال يسأل عنها ضمن المرحلة الاولى وكل الذى ورد فى هذه

(١). خصال الصدوق، (مطابق لماورد فى بحار الأنوار، ج ٧، ص ٢٥٨، ح ١).

(٢). بحار الأنوار، ج ٧، ص ٢٦٣، ح ١٥.

(٣). المصدر السابق، ح ٢٢.

(٤). المصدر السابق، ص ٢٦٧، ح ٣٣.

(٥). تفسير درّ المنتور، ج ٥، ص ٢٧٣.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٢٠

الأحاديث إنما من أجزاء هذه المجموعة، ومن المعلوم أن هذه الأحاديث توضح أهميّة الموضوعات المذكورة فى المنظور القرآنى، أى توضح أهميّة (التوحيد، والنبوة، وحب أهل البيت، والصلاة، والجلساء).

ويوجد احتمال آخر وهو أن هناك مواقف عديدة يوم القيامة وأول ما يسأل عنه فى كل موقف من هذه المواقف هو أحد هذه الأمور.

٦- وجاء فى حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «اتقوا الله فى عباده وبلاده فإنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم» «١».

يخبر هذا الحديث بأن الإنسان مسؤول حتى عن البيئه والحيوانات وسوف يسأل عنها يوم القيامة.

٦- اليسر والعسر فى حساب المحشر

نستفيد من مجموع الروايات وحتى الإشارات الواردة فى بعض الآيات القرآنية أن حساب يوم القيامة حساب دقيق للغاية، وجاء فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال لرجل: «يا فلان مالك ولأخيك؟ قال: جعلت فداك كان لى عليه حق فاستقصيت منه حتى، قال أبو عبدالله: أخبرنى عن قول الله: «وَتَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ» أتراهم خافوا أن يجور عليهم أو يظلمهم؟ لا- والله خافوا الاستقصاء والمداقه» «٢».

وفى حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «إنما يداق الله العباد فى الحساب يوم القيامة على قدر ما آتاهم من العقول فى الدنيا» «٣».

ونستفيد من هذا التعبير أن هناك علاقة متينة بين «مستوى الفهم والإدراك» و «التكليف» فالحساب يكون على قدر العقول.

(١). نهج البلاغة، خطبة ١٤٧.

(٢). بحار الأنوار، ج ٧، ص ٢٦٦، ح ٢٧.

(٣). اصول الكافي، ج ١، ص ١١، ح ٧.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٢١

وفيما يقابل هذه الطائفة (ذات الحساب العسير) طائفة اخرى يكون حسابها يسيراً للغاية قال تعالى «فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا».

(الانشقاق / ٧ - ٨)

وورد في حديث عن الرسول صلى الله عليه و آله أنه قال: «ثلاث من كن فيه حاسبه الله حساباً يسيراً، وأدخله الجنة برحمته: تعطى من حرمك، وتصل من قطعك، وتعفو عمن ظلمك» (١).

ويستفاد من بعض الروايات أيضاً أنّ (حسن الخلق) يخفف من حساب يوم القيامة، قال الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله: «حَسِّنْ خَلْقَكَ يَخْفَفَ اللَّهُ حِسَابَكَ» (٢).

على أديّة حال، يستفاد من كل هذه المصادر الإسلامية أنّ الناس يختلفون اختلافاً كبيراً فيما بينهم بالحساب يوم القيامة، فطائفة يشدد الله في حسابها وتضم الذين يشددون في حساب الناس في الدار الدنيا وذوى الاخلاق السيئة، والظلمة.

وطائفة اخرى يكون حساب أفرادها سهلاً يسيراً، بسبب أعمالهم الصالحة وحسن أخلاقهم، وتساهلهم وتسامحهم مع عباد الله أو عدم تلبسهم بمال ومقام الدنيا.

وطائفة ثالثة وهى التى تدخل الجنة بغير حساب كما ورد في حديث عن الامام على عليه السلام فى تقسيم الناس يوم القيامة قال: «ومنهم الذين يدخلون الجنة بغير حساب، لأنهم لم يتلبسوا من أمر الدنيا بشيء، وإنما الحساب هناك على من تلبس بها هاهنا» (٣).

وفى المقابل: منهم الذين يدخلون النار بغير حساب كما ورد هذا الحديث عن الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَحَاسِبُ كُلَّ خَلْقٍ إِلَّا مَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنَّهُ لَا يَحَاسِبُ وَيُؤْمَرُ بِهِ إِلَى النَّارِ» (٤).

ونقل عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «وأما الثلاثة الذين يدخلهم النار بغير حساب

(١). تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٥٣٧، ح ١٢.

(٢). بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٣٨٣، ح ٢٠.

(٣). ميزان الحكمة، ج ١، ص ٦٢٣.

(٤). بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ٢٦٠، ح ٧.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٢٢

فإمام جائر، وتاجر كذوب، وشيخ زان» (١).

ونختم هذا البحث بحديث آخر للرسول الأعظم صلى الله عليه و آله: «ستة يدخلون النار بغير حساب الأمراء بالجور، والعرب بالعصية والدهاقين بالكبر، والتجار بالكذب، والعلماء بالحسد، والأغنياء بالبخل» (٢).

إلهى نسألك بلطفك وكرمك لما يسرت علينا حساب يوم القيامة، وارحمنا برحمتك، إلهى إنك تعلم أننا قادمون إليك بيد خالية وصحيفة سوداء يا أرحم الراحمين ويا أكرم الأكرمين.

(١) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٣٣٧، ح ٥.

(٢) ميزان الحكمة، ج ٢، ص ٤١٩.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٢٣

٦- الصراط والمرصاد

تمهيد:

«الصراط»: هو جسر ينصب على جهنم وعلى الجميع عبوره وقد اشير إليه في الآيات الكريمة بينما ورد ذكره بالتفصيل في الروايات الإسلامية، وكذلك وردت إشارات حول «المرصاد» الذي يفسر أحياناً بمعنى الصراط وأحياناً أخرى بأنه ممر خاص من نفس الصراط. وتدلّ كل التعابير أنه لأجل الوصول إلى موضع الرحمة الإلهية أي الجنة يجب العبور على جهنم وهذا الأمر غير ميسّر إلا للصالحين والأخيار.

فالمذنبون والمجرمون والفاسقون والظالمون لا يمكنهم اجتياز عبور هذه القنطرة وسوف تزل أقدامهم عنها ويقعون في جهنم، ولقد وردت في تفسير هذين اللفظين وكذلك في حقيقة الصراط والمرصاد أحاديث كثيرة في الروايات الإسلامية وبحوث المفسرين. إن الاهتمام بهذا الموضوع يساعد في فهم وبيان الكثير من المسائل المتعلقة بالمعاد من جهة، ومن جهة أخرى أنّ هذا الموضوع له أثر تربوي كبير في تركية نفوس المؤمنين.

نكتفي بهذه المقدمة، ونرجع إلى القرآن الكريم ولنمعن في آياته خاشعين:

١- «وَأَنْ مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا* ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا». (مريم / ٧١ - ٧٢)

٢- «إِنَّ رَبَّكَ لَبَاسِرٌ بِالْمُرْصَادِ». (الفجر / ١٤)

٣- «وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ». (يس / ٦٦)

٤- «إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا* لِلطَّاغِينَ مَابًا». (النبا / ٢١ - ٢٢)

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٢٤

جمع الآيات وتفسيرها

طريق الجنة يمر عبر جهنم:

الآية الأولى تخاطب الجميع، وتقول: «وَأَنْ مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا» ثم تقول: «ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا» من هنا يطرح هذا السؤال، ما المقصود من ورود جهنم؟ هناك آراء عديدة وتفسيرات مختلفة حول هذه الآية فيعتقد البعض من المفسرين أنّ الورود خلاف الصدور وهو قصد الماء ثم يستعمل في غيره.

يقال وردت الماء أردّه ووروداً فأنا وارد والماء مورود، وقد وردت الابل الماء، قال تعالى «وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ». (القصص / ٢٣) ومفهوم هذا أن الناس إنّما يحضرون النار ويشرفون عليها من غير أن يدخلوها، ويكون هذا المعنى نفس تفسير (الصراط) أي الجسر الذي يمر على جهنم فعلى الجميع اجتيازه وعبوره، فترل أقدام المجرمين ويتدرون في النار، أما المؤمنون فيجتازونه بسرعة ويدخلون الجنة.

وخلاصة الحديث، يقول صاحب الميزان: «والحق أن الورد لا يدل على أزيد من الحضور والاشراف عن قصد» (١)، أو بتعبير الفخر الرازي: (وقد ذكر وجهين لمعنى الورد) أحدهما أن الورد بمعنى القرب. ويستفاد من مجموع الآيات القرآنية التي وردت فيها هذه الكلمة أنها قد استعملت بمعنى الحضور والقرب واستعملت أيضاً بمعنى الدخول أي إنها تحمل مفهوماً عاماً يشمل كلا المعنيين، لذا قال تعالى مخاطباً المشركين: «أَنْتُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصِيبٌ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ* لَوْ كَانَ هُوَ لَاءِ إِلَهًا مَّا وَرَدُّوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ». (الأنبياء / ٩٨-٩٩)

وعلى هذا الأساس فلا مانع من أن نفسر (الورد) بمعنى القرب والاشراف وأنه إشارة

(١). تفسير الميزان، ج ١٤، ص ٩١.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٢٥

إلى جسر الصراط، والشاهد على هذا التفسير حديث ورد عن الإمام الصادق عليه السلام حيث قال في تفسير الآية المذكورة: «أما تسمع الرجل يقول: وردنا ماء بنى فلان، فهو الورد ولم يدخله» (١). وأوضح من هذا التعبير ماورد في حديث قصير نقله القرطبي في تفسيره وهو مروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «الورد الممر على الصراط» (٢).

وهناك تفسير آخر يرجحه أغلب المفسرين: وهو أن البر والفاجر يدخلان جهنم فتكون برداً وسلاماً على المؤمنين وعذاباً لازماً على الكافرين والمجرمين، كما أصبحت النار برداً وسلاماً على إبراهيم عليه السلام، فالنار لا تحرق أجسام المؤمنين بسبب عدم سنيته هذه الأجسام مع النار فيكون حكم أجسامهم كحكم المواد التي تخمد النيران في حين أن سنيته الكفار تتلائم مع النار، كمثل المواد المساعدة على الاحتراق.

والدليل على هذا الكلام رواية نقلت عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضى الله عنه إذ سئل عن هذه الآية فقال: سمعت رسول الله يقول: «الورد الدخول لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلا فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً حتى أن للناس ضجيجاً من بردها» (٣). وإذا رجحنا هذا التفسير فسوف لا تكون الآية دليلاً على مسألة جسر الصراط. الآية الثانية: عبارة عن تهديد ووعد للظالمين فبعد أن ذكر عذابهم الدنيوي الشديد قال تعالى «إِنَّ رَبَّكَ لَبَلِْمْرَصَادٍ». «المرصاد»: مشتقة من مادة (رصد) على وزن (حسد) وهو المكان الذي يرصد منه

(١). تفسير البرهان، ج ٣، ص ٢٠.

(٢). تفسير القرطبي، ج ٦، ذيل الآية مورد البحث.

(٣). تفسير روح الجنان، ج ٧، ص ٤٣١ (وقد نقل هذا الحديث جمع آخر من المفسرين من جملتهم صاحب نور الثقلين؛ والفخر الرازي).

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٢٦

ويرقب (قال الراغب الرصد الاستعداد للترقب) والمرصد: موضع الرصد.

فما المراد ب (المرصاد)؟ قال البعض: إن الله سبحانه وتعالى رقيب رقيب أعمال عباده في هذه الدنيا ويأخذهم بالعذاب إذا طغوا، وجاء في الميزان: «إن الله سبحانه وتعالى رقيب يراقب أعمال عباده حتى إذا طغوا وأكثروا الفساد أخذهم بأشد العذاب» (١). ولكن ورد في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «المرصاد قنطرة على الصراط لا يجوزها عبد بمظلمة» (٢).

و جاء في حديث آخر في روضة الكافي عن الإمام الباقر عليه السلام عن الرسول صلى الله عليه وآله بعد أن ذكر خصائص جسر الصراط أنه قال: «وهو قول الله تبارك وتعالى «إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ»» (٣).

نستفيد من هذين الحديثين اللذين وردا في تفسير الآية أعلاه أن الآية ناظرة إلى القيامة وجسر الصراط مع عدم وجود أى مانع من أن تكون الآية ناظرة إلى كليهما، يعنى أن الله تبارك وتعالى كما أنه رقيب يرقب أعمال عباده في هذه الدنيا كذلك هو رقيب في العالم الآخر في جواز الصراط، لكن وعلى كل حال فالآية ليس لها مفهوم مكانى وذلك لأن الله تعالى لا يحدد بمكان والمقصود هو الاحاطة الوجودية لله على جميع الامور.

وجاء في حديث عن ابن عباس: أنه قال: «إن على جهنم سبع قنطرة، يسأل الإنسان عند أول قنطرة عن الإيمان، فإن جاء به تاماً جاز إلى القنطرة الثانية، ثم يسأل عن الصلاة فإن جاء بها جاز إلى الثالثة، ثم يسأل عن الزكاة فإن جاء بها جاز إلى الرابعة، ثم يسأل عن صيام شهر رمضان فإن جاء به جاز إلى الخامسة، ثم يسأل عن الحج والعمرة، فإن جاء بهما جاز إلى السادسة ثم يسأل عن صلة الرحم فإن جاء بها جاز السابعة، ثم يسأل عن المظالم، وينادى مناد: ألا من كانت له مظلمة فليأت، فيقتص للناس منه، ويقتص له من الناس،

(١). تفسير الميزان، ج ٢٠، ص ٤٠٩، ص ٢٨١.

(٢). بحار الأنوار، ج ٨، ص ٦٤ ولقد وردت نفس هذه الرواية في تفسير البرهان ج ٤، ص ٤٥٨ كتفسير لهذه الآية الشريفة «إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ» ونقلت عن الإمام الصادق عليه السلام.

(٣). تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٥٧٢؛ تفسير البرهان، ج ٤، ص ٤٥٨.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٢٧

فذلك قوله تعالى «إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ» (١).

ونحن نستبعد أن يكون هذا الحديث وبهذه التفاصيل من الاستنباطات الشخصية لابن عباس، فلا بد أنه قد سمعه كرواية من الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله أو الإمام على عليه السلام.

ولقد ورد تعبير (المرصاد) في قوله تعالى: «إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا». (النبا/ ٢١) ولكن الظاهر من هذه الآية أن جهنم نفسها مرصاد للطاغين والمجرمين، ومع أخذ الآيات السابقة لها بنظر الاعتبار ذهب جمع من المفسرين إلى أن المقصود بالمرصاد هو القنطرة التي تمر من فوق جهنم (يقال للمكان الذى اختص بالرصد وبما أنهم غير قادرين على اجتيازه فيسقطون فى جهنم). «٢» إضافة إلى أن التعبير ب (المرصاد) يطلق على الطرق والمعابر، وبما أن جهنم التي تعتبر باصطلاح آخر خطأ، لذا لا تتناسب مع معنى المرصاد وهذه قرينة اخرى على التفسير أعلاه.

الآية الثالثة والأخيرة أشارت إلى وضع الكفار والمجرمين يوم القيامة وأنهم سيختم فى ذلك اليوم على أفواههم ولا تتكلم إلا أيديهم وأرجلهم، قال تعالى «وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ» (٣) لقد ذكر الكثير من المفسرين: أن هذه الآية ناظرة إلى وضع هذه الطائفة فى دار الدنيا حيث فسروا الصراط ب (طريق الحق) أى أنهم يجهدوا أنفسهم فى سبيل العثور على طريق الحق وطريق النجاة، ولكن الله سبحانه وتعالى وبسبب أعمالهم السيئة جعلهم عمياً لا يبصرون وبهذا فهم ليسوا بقادرين على تمييز ومشاهدة طريق النجاة.

(١). تفسير القرطبي، ج ١٠ ذيل الآية مورد البحث.

(٢). ورد هذا التفسير فى تفسير الميزان وفى التفسير الكبير (الفخر الرازى) وفى المفردات والقرطبي فى تفسيره.. ذيل آية سورة النبا، وذكروا هنا المعنى كتفسير للآية أو كأحد الأقوال فى تفسير الآية.

(٣). «طمسنا» من مادة «طَمَسَ» على وزن «شَمَسَ» بمعنى محو وإزالة آثار الشئ ويمكن أن يكون هنا بمعنى محو العين تماماً أو إطفاء نورها والمطموس والطميس: الأعمى الذى ليس فى عينه شق.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٢٨

ويوجد هذا الاحتمال أيضاً وهو أن هذه الآية ناظرة إلى وضع هذه الطائفة أثناء عبورها من الصراط (جسر جهنم) فإذا أراد الله جردهم أعينهم بشكل كامل حتى لا يقدر على المرور من الصراط مهما جهدوا أنفسهم فى ذلك.

والظاهر أن عبارة تفسير (فى ظلال القرآن) لها نفس هذا المعنى ونقل القرطبي هذا التفسير كأحد الأقوال فى تفسير الآية، وإلى ذلك ذهب (عبدالله بن سلام) «١» فى تفسير هذه الآية حيث قال: «إذا كان يوم القيامة ومد الصراط، نادى مناد ليقم محمد صلى الله عليه وآله وامته، فيقومون برّهم وفاجرهم يتبعونه بجواز الصراط، فإذا صاروا عليه طمس الله أعين فجارهم، فاستبقوا الصراط فمن أين يبصرونه حتى يجاوزوه، ثم يناد مناد...» «٢».

ونحن نستبعد أن يكون هذا البيان من استنباط (عبدالله بن سلام) حيث إن ماورد فى هذه الرواية يعد من أخبار الغيب ولا يطلع على الغيب، إلا المعصومون عليهم السلام.

ولا يستبعد بأنه قد نقل ذلك كرواية عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله.

توضيح

ماهى حقيقة الصراط؟

لقد أشرنا عدّة مرات إلى أن أهل الدنيا ليس لهم معلومات مفصلة عن الحقائق المتعلقة بيوم القيامة وعالم ما بعد الموت، حيث هو عالم فوق هذا العالم، ولكن هذا الأمر لا يمنع من المعرفة الإجمالية بهذا الموضوع. ويستفاد من الروايات الإسلامية أن الصراط جسر على جهنم فى طريق الجنة ويرده كل

(١) (عبدالله بن سلام) كان من علماء أهل الكتاب الذين اعتنقوا الدين الإسلامى، وكان اسمه الأصل (الحصين) وبعد الإسلام غير الرسول صلى الله عليه وآله اسمه إلى (عبدالله) ويعتقد بعض علماء الرجال بأنه مجهول الحال ويعتقد آخرون بأن رواياته ضعيفة، ولكن بما أن ابن داود ذكر فى القسم الأول من كتابه فى الرجال أنه معتبر.. فقد اعتبروا هذا الشئ قرينة على حسن حاله.

(٢) تفسير القرطبي، ج ٨، ص ٥٤٩٤.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٢٩

برّ وفاجر فالأبرار يمرون عليه بسرعة ويصلون إلى النعم الإلهية غير المتناهية أما الفجار فتزل أقدامهم ويتردون فى نار جهنم.

ولقد ورد فى بعض الروايات أن سرعة عبور الناس على الصراط ترتبط بمستوى إيمانهم وإخلاصهم وأعمالهم الصالحة.

فقد ورد فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «منهم من يمر مثل البرق، ومنهم من يمر مثل عدو الفرس، ومنهم من يمر حيواً، ومنهم من يمر مشياً، ومنهم من يمر متعلقاً قد تأخذ النار منه شيئاً وتترك شيئاً» «١».

وهنا يطرح هذا السؤال:

لماذا يجب المرور عبر جهنم للوصول إلى الجنة؟

هناك نكات لطيفة ستعرض لها وهى أن أصحاب الجنة عندما يمرون على جهنم يدركون قيمة الجنة أفضل إدراك، ومن جهة أخرى أن وضع الصراط هناك عبارة عن تجسم لأعمالنا فى هذه الدنيا، لذا يجب المرور عبر جهنم (المحرقة للشهوات) من أجل الوصول

إلى جنه التقوى ومن جهة ثالثة فهو انذار جدى لكافة المجرمين والمذنبين حيث إن مصيرهم يؤول إلى العبور من هذا الممر الخطير، لذا ورد فى حديث (مفضل بن عمر) قال:

سألت الإمام الصادق عليه السلام عن الصراط، فقال: «الطراط الطريق إلى معرفة الله سبحانه وتعالى .

ثم قال: «هما صراطان: صراط فى الدنيا، وصراط فى الآخرة، فأما الصراط الذى فى الدنيا، فهو الإمام المفروض الطاعة، من عرفه فى الدنيا واقتدى بهدها مرّ على الصراط الذى هو جسر جهنم فى الآخرة، ومن لم يعرفه فى الدنيا زلت قدمه عن الصراط فى الآخرة فتردى فى نار جهنم» (٢).

(١) أمالى الصدوق، مجلس ٣٣.

(٢) معانى الأخبار، ص ٣٢، ح ١.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٣٠

وفى تفسير عن الإمام الحسن العسكرى عليه السلام «١» أنه فسّر الصراطين (صراط الدنيا والآخرة) الصراط المستقيم فى الدنيا فهو ما قصر من الغلو وارتفع عن التقصير وأما الصراط فى الآخرة فهو طريق المؤمنين إلى الجنة.

وهناك نكتة مهمّة أشارت إليها الروايات الإسلامية، وهى أنه من العسير العبور على هذا الطريق، فقد ورد حديث عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وكذلك عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً: «إنّ على جهنم جسراً أدق من الشعرة وأحد من السيف» (٢).

نعم، هكذا الصراط (المستقيم) وحقيقة (الولاية) و (العدالة) فى هذه الدنيا فهى أدق من الشعرة وأحد من السيف، وهذا يرجع إلى أنّ الخط المستقيم خط واحد دقيق لا أكثر، أمّا الخطوط الأخرى فهى منحرفة نحو اليمين أو الشمال، ومن الطبيعى أن يكون صراط القيامة هكذا فهو تجسيد عيني للصراط الدنيوى، ومع هذا فهناك طائفة تمر على هذا الطريق سريعاً فى ظل إيمانها وأعمالها الصالحة.

ومما لا شك فيه أنّ التمسك بالرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام يسهل اجتياز هذا الطريق المخوف، فقد جاء فى حديث عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «إذا كان يوم القيامة ونصب الصراط على جهنم لم يجر عليه إلّا من كان معه جواز فيه ولاية على بن أبى طالب» (٣).

ولقد ورد نفس هذا المعنى بتعبير آخر يتعلق ب فاطمة الزهراء عليها السلام ومن البديهي أنّ ولاية الإمام على عليه السلام وولاية الزهراء عليها السلام هما من ولاية الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله ولا يمكن الفصل بين القرآن والإسلام وسائر الأئمة المعصومين عليهم السلام، فإذا لم يكن هناك ارتباط إيماني

(١). بحار الأنوار، ج ٨، ص ٦٩، ح ١٨.

(٢). ميزان الحكمة، ج ٥، ص ٣٤٨ ووردت كلمة «الصراط» فى حديث الإمام الصادق بدل جملة «إنّ على جهنم جسراً» (بحار الأنوار، ج ٨، ص ٦٤، ح ١).

(٣). بحار الأنوار، ج ٨، ص ٦٨، ح ١١.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٣١

وأخلاقى مع هؤلاء العظام فلا يمكن الجواز على الصراط، وتوجد فى هذا المجال روايات عديدة، وللمزيد من المعلومات راجع كتاب بحار الأنوار المجلد ٨ وبالأخص هذه الروايات: (١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧).

ونختم حديثنا بالإشارة إلى البعد التربوى للإيمان والاعتقاد بمثل هذا الصراط حيث هو صراط مخوف مرعب متزلزل تشوبه الاخطار،

صراط أدق من الشعرة وأحد من السيف، صراط له عدّة مواقف وفي كل موقف يُسأل فيه عن شيء فأما الأول فيسأل عن الصلاة وأما الثاني فعن الأمانة وصله الرحم والثالث عن العدالة وما شابه ذلك، ممر لا يمكن لأحد العبور عليه واجتيازه إلا إذا كان معه جواز فيه ولاية الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وولاية الإمام على عليه السلام والتخلق بأخلاقهم والسير على نهجهم. وفي النهاية نقول: إنّه ممر تتوقف قدره اجتيازه على قدر نور الإيمان والعمل الصالح، ومن لم يقدر على اجتيازه فسيقع حتماً في نار جهنم وسوف لن يصل إلى موضع النعم الإلهية المادية والمعنوية (الجنة) أبداً. ومما لا شك فيه أنّ الاهتمام بمثل هذه المفاهيم والاعتقاد بها له آثار واسعة في أفعال الإنسان وتربيته فتحته على التخلق بأخلاق أولياء الله وتمنحه البصيرة في انتخاب سبل حياته والتمييز الدقيق بين الحق والباطل.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٣٣

الجنة

إشارة

- ١- موجبات دخول الجنة
 - ٢- النعم المادية في الجنة
 - ٣- اللذات الروحية
 - ٤- أبواب الجنة
 - ٥- سعة الجنة
 - ٦- هل الجنة مخلوقة؟
 - ٧- درجات الجنة
 - ٨- أسئلة وأجوبة حول الجنة
- نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٣٥
- الجنة

تمهيد:

إنّ جميع بحوث المعاد تختتم لا محالة بإحدى النقطتين: إما (الجنة) أو (النار). فأما «الجنة»: فهي مركز لأنواع المواهب والنعم الإلهية المعنوية والمادية. وأما «النار»: فهي مكان لأنواع العذاب ومختلف العقوبات والحرمان، من هنا نتساءل عن حقيقة الجنة، وكيف تكون؟ واين تقع؟ وهل هي مخلوقة أم لا؟

هناك آراء عديدة في هذا المجال، ولأخذ الجواب الصحيح عن هذه الأسئلة يمكننا الاستعانة بالتصريحات أو الإرشادات الواردة في الآيات الكريمة، إضافة إلى ذلك هناك آيات كثيرة تتحدث عن خواص الجنة وأصحابها، والنعم الموجودة فيها من الحدائق، والأنهار، والعيون، والأطعمه، والأشربة الطهوره، والألبسة، والخور العين، والولدان المخلدين، والخدم، والحشم، والاحترام، والإكرام المنقطع النظير من الملائكة وكذلك المواهب المعنوية واللذائذ الروحية، وتشكل مجموع هذه الآيات القسم الأعظم من آيات (المعاد).

ونرى من الضروري الإشارة إلى هذه النكتة وهي: أن أفكارنا وتصوراتنا محدودة ضمن المعايير والاطر الدنيوية، لذا فإن عقولنا لا تدرك حقيقة الجنة وما فيها من نعم مخفية، الجنة أفضل وأعلى وأعمق مما رأينا أو كتبنا أو قرأنا.

ولكن على أية حال يمكننا- وعلى ضوء دراسة الآيات القرآنية والروايات الواردة في هذا المجال- أن نرسم صورة إجمالية عن الجنة وما فيها من نعم، ومن المعلوم أن لهذا

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٣٦

التصور آثاراً تربوية قيمة، فمهما كانت دوافع الإنسان المادية أو المعنوية فإنها تدعوه إليها وتجذبه نحوها.

بهذه المقدمة نرجع إلى القرآن الكريم ونستعرض الآيات التي تتحدث عن الجنة، ومن الطريف أن هذه الآيات جاءت في ثمان مجموعات بعدد أبواب الجنة.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٣٧

١- موجبات دخول الجنة في المنظور القرآني

إشارة

لقد تحدثت آيات كثيرة في القرآن الكريم عن أوصاف أهل الجنة كما حددت الأوصاف والأعمال التي توصل الإنسان إلى الجنة والتنعيم بالمنزلة الرفيعة فيها.

وبهذا فقد بينت هذه الآيات المنظور الإسلامي في مسألة النجاة والسعادة الأبدية وتكامل الإنسان، ويمكن إجمال هذه الأوصاف بالنقاط الآتية:

١- الإيمان والعمل الصالح

إن رأس المال للنجاة والسعادة وفتح أبواب الجنة هو الإيمان والعمل الصالح، قال تعالى

«وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

(البقرة/ ٨٢)

ولقد ورد نفس هذا التعبير أو ما يشبهه في كثير من الآيات، وما تكرر إلهادلياً على أهميته الموضوع وعناية القرآن الخاصة به «١». وبهذا فإن القرآن الكريم قد كشف النقاب عن الأوهام التي كان يعتقد بها جمع من أهل الكتاب والسائرين على نهجهم من سائر الأمم حيث كانوا يتصورون أن النجاة ودخول الجنة تقوم على أساس سلسلة علاقات وروابط معينة، أو أنهم وضعوا ضوابط غير الإيمان والعمل الصالح، فجاء القرآن ليعبى الناس ويبني أنفسهم على أساس بعدين رئيسيين هما (العقيدة) و (العمل).

وهذه الآية التي نحن بصددتها جاءت على أثر الآيات التي تتحدث عن اليهود الذين

(١). آل عمران، ١٣٦؛ النساء، ١٢٤؛ الأعراف، ٤٢؛ الحج، ١٤، ٢٣، ٥٦؛ العنكبوت، ٥٨؛ الزمر، ٧٤؛ الاحقاف، ١٤؛ محمد، ١٢ وآيات

أخرى

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٣٨

كانوا يعتقدون بأنهم أولياء الله واحباؤه: «وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّاماً مَّعْدُودَةً...» (البقرة/ ٨٠)

ومن البديهي أن علاقة الإيمان والعمل الصالح هي كعلاقة (الشجرة) و (الثمرة) فالشجرة الطيبة (من أشجار الفواكه) لا تخلو من الثمار

الطيبة وكذا الحال بالنسبة للإيمان فهو لا ينفك عن العمل الصالح إلا أن يكون ضعيفاً أو خالياً من الروح فيتأثر بالشهوات.. والأهواء النفسية، لذا نقرأ حديثاً عن الإمام الصادق عليه السلام عندما سئل عن حقيقة الإيمان، فقال:

«الإيمان أن يطاع الله فلا يعصى» (١) وبتعبير أوضح: «العمل الصالح هو تجسيم الإيمان القلبي» ولا يعنى هذا الحديث أن العاصين أو مرتكبي الكبائر كفاراً (٢) كما يعتقد الخوارج وإنما المقصود أن الإيمان القوى لا ينفك أبداً عن العمل الصالح، أما الإيمان الضعيف فيمكن أن ينفك عن هذا العمل الصالح ويقع صاحبه في ارتكاب الكبائر.

ومن الجدير بالذكر أن أغلب الآيات الكريمة تقدم الإيمان على العمل الصالح بالرغم من أن الإتيان بالواجبات وترك المحرمات هو أكثر صعوبة من الإيمان ومقدم عليه عرفاً، ولعل السبب في تقديم الإيمان على العمل الصالح يعود إلى أن القرآن الكريم يريد أن يبين أن الإيمان هو أساس الأعمال الصالحة.

وأخيراً فإن تعبير الإيمان والعمل الصالح تعبيران واسعان إلى حد يشملان جميع مراحل الإيمان بالله وسائر الاصول الاعتقادية، من جهة، والإتيان بكافة الأعمال الفردية والاجتماعية والعبادية والسياسية من جهة أخرى وهذا هو المفتاح الأول من مفاتيح الجنة.

٢- التقوى

العامل الآخر من عوامل دخول الجنة هو (التقوى ولقد ذكرت الكثير من الآيات

(١). اصول الكافي، ج ٢، ص ٣٣، ح ٣.

(٢). من الاصول المتفق عليها عند الخوارج هي أنهم يكفرون مرتكبي الكبائر؛ سفينة البحار، مادة (خرج).

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٣٩

القرآنية هذا العامل من جملتها ماورد في سورة مريم بعد الإشارة إلى (جنات عدن) وبعض من نعمها: «تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا». (١) (مريم / ٦٣)

من المعلوم أن الإسلام أعطى أهمية كبيرة للتقوى واعتبرها أحد شعاراته المشهورة كما ورد ذلك في قوله تعالى: «أَنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ». (الحجرات / ١٣)

فتقول الآية: إن الشرف والكرامة هو بتقوى الله سبحانه وهي الوسيلة الوحيدة إلى سعادة الدار الآخرة، فليس من العجب أن تصف الكثير من الآيات القرآنية (التقوى بأنها مفتاح الجنة).

«والتقوى: هي اجتناب الذنوب والمعاصي والامتنال لأوامر الله ونواهيه، واتباع الحق والعدل، وبتعبير آخر: هي حالة الخوف الباطنية والوازع الذاتي الذي يمنع الإنسان من الوقوع في المعاصي والآثام، أي أن التقوى مفهوم جامع يضم كافة التكليف الإلهية والأخلاقية والإنسانية.

التعبير ب (تلك) في بداية الآية والذي يشير إلى البعيد هو إشارة إلى عظمة الجنة وكأنها عالية بدرجة خارجة عن نطاق الفكر والخيال.

وأما كلمة (الإرث) فيمكن أن يشير بها إلى المعاني الآتية:

١- كل تمليك ثابت، لأن الملك الوحيد الذي لا يقبل الرجوع والفسخ هو ما ينتقل عن طريق الارث وكذلك الجنة فإن الله سبحانه وتعالى يورثها للمتقين.

٢- قبل أن يكون للورثة بعد قانوني وتشريعي فإن لها بعداً تكوينياً وطبيعياً إذ تنقل مجموعة الصفات الوراثية للأباء والامهات إلى الأبناء، وبهذا يكون المراد بالإرث في الآية أعلاه: هو أن هناك علاقة معنوية تكوينية بين التقوى والجنة.

٣- الأموال الموروثة: هي أموال تصل إلى الإنسان بدون تعب وعناء غالباً، والنعم

(١). هناك الكثير من الآيات التي تشير إلى العلاقة بين (التقوى و (الدخول إلى الجنة) ومن جملتها: آل عمران، ١٥، ١٣٣، ١٩٨؛ الرعد، ٣٥؛ الحج، ٤٥؛ النحل، ٣١؛ الفرقان، ١٥؛ الشعراء، ٩٠؛ الزمر، ٣٠، ٧٣؛ الدخان، ٥١؛ محمد، ١٥؛ ق، ٣١؛ الذاريات، ١٥ وغيرها. نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٤٠

الإلهية في الجنة من العظمة بحيث تعتبر أعمال المتقين لا شئ قبالتها، فكأن الجنة تعطى لهم مجاناً وبدون أى مقابل لضالته أهميته أعمال المتقين قياساً بهذه النعمة العظيمة.

وبتعبير آخر نقول: حقاً أن أعمال الإنسان وتقواه هي الأساس في استحقاق الجنة ولكن عظمة الجنة وما فيها من النعم كأنها أعطيت للمتقين مجاناً.

من هنا يجب القول: إضافة إلى كون الجزاء الاخرى له بعد استحقاقه كذلك له بعد تفضلي أيضاً، أى أن الجنة هي تفضل من الله سبحانه وتعالى للمتقين.

٤- ونقرأ رواية وردت في تفسير هذا المعنى عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله قال: «ما من أحد إلا وله منزل في الجنة، ومنزل في النار: فأما الكافر فيرث المؤمن منزله من النار والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة» (١).

فيدل هذا الحديث على أن جميع الناس خلقوا أحراراً في اختيارهم فكما خلق عندهم الاستعداد لدخول الجنة كذلك خلق عندهم الاستعداد أيضاً لدخول النار وهذا يرتبط بكامل اختيارهم وإرادتهم (٢).

٣- الاحسان

الاحسان عامل آخر من عوامل الدخول في موضع النعمة الإلهية ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المفهوم الواسع في آيات عديدة من جملتها الآية ٨٥ من سورة المائدة فبعد أن أشارت هذه الآية إلى وضع مجموعة من علماء أهل الكتاب الذين انقلبوا بعد سماعهم آيات القرآن الكريم وفاضت أعينهم بالدمع مما عرفوه من الحق، قال تعالى بصددهم:

(١). تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٣١، ح ١٢١؛ تفسير مجمع البيان، ذيل الآية ٤٣، من سورة الأعراف، ولقد ورد في تفسير علي بن إبراهيم نفس المعنى بتعبير آخر عن الإمام الصادق عليه السلام، ذيل الآية ١١، من سورة المؤمنون.

(٢). إن هذا التعبير «الارث» لم ينحصر في الآية السالفة الذكر بل قد ورد في آيات اخرى نذكر منها: المؤمنون، ١٠، ١١؛ الأعراف، ٤٣؛ الزخرف، ٧٢؛ الشعراء، ٨٥، فهو تعبير واسع.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٤١

«فَأَنبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ» (١).

صحيح أن القرآن يصرح بأن كل هذه النعم التي أتاهاهم الله بها لما قالوا بعظمة القرآن والإيمان به ولكن من البديهي أن هذا لم يكن قولاً فقط بل كان قولاً ممزوجاً بالإيمان، ذلك الإيمان الذي ملأ كل وجودهم، لذا تقول الآيات التي قبلها: «تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ» (المائدة/ ٨٣)

لكن كيف يكون كلام هؤلاء مصداقاً للاحسان؟ يمكن القول: إضافة إلى أنهم درسوا القرآن وتدبروا معانيه جيداً كذلك أقرؤا واعترفوا بدين الحق وعملوا به بشكل جيد.

ونستفيد من بعض الروايات أن الاحسان هو العبودية المقترنة باليقين الكامل والشعور بأن الأنسان تحت رقابة الله تبارك وتعالى في

جميع الاحوال.. كما ورد ذلك في حديث عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله فقد سئل عن الاحسان فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» (٢).

ومن الواضح أن من يشعر بمثل هذه المراقبة فستكون عبادته عبادة حقة لها روح وحقيقتها وليس ذلك فحسب بل إن آثار هذا الشعور ستعكس على جميع أعمال الإنسان وأقواله وسلوكه.

٤- الجهاد والشهادة

إن كل من له أدنى اطلاع على منطق القرآن والإسلام يعلم جيداً بالمقام السامى والدرجة الرفيعة للمجاهدين والشهداء في الإسلام، فلقد وعد القرآن صراحة هذه الطائفة المضحية بالجنة، ومن جملة الآيات قوله تعالى «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ

(١). ورد نفس هذا المعنى في الزمر، ٣٤؛ المرسلات، ٤٤.

(٢). تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٥٥٣، ح ٥٧٩ ذيل الآية الشريفة ١٢٥ من سورة النساء.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٤٢

وَأَمْوَالُهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَاً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ الَّتِي لَا يَبْغِيهَا عَنْكُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» (١). (التوبة/ ١١١)

حقاً إنها لتجارة لا نظير لها، فالمشترى هو الله سبحانه وتعالى والبائعون هم المؤمنون المجاهدون.

«البضاعة»: الأنفس والأموال التي وهبها الله لهم والثمن الذي يدفع إليهم هو جنة الخلد وسند هذه المعاملة الكتب السماوية الثلاثة إضافة إلى كل هذا هناك تبريك من قبل المشتري للبائع.

كم هي تعابير جميلة ورائعة! وكم هي معاملة رابحة مقابل متاع زائل وغير ثابت وكم هو ثمن مبارك وخالد، وكم هو مقدار اللطف والمحبة في هذه المعاملة من قبل الله تبارك وتعالى

وعن جابر بن عبد الله قال: «انزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وآله وهو في المسجد (ان الله.. فكبر الناس فأقبل رجل من الأنصار ثانياً طرفي رداً على عاتقه فقال: يا رسول الله انزلت هذه الآية؟ قال: نعم، فقال الأنصاري: بيع ربيع لا نقيلاً ولا نستقيلاً» (٢).

ونستفيد من الآية السابقة أنها لا تختص بالشهداء فقط بل إن هذه المعاملة تشمل المجاهدين في سبيل الله أيضاً.

ونلاحظ في الآية تقدم عبارة «يُقْتَلُونَ» على «يُقْتَلُونَ» وهذا دليل على أن الهدف الرئيس من الجهاد هو القضاء على العدو لا الشهادة، وبناء على ذلك فإن الشهادة درجة رفيعة لا يبلغها إلا الخاصة من أوليائه.

من هنا لا يمكن أن يكون الغرض من الجهاد هو الشهادة أبداً وتعبير أدق الشهادة ليست هدفاً وإنما هي وسيلة لتحقيق الهدف.

(١). كما ورد نفس هذا المعنى في الآيات ٢٠، ٢١، ٨٨، ٨٩ من نفس السورة، و الصف، ١٢؛ آل عمران، ١٤٢.

(٢). تفسير در المنثور وطبق نقل تفسير الميزان، ج ٩، ص ٤٢٩.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٤٣

٥- نهى النفس عن الهوى

من الامور الاخرى التي هي من موجبات دخول الجنة، الخوف من الله تعالى ونهى النفس عن الهوى قال تعالى «وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ

رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ . (النازعات / ٤٠ - ٤١)

مما لا شك فيه أن هناك علاقة متبادلة بين (الخوف من الله) و (نهى النفس عن الهوى فالاولى بمنزلة الشجرة والثانية ثمرها، فعندما يتجذر الخوف من الله تعالى في أعماق روح الإنسان، عندئذ تشن حرب من الداخل لمواجهة هوى النفس، ومن المعلوم أن مصدر جميع المفسد والذنوب على سطح الأرض هو (عبادة الهوى ، فمن هنا يكون الخوف من الله مصدر كل الإصلاحات، لذا ورد هذا الحديث النبوي: «ما تحت ظل السماء من إله يُعبد من دون الله أعظم عند الله من هوى مُتَّبِع» «١» في ذيل الآية الشريفة «أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ». (الفرقان / ٤٣)

والجدير بالذكر أن ما يقابل هاتين الصفتين (الخوف من الله ونهى النفس عن الهوى صفتان أخريان وردتا في الآيات التي تسبق هذه الآية من نفس السورة وهما (الطغيان وإيثار الحياة الدنيا على الآخرة): «فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ . (النازعات / ٣٧ - ٣٩)

والحقيقة أن هاتين الصفتين مصدر كل البلايا كما أن تلك الصفتين مصدر كل خير.

وعلى حد قول بعض المفسرين فالمصادر التي تأتي منها الذنوب السبعة المذكورة في قوله تعالى «زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ». (آل عمران / ١٤) تتلخص في هوى النفس، وأن مصدر هوى النفس هو عدم المعرفة وعدم الخوف من الله تعالى «٢». من هنا فما المقصود من (مقام ربّه)؟ هناك آراء مختلفة حول تفسير هذا التعبير فقيل: المراد مقامه من ربّه يوم القيامة حين يسأله عن أعماله.

(١). تفسير در المنتور، ج ٥، ص ٧٢.

(٢). تفسير روح البيان، ج ١٠، ص ٣٢٧.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٤٤

وقيل: إنه إشارة إلى مقام علم الله ومراقبته لعباده.

وقيل: إنه إشارة إلى مقام عدالته تعالى

ولكن هذه التعبيرات ترجع في الحقيقة إلى الخوف من الأعمال والذنوب وذلك لأن الله (أرحم الراحمين) ولا يوجد في ذاته تعالى ما يوجب الخوف منه، فكما أن المجرمين يخافون رؤية القاضى العادل ويفزعون من سماع إسم المحكمة فكذلك الحال بالنسبة للمذنبين فإنهم يخافون من مقام العدل والحساب والعلم الإلهي، وفي الحقيقة أن هناك جحيم في هذه الدنيا هي جحيم الشهوات، والجحيم الاخرية إنما هي جحيم مجازاة تنبع من هذه الجحيم. ونختم هذا البحث بحديث عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من علم أن الله يراه، ويسمع ما يقول، ويعلم ما يعمل من خير أو شر، فيحجزه ذلك عن القبيح من الأعمال، فذلك الذى خاف مقام ربّه ونهى النفس عن الهوى «١».

٦- السابقون إلى الإيمان

من المعلوم أن ظهور أى دين جديد يقترن بمخالفة السنن والتقاليد الرائجة في ذلك المجتمع، وخصوصاً الدين الإسلامى الذى ظهر فى محيط خرافى ملئ بأنواع المفسد والسنن الباطلة الخاطئة.

فمن البديهي أن يكون السابق إلى الإيمان بمثل هذا الدين أمراً عسيراً للغاية ويحتاج إلى شهامة منقطع النظر، فالسابقون للإيمان يتعرضون عادة لأشد هجمات الجاهلين المتعصبين وبما أنهم يشكلون الأقلية من المجتمع، لذا فتكون أنفسهم وأموالهم فى خطر دائماً،

إضافة إلى ذلك يعتبر هؤلاء القدوة الحسنة والانموذج الأمثل للآخرين وهم الوسيلة والعامل الرئيس في نشر تعاليم السماء في الأرض، فمن هنا يكون للسابقين في الإيمان

(١). تفسير الثقلين، ج ٥، ص ١٩٧ ح ٤٨؛ اصول الكافي، ج ٢، ص ٧٠ باب الخوف والرجاء ح ١٠.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٤٥

امتياز كبير ودرجة رفيعة وقد وعدهم الله تعالى وعداً قاطعاً بدخول الجنة، كما ورد ذلك في قوله تعالى «وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ* أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ* فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ» (١).
(الواقعة / ١٠-١٢)

هذا في حالة تفسير (السابقون) بمعنى السابقين إلى الإيمان، لكن بعض المفسرين فسّروا (السابقون) بمعنى السابقين إلى طاعة الله (اطاعة أوامر الله) أو السابقين إلى الصلوات الخمس أو الجهاد، أو الهجرة، أو التوبة وأعمال البر، لأنّ السابق إلى الخير إنّما يقتدى به في الخير وهو شاهد على المراد حتى على هذه الصورة.

وكذا الرجال السابقون المؤثرون المتوكلون على الله تعالى لهم الأحقية في السبق إلى جنات النعيم.

وقيل: (السابقون) - كما جاء في الروايات الإسلامية - (الإمام على بن أبي طالب عليه السلام) حيث كان أول القوم إسلاماً من الرجال وقيل إنّ السابقين هم (هايل) و (مؤمن آل فرعون) و (حبيب النجار) و (الإمام على بن أبي طالب عليه السلام) حيث يمثل كل واحد منهم في عصره مصداقاً واضحاً للقدوة الحسنة في السبق إلى الإيمان والجهاد وأعمال الخير (٢).

ومِمَّا تجدر الإشارة إليه أنّ أول موهبة جعلها الله لهم هي موهبة القرب من الله تبارك وتعالى «أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ» والتي تفوق كل النعم العظيمة بما فيها جنات النعيم.

ومن المعلوم أنّ (جنات) تفي بالغرض من دون ذكر (النعيم) الذي هو جمع نعمه، وإنّما ذكرها تعالى للتأكيد، ولإعطائها أهمية أكبر، من هنا يمكن الإشارة إلى نكتة أخرى وهي أنّ الجنات موضع الرحمة والنعم الإلهية فقط وهي على خلاف البساتين الدنيوية التي يلزم إدارتها وصيانتها وحفظها جهود كبيرة إضافة إلى ذلك فإنّها معرضة للآفات والفناء والعدم.

(١). لقد ورد نفس هذا المعنى في الآية ٢١ من سورة الحديد وكذا الآية ١٣٣ من سورة آل عمران.

(٢). للاطلاع على هذه الأحاديث راجع كتاب احقاق الحق، ج ٣، ص ١١٤ و ج ١٥، ص ٣٤٥؛ وتفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٢٠٩، ح ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٤٦

٧- الهجرة والجهاد

الهجرة بمعنى الابتعاد عن بؤرة الكفر والشرك والظلم والمعاصي، وتكون في كثير من الموارد السبيل الوحيد لخلاص المؤمنين والصالحين وانقاذهم من معاناتهم، فهم يتعدون عن أجواء محيطهم الملوث ليعملوا على بناء أنفسهم وإعدادها من أجل تعبئة كافة إمكاناتهم وطاقاتهم للهجوم على أعداء الله من كافرين ومشركين وظلمة، ولقد هاجر المسلمون مرتين في عصر صدر الإسلام، الهجرة الأولى (هجرة الحبشة) وهي هجرة خاصة حيث هاجرت مجموعة من المسلمين من مكة إلى الحبشة، والهجرة الثانية (هجرة عامة) من مكة إلى المدينة وتعتبر هذه الهجرة بداية فصل جديد في تاريخ الإسلام، ومن البديهي أن ترك المنازل والممتلكات والأهل والأقارب والأصدقاء والوطن الذي نشأ فيه المرء وترعرع فيه أمر عسير للغاية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى مواجهة المشاكل لغرض

الاعداد للجهد والهجوم على مواطن الكفر والفساد، لذا فإن القرآن الكريم وعد المهاجرين بأعظم الدرجات وبشرهم برحمته ورضاه: «وَجَنَاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ».

وقال تعالى «الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ». (التوبة/ ٢٠-٢١)

تحدث الآيتان الكريمتان عن ثلاث صفات (الإيمان، الهجرة، الجهاد) طبعاً أن كل واحدة من هذه الصفات ترتبط مع الاخرى برابطة العلة والمعلول فكان إيمانهم هو السبب في هجرتهم وهجرتهم مقدمة لجهادهم وجعل الله سبحانه وتعالى جزاءهم ثلاثة امور هي (الرحمة الإلهية) و (الرضوان) و (جنات النعيم) وبهذا فقد جعل الله سبحانه وتعالى مقابل كل صفة اجراً عظيماً، فالإيمان يستوجب مغفرة الذنوب والهجرة تستوجب جلب الرضوان الإلهي والجهاد بالأموال والأنفس هو السبب في دخولهم جنات النعيم. روى الحاكم أبو القاسم الحسكاني قال: «بينما شيبه والعباس يتفاخران إذ مرَّ عليهما

(١). لقد ورد هذا المعنى في الآية ١٠٠ من سورة التوبة.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٤٧

على بن أبي طالب عليه السلام قال: بِمَ تَفْخَرَانِ؟ قال العباس: لقد أوتيت من الفضل ما لم يؤت أحد، سقاية الحاج، وقال شيبه: أوتيت عمارة المسجد الحرام. وقال على عليه السلام: وأنا أقول لكما لقد أوتيت على صغرى ما لم تؤتيا. فقالا: وما أوتيت يا على؟ قال: ضربت خرطوميكما بالسيف حتى آمنتما بالله تبارك وتعالى ورسوله فنزل جبرائيل عليه السلام بالآية «اجعلتم سقاية...» (١). وللمفسرين بحوث كثيرة في مسألة (كيف اعتبر القرآن درجة الذين هاجروا وجاهدوا أعلى من درجة غير المؤمنين؟ في حين أن (غير المؤمنين) ليس لهم أية درجة أصلاً).

يمكن القول في جواب قصير إن المراد بيان أن النسبة بينهما هي نسبة الأفضل إلى من لا- فضل له وهذا كثير في مورد الصفات التفضيلية كقوله تعالى «وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ». (البقرة/ ٢٢١) ويلاحظ أمثال هذا التعبير الكثير في القرآن والروايات وكلام العرب. والخلاصة: أن نفس عمل سقاية الحجيج وعمارة المسجد الحرام عمل حسن من أي شخص كان أما إذا كان الفاعل كافراً أو مشركاً فلا قيمة له، حيث إن الكفر والشرك يحبطان الأعمال الصالحة.

٨- الصبر والتحمل عند الشدائد

مسألة الاستقامة هي أساس لكل الأعمال الصالحة وركن أساس في امتثال كل طاعة واجتناب كل معصية. وعلى هذا الأساس فلا عجب أن تعد الاستقامة من العوامل المهمة في دخول الجنة كما ذكر في ذيل هذه الآية: «وَجَزَاءُهم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةٌ وَحَرِيرًا». (٢) (الدهر/ ١٢)

وعند دخولهم الجنة تستقبلهم الملائكة بالترحيب، وهذا دليل على عظمة مقام

(١). شواهد التنزيل لابن القاسم الحسكاني، ذيل الآية مورد البحث ص ٢٤٤ فما بعدها. ولقد ورد نفس المضمون بشيء من الاختلاف في كتب كثيرة لأهل السنة راجع إحقاق الحق، ج ٣، ص ١٢٢ و ١٢٧.

(٢). لقد ورد نفس هذا المعنى في سورة الرعد، ٢١، ٢٤؛ الفرقان، ٧٥.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٤٨

الصابرين: «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ». (الرعد/ ٢٤)

ومن المعلوم أن الآية التي نحن بصددنا هي من آيات سورة الدهر التي نزلت على قول أكثر مفسري الشيعة والسنة في حق علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، حيث ضربوا أروع الأمثلة في الصبر والتحمل حينما تصدقوا بما عندهم من طعام إلى (المسكين) و (اليتيم) و (الأسير) وبقوا ثلاثة أيام متتابعة يفطرون بالماء فقط وهذا هو الصبر على الطاعة. من البديهي: أن الصبر والتحمل عند مشاكل ومصاعب الحياة وكذلك الصبر والتحمل على ترك ما نهى الله عنه من عوامل الاثارة والذنوب والمعاصي.. يكون مفتاح من مفاتيح الجنة فيبدل الله تعالى ما لقوه من المشقة والكلفة نعمة وراحة. ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه الآية خصت من بين جميع النعم الإلهية الألبسة الفاخرة الجميلة ويعود السبب في ذلك إما لأن هذه الثلة من الصابرين إضافة إلى ما جادوا به من الطعام للجوع كذلك أنهم وما وهبوه من الألبسة إليهم واكتفوا بلباس بسيط أو أن جمال ظاهر الإنسان بالدرجة الأولى يكمن في زيه ولباسه كما أن لباس (التقوى هو زينه وجمال الباطن).

٩- الإيمان والاستقامة

ركزت بعض الآيات القرآنية على مسألة الاستقامة والثبات على طريق الإيمان واطاعة الأوامر الإلهية فقد ورد في قوله تعالى «انَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ* أُولَئِكَ اصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ». (١) (الاحقاف/ ١٣-١٤)

استقاموا مشتقة من مادة (الاستقامة) أى ملازمة الطريق المستقيم والثبات على الطريق الصحيح وبتعبير آخر الابتعاد عن كل زيغ وانحراف والثبات على ما شهد الإنسان به من دين

(١). ولقد ورد نفس هذا المعنى فى الآية ٣٠، ٣١ من سورة فصلت.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٤٩

الحق، والتفسير ب «الاعتدال» من أرباب اللغة إنما هو من هذا الباب أيضاً.

قال الراغب فى مفرداته: «يقال: الاستقامة: الطريق الذى يقع على خط مستقيم ولهذا يقال للطريق الحق: (الصراط المستقيم) واستقامة الإنسان هى ملازمة الطريق المستقيم» (١).

إضافة إلى أن مفهوم الاستقامة يعنى استواء الطريق كذلك أنه يعنى المقاومة والثبات، وعلى هذا الأساس فتعبير الاستقامة على النهج الصحيح من عوامل الدخول إلى موضع اللطف والكرامة الإلهية (ألا وهى الجنة) وورد عن الأئمة المعصومين عليهم السلام فى تفسير الآية أنهم قالوا: «استقاموا على ولاية امير المؤمنين» والى تعد الخط المستقيم للإسلام الصحيح (٢).

ولو تأملنا فى الآية الكريمة لوجدنا أنها ذكرت (الإيمان) أولاً (قالوا ربنا الله) وبعدها عطف (الاستقامة على الطريق الصحيح) على الإيمان ب «ثم» التى تفيد العطف المباشر لتوحى إلى أن عملاً كهذا هو نتيجة مثل ذلك الإيمان، ومما تجدر الإشارة إليه أن الإنسان يحزن على أمور قد حدثت فى الماضى وأحياناً اخرى يخاف ويقلق من أمور قد تحدث فى المستقبل، يقول القرآن الكريم فى الآية مورد البحث: «فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ».

ونختتم هذا الموضوع بحديث عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله قال سفيان الثقفى: قلت: يارسول الله أخبرنى بأمر أعتصم به. قال الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله: «قل ربى الله ثم استقم، قال: فقلت: ما أخوف ما تخاف على: فأخذ رسول الله صلى الله عليه و آله بلسان نفسه فقال: هذا» (٣).

١٠- إطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وآله

من الأعمال التي توجب دخول الجنة هي اطاعة الله والرسول صلى الله عليه وآله كما ورد ذلك في ق. له

(١). مفردات الراغب، مادة (قوم).

(٢). تفسير على بن إبراهيم ج ٢، ص ٢٦٥، ذيل الآيتين ٣٠ و ٣١ من سورة فصلت واللتين تشبهان الآية أعلاه.

(٣). تفسير الكبير، ج ١٠، ص ٢٢.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٥٠

نفحات القرآن ج ٦ ١٩٩

تعالى «وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ». (النساء/ ١٣)

تعبير (جنات) يدل على تعددها وأن كل واحدة منها أحد مقامات العارفين والصالحين والأطهار.

أما تعبير (تجري من تحتها الأنهار) فدلالة على جمال بسايتها ورونقها ودوام خضرتها لأن أنهارها دائمة الجريان.

«خالدين فيها»: إضافة إلى أن الآية نفت احتمال فناء وسلب النعمة التي هي عادة من عوامل القلق جاءت الآية بصيغة الجمع وهذه إشارة إلى أن أهل الجنة يتمتعون بنعمة الاجتماع والانس مع بعضهم البعض.

في حين أن الآية التي بعدها والتي تتحدث عن عصيان الله ورسوله جاءت بصيغة المفرد (خالداً) وهذه إشارة إلى أنهم (أهل النار) يتعذبون بالوحدة والعزلة وكأن كل واحد منهم سجين في زنازاة انفرادية في نار جهنم.

١١- الاخلاص

خلوص العقيدة، وخلوص العمل، وخلوص النية، من موجبات دخول الجنة، قال تعالى «وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ* إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ* أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ* فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ* فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ». (الصفوات / ٣٩-٤٣)

فبعد أن أشارت هذه الآيات إلى عذاب أهل النار استثنت المخلصين وقالت إنهم في معزل من كل هذا العذاب.

من هنا يجب أن نعرف من هم (المخلصين) (بفتح اللام)؟ إذا تأملنا في الآيات القرآنية فسوف ندرك جيداً أن (المخلص) بكسر اللام يعني الشخص الذي أخلص نفسه وأعماله

(١). نفس هذا المعنى ورد في الآية ١٧ من سورة الفتح.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٥١

وبيته، وغالباً ما يستعمل هذا في مراحل بناء الإنسان لنفسه، في حين أن (مخلص) (بفتح اللام) يطلق على الذين بلغوا الدرجات العلى من الإيمان والمعرفة والعمل، فهؤلاء خارجون عن وساوس الشيطان وأحاييله، فلا سلطان للشيطان عليهم، قال تعالى «قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ* إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ». (ص / ٨٢-٨٣)

وفي الحقيقة أن أدراة وجود الإنسان على قسمين: الأول يمكن تشخيصه وعلاجه، والثاني لا يمكن ازالته وعلاجه إما لكونه مخفى عن الإنسان أو أنه ظاهر وجلى ولكن لا قدرة له على ازالته، فعندما يضع الإنسان قدمه في طريق الإخلاص ويعمل على تخليص نفسه من أدراة القسم الأول والتي تقع ضمن استطاعته وقدرته فإن الله سبحانه وتعالى يخلصه ويزكيه بلطفه وكرمه من أدراة القسم الثاني وحينئذ يلقى لمقام ال (مخلص).

والعجيب أن الله سبحانه وتعالى وهب لهذه المجموعة من المواهب والعطايا ما لم يهب غيرهم، ومن جملتها الرزق المعلوم وهو رزق خاص لا يشبه رزق غيرهم فهؤلاء يتلذذون بلذة القرب من الذات الإلهية المقدسة فالله تعالى أخلصهم لنفسه فلا يشاركه فيهم أحد حيث إن قلوبهم لم تتعلق بشئ غيره تعالى فليس فيها إلا الله سبحانه، ولقد أشار تعالى إلى ذلك في قوله: «أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ»، ومن خواصهم كذلك بلوغهم مقاماً سامياً من العرفان فعباد الله المخلصين يصفونه تعالى وصفا يليق به أو بما يلعب به من الأوصاف، لا كما يصفه الكفار أو المشركون، قال تعالى «سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ* إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ». (الصفات / ١٥٩ - ١٦٠)

وبهذا فإن معرفتهم بالله أعلى المعارف وأليقها، وصيانتهم من الشيطان وهوى النفس أشد وجزاؤهم يوم القيامة أجزل وأوفر وهذا هو جزاء المخلصين.. (اللهم اجعلنا من المخلصين بحق محمد وآله الطاهرين).

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٥٢

١٢- الصدق

قلما نجد في أعمال الإنسان مثل جمال وجاذبية (الصدق والواقعية)، ويتبين من الآيات والروايات أن وزن الصدق ثقيل جداً في ميزان الأعمال، وذلك لأنه يعد من أسمى أوصاف أولياء الله وهو أحد مفاتيح الجنة كما صرح بذلك القرآن الكريم: «هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا». (١) (المائدة/ ١١٩)

ومن الواضح أن المراد بالصدق في هذه الدنيا هو الصدق في العقيدة والقول والفعل وكل صفة من هذه الصفات هي علامة من علامات (التقوى عند الإنسان في هذه الدنيا وإلا فلا محل للصدق في الآخرة حيث لا يكذب هناك).

إضافة إلى هذا فإن الأوضاع يوم القيامة لا مجال فيها إلا للصدق، وحتى المذنبون فإنهم إن عمدوا إلى انكار الحقائق مؤقتاً فسرعان ما يدركون بأن لا جدوى من الانكار وبالتالي يعترفون بجميع ذنوبهم.

ويمكن أن نستفيد من هذا التعبير ضمناً أن جميع الأعمال الصالحة تنحصر في الصدق، ويتضح التحليل المنطقي لذلك بشيء من التأمل حيث إن جميع الذنوب إنما هي ناشئة من عدم الصدق في ادعاء الإيمان والإسلام، فالشخص الذي يعترف ويقر بقانون كيف يسمح لنفسه بمخالفته؟

وتتضح أهمية الصدق من هذه الناحية وهي أن الله سبحانه وتعالى جعله الوسيلة لكشف حقائق الناس، كما ورد ذلك في حديث عن الرسول الأعمم صلى الله عليه وآله قال: «لا- تنظروا إلى كثرة صلاتهم وصومهم، وكثرة الحج والمعروف، وطنطنتهم بالليل، ولكن انظروا إلى صدق الحديث، وأداء الأمانة» (٢)، وقال صلى الله عليه وآله في حديث آخر: «إن الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنة» (٣).

إذن فالصدق مفتاح من مفاتيح الجنة.

(١) في هذه الآية يكون «هذا» مبتدأ و «يوم» خبر وجملة «ينفع...» مضافة إلى «يوم».

(٢) بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٩، ح ١٣.

(٣) المحجة البيضاء، ج ٨، ص ١٤٠.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٥٣

١٣- تزكية النفس

مِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ الْجَنَّةَ هِيَ مَحَلُّ الصَّالِحِينَ وَالْأَخْيَارِ، وَلَقَدْ ذَكَرَ الْقُرْآنُ ذَلِكَ صِرَاحَةً كَجِزَاءٍ لِمِثْلِ هَؤُلَاءِ الْأَشْخَاصِ وَرَدَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى، عَنِ لِسَانِ سِحْرَةِ فِرْعَوْنَ بَعْدَ غَلْبَةِ مَعْجَزَةِ مُوسَى وَإِيمَانِ وَتَسْلِيمِ السِّحْرَةِ بِمَا جَاءَ بِهِ وَالتَّمَرُّدِ عَلَى فِرْعَوْنَ فَقَالَتْ: «وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جِزَاءٌ مَنْ تَزَكَّى . (طه / ٧٥-٧٦)

«تزكى : مشتقة من مادة (تزكية) وتشمل تزكية العقيدة وكذلك تزكية الأقوال والأفعال أيضاً.

وفى الحقيقة أن الجنة محل مطهر من جميع القذارات والأدران، ومن الطبيعي أن هذا المحل لا يصلح إلا للأخيار الذين لم يلبسوا إيمانهم بظلم.

وقد قال بعض المفسرين: إنَّ (الدرجات العلى جعلها الله لمن كان له إيمان وعمل صالح وتزكية نفس.

وعلى هذا الأساس لا يتنافى أن تكون الدرجات الأقل للمؤمنين الذين خلطوا أعمالاً صالحاً بأخرى سيئة، أو حتى الذين ارتكبوا أحياناً المنكرات.

ولكن هؤلاء لن يستطيعوا دخول الجنة التي هي محل القدس والطهارة ما لم يتطهروا من هذه الذنوب، وهناك احتمال آخر وهو أن هذه الآيات لم تكن عن لسان سحرة فرعون وإنما هي كلام الله المباشر، ولكن ومهما كان تفسير الآية فإن المعنى واحد.

١٤- الانفاق والاستغفار

الاستغفار من الذنوب والتوبة والانفاق فى السراء والضراء وكظم الغيظ والعفو والصفح عن الناس وعدم الإصرار على الذنب مجموعة من الصفات تعرضت لها بعض الآيات من القرآن الكريم ووعدت فى مقابل ذلك الجنة، قال تعالى «وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ نَفَحَاتِ الْقُرْآنِ، ج ٦، ص: ١٥٤

وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ اعِدَدْتُ لِلْمُتَّقِينَ»، وهذه الآية كالتوطئة لذكر ما يذكره تعالى بعد من أوصاف المتقين ثم شرع ببيان هذه الأوصاف وقال: «الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ»، ووعدهم فى نهاية الآية المغفرة والجنة: «أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ...».

(آل عمران / ١٣٣ - ١٣٦)

«المسارعة»: هى الاشتداد فى السرعة وهى ممدوحة فى الخيرات ومدمومة فى الشرور، والمسابقة إلى المغفرة هى إشارة إلى السبق إلى أسباب المغفرة، لذا فسرها البعض بالإسلام وقيل أداء الفرائض وقيل الهجرة وقيل الصلوات الخمس وقيل الجهاد وقيل التوبة التى تعد كل واحدة منها من عوامل المغفرة الإلهية، وتشكل هذه الأوصاف موجبات السبق إلى الجنة والفوز بها، ولقد أشارت الآيات بعدها إلى مسألة الانفاق والاستغفار والعفو والصفح والاحسان وكل هذه الامور من الأسباب المهمة للمغفرة ودخول الجنة.

ولقد ورد نفس هذا المعنى فى قوله تعالى بشىء من الاختلاف حيث حلَّ تعبير (سابقوا) محل (سارعوا) قال تعالى «سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ». (الحديد / ٢١)

ومن البديهي أن (سارعوا) من باب (مفاعلة) وتأتى بمعنى التسابق والنتيجة واحدة (تأمل).

ولكن بعض المفسرين فسروا (سارعوا) بمعنى المبادرة أو الاشتداد فى السرعة ولم يروها من باب (مفاعلة).

على أية حال، فإنَّ هذه التعابير تدل على أن الدنيا ساحة تسابق، والهدف النهائى من هذه المسابقة هو الوصول إلى المغفرة والفوز بالجنة وبهذه السعة التى وصفتها الآية الكريمة، وسوف نتكلم حول (سعة الجنة) فى نهاية هذا الجزء إن شاء الله.

نَفَحَاتِ الْقُرْآنِ، ج ٦، ص: ١٥٥

١٥- الخوف من الله

الخوف من الله تبارك وتعالى يعنى الخوف من عدالته وحسابه وكتابه وعقابه درع حصين أمام الذنوب والمعاصى وعامل فعال فى مواجهة الظلم والفساد والعصيان ولهذا السبب يعتبر الخوف مفتاحاً من مفاتيح الجنة كما قال تعالى «وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ» (الرحمن / ٤٦)

ولقد ذكر المفسرون فى تفسير (مقام ربّه) احتمالين:

الأول: الاحاطة العلمية للرب تعالى بجميع أعمال الإنسان ونواياه.

الثانى: مقامه بين يدي ربّه للحساب (حيث يوجد مقدّر فى هذه الصورة والتقدير هو:

«مقامه بين يدي ربّه» «١».

ومهما كان التفسير فإنّ الخوف من الله هو الوازع من كل معصية وخطيئة كما ورد ذلك فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من علم أنّ الله يراه ويسمع ما يقول من خير أو من شر فيحجزه ذلك عن القبيح من الأعمال فله جنتان» «٢».

ولقد قيل فى تفسير (جنتان) آراء عديدة:

١- المقصود الجنة (المادية) و (المعنوية) كما ورد ذلك فى قوله تعالى: «جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ... وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ»، فالاولى هى البساتين التى تجرى من تحتها الأنهار والثانية رضا المعبود والمحبوب الحقيقى أى الله تعالى

٢- وقيل الجنة الاولى للإيمان والثانية للعمل.

٣- وقيل جنة لفعل الطاعات وجنة لترك المعاصى.

٤- وقيل جنة جزاء للعمل وجنة تفضل من الله.

وهذه الأقوال- كما ترى لا دليل على شى منها، ويمكن أن يكون التعبير الأول هو الأنسب، واعتبار جميع الآراء ممكن أيضاً.

(١) ورد كلا الاحتمالين فى تفسير مجمع البيان، و تفسير الميزان.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٩ و ١٠، ص ٢٠٧.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٥٦

١٦- التولى والتبرؤ

أى محبة أولياء الله ومعاداة أعداء الله، وتعبير آخر التودد للصلحين والأخيار، والتبغض للكفار والأشرار، والقرآن الكريم اعتبر التولى والتبرؤ مفتاح الجنة كما جاء ذلك فى قوله تعالى «الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ». (المجادلة/ ٢٢)

ثم قال تعالى «أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ». (المجادلة/ ٢٢)

وكما أشار تعالى فى ذيل الآية الكريمة إلى أجرهم المعنوى بقوله: «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ»، وفى النهاية أعطاهم الله تاج الفخر والشرف ونعتهم بأنهم حزب الله: «أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ» ومن الواضح أن لا تجتمع محبتان فى قلب واحد فإما محبة الله أو محبة أعدائه، وعلى هذا الأساس فإنّ أقوى الأوصار وأمتنها هى تلك المبنية على أساس محبة الله ومحبة أوليائه، أمّا ما سواها فهى علاقات زائفة لا معنى لها.. (فبيّن تعالى أنّ بين الإيمان وموادة أهل المحادة تضاد فلا يجتمعان لذلك).

إن هذه المادة ليست هي علاقة فحسب بل هي برنامج عمل متكامل في كافة المجالات والأصعدة، أي هي حرب ضد ظلم الظالمين وفساد المفسدين وجرم المجرمين وهؤلاء هم المخلصون في إيمانهم، وقوله تعالى «أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ» يحمل معنى عميقاً، فالكتابة جرت بيد القدرة الإلهية وعلى صفحة القلب وهي بمعنى ثبات ورسوخ حقيقة الإيمان في قلوبهم بحيث لا تتغير ولا تزول أبداً، أجل فمثل هؤلاء الأفراد المؤيدين بروح القدس أيضاً هم الجديرون بحمل اسم (حزب الله) الذي هو مظهر من مظاهر التولى والتبرؤ.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٥٧

١٧- الاهتمام بالصلاة

إشارة

ذكرت الآيات ٢٢-٣٤ من سورة المعارج تسع صفات من صفات أهل الجنة وعلى أثر هذه الصفات يعدهم الله تعالى بالجنة، وهذه الصفات هي: المحافظة على الصلاة، وتعيين حق ثابت في أموالهم للمحرومين، والإيمان بيوم الجزاء، والخوف من عذاب الله، والمحافظة على الفروج، وأداء الأمانة، والوفاء بالعهد، والقيام بالشهادة، والمحافظة على آداب وشرائط وروح الصلاة، وبعد ذكر هذه الصفات قال تعالى «أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ». (المعارج/ ٣٥)

وهذا التعبير تعبير واحد لجميع النعم الجسمانية والروحانية.

ومن الطريف أن هذه الصفات التسع ابتدأت بالصلاة واختتمت بالصلاة أيضاً مع هذا الاختلاف، وهو أنها ابتدأت بالاستمرار على الصلاة وانتهت بالمحافظة عليها أي حفظ آدابها وشرائطها وخصوصياتها، تلك الآداب والشرائط تحفظ مظهر الصلاة من الفساد والبطلان وكذلك تقوى روح الصلاة التي تتمثل بحضور القلب وازالة موانع قبولها كأكل السحت، وشرب الخمر، والغيبة، وأمثال ذلك.

إذن فالآية تدل على أن أعمال الخير كلها تبدأ بالصلاة وتنتهي بالصلاة أيضاً، ومن الناحية العملية أن أول ما يجب على الإنسان البالغ، الصلاة وآخر ما يلزمه حتى نهاية عمره، الصلاة أيضاً، اللطيف هو أن للمحافظة على الصلاة طرفين: الأول: وجوب المحافظه عليها من الفساد والخلل، والثاني: أن الصلاة تحفظ الإنسان من الفحشاء والمنكر «إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ»، ونختم هذا البحث بحديث عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله إذ قال: «من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة» (١).

(١) تفسير روح البيان، ج ١٠، ص ١٦٧.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٥٨

الخلاصة:

إن كل ما أشرنا إليه في الفقرات الماضية يمثل جانباً مهماً من أسباب دخول موضع الرحمة وهذه الامور تعكس النظرية الإسلامية في مجال توفير أسباب النجاة والسعادة الأبدية، ومن جهة أخرى تمثل الدافع القوي، للترود بالأعمال الصالحة الإنسانية والأخلاقية والاجتماعية، وبلا شك أن استلهاهم هذه المفاهيم له أكبر الأثر في إيصال الإنسان إلى أوج التكامل والتربية والافتخار.

إلهي وفقنا لطاعتك ولا تحرمنا من مفاتيح أبواب جنانك

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٥٩

٢- النعم المادية في الجنة

تمهيد:

إشارة

لقد اتضح في بحث المعاد الجسماني أن المعاد في التصور القرآني له بعد جسماني وبعد روحاني أيضاً، حيث إن الإنسان في تلك العرصات يحضر بجسمه وروحه، وأن المواهب والعطايا الإلهية تشمل الاثنين معاً، فالذين يعتقدون أن النعم في الجنة كلها نعم معنوية وروحية وأن الآيات التي تتحدث عن هذه النعم المادية إنما هي تعبير بلغة الكناية فإن هؤلاء قد غفلوا عن هذه الحقيقة وهي أنهم وبحصرهم النعم هناك بالنعم الروحية فإنهم ينفون المعاد الجسماني وهذا خلاف صريح للآيات القرآنية التي تؤكد على وجود هذه النعم، وكما ذكرنا في بحث المعاد الجسماني فإن الجسم والروح توأمان مرتبطان معا ولا يمكن أن يبلغا التكامل بمعزل عن أحدهما الآخر، إضافة إلى هذا أنه لا يمكن للروح أن تلتذ بالمواهب والعطايا الإلهية بمعزل عن الجسم.

على أية حال، فالنعم الجسمانية في الجنة كالنعم الروحية متنوعة وواسعة للغاية وجاذبة للنفس، ولقد أكد على ذلك القرآن كثيراً لكي يلتفت انتباه الناس إلى الأعمال والصفات والفضائل التي توجب هذه المواهب (ومن المعلوم أن الإنسان يفكر بالنعم المادية قبل الروحية) وفي نفس الوقت فتح الله سبحانه فضلاً مهماً لبيان النعم المعنوية واللذات الروحية (وستنطق إلى هذا في الفصل اللاحق). وإذا لم تكن النعم الروحية من ناحية شمولية البيان بمقدار النعم المادية لكنتها أكثر بكثير من النعم المادية من الناحية الكيفية، وسنتعرض أدناه جملة من المواهب والنعم المادية الموجودة في الجنة تحت هذه العناوين:

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٦٠

١- حدائق الجنان

٢- الظل الظليل.

٣- قصور أهل الجنة.

٤- الفرش والأرائك.

٥- الأغذية والأواني.

٦- الشراب الطهور.

٧- أفضل شراب أهل الجنة.

٨- الأكواب والصحاف والأواني والكؤوس (الأقداح).

٩- ألبسة الجنة.

١٠- حلى الجنة.

١١- الحور العين.

١٢- الخدم والسقاة.

١٣- المضيفون.

١٤- التزل.

١٥- النعم التي لا تتصور.

ولقد وردت في كل من هذه المواضع آيات متعددة في القرآن الكريم وسوف نستعرض هذه المواضع على ضوء تلك الآيات.

١- حدائق الجنان

يتبين على ضوء الآيات الواردة في هذا المجال أن الجنة هي مجموعة حدائق وبساتين لا مثل لها ولا نظير في هذه الدنيا وكل ما رسمه لنا القرآن الكريم لا يمثل إلا صورة تقريبية كي يتمكن ساكنو هذه الدنيا من إدراك هذه المعاني، وإلا فإن حقيقة الجنة هي ما وراء إدراكنا، لقد ذكر القرآن أكثر من مائة آية حول الجنة وبتعابير مختلفه مثل (جنات) أو (جنة)

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٦١

أو (جنتان)، فنقرأ قوله تعالى: «وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ». (النساء / ١٣)

وفي قوله تعالى: «وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِأَذْنِهِ». (البقرة / ٢٢١)

وفي قوله تعالى: «وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ». (الرحمن / ٤٦)

فهذه الكلمات (جنات، جنتان، جنة) مشتقة من مادة (جن) على وزن (فَن) وهو الستر والتستر، ويقول الراغب في مفرداته ستر شئ من الحس، وعلى هذا الأساس له مشتقات كثيرة.

«والجنة»: بمعنى البستان وذلك لأن أرضها مستورة بأغصان الأشجار ولكن صاحب كتاب مقاييس اللغة يقول: الجنة ما يصير إليه المسلمون في الآخرة وهو ثواب مستور عنهم اليوم، ولكن نحن نستبعد هذا المعنى وذلك لأن بساتين الدنيا يقال لها أيضاً جنة وهذا لا يكون إلا لسبب ستر أرضها بواسطة أغصانها، (تأمل).

و «الجنين»: الولد في بطن أمه، والجنان: القلب لأنه مستور في الصدر والمجن: الترس، وكل ما استتر به من السلاح فهو جنة (على قول صاحب مقاييس اللغة) و (الجن) و (الجان) يطلق على الموجودات الحيية المستورة عن أعين الخلق، وكذلك على الثعابين العظيمة تشبيها لها ب «الجن» (الذي هو موجود خطر خفي)، ويطلق على عظام الصدر- جناجن- ولعل السبب في هذه التسمية كونها درعا لحفظ القلب.

«جنون»: بمعنى ذهاب العقل واصل الجنون هو الستر، جنون الليل: سواده وستره للأشياء، على أيه حال فإن المهم في هذا الموضوع هو أن بساتين الجنة كثيفة الأشجار إلى درجة سترت أرضها بأغصانها المتدلية.

ولقد وردت في عشرات الآيات بعد ذكر (جنات) جملة (تجري من تحتها الأنهار) وهذا يدل على أن الماء يجري دائماً تحت الأشجار وبتعبير آخر أن أغصان أشجارها تظل على المياه التي تجري تحتها، فيكون الماء تحتها (تأمل جيداً)، وهذا يعود إلى

أولاً: أن الماء والشجر يشكلا مع بعضهما البعض منظرًا جميلاً في منتهى الروعة والجمال، وكأن كل واحدٍ منهما ناقص ويحتاج إلى اكمال من الآخر.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٦٢

وثانياً: أن الأنهار تؤمن طراوة دائمية للأشجار، فالتى تجري من تحتها المياه تكون خضراء زاهية، أما الأشجار التي لا تتوفر لها مياه دائمة أو يوتى به من الخارج فلا- تتمتع بمثل هذه الطراوة والاحضرار، فالماء هو أساس حياة النباتات ولا بد من توفر هذا العنصر الأساس للحياة بجانبها دائماً، وجاء في إحدى الروايات: «إن أنهار الجنة ليست في اخاديد إنما تجري على سطح الجنة منضبطة بالقدرة حيث شاء أهلها» «١»! والأعجب من هذا أنه ليس فقط الأشجار تجري من تحتها الأنهار بل- وكما جاء في بعض الآيات- إن (الغرف)

بنيت على الأنهار أيضاً فالأنهار تجري من تحتها كما ورد في قوله تعالى «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ». (٢) (العنكبوت/ ٥٨)

٢- ظلال الجنة

لقد أشارت آيات عديدة إلى ظلال الجنة ومن جملتها: «وَاصْحَابُ اليمينِ مَا اصْحَابُ اليمينِ * فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ * وَظِلٌّ مَّمدُودٍ * وَمَاءٌ مَّسْكُوبٍ». (الواقعة/ ٢٧-٣١)

من المعلوم أن ظلال الأغصان هي أجمل وأروع من أي ظلال، فظلال الأشجار ليست كمثل ظلال الخيام والغرف المظلمة الفاقدة للتهوية، حيث تعمل الرطوبة الملائمة للأوراق على تلطيف الظل ويضيف لها عطر الأشجار وتفتح الأزهار جمالاً آخر إلى جمالها، وظلال الجنة ظلال دائمة لذا فلا تختل سكينته الإنسان وراحته باله أبداً: «أَكَلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا». (الرعد/ ٣٥) وعبر عنه أحياناً ب (ظل ظليل)، قال تعالى «وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا» (٣). (النساء/ ٥٧)

(١). تفسير القرطبي، ج ١، ص ٢٤٠.

(٢). ورد نفس هذا المضمون في الآية ٢٠ الزمر أيضاً.

(٣). «الظل الظليل» كناية عن الظل الكامل والدائم والعالي، ولقد أشارت آيات عديدة إلى مسألة الظل في سورة الرعد، ٣٥؛ يس، ٥٦؛ المرسلات، ٤١.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٦٣

اتضح من خلال ما مر: أن أجواء الجنة لا مثل لها ولا نظير فهي في منتهى اللطافة والجمال والاعتدال، كما نقرأ ذلك في قوله تعالى «لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمَهْرِيرًا». (١) «٢» (الإنسان/ ١٣) أي أنهم لا يرون شمساً يتأذون بحرهما ولا زمهريراً يتأذون ببرده.

٣- قصور أهل الجنة

لقد أشارت آيات عديدة من القرآن إلى مساكن أهل الجنة وبتعابير مختلفة، قال تعالى «وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ». (التوبة/ ٧٢)

ولقد ورد نفس هذا التعبير في سورة الصف الآية ١٢.

«طيبة»: لها معنى واسع جداً يشمل جميع المزايا، ومعناها في الأصل: الشيء الذي ترتضيه النفس الإنسانية ويبيعث عند الإنسان (طيب النفس)، أو أن السكن فيها مطهر وصالح في كل الأحوال، وهذه الكلمة جمعت كل خواص السكن الجيد، وقد عبرت سورة الفرقان عن المساكن بتعبير (غرفة) وتعني: البناء فوق البناء.

قال تعالى: «أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا». (الفرقان/ ٧٥)

«غرفة»: من مادة (عَرف) على وزن (فعل): وتأتي بمعنى رفع شئ وتناوله، ويقال (غرفة) للشيء الذي يرفع ويتناول، ثم اطلق ذلك على القسم العلوي للبناء (الغرفة كما قيل:

البناء فوق البناء فهو الدرجة العالية من البيت وهي كناية عن الدرجة العالية في الجنة).
ومما تجدر الإشارة إليه أنَّ الغرف تتمتع بعدة خصائص فأجواؤها ألطف وأجمل الأجواء ومناظرها أحسن المناظر، ومحلها يؤمن أفضل سكن لساكنيها، وماتعبير «غرفة» إلَّا إشارة إلى هذه الخيرات، ولذا نقرأ في قوله تعالى «وَهُمْ فِي الْعُرْفَاتِ آمِنُونَ». (سبأ/ ٣٧)

(١). «زمهير» مشتقة من مادة «زمهر» بمعنى شدة البرد أو شدة الغضب والمراد هنا المعنى الأول.

(٢). ورد نفس المعنى في سورة الواقعة، ٣٠؛ ويس، ٥٦؛ والمرسلات، ٤١.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٦٤

وهناك تعبير آخر في هذا المجال قال تعالى «لَهُمْ عُزْفٌ مِّنْ فَوْقِهَا عُزْفٌ مَّيْبُتَةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ». (الزمر / ٢٠)

وعندما أشار إلى محل إقامة أهل الجنة قال تعالى: «أَنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ آمِنٍ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ». (الدخان / ٥١-٥٢)

ومن هنا يجب الإشارة إلى هاتين النكتتين:

١- لقد أشارت بعض الآيات الكريمة (مثل الآية ١٢ من سورة الصف) من بين جميع النعم في الجنة إلى (المساكن الطيبة) ويعود في ذلك إلى أن (السكن) يعتبر أحد أهم عوامل راحة الإنسان وسكينة، وهذا المسكن هو مسكن طاهر ومطهر من جميع القذارات الظاهرية والباطنية فهو يؤمن كل أسباب الأمن والأمان والاستقرار وراحة البال للإنسان، ومما تجدر الإشارة إليه أن (السكن) أخذ من مادة (سكون) وتعني الهدوء.

٢- لقد ذكر القرآن الكريم عدة أمور واعتبرها من موجبات السكينة والاطمئنان وهي:

١- البيوت السكينة المناسبة سواء في الدنيا أو في الآخرة: «وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا». (النحل / ٨٠)

٢- الأزواج الصالحة: «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا».

(الروم / ٢١)

٣- الليل من موجبات السكينة والهدوء: «وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا». (الانعام / ٩٦)

٤- دعاء الرسول صلى الله عليه وآله للذين يؤتون الزكاة: «أَنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ». «١» (التوبة / ١٠٣)

٥- السكينة الناتجة عن الإيمان: «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ». (الفتح / ٤)

ولا شك أن لبعض هذه الامور بعداً مادياً، وللآخر بعداً معنوياً.

(١). ميزان الحكمه، ج ٢، ص ١٥٩٤.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٦٥

٤- الفرش والأرائك

من النعم الإلهية الأخرى في الجنة الفرش والأرائك المختلفة وهي في منتهى الروعة والجمال والجدابيه.

قال تعالى «مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ أَسْتَبْرَقٍ». (الرحمن / ٥٤)

ومن الطريف أن بطانة هذه الفرش من أفضر الأقمشة في الدنيا أما ظاهرها فهو من اللطافة والجمال والقيمة بحيث يعجز عنها الوصف،

وعلى قول بعض المفسرين هي من الامور التي يقول القرآن بصدها: «فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ». (السجدة / ١٧)

ولقد ورد حديث عن الرسول صلى الله عليه وآله قال: «ظواهرها نور يتلألأ» «١».

وفى سورة الغاشية نجد تعبيراً آخر ضمن توصيف النعم المختلفة فى الجنة: «وَزَرَابِيٌّ مَبْثُوثَةٌ». (الغاشية / ١٦)

«زرابي»: جمع (زَرَبِيَّة) على وزن (شَرْقِيَّة) وهى على قول بعض أرباب اللغة مشتقة فى الأصل من الكلمة الفارسية «زربفت» وهو القماش الذى يستعمل فى نسيجه الذهب بدلاً من القطن والصوف، وتأتى أحياناً بمعنى القماش الغالى الثمن «٢» (البسط الفاخرة)، وقال بعض أرباب اللغة والمفسرين أن (زربي) جمع ازربي بكسر الزاء و (زربية) فى الأصل بمعنى أنواع النباتات التى اختلطت فيها الألوان الصفراء والحمراء والخضراء، ولهذا السبب يطلق على الفرش التى تحمل ألواناً زاهية متنوعة، «٣» وقد وصفت هذه الفرش ب (مبثوثة)، وهى (المبسوطة المنشورة أو المفرفة فى المجالس).

ونجد فى نفس هذه السورة فى الآية السابقة عبارة أخرى تصف الوسائد وتقول: «وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ».

(١). تفسير القرطبي، ج ٩، ص ٦٣٤٩.

(٢). التحقيق فى كلمات القرآن الكريم مادة (زرب).

(٣). تفسير المراغى، ج ٣٠، ص ١٣٣ قاموس اللغة مادة (زرب).

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٦٦

«نمارق»: جمع (نُمرقة) على وزن (غُلغُلَةٌ) ويقول صاحب (صحاح اللغة) هى وسائد صغيرة يُتكا عليها (وقد توضع أثناء الاستراحة والجلوس على الرجلين ويُتكا عليها).

وفى سورة الرحمن نجد تعبيراً آخر فيما يتعلق بالفرش فى الجنة قال تعالى «مُتَّكِنِينَ عَلَى رُفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ». (الرحمن / ٧٦) «ررف»: على قول الراغب فى المفردات الأوراق والمناشف، ثم اطلق على الأقمشة الزاهية الألوان، وقال بعض أرباب اللغة أن الررف: بمعنى أطراف الخيمة التى تهتز بحركة الريح، وررفة: بسط جناحى الطائر «١» (تحريك الطائر جناحيه).

وقيل: ثياب خضر تبسط على السرير، ويوجد هذا الاحتمال أيضاً وهو البساتين التى ترف من نضارتها، لأن ررف تعنى كسر الخباء ونحوه حيث تتحرك حين هبوب الريح، ويقول أبو الفتوح الرازى فى تفسير (الررف): المروج الخضراء.

أما «عبرى»: فهو مشتق من «عبرى» (على وزن جعفر) ويقول (صحاح اللغة) و (المفردات): موضع كانت العرب تزعم أنه كثير الجن ثم اطلق على كل ما يتعجب من كماله وقوته وحذقه، ويطلق على كل شخص عالم ماهر عبرى، وجمعه عبارة «٢».

على أية حال، فإنه يطلق على الأشخاص الذين ليس فوقهم شىء وعلى الأشياء الفاخرة النفيسة، وفى الآية هو وصف للاقمشة الفاخرة وقيل هو الديباج، وقيل البسط.

وقيل: (عبرى) اسم مدينة مشهورة بحياكة أحسن أنواع الأقمشة «٣».

أما فيما يتعلق بالسرير التى يجلس عليها أصحاب الجنة وقد عبر ب (السرر) جمع (سرير) كما فى قوله تعالى: «عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ* مُتَّكِنِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ». (الواقعة / ١٥-١٦)

ولقد تكرر هذا التعبير فى خمسة مواضع من القرآن الكريم، فقد وصف هذه السرر فى

(١). مقاييس اللغة.

(٢). اعترض بعض أرباب اللغة وبعض المفسرين على هذا الجمع وذلك لأنه منسوب إلى شىء لا يجمع إلأى حالة مجى الكلمة على صيغة الجمع كأن يقال (عباقر) ثم تنسب (عباقرى) ومن المعلوم أن الجمع بين النسبة وصيغة الجمع غير وارد عند الادباء.

(٣). تفسير روح الجنان، ذيل الآية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٦٧

الآية السالفة ب (موضوئة) وهى مشتقة من مادة (وَضُن) على وزن (وَزَن) وفى الأصل بمعنى (النسج) واطلاقه على نسج السرر استعارة يراد بها إحكام نسجه.

ومن هنا يمكن أن يكون هذا المعنى إشارة إلى أن الأسرة منسوجة بنسج خاص من اللؤلؤ والياقوت والجواهر أو منسوجة من خيوط الذهب والفضة (أو منسوجة بقضبان الذهب مشبكة الدرر والجواهر) أو لأنها مرتبة بترتيب خاص، على اختلاف آراء المفسرين، وقد وصفت فى آيات اخرى ب «مصفوفة» مثل: «مُتَكِّينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ». (الطور / ٢٠)

وقال فى آيات اخرى «مرفوعة»: «فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ». (الغاشية / ١٣)

فلقد أشارت الآية الاولى إلى ترتيبها وتقاربها، والثانية إلى علوها وارتفاعها.

ويشير ارتفاع سُرُر أهل الجنة إلى علو مكانتهم وطهارتهم وقربهم أو أنهم يشرفون من فوقها على مناظر الجنة المحيطة بهم من كل جانب.

على أزيد حال، فإن هذه السرر تكون بهيئة مجاميع حتى يبلغ أصحابها أنسهم وحسن عشرتهم وصفاء باطنهم، كما جاء ذلك فى موضعين من القرآن حيث ورد تعبير: «على سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ». (الحجر / ٤٧) (الصفات / ٤٤)

أى (يستمتع بعضهم بالنظر إلى وجوه بعض ولا يرى بعضهم قفا بعض).

والجدير بالذكر هو أن (سُرُرًا) جمع (سرير) من مادة (سُرور) وكان الجلوس على الأسرة عموماً وعلى أسرة الجنة خصوصاً من عوامل النشاط والارتياح والسرور، إضافة إلى أنها متعلقة بمجالس الانس والسرور.

وفى مواضع اخرى عبر القرآن الكريم بتعبير آخر وهو (الأرائك)، وورد هذا التعبير خمس مرات فى القرآن فقال فى موضع: «مُتَكِّينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ». (الكهف / ٣١)

ولقد ورد نفس هذا التعبير بشى من الاختلاف فى الآية: «فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِّونَ». (يس / ٥٦)

وورد نفس هذا التعبير أيضاً فى سورة الإنسان، وقال تعالى فى آيتين من سورة

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٦٨

المطففين: «عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ». (الانسان / ١٣) (المطففين / ٢٣ - ٣٥)

«أرائك»: جمع أريكه، وعلى قول الكثير من المفسرين (مثل صاحب مجمع البيان، والقرطبي، والفخر الرازى، وصاحب روح المعانى) بمعنى الحجلة إذا كان فيها سرير، وفسرها البعض بالسرير الذى فيه مظلة، فالأريكه السرير وهى (البيت المزين للعروس).

ويقول الراغب فى المفردات: مأخوذة من (اراك) وهى اسم شجرة معروفة.

ويقول أبو الفتوح الرازى فى ذيل الآية ١٣ من سورة الإنسان: إن «السرير» و «الأريكه» معنيان مختلفان أحدهما فيه مظلة والآخر بدونها.

وتدل تعابير القرآن على هذا المعنى لأن الكلام عن السرر طرح فى موارد مجالس انس أهل الجنة حيث يتقابلون ويتسامرون، فى حين أن الأرائك تختص بجلساتهم الخاصة أى عندما يختلون مع ازواجهم كما ورد فى قوله تعالى «هُم وَازْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِّونَ». (يس / ٥٦)

ومن هنا يمكن أن نستنتج: أنه عندما يقول القرآن: «مُتَكِّينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرُونَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا». (الإنسان / ١٣)

ومن الممكن أن تكون الآية قد أشارت إلى هذا المعنى وهو أن الشمس تشرق عليهم عندما يجلسون على هذه الأسيرة الخاصة، ولو أن هناك تفسيراً آخر قد اشير إليه فى حينه.

ومن الطريف أنه وردت فى القرآن خمس آيات حول الأسيرة وخمس آيات حول الأرائك، ولقد وردت إشارات متساوية عن الحياة

العامة والخاصة لأهل الجنة.

وهناك كلام طويل حول أوصاف هذه الأسيرة والأرائك ورد في الأخبار والروايات اعرضنا عن ذكره لأجل الاختصار.

٥- الأغذية والأواني

إن الأغذية المادية لأهل الجنة- كما يستفاد من القرآن الكريم- متنوعة للغاية، ويستفاد

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٦٩

من مجموع آيات القرآن الكريم أن الغذاء الرئيسي لأهل الجنة هو من جنس الفواكه، وورد هذا المعنى تحت عناوين مختلفة مثل «فاكهة» «فواكه» «وثمره» و «ثمرات» و «أكل» في آيات كثيرة من القرآن الكريم.

وقد ورد في قوله تعالى: «فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ». (الرحمن / ٥٢)

و «فاكهة»: حسب قول صاحب كتاب مقاييس اللغة مشتقة في الأصل من «فكه»، والتي تعنى طيب الخاطر، وعلى هذا الأساس سميت الفاكهة، فاكهة، حيث إن أكلها يطيب الخاطر.

و «المفاكهة»: تعنى الممازحة بالكلام اللطيف.

و «الفاكه»: يطلق على الشخص المزاح ذى المعشر الطيب.

ويعتقد الكثير من المفسرين أن الفاكهة تشمل جميع أقسام الفواكه، ويؤكد الراجب في مفرداته هذا المعنى، في حين أن البعض يقول: (الفاكهة) تشمل جميع الفواكه ماعدا العنب والمان (أو ماعدا الرطب والمان)، وذلك لأن سورة الرحمن، الآية ٦٨ عطف هذين الجنسيتين على الفواكه، من هنا فأنهم يعتقدون أنها لن تدخل في مفهوم الفاكهة، في حين أن هذه الآية لا تدل على هذا المعنى وإنما نجد في كثير من المواطن يذكر الخاص بعد العام لأهميته الخاص.

وفي اعتقاد جمع من المفسرين أن تعبير «زوجان» إشارة إلى أن لكل ثمرة نوعان وضربان متشاكلان: نوع في هذه الدنيا، ونوع من شكله غريب لم يعرفه في الدنيا، وقيل:

إن هذا التعبير هو إشارة إلى تنوع فواكه الجنة كل نوع أكثر لذة من الآخر، ولقد بين القرآن الكريم تنوع اغذية أهل الجنة بهذا الشكل: «وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ». (الواقعة / ٢٠)

وقال في موضع آخر: «وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ». (المرسلات / ٤٢)

ولقد أكدت بعض الآيات على فواكه خاصة باعتبارها فاكهة الجنة: «فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ». (الرحمن / ٦٨)

وقال الفخر الرازي في تفسيره: «إنه تعالى ذكر نوعين من الفواكه الشجرية وهما الرمان والرطب لأنهما متقابلان فأحدهما حلو والآخر غير حلو وكذلك أحدهما حار والآخر بارد

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٧٠

وأحدهما فاكهة وغذاء والآخر فاكهة، وأحدهما من فواكه البلاد الحارة والآخر من فواكه البلاد الباردة، وأحدهما أشجاره في غاية الطول والآخر أشجاره بالضد وأحدهما ما يؤكل منه بارز وما لا يؤكل كامن والآخر بالعكس فهما في الضدين والإشارة إلى الطرفين تتناول الإشارة إلى ما بينهما» (١).

وقال تعالى في موضع آخر: «حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا». (النبا / ٣٢)

وجاء في آية أخرى «فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ* وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ». (الواقعة / ٢٨-٢٩)

لقد فسّر أغلب المفسرين (الطلح) بمعنى شجرة الموز التي لها أوراق عريضة خضراء جميلة، وثمرتها حلوة ولذيذة الطعم.

و «منضود»: من مادة (نضد)، وتعني «المتراكم»، أى إذا جعل بعضه على بعض، وهذه إشارة إلى عذق الموز وشجرة الموز ذات الأوراق العريضة الخضراء الجميلة وثمرتها حلوة المذاق.

وقيل: المنضود (المراد الورق لأن شجر الموز من أوله إلى أعلاه يكون ورقاً بعد ورق) «٢».

ويجمعهما (السدر، والطلح) نوعان: أوراق صغيرة، وأوراق كبيرة، والسدر فى غاية الصغر والطلح وهو شجر الموز فى غاية الكبر فقوله تعالى «فى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ* وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ» إشارة جامعة لجميع الأشجار نظراً إلى أوراقها «٣».

وإضافة إلى ذكر الفاكهة أشار القرآن الكريم إشارة عابرة مختصرة إلى «الطلح» بشكل عام وإلى «لحم الطير» بشكل خاص، فقال فى أحد المواضع بعد ذكر مجموعة مهمّة من النعم الموجودة فى الجنة: «وَأَمَّا ذُنُوبُهُمْ فَبِأَكْبَهَةِ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ» «٤». (الطور/ ٢٢)

(١). تفسير الكبير، ج ٢٩، ص ١٣٤.

(٢). المصدر السابق، ج ٢٩، ص ١٦٢.

(٣). المصدر السابق.

(٤). «أمددناهم» من مادة «إمداد» وهو العطاء المتتابع أو المستمر، وقال بعض أرباب اللغة مثل صاحب القاموس: إن الإمداد بمعنى تأخير الأجل وإدامة الحياة، وهو لا يختلف كثيراً عن المعنى الأول.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٧١

جملة: «مِمَّا يَشْتَهُونَ» لها معنى واسع جداً حيث تشمل كل أنواع الأغذية بكافة أقسامها وأشكالها وكمياتها.

وقال فى موضع آخر بعد ذكر أنواع النعم وأنواع الفواكه فى الجنة: «وَلَحْمٍ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ». (الواقعة/ ٢١)

ولعل السبب فى تقديم الفواكه فى كلا الآيتين: هو أن الفواكه تعد الغذاء الأفضل والأحسن والألذ، ويعتقد البعض أن الغذاء الطبيعى للإنسان هو الفواكه، ويرونه موجوداً «آكلًا للفواكه» ولهذا السبب لا يستطيع الإنسان الانتفاع من اللحوم أبداً على وضعها الطبيعى، بل لابد من إجراء تغييرات عليها، ومزجها مع أشياء أخرى حتى يمكن الاستفادة منها.

فى حين أن الفواكه مألوفة لديه على شكلها الطبيعى ومن دون إجراء أى تغييرات عليها.

فضلاً عن أن أكل الفاكهة قبل اللحوم فيه لطف خاص.

٦- الشراب الطهور

إن الأشربة فى الجنة كالفواكه وسائر الأغذية متنوعة ومنعشة للغاية، ولقد عبّر القرآن الكريم عنها بتعبير مختلفة، والغريب أن الكثير من هذه الأشربة تكون على شكل أنهار، ولقد أشار القرآن الكريم إلى أربعة أقسام منها.

قال تعالى «مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى». (محمد/ ١٥)

هذه الأشربة الأربعة التى تجرى فى أنهار الجنة الأربعة (لا يجرى كل واحد منها فى نهر خاص بل فى كل الأنهار) تبين مجموعة من أنواع الأشربة المختلفة، فالماء لرفع العطش، واللبن للتغذية، والعسل للذة والقوة، والخمر للذة والنشاط وهو شراب طهور.

إن هذه الأشربة مخلوقة بشكل لا يعترىها الفساد وإن طال الزمن ولا يتغير طعمها أبداً،

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٧٢

وتحتفظ دائماً بحدائثها، فالجنة محيط منزه من كل كدر، فلا وجود فيها حتى لميكروب واحد يفسد أطقم أهلها وأشربتهم.

والجدير بالذكر أن ماء هذه الدنيا يتغير لونه وطعمه بمرور الزمان، أما مياه أنهار الجنة فهي تبقى على حالها ووضعها الأول صافية، زلال مطهرة، وكذلك الحال بالنسبة للبن، ففي الدنيا يفسد سريعاً بعد برهة من الزمن فيتبدل طعمه إلى طعم حامض وهذه مقدمة لفساده وتلفه، أما لبن الآخرة فهو لبن سائغ شرابه لذيذ لا يتغير طعمه ولا يعتريه عارض كالذى يصيب الألبان في الدنيا. الخمر والشراب، شراب غير مستساغ ولا لذة فيه ويوصف بمرارة المذاق ورداءة الطعم فهو مذهب للعقل، ومفسد للروح. أما خمر أهل الجنة فهو شراب لذيذ منعش يبعث في النفس النشاط والحيوية الرحمانية لا الشيطانية.

وعسل الدنيا تشوبه في الغالب الكثير من الكدورات والشوائب، أما عسل الآخرة فهو عسل مصفى خالص بمعنى الكلمة، ومن الجدير بالذكر: أن القرآن الكريم اعتبر العسل جزءاً من المشروبات وحتى في سورة النحل والتي تتحدث عن (النحل) ذكره كشراب: «يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ». (النحل / ٦٩)

ولعل السبب في ذلك هو أن العسل إذا شرب كمشروب (شربت العسل) فيكون أكثر لذة ومنفعة وحيوية. ولقد أشارت آيات سورة الدهر والتي تعرضت لأنواع النعم التي وعدّها الله سبحانه للأبرار من عباده إلى مجموعة أخرى من الاشرية قال تعالى «أَنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا* عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا». (الدهر / ٥-٦) وقال تعالى في نفس السورة: «وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا* عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلًا». (الدهر / ١٧-١٨) وقال تعالى في السورة ذاتها: «وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا». (الدهر / ٢١)

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٧٣

فهذه الآيات أشارت إلى عدد من الأشرية «الطهور» في الجنة:

الأول: الكافور، وهو شراب خاص مهديء، حيث إن الكافور في اللغة له عدة معان:

منها الرائحة الطيبة، ومنها مادة بيضاء اللون يضرب المثل في برودتها وبياضها ولها رائحة قوية خاصة مهدئة، وهي تقابل الزنجبيل الحار وهو عبارة عن جذور بنية لها طعم ونكهة طيبة تضاف أحياناً إلى الأطعمه والأشربة. ومما تجدر الإشارة إليه أن العرب يستخدمون نوعين من الشراب ولحالتين مختلفتين، تارة: منشط ومقوى، والاخرى: مضعف ومهدئ، الأول يمزجونه مع الزنجبيل، والثاني: مع الكافور.

ومن المعلوم أن حقائق العالم الآخر لا تستوعبها عقولنا، لذا فلا حيلة لبيان هذه الحقائق إلا أن نستخدم هذه الألفاظ بمفاهيم أوسع وأعلى

وقال جمع من المفسرين أيضاً: إن الكافور: اسم عين ماء في الجنة تشبه الكافور في صفارها وبياضها ورائحتها الطيبة وبرودتها ولكن ليس بطعمها، (ولابد من الإشارة إلى أن الكافور المألوف هو نوع من الصمغ يستخرج من شجرة في جنوب الصين أو بلاد الهند وله استخدامات طيبة).

إن التفسير الذي أشرنا إليه هو الأنسب وذلك لأن شراب الكافور يقابل شراب (الزنجبيل).

والجدير بالذكر أن القرآن يقول: إن هذا الشراب الزنجبيلي ينبع من عين في الجنة اسمها (سلسيل) ويعتقد الكثير أن هذه الكلمة مشتقة من (سِلَاسَة) بمعنى الجريان، ويرى البعض أنها مشتقة من (تسلسل) بمعنى الحركة المتتابعة والمستمرة وهي إشارة إلى أنها سلسلة تتسلسل في الحلق.

وقيل: إن هذه الكلمة مركبة من كلمتين «سال» و «سيل» بمعنى طلب الطريق وهذه إشارة إلى غاية سلاسته وعدوبته.

على أية حال، يستفاد من مجموع التعابير أن عين السلسيل فيها شراب في غاية اللذة والسلاسة.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٧٤

الشراب الثالث الذي أشارت إليه الآية الكريمة هو «الشراب الطهور» وساقيه هو الله تبارك وتعالى وهو يبعث على تطهير الجسم

والروح من كافة الأدران والكدورات (وهذا شراب خاص للأبرار والمحسنين كالنوعين السابقين) بعكس خمر الدنيا الذي هو نجس وينجس الروح والبدن.

ويعتقد بعض المفسرين أن هذا الشراب يسقى بعد تناول الأغذية (فاذا أكل [الإنسان ماشاء سقى شراباً طهوراً فيطهر بطنه ويصير ما أكل رشحاً يخرج من جلده أطيّب ريحاً من المسك])، لقد ذكر الفخر الرازي هذا التفسير كرواية.

وقال صاحب تفسير الميزان: «(وسقاهم..) أي بالغاً في التطهير لا يدع قذارة إلّا أزالها ومن القذارة قذارة الغفلة عن الله سبحانه وتعالى والاحتجاب عن التوجّه إليه فهم غير محجوبين عن ربهم» (١).

وورد في تفسير «منهج الصادقين» نقلاً عن الإمام الصادق عليه السلام: «إذا شرب المؤمن الشراب الطهور نسي ما سوى الله وانقطع إليه بالكامل» (٢).

وذكرت سورة المطففين ضمن عرضها للنعم الإلهية التي وعدّها الله سبحانه وتعالى للأبرار: «يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ» ثم قال: «خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ» وفي الختام قال: «وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ» (المطففين / ٢٥ - ٢٨)

كلمة (رحيق) على قول أغلب المفسرين هو الشراب الخالص من الغش والقذى (أي خمر صافية خالصة من كل غش). «مختوم»: ممنوع من أن تمسه يد حتى يفك ختمه للأبرار، وهذا تأكيد آخر على خلوصه وصفائه. «ختامه مسك»: إشارة إلى الذي خُتم إناؤه بالمسك، ويستخدم الختم عادة للتأكد والاطمئنان من عدم لمسه أو فتحه حيث يوضع الشئ في إناء معين ويغلق غلقاً محكماً من

(١). تفسير الميزان، ج ٢٠، ص ١٣٠.

(٢). منهج الصادقين، ج ١٠، ص ١١٠. (طبقاً لنقل التفسير الاثني عشرى، ذيل الآية مورد البحث).

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٧٥

جميع الجوانب ثم يختم ويوضع على (الختم) مقدار من الطين أو العجين أو الشمع الأحمر أو النحاس أو أيّة مادة أخرى تفي بالعرض، وبهذا (لا يمكن فتح أو كسر هذا الإناء) فلا سبيل إلى مافي الإناء إلّا بكسر ذلك الختم، وكان العرب ينظرون إلى ختم الإناء قبل كل شئ ليعرفوا أنّه لم تصل إليه يد. ويسمونه (المختوم).

وهناك تفاسير عديدة في هذا المجال لا نراها تتناسب وظاهر الآية.

«تسنيّم»: من مادة (سَنِيم) على وزن (صَنِيم) وفي الأصل على رأى صاحب (مقاييس اللغة) بمعنى (العلو والارتفاع) ومنه (سنام البعير)، واطلق على ألسنة النار، والغيوم المرتفعة والدخان وسنابل النباتات أيضاً.

لذا «عين التسنيّم» عين في الجنة تكون سبباً في الارتفاع والعلو، يقال: سنمه أي رفعه ومنه سنام الابل، ولذلك إذا شربها المقربون يتقربون من المقام الإلهي والفناء في نور الحق أكثر فأكثر.

وقيل: «تسنيّم»: عين تقع في الطبقات العليا في الجنة ينصب شرابها عليهم من علوّ انصباباً.. وقيل هو نهر يجري في الهواء فيصب في أواني أهل الجنة وهو خالص للمقربين ويمزج بمقدار من الرحيق المختوم للأبرار وهو نوع آخر من شراب الجنة.

ويظهر من خلال الجمع بين هذه المعاني: أن هذه العين لها مكانة عالية رفيعة من ناحية المكان وكذلك من حيث التأثير المعنوي فهي توصل الروح وتجذبها إلى مقام القرب الإلهي.

لقد ذكرت الآيات السالفه الذكر سبعة أنواع من الأشرية، ونستنتج من مجموع هذه الآيات أن مشروبات الجنة على أنواع وأقسام مختلفة، فمنها يجرى في الأنهار (أنهار من لبن وعسل وماء وخمر)، ومنها: مختومة، ومنها ينبع من عيون من سماء الجنة أو طبقاتها نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٧٦

العليا، ومن الواضح أن أشرف شراب أهل الجنة هو الشراب الذي يسمى «تسنيم» وهو خاص بالمقربين. وورد في تفسير علي بن إبراهيم: «إن أشرف شراب أهل الجنة يأتيهم من أعالي تسنيم وهي عين يشرب بها المقربون، والمقربون آل محمد صلى الله عليه وآله، والمقربون يشربون من تسنيم بحثاً صرفاً وسائر المؤمنين ممزوجاً!» (١).

ويأتي (الشراب الطهور) في الدرجة الثانية، ولقد أشارت إليه سورة الإنسان، الآية ٢١، بقريته، أنه الشراب الوحيد في القرآن الكريم الذي يكون ساقيه هو الله تعالى

ومن المعلوم أن جميع هذه الأوصاف التي نسمعها ونقرأها ماهي إلا صورة غير واضحة تتجسم في أذهاننا عن ذلك العالم الكبير، وإلا فلا يمكن توصيف هذه النعم وهذا الشراب الطهور من قبل سجناء عالم المادة: «فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا اخْفَىٰ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ» (السجدة/ ١٧)

والطريف أن القرآن الكريم عبر بتعابير مختلفة لرفع أي إبهام في مجال الاختلاف الواضح بين الأشرية الدنيوية المكدره بأنواع الكدورات، والشراب الطهور في الجنة قال تعالى «بَيضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ». (الصفات / ٤٦)

لا كمثل شراب الدنيا المر الطعم غير المستساغ الشرب حتى أن شاربيه يتجرعونه في بادئ الأمر بكرهه، أما شراب الجنة فهو شراب لذيذ منعش تعقبه نشوة معنوية وروحية غير قابلة للوصف.

ثم يضيف تعالى بقوله: «لَافِيهَا عَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ». (الصفات / ٤٧)

إن شراب الدنيا يفسد العقل ويسكر الأبدان بحيث يصبح الجسم من الضعف والوهن فلا يقدر على الحركة وحفظ التوازن.. أما أشرية الجنة فتعمل على تأجيج شعله العقل والذكاء، وتشد من جاذبية العشق، وتهدى الجسم والروح للتمتع باللذات المعنوية والمادية بشكل أفضل (٢).

(١). تفسير علي بن إبراهيم، ج ٢، ص ٤١٢.

(٢). «عَوْلٌ» على وزن «قَوْلٌ» في الأصل بمعنى غال: أهلكه وأخذته من حيث لا يدري، وتطلق هذه الكلمة على الفساد الخفي الذي ينفذ في الشيء.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٧٧

وقال تعالى في مكان آخر بعد الإشارة إلى بعض من أشرية الجنة: «لَأَيُّصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزَفُونَ» (١). (الواقعة / ١٩)

«يُصَدَّعُونَ»: من مادة (صداع) على وزن (رُبَاع) وهو الصداع المعروف (أي لا يأخذهم من شربها صداع)، وأصله (صَدَع).

فعندما يتعرض الإنسان إلى صداع شديد فكأن رأسه يريد أن يتصدع من شدة الألم، فتستعمل هذه الكلمة للتعبير عن آلام الرأس الشديدة.

الخلاصة: أن خمر الدنيا ردىء الطعم.. كرهه الرائحة.. يجلب الصداع ويسبب فقدان الوعي وضعف العقل.. ويسبب الكثير من الأمراض الجسمية والروحية، وقد يعقبه حالة التهويع.. والتقى والآلام المعوية، في حين أن خمر الآخرة شراب لذيذ منعش يزيد العقل ويعمل على تربية الجسم والروح وله نشوة روحية ومعنوية غير قابلة للوصف.

مِمَّا لا- شك فيه أن المطلوب الرئيس من الأغذية والأشربة هو نفسها لا- الأواني، ولكن بلا ريب أن لكيفية عرض الغذاء والأواني المستعملة فيها تأثير عميق في جذابية الأطعمة والأشربة وصفائها ومضاعفة اللذة الناتجة منها، لهذا السبب رسم القرآن الكريم وفي آيات عديدة صورة إجمالية عن هذه الأواني التي هي في منتهى الروعة والجمال في عبارات قصيرة عميقة المحتوى إن جميع هذه الألفاظ والمعاني لا تمثل إلا صورة باهتة عن الوضع هناك، وإلا فكل شيء هناك فوق حد التصور. قال تعالى «يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ». (الزخرف / ٧١)

(١). «ينزفون» من مادة «نَزَفَ» على وزن «حَذَفَ» بمعنى ذهب الشيء بصورة تدريجية ومنه نَزَفَ الدم.. وهذا ما يفعله الشراب الدنيوي في وجود الإنسان، إذ يحطمه تدريجياً.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٧٨

«صحاف»: جمع (صَحْفَة) على وزن (صفحة) وتعني: الأواني الكبيرة والواسعة (لأن هذه المادة في الأصل بمعنى الاتساع).

«اكواب»: جمع (كَوْب) وهو القدر الذي لا عروة له (وهناك معان أخرى ولكن المشهور هو هذا القول).

والجدير بالذكر أن وصف (من ذهب) ذكر بخصوص الصحاف ولكن عطفها على الأكواب يدل على أنها من ذهب أيضاً «١».

وقال تعالى في موضع آخر: «بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ». (الواقعة / ١٨)

«أباريق»: جمع (ابريق) وحسب ما صرح به أرباب اللغة أنها مشتقة من الكلمة الفارسية (آبريز) بمعنى القدر الذي له عروة وخرطوم لسكب السوائل.

يقول: «الجواليقي» في «المعرب من الكلام الأعجمي» إن هذه الكلمة تعني في الفارسية، إما طريق العبور من الماء، أو سكب الماء، وقيل: إن هذه الكلمة مأخوذة من مادة «برق» والتي هي كلمة عربية «٢»، وبناءً على ذلك فإن ما جاء في تفسير مجمع البيان والقرطبي (في ذيل الآية) غير صحيح.

«كأس»: القدر الممتلئ بالشراب وقال بعض المفسرين: وعلى عادة العرب في شرابهم تكون لديهم أوان كبيرة فيها الخمر معدة ثم يغرفون منها بالأباريق ثم يصبونه في الأقداح ويلاحظ هذا الترتيب أيضاً في (الشراب الطهور).

حيث تكون في البداية في الأكواب ثم الأباريق وأخيراً الكأس «٣»، وعُبر في الشعر القديم عن هذا الموضوع بتعبير (القدر) (الكأس). ومما تجدر الإشارة إليه أن جنس أواني الجنة حسب ما استفاد من الآيات الكريمة،

(١). في الحقيقة: كانت الجملة في الأصل (اكواب من ذهب) وحذفت عبارة (من ذهب) تجنباً للتكرار مثل قوله تعالى «الذاكرين الله كثيراً والذاكرات».

(٢). التحقيق في كلمات القرآن الكريم.

(٣). تفسير الكبير، ذيل الآية مورد في البحث.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٧٩

مختلف، فبعضها من الذهب كما أشرنا إلى ذلك وبعضها من «الفضة» وبعضها من «البلور».

قال تعالى «وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِانِيَّةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا». (الدهر / ١٥)

والعجب أنه يقول بعدها مباشرة: «قَوَارِيرٍ مِّنْ فِضَّةٍ قَدَرُوهَا تَقْدِيرًا». (الدهر / ١٦)

«قوارير»: زجاجات لها بياض الفضة وصفاء القوارير وهذه من خواص الجنة، وذلك لأن القوارير في الدنيا لا تصنع من الفضة وإنما

تصنع من الزجاج، في حين أن الفضة إحدى الفلزات، ولكن ليس يبيد أن يخلق الله نوعاً من الفضة الشفافة تصنع منها هذه القوارير كما ورد في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «ينفذ البصر في فضة الجنة كما ينفذ في الزجاج» (١). وهذا دليل على أن كل شئ في الآخرة هو أعلى وأفضل وأكمل من هذا العالم. وعلى أيه حال وكما أشرنا سابقاً فإن أواني أهل الجنة من اللطافة والرونق والجمال.. بما يضاعف لذة المأكول والمشروب لأهل الجنة.

٩- ألبسة الجنة

اللباس له أهمية كبيرة في الحياة الدنيا فهو أولاً: يحفظ الجسم ويقيه الحر والبرد والاضرار المختلفة، وثانياً: يعتبر اللباس زينة مهمة للإنسان فكم نجد أن لطراز الألبسة ابتداء من جنس القماش وحتى نوع خياطته ولونه يحكى عن طرز تفكير المرء وشخصيته، ونجد على طول التاريخ أن للملابس دوراً مهماً في زينة الإنسان وبهائه. ممّا لا شك فيه أن اللباس في الجنة لا يهدف إلى دفع البرد والحر أو حفظ الجسم من أنواع الآفات والأمراض والعوارض، حيث إن كل شئ هناك في حد الكمال فلا أمراض ولا آفات.. من هنا تكون الملابس مظهراً من مظاهر الزينة، ولعل لهذا السبب ركزت الآيات القرآنية على إبراز مظهر زينة اللباس وجاء ذلك ضمن تعابير مختلفة، ولكنها تحكى جمال

(١). تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤١٠.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٨٠

وبهاء وجذابة ملابس أهل الجنة.

قال تعالى «وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ». (الكهف / ٣١)

وورد نفس هذا المعنى بشئى من الاختلاف في قوله تعالى في آيتين الأولى «يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ» وفي الآية الثانية: «عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ» (١).

(الدخان / ٥٣) (الدهر / ٢١)

ونقرأ في تعبير آخر: «وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ». (الحج / ٢٣)

ولقد ورد نفس هذا التعبير في الآية ٢٣ من سورة فاطر، وشيبهه في سورة الدهر، الآية ١٢.

وكلمة «سندس» حسب اجماع أهل اللغة والمفسرين (ما رق من الثياب) وهي ثياب حريرية فاخرة. وأصل هذه الكلمة غير عربى فلقد ورد في بعض كتب اللغة أن أصلها فارسي أو رومي «٢»، ولو أننا لم نعر على هذا المعنى في اللغة الفارسية. وقال البعض: إن أصلها يوناني «٣».

وقال آخرون: السندس: قماش من الحرير يستعمل في نسجه خيوط من الذهب.

وأما «استبرق» على قول أرباب اللغة والمفسرين (ما غلظ من الملابس الحريرية ولا يراد به الغلظة في الخيوط إنما يراد به المتانة في النسيج).

وقيل: إن (الاستبرق) فارسي معرب اصله «استبر» أو (ستبر) والذي يعنى السميك، وقيل هو الديق المنسوج بالذهب، وقيل السندس: الديق الرقيق الفاخر الحسن، والاستبرق:

الديق الغليظ الذى له بريق. وهذا يدل على أن ثياب أهل الجنة من الحرير الخالص وبأشكال مختلفة.

(١). «عاليمهم» من مادة «علو» أى من فوقهم. وقيل: فى اعرابها احتمالا، الأول: أنها «ظرف» لأنها تحمل معنى «فوق»، والآخر: «حال» للضمير «هم» الذى جاء فى الآيات السابقة.

(٢). التحقيق فى كلمات القرآن الكريم.

(٣). معجم اللغة ل (دهخدا).

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٨١

ويمكن الإشارة هنا إلى أن الحرير وبسبب نعومته ولطافته وقبوله لألوان مختلفة يعتبر من أفضل الأقمشة وأفخرها. وبما أن الناس لم يعرفوا لباساً أغلى وأفخر من الحرير لذا استعملت هذه الكلمة فى توصيف لباس أهل الجنة، وإلا فكل شى فى الجنة فوق حد التصور.

والجدير بالذكر أن الآيات الكريمة تحدثت عن اللون الأخضر، ولعل السبب فى ذلك هو أن هذا اللون أجمل الألوان فى عالم الطبيعة والخلق، فهو لون يبعث على البهجة والارتياح فى النفس، فالنباتات بشكل عام خضراء، والبحار والمياه تبدو أحياناً زرقاء وأحياناً أخرى خضراء، ولهذا فإن هذا اللون يبعث فى الروح الإنسانية البهجة والطمأنينة والارتياح.

ويعتقد بعض العلماء بأن اللون الأخضر لون مهدئ ومسكن، ونقرأ فى أحد الكتب مقالة تحت عنوان: (الصحة واللباس): «إن اللون الأخضر له أثر كبير فى علاج الأمراض العصبية والنفسية والهستريا والارهاق العصبى، وكذلك له الأثر فى زيادة قوة الإدراك والتحمل وبيعت الأمل والاعتدال، كذلك له الأثر فى إزالة حالات الأرق وتخفيف ضغط الدم، وتسكين أوجاع الأعصاب، ويلاحظ أن أغلب الذين ينتخبون اللون الأخضر فى الوهلة الأولى رحماء واقعيون، ويتمتعون بتعادل روحى ونفسى.

ولقد اجريت تجربة على ثلاث مجاميع من العمال.. المجموعة الأولى عهد إليها حمل صناديق خضراء اللون، والثانية، صناديق سوداء اللون والثالثة، بنية اللون، فلو حظ أن أغلب المراجعين للمستشفى هم من المجموعة الثانية والثالثة وكانوا يشكون من آلام فى الظهر وآلام أخرى

يذكر أنه كان فى لندن جسر أسود اللون وكان الكثير من الناس ينتحرون بإلقاء أنفسهم من فوقه، ولما غيروا لونه إلى الأخضر لوحظ انخفاض نسبة الانتحار بشكل كبير» (١).

وعرف منذ القدم هذا القول: (ثلاث يذهبن الحزن: الماء والخضراء والوجه الحسن).

(١). الجامعة الأولى والنبي الخاتم، المرحوم الشهيد الدكتور باك نجاد، ج ١٨، ص ١٣٣-١٣٤.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٨٢

ونختم هذا الموضوع بما نقله أحد المفسرين: «لو بسط ثوب من أثواب الجنة فى الدنيا لاندھش أهلها جميعاً» (١).

١٠- حلى الجنة

أشرنا فى البحث السابق إلى ألبسة أهل الجنة، وستتطرق فى هذا البحث إلى حليهم أيضاً. من المعلوم أن للحلى والزينة المناسبة أثر نفسى كبير على روح الإنسان، فتبعث فيها الارتياح والانبساط والبهجة، وإذا لم تخرج عن حد الاعتدال فلا- باس فى ذلك وهو عمل مرضى، لذا نجد أن الكثير من الآيات القرآنية والروايات أكدت على الزينة والتجمل والتطيب حتى أثناء العبادة ومن جملتها: ارتداء الألبسة الطاهرة، اختيار الألوان المناسبة، تمشيط الشعر، استعمال العطور والطيب،

والتختم باليمين ونحو ذلك.

ويستفاد من آيات عديدة من القرآن أن أهل الجنة يتجملون ويتزينون بأفخر أنواع الحلى، وبهذا فهم يتمتعون بلذة نفسية كافية، ولقد ورد في ثلاث آيات من القرآن الكريم قوله تعالى «يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ». «٢»

«أساور»: جمع (اسورة) على وزن (تجربة) وهي أيضاً جمع (سوار) على وزن (غبار) و (كتاب) ومشتقة من الكلمة الفارسية (دستوار). ولقد صرح آيتان من الآيات الثلاث بالإضافة إلى (الذهب) ب (اللؤلؤ) أيضاً، ويقول بعض المفسرين أنها إشارة إلى أساور الجواهر واللؤلؤ، ولو أخذنا بنظر الاعتبار أن (اللؤلؤ) عطف على محل (من أساور) وهو منصوب فيكون بمنزلة المفعول به ل «يحلون» فيكون معنى الآية هكذا: «يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لَوْلُؤًا وَ لِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ». (الحج / ٢٣)

ومن الممكن أن تكون زينة اللؤلؤ مشتقة من الأساور، وكذلك يمكن أن تكون جزءاً منها.

(١). روح المعاني، ج ١٥، ص ٢٤٩.

(٢). الكهف، ١٣ والحج، ٢٣ وفاطر، ٣٣.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٨٣

ويحتمل البعض: أن أهل الجنة بالإضافة إلى تزينهم بأساور من ذهب كذلك أنهم يتزينون بأساور من اللؤلؤ الخالص أيضاً.

ولقد أشار القرآن الكريم في موضع واحد إلى (أساور الفضة): «وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ». (الانسان / ٢١)

من هنا يطرح هذا السؤال: أن الأساور سواء كانت من ذهب أو من فضة فهي من زينة النساء، ولا يتحلى الرجال عادةً بالأساور فهل يختلف الأمر في الجنة؟

يجب أن نلاحظ هذه المسألة وهي أننا نجد وفي أماكن مختلفة من هذا العالم أن كلا الجنسين يتزينون بالأساور ولا يختص بالنساء فقط.

ويتبين من اعتراض فرعون على موسى الذي كان يقول: «فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ اسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ». (الزخرف / ٥٣)

إن هذا الموضوع كان له شياخ في عرف أهل مصر، وتدل الزينة على شخصية الرجال وعظمتهم.

لقد أشرنا في البحوث السابقة ولمرات عديدة إلى هذه المسألة وهي أن القرآن يحدثنا بلغتنا وما هو سائد عندنا، ومن البديهي أن زينة أهل الجنة وحتى زينتهم المادية هي أعلى من أن تحيط بها أفكار أهل الدنيا.

١١- الحور العين

يعتبر اختيار الزوجة الصالحة من أهم عوامل الراحة والسكينة والأنس والحيوية في هذه الدنيا.

فالزوجة الصالحة (وكذلك الأمر بالنسبة للزوج الصالح) تسهل على الزوج تحمل جميع مشاكل الحياة وصعوباتها، وتعطي للحياة طعماً خاصاً مليئاً بالمحبة والبهجة والسعادة.

وعلى العكس - في حالة عدم امتلاك زوجة أو امتلاك الزوج غير الصالحة - فسوف تتبدل حلاوة الحياة وعذوبتها إلى جحيم لا يطاق حتى وإن توفرت جميع أسباب الراحة.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٨٤

وبتعبير آخر، إن الزوجة الصالحة التي تتحلى بالفضائل الأخلاقية والخصال الحميدة.

لم تكن أساس اللذة الجسمانية فقط وإنما تعتبر أساس اللذة الروحانية أيضاً.

فليس من قبيل المصادفة أن يركز القرآن الكريم ضمن عرضه لأنواع النعم في الجنة على هذه المسألة، فقد عبر بتعابير عميقة المحتوى في هذا المجال.

قال تعالى في موضع: «وَلَهُمْ فِيهَا زَوْجٌ مُّطَهَّرَةٌ». (البقرة / ٢٥)

وصف الأزواج بكونها (مطهرة) له مفهوم جامع وشامل، فكما يدل التعبير على نقائها وصفائها من كل النقائص والأقذار الجسمية والخلقية، كذلك يشمل أيضاً نزاهتها من العيوب والأدران المعنوية والخلقية، ومن المعلوم أن أهم شرط في اختيار الزوجه هو طهارتها.

إنّ تعبير (مطهرة) أكثر عمقاً من تعبير طاهرة (فمطهرة) تشير إلى أن الله سبحانه وتعالى هو الذى طهرها ومن يطهره الله ويشهد على طهارته تكون حالته واضحة بينة.

وجاء نفس هذا المعنى في هذا الحديث (أزواج مطهرة من أنواع الأقذار والمكاره) «١».

لقد عبر القرآن في عدة مواضع عن زوجات أهل الجنة ب (الحوار العين)، فقال تعالى:

«وَزَوْجَانَهُمْ بِحُورٍ عِينٍ». (الدخان / ٥٤)

وورد نفس هذا التعبير في الآية ٢٢ من سورة الطور. وذهب إلى أبعد من ذلك في قوله تعالى: «وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ». «٢» (الواقعة / ٢٢-٢٣)

وقال تعالى «حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ». (الرحمن / ٧٢)

و نقرأ في قوله تعالى: «فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنْسَ قَبْلَهُنَّ وَلَا جَانٌّ... * كَأَنَّهِنَّ الثِّيَابُ وَالْمَرْجَانُ». (الرحمن / ٥٦-٥٨)

«حور»: جمع (حوراء) و (أحور)، وعلى قول الكثير من أرباب اللغة والمفسرين (شدة

(١). تفسير الميزان، ج ١ ذيل الآية ٢٥ من سورة البقرة وهكذا ذكرها المرحوم العلامة المجلسي في بحار الأنوار، ج ٨ ص ١٤٠.

(٢). هناك احتمالات عديدة في محل اعراب «حور عين»، ومن جملتها مبتدأ لخبر محذوف تقديره (لهم حور عين)، أو عطف على (ولدان مخلدون...) والاحتمال الأول هو الأرجح وذلك لأن الحور العين ليست للخدمة.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٨٥

بياض العين في شدة سوادها) وهذا غاية جمال العين. ولعل السبب في ذكر القرآن لجمال العين هو أن أكثر جمال الإنسان في عينيه، ولقد فسره البعض بياض جميع الجسم لذا تطلق كلمة التحوير على عملية غسل الملابس وتبييضها. ويمكن الجمع بين المعنيين على أساس اتصافهما بياض الجسم وجمال العيون وسعتها.

ومن هذا الباب أيضاً أطلقت كلمة (الحواريون) على أصحاب السيد المسيح عليه السلام الذين كانوا يرتدون الملابس البيضاء.

أما كلمة «عين» جمع (أعين) على وزن (أفضل) و «عيناء» في الأصل بمعنى العين الوسيعة، وتطلق هذه الكلمة على المرأة التي تمتلك عينين واسعتين جميلتين وجذابتين أو الرجل كذلك.

ومما تجدر الإشارة إليه أن كلمتي «حور» و «عين» تطلق على المذكر والمؤنث أيضاً، لهذا فهي تحمل مفهوماً واسعاً بحيث يشمل جميع الأزواج في الجنة، زوجات للرجال المؤمنين، وأزواج للنساء المؤمنات (ستكلم عن هذا الموضوع أيضاً في مكان آخر).

يلاحظ أن القرآن الكريم قد أكد على جمال العيون - وكما أشرنا - أن جمال الإنسان يكون قبل كل شيء وبعد كل شيء في عينيه، فالعيون معيار جمال الجسم والروح.

«لؤلؤ»: أى الدر المصون المخزون في الصدف لم تمسه الأيدي، والذى يكون له صفاء ورونق خاص حين استخراجه من الصدف.

وتشبيه «حور العين» ب (اللؤلؤ المكنون) إشارة إلى لطافتها وجمالها الخارق. ومن الممكن أن يكون إشارة إلى أنها مستورة بشكل كامل عن أنظار الآخرين، فلا يد مسّتها ولا عين وقعت عليها.

وقال بعض المفسرين أيضاً «١»: بما أنّ (حور) مشتقة من مادة (حيرة)، فيكون مفهومها هو أنّ الحور العين من الجمال بحيث تنحير العيون عن النظر إليها.

وبعدها امتدح الله (الحور العين) بقوله: (خيرات حسان)، أي نساء خيرات الأخلاق حسان الوجوه، وذكر صفة أخرى لهن وهي (مقصورات في الخيام)، قيل المقصور بمعنى

(١). أبو الفتوح الرازي في تفسيره. نقل ذلك عن بعض المفسرين القدماء (تفسير روح الجنان، ج ١١، ص ١٣).

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٨٦

المستور أي مستورات في القباب، وقيل مصونات محفوظات مخدّرات لا يتدلن، وقيل مقصورات أي قصرن على أزواجهن فقط دون غيرهم.

وقيل نفس الشيء في تفسير قوله تعالى (قاصرات الطرف)، وذلك لأنّ «طرف» على وزن (حرف) بمعنى (جفن العين)، لأنّها تطرف فينطبق عليها تارة وينفتح تارة، ويكون المعنى: قصرن طرفهن على أزواجهن لم يرون غيرهم، وهذه أعظم صفة وأكبر امتياز حيث لا ترى أحسن من زوجها، فليس لها أي علاقة بغيره.

ومما تجدر الإشارة إليه أنّ كلمة «الخيمة» في اللغة العربية لا تنحصر بالخيمة المصنوعة من القماش، بل تطلق على كل بناية مدورة، حتى قال بعض أرباب اللغة: «كل بناية بنيت من الحجر و... وغيره هي خيمة، وأنّ الخيمة في الأصل حسب قول صاحب كتاب مقاييس اللغة بمعنى الإقامة والثبات».

ويستفاد من الروايات الإسلامية أنّ خيام الجنة وحكمها كسائر النعم الإلهية الأخرى لا يوجد أي شبه بينها وبين الخيام الدنيوية، فبعضها قطع من اللؤلؤ.

وجاء في وصف آخر للحور العين حيث شبههن بالياقوت والمرجان: «كَأَنَّهِنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ». (الرحمن / ٥٨)

أي هنّ على صفاء ولون وتلألؤ الياقوت وبياض وجمال المرجان.

ومن المعلوم أنّه إذا امتزج هذان اللونان مع بعضهما يشكّلان أحلى الألوان وأجملها.

«ياقوت»: حجر معدني في غاية الشفافية، وعادة يكون أحمر اللون.

«مرجان»: يشبه أغصان النباتات. ويوجد في البحار، وله ألوان مختلفة ويراد منه هنا اللون الأبيض، وقيل إنّه اللؤلؤ الصغير، حيث تتصف مثل هذه اللؤلؤ ببياض وجمال وشفافية أكثر «١»، ولكن يعتقد العلماء اليوم أنّ (المرجان) موجود حتى ويشبه الأغصان الصغيرة للشجرة وينمو في أعماق البحار، وكان العلماء يعتقدون لفترة طويلة بأنّه نوع من أنواع النباتات، ولكن اتّضح فيما بعد أنّ له صفات الحيوان رغم أنّه ملتصق بصخور قاع البحر.

(١). ذكر هذا المعنى الراغب في (مفرداته) ومجموعة من أهل اللغة والتفسير.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٨٧

وجاء في سورة الواقعة وصف آخر لهن وهو (أبكار) ثم «عرب».

«أتراب»: قال لله تعالى «فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * غُرُبًا أَتْرَابًا». (الواقعة / ٣٦-٣٧)

«أبكار»: جمع «بكر» أي خلقناهن عذارى كلما آتاهن أزواجهن وجدوهن أبكاراً، ويستفاد من بعض الروايات وكلمات المفسرين أنّ

هذه الحالة حالة دائمية لا تتغير.

«عُزْب»: على وزن (كُنْتُب) جمع (عروب) على وزن (طُروب) أو (عربا) أى متحننات على أزواجهن متحبيبات إليهم، وقيل عاشقات لأزواجهن، وقيل العروب اللعوب مع زوجها، وفي الأصل مأخوذة من مادة (اعراب) التى تعنى الإظهار، وقد تعنى أن لسان حالها يدل على عفتها وطهارتها.

وفسرها البعض أيضاً بمعنى الدلال وهو قريب من المعنى السابق.

ولقد ذكرت كلمة «أتراب» فى ثلاث آيات من القرآن الكريم كوصف للحوار العين «١» وهى جمع «تُزب» على وزن (حزب) بمعنى (المتساويان) فى السن، وتستخدم فى الجنس المؤنث على الأ-علب، وقيل: إنَّها فى الأصل مشتقة من «ترائب» بمعنى اضلاع القفص الصدرى: أى متشابهات ... وقال البعض إنَّها مشتقة من مادة (تُراب) وكانَّهم ولدوا فى وقت واحد ووطؤوا تراب الأرض معاً. على أئيه حال فإنَّ التساوى فى السن يمكن أن يكون إشارة إلى تقاربهم، حيث إنَّ الأزواج المتقاربين فى السن يدركون غالباً أحاسيس ومشاعر بعضهم البعض على نحو أفضل، أو أنه إشارة إلى تشابههم فى الخلقة والقامة والصورة والسن حتى أصبحوا متشاكلين.

ولكن ذكر هذا الوصف مع بقيه الأوصاف الاخرى مثل «عرب» و «كواعب» و «قاصرات الطرف» يدل على أن المعنى الأول هو الأنسب.

«كواعب»: لقد ورد هذا الوصف مرّة واحدة فى القرآن الكريم فى سورة النبأ، و (كواعب) جمع (كاعب) بمعنى الفتاة صغيرة السن، وهى مشتقة من مادة (كعب) والتى تعنى فى الأصل

(١). سورة النبأ، ٣٣؛ ص، ٥٢؛ الواقعة، ٣٧.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٨٨

بروز ظاهر القدم، واستعملت هنا للإشارة إلى الفتيات الصغيرات السن اللاتى أشرفت أئداؤهنَّ على البروز، ولقد ورد كذلك أن الكواعب إشارة إلى مرحلة البلوغ الجسمى حيث يبدأ الجسم بالنمو السريع فى هذه المرحلة. وبهذا الشكل فإنَّ الحوار العين يتصفن بجميع الصفات والمحسن وحسن الظاهر والباطن والفضائل الجسمانية والروحانية والأخلاقية، وبذلك يتصفن بكل ما هو حسن.

ونكرر مرّة اخرى ونقول: إنَّ كل ذلك إشارات لحقائق مادية ومعنوية عليا للعالم الآخر ولا يمكن إدراك تفاصيلها.

١٢- الخدم والسقاء

إنَّ الله سبحانه وتعالى اتم نعمته على أهل الجنَّة واعطاهم كل شىء ومن جملتها المضئفون الذين يخدمونهم وبأعلى كيفية.

و «السقاء»: وهم الذين يطوفون على أهل الجنَّة ويسقونهم من الشراب الطهور.

إنَّ حسن ظاهريهم ولطف باطنهم وصلاح خلقهم وخلقهم من الدرجة بحيث يجذب إليهم أهل الجنَّة وينسيهم كل ما تحملوه من الآلام والمعاناة فى الدنيا فى سبيل اطاعة أوامر الله تعالى

ولقد تحدث القرآن الكريم فى آيات عديدة عن (الغلمان) و (الولدان المخلدون) ووصفهم بأجمل الأوصاف.

إنَّ التعابير الواردة فى هذا الصدد، وكسائر المواهب والعطايا الإلهية متنوعة ومختلفة، فقد جاء تعبير «غلمان» فى قوله تعالى «وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكُونٌ».

(الطور / ٢٤)

تعبير (يطوف) (مع ملاحظة كونه فعل مضارع يفيد الاستمرار) دليل على أن طوافهم حول أهل الجنة طواف دائمى.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٨٩

«لؤلؤ مكنون»: وصف للخدمة، فهم فى حسنهم وصباحتهم وصفائهم وبياضهم كاللؤلؤ المصون فى الصدف، أو الذى اخرج توأ من الصدف.

صحيح أن الجنة - حسب التعابير الواردة فى الآيات والروايات - لا تحتاج إلى خدم، وكل ما يريد أهل الجنة مهياً وجاهز، ولكن هذا يعبر عن مقدار الاحترام والاكرام المنقطع النظير لأهلها من قبل الخدم.

ولو أن هذه الآية لم تخبر صراحة، عن علة طوافهم، ولكن الآيات التى بعدها أشارت إلى أن مهمتهم تتعلق بخدمته وتضييف أهل الجنة بأنواع الأشربة والشراب الطهور، ومختلف الأغذية.

التعبير ب (لهم) يدل على أن لكل واحد من أهل الجنة خدماً خاصين به، وقيل: ليس على الغلمان مشقة فى خدمته أهل الجنة بل لهم فى ذلك اللذة والسرور إذ ليست تلك الدار دار محنة.

وقد نقل الكثير من المفسرين هذا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله: قيل يارسول الله الخادم كاللؤلؤ فكيف المخدوم؟ فقال: «والذى نفسى بيده إن فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب» (١).

ومن الجدير بالذكر أن (الغلمان) جمع غلام وتعنى فى اللغة (الصبي) لا العبد (٢).

ومن البديهي أن الأفراد بهذا السن يتمتعون بالنشاط والحيوية والجديّة.

وذكر القرآن الكريم تعبيراً آخر بخصوص الخدم وهو «ولدان»، قال تعالى «يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ* بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ». (الواقعة/ ١٧-١٨)

«ولدان»: جمع «وليد» بمعنى (مولود)، وهنا بمعنى (الغلام) وما ذهب إليه البعض من كونهم صغار المؤمنين يخدمون آباءهم فهو بعيد (٣)، وذلك لأنهم إن كانوا مؤمنين فهم

(١). راجع تفاسير مجمع البيان؛ روح الجنان؛ روح البيان؛ القرطبي؛ والكشاف ذيل الآية مورد البحث.

(٢). لقد كتب الكثير من أرباب اللغة فى تفسيرها «الغلام هو الطار الشارب» (مقاييس اللغة، المفردات، لسان العرب).

(٣). تفسير الكبير، ج ٢٩، ص ١٤٩ ذكر هذا الاحتمال فى تفسيره واستبعده.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٩٠

يخدمون لا أنهم خدم للآخرين، وإن كانوا غير مؤمنين فلا سبيل لهم.

وتعبير (مخلدون) إشارة إلى بقائهم على حالهم فيبقون صغاراً دائماً لا يكبرون ولا يلتحون فهم على هيئتهم من حداثة السن والنشاط والحيوية.

ولقد ورد نفس هذا التعبير بتوضيح أكثر وأطف، قال تعالى «وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا». (الإنسان / ١٩)

وهذا شاهد آخر على أن المراد من (ولدان) هو نفس (الغلمان) الذين وصفتهم الآيات السابقة ب (لؤلؤ مكنون)، وهنا وصفتهم هذه الآية ب (لؤلؤ منثور).

ولقد احتمل الكثير من المفسرين أن هؤلاء الغلمان هم أطفال المشركين والمؤمنين الذين رجحت كفة سيئاتهم، فلم يؤخذهم الله سبحانه بأعمال آبائهم ولكن جعلهم خدماً لأهل الجنة وهم مسرورون بذلك.

ولو أخذنا بنظر الاعتبار ما أشرنا إليه سابقاً في تضعيف هذا الاحتمال، وما الرواية التي نقلت في هذا المجال إلأرواية مرسله لا أكثر. وجاء في تعبير آخر (بصيغة المبني للمجهول) يشير إلى المضيفين في الجنة، قال تعالى: «يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ». (الصفافات / ٤٥)

ولقد ورد شبيه هذا المعنى بشيء من التفاوت كدليل على تنوع الموائد في الجنة في قوله تعالى: «وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا». (الدهر / ١٥)

ونقرأ تعبيراً آخر في قوله تعالى: «يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ». (الزخرف / ٧١)

«صحاف»: جمع «صحفه» وعلى قول الزمخشري (طبق ما جاء في مصباح اللغة): إناء مستطيل (كبير)، وإذا أخذنا بنظر الاعتبار المادة الأصلية للكلمة والتي تعني الانبساط والاستواء، فيمكن أن يكون إشارة إلى إناء يشبه (الصينية).

و «أكواب»: جمع (كوب) وهو إناء للشراب لاعروة فيه وقد يعبر عنه ب (القدح) أحياناً.

والجدير بالذكر وعلى قول بعض المفسرين (صحاف) (جمع كثرة) و «أكواب» جمع «قله»، وهذا يعود إلى أن تنوع الأغذية و صحافها أكثر من تنوع المشروبات وأكوابها «١».

(١). تفسير روح المعاني، ج ٢٥، ص ٩٠.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٩١

وتقتضى فصاحة القرآن التطرق حتى لمثل هذه الجزئيات، (تأمل).

وأخيراً، ولو أنّ هذه الآيات الأخيرة لم تبين أوصاف المضيفين، ولكن يمكن أن تفسرها الآيات السابقة وتدلل عليهم وعلى مواصفاتهم.

١٣- المضيفون

يلاحظ في مجالس الضيافة ولأجل تقدير واحترام الضيوف على أحسن وجه حضور شخصية أو مجموعة من الشخصيات المحترمة، وهؤلاء يقومون بواجب الضيافة كدعوتهم الضيوف إلى تناول الطعام أو المراجعات أو سائر لوازم الضيافة، وغالباً ما يكون هؤلاء من غير الخدم.

وهذا يعتبر احتراماً مضاعفاً، وكذلك يمنح الضيف أهمية وعظمة خاصة، بالإضافة إلى ذلك يزيد من احترامه وتقديره.

ويستفاد من الآيات الكريمة أنّ هذا المعنى عهد به إلى الملائكة وخزنة الجنة. فإنهم يدعون أهل الجنة للانتفاع من نعمها.

ورد في قرآن الكريم (ومن دون أن يذكر القائل): «كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ». (الطور / ١٩)

ولقد ورد عين هذا التعبير في الآية ٤٣ من سورة المرسلات.

فهل أنّ المتكلم هو الله تبارك وتعالى وهل ورد هذا الكلام كاحترام وأكرام وعناية ولطف خاص من قبل الله تبارك وتعالى؟ أم أنّ هذا الكلام صادر عن الخزنة والملائكة...؟

على أيّ حال، فإنّ جميع نعم الجنة هنيئة، وما قول «هنيئاً...» إلأعناية اخرى تضاف إلى جميع النعم.

ولقد ورد شبيه هذا التعبير بشيء من الاختلاف في قوله تعالى «كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا اسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ» (١). (الحاقة / ٢٤)

(١). في اعراب «هنيئاً» أقوال: يرى البعض أنّها وصف بمحل «المفعول المطلق» ويكون التقدير (كلوا أكلماً هنيئاً)، وقيل: إنّها وصف

المفعول به ويكون المعنى (كلوا واشربوا مأكولاً ومشروباً هنيئاً)، وفي الواقع أن هنيئاً هو نفس المأكول والمشروب. وعلى أية حال، فإن المراد من «هنيئاً». أن الطعام أو الشراب لا يترك أى أثر سيء على الإنسان. بل إنه يهضم بكل سهولة.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٩٢

إن هذه الآية لم تشر إلى المتكلم أيضاً، وما جاء فى الآيات لا يختلف عما ذكرناه فى الآية السابقة.

١٤- التزل

نلاحظ فى بعض الآيات تعبيراً عميق المعنى يكشف عن حقيقة جديدة وهذا التعبير هو (التزل)، وقد ورد فى قوله تعالى: «لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ». (آل عمران / ١٩٨) كما ورد نفس هذا المعنى فى الآية ١٠٧ من سورة الكهف، والآية ١٩ من سورة السجدة، والآية ٦٢ من سورة الصافات والآية ٣٢ من سورة فصلت.

ولأجل توضيح المفهوم الحقيقى لهذه الآيات، فلابد من توضيح المعنى الدقيق للتزل.

قال الراغب فى مفرداته: (التزل ما يعد للنازل من الزاد)، وعلى ضوء هذا التفسير تكون جميع النعم التى تعد لاستقبال الضيوف مصداقاً من مصاديق التزل، ولقد ورد نفس هذا المعنى فى «صحاح اللغة» و «المقاييس».

وقال بعض المفسرين: «التزل ما يعطى الملك النازل وقت نزوله قبل أن يجعل له راتباً أو يكتب له خبزاً» (١).

وقيل: (التزل) «٢» أول طعام يقدم إلى الضيف (وكما هو جارٍ فى زماننا حيث يقدمون عصير الفواكه، أو الفواكه للضيف فى أول حلولة) وينسجم هذا المعنى مع مفهوم (التزل).

(١). تفسير الكبير، ج ٢٥، ص ١٨٢.

(٢). تفسير المنار، ج ٤، ص ٣١٤- لقد ذكر ثلاثة معانٍ مختلفة ومتقاربة فى نفس الوقت.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٩٣

وبناءً على ذلك ومع الأخذ بنظر الاعتبار «الجنات» بكل نعمها ومواهبها يكون مفهوم «التزل» فى ذلك المضيف الكبير هو: وجود استقبالات أعلى وأهم ولعلها تكون إشارة إلى تلك النعم المعنوية والجذبات الروحانية والمظاهر القدسية، ولهذا السبب ورد فى قوله تعالى بعد جملة: «نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ» قوله تعالى: «وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ».

(آل عمران / ١٩٨)

حتى وإن كان (التزل) بمعنى ما يعد للضيف من الكرامة والبر والطعام والشراب (كما قال ذلك بعض المفسرين). فإنه لا يمكن انكار أن ضيافة الشخص الكريم لا تنحصر بإطعام الضيوف فقط، بل تشمل إضافة إلى ذلك تقديم أنواع الهدايا والعطايا التى تهدى إليهم، وما الطعام والشراب إلا شيئاً يسيراً قبال هذه الامور.

وبناءً على هذا ومهما كان معنى (التزل)، فانه إشارة لطيفة إلى تلك المواهب المعنوية والروحانية للجنة.

١٥- النعم التى لا تتصور

مما لا شك فيه أن النعم المادية فى الجنة لا تنحصر بما قيل سلفاً، فطبيعة هذا العالم المحدود تحول دون أن يكون لدينا تصور

متكامل عن النعم المادية والروحانية في العالم الآخر.

ومن جهة اخرى، أنّ حب التنوع عند الإنسان يدفعه لطلب المزيد من المواهب والنعم المختلفة، ولذا عنى القرآن الكريم بهذه المسألة عناية خاصة وأعلن صراحة: «وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ». (الزخرف / ٧١)

وهذا التعبير هو أكثر التعبيرات شمولية وجمعاً فيما يتعلق بالمواهب والنعم الإلهية في الجنة.

يقول المرحوم (الطبرسي) في مجمع البيان: «لو اجتمع الخلائق كلهم على أن يصفوا ما

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٩٤

في الجنة من أنواع النعيم لم يزيدوا على ما انتظمتها هاتان الصفتان» (١).

والملفت هو ذكر هذه الجملة بعد بيان العديد من نعم الجنة حتى يُعرف أنّ نعم الجنة لا تنحصر بها.

وهنا يطرح هذا السؤال: لماذا ذكر تعالى لذة الأعين بعد لذة الأنفوس؟ هناك عدّة احتمالات:

الأول: أنّ جملة «تشتهيه الأنفوس» تشمل جميع اللذات، أمّا لذة «الأعين» ولما لها من أهمية استثنائية فقد وردت على شكل (ذكر الخاص بعد العام).

الثاني: أنّ الجملة الاولى إشارة إلى لذات جميع الحواس (حاسة السمع، واللمس، والذوق، والشم)، أمّا جملة «تلذ الاعين» فهي إشارة إلى لذة حاسة البصر وهذه اللذة تعادل جميع اللذات أو أكثر.

الثالث: أنّ الجملة الاولى أشارت إلى جميع اللذات الجسمانية (المادية)، أمّا الجملة الثانية فقد أشارت إلى اللذات الروحانية (المعنوية). أي النظر بعين البصيرة إلى جمال الخالق المطلق، ومشاهدة صفات الجمال والجلال التي تعادل كل لحظة منها جميع النعم المادية في الجنة.

ومن الواضح أنّ محيط الجنة محيط منزّه ومقدس، لذا فإن طلبات الإنسان من أنواع النعم (المشروبة، والمأكولة والملبوسة والمشمومة وغيرها) لا تتعدى الأشياء الظاهرة التي تليق بالإنسان الطاهر، وعلى هذا فلا استثناء في عمومية الآيه، ولا تحتاج إلى تساؤلات هذا وذاك من قبيل هل تشمل الطلبات السيئة للنفس؟

لقد ورد نفس هذا المعنى في قوله تعالى «وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ» (٢). (فصلت / ٣١)

قال بعض المفسرين: إنّ الجملة الاولى إشارة إلى جميع النعم المادية في الجنة، أمّا

(١). تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ٥٦.

(٢). «يَدْعُونَ» من مادة «ادعاء» (افتعال من دعاء) بمعنى طلب الشيء.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٩٥

الجملة الثانية فهي إشارة إلى المواهب المعنوية بقربنه قوله تعالى: «دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرَجُوا عَنْهُمْ أَنْفُسَهُمْ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ». (يونس / ١٠)

إنّ هذا التفسير يعتبر تفسيراً مناسباً، حيث إنّ شهوة النفس تكون أكثر فيما يتعلق ب (المسائل المادية)، أمّا الدعاء فيستعمل عادة في المسائل المعنوية.

ونقرأ تعبيراً آخر في قوله تعالى «وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ». (الأنبياء / ١٠٢)

وإضافة إلى ما ذكرنا هناك آيات اخرى في هذا المجال:

فنجد في تعبير جديد: «لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ». (نحل / ٣١)

وكذلك ورد نفس هذا التعبير في سورة الفرقان الآية ١٦.

ويلاحظ هذا التعبير أيضاً (وبشيء من الاختلاف) في ثلاث سور أخرى من القرآن (الزمر/ ٣٤، والشورى ٢٢، وق/ ٣٥). ويتضح من مجموع ما ذكر في هذا الفصل، أن العطاء الإلهي في الجنة لا تحدّه أى حدود، لا من حيث المقدار، ولا الكيفية والنوع، ولا الزمان والمكان، وبناءً على ذلك فإن ما ذكر في الفصول الماضية إنما هو عبارة عن نماذج واضحة لما يمكن أن يدركه أهل هذا العالم إجمالاً، أما النعم التي هي فوق تصورنا وإدراكنا فقد أشارت إليها الآيات القرآنية المذكورة بعبارات أكثر شمولية وعمومية. وفي الحقيقة أن الجنة والعطاء الإلهي فيها ما هو إلّا مظهر كامل من مظاهر القدرة واللفظ الإلهي، وبما أنه لا نهاية لقدرة ولطفه تعالى. فكذا لا نهاية ولا حد لعطاياه ومواهبه في الجنة.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٩٧

٣- اللذات الروحية

إشارة

نظراً لوجود أبعاد روحية وجسمية في «المعاد» ونظراً لكون الروح أسمى وأشرف من الجسم بمزات ومزات، فينبغي إذن عدم الشك في أن النعم الروحية والمعنوية للجنة أفضل وأسمى وأعظم بمزات من النعم المادية والجسمية! ولكن لما كان الوصف لا يتسع عادة للتعبير عن هذه النعم، وهي أمور تعتمد على المشاهدة (القلبية) لا على القول والسمع فلهاذا غالباً ما نعثر في الآيات القرآنية على إشارات مبهمه لهذه النعم التي يتمتع بها أصحاب الجنة باستثناء الموارد التي يمكن شرحها وبيانها حيث تولى القرآن الكريم شرح وتبيان عدد منها.

وبعبارة أخرى فإنّ لذة إدراك معرفة الله وما فيها من نفحات جلالية وجمالية وأنوار الطافه الخفية، والسكر لدى ارتشاف كأس العشق لذاته المقدسة تعادل بل وتفوق اللحظة الواحدة منها كل النعم المادية في هذا العالم. وقد نتصور أحياناً نماذج بسيطة لهذه النعم في الدنيا تتجلى لنا عندما نقف بين يدي الله سبحانه وتعالى ونقطع للعبادة والخلو، فنمد الأيدي بالدعاء والمناجاة ونغرق بالاستغاثه ونداء يا قاضى الحاجات، فننسى الدنيا وما فيها، وفي لحظات قصيرة نحس وكأننا في حالة ذوبان في جمال الله الذى لا مثيل ولا نظير له، وبالخصوص لو كنا في هذه اللحظات في بعض الأماكن المقدسة، في بيت الله الحرام أو عرفات والمشعر وغيرها من الأماكن والعتبات المقدسة المخصصة للعبادة، فيشعر الإنسان بلذة لا يمكن لأى قلم أو بيان أن يصفها ويتصورها.

تصور لو أن هذه الحالات تحصل وبشكل أكثر قوة بألاف المرات وتستمر لساعات

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٩٨

وأيام وليال وأشهر وسنوات متواصلة، كيف سيكون الحال؟ خاصة مع انعدام عوامل الغفلة عن ذكر الله في الجنة وزوال المسببات التي تعصف باستقرار القلب وحضوره، وانكشاف الحجب وموانع المعرفة من أمام الابصار، حيث يصبح إدراك الإنسان وبصيرته أشد وأقوى ولا وجود هناك للوساوس الشيطانية التي تقف حجرة عثرة دوماً في وجه سالكي هذا الطريق.

يمكن حينذاك تصور ما يجرى هناك، وما هي النعم المعنوية العظيمة التي تتجلى لنا، وما هي النفحات الجذابة التي تستقطب الروح إلى جوار قرب الله، وتجعلها غارقة في أنوار ذاته وغافلة عن ذاتها حتى يصل بها الحال إلى عدم رؤية ما سواه ولا تطلب سواه، ولا ترى إلّا ما تحب، وتحب كل ما ترى

ونعود الآن إلى القرآن مع الالتفات إلى الإشارات المذكورة أعلاه لنرى القرآن نفسه وهو يبين هذه النعم التي يمكن تلخيصها تحت الأبواب الآتية:

١- الاحترام الخاص

تبدأ الاحترامات الخاصة لأهل الجنة منذ لحظة دخولهم فيها فيقابلهم خزنتها مهئين، كما ورد في القرآن الكريم: «وَسَيَقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ». (الزمر / ٧٣) يُستفاد من هذه الآية أن خزنة الجنة ينتظرون المتقين بلهفة على أبواب الجنة وقد فتحو لهم أبوابها من قبل وما أن يصلوا إليها حتى يسارعوا إلى استقبالهم بأجمل التحيات ووافر الاحترام ويدعوهم بأطيب العبارات إلى الجنة والحياء الخالدة فيها «١».

(١). الملفت للنظر هنا أن القرآن استعمل «واو» الحالية في جملة «وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا» للتعبير عن انفتاح الأبواب مسبقاً (كما ورد هذا في الآية ٥٠ من سورة ص «جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُّفْتَحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ»). إلاً أنه تعالى يقول عن النار: «حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا» بدون استعمال «واو» الحالية.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ١٩٩

نعم هذه هي الأصول المتبعة في استقبال الضيف العزيز، فأول الأمر تفتح الأبواب والمضيئون ينتظرون على الباب، وما يكاد يدخل حتى يستقبلوه بالترحاب وهذه من اللذات المعنوية الثمينة.

«والخزنة»: جمع (خازن) وهو بمعنى الحارس والمراقب، والمقصود هنا هو الملائكة الذين يتولون المحافظة على الجنة وتسيير شؤونها. وفي المرحلة اللاحقة بعد دخول الجنة يُؤمر ملائكة الله المقربون بالدخول عليهم من كل باب والترحيب بهم وتهنئتهم. ورد في قوله تعالى «وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ» (١). (الرعد / ٢٣-٢٤)

ويُفهم من الآية السابقة أن جموعاً من الملائكة يدخلون عليهم من كل باب، مع الالتفات إلى أن كل باب من أبواب الجنة مخصص لواحد من الأعمال الصالحة مثل: (باب الصلاة، وباب الجهاد، وباب الحج) فيتضح أن كل مجموعة من الملائكة تدخل عليهم لأجل واحد من الأعمال الصالحة التي أدوها في الدنيا، والطريف في الأمر أن كل هذه الأعمال تلخص في معنى الصبر بكل أنواعه: الصبر على الطاعة والصبر على المصيبة، والصبر عن المعصية.

والأهم من كل ذلك التحية والسلام الصادر من الله إلى أهل الجنة، وهو سلام مقرون بالمحبة وملء باللطف والرحمة، كما جاء في قوله تعالى «سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ» (٢).

(يس / ٥٨)

هذا السلام وهذه التحية الإلهية التي تنفذ في أعماق النفس وتملؤها بالطاقة فتشد إليها نفوس أهل الجنة بما فيها من لطف واحسان وتجعلها مستغرقة بالبهجة، إنها نعمة لا تضاهيها نعمة، أجل، إن سماع نداء المحبوب المنبعث من جوده ولطفه لهُو أفضل من الدنيا وما فيها.

(١). هذه الجملة تقديرية، وتقديرها هو: فنعمة عاقبة الدنيا الجنة.

(٢). قيل في إعراب هذه الجملة: «سلام» خبر «أن» «لهم» مقدره. و«قولاً» مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره: يقول قولاً، وهناك آراء اخرى أيضاً في هذا الصدد. إلاً أن ما ذكرناه هو الأنسب.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٠٠

نفحات القرآن ج ٦ ٢٤٩

إن نفعه لقاء المحبوب ورؤيته لطف الحبيب والسلام الذي يعنى رفع الحجب، يحوى من اللذة والأشواق والبهجة بحيث لو بقى العشاق

بعيدين عن فيضه المعنوي لما صبروا، على تحمل ذلك، وقد روى بعض مفسرى السُّنة حديثاً قيماً عن أمير المؤمنين عليه السلام يقول فيه: «لو حُجبت عنه ساعة لمتَّ» (١).

وعلى أيّة حال، فإنّ أسمى أمانى أهل الجنّة وأشرف مفخرة لهم وأحبّ ساعة إليهم، هو أنّ يسلم عليهم الرّب الرحمن الرحيم. وتجدر الإشارة إلى أنّ هناك آيات عديدة أخرى فى القرآن الكريم تتضمن اهداء التّحية لأهل الجنّة من غير أن تحدد مصدر التّحية والسلام كما فى «الآية ٤٦ من سورة الحجر- والآية ٧٥ من سورة الفرقان- والآية ٣٤ من سورة ق». فربّما يكون مصدر التّحية الملائكة، ويحتمل فى بعضها أن يكون السلام من أهل الجنّة على بعضهم، أو ربّما يكون من الله وهذا أفضلها وأكملها.

٢- اجواء الامن والسلام

إنّ أكثر ما يعكّر صفو روح الإنسان فى الدنيا هو عدم الشعور بالأمان فى شتى مناحى الحياة، وعدم الشعور بحلاوة الدنيا يعود فى الغالب إلى عدم ثقة الإنسان بما بين يديه، فهو غير واثق من المستقبل ولا هو واثق من أبناء جنسه، لا سيما إذا كانت لديه نعمة أكثر فهو يجد نفسه عرضةً لأمواج متلاطمة من الحقد والحسد والكراهية بما يجعل الدنيا مظلمة فى عينيه. واحدى النعم الروحية المتوفرة فى الجنّة هى الشعور بالأمن والأمان فى جميع المجالات، فلا خوف من اندلاع الحرب ولا وجل من المخاصمات، ولا الحقد له وجود ولا الحسد، والعشق والوفاء يملأ الأرجاء، وكذلك المحبة والاخوة تحيط بالجميع.

(١). تفسير روح البيان، ج ٧، ص ٤١٦.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٠١

نلاحظ فى القرآن الكريم آيتين فيهما وصف جميل وغنى للجنة وهو «دار السلام» وهذا ما جاء فى الآية الكريمة: «لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

(الأنعام / ١٢٧)

وكذلك جاء هذا الوصف فى قوله تعالى: «وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ». (يونس / ٢٥)

ينقسم المفسرون فى تفسيرهم لمعنى (دار السلام) إلى قسمين:

الأول: يرى أنّ السلام هنا يعنى السلامة من كل ألم وآفة وبلاء، وهو من أوصاف الدار أى: الجنّة، فلا وجود هناك لصراع الناهيين فى الدنيا المادية ولا أثر للسلوكية المنحرفة لأصحاب الثروة الغافلين عن ذكر الله، ذلك المكان خالٍ من الحروب وإراقة الدماء ولا مكان فيه للاستعمار والاستثمار، نعم هناك دار السلام والوئام والأمن والأمان (١).

الثانى: يرى أنّ السلام من أسماء الله، وعلى هذا فدار السلام هى من قبيل المضاف والمضاف إليه، وهو إشارة إلى أنّ الجنّة دار الله، وكلا المعنيين جميل رغم أنّ المعنى الأول يبدو مناسباً أكثر، لأنّ أصل هذه المفردة- بناءً على قول الراغب الإصفهاني- يعنى الخلو والسلامة من العيب والنقص الظاهري والباطني، حتّى أنّ هذه المفردة أطلقت على ذات البارى عزّ وجلّ كواحدة من صفاته وأسمائه الحسنى لأنّ ذاته المقدّسة سالمة من العيب والفناء.

ويظهر كذلك من جملة (لهم دار السلام) أنّها تتطابق والمعنى الأول. (تأمل).

وورد فى حديث عن ابن عباس أنّه قال: «دار السلام: الجنّة وأهلها لهم السلامة من جميع الآفات والعاهات والأمراض والاسقام، ولهم السلامة من الهرم والموت وتغير الأحوال عليهم، وهم المكرمون الذين لا- يهانون أبداً، وهم السعداء الذين لا- يشقون أبداً، وهم الفرعون المسرورون الذين لا يغمون ولا يهتمون أبداً، وهم الأحياء الذين لا يموتون

(١). بلغنى وأنا أكتب هذه الجمل أن المستعمرين بقيادة أمريكا قد بدأوا قبل عدّة ساعات بهجوم على العراق وأنّ المئات من طائراتهم تضرب وبشكل متواصل جميع المنشآت الحيوية في هذا البلد (٢٧/ ١٠ / ١٣٦٩ المصادف ليوم ٣٠ جمادى الثانية عام ١٤١١).

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٠٢

أبدأ، فهم في قصور الدر والمرجان أبوابها مشرعه إلى عرش الرحمن والملائكة يدخلون عليهم من باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار» (١).

وأخيراً تأتي تكلمة هذا الموضوع في الآية الكريمة: «وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ * لَا يُمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ» (٢). (الحجر / ٤٧ - ٤٨)

وبما أنّ كلمة «غل» تحتل الكثير من المعاني الواسعة التي تدل في الغالب على الصفات الباطنية القبيحة التي تعكر صفو الروح والجسد والعائلة والمجتمع، لهذا يفهم من هذه الآية أنّ صدور أهل الجنّة خالية من الحقد ولا تحمل قلوبهم أى ضغينة وعداوة وكبر وحسد، فالله قد نزع من قلوبهم كل هذه الصفات الرذيلة، فسادتهم روح الاخوة والمحبة. وما أجمل وألطف مثل هذه الأجواء الخالية من تلك الصفات التي يخيم عليها الحب والعطف والسلام والوئام.

وحتى في الحياة الدنيا كلما أزيلت أمثال هذه الرذيلة من المجتمع كلما ساد الأمن والاستقرار، وعلى العكس من ذلك كلما انتشر وجود أمثال هذه الظواهر في أى بيت أو مجتمع أصبحت مصدراً للتزايدات الدامية والمؤسفة وسبباً لزعة الأمن والاستقرار. ومما يثير الاهتمام أنّ القرآن الكريم جعل الاستقرار الداخلى مكتملاً للاستقرار الخارجى حيث يقول: لا يوجد فى الجنّة تعب أو اضطراب، وينعدم فيها الخوف من زوال النعم، وهو الهاجس الذى يقلق بال الإنسان الذى ينعم بالخيرات ويكدر عليه عيشه، وكل هذه الأسباب تجعل من نعم الجنّة هنيئة مستساغة (٣).

(١). بحار الأنوار، ج ٨، ص ١٩٤، ح ١٧٦.

(٢). «غل» مشتقة من كلمة «غلل» على وزن «بَلَل»، وتعنى فى الأصل النفوذ التدريجى للشىء، ولهذا يُقال للماء الذى يجرى ويتسلل بين الأشجار (غلل)، وكذلك يقال للحسد والحقد والعداوة «غل» لأنها تنفذ إلى القلب خفية وبالتدريج، وكذلك يطلق على الخيانة اسم «الغلول» لهذا السبب.

(٣). ورد ما يشابه هذا المضمون مع بعض الاختلاف الجزئى فى: الآية ٤٣ من سورة الأعراف؛ والآية ٣٥ من سورة فاطر.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٠٣

٣- الأمان بعد الخوف

إنّ نعمه الأمان وبغض النظر عن جذورها التي أشرنا إلى بعضها فى بحثنا السابق، تُعد من أكبر النعم المعنوية التي يعز على الإنسان فقدانها ولو للحظة واحدة، وهذه الحقيقة يشعر بها الأشخاص فى المناطق الصحراوية الموحشة، أو فى المناطق الحربية المعرضة فى أى وقت للقصف بالصواريخ والقنابل، فهناك يتكدر معين الحياة الصافى وتمضى الساعات والدقائق ثقيلة وعسيرة، والنقطة المقابلة لذلك هى مناطق الأمن والأمان (١).

يصف القرآن المجيد حال المتقين بقوله: «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ». (الدخان / ٥١) فلا هم يخشون هجوم الشياطين ولا يخافون سلطة الطواغيت ولا هم يتعرضون للآفات والبلايا ولا يعترهم الحزن والغم!

ولهذا السبب يضيف فى مكان آخر: «ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ».

(الأعراف / ٤٩)

لقد لاحظنا من خلال التجربة أنّ بعض الناس - ورغم ما يتوفر له من متطلبات الحياة ومستلزمات الراحة - يعيش حالة من القلق والاضطراب بسبب الحزن والهم الذي يستحوذ عليه، أو لوجود الخوف والهلع الذي ينتابه فيقض مضجعه فنراه لا يلتفت مطلقاً إلى كل تلك النعم ولا يعير أدنى اهتمام لما بين يديه، ففي مثل هذه الأحوال يمكن لمس حقيقة وعمق التعابير القرآنية بشأن أهل الجنة. لا بدّ أنّ أهل الجنة يشعرون حتّى في هذه الدنيا بشيء من ذلك الأمان والسكينة في ظل إيمانهم، وينعمون بالاستقرار حتّى في أشدّ المعضلات من خلال الاعتماد على حقيقة التوكل وروح التسليم والرضا بالإرادة الإلهية: «أَلَمْ أَنْزِلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحَقَّ بِآيَاتِنَا وَلَئِنْ كُنْتُمْ إِلَّا قَوْمًا يَجْرُونَ»... «لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ». (يونس / ٦٢-٦٤)

(١). كلمة «آمنين» الواردة في الآية ٥٥ من سورة الدخان؛ والآية ٤٦ من سورة الحجر بشأن أهل الجنة، وكذلك كلمة «آمنون» في الآية ٣٧ من سورة النبا حيث تقول: «وهم في الغرفات آمنون» هاتان الكلمتان تشيران إلى نفس هذا المعنى نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٠٤

٤- الأخلاء والأصدقاء الأوفياء

ومن أهم اللذائذ الروحية الأخرى معاشره الأصدقاء المخلصين والأخلاء الذين يتصفون بالإيمان والسجايا الرفيعة، ويفوح من أرواحهم عطر المحبة والموودة، إنّ الجلوس مع هؤلاء لحظة واحدة يغمر النفس ببهجة لا توصف، وتذكر الآيات القرآنية الشريفة أنّ أهل الجنة ينعمون بهذه النعم فيجالسون الأخلاء ويتحدثون إليهم، ولكن ما هي المواضيع التي تدور حولها أحاديثهم؟ هذا ما لا يمكن التكهن به، لعلهم يتحدثون في مواضيع يستحيل علينا إدراكها اليوم، ولكن من البديهي أنّها من نوع الأحاديث التي تحيي القلوب. تطالعنا الآيات بما يأتي: «وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا» (١) «ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا». (النساء / ٦٩-٧٠)

نعم، إنّ الأخلاء في الجنة هم خيرة ذوى الفضائل في العالم: كالأنبياء العظام والخلص من أصحابهم والصدّيقين والشهداء والصالحين. ولو قارنا هذا مع ما يجري في هذه الدنيا حيث يضطر الناس في كثير من الأحيان إلى تحمل العذاب الناتج عن معاشره أشخاص لا يجمعهم وإياهم انسجام أو ترابط، يمكن حينذاك فهم طبيعة الأوضاع الموجودة في الجنة.

والذي يسترعى الاهتمام هنا أنّ الكثير من المفسرين قد نقلوا روايات عديدة بشأن نزول هذه الآية، نقل فيما يلي ملخصها (مع وجود بعض الاختلاف بين المفسرين في النقل):

يروى إنّها نزلت في ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وآله، إذ كان شديد الحبّ لرسول الله صلى الله عليه وآله قليل الصبر عنه فأثام يوماً وقد تغير وجهه ونحل جسمه وعرف الحزن في وجهه، فسأله رسول الله صلى الله عليه وآله عن حاله، فقال: يارسول الله ما بى وجع غير إنى إذا لم أراك اشتقت إليك واستوحشت

(١). يرى البعض أنّ كلمة «رفيقاً» جاءت هنا تمييزاً ولهذا وردت مفردة، واعتبرها البعض الآخر حالاً. وان مجيئها مفردة (مع أنّ الحال جمع) إمّا لكون كلمة رفيق تعنى المفرد وتعنى الجمع أيضاً أو تضمناها لمعنى الجنس.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٠٥

وحشة شديدة حتى ألقاك، فذكرت الآخرة فخفت أن لا أراك هناك لأنى إن أدخلت الجنة فأنت تكون في درجات النبين وأنا في درجات العبيد فلا أراك وإن أنا لم أدخل الجنة فحينئذ لا أراك أبداً. فنزلت الآية «١».

وكلمة «ذلك» التي تستعمل عادة إشارة للبعيد، جاءت هنا للدلالة على عظمة هذه النعمة الإلهية، وكأنّها عالية إلى الحد الذي يجعلها

بعيدة عن تناول أيدينا، وكذلك عبارة «فضل من الله» إنما هي تأكيد على هذا المعنى وإشارة إلى أن هذه النعمة لا يمكن الحصول عليها بمجرد العمل، بل تنال بفضل الله.

وتجدر الإشارة إلى قضية أخرى في هذه الآية، وهي ذكرها لأربع جماعات بالترتيب واعتبارهم كأصدقاء في الجنة وهم: «الأنبياء، والصديقين، والشهداء، والصالحين».

ويبدو أن هذا الترتيب يدل على تسلسل درجاتهم. فقال بعضهم: «إن الأنبياء وُضعوا في المقام الأول لأنهم وصلوا في مجال المعرفة الإلهية إلى حد رؤيته عن قرب بياصرة القلوب، والصديقون في المقام الثاني من المعرفة وهم كمن يرى الأشياء بعينه من بعيد، والشهداء في المقام الثالث وهم كمن يدرك وجود الشيء بالأدلة العقلية، والصالحون في المقام الرابع وهم كمن يقبل الأشياء عن طريق تقليد الكبار واتباع أهل الفن» (٢).

يمكن في كثير من الحالات إطلاق كلمات (الشهداء والصالحين والصديقين) على الأنبياء أيضاً، لكن ربما يُقال: إن هذه الأوصاف الأربعة عندما تصبح في ازاء بعضها فأنها تعطي مثل هذا المعنى

ويبدو أن هناك تفسيراً أكثر روعة بشأن هذه الدرجات الأربع، وهو أن الحاجة إلى هداية المجتمع الإنساني تحتاج في بداية الأمر إلى الأنبياء أي (القادة الربانيين). ومن بعدهم يأتي دور الصديقين أي المبلغين الصادقين في القول والعمل الذين ينشرون دعوتهم

(١). راجع تفاسير مجمع البيان؛ والكبير؛ والقرطبي؛ والمراغي؛ وروح المعاني؛ وفي ظلال القرآن ذيل الآية مورد البحث.

(٢). مقتبس من تفسير روح المعاني، ج ٥، ص ٦٨.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٠٦

من بعدهم، وفي المرحلة التالية عند اصطدامهم بالعوائق والموانع تبرز الحاجة إلى أشخاص يهبون للدفاع ويقدمون التضحيات حتى يتمكن الصالحون أخيراً من حكم المجتمع.

وفي هذه المناسبة ينبغي الإشارة إلى أن مرافقة هذه الفئات الأربع لا تعنى وحده المقام معها، بل تعنى إمكانية الارتباط بها كما هو الحال في اتصال الطالب باستاذة أو الجندي بأمره.

ورد ما يشبه هذا المعنى ولكن بثوب آخر - في قوله تعالى: «وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ». (الحجر / ٤٧) ويلحظ في الآية ٣١ من سورة الكهف إشارة إلى نفس المعنى أيضاً.

وعلى أية حال، فإن مرافقة هؤلاء الصالحين والاتصال بهم يُعد من أكبر اللذات المعنوية لأصحاب الجنة.

٥- العلاقات الطيبة

إن ما يملأ أجواء الحياة بهجة هي الأحاديث الطيبة التي يتبادلها الناس مع بعضهم، فلو كانوا كلهم صادقين ويفكرون بشكل اصولي ويتعاملون فيما بينهم بالانصاف والمودة ويتبادلون الحب والاحترام، لكانت حياتهم مملوءة بالاستقرار والبهجة، ولكن لو انحرفت العلاقات فيما بينهم نحو الكلام القبيح وتبادلوا التهم والأكاذيب والذم والتقريع وتنازروا بالكلمات الفجة التي تأبها الآداب العاقية، يصبح من الصعب على أحدهم صيانة شخصيته والتعامل في مثل هذه الأجواء بل إن هذه الأجواء تصبح خانقة ومؤلمة له.

وأحد الخصائص الموجودة في الجنة هي خلوها من هذه الظواهر، فأهل الجنة لا يسمعون كلمة كذب واحدة على مدى خلودهم أبداً ولا تطرق أسماعهم الكلمات النابية ولا الأحاديث الباطلة، وهذه من أهم الفضائل المعنوية التي يتمتعون بها.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٠٧

قال تعالى في القرآن الكريم: «لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا». (الواقعة / ٢٥-٢٦)

فيحیی بعضهم الآخر، والملائكة أيضاً تسلّم عليهم، والأهم من كل ذلك هو سلام الله عليهم وما تحمله تلك التحيات من المحبة والاخلاص والصفاء، أجل، إن مجالس أهل الجنة فواحة بالحب والموودة، وإذا توفرت مثل هذه الأجواء في أي مكان فهو نموذج من الجنة.

وجاء في موضع آخر من الكتاب المجيد: «لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا». (النبا/ ٣٥)

«اللغو»: في اللغة يعني الكلام الفارغ، وبعبارة أخرى الكلام الذي لا يتضمن أية أفكار أو معانٍ، ويبدو أن الكلمة مأخوذة أصلاً من (لغا) وهو صوت زقزقة العصافير، أما الضمير «فيها»: فقد أرجعه أغلب من فسر هذه الآية إلى أحد هذين الاحتمالين:

الأول: أنه يرجع إلى كلمة الجنة. الثاني: أنه يرجع إلى كلمة الكأس التي وردت في الآية السابقة لها. فإذا كان الاحتمال الأول فالمعنى واضح. وإذا صح الاحتمال الثاني فيكون المعنى أن شراب أهل الجنة لا يسكر ولا يسبب فيه أي لغو.

لكن التفسير الأول أكثر انسجاماً مع معنى «فيها» والآيات الأخرى المشابهة، وورد نفس هذا المعنى في آية أخرى أقصر وأكثر وضوحاً حيث يقول تعالى «فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً». (الغاشية/ ١٠-١١)

هناك آيات قرآنية أخرى تؤكد على هذا المعنى منها (مريم/ ٦٢) و (يونس/ ١٠).

إضافة إلى ما ذكر، يتنعم أهل الجنة بكثير من المتع المؤنسة ومجالس الفرح والبهجة والأحاديث المسلية والمزاح اللطيف كما يصفهم القرآن: «إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهُونَ». (يس/ ٥٥)

تعني كلمة «شُغْل» أية حادثة أو حالة تشغل الإنسان، ولكنها هنا تفيد معنى الحالة المسلية التي تبعث السرور، وذلك بوجود قرينه «فاكهون» وهي جمع «فاكه» وتعني

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٠٨

الإنسان المسرور، وهي مشتقة من كلمة «فكاهة» ومعناها المزاح، وتعني كلمة «فاكه» في اللغة العربية الإنسان الممازح المرح الذي يجيد الأحاديث الطريفة.

وبما أننا نجهل طبيعة الأشياء التي يتسلى بها أهل الجنة لأننا نقيس كل شيء في هذا العالم بمعيارنا المحدد الصغير، فمن البديهي أن النعم التي يشغلون بها هناك لا يمكننا حتى تصورها في هذا العالم.

وعلى أية حال فإن الأمور التي تستهويهم وتشغلهم هناك تكون سبباً لنسيان آلام هذا العالم وهول المحشر أو فقدان بعض الأحبة، ولا شك أن مواضيع التسلية السبعة أو العشرة التي ذكرها بعض المفسرين، إنما هي موضوعه وفقاً للمعايير والتصورات الدنيوية للتسلية، وإلا فالأوضاع في ذلك العالم تختلف عما في هذا العالم «١».

٦- الانشراح النفسي

قد يدعى الإنسان أحياناً إلى أجمل الحقائق، وتوفّر له كافة مستلزمات الراحة، إلا أن روحه منقبضة فلا يتلذذ بأى منها، فالإنسان يشعر بلذة النعم الإلهية فيما إذا كان منشراح النفس.

يُستفاد من مجمل الآيات الواردة في هذا الصدد أن الفرح والانشراح يظهر على وجوه أهل الجنة بكل وضوح، وقد استخدم القرآن الكريم عبارات جذابة في هذا الصدد، فإليك مثلاً قوله: «ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ». (الزخرف/ ٧٠)

فكلمة «تُحْبَرُونَ»: مأخوذة من المصدر (حبر) على وزن (فكر)، وتعني في الأصل الآثار الجميلة حسب ما وردت في كتاب (مقاييس اللغة)، ولذلك يطلق على الأشياء المزيّنة اسم «مُحَبَّر» على وزن مُشَجَّر وسمي الحبر حبراً لأنه يترك وراءه أثراً جميلاً، ويُقال للعلماء «أحبار» لأنهم يمتلكون آثاراً قيّمة، وهذه الكلمة تعني هنا البهجة والانشراح الذي يظهر أثره على الوجوه «٢».

(١). ورد نفس هذا المضمون في سورة الطور، الآية ١٨.

(٢). ورد نفس المعنى في سورة الروم، الآية ١٥.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٠٩

وقد وردت الإشارة إلى هذا الموضوع بتعبير آخر في قوله تعالى: «تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ». (المطففين / ٢٤)

فكلمة «النضرة»: تعنى في الأصل الجمال، والمقصود من (نضرة النعيم) الطراوة والنعمومة التى تظهر من أثر وفرة النعمة والحياة المرفهة وتعكس حالة (الارتياح والانبساط الداخلى) كما أن «تعبير الوجه تفسى سر الداخل» (١).

وقد فسّر بعضهم هذه الكلمة بمعنى السعيد والفرح والمستبشر كما جاء في قوله تعالى

«وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ مُّشْفَرَةٌ * صَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ» (٢). (عبس / ٣٨ - ٣٩)

ولكن الآيات السابقة لها تظهر أن هذه الآية تشرح حال المؤمنين في مشهد المحشر وليس في الجنة.

وفسرها البعض الآخر بمعنى النور والجمال والاشراق الذى لا يتيسر للبيان وصفه، (٣) وذهب البعض الآخر إلى أنها تعنى البشر والبشاشة التى تظهر على وجوههم شعوراً منهم برضا المحبوب أى الله سبحانه وتعالى (٤).

ونقرأ هذا الوصف الآية الكريمة: «وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ * لِّسَعِيهَا رَاضِيَةٌ».

(الغاشية / ٨ - ٩)

كلمة «ناعمة»: مأخوذة من مصدر (النعمه) وتعنى هنا الاستغراق فى النعمة إلى حد ظهور آثارها من السرور والارتياح على الوجه.

وقال آخرون: إنها تعنى النعمه واللطافه، وهذه أيضاً حاصله من النعم المختلفه (٥).

ومن الطبيعى أن هذه النعمه والطراوة، أو تلك الوجوه المنيرة على قول بعض المفسرين

(١). جاءت تعابير مشابهه فى سورة القيامة، الآية ٢٢؛ وسورة الدهر، الآية ١١.

(٢). تفسير الكبير، ج ٣١، ص ٩٨ (نقله باعتباره قولاً).

(٣). المصدر السابق، ص ٩٩.

(٤). روح البيان، ج ١٠، ص ٣٧١.

(٥). تفسير الميزان، ج ٢٠، ص ٢٧٤.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢١٠

وكأنها القمر فى الليلة الرابعة عشرة، ليست معلولة للنعم المادية فقط لأن النعم المادية لا يمكنها لوحدها إيجاد مثل هذه الآثار، ومن المؤكد أن هذا الأثر ناتج عما يختلج فى نفوس أصحابها من أحاسيس ومشاعر معنوية وروحية سامية تنعكس آثارها على أجسامهم، وختام الآية شاهد على هذا المعنى أيضاً.

٧- الشعور برضا الله

ليس هناك شعور يخامر الإنسان أكثر من شعوره برضا محبوه وعزيز قلبه، فهذا الشعور يثير لديه بهجة وارتياحاً لا يوصفان.

نعم، إن نيل رضا المحبوب من أكبر اللذات المعنوية، وهى لذة ممزوجة بالشعور بالشخصية وقيمة الوجود، لأنه إن لم يكن يتحلّى بالقيمة والشخصية، لما كان موضع قبول محبوه الأكبر.

لقد أشار القرآن الكريم مراراً إلى هذه القضية المهمة وجعل منها ركيزة يستند عليها، فبعد الإشارة إلى الجنان اليانعة والأزواج

المطهرة، ورد فى قوله تعالى: «وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ» (آل عمران / ١٥)

فهذه النعمة التي تُعتبر أفضل من جميع النعم قد لُخصت في جملة قصيرة وبلغه.

وفي الآية ٧٢ من سورة التوبة أزيح الستار أكثر عن هذا الموضوع، فبعد الإشارة إلى مجموعة من النعم المادية المتوفرة في الجنة ومنها الحدايق التي تجرى من تحتها الأنهار والمسكن الطيب، يقول تعالى «وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ» ثم تُختتم الآية بالجملة: «ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

فاستخدام تعابير من أمثال «أكبر» و «ذلك هو الفوز العظيم» يُظهر بوضوح عدم وجود نعمة تضاهي هذه النعمة وبالشكل الذي يتضمن مفهوم الحصر وكأن الجملة تريد أن تقول: (ذلك هو الفوز العظيم لا غير).

لقد ذكرنا عدّة مرّات عدم إمكانية تصوّر أيّ من النعم المادية للعالم الآخر في نطاق هذا السجن الدنيوي المحدود، فكيف يجوز ذلك بشأن نعمة روحية ومعنوية كبرى ألا وهي «رضوان الله».

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢١١

ويمكننا أن نفهم بشكل إجمالي الفارق بين النعم المادية والمعنوية واللذات المنبثقة عن أيّ منهما، فنحن نعرف مثلاً أن اللذة الناتجة عن لقاء الحبيب الغالي بعد سنوات من الفراق، أو الشعور باللذة من جزاء اكتشاف قضية علمية معقدة كُنّا نبحث عنها لسنوات طويلة، والأكثر من كل ذلك النفحات الروحية والانسراح النفسي الذي يغمرنا حين العبادة الخالصة والمناجاة المقرونة بحضور القلب والمحبة الدافئة، نعرف أنه لا يمكن مقارنته كل هذا بلذّة الطعام والشراب وسائر اللذات المادية الأخرى روى أبو سعيد الخدري حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال فيه:

«إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ؛ فَيَقُولُونَ لِيبيك ربنا وسعديك والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم فيقولون وما لنا لا نرضى يارب وقد اعطينا ما لم تُعْطِ أحداً من خلقك؟ فيقول: ألا اعطيكم أفضل من ذلك، فيقولون يارب وأي شيء أفضل من ذلك فيقول: احلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً» (١).

وورد نفس هذا المعنى عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام ولكن بتعبير آخر، جاء في آخره: «فيقول تبارك وتعالى رضاي عنكم ومحبتى لكم خير وأعظم ممّا أنتم فيه» (٢).

«رضوان»: يعنى الرضا والارتياح بالمعنى المصدرى، ومجيئها هنا على هيئة النكرة يدل على العظمة، أى إنّ رضوان الله الأكبر أهم من كل شيء.

وقيل أيضاً: إنّ تنكيرها هنا فيه دلالة على القلّة، أى إنّ أقلّ رضاً من الله يُعتبر أكبر من جميع النعم المادية المتاحة في الجنة. وعلى أيّة حال، فليس فى ميسور أحد وصف تلك النفحات الروحية واللذات المعنوية التى ينالها الإنسان بسبب الشعور برضا الله، نعم إنّ أى جانب من هذه اللذة الروحية يفوق جميع النعم والمسرات الموجودة فى الجنة. وممّا يسترعى الانتباه أنّ الآية (١١٩) من سورة المائدة، وبعد سردها للنعم المادية فى

(١). تفسير روح الجنان، ج ٦، ص ٧٠؛ تفسير روح المعاني، ج ١٠، ص ١٢٢.

(٢). تفسير العياشى، آخر الآية مورد البحث وفقاً لما جاء فى تفسير الميزان.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢١٢

الجنة، أشارت إلى الرضوان وصورته وكأنه أمر متبادل بين الخلق والخالق قائلة: «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ». وما أجمل أن يكون الرضا من الجانبين، فهو يغرقهم بالنعم حتى يرضون، ويغمرهم بالمحبة بحيث يعلن لهم عن رضاه، وخلاصة القول أنه

لا- فوز أكبر من أن يشعر الإنسان بأن مولاه ومحبوه ومعبوده راضٍ عنه. ودلالة ذلك الرضا أنه يفيض عليه بكل ما يتصور وما لا يتصور من النعم.

وعبارة «راضية مرضية» من الآية ٢٨ من سورة الفجر هي أيضاً إشارة إلى نفس هذا المعنى إذ تصوّر النفس المطمئنة لعباد الله المخلصين الذين يصلون إلى جوار قرب المحبوب قائلة: إن صاحب النفس المطمئنة يرجع إلى ربه وهو راضٍ عنه ورّبه راضٍ عنه أيضاً، وهنا يصدر الأمر الإلهي: «فَادْخُلِي فِي عِبَادِي» كنتاج للكرامة يزيّن به الرأس، فياله من فخر كبير عندما يخاطب تعالى الإنسان في قوله: «عبادي»!

نعم هذه هي عقبي من اجتاز مرحلة النفس الأمارة والنفس اللوامة ووضع قدمه على أعتاب النفس المطمئنة. فكبح جماح الأهواء، وألجم الشيطان وامتنى مركب التقوى ولا تقتصر الآيات المتعلقة برضا الله في يوم القيامة باعتباره نعمة إلهية، على ما ذكرناه، فهذا المعنى يلوح للعيان في آيات أخرى أيضاً ويعكس الأهمية الاستثنائية لهذا الموضوع «١».

٨- نظر الله إليهم ونظرهم إليه

إن من أثنى اللذات المعنوية هي أن وجود المحبوب الجامع لكل الكمالات بنظرة لطف على الإنسان ويتحدث إليه، والأكثر أهمية من كل ذلك أن يتمكن الإنسان من بلوغ مقام شهود ذاته المقدسة أي إنه يراه بقلبه ويغرق في بحر جماله. وقد أكد القرآن الكريم مراراً على هذه النعمة المعنوية، فتذكر إحدى الآيات العذاب

(١). راجع سور، الفارعة، ٧؛ والتوبة، ٢١؛ والحديد، ٢٠؛ والبيّنة، ٨.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢١٣

الإلهي الأليم على من يكتسب آيات الله بالقول: «وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ». (البقرة/ ١٧٤) ويتحدث القرآن في موضع آخر عن نفس هذا الموضوع والعذاب الإلهي على من يشتركون بعهد الله ثمناً قليلاً: «وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ». (آل عمران/ ٧٧) نعم، إنهم محرومون من لذة التكلم مع الله ونظرة رحمته ولطفه، ولذلك فهم لا يطهرون، ولما كانت الجنة مأوى الأطهار فهم يقعون في جهنم يذوقون أليم عذابها.

و نستفيد من هاتين الآيتين أن هذه النعم والهبات سوف يخص بها الله سبحانه وتعالى المؤمنين وأصحاب الجنة، وسوف يكلمهم بلطف، ولهم نفس المنزلة التي أولاهم الأنبياء في هذه الدنيا، فالتدوا واستأنسوا بما وهبهم الله سبحانه وتعالى، وأية لذة أعظم وأحسن من هذه اللذة؟ فبالإضافة التي نعمة الحديث معهم، فإن الله ينظر إليهم نظرة لطف خاص، وأية موهبة أعظم من هذه الموهبة؟ حيث ينظر المحب نظرة لطف ومحبة إلى محبوبه الصادق العاشق الولهان؟!

ومن البديهي أن الكلام لا يكون باللسان، ولا النظر يكون بالعين، فالله سبحانه أجل من الجسم والجسمانية.

ربما يحصل أحياناً أن يغضب الأب على ابنه فلا يكلمه ولا ينظر إليه، وإذا كان الابن واعياً فهو يعتبر هذا التجاهل من أبيه تجاهه أكبر عذاب نفسي له، أما في حالة الرضا عنه فهو يجلس معه وينظر إلى قوامه ويحادثه بانسراح ومحبة وهذا من دواعي فخر الابن وسعادته.

هذا في عالم المادة والجسم والصورة، ونفس هذه القضية تحدث بمقياس أسمى في عالم المعنى بين المولى الحقيقي وعباده.

وذكرت سورة القيامة لذة النظر إلى الجمال الذي لا مثيل له للمحبيب الحقيقي: «وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * أَلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ». (القيامة/ ٢٢-

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢١٤

وما يلفت الانتباه هنا هو أنّ تقديم (إلى ربّها) - وهو ما يفيد الحصر- يدلّ على أنّهم ينظرون إليه فقط في ذلك اليوم ولا ينظرون إلى سواه، وهم إن نظروا إلى غيره فهي ليست إلّا نظرة عابرة، ومع ذلك فهم يرونه هو وحده لأنّ كل ما في العالم مظاهر لذاته المقدّسة وآثار لطفه ورحمته، وفي الحقيقة أنّ رؤية الأثر هي بمثابة رؤية المؤثر.

وهناك احتمال آخر أيضاً في تفسير هذا المقطع من الآية: «إلى ربّها ناظرة» يشير إلى انتظار الناس لرحمة الله ولطفه، كما نقول أحياناً إنّ الشخص الفلاني لا ينظر إلّا إليك أي أنّه ينظر كرمك وفضلك، أو عندما نقول إنّنا نعقد الأمل عليك، ولا مانع من اتساع معنى الآية لتشمل كلا المفهومين.

وقد استدل أغلب مفسري أهل السنيّة عند وصولهم إلى هذه الآية ببعض الروايات الضعيفة التي تشير إلى المشاهدة الحسيّة لله تعالى وقالوا: إنّ أحد نعم أهل يوم القيامة رؤية الله بهذه العين، حتى أنّ بعضهم قال: إنّ الله يظهر في السماء على هيئة النور! وهم ينظرون فوق رؤوسهم ويلتذّون بمشاهدة نور الله بهذه العين المجرّدة.

وقد بحثنا في الجزء الرابع من هذا التفسير وبشكل موسّع في بطلان مثل هذه التصورات المليئة بالشرك والتي تهبط في تصوير الإله إلى أنّه جسم محدود بالمكان والاتّجاه، وشرحنا كذلك ضعف هذه الأحاديث، ولا نرى لزوم تكرار ما سبق القول فيه، وإننا نعتبر مثل هذا الخطأ الفاحش ناتجاً عن الابتعاد عن تعاليم أهل البيت عليهم السلام ونسيان حديث الثقلين المتواتر «(١)».

من البديهي أنّ آثار عظمة الله في ذلك اليوم أوضح بكثير ممّا عليه الحال في الدنيا، وكذلك الحجب المظلمة التي تغطي قلوب المؤمنين في هذا العالم فإنّها ستزاح جانباً حتّى يمكنهم مشاهدة ذاته المقدّسة من خلال نظرة قلبية وروحية واحدة، بل ويكون الفيض الشهودي أحياناً أعمق، فيغمرهم بجماله فينسون الجنّة والنعم التي هم فيها.

و نختم بحثنا هذا بآية أخرى تتحدث عن هذا الموضوع بأسلوب آخر، إذ ورد فيها:

(١). للمزيد من المعلومات، يرجى المراجعة إلى ج ٤، ص ١٧٥-١٩٢ من هذا التفسير.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢١٥

«كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ». (المطففين / ١٥)

وهل هناك جزاء أشدّ ايلاًماً من حرمان الإنسان من لقاء الله ومنعه من الحضور في المحضر الإلهي المقدّس. ومفهوم هذا الكلام هو أنّ المؤمنين غير محجوبين في ذلك اليوم، بل يتمتّعون برؤية جمال الحق ويتلذّذون بفيض لقاء المحبوب الذي لا نظير له، وإن كان ذلك الحجاب عذاباً أليماً للكفّار فهذا اللقاء هو من أمتع اللذات بالنسبة للمؤمنين.

٩- لهم ما يشتهون

قد يقوم المضيق أحياناً بتهيئة جميع المستلزمات الضرورية لضيّفه العزيز، لكنّها عادة ما تكون محدودة بشكل أو آخر، إلّا أنّه عندما يعدّه بتوفير كل ما يشتهى وما يطلب بلا استثناء فالضيّف يشعر في مثل هذه الحالة بالارتياح والسكينة لأنّه يتأكد من انعدام أيّة قيود أو حدود في هذا الصدد.

و كما أنّ هذا الكلام يصدق على النعم الماديّة في الجنّة، وهو كذلك يصدق تماماً على النعم المعنوية فيها، وبعض تعابير الآيات القرآنية تتسق معانيها أكثر مع النعم المعنوية، فمثلاً ورد قوله تعالى بعد التحدث عن حدائق الجنّة: «لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ». (الشورى / ٢٢)

فتعبير «عند ربهم» وتعبير «ذلك هو الفضل الكبير» يتناسبان مع العطايا المعنوية والروحية في الجنّة، وقد اشير إليهما بعد تبيان النعم

المادية.

وقد ورد نفس هذا المعنى فى قوله تعالى دون الإشارة إلى النعم المادية: «لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ». (الزمر/ ٣٤)

وعلى هذا فلا توجد هناك أية قيود على النعم فى الجنة وخاصة فى الأبعاد الروحية والمعنوية، بالإضافة إلى ما تتضمنه هذه التعابير من دلالات على عدم محدودية نعم الجنة

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢١٦

فى الأطر المادية، فهى تُظهر أيضاً عدم وجود أية محدودية فى أى من الجانبين.

وبتعبير آخر إن الله يهب الإنسان القدرة التى تجعل من إرادته سبباً لحصول أية نعمة، خلافاً لما عليه الحال فى الدنيا إذ إن إرادة الإنسان فيها تابعة لوجود الأسباب وتوفر العوامل، فعندما يرغب الإنسان فى التجوال فى روضة أو بستان ولا يكون الجو معتدلاً ولا الأشجار يانعاً، فإن إرادة الإنسان لا تستطيع مطلقاً خلق أجواء ربيعية أو أشجار مورقة نديّة، ولكنه فى الجنة ما أن يطلب شيئاً حتى يتحقق له بإذن الله، وهذا الامتياز مثير للعجب «١».

وقد طرح بعض المفسرين، الذين يصرون على قضية رؤية الله تعالى هذه المسألة هنا وقالوا: إنها تتضمن المشاهدة أيضاً، فمن ذا الذى لا يطلب ولا يبغي رؤية الله جلّ وعلا؟! «٢»

لكن خطأهم الفاحش يكمن فى عدم رغبتهم للادعان لهذه الحقيقة وهى أن مشاهدة الله حسياً أمر غير ممكن، وذلك لأن الاتصاف بالجسمية والمكانية والأينية لا تعدو أن تكون من الصفات الخاصة بالمخلوقات وهو أمر مستحيل بشأن ذاته المقدسة، وأهل الجنة لا يطلبون المحال، أما المشاهدة القلبية والباطنية فهى متيسرة فى هذا العالم وكذلك فى العالم الآخر.

وفى نفس هذا السياق ورد فى قوله تعالى «لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ». (ق/ ٣٥) ويدل هذا التعبير على توفير كل ما تتسع له جملة «لهم ما يشاءون» وكل ما تشتمل عليه إرادتهم إضافة إلى توفير جميع النعم والعطايا التى لم تخطر على بال أى إنسان، ويشملهم بلطفه الذى يستعصى على البيان وصفه.

ويستدل من بعض الروايات أن جملة: «ولدينا مزيد» هى إشارة إلى أيام الجمعة التى يحظى فيها أهل الجنة بكرامات وعنايات خاصة من قبل البارئ جلّ وعلا، وهو أكثر لديهم

(١). مقتبس من تفسير الميزان، ج ١٧، ص ٢٦٠.

(٢). تفسير الكبير، ج ٢٦، ص ٢٨٠.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢١٧

بائنين وسبعين مرة «١»، وتوجد هناك آيات اخرى فى القرآن الكريم تتسق بشكل أو آخر مع الآيات السابقة الذكر «٢».

١٠- النعم التى لا يدركها التصور

تُلحظ فى القرآن الكريم تعابير تذهب إلى أكثر بكثير ممّا ذكرناه لحد الآن، فهى تتحدث عن قضية تخرج عن إطار التفكير لدى جميع أبناء البشر ولا تسعها دائرة التصور والخيال والوهم، وهى أبعد ممّا قرأنا وكتبنا.

إن استدلال الآيات القرآنية بمثل هذا الأمر يعكس مدى عظمة النعم الإلهية التى يعجز البيان عن وصفها، وهى من الآيات العجيبة فى القرآن، مثل: «فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ». (السجدة/ ١٧)

وجاء فى حديث مشهور عن النبى صلى الله عليه وآله أنه قال: «إن الله يقول أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا اذن سمعت

ولا خطر على قلب بشر» (٣).

تجدد الإشارة إلى أن هذه البشارة العظمى قد وردت في القرآن الكريم في أعقاب سرده لصفات المؤمنين الذين يقومون الليل لمناجاة ربهم (صلاة الليل) والذين ينفقون من أموالهم؛ وهذه دلالة على أن أفضل الطاعات والعبادات والأعمال الصالحة هي «صلاة الليل»، «والانفاق»، والغريب في الأمر أن صلاة الليل تعنى عبادة يؤديها المؤمن في الخفاء، وكذلك الانفاق الخالص فإنه غالباً ما يجرى في الخفاء كذلك، ويكون الجزاء على ذلك من قبل الله تعالى في الخفاء أيضاً، فجعله مستوراً ولم يُطع عليه أحداً.

(١). بحار الأنوار، ج ٨، ص ١٢٦، ح ٢٧.

(٢). من جملة ذلك: سورة يس، الآية ٥٧؛ سورة فصلت، الآية ٣١ والتي تشتمل على النعم المختلفة ويتبين ذلك من خلال تعابيرها: «ولهم ما يدعون» و«لكم فيها ما تدعون».

(٣). نقل هذا الحديث عدد كبير من المفسرين منهم الطبرسي في مجمع البيان؛ والآلوسي في روح المعاني؛ والقرطبي في تفسيره؛ والعلامة الطباطبائي في الميزان، وذكره كل من البخاري ومسلم في كتابيهما.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢١٨

وهناك نقطة أخرى أيضاً تسترعى الإنتباه وهي أن تعبير «قرّة أعين» تعنى برودة الأعين (١). لأنه من المعروف بين العرب أن «دموع الشوق» التي تنهمر عادة من الأعين عند الفرح الشديد تكون باردة، على العكس من دموع الحزن التي تتصف عادة بالحرارة والحرقة، لذا فإنّ العربي عندما يريد القول: إن الموضوع أو الحادثه الفلانية مدعاة للسور والارتياح، نراه يقول «قرّة العين أو قرّة أعين». وعلى أيّة حال فهناك كلمات وآيات لا يبلغها عقل الإنسان مهما بلغ من التسامي ومهما ارتقى من الدرى وكلما تعمق لسبر أغوارها كلما توصل إلى مفاهيم وأبعاد جديدة، حتى يصل الفكر إلى مكان يقف عنده ويعترف بعدم القدرة على بلوغ أعماقه، والآية التي نبحت فيها تمثل في الواقع إشارة قيّمة وذات مغزى للنعم الروحية والمعنوية العظيمة لأصحاب الجنة، فهي تحمل بين طياتها هذا المفهوم وهو عدم استطاعة أي إنسان حتى الأنبياء المرسلين والملائكة المقربين من بلوغ هذه الحقيقة ومعرفة ما أخفى الله من جزاء لخاصة عباده، ومن المؤكد أنهم يبلغون درجات عالية من القرب إلى ذاته المقدسة ومراحل رفيعة من وصال لقائه ومنازل سامية من عنايته وألطفه لا يدرکها إلا من بلغها.

١١- خلود نعم الجنة

ومما يضمن على الجنة أهميّة بالغة وقيمة معنوية كبيرة ويميّزها تماماً عن جميع النعم الدنيوية هو (عدم إمكانية فنائها أو زوالها)، فلا قلق هناك من ذلك ولا خوف ولا وجل من انقطاعها، فالإنسان مطمئن البال في هذا الجانب تماماً، وهذا الشعور بالأمان يضمن على تلك النعم طعماً خاصاً.

هذه الحقيقة يعرف معناها كل من ينال نصيباً وافراً من النعمة ثم تتنابه الهواجس الداهمة في إمكانية ذهابها، فتمسى حلالاتها مرارة في فمه.

(١). «قرّة» في اللغة على وزن «حُرّ» وتعنى البرودة.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢١٩

ويتضمن القرآن الكريم آيات عديدة في هذا المجال وهي تذكر دوماً بهذه الحقيقة وتزفّ البشرية للإنسان معلنة عن خلود النعم الإلهية، ليهنأ بها الإنسان ويعيش في فرح وحبور.

جاء فى قوله تعالى «أَكْلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا». (الرعد/ ٣٥) ولما كان هذا البحث يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمسألة الخلود فإننا سنتناوله بالبحث فى فصل آخر وبشكل مستقل.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٢١

٤- أبواب الجنة

تمهيد:

من المتعارف أن طريق الدخول إلى أيّة دار أو بناءة أو حديقة مسورة إنما يكون من أبوابها، وعلى هذا فأبواب الجنة تحدد مداخلها، وقد تكون للأبواب أقفال لا تفتح إلا بأدواتها الخاصية، وهو ما يطلق عليه العرب اسم «مفتاح» وجمعه: «مفاتيح»، أو «مقليد ومقليد»، لكن أبواب ومفاتيح الجنة لها مفهوم آخر، وتشير إلى الأعمال والامور المفيدة الخالصة التي تكون سبباً لدخول الجنة، وقد وردت فى القرآن إشارات غامضة إلى أبواب الجنة، لكن التفسيرات التي وردت بشأنها فى الروايات الإسلامية، تجسد بوضوح القيم الإسلامية بشأن المعايير التي تؤدى إلى دخول مستقر الرحمة الكبرى أى الجنة، نعود إلى القرآن لتأمل فى الآيات المختلفة التي وردت فى هذا الصدد:

١- «حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ». (الزمر / ٧٣)

٢- «جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُمْتَحَةٌ لَهُمْ الْأَبْوَابُ». (ص / ٥٠)

٣- «وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ».

(الرعد / ٢٣-٢٤)

جمع الآيات وتفسيرها

الجنة فى الانتظار!

تشير الآية الاولى إلى حركة أصحاب الجنة (زمرأ زمراً) نحو الجنة: «حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ»، ويفهم منها أن أصحاب الجنة عند

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٢٢

وصولهم إليها تفتح لهم الأبواب وكأن الجنة فى انتظارهم فتستقبلهم ويقول لهم خزنتها سلام عليكم، حتى أنهم لا يتحملون مشقة فتح الأبواب.

ويتجلى نفس المعنى فى الآية اللاحقة ولكن بتعبير آخر: «جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُمْتَحَةٌ لَهُمُ الْأَبْوَابُ».

ولما كانت كلمة «مفتحة» من باب التفعيل وتعطى فى مثل هذه الموارد مفهوم الكثرة والتأكيد، فهى ربما تشير إلى انفتاح جميع الأبواب أمامهم لا باب واحدة، وأنها مفتوحة على مصاريعها تماماً.

هل تفتح هذه الأبواب من ذاتها وكأن لها روح وحياء، أم أنها تفتح مع اقتراب أهل الجنة منها احتراماً لهم؟ أم أنها تفتح بمجرد القصد والأمر والإرادة ولا حاجة لأية واسطة أخرى أم أن ملائكة الجنة وخزاناتها قد فتحوها من قبل احتراماً لأهلها ووقفوا جانباً ينتظرون قدومهم، كما نفع نحن تجاه الضيوف الأعداء؟ يبدو أن الاحتمال الأول يناسب المقام أكثر من غيره؛ ويحتمل أن تكون صيغة المجهول دلالة على ذلك، وفى نفس الوقت يبدو أن انتظار ملائكة الجنة وخزاناتها إلى جانب الأبواب متناسباً مع الآية الاولى

وأخيراً ورد في الآية الثالثة دخول الملائكة من الأبواب المختلفة للجنة، وذلك بعد استقرار أصحابها فيها، فتقول الآية: «وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ».

ألا يعني هذا أن جميع الأعمال الصالحة، التي تمثل في الحقيقة أبواب الجنة، تلخص في الصبر والاستقامة؟!

توضيحان

١- أبواب الجنة في الأحاديث الإسلامية

لم تُشر أي من الآيات القرآنية إلى وجود ثمانية أبواب للجنة، بل أُشير إلى أن

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٢٣

جهنم: «لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ». (الحجر / ٤٤)

لكن الأحاديث الشريفة قد أشارت مراراً إلى أن للجنة ثمانية أبواب، وذلك إشارة إلى أن طرق الوصول إلى السعادة والتي تمثل الجنة مظهرها هي أكثر من طرق السقوط في هاوية البلاء والتي تمثل جهنم مركزها، وأن رحمة الله تسبق غضبه: «سبقت رحمته غضبه».

وقد جاء في حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «إن للجنة ثمانية أبواب». ثم تطرق إلى شرح هذه الأبواب فقال: «يدخل من بعضها الصديقون ومن بعضها يدخل الشهداء والصالحون، ومن بعضها يدخل محبوا أهل بيت العصمة عليهم السلام و...» (١).

وورد في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «أحسنوا الظن بالله واعلموا أن الجنة ثمانية أبواب، عرض كل منها مسيرة أربعين سنة» (٢).

هذا في حين تشير بعض الأحاديث الأخرى إلى وجود واحد وسبعين باباً للجنة. وورد هذا المضمون في حديث لأمير المؤمنين عليه السلام (٣).

ويحتمل أن تكون هذه الأعداد إشارة إلى كثرة الأبواب. إلا أنها ذكرت في أحد المواضيع على أنها ثمانية مقارنة بأبواب جهنم وذلك للدلالة على أن أسباب بلوغ السعادة تفوق أسباب الشقاء، بل ويشير موضع آخر إلى كثرة الأقسام الذين يدخلون مستقر الرحمة الإلهية، كل من طريقه الخاص.

و يتضح من التعابير المختلفة لهذه الروايات أن أبوابها تتناسب والأعمال الصادرة عن الصالحين والمخلصين.

جاء في حديث منقول عن الإمام الصادق عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله: «للجنة باب يقال له باب المجاهدين، يمضون إليه فإذا هو مفتوح وهم متقلدون بسيوفهم والملائكة ترحب بهم» (٤).

(١). بحار الأنوار، ج ٨، ص ١٢١، ح ١٢.

(٢). المصدر السابق، ص ١٣١، ح ٣٢.

(٣). المصدر السابق، ص ١٣٩، ح ٥٥.

(٤). اصول الكافي، ج ٥، ص ٢، ح ٢.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٢٤

وورد نفس هذا المعنى في نهج البلاغة ولكن بصياغة أخرى «إنَّ الجهاد باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أوليائه» (١).

وجاء أيضاً في حديث آخر عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «إنَّ للجنة باباً يُدعى الزيان لا يدخله إلا الصائمون» (٢).

ونقل عنه أيضاً (صلوات الله عليه): «إنَّ للجنة باباً يُقال له باب المعروف لا يدخله إلَّا أهل المعروف» (٣). كما أشارت أحاديث أخرى إلى «باب الصبر» و «باب الشكر» و «باب البلاء»، حتَّى ذكر أن «أبواب الجنة تحت ظلال السيوف» (٤) (وذلك إشارة إلى الجهاد).

و تنبغى الإشارة إلى أن بعض الأحاديث تفيد أن أبواب الجنة هم رجال الله العظماء، كما جاء فى الكافى عن الإمام الكاظم عليه السلام أنه قال: «إنَّ علياً باب من أبواب الجنة» (٥)، وهذه إشارة إلى أن كل من يتبع هذا الرجل العظيم فى سلوكه وإيمانه وعمله، يدخل الجنة.

يتضح ممَّا سبق معنى ومفهوم أبواب الجنة وكيفيتها أيضاً.

٢- المكتوب على أبواب الجنة

إنَّ المكتوب على باب كل بناية يعكس عادة المحتوى والهدف الحقيقى لتلك البناية، ويتبين من الروايات الإسلامية وجود كتابات على أبواب الجنة تستوجب التأمل، وأنَّ التمعن فى مدلولات تلك الروايات يضىء عمقاً أبعد على ما ذكرناه آنفاً بشأن معانى أبواب

(١). نهج البلاغة، الخطبة ٢٧.

(٢). بحار الأنوار، ج ٩٣، ص ٢٥٢، ح ١٧.

(٣). المصدر السابق، ج ٧١، ص ٤٠٨، ح ٣.

(٤). ميزان الحكمة، ج ٢، ص ١٠٤ (نقلًا عن تفسير در المنثور، ج ١، ص ٢٤٨).

(٥). اصول الكافى، ج ٢، ص ٣٨٩، ح ٢١.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٢٥

الجنة ويستخلص منها حقائق أكثر سعة وأهميَّة.

من جملة ذلك الحديث الوارد عن جابر بن عبد الله نقلًا عن النبي صلى الله عليه وآله: «مكتوب على باب الجنة لا إله إلَّا الله محمد رسول الله، على أخو رسول الله» (١).

ونظراً لكون الحديث أعلاه المذكوراً فى الكثير من كتب الشيعة والسنة وبعبارات متباينة، فهو يبيِّن مدى أهميَّة هذه الأسس الثلاثة فى دين الإسلام.

قال الإمام الصادق عليه السلام فى حديث له: «على باب الجنة مكتوب الصدقة بعشرة والقرض بثمانية عشر» (٢). فيشير هذا الحديث إلى أن أحد المبادئ الأساسية لدخول الجنة، هو الاهتمام بالمشاكل المالية للفقراء والمساكين فى المجتمع وتقديم العون لهم.

وأخيراً جاء فى حديث آخر شرح لما جرى فى المعراج ومشاهدة الجنة والنار فى ذلك السفر، فورد فيه أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «للجنة ثمانية أبواب ... على كل باب منها أربع كلمات كل كلمة خير من الدنيا وما فيها لمن يعلم ويعمل بها وللنار سبعة أبواب على كل باب منها ثلاث كلمات كل كلمة خير من الدنيا وما فيها لمن يعلم ويعمل بها فقال لى جبرئيل: اقرأ يا محمد على ما على الأبواب فقرأت ذلك؛ أما أبواب الجنة فعلى أول باب منها مكتوب:

لا إله إلَّا الله محمد رسول الله على ولى الله لكل شىء حيلة وحيلة العيش أربع خصال:

القناعة، وبذل الحق، وترك الحقد، ومجالسة أهل الخير، وعلى الباب الثانى مكتوب: لا إله إلَّا الله محمد رسول الله على ولى الله لكل شىء حيلة وحيلة السرور فى الآخرة أربع خصال مسح رؤوس اليتامى والتعطف على الأرامل والسعى فى حوائج المؤمنين والتفقد

للفقراء

(١) بحار الأنوار، ج ٨، ص ١٣١، ح ٣٤. ورد هذا الحديث أيضاً أو ما يشابهه في الكثير من كتب السنّة منهم الحافظ أبو نعيم الإصفهاني، في حلية الأولياء، ج ٧، ص ٢٥٦، والحافظ أبو بكر البغدادي في تاريخ بغداد، ج ٧، ص ٣٨٧، وابن المغازلي في كتاب مناقب أمير المؤمنين (مخطوط)، والحافظ السمعاني النيسابوري في مناقب الصحابة، والطبري في ذخائر العقبى (ص ٦٦)، وابن حجر العسقلاني في لسان الميزان، ج ٤، ص ٨١ ونقله جماعة آخرون (للاطلاع على مزيد من المعلومات يمكن مراجعته ج ٤ من كتاب احقاق الحق، ص ١٩٩ وما تلاها، وص ٢٨٠ وما تلاها وص ٣٨٧).

(٢) بحار الأنوار، ج ٨، ص ١٨١، ح ١٤٠ (ربّما يكون المراد من العدد ١٨ مرّة هو أنّ القرض يتضمن عملين من أعمال الخير وهما أولاً: «قضاء حاجة المؤمن» وثانياً: الحفاظ على حيثيته. ولكل واحد منها عشرة حسنة، وبما أنّه يسترد المبلغ لذلك تنقص منه حسنتان وتبقى له ثمانية عشر).

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٢٦

والمساكين، وعلى الباب الثالث مكتوب: لا إله إلا الله محمد رسول الله على ولي الله لكل شيء حيلة وحيلة الصعبة في الدنيا أربع خصال قلّة الكلام وقلّة المنام وقلّة المشى وقلّة الطعام، وعلى الباب الرابع مكتوب: لا إله إلا الله محمد رسول الله على ولي الله من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم والديه من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو يسكت، وعلى الباب الخامس مكتوب: لا إله إلا الله محمد رسول الله على ولي الله، من أراد أن لا يظلم فلا يظلم ومن أراد أن لا يشتم فلا يشتم ومن أراد أن لا يذل فلا يذل ومن أراد أن يتمسك بالعروة الوثقى في الدنيا والآخرة فليقل لا إله إلا الله محمد رسول الله على ولي الله، وعلى الباب السادس مكتوب: لا إله إلا الله محمد رسول الله على ولي الله من أراد أن يكون قبره وسيعاً فليكن المساجد ومن أراد أن لا تأكله الديدان تحت الأرض فليسكن المساجد ومن أحب أن يكون طرياً مطراً لا يبلى فليكن المساجد ومن أحب أن يرى موضعه في الجنة فليفرش المساجد بالبسط، وعلى الباب السابع مكتوب: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، على ولي الله، بياض القلب في أربع خصال: عيادة المريض، واتباع الجنائز، وشراء الأكفان، وردّ القرض، وعلى الباب الثامن مكتوب: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، على ولي الله، من أراد الدخول من هذه الأبواب فليتمسك بأربع خصال: السخاء، وحسن الخلق، والصدقة، والكف عن أذى عباد الله تعالى «١».

إنّ الأبعاد التربوية والإنسانية لهذا الحديث شاملة وواضحة، وتبين أنّ دخول جنان الخلد رهين بأيّ أعمال وصفات.

(١) بحار الأنوار، ج ٨، ص ١٤٥، ح ٦٧ (مع شى من التلخيص).

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٢٧

٥- سعة الجنة

تمهيد:

لقد قلنا مراراً أنّ العالم الذي نعيش فيه محدود وحقير جداً بالقياس مع العالم الآخر، وأنّ البعث لا يمكن مقارنته في السعة والشمول بالأطر الضيقة الموجودة في عالمنا، ولا أدلّ على ذلك من الآيات القرآنية والروايات الإسلامية التي تتحدث عن مساكن أهل الجنة وسعتها، ولا بدّ لمثل هذه النعم العظيمة أن توجد في عالم عظيم وهائل.

نعود إلى القرآن لنتمتع فيه وهو يصف هذه السعة والعظمة:

- ١- «سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ». (الحديد / ٢١)
- ٢- «وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ». (آل عمران / ١٣٣)
- ٣- «وَإِذَا رَأَيْتَ نَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا». (الدهر / ٢٠)

جمع الآيات وتفسيرها

كعرض السموات والأرض:

لقد قدرت الآية الأولى سعة الجنة بعرض السموات والأرض بقولها: «سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ».

ومن الواضح أن المقصود من «العرض» هنا ليس ما يقابل الطول بل المقصود هو المفهوم

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٢٨

اللغوي الذي يعنى السعة والامتداد، «١» وقد تحملت جماعة من المفسرين مشقة كبيرة للعثور على طول الجنة بسبب الخطأ الذي وقعوا فيه في فهم معنى «العرض».

وقال البعض أيضاً: إن لهذا التعبير بُعد كئئبي، لأن أوسع ما يمكن أن يتصوره ذهن الإنسان هو عرض السموات والأرض، وإلا فسعتها الحقيقية أكبر من هذا بكثير.

ومما يلفت الانتباه أن الحديث ابتدأ أولاً بالمغفرة الإلهية، ثم تطرق ثانياً إلى الجنة وما فيها من امتداد وذلك لأن المغفرة تعنى التطهر من الذنوب ونيل الاستحقاق في القرب الإلهي وهو ما يفوق الجنة أهميته، إضافة إلى أن الطهارة والمغفرة إذا لم تتحققا، فلن يكون هناك طريق للجنة.

الفعل «سابقوا» مأخوذ من مصدر «المسابقة» وهو إشارة إلى هذه المسألة التي تعنى أن للجنة والمغفرة أهمية بالغة تحتم على المؤمنين بذل الجهد لبلوغها كما يفعل الابطال عادة حين التسابق لبلوغ هدف معين.

ويفهم من هذا التعبير أيضاً أن هذه الدنيا لا تعدو أن تكون سوى حلبة سباق والهدف النهائي لها هو ذلك العالم.

ولكن على أى شىء يجرى التسابق؟ لقد وضع الكثير من المفسرين أصابعهم على مصاديق خاصة دون سواها، كأمثال التسابق نحو «الإسلام» أو «الهجرة» أو «الصلوات الخمس» أو «الجهاد» أو «التوبة».

إلا أنه من الواضح أن الآية تحمل مفهوماً أوسع يشمل جميع الطاعات والأعمال الصالحة، وأن ما ورد في كلام هذه المجموعة من المفسرين يمثل في الواقع مصداقاً واحداً من هذا المفهوم الواسع.

(١). قال الكثير من أصحاب اللغة أن «العرض» يقابل «الطول». لكنهم لم ينكروا أن العرض جاء أيضاً بمعنى السعة، ووفقاً لما ورد في كتاب «التحقيق في كلمات القرآن الكريم» المعنى الأصل للعرض هو وضع الشىء في مقابل النظر، ولما كان نظر الإنسان غالباً ما يقع على عرض الأشياء لا طولها، لذلك استخدمت هذه الكلمة في المعنى المذكور أعلاه، وعلى هذا فعرض السموات والأرض في الآية التي نبحتها يعنى كل وجودهما الذي يمكن مشاهدته.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٢٩

أمّا الآية الثانية فهي انعكاس - ولكن بتعابير أخرى لنفس هذه القضية، فهناك كان الكلام عن السباق وهنا عن المسارعة، وهناك أوضحت الآية أنّ سعة الجنّة بعرض السماء والأرض، وهنا حُذفت «كاف» التشبيه، وحلّت كلمة السموات محل كلمة السماء، وأشارت الآية هناك إلى أنّها - أي الجنّة - أعدت للذين آمنوا بالله ورسله، وهنا تقول الآية أنّها: «أعدت للمتقين» حيث نصّت على «وسارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ».

ولا يخفى أنّ «التسابق» يرتبط «بالمسارعة في العمل» وأنّ «المتقين» هم «الذين يؤمنون بالله ورسله» وذلك لأنّ التقوى هي انعكاس للإيمان الراسخ، وكلمة «السماء» تنطوي أيضاً على معنى الجنس الذي يشمل جميع السموات، إذن فالآيتان في واقعهما تنشدان حقيقة واحدة.

وهنا واجه الكثير من المفسّرين سؤالاً حول ما إذا كانت سعة الجنّة كعرض السموات والأرض، فلن يبقى هناك مكان للنار! ويمكن تبيان جواب هذا السؤال بالصورة الآتية، وهي أنّ العالم يومذاك سيكون أوسع بمئات عديدة من عالمنا هذا، لأنّه عالم أفضل وأكمل، وستكون سعة الجنّة فيه بسعة السماء والأرض في عالم اليوم، والنار في معزل عنه، لأنّ ذلك العالم أوسع من عالمنا اليوم في جميع الجوانب.

وهناك جواب آخر أيضاً عن هذا السؤال يتلخص في أنّ النور والظلام متزاحمان، وكذلك النعمة والنقمة في هذا العالم ولا تجتمعان طبعاً في مكان واحد، ولكن ذلك العالم لا يحفل بمثل هذا التزاحم، فربّما يوجد الاثنان معاً وهما يغطيان العالم في وقت واحد، وبما أنّهما مرحلتان من مراحل الوجود والكينونة فهما لا يتزاحمان مع بعضهما.

ويمكن الإتيان بمثال بسيط لتوضيح هذا المعنى في الأذهان وهو: ربّما تقوم إحدى محطات الإرسال الإذاعي ببث صوت رقيق وناغم على إحدى موجاتها وفي نفس الوقت ينبعث من محطة إرسال أخرى صوت مزعج وكرهه يصمّ الآذان مصحوباً بأنغام مرعبة،

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٣٠

وربّما تغطّي هاتان الموجتان جميع أنحاء الكرة الأرضية إلّا أنّهما غير مسموعتين من قبل الناس العاديين، والشخص الوحيد الذي يمكنه الاستماع هو الذي يستطيع تنظيم أمواج محطته مع الموجه الأولى إذ يمكنه عند ذاك الاستغراق في سماع النغمات الممتعة، أمّا الذين ينظمون أمواج محطتهم مع الموجه الثانية فيلقون العذاب والشقاء وكان الفريق الأول في الجنّة والثاني في جهنّم، وسنشرح هذا الكلام عمّا قريب بإذن الله.

وجاء في الآية الثالثة والأخيرة تعبير غني بخصوص عظمة الجنّة، وظاهر الآية يُخاطب به الرسول صلى الله عليه وآله: «وَأَذًا رَأَيْتَ تَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا» (١).

وطرحت في تفسير الملك الكبير آراء متعددة تبلورت بصورة رئيسية حول محورين:

فقال جماعة: إنّ الملك الكبير إشارة إلى سعة وعظمة الجنّة وما فيها من قصور وغرف وحدائق، ومن جملة ذلك ماورد في أحد التفاسير: «إنّ أدناهم منزلة ينظر في ملكه من مسيرة الف عام، وفي بعض الروايات لمسافة الف سنة» (٢).

واعتبره آخرون إشارة إلى العظمة المعنوية للجنّة والمقامات الرفيعة لأهلها، ومن جملة ذلك: أنّ الملائكة لا يدخلون عليهم إلّا بإذن منهم، ويؤدّون لهم التحية والسلام، أو أنّ الفناء والزوال لا وجود له هناك، أو أنّ لكل واحد منهم هناك سبعين باباً (٣).

وفسر جماعة آخرون «الملك» بمعنى الملكية، والبعض الآخر قالوا إنّّه يعني الحاكمية.

وقال آخرون في تفسير «الملك الكبير» أنّه يعني «القرب إلى الله والشهود المعنوي

(١). «تمّ» هنا ظرف مكان. و «رأيت» فعل لازم، وعلى هذا يكون معنى الآية: عندما تنظر هناك ترى نعمة كبيرة وملكاً عظيماً. وبناءً على التفسير الآخر يكون «رأيت» فعل متعدّد و «تمّ» اسم إشارة للبعيد ومفعول به، فيكون مفهوم الآية: (إذا رأيت ذلك المكان رأيت

نعيمًا وملكًا كبيرًا).

(٢). تفسير روح الجنان، ج ١١، ص ٣٥٢؛ و تفسير القرطبي، ج ١٠، ص ٣٦٦٩؛ و تفسير المعاني، ج ٢٩، ص ١٦١؛ و تفسير مجمع البيان، ج ٩ و ١٠، ص ٤١١.

(٣). تفسير البرهان، ج ٤، ص ٤١٥؛ و تفسير مجمع البيان، ج ٩ و ١٠، ص ٤١١.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٣١

لجلاله وجماله» ويمكن الجمع بين كل هذه المعاني، لعدم وجود أى تضاد بينها.

والذى يتضح من مجموع هذه الآيات أنه وكما أن النعم فى الجنة تستعصى على الوصف بسبب أهميتها واتساعها وتنوع أشكالها، فكذلك الحال بالنسبة لعظمة الجنة وسعتها.

فكلما يُقال فى هذا الباب يبقى قاصراً عن أداء الوصف المطلوب.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٣٣

٦- هل الجنة مخلوقة؟

تمهيد:

مع أن الوعد الإلهى حق، ولا تخلف فيه، وأن جزاء المؤمنين ومعاقبة وتعذيب الكافرين الذى وعد بهما الله سيتحقق قطعاً، لأن التخلف عن الوعد لا يكون إلا بسبب العجز والضعف أو بسبب الجهل والندم، وهذا ما لا يمكن أن توصف به ذاته المقدسة، وعلى هذا يمكن للجميع أن يرجوا وعده ويخشوا وعيده وما أنذر به من العقاب، إلا أن الآيات القرآنية - رغم ذلك - تؤكد أن الجنة والنار مخلوقتان الآن وهما موجودتان الآن وجاهزتان لاستقبال المستحقين! ويُستفاد أيضاً من الروايات المختلفة أن الأعمال الصالحة التى تصدر عن الناس هى التى توجد الجنة، وهذا يُعتبر دليلاً على وجود الجنة فى هذا الوقت، وسبب هذا التأكيد من أجل أن تدخل مسألة العقاب والثواب مرحلة أكثر جدية، ولأجل أن يشعر المحسنون بوجود جزاء لأعمالهم على مقربة منهم، وليتحسس المسؤولون عواقب أفعالهم. ونعود بعد هذا التمهيد الوجيز إلى القرآن ونتدبر فى الآيات الواردة فى هذا الصدد:

١- «وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ». (آل عمران / ١٣٣)

٢- «وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ».

(الحديد / ٢١)

٣- «فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ». (البقرة / ٢٤)

٤- «وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ». (آل عمران / ١٣١)

٥- «وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى .

(النجم / ١٣- ١٥)

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٣٤

٦- «يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ». (العنكبوت / ٥٤)

٧- «إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ * يَصِيلُونَهَا يَوْمَ الدِّينِ * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ». (الانفطار / ١٣- ١٦) ٨- «كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ

عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ». (التكاثر / ٥- ٧)

جمع الآيات وتفسيرها

اعدت للمتقين!

جاء في الآية الاولى والثانية بعد الإشارة إلى سعة الجنة وعظمتها وأنها كعرض السموات والأرض، إلى أنها «اعدت للمتقين».

قال كبار المفسرين عند تفسيرهم لهذه الآية أنه يُستفاد منها أن الجنة مخلوقة وموجودة الآن «١».

ومما يلفت الانتباه أن القرطبي أشار في تفسيره لهذه الآية قائلاً: «يرى غالبية علماء الإسلام أن الجنة مخلوقة الآن وموجودة، وأن صريح روايات المعراج والروايات الاخرى الواردة في «الصحيحين» وغيرهما يفيد هذا المعنى لكن المعتزلة رفضوا هذا المعنى ولم يعتقدوا به وقالوا: إنها تخلق بعد نهاية هذا العالم، وذلك لأنها دار الثواب وهنا دار التكليف، وهما لا يجتمعان» «٢». ولا يشكل استدلال المعتزلة هذا إلامغالطة لا أكثر ولا أقل، لأن الحديث هنا يدور حول خلقها حالياً لا دخول الناس فيها.

وتناولت الآيتان الثالثة والرابعة موضوع الوجود الحالي ل «جهنم» إذ جاء في إحداهما:

«فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ».

(١). تفسير مجمع البيان، ج ٢، ص ٥٠٤؛ و تفسير الكبير، ج ٩، ص ٤؛ و تفسير روح البيان، ج ٢، ص ٩٤؛ و تفسير روح الجنان، ج ٣، ص ١٨٨؛ و تفسير القرطبي، ج ٢، ص ١٤٦؛ و تفسير روح المعاني، ج ٤، ص ٥١؛ و تفسير المنار، ج ٤، ص ١٣٢.

(٢). تفسير القرطبي، ج ٢، ص ١٤٤٧.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٣٥

فتدل هذه الآيات على الوجود الحالي لجهنم أيضاً وقد صرح بهذا المعنى جماعة من المفسرين، رغم ما ورد بشأنها من تفسير، وما قيل في معنى «اعدت» فمع أنه فعل ماض إلا أنه يدل على المستقبل لأن المستقبل المؤكد يأتي أحياناً على صيغة الفعل الماضي، وهذا بخلاف ظاهر الآية، ومثل هذا التفسير غير ممكن بلا وجود شاهد وقرينة.

وتتحدث الآية الخامسة عن قصة معراج النبي صلى الله عليه وآله قائلاً: «وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى . لكن هل أن «جنة المأوى» هي جنة البرزخ أم أنها جنة الخلد؟

فالمفسرون يختلفون في الحكم على هذا الموضوع، فكلمة «المأوى ربما تستدعي إلى الذهن معنى الخلود رغم ما يفترضه كون هذه الجنة في بعض السموات من تداعي معنى الجنة البرزخية، لأن جنة الخلد تمتد على سعة الأرض والسموات.

وعلى هذا فالاستدلال بالآية الآنفه الذكر بشأن مخلوقية الجنة لا يتطابق إلامع التفسير الأول، ورجح جماعة من المفسرين هذا المعنى منهم: الطبرسي في مجمع البيان والعلامة الطباطبائي رحمه الله في الميزان.

وتتحدث الآية التالية عن احاطة جهنم بالكافرين بسبب اصرارهم وعنادهم إذ يقول القرآن الكريم: «يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ».

إنهم لم يؤججوا لأنفسهم جهنم الدنيا بشرتهم وذنوبهم وعصيانهم وظلمهم فحسب بل وحتى جهنم الآخرة قد أصبحت محيطة بهم لاسيما مع التنبه إلى بداية الآية التي تتحدث عن استعجال الكفار بالعذاب، ومن المناسب هنا القول: لماذا تستعجلون فإنكم الآن في جهنم إلاماً حجب هذا العالم تحول دون تأثيرها المباشر عليكم، لكن هذه الحجب ستزول يوم القيامة وتشاهدون حينها بأعينكم إحاطة جهنم بكم «١».

وطرح احتمال آخر في تفسير هذه الآية وهو أنها إشارة إلى يوم القيامة، والآية التالية لها والتي جاء فيها: «يَوْمَ يُعْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ». (العنكبوت/ ٥٥)

هي بمثابة القيد لإحاطة جهنم.

(١). رجح المرحوم العلامة الشعراني هذا المعنى في هامش تفسير روح الجنان، ج ٩، ص ٣٠.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٣٦

وبعبارة أخرى جعلت هذه الجملة إشارة إلى المستقبل المؤكد، فكما ذكرنا أن اللغة العربية تعبر عن المستقبل المؤكد «المضارع المتحقق الوقوع» بالحال حيناً وبالفعل الماضي حيناً آخر.

ويمكن الاستعانة بآيات سورة الانفطار لتأكيد التفسير الأول حيث جاء فيها: «إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ * وَمَأْتُمُ عَنْهَا بِغَائِبِينَ».

يتضح من هذا التعبير أن «الصلى» يكون يوم القيامة إلماً أن جهنم محيطة بالكافرين الآن، رغم أن الحجب تحول دون احتراقهم في الدنيا، لاسيما ما ورد في جملة: «وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ» فهو تأكيد مجدد على هذا المعنى (فتأمل).

وتخاطب الآية الآخرة منكري يوم القيامة قائلة: «كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَمَتَرُونَ الْجَحِيمَ» ثم تضيف مؤكدة: «ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ».

ولو أننا أخذنا معنى الآية كما هو في الظاهر (واعترنا «لو» شرطاً وجزاؤها «لترون الجحيم») لكانت تعنى: إن الذين لديهم «علم اليقين» يشاهدون جهنم وهم في هذا العالم، وهذا الكلام يستلزم وجودها حالياً.

أثار المفسرون ضجة في تفسير هذه الآية، واختار كل منهم طريقاً خاصاً وكأنهم في الغالب لم يتمكنوا من هضم هذا المعنى وهو إمكانية إشارة هذه الآيات إلى مشاهدة جهنم في الدنيا، ومن ثم مشاهدتها في الآخرة.

فنحن نرى عدم إمكانية اعتبار الآية مكرسة تماماً للآخرة وذلك لأن جميع الكفار والمجرمين يرون جهنم في القيامة وهذا مما لا يحتاج إلى الشرط، ولهذا اعتقد جماعة بحذف جزء الشرط هنا بل وادعى الفخر الرازي اتفاق المفسرين على هذا المعنى «١». ولكن من البديهي أن هذا الكلام مبالغ فيه فليس هناك اتفاق في الآراء بشأن هذه المسألة، وعلى أية حال فقد اعتبر جماعة من المفسرين أن المعنى يكون هكذا: «لو تعلمون علم اليقين لما ألهاكم التكاثر» «٢».

(١). تفسير الكبير، ج ٣٢، ص ٧٨.

(٢). تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٣٠.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٣٧

أما المجموعة الأخرى التي رأت عدم صحة الرأي القائل بحذف الجزاء، فإنها اعتبرت الرؤية علمية وقلبية، واستناداً إلى هذا سيكون معنى الآية: «لو أنكم علمتم علم اليقين لأيقنتم بجهنم».

من الواضح أن كلا التفسيرين الأول والثاني يخالف ظاهر هذه الآيات، لأن اعتبار الجزاء محذوفاً يخالف القاعدة وكذلك تفسير الرؤية بمعنى العلم «١».

وعلى هذا لو أننا أخذنا الآية كما هي من غير حذف أو تقدير، وفسرنا ألفاظها طبقاً لمعناها الحقيقي: فستكون النتيجة نفس التفسير المذكور آنفاً، وقد ارتضى بعض المفسرين هذا المعنى ولو بأعتباره واحداً من الاحتمالات على أقل تقدير.

ويلحظ في الروايات الإسلامية تعابير واضحة تتسق وهذا المعنى من جملتها القصة المشهورة لذلك الشاب المؤمن والتي وردت في كتاب الكافي وبصورة حديث منقول عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال «إن رسول الله صلى الله عليه وآله صلى بالناس الصبح، فنظر إلى شاب في المسجد وهو يخفق ويهوى برأسه، مصفراً لونه، قد نحف جسمه وغارت عيناه في رأسه، فقال له رسول الله صلى

الله عليه وآله كيف أصبحت يافلان؟ قال: أصبحت يارسول الله موقناً، فعجب رسول الله صلى الله عليه وآله من قوله وقال: إن لكل يقين حقيقة فما حقيقة يقينك؟ فقال: إن يقيني يارسول الله هو الذي أجزني وأسهر ليلي واطمأ هواجرى فعزفت نفسي عن الدنيا وما فيها حتى كأني أنظر إلى عرش ربي وقد نصب للحساب وحشر الخلائق لذلك وأنا فيهم وكأني أنظر إلى أهل الجنة، يتنعمون في الجنة ويتعارفون وعلى الأرائك متكئون وكأني أنظر إلى أهل النار وهم فيها معذبون مصطرخون وكأني الآن أسمع زفير النار يدور في مسامعي، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لأصحابه: هذا عبد نور الله قلبه بالإيمان، ثم قال له، أزم ما أنت عليه، فقال الشاب: ادع الله لي يارسول الله أن ارزق الشهادة معك فدعا له رسول الله صلى الله عليه وآله فلم يلبث أن خرج في بعض غزوات النبي صلى الله عليه وآله فاستشهد بعد تسعة نفر وكان هو العاشر» (٢).

(١). كلمة «الرؤية» تفيد معنى العلم أيضاً وذلك فيما لو تعدت إلى مفعولين، بينما هذه الآية ليست كذلك، وينبغي الالتفات إلى أن الآية التالية «ثم لترونها عين اليقين» يمكن أن تشير إلى القيامة.

(٢). اصول الكافي، ج ٢، ص ٥٣ باب حقيقة الإيمان، ح ٢ (مع بعض التلخيص).

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٣٨

وجملة «كأني الآن اسمع زفير النار يدور في مسامعي» دليل على وجود جهنم حالياً وأنه يراها بعينه عن طريق الإيمان الممتزج بالشهود.

ويستفاد من مجموع الآيات المذكورة أن الجنة والنار مخلوقتان وموجودتان حالياً ولو عُرِضَ هناك شك في دلالة بعض هذه الآيات لا يمكن - على أقل تقدير - التشكيك في دلالة المجموع، وخاصة الآيات التي تدور فيها كلمة «أعدت».

توضيحات

١- آراء العلماء المسلمين في خلق الجنة والنار

يعتقد أغلب العلماء المسلمين - كما أشرنا سابقاً - بأن الجنة والنار موجودتان في الوقت الحاضر واستدلوا ببعض الآيات المذكورة مسبقاً لتدعيم معتقدتهم هذا، لكن بعض علماء الكلام من أمثال أبي هاشم وعبد الجبار وهما من قدماء المتكلمين يعتقدون بأن الجنة والنار ليس لهما وجود حالياً وأنهما سيخلقان فيما بعد، وتأكيداً لرأيهم هذا استدلوا بالآية الشريفة: «كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ».

(القصص / ٨٨)

فلو كانتا موجودتين حالياً فأنهما ستعرضان للفناء في نهاية هذا العالم وعندئذ تتنافى هذه الآية مع الآية القرآنية القائلة: «اَكُلُّهَا دَائِمٌ».

(الرعد / ٣٥)

يقول العلامة الحلبي رحمه الله رداً على هذا الاستدلال: «إن الهلاك والفناء اللذين وردا في الآية يُراد منهما الخروج عن قابلية الاستفادة، ومن البديهي أن الناس وجميع المكلفين لو كُتِبَ عليهم الفناء لما عادت للجنة أي فائدة». والجواب الآخر عن هذا السؤال هو أن الجنة والنار غير موجودتين في ظاهر هذا العالم بل في باطنه، والهلاك والفناء يصدقان على ظاهر هذا العالم. (سيأتي عمّا قريب مزيد من التفاصيل بهذا الصدد).

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٣٩

وقال البعض أيضاً: إن الآية: «كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ» تشير إلى أن الله عز وجل وكل ما خلق بغير أسباب مادية وبلطفه ورحمته،

خالد، وأن كلمة «وجه الله» تشمل جميع هذه المعاني ومنها الجنة والنار وأن الفاني والهالك هو عالم المادة الذي جاء إلى الوجود بعقل مادية.

٢- الوجود الحالي للجنة والنار في الروايات الإسلامية

هناك الكثير من الأحاديث الإسلامية تدعم هذا المعنى وتؤكد أن الجنة والنار مخلوقتان حالياً، ومن جملة ذلك ماورد عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام حين سأله أحد أصحابه عن الجنة والنار هل هما مخلوقتان؟ قال عليه السلام: «وإن رسول الله صلى الله عليه وآله قد دخل الجنة ورأى النار لما عُرِج به إلى السماء». فقال له السائل: إن قوماً يقولون إنهما اليوم مقدرتان غير مخلوقتين. فقال عليه السلام: «ما أولئك منا ولا نحن منهم، من أنكر خلق الجنة والنار فقد كذب النبي وكذبنا» (١).

ووردت في الكثير من الروايات الإسلامية المتعلقة بمعراج النبي صلى الله عليه وآله إشارات إلى موضوع الجنة والنار ووجودهما حالياً وهي تشكل في الحقيقة تأكيداً لما ورد في الآيات التي تناولناها بالبحث وأشار إليها القرآن الكريم في سورة النجم أثناء الحديث عن معراج النبي صلى الله عليه وآله.

قال على بن إبراهيم في تفسير هذه الآية: «وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزَّلَهُ أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى... وَأَمَّا الرَّدُّ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ خَلْقَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فَقَوْلُهُ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى أَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى فَسِدْرَةُ الْمُنْتَهَى فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَجَنَّةُ الْمَأْوَى عِنْدَهَا» (٢).

وهناك روايات تؤيد هذا المعنى جاءت في مصادر أهل السنة ومصادر الشيعة بخصوص ولادة السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام جاء فيها أن نبي الإسلام صلى الله عليه وآله قال: «لما عرج بي

(١). بحار الأنوار، ج ٨، ص ١١٩، ح ٦.

(٢). تفسير على بن إبراهيم، ج ٢، ص ٣٣٥.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٤٠

إلى السماء أخذ بيدي جبرائيل عليه السلام فأدخلني الجنة فناولني من رطبها فأكلته فتحول ذلك نطفة في صلبى فلما هبطت إلى الأرض وقعت خديجة فحملت بفاطمة عليها السلام ففاطمة حوراء إنسيه فكلما اشتقت إلى رائحة الجنة شممت رائحة ابنتي فاطمة» (١).

جاء في تفسير قوله تعالى «كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا...».

(آل عمران / ٣٧)

وفي الكثير من المصادر الإسلامية الشيعة منها والسنية أن ذلك الطعام كان من فاكهة الجنة كان الله يعطيها لمريم في غير أوانها (٢). وهناك روايات إسلامية وردت بشأن فاطمة الزهراء عليها السلام منها أن الله تعالى قد أنزل عليها مائدة من الجنة وقد أكل منها النبي صلى الله عليه وآله وعلى عليه السلام وعدد من نساء النبي صلى الله عليه وآله والجيران وأن النبي صلى الله عليه وآله قد شبه ذلك بقصة مريم وقال: «الحمد لله الذي جعلك شبيهة بسيدة نساء بنى اسرائيل» (٣).

قد يُقال إن هذا الكلام يتعلق بالجنة البرزخية وهي الجنة التي تستقر فيها أرواح الشهداء بعد الشهادة وقبل القيامة، والجواب على مثل هذا الاعتراض هو أن الجنة البرزخية ليست جنة مادية بل هي ذات بعد مثالي والأرواح تنعم فيها على هيئة القوالب المثالية، ومن البديهي أن مثل هذه الجنة الخالية من الجانب المادي لن تحوى فاكهة نظير الفاكهة الموجودة في عالمنا هذا والتي يمكن أن يستفيد منها الجسم المادي، بل هي تشبه في بعض جوانبها المشاهد التي يراها الإنسان في المنام ويتلذذ بها.

(١). ورد مضمون هذا الحديث في الكتب الشيعية وفي الكثير من الكتب السنة مثل: ذخائر العقبى ص ٣٦ وص ٤٤؛ والمستدرک علی الصحیحین، ج ٦، ص ١٥٦؛ و تفسير الدر المنثور للسيوطي في تفسير آية «سبحان الذي اسرى بعبده».. وكتب اخرى (٢). تفسير العياشي؛ و تفسير البرهان؛ و تفسير نور الثقلين؛ وكذلك تفسير الدر المنثور ذيل الآية ٣٧ من سورة آل عمران. (٣). نقله كل من الزمخشري في الكشاف؛ والسيوطي في تفسير در المنثور في ذيل الآية ٣٧ من سورة آل عمران؛ والثعلبي في قصص الأنبياء في ص ٥١٣.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٤١

إضافه إلى هذا نقرأ في روايات عديدة أنّ الجنة حالياً في حاله بناء واتساع بواسطة أعمال الإنسان، فبعض أعمال الإنسان ينتج عنها غرس أشجار جديدة في الجنة، ولا تصح مثل هذه الأخبار إلّا إذا كانت الجنة موجودة حالياً، ومن جملة ذلك ماورد في الروايات التالية التي تحمل ابعاداً تربوية ريفية:

- ١- نقل أبو أيوب الأنصاري حديثاً عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «في ليلة المعراج مرّ بي إبراهيم الخليل عليه السلام وقال: مرّمتك أن يكثر من غرس الجنة فإن أرضها واسعة وتربتها طيبة قلت وما غرس الجنة؟ قال. لا حول ولا قوة إلّا بالله» (١).
 - ٢- جاء في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «من قال لا إله إلّا الله، غرس له شجرة في الجنة» (٢).
 - ٣- نقل الإمام الصادق عليه السلام حديثاً عن آبائه عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «من قال سبحان الله غرس الله له بها شجرة في الجنة، ومن قال الحمد لله غرس الله له بها شجرة في الجنة، ومن قال لا إله إلّا الله غرس الله له بها شجرة في الجنة، ومن قال الله أكبر غرس له بها شجرة في الجنة» فقام له رجل من قريش كان بين الحاضرين وقال له: اذن فشجرنا في الجنة أكثر، فقال له النبي صلى الله عليه وآله: «نعم ولكن إياكم أن ترسلوا عليها نيراناً فتحرقوها» (٣).
 - ٤- وجاء في حديث آخر عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «لما اسرى بي إلى السماء دخلت الجنة فرأيت فيها ملائكة بينون لبنه من ذهب ولبنه من فضة، وربما أمسكوا، فقلت لهم: مالكم ربما بنيتم وربما أمسكتم؟ فقالوا حتى تجيئنا النفقة! فقلت لهم: وما نفقتكم؟ فقالوا: قول المؤمن في الدنيا: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر، فإذا قال بنينا، وإذا أمسك أمسكنا» (٤).
- نختم هذا البحث بحديث للمرحوم العلامة المجلسي، فقد قال في نهاية هذه الرواية

(١). بحار الأنوار، ج ٨، ص ١٤٩، ح ٨٣.

(٢). ورد هذا الحديث في كتب كثيرة منها: المحاسن؛ ثواب الأعمال؛ بحار الأنوار عن اصول الكافي، ج ٢، ص ٥١٧ ح ٢.

(٣). بحار الأنوار، ج ٨، ص ١٨٦، ح ١٥٤.

(٤). المصدر السابق، ج ١٨، ص ٣٧٥، ح ٨٠ (بشيء من التلخيص).

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٤٢

المتعلقة بالجنة والنار والتي أوردها في بحار الأنوار: «إعلم أنّ الإيمان بالجنة والنار على ماوردت في الآيات والأخبار من غير تأويل من ضروريات الدين، ومنكرهما أو مؤولهما بما أولت به الفلاسفة خارج من الدين، وأمّا كونهما مخلوقتان الآن فقد ذهب إليه جمهور المسلمين إلّا شذوذه من المعتزلة والآيات والأخبار الواردة دافعة لقولهم مزيفة لمذهبهم، والظاهر أنه لم يذهب إلى هذا القول أحد من الإمامية إلّا ما ينسب إلى السيد الرضي» (١).

لعل منكرى الوجود الحالى للجنة والنار يتمسكون باعتراضين أحدهما عقلى والآخر نقلى، أما الاعتراض العقلى فهو أن إيجادهما قبل القيامة لغو وعبث، لأنه مامن أحد يدخل الجنة أو النار قبل حساب يوم القيامة ويبدو هذا شبيهاً لمن يبنى قبل الف عام داراً لمن يأتى بعد ألف عام، أليس هذا عبثاً؟!

والجواب على هذا الاعتراض واضح وهو أن هذه القضية- كما سبق من القول فيها- تترك تأثيراً تربوياً على الناس، فالله سبحانه وتعالى يريد أن يفهم الناس أن الثواب العظيم غير مؤجل ولا العقاب الأليم، بل كلاهما حاضر، ويبدو هذا الفعل شبيهاً بتهيئة مجموعة من الجوائز فى بداية العام الدراسى للطلبة الذين يحوزون فى نهاية العام على أعلى الدرجات بل وقد نضعها معروضه أمام أنظارهم ونقول لهم هذه المكافأة لمن يبذل أقصى الجهد فى الدراسة، أو يبدو شبيهاً بإعداد السجن والمشقة مقدماً للقتل والجناة. ومن البديهي أن مثل هذا العمل لا يُعدُّ عبثاً، بل له آثار عميقة أيضاً فى الجانب التربوي، ولكن بما أن الجنة والنار محجوبتان عن أهل الدنيا بسبب الحجب الموجودة حافظت الآيات القرآنية والأخبار النبوية فى هذا الصدد على ذلك التأثير. والاعتراض الآخر هو علمنا بأن «كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ» فى نهاية هذا العالم، ويمكن تقديم عدة إجابات على هذا الاعتراض. الأول: إن المقصود من «كل شىء» هو الدنيا بأجمعها وما يتعلق بها، أما معنى «الهلاك» فلا

(١). بحار الأنوار، ج ٨، ص ٢٠٥، ذيل ح ٦٢.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٤٣

يصدق على الجنة والنار فهما من الأشياء الباقية والمستثناة من الهلاك فوق العالم المادى أو فى باطنه، وهما خارج نطاق الدنيا الفانية. الثانى: إن «الوجه» المستثنى يشمل جميع الامور التى تنتسب إليه بقوة بحيث تعتبر داخله ضمن مفهوم «الوجه» وبما أن الجنة والنار هما مظهر رحمته وغضبه وموضع الثواب والعقاب فهما داخلتان ضمن الاستثناء طبعاً. الثالث: إن «الهلاك» يعنى انعدام المستفيدين من الشىء كالدائر العامرة التى يموت أهلها وتبقى بلا وارث، فهذه الحالة تسمى أحياناً بالهلاك.

٤- أين الجنة؟

يُطرح هذا السؤال جدياً مع أخذ قضيتين بنظر الاعتبار:

الاولى وهى أن الجنة موجودة الآن، (طبقاً للشواهد المتأنيئة من الآيات والروايات المذكورة سابقاً).

والثانية: إن عرض الجنة كعرض السماء والأرض (استناداً إلى صريح الآيات الواردة فى البحث السابق).

ولعل البعض يقول: أين يقع بالدقة مثل هذا الوجود الذى هو كعرض السماء والأرض؟

وكيف يمكن وجود مثل هذا الشىء دون أن تطاله حواسنا؟

وقد أجاب جماعة عن مثل هذا السؤال بقولهم: تفيد الآيات القرآنية أن الجنة موجودة فى السماء، فكما أشرنا سابقاً، إن عروج النبى صلى الله عليه وآله كان إلى السماء حيث أخبرت الآية الشريفة: «عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (وهذه النقطة هى أسمى وأرفع نقطة فى السماء).

(١)

(النجم/ ١٥)

رغم أن البعض اعتبرها الجنة البرزخية التى تصعد إليها أرواح الشهداء أو أنها جنة آدم،

(١). صرّح بذلك المرحوم الطبرسى فى تفسير مجمع البيان؛ والفخر الرازى فى التفسير الكبير؛ والعلامة الطباطبائى فى تفسير الميزان؛ والبرسوى فى تفسير روح البيان؛ فى ذيل الآيه ٢٢ من سورة الذاريات أو ذيل الآيه ١٥ من سورة النجم أو فى كليهما. نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٤٤

ولكن كلا هذين الاحتمالين يخالف معنى التعبير الظاهرى لجنّة المأوى وجاء فى قوله تعالى «وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ». (الذاريات / ٢٢)

إذ يعتقد كثير من المفسرين أنّ المقصود من «ماتوعدون» هى جنّة الخلد التى وعد الله بها عباده «١»، وقال جماعة إنّ هذا يشمل الجنّة والنّار رغم قول البعض أنّ الغرض هو الإشارة إلى العذاب الدنيوى الذى ينزل على الكفّار والجبابرة (كعذاب قوم نوح وقوم لوط وأمثالهما).

محضّية هذا الكلام هو أنّ جنّة الخلد تقع فى مارواء السماء الدنيا وسعتها كعرض السماء والأرض أو أنّها أوسع من ذلك بعدّة مرّات لعدم وجود ما هو أوسع من هذا البيان ليصف به القرآن سعة الجنّة، وعلى هذا الأساس فهى موجودة ومكانها فى السماء وسعتها كعرض السماء والأرض فى هذه الدنيا.

وقد طرح بعضهم عدّة مؤاخذات على هذا الرأى وهو إذا كانت الجنّة فوق الفلك التاسع فهذا يستلزم أنّها كائنة فى اللامكان واللّاحقة! وهى إنّ كانت واقعة فى طبقات السماء أو بين فلكين من هذه الأفلاك فهذا إمّا يستلزم التداخل أو انفصال الأفلاك عن بعضها، وكل هذا محال ولا يتسق مع التعبير القرآنى القائل: إنّ سعتها كعرض السموات والأرض.

ولا يخفى أنّ هذا الاعتراض قائم فى الحقيقة على أساس هيئته بطليموس والأفلاك التسعة التى يعتقد أنّها قائمة فوق بعضها كطبقات قشرة البصل ولا يوجد بينها أى فاصل ولكن بعد أن ثبت الآن بالدلائل القطعية بطلان هذه العقيدة، وحتى أنّ بطلانها فى بعض الحوانب ثبت حسيّاً، لم يُعَد هناك أى دليل تستند عليه مثل هذه الاعتراضات ولا يوجد هناك أى مانع من وجود عوالم كبيرة أخرى أوسع بكثير من سمائنا وأرضنا هذه فوق هذه النجوم الثابتة والسيارة وفوق المجرات، وعليه فلا تتعارض مع مفهوم الآيه الآنفه الذكر أيضاً.

(١). صرّح بذلك المرحوم الطبرسى فى تفسير مجمع البيان؛ والفخر الرازى فى التفسير الكبير؛ والعلامة الطباطبائى فى تفسير الميزان؛ والبرسوى فى تفسير روح البيان؛ فى ذيل الآيه ٢٢ من سورة الذاريات أو ذيل الآيه ١٥ من سورة النجم أو فى كليهما. نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٤٥

النظرية الأخرى تقوم على رأى جماعة من الفلاسفة الذين ينكرون مادّية الجنّة والنّار، وعلى هذا ذهبوا إلى عدم حاجة الجنّة إلى المكان المادى بل هى فى ماوارء عالم الحس والمادّة، وقد تحدّث صدر المتألّهين عن هذا الموضوع فى كتاب الأسفار قائلاً:

«واعلم أنّ لكل نفس من نفوس السعداء فى عالم الآخرة مملكة عظيمة الفسحة، وعالمًا أعظم وأوسع ممّا فى السماوات والأرضين، وهى ليست خارجة عن ذاته بل جميع مملكته ومماليكه وخدمه وحشمه وبساتينه وأشجاره وحوره وغلماينه كلها، قائمة به، وهو حافظها ومنشئها بإذن الله تعالى وقوته، ووجود الأشياء الاخرية وإن كانت تشبه الصور التى يراها الإنسان فى المنام أو فى بعض المرايا لكن يفارقها بالذات والحقيقة، أمّا وجه المشابهة فهو أنّ كلا منها بحيث لا يكون فى موضوعات الهولى ولا فى الأمكنة والجهات لهذه المواد، وأن لا تراحم بين أعداد الصور لكل منهما وأن شيئاً منهما لا يزاحم شيئاً فى هذا العالم فى مكانه أو زمانه، فإنّ النائم ربما يراه فى يقظته هذا العالم، وهى مع كونها مغايرة لما فى الخارج بالعدد لكن لا تراحم ولا تضايق بينها.. وأمّا وجه المباينة فهو أنّ نشأة الآخرة والصور الواقعة فيها قوية الجوهر شديدة الوجود عظيمة التأثير إلذاذاً وإيلاماً، وهى أقوى وأشد وأكدر، وأقوى من موجودات

هذا العالم، فكيف بالصور المنامية والمرآتية، ونسبة النشأة الآخرة إلى الدنيا كنسبة الانتباه إلى نشأة النوم» (١).

وبالرغم من استخدامه لتعابير مختلفة بشأن المعاد فليس من السهل الحكم على رأيه من خلال هذه التعابير، لكن من الواضح أن هذا التفسير للمعاد لا- يتطابق مع ظاهر بل مع صريح القرآن، بل يتناسب مع آراء الذين يعتبرون المعاد روحياً فقط، فقد ورد في النص السابق أن الجنة في داخل ذات الإنسان وفي نفسه وروحه وكل شيء هناك له صورة مثالية، وكل شيء روحاني، بل وأن الموجد له هي روح الإنسان!

لقد ذكرنا فيما سبق عشرات الآيات التي تثبت جسمانية المعاد، وذلك ضمن عدّة مجاميع وإمكان كل مجموعة أن تكون جواباً على مثل هذا الرأي.

(١). الاسفار الأربعة، ج ٩، ص ١٧٦ الفصل ١٠.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٤٦

أما الرأي الثالث الذى يمكن طرحه فى هذا الصدد فهو أن كلاً من الجنة والنار تقعان فى باطن هذا العالم، وحجب عالم الدنيا تحول دون رؤيتهما، لكن أولياء الله بإمكانهم مشاهدتهما، وقد استطاع النبى الكريم صلى الله عليه وآله أثناء معرجه حيث صار بعيداً عن ضجيج سكان هذا العالم، أن يرى بعينه الملكوتية قطعة من الجنة فى العالم الأعلى وحتى أن أولياء الله قد يتاح لهم بين الفينة والأخرى أثناء بعض النفحات مشاهدة ذلك وهم على الأرض!

وقد تكون الآيات التالية إشارة إلى هذا المعنى «أَنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ».

(العنكبوت / ٥٤)

وقال: «أَنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَأَنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ». (الانفطار / ١٣-١٤)

وكذلك: «كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ». (التكاثر / ٥-٦)

يمكن تشبيه وجود الجنة فى باطن هذا العالم بماء الورد فى الورد، فمع أن ماء الورد مادة وكذلك الورد لكن ذلك لا يمنع من وجود أحدهما مخفياً داخل الآخر فلا يشاهد بالعين.

والتشبيه الآخر الذى يمكن الإتيان به لتقريب الموضوع إلى الأذهان، وهو تشبيه سبق ذكره حيث توجد أشياء كثيرة فى عالم المادة هذا لا يتيسر لنا إدراكها فى الظروف الاعتيادية، وكثير منها موجود فى داخل هذا العالم المادى فعلى سبيل المثال توجد فى فضاء هذا العالم أمواج إذاعية عديدة تبثها فى الفضاء محطات الاذاعة العالمية، وتصل أحياناً بواسطة الأقمار الصناعية إلى جميع أرجاء العالم، وتوجد أنواع متعددة من هذه الموجات فى كل بيت، لكن أحداً لا يشعر بها، ولعل بعضها يحمل أنغاماً وأصواتاً جذابة ورائحة، وقد يحمل بعضها الآخر أصواتاً مزعجة وصفارات انذار وأنغاماً تشمئز منها النفوس، وكذلك محطات التلفزة، فقد تبث صوراً ومشاهد جميلة وجذابة وتربوية فيما تبث محطات اخرى مشاهد الحرب والدمار والخراب والمذابح والحرائق والجرائم، وكل هذه الصور والمشاهد والأصوات المختلفة موجودة فى عالمنا المادى هذا وفى هذا الفضاء

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٤٧

المحيط بنا، وقد اصطنعت لنفسها جنةً وناراً فى داخل هذا العالم، فيقوم بعض الناس بتنظيم أجهزة الاستلام لديهم مع الأصوات الجذابة والأنغام المريحة والمشاهد الممتعة والمفيدة، بينما ينظم البعض الآخر أجهزة الاستلام- اختياراً أو اضطراراً- مع الأنغام والأصوات والمشاهد المعاكسة للأولى فيعيش الفريق الأول أجواء عالم ممتع، والفريق الثانى يعيش فى عالم من العذاب والأذى وهذه كلها كامنة فى قلب هذا العالم المادى.

نأمل عدم حصول الالتباس فى الفهم، فنحن لا نقول أبداً إن الجنة والنار هكذا تماماً بل نقول ما المانع فى أن يكون فى عمق هذا

العالم عالم آخر أو عوالم اخرى ونحن لا- نتمكن فى الظروف الحالية من الاطلاع عليها مطلقاً لوجود الحجب المتعددة الحائلة بيننا وبينها؟

إنّ من أوتى القدرة على إزاحة هذه الحجب فيماكانه رؤية تلك العوالم حتّى وإن كان هو فى هذا العالم، (فتأمل). وقد اتيح للنبي الكريم صلى الله عليه و آله أثناء معراجه إلى السماء- حيث خفّت ضجّة عالم المادّة، وتتقلصت الهموم والمشاكل وتتعاظمت مظاهر جلال الله وجماله- ازاحة الحجب ومشاهدة جوانب من العالمين (الجنّة والجحيم) الواقعتين داخل هذا العالم. وليس معنى هذا أنّ الرسول الكريم صلى الله عليه و آله أو سائر أولياء الله لا يتمكّنون من مشاهدة الجنّة والنار وهم على الأرض، بل إنّ هذا قد حصل أيضاً فى بعض الأوقات على الأرض كما يتبين من بعض الروايات.

جاء فى الحديث الذى نقله الراوندى فى «الخرائج» أنّ أصحاب الإمام الحسين عليه السلام حين أكدوا له وفاءهم الكامل له وامتنعوا عن مغادرة الميدان ونقض البيعة: «دعا لهم بالخير وكشف عن أبصارهم فرأوا ما حباهم الله من نعيم الجنان وعرفهم منازلهم فيها» (١). ويروى مؤلف كتاب «مقتل الحسين» بعد ذكره لهذه الرواية: «وليس ذلك فى القدرة الإلهية ولا فى تصرفات الإمام بغريب، فإنّ سحره فرعون لما آمنوا بموسى عليه السلام وأراد فرعون قتلهم آراهم النبي موسى منازلهم فى الجنّة» (٢).

(١). الخرائج للراوندى طبقاً لما ورد فى «مقتل الحسين» للمقرم، ص ٢٦١؛ وبحار الأنوار ج ٤٤، ص ٢٩٨.

(٢). أخبار الزمان للمسعودى، ص ٢٤٧ (استناداً إلى مقتل الحسين، ص ٢٦١).

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٤٨

ورد فى بعض الروايات أيضاً أنّ الإمام الصادق عليه السلام أرى بعض أصحابه حوض الكوثر (١). وهذه النظرية حول مكان الجنّة تحل ضمناً مسألة سعتها التى هى كعرض السموات والأرض وترد على بعض اعتراضات المتكلمين بشأن ضرورة التداخل.

وعلى أيّة حال فإنّ ما طرحناه بخصوص وجود الجنّة والنار فى باطن هذا العالم لا يتجاوز النظرية، والاعتقاد به يحتاج إلى مزيد من الدراسة والأدلة والشواهد.

(١) بحار الأنوار، ج ٦، ص ٢٨٧، ح ٩.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٤٩

٧- درجات الجنّة

تمهيد:

تدل العبارات القرآنية المختلفة على أنّ حدائق الجنّة متعددة ومتنوعة، ولو أمعنا النظر فى الروايات الواردة فى تفسير الآيات النازلة فى هذا الصدد لاستخلصنا منها أنّها تحدد درجات ومنازل أهل الجنّة وتضع كل فئة منهم فى المكانة اللائقة بهم ضمن هذه الحدائق، كل شخص حسب أفضلية وسمو مقامه.

فهناك- مثلاً- حديث وارد عن النبي صلى الله عليه و آله فى تفسير الآيات من سورة (الرحمن) الواردة بخصوص حدائق الجنّة أنّه قال صلى الله عليه و آله: «جنتان من ذهب للمقربين، وجنتان من ورق لأصحاب اليمين» (١).

ومن الواضح أنّ استعمال كلمتى الذهب والفضة فى هذا الحديث يشير إلى تفاوت درجتى هاتين الجنتين.

مع هذه اللوحة التمهيدية نعود إلى آيات القرآن الكريم لنشاهد، ماذا تقول عن ذلك:

١- «قُلْ أَذَلِكْ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا».

(الفرقان / ١٥)

٢- «اولئِكَ لَهُمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ». (الكهف / ٣١)

٣- «أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

(السجدة / ١٩)

٤- «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا».

(الكهف / ١٠٧)

(١). تفسير در المنثور، ج ٦، ص ١٤٦.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٥٠

نفحات القرآن ج ٦ ٢٩٩

٥- «وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * اولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ». (الواقعة / ١٠-١٢)

٦- «وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ * ذَوَاتَا أَفْنَانٍ * وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٍ * مُدْهَمَّتَانِ». (الرحمن / ٤٦-٤٨-٤٢-٦٤)

جمع الآيات وتفسيرها

جنة أم جنان؟

تحدث الآية الاولى عن العذاب الأليم لأصحاب النار وتقرن حالهم بالمنزلة الرفيعة لأصحاب الجنة: «قُلْ أَذَلِكْ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا».

«جنة الخلد»: وردت مرّة واحدة في القرآن الكريم وهي تشير إلى خلود الجنة.

يقول الراغب في «المفردات»: «الخلود» بمعنى بُعد الشيء عن الفساد وبقاؤه على حاله، وقال صاحب «مقاييس اللغة»: إن الكلمة تعنى أساساً الثبات والملازمة، وفسرهما صاحب «مصباح اللغة» بمعنى الإقامة، رغم أن هاتين الكلمتين - أي جنة الخلد - جاءت أحدهما مضافة إلى الأخرى فإتھما تفيضان معنى الوصف، ويبدو أنه وصف للجنة بشكل عام، لأن كل نعمة فيها خالدة، وكذلك أهلها فهم خالدون أيضاً، وعلى هذا فهي لا تختص بجانب من الجنة دون الجانب الآخر، لأن هذا الوصف شامل لكل حدائق الجنة.

واعتبر بعض أصحاب اللغة مثل ابن منظور في «لسان العرب»: «الخلد» واحداً من أسماء الجنة، ولا يستبعد أن تكون آراؤهم أيضاً بياناً لصفة الدوام والبقاء التي تحوّلت بالتدرّج إلى اسم من أسماء الجنة.

وفي الآية الثانية نلاحظ تعبيراً آخر، فبعد أن تؤكد الآية على عدم ضياع أجر المؤمنين الصالحين، تبشّرهم أن: «اولئِكَ لَهُمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ».

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٥١

وردت كلمة «جنات عدن» إحدى عشرة مرّة في القرآن الكريم «١» وهذا التكرار يفيد الأهمية في المواصفات المتعلقة بالجنة.

و «الجنات»: جمع (جنة) وهي الحدائق الكثيرة في الجنة، و «عدن» تعنى في الأصل الإقامة حسب ما ذكر صاحب «مقاييس اللغة» أو

بمعنى الثبات والاستقرار حسب ما أفاد به كتاب المفردات، وهذا يتضمن إشارة إلى خلود الجنّة، لا إلى حدائق هذه الدنيا التي تتعرض أشجارها لتساقط الأوراق في فصل الخريف وقد تبيس وتموت بعد عدّة سنوات، وقد تنقطع عنها مصادر المياه، أو قد تتعرض ثمارها للآفات أو تجف جذوعها من الداخل أو قد تقضى عليها الرياح الحارّة اللاهبة أو القارصة، بل وقد تتعرض للصواعق فتتحول إلى رماد، وخالصة القول أنّها عرضة لألف آفة وبلاء بينما أشجار الجنّة باقية دوماً وحدائقها خضراء غناء لا يعترتها اليبس ولا المرض ولا تساقط الأوراق أو الذبول.

قال بعض المفسرين: إنّ المقصود من (جنّات عدن) وسط الجنّة، وهي في الحقيقة جنّة من جناتها إلّا أنّ لها من السعة ما يجعل كل جزء من اجزائها وكأنّه جنّة قائمة بذاتها وقد ذكرت على هيئة الجمع «٢»، لكن التأمّل فيما سبق من القول يجعل مثل هذا المعنى بعيداً. وأبرزت الآية الثالثة نفس هذا المعنى ولكن بعبارات أخرى فهي تقول: «أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

«المأوى: مشتقة من كلمة «أوى» على وزن (قوى)، قال الراغب في المفردات: إنّها تعني انضمام الشئ إلى شئ آخر (ثم أصبحت تعني الإقامة عند الشئ).

وقال صاحب مقاييس اللغة: إنّ أحد معانيها هو «التجمّع» وهذا يستلزم السكن عند الشئ، والمأوى يعني باختصار: المكان والمسكن والمقر الذي يسكنه الإنسان ليلاً أو نهاراً ويستريح فيه، وعلى هذا فـ «جنّات المأوى تشير إلى الخلود والدوام والاستقرار في الجنّة

(١). في سور، التوبة، ٧٢؛ الرعد، ٢٣؛ النحل، ٣١؛ الكهف، ٣١؛ مريم، ٦١؛ طه، ٦٧؛ فاطر، ٣٣؛ ص، ٥٠؛ غافر، ٨؛ الصف، ١٢؛ البينة، ٨.

(٢). تفسير مجمع البيان، ج ٦، ص ٤٦٧؛ وتفسير القرطبي، ج ٦ ص ٤٠١٣.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٥٢

ويُستشف منها أيضاً معنى الهدوء والسكينة.

قال البعض: إنّ هذا التعبير إشارة لطيفة إلى هذه الحقيقة وهي أنّ دار الدنيا ليست مأوى الإنسان (أى ليست دار مقره النهائي)، بل هي ممر يجتازه، أو كما وصفها الرواية المشهورة «الدنيا قنطرة» فهي ليست محل استقرار وثبات.

ولا يخفى أنّ مثل هذا الوصف ينطبق على جميع الجنّة، ومع ذلك فقد نُقل عن ابن عباس أنّه قال: حدائق الجنّة ثمان: إحداها جنّة المأوى وسواها هي «دار الجلال» و «دار القرار» و «دار السلام» و «جنّة عدن» و «جنّة الخلد» و «جنّة الفردوس» و «جنّة النعيم».

سبق أن قلنا أنّ «النزل» تعني أول ما يُستقبل به الضيف (كما يُستقبل اليوم مثلاً بالعصير أو الماء البارد أو الشاي). وإذا كان الأمر كذلك فهو يدل على أنّ جنّات المأوى رغم سعتها وعظمتها - فهي أدنى درجات الاستقبال لعباد الله المخلصين! وعلى هذا فإنّ الاستقبال والتكريم الأساس لهم هي تلك النعم التي تتضاءل أمامها جنّات المأوى وهي ليست سوى قرب الإله ولقائه وحنّة معرفته جلّاله وجماله.

التعبير الآخر الذي استخدمه القرآن الكريم لوصف مستقر هذه الرحمة الإلهية الكبرى هو «جنّات الفردوس» إذ يقول القرآن في هذا الصدد: «أَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا».

هناك اختلاف بين المفسرين وأصحاب اللغة في أصل كلمة (فردوس) هل هي رومية أم سريانية أم نبطية أم حبشية أم عربية؟ كما اعتبرها البعض فارسية الأصل تحوّرت إلى «براديزس» و «براديز» ثم إلى «فردايس» و «فردوس».

وقد ذكروا معاني عديدة لهذه الكلمة؛ منها: الحديقة والبستان، وحدائق العنب والحدائق الشاملة لكل الأزهار والثمار، والحدائق المغطّة بالأشجار والتي تحوى الكثير من المياه، وأحياناً الحاوية للكثير من العنب.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٥٣

فأما الذين عدّوها عريبية الأصل فقد قالوا: إنها مأخوذة من مصدر «الفرْدَسَةُ» وهو بمعنى السعة واستعملت هذه الكلمة التي وردت في القرآن مرتين فقط (في سورة الكهف/ ١٠٧ وسورة المؤمنون/ ١١) بمعنى الجنة، ويُستشف من الروايات المنقولة عن النبي صلى الله عليه وآله وأئمة أهل البيت عليهم السلام أن هذا الاسم يختص ببقعة ممتازة جداً من الجنة. جاء في حديث عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «إذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس، فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن، ومنها تفجر أنهار الجنة» (١).

ونقل عن الإمام على عليه السلام أنه قال: «لكل شيء ذروة وذروة الجنة الفردوس وهي لمحمد وآل محمد» (٢). وأخيراً ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال في تفسير الآية: «إنها نزلت بحق أبي ذر وسلمان والمقداد وعمار بن ياسر وهي: «جعل الله لهم جنات الفردوس نزلاً» أي مأوى ومنزلاً» (٣).

ومن الواضح عدم وجود أي تضاد بين الحديث الثاني والثالث، لأن المؤمنين من أصحاب الدرجات الرفيعة من أمثال أبي ذر وسلمان والمقداد وعمار وهم التابعون المخلصون لمحمد وآل محمد عليهم السلام يعدّون في الحقيقة من زمريتهم. ولكن ما معنى «نزلاً» هنا؟ اعتبرها البعض بمعنى دار النزول ومحل السكن كما أشار إلى هذا حديث الإمام الصادق عليه السلام. وقال بعض المفسرين: إن النزول يعني وسائل الاستقبال أو أول ما يستقبل به الضيف، ولا مانع أيضاً من جمع هذين المعنيين. التعبير الآخر الذي ورد في وصف حدائق الجنة هو ما جاء في سورة الواقعة «جنات النعيم» إذ يقول تعالى في كتابه الكريم: «وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ».

(١). صحيح البخاري؛ وصحيح مسلم (نقلًا عن كتاب روح المعاني، ج ١٦، ص ٤٧).

(٢). تفسير البرهان، ج ٢، ص ٤٩٥، ح ٢.

(٣). استناداً إلى ما نقله تفسير الميزان عن تفسير القمي، ذيل الآية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٥٤

«الجنات»: جمع «جنة» ولعل استعمال الجمع هنا لبيان أن لكل واحد من أصحاب الجنة جنة خاصة به فيكون جمعها جنات، والنعيم هو جمع «نعمة» لأن الجنة تحوى دوماً أنواع النعم المادية والمعنوية، لا كمثل حدائق الدنيا التي تكون أحياناً مدعاة للتعب والمعاناة والألم وأحياناً سبباً للراحة والنعمة، إضافة إلى أن حدائق الدنيا تضم كل واحدة منها نعمة واحدة لا جميع النعم.

وما يسترعى الانتباه هنا هو أن الله ذكرهم أولاً، فقال: «أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ» ومن ثم انتقل إلى ذكر «جنات النعيم» ومن الواضح أن جنات النعيم وبكل ما تزخر به من نعمة وعظمة لا تمثل في قبالة القرب الإلهي إلا قطرة في بحر.

وقد تكررت هذه الكلمة (جنة النعيم، وجنات النعيم)، عشر مرات في الآيات الشريفة والتكرار دليل على التأكيد والأهمية (١).

وتجدر الإشارة إلى أن الإنسان كلما اقترب في هذه الدنيا من مراكز القوى ازداد قلقه، لأنه يعيش دوماً في حالة من الوجل والهواجس والرعب خوفاً من تغيير آراء أصحاب القوة بشأنه فيسقط ويتعرض لأشد أنواع العقوبة والتنكيل، ولهذا يحذر أهل المعرفة وكبار الشخصيات من «التقرب إلى السلطان»، وأمّا القرب من الإله فعلى العكس من هذا تماماً، فلا يشعر بغير الاطمئنان واللذة الروحية والمعنوية، و«جنات النعيم».

وهناك قضية تستدعي الدقة أيضاً وهو ماورد في الروايات العديدة التي جاءت في ذيل الآية الشريفة: «ثُمَّ لَتَسِيلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ».

(التكاثر/ ٨)

حيث فُسر «النعيم» ب «نعمة الولاية» (٢)، ومن هذا المنطلق فمن المحتمل أن جنات النعيم هي جنة الولاية، ولاية الله وأوليائه، ومحبتهم والاستضاءة بنورهم المعنوي.

(١). المائدة، ٦٥؛ يونس، ٩؛ الحج، ٥٦؛ الشعراء، ٨٥؛ لقمان، ٨؛ الصافات، ٤٣؛ الواقعة، ١٢-٨٩؛ القلم، ٣٤؛ المعارج، ٣٨.

(٢). للحصول على مزيد من المعلومات عن هذه الأحاديث راجع كتاب بحار الأنوار، ج ٢٤، الباب ٢٩، ص ٤٨ وماتلاها.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٥٥

أما هل أن «جَنَاتِ النعيم» تشمل كل الجنة أم تُشير إلى بقع مهممة منها؟ فهناك احتمالان، فمن جهة، قد يكون الوعد الإلهي للمقربين دليلاً على الاحتمال الثاني لاسيما وأن تعبيراً مشابهاً لهذا قد ورد في من نفس هذه السورة: «فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ». (الواقعة / ٨٨-٨٩)

المجموعة السادسة والأخيرة من هذه الآيات تشير باختصار إلى أربع روضات من رياض الجنة مع عدة خصائص، كل اثنين منهما على حدة، إذ قال الكتاب الكريم: «وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ» «ذَوَاتَا أَفْنَانٍ» «وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانٍ» «مُدْهَامَّتَانٍ».

كانوا يتصوّرون أن هذه الحدائق الأربع كلها لجميع المؤمنين، وهذا التعدد من أجل إيجاد التنوع لأن طبيعة الإنسان تميل إلى التنوع، لكن لهجة الآيات وكذلك الروايات الواردة في تفسيرها تظهر لنا بوضوح أنها- أي تلك الحدائق- من نصيب فئتين مختلفتين وعبارة «من دونهما» تعطي معنى الأدنى وعلى هذا الترتيب فروضتان من رياض الجنة من نصيب «المقربين» واثنان أدنى منهما من نصيب «أصحاب اليمين» وهذا في الحقيقة إشارة إلى درجات ومراتب أهل الجنة، وهذا ما ينبغي أن يكون وذلك لأن أهل الجنة ليسوا على سواء في المرتبة والدرجة.

لقد وصف النبي صلى الله عليه وآله هذا الاختلاف بعبارات جميلة في حديث ورد عنه إذ قال: «جَنَّتَانِ مِنْ فَضَّةٍ آنَيْتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنَيْتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا» (١).

وورد نفس هذا المعنى في حديث أكثر صراحة عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «لَا تَقُولَنَّ وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ، وَلَا تَقُولَنَّ دَرَجَةً وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ:

درجات بعضها فوق بعض، وإنما تفاضل القوم بالأعمال» (٢).

(١). تفسير مجمع البيان، ج ٩، ١٠، ص ٢١٠.

(٢). المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٥٦

وذكر المفسرون احتمالات متعددة لسبب حصول كل واحدة من هاتين الفئتين على جنتين، وهذه الاحتمالات لا تتعارض فيما بينها ولعلها ملخصة في مفهوم الآيه، ومن جملة ذلك أن إحداها تشير إلى الجنة الروحية والآخرى تشير إلى الجنة المادية أو أن لكل واحد من أهل الجنة جنتين: إحداها عامّة لمقابلة الاصدقاء، والآخرى خاصة لمعاشره الزوجات.

أو أن تكون إحداها كثواب على العقيدة والإيمان والآخرى جزاءً للعمل الصالح.

أو أن تكون إحداها جزاءً للعمل والآخرى فضل من الله.

أو ربّما إحداها جزاءً على طاعة الأوامر والثانية ثواباً على اجتناب الذنوب!

ويمكننا أن نستخلص من مجموع ما ذكر أن للجنة مقامات ودرجات ومراتب ويمكن اعتبار كل واحدة منها جنة، ولا- شك أن اختلاف درجات أولياء الله في الدنيا يستوجب اختلاف مراتبهم في الجنة، فجنة المقربين تختلف عن جنة أصحاب اليمين، وجنة الذين يحتلون الدرّى في الورع والإيمان والمعرفة والعمل الصالح تختلف عن جنة من هم في مراتب أدنى

ورغم عدم قدرة أذهاننا على استيعاب مواصفات أي منهما، إلّا أننا نعلم قطعاً أنّهما عالمان مختلفان، ولعل أهل المراتب الأدنى في الجنة

لا يتمكّنون من معرفته أحوال العوالم الأرفع مكانة!

ينبغي الإشارة إلى أنّ كلمة الجنّة قد وردت في القرآن الكريم أحياناً بصيغة المفرد الذي يحمل مفهوم اسم الجنس ويشمل جميع الحدائق والرياض في الجنّة، وأحياناً أخرى بصيغة الجمع وهو ما يشمل رياض الجنّة ودرجاتها ومراتبها المختلفة، وأحياناً بصيغة التثنية (جنّتان) وهو ما دلّ على درجتين مختلفتين، وقد سبق لنا شرحه.

ويتحدّث القرآن في بعض الأحيان عن خلود الجنّة ويستخدم عبارات من أمثال

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٥٧

«جنّات عدن» أو «جنّة المأوى و «جنّة الخلد»، ويتناول في أحيان أخرى تبيان نعمها المادية والمعنوية المختلفة ويعبر عنها ب «جنّة النعيم»، ويشير أحياناً أخرى إلى الرياض الفاخرة جدّاً فيها ويطلق عليها اسم «جنّة الفردوس».

يعبر كل واحد من هذه الأوصاف الغيبيّة عن واحد من أبعاد هذا المكان وهو مقر الرحمة الإلهية الكبرى ودرجات القرب والوصول بالمحسوب الحقيقي:

«اللهم أرزقنا الجنّة بمنّك ورحمتك يا أرحم الراحمين»

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٥٩

٨- أسئلة وأجوبة حول الجنّة

١- هل أن التكرار يولد الملل؟

يعترض البعض قائلاً: إنّ ما يُستشف من الآيات والروايات يشير إلى أنّ النعم في الجنّة ونمط الحياة فيها يسير برتابة وعلى وتيرة واحدة، ونحن نعلم أنّ هذا الوضع - ولاسيما إذا استمر لمدّة طويلة - يثير الملل ويطفئ شعله الشوق والحماسة والنشاط، لأنّ تكرار أجمل المشاهد وأحلى المناظر وأطيب الأطعمة يفضي عليها مسحة طبيعية ويجعل منها وضعاً عادياً، حتى أنّ الإنسان قد يلجأ أحياناً إلى أساليب حياتية أبسط أو أكثر مشقّة من أجل كسر طوق الرتابة والملل وممارسة التجديد والتنوع، وللإجابة عن هذا السؤال ينبغي الالتفات إلى ثلاث نقاط:

الاولى يجب عدم تطبيق المقاييس والمعايير المادية والنفسيّة السائدة في هذا العالم على ذلك العالم، فلعل هذه الحالة النفسية الموجودة فينا وهي سرعة التعب والضجر واللامبالاة في هذا العالم قد تكون على العكس تماماً هناك، فكلما تكررت المشاهدة ازداد الشوق وتضاعفت الرغبة، ومع تزايد التكرار تزداد اللذة، فيكون التكرار مدعاة لمضاعفة اللذة المعنوية والمادية.

فما هو الدافع الذي يجعلنا نتصور أنّ الوضع النفسي للإنسان في هذا المجال واحد هنا وهناك؟

الثانية: توجد في هذا العالم أيضاً نعم لا يملها الإنسان ولا يشبع منها، فنحن كلما تنفسنا هواءً طلقاً جديداً ومليئاً بالأكسجين، لا نملّه ولا نضجر منه، بل نلتذ به ويشير فينا بهجة والارتياح، وكذلك الماء هذا المشروب البسيط فلو أننا عمّرنا مئات السنين يبقى شرب

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٦٠

الماء العذب عند العطش من أعظم اللذات بالنسبة لنا، وهذا هو معنى قولنا إنّ طعم الماء هو طعم الحياة، فلا يبعث فينا الملل ولا الضجر بل يبقى الماء العذب مستساغاً ولذيذاً في أفواه العطاشى

فما المانع في أن يجعل الله لدى الإنسان حالة شبيهة بحالة العطش (العطش اللذيذ الخالي من الازعاج والأذى مثل العطش للقاء المحبوب) لكي يلتذ الإنسان بواسطتها من النعم الروحية والجسمية الموجودة في الجنّة؟

الثالثة: لما كانت ذات الله وصفاته غير متناهية، فلا شك أنّ مظاهره الروحية والمعنوية لا نهاية لأمدّها، فهو يفيض عليهم في كل يوم

بألطاف جديدة ويمدّهم في كل لحظة بهداية متجدّدة لا تكرر فيها ولا رتابة وهل يمكن أن يتكرر ما لا نهاية له؟
والنعم المادية هي من مظاهر رحمانيته ورحيميته، ولا حد لها ولا حصر.

فما المانع في أن تكتسب أنهارُ الجنّة وأشجارها وأزهارها وتلك الألوان والعطور وتلك الأشربة الطاهرة، لونا وطعماً وشكلاً وعتراً
جديداً في كل يوم وفي كل ساعة؟ فألوانها في حالة تبدل دائم وهي في تغير مستمر، تكتسى على الدوام بجديد بحيث لا يتكرر
الطعام الواحد ولا المشهد الواحد على أهل الجنّة إلّامرة واحدة طوال حياتهم فيها! (فياله من مشهد عجيب!).

هناك بعض الآيات القرآنية والروايات التي تؤكد ما ورد في هذا الباب منها: «كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ». (الرحمن / ٢٩)

وقد طرح المفسرون آراءً كثيرة متنوعة في تفسير هذه الآية ويشير كل واحدٍ منها إلى فعل من أفعال الله في مسألة خلق الناس وموتهم
أو رزقهم وحياتهم أو عزة ومدّله الأمم والأقوام أو غفران الذنوب وكشف الهموم أو جلب النفع ودفع الضرر، ولا شك أن لهذه الآية
مفهوماً أوسع يشمل أي تغيير يطرأ على أوضاع العالم، ونظراً لانعدام الدليل على تخصيص هذه الآية في مجال الدنيا، بل وإنّ مجيئها
بعد الآية الشريفة: «كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ». (الرحمن / ٢٦-٢٧)

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٤١

يمكن اعتباره قرينه على استمراريته التغير والتبدل في الدار الآخرة أيضاً، وأن أصحاب الجنّة كل يوم في شأن بإرادة الله.

وقد اطلق بعض المفسرين عبارة «كل يوم» وأعطاهها عمومية أوسع لتشمل أيام الدنيا والآخرة كليهما معاً «١».

جاء في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ جَنَّةً لَمْ تَرَهَا عَيْنٌ وَلَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهَا مَخْلُوقٌ، يَفْتَحُهَا الرَّبُّ تَبَارَكَ
وَتَعَالَى كُلَّ صَبَاحٍ فَيَقُولُ: إِزْدَادِي طَيِّباً! إِزْدَادِي رِيحاً» «٢».

وورد حديث آخر أيضاً عن الإمام الباقر عليه السلام: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ تَوَضَّعَ لَهُمْ مَوَائِدُ عَلَيْهَا مِنْ سَائِرِ مَا يَشْتَهَوْنَ مِنَ الْأَطْعَمَةِ الَّتِي لَا أَلَذَّ
مِنهَا وَلَا أَطِيبَ، ثُمَّ يَرْفَعُونَ عَنْ ذَلِكَ إِلَى غَيْرِهِ» «٣».

تُظهر هذه التعبيرات وبكل وضوح أن لا رتابة في الحياة هناك، بل في كل لحظة نعم وعطايا جديدة.

نختم حديثنا هذا بإشارة مقتضبة لأحد المفسرين حيث قال: «إِنَّ الْآيَةَ تَشِيرُ إِلَى تَجَلِّيِ الْحَقِّ فِي كُلِّ زَمَنٍ فَرْدٍ وَنَفْسٍ فَرْدٍ عَلَى حَسَبِ
الْمَتَجَلِّيِّ لَهُ وَاسْتِعْدَادِهِ وَلَا نِهَائَةَ لِلتَّجَلِّيَّاتِ» «٤».

ولا شك في أن هذا الكلام لا يشمل كل مفهوم الآية، بل يعبر عن جزءٍ من مفهومها (فتأمل)؟!!

٢- أتعرف قيمة اللذة بفقدانها؟

من المعروف أن «الفقدان» يبرز أهميته «الوجدان» وبعبارة أخرى أن النعم الإلهية والعطاء الرباني يُعرف عند زواله، فلو لم يكن للمرض
وجود في العالم لما عرف أحد قيمة الجوهرة الثمينة لنعمة السلامة، ولولا الخوف لما عرفت قيمة وأهمية نعمة الأمان.
وعلى هذا فالجنّة التي تخلو من فقدان والخوف والمرض والتعب، ولا تعرف العوز

(١). تفسير روح المعاني، ج ٢٧، ص ٩٦.

(٢). بحار الأنوار، ج ٨، ص ١٩٩، ح ١٩٨.

(٣). المصدر السابق، ح ١٩٩.

(٤). تفسير روح البيان، ج ٩، ص ٣٠٠.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٤٢

والقحط ... الخ، لن تعرف قيمة كل هذه النعم وستنسى أهميتها بالتدرّج، ولن يكون هناك أي شعور باللذة.

والجواب عن هذا السؤال لا- صعوبة فيه، لأن أهل الجنة مشرفون على أهل النار وبإمكانهم الاطلاع على أوضاعهم ومقارنتها بما هم عليه، وحين يرون هذا الفارق الشاسع يلتذون بالنعم اللامتناهية التي يعيشون فيها.

تطرق القرآن الكريم مرّات عديدة إلى اطلالة أهل الجنة على أهل النار، فجاء قوله تعالى: «وَنَادَىٰ اصْحَابُ النَّارِ اصْحَابَ الْجَنَّةِ انْ اِفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ اَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّٰهُ قَالُوا اِنَّ اللّٰهَ حَرَمَهُمَا عَلَي الْكٰفِرِيْنَ». (الأعراف / ٥٠)

وفي سورة الصافات تحدّث عدّة آيات منها عن هذا المشهد قائلة: «فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَي بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ* قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ اِنِّي كَانَ لِي قَرِيْنٌ* فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيْمِ* قَالَ تَاللّٰهِ اِنْ كِدَتْ لَتُرْدِيْنَ* وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِيْنَ». (الصافات / ٥٠-٥١، ٥٥-٥٧).

كما نقرأ أيضاً في سورة الأعراف: «وَنَادَىٰ اصْحَابُ الْجَنَّةِ اصْحَابَ النَّارِ اِنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَاذْنُ مُؤَدَّنٌ بَيْنَهُمْ اِنْ لَعَنَهُ اللّٰهُ عَلَي الظّٰلِمِيْنَ». (الأعراف / ٤٤)

يفهم من مجموع هذه الآيات أنه لا أهل الجنة يجهلون أوضاع أهل النار، ولا أهل النار محجوبون عن أحوال أهل الجنة، فاطلاع أهل الجنة يضاعف ما هم فيه من السرور والنعمة لنجاتهم من ذلك العذاب الأليم، ويسعدون لما يرفلون فيه من النعمة والرفاه، وعلى العكس منهم أهل النار إذ يتضاعف عذابهم عند إجراء مثل هذه المقارنة.

وورد عن الإمام الصادق عليه السلام حديث يقول: «ما خلق الله خلقاً إلا جعل له في الجنة منزلاً وفي النار منزلاً، فإذا سكن أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد، يا أهل الجنة اشرفوا، فيشرفون على النار وترفع لهم منازلهم في النار ثم يقال لهم: هذه منازلكم التي لو عصيتم ربكم دخلتموها؛ قال: فلو أن أحداً مات فرحاً لمات أهل الجنة في ذلك اليوم فرحاً

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٦٣

لما صرف عنهم من العذاب؛ ثم ينادون: يامعشر أهل النار ارفعوا رؤوسكم فانظروا إلى منازلكم في الجنة فيرفعون رؤوسهم فينظرون إلى منازلهم في الجنة وما فيها من النعيم، فيقال لهم: هذه منازلكم التي لو اطعتم ربكم دخلتموها...» (١).

وجاء في ذيل الرواية نفس هذا المعنى بشأن أصحاب النار حينما يرون منازلهم في الجنة فيكادون يموتون من الحسرة والغیظ.

ونقل في تفسير الدر المنثور حديث مشابه عن الرسول صلى الله عليه وآله ولكن بشكل مختصر (٢).

إن وجود منزلين لكل إنسان يدل على الطبائع والاستعدادات الموجودة في كل إنسان بالقوة، حيث يُحدّد منزله في الجنة أو في النار وفقاً لتلك الطبائع والاستعدادات، ولا- يتنافى هذا مع ما ذكرناه سابقاً من أنه يبني تلك المنازل بعمله ويكملها من جميع الجوانب، ويخرج كل تلك الاستعدادات من حالة القوة إلى حالة الفعل، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن أهل الجنة لا ينسون أبداً ذكريات الدنيا، ويمكنهم معرفة قيمه وأهميه كل هذه النعم والفضائل من خلال مقارنة أوضاعهم الحالية مع ما كانوا عليه في الدنيا.

ذكرت الآيات ما يأتي: «وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَي بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ* قَالُوا اَنَا كُنَّا قَبْلُ فِي اِهْلَانَا مُشْفِقِيْنَ* فَمَنْ اللّٰهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ». (الطور / ٢٥-٢٧)

ويُظهر هذا التعبير أن أصحاب الجنة يتذكرون معاناتهم في الدنيا وشقاءهم ويقارنون بينهما وبين ما هم فيه، ومن الطبيعي أن هذه المقارنة تُظهر لهم بوضوح عظمة النعم التي يتنعمون بها.

٣- هل يوجد في الجنة تكامل؟

رغم أن جواب هذا السؤال قد اتّضح إجمالاً من خلال الإجابة عن السؤال السابق، لكن

(١). بحار الأنوار، ج ٨، ص ١٢٥، ح ٢٦.

(٢). تفسير در المنتور، استناداً لما ورد في تفسير الميزان، ذيل آيات سورة الأعراف.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٦٤

من الضروري هنا البحث عن جواب أوسع، فنقول: نعم إن التكامل موجود هناك قطعاً ولا يبقى أهل الجنة يراوون في أمانهم، بل هم يقتربون- بفضل الله ولطفه ورحمته- نحو ساحة قدسه يوماً بعد يوم، ويواصلون سيرهم في التقدم صوب القرب إلى الله. وليس مفهوم هذا الكلام وجود العبادات والطاعات والأعمال هناك، لأن الجنة ليست دار التكليف، فالمقومات الأولى للتكليف معدومة هناك، بل هم يواصلون مسيرتهم التكاملية في ظل أعمالهم المنجزة في الدنيا، تماماً كالأشجار المثمرة التي يغرسها الإنسان مرة واحدة، فتمتد جذورها وتخرج منها فروع وأغصان هنا وهناك حتى تعم السهول والصحارى أو كسفينه الفضاء التي تحتاج في بداية انطلاقها وخروجها عن مجال جاذبية الأرض إلى طاقة عظيمة، ولكنها بعد الخروج من هذا المجال تواصل حركتها- إذا لم تصطدم بمانع- من غير حاجة إلى أي وقود جديد.

وهناك آيات قرآنية تشير إلى هذه القضية، وتحدث عن أصحاب الجنة كما هو في قوله تعالى: «وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا» (مريم / ٦٢)

ويتضح جلياً من خلال الآيات السابقة لهذه الآية أن هذا الوصف ينطبق على جنه الآخرة التي عبرت عنها بكلمة «جنات عدن» لا على جنه البرزخ، وهنا يتبادر سؤال إلى الأذهان وهو إذا كانت الآيات الشريفة تشير إلى أن أهل الجنة لهم فيها ما يشتهون في أي وقت وزمان، فما هي هذه العطايا والفضائل التي تُمنح لهم في كل بكرة وعشي؟

من المؤكد أنها فضائل وأرزاق مادية ومعنوية تقدم لهم في هذه الأوقات، إضافة إلى رفعهم نحو درجات أسمى وأعلى وورد حديث عن النبي صلى الله عليه وآله يلقى الضوء على هذا الموضوع يقول فيه: «وتأتيهم طرف الهدايا من الله تعالى لمواقيت الصلاة التي كانوا يصلون فيها في الدنيا، تسلّم عليهم الملائكة» (١)، وهنا يثار سؤال آخر تفرزه تعابير الآية، فحينما لا وجود لليل ولا نهار في الجنة فكيف تكون هناك بكرة وعشيًا؟

(١). تفسير روح المعاني، ج ١٦، ص ١٠٣؛ وتفسير القرطبي، ج ٦، ص ٤١٦٦، ذيل، الآية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٦٥

ويمكن الإجابة عن هذا السؤال كما يأتي:

إن الجنة وإن كانت مضيئة بالنور دائماً إلا أن ذلك ليس على وتيرة واحدة على الدوام بل هو في حالة توهج وخفوت يتيح لأهل الجنة تحديد الليل من النهار تماماً مثل المناطق القطبية التي تمر عليها ستة أشهر كاملة والوقت فيها نهار، إلا أنه يمكن تحديد الليل والنهار من خلال زيادة ونقصان درجة النور.

وبالنظر لاستعصاء هاتين القضيتين (قضية الرزق الجديد وقضية البكرة والعشي) على الكثير من المفسرين، فقد طرحوا بشأنها آراءً وتبريرات متعددة تتعارض في الغالب مع ظاهر الآية ككونها كناية عن دوام النعمة، حيث كان من المتعارف بين العرب أن من يملك طعام الصباح والمساء (البكرة والعشي) يُعتبر غنياً، أو أن النعم الإلهية تأتيهم متواليه وبفواصل زمنية تعادل الليل والنهار في هذه الدنيا. ومن الواضح أن جميع هذه الآراء تخالف ظاهر الآية، أليس من الأفضل القول بوجود نوع من الليل والنهار الحاصلين من خلال اشتداد وانخفاض درجة الضياء ووجود نوع من الرزق مُستمد من فضل الله وألطفه ومبشّر بطي مسيرة التكامل، بحيث ينطبق مع ظاهر الآية أو لا يتعارض معه كثيراً؟

وهناك حديث نُقل عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «والذي أنزل الكتاب على محمد إن أهل الجنة ليزدادون جمالاً وحسناً كما يزدادون في الدنيا قباحةً وهرماً» (١).

وهذا الحديث يُظهر بوضوح التكامل التدريجي لأصحاب الجنة وإن كانت فيه إشارة إلى الجوانب الجسمانية فقط، لكن من البديهي أنه يتضمن أيضاً الأبعاد الروحية من باب أولى

(١) علم اليقين، ص ١٠٣، (استناداً على ما نقله في المعاد، كلام فلسفي).

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٦٧

النار

إشارة

- ١- من هم أصحاب النار؟
 - ٢- ماهية جهنم
 - ٣- أبواب جهنم وطبقاتها
 - ٤- العذاب الجسدي لأصحاب النار
 - ٥- العذاب الروحي
 - ٦- خلود العقاب
- نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٦٩

١- من هم أصحاب النار؟

تمهيد:

إشارة

رغم أن القاعدة تستوجب التحدّث أولاً عن ماهية النار وأوصافها ومن ثم الانتقال إلى الحديث عن أصحاب النار، ولكن بما أن أسلوب القرآن وسنته قد دأبا على التركيز أكثر ما يمكن على الأبعاد التربوية والنتائج الأخلاقية والإنسانية والاجتماعية في مثل هذه البحوث، فإننا- واتباعاً لهذا النمط الإيجابي- سنبدأ أولاً بمن يستحق هذه العقوبة العظيمة حتى نقف على منطلق الإسلام في هذا الصدد من خلال استقراء الآيات التي تتحدث عن أصحاب النار.

كثيرة هي الآيات الواردة بشأن أهل النار وسوف نأتي بمثال عن كل قسم ونأتي بشاهد ومصدق عن كل موضوع.

و يتضح بجلاء من خلال مضامين هذه الآيات أيضاً تفاوت الذنوب ودرجات قبح المعاصي.

بعد هذه المقدمة الوجيزة نعود إلى القرآن كي نلاحظ الأقسام المختلفة لأصحاب النار في ضوء ما ورد في الآيات القرآنية.

١- الكفار والمنافقون

إن أول فئة تأخذ طريقها إلى النار هم الكفار والمنافقون، يقول القرآن الكريم: «أَنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً»

(النساء / ١٤٠)

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٧٠

وفى قوله تعالى «وَأَنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ». (التوبة / ٤٩)

وجاء: فى قوله تعالى «إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا».

(النساء / ٤٥)

وفى الحقيقة أن أهم وأوسع مصدر للمعاصى والذنوب هو الكفر والنفاق وعدم الإيمان، لأن الإنسان إذا لم تشرق أعماق نفسه بنبراس الإيمان ولم يتطهر من الشرك والكفر والنفاق فلن تكون لديه أية دوافع نحو عمل الخير وستتغلب عليه النزعات المادية والشهوانية فقط، ولا يخفى على أحد طبيعة الظواهر الناتجة عن سيطرة مثل هذه الدوافع، فنحن نرى أمثلة منها فى الجرائم التى يرتكبها المجرمون فى عالم اليوم.

«الكفر»: يعنى تغطية الحق، و «النفاق» يعنى التظاهر بعكس ما يبطن (التظاهر بالإيمان واستبطان الكفر)، وهما أهم الموانع فى طريق الإصلاح فى المجتمعات الإنسانية، لذلك ركزت الآيات المتعلقة بالجنة والنار على هاتين الفتنتين.

٢- الصد عن سبيل الله

يُقَسِّمُ القرآن الكريم الناس من زاوية موقفهم من الرسول صلى الله عليه وآله والآيات القرآنية إلى فريقين، فيقول: «فَمِنْهُمْ مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا». (النساء / ٥٥)

وقد أكثر الآيات الشريفة من التهديد والوعيد لهذا الفريق «الذين يصدون عن سبيل الله»، وهو الفريق الذى لا يضل نفسه فقط بل ويعمد إلى إضلال جميع الناس، وكأنه يجد لذته فى هذا العمل، بل ويرى مصالحه اللامشروعة فى كفر الناس وعدم إيمانهم، وذلك لأن المجتمع المؤمن المعتقد بالقيم الإلهية السامية لا يخضع أبداً للفراغنة وشتايطينهم وأحزابهم، فالطريقة الوحيدة إذن للتسلط على أى مجتمع تكمن فى سلب جوهر الإيمان من قلوب أبنائه، وتاريخ الشعوب حافل بأمثال هذه المساعي المحمومة لهذا الفريق من أجل إضلال الناس، واليوم أيضاً تنصب جهود جميع الدول والمؤسسات الاستكبارية فى

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٧١

العالم على سلب الشعوب إيمانها بالله وبالقيم الربانية حتى لا يكون ذلك عائقاً أمام تحقيق أهدافهم وخدمته مصالحهم.

٣- ترك طاعة الله وشق عصا المسلمين

جاء فى قوله تعالى «وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا». (الجن / ٢٣)

وينص القرآن الكريم فى الآية الكريمة: «وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا».

(النساء / ١١٥)

كلمة «يشاقق» مأخوذة من (الشقاق) وتعنى المخالفة العمدية المصحوبة بالعداوة، وتدل جملة: «مَنْ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ أَنْ مَخَالَفَتَهُ نَابِعَةٌ مِنَ الْعِنَادِ وَتَهْدَفُ إِلَىٰ إِجَادِ الْفِرْقَةِ بَيْنَ صُفُوفِ الْمُسْلِمِينَ».

٤- الاستهزاء بآيات الله

بالنظر لأن الاستهزاء بآيات الله يحمل دلالة على الكفر وعدم الإيمان والكفر من موجبات دخول النار، لذلك فإن الآيات القرآنية أكدت عليه كثيراً واعتبرته أحد الأسباب الأساسية التي تنتهي بالإنسان إلى النار، وهذا ما عبرت عنه الآية الشريفة: «ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُؤًا» (١). (الكهف / ١٠٦)

إن الاستهزاء بالحق نابع - كما هو متعارف - من الجهل والعناد والتعصب والكفر المقرون بالبغض والعداوة، وكل واحد من هذه المفاهيم باب من أبواب جهنم، لهذا فلا عجب أن

(١). ورد ما يشابه هذا المعنى في الآيتين ٩، ٣٥ من سورة الجاثية.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٧٢

ينتهي مصير المستهزين - الذين كان الأنبياء وأولياء الله في صراع معهم - إلى جهنم أو أدنى درجات الجحيم.

٥- عدم الاستفادة من العقل والعين والأذن

والفريق الآخر الذى يستحق دخول جهنم هم الذين اغلقوا على أنفسهم أبواب المعرفة، فعطلوا العقل الذى منحه الله لهم، وأغضوا أعينهم، وسدوا آذانهم حتى لا يسمعون صوت الحق ولا يروا وجه الحقيقة الناصع، ولكى لا يفكروا بما يوجب الوعى واليقظة، تقول الآية الكريمة: «وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ» (الأعراف / ١٧٩)

ومن الواضح أن هذا الخلق ليس جبرياً، وما يقوله بعض انصار مذهب الجبرية مثل «الفخر الرازى» وما يستدلون به لإثبات مذهبهم، عارٍ عن الصحة تماماً، وذلك لأن جوابه قد ورد ضمن الآية التى يقول تعالى فيها إننا وفرنا لهم جميع مستلزمات المعرفة (كالعقول لإدراك المعقولات، والعيون لمشاهدة القضايا المحسوسة، والآذان لنيل العلوم النقلية) إلا أنهم لم يستعملوا تلك المستلزمات ولم يسفدوا منها (تأمل)؟! ولهذا يقول فى وصفهم أنهم كالحيوانات بل أدنى منها درجة، وذلك لأن الحيوان إن قصير عن فهم شىء فذلك ليس تقصيراً منه، بل لعدم امتلاكه لمستلزمات ذلك، والأضل من الحيوانات هو من يمتلك كل هذه الأسباب والعوامل مع توفر الظروف اللازمة ولكنه لا- يستفيد منها، والعامل الأساس لكل هذه الامور هو الغفلة التى اشير إليها فى ذيل الآية: «أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ»، وجاء نظير هذا المعنى فى سورة الملك،، خلال إجابة أهل النار عن تساؤلات خزنة النار وملائكة العذاب: «وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ». (الملك / ١٠)

إن علة كل هذا الشقاء الذى يرزح فيه الإنسان وسبب كل هذه المفاسد يكمن فى عدم

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٧٣

استخدام ابن آدم لعقله وأذنيه وعينه ولا يستغل هذه النعم الإلهية الكبرى فى سبيل المعرفة، فالله تبارك وتعالى قد حباه تلك النعم ومستلزمات المعرفة وأسبابها فهو - أى الإنسان - يمتلكها ولكنه لا يستفيد منها.

٦- اتباع الشيطان

ومن العوامل المهمة في دخول النار (مركز الغضب الإلهي) هو الاستسلام للشياطين والانقياد لإرادتهم وتسليم زمام الامور لهم، كما تصف ذلك الآية الكريمة: «قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْهُومًا مُدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ». (الأعراف / ١٨) ومع أن الآية تتحدث عن رأس الشياطين ابليس، إلا أننا نعلم أن خط الشياطين كلهم واحد، فهم في كل مكان يسرون على خطى ابليس، واتباع خطى شياطين الجن والانس يعد اتباعاً لابليس، ومصير كل هؤلاء الأتباع دخول النار. فهم يخدعون من يتبعهم بالأمال الكاذبة وتزيين الشهوات والدعوة إلى المعاصي، والصد عن الخير والتشجيع على الانحراف، ويصدونهم عن سبيل الله، فيوقعونهم في نار قهره وغضبه «١».

٧- الطغيان والتكبر

إن «التكبر» من أسباب دخول النار، سواء كان التكبر على الله سبحانه وتعالى أم على الخلق، أم عدم الاذعان والتسليم للحق، والطغيان أيضاً مصدر رئيس للكثير من الجرائم والمظالم وسلب الحقوق، لذلك فهو يؤدي بالإنسان- كما هو الحال في التكبر- إلى دخول النار.

(١). ورد مضمون هذا المعنى في الآية ٢١ من سورة لقمان؛ وأيضاً الآية ٢٢ من سورة ابراهيم.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٧٤

يقول القرآن الكريم: «الَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ». (الزمر / ٦٠)

ويقول كذلك: «وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» «١». (الأعراف / ٣٦)

وكذلك جاء هذا المعنى في آيات اخرى من القرآن الكريم في وصف الجبار العنيد:

«وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مِّنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ».

(إبراهيم / ١٥-١٦)

لكلمة «الجبار» معان متعددة: منها: القهر والتسلط والغلبة والنفوذ، إلا أن لهذا الأمر جانباً رحمانياً أحياناً، مثل سلطة الله على عالم الوجود وعلى كل شيء فيه، وله أحياناً جانب شيطاني، كسلطة وغلبة الطغاة والمتجبرين.

و «العنيد»: على حد قول صاحب كتاب لسان العرب: «الجائر عن القصد الباغي الذي يَزِدُّ الحق مع العلم به»، وكل هذا من نتائج الكبر والغرور والتعالي، ولو أمعنا النظر قليلاً لوجدنا أن هذه الرذيلة الأخلاقية هي واحدة من أهم الحُجُب المانعة للمعرفة ومن عوامل إضلال الإنسان، وسلب حقوق الآخرين والاعتداء عليهم، وأنواع الذنوب الاخرى «٢».

٨- الظلم والجور

ورد في الكثير من آيات كتاب الله تهديد للظلمة بنار جهنم، والتعابير التي وردت بشأنهم قلما وردت بشأن فئة اخرى وهذا يعكس مدى الأهمية التي أولاهها الإسلام لمواجهة الظلم والحث على التخلي عنه. وقد وردت أشد التهديدات في قوله تعالى «أَنَا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ

(١) ورد شبه هذا المعنى فى الآيات ٦٠، ٧٢، ٧٦ من سورة غافر؛ والآيتين ٤٠، ٤١ من سورة الأعراف؛ والآيتين ٢١، ٢٢ من سورة النازعات؛ والآيتين ٥٥، ٥٦ من سورة ص.

(٢). ورد ما يشابه هذا التعبير فى الآية ٢٤ من سورة ق؛ والآية ١٦ من سورة المدثر.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٧٥

بِسِّسِ الشَّرَابِ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا. (الكهف / ٢٩)

وهناك تعبير آخر شديد اللهجة أيضاً ورد أيضاً فى قوله تعالى: «وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا». (الجن / ١٥)

ويبين هذا التعبير أن نار جهنم تستعر فى داخل نفوسهم، وكما كانوا فى هذه الدنيا ناراً محرقة للمظلومين، يتحول كيانهم هناك فى عالم تجسيد الأعمال إلى قطعة من نار، ولا تعبير أبلغ وأفصح من هذا التعبير بشأن القوم الظالمين «١».

٩- الركون إلى الظالمين

ليس الظلم وحده يؤدى إلى ورود جهنم المتوقدة بنار الغضب الإلهى، بل الركون إلى الظالمين واعانتهم يؤدى إلى ذلك أيضاً- كما صرح بذلك القرآن الكريم- وقد جاء فى الآية الشريفة: «وَلَا تَزْكُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ». (هود / ١١٣)

كلمة «تركوا» مشتقة من مصدر (الركون) والذى يعنى فى رأى أصحاب اللغة الاتكال على الشىء والميل إليه، وهو ما يستلزم اتصافه بالقوة والمقدرة، لأن الإنسان يتوكل ويعتمد على ما فيه القدرة، ولذلك تطلق كلمة «الركن» على العمود أو الجدار الذى يُقام عليه البناء أو الأشياء الأخرى «٢».

وتحمل الآية أعلاه عنواناً عاماً يطلق على كل الظلمة، وتشتمل أيضاً من خلال تعبير «الركون» على أى نوع من أنواع الارتباط والاعتماد على الظالمين، وتقول إن الجميع سيقعون فى نهاية المطاف فى قبضة العذاب الإلهى، بل وإنهم حتى فى هذه الحياة الدنيا لا

(١). ورد نفس هذا المعنى فى سورة سبأ، ٤٢؛ الزخرف، ٦٥؛ آل عمران، ١٥١؛ المائدة، ١٢٩؛ إبراهيم، ٢٢؛ مريم، ٧٢؛ الأعراف، ٤١؛ الأنبياء، ٢٩؛ والشورى ٤٥.

(٢). مصباح اللغة؛ صحاح اللغة؛ والتحقيق فى كلمات القرآن الكريم.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٧٦

يجنون غالباً سوى الفشل والخسران والشقاء لأن الظالم حين يقوى لا تأخذه رأفة ولا رحمة على غيره.

وعلى أية حال، فإذا كان الركن الذى يُعتمد عليه سبباً لمثل هذا الشقاء فمن البدهى- ومن باب أولى أن تكون تقوية الظلمة وإعانتهم سبباً لدخول الإنسان النار، ولهذا السبب فقد شدّد القرآن فى النهى، وبكل صراحة، عن أى تعاون ومساعدة على الظلم، وقال:

«وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ». (المائدة / ٢)

وقد اندرت الروايات الإسلامية بأشد العذاب والجزاء لمن يكون سبباً فى تقوية وتعزيز الظالم بأى شكل من الأشكال، حتى فيما لو وضع بين يديه القلم أو الدواة لكتابة حكم فيه أى ظلم، وسأنتى على تبيان ذلك بإذن الله فى الموضوع المناسب.

١٠- نسيان الآخرة

تحدث سورة الجاثية عن هذا الجانب وتقول: «وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسَيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ». (الجاثية/ ٣٤)

لا- شك في أن نسيان محكمة العدل الإلهي في يوم القيامة يعتبر مصدر أنواع الذنوب والمعاصي، والانغماس في مستنقع الظلم والريذة والفساد، وهذه الأعمال تؤدي إلى أن يعاملهم الله معاملة الناسين، ولا شك أن احاطة الله بكل شيء وعلمه بكل شيء وفي كل زمان تجعل من مفهوم نسيانه أمراً لا معنى له، لكنه يعامل الناسين معاملة النسيان، أي أنه يقطع عنهم بالكامل لطفه ورحمته، فتغلق عليهم كل سبل النجاة، ولا يبقى أمامهم سوى هاوية جهنم «١».

(١) ورد نفس هذا المعنى في سورة ص، ٢٦؛ السجدة، ١٤.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٧٧

١١- حب الدنيا

حب الدنيا رأس كل خطيئة، ومن العوامل المهمة في إلقاء الكثير من الناس في نار جهنم، كما صرح بذلك قوله تعالى «مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا». (الاسراء/ ١٨)

أي إن الأمر ليس بهذه الدرجة من البساطة بحيث ينال أهل الدنيا كل مقاصدهم منها، بل قد يلجأون إلى الآف الحيل والمساعي، بل ويضطرون إلى ارتكاب الجرائم والمعاصي من أجل بلوغ بعض من اغراضهم، لكن جهنم لهم بالمرصاد، فتحرق أجسادهم وأرواحهم أيضاً بحكم كونهم «مذمومين» و «مدحورين» ومطرودين من رحمة الله «١».

١٢- اكتناز الذهب

إن اكتناز الذهب وإن كان يُعَدُّ واحداً من مظاهر حب الدنيا، لكن القرآن الكريم قد أكد عليه وخصه بالذكر باعتباره واحداً من الأسباب التي تؤدي إلى دخول نار جهنم، حيث قال تعالى «وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَمَّا يُنْفَقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشَّرَهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ* يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ». «٢» (التوبة/ ٣٤-٣٥)

تحتوي هذه الآية على نقاط وبحوث متعددة سنشير إليها في موضعها المناسب، أما ما ينبغي الإشارة إليه هنا فيتلخص في نقطتين: الأولى إلى أي حد يُعتبر جمع الثروة اكتنازاً؟ وهذا الموضوع مُختلف فيه كثيراً بين المفسرين، وما ورد في الكثير من الروايات عن الشيعة وأهل السنة، واتفقت عليه آراء الكثير من المفسرين هو: أن المال الذي تؤدي زكاته لا يُعتبر كنزاً (أي مال أدت زكاته فليس بكنز) «٣».

(١). ورد نظير هذا المعنى في سورة النازعات؛ ٣٨.

(٢). ورد نفس المعنى في سورة الهمزة، ٢ إلى ٦؛ سورة مسد، ٢-٣؛ وسورة الحاقة، ٢٨ إلى ٣١.

(٣). لمزيد من الايضاح راجع التفسير الأمثل ذيل الآية ٣٥ من سورة التوبة.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٧٨

ولكن في الظروف الاستثنائية وحين توجب مصالح المجتمع الإسلامي على الحكومة الإسلامية تعيين حدود جمع الثروة- كما ورد في بعض الروايات عن علي عليه السلام- أو يكون الاجراء أبعد من ذلك فيعلن في ظرف خاص عن وجوب صرف جميع المدخرات والذخائر حفاظاً على وجود المجتمع الإسلامي (كما ورد في بعض الروايات بشأن قيام الإمام المهدي «عج»). لكن لا تُعتبر النقاط المذكورة قاعدة عامة، والقاعدة العامة الأساسية هي ما ذكرنا في بداية الموضوع.

الثانية: لماذا تقول الآية تكوي بها جباههم وجنوبهم وظهورهم؟ لعل ذلك يعود إلى ردود الفعل التي تصدر منهم تجاه المحرومين والفقراء فهم أولاً يعبسون ويقطبون الجبهة، ومن ثم يظهرون اللامبالاة فيصدون عنهم ومن بعد ذلك يديرون لهم الظهر، ولذلك تكوي بالترتيب جباههم ثم جنوبهم ثم ظهورهم بنفس تلك المسكوكات كما كانوا يكونون قلوب المساكين والفقراء.

١٣- الفرار من الزحف

نحن نعلم أن الإسلام يعتبر هذا الذنب من أكبر الذنوب فهو يؤدي إلى اندحار وذلة وشقاء المسلمين ويستوجب أشد العقوبات وهنا يصرح القرآن: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْاِدْبَارَ * وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَا وَاهُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ». (الانفال / ١٥-١٦)

«الزحف»: وفقاً لرأى أصحاب اللغة «١» يعنى فى الأساس الحركة المصحوبة بجر الأرجل على الأرض كحركة الطفل فى بداية تعلمه للمشى، أو كسير الجمل عند شدة التعب ثم استعملت هذه الكلمة لتعنى حركة المجاميع الكبيرة من الناس لأنهم يبدون لكثرتهم وكأنهم

(١). مقاييس اللغة؛ مفردات الراغب؛ والتحقيق فى كلمات القرآن الكريم.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٧٩

ينزلقون على الأرض فى مشيهم ويتقدمون نحو الإمام.

وعلى أية حال، تحمل هذه الجملة إشارة إلى أن قوة العدو مهما كانت كبيرة فلا ينبغى التراجع أمامها أو الفرار من ساحة المعركة عند المواجهة، إلّا بأمر القائد.

ومن الواضح أن حرمة الفرار من الزحف يعتبر قانوناً إسلامياً عاماً، وأما قول بعض المفسرين الذين اعتبروه خاصاً بمعركة بدر دون سواها فهو قول لا- دليل على صوابه كما اشير إليه فى تفسير الميزان «١»، ولا سيما أن هذه الآية قد نزلت بعد معركة بدر «٢». إذن فالفرار من الجهاد من موجبات دخول النار.

١٤- قتل الأبرياء

إن الإسلام يكن احتراماً كبيراً لدماء الناس إلى درجة اعتبر معها قتل الواحد وكأنه قتل لجميع الناس: «مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا». (المائدة / ٣٢)

واعتبر إراقه دم المؤمن تستحق الغضب الإلهي والعذاب العظيم: «وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا».

(النساء / ٩٣)

وبهذا فقد انذر قاتل المؤمن بأربع عقوبات كبرى وهي: ١- الخلود في جهنم، ٢- غضب من الله، ٣- لعنة من الله، ٤- العذاب العظيم، وهذا أقصى ما أظهره الإسلام إزاء احترام دم المؤمن، لأنه لا يوجد في القرآن أى موضع يشتمل على مثل هذه العقوبة «٣».

(١). تفسير الميزان، ج ٩، ص ٣٧.

(٢). ورد ما يشابه هذا المعنى فى بعض جوانبه فى الآية ٨١ من سورة التوبة.

(٣) ورد نفس المعنى بصيغة أخرى فى الآية ٢١ من سورة آل عمران.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٨٠

١٥- ترك الصلاة

تحظى الصلاة بقدر عظيم من الأهمية، وقد وردت بشأنها الكثير من الآيات والروايات التى تشيد بمكانتها وخاصة فى الكتب الإسلامية الشهيرة، وعدّ القرآن الكريم ترك هذه الفريضة من موجبات الهلاك ودخول النار، حيث يقول فى وصف جماعة من أصحاب الجنة يحادثون جماعة من أصحاب النار فيقولون لهم: «مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ؟» فيأتيهم الجواب: «قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمَصْلُومِينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعَمِ الْمَسْكِينِ * وَكُنَّا نَحُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ». (المدثر / ٤٢-٤٦)

ورغم وجود ثلاثة ذنوب أخرى فى الآية أعلاه إضافة إلى ذنب ترك الصلاة، لكن التركيز عليها وجعلها فى البداية يعكس مدى خطورة ترك هذه الفريضة الإلهية، إضافة إلى أن أياً من هذه الأمور الأربعة كاف لوحده لإلقاء الإنسان فى النار (ويبدو أن المقصود من عدم إطعام المسكين هو منع الحقوق الواجبة).

وللصلاة من وجهة نظر الإسلام مكانة رفيعة، ونقلت بعض الروايات المعروفة عن رسول الله صلى الله عليه وآله منها: «إذا كان يوم القيامة يدعى بالعبء فأول شىء يسأل عنه الصلاة فإذا جاء بها تامة وإلا زُخَّ فى النار» (١).

ولعل السبب الكامن وراء ذلك هو أن الصلاة هى الشريان النابض بالإيمان، منها ينبع الإيمان وبها يتواصل ويستمر، وبتركها تتزعزع أركان الدين والإيمان، ولا يخفى أن أحد شروط قبول الأعمال، وجود الإيمان، فلا يقبل عمل إلا بوجوده.

١٦- عدم ايتاء الزكاة

الزكاة من أركان الإسلام الأساسية وتركها من أكبر الذنوب ونلاحظ أن القرآن قد جعل منعها فى مصاف الشرك وتكذيب المعاد، وهذا يعنى أنها من دواعى دخول النار، حيث

(١). وسائل الشيعة، ج ٣، كتاب الصلاة، الأبواب ٦ و ٧ و ٨ وخاصة ص ٢٢، ح ١٠؛ ص ١٩، ح ٦.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٨١

يقول القرآن الكريم: «وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يَأْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ». (فصلت / ٦-٧)

اثارت هذه الآية جدلاً واسعاً بين المفسرين، وطرحوا احتمالات متعددة فى تفسيرها وكان الدافع لذلك كونها من فروع الدين فكيف يصبح تركها دلالة على الكفر والشرك؟

يبدو أن البعض قد جعل منها معياراً، فقال: إن عدم ايتاء الزكاة حتى وإن لم يقترن بانكار حكمها يعتبر مؤشراً ذاتياً على الكفر، وقال

البعض الآخر: إنَّ عدم ايتائها لا يُعتبر كفراً لوحده، وإنَّما يكون كذلك إذا اقترن بانكارها لأنَّ وجوب الزكاة من ضروريات الإسلام ومنكرها كافر.

والنقطة التي تُعيننا على توضيح تفسير الآية هي المكانة الخاصة التي تميز الزكاة من بين التعاليم الإسلامية، فأدائها يعنى الاعتراف بالحكومة الإسلامية ومنعها يدل على التمرد ومناهضة الحكومة، وكما نعلم فإنَّ القيام ضد الحكومة الإسلامية موجب للكفر. «١» وقد سبقت الإشارة إلى الآية ٣٥ من سورة التوبة والتي تتحدث عن اكتناز الذهب والفضة وهي من الآيات الدالة على أنَّ ترك دفع الزكاة من أسباب دخول النار.

١٧- أكل مال اليتيم

أكل مال أي شخص كان، وبلا مجوز شرعي، حرام، لكن هذا الحكم يتأكد أكثر بالنسبة لليتامى وذلك لحاجتهم الشديدة من جهة، وفقدانهم الولي من جهة ثانية، وعدم إمكانية الدفاع عن أنفسهم من جهة ثالثة، وهذا ما يخرج القضية عن وضعها الطبيعي ويعطيها بُعداً استثنائياً.

ولهذا السبب هناك آيات قرآنية كثيرة مليئة بالوعيد والعذاب الشديد لمن يأكل أموال اليتامى ظلماً، فهي الآية الشريفة تصرح: «أَنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا

(١). ورد شرح هذه القضية بالتفصيل في التفسير الأمثل، ذيل الآيات ٦-٨ من سورة فصلت.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٨٢

يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا». (النساء / ١٠)

وورد في الروايات عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «شَرُّ الْمَأْكَلِ أَكْلَ مَالِ الْيَتِيمِ ظُلْمًا» (١).

ولكن هل أن التعبير القرآني في عقوبة أكل مال اليتيم جوراً بأنه يأكل ناراً، هو تعبير مجازي؟ قال جماعة من المفسرين بإمكانية حمله على المعنى الحقيقي لأنَّ هذا التعبير يظهر أنَّ لأعمالنا صورة باطنية إضافة إلى الصورة الظاهرية، وأنَّ تلك الصورة خافية عنَّا في هذا العالم وتظهر في يوم القيامة، ومسألة تجسد الأعمال نابعة من هذا الموضوع، وعلى هذا فلا يُستبعد حمل الآية على معناها الحقيقي (فتأمل).

١٨- أكل الربا

وهذا العمل أيضاً من الأعمال التي وعد القرآن مرتكبيها بعذاب جهنم حيث يقول:

«فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ». (البقرة / ٢٧٥)

وجاء ما يشبه هذا المعنى في الآيتين اللتين تهددان كذلك آكلي الربا بعذاب النار وتصفانه بأنَّ له نفس العذاب الذي ينتظر الكافرين: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ».

(آل عمران / ١٣٠-١٣١)

فعندما يعلن المرابون العصيان على الله، أو يعلن هو جلَّ شأنه الحرب عليهم فمعنى هذا أنَّهم قد تنزَّلوا إلى مستوى الكافرين، وهذا تعبير رهيب في وصف هذه المعصية الكبيرة.

نستشف من بعض الروايات أنّ الربا محرّم في جميع الكتب السماوية وفي جميع شرائع الأنبياء، كما تنص هذه الرواية التي وردت في فقه الرضا عليه السلام: «وهو محرّم على لسان كل نبي وفي كل كتاب» (٢).

(١) بحار الأنوار، ج ٧٦، ص ٢٦٧، ح ١.

(٢) فقه الرضا عليه السلام، طبقاً لنقل مستدرک الوسائل، ج ١٣، ص ٣٣١، ح ٧.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٨٣

١٩- كفران النعم الإلهية

وهذا أيضاً من الذنوب الكبيرة التي يُجازى عليها بعذاب النار، حيث قال تعالى «الْم تَرَى إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ».

(إبراهيم / ٢٨ - ٢٩)

أمّا ماهو المقصود هنا بالنعم الإلهية؟ قال جماعة من المفسرين - وانطلاقاً من بعض الروايات الواردة في المصادر الإسلامية - إن النعمة هي وجود النبي الكريم صلى الله عليه وآله، ونقرأ في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام: «نحن والله نعمة الله التي أنعم بها على عباده وبنا يفوز من فاز» (١).

كلمة «نحن» تشير إلى كل بيت النبي صلى الله عليه وآله، وإن كانت إشارة إلى المعصومين عليهم السلام فهي تشمل النبي من طريق أولى وتوضح مدى أهميته هذه النعمة فيما لو التفتنا إلى حديث الثقلين وماله من مكانة، وعلى أيّة حال فإنّ وجود النبي صلى الله عليه وآله والأئمّة المعصومين عليهم السلام وإن كان يُعدّ من أكبر النعم الإلهية، فلا يمكن حصر مفهوم هذه الآية في هذا النطاق، والظاهر أنّها تضم جميع النعم الإلهية الكبرى

وقد أشار بعض المفسرين إلى الكافرين بالنعم الإلهية الكبرى وقالوا: إنهم بنو أمية، أو بنو أمية وبنو المغيرة، أو عموم الكفار في عصر النبي صلى الله عليه وآله ولكن هذا من قبيل ذكر المصداق أيضاً لا من باب الحصر.

وفي جميع الأحوال ينبغي شكر النعم الإلهية الكبرى والاستفادة منها ما أمكن وعلى أفضل وجه، وإذا استبدل الشكر بالكفران استوجب عذاب جهنم (٢).

٢٠- المطففين

وقد أكّد القرآن على عذاب هؤلاء تأكيداً خاصاً، وأولى هذه القضية أهمية استثنائية،

(١). تفسير على بن إبراهيم، ج ١، ص ٣٧١.

(٢). جاء في تفسير الميزان، هذه الآية فيها تقدير وهو كمايلي: بدلوا شكر نعمة الله كفراً.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٨٤

حتى أنّ اسم إحدى السور هو «المطففين» وقد جاء في مستهلها: «وَيْلٌٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ.. كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ».

(المطففين / ١ - ٤ - ٥ - ٧)

قال بعض المفسرين: إن «الويل» يعنى شدة عذاب القيامة، وقال آخرون: إنها اسم واد خاص فى جهنم (١). وجاء أيضاً فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «لم يجعل الله الويل لأحد حتى يسميه كافراً، قال عز وجل: فويل للذين كفروا...» (٢).

وورد أيضاً فى حديث عن النبى صلى الله عليه و آله أنه قال: «ويل واد فى جهنم يهوى فيه الكافر» (٣). ويفهم من هذه التعابير أن التطفيف - أى عدم ايفاء الميزان فى البيع - يصل حد الكفر أو هو نوع من الكفر. وكلمة «ويل» لها معنى لغوى واسع، يرادف الشر والغم، والهلاك أو العذاب الأليم، وما ذكر آنفاً يمكن أن يكون مصداقاً لذلك. ومما يسترعى الانتباه أن ألفاظ الآية وإن كانت تخص المطففين للمواد القابلة للوزن والكيل لغرض البيع والشراء، إلا أنه لا يستبعد أن تتسع الآية لما هو أبعد من ذلك لتشمل كل من يقصر فى تأديته واجباته الدينية والأخلاقية والاجتماعية وذلك لأن كل من يقصر فى أداء واجبه وينتقص من عمله يعتبر فى الحقيقة مطففاً. ولهذا نقل عن الصحابى المعروف «عبدالله بن مسعود» أنه قال: «كل من طفف فى صلاته ينطبق عليه ما قاله الله تعالى بشأن المطففين» (٤).

(١) تفسير القرطبي، ج ١٠ ص ٧٠٤١.

(٢) اصول الكافي، ج ٢، ص ٣٢، ح ١.

(٣) تفسير روح المعاني، ج ٣٠، ص ٦٨.

(٤) تفسير مجمع البيان، ج ١، ص ٤٥٢.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٨٥

٢١- الهمز واللمز والغيبة

وهذه أيضاً من الذنوب الكبيرة لأن فيها استهانة بكرامة وشخصية الناس المؤمنين، والكرامة والشخصية من الاعتبارات التى توازى فى الأهمية دم الإنسان بل وتفوقه أحياناً، ولذلك توعده القرآن الكريم بالويل والعذاب لكل من يجترى على هذا الفعل، فقال: «وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ* يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ* كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ». (سورة الهمزة / ١- ٤)

هنالك اختلاف فى آراء المفسرين بشأن معانى الهمزة واللمزة، فهاتان الكلمتان وردتا على صيغة المبالغة من المصدرين «الهمز» و«اللمز» قال البعض: كلاهما بمعنى واحد، وهو البحث عن عيوب الآخرين واغتيالهم، بينما قال آخرون، إن الاولى تعنى اقتفاء معائب الآخرين والتشهير بهم علناً والثانية بمعنى اقتفائها والتشهير بها خفية وعن طريق الإشارة بالعين والحاجب وأمثال ذلك، وقال آخرون: إن الاولى تعنى الغيبة، والثانية تعنى اظهار العيوب وجهاً لوجه.

ويبدو فى جميع الأحوال أن كل من يحاول الاستهزاء بالآخرين أو يتعمد الاساءة إليهم باللسان وحركات العين والحاجب فى حال غيابه أو وجهاً لوجه، ويحاول تقصير عيوبهم أو يكشف العيوب المستورة وافشائها لغرض الاساءة إلى كرامتهم فهو مشمول بالآية المذكورة، فكما أنه يحطم شخصية وكرامة الآخرين فسيكون كذلك عرضة - فى يوم القيامة - لنار جهنم «الخطمة» لكى تحطم كل وجوده.

إن الأشخاص من أمثال هؤلاء هم أكثر خلق الله شراً كما جاء ذلك فى حديث منقول عن سيد الرسل صلى الله عليه و آله أنه قال:

«ألا أخبركم بشر الناس؟» قالوا بلى يا رسول الله، قال: «المشأؤون بالنميمة، المفترقون بين الأحبة، الباغون للبرئاء المعاييب» (١).

(١) اصول الكافي، ج ٢، باب النميمة، ح ١؛ تفسير القرطبي ج ٢، ص ٧١-٧٢.
نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٨٦

٢٢- الاسراف والتبذير

الاسراف والتبذير بالمعنى الواسع للكلمة يعتبران من الكبائر أيضاً، وقد ذكرهما وأكد عليهما القرآن الكريم بشدة، فقال عن الاسراف: «وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ». (المؤمن / ٤٣)
ورغم أن هذا الكلام قد ورد في سورة المؤمن على لسان مؤمن آل فرعون، لكن القرآن أطلقه على هذا المجال.
وقال أيضاً عن التبذير: «أَنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ». (الاسراء / ٢٧)
ومن الواضح أن مصير الشياطين واخوانهم ليس سوى الوقوع في بؤرة الغضب الإلهي - أى جهنم -.
و «الاسراف»: و (السرف) وهى على وزن «الهدف» تعنى كما يقول أهل اللغة تجاوز الحد فى أى عمل، وإن كانت تُطلق على الأغلب على تجاوز الحد فى صرف الأموال (١).
ولهذا يُطلق القرآن الكريم كلمة المسرفين على المشركين والمجرمين الذين يتجاوزون الحدود الإلهية، وحتى قتل الناس الأبرياء يُعدُّ نوعاً من الاسراف.
وكلمة «التبذير» مشتقة من مصدر «البدنر» وتعنى فى الأصل النثر، وتُطلق عادةً على الحالات التى تُنثر فيها الأموال بلا هدف، أو حين تُصرف هنا وهناك وتكون نتيجتها الاتلاف والتضييع (٢).
ولو فكّرنا فى وضع العالم الحالى والتبذير والاسراف السائد فيه والذى لا يقتصر على المواد الغذائية والإمكانات المادية فحسب، بل ويتعداه إلى تجاوز الحدود فى كل شىء، لوجدنا أنه وقبل أن يستحق الآخرة، جعل من هذه الدنيا جهنم لاهبهُ يحترق فى نارها الصغير والكبير ولا مغيث لنداءاتهم، حينذاك سنوقن أن عقوبة الاسراف والتبذير يجب أن تكون نار جهنم.

(١) المفردات للراغب، مادة (سرف).

(٢) التحقيق فى كلمات القرآن الكريم، مادة (بذر).

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٨٧

٢٣- الجرائم والذنوب

توجد فى القرآن الكريم أوصاف عامية وشاملة لأصحاب النار ومن جملة ذلك الجريمة والذنب، إذ قال تعالى بشأنهم: «وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا». (مريم / ٨٤)
كلمة «مجرم» مأخوذة من المصدر (جُرم) على وزن (ظلم) والذى يعنى أساساً القطع، لذلك تُطلق الكلمة على عملية قطع الثمار من الأشجار أو قطع الأشجار ذاتها، ولما كان المجرمون يحرمون أنفسهم من السعادة والنجاة بسبب سوء عملهم، لهذا صدقت عليهم هذه الكلمة.

هل يفهم من هذه الآية أنّ كل ذنب يستلزم دخول النار، أم أنّها تخص مجرمين معينين؟ إنّ ظاهر الآية يدلّ على الاطلاق، إلّا أنّه يمكن أن يُستشف من خلال الآيات الاخرى أنّها تخص الجريمة التي يخالطها الكفر، كما جاء في قوله تعالى «إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ». (الزخرف / ٧٤) ومن البديهي أنّ الخلود في النار مقصور على الكفار لا- كل المجرمين ودلّت على هذا قوله تعالى «يَسَاءَ لَوْلَا * عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ». (المدثر / ٤٠-٤٢)

فيعدّون لهم في الجواب مجموعة من الذنوب منها التكذيب بيوم الدين وهو ما يساوي الكفر، وقد ورد نظير هذا المعنى وهو أنّ المقصود منه الجرم المقرون بالكفر- في آيات عديدة اخرى «١»، ويحتمل أيضاً أنّ المراد من المجرمين الوارد في الآية موضع البحث هم المجرمون الذين انغمسوا تماماً في الذنوب وبالشكل الذي يجعلهم لا يستحقّون الشفاعة ولا عفو الله، فهؤلاء عامّة يدخلون النار.

(١) وردت في الآيات والسور التالية: الأعراف، ٤٠، ٨٤، ١٣٣؛ سورة الحجر، ١٢، ٥٨، سورة الفرقان، ٣١، النمل، ٦٩، وغيرها، وتحدثت جميعها عن أقوام من أمثال قوم لوط وقوم فرعون وأعداء الأنبياء، واستخدمت بشأنهم كلمة «المجرم». نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٨٨

٢٤- تعدى حدود الله

إشارة

وهذا أيضاً واحد من العناوين العامية التي وعد القرآن بأنّ جزاءها النار: «وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ». (النساء / ١٤)

إنّ المقصود من الحدود الإلهية قوانينه وأحكامه وتعاليمه، وإن كان أهل اللغة قد نقلوا ثلاثة معانٍ مختلفة لكلمة «الحد» وهي: المنع، ونهاية كل شيء، والشدة «١»، ولكن يبدو أنّها تعود بأجمعها إلى معنى «المنع» لأنّ انتهاء الشيء يمنع اختلاطه بغيره كما أنّ حدود البيت والحقل والبلد تمنع اختلاطها مع غيرها من البيوت والحقول والبلدان، وبما أنّ مفهوم المنع يخفى بين طبيّاته نوعاً من الشدة، فقد استخدم أحياناً بمعناها أيضاً.

ولهذا اطلق على الأحكام الإلهية اسم «الحدود» التي تعين للإنسان «المناطق الممنوعة» التي لا يجوز له دخولها، وهذا هو السبب في تسمية العقوبات الشرعية بالحد لأنّها تحول دون تكرارها.

وعلى أيّة حال فقد وردت عبارة «تلك حدود الله» في عدّة مواضع من القرآن الكريم وكلها جاءت بعد تبيان سلسلة من الأحكام الإلهية.

وقد جاءت في الآية التي نحن بصدد بحثها بعد بيانها لأحكام الإرث، وفي الآيتين (٢٢٩، ٢٣٠) من سورة البقرة والآية الاولى من سورة الطلاق بعد تبيان قسم من أحكام الطلاق، وجاءت في الآية ١٨٧ من سورة البقرة بعد تحريم الجماع خلال الاعتكاف وبعض أحكام الصوم، ووردت في الآية ٤ من سورة المجادلة بعد بيان كفارة الظهار، ويفهم من مجموعها أنّ (حدود الله) كلمة ذات مدلول واسع يشمل كل حكم من هذا القبيل.

فنحن نعلم من جهة أنّ ارتكاب أي جرم كان لا يستدعي الخلود في النار وعلى هذا قد يكون القصد من الآية أعلاه، الأشخاص الذين يتعدّون حدود الله بالطغيان والعناد والتّمرد وانكار آيات الله، أو كل من يتجاهل هذه الحدود وينغمس في المعاصي حتّى يذهب من هذه الدنيا من غير أن يدخل الإيمان قلبه، وإلّا فنحن نعلم أنّ فريقاً من العصاة يشملهم

(١) مقاييس اللغة؛ ومفردات الراغب؛ والتحقيق في كلمات القرآن الكريم، مادة (حد).

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٨٩

العفو الإلهي، وفريقاً آخر تشملهم الشفاعة، وفريقاً آخر تغفر لهم صغائر الذنوب، وكذلك يغفر للتوابين (١).

وقد استدللت فئة من (الوعيدية) الذين يعتقدون بخلود مرتكب الكبيرة في النار بهذه الآية وأمثالها، إلّا أنّ جواب ذلك واضح من خلال ما ذكرناه، وسنتطرق إلى مزيد من التوضيح في المكان المناسب بإذن الله.

الخلاصة:

المجاميع الأربع والعشرين التي اشير إليها تعتبر أهم الفئات التي ترد النار وفقاً لما صرح به القرآن الكريم، فبعضهم يخلد فيها والبعض الآخر يبقى إلى أمد معين، ويُستخلص من مجموع هذه الآيات رؤية الإسلام للمسائل الاجتماعية والحقوقية وأنواع الانحرافات الأخلاقية، والجوانب التي أعارها اهتماماً أكبر.

وتستبطن نظائر هذه الآيات نداءات تربوية فاعلة وتنبه الناس وتحذّرهم من عواقب ومخاطر هذه الكبائر وهذا هو الغرض النهائي منها.

(١). أورد العلامة المجلسي في بحار الأنوار بحثاً مفصلاً في هذا الصدد وهو أنّ أهل الإيمان لا يخلدون في النار، فمن أراد الاطلاع عليه فسيجده بحار الأنوار، ج ٨، ص ٣٥١ وما بعدها (باب ٢٧ وهو باب من يخلد في النار ومن يخرج منها).

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٩١

٢- ماهية جهنم

تمهيد:

من البديهي أنّ «جهنم» هي بؤرة الغضب الإلهي وتشتمل على العذاب الجسدي والروحي لمن يردّها، كما ورد في ظاهر أو صريح الآيات القرآنية، أمّا الذين ذهبوا إلى أنّها تشتمل فقط على العذاب الروحي والمعنوي فقد تجاهلوا وأنكروا قسم كبير من الآيات القرآنية أو حملوها على معانٍ مجازية بلا دليل معقول.

ولكن ما هي جهنم؟ وما هي كيفية عذابها؟

إنّ أفضل الطرق لمعرفة ماهيتها هي الاستعانة بالأسماء والأوصاف الواردة بشأنها في الآيات القرآنية المختلفة من أجل ازاحة الستار عن خفايا بؤرة الغضب الإلهي هذه، وكما قلنا مراراً: مهما كانت معرفتنا بالقضايا المتعلقة بالعالم الآخر واسعة فهي تبقى محدودة وكأنّها شبح يترائي لنا عن بعد، أمّا التفاصيل والخصوصيات فهي مبهمّة لأنّ عالم الآخرة بشكل عام أرقى من هذا العالم وهو تماماً كعالم الجنين بالنسبة إلى العالم خارج بطن أمه.

وعلى هذا فمن غير المتيسّر للبشر في هذا العالم الاحاطة الكاملة بأسرار ذلك العالم، لكن هذا لا يحول بتاتاً دون الحصول على المعرفة الإجمالية بشأنه أبداً.

وعلى أيّة حال ينبغي متابعة الأسماء والصفات والإشارات الواردة في القرآن الكريم في هذا المجال لغرض التعرف على ماهية جهنم، لنقرأ فيما يلي الآيات التالية وهي تعكس بعضاً من أسماء وأوصاف جهنم:

١- «وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ». (الحجر/ ٤٣-٤٤)

٢- «سَاْضِلِيهِ سَقَرٌ * وَمَا دَرَاكَ مَا سَقَرٌ * لَا تُبْقَى وَلَا تَذَرُ * لَوَاحَةٌ لِلْبَشَرِ».

(المدثر / ٢٦-٢٩)

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٩٢

٣- «فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ». (البقرة / ٢٤)

٤- «فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ». (الشورى ٧)

٥- «فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى .

(النازعات / ٣٧-٣٩)

٦- «كَلَّا لِيُبَدَّلَنَّ فِي الْخَطْمَةِ * وَمَا دَرَاكَ مَا الْخَطْمَةُ * نَارُ اللَّهِ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْآفِنْدَةِ». (الهمزة / ٤-٧)

٧- «وَأَمَّا مَنْ حَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا دَرَاكَ مَا هِيئَةُ * نَارُ حَامِيَةٍ».

(القارعة / ٨-١١)

٨- «كَلَّا إِنَّهَا لَأُظَى نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى تَدْعُوا مَنْ اَدْبَرَ وَتَوَلَّى . (المعارج / ١٥-١٧)

جمع الآيات وتفسيرها

تعايير القرآن بشأن جهنم:

في الآية الأولى نلاحظ أشهر أسماء النار الذي تكرر ذكرها في القرآن الكريم سبعا وسبعين مرة ألا وهو (جهنم)، وتشير هذه الآية إلى أتباع ابليس وتقول: «وَأَنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ». اختلف اللغويون والمفسرون في معنى كلمة «جهنم»، فقال البعض منهم أنها تعنى «النار»، وقال آخرون أنها تعنى «العميق والبعيد القعر».

جاء في «لسان العرب» أن «جَهَنَّمَ» بمعنى العمق الشديد ولهذا يقال: «بئر جهنم وجهنام» ويراد به البئر العميقة القعر. ونقل عن بعضهم في نفس الكتاب أن أصل هذه الكلمة عبراني وهو «گهنام» وورد اسمها في العربية «جهنم» (ولهذا فهي تعتبر اسماً ممنوعاً من الصرف لأنها اسم علم أولاً، وأعجمي ثانياً).

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٩٣

واعتبرها بعض اللغويين مشتقة من الكلمة العبرية «جهنون» «١»، بينما أكد آخرون أنها عربية (وسبب عدم صرفها هو العلمية والتأنيث)، واعتبرها جماعة آخرون مشتقة من أصل فارسي

ويقال للحفرة تحت الأرض التي تنفخ فيها الحرارة لتدفئة أرضية الحمام «جهنم» أيضاً «٢».

وعلى أيّة حال فمهما كان أصلها، سواء كان عربياً أو فارسياً أو عبرانياً فهي في القرآن الكريم اسم لمكان مليء بالعذاب وهو بؤرة غضب الله وله دركات ومراتب متفاوتة.

وقد ورد أيضاً في الآية أن لجهنم سبعة أبواب وهذا ما سنتحدث عنه - إن شاء الله - لاحقاً.

ونواجه في الآية الثانية اسماً آخر من أسماء جهنم وهو «سقر»، فبعد الإشارة إلى أحد المشركين المعاندين (وهو الوليد بن المغيرة) - تقول: «سَاْضِلِيهِ سَقَرٌ * وَمَا دَرَاكَ مَا سَقَرٌ * لَا تُبْقَى وَلَا تَذَرُ * لَوَاحَةٌ لِلْبَشَرِ».

ومهما يكن من أمر فكلمة «سقر» هي من أسماء جهنم ومأخوذة في الأصل من كلمة «سِقْر» على وزن (فَقْر) وتعنى التغيير والذوبان

والانصهار أثر حرارة الشمس «٣».

واعتبرها البعض اسماً لأحد طبقات جهنم المفزعة كما وردت في حديث منقول عن الإمام الصادق عليه السلام: «إن في جهنم لوادياً للمتكبرين يقال له سقر شكا إلى الله شدة حره وسأله أن يأذن له أن يتنفس فأحرق جهنم» «٤».

ونقرأ في كتاب صحاح اللغة أن «سقرات الشمس» تعنى شدة حرارتها، و «يوم مسقر» بمعنى شديد الحرارة ولاهب.

وجاء في كتاب (التحقيق في كلمات القرآن الكريم) أن هذه الكلمة تعنى في الأساس

(١). قاموس دهخدا، مادة (جهنم).

(٢). قاموس دهخدا، مادة (جهنم)؛ التحقيق؛ لسان العرب؛ المنجد؛ واقرب الموارد.

(٣). مقاييس اللغة؛ ومفردات الراغب.

(٤). تفسير الصافي، في ذيل الآية ٤٨ من سورة القمر.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٩٤

الحرارة الشديدة التي تغير لون الأشياء وصفاتها، لكنها تحوّلت بالتدريج إلى اسم من أسماء النار وتعنى النار الشديدة المحرقة التي تغير كل شيء.

و يدعم هذا الادعاء الصفات الواردة في هذه الآيات، لأنها تؤكد أنها تغير الجلود تماماً من جهة، ومن جهة اخرى أنها لا تبقى شيئاً على حاله ولا تذر.

ومن الأسماء الاخرى التي استخدمها القرآن لجهنم بشكل واسع هي كلمة «النار»، فقد تكرر ذكرها ١٤٥ مرة والتي تعنى في أغلب الموارد نار جهنم، وإن جاءت أيضاً في بعض المواضع بمعنى نار الدنيا، ومن جملة ذلك، الخطاب الموجه إلى المشككين بالقرآن إذ جاء فيه: «فَبِأَن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَكِنْ تَفْعَلُوا» (أى لم تأتوا بسورة من مثله) «فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ إِعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ». (البقرة/ ٢٤)

يقول الراغب: إن كلمة «النار» تعنى الشعلة التي تظهر أمام حس الإنسان، ويقال:

للحرارة وحدها نار أيضاً، ورأى البعض أن كلمة «النار» و «النور» مشتقتان من مصدر واحد ومتقاربتان في الوجود.

وعلى أية حال فقد كثر استخدام هذه الكلمة في القرآن الكريم بشأن جهنم إلى حد جعلها تصبح واحدة من أسمائها.

أشار القرآن الكريم إلى فئة من المجرمين قائلاً: «اولئك هم وقود النار».

(آل عمران/ ١٠)

وجاءت كلمة «أصحاب النار» في العديد من الآيات لتدل على الأشخاص الذين يردون جهنم ولهذا أصبح هذا التعبير مقابلاً لتعبير أصحاب الجنة «١».

ومن نافلة القول: إن من ضمن المواصفات التي ذكرت للنار هي أن وقودها من الناس والحجارة (أى الأصنام) وعلى هذا فهي لا تشبه نار الدنيا في هذا الجانب.

(١) الأعراف، ٤٤؛ الحشر، ٢٠.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٩٥

و نرى في الآية الرابعة اسماً وصفة اخرى لهذا المكان الذي يتجسد فيه الغضب الرباني، وهذا الاسم هو «السعير».

فبعد أن يشير القرآن إلى الغاية من نزوله وينذر الناس من يوم القيامة، يقسم الناس يومذاك إلى فريقين ويقول: «فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ

فى السَّعِيرِ».

وقد وردت كلمة «سعير» فى القرآن ١٦ مرّة وورد جمعها أى كلمة «سِعْر» مرّتين، وهذه الكلمة مشتقة من المصدر «سِعْر» وهو على وزن (فَعْر) ويعنى اذكاء النار وتأجيجها، وجاء أيضاً بمعنى شدّة الاضطرام، ولهذا «فالسعير» يعنى النار الشديدة الاشتعال واللهب والاحراق، وجاءت أحياناً بمعنى «الجنون» أيضاً لأنّ الشخص فى هذه الحالة يلتهب ويغلب عليه الهيجان، ويقال كذلك للناقة المجنونة: ناقة مسعورة (١).

ونظراً لاستخدام كلمة «السعير» فى الآية المذكورة فى قبالة كلمة «الجنة» يفهم بأنّها أيضاً أحد أسماء النار، واستخدام تعبير «أصحاب السعير» فى عدد من الآيات يعتبر أيضاً قرينه أخرى على هذه التسمية (٢).

إلّا أنّه لا يمكن انكار محيطها فى بعض الآيات القرآنية بنفس ذلك المعنى الوصفى لتشير إلى اضطرام نار جهنّم.

التعبير الخامس الذى تكرر فى القرآن فى ٢٥ موضعاً، هو الجحيم، فتقول الآية المطروحة لبحثنا: «فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ .

وكلمة «الجحيم» على وزن (لَحْم) كما يفهم من عبارات القرآن هى واحدة من أسماء جهنّم، ومشتقة من مادة «جَحْم» على وزن (لحم) التى تعنى «شدّة نوريّة النار» كما يقول الراغب فى مفرداته.

وتأكد نفس هذا المعنى فى «مقاييس اللغة» أيضاً، لكن صاحب صحاح اللغة فسّره

(١) مقاييس اللغة؛ وصحاح اللغة؛ والتحقيق؛ ومفردات الراغب.

(٢) الملك، ١٠-١١؛ فاطر، ٦.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٩٦

بالنار العظيمة المصحوبة بالحرارة واللهب.

إلّا أنّ كلمة (الجحيم) استخدمت فى موضع واحد فى القرآن الكريم بمعنى النيران المحرقة فى الدنيا عندما قال المشركون فى زمن النبى إبراهيم عليه السلام: «قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ». (الصافات / ٩٧)

إلّا أنّ هذا الاستعمال لا يمنع من كون الكلمة المذكورة من أسماء جهنّم.

وفى الآية السادسة نلاحظ كلمة «الحطمة» التى تكررت فى موضعين فى سورة «الهمزة» فالآية قد تحدثت عن الذين يبحثون عن عيوب الآخرين ويغتابونهم ويحرصون على جمع المال فقد هددهم الله بقوله: «كَلَّا لِيُنذِرَ فِي الْحُطْمَةِ * وَمَا ادْرَاكَ مَا الْحُطْمَةُ * نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ».

وكلمة «الحطمة» على حد قول صاحب «صحاح اللغة» وصاحب «مجمع اللغة»: اسم من أسماء جهنّم، وهى صيغة مبالغة من كلمة «حطم» بمعنى الكسر والتشيم، واعتبرها البعض بمعنى تكسير الأشياء اليابسة، ولهذا يطلق على سنوات القحط اسم «الحطمة» لأنّها تحطم كل شىء وتكسره وتقضى على الناس، ويُطلق اسم «الحطيم» على موضع فى الكعبة يقع بين بابها والحجر الأسود لأنّ الناس يزدحمون هناك حتى أنّ عظامهم على وشك أن تتكسر من شدّة الضغط.

وعلى هذا الأساس تعود تسمية جهنّم بالحطمة لأنّ نارها المحرقة تدمر كل شىء وتقضى عليه، وقد أوضح القرآن نفسه معناها من خلال الآيات الواردة فى هذا الباب: فقال إنّها: «نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ»، وهذه الآية بذاتها دليل على المعنى الذى ذكرناه.

ولكن يستفاد من بعض الروايات: أنّ كل اسم من أسماء جهنّم ومن ضمنها الحطمة يشير إلى قسم معين من أقسام النار (١).

(١). تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ١٧-١٩، ح ٦٠، ٦٤.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٩٧

ذكرت الآية السابعة كلمة «الهاوية» التي وردت في القرآن الكريم مرة واحدة حيث تقول الآية: «وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمَّهُ هَاوِيَةٌ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ * نَارٌ حَامِيَةٌ». (الفارعة/ ٨-١١)

قال ابن منظور في «لسان العرب»: «إِنَّ «الهاوية» أحد أسماء جهنم، وعلى هذا يكون معنى «امه هاوية» أى إن مقره ومسكنه جهنم» (١). وأشار صاحب «مقاييس اللغة» والراغب في «المفردات» إلى هذه التسمية وأن الكلمة مأخوذة في الأصل من مادة «هوى» بمعنى السقوط لأن الكفار والمجرمين يسقطون فيها، ويتضمن أيضاً إشارة إلى عمق جهنم.

وفسرت كلمة «ام» هنا بمعنى المستقر والمكان، وأحياناً بمعنى الأم أى كما تحتضن الأم ابنها تحتضن جهنم من يرد فيها. وفسرها بعضهم بمعنى الدماغ، قال: إن الهاوية وصف لأصحاب النار لأنهم يسقطون فيها على أم رؤوسهم إلا أن التفسير الأول أصح على ما يبدو.

ونرى في الآية الثامنة والأخيرة كلمة «لظى» وهي الاخرى قد ذكرت في القرآن مرة واحدة، فقد جاء في سورة المعارج بعد الإشارة إلى وضع المجرمين الذين يرغبون في يوم القيامة التضحية بأزواجهم واخوانهم وأبنائهم لانقاذ أنفسهم: «كَلَّا إِنَّهَا لَلْظَى نَزَاعَةٌ لِّلشَّوَى تَدْعُوا مَن أَدْبَرَ وَتَوَلَّى . (المعارج/ ١٥-١٧)

وكلمة «لظى» تعنى في الأصل النار أو شعله النار الخالصة، ولكن هذه الكلمة اسم من أسماء جهنم حسب ما جاء في «لسان العرب» و «مفردات الراغب» (ولهذا فهو ممنوع من الصرف بسبب علميته وتأنيته).

(١). لسان العرب، مادة (هوى) .

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٩٨

وتعنى كلمة «النزاعة» الشىء الذى ينزع ويفصل بشكل متواصل، وتعنى كلمة «شوى اليد والرجل والأطراف، (وإن كانت تأتى بمعنى الاحراق فى النار لكن الأنسب هنا هو المعنى الأول، لأن الشىء عندما يسقط فى النار، أول ما يحترق منه أطرافه وأغصانه). وقال آخرون: إن «الشوى» هو جلد البدن أو فروة الرأس، ومن عجائب هذه النار المحرقة أنها تدعو أصحاب جهنم إليها، فهل أنها حقاً ذات شعور وإدراك فتفعل هكذا؟ أم أن فى جهنم جاذبية خفية تستقطب نحوها كل من حق عليه العذاب؟ كلا الاحتمالين ممكن، ولكن الظاهر هو المعنى الأول.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن الروايات لم تذكر النار كاسم من أسماء جهنم، بل ذكرت سبعة أسماء اخرى واعتبرت كل واحد منها طبقة من طبقاتها، وليس كل واحد من هذه الأسماء السبعة يشمل جهنم بأكملها.

ومن جملة ذلك حديث منقول عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قال فيه: «إن جهنم لها سبعة أبواب أطباق بعضها فوق بعض، ووضع احدى يديه على الاخرى فقال: هكذا، وأن الله وضع الجنان على العرض ووضع النيران بعضها فوق بعض فاسفلها جهنم، وفوقها لظى وفوقها الحطمة وفوقها سقر، وفوقها الجحيم وفوقها السعير، وفوقها الهاوية» (١).

ولا مانع من اطلاق الأسماء السبعة المذكورة على كل جهنم أحياناً أو على قسم منها أحياناً اخرى كما يلاحظ ذلك فى أسماء الدنيا حيث يطلق أحياناً اسم معين على محافظة من المحافظات بأكملها، ويطلق أحياناً على مدينة معينة من مدن تلك المحافظة.

أوصاف جهنم:

يفهم من مجموع الآيات المتعلقة بجهنم وأوصافها أنها مركز جزائي رهيب مليء

(١). تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ٦، ٣٣٨؛ و تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ١٩، ح ٦٤، وجاء أيضاً في هذا الموضوع حديث مطول منقول عن الإمام الباقر عليه السلام.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٢٩٩

بالنيران اللاهبة وله أبواب ودرجات مختلفة، ولكن نارها ليست كنيران الدنيا بل تتميز بالخصائص الآتية:

١- وقودها الناس والحجارة.

٢- تطلع على الأفئدة، وتنفذ أولى شراراتها إلى القلوب.

٣- حطمة سحق كل شيء وتقضى عليه.

٤- فيها درك يدعو المجرمين إليه!

٥- توصف بأنها إذا رأت من يحشرون فيها: «إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا». (الفرقان / ١٢)

٦- متحركة كما يقول تعالى «وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى . (الفجر / ٢٣)

٧- محيطه الآن بالكافرين رغم أنها محجوبة عن الأبصار: «وَأَنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ». (التوبة / ٤٩)

قد تكون هذه الأبعاد جميعها سبباً دفع بالكثيرين إلى تفسير جهنم تفسيراً روحياً فاعتبروا نارها ناراً معنوية، لكن هذا التفسير - بلا شك - يتعارض مع ظاهر آيات القرآن الكريم، ولا ينسجم مع الروايات التي وردت في تفسيرها.

وعلى هذا ينبغي القول: إن جهنم بؤرة نار مستعرة وتختلف اختلافاً جذرياً عن نيران عالمنا هذا كما تختلف نعم الجنة مع نعم هذه الدنيا.

توضيح

فلسفة وجود النار:

يسأل الكثير عن مدى ضرورة وجود النار، فالله تعالى لا يحب الانتقام وأن العقوبات توضع لكي لا يرتكب الناس الاخطاء ثانية أو حتى تكون عبرة للآخرين، بينما نعلم أن لا

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٠٠

نفحات القرآن ج ٦ ص ٣٤٩

عودة لهذا العالم بعد هذه الحياة، ولا وجود هناك للتكليف والطاعة والذنب، وعلى هذا، ما المفهوم الذي ستحملة عقوبة باهضة كدخول النار؟ هذا من جانب.

ومن جانب آخر فإن الهدف من جميع التعاليم الدينية هو تربية وتهذيب وتكامل الإنسان، وإن لم يقبل بذلك بعض الناس فستكون عقوبتهم الحرمان من بلوغ الدرجات الرفيعة.

فما هي الضرورة لوجود جهنم، ومركز الغضب والعقاب الصارم؟

وللاجابة عن هذه التساؤلات ينبغي الالتفات إلى نقطتين:

١- قلنا مراراً إن العقوبات الإلهية سواء في هذا العالم أوفى عالم الآخرة هي نتيجة لأعمال الناس أنفسهم، وإنما تنسب إلى الله جل

شأنه باعتباره مسبب الأسباب، فالكثير من نعم الجنّة هي تجسيد لأعمال الإنسان الصالحة، والكثير من عذاب جهنم تجسيد لأعماله السيئة، ونحن نعلم أن نتائج العمل وآثاره ليست بالأمر الهين الذي يمكن التساهل فيه. فمثلاً، الشخص الذي يتناول المشروبات الروحية والمخدرات، ليقضى فترات من الراحة وهدوء البال - حسب تصوره - في ظل هاتين المادتين المخدرتين، ولينتشى باللذّة المتأبّية من نسيان الدنيا، يُحذّر بأنّ هاتين المادتين المخدرتين هما من عوامل الفساد والتحلل وستؤدّيان في النهاية إلى القضاء عليه، فالمشروبات الكحولية تسبب له أمراض القلب والشرايين والاعصاب والكبد، والمخدرات تدمر أعصابه بل وتنهى كل كياته.

فاذا لم يُصغ إلى هذا الانذار وتمادى في ممارسته الخاطئة فأنّه سيواجه عقوبته جزاء وهذا لا يحتاج إلى فلسفة ودليل سوى قانون العلية، وهي النتيجة الطبيعية لعمل كل إنسان وغالباً ماتكون الذنوب على هذه الشاكلة، وتعقبها نتائج في هذه الدنيا، وفي الآخرة فهي تتجسد على صورة العذاب في جهنم.

ولهذا يُلاحظ هذا التعبير الذي يتكرر كثيراً في الآيات الشريفة والذي يقول: إنكم تجزون ما كنتم تعملون فنقرأ في قوله تعالى «وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ». (النمل / ٩٠)

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٠١

ونقرأ أيضاً: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَاتَعْتَدُوا الْيَوْمَ أَنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ». (التحریم / ٧)

فالمعذرة نافعة حين لا تكون القضية متعلّقة بالعلّة والمعلول والنتيجة للأعمال.

و الآيات التي تتحدث مثلاً عن تجسيد الأعمال وتشبهه أكل مال اليتيم بأكل النار تدل بأجمعها على هذا المعنى وكذلك الروايات التي تقول إن الطباع الحيوانية في الإنسان، تظهر من داخله يوم القيامة وترسم على خارجه، فتغدو صور الأشخاص شبيهة بالحيوانات المتميزة بتلك الطباع.

و خلاصة القول: إن هذه الدنيا مزرعة، والآخرة أوان وزمان الحصاد، فإن كان الإنسان قد زرع بذور الورد، فمحصوله أغصان طيبة وطرية ومعطرة من الورد، وإن كان قد بذر الشوك فلا يجنى سواه.

جاء في حديث عن النبي صلى الله عليه وآله: «جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله أوصني فقال: احفظ لسانك، قال: يا رسول الله أوصني، قال: احفظ لسانك، قال: يا رسول الله أوصني، قال: احفظ لسانك ويحك وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم» (١).

٢- لا شك في أن التبشير والتحذير يعتبران دعامين أساسيين في إجراء البرامج التربوية، فكما أن التبشير بالجزاء الأوفر الذي يحظى به الإنسان في الجنّة يُعيدُ عاملاً فاعلاً في الدعوة إلى طاعة الله وترك معصيته، فكذلك التحذير والوعيد بالعذاب الصارم في جهنم يُعتبر هو الآخر مؤثراً قوياً في هذا الجانب، لا بل ثبت بالتجربة أن للعقوبات تأثيراً أقوى

ولهذا فإن جميع القوانين التي تسنّها مراكز التشريع القانوني في العالم تضمن عقوبات للمخالفين وهو ما يصطلح عليه علماء الحقوق باسم الضمانة التنفيذية، وتحظى هذه الضمانة بقدر كبير من الأهمية بحيث تُعتبر واحدة من العناصر الأساسية التي يبني عليها القانون، ولو أن قانوناً استنّ ولم يتضمن أي عقاب للمخالفين (كالسجن والجلد والغرامة

(١). اصول الكافي، ج ٢، ص ١١٥، ح ١٤.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٠٢

المالية والحرمان من بعض الحقوق الاجتماعية) فلا يمكن أن يطلق عليه قانوناً.

فكيف تكون القوانين الإلهية - والحالة هذه - خالية من الضمانة التنفيذية؟! فهي عندئذ تفقد قيمتها القانونية، ولا يرى المخالفون لها

والمتخلفون عنها أى دافع أو وازع لإطاعتها والالتزام بها، ويبقى هدف القانون عقيماً.

صحيح أن الآثار الوضعية والطبيعية لعدم الالتزام قد تكون رادعاً للذين يقومون بمخالفات شرعية، إلا أنها غير كافية لوحدها، ولهذا فقد أدرج سبحانه وتعالى سلسلة من العقوبات لمن يتخلف عن الالتزام بها، فكما يهدد أقواماً بالعقوبة الدنيوية (وأمثله ذلك كثيرة وقد تحققت فى الوجود الخارجى وأشار إليها القرآن فى تبيان حياة الأقسام السالفة) فهو - جل شأنه - قد وضع أيضاً العقوبات فى الآخرة لمن يتوانى عن التقيد بها.

ومن الواضح كذلك أنه كلما اشتدت لهجة الترغيب والترهيب، كلما كان التأثير أقوى وأكثر.

وهذا الأمر يوضح أحد الأبعاد الأساسية لفلسفة وجود الجنة والنار.

وربما يقال هنا إن جميع الآثار التى عُرِضت إنما تترتب على الوعيد بالعقاب والجزاء، وعلى هذا، فما المانع من أن يكون سبحانه وتعالى قد عرض كل هذه التهديدات والتحذيرات، إلا أنها لا تتحقق فى القيامة، لعدم وجود ضرورة لها، وذلك لخلو ذلك العالم من دروس العبرة للآخرين وانعدام تكرار الذنب من قبل المجرمين؟

إن هذا الكلام يستلزم أن يرتكب الله عز وجل، القبيح وأنه - والعياذ بالله - يكذب ويتخلف عن وعده فهو يوعد بالعقاب للمتخلفين وحتى أنه يُقسم بتنفيذ وعيده، وكيف لا يطبق ذلك فعلياً؟! من البديهي أن هذا الفعل قبيح لا يليق بذاته المقدسة بل ولا يفعله الإنسان المهذب الحكيم.

والنتيجة: أن وجوب التهديد والوعيد بالعقاب والجزاء ضمانته تنفيذية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لا بد من تطبيق تلك الوعود والتهديدات لدفع القبح عن ذاته المقدسة.

وهذه هى فلسفة وجود جهنم وعقوباتها.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٠٣

ومن أجل هذا نصت الآية الكريمة بالقول: «فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلَفًا وَعَدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ». (إبراهيم / ٤٧)

ثم يشرح فى أعقاب هذه الآية بعضاً من عذاب يوم القيامة.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٠٥

٣ - أبواب جهنم وطبقاتها

تمهيد:

من خلال ملاحظة عدد من آيات القرآن الكريم نستنتج أن لجهنم أبواباً متعددة، وصرحت إحدى هذه الآيات بأنها سبعة، فهل تشير هذه الأبواب إلى الأعمال التى تُسقط الإنسان فى النار وهى فى الحقيقة طرق دخول الناس إلى جهنم؟ كما هو الحال لأبواب الجنة التى سبق الحديث عنها؟ أم أنها إشارة إلى طبقات جهنم ودرجاتها التى ذكرتها الكثير من الروايات؟ أم أن كلا المعنيين قد اجتمعا فى مفهوم هذه الآيات؟

من الأفضل أن نبحت أولاً فى تفسير الآيات المتعلقة بهذا الحقل، لكى نحصل على جواب السؤال المذكور أعلاه.

ومع هذا التمهيد الوجيز نعود إلى القرآن ونقرأ الآيات الآتية:

١- «وَأَنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ».

(الحجر / ٤٣-٤٤)

٢- «فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ». (١) (النحل / ٢٩)

٣- «وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا». (الزمر / ٧١)

٤- «إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا». (النساء / ١٤٥)

جمع الآيات وتفسيرها

ما هو المقصود من أبواب جهنم؟

تحدث الآية الاولى عن أتباع الشيطان، الذين وصفتهم الآيات السابقة لها، فقالت:

(١). ورد نظير هذا المعنى فى الآية ٧٢ من سورة الزمر؛ والآية ٧٦ من سورة غافر.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٠٦

«وَأَنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ».

ولكن ما المقصود من «أبواب جهنم»؟ ذكر المفسرون احتمالات مختلفة لذلك:

الأول: إنها إشارة إلى مداخل جهنم التى تنتهى جميعها فى مركز واحد، كالأبواب المتعددة لبناية واحدة فى ديانا هذه، وهى فى الحقيقة تعبير عن كثرة الداخلين إلى هذا المكان الذى يتجسد فيه الغضب الإلهى، ويبدو هذا الاحتمال مستبعداً فى ظل الروايات المتعددة التى تفسر هذه الآية.

الثانى: المقصود هو الطبقات المختلفة فى جهنم التى تتفاوت فى شدة العذاب، وعلى هذا فكل واحد من هذه الأبواب السبعة يفتح على واحدة من تلك الطبقات.

وهناك روايات عديدة وردت عن أهل البيت عليهم السلام وعن طريق أهل السنة تشهد على هذا التفسير.

فقد ورد فى الدر المنثور حديث منقول عن الإمام على عليه السلام أنه قال: «أتدرون كيف أبواب جهنم؟ قلنا كنعو هذه الأبواب! قال: لا ولكنها هكذا ووضع يده فوق يده وبسط يده على يده» (١).

وجاء عنه عليه السلام أيضاً أنه قال: «سبعة أبواب النار متطابقات» (٢).

ونقل عنه عليه السلام أيضاً حديث آخر فسّر فيه الأبواب السبعة لجهنم بالطبقات التى تقع فوق بعضها وسمائها بأسمائها وهى:

«فأسفلها جهنم، وفوقها لظى وفوقها الحطمة، وفوقها سقر، وفوقها الجحيم، وفوقها السعير، وفوقها الهاوية» (٣).

الثالث: إن تعدد تلك الأبواب يرجع إلى تعدد الأقسام الذين يردون منها.

جاء فى تفسير روح المعانى نقلاً عن بعض المصادر الخبرية إن: «فى الدرك الأول

(١). تفسير درّ المنثور، ج ٤، ص ٩٩.

(٢). تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ١٨، ح ٦٢.

(٣). المصدر السابق، ص ١٩، ح ٦٤.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٠٧

المحمديون، وفى الثانى النصارى وفى الثالث اليهود، وفى الرابع الصابئون، وفى الخامس المجوس، وفى السادس مشركو العرب، وفى

السابع المنافقون وآل فرعون ومن كفر من أهل المائدة» (١).

الرابع: أن المقصود من تلك الأبواب هي الأعمال والذنوب التي تسبب دخول جهنم.

والدليل على هذا الكلام ما يأتي:

أولاً: المقابلة الموجودة مع أبواب الجنة، فتصف بعض الروايات صراحةً أن أحد أبواب الجنة هو باب «الجهاد» أو أن أحد أبواب الجنة يسمى «باب المجاهدين» (٢)، وأشارت روايات أخرى إلى الأبواب الأخرى وقالت بوجود صلة بينها وبين أعمال الإنسان كـ «الصبر» و «الشكر» وماشابه ذلك.

ثانياً: الروايات التي تنص على أن بعض أبواب جهنم يدخل منها فرعون وهامان وقارون، ويرد من بعضها المشركون، وبعضها الآخر يرد منها أعداء آل بيت الرسول صلى الله عليه وآله (٣)، وهذا دليل أيضاً على الصلة بين أبواب جهنم والذنوب المختلفة. إلا أن التفاسير الثلاثة الأخيرة يمكن جمعها مع بعضها لأن كل واحدة من طبقات النار أكثر إيلاماً من الأخرى وكل واحدة من الفئات التي تردّها أكثر ذنباً وإجراماً من الأخرى وكل عمل ارتكبه أسوأ من الآخر، وعلى هذا الأساس يمكن جمع التفاسير الثلاثة في مفهوم واحد. وبالنتيجة تطالعنا أبواب جهنم بحقيقته وهي كما أن أعمال الإنسان مختلفه مع بعضها وأصناف المجرمين والكفار متباينه فيما بينها، فعقوباتهم في العالم الآخر غير متساوية وتختلف فيما بينها اختلافاً شاسعاً.

(١). تفسير روح المعاني، ج ١٤، ص ٤٨؛ تفسير القرطبي، ج ٥، ص ٣٦٤٦.

(٢). اصول الكافي، ج ٥، ص ٢، ح ٢.

(٣). بحار الأنوار، ج ٨، ص ٢٨٥، ح ١١.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٠٨

تخاطب الآية الثانية الكفار الذين ظلموا أنفسهم بسلوكم هذا السبيل الخاطيء وتقول لهم: «فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ».

وما يلفت النظر هنا أن «أبواب جهنم» جاءت هنا بصيغته الجمع في حين يدخل كل فريق من باب واحدة لا من أبواب متعددة، (فتأمل). ولعل مرد هذا التعبير هو كون المخاطبين جمعاً، ومن الطبيعي عندما تريد جماعة الدخول إلى مكان ما له أبواب عديدة، فكل فريق يدخل من باب، إذن فهم جميعاً يدخلون من أبواب متعددة، أو أن كل فريق منهم يدخل تحت عنوان خاص من الباب المخصصة له، كما ويحتمل أيضاً أن يكون مخاطبو هذه الآية في الطبقات الدنيا من جهنم وهذا ما يحتم عليهم اجتياز أبواب وطبقات متعددة للوصول إلى هناك.

وعلى أيّة حال فالآية أشارت فقط إلى أبواب الجنة من غير أن توضح عددها، وتعبير آخر يبدو أن جهنم شبيهة بالسجون الرهيبة المتداخلة في بعضها والمكوّنة من طبقات متعددة، وهنالك فريق من الضالين والمعاندين يجب أن يمروا من خلال كل هذه الطبقات لكي يستقروا في «قعر جهنم» أو «الدرك الأسفل» أو في الطبقات القريبة منه.

وورد نفس هذا الموضوع في الآية الثالثة وتعبيرات أخرى حيث قال تعالى «وَسَيَقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَبَحَّتْ أِبْوَابُهَا».

وكأن هذا التعبير يشير إلى أن جهنم تدرك وصولهم حينما يقتربون، فتفتح لهم الأبواب فجأة وهذه الرؤية المفاجئة تزيد من روعهم، في حين جاء نفس هذا المعنى بشأن أصحاب الجنة فكان مدعاة لمزيد من الفرح والسرور لهم، ونواجه هنا ثانية ذكر تعدد أبواب جهنم من غير ذكر لعددها، ومن ثم يتكرر الحديث هنا أيضاً عن انفتاح جميع الأبواب، في حين يدخل كل فريق من باب، وقد يكون اختيار هذا التعبير لأسباب ذكرت في الآية السابقة.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٠٩

وفى الآية الرابعة ليس هناك ذكر للأبواب، بل تركّز الحديث عن الطبقة السفلى من جهنم، وهو ما يظهر تعدد طبقات جهنم، إذ تقول الآية: «أَنَّ الْمُتَنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا».

يطلق في اللغة العربية على الخطوات الصاعدة نحو الاعلى اسم «الدرجة» وعلى النازلة إلى الأسفل اسم «الدركة». وهذه الكلمة مأخوذة من المصدر «الدرك» وهو بمعنى بلوغ الشيء ونيله، ولهذا يطلق على الحبال التي توصل مع بعضها لتصل إلى قعر البئر اسم «الدرك» وتسمى أعمق نقاط البحر أو الاماكن الأخرى باسم «الدرك» على وزن (فلك)، وعلى هذا الأساس وصف «الدرك» في الآية الشريفة ب «الأسفل» من باب التأكيد والقيد التوضيحي.

وعلى أيّة حال فهذه هي الآية الوحيدة الحاوية على إشارة لطبقات جهنم ويمكن أن نطابق معها الآيات السابقة التي تحدثت عن أبواب جهنم، والنتيجة هي نفس ما أفادت به الآيات السابقة وهي أن أبواب جهنم ليست في ازاء بعضها الآخر بل هي فوق بعضها طويلاً، إحداها فوق الاخرى

يقول الفخر الرازي في تفسيره بعد أن يُعطي معنى «الدرك» بأنه أعمق نقطة في قعر الشيء: «فالدرك ما يلحق به من الطبقة، وظاهره أن جهنم طبقات، والظاهر أن أشدها أسفلها» (١).

ومما يسترعى الانتباه في هذه الآية أنها حددت أسفل قعر جهنم كمكان أسوأ للمنافقين ما يدل على أن «النفاق» هو أسوأ الذنوب ويستوجب الدرك الأسفل من جهنم، وسبب ذلك جلي فالخطر الذي يهدد المجتمع الإسلامي من جزاء وجود النفاق يفوق بمرات عديدة الخطر القادم من الأعداء والكفار الذين يبدون كفرهم وعداءهم علناً. وجاء في حديث شريف حول العلماء الفاسدين: «إنّ من العلماء من يحب أن يخزن

(١). تفسير الكبير، ج ١١، ص ٨٧.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣١٠

علمه ولا يؤخذ عنه فذاك في الدرك الأسفل من النار» (١).

وكما ذكرنا فإنّ بعض الروايات تفيد أنّ لكل واحدة من أبواب جهنم سبع أصحاباً خاصين، ففرعون وهامان وقارون مثلاً يدخلون من باب واحد ومن باب اخرى يدخل بنو امية، ويدخل المشركون من باب اخرى وهكذا (٢).

ومن البديهي أنّ دخول فرعون وهامان وقارون أو بنى امية من هذه الأبواب إنّما يعود لطبيعه أعمالهم ومعتقداتهم، ولهذا فكل من يشايعهم ويسير على خطهم الفكرى والعقائدى يدخل تلقائياً من نفس تلك الباب، ومن هذا المنطلق تتضح طبيعة العلاقة بين الإنسان وأعماله ومعتقداته».

(١) بحار الأنوار، ج ٨، ص ٣١، ح ٧٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٨٥، ح ١١.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣١١

٤- العذاب الجسدى لأصحاب النار

تمهيد:

إشارة

كما أن الثواب الإلهي والنعم الموجودة في الجنة تقسم يوم القيامة إلى قسمين «روحية» و «مادية» كما سبق شرحه بالتفصيل فكذلك عذاب جهنم أيضاً، إذ يُقسم هو الآخر إلى نوعين: روعي، ومادي، لأننا نعلم أن للمعادِ بُعدين يستدعي كل منهما ما يستحقه من الثواب والعقاب.

إضافةً إلى أن أعمال الإنسان في هذه الدنيا على شكلين أيضاً أولهما: «الأعمال القلبية والروحية»، وثانيهما «الأعمال الجسمية والمادية»، وعلى هذا فمن غير الممكن أن يقتصر الثواب والعقاب هناك على نوع واحد.

وتمثل آيات القرآن والروايات الواردة في هذا الصدد شاهداً على هذا القول. بعد الانتهاء من هذا التمهيدي الوجيز نحاول التعرف على العقوبات الجسدية لأصحاب النار، ونتمتع في الآيات القرآنية الواردة في هذا الحقل، ونبحثها تحت العناوين التالية:

١- شدة عذاب أصحاب النار

٢- طعامهم.

٣- شرابهم.

٤- ثيابهم.

٥- سائر عذابهم الجسدي.

١- شدة عذاب أصحاب النار

إشارة

١- «يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمئِذٍ بِنَيْهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣١٢

الَّتِي تُتَوَبُّهُ * وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ». (المعارج / ١١-١٤)

٢- «فَيَوْمئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ». (الفجر / ٢٥-٢٦)

٣- «فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ». (الغاشية / ٢٤)

٤- «أُطْلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ * لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ * إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرِّرٍ كَالْقَصْرِ * كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ». (المرسلات / ٣٠-٣٣)

٥- «وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى .

(الاعلى ١١-١٣)

جمع الآيات وتفسيرها

تبلغ شدة العذاب في يوم القيامة إلى الحد الذي يتمنى فيه المجرم كما وصفه القرآن في الآيات من بحثنا قائلًا: «يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمئِذٍ بِنَيْهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُتَوَبُّهُ * وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ» (١).

فيتبين من هذا التعبير وبكل وضوح أن العذاب الإلهي في ذلك اليوم شديد جداً ورهيب حتى أن المجرم يغدو مستعداً للتضحية، بجميع ثروته وكل أعزائه بل وبجميع سكان الأرض ليخلص نفسه (ولا تعبير أفصح ولا أبلغ من هذا)، ولكن ما الفائدة لأن أياً من هذه التضحيات لا تُقبل منه، فيقع ضحية أعماله وعواقبها المؤلمة.

وبعد أن تشير الآية الثانية إلى صحوه المجرمين يوم القيامة وندمهم وشدة أسفهم على تفریطهم في أداء الفرائض الربانية، تقول: «فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وَثَاقُهُ أَحَدٌ» (٢).

(١). كلمة «الفصيلة» مأخوذة عن المصدر «الفصل» ويعنى الافتراق والانقسام وتعنى هنا العشيرة والقبيلة التي جاء منها الإنسان.
(٢). يعود الضمير في «عذابه» و «وثاقه» إلى الله تعالى واحتمل بعض المفسرين كالألوسي في روح المعاني والبرسوي في روح البيان رجوع الضمير على الإنسان لكن هذا الاحتمال يبدو بعيداً جداً.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣١٣

وعلى هذا المنوال فعذابه لا نظير له، وتوثيقه في الحبال لم يجر على أحدٍ من قبله ولا من بعده على ضوء الآية. وهذه التعابير بشكل عام تحمل أبعاداً تربوية تحث الناس على خشية الله وتجنب أليم عقابه، لأن أذهان الناس قد اعتادت على أن «الله أرحم الراحمين» فهو لا يعذب عباده وإذا عاقبهم فعقوبته خفيفة جداً، وهذا الوهم يدفع إلى الجرأة على ارتكاب المعاصي والذنوب، ولذلك يفصح القرآن وبشكل صريح عن وجود ذلك العذاب ليخرج الناس هذه التخيلات الباطلة من أذهانهم ويراقبوا أعمالهم. وانعكس نفس المعنى في الآية الثالثة إلا أنه ورد بتعبير آخر فهي تتحدث عن الكفار الذين يديرون ظهورهم للحق فتقول: «فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ».

«والعذاب الأكبر»: إشارة إلى عذاب يوم القيامة في قبالة العقوبات الدنيوية التي وُصفت «بالعذاب الأدنى كما نصت من سورة السجدة: «وَلَنذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ». (سجدة/ ٢١)

وتجدر الإشارة إلى أن العذاب الإلهي في الدنيا قد يكون أحياناً شديداً جداً بحق القوم المجرمين كما حصل لقوم لوط إذ ذكَّ مدنهم وقراهم ذكاً وجعلهم هم وإياها قاعاً صَفْصِفاً، ومع ذلك فهذا العذاب يبقى عذاباً أدنى في مقابل عذاب القيامة وهذا ما يُنبئ عن شدة العقوبة يوم القيامة.

وفي الآية الرابعة ورد تبيان لقسم من العذاب الصارم الذي يلقاه أصحاب النار، فيقال يومذاك لمنكرى القيامة ومحكمه العدل الإلهي، اذهبوا إلى ما كنتم به تكذبون: «انظُرُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ * لَا ظِلِّيلٌ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ * أَنَّهَا تَرْمِي بِشَرِّرٍ كَالْقَصِيرِ * كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ».

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣١٤

تستعرض هذه الآيات أوصافاً مثيرة حول شدة عذاب جهنم إذ يُقال لمنكرى هذه المحكمه الإلهية الكبرى والمحملين بشتى المعاصي والذنوب:

أولاً: انظروا إلى ظل؛ ولكن أى ظل؟ الظل الناتج عن الدخان الخائق المنقسم إلى ثلاث شعب، شعبة منها فوق الرأس والأخرى عن اليمين والثالثة عن الشمال، وهو باختصار ظل قاتل يحيط بهم من كل صوب، ظل لا كظلال الأشجار الهادئة في الجنة، أو ظلال السقوف والقصور، بل إنه ظل حارق لشدة حرارته.

ثانياً: إن لهذا الظل ثلاث شعب مليئة بالشرر المتطاير وكل شرارة فيه عظيمة بحجم القصر، أو كالجمال الصفراء المسرعة نحو كل صوب، يا له من مكان، إن كان ظلّه هكذا فكيف بناهه؟!

ويالها من عبارات مرعبة ودقيقة، فالناس يهربون عادة من الحرارة إلى الظل، بينما لا ظل هناك سوى ظل الدخان الذي تنبعث منه النيران، وإذا كان تصور مثل هذا الدخان صعباً في أيام نزول هذه الآيات، فساحات الحروب الإجرامية اليوم وما يلقى فيها من قتابل تُغطى كل شيء بالدخان والنار فيها قد تكون صورة مصغرة لذلك العذاب الأكبر، إضافة إلى وجود شرر كبير الحجم وشواظ من نار تتطاير في مساحات واسعة، وهذا كله في ظلال تلك النار (١).

وقد تكون كلمة «القصر» إشارة إلى قصور الظالمين، ولعل تشبيه شرر جهنم بها، أى بتلك القصور التى تؤجج النيران دوماً فى قلوب المحرومين، يعكس معنى عميقاً ودقيقاً، وكذلك التشبيه بالجمال الصفر ذات النمط الواحد فهو رمز لثروة المستكبرين، وهو أيضاً تعبير آخر ذو مغزى عميق فى هذا السياق.

وقد يتوهم البعض أن تشبيه الشرر بالقصر حيناً وبالجمال الصفر حيناً آخر يبدو غير

(١). يعتقد البعض أن الضمير فى «إنها» يعود إلى «النار» وهو مؤنث مجازى، ورغم عدم ذكر النار فى الآية إلا أنه يمكن الاستدلال عليها بقرينة ظل الدخان، ولكن الأفضل هو ارجاع الضمير إلى الظل ذى الثلاث شعب وهو الظل الخائق لأن الهدف هو الاطلاع على الآثار القاتلة لهذا الظل حتى يتضح موضوع النار بطريق أولى

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣١٥

منسجم وذلك لأن أحدهما كبير جداً والآخر صغير نسبياً.

ولكن ينبغى الالتفات إلى أن كل واحد من هذين التشبيهين يركز على جوانب خاصة، فالتشبيه الأول للدلالة على عظمة ذلك الشرر، والتشبيه الثانى يرمز إلى الكثرة والسرعة والتطير فى كل صوب كافتراق الجمال المسرعة فى الصحراء أو هو إشارة إلى اختلاف ذلك الشرر، فشررها الكبير بحجم قصور الظالمين، وشررها الصغير بحجم جمالهم الصفر.

«الجمالة»: جمع «جَمَلٍ» أى البعير مثل حَجَرٍ وَحِجَارَةٍ، و «صُفْرٌ» جمع أصفر وهو اللون المعروف، وتُطلق أحياناً على الألوان الغامقة المائلة إلى السواد أيضاً، لكن الأنسب هنا هو المعنى الأول.

وتلاحظ فى الآية الخامسة والأخيرة عبارة اخرى تصف شدة عذاب النار حيث تقول:

«وَيَتَجَنَّبُهَا الشَّقَىٰ * الَّذِي يَصَلَّى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ .»

فهذه صورة تعكس العذاب الأليم فى جهنم، حيث يعيش المعدَّبون فيها حالة بين الموت والحياة فلا هم يموتون وفى ذلك راحة لهم، ولا الحال التى يحيونها يمكن أن يُطلق عليها اسم الحياة، كما هو حال من يعيش فى عذاب شديد فى الدنيا فيجعله يتخبط بين الموت والحياة.

وكلمة «النار الكبرى فى مقابل النار الصغرى» التى هى عذاب هذه الدنيا.

جاء فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، وقد اطفئت سبعين مرة بالماء ثم التهبت، ولولا ذلك ما استطاع آدمى يطيقها» (١)

ونقل نفس هذا المعنى عن على عليه السلام عن النبى صلى الله عليه وآله.

واحتمل بعض المفسرين أن تكون «النار الكبرى هنا إشارة إلى قسم من جهنم عذابه

(١). تفسير الإمام العسكرى عليه السلام وفقاً لما جاء فى بحار الأنوار، ج ٨، ص ٢٨٨، ح ١، ٢.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣١٦

أشد (أى أدنى الطبقات فيها) «١»، ولكن يبدو أن التفسير الأول يناسب الحال أكثر من التفسير الثانى.

كان هذا جانباً من الأبعاد الواسعة لنار جهنم وشدة عذابها الأليم.

تمهيد:

ذكرنا مراراً بأن المعاد يتحقق ببعديه الجسمي والروحي، وعلى هذا الأساس فالجزاء له بُعدان أيضاً، ومن جملة القضايا التي تكون مدعاة للذة الجسم أو سبباً لعذابه هي الأطعمة والأشربة، فالطعام الكريه والفاقد للتن والمحرق يعتبر عذاباً أليماً بينما الطعام أو الشراب اللذيذ والطيب يكون سبباً لارتياح الجسم ولذته حتى أنه يؤثر على روحية الإنسان أيضاً ويبعث فيها البهجة والانشراح على العكس من الأشربة الفاسدة التي تسبب الألم للجسد وللنفس.

ومن أجل التركيز على الجوانب التربوية لوجود جهنم، حذر القرآن المجرمين والمسئئين بشدة من نتائج أعمالهم القبيحة وأماط اللثام عن النوعية الرديئة للأطعمة والأشربة في جهنم وعرض لهم جانباً منها، والتعابير المستخدمة في هذا الصدد تثير الفزع والرهبة لدى كل إنسان، وبعد هذا التمهيد المختصر نعود إلى القرآن الكريم لنمعن في آياته الآتية:

١- «أَنَّ شَجَرَتَ الرَّقُومِ * طَعَامُ الْإِثْمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلِي الْحَمِيمِ».
 (الدخان / ٤٣- ٤٦) ٢- «أَذَلِكْ خَيْرٌ نَزَلًا أَمْ شَجَرَةُ الرَّقُومِ» «أَنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلَعَهَا كَأَنَّه رُؤْسُ الشَّيَاطِينِ * فَانْتَهَمَ لَمَّا كَلُونِ مِنْهَا فَمَا لُونُ مِنْهَا الْبُطُونِ». (الصفات / ٦٢- ٦٤- ٦٦) ٣- «فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ * وَلَمَّا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسَلِينَ * لَأَيَّ أَكُلَهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ».

(الحاقة / ٣٥- ٣٧)

(١). تفسير الميزان، ج ٢٠، ذيل الآية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣١٧

٤- «تَضَلَّى نَارًا حَامِيَةً * تُسْقَى مِنْ عَيْنِ آيَةٍ * لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ * لَأَيُّسَمُنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ». (الغاشية / ٤- ٧) ٥- «أَنَا اغْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سِرَادِقُهَا وَأَنْ يَسْتَعِينُوا يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا». (الكهف / ٢٩) ٦- «أَنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلطَّاغِينَ مَنَابًا * لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا * لَأَيَّدُقُونَ فِيهَا جُودًا * وَلَا شِرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا». (النبأ / ٢١- ٢٥) ٧- «وَحَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مَنْ وَرَاءَهُ جَهَنَّمَ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ * يَنْجَرُّعُهُ وَلَا يُكَادُ يَسِّيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ» (١).

(إبراهيم / ١٥- ١٧)

جمع الآيات وتفسيرها

الزقوم - الحميم - غسلين - الضريع - الغساق - الصديد

نلاحظ في الآية الأولى أول تعبير عن طعام أصحاب جهنم، وهو شجرة الزقوم حيث يقول تعالى في قرآنه الكريم: «أَنَّ شَجَرَتَ الرَّقُومِ * طَعَامُ الْإِثْمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلِي الْحَمِيمِ».

للمفسرين وأصحاب اللغة آراء كثيرة في معنى كلمة «الزقوم» التي تكررت ثلاث مرات في القرآن الكريم (٢). فقال البعض إنها كلمة عربية ومشتقة من المصدر (زُقْم) على وزن (زُقْم) وتعني البلع وقال آخرون إن هذه الكلمة لم يكن لها وجود في اللغة العربية ودخلت الأوساط العربية من أفريقيا (الحبشة).

(١). ورد في آيات عديدة أخرى تعابير شبيهة بالآيات المذكورة، من جملة ذلك: الآية ١٣ من سورة المزمل؛ والآية ٧٠ من سورة

الأنعام؛ والآية ٤ من سورة يونس؛ والآية ٥٧ من سورة ص؛ والآية ٤٦ من سورة محمد (ص)؛ والآيات ٥٢-٥٧ من سورة الواقعة.

(٢). الآيات: ٦٢ من سورة الصافات؛ و ٤٣ من سورة الدخان؛ و ٥٢ من سورة الواقعة.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣١٨

واعتبرها بعض المفسرين وأصحاب اللغة إسماً لعشب شديد المرارة كرية الرائحة له أوراق صغيرة وينمو في إقليم تهامة من شبه جزيرة العرب وكان المشركون يعرفونه جيداً، وهو عشب عصارته شديدة المرارة وحادة الطعم إذا لامس الجسم تورم «١».

ويعتقد الراغب في «مفرداته» أن «الزقوم» تعنى كل طعام تشمئز منه النفس وهو طعام أصحاب النار.

وقال بعض المفسرين: عندما نزلت هذه الكلمة في القرآن قال كفار قريش: «ما نعرف هذه الشجرة، فقدم عليهم رجل من أفريقيا فسأله فقال: هو عندنا «الزُّبْد والتمر»، فقال ابن الزُّبَيْري أكثر الله في بيوتنا الزقوم. فقال أبو جهل لجاريته: زقمينا؛ فأنته بزبد وتمر. ثم قال لأصحابه: تزقموا؛ هذا الذي يخوفنا به محمد، يزعم أن النار تنبت الشجر والنار تحرق الشجر» «٢».

وقد أدى هذا التفسير ببعض أصحاب اللغة والمفسرين إلى اعتبار هذا المعنى هو أحد معاني الزقوم ظناً منهم بجديته وواقعية التفسير المذكور، كما نقل عن الجوهرى قول في لسان العرب: «الزقوم اسم طعام لهم فيه تمر وزبد».

أما المجموعة الثانية من الآيات فإنها تعطى توضيحاً أكثر لأوصاف «الزقوم» هذا الطعام الكرية المعد لأصحاب النار، فتقول: «أَذَلِك خَيْرٌ نُزْلاً أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤْسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَأَكَلُونَ مِنْهَا فَمَا لَيْسُوا بِهَا بِطُورٍ».

وأول ما نواجه هنا الاعتراض الذي طرحه أبو جهل وقال مستهزئاً وهل ينمو الشجر في النار؟ فالنار عدو الشجر فهي تحرقه.

لكن هؤلاء المغرورين الظلمة فاتهم أن القوانين المهيمنة على الحياة الأخرى مغايرة تماماً لما هو سائد في هذه الحياة، فقد ينمو في الجنة عشب أو شجر ينبثق من قعرها وهو

(١). تفسير مجمع البيان؛ وتفسير مروج البيان؛ وتفسير روح المعاني.

(٢). تفسير القرطبي، ج ٨، ص ٥٥٢٩، ذيل الآية ٦٢ من سورة الصافات.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣١٩

على لونها ويكبر في ظل ظروفها ولا يشبه الأعشاب التي تنمو في حدائقنا وحتى في الحياة الدنيا توجد عجائب من هذا القبيل إذ تنمو مخلوقات حية بين طبقات الثلج وهذا دليل على أن الحياة للكائنات الحية هناك لا يشترط فيها أن تكون (كحياة الكائنات الحية المعروفة في بيئتنا العادية، أو ليس من العجيب بقاء الإنسان حياً في جهنم؟! فما الفرق بين الإنسان والعشب؟).

أما تشبيه فروع هذه النبتة «برؤوس الشياطين» مع أن مخاطبي هذه الآيات لم يكن أحد منهم قد رأى الشيطان ولا رؤوس الشياطين، فقد يكون من باب تشبيه كل قبيح بالشيطان، كما يشبه كل كائن جميل بالملاك رغم أن أحداً لم ير الملاك، فنسوه مصرقُ قُلن عن يوسف: «إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ». (يوسف / ٣١) وفي محادثتنا اليومية نقول أحياناً أن الشخص الفلاني ك «العفريت» مع أن أحداً لم يكن قد رأى «العفريت»، بل العفريت كائن وهمي لا وجود له.

وكل هذه التشبيهات جاءت على أساس التصور الموجود لدينا عن كلمة «الملاك» و «الشيطان»، وهى على العموم تشبيهات بليغة ومؤثرة وجميلة.

وعلى هذا فالزقوم ليس كرية الطعم والرائحة فقط بل وحتى شكله الظاهري قبيح جداً، على العكس من الكثير من النباتات السامة في هذه الدنيا ذات المظهر الجميل.

وقال جماعة من المفسرين أيضاً: إنَّ أحد معاني الشيطان هو حية قبيحة المظهر شبّهت بها تفرعات الزقوم، لكن هذا التفسير يبدو مستبعداً، لأن استعمال الشيطان في مثل هذا المفهوم نادر جداً.

وفى المجموعة الثالثة من الآيات ورد اسم طعام آخر من أطعمة أصحاب النار وهو «غسلين»، فقالت الآية الشريفة: «فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَهْنَا حَمِيمٌ* وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسْلَيْنِ* لَأَيُّكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ».

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٢٠

تعنى كلمة «الغسل» التى وردت مرّة واحدة فى القرآن الكريم: التنظيف بالماء وهى مأخوذة من المصدر «غسل». قال الراغب فى «المفردات»: إن «الغسلين» هو غسله أبدان الكفار، لكن المعروف بين المفسرين وأصحاب اللغة أنه دم يشبه الماء يخرج من ابدان أصحاب النار، وبما أنه يشبه الماء الذى يغسل فيه الإنسان لذلك سُمى ب «الغسلين». ولعل الراغب قصد نفس هذا المعنى فى مفرداته، لكن بعضهم اعتبر «الزقوم» و «الغسلين» بمعنى واحد، وهو - كما قلنا - نبات كريبه الطعم والرائحة ومخصص لأهل جهنم، لكن المشهور هو المعنى الأول.

ويواجهنا فى الآية الرابعة تعبير آخر بشأن طعام أصحاب النار وهو اسم «الضريع» وبه أشارت الآية إلى فئة من المجرمين قائله: «تَصِيَلِي نَارًا حَامِيَةً* تُسْقَى مِنْ عَيْنِ آتِيَةٍ* لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيْعٍ* لَأَيُّسِمُنُّ وَلَا يُعْنِي مِنْ جُوعٍ».

وقد ذكرت لكلمة «الضريع» معانٍ وتفسير مختلفة لكنها متقاربة المعنى فقال جماعة إنه نبات أخضر كريبه الرائحة يلفظه البحر «١»، وقال جماعة آخرون إنه نبت ذو شوكة لاصق بالأرض، تسميه قريش الشُّبْرُق إذا كان رطباً، فاذا يبس فهو الضريع، لا تقربه دابة ولا ترعاه، وهو سم قاتل «٢».

وقال بعضهم أيضاً: إن الكلمة مأخوذة من المصدر «ضرع» بمعنى الضعف والدَّله وقالوا:

«هو طعام يضرعون عنده ويدلون، ويتضرعون منه إلى الله تعالى طلباً للخلاص منه، فسُمى بذلك، لأن آكله يضرع فى أن يُعفى منه، لكرهته وخشونته» «٣».

ورد فى حديث عن الرسول محمد صلى الله عليه وآله أنه قال: «الضريع شىء يكون من النار يشبه

(١). العين لاخليل بن أحمد.

(٢). تفسير القرطبي، ج ١٠، ص ٧١١٩.

(٣). المصدر السابق، ص ٧١٢.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٢١

الشوك، أشد مرارة من الصبر، وأنتن من الجيفة، وأحرّ من النار، سمّه الله ضريعاً «١».

و يفهم من جملة «لَأَيُّسِمُنُّ وَلَا يُعْنِي مِنْ جُوعٍ» أن مثل هذا الطعام لا يقوى الجسم ولا يشبع من الجوع، بل هو طعام غصص وهو بذاته نوع من العذاب، كما نقرأ فى قوله تعالى «وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا». (المزمل / ١٣)

ولكن ينبغى عدم التعجب من مثل هذا العذاب الصارم الذى هو فى انتظار المجرمين الذين كانوا يملأون بطونهم فى هذه الدنيا بأنواع الأطعمة اللذيذة الدسمة والحلوة التى يحصلون عليها بالتجاوز على حقوق الآخرين بأنواع المظالم والتعدى، بينما توجد حولهم الكثير من البطون الجائعة التى لم تشبع طيلة عمرها ولا حتى مرّة واحدة، ويموت سنوياً ملايين الأشخاص جوعاً فى البلدان الأخرى وفى الوقت الذى يرمى المجرمون بالفاضل من طعامهم فى المزابل، يجب أن يأكلوا مثل هذا الطعام فى العالم الآخر.

ونرى هنا ضرورة إعادة الكلام الذى كررناه مرّات متعددة وهو أن هذه التعابير كلها إشارات إلى أليم العذاب فى العالم الآخر، وإلا فلا نعم الجنة ولا عذاب جهنم يمكن إدراكها من قبلنا نحن المحبوسين فى سجن الدنيا، وكل ما نشاهده هو شبح يترائى لنا من بعيد.

وهنا يرد اعتراض بديهي وهو أن الآية (٦) من سورة الغاشية تفيد أن طعام أهل النار هو من «الضريع» فقط: «لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ

صَرِيح» بينما تذكر الآيات الآنفة نوعين آخرين من طعام أهل النار وهما «الزقوم» و«غسلين». وكذلك الآية ٣٦ من سورة (الحاقة) تحدثت عن الغسلين وقالت: إنه الطعام الوحيد لأصحاب جهنم.

وقد وردت أجوبة مختلفة عن هذا السؤال، وأهمها الثلاثة الآتية:

١- إن كلمات «الضريح» و«الزقوم» و«الغسلين» تعطى جميعاً معنى واحداً وهو النبات الخشن كرية الطعم والرائحة والذى ينمو فى جهنم (لكن هذا التفسير لا يتسق مع ما جاء بشأن الغسلين فى الكثير من كتب التفسير واللغة).

٢- اعتبر البعض كلمتى «الزقوم» و«الضريح» بمعنى واحد وهو ما سبقت الإشارة إليه

(١). تفسير مجمع البيان، ج ٩- ١٠، ص ٤٧٩، ذيل الآية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٢٢

ويمثل طعام أصحاب النار، أما «غسلين» فهو شرابهم، والتعبير عن الأشربة بالطعام ليس بالأمر الجديد.

٣- أن الأطعمة الثلاثة المذكورة أعلاه يختص كل لون منها بطائفة خاصة من أصحاب النار مستقرة فى طبقه واحده منها، وهذا الجواب هو الأنسب من بينها.

وفى الآية الخامسة تكرر الحديث عن الشراب الرديء لأصحاب النار، فقالت الآية الشريفة فى وصف حالهم: «أَنَا عَتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعِينُوا يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا».

يلاحظ أن هذه العقوبات القاسية قد أعدت للظالمين الذين كانوا يعيشون مُنعمين مُترفين فى هذه الدنيا خلف ستائر رقيقة ملونة يحتسون أنواع وألوان الشراب السانغ اللذيذ وتزهو حفلات شرابهم بسقاء صبحى الوجه، أما فى جهنم فهم يتعذبون خلف ستائر من نار وحينما يطلبون الماء يُسقون بماء كأنه المعادن المذابة وحرارته دموع اليتامى وآهاتهم لأن ما يظهر هناك هو تجسيد لما كان هنا. فهل يمكن شرب الماء الذى تشوى حرارته الوجه؟ يدل هذا على أن بُنية الإنسان تختلف هناك كثيراً عما هى عليه هنا، وأن بناءها قد وضع بالشكل الذى يحتمل كل هذه الامور، فهو يذوق الألم والعذاب من غير أن يموت، أو أن ذلك إشارة إلى أنه حينما يرى مثل هذا الماء ينصرف عن تناوله ويبقى يتلوى فى نار العطش.

وكلمة «المهل» على وزن (قفل) تعنى - كما قال جماعة من المفسرين وأصحاب اللغة- ما يتبقى فى أسفل آنية الزيت فىكون وسخاً كرية الرائحة عادة.

وقال المرحوم الطبرسى رحمه الله فى مجمع البيان: «إنه المعدن المذاب فى حين خصصه بعضهم بالنحاس المذاب» وقيل إنه ماء أسود فجهنم سوداء وماؤها أسود وشجرها أسود

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٢٣

وأهلها سود «١». وقال آخرون: «إنه ضرب من القَطِران، وقيل: هو السم» (٢).

إن هذه المعانى وإن كانت متفاوتة، إلا أن نتيجتها واحدة وهى الألم والعذاب الأليم لأصحاب النار.

وفى القسم السادس من الآيات يلاحظ تعبيران آخران بخصوص أشربة أصحاب النار، وهما «الحميم» و«الغساق» وقد جاء أحدها إلى جانب الآخر، فتقول الآية: «لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا» إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَاقًا. (النبا/ ٢٤- ٢٥)

وقد فسّر أكثر المفسرين كلمة «الحميم» بمعنى الماء الحار الحارق، والكلمة مشتقة من «حَمَّ» وتعنى الحرارة، و«الغساق» مأخوذ من المصدر «عَسَق» وتأتى هذه الكلمة أحياناً بمعنى الظلام وأحياناً بمعنى الجريان والانسباب، وهو هنا الصديد الذى تنضح به أجسام أصحاب جهنم.

ومما لا يخفى أن الشخص الذى يكون إلى جانب النار أو فى داخلها يصيبه العطش الشديد، وحتى فى أجواء الصيف الحارة يغلب

مثل هذا العطش ولا يروى إلا بتناول مقدار من الشراب البارد، أما أصحاب النار فلا شراب بارد لديهم، بل إن شرابهم حار كحرارة النار فيزيد من عطشهم.

ولكن هل يعنى هذا الكلام أنهم عند مشاهدتهم لهذا الشراب ينصرفون عن تناوله ويبقون يتحرقون فى نار العطش؟ أم أنهم يشربونه بالاجبار، فيتزايد عطشهم شيئاً فشيئاً؟

إن التعبير عن تلك الحالة بكلمة «الذوق» يجعل الموقف مناسب للتفسير الثانى.

رغم أن البعض يميل إلى تفسير كل هذه العبارات والتهديدات بخصوص أصحاب النار

(١). تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ٤٦٦؛ وتفسير القرطبي، ج ٦، ص ٤٠١١.

(٢). تفسير القرطبي، ج ٦، ص ٤٠١١.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٢٤

تفسيراً معنوياً وروحياً، كنتيجة للابتعاد عن الله والاقتراب من أفق الشياطين، ولكن كما قلنا مراراً لا يحق لنا حمل الألفاظ على خلاف ظاهرها بلا قرينة واضحة.

وفى المجموعة السابعة والأخيرة من هذه الآيات ورد ذكر شراب أصحاب النار بتعابير اخرى كما فى الآية الشريفة: «وَحَابُّ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ مِّنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسَبِّغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ».

كلمة «الصديد» أصلها (الصد) وتعنى الاعراض والعدول والانحراف عن الشىء، ثم أطلقت على الخراج والصديد الذى يتجمع بين الجلد واللحم أثناء حصول أى جرح وربما سبب ذلك هو انحراف المزاج وتغيره من السلامة إلى المرض.

يقول الراغب فى المفردات: وضرب مثلاً لطعام أهل النار (بأنه طعام ردىء وكرهه الرائحة والطعم).

والدليل على كونه فاسداً ورديناً هو أنهم لا يشربونه عن رغبة أبداً بل كرهاً واجباراً ويتحملونه جرعة فجرعة، وهم فى موقف مرير ومؤلم وكأن الموت يتهددهم من كل صوب إلا أنهم خلقوا بالشكل الذى لا يموتون فيه حتى مع نيل جزائهم.

ومما يسترعى النظر هنا هو أن هذا العذاب الأليم المذكور فى هذه الآية والآيات الاخرى يختص بالظالمين والجبابرة والطغاة (حيث وردت أحياناً كلمة «طاغين» وأحياناً كلمة «جبار» وكلمة «الظالمين» فى أحيان أخرى وهذه هى عاقبة الظلم والجور وما هى إلا تجسيداً

لما صدر عنهم من عذاب بحق الأبرياء الذين كانوا كثيراً ما يقضون السنوات الطويلة فى سجونهم لا يدوقون إلا أرواً أنواع الطعام والشراب، ويتعرضون لأشد العذاب حتى أن مظاهرهم تتغير ولا يعود أحد يميزهم حتى أمهاتهم (كما هو الحال فى وقائع سجناء

الحجاج الرهيبة. وفى عصرنا الحالى رأينا أو سمعنا نماذج منها بحق المسجونين فى سجون الطغاة).

فهل أن أمثال هؤلاء لا يستحقون مثل ذلك العذاب؟

يتضح من مجموع ما ورد فى هذه الآيات أن إحدى أسوأ العقوبات التى يواجهها أهل النار هى الطعام والشراب أى الأشياء التى ينبغى أن يلتذ بها الإنسان فتصبح وبالاً عليه

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٢٥

وسبباً للعذاب والألم. وقد وُصف طعامهم ب «الزقوم» حيناً وب «الضريع» حيناً وب «الغسلين» حيناً آخر، ووصف شرابهم بكلمات من قبيل: «المهل» و «الصديد» أحياناً أو «الغساق» أحياناً أخرى وهى على العموم أوصاف للأطعمة والأشربة الحارة المحرقة الكريهة الطعم

والرائحة، وكلما تمعنا فى أعمال هؤلاء المجرمين فى الدنيا وما ارتكبوه بحق المظلومين، فلن نعجب من شدة تلك العقوبات.

ندعو الله تعالى أن يجنبنا بلطفه وكرمه كل ذنب تتبعه مثل هذه العقوبات.

٤- ثياب أهل النار

تمهيد:

كل شيء في النار عليه صبغة العذاب والعقاب، حتى الثياب التي تلبس عادة للوقاية من الحر والبرد ووسيلة لمواجهة بعض الأضرار التي قد تصيب البدن، وتتخذ كذلك كأداة للزينة والتجميل، نعم، حتى هذه الثياب تتحول هناك إلى واحدة من أسباب الألم والعذاب.

نعود إلى القرآن بعد هذا التمهيد السريع ونقرأ خاشعين الآيات الآتية: ١- «فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ* يُصْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ* وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِّنْ حَدِيدٍ* كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ». (الحج / ١٩- ٢٢)

٢- «وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ* سَرَابِيلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ». (إبراهيم / ٤٩- ٥٠)

جمع الآيات وتفسيرها

إشارة

أشارت الآية الأولى إلى طائفة من الكفار الذين يجادلون باستمرار حول الخالق جل شأنه، فتقول: «فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ».

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٢٦

فهل يفهم من هذا الكلام أن النار محيطة بهم من كل جانب وكأنها غدت لباساً لهم؟ أوقطعاً حقيقته من النار قد فصّلت لهم وخيطة على هيئة الثياب؟ ظاهر الآية يشير إلى صحّة التفسير الثاني، والأكثر إيلاماً لهم من ذلك أنهم: «يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ».

ثم تصف الآية فعل هذا الماء الحميم على بطونهم وجلودهم قائلة: «يُصْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ».

كلمة «يصهر»: مأخوذة من المصدر «صَهْرٌ» على وزن (نَهْر) ويعنى إذابة الشحم أو ما أشبهه، وتطلق أيضاً على كل ما يحمى ويتغير بفعل حرارة الشمس.

ثم تتحدث الآية عن العقوبات الأخرى قائلة: «وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِّنْ حَدِيدٍ».

«المقامع»: جمع «مِقْمَع» على وزن «مِئْبَر» وفُصِّرَتْ أحياناً بمعنى السوط وأحياناً أخرى بالعمود الذي يضرب به على رأس الشخص.

ثم أخيراً تصوّر الآية وضعهم الأليم بالهيئة الآتية: «كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ».

لا شك أن هذه العقوبات المؤلمة حتى وإن حصل أقل منها في الدنيا تؤدي إلى موت الإنسان: لكن البناء الجسدي للمجرمين هناك يكون بالشكل الذي لا يؤدي إلى القضاء عليهم لتنفيذ هذه العقوبات، ليدوقوا جزاء أعمالهم. وهذا يدل على أن القوانين السائدة في ذلك العالم تختلف عما هو موجود في عالمنا هذا، (فتأمل).

نشاهد في الآية الثانية تعبيراً جديداً عن ثياب أهل النار، ورد فيها: «سَرَابِيلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ».

«سرابيل»: جمع (سربال). قال الراغب في المفردات، هو القميص من أي مادة كان.

وورد نفس هذا المعنى أيضاً في «لسان العرب» و«صحاح اللغة»، وفسرها البعض الآخر بأى نوع من الثياب.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٢٧

وجاء في كتاب «التحقيق» أنّ السربال يعنى الثوب الذى يغطى القسم الأعلى من البدن، وكلمة «سروال» بمعنى الشىء الذى يغطى الجزء الأسفل منه، وأطلقت لفظه السربال أيضاً على القماش الذى لم يُخَطَّ ويُلقى على البدن وعلى الدرع التى تلبس فى الحرب. أما «القطران» (ويُلَفَظُ أحياناً قَطْرَانٌ وأحياناً قَطْرَانٌ) فيعنى مادّة سوداء قابله للاحتراق وتبعث عند احتراقها رائحة كريهة، وتستخرج هذه المادّة من شجرة تسمى (أبْهَل) وتُغلى حتى تصبح صلبه القوام وتطلى بها أبدان الجمال لعلاجها من الجرب فكانوا يعتقدون أنّ هذه المادّة تزيل الجرب (١).

وهناك نوع آخر من القطران أيضاً ويستخرج أثناء تقطير الفحم الحجرى لإعداد الغاز منه. ويُفهم من بعض الكتابات أنّ القطران سائل دهنى لاصق يُستخرج من الأخشاب التى تفرز الصمغ ومن أشجار أخرى ويُستفاد منها فى البيطرة لعلاج الالتهابات (٢).

وعلى أيّة حال يُستفاد من الآيئة المذكورة أنّ أبدان أهل النار تُغطى بمادّة سوداء قابله للاحتراق بدل الثياب، وكل شىء فيها على العكس ممّا يتوقعه الإنسان من الثياب، فهو يتوقع أنّ الثياب زينته، وتقى الإنسان من مخاطر الحر والبرد، إلّا أنّ هذه الثياب المخصصة لأهل النار قبيحة وكريهة المنظر، وكريهة الرائحة أيضاً. وتحترق فى نار جهنّم. هذا جزء من كان يتبخر أمام اليتامى والمستضعفين الحُفَاء بأفخر أنواع الثياب الموشاة بالذهب يتفاخرون عليهم فيحرقون قلوبهم، فهذا نصيب الظلمة والمجرمين من الثياب فى يوم القيامة.

(١) تفسير الكبير، ج ١٩، ص ١٤٨.

(٢) قاموس فرهنك معين، كلمة (قطران).

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٢٨

سائر العذاب الجسدى لأهل النار:

تمهيد

تمثل جهنّم مبدئياً مركز الغضب الإلهى وكل شىء فيها مطبوع بطابع العذاب والعقاب بألوانه وأشكاله المختلفة التى يتصورها الذهن أو لا يتصورها ومعدّ للظالمين والمجرمين.

وقد أشار القرآن الكريم فى مواضع متفرقة إلى جوانب من ذلك العذاب (سوى ما تم ذكره)، نقرأ نماذج منها فى الآيات الآتية:

١- «وَاصْبِرْ لِحَابِ السَّمَاءِ مَا أَصْبَحَ السَّمَاءِ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٌّ مِّنْ يَحْمُومٍ * لَّا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٍ». (الواقعة / ٤١-٤٤) ٢- «إِنَّ الَّذِينَ

كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كَلَّمًا نَضَّجَتْ جُلُودَهُمْ يَدْلُنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا». (النساء / ٥٦)

٣- «وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَمَّا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشَّرَهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا

جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ». (التوبة / ٣٤-٣٥) ٤- «وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ

دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا * لَاتَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا». (الفرقان / ١٣-١٤) ٥- «تَلَفَحَ وَجُوهُهُمْ النَّارَ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ».

(المؤمنون / ١٠٤) ٦- «إِذِ الْأَعْمَالُ فِي غَتَائِهَا وَالسَّاسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ».

(غافر / ٧١-٧٢) ٧- «وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ * قَالُوا أَوْلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ

بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ». (غافر / ٤٩-٥٠)

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٢٩

جمع الآيات وتفسيرها

٥- سائر عذابهم الجسدى

رياح مهلكة، وظلال محرقة:

قَسَمَتِ الآيَةُ الأُولَى الناسَ إلى ثلاث فئات وهى: فئة «المقربين» و «أصحاب اليمين» و «أصحاب الشمال». ثم قالت عن أصحاب الشمال (وهم الذين يتسلمون كتبهم بيد بشمائلمهم دلالة على سوء عملهم) إنهم: «فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٌّ مِّنْ يَحْمُومٍ * لَّابَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ». وفى الحقيقة أن النار كالجنة فيها ماء وهواء ونسيم وظل، ولكن ياله من نسيم، فقد سماه القرآن ب «السموم». «السموم»: مأخوذة عن كلمة (السم) وتعنى الهواء اللافح من شدة حرارته الذى يدخل المسام (الفتحات الدقيقة على جلد الإنسان) ويسبب هلاكه.

(وقد سميت كلمة «السم» بهذا الاسم لأنها تنفذ إلى جميع دقائق وثغرات الجسم، لأنَّ السَّمَّ على قول الراغب يعنى أى فتحة دقيقة كفتحة الأبرة وفتحة الأنف والأذن) «١».

ويوجد لديهم ماء أيضاً إلا أنه حار وقاتل، ولديهم ظل إلا أنه من دخان أسود كثيف وحرار! حين يتعرض الإنسان للحرارة الشديدة فى هذه الدنيا، فإمّا أن يجعل نفسه عرضة لمهب النسيم أو يدخل فى الماء أو يلتجئ إلى الظل، وهذه الثلاثة كلها حارة وقاتلة هناك على العكس من الجنة التى تكون أماكنها الواحدة أبرد من الأخرى وأكثر إثارة للبهجة والارتياح.

(١) جاء «قاموس اللغة» إن كلمة «السموم» تطلق على الرياح الحارة التى تهب فى النهار وهى فى مقابل «الحرور» وهى الرياح الليلية الحارة.

جاء الفخر الرازى فى تفسيره: إن السموم هى الرياح المتعفنة التى عندما يستنشقها الإنسان يتعفن قلبه فيهلك. (التفسير الكبير، ج ٢٩، ص ١٩٨).

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٣٠

وأشارت الآية الثانية إلى واحدة أخرى من العقوبات الصارمة للكفرة، فقالت: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا» «١». ثم تضيف: «كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا». والجملة الأخيرة هى فى الحقيقة إجابة عن هذا السؤال: هل أن عذاباً كهذا ممكن؟ وإن كان ممكناً فهل هو عادل؟! القرآن يقول: إن هذا على الله يسير ولا يتعارض مع حكمته أيضاً.

وعرض بين المفسرين سؤال معروف وهو: إذا تبدلت هذه الجلود بجلود أخرى فما ذنب هذه الجلود الجديدة حتى تتعذب؟ طرح المفسرون الكبار اجابات متعددة عن هذا السؤال وأفضلها هو جواب الإمام الصادق عليه السلام حين أجاب عن السؤال الذى طرحه «ابن أبى العوجاء» بعد قراءة هذه الآية: «ماذنب الغير»؟

فأجاب الإمام عليه السلام جواباً غريباً ومقتضياً: «هى هى وهى غيرها».

قال: فمثل لى فى ذلك شيئاً من أمر الدنيا قال: «نعم أرايت لو أن رجلاً أخذ لبنه فكسرها ثم ردها فى ملبنها فهى هى وهى غيرها» «٢». ووفقاً لهذه الرواية، فإن جلوداً جديدة ستنشأ من الجلود الأولى فتتغير الصورة مع الحفاظ على وحدة المادة.

وقال جماعة أيضاً: إن كانت الصورة والمادة غير الصورة والمادة للجلود السابقة عندئذ لا تحصل أية مشكلة لأن عذاب القيامة تذوقه

الروح لا الجلد، ورأوا أن التعبير بـ «ليذوقوا العذاب» دليل على صحة هذا القول. ولهذا السبب كثيراً ما يحصل ويرتكب الإنسان ذنباً بعضو فينزل العقاب على عضو آخر، كأن يشرب الخمر مثلاً فيضرب ثمانين سوطاً على ظهره، فيكون هذا في مقابل ذاك وايداء الجسم وسيلة لايداء الروح.

(١) يبدو أن تنكير النار هنا لتبيان عظمتها.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٤٩٤، ح ٣١٤.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٣١

وفي الآية الثالثة إشارة إلى جزاء طائفة أخرى من المسيئين من الذين كانوا يكتزون الذهب والفضة والدرهم والدنانير ولا يؤدون ما عليها من حقوق شرعية فتقول الآية الشريفة: «وَالَّذِينَ يَكْتِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ». ثم تشير الآية إلى جانب من هذا «العذاب الأليم» وتضيف: «يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتَكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ»، ويقال لهم حينها: «هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كَنْزْتُمْ تَكْنِزُونَ».

يُعطى هذا التعبير إجابة عن سؤال مهم بخصوص الآيات المتعلقة بالعذاب الإلهي الشديد يوم القيامة، وهو أن هذا الجزاء يُعتبر ثمرة لأعمال العباد ونتيجة فعلهم تتجسد لهم يوم القيامة على هذه الشاكلة، فهم في الحقيقة يذوقون أفعالهم تماماً كالشخص الذي يسرف عدة أيام في تناول الخمر فيقع فريسةً لأمراض مؤلمة وشديدة ويبقى يعاني منها طوال حياته.

زنزانات جهنم الانفرادية:

يواجهنا في الآية الرابعة نموذج آخر من العقاب المتنوع الذي يلقاه أهل النار إذ تقول:

«وَأَذًا أَلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا».

فيقال لهم لا فائدة من صياحكم وصراخكم هذا فهو لا ينفع شيئاً، فمصائبكم جمّة تستحق الثبور والويل: «لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا».

ويتضح جيداً من هذا التعبير أنهم ليسوا أحراراً حتى في جهنم فهم في ما يشبه الزنزانات مقيدون بالاغلال والسلاسل حتى تتعالى أصواتهم ولكنها لا تحل لهم أية مشكلة.

كلمة «مقرنين» مأخوذة من المصدر «قرن»، وتعني في الأصل - كما قال الراغب في - المفردات: اجتماع شيئين أو أكثر لسبب من الأسباب، ولهذا يطلق على الحبل الذي تُربط به الأشياء «قرن» على وزن كلمة (وَطَن) ويُقال «قرن» للقوم والجماعة الذين يعيشون في

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٣٢

زمان واحد، ويُطلق أحياناً على الزمن لوحده، وحينما تدخل هذه الكلمة في باب التفعيل فذلك دلالة على الكثرة والشدة.

ولهذا فقد جاء أحياناً تفسير كلمة «مقرنين» في هذه الآية بمعنى شد وتوثيق أيدي وأرجل أهل النار، وقال آخرون أيضاً: يربط أهل النار في ذلك اليوم جماعات جماعات بسلسلة طويلة وهذا تجسيد للارتباط الفكري والعملية للمجرمين الذين كانوا يتعاونون في هذه الدنيا على الفساد والظلم والعدوان على حقوق المظلومين ويتآمرون عليهم.

ولكن لو التفتنا إلى عبارة «مَكَانًا ضَيِّقًا» لوجدنا التفسير الأول هو الأنسب، وهذا أيضاً تجسيد لأعمالهم في هذه الدنيا حين كانوا يزجون بالأبرياء في الزنزانات ويقيدونهم بالسلاسل، أو يفرضون عليهم مثل هذه القيود في الحياة الاجتماعية فيصبحون كالسجناء مسلوبى القدرة على أية حركة.

«الثبور»: في الأصل بمعنى الهلاك رغم أن صاحب «مقاييس اللغة» قد ذكر له ثلاثة معانٍ وهي: الهلاك، والمراقبة، واللين. ولذا يقال

للأرض المتراكم ترابها فوق بعضه كالنورة «ثيرة».

ولكن قد تكون كل تلك المعاني راجعة في الأصل إلى معنى الهلاك، لأن اجتياز مثل هذه الأراضي لا يخلو من الخطورة، ولما كان الإنسان يشدد في حماية نفسه وممتلكاته في المواقف الحرجة لذا فقد استخدمت هذه الكلمة بمعنى المراقبة أيضاً، وعلى أية حال فإنّ العربي عندما كان يواجه أمراً خطيراً كان ينادى «واثبورا» ومعناه: واولتاه لقد هلكت وهذا ما يعكس شدة الأذى والشعور بالألم. ولعل التعبير: «لأتدعوا اليوم ثبوراً واحداً واذعوا ثبوراً كثيراً»، فيه إشارة إلى العوامل المتعددة للهلاك أو شدة أو طول مدة هذه العوامل في جهنم، وعلى أية حال فهذا أيضاً تجسيد لأعمالهم التي كانوا يمارسونها في هذا العالم وما كانوا يرتكبونه من ذنوب وما يسببونه لعباد الله من المصائب والمآسى وما يفتحونه عليهم من أبواب الهلاك من كل صوب.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٣٣

ونلاحظ في الآية الخامسة وجه آخر من وجوه هذا العذاب الأليم، فتقول: «تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ» ولهذا: «وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ». كلمة «تلفح»: مأخوذة من المصدر «لَفَحَ» على وزن (فَتَح) وتعني على قول معظم أصحاب اللغة تأثير حرارة الشمس والنار والرياح السموم على الوجه وتغييره، وتطلق هذه الكلمة أيضاً على ضربة السيف لشبهاتها بضربة حرارة الشمس ولهب النار ورياح السموم. وتستخدم أحياناً كلمة «نفع» بدلاً من كلمة «لَفَحَ» على المراحل الأخف.

و «كالحون»: مشتقة من «الكلوح» ومعناها - حسب ما يراه الكثير من أهل اللغة والمفسرين هو التعيس والتقطيب، بينما تبقى الشفاه مفتوحة وهذه الحالة تحصل على وجوه أصحاب جهنم بسبب شدة لهيب النار وهي تمثل في مجموعها وصفاً لتأثير ضربات لهيب النار على وجوههم وهو أمر مؤلم جداً على تلك الوجوه التي كانت كثيراً ما تقطب بوجوه المستضعفين، والشفاه التي تبقى منفصلة عن بعضها للاستهزاء بهم والانتقاص منهم بضحكات السخرية.

إنّ هذه الأعمال القبيحة المؤلمة تتحول في نهاية المطاف إلى عذاب أليم لهم.

وفي القسم السادس من هذه الآيات يطالعنا نمط جديد من الجزاء الذي يتعرض له هؤلاء، إذ تقول الآية إنهم يطلعون سريعاً على نتائج أعمالهم وحينها: «إِذِ الْاَغْلَالُ فِي اَعْتَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ»، ثم تضيف الآية: «يُسْحَبُونَ* فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ». «الاغلال»: جمع «غل»، و«السلاسل» جمع «سلسلة» واختلافهما هو أنّ الغل حلقة توضع في رقبة أو أيدي وأرجل السجناء والسلسلة هي ما يوثق أو يشد به السجناء أو توضع مباشرة على اليد والرجل والرقبة.

وكلمة «يُسحبون» مأخوذة من المصدر «سَحَبَ» على وزن (سَهَل) ولهذا السبب يُقال

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٣٤

للغيوم «سحاب» لأنها تنسحب على صفحة السماء على نطاق واسع «١».

ويرى بعضهم أنّ هذه الكلمة تعني السحب على الأرض «٢» وهذا مالا- يتسق والآية موضع بحثنا، ولا- مع بعض مشتقاتها ككلمة السحاب.

واشتقت كلمة «يُسجرون» من المصدر «سَجَرَ» وهو على وزن (زَجَرَ) وجاء لها ثلاثة معانٍ في كتاب مقاييس اللغة وهي: الممل، والمزاح، والاذكاء. لكن بعضهم يرجع هذه الفروع الثلاثة إلى أصل واحد ويقول: المعنى الأصل لها هو الهيجان والتساقط من شدة الامتلاء، ولهذا اطلقت كلمة «مسجور» و «سجير» على النار المذكاة أو المتقدمة وعلى البحر الطافح المواجه، وعلى الصديق الحميم الذي يفيض بالمحبة والاثارة.

واستناداً إلى ما سبق ذكره، فهم يُغَلون ويُشَدون بالسلاسل أولاً ومن ثم يدخلون في الماء الحار المحرق ثم في النار، ومن الواضح أنّ ادخالهم في النار بعد الماء الحار سيكون أشدّ ألماً.

وهذا تجسيد لأعمالهم التي كانوا يمارسونها بحق الأبرياء في الدنيا إذ كانوا يذيقونهم أشنع صنوف العذاب، حيث يصادرون حرّياتهم

ويسحبونهم بالسلاسل والأغلال.

نستخلص من مجموع هذه الآيات أن عقوبات أهل النار هي مما لا يسع لها الوصف، ولا يتحملها أشد الناس قوة وجلداً، إنها عقوبات أشد ما تكون من القسوة والإيلام.

توضيح

لماذا يكون العذاب الإلهي شديداً إلى هذا الحد؟

إنَّ شِدَّةَ وتَنَوُّعَ وطولَ مدَّةِ هذه العقوبات تثير هذا التساؤل لدى الكثير من الناس، وهو كيف ينسجم هذا العذاب الأليم مع اللطف الرباني، هذا من جهة، ومن جهة أخرى كيف

(١). مقاييس اللغة؛ ومصباح اللغة؛ ومفردات الراغب.

(٢). التحقيق في كلمات القرآن الكريم؛ وتفسير الميزان في ختام الآية موضع البحث.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٣٥

تتناسب العقوبات المذكورة مع أعمال أصحاب الجحيم؟ ولعل عدم القدرة على تقديم إجابة شافية على هذا الاعتراض دفع جماعة إلى حملها على معانٍ مجازية أو القول إنها عقوبات روحية.

لكن الالتفات إلى النقطة التي تُعتبر المفتاح لحلّ مثل هذه المشاكل، والتي لفتنا إليها الانظار مرّات متعددة سيُساعد على فكّ هذا اللغز، وهي أن هذه العقوبات تمثل على الأغلب تجسيدا لأعمال الإنسان وهي حصيلة لها.

وهو ما نشاهد نماذج مختلفه منه في عالمنا هذا.

فهناك مثلاً أشخاص يقعون ضحية لبعض أنواع الإدمان الخطيرة لمجرد تحقيق لذّة وهمية عابرة، وهذا الإدمان يؤدّي عادة إلى استهلاك كل طاقاتهم وسريعاً ما يتحوّلون إلى كائنات منهكة مُصابة بأنواع الأمراض القاتلة التي يظّلون يعانون منها ومن آلامها بقيّة أعمارهم أو أنهم يتعرضون للإصابة ببعض الأمراض المستعصية على العلاج - نتيجة للانحرافات الجنسية - أمثال مرض الايدز، إن الإنسان عندما يرى الأشخاص المصابين بهذا المرض يتأسى ويحزن على حالهم ويتأسف على ما هم فيه من العناء.

فهل يمكن القول: لماذا تصبح حصيلة هذا الإدمان أو هذا الانحراف على هذه الدرجة من الشدّة وطول المدّة؟ إذ لا يوجد بينهما أي تناسب منطقي.

ولو تفوّه أحد بمثل هذا الكلام، لقليل له على الفور: هذه هي نتيجة عملهم وقد اخطروا وانذورا بها من قبل. ويصدق نفس هذا المعنى على العذاب الذي يلقاه أصحاب جهنّم أيضاً فقد حدّتهم تعالي وأنذروهم مراراً في القرآن الكريم ولكنهم كانوا معاندين.

وقد لوحظ في كثير من الأحيان أن بعض الأشخاص قد تعرّضوا إلى حوادث السيارات - لعدم اهتمامهم بمراعاة اصول السوق - فاصيبت منهم الأيدي والأرجل أو العمود الفقري وظلّوا يعانون الألم طوال حياتهم، في حين كان باستطاعتهم تجنّب كل ذلك من خلال الالتزام الصحيح بتعليمات المهنة، فحينما يدور الحديث عن نتائج العمل وآثاره الطبيعية،

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٣٦

لا يبقى هناك أي مجال لطرح التساؤلات الواردة أنفاً. إضافة إلى ذلك يوجد بين أصحاب النار أشخاص جلبوا للآخرين مثل هذا العناء وهذا العذاب، ولو تمعّن الإنسان في أنواع التعذيب التي تُمارس في عالم اليوم - ناهيك عما جرى منه في العصور الغابرة - لأيقن أن مرتكبيها يستحقون بالتأكيد هذه العقوبات الشديدة، بل إن ظلم الظالمين يصل أحياناً إلى حد يبلغ مرحلة من التفنن والتمادى بحيث يحسب الإنسان عدم وجود أيّة عقوبة تناسب ما اقترفه من جرائم.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٣٧

٥- العذاب الروحي

تمهيد:

كما توجد فى الجنة نعم وفيرة ولذيذة للجسم والروح، إذ يكمل أحدهما الآخر ولا يمكنهما الانفصال عن بعضهما بسبب اقتران المعاد الجسمى بالمعاد الروحي، فكذلك توجد فى جهنم عقوبات لكلا النوعين، والآيات الشريفة الواردة فى هذا الحقل تثبت صحة هذا القول: فلنقرأ خاشعين هذه الآيات:

١- «وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ». (الحج / ٥٧)

٢- «رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ». (آل عمران / ١٩٢)

٣- «كُلَّمَا ارَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ».

(الحج / ٢٢)

٤- «رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ* قَالَ اخْسُئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ».

(المؤمنون / ١٠٧-١٠٨)

٥- «وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَازِنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَلَيْنَا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ* قَالُوا أَوَلَمْ تَكُن تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ». (المؤمن / ٤٩-٥٠)

٦- «إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّطًا وَزَفِيرًا». (الفرقان / ١٢)

٧- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ» «١». (التحریم / ٦)

(١). هناك أيضاً آيات أخرى تحتوى على نفس هذه المضامين وردت فى سور: المجادلة، ٥؛ السجدة، ٢٠؛ الأعراف، ٥٠؛ الحاقة، ٣٥.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٣٨

٨- «وَنَادَىٰ اصْطِحَابُ الْجَنَّةِ اصْطِحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ». (الأعراف / ٤٤)

جمع الآيات وتفسيرها

الحزن والهمل القاتل والحسرة اللامتناهية:

المقصود من العقوبات والآلام الروحية مجموعة من الممارسات التى تضغط على روح الإنسان ونفسه وإن كانت لا تؤثر على جسمه فى الظاهر أو أن لها تأثيراً ثانياً إذ تؤذى الجسم مباشرة وتؤلم الروح أيضاً.

فنى فى الآيه الاولى نموذجاً للقسم الثانى إذ تقول: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ».

لم يتسع حديث القرآن هنا لاعطاء مزيد من الايضاحات حول كيفية هذا العذاب، والاسلوب الذى يؤدى لاهانه وإذلال أصحاب النار، بل أشار إلى الموضوع إشارة عامية تشمل - بلا شك - جميع الجوانب المهينة فى عذاب جهنم التى تؤدى إلى إذلال المستكبرين

الطغاة ودفعهم إلى أدنى درجات الذلّة.

وقد احتمل بعض المفسرين «كالقرطبي» أن العذاب المهين إشارة إلى المصير الذي آل إليه المشركون في معركة بدر، ولكن لو التفتنا إلى الآية السابقة التي تحدثت عن «جنات النعيم» للمؤمنين لرأينا أن الآية دالة على العذاب المهين الموجود في النار. وعلى كل حال يدل هذا التعبير الذي ورد عدّة مرّات في القرآن الكريم على أن عذاب الجحيم مقرون بأنواع الاهانات التي تؤلم كلّاً من الروح والجسد، وهذا تجسيد للتحقير والاستهانة التي كانوا يبديونها للأنبياء والمؤمنين والمستضعفين من أهل الإيمان، وهذا ما يستلزم أن يتلقوا في ذلك اليوم نتيجة عملهم بهذه الصورة.

وفي الآية الثانية كان الحديث عن فضيحة أهل النار وهذا هو عذاب معنوي مؤلم، فقد نقلت لنا الآية ذلك على ألسنة العلماء من أهل الإيمان الذين اطلقت عليهم «أولو الألباب»

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٣٩

فقال: «رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ».

«أخزيتته»: مأخوذة من (الخزى) ولها معانٍ عديدة في كتب اللغة مثل: سوء الحال، والابتعاد، والذلّة، والافتضاح، والاستهانة، ونفس هذه المعاني وردت في كلام المفسرين أيضاً «١».

ويتضح من سياق الآية أن العقوبات النفسية يوم القيامة أكثر إيلاماً، لأنّ أولى الألباب يطلبون من الله عزّ وجلّ أن لا يدخلهم النار ويقولون: إنك من أدخلته النار فقد أخزيتته إشارة إلى أن الشيء الأسوأ من النار هو ذلك الخزى، تماماً مثل بعض الأشخاص الذين لا يبهون كثيراً لدخولهم السجن ولكنهم يحرصون كثيراً على عدم انتشار هذا الخبر، لأنّ انتشاره يؤدّي إلى فضيحتهم في المجتمع وهو ما يعتبرونه أشدّ إيذاءً وإيلاًماً من السجن ذاته.

أمّا جملة: «وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ»، فهي إشارة إلى هذه الحقيقة وهي أنّ كل ما يجرى عليهم اليوم إنّما جاء نتيجة لظلمهم، فمن الطبيعي أن يفتضحوا هناك ويذلّوا ولا يجدون ناصرًا ولا معيّنًا، (هذا التعبير لا يتنافى طبعاً مع قضيّة الشفاعة لمن يستحقّها، لأنّ المقصود هنا نفى الناصر الذي يعين الظالمين بقدرته ونفوذه، لا عن طريق الاستعانة بالقدرة الربّانية).

وتطرقت الآية الثالثة إلى موضوع الغم والحزن الذي يعاني منه أصحاب جهنّم وهو ما يعكس آلامهم النفسية، وقالت: «كَلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أَعِيدُوا فِيهَا وَذُقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ».

قال الكثير من المفسرين إنهم كلما أرادوا الخروج من هذا الغم والتحرر منه واللجوء إلى أطراف جهنّم، يقوم خزنتها بإرجاعهم بالهراوات أو المقامع النارية، لأنّ الآية السابقة قد

(١). مقاييس اللغة؛ مصباح اللغة؛ صحاح اللغة؛ لسان العرب؛ والتحقيق في كلمات القرآن الحكيم؛ وجاء في تفسير مجمع البيان معنيان آخران لكلمة الخزى وهما: الهلاك، والوقوف في موقف الفضيحة والذل.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٤٠

أشارت إلى هذا المعنى وخاصّة الجملة التي تنص على «وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ».

(الحجّ / ٢١)

وجملة: «وَذُقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ» التي تُقال لهم من باب التقريع والاستهانة تُعتبر هي الاخرى نموذجاً لهذا العذاب النفسى «١».

كثرة اللوم والتقريع:

نواجه في الآية الرابعة صورة جديدة للإهانة والاحتقار التي يلقاها أصحاب النار وهذا- كما قلنا- نوع من العذاب النفسى الأليم، وتقول الآية المباركة: «رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ»، فيقال لهم من قبل الله تعالى «قَالَ اخْسُؤْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ». وقد صرح جميع أصحاب اللغة والمفسرون بأن كلمة «اخساً» تعبير يُستخدم لطرد الكلب وإن استخدامه هنا فيه دلالة على احتقار هؤلاء الظلمة والمستكبرين.

ولعل كلمة «لا تكلمون» أكثر منها مرارة واستهانة، فالمولى الكريم الرحيم يطرد عبده ويقول له لا تكلمنى أبداً، وهذا هو نفس المعنى الذى أشارت إليه العبارة الواردة فى دعاء كميل: «فهبنى يا إلهى وسيدى ومولاي صبرت على عذابك فكيف أصبر على فراقك». ولكن لماذا يواجه هؤلاء مثل هذا العذاب النفسى القاتل؟ تزيح الآيات التالية الستار عن هذه القضية فتقول: «أَنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِ يُقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِحْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ». (المؤمنون/ ١٠٩- ١١٠)

فكانت نتيجة ذلك الاستهزاء والضحك على المؤمنين أن أصبحتم اليوم عرضة للاستهزاء والاحتقار، وهذا فى الحقيقة تجسيد لأعمالكم!

(١). كلمة «الحريق» وإن كانت هنا اسم مصدر إلا أن لها معنى الفاعل، أما على قول البعض الآخر فهى صيغة مبالغة (أو صفة مشبهة)، وعلى قول الراغب ف «الحريق» هنا بمعنى النار وهذا التفسير يبدو أكثر ملائمة لأنه أضاف العذاب إلى الحريق. نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٤١

ونرى فى الآية الخامسة مشهداً آخر يصور اللوم والتعنيف والاحتقار لأصحاب النار من قبل خزنها وملائكة العذاب، فتقول: «وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَتِهِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ * قَالُوا أَوْلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَاذْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ».

فهذه التعابير تبدو وكأنها سيات تلهب أرواحهم وتعذبهم، فطلبوا يوماً واحداً للراحة من ذلك العذاب إلا أن طلبهم رُفض، فطلبوا من خزنة النار أن يدعوا لهم، لكن هؤلاء قالوا لهم:

أنتم ادعوا بأنفسكم، إلا أن هذا الكلام يعتبر إهانة لهم بسبب عدم أهليتهم للدعاء أو أن دعاءهم يجب أن يكون مسبقاً بإذن من الله- وهو جلت قدرته- لا يسمح لهم ولا يأذن بمثل هذا الدعاء، أو أنه دعاء غير مستجاب فهو إذن عبث لا أكثر، ولذا فهم يترجعون حتى من الدعاء لهم ويقولون أنتم ادعوا ربكم (واعلموا أنه غير مستجاب لكم) وهذا أيضاً تعبير مؤلم آخر.

وتعكس الآية السادسة جانباً آخر من العذاب الروحى لأصحاب النار فتقول: «إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا». تُصور هذه الآية هنا جهنم وكأنها تمتلك جميع صفات الحيوان المفترس فحين رؤيته لفريسته تنطلق منه أصوات مرعبة تنم عن الغضب مصحوبة بالتنفس الشديد، وهذا العمل كليل يادخال الرعب فى قلبه ومن ثم القضاء عليه.

و «التغيظ»: مأخوذ من المصدر (غيظ)، وهو كما قال الراغب: يعنى شدة الغضب، والتغيظ بمعنى اظهاره، ومع أن حالة الغضب لا تسمع ولكن ترافقها أصوات دالة عليها قابلة للاستماع كالأصوات المرعبة.

وتعنى كلمة «الزفير» صعود ونزول النفس فى الرئة بحيث يرتفع الصدر إلى الأعلى وغالباً ما يصحبه صوت رهيب يمكن سماعه.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٤٢

أما المفسرون الذين لا يمكنهم التصديق بأن جهنم موجود حتى يرى ويدرك ويعرف المجرمين، فقد اضطروا إلى القول: إن هناك شيئاً مقدراً، فقالوا: المقصود هو رؤية خزنة النار بينما نعلم أن التقدير خلاف القاعدة ولا حاجة له هنا، فما المانع أن يكون لجهنم والجنّة روح وأنهما تدر كان الحوادث التى تقع فيهما؟ حتى أن بعض الروايات ذكرت «يخرج عنق من النار له عينان تبصران ولسان

ينطق فيقول وَكَلَّتْ بِكُلِّ مَنْ جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَهُوَ أَبْصَرَ بِهِمْ مِنَ الطَّيْرِ بِحَبِّ السَّمْسِمِ فَيَلْتَقِطُهُ» (١).

ونحن نرى أمثلة مصغرة لهذه المسألة في الدنيا منها ما يمتثل في وضع العيون والآذان الالكترونية المرتبطة بأجهزة (الكامبيوتر) في البنايات المختلفة، فتقوم تلك الأجهزة بمشاهدة وسماع الكثير من الأشياء والحوادث وتبدى ازاءها رد الفعل المناسب رغم أن البناية لا تدرك شيئاً، ولعل رد فعل جهنم ازاء المجرمين هو من هذا الطراز أو من طراز أرفع، أى يكون مصحوباً بالإدراك.

ونرى في الآية السابعة صورة أخرى من الآلام النفسية لأصحاب جهنم فهي تخاطب المؤمنين بقولها: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ».

يتبين من هذا التعبير أن نار الآخرة تختلف كثيراً عن نار الدينا، سواء كان المقصود من «الحجارة» الأصنام الحجرية أو ما هو أشمل من ذلك، وسواء كان المقصود هو التيار التي تخرج من داخل ذرات تلك الأحجار أم كان المقصود شيئاً آخر، فكل ما هو موجود نار ينبثق بعضها من داخل ذات الإنسان؛ من معتقداته ونواياه الباطنية القبيحة وجوارحه الملوثة بالذنوب، أو الأحجار التي كانت آلهة له أو من وسائل المفارقة والتباهي كالقصور وما شابه ذلك.

(١). تفسير القرطبي؛ و تفسير روح المعاني، في ذيل الآية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٤٣

ثم تضيف الآية الشريفة: «عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غُلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ».

فوجود مثل هؤلاء الملائكة القساء الأشداء يضاعف الآلام النفسية لأصحاب جهنم، ويسد عليهم كل منافذ الحياة.

فقد كان هؤلاء في حياتهم الدنيا يعاملون من هم تحت سلطانهم بكل قسوة، وكان عمالهم الجناة يعاملون الناس بغلظة وشدّة وبلا أية رحمة أو شفقة، فوقعوا اليوم ضحية لمثل ذلك السلوك.

ومما يلفت الانتباه هو أن الآية التالية لها تخاطب الكفار قائلة: «لَا تَعْتَدُوا الْيَوْمَ أَنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ». (التحريم / ٧)

قال بعض المفسرين الذين لا يسعهم تصور اندلاع النار من داخل الأحجار: إن المقصود من الأحجار تلك الأحجار الكبريتية التي ينبعث منها الشرر أثناء ارتطامها بالحديد، بينما نعلم اليوم بأن الطاقة الذرية الكامنة في كل كائن مادي بإمكانها بعث مقادير عظيمة من النار.

«الغلاظ»: جمع (غليظ)، و (الشداد) جمع (شديد) وكلاهما لمعنى واحد، وقد يكون ذكرهما سوياً من باب التأكيد، لكن البعض يقول إن «الغلاظ» تعنى الخسونة في القول و «الشداد» تعنى الخسونة في الفعل، أو تعنى الأولى الخسونة الخلقية والثانية الخسونة الخلقية، وعلى كل حال فهؤلاء الملائكة ملزمون بحكم الله لا يعصون له أمراً.

وقالوا أحياناً: إن وضع الإنسان بمنزلة الحطب إلى جانب الأحجار يُعتبر بحد ذاته استهانة بهم وعقوبة روحية ومعنوية (١).

وتمر علينا في الآية الثامنة والأخيرة محاوره مذهلة بين أصحاب الجنة وأصحاب النار

(١). تفسير في ظلال القرآن، ج ٨، ص ١٤٨.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٤٤

تكون سبباً لإيذاء أصحاب النار: «وَنَادَىٰ اصْحَابُ الْجَنَّةِ اصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا».

فأجابوا وقد استحوذ عليهم الحياء والانكسار: «قَالُوا نَعَمْ» وفي هذه الأثناء: «فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ».

فيغدو هذا الحديث كالملح على جراحات أصحاب النار فيلهب نفوسهم بمشاعل من النار.

نعم إنهم كانوا قوماً يصدون الناس عن سبيل الله (كما تصرح بذلك الآية اللاحقة) ولهذا فهم اليوم يُبعدون عن رحمة الله (لأن اللعنة

تعنى الطرد من الرحمة الإلهية).

ولكن من هو هذا المؤذن الذى يمتلك هذه السيطرة على الجنة والنار فيسمع الكل نداءه ويتحدث عن الله؟ ورد فى الكثير من الروايات المنقولة عن الشيعة والسنة أنه أمير المؤمنين عليه السلام الذى كان يجاهد الظلمة طوال حياته.

والعجب أن بعض المتعصبين حاول التقليل من أهميته هذه الفضيلة، فقال: «ولا يفهم من هذا العمل أنه فضيلة لعلى عليه السلام».

بينما تقضى البدايه بأن هذا المؤذن المهيم على الجنة والنار المبلغ نداء الله فى ذلك اليوم، ينبغى أن يكون له مقام سام ورفيع. والخلاصة هي أن الإنسان يتكون من جسم وروح، والمعاد أيضاً يتحقق بهذين البعدين وهذا ما يستلزم الثنائية أيضاً فى العقاب والثواب، وبناءً على ما ذكرنا فأهل النار لا يتألمون من العذاب الجسماني فقط، بل يعانون كذلك من العذاب النفسى والروحي وهو أشد وطأة عليهم، فهم يعيشون فى ألم وهم وحزن غير متناه، وتلازمهم الفضيحة والندامة على ما مضى ولو قارنوا أنفسهم بأهل الجنة لكانت المعاناة أشد، لاسيما بوجود الملائكة الغلاظ وما يواجهونه من أنواع الاستهانة والتوبيخ والاحتقار، وهذه كلها من العوامل التى تؤذيهم نفسياً وتجعلهم يعيشون فى عذاب مرير.

ومن المؤكد أن هذه العقوبات تنسجم مع عملهم فى هذه الدنيا حين كانوا يعاملون

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٤٥

المظلومين بأنواع العذاب والعقاب وكانوا كثيراً ما يستهزئون بآيات الله ويسخرون من عباده ويستخفون بالمؤمنين ويتفاخرون على الآخرين.

فهل هنالك عجب لو تمثلت لهم أعمالهم أمام أعينهم ووقعوا فى مغبة نتائجها، ليحصدوا فى الآخرة كل ما زرعه فى مزرعة الدنيا؟

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٤٧

٦- خلود العقاب

تمهيد:

هنالك تناسب بين «الجريمة» و «العقاب» دائماً فكلما كانت الجريمة أعظم كانت العقوبة أشد، هذا فى مجال العقوبات الجزائية. أما بالنسبة للآثار الوضعية والطبيعية لأعمال الإنسان فالقضية تأخذ منحى آخر فقد يتعرض الإنسان - نتيجة لتساهله وتجاهله ولو لحظة واحدة - لحادثه لا يتيسر له جبرانها أو علاجها، وربما تكون حصيلة الجهل والتساهل فادحة جداً كأن تؤدى مثلاً إلى إصابة عضو من أعضاء الجسم بالنقص أو الشلل إلى الأبد وهذا ما يحتم دفع كفارة ذلك وتحمل تبعاته إلى نهاية العمر، مع أن الخطأ ارتكب لحظة واحدة.

يفهم من آيات القرآن الكريم وبكل وضوح أن فريقاً من الناس يبقى فى العذاب الأبدى أو بتعبير آخر يخلد فى جهنم، وقد اثار مسألة «الخلود» هذه تساؤلات شتى وطرح فى تفسيرها آراء مختلفة، سنأتى عليها لاحقاً بإذن الله.

نقرأ أولاً الآيات الشريفة التالية التى تتضمن كل واحدة منها تعبيراً جديداً عن خلود العذاب:

١- «وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

(البقرة/ ٣٩)

٢- «يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَاهُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ».

(المائدة/ ٣٧)

٣- «فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٤٨

السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أَلَا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ». (هود / ١٠٦-١٠٧)

٤- «وَنَادُوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ أَنْكُم مَّا كُنْتُمْ». (الزخرف / ٧٧)

٥- «وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسِيرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ». (البقرة / ١٦٧)

جمع الآيات وتفسيرها

عذاب الخلود:

تطالعنا الآية الأولى بكلمة «الخلود» المعروفة، فتقول: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ». هذا في وقت صِيَرَحَت فيه بعض الآيات القرآنية الأخرى بكلمة «الأبدية» بعد كلمة الخلود وهو مائِئِدُ تأكيداً لها، ومن جملة ذلك قوله تعالى «وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا». (الجن / ٢٣)

وجاء نفس هذا المعنى أيضاً في الآية (٤٥) من سورة الأحزاب، حيث اقترنت كلمة الأبدية بكلمة الخلود. وقد وردت كلمة الخلود في نار جهنم في آيات كثيرة من القرآن الكريم، فمنها ماورد وصفاً مثل «خالدون» و «خالدين»، ومنها ماورد على صيغة الفعل كما في سورة الفرقان التي أشارت إلى مضاعفة العذاب على المشركين والقتلة والزناة وقالت: «وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا». (الفرقان / ٦٩)

وورد هذا العنوان أحياناً كقيد للعذاب، كما جاء في قوله تعالى «ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ». (يونس / ٥٢)

وجاءت كلمة «الخلود» بصيغها المختلفة (فعلماً، ووصفاً، ومصدراً) بخصوص عذاب النار أكثر من ثلاثين مرة في القرآن الكريم، وتأكيداً على هذه الكلمة له مفهوم خاص سيوضح سببه في البحوث القادمة بمشيئة الباري عز وجل.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٤٩

وقد وردت هذه الكلمة أيضاً بخصوص نعم الجنة في آيات كثيرة من القرآن الكريم والتي سبقت الإشارة إليها في بحث نعم الجنة. لنرى الآن ما معنى «الخلود» في اللغة، وما معناه عند المفسرين:

فسر لسان العرب كلمة الخلود بمعنى دوام البقاء في دار لا يخرج منها واطلق للآخرة (دار الخلد) لبقاء أهلها فيها. وفي مقاييس اللغة ذكر معنى واحداً لأصل الكلمة وهو الثبات والبقاء والتلازم.

وورد نفس هذا المعنى أيضاً في «صحاح اللغة» وكتب أخرى

لكن الراغب قال في «المفردات»: إن معناها الأصلي هو تبرى الشيء من عروض الفساد وبقاؤه على الحالة التي هو عليها، وكل ما يتباطأ عنه التغيير والفساد تصفه العرب بالخلود، ويقال للذي يبقى مدة طويلة، وفيه قيل: رجل مخلد لمن أبطأ عنه الشيب.

وعلى كل الأحوال نستخلص من مجموع كلمات أصحاب اللغة رأيين مختلفين.

الأول: هو المعنى الدال على الدوام والبقاء والأبدية، وإن اطلق على طول العمر فهو من باب التشبيه ليس إلّا.

والثاني: طول العمر، وإذا اطلق على الدوام والأبدية فهو من باب البيان المطلق.

وللمفسرين أيضاً آراء مختلفة في هذا الصدد.

فقد صرح بعضهم: إن «الخلود» هنا يعنى الاستمرار والدوام الذي لا انتهاء له مطلقاً «١».

وقال آخرون إنَّ معناه الحقيقي هو الاستمرار والتواصل والدوام ومعناه المجازى المدَّة الطويلة، أمَّا الاستخدام القرآنى للكلمة فهو بالمعنى الأول «٢».

وذكر بعضهم نفس هذا المعنى بتعبير آخر وهو أنَّ الخلود فى اللغة يعنى المكث الطويل كما هو الحال فى قولنا للسجن المؤبد والفترات الطويلة الأمد، فنقول مثلاً خُلد فلان فى السجن، أمَّا فى لسان الشرع فيعنى الأبدية «٣».

(١). الطبرسى فى مجمع البيان.

(٢). تفسير القرطبي، ج ١، ص ٢٠٧.

(٣). تفسير المراغى، ج ١، ص ٦٩.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٥٠

نفحات القرآن ج ٦ ٣٩٩

وجاء فى تفسير المنار أنَّ فتح باب تأويل الخلود أدى إلى جرئ أصحاب استقلال الفكر فى هذا الزمان على الدخول فيه والقول إنَّ معنى خلود الكافرين فى العذاب طول مكثهم فيه، لأنَّ الله الرحمن الرحيم، الذى سبق رحمة غضبه ما كان ليعذب بعض خلقه عذاباً باق لا نهاية له «١».

ويقول البعض أيضاً: رغم أنَّ الكفرة والمعاندين الطغاة المتمردىن الذين استشرت الذنوب فى صميم كيانهم يقعون فى النار، إلَّا أنَّ جهنم لا تبقى دوماً على حال واحدة فلا بدَّ أن تبلغ اليوم الذى تخمد نارها ويرتاح أهلها.

وقد احتمل أيضاً أنَّ أهل النار سيعتادون بمرور الزمن على شدة حرارة النار وكثرة العذاب ويتلاءمون بالتدرىج مع وضع جهنم فلا يبقى لديهم أى شعور بالألم!

إلَّا أنَّ أمثال هذه الاحتمالات مرفوضة من قبل علماء الإسلام ومفسرى القرآن لأنها تتعارض وصريح الآيات القرآنية، إضافة إلى أنَّ الآيات التى قرأناها لم تقتصر عباراتها على ذكر كلمة الخلود فحسب حتَّى تتحمل مثل هذه التأويلات بل توجد إضافة إليها تعابير اخرى وردت وهى لا تتحمل مثل هذه التأويلات، (فتأمل).

وخلاصة القول هى أنَّ العجز عن حل مشكلة الخلود فى العذاب، قد دفع البعض فيما يبدو إلى الميل لمثل هذه التأويلات غير الصائبة، وإلَّا فلدلالة الآيات القرآنية والروايات الإسلامية بالنسبة لخلود العذاب لمجموعة من المجرىمين مسألة لا تقبل النقاش.

وفى العبارة الثانية نلاحظ وجود كلمة «الإقامة» حيث تقول الآية الشريفة: «يُرِيدُونَ ان يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ».

إنَّ وصف كلمة العذاب ب «المقيم» يدل بوضوح على أنَّ هذه العقوبة بالنسبة لهم ثابتة ومستمرة.

(١) تفسير المنار، ج ١، ص ٣٦٤.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٥١

أبدية العذاب:

طرحت الآية الثالثة مسألة أبدية العذاب فى جهنم لفئة من أصحاب الجحيم، ولكن بتعبير آخر يمتاز بصراحة أكثر، فتقول: «فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ»، وفى الختام تستثنى فتقول: «إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ

فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ».

(من البديهي أن السماء والأرض لن يكون لهما وجود آنذاك، وأن السموات والأرض اللتين تتحدث عنهما الآيات القرآنية، تقومان بعد زوال الأرض والسماء الحاليتين، وهما خالدتان إلى الأبد).

قال البعض: إن هذا التعبير في اللغة العربية كناية عن الأبدية، إذ يوجد في اللغة العربية الكثير من التعبيرات المستخدمة بمعنى الأبدية. مثل «ملاح كوكب» أو مثل ماورد في كلامه عليه السلام حين اعترض عليه الجهلة بسبب تقسيمه بيت المال بالتساوي وكانوا يطمعون في أن يميز بين الناس في العطاء كما كان يفعل الخليفة الثالث ظناً منهم أن هذا الأسلوب سيُسهم في تثبيت ركائز حكمه، فقال لهم الإمام عليه السلام: «أَتَأْمُرُنِي أَنْ اطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه، والله لا أطور به ما سَمَر سَمِير وما أمَّ نجم في السماء» (١). و يلاحظ في شتى اللغات تعابير من أمثال هذه ففيها دلالة على الاستمرارية والدوام والأبدية.

ويبقى هنا سؤال واحد وهو: إن كانت الآية أعلاه تعني أبدية العقوبة فما مفهوم الاستثناء الوارد في نهايتها وهو «إلا ما شاء ربك»؟ فالذي يبدو من ظاهر هذا الاستثناء على أقل تقدير هو عدم أبدية العذاب لفئة معينة منهم، بل ويحتمل أيضاً شموله لهم جميعاً، وستكون النتيجة معكوسة في مثل هذه الحالة.

وقد نقل بعض المفسرين من أمثال المفسر الكبير المرحوم الطبرسي في مجمع البيان عشرة أوجه لهذا الاستثناء عن علماء التفسير، إلا أننا تجنّبنا نقلها هنا لضعفها وعدم أهميتها

(١). نهج البلاغة، الخطبة ١٢٦.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٥٢

(والظاهر أن المرحوم الطبرسي لم ينقلها لاقناعه بها، ولكن من باب ذكر جميع الآراء) ونكتفي بذكر ما يستحق الاهتمام منها فقط وهو:

أولاً: إن الهدف من ذكر هذا الاستثناء هو تبيان حاكمية الله وقدرته المطلقة ومشيتته الكاملة، فلا تظنوا أن هذا الخلود يتحقق بدون إرادته، وإن شاء فهو على كل شيء قدير ولكن إرادته قضت بتخليد هذه الطائفة من أهل جهنم فيها.

ولهذا ورد نفس هذا التعبير بشأن أهل الجنة في الآيات السابقة لها، فتقول الآية في نفس الوقت: «عَطَاءٌ غَيْرٌ مَّجْدُودٍ». (هود/ ١٠٨)

وتُظهر هذه الجملة بوضوح أن المقصود من الاستثناء من الأشياء ليس هو قطع العذاب أو النعمة بل لمجرد تبيان قدرة الله.

وثانياً: إن المقصودين بالاستثناء هم الذين لا يستحقون الخلود في العذاب كالمؤمنين المذنبين الذين يقعون في النار لمدّة من الزمن، فيتطهرون من ذنوبهم، ومن ثم يذهبون إلى الجنة، وجملة «إلا ما شاء الله» هنا تختص بهذه الطائفة، أما الكفرة فسيقعون في العذاب (وهم كما يُقال جزء من المستثنى منه لا المستثنى).

ونفس هذا الاعتبار يُطرح أيضاً بشأن أصحاب الجنة، فهم أيضاً خالدون فيها إلا المؤمنين المذنبين منهم والذين كانوا سابقاً في جهنم ثم جاؤا إلى الجنة.

وعلى كل حال فهذا الاستثناء لا يخلق أية مشكلة في دلالة الآية على أبدية العذاب.

تصرح الآية الرابعة بمسألة الخلود وعدم تخفيف العذاب للمجرمين وتؤكد أيضاً أن الله سبحانه وتعالى لم يظلمهم بل هم الذين ظلموا أنفسهم: «وَنَادُوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ أَنْكُم مَّا كُنْتُمْ».

كلمة المكث جاءت هنا بشكل مطلق وغير محدود وهذه دلالة أخرى على خلود عذابهم (١).

(١). «المكث» يعني البقاء المصحوب بالانتظار «كما قال الراغب في مفرداته»، وكلمة المكث تطلق أيضاً على التوقف المؤقت، إلا أنها

عندما تذكر مطلقاً وبلا قيد أو شرط، فهي تعنى التوقف الدائمى.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٥٣

لذلك يصرح المرحوم الطبرسى فى مجمع البيان بأن كلمة «ماكثون» هنا تعنى «دائمون»، ورغم أن الآية المذكورة لم تبين هل أن مالكاً أجابهم مباشرة أم بعد مدّة من الزمن، إلّا أنّ جماعة من المفسّرين قالوا: أن هذا الجواب يأتيهم بعد مدّة للامعان فى تحقيرهم والاستخفاف بهم. فقال بعضهم: أن الجواب يرد بعد أربعين عاماً، وقال آخرون بعد مائة عام، ونُقِل عن ابن عباس أنه قال: إن هذا الرد السلبى يأتيهم بعد ألف عام «١»، من أجل أن يظلّوا فى الانتظار لمدّة أطول ويتحمّلوا العناء وذل الاستهانة! وتظهر الآية بوضوح عدم وجود الموت فى ذلك العالم، بل هم دوماً أحياء يعيشون فى الألم والعذاب. ويطلبنا فى الآية الخامسة تعبير يتحدث عن «عدم الخروج من النار» بشكل مطلق، وهو تعبير آخر يحكى حقيقة خلود العذاب، وتصف الآية نفور المتبعين من المتبعين فى قولها: «كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ». نعم هؤلاء لا ينجون سوى الندم على ماضى والحسرة على ما كانوا يقومون به من تقليد أعمى وطاعة مطلقه لقادة الضلال، والتأسف على العمر الذى مرّ هدرًا، وعلى الأموال التى جمعت من الحرام وتُركت يتنعم بها الآخرون، وعدم استغلال فرص التوبة التى اتاحت لهم، ولكنها حسرة وندم لا طائل من ورائهما لأنّ فرص العودة قد مضت وإمكانية التعويض لن تأتى ثانية. يقول المرحوم العلامة الطباطبائى فى تفسير الميزان، عند تفسيره لهذه الآية: وهذا دليل ضد من يعتقد بنهاية عذاب جهنّم.

(١). تفسير الكبير، ج ٢٧، ص ٢٢٧؛ وتفسير القرطبي، ج ٩، ص ٥٩٣٧، نقل أيضاً فى تفسير مجمع البيان مسألة الأربعين عاماً والألف عام.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٥٤

النتيجة:

نستخلص من مجموع التعبيرات الخمسة التى مرّت أن عذاب جهنّم أبدى كما أن نعم الجنة أبدية، أما الذين يعتقدون بانقطاع العذاب فهم يذهبون خلافاً لما تنص هذه الآيات (وأمثالها)، ويفسّرون القرآن على طريقة (التفسير بالرأى). صحيح أن الاعتقاد بخلود العذاب - وإن كان لفئة خاصة من أهل النار - له مشكلاته وتعقيداته، ولكن بالنظر لصراحة الآيات القرآنية فى هذا الصدد، فينبغى حل تلك التعقيدات عن طريق المنطق والاستدلال، لا عن طريق تجاهل وانكار أصل الموضوع.

توضيحات

من هم المخلدون فى النار؟

إشارة

ذكرت الآيات القرآنية أشخاصاً وأقواماً بالخصوص يخلدون فى النار ومن جملتهم:

١- الكفار

بمن فيهم المنكرون للمبدأ والمعاد والمشركون والمكذبون بآيات الله وأعداء الله ورسوله صلى الله عليه وآله والمرتدون، وهم الذين ذكرتهم الآيات القرآنية وقالت: إنهم سيخلدون في النار، من جملة ذلك ما ورد في قوله تعالى «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» (آل عمران / ١١٦)

(١). هنالك آيات كثيرة أخرى تتحدث عن هذا الموضوع أيضاً من أمثال: الأعراف، ٣٦ وهي بشأن المكذبين بآيات الله؛ وسورة البينة، ٦ التي تعتبر المشركين وأهل الكتاب مخلدين في النار، وسورة التوبة، ١٧ وفيها ذكر لخلود المشركين؛ والبقرة، ٢١٧؛ وآل عمران، ٨٨ التي تتحدث بخصوص المرتدين، وسورة فصلت، ٢٨ والتي تشير إلى خلود أعداء الله في النار.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٥٥

٢- المناقون

رغم أنهم ينخرطون في الظاهر في سلك أهل الإيمان ويُعدّون في زمرة المؤمنين، إلا أنهم من المخلدين في جهنم، كما دلت على ذلك قوله تعالى، فقد أشار أولاً إلى أعمالهم وسلوكهم ثم قالت: «لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ». (المجادلة/ ١٧)

ويقول أيضاً: «إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا». (النساء / ١٤٠)

٣- الغارقون في الذنوب

يلحظ في سورة البقرة عبارة في وصف المذنبين، وهي غثية المعنى تقول: «بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ». (البقرة / ٨١)

ويقارب هذا المعنى ماورد في سورة يونس، وجاء فيها: «وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ». (يونس / ٢٧)

ولكن هل أن المؤمنين من مرتكبي الكبائر يخلدون في العذاب أم لا؟ هذا ما سنُجيب عنه في بحث مفصل بعد تفسير هذه الآيات بإذن الله.

٤- القتل والجناة

يُفهم من آيات القرآن أن مرتكبي قتل العمد يخلدون أيضاً في العذاب، كما ينص على ذلك قوله تعالى «وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا». (النساء / ٩٣)

وقد عُرضت هنا أربع عقوبات لقاتل المؤمن عمداً وهي:

الخلود في النار، والغضب الإلهي، والطرده من رحمة الله، والاستعداد للعذاب العظيم.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٥٦

ولكن هل أن هذه العقوبات تطبق في حالة عدم التوبة وجبران مافات؟ أم أنها في رقابهم في جميع الأحوال؟ يبدو الاحتمال الثاني مستبعداً جداً، وذلك لأن أكبر الذنوب وهو الشرك يمحي بالتوبة، فالمشركون كذلك يعفى عنهم بدخولهم الإسلام، فكيف يمكن القبول بأن قتل النفس يفوق كل هذا، إضافة إلى ذلك ما ورد في تاريخ الإسلام أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عفا عن وحشى قاتل حمزة بن عبد المطلب قبل توبته، وكذلك عفا الكثير من المسلمين عن قتله آباؤهم وأبنائهم واخوانهم، بعد

دخولهم الإسلام. ومن نافله القول، إن التوبة عن مثل هذا الذنب ليست بالأمر الهين ولا تنتهي القضية بالاستغفار بالقول بل ينبغي الانقياد للقصاص أو ارضاء أولياء القتيل بالدية أو غيرها وجبران ماضى بعمل الخير فى المستقبل.

جاء فى حديث عن الرسول محمد صلى الله عليه وآله أنه قال: «لزوال الدنيا وما فيها أهون على الله من قتل مؤمن ولو أن أهل سماواته وأهل أرضه اشتروا فى دم مؤمن لأدخلهم الله تعالى النار» (١).

أما كيف يمكن خلود قاتل المؤمن عمداً فى النار مع ما يدل على أن الكفار وحدهم سيخلدون فى النار؟ فللمفسرين أجوبة مختلفة فى ذلك.

ف قيل: إن أشخاصاً كهؤلاء لا يكتب لهم نصيب من التوبة أو قليلاً ما يوفون لبلوغها، فيغادرون الدنيا فى نهاية المطاف بلا إيمان، ولهذا فهم يستحقون الخلود فى النار.

وقيل: إن هذا هو جزاء من يقوم بالقتل العمد وهو منكر لتحريمه، وهذا الأمر يستلزم الكفر بذاته.

وقيل: إن كلمة الخلود تعنى هنا المدة الطويلة لا العذاب الأبدى. يبدو أن التفسيرين الأول والثانى أنسب إلى واقع الحال.

٥- آكلو الربا

هددت الآيات القرآنية آكلى الربا أيضاً بالعذاب الأبدى، فقالت: «فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ

(١). تفسير روح المعانى، ج ٥، ص ١٠٤.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٥٧

مَنْ رَبِّهِ فَاَنْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ». (البقرة/ ٢٧٥)

وهنا يعترضنا أيضاً سؤال وهو: كيف يخلد هذا الفريق فى النار بينما الذنب الكبير لا يستوجب لوحده الخلود فى النار؟ الاجابة عن هذا السؤال هنا أبسط، وذلك لأن نص الآية (فى الجمل السابقة) يشير إلى منكرى تحريم الربا، الذين كانوا يقولون: ما الفرق بين البيع والربا ولماذا أحل الله أحدهما وحرم الآخر، فى حين أن الفارق بينهما واضح، فالبيع والشراء والتجارة والأعمال المشابهة كلها تصب فى مصلحة المجتمع، وهى من النشاطات الاقتصادية السليمة، أما الربا فهو ضار بالمجتمع، ولهذا الموضوع شرح واسع تطرقنا إليه فى مكانه المناسب.

٦- الظالمون والجبارة

الفريق الآخر الذى اعتبره القرآن الكريم مستحقاً للخلود فى العذاب هو فريق الظالمين، وهذا ما ورد فى الآية حيث جاء فيها: «وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ». (الشورى/ ٤٥)

ويتبين من هذا التعبير أن عاقبة الظلم، الخلود فى النار.

وقد أكدت الآيات التى سبقت هذه الآية مراراً، العذاب الأليم للظالمين (الشورى ٤٢)، ندمهم الشديد وهم يتعذبون فى نار جهنم (الشورى ٤٤).

هل المقصود من الظلم هنا هو ظلم عباد الله والمستضعفين أم هو ظلم النفس من خلال الشرك، لأن الشرك كما صرح به قوله تعالى «لُظْمٌ عَظِيمٌ». (لقمان/ ١٣)

وجاء أيضاً فى قوله تعالى: «وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ». (البقرة/ ٢٥٤)

رخص بعض المفسرين المعنى الثانى، ولعل جملة: «قَالَ الَّذِينَ آمَنُوا» دليل على هذا المعنى أيضاً وأن المؤمنين المظلومين قد واجهوا

ظلماً كبيراً على يد الكفار الظالمين وهم - أى المؤمنون - الذين يتحدثون بهذا الكلام فى يوم القيامة.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٥٨

وتنص سورة الحشر، بعد الإشارة إلى خلود الشيطان وأتباعه فى النار: «وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ». (الحشر / ١٧)

ولكن لو علمنا أن هذا الحديث يدور حول الشيطان وأتباعه الكافرين وما ورد فى الآية السابقة وهو: «كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ أَنَّى بَرِيءٌ مِّنْكَ». (الحشر / ١٦)

لأدركنا أن المقصود من الظلم فى هذه الآية مصداقه الأتم، يعنى: الكفر.

٧- الذين خفت موازينهم

يُستفاد من بعض الآيات القرآنية أن ثقل ميزان العمل فى يوم القيامة يدل على الفوز والنجاة، أما خفة ميزان العمل فهى دالة على عدم قيمته، وهذا ما يؤدى إلى الخلود فى النار، جاء فى الآيتين من قوله تعالى: «فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ». (المؤمنون / ١٠٢-١٠٣)

وعبارة: «خسروا أنفسهم» إشارة لطيفة إلى أن أكبر رأس مال يمتلكه الإنسان هو وجوده وعمره وحياته، وأن هؤلاء قد خسروا رأس مالهم فى سوق تجارة الدنيا من غير أن يحصلوا مقابله على شىء ذى أهمية.

وقد يكون هذا التعبير إشارة إلى الكفرة، لأن المؤمن مهما ارتكب من ذنوب فلا بد أن يحتوى ميزان عمله على شىء ما ولا يبقى خفيفاً تماماً وذلك لأن الإيمان والمعتقد الحق له بذاته وزن لا يُستهان به، وعلى هذا فإن خفة ميزان أعمال هذه الفئة وخلوه من أية حسنة دليل على كفرها، كما يتضح هذا المعنى من قوله تعالى «أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا». (الكهف / ١٠٥)

٨- المجرمون بشكل عام

يُفهم من بعض الآيات أن المجرم بشكل مطلق مخلد فى جهنم، تقول الآية: «وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا». (الجن / ٢٣)

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٥٩

وجاء نفس هذا المعنى أيضاً مع إضافته أخرى فى الآية: «وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ». (النساء / ١٤)

وورد تعبير يشابه هذا فى قوله تعالى «إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّهِينٍ خَالِدُونَ». (الزخرف / ٧٤)

ولكن لو التفتنا إلى الآيات السابقة كآية (٢٠) من سورة الجن والتي يدور فيها الكلام عن دعوة النبى صلى الله عليه وآله إلى التوحيد وتقويض الشرك، وما جاء فى الآية (٢٤) من نفس السورة) التي نقلت كلام مشركى قريش الذين كانوا يعنفون النبى صلى الله عليه وآله لعدم وجود الانصار والاعوان المنتهذين، لتبين لنا أن المقصود من «العصيان» هنا هو الكف عن الدعوة إلى التوحيد والميل إلى الشرك والكفر، وعلى هذا فهى لا تتضمن أية دلالة على خلود جميع المجرمين فى النار.

ويلاحظ وجود قرينه فى ذيل الآية ٧٤ من سورة الزخرف دالة على هذا المعنى لأنها تتحدث عن كانوا يضمرون العداة الشديد للدعوة، وكانوا يظنون أن الله غير مطلع على سرهم ونجواهم، ويُعتبر هذا بذاته من معالم الكفر، (فتأمل).

وقد صرح الكثير من المفسرين عند تعرضهم للآية المذكورة بأن المقصود من العصيان فيها هو العصيان فى التوحيد «١».

إلا أن هذا الاحتمال - وهو أن المقصود من الخلود هنا هو العذاب الطويل - يبدو مُستبعداً جداً، وذلك لأن تأكيد كلمة «الخلود» بكلمة

«أبدًا» دالٌّ على أن المقصود هو خلود العذاب الإلهي.

النتيجة:

لقد أدركنا من خلال النقاط الثمان الآنفه الذكر وجهه نظر القرآن في موضوع المخلدين

(١). راجع تفسير مجمع البيان، ج ٩، و ١٠، ص ٣٧٣؛ تفسير الميزان، ج ٢٠، ص ٥٢؛ وتفسير روح البيان، ج ١٠، ص ٢٠٠؛ وتفسير روح المعاني، ج ٢٩، ص ٩٤.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٦٠

في النار، ولكن يتضح من خلال النظرة الاجمالية للآيات المذكورة أن خلود الكفار في النار امرٌ بديهي لا مفر منه، إلا أنه غير مُسَلِّم به لجميع العاصين، ويستثنى من ذلك كون المعصية أو الذنب على درجة كبيرة بحيث تدفع الإنسان إلى الكفر والخروج عن خط الإيمان، أو أن يغادر هذه الدنيا وهو غير مؤمن، وسنصل إلى شرح مفصل عن هذا الموضوع قريباً.

سؤال: هل أن مرتكبي الكبائر مخلدون في النار؟

هناك فرقة إسلامية تُعرف بـ «الوعيدية» (وهي من فرق الخوارج) تعتبر أي ذنب من الكبائر موجباً للكفر وتعتقد أن مرتكبه يخلد في النار، ويقف في مقابل هذه الفرقة «المرجئة» الذين يقولون: إن الإيمان لا تضر معه المعصية (إحداهما تتصف بالافراط والآخرى بالتفريط!).

قال العلامة الحلبي رحمه الله في (شرح التجريد) بعد أن نقل إجماع وأتفاق المسلمين على العذاب الأبدى للكفار: «يختلف المسلمون في مرتكبي الكبيرة، فالوعيدية يعتبرونهم كالكفار، لكن الشيعة وكثير من المعتزلة يعتقدون بأن عذابهم له نهاية، ثم أقام الأدلة التي تثبت هذا المعنى .

يقول الشيخ المفيد رحمه الله في «أوائل المقالات»:

«اتفقت الإمامية على أن الوعيد بالخلود في النار متوجه إلى الكفار خاصة دون مرتكبي الذنوب من أهل المعرفة بالله تعالى والاقرار بفرائضه من أهل الصلاة، ووافقهم على هذا القول كافة المرجئة وأصحاب الحديث قاطبة، واجمعت المعتزلة على خلاف ذلك وزعموا أن الوعيد بالخلود في النار عام في الكفار وجميع الفساق» (١).

ويستدل هذا الفريق ببعض الآيات القرآنية لإثبات رأيه، وبالخصوص تلك الآيات القائلة بخلود مرتكبي القتل العمد وآكلي الربا في نار جهنم وأمثالها من الآيات، ومن أوسع

(١). أوائل المقالات، ص ٥٣.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٦١

تلك الأدلة شيعياً هي ما ورد في من سورة الجن والتي مرر علينا تفسيرها مسبقاً وهي:

«وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا». (الجن / ٢٣)

ولكن هناك قرائن كثيرة في هذه الآيات وفي غيرها تدل على أنها (هذه الآيات) تختص بأولئك الذين تنتهي بهم ذنوبهم إلى الكفر

وانكار المعاد أو النبوة أو ضرورة من ضرورات الدين، ومن جملة تلك القرائن الآية: «كَأَنَّمَا اغْشَيْتَ وَجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا». (يونس / ٢٧)

وبالنظر إلى أن هذا الوصف قد ورد في القرآن هنا بحق الكفار، حيث يقول تعالى «وَجُوهُهُمْ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ* أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ». (عبس / ٤٠-٤٢)

فهذا دليل على أن المقصود في الآية موضع بحثنا هم الكفار أيضاً.

ولهذا جاء في الرواية عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «هؤلاء أهل البدع والشبهات والشهوات يسود الله وجوههم ثم يلقونه، يقول الله: «كَأَنَّمَا اغْشَيْتَ وَجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا»، يسود الله وجوههم يوم القيامة ويلبسهم الذل والصغار، يقول الله سبحانه وتعالى: «أُولَئِكَ اصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ»» (١).

والقرينة الأخرى هي عبارة «أَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ» الواردة في الآية ٨١ من سورة البقرة والتي تشير إلى أن ارتكاب الذنب الكبير وحده لا يؤدي إلى الخلود في النار، بل إن إحاطة الذنب بكل وجود الإنسان هي السبب في طرح مثل هذا الموضوع لأنها تسوقه نحو الكفر، والسبب في ذلك - كما تفيد الروايات - أن الإيمان يظهر في القلب على هيئة نقطة مضيئة، وكلما ازدادت أعمال الخير التي يؤديها كلما اتسعت تلك النقطة حتى تحيط بقلبه كله، وكلما ارتكب ذنوباً ومعاصي كلما خيم الظلام على قلبه حتى يحيط بقلبه كله ويجعله قلباً أسوداً (ينطفئ فيه نور الإيمان) لاسيما وأن بعض الروايات تستدل بقوله تعالى «كَلَّا بَلْ رَأَىٰ عَلَيَّ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ» (٢).

(المطففين / ١٤)

(١). تفسير على بن إبراهيم، ج ١، ص ٣١١.

(٢). اصول الكافي، ج ٢، ص ٢٧٣، باب الذنوب، ح ٢٠.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٦٢

وبعض تلك الآيات تؤكد تعميد الذنب (كآية القتل)، ولعل المراد منها هو مخالفة امر الله ومخالفة الحق، وهذا من أوضح مصاديق الكفر.

والاشتهاد الآخر هو الوارد في قوله تعالى: «ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُا السُّوْاىٰ اَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللّٰهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ». (الروم / ١٠)

يُظهر هذا التعبير أن الاصرار على الذنب والاستمرار عليه يؤدي بالنتيجة إلى الكفر وتكذيب آيات الله وهو ما يؤدي إلى الخلود في النار.

إضافة إلى كل هذا، فإن الآية: «أَنَّ اللّٰهَ لَا يَغْفِرُ اَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ» والتي تكررت مرتين في سورة النساء ٤٨ و ١١٦، هي دليل آخر واضح على هذه الحقيقة وهي أن المشركين (الكفر بأنواعه أيضاً ملحق بالشرك) لا يغفر لهم ويخلدون في جهنم، وأن المجرمين الآخرين يمكن أن يغفر لهم، وهذا ما يدل على أن حسابهم يختلف عن حساب الكفار ولا يمكن أن يعدوا ضمن صنف واحد.

لا يتوهم أحد أن هذه الآية تعطي الضوء الأخضر للمجرمين، لأنه لم يصدر وعد قطعي بالعتق عنهم بل هو وعد احتمالي مرتبط بمشيئة الله، ولما كانت مشيئة الله وإرادته مرتبطة بحكمته، وحكمته تقتضي أن تكون هذه المقومات كلها معايير للعتق، اذن، فالحال يوجب على المجرمين عدم قطع علاقاتهم بالله وأوليائه والإبقاء على جسور العودة قائمة.

ورد في الروايات أن هذه الآية هي أكثر الآيات التي تبعث الأمل والرجاء في النفوس، كما جاء عن أمير المؤمنين على عليه السلام أنه قال: «ما في القرآن آية أرجى عندي من هذه الآية» (١).

ولطرح مزيد من التوضيح، ينبغي الالتفات إلى أن الآية المذكورة لا تشمل مرتكب الصغائر طبعاً لأن القرآن قد وعد بغفران الذنوب

الصغيرة لمن يتورع عن اجتناب الكبائر منها، وهي أيضاً لا تشمل الذنوب الكبيرة بعد التوبة لأن التوبة سبب لغفران جميع الذنوب

(١). لمزيد من الايضاح راجع التفسير الأمثل، ذيل الآية ٤٨ من سورة النساء.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٦٣

حتى الشرك، وعلى هذا فالمفهوم الوحيد المتبقى لهذه الآية هو أنها ميّزت بين الشرك وارتكاب الذنوب الكبيرة، فالأول لا يغفر لأن وجود الشرك يقضى على جميع مقومات العفو، أما الثاني فالعفو فيه محتمل ولكن بشروط اشير إليها في جملة «لمن يشاء».

والشاهد الآخر على هذا الادعاء هو الآيات القرآنية العديدة، ومنها هذه الآية:

«فَسَيَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوُضُ امْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ». (المؤمن / ٤٤) وهذه الآية: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ». (الزلزال / ٧)

كذلك آيات الشفاعة، لأن الصغائر تُمحي في ظل اجتناب الكبائر، والكبائر أيضاً يُعفى عنها بالتوبة، واستناداً إلى ما ذكر، فالشفاعة تختص فقط بمرتكبي الكبائر الذين لم يتوبوا فإن كانوا يستحقون الشفاعة يُعفى عنهم.

فإن كان الحال كذلك، فكيف نعتبر مرتكبي الكبائر كالكفار والمشركين ونقول بخلودهم في النار؟

كيف يمكن أن تقضى الحكمة الإلهية بتخليد إنسان في النار قضى عمراً في الإيمان والعمل الصالح لارتكابه ذنباً كبيراً كأن يكون كذب لمرة واحدة في حياته؟

نحن لا نقول هنا بعدم عقابه بل نرى أن عذاب الخلد لا ينطبق على مثل هذا الشخص.

هناك روايات كثيرة وردت عن المعصومين عليهم السلام تنفي قول «الوعيدية» بتخليد مرتكبي الكبيرة في النار (١).

والحقيقة أن هذه الفرقة المتطرفة من الخوارج قد انحدرت في هذا الوادي السحيق بسبب التعصب والعناد وعدم الإلمام بآيات القرآن وأحاديث النبي صلى الله عليه وآله والمعصومين عليهم السلام، وعدم الأخذ بالأدلة العقلية البينة، والخوارج بشكل عام قد ابتلوا بعواقب جهلهم وتعصبهم، وماضيهم في التاريخ الإسلامي أفضل دليل على ذلك (٢).

(١). للاطلاع على ايضاحات أكثر يمكن مراجعة كتاب بحار الأنوار، ج ٨، ص ٣٥١-٣٧٦، الباب ٢٧؛ وتفسير الكبير، ج ٣، ص ١٤٤

وما بعدها.

(٢). المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٦٤

توضيحات

اعتراضات على خلود العذاب:

إشارة

طرحت أسئلة مختلفة بشأن العقاب الأبدي لفئة خاصة من المجرمين يبدو أن البحث فيها ضروري هنا.

هناك من يقول: إنَّ المادةَ ليست خالدةً حتَّى تتعرض للثواب الأبدى أو العقاب الأبدى.

وبعبارة أخرى إنَّ فناء المادة لا يتناسب وخلود الثواب والعقاب.

وليس هناك صعوبة كبيرة للرد على هذا الاعتراض، فلا يوجد شيء في العالم - سوى ذاته المقدسة - أبدى بالذات. بل إنَّ كل ذرات العالم (سوى ذاته) فانية والبقاء لا - يصحح إلماً لها، لكن ذلك لا يمنع أن تكون الموجودات الإمكانية أبدية بالغير. أى إنَّ الله تعالى يمدها دوماً بأسباب البقاء وكلما استهلكت تجددت، أو كما يُعبّر عنه في الفلسفة أنَّ «الإمكان بالذات» لا يتنافى مع «الوجوب بالغير». (تأمل جيداً).

أى كما أنَّ الله سبحانه وتعالى يمد الجنة والنار دوماً بأسباب الوجود ويجعلهما باقيتان قائمتان دائماً، فكذلك تكون أجسام أهل الجنة وأهل النار مشموله بهذا القانون إذ تبقى قائمه دوماً بالامداد الإلهي حتَّى تلقى جزاءها الأبدى من عقاب أو ثواب، وخلاصة القول: إنَّ الفناء يحصل في حالة عدم وجود امداد خارجي وانعدام التجدد.

٢- هل يمكن للعرضي أن يصير دائماً؟

يلاحظ في بعض كلمات الفلاسفة أنَّ: «الاصول الحكيمه داله على أنَّ القسر لا يدوم على الطبيعة، وأنَّ لكل موجود من الموجودات الطبيعية غاية ينتهي إليها وقتاً وهي خيره

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٦٥

وكمالها، وأنَّ الواجب جلّ ذكره أوجد الأشياء على وجه تكون مجبولة على قوة يتحفظ بها خيرها الموجود وتطلب بها كمالها المفقود، إلّا أن يُعيقه له عن ذلك عائق ويقسره قاسر، لكنَّ العوائق ليست أكثرية ولا دائمة وإلّا لبطل النظام وتعطلت الأشياء وبطلت الخيرات، فعلم أنَّ الأشياء كلها طالبة لذاتها للحق مشتاقه إلى لقاءه بالذات، وأنَّ العداوة والكرهه طارئة بالعرض، فمن أحب لقاء الله بالذات أحب لقاءه بالذات ومن كره لقاء الله بالعرض لأجل مرض طراً على نفسه كره الله لقاءه بالعرض، فيعذبه مدّة حتى يبرء من مرضه ويعود إلى فطرته الاولى (١).

والإجابة عن هذه المقولة ليست صعبة لأنَّ الاخطاء والانحرافات قد تتجذر أحياناً في وجود الإنسان إلى درجة تغدو معها ذات طبيعة ثانوية مثلما يحصل في هذا العالم حين يبلغ المجرم مرحلة من الانحراف حتى يصبح مُلتدّاً بجرائمه، وتستهو به الامور التي ينفر منها الإنسان السوى طبيعياً وفطرياً، كما يلاحظ عند الأشخاص الذين اعتادوا ارتكاب الأعمال القبيحة التي تشمئز منها النفوس. وحينما يبلغ الإنسان مثل هذه المرحلة من الطبيعة الثانوية لا يبقى له أى طريق للعودة.

وهذا هو نفس الشيء الذي عبّرت عنه الآية السابقة بتعبير «أحاطت به خطيئته» الذي يسبب انقلاب الطبيعة الإنسانية.

٣- ألا يعتاد أهل النار على العذاب

قيل أحياناً: إنَّ أصحاب الحجيم يُعذبون بعد دخولهم في نار جهنم بمقدار المدّة التي قضوها وهم مشركون في هذه الدنيا، ولكن بعد انتهاء هذه المدّة يتحول عذاب جهنم إلى نعيم بالنسبة لهم لأنّه يصبح أمراً متناسباً مع طبيعتهم حتى أنّهم لو دخلوا الجنة شعروا بعدم الارتياح، والسبب في ذلك هو عدم تناسبها مع طبيعتهم، إنهم يتلذذون بما هم فيه من نار وزمهرير وما فيها من لدغ الحيات والعقارب كما يلتذ أهل الجنة بظلال أشجار الجنة والحدود والقصور وطوبى والكوثر، وفي هذا العالم نرى البلبل يطربه أريج الزهور في حين

(١). الاسفار، ج ٩، ص ٢٤٦ (مع التلخيص). لقد نقل صدر المتألهين هذا الموضوع باعتباره وجهة نظر.

أن بعض الحشرات القذرة تلتذ وتنتشى بروائح القمامة الكريهة «١».

هذا الوهم يشكل نقطة مقابلة للوهم السابق أيضاً ويتناقض معه، وهو في نفس الوقت لا يتسق مع أي من الآيات التي تؤكد خلود العذاب، لا سيما وأن بعضها قد صرحت بأنه «كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ». (النساء / ٥٦) والتهديد بالخلود في النار هو تهديد بالعذاب الدائم، ولو أنه تحول إلى نعمة خالدة لما كان يتصف بالتهديد. إن مثل هذه التفسيرات بشأن الخلود تدل على أن أصحابها لم يجهدوا أنفسهم بالقيام بدراسة دقيقة أو حتى دراسة إجمالية لتلك الآيات القرآنية، ولو أننا أعدنا قراءة تلك الآيات لتبين مقدار التناقض بينها وبين هذا الكلام الفارغ القبيح. إضافة إلى ذلك، يجب الالتفات إلى أن اعتياد الإنسان على الآلام له حدود، فبعض الآلام طفيفة يعتاد عليها الإنسان بمرور الزمن. لكن لو نقص الماء في جسم الإنسان مثلاً فإنه يعاني العطش، ويتعذر عليه عندئذ الاعتياد على ذلك، كأن يكون بدنه يحتاج إلى الماء وهو لا يشعر بالعطش!.

٤- هل أن الخلود نوعي أم شخصي

يلاحظ أن البعض اعتبر الخلود «خلوداً نوعياً» لا «شخصياً»، ومعنى ذلك أن نوع «الإنسان الكافر» يبقى في النار إلى الأبد، لكن الأشخاص يتبدلون، أي أن كل واحد منهم يقضى مدة معينة في عذاب جهنم، وبما أنه يعطى مكانه إلى آخر، فإن بقاء الإنسان في جهنم سيبقى أديماً. ومفهوم هذا الكلام أن خلقاً آخر يأتي إلى الدنيا في المستقبل، وينحرف منهم جماعة أيضاً، فيكونون وقوداً لنار جهنم، ويتصادف دخولهم فيها مع نجاه وخروج الخلق السابق منها «٢».

(١). هذا الكلام نقلناه بشيء من التلخيص عن كتاب الأسفار نقلًا عن محي الدين بن العربي في الفتوحات المكية (الأسفار، ج ٩، ص ٣٤٩).

(٢). هذا التفسير موجود في حاشية ج ٩، من الأسفار، ص ٣٤٨.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٦٧

وهذا التفسير لا ينسجم مع آيات خلود العذاب المتعلقة بالكفار، ويكفي قليل من التدقيق في الآيات السابقة لفهم ذلك التناقض وعدم الانسجام، لأن تلك الآيات تصرح بالخلود الشخصي، وهذه التأويلات لا تتعدى السبب الذي ذكرناه سابقاً وهو أن العجز عن حل المشاكل في بحث الخلود قد دفعهم إلى التشبث بمثل هذه التأويلات غير واقعية.

٥- هل ينسجم الخلود مع العدل الإلهي؟!

إن أهم اعتراض يُطرح في مسألة الخلود- وهو في الحقيقة الاعتراض الأساس فيها- هو عدم التناسب بين الذنب وبين العقوبة، فيقال: كيف نرضى بأن يتعذب الإنسان الذي أساء في كل حياته وهي مائة عام على أكثر تقدير وكان خلالها يتخطى في الكفر والمعاصي ويعاقب مدة ألف مليون عام؟

هذه القضية لا تثير أي اعتراض طبعاً في ما يخص النعم الإلهية الخالدة في الجنة إذ لا عجب من فضل الله ورحمته وجزائه الأوفى فرحمته قد وسعت كل عالم الوجود، أمياً في مجال العقاب فينبغي أن يكون هناك تناسباً بين الجريمة والعقاب، وإن اختلف ذلك التناسب والتوازن فذلك ما لا يتسق والعدل الإلهي، والخاصة أن مائة سنة من الكفر والذنوب تستوجب مائة عام من العقوبة لا أكثر. إن استعصاء هذا الاعتراض على الحل قد دفع ببعض الجماعات إلى تأويل آيات الخلود واعتبارها تعني طول المدة أو أنه الخلود

النوعى لا الشخصى أو أنه الاعتياد على تلك الأوضاع وأمثال ذلك ممّا سبق القول فيه، لكن وكما قلنا سابقاً فإنّ هذه التأويلات واهية جداً ولا يمكن التعويل عليها ولا تنسجم قطعاً مع آيات الخلود.

الجواب:

إنّ الذين يطرحون هذا الاعتراض يغفلون عن نقطة أساسية وهي الفارق الموجود بين العقوبة الوضعية والعقوبة التكوينية التي هي النتيجة الطبيعية للأعمال أو الحياة في محيط تلك الأعمال.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٦٨

وتوضيح ذلك: إنّ المقنن: قد يسُنّ أحياناً قانوناً يقول فيه إنّ من يرتكب المخالفة الفلانية فعليه أن يدفع مقداراً من المال كغرامة مالية أو يسجن مدّة من الزمن، فمن البديهي في مثل هذا الموقف أن يكون هناك تناسب بين «الجريمة» و «العقاب»، فلا يمكن أن تُقرّر مثلاً عقوبة الاعدام أو السجن المؤبد للمخالفة البسيطة، وبالعكس ذلك فمن غير المعقول تحديد عقوبة القتل بسجن يوم واحد، فالحكمة والعدالة تستوجب التناسب الكامل بين تلك الحالات.

لكن العقوبات التي هي في الحقيقة الآثار الطبيعية للعمل وتعتبر من خاصّيته التكوينية أو نتيجة حضور ذات العمل أمام الإنسان، لا تفرّ مثل هذه الأقوال سواءً بشأن آثار العمل في هذا العالم أم في العالم الآخر.

فلو قيل مثلاً، إنّ من يخالف تعليمات المرور ويقود سيارته بسرعة عالية ويتسابق بلا مبرر ويجتاز المناطق الممنوعة قد يتعرض - وبسبب عدّة لحظات من المخالفة- إلى اصطدام عنيف يؤدّي إلى كسر يديه ورجليه ويبقى مقعداً طوال عمره، فهنا لا يستطيع أحد أن يقول إنّ هذه النتيجة المريرة غير عادلة إزاء هذه المخالفة البسيطة لأنّ من المسلّم به أنّ أمثال هذه العقوبات ليست من وضع إدارة المرور حتّى يؤخذ بنظر الاعتبار التناسب بين المخالفة والعقوبة، بل هو الأثر الطبيعي للعمل الذي فعله الإنسان بإرادته وأوقع نفسه فيه.

وكذلك الحال، إذا قيل بضرورة اجتناب المشروبات الكحولية أو المخدرات لأنها تتلف القلب والمعدة والمخ والأعصاب خلال فترة وجيزة، ولكن لو تعمد أحد تناولها واصيب بضعف الأعصاب الشديد وبأمراض القلب والشرابين والقرحة كل ذلك في مقابل الفسق والمجون لأيام معدودة، أو يبقى إلى آخر عمره يعاني من شدّة الألم والعجز والضعف، ففي مثل هذا الحال لا يمكن لأحد أن يتحدث عن عدم التناسب بين الذنب وآثاره وجزائه.

ولو افترضنا أنّ هذا الشخص قد عمّر في هذه الدنيا بدل المائة عام ألف عام أو مليون عام، فينبغي عليه تحمل العذاب والألم طوال هذه المدّة المديدة إزاء عدّة أيام قضاها في اللهو والمجون.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٦٩

أمّا في ما يخص العقوبات الأخروية فالمسألة أعمق من هذا بكثير، فالآثار التكوينية للأعمال ونتائجها بالغة الأهمية وقد تبقى ملازمة للإنسان إلى الأبد، بل إنّ ذات العمل (كما ذكر في موضوع تجسّد الأعمال) يتجسد أمام الإنسان وبما أنّ ذلك العالم خالد، فإنّ الأعمال الصالح منها والطالح تبقى خالدة مع الإنسان وتكون وسيلة إمّا لشقائه أو لسعادته.

وقد ذكرنا سابقاً أنّ ثواب وعقاب يوم القيامة يتصف بالآثار التكوينية وخواص العمل الذي أتى به الإنسان في الدنيا، كما يقول القرآن الكريم: «وَيَذَرُ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحِاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ». (الجاثية / ٣٣) وجاء في قوله تعالى: «وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ». (يس / ٥٤) وورد نفس هذا المضمون مع قليل من الاختلاف في آيات أخرى عديدة.

وبناءً على هذا لا يبقى هناك أى مجال لطرح هذا التساؤل وهو: لماذا لم يؤخذ بنظر الاعتبار التناسب بين الذنب والعقوبة؟

ينبغي أن يحلّق الإنسان في سماء السعادة بجناحي «الإيمان» و «العمل الصالح» لينال نعيم الجنّة الأبدى ولذّة القرب الإلهي، فإن كان قد كسر جناحيه في لحظة من لحظات المجون أو خلال المائة سنة التي قضاها في هذه الدنيا، فعليه أن يعيش إلى الأبد في الذلّة والشقاء، فالقضية هنا ليست قضيتة الزمان والمكان وحجم الجريمة، بل هي قضية العلة والمعلول، آثاره قصيرة المدى وبعيدة المدى فقد يكفي

عود واحد من الثقاب لاحتراق مدينة بأكملها، وقد يؤدى غرام واحد من بذور الشوك إلى تغطية صحراء واسعة بالاشواك بعد مدة وجيزة ويكون سبباً دائماً في اىذاء الإنسان، كما قد تكفى عدّه غرامات من بذور الورد إلى تغطية صحراء شاسعة بأجمل الورد واشذها رائحة تفوح منها العطور فتملاً النفوس والقلوب بهجة وارتياحاً.

فإن قال قائل ما التناسب بين عود الثقاب وإحراق مدينة بأكملها؟ وما العلاقة التناسبية بين عدّه بذور من الشوك أو من الورد وبين الصحراء الفسيحة؟

فهل هذا السؤال منطقي؟ من المؤكد، كلا.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٧٠

فأعمالنا الصالحة والطالحة على هذا النمط أيضاً، فقد تخلف وراءها آثاراً خالدة واسعة وكبيرة، (فتأمل).

والمسألة المهمة هنا هي أن الله تعالى القادة الربانيين والأنبياء العظام وأوصيائهم كانوا يحذروننا باستمرار من أن نتيجة أمثال هذه الذنوب هي العذاب الأبدى، ونتيجة الأعمال الصالحة هي النعمة الأبدية الخالدة. تماماً كالبستاني الماهر الذى يبين لنا مسبقاً الآثار الواسعة التى تنتج عن بذور الورد أو الشوك، ونحن الذين نختار مسارنا بوعى خلال هذا الطريق.

فهل نلوم أحداً فى هذه الحال؟ ولمن نؤاخذ؟ وعلى من نعترض سوى على أنفسنا؟

إلى هنا ينتهى موضوع الثواب والعقاب وجوانبه المختلفة.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٧١

القرآن والشفاعة

إشارة

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٧٣

القرآن والشفاعة

تمهيد:

إنّ العقوبات الإلهية يوم القيامة ليست ذات طابع انتقامى سواء كانت قصيرة أم طويلة الأمد أم أبدية، وسواء كانت جسمية أم روحية وسواء اعتبرناها كآثار طبيعية للعمل أو وضعية، وقد وضعت بهدف تربية الإنسان أو كضمانة لتنفيذ القوانين الإلهية الرامية إلى تنمية الكمال الإنسانى.

ولهذا السبب، نرى سبل النجاة مشرعة أمام الإنسان- فى نفس الوقت الذى نرى فيه القرآن الكريم يصف العقوبات الإلهية بالشدة- وتمنح الفرصة للمذنبين للرجوع عن الخطأ وإصلاح أنفسهم وسلوك الطريق المؤدى إلى الله تعالى

وتعتبر الشفاعة واحدة من هذه الوسائل لأنها تعنى فى المفهوم الصحيح للكلمة انذاراً للمذنبين بعدم هدم جسور العودة بأجمعها والحفاظ على خطوط الاتصال مع أولياء الله، وإن وقعوا فى بعض الذنوب فلا يأسوا، وعليهم الشروع بالعودة حيثما كانوا والمسارعة نحو رحمة الله الواسعة.

إنّ بحث الشفاعة بجميع تفاصيله ونقاطه التربوية المثيرة التى وردت فى آيات كثيرة من القرآن الكريم، يصب فى هذا السياق.

ومن الأفضل الاكتفاء بهذا التمهيد الموجز، ومن ثم نعود إلى القرآن الكريم لتتعرف من خلاله على حقيقة ومفهوم الشفاعة وعلى جميع الامور المتعلقة بها.

نمعن فيما يلي خاشعين في الآيات التالية التي قُسمت إلى عدّة مجاميع وبالشكل الآتي:

١- «فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ». (المدثر/ ٤٨)

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٧٤

٢- «وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ» (١). (البقرة/ ٤٨) ٣- «مَالِكُمْ مِّنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ» (٢). (السجدة/ ٤) ٤- «قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ».

(الزمر/ ٤٤) ٥- «مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ». (البقرة/ ٢٥٥) ٦- «يَوْمَئِذٍ لَّا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا» (٣).

(طه/ ١٠٩) ٧- «مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ». (يونس/ ٣) ٨- «وَكَمْ مِّنْ مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى». (النجم/ ٢٦) ٩- «وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ».

(الزخرف/ ٨٦) ١٠- «وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى». (الأنبياء/ ٢٨) ١١- «لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا». (مريم/ ٨٧)

١٢- «مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ». (المؤمن/ ١٨)

جمع الآيات وتفسيرها

المجاميع الخمسة لآيات الشفاعة:

إشارة

عندما نضع الآيات الإثنتي عشرة المذكورة أعلاه إلى جنب الآيات الأربع المذكورة في الهامش إلى بعضها، تُحل بكل سهولة جميع المشاكل الموجودة في موضوع الشفاعة،

(١). جاء نفس هذا المضمون مع اختلاف ضئيل في الآية ٢٥٤ من سورة البقرة.

(٢). جاء نفس هذا المعنى أيضاً في الآيتين ٥١ و ٧٠ من سورة الانعام.

(٣). ورد نفس هذا المعنى مع وجود بعض الاختلاف في الآية ٢٢ من سورة سبأ.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٧٥

ويقدم الجواب المناسب لكل سؤال يُطرح في هذا الصدد.

لكن عدم الاهتمام بالتفسير الموضوعي لهذه الآيات، والنظر إلى بعضها واهمال البعض الآخر في الدراسات العامّة لموضوع الشفاعة قد آثار مشاكل عديدة وانتهى أحياناً إلى الضلال وإلى إضلال الآخرين أيضاً، ويُعد هذا تقصير من قبل أولئك الذين أداروا ظهورهم للتفسير الموضوعي وحاولوا حل مثل هذه البحوث- التي لا تحل إلّاب- من خلال الاستناد إلى آية واحدة أو عدّة آيات، أو حتى يحتمل فيهم سوء التية في اختيار الآيات التي تتحقّق بها مقاصدهم.

فالآيات المذكورة تُقسم في الحقيقة إلى خمسة أقسام محددة يهدف كل واحد منها إلى غرض معين.

القسم الأول: الآيات التي تنفي الشفاعة بشكل قاطع

ومنها كآلية الأولى والثانية.

وصنفت الآية الأولى بعض أحوال المجرمين الذين لم يكونوا مؤمنين، وأوضاعهم في جهنم وحديثهم مع أهل الجنة ثم قالت: «فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ».

إن هذه الآية وإن كانت تنفي أى نوع من أنواع الشفاعة بحق هذا الفريق (بما فى ذلك شفاعة الأنبياء والأوصياء والملائكة والصدّيقين والشهداء والصالحين)، إلّا أنّ وجود كلمة «الشافعين» وهى ظهور الفعلية، تثبت وجود شافعين ومشفعين فى ذلك اليوم وأن شفاعتهم لا تنفع هؤلاء الذين كانوا يكذبون بيوم الدين ولم يكونوا يصلّون ولا يطعمون المسكين.

وكذلك تعبير «فَمَا تَنْفَعُهُمْ» يدل أيضاً على أنّ أحوالهم وأعمالهم ومعتقداتهم هى التى جلبت إليهم هذا الحرمان.

وعلى هذا الأساس فإنّ هذه الآية وإن كانت من الآيات النافية للشفاعة، إلّا أنّ نصّها يثبت ضمناً وجود الشفاعة.

ونفت الآية الثانية الشفاعة أيضاً وقالت: «وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَّآتَجْزَى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٧٦

وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ».

رغم أنّ المخاطبين فى هذه الآية هم اليهود- بقريئة الآية السابقة لها- إلّا أنّ حكمها يتسم بالعمومية ويسدّ جميع المنافذ أمام المخالفين، وأشارت أثناء ذلك إلى أربعة طرق مهمّة تعتبر وسيلة للنجاة فى هذه الدنيا لكثير من المجرمين:

الأول: أن تجزى نفس عن نفس، والثانى: أن يشفع لها محترم، والثالث: لو دفعت غرامة لجزت عن العقوبة، والرابع: أن يهب قوم لنصرتها وانقاذها من مخالب العذاب، لكن أياً من هذه الطرق ليس لها وجود يوم القيامة، والحديث هنا يدور حول نفى الشفاعة هناك نفيًا قاطعاً، ولكن هل يختص ذلك باليهود الذين سلكوا طريق الكفر والعناد ومجانبة الحق، وقتل الأنبياء، وبهذا فهى لا تتنافى مع آيات الشفاعة والروايات المتواترة الدالة على أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وسائر المعصومين عليهم السلام يشفعون لمذنبى هذه الأمة؟

أم أنّ هذه الآية تشير إلى ظن اليهود الذين كانوا يتوهّمون بأنّ آباءهم يشفعون لهم يوم القيامة، فالآية تبطل هذا الوهم وتجعلهم فى يأس منه؟ أم أنّ ظاهر الآية مطلق وينفى أى نوع من الشفاعة لأى أحد؟

وتشير الآيات الأخرى التى ستأتى لاحقاً وكذلك الروايات المتواترة وإجماع الأمة بأنّ هذه الآية تخص الكفّار والأشخاص الذين لا تشملهم الشفاعة بسبب عظم ذنوبهم، وعلى هذا فالآية المذكورة ذات طابع عمومى، والآيات الأخرى ذات صيغة مختصة، وترفع أى غموض فى هذا المجال.

وسياتى شرح هذا الكلام عن قريب إن شاء الله.

القسم الثانى: الآيات التى تعتبر الشفاعة خاصة بالله

ومنها الآية الثالثة التى ورد فيها بعد الإشارة إلى خلق السموات والأرض وحاكمية الله على كل شىء قوله تعالى «مَا لَكُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ».

وبناءً على هذا فإنّ الشفيع هو الخالق المدبّر لعالم الوجود لأنّ الشفاعة هى أيضاً نوع من

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٧٧

التدبير والربوبية والتربية، ومعنى هذا وجوب عدم التعلّق بالأوثان والالتجاء إلى سوى ذاته المقدّسة، وأن وضع أحد من الأنبياء والأولياء على مقام الشفاعة فهو مستمد منه بالتأكيد:

كما أنّ مقام الحاكمية وهداية وتربية الناس ممنوح لهم من قبل الله تعالى

وورد نفس هذا المعنى فى الآيه الرابعه من آيات البحث، ولكن بصورة اخرى إذ تقول لعبده الأوثان الذين اتخذوها شفعا لهم: «قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً».

ثم تؤكد أن سبب ذلك هو أن: «لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ».

فمن البديهى أن من يمتلك حق العفو عن المذنبين وحق الشفاعة أو قبول شفاعة الشافعين هو الخالق والمالك لكل الموجودات التى بدأ وجودها منه ثم تعود إليه فى نهاية المطاف.

وعلى هذا فإن الشفيع فى الأساس هو الله تعالى لا منافس له فى ذلك بل يستمد الآخرون منه مشروعيه شفاعتهم، ومن الواضح أن انحصار حق الشفاعة به تعالى دون سواه لا- يتنافى أبداً مع مشروعيته للآخرين، كما أن المالكية والحاكمية له دون سواه، ويمكن للآخرين الملك والحكم بإذنه وبأمره وفى حدود خاصه.

وما يسترعى الاهتمام هنا هو أن الآيه السابقه لها قالت حين نفت شفاعة الأوثان: «قُلْ أُولُو كَانُوا لَآيْمِلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ». (الزمر/ ٤٣) وهذا التعبير دليل واضح على أن الشفاعة من مختصات المالكية والحاكمية، وإنما اختص بها الله تعالى لأنه هو المالك والحاكم الأصل فى عالم الوجود والآخرون يقتاتون على فتات مائده نعمته.

القسم الثالث: الآيات التى تؤكد على أن الشفاعة منوطه بإذن الله

وهى فى الحقيقة مكمله لآيات القسم الثانى، ولذا ورد فى الآيه الخامسة استفهام انكارى ينص على

«مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ». (البقره/ ٢٥٥)

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٧٨

وبناءً على ما ذكر فإن الأنبياء وأولياء الله والشفعاء يستمدون مشروعيه شفاعتهم يوم الجزاء من الله تعالى ويشفعون بإذنه، ومن البديهى أن إذنه منبثق من حكمته أى وفق أسس محسوبه، فإن كان هناك شخص لا يستحق الشفاعة فلا يؤذن بالشفاعة له (احفظوا هذا الكلام جيداً فسيأتى شرحه فى الظرف المناسب).

ومن الجدير بالملاحظه أن الآيه المذكوره (وهى آيه الكرسي) قد أكدت هذه الجملة بعد أن أقرت مقام القيمومه والمالكية لله تعالى على كل ما فى السموات والأرض، وعلى هذا فإن هذه الشفاعة منبثقه من مالكيته وحاكميته وقيمومته.

وبهذا فهى تبطل معتقدات عبده الأوثان الذين يتذرعون بعبادتها بدعوى أنها تشفع لهم عند الله.

وورد نفس هذا المعنى بصورة اخرى فى الآيه السادسه؛ إذ قالت: «يَوْمَئِذٍ لَتَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا».

ولكن من المقصود من: «مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ؟» هنالك احتمالان:

الأول: هم الشفعاء بإذن الله، والثانى: هم الذين تشملهم الشفاعة بإذن الله.

إلما أن الاحتمال الأول يبدو هو الأصح لأنه يتسق ومضمون الآيه السابقه (آيه الكرسي) فهناك كان الحديث يدور حول الإذن للشفعاء، وتمثل الآيه اللاحقه شاهداً آخر على صحه هذا القول، ولهذا السبب اختار الكثير من المفسرين هذا المعنى

وينعكس كلا المعنيين فى جملة «وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا»، الأول: إنها تعود على الشفعاء أى تُقبل شفاعة من رضى الله قوله وشفاعته، وعلى هذا فإن الجملتين تؤكد إحداهما الأخرى

والثانى: إن المقصود هو المشفوع له من الذين رضى الله قولهم، وبعبارة اخرى هو الذى كان عمله وكلامه ومعتقده صالحاً وصار موضعاً لرضى الله لكى يُشفع له، ولكن بما الجملة الأولى تقصد الشفعاء، فمن الأنسب أن تكون الجملة الثانية إشارة إلى ذلك أيضاً، لتكون عودة الضمائر على وتيرة واحدة.

وعلى جميع الأحوال تشكّل الآية دليلاً واضحاً على وجود الشفاعة بإذن الله، لفريق من المؤمنين.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٧٩

وقد بينت الآية السابقة نفس ذلك المعنى بصورة أخرى إذ قالت: «مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ» فلماذا تعبدون الأصنام؟ «ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ».

وجاء نفس هذا المعنى في الآية الثامنة بشأن شفاعة الملائكة، إذ تؤكد أن شفاعتهم تقبل بإذن الله أيضاً، إذ ورد فيها: «وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى».

فالمكان الذي لا يستطيع فيه ملائكة السماء وبكل ماديهم من عظمة من الشفاعة إلا بإذنه، فماذا نتوقع من الأوثان التي لا حس لها ولا تمتاز بأي قيمة معنوية؟ أليس من المخجل أن يقولوا نعبدها لتكون شفيعاً لنا عند الله؟!

والملفت هنا هو استخدام كلمة «كم» للتعبير عن أهميّة الموضوع، وهو ما يُستخدم عادة للكثرة وهو موسوم هنا بطابع العموم، وجاء في الآية كذلك تعبير «في السموات» وهو دلالة على علو مقامهم، ووردت كذلك كلمة «شفاعتهم» بصيغة الجمع لكي يفهم شفاعتهم جميعاً لا أثر لها إلا بإذن الله ورضاه.

ولعل التأكيد على الملائكة دون بقيّة الشفعاء جاء هنا لأنّ فئة من العرب كانت تعبد، الأوثان أو أنّ المقصود: فإن كانت شفاعة الملائكة لا تتحقق ولا تنفع إلا بإذن الله، فماذا يُتوقع من الأصنام الجامدة؟

والفارق بين «الإذن» و«الرضا» هو أنّ الإذن يُطلق حين يُعلن المرء عن رضاه، لكن الرضا منوط بالباطن، وانطلاقاً من أنّ الرضا قد يكون مفروضاً أحياناً وِعَارٍ عن الرضا الباطني، فقد ورد الاثنان معاً في هذا الموضع لئتم تأكيد الغرض رغم أنّ الفرض على الله لا يمكن تصويره (جل وعلا) وأنّ رضاه مستوسق مع إذنه، (فتأمل).

هل أنّ هذا الاذن مرتبط بالشفعاء أم بالمشفع لهم؟ فالآية التي نحن بصددتها تحتمل المعنيين، رغم أنّ معناها العام يبدو أكثر اختصاصاً بالشفعاء أي إنّ الله يأذن ويرضى لهم بالشفاعة.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٨٠

القسم الرابع: الآيات التي حددت بعض الشروط للشفيع والمشفوع له

من جملة ذلك الآية التاسعة التي تنفي بقولها: «وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ» ثم إنّها استثنت منهم فريقاً فقالت: «إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ».

يبدو أنّ الصفة الأولى للشفعاء هي الشهادة بالحق؛ فلا بدّ أن يكون الشفيع موحّداً، أي لا تتحقق الشفاعة إلاّ في ظل التوحيد ونبذ الأصنام والاستعانة بلطف الله.

قال بعض المفسرين: إنّ هذا الوصف للمشفوع لهم. أي إنّ الشفاعة لا- تشمل إلاّ من يقر بحقانية الله ووحدانيته، فهي لا- تشمل المشركين مطلقاً.

لكن ظاهر الآية، دالّ على التفسير الأول، لأنّ التفسير الثاني يحتاج إلى التقدير «١»، والتقدير خلاف للظاهر.

أمّا الوصف الثاني: «وهم يعلمون» فقد ورد كلا التفسيرين بشأنه أيضاً، فإن كان الوصف للشفعاء فسيكون معنى الجملة: أوّلك الذين يشهدون بالحق عن علم ووعي، أو إنّ كان المقصود هم المشفوع لهم فيكون المعنى حينئذٍ أنّهم يعرفونهم ويعلمون لمن ينبغي أن تكون الشفاعة.

فإن كان الوصف للمشفوع لهم؛ يجب أن يكون مفهومها هو أنّ الشفاعة تشمل من ينطقون بحق كلمة التوحيد ويقولونها عن علم

ووعى انطلاقاً من الدليل والبرهان وهى غير مقصورة على اللسان.

وجاء نفس هذا المعنى بصورة اخرى فى نفس هذه الآية التى نحن بصددھا، فبعد استنكار الآية ورفضھا لقول عبدة الأوثان الذين يظنون أن الملائكة أبناء الله تقول لهم بأنهم عباد الله وأنهم: «وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَفِي الْحَقِيقَةِ: «وَهُمْ مِّنْ خَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ».

وعلى هذا فعبادة الملائكة لأجل نيل شفاعتهم (وهى عقيدة المشركين) لا طائل من

(١). ينبغى أن يكون تقدير الآية على هذه الشاكلة: «إلا لمن شهد بالحق».

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٨١

ورائه، فهم يأترون بأمره تعالى ولا يشفعون إلا لمن يرتضى، أى للموحد فقط.

وعلى هذا تكون جملة «لمن ارتضى إما إشارة إلى رضاه عن دينهم وتوحيدهم وإيمانهم، وإما كونه راضياً عن الشفاعة لهم، وكلاهما يرجعان إلى معنى واحد.

وانطلاقاً مما ذكر فإن شفاعته غير الله لا تكون إلا بإذنه، واذنه يختص بالمؤمن والموحد.

ويطالعنا فى الآية التاسعة تعبير جديد يجرى فى نفس هذا المجرى فالآية تتحدث عن سوق المجرمين نحو جهنم ثم تقول: «لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا».

وهذا الوصف لمن يُشفع لهم (بقرينة الآية السابقة لها والتى تتحدث عن المجرمين).

ومن المؤكد أن المقصود بالعهد هنا هو الإيمان بالله والإقرار بوحدانيته وتصديق الأنبياء وقبول ولاية الأوصياء، وقد أضاف البعض إلى كل ذلك العمل الصالح.

ورغم كثرة الاحتمالات التى طرحها المفسرون فى تفسيرهم لكلمة «العهد»، إلا أنه يتضح خلال التمعن فيها أنها تعود إلى المعنى الذى أشرنا إليه آنفاً.

واحتمل بعض المفسرين الكبار أن يكون هذا الوصف للشفعاء وأن المقصود ب «العهد» هنا هو نفس ما ورد فى الآية ٨٦ من سورة الزخرف؛ أى «الشهادة بالحق» (١).

ولكن بما أن الضمير فى «لا يملكون» ينبغى أن يعود على صريح مذکور فى الآية السابقة وأن كلمة «المجرمين» هى المذكورة فى الآية، يبدو هذا الاحتمال مستبعداً، والظاهر أن الوصف يخص المشفوع لهم.

وعلى هذا الأساس يجب أن تكون هناك علاقة بين الشفيع والمشفوع له قائمة على الإيمان والعمل الصالح، لأن الشفاعة هناك محسوبة ولا تعنى مطلقاً التوسط لمن لا يستحق.

جاء فى حديث عن النبى صلى الله عليه وآله أنه قال: «من أدخل على مؤمن سروراً فقد سرنى ومن سرنى فقد اتخذ عند الله عهداً» (٢).

(١). تفسير الميزان، ج ١٤، ذيل الآية ٨٦ من سورة مريم.

(٢). تفسير در المنثور، (وفقاً لنقل تفسير الميزان فى الآية مورد البحث).

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٨٢

من المؤكد أن عبداً لو أدخل السرور على المؤمن لأجل إيمانه، فهو من ذوى الإيمان والعمل الصالح وذلك مما يوثق علاقته بالله من أجل قبول شفاعته.

القسم الخامس: الآيات التي تشير إلى الأشخاص الذين لا تنالهم الشفاعة

(وهو القسم الأخير من الآيات التي ندرسها) وتشير إلى الأشخاص الذين لا تنالهم الشفاعة بسبب ما ارتكبه من أعمال، ومفهومها أنّ الشفاعة تشمل فئات اخرى تقول إحداهما: «مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ». إذن فغير الظالمين بشكل عام يستحقون الشفاعة.

ولكن ما المقصود بالظالمين؟ قال البعض من أمثال المحقق الطبرسي في مجمع البيان أنهم المشركون والمنافقون، لأنّ أسوأ الظلم هو الشرك والنفاق (١).

وصرح الفخر الرازي بأنّ المقصود بـ «الظالمين» هنا الكُفَّار (٢).

والآيات السابقة لهذه الآيء، ومطلع نفس هذه الآيء الذي يحذّرهم من عذاب يوم القيامة وكذلك الآيات الواردة بعدها والتي تذكر مصير الكُفَّار السالفين الذين أصبحوا عبرة من خلال تعرضهم للعذاب الإلهي، هي أيضاً شاهد ودليل على هذا المعنى وقال بهذا الرأي كل من صاحب تفسير روح البيان، وصاحب روح المعاني والمراعي.

وعلى كل حال فإنّ نفي الشفاعة عن الظالمين بالخصوص (وبغض النظر عن المعنى الذي تُفسر فيه كلمة الظالمين) دليل على إثباتها لأقوام آخرين، وهذا ما أكدناه مرّات عديدة فالشفاعة لا تحصل اعتباراً بل تحتاج إلى نوع من الاستحقاق والتأهيل، أي إنّ المذنبين على صنفين: صنف يستحق الشفاعة وصنف لا يستحقها.

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٧، ٨، ص ٥١٩.

(٢) تفسير الكبير، ج ٢٧، ص ٥٠.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٨٣

النتيجة:

نظراً لكثرة وتنوّع الآيات الآنفه الذكر، وأقسامها الخمسة المخصص كل واحد منها لجانب من جوانب الشفاعة، وبالالتفات إلى الوجهة العامة لها وتفسيرها بالاستعانة ببعضها وهو ما أشرنا إليه سابقاً، يتّضح لدينا حقيقة ومفهوم الشفاعة وكذلك شروطها وفلسفتها وأهميتها ودورها البتاء، ويمثل أيضاً إجابات عن الاعتراضات المختلفة التي يطرحها عديمو الاطلاع بسبب عدم احاطتهم بمجموعة الآيات المتعلقة بموضوع الشفاعة.

لكن أهميّة المسألة تقضى بفصل كل واحد من هذه المواضيع عن بعضها وتفسيره على حدة من أجل أن تتم الاستعانة بالآيات القرآنية والتحليل المنطقي لازالة الصدأ عن هذه المرآة، وإليكم فيما يلي الايضاحات المهمّة في موضوع الشفاعة.

توضيحات

١- مفهوم الشفاعة

لو تأملنا في المفهوم اللغوي الصحيح لكلمة الشفاعة لاستطعنا الحصول على مدلولها الإسلامي لأنّ كلمة الشفاعة مأخوذة من المصدر «شَفَع» على وزن (نَفَع) ويعني «ضم الشيء إلى مثله» ومن هنا تتضح ضرورة وجود نوع من التشابه بين الاثنين رغم الفروقات الموجودة بينهما.

ولهذا السبب فالشفاعة بمفهومها القرآني تعني أن الشخص المذنب الذي يتصف ببعض الجوانب الإيجابية (كالإيمان أو العمل الصالح) يشبه أولياء الله، وهم بدورهم يبذلون له العون ويسوقونه نحو جادة الكمال ويطلبون له المغفرة من الله تعالى ويمكن وصف حقيقة الشفاعة بصيغته الأخرى فهي عبارة عن وقوف كائن أقوى وأفضل إلى جانب آخر أضعف ليعينه على طي مراتب الكمال.

إن الشفاعة للأشخاص المخطئين موجودة في المجتمعات البشرية على مر العصور وقد

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٨٤

كان الأشخاص المتفقدون يشفعون للمخطئين عند أصحاب السلطة قبل نزول القرآن بآلاف السنين، إلا أن الشفاعة السائدة بين أوساط الناس تختلف عن الشفاعة في منطوق القرآن والأديان السماوية بفارق واحد مهم وواضح وهو: أن الشفاعة في المجتمعات الإنسانية غالباً ما يقصد بها قبول شخص متفقد للحاجة إليه في وجه من الوجوه، ولذلك تقبل شفاعته في حق المخطيء، لكي يستفيد من الشافع في الطرف المناسب بلوغ بعض الغايات!

فالمملوك مثلاً كانوا يقبلون شفاعة حواشيهم ورجال دولتهم في بعض المجالات لكي يعظموهم ويمجدوهم وليستفيدوا منهم في انجاز أعمالهم في الوقت المناسب.

وكذلك كان الشفعاء يأخذون بنظر الاعتبار علاقتهم الشخصية بالمشفوع له، وليس أهليته ومدى استحقاقه لها.

ولكن لما كان الله غنياً بالذات وغير محتاج على الإطلاق، فالشفاعة لديه تأخذ طابعاً آخر وهو أن الشفعاء لديه ينظرون إلى المخطئين ليروا من منهم ينال رضا الله بسبب بعض النقاط الإيجابية لديه كالإيمان والعمل الصالح، فيشفعون له عند الله لأجل هذه الجوانب الإيجابية، وهذا هو الفارق الشاسع بين الشفاعة المتداولة بين الناس وشفاعة أولياء الله لديه، إذ أن الأولى قائمة على العلاقات في حين أن الثانية قائمة على الضوابط والاستحقاقات:

ومن هذا المنطلق يمكن الرد على بعض المنتقدين الجهلة الذين يرون الشفاعة نوعاً من الوساطة أو أنها بمثابة الضوء الأخضر للمذنبين، وقارنوها بشفاعة حواشي المملوك المتجبرين، فالأسس التي تقوم عليها الشفاعة في مفهومها الشرعي تعتبر بناءً ومبنية على عوامل اللياقة والاستحقاق، في حين تنبع الشفاعة المتعارفة بين الناس في أغلب أشكالها من الحاجة المتبادلة بين الطرفين وترتكز على العلاقات الخاصة والشخصية غير المنطقية.

فالشفاعة الإلهية تروية، والشفاعة المتعارفة تكون سبباً للاجترأ على ارتكاب الذنب أحياناً.

وتمثل الآيات التي ذكرت سابقاً شاهداً حياً على هذا المعنى لأنها تحدد خصائص لمن

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٨٥

تنالهم الشفاعة تقوم على الجوانب الإيجابية والتأهيل والاستحقاق، وكثيراً ما تكون الأسس المقبولة للاستحقاق هي العمل الصالح.

٢- أنواع الشفاعة (الشفاعة التكوينية والشفاعة التشريعية)

لو ألقينا نظرة أعمق على مفهوم الشفاعة لوجدناها من زاوية المصداق الخارجي واسعة إلى حد أنها تشمل كل عالم الوجود، لأن مساعدة الكائنات الأقوى للكائنات الأضعف على العيش والنجاه والحياة مشهودة في جميع مجالات الحياة.

فحين تنفلق البذرة وتخرج منها نبتة ضعيفة تهتئ لها الأرض المواد الغذائية اللازمة، وترسل عليها الشمس أشعتها وحرارتها وطاقتها الخفية، وتسقط عليها الغيوم قطرات متواصلة من المطر، لكي يشتد هذا الكائن الضعيف ويجتاز العقبات ليغدو في نهاية المطاف شجرة ضخمة محملة أغصانها بالثمار، هذا مشهد واضح للشفاعة التكوينية.

وهناك مشاهد أخرى للشفاعة التكوينية تتمثل في وقوف الوالدين إلى جانب المولود الضعيف، والمزارع إلى جانب غرسه، والمعلم

إلى جانب الطفل الذي يتعلم حروف الهجاء، وعلى هذا يمكن اعتبار كل عالم الأسباب والعلّة والمعلول مشاهد متنوعه لهذه الشفاعة. إن الشمس والرياح والمطر والأرض لا تهرع بالتأكيد لإعانة خشبة يابسه، فهي حطب ولا مصير لها سوى الاحتراق، بل تهب لمساعدة النبتة المتفتحة تواءم البراعم الضعيفة، وباختصار فإن كل كائن يمتلك مقومات الكمال والنمو.

ولو نقلنا هذا المثال الواضح من عالم التكوين إلى عالم التشريع أى إلى شفاعة الأنبياء والأولياء للمذنبين، سيتضح لنا المفهوم الحقيقى للشفاعة القرآنية، ويكون ذلك رداً على انتقادات الجهلة، وهنا تبرز لنا الشفاعة بمفهومها التربوى على أكمل وجه.

وردت فى نهج البلاغه للإمام أمير المؤمنين على عليه السلام ضمن كلماته القصار، جملة

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٨٦

تعكس هذا المعنى بأسلوب جذاب جداً يقول فيها: «الشفيع جناح الطالب» (١).

فكما أن الطيور صغيرة السن لا يمكنها الطيران إلا بمساعدة الأب والأم وكأتهما يمثلان اجنحتها التى بها تطير إلى أن تكبر، فكذلك الشفعاء يساعدون المشفوع لهم ليحلّقوا فى سماء السعادة والكمال، (فتأمل).

٣- فلسفة الشفاعة

إشارة

لقد اتّضحت لدينا فلسفة الشفاعة من خلال ما قيل فى تفسيرها وكذلك من خلال الإشارات العديدة التى أوردناها فى تفسير الآيات. فالشفاعة لا تشجيع على الذنب، ولا تمثل الضوء الأخضر لارتكاب المعاصى، ولا هى من أسباب التخلف ولا هى شىء يشبه الوساطة فى مجتمعات عالم اليوم، بل هى مسألة تربوية تحضى بأهميّة بالغة، ولها آثار إيجابية فى الجوانب المختلفة، ومن جملة ذلك:

(أ) بعث الأمل ومواجهة روح اليأس

كثيراً ما يتغلب هوى النفس على الإنسان ويدفعه لارتكاب الذنوب الكبيرة، فتتغلب من بعد ذلك روح اليأس عليه، ممّا يدفعه لارتكاب المزيد منها حتّى يغدو غارقاً فى الذنوب لأنّه يتصور أنّه قد تجاوز الحد وغرق فى بحر آثامه فما هو الفرق إن انغمس فى الماء لقامة واحدة أو لمائة قامة!

لكن الاعتقاد بشفاعة أولياء الله يزرع فى نفسه الأمل، فلو وقف عند هذا الحد وأصلح نفسه، فقد يُعفى عمّا سلف منه وذلك عن طريق شفاعة الأبرار والصالحين، وعلى هذا فإنّ

(١). نهج البلاغه، الكلمات القصار، الكلمة ٦٣.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٨٧

الأمل بالشفاعة يساعد على الكفّ عن ارتكاب المزيد من الذنوب والعودة إلى الصلاح والتقوى

(ب) إيجاد العلاقة المعنوية مع أولياء الله

لو أمعنا النظر في ما قيل سابقاً في تفسير مفهوم الشفاعة لتوصّلنا وبكل سهولة إلى نتيجة مفادها أنّ الشفاعة مرهونة بوجود نوع من العلاقة بين الشفيع والمشفوع له، وهى رابطة معنوية منبثقة من الإيمان وبعض الخصال الفاضلة وفعل الحسنات. ومن المؤكد أنّ الذى يرجو الشفاعة يسعى دوماً لإقامة نوع من العلاقة مع الشفعاء وفعل ما يرضيهم ولا ينسف جسور العودة من خلفه، ولا- يفسخ عرى الصداقة والمحبّة عن آخرها، وسيكون مجموع هذه الإجراءات عوامل مؤثرة فى تربيته، وسبباً لابتعاده عن صف المجرمين بالتدرّج، أو أن يقوم على أقل تقدير ببعض الأعمال الصالحة إلى جانب المعاصى والذنوب، لانقاذ نفسه بالتدرّج من الوقوع فى حبال الشيطان.

ج) نيل شروط الشفاعة

وردت فى الآيات التى قمنا بتفسيرها سابقاً شروط مختلفة للشفاعة وأهمها استحصال الإذن من الله بذلك، ومن البديهي أنّ من يرجو الشفاعة لابد وأن يحاول التمهيّد للحصول على الإذن، أى يفعل ما يرضى الله. فقد ورد فى بعض الآيات السابقة أنّ الشفاعة يوم القيامة لا تنفع إلاّ لمن ارتضى. (الأنبياء / ٢٨) وقوله تعالى إنّ الشفاعة لا تكون إلاّ لمن: «اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا». (مريم / ٨٧) وكما قلنا سابقاً فإنّ هذه المقومات لا تتحقق إلاّ فى ظل الإيمان بالله وبمحكمته العادلة والاعتراف بحسن العمل الصالح وقبح السيئات والإقرار بصحة جميع القوانين والتعليمات الإلهية. بالإضافة إلى ذلك فقد ورد فى بعض الآيات السابقة أنّ الشفاعة لا تشمل الظالمين، وبناءً على هذا يتوجب على من يأمل فى نيل الشفاعة الخروج من صف الظالمين (بغض النظر عن المعنى الذى تفسر به كلمة الظلم).

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٨٨

ومن مجموع هذه العوامل يتعيّن على كل من يأمل الفوز بالشفاعة إعادة النظر فى أعماله السابقة واتخاذ القرارات الافضل بشأن سيرته المستقبلية، وهذه أيضاً تعتبر بذاتها نقطة إيجابية ومن العوامل التربوية الفاعلة.

د) الاهتمام بسلسلة الشفاعة

تعتبر الإشارات الواردة بخصوص الشفاعة فى الآيات الشريفة، وكذلك التصريحات التى نقلتها لنا الروايات، دليلاً آخر على الأبعاد التربوية للشفاعة.

جاء فى حديث عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «الشفعاء خمسة: القرآن، والرّحم، والأمانة، ونيبكم، وأهل بيت نبيكم» «١».

وجاء فى مسند أحمد حديث آخر عن النبي الكريم صلى الله عليه وآله قال فيه: «تعلموا القرآن فأنه شافع يوم القيامة» «٢».

وورد نفس هذا المعنى فى نهج البلاغة فى كلام مولى المتّقين أمير المؤمنين عليه السلام قال فيه: «فأنه شافع مشفع» «٣».

ويستفاد من روايات أخرى أنّ أفضل الشفاعة التوبة، فعن على عليه السلام قال: «لا شفيع أنجح من التوبة» «٤».

وصرّحت بعض الأحاديث أيضاً بشفاعة الأنبياء والأوصياء والمؤمنين والملائكة، كالحديث المنقول عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «الشفاعة للأنبياء والأوصياء والمؤمنين والملائكة، وفى المؤمنين من يشفع مثل ربيعة ومضر، وأقل المؤمنين شفاعة من يشفع ثلاثين إنساناً» «٥».

- (١). ميزان الحكمة، ج ٥، ص ١٢٢.
 - (٢). مسند أحمد، ج ٥، ص ٢٥١.
 - (٣). نهج البلاغة، الخطبة، ١٧٦.
 - (٤). نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٣٧١.
 - (٥). بحار الأنوار، ج ٨، ص ٥٨، ح ٧٥.
- نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٨٩
- وجاء في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إذا كان يوم القيامة بعث الله العالم والعابد، فاذا وقفا بين يدي الله عز وجل قيل للعابد: انطلق إلى الجنة، وقيل للعالم: قف تشفع للناس بحسن تأديبك لهم» (١).
- يظهر من هذه التعابير وخاصة الأخير منها أن الشفاعة نتاج العلاقة المعنوية القائمة مع الصالحاء والأبرار والمؤمنين والعلماء.
- أما عن الشهداء فقد روى عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «ويشفع الرجل منهم في سبعين ألفاً من أهل بيته وجيرانه» (٢).
- وحتى أن بعض الروايات أشارت إلى أن: «شافع الخلق: العمل بالحق ولزوم الصدق» (٣).
- وخلاصة القول التي يمكن استنتاجها من مجموع هذه الروايات وغيرها الواردة في المصادر الإسلامية أن الشفاعة من المسائل التربوية المهمة في الإسلام والتي تعكس القيم الإسلامية السامية من خلال الاهتمام بنوع الشفعاء، وتحث جميع المسلمين للالتزام بهذه القيم والصفات التي يتمتع بها الشفعاء، وتشجع على تقوية وتوثيق العلاقات معهم، وتجلو عنها كل تفسير خاطيء وكل تحريف باطل (٤).

٤- متى تكون الشفاعة؟

لا شك أن أحد الأوقات التي تتحقق فيه الشفاعة هو يوم القيامة، وذلك لأن الكثير من

- (١). بحار الأنوار، ج ٨، ص ٥٦، ح ٦٦.
 - (٢). تفسير مجمع البيان، ج ٢، ص ٥٣٨، ذيل الآية ١٧١ من سورة آل عمران.
 - (٣). غرر الحكم.
 - (٤). ذكر في تفسير الميزان: وبعد أن وضح الشفاعة أنها تأثير الأسباب في المسببات - أن الشفعاء يقسمون إلى فريقين في عالم التشريع وعالم التكوين، فمن جملة الشفعاء التشريعيين: التوبة والعمل الصالح والإيمان والقرآن والأنبياء والملائكة والمؤمنون ويستدل في هذا الصدد بالآيات الدالة على تأثير هذه الأمور في هؤلاء الأشخاص في غفران الذنوب (رغم أن عنوان الشفاعة غير موجود فيها) كآية ٥٤ من سورة الزمر؛ والآية ٢٨ من سورة الحديد؛ والآية ٩ ومن سورة المائدة؛ والآية ١٦ من سورة المائدة؛ والآية ٦٤ من سورة النساء؛ والآية ٧ من سورة المؤمن؛ والآية ٢٨٦ من سورة البقرة.
- نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٩٠
- آيات الشفاعة تختص بذلك اليوم، ولكن هل تحصل الشفاعة أيضاً في عالم البرزخ أو في عالم الدنيا؟ وهل هناك شفاعة في الآخرة وقبل انتهاء الحساب، أم لا؟ هناك آراء في ذلك، منها:
- للعلامة الطباطبائي رحمه الله بحث مفصل في هذا الصدد، وفي ختامه يستنتج ما يأتي:
- «إن الشفاعة تكون في آخر موقف من مواقف يوم القيامة حيث يطلب فيها الشفيع المغفرة - فيحول دون دخول المشفوع له النار، أو اخراج بعض من كان داخلاً فيها، باتساع الرحمة أو ظهور الكرامة.

ويشير في بعض كلماته إلى عالم البرزخ وما يدل على حضور النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام عند الموت وعند مسائله القبر واعانتهم إياه على الشدائد.

ويضيف: فليس من الشفاعة عند الله في شيء وإنما هو من سبيل التصرفات والحكومة الموهوبة لهم بأذن الله سبحانه «١». والغريب في الأمر أنه عندما يتحدث عن حقيقة الشفاعة يعطيها من الشمولية بحيث يعتبر أي نوع من تأثير الأسباب في عالم التكوين والتشريع مشمولاً بالشفاعة، ولكنه لا يعتبر هنا مساعده أولياء الله لجماعه من المؤمنين لإنقاذهم من مشكلات القبر والبرزخ، مصداقاً للشفاعة.

وعلى أيه حال يستشف من مجموع الآيات والروايات أن الشفاعة - بالمعنى الواسع للكلمة - تتحقق في العوالم الثلاثة (الدنيا والبرزخ والآخرة) رغم أن المكان الرئيسي لها والأثر المهم هو في يوم القيامة لغرض النجاة من عذاب النار. جاء في قوله تعالى «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا». (النساء / ٦٤) وهل أن استغفار الرسول صلى الله عليه وآله للمؤمنين المذنبين يعني شيئاً سوى الشفاعة؟! وجاء نفس هذا المعنى في موضع آخر من القرآن الكريم في قصة يعقوب وابنائهم إذ

(١). تفسير الميزان، ج ١، ص ٧٤، ذيل الآية ٤٨ من سورة البقرة.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٩١

طلبوا من أبيهم أن يستغفر لهم ربهم (يوسف / ٩٧).

وحصل في هذه الدنيا الكثير من ذلك حيث نجا أشخاص أو أقوام من عذاب الدنيا بسبب شفاعة الأنبياء وأولياء الله. ولدينا روايات كثيرة أيضاً تفيد أن أعمال الإنسان الصالحة كالصلاة والصوم والولاية وأمثالها أو حضور أولياء الله تكون سبباً في تخفيف عقوبات وآلام الشخص في عالم البرزخ كما يؤدي دفن إنسان صالح لديه حسنات كثيرة في مقبرة ما إلى تخفيف ذنوب من دفن في تلك المقبرة.

وهذه كلها إشارات إلى وجود الشفاعة في عالم البرزخ.

وحتى أن صلاة الميت وما تتضمنه من الاستغفار له لا تخلو من التأثير، وهي نوع من الشفاعة أيضاً.

وعلى هذا فليست الشفاعة محدودة في عالم خاص، بل تضم العوالم الثلاثة إلا أن المكان المهم والأساسي لها هو القيامة لأنها تمثل لحظات الوقوف على مشارف العذاب الإلهي.

سؤال:

قد يُقال: هناك روايات عديدة وردت عن الأئمة المعصومين عليهم السلام تؤكد خوفهم على شيعتهم من عذاب البرزخ كما نقل عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «والله ما أخاف عليكم إلا البرزخ، فإذا صار الأمر إلينا فنحن أولى بكم» «١».

ونقرأ عنه عليه السلام حديثاً آخر يتضمن وعداً منه بالشفاعة للمؤمنين المخطئين يقول فيه:

«ولكنني والله أتخوف عليكم من البرزخ. يقول الراوي: فقلت له: ما البرزخ؟ قال: القبر منذ حين موته إلى يوم القيامة» «٢».

(١). بحار الأنوار، ج ٦، ص ٢١٤، ح ٢.

(٢). المصدر السابق، ص ٢٦٧، ح ١١٦.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٩٢

ولكن يحتمل أن تخص هذه الروايات مرحلة معينة من البرزخ، أو أن لها بُعداً استثنائياً ومحدوداً قد يتحقق في ظل مجاورة أحد أولياء

الله وهي غير شاملة لجميع من يستحقون الشفاعة.

٥- الإشكالات الأساسية المطروحة بشأن الشفاعة

إشارة

كما أسلفنا في تفسيرنا لمعنى الشفاعة في القرآن الكريم والإسلام بأن لها مفهوماً يختلف كلياً عما هو متعارف بين أوساط الناس، وأن تشابهها هو السبب في بروز الكثير من الإشكالات والأخطاء في هذا المجال، والحقيقة أن الإجابة عن أغلب تلك الإشكالات يمكن في التفسير الصحيح لمفهوم الشفاعة في الإسلام.

نكتفي بهذا التمهيدي الموجز ونعود لطرح تلك الاعتراضات ونجيب عنها:

(أ) هل تُعتبر الشفاعة تشجيعاً على ارتكاب الذنوب؟

إلّا يكون الأمل بالشفاعة والاعتماد عليها سبباً لكي يعتبره البعض بمثابة الضوء الأخضر لارتكاب المعاصي، فيوغلون في ممارستها أنواع الذنوب والجرائم متأملين انقضاء الشفاعة لهم من العذاب الإلهي في يوم الجزاء وبهذا تكون نفوسهم في راحة تامة وقد أمنت من التهديد الرباني بالعذاب؟ أو بتعبير آخر: ربّما تكون عقوبات القيامة ضماناً إجرائياً لتنفيذ القوانين الإلهية واجتناب معصيتها؛ أقلّاً تُعتبر الشفاعة خرقاً لهذه الضمانات؟

الجواب:

كما قيل سابقاً فإنّ الشفاعة بمفهومها القرآني لا تحت ولا تشجع على ارتكاب الذنوب، وليس هذا فقط بل إنها عامل ردع قوى أيضاً يحول دون ذلك، لأنها تجعل الأشخاص يتوقفون في أي مرحلة كانوا ولا يوغلون في طريق المعصية أكثر من ذلك، بل تكون بمثابة خط للرجعة تدريجياً.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٩٣

وبتعبير آخر، يمكن القول: إنّ الشفاعة بمفهومها الإسلامي تعتبر نتاجاً لنوع من العلاقة بين الشفيع (أولياء الله والقرآن و...) والمشفوع له، وهي رهينة بإذن الله وتستلزم أرضية إلهية، وبناءً على هذا فإنّ أمل الشفاعة يقول للإنسان: يجب عليك إقامة علاقة إيمان وعمل مع أولياء الله، وأن تعمل ما من شأنه جلب رضا الله، ليكون لك رصيلاً في ذلك اليوم العصيب وسبباً للشفاعة عندهم.

ولهذا السبب يكون أصل الشفاعة رادعاً عن ارتكاب الذنوب من جهة، وعاملاً لإعادة النظر في ما ارتكب من سيئات في الماضي. ولا يخفى أيضاً أنّ أحداً لم يتسلّم ضماناً بالشفاعة من أي ولي من أولياء الله، ولا يمكن لأي مذنب أن يطمئن إلى قول الشفاعة فيه، بل إنها مطروحة كاحتمال وأمل، وهذا أيضاً مشروط بالشروط المذكورة آنفاً، وعلى هذا فهي لا تدفع مطلقاً على التجرؤ على ارتكاب الذنوب.

(ب) لمن الشفاعة؟

هل هي للشخص النادم على الذنوب؟ فهذا في غنى عن الشفاعة لأنّ التوبة تعني الندم وهي سبب الخلاص، وإذا وجدت التوبة فما

الحاجة للشفاعة؟ وإن كانت للعاصي غير النادم على الذنب، الذي يقف أمامه بكل صلافة وجسارة، فمثل هذا الشخص لا يستحق الشفاعة وهو ليس مصداقاً لقوله «لِمَنْ ارْتَضَى فِي الْآيَةِ ٢٨ مِنْ سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ؟!»
الجواب:

أولاً: إنَّ للتوبة شروطها، وكثيراً ما يخفق الإنسان في انجاز كل تلك الشروط، لأنَّ عدداً من الآيات القرآنية نصّت على أن التوبة إصلاح الماضي، أي لو أن أحداً كان يرتكب الذنوب لسنوات متمادياً ويدخل باب التوبة نادماً، يجب عليه إصلاح ما مضى سواء كان حق الله بعمل الخير، أو كان حق الناس فيجب عليه أدائه عن آخره، وعلى هذا فالتوبة نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٩٤
وخلافاً للتصور السائد لا تقتصر على الندم لوحده.

وما أكثر الناس الذين يفشلون في تحقيق هذا الإصلاح، بينما هو غارق في الندم فينقطع أمله في الشفاعة ويسقط في اليأس من الغفران، وإن هو يئس توغل أكثر في ارتكاب الذنب.
ثانياً: قد يكون الشخص قد ارتكب الكثير من الذنوب إلّا أنَّ الحظ لم يحالفه في التوبة والندم، فإن شعر بإمكان الأخذ بيده يوم القيامة على يد الشفاعة شريطة هجر بقية الذنوب أو القيام بأعمال الخير، فهذا سيشجعه على أقل تقدير على ترك الذنوب الأخرى وفعل عمل الخير.

(ج) هل تسجّم الشفاعة مع العدل الإلهي؟

كيف يمكن لعدد من المذنبين المتشابهين مع بعضهم في الذنوب، أن تنجو طائفة من العذاب الإلهي بالشفاعة، وتقع الأخرى في مخالف ذلك العذاب؟ ألا يُعتبر هذا التمييز منافياً لعدل الله؟
السؤال: وقد يطرح هذا التساؤل أحياناً بضيغة أخرى فيقال: إن كان العقاب الرباني للمذنبين عدلاً: إذن فطلب أولياء الله الشفاعة هو خلاف للعدل، وإن لم يكن متسقاً مع مبدأ العدل، فينبغي أن لا تجرى تلك العقوبة من الأساس.
والجواب: عن هذا الاستفهام يمكن استخلاصه من بين طيات البحوث السابقة، وكما يلي.
أولاً: إنَّ الشفاعة لا تتحقق بدون الأرضية المناسبة. فكل من يستحقها ينالها وكل من لا يستحقها فهو مُستبعد عنها، وعلى هذا لا يوجد فيها أي تمييز.

ثانياً: إنَّ مجازاة المذنب هي عين العدل، أمّا قبول الشفاعة فهو نوع من التفضل لأجل ما يمتاز به المشفوع له من أرضية صالحة من جهة، وتكريماً واحتراماً للشفيع وما قام به من عمل صالح من جهة أخرى
نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٩٥

(د) ألا تعارض الشفاعة مع إرادة الله؟

قد يُتصور أحياناً أن الشفيع يحول دون تحقق إرادة الحاكم العادل، ويُنقذ من العقوبة الشخص الذي ينوي ذلك الحاكم معاقبته، إلّا أنَّ هذا الكلام لا يصدق بحق الله جلّت عظمته.
فهذا التصور الخاطيء ناتج من اعتبار الشفاعة التي يصورها القرآن مماثلة للشفاعة المتعارفة بين يدي الجبارين والحكام الظالمين، فالأشخاص المتنفذين عند هؤلاء الحكام يحاولون استنقاذ المذنبين الذين يرتبطون معهم بصله ما، خلافاً للاصول المرعية، فيضطر

الحاكم أو السلطان إلى النزول عند رغبة هؤلاء المتنفذين - لحاجته إليهم - وقبول شفاعتهم والتغاضي عن معاقبة المذنب وقد تكون خلافاً لرغبته أحياناً.

إلا أن هذه المسائل وكما قلنا سابقاً لا تصدق على الله تعالى ولا تنطبق على الشفاعة بين يديه، فالشفاعة هناك لها طابع آخر، فأولياء الله يطلبون الشفاعة بإذن الله لمن لديهم ذنوب لكنها ليست كبيرة، ولديهم في مقابل تلك الذنوب أعمال صالحة أيضاً، وطرح هذا الموضوع يُعتبر في الحقيقة تربية للنفوس وتطهيراً لها.

(ه) عقوبات القيامة هي الأثر التكويني للأعمال، فكيف يمكن ازالتها بالشفاعة؟

وهذا أيضاً واحد من الإشكالات التي طرحت على الشفاعة، فالذي يتبادر إلى الأذهان أن الشفاعة يمكن تطبيقها على العقوبات التشريعية والوضعية فقط، فيكون الشفيع سبباً لايقاف تنفيذ الحكم على المشفوع له، ولكن عندما نعتقد بأن عقوبات القيامة هي في الغالب من الآثار الوضعية والطبيعية للأعمال وهي بذلك تشبه فعل السم في قتل الإنسان، فهذا الأثر ليس بالشىء الذي يمكن تغييره بالشفاعة.

الجواب: لو أننا لاحظنا ما ذكرناه سابقاً في كون الشفاعة على نوعين تكوينية وتشريعية، لانتضح لنا جواب هذا السؤال جلياً، لأن العقوبات إن كان لها بُعد تكويني، فإن وقوف أولياء الله باعتبارهم كيانات أقوى وأفضل إلى جانب المشفوع له وكمال استعدادة

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٩٦

الناقص بواسطة إمدادهم المعنوي، فيغلبون بالنتيجة على الآثار التكوينية للذنب، مثلما تنمى الشمس النباتات ذات الاستعداد للنمو وتنقذها من الآفات. أما إذا كانت تلك العقوبات وضعية، فتطلب الشفاعة من الله تعالى ليغفر لمن يستحق غفران الذنب وفي جميع الأحوال فإن المقام المعنوي للشفيع يكون سبباً في تأثير تلك الشفاعة بإذن الله. ويمكن تكرار نفس هذا الكلام بخصوص تجسد الأعمال لأنه شبيه أيضاً بالآثار الوضعية والتكوينية للعمل (فتأمل).

(و) أليس الاعتقاد بالشفاعة من عوامل التخلف؟

ويبدو هذا الوهم لبعض الناس أيضاً وهو: ألا يكون الاعتقاد بالشفاعة سبباً يحدو ببعض الناس إلى عدم الإتكال على عملهم، فلا يظهرون مالدتهم من قابليات وكفاءات كامنة؟

الجواب؟

يبدو من هذا التعبير أن ذهنية أصحاب الإشكالات لا تختلف عن ذهنية الناس العاديين وتصورهم عن الشفاعة ومفهومها الدنيوي، في حين طرح هذا الموضوع بالأدلة في بداية هذا البحث، من أن الشفاعة في مفهومها القرآني الإسلامي لا تُعتبر عامل تخلف، بل وحتى أنها تعتبر دعوة فاعلة لاصلاح الذات وترك الذنب والتعويض عما مضى والاستبشار بالمستقبل والتحرك نحو الخير والصلاح. وبما أن هذا الموضوع قد تمّ تبيانه بالتفصيل، فلا نرى ضرورة لتكراره هنا.

(ز) ألا تعارض الشفاعة مع التوحيد؟

إنّ التصور بوجود تعارض بين الشفاعة والتوحيد هو واحد من الإشكالات المعروفة بشأن موضوع الشفاعة، ومَرَدُّ ذلك هو الإعلام

المكثف الذي وظفه الوهابيون ضد هذه المسألة، ولهذا ينبغي الالتفات إليها جيداً:

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٩٧

تدور عقائد الوهابيين بشكل أساسي حول عددٍ من المحاور، وأكثرها وضوحاً هي مسألة التوحيد في الأفعال والتوحيد في العبادة، فهم يفسرون فرعى التوحيد هذين وكأنهما يتعارضان مع موضوع الشفاعة والتوسل بأرواح الأنبياء والأولياء وشفاعتهم بين يدي الله، ولهذا السبب فقد اعتبروا جميع فرق المسلمين التي تعتقد بهذه الأمور (باستثناء الوهابيين) مشركة، ولا تعجبوا لو قلنا إنهم يعتبرون أرواح غيرهم وأموالهم وأعراضهم مباحةً مثلما كان يفعل عرب الجاهلية المشركون. وانطلاقاً من هذا المعتقد فقد أراقوا دماء الكثير من المسلمين في الحجاز والعراق، ونهبوا أموالهم، وارتكبوا جرائم كثيرة لم يسبقهم إليها أحدٌ في الإسلام.

ولمؤسس هذه الفرقة وهو محمد بن عبد الوهاب (المتوفى عام ١٢٠٦) كتابٌ يعرف باسم «رسالة القواعد الأربع» يقول فيه حول هذا الموضوع:

إنّ الخلاص من الشرك يكون بمعرفة أربع قواعد:

الاولى أنّ الكفار الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وآله يُقرون بأنّ الله تعالى هو الخالق الرزاق المدبر ولم يدخلهم ذلك في الإسلام لقوله تعالى «قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ». (يونس / ٣١)

الثانية: أنّهم يقولون مادعوناً الأصنام وتوجهنا إليهم إلا لطلب القرب والشفاعة «وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ». (يونس / ١٨)

الثالثة: أنّه صلى الله عليه وآله ظهر على قوم متفرقين في عبادتهم فبعضهم يعبد الملائكة، وبعضهم الأنبياء والصالحين، وبعضهم الأشجار والأحجار، وبعضهم الشمس والقمر، فقاتلهم ولم يفرق بينهم.

الرابعة: أنّ مشركي زماننا أغلظ شركاً من الأولين، لأنّ أولئك يشركون في الرخاء ويخلصون في الشدة وهؤلاء شركهم في الحالتين لقوله تعالى «فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٩٨

اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ» (١). (العنكبوت/ ٦٥)

والغريب في الأمر هو تمسكهم بهذه الأقاويل التي لا تعدو أن تكون مجرد سفسطة ومغالطة، فييحون وبهذه البساطة أرواح وأموال خصومهم، ويجيزون قتلهم، كما يقول الشيخ «سليمان» وهو من زعماء هذه الفرقة الضالة في كتابه «الهدية السنية» بأنّ الكتاب والسنة يشهدان على أنّ كلّ من يجعل الملائكة والأنبياء أو بعض الأصحاب وأهل البيت كإبي طالب وابن عباس واسطةً بينه وبين الله عزّ وجلّ ليشفعوا له عند الله تعالى لقربهم منه كما يشفع إلى السلاطين بواسطة المقربين منه فمثل هذا الشخص كافر ومشرك، ومباح دمه وماله حتى لو كان يشهد والشهادتين ويصلى ويصوم (٢).

لقد أثبتوا تمسكهم بهذا الحكم القبيح والمخزي أي اباحة دماء وأموال المسلمين من خلال الأحداث التاريخية المختلفة ومنها الحادثة المشهورة لقتل أهالي الطائف في الحجاز قتلاً جماعياً وذلك (في صفر عام ١٣٤٣)، والقتل الجماعي لأهالي كربلاء في العراق (في ١٨ ذي الحجة عام ١٢١٦) وهذا ماورد في الكثير من كتب التاريخ.

النقاط الخاطئة في هذا الاستدلال:

١- إنّ الآيات الاثنتي عشرة التي أوردناها في بداية البحث بشأن موضوع الشفاعة وفسرنا مفهومها تثبت لنا هذه الحقيقة وهي أنّ

الشفاعة مبدأ إسلامي وقرآني بديهي إلا أنها تَصَمَّت شروطاً للشفيع وللمشفوع له، وعلى هذا فلا يمكن لأحد أن يتحدث باسم الإسلام والقرآن وينكر هذا المبدأ بجميع دلائله البينة، وإنما لنعجب كيف أنهم يعتبرون أنفسهم مسلمين وينكرون هذا المبدأ الذي يُعَدُّ من ضرورات الإسلام والقرآن، فهل ينكر المسلم ضرورات الإسلام وأحكام القرآن؟

(١). «رسالة القواعد الأربع» تأليف محمد بن عبد الوهاب زعيم الوهابيين: من ص ٢٤ إلى ص ٢٧ وفقاً لما نقله كتاب كشف الارتباب، ص ١٦٣.

(٢). الهدية السنية، ص ٦٦.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٣٩٩

٢- إن الشفاعة التي ذكرها القرآن وذبت عنها، شفاعة يرتبط خطؤها الأصل ب «إذن الله» وما لم يأذن بالشفاعة فلا يحق لشفيع أن يشفع، وتعبير آخر فإن هذه الشفاعة صادرة من الأعلى ومشروطة بإذن الله، وهي ليست كشفاعة حاشية السلاطين الجائرين، فهي صادرة من الأسفل وقائمة على أساس العلاقات الشخصية.

إن شفاعة كهذه تُعَدُّ تأكيداً لمسألة التوحيد لأن خطؤها الأصلي يصدر عن الله تعالى وهذا هو التوحيد البعيد عن أي لون من ألوان الشرك، لكن الوهابيين الذين تشابهت عليهم الشفاعة القرآنية مع الشفاعة الشيطانية لحواشي السلاطين انكروا هذا المبدأ واعتبروه مضاداً لأصل التوحيد، وفي الحقيقة أنهم قد اعترضوا على أوهامهم في هذا الطرح، لا على مبدأ الشفاعة القرآنية.

٣- الشفاعة في حقيقتها سبب للنجاة: كما هو الاعتقاد بوجود الأسباب في عالم الخلق والتكوين (كتأثير أشعة الشمس وتساقط المطر في نمو الأعشاب) لا يتنافى مطلقاً مع مبدأ التوحيد، لأن تأثير هذه الأسباب يتحقق بإذن الله وأمره، وفي الحقيقة أن عملها هو نوع من الشفاعة التكوينية، كما أن وجود مثل هذه الأسباب في عالم الشريعة للمغفرة والنجاة بأن الله لا يتعارض مع التوحيد بل هو تأكيد له، وهذا هو ما نطلق عليه اسم الشفاعة التشريعية.

٤- إن الشفاعة التي يرفُضها القرآن في عبادة الأصنام هي أنهم كانوا يجعلون كثيراً من الأشياء الخالية من أية ميزة أو خاصية شفيعة لهم إلى الله؟ ولذا صيَّح الآية التي يستندون عليها بالخصوص: «وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْفَعِهِمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَأَلَّا يَلْتَقُوا بِهِمْ يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هُوَ رَبُّنَا شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ». (يونس / ١٨)

هذا من جهة؛ ومن المؤكد أن هذا لا علاقة له بشفاعة الأنبياء والأولياء، فهذا الكلام يخص الأصنام وهي الأحجار المجردة من أي عقل وأحاسيس.

ومن جهة أخرى فالقرآن يذم الشفاعة القائمة على أساس الاعتقاد باستقلال الشفيع، وتأثيره في مصير الناس بلا إذن من الله، ولذا جاءت في سورة الزمر آية وهي من الآيات التي يستندون إليها: «وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٤٠٠

نفحات القرآن ج ٦ ص ٤١٥

إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ». (الزمر / ٣)

ووفقاً لهذه الآية فإنهم كانوا يعتبرون من يعبدون من دون الله أولياء، وقيمين وحماة وحافظين لهم، فكانوا يعبدونهم، وكلا هذين الفعلين (اعتبارهم أولياء وعبادتهم) شرك.

أمّا إذا لم يعبد أولياء الله وأنبياء وملائكته، بل يحترمهم ويكرمهم ويرى فيهم أنهم شفعاء له بين يدي الله وبأذنه، فهو غير مشمول بهذه الآية قطعاً.

وبسبب عدم احاطة الوهابيين بالآيات القرآنية الواردة بخصوص الشفاعة، ومسألة الكفر والإيمان والشروط التي حددها الله للشفيع

والمشفوع له، فقد اشبهت عليهم هذه المسألة مع ما كان يعتقد به عبدة الاوثان، وبهذه الشاكلة التبتت عليهم الحقيقة.

٥- أما قول الوهابيين إن عبدة الأوثان العرب كانوا يعتقدون بأن كل شيء بما فيه المالكية والرازقية لله تعالى وكانت مشكلتهم تتمثل فقط في شفاعته ووساطة الأوثان، فهو خطأ آخر من أخطائهم الناتجة عن فقرهم العلمي والثقافي وعدم المامهم بالآيات القرآنية.

وذلك لأنهم - أي عبدة الأصنام - كانوا ينسبون بعض هذه الصفات للأصنام كما يفهم هذا المعنى من الآيات الشريفة ومن جملتها: «فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ». (العنكبوت / ٦٥)

يتبين من هذا التعبير أنهم كانوا في الأوضاع العادية يتوسلون بالأصنام لحل مشاكلهم، وفي الشدائد يتعلقون بالله فقط. وكذلك ما فيها أمر للنبي صلى الله عليه وآله: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ كُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ». (فاطر / ٤٠)

لو كان المشركون يعتقدون بتفرد الله في الخالقية وينظرون إلى الأصنام نظرة الشفيع فلا معنى لهذا السؤال، لأنهم سيقولون في الجواب: إننا لا نعتبرهم خالقين، ونعددهم واسطة فقط بين الخالق والمخلوق، وهل يجب في الواسطة أن يكون خالقاً أو شريكاً في الخلق؟

وهذا يكشف بوضوح أن عبدة الأصنام قد جعلوا من أصنامهم بشكل من الأشكال أنداداً وشركاء لله سبحانه وتعالى، وأن الرسول صلى الله عليه وآله ما أمر بكشف وفضح أكاذيبهم بأن يسألهم ماذا خلقوا؟

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٤٠١

وتبين الآية ١١١ من سورة الاسراء أنهم كانوا يظنون أن أصنامهم أنداداً لله في المالكية والحاكمية على العالم، وحتى أنهم كانوا يعتقدون أن الأصنام تعين الله في بعض المشاكل:

«وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلِداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِليٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبْرُهُ تَكْبِيرًا».

تمثل كل واحد من هذه الجمل الثلاث نفياً لمعتقدات عبدة الأوثان، الذين كانوا يظنون أن: (الملائكة بنات الله)، (يرجى الالتفات إلى كلمة الولد تعني كلا المعنيين البنت والولد أي الذكر والانثى «١») وأنهم شركاء له في الخلق وأنهم اعوانه وأولياؤه.

ومن الواضح أن هذه المعتقدات لو لم يكن لها وجود في تلك البيئة، لما كان لهذه التعابير القرآنية أي مفهوم.

ومما يسترعى الانتباه أن القرآن الكريم وصف عبدة الأوثان بـ «المشركين» واعتبر عملهم «شركاً»، فلو لم يكونوا يعتقدون بنوع من الشراكة بين الله والأصنام وكانوا يحسبون شافعاً فقط بين يدي الله، إذ لما كان هذا التعبير صحيحاً بشأنها، لأن كلمة «الشرك» والمشرك» دالتان على أنهم كانوا يعتبرون الأصنام شركاء لله في الربوبية، وحل المشاكل والخلقة وأمثال ذلك، «كانت الأصنام الحجرية والخشبية في عقيدتهم رمزاً ومظهراً للصالحين والملائكة».

وبعبارة أخرى كانوا يقولون: إن للأصنام نوعاً من الاستقلال في تدبير شؤون العالم، وبتعبيرهم كانوا يعتبرونها أنداداً لله، لا مجرد وسطاء بين يديه.

والتعابير الواردة في الآيات القرآنية المختلفة تكشف لنا عن هذا الموضوع بكل وضوح، جاء مثلاً في قوله تعالى «وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وِليٍّ وَلَا نَصِيرٍ». (العنكبوت / ٢٢)

وهذه إشارة لاعتقاد المشركين بأن الأصنام أولياؤهم وأنصارهم (من دون الله)، كما تُصرح بذلك هذه الآية: «وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئاً وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ

(١). «الولد» بمعنى المولود وتُطلق على الصغير والكبير والذكر والأنثى والمفرد والجمع (راجع مفردات الراغب).

أولياء». (الجاثية / ١٠)

تكرر في القرآن الكريم تعبير «من دون الله» في وصف معتقدات المشركين وهذا دليل على أنهم كانوا يتخذون موجودات من دون الله لتكون لهم انصار أو أولياء، وهذا شرك في الربوبية وليس بشفاعه.

وخلاصة القول أن القرآن الكريم قد أورد في آياته المختلفه اعتراضين رئيسيين على المشركين، وهما أولاً: إنهم اعتبروا هذه الكائنات الفاعلة للحس والسمع والبصر مصدرًا مؤثراً.

وثانياً: إنهم يرون فيها أنداداً لله في التدبير والربوبية.

وقد كان لعبدة الأصنام في العصر الجاهلي آراء وكلمات متناقضة طبعاً، فهم لا يطرحون أقوالهم بلا أي تناقض أو تهافت، شأن أي إنسان منطقي وواعٍ، لذا فهم في نفس الوقت الذي يعتبرون الأصنام شركاء لله في حلّ المشاكل ويصوّرونها وكأنها أولياء وأنصار لهم من دون الله، فإنهم كانوا يطرحون أيضاً قضية الشفاعه بين يدي الله، وهذا لا يدل مطلقاً على عدم الاعتقاد بالشرك في الأفعال.

وهذا ما نلاحظه من دراسته مجموعة الآيات السالفه، واستقراء جميع أحوالهم من خلالها، ثم إنهم لا يعتبرون الشفاعه مطلقاً منوطه ورهينه بإذن الله.

وبناءً على هذا فإننا نستنتج وبكل ثقته لو أن الإنسان تمسك بأولياء الله فقط (لا الأصنام الحجرية والخشبية) واعتبرهم - دون غيرهم - شفعاء له بين يدي الله (لا - شركاء له في الولاية والنصرة والتدبير) وأن شفاعتهم لا تحصل إلا بإذن الله (لا بصورة مستقلة عنه) فلا اعتراض عليه أبداً في مثل هذه الحالة، وإنما يرد الاعتراض حينما يغفل المرء عن واحدٍ من هذه المبادئ الثلاثة أو بأجمعها، ويسلك الطريق الخاطيء.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٤٠٣

الأعراف وأصحابها

إشارة

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٤٠٥

الأعراف وأصحابها

تمهيد:

توجد في القرآن الكريم سورة باسم سورة «الأعراف» تختص أربع آيات منها بموضوع الأعراف، يستشف من هذه الآيات بشكل عام أن الأعراف مكان بين الجنة والنار وفيه بعض المؤمنين الذين يعرفون أهل الجنة وأهل النار.

ولكن ما هي مهمه هؤلاء المؤمنين؟ وما هو الهدف الذي يسعون إلى تحقيقه؟ وما هي مكانة الأعراف في القيامة؟ وهل يوجد سوى هؤلاء الرجال الإلهيين المكلفين بمهمه خاصه في الأعراف، يعني أشخاص آخرون من ضعفاء المؤمنين وأمثالهم، أم لا؟

هذه المسائل ينبغي ايضاحها في ظل تفسير الآيات الأربع في سورة الأعراف، وكذلك الروايات الواردة في تفسيرها في المصادر الإسلامية المهمه.

نعوذ بعد هذا التمهيد الموجز إلى القرآن الكريم لنمعن خاشعين في الآيات الكريمه التاليه الواردة في هذا المجال:

١- «وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْنَا لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ».

(الأعراف / ٤٦)

- ٢- «وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَاتَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ». (الأعراف / ٤٧)
- ٣- «وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ». (الأعراف / ٤٨)
- ٤- «أَهْوَلَاءِ الَّذِينَ أَفْسَنْتُمْ لآيِنَالَهُمْ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ». (الأعراف / ٤٩)
- نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٤٠٦

جمع الآيات وتفسيرها

موضع بين الجنة والنار:

تتضمن الآية الأولى إشارة إلى الآيات التي سبقتها وتحدثت عن الجنة والنار، وأصحاب الجنة وأصحاب النار ثم تقول: «وبينهما حجاب».

وهذا الحجاب يمنع إلتقاء هذين الفريقين مع بعضهما، ولكن لا يمنع من سماع الطرفين لأصوات بعضهما، لأن الآيات السابقة تنقل لنا حديث أصحاب الجنة وأصحاب النار مع بعضهما إذ يُنادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً، قالوا: نعم.

ولا- عجب في هذا فكثيراً ما يتحادث الجيران من وراء الجدار ويتساءلون عن أحوال بعضهم بينما لا يرى بعضهم الآخر أو لا يوجد بينهما طريق للالتقاء وورد شبيه هذا المعنى في سورة الحديد حيث يقول المنافقون للمؤمنين انظرونا نقتبس من نوركم، فيقولون لهم ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً، وفي هذه الأثناء: «فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ سَبُورًا لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ * يُنَادُونَ لَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ». (الحديد / ١٣-١٤)

فهل أن هذا لسور العالی هو الأعراف أم شيء آخر؟ سنجد جواب هذا السؤال لاحقاً.

ثم تضيف الآية: «وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ».

ولما كانت كلمة «الأعراف» تعنى فى اللغة الموضع المرتفع، فيتبين أن هؤلاء الرجال أصحاب منزلة وشخصية، إذ يشرفون من ذلك المقام المرتفع على كلا الفريقين ويرون كلا الفريقين ويعرفون كلًّا بسيماهم.

لماذا هذه المعرفة؟

يُستفاد من مجموع القرائن الموجودة فى الآيات موضوع البحث- والى سياتى شرحها مفصلاً فى البحوث القادمة- وكذلك من الروايات الكثيرة الواردة فى المصادر الإسلامية

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٤٠٧

بخصوص الأعراف، بأنه يوجد فيها فريقان: فريق من رجال الله والشخصيات البارزة والمقربة إلى الله وفريق آخر من المستضعفين ومن الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً- فبعضهم غلبت حسناتهم سيئاتهم وبعضهم سيئاتهم فاقت حسناتهم، وفى الحقيقة هم حائرون لا إلى الجنة ولا إلى النار.

وهنا يعرف أولئك الرجال هذا الفريق من سيماهم، فيقولون لمن يستحق الشفاعة والمغفرة، ويستمد من معدن أولياء الله: إذهبوا إلى الجنة، ثم يسوقون الباقيين إلى جهنم.

وهذا هو أفضل تأويل وتفسير يوضح مجموع الآيات المتعلقة بالأعراف، وكذلك الآيات السابقة واللاحقة لها ويخلصنا من أى نوع من الكلام الزائد، ويشكل قاسماً مشتركاً وحلقة اتصال بين الكثير من أقوال وتفسيرات المفسرين.

فقد نقل المرحوم العلامة الطباطبائي - على سبيل المثال - اثني عشر قولاً بخصوص من على الأعراف (نقل بعضهم فقط عشره أقوال أو سبعة، مثل تفسير القرطبي والتفسير الاثني عشرى وبهذا الترتيب.

١- إنهم أشراف الخلق الممتازون بكرامة الله.

٢- إنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فلم تترجح حسناتهم حتى يدخلوا الجنة، ولا غلبت سيئاتهم حتى يؤمروا بدخول النار، فأوقفهم الله تعالى على هذه الأعراف لكونها درجة متوسطة بين الجنة والنار.

٣- إنهم أهل الفترة.

٤- إنهم مؤمنو الجن.

٥- إنهم أولاد الكفار الذين لم يبلغوا في الدنيا أوان البلوغ.

٦- إنهم أولاد الزنا.

٧- إنهم أهل العجب بأنفسهم.

٨- إنهم ملائكة والتعبير عنهم بالرجال لأنهم يتشكلون بأشكال الرجال.

٩- إنهم الأنبياء عليهم السلام يقامون عليها تمييزاً لهم على سائر الناس ولأنهم شهداء عليهم.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٤٠٨

١٠- إنهم عدول الامم الشهداء على الناس يقومون عليها للشهادة على اممهم.

١١- إنهم قوم صالحون فقهاء علماء.

١٢- إنهم العباس والحزمة وعلى وجعفر يجلسون على موضع من الصراط، يعرفون محبيهم ببياض الوجوه، ومبغضهم بسوادها «١»
 وورد في الكثير من الروايات المنقولة عن أهل البيت عليهم السلام: عن هلقام، عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن قول الله تعالى «وَعَلَى الْمَاعِرِفِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ» مايعنى بقوله «وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ؟ قال: «ألستم تعرفون عليكم عرفاء، وعلى قبائلكم ليعرف من فيها من صالح أو طالح؟ قلت: بلى فقال فنحن أولئك الرجال الذين يعرفون كلًّا بسيماهم» «٢».

ولكن كل تلك الأقوال الاثني عشر أو الثلاثة عشر مجموعة في الحقيقة في التفسير الذي ذكرناه سالفًا، ألا وهو وجود فريقين في الأعراف: فريق من الأبرار والصالحين وأولياء الله وفي طليعتهم «محمد وآل محمد» عليهم السلام ومن ثم الأنبياء والملائكة، وجماعة من الصالحين والعلماء والفضلاء، وفريق من المستضعفين ومن أصحاب الأعمال والصالحه والأعمال السيئه، أو الذين ليست لديهم أعمال صالحه ولا سيئه (كالأبناء غير البالغين للكفار والجهلة القاصرين وأهل الفترة).

إن الروايات التي ذكرناها آنفاً تؤيد بصراحة وجود هذين الفريقين في الأعراف.

ولهذا تواصل الآية الأولى الكلام عن الفريق الثاني فتقول: «وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ».

وبهذا السياق يشير صدر الآية وذيلها إلى هذين الفريقين المختلفين المذكورين فيما سبق.

(١). تفسير الميزان، ج ٨، ص ١٢٦ ذيل الآيات مورد البحث.

(٢). أورد المرحوم العلامة المجلسي هذه الرواية في بحار الأنوار، ج ٨، ص ٣٣٦، و ٣٣٧؛ ونقلها أيضاً المرحوم الكليني في اصول الكافي، ج ٢، ص ٤٠٨.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٤٠٩

وتضيف الآية الثانية: «وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَاتَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ».

تعود الضمائر في هذه الآية (الضميرين في كلمتي «أبصارهم» و «قالوا»)، كما هو الحال في ذيل الآية السابقة، إلى الفريق الثاني، بينما

يدور الكلام فى مطلع الآيه الأولى عن الفريق الأول.

وهذا هو فقط الخلاف الظاهر الذى نراه نحن فى تفسير هذه الآيه، أى أن نفضل مَرَدَّ هذه الضمائر، لكن القرائن المتعدده لهذا الخلاف الظاهري موجوده فى الآيه الأولى وكذلك فى الآيات اللاحقه، لأنَّ الرجال الموجودين على الأعراف يعرفون الكل بسيماهم، ويأمرون هناك وينهون، ويلومون أهل النار، ويرسلون إلى الجنه من يستحقها بفضل الله، هم ليسوا ممن تشملهم جمله: «لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ».

و خلاصه القول هى أن فى هذه الآيات تعابير داله على وجود رجال ذوى مقام رفيع على الأعراف، وييدهم الأمر والنهى. وهم أصحاب المقام الرفيع فى معرفه أصحاب الجنه وأصحاب النار (حتى قبل دخولهم فيهما)، وكذلك توجد تعابير فى هذه الآيات تدل على وجود فريق حائر على الأعراف وعليهم آثار القلق البالغ خوفاً على مصيرهم.

فهم طامعون فى الجنه وخائفون من النار، وينبىء مجموع هذه القرائن عن وجود هذين الفريقين على الأعراف، ويمكن فى ظل هذا التفسير حل جميع المشاكل العالقه فى تفسير هذه الآيات.

وتعود الآيه الثالثه إلى الفريق الأول مره ثانيه فتقول: «وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ».

ويعكس هذا اللوم والتوبيخ الشديد الصادر من أصحاب الأعراف إلى أصحاب جهنم أحد المؤشرات الجليله على سمو مقامهم، فهم يعاقبونهم بسياط الملامه والتعنيف مثلما يفعل الملائكه معهم.

وفى الآيه الرابعه يتحدث نفس أصحاب المقامات الساميه فى الأعراف، وهم يشيرون

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٤١٠

إلى جماعه من ضعفاء المؤمنين من جهه، وموجهين الخطاب من جهه اخرى إلى المستكبرين من أصحاب النار، وبأسلوب التوبيخ، قائلين لهم: «أَهْوَلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ».

ثم يلتفتون فى نفس الوقت إلى ضعفاء المؤمنين فيقولون لهم: «ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ».

و يظهر من خلال هذا التعبير وبوضوح وجود فريقين هناك وهما: فريق ذوى المقام الرفيع، وفريق الحيارى من ضعاف المؤمنين الذين تشملهم الرحمه الإلهيه فى ختام المطاف، ويساقون بأمر ذوى المقام الرفيع الموجود فى الأعراف، نحو الجنه.

توضيحات

١- الأعراف فى اللغة والتفسير

«الأعراف»: جمع (عُرف) على وزن (قُفل) وهو بمعنى المكان المرتفع العالى. ومأخوذة فى الأصل من «عرف الفرس» و «عرف الديك» ويقال أيضاً إنها مشتقة من أصل المعرفة والعرفان الذى يعنى المعرفة بالأشياء والاطلاع على خصائصها لأن الاراضى المرتفعه أكثر وضوحاً وأقرب إلى المعرفة من الاراضى المنخفضه، (ومن فوقها يمكن الاطلاع على كل مكان والتعرف عليه).

ويقال أيضاً أن الأعراف هى مقامات الأشخاص ذوى المكانه الرفيعه والدرجه الساميه «(١)».

أما بخصوص مكان الأعراف اين يقع؟ وماهى كيفيته؟ ففيه أقوال عديده، أورد من بينها صاحب الميزان سته أقوال:

١- موضع يشرف على أهل الجنه وأهل النار.

(١). التحقيق، و تفسير مجمع البيان، وغيرهما من القواميس والتفاسير.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٤١١

٢- سور له تاج خاص كعرف الديك.

٣- تل بين الجنة والنار.

٤- هو السور الذي يفصل بين المؤمنين والمنافقين، وقد اشير إليه في القرآن الكريم بقوله تعالى «فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ».

(الحديد/ ١٣)

٥- الأعراف بمعنى الصراط والجسر الممتد فوق جهنم.

٦- الأعراف بمعنى المعرفة بأوضاع الناس.

ولكننا نعتقد لو أمعنا النظر في الآيات الأربع المذكورة التي تتحدث عن الأعراف، لما بقي أى غموض فى معنى «الأعراف»، حيث يفهم منها وبكل وضوح بأن الأعراف موقع يشرف على الجنة والنار، وفيه طائفة من أولياء الله ذوى المنزلة الرفيعة، وطائفة اخرى من ضعيفى الإيمان هذا فى الوقت الذى ذهب فيه المؤمنون المخلصون إلى الجنة، والكفرة المذبون إلى النار، أما الفئة الاخرى من الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، ولديهم نقاط إيجابية فى جانب ونقاط سلبية فى جانب آخر، فهم باقون على الأعراف ينتظرون الموقف الذى يتخذه بحقهم رجال الأعراف المؤمنون.

وأما بخصوص هذين الفريقين الموجودين على الأعراف ومن هما؟ فقد تحدثنا عن ذلك بالتفصيل ضمن تفسير الآيات.

ومن هنا يتضح أن مهمته رجال الأعراف المؤمنين تمثل فى الحقيقة نوعاً من الشفاعة، لمن: «خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا». (التوبة/ ١٠٢)

وهؤلاء فى حالة اضطراب وقلق دائم، فحينما ينظرون من الأعراف إلى أصحاب الجنة يتمنون أن يكونوا معهم، وحين تقع أبصارهم على أصحاب النار يضطربون ويرجون ألا يحشروا معهم.

ومن هنا تتوضح فلسفة وجود الأعراف ضمناً وهى اظهار الدرجات الرفيعة لأولياء الله، وأخذهم بيد المغلوبين على أمرهم، وكذلك تبيان مصير فئة من المذنبين الذين تشملهم

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٤١٢

فى خاتمة المطاف شفاعته هؤلاء الرجال ذوى المكانة السامية.

٢- الأعراف فى العقل والمنطق

من الواضح أننا لانمتلك أى دليل عقلى يثبت وجود الأعراف، لأن العقل يثبت فقط العموميات المتعلقة بالحساب والكتاب والثواب والعقاب، وذلك لأن عدم وجودها لا يتسق وحكمة الله وعدالته.

أما موقف القيامة، ومراحل الثواب والعقاب، وكيفية دخول أصحاب الجنة فيها، وأصحاب النار فيها والصراط والأعراف وماشابه ذلك من التفاصيل الجزئية للقيامة، فهى من المسائل التى لا تثبت إلا بالدليل النقلى.

ولكن بما أن الشفاعة تنبثق أيضاً من حكمة الله تعالى (كما ورد فى موضوع الشفاعة) وأن الشفاعة يجب أن يكونوا من ذوى الدرجات الرفيعة والمكانة العالية حتى يأخذوا بأيدي الضعفاء، يمكن نتيجة لذلك العثور على إشارة ضعيفة فى اعماق حكم العقل بخصوص مسألة الأعراف (فتأمل).

٣- الأعراف فى الروايات والأحاديث

إشارة

تحتوي المصادر الإسلامية الشيعية منها والسنية على روايات كثيرة بخصوص الأعراف وأصحاب الأعراف، ومتى ما وضعناها إلى جانب بعضها بشكل صحيح لاستنتاجنا منها ما استنتاجناه من تفسير الآيات المذكورة. وهي في الحقيقة أخبار كثيرة حتى أن البعض قال إنها تربو على ٢٨ حديثاً «١».

تختص بعض تلك الأحاديث بموضوع الأعراف، وبعضها بالرجال الذين على الأعراف ويتحدث بعضها عن طائفة الحيارى من ضعيفي الإيمان الموجودين هناك ونحن نكتفي هنا بالإشارة إلى بعض الأمثلة المهمة منها:

(١). تفسير الاثني عشرى، ج ٤، ص ٧٥.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٤١٣

١- نقل عن الإمام الصادق عليه السلام أنه حين سُئِلَ عن معنى الآية الشريفة: «وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ» قال: «سور بين الجنة والنار» «١».

وجاء في تفسير الطبري نفس هذا المعنى عن الإمام الباقر عليه السلام «٢».

٢- جاء في حديث للإمام الباقر عليه السلام يفسر فيه قوله تعالى «وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ» قال: «نزلت في هذه الأمة، والرجال هم الائمة من آل محمد صلى الله عليه وآله. قلت: فالأعراف قال:

صراط بين الجنة والنار، فمن شفع له الإمام منا من المؤمنين المذنبين نجا، ومن لم يشفع له هوى «٣».

فهذا الحديث أوضح معنى الأعراف وكذلك الفريقين الموجودين عليه.

٣- وجاء في حديث آخر نقله المرحوم الطبرسي في مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام قال فيه: «الأعراف كئيبان بين الجنة والنار، فيقف عليها كل نبي وكل خليفة نبي، مع المؤمنين من أهل الزمان كما يقف صاحب الجيش مع الضعفاء من جنده» «٤».

وجاء في آخر هذا الحديث شرح يبين أن المحسنين يذهبون مسبقاً إلى الجنة، فيقول رجال الأعراف المؤمنون للمذنبين الذين بجانبهم انظروا إلى اخوانكم المحسنين سبقوكم ودخلوا الجنة، وهنا ينظر إليهم المذنبون ويسلمون عليهم وهذا هو ما ذكره القرآن في قوله: «وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ».

فهؤلاء المذنبون لم يدخلوا الجنة ويأملون دخولها ببركة شفاعته النبي صلى الله عليه وآله والإمام عليه السلام، ثم يفسر بقية الآيات على هذا المنوال وبالشكل الذي لا يبقى معه شك في معنى الأعراف والفريقين الموجودين عليها. ويعرض بدقة نفس التفسير الذي بيناه سابقاً بشأن آيات

(١). تفسير البرهان، ج ٢، ص ١٨، ح ١٠.

(٢). تفسير جامع البيان، ج ٨، ص ١٣٧.

(٣). تفسير البرهان، ج ٢، ص ١٨، ح ٨.

(٤). تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٤، ص ٤٢٣.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٤١٤

الأعراف الأربع وعلاقتها مع بعضها «١».

٤- جاء في الدر المنثور حديث آخر عن الرسول صلى الله عليه وآله أنه قال: «يُجمع الناس يوم القيامة فيؤمر بأهل الجنة إلى الجنة

ويؤمر بأهل النار إلى النار، ثم يقال لأصحاب الأعراف: ما تنتظرون؟ قالوا: ننتظر أمرك، فيقال لهم: إن حسناتكم تجاوزت بكم النار أن تدخلوها، وحالت بينكم وبين الجنة خطاياكم، فادخلوا الجنة بمغفرتي ورحمتي» (٢).
 طبعاً سبب دخول الجنة هنا هي شفاعت الشفعاء والرجال المؤمنين في الأعراف ويأذن من الله.
 ٥- جاء في حديث آخر في الدر المنثور منقول عن أبي سعيد الخدري بأن رسول الله صلى الله عليه وآله سُئل عن أصحاب الأعراف فقال: «هم رجال قتلوا في سبيل الله، وهم عصاة لآبائهم فمنعتهم الشهادة أن يدخلوا النار، ومنعتهم المعصية أن يدخلوا الجنة، وهم على سور بين الجنة والنار.. فاذا فرغ الله من حساب خلقه فلم يبق غيرهم تغمدهم منه برحمة فأدخلهم الجنة برحمته» (٣).
 وكما قلنا سابقاً لا يوجد أي مانع من شمولهم برحمة الله في ظل شفاعت الأنبياء والأولياء.

خاتمة بحث المعاد:

وبانتهاء موضوعي الشفاعت والأعراف، نصل إلى ختام بحوث المعاد، وكما نوهنا سابقاً، كان من المؤمل أن نضع جميع بحوث المعاد في مجلد واحد، إلّا أنّ سعة الأبحاث القرآنية في هذا الصدد دفعتنا إلى تقسيمها إلى مجلدين، ثم إن المواضيع التي عرضناها تمثل أمهات

(١). تفسير مجمع البيان، ج ٣ و ٤، ص ٤٢٣.

(٢). تفسير در المنثور، ج ٣، ص ٨٧.

(٣). المصدر السابق، ص ٨٨.

نفحات القرآن، ج ٦، ص: ٤١٥

مسائل المعاد وبحوثه الأساسية، وإلا فإن هذه البحوث تضم بين طياتها مسائل أخرى متنوعة صرفنا النظر عنها حالياً تجنباً للاطالة إلى أن تحين فرصة أخرى
 اللهم لا تدعنا لؤخذنا في هذا السفر المليء بالخوف والمخاطر، وفي نفس الوقت مليء بالرحمة والبركة، وخذ بأيدينا ونجنا من مواقف الخطر ومواضع العذاب، وأوصلنا إلى جوار رحمتك.
 إلهي إن أيدينا خالية، وأعمالنا قليلة وذنوبنا كثيرة، وكتاب أعمالنا خفيف وكواهلنا مثقلة بأعباء المسؤوليات، وفي هذه الأحوال آمالنا معقودة عليك.

ربنا إن رحمتك واسعة، وألطافك غير متناهية، وكرمك غير محدود، اللهم نقسّم عليك بأولياك الكرام أن تشملنا برعايتك في ذلك اليوم، وتجعلنا ممن يسعد بلقاك ولا تحرّمنا رؤيتك.

ختام بحث المعاد في القرآن

ونهاية المجلد السادس

آمين يارب العالمين

التاريخ ٢١/٣/١٣٧٠ هجري شمسي

الموافق ٢٧ ذي القعدة ١٤١١ هجري قمرى

إشارة

الاهداء:

إلى الذين يعشقون القرآن
 إلى الذين يريدون أن يشربوا من عين الحياة الصافية أكثر
 إلى الذين يريدون أن يعرفوا القرآن ويفهموه أكثر
 نفحات القرآن، ج٧، ص: ٤
 بالتعاون مع العلماء الأفاضل وحجج الإسلام السادة:
 محمد رضا الآشتياني
 محمد جعفر الامامى
 عبدالرسول الحسنى
 محمد الاسدى
 حسين الطوسى
 سيد شمس الدين الروحانى
 محمد محمدى الاشتهارى
 نفحات القرآن، ج٧، ص: ٥

فلسفة بعثة الأنبياء عليهم السلام فى التصور القرآنى

إشارة

نفحات القرآن، ج٧، ص: ٧

القرآن الكريم والهدف من إرسال الرسل عليهم السلام

تمهيد:

إنّ إرسال الرسل وإنزال الكتب، وبعبارة اخرى بعثة أنبياء الله عليهم السلام ونزول الكتب السماوية، لها علاقة مباشرة بالنظرة الكونية للقرآن الكريم.

حينما يقول القرآن الكريم: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ». (الذاريات / ٥٦)

وقال تعالى: «يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ». (الانشقاق / ٦)

إننا نستطيع أن نفهم أنّ الإنسان فى طريقه الطويل المملوء بالمخاطر والمحفوف بالمخاوف، والذي يهدف من خلاله الوصول إلى الكمال المطلق، يعنى السير للوصول إلى الذات الإلهية المقدسة، فإنه لا يستطيع أن يجتاز هذا الطريق دون الحاجة إلى القادة والموجهين الربانيين.

إنّ من مستلزمات تجاوز هذه المرحلة مرافقة الخضر، وما عدا ذلك تكون النتيجة الولوج فى الظلمات والابتلاء بالتيه والحيرة والظلاله. ومن هنا يعتبر الأنبياء عليهم السلام قادة الامم والكتب السماوية بمثابة «القوانين»، التى تأخذ بيد الإنسان لتوصله إلى غايته وتخرجه من

الظلمات إلى النور.

وبعبارة اخرى، لا يمكن تصوّر الحياة الاجتماعية للإنسان مجردة عن هداية عالم الغيب والذات المقدّسة، لا في التقنين والتنفيذ، ولا في مجال ضمان العدالة الاجتماعية، فالأنبياء عليهم السلام في الواقع يمثلون همزة الوصل بين عالمي الإنسانية والغيب. بعد هذه الإشارة العابرة نعود إلى القرآن الكريم ولنتأمل خاشعين في الآيات الواردة في هذا المجال:

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٨

١- «هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» (الجمعة / ٢)

٢- «رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ». (البقرة / ١٢٩)

٣- «كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ». (البقرة / ١٥١)

٤- «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ». (الحديد / ٢٥)

٥- «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ... أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ». (الأعراف / ١٥٧)

٦- «كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ». (٢) (إبراهيم / ١)

٧- «وَمَا نُزِّلَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ». (٣) (الأنعام / ٤٨)

٨- «رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ». (٤)

(النساء / ١٦٥)

٩- «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ

(١) قريب من هذا المعنى جاء في سورة آل عمران، ١٦٤.

(٢) قريب من هذا المعنى جاء أيضاً في الحديد، ٥٧؛ والطلاق، ١١؛ وإبراهيم، ٥.

(٣) قريب من هذا المعنى بخصوص جميع الأنبياء عليهم السلام جاء في البقرة، ٢١٣ والأنعام، ٤٨ والكهف، ٥٦ وآيات اخرى.

(٤) قريب من هذا المعنى جاء في طه، ١٣٤؛ والقصاص، ٤٧.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٩

بِالْحَقِّ لِيُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ». (البقرة / ٢١٣)

١٠- «هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ». (إبراهيم / ٥٢)

١١- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ».

(الانفال / ٢٤)

جمع الآيات و تفسيرها

أهداف وفلسفة بعثة الأنبياء:

١ و ٢- التربية والتعليم

ورد في هذه الآيات عشر غايات لبعثه الأنبياء عليهم السلام:

ففي الآيتين الأولى والثانية إشارة إلى هدفين رئيسيين من أهداف البعثة وفلسفة إرسال الرسل عليهم السلام، ألا وهما «التربية والتعليم». يقول تعالى في الآية الأولى «هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ»، ونظراً إلى كون التلاوة لآيات الحق تعالى بمثابة المقدمة بالنسبة للتركية والتعليم الكتاب والحكمة ومحو آثار الضلالة والشرك، يضيف تعالى قائلاً: «وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ».

صحيح أن الغاية الرئيسية من تلاوة الآيات والتعليم الكتاب والحكمة هو تزكية وتطهير الروح والبدن والفرد والمجتمع، وأن تعلم الكتاب والحكمة له دور الطريقة، وبمثابه مقدمه بالنسبة إلى التركية، لكنها مع ذلك تقدمت عليهما نظراً لأهميتهما.

في حين أننا نجد الآية الثانية من آيات بحثنا التي تتعرض لدعاء إبراهيم عليه السلام في حق الأمة الإسلامية، تقوم بتقديم «تعليم الكتاب والحكمة» على «التركية»، وتضع كلهما في مكانه الطبيعي له، حيث تقول: «رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٠

الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

أجل، هذا هو طلب إبراهيم عليه السلام من الله تعالى للأمة الإسلامية وأتباع محمد صلى الله عليه وآله، حيث أبان الهدف من بعثه هذا النبي العظيم (وسائر الأنبياء) بكل وضوح.

إن التأمل في هاتين الآيتين يكشف عن نكات جديرة بالاعتبار:

أولاً: العبارة الواردة في الآية الأولى دليل على معرفة الله تعالى من جهته، وعلى النبوة الخاصة لنبي الإسلام صلى الله عليه وآله من جهته أخرى، حيث تؤكد الآية أن الله تعالى هو الذي بعث نبياً بهذه الخصوصيات وهذا لا يتم إلا عن طريق القدرة الإلهية فقط: «هُوَ الَّذِي بَعَثَ ...».

وكذلك تقول: إن النبي هو ذلك الشخص الذي ظهر من بين جماعة أميين، لكنه على الرغم من ذلك فقد أصبح معلماً للمئات والآلاف، وأفاض على أتباعه العلم والحكمة حتى ظهر من بينهم بعد فترة قصيرة أكابر العلماء الذين قاموا بتأسيس حضارة عظيمة مشرقة.

ثانياً: دار الحديث في كلتا الآيتين عن أربعة مواضع وهي «تلاوة آيات الله تعالى» و «تعليم الكتاب» و «تعليم الحكمة» وأخيراً «التركية والتطهير والتربية».

إن الحالة الطبيعية لهذه المواضع الأربعة، هي كما اشير إليها، بأنه يجب ابتداءً أن يتعرف ويستأنس سمع الإنسان بكلمات الحق تعالى ليدرك بعد ذلك مضمون الكتاب من أعماق هذه الكلمات، ثم يتعرف بعد ذلك على الحكمة أي الأسرار الكامنة فيها، وأخيراً يُظهر وينقى الروح والجسم.

هذا الترتيب الطبيعي يُلاحظ في الآية المرتبطة بدعاء إبراهيم عليه السلام: لكن «التركية» قد تقدمت على «تعليم الكتاب والحكمة» كما جاء في قوله تعالى «لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ». (الجمعة / ٢) (آل عمران / ١٦٤)

وذلك لكي تتبين هذه الحقيقة التي ترى أن الهدف الرئيس من كل هذه المقدمات في تلك الآيات هو الطهارة والتقوى وتربية الإنسان ونمو المثل والقيم الأخلاقية والإنسانية.

ثالثاً: نظراً لتقدم «التركية» على «التعليم» فى آيتين من القرآن الكريم وتأخرها عنه فى

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١١

آية واحدة، يرد هذا السؤال وهو: أى منهما يكون الأصل حقيقته والآخر فرع؟

الجواب عن هذا السؤال ليس بتلك الصعوبة كما تقدمت الإشارة إلى ذلك لأن «العلم» له حيثية الطريقية المقدمية، والهدف الرئيسى هو تربية الإنسان وتركيبه النفس وتكامل الروح، وبعبارة اخرى إن تلاوة آيات القرآن الكريم وتعليم العلم والحكمة كلها تهدف إلى هذا الهدف الأسمى، وبناءً على ذلك تعد كل هذه مقدمه بالنسبة للتركية التى تعتبر ذى المقدمه، وما السبب وراء ذكر «التركية» قبل «تعليم الكتاب والحكمة» فى آيتين اخريين إلابيان دورها الخطير هذا.

فضلاً عن ذلك، فإن كل واحد من هذين الأمرين يترك أثره على صاحبه، أى إن الإنسان لا يسعى وراء العلم ما لم يتحقق مرحلة تركيبة النفس، وما لم يتحقق العلم فسوف لن تحصل المراحل العالیه من التركيبة، وبناءً على هذا ف «التعليم» و «التركية» لهما أثران متقابلان، كما يحتمل أن يكون الغرض من تنوع الآيات حول هذا الموضوع هو إلفات النظر إلى هذا الأمر.

وينبغى ألا يخفى أن البعض من العلوم كالعلوم المرتبطة بالمعرفة بصورة عامية ومعرفة الله تعالى ونظائرها لها حيثية ذاتية وعينية، أو بعبارة اخرى فهى مطلوبة بالذات، فى حين أن العلوم الاخرى ليس لها حيثية مقدمية، ولهذا يمكن أن يكون تنوع الآيات الآنفه الذكر إشارة إلى هذه الملاحظة أيضاً.

رابعاً: حول الاختلاف المحتمل بين «الكتاب» و «الحكمة» يعتقد البعض بأن الكتاب إشارة إلى القرآن الكريم، والحكمة إلى الأحاديث والسنة النبوية الشريفة، أو أن «الكتاب» إشارة إلى مجموعة الأحكام والأوامر الإلهية و «الحكمة» إشارة إلى أسرار تلك الأحكام وفلسفتها، لأن الإحاطة بتلك الأسرار تزيد من عزم الإنسان على تنفيذها، كما أن هناك احتمالاً آخر وجيهاً أيضاً وهو إن ذكرهما معاً «الكتاب والحكمة» إشارة إلى مصدرى المعرفة الرئيسيين أى «الوحي» و «العقل».

خامساً: لفظه «الأميين» على حد قول الكثير من المفسرين، إشارة إلى اولئك الذين لا يعرفون القراءة والكتابة ويجهلون العلم والمعرفة على الإطلاق، أى كأنما ظلوا كما ولدتهم امهاتهم بالضبط لم يتغيروا قيد أنملة أبداً.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٢

وظهور النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بين قوم كهؤلاء هو دليل على عظمتهم وصدق دعوته.

لكن البعض من المفسرين اعتبر لفظه «الأميين» إشارة إلى أهل مكة التى كانت تسمى ب «أم القرى»، وربما قيل: إن المراد من «الأميين» هم العرب وذلك لجهلهم بالقراءة والكتابة أيضاً.

لكن المعنى الأول أكثر تناسباً من تلك المعانى.

سادساً: إن التعبير ب «ضلال ميين» هو أفضل تعبير يعكس حالة عرب الجاهلية، فهم كانوا فى ضلال، وأى ضلال، إنه ضلال ميين ظاهر بجميع أبعاده، ألم يكن وأد البنات وعبادة الأوثان والتعصبات القبلية المقيتة والحروب الدائمة والإفتخار بالإغارة على الآخرين وأمثالها ضلالاً مييناً؟

والآية الثالثة تشير أيضاً إلى مسألة التربية والتعليم التى حصلت عند المسلمين على يدى نبى الإسلام صلى الله عليه و آله مع هذا الفارق وهو التأكيد بصورة خاصة على العلوم والمعارف التى يستحيل كسبها بدون بعثة النبى صلى الله عليه و آله، حيث تقول: «كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ».

وتفسير هذه الآية كسابقاتها، مع فارق وجود جملة فى ذيلها تشير إلى أن نبى الإسلام صلى الله عليه و آله قد علم الناس علوماً يستحيل الحصول عليها من دون الوحي، وهنا ينبغى ألما يفوتنا التفاوت الواضح بين جملة «لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ» النافية لإمكانية التعلم و «لَمْ تَعْلَمُوا» النافية للعلم.

قال في «روح المعاني» بعد الإلتفات إلى الجملة الأخيرة التي تشير إلى العلوم التي لا يمكن اكتسابها إلا عن طريق الوحي: على هذا فالجملة المشار إليها هي من قبيل ذكر الخاص بعد العام «١».

(١) تفسير روح المعاني، ج ٢، ص ١٧.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٣

لكن المرحوم الشيخ الطوسي في «التبيان» والشيخ الطبرسي في «مجمع البيان» سبقاه في التوجه إلى هذه الملاحظة وأشارا إليها بعبارة مختصرة واضحة.

إن كتابنا السماوي القرآن الكريم يحتوي في الحقيقة على قسمين من العلوم، فالقسم الأول هو من المعارف التي يمكن أن تكتسب عن طريق الاستدلال العقلي، وإن كان القرآن قد عرض هذا القسم بشكل أكمل وأكثر اطمئناناً من الاستدلال العقلي. والقسم الآخر يستحيل اكتسابه بغير الوحي كما تقدم، وهو الذي تم الاستناد إليه في الجملة الأخيرة (كالكثير من الحقائق المرتبطة بعالم ما بعد الموت والقيامة)، أو التاريخ المعبرة للأقوام والأنبياء عليهم السلام السابقين والتي ضاعت على مر الزمن، وكذلك العلوم والمعارف التي حجبت عن أنظار المفكرين في ذلك الزمان على أقل تقدير.

٣- إقامة القسط والعدل

تمت الإشارة في الآية الرابعة بشكل عام إلى أحد الأغراض الرئيسية من بعث الأنبياء عليهم السلام ألا وهو إقامة العدالة الاجتماعية، وأن نزول الكتاب والميزان بمثابة المقدمة لذلك، يقول تعالى: «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ».

لقد اشير في هذه الآية إلى ثلاثة أمور باعتبارها مقدمة لإقامة العدل، وهي «البيّنات» التي تعني الأدلة كما لا يخفى، والمشملة على المعاجز والأدلة العقلية على أحقيّة دعوة الأنبياء عليهم السلام وأخبار السابقين منهم، و«الكتاب» الذي يشير إلى الكتب السماوية التي تحتوي على بيان المعارف والعقائد والأحكام والأخلاق، و«الميزان» الذي يعنى القوانين المميزة للخير من الشرّ والفضائل من الرذائل والحقّ من الباطل.

تمتع أنبياء الله عليهم السلام بهذه القوى الثلاث التي تمكّنهم من دفع البشرية نحو إقرار العدالة، والملفت للنظر هنا هو عدم نسبة إقامة العدالة إلى الأنبياء، بل التصريح بأن المجتمعات

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٤

البشرية تنشأ على نوع من التربية يدفعها بالنتيجة إلى إقامة العدالة بنفسها! والمهم أيضاً هو ظهور هذه المسألة في المجتمع بصورة إرادية لا قهريّة.

والتعبير ب«الميزان» عن القوانين الإلهية إنما هو لدورها المهم في المسائل الحقوقية المشابهة لدور الميزان في بيان وزن كلّ شيء كما هو عليه، وإنهاء حالة الخلاف والنزاع القائمة، ونظراً لكون القوانين البشرية الوضعية صادرة من علم الإنسان الناقص فلا يمكن الإعتماد عليها ولا يمكنها أبداً تحقيق العدالة، بل ينحصر تحقّق هذا الأمر في القوانين الإلهية النابعة من علم الله تعالى اللانهائي الذي لا يخالطه الخطأ والإشتباه، ذلك العلم الذي تنسجم معه النفس المؤمنة وتركن إليه.

ويوجد أيضاً فريق لا يبالي بأي من هذه الامور، بل نراه يضع كلّ شيء تحت قدميه حفاظاً على مصالحه الشخصية، فلا بد من مقاومة هؤلاء بقوة السلاح، وما جملة «وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد» المتممة لهذه الآية إلا إشارة إلى هذا الفريق الذي لا يعرف سوى لغة السيف.

ومع أن البعض قد ذهب إلى أن التعبير ب «أنزلنا» يعنى مجيء الحديد (الصخور الحديدية) إلى كرتنا الأرضية من الكواكب الأخرى لكن تعبير أنزلنا يأتى أحياناً فى غير الحديد أيضاً فمثلاً فى أنواع الحيوانات كما ورد قوله تعالى «وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ...» (الزمر / ٦)

وجاءت أيضاً للألبسة التى تغطى بدن الإنسان حيث قال تعالى «يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ». (الاعراف / ٢٦)

تبيّن هذه الآية أن المراد منه هو الخلق والإبداع الإلهى فى نفس الأرض، ونزول هذه الموهبة الإلهية من مقام الربوبية الشامخ إلى مقام الإنسان الدانى، يعبر عنها بأنزلنا وبعثنا.

كما يُشاهد هذا التعبير أيضاً فى المحاورات اليومية، فحينما تصدر أوامر أو تبعث هدية من رئيس دولة مثلاً إلى مادونه يقال: إن هذه الأوامر أو الهدية قد جاءت من المراتب العليا!

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٥

٤- حرية الإنسان

واشير فى الآية الخامسة إلى بُعد آخر من أبعاد فلسفة بعثه الأنبياء عليهم السلام، ألا وهو نجاة الإنسان من مخالب الأسر والاستبداد، يقول تعالى: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ».

إن القرآن الكريم يقيم عدّه أدلّه على أحقيّة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بذكره لهذه الأوصاف:

الأول: كونه امياً، فهل يمكن عرض كتاب كهذا أو علوم كهذه من قبل شخص لم يحضر حلقات الدرس.

والثانى: هو شهادة الأنبياء عليهم السلام السابقين على حقانية نبوته.

والثالث: إنسجام تعليماته مع أوامر العقل والوجدان (إذ يستحيل إيجاد مذهب ورساله لها مثل هذا الإنسجام مع حكم العقل والوجدان، والدعوة إلى الإحسان والنهى عن السيئات والتوجه نحو الفضائل وترك الرذائل فى محيط ملهى بالخرافات والجهل والجاهلية والفظاظة).

والدليل الرابع: بيان حرية الإنسان والسعى لإنقاذه من مخالب الأسر فظالما كبل الحكام الماديون الإنسان بالأغلال والقيود لتقوية مكانتهم، وأجازوا أنواع العذاب فى حقه، بل قد سلّبوا حرّيته باسم الحرية، ولم تكن هناك مدرسة تنادى بخلّاص الإنسان من ظلم الطواغيت وتحريره سوى مدرسة الأنبياء عليهم السلام.

والجدير بالذكر هو أن كلمة «إصر» على وزن (مِضْر) التى تعنى عقد الشىء وحبسه وقهره على حدّ قول الراغب فى مفرداته وقد فسرها البعض بالحبس المؤكّد أيضاً، ثم استعملت فى لوازم هذا المعنى «١» (مثل العهد والميثاق وثقل الذنوب والحبل الذى تربط به الخيام وأمثال ذلك) وجاءت هنا كناية عن أنواع القيود التى تُثقل كاهل الإنسان.

(١) مفردات الراغب؛ ومقاييس اللغة؛ والتحقيق فى كلمات القرآن الكريم.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٦

و «الأغلال» جمع «غل» وهى مشتقة فى الأصل من مادة «عَمَلٌ» المأخوذة من النفوذ التدريجى للأشياء كنفوذ الماء الجارى وسط الأشجار، ونظراً لكون «الغل» هى تلك الحلقة التى تحيط بالرقبة أو بها مع اليد والرجل مجتمعاً فقد سميت «غلاً» وأحياناً يطلق عليها «الجامعة» لنفس ذلك الغرض أيضاً.

وأكثر ما استعمل القرآن الكريم هذه المفردة للتعبير عن «طوق العنق» ولذا قالوا: هي الأغلال التي في أعناق الكفار. على أئمة حال، فقد وردت هنا كناية عن أغلال الأسر، والغريب إن الكثير من المفسرين قد اعتبر «الإصر» و «الأغلال» إشارة إلى التكاليف الشاقّة التي فرضها الله تعالى على اليهود، وإنّ نبي الإسلام صلى الله عليه وآله قد رفعها بشريعته السهلة السمحاء في حين أنّه لا يوجد أي دليل على هذا التقييد والتخصيص، إذ إنّ للآية مفهوم أوسع حيث شملت كافة أنواع الانتقال المعنويّة وقيود الأسر: قيود عبادة الأوثان والخرافات والعادات والتقاليد الخاطئة.

قيود الجهل والضياع.

قيود أنواع التفرقة والحياة الطبقية.

قيود القوانين الخاطئة.

وقيود الأسر والاستبداد في مخالف الطواغيت.

لقد أعاد نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسائر الأنبياء عليهم السلام الحرية الحقيقية إلى الإنسان وذلك برفعهم لهذه الأثقال وفكّهم لتلك القيود والأغلال عنه، فقد منحوه حرية التفكير والتعبير عن الرأي والتأمّل والتحرّر من عبودية أهواء النفس، التحرّر من قبضة الحكّام الظالمين والتحرّر من شباك الشياطين والطواغيت والتحرّر من سيطرة الخرافات والأوهام وعبادة غير الله تعالى. ومن المسلم أنّ عدم ارتياح الطواغيت لتحرّر الآخرين هو لرغبتهم في تسخيرهم لتحقيق أغراضهم الشخصية، ولا زالت - في عصرنا الحاضر الذي ينطلق فيه شعار حرية

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٧

الإنسان في أقصى نقاط المعمورة - تفرض على الإنسان تلك القيود والأغلال والأثقال المضنية التي تعود إلى العصر الجاهلي وبعناوين ومصطلحات جديدة، فالقوى العظمى تسعى دائماً وبصورة عنيفة للسيطرة على الشعوب واسترقاقها وتسخيرها مستخدمة كافة الوسائل العسكرية أو الإعلامية أو بنشر ألوان ونهب ثرواتها الفساد الأخلاقي، وقد بلغ ظهور هذا الأمر اليوم حدّاً يستحيل إنكاره بل لا يكاد يخلو منه التاريخ المعاصر في كافة أرجاء المعمورة، وهي تسعى للقضاء على شعارات الحرية الجميلة. أجل، فإنّ أحد الأهداف الرئيسية من بعثة الأنبياء عليهم السلام هو إنقاذ الإنسان وتخليصه من أسر وقيود عبودية المقيتة.

٥- النجاة من الظلمات

وذكر في الآية السادسة الهدف وراء البعثة ونزول القرآن المجيد وهو إخراج الناس من الظلمات إلى النور، يقول تعالى: «كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ». و «الظلمات» نظراً لورودها بصيغة الجمع فإنّها تمثل مفهوماً واسعاً وشاملاً لكل أنواع الظلمات: ظلمة الشرك والظلم والجهل وهوى النفس، وأنواع الحجب التي تسدل على قلب الإنسان وكذلك الظلمات التي تخيم على المجتمعات. فالهدف من نزول الكتب السماوية هو إنقاذ الإنسان من كلّ هذه الظلمات والأخذ بيده نحو نور التوحيد والتقوى والعدل والإنصاف والاخوة و ...

والملفت للنظر هنا مجيء «الظلمات» بصيغة الجمع و «النور» بصيغة المفرد، وذلك لأنّ طريق التوحيد والحقّ واحد لا يوجد طريق سواه، وهو ذلك الطريق المستقيم الذي يربط بين المبدأ والمعاد فهو يختلف عن طرق الضلال المتشعبة، فنور الإيمان والتقوى هو أساس الوحدة والاتحاد، أمّا ظلمات الشرك وأتباع الهوى والطغيان فهي السبب الأساس في الاختلاف والحيرة والضياع.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٨

وحضّر بعض المفسرين «الظلمات» ب «الشرك»، و «النور» ب «التوحيد» فقط لا- يستند إلى دليل، إذ ليس ما ذهبوا إليه إلّا أحد

المصاديق الواسعة للآية.

وبناءً على هذا فأحد أهداف البعثة هو نجاه الإنسان من الظلمات الفكرية والعقائدية والأخلاقية والعملية، وهدايته نحو النور والحياة الواقعية.

ويمكن أيضاً إيراد هذا الهدف في أهداف التربية والتعليم وإقامة العدل والحرية، أو العكس، ولكن نظراً لورود كل هدف على حدة في القرآن الكريم، فقد راعينا عرضها بصورة مستقلة أيضاً.

والنور والهداية لا يختصان بالقرآن الكريم فحسب بل قد ورد تعبير «النور» في حق النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أيضاً في الآية «وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا». (الأحزاب / ٤٦)

والتعبير بـ «الناس» بحسب ما ذهب إليه تفسير الميزان، هو لبيان أن الهدف من بعثة نبي الإسلام صلى الله عليه وآله هو لهداية عامة الناس (في كل زمان ومكان ما دامت السماوات والأرضون) والتعبير بـ «بإذن ربهم» هو لبيان أن هداية الأنبياء عليهم السلام هي في الواقع جزء من «ربوبية الباري جلّت قدرته» وفي مساره الذي يرتضيه هو، انسجام الربوبية في عالم التشريع مع ربوبيته في عالم التكوين.

٦- البشرى والإنذار

مع أن الترغيب بأنواع الهبات والمكافئات المادية والمعنوية الإلهية والترهيب والإنذار من العقاب الشديد النفسى والبدنى هما الطريق إلى التربية والتعليم، والعامل المساعد للخروج من الظلمات إلى النور، لكن نظراً لتركيز القرآن الكريم عليهما كثيراً يمكن اعتبارهما أحد أهداف بعثة الأنبياء عليهم السلام.

وفي الآية السابعة من آيات البحث تمت الإشارة إلى هذا الأمر إذ قال تعالى: «وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ».

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٩

هذه الآية ونظائرها التي تعتبر «بشارة» و «إنذاراً» هي بمثابة برنامج رئيسى للأنبياء عليهم السلام، وتعد أيضاً رداً على أولئك الذين يعتبرون الأنبياء عليهم السلام آلهة ويرجون منهم إظهار كل أنواع القدرة الإلهية، وعلى أولئك الذين انكروا دعوتهم وخالفوهم في مسيرتهم إذ يؤكد الله تعالى أن وظيفة الأنبياء عليهم السلام هي البشرى والإنذار فقط، أما باقى الامور فهي موكولة إليه تعالى وأن الهداية مرتبطة بالناس أنفسهم كما في الآية: «فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» «وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ» ففي الواقع يمكن حصر كل الدوافع الإنسانية في هاتين الجملتين المعروفتين: «جلب المنفعة» و «دفع الضرر»، (الأعم من المادية والمعنوية)، وقد ركزت «البشارة» و «الإنذار» عليهما، كما أنهما بمثابة الأساس الذى تعتمد عليه كل تربية إلهية وبشرية مادية ومعنوية.

البشارة لا تكفى لوحدها وكذلك الإنذار، بل لابد من حاكميتهما معاً على حياة الإنسان وفي كل مراحل التربية منذ نعومة أظفاره حتى الرمق الأخير، والذى يلتزم بإحدهما دون الأخرى سيفشل في برامجها، إذ كما أن التشويق يعدّ عاملاً محرّكاً، فكذلك التهديد يعدّ رادعاً قوياً بالنسبة للمعاندین.

٧- إتمام الحجّة

من الطبيعى إن فريقاً من الأنانيين والمتغترسين المعاندین الذين يرون دعوة الأنبياء عليهم السلام مخالفة لأغراضهم الشخصية يمتنعون عن قبولها ويقفون منها موقفاً سلبياً، ولو أن الله سبحانه وتعالى لم يبعث نبياً فمن الممكن أن يدعى هؤلاء ادعاءات وحجج واهية، من بينها، أن الله سبحانه وتعالى لو بعث نبياً لاستقبلناه بصدور رحبة ولآمنا برسالته وبما يقول، إلى غير ذلك من الادعاءات الكاذبة.

وعلى هذا الأساس فإن أحد أهداف بعثة الأنبياء هو إلقاء الحجّة على هذه المجموعة على كافة المعاندین، وأن إلقاء الحجّة هذا، يمثل

أولاً: العدل الإلهي بالشكل الواضح والدقيق.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٠

وثانياً: يقطع على أهل الكذب الطريق ويحول دون تقديمهم الحجج والادعاءات الجوفاء، أو بتعبير علمي أدق فإن مسألة استحقاق الجزاء بالنسبة لهذه المجموعة تخرج من إطار «الاستعداد والقوة» إلى حيز «الفعلية».

ولذا قال تعالى: «رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ»، كما ورد نظير هذا المعنى في آيتين أخريين يتحد مضمونهما في قوله تعالى:

«وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَتَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ». (القصص / ٤٧)

وورد قريب من هذا المعنى في قوله تعالى: «وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَتَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ». (القصص / ٤٧)

٨- رفع الاختلاف

المجتمعات البشرية كانت ولا تزال تعاني الأمرين من الاختلاف وتحترق بناه، وتضيق المزيد من القدرات والإمكانات الهائلة بسببه، تلك الإمكانيات التي لو وضعت في مكانها المناسب لغدت الدنيا جنة الفردوس.

ومن جهة أخرى فإنه من المسلم أن الناس لا يستطيعون تسوية الاختلافات التي تقع بينهم، وذلك بسبب قصور ومحدودية علمهم بكل جوانب الحياة، بالإضافة إلى الأنانية والتكبر الذي يمنعهم من الازعان والركون إلى بعضهم البعض.

أما الأنبياء عليهم السلام الذين ينبع علمهم من بحر علم الله تعالى اللامتناهي والذي لا يقارن بمستوى علم البشر، فإنهم يتمكنون من أداء دور فعال في حل تلك الاختلافات وإزالتها.

صحيح أن عالم الماديات هو عالم الحجب، إذ لا يمكن رفع الاختلافات كلياً بين الناس بأي طريقته، ولكنه من المؤكد إمكان إزالتها نسبياً في ظل تعاليم الأنبياء عليهم السلام.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢١

ولذا أشارت الآية التاسعة من البحث إلى هذا الهدف، قال تعالى: «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ».

و «الأمية»: في الأصل على ما ذهب إليه الراغب في مفرداته تطلق على كل جماعة يجمعهم أمر ما، إما أن يكون دين واحد أو زمان واحد أو مكان واحد، سواء كان ذلك الأمر الجامع قسرياً أو اختيارياً، وجمعها امم.

لكن هذه اللفظة وردت بمعنى العقيدة أيضاً: «بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ» * وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَوْمٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُقْتَدُونَ». (الزخرف / ٢٢-٢٣)

وأحياناً جاءت بمعنى نفس الزمان قوله تعالى «وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ». (يوسف / ٤٥) وكذلك قوله تعالى «وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا

بِهِ يَسْتَهْزِؤْنَ». (هود / ٨)

وفي الآية مورد البحث يبدو أن «الأمية» جاءت بمعنى الجماعة الواحدة.

لكن ما هي هذه الأمية الواحدة التي عاشت في بداية الخلق يا ترى؟ وما هي عقيدتها؟ يوجد بين المفسرين حديث طويل وعريض حول هذا الموضوع، ولهم احتمالات عديدة في تفسير لفظ «الأمية» ومصيرها، وأهمها ثلاثة احتمالات:

الأول: أنها كانت أمية مهتدية، وكانت هدايتها نابعة من الفطرة الإلهية المودعة لديها، ثم اختلفت ذلك الاختلاف الناشئ من علمها

المحدود، وذلك لعجز أحكام الفطرة والمستقلات العقلية عن الأخذ بزمام الامور لوحدها، ومن هنا بعث الله تعالى الأنبياء عليهم السلام إلى البشرية لتخليصها من مشكلة الاختلافات الناشئة من الجهل ومحدودية معرفتها.

فبعث الله الأنبياء عليهم السلام ووضعوا حدًا لهذه الاختلافات وبيّنوا الحقائق، لكنّه ظهر بعد ذلك اختلاف آخر نشأ من البخل والظلم والفساد، وهنا أيضاً شملت الألفاظ الإلهية

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٢

المؤمنين المخلصين، فسلكوا الطريق إلى الحق مهتدين بنور إيمانهم وتقواهم إلى أن بلغوا الصراط المستقيم، بينما بقى الآخرون غارقين في ظلمات الاختلاف.

وطبقاً لهذا التفسير، فالأمة الواحدة التي ظهرت أولاً كانت على الحق، لكنّ محدودية إدراك العقل البشرى كانت سبباً في الاختلافات، ثم أعلن الأنبياء عليهم السلام عن خاتمة هذه الاختلافات عن طريق الوحي المعصوم من الخطأ، لكنّ هوى النفس والميول والتكبر والعجب كان السبب وراء بروز اختلافات جديدة، ولم ينج من هذه الاختلافات سوى المؤمنين الصالحين.

والدليل على هذا التفسير هو مضمون الآية التي تذكر نوعين من الاختلاف في الامّة، الاختلاف الذي كان السبب في بعثه الأنبياء عليهم السلام وذلك لرفعه، والاختلاف الذي ظهر بعد نزول الكتب السماوية والبيّنات، أمّا إصرار بعض المفسرين على كون هذه الامّة الواحدة ضالّة منحرفة بمجموعها منذ البداية، لا ينسجم مع لحن الآية وفطرة الإنسان التوحيدية التي يصرح بها القرآن (خصوصاً تلك الفطرة الملموسة عند الناس السذج في أول الخلق الذين لم تكن الميول والرغبات النفسانية قد هيمنت عليهم بشكل خطير بعد).

أمّا فيما يتعلّق بالعصر الذي استوعب المجتمع البشرى الأول الذي عبّر عنه القرآن ب «الامة الواحدة»، فقد ذهب البعض إلى أنّه إشارة إلى الفترة ما قبل بعثه نوح عليه السلام وبعد هبوط آدم عليه السلام وبناءً على هذا ف «الامة الواحدة» هي نفس تلك الامّة التي ظهرت منذ زمن تناسل ذريّة آدم عليه السلام، والتي كان الإيمان والتوحيد حاكمين عليها إلى أن اتّسعت فيها آثار الشرك يوماً بعد آخر، بسبب الجهل وقلة المعرفة، ممّا هيأ الأرضية المناسبة لرسالة نوح عليه السلام.

ومن الطبيعي أنّ استثناءً من قبيل وجود «قاييل» بين أولاد آدم عليه السلام لا يحول دون إطلاق كلمة «الامة الواحدة» على مجموعة أولاده، وهناك احتمالات اخرى حول هذا الموضوع لا تفي بالغرض بحسب الظاهر.

على أيّة حال يستفاد من مجموع ما جاء حول تفسير الآية أعلاه أنّ أحد أهداف بعثه الأنبياء عليهم السلام هو رفع الاختلافات الناشئة من جهل الناس، ولا يخفى أيضاً أنّ الاختلافات

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٣

الناشئة من هوى النفس والعجب والتكبر ستبقى ما بقى الإنسان بالرغم من أنّ الأنبياء عليهم السلام قد خفصوا من نسبتها بتعليماتهم القيمة.

٩- التذكير (بالنسبة للبدنيات والمستقلات العقلية)

تمت الإشارة في نفس هذه الآية إلى أنّ أحكام الأنبياء عليهم السلام وتعليماتهم تؤيد أحكام العقل وتدعمها، وهذه بنفسها أحد أهداف بعثتهم.

وتوضيح ذلك: إنّ الإنسان يدرك الكثير من «حقائق» الكون وكذلك «ما ينبغي» و «ما لا ينبغي» بواسطة عقله، لكنّ هناك وساوس مزمنة كامنة في هذه الإدراكات العقلية، خصوصاً إشكالات السوفسطائيين أو الطوائف المنكرة للحسن والقبح العقليين وأمثالها التي تؤدّي إلى إضعاف العقل وبالتالي النظر إلى هذه الإدراكات والمستقلات العقلية نظرة سلبية.

وهنا يستوجب اللطف الإلهي إرسال الأنبياء عليهم السلام ليؤكّدوا ضمن دعوتهم إلى الله تعالى صحّة الإدراكات العقلية وعلى أنّ

الفتن الواقعية إنما هي من فعل العقل البشري، وذلك من خلال بياناتهم الصادرة من الوحي السماوي، ويقطعوا الطريق أمام الوسوس التي تعترض هذه الإدراكات.

هذا هو الذي عبر عنه القرآن بـ «التذكّر»، يقول تعالى في الآية مورد البحث: «هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ» والتعبير بـ «الذكر» كثير جداً في القرآن، ومجموع ما ذكر إثنان وخمسون مرة في مختلف الآيات والتي تشير أغلبها إلى القرآن الكريم.

أما التعبير بـ «ذكر» (مخاطبة النبي بصيغة الأمر) فقد جاء في ستة موارد، وتعبير «يتذكّر» في ثمانية موارد، و «تذكرون» في سبعة عشر مورداً، و «يتذكرون» في سبعة موارد، وما أكثر مشتقات هذه المادة في القرآن الكريم والتي تبين بمجموعها أن قسماً عظيماً من تعليمات الأنبياء عليهم السلام لها صبغة تذكيرية وإعادة المنسيات إلى الأذهان على أقل تقدير.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٤

يستفاد من كلمات بعض أرباب اللغة أن «الذكر» لا- يعنى العلم والمعرفة، بل يعنى «إعادة الإطلاع على الشيء»، يقول الراغب في مفرداته بعد مقارنته بين «الذكر» و «الحفظ»: «التفاوت بينهما هو أن الحفظ يقال اعتباراً بالإحراز، والذكر يقال اعتباراً بالإستحضار»، ثم يضيف قائلاً: الذكر ضربان: ذكر عن نسيان وذكر لا عن نسيان بل عن إدامه الحفظ.

وهذا التعبير يبين أن الذكر هو في كل الأحوال نوع من الإلتفات المستأنف للشيء الذي كان ساكناً في الذهن سابقاً، سواء كان بعد النسيان أم لا، وقد ورد «الذكر» بمعنيين أيضاً في «مقاييس اللغة»: الأول إشارة إلى الجنس المذكّر في قبال الجنس المؤنث، والثاني ما يقابل النسيان.

إن هذه التعبيرات القرآنية يمكنها أن تكون إشارة إلى ما ذكر أعلاه، وهو أن الإنسان يدرك سلسلة من الحقائق عن طريق العقل، كما ويحصل على القسم الأعظم من (ما ينبغي) و (ما لا ينبغي) الذي يعدّ من المستقلات العقلية كحسن أنواع الإحسان وقبح أنواع الظلم والفساد، لكنّ الشكّ والترديد يراود هذه البديهيات أحياناً بسبب وسوس الشياطين.

وهنا يأتي دور الأنبياء عليهم السلام لمساعدة الناس وتأييد هذه الإدراكات العقلية، إذ يطلون مفعول هذه الوسوس، أو بعبارة أخرى يعيدون هذه الامور إلى الأذهان.

بعض الفلاسفة كأفلاطون وأتباعه يعتبرون العلوم الإنسانية ضرباً من الذكريات، ويعتقدون بأنّ الروح الإنسانية قبل نزولها إلى هذا العالم كانت تدرك كلّ هذه الحقائق ولكن حجب عالم المادة تسببت في نسيانها «١» وبناءً على هذا فالتعلم والتعليم سواء أكان عن طريق الأنبياء والرسل عليهم السلام أم عن طريق التجربة وشرح الاستاذ لا تخرج عن كونها ضرباً من التذكّر والتذكير ليس إلّا.

ومن البديهي عدم وجود دليل واضح يدعم هذا الإدعاء بهذه السعة، بل الصحيح هو ما تقدّم أعلاه من أن قسماً من معلومات الإنسان تحصل عن طريق الفطرة أو العقل، وأحياناً

(١) لمزيد من الإطلاع راجع «سير حكمت در اروپا» ج ١ ص ٢٣، مبحث فلسفة أفلاطون (بالفارسية).

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٥

تودع في زاوية النسيان والإهمال، أو تجد الوسوس طريقها إليها، فمهمة الأنبياء عليهم السلام حينئذ بالإضافة إلى تعليم الناس مسائل جديدة، من شأنها تقوية بنية مثل هذه الأحكام الواقعية و تنقيتها من الوسوس التي تخالطها.

كما يستفاد من الآية الآنفه الذكر أن دور الأنبياء عليهم السلام يكمن في أربعة أمور، الأول: إبلاغ الدعوة الإلهية للبشرية جمعاء، والثاني: إتمام الحجّة، والثالث: الإنذار (والتبشير)، وأخيراً التعليم والتذكير وقد تمت الإشارة إليها في الآيات السابقة أيضاً.

لقد أشارت الآية الحادية عشرة من آيات بحثنا هذا إلى نقطة اتفقت عليها الاهداف التي سبقت الاشارة إليها من بعثة الأنبياء، وهي أن الأنبياء عليهم السلام دعوا أفراد البشر لكي يحيون حياة طيبة حقيقية وشاملة لكل متطلبات العيش. قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ».

وهذا التعبير هو أقصر وفي نفس الوقت أشمل تعبير ورد بحق دعوة نبي الإسلام صلى الله عليه وآله (ودعوة كافة الأنبياء عليهم السلام) والذي يؤكد على أن هدف البعثة هو الحياة في كافة أبعادها: المادية والمعنوية والثقافية والاقتصادية والسياسية والأخلاقية والاجتماعية.

مع أن الحياة في آيات القرآن قد وردت بمعنى الحياة النباتية في قوله تعالى «اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ». (الحديد / ١٧)

وأحياناً الحياة الحيوانية في قوله تعالى «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْتَكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لُمُحْيِ الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ». (فصلت / ٣٩)

لكنها وردت هنا بمعنى الحياة الإنسانية، قال تعالى (في بعض المؤمنين الذين آمنوا):

«أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ...». (الأنعام / ١٢٢)

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٦

وبناءً على هذا فلو رأينا البعض يعتبر الآية المعنية ناظرة إلى «الجهاد» لوحده باعتباره العامل الاساسى فى حياة الامم، أو «الإيمان بالله» أو العلم والمعرفة أو الحياة الاخروية، فهم فى الواقع إنما يحددونها فى بعض مصاديقها فحسب، وإلا فمفهومها أوسع وأشمل من هذه كلها.

والملفت للنظر أن الحياة فى هذه الآية قد فسرت فى الروايات «١» بمعنى ولاية على بن أبى طالب عليه السلام، وهى فى الحقيقة أحد مصاديقها الهامة وذلك لأن ولايته عليه السلام هى السبب للدعوة إلى الإسلام فى كافة المجالات، فولايته دعوة إلى العلم والزهد والتقوى والإيثار والإخلاص.

نمرة البحث:

بالإمكان إدغام واختصار الأهداف العشرة من بعثة الأنبياء والمذكورة سابقاً فى ستة أهداف، وهى: «التعليم، تهذيب النفوس، إقامة القسط والعدل، الحرية، إقامة الحجج ورفع الاختلافات»، ولكن بالنظر لأهمية الموضوع فإن القرآن الكريم تناول كل واحدة منها على حدة، ونتيجة لذلك فإنه يبدو واضحاً أنه لولا الأنبياء واديانهم السماوية والتعاليم المقدسة التى جاءوا بها، ومنذ اليوم الأول لنشأة المجتمع الانسانى، فأى مصير مظلوم سوف ينتظر الانسانية؟

وفى عصرنا الحاضر، أى عالم رهيب ومخوف سوف يصبح فيه عالم اليوم لو تنكر الانسان لتعاليم الأنبياء والتزم بالقيم الجوفاء البعيدة عن الرحمة والنورانية وجعلها بديلاً للقيم الإلهية التى جاء بها الأنبياء فى دعواتهم وتعاليمهم، وكما هو متعارف اليوم فى بعض دول العالم!؟

كما يمكن الإستنتاج من الشرح أعلاه أن الدين والمذهب على خلاف ما يراه الكثير من

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ١٤١، ح ٥٠ و ٥٢.

نفحات القرآن، ج٧، ص: ٢٧

البسطاء وذوى النظر الضيق، أنه لم يعد مسألة شخصية خاصة، بل حقيقة لها وجودها ودورها الفاعل فى كافة أبعاد حياة الإنسان، وأنها تضيف على كافة شؤون الحياة صبغة إلهية وإنسانية.

إنّ الشعار الذى ترفعه اليوم كلّ القوى العظمى فى العالم أى الدول التى يصطلح عليها بالمتطورة، هو الحفاظ على منافعها الخاصية، فكل خطوة تخطوها تعلن بكلّ صراحة أنها إنّما تخطوها لأجل المنافع المادية للدولة، وليس من الغريب أن يكون عالم كهذا بؤرة للأزمات ومركزاً للصراعات وأنواع الظلم والإعتداء، ونقض العهود والإستعمار واستغلال المستضعفين، وذلك لأنّ هدفهم الرئيسى هو حفظ المصالح الشخصية والوطنية لا حفظ المثل والقيم كالعادلة الاجتماعية وإقامة القسط والحرية والأخلاق الإنسانية، إذ إنّ مثل هذه القيم لا توجد إلاّ بمعيتها دعوة الأنبياء عليهم السلام ولا غير.

توضيحات

١- فلسفة بعثة الأنبياء والرسل فى الروايات الإسلامية

ما تقدّم فى الآيات المذكورة حول اهداف بعثة الأنبياء عليهم السلام وعللها، قد تمّ ذكره فى الروايات الإسلامية أيضاً وتعبير اخرى لا تخلو بنفسها من فائدة قصوى، وكنموذج على ذلك يمكن التأمل فى البعض من الروايات أدناه والتى تنظر كلّ واحدة منها إلى هدف واحد أو أكثر:

١- ورد فى الحديث: عندما أعلن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله عن دعوته، جاء أشرف قريش إلى أبى طالب وقالوا له: ياأبا طالب، إنّ ابن أخيك يتهمنا بالسفّه ويطعن فى آلهتنا ويفسد شبابنا ويحدث التفرقة بيننا لو كان يبغي مالاً لجعلناه أغنى رجال قريش أو جاهاً لأمرناه علينا! فذهب أبو طالب إلى النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وأخبره بذلك، فقال صلى الله عليه و آله: «لو وضعوا الشمس فى يمينى، والقمر فى يسارى ما أردته، ولكن كلمة يعطونها يملكون بها العرب

نفحات القرآن، ج٧، ص: ٢٨

وتدين بها العجم ويكونون ملوكاً فى الجنة.

فقال لهم أبو طالب ذلك، فقالوا: نعم، وعشر كلمات، فقال لهم رسول الله: تشهدون أن لا إله إلاّ الله وأنّى رسول الله» «١».

هذا الحديث يكشف بكلّ وضوح أنّ قبول دعوة الأنبياء عليهم السلام يعدّ فى الحقيقة نصراً فى الدارين وعزاً وحرية وحياة راضية مرضية.

٢- وفى حديث آخر عن هشام بن الحكم عن الإمام الصادق عليه السلام روى أنّه عليه السلام وفى معرض الردّ على سؤال أحد الكفار والزنادقة حول الغرض من بعثة الأنبياء عليهم السلام قال: «إنّا لَمّا أثبتنا أنّ لنا خالقاً صانعاً متعالياً عنّا وعن جميع ما خلق، وكان ذلك الصانع حكيماً متعالياً لم يجز أن يشاهده خلقه، ولا- يلامسوه، فيباشروهم ويباشروه، ويحاجهم ويحاجوه ثبت أنّ له سفراء فى خلقه يعبرون عنه إلى خلقه وعباده ويدلّونهم على مصالحهم ومنافعهم وما به بقاؤهم وفى تركه فناؤهم» «٢».

٣- ورد فى نهج البلاغة بيان جذّاب لأميرالمؤمنين عليه السلام حول فلسفة بعثة الأنبياء عليهم السلام حيث يقول: «فبعث فيهم رسله، وواتر إليهم أنبياءه، ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكروهم منسى نعمته ويحتجوا عليهم بالتبليغ، ويشيروا لهم دفائن العقول» «٣».

٤- وفى حديث آخر جاء عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «إنّما بعثت لأتمم صالح الأخلاق» «٤»، وقريب من هذا المعنى ورد فى حديث آخر عنه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» «٥».

٥- جاء عن الإمام علي عليه السلام في كتاب فروع الكافي أنه خطب ذات مرّة فقال فيما قال: «أما بعد فإنّ الله تبارك وتعالى بعث محمّداً صلى الله عليه و آله بالحقّ ليخرج عباده من عبادة عباده

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٤٤٢، ح ٧؛ وفي ترجمه علي بن إبراهيم ج ٢ ص ٢٢٨.

(٢) اصول الكافي، ج ١ ص ١٦٨، كتاب الحجّة باب الاضطرار إلى حجّة، ح ١.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة ١.

(٤) طبقات ابن سعد، ج ١، ص ١٩٢ (ط. بيروت).

(٥) كنز العمال، ج ١١، ص ٤٢٠، ح ٣١٩٦٩.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٩

إلى عبادته ومن عهود عباده إلى عهوده، ومن طاعة عباده إلى طاعته، ومن ولاية عباده إلى ولايته، بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً» (١).

٢- الغاية من إرسال الرسل في التصور العقلي

أ) عجز الإنسان عن التقين الدقيق

هناك علاقة وثيقة وواضحة جداً بين بعثة الأنبياء عليهم السلام والهدف من خلق الإنسان، ولا يمكن لأحد الجمع بين الإيمان بالله وبين إنكار حكمته في كلّ الكون، خصوصاً خلقه الإنسان، بناءً على هذا فلا بدّ من وجود هدف وراء خلق الإنسان، وليس هذا الهدف سوى تربية مخلوق كامل يشعّ منه نور من صفات جمال الحقّ وجلاله، ويليق بنيل القرب الإلهي.

ومن البديهي أنّ تربية موجود كهذا بدون تخطيط دقيق ومسبق في كافّة أبعاد الحياة غير ممكن، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فهذه البرامج ليست بتلك السهولة التي يمكن للإنسان الإحاطة بجميع أبعادها مستعيناً بعقله الناقص ولعدم تمكّن الجميع من التعامل مع الوحي الإلهي بصورة مباشرة.

ويُفهم من هذه المقدمات التي اشير إلى كلّ منها بصورة مختصرة، بدهاء أن يختار الله تعالى نواباً من قبله ليحملوا مشعل الهداية الإلهية إلى المجتمع البشري ليخرجوه من الظلمات إلى النور، ومن النقص إلى الكمال، ومن الجهل إلى العلم، ومن الانحراف إلى التقوى ومكارم الأخلاق، ولا يخفى أنّ عدم تحقّق بعثة الأنبياء يؤدّي إلى عبثية خلق الإنسان وانتفاء الغاية والهدف.

وحيث إنّ الإنسان مدني بالطبع يستأنس بالحياة الاجتماعية، فقد أودع الله تعالى حبّ مثل هذه الحياة في باطنه ليقوده عن طريقها نحو الهدف الأسمى، إذ إنّ محدودية القوّة البدنية والفكرية للإنسان المتزوي لا يمكن إنكارها، فلو عاش لوحده بعيداً عن أفراد نوعه لما وجدت هناك حضارة ولا اختراع واكتشاف ولا علوم ومعارف، إذ إنّ اجتماع

(١) فروع الكافي، ج ٨، ص ٣٨٦، ح ٥٨٦.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٣٠

وتلاقح عقول وأفكار وتجارب بني الإنسان هي السبب وراء ظهور قوّة عظيمة وتوفير الأرضية المناسبة للحركة التكاملية في تمام الجوانب المادية والمعنوية وبسرعة خاطفة.

فلو عاش الإنسان على انفراد لبقى لحدّ الآن في العصر الحجري، ولما تعلّم القراءة والكتابة على أكبر الظنّ، فضلاً عن كلّ هذه العلوم

والإختراعات والاكتشافات، وخلاصة القول هي أن أكبر إنجازين للإنسان هما حرية التفكير، والتمتع بالإبتكار والابداع والاختراع، فضلاً عن الرغبة في حياة اجتماعية في المرحلة المتقدمة.

لكن من الواضح جداً أن الحياة الجماعية مع كل ما تحمله من بركات هي السبب من جهة أخرى وراء خلق المشاكل والمصادمات والازمات وتعارض الأهواء الشخصية، وإن طي المسير التكاملية إنما تستنى لذلك المجتمع الذي تشخص فيه واجبات كل فرد وحقوقه، ومن هنا تظهر الحاجة إلى سن القوانين الاجتماعية وتنظيم حقوق أفراد المجتمع، فالقانون هو الذي يعين واجبات كل فرد بالضبط كما يعين حقوقه، وأخيراً يقدم خطة القضاء على المشاكل وحل الخصومات ويبين كيفية مواجهتها والتخلفات والانحرافات. وبناءً على هذا فالحياة الجماعية بدون القانون السليم والنظام الصحيح هي أسوأ من الحياة الفردية بعدة مراتب، وذلك لزوال منافع المجتمع وبسبب التناقضات.

ولب الكلام يكمن في السؤال عن الطرف الذي يسن هذه القوانين، فهل هو الإنسان أم الخالق؟

ويمكن الإجابة عن هذا السؤال بتحليل مختصر: وهو أن المقنن الكامل يجب أن يتمتع بالشروط أدناه ليتمكن من سن أفضل قانون:

١- يجب قبل كل شيء أن يكون المقنن خبيراً بالإنسان عالماً بكل أسرار جسمه ونفسه وعواطفه وغرائزه وميوله وأهوائه وأمانيه وفطرته وإدراكاته العقلية، وكذلك محيطاً بكل الاصول الحاكمة على الروابط التي تجمع الناس مع بعضهم البعض ليتمكن على ضوئها من وضع قوانين تنسجم معها.

٢- يجب أن يكون له علم تام بالماضي والمستقبل البعيدين، ليقف على جذور مسائل

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٣١

اليوم المعقدة من خلال الماضي، ويتمكن من تقييم آثار قوانين اليوم على مستقبل الحياة البشرية، نظراً لاستحالة إمكانية حل مشاكل اليوم مع الجهل بجذورها الماضية، كما هو الحال تماماً في استحالة فائدة قوانين اليوم مع عدم الأخذ بنظر الإعتبار مضاعفاتها في الغد (تأمل جيداً).

٣- المقنن المناسب يجب أن يتمتع ب «علم كامل» ليتمكن عن طريق قوانينه من إخراج كل القابليات والإمكانات والاستعدادات الكامنة في داخل أفراد المجتمع إلى حيز الوجود، ويضيف الفعلية على ما هو كامن في طبيعة الإنسان بالإمكان والقوة، ويغذي المجتمع بأكبر قدر ممكن من الإنجازات وبأقل ثمن يكلف طبيعة الحياة الجماعية.

٤- يجب أن تكون القوانين ذات جنبه واقعية لا خيالية، وتمتع بضمان تنفيذها بشكل وافٍ من قبل مؤيديها، وبعيدة عن التعقيد ليسهل على الجميع إدراكها.

٥- المقنن الحقيقي هو الذي لا يرتكب ذنباً وخطأً وسهواً، فضلاً عن ضرورة كونه رحيماً بأولئك الذين تُسن لهم القوانين، وحازماً قوى الإرادة وشجاعاً في نفس الوقت.

٦- المقنن اللائق من ليست له مصلحة شخصية في ذلك المجتمع، لأنها إنما تشغل فكر المقنن وتجلبه نحوها، إذ إنه لو تمكن على سبيل المثال من اجتناب آثارها الظاهرة للعيان لعجز عن الوقوف على آثارها المخفية بالتأكيد، وإن أكبر معضلة لعالم اليوم، والتي تسببت في خلق المواجهات والمشاحنات الدامية هي هذه القوانين التي تسن من قبل ما يصطلح عليهم بمفكرى كل مجتمع على حده، إذ كل واحد منهم لا يأخذ بنظر الاعتبار سوى منفعه الشخصية أو منافع أتباعه ووطنه، وبديهي أن مثل هذا التكبر والأنانية وضيق النظر لا يحمل معه سوى زيادة في حدة الصراعات والمواجهات.

وهل تتوفر ياترى هذه الحيشيات الست المتقدمة في غير ذات الباري جلّت قدرته؟

الذي لا نهاية لعلمه بالماضي والمستقبل المحيط بجذور وأسرار كل شيء وكل موضوع ونتائجه والذي لا يجد الخطأ والسهو والإشتباه طريقاً إلى ذاته المقدسة.

وأخيراً هو الذى لا يحتاج لشيء ولا لأحد لضمان منفعه.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٣٢

ومن هنا نستدل على نقص وعدم جدوى كل قانون غير قانون الله تعالى، بل كل حكم دون حكمه تعالى زائل لا محالة ولا يمكن الاعتماد عليه، وحينما ندقق النظر القويم نجد أن كل مشاكل الإنسان ومعضلاته نابعة من رغبته فى سنّ قانون لنفسه اعتماداً على علمه المحدود، وبدوافع هوى النفس! وهذا هو أحد الأدلة العقلية على لزوم بعثة الأنبياء عليهم السلام.

(ب) التنسيق بين التكوين والتشريع

يمكن توضيح مسألة ضرورة بعثة الأنبياء عليهم السلام عن طريق منطق وبيان آخر وهو أن إلقاء نظرة واحدة على عالم الخلقه كافية لإدراك حقيقته أن خالق الكون ومن أجل إيصال كل موجود إلى كماله النسبي، قد وضع تحت تصرفه كل ما يحتاجه وأزال عن طريقه كل الموانع، ولم يقتصر على اللوازم الضرورية لطفى هذا الطريق، وإنما منحه ما يحتمل كونه عاملاً مساعداً لبلوغ هذا الهدف وإن لم يكن ضرورياً، فالطائر الذى خلق ليظهر مثلاً، نراه يتمتع بهيكل يسهل عليه طيرانه من كافة الجهات فضلاً عن أجنحته القوية التى تكسبه قدرة عظيمة على التحليق عالياً.

وعندما منح الإنسان عينين لمشاهدة المناظر المختلفة، فلم يكتف بالأعضاء الضرورية التى تستحيل الرؤية بدونها، بل وضع تحت اختياره الكثير من الأعضاء التكميلية إذ زود العين ب «الأهداب» للحؤول دون دخول ذرات الغبار، ووضع فى سقف الأجفان «غدداً دهنية» لتبقى رطبة دائماً وجهاز العيون ب «غدد دمعية» لبقى سطح العين رطباً دائماً لئلا تحدث حركة الأجفان أدنى جرح فيها، وأوجد «الحاجبين» كالمسد فوق العينين لإكمال عملهما ولكى تمنع نزول العرق من الجبين عليهما، وزود كرة العين ب «عضلات» تمكّنها من الحركة إلى الجهات الست بحرية.

كما أن بالإمكان الوقوف على الكثير من هذه النماذج فى عالم الخليفة كله.

وهنا يرد هذا السؤال وهو أنه هل يمكن للخالق الذى وضع كل هذه الوسائل المتطورة

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٣٣

تحت تصرف الموجودات فى عالم التكوين (الخلق) أن يغض النظر عن إرسال الأنبياء عليهم السلام والدور المهم لهذه البعثة فى طريق تكامل النوع البشرى وتحقيق الهدف من حياته فى كافة أبعادها المادية والمعنوية كما تقدّم ويحرم المجتمع الإنسانى من هذه الموهبة العظيمة؟!!

أشار الشيخ الرئيس ابن سينا فى كتاب «الشفاء» إلى هذه الحقيقة بعبارة مختصرة وتمثيل رائع حيث قال:

«فحاجة الإنسان إلى هذا «بعث الرُّسل» فى أن يبقى نوع الإنسان ويتحصّل وجوده، أشدّ من الحاجة إلى انبات الشعر على الحاجبين وتقدير الأخمس من القدمين وأشياء اخرى من المنافع التى لا ضرورة فيها فى البقاء... فلا يجوز أن تكون العناية الأزلية تقتضى تلك المنافع ولا تقتضى هذه التى هى أسها» (١).

وقد بين هشام بن الحكم التلميذ المعروف للإمام الصادق عليه السلام هذا الاستدلال بشكل آخر ل «عمرو بن عبيد» العالم السنّى المعروف وقد سبق ابن سينا بذلك، ومن جملة ما ذكر فى هذه المحاوره: «.. قلت:- لا بدّ من القلب وإلّا لم تستيقن الجوارح؟ قال: نعم. فقلت له:

ياأبا مروان فالله تبارك وتعالى لم يترك جوارحك حتى جعل لها إماماً يصحّح لها الصحيح ويتيقن به ما شكّ فيه، ويترك هذا الخلق كلّهم فى حيرتهم وشكهم واختلافهم، لا- يقيم لهم إماماً يردّون إليه شكهم وحيرتهم ويقيم لك إماماً لجوارحك تردّ إليه حيرتك وشكك؟! قال: فسكت ولم يقل لى شيئاً» (٢).

ج) التربية العلمية

الطريق الثالث الذي يمكننا أن نستفيد منه للحصول على تحليل منطقي لمسألة علمية إرسال الرسل، هو أن تربية الإنسان لها بعد علمي قبل أن يكون لها بعد وجانب عملي.

(١) الشفاء، الإلهيات، المقال ١٠، الفصل ٢، ص ٤٤١.

(٢) اصول الكافي، ج ١، ص ١٦٩، كتاب الحجّة، باب الإضطرار إلى الحجّة، ح ٣.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٣٤

والشرط في موقفية المربي في مهمته أن يتمكن من الظهور كقدوة متكاملة في تطبيق تعليماته من الناحية العملية فضلاً عن التربية اللازمة، وأن يعكس كل المسائل التربوية من خلال صفاته وأخلاقه وتصرفاته، ولا يمكن هذا إلا أن ينتخب الأنبياء عليهم السلام من جنس البشر كقدوة حسنة، فيعكسوا صفات الإنسان الكامل وسلوكه من الناحية العملية ليقتدى بهم الناس، ويسيروا على خطاهم فيقطعوا هذا الطريق المليء بالعثرات والعقبات بقيادتهم.

وبعبارة أخرى: هناك في وجود الإنسان شيء اسمه روحية «المحاكاة» أي أنه ينجذب بصورة لا إرادية نحو ما يراه في أفراد جنسه، وهذا الإحساس طبعاً لا يبلغ مرتبة الدافع القهري بل هو بمثابة الأرضية المناسبة لحركة إراديه كما هو الحال في الظم فإنه لا يجبر الإنسان العطشان على شرب الماء لكنه يعد بمثابة الأرضية لذلك.

حينما يأتي الأنبياء عليهم السلام أو الأئمة المعصومون عليهم السلام الذين هم من جنس البشر بالتعليمات الإلهية الجامعة إلى من يماثلهم ويطبّقون هذه التعليمات عملياً ويعكسون الفضائل الإنسانية بالتقوى والصدق يحصل باقي البشر على أرضية مناسبة لاكتساب مثل هذه الصفات.

ولذا فالقرآن الكريم يصرح بضرورة كون النبي الأكرم صلى الله عليه وآله من جنس البشر، كما أنه لو كان هنالك ملائكة يعيشون في الأرض لوجب ظهور أنبياء من جنسهم، وذلك رداً على أولئك الذين يصرون قائلين لماذا لم يكن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله من جنس الملائكة أو لماذا لم يصطحبه ملك على أقل تقدير؟ يقول تعالى: «وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا» قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمَشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا. (الإسراء/ ٩٤-٩٥)

يبدو أن التعبير بـ «ملائكة يمشون مطمئنين» لبيان هذه المسألة وهي أنه حتى لو كان هناك ملائكة يعيشون في الأرض متسالمين لبعثنا إليهم ملكاً من جنسهم كقائد يقودهم بالرغم من انعدام الخصومات فيما بينهم، نظراً إلى أن مهمة الأنبياء عليهم السلام لا تنحصر في إنهاء حالة التخاصم وإقامة القسط والعدالة الاجتماعية، بل تعد كل هذه مقدمة لطى طريق

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٣٥

الكلمات المعنوية للتقرب إلى الله تعالى.

على أية حال فقد ورد ما يشبه هذا المعنى في لباس آخر كإجابة على تذرع المشركين، حيث قال تعالى: «وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَشْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ».

(الأنعام/ ٩)

كما أن هناك ملاحظة جديرة بالاعتبار، وهي أن القرآن يؤكد على كون نبي الإسلام صلى الله عليه وآله أو سائر الأنبياء عليهم السلام قدوة ومثالاً يقتدى به ويوصى الناس بضرورة الاقتداء بهم في برامجهم العملية، يقول تعالى: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ». (الأحزاب/ ٢١)

ويقول في موضع آخر: «قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ». (الممتحنة / ٤)
كما تكرر نفس هذا المعنى في الآية السادسة من نفس هذه السورة.
على أية حال فمسألة التربية والتعليم عن طريق الاقتداء بالقادة الإلهيين مؤيدة بالتحليل المنطقي والآيات القرآنية أيضاً.

٣- أسلوب المخالفين

في قبال الأدلة الكثيرة على لزوم إرسال الأنبياء عليهم السلام المتقدمه، والتي نالت قبول الأكثرية القاطعة من العقلاء في العالم، نجد أن مذهب البراهمة «١» نفى ضرورة بعث الأنبياء عليهم السلام من الأساس، بل اعتبرها مستحيلة وغير معقولة، لاعتقاده بكفاية ما يعينه العقل للإنسان! وقد نقل الشهرستاني في كتاب «الملل والنحل» بعضاً من شبهاتهم حول هذا الموضوع وقال:

(١) مذهب البراهمة هو من أقدم المذاهب المعروفة التي ظهرت في المشرق، ومركزه الأصلي «الهند»، قال الشهرستاني في كتاب «الملل والنحل»: هذا الاسم مأخوذ من اسم «براهام» مؤسس هذا المذهب، في حين أن «فريد وجدى» يقول في «دائرة المعارف»: إن هذا الاسم مشتق من اسم أحد آلهتهم الكبيرة أي «براهما»، والبراهمة فضلاً عن إنكارهم للنبوة يعتقدون بنوع من التثليث أي الآلهة الثلاثة.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٣٦

(أ) أن الذي يأتي به الرسول لم يخل من أحد أمرين: فإما أن يكون معقولاً وإما أن لا يكون معقولاً، فإن كان معقولاً فقد كفانا العقل التأم بإدراكه والوصول إليه، فأى حاجة لنا إلى الرسول؟ وإن لم يكن معقولاً فلا يكون مقبولاً، إذ قبول ما ليس بمعقول خروج عن حد الإنسانية ودخول في حد البهيمية.

(ب) قد دلّ العقل على أن الله تعالى حكيم والحكيم لا يتعبد الخلق إلا بما تدلّ عليه عقولهم، وقد دلت الدلائل العقلية على أن للعالم صانعاً عالماً قادراً حكيماً، وأنه أنعم على عباده نعماً توجب الشكر، فننظر في آيات خلقه بعقولنا ونشكره بآلائه علينا... وإذا عرفناه وشكرنا له استوجبنا ثوابه وإذا أنكرناه وكفرنا به استوجبنا عقابه فما بالنا نتبع بشراً مثلنا؟!

(ج) إن أكبر الكبائر في الرسالة أتباع رجل هو مثلك في الصورة والنفس والعقل، يأكل ممّا تأكل ويشرب ممّا تشرب حتى تكون بالنسبة إليه كجماد يتصرّف فيك رفعاً ووضعاً، أو كحيوان يصرفك أماماً وخلفاً، أو كعبد يتقدم إليك أمراً ونهياً، فأى تفوق له عليك؟ وأية فضيلة أوجبت استخدامك؟، وما دليله على صدق دعواه؟ وما فضل حديثه على غيره؟ ولو أنهم جاؤا بأشياء تفوق العادة، فإنّ هناك من يخبر عن المغيبات أيضاً.

(د) قد دلّ العقل على أن للعالم صانعاً حكيماً، والحكيم لا يتعبد الخلق بما يقبح في عقولهم، وقد جاء أصحاب الشرائع بمستقبحات من حكم العقل: كالإحرام والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار وأمثالها، فما فائدتها؟ لماذا حرّموا بعضاً من طعام الإنسان وحلّلوا ما يكون مضراً؟ «١».

الجواب:

يمكن الإجابة عن هذه الشبهات بسهولة:

(أ) يجب ألا ننسى أن معلوماتنا وإدراكاتنا العقلية ما هي إلا فطرة من محيط عظيم

(١) الملل والنحل، الشهرستاني، الباب ٤، آراء الهند، الفصل ١- البراهمة- ص ٢٥٠.

نفحات القرآن، ج٧، ص: ٣٧

وغيض من فيض بالنسبة إلى مجهولاتنا، وهذه الحقيقة يعترف بها جميع العلماء والمفكرين سواء من الإلهيين أو الماديين. فمن يقول إن رسالات الأنبياء عليهم السلام إما أن تكون موافقة لعقولنا أو مخالفة، فإنه يفهم من كلامه أن العقل يدرك كل شيء! لكن الأمر ليس كذلك، بل هناك شق ثالث أوسع من صاحبيه، وهو تلك الأمور التي ليس لنا علم بها أصلاً ولا يمكننا نفيها ولا إثباتها، لكن حينما تثبت إجمالاً عن طريق الأدلة التي سنشير إليها فيما بعد بأن الأنبياء عليهم السلام يتكلمون نيابة عن الله تعالى ويخبرون من علمه اللامحدود فإنه سوف لن يبقى هناك مجال سوى قبولها والإذعان بصحتها.

فإشكال البراهمة الأول يشبه قولنا بعدم لزوم التوجه إلى الاستاذ والاستفادة من علمه وتجربته، لأن ما يقوله الاستاذ إما أن يكون موافقاً لعقل التلميذ أو لا، ففي الحالة الأولى لا حاجة للذهاب وفي الحالة الثانية لا يجب التسليم وقبول قول الاستاذ. وبديهي أن هذا الكلام صياني لا يخفى جوابه على أي مفكر، فالاستاذ إنما يعلم التلميذ أشياء يعجز عقله عن نفيها أو إثباتها بالإضافة إلى ذلك فقد يلتبس الأمر علينا فنقع في الشك والاضطراب أحياناً في مسائل عرفناها بصورة صحيحة فلا ندرى هل فهمناها بصورة صحيحة أم لا؟

وبدون شك فأننا سنطمئن ونتيقن إذا ما أيدها الأنبياء وصدقوها، لذا فنحن محتاجون إلى الأنبياء في كل الأمور سواء علمناها أم لم نعلمها، (فتأمل).

ب) صحيح أننا نعرف الله تعالى بالأدلة العقلية، وأن حكم العقل هو الذي يفرض علينا شكر نعمه، لكن هذا لا يكفي، فطريق السعادة والكمال الإنساني مليء بالعقبات والمخاطر، ولا بد من وجود أشخاص مجهزين بالقدر الإلهية والإمدادات الغيبية ليأخذوا بأيدينا عند اجتيازنا لهذه المخاطر.

نفحات القرآن، ج٧، ص: ٣٨

نحن لا نقتدى بإنسان مثلنا أبداً، بل بإنسان له اطلاع واسع جداً، وعلمه متصل بعلم الله اللامحدود عن طريق الوحي، واتباع شخص كهذا منطقي جداً.

ج) ممياً تقدم يتضح الجواب على الإشكال الثالث أيضاً، إذ إن إطاعتنا لأوامر الأنبياء عليهم السلام والوقوف رهن إشارتهم لتقواهم التي لا مثيل لها والتي لمسناها فيهم.

نحن نضع أحياناً قلوبنا وعقولنا التي تعد أهم وأعز أعضائنا تحت تصرف الجراح الذي نثق به، فينهال عليها بمبضعه، وحينما نوافق على تخديرنا من قبله ليفعل ما يريد، فهل يُعد هذا العمل حماقة؟

بديهي إنه ليس كذلك، فعلم ومعرفة الطبيب الجراح من جهة، وحسن ظننا بعمله من جهة أخرى، يبعثان على التسليم له بلا قيد أو شرط، ولا يخفى أن الأنبياء عليهم السلام الإلهيين يفوقون الطبيب علماً وتقوى بكثير.

د) أي أمر غير منطقي يوجد في تعليمات الأنبياء عليهم السلام؟ فهل مراسم الحج والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمرات والإحرام هي خلاف العقل؟

إن تأملاً بسيطاً في فلسفة هذه الأعمال يكشف عن مدى حكمتها، وكيف أنها تربى الإنسان تربيةً صالحه.

فنحن نخرج عند الإحرام من حجاب عالم المادة، ونترك كل الفوارق القومية والعرقية والطبقية جانباً ونقف كلنا سواسية ونترك كل ما يشغل القلب جانباً ولو مؤقتاً، ونتفرغ ل «معرفة وجودنا وخالقنا» في عالم معنوي خالص.

والجمرات الثلاث تمثل الشيطان، إذ نرميه بالحصى سبع مرّات متعاقبة، وبهذا نعلن عن رفضنا واستيائنا من الأعمال والأفكار الشيطانية.

نفحات القرآن، ج٧، ص: ٣٩

وعند السعي بين الصفا والمروة تتذكر سعي «هاجر» تلك المرأة الطاهرة المؤمنة وجهدها لنجاة وليدها «إسماعيل»، فنطوى المسافة بين

الصفاء والمروءة عدّة مرّات.

وقصارى الكلام، إنّ الأعمال التي ننجزها يعتبر كلّ واحد منها مثلاً لبرنامج تربوي مسبق، وعند الانتهاء نشعر بأننا قد حصلنا على شخصيّة جديدة ومعرفة جديدة عن الله تعالى وعن نفوسنا، ذلك الإحساس الذي يحصل لكلّ إنسان بعد مراسم الحجّ. إنّ تحريم الأنبياء عليهم السلام بعض المواد الغذائية والمشروبات مثل «الخمر» و «لحم الخنزير» إنّما للأضرار الكامنة فيها والتي غفل الناس عنها سابقاً ثمّ أطلعوا عليها بالتدريج في هذا العصر، فنحن لا نعرف شيئاً حلّه الأنبياء عليهم السلام وتسبّب في ضرر الإنسان مادياً أو معنوياً.

وخلاصة القول، إنّ هذه الإشكالات الأربعة للبراهمة قد نشأت عن جهلهم بالأنبياء عليهم السلام أو تعليماتهم من جهة وعدم معرفتهم لمدى قدرة العقل من جهة أخرى، وبهذا نصل إلى نهاية البحث حول فلسفة «البعثة».

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٤١

الخصائص العامّة للأنبياء عليهم السلام

إشارة

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٤٣

الخصائص العامّة للأنبياء عليهم السلام

إنّ مهمّة هداية الخلق وتهذيب النفوس وتعليم الناس وتربيتهم وإقامة العدل وإزالة الاختلافات وتحرير الإنسان من مخالف الأسر مهمّة شاقّة وصعبة ممّا يجعلها تتطلّب استعداداً خاصّاً من الناحية الجسميّة والروحيّة والعلميّة والأخلاقية. ولهذا السبب لا- يتسنى لأيّ إنسان تحمّل أعباء مثل هذه المسؤوليّة، إلّا لمن حصل على القدرة على تهذيب النفس وبنائها من جهة والإمداد الإلهي من جهة أخرى، ومن البديهي أنّ الفرد العادي غير الناضج لا يتمكّن أبداً من تقبل مثل هذه المهمّة الخطيرة. والكلام هنا هو عن ماهيّة هذه الخصائص التي ينبغي توفرها لدى كلّ نبي، ومن الطبيعي أنّ الأنبياء عليهم السلام واولى العزم وأصحاب الشرائع والسنن يجب أن يكون لهم النصيب الأوفى منها.

وهنا يسعفنا القرآن في ذكر هذه الخصائص فضلاً عن الأدلّة العقلية، المتوفرة في هذا المجال.

بهذه الخلاصة نعود إلى القرآن لنمعن خاشعين في الآيات الواردة في هذا المجال:

١- «وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا». (مريم / ٤١)

٢- «وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا».

(مريم / ٥٤)

٣- «إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ* إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ».

(الشعراء / ١٠٦-١٠٧)

٤- «أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ». (الأعراف / ٦٨)

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٤٤

٥- «وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ». (الشعراء / ١٠٩)

٦- «وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ».

(الأنعام / ٨٤)

٧- «الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا». (الأحزاب / ٣٩)

٨- «قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ* مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ* إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ*».

(هود / ٥٤-٥٦)

٩- «وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا». (مريم / ٥١)

١٠- «فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ».

(آل عمران / ١٥٩)

١١- «وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا تَنَالُ الْعَهْدِي الظَّالِمِينَ». (البقرة / ١٢٤)

جمع الآيات و تفسيرها

١- صدق الحديث

إن أول خصلة لكل نبي قبل كل شيء هي صدق الحديث، وذلك لأنه يخبر عن الله تعالى، فمع عدم الإطمئنان بصدقه لا يمكن الإعتماد على كلامه، ولذا فقد أكد القرآن على هذه المسألة عدّة مرّات، من جملتها أول آية من آيات بحثنا إذ يقول تعالى: «وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا»، كما أن نفس هذا الوصف قد ورد بحق إدريس في سورة مريم، الآية ٥٦ و يوسف في سورة يوسف الآية ٤٦.

والملفت للنظر أن وصفه ب «الصدق» قد سبق وصفه ب «النبوة» في هذه الآية، وهذا

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٤٥

يبين أن أصل النبوة إنما يرتكز على الصدق، خصوصاً إن «صديقاً» هي صيغة مبالغة للصدق «١»، وتعني كثير الصدق أو الذي لا يكذب أبداً والذي يوافق قوله عمله، وبناءً على هذا فالأرضية المناسبة لتقبيل النبوة المتوفرة لدى جميع حملة الوحي الإلهي هي «الصدق المطلق» ليتّم من خلاله إيصال أمر الله تعالى إلى عباده بدون أيّة نقيصة.

طبعاً يمكن للناس اكتشاف هذه الخصلة في النبي الأكرم صلى الله عليه و آله من خلال تتبع حياته السابقة كما هو الحال تماماً في أهالي مصر عندما عزّفوا يوسف ب «الصدّيق» وخاطبوه ب «يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ». (يوسف / ٤٦)

٢- الالتزام بالعهود والمواثيق

الكلام في الآية الثانية عن الصدق أيضاً لكن لا- في القول بل في العهود والمواثيق، واللطف هنا أيضاً هو ورود هذه الخصلة قبل الوصف بالرسالة والنبوة والتي تشير إلى صنعها الأرضية المناسبة لمنزلة النبوة، لأنّ القسم الأعظم من دعوة الأنبياء عليهم السلام إنما يرتكز على أساس الوعود التي تعطى للمستقبل، ولو لم يكن النبي الأكرم صلى الله عليه و آله صادقاً في وعده لانهارت أسس دعوته، قال تعالى في ذلك: «وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا»، وبديهي إن من كان كاذباً في كلّ شيء حتّى في وعده لا يمكن أن يبلغ مقام الرسالة الشامخ وذلك لأنّ الشرط الأول لهذه المنزلة هو إيمان الناس بأقواله ووعوده واختبارهم لصدقه في كافّة الميادين.

ولذا فحتّى الأفراد المعدودون الذين لا يعتبرون مكانة «العصمة» شرطاً أساسياً للنبوة في كافّة المجالات نراهم يعتبرون الصدق من بين الشروط.

وفيما يتعلّق بكون «إسماعيل عليه السلام» صادق الوعد، فقد جاء في الكثير من كتب التفسير

(١) يقول الزمخشري: الصديق من صيغ المبالغة وتعنى الغاية فى الصدق والتصديق بالآيات الإلهية (تفسير الكشاف ج ٣، ص ١٨).

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٤٦

والروايات أن الله تعالى قد اعتبره «صادق الوعد» نظراً لعزمه على الوفاء بالوعد حتى إنه انتظر شخصاً كان قد وعده فى مكان ما، لمدة سنة كاملة وحينما جاء ذلك الشخص قال له إسماعيل: لقد كنت فى انتظارك طيلة هذه المدة! (١).

ولا- يبعد أن يكون المراد من الإنتظار لمدة سنة هو التردّد على ذلك المكان ومراقبته بين الحين والآخر لعودة ذلك الشخص لا المكوث هناك سنة كاملة تاركاً كل أعماله ومشاغله الحياتية.

لكن هل يا ترى إن إسماعيل هذا هو نفس «إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام» المعروف أم «إسماعيل بن حزقيل» الذى هو من أنبياء بنى إسرائيل، فهذا محلّ بحث، وقد اختار الكثير الإحتمال الأول، لكن تمّ التصريح بالإحتمال الثانى فى البعض من الروايات الواردة فى مصادر أهل البيت عليهم السلام، وذلك لوفاء إسماعيل فى حياة أبيه إبراهيم طبقاً لبعض الروايات، وهذا لا يتلاءم والتعبير بالرسالة فى حقّه، فى حين أن القرآن يقول فى الآية الآنفه الذكر:

«وكان رسولاً نبياً»، وما قيل: إنه كان يمتلك رسالة من قبل أبيه لهداية قبيلة «جرهم» من سكنة مكة لا يبدو مناسباً أيضاً لأنّ ظاهر الآية هو أن «إسماعيل» المذكور هنا كانت له رسالة إلهية لا رسالة من قبل إبراهيم عليه السلام.

علاوة على ذلك فلو كان المراد هو إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام لكان من المناسب ذكره بعد إبراهيم عليه السلام فى الآيات السابقة لا بعد موسى عليه السلام.

وعلى أية حال فلا أثر لهذا الكلام فى بحثنا الذى يدور حول مسألة خصوصيات الأنبياء عليهم السلام.

٣- الأمانة

إن منزلة النبوة والرسالة هى مكانة تتطلب «الصدق» و «الأمانة»، الأمانة فى نقل الوحي

(١) اصول الكافي، ج ٢، ص ١٠٥، ح ٧.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٤٧

وإيصاله إلى الناس والأمانة فى حفظ الأسرار الإلهية، والصدق والأمانة يعودان فى حقيقة الأمر إلى أصل واحد، غاية الأمر أن الصدق أمانة فى الحديث والأمانة صدق فى العمل! ولذا يقول القرآن فى ثانى آية من آيات بحثنا: «كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ»، كما أن نفس هذا التعبير «إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ» قد ورد بحقّ كل من «هود» (الشعراء/ ١٢٥)، و «صالح» (الشعراء/ ١٤٣) و «لوط» (الشعراء/ ١٦٢) و «شعيب» (الشعراء/ ١٧٨) و «موسى» (الدخان/ ١٨)، ومما لا شكّ فيه هو أنّ هؤلاء الأنبياء عليهم السلام وغيرهم من الأنبياء الإلهيين كانوا قد أثبتوا أمانتهم للناس عملياً كما قرأنا عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله أنّه كان يلقّب ب «محمّد الصادق الأمين» من قبل خاصّة الناس وعامتهم وذلك قبل نزول الوحي، ولذا كان صلى الله عليه وآله يستدلّ بسابقته هذه أمام المخالفين بأنهم كيف لا يصدقون بإنذاره فيما يتعلّق بالوحي الإلهى مع علمهم وإقرارهم بصدقه وأمانته؟! (١).

والملفت هو أن القرآن قد وصف جبرئيل حامل الوحي الإلهى بهذا الوصف أيضاً حيث قال: «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ

مِنَ الْمُنذِرِينَ». (الشعراء/ ١٩٣-١٩٤)

وفى الحقيقة إن حملة الوحي، سواء الملائكة الذين هم الواسطة في إبلاغ الوحي، أم الأنبياء أنفسهم أو الأئمة ونواب المعصومين الذين أنيطت بهم مسؤولية إبلاغ وحفظ الوحي الإلهي، هم أمناء الله في خلقه، ومن هنا فاننا نرى أن الامام علياً عليه السلام وباقي الأئمة الاطهار عليهم السلام ينعنون بأمناء الله في الزيارة المعروفة بزيارة «أمين الله»، حيث ورد هذا الخطاب: «السلام عليك يا أمين الله في أرضه» وهو شاهد آخر على إثبات هذا الادعاء.

(١) جاء في التواريخ في ذيل الآية «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» أنه صلى الله عليه وآله صعد إلى جبل الصفا بعد نزول هذه الآية ودعا كلماً من «بنى عبدالمطلب» و «بنى عبد مناف» فلمّا اجتمعوا حوله قال لهم صلى الله عليه وآله، لو أخبرتكم بأن جيشاً عظيماً يتجه نحوكم بمحاذاة هذا الجبل فهل ستصدقونني أم لا؟ فقال الجميع: بلى! ما عرفنا فيك الكذب أبداً، فقال صلى الله عليه وآله: «إذن فاعلموا أنني لكم نذير من العذاب الإلهي». (الكامل، ج ٢، ص ٦٠).

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٤٨

٤- الرغبة والشفقة الفائقان

إنّ الإنسان الذي يقود الناس ويتحمّل مسؤوليّة هدايتهم وتربيتهم كمعلم صالح لهم هو ذلك الشخص الذي له رغبة شديدة بهذا العمل وفي قلبه شفقة على الناس، بل إنّه يعشقهم فلولا حبّ الأبوين لولدهما لما تحمّل أبداً كلّ هذه المشاكل لرعايته وتربيته، ولولا حبّ الأنبياء عليهم السلام لهداية الناس لما تحمّلوا أبداً أعباء هذا العمل الذي يفوق طاقة الإنسان، ولما عرّضوا أنفسهم لأنواع المخاطر في هذا الطريق.

وقد أكد القرآن مراراً على هذه المسألة كما ورد في الآية الرابعة من بحثنا، ونقلنا عن لسان «هود» نبي الله تعالى حيث قال لقومه المعاندين المتعصّبين: «أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ».

ونفس هذا المعنى ورد بتعبير أدقّ في حقّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حيث يواسيه تعالى ويقول: «فَلَعَلَّكَ يَا خِجُّ نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يَأْمُرُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسْفًا». (الكهف / ٦)

كما جاء نظير هذا المعنى أيضاً في قوله تعالى «لَعَلَّكَ يَا خِجُّ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ».

(الشعراء / ٣)

«ناصح» مأخوذة من مادّة «نصح» وتعني على حدّ قول الراغب في مفرداته، تحزى فعل أو قول فيه صلاح صاحبه (أى أنّه يشمل تحزى الصلاح قولاً وفعلًا)، وقد جاء في القرآن أنّ نوحاً عليه السلام دعا قومه ألف سنة إلّا خمسين عاماً فتحمل أنواع المشقّة لتبليغهم رسالات ربه وهدايتهم وبالنتيجة لم يؤمن به خلال كلّ هذه المدّة إلّا نفر قليل، (ذكرت التواريخ أنّ عددهم لم يتجاوز نيّفاً وثمانين نفراً فقط)، وبعبارة علمية بسيطة فإنّ نوحاً قد تحمّل مشقّة اثنتي عشرة سنة تقريباً لهداية كلّ واحد منهم على انفراد، وبديهي أنّ تحمّل مثل هذا التعب والمشقّة لا يتحقّق إلّا في ظلّ الرغبة والحبّ الشديدين لهداية الخلق.

٥- الإخلاص والإينار الكامل

من الصفات المهمّة للأنبياء عليهم السلام التي أكد عليها القرآن هي عدم انتظارهم لأي نوع من

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٤٩

الأجر والمكافأة الماديّة في مقابل دعوتهم إلى الله تعالى ودين الحقّ، فنقرأ مثلاً في الآية الخامسة من آيات بحثنا حول أول نبي من

اولى العزم أى نوح عليه السلام: «وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ» كما أن هناك آيتين اخريين بنفس هذا المضمون قد وردتا فى حق نوح عليه السلام أيضاً (هود/ ٢٩) و (يونس / ٧٢).

وفى حق «هود» فى موردين (هود/ ٥١) (الشعراء/ ١٢٧).

وفى حق «صالح» فى آية واحدة (الشعراء/ ١٤٥).

وفى حق «لوط» فى مورد واحد (الشعراء/ ١٦٤).

وفى حق «شعيب» فى مورد واحد (الشعراء/ ١٨٠).

وأخيراً فقد تكرر التأكيد على هذه المسألة فى عدّة مواضع من القرآن فى حق نبي الإسلام صلى الله عليه و آله: (الأنعام- ٩٠) (سبأ- ٤٧) (الفرقان- ٥٧) (ص ٨٦) «١».

على أيّة حال فإنّ تأكيد القرآن على مسألة أن أول كلام للأنبياء عليهم السلام الإلهيين هو عدم انتظارهم لأيّة مكافأة فى مقابل جهودهم، وسلوكهم وأفعالهم تكشف عن إمكانية التعرّف عليهم من خلال هذه الخصلة. إنهم عليهم السلام كانوا يقولون ذلك ويعكسونه من خلال سلوكهم وأفعالهم، فى حين إن المدعى زوراً ربّما يقول مثل قولهم لكنّه لا يلتزم به عملياً أبداً.

ويحتمل أن ملكة سبأ أرادت اختبار سليمان عليه السلام وهل أنه نبي صادق أم ملك يبغى وراء تظاهره بالدعوة إلى الله تعالى منافع ماديّة، فقالت: «وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ». (النمل / ٣٥) فإذا وافق سليمان عليه السلام على الهدية وفرح بها لا تضح أن له دافعاً مادياً، بينما النبي من

(١) الجدير بالذكر هو أن القرآن الكريم يقول أحياناً فى حق نبي الإسلام صلى الله عليه و آله: «قُلْ لَأَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا» (الأنعام/ ٩٠) ويقول أحياناً: «قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا» (الفرقان/ ٥٧) وفى موضع آخر يقول: «قُلْ لَأَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ». (الشورى ٢٣) ولا يخفى أن هذه الآيات بمجموعها تبين أن مسألة مودة ذوى القربى إنّما تعود فائدتها إلى الناس، وهذه فى الواقع بمثابة ترعة تصبّ فى خاتمة المطاف فى نهر «الإمامة والولاية المنصوصة» التى عينها الله تعالى لهداية الناس وللعمل بتعليمات نبي الإسلام صلى الله عليه و آله، وبالنتيجة فكلّ منفعة تجنى من هذا الطريق إنّما تصبّ فى خير الناس ولأجلهم.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٥٠

نفحات القرآن ج ٧٩٧

لا يهتمّ لزخرف الدنيا وزينتها ودافعه إلهى محض.

وعلى أيّة حال فإنّ تصريح القرآن بهذه النكتة فى حق سته من أنبياء الله عليهم السلام، والذين من بينهم إثنان من اولى العزم يثبت وجود هذه الحالة فى كلّ الأنبياء عليهم السلام، ولا مناسبة لحصرها فى خصوص هؤلاء الستة فقط، بل إنّ كل الأنبياء يتصفون بهذه الصفات.

٦- البرّ والإحسان

من صفاتهم البارزة الاخرى هى الإحسان للصديق والعدو معاً، فلقد كانوا فى الحقيقة مظهرًا لصفات «الرحمن» و «الرحيم» والفضل والإحسان للجميع.

ولذا فقد نسب القرآن هذه الصفة إلى الكثير من الأنبياء عليهم السلام ومن جملة ذلك ما جاء فى الآية السادسة من آيات بحثنا بعد

الإشارة إلى «إسحاق» و «يعقوب» ولدى إبراهيم البارزين اللذين وهبهما الله تعالى له في آخر عمره، وكذلك «نوح» و «داود» و «سليمان» و «أيوب» و «يوسف» و «موسى» و «هارون» (عشيرة من الأنبياء العظام) من بينهم ثلاثة من اولي العزم يقول تعالى: «وكذلك نجزي المحسنين» أى أن إحدى الصفات البارزة التي كانت لديهم هي صفة «الإحسان».

كما ورد نفس هذا المعنى أيضاً على انفراد في آيات متعددة من جملتها: «سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ».

(الصفات / ٧٩ - ٨٠)

و «سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ». (الصفات / ١٠٩ - ١١٠)

و «سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ». (الصفات / ١٢٠ - ١٢١)

وأخيراً: «سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ». (الصفات / ١٣٠ - ١٣١)

وهذا التكرار في التأكيد هو خير شاهد على ما تقدم أعلاه من ماهية المراد من البرّ و «الإحسان» الذي جاء في الكثير من الآيات، وللمفسرين عبارات شتى فالبعض منهم كالمرحوم الطبرسي قد فسر «الإحسان» في الكثير من الموارد في «مجمع البيان» بمعنى نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٥١

طاعة المولى جلت قدرته بل قد صرح أنه لو حصل هذا المعنى أى مقام العبودية والطاعة للآخرين لشملتهم مثل هذه العناية الخاصة أيضاً!

لكن البعض الآخر كصاحب تفسير «روح البيان» قد فسر ذيل الآية الثمانين من سورة الصفات بمعنى الصبر والتحمل أمام أذى العدو واعتدائه.

كما يحتمل أيضاً أن كل واحد من الأنبياء عليهم السلام قد برز في أحد فروع البرّ والإحسان نظراً إلى أن كل الطاعات والأعمال الحسنة تدرج تحت عنوان «الإحسان»، الصبر والتحمل، الطاعة والعبودية، العفو والمغفرة، وأمثالها.

٧- عدم الخشية من غير الله تعالى

نظراً لتمتع الأنبياء عليهم السلام بمقام رفيع في معرفة الله تعالى، فقد كانوا يدركون جيداً أن الله تعالى هو المنبع الرئيسي لكل خير وقوة ولو أنه تعالى دافع عن شخص لما تمكّن العالم بأسره من إلحاق الضرر به.

وثمره هذه المعرفة هي الخوف من مخالفة أمر الله تعالى وحده وعدم المبالاة بمن سواه كائناً من كان.

ولذا يقول تعالى في الآية السابعة من آيات بحثنا بعد أن أشار إلى عدد من الأنبياء عليهم السلام السابقين، «الَّذِينَ يَبُلَّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا».

إن هذه الخاصية منحت الأنبياء عليهم السلام قدرة فائقة باعتبارهم قادة إلهيين، ومنحتهم صموداً أمام الأعداء المعاندين بل هي في الواقع أحد أسباب موفقيتهم.

وهنا يطرح هذا السؤال نفسه وهو: أن الله تعالى خاطب نبي الإسلام صلى الله عليه وآله، في آيتين سابقتين على هذه الآية ٣٧ في نفس سورة الأحزاب حول زواجه من زوجة زيد المطلقة وقال: «وَتَخَشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ»، أى أنك تخاف غير الله فيما يتعلق بموضوع

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٥٢

زواجك من هذه المرأة باعتبار أن زيدا هو ابنك بالتبني لا حقيقة، ومن العار الزواج من زوجة الابن بالتبني عند عرب الجاهلية، في حين أن الأنسب أن تخاف الله تعالى.

فهذا التعبير يبيّن أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله على الرغم من كونه أفضل الأنبياء عليهم السلام كان يخاف غير الله أيضاً في

حين أن الآية تقول: «الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا». (الأحزاب / ٣٩)
فكيف يتم التوفيق بين هذين التعبيرين!؟

إن الإجابة عن هذا السؤال تتضح من خلال ملاحظة واحدة، وقد ذكرناها في «التفسير الأمثل» وهي أن خوف نبي الإسلام صلى الله عليه وآله هنا لم يكن على شخصه بل كان يخشى في الواقع أن يكون إقدامه هذا على نقض عادة الجاهلية تلك (زواجه من زوجته زيد المطلقة) سبباً في خدش مكانته وتزلزلها في أذهان عموم ذلك المجتمع باعتباره واحداً من الأنبياء عليهم السلام وبالتالي لا يتمكن من تحقيق أهدافه الإلهية وإلا فالإقدام على عمل كهذا وسط ذلك المجتمع الذي تغمره الامور العجيبة والغريبة لا أهميته له أبداً من الناحية الشخصية مهما كان مخالفاً لفكر الناس وعاداتهم.

كما أن تقارب محل الآيتين من بعض يمكن أن يكون شاهداً آخر على هذا المدعى أيضاً.
إذن فخوف النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في هذه القضية هو مصداق للخوف الإلهي لا الشخصي (فتأمل جيداً).

٨- التوكل المطلق على الله تعالى

إن الأنبياء عليهم السلام كانوا يُبعثون عادة بين أقوام قد غرقوا في الفساد الأخلاقي فضلاً عن الانحراف الفكري والعقائدي، ولذا كانت دعوتهم لإزالة هذه الآثار السيئة تواجه بثورة عنيفة من قبل ذلك المجتمع حتى أنهم كانوا يتخذون العزلة في بعض الأحيان، والذي كان يغذيهم بالقوة والمنعة لمواصله تحقيق أهدافهم في مثل هذه الظروف هو مسألة التوكل على

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٥٣

الله، والتي نجد أحد مصاديقها في قصة هود في الآية الثامنة من بحثنا:

إذ قال له قومه إنك لم تأتنا بدليل واضح ولن نترك آلهتنا لكلامك هذا، بل لن نؤمن بك أصلاً، ونحن نعتقد بأن آلهتنا قد غضبت عليك وسلبتك لبك! لكنه صمد بجراه وقال: «إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مَن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ».

عندما يرى الإنسان شخصاً جاهلاً ومتعصباً، فيصاب بالذهول والفرع، فكيف به إذا أراد أن ينهض لمواجهة قوم منحرفين ويحملون كافة الصفات الرذيلة، وهو لا يملك العدة والعدد ليتغلب بها عليهم؟! من البديهي إن عملاً كهذا لا يمكن تحقيقه إلا بواسطة المدد الإلهي، وهي القوة النابعة من التوكل، حيث أن التوكل لا يأتي إلا من الايمان بالله سبحانه وتعالى المهيمن على كافة أرجاء العالم.

والملفت للنظر هو عدم اكتراث الأنبياء عليهم السلام لتهديدات أعدائهم وعدم إبراز أي رد فعل تجاههم، بل على العكس كانوا يحتقرون قدرتهم ويعرضونها للإستفهام ويفهمونهم بأنهم لا يعيرون لكل ذلك المجتمع الوثني المعاند أي اهتمام يذكر، فهذا التوكل المنقطع النظير هو أحد خصائص الأنبياء عليهم السلام.

٩- الإخلاص المنقطع النظير

وصف «المخلص» ورد ذكره في القرآن مرّة واحدة فقط، وذلك في حق موسى بن عمران عليه السلام فقد وصفه بالإخلاص قبل وصفه بالرسالة والنبوة، يقول تعالى: «وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا».

لكن نظراً لما ورد على لسان الشيطان في آيتين من القرآن: «وَلَمَّا غَوِيَتْهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ». (الحجر / ٣٩- ٤٠)
(ص / ٨٢- ٨٣)

ولبداهه كون الأنبياء عليهم السلام من الذين يعجز الشيطان عن إغوائهم بأي حال من الأحوال

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٥٤

فيمكن استنتاج شمولية هذا الوصف لكل الأنبياء سواءً موسى عليه السلام أو غيره.

فما هو «الإخلاص»؟ إن الإخلاص منزلة رفيعة جداً يؤكد عليها علماء الأخلاق والعرفان كثيراً وهو أن يعتبر الإنسان ذات الباري جلت قدرته هي المؤثر الحقيقي في عالم الوجود لا-غير، وهذا نابع من المعرفة التامة لتوحيد الله تعالى، فيتوجه العارف إلى الله تعالى بخالص نيته ويعتبر كل البواعث غير الإلهية عبثاً، ويضع كل وجوده رهن من يملك كل شيء، وأخيراً يرى كل ما سواه باطلاً فانياً.

إن عملية تهذيب الإنسان من شوائب الشرك والهوى والبواعث الوهمية، لها مرحلتان:

المرحلة الأولى: عن طريق تربية النفس على قدر طاقة الإنسان أي أنه يرى نفسه بعد اجتيازه هذا الطريق بالجد والسعي الحثيث في زمرة «المخلصين» (الذين قاموا بتنقية أنفسهم).

المرحلة الثانية: مرحلة تصفية الوجود الإنساني من الشوائب التي تخفى عليه لدقتها، وهنا يأتي دور العناية الإلهية لمساعدة العبد في التخلص من تلك الشوائب والأخذ بيده إلى مرتبة المخلصين وهذه هي المنزلة الرفيعة لأنبياء الله تعالى عليهم السلام وأوليائه وخاصة عباده.

ولا يخفى أن آثار هذا الإخلاص تتجلى بكل وضوح في أعمالهم كما يمكن إدراك بلوغهم لهذه المنزلة من خلال حسن أقوالهم وتصرفاتهم بكل سهولة، وعلى أية حال فالإخلاص أحد الصفات البارزة لأنبياء الله تعالى عليهم السلام.

١٠- اللين والمحبة وحسن الخلق

إن مسؤولية الأنبياء عليهم السلام القيادية تفرض عليهم ضرورة مسايرة الناس، واللين أمام غلظة وفظاظة الجهال المتعصبين قدر الإمكان، وبعبارة أدق: النفوذ في قلوب مختلف شرائح المجتمع عن طريق المحبة، وهذه صفة أخرى من صفات الأنبياء عليهم السلام.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٥٥

يقول القرآن الكريم في الآية العاشرة من آيات البحث وخصوصاً فيما يتعلق بنبي الإسلام صلى الله عليه وآله: «فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ» و«الفظ»: و«غليظ القلب» لهما نفس المعنى تقريباً وهو الشدة والخشونة وقساوة القلب، لكن البعض فرق بينهما وقال: إن «الفظ» يعنى الخشن في القول، و«غليظ القلب» الخشن في الفعل. وذهب البعض الآخر إلى أن «فظ» إشارة إلى الخشونة الظاهرية (الأعم من القول والفعل)، و«غليظ القلب» إشارة إلى الخشونة الباطنية والقلبية والتي تعد المصدر الرئيسي لكل الخشونات.

والذي يقابل هذين الوصفين هو اللين والمحبة والهدوء قولاً وفعلًا مما يؤدي إلى استقطاب طبقات الأمة بشكل عجيب.

ويرى محققو التاريخ أن وجود هذه الصفات في شخص نبي الإسلام صلى الله عليه وآله كان له أكبر الأثر في الإسراع من مهمة نجاح وانتشار رسالته خصوصاً في أوساط مجتمع يدور فيه كل شيء حول محور الخشونة الفعلية كالقتل والإغارة فضلاً عن الخشونة في القول، ومن هنا فمن السهل الوقوف على الدور الفعال لهذه الصفة الأخلاقية للنبي صلى الله عليه وآله.

وهناك الكثير من الشواهد حول هذا الموضوع في تاريخ حياة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، ولو تعرضنا لها كلها لخرجنا عن جوهر موضوع بحثنا لكثرتها، لكننا سنكتفي بنموذج واحد فقط:

ففي معركة احد التي وجهت فيها أكبر ضربة لكيان الإسلام والمسلمين بسبب عدم التزام فريق ممن كانوا جديدي العهد بالإسلام وهروب فريق آخر، فضلاً عن الجراح التي اثنى بها شخص النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وبشهادة الكثير من أقطاب الإسلام، نراه صلى الله عليه وآله بعد انتهاء المعركة حليماً مع المسلمين يكلمهم بلسان طيب ولم يبد أي غضب بل كان يدعو لهديته أعدائه المجرمين أيضاً.

كما أن تاريخ باقى الأنبياء عليهم السلام يعكس أيضاً تمتّعهم بهذه الفضيلة الإنسانية الخطيرة.

إنّ تصرّيح القرآن بأنّ «نوحاً» عليه السلام قد دعا قومه تسعمائة وخمسين سنة وأنه استعان

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٥٦

بكلّ الطرق والوسائل لهدايتهم على حدّ قوله، إذ أنه كان يدعوهم علناً أحياناً وأحياناً أخرى سراً، ليلاً أو نهاراً، يذهب إلى بيوتهم أو يشاركهم فى جلساتهم العامّة فى بعض الأحيان، وإنّه لم يؤمن به طوال كلّ هذه المدّة إلّا بغير قليل، يعكس مدى مداراته لهؤلاء الوثنيين العاصين.

ولحن قوله تعالى الوارد فى سورة نوح عليه السلام يبيّن بكلّ وضوح استخدامه اسلوب الترغيب، وإنّه لم يقدم على لعنهم والدعاء عليهم إلّا بعد أن يؤس تماماً منهم ومن ذريّتهم.

إنّ الإنسان تصيبه الدهشة أحياناً عندما يرى ما لبعض الأنبياء من رأفة وحسن خلق، فقد ورد عن «لوط» عليه السلام مثلاً فى القرآن الكريم إنّه عرض بناته على قومه المذنبين للزواج منهنّ (بعد الإيمان) أملاً فى أن يمنعهم من القيام بأعمالهم الشنيعة تلك. وعلى أيّة حال فإننا كلّما تمعنا أكثر فى حياة هؤلاء العظام كلّما وقفنا على مميزات وصفات أخلاقية أكبر لهم.

١١- الفوز فى المحن الشاقّة

تعرّض الكثير من الأنبياء عليهم السلام خلال حياتهم لمختلف أنواع الإختبارات الشاقّة، وكانت صفاتهم البارزة هى تحمّل أنواع الشدائد، وعدم الغرور عند النصر، وباختصار الفوز فى الإمتحانات الإلهية الصعبة.

فالنبى نوح عليه السلام فى فترته التبليغيّة البالغة تسعمائة وخمسين سنة، وموسى عليه السلام خلال خدمته لشعيب فى مدين وخلال فترة تحدّيه الطويلة لفرعون وفترة انحراف بنى إسرائيل عن التوحيد والخروج على أوامره، وكذلك سائر الأنبياء مثل أيّوب وعيسى ولوط وشعيب وهود عليهم السلام وخصوصاً إبراهيم عليه السلام قد ابتلوا جميعاً فى ميادين الإبتلاء هذه.

وقد جاء فى الآية المعنيّة عن إبراهيم عليه السلام إنّه تعالى قد منحه مقام الإمامة المطلقة فضلاً عن مقام النبوة وذلك بعد فوزه فى الإختبار، قال تعالى: «وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٥٧

فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا».

وبالرغم من أنّ الآية أعلاه قد أشارت إلى الإبتلاءات بشكل غامض، لكن وكما ذكر المفسّرون فإنّ هذه «الكلمات» (أى الامور التى اختبر الله تعالى بها إبراهيم) هى من قبيل الإستعداد لتقديم ولده قرباناً وأخذ زوجته وابنه إسماعيل إلى أرض مكّة القاحلة وإسكانهم فيها بأمر من الله تعالى ووقوفه الشجاع أمام عبدة الأصنام والهجرة المقرونة بالحرمان إلى المناطق المؤهله أكثر للإيمان وأمثالها.

ويرى بعض المفسّرين أنّ ابتلاءات إبراهيم عليه السلام قد بلغت الثلاثين مورداً «١»، لكن ما تقدّم هو أهمّها، فهو فى الحقيقة قد وضع «حياته» و «أمواله» و «مكانته» و «زوجته» و «ولده» و «وطنه الذى كان قد ألفه» التى تشكّل بمجموعها كيان الإنسان ووجوده فى سبيل الله تعالى وخرج من بودقة الإختبار نقيّاً.

وعلى الرغم من أنّ هناك حديثاً طويلاً للمفسّرين حول تفسير «الكلمات» إذ اعتبرها البعض إشارة إلى مناقشاته الحادّة مع عبدة النجوم والشمس والقمر وبينما اعتبرها آخرون إشارة إلى سلسلة من الأحكام الفرعية للدين، إلّا أنّ ما تقدّم هو أنسبها.

ثمرة البحث:

يمكن الإستنتاج ممّا تقدّم أنّ الأنبياء عليهم السلام يتمتّعون بحصيلة من - الصفات والمميزات الخاصّة من وجهه نظر القرآن، ولا نقول

أن كل واحدة من هذه الصفات منحصرة بهم، أو أنها

(١) نقل كل من المرحوم الطبرسي في «مجمع البيان»؛ والآلوسي في «روح المعاني» والقرطبي في تفسيره أن هذه الخصال الثلاثين من شرائع الدين قد وردت في أربع سور من القرآن الكريم عشرة منها في سورة (التوبة/ ١١٢) «التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ...» وعشرة في سورة (الأحزاب/ ٣٥) «إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ...» وعشرة في سورة (المؤمنون/ ١ و ٢) «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ...» أو في سورة «المعارج» «سأل سائل». لكن يجب الالتفات إلى أن الصفات الواردة في السور أعلاه، لا تبلغ الثلاثين صفة من معنى ولا- تتجاوز الثلاثين من معنى آخر فضلاً عن أن تكرارها مما لا يمكن إنكاره، وبناءً على هذا فقبول العدد ٣٠ لهذا الموضوع يبدو بعيداً بعض الشيء.

نفحات القرآن، ج٧، ص: ٥٨

تعكس النبوة لوحدها، بل نقول بإمكان العثور عليها بمجموعها عند الأنبياء عليهم السلام، وبأن لها أثراً عميقاً للتعرف عليهم لأن إحدى طرق معرفتهم كما سيأتي تفصيله هي جمع القرائن المختلفة والتي من جملتها «خصائصهم الخلقية».

نفحات القرآن، ج٧، ص: ٥٩

شروط الرسالة

إشارة

نفحات القرآن، ج٧، ص: ٦١

التقوى والعصمة

تمهيد:

بالنظر لتحمل الرسل وحمل الوحي الإلهي أهم وأخطر مسؤولية في عالم البشرية، وهي مسؤولية هداية الإنسان وتربية النفوس وتهذيبها وتنقيتها من كافة الشوائب والممارسات اللاأخلاقية، بالإضافة إلى تطهير المجتمعات البشرية من أنواع الظلم والتعسف، بطرق لا يمكنهم طيها اعتماداً على العقل والفكر والمعلومات الخاصة فحسب، بل لابد والحالة هذه من تمييزهم بأعلى درجات «التقوى»، والتي نطلق عليها منزلة «العصمة» التي لا يمكن ضمان أهداف الرسالة بدونها.

ومن المؤكد أن منزلة العصمة لا تعني «العصمة من الذنب والمعصية» فحسب، بل لها فرع آخر لا يقل أهميته عنها، ألا وهو «العصمة من كل خطأ واشتباه وانحراف وضلال»، ولا يخفى أن تحقيق الهدف من البعث مرهون بإمدادهم بالتأييدات الإلهية من هذه الناحية. ولكل من هذين القسمين تشعبات أخرى أيضاً: كالعصمة من الذنوب كبيرها وصغيرها، في فترة ما قبل النبوة وبعدها والعصمة من الخيانة في تبليغ الوحي والرسالة و...

كما يندرج في قسم العصمة من الخطأ أيضاً كل من «العصمة من الخطأ في تلقى الوحي وإبلاغه»، والعصمة من الخطأ في القيام بالفرائض الدينيّة والأوامر الشرعية، وكذلك العصمة من الانحراف في الأمور الدنيوية والشخصية. وهناك سؤال يتبادر للذهن وهو: هل تعود مسألة عصمة الأنبياء في كل هذه الأبحاث إلى هذين القسمين؟ وما هو الدليل على ذلك على فرض الصحة؟ وما هو الدليل على الاختلاف الحاصل بينهما لو وجد؟

نفحات القرآن، ج٧، ص: ٦٢

- هذه صورة عن مسألة عصمة الأنبياء اصولاً وفروعاً من الناحية المبدئية، والتي ينبغي بيانها في ظل الآيات القرآنية والأدلة العقلية نظراً لأهميتها الأساسية والمصيرية، وبهذه الإشارة الخاطفة نعود ثانية إلى القرآن ونأمل خاشعين في الآيات الواردة في هذا المجال:
- ١- «وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنْتَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ». (البقرة/ ١٢٤)
- ٢- «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ». (الحشر/ ٧)
- ٣- «مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا». (النساء/ ٨٠)
- ٤- «فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا». (النساء/ ٦٥)
- ٥- «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا». (الأحزاب/ ٢١)
- ٦- «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا». (الأحزاب/ ٣٣)
- ٧- «قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغَوِّيَهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ». (ص/ ٨٣-٨٢)
- ٨- «وَإِذْ كُنَّا عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرَى الدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ». (ص/ ٤٥-٤٧)
- ٩- «أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَفْتَدِهِ». (الأنعام/ ٩٠)
- ١٠- «وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ». (النجم/ ٣-٤)
- نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٦٣

جمع الآيات وتفسيرها

كيف يكون المذنبون دعاءً للتقوى؟

إن الآيات الأولى من آيات بحثنا تكشف النقاب عن ثلاثة مواضع:

الأول: الإبتلاءات الكبيرة التي أبتلى بها إبراهيم من قبل الله تعالى، والتي اجتازها بنجاح تام.

الثاني: المكافأة العظيمة التي نالها إبراهيم من الله بعد هذا الاختبار، أي مقام الإمامة.

الثالث: طلب إبراهيم منح هذه الموهبة لبعض ذريته، وجواب الله تعالى له بأن الظالمين من ذريته لن ينالوا هذا المقام الرفيع أبداً:

«وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنْتَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ».

أما فيما يتعلق بالقسم الأول فقد تقدم الكلام عنه بشكل وافٍ فيما مضى، كما أن هناك حديثاً طويلاً فيما يتعلق بالقسم الثاني أي نيل مقام الإمامة الرفيع وماهيتها.

فهل أن الإمامة تعني «النبوة»؟ في حين أن هناك قرائن واضحة تدل على أن إبراهيم عليه السلام قد تطرق لهذا الأمر بعد وصوله لمقام النبوة، وفي أواخر سنين عمره، حينما كان له أولاده وذريته كإسماعيل وإسحاق، وعلى أمل امتداد ذريته هذه إلى الأجيال اللاحقة، ومن هنا فقد تمنى لهم أيضاً مقام الإمامة، إذ إنه وكما نعلم لم يرزق ولداً لمدة مديدة، حتى أنه أخذته الدهشة حينما بشره الملائكة الموكلون بهلاك قوم لوط، هو وزوجته بولد كما تقرأ في قوله تعالى: «قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تَبَشَّرُونَ * قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ». (الحجر/ ٥٤-٥٥)

بل قد تعجبت زوجته أيضاً لهذه البشرية واستغربت قائلة: «قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ».

(هود / ٧٢)

لكن الملائكة حذرته من تبعه اليأس من رحمة الله في كل الأحوال.

وبناءً على هذا فمن المستبعد جداً أن يكون المراد هو النبوة، بل المراد هو الحكومة

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٦٤

الإلهية المطلقة على الأموال والأنفس وكل شؤون الحياة الإنسانية، أو الحكومة الظاهرية والباطنية على الأرواح والأنفس عن طريق التربية الظاهرية والباطنية لإيصال الناس إلى الكمال المطلوب بإذنه تعالى، وعدم الإقتصار على رسم الطريق فحسب، والذي يعد من مهام كل الأنبياء.

على أية حال فإنه مقام يفوق النبوة، ولم ينله إلا البعض من الأنبياء فقط.

وأما فيما يتعلق بالموضوع الثالث وهو طلب إبراهيم هذا المقام لبعض أولاده، وسماعه الجواب في الحال من أن هذا المقام هو نوع من التعهد الإلهي لا يناله الظالمون، فالكلام فيه يدور حول المراد من «الظالم» معنىً ومفهوماً.

يجب معرفة ما المراد بالظالم؟ هل هو فقط ذلك الشخص الموصوف بهذه الصفة فعلاً؟

مع أنه يستبعد جداً بل يستحيل أن يطلب إبراهيم عليه السلام مثل هذا الطلب للظلمة من ذريته خصوصاً بعد اجتيازه لكل تلك الإختبارات الصعبة وشموله بمثل تلك العناية، هذا الشيء غير معقول أبداً سواء كان هذا الظلم بمعنى الكفر كما يصرح بذلك القرآن الكريم: «إِنَّ الشُّرَكَاءَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ». (لقمان / ١٣)

أو بمعناه الواسع الشامل لكل أنواع الفسق والفجور والمعصية.

وبناءً على هذا فالمراد ب «الظالم» هنا هو ذلك الشخص الموصوف بتلك الصفة ولو للحظة واحدة طول عمره مهما انقضى على تلك اللحظة من مدة، فان مثل هذا المصداق بحاجة إلى بيان.

وفى الحقيقة إن الله تعالى أراد بيانه هذا إيقاف إبراهيم على هذه الحقيقة، وهى أن مقام الإمامة رفيع بدرجة لا يناله إلا أولئك الذين يليقون لهذه (النعمة) العظيمة المنزهون عن كل أنواع الظلم والشرك والكفر والمعصية، وبعبارة أخرى، المعصومون.

ولذا يقول الفخر الرازي حين يصل إلى تفسير الآية المذكورة: «هذه الآية تدل على عصمة الأنبياء من وجهين:

الأول: إنه قد ثبت أن المراد من هذه العصمة: الإمامة، ولا شك أن كل نبي إمام، فإن الإمام هو الذى يؤتم به، والنبي أولى الناس بذلك، وإذا دلت الآية على أن الإمام لا يكون فاسقاً،

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٦٥

فإنها تدل على أن الرسول لا يجوز أن يكون فاسقاً فعلاً للذنوب والمعصية أولى.

الثانى: إن التعبير ب «عهدى» لو كان يشير إلى النبوة فالقصد منه أن أحداً من الظلمة لا ينال مقام النبوة، وأن النبى يجب أن يكون معصوماً، ولو كان يشير إلى الإمامة فدلالة الآية تامة أيضاً، لأن كل نبي إمام نظراً لاقتداء الناس به (فى كل الامور بلا قيد أو شرط)» (١).

مع أن كلام الرازي فى تفسير الإمامة لم يف بالمطلوب (كما تقدم)، لكن اعترافه الصريح فيما يتعلق بالدلالة على لزوم عصمة الأنبياء (والأنبياء) ملفت للنظر، والإشكال الوحيد الذى يمكن إيراده على هذا الاستدلال، هو أن عصمة الأنبياء هى المستوحاه من الآية المذكورة لا الأنبياء (الأئمة بالمعنى المتقدم).

لكن هذا الإشكال يمكن رده بالقول: إن طلب إبراهيم عليه السلام مع أنه يدور حول مقام الإمامة، فلفظ «العهد» الوارد فى جواب البارى جلت قدرته: «لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ» تشمل كلاً من «الإمامة» و «النبوة» معاً، لكون كل منهما عهداً إلهياً لبداهته شموله لهما كيفما فسّرناه، وموهبة كهذه لا تكون من نصيب الظالمين كما جاء فى روح البيان أيضاً: «وفى الآية دليل على عصمة الأنبياء عليهم

الصلاة والسلام من الكبائر قبل البعثة وبعدها» (٢).

فى الآيه الثانیه يأمر الله تعالى المؤمنين كافه بالامثال لأوامر النبى الأكرم صلى الله عليه وآله واجتناب ما ينهى عنه، ويحثهم على التقوى لأنه تعالى شديد العقاب.

«وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ».

التأمل فى الآيه يكشف عن أن المراد من: «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ»، هو كل أوامر النبى الأكرم صلى الله عليه وآله، باعتبار أن نواهيته هى الطرف المقابل: «وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا»، ومن هنا فقد صرح الكثير من المفسرين بعموميه مفاد الآيه (كالتبرى فى مجمع البيان، أبى الفتوح

(١) تفسير الكبير، ج ٤، ص ٤٨.

(٢) تفسير روح البيان، ج ١، ص ٣٣٨.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٦٦

الرازى فى روح الجنان، القرطبى فى تفسيره، والفخر الرازى فى التفسير الكبير، بالإضافة إلى العديد من المفسرين المعروفين أيضاً؟ وطبقاً لهذه الآيه يجب التسليم المطلق فى مقابل أوامر النبى الأكرم صلى الله عليه وآله ونواهيته، ولا يمكن تصوّر التسليم والطاعة بلا قيد أو شرط لشخص غير المعصوم، إذ مع ارتكاب الخطأ أو المعصيه والذنب يجب على المؤمنين تنيبه على ذلك أو نهيته عنه فضلاً عن حرمة التسليم له.

كما ورد نظير هذا المعنى أيضاً بصيغته اخرى فى الآيه الثالثه من آيات بحثنا حيث تقول كحكم مطلق: «مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا».

الملفت للنظر هو ما قاله الفخر الرازى فى تفسيره: «إن هذه الآيه هى من أقوى الأدله على عصمه نبى الإسلام فى كل أوامره ونواهيته، وبأن كل ما يقوله هو عن الله تعالى، لأنه لو أخطأ فى شىء فلن تكون إطاعته إطاعه الله تعالى، كما يجب أن يكون معصوماً فى أفعاله أيضاً، لأن الله تعالى قد أمر بتابعه» (بشكل مطلق) «١».

و كذلك فقد جاء نظير هذا المعنى أيضاً بقبالب آخر فى الآيه الرابعه من آيات بحثنا حيث تقول: «فَلَمَّا وَرَبَّكَ لَمَّا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا».

من الواضح أن هناك مجالاً للاعتراض أو عدم قبول حكم القاضى إذا قطعنا بخطئه، فلا يجب الانصياع لحكمه، فى حين أننا يجب أن لا نشك طرفه عين فى صوابه أحكام الرسول الاكرم ويجب أن نسلم تسليماً مطلقاً ونرضى من الأعماق بما يقضى ويحكم به الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله من دون أن يساورنا الشك أو يدخل فى نفوسنا الحرج، وما أكددت عليه الآيه أعلاه دليل واضح على معصوميته، ولذا يصرح الفخر الرازى فى ذيل هذه الآيه بأنها

(١) تفسير الكبير، ج ١٠، ص ١٩٣.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٦٧

تدل على أن الأنبياء عليهم السلام معصومون من الخطأ فى الفتاوى والأحكام، لأنه تعالى أوجب الإنقياد لحكمهم وبالغ فى ذلك الوجوب، وبين أنه لا بد من حصول ذلك الإنقياد فى الظاهر وفى القلب، وذلك ينفى صدور الخطأ عنهم «١».

صحيح أن الآيه قد نزلت فى تحكيم نبى الإسلام صلى الله عليه وآله، لكنها توجب إطاعته فى كل شىء طبقاً للقرائن التى تحف بها، ولذا نقرأ فى الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام:

«لو أن قوماً عبدوا الله، فأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وصاموا شهر رمضان، وحجوا البيت، ثم قالوا لشيء صنعه رسول الله ألا صنع خلاف ما صنع أو وجدوا من ذلك حرجاً في أنفسهم لكانوا مشركين! ثم تلا هذه الآية...» (٢).

واضح أن هذه الآية لا تختص بزمن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فقط، بل هي قائمة إلى يوم القيامة، وقد أشار البعض من المفسرين إلى ذلك أيضاً (٣).

وبناءً على هذا فكل من خالف سنة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله القطعية وأحكامه، أو وجد من ذلك حرجاً في نفسه أصبح مصداقاً لهذه الآية.

وبالجملة فالآيات الثلاث السابقة هي بصدد بيان حقيقة واحدة بعبارات شتى، ألا وهي ضرورة التسليم المطلق أمام أوامر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأحكامه، ولا يتم هذا إلا بالقول بضرورة عصمته.

والغريب هو أن بعضاً من مفسري أهل السنة قد استدلل بما جاء في صحيح مسلم أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله مَرَّ بقوم يلقحون (النخل) فقال: «لو لم تفعلوا للصلح، قال: فخرج شيصاً (لم يثمر)، فمَرَّ بهم فقال: ما لنخلكم؟ قالوا: قلت كذا وكذا. قال: أنتم أعلم بأمر دنياكم» (٤).

ومن هنا فقد قسّم البعض منهم أحاديث النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إلى قسمين: ما يقوله عن الله

(١) تفسير الكبير، ج ١٠، ص ١٦٥.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٦٩.

(٣) تفسير روح المعاني، ج ٥، ص ٦٥.

(٤) جاء في صحيح مسلم في هذا الموضوع ثلاثة أحاديث متّفقة مضموناً وبعبارات شتى، (صحيح مسلم، ج ٤، الباب ٣٨ ص ١٨٣٥، ح ١٣٩ و ١٤١ باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً دون ما ذكره صلى الله عليه وآله من معاش الدنيا على سبيل الرأى).

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٦٨

تعالى في المسائل الدينية والشرعية، وما يقول عن نفسه في أمور الدنيا، فهو معصوم في الأول دون الثاني!!

لكننا لا نعتقد بصحة مثل هذه الاحاديث مطلقاً لأنها من أجلى مصاديق الروايات المخالفة لكتاب الله تعالى، لأن القرآن اعتبر كلام الرسول صلى الله عليه وآله وأحاديثه مقياساً وميزاناً، واعتبره عين الوحي، حيث ورد في قوله تعالى «وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ . (النجم/ ٣) فكيف يمكن التصديق بأن نبياً بكل تلك العظمة يدعو الناس إلى شيء من دون علم، بحيث يكون سبباً لدمار محاصيلهم ثم يتنازل عن كلامه هذا ويقول لهم: أنتم أدرى مني بأمور دنياكم، في حين أنه وبلا شك يعدّ من أعلم وأذكى الناس وله اطلاع واسع بأمور من قبيل تأبير النخل و... بل كيف يمكن لشخص يبدي رأيه رجماً بالغيب (والعياذ بالله) أن يكون رئيساً لحكومة إسلامية بتلك العظمة.

ولهذا السبب لا نستبعد كون مثل هذه الأحاديث من الموضوعات التي دبرها المنافقون وأعداء الإسلام، وأدخلوها بين طيات الكتب الإسلامية للحطّ من عظمتهم ومنزلته النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وعلمه وعقله وتعريضه للشك والريبة والاستفهام.

إن عدم نقل هذا الحديث في الكثير من المصادر الإسلامية الأخرى، يعدّ بنفسه دليلاً على عدم اطمئنان علماء الإسلام بمثل هذه الأحاديث الواهية، والذي يدعو للعجب هو الاستشهاد بها من قبل أشخاص ك «المراغي» وصاحب «المنار» في تفاسيرهم، في الوقت الذي يُشكلون على الكثير من المسائل الأخرى.

على أية حال فتقسيم أقوال وافعال وتقارير الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله إلى قسمين، يفتح الطريق أمام الذين في نفوسهم مرض، لتفسير ما يقوم به النبي الأكرم وفي شتى المجالات الاجتماعية والحياتية والبشرية، والتشكيك به، ثم الاستفهام هل هو من

القسم الأول أو الثاني؟

لذا- وكما سيأتى إن شاء الله- لو وجد الخطأ والإشتباه طريقه إلى شىء من كلام النبى الأكرم صلى الله عليه وآله، لما بقى هناك مجال للاعتماد على كافة أحاديثه، ولهذا نعتقد نحن بوجوب

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٦٩

عصمة الأنبياء والأئمة من جميع الجهات.

الآية الخامسة تخاطب المسلمين وتقول لهم: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا».

«الاسوة»: لها معنيان: فهي تارة تعنى الإصلاح والعلاج ومن هنا قيل للطبيب «آسى»، وتارة تعنى «الغم والحزن».

يعتقد البعض أن هذه المفردة لو كانت «معتلاً واوياً» لكانت بالمعنى الأول، ولو كانت «معتلاً يائياً»، لكانت بالمعنى الثانى.

كما احتمال أيضاً عودة كلا المعنيين إلى معنى واحد باعتبار أن الغم والحزن والأسى إنما يكون على ما فيه الصلاح والعلاج.

على أية حال فظاهر معنى الآية الخامسة هو الإقتداء والإقتفاء (باعتبار أن الإقتداء بالعظماء يعد من أفضل طرق الصلاح).

الملفت للنظر أن «الاسوة» ك «القدوة» لها معنى مصدرى وهو الإقتداء والمتابعة وليس معنى وصفيًا كما هو متداول اليوم، وبعبارة

أخرى فالقرآن الكريم لا يقول: النبى الأكرم صلى الله عليه وآله قدوة لكم، بل يقول: فى وجوده قدوة حسنة (تأمل جيداً).

التعبير «لقد» للتأكيد، وذكر «كان» إشارة إلى حقيقة كون النبى الأكرم صلى الله عليه وآله قدوة للمسلمين على مر الزمن.

مع أن المخاطب فى هذه الآية (لكم) يشمل كل المؤمنين، لكن جملة: «لَمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا» تفيد أن

الأشخاص الذين يتصفون بهذه الأوصاف، وهى رجاء رحمة الله واليوم الآخر والذكر الكثير لله تعالى، هم فقط اولئك الذين يتسنى

لهم الاستفادة من هذه القدوة الحسنة.

وبالرغم من أن هذه الآية ناظرة إلى استقامة النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وشجاعته الخارقة فى معركة الأحزاب: ولكن هذا لا

يحدد مفهوم الآية نظراً لإطلاقه وخلوه من كل قيد أو شرط.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٧٠

الإجابة عن سؤال:

وهنا يتبادر فى الذهن هذا السؤال وهو: هل يمكن الإقتداء المطلق بلا قيد أو شرط بمن لا يتمتع بمقام العصمة؟! والجواب واضح وهو

يمثل دليلاً وشاهداً على مسألة العصمة، إذن فالأمر بالإقتداء هذا خير دليل على حقيقة معصوميته، وإلا لما جاز أن يكون قدوة فى كل

شىء، ولكل شخص فى أى زمان ومكان.

ومن هنا فالآية الآنفه الذكر متفقه مع الآيات التى تأمر المؤمنين بإطاعة النبى الأكرم صلى الله عليه وآله بلا قيد أو شرط (الآيات

السابقة).

ربما قيل: إن التعبير «الاسوة» قد جاء فى القرآن فى موضعين آخرين (المتحنه/ ٤ و ٦) وأنه شامل للمؤمنين الذين كانوا مع نبى

عظيم كإبراهيم عليه السلام، بالإضافة إليه، بالرغم من عدم عصمتهم، يقول تعالى: «قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ

إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ». (المتحنه/ ٤)

لكن التدقيق فى الآية المذكورة يكشف انحصار الإقتداء والتأسي هنا فى بُعد واحد فقط، ألا وهو مسألة البراءة من المشركين إذ إن

هناك طائفة من المسلمين فى عصر النبى الأكرم صلى الله عليه وآله حديثو عهد لم يستسيغوا التخلّى عن أقربائهم ومعارفهم من

المشركين بسهولة، وهنا يقول القرآن: اقتدوا بإبراهيم وأصحابه فعندما أصبحوا موحدين أعلنوا عن استيائهم من المشركين والبراءة

منهم.

كما أن الآية السادسة من هذه السورة تؤكد على هذا الموضوع أيضاً، وبناءً على هذا فالخطاب لم يقصد منه مطلق الإقتداء والتأسي بأصحاب إبراهيم عليه السلام (تأمل جيداً).

والمخاطب في الآية السادسة هم أهل بيت النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إذ يقول تعالى: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً».

جاء في مقاييس اللغة أن أصل «الرجس» هو «الإختلاط»، ثم أطلق على الأشياء النجسة لاختلاطها بشيء آخر.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٧١

لكن «الراغب» فسّر أصل الرجس في «مفرداته» بمعنى «الشيء القذر» وقال: إنه يكون على أربعة أوجه: إما من حيث الطبع، وإما من جهة العقل، وإما من جهة الشرع، وإما من كل ذلك.

وقد ذكر البعض مصاديق أو معاني عديدة لـ «الرجس» كالذنب والشرك والحسد والبخل، والقذارة، النجس المختلط، الصيد والجراحة، الصياح الخارج عن الحد المتعارف، الشك، الكفر، اللعن، الرائحة الكريهة وأمثالها.

يبدو أن «الرجس» في هذه الآية ونظراً لإطلاقها، له معنى واسع شامل، لكل أنواع الذنب والشرك والبخل والحسد والفسوق الظاهري والباطني والأخلاق والعادات السيئة التي تشمئز منها النفوس، والحقيقة أن أهل بيت النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ويارادة من الله تعالى كانوا مطهّرين من كل هذه الامور، ولا شك أن هذه الآية تثبت مسألة العصمة في شخص النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل بيته (أمياً فيما يتعلّق بالمراد من أهل البيت ومن هم؟ فسيأتي الكلام عن ذلك إن شاء الله تعالى)، إن إرادته تعالى لا بد وأن تتحقّق، وإرادته في إذهاب الرجس عن هذه الاسرة لا يعنى سوى «ضمان عصمتهم» مفهوماً، لبداهة كون الشرك والذنب من أجلى مصاديق الرجس والقذارة، ولا شك أن نفى الرجس بشكل مطلق يشمل الذنوب أيضاً.

هل أن هذه الإرادة تشريعية أم تكوينية؟ وبعبارة أخرى، هل أن الله تعالى أمر أهل البيت بعدم ارتكاب الذنوب والقبايح، أم أنه تعالى أودع الطهارة في نفوسهم؟

بديهى أن المراد ليس المعنى الأوّل، نظراً لعدم انحصار الإرادة التشريعية (التكليف بأداء الواجبات وترك المحرّمات) بأسرة النبي فقط، بل شمولها لكل الناس بلا استثناء في اجتناب الذنوب، في حين أن كلمة «إنما» تدلّ على اختصاص وانحصار هذه الموهبة في أهل بيت النبي الأكرم صلى الله عليه وآله (تأمل جيداً).

وبناءً على هذا فـ «الإرادة» هنا تنحصر بالإرادة التكوينية، لكن ليس بذلك المعنى الذي يستلزم القول بالجبر وأن أهل بيت النبي الأكرم صلى الله عليه وآله مجبرون على العصمة، لأنّ الأنبياء

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٧٢

والأئمة- وكما سيأتي الحديث عن ذلك بالتفصيل- لا يذنبون مع قدرتهم على ارتكاب الذنب، حيث إن الله تعالى قد منحهم سلسلة من المعارف والمبادئ الفطرية التي تدعوهم إلى الطهارة، بالضبط مثل العاقل الذي تمنعه معرفته ومبادئه الفطرية من خروجه إلى الزقاق عارياً كما خلقه الله تعالى، مع بداهة قدرته على ذلك (سيأتي شرح وافٍ لهذا الموضوع في ذيل الآيات).

من هم أهل البيت؟

مع كون عبارة أهل البيت مطلقة، لكن المراد منها هم أهل بيت النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بقريئة الآيات السابقة واللاحقة، واتّفاق علماء الإسلام والمفسرين على ذلك.

المهم هنا هو من المراد من أهل البيت عليهم السلام، هل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وعلى وفاطمة والحسن والحسين عليهم

السلام (هذه الأنوار الخمسة المقدسة) فقط، أم زوجات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وباقي أقربائه أيضاً؟
عموم علماء الشيعة والبعض من علماء السنة أخذوا بالقول الأول، في حين ذهب الكثير من علماء أهل السنة إلى القول الثاني «١».
ولأجل الوقوف على حقيقة المراد من أهل البيت في الآية الشريفة، لابد من التأمل في الروايات الكثيرة المذكورة في ذيل هذه الآية
عن الكثير من الصحابة عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

١- السيوطي في «الدرر المنتورة» الذي يُعدّ من أشهر كتب أحاديث تفسير القرآن عند أهل السنة، ذكر حوالي عشرين حديثاً في ذيل
هذه الآية، جاء في خمسة عشر منها أنها نزلت في حق الخمسة أهل الكساء، أي: النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وعلي وفاطمة
والحسن والحسين عليهم السلام، واللطف هنا هو انتهاء عشر من هذه الروايات الخمس إلى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله

(١) جاء في «في ظلال القرآن» أنّ التعبير بأهل البيت بشكل مطلق إشارة إلى أنّ البيت الحقيقي في العالم هو بيت النبي الأكرم صلى
الله عليه وآله، «مثلما أنّ هذا التعبير قد ورد بشكل مطلق في حقّ بيت الله الحرام في البعض من آيات القرآن» وفي الواقع فإنّ هذا
التعبير هو نوع تكريم وتعظيم خاصين لأهل بيت النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٧٣

وكون روايتها هم أم سلمة، أبو سعيد، عائشة، سعد، واصل بن أصدق، أبو سعيد الخدري، أنس، أبو الحمراء. (البعض من هذه الروايات
ينتهي سندها إلى أم سلمة زوجة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله).

في حين أنّ أربعة من هذه الأحاديث فقط تشير إلى أنّ الآيات ناظرة إلى زوجات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، والملفت للنظر هو
أنّ أيّاً من هذه الأحاديث الأربعة لا ينتهي سنداً إلى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، بل قد نقلت عن ابن عباس وعروة وآخرين كما
شهدوا على ذلك بأنفسهم، فضلاً عن رائحة الوضع التي تشتم منها، إذ قد ورد في أربعها أنّ المراد من الآية زوجات النبي الأكرم صلى
الله عليه وآله فقط! في حين أنّ الخطاب ب «كم» في جملة «لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ» و «وَيُطَهِّرَ كُمْ تَطْهِيراً»، الوارد بصيغة المذكر يبيّن أنّ هناك
رجالاً مخاطبين في هذه الآية أيضاً، على خلاف الآيات السابقة النازلة في خصوص نساء النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، والتي
استعمل فيها «نون النسوة»، إذن فالحديث القائل بأنّ المراد هو زوجات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، هو خلاف ظاهر القرآن ولا
يمكن قبوله.

٢- هناك العديد من الروايات في باب حديث الكساء بين طيات المصادر الإسلامية (وخاصة مصادر أهل السنة) التي يستخلص منها
هذا المعنى وهو أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، دعا عليّاً وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام (أو أنّهم حضروا عنده)
وغطّاهم بردائه، وقال طبقاً لروايته عن جعفر الطيّار (ابن عمّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله) اللهم لكلّ نبي أهل وإنّ هؤلاء أهلي،
فأنزل الله تعالى: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَ كُمْ تَطْهِيراً»، وفي هذه الأثناء تقدّمت زينب زوجة النبي الأكرم
صلى الله عليه وآله وقالت: ألا أدخل معكم؟ قال مكانك فإنّك على خير إن شاء الله «١».

(١) شواهد التنزيل للحسكاني، ج ٢، ص ٣٢، ح ٦٧٣.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٧٤

هذا الحديث يصرّح بعدم دخول زوجات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في آية التطهير.

والأهمّ من هذا هو الحديث الوارد عن عائشة بنفس هذا المعنى والذي تقول في خاتمته: فقلت: يارسول الله أأنت من أهلك؟ قال
صلى الله عليه وآله: «إنّك لعلي خير، ولم يدخلني معهم» «١».

كما أنّ نفس هذا المعنى جاء في صحيح مسلم، غاية الأمر أنّ ذيل الحديث الذي يرتبط بطلب عائشة لم يرد فيه «٢».

وورد نفس هذا المعنى في حديث آخر عن «أم سلمة» وأنها قالت في ذيله: يارسول الله وأنا معهم؟! قال: إنك على خير (لكنك لست منهم) «٣».

ونقل «الحاكم» نفس هذا المعنى بصراحة أكبر في «مستدرك الصحيحين» عن أم سلمة أنه صلى الله عليه وآله قال: «إنك على خير وهؤلاء أهل بيتي» «٤».

حديث أم سلمة هذا ورد في الكثير من الكتب المعروفة، من جملتها ما جاء في «صحيح الترمذی» أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حينما غطى علياً وفاطمة والحسن والحسين بردائه وقال: «اللهم! هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، فقالت أم سلمة: وأنا معهم يانبي الله؟! فقال النبي صلى الله عليه وآله: أنت على مكانك وأنت على خير» (وإن لم تكوني في زمرة أهل البيت في هذه الآية) «٥».

هذه التعابير تبين بمجموعها وبكل وضوح أن الآية لم تشمل أياً من زوجات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، لا «أم سلمة» ولا «عائشة» ولا سواهما، والذي يدعو للإستغراب هو إصرار البعض من مفسري أهل السنة على شمول هذه الآية لزوجات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله مع عدم اكتراثهم بكل هذه الأحاديث المعروفة المعتبرة.

(١) شواهد التنزيل للحسكاني، ج ٢، ص ٣٨، ح ٦٨٣.

(٢) صحيح مسلم، ج ٤، ص ١٨٨٣ (باب فضائل أهل بيت النبي) ح ٦١.

(٣) ابن الأثير نقل هذا الحديث في اسد الغابة، ج ٣، ص ٤١٣.

(٤) مستدرك الصحيحين، ج ٢، ص ٤١٦ (ط. حيدر آباد دكن) نقلًا عن إحقاق الحق، ج ٣، ص ٥١٨.

(٥) صحيح الترمذی، ج ٥، كتاب تفسير القرآن، الباب ٣٤، ص ٣٥١، ح ٣٢٠.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٧٥

والعجيب من الفخر الرازي المعروف بشروحه وتفصيلاته الوافية ودقته ملاحظاته عند تناول آيات القرآن، هو مروره من الكرام على هذه الآية التي يطول فيها الحديث من كافة الأبعاد، وتفسيره لها لفظياً بسطرين أو ثلاثة لا غير؟! لماذا يبنتلي عالم بمثل هذا التعصب الذي يغلق عليه أبواب الحقيقة مع ما تميز به من قابلية وإطلاع واسع؟!

٣- الملاحظة الأخرى هي أنه: قد جاء في الكثير من الأحاديث، والتي اشير إلى البعض منها فيما تقدم أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وبعد نزول هذه الآية كان ينادى لمدة أربعين يوماً أو ستة أشهر أو ثمانية أشهر أو أكثر من ذلك عند صلاة الفجر، أو كل الصلوات أو حين مروره ببيت فاطمة الزهراء عليها السلام: الصلاة يا أهل البيت إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً، وجاء في البعض منها أنه صلى الله عليه وآله كان يقول: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أهل البيت إنما يريد الله...» «١».

التفاوت الملحوظ في هذه الروايات من الناحية الزمنية لا أهميته له أصلاً، إذ من الممكن أن «أنساً» قد شهد هذا الموقف ستة أشهر، وأبا سعيد الخدرى ثمانية أشهر وغيرهما أكثر أو أقل، إذ في الواقع كل يذكر المدة التي شهداها هو بنفسه دون أن ينفي ما زاد عليها.

ولكن على أية حال فهذه الرواية دليل واضح جداً على أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، كان يريد بيان هذه الحقيقة لعموم المسلمين وترسيخها في أذهانهم، وهي أن هذه الأسرة فقط دون سواها هي أهل بيته في هذه الآية.

وإلغاؤه الرداء على هؤلاء نفر من أهل بيته وتشخيصه لهم به، وحجب الآخرين حتى

(١) جاء هذا الحديث في شواهد التنزيل عن أنس بن مالك، ج ٢، ص ١١، وعن أبو سعيد الخدرى في نفس الجزء، ص ٢٨ و ٢٩،

وفى الدرّ المنثور فى ذيل الآيه مورد البحث عن ابن عباس و أبو الحمراء.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٧٦

زوجاته من الدخول تحته إنّما هو لبيان أنّ مصاديق هذه الآيه هم أهل الكساء فقط.

نحن لا ندرى لو أنّ أحداً أراد تمييز أفراد معدودين من بين جمع كثير، ومخاطبتهم، بحيث لا يعترض عليه أهل الشبهات والحجج، ماذا ينبغى له أن يفعل؟ ألا يكفى لهذا الغرض إلقاء الرداء عليهم، أو مخاطبتهم عند المرور بالقرب من منازلهم لشهور متواليه! ألا يثير الدهشه والعجب إهمال البعض لهذه الحقائق، والإصرار على توسيع دائرة تلك الفضيله المهمه المحدوده بالخمسه أهل الكساء لتشمل غيرهم؟

والملفت للنظر أنّ الحاكم الحسكاني من علماء أهل السنّه المعروفين، قد ذكر أكثر من مائه وثلاثين حديثاً حول هذا الموضوع. و «السيد علوى بن ظاهر الحضرمي» يقول فى كتاب «القول الفصل»: «حديث آيه التطهير هو من الأحاديث المشهوره المتواتره التى تقبلتها الامه الإسلاميه .. واعترف بصحته سبعة عشر من كبار حفاظ الحديث» (١).

آخر ما يتعلّق بهذا الموضوع، هو أنّ الكثير من الروايات الواردة بهذا الشأن مذكوره فى كتاب «فضائل الخمسه من الصحاح السنّه» عن صحيح مسلم، صحيح الترمذى، تفسير الطبرى، مستدرک الصحيحين، مسند الإمام أحمد، خصائص النسائي، تاريخ بغداد، مسند أبى داود، اسد الغابه، وكتب اخرى يمكن الرجوع إليها لمزيد من الإطلاع والتعمق وإمكانية الحكم بشأنها بشكل أفضل (٢).

فى الآيه السابعه نطالع تعبيراً آخر يشير هو الآخر إلى مسأله عصمه الأنبياء أيضاً، وذلك حينما طرد الشيطان من رحمه الله تعالى (وبدأت عدواته مع الإنسان)، إذ يقول: «قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ».

(١) هذه الأحاديث ذكرها فى القول الفصل، ج ٢، ص ١٠ إلى ٩٢، (ص ٨٢) فراجعها.

(٢) فضائل الخمسه من الصحاح السنّه، ج ١، ص ٢٧٠ إلى ٢٨٩.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٧٧

هذا التعبير لا- ينحصر بالآيه المذكوره، بل قد ورد نفس هذا المعنى أيضاً بتفاوت ضئيل: «وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ». (الحجر / ٣٩ - ٤٠)

وفى الآيه الثامنه نرى هذا المعنى أيضاً بشكل آخر حيث يحكى تعالى عن فريق من الأنبياء الكبار: «إِنَّا أَخْلَصَيْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدار».

وكما قلنا فى خصائص الأنبياء عليهم السلام ف «المخلص» (بكسر اللام) هو الذى يسعى لتصفية قلبه وهى المرحله الرفيعه من التقوى وطهاره القلب والمرحله الأرفع والأسمى منها هى «المخلص» (بفتح اللام) وهو يختص بأولئك الذين طهرهم الله تعالى من كل الشوائب والقبايح، نتيجة سعيهم المتواصل لتهديب أنفسهم، ولهذا يرتبطون بالله تعالى بكل وجودهم، وبديهم أنّ الشيطان لا يجد إلى نفوسهم طريقاً أبداً، إذ لا مكان لغير الله فى قلوبهم ولذا لا يفكرون بمن سواه ولا يتمنون غير رضاه.

ومن المسلم أنّ صفه كهذه ملازمه لمرتبه العصمه، وذلك لخروجهم عن دائرة طاعه الشيطان، وبالشكل الذى جعله لا يفكر فى صرفهم أبداً، كما أنّهم خالصون لله تعالى من ناحيه الصفات النفسانيه والميول والرغبات، ولهذا السبب لا تدنسهم الخطيئه ولا يتبعون الهوى.

ومن البديهي أنّ استثناء الشيطان للانبيا من بين بنى آدم، وعدم السعى لإغوائهم، ليس لاحترام خاصّ يكنه لهم باعتبارهم مخلصين، بل ليأسه وقنوطه ويقينه بعجزه عن الوسوسه لهم.

و بالرغم من أنّ الآيات الآنفه الذكر لا تشير صراحة إلى الأنبياء أو الأئمة المعصومين، لكن لفظه «المخلصين» وكيفما فسّرناها تخصّ

الأنبياء وأوصياءهم، لعدم وجود أفضل منهم من بين عباد الله، والملفت للنظر أن هذا التأييد الإلهي المانع من ارتكاب المعصية وهو السبب في العصمة، والذي يدور حول محور الإخلاص متجسداً في قصة يوسف أيضاً، يقول

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٧٨

تعالى: «كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ الشُّوَاءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ». (يوسف / ٢٤)

هذا التعبير يبين أن من يكون «مخلصاً» يتخلص من ثورة هوى النفس وطغيانه، والوساوس الشيطانية ببركة الإمدادات الغيبية، وجملة «إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ» هي من قبيل القياس منصوب العلة، الذي يضيف العمومية على مفهوم الآية.

مفهوم عصمة الأنبياء في ظل الإخلاص يتضح من خلال مقاومه يوسف عليه السلام، مع كونه شاباً أعزباً، وصموده أمام أمواج الخطيئة المتلاطمة التي أحاطت بزورق وجوده من كل حذب وصوب، وفي ظروف حساسة تفوق المتعارف أمام الوسوس الكثرية، التي أثارها تلك المرأة الجذابة، ولذا نجد أن لأقطاب المفسرين عبارات تشير إلى مقام عصمة الأنبياء في ذيل الآيات المذكورة «١».

وفي الآية التاسعة خوطب نبي الإسلام صلى الله عليه وآله ضمن الحديث عن الأنبياء السابقين، كإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى، وفريق آخر من الأنبياء الكبار بقوله تعالى: «أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدَهُ» «٢».

الملفت للنظر أنها تأمر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بالإقتداء بهديتهم بلا قيد أو شرط!، فهل يعقل عدم حصول أولئك الأنبياء عليهم السلام على مقام العصمة ثم يؤمر نبي الإسلام صلى الله عليه وآله بالإقتداء بهم بلا قيد أو شرط؟

وبعبارة أخرى: في الآية أعلاه تم التأكيد أولاً على الهداية الإلهية لهم، ثم تم التفريع على ذلك بالقول: الآن وبعد أن شملتهم الهداية الإلهية اقتد بهداهم (تأمل جيداً).

ومن المسلم أن المراد، بالهداية الإلهية هنا ليس رسم الطريق فحسب، لعدم اختصاصه بالأنبياء فقط بل لشموله لكل الناس حتى الكفار، وعليه فالهداية المذكورة هي نفس معنى الإيصال إلى المطلوب (وبلوغ المقصود) بعيداً عن أي خطأ وانحراف واشتباه ومعصية.

(١) راجع تفسير مجمع البيان للطبرسي؛ تفسير جامع البيان للشيخ الطوسي؛ وتفسير الميزان للعلامة الطباطبائي؛ تفسير روح البيان للقرطبي؛ وتفسير في ظلال القرآن لسيد قطب في ذيل الآيات مورد البحث.

(٢) يجب ألا يفوتنا أن «الهاء» في لفظه «اقتده» ليست ضميراً بل هاء السكتة التي تلحق الكلام عند الوقوف على الحرف المتحرك.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٧٩

يقول المرحوم العلامة الطباطبائي في تفسير «الميزان»: إن هذه الآية خاصة بالمعصومين.

بديهي أن المراد بهداية الأنبياء هي تلك الاصول والمعارف التي بلغوها بأنفسهم، مضافاً إلى اصول تعليماتهم العبادية والسياسية والأخلاقية والتربوية، ولا منافاة لهذا مع نسخ قسم من تفاصيل أحكام شريعتهم، كما أن تفسيرهم للهداية بمعنى الإيمان أو الصبر وأمثالهما إنما هو لاقتناعهم بما ذكره البعض من المصاديق.

واعتماد البعض بأن الآية منسوخة ليس في محلّه، يقوله تعالى «لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا» (المائدة / ٤٨)

وهذه لأن هداية الأنبياء التي تشكّل الاصول العامة لتعاليمهم غير قابلة للتغيير، ولا تتأثر بالتغيرات الجزئية للشرائع الناتجة عن الظروف الزمانية والمكانية، ولذا يقول القرآن على لسان المؤمنين الحقيقيين: «لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ».

(البقرة / ٢٨٥)

وخلاصة الكلام هي: أن الإقتداء بهدى الأنبياء السابقين هو نوع من «التحقيق» لا «التقليد» كما يراه البعض، لأن التحقيق هو قبول الشيء بالدليل، ومقام عصمة الأنبياء وصدقهم هو بمثابة الدليل على حقانية ما يقولونه، ولذا فاستنباط صفات الله تعالى أو تفصيلات المعاد

من القرآن، هو في الحقيقة نوع من التحقيق لا التقليد، وذلك لعدم انحصار الدليل بالعقل، بل هناك الدليل النقلى الثابت عن طريق الوحي والمقبول كالدليل العقلى (تأمل جيداً).

الآية العاشرة من آيات البحث إشارة إلى شخص النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يقول تعالى: «وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ».

يستفاد من هذا التعبير بكل وضوح أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لا يكذب ولا يخطأ في كلامه أبداً، ولا سبيل للضلال والانحراف إليه: «مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ».

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٨٠

ولذا- وعلى حد قول بعض المفسرين- يستفاد من هذه الآيات بما لا يدع مجالاً للشك، أن سنة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله هي كـ «الوحي المنزل» (١).

أمّا إلى ماذا يعود الضمير «هو» في جملة «إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ؟ الظاهر أنه يعود على «النطق» المستفاد من جملة «وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ»، أى أن «كلامه وحى إلهي»، سواء أكان هذا الكلام آيات قرآنية أم أحكام ومواعظ وحكم، وأمثال ذلك، فكلها تتمتع بجذور إلهية.

وكما يستفاد من الآيات أعلاه أن المصدر الرئيسى للضلال والانحراف هو اتباع هوى النفس، وأن من يسيطر على هوى نفسه بشكل تام لا يعصى الله تعالى، لأن تقواه تحفظه من الانحراف لاقترائها بوضوح الرؤية في كافة المراحل، وحين بلوغ المرحلة السامية، يصل وضوح الرؤية بدوره إلى مرحلة الكمال أيضاً، وبناءً على هذا لا يرتكب ذنباً ولا خطيئة (تأمل جيداً).

ثمره البحث:

مما لا شك فيه أن الآيات السابقة لا تتماثل ولا تتشابه في بيان كفيته وأبعاد عصمة الأنبياء، فبعضها يعتبرها عصمة من الذنب أو الصيانة من الخطأ فقط، والآخر يعتبرها عموميّة وشموليّة لكل الامور، والبعض تحدثت عن نبي الإسلام صلى الله عليه وآله، والبعض الآخر عن الأنبياء السابقين، بعضها وصفت العصمة بعصمة القول، بينما البعض الآخر اعتبرتها شاملة للفعل أيضاً. لكن مجموع هذه الآيات يثبت هذه الحقيقة، وهي: أن الأنبياء منزّهون معصومون من أى ذنب أو خطأ، كما أن عصمة أهل بيت النبي الأكرم صلى الله عليه وآله الثابتة بالآيات المذكورة، هي ممّا لا يخفى وهو ما كنا بصددده.

(١) يقول القرطبي في تفسيره، ج ٩، ص ٦٢٥٥ وفيها أيضاً دلالة على أن السنة كالوحي المنزل في العمل.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٨١

تنزيه الأنبياء عليهم السلام

إشارة

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٨٣

تنزيه الأنبياء

إشارة

إن أول ما نتناوله في هذا البحث التعابير الواردة في آيات القرآن المجيد، التي توهم لأول وهلة أنها دليل على صدور ذنب أو خطأ من أولئك الأنبياء العظماء في بعض الأحيان.

سنذكر فيما يلي أهم الآيات التي تحدّثت حول هذا الموضوع، طبقاً للترتيب التاريخي للأنبياء عليهم السلام.

١- آدم عليه السلام

نقرأ في القرآن الكريم: «وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى . (طه / ١٢١)

وكذلك في قوله تعالى «وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَى وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً».

(طه / ١١٥)

لقد نسبت الآية الأولى العصيان والغى إلى آدم، والثانية نسبت إليه النسيان وعدم العزم مع أن هذا لا يتناسب مع عصمة الأنبياء وبعيد عنهم كل البعد.

الجواب:

هنالك أبحاث متنوّعة للمفسّرين منذ قديم الأيام وإلى الآن حول الإجابة عن هذا السؤال، لقد ذهب بعض المفسرين - ودون الأخذ بنظر الاعتبار الأدلة العقلية والنقلية - إلى أن ما صدر من آدم عليه السلام يُعدُّ من الذنوب الكبيرة، إلّا أنه يرتبط بالفترة التي سبقت نبوته.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٨٤

وبعضهم حمل هذه المعصية على كونها من الذنوب الصغيرة ولم يعرها أية أهمية.

وبالرغم من الآيات الواردة والمتعلقة بعصمة الأنبياء والمنزلة الرفيعة التي أولاها الله سبحانه وتعالى لهم، وبالأخص لآدم عليه السلام، حيث جعله خليفته وحجته، إلّا أنهم لم يدعوا لمثل هذه الأدلة ولم يسلموا لها، بل أخذ كل واحد منهم يبتكر حلاً ويذهب مذهباً للخروج من هذه المعضلة، ومن بين هذه التفاسير يمكن الركون إلى ثلاثة آراء باعتبارها الطريق الأمثل لحل هذا الاشكال وهي:

أ) كان نهى آدم نهياً إختبارياً - مع الأخذ بنظر الاعتبار أن آدم كان قد خلق للعيش في الأرض لا الجنة، وأن فترة وجوده في الجنة كانت فترة اختبار لا - تكليف، إذن فأوامر الله ونواهيها هنا كانت لغرض إعداد آدم، بحيث يتلاءم وحوادث المستقبل فيما يتعلق بالواجب والحرام.

وبناءً على هذا فقد خالف آدم أمراً إختبارياً فقط لا أمراً واجباً قطعياً.

في حديث للإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام وفي معرض رده على «علي بن محمّد بن الجهم»، الذي يعدّ من متكلمي ذلك العصر المعروفين، وكان يعتقد بعدم عصمة الأنبياء استناداً إلى بعض ظواهر الآيات القرآنية، قال عليه السلام له: «ويحك يا علي اتق الله ولا تنسب إلى أنبياء الله الفواحش ولا تتأول كتاب الله برأيك فإن الله عزوجل يقول: «وَمَا يَعْلمُ تَأويلَهُ إِلَّا اللَّهُ» ثم أضاف قائلاً: أمّا قول الله عزوجل في آدم عليه السلام: «وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى»، فإن الله عزوجل خلق آدم حجته في أرضه وخليفته في بلاده، لم يخلقه للجنة وكانت المعصية من آدم في الجنة لا في الأرض، (والجنة لم تكن دار تكليف بل دار اختبار) لتتم مقادير أمر الله عزوجل، فلما اهبط إلى الأرض وجعل حجة الله وخليفته عصم بقوله عزوجل: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ»

ب) كان نهى آدم نهياً إرشادياً- يعتقد جمع من المفسرين أن أوامر الأنبياء ونواهيهم ومن جملتهم آدم عليه السلام والتي لم تطبق، كانت ذات جانب إرشادي، مثل أمر الطبيب للمريض

(١) بحار الأنوار، ج ١١، ص ٧٢.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٨٥

بتناول الدواء الفلاني، والاجتناب عن الطعام الفلاني غير المناسب، فمتى ما خالف المريض أمر الطبيب فسيضر نفسه، لعدم اكترائه بإرشاد الطبيب وتعليماته.

فمن الممكن هنا عصيان أمر الطبيب ومخالفته، ولكن من المسلم أن هذا سيكون على حساب صحة المريض، ولا يعنى الإستهانة بمقام الطبيب أبداً، وهكذا فقد قال الله تعالى لآدم: لا تأكل من هذه «الشجرة» وإلا فستطرد من الجنة ونعيمها، وتلقى المشقة والعذاب: «فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى . (طه/١١٧-١١٩)

وبناءً على هذا فقد خالف آدم نهياً إرشادياً، لا أمراً إلهياً واجباً، فواجه المصاعب، كما أن التعبير بـ «العصيان» لا يחדش في عصمة آدم أبداً، لو أخذنا بنظر الاعتبار القرائن الموجودة في سائر الآيات.

ومن هنا يتضح أيضاً تفسير جملة «غفوى» في ذيل نفس هذه الآية، وأن المراد منها هو حرمانه من نعيم الجنة، لا «الغواية» التي تعنى التصرفات المنبثقة عن الإعتقادات الخاطئة، أو الامور التي تحول دون بلوغ الإنسان لمراده، وعلى أية حال فلو أن آدم لم يخالف هذا النهى الإرشادي لمكث في الجنة فترة أطول.

ج) كان تركاً للأولى هذا الجواب له مؤيدون أكثر ليس هنا فقط، بل في كل الموارد التي ينسب فيها الذنب إلى الأنبياء فإنها تفسر بهذه الطريقة.

توضيح ذلك: الذنب والمعصية على نوعين: مطلق، ونسبي، والمراد بالقسم الأول هو كل تلك الذنوب التي تعدّ ذنباً حين صدورها من أى شخص ولا استثناء فيها أبداً، كأكل المال الحرام والظلم والزنا والكذب.

أما الذنب النسبي فهو ذلك الذنب الذي يعدّ تصرفاً غير مرغوب فيه قياساً بمقام وشخصية ومعرفة الأشخاص، وما أكثر ما يعد صدور هذا الشيء من الآخرين فضيلةً فضلاً عن عدم اعتباره عيباً.

فمثلاً الصلاة المناسبة لشخص امي لا تليق أبداً بعالم عارف له تاريخ علمي طويل، أو

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٨٦

أن تبرعاً متواضعاً من عامل بسيط يكلفه اجرة يومه لمشروع خيري عام كبناء مدرسة أو مستشفى أو مسجد يعدّ في نفسه عملاً خيراً بل إشاراً كبيراً، في حين أنه لو تبرع أحد الأثرياء المعروفين بنفس هذا المبلغ، لتعرض للذم والإتهام بضعف الهمة والبخل وهذا هو مصداق القول المعروف بين العلماء والفضلاء إن: «حسنت الأبرار سيئات المقرّبين».

وبناءً على هذا فما يصدر من الأنبياء يسمّى عصيانياً لعدم لياقته بمنزلتهم الرفيعة وإيمانهم ومعرفتهم، قد يكون عين «الطاعة» حين صدوره عن غيرهم، فأداء الصلاة بقليل من حضور القلب يعدّ للشخص العادي فضيلةً بينما يعدّ ذنباً بالنسبة للنبي أو الإمام (ذنب نسبي لا مطلق).

كلّ التعابير حول معصية الأنبياء وذنوبهم سواء فيما يتعلّق بآدم أو بخاتم الأنبياء عليهما السلام، والتي تلاحظ في الآيات والروايات، يمكن أن تكون إشارة إلى نفس هذا المعنى.

كما ويعبر أحياناً عن هذا المعنى بـ «ترك الأولى»، والمراد به ذلك العمل الذي يكون تركه أولى من فعله، هذا العمل الذي يمكن

أن يكون من «المكروهات» أو «المباحات» بل وحتى «المستحبات» أيضاً، فالطواف المستحب مثلاً، ومع كونه عملاً حسناً مقبولاً، لكن تركه والسعى وراء قضاء حاجة المؤمن أولى وأفضل «كما جاء في الروايات».

الآن لو أن أحداً لم يقدم على قضاء حاجة المؤمن، وذهب بدل ذلك للطواف حول بيت الله تعالى، فقد ترك الأولى مع إتيانه بعمل مستحب بذاته، ولا يليق هذا الشيء بأولياء الله وأتباعه وأئمة الهدى عليهم السلام، وتوهم البعض بأن ترك الأولى يطلق على الموارد المكروهة فقط، إلا أن هذا الوهم في غير محله بل هو خطأ محض. (فتأمل).

على أية حال فمقولة الذنب النسبي وتحت عنوان ترك الأولى يمكن أن يكون جواباً حسناً لكل الأسئلة التي تثار حول الآيات والروايات التي نسب فيها الذنب إلى المعصومين.

الملفت للنظر أن التعبير بـ «المعصية» فيما يتعلق بـ «ترك المستحبات» قد ورد في الروايات الإسلامية أيضاً، من جملتها الحديث المعتبر عن الإمام الباقر عليه السلام في حديثه

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٨٧

عن النوافل اليومية قال: «إنما هذا كله تطوع وليس بمفروض إن تارك الفريضة كافر وإن تارك هذا ليس بكافر ولكنها معصية» (١). كما أن معنى «العصيان» لغوياً وكما ذكره الراغب في مفرداته، هو كل خروج عن دائرة الطاعة (سواء أكانت هذه الطاعة في الأوامر الوجوبية أو الإستحبابية) (٢).

سؤال: يمكن أن يقال هنا: صحيح أن للعصيان والذنب مفهوماً واسعاً بحيث يشمل أحياناً ترك المستحب والأولى أيضاً، وأنه يتفاوت بتفاوت الأشخاص، لكن ما هي الحكمة من تكرار الله تعالى التعبير بالمعصية بحق أنبيائه المكرمين في آيات القرآن المجيد؟ جواب هذا السؤال ذكر في حديث لطيف نقله المرحوم الطبرسي في كتاب الإحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام، وهو حديث طويل جاء في فقره منه أن زنديقاً قال: إني أجد الله قد شهر هفوات أنبيائه مثل «وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (فما الحكمة من هذا؟)». فقال الإمام عليه السلام: «وأما هفوات الأنبياء عليهم السلام وما بينه الله في كتابه و... فإن ذلك من أدلّ الدلائل على حكمه الله عزوجلّ الباهرة وقدرته القاهرة، لأنه علم أن براهين الأنبياء تكبير في صدور اممهم، وأن منهم من يتخذ بعضهم إلهاً، كالذي كان من النصارى في ابن مريم، فذكرها دلالة على تخلفهم عن الكمال الذي تفرّد به عزوجلّ» (ولتلا يراود فكر الوهيتهم ذهن أحد أبدأ) (٣).

ثمرة البحث:

ما جاء عن آدم وكذلك سائر الأنبياء من أنهم ارتكبوا الذنب والمعصية، له ثلاثة أجوبة رئيسية تفي بالمطلوب مجتمعاً أو منفردة، ولا منافاة بينها في نفس الوقت، أي أن هذه التعبيرات يمكن أن تشير إلى ترك الأوامر الإختبارية والإرشادية وكذلك ترك الأولى، هذا

(١) تهذيب الأحكام (طبقاً لما نقله تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٤٠٤، ح ١٦٥).

(٢) مفردات الراغب، مادة (عصى).

(٣) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٣٠٣، ح ١٧٣.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٨٨

بالنسبة لآدم، أما سائر الأنبياء فيمكن أن تنظر إلى القسمين الأخيرين، أي ترك الأوامر الإرشادية وترك الأولى (تأمل جيداً).

تقرأ في قصة نوح عليه السلام: أنه حينما بدأ الطوفان بسبب الأمطار الغزيرة المنهمرة من السماء، والمياه المتدفقة من باطن الأرض، لم تمض مدة طويلة حتى أحاط الماء بكل مكان، وأن نوحاً وأصحابه ركبوا السفينة، وتعرض ابنه للغرق لتمردّه على أمر أبيه، وعدم إيمانه الذي يعد شرطاً لركوب السفينة، فنظر نوح إلى السماء وقال: «رَبِّ إِنِّي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ». (هود/ ٤٥) أي قد وعدتني بإنقاذ أهلي، فعاب الله سبحانه نوح على الفور بخطاب قال فيه: «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ». (هود/ ٤٦) فلم تطلب ما ليس لك به علم؟! فاعتذر نوح وقال: «قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ». (هود/ ٤٧)

في هذه الآية يعتذر نوح عليه السلام عن طلبه ما ليس له به علم، ويطلب من الله تعالى العفو والرحمة والمغفرة، كما ويقول أيضاً: إن لم تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين.

السؤال هو: كيف تتلاءم هذه المواضيع الثلاثة ومقام عصمة الأنبياء؟

الجواب: يجب أولاً التدقيق في نوع الخطأ الذي ارتكبه نوح؟ هل كان ذنباً، أم تصرفاً في حدّ ترك الأولى؟ طبعاً كان الله تعالى قد حذّر نوحاً من مغبة الشفاعة للظالمين (المشركين) لأنهم مغرّقون، قال تعالى: «وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرَقُونَ». (هود/ ٣٧) ولكن هل أن نوحاً كان يعلم بأن ابنه من زمرة الكفار؟، إذ من الممكن وكما احتمله بعض المفسرين أن الولد كان يخفي حاله عن أبيه، وما أكثر أولئك الأبناء الذين نسمع عنهم أو نراهم يتظاهرون أمام آبائهم بالصلاح، في حين ينتهجون نهجاً آخر في غيابهم. نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٨٩

مضافاً إلى ذلك، وطبقاً للآية «فَلَمَّا أَحْمِلُ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ» (١). (هود/ ٤٠) فقد كان نوح يتصور أن ابنه سيكون من أهل النجاة، اعتماداً على الوعد الإلهي، ولذا طلب من الله تعالى ذلك في الآيات مورد البحث: «وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ». (هود/ ٤٥) في هذه الحادثة لا نشاهد أي مصداق للذنب والمعصية من نوح سوى ترك الأولى، إذ كان ينبغي عليه أن يتحقق أكثر في حال ولده قبل أن يطلب من الله تعالى نجاته، كما أن تعبير نوح بالنسبة لولده حين ناداه وقال له: «يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ» (هود/ ٤٢) ولم يقل (من الكافرين) قرينه على أن نوحاً لم يكن يعتبر ولده من الكافرين بل معهم. كما قال البعض أيضاً: إن نوحاً كان يعلم بكفر ابنه، لكن حبه الشديد له (بالإضافة إلى حالة الإضطراب التي أحاطت به عند حدوث الطوفان، والتي كانت تفوق العادة) كان السبب وراء تجاهل نوح لوضع ابنه ولو مؤقتاً للجوء إلى الله تعالى لإنقاذه، لكنّه انتبه بعد الإنذار الإلهي واعتذر لتركه الأولى.

٣- إبراهيم عليه السلام

هناك تعابير تبدو عند تفسيرها لأول وهلة وكأنها نوع من الذنب، وردت حول هذا النبي العظيم الذي يميّز بمكانه خاصّة حتى من بين الأنبياء عليهم السلام، من حيث الإيمان والإخلاص والإيثار والشجاعة والصبر والاستقامة، نقرأ في القرآن الكريم أنه القى القبض عليه بعد تحطيمه للأصنام ومثّل في المحكمة فسأله: «قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا يَا إِبْرَاهِيمُ؟» (الانبياء/ ٦٢-٦٣)

فأجاب: «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ».

(١) يمكن أن يكون هذا التعبير إشارة إلى الآية ٣٧ من نفس سورة هود «عَدَّة آيَاتٍ قَبْلَ الْآيَةِ مُرِيدَ الْبَحْثِ» حيث يقول تعالى: «وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ» وأنّ واحداً من أجلى مصاديقها يتحقق في زوجة نوح التي التحقت بالكفار وأنّ نوحاً بدوره لم يتعرّض للحديث عن نجاتها أبداً.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٩٠

وهنا يرد إشكال وهو: كيف نسب إبراهيم عليه السلام عمله هذا إلى كبير الأصنام، أليس هذا كذباً؟!

وفي نفس هذه الحادثة وعندما طلب منه المشركون الخروج معهم خارج المدينة للإحتفال بعيد الأصنام، إعتذر من الذهاب معهم بقوله: «إِنِّي سَقِيمٌ». (الصافات / ٨٩)

ومع أنّه لم يكن مريضاً، فكيف يتناسب هذا الكلام مع منزلة عصمته؟ كما نقرأ في القرآن الكريم أنّ إبراهيم يصرّح بأنّه يتمنّى غفران ذنوبه ويقول: «وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ». (الشعراء / ٨٢)

ألم يكن هذا الإعتراف دليلاً على صدور الذنب من ذلك النبي العظيم؟

كما وأشكلوا عليه أيضاً أنّه عليه السلام لماذا اتفق موقفه مع عبدة النجوم والقمر والشمس بالرغم من إيمانه الخالص المنزه من أى شائبة من شوائب الشرك حيث قال بمقولتهم «هَذَا رَبِّي». (الأنعام / ٧٦ و ٧٧ و ٧٨)

هذه هي المواضع الأربعة الواردة في القرآن المجيد والتي أثار كلّ واحد منها بدوره جدلاً حول منزلة وعصمة إبراهيم وتنزيهه من الذنب والمعصية.

الجواب:

ذكر كبار المفسرين ورواة الحديث ادلة ومواضيع جمّة للإجابة عن هذه الإستفسارات الأربعة، ولكن بعض تلك المطالب ليس لها أسانيد معتبرة، والجواب الذي سنذكره هنا هو أنسب تلك الأجوبة وأكثرها اعتماداً:

أمّا فيما يتعلّق بالسؤال الأوّل، فإنّ إبراهيم لم يقل: إنّ كبير الأصنام قد فعل هذا، إنّما قال: «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ».

هذه العبارة يمكن أن تكون من باب «القضية الشرطية»، أى أنّ إبراهيم قد نسب هذا العمل إلى كبيرهم بشرط نطقهم، ولا يخفى عدم وجوب الكذب في هذه القضية الشرطية.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٩١

هذا هو نفس ما نقل عن الإمام الصادق عليه السلام في حديث أنّه قال: «ما فعله كبيرهم وما كذب إبراهيم، وحينما استفسر السائل عن كيفية ذلك؟ قال عليه السلام قال إبراهيم: (فاسألوهم إن كانوا ينطقون فكبيرهم فعل، وإن لم ينطقوا فلم يفعل كبيرهم شيئاً، فما نطقوا وما كذب إبراهيم)» (١).

كما أنّ نسبة إبراهيم عليه السلام هذا العمل إلى كبير الأصنام إنّما جاء من باب الكناية، التي هي أفضل من التصريح، فلقد أراد أن يوقف عبدة الأصنام على خرافة عقائدهم عن هذا الطريق، ويفهمهم أنّ هذه الأحجار والأخشاب الجامدة عاجزة حتّى عن التفوّه ولو بجملة واحدة وأنها محتاجة إلى عبادتها، فكيف يمكنها والحالة هذه من حلّ مشاكلهم؟

وبعبارة اخرى، فالكذب إنّما يكون فيما لو لم تكن هناك قرائن تدلّ على أنّ المقصود كناية، وهنا تشير كلّ القرائن إلى أنّ إبراهيم لم يكن جدياً في كلامه هذا، بل كان يسخر من أفكارهم، وما أكثر أمثال هذه التعابير في المحاورات اليومية، كما لو فرض وقوع سرقة ما في محيط محدود يقطن فيه أشخاص معينين، وعند التحقيق ينفي كلّ منهم هذا الاتّهام عن نفسه، فيقول المحقّق، أنت لم تفعل هذا وذاك لم يفعله و... حتماً قامت به ملائكة السماء! وبديهي أنّ هذا الكلام لا يعتبر كذباً، بل الهدف منه هو تكذيب أقوالهم الواهية التي لا أساس لها.

هناك احتمال ثالث أيضاً، وهو أن جملة «بل فعله» مطلقة، وهي في الواقع إشارة إلى تحليل منطقي مطابق لعقائد الوثنيين، وهو أنه: ألا تعتقدون أن حادثة تحدث داخل المعبد لا يمكن أن تكون بفعل من خارج المعبد، وذلك لهيمنة الأصنام على كل شيء وكل فرد، ومهما كان فهو داخل المعبد، وحيث إن كبر الأصنام أكثرهم قوة ومنعة، بالإضافة إلى وجود الفأس في عنقه (يقال أن إبراهيم وضع الفأس على رقبته)، فضلاً عن كونه الصنم الوحيد الذي لم يلحق به أى أذى.

إذن بناءً على هذا فالقرائن تشير إلى أنه من فعل كبيرهم، وهذا نظير التحاليل التي

(١) تفسير نور الثقلين ج ٣، ص ٤٣٤، ح ٨٤؛ بحار الأنوار، ج ١١، ص ٧٦، ح ٤ (باب عصمة الأنبياء).

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٩٢

يستخدمها المحققون لمعرفة الجاني عن طريق تتبع آثاره وبصمات أصابعه، حينما يدخلون في محيط قد وقعت فيه جريمة، وكما قلنا فإن هذا التحليل كان مطابقاً لعقائد الوثنيين لغرض إدانتهم بما يعتقدون.

وفيما يتعلق بالآية الثانية فلا دليل أصلاً على أن إبراهيم عليه السلام لم يكن مريضاً حقاً، فهناك علة في بدنه، غاية الأمر أنها لم تكن بتلك الخطورة التي تقعه عن نشاطه البدني بالمرّة، وتستفحل عليه بحيث تمنعه حتى عن تحطيم الأصنام، وما أكثر المرضى المشغولين بأعمالهم طول النهار، خصوصاً تلك التي تبعث على ترسيخ العقيدة كتحطيم الأصنام لبطل التوحيد إبراهيم! هذا أولاً.

وثانياً مع أن «السيِّم» و«السيِّم» هو المرض المختص بالبدن، لكنه قد يكون في النفس أيضاً كما صرح به البعض من أصحاب اللغة، وبديهي أن روح إبراهيم كانت متعبة وكالمريضة في ذلك الجو المليء بالشرك، إذن فقوله أتى سقيم إشارة إلى الجانب النفسي.

ثم إن الأمراض النفسية حين تشتد وطنتها تظهر مضاعفاتها السلبية حتى على البدن أيضاً، وقد أصبحت هذه المسألة اليوم من المسلّمات، والقرآن الكريم أيضاً يخاطب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «فَلَعَلَّكَ يَأْخُجُ نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا».

(الكهف / ٦)

كما أن بعض المفسرين قال: إن لإبراهيم عليه السلام مرضاً (كالحمى المزمنة) يتتابه بين الفينة والاخرى، وأن مراده من جملة، (إتى سقيم) هو اقتراب زمن هذا المرض فانا معذور من مرافقتكم، كما أن الجملة التي قبلها: «فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ» (الصافات / ٨٨) دليل على هذا المدعى، لأن النظر إلى النجوم إنما يكون لحساب الوقت أي للوقوف على زمن ظهور ذلك المرض.

وفيما يتعلق بالآية الثالثة، فالجواب هو نفس ما تقدّم تفصيله في الآيات المتعلقة بآدم عليه السلام، وهو أن مراد إبراهيم من «الخطيئة» هو «الذنب النسبي» و«ترك الأولى» و«حسانت الأبرار سيئات المقربين» (١).

(١) مع أن «الخطيئة» مأخوذة من مادة «الخطأ» والتي تعنى في الأصل الزلّات الصادرة من الإنسان لكنّها اتّسعت تدريجياً لتطلق على كلّ ذنب يشمل العمد وغيره، واستعمالها في الذنب غير العمد واسع جداً، لكن «الإثم» يطلق على الذنوب العمديّة، وهو يعنى في الأصل: الشيء الذي يثني الإنسان عن عزمه، وحيث إن الذنب يحول دون بلوغ الإنسان للمنزلة الرفيعة ويمنع عنه الكثير من الخيرات والبركات فقد سمى «إثماً».

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٩٣

لكن ما هو «ترك الأولى» بالنسبة لإبراهيم ياترى؟ قال البعض: إن المراد به هو كل تلك الحالات التي تتسبب في غفلة الإنسان عن الله تعالى بأى نحو كان، كالاشتغال بشؤون الحياة مثل الأكل والشرب وأمثالها التي يعتبرها أولياء الله ذنباً لغفلتهم عن الله تعالى ولو بهذه الدرجة (١).

وفيما يتعلّق بالآية الرابعة، أى إشارة إبراهيم إلى النجم والقمر والشمس، ووصفه إيّاها «هذا ربّي» فللمفسّرين فيه أقوال وآراء كثيرة أيضاً، أقواها أن نقول: إنّ إبراهيم كان فى مقام الحوار والاستدلال مع المشركين من عبدة النجم والقمر والشمس (بقربنة الآيتين اللتين تحفّان بهذه الآية، واللّتين تتعرّضان لحوار إبراهيم واحتجاجه على الوثنيين).

وبناءً على هذا فقد وقف إبراهيم عليه السلام بوجه هذه المجاميع الثلاث كلّ على حدة، إذ وافقهم على آرائهم فى أوّل الأمر، وعلى سبيل الفرض لحين أقول هذه الكواكب السماوية لكى يتبيّن لهم خطأهم، بالضبط مثلما نواجه القائلين بسكون الأرض وحركة الشمس حول الأرض فنقول لهم حسناً، كما تقولون، لكن هل تعلمون أيّة دائرة عظيمة تستلزمها كلامكم هذا لكى تتمكن الشمس التى تفصلها عن الأرض تلك المسافة البعيدة، وأى سرعة عظيمة تحتاج للدوران حول الأرض دورة كاملة كلّ ٢٤ ساعة، وثبوت هذه السرعة لمثل هذا الجرم السماوى من المستحيلات، إذن، يتّضح من ذلك بطلان فرضيتكم، (فتأمّل جيّداً).

هذا هو أحد أفضل الطرق التى يمكن استخدامها لإبطال نظريات الخصم، أى الوقوف معه أوّلاً، وموافقته (على سبيل الفرض)، دون إثارة روح التعصب والعناد عنده، ثمّ إيقافه على نتائجها الباطلة، كما قال البعض أيضاً: إنّ استخدام جملة «هذا ربّي» أمام هؤلاء القوم كان بمثابة «استفهام»، ذلك الإستفهام الذى يعدّ مقدّمة لإبطال نظرياتهم عند غروب وافول تلك الكواكب.

(١) تفسير الميزان، ج ١٥، ص ٢٨٥.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٩٤

أمّا القول: إنّ إبراهيم عليه السلام قد نطق بهذه الجمل للتحقيق بنفسه ولا مانع من قبول الإنسان لمختلف الآراء مبدئياً واختبارها، فلا يبدو صحيحاً لأنّ جملة: «يا قوم إنّى برىء ممّا تُشركون» (الانعام/ ٧٨) دليل على أنّه كان بمثابة الإحتجاج على هؤلاء المشركين لا التحقيق بنفسه.

وقول البعض تأييداً لهذا الإدّعاء: إنّ إبراهيم لم ير السماء إلى تلك اللحظة بصورة جيّدة، لأنّ والدته كانت قد خبّأتها فى غار خارج المدينة خوفاً من عيون نمرود، فيبدو كلاماً بعيداً جيّداً، إذ كيف يعقل أن يبقى إبراهيم فى الغار طوال سنين عديدة منذ طفولته وحتى ريعان شبابه ولا يخرج منه ولو لمرة واحدة، لا ليلاً ولا نهاراً؟! هذا الكلام أقرب إلى الاسطورة من الواقع «١».

فضلاً عن أنّ هذه الآيات قد وردت على الفور، بعد الآية التى تتعرّض للحوار الجدى لإبراهيم مع آزر حول مسألة تسفيه اعتقاده بالأصنام، أى أنّ إبراهيم عليه السلام كان قد بلغ مقام التوحيد الرفيع واليقين الراسخ قبل ذلك، وأنّ الله تعالى كان قد أطلعه على ملكوت السماوات، وقد بدأ إبراهيم عليه السلام بعده بدعوة الآخرين لا التحقيق لنفسه.

الملاحظة الجديرة بالاهتمام هى: إنّ إبراهيم وليان بطلان ربوبية هذه الكواكب الثلاثة، أورد دليلاً يعدّ من أدقّ البراهين الفلسفية، فى الوقت الذى يسهل على الجميع استيعابه، فيقول فى هذا الدليل: إنّ «الربّ» يجب أن يبقى على اتّصال دائم بمخلوقاته، وبناءً على هذا فالموجود الذى يغرب فينقطع نوره وبركاته لساعات طوال، لا يمكن أن يكون ربّاً لهذه الموجودات.

فضلاً عن أنّ الشروق والغروب المستمرين لهذه الأجرام السماوية، دليل على خضوعها لقانون ما، وكيف يتسنى للموجود الواقع فى قبضة القوانين الكونية، والطبيعية أن يكون

(١) وقد جاء ذلك فى عيون أخبار الرضا عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام أنّ إبراهيم خرج من مخبئه والتقى بثلاث طوائف من المشركين (تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٧٣٥).

يعدّ فى ذاته دليلاً على خلاف هذا الإدّعاء فضلاً عن دعمه له «تأمّل جيّداً».

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٩٥

حاكماً على هذا العالم وخالقاً له؟!

بالإضافة إلى أن «الحركة» بذاتها موجود «حادث»، وبناءً على هذا فالشيء المتحرك مخلوق وحادث حتماً، ومثل هذا لا يمكن أن يكون موجوداً أزلياً أبدياً (هذا هو نفس الشيء الوارد في البراهين الفلسفية تحت عنوان «العالم متغير» و «كل متغير حادث»). وبناءً على هذا فقد كان لحوار إبراهيم ثلاثة مفاهيم مختلفة ومثيرة، ولا يمكن الاستغناء عنها لإبطال الوهية النجم والقمر والشمس.

٤- يوسف عليه السلام

أما في شأن النبي يوسف عليه السلام فنحن نواجه بعض الآيات التي تبدو لأول وهلة غير منسجمة مع منزلة عصمته، من أهمها ماجاء في القرآن الكريم: «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهْ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهٖ كَذَلِكَ لِنَصْرَفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهٗ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ». (يوسف / ٢٤)

إذ يتصور القارىء في البداية أن هذه الآية تجعل من يوسف شريكاً لزيخا في قصد المعصية.

الجواب:

يكفى التمعن في نص هذه الآية لرفع هذا الالتباس، لأن القرآن يقول: «لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهٖ» ومفهوم هذا الكلام هو بالضبط أنه لم يقصد المعصية لأنه رأى برهان ربه.

ما هو المراد بهذا البرهان؟ (علماً أن البرهان يعنى كل دليل قوى ومحكم يتبنى بيان الحقيقة وإيضاحها، وهو مأخوذ من مادة «بره» التي تعنى: إبيض).

للمفسرين هنا احتمالات متعددة، أفضلها هو القول: إن المراد من برهان الرب، هو

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٩٦

اطلاعه على أسماء الله تعالى وصفاته وكونه تعالى عالماً قادراً سمياً بصيراً.

أو بعبارة أخرى: المراد بالبرهان هو الإمدادات الإلهية، والتأييدات الربانية التي تسرع لنجدة المؤمنين والمتقين في اللحظات الحرجة والمصيرية، إذ تمدهم بالقوة أمام جنود الشيطان ووساوس النفس.

الدليل على هذا الكلام هو ما جاء في آخر الآية حيث يقول تعالى: «كَذَلِكَ لِنَصْرَفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهٗ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ».

يتضح من هذا الكلام أن عباد الله المخلصين مشمولون بالألطف والعنايات الإلهية الخاصة، في مثل هذه اللحظات الحساسة، والتي هي في الواقع ثمن إيمانهم الخالص وأعمالهم الطاهرة.

وهنا نقل بعض الغافلين خرافات تحت عنوان «الروايات» لا تكاد تخرج عن حدّ الإسرائيليات، وذهبوا بيوسف ظلماً إلى حافة الهاوية والإقدام على ذلك العمل الفاحش إلى أن منعه جبرئيل من هذا العمل بضربه على صدره! أو رؤيته لشبح أبيه يعقوب وهو يعضّ على يديه لهذا العمل!.

وهذا كلام لا علاقة له بالقرآن مطلقاً، وخرافات لا تستحقّ الإجابة عنها، وذيل الآية التي تعتبره من عباد الله المخلصين خير دليل على بطلان مثل هذه الاحتمالات القبيحة، وذلك طبقاً لآيات القرآن التي تصرح بأن لا سبيل للشيطان إلى عباد الله المخلصين.

أما الأشكال الثانی الذي اثير حول يوسف عليه السلام ومقام عصمته فهو ما ورد في الآية السبعين من سورة يوسف عليه السلام، والتي جاء فيها أنه حينما شدّ رحال اخوته وضع السقاية، أى الاناء الذى يشرب فيه أو المكيال الذى يكيل فيه فى رحل أخيه، ثم أذن مؤذّن: «فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَيْتُهَا الْعَيْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ».

(يوسف / ٧٠)

فهل يجوز أن يقوم الإنسان بعمل ما، ويتهم بريئاً وخاصةً إذا كان ذلك البريء أخاه؟

وهل يعقل أن المؤذن قد نسب هذه النسبة (نسبة السرقة) إلى اخوة يوسف بدون علم يوسف، وأظلمه؟ ولماذا رضى النبي المعصوم باتهام الأبرياء بمثل هذه التهمة؟!

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٩٧

وحاولوا أحياناً توسيع دائرة الإشكال فقالوا: لماذا لم يكشف يوسف عليه السلام النقاب عما جرى له بسرعه ليطلع اخوته على حقيقة الأمر وليوصلوا خبر حياته وعظمه مكانته إلى أبيه الشيخ؟، ليطمئن ويتخلص من ألم الفراق الذي أضناه كثيراً، فهل أن مثل هذا التصرف يتناسب مع الوضع الذي كان يعيشه ذلك الأب المسن؟ ثم ما هي عقوبة السارق في ذلك الزمن ليقى أخو يوسف عندهم كرهينه بتهمة السرقة؟ هل كان هذا حكماً إلهياً، أم سنّه أهل مصر الخرافية؟ لو كانت سنّه أهل مصر، فلماذا وافق يوسف على تطبيق هذا الحكم الجائر بحق أخيه؟

الجواب:

من الممكن العثور على أجوبة هذه الأسئلة بشكل واضح، من خلال الآيات الواردة في سورة يوسف وقرائن اخرى. أولاً: يبدو حسب الظاهر أن هذا الأمر قد تمّ بموافقة «بنيامين نفسه» (الأخ الأصغر ليوسف)، إذ إن آيات هذه السورة تشهد كاملاً على أن يوسف قد عرّف نفسه لبنيامين قبل ذلك، فعلم بنيامين أن هذه الخطّة قد وضعها يوسف للإحتفاظ به عنده فوافق على هذه الخطّة. ثانياً: إنّ القائل: «إنكم لسارقون» مجهول؟ غاية ما نعرفه عنه أنّه كان من حاشية يوسف عليه السلام، وحينما وجدوا الوعاء المخصوص داخل متاع أحد اخوة يوسف تيقنوا من كونه هو السارق، وبديهي أن ارتكاب عمل ما من قبل أحد الأفراد في مجموعة واحدة، يُعرّض كلّ أعضاء تلك المجموعة لخطاب: إنكم قمتم بهذا العمل.

على أيّة حال فهذا الكلام والتشخيص إنّما يتعلّق بحاشية يوسف ولاعلاقة له به، بل الشئ الوحيد الذي قام به يوسف هو وضع الوعاء في رحل أخيه لإثارة ذلك الإتهام، الذي كان السبب وراء خلاص وراحة أخيه الذي وافق على ذلك، كما تقدّم.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٩٨

ثالثاً: هذا المخطّط بمجموعه سواء فيما يتعلّق بالاخوة أو الأب، كان إتماماً لاختبار إلهي لهم، وبعبارة اخرى كان يوسف طبقاً للأمر الإلهي الذي تلقاه عن طريق الوحي سبباً لاختبار مقاومه يعقوب مقابل فقد ولده الثاني الذي كان ولهاناً بحبه، ولتتم من خلال ذلك دائرة تكامله ومكافأته وثوابه، كما تمّ هنا وضع الاخوة ثانية في بودقه الاختبار، لمعرفة مدى استعدادهم للوفاء بالعهد الذي عقده مع أبيهم في عدم ترك «بنيامين» وحيداً؟

وليعرف من جهة اخرى الأشخاص الذين قالوا: «إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ». (يوسف / ٧٧)

وأراد اخوته من هذا الكلام يوسف عليه السلام.

الخلاصة: إنّ قصّة يوسف عليه السلام مليئة بالاختبارات، سواء فيما يتعلّق بيوسف، أو أبيه، أو اخوته، وفي الآية أدناه إشارة إلى هذا القول:

«كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ». (يوسف / ٧٦)

كما أن هذا التعبير يكشف النقاب عن السؤال الأخير أيضاً ويجب عنه، وهو أن تطبيق خطّة «عبودية السارق» كان أمراً إلهياً إلى يوسف (لإكمال الإمتحان المذكور) في خصوص هذا المورد «تأمل جيداً»، وبناءً على هذا فلا نجد في البين إشكالاً يمكن توجيهه إلى هذا النبي العظيم فيما يتعلّق بمنزلة العصمة.

هنالك آيات قرآنية في مختلف السور مرتبطة بمنزلة عصمه موسى عليه السلام، وقد تعرّضت للإستفهام أيضاً: نقرأ في الآية ١٦ من سورة القصص، أن موسى عليه السلام وبعد صراعه مع أحد أعدائه (أتباع فرعون)، الذي كان في شجار مع رجل من بنى إسرائيل، وتوجيه ضربة قاضية إليه أردته

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٩٩

قتيلاً، توجه إلى الله تعالى وقال: «قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ». يا ترى «ألم يكن التعبير بأنّي ظلمت نفسي وطلب العفو والمغفرة من الله تعالى، دليلاً على ارتكاب الذنب؟» ثم إنه ورد في الآية التي قبلها أن موسى وبعد قتله لعدوه قال: «هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ». (القصص / ١٥)

وبعد هذه الحادثة وحينما بلغ موسى مرتبة النبوة، وجاء إلى فرعون يدعوه إلى الله، عاتبه فرعون وقال: «وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ* قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ». (الشعراء / ١٩-٢٠)

صحيح أن موسى لم يكن قد بلغ مرتبة النبوة في ذلك الوقت، ولكن نظراً لضرورة تمتع الأنبياء بدرجة العصمة حتى قبل النبوة، فالتعبير بـ «الضالين» يبدو غير مناسب هنا بعض الشيء.

الجواب:

أولاً، وقبل كل شيء يجب البحث في ماهية هذا القتل الذي لم يكن بقصد وسبق إصرار، وهو ممّا يصطلح عليه بقتل الخطأ، هل كان جائزاً أم لا؟!

لا شك أن هذا العمل لم يكن معصية، مع الأخذ بنظر الإعتبار ذلك الموقف المعادي الذي كان يتخذه قوم فرعون الظالمين من بنى إسرائيل، حتى أنهم كانوا يذبون أبناءهم الرضع ويأخذون بناتهم للخدمة، بل كانوا قد أذاقوهم أقسى أنواع الظلم والعذاب، حتى أصبحوا مصداقاً للتعبير القرآني: «مفسد في الأرض»، خصوصاً أن موسى كان في مقام نصره المظلوم والدفاع عنه، إذن فجاز قتل هذا الفرعوني الظالم هو ممّا لا شك فيه على أقل تقدير، فكيف يمكن الخدش في درجة عصمه موسى في مثل هذه الحال.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٠٠

نفحات القرآن ج ٧، ص: ١٤٩

إذن، فالذي يحتمل كونه مخالفاً للوجدان يكمن حتماً في ترك الأولى المتجسد في كيفية تصرف موسى (لا أصل تصرفه). ويبدو أن مراد موسى عليه السلام من: «ظلمت نفسي» هو الوقوع في المشقة، باعتبار أن قتله لأحد الأقباط ليس بتلك السهولة التي يتناساها أتباع فرعون، ولا يخفى أن ترك الأولى يعني العمل المباح ذاتاً، إلا أنه يحرم صاحبه من العمل الأفضل. وجملة: «هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ» إشارة إلى أصل نزاع القبطي والسبتي (الفرعوني والاسرائيلي)، أي أن نزاعهم الأعمى التافه هذا هو من عمل الشيطان.

إذن، فطلب المغفرة من الله إنما هو لتركه الأولى، وقد ورد نظيره في القرآن الكريم بحق آدم وحواء أيضاً، حيث أنهما قد أوقعا نفسيهما في المشقة وذلك بتركهما للأولى، وأكلهما من الشجرة الممنوعه، فطلبوا المغفرة لذلك «قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ». (الأعراف / ٢٣)

أمّا التعبير بـ «الضالين» المأخوذ من مادة «الضلال» التي تعنى في الأصل ترك الطريق السوي، فله معنى واسع ولا- ينحصر بمعنى الإعراض عن الدين والحق فقط، بل يصدق بحق شخص كموسى عليه السلام الذي عرض حياته للخطر بقتله لذلك الفرعوني أيضاً، وبعبارة أخرى فقد ترك طريق السلامة، وسلك طريق ذات الشوكة، ولذا لم يتمكن من البقاء في مصر بعد تلك الحادثة فغدى مشرداً

في البوادي والجبال إلى أن وصل أرض «مدين»، وشملته الألفاظ الإلهية في خاتمة المطاف، حيث عاش هناك ولعدة سنين وترى على يد شعيب عليه السلام، وتهياً لتحمل مسؤولية الرسالة.

لا يخفى أن البعض يعتقد بأن معنى «الضلال» هنا هو عدم الإطلاع، أي لم أعلم بأن تلك الضربة ستقضى على الرجل، وبناءً على هذا فالقتل المذكور يعد مصداقاً لقتل الخطأ لا العمد، لكن المعنى الأول يبدو أنسب، رغم أن فرعون قد يفهم من كلام موسى عليه السلام شيئاً آخر، ولذا اقتنع بذلك ولم يعلق عليه بشيء.

ثانياً في الآية ١٤٣ من سورة الأعراف تستوقفنا هذه الحادثة، وهي أن موسى عليه السلام

نفحات القرآن، ج٧، ص: ١٠١

طلب من الله تعالى أن ينظر إليه ببصره وسمع الجواب: إنك لن تراني أبداً!

«وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ فِي هَذِهِ أَلَمْ أَنْظُرْ إِلَى الْجِبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجِبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ». (الأعراف / ١٤٣)

من هنا يقال:

أولاً: لماذا طلب موسى مثل هذا الطلب من الله تعالى مع كونه يتمتع بمنزلة رفيعة في المعرفة والإيمان؟

ثانياً: لا بد وأن صدرت منه مخالفة لبيتلي بالصعقة ويغمي عليه؟

ثالثاً: جملة «تُبت إليك» تظهر أنه تاب من عمل سيء قام به.

و للمفسرين هنا أجوبة متنوعة أيضاً، أجلاها هي: إن آيات القرآن تبين بكل وضوح أن ذلك الطلب لم يصدر من موسى عليه السلام، بل من بنى إسرائيل الذين ألحوا عليه ليريههم الله تعالى:

«وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ».

(البقرة / ٥٥)

بل الآيات الأخرى أيضاً تبين أن موسى كان مأموراً بأخذ جمع من أشرف بنى إسرائيل معه إلى جبل الطور لتكرار طلبهم هناك «حتى يقفوا على الجواب بشكل عملي»، ويشير إلى ما تقدم ما أطلق على هذه الحادثة، اسم «ميقاتنا» في الآية الآتية الذكر وكذلك في الآية «وَإِخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَآيَايَ أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَآيَاتُنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ». (الأعراف / ١٥٥)

وبناءً على هذا فما قاله موسى عليه السلام كان بأمر وتكليف من الله تعالى، كما أنه ليس لنزول الصاعقة أي صفة جزائية، بل كان الهدف إيقاف عامة بنى إسرائيل على هذه الحقيقة، وليبين لهم بأنهم عاجزون عن رؤية شرارة صغيرة من قدرته تعالى بحيث تسقطون على الأرض

نفحات القرآن، ج٧، ص: ١٠٢

فيغمي على البعض منكم ويصعق البعض الآخر، فكيف والحالة هذه تطلبون رؤية ذاته تعالى بعظمتها؟

أما جملة «أنتي تُبت» فقد كانت من جانب بنى إسرائيل، كما أن جملة «رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ» كانت من قبلهم أيضاً.

يستفاد من عدة آيات من سورة الكهف أن موسى عليه السلام ابتلى بالنسيان، فهو تارة يقول:

«فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا». (الكهف / ٦١)

إذن فلقد وجد النسيان طريقه إليهما.

وفي آيتين بعدها ينقل عن صاحب موسى عليه السلام: «فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيَهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ». (الكهف / ٦٣)

فلو كان صاحبه وهو يوشع بن نون- كما هو معروف بين أقطاب المفسرين- وكان في تلك الحالة نبياً، فسيثبت جواز النسيان للأنبياء. كما نقرأ في عدة آيات بعدها وعلى لسان موسى عليه السلام، أنه حينما التقى بذلك الرجل الإلهي «الخضر» تعهد بألا يسأله عن أسرار ما قام به إلى أن يبينها هو بنفسه، لكن موسى عليه السلام نسي ذلك في أول مرة، ولذا اعترض على الخضر لخرقه تلك السفينة السالمة، وحينما ذكره الخضر بالعهد قال: «قَالَ لَأَتَوَّأخِذُنِي بِمَا نَسِيتُ». (الكهف / ٧٣) كما تكرر هذا الشيء ثانية وثالثة أيضاً.

ألا يستفاد من مجموع هذه الآيات إمكان نسبة النسيان للأنبياء؟! أوليس الصيانة عن ارتكاب الخطأ والنسيان أحد فروع العصمة؟
الجواب:

لقد سلك المفسرون طرقاً شتى للإجابة عن هذا السؤال: إذ قال البعض: إن «النسيان» يعنى تارة ترك الشيء وإن لم يكن منسياً، كما نقرأ في قصة آدم: «وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ...». (طه / ١١٥) نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٠٣

من المسلم أن آدم لم ينس العهد الإلهي فيما يتعلق بالإجتنا عن الأكل من الشجرة الممنوعة، لكن نظراً لعدم اهتمامه بذلك العهد فقد عبر عنه بالنسيان.

وقال البعض أيضاً: إن «الناسي» هو في الحقيقة صاحب موسى عليه السلام وليس موسى عليه السلام، والناسي لم يكن نبياً، إذ لم يثبت ذلك فيما لو اقتصرنا على الآيات القرآنية على أقل تقدير، فنحن نقرأ في الآيات مورد البحث أن صاحب موسى عليه السلام قد شاهد سقوط الحوت في الماء واستعادتها للحياة والحركة، وقرّر إخبار موسى عليه السلام بذلك لكنه نسي، إذن فالناسي هو صاحب موسى لا غيره باعتباره الشاهد الوحيد لهذه الحادثة، والنسبة إليهما في جملة «نسيان» هي من قبيل نسبة عمل الفرد إلى الجماعة وهي شائعة الإستعمال.

ولو قيل: كيف يعقل إيداع مسألة بكل هذه الأهمية في زاوية النسيان؟ لقلنا: إن صاحب موسى عليه السلام كان قد شاهد معجزات أهم من هذه، فضلاً عن كونها في هذا السفر يطلبان هدفاً أهم، فسيان الحوت بسبب هذا الهدف لا يدعو للعجب. ونسبة النسيان إلى الشيطان، قد تكون لوجود علاقة بين حادثة إحياء السمكة ومسألة العثور على ذلك الرجل العالم، الذي كان من المقرر أن يستفيد موسى عليه السلام من علمه، وحيث إن عمل الشيطان هو الإغواء والحؤول دون بلوغ بنى الإنسان أهدافهم المقدسة، أو تأخيرهم عنها على أقل تقدير، فقد قذف النسيان في ذهن «صاحب موسى».

جاء في بعض الروايات عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ما مضمونه: إن موسى كان نائماً حين انسابت الحوت وسقطت في البحر وذهبت في سبيلها، وأن صاحبه «الذي كان يشاهد هذا الموقف» لم يرغب في إيقاظه وإخباره بذلك، كما أنه نسي أن يخبره بعد استيقاظه أيضاً ولذلك فقد واصلوا مسيرهم يوماً وليلة آخرين، ثم تذكر هذا الرجل الحادثة وقصها على موسى عليه السلام فاضطرّا للرجوع إلى مكانهما الأول، الذي سقطت فيه السمكة في الماء (١).

كما قال البعض أيضاً: إن الأنبياء معصومون من النسيان المرتبط بدعوتهم، دون ما له علاقة بأمر عادي يومي، فالنسيان أمر عادي لا يرتبط من قريب أو بعيد، بمسألة الوحي

(١) تفسير المراغي، ج ١٥، ص ١٧٤.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٠٤

والنبوة والتربية والتعليم والتبليغ، بل إن عدم ترابطهما أمر واضح للجميع ولا يخدش هذا في مقام العصمة للأنبياء، والنسيان الوارد في الآيات المذكورة هو من هذا القبيل.

يقول العالم الكبير المرحوم السيد المرتضى رحمه الله: إِنَّ هُنَاكَ ثَلَاثَةَ أَوْجِهٍ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِقَوْلِ مُوسَى لِلخَضِرِ: «لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ»: الأول: النسيان بمعناه الحقيقي المتعارف، ولا عجب أن ينسى موسى مثل هذا العهد خلال هذه الفترة القصيرة، لانشغاله فكرياً (بمسائل أهم).

الثاني: أن مراده هو أن لا تؤاخذني على ما تركته (أى أن موسى كان قد ترك العهد عمداً، ومعلوم أنه كان مشروطاً، أى لو شئت البقاء معي فلا تسألني حتى أوضح لك بنفسى).

الثالث: مراد موسى هو أن لا تؤاخذني على عمل شبيه بالنسيان.

ثم يضيف قائلاً: ولا إشكال لو حملنا الجملة على النسيان غير الحقيقي، وإلّا لو حملناه على النسيان الحقيقي فتعليقه أن النسيان بهذا المعنى لا يجوز بحق الأنبياء، في بيان الامور الإلهية، أو التشريعية، أو الخارجة عن المتعارف، ولا مانع لما خرج عن نطاق هذه الدائرة، كما لو نسي النبي طعامه، أو شرابه لكن لا بتلك الدرجة والتكرار الزائدين عن الحد لاستحالة مثل هذا الشيء في حقه.

الآية الأخرى المتعلقة بأعمال هذا النبي العظيم والتي دار حولها النقاش وردت في قوله تعالى: «وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَابَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَوْا عَفْوَنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ* قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ».

(الأعراف / ١٥٠-١٥١)

وهنا ترد عدة علامات للإستفهام:

أولاً: لماذا ألقى موسى بالألواح المكتوب فيها احكام الله وآيات التوراة على الأرض؟

ثانياً: لماذا أبدى رد الفعل الشديد تجاه أخيه الذي لم يكن قد ارتكب إثماً؟

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٠٥

ثالثاً: لماذا طلب العفو والمغفرة لنفسه ولأخيه؟!

لكن لو تأملنا في تلك الحادثة التي واجهها هذا النبي العظيم بعد رجوعه من ميقات ربه، لسلمنا بصحة وضرورة تصرفه هذا. فلقد قضى موسى سنوات طويلة مليئة بالمشقة، لزرع بذرة «التوحيد» في قلوب «بنى إسرائيل» القاسية، وذهب إلى مكان الوحي لميقات ربه حينما نبتت تلك البذرة على أمل نموها، لكنّه حينما رجع لاحظ أن كل جهوده ذهبت أدراج الرياح وقد استسلم الأكرثية الساحقة من بنى إسرائيل لوساوس «السامري» وسجدوا للعجل! فضلاً عن إحاطة فتنة الوثنية والشرك بكلّ شيء وانطفاء نور الإيمان والتوحيد. وهنا استغرب موسى كثيراً وغضب غضباً شديداً، وكان غضبه لله طبعاً، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى كان لابد له من مواجهته ما حدث بشده، حيث تعدّ أفسى حادثة في حياة موسى عليه السلام، وذلك ليقف بنو إسرائيل على خطورة الموقف وقبح عملهم، وبالنتيجة تزال كل آثار الشرك والوثنية من قلوبهم، وإلّا لاحتمل بقاء آثار الشرك في قلوبهم وقلوب الأجيال القادمة أيضاً، فليس المهمّ هنا مسألة احترام إنسان أو بعض الألواح المقدّسة، بل المهمّ هو مسألة التوحيد وخطورة انحراف قوم بأكملهم.

كان ينبغي لموسى عليه السلام التعبير عن غضبه الكامن في نفسه، وإظهار قبح هذا العمل للجميع، وذلك ما كان ميسوراً إلّا بإبداء رد فعل عنيف، ولذا عاتب أخاه هارون بشده حتى أنه جرّه من رأسه بعد أن ألقى الألواح جانباً، بل صرخ في الواقع من أعماق وجوده، حتى تردّد صده بين بنى إسرائيل ليقول بعضهم لبعض: ما أقبح عبادة العجل يا ترى! بحيث يتعامل موسى عليه السلام بكلّ هذه الخشونة مع أخيه؟ وعلى فرض أن مثل هذا التصرف لا يليق بشأن هارون عليه السلام (مع أن علاقة الاخوة بين الأخوين تنفي مثل هذا الشيء) فإنّه وبسبب التأثير الاجتماعى العميق له لم يجد موسى عليه السلام بداً من فعله.

كما أن نفس هذا الهدف كان وراء إلقاء الألواح، بالرغم من اعتقاد البعض بأن لفظة «الإلقاء» هنا تعنى الوضع على الأرض والذهاب

وراء عمل ما، ولذا لم تنته المسألة عند هذا الحد، بل كان ذلك القرار الشديد على بنى إسرائيل بسبب ارتداد ذلك الفريق بالشكل
نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٠٦
الذى جاء فى ذيل الآية ٥٤ من سورة البقرة.

كما واجه مؤسس الوثنية بين بنى إسرائيل، أى: «السامرى» ذلك العقاب الشديد أيضاً، خلاصة القول هى أن ردّ الفعل العنيف كان يرمى إلى أهدافٍ عظيمة، ولم يكن خالياً من الإشكال فحسب، بل كان واجباً أيضاً فى مثل تلك الظروف (تأمل جيداً).

٦- داود عليه السلام

هناك آيات فى القرآن الكريم تشير إلى أن نبي الله العظيم داود عليه السلام قد استغفر ربه لعمل قام به، وأن الله تعالى قد غفر له وذلك قوله: «وَوَظَّنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتْنَاهُ فَاَسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ * فَعَفَوْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ». (ص / ٢٤ - ٢٥)
ألم يكن استغفار داود والعفو عنه من قبل الله سبحانه وتعالى دليلاً على صدور الذنب منه؟ وهل يتلاءم هذا ومقام عصمته؟
للحصول على جواب هذا السؤال لابد من الرجوع إلى القرآن، والبحث قبل كل شىء عن العمل الذى يرتبط به هذا الإبتلاء وتلك المغفرة.

تحكى الآيات التى سبقت آيات بحثنا أن خصمين تسورا محراب داود عليه السلام، ودخلا- عليه على حين غرة، ففزع لدخولهما المفاجيء عليه: «إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ * إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةً وَاحِدَةً فَقَالَ أَكْفُلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ». (ص / ٢٢ - ٢٣)
فقال داود بدون تحقيق أو استفسار: «قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجَتِكَ إِلَىٰ نَعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ...». (ص / ٢٤)

هذه هى القصّة التى ذكرت فى آيات القرآن بأكملها بلا زيادة أو نقصان.

هناك تفاسير مقبولة قدّمت تفسيراً مقنعاً لهذه الآيات، كما أن هناك روايات موضوعة

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٠٧

وردت فى بعض الكتب، تعرّضت لمعانى هذه الآيات بشكل مسيء ومشوّه.

أمّا ما يتفق ومحتوى الآيات المذكورة، فهو القول: إن الشىء الوحيد الذى صدر من داود عليه السلام كان فقط تركه للأولى وذلك بتسرّعه فى القضاء، لكن لا- بتلك السرعة التى تكون على خلاف «واجبات» موازين القضاء، إذ «يستحب» للقاضى التمعّن أكثر ما يمكن، فلو ترك الأكثر واكتفى بالحدّ الأوسط أو الأقل فقد ترك الأولى، وهذا ما فعله داود، فقد قضى بظلم الأخ لأخيه الفقير، وربما كان السبب وراء هذا التسرّع هو ذعره من دخولهما المفاجيء عليه فى خلوته، فضلاً عن أن اجحافاً كهذا من قبل أخ لأخيه يبعث على الأسف والشفقة.

صحيح أن داود عليه السلام أصغى لادّعاء طرف واحد فقط، لكن سكوت الطرف الآخر وعدم التفوّه بأى كلام، أو اعتراض يعدّ فى نفسه دليلاً على اعترافه، وعلى أيّة حال فمن آداب مجلس القضاء أن يطلب القاضى توضيحاً أكثر من الطرف المقابل وهذا ما لم يفعله داود.

وما استغفار داود إلّا لتركه الأولى، وقد تقبل الله تعالى توبته وغفر له.

وهو أفضل دليل على عدم صدور أى ذنب عن داود عليه السلام، والجملة الواردة فى ذيل نفس هذه الآيات: «وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ» تشير إلى ذلك، كما أن هناك أوصافاً أخرى كثيرة فى حقّه قد وردت فى الآيات السابقة، ونعت بتلك المنزلة الرفيعة

عند الله تعالى بحيث غدت سيرته نموذجاً لنبي الإسلام صلى الله عليه وآله يقتدى به، ولا شك أن هذا المعنى لا يتناسب مع العصيان والذنب أبداً.

حينما يصرح القرآن في ذيل هذه الآيات ويقول: «يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ...». (ص / ٢٦)

يتبين بكل وضوح أن خليفة الله لا يذنب، ومسألة ردعه من أتباع هوى النفس إنما هي بمثابة الأمر ولا تدل على ارتكاب معصية، ومن هنا يتضح مدى تفاهة تلك القصة التي أبرزتها التوراة بشكل مُشوّه، وبالغت في تضخيمها أكثر من الوضع الطبيعي، وربطت هذه القضية بحادثته مختلفه وهي عشق داود عليه السلام لزوجة أحد ضباط جيشه وهيامه في حبها،

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٠٨

والتدبير لقتله في خاتمة المطاف وأخذ زوجته.

تشتمل التوراة التي حُرِّفَت عن مواضعها على بعض العبارات التي تبين مدى فضاغة هذه القصة، والتي لا تسمح عقمة القلم ومنزلة الأنبياء عليهم السلام «١» بذكرها.

هذه القصص الموضوعه، والعبارات البذيئه تعد بنفسها أفضل دليل على تحريف التوراة الحاليه.

من الطبيعي أن مثل هذا التحريف ليس غريباً بالنسبة لمحققى تاريخ التوراة على مدى آلاف السنين، لكن العجب إنما هو من كيفية إقدام بعض المفسرين المسلمين على نقل تلك الخرافات القبيحة في كتبهم، في الوقت الذي نقرأ في رواية عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «لا اوتى برجل يزعم أن داود تزوج امرأة أوريا إلا جلدته حدين حداً للنبوة وحداً للإسلام» «٢».

كما احتمال البعض كون هذه الحادثه إشارة إلى أن داود عليه السلام لم يأسف لنبا مقتل اوريا فى ميدان القتال كأسفه على غيره، وذلك لرغبته فى الزواج من امرأته بعد مصرعه، ولكن من دون (اتفاق مسبق) حول الموضوع.

لكن وكما أشار المرحوم السيد المرتضى أيضاً، فإن هذه التصرفات وإن لم تعد ذنباً لكنها مما تشتمر منها النفوس، ومعلوم أنه لا ينبغي للأنبياء والأئمة القيام بمثلها «٣».

كما احتمال بعض المفسرين أن العادة فى ذلك الزمان كانت جارية على عدم تزويج المرأة الأيم أبداً، وأن داوداً قد تزوج زوجته اوريا بعد موته لتحطيم هذه السنه الخاطئه.

لكن هذا التفسير أيضاً لا يتناسب بدوره مع ظاهر الآيات التي تبين صدور ترك الأولى من داود، لأن تحطيم هذه السنه الخاطئه يعد واجباً فضلاً عن عدم كونه تركاً للأولى، إلّا أن

(١) لمزيد من الإطلاع راجع الكتاب الثانى ل «اسموئيل» (من كتب التوراة) الفصل الحادى عشر، الجملة الثانية إلى السابعة والعشرين، ثم نقدها وتحقيقتها من التفسير الأمثل ذيل الآيات ٢١ إلى ٢٥ من سورة ص.

(٢) تفسير مجمع البيان، ذيل الآيات من سورة ص، كما ذكر الفخر الرازى نفس هذا الموضوع بعبارة اخرى.

(٣) تنزيه الأنبياء، ص ٩١ و ٩٢.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٠٩

يقال: إن هذا العمل كان سبب العناء الروحى لأوريا، كما جاء فى إحدى الروايات «١».

لكن التفسير الأول هو الأنسب من بين هذه التفاسير.

وهناك أيضاً آية في القرآن الكريم وردت بحق هذا النبي العظيم، تبين أنه قد طلب العفو من ربه واستغفره على بعض الأعمال التي صدرت منه، (وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ قَبِلَ تَوْبَتَهُ).

يقول القرآن حول هذا الموضوع: «وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ * قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَأَتَّبِعِيَ لِأَخِيذٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ * فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ ...». (ص / ٣٤ - ٣٦)

ولنرى ما هو هذا الإختبار؟ ولمن يعود هذا الجسد الجامد الذي القى على كرسيه؟ فهذا ما لم يتعرض القرآن لبيانه، لكن هناك تفاسير إسلامية تناولت هذه الحادثة، وروايات تعرضت لها، كما أن الرواة الذين وجدوا في هذا الموضوع أرضاً خصبة لهم فحاكوا حوله أساطير وهمية لا أساس لها، ونسبوا إلى هذا النبي العظيم ما لا يتناسب حتى مع المنطق والعقل السليمين، فضلاً عن منزلة العصمة والنبوة، ومن جملة ذلك اسطورة شنيعة وملققة تدعى ضياع خاتم سليمان، واختطافه من قبل أحد الشياطين وجلسه على عرش سليمان ثم استلامه للحكم، (وذلك لوجود علاقة بين الخاتم والحكومة والتسلط على الإنس والجن طبقاً لهذه الاسطورة)، وهذه الاسطورة المذكورة في بعض الكتب بكل جدية واعتقاد، والتي تبدو حسب الظاهر من خرافات الاسرائيليات الممتدة جذورها إلى «التلمود» كتاب اليهود، (وهو عبارة عن مجموعة روايات في تفسير قوانين موسى)، والتي يصعب التفوه بها أو نقلها لوقاحتها.

(١) عيون أخبار الرضا، ج ١، الباب ١٤، ص ١٥٤.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١١٠

والذي يبدو صحيحاً من بين التفاسير والذي اشير إليه في الروايات الإسلامية، تفسيران:

الأول: أن سليمان عليه السلام كان يتمنى أن يكون له أبناء شجعان وأكفاء ليديروا حكمته من بعده، ويعينوه في حياته على إدارة البلاد والنظام والجيش، ولذلك قال في إحدى الليالي: لقد صممت على مقاربه العديد من نسائي على أمل أن ارزق بأولاد أكفاء، لكنّه لم يقل: (إن شاء الله)، فبسبب ترك الأولى هذا لم يرزق من زوجاته سوى طفل ناقص الخلقه كالجثه الهامده حيث ألقوه على كرسية.

جاء في حديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «والذي نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً!» (١).

وهنا انتبه سليمان عليه السلام إلى أنه ترك الأولى فتاب لذلك وعفى الله تعالى عنه.

الثاني: أن المراد من جملة: «أَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً» هو أن سليمان قد مرض مرضاً شديداً حتى عاد كالجثه الهامده فوق كرسية، فكان ذلك ابتلاءً إلهياً، ثم استعاد عافيته وشفى، وهو المراد من كلمه «أناب» في الآية.

طبقاً لهذا التفسير الوارد في تفاسير الكثير من أقطاب المفسرين تكون جملة: «أَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً»، بمعنى: «القينا على كرسية جسدًا» وهي خلاف ظاهر الآية بطبيعة الحال.

فضلاً عن عدم وضوح ما هو ترك الأولى الصادر من سليمان عليه السلام على أثر هذا المرض ليستغفر ربه؟ إلا أن يقال: إن الإنسان يرتكب تركاً للأولى في حالاته المختلفة بشكل عام وحال مرضه بشكل خاص، وأن سليمان قد استغفر ربه لمثل هذه الحالات، لكن هذا الجواب مبهم وغير مقنع.

الموضوع الآخر الذي اثير حول هذا النبي العظيم، هو الجملة التي تلى نفس هذه الآية وهي قوله: «وَهَبْ لِي مُلْكاً لَأَتَّبِعِيَ لِأَخِيذٍ مِنْ بَعْدِي».

فهل يتلاءم، هذا الطلب مع الروح السامية والنظرة البعيدة والزهد المنقطع النظير

(١) ذكر البخاري هذا الحديث في صحيحه، كما ذكرته بعض التفاسير ومن جملتها روح البيان؛ وفي ظلال القرآن في ذيل الآيات

مورد البحث.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١١١

الذى يتمتع به الأنبياء المعصومون عليهم السلام؟ ألا يُشتم من هذا الكلام رائحة البخل ياترى؟ ورغم أن الحديث يدور هنا حول عصمة الأنبياء عليهم السلام، لكن على أية حال فالنقائص الأخلاقية الأخرى خصوصاً تلك التى تسمتت منها النفوس لا تتناسب مع درجاتهم ومنزلتهم الرفيعة.

وقد أجاب المرحوم السيد المرتضى فى «تنزيه الأنبياء» والمحقق الطبرسى فى «مجمع البيان» وباقى المفسرين عن هذا السؤال فى تفاسيرهم بأجوبة متعددة «١»، والأجوبة أدناه تعد أنسبها:

إن سليمان عليه السلام طلب من الله تعالى أن تكون له معجزة خاصة، كما أن لكل نبي معجزته الخاصة، وكانت معجزته هى الحكم الذى لا مثيل له، الحكم على الإنس والجن وعلى الرياح والسحاب و...، فوهبه الله مثل هذه المعجزة، حكومه واسعة تتصف بالإعجاز فى مختلف الجوانب، ومن البديهي أن طلباً كهذا لا يعد عيباً ونقصاً للنبي.

والجواب الآخر هو: إحساس سليمان بالإذن لمثل هذا الطلب عن طريق الوحي، أو بعبارة أخرى: أن الله تعالى شاء أن يتجسد شعاع من قدرته وحاكميته عن طريق أحد أنبيائه العظام، فوجد سبحانه سليمان صالحاً لهذا الغرض فأجازه لمثل هذا الطلب، فطلب سليمان بدوره تلك المعجزة، فوهبه الله تلك الحكومه العجيبة التى لا مثيل لها، والتى لم ولن يكون لها نظير فى العالم، ومن المسلم أنه حينما يجد الله أحداً صالحاً لعمل ما، ويجيزه فى ذلك، لا يبقى هناك أدنى مجال للشك والترديد والإشكال.

الدليل على هذا الكلام هو ما ورد عن سيرة سليمان من أنه كان زاهداً جداً فى حياته، كما نقرأ فى حديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال حول هذا الموضوع: «كان يأكل الشعير ويطعم الناس الحواري! «٢» وكان لباسه الشعر وكان إذا جنه الليل شدّ يده إلى عنقه فلا يزال قائماً يصلّى حتى الصباح! «٣».

(١) تنزيه الأنبياء، ص ٩٧ و ٩٨؛ تفسير مجمع البيان، ج ٨، ص ٤٧٦.

(٢) الحواري (بالحاء المضمومة والواو المشددة) هو «الطحين الأبيض».

(٣) سفينة البحار، مادة (الزهد)، وتفسير أخرى.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١١٢

وهناك تفسير لطيف حول هذا الموضوع فى حديث عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام وذلك حينما سئل عن تفسير الآية: «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَمَا يَبْغِي لِأَخِي مِنْ بَعْدِي» قال عليه السلام: «الملك ملكان ملك مأخوذ بالغلبة والجور وإجبار الناس، وملك مأخوذ من قبل الله تعالى، كملك آل إبراهيم وملك طالوت وذى القرنين، فقال سليمان (وهب لى ملكاً لا يبغي لأحد من بعدى) أن يقول إنه مأخوذ بالغلبة والجور وإجبار الناس، فسخر الله عزوجل له الريح ... وسخر الله عزوجل له الشياطين ... وعلم منطق الطير، ومكن فى الأرض، فعلم الناس فى وقته وبعده أن ملكه لا يشبه ملك الملوك المختارين من قبل الناس، والمالكن بالغلبة والجور» «١».

والمراد من هذا الحديث هو أن سليمان عليه السلام لم يطلب حكماً محدوداً، بل حكماً لا مجال فيه للقيال والقال والإتهام بالزور والظلم، ولذا فقد مزج الله هذه الحكومه بالمعجزات العجيبة لإثبات كونها من عنده تعالى، لا من الناس ولا عن طريق الظلم والغلبة «٢».

الجواب الثالث: ما أثير حول مقام عصمة سليمان عليه السلام هو ما جاء فى نفس الآيات السابقة حيث يقول تعالى: «إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِيَاتُ الْجِيَادُ* (الخيال الأصيله) - فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي (إِنِّي أَحَبُّ هَذِهِ الْجِيَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَنْ أَجَل

الجهاد، فبقى ينظر إليها.. حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ * رُدُّوَهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسِيحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (يمسح عليها لأنها لائقة للقتال). (ص/ ٣١-٣٣)

طبقاً للمعنى المتقدم الذى تبين من هذه الآيات، لا يبدو هناك أى إشكال فى عمل سليمان عليه السلام هذا، فهو يعتدّ بقدرته العسكرية و يلتذّ بالتطلع إلى الجياد المهيأة للجهاد، ويأمر بردها عليه ثانية لاعتزازه بها، وهذه التصرفات كلها تبدو بشكل عام معقولة ومنطقية وإلهية.

لكن البعض فسّر هذه الآية بشكل آخر واعتبرها كبداية للإشكال على سليمان، وقال:

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٤٥٩، ح ٥٦.

(٢) وبناءً على هذا التفسير فهناك جملة مقدرة فى الآية تقديرها: وهب لى ملكاً لا ينبغى لأحد من بعدى أن يقول ليس من عند الله.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١١٣

إنّ الضمير فى كلتا جملتى «توارت» و «ردوها» يعود إلى الشمس التى لم ترد فى العبارة، والتى يمكن استنتاجها من التعبير ب «العشى» الوارد فى الآية، وطبقاً لهذا التفسير فقد ذهل سليمان بالنظر إلى هذه الجياد، إلى أن غابت الشمس وتوارت وراء الحجب، فغضب لذلك كثيراً لفوات صلاة العصر عليه، وحينئذ طلب من الملائكة إعادة الشمس ثم توجّساً وصلّى، وأنّ جملة «فَطَفِقَ مَسِيحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ» إشارة إلى وضوئه.

كما ذهب البعض إلى أبعد من هذا أيضاً، وقال: إنّ المراد من هذه الجملة هو: أنه أعطى أمراً بقطع أعناق الجياد وقوائمها، باعتبارها السبب وراء غفلته عن ذكر الله (العذر الذى هو أقبح من الفعل)، والقول: إنّه ذبحها ووزّع لحومها فى سبيل الله يبدو عجيباً أيضاً، لأنّ جياداً بتلك القيمة والخاصية التى تلفت نظره إليها حتّى يذهل لذلك لا- ينبغى ذبحها كالأبقار والأغنام، إذ لو أراد إنفاقها لوجب إعطاؤها للآخرين وهى على قيد الحياة، ولا يخفى على أحد سقم هذه التفاسير، وذلك لأن:

١- لو كانت هذه الجملة «فَطَفِقَ مَسِيحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ» إشارة إلى وضوئه، فليس لديه سوى رقبة واحدة، والتعبير ب «الأعناق» بصيغة الجمع مما يكون، كما أنّ لديه ساقين، والتعبير ب (السوق) بصيغة الجمع يكون لا معنى له أيضاً، ومَن قَالَ إِنَّ الْوَضُوءَ كَانَ بِالْمَسْحِ؟ لا معنى له.

ولو كانت بمعنى قطع أعناق وقوائم الجياد، فهو عمل غير منطقي جداً، لا- يقدم عليه حتّى الفرد العاقل العادى فكيف بنى عظيم كسليمان عليه السلام، إذ لا ذنب لها، بل لو كان هناك ذنب فهو منه حينما انشغل بالنظر إليها.

أكثر ما يمكن أن يقال هنا هو أن يهبها للآخرين لتبقى بعيدة عنه ولا تشغله بنفسها، ولا داعى للقتل أبداً؟!

٢- لم يرد فى هذا الحوار كلام عن «الشمس»، والاستدلال عليها عن طريق «العشى» بعيد جداً، لأنّ أقرب ما يعود إليه الضمير هنا هو «الخير» الذى يعنى هنا «الجياد» بكلّ تأكيد، كما لم يرد شىء عن الملائكة أيضاً ليكونوا من مخاطبى سليمان، فضلاً عن أنّ هذا التعبير الذى وجهه سليمان إلى الملائكة تشتم منه رائحة صيغة الأمر، ويبدو مستبعداً جداً لعدم لياقته وشأن الملائكة.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١١٤

٣- لو قبلنا هذا التفسير على سبيل الفرض، لأمكن القول: إنّ الصلاة التى أداها قضاءً كانت صلاة مندوبة، قد فاتت سليمان وأنها كانت قبل غروب الشمس، فكيف يثبت كونها صلاة واجبة؟ وأساساً كيف يثبت كون الفائتة هى الصلاة؟! ربّما كانت أذكّاراً خاصّة يؤدّيها سليمان قبل الغروب، وقال بعض المفسّرين أيضاً: إنّ «ذِكْرَ رَبِّي» لو كان يعنى الصلاة الواجبة، وأنّ سليمان عليه السلام كان قد غفل عنها لانشغاله بالجياد استعداداً للجهاد، فلن يرد عليه إشكال أبداً، لأنّ نفس عمل سليمان هذا يعدّ عبادة عظيمة قد أغفلته عن عبادة اخرى.

لكن هذا التفسير أيضاً يبدو بعيداً، نظراً للأهميّة الخاصّة التي تتمتع بها الصلاة، والصحيح هو ما قيل أولاً.

٨- يونس عليه السلام

وهناك آية في القرآن الكريم حول هذا النبي العظيم أيضاً، حيث تبين أنه اعترف أمام الله تعالى بالظلم ثم طلب العفو والمغفرة وأن الله استجاب دعاءه وغفر له بعد اختبار طويل، يقول تعالى: «وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» ثم يضيف قائلاً: «فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ». (الأنبياء / ٨٧-٨٨)

وهنا يثار هذا السؤال وهو: كيف يتناسب وضع يونس في صفوف الظلمة مع منزله عصمته، ولمن ظلم؟، وما هي نوعية الظلم؟ ثم أن يونس عليه السلام على من غضب؟ ولماذا ظن أن الله لن يضيق عليه؟ ألا يمكن لهذه الجهات الثلاث مجتمعة أن تكون بمثابة علامة إستفهام على مسألة عصمته؟

ورد نفس هذا المعنى بشكل غامض في القرآن الكريم: «فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ* لَوْلَا أَنْ تَدَارَكُهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَبَدَّ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ* فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ». (القلم / ٤٨-٥٠)

كما استفاد من هذا التعبير أيضاً أنه كان قد تسرّع في أمره وأشرف على الهلاك لولا أن أسعفه لطفه تعالى.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١١٥

ونفس هذا المعنى تكرر أيضاً في سورة الصافات، وذلك بعد الإشارة إلى قصّته هربه من قومه وركوبه في السفينة، وإلقاء القرعة ثم إلقائه في فم حوت عظيم، يقول تعالى: «فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ* لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ». (الصافات / ١٤٣-١٤٤)

ما هو الذنب الذي اقترفه ليسجن في بطن الحوت، ويلبث فيه مدّة مديدة لولا تسيحه لله تعالى؟، خلاصة القول: إن قصّة يونس عليه السلام التي جاءت في ثلاث سور من القرآن الكريم (الأنبياء، القلم، الصافات) وبعبارات مختلفة تثير استفهامات شتى حول مقام عصمه هذا النبي العظيم وتستدعي جواباً منطقيّاً.

الجواب:

صحيح أن التعابير المختلفة للآيات المذكورة تبين أن ذنباً ما قد صدر من يونس عليه السلام، فالتعبير بـ «الظالم» و «المليم» (يأتي أحياناً بمعنى ملامة النفس، أو القيام بعمل يستوجب ملامة الآخرين لفاعله، لأن لفظه «المليم» قد فسّرت بكلا المعنيين)، وكذلك التعبير بأن يونس عليه السلام: «فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ* لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ»، والتعبير بـ «فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَمِّ» وتعبير «لَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ»، الذي يأمر نبي الإسلام صلى الله عليه وآله: بأن لا يكون كيونس عليه السلام، وكذلك تعبير: «لَوْلَا أَنْ تَدَارَكُهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَبَدَّ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ»، كل هذه التعابير تبين وقوع شيء مما لا ينبغي وقوعه.

لكن القرائن تشير إلى أن هذا العمل المخالف لم يكن سوى ترك الأولى، لأن الله تعالى وفي نفس هذه الآيات قد تحدّث عن يونس كنبى مرسل، موضع العناية الإلهية الخاصّة، وفي سورة (الأنعام / ٨٦) يعتبره الله تعالى من الأنبياء العظام الذين فضّلهم على العالمين، كما يعتبره في عداد الأنبياء عظيمي الشأن كإبراهيم ونوح وإسماعيل وعيسى عليهم السلام، وذلك في سورة (النساء / ١٦٣).

أما ما هو ترك الأولى هذا؟ فهناك احتمالات متنوّعة، يمكن لكل واحد منها منفرداً

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١١٦

فضلاً عن مجموعها، أن يكون دليلاً على ترك الأولى فقط، من جملتها: أنه تسرّع في ترك قومه إذ كان الأجدر به أن يصبر أكثر، أو أنه تعجّل بالدعاء عليهم، أو أنه كان ينبغي عليه انتظار الأمر الإلهي حين خروجه من بين قومه حتى ولو كان قد يئس من هدايتهم على

ما يبدو.

ولا يخفى أن أيًا من هذه الامور لا يعدّ ذنباً، لكنّها لو لم تكن لكان أفضل، وبناءً على هذا فقد استحقّ العتاب والملامة، والتعبير ب «الظلم» أو «الإبتلاء بالعقاب الإلهي» إنّما هو من باب «حَسَبَاتُ الْإِبْرَارِ سَيِّئَاتُ الْمُقَرَّبِينَ»، والذي تقدّم الكلام عنه مفصّلاً عند البحث عن ترك آدم عليه السلام للأولى، كما يحتمل أيضاً تصوّره بأنّ الله تعالى لن يضيق عليه «فَطَنُّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ»، أن تصوّره هذا كان بمثابة ترك الأولى، وذلك لأنّ تمتّع الأنبياء عليهم السلام بمستوى عالٍ من الإيمان يفرض عليهم العيش دائماً بين الخوف والرجاء لا اعتبار أنفسهم في أمان من العقاب الإلهي، أو القنوط من رحمته.

أمّا التعبير ب «مغاضباً» فواضح أنّه يعنى الغضب على أعمال قومه المذنبين، لا الغضب على الله تعالى! كما ذهب إليه بعض المغفلين، لأنّ هذا ليس فقط متنافياً مع مقام الأنبياء، بل لا يتناسب وأدنى حدّ من الإيمان أيضاً لأنّ ما يقابل الغضب على الله هو الكفر بالله. وعبارة «مغاضباً لرّبّه» الواردة في الروايات أو كلمات بعض أقطاب أهل التفسير إنّما تعنى «مُغَاضِباً لِأَجْلِ رَبِّهِ» أى أنّه غضب لأجل الله تعالى نتيجة أعمال قومه.

ومن هنا يتّضح سبب مكوّنه في سجن مظلم تتوالى ظلماته الواحدة بعد الأخرى (ظلمة بطن الحوت، ظلمة البحر، وظلمة الليالي)؟ وسبب عزمه على التضرّع والإستغفار وطلب العفو، بتلك العبارات الموزونة المتينة: «لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ». الملفت للنظر هو ما جاء في البعض من الروايات، أنّ الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام قال: «حينما كان يونس في خلوته في بطن الحوت متوجّهاً بكلّ وجوده إلى العبادة مستجيراً بالله تعالى وحده، اعتبر نفسه من الظالمين لأنّه لم يأت بعبادة خالصة كهذه من قبل، فقال أن

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١١٧

لا- إله إلا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين، بتركى مثل هذه العبادة التى فرغتنى لها فى بطن الحوت، فقبل الله تعالى منه ذلك، وقال عزّوجلّ: «فلولا أنّه كان من المسبّحين للبت فى بطنه إلى يوم يبعثون» (١).

أمّا فيما يتعلّق بتفسير الآيات المتعلّقة ب «يونس» عليه السلام وما هو ذلك الحوت الذى تمكّن من الاحتفاظ به فى بطنه؟ وكيف يمكن للإنسان البقاء حيّاً مدّة طويلة بلا ماء أو طعام أو هواء؟ وكيف يمكن لذلك الإنسان ألاّ يذوب ويهضم فى المعدة الواسعة للحيوان؟ واستلثة أخرى من هذا القبيل، فالكلام عنها خارج عن موضوع بحث العصمة، ومن أراد الوقوف على أجوبة هذه الأسئلة يمكنه الرجوع إلى «التفسير الأمثل»، الأجزاء ١٣ و ١٩ و ٢٤ فى تفسير الآيات التى تتحدّث عن يونس عليه السلام.

٩- نبي الإسلام صلى الله عليه وآله

هناك آيات قرآنية مختلفة تثير التساؤلات حول مسألة عصمة نبي الإسلام صلى الله عليه وآله، فيما يلي أهمّها:

(أ) «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا» لِيُعْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمِّمَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا». (الفتح / ١- ٢)

بما أنّ كلمة «الذنب» تعنى المعصية، إذن فكيف ينسجم هذا المعنى مع العصمة والمنزلة الرفيعة لهذا النبي العظيم؟

للمفسرين أبحاث كثيرة وآراء متنوّعة فى معرض إجابتهم عن هذا السؤال، من جملتها:

إنّ المراد هو ترك الأولى ليس إلّا، والذى لا يتنافى أبداً مع مقام العصمة، إذ إنّ الإنسان حينما يرجّح المهمّ على الأهمّ والحسن على الأحسن يقال له: لقد «ترك الأولى». (تأمل جيّداً)، إذ إنّهُ وفضلاً عن عدم ارتكابه لذنّب فقد أدّى مستحبّاً أيضاً، غاية ما فى الأمر أنّه كان هناك مستحبّ أقوى ممّا أدّاه، وإطلاق الذنب والمعصية على مثل هذا العمل إنّما هو لعلو

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٤٥٠، ح ١٣٧.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١١٨

مقامه إذ كما قلنا: «حسنات الأبرار سيئات المقربين».

الآخر هو أن المراد بالذنب هو معصية الأئمة (وبناءً على هذا ففي الآية شيء مقدّر وهو كلمة «الأئمة»)، أي (من ذنب امتك ..).

وقول ثالث يشير إلى أن المراد به الذنوب التي ارتكبت في حق النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، (إذ إن للذنب معنىً مصدرياً يضاف أحياناً إلى الفاعل واخرى إلى المفعول)، ومن المسلم أن الأعداء لم يتمكنوا من تكرار ارتكاب نفس تلك المظالم والذنوب، التي ارتكبوها في حق النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قبل فتح مكة.

لكن ما عدا التفاسير الثلاثة المتقدمة وتفاسير اخرى أهملناها لعدم أهميتها، فلدينا تفسير أنسب وأكثر انسجاماً مع مضمون ومحتوى الآيات المذكورة والقرائن الموجودة فيها، وذلك من جهات شتى، كما ويتلاءم مع روايات المعصومين عليهم السلام أيضاً:

توضيح ذلك: لغرض فهم معنى الآية يجب التركيز على التعابير السابقة واللاحقة لها، بالإضافة إلى التعابير التي تتضمنها الآيات نفسها، إذ تمّ التصريح في هذه الآية بوجود علاقة بين «الفتح» المذكور وغفران هذه الذنوب، يقول تعالى: إن الهدف من هذا «الفتح المبين» (صلح الحديبية أو فتح مكة على حدّ قول البعض) هو أن يغفر الله ذنوبك السابقة واللاحقة.

علاوة على هذا، فغفران الذنوب السابقة معلوم، أما الذنوب التي لم ترتكب بعد فكيف تشملها المغفرة الإلهية، ألا يفهم من هذا الكلام إعطاء الضوء الأخضر بجواز ارتكاب أي ذنب في المستقبل؟ فهل هذا الأمر منطقي ومعقول؟!

من خلال التدقيق في هاتين الملاحظتين يمكننا إدراك المفهوم الواقعي للآية، وهو أن من الطبيعي عند حدوث ثورة إلهية فسوف يتعرّض ذوو المصالح اللامشروعة للخطر بسببها، ومنهم المؤيّدون للعادات الخرافية، والمتعصّيون بلا دليل، والمتحجّرون الجامدون الذين يجدون عقائدهم الخاطئة مهددة بالخطر والزوال، فسوف يقفون في وجه تلك الثورة بكلّ قوّة، ونراهم ينسبون إليها كلّ ما هو مُشين، لغرض إجهاضها وإخمادها، فيصطنعون

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١١٩

ضدّها الأكاذيب، ويلصقون بها التّهم، وينسبون لقائدها شتى الرذائل، من جملتها أنّه قد أحدث الفرقة وشقّ وحدة الصفّ، وأهان المقدّسات، ولا يرمى سوى الوصول إلى السلطة والحكومة واستعباد الناس ونيل المنزلة والثروة، وأنه آله بيد الآخرين ومنفذ لأهداف الأجانب!! فلو لم يحالف النجاح هذه الثورة، فإنّ هذه التّهم تتعاظم شيئاً فشيئاً بدل انحسارها وتوقفها، وبديهي أن فشلها يعدّ بمثابة الدليل على صدق هذه الإدّعاءات.

لكن حينما انتصرت الثورة بلطف الرعاية الإلهية، وتم القضاء على العادات الخرافية، وتلاشت المصالح الشخصية اللامشروعة، واتّضحت حقانيّة دعوة ذلك القائد السماوي، فسرعان ما تبدّدت كلّ تلك الإساءات التي نُسبت إليه والإتهامات الباطلة سواء المتعلقة منها بالماضي أو التي كان من المقرّر طرحها في المستقبل، وحلّ الندم والاسف محلّ التهجمات والإتهامات الزائفة، وخيستى حتّى المنافقون الذين أعمى الله أبصارهم، والمتعصّبون الذين يعاندون ولا يؤمنون، لأنّهم أيقنوا بالفشل أمام هذه الحقيقة.

ولذا يقول تعالى للنبي صلى الله عليه وآله «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا* لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ» (أي ممّا كانوا يعدّونه ذنباً وممّا سيرمونك من تهمة الذنب) «١».

ومن هنا يتّضح السبب وراء نسبة هذا الغفران إلى الله، باعتباره هو الذي هيئاً مقدّمات هذا الغفران، والتي هي عبارة عن نفس ذلك «الفتح المبين».

والملفت هنا هو أنّنا نجد هذا المطلب متجسّداً بكلّ وضوح في حديث عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام في كتاب «عيون أخبار الرضا»، حيث قال عند ردّه على سؤال المأمون عن كيفية تناسب هذه الآية مع درجة عصمة الأنبياء: «لم يكن أحد عند مشركي

مكة أعظم ذنباً من رسول الله، ثم يضيف موضحاً ذلك قائلاً: وحيث إنهم كانوا يعبدون ثلاثمائة وستون صنماً، فحينما دعاهم النبي صلى الله عليه وآله إلى التوحيد شقَّ عليهم ذلك كثيراً وقالوا باستغراب، هل تستبدل كل آلهتنا بإله واحد؟ ياللعجب؟! كما أضاف قائلاً: (فلما فتح الله

(١) «غفر» و «غفران» و «مغفرة» تعنى فى الأصل ستر الشىء وتغطيته على حد قول صاحب مقاييس اللغة، ومن هنا اطلق على غفران الذنوب أيضاً.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٢٠

تعالى على نبيه مكة قال له يامحمّد إنّنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر عند مشركى أهل مكة، بدعائك توحيد الله فيما تقدّم وما تأخّر لأنّ مشركى مكة أسلم بعضهم وخرج بعضهم عن مكة، ومن بقى منهم لم يقدر على إنكار التوحيد إذ دعا الناس إليه فصار ذنبه عندهم فى ذلك مغفوراً بظهوره عليهم).
فحينما سمع المؤمنون هذا التفسير قال: لله درك ياأبا الحسن! (١).

كما ورد نفس هذا المعنى بعبارات اخرى فى حديث عن أنمّة أهل البيت عليهم السلام، رواه السيّد ابن طاووس فى كتاب «سعد السعود»، وهو: أن قريشاً وأهل مكة قد نسبوا الكثير من الذنوب إلى نبي الإسلام صلى الله عليه وآله قبل الهجرة وبعدها، وحينما تم فتح مكة وتعامل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بتلك الرأفة مع أعدائه المعاندين، غضّوا الطرف عن كل تلك الذنوب التى كانوا قد نسبوها إليه (٢).

وأخيراً يقول القرآن: «وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا».

واضح أن نعمة الله قد اكتملت ليس فقط بالنسبة للنبي، بل لكل المجتمعات الإسلامية عن طريق هذا الفتح العظيم، فلقد خسر أعداء الإسلام وإلى الأبد، بينما مهّد الطريق لمسير النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وكافّة المسلمين لتقدّم أكبر.
ب) نقرأ فى آية أخرى أن الله يخاطب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قائلاً: «عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَّبِعَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَافِرِينَ».

أو ليس التعبير ب «العفو» من جهة و «العتاب والملامة»، والاستغفار عن سبب ترخيصه لهم من جهة أخرى، دليلاً على أن سماح النبي لبعض المنافقين بعدم الإشتراك فى القتال كان عملاً مخالفاً؟ هل تتلاءم هذه الآية مع درجة عصمة هذا النبي العظيم؟

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٥٦، ح ١٨.

(٢) المصدر السابق، ح ١٧ بتلخيص واقتباس.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٢١

اللطيف هو أن الله أشار فى هذه الآية إلى العفو أولاً ثم يأتى العتاب، لكن البعض من المغفلين تناول هذا الموضوع بشكل مسيء حتى اعتبر الآية دليلاً على صدور الذنوب من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، دون الالتفات إلى لطف هذا البيان الإلهي الذى أشرنا إليه! من جملتهم «الزمخشري» فى «الكشاف» حيث قال فى تفسير هذه الآية: «جملة عفا الله عنك كناية عن الجنابة لأنّ العفو مرادف لها ومعناه: أخطأت وبئس ما فعلت» (١).

لكنه لو تأمل أكثر فى محتوى الآية وصدورها وذيلها، والتعابير الواردة فيها لأدرك أن كلمة العفو والعتاب إنما هى فى الحقيقة لبيان سوء معاملة المنافقين للنبي صلى الله عليه وآله، وتوجيه الكلام إليه صلى الله عليه وآله إنما هو نوع من التعبير الكنائى اللطيف لبيان واقعة خطيرة.

وتوضيح ذلك: يخاطب الإنسان أحياناً أحد أصدقائه ويعاتبه لأنه لم يدع الشخص الفلاني يُفْتَضَح وتبين حقيقته للناس! في حين أن هذا العتاب والخطاب يعدّ مقدّمة لانتقاد شخص ثالث في حقيقة الأمر.

ويمكن توضيح هذا الموضوع بضرب مثال بسيط: لو فرضنا أن أحداً أراد أن يوجه صفة إلى ابنك البريء، فمنعه أحد أصدقائك، فمع أنك لم تتزعج من تصرف صديقك بطبيعته الحال، لكن أحياناً ولغرض إثبات سوء سريرة ذلك الشخص، تلتفت إلى صديقك وتقول له معاتباً: لماذا لم تدعه يصفع إبني حتى يتعرف الناس على قساوة قلبه، هذا الخطاب الذي هو على صيغة العتاب والملامة، هو في الواقع كناية بليغة عن قساوة ذلك الظالم.

جاء في بعض التعابير الواردة عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام في تفسير هذه الآية:

هذا مما نزل «اياك اعني واسمعي يا جارة» خاطب الله تعالى بذلك نبيه، و اراد به امته «٢».

يحتمل أن يكون هذا الكلام إشارة إلى نفس ذلك المطلب المتقدم أعلاه، والدليل على هذا الأمر هو الصلاحية التي اعطيت للنبي صلى الله عليه وآله في الآيات القرآنية الأخرى، وذلك بالسماح لمن شاء من المؤمنين بالتفرغ لمشاكلهم الشخصية، وعدم الإشتراك في بعض

(١) تفسير الكشاف، ج ٢، ص ٢٧٤.

(٢) تفسير البرهان، ج ٢، ص ١٣٠، ح ١.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٢٢

الأعمال الهامية، فيما لو طلبوا ذلك وكان فيه صلاح: «فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ». (النور/ ٦٢)

وبناءً على هذا فلا مانع من سماح النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لبعض المنافقين بعدم الإشتراك في المعركة، خصوصاً وأن إشتراكهم لن يحلّ للمسلمين أية مشكلة، هذا إن لم يخلق لهم مزيداً من المتاعب.

من مجموع هذه الإعتبارات يمكن إدراك أن التفسير الأخير يناسب الآية المتقدمة، إذ لا وجود لما يחדش مقام العصمة فيها.

ج) الآية الأخرى التي نزلت في مسألة زواج نبي الإسلام صلى الله عليه وآله من مطلقه ابنه بالتبني (زيد)، أثارت استفهاماً لدى البعض أيضاً.

هذه الآية تقول بصراحة: كلما حدث خلاف بين زيد وزوجته، كان النبي يحثّ زيداً على عدم طلاقها، ويكرّر عليه ذلك، ولكن حينما لم تؤثر هذه التوصيات، وطلق زيد زوجته تزوجها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، ليحطم تلك العادة الجاهلية البغيضة التي كانت تعتبر زوجة (الإبن بالتبني) حراماً على الإنسان، كزوجة الإبن الحقيقي، هذا من جهة.

وليعيد من جهة أخرى إلى (زينب) حيثيتها واعتبارها، لأنها حفيده عبدالمطلب وابنة عمّة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ومن أسرة معروفة، وكانت قد تزوجت زيداً العبد المعتقد امتثالاً لأمر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بذلك، ومن المسلم أن زواجاً كهذا كان صعباً عليها وكان هذا الفراق أصعب. (تأمل جيداً).

وهنا يقول القرآن: «وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا». (الأحزاب / ٣٧)

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٢٣

وهنا فسّح المجال لبعض المغفلين وأحياناً المغرضين لنسج مجموعة من الأساطير الكاذبة، وفرضها على القرآن ونسبتها إلى نبي

الإسلام صلى الله عليه وآله (١).

المهم لدينا هنا وما ينبغي توضيحه جملتان وردتا في الآية السابقة، وإلا فالأساطير الخرافية التي لا أثر لها في القرآن، ليست شيئاً يستحق التحقيق فيه والرد عليه.

جاء في إحدى الجمل: «وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ».

كما نقرأ في الجملة الثانية: «وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ».

ألا تتنافى هاتان الجملتان مع مقام عصمة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله؟

مفهوم الجملة الأولى يبدو مبهماً، لكن الذين يحوكون الأساطير ربطوا بها مطالب كثيرة، وقدّموا كلقمة سائغة لأعداء الإسلام حتى يتهموا النبي الأكرم صلى الله عليه وآله (والعياذ بالله) بعشقه لزوجة زيد.

في حين أنّ نفس الآية تكذب هذا الإدعاء، إذ تقول: إنك أوصيت زيدا مراراً بعدم طلاق زوجته (لا يفوتك أنّ جملة «إذ تقول» هي بصيغة المضارع الدال على الإستمرار)، ولو كانت المسألة كما توهمها الأعداء لوافق النبي الأكرم صلى الله عليه وآله على الطلاق بكل رحابة صدر، أو لاختار السكوت على أقل تقدير، فكيف يعقل أن ينهأ عن ذلك والحالة هذه.

أما فيما يتعلق بالجملة الثانية فقد قالوا: بأي دليل يخاف النبي الأكرم صلى الله عليه وآله من الناس، والله أحق أن يخافه ويخشاها؟ بالرغم من الإحتمالات الكثيرة التي اعطيت لتفسير هذه الآية، خصوصاً هاتين الجملتين، حتى أنّ بعض المفسرين المعروفين تورط في الإشتباه، فمجرد إمعان النظر في متن نفس الآية (خصوصاً الجمل السابقة واللاحقة لهاتين الجملتين) يُدرك المرء وضوح وجلاء مفهوم الآية، أما لو لوحظت لوحدها مجردة عما يحيط بها فما أكثر الإبهامات التي ستحفّ بها.

(١) لمن أراد مزيداً من الإطلاع على هذه القصص الموضوعه ونقدها، الرجوع إلى التفسير الأمثل، ذيل الآية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٢٤

لو أخذنا الآية جملة جملة، وفسرناها لكان معناها كما يلي أنعم الله بالإيمان على «زيد» ابن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بالتبني (الذي كان سابقاً عبداً للنبي صلى الله عليه وآله ثم أعتقه، وتبناه لذلك ودرأته)، كما أنعم عليه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إذ أعتقه واعتبره كولد، وزوجه ابنة عمته التي كانت لها شخصيته مرموقة في المجتمع، هذا هو مفهوم جملة «أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمَتْ عَلَيْهِ». كما يستفاد من الجملة الثانية وقوع سوء التفاهم بين زيد وزوجته حتى جال في ذهنه طلاقها، وأن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله كان يحثه على عدم الطلاق، ويدعوه للورع والتقوى: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ».

كان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله هنا أمام محذورين: فهو من جهة يفكر في أنه لو انتهى الأمر بالطلاق لوجب عليه أن يتزوجها، لينهى كلم الناس السي الذي سيلحق بابنة عمته زينب، باعتبار أن العبد المعتق أيضاً لم يرض بها فطلقها، ومن جهة أخرى كان يخشى الناس خصوصاً المنافقين، الذين كانوا يتربصون به الدوائر والذرائع ليعيروه بهذا الأمر من جهتين:

الأولى تجاوزه لاحدى عادات عرب الجاهلية المتأصلة، والتي كانت تعتبر زوجة الإبن بالتبني كزوجة الإبن الحقيقي وأن الزواج منها هو كالزواج من تلك.

الثاني: إعتقادهم بأن الزواج من مطلقه العبد المعتق هو دون شأن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وأنه انتقاص من مكانته.

لكن شاء الله أن يتحقق هذا الزواج بعد ذلك الفراق؟ وأن تتحطم تلك العادة السيئة، كما جاء في ذيل الآية: «لَكَيْ لَأَيُّكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا».

وبناءً على هذا، فالذي كان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يخفيه في قلبه، وأعلنه الله في خاتمة المطاف هو الزواج من زوجة زيد في حالة إصراره على طلاقها.

والذى كان يخشاه النبى الأكرم صلى الله عليه و آله هو ردّ الفعل نتيجة لقضائه على احدى عادات الجاهلية، كذلك زواجه من امرأة دون شأنه صلى الله عليه و آله، واستمرّ خوفه ما دام الأمر الإلهى القطعى

نفحات القرآن، ج٧، ص: ١٢٥

لم يصدر بحقه، لكن بعد صدوره بلزوم زواجه منها وتحطيمه لكلتا العادتين الخاطئتين، بل حتى أنّ صيغته عقد زواجه أجراها الله تعالى كما فى متن الآية: «زَوَّجْنَا كَهَا»، لم يبق هناك بعد ذلك أى مجال لخوفه وتردده بالنسبة لهذه المسألة.

اللطيف هو التأكيد على هذه المسألة فى الآية التى بعدها أيضاً: قال تعالى: «مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سِنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا».

هذه الآية تشير بصراحة إلى أن ما قام به النبى الأكرم صلى الله عليه و آله هنا، كان فريضة إلهية وسنة كانت فى الأولين أيضاً، وأمرًا إلهيًا مقدراً ينبغى وقوعه.

بديهي أنّ هذه المسألة لو كانت نابغة عن رغبة شخصيه، لما كان لهذه التعابير النازلة بشأنها أى معنى يذكر، لكن لا الأعداء المغرضون يصغون لمثل هذه الحقائق، ولا البعض من رواة القصص المغفلين الذين يرجحون الأساطير المفتعلة الصاخبة فى مثل هذه الحوادث على الحقائق.

لكن ولحسن الحظّ فإنّ تعبير القرآن هنا كافيه وواضح جدًّا، والملفت للنظر هو ما نقرأه فى حديث نقله «القرطبي» المفسّر المعروف من أهل السنة عن الإمام على بن الحسين عليه السلام حيث يقول: «إنّ النبى صلى الله عليه و آله كان قد أوحى الله تعالى إليه أنّ زيداً يطلق زينب، ويتزوجها النبى صلى الله عليه و آله، فلما اشتكى زيد للنبى صلى الله عليه و آله خلُق زينب، وأنها لا تطيعه، وأعلن أنّه يريد طلاقها، قال له رسول الله صلى الله عليه و آله على جهة الأدب والوصية: (أتق الله فى قولك وأمسك عليك زوجك)، وهو يعلم أنّه سيفارقها ويتزوجها، وهذا هو الذى أخفى فى نفسه، ولم يرد أن يأمره بالطلاق لما علم أنّه سيتزوجها، وخشى رسول الله صلى الله عليه و آله أن يلحقه قول من الناس فى أنّ يتزوج زينب بعد زيد، وهو مولاه وقد أمره بطلاقها، فعاتبه الله تعالى على هذا القدر من أن يخشى الناس لشيء قد أباحه الله له، بأن قال (أمسك) مع علمه بأنّه يطلق، واعلمه أنّ الله أحقّ بالخشية أى فى كلّ حال».

ثمّ يضيف (القرطبي) قائلاً: «قال علماؤنا رحمته الله عليهم وهذا القول أحسن ما قيل فى

نفحات القرآن، ج٧، ص: ١٢٦

تأويل هذه الآية، وهو الذى عليه أهل التحقيق من المفسرين والعلماء الراسخين».

ثمّ يتابع كلامه هذا قائلاً: «يقول الترمذى فى نوادر الوصول (وضمن الإشارة إلى هذا الحديث) بأنّ على بن الحسين قد جاء بهذا من خزانه العلم جوهرًا من الجواهر ودرًا ثمينًا من الدرر...» (١).

(د) الآية الأخرى التى تثير الاستفهام حول النبى الأكرم صلى الله عليه و آله هى قوله تعالى: «وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ». (الانعام / ٦٨)

السؤال هو: لو تمكّن الشيطان من النفوذ إلى روح النبى الطاهرة وأنساه الحكم الإلهى بعدم مجالسة أهل الباطل، فكيف يمكن أن يكون معصوماً من الخطأ؟ وبعبارة أخرى أنّه يفتقد أحد فرعى «العصمة» وهو الصون من السهو والخطأ والنسيان، ألا تخدش الآية أعلاه فى عصمة الرسول صلى الله عليه و آله؟

الجواب:

التأمّل فى الآية التى تليها يبيّن بكلّ وضوح أنّ الحديث وإن كان حسب الظاهر موجهاً إلى النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، لكنّ المراد فى الواقع هو أصحابه، وأنهم لو ابتلوا بالنسيان وشاركوا فى المجالس الملوثة بالذنوب، واستهزأ الكفار بمقدساتهم فيجب عليهم ترك ومغادرة ذلك المكان فوراً، وذلك لكى يلتفتوا إلى أنفسهم، وهذا فى الحقيقة من قبيل المثل العربى المعروف: «يَاكَ اغْنَى

وَاسْمَعِي يَا جَارَةَ».

إذ أننا نقرأ في الآية التي تليها: «وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذَكَرُوا لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ». (الأنعام / ٦٩)

(١) تفسير القرطبي، ج ٨، ص ٥٢٧٢، ذيل الآيات مورد البحث.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٢٧

وكما نلاحظ فالكلام في هذه الآية يخص المتقين، والمقصود منه عامة المسلمين لا شخص النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وهذه الآية تكمل بحث الآية السابقة عليها.

نظير هذه الأبحاث يشاهد في الكثير من الحوارات اليومية أيضاً وفي آداب مختلف اللغات، والتي توجه الكلام إلى شخص معين وتقصد شخصاً غيره.

من جملتها ما نشاهده في القرآن الكريم وذلك عند التوصية في حق الأبوين:

«وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا». (الاسراء / ٢٣)

واضح أن الضمير في «رَبِّكَ» يعود إلى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، في حين أن خطاب «أَلَّا تَعْبُدُوا» موجه إلى كافة المؤمنين (لوروده بصيغة الجمع)، ثم أنه في جملة: «إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ»، وإلى آخر الآية، فالضمائر كلها مفردة والمخاطب فيها هو النبي الأكرم صلى الله عليه وآله مع علمنا بأنه صلى الله عليه وآله كان قد فقد أبويه لسنين طويلة قبل النبوة، وبناءً على هذا فمثل هذه الأوامر حول احترام الأبوين التي تخاطب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إنما هي من قبيل المتقدم: «إِيَّاكَ اغْنَىٰ وَاسْمَعِي يَا جَارَةَ».

وما ذهب إليه جمع من مفسري أهل السنة، من عدم المانع من كون النبي الأكرم صلى الله عليه وآله هو المخاطب في الآية مورد البحث، وجواز مثل هذا النسيان في حقه، لا يبدو صحيحاً، حيث إن مورد آية النسيان هو أحكام الله تعالى، وهل يصح أن ينسى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله الأحكام الإلهية، وأي اعتماد واطمئنان بعد ذلك في كلامه عن الوحي الذي هو أساس دعوته والحالة هذه؟!.

ه) البعض من آيات سورة «الضحى» هي من جملة الآيات التي تدعونا، نحن الذين نعتقد بلزوم عصمة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله منذ ولادته، للاستفسار، يقول تعالى: «أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ». (الضحى / ٦-٨)

للمفسرين آراء مختلفة حول تفسير هذه الآية وبيان محتواها: فالليل منهم فسّر الآية بمعنى الكفر والضلال، بل حتى أن بعض المفسرين الغافلين الذين يجهلون أدلة العصمة

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٢٨

قالوا: إن نبي الإسلام صلى الله عليه وآله كان على دين قومه (الوثنية) أربعين سنة إلى أن هداه الله.

لكن كل مفسري «الشيعة» وجمهور مفسري «السنة» (كما اعترف بذلك الفخر الرازي) لم يقبلوا مثل هذا التفسير، بل متفقون بالجملة على أن نبي الإسلام صلى الله عليه وآله لم يكفر طوال عمره، ولو لحظة واحدة ولم يشرك أبداً.

ولهؤلاء المفسرين آراء عديدة حول تفسير الآية وقد بلغ عددها عشرين تفسيراً، جمعها الفخر الرازي في ذيل الآية مورد البحث، ومن التفاسير التي تلفت النظر وتتسق مع مضمون الآية وسائر آيات القرآن هي التفاسير التالية:

١- مع الإلتفات إلى الآيتين السابقتين واللاحقة لها واللتين تشيران إلى فترة طفولته صلى الله عليه وآله وشبابه، أي الإشارة إلى أنك أيها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قد تعرضت للضياع في تلك الفترة (مراراً) وتعرضت حياتك للخطر (تارةً حينما جاءت بك أمك من مرضعتك «حليمة السعدية» وذلك بعد انقضاء فترة رضاعتك إلى مكة لتسلمك إلى عبدالمطلب فضعت في الوادي، وتارةً أخرى

بين أوديه مَكَّهُ حين كنت في كفاله عبدالمطلب، وثالثه حينما كنت متجهاً مع عمك أبي طالب في قافله إلى الشام، إذ ضللت الطريق في ليلة حالكة الظلام، وانقطع عنك رفاق طريقك، فهذاك الله في كل هذه الموارد وأعادك إلى أحضان جدك أو عمك الحنونين.

الدليل على هذا التفسير هو إشارة الآية التي سبقتها إلى مسألة يتم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، واللاحقة لها المشيرة إلى فقره المادى، «الضلالة» و «الهداية» اللتين توسطتا هاتين الآيتين، هما تلك الهداية والضلالة الماديه والجسميه، وإلا فثبوت الهداية المعنوية بين هذين الأمرين الماديين لا يبدو مناسباً كثيراً (تأمل جيداً).

٢- المراد من الضلالة والهداية هو الإطلاع وعدمه، على الأسرار النبوية وقوانين الإسلام ومعارف القرآن، أى أنك لم تكن مطلعاً أبداً على هذه الامور، بل قذف الله هذا النور في قلبك لتهدى به الناس.

الدليل على هذا الإدعاء هو آيات أخرى من القرآن، من جملتها الآية التي تقول: «ما

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٢٩

كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا».

(الشورى / ٥٢)

بديهى أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وقبل بلوغه لمقام النبوة والرسالة كان يفتقر إلى هذا الفيض الإلهي، أى مقام الرسالة والمعارف القرآنية رغم كونه موحداً، فأخذ الله بيده وهداه وبلغ به هذا المقام.

التعبير «نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا» فى هذه الآية يبين أن المراد من الهداية هنا هو نفس الهداية إلى الإسلام.

ونقرأ فى ثالث آية من سورة يوسف أيضاً:

«نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ».

مع أن هذا التفسير قد أعطى الهداية والضلالة مفهومهما المعنوى الذى يتفاوت وكما قلنا مع الآية السابقة واللاحقة عليهما، لكنه يعد قرينه لما ذكرنا مع الأخذ بنظر الاعتبار بأن القرآن يُفَسِّرُ بَعْضُهُ بَعْضًا، التفاتاً إلى الآيات الأخرى.

٣- المراد من «الضال» هنا هو «الضياح بين قومه وأهله من الناحية الشخصية» وذلك كما نقرأ فى حديث عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام أنه قال: «وَوَجَدَكَ ضَالًّا»، أى ضالاً فى قوم لا يعرفون فضلك فهداهم إليك» (١).

و تفسير هذا المعنى جاء بتعبير آخر فى تفسير نور الثقلين عن عيون أخبار الرضا عليه السلام (٢).

إطلاق لفظه «الضال» و «الضال» على هذا المعنى شىء طبعى، كما جاء فى الحديث:

«الحكمة ضالة المؤمن» (٣).

إذن فهناك تفاسير مقبولة عديدة لهذه الآية لا تتنافى ومقام العصمة.

(١) تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٠٦.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٥٩٦.

(٣) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٨٠.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٣٠

هناك تعبير في القرآن الكريم حول عامّة الأنبياء يشير الاستفهام حول مسألة العصمة، وذلك حينما يقول تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسُخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ». (الحجج / ٥٢)

وهنا ربّما يطرح هذا السؤال، وهو أنه كيف يكون الأنبياء معصومين في حين أن قلوبهم - طبقاً للآية أعلاه - معرضة للإغواء الشيطاني؟!

اسطورنا الآيات الشيطانية والغرائق:

ذكروا حول هذا الموضوع قصّة عرفت ب «قصّة الغرائق»، هذه القصّة تقول: إنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله كان مشغولاً بقراءة سورة «النجم» أمام المشركين، فوصل إلى هذه الآية:

«أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ» وفي هذه الأثناء أجرى الشيطان على لسانه هاتين الجملتين: «تِلْكَ الْغُرَائِقُ الْعُلَىٰ وَإِنَّ شَفَاعَتَهُنَّ لَتَرْتَجَىٰ (١) فابتهج المشركون لسماعهم هاتين الجملتين، وقالوا: لم يذكر «محمد» آلهتنا بخير إلى الآن أبداً، فسجد النبي وسجدوا معه أيضاً في تلك الحال، بعد ذلك تفرّق مشركو قريش فرحين، فلم يمض وقت حتى نزل جبرائيل وأخبر النبي قائلاً: إنّي لم آتِك بهاتين الجملتين أبداً، إنّه من القاء الشيطان!! ونزل بالآية: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ...» كما حدّر النبي والمؤمنين أيضاً من هذا الشيء (٢).

مع هذا الحديث تكون عصمة الأنبياء حتى في تلقى الوحي، معرضة للخطر والإعتماد عليها غير ثابت.

(١) «الغرائق» جمع «غرنوق» نوع من الطيور المائية البيضاء أو السوداء اللون ... كما جاءت بمعاني أخرى أيضاً (نقلًا عن قاموس اللغة).
(٢) ذكر معظم المفسرون هذا الحديث بتفاوت ضئيل وانتقدوه.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٣١

الجواب:

في البداية يجب فصل نصّ الآية عن الروايات الموضوعه التي حيكت حولها ولننظر إلى ما تقول، ثمّ تعرّض لنقد وتحقيق الروايات: من المحقّق أنّ هذه الآية وبقطع النظر عن الهوامش المصطنعة، لا تخدش عصمة الأنبياء فحسب، بل تعدّ من الأدلّة على عصمتهم أيضاً: إذ يقول: حينما يتمنى الأنبياء امنيه صالحه («الامنيه» تطلق على كلّ أنواع الأمل والرجاء، لكنّها هنا تعنى البعد الايجابي البناء لتحقيق أهداف الأنبياء، لأنّها لو لم تكن ذات بعد إيجابي لما ألقى فيها الشيطان إلقاءاته)، كان الشيطان ينقض عليهم ويلقى إلقاءاته لكن الله كان يبطلها على الفور، ويحكم آياته قبل أن تترك تلك الوسوس أثرها السيء على إرادة الأنبياء وتصرفاتهم.

(لا يخفى أنّ «القاء» في (فينسخ الله) إشارة إلى الترتيب المتصل، أي أنّ الله كان ينسخ ويزيل إلقاءات الشيطان مباشرة)، الدليل على هذا الكلام هو آيات القرآن الأخرى التي تقول بصراحة: «وَلَوْلَا أَنْ بَيَّنَّاكَ لَقَدْ كَدَتِ تَرْكُنَ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا». (الإسراء / ٧٤) نظراً إلى أنّ الآية (٧٣): «وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ حَلِيلًا» من نفس سورة الإسراء والتي سبقت هذه الآية، تبين أنّ الكفّار والمشركين كانوا يسعون بوساوسهم إلى حرف النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عن الوحي السماوي، فيتّضح أنّ الله تعالى لم يدع لهم المجال أبداً ليفلحوا بوساوسهم تلك (تأمل جيداً).

كما نقرأ أيضاً: «وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضَمُّوكَ وَمَا يُضَمُّونَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ». (النساء / ١١٣)

هذه كلّها تبين أنّ الله قد حفظ نبي الإسلام من كلّ أنواع الإنحراف ولم يفسح المجال أبداً بمنه وفضله من نفوذ وساوس شياطين الإنس والجنّ إليه.

هذا كله فيما لو حملنا «الامنية» على «الغاية» أو «الخطئة» أو «الشروع» (لأن جذور هذه الكلمة الأصلية تعود إلى «التقدير والتصور والفرض»).

لكن لو حملنا «الامنية» على التلاوة، كما احتمله معظم المفسرين، بل وحتى استشهدوا

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٣٢

ببعض أشعار «حسان بن ثابت» لإثبات هذا المدعى «١».

كما أن الفخر الرازي قال في تفسيره: فالحاصل من هذا البحث أن الامنية إما القراءة وإما الخاطر «٢».

ففي هذه الصورة سيكون مفهوم الآية هو أن الأنبياء الإلهيين، عندما كانوا يقرأون آيات الله ومواعظه أمام الكفار والمشركين كان الشياطين يلقون وساوسهم وسمومهم بين ثنايا كلماتهم لإغفال الناس، بالضبط كما طبّقوا هذا الشيء في حق نبي الإسلام صلى الله عليه وآله أيضاً، أي كما نقرأ في قوله تعالى «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ». (فصلت / ٢٦) طبقاً لهذا المعنى يتضح مفهوم الآية التي بعدها أيضاً والتي تقول: «لِيَجْعَلَ مَا يُلْقَى الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةَ قُلُوبُهُمْ». (الحج / ٥٣)

كما أن من المتعارف اليوم أيضاً أنه حينما يشرع مصلحو المجتمعات البشرية، بإلقاء خطبهم البناءة وسط جمهور من الناس يسعى المنحرفون الذين في قلوبهم مرض، إلى محو آثار تلك الخطب بالقليل والقال والشعارات الفارغة والتعابير الشيطانية التافهة. وهذا في الحقيقة اختبار لأفراد المجتمع، وهنا ينحرف المرضى القاسية قلوبهم عن طريق الحق، في حين يزداد إيمان المؤمنين شيئاً فشيئاً بحقانية الأنبياء، والتمسك بدعوتهم «وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ». لكن تفسير الآية طبقاً للمعنى الأخير لا يخلو من إشكال، لأن الإلقاءات الشيطانية في نفوس الأنبياء عليهم السلام مهما كانت تنسخ وتزال بالإمدادات الإلهية على الفور، لكنّها لا يمكنها

(١) الشعر هو هذا:

تمنى كتاب الله أول ليلة وآخرها لاقى حمام المقادر

جاء تمنى الكتاب بمعنى تلاوة الكتاب في «تاج العروس» القاموس وكذلك في متن «القاموس»، ثم ينقل الزهري أن «الامنية» تطلق على التلاوة لكن القارىء كلما انتهى بآية رحمة تمنّاها، وكلما وصل إلى آية منها ذكر للعذاب تمنى النجاة منه. لكن صاحب «مقاييس اللغة» يعتقد أن إطلاق هذه اللفظة على التلاوة إنما هو لأجل وجود نوع من القياس ووضع كل آية في مكانها.

(٢) تفسير الكبير، ج ٢٣، ص ٥١.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٣٣

أن تكون أساساً لاختبار المنافقين والذين في قلوبهم مرض لبداهة عدم تحقق وجود خارجي لهذه الوسوس، إنما هي اللقاءات عابرة في نفوس الأنبياء.

إلا أن يقال بأن المراد هو أنه حينما يريد الأنبياء الإلهيون تجسيد (امنياتهم وخططهم) وتنفيذها في الخارج، يشرع الشياطين بتحطيمها وإلقاء السموم والوسوس عليها، وهنا تتجسد ساحة الإختبار الساخنة، وطبقاً لهذا البيان فالإنسجام والإرتباط بين الآيات الثلاث (الحج / ٥٢ و ٥٣ و ٥٤) محفوظ وقائم.

العجيب أن بعض المفسرين ذكروا للآية الأولى احتمالات وتفسيرات مختلفة دون الحفاظ على انسجامها مع الآيتين اللتين تليانها (تأمل جيداً).

على أية حال نستنتج من مجموع ما تقدم عدم وجود ما ينفي مسألة عصمة الأنبياء من الخطأ والانحراف في الآية مورد البحث، بل هي

على العكس من ذلك تؤكد على هذه المسألة لأنها تقول إن الله يحفظ أنبياءه من القاءات الشيطان حين تلقى الوحي أو التصميم على إنجاز أعمال أخرى.

والآن يجب أن نلتفت إلى الروايات والأساطير التي ذكرت في هذا القسم، والتي دفعت ببعض من شياطين الإنس في الأونة الأخيرة إلى تأليف كتاب «الآيات الشيطانية»، أملاً في إيجاد الفتنة وإلقاء السموم والشبهات حول سيرة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، لنعرف ما قيمة مثل هذه الروايات والأساطير؟

نقد الروايات المرتبطة بأسطورة الغرائق:

كما تقدم القول إن الآيات السابقة لا تحتوي على ما يتنافى وعصمة الأنبياء، بل هي على العكس دليل على عصمتهم، لكن هناك قضايا عجيبة جداً يمكن مشاهدتها في الروايات المذكورة في بعض مصادر أهل السنة من الدرجة الثانية والتي ينبغي التحقيق فيها على انفراد، هذه الروايات التي ذكرناها في بداية البحث، منقولة تارة عن ابن عباس وأخرى نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٣٤

عن سعيد بن جبير وثالثه عن البعض من الصحابة أو التابعين (١).

مع أن هذه الروايات لم تشاهد في أي مصدر لأتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام، كما أنه لا وجود لها أيضاً في كتب الصحاح السنة على حد قول بعض علماء أهل السنة، حتى أن المراغي يقول في تفسيره: «وقد دس بعض الزنادقة في تفسير هذه الآية أحاديث مكذوبة لم ترد في كتاب من كتب السنة الصحيحة، وأصول الدين تكذبها، والعقل السليم يرشد إلى بطلانها ... ويجب على كل العلماء طرحها وراء ظهورهم، ولا يضيعوا في تأويلها وتخريجها، ولا سيما بعد أن نص الثقات من المحدّثين على وضعها وكذبها» (٢).

كما ونقرأ نفس هذا المعنى بشكل آخر في تفسير «الجواهر» ل «الطنطاوي» حيث يقول: «هذه الأحاديث لم تذكر في أي واحد من كتب الصحاح السنة مثل موطأ مالك، صحيح البخاري، صحيح مسلم، جامع الترمذي، سنن ابن داود، وسنن النسائي» (٣).

ولذا لم يذكره كتاب «تيسير الوصول لجامع الأصول» الجامع للروايات التفسيرية للكتب السنة، وذلك عند تفسيره لآيات سورة النجم. ومن هنا فليس من اللائق الإهتمام بهذا الحديث أو حتى التحدّث به، فضلاً عن التعليق عليه أو ردّه ... هذا الحديث كذب واضح! (٤).

من الأدلة التي يذكرها «الفخر الرازي» على كون هذا الحديث من الموضوعات قوله:

«وأيضاً فقد روى البخاري في صحيحه أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قرأ سورة النجم وسجد فيها المسلمون والمشركون والإنس والجنّ، وليس فيه حديث «الغرائق»، وروى هذا الحديث من طرق كثيرة وليس فيها حديث الغرائق بتاتاً» (٥).

ولم يقتصر الأمر على المفسرين الذين ذكرناهم، بل هناك أفراد آخرون أيضاً مثل

(١) لمزيد من الإطلاع على طرق هذه الروايات عند أهل السنة يمكن الرجوع إلى تفسير درّ المنثور، ج ٤، ص ٣٦٦-٣٦٨ ذيل الآية ٥٢ من سورة الحجّ.

(٢) تفسير المراغي، ج ١٧، ص ١٣٠، ذيل الآيات مورد البحث.

(٣) يجب الالتفات إلى أن سنن ابن ماجه هي من الصحاح السنة لا موطأ مالك.

(٤) تفسير الجواهر، ج ٦، ص ٤٦.

(٥) تفسير الكبير، ج ٢٣، ص ٥٠.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٣٥

«القرطبي» في تفسير «الجامع» وسيد قطب في تفسيره «في ظلال القرآن» وغيرهما وعموم كبار مفسري الشيعة أيضاً، حيث اعتبروا هذه

الرواية من الخرافات والموضوعات ونسبها إلى أعداء الإسلام.

ومع كل هذا فلا عجب أن يضع أعداء الإسلام خصوصاً المستشرقون الحاقدون الأموال الطائلة في خدمة نشر هذه الرواية ويقومون بالعمل عليها بكلّ جدية، وقد رأينا في الأونة الأخيرة كيف أنّهم شجّعوا كاتباً شيطانياً لتأليف كتاب تحت عنوان «الآيات الشيطانية»، حيث إنّه استفاد من عبارات ركيكة جداً ومن خلال قصّة خياليّة لم يقتصر على هتك مقدّسات الإسلام ووضعها في معرض الشكّ والترديد فحسب، بل أهان الأنبياء العظام الذين تكنّن لهم كلّ الأديان السماوية الاحترام أيضاً (مثل إبراهيم على نبينا وآله وعليه السلام).

وليس عجباً أيضاً أن يترجم النصّ الانكليزي لهذا الكتاب إلى مختلف اللغات وبسرعة خياليّة، ويوزّع في كلّ أنحاء العالم، وحينما أصدر الإمام الخميني قدس سره فتواه التاريخيّة بارتداد كاتب هذا الكتاب أي «سلمان رشدي» ولزوم قتله، بادرت الدول الاستعماريّة وأعداء الإسلام إلى حمايته بشكل منقطع النظير. هذه الحركة العجيبة أثبتت أنّ هناك من يقف وراء سلمان رشدي وأنّ المسألة هي أكبر من مجرد تأليف كتاب معادٍ للإسلام، وأنها في الواقع خطّة مدروسة من قبل الغرب المستعمر والصهيونيّة لضرب الإسلام من خلال وقوفهم معه بكلّ حزم.

لكن الصمود القوى للإمام الخميني قدس سره في فتواه، واستمرار نهجه من قبل نوابه، وما نالته تلك الفتوى من القبول والترحاب من قبل غالبية الشعوب المسلمة في العالم خيب آمال المفتعلين، بل لا زال مؤلّف هذا الكتاب وإلى لحظة تدويننا لهذا البحث يعيش متخفياً في محلّ مجهول بالكامل، تحت رقابة مشدّدة من قبل الدول الاستعماريّة، ويبدو أنّه مضطّر للعيش هكذا إلى آخر لحظات حياته إن لم يقتل على أيدي نفس تلك الدول، فيما لو أرادت غسل ذلك العار الذي لحق بها نتيجة دفاعها عنه.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٣٦

وبناءً على هذا فالمدافع ل «وضع» هذه الرواية المزورة سيكون هو السبب في بقائها أيضاً، وبعبارة أخرى هناك محاولة من قبل أعداء الإسلام كانت قد بدأت في السابق، ثمّ واصلت مسيرها بعد الف سنة أو أكثر مدعومة من قبل طائفة أخرى وبصورة مكثفة. ومن هنا فلا حاجة لنقل التبريرات التي اثرت بشأن هذا الحديث كالتى وردت في تفسير «روح المعاني» بشكل موسّع، أو في تفاسير أخرى بشكل مركز.

وكما أكد كبار علماء الإسلام فان الحديث الذي يكون أساسه خاوياً فإنّه لا يستحق أن يعطى اهمية في تفسيره أو تسليط الأضواء عليه.

لكن هناك بعض الملاحظات ينبغي ذكرها لتوضيح المطالب ليس إلّا وهي:

١- الصراع المرير لنبي الإسلام صلى الله عليه وآله ورفض المساومة مع عبدة الأصنام والأوثان عند بدء الدعوة وإلى آخر عمره، وهو أمر لا يخفى على أحد من الأعداء والأصدقاء، وأهمّ شيء لم يساوم عليه أبداً ولم يتصالح أو يزيغ عنه هو هذا الموضوع، فكيف يمكن والحالة هذه أن يمدح أصنام المشركين بهذه الأوصاف ويذكرها بخير؟

وقد أكدت التعاليم الإسلاميّة أنّ الذنب الوحيد الذي لم يغفر أبداً هو الشرك وعبادة الأوثان، ولذا اعتبر مسألة ضرب أماكن عبادة الأصنام واجبة على كلّ مكلف مهما كلفه الأمر، كما أنّ القرآن من ألفه إلى يائه شاهد على ذلك ويشكل بنفسه قرينه واضحة على وضع حديث الغرائق الذي ذكر فيه تمجيد ومدح الأوثان والوثنية.

٢- فضلاً عن أنّ الذين وضعوا اسطورة الغرائق لم يفتتوا إلى هذا الموضوع وهو أنّ مروراً بسيطاً على آيات سورة النجم يبطل هذه الخرافة، ويثبت عدم وجود الإنسجام بين مدح وتمجيد الأوثان في جملة «تلك الغرائق العلى، وأنّ شفاعتهنّ لترجي» وبين الآيات التي تحفّ بها، إذ قد صرّح في بداية نفس هذه السورة بأنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لم ينطق عن هوى النفس أبداً وأنّ كلّ ما يقوله بالنسبة لعقائد وقوانين الإسلام إنّما هو من الوحي الإلهي «وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ». (النجم / ٣-٤)

وتصرح الآيات بأن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لم ينحرف أبداً عن طريق الحق «مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى».

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٣٧

وأى ضلال وانحراف أعظم من يأتي بحديث عن الشرك والثناء على الأصنام بين آيات التوحيد؟ وأى منطق أسوء من أن يضيف كلام الشيطان (تلك الغرائق العلى) إلى كلام الله تبعاً للهوى.

والمثير هنا أن الآيات التي تتلوها تدمم الأصنام والمشركين وتقول «إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ». (النجم / ٢٣)

أى عاقل يصدق أن شخصاً زانياً حكيماً وفى مقام النبوة وإبلاغ الوحي، يمدح الأصنام فى الجملة السابقة ويذمها بشدة وعنف فى جملتين بعدها؟! كيف يمكن توجيه هذا التناقض الصارخ بين الجملتين تبعاً؟

ومن هنا يجب الاعتراف بأن الإنسجام القائم بين آيات القرآن هو بشكل يرفض كل شبهة تضاف إليها من قبل المعاندين والمغرضين، ويثبت كونها جملة غريبة وإضافة غير متجانسة وأنها ليست فى محلها، هذا هو المصير الذى ابتلى به حديث الغرائق بين طيات آيات سورة النجم.

وهنا يبقى سؤال واحد، وهو البحث عن السر وراء كل هذه الشهرة، التى لاقاها موضوع تافه لا أساس له كهذا؟

جواب هذا السؤال ليس بتلك الصعوبة أيضاً، إذ إنَّ الفضل فى شهرة هذا الحديث يعود بالدرجة الأولى إلى مساعى الأعداء والمرضى، الذين يظنون أنهم قد عثروا على اداة جديدة للطعن فى مقام عصمة نبي الإسلام واصالة القرآن، وبناءً على هذا التحليل يتضح شهرته بين الأعداء وهو مما لا يخفى، أما شهرته بين المؤرخين الإسلاميين المسلمين فعلى حد قول بعض علماء الإسلام، ناتج من كون هؤلاء المؤرخين يبحثون عن كل ما هو مثير وغريب وفريد من نوعه وإن كان يفتقر إلى الاصلة التاريخية لدرجه بين طيات كتبهم، ليزيدوا من جاذبيتها قدر المستطاع، ونظراً لكون قصه كأسطورة الغرائق حادثة غريبة تنسب إلى حياة نبي الإسلام صلى الله عليه وآله فلم تخل منها كتبهم التاريخية، بل وحتى الروائية منها

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٣٨

بغض النظر عن ضعف أسانيدها وتفاهة محتواها. كما أن البعض أيضاً قد ذكرها للنقد والتحليل.

ثمره البحث:

يتضح من مجموع ما مر أن آيات القرآن تشكل دليلاً واضحاً يؤكد على عصمة الأنبياء، فضلاً عن خلوها عما يتنافى وتلك المنزلة الرفيعة.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٣٩

أقوال وآراء حول عصمة الأنبياء عليهم السلام

إشارة

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٤١

أقوال وآراء حول عصمة الأنبياء عليهم السلام

مسألة تنزيه الأنبياء من الذنب والخطأ يتفق عليها أغلب المسلمين، بل وحتى أصحاب الملل والشرائع الاخرى لكن هناك اختلافات كثيرة وآراء وأقوالاً متنوعه فيما يتعلق بخصوصياتها، قد تناولتها كتب العقائد والتفسير، والحديث بالشرح والتفصيل.

المرحوم العلامة الحلّي في كتابه «نهج الحقّ وكشف الصدق» (١) وكذلك هو وكل من شرح «تجريد العقائد» في شرح كلام الخواجه الطوسي «ويجب في النبي العصمة»، وكذلك «ابن أبي الحديد» في شرح نهج البلاغة (٢)، حيث تناولوا كلّهم هذه الأقوال بشكل مطّول، لكن المرحوم «العلامة المجلسي» قام بشرح وترتيب هذا البحث بشكل أفضل من غيره، وهو ما سندكر خلاصته أدناه على أمل الإحاطة بكلّ الأقوال المتعلقة بهذه المسألة، (إضافات وضعناها بين قوسين تخللت كلام هذا المحقق العظيم).

يقول في بحث عصمة الأنبياء عليهم السلام:

اعلم أنّ الاختلاف الواقع في هذا الباب بين علماء الفريقين يرجع إلى أربعة أقسام: أحدها، ما يقع في باب العقائد. وثانيها، ما يقع في التبليغ. وثالثها، ما يقع في الأحكام والفتيا. ورابعها، في أفعالهم وسيرهم عليهم السلام. وأمّا الكفر والضلال في الاعتقاد، فقد أجمعت الامية على عصمتهم عنهما قبل النبوة وبعدها، غير أنّ الأزارقة من الخوارج جوّزوا عليهم الذنب. وكلّ ذنب عندهم كفر، فلزمهم تجويز الكفر عليهم، بل يحكى عنهم أنّهم قالوا: يجوز أن

(١) دلائل الصدوق، ج ١، ص ٣٦٨.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٧، ص ٧ - ٢٠.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٤٢

يبعث الله نبياً علم أنّه يكفر بعد نبوته! (لكن ضعف هذا الكلام هو بدرجة لا يمكن اعتباره ضمن أقوال العلماء المتقدمين، وكذلك تعبير بعض مفسري أهل السنة في ذيل الآية:

«وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى». (الضحى / ٧)

وذيل الآية: «مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ». (الشورى / ٥٢)

وذيل الآية: «وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ». (الشرح / ٢)

والآية: «قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ». (البقرة / ١٣١)

يبين أنّ البعض منهم يقول بجواز مسألة الكفر والشرك قبل النبوة، لكن - وكما قلنا - لا يمكن اعتبار هذا الكلام من أقوال علماء الإسلام).

وأما النوع الثاني وهو ما يتعلّق بالتبليغ فقد اتفقت الامّة، بل جميع أرباب الملل والشرائع على وجوب عصمتهم عن الكذب والتحريف، فيما يتعلّق بالتبليغ عمداً أو سهواً إلّا «القاضي أبو بكر الباقلاني»، فإنّه جوّز ما كان من ذلك على سبيل النسيان وفتلت اللسان، (هذا القول نادر بدرجة بحيث لا يعتبر شيئاً في مقابل القول بالإجماع).

أما النوع الثالث وهو ما يتعلّق بالفتيا فأجمعوا على أنّه لا يجوز خطأهم فيها عمداً وسهواً، إلّا شذمة قليلة من العامية (التي خرقت هذا الإجماع، والتي لا يعتدّ بها أيضاً) (ينقل ابن أبي الحديد هنا عن الكرامية والحشوية «١» بأنهم لم يقتصروا على القول بجواز الخطأ فقط في هذا القسم، بل استدّلوا بأسطورة الغرائيق الموضوعة لإثبات هذا المقصود بالنسبة للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله «والعياذ بالله»).

وأما النوع الرابع وهو أفعالهم، فقد اختلفوا فيها على خمسة أقوال:

١- مذهب الشيعة الإمامية وهو أنّه لا يصدر عنهم الذنوب الصغيرة أو الكبيرة ولا العمد والنسيان والخطأ في التأويل ولا للإسهاء من الله سبحانه، ولم يخالف فيه (وفي مورد واحد فقط) إلّا الشيخ الصدوق وشيخه محمّد بن الحسن بن الوليد فإنّهما جوّزا الإسهاء لا السهو،

(١) «الكرامية» هم أتباع محمد بن كرام الذى ظهر فى القرن الثالث وقال بالتجسيم، و «الحشوية» (بفتح الشين أو سكونها) طائفة من المعتزلة الذين ذهبوا وراء ظواهر القرآن وقالوا بالتجسيم، وقال البعض إن هذه الفرقة الضالّة شاركت أوّلًا فى درس الحسن البصرى، وحينما سمع الحسن منهم كلاماً يخالف الإسلام أمر بإخراجهم.

نفحات القرآن، ج٧، ص: ١٤٣

الذى يكون من الشيطان وكذا القول فى الأئمة الطاهرين عليهم السلام.

٢- أنه لا يجوز عليهم فعل الكبائر، ويجوز عليهم فعل الصغائر إلّا الصغائر التى تشمئز منها النفوس، وكلّ ما ينسب فاعله إلى الدناءة والضعة، وهذا قول أكثر المعتزلة «١».

٣- أنه لا يجوز أن يأتوا بصغيرة ولا كبيرة بشكل عمد، لكن يجوز على سبيل الخطأ أو السهو، وهو قول «أبى على الجبائى» أحد متكلمى المعتزلة ومن أقطابهم «٢».

٤- أنه لا يقع منهم الذنب إلسهواً او خطأً، لكنهم مسؤولون عما يقع منهم سهواً، وإن كان موضوعاً عن أمهم، لقوة معرفتهم وعلو رتبتهم وكثرة دلائلهم، وأنهم يقدرون من التحفظ على ما لا يقدر عليه غيرهم .. وهو قول النظام «٣» (الذى هو من علماء المعتزلة المعروفين فى عهد بنى العباس) وجعفر بن مبشر ومن تبعهما.

٥- أنه يجوز عليهم الكبائر والصغائر عمداً وسهواً وخطأً، وهو قول «الحشوية» (الاخباريين من أهل السنة، لكن لا يعلم فى الوقت الحاضر أحد منهم مؤيد لهذا المذهب) وكثير من أصحاب الحديث من العامة.

ثم يضيف المرحوم «العلامة المجلسى» قائلاً:

ثم اختلفوا فى وقت عصمة الأنبياء على ثلاثة أقوال.

الأول: إنهم معصومون منذ ولادتهم إلى أن يلقوا الله سبحانه، وهو مذهب أصحابنا الإمامية.

الثانى: إن عصمتهم تبدأ من حين بلوغهم، ولا يجوز عليهم الكفر والكبيرة قبل النبوة، وهو مذهب كثير من المعتزلة.

الثالث: إن عصمتهم تبدأ من وقت «النبوة»، وأما قبل ذلك فيجوز صدور المعصية عنهم،

(١) «المعتزلة» أتباع «واصل بن عطاء» الذى هو من تلاميذ الحسن البصرى ثم أعلن عن مخالفته إياه واعتزله، ولذا عرف أصحابه بالمعتزلة ولهم مؤيدون كثيرون بين أهل السنة.

(٢) «جبا» كان إسماً لإحدى مناطق خوزستان.

(٣) إسمه «إبراهيم بن سيار» ولقب ب «النظام» لأنه كان يمتهن حرفه ترتيب الأختام وبيعها فى سوق البصرة، أو لأنه كان يتحدّث بشكل منظم.

نفحات القرآن، ج٧، ص: ١٤٤

وهو قول أكثر «الأشاعرة» ومنهم الفخر الرازى، وبه قال «أبو هذيل» «وأبو على الجبائى» من المعتزلة «١».

والملفت للنظر أن المصدر الرئيس لهذه الأقوال المتفرقة يعود بالدرجة الاولى إلى عاملين كما يبدو:

١- عدم وضوح البعض من ظواهر آيات القرآن التى يشتم منها للوهلة الاولى نفى العصمة فى بعض امورهم، فى حين أن التدقيق فى هذه الآيات، وتفسيرها على ضوء آيات القرآن الاخرى ينفى هذا التوهم بالمرّة، ولكن نظراً لأن أهل الظاهر والجمود لم يكلفوا أنفسهم عناء التحقيق والتدقيق فقد ابتلوا بمثل هذه العقائد.

٢- فريق اعتبر بعض افراده الأدلة العقلية دخيلة فى هذه المسألة، وفسّر آيات القرآن أفضل من صاحبه، كلّ اعتمد أحد الأقوال

المتقدمة، نظراً لتوهمهم بأن الهدف من البعثة إنما يتحقق بالعصمة بعد النبوة، أو العصمة في خصوص نطاق دائرة التبليغ، أو من الذنوب الكبيرة.

لكن الحق هو أن الأنبياء معصومون بشكل عام من الذنوب العمديّة وغيرها، كبيرة كانت أم صغيرة، قبل «البلوغ» و «النبوة» أم بعدها، وكذلك من الخطأ سواء أكان في العقيدة، أو تبليغ النبوة وأداء الرسالة، أو بيان الأحكام أو غيرها.

هذه هي عقيدة علماء الشيعة، عقيدة أصحابنا في تنزيه الأنبياء والأئمة عليهم السلام من كلّ ذنب ودناءة ومنقصة قبل النبوة وبعدها، ودليلهم على ذلك روايات أئمة الهدى عليهم السلام الثابتة قطعاً عن طريق إجماع الأصحاب، والروايات المتظاهرة، حتى صار ذلك من قبيل الضروريات في مذهب الإمامية» (انتهى كلام العلامة المجلسي) «٢».

ومع هذا فمن المثير للعجب ما ينسبه بعض أعداء الشيعة لهذا المذهب بما يتفرون منه في كلماتهم، كقولهم مثلاً: إن الشيعة يجوزون تظاهر الأنبياء بالكفر تقيّة خوفاً على حياتهم!

(١) بحار الأنوار، ج ١١، ص ٨٩-٩١.

(٢) المصدر السابق، ٩١.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٤٥

ثم إنهم انهالوا على هذه العقيدة بكلّ عنف! «١».

في حين أنه لم يقل أي من علماء الشيعة أي شيء حول هذا الموضوع، وكم كان مناسباً لو أن هذا القائل ذكر ولو اسم شخص واحد، أو كتاباً واحداً على أقلّ تقدير تذكر فيه مثل هذه العقيدة، وحسب قول المرحوم «العلامة المظفر» إن هذا الكلام كذب جلي، وربما يكون السبب وراء هذه النسبة هو جعل عقيدة الشيعة في التقيّة محوراً لاستنباطهم الخاطيء، فمع أن إظهار الكفر بل وحتى ما دونه غير جائز للأنبياء أبداً، مهما تعرّضت حياتهم المقدّسة للخطر في هذا الطريق، وغدت قرباناً للدين والعقيدة.

لكن التقيّة العملية، كالتى ظهرت من نبي الإسلام صلى الله عليه وآله في مسألة الهجرة، حين خروجه من مكة سرّاً حتى وصل المدينة فلا محذور فيها، ولا ربط لهذا بما قالوه.

الأدلة العقلية على عصمة الأنبياء عليهم السلام:

إشارة

ذكر أقطاب علماء الكلام أدلّة كثيرة على لزوم عصمة الأنبياء عن طريق العقل، والتي يمكن دمج البعض منها في البعض الآخر، واستبدال الضعيفة منها بالقوية، بحيث ينتج من مجموعها، أدلّة أربعة تستحقّ القبول والذكر:

١- العوامل الداخلية - النفسية -

بتحليل مختصر يمكن القول بسيطرة العوامل المانعة عن الذنب على العوامل الدافعة إليه في نفوس الأنبياء.

بيان ذلك: للذنوب التي يقتربها الإنسان عوامل ومصادر شتى لكنّها تعود بالدرجة الأولى إلى عاملين مهمين:

١- الجهل وعدم تصور سوء عاقبة الأمر.

٢- سيطرة الشهوات والأهواء بشكل، بحيث يستسلم لها العلم والعقل مع قدرتهما على إدراك الآثار السيئة للذنوب.

(١) الشيخ روزبهان في كتاب إبطال الباطل، طبقاً لما نقله في كتاب دلائل الصدوق، ج ١، ص ٣٦٩.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٤٦

فالشخص الذى تتلوث يدها بدماء ضحية بريئة مثلاً، أو يختار طريق السرقة والسقوط والرشوة، أو يتلى بلعب القمار وشرب الخمر وتعاطى المواد المخدرة، لا يخرج عن أحد حالين: إما أنه لا يعلم بمفاسد هذه الأمور بشكل تام، أو أنه عالم بها إلا أنه لا يستطيع الصمود أمام ثورة الشهوات والأهواء وعنوانهما.

وبناءً على هذا فالعلم والإطلاع لوحدهما غير كافيين للردع عمياً هو غير مرغوب فيه، بل لابد - إلى جانب ذلك - من التسلط على النفس والأهواء.

إن الثمرة التى يمكن أن نجنيها من هذا البحث هي أن الإنسان لو كان له اطلاع كافٍ بقباحتها وعمل ما، وتسلط كامل على نفسه وميوله، فيستحيل صدور هذا العمل منه (المراد هنا بطبيعة الحال هو المحال العادى لا العقلى كاجتماع الضدين) (تأمل جيداً).

ويمكن بيان هذه الحقيقة ببعض الأمثلة، وهي أن الكثير منا يمتلك حالة شبيهة بالعصمة في قبال البعض من الذنوب، (أمام البعض منها فقط) مثلاً، لا نجد بيننا من يوافق على الخروج إلى الأزقة عارياً في وضوح النهار، ولو صادف أن قام أحدنا بمثل هذا العمل فسوف نقطع بزوال عقله ورشده، وإلا فيستحيل الإقدام على هذا الشيء مع وجود العقل والوعى.

شرب مياه المجارى القذرة والملوثة حرام قطعاً، فهل ياترى يوجد بيننا عاقل يُقدم على عمل كهذا؟

الطبيب الماهر المتبحر فى أسرار علم الطب وخطورة أنواع الأمراض المعدية، لا يوافق أبداً على شرب غساله ملابس المرضى المبتلين بالأمراض والأوبئة المعدية.

وبهذا يمكن القول باختصار: إن لنا حصانه ومناعه أمام مثل هذه الأعمال القبيحة، وذلك لوقوفنا عن كسب على مفاسدها، بل إن قوة عقولنا ومعارفنا وإيماننا ستحطم تلك الميول والرغبات، لو حاولت فى يوم ما إيقاعنا فى مخالاب مثل هذه الأمور، إذن فلو وجد هناك من له اطلاع كاطلاعنا على قبح الذنوب والمعاصى، فمن المسلم أنه سيتجنبها بجديته.

وبعبارة أخرى، إن الدوافع نحو المعصية - أعم من الجهل أو غلبة الشهوات والأهواء - وقد انتهت وتلاشت فى وجود الأنبياء والأئمة المعصومين فى ظل علمهم ومعرفتهم وتقواهم.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٤٧

ولا يخفى أن الأنبياء - وبفضل ارتباطهم بعالم الغيب وبحر علم البارى اللامتناهى - لهم إحاطة كافية بحجم مفاسد الذنوب، وقبح مثل هذه الأعمال وفلسفة النهى عنها، ومن جهة أخرى فنفس هذا الارتباط الذى يكون على مستوى الشهود ومشاهدة عالم الغيب، يخلق فيهم حالة من التقوى بحيث تعد رادعاً قوياً أمام دوافع تلك الأهواء والميول.

خلاصة القول هي: إن الوقوف على دوافع المعصية من جهة، وعلى مستوى معرفة وتقوى الأنبياء الناتج من ارتباطهم بعالم الغيب من جهة أخرى، يدعونا للتصديق بحصانتهم وابتعادهم عن كل أنواع المعصية.

ورد فى رواية عن أمير المؤمنين عليه السلام الإشارة باختصار، مع دلالة تأميه إلى الملاحظة الأولى، حيث يقول: «قرنت الحكمة بالعصمة» (١).

مع أن العصمة هنا قد جاءت بمعناها العام، أى كل أنواع الحصانه من المعصية وفى كل مراحلها، لكنّها على أية حال تعدّ شاهداً على مرادنا.

وجاء فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال «المعصوم هو الممتنع بالله من جميع المحارم، وقد قال الله تبارك

وتعالى ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم» (٢).

ويمكن أن يكون هذا الحديث إشارة إلى الملاحظة الثانية أو كليهما، كما ورد نفس هذا المعنى في حديث هشام بن الحكم بشكل أوفى، فعن ابن أبي عمير - الذي يعدّ من كبار أصحاب الإمام الصادق عليه السلام - أنّه قال: «ما سمعت ولا استفدت من هشام بن الحكم في طول صحبتي إياه شيئاً أحسن من هذا الكلام في صفة عصمة الإمام، فأتى سألته يوماً عن الإمام أهو معصوم؟ قال نعم، قلت له: فما صفة العصمة فيه؟ وبأى شيء تُعرف؟ قال:

إنّ جميع الذنوب لها أربعة أوجه لا خامس لها: الحرص والحسد والغضب والشهوة، فهذه منتفية عنه. ثمّ أضاف قائلاً:

(١) غرر الحكم.

(٢) بحار الأنوار، ج ٥، ص ١٩٤، ح ٦؛ والآية من آل عمران ١٠١.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٤٨

لا يجوز أن يكون حريصاً على هذه الدنيا وهي تحت خاتمه، لأنّه خازن المسلمين فعلى ماذا يحرص؟ ولا يجوز أن يكون حسوداً لأنّ الإنسان إنّما يحسد من هو فوقه وليس فوقه أحد، فكيف يحسد من هو دونه. ولا يجوز أن يغضب لشيء من أمور الدنيا، إلّا أن يكون غضبه لله عزّ وجلّ ...

ولا يجوز أن يتبع الشهوات ويؤثر الدنيا على الآخرة، لأنّ الله عزّ وجلّ حبّب إليه الآخرة، كما حبّب إلينا الدنيا فهو ينظر إلى الآخرة كما ينظر إلى الدنيا، فهل رأيت أحداً ترك وجهاً حسناً لوجه قبيح؟ وطعاماً طيباً لطعام مرّ؟ وثوباً لثوب خشن؟! ونعمة دائمة باقية لدنيا زائلة فانية؟! (١).

مع أنّ «هشام بن الحكم» لم ينسب هذا الحوار إلى أئمة أهل البيت عليهم السلام مباشرة، لكن نظراً لكونه من ألمع تلاميذ الإمام الصادق عليه السلام، وتصريحه قائلاً: «كلّ ما عندي فهو من الإمام الصادق عليه السلام»، فيبدو أنّه قد استلهم تحليله اللطيف والمنطقي هذا، والذي يمكن أن يكون أحد الأدلّة العقلية على مسألة عصمة الأنبياء والأئمة، من إمامه الإمام الصادق عليه السلام.

٢- دليل الاعتماد

من الواضح أنّ الهدف من بعث الأنبياء هو هداية البشرية على ضوء التعاليم الإلهية، هذا الهدف الذي يمكن ضمانه حيث لا يبقى هناك أدنى مجال للشك والترديد، يساور الناس فيما يتعلّق بأقوالهم وأفعالهم، بشكل بحيث يعتبرون كلامهم كلام الله، وتعاليمهم تعاليم إلهية، حتّى يتقبّلوها قلباً وقالباً ويسلموا لها تسليمًا ويعتمدوا عليها. ومن البديهي أنّ احتمال الكذب، وتحريف الحقائق والخطأ والإشتباه سيجد طريقه إلى كلماتهم إن لم يكونوا معصومين عن «الذنب» و«المعصية»، وبالتالي يسلب الاعتماد عليهم

(١) بحار الأنوار، ج ٢٥، ص ١٩٢، ح ١.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٤٩

حتّى لو كانوا أناساً طبيين، لأنّ فقدان منزلة العصمة يستلزم احتمال تعلقهم في يوم ما بالمظاهر المادية ومغرياتهما، أو أن يرتكبوا الخطأ والزلل من حيث لا يشعرون وبلا سبب يذكر.

هذا الاحتمال يبعث على التشويش الفكري لأتباعهم على الدوام، كما أنّه سيكون أساساً للشكّ والريب، فضلاً عن بقاء مسألة «إتمام

الحجّة» ناقصة أيضاً، نظراً لوجود ذريعة بيد المخالفين على الدوام مفادها أن سبب عدم أتباعهم لتعاليم النبي يكمن في احتمال صدور الخطأ والزلل (لا سمح الله) منه.

خلاصة القول: إن رأس المال الحقيقي للنبوّة هو كسب ثقة طلاب الحقيقة، ولا يتحقق هذا المعنى بفقدان منزلة العصمة والسيانة من الذنب والخطأ.

ويمكن القول: أن الناس عموماً إنما يتبعون العلماء الأتقياء، ويأخذون منهم أحكام دينهم ويثقون بهم، مع علمهم بعدم عصمتهم من الذنب والخطأ.

لكن ينبغي الالتفات إلى أن أصل الدين يختلف عن فروعهِ وجزئياته، ويمكن إرساء أصل الدين وأساسه على الشك أو الظن، ولا يمكن قبول الوحي الإلهي مقروناً بالاحتمال والشك والترديد، في حين أن احتمال الخطأ والإشتباه في الفروع والجزئيات لا يؤثر في أساس العقيدة، إذن فلا بد من القول هناك بالعصمة والإكتفاء بالعدالة هنا، وذلك لإمكان غض الطرف عن احتمال الخطأ في هذه الجهة، دون الخطأ والإشتباه في الوحي وإبلاغ الرسالة، حيث لا يمكن غض البصر والتسامح في هذا المورد، كما يثار هنا سؤال آخر أيضاً وهو أن آخر شيء يمكن أن يستفاد من هذا الدليل هو تنزيههم من الخطأ والكذب والتحريف في تبليغ الرسالة، لكن هذا الدليل قاصر عن شمول كافة الذنوب والمعاصي.

لكن الإنصاف هو اشتراك معظم الذنوب باسس مشتركة، فالكذب والإتهام والسرقة والإبتلاء بشرب الخمر ولعب القمار والسقوط الأخلاقي، نابعة من اتباع هوى النفس واتباع الشهوات وحب الدنيا، فكيف يمكن ألا يكذب أبداً من يتبلى بأنواع المعاصي؟ وعلى فرض وجود مثل هذا الشخص ولو نادراً، فإنه لن يفلح مع ذلك في كسب ثقة

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٥٠

نفحات القرآن ج ٧، ص: ١٩٩

الناس، إذ سيقولون كيف يمكن الاعتماد على كلام الشخص الفلاني الخائن والظالم والمنحرف؟ لأن الفصل في هذه المسائل وعلى فرض إمكانه في الواقع مرفوض عند عامة الناس (تأمل جيداً).

فكيف يمكن لشخص يخطيء في أمور الحياة اليومية أن يكون مورد اعتماد في إبلاغ الوحي الإلهي؟ وسيقول الناس حتماً: إنه ربّما ابتلى عند إبلاغ الوحي بنفس تلك الإشتباهات التي يقع بها في حياته الشخصية.

خلاصة القول أن مسألة تجزئة وفصل الأخطاء والذنوب مرفوضة عند السواد الأعظم من الناس، وأن من يرتكب ذنباً أو خطأ لا يمكن أن يكون مورد اعتماد في تبليغ الوحي (تأمل جيداً).

٣- مخالفة الغاية وعدم تحقق أهداف البعثة

من المسلم أن الشخص العاقل الحكيم لا يقدم أبداً على عمل يخالف هدفه وغايته، وإلا فلا يصح أن ينعت بالحكمة والوعى، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، فنحن نعلم أن الله عز وجل قد أرسل أنبياءه لهداية العباد وتربيتهم، فلو لم يكونوا معصومين عن الذنب والمعصية لأضلوا الناس بدل هدايتهم، وهذا هو الجانب المنافي للهدف من بعثة الأنبياء بالضبط.

بالإضافة إلى أن الدور الرئيسي في تربية الناس، إنما يعود للبرامج العملية للأنبياء، لأن كيفية تصرف المرئيين وصفاتهم وحالاتهم تعدّ النموذج الأمثل لمن يتبعهم ويتولاهم، وإن الأدلة العقلية والخطب الحماسية والبيان الجيد مهما كان لها دور مهم في توعية الناس، إلا أنها لا تعدّ شيئاً أمام النماذج العملية، خصوصاً لو ظهر هناك تضاد بين القول والفعل، وبين النظرية والتطبيق، فإن حالة من الشلل

ستسرى إلى تلك البيانات والنداءات وتعدم تأثيرها!

ومن هنا ينبغي أن يكون الأنبياء عليهم السلام قدوة حسنة للناس في كافة أبعاد الحياة، وأن تنعكس دروسهم الدينية للناس من خلال تصرفاتهم.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٥١

ولو كانوا أفراداً مثقلين بالذنوب، مبتلين بالكذب والخيانة والظلم واتباع أهوائهم لفقدوا اعتبارهم تماماً، ولاصبح الهدف من بعثتهم غير مجدٍ ولا مفيدٍ.

كيف يعقل أن يضع الله هذا المنصب الخطير الذي يعدّ أسمى منصب ديني ومعنوي واجتماعي، في عهده شخص قد تمكنت منه الذنوب ووقع في أسر الهوى والشهوات، ولم يسيطر على نفسه؟ هل يمكن لشخص كهذا ياترى أن يكون قائداً ربانياً وروحياً للناس؟! وهنا يجب الإدعان بأن هذا الهدف الحساس لا يمكن ضمان القيام به، إلّا في حالة تنزيههم عن كل أنواع الذنوب صغيرها وكبيرها، بل مطلق الخطأ والإشتهاء.

ولذا نقرأ في حديث عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أنّه قال في وصف الإمام عليه السلام:

«هو معصوم مؤيد موفق مسدد قد أمن الخطايا والزلل والعتار يخصه الله بذلك ليكون حجته على عباده وشاهده على خلقه» (١).

٤- لا يمكن الإغراء بالجهل والتشجيع على الخطأ

بديهى أنّ الله تعالى ولغرض هداية عباده لا يقدم على أدنى شىء يكون سبباً في انحرافهم وركونهم للباطل وسلوكهم سبيل الضلال لأنّ صدور عمل كهذا من أى كان فهو قبيح فكيف بذاته تعالى؟

لو وضع الله أسرار النبوة- الشاملة للاعجاز والأدلة العلمية- تحت تصرف غير المعصوم، أى في خدمة من يحتمل كذبه وخطأه وارتكابه للمعاصي، فقد أوقع عباده في الضلال، وهذا بالضبط يشبه قيام شخص معروف بانتخاب شخص مخادع منحرف وكيداً عنه، أليس هذا العمل قبيحاً؟

كيف نحتمل صدور مثل هذا العمل من الله تعالى، أن يضع المعجزات وأسرار النبوة بيد شخص مذنب كذاب منحرف وعاصٍ؟!

(١) اصول الكافي، ج ١، ص ٢٠٣، باب النادر الجامع في فضل الإمام وصفاته، ح ١.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٥٢

وقد صرح القرآن بكلّ جلاء بهذا الموضوع قائلاً: «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ» (أى فلا أحد منكم يقدر على منعا من ذلك أو الدفاع عنه). (الحاقة/ ٤٤-٤٦)

هذه الآيات تؤكد على نفس الحقيقة التي تمت الإشارة إليها، وهي أنّ من يمتلك الآيات والحجج الإلهية والمجهز بسلاح الإعجاز القوى، فقد وعده الله تعالى بقوله، لو انحرف حتى للحظة واحدة عن المسير الإلهي، فلن يمهل الله تعالى، بل سيضربه في أخطر نقطة من بدنه أى شريان قلبه ويقضى عليه، وفيما عدا ذلك فإنّ الله هو السبب وراء إضلال الناس وإغرائهم بالجهل، وهذا بنفسه يعدّ دليلاً صارخاً على مسألة العصمة.

ومع أنّ مسألة الخطأ خارجة عن إرادة الإنسان فلا يمكن معاقبه أحد على الأخطاء التي يستحيل اجتنابها، ولكن بما أنّ هفوة النبي وخطأه يترك نفس الأثر الذي يتركه افتراؤه على الله، أى يكون السبب وراء إضلال خلق الله، إذن يمكن الاستفادة من مضمون هذه الآية أنّ النبي مصون من مثل هذا الخطأ أيضاً.

وكدليل على ذلك نقرأ هذا الحديث عن علي بن موسى الرضا عليه السلام حيث قال للمؤمن: «من دين الإمامية، لا يفرض الله طاعة من يعلم أنه يضلهم ويغويهم، ولا يختار لرسالته ولا يصطفى من عباده من يعلم أنه يكفر به وعبادته، ويعبد الشيطان دونه» (١).

ونقرأ في حديث آخر عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «إن الله إنما أمر بطاعة رسوله لأنه معصوم مطهر لا يأمر بمعصية الله وإنما أمر بطاعة أولى الأمر لأنهم معصومون مطهرون لا يأمر الله بمعصية الله، فهم أولو الأمر، والطاعة لهم مفروضة من الله ومن رسوله، لا طاعة لأحد سواهم» (٢).

(١) بحار الأنوار، ج ١١، ص ٧٦، ح ٣، باب عصمة الأنبياء.

(٢) من كتاب بحار المناقب المخطوط ص ١٠٠ طبقاً لما نقله صاحب إحقاق الحق، ج ١٣، ص ٧٨.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٥٣

٥- عدم أهلية غير المعصوم لتلقى الوحي

إن كل ما موريه- كما نعلم تتطلب في نفسها استعداداً وأهلية مناسبتين لها، وأنه يستحيل أن يقوم بأدائها على أتم وجه من لا أهلية ولا قابلية له عليها، كما نعلم أيضاً أن أنبياء الله يتلقون كلام الله عن طريق الوحي، وهو ذلك النداء الملىء بالنور والمعنوية، والمتضمن لكل درجات الإيمان والتقوى وبلغونه للناس. ومن البداهة أن التلقى لمثل هذا الوحي ينبغي أن يكون منزهاً طاهراً، بدرجة بحيث يتمكن من الإتصال بعالم ما وراء الطبيعة، وذات الباري الطاهرة المنزهة من كل عيب ونقص، واستلام الرسالة المشحونة بالطهارة والتقوى ..

كيف يستطيع الملوث بالذنوب صاحب القلب المظلم أن يجد الطريق إلى عالم النور؟

كيف يصير القلب الملىء بالشهوات والأهواء مهبطاً للوحي الإلهي ومحلاً للعلم الرباني؟

هل يُعقل تحقق هذا المعنى بدون وجود التجانس والسنخية بينهما؟

ثم أن وكيل كل شخص إنما يعكس وجود موكله وصفه من صفاته، ولذا لا يسمح مرجع ديني كبير لنفسه أبداً بانتخاب وكلاته من بين الأفراد المشبوهين، ولو اتفق وفعل ذلك لعابه الناس كلهم، واعتبروا تصرفه هذا قبيحاً، ولخرجوا على أمره أيضاً.

فهل يمكن أن ينتخب الله الذي هو مصدر القدسية والتقوى والطهارة، وخليفته من بين المذنبين، ويوكل هذه المسؤولية العظيمة لغير المعصوم؟

نرى أن القرآن وفي معرض إجابته على المشركين حينما صرّحوا: «قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ». يقول: «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ». (الأنعام/ ١٢٤)

٦- أدلة أخرى

ذكر بعض من العلماء العظام أدلة أخرى في هذا الباب لها صبغة فرعية وتعود أحياناً إلى الأدلة المتقدمة، من جملتها:

١- أنه لو صدر عن النبي ذنب لزم اجتماع الضدين، أي صدور أمرين متضادين، الأول

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٥٤

وجوب الامتثال له في كل شيء من جهة، ووجوب مخالفته عند الخطأ من جهة أخرى، ونعلم باستحالة صدور أمرين متضادين من الله الحكيم.

٢- لو أقدم النبي على المعصية لوجب أن يكون مردود الشهادة، لأنَّ شهادة الفاسق وأخباره غير مقبولة، فكيف يمكنه والحالة هذه أن يكون شاهداً على الوحي الإلهي في الدنيا أو على الأمم يوم القيامة؟!

٣- لو صدر من الأنبياء ذنب فهذا يعني أن منزلتهم أقل من عصاة الأمة، إذ إنَّ مقام النبوة في غاية الرفعة والسمو، فارتكابهم للمعاصي، والإعراض عن أوامر ربهم ونواهيهم من أجل لذة فانية أقيح وأشنع من عصيان هؤلاء، وهذا ما لا يقتره عاقل.

٤- أنهم لو كانوا يأمرون الناس بصالح الأعمال واجتناب قبيحها، ولم يلتزموا هم بذلك لدخلوا تحت قوله تعالى: «أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ». (البقرة / ٤٤)

وهو غير معقول.

٥- لو صدر عن النبي ذنب صار مصداقاً للظالم (ظلم الآخرين أو ظلم نفسه) ولجاز لعنه، إذ يقول القرآن: «أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ». (هود / ١٨)

فكيف يمكن لعن النبي؟ وهل يتناسب هذا مع مقام نبوته؟

٦- أن القرآن الكريم صرح بأنَّ الشيطان أقسم بعزة الله تعالى على إغواء جميع الناس، إلَّا المخلصين: «فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ». (ص / ٨٢-٨٣)

فلو صدر من النبي ذنب لوجب أن يكون من حزب الشيطان، مع بدهاه كونه من المخلصين.

هذه الأدلة الستة قويّة ومتمينه، وبالرغم من أنها ترجع إلى الأدلة الرئيسية المتقدّمة، لكنّها فروع يانعها من تلك الأصول المعطاءة.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٥٥

أَسْئَلَةٌ مُتَعَدِّدَةٌ:

إشارة

هنالك عدّة أسئلة مطروحة في بحث عصمة الأنبياء والأئمة عليهم السلام نشير إلى أهمّها:

١- هل لعصمة الأنبياء صفة «جبريّة»؟

الكثير من الأشخاص حينما يقرأون بحث عصمة الأنبياء، يتبادر إلى أذهانهم فوراً هذا السؤال وهو أن مقام العصمة موهبة إلهية مفروضة على الأنبياء والأئمة، وكلّ من نال هذه «الموهبة» فقد حفظ من المعصية والخطأ، ومن هنا فلن تعد معصوميتهم فضيلة وفخراً، لكونها أمراً إلهياً مفروضاً كما تقدّم.

وبناء على هذا فارتكاب الخطأ مع وجود مقام العصمة مستحيل، وواضح أنّه لا فضيلة في ترك المحال، فعدم ظلمنا مثلاً للناس الذين سيأتون بعد مائة عام أو الذين عاشوا قبل مائة عام لا يعدّ لنا فضيلة وفخراً، لأنّ أداء مثل هذا العمل بالنسبة لنا محال!

الجواب:

بالرغم من أن هذا الإشكال لا- يتعرّض إلى عصمة الأنبياء عليهم السلام، بل إلى كونها فضيلة أم لا، مع ذلك فالتمعّن في عدّة

ملاحظات يمكن أن يزيح الستار عن الغموض المحيط بهذا السؤال:

١- إن الذين يثيرون هذا الإشكال لا يلتفتون إلى جذور عصمة الأنبياء عليهم السلام، بل يتصورون أن مقام العصمة مثلاً هو كالمناعه من بعض الأمراض والتي تحصل للإنسان عن طريق بعض اللقاحات، فكل من يلقح بمثل هذا اللقاح لن يبتلى بذلك المرض شاء أم أبى.

لكننا عرفنا في الأبحاث السابقة أن مصونية المعصومين من المعاصي نابعة من مقام معرفتهم وعلمهم وتقواهم، بالضبط كاجتنابنا لقسم من الذنوب لعلمنا وإحاطتنا بسلبياتها، كعدم الخروج إلى الزقاق عراً، وهكذا بالنسبة لمن له اطلاع تام بالآثار السلبية للمواد المخدرة ويعلم بأن الإدمان عليها يتسبب في موت تدريجي بطيء، فسوف يتجنب تعاطيها.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٥٦

فمن المسلم أن تركه هذا يعد فضيلة حتى لو كان الدافع له على تركها هو علمه بمفاسدها، وذلك لقدرته على استعمالها، إذ لا إيجاب في البين.

ولهذا السبب نسعى لرفع مستوى معرفة وتقوى الأفراد عن طريق التربية والتعليم، لنضمن ابتعادهم عن الذنوب الكبيرة والأعمال الشنيعة على أقل تقدير.

أفلا يعد ترك البعض لقسم من هذه الأعمال نتيجة للتربية والتعليم فضيلة؟!

وبعبارة أخرى إن ترك الأنبياء للذنوب محال عادي لا عقلي، ونعلم بعدم المنافاة بين المحال العادي وبين الإختيار، وكمثال على المحال العادي هو: أن يصطحب عالم جليل معه خمر إلى المسجد ويشربه بين صفوف الجماعة، فهذا محال عادي لا عقلي كما لا يخفى.

خلاصة القول: إن المستوى الرفيع للإيمان ومعرفة الأنبياء عليهم السلام والذي يعد بنفسه فضيلة وافتخاراً، هو السبب في فضيلة أخرى، ألا وهي مقام العصمة (تأمل جيداً).

ولو قيل من أين لهم هذا الإيمان وتلك المعرفة؟، قلنا من الألفاظ الإلهية، إلّا أنها لا تعطى لأي شخص اعتباراً، بل لوجود الأهلية الكامنة فيهم، بالضبط كما يقول القرآن الكريم بالنسبة لإبراهيم الخليل إنه لم يبلغ مقام الإمامة إلا بعد اجتيازه للإمتحانات الإلهية الخطيرة: «وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا». (البقرة / ١٢٤)

أي أن إبراهيم وبعد طيه لهذه المراحل بمحض إرادته واختياره، نال تلك الموهبة الإلهية العظيمة.

وكما يقول تعالى بالنسبة ليوسف عليه السلام: «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ». (يوسف / ٢٢)

وذلك بعد تكامله البدني والروحي واستعداده لتلقى الوحي.

إن جملة «وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ» تعدّ شاهداً قوياً على مرادنا، إذ يقول القرآن: إن أعمال يوسف الإيجابية ولياقته هي التي هيأتها لتلك الموهبة الإلهية العظيمة، كما أن هناك

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٥٧

تعبير توضّح هذه الحقيقة بالنسبة لموسى عليه السلام حيث يقول القرآن: «وَفَتْنَاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَيَّ قَدِيرًا يَا مُوسَى». (١) (طه / ٤٠)

ومن الواضح وجود مؤهلات وقابليات كامنة في نفوس هؤلاء العظماء، لكن تنميتها وتقويتها ليس فيه صفة إجبارية مطلقاً، بل إنهم قد قطعوا هذا الطريق بمحض اختيارهم وإرادتهم، وما أكثر أولئك الذين يتمتعون بالقابليات لكنهم مع ذلك لا يسعون لتطويرها ورفع مستواها، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، فتمتع الأنبياء عليهم السلام بمثل هذه المواهب، قد وضع بالمقابل في اعناقهم مسؤوليات خطيرة، وبعبارة أخرى إن

اللّه تعالى إنّما يهب الشخص قدرة وطاقه بحيث تتناسب والمسؤولية التي يضعها على عاتقه، ثمّ يختبره في أداء وظيفته.

٢- الجواب الآخر لهذا السؤال هو أنّه ومع فرض كون الأنبياء منزّهين من ارتكاب أى ذنب وخطأ، بالعناية الإلهية اجبارياً لغرض كسب ثقة الخلق، وليكونوا مشعلاً ينيّر الطريق لهديتهم، فلا زال الطريق في «ترك الأولى» أى العمل الذي لا يتناسب وشأنهم مع عدم كونه معصية، مفتوحاً أمامهم بالرغم من كلّ ذلك.

ففضيلتهم تعود إلى عدم تركهم حتّى للأولى مع كونه اختيارياً بالنسبة إليهم، وتعرض البعض من الأنبياء للخطاب والعتاب الإلهي الشديد اللهجة والإبتلاء بالحرمان في بعض الأحيان، إنّما هو لاحتمال تركهم للأولى نادراً، وأتية فضيلة أسمى من اجتنابهم لترك الأولى طاعة لأوامر الحقّ؟

إنّ فخر الأنبياء يكمن في تحمّلهم للمسؤولية بحجم هذه المواهب، واجتنابهم حتّى لترك الأولى، ولو حدث أن صدر منهم ترك للأولى استثناءً فسرعان ما يبادرون إلى جبران ذلك.

(١) جملة «ثُمَّ جِئْتُ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ» فسّرت أحياناً بالإستعداد لتلقّي الوصية وأحياناً أخرى بالمعنى الزماني أى أنّه ولغرض تلقّي الرسالة كان من المقدّر أن تأتي إلى هنا.

نفحات القرآن، ج٧، ص: ١٥٨

٢- هل نسجم العصمة مع التقيّة؟

يقال أحياناً: كيف يمكن أن يكون الأنبياء والأئمّة معصومين مع جواز التقيّة لهم، وجواز الكذب وأمثاله في مقام التقيّة، أليست تلك ذنوباً؟ فلو جازت التقيّة لهم لاستحالت عصمتهم من الذنب والمعصية.

الجواب:

يجب الإلتفات إلى ملاحظتين دقيقتين:

١- الشبهة الخطيرة التي راودت البعض من المغفّلين حول «التقيّة» والتي غدت مصدراً لشبهات جمّة أخرى، هي توهمهم بأنّ «التقيّة» تعنى إبداء موقف الضعف أمام الآخرين، واسدال الستار على الحقائق، وانحصار مؤيديها في أتباع المذهب الشيعي فقط.

في حين أنّ «التقيّة» بمعناها الحقيقي قانون عقلائي معروف وواضح يتبعه كلّ العقلاء في الوقت المناسب، وهي في الحقيقة نوع من التكتيك لمحاربة العدو أو مواجهة الأحداث الخطيرة.

بيان ذلك: هناك أحداث في تاريخ الجهاد الديني والاجتماعي والسياسي، يتعرّض أتباع الحقّ ومذهبهم للخطر فيما لو قاوموا بشكل علني، ومن هنا نرى أنّ وجه الصراع يتغيّر وتستبدل المقاومة المباشرة بغير المباشرة والعلنية بالسريّة، والهدف هو توجيه «ضربات أكثر» للعدوب «خسائر أقل»، وبعبارة أخرى الحدّ من ضياع القوى، وهذا النوع من الصراع والعمل السري ليس سوى «التقيّة» ولكن بأسلوب آخر.

إنّ النشاط السريّ مقابل العدو يعتبر في كلّ حروب العالم على طول التاريخ (خصوصاً اليوم) من أهمّ أصول المقاومة، الخطط الحربية كلّها سريّة، كلّ ملابس الجنود وأنواع العتاد والسلاح بعيدة عن أنظار العدو، وهذه كلّها صور أخرى من «التقيّة».

لو وقع أحد الضباط الكبار في أسر العدو، واحتمل أن يستفيد العدو كثيراً من معلوماته،

نفحات القرآن، ج٧، ص: ١٥٩

لوجب عليه كتمان أمره وعدم إخبار العدو بالحقيقة، بل لو تمكّن من إغوائهم بعباراته لوجب ذلك، وهذه أيضاً من أوجه التقيّة.

لَمْ نذهب بعيداً، ففي صدر الإسلام حين كان المسلمون يشكّلون الأقلية، كانوا يكتمون عقائدهم حين وقوعهم في قبضة العدو، لئلا تذهب الطاقات سدى، فالكل قد سمع قصّة عمّار وأبيه، كما أنّ القرآن أجاز هذه المسألة في العديد من الآيات «١». ومؤمن آل فرعون الذي وردت قصّته بالتفصيل في القرآن كمثال على ذلك، حيث استخدم أسلوب التقيّة، وعبر عنه القرآن صراحةً بـ «رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ». (غافر / ٢٨) ولا- يجيز أى عاقل أن يكشف المجاهدون عن أنفسهم في مثل هذه الظروف الحساسة وهم قلبه، لئلا يتعرّف عليهم العدو بسهولة ويقضى عليهم.

اللطيف هو أنّ «التقيّة» قد اعتبرت بمثابة الدرع الواقي بالنسبة للمؤمن في الروايات الإسلامية، كما ورد ذلك عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «التقيّة ترس المؤمن» «٢».

فلو أنّ أحداً لجأ إلى مكان منيع في ساحة المعركة ليقى نفسه من ضربات العدو، هل يعدّ مرتكباً لعمل مخالف ياترى؟! ومن هنا يتضح أنّه كلّما ابتلى أحد بموارد التقيّة وكنتم أمره وعقيدته التي يؤمن بها لمصلحة أهمّ، أو تحدّث على خلافها، فهو فضلاً عن عدم ارتكابه للذنوب يكون عاملاً بالمباح أو الواجب، وشأن ذلك شأن الكذب لإصلاح ذات البين، أو لإنقاذ حياة مؤمن. واللطيف هو أنّ القرطبي المفسّر السنّي المعروف، وفي ذيل الآية (١٠٦) من سورة النحل حينما يصل إلى مبحث «التقيّة» يقول: «يعتقد كلّ علماء الإسلام أنّه لو أُجبر أحد على التّفوّه بعبارات الكفر خوفاً على حياته، فلا حرج عليه في ذلك مع اطمئنان قلبه بالإيمان، ولا تبيين منه زوجته، ولا يحكم بأحكام الكفر» وبعد تعرّضه لقول ضعيف حول

(١) راجع (آل عمران / ٢٨) و (النحل / ١٠٦).

(٢) وسائل الشيعة، ج ١١، ح ٦، من الباب ٢٤ من أبواب الأمر بالمعروف ص ٤٦١.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٦٠

الإرتداد الظاهري لشخص كهذا يقول: «هذا كلام ينفيه الكتاب والسنة والقرآن وحديث النبي الأكرم صلى الله عليه وآله». طبعاً الأنبياء عليهم السلام في موقع لا يسمح لهم بالتقيّة أبداً، أى إنّهم لا يكتمون حقائق الدين بأى ثمن، ولا يقولون خلاف الواقع في هذا الطريق، وإلّا لبقيت حقائق دعوتهم خفيّة، ولزال الإعتماد على كلامهم، ولفقد إخبارهم عن الوحي السماوي اعتباره، لكنهم لو ابتلوا بمشاكل شخصيّة فيحتمل كتمانها من قبلهم، وقد اختفى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في غار ثور أثناء هجرته من مكّة إلى المدينة وسلك الأودية والبادي، وسار ليلاً واختفى نهاراً لئلا يعثر عليه العدو وتتعرّض حياته المباركة للخطر، هذه كلّها كانت تقيّة ولا معصية في ذلك كلّ، كما أنّه لم يصدر منه صلى الله عليه وآله ما يخالف الحقّ.

وبهذا نكون قد وصلنا إلى خاتمة مبحث عصمة الأنبياء عليهم السلام.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٦١

المنزلة العلمية للأنبياء عليهم السلام

إشارة

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٦٣

المنزلة العلمية للأنبياء عليهم السلام

لا- شك أنّ قادة المجتمعات البشرية عموماً، والقادة الإلهيين خصوصاً ينبغي لهم أن يتمتّعوا بقسط وافر من العلم والمعرفة، وفي شتى

المجالات، وبما أن دائرة رسالة الأنبياء عليهم السلام تشمل بدن الإنسان وروحه، وبعبارة أخرى إنها تسع جميع البشر في دنياهم وآخرتهم، فلا بدّ لهم من معلومات جمّة لا تشوبها شائبة الخطأ والسهو، لكي لا يقودوا الناس إلى طرق الضلال تحت عنوان نيابتهم عن الله، وليتق بهم عباد الله ولا ينحرفوا.

ولهذا السبب فقد جهزهم الله وقبل كل شيء بسلاح العلم والمعرفة، كما شهدت بذلك آيات القرآن الكريم، فالآيات أدناه دليل واضح على هذا المعنى ابتداءً بآدم وانتهاءً بالخاتم.

١- لقد وهب الله آدم عليه السلام علماً ومعرفةً حتى أن الملائكة بمقامهم العلمي وإحاطتهم بأمر العالم قد سجدوا له: «وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنَّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ». (البقرة / ٣١-٣٣)

ولغرض إكمال هذا البحث لابد لنا من معرفة أمور:

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٦٤

ما هو علم الأسماء؟

للمفسرين كلام طويل حول ماهية علم الأسماء هذا، الذي يعدّ من أعظم المواهب الإلهية لآدم عليه السلام، والمنشأ لفضيلته وافتخاره ولياقته لتسلّم مقام الخلافة الإلهية.

فتارة قيل: إن المراد به هو علم اللغات، في حين أنّ معرفة مجموعة من اللغات لا يمكن أن تكون المنشأ لفضيلة كهذه، فضلاً عن عدم تناسب هذا المعنى مع التعبير الوارد في هذه الآيات، لأنّ التعبير ب: «غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» يبيّن عودة هذا العلم إلى أسرار السماوات والأرضين الخفية، التي بقيت خافية عن أنظار الملائكة.

وقالوا تارة أخرى إنّ المراد هو أسماء حجج الله، خصوصاً الأئمة المعصومين الذين كانت أرواحهم مخلوقة من قبل، وقد ورد مثل هذا التفسير في بعض الروايات.

لكن من المسلم أنّ مثل هذه الروايات ليست أكثر من إشارة إلى البعض من المصاديق المهمة لهذا العنوان الكلي، كما عليه أسلوب الروايات التفسيرية، لا أنّ «علم الأسماء» يختصّ بها.

لكن الكثير من المفسرين قالوا: إنّ المراد من «الاسم» هنا هو «المسمّى»، أي أنّ الله علّم آدم كلّ العلوم المرتبطة بالأرض والسما، وأنواع الصناعات واستخراج المعادن وغرس الأشجار وخواصها ومنافعها، (أو أنّه تعالى وضعها في كيانه ووجوده بشكل مركز).

وعلى هذا فقد تعرّف آدم على كلّ أسرار العالم، وهيئاً الأرضية لذريته للإحاطة بكلّ هذه الأسرار. فأية فضيلة أسمى وأرفع من التمتع بمثل هذا العلم، وكذلك جعل القابلية على نيّله في متناول أولاده أيضاً.

ولذا نقرأ في حديث الإمام الصادق عليه السلام حو تفسير هذه الآية قال: «الأرضين والجبال والشعاب والأودية ثمّ نظر إلى بساط تحته فقال هذا البساط ممّا علمه» (١)، (وباختصار كلّ موجودات العالم).

هذا التعبير يبيّن أنّ آدم عليه السلام كان عالماً بكلّ هذه العلوم.

(١) تفسير مجمع البيان، ج ١، ص ٧٦.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٦٥

وهناك كلام للمرحوم «العلامة الطباطبائي» في «الميزان» حاصله: «أولاً يستفاد من تعابير الآية أنّ هذه «الأسماء» سلسلة أمور غائبة عن

العالم السماوى والأرضى، خارج محيط الكون، ولها مفهوم عام واسع أشير إليه بلفظة «كلها» كما أن الضمير «هم» بصيغة الجمع، مشعر بأن كل هذه الأسماء كانت موجودات حية عاقله مستورة في عالم الغيب، ثم يضيف قائلاً: «وإذا تأملت هذه الجهات أعنى عموم الأسماء، وكون مسمايتها لها حياة وعلم، وكونها غيب السموات والأرض، قضيت بانطباقها بالضرورة على ما أشير إليه في قوله تبارك وتعالى: «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ».

(الحجر / ٢١)

وأخيراً يقول العلامة: «فتحصل أن هؤلاء الذين عرضهم الله على الملائكة موجودات عالية محفوظة عند الله، محجوبة بحجب الغيب، أنزل الله كل اسم في العالم بخيرها وبركتها، واشتق كل ما في السموات والأرض من نورها وبهائها» (١).

على أية حال فقد كان «علم الأسماء» علماً واسعاً محيطاً بكل الحقائق المهمة لهذا العالم.

٢- يقول الله تعالى حول موسى بن عمران عليه السلام:

«وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ». (القصص / ١٤)

٣- ويقول عن داود عليه السلام:

«وَقَتْلَ دَاوُدَ (الذى كان في ذلك الزمان فتى في ريعان الشباب) جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ». (البقرة / ٢٥١)

٤- ويقول عن داود وسليمان عليهما السلام:

(١) تفسير الميزان، ج ١ ذيل الآيات مورد البحث، يمكن أن يكون مراد العلامة من هذا الكلام المجمل شيئاً شبيهاً بالمثل الافلاطونية أو العقول العشرة.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٦٦

«وَكُلًّا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا». (الأنبياء / ٧٩)

٥- ويقول عن النبي لوط عليه السلام:

«وَلَوْطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا». (الأنبياء / ٧٤)

٦- كما يكثر نفس هذا المعنى في حق يوسف عليه السلام إذ يقول:

«وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا». (يوسف / ٢٢)

ولا بد من الالتفات هنا إلى هذه النكته، وهى أن لفظه «علماً» قد وردت في هذه الآيات بصيغة «النكرة» وذلك لبيان العظمة التى لا نعرف لها حداً وحدوداً.

البعض فسّر لفظه ال «حكم» فى هذه الآيات بمعنى مقام «القضاء» والبعض فسرها بمعنى مقام «النبوة»، وحملها البعض الآخر على معنى العلم الخاص الذى يساعد الإنسان على تمييز الحق من الباطل، وبعبارة أخرى أن المراد هو العقل والفهم والقدرة على القضاء الصحيح، والفصل بين الحق والباطل «١»، لكن بالنتيجة يمكن لكل واحدة من هذه المعانى أن تكون شاهداً على المراد.

٧- ويقول حول السيد المسيح عليه السلام:

«وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ». (المائدة / ١١٠)

٨- ويقول حول نبي الإسلام صلى الله عليه وآله:

«وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا». (النساء / ١١٣)

٩- وفى موضع آخر وبعد الإشارة إلى فريق من الأنبياء العظام، أى إبراهيم وإسحاق ويعقوب ونوح وداود وسليمان وأيوب ويوسف

وموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس واسماعيل واليسع ويونس ولوط يقول:

«أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ». (الأنعام / ٨٩)

وبناءً على هذا فقد وهب الله ثلاثة امتيازات مهمة لهؤلاء الأنبياء العظام الثمانية عشر،

(١) راجع تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ٢٢٢، ذيل الآية ٢٢ من سورة يوسف.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٦٧

لكنها لم تكن تختص بهم فقط بل كانت شاملة لكل الأنبياء الإلهيين ببداية الحال، وهي:

«الكتاب السماوي» و «الحكم» و «النبوّة»، طبعاً ينبغي ألا يفهم من هذا الكلام أنّ كل واحد منهم كان يمتلك كتاباً مستقلاً، بل إنّ فريقاً منهم كان قد اوحى إليه كتاب، وفريقاً آخر كان حافظاً لكتب السلف.

١٠- هناك تعبير بليغ آخر يشاهد في آيات القرآن حول هذا الموضوع بالنسبة للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وخلفائه المعصومين، وهو تعبير «الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ» حيث يقول القرآن، وبعد تقسيمه للآيات القرآنية إلى «المحكّمات» (الآيات الصريحة والواضحة) و «المتشابهات» (الآيات التي ليست كذلك):

«وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ (أى المتشابهات) إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ، (ونظراً لفهمهم أسرار آيات القرآن) يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ».

(آل عمران / ٧)

ومعلوم أنّ هناك حديثاً مفصّلاً بين المفسّرين حول تفسير هذه الآية، وأنّه هل يجب الوقوف بعد لفظ الجلالة «الله» وفصل جملة «الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ»، ليفهم منها أنّ الراسخين في العلم يؤمنون إجمالاً بالآيات المتشابهة وإن لم يكن لهم إمام كافٍ بها، أم أنّ جملة «الراسخون في العلم» معطوفة على لفظ الجلالة «الله» ليفهم منها أنّ كلّاً من الله وكذلك الراسخين في العلم لهم اطلاع بتأويل هذه الآيات، وقد اخترنا في التفسير الأمثل الشق الثاني، وذكرنا هناك أربعة أدلّة على مدّعانا «١».

على أيّة حال فعبارة «الراسخون في العلم» تدلّ على أنّ لهؤلاء القادة العظام سهماً وافراً من العلم، لأنّ لفظه «الرسوخ» وعلى حدّ قول صاحب المفردات تعني ثبات الشيء متمكناً، وأنّ الراسخ في العلم هو المحقّق به الذي لا تعترضه شبهة. فنستنتج من مجموع هذه الآيات بكلّ وضوح، أنّ للأنبياء الإلهيين حصّة كبيرة من العلوم والمعارف.

(١) يرجى مراجعة التفسير الأمثل، ذيل الآية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٦٨

توضيحات

١- حدود علم الأنبياء عليهم السلام

لا- شكّ في ضرورة تمتّع الأنبياء عليهم السلام بمعرفة تامّة بكلّ أصول الدين وفروعه، وما يرتبط بالمعارف الإلهيّة، والأحكام، والأخلاق وأسباب سعادة الإنسان وشقائه، وطرق نجاته وهدايته، وذلك لاستلزام مهمّة إبلاغ هذه الأمور، ونيل أهداف النبوّة السامية لمثل هذه العلوم. ومن البديهي عدم إحاطتهم التامّة بهذه الأمور يحول دون تحقّق المقصود، وحسب التعبير المعروف، فهذه المسائل من القضايا التي تكون قياساتها معها.

كما يجب أن يكون لهم إمام بالمسائل التنفيذية والامور المرتبطة بإدارة المجتمع، وتشكيل الحكومة الإلهية ومسائل من هذا القبيل، وذلك لأنّ للأنبياء مقام الولاية فضلاً عن جانب التربية والتعليم، ولو لم تتمكن من تعميم حكم هذه المسألة على كلّ الأنبياء عليهم السلام، فهذا المقام ممّا يمكن إثباته لكبار الأنبياء على أقلّ تقدير، إبراهيم كان إماماً وقائداً للناس، وكان كلّ من سليمان وداود وموسى بن عمران ويوسف متصدياً للحكومة عملياً، كما أنّ نوحاً كان شبيهاً برئيس الحكومة وذلك في ظروف خاصية بعد مسألة الطوفان، والأوضح من الكلّ هو مقام ولاية وحكومة نبي الإسلام صلى الله عليه وآله الذي شكّل حكومة إلهية كاملة بكافة أبعادها. إنّ ضرورة تمتّعهم بالمعلومات الكافية لإدارة هذه الحكومات هو ممّا لا يخفى، لأنّ أى خطأ واشتباه منهم في أمر الحكومة سيترك أثراً سلبياً في مسألة دعوتهم إلى الله، وعلى العكس فالقيادة الصحيحة للحكومة ستكون السبب في نجاحهم في هذه المهمة. ويمكن إثبات هذين القسمين من العلوم والمعارف- الدينية والحكومية بالدليل العقلي، باعتبار عدم ضمان الهدف من البعثة لو لم يكن للأنبياء اطلاع عليهما.

لكن هل يلزم عقلاً أن يكون الأنبياء والأئمّة المعصومون مطلعين على العلوم الأخرى، التي لا ترتبط بأهدافهم مباشرة؟ مثلاً هل يجب أن يكون لهم اطلاع بعلم الطب والرياضيات والأعشاب والنجوم والهيئة وسائر العلوم؟

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٦٩

بعبارة أخرى هل يلزم أن يكون لهم إمام بكافة العلوم على مستوى إمام الأخصائي وما فوقه- الدكتوراه وما فوق ذلك- لا مجرد المعلومات العامّة التي يحتاجها كلّ قائد؟

يعتقد البعض بعدم وجود أدلّة عقلية على إثبات مثل هذه العلوم الكثيرة للأنبياء، مهما تمّ الإستشهاد بالآيات والروايات كأدلّة نقلية على اتّساع دائرة علومهم في شتى المجالات.

وبعبارة أخرى: فعلم الأنبياء عليهم السلام الضرورية لهم هي ما تمّت الإشارة إليها طبقاً للأدلّة العقلية، لكن عند الاستدلال بالأدلّة النقلية تتسع مسألة علومهم بشكل أكبر ولا مانع من عدم لزوم هذه العلوم لهم عقلاً، لأنّ الأدلّة النقلية تثبت لهم هذه العلوم من باب الفضيلة والكمال، نظراً لإمكان هذه العلوم من إضفاء عظمتهم أكبر عليهم، ومن الإسراع في تقبل الناس لدعوتهم.

٢- القرآن والعلوم الأخرى للأنبياء عليهم السلام

ومن جهة أخرى فلا يمكن إنكار هذه الحقيقة وهي ارتفاع الحجب عن قلوب الأنبياء، بسبب سمو نفوسهم وتهذيبهم الكامل للنفس وتصفية قلوبهم من الشوائب، وأنّ هذه المعرفة وان لم تكن ضمن شروط النبوة لكنها تعتبر ضرورية في سلم الكمال كما لا يخفى. وبعبارة أخرى، فإن مسألة نقض الغرض شيء، ومسألة قدرة نفوس وعقول الأنبياء يمثل شيئاً آخر، ولو أنّنا عجزنا عن إثبات ما زاد عمّا له علاقة بعالم الشريعة والتربية وإدارة المجتمع الإنساني، فبالإمكان إثباته بالطريق الثاني.

ويمكن لآيات القرآن أن تكون دليلاً حسناً على هذه المسألة أيضاً، إذ قد تمّت الإشارة في القرآن، بالإضافة إلى مسألة الأسماء التي وهبت لآدم والتي اتّسع نطاقها بما يفوق الحدّ- كما علمنا- إلى موارد أخرى من علوم مختلف الأنبياء الإلهيين، والتي لا تبدو حسب الظاهر لازمة لمسألة التشريع وبيان أحكام الدين، لكنّها تعدّ الأساس لكمالها. لاحظ الآيات الآتية المرتبطة بهذا الموضوع.

١- نقرأ عن داود عليه السلام: «وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ». (الأنبياء / ٨٠)

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٧٠

ال «لبوس» يعنى في الأصل كلّ أنواع الألبسة، لكنّه استعمل هنا في خصوص ملابس المعركة كالدرع مثلاً، ولكن بعض أرباب اللغة كابن منظور في لسان العرب وبعض المفسرين كالمرحوم الطبرسي في مجمع البيان قالوا في ذيل هذه الآية: كلّ أنواع السلاح

(الأسلحة الهجومية والدفاعية)، إذ إنه يصدق بحقها استعمالها للدفاع في الحروب التي اشير إليها في الآية وإن كانت ظاهرة في الدرع كما هو واضح.

ذكر بعض المفسرين أنهم وقبل داود عليه السلام كانوا يربطون بأبدانهم صفحات حديدية رقيقة لوقاية أنفسهم من ضربات الأعداء، (وأن هذا العمل كان شاقاً وصعباً للغاية، وأن أول من صنع الدرع من الحلقات الصغيرة المرتبطة ببعضها البعض هو نبي الله داود الذي خطر على باله هذا الشيء بإلهام إلهي «١»).

وقد ورد نفس هذا المعنى بتعبير أشمل في موضع آخر إذ يقول تعالى: «وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا». (سبأ/ ١٠-١١)

«السابغات» جمع «سابغ» الذي يعنى الدرع الكامل العريض بالضبط، كما أن «إسباغ النعمة» يعنى وفورها و «إسباغ الوضوء» يعنى كثرة ماء الوضوء.

«السرد» يعنى فى الأصل غزل الأشياء الخشنة، وقد ورد فى جملة «وقدر فى السرد» الأمر برعاية الأحجام الملائمة لحلقات الدرع وكيفية غزلها.

وبهذا تبين أن الله قد ألان له الحديد بالإضافة إلى تعليمه لفنون غزل الدرع الكامل.

هل كان الحديد يلين فى يد داود كالشمع؟ أم أن الله قد علمه طريقة إذابة الحديد وصناعة القضبان الحديدية الدقيقة والمتينة؟ وبعبارة أخرى هل يمكن أن يكون لين الحديد فى يده معجزة إلهية، أم أن الله علمه الأسلوب الخاص لإذابة الحديد، والذى لم يكن معروفاً حينذاك؟ أياً كان فقد علم الله داود كيفية صناعة القضبان المناسبة واستبدالها بحلقات الدرع القوية ونسجها، وكانت نتيجة ذلك هى صناعة ثوب سهل ارتداؤه مع مرونة حركته، طبقاً لحركات بدن الإنسان وأعضائه، لا كصفحات الحديد القوية التى يتعذر

(١) تفسير روح المعانى، ج ١١، ص ٢١؛ و تفسير فى ظلال القرآن، ج ٥، ص ٥٥٢.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٧١

تطويعها والى تقيد المقاتلين فتجعلهم وكأنهم فى قفص.

وهنا ملاحظة لابد وأن تؤخذ بنظر الاعتبار وهى أن داود عليه السلام حينما كان يلين الحديد بيديه كان يريخ صناعة المعدّات الدفاعية على الهجومية كالسيف مثلاً.

على أية حال فمع أن عدم الإلمام بصناعة آليه دفاعية مهمّة ومصيريّة، فى حروب ذلك الزمان لم يكن بتلك الأهميّة، بحيث يحدث خللاً فى دعوة النبي الدينيه، لكن الله علمه هذه الصنعة وبقيت رائجة بين الناس.

٢- نقرأ فيما يتعلّق بسليمان عليه السلام: «وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ». (النمل / ١٦)

هذا فى الواقع جزء من العلم العظيم الذى وهبه الله لداود وسليمان، والذى جاء فى الآية السابقة: «وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا».

بديهى أن الإطلاع على منطق الطير (محاورات الطيور) بأى معنى كان ليس من شروط النبوة، وفى نفس الوقت فالقرآن يصرّح بأن الله تعالى كان قد وهب سليمان عليه السلام علماً كهذا، بل أشار أيضاً فى آيتين لاحقتين إلى معرفة سليمان بمنطق النمل: «حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتِكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَتِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ».

(النمل / ١٨-١٩)

وكما نقرأ حوار سليمان مع الهدهد فى الآيات اللاحقة كذلك: «وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَأ أَرَى الْهُدْهَدَ ...». (النمل / ٢٠-٢٨)

مع أن هناك أبحاثاً كثيرة تبحث في تفسير هذه الآيات، أنه هل لهذه الطيور كالهدهد والحشرات كالنمل ذلك المستوى من العقل والشعور، بحيث تدرك مفاهيم الكلمات

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٧٢

والجمل وتحدث بشكل منطقي؟ وهل أن أسلوب محاوراتها يتم بالألفاظ أم من خلال حركات تعكس المراد؟ (ذكرنا ذلك مفصلاً في التفسير الأمثل) «١».

لكن تفسير هذه الآيات أياً كان فلن يؤثر على الهدف الذي نبغيه هنا، لأن المراد هو وجود سلسلة من المعلومات التي تخرق العادة عند الأنبياء، وعدم وجودها عند الناس العاديين، مع عدم كونها من شروط النبوة في نفس الوقت.

٣- وحول يوسف عليه السلام جاء في العديد من الآيات أن له علماً خارقاً للعادة في تفسير الأحلام.

ففي أحد المواضع يبشّره أبوه يعقوب عليه السلام بأن الله سيختارك ويعلمك من تفسير الأحلام:

«وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ». (يوسف / ٦)

وفي موضع آخر حينما يدور الحديث حول مجيء يوسف عليه السلام إلى قصر عزيز مصر يقول القرآن الكريم: «وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ». (يوسف / ٢١)

ويتحدث في موضع آخر عن تفسير يوسف عليه السلام لرؤيا السجينين، وقوله لهما: «ذَلِكَ مَا عَلَّمَنِي رَبِّي». (يوسف / ٣٧)

وأخيراً حينما يدور الحديث عن ابتهاج يوسف عليه السلام ومناجاته لخالقه بعد تصديده لمقام الحكومة، ولقائه بأبيه وأمه وأخوته، يقول

القرآن الكريم على لسان يوسف عليه السلام: «رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ». (يوسف / ١٠١)

مع أن البعض من المفسرين قد ذكروا احتمالاً آخر غير تفسير الأحلام فيما يتعلق بعبارته «تأويل الأحاديث» وقالوا: إن المراد هو تعليمه أسرار الكتب الإلهية ودقائق سنن

(١) راجع التفسير الأمثل، ذيل الآيات مورد البحث.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٧٣

الأنبياء عليهم السلام «١»، لكن ومع الأخذ بنظر الاعتبار مجموع الآيات الأربع أعلاه ولفظة «التأويل» التي تتلاءم كثيراً مع تفسير الأحلام، بالإضافة إلى قرائن أخرى يكون المراد هو نفس علم تفسير الأحلام وهو مختار الكثير من المفسرين أيضاً «٢».

ومع أن علم تفسير الأحلام لم يحض بتلك الأهمية عند البعض، لكنه يعدّ من الحقائق، وذلك للشواهد والقرائن العينية الكثيرة التي تحفّ بهذا الموضوع، كما أن بإمكانه كشف اللثام عن بعض الغوامض لمن له إمام به. وقد تناولنا هذا الموضوع بالشرح والتفصيل

في التفسير الأمثل ذيل الآية السادسة سورة يوسف عليه السلام.

كما أن القرآن قد أيد صحته ذلك أيضاً وذكر لذلك مثلاً عجبياً، وبين أن مستقبل بلاد كبيرة كمصر قد تغير عن طريق تفسير يوسف عليه السلام للرؤيا بصورة دقيقة، كما أن نفس هذا التغير قد ترك أثره في مستقبل يوسف عليه السلام أيضاً وأوصله إلى أرفع

المناصب الحكومية في مصر.

ولا شك أن علم تفسير الأحلام بنظر المنطق العقلي ليس بذلك الشيء الذي تركز عليه أسس الرسالة، لكن مع ذلك فقد وهب الله قسطاً وافراً منه ليوسف عليه السلام.

٤- وحول موسى عليه السلام أيضاً يشاهد هذا المعنى بوضوح في القرآن، حيث أن قصة «الخضر» و «موسى» وبذلك التفصيل الرائع والبلغ، الذي جاء في سورة الكهف (وان لم يصرح القرآن باسم الخضر) تبين وجود علوم لدى الخضر كانت غائبة عن ذهن موسى،

وأنه جاء إلى «الخضر» ليتعلم قسماً منها.

(١) تفسير روح المعاني ج ١٢، ص ١٨٦، نقل هذا التفسير عن البعض من المفسرين كما أن المفسر الكبير الطبرسي ذكر ذلك كأحد الأقوال في ج ٥، ص ٢١٠، ذيل الآية السادسة من سورة يوسف.

(٢) تفسير مجمع البيان ذيل الآية ١٠١؛ وتفسير روح المعاني ذيل الآية ٢١؛ وتفسير القرطبي ذيل الآية ٦؛ وتفسير روح البيان ذيل الآية ٦؛ وأخيراً تفسير في ظلال القرآن ذيل الآية ١٠١ من سورة يوسف.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٧٤

هذه العلوم ليست اموراً مرتبطة بالشريعة وأصول الدين وفروعه، بل هي حقائق مرتبطة بتكوين الإنسان وحياته، مثل تلك السفينة التي كانت لفريق من المستضعفين، والتي خرقها الخضر ليحول دون غضبها من قبل الملك الظالم، أو الشاب الذي قتله الخضر لأنه سوف يكون سبباً في انحراف أبويه المؤمنين مستقبلاً، أو الجدار الذي كاد ينقض حيث قام الخضر بترميمه حفاظاً على كنز الأيتام الموجود تحته.

فالخضر كان يسعى دائماً بأسلوبه الخاص لمساعدة المظلومين والمؤمنين، في حين كان تصرفه هذا بنظر موسى خاطئاً وغير مطابق للموازن الشرعية، وذلك بسبب عدم اطلاعه على بعض الحقائق التي كانت محجوبة عنه، ولذا كان يغضب كثيراً حتى أنه نسي أكثر من مرة عهده الذي أعطاه للخضر، بعدم الاعتراض على ما يفعله قبل بيانها واعتراض عليه بشدة، ثم اعتذر منه بعد التفاته إلى ذلك. هذه القصة بكل نكاتها اللطيفة تؤكد على حقيقة أن موسى عليه السلام كان بصدد تعلم مثل هذه العلوم من الخضر عليه السلام بأمر من الله، في حين أن هذه العلوم لم يكن لها دخل في مسألة إبلاغ النبوة، بل تعتبر سبباً في تكاملها لأنها تعني التعمق في المسائل بشكل أكبر.

ولو اعتبرنا الخضر نبياً (نظراً لوجود الخلاف بين المفسرين والمحدثين حول نبوته) فسنصل إلى هذه النتيجة أيضاً وهي أن هناك علوماً لدى الخضر وراء علوم الشريعة، وبديهي أن اطلاع الأنبياء عليهم السلام على هذه الحقائق يعني أن الله تعالى قد جهّزهم بعلوم كثيرة، لتكون لهم قدرة أكبر على هداية الخلق ورسم الطريق لنيل المطلوب، وإن كانت هذه العلوم بعيدة كل البعد عن الشروط القطعية للنبوة.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٧٥

مصادر علم الأنبياء عليهم السلام

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٧٧

مصادر علم الأنبياء عليهم السلام

١- يتلقى أنبياء الله عليهم السلام حقائق علومهم بالدرجة الأولى عن طريق الوحي، الذي ينزل عليهم أحياناً عن طريق «ملك الوحي»، كما نقرأ ذلك في الآية (١٩٢-١٩٥) من سورة الشعراء: «وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ»، أو عن طرق أخرى، فهناك أنواع وطرق متعددة للوحي وسيأتي تفصيلها في محله إن شاء الله.

٢- الطريق الآخر لعلوم الأنبياء عليهم السلام هو الارتباط الروحي والمعنوي بعالم الغيب، فلقد جعل الله تعالى حقيقة أبصارهم قوياً بدرجه أنها اخترقت حجب عالم الغيب لتجد سبيلها إلى ما وراء ذلك، كما يقول تعالى بالنسبة لإبراهيم الخليل عليه السلام: «وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ». (الأنعام / ٧٥)

أجل فقد كانت لهم معرفة بعالم «الملكوت»، فضلاً عن معرفتهم بعالم «الملك»، وقد تلقوا الكثير من علومهم عن طريق المشاهدة النفسية والباطنية للملكوت، وبعبارة أخرى فإدراكاتهم وأبصارهم هي غير تلك الظاهرية التي عندنا، وقد توصّلوا عن طريقها إلى

حقائق كثيرة.

٣- الطريق الثالث هو السير ومشاهدة الآفاق الذي عرض للبعض من الأنبياء بأمر من الله عزوجل، حيث أطلعوا عن هذا الطريق على العوالم المختلفة لهذا الكون، بالضبط كما حدث ذلك لنبى الإسلام صلى الله عليه وآله في مسألة المعراج، يقول القرآن:

«سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي

نفحات القرآن، ج٧، ص: ١٧٨

بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ». (الاسراء / ١)

كان هذا فى الواقع القسم الأول من المعراج، أما القسم الثانى فهو الذى يبدأ من المسجد الأقصى باتجاه السماوات، والذى أشير إليه فى آيات سورة النجم إذ يقول تعالى: «لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى». (النجم / ١٨)

وهو مضافاً إلى هذه الآيات الشريفة التى تذكر المعراج بشكل مجمل، نجد أن الأحاديث الإسلامية قد ذكرته بشكل تفصيلي، إذ يتبين من مجموعها بكل وضوح الحجم العظيم من المعلومات التى حصل عليها رسول الله صلى الله عليه وآله، من ذلك السفر الليلي السماوى وهو المعراج.

وكذلك الأنوار البهية التى أشرقت على قلبه، فرفعت مقامه العلمى مما هو عليه إلى أعلى عليين.

٤- الطريق الرابع وهو الاستفادة من عدة آيات فى القرآن بأن هناك حقيقة باسم «روح القدس» كان برفقة الأنبياء يؤيدهم ويقويهم ويرشدهم فى مسيرهم.

وردت لفظه «روح القدس» فى القرآن المجيد أربع مرات، مرة فى حق عيسى وأخرى فى حق نبى الإسلام صلى الله عليه وآله. يقول القرآن فى حق السيد المسيح عليه السلام «وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْتَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ». (البقرة / ٨٧)

وحول تكلم عيسى عليه السلام فى المهدي يقول: «إِذْ أَيْدَتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا». (المائدة / ١١٠)

ونقرأ عن نبى الإسلام صلى الله عليه وآله: «قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ». (النحل / ١٠٢)

لقد ذكر المفسرون معنيين لكلمة «روح القدس»، أحدهما أنه ملك الوحي جبرئيل عليه السلام.

والآخر هو القوة الغيبية المجهولة التى ترافق الأنبياء عليهم السلام، فالآية المرتبطة بنبى الإسلام صلى الله عليه وآله تناسب المعنى الأول، والآيات المرتبطة بالسيد المسيح تناسب المعنى الثانى، فهو الذى أيد المسيح عليه السلام فى تكلمه بالمهد أو فى إحيائه للموتى.

هذا الروح المقدس والظاهر، كان المنبع لإلهامات عظيمة للأنبياء عليهم السلام، بل وحتى

نفحات القرآن، ج٧، ص: ١٧٩

يستفاد من بعض تعابير الروايات أن روح القدس يرافق الأفراد المؤمنين أيضاً (طبقاً لسلسلة مراتب الإيمان)، وهو الذى يؤيد الخطباء الصالحين والشعراء المؤمنين فى خطبهم وقطعهم الثرية وقصائدهم العملاقة، كما يمد المؤمنين الحقيقيين بالعزم على اتخاذ التصاميم المصيرية.

ويبدو فى الكثير من الروايات أن روح القدس حقيقة عند الأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام، وأنهم قد أدركوا بواسطته الكثير من الحقائق، من جملتها ما جاء فى الكثير من الروايات أن الأئمة المعصومين عليهم السلام كانوا يستمدون العون من روح القدس عند القضاء والإفتاء.

هذا التعبير ورد بحق «حسان بن ثابت» حيث قال له النبى الأكرم صلى الله عليه وآله: «لن يزال معك روح القدس ما ذببت عننا» (سفينة البحار، مادة كميته).

كما جاء فى حق الكميته شاعر أهل البيت عليهم السلام المعروف، من أن الإمام الباقر عليه السلام قال له: «لا تزال مؤيداً بروح

القدس» «١»، وورد نظير هذا المعنى في حقّ دعبل الخزاعي أيضاً، وذلك عندما ألقى القصيدة المعروفة «مدارس آيات» في مجلس الإمام الرضا عليه السلام، وحينما وصل إلى هذا البيت حول ظهور المهدي عليه السلام: خروج إمام لا محالة واقع يقوم على اسم الله والبركات!

بكى الإمام الرضا عليه السلام كثيراً ثم قال: يادعبل نطق روح القدس على لسانك، هل تعلم من هذا الإمام؟ قال دعبل: كلا، لا أعلم سوى ما سمعته من أن إماماً منكم سيظهر ويملاً الأرض قسطاً وعدلاً. فأيد الإمام الرضا عليه السلام كلامه وتحدث بشيء من التفصيل عن ظهور المهدي، باعتباره الخليفة الثاني عشر للرسول صلى الله عليه وآله (الغدير الجزء ٢ الصفحة ٣٥٥).

وفي حديث عن الإمام الصادق عليه السلام نقرأ أن أحد أصحابه سأله: تسألون عن الشيء فلا يكون عندكم علمه؟! قال الإمام عليه السلام: «ربما كان ذلك!». قال الراوي: كيف تصنعون؟

(١) الغدير، ج ٢، ص ٢٠٢، حالات الكميت.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٨٠

قال الإمام عليه السلام: «تلقانا به روح القدس؟» «١» (بمعنى لقينا).

نقرأ في حديث آخر: أن أحد أصحاب الإمام الباقر عليه السلام قال: سألته عن علم العالم (المراد به النبي والإمام المعصوم). فقال عليه السلام: «يا جابر إن في الأنبياء والأوصياء خمسة أرواح: روح القدس، وروح الإيمان ... فبروح القدس يجابر عرفوا ما تحت العرش إلى ما تحت الثرى» «٢».

كما ورد في رواية أخرى عن الإمام الباقر عليه السلام أيضاً حول تفسير الآية: «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا ...» أنه عليه السلام قال: «منذ أنزل الله ذلك الروح على نبيه ما صعد إلى السماء وإنه لقينا» «٣».

هذا التعبير يبين أن الروح الذي يشكل أحد منابع الرئيسية لعلوم ومعارف النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، والأئمة المعصومين عليهم السلام ليس جبرئيل، وأنه حقيقة كامنة في وجودهم قد انتقل من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إليهم واحداً بعد الآخر.

٥- الطريق الخامس لمنابع علومهم هو العقل الخارق والذي أودعه الله عز وجل عند الأنبياء وأوصيائهم المعصومين عليهم السلام، نظراً لإمكانية إدراك الكثير من الحقائق عن طريقه، عقل ومعرفة الناس العاديين يضيء شعاعاً خاصاً في حين أن عقول الأنبياء والأوصياء لها امتداد واسع جداً، وهذا هو السبب في كشفهم لحقائق لا يدركها الآخرون.

لذا نقرأ في قصة ليلة المبيت (الليلة التي هاجر فيها النبي سراً من مكة إلى المدينة وترك علياً عليه السلام في فراشه) أنه: حينما اقتحم أشرف قريش المنزل عند الفجر، ووجدوا علياً عليه السلام في فراش النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، صاحوا: أين محمد؟ قال عليه السلام: أجعلتموني عليه رقيباً؟ أستم قلمت نخرجه من بلادنا؟ فقد خرج عنكم، وهنا قال «سراقه بن مالك المخزومي»: الآن حيث لا يوجد محمد صلى الله عليه وآله فلا تتركوا علياً عليه السلام

(١) بحار الأنوار، ج ٢٥، كتاب الإمامة، ص ٥٦، ح ١٩، كما ورد نفس هذا المضمون في، ح ١٨ و ٢٠ و ٢١ و ٢٢ و ٢٣ أيضاً.

(٢) المصدر السابق، ص ٥٥، ح ١٥، كما ورد نفس هذا المعنى بتفاوت ضئيل في الأحاديث ١٤ و ٢٥ و ٢٦.

(٣) المصدر السابق، ص ٦١، ح ٣٧.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٨١

وأريحوا العالم من وجوده، قال أبو لهب: كفوا عنه، فهو مخدوع من محمد وقد أفدى نفسه له.

حينئذ التفت على عليه السلام إلى أبي جهل وقال: «يأبا جهل بل الله قد أعطاني من العقل ما لو قسّم على جميع حمقاء الدنيا ومجانينها لصاروا به عقلاء، ومن القوّة ما لو قسّم على جميع ضعفاء الدنيا لصاروا به أقوياء، ومن الشجاعة ما لو قسّم على جميع جناء الدنيا لصاروا به شجعاناً، ومن الحلم ما لو قسّم على جميع سفهاء الدنيا لصاروا به حلماء» (١).

فحينما يتمنّع على عليه السلام بهذه المرتبة من العقل والمعرفة فمن المسلم أن يتمنّع النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بمثل هذه الموهبة العظيمة بطريق أولى.

كما أنّ حياة الأنبياء تبين أنّ لهم من العقل والمعرفة ما يخرق العادة، وهذا بنفسه هو أحد المنايع المهمّة لعلومهم ومعارفهم.

٦- الطريق السادس والمصدر الأخير هو العلوم التي ورثها خلفاً عن سلف، ولدينا أدلّة كثيرة على أنّ الأنبياء عليهم السلام قد نقلوا علومهم ومعارفهم إلى الأنبياء الآخرين أو إلى أوصيائهم وأورثوها إياهم.

قال فريق من المفسّرين في تفسير الآية: «وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ». (النمل / ١٦)

إنّ «الإرث» هنا يعنى إرث علم ومعرفة ذلك النبي، أو أنّه يعنى مطلق التوارث الشامل للعلم والمعرفة أيضاً.

كما أنّ بعض المفسّرين اعتبر توارث العلم في قصّة زكريا عند تفسير الآية ٦ من سورة مريم: «يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ» داخلها في المفهوم الجامع للآية (٢).

كما نقرأ في العديد من الروايات: أنّ العلوم التي وهبها الله لآدم (علم الأسماء) لم تغب عن الوجود، بل ورثها أولاده المنتجبون! من جملتها ما نقرأه في رواية عن الإمام الباقر عليه السلام: «إنّ العلم الذي نزل مع آدم لم يرفع

(١) بحار الأنوار، ج ١٩، ص ٨٣.

(٢) من جملتهم الآلوسى في تفسير روح المعاني؛ والسيد قطب في تفسيره في ظلال القرآن.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٨٢

والعلم يتوارث، وكان على عالم هذه الائمة، وأنّه لم يهلك منّا عالم قطّ إلّا خلفه من أهله من علم علمه أو ما شاء الله» (١).

وفي حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام نقرأ أنّه قال: «أما إنّ محمّداً صلى الله عليه وآله ورث علم من كان قبله من الأنبياء والمرسلين» (٢).

كانت هذه المصادر السنيّة بمجموعها السبب وراء اطلاع الأنبياء الإلهيين، ليس فقط على المسائل المرتبطة بمعارف الدين وأحكام الشريعة، بل وكذلك على العلوم والمعارف الأخرى الأعمّ من كونها ذات تأثير مباشر في أداء مهمّة الرسالة، أو غير مباشر في تكميل أهداف النبوة (تأمل جيّداً).

(١) أصول الكافي، ج ١، ص ٢٢٢، (باب أنّ الأئمة عليهم السلام ورثت العلم) ح ٢، كما ورد نفس هذا المعنى في ح ٤ و ٥ و ٨ من نفس ذلك الباب، وبفس هذا المنوال الحديث المتظافر المنقول عن أئمة أهل البيت بأسانيد مختلفة.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٢٤ (باب أنّ الأئمة ورثوا علم النبي)، ح ٢.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٨٣

الأنبياء عليهم السلام وعلم الغيب

نفحات القرآن، ج٧، ص: ١٨٥

تمهيد:

لفظة «الغيب» تقابل «الشهود»، والشهود يطلق على الموارد التي يكون فيها الشيء قابلاً للإحساس والمشاهدة، وبهذا فالغيب يطلق على كل الأمور الخافية عن شعور الإنسان، ولذا ورد في البعض من الآيات القرآنية تعبير «الإيمان بالغيب» عند التطرق للإيمان بالله واليوم الآخر: «الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ». (البقرة / ٣)

وفي موضع آخر يصف القرآن المتقين: «الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ». (الأنبياء / ٤٩) بل وحتى يمكن أن يعدّ الشيء واضحاً محسوساً لفرد وغير محسوس لآخر وذلك لعدم حضوره في ذلك المكان حيث يطلق «الغيب» على ذلك أيضاً، كما نقرأ في قصّة يوسف عليه السلام أن امرأة عزيز مصر حينما اعترفت بطهارة يوسف في غيابه أضافت قائلة: «ذَلِكَ لِيَعْلَمَ (يوسف) أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ». (يوسف / ٥٢)

بعد هذا يدور الكلام حول الأنبياء الإلهيين وهل أنهم مطلعون على أسرار الغيب والامور الخافية عن حواس الإنسان (الشاملة للمحسوس غير الحاضر، أو غير المحسوس أصلاً) أم أن علم الغيب يختصّ بذاته تعالى، وأنه لا سبيل لسواه إليه أبداً؟ تبدو آيات القرآن وللوهلة الأولى وكأنها على قسمين متفاوتين: القسم الأول يعتبر علم الغيب خاصاً به تعالى، والقسم الآخر يقول بإمكانه لغيره أيضاً، ولغرض الإجابة على السؤال أعلاه لابد من مراجعة هذه الآيات أولاً، ثم التطرق لكيفية الجمع بينها. أما بالنسبة للقسم الأول فالآيات الآتية ملفتة للنظر:

نفحات القرآن، ج٧، ص: ١٨٦

- ١- «وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ». (الأنعام / ٥٩)
- ٢- «فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ». (يونس / ٢٠)
- ٣- «قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ». (النمل / ٦٥)
- ٤- «قُلْ لَأَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ». (الأنعام / ٥٠)
- ٥- «وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ». (الأعراف / ١٨٨)
- ٦- «عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ». (الأنعام / ٧٣)

جمع الآيات وتفسيرها

اعتبر علم الغيب في هذا القسم من الآيات التي وردت بتعابير شتى خاصاً بالله تعالى وأنه لا سبيل لغيره إليه. قال تعالى في الآية الأولى: «وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ».

إنّ تقديم ظرف المكان (عنده) في أول الآية دليل على الإنحصار، وكذا ذيل الآية الذي يصرّح قائلاً: لا يعلمها إلا هو.

المفاتيح جمع «مفتّيح» (على وزن منجل) بمعنى المفتاح، وجمع «مفتّيح» (على وزن دفتر) بمعنى الخزائن ومحلّ حفظ الأشياء «١»، وقد ذكر المفسّرون كلا المعنيين للآية، إذ قالوا تارة: إنّ كلّ خزائن الغيب عند الله، واخرى كلّ مفاتيح الغيب، لكن نتيجة كليهما واحدة وإن اختلفت العبارات.

وقد اعتبرها بعض المفسّرين، واستناداً إلى ما جاء في صحيح البخارى في تفسير الآية، إشارة إلى الامور الخمسة الواردة في آخر سورة لقمان، لكن لا يخفى أنّ مفهوم الآية أوسع من ذلك بكثير، بحيث يشمل كل خزائن الغيب ومفاتيحه.

ويبدو أنّ ما جاء في الرواية حول آخر سورة لقمان كان بياناً لمصاديق جليّة له، ولذا أشار في ذيل الآية مورد البحث إلى كلّ الأوراق

الساقطة من الأشجار، والحبوب فى باطن

(١) تفسير الكبير، ج ١٣، ص ٨، ذيل الآية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٨٧

الأرض، وكل رطب ويابس فى عالم الوجود، واعتبرها ثابتة فى اللوح المحفوظ، لوح علم البارى تعالى. وفى الآية الثانية كان الخطاب موجهاً إلى نبي الإسلام صلى الله عليه وآله: «فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ».

وكان هذا فى معرض الجواب عن سؤال المشركين الذين يتحجبون على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بإظهار المعجزات (المعجزات التى كانوا يقترحونها هم بأنفسهم من باب الإصرار والعناد للتذرع بها متى ما شاءوا)، وبناءً على هذا فالقرآن يقول للنبي صلى الله عليه وآله: تخلى عن مسؤوليته مثل هذه الامور، إنها من أسرار الغيب التى لا يعلمها إلا الله، ومتى ما شاء فسيصدر أمره، فلا تستسلم أبداً لرغبات المتذرعين الحمقى

ونفس هذا المعنى جاء فى ثالث آية وبتعبير آخر، حيث إن الله تعالى يعلم نبيه صلى الله عليه وآله ماذا يقول لأهل الحجج الذين يصرون على السؤال عن موعد يوم القيامة، فيأمره أن يقول لهم: إن هذا من أسرار الغيب وأنه لا أحد فى السماوات والأرض يعلم الغيب، وموعد يوم القيامة ومتى يكون البعث؟: «قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ».

صحيح أن مورد نزول هذه الآية هو يوم القيامة، لكن مفهومها أوسع بل شامل لكل الغيوب.

وفى رابع آية يأمر الله نبيه بصراحة: «قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ... إِنْ أَتَّبَعِ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ».

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٨٨

هذا الكلام أيضاً كان رداً على المشركين المعاندين، الذين يطلبون منه كل يوم معجزة ثم لم يقتنعوا حتى بمشاهدتها، كما كانوا يطلبون منه أن يطلعهم على أسرار الغيب.

واعلم جيداً أن جملة «إِنْ أَتَّبَعِ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ» الواردة فى ذيل الآية هى إحدى المفاتيح لحل غوامض علم الأنبياء عليهم السلام، والتى سنتكلم عنها بالتفصيل ان شاء الله.

كما ورد نظير هذا المعنى وبتفاوت ضئيل فى الآية: «وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ». (هود/ ٣١)

هذا التفاوت هو أن الاولى كانت على لسان نبي الإسلام صلى الله عليه وآله والثانية على لسان نوح عليه السلام.

ونلاحظ فى الآية الخامسة تعبيراً جديداً حول هذا الموضوع، حيث يؤمر النبي بنفى علم الغيب عن نفسه باستدلال لطيف، إذ يأمره تعالى: «قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ».

مع أن هذه الآية قد جاءت بعد الآية التى تتحدث عن موعد يوم القيامة، وانحصار علمه بالله تعالى، لكن مفهومها واستدلالها أوسع كثيراً.

ومن البديهي أن الكثير من المنافع التى تفوت الإنسان أو الأضرار التى تلحق به ناشئة من عدم وقوفه على عاقبة الامور وأسرار الغيب، ولو كان له اطلاع عليها لتجنب شرها ولجلب لنفسه خيرا، فعجزه عن ذلك دليل على عدم اطلاعه على أسرار الغيب.

فى سادس آية يعتبر علم الغيب إحدى الصفات الخاصة بالله تعالى حيث يقول: «عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ».

هذا التعبير الذى ورد فى عدة آيات من القرآن «١» باعتباره إحدى الصفات البارزة لله

(١) الأنعام، ٧٣؛ التوبة، ٩٤ و ١٠٥؛ الرعد، ٩؛ المؤمنون، ٩٢؛ السجدة، ٦؛ الزمر، ٤٦؛ الحشر، ٢٢؛ الجمعة، ٨؛ التغابن، ١٨.

تعالى، يبين أن الله وحده هو المحيط بغيب وشهود الكون، حيث إنها ذكرت كصفه خاصه وفي مقام الحصر، فيستفاد منها أن غيره تعالى حتى الأنبياء لم يكونوا مصاديق ل «عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ».

ومع أن المفسرين قد ذكروا عدده احتمالات لتفسير هذه الآية، إذ فسرها بعضهم ب «عالم السر والعلانية»، والبعض الآخر ب «ما كان وما يكون»، وثالث ب «العالم بالدنيا والآخرة»، ورابع ب «العالم بما هو ظاهر لخلقه وما هو خفي عنهم» (١)، لكن من الواضح أن كل هذه قد وردت حول معنى الآية بصيغته الجمع، لأن كلمتي «الغيب» و «الشهادة» اللتين تعينان هنا العموم، والمذكورتين ب (الف ولام الجنس)، شاملة لكل الغيوب والشهود الأعم من السابقة واللاحقة، الدنيا والآخرة، السر وأخفى، السماوات والأرض، الماديات والمجردات.

ومع أن هذا التعبير في الآيات العشر المشار إليها، قد ذكر في كل مناسبة لغرض معين، وأن القرآن استنتج من كل مورد نتيجة، لكن مفهومه في كلها واحد، وهو الإحاطة العلمية لله بأسرار الغيب والشهادة الخاصة بذاته المقدسة.

النتيجة:

يمكن الاستنتاج بوضوح من مجموع العبارات الست أعلاه والتي تكرر بعضها في القرآن أن علم الغيب والإحاطة بالأسرار الغامضة خاص بذاته تعالى.

والآن نذهب وراء القسم الثاني من الآيات والتي تعطى الأنبياء عليهم السلام سهماً من علم الغيب، إذ ينبغي التحقيق فيها جيداً ليتضح الدليل على عدم تضادها مع آيات القسم الأول

(١) تفسير القرطبي، ج ٩، ص ٦٥٢٤، ذيل الآية ٢٢ من سورة الحشر.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٩٠

المخفية بين ثنايا نفس هذه الآيات:

١- «عَالِمِ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا» إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا* لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَخْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا». (الجن / ٢٦- ٢٨)

٢- «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ».

(آل عمران / ١٧٩)

٣- «وَأُتْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ». (آل عمران / ٤٩)

جمع الآيات وتفسيرها

وصف الله في أول آية بأنه: «عَالِمِ الْغَيْبِ» المطلق، أي المطلع على كل الأسرار الخفية، يقول تعالى: «عَالِمِ الْغَيْبِ» ثم يستثنى قائلاً: «إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ».

أي أن الله يطلع مثل هؤلاء الرسل على ما شاء من أسرار الغيب، وبناءً على هذا فهم بأنفسهم لا يعلمون شيئاً عن الغيب، لكنهم يطلعون عليه بتعليم إلهي.

ثم يضيف: «فَأِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا» (ليحفظه من كل انحراف).

هذا التعبير دليل على مقام عصمة الأنبياء، وكذلك تأكيد على علمهم بأسرار الغيب.

هذا طبعاً في حالة كون «رَصَدًا» بمعنى «المراقب» أو «المراقبين» من الملائكة الإلهيين، لكن هناك تفاسير أخرى أيضاً لهذه الجملة،

من جملتها أنّ المراد بـ «رصدًا» هو الطرق التي رسمها للماضين، أو الذين سيأتون في المستقبل و (جملة «مَنْ يَبِينُ يَدَيْهِ» إشارة إلى الحوادث السابقة و «وَمَنْ خَلْفِهِ» إشارة إلى الحوادث اللاحقة).
وقيل أحياناً إنّه إشارة إلى الحفظه من الملائكة الذين يحفظون الأنبياء من شرّ الأعداء «١».

(١) يجب ألّا يفوتنا أنّ «الرصد» يعنى في الأصل المراقب الذى يكمن فى موضع ليراقب الأحداث عن كذب أى الإستعداد للترقب وربّما كان إطلاق هذه اللفظة على الطريق لنفس هذا السبب، وإلّا فأصلها هو ما قيل أعلاه طبقاً لقول صاحب مقاييس اللغه؛ والراغب فى المفردات.

نفحات القرآن، ج٧، ص: ١٩١

لكن على أية حال فلا شكّ فى دلالة الآية على اطلاع الأنبياء على أسرار الغيب عن طريق التلقين الإلهى.
أمّا فيما يتعلّق بجملة «لِيُعَلِّمَ أَنْ قَدْ أبلغُوا...»، التى جاءت بعد هذه الآية، وكيفية ارتباطها بالآية التى قبلها، فللمفسّرين احتمالات كثيرة معظمها على خلاف ظاهر الآية، وتؤدّى إلى انعدام الإنسجام بين الضمائر، بل وحتى بين الجمل فى الآية.
والذى يبدو أقرب إلى الصواب هو أنّ الضمائر فى «لِيُعَلِّمَ» و «أَحِاطَ بِمَا لَمَدَيْهِمْ» و «أَخَصِي كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا» عائده كلّها إلى لفظ الجلالة «الله»، وأنّ الضمير فى «أبلغُوا» إمّا إشارة إلى الأنبياء أو إلى الملائكة الإلهيين المأمورين بإبلاغ الوحي، وبناءً على هذا فمفهوم الآية بمجموعها هو: «إنّ الهدف من تعليم أسرار الغيب أو مراقبة الملائكة لكى يعلم الله أنّ رسله قد أبلغوا رسالات ربّهم، وأنّه تعالى قد أحاط بما لديهم وأحصى كلّ شىء عدداً».

طبعاً ليس المراد من جملة «لِيُعَلِّمَ» أنّه لم يكن يعلم شيئاً ثمّ علم، بل المراد هو التحقّق العيني لعلم الله والذى يُعبّر عنه بالعلم الفعلى، أى أنّ الهدف كان حصول علم الله حول إبلاغ الرسالة وتجسده خارجاً.
فالتنتيجة هى أنّ علم الأنبياء عليهم السلام بأسرار الغيب عن طريق الله تعالى أو الملائكة، يكون السبب وراء إكمال إبلاغ الرسالة وتحكيم اسس النبوة (تأمل جيداً).

والآية الثانية وبعد نفيها لاطّلاع عامّة الناس على الغيب استثنت الأنبياء عليهم السلام، يقول تعالى: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ».

مع أنّه لم تبد هناك إشارة صريحة فى هذه الآية إلى مسألة اطلاع الأنبياء عليهم السلام على أسرار الغيب للوهلة الاولى، لكن نظراً لكون جملة «ولكنّ الله...» مشعرة بالإستدراك والإستثناء، فسيكون مفهوم الآية هو أنّه ينتخب فريقاً من الرسل ويعلمهم من أسرار الغيب «١».

(١) جمهور المفسّرين اتّخذوا هذا المعنى فى تفسير الآية، لكن البعض ذكر احتمالات واهية لتلك الآية لا علاقة لها بمسألة اطلاع الأنبياء على علم الغيب، وسبب النزول الذى ورد فى البعض من التفاسير مثل روح المعانى شاهد على ذلك التفسير المشهور أيضاً.
نفحات القرآن، ج٧، ص: ١٩٢

صحيح أنّ بداية الآية إشارة إلى الحوادث التى ميّزت صفوف المنافقين عن فريق المؤمنين، وفضحت ما يكتمونه فى قلوبهم، لكن من الواضح أنّ شأن النزول هذا لا يحدّد المفهوم الكلى للآية، لأنّ الكلام إمّا هو عن عدم اطلاع عامّة الناس على الغيب، واطّلاع الأنبياء على ذلك التعليم الإلهى.

كما ويستفاد من هذه الجملة أنّ الإطّلاع على الغيب مقام رفيع يمنح للأنبياء الإلهيين فقط، وهو فى الواقع مكتمل لبرامجهم وسبب لتحقق أهدافهم (تأمل جيداً).

وهنا يرد سؤالان:

١- إن هذه المرتبة لا تنحصر بالأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام فحسب، بل أن بعض الصلحاء ذوى القلوب النورانية الذين بلغوا درجات سامية من الشهود، مظلّعون على زاوية من أسرار الغيب، فكيف يتلاءم هذا الشيء مع النفى المطلق لأطلاع عامة الناس على أسرار الغيب الواردة في الآية الآنفه الذكر؟

الجواب:

نظراً لكون هذا الإطلاع محدوداً غير ذى شأن قياساً باطلاع الأنبياء عليهم السلام، فلم يؤخذ في الآية بنظر الإعتبار، وبعبارة أخرى أن المراد هو نفي المعرفة الواسعة عن أسرار الغيب، وهو ما يصدق في حق غير الأنبياء عليهم السلام. كما يحتمل أيضاً أن يكون لهاتين الآيتين مفهوم واسع بحيث يشمل كلاً من الأنبياء وكذلك الملائكة وأصحاب الكشوف والشهود، الذين بلغوا مقاماً عالياً عن طريق المجاهدات النفسية والرياضات المشروعة وإرشادات المعصومين، لأنهم إنما يحصلون على معارفهم عن طريق الإرتباط بالأنبياء والأئمة أو الملائكة، وبناءً على هذا فإن الله يضع

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٩٣

علم غيبه عند أنبيائه فقط ثم يستعين الآخرون بهم، أى بالضبط مثلما أن «مريم» مثلاً، أو امرأة إبراهيم «ساره» أطلعنا عن طريق الملائكة الإلهيين على البعض من أسرار الغيب فيما يتعلق بولادة عيسى أو إسحاق ويعقوب عليهم السلام. كما ويحتمل أيضاً كون العلوم العينية على ثلاثة أقسام: قسم منها خاص بذاته تعالى، لم يطلع عليها سواه حتى الأنبياء المرسلين والملائكة المقرّبين (كالعلم بزمان قيام الساعة وأمثالها).

الثانى: العلوم الغيبية الخاصة التى يودعها الله عند المعصومين (الأنبياء والأئمة والملائكة المقرّبين)، والقسم الثالث: العلوم التى يودعها عند فريق من الأتقياء الذين يبلغون مقام الشهود، وتزال الحجب عن قلوبهم كما ورد عن بعض أصحاب النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وأصحاب أئمة الهدى عليهم السلام، مثل سلمان وأبى ذر وميثم التمار ورشيد الهجرى وأمثالهم، أو ما نقل فى عصرنا عن فريق من العلماء المتقدمين أو المتأخرين، وبالإمكان إطلاق اسم «خاص الخاص» على القسم الأول و«الخاص» على الثانى و«العام» على الثالث. ويمكن أن تكون العبارات من قبيل «فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ» إشارة إلى نفس هذا المعنى، لأن لفظه «غيبه» لها دلالة على الأسرار الغيبية الخاصة.

٢- إنه فضلاً عما قيل عن الصلحاء من أرباب الكشف والشهود، فلقد سمعنا مراراً وتكراراً أن فريقاً من الكهنة فى العصر الجاهلى، أو المرتاضين فى عصرنا، الذين لم يكونوا من أهل الإيمان والتقوى، يخبرون أحياناً عن أسرار الغيب أو الامور الخافية عن أنظار الناس، ويتوقعون اموراً تحدث بعد ذلك، أليس هذا منافياً لما قيل آنفاً حول تفسير الآيات؟

لكن الالتفات إلى نكتة واحدة يكشف الإجابة عن هذا السؤال، وهى إن توقعات المرتاضين وإخبارات الكهنة الغيبية لم تكن أبداً إخبارات يمكن الإعتماد عليها، فضلاً عن عدم خلوّها من الإشتباه بأى حال من الأحوال، فقد تصدق أحياناً وقد تكون كاذبة أحياناً اخرى، وهناك أمثلة كثيرة جداً عليها، وبناءً على هذا فلا يمكن أبداً اعتبار هذه الأخبار والمعلومات من علم الغيب، بل إنهم يعترفون بأنفسهم أحياناً بأن هذه الأخبار هى تلقين

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٩٤

الشياطين الذين لا يصدقون القول معهم أبداً!

وبعبارة اخرى أن هناك أشباحاً تترأى فى افق أذهانهم بسبب رياضتهم، فيفسرون هذه الأشباح من عندهم، لتقع تارةً صحيحةً واخرى خاطئة، مثل الأحلام التى يراها الناس، والتى تكون تفاسيرهم لها صحيحةً أحياناً واخرى غير صحيحةً.

هذه المعلومات والمواضيع الخاطئة والتى يخالطها الشك لا يمكنها أبداً أن تعدّ من علم الغيب، أو أن تخدش فى تفسير الآية.

أما في الآية الثالثة فيدور الكلام عن معرفة المسيح عليه السلام بأسرار الغيب، وإظهاره لها صراحةً كمعجزة، وقوله لمن شك في دعوته: «... أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَانْفُخْ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى...». (آل عمران / ٤٩)

ثم يضيف قائلاً: «وَأُتْبِتُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ».

وبهذا فلقد وضع مسألة خلق الطائر الحي من الطين، ومعالجة المرضى الذين يستحيل علاجهم، وإحياء الموتى، إلى جانب الإخبار عن أسرار الغيب واعتبرها جميعاً أدلة على نبوته.

وبديهى أن الطعام الذى يأكله الناس، أو الذى يدخرونه فى بيوتهم يتعلق بحياتهم الشخصية، فليس للآخرين اطلاع عليه عادةً، فاطلاع أحد على هذه الجزئيات، والحالة هذه دليل على اطلاعه على الغيب.

قال بعض المفسرين إن هذين الموردين هما مجرد مثال، ولا يمكن أن تتحدّد بهما معرفة المسيح عليه السلام أبداً، فقد كان يعلم الكثير من أسرار الغيب.

مضافاً إلى ما قيل، فهناك العديد من آيات القرآن تعدّ مصداقاً جلياً لإطلاع نبي الإسلام صلى الله عليه وآله على بعض أحداث المستقبل، والتي تعتبر من أسرار الغيب، كآيات الاولى

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٩٥

من سورة الروم: «غَلَبَتِ الرُّومُ* فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ* فِي بَضْعِ سِنِينَ». (الروم / ٢-٤)

ومن الواضح أن الإخبار عن انتصار دولة مغلوبة على أمرها فى المستقبل القريب (خلال بضعة سنين) وبكلّ هذه الصراحة والثقة، ليس بالشىء الذى يمكن الإحاطة به بالطرق الإعتيادية، ولهذا فهو مصداق بارز لعلم الغيب.

وفى موضع آخر يخاطب القرآن الكريم المسلمين «لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ». (الفتح / ٢٧)

وكان هذا الكلام فى وقت أحكم فيه المشركون سيطرتهم على مكّة، وقويت شوكتهم بدرجه بحيث تمكّنوا من فرض شروط صلح الحديبية على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بحسب الظاهر، إذن فالإخبار عن النصر السريع للمسلمين عليهم بشكل يمكنهم من إزالة أكبر عقبة تعترض طريقتهم، ودخول مكّة بكل اطمئنان لم يكن سوى إخبار غيبى.

وفى موضع آخر حينما علم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بأن إحدى زوجاته قد أطلعت الاخريات سرّاً على أمر كان أودعه عندها، سألته قائلة: «مَنْ أَتْبَاكَ هَذَا».

قال صلى الله عليه وآله: «تَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَيْرُ». (التحریم / ٣)

وكذلك حينما أخفى فريق من المنافقين أعمالهم الشنيعة، وجاءوا بأعذار واهية لغرض عدم الإشتراك فى غزوة تبوك، قال لهم الرسول: «لَاتَعْتَدِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ تَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ». (التوبة / ٩٤)

كما يخبر تعالى فى موضع آخر عن حتمية هزيمة المشركين صراحةً، مع أنهم كانوا بكامل قوتهم، حيث يقول: «أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرُونَ».

ويضيف على الفور: «سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ». (القمر / ٤٤-٤٥)

لا شك أن المسلمين كانوا قليلة حين نزول هذه الآيات والعدو فى أوج القدرة والغطرسه، وتوقع مثل هذا النصر المؤزر والسريع غير ممكن بالطرق الإعتيادية، ولكن لم يمض وقت حتّى وجهوا ضربة قاصمه إلى العدو فى أول حرب طاحنه معه، أى فى معركة

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٩٦

(بدر) ثم توالى الانتصارات الواحدة تلو الاخرى، وأصبحت كلّ الجزيرة العربية تحت رايه الإسلام خلال فترة قصيرة.

ونظير هذا المعنى جاء فى قوله تعالى: «فَاتْلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ* وَيُذْهِبِ

عَظِظَ قُلُوبِهِمْ». (التوبة/ ١٤ - ١٥)

وورد نفس هذا المعنى فى القرآن الكريم حيث يخاطب أصحاب النبى الأكرم صلى الله عليه وآله ويقول: «وَإِنْ يُقَمَاتُوكُمْ يُؤَلُّوكُمْ الْأَذْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصُرُونَ». (آل عمران/ ١١١)

كلّ التعبير التي فى هذه الآيات تخبر بشكل قاطع عن انتصار المسلمين وهزيمة الأعداء، ذلك الإخبار الذى لم يكن يصدق به أحد فى ذلك الزمان.

ونفس هذا المعنى ورد بقالب آخر فى سورة القصص الآية ٨٥، عندما اضطر الرسول صلى الله عليه وآله إلى ترك أرض مكة المقدسة، نتيجة للضغط الشديد الذى تعرض له من قبل المشركين، الذين كانوا بكامل قدرتهم فى ذلك الوقت حيث نزلت الآية: «إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ».

هذه البشارة القطعية فى تلك الفترة العصبية حين كان المسلمون أضعف ما يكونون بحسب الظاهر لم تكن سوى خبر غيبى. وفى آية أخرى حينما كان يستبشر الأعداء بانقراض ذرية النبى، وعدم وجود من يحافظ على دينه باعتبار انحصار عقبه فى ابنته فاطمة الزهراء عليها السلام فقط، وقالوا: «إِنْ «مَحِيداً أَبْتَر»، نزلت سورة الكوثر وبشّرت النبى الأكرم صلى الله عليه وآله بخبر حتمى بأننا أعطيناك خيراً كثيراً... وأن عدوك هو الأبر الذى لا عقب له بكل تأكيد: «إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ... إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ».

واليوم نجد أن نسل ذلك العظيم قد انتشر عن طريق ابنته فاطمة الزهراء عليها السلام فى كل أرجاء المعمورة، وظهر منهم الكثير من القادة الذين وظّفوا أنفسهم لخدمة الإسلام طيلة عمرهم.

فى حين أن من كان يؤذى النبى ويعيره صلى الله عليه وآله بذلك وهم (مشركو قريش)، قد اضمحلوا ولم يبق لهم اليوم أثر يذكر، ولو بقى شىء على سبيل الفرض فهو غير معروف. وبهذا فقد

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٩٧

أمسى كل واحد منهم أبتراً، والنبى الأكرم صلى الله عليه وآله ذا نسل عظيم.

ونلاحظ فى قوله تعالى ملاحظة أخرى تعدّ من إخبارات القرآن الغيبية، حيث قال:

«وَالْحَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ». (النحل / ٨)

مع أن الكثير من المفسرين يعتبرون جملة «وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ» إشارة إلى الحيوانات التى ستخلق مستقبلاً، أو التى ستؤلف عند الإنسان، أو كل الأشياء الضرورية التى سيخلقها الله فى المستقبل سواء الحيوانات أم غيرها، ولكن إدراك مفهوم هذه الجملة بالنسبة لنا نحن الذين نعيش فى عصر التكنولوجيا المتطورة يعدّ أمراً يسيراً - كما أشار إلى ذلك بعض المفسرين المتأخرين كالمراغى والسيد قطب فى تفسير «فى ظلال القرآن»، بل هو إخبار القرآن عن عصرنا، ولا منافاة بين عبارة (يخلق) مع اختراعها من قبل الإنسان، إذ إنّ عمل الإنسان ليس سوى تركيب المواد التى خلقها الله تعالى، هذا أولاً.

وثانياً: إنّ إبتكار الإنسان فى صنع هذه الوسائل ناتج من الإستعداد الذى وهبه الله تعالى له! كلّ هذه الآيات تبين أن الله قد وضع بعضاً من العلم الغيبى تحت تصرف نبيه صلى الله عليه وآله.

الثمرة من مجموع آيات علم الغيب:

أوضحنا إلى الآن طائفتين من الآيات التى تتحدّث عن علم الغيب، طائفة تنفى علم الغيب عن الأنبياء عليهم السلام على الإطلاق والآخرى تُثبتهُ. وحينما نضعهما إلى جانب بعضهما البعض، ونجمع بينهما ندرّك مفهومهما الأصلى النهائى (وهذا ما يمكن أدائه عن طريق التفسير الموضوعى بسهولة) وهو الطريق الأوّل للجمع بينهما.

أجل، يستفاد من مجموع هذه الآيات بوضوح أن علم الغيب بإطلاقه وبلا قيد أو شرط مختصّ ب «الذات» المقدّسة فحسب.

هو المحيط بكلّ عالم الغيب والشهود، وهذا العلم قائم بذاته المقدّسه غير منفك عنها أبداً.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٩٨

أما الآخرون (كالأنبياء والأئمة المعصومين والملائكة) فالطريق الوحيد لأطلاعهم على علم الغيب هو الالهام الإلهي فحسب. وبعبارة أخرى أنّ أشهر طريق للجمع بين هذه الآيات هو القول: إنّ المراد باختصاص علم الغيب بالله تعالى هو «العلم الذاتى الإستقلالى»، ولذا فلا اطلاع لأحد غيره على أسرار الغيب مستقلاً، بل لا بدّ أن يكون منه تعالى وعن طريق تعليمه ولطفه وعنايته، وهذا فى الواقع له «ميزة غير استقلالية».

الأدلة على الجمع بين الآيات المذكورة كثيرة يمكن الإحاطة بها بالتحقيق والتدقيق فيها ثانية.

كما أنّ الأحاديث الشريفة أيضاً تشير إشارة لطيفة إلى هذا الأمر:

منها: ما ورد فى نهج البلاغة أنّ عليّاً عليه السلام خلال حديثه للإخبار عن وقائع المستقبل (وتوقّعه لهجوم المغول على الدول الإسلامية) قال: كأنى أراهم قوماً كأنّ وجوههم المجان المطرقة ... فقال أحد أصحابه: لقد أعطيت يا أمير المؤمنين علم الغيب.

فابتسم عليه السلام وقال: ليس هو بعلم غيب، وإنّما هو تعلم من ذى علم (أى من النبى الأكرم صلى الله عليه وآله) «١».

الطريق الثانى للجمع بين هذين القسمين من الآيات هو القول: إنّ علم الغيب الذى يختصّ بالله هو الإطلاع على اللوح المحفوظ، الذى يتحقّق كلّ ما فيه بلا زيادة ولا نقصاً لا محالة، (وهو فى الواقع علم بالعلل التامة للأشياء التى لا تنفك أبداً عن معلولاتها).

وأما الأنبياء والأئمة المعصومون عليهم السلام فلهم اطلاع على لوح المحو والإثبات القابل للتبديل والتغيير، لأنّه علم ب «العلل الناقصة» لا «العلل التامة».

وبعبارة أخرى: إنّ من المحتمل أن تتواجد هناك موانع تعترضها وتغيّرهما، أو تغيّب شروط تكاملها، كما جاء فى حديث عن الإمام على بن الحسين عليه السلام أنّه قال: «لولا آية فى كتاب الله لحدثتكم بما كان وما يكون إلى يوم القيامة! فقلت له: أية آية؟ فقال: قول الله:

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٢٨.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ١٩٩

يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب» (أى اللوح المحفوظ) «١».

الطريق الثالث للجمع بين هذه الآيات هو القول بانقسام أسرار الغيب إلى قسمين:

أحدهما يختصّ به تعالى ولا يعرفه أحد سواه، والآخر هو الذى يعلمه لأنبيائه وأوليائه، كما جاء فى نهج البلاغة ذيل الخطبة المتقدمة أنّه عليه السلام قال: «وَأَمَّا عِلْمُ الْغَيْبِ عِلْمُ السَّاعِيَةِ وَمَا عِدَدُهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعِيَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ (آخر آية من سورة لقمان)، (لا- اطلاع لأحد على كمّه وكيفه وجزئياته وإن كان أصل نزوله قابلاً للإحتمال) وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ (لم يكن اطلاعه على جنسيته وهل أنّه ذكر أو انثى فحسب، بل على كلّ القابليات والمميزات التى تكمن فى جسمه وروحه) وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ» (المراد هو العلم التفصيلى بهذه الامور).

ثمّ يضيف فى خاتمة هذا الكلام: «فيعلم الله سبحانه ما فى الأرحام من ذكر أو انثى وقبيح أو جميل، وسخى أو بخيل، وشقى أو سعيد، ومن يكون فى النار حطباً، أو فى الجنان للنبين مرافقاً، فهذا علم الغيب الذى لا يعلمه أحد إلّا الله، وما سوى ذلك فعلم علمه الله نبيه فعلمنيه، ودعا لى بأن يعينه صدرى، وتضطّم عليه جوانحى» «٢».

وعلى هذا فالذى يختصّ بالذات المقدّسه هو العلم بكلّ خصوصيات وتفصيل الأجنّة الروحية والبدنية.

نفس هذا الكلام يمكن تطبيقه على نزول المطر وأعمال الإنسان أو مكان موته والذى لا يعلم جزئياته إلّا الله تعالى.

الطريق الرابع للجمع بين هذه الآيات هو التفريق بين «العلم الفعلي» و «العلم الشأني والإستعدادي»، إذ لا يخفى شىء عن علمه اللامحدود، فى حين أن الكثير من أسرار الغيب يمكن أن تغيب عن الأنبياء والأولياء فعلاً، لكن الله يعلمهم ذلك متى ما أرادوا (طبعاً هذه

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٥١٢، ح ١٧٠.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٢٨.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٠٠

نفحات القرآن ج ٧ ٢٤٩

الإرادة لا تتحقق إلا بإذنه تعالى ورضاه (تأمل جيداً).

هذا المطلب يشابه حالة كون كل الأسرار العسكرية لدولة ما مدونة فى كتاب ضخم محفوظ عند شخص أو أشخاص منتخبين من قبل الدولة بحيث يمكنهم الإطلاع عليه بإذن من القائد العام للقوات المسلحة، فالقائد هنا له إحاطة تامة بهذا الكتاب كما ويمكن للآخرين أيضاً الإطلاع عليه متى شاؤا (على فرض كون مراجعتهم للكتاب مرهونة بإذن القائد وإجازته طبعاً).
الدليل على هذا الكلام هو الروايات التى جمعها المرحوم الكليني فى كتاب الكافي فى فصل تحت عنوان «إن الأئمة إذا شاؤا أن يعلموا علموا» (١).

نستنتج من مجموع ما قيل أن للأنبياء والأولياء اطلاعاً على عالم الغيب بلا شك، كما ويمكن استخلاص طرق الجمع بين الروايات المرتبطة بعلم الغيب بأربعة:

١- العلم الذاتى المستقل خاص بالله، و علم الأنبياء والأولياء يرتبط به تبعاً.

٢- العلم التفصيلى هو من شأنه تعالى، والعلم الإجمالى من شأن الأولياء والأنبياء.

٣- العلم باللوح المحفوظ خاص بالله، والعلم بلوح المحو والإثبات من شأن الأنبياء والأولياء عليهم السلام.

٤- العلم الفعلى خاص بالله، والعلم بالقوة من شأن الأنبياء والأولياء.

روايات علم الغيب:

إن لمسألة «علم الغيب» بالنسبة إلى الأنبياء والأولياء عليهم السلام بحثاً موسعاً فى الروايات الإسلامية أيضاً، وقد ذكرت كل الفرق الإسلامية نماذج كثيرة عن علم الغيب فيما يرتبط

(١) اصول الكافي، ج ١، ص ٢٥٨.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٠١

بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله، أو أئمتهم وقادتهم، ونسبة مسألة علم الغيب إلى الشيعة من قبل بعض المغفلين، أو القول بأنهم يعتبرون أئمة أهل البيت عليهم السلام شركاء مع الله فى هذه الصفة، هو اشتباه عظيم لا يمكن جبرانه، لأنه:

أولاً: لا يرى أى أحد من علماء الشيعة أى إنسان لا نبى الإسلام صلى الله عليه وآله ولا الأئمة عليهم السلام نظراء لله تعالى بأية صفة أبداً، واعتقادهم بعلمهم بالغيب إنما هو من باب «تعلم من ذى علم» (الأئمة من النبى والنبي من الله العظيم).

وبعبارة اخرى، كما أن كل ما لدينا هو من عند الله وأنا محتاجون إليه ومتعلقون به فى كافة شؤون حياتنا، فكذلك علم غيب النبى الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام إنما هو من عند الله ومرتبطة بعلمه.

ثانياً: اطلاع الأنبياء والأولياء عليهم السلام على الغيب مسألة وارده بشكل كبير في الروايات أيضاً، فضلاً عن الآيات القرآنية، وحسبنا ما في كتب أهل السنة من أن لبعض الصحابة وغيرهم فضلاً عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، اطلاع على كل أسرار الغيب أو جلّها! ويكفي هنا ذكر خلاصة البحث التحقيقي الذي ذكره العلامة الأميني في كتابه «الغدير» الجزء ٥، (بالإضافة إلى التطرق لبعض الروايات الاخرى إكمالاً للبحث):

١- جاء في الكثير من المصادر المعروفة لأهل السنة أن «حذيفة» قال: «إن النبي صلى الله عليه وآله علم ما كان وما يكون إلى يوم القيامة» (١).

٢- وجاء في حديث آخر عن «حذيفة» أيضاً أنه قال: «والله أني لأعلم الناس بكل فتنة هي كائنه فيما بيني وبين الساعة» (٢).

٣- نقرأ في حديث آخر في صحيح مسلم أن أبا زيد أي «عمرو بن أخطب» قال: صلى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله صلاة الصبح، ثم ارتقى المنبر وخطب خطبة دامت إلى الظهر ثم صلى الظهر وصعد المنبر إلى صلاة العصر ثم نزل وصلى العصر وصعد المنبر ثانية وخطب إلى

(١) صحيح مسلم (كتاب الفتن باب إخبار النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فيما يكون إلى قيام الساعة)، مسند أحمد، ج ٥، ص ٣٨٦ وكتب اخرى.

(٢) مسند أحمد، ج ٥، ص ٣٨٨.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٠٢

غروب الشمس، «فأخبرنا بما كان وما هو كائن فأعلمنا أحفظنا» (١).

ثم يذكر أحاديث أخرى متعزضة لمسائل الغيب في بعض الأحيان عن بعض من الصحابة وأمثالهم، من جملتها قوله: وذكر الخطيب البغدادي في تأريخه عن أبي الحسن المالكي قال: كنت أصحب - محمد بن إسماعيل - سنين كثيرة، ورأيت له من كرامات الله تعالى ما يكثر ذكره، إنه قال لي قبل وفاته بثمانية أيام، إنني أموت يوم الخميس المغرب فادفني يوم الجمعة قبل الصلاة... قال أبو الحسن: فنسيته إلى يوم الجمعة فلقيني من خبزي بموته، فخرجت لأحضر جنازته فوجدت الناس راجعين، فسألتهم لِمَ رجعوا فذكروا أنه يدفن بعد الصلاة، فبادرت ولم ألتفت إلى قولهم فوجدت الجنازة قد اخرجت للدفن قبل الصلاة!

ثم يضيف العلامة الأميني رحمه الله: توجد في طي كتب الحفاظ ومعاجم أعلام القوم قضايا جمّة في اناس كثيرين، عدّوها لهم فضلاً وكرامةً تنبئ عن علمهم بالغيب وبما تخفى الصدور ولا يراها أحد منهم شركاً وهو ما يدعو للعجب (٢).

كما نشاهد مسائل علم الغيب في روايات أهل البيت عليهم السلام بكثافة أيضاً، من جملتها الباب الذي عقده المرحوم العلامة المجلسي في «بحار الأنوار» الجزء ٢٦ حول هذا الموضوع، وجاء بالعشرات من الروايات حول اطلاع الأئمة المعصومين عليهم السلام على علم الغيب، من جملتها الرواية التي وردت بتعابير شتى، ومن مختلف الطرق من أن الإمام الصادق عليه السلام قال: «أترى من جعله الله حجّة على خلقه يخفي عليه شيء من أمورهم؟».

ونقرأ عبارة أخرى لهذا الإمام نفسه عليه السلام: «أن الله أحكم وأكرم وأجل وأعلم من أن يكون احتج على عباده بحجّة ثم يعيب عنه شيئاً من أمورهم» (٣).

كما نجد في نهج البلاغة أيضاً على العديد من الجمل التي تخبر عن الإطلاع الواسع

(١) صحيح مسلم، ج ٤، ص ٢٢١٧ (باب إخبار النبي فيما يكون إلى قيام الساعة من كتاب الفتن) يتبين من هذا الحديث أنه صلى الله عليه وآله كان مشغولاً ببيان إخبار الغيب لأصحابه يوماً بأكمله من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

(٢) الغدير، ج ٥، ص ٥٩-٦٢ (باختصار) وورد الحديث الأخير في تاريخ بغداد، ج ٢، ص ٤٩.

(٣) بحار الأنوار، ج ١٦، ص ١٣٧-١٥٤.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٠٣

لعلى عليه السلام على علم الغيب، لكن وكما قال هو بنفسه في الخطبة ١٢٨ فهذه ليست علم غيب (إستقلالي ذاتي)، بل هي تعلم من ذى علم (أى نبي الإسلام صلى الله عليه و آله الذى تعلم هو بدوره من الله تعالى).

هذه الإخبارات الغيبية جاءت فى عدّة خطب من جملتها الخطبة ١٣ حول أحداث البصرة القادمة. وفى الخطبة ٤٧ حول مستقبل الكوفة.

وفى الخطبة ٥٧ حول بعض سلاطين بنى امية.

وفى الخطبة ٥٩ حول عدد قتلى الخوارج وأصحابه ومريديه فى معركة النهروان وذلك قبل نشوبها.

وفى الخطبة ١١٦ حول ظهور الحجاج وجنباياته العجيبة البشعة فى المستقبل.

وفى الخطبة ١٢٨ حول الفتن العظيمة التى ستقع فى البصرة (فتنة صاحب الزنج أو الأتراك والمغول).

وفى الخطبة ١٣٨ حول أحداث الشام فى المستقبل.

وفى الخطبة ١٥٨ حول الجرائم الفجيعة لبنى امية.

وفى الحكمة ٣٦٩ يتعرّض لحوادث آخر الزمان.

واللطيف هنا هو اتكاؤه فى الكثير من هذه الموارد على الجزئيات، وعدم اقتناعه أبداً بذكر الكليات التى ربّما تخطر على ذهن المتأمل الفطن غير المعصوم أيضاً، ويتّضح جيداً أنّ كلّ هذه الأخبار نابعة من الإطلاع على علم الغيب.

ونذكر هنا ما جاء فى الخطبة ٥٩ حول خوارج النهروان كمثال على ذلك، قال:

«مصارعهم دون النطفة! والله لا يفلت منهم عشرة ولا يهلك منكم عشرة!».

وفى الخطبة ٦٠ حينما قالوا لعلى عليه السلام، لقد اضمحلّ الخوارج وانقضوا، قال: كلاً! والله إنهم نُطِفُّ فى أصلاب الرجال وقرارات

النساء، كلّما نَجَمَ منهم قرنٌ قطع، حتّى يكون آخرهم لصوصاً سلايين!

فأشار عليه السلام هنا إلى مسألة إخماد نار الخوارج خلال مختلف الأنظمة وعاقبة أمرهم

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٠٤

أيضاً، وعلى حدّ قول ابن أبى الحديد «وهكذا وقع وصحّ إخباره عليه السلام أيضاً أنّه سيكون آخرهم لصوصاً سلايين، فإنّ دعوة الخوارج اضمحلّت، ورجالها فنيت، حتّى أفضى الأمر إلى أن صار خَلْفَهُمْ قِطَاعِ طَرَق، متظاهرين بالفسوق والفساد فى الأرض».

ثمّ تعرّض بعد ذلك لمقاطع مختلفة من تاريخهم بالتفصيل، وخروج بعضهم فى أيام الخلفاء والقضاء عليهم «١».

وزبدة الكلام هى أنّ مسألة العلم بأسرار الغيب سواء فيما يتعلّق بالماضى أو المستقبل أو حتّى الامور الخافية عن الأنظار فى الوقت الحاضر، ليست بذلك الشىء الذى يمكن إنكاره من وجهة نظر القرآن، والأحاديث الإسلامية وتواريخ الأنبياء والأولياء عليهم السلام.

وهذه المسألة من الواضح بحيث إنهم عدّوا اشتغال القرآن على الأخبار الغيبية أحد وجوه إعجازه، وقد اشير فى كتب إعجاز القرآن إلى تلك الموارد على الأعمّ الأغلب، كما تعرّضنا نحن أيضاً فى التفسير الأمثل إلى الموارد ذات العلاقة بهذا القسم فى ذيل كلّ آية،

ألم يكن القرآن بمثابة تعاليم إلهية لنبي الإسلام صلى الله عليه و آله؟ فما هو الفرق بين تعليمه عن طريق القرآن أو غيره؟!

حدود علم الغيب وكيفيته:

لا كلام فى مسألة اطلاع الأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام على علم الغيب عن طريق التعليم الإلهي، وقد تقدّمت أدلتها مفصّلة

في الأبحاث السابقة.

لكن هناك كلاماً مطوّلاً حول كيفية هذا العلم ومساحته، وهذه المسألة تعدّ من أعقد المسائل التي تواجه الباحث في مثل هذه الأبحاث، وقد وردت بحقّها أخبار متفاوتة، كما وتلاحظ هنالك آراء متنوّعة من قبل العلماء أيضاً، ومجموع هذه الإحتمالات الأساسية في هذه المسألة كالتالي:

١- إنهم يرون كلّ شيء «بالفعل» باستثناء القسم الخاصّ بالذات المقدّسة، كالعلوم

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٥، ص ٧٣.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٠٥

الخمسة الواردة في آخر سورة لقمان والتي تمّت الإشارة إليها سابقاً، وكالعلم بكنه ذات الباري جلّت قدرته وكنه أسمائه وصفاته. الدليل على هذا الكلام هو الروايات المتظافرة التي تقول صراحة: «إنّ للأئمة علم ما يكون وما هو كائن حتّى تقوم الساعة»، ومن البديهي أنّ للنبي ذلك العلم بطريق أولى.

المرحوم الكليني وفي اصول الكافي ذكر باباً تحت عنوان: «إنّ الأئمة عليهم السلام يعلمون علم ما كان وما يكون وأنّه لا يخفى عليهم شيء» (١).

٢- إنهم يعلمون كلّ هذه الامور لكن «بالقوة» لا «بالفعل»، أي أنّهم كلّما شاؤوا أن يعلموا شيئاً من أسرار الغيب ألهمهم الله به، أو أنّهم يمتلكون قواعد واصول يستندون عليها للإطلاع على كلّ أسرار الغيب، أو أنّ معهم كتباً يطلعون على أسرار الغيب من خلال التأمل فيها، أو أنّهم يعلمون بهذه الأسرار كلّما شاء الله ذلك، أي كلّما منحهم حالة البسط اصطلاحاً، في حين أنّ هذه العلوم تختفي عند عودة المشيئة وحصول حالة القبض كما يصطلح على ذلك.

الدليل على هذا القول (في الحالة الاولى) هو الروايات القائلة: «إنّ الأئمة والقادة المعصومين إذا أرادوا أن يعلموا شيئاً علموه، وقد عقد المرحوم الكليني في اصول الكافي باباً حول هذا الموضوع تحت عنوان: «إنّ الأئمة إذا شاؤوا أن يعلموا علموا» (٢).

هذا البيان يحلّ الكثير من المشاكل المتعلقة بعلم الأنبياء والأئمة أيضاً، من جملتها أنّه لماذا شرب الإمام الحسن عليه السلام مثلاً من ماء الجرّة المسموم؟ وتناول الإمام الثامن عليه السلام العنب أو الرمان المسموم؟ لماذا انتخبوا فلاناً المناسب للقضاء أو القيادة؟ ولماذا كان يعقوب قلقاً إلى ذلك الحدّ على ابنه؟ مع أنّ ابنه كان يتدرّج في المناصب الحساسة، ثمّ استبدل الفراق إلى الوصال في خاتمة المطاف، لماذا...، ولماذا...؟

(١) أصول الكافي، ج ١، ص ٢٥ (ذكر المرحوم الكليني في هذا الباب ست روايات) كما أنّ المرحوم العلامة المجلسي قد تعرّض لشرح هذه الروايات في مرآة العقول، ج ٣، من ص ١٢٩-١٣٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٥٨ (ذكرت في هذا الباب ثلاث روايات بنفس هذا المضمون) كما أشار إليها المرحوم العلامة المجلسي في مرآة العقول، ج ٣، ص ١١٨.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٠٦

يمكن القول أنّهم وفي كلّ هذه الموارد لو شاؤوا أن يعلموا لعلموا، لكنّهم كانوا يعلمون أنّ الله لم يجز لهم الإطلاع إمّا اختباراً أو لمصالح اخرى.

ويمكن توضيح هذه المسألة بذكر هذا المثال: لو أعطى أحد رسالة حاوية على أسماء أشخاص أو مناصبهم أو على حقائق سرّية اخرى، لشخص آخر فيما كان ذلك الشخص الإطلاع على هذه الحقائق بمجرد فتح الرسالة، لكن حيث إنّها لم تفتح بعد فليس له

اطّلاع على محتواها، كما أنّ الشخص الرئيسي الذي أعطاه الرسالة كان قد خوّله فتح الرسالة متى شاء.

٣- المراد من اطلاع المعصومين على علم الغيب هو الإطلاع على كلّ المسائل ذات العلاقة بهداية البشرية بصورة مباشرة أو غير مباشرة، وبناءً على هذا فهم مّطلعون بالفعل على كلّ المعارف والأحكام، وتواريخ الأنبياء ومسائل الخلق والحوادث السابقة واللاحقة إلى كلّ ما يرتبط بهداية الناس، لكن ليس من الضروري القول بما هو خارج عن نطاق هذه الدائرة في حقّهم. الروايات المتعدّدة التي أشرنا إليها والقائلة: «إنّ الله أحكم وأكرم وأجلّ وأعظم وأعدل من أن يحتجّ بحجّة (للخلق) ثمّ يغيب عنه شيئاً من أمورهم» (١).

ونقرأ في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «من زعم أنّ الله يحتجّ بعبد في بلاده (بين خلقه) ثمّ يستر عنه جميع ما يحتاج إليه فقد افترى على الله!» (٢).

هذه كلّها إشارة إلى العلوم الضرورية لهداية الخلق.

٤- إنّهم مّطلعون على كلّ أسرار الغيب، لكنّ اطلاعهم هذا مبتنٍ على اصول كليّة، فهم يعلمون بكليات كافّة الامور، في حين أنّ العلم بكليات العالم وجزئياته كلّها خاصة بذاته تعالى.

هذا الكلام في الواقع يشبه ما ورد في روايات متعدّدة من أنّ عليّاً عليه السلام قال: «إنّ

(١) بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ١٣٨، ح ٥ (ورد هذا الحديث قبل عدّة صفحات بتفاوت ضئيل).

(٢) المصدر السابق، ص ١٣٩، ح ٨.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٠٧

رسول الله صلى الله عليه وآله علمنى الف باب من الحلال والحرام وممّا كان وممّا يكون إلى يوم القيامة، كلّ باب منها يفتح الف باب فذلك الف باب» (١).

العدد (الف) في هذا الحديث سواء كان للعدد أو كناية عن الكثرة فهو دليل على الكثرة، التي تفوق الحدّ لأبواب العلم التي علّمه إياها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وكذلك إشارة إلى اشتمال هذه الأبواب على سلسلة من الاصول الكليّة التي تطلّ عليها مئات بل آلاف الأبواب الاخرى.

والملاحظة الجديرة بالاعتبار هي أنّ الحديث، (إذا شاؤا أن يعلموا علموا) يمكن أن يكون إشارة إلى نفس هذا المعنى وهو أنّهم إذا شاؤا أن يعلموا بعضاً من الجزئيات، لراجعوا الاصول الكليّة التي علّمهم إياها الله تعالى أو النبي الأكرم صلى الله عليه وآله واطّلعوا عليها.

٥- إنّ علمهم يكون بكلّ حقائق العالم لكن من خلال «لوح المحو والإثبات»، في حين علم الله بكلّ الحقائق هو من خلال «اللوح المحفوظ».

بيان ذلك: حوادث الكون لها مرحلتان: المرحلة القطعية التي لا سبيل لأيّ تغيير إليها، أي أنّ حادثه ما بكلّ أسبابها وعللها حاضرة عند العالم، وحيث إنّّه مّطلع على كلّ أسبابها وعللها وموانعها وعلاقتها بالماضى والمستقبل، فهو يعلمها قطعاً ويخبر عنها بجديّة، وقد تمّ التعبير عن هذه المرحلة على لسان الآيات والروايات ب «أمّ الكتاب» أو «اللوح المحفوظ».

والمرحلة الاخرى هي «المرحلة غير القطعية» أو بعبارة اخرى «المرحلة المشروطة»، فالشخص العالم مّطلع على علل الحوادث في هذه المرحلة، لكن من الممكن عدم وضوح كلّ شروطها وموانعها لديه، ولذا لا يمكنه البتّ في وقوع الحوادث إنّما يمكنه ذلك مشروطاً، وهذا ما تمّ التعبير عنه على لسان الآيات والروايات ب «لوح المحو والإثبات».

الاختلاف بين علم الله وعلوم الأنبياء والأولياء هو نفس الاختلاف بين هاتين

(١) المرحوم العلامة المجلسي عقد في المجلد الأربعين باباً تحت نفس هذا العنوان (إن النبي صلى الله عليه وآله علمه الف باب) وذكر ٨٢ حديثاً حول هذا الموضوع والذي ذكرناه أعلاه هو الحديث السادس (بحار الأنوار، ج ٤٠، ص ١٣٠).

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٠٨

المرحلتين، أي أنه فضلاً عن كون أحدهما ذاتياً ومستقلاً دون الآخر فإن لأحدهما صفة القطع والبت دون صاحبه.

٦- آخر كلام ونظرية يمكن بيانها فيما يتعلق بكيفية اطلاع الأنبياء والأولياء عليهم السلام على أسرار الغيب، هو القول بأطلاعهم عليها إجمالاً، لكن ما هي مساحة ذلك ياترى؟ فلا نعلم ذلك بالدقة، وما نعلمه فقط هو أن الله العالم يعلمهم كلما وجد في ذلك مصلحة وضرورة، لكن كيف؟ وكم؟ فهذا ما لا نعلمه.

كانت هذه هي الطرق الستة التي يمكن ذكرها للإجابة عن مسألة كيفية اطلاع الأنبياء والأولياء عليهم السلام على أسرار الغيب وحدود ذلك.

ونظراً إلى أن البحث حول كل الجزئيات المرتبطة بعلم الغيب قد أفرد في كتاب مستقل، فضلاً عن أن هدفنا الرئيس من عرض هذه المباحث شيء آخر (وهو رفع التضاد الذي ربما يتوهمه بعض المغفلين بين الآيات المرتبطة بعلم الغيب) فسنوكل مزيداً من الشرح والتفصيل حول هذا الموضوع، واختيار النظرية الأقوى من بين هذه النظريات إلى بحثه الخاص به.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٠٩

إثبات علم القادة الإلهيين عن طريق العقل

إشارة

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢١١

إثبات علم القادة الإلهيين عن طريق العقل

كان الكلام لحد الآن عن الآيات والروايات التي أثبتت مسألة إمكان علم الغيب للأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام، لكن علاوة على ذلك فهناك طريق آخر أيضاً لإثبات هذا المعنى وهو عن طريق العقل، حيث إن هؤلاء العظماء لا يستطيعون أداء وظيفتهم على أتم وجه في حالة عدم اطلاعهم على أسرار الغيب أو بعض منها.

بيان ذلك: نحن نعلم أن دائرة وظيفتهم واسعة جداً، سواء من الناحية الزمانية أو المكانية، خصوصاً فيما يتعلق بمسألة رسالة نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وإمامة الأئمة عليهم السلام إذ هي «عالمية» و «خالدة»، أي أنها شاملة لكل بقاع العالم ومحيطه بكل الأزمنة إلى قيام الساعة.

فهل يمكن لمحافظ مدينه ما مثلاً أن يؤدي دوره في تلك المحافظة دون الوقوف على أوضاع أهاليها، وإمكانات المنطقة وامتيازاتهم ومحرومياتهم؟ من البديهي أنه غير قادر على ذلك.

ومع هذا فكيف يمكن لرسول مرسل إلى البشرية جمعاء، وإلى يوم القيامة تبليغ رسالته دون الإطلاع على وضع العالم إلى آخر يوم من مهمته؟!

بديهي أنهم لا- يتمكنون من الإحاطة بكل الأعصار والقرون، أو الإطلاع على الأقوام والطوائف عن طريق العلوم الإعتيادية، إذن فلا سبيل لهم إلى ذلك سوى علم الغيب (بالتعليم الإلهي).

علاوة على ذلك فمساحة دائرة مسؤوليتهم لا تنحصر بالظواهر فحسب إنما تمتد لتشمل ظاهر المجتمع، وباطنه وجوهر الإنسان ومظهره

أيضاً، واتّسع المسؤولية هذه يستلزم بدوره الإطلاع على أسرار أفراد المجتمع الباطنية أيضاً، وهذا هو نفس ذلك الذى ورد فى
نفحات القرآن، ج٧، ص: ٢١٢.

روايات متعدّدة بشكل استدلال عقلى، لا حكم تعبدى (تأمل جيداً).

يقول الإمام الصادق عليه السلام- على سبيل المثال- لأحد الرواة باسم «العزیز الصانع» فى حديث أشرنا إليه سابقاً: «أترى أن الله
استرعى راعياً (على عباده) واستخلف خليفته عليهم يحجب عنه شيئاً من اموره» «١»؟!
كما ورد نفس هذا المعنى بتعبير أوضح فى حديث إبراهيم بن عمر أنه قال، قال الإمام الصادق عليه السلام: «من زعم أن الله يحتج
بعبد فى بلاده ثم يستر عنه جميع ما يحتاج إليه فقد افترى على الله» «٢».

العلوم الأخرى للأنبياء فى القرآن المجيد:

إشارة

يستفاد بوضوح من آيات قرآنية مختلفة أن لبعض الأنبياء الإلهيين فضلاً عن العلوم ذات العلاقة بهداية الخلق وتربيتهم والحفاظ على
نظام المجتمع البشرى وبلوغ الأهداف النهائية للخلق، علوماً أخرى أيضاً، من جملتها الموارد أدناه:

١- تعلم موسى من الخضر

ورد فى سورة الكهف ٢٣ آية تم من خلالها بيان قصّة موسى عليه السلام بعبارات لطيفة جداً وموزونة، وتعلّمه من عبد لله لم يذكر
القرآن اسمه لكنّه فى الحقيقة هو «الخضر» كما هو المتعارف (الكهف / ٦٠-٨٢).
هذه الحادثة تبين بوضوح أن موسى عليه السلام قد ذهب وراء ذلك المعلم الإلهى طبقاً للعنوان الذى كان لديه، ليستفيد من العلوم
التي تعلّمها من الله، ولذلك فحينما وصل إليه بعد جهد جهيد قال: «هَلْ أَتَبَعَكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا». (الكهف / ٦٦)

(١) بصائر الدرجات طبقاً لما نقله صاحب بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ١٣٧، ح ٢.

(٢) المصدر السابق، ص ١٣٩، الرواية الثامنة.

نفحات القرآن، ج٧، ص: ٢١٣

فوافق الخضر على ذلك ورافقه موسى عليه السلام بدوره، ثم إنّه واجه ثلاث حوادث مؤلمة وغير مألوفة بحسب الظاهر (وذلك لعدم
إحاطته بها)، الاولى خرق السفينة التي تعود إلى فريق من الطبقة المسحوقة، والتي كانت تعدّ مصدراً لمعيشتهم، الثانية قتل الشاب،
والثالثة إقامة الجدار الذى يريد أن ينقضّ، مع عدم وجود أى دليل لها ظاهراً.

وفى كلّ مرّة كان يتصاعد اعتراض موسى عليه السلام وذلك لتعرض أحكام شرعية مهمّة فى هذه الحوادث الثلاث لخطر الزوال
والإضمحلال، وفى أول حادثة تمّ التعدى على حرمة أموال الناس من قبل الخضر، وفى الثانية أُنْتَهَكَتْ حرمة حياة الناس، وفى الثالثة
صدر منه تصرف غير مسؤول بحسب الظاهر، وذلك ببناءه للجدار الذى كان مشرفاً على السقوط بلا أخذ أجر عليه أو دليل على لزوم
إعادة بنائه.

وأخيراً بيّن له الخضر أسرار هذه الامور الغامضة ليقف على فلسفتها وحكمتها، وتبين أنه لو لم يخرق السفينة لأخذها ملك غاصب
ولتدهورت أحوال أصحابها، ولو لم يُقتل ذلك الشاب المرتد لاحتمل أن يُضِلَّ أبويه المؤمنين، وأنه كان هناك كنز خفى تحت
ذلك الجدار ليتمين وكان أبوهما صالحاً، وأراد الله الحفاظ على كنزهما عن هذا الطريق إلى أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما

للاستفادة منه، ومع أن موسى المأمور بظاهر الشريعة لم يتمكن من البقاء أكثر من هذا مع الخضر الذي كانت له وظائف أخرى أيضاً وأنه انفصل عنه طبقاً للعهد الذي أخذه على نفسه، لكنه توصل من خلال هذه القصة بشكل عام إلى أن الكثير من الحوادث التي لها ظاهر مؤلم تعد أسباباً لليمن والبركة في جوهرها، فضلاً عن وقوفه على العلم التفصيلي لهذه القصص الثلاث، وأنا لعلمنا المحدود نتوهمها في غير محلها في حين أن وقوفنا على حقيقة الأمر يدفعنا لاقتفاء أثره وإدراكه بكل سرور.

كانت هذه علوماً تعلمها موسى من الخضر إلى جانب علم الشريعة، والأسمى منها هو الخضر الذي يعد من الأنبياء الإلهيين عظيمي الشأن، والذي كان له اطلاع واسع على هذه الأمور «١».

(١) لمزيد من التوضيح فيما يتعلق بهذه الآيات وجزئيات هذه القصة، راجع التفسير الأمثل، ذيل الآيات ٦٠-٨٢ من سورة الكهف. نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢١٤

٢- اطلاع داود على إعداد وسيلة دفاعية

تمّ البحث في سورتين من القرآن المجيد حول اختراع الدرع المناسب، الذي كان يعدّ وسيلة دفاعية مهمّة لحروب الأزمنة الغابرة، وذلك من قبل داود النبي الإلهي العظيم الشأن.

يقول تعالى في أحد المواضع: «وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَهُ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُخَصِّنْكُمْ مِنْ بِأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ». (الأنبياء / ٨٠)

يتضح جيداً من هذه الآية أن إبداع هذه الوسيلة الدفاعية قد تمّ في عهد داود عليه السلام وبتعليم ربّاني، في حين أننا نعلم بعدم ضرورة أن يكون نبي إلهي مبتكراً لمثل هذا الموضوع.

كما ونقرأ في قوله تعالى «وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ* أَنْ اِعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ». (سبأ / ١٠-١١)

لا شك أن هذا الأمر يكشف عن أن إقدام داود عليه السلام على صنع شيء فريد من نوعه، كان بأمر إلهي وأنه تعالى هو الذي علّمه كيفية الصنع وسبل تليين الحديد، سواء كانت لهذه المسألة صفة إعجاز أم تعليم إلهي بالاستفادة من المعدات والأسباب، وعلى أية حال فابتكار هذا الأمر (صنع الحلقات الدقيقة والقوية لغرض نسج الدرع في ذلك الزمان، بحيث لا يعيق حركة المقاتل، كما ويسهل ارتداؤه بالإضافة إلى مقاومته لضربات وأسنه السهام والسيوف والرماح في نفس الوقت) كان عملاً شاقاً ومعقداً للغاية، ولم تكن أهميته في ذلك العصر أدنى من إبداع الأسلحة المتطورة في عالم اليوم.

كما ويحتمل أن تكون الآية ١٥ من سورة النمل إشارة إلى نفس علم ومعرفة داود بصناعة هذه الوسيلة الدفاعية أيضاً، أو أن تكون مضافة إلى العلوم الأولى حيث يقول تعالى: «وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً». «١»

لقد تناولنا هذا البحث فيما سبق أيضاً - بمناسبة أخرى -.

(١) ورد هذا الاحتمال في تفسير القرطبي، ج ٧، ص ٤٨٧٩ ذيل الآية مورد البحث. نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢١٥

٣- معرفة يوسف بتفسير الأحلام

هل بإمكان الرؤيا إزالة الستار عن حوادث المستقبل والكشف عن المسائل؟ لو كان الجواب «نعم»، فأى رؤيا هذه، وهل تنطق الأحلام صراحة أم كنايةً، أو تكون صريحة تارةً وكنايةً أخرى؟ وفي الحالة الثانية

فمن أولئك الذين يجيدون لغة كناية الرؤيا، ومن بيده هذا العلم؟

وأساساً ما هي حقيقة الرؤيا؟ وكيف ترتسم في روح الإنسان وذهنه؟

هذه هي الأسئلة المعقدة التي تتطلب الإجابة عنها الخوض في أبحاث مطوّلة ومفصلة، وخارجة عن موضوع بحثنا في نفس الوقت «١». إن من المسلم به في الأبحاث القرآنية أن بإمكان الرؤيا الدلالة على الأحداث كناية أو صراحة، وقد أشار القرآن إلى سبع أحلام صادقة في سور مختلفة بالإمكان الوقوف عليها في «رسالة القرآن»، المجلد الأول في مبحث مصادر المعرفة (المصدر السادس - الكشف والشهود) «٢».

إن بعضاً من هذه الأحلام كان كنايةً (مثل حلم عزيز مصر) وبعضها صريحاً مثل حلم نبي الإسلام صلى الله عليه وآله حول دخول المسلمين إلى المسجد الحرام، وأداء مراسم الحج.

ويصرح القرآن في سورة يوسف بأننا علمنا يوسف هذا العلم، ونقرأ في قوله تعالى:

«وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ». (يوسف / ٦)

وقال أيضاً: «وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ». (يوسف / ٢١)

ثم تجسدت نماذج من تفسير يوسف للأحلام، بما فيها الرؤيا التي قصها كل من السجينين عليه، ورؤيا ملك مصر، والتي تحكى كلها عن إحاطته الكاملة بعلم تعبير الأحلام.

بديهى أن عدم اطلاع الأنبياء عليهم السلام على تعبير الأحلام لا يחדش في نبوتهم، لكن

(١) ورد هناك في التفسير الأمثل، في الآيات المرتبطة بيوسف عليه السلام، بحث مفصل نوعاً ما حول هذا الموضوع، وان كان بيانه بالكامل يحتل كتاباً مستقلاً لوحده.

(٢) لمزيد من الايضاح راجعوا الى ج ١، ص ٢١٢ من هذا التفسير.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢١٦

بإمكان هذا العلم أن يلعب دوراً فعالاً في الإسراع من عجلته تطوّر مأموريتهم، وإضفاء المزيد من التقدّم على خططهم.

٤ - العلم بمنطق الطير

تمت الإشارة في القرآن الكريم إلى نوع آخر من العلم والمعرفة بالنسبة لسليمان عليه السلام، والذي يبدو لأول وهلة أمراً عجيبياً، ألا وهو مسألة القدرة على مخاطبة الطيور وفهم حوارها، ونقرأ في قوله تعالى «وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ». (النحل / ١٦)

الكلام هنا طويل:

هل حقاً تتكلم الحيوانات؟ كيف يكون حديثها؟ هل بهذه الأصوات المتنوعة التي تنبعث منها في مختلف الحالات، أم أن هناك كيفية خاصة أخرى؟

لا شك أن للطيور أصواتاً متفاوتة وبحسب الظروف المختلفة، كالغضب والرضا والجوع والعطش والمرض والضجر، وأن بإمكان من لهم أدنى اطلاع على حالها إدراك مرادها.

لكن من المستبعد أن تكون الآية أعلاه وأمثالها نظرة إلى هذا المعنى، إذ إنها تحكى عن مطالب أدق وأهم، فالبحث هو عن تفاهمها وتخاطبها مع الإنسان، والحديث هو عن سلسلة من المفاهيم العالية والراقية.

مع احتمال إقدام البعض على حمل هذه الآيات وأمثالها على الكنايات أو لغة الأساطير، توهماً منهم باستحالة مثل هذا الشيء

للحيوانات، فامتلاك سليمان عليه السلام للمعجزة وإطلاعه على العلوم الإلهية الخاصة لا يستبعد أبداً. وهناك سؤال وهو: هل أن للحيوانات مثل هذا الفهم والشعور لتحدث مثلاً عن عبادة ملكة سبأ للشمس من دون الله؟ التمتع في أسرار حياة الطيور، والمطالب العجيبة التي ينقلها العلماء فيما يتعلق بذهنها

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢١٧

ومهارتها ودقتها، يكشف عن سقم وسطحية افتراض تجرد الحيوانات خصوصاً الطيور من الشعور. إن أبحاث العلماء تشير إلى أن للكثير من الحيوانات القدرة على تحديد الظروف الجوية، حتى قبل حدوثها بعدة أشهر، في حين أن الإنسان ومع كل الأجهزة التي يستعين بها يعجز أحياناً عن مثل ذلك، ولو لساعات قليلة قبل ذلك. أغلب الحيوانات تعلم بالزلازل قبل وقوعها وتبدي رد فعلها لذلك، في الوقت الذي تعجز فيه أجهزة رصد الزلازل عن تخمين ولو مقدّماتها.

غرائب حياة النحل واقتنائها العجيب للمناطق التي تكثر فيها الزهور، ونشاطات النمل العجيبة وتطورها المعقد، ومعرفة الطيور المهاجرة بوضع الطرق حين تطوى أحياناً المسافة بين القطبين الشمالي والجنوبي للكرة الأرضية، وإطلاع البعض من الطيور على أحوال فراخها قبل تفقيسها، وتوقعها الدقيق لاحتياجاتها مع عدم امتلاكها لتجربة سابقة، وأمور أخرى من هذا القبيل والتي ذكرت في الكتب المعتمدة والمستندة في هذه الأيام، تشير بمجموعها إلى أن لا غرابه في تمتع الحيوانات بنوع من الحوار فيما بينها، مع تمكنها من التحدث مع من له إطلاع على أبجديات لغتها، وخلق رابطة ما معه.

الكثير من آيات القرآن تدل على أن للحيوانات شعوراً وإدراكاً على خلاف ما يتوهمه البسطاء، بل بلغ الحدّ ببعض إلى الاعتقاد بأن لكل ذرات الكون بما فيها الجمادات نوعاً من الشعور، ومن هنا فقد اعتبروا عموم تسييحها مقروناً بالشعور. هذه المواضيع تعود بطبيعتها الحال إلى بحوث أخرى ذكرناها في محلّها، أما الذي ينبغي الالتفات إليه هنا فهو مسألة إطلاع البعض من الأنبياء على «منطق الطير»، وتحدث قسم من الحيوانات معهم، والتي لا تعدّ علماً ضرورياً لأداء الرسالة بل باعثاً على كمال النبوة.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢١٩

طرق معرفة سفراء الله

إشارة

١- الإعجاز

٢- التحقيق في مضمون دعوة الأنبياء عليهم السلام

٣- جمع القرائن

٤- شهادة الأنبياء السابقين

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٢١

طرق معرفة سفراء الله

تمهيد:

إشارة

لا- شك أن أيّ ادعاء لا- يمكن قبوله إذا لم يكن معزواً بدليل، خصوصاً الإدعاء الخطير جداً وهو ادعاء النبوة مثلاً، وبالأخص بعد

معرفتنا للكثير من الأشخاص وعلى امتداد التاريخ ممن ادّعوا السفارة والنبوة، ورسالة هداية الخلق من قبل الله زوراً وبهتاناً، بهدف إضلال البسطاء من الناس، فادّعوا أنهم مرسلون من قبل الله لتحقيق أهدافهم المشؤومة وضمنان طموحاتهم اللامشروعة، وقد وُفقوا بعض الشيء في كسب بعض المغفلين نحوهم.

وبناءً على هذا فلا بد من وجود مقاييس يمكن من خلالها تمييز الأنبياء الإلهيين من المدّعين الكذّابين، وبعد مطالعة هذا الموضوع بدقّة تنكشف أماننا أربعة طرق:

- ١- «الإعجاز» وهو القيام بأمور خارقة للعادة و خارجة عن قدرة الإنسان، مرفقة بدعوى النبوة.
- ٢- التحقيق في مضمون دعواتهم والتي يمكن أن تكون لوحدها في بعض الأحيان دليلاً على صدقهم وحقانيتهم، وقد يكون هذا الطريق أكثر قبولاً وثقة لدى العلماء حتّى من المعجزة.
- ٣- جمع القرائن التي تحوم حول مدعى النبوة، وسوابقه وسلوكه ومحيطه والذين آمنوا به، بالإضافة إلى الطرق التي يسلكها لنشر دعوته، و ما إلى ذلك.

وكثيراً ما يحدث أن تدفع هذه القرائن مجتمعة للإيمان برسالته وصدق دعوته دون حاجة إلى اللجوء إلى شيء آخر.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٢٢

- ٤- شهادة الانبياء السابقين التشخيص عن طريق الأخبار وتركيبه الأنبياء السابقين، أى أنه يمكن لأخبار من اتّضح أنه نبي أن تكون دليلاً وعاملاً مساعداً لمن يأتي بعدهم.

على أيّة حال فالشئىء المسلم به هو عدم إمكان قبول أى دعوى بلا دليل مقنع، وقد عاتب القرآن مراراً وكراراً أولئك الذين يدّعون أو يتبعون بلا علم ولا دليل.

ومن البديهي أن أشخاصاً كهؤلاء سيكونون فى مهبط ريح اللوم والعتاب على الدوام، وعلى حدّ قول بعض الفلاسفة: «من يقبل كلاماً بلا دليل لا يستحقّ اسم الإنسان».

كما أن القرآن يعتبر أمثال هؤلاء الأشخاص أى الذين يتبعون الهوى بلا علم ولا دليل من أضلّ الناس إذ يقول: «وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ». (الفصص / ٥٠)

وفى موضع آخر يقول بصراحة لمن يدّعى دعوى فيما يتعلّق بالتوحيد أو النبوة: «هَيَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ». (البقرة / ١١١) (النمل / ٦٤)

كما يقول فى موضع آخر: «وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ». (الإسراء / ٣٦)

وأخيراً فقد اعتبر أولئك الذين يتكلمون بغير علم من أكثر الناس كذباً وافتراءً وظلماً، يقول الله تعالى: «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ».

(الأنعام / ١٤٤)

بعد هذه المقدمة الخاطفة يأتى دور كل واحد من هذه الطرق الأربعة ونبدأ بمسألة «الإعجاز».

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٢٣

١- الإعجاز

وينبغي الالتفات إلى أن القرآن لا يعبر بالإعجاز أو المعجزة في هذه المسألة، بل يستعمل وبشكل رئيسي ثلاثة تعابير أخرى وهي: «آية» و «بينه» و «برهان»، والآن لنمعن خاشعين في الآيات الواردة في هذا المجال:

١- «قَالَ (فرعون) إِنَّ كُنْتُ جِئْتُ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ (من جيبه) فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ».

(الأعراف / ١٠٦-١٠٨)

٢- «وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخَلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُورِي الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ».

(آل عمران / ٤٩)

٣- «وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْتَحِرَّهَا فَمَا نَعْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالِدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ». (الأعراف / ١٣٢-١٣٣)

٤- «وَإِلَى (قوم) ثَمُودَ (أرسلنا) أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ...» (الأعراف / ٧٣)

٥- «قَالَ (نوح) يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ (فهل تنكرون دعوتي ثانية) أَنْزِلْكُمْ مَوْجًا وَآتَنَّمْ لَهَا كَارِهُونَ». (هود / ٢٨)

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٢٤

٦- «وَأَنْ أَلْتَقِيَ عَصِيَّاكَ... * اسئلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء... فذانك بؤهانان من ربك إلى فرعون وملأيه». (القصص / ٣١-٣٢)

٧- «قُلْ لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لياتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً». (الإسراء / ٨٨)

جمع الآيات وتفسيرها

الإعجاز، أول دليل على النبوة:

كما تمت الإشارة سابقاً فإن لفظة ال «معجزة» لم ترد في القرآن بالمعنى المصطلح عليه اليوم أبداً، بل إن ألفاظاً أخرى من قبيل «آية» و «بينه» و «برهان» قد حلت محلها، وعلى الرغم من إطلاق هذه الألفاظ الثلاثة في القرآن على معاني أخرى أيضاً، فإن «المعجزة» أحد معانيها.

الآيات المختارة المذكورة هي من أجلى الآيات التي تتحدث عن المعجزة بالاستفادة من هذه الألفاظ الثلاثة، بالإضافة إلى بعض الآيات الأخرى التي تعكس مفهوم ضعف الإنسان وعجزه عن مقابله بعض ما يقوم به الأنبياء من بعض الممارسات الخارقة للنواميس الطبيعية بالمثل، بالرغم من خلوها من كل واحدة من هذه الألفاظ الثلاثة، وبالنتيجة فهي تثبت استعانة الأنبياء ب «الإعجاز» للتدليل على حقايقهم من جهة، ومطالبة الناس ب «المعجزة» من جهة أخرى.

ورد في الآية الأولى «قَالَ إِنْ كُنْتُ جِئْتُ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ».

إذ نرى هنا أن فرعون قد اعتبر المطالبة ب «آية» أي «معجزة» حقاً مشروعاً له، ومن المعلوم أن موسى قد وافق بدوره على هذا الطلب برحابة صدر، وجاء بنموذجين من معجزاته.

نفحات القرآن، ج٧، ص: ٢٢٥

وبهذا فهذه الآيات تعتبر الأمور الخارقة للعادة (المشروطة) تمثل الطريق لمعرفة الأنبياء عليهم السلام.

هذه الآيات لم تقل أبداً أن هذا الشيء قد تجسّم أمام أنظار فرعون، بل تحكى عن حقيقة متحققة ألا وهي استبدال العصا بثعبان رهيب، وبياض يد موسى حينما أخرجها من جيبه، كما أن التعبير بال «مبين» إشارة إلى نفس هذا الشيء أيضاً.

يحتمل أن يكون السبب وراء اختيار هاتين المعجزتين يعود إلى امتلاك إحداهما ميزة الإرهاب للمستكبرين والمعاندين وتهديدهم، والأخرى ميزة الترغيب لإيمان المؤمنين، على أمل أن يمتزج «اللين» ب «الشدة» ليقدما معاً دواءً شافياً للعباد.

وفي الآية الثانية تمت الإشارة بقوة إلى معجزات السيد المسيح، وتم التعبير عنها بال «آية»، وكان ذلك في وقت بشرت فيه مريم عليها السلام بولادة المسيح عليه السلام، إذ قال تعالى: «وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْمَكْمَةَ وَالْمَأْبُورَصَ وَالْأَخْيَ الْمُؤْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُتْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ».

وقد تم في هذه الآية ذكر مجموعة من معجزات السيد المسيح: خلق الطير من الطين، وإبراء الأكمه والأبرص الذي يستحيل علاجه، وإحياء الموتى، والتي تمت كلها بإذن الله بالإضافة إلى الإطّلاع على الأمور الخفية وأسرار الغيب.

لم تكن معجزة المسيح لتنحصر بهذه المعاجز الأربع فحسب، إذ إن هناك خوارق أخرى للعادات قد نقلت عنه في القرآن الكريم، من جملتها تكلمه في المهدي، ونزول مائدة من السماء على الحوارين بدعائه.

والمعروف هو أن اختيار الله لقسم من هذه المعجزات للمسيح عليه السلام، إنما كان بسبب انتشار العلوم الطبيّة وتطوّرها في ذلك الزمان، وحاجة الناس الماسة إلى مهنة الطبابة نظراً

نفحات القرآن، ج٧، ص: ٢٢٦

لشروع الأمراض آنذاك، فوضع الله هذه المعجزات الخاصّة تحت تصرّف المسيح، ليتعرّف به العالم وغيره ويستسلم له ولتتجلّى عظمتها إعجازه بشكل أكبر (١).

هذه الملاحظة أيضاً جديرة بالاعتبار وهي وجود نوع من التنسيق بين هذه المعجزات الماديّة، وبين البرامج المعنويّة والتربويّة للسيد المسيح: فلقد ربي بدعوته هذه أناساً متفتّحين على أفكار ومعارف جديدة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، شفاء المرضى الذين يستحيل علاجهم على يديه، وإحياء ضحايا وادي الضلال وهداهم، ومسح بأسرار الغيب وأنوار المعرفة على القلوب، وبهذا كانت تلك المعجزات الماديّة متناسبة مع هذه الأهداف المعنويّة.

صحيح أن «المعجزة» يجب أن تكون عملاً خارقاً للعادة بحيث يعجز الكلّ عن الإتيان بمثله، لكن الله الحكيم الذي يتصرّف بحكمته، قد اختار المعجزات طبقاً لبرنامج مدروس.

هذه الملاحظة أيضاً جديرة بالتأمل والتفحص وهي أن التعبير ب «إذن الله» قد تكرر مرتين في هذه الآية، لئلا يضل الجهال في وادي الشرك أو يبالغوا في درجة النبي إلى مرتبة الغلو، خصوصاً وأنّ كفيّة خلق عيسى كانت بشكل يساعد على تهيئته الأرضية المناسبة للغلو في أفكار قصيري النظر، ولذا فقد تمّ التأكيد مراراً على إذن الله وأمره لئلا يذهب بهم خيالهم إلى اتّصافه واقعاً بصفات الربوبية، وكون هذه الأعمال صادرة منه بنفسه، بل ليعلموا أنّها جميعاً من عند الله.

الآية الثالثة تبين بوضوح أن موسى عليه السلام قد جاء للفرعنة بالعديد من خوارق العادة، (أو بعبارة أخرى بالآيات المفصّلات)، لكن الملائكة من آل فرعون لم يؤمنوا بحجّة كون ذلك «سحراً»، يقول تعالى: «وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ* فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ».

(١) وردت هذه الملاحظة في حديث عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام (بحار الأنوار، ج ١١، ص ٧٠).

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٢٧

هذه الحوادث العجيبة وغير المتوقعة كانت لها صفتي التأديب والإعجاز معاً.

كما أن الآيات اللاحقة لها تبيين أيضاً أنهم كانوا يلجأون إلى موسى عند الشدائد، ويرجون منه الطلب من الله برفع «البلاء» ويعدونه لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك، ولكن حينما كان يكشف عنهم الرجز ينكثون عهدهم، إلى أن استحقوا أخيراً «عذاب الإستصال» واجتثوا عن بكره أبيهم.

صحيح أن الفراعنة وبنى إسرائيل كانوا يعيشون معاً، لكن لا يخفى أن الفراعنة كانوا هم المستهدفين بهذه البلايا، فتلك قصورهم الفخمة تطل على طرفي النيل، بينما منازل بنى إسرائيل تقع في مناطق نائية، ولذا ذهب الطوفان والفيضان بقصور الفراعنة.

كما دمر الجراد والآفات الزراعية مزارعهم الواسعة، وحصلت زيادة مطردة ومفاجئة في تكاثر الضفادع لتخرج من النيل وتدخل في كل جزيات حياة الفراعنة، بل لم تترك حتى غرف نومهم وموائد طعامهم وأوانيهم بالإضافة إلى تحملهم لخسائر فادحة جداً حينما تلون نهر النيل بالدم.

لكن هذه البلايا أو بعبارة أخرى «المعجزات المتببهة» التي ورد شرحها في التوراة الحالي، في «سفر الخروج» الفصل السابع إلى العاشر، لم توقظهم أبداً.

ويحتمل أن يكون اختيار هذه المعجزات الخمس نظراً إلى إحاطة العذاب الإلهي بكافة شؤون حياتهم، فالطوفان قلب قصورهم رأساً على عقب، والجراد دمر بساتينهم، و «القميل» ذهب بزراعتهم، والضفادع سلبتهم راحة بالهم وسكينتهم، وإستبدال ماء النيل بالدم حرهم ماء شربهم!

وهناك إشارة مختصرة في الآية الرابعة إلى معجزة نبي آخر وهو النبي صالح عليه السلام، حيث تعبر عنها ب «البيئنة»، وكذلك ال «آية»، يقول تعالى:

«وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٢٨

مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ ...».

«الناقة»: تعنى في الأصل أنثى البعير، وقد أشير في القرآن إلى ناقة صالح بهذه اللفظة أكثر من مرة، والتي كانت ناقة إستثنائية بلا شك، وذلك في كيفية خروجها بالإضافة إلى بقيته الحالات والصفات التي يكون الخوض في جزئياتها خارجاً عن موضوع هذا البحث، إذ لا نعلم أكثر من عدم كونها ناقة عادية، ولذلك يعتبرها بمثابة البيئنة والآية ولغرض الوقوف على أهميته هذه المعجزة فقد تم التعبير عنها في الآية المذكورة ب «ناقة الله».

لماذا اختار الله هذه المعجزة من بين كل المعجزات لصالح عليه السلام؟ قال البعض: كان ذلك استجابة لطلب القوم لمثل هذه الناقة. نقرأ في إحدى الروايات: «حينما بعث صالح بالنبوة بين قوم ثمود الذين كان لهم سبعون صنماً يعبدونها، لبث فيهم مدة طويلة يدعوهم وينصحهم، لكنهم لم يجيبوه إلى خير، فقال لهم ذات يوم: أنا أعرض عليكم أمرين، إن شئتم فاسألوني حتى أسأل إلهي فيجيئكم فيما تسألون، وإن شئتم سألت آلهتكم فان أجابوني خرجت عنكم، فقد شئتمكم وشئتموني، فقالوا قد أنصفت!

فتواعدوا ليوم يخرجون فيه، فخرجوا بأصنامهم إلى عيدهم وأكلوا وشربوا فلما فرغوا، دعوه فقالوا يا صالح سل فسألها فلم تجبه، فقال: لا- أرى آلهتكم تجيبني فاسألوني حتى أسأل إلهي فيجيئكم الساعة، فقالوا يا صالح! اخرج لنا من هذه الصخرة (وأشاروا إلى صخرة منفردة) ناقة مخرجة جوفاء وبراء فان فعلت صدقناك وآمنا بك، ففعل صالح ذلك ولم يؤمنوا» (١).

الكلام في الآية الخامسة هو عن «البيئنة» أيضاً، وقد ذكرت هنا «بيئنة نوح» تلك البيئنة التي يراد منها «معجزة ظاهرة»، إذ نراه يعقب على

كلام مشركى القوم حينما قالوا: «بل

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٤٤١ (بتلخيص).

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٢٩

نظنكم كاذبين»، بالقول: «قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْتِهِ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ (تعصياً وعناداً) أَنْزَلْنَا مَكْمُوهًا وَآتَيْنَا لَهَا كَافِرُونَ» (١).

قال الكثير من المفسرين أن «البينة» تعنى هنا المعجزة، وعلى الرغم من المنقول عن ابن عباس أن المراد بالبينة هو الدليل المنطقي الجلي، لكن نظراً للتعبير ب «من ربى» ولكون هذه البينة قد اقيمت فى مقابل تكذيب نوح وأتباعه، فلا يمكن أن يفهم منها سوى المعجزة، وربما كان مراد ابن عباس من الدليل الواضح نفس المعجزة أيضاً.

ونلاحظ فى الآية السادسة تعبيراً آخر حول هذا الموضوع ألا وهو «البرهان»، إشارة إلى معجرتى موسى المعروفتين واللتين وردتا فى الآيات السابقة، أى استبدال العصا بثعبان عظيم، وبياض اليد، يقول تعالى: «فَدَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ».

و «البرهان»: وعلى حد قول الراغب فى المفردات يعنى الدليل المحكم، وقد اعتبره البعض مصدراً لمادة «بَرَه- بَيْرَه» إذا ابيض، وإطلاق هذه المفردة على الأدلة المحكمة من باب بيانه للمطلب، وتوضيحه له، أو لأنه يبعث على افتخار المتكلم، أو أنه إشارة إلى الكلام الواضح الذى يعتره الإبهام.

وفى «لسان العرب» فسّر البرهان بمعنى الدليل الواضح الذى يميز الحق عن الباطل، ومن هنا فسّر المفسرون لفظه «برهانان» فى ذيل الآية بمعنى الدليلين الجليين (٢).

لكن صاحب كتاب «التحقيق» يعتقد بأن استعمال لفظه البرهان بمعنى الدليل اصطلاح منطقي خارج عن دائرة اللغة، وأن معناه هو ذلك الكلام الواضح الخالى من الإبهام، أو الموضوع الواضح تماماً.

على أية حال، ففى الآية أعلاه قد استعملت هذه اللفظة فى التعبير عن المعجزة، التى تعدّ دليلاً جلياً وواضحاً على صدق مدعى النبوة، أى النبى موسى عليه السلام هنا.

(١) جملة «أنزل مكموها» هى بمثابة الجزاء للقضية الشرطية «إن كنت».

(٢) تفسير الكبير، ج ٢٤، ص ٢٣٨.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٣٠

وفى الآية السابعة والأخيرة من الآيات التى وردت فى البحث لم يكن التعبير بال «آية» أو ال «بينة» أو ال «برهان»، بل بمصداق من المصدايق البارزة جداً للمعجزة، وبعد ذلك تم التصريح بالقول: «قُلْ لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً».

الهدف لا يكمن فى الخوض فى بحث «إعجاز القرآن» لأن هذا البحث قد جاء فى ذيل هذه الآية فى المجلد الثانى عشر من «التفسير الأمل»، كما سيأتى أيضاً فى المجلد القادم من نفحات القرآن، بشرح أوفى، إنما الهدف هو بيان حقيقة كون المعجزة هى إحدى الطرق القطعية لمعرفة الأنبياء عليهم السلام.

ولذا نقرأ فى ذيل آية أخرى دعوة القرآن المخالفين للإتيان بعشر سور مثل سور القرآن:

«فَإِنْ لَّمْ يَشْتَجِبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ». (هود/ ١٤)

يمكن الإستنتاج بوضوح من مجموع ما تقدّم، أنّ المعجزة لم تكن بنظر القرآن أحد الأدلّة الرئيسيّة لإثبات نبوّه نبي الإسلام صلى الله عليه وآله فحسب، بل لنبوّه سائر الأنبياء أيضاً. لكن ينبغي الالتفات إلى أنّ هناك آيات قرآنية تعدّ بمثابة العلة لمنكري المعجزة، والتي سنتكلّم عنها بالتفصيل في قسم التوضيحات.

توضيحات

١- ما هي حقيقة الإعجاز

لفظة الإعجاز والمعجزة وكما أشرنا سابقاً لم ترد في القرآن بالمعنى المصطلح عليه اليوم، بل قد تمّت الإستعانة بتعابير أخرى في هذا المجال، وقد تقدّم شرحها في الآيات التي مرّ ذكرها، فالبحث هنا ليس بحثاً لغوياً، إذ الهدف هو بيان حقيقة الإعجاز والمعجزة، لكن لا

نفحات القرآن، ج٧، ص: ٢٣١

بأس بإشارة خاطفة قبل ذلك إلى المفهوم اللغوي للفظه «الإعجاز»، ليتّضح السبب الذي دفع العلماء والأكابر إلى انتخاب هذه المفردة لخصوص هذا المعنى.

مع أنّ هناك معنيين قد ذكرا في مقاييس اللغة لأصل «الإعجاز» أي «العجز» وهما:

«الضعف» و «عقب كلّ شيء»، لكن الراغب أرجع هذين المعنيين في المفردات إلى معنى واحد، واعتبر المعنى الأصلي هو «عقب كلّ شيء»، وقد ترد بمعنى «الضعف» نظراً لتبعيه الأفراد الضعفاء للآخرين، وحيث إنّ معجزات الأنبياء هي من القوّة بحيث يعجز الآخرون عن التصدي لها ومقابلتها بالمثل، فقد اطلقت لفظه المعجزة عليها.

على أيّة حال ف «المعجزة» في التعريف الذي ذكره لها علماء العقائد، عبارة عن ذلك الشيء الجامع للشروط الثلاثة أدناه:

- ١- العمل الخارق للعادة والخارج كلياً عن طاقة النوع البشري، والذي يعجز عن الإتيان بمثله حتّى أكبر نوابغ العالم.
- ٢- أن تكون مرافقه لدعوى النبوة أو الإمامة من قبل الله، وبعبارة أخرى أن تكون بمثابة الدليل على حقّانية مدّعى الرسالة والإمامة.
- ٣- أن تكون بلسان «التحدّي» أي الدعوة للمعارضه والمقابلته بالمثل، وبعبارة أخرى أن يتحدّى مدّعى النبوة أو الإمامة أولئك الذين ينكرون كونها من عند الله، الإتيان بمثله، بالضبط كما عرض القرآن هذا الأمر أكثر من مرّة فيما يتعلّق بإعجاز هذا الكتاب السماوي، وقد مرّ بنا مثال ذلك في الآيات السابقة.

ومما تقدّم أعلاه يمكن استنتاج الأمور التاليّة:

أ) المعجزة مستندة على القدرة الإلهية

ولا يمكن قياسها بأعمال نوابغ العالم، والإكتشافات العلمية العجيبة، إذ يحتمل مثلاً وجود طفل ذكي لم يتجاوز عمره السبع سنين، ومع ذلك نراه يخطب خطبة عصماء، فهذا

نفحات القرآن، ج٧، ص: ٢٣٢

نوع من النبوغ، ولذا يحتمل العثور على طفل آخر مثله أيضاً، أمّا الطفل الرضيع فمن غير الممكن (عادةً) أن ينطق بفصاحة ليقول كما نقرأ بالنسبة للمسيح: «قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا». (مريم / ٣٠)

أو أنّ من الممكن لعالم إختصار فترة نضوج فاكهه ما من سبع سنين مثلاً إلى عدّة أشهر، وذلك باكتشاف علمي جديد وأدوية خاصّة، فمن الواضح أنّ هذا العالم قد جاء باكتشاف عظيم، لكن من المحتمل أن يأتي مكتشف ونابعه آخر بعمل مشابه له أيضاً، أمّا لو

تحوّلت شجرة يابسة إلى ثمرة في لحظة واحدة (وكانت ترافقها دعوى النبوة والتحدى) فهي معجزة إلهية.

(ب) المعجزة لا تعنى عمل المستحيل عقلاً

(سواء كان محالاً ذاتياً كاجتماع النقيضين والصدّين في مكان واحد وزمان واحد، أو محالاً بالغير كالأمر الذي ينتهي وجوده في خاتمة المطاف إلى محال عقلي) لأنه غير ممكن بحكم العقل، أو بعبارة أخرى هو خارج عن دائرة القدرة، أي أن استعمال كلمة «القدرة» في حقها لا معنى له أصلاً، مثل أن يريد أحد الأنبياء أن يكون الشيء موجوداً وغير موجود في آن واحد، أو أن يضع صخرة عظيمة داخل بيضة دون أن تصغر الصخرة أو تكبر البيضة، مثل هذه القضايا إنما تزور التضاد في داخلها بنفسها، أي أنها في حقيقتها قضية خاطئة، ومفهومها في الحقيقة هو أن يريد الإنسان شيئاً ولا يريد (تأمل جيداً).

وبناءً على هذا فالمحالات العقلية لا محل لها لا في بحث الإعجاز، ولا حتى في أي بحث آخر، بل الذي يمكن عرضه هو المحال العادي فحسب، وبهذا فالمعجزة محال عادي لا غير.

أي أن مثل هذا الشيء لا يمكن تحقيقه طبقاً للتسلسل الطبيعي لقانون العلة والمعلول، واستناداً إلى الأسباب والشروط العادية والطاقة البشرية، لكن لا مانع من تحقيقه أبداً بالقدرة الإلهية كالأمثلة المذكورة آنفاً.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٣٣

(ج) المعجزة لا تعنى تحطيم قانون العلية

قد يتوهم البعض أننا وبقبولنا للمعجزات يجب أن نضرب أصل العلية عرض الحائط، وان نسلّم بإمكان صدور المعلول بلا علة، إلّا أن هذا المعنى غير مقبول لدى أي عالم ومفكر.

ومن الواضح أن أصل العلية لا ينحصر في الأصول البديهية للعلوم البشرية، بل يمتد ليعدّ في الفلسفة أيضاً من المسائل البديهية، وذلك لعدم إمكان وجود أيّة حادثه بلا علية، والقائلون بالمعجزة لا ينكرون هذا الأصل البديهي والمسلّم به.

وبناءً على هذا فللمعجزات علل وأسباب حتماً خلافاً لهذا التوهم، ويحتمل أن تكون هذه العلة أمراً ميتافيزيقياً أي ما وراء عالم الطبيعة (وذلك لعدم انحصار الوجود بعالم المادة والطبيعة فقط)، بل يمكن أن تكون علمة طبيعية إلّا أنها غير مكتشفة، أي تلك العلة التي يستحيل لأفراد البشر إدراكها دون الاتكاء على علم وقدرة الخالق، وبهذا فكلمة وصل إنسان ما لهذا العامل الطبيعي والمجهول في نفس الوقت، لاستنتاجنا اتكاءه على قدرة إلهية.

ومعجزات الأنبياء عليهم السلام يمكن أن تكون من النوع الأول أو الثاني، وذلك لتساويهما في إثبات ارتباطهما بالله.

وقد اعتمد القرآن في موارد كثيرة على قانون العلية وتقبله كأصل مسلّم به، سواء فيما يتعلّق بعالم الطبيعة والخلق أو ب حياة الإنسان الاجتماعية أو حتى بالحياة الشخصية لكل فرد، وهناك ما لا يعدّ ولا يحصى من الآيات الشريفة حول هذا الموضوع، وطبقاً لهذا فلا يمكن القول بأن المعجزات معاليل بلا علة.

(د) المعجزة لا تزلزل أسس التوحيد ومعرفة الله

قد يتوهم البعض ويقول: لقد عرفنا الله من خلال نظام عالم الخلق الثابت، فلو أمكن زلزلة هذا النظام عن طريق المعجزات، لتزلزل أسس التوحيد ومعرفة الله، إنكم تريدون

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٣٤

إثبات النبوة بواسطة المعجزات، وفاتكم أنكم إنما تهدمون بذلك أسس التوحيد.

وعلى حدّ قول البعض الآخر: إن النظام الإلهي ليس العوبة بيد المتلاعبين، يحزّ كونه كيفما شاءوا وأمثال ذلك.

والحقيقة أن الذين يدعون بمثل هذا هم من المتغربين الماديين، الذين توهموا أن إنكارهم للمعجزات هذا، سيلفت أنظار المفكرين الغربيين إليهم، حتى الماديين منهم، مع كون هذا الكلام خطأ محض بسبب:

أولاً: كما تقدم سابقاً أنه لا شك لأحد في «أصالة» و «عمومية» قانون العلية، كما أن تفسير المعجزة ب «المعلول بلا علة» خطأ فادح، وغياب مسير العلل العادية استثناءً بمثال محدود واحد أو أكثر، لا يחדش في نظام الكون أبداً، لأن ما يتجسد أمامنا كل ساعة من الآلاف المؤلفة من مصاديقه لا يمكن أن يترزل بحالة استثنائية تحدث بالسنة مرة مثلاً فضلاً عن كون حصول ذلك الاستثناء لإثبات هدف أكبر، نعم لو حدث كل يوم آلاف الآلاف من المعاجز لكان هناك مجال لتردد البعض في أصل وجود نظام الكون.

ثانياً: لم يدع أحد أن نظام الله هو العوبة، أو أن الأنبياء عليهم السلام يتصرفون به كما يحلو لهم، بل الذي نقوله هو أن الأنبياء عليهم السلام إنما يظهرون أمراً خارقاً للعادة بأمر من الله، ليثبتوا ارتباطهم بعالم ما وراء الطبيعة، مع اكتفائهم بالحد الأدنى من المعاجز، وعدم استعدادهم لتقبل المعجزات المقترحة (المعجزات التي تقترح من قبل ذوى الحجج والشكوك الباطلة).

وهناك العديد من الآيات القرآنية التي تشير إلى هذا المعنى، والتي سنتكلم عنها بالتفصيل إن شاء الله عند عرضنا لمنطق «المخالفين للمعجزات».

هـ) فرق المعجزة عن النبوغ

لقد اتضح عدم وجود أى شبه بين المعجزة وعمل النبوغ، إذ إن المعجزة هي العمل الخارج أساساً عن قدرة الإنسان، في حين من الممكن أن يظهر أمام كل نابغة شخص مثله

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٣٥

ليقبله بالمثل، فضلاً عن أن أعمال النبوغ محدودة بحدود معينة على الدوام، فأحدهم يبرز مثلاً في الأدبيات والآخر في الفن والثالث في الرياضيات والرابع في الصناعة و...، أما إعجاز الأنبياء عليهم السلام فلا يحده إطار معين.

وبعبارة أخرى فأهل النبوغ إنما يؤدون ما يعلمون لا ما يطلبه الناس منهم، في حين أن معجزات الأنبياء تتم طبقاً لمراد الناس (وهم أتباع الحقيقة طبعاً، لا من يبحث عن الحجج والذرائع).

بالإضافة إلى قيام النبوغ عادةً بتنمية قدراتهم الباطنية عن طريق التربية والتعليم، وعجزهم عن أداء أى شىء مع غياب التعلم المستمر والتمرين المتواصل، في حين أن هذا لا يصدق في حق الأنبياء عليهم السلام.

و) هل أن المعجزات عمل إلهي أو نتيجة قوة نفوس الأنبياء؟

طبقاً لما قلناه سابقاً، فالأمور الصادرة من النبوغ أو إرادة الإنسان القويّة أو النفوس السامية، هي أمور محدّدة ومشخصّة، وبالإمكان العثور على نظير ذلك الشىء عند باقى البشر، في حين أن المعجزات غير محدودة وغير قابلة للمعارضه، كما أنه لا يمكن العثور على أمثالها في غير الأنبياء والأئمة عليهم السلام.

أما حديثنا فيدور حول المعجزة، وهل أنها من عند الله وأن دور الأنبياء يقتصر على الدعاء والطلب فحسب، أم أن الله يمنح نفوس الأنبياء وإرادتهم قوة تمكنهم من أداء هذه الأعمال الخارقة للعادة بإذنه تعالى؟

لا شك أن بعضاً من المعجزات كالقرآن المجيد هو عمل الله وكلامه، والحديث هنا عن معجزات أخرى كمعجزة عصا موسى عليه السلام واليد البيضاء، ومعجزات المسيح عليه السلام فيما يتعلق بإحياء الموتى وشفاء المرضى.

وكلا الاحتمالين ممكنان بنظر العقل، أى أنه لا مانع أبداً في أن تتحقق المعجزة من قبل

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٣٦

الله ودعاء النبي وطلبه، أو أن يمنح الله مثل هذه القدرة لنفوس الأنبياء، ولا منافاة لأى منهما مع أصل التوحيد وإسناد المعجزات إلى الله.

كما أن هناك اختلافاً بين ظواهر آيات القرآن أيضاً، يقول تعالى فيما يتعلق بإحياء الموتى من قبل المسيح عليه السلام: «وَأُخِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ» إذ إنه نسب إحياء الموتى هنا إلى نفسه.

في حين أنه يقول تعالى فيما يتعلّق بخلق الطير: «فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ». (آل عمران / ٤٩)
فالاولى تبين أن بعضاً من المعجزات يكون من عمل الأنبياء عليهم السلام بأمر من الله، والثانية تدلّ على أن البعض الآخر هو من عمل الله، وكما قلنا فكلاهما يعودان في خاتمة المطاف إلى الإرادة الإلهية ولا منافاة لأى منهما أبداً مع أصل التوحيد.
فهل أن الدواء الشافي بإذن الله يتنافى وأصل التوحيد؟

من البديهي أنه لا مانع أبداً في أن تؤثر إرادة شخص النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في إحياء الموتى وشفاء المرضى بإذن الله، وقد فات المصيرين على نفى هذا المعنى، تلك الحقيقة وهي أن تأثير كل شيء إنما هو بإذن الله وهذا هو عين التوحيد.

٢- العلاقة بين الإعجاز والنبوة

هناك كلام بين العلماء فيما يتعلّق بكيفية دلالة المعجزة على نبوة صاحبها، أى كيف ثبت أن المعارف والقوانين والأحكام التي جاء بها هي وحي إلهي؟:

قال البعض: إن دلالة المعجزة على هذا المعنى هي دلالة عقلية، في حين رجح الكثير منهم كونها دلالة وضعية.
بيان ذلك: قد يتصوّر أحياناً أداء عمل خارق للعادة لا يمكنه أساساً أن يكون دليلاً على صدق مدعى النبوة، إذ لا مانع من قيام شخص بمعجزة ما مع عدم كونه نبياً، فلو أن أحداً

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٣٧

كان خطأً ماهراً، فهل يدلّ هذا على ضرورة كونه عالماً متبحراً أيضاً؟!

لكن هناك ملاحظة لم ينتبه لها أصحاب هذا الكلام، ألا وهي أن الأمر الخارق للعادة الصادر من العلماء المتبحرين لا يُعدّ معجزة والذي يفوق قدرة الإنسان، أى المستند على خصوص القوة الإلهية.

هل يمكن أن يضع الله أمراً خارقاً للعادة، خارجاً عن عهدة البشر، تحت تصرف مدّع كذاب ليُضللّ عباده؟ هل ينسجم هذا المعنى مع حكمه الله؟ هذا يشبه تماماً ادعاء أحد بآتى وكيل للشخص الفلاني إليكم، ويستدلّ على ذلك بالخاتم الخاص الذي في يده، والذي يعود إلى ذلك الشخص، مع علم صاحب الخاتم بذلك.

لا شك في كون هذا الأمر دليلاً على قبوله ورضاه، وإلا فمن المستحيل أن يسكت على عمل كهذا.

وهذا هو ما بينه القرآن فيما يتعلّق بنبي الإسلام صلى الله عليه وآله في الآيات: «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ». (الحاقة / ٤٤-٤٦)

إشارة إلى أن نبي الإسلام صلى الله عليه وآله ومع امتلاكه لتلك المعجزات، لو انحرف عن الحقّ ونسب إلى الله كلاماً مخالفاً، لاستلزمت الحكمة الإلهية عدم إمهاله ولو لحظة واحدة ولأهلكته في الحال.

من الطبيعي أن المدّعين للنبوة كذباً كانوا ولا زالوا كثيرين في العالم، ولا داعي لأن يهلك الله أحداً لمجرد ادعائه النبوة كذباً، هذا الكلام إنما يصدق في حقّ اولئك الذين لديهم معجزة، إذ إنهم لو كذبوا على الله لما أمهلهم أبداً باعتباره اغراء بالجهل.

الجواب الآخر عن هذا السؤال هو أن الأنبياء عليهم السلام كانوا يدعون أن الرسالة إنما تعطى لهم عن طريق الوحي، سواء كان الوحي نازلاً عليهم مباشرة، أو عن طريق نزول الملائكة، أيّاً كان فهو أمر خارق للعادة غير مشابه لإدراكات الإنسان الاعتيادية، وحتماً فإن هناك نوعاً من السيطرة على عالم ما وراء الطبيعة في نفوس الأنبياء.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٣٨

ومن هنا كان المخالفون يستشكلون على الأنبياء بأنكم بشر مثلنا فكيف تمكثتم من الارتباط بما وراء الطبيعة؟ ولذا فقد توسّلوا

بالمعجزات لإثبات تفاوتهم مع الآخرين «١».

ومع أن كلا الجوابين مناسبان وفي نفس الوقت لا تنافى بينهما، فالأول يبدو وكأنه أوضح من الثاني.

٣- الاختلاف بين معجزات الأنبياء عليهم السلام

من المعلوم أن معجزات الأنبياء الإلهيين كانت متفاوتة ومتنوعة كثيراً، فهل ياترى أن هذا الأمر كان من قبيل الصدفة؟ أم أن هناك فلسفة ما وراء ذلك.

إن احتمال الصدفة بعيد جداً، والظاهر هو أن الله الحكيم قد وضع معجزات الأنبياء بشكل بحيث تترك كل واحدة منها أكبر الأثر، قياساً بالظروف الزمانية والمكانية لكل نبي على حده.

فمثلاً حينما نجد أن القرآن يُعتبر أكبر معجزة لنبي الإسلام صلى الله عليه وآله، فإن ذلك بسبب:

أولاً: أن نبي الإسلام صلى الله عليه وآله مبعوث إلى كل البشرية وإلى أبد الدهر، ومن هنا فلا بد والحالة هذه أن يأتي بمعجزة خالدة لا تفقد دورها بمرور الأيام.

ثانياً: أنه صلى الله عليه وآله كان امياً، فمجيئه بمثل كتاب القرآن يعدّ من أرفع مراتب الإعجاز.

ثالثاً: إنحطاط المستوى الفكرى لبيئة الجاهلية مع رفعة مضامين القرآن، وهذا قرينة واضحة أخرى.

مضافاً إلى ذلك نجد أن أدبيات العرب وعلى اختلاف أفكارهم ومعارفهم كانت في ذلك الزمان قد بلغت الذروة، إذ كان لهم شعراء فحول وخطباء يضرب بهم المثل، وبالإمكان الوقوف على نماذج منها في الشعر الجاهلي. فحينما يستسلم مثل هؤلاء أمام فصاحة وبلاغة القرآن، تتجلى هذه المعجزة بشكل أوضح.

(١) تفسير الميزان، ج ١، ص ٨٦، ذيل الآية ٢٣ من سورة البقرة (باقتباس).

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٣٩

وهكذا بالنسبة لمعجزة سليمان عليه السلام في مسألة تسخير الرياح والشياطين، ومعرفة منطق الطير كانت متناسبة مع اتساع رقعة ملكه وحكومته، نظراً لتجاوز حدود مملكته لعالم البشرية.

هذا الكلام يمكننا استنتاجه بوضوح من قول الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام في معرض جوابه عن سؤال «ابن السكيت» (العالم المعروف بأدبيات العرب).

حينما سأل «ابن السكيت»: لماذا بعث الله موسى بن عمران بيده البيضاء والعصا وآلة السحر، وبعث عيسى بالطب، وبعث محمداً صلى الله عليه وآله بالكلام والخطب؟

قال الإمام عليه السلام: «إن الله تبارك وتعالى لما بعث موسى كان الغالب على أهل عصره السحر، فآتاهم من عند الله بما لم يكن في وسع القوم مثله، وبما أبطل به سحرهم وأثبت به الحجّة عليهم.

وأن الله بعث عيسى في وقت ظهرت فيه العاهات واحتاج الناس إلى الطب، فآتاهم من عند الله بما لم يكن عندهم مثله، إذ أحيا لهم الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص بإذن الله، وأثبت به الحجّة عليهم، (طبعاً كانت مهنة الطب والطبابة رائجة كثيراً).

وإن الله بعث محمداً صلى الله عليه وآله في وقت كان الغالب على أهل عصره الخطب والكلام، فآتاهم من كتاب الله ومواعظه وأحكامه ما أبطل به قولهم، وأثبت الحجّة عليهم.

فحينما سمع ابن السكيت هذا الكلام قال: «تالله ما رأيت مثل اليوم قطّ» أو «تالله ما رأيت مثلك اليوم قطّ» «١».

٤- السحر لا يضاهاى المعجزة

وهنا يرد سؤال مهم آخر كان قد تجسّد في كلمات العلماء منذ قديم الأيام، وهو أنه كثيراً ما يشاهد أنّ أشخاصاً حتّى من الكفّار قد نالوا قسطاً من خوارق العادات نتيجة للرياضات

(١) بحار الأنوار، ج ١١، ص ٧٠ (باب علّة المعجزة، ح ١).

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٤٠

الشاقّة ومقاومة ميول النفس والتمارين الصعبة للغاية، وبالخصوص بين مرتاضى الهند، وهناك نماذج مختلفة منها في كتب العلماء والصحف اليومية، وهي بكثرة بحيث لا يمكن إنكارها، بل إنّ أصعب الناس تصديقاً حينما يرى هذه المواقف يدعن بإمكان صدور الامور الخارقة للعادة من أفراد لا يمتّون للدين بصلّة.

والآن يثار هذا السؤال: وهو أنّه كيف يمكننا التمييز بين خوارق العادات هذه وبين معجزات الأنبياء؟ ولو كان هناك تفاوتاً بينهما فما هو؟ ألاّ يحتمل أن تكون معجزة النبي من قبيل خوارق العادات لدى المرتاضين أيضاً؟

الجواب: ينبغي أوّلًا تقديم تعريف مختصر عن «السحر» فهناك أبحاث موسّعة عن ماهية السحر وتاريخ ظهوره، إذ من الصعب تحديده بتاريخ معيّن، لكن يمكن القول: إنّ السحر يعنى في الأصل كلّ أمر لا يعرف مصدره، ويطلقونه عادةً على الامور الخارقة للعادة التي تتم بطرق معيّنّة، والهدف منه هو إغفال الناس وخداعهم.

كما ويتوسّلون أحياناً بالعوامل التلقينية أى إنّهم يعكسون أمام أنظار العوام مسائل لا حقيقة لها، بالتلقينات القويّة والمؤثّرة، ويستفيدون أحياناً من المهارة والخدعة، وهي ما يصطلح عليها ب «الشعوذة»، وهكذا يشغلون الناظر بأشياء معيّنّة ثمّ يحركون الأشياء عن مواضعها بسرعة ومهارة بحيث لا يلتفت إليها الناظر بل يظنّها خرقاً للعادة.

كما ويستعينون أحياناً بالخواصّ الفيزيائية والكيميائية المجهولة لبعض الأجسام، أو الامور المرتبطة بكيفية صدور النور من زوايا مختلفة، بحيث يرى الناظر أمامه اموراً خارقة للعادة لا يعلم بأسرارها.

وأخيراً تلك الامور الخارقة للعادة عن طريق الارتباط بالأرواح والإستعانة بالشياطين، وهذه كلّها تندرج تحت المفهوم اللغوي الجامع لكلمة «السحر».

كما يمكن اعتبار أعمال المرتاضين التي يؤدّونها عن طريق التمارين الشاقّة، وتمركز القوى الروحية والبدنية ضرباً من «السحر» أيضاً، وإن كانت تعدّ أحياناً خرقاً للعادة في قبال السحر.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٤١

على أيّة حال فأداء هذه الامور من قبل البعض لا يمكن إنكاره، لكن الشىء المهمّ هو الوقوف على مميّزات كلّ من «المعجزات» و «السحر وخرق المرتاضين للعادات»، ليتبيّن الفرق بينهما بالكامل.

وهنا نواجه بعض الاختلافات البارزة:

١- المعجزة مستندة على القوّة الإلهية في حين أنّ سحر السحرة وخرق المرتاضين للعادات ينبعان من القوّة البشرية، ولذا فالمعجزات عظيمة جدّاً وغير محدودة، بعكس السحر وخرق العادات المحدودين.

وبعبارة اخرى، فالسحرة والمرتاوضون على استعداد لأداء تلك الامور التي تمرّون عليها لا غير، دون التي تقترح عليهم، ولم يحدث إلى الآن أن عبّر السحرة أو المرتاضون عن استعدادهم لأداء ما يشير إليه الآخرون، وذلك لتدرب كلّ واحد منهم على نوع معيّن.

صحيح أن الأنبياء عليهم السلام كانوا يبادرون إلى إظهار المعجزات حتى قبل أن يطالبهم بها الناس، (كالقرآن بالنسبة لنبى الإسلام صلى الله عليه وآله، ومعجزة عصا موسى ويده البيضاء، وإحياء المسيح للموتى) لكنهم مع ذلك لم يعجزوا عن إجابة إقتراحات الامم عليهم، كمسألة شق القمر، أو رفع الفتن والبلايا عن الفراعنة، أو نزول مائدة سماوية للحواريين، وأمثال ذلك (طبعاً على شرط كون ذلك بدافع الكشف عن الحقيقة لا التعنت).

ولذا نجد في قصيدة موسى عليه السلام أن الفراعنة طلبوا منه مزيداً من الوقت لجمع السحرة وترتيب مقدمات العمل، وذلك تحت عنوان: «فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ آتُوا صِدْقًا». (طه / ٦٤) فى حين أن موسى كان فى غنى عن مثل هذه المقدمات، كما أنه لم يطلب منهم اعطائه الفرصة للتفكير فى كيفية مقاومة السحرة، حتى بعد اطلاعه على سحرهم، وذلك لاعتماده على القدرة الإلهية واعتماد السحرة على القدرة البشرية المحدودة.

ومن هنا فالخرق البشرى للعادات قابل للمواجهة والمقابلة بالمثل، وبإمكان الآخرين الإتيان بمثله، ولنفس هذا السبب أيضاً لا يجرو من يأتي بهذا العمل على «التحدى» أى الدعوة للمقابلة والإدعاء بعجز الكل عن أداء ما يؤديه، فى حين أن المعجزات كانت مرفقة نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٤٢

بالتحدى دائماً، وذلك لعجز أى إنسان عن الإتيان بمثله أبداً (إعتماداً على القوة البشرية)، فقد أمر الله تعالى نبى الإسلام صلى الله عليه وآله أن يجيبهم بهذه الآية: «قُلْ لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لآياتون بمثله...». (الإسراء / ٨٨) ومن هنا أيضاً فسرعان ما تقهر الخوارق البشرية أمام المعجزات، ولا يستطيع السحر الوقوف أمام المعجزة أبداً لعجزه عنها، بالضبط كعجز أى إنسان عن الوقوف أمام الخالق.

المثال الواضح لهذه المسألة فى القرآن الكريم قصة موسى وفرعون، إذ إنهم جمعوا كل السحرة من مختلف اصقاع مصر، وأخذوا قسطاً وافراً من الوقت لترتيب مقدمات إبداء السحر، وقاموا برسم الخطط لذلك، لكنهم ما لبثوا أن تقهقروا فى لحظة واحدة أمام إعجاز موسى وأضحى سحرهم كسراب ببيعة.

٢- نظراً لكون المعجزات من قبل الله فهى غنية عن التدريب والتعليم الخاصين، فى حين أن السحر ورياضات المتراضين مسبوقه دائماً بنوع من التدريب والتمارين المستمرة، إلى درجة أن التلميذ لو لم يتقن تعليمات استاذة لاحتمل عجزه عن أداء ذلك أمام الناس وافتضاحه فى خاتمة المطاف.

وبعبارة اخرى يمكن للمعجزة أن تتحقق فى لحظة واحدة وبدون أية مقدمات، فى حين أن الخوارق الاخرى للعادات عبارة عن تلك الامور التدريجية التى تحصل الإحاطة بها والسيطرة عليها بمرور الأيام، بل السنوات والتى لا يمكنها الظهور بشكل دفعى فجائى أبداً. وقد تمت الإشارة فى قصة موسى وفرعون إلى هذه المسألة أيضاً، حيث يتهم فرعون السحرة بكونهم تلامذة موسى عليه السلام، وأنه استاذهم الذى أطلعهم على أسرار السحر: «إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ». (طه / ٧١) ومن هنا يحدث أحياناً أن يستغرق السحرة عدة أشهر وسنين فى تعليم تلاميذهم وتدريبهم.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٤٣

٣- أحوال صاحب المعجزة دليل على صدقه، الطريق الآخر لتمييز المعجزات عن خوارق العادات البشرية هو المقارنه بين حالات أصحابها، فأصحاب المعجزات مبعوثون من قبل الله لهداية الناس، ولذا نراهم متصفين بأوصاف تتناسب ودورهم هذا، فى حين أن السحرة والكهنة والمتراضين لا يهدفون إلى هداية الناس، ولا يتكفلون بمتابعة مثل هذه الأهداف، بل ينحصر هدفهم عادةً فى واحد من الامور الثلاثة التالية:

١- إستغلال البسطاء من الناس.

٢- كسب الشهرة بين عامة الناس.

٣- المكاسب المادية التي تجنى عن طريق إشغال الناس وإلهائهم.

وحيثما ينزل هذان الفريقان (الأنبياء، والسحرة وأمثالهم) إلى الميدان لا يتمكّنون أبداً من كتمان امنياتهم وأهدافهم مدّة طويلة، بالضبط كما طلب السحرة وقبل نزولهم للميدان أجراً عظيماً من فرعون، وقد وافق على ذلك: «قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ* قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ». (الأعراف/ ١١٣-١١٤)

في حين أنّ الأنبياء يكرّرون دائماً القول: «وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ». (الشعراء/ ١٠٩) (وقد ورد هذا التعبير في حقّ الكثير من الأنبياء في العديد من الآيات).

ووقوف السحرة في خدمة فرعون يكفى بنفسه للتمييز بين «السحر» و «المعجزة».

ولا يخفى أنّ حقيقة الإنسان لا بدّ وأن تنعكس من خلال تصرّفاته، وإن أجاد في كتمان أفكاره وأهدافه.

خلاصة القول هي أنّ الوقوف على بدايات حياة أمثال هؤلاء الأشخاص وكيفية استفادتهم من خرقهم للعادات التي يؤدونها، مع الأخذ بنظر الاعتبار مكانة أمثالهم بين مختلف شرائح المجتمع، بالإضافة إلى نوعية تصرّفاتهم وأخلاقهم، يمكنها بمجموعها أن تكون دليلاً حسناً لتمييز «السحر» عن «المعجزة»، ومع غض النظر عن موارد الأخلاق الأخرى التي ذكرت، نجد أنّ من السهل تشخيص المعجزات عن السحر وبقيّة خوارق العادات من خلال هذا السبيل.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٤٤

وقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة بتعابير دقيقة، إذ يقول في موضع: «قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السُّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِلُّ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ». (يونس / ٨١)

أجل فالسحرة أشخاص مفسدون ذوو أعمال باطلة، ومن الواضح أنّ أعمالاً كهذه لا يمكنها أبداً أن تكون لها حيثية إيجابية في المجتمع.

وفي موضع آخر حينما يخاطب الله تعالى موسى يقول: «لَاتَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ» ثم يضيف: «وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَبَّحُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ». (طه / ٦٨-٦٩)

نعم، فعمل الساحر مكر وخديعة، ولا بدّ لميوله النفسية أن تتلاءم وعمله هذا، إنهم أشخاص متقلّبون مخادعون، كما يسهل تشخيصهم بسرعة من خلال صفاتهم وتصرّفاتهم، في حين أنّ إخلاص وصدق وصفاء الأنبياء عليهم السلام دليل مقرون بإعجازهم أضفى عليهم المزيد من الجلاء والوضوح (١).

٥- منطق منكري الإعجاز

يتشبّه منكرو الإعجاز في بعض الأحيان بدلائل عقلية ظاهرية، وقد ذكرنا فيما سبق نماذج لها وأجبنا عليها، كما تمسك البعض أيضاً بقسم من آيات القرآن ظناً منه بنفيها لمسألة معجزة الأنبياء، خصوصاً معجزة نبي الإسلام صلى الله عليه وآله، أو إنكارها للمعجزات من غير القرآن، وأهم الآيات التي تمسكوا بها أو التي يحتمل البحث فيها هي الآيات التالية:

١- نقرأ في سورة الإسراء: «وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا* أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا* أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا لِسَاءً (قطعاً) أَوْ تَأْتِيَنَا بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا* أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْفَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي (من هذا

(١) ورد نظير هذا المعنى في سورة يونس الآية ٧٧.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٤٥

الكلام الفارغ) هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا». (الإسراء / ٩٠-٩٣)

وكما نلاحظ فنبى الإسلام صلى الله عليه و آله لم يستجب أبداً لواحدة من خوارق العادات والمعجزات التي طلبها هذا الفريق من مشركى قريش، بل اقتصر جوابه على القول: «سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا».

٢- كما ونقرأ فى نفس هذه السورة: «وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ». (الإسراء / ٥٩)

إذ إن هذه الآية أيضاً تبين أن الله لم يعط المعجزة لنبي الإسلام صلى الله عليه و آله وذلك لأجل تكذيب الأولين بالآيات الإلهية!

٣- وجاء فى سورة هود: «فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صِدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ». (هود / ١٢)

هذه الآية كالاولى أيضاً التي تقول فى قبال طلب الكفار: «إنما أنت نذير».

٤- وجاء فى سورة الرعد أيضاً: «وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا آيَةٌ مِنْ رَبِّنَا إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ». (الرعد / ٧)

ألا تصرح هذه الآيات بعدم استجابة النبي الأكرم صلى الله عليه و آله لطلباتهم بشأن الاتيان بالمعجزة؟

٥- ونقرأ فى سورة الأنعام أيضاً: «وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ». (الأنعام / ٣٧)

يقول المفسر الكبير المرحوم أمين الإسلام الطبرسى فى ذيل هذه الآية: وقد اعترض جمع من الملاحدة على المسلمين بهذه الآية فقالوا: إنها تدل على أن الله تعالى لم ينزل على محمد آية، إذ لو نزلها لذكرها عند سؤال المشركين إياها (ثم يتعرض بعد ذلك للرد على هذه الشبهة وهو ما سنشير إليه فيما بعد).

يتضح من كلام هذا المحقق أن مثل هذه الوسوس حول المعجزات كانت منذ قديم الأيام، ولم تقتصر على عصرنا هذا.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٤٦

كما أن هنالك عدّة روايات ذكرت حول هذا الموضوع، لكن ضعف استدلالها دفعنا لغض الطرف عنها.

الجواب:

الإلتفات إلى بعض الملاحظات يكفى لتوضيح تفسير هذه الآيات، كما ويضع نهاية لهذه الحجج أيضاً.

١- من الواضح أن أيّاً من هذه الآيات لا ينفي المعجزات بشكل مطلق، وعلى فرض دلالتها على ما توهمه المستدلون فهي لا تتعدى أكثر من نفى المعجزة عن نبي الإسلام فحسب، فضلاً عن بداهة عدم نفيها لمعجزة القرآن، وذلك لأن الكثير من آيات القرآن قد اعتبرت هذا الكتاب السماوى معجزة خالدة، كما ودعت كل المخالفين للمنازلة، لكنهم عجزوا عن مقابلتها، فأية معجزة أكبر وأرفع من دعوة الإنس والجن للمقابلة وعجزهم عن ذلك «١».

وبناءً على هذا فعلى فرض صحته كل هذه الاستدلالات ستنحصر معجزة نبي الإسلام صلى الله عليه و آله بالقرآن المجيد، وهذه المسألة (وعلى فرض صحتها) لا تخدش فى مسألة نبوة نبي الإسلام صلى الله عليه و آله، كما أنها لن تخدم مخالفى النبوة بأى وجه.

آيات القرآن مليئة بمعجزات الأنبياء السابقين وخرقهم للعادات، وبهذا فمعجزاتهم هى ممّا لا يمكن إنكاره، أمّا فيما يتعلق بنبي الإسلام صلى الله عليه و آله فأنها تصرح بإعجاز القرآن، وهكذا لن يبقى سوى نفى باقى المعجزات عن نبي الإسلام صلى الله عليه و آله، وهذا على فرض صحته لا يؤثر فى المسائل الإعتقادية باعتباره مسألة فرعية وتاريخية لا غير.

٢- لسان هذه الآيات يكشف عن أن الهدف ليس نفى المعجزات الحقيقية بل الإقتراحية.

بيان ذلك: إن الواجب على كل الأنبياء هو إثبات صدق دعواهم عن طريق المعجزات أو

(١) راجع الآيات يونس، ٣٨ وهود، ١٣ والإسراء، ٨٨.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٤٧

طرق اخرى، وبناءً على هذا فكُلَّمَا جاءوا بالمعجزة بما فيه الكفاية لم يبق هناك دافع يدفعهم لإظهار المزيد من المعجزات، إذ إن مهمة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لم تكن خرق العادة فقط، ليجلس في زاوية ويقترح عليه كل شخص معجزة طبقاً لهواه، ثم يقترح اخرى بعد مشاهدتها لو طاب له ذلك ويعبث بقوانين الخلق، وبعد كل هذا أيضاً فإنما أن يدعن لدعوة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أو يرفضها لو لم يرغب فيها.

وبعبارة اخرى، فالنبي مكلف بإبداء المعجزات لطالبي الحق، بما يكفي لإقامة الحجة وليس مسؤولاً أبداً للاستجابة للمعجزات الإقتراحية التي يثيرها المتذرعون طبقاً لأهوائهم، لا لتحقيق الحق، بل للحصول على منفذ يخلصهم من الحقيقة. الإقتراحات التي ذكرت في أول آية دليل واضح على هذا الموضوع، فهم من جهة قد طلبوا سبع معجزات! مع أن واحده تكفي للباحث عن الحقيقة.

وطلبوا من جهة اخرى معجزات يكمن فيها فناؤهم، إذ قالوا مثلاً: «أَوْ تُسَيِّقُ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَافًا»، ومن الواضح أن طالب الحقيقة لا يطلب تلك المعجزة التي فيها فناؤه أبداً، إذ الهدف من المعجزة هو الإيمان لا الموت والفناء. ومن جهة ثالثة فقد طلبوا المحال، كاقتراحهم مثلاً نزول الله والملائكة عليهم: «أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا»، وعدم وجود الله في مكان معين ليتركه ويأتي إلى هؤلاء المتعللين هو ممّا لا يخفى.

ومن جهة رابعة نراهم يصرحون بعد طلبهم للمعجزة المقترحة بأنهم لا يؤمنون به، حتى تؤدى العمل الفلاني الآخر أيضاً: «أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِزَيْتِكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا (من الله) نَقْرُؤُهُ».

ومع الأخذ بنظر الإعتبار لما تقدم نفهم بوضوح أن هدفهم لم يكن سوى المعجزات الإقتراحية، وليس هناك أى نبي يستجيب لمثل هذه الطلبات.

اللطيف هو ما نقرأه في الكثير من الحوادث التاريخية المرتبطة بعصر ظهور الأنبياء، خصوصاً نبي الإسلام صلى الله عليه وآله أن الكفار وبعد مشاهدتهم للمعجزات نراهم يتوسلون بذريعة

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٤٨

كونها سحراً، تهرباً من المسؤولية وتحاشياً للرضوخ لها، وهو ما قام به بالضبط فرعون وأتباعه أيضاً في قبال موسى عليه السلام، حيث إنهم وحتى بعد مشاهدتهم لغلبة موسى عليه السلام بمفرده على كل أولئك السحرة الماهرين المتراضين وإيمان السحرة به، والذي يدل بما لا يدع مجالاً للشك على إعجاز موسى عليه السلام، واعتماده على القدرة الإلهية، لم يتنازلوا عن كلامهم أيضاً، بل قالوا:

«إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ». (طه / ٧٠)

وكذلك يقول: «وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ (ليجبرهم على الإيمان)». (الأنعام / ١١١)

وكذلك يقول: «وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَيَأْتُوا بِهَا». (الأنعام / ٢٥)

كما يصرح وفي معرض الرد على طلبهم لمعجزات مختلفة، بالقول: «أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ». (العنكبوت / ٥١)

مفهوم هذا الكلام هو أن المعجزة يجب أن تهدف إلى إثبات حقايق دعوة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأن هذا الكتاب السماوي «القرآن» هو أفضل دليل ومعجزة، فما الداعي بعد كل هذا للإصرار على المزيد من المعجزات الواحدة تلو الاخرى؟

٣- لا- شك أن المعجزات هي من عند الله في الواقع، وأن كل ما يملكه الأنبياء منها إنما هو بإذن الله وأمره، لكن ربما يخطر على

ذهن البعض أحياناً تصوّر بأنّ الأنبياء عليهم السلام، قد أصبحوا فيما يتعلّق بالمعجزات مصداقاً لـ «فَعَالٌ لَمَّا يَشَاءُ»، وأنّهم يفعلون كلّ ما يريدونه، وهذا ما ساعد على اتّساع رقعة الغلو في الأنبياء عليهم السلام ودفع بالكثير إلى اعتبارهم كالأله، ولهذا السبب لم يستجب الرسل والأنبياء عليهم السلام الإلهيون لما يقترح عليهم من المعجزات، بل قالوا: إنّ هذا ليس من شأننا، إنّما هو منوط بإذن الله وأمره ويجب أن نعرف ما هي إرادته.

الدليل على هذا الكلام هو ما نقرأه في قوله تعالى «وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ». (الرعد / ٣٨) كما ورد نفس هذا المعنى بوضوح في قوله تعالى: «وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٤٩

جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِيُؤْمِنَنَّ بِهَا قُلْ إِنَّهَا آيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يَشْعُرُكُمْ أَنُّهَا إِذَا جَاءَتْ لَأُؤْمِنُونَ».

(الانعام / ١٠٩)

هذه الآية تكشف عن إلحاحهم في طلب المعجزات من جهة، وارتباط المعجزات بإرادة الله المطلقة من جهة أخرى. آخر ما يتعلّق بهذا الموضوع هو أنّ القرآن قد ذكر الكثير من معجزات الأنبياء السابقين وخرقهم للعادات، ومن البديهي أنّ نبي الإسلام صلى الله عليه وآله لم يتمكّن أبداً من ذكر هذه المعجزات في كتابه السماوي، ويكشف الستار عن بعضها عن طريق الوحي الإلهي، لو لم يعكس هو بنفسه جزءاً منها في وقت يعتبر نفسه خاتم الأنبياء وأفضلهم، وكون دينه دين الخلود وأفضل الأديان. كيف يقتنع الناس بامتلاك باقي الأنبياء عليهم السلام لكلّ تلك المعجزات دون نبي الإسلام صلى الله عليه وآله، مع كلّ ما يتمتّع به من منزلة وعظمة؟

هذا التحليل يبيّن أنّ لنبي الإسلام صلى الله عليه وآله بالإضافة إلى القرآن معجزات أخرى كثيرة، لم تكن أقلّ أهميّة من معجزات سالف الأنبياء عليهم السلام، وهناك أيضاً آيات قرآنية تشهد على هذا الموضوع ستأتي في محلّها إن شاء الله، وبناءً على هذا فالإصرار على نفي باقي المعجزات من قبل بعض المغفّلين لا يبدو صحيحاً بأيّ وجه.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٥١

نفحات القرآن ج ٧، ص: ٢٩٩

٢- التحقيق في مضمون دعوة الأنبياء عليهم السلام

إحدى الطرق الأخرى لمعرفة الأنبياء الإلهيين عليهم السلام هي التحقيق فيما تتضمّنه دعواتهم، أي مجموعة المعارف والأحكام والقوانين، والبرامج الإنسانية والأخلاقية البناءة التي يدعون إليها.

وستتكلّم عن هذه المسألة بالتفصيل في بحث النبوة الخاصّة، أي إثبات نبوة نبي الإسلام صلى الله عليه وآله كمثال على ذلك، إذ حينما تتأمّل في تعاليمه بدقّة نجدها وبالرغم من ظهوره في محيط يفتقر إلى كلّ أنواع الحضارة الإنسانية بين قوم نصف متوحشين غارقين في الخرافات والعادات الجاهلية، تمزّقهم الخلافات الكثيرة والعقائد السخيفة والكثير من الأحقاد والعداوات، نعم، وبالرغم من كلّ ذلك نجد أنّ تعاليم الدين الإسلامي عبارة عن مجموعة من العقائد التوحيدية الخالصة الحاوية على أفضل المعلومات عن الله وصفاته الجلالية والجمالية، والعديد من تواريخ الأنبياء عليهم السلام المذكورة بما يتناسب ورفعته منزلتهم بالإضافة إلى الأحكام والقوانين المتضمّنة للعدالة الاجتماعية، والبرامج العارية عن أوام الخرافات والأخلاق والقيم التي تعدّ بحقّ متممة لمكارم الأخلاق، ونظير هذه المسائل هو ما سنتطرق لشرحه مستدلّين بالآيات والروايات.

فهل بالإمكان ظهور مثل هذه التعاليم في مثل تلك البيئّة ومن إنسان أمّي؟ أليس هذا بنفسه خير دليل على صدق من جاء بها؟ ويكفي صدق نظير هذا المعنى لوحده في حقّ كلّ واحد من الأنبياء والأئمّة عليهم السلام للتدليل على صدقهم أيضاً، وبعبارة أخرى:

هل هناك معجزة أكبر من ظهور مثل تلك التعاليم من البشر؟ إن استحالة هذه المسألة بدون إمداد إلهي لا تخفى على أحد، فهي المعجزة بعينها.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٥٢

بل التحقيق في مضمون دعوة الأنبياء ونكاتها الدقيقة، وروعه إرشاداتهم يعدّ أحياناً عند أهل النظر والمعرفة أرفع درجة من المعجزات من قبيل شق القمر وإحياء الموتى وإشفاء المرضى، وإن كانت المعجزات المادية والحسيّة أهمّ عند عامّة الناس، وسنكتفى بهذه الخلاصة حول هذا البحث، ونترقب شرحه في مكان آخر.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٥٣

٣- جمع القرائن

إشارة

المراد بـ «جمع القرائن» الذي نطرحه هنا باعتباره أحد أدلّة النبوة هو كون دعوة كلّ نبي مقرونه بسلسلة من الاوضاع الزمانية والمكانية، والحيثيات الاخرى المحيطة بحياته الخاصية والعامية، فتشكّل بمجموعها عاملاً قوياً يدلّل على صدق مدّعى النبوة (مع قطع النظر عن مضمون دينه والذي تمّت الإشارة إليه سابقاً).

وهذا هو ما يستفاد منه اليوم في المحافل القضائية، للكشف عن الحقيقة عند عدم وجود الشهود وعدم إقرار أو اعتراف المتّهم، بل يتيقّن القاضى من سلسلة القرائن التي تحفّ بالواقعة ببراءة المتّهم أو إدانته، وقد تفوق هذه القرائن بمجموعها الإقرار وشهادة الشهود من حيث الأهميّة في بعض الأحيان، نظراً لإمكان الإقرار بدافع المصلحة الشخصية كالإعتراف بالجريمة لتبرئة ساحة المجرم الحقيقي في قبال ثوره كبيرة يحصل عليها المتهم غير الواقعي سرّاً، أو أن يكون في الظاهر من ذوى الصلاح، أما سرائرهم فملوثه، في حين أنّه لو تمّ جمع القرائن بشكل صحيح وكانت بالقدر الذي يعتدّ به القاضى لكان لها دور أكبر.

فوق حادثة قتل مثلاً في مكان ما مع إنكار المتّهم أو المتّهمين وعدم وجود البيّنة، يدفع بالقاضى الفطن إلى الخوض في جمع القرائن وتسليط الضوء على امور من قبيل:

نوع العلاقة التي تربط المتّهمين بالمقتول وهل هي قائمة على الصداقة أم العداوة؟

مكان وقوع الحادثة ومميزاته ومدى انسجامه مع المتّهمين.

وكذلك زمان وقوع الحادثة والمكان الذي كان فيه المتّهم حينها (وما هو الدليل على ذلك).

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٥٤

كيفية القتل ونوعيه السلاح الذي استخدم في القتل، مع مقارنته بالسلاح الذي شوهد أحياناً عند المتّهم.

روحية المتّهم وسوابقه:

ومن القرائن ردود فعل المتّهم حين مشاهدة ثياب المقتول الملوّثة بالدماء أو باقى آثار الجريمة، وإفادات الجيران وتردّد المتّهمين هناك وامور اخرى من هذا القبيل.

والتحقيق في بعض الامور الاخرى قد يدفع بالقاضى أحياناً للبتّ بانتفاء العلاقة بين المتّهم والجريمة، منها السيرة الحسنه وعدم تناقض الأجوبة وامور اخرى وبذلك يكشف عن براءة المتّهم أو كونه المجرم الحقيقي، وبإمكان القاضى إصدار حكمه النهائى على أساس يقينه وعلمه الحاصل من هذه المقدمات التي هي أقرب إلى الحسن.

هذا النوع من الاستدلال لا يختص بالمسائل القضائية، بل كثيراً ما يستند إليه العلماء لحل المشاكل التاريخية والاجتماعية العالقة، وحتى فرضيات العلوم الطبيعية، بل أن دور هذا الأسلوب لا يمكن إنكاره خصوصاً فيما يتعلق بالمسائل السياسية التي تبقى جذورها - ولأسباب لا تستحق التعليق - غامضة على الأعم الأغلب.

كما ويمكن غالباً التعرف عن هذا الطريق على الأنبياء الصادقين، وتمييزهم عن غيرهم فيما يتعلق بالمدعين للنبوّة، إذ ينبغي هنا مثلاً الالتفات إلى الأمور التالية:

- ١- ما هو وضع البيئته والاصول العقائدية والأخلاقية الحاكمة عليها، وهويّة القوم الذين ينتمى إليهم؟
 - ٢- زمان الدعوة ووضع العالم آنذاك، وماهيّة الظروف المهيمنة على محيط حياة مدعى النبوّة في ذلك الزمان.
 - ٣- الخصوصيات الأخلاقية والصفات والروحيات وسيرته من حيث التقوى والورع والأمانة.
- نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٥٥
- ٤- هل الأفراد الذين اتبعوه متصفون بالصدق والذكاء أم أنهم سفهاء لا تقوى لهم؟
 - ٥- مدى إيمانه بادعائه وحجم تضحيته وإيثاره.
 - ٦- الطرق التي يسلكها للتعجيل بتحقيق أهدافه وهل هي مشروعة، أم ظالمة وغير منطقيّة؟
 - ٧- ما هو ردّ فعله فيما يتعلق بالقبائح أو خرافات المجتمع، وهل أنه يخطط لإصلاح المجتمع أم يساوم مع مفسد المجتمع طمعاً في كرسی الحكم؟
 - ٨- مدى حبه للدنيا والمظاهر المادية والمال والمقام؟
 - ٩- ما هو موقفه من الأعداء لحظة الانتصار، وهل يتصرّف مع معارضييه بعدائه أم لا؟
 - ١٠- هل تدور شعاراته مدار المصلحة الشخصية، أم أنه يسير دائماً على اصول ثابتة بقدم راسخه؟ وقرائن اخرى.
- جميع هذه القرائن التي تحفّ بحياة المدعى العامّة والخاصّة (مع قطع النظر عن مضمون دعوته، تكون أحياناً بمثابة المشعل الوضاء الذي يكشف عن صدقه أو كذبه بكلّ وضوح دونما حاجة إلى معجزة أو دليل)، بل وأحياناً يُعتبر توفّر بعض ما تقدّم ذكره دليلاً قاطعاً على إثبات هذا المقصود، وسنتناول هذا البحث بالتفصيل في مبحث النبوّة الخاصّة لنبي الإسلام صلى الله عليه وآله إن شاء الله.
- والملفت للنظر هو ما نقرأه في العديد من الروايات في التواريخ الإسلامية عن اعتناق أشخاص لدين الله، لمجرد الوقوف على عدد من هذه القرائن، بل إن عدداً من الأعداء اللدودين غيروا مواقفهم وعادوا أصدقاء حميمين نتيجة ذلك، ولو تمّ جمع هذه الروايات لظهر منها بحث موسّع ولطيف، يعكس نور الإيمان الذي سطع من القلوب المؤمنة لمجرد اطلاعها على هذه القرائن دون البحث عن أيّة معجزة.

إرشادات القرآن حول هذين الدليلين:

إنّ آيات القرآن الكريم تعابير لطيفة حول الدليلين الأخيرين (جمع القرائن، والتحقيق نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٥٦

في مضمون الدعوة) أو على الأقل هناك إشارات بليغة إليهما من جملتها:

- ١- نقرأ في قوله تعالى «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ...».
- (الأعراف / ١٥٧)

تشير هذه الآية إلى أحد الأدلة اللاحقة أي شهادة الأنبياء السابقين من جهة، وإلى عظمة مضمون دعوة ذلك النبي من جهة اخرى،

وتذكر من جهةٍ ثالثةً قسماً من صفاته كشاهد على حقانيته.

ولا شكَّ أنَّ الدعاة غير الإلهيين إنما يهدفون إلى كبت طاقات الامة واستثمارها واستعمارها بدل السعى لتحريرها.

إنهم لا يؤيدون أبداً الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وهل يعقل صدور كل هذه المعارف الرفيعة والأحكام والقوانين والأوامر المدروسة من شخص جاهل ياترى؟

٢- تمت الإشارة إلى خمسة أوصاف من صفات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، والتي يمكنها أن تشهد على صدق دعوته، يقول

تعالى: «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ». (التوبة/ ١٢٨)

٣- تمت الإشارة في سورة (الكهف/ ٦) إلى حرص النبي الأكرم صلى الله عليه وآله الشديد على هداية المؤمنين، والذي يعدّ بنفسه

دليلاً ناطقاً على إيمانه بهذا الدين الإلهي: «فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا» (١). (الكهف/ ٦)

٤- تم التأكيد على أن النبي الأكرم كان آمياً، لما في ذلك من دور في إزالة حالة الشك والتردد التي تثار حول نبوته، يقول تعالى:

«وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ». (العنكبوت/ ٤٨)

(١) وورد نظير هذا المعنى في سورة (الشعراء/ ٣).

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٥٧

٥- وفي الآية التي بعدها تمت الإشارة إلى المبشرين بهذا الدين والمؤمنين به، يقول تعالى: «بَلْ هُوَ (القرآن) آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ

الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ». (العنكبوت/ ٤٩)

لا شكَّ أن تأكيد علماء الامة ومفكرها على شيء ما، يمكنه أن يكون دليلاً وقرينة على حقانيته.

٦- كثيراً ما نقرأ في آيات القرآن عند وصفها للأنبياء الإلهيين ونبي الإسلام صلى الله عليه وآله أنهم لم يطلبوا أجراً أبداً، ولم يفكروا

في العطايا المادية وأنهم بقوا على عهدهم هذا طول عمرهم، في حين أن المدعى كذباً لهذا الأمر سيكون ادعاؤه بلا شكّ لأمور

مادية.

من جملتها ما نقرأه في قوله تعالى «اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ» (وآثار التقوى والنزاهة ظاهرة عليهم). (يس/ ٢١)

٧- كما نجد في أكثر آيات القرآن الطبقات المسحوقة والمستضعفة، كانت في الصف الأول من الذين آمنوا بالأنبياء الإلهيين، وهذا

ما كان يطعن به الأثرياء المتكبرون غالباً.

ومن جملتها ما نقرأه في القرآن الكريم حينما استشكل فريق من الأغنياء على نبي الإسلام صلى الله عليه وآله حول هذا الموضوع إذ

أمره القرآن بعدم التخلي عن هذه التلة المؤمنة المستضعفة أبداً:

«وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا

قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا» وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ...». (الكهف/ ٢٨- ٢٩)

ولا شكَّ أن المصلحة المادية تدفع بالمدعين كذباً، وعبداء الدنيا للإلتفاف حول أهل الثراء على طول الخط.

بل نقرأ في قسم من الآيات الشريفة أن هذه الطبقة المستكبرة اعتبرت المؤمنين المستضعفين طبقة المجتمع السفلى، التي لم تثبت

وجودها وعبرت عنها ب «الأراذل»، والتدقيق في آيات القرآن يكشف عن أن الكثير منها تشير إلى هذا الدليل والذي قبله.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٥٩

٤- شهادة الأنبياء السابقين

الطريق الآخر الذي يمكن من خلاله تمييز الأنبياء عليهم السلام عن المدعين كذباً هو إخبار الأنبياء السابقين القطعية الصريحة بالنسبة

للأنبياء اللاحقين، باستثناء أول نبي إذ لا يمكن التعرّف عليه عن هذا الطريق بل لا بدّ من الرجوع إلى أحد الطرق الثلاثة التي تقدّم شرحها وهي (الإعجاز، والتحقيق في مضمون الدعوة، وجمع القرائن).

وهذا الطريق ليس بتلك السهولة التي توهمها بعض النفعيين بالرغم من كونه أسهل من سابقه، ولغرض الحصول على نتيجة قطعية غير قابلة للإنكار هنا ينبغي مراعاة الشروط الأربعة التالية:

١- إثبات «نبوة» النبي السابق الذي يخبر عنّ يأتى بعده ويذكر صفاته، بالدليل القطعي الذي لا يقبل الإنكار، ولا يعتدّ بإخباره وشهادته هذه إلا بعد إحراز نبوته بشكل تامّ مسلم به.

٢- صدور هذا الخبر عن النبي السابق يجب أن يكون قطعياً، وعلى هذا فلا يعتدّ بالأخبار الضعيفة والمشكوكه من أي مصدر كانت، بل لا يعتدّ حتّى بأخبار الكتب المعترّبة لو لم تبلغ مرتبة القطع واليقين.

٣- دلالة هذا الخبر يجب أن تكون صريحة قطعية غير قابلة للاحتمال، إذ من الخطأ التمسك بأحد شقّي الاحتمال والتكلف بتطبيقه على نبوة المدعى الجديد بتفاسير وتوجيهات، بل وحتّى «تحريفات» في بعض الأحيان، لأنّ هدف النبي السابق من إخباره هذا إنّما هو الكشف عن حقيقة خطيرة تقرّر مصير المستقبل، وتوقف أصحابه على هويّة النبي الجديد، وليس اللعب بالألغاز لإسدال الستار على «السّر المكتوم»، إذ الصراحة في

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٦٠

موقف كهذا حاكمه على الكناية بكلّ تأكيد، وذلك لسدّ الباب أمام المتذرّعين ومثيري الفتن.

وقد تمسّك بعض مبتدعي الدين المحترفين بتأويلات وتخريجات عجيبة بالنسبة للكتب السماوية، وبلغ بهم الحدّ إلى التوسّل بحسابات ال «ابجد»! وحسابات العرّافين وأمثالها.

كيف يفكّرون ياترى؟ فالنبوة التي ينبغي أن تكون مشعلاً لهداية البشرية ليست شيئاً محظوراً مبهماً كأسرار الكيميائيين القدماء لتتمّ عن طريق حسابات الأبجد «الصغير» و «الكبير» خوفاً من وقوعها في غير محلّها.

٤- يجب أن تنطبق العلامات التي جاءت في أقوال الأنبياء السابقين بالكامل على حالة المدعى الجديد، لا أن تنصّرف فيها بملء الفراغات وحذف الإضافات التي تصوّرها، لأنّ ذلك يعني بالتأكيد خداعنا لأنفسنا، إذ إنّ نبياً كهذا إنّما هو مرسل من قبل «أفكارنا الشيطانية» لا من قبل الله تعالى!

لو تمّ جمع هذه الجهات الأربع الواردة في أخبار النبي السابق لأمكن التعرّف من خلالها على مقام نبوة المدعى الجديد ولو غاب أحدهما لا اعتلّت النتيجة.

وعلى أيّة حال فقد تمّت الإشارة إلى هذه المسألة في موردين قرآنيين على أقلّ تقدير، وقد اكتفينا في هذا البحث الكلي (النبوة العامة) بشرح مختصر على أمل تفصيل ذلك في «النبوة الخاصة»:

١- حول بشارة المسيح عليه السلام بالنسبة لظهور نبي الإسلام صلى الله عليه وآله نقرأ في الآية: «وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ».

(الصف / ٤)

لا يخفى وجود هذه البشارة (أو البشارات) حتّى في أناجيل اليوم المحرّفة، وهو ما سنوكل البحث فيه وكذا فيما يتعلّق بكون الإسم «أحمد» من أسمائه الشريفة صلى الله عليه وآله إلى

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٦١

جانب الاسم «محمّد» (مدعوماً بالشواهد والقرائن) إلى المستقبل.

٢- بشاره التوراة (أو التوراة والإنجيل) بظهور نبي الإسلام صلى الله عليه وآله والتي تعرضت لها عدّة آيات قرآنية، هي من الوضوح عند ذكرها لصفاته وكأنه صلى الله عليه وآله يعيش بين ظهرانيهم يعرفونه كأحد أبنائهم. بل جاء في التواريخ أنّ هجرة اليهود من الشام وفلسطين إلى المدينة والإستقرار فيها إنّما كان لأجل تلك البشارات التي وجدوها في كتبهم حول ظهور النبي (هذا الموضوع ورد بالتفصيل في التفسير الأمثل ذيل الآية ٨٩ من سورة البقرة) «١»، وعلى الرغم من كون الكثير منهم من المبلّغين لنبي الإسلام صلى الله عليه وآله لكنهم سرعان ما انقلبوا على أعقابهم وامتنعوا عن الإيمان به بعد ظهوره، نظراً لتعرض مصالحتهم الشخصية للخطر، وقد لامهم القرآن على ذلك.

من الآيات التي تشير إلى هذا المعنى ما جاءت في قوله تعالى: «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ!» (البقرة/ ١٤٦)

وورد نفس هذا المعنى في قوله تعالى «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ!» (الأنعام/ ٢٠) وجاء هذا المعنى بصراحة أجلى حيث قال تعالى «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ». (الأعراف/ ١٥٧)

كما أنّ أحد الاحتمالات الواردة في تفسير الآيات القائلة بتصديق القرآن، والكتب «السابقة» هو أنّ المراد من «التصديق» هو انطباق القرآن وصفات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله على تلك العلامات التي جاءت في تلك الكتب «٢». كما وأشارت الروايات الإسلامية إلى بشاره الأنبياء السابقين باللاحقين، إذ نقرأ في أول

(١) التفسير الأمثل، ذيل الآية مورد البحث.

(٢) لمزيد من الإطلاع راجع التفسير الأمثل ذيل الآية ٤٩ سورة البقرة.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٦٢

خطبة من خطب نهج البلاغة: «من سابقِ سُمِّي له من بعده، أو غابر عَرَفَهُ مَنْ قَبْلَهُ».

هذا التعبير الذي كشف النقاب عن طرفي القضية يعدّ من أبلغ التعبيرات حول هذا الموضوع، كما تمّ التصريح بهذا الأمر في حديث مفصّل عن الإمام الباقر عليه السلام إذ يقول: (وَبَشَّرَ آدَمُ بِنُوحٍ).

وقال في مكان آخر: «وَبَشَّرَ نُوحٌ سَامًا بِيُهودٍ».

وجاء عنه عليه السلام في موضع آخر: «فَلَمَّا نَزَلَتِ التَّوْرَةُ عَلَى مُوسَى بَشَّرَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ... فَلَمَّ تَزَلَّ الْأَنْبِيَاءُ تُبَشَّرُ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْمَسِيحَ عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ فَبَشَّرَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ» «١».

(١) شرح نهج البلاغة للخوئي، ج ٢، ص ١٣٨ - ١٤١.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٦٣

مسألة الوحي

إشارة

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٦٥

«كيفية الإرتباط بعالم الغيب»

تمهيد:

لا شك أن للأنبياء الإلهيين ارتباطاً بعالم الغيب وما وراء الطبيعة، وبعبارة أخرى، أن لهم علاقةً خاصيةً بالله تعالى، وقد استلهموا عن هذا الطريق التعاليم الخاصة والأحكام والقوانين الإلهية وبلغوها الامم.

لكن كيف كانت هذه الرابطة ياترى؟ فهذه مسألة في غاية التعقيد، ومن السهل الإطلاع عليها إجمالاً في حين تعدد الإحاطة بها تفصيلاً في غاية الصعوبة، لاستحالة إدراكها بالدقة من قبل من يفتقر لهذه العلاقة، بالضبط كإحساس البصير منذ ولادته بامتلاك الآخرين لحس إضافي، يطلعون من خلاله على كل الموجودات المحيطة بهم ولامتدادات واسعة، كما ويدركون من خلالها مختلف الألوان والأنوار، أما ما هو هذا الحس، وما هي حقيقة «اللون» و «النور»؟ فهذا ما لا يمكن إدراكه أبداً.

إذن فالذي سيعرض في مبحث الوحي وحقيقته لا يتعدى سوى الحصول على العلم الإجمالي بخواص الوحي، مع الإجابة عن الأسئلة التي ستثار هنا، ومن هنا لا ينبغي مطالبه هذه المباحث بالكشف عن «كنه» الوحي، لاستحالة ذلك لغير الأنبياء عليهم السلام بالضبط كالمثال المتقدم أعلاه.

في المجلد الأول من هذا التفسير «نفحات القرآن» وعند شرح خامس مصدر من مصادر المعرفة تحدثنا بالتفصيل عن مسألة الوحي، وكشفنا النقاب عما يرتبط به من معارف قدر المستطاع، ولذا فقد اكتفينا بذكر موجز لمبحث الوحي، مع إضافات جديدة على ما قيل هناك، وسنوكل توضيح باقى المسائل إلى ذلك البحث، وبهذه الخلاصة نعود إلى

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٦٦

القرآن ونتأمل خاشعين فى الآيات التالية الواردة فى هذا المجال:

- ١- «وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآذُنِهِ مَا يَشَاءُ». (الشورى / ٥١)
- ٢- «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ». (الشعراء / ١٩٣-١٩٤)
- ٣- «وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى». (هود / ٦٩)
- ٤- «قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا آيَاتِ افْعَلِي مَا تَأْمُرُ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ». (الصافات / ١٠٢)
- ٥- «فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ». (القصص / ٣٠)

جمع الآيات وتفسيرها

طرق الإرتباط بعالم الغيب:

تم فى هذه الآيات بيان مختلف الطرق التى اتّصل الأنبياء الإلهيون عن طريقها بعالم الغيب وما وراء الطبيعة بصورة إجمالية، والتى تبلغ أربعة أو خمسة طرق:

فى الآية الاولى اشير إلى ثلاثة طرق، يقول المرحوم الطبرسى فى تفسير هذه الآية:

«ليس لأحد من البشر أن يكلمه الله إلا أن يوحى إليه وحياً كداود الذى أوحى فى صدره الزبور، أو يكلمه من وراء حجاب مثل موسى أو يرسل رسولاً كجبرائيل إلى محمد صلى الله عليه وآله ليبلغه أمره».

فهذا الإرتباط إنما يكون أحياناً عن طريق الإلقاء فى القلب، واخرى عن طريق الأمواج الصوتية التى يسمعها النبى من الخارج، وثالثة عن طريق نزول الملك الموكل بالوحى.

أصل «الوحى» الإشارة السريعة، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز أو بالصوت المجرد عن التركيب اللغوى، وتارة بالإشارة أو الكتابة.

هذا ما ذكره «الراغب» فى «المفردات»، لكن «ابن فارس» فى «المقاييس» يرى

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٦٧

معناه الأصلى إلقاء علم ما بشكل خفى أو علنى على شخص آخر.

ذكر «ابن منظور» أهم معانى هذه اللفظة واعتبرها الرسالة والإلهام والكلام من غير معابته، والإلقاء فى الروح، كما ذكر معظم أرباب اللغة هذه المعانى بزيادة أو نقيصة، ولكن الخليل بن أحمد ذكر معناه فى كتاب (العين) بأنه الكتابة والتدوين!

أمّا فى اصطلاح أهل الشرع فيطلق على إبلاغ الرسائل الإلهية من قبل الله إلى الأنبياء عليهم السلام، وإن كانت دائرة استعماله فى القرآن أوسع من هذا المعنى كثيراً، وشاملة لكل أنواع الإلقاء للعلم المرموز، ولذا استعمل فى مورد الغرائز أو العلوم التى استودعت عند بعض الحيوانات كالنحل مثل: «وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ». (النحل / ٦٨)

ويقول فيما يتعلّق بما ألقاه الله على قلب أم موسى بالنسبة لولدها: «وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ». (القصص / ٧)

إذ قد تمّ التعبير عن الإلهام الإلهى لها بالوحى مع عدم كونها نبياً قطعاً، كما أن يوسف لم يكن فى طفولته نبياً ومع ذلك يقول القرآن فى حقّه: «وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَهُمْ (اخوتك) بِأَمْرِهِمْ هَذَا (التخطيط لقتلك)».

كذلك استعملت هذه المفردة فيما يتعلّق بوساوس الشياطين الخفية إلى أتباعهم قوله تعالى: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ». (الأنعام / ١١٢)

واستعملت الأوامر الإلهية الغامضة فيما يتعلّق بالجمادات كالأرض قوله تعالى: «بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا». (الزلزال / ٥)

جملة «من وراء حجاب» تعنى أن الله كان يخاطب نبيه بأمواج صوتية خاصة خافية على الآخرين أو أن نبيه كان يسمع الخطاب دون مشاهدة مصدره، بالضبط كالكلام الذى يطرق السمع من وراء الستار.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٦٨

ودار الحديث فى ثانى آية عن نزول ملك الوحى وإتيانه بالقرآن للنبي صلى الله عليه وآله، يقول تعالى:

«وَإِنَّهُ (القرآن) لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ».

الملفت للنظر هو أن ملك الوحى قد تمّ وصفه بوصفين «الروح» أى عين الحياة و «الأمين» إشارة إلى الأمانة التى هى أهم شرط للرسالة والتبليغ.

يستفاد جيّداً من مختلف الآيات والروايات أن ملك الوحى المأمور بإبلاغ الرسالة إلى نبي الإسلام كان اسمه جبرائيل، فى حين أنه يظهر من ثالث آية من الآيات مورد البحث، أن الملائكة ب «صيغة الجمع» كانوا أحياناً يؤمرون بإبلاغ الوحى الإلهى إلى الأنبياء، يقول تعالى: «وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامًا».

البشارة التى كان يحملها هذا الفريق من الملائكة هى البشارة بولادة إسماعيل وإسحاق، إذ إن إبراهيم عليه السلام كان قد قضى كثيراً من عمره محروماً من الولد مع تمنّيه الذرية لحمل لوائه.

كما كانت هنالك وظيفة اخرى للملائكة ذكرت فى الآيات التى بعدها، إلى جانب وظيفتهم الاولى فى إبلاغ إبراهيم بالبشارة الإلهية ألا وهى تدمير مدينة قوم لوط وقلبها رأساً على عقب.

هنالك نوع آخر من أنواع الوحى ذكر فى رابع آية وهو الرسالة التى كانت تصل إلى النبي عن طريق الرؤيا، وهى «رؤيا صادقة» لا

تتفاوت مع حالة اليقظة، يقول تعالى: «قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبُحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ».

ونقرأ في الآيات التي بعدها أن إبراهيم عليه السلام استعدّ لتنفيذ هذا الأمر، ولا يخفى أن هذه الرؤيا لو كانت مثل الرؤيا العادية لما أقدم إبراهيم عليه السلام على ذبح ابنه أبداً وهذا يكشف عن كونها وحياً إلهياً قطعياً.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٦٩

كما يصدق نفس هذا المعنى في حقّ نبي الإسلام صلى الله عليه و آله فيما يتعلّق بالبخارة التي بشر بها في (الحلم) من دخول المسلمين إلى المسجد الحرام، وأدائهم لمناسك الحجّ بكلّ أمان:

«لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِذَا شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ». (الفتح / ٢٧)

التعبير بـ «صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا» يدلّ بوضوح على كون هذا الحلم حلماً إلهياً أى نوعاً من أنواع الوحي.

في خامس وآخر آية من الآيات مورد البحث تمت الإشارة إلى إحدى طرق ارتباط الأنبياء بمبدأ عالم الوجود، والتي اشير إليها كناية في أول آية أيضاً بالتعبير (من وراء حجاب) يقول تعالى: «فَلَمَّا أَتَاهَا (حينما أتى موسى النار التي رآها بجانب الطور) نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ».

أجل فلقد سمع موسى عليه السلام كلام الله مباشرة، وطبقاً لبعض الروايات «١» يقول موسى: «لقد سمعت كلام ربّي بجميع جوارحي، ولم أسمع من جهة واحدة من جهاتي».

هذا الكلام سمعه موسى عليه السلام من كلّ الجهات وبكافّة جوارحه (لا الاذنين فقط)، ومثل هذا الارتباط على حدّ قول الطبرسي في مجمع البيان يعدّ من أفضل منازل الأنبياء وأرفع أنواع ارتباطهم بمبدأ عالم الوجود.

ولا شكّ أنّ الله لم يكن جسماً وليس له سائر العوارض الجسمانية واللسان والأمواج الصوتية، لكنّه يتمكّن من إيصال مشيئته إلى سمع خواصّ عباده بالأموج الصوتية التي يوجدها، ولغرض العلم بكونه من كلام الله ينبغى أن يكون محفوظاً بالقرائن لنفي أى احتمال آخر عنه، وهذه القرائن كانت موجودة في قصّة موسى عليه السلام وسائر الأنبياء عليهم السلام.

هذه القرائن يمكنها أن تكون رؤية النار من الشجرة الخضراء أو سماع الصوت من كافّة

(١) تفسير القرطبي، ج ١٣، ص ٢٨٣؛ تفسير مجمع البيان، ج ٤ ص ٢٥١.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٧٠

الجهات، مع الإحساس بكونه صادراً من الشجرة أو سماعه بكلّ أعضاء بدنه، أو على حدّ قول البعض: اتّحاد صوت كلّ الكون بهذا الصوت، أو مضموناً خاصّاً غير ممكن من غير الله، أو قرائن اخرى. يستفاد من سور (طه / ١١)، و (النمل / ٨) أنّ هناك كلاماً آخر أيضاً قيل لموسى عليه السلام في هذه اللحظة إذ نقرأ في سورة طه: «نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى».

ونقرأ في قوله تعالى «نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا!» (النحل / ٨)

على أيّة حال فمن مجموع الآيات أعلاه انعكست أشكال مختلفة من ارتباط الأنبياء بمبدأ عالم الوجود.

إنّ عجز الأدلّة العقلية عن حلّ جزئيات هذه المسألة هو ممّا لا يخفى، لانحصار وظيفتها في بيان لزوم إرسال الرسل، وإنزال الكتب المستلزمة لارتباط الأنبياء بعالم الغيب، ومن هنا فينبغي الرجوع إلى الأدلّة النقلية للوقوف على جزئياتها.

توضيحات

مع خروج مسألة الوحي عن دائرة حس الإنسان الإعتيادي، وامتلاكنا لعلم إجمالى عنه دون العلم التفصيلي كما قلنا، فهناك توضيحات أكثر في الروايات الإسلامية حول هذا الموضوع نشير فيما يلي إلى بعضها:

١- نقرأ في حديث عن الإمام على عليه السلام أنه ذكر تفاسير وأقسام متعددة للوحي:

الأول: «وحي النبوة والرسالة» الوارد في الآية الشريفة: «إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ...». (النساء/ ١٦٣)

الثاني: «الوحي الإلهامي» الوارد في الآية: «وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّخْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ». (النحل/ ٦٨)

الثالث: «الوحي بالإشارة» كما قال الله عن زكريا: «فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا». (مريم/ ١١)

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٧١

الرابع: «الوحي التقديرى» كما يقول تعالى: «وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا». (فصلت/ ١٢)

الخامس: «الوحي الأمرى» كما نقرأ عن الحوارين: «وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي». (المائدة/ ١١١)

السادس: «الوحي الكاذب» بالشكل الذى يخبر الله تعالى به عن الشياطين: «يُوحَى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا». (الأنعام/ ١١٢)

السابع: «الوحي الإخبارى» كما يقول تعالى عن فريق من الأنبياء: «وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ...». (١)

(الأنبياء/ ٧٣).

٢- يستفاد من بعض الروايات أن حالة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله كانت طبيعية عند نزول جبرائيل بالوحي عليه، فى حين كان صلى الله عليه وآله يحس بضيق شديد عندما يكون الارتباط مباشراً، بل ربما يغشى عليه كما ورد فى توحيد الصدوق عن الإمام الصادق عليه السلام حينما سأله: «الغشية التى كانت تصيب رسول الله صلى الله عليه وآله إذا نزل عليه الوحي؟ قال ذلك إذا لم يكن بينه وبين الله أحد، ذاك إذا تجلّى الله له» (٢).

٣- الآخر هو أن جبرائيل حينما كان ينزل عليه صلى الله عليه وآله كان ينزل بأدب ووقار، كما جاء فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: (كان جبرائيل إذا أتى النبى قعد بين يديه قعدة العبيد، وكان لا يدخل حتى يستأذنه) (٣).

٤- يستفاد من روايات اخرى أن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله قد تعرّف على جبرائيل بتوفيق إلهي كما جاء فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «ما علم رسول الله صلى الله عليه وآله أن جبرائيل من قبل الله إلا بالتوفيق» (٤).

(١) بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٥٢.

(٢) توحيد الصدوق طبقاً لما نقله بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٥٦، ح ٥.

(٣) علل الشرائع طبقاً لما نقله بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٥٦.

(٤) بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٥٦.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٧٢

٥- وهناك تفسير ملفت للنظر لمسألة غشية النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عند نزول الوحي عليه، فى حديث عن ابن عباس إذ يقول: «كان النبي إذا نزل عليه الوحي وجد منه ألماً شديداً ويتصدع رأسه ويجد ثقلاً، وذلك قوله إنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً، وسمعت أنه نزل جبرئيل على رسول الله صلى الله عليه وآله ستين ألف مرّة».

٢- الوحي في كلمات الفلاسفة المتقدمين والمتأخرين

فات الكثير من الفلاسفة القدماء والمعاصرين هذه الملاحظة وهي كون مسألة الوحي ارتباطاً خاصاً للأنبياء بعالم ما وراء الطبيعة، وانحصار علمنا به بالإجمال دون التفصيل، إذ أننا لا نرى سوى شبحٍ من بعيد، ونتيقن بوجوده دون العلم بحقيقته ماهيته. ومن هنا فقد سعوا للوصول إلى حقيقة الوحي، لكنهم اصطدموا بطريق مسدود بطبيعته الحال. وهنا نتعرض لنقد وتحليل نظريتين أو فرضيتين على الأصح للفلاسفة المتقدمين والمتأخرين حول هذا الموضوع لتتضح الحقيقة أعلاه: النظرية الأولى: الفلاسفة القدماء كانوا يعتقدون أن حقيقة الوحي هي ارتباط الإنسان بـ «العقل الفعال»! بيان ذلك: إنهم يعتقدون بالأفلاك التسعة البطليموسية وبوجود النفس المجردة لكل واحدة من تلك الأفلاك (أى ما يماثل الروح بالنسبة لأبداننا)! كما أضافوا: إن «النفوس» الفلكية تستلهم من موجودات مجردة تدعى «العقول»، وبهذا فقد قالوا بـ «تسعة عقول» لتلك الأفلاك التسعة، واعتقدوا وراء ذلك بـ «العقل العاشر» أو «العقل الفعال» باعتباره المصدر لكل المعلومات. كما كانوا يعتقدون من جهة أخرى بضرورة إفاضة العقل الفعال على النفوس الإنسانية وأرواحها لتدرك الحقائق وتضفي الفاعلية على قابلياتها، ويعتقدون بكون

نفحات القرآن، ج٧، ص: ٢٧٣

النسبة بين قوة الروح الإنسانية وشدّة اتصالها بالعقل الفعال الذى هو مصدر العلوم طردية. واستنتجوا من هذه المقدمات أن اتصال أرواح الأنبياء بالعقل الفعال ولشدّة قوتها يفوق العادة، ولهذا السبب تمكنت من استلام معلوماتها الكلية (صورها) من العقل الفعال فى أغلب الأحيان، ونظراً لحدّة «قواهم التخيلية» التى يدركون بواسطتها «الصور الجزئية» ولتبعيتها للقوة العقلية فى نفس الوقت، فقد تمكنت من إعطاء صور محسوسة مناسبة لتلك «الصور الكلية» التى استلموها من العقل الفعال، لتتجسد فى افق أذهانهم متلبسة بلباس الحسّ. فمثلاً لو كانت تلك الحقائق الكلية من قبيل المعانى والمعارف والأحكام فيماكانهم سماعها على شكل ألفاظ موزونة جدّاً، وفى غاية البلاغة والفصاحة على لسان شخص فى غاية الكمال، ونظراً لكمال هيمنته قواهم التخيلية على الحسّ المشترك (الحسّ الذى يدركون من خلاله صور المحسوسات) فيماكانها إضفاء صبغة «الحسية» على هذه الصور «الذهنية»، وتمكين النبى من مشاهدته ذلك الشخص على هيئة ملك يبصره وسماع ألفاظه باذنيه! (تأمل جيّداً).

انتقادات

هذه الفرضية قابلة للنقد من عدّة جهات:

أولاً- إبتناؤها على «الأفلاك البطليموسية التسعة» و «العقول العشرة» التى أبطل أحدها بشكل قاطع، ولم يوجد أى دليل لإثبات الآخر، وبديهي أن فرضية كهذه لا يمكن قبولها أو تقييمها.

ثانياً- هذه الفرضية ليست سوى محاولة للاهتداء إلى الطريق لحل مسألة خارجة عن نطاق أفكارنا، والإحاطة بها تفصيلاً، بالضبط كرجبة المكفوف للوقوف على حقيقة النور والألوان عن طريق الفرضيات التى ينسجها مستعيناً بحواسّه) إذ من الواضح أن فرضية كهذه لا يمكنها أن تلاقى النجاح أبداً.

نفحات القرآن، ج٧، ص: ٢٧٤

ثالثاً- لا تناسب هذه الفرضية بأى وجه مع الآيات القرآنية التى تتحدث عن الوحي، لأنّ الأخيرة تقول بصراحة: الوحي نوع من الإرتباط بالله، لا بالعقل الفعال ولا عن طريق الإلهام بالقلب أو بواسطة ملك الوحي (الملك الذى هو وجود واقعي يظهر أمامه لا أنّه

متولّد من القوّة التخيلية أو تأثير الحسّ المشترك)، أو أنّه يسمع تلك الأمواج الصوتية التي أوجدها الله في جسم ما بأذنيه لا أنّ للأصوات صبغةً خياليةً ومتولّدةً من تأثير القوّة التخيلية أو الحسّ المشترك.

وبناءً على هذا فالفرضية أعلاه مردودة عقلاً ونقلاً.

النظرية الثانية- فسّر بعض الفلاسفة المعاصرين الوحي كأحد مظاهر الشعور الباطني.

يقول فريد وجدي في «دائرة معارف القرن العشرين» في مادّة «الوحي»: كان الغربيون إلى القرن السادس عشر كجميع الامم المتديّنة يقولون بالوحي، لأنّ كتبهم مشحونة بأخبار الأنبياء فلمّا جاء العلم الجديد الذي فسّر كل ظاهرة تفسيراً مادياً، ذهبت الفلسفة الغربية إلى أنّ مسألة الوحي من بقايا الخرافات القديمة، وغالت حتّى أنكرت الخالق والروح معاً.

لكن بحلول القرن التاسع عشر الميلاديّ تغيرت وجهة النظر في المسائل الروحانية وظهرت إلى الوجود ثانية مسألة الوحي، إذ أعاد فريق من العلماء البحث فيها على قاعدة العلم التجريبي، فتوصّلوا إلى نتائج وإن كانت غير ما قرره علماء الدين الإسلاميون، إلّا أنّها خطوة كبيرة في سبيل إثبات أمر عظيم كان قد نسب إلى عالم الخرافة، ثمّ يضيف قائلاً: إنّ المؤيدين لمسألة الروح والمظاهر الروحية دونوا إلى الآن (زمن تأليف دائرة المعارف) خمسين مجلداً ضخماً حول المطالب أعلاه، وتمّ حلّ الكثير من المسائل الروحانية بها من جملتها مسألة الوحي «(١)»!

هذا نموذج من كلمات العلماء حول هذه المسألة إذ الكلام حولها كثير، ولكن بالإمكان بيان خلاصه كلامهم كما يلي:

(١) دائرة معارف القرن العشرين، مادّة (الوحي).

نفحات القرآن، ج٧، ص: ٢٧٥

إنّهم اكتشفوا أنّ للإنسان شعوراً وإدراكاً وراء شعوره وإدراكه الظاهري، أطلقوا عليه اسم الشعور الباطن أو الوجدان الخفي واعتبروا القسم الأعظم من شعور الإنسان كامناً فيه، حتّى أنّهم شبّهوه أحياناً بالثلوج الطافية في مياه المحيطات، والتي لا يخرج منها فوق الماء إلّا عشرين في حين تبقى تسعة أعشارها تحته.

لقد اعتبروا الوحي نوع «تجلّ للشعور الباطني»، ونظراً لكون الأنبياء رجالاً يفوقون العادة، فمن الطبيعي أن يتمتّعوا بشعور باطني أقوى، وتجلّ يفوق العادة في أهميته، وهو نفس ما كان يطلق عليه القدماء اسم الوحي!

كما ذهب البعض أحياناً أكثر من هذا وقالوا: إنّ أفكار وعلوم ورغبات النبي، تخلّق له إلهامات وتطلّ من خلال شعوره الباطني ووجدانه الخفي على تخيله الرفيع! بل وترك أثراً حتّى في نظراته فيرى الملك أمامه ويسمع كلامه «(١)»!

نقد وتحليل:

هذه الفرضية التي قال بها فريق من الفلاسفة المتقدّمين تماثل الأولى، من حيث افتقارها للسند الكافي والدليل والشاهد، ومصدرها هو نفس ما أشرنا إليه، أي إنّهم يريدون قياس مسألة خارجة عن نطاق أفكارنا وعمقها ومحتواها بالمقاييس المتداولّة، ومن المسلّم أنّ هذا الأمر محال وغاية لا يبلغها مفكّر أبداً.

وحيثما ندعّن بمحدودية المعلومات دون المجهولات، يجب أن نقبل هذه الحقيقة أيضاً وهي أنّ للأنبياء الواقعيين نوعاً من الإرتباط بعالم ما وراء الطبيعة، لا يمكن شرحه وتفصيله بحواسنا الفعلية وإدراكاتنا الإعتيادية.

على أيّة حال فهذه الفرضية جذور مشتركة مع نظرية الفلاسفة القدماء من جملتها:

١- الوحي يمثل نوعاً من الإرتباط الخاص بعالم ما وراء الطبيعة، غير مغاير للروابط الفكرية والعقلية لسائر الأفراد!

(١) الوحي المحمدي، الطبعة ٢، ص ٢٤.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٧٦

٢- مصدر الوحي هو نبوغ الأنبياء وسموهم الروحي.

٣- الوحي لا يمثل وجود مجهول روحاني مستقل عن وجودنا يطلق عليه رسول الوحي أو الملك الإلهي، بل منشأه هو الشعور الباطني والاتصال بالعقل الفعال الذي يترك أثره في عالم الخيال، ثم في إحساس النبي فيرى مظاهر الوحي ويسمعها!
لا شك أن مثل هذه التحليلات لا تتلاءم أبداً مع ما جاء به الأنبياء وما يستفاد من آيات القرآن من جهته، ومع الدليل العقلي الذي ذكرناه سابقاً من جهة أخرى.

فضلاً عن افتقارها كلها للسند والدليل، وأساساً ما هو السروراء إعجاب بعض العلماء بعلومهم ومعارفهم المحدودة إلى هذا الحد الذي دفعهم لتفسير وتحليل كل أسرار الكون بهذه الحصيعة من العلوم والاكتشافات، هذا الأمر يشبه قيام النحلة بتفسير وتحليل أنواع رموز الكامبيوترات والسفن الفضائية والأقمار الصناعية بمعلوماتها المحدودة، فهل نعطيها مثل هذه المكانة ياترى؟
مؤلف تفسير المنار وبعد نقله لهذه النظرية عن فريق من الفلاسفة الماديين، وبعبارة شبيهة للتي ذكرناها أعلاه، يضيف قائلاً: «لقد سرى هذا الإشتباه إلى الكثير من المسلمين الغارقين في الشك والترديد، الذين يقلدون العلماء الماديين (بأبصار وآذان مقلدة) أو يقتنعون بتفاسيرهم، ثم يتعرض بعد ذلك لنقد مثل هذه الأفكار بالشرح والتفصيل» (١).
وبهذا نكون قد وصلنا لخاتمة البحث المختصر الذي اعددناه حول مسألة الوحي، إذ وكما قلنا سابقاً فلقد شرحنا هذا الموضوع شرحاً وافياً في «نفحات القرآن» «المجلد الأول» في مبحث «مصادر المعرفة» (المصدر الخامس).

(١) تفسير المنار، ج ١١، ص ١٦٣.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٧٧

الاصول العامة لدعوة الأنبياء عليهم السلام

إشارة

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٧٩

الاصول العامة لدعوة الأنبياء

تمهيد:

من النكات المهمة في مباحث النبوة العامة هي الاهتمام بالاصول العامة لدعوة الأنبياء التي تحظى بانسجام خاص، والتي تعكس النشاط الذي تقوم به هذه السلسلة الجليلية لأنبياء الله بين البشرية، كقافلة عظيمة متحدة.
وبعبارة أخرى: يمكن تشبيههم باللجنة العلمية للجامعة التي تقوم بتعليم الطلبة وفق برمجة دقيقة، اعتباراً من المرحلة الاولى وإلى الأخيرة بشكل منسجم صفياً بعد صف.
ومن خلال مطالعة هذه الاصول العامة تتجلى هذه الحقيقة المتكررة في القرآن، وهي أنه «لا- تفاوت بين أنبياء الله، كما لا ينبغي التفريق بينهم».

و من المسلم أنه لا منافاة لهذا الانسجام مع نسخ الأديان بعضها للبعض الآخر أبداً، بالضبط كاستبدال المناهج الدراسية للجامعة في

كل سنة، إذ إن كتب السنة الأولى لا تصلح للثانية، وهذه لا تصلح للثالثة و... مع أن أصولها العامة منسجمة مع بعضها في نفس الوقت، فكذلك لا منافاة لهذه المسألة مع تفاوت درجات الأنبياء لأجل تفاوت مسؤولياتهم.

هذا الإنسجام في الاصول العامة يؤكد من جهة على الخطوط الأساسية للأديان الإلهية ويوقفنا عليها، كما ويوضح حقانية دعوتهم من جهة أخرى، إذ إن الساسة الديويون ينفي خلفهم سلفهم طبقاً للآية: «كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا». (الأعراف / ٣٨) و باعتبار أن إحدى مميزات الطواغيت هي حالة التضاد القائمة بينهم على طول الخط.

كما ويمكن لهذه المسألة من جهة ثالثة أن تكون معياراً لمعرفة حقيقة الأنبياء، من

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٨٠

المدعين كذباً، لأن انسجامهم وتوافقهم مع الأنبياء المعروفين السابقين سيكون كقريته لها دورها المهم.

وبهذه الخلاصة نعود لتأمل خاشعين في الآيات القرآنية التالية الواردة في هذا المجال:

١- «لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُشْلِمُونَ» (ولا تدفعنا التعصبات العرقية والمصالح الشخصية لقبول فريق ورفض الآخر). (البقرة / ١٣٦)

٢- «إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ (أنبياء بنى إسرائيل) وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا». (النساء / ١٦٣)

٣- «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ».

(الأنبياء / ٢٥)

٤- «قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيُقَفِّرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُوَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى». (إبراهيم / ١٠)

٥- «يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا». (الأنعام / ١٣٠)

٦- «وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ».

(النساء / ١٣١)

٧- «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ».

(الحديد / ٢٥)

٨- «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا (بنبي الإسلام) وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ». (البقرة / ٦٢)

٩- «مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سِنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا». (الأحزاب / ٣٨)

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٨١

١٠- «لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَأِجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا * مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا تُفُوقُوا أَخَذُوا وَقُتِلُوا تَفْتِيلًا * سِنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسِنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا». (الأحزاب / ٦٠-٦٢)

١١- «وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ». (الأنبياء / ٧٣)

١٢- «وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ».

(الأنبياء / ١٠٥)

١٣- «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ». (البقرة / ٢١٣)

١٤- «فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ». (هود/ ١١٦)

١٥- «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ». (آل عمران/ ١٩)

جمع الآيات وتفسيرها

وحدة المسير لدى الأنبياء جميعاً:

١- الكلام في أول آية هو عن الأمر الذي أصدره الله إلى المسلمين كافةً بالقول لمخالفهم: «إِنَّا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ، كِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَمُوسَى وَعِيسَى «لَا نَفَرُّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» وورد نفس هذا المضمون في آيتين أخريين من القرآن الكريم: «آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْهُ وَكُتِبَ وَرُسُلِهِ لَانْفَرُّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ». (البقرة/ ٢٨٥)

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٨٢

وقوله تعالى: «وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا». (النساء/ ١٥٢)

وبهذا فهي تؤكد على أن المؤمنين الحقيقيين هم الذين لا يفرقون بين الأنبياء الإلهيين، ويؤمنون بكلّ تعاليمهم، وهذا خير دليل على اتحاد الاصول العامة لتعاليمهم.

ولم لا يكونون كذلك وقد بعثوا كلهم من قبل الله، وتساوت أدوارهم، كما أن أصول المعارف الإلهية وسعادة البشرية واحدة في كل مكان، إذ ليست بذلك الشيء الذي يتغير بتغير جزئياته على مرّ الأيام.

بالضبط كحاجة الإنسان إلى الطعام والملبس والمسكن والصحة والنظافة والتربية والتعليم، إذ إن أصول هذه الامور ثابتة لا تقبل التغيير، في حين أن جزئياتها هي في تحوّل وتغير، أي، إن في حالة تكامل بعبارة أخرى.

لابد من القول: إن هذه الآيه وطبقاً لسبب نزولها كانت رداً على اليهود والنصارى، حيث كان ينفي أحدهما الآخر ويعتبر نبيه هو الأفضل وكتابه هو الأقدس (مع إهمالهم للآخرين)، فجاء دور المسلمين للتعبير بصراحة باستحالة التفريق بين أنبياء الله.

على أية حال فهذا يعدّ توضيحاً مجملاً لوحدة الاصول العامة لدعوة الأنبياء، والآن نعود إلى بقية الآيات التي تؤكد على كلّ واحد من هذه الاصول.

٢- مسألة الوحي هي واحدة من هذه الاصول والتي عرضت في ثاني آية من الآيات مورد البحث، يقول تعالى: «إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ (أنبياء بنى إسرائيل) وَعِيسَى وَإِيُوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا* رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ».

وعلى هذا فالكلّ يشير إلى الوحي والإرتباط بعالم الغيب، والكلّ يخطو في مسيرة إبلاغ الدعوة الإلهية وإتمام الحجّة على الناس، لم يقل أحد منهم شيئاً من عنده، والهدف النهائي للكلّ واحد.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٨٣

٣- أصل التوحيد ونفى الشرك هو أحد أهمّ اصول دعوة الأنبياء، وبشهادة آيات مختلفة من القرآن، فالتوحيد هو كلامهم الأول حين بعثتهم، التوحيد في كافة الأبعاد خصوصاً في العبادة.

و الآيه الثالثة من البحث تدور حول هذا الموضوع باعتباره أصلاً عاماً في دعوة الأنبياء، يقول تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ

إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لِلَّهِ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ».

وورد هذا المعنى بتأكيد أكبر في قوله تعالى «وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ». (النحل / ٣٦) وعلى هذا فمقاومة الطواغيت وتخصيص العبادة لله كانا يتصدران قائمة تعاليم كل الأنبياء، باعتبار كون الإنسان أسيراً ما دام في عبادة الطاغوت، وحرّاً حيث ما يعبد الله وحده، الله الذي هو مصدر كل القيم السامية وصاحب الأسماء والصفات الحسنى. الملفت للنظر هو أن «الطَّاغُوتَ» صيغة مبالغة للظلم الذي يعنى التعدي وتجاوز الحد، ومن هنا تطلق لفظه الطاغوت على الشيطان والوثن والحاكم الجبار والمتكبر والمستكبر، وكل طريق ينتهى إلى غير الحق، هذه المفردة وعلى حد قول الراغب في المفردات التى تستعمل فى المفرد والجمع كليهما (كما وتجمع فى نفس الوقت على صيغة «طواغيت»). وفسر لسان العرب لفظه ال «طاغوت» بمعنى الشيطان وأئمة الضلال والإنحراف (١).

على أية حال فإحدى علامات الأنبياء الحقيقيين هى الدعوة للتوحيد، واجتناب كل الطواغيت، فى حين أن المدعين كذباً يدعون الناس للشرك وعبادة الأوثان، بل وحتى إلى عبادتهم أحياناً كفرعون، هذا النحو من النظرة السلبية للطاغوت - كما قيل فى محله - له أثره فى كافة شؤون الإنسان، خاصة فى فكّ يديه ورجليه من قيود الرق والعبودية ودعوته للإتحاد والعزة والتحرر.

(١) العجيب هو أن المرحوم العلامة الطباطبائي فى تفسير الميزان، ج ١٢، ص ٢٤٢، قد اعتبر هذه اللفظة مصدراً، مع أنها تستعمل بالمعنى الوصفى فى كل المواضع، خصوصاً الموارد الثمانية الواردة فى القرآن إذ إنها أفادت المعنى الوصفى على الأعم الأغلب. نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٨٤

٤- التأكيد على نظام الكون للتعرف من خلاله على الله هو أحد الاصول العامة لدعوة هؤلاء الرجال الإلهيين، كما نقرأ فى الآية الرابعة من آيات بحثنا: «قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ (مع كل هذه العظمة والنظام فى الكون والأسرار الكامنة) يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى» (لتطووا طريق معرفة الله وتبلغوا الكمال اللازم). أى هل يبقى هناك مجال للشك فى وجود الله مع الأخذ بنظر الاعتبار كل أسرار خلق السماوات والأرض، وأنواع الابداعات التى تحتويها والأسرار التى يتم كشفها يوماً بعد آخر نتيجة تطوّر العلوم والمعارف؟

صحيح أن معرفة الإنسان بأسرار خلق السماوات والأرض كانت فى قديم الزمان بسيطة، لكن نفس ذلك النظام البسيط الحاصل للإنسان بدقته متواضعة يكفى لإثبات وجود الخالق، أما اليوم حيث تمّ فلق الخليّة وانشطار الذرّة والجزىء، والوقوف على الكثير من أسرارها فالتأمل فى إحدى الذرات كافٍ ليعث نور معرفة الله فى القلوب، ويتحقّق هذا فى البيت الشعري المعروف باللغة الفارسية والذى مضمونه:

قلب كل ذرّة حين فتحه تجد نوره يشع فيه

وقريب من هذا المعنى نجده فى البيت الشعري المعروف والمنسوب للإمام على عليه السلام:

أترعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

٥- التأكيد على مسألة المعاد باعتباره أصل آخر من اصول دعوتهم كما يقول تعالى فى الآية الخامسة من آيات بحثنا: «يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا».

هذا الكلام سواء كان صادراً من الله أم الملائكة فلا فرق فى ذلك، إذ المهمّ أنه يعكس قيام كل الأنبياء والمرسلين بتحذير الناس من هول يوم القيامة واشتراكهم فى هذا الأصل الأساسى.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٨٥

وهل ياترى أرسل إليهم رسيلاً من «الجن» (كما يبدو من كلمة «منكم») أم أن كل الرسل الإلهيين كانوا من الإنس؟ هناك نقاش بين

المفسرين، وإن ذهب معظمهم إلى الاحتمال الثاني باعتبار أن ما جاء في الآية السابقة إنما هو من باب التغليب اصطلاحاً، ومع ذلك لا مانع من قيام الأنبياء والرسل الإلهيين بتكليف رسل ووكلاء لهم من جنسهم لدعوتهم كما يستفاد ذلك من قوله تعالى «وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ». (الأحقاف / ٢٩)

٦- الدعوة للتقوى: وهي أيضاً من الاصول العامة لدعوتهم عليهم السلام، وذلك لاستحالة ضمان الهدف النهائي من خلق البشر ونظام حياته الفردية والاجتماعية بدونها، نقرأ في سادس آية من البحث: «وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ». وهذا التعبير إلى حدّ يشمل كل الكتب السماوية السابقة، وبناءً على هذا فالوصية بالتقوى، أي، حفظ النفس وتجنب الذنوب وعدم الخروج عن طاعة الله، كان ولا يزال من الاصول المشتركة للأديان السماوية.

كما نعلم أن للتقوى فروعاً كثيرة، التقوى في العمل والحديث والتفكير والتية والعزم، كما أن للتقوى العملية فروعاً متعدّدة أيضاً، التقوى الأخلاقية والاجتماعية والسياسية، والخلاصة هي أن للتقوى مفهوماً واسعاً يقابل كل إهمال وتسيب في كافة الأمور، ولذا جاء في تفسير القرطبي عن بعض الفضلاء العرفاء أن هذه الآية هي بمثابة القطب من الرحي وأن كل الآيات القرآنية تدور حولها «١».

(١) تفسير القرطبي، ج ٣، ص ١٩٧٨.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٨٦

٧- الدعوة إلى العدالة الاجتماعية هي أصل آخر من هذه الاصول الأساسية، وقد وردت بصراحة في الآية السابعة، يقول تعالى: «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ». ولم يكن كذلك حين يستحيل على المجتمع البشري بلوغ أهدافه النهائية أي التكامل المعنوي مع غياب إقامة القسط والعدالة الاجتماعية؟

الملفت للنظر هو قوله: إن الهدف من إرسال الرسل والبيّنات والكتاب والميزان هو قيام الناس بالقسط والعدل مباشرة مع تنفيذه، لا أن يفرض عليهم ذلك فرضاً، أجل فضمن هذا الهدف مرهون بلوغ المجتمع البشري مرحلة إقامة القسط والعدل وتنفيذه بذاته. وحول المراد من «البيّنات والكتاب والميزان» هناك أبحاث كثيرة للمفسرين، أقواها كما يبدو أن «البيّنات» معنيّ واسعاً شاملاً لكل المعجزات وأنواع الأدلة العقلية التي تقام لإثبات النبوة، و «الكتاب» إشارة إلى مجموع تعاليمهم، واما «الميزان» فيعني معايير قياس الحق من الباطل، أو القوانين والمقرّرات التي يصل بها الحق إلى أهله.

وهذه كلها وسائل لبلوغ العدالة الاجتماعية وإقامة القسط والتي تكون بدورها مقدّمة لتوفير الأرضية المناسبة لتربية الإنسان وتعليمه وتكامله «١».

٨- أهميّة «الإيمان» و «العمل الصالح» كقيم أساسية لإنقاذ البشرية هي أيضاً من الاصول المشتركة لتعاليم الأنبياء، نقرأ في ثامن آية من البحث:

«إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنَ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ».

جاء في أحد التفاسير المعروفة: إن أهل النجاة هم المسلمون الذين آمنوا بنبي الإسلام صلى الله عليه و آله، وثبتوا على إيمانهم وعملوا صالحاً وكذا الذين عاشوا قبل ظهور نبي الإسلام صلى الله عليه و آله وآمنوا بالأديان السماوية وعملوا صالحاً. طبقاً لهذا التفسير ف «الإيمان» و «العمل الصالح» كانا كأصلين عامين في برامج كل الأديان الإلهية لغرض نجاه الإنسان.

(١) لمزيد من الإطلاع حول هذا الموضوع راجع التفسير الأمثل ذيل الآية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٨٧

وهناك طبعاً تفاسير اخرى لهذه الآية بإمكانك الإطلاع عليها بالرجوع إلى التفسير الأمثل ذيل الآية ٦٢ من سورة البقرة.

٩- القضاء على «السنن الخاطئة» التي تتسبب في انحراف المجتمعات البشرية وتأخرها يعد أيضاً من الاصول العامة لدعوة الأنبياء.

في تاسع آية من البحث وضمن الإشارة إلى مسألة زواج النبي الأكرم صلى الله عليه وآله من مطلقه ابنه بالتبني والتي نزلت لازالة إحدى العادات الجاهلية (حيث كانوا يعتبرون الإبن بالتبني كالإبن الحقيقي) يقول تعالى: «مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرْجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا».

حول ماهية هذه السنة التي كانت جارية في الأقسام السابقة والتي عطف الله عليها مسؤولية النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، قال فريق من المفسرين: المراد بها هو السنة الإلهية في رفع الموانع من الاستفادة من اللذائذ المحللة، أو سنيّة تعدد الزوجات التي كانت جارية في الامم السابقة أيضاً «١».

في حين أنّ هناك أدلته واضحة في الآيات التي تحفّ بهذه الآية تشهد على أنّ هذه السنة كانت ترتبط بإبلاغ رسالة إلهية لا تيسير اللذائذ المحللة، كما نقرأ في الآية التي بعدها:

«الَّذِينَ (الأنبياء السابقون) يُبْلَغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ».

لكن أنسبها كما يبدو هو أنّ هذه الرسالة الإلهية ليست سوى «القضاء على السنن الخاطئة» فحسب.

كما نقرأ في الآيات التي قبلها: «وَتَخَشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ» كما يصرّح بعد هذه الآية: «لِكِنِّي لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرْجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا».

(الأحزاب / ٣٧)

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٧، ص ٣٦١؛ تفسير الكبير، ج ٢٥، ص ١٣؛ تفسير القرطبي، ج ٨، ص ٥٢٧٧؛ وتفسير روح المعاني، ج ٢٢، ص ٢٥.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٨٨

هذه القرائن بمجموعها تشهد بوضوح على أنّ المراد من هذه السنة الخالدة للأنبياء السابقين هو إزالة السنن الخاطئة والخرافية تلك.

ولم لا؟! وأحد أهداف بعثة الأنبياء هو تخليص الناس من مخالب مثل هذه السنن الباطلة، لتحل محلها السنن الإلهية.

١٠- مقاومة المنافقين بشدة وعدم الرضوخ لهم هي إحدى الاصول الاخرى لتعاليم الأنبياء الثابتة، كما جاء في نفس هذه الآية وبعد الإشارة إلى أعمال المنافقين القبيحة المتعمدة في المجتمع الإسلامي، والتهديد بأن هؤلاء المنافقين الكذابين، والذين في قلوبهم مرض والذين يشيعون الأباطيل لو لم ينتهوا عن غيهم ويرجعوا عن مواصلة أعمالهم العدوانية، لجعلناك تنور عليهم وتطردهم من كلّ مكان وتمزقهم شراً ممزقاً: «سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا». (الأحزاب / ٦٢)

صرّح معظم المفسرين بأنّ المراد من هذه السنة هي نفس مجاهدة المنافقين والأفراد المضرين الذين لا ينتهون عن أعمالهم الشنيعة في المجتمعات البشرية وعن عدائهم للأنبياء والمؤمنين «١».

١١- اصول العبادات والأعمال الحسنة: كانت أيضاً من ضمن التعاليم المشتركة لهؤلاء القادة الحقيقيين كما يقول تعالى في الآية الحادية عشرة من البحث، وضمن الإشارة إلى فريق من الأنبياء العظام: «وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ».

إشارة إلى أنّه فضلاً عن مقام النبوة والرسالة اللذين يتطلّبان استلام الوحي وإبلاغه

(١) راجع تفاسير مجمع البيان؛ والمراغى؛ والكبير؛ والقرطبي؛ وروح البيان، ذيل الآيات مورد البحث.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٨٩

للناس، كانت الإمامة أى القيادة الشاملة لكل الابعاد الجسمانية والروحانية، الظاهرية والباطنية للناس ضمن مسؤوليتهم، وكان دورهم فى هذه المرحلة هو «الهداية بأمر الله» أى الإيصال إلى المطلوب وبلوغ المراد، وضمن هذه المرحلة أوحى الله إليهم فعل الخيرات والعبادات.

و مع أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة تعدان من الخيرات والأفعال الحسنة، فقد تم التأكيد عليهما بالخصوص نظراً لأهميتهما.

حول المراد من «الوحي» هنا فى جملة «أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فَعَلَّ الْخَيْرَاتِ»، فقد اعتبره أكثر المفسرين بمعنى «الوحي التشريعى»، أى إن أنواع الأعمال الحسنة وضعناها ضمن برامجهم الدينية «١»، لكن البعض الآخر فسّره بمعنى «الوحي التكويني» أى أننا منحناهم التوفيق لأداء هذه الأعمال بلهفة وأيدناهم بروح القدس ليؤدوها على أتم وجه.

١٢- حكومة الصالحين: وبشكل عام فقد كانت حكومة «العدل الإلهي» مندرجة أيضاً ضمن برامج الأنبياء، سواء وفقوا فى إقامتها أم أعاقتهم ظروفهم وأوضاعهم الخاصة عن ذلك.

فى الآية الثانية عشرة من البحث إشارة لطيفة إلى هذا المعنى، يقول تعالى: «وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ (التوراة) أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ».

المرحوم الطبرسى فى مجمع البيان ذكر ثلاثة أقوال فى تفسير «الزبور» و «الذكر»:

١- «الزبور» يعنى كل كتب الأنبياء و «الذكر» يعنى اللوح المحفوظ، أى أن هذا الحكم جاء أولاً فى اللوح المحفوظ ثم فى كل كتب الأنبياء.

٢- «الزبور» يعنى الكتب النازلة بعد التوراة و «الذكر» إشارة إلى التوراة.

(١) طبقاً لهذا التفسير فلآية محذوف تقديره: وأوحينا إليهم الأمر بفعل الخيرات.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٩٠

٣- «الزبور» يعنى زبور داود و «الذكر» يعنى التوراة «١».

على أية حال فالآية تبين أن هذا كان حكماً عاماً وسنة إلهية دائمة، تقوم بتوجيه تعاليم الأنبياء نحو تأسيس حكومة الصالحين والظاهرين فى الكرة الأرضية، وقد وفق البعض منهم أحياناً فى تشكيل نموذج لها، وطبقاً للروايات المتواترة فسيتجسد مصداقها الكامل عند ظهور المهدي (أرواحنا فداء).

ومن البدهة أيضاً أن ضمان أهداف أديان الأنبياء الإلهيين مرهون بتشكيل مثل هذه الحكومة، إذ أثبت التجارب أن الأحكام الإلهية لا يمكن تطبيقها بالكامل عن طريق الوصايا والنصائح والحكم فقط، بل لابد من استثمار كل طاقات الحكومة وفى كافة الأبعاد، مع وضع الإنسان منذ لحظة ولادته وإلى وفاته تحت إشراف التعاليم السماوية.

التعبير ب «عبادى الصالحون» تعبير جامع وبلغ جداً، شامل لكل المؤهلات من حيث «الإيمان» و «العلم» و «التقوى» و «الإدارة والتدبير»، أجل، فمثل هؤلاء الأشخاص يمكنهم أن يكونوا وارثى حكومة السماء فى الأرض.

١٣- الدعوة إلى الوحدة: الاختلاف أكبر عامل لفساد المجتمع وضياع الطاقات المادية والمعنوية لكل قوم وشعب، ومن هنا فأحد

الأهداف الرئيسية للأنبياء وبرامجهم العامة هو محاربة الاختلافات، كما نقرأ فى الآية الثالثة عشرة من البحث حيث يقول تعالى:

«كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً (ثم ظهر الاختلاف فيما بينهم) فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ» (و ليقضوا على تلك الخلافات).

ومع هذا فقد أشعل فريق نار الفتنة وشق الكلمة، بل اختلفوا حتى في الحقائق النازلة في الكتب السماوية: «وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٧، ص ٦٦، ووردت نفس هذه المعاني الثلاثة في تفسير القرطبي.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٩١

بَيْنَهُمْ».

لكن: «فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

وبناءً على هذا فقد ظهر هنالك نوعان من الاختلاف بين الامم، الاختلاف الأول قبل ظهور الأنبياء والناشئ من اختلاط العلوم البشرية بأنواع الأخطاء والجهل والإشتباه في تشخيص الحقائق، ففرّق الأنبياء بين الحق والباطل ووضعوا نهاية لتلك الخلافات مدعومين بالوحي.

الاختلاف الذي كان بعد ظهور الأنبياء، والناشئ من البغي والظلم والحسد وعبادة النفس، حيث قام فريق بتفسير ثمره تعاليم الأنبياء طبقاً لميولهم ومصالحهم وحرّفوا الحقائق وفقاً لأهوائهم، فلم ينبج من عاقبة هذه الاختلافات سوى المؤمنين الحقيقيين نظراً لعدم إمكان إزالة هذه الاختلافات إلّا في ظلّ الإيمان والتقوى.

ومن هنا يتّضح الجواب عن سؤال يثار حول هذه الآية وهو أنه: لو كان مجيء الأنبياء هو من أجل حلّ الخلافات العقائدية والفكرية والاجتماعية، فلماذا واصلت هذه الاختلافات مسيرها بعدهم أيضاً؟

الآية المذكورة تقول بوجود التفاوت بين هذين الاختلافين، فالأول نابع من الجهل والغفلة وعدم الإطلاع وقد زال ببعثه الأنبياء، أما الآخر فقد كان متضمناً لدوافع كالبغي والظلم والعناد والغرور حتى دفع بالبعض إلى مواصلة طريق الفرقة عن قصد، حتى بعد أن تبين لهم الحق، وفي الواقع فقد كان الاختلاف الأول نابعاً من قصور الناس والثاني من تقصيرهم.

على أيّة حال يستفاد من الآية الآنفه الذكر أنّ الدعوة إلى الوحدة ومحاربة الاختلاف وفي أبعاد ومجالات مختلفة كانت من بين الاصول العامة لمسؤولية الأنبياء.

١٤- الدعوة إلى الإصلاح والنهي عن الفساد: تعدد أيضاً من البرامج الرئيسية لدعوة

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٩٢

الأنبياء، وبعبارة أخرى فالأديان الإلهية وبالإضافة إلى المسائل الشخصية، كانت ترقب عن كثب وضع المجتمع أيضاً وتدعو الكل للمشاركة في إصلاحه ومحاربة الفساد.

ولذا تُشَمُّ من الآية «الرابعة عشرة» من بحثنا حالة من الاعتراض العام على الأقوام السابقة التي ابتليت بالعذاب الإلهي، حيث يقول تعالى: «فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ (لم يكن العلماء في الامم التي قبلكم متصدّين للحكم ولذا شاع بينها الفساد واستحقت عذابنا) إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ».

«اولوا بقتية» أي «أصحاب إرث وثبات»، وحيث إنّ الإنسان يدخر عادة الأشياء النفيسة ويحتفظ بها، فقد ورد هذا التعبير بحق اولئك الذين يمتلكون ثروة نفيسة أي أصحاب العلم والشخصية والقدرة والنفوذ، ومثل هؤلاء هم الذين يتمكنون من الوقوف بوجه الفساد ويساعدون على بقاء الامم.

على أيّة حال يتبين من هذا التعبير أنّ التكليف بالأمر بالمعروف، ومحاربة الفساد خصوصاً على مستوى العلماء وأصحاب القدرة والنفوذ، كان موجوداً في كلّ الأديان الإلهية، وأنّ الكثير من الامم قد استحقّ العقاب الإلهي نتيجة الانحراف عن هذه المهمة.

١٥- التسليم لأمر الحقّ تعالى: الأصل الآخر الموجود في كلّ الأديان، والحاكم عليها هو أصل التسليم المطلق لأمر الله، لذا نقرأ في

آخر آية من البحث: «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ».

أجل فروح وجوهر كل الأديان تعبر عن الحق وعن أمر الخالق وتمثل القوانين الإلهية وجميع الحقائق، ونظراً لكون دين نبي الإسلام صلى الله عليه وآله من أفضل الأديان الإلهية فقد اختير له اسم الإسلام وإلا فبالإمكان إطلاقه على كل الأديان السماوية. وبناءً على هذا فالآية لا تعنى أن دين نبينا هو الإسلام (وان كان هذا هو الواقع)، بل المراد أن الإسلام كان الدين الحقيقي في كل العصور، لأن التسليم أمام العقيدة الواقعية في

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٩٣

مقام العمل بالأحكام الإلهية كان موجوداً في كل الأديان الإلهية، وبناءً على هذا فالأديان الإلهية وإن كانت قد بدأت بأبسط أشكالها إلى أن انتهت بأكملها إلى دين محمد صلى الله عليه وآله، لكن روحها كلها واحدة ألا وهي التسليم المطلق المشار إليه أعلاه، ولا تباين أبداً بينها من هذه الناحية.

كما يقول تعالى في مكان آخر: «وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ (والتسليم لأمر الله) دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ». (آل عمران / ٨٥)

ثمرة البحث:

هذه الاصول الخمسة عشر هي من أهم الاصول المشتركة بين كل الأديان الإلهية، وبعبارة اخرى فإنها تشكل العمود الفقري لكل المذاهب السماوية وجميع تعاليم الأنبياء، كما أن بالإمكان تشخيص الأديان الحقيقية من المذاهب المختلفة والانحرافية عن طريقها. كما أن التدقيق فيها يعكس من جهة اخرى تلك القيم السامية لتعاليم الأنبياء وعلى مر القرون والأعصار، بالإضافة إلى كونها لوحدها من الأدلة على صدق دعوتهم وحقانية دينهم.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٩٥

الأنبياء عليهم السلام في القرآن المجيد

إشارة

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٩٧

الأنبياء في القرآن المجيد

تمهيد:

إشارة

سيتم في هذا البحث الإجابة عن عدة أسئلة مهمة تدور حول أنبياء الله ورسوله:

١- عدد الأنبياء في القرآن.

٢- الأنبياء اولوا العزم في القرآن.

٣- الكتب السماوية للأنبياء.

٤- الفرق بين الرسول والنبى.

٥- لماذا ظهر الأنبياء الكبار من منطقة خاصّة؟

٦- تكامل الأديان.

القرآن هو محور كلّ هذه الأبحاث بطبيعته الحال، وعلى أساس التفسير الموضوعى، أى أنّه سيتمّ البحث فى هذه الجهات على ضوء القرآن أولاً، ومن ثمّ نبحت على حدة باقى المسائل المستفادة من الروايات الإسلامية، والتواريخ والأدلة العقلية، لتتضح مختلف أبعاد هذه المباحث.

١- عدد الأنبياء فى القرآن:

لنتمعن فى آيات القرآن الكريم خاشعين:

نقرأ فى قوله تعالى «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ». (المؤمن / ٧٨)
يتّضح من هذه الآية عدم مجيء أسماء فريق من الأنبياء والرسل الإلهيين فى القرآن

نفحات القرآن، ج٧، ص: ٢٩٨

المجيد (على الأقل فى السور النازلة قبل سورة المؤمن) «١»، وأن عددهم يزيد على المذكور فى القرآن.

نظير هذا المعنى ورد أيضاً فى قوله تعالى «وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا» (النساء / ١٦٤).

طبعاً لم يتّضح عدد انبياء الله ورسله من خلال تعرّض آيات القرآن لذكر العدد، لكن يستفاد من بعض الآيات أنّ عددهم كان كبيراً جداً، كما نقرأ فى القرآن الكريم حيث يقول تعالى «إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ». (فاطر / ٢٤)
مع الأخذ بنظر الاعتبار عنوانى «بشيراً» و «نذيراً»، الواردين فى حقّ النبى الأكرم صلى الله عليه وآله فى صدر الآية، يتّضح أنّ المراد من كلمة «نذير»، فى ذيل الآية هم انبياء الله ورسله أيضاً، كما يستفاد من عموم مفهوم الآية أنّ هناك نبياً إلهياً كان قد ظهر بين كلّ أمة من الامم فيما مضى وأنّه قام بتحذيرهم. وتفسير بعض المفسّرين لكلمة «نذير» هنا بالمعنى الأوسع الشامل لكلّ الفقهاء والعلماء الذين يندرون الناس ويحذرونهم، يخالف ظاهر الآية بطبيعة الحال.

وبهذا يتّضح جيّداً أنّ عدد الأنبياء من وجهة نظر القرآن عدد هائل!

سؤال:

وهنا يرد هذا السؤال وهو: كيف يُمكن الجمع بين مضمون الآية أعلاه وبعض الآيات القرآنية التى تخاطب نبى الإسلام صلى الله عليه وآله و آله بالقول: «وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِّنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلِكَ مِنْ نَذِيرٍ». (سبأ / ٤٤)
وكذا فى قوله تعالى: «تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ» (٣). (يس / ٥-٦)

(١) سورة المؤمن وطبقاً لقول: هى السورة السابعة والخمسون النازلة على النبى صلى الله عليه وآله.

(٢) سورة النساء طبقاً لروايته: هى السورة الثانية والتسعون النازلة على النبى صلى الله عليه وآله.

(٣) ذهب معظم المفسّرين إلى أنّ «ما» فى جملة «مَا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ» «نافية، لجملة «فَهُمْ غَافِلُونَ»، والآية الثالثة من سورة السجدة: «لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ»، خير شاهد على هذا المدعى، فى حين اعتبر البعض الآخر «ما» موصولة أو مصدرية، لكن كلا هذين الاحتمالين ضعيفان حسب الظاهر، والذى قيل إنّما على أساس المعنى الأول.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٢٩٩

الجواب:

الظاهر أنّ المراد من ال «نذير» في هذه الآيات هم الأنبياء العظام خصوصاً الأنبياء اولى العزم، الذين شاعت سمعتهم في كل مكان، وإلا فهناك حجة إلهية في كل زمان للمشتاقين والطالبيين طبقاً لمختلف الأدلة العقلية والنقلية التي بحوزتنا، ولو اعتبرت الفترة ما بين المسيح عليه السلام ونبي الإسلام صلى الله عليه وآله فترة ركود وجمود، فإنما هي بسبب عدم ظهور نبي عظيم ومشهور، لا عدم وجود حجة إلهية مطلقاً.

ولذا يقول الإمام على عليه السلام حول هذا الأمر: «إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتَابًا وَلَا يَدْعَى نَبُوَّةً» (١).

على أية حال يستفاد من مجموع ما قيل أنّ عدد انبياء الله ورسله وعلى طول التاريخ كان كبيراً جداً، وأنّ القرآن لم يشخص لهم رقماً بالخصوص.

عدد الأنبياء الذين صرح القرآن بأسمائهم يبلغ ٢٦ نبياً فقط وهم عبارة عن: آدم، نوح، إدريس، صالح، هود، إبراهيم، إسماعيل، إسحاق، يوسف، لوط، يعقوب، موسى، هارون، شعيب، زكريا، يحيى، عيسى، داود، سليمان، إلياس، اليسع، ذو الكفل، أيوب، يونس، عزيز، ومحمد (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين).

وجاء في سورة الانعام اسم ثمانية عشر منهم، يقول تعالى: «وَتَلَكَّ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ* وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمَن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ* وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ* وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ». (الأنعام / ٨٣-٨٦)

وجاء في سورة الأنبياء اسم كل من إدريس وذا الكفل: «وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ». (الأنبياء / ٨٥)

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٣٣ و ١٠٤.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٣٠٠

نفحات القرآن ج ٨

واشير في سورة هود إلى اثنين آخرين منهم (هود وصالح): «وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصَيِّبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ». (هود / ٨٩)

واشير في سورة العنكبوت إلى شعيب: «وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا». (العنكبوت / ٣٦)

واشير في سورة التوبة إلى عزيز: «وَقَالَتُ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ». (التوبة / ٣٠)

ونقرأ في سورة آل عمران: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ». (آل عمران / ٣٣)

أخيراً وفي آخر آية من سورة الفتح، ورد اسم خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله: «مُحَمَّدَ رَسُولَ اللَّهِ».

وهذا هو مجموع اولئك العظماء الستة والعشرين في مقاطع خاصه من آيات القرآن.

لكن علاوة على هذا فهناك ٢٦ نبياً عظيماً آخر اشير إليهم في القرآن دون التعرض لذكر أسمائهم مثل: اشموئيل (١) الذي اشير إليه في سورة البقرة تحت عنوان: «وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ...». (البقرة / ٢٤٧)

ويوشع الذي اشير إليه في سورة الكهف تحت عنوان: «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ...». (الكهف / ٦)

إذ يعتقد الكثير من المفسرين أنّ المراد به هنا هو يوشع بن نون.

و «أرميا» الذي ذكر في سورة البقرة تحت عنوان: «أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ...».

(البقرة / ٢٥٩)

وإن اعتبره البعض «عزير» أو الخضر، لكنه ورد في رواية الإمام الباقر عليه السلام باسم «أرميا».

«الخضر» الذي جاء في آيات متعددة من سورة الكهف من جملتها الآية (٦٥) تحت عنوان: «عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا»، وإن لم يرد إسمه صريحاً في هذه الآيات، لكن طبقاً للمشهور فهو أيضاً من أنبياء الله ورسله، وهنالك قرائن متعددة على ذلك في آيات من سورة الكهف.

كما يستفاد من قوله تعالى أن الوحي كان ينزل على «أسباط بني إسرائيل»، حيث يقول تعالى: «وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ». (النساء / ١٦٣)

(١) قال البعض أن إسمه «يوشع»، وذهب غيرهم إلى أنه «شمعون»، لكن المشهور بين المفسرين هو نفس «اشموئيل» (تفسير مجمع البيان، ج ١ و ٢، ص ٣٥٠).

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٣٠١

«الأسباط»: جمع سبط على وزن (قِسط) تعنى هنا قبائل بني إسرائيل التي كان لكل واحدة منها نبياً، خلاصة القول هي أن عدد الأنبياء الذين أشار الله إلى قصصهم وحياتهم في القرآن يتجاوز ال ٢٦ نبياً، لاختصاص هذا العدد بمن صرح القرآن بأسمائهم فقط.

١- عدد الأنبياء في الأحاديث والروايات الإسلامية:

هناك في الروايات الإسلامية بحث واسع حول عدد الأنبياء والرسل، من جملتها ما جاء في رواية مشهورة أن عددهم هو ١٢٤ ألفاً، كما بلغ عددهم في بعضها ٨ آلاف نبي فقط أربعة آلاف منهم من بني إسرائيل وأربعة آلاف من غيرهم «١».

جاء في حديث عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قال: «خلق الله عزوجل مائة الف نبي وأربعة وعشرين الف نبي، أنا أكرمهم على الله ولا فخر (لأن ذلك من لطف الله)، وخلق الله عزوجل مائة الف وصي وأربعة وعشرين الف وصي، فعلى أكرمهم على الله وأفضلهم» «٢».

ونقرأ في حديث آخر للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله، عن أبي ذر رحمة الله، قلت: يارسول الله كم النبيون؟ قال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألف نبي. قلت كم المرسلون منهم؟ قال ثلاث مائة وثلاثة عشر جمّاً غفيراً» «٣».

وفي حديث آخر ينقل الإمام الباقر عليه السلام عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «كان عدد جميع الأنبياء مائة ألف نبي وأربعة وعشرين الف نبي، خمسة منهم اولوا العزم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد» «٤».

٢- الأنبياء اولوا العزم في القرآن

تمت الإشارة في القرآن المجيد إلى الأنبياء اولوا العزم وذلك. حين كان الخطاب موجهاً

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٥٣٧.

(٢) بحار الأنوار، ج ١١، ص ٣٠، ح ٢١.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٢، ح ٢٤.

(٤) المصدر السابق، ص ٤١، ح ٤٣.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٣٠٢

إلى نبي الإسلام صلى الله عليه وآله: «فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أَوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ».

(الاحقاف / ٣٥)

للمفسرين كلام طويل عن هويّة اولى العزم من الأنبياء وهناك احتمالات وتفسيرات متعدّدة حول هذا الموضوع يفتقر معظمها إلى الدليل.

ومن جملتها:

١- الأنبياء كلّهم اولوا العزم لتمتعهم بعزم راسخ وإرادة قويّة! لكن هذا التفسير إنّما يصحّ حينما تكون «من» في جملة «من الرسل» بمعنى البيان في حين أنّ ظاهر الآية يدلّ على كونها تبيضية، وقد نقل المرحوم الطبرسي في مجمع البيان هذا الكلام عن أكثر المفسّرين «١».

٢- الأنبياء اولوا العزم ٣١٣ نبياً، كما جاء في الدرّ المنثور عن جابر بن حيان (مرسلًا) أنّه قال: «بلغني أنّ اولى العزم من الرسل كانوا ثلاث مائة وثلاثة عشر».

٣- ويقول البعض بأنهم اولئك الثمانية عشر نبياً المذكورة أسماؤهم في الآيات ٨٣-٨٦ في سورة الأنعام «٢».

٤- أنّهم اولئك الأنبياء الذين تحمّلوا مزيداً من الصبر أمام أذى أقوامهم، وواجهوا كثيراً من الشدائد والمشاكل، وهم تسعة: نوح، إبراهيم، إسماعيل، يعقوب، يوسف، أيوب، موسى، داود، عيسى عليهم السلام «٣».

لكن من الواضح أنّ الأنبياء الذين صمدوا أمام المشاكل والمصاعب لم ينحصروا بهؤلاء، إذ الكثير منهم ذاق مشاكل ومصاعب أقسى وأمر، فضلاً عن عدم كون الإبتلاء بالمشاكل دليلاً على كونهم من اولى العزم.

٥- أنّهم كانوا أنبياء صبروا أمام أذى الأعداء، وهم ستّة: نوح وإبراهيم وإسحاق (إسماعيل) ويعقوب ويوسف وأيوب.

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٩ و ١٠، ص ٩٤.

(٢) تفسير روح البيان نقل هذا التفسير عن الحسن بن الفضل، ج ٢٦، ص ٣١.

(٣) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٣٠٣

لكن وكما قلنا فالأنبياء الصابرون لا ينحصرون بهؤلاء، بل إنّ أنبياء مثل لوط ويحيى وجرجيس وأمثالهم تحمّلوا ضغوطاً وأذىً كثيراً.

٦- أنّهم كانوا أنبياء مأمورين بالجهاد ومحاربة الأعداء إعلاءً لدين الله، وكانوا ستّة: نوح وهود وصالح وموسى وداود وسليمان.

سقم هذا التفسير واضح أيضاً إذ لم يقاتل الأعداء كلّ هؤلاء الستّة كما لم يتخلّ عن القتال غيرهم مطلقاً «١»!

٧- أفضل تفسير ورد حول اولى العزم في القرآن المجيد هو أنّهم أنبياء جاءوا بشريعة جديدة، وكانوا أربعة من السابقين (نوح وإبراهيم وموسى وعيسى) حيث يكتملون نبي الإسلام صلى الله عليه وآله خمسة، والتعبير ب (اولو العزم) إنّما هو لأجل أنّ الأنبياء أصحاب الشريعة الجديدة تقع على عاتقهم مسؤولية خطيرة، وبالتالي يحتاجون إلى العزم والإرادة لأدائها، هذا المعنى نقل من حديث عن الإمامين الباقر والصادق «عليهما السلام».

المرحوم الطبرسي نقل هذا القول في مجمع البيان عن ابن عباس، كما جاء هذا التفسير في «روح المعاني» عن الإمامين العظيمين الباقر والصادق عليهما السلام، وكذا عن ابن عباس، كما ينقل عن المفسّر المعروف السيوطي أنّ هذا من أصحّ الأقوال، وينقل عن بعض العظام من العلماء أنّ الأسماء المقدّسة لهؤلاء الأنبياء الخمسة قد ذكرت ضمن هذا البيت الشعري:

اولوا العزم نوحٌ والخليل الممجد وموسى وعيسى والحبيب محمّد صلى الله عليه وآله «٢»

٣- الكتب السماوية للأنبياء

بديهي أن لكل واحد من الأنبياء اولى العزم (طبقاً للتفسير الأخير الذى ذكرناه) كتاباً سماوياً حيث إن اسم البعض منها معروف بالكامل، فالقرآن المجيد هو الكتاب السماوى

(١) هذه الأقوال والتفسيرات نقلت بشكل رئيسى من تفاسير مجمع البيان؛ وروح المعانى؛ والدر المنثور ذيل الآية ٣٥ من سورة الأحقاف.

(٢) تفسير روح المعانى، ج ٢٦، ص ٣٢. نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٣٠٤

لنبي الإسلام صلى الله عليه وآله والإنجيل كتاب المسيح عليه السلام والتوراة كتاب موسى عليه السلام.

لكن ما هو اسم الكتاب السماوى لنوح وإبراهيم؟ بالإمكان الإستنتاج من الآية ١٩ من سورة الأعلى (صحف إبراهيم وموسى) أن اسم كتاب إبراهيم هو ال «صحف»، بالضبط كما ذكروا اسم ال «صحف» لكتاب نوح أيضاً.

كما ورد اسم البعض من الكتب الاخرى فى القرآن من جملتها ال «زبور» الذى أنزله الله على داود «وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا». (النساء / ١٦٣) و الظاهر أن الإسم الآخر للزبور هو المزامير (جمع مزموور أى الأشعار الروحية بالصوت الجذاب).

«الزبور»: لم يكن كتاباً سماوياً حاوياً على الأحكام والشريعة الجديدة.

وبعبارة اخرى فالكتب السماوية النازلة على الأنبياء على ضربين:

١- الكتب السماوية الحاوية على الأحكام التشريعية الجديدة، والتي تعلن عن دين جديد كالكتب الخمسة النازلة على الأنبياء الخمسة اولى العزم.

٢- الكتب الخالية من الأحكام الجديدة، المشتمة على النصائح والمواعظ والوصايا والأدعية والمناجاة، كتاب «الزبور» أو الكتاب المنسوب ل «إدريس» عليه السلام هو من هذا القبيل.

نختم هذا البحث برواية عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله:

يقول أبو ذر: قلت يارسول الله كم الأنبياء؟ فقال: «مائة الف نبي وأربعة وعشرون الفاً.

قلت كم المرسلون منهم؟ قال: ثلاثمائة وثلاثة عشر».

ثم يضيف قائلاً: فسألته: كم أنزل الله من الكتب السماوية؟ قال: «١٠٤ كتب، ١٠ كتب على آدم و ٥٠ كتاباً على شيث و ٣٠ كتاباً على

إدريس و ١٠ كتب على إبراهيم (التي يبلغ مجموعها مائة كتاب) والتوراة والإنجيل والزبور والفرقان» (١).

(١) تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٧٦.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٣٠٥

٤- الفرق بين الرسول والنبي

«نبي» من مادة «نبا» بمعنى «الرسالة» أو «الرسالة المهمة»، وإنما يطلق «النبي» على الأنبياء الإلهيين، نظراً لإيصالهم رسالة الله إلى الخلق، وقيل أحياناً إن هذه المفردة مأخوذة من مادة «نبوة» (على وزن حمزة) بمعنى الرفعة والسمو، وإطلاق هذه المفردة على الأنبياء إنما هو لعلو مقامهم ومرتبهم.

«رسول» هى فى الأصل من مادة «رسل» (على وزن فعل) التى أصلها الحركة بتوذة وسكينه على حد قول الراغب فى المفردات، وحيث

إنّ المبعوثين من قبل الله مأمورون بمعاملة الناس بهدوء وسكينة فقد اطلقت لفظه «رسول» عليهم، لكن لكلمة «الرسول» معنى واسعاً شاملاً لكل من الملائكة وكذلك الأنبياء الإلهيين، وقد استعمل كلا المعنيين في القرآن بشكل مكثف.

على أية حال فاستعمال كل من لفظتي «نبي» و «رسول» ومشتقاتهما كثير جداً في القرآن، وحول الفرق بينهما أى من الذى يسمّى نبياً ومن يسمّى رسولاً؟ فالحديث طويل.

جاء فى روايات متعدّدة منقولة عن أهل البيت عليهم السلام أنّهم قالوا فى معرض الإجابة عن السؤال عن الفرق بينهما: «النبى الذى يرى فى منامه (ويستلم الوحي الإلهي عن هذا الطريق) ويسمع الصوت (صوت الملك) ولا يعاين الملك، والرسول الذى يسمع الصوت، ويرى فى المنام، ويعاين الملك» (١).

كما يعتقد البعض أنّ «النبى» هو الذى يستلم الوحي، سواء كان مكلفاً بإبلاغه أم لا، لكن لو سألوه فسيجيب حتماً، أمّا الرسول فهو صاحب شريعة، ومأمور بإبلاغها دون انتظار للسؤال أو الطلب.

وبعبارة اخرى ف «النبى» هو كالطبيب الماهر الذى يقابل المرضى فى عيادته، فهو لا

(١) هذا هو الحديث الذى نقله المرحوم الكليني عن زارة عن الإمام الباقر عليه السلام اصول الكافي، ج ١ ص ١٧٦ كما نقل نفس هذا المضمون فى رواية اخرى عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام (بتغيير بسيط)، وورد نفس هذا المضمون فى روايتين اخريين إحداهما عن الإمام الباقر والاخرى عن كلا الإمامين (الباقر والصادق عليهما السلام) فى اصول الكافي بتفاوت بسيط، المصدر السابق، ص ١٧٦ و ١٧٧.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٣٠٦

يذهب وراء المرضى، أمّا لو راجعه أحدهم فلن يقصّر فى علاجه، أمّا الرسول فهو كالطبيب السيار الذى يطوى المدن والقرى والجبال والسهول والصحارى ويتوجّه إلى كلّ مكان ليتعرّف على المرضى ويشرع فى علاجهم، إذ هو فى الحقيقة عين نابعة يسعى معيها وراء العطاشى، وليس كمخزن الماء الذى يبحث عنه الظمثان!

الجمع بين هذا المعنى والذى سبقه هو فى غاية السهولة، إذ كلّما كانت المسؤولية أكبر كلّما كان استلام الوحي أوضح - وبعبارة اخرى فهناك تناسب طردى بين حجم المسؤولية وبين وضوح استلام الوحي - فالنبى يرى فى المنام فقط أو يسمع صوت الملك، أمّا الرسول فيعاين الملك فى اليقظة أيضاً.

كما اعتبر البعض الرسل أصحاب شريعة جديدة أمّا الأنبياء فليس من الضروري أن تكون لهم شريعة.

التأمل فى آيات القرآن يبيّن أنّ مقامى «النبوة» و «الرسالة» قد جمعا فى كثير من الموارد فى شخص واحد، مثل نبى الإسلام صلى الله عليه وآله الذى اعطى له كلّ من عنوانى النبى وكذلك الرسول فى الآيات القرآنية (١).

وكذلك الكثير من الأنبياء الإلهيين الآخرين كانوا يتمتّعون بمقامى النبوة والرسالة، (وبناءً على هذا فالذين يقولون بوجود نسبة العموم والخصوص المطلق بينهما، إنّما ينطلقون من هذه الآيات).

لكنهما ظهرا فى بعض الآيات كمعنيين متقابلين وكأنتهما مفهومان متغايران، كما جاء ذلك فى قوله تعالى: «مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ...» (الحجّ / ٥٢)

إذ يجب أن يكون الرسول والحالة هذه مكلفاً بالسعى لإبلاغ الرسالة الإلهية إلى الخلق

(١) نقرأ فى سورة (الأعراف / ١٥٧) حول نبى الإسلام: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ»، وجاء فى سورة (الأحزاب / ٤٥): «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا»، ونقرأ فى سورة (مريم / ٥١) حول موسى: «وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ

رَسُولًا نَبِيًّا» وفي نفس السورة الآية ٥٤ حول إسماعيل: «وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا...»، إذ يبدو من هذه الآيات أن كلا هذين المفهومين قد جمعا في شخص واحد.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٣٠٧

والإنذار والبشارة دون «النبي».

نستنتج من هذا البيان أن لكل من هاتين المفردتين معنيين إثنيين، تجتمعان في أحدهما وتتقابلان في الآخر.

٥- لماذا ظهر الأنبياء الكبار من منطقة خاصة؟

يثار أحياناً السؤال عن ظهور الأنبياء اولى العزم أصحاب الشريعة والكتاب السماوى من الشرق الأوسط طبقاً لصريح تواريخهم، فقد ظهر نوح عليه السلام فى أرض العراق «١»، وكان مركز دعوة إبراهيم عليه السلام العراق والشام كما سافر إلى مصر والحجاز. وظهر موسى عليه السلام فى مصر ثم جاء إلى فلسطين، وكان مركز ولادته وظهور ودعوة المسيح عليه السلام الشام وفلسطين، وظهر نبي الإسلام صلى الله عليه وآله فى الحجاز.

كما عاش الأنبياء الآخرون غالباً فى هذه المناطق وبشكلٍ بحيث يمكن القول: إنَّ منطقة الشرق الأوسط كانت مركزاً لظهور الأنبياء فى العالم!

فما هو السبب وراء ظهور كلِّ اولئك الأنبياء من هذه المنطقة من العالم بالذات؟ وهل ياترى كانت المناطق الاخرى فى غنى عن بعثة الأنبياء أو قبولهم؟

الجواب:

لدى التأمل فى كيفية نشوء المجتمعات البشرية وظهور حضارتها لا يبقى هناك إبهام فى هذه المسألة يبعث على التساؤل والاستفهام، إذ إنَّ أقطاب مؤرّخى العالم يصرّحون بأنَّ الشرق (خصوصاً الشرق الأوسط) كان مهداً للحضارة الإنسانية، وأنَّ المنطقة التى يطلق

(١) نقرأ فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «كانت الكوفة ومسجدها فى زمن نوح عليه السلام وكان منزل نوح وقومه فى قرية على متن الفرات ممّا يلى غربى الكوفة» (تفسير العياشى، تفسير سورة هود، ح ١٩).

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٣٠٨

عليها اسم الهلال الخصيب (الهلال الخصيب إشارة إلى المنطقة التى تبدأ من وادى النيل وتمتدّ إلى مصبّ دجلة والفرات وشطّ العرب، وتظهر فى الخارطة على شكل هلال كبير) هى مهد الحضارات العظيمة فى العالم.

حضارة مصر القديمة التى تعدّ أقدم حضارة عرفتتها البشرية، وحضارة بابل فى العراق وحضارة اليمن فى جنوب الحجاز، وكذلك حضارة ايران والشامات، كلّها نماذج للحضارات البشرية المعروفة.

والآثار التاريخية الباقية فى هذه المناطق والكتابات الحجرية، كلّها شواهد حيّة على هذا المدعى.

إنّ عودة الحضارة الإنسانية فى هذه المناطق إلى سبعة آلاف سنة أو أكثر من جهه، والملازمة الشديدة بين الحضارة البشرية وبين ظهور الأنبياء الكبار، نظراً للحاجة الماسة للناس المتحضّرين إلى الأديان الإلهية أكثر من غيرهم، ضماناً للقوانين الحقوقية والاجتماعية، وتفجيراً لطاقات فطرتهم الإلهية، مع الحدّ من الإعتداءات والمفاسد من جهه اخرى، دفعتنا للقول بأنّ حاجة إنسان اليوم إلى الدين خصوصاً فى الدول الصناعية المتطوّرة هى أكبر من أى زمان آخر.

الأقوام المتوحّشة أو البعيدة عن ألوان المدنية ليس لها ذلك الإستعداد لتقبّل الأديان، بل ليس لها القدرة على نشرها على فرض تقبلها

لها.

لكن حينما يظهر الدين في المراكز المتحضرة لا يلبث أن يمدّ بجذوره ليشمل باقى النقاط، وذلك لاستمرارية تردّد الآخرين على مثل هذه المناطق، أملاً في حلّ مشاكلهم فضلاً عن تمرکز وسائل الدعاية والإعلام فيها أكثر من غيرها.

يمكن أن يقال: إذن فلماذا ظهر الإسلام الذى هو أكبر الأديان السماوية في منطقته متأخرة حضارياً؟

وللاجابة عن هذا السؤال نقول: لو دققنا النظر في الخارطة الجغرافية لرأينا أنّ هذه المنطقة المتأخرة أى «مكة» كانت في الواقع همزة وصل بين آثار خمس حضارات كبيرة

نفحات القرآن، ج٧، ص: ٣٠٩

وعريقة، بل هي بمثابة مركز الدائرة بالنسبة لتلك الحضارات.

ففي الشمال حضارة الروم الشرقية والشامات، وفي الشمال الشرقى حضارة ايران والكلدانيين والآشوريين، وفي الجنوب حضارة اليمن، وفي الغرب حضارة مصر القديمة.

ولنفس هذا السبب بالضبط وضع الإسلام وضمن مرحلة انتشاره واتساعه كلّ امتدادات هذه الحضارات الخمس تحت سيطرته وصهرها في بودقته حيث أخذ إيجابياتها وألغى سلبياتها، كما أضاف إليها مسائل عقائدية وعملية مهمة حتى أشرقت شمس الحضارة الإسلامية على كلّ هذه المناطق من أقصاها إلى أقصاها.

الخلاصة هي أنّه ومع الأخذ بنظر الاعتبار لما ذكرناه سابقاً يتضح السبب وراء بعث الله الحكيم لأنبيائه العظام من منطقة الشرق الأوسط، ولماذا كان مشرق الأرض قاعدة لانطلاق الأديان الإلهية الكبيرة؟

٦- تكامل الأديان

مقدمة: تاريخ الانبياء جزء من تاريخ الاديان

تعرض القرآن وفي آيات عديدة لبيان تاريخ الأنبياء ومن هنا سميت الكثير من سور القرآن بأسماء الأنبياء العظام أو أسماء امهم، حتى أن تاريخ نبي عظيم مثل موسى بن عمران عليه السلام تمّ التعرّض له في عدّة سور ومن مختلف الأبعاد.

بديهى أن ذكر هذه التواريخ وبهذه الكثافة ليس لقضاء الوقت أبداً، بل لأجل أن الكثير من مميّزات الأديان السماوية والأفكار والأخلاق الدينية والمعارف الإلهية، يمكنها أن تتجسّد بشكل حى بين ثنايا هذه التواريخ وأن تنعكس أمثلتها الحية من خلالها.

من هنا يمكن القول ومن أجل التعرّف على مسألة النبوة، والحقائق المتعلقة بأنبياء الله ورسله، ينبغى التحقيق في تواريخهم بدقّة، أو بعبارة اخرى فإنّ التحقيق في تاريخ الأنبياء يعدّ قسماً من تاريخ الأديان والمسائل المتعلقة بالنبوة.

ولا شكّ في أنّ هذا التحقيق يمكنه أن يكمل ما ورد في مختلف فصول هذا الكتاب، بل

نفحات القرآن، ج٧، ص: ٣١٠

وأن يجسّد المسائل العلمية المعقّدة أمام الأنظار.

لكن نظراً لسعة الأبحاث المتعلقة بتاريخ الأنبياء في القرآن المجيد، بحيث تتطلب تخصيص العديد من المجلّدات لذلك، فستجنّب الخوض فيها فعلاً، وسنعرض إلى «تاريخ الأنبياء في القرآن المجيد بشكل موضوعي» عند إتاحة الفرصة إن شاء الله، وهو بحث مفيد وجذاب.

كما قيل في الأبحاث المتقدّمة، فاصول الأديان السماوية إنّما وجدت واحدة، والتفاوت إنّما يكمن في الفروع والجزئيات فقط.

نفس هذا الأمر يثير الاستفسارات التالية: لماذا ظهر الأنبياء اولوالعزم واحداً بعد الآخر بين المجتمعات البشرية بكتب وأديان جديدة؟

وما الحاجة إلى الأديان الجديدة مع وجود الأديان السابقة، حينما تكون الاصول واحدة؟! ولماذا يعلن أخيراً عن الخاتمية بحيث إن البشرية لا تحتاج بعد ذلك إلى نبي جديد أو دين جديد؟!

الإجابة عن هذا الاستفسارات تتضح من خلال التمعّن في مضمون الأديان الإلهية، صحيح أنهم جميعاً قد جعلوا من التوحيد أساساً للدين، لكن من البديهي أن إدراك الأقوام البدائية لهذه المسألة لم يكن كإدراك الذين واجهوا المسألة بعدهم بآلاف السنين. أو بعبارة أخرى فالجزئيات المتعلقة بالتوحيد في الذات والأفعال وفي العبادة والخالقية والحاكمية ليست بذلك الشيء الذي يتناسب والمستوى الفكرى للأقوام الاولى، إذ كانوا يقتنعون بمفاهيم بسيطة وإجمالية عن مسألة التوحيد، ولم يخوضوا أبداً في هذه الجزئيات المعقّدة.

وهذا الشيء نفسه يمكن أن يقال بالنسبة للمسائل الأخرى المتعلقة ب «المعاد» و «منزلة الأنبياء» وأوصافهم، وكذلك الجزئيات المتعلقة ب «العبادات»، إذ كلما زادت معرفة أهل الأرض بهذه المسائل، ونمت القابليات جيلاً بعد جيل تمّ تعليمهم المزيد من الجزئيات.

فضلاً عن أن التطور الحضارى كان قد عقّد الحياة البشرية يوماً بعد آخر، وهذا التعقيد

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٣١١

استلزم بدوره سنّ قوانين جديدة لحلّ المشاكل الناتجة عن ذلك، ولذا ظهر الأنبياء للوجود واحداً بعد الآخر من أجل إنقاذ الناس وحل مشاكلهم.

هذه المسألة يمكن بيانها بشكل أفضل من خلال هذا المثال: خذ بنظر الإعتبار المراحل الدراسية للأطفال والفتيان والشباب، بدءاً بالمرحلة الابتدائية والمتوسطة وانتهاءً بالمرحلة الجامعية، ومرحلة التخصص، إذ العلوم المختلفة التى تدرّس فى هذه المراحل ثابتة تقريباً، لكنّها مختلفة بحسب المستويات، فالطلبة كلّهم يدرسون الرياضيات مثلاً، ابتداءً بطلبة المدارس الابتدائية ومروراً بطلبة الإعداديات وانتهاءً برسالة الدكتوراه فى الرياضيات، فى حين أنّ مستوياتها متفاوتة كثيراً، إذ كلما زاد استعداد الطالب كلما ارتفع مستوى الدروس أكثر، ومن هنا تأتى المراحل الدراسية الخمس (الابتدائية والمتوسطة والإعدادية والجامعية والدكتوراه).

والأديان الخمسة التى بعثها الله للبشرية شبيهة بعض الشيء بهذه المراحل، نوح عليه السلام كان مسؤولاً عن تربية وتعليم الناس فى أوّل مرحلة، إبراهيم عليه السلام فى المرحلة الأخرى وكذلك موسى وعيسى كان كلّ واحد منهم معلماً واستاذاً لإحدى هذه المراحل، لتصل النبوة إلى آخر مرحلة، ويتكفّل خاتم الأنبياء محمّد صلى الله عليه وآله بالتعليم فيها.

ومن هنا يتّضح الجواب عن السؤال الثانى الذى كان يدور حول كيفية إمكان تكامل الأديان فى منطقة واحدة والإعلان عن خاتمتها؟!

الدليل واضح، إذ كما أنّ الإنسان يصل فى مراحل الدراسة إلى ما يطلق عليه ب «التخرّج»، أو بعبارة أخرى أنه يصل إلى المستوى الذى يكون قد استلم فيه الاصول العامية والنهائية من معلّمه، بحيث يتمكن لوحده من حلّ المسائل المستحدثة فى ظلّ تلك العموميات.

فنبى الإسلام صلى الله عليه وآله أيضاً قد جاء بتعاليم واصول تُحلّ عن طريقها كافّة المشاكل المستقبلية، كما يمكن للمسلمين مواصلة طريق تكاملهم فى ظلّ تلك الاصول والتعاليم، والقرآن المجيد ذلك الكتاب الذى يكشف التمعّن فيه عن حقائق جديدة متناسبة مع متطلّبات كلّ عصر.

نفحات القرآن، ج ٧، ص: ٣١٢

هذا الكلام لا يعنى أنّ إنسان عصرنا قد بلغ مرتبة تغنيه عن الأنبياء كما يتوهمه بعض المغفّلين، بل على العكس فهو يعنى أنّ اصول تعاليم خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله واسعة جامعة وبشكل بحيث يمكن من خلالها التغلب على مشاكل العصر ومسائله.

ولابد أنك تسأل لماذا لم تعط هذه الاصول لنوح عليه السلام من البداية؟ نقول في جواب هذا السؤال: وذلك لنفس السبب الذي لم تدرّس دروس مرحلة الدكتوراه في المرحلة الابتدائية وذلك لعدم وجود القابلية والاستعداد لتقبلها. وسيأتي إن شاء الله شرح أوفى لهذه المسألة في بحث الخاتمية من مباحث النبوة الخاصة. وهنا تصل المباحث الكليّة للنبوة (النبوة العامّة)، نهايتها شاكرين الله على هذا التوفيق. ربّنا! اجعلنا من التابعين الحقيقيين الخُصّ المخلصين لأنبيائك العظام.

إلهنا: أيقظ امم العالم الغافلة من سباتها العميق لتجتاز بسلوكها طريق الأنبياء والأولياء مشاكل الحياة الجمّة وتنال سعادة الدارين ولتتيقن بأن طي هذا الطريق مرهون باتباع الوحي والإيمان بالله والأنبياء.

إلهنا: وقفنا لنشر تعاليم الإسلام، وخاتم الأنبياء التي تنبض بالنشاط والحيوية في كلّ أرجاء المعمورة بوسائل الإتصال المتطورة لنروى ظمأ العطاشى بزالال تعاليمهم آمين يارب العالمين والحمد لله أولاً وآخراً. الحادى عشر من شهر صفر ١٤١٣

الجزء الثامن

الرسول لأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وظهور الإسلام

إشارة

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٧
الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وظهور الإسلام
قبل كل شىء يجب التمعن في دراسة حقيقة الإسلام ومنزلة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في القرآن الكريم، والتحقيق في النقاط الظريفة والدقيقة الواردة في مختلف آيات القرآن الكريم، وحيث إن التعرف على هذه النقاط يقتضى معرفة تاريخ الإسلام بشكل إجمالي فعلى هذا الأساس يجب أن نتوفر على دراسة مختصرة ومركزة للتاريخ الإسلامى كى يتسنى لنا معرفة عوامل انتشار وتقدم الدين الإسلامى الحنيف، الأمر الذى يساعدنا على تمهيد الطريق للبحوث الآتية.

الرسول صلى الله عليه وآله وظهور الإسلام وسرعة انتشاره:

ظهر الإسلام قبل أربعة عشر قرناً في مكة المعظمة، وفي مدة ٢٣ سنة (وهي فترة دعوة الرسول صلى الله عليه وآله) وقد أخضع لنفوذه أقصى منطقة في جنوب الحجاز، أى اليمن، وإلى شمال شبه الجزيرة العربية، أى الشام والعراق، بل إنّ قسماً من أفريقيا أى الحبشة قد تأثرت بأنواره، واليوم نرى أكثر من مليار إنسان يدين به فى كل بقاع العالم. وهنا نستعرض - ولو باختصار لحياة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسرعة انتشار الإسلام، والعوامل التى ساعدت على ذلك.

من الطبيعي أن هذا العمل ليس بالأمر اليسير، لأن الظروف التي أدت إلى وصول الإسلام إلى هذا الحد، أوسع بكثير مما جاء في التاريخ بحيث يمكن القول: إن ما ذكره التاريخ قطرة من بحر، والذي نذكره هنا هو لمحات من ذلك التاريخ الذي لم يذكر لنا إلا القليل.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٨

بدأ الإسلام بشخصية الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وقد بعثه الله سبحانه وتعالى بالرسالة وهو في الأربعين من عمره الشريف، ثم آمنت به السيدة خديجة عليها السلام، وبعدها أمير المؤمنين علي عليه السلام، حيث كانت دعوة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في المرحلة السرية، وكان قبل ذلك في السنين الثلاث لم يعلن دعوته إلا لمن يثق به.

أما بعد تلك السنوات الثلاث، وعندما نزلت الآية الكريمة: «وَأَنْذِرِ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ». (الشعراء / ٢١٤)

أعلن رسول الله صلى الله عليه وآله دعوته أمام الناس، فصيّد على جبل الصفا ودعا أقرباءه وأعد لهم وليمة، وفي ذلك اليوم كان المسلمون يعدون بالأصابع «١».

وقد اقيمت الوليمة مرتين، إذ في المرة الأولى لم يعط أبو لهب النبي صلى الله عليه وآله فرصة للكلام، وفي المرة الثانية سخروا من كلامه صلى الله عليه وآله والتفتوا لأبي طالب قائلين له: «قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع».

وفي هذه المأدبة كان النبي الأعظم صلى الله عليه وآله يرى بعين الغيب انتشار الإسلام الأكيد، حتى أنه عين خليفة ووارثاً له فيها «٢». ولم تمض مدة طويلة حتى أدرك رؤساء مكة أن محمداً صلى الله عليه وآله قد أضاع أفكار الناس وأيقظهم وأثبت عدم صحة عبادة الأوثان ولزوم الإيمان بخالق الكون، فأحسوا بالخطر عندما ترسخت دعوته، لأن منزلتهم الاجتماعية وعائداتهم المالية كانت مرتبطة إلى حد ما بتلك الأفكار والأعراف الجاهلية، حتى أنهم ذهبوا إلى أبي طالب راجين منه رفع اليد عن حماية محمد صلى الله عليه وآله أو المصالحة بينهم وبين محمد صلى الله عليه وآله أو إصلاحه، وقالوا: «يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آل هنتا وعاب ديننا وسفّه أحلامنا وضلل آباءنا فإما أن تكفّه عنا وإما أن تخلى بيننا وبينه» «٣».

ولكن أبا طالب عليه السلام قال لهم قولاً جميلاً وردهم رداً رقيقاً، وأخذ الإسلام يشق طريق

(١) الكامل لابن الأثير، ج ١، ص ٤٨٦، طبع دار احياء التراث العربي؛ وتاريخ الطبري، ج ٢، ص ٦١.

(٢) تفسير جامع البيان، ج ٢، ص ٦٣.

(٣) سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٢٨٣، ط مصر؛ الكامل لابن الأثير، ج ١، ص ٤٨٨؛ والطبري، ج ٢، ص ٦٥.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٩

الرشد والتكامل وأحس رؤوس الكفر بالخطر الذي يهدد عقائدهم الوثنية وثقافتهم الجاهلية، فعادوا مرة أخرى إلى أبي طالب فقالوا: «يا أبا طالب إن لك سناً وشرفاً وإنا قد أستنهيناك أن تنهى ابن أخيك فلم تفعل وإنا والله لا نصبر على شتم آل هنتا وآبائنا وتسفيه أحلامنا حتى تكفّه عنا أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين».

في هذه المرة أخبر أبو طالب الرسول صلى الله عليه وآله بما جرى بينه وبين أقطاب قريش وأنهم مصرون على مخالفته، عندها أحس الرسول صلى الله عليه وآله أن عمه أبا طالب قد تباطأ قليلاً في حمايته، فقال الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله لعمه تلك المقولة المشهورة: «يا عماء لو وضعو الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر، حتى يُظهره الله أو أهلك فيه ما تركته». ثم بكى وقام، فلما ولى ناداه أبو طالب، فاقبل عليه وقال: «إذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبداً» «١».

عندما رأى رسول الله صلى الله عليه وآله حمايته عمه ثانية، انطلق بعزيمة كبيرة وثقة عالية، ولما عرف رؤساء قريش ذلك عادوا إلى أبي طالب وعرضوا عليه أن يساوم في ابن أخيه مقابل أجمل شاب من قريش على أن يتخذه ابناً له! وجاء الرفض القاطع «٢» كصاعقة

دمرت ما يمكرون، فعمدوا إلى إيذاء المسلمين من كل طائفة.

ومرّة اخرى طلبوا من أبي طالب أن يبلغ الرسول صلى الله عليه و آله بأن يكفّ عن هذا الأمر، وجاء الردّ المحمدي صلى الله عليه و آله: «يا عم أو لا أدعوهم إلى ما هو خيرٌ لهم منها، كلمة يقولونها تدينُ لهم بها العرب، ويملكون رقاب العجم» فقال أبو جهل: ما هي، وأبيك لنعطينكها وعشر أمثالها، قال: «تقولون لا إله إلا الله....» وقالوا: سل غيرها، فقال: «لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها» (٣).

وفي هذا الوقت دخل في الإسلام أناس كانوا يرزحون تحت ظلم جابرة مكة، وآخرون واعون ليسوا بالأغنياء المغرورين، ممّا حدا برؤوساء قريش إلى تغيير اسلوبهم

(١) الكامل لابن الأثير، ج ١، ص ٤٨٩؛ وسيرة ابن هشام، ج ١، ص ٢٨٤-٢٨٥؛ والطبري، ج ٢، ص ٦٥.

(٢) سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٢٨٥، والكامل، ج ١، ص ٤٨٩، والطبري، ج ٢، ص ٦٦.

(٣) الكامل لابن الأثير، ج ١، ص ٤٩٠؛ والطبري، ج ٢، ص ٦٦.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٠

في الصراع مع الرسول صلى الله عليه و آله- غير الرجوع إلى أبي طالب- لكي ينجوا من هذا الخطر الداهم، وقد اتخذ الرسول صلى الله عليه و آله من بيت الأرقم مركزاً للإشعاع الفكري ونشر الدعوة.

ممارسة الضغط على المسلمين الجدد:

بعد أن ينس زعماء مكة من التأثير على أبي طالب ورسول الله صلى الله عليه و آله، التجأوا إلى تعذيب وايداء المسلمين المستضعفين ليردوهم عن الإسلام فتضعف قدرة الرسول ومن ثم يترك الدعوة إلى الإسلام، ومن بين أولئك المسلمين بلال، وعمار، وياسر، وسمية، والخباب بن الارت، وصهيب، وعامر بن فهيرة، وأبو فكيهة، وليبية، وزبيدة، ونهدية، وأم عيسى وأمثالهم، إذ صبوا عليهم ألوان العذاب حتى استشهد ياسر وسمية، ومر عليهم الرسول صلى الله عليه و آله مخاطبهم قائلاً: «صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة» (١). ويحكي التاريخ عن كيفية تعذيبهم وصمودهم ما يستحق العجب.

التهمة والاستهزاء:

اتخذ المشركون اسلوباً آخر في محاربتهم للرسول صلى الله عليه و آله كالتهمة والسخرية والاستهزاء، فأتهموا رسول الله صلى الله عليه و آله بأنه ساحر، وكاهن، وشاعر، ومجنون (٢)، وكذبوه وآذوه، ولم يتوقف رسول الله صلى الله عليه و آله عن نشر دعوته لإظهار أمر الله سبحانه، ولم تأخذه في الله لومة لائم.

ومن الذين كذبوا واستهزأوا وآذوا رسول الله صلى الله عليه و آله أبو لهب، والاسود بن عبد يغوث، والحارث بن قيس، والوليد بن المغيرة، وابي، وامية بن خلف، وأبو قيس، والعاص بن وائل، والنضر بن الحارث، وعدة آخرون حيث ذكر ابن هشام في سيرته. «إنه خرّج يوماً فلم يلقه أحدٌ من الناس إلا كذبته وآذاه لا حرّاً ولا عبداً فرجع رسول الله صلى الله عليه و آله إلى منزله فتدثر من شدة ما أصابه» (٣).

(١) الكامل، ج ١، ص ٤٩١.

(٢) تفسير جامع البيان، ج ٢، ص ٧١؛ وسيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣٠٨؛ والكامل، ج ١، ص ٤٩٣.

(٣) سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣١٠.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١١

وذكر التاريخ أيضاً: إنَّ أبا لهب كان شديداً عليه وعلى المسلمين، عظيم التكذيب له، دائم الأذى فكان يطرح العذرة والتن على باب النبي وكان جازة فكان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «أئى جوارٍ هذا يا بنى عبد المطلب». وكان الأسود عندما يمرّ عليه فقراء المسلمين يستهزئ بهم ويقول: «هؤلاء ملوك الأرض» وكذلك كان العاص بن وائل يقول: «إنَّ مُحمداً أبتراً لا يعيش له ولدٌ ذكر...» (١).

الهجرة إلى الحبشة:

إزداد ضغط المشركين وتعذيبهم، ففكر رسول الله صلى الله عليه وآله بإنقاذ ضعفاء المسلمين وتخليصهم من أذى المشركين فدعاهم للهجرة إلى الحبشة، وبالفعل هاجر إليها عدد منهم فى السنة الخامسة للبعثة النبوية بعد سنتين من اعلان الدعوة الإسلامية وفى شهر رجب «٢».

وبهذه الهجرة أخذ الإسلام يتحرك وينتشر بصورة جديدة لذلك قررت قريش اعادة المسلمين من الحبشة واخضاعهم لها، فأرسلوا هدايا ثمينه للنجاشى ملك الحبشة طالبين منه تسليم المسلمين لهم، وبالرغم من اعطاء هدايا اخرى لبطانة النجاشى للتعاطف معهم ولكن النجاشى قال لهم: إنَّ هؤلاء قد لجأوا إلينا ولا يمكن تسليمهم ما لم نسمع حديثهم، واحضر النجاشى المسلمين وأخذ يسألهم عن سبب لجوئهم إليه.

وانتخبوا جعفر بن أبى طالب ناطقاً عنهم للجواب عن استفسارات النجاشى الذى طلب منه أن يتلو عليه آيات من سورة مريم كانت تتضمن نظر رسول الإسلام صلى الله عليه وآله فى المسيح وامه مريم عليهما السلام، بعدها أعلن النجاشى إبقاء المسلمين عنده، وأرجع مبعوثى قريش.

ثم سأل النجاشى: «أى دين تدينون؟» فقال جعفر: «أيها الملك كُنَّا أهل جاهليّة نعبدُ الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسئ الجوار، ويأكل القوى منّا الضعيف حتى بعثَ الله إلينا رسولاً منّا نعرفُ نَسَبَهُ، وصدقَهُ وأمانته وعفاهُ فدعانا لتوحيد

(١) الكامل، ج ١، ص ٤٩٣؛ وتفسير جامع البيان، ج ٢، ص ٧٠.

(٢) سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣٤٤؛ الكامل، ج ١، ص ٤٩٨.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٢

الله وأن لا تُشرك به شيئاً ونخلع ما كُنَّا نعبد من الأصنام وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصله الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم، وأمرنا بالصلاة والصيام... فأمنّا به وصدقناه وحرمنا ما حرم علينا وحللنا ما أحلّ لنا فتعدى علينا قومنا فعدّونا وفتنونا عن ديننا ليردّونا إلى عبادة الأوثان فلما قهرونا وظلمونا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورَجّونا أن لا نُظلم عندك أيها الملك» فقال النجاشى بعد أن سمع آيات من القرآن حول مريم والمسيح عليهما السلام: «اذهبوا فأنتم آمنون ما أحبُّ أن لى جبلاً من ذهبٍ وأنتى آذيتُ رجلاً منكم» (١).

ورجع سفراء قريش خائبين منكسين رؤوسهم.

وقد اقترن بتلك الأيام إسلام رجل قوى من بنى هاشم وهو الحمزة بن عبد المطلب «٢» فزاد المسلمون قوة فوق قوتهم وصمموا على تلاوة القرآن بشكل جماعى وسط الملاء من قريش، وأول من قام بهذا العمل هو ابن مسعود فتعرض للضرب والشتم.

ويذكر التاريخ: «فعدا عليهم فى الضحى حتى اتى المقام وقريش فى انديتها ثم رفع صوتهُ وقرأ سورة «الرحمن» فلما علمت قريش أنه

يقرأ القرآن قاموا إليه يضربونه وهو يقرأ ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا في وجهه، فقالوا: هذا الذي خشينا عليك، فقال: ما كان أعداء الله أهون عليّ منهم اليوم ولئن شئتم لأغادينهم، قالوا: حسبك» (٣).

ومن هنا نفهم أنّ المسلمين كانوا يؤدون عباداتهم إلى جانب الكعبة حيث كان عددهم يزيد على الستين شخصاً وكانوا يتزاورون في بيوتهم لتعلم القرآن.

الحصار الاقتصادي:

ولما أدركت قريش عدم تأثير جميع الأساليب التي اتخذتها وظل الإسلام يشق طريقه

- (١) سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣٥٨؛ والكامل، ج ١، ص ٤٩٩؛ وتفسير جامع البيان، ج ٢، ص ٧٣.
- (٢) سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣١١؛ والكامل، ج ١، ص ٥٠١؛ وتفسير جامع البيان، ج ٢، ص ٧٤.
- (٣) سيرة ابن هشام، ج ١؛ ص ٣٣٦؛ الكامل، ج ١، ص ٥٠٢؛ وتفسير جامع البيان، ج ٢، ص ٧٣.
- نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٣

بشبات قررت كتابه وثيقة تمنع فيها العلاقات الاقتصادية والاجتماعية مع بني هاشم حتى تشكل ضغوطاً على الرسول صلى الله عليه و آله لمنع نشر الدعوة: «ولما رأيت قريش الإسلام يفشو ويزيد وان المسلمين قووا وعاد إليهم عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي امية من النجاشي بما يكرهون من منع المسلمين عنهم وآمنهم عنده، ائتمروا في أن يكتبوا بينهم كتاباً يتعاقدون فيه على أن لا ينكحوا من بني هاشم وبني المطلب ولا ينكحوا إليهم ولا يبيعوهم ولا يبتاعوا منهم شيئاً، فكتبوا بذلك صحيفة وتعاهدوا على ذلك ثم علّقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً لذلك الأمر على أنفسهم» (١).

وهكذا قد ضيقوا الخناق على بني هاشم وبني المطلب ليقع الخلاف بينهم ويُسلموا لهم رسول الله صلى الله عليه و آله. واستمر الحصار على مدى ثلاث سنوات (٢) وكانوا محرومين من كل شيء ما عدا القليل الذي يهيؤونه سراً، غير أن مؤامراتهم فشلت مرة أخرى فأكلت الأرض لانتهم المعلقة داخل الكعبة وملّ بعض الأشخاص هذا العمل الوحشي غير الإنساني فاصبحوا بصدد إلغاء اللائحة، وقد الغيت بالفعل وانتهى الحصار (٣). ورجع الرسول وعشيرته إلى مكة المكرمة.

واستمر الإسلام بتقدمه والرسول صلى الله عليه و آله بدعوته، وهنا وقعت حادثتان مؤلمتان للرسول صلى الله عليه و آله (٤) قبل الهجرة بثلاث سنوات، وهما: وفاة أبي طالب وخديجة عليهما السلام وكان للحادثتين أثر بالغ على الرسول صلى الله عليه و آله والمسلمين، وضيقوا الخناق على الرسول صلى الله عليه و آله «حتى ينثر بعضهم التراب على رأسه وحتى أن بعضهم يطرّح عليه رحمة الشاة وهو يصلى....».

بعدها صمم الرسول صلى الله عليه و آله على أن يستمد العون من مجموعة من قبيلة ثقيف الساكنة في الطائف لحمايته ونشر الإسلام، ولكنهم كذبوه وطردهوه فكان ذلك ثقيلاً على قلب رسول الله صلى الله عليه و آله فأخذ يدعو بهذا الدعاء المعروف، يقول التاريخ: «فقام رسول الله صلى الله عليه و آله وقد يبس

- (١) الكامل، ج ١، ص ٥٠٤؛ وابن هشام، ج ١، ص ٣٧٥؛ وتفسير جامع البيان، ج ٢، ص ٧٤.
- (٢) سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣٧٩.
- (٣) الكامل، ج ١، ص ٥٠٥؛ وابن هشام، ج ٢، ص ١٤؛ وتفسير جامع البيان، ج ٢، ص ٧٨.
- (٤) الكامل، ج ١، ص ٥٠٧؛ وابن هشام، ج ٢، ص ٥٧؛ وتفسير جامع البيان، ج ٢، ص ٨٠.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٤

من خير ثقيف ... واغروا به سفاهم فاجتمعوا إليه وألجأوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة ... ورَجَعَ السفهاء عنه وجلس إلى ظل حبله من عنب ... وقال: اللهم إليك اشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، اللهم يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني إلى بعيد يتجهمني أو إلى عدو ملكته أمرى إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع، إني أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو تحل بي سخطك» (١).

فلما رأى ابنا ربيعة ما لحقه صلى الله عليه وآله تحركت له رحمهما فدعوا غلاماً لهما نصرانياً اسمه «عداس» فقالا له: خذ هذا العنب إلى ذلك الرجل، ففعل فلما وضعه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله، وضع يده عليه وقال «بسم الله» وثم أكل، فقال عداس: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة.

فقال له النبي صلى الله عليه وآله من أي بلاد أنت وما دينك؟

قال: أنا نصراني من أهل نينوى

فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟ قال له: وما يُدريك ما يونس؟

قال الرسول صلى الله عليه وآله: ذلك أخي كان نبياً وأنا نبي.

فأكب عداس على يدي رسول الله ورجليه يقبلهما، وأسلم (٢).

فلم يرجع رسول الله صلى الله عليه وآله خائباً من سفره هذا.

بداية جديدة في ابلاغ الرسالة:

رغم هذه المشاكل الجمّة لم يثتن الرسول صلى الله عليه وآله عن ابلاغ رسالته، فاتصل في موسم الحج بالقبائل مُبتدئاً بقبيلة (كنده) حتى قبيلة (كلب) و (بنى حنيفه) وكل من جاء لزيارة بيت الله كان يدعوهم إلى الإسلام، وأبو لهب يلاحقه في كل مكان ليكذبه ويتهمه بخلق الأقاويل (٣).

(١) الكامل، ج ١، ص ٥٠٨؛ وتفسير جامع البيان، ج ٢، ص ٨١.

(٢) الكامل، ص ٥٠٨، وابن هشام، ج ٢، ص ٦١ و ٦٢، وتفسير جامع البيان، ج ٢، ص ٨١.

(٣) الكامل، ص ٥٠٩؛ وابن هشام، ج ٢، ص ٦٣؛ وتفسير جامع البيان، ج ٢، ص ٨٣ و ٨٤.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٥

الرسول يلتقي أهل المدينة:

إشارة

التقى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله (سويد بن صامت) أحد أفراد قبيلة الأوس في المدينة الذي جاء حاجاً إلى مكة المعظمة فعرض عليه الإسلام وقرأ عليه بعض آيات القرآن الكريم فصدقه وآمن به وعاد إلى المدينة ومات مسلماً.

وعندما قدم (أبو الحيسر) أنس بن رافع مكة ومعه فتية من بنى عبد الأشهل فيهم أياس بن معاذ يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وآله فأتاهم فجلس إليهم فقال لهم: «هل لكم إلى خير مما جئتم له؟ قالوا: وما ذاك؟

قال: أنا رسول الله بعثني إلى العباد ادعوهم إلى الله أن يعبدوا الله لا يشركوا به شيئاً وأنزل على الكتاب ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن»، فقال أياس بن معاذ وكان غلاماً حدثاً: أي قوم، هذا والله خير مما جئتم له.

قال: فأخذ أبو الحيسر أنس بن رافع حفنة من البطحاء فضرب بها وجه أياس بن معاذ وقال: دعنا منك فلعمري لقد جئنا لغير هذا، قال: فصمت أياس، وقام رسول الله صلى الله عليه وآله عنهم وانصرفوا إلى المدينة فكانت وقعة بعث بين الأوس والخزرج، قال: ثم لم يلبث أياس بن معاذ أن هلك، قال محمود بن لبيد: فأخبرني من حضره من قومي عند موته أنهم لم يزالوا يسمعون يهليل الله ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات فما كانوا يشكون أنه قد مات مسلماً لقد كان استشعر الإسلام في ذلك المجلس حين سمع من رسول الله صلى الله عليه وآله ما سمع «١».

بيعة العقبة الاولى

وفي السنة الاخرى من موسم الحج التقى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله جماعة من أهل المدينة - عُرفوا بعد ذلك بالأنصار - وهم ينتسبون إلى قبيلة الخزرج ودعاهم صلى الله عليه وآله إلى الإسلام وكانوا قد سمعوا آنفاً من اليهود قولهم: سيُبعث رسول في هذه الأيام ونحن نحميه ونُساعده للقضاء

(١) الكامل، ج ١، ص ٥١٠؛ سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٦٩؛ وتفسير جامع البيان، ج ٢، ص ٨٥.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٦

عليكم فَنظَر بعضهم إلى بعض وقالوا: «هذا النبي الذي توعدكم به اليهود، فأجابوه وصدقوه، وقالوا له: إن بين قومنا شرّاً، وعسى الله أن يجمعهم بك، فإن اجتمعوا عليك فلا - رجل أعزّ منك». ثم انصرفوا عن رسول الله صلى الله عليه وآله راجعين إلى بلادهم قد آمنوا وصدقوا وهم فيما ذكر سبعة نفر من الخزرج من بني عبد النجار هم: أسعد بن زرارة، عوف بن الحارث، رافع بن مالك، عامر بن عبد حادثة، قطبة بن عامر، عقبة بن عامر، جابر بن عبد الله «١».

وبعد انتهاء موسم الحج رجعوا إلى المدينة حاملين معهم مشعل الحريّة للناس ونشروا الإسلام بين أهل المدينة.

وبعد مرور سنة وفي أيام موسم الحج أيضاً جاء إثنا عشر رجلاً إلى العقبة وبايعوا الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله فسميت هذه بيعة العقبة الاولى وعند رجوعهم إلى المدينة أرسل الرسول صلى الله عليه وآله مصعب بن عمير لتعليمهم القرآن والإسلام وقد استقر في بيت (أسعد بن زرارة) والتفوا حول (مصعب) فبدأ يدعوهم إلى الإسلام بأسلوب خاص فلم يبق بيت من بيوت بني عبد الأشهل إلّا ودخله الإسلام، ولم يقتصر على هذه القبيلة فحسب، بل دعا أهل المدينة الآخرين إلى الإسلام فدخل الإسلام جمع كثير «٢».

بيعة العقبة الثانية:

اتسع نطاق الإسلام في المدينة بين الأنصار حتى إزداد عدد المسلمين كثيراً فقرروا السفر إلى الحج والالتقاء برسول الله صلى الله عليه وآله سرّاً وادعوته للقدوم إلى المدينة، وقد أرسلوا ممثلين عنهم يبلغ عددهم (٧٢) شخصاً، (٧٠) رجلاً وأمرأتين، وبدأوا عملهم سرّاً، بعد منتصف الليل وهم ينحدرون آحاداً إلى مكان معين فحضر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وصحبه عمّه العباس، فبايعوه على أن يبذلوا أرواحهم «٣» دونه، وأن يكونوا أوفياء له وللإسلام، وواعدهم الرسول على الوفاء أيضاً، وقد أورد التاريخ مقاطع مما قيل في ذلك اللقاء حيث بدأ العباس الكلام قائلاً:

(١) الكامل، ج ١، ص ٥١٠؛ وسيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٧٠؛ وتفسير جامع البيان، ج ٢، ص ٨٦-٨٨.

(٢) الكامل، ج ١، ص ٥١١؛ وسيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٧٣.

(٣) الكامل، ج ١، ص ٥١٣؛ وسيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٨٤؛ وتفسير جامع البيان، ج ٢، ص ٩١.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٧

«إن محمداً منا حيث قد علمتم، في عزٍ ومنعٍ وإنه قد أبى إلّا الانقطاع إليكم فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه فإنه في عزٍ ومنعٍ من قومه وبلده»، فقالت الأنصار:

تكلّم يارسول الله وخذ لنفسك وربّك ما أحببت «فتكلّم وتلا القرآن ودعا إلى الله ورغب في الإسلام ثم قال: ابايعكم على أن تمنعوني ممّا تمنعون منه نساءكم وأبناءكم»، فأخذ (البراء بن معرور) بيده ثم قال: «والذي بعثك بالحق لمنعك ممّا تمنع منه أزرنا فبايعنا يارسول الله فنحن والله أهل الحرب...».

وقال الآخر ويدعى أبو الهيثم بن تيهان: يارسول الله إن بيننا وبين الناس حباً وإنا قاطعوها يعني اليهود فهل عسيّ إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وآله وقال:

«بل الدّم الدّم والهدم الهدم أنتم منى وأنا منكم اسالم من سالمتم وأحارب من حاربتم» ثم قال صلى الله عليه وآله: «أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيباً يكونون على قومهم بما فيهم» فأخرجوهم تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس وهنا قال العباس بن عباد صاحب الفكر العميق والنظرة الثاقبة: يا معشر الخزرج هل تدرون علام تُبايعون هذا الرجل ... تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبةً وأشرفكم قتلاً أسلمتموه فمن الآن، فهو والله خزي الدنيا والآخرة إن فعلتم، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة، قالوا: فإننا نأخذّه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف فمالنا بذلك يارسول الله إن نحن وفينا؟ قال: الجنّة، قالوا: أبسط يدك فبسط يده فبايعوه» (١).

إنّ هذا النصر الكبير أدى إلى ازدياد حقد وعداء أهل مكة للمسلمين فازدادوا ظلماً وتعديباً لهم، فأمرهم الرسول صلى الله عليه وآله بالهجرة (٢) إلى المدينة.

(١) الكامل، ج ١، ص ٥١٣؛ وسيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٨٨.

(٢) سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ١١٢؛ والكامل، ج ١، ص ٥١٥؛ وتفسير جامع البيان، ج ٢، ص ٩٧.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٨

الهجرة انعطاف جديد في تاريخ الإسلام:

بعد هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة ظل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في مكة منتظراً أوامر الله تعالى وأحسن رؤساء قريش بالخطر الشديد لإسلام أهل المدينة وهجرة مسلمي مكة فقرروا قتل الرسول صلى الله عليه وآله فاجتمعوا لذلك وبعد مشاورات طويلة قرروا إشراك القبائل كافة مع قريش في قتل رسول الله صلى الله عليه وآله، في ذلك الوقت نفسه أمر الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم صلى الله عليه وآله بالهجرة (١).

وفي بدايه شهر ربيع الأول تخلص الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله من محاصرة الأعداء بمعجزة عجيبة وهاجر إلى المدينة في يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول ووصل إلى (قبا) (٢) وبقي فيها حتى الخميس وقد بنى هناك مسجداً سُمي (بمسجد قبا) وأقام أول صلاة للجمعة وخطب في الناس أول خطبتين للصلاة في تاريخ الإسلام، بالقرب من قبا في (قبيلة بني سالم).

بعدها دخل المدينة واستقبله أهلها استقبالاً عظيماً، وأول عمل قام به صلى الله عليه وآله هو بناء مسجد فيها اعتبره منطلقاً للرسالة وتعاليم الإسلام، ولتجمع «٣» المسلمين، غير أن الرسول والمسلمين تعرضوا إلى ألوان المؤامرات فاضطر النبي صلى الله عليه وآله إلى إشهار السلاح والاستفادة من القوة العظيمة لمسلمي المدينة لإبطال تلك المؤامرات.

وبعد سبعة أشهر من دخوله المدينة أرسل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أول كتيبة بقيادة عمه (الحزرة بن عبد المطلب) للتعرض لقافلة قريش، ثم جهز سرية أخرى بقيادة «سعد بن أبي وقاص» وارسله إلى (الابواء)، بعدها غزوة (البواط) التي كان هدفها ضرب قافلة قريش، ثم غزوة (العشيرة) لملاحقة قافلة لقريش أيضاً وفي السنة الثانية أعد سرية (عبد الله بن جحش) للتعرض إلى قريش بين مكة والطائف.

وفي السنة نفسها وقعت معركة بدر الكبرى التي نكست بها رؤوس الشرك والضلالة من

(١) سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ١٢٣؛ والكامل، ج ١، ص ٥١٥.

(٢) سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ١٣٨؛ والكامل، ج ٢، ص ٥١٨؛ وتفسير جامع البيان، ج ٢، ص ١٠٠.

(٣) سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ١٤٣؛ والكامل، ج ٢، ص ٥٢١؛ وتفسير جامع البيان، ج ٢، ص ١٠٦-١١٦.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٩

قريش وأرسلوا إلى جهنم ووقع كثير من أهل مكة في الأسر، بعد هذا الانتصار ازداد المسلمون قوة وعزيمة وأوقعوا الرعب في قلوب اعدائهم، ثم أعقبها غزوة (بنى قينقاع) بسبب نقض يهود المدينة عهدهم مع الرسول صلى الله عليه وآله، بعدها (غزوة كدر) ضد بني سليم ثم غزوة (السويق) ضد هجوم أبي سفيان.

وفي السنة الثالثة للهجرة وقعت حرب (غطفان) ضد (بنى ثعلبة) الذين أرادوا الهجوم على المسلمين ثم غزوة (بنى سليم) التي قُتل فيها اثنان من شياطين الكفر هما (كعب بن أشرف) و (أبو رافع) على أيدي المسلمين، وبعدها معركة (احد) ثم تبعها غزوة (حمراء الاسد) وقد مُنى المسلمون بالهزيمة في معركة أحد لكن ذلك كان باعثاً لهم على التهيؤ للحروب القادمة وليعلموا أن الغفلة والغرور والتعلق بالماديات هي من أسباب الهزيمة.

وفي السنة الرابعة للهجرة وقعت غزوة (رجيع) ضد قبيلة (عضل وقارة) حيث سَلَّموا مبلغى الإسلام إلى الأعداء، بعدها حادثة (بئر معونة) فقد دعوا (٧٠) شخصاً لتعليمهم الإسلام ثم قتلوهم، وحادثه (إجلاء بنى النضير) إذ صمموا على قتل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وقد أخرجهم من المدينة بأجمعهم.

بعدها وقعت غزوة (ذات الرقاع) ضد طائفة (بنى محارب) و (بنى ثعلبة) من قبيلة (غطفان).

وفي هذه السنة وقعت (بدر الثانية) التي كان هدفها ملاحقة أبي سفيان. وقد كان لهذه الغزوات أثر بالغ في تقدم وانتشار الإسلام في الجزيرة العربية.

وفي السنة الخامسة للهجرة أحسَّت قبائل العرب بخطر هذه القوة الجديدة فقرروا الاتحاد والتنسيق فيما بينهم للقضاء عليها وعدم فسح المجال لها بتأصيل جذورها كقوة ضد الظلم والشرك في المنطقة فحدثت (معركة الأحزاب) التي انتصر فيها المسلمون ورجع منها المشركون خائبين مندحرين وأصبحت فكرة القضاء على المسلمين وقلع جذورهم من المحال.

وفي السنة نفسها وقعت غزوة (بنى قريظة) وحاصر المسلمون قلعتهم للتخلص من شر

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٠

اليهود الذين كانوا يحيكون الدسائس ضد المسلمين.

ثم في السنة السادسة للهجرة وقعت غزوة (ذى قرد) حيث أغار الكفار على أموال المسلمين وأموال رسول الله صلى الله عليه وآله

واجتمع كذلك (بنو المصطلق) ضد الإسلام ولكنهم اندحروا في غزوة (بنى المصطلق)، إن هذه الحوادث كلها كانت دليلاً واضحاً على قدره وعظمة الإسلام.

صلح الحديبية فتح كبير وتقدم للإسلام:

في السنة السادسة للهجرة أمر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله المسلمين بالتهيؤ إلى حج العمرة مصطحبين معهم الإبل لذبحها قربانين إلى الله سبحانه وتعالى ومعلنين لأهل مكة بأنهم لم يأتوا للحرب، وكان لهذه الحادثة أثران واضحا:

الأول: أراد الرسول صلى الله عليه وآله من ذهابه إلى مكة إعلان عدم خوف المسلمين من أى عدو في الجزيرة العربية.

الثاني: مع دخولهم مكة تظهر قدرة الإسلام في مقابل مركز عبادة الأوثان وهذا مؤشر واضح على قوة وانتصار الإسلام لأن مكة كانت من المراكز المهمّة والقوية في مقاومة الإسلام، وأدرك أهل مكة ذلك فقررروا منع دخول المسلمين من مكة وعندها أمر الرسول صلى الله عليه وآله أصحابه بمبايعته فكانت بيعة شديدة الموثيق والعهود سُميت بـ «بيعة الرضوان».

ولما سمع المشركون بخبر البيعة قرروا عقد صلح مع الرسول صلى الله عليه وآله جاء فيه: أن يخرج المشركون من مكة السنة القادمة ويدخلها الرسول صلى الله عليه وآله لأداء حج العمرة «١». وبعد أن تم الاتفاق على هذا الصلح توفرت أرضية سهلة للقضاء على أعداء الإسلام الكبار والصغار الذين كانوا بين الحين والآخر يحوكون المؤامرات ضد المسلمين أو يتعرضون لهم، فبمجرد أن عاد الرسول صلى الله عليه وآله من الحديبية أعدّ العدة لحرب هؤلاء الأعداء فارسل سريته (عكاشة)

(١) الكامل، ج ١، ص ٥٨٢؛ سيرة ابن هشام، ج ٣، ص ٣٢١؛ وتفسير جامع البيان، ج ٢، ص ٢٧٠.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢١

إلى (بنى اسد)، وسريته (محمد بن سلمة)، إلى (بنى ثعلبة)، وسريته (أبى عبيدة الجراح)، إلى (ذى القصد)، وأرسل ست سرايا «١» بقيادة (زيد بن حارثة) لحرب (الجموح) إلى (عيص وطرف وحسمى ووادي القرى وام قرفة)، وسريته (عبد الرحمن بن عوف) إلى (دومة الجندل)، وسريته (علي بن أبى طالب عليه السلام إلى (فدك)، وسريته (كرز بن جابر) «٢» إلى (عرينين)، وكل هذه المعارك وقعت بعد الحديبية «٣».

وكثير من القبائل التي كانت تعدّ العدة لحرب المسلمين قد فشلت وانهمزت قبل أن تنجز شيئاً ذا بال ووصلت قدرة الإسلام إلى أوج عظمتها وحينها لم تحدّث قبيلة من القبائل نفسها في أن تخوض معركة مع الرسول صلى الله عليه وآله والمسلمين وأحست مكة بالضعف وعقدت هدنة مع الرسول فاعترفت برسمية الحكومة الإسلامية.

رسائله صلى الله عليه وآله إلى ملوك العالم:

وتعاطمت في هذه الأثناء قدرة الإسلام وتوسع نفوذه فانتشر أول شعاع لشمسه خارج الجزيرة العربية، وقام الرسول بإرسال سفراء محملين برسائل إلى كسرى (ملك إيران)، وقيصر (حاكم الروم) «٤»، والنجاشي (حاكم الحبشة)، والمقوقس (حاكم مصر) «٥» وإلى عدّة أخرى من الرؤساء والحكام أداءً لتكليفه الإلهي ولدعوتهم إلى الإسلام فكان جواب بعضهم إيجابياً، وسكت بعضهم الآخر ماعدا خسرو برويز (شاه إيران) وهذا دليل على إيماننا: أن التبليغ الإسلامي الصحيح قد وصلهم فاطلعوا على حقائق الإسلام، أو أحسوا بقدرته ووصلتهم أخباره فكان صلاحهم في عدم المواجهة العسكرية مع المسلمين «٦».

(١) سيرة ابن هشام، ج ٣، ص ٥٣.

(٢) المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٩٠.

(٣) الكامل، ج ١، ص ٥٨٨-٥٩٠.

(٤) تفسير جامع البيان، ج ٢، ص ٢٨٨.

(٥) الكامل، ج ١، ص ٥٩١.

(٦) الكامل، ج ١، ص ٥٩١؛ تفسير جامع البيان، ج ٢، ص ٢٩٨؛ وسيرة ابن هشام، ج ٣، ص ٣٤٢.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٢

ولم يبقَ من مراكز المؤامرات إلّا خير مركز اليهود «١» الذي يجب القضاء عليه.

لذلك فقد صمّم الرسول صلى الله عليه و آله في السنة السابعة للهجرة على اخضاعه مع قبيلة يهودية اخرى كانت تقطن أرض فدك.

بعد ذلك تجاوز الإسلام كل الموانع والعقبات التي كانت أمامه وارتفعت رايته عالية بالنصر المبين.

وفي هذه المرحلة وصل الإسلام في الجزيرة العربية إلى أوج العظمة والازدهار واستغل الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله فرصة

الاستفادة من صلح الحديبية للذهاب إلى زيارة بيت الله لأداء فريضة حج العمرة.

وبعد أن رجع الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله من خيبر في شهر ذي الحجة أعلن للمسلمين الذين ذهبوا معه العام الماضي للعمرة

أن يتهيأوا إلى السفر في العام الحالى «٢» فلما سمع أهل مكة بهذا الخبر تركوا بيوتهم وفروا لاجئين إلى الجبال (وفقاً للصلح الذي

اتفقوا عليه)، ودخل المسلمون مكة رافعين رؤوسهم.

عند ذلك أعلن الرسول صلى الله عليه و آله بقوله: «رحم الله امرأاً أراهم اليوم من نفسه قوّة» وبهذا الاسلوب استطاع المسلمون أن

يحققوا آمالهم في زيارة بيت الله سبحانه وهم يعرضون عظمته وقدره الإسلام أمام أهل مكة «٣».

وعند حلول السنة الثامنة من الهجرة وسّع الرسول صلى الله عليه و آله دائرة نفوذ الإسلام، فأرسل سرية (غالب بن عبد الله الليثي) إلى

(بنى الملوحة)، و (العلاء بن الحضرمي)، إلى (البحرين)، وحسب أحد الأقوال أرسل سرية (شجاع بن وهب) إلى (بنى عامر)، وسرية

(عمرو بن كعب الغفاري)، إلى (ذات الاطلاق)، في أحد نواحي الشام.

وفي هذه السنة بعث الرسول صلى الله عليه و آله (عمرو بن العاص) إلى أرض (بلى وعُدرة) ليدعوهم

(١) تفسير جامع البيان، ج ٢، ص ٣٩٠؛ وسيرة ابن هشام، ج ٤، ص ١٢.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الكامل، ج ١، ص ٦٠٢.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٣

إلى الإسلام، ف وقعت غزوة (ذات السلاسل) «١».

وفي السنة نفسها أرسل صلى الله عليه و آله (عمرو بن العاص) نحو (جيفر وعياز) ابني الجلندي في عمان ليدعوهم إلى الإيمان،

ويأخذ (الجزية) من المجوس.

كما أرسل جيشاً بقيادة (أبي عبيدة الجراح) فحدثت غزوة (الخط) التي وافقت السنة الهجرية نفسها وأرسل صلى الله عليه و آله أيضاً

سرايا (أبي قتادة) للوقوف بوجه من جهز جيشاً لمحاربة الرسول صلى الله عليه و آله وحدثت أيضاً غزوة (مؤتة) «٢» في أرض مؤتة

وهي إحدى القرى في الشام.

وكان عدد المسلمين المشتركين في هذه الغزوة ثلاثة آلاف مقاتل، وقد استشهد فيها عدد من قادتهم فكان ذلك سبباً لشعور

المسلمين بالضعف الذي يعدّ نصراً للأعداء، غير أنه سرعان ما تهيأت أسباب فتح مكة حيث إن قبيلة (خزاعة) كانت حليفة للرسول

صلى الله عليه وآله وقبيلة (بنى بكر) حليفة لقريش، فبغت قبيلة (بنى بكر) على (خزاعة) وساندتها قريش، أتاح للرسول صلى الله عليه وآله التدخل لنصرة (خزاعة) فأمر صلى الله عليه وآله بتجهيز جيش لغزو مكة وتمكن بعشرة آلاف من المسلمين وبخطه عسكرية حكيمة من السيطرة على مكة وفتحها بدون قتال.

وبلغ المسلمون آمالهم في الدخول إلى بيت الله الآمن مطهراً من دنس الجاهلية والأوثان.

وعندما رأى (أبو سفيان) كثرة المسلمين وقدرتهم انبهر بعظمة الإسلام فصرح إلى (العباس) بقوله: «لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً» فأجابه العباس: «ويحك إنها النبوة» (٣).

وصل الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله إلى الكعبة ووقف في بابها بعمامة السوداء منادياً بالشعار

(١) سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ٢٧٢.

(٢) سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ١٥؛ و تفسير جامع البيان، ج ٢، ص ٣١٨.

(٣) الكامل، ج ١، ص ٦١٤.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٤

المعروف لنبذ آداب واعراف الجاهلية بقوله صلى الله عليه وآله: «لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده»، ثم أضاف صلى الله عليه وآله: «ألا- كُذِّبَ دَمٌ فِي- الجاهلية- أو مآثره أو مال يُدعى فهو تحت قدمي هاتين إلسدانة البيت وسبقاية الحاج»، ثم قال: «يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم؟» قالوا: «خيراً أخ كريم وابن أخ كريم»، قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء» (١).

ثم أرسل الرسول صلى الله عليه وآله مجموعة من الجيش لاطفاء الفتنة التي حدثت بين القبائل في اطراف مكة (٢) وللوقوف بوجه هوازن التي كانت مصرّة على قتال المسلمين واشتباك المسلمون مع هوازن في (حنين) وردوا بغيهم إلى نحورهم (٣). وبعدها حاصروا الطائف واجبروهم على التسليم (٤).

عندما حلت السنة التاسعة للهجرة تنفس المسلمون الصّيداء بتدمير كل مراكز المؤامرات التي كان يحوكمها المشركون واليهود والنصارى وبرزت قوة جديدة إلى الوجود، فأسلمت بعض القبائل المحيطة على يديها وخضع لها بعضها الآخر.

وفي خضم هذه الحوادث جاء خبر مفاده أن (هرقل) امبراطور الروم وعدداً من العرب الذين اعتنقوا النصرانية يريدون الهجوم على بلاد الإسلام، فأعلن الرسول صلى الله عليه وآله أن يعدّ المسلمون أنفسهم للحرب مع الروم.

ونقل أرباب التاريخ أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أعلن عن مكان الحرب ولم يتكتم عليه خلافاً لعادته في الحروب السابقة. ربّما لبعد الطريق وأمثال ذلك ولكن يبدو أن هدفه كان بث الرعب في قلوب الأعداء وقد جهز جيشاً بصعوبة بالغة وبمعدات قليلة وسمّى ب (جيش العسرة) واتجهوا إلى (تبوك) (٥) وعند وصولهم إليها ومرورهم ب (ميناء ايله) فوافق حاكمها على اعطاء الجزية وتعاهد مع المسلمين على الصلح (٦). ثم أرسل صلى الله عليه وآله خالد بن الوليد إلى حاكم (دومة الجندل) فقبل الجزية أيضاً (٧).

(١) الكامل، ج ١، ص ٦٢٠.

(٢) الكامل، ج ١، ص ٦١٨؛ سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ٧٠.

(٣) الكامل، ج ١، ص ٦٢٤؛ وسيرة ابن هشام، ج ٤، ص ٨٠؛ و تفسير جامع البيان، ج ٢، ص ٣٤٤.

(٤) الكامل، ج ١، ص ٦٢٨؛ وسيرة ابن هشام، ج ٤، ص ١٢٢.

(٥) الكامل، ج ١، ص ٦٣٥؛ سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ١٥٩؛ و تفسير جامع البيان، ج ٢، ص ٣٧٣.

(٦) الكامل، ج ١، ص ٦٣٨.

(٧) الكامل، ج ١، ص ٦٣٨.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٥

وظل رسول الله صلى الله عليه وآله في تبوك خمسة عشر يوماً تقريباً ولكن جيش الروم تخلف عن المجيء فرجع الرسول صلى الله عليه وآله إلى مكة «١».

وفي هذه السنة جاءت مجموعة من ثقيف وأعلنت إسلامها بين يدي الرسول صلى الله عليه وآله «٢»، وأمر الإمام علياً عليه السلام بتطهير قبيلة (طى) من دنس الأوثان فحاربهم وانتصر عليهم وأسير بنت حاتم الطائي وعلى أثر ذلك دخل الإسلام (عدى بن حاتم و... «٣»).

إن فتح مكة ودخول بني ثقيف الإسلام والفراغ من تبوك كانت مؤشرات على عظمة الإسلام وصدق هذا الدين فتوافد كثير من القبائل على الرسول صلى الله عليه وآله واطلعوا تدريجياً على معارف الإسلام وعظمته فاعتنق بعضهم الإسلام وبعض عقد صلحاً وترك الحرب مع الرسول فسمى ذلك العام (بعام الوفود) «٤»، فجاء وفد (بني اسد) إلى الرسول صلى الله عليه وآله قائلين: «أتيناك قبل أن ترسل إلينا رسولاً» ووفد (بلى)، ووفد (زاريين)، ووفد (بني تميم) «٥».

ووصلت رسائل كثيرة من ملوك وسلاطين (حمير) تدل على قبول قدرة وحكومة الإسلام «٦».

وكذلك جاء وفد (بهاء) ووفد (بني البكاء) ووفد (بني فزارة)، ووفد (ثعلبة بن منقذ)، ووفد (سعد بن بكر) «٧».

ونزلت سورة البراءة وقرأها الإمام على عليه السلام معلناً البراءة من الشرك وعبادة الأوثان ومنع المشركين من الدخول إلى مكة للحج.

(١) الكامل، ج ١، ص ٦٣٨.

(٢) المصدر السابق، ص ٦٤٠.

(٣) المصدر السابق.

(٤) الكامل، ج ١، ص ٦٤١؛ وسيرة ابن هشام، ج ٤، ص ٢٠٥.

(٥) الكامل، ج ١، ص ٦٤٢.

(٦) سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ٢٣٥.

(٧) الكامل، ج ١، ص ٦٤٤.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٦

«فأقام الناس الحج وحجت العرب الكفار على عاداتهم في الجاهلية وعلى Z يؤذن ببراءة فنادى يوم الأضحى لا- يحجّن بعد العام مشرك ولا يطوفن بالبيت عريان ومن كان بينه وبين رسول الله عهد فأجله إلى مدته» «١».

وحل العام العاشر للهجرة وصوت الإسلام يدوى في كل مكان، فجاء نصارى (نجران) إلى المبالغة، ثم قبلوا الصلح بدونها: «وصالحوه على ألفى حلة ثمن كل حلة أربعون درهماً وعلى أن يضيفوا رسول الله Z [وجعل لهم ذمّة الله تعالى وعهده ألاً يفتنوا عن دينهم ولا يعشروا وشرط عليهم أن لا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به]» «٢».

وتوالت الوفود تلو الوفود إلى المدينة لتعلن وفاءها للإسلام والرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، فجاء وفد (سلامان)، ووفد (غبشان)، ووفد (عامر)، ووفد (ازد)، ووفد (مراد)، ووفد (زبيد)، مع (عمرو بن معدى كرب)، ووفد (عبد قيس)، ووفد (بني حنيف)، ووفد (كندة)، ووفد (محارب)، ووفد (رهاويين)، ووفد (عبس)، ووفد (صدف)، ووفد (خولان)، ووفد (بني عامر)، ووفد (طى) «٣».

وقد تجلّت قوة الإسلام في حجة الوداع فبناءً على ما ذكر في بعض الروايات فإن مجموع المسلمين الذين ذهبوا لزيارة بيت الله الحرام وحضروا (حجة الوداع) كان أكثر من مائة ألف شخص، ويعد هذا الاجتماع من أكبر الاجتماعات الدينية في ذلك العصر، كما

تعكس ذلك أيضاً خطب الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في سفره سواء كانت في مكة، أم في عرفات، أم في منى أم في غدِير حُم، لتعيين الخليفة والوصي من بعده وقد جاء في التاريخ مايلي:

«فأرآهم مناسكهم وعلمهم سنن حجهم وخطب خطبته التي بين فيها للناس ما بين وكان الذي يبلغ عنه بعرفة (ربيعه بن امية بن خلف) لكثرة الناس، فقال بعد حمد الله: «أيها الناس اسمعوا قولي فلعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً. أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرامٌ كحرمة يومكم هذا وكل ربا موضوع لكم رؤوس أموالكم وإن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كُله وكل دم كان في الجاهلية موضوع أيها الناس

(١) الكامل، ج ١، ص ٦٤٤؛ سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ١٩٠.

(٢) الكامل، ج ١، ص ٦٤٦.

(٣) الكامل، ج ١، ص ٦٤٧-٦٤٩؛ وللإطلاع على غزوات وسرايا الرسول صلى الله عليه وآله يمكن الرجوع إلى سيرة ابن هشام ج ٤، ص ٢٥٦؛ الكامل، ج ١، ص ٢٥٢؛ وتفسير جامع البيان، ج ٢، ص ٤٠٤.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٧

إنّ الشيطان قد يئس أن يُعبد بأرضكم هذه أبداً ولكنه يُطاع فيما سوى ذلك وقد رضى بما تحقرون من أعمالكم...» (١).

جاء في تاريخ حجة الوداع: أنه أثناء ذهاب الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله إلى الحج كان قد اجتمع خلق كثير في المدينة على الرغم من انتشار أحد الأمراض الذي منع حج كثير منهم: «ومع ذلك كانت معه جموع لا يعلمها إلا الله، وقد قيل إنه خرج معه تسعون ألفاً، ويقال: مائة الف وأربعة عشر ألفاً وقيل: مائة الف وعشرون ألفاً، ويقال أكثر من ذلك وهذه عدّة من خرج معه وأما الذين حجوا معه فأكثر من ذلك كالمقيمين بمكة والذي اتوا من اليمن مع على Z وأبى موسى (٢).

ولو يمكن تقدير عدد المسلمين الذين لم يستطيعوا الحج لتبين مقدار ما وصلت إليه شوكة الإسلام.

وأخيراً جهّز الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله قبل وفاته جيشاً بقيادة (أسامة) لحرب ديار الشامات (بصرى فتخلف بعضهم عن أمر رسول الله صلى الله عليه وآله.

(١) الكامل، ج ١، ص ٦٥٢.

(٢) سيرة الحلبي، ج ٣، ص ٢٨٣؛ وتواريخ اخرى نقلًا عن الغدير، ج ١، ص ٩ وهو مصدر جامع لمن أراد أن يستزيد.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٩

نبى الإسلام فى القرآن

تمهيد:

استعرضنا فيما تقدم لمحات مختصرة من حياة نبى الإسلام صلى الله عليه وآله من وجهة نظر المؤرخين، والآمن نستعرض حياته الشريفة منذ نعومة أظفاره وحتى انتهاء عمره - كما جاء فى القرآن الكريم - بتحقيق دقيق مختصر يصلح أن يكون مقدّمة خاصة للبحوث حول النبوة.

إنّ دراسة الآيات القرآنية وبالأخص ذات العلاقة بهذا البحث لها أهميّة بالغة وذلك للرد على أصحاب الشبهات والمخالفين، فلو أنّ هذه الآيات لم تنطبق على واقع حياة الرسول صلى الله عليه وآله فإنّ ذلك سيكون مدعاة لإثارة هذه الشبهات، والتي سوف يكتبونها

فى التوارىخ كما كتبت الوقائع الأخرى وبتعبير آخر: بغض النظر عن كون القرآن الكرىم كلام الله سبحانه وتعالى وكل ما جاء به من الآيات القرآنية منسجماً مع الحقيقة والواقع. فلو فرضنا عدم صحة تطابقها فإن الآيات القرآنية التى تخص حياة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله لا يمكن عدم تطابقها مع الواقع، لأنها ستكون وسيلة جيدة يتذرع بها الأعداء لتمرير شبهاتهم وبهذه الإشارة نمنع النظر مرة أخرى فى الآيات القرآنية والنقاط المهمة التى جاءت بها حول مقاطع مختلفة من حياة الرسول صلى الله عليه وآله.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٣٠

محيط دعوة الرسول صلى الله عليه وآله:

إشارة

بين القرآن الكرىم فى سورتين منه وبتعبير فى غاية الوضوح حياة عرب الجاهلية المعاصرين للرسول صلى الله عليه وآله بقوله: «وَأَن كَانُوا مِن قَبْلِ لَفَى ضَلَالٍ مُّبِينٍ».

(آل عمران / ١٦٤) (الجمعة / ٢)

وتعبير (ضلالٌ مُّبِين) فى الآيتين بيان واضح لتحكم الضلالة والضياع فى المجتمع العربى الجاهلى.

ضياع فى العقائد حيث كانوا مشركين يعبدون الأصنام التى يصنعونها بأيديهم من الحجر والخشب.

وضياع فى الجوانب الاجتماعية إلى الحد الذى كانوا يثدون بناتهم حياءً وهم يفتخرون بذلك.

وكانوا يطوفون رجالاً ونساءً حول الكعبة عراً ويعتبرون ذلك من ضمن عبادتهم.

والإعتداء والحروب وإراقة الدماء بالباطل، كل ذلك كان له قيمة اجتماعية فى الجاهلية، حتى وصل الأمر إلى أن يرث الأبناء أحقاد واطغان الآباء.

والمرأة فى خضم ذلك مجرد متاع يقامرون به.

وأفضل من رسم مفهوم (ضلال مبين) قول (جعفر بن أبى طالب) عندما بين أوضاع عرب الجاهلية لملك الحبشة (النجاشى) بقوله:

«أيتها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسئ الجوار، ويأكل القوي منا

الضعيف حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه، وصدقه وأمانته وعفاه فدعانا لتوحيد الله وان لا نشرك به شيئاً ونخلع ما كنا نعبد

من الأصنام وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصله الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء...» (١).

ولمزيد من توضيح تلك الإشارة التى وردت فى الآيتين الكريمتين نستعين بآيات أخرى حيث جاء فيها:

(١) الكامل، ج ٢، ص ٨٠؛ تفسير فى ظلال القرآن، ج ٨، ص ٩٥.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٣١

١- الأصنام فى عقائد العرب

إن عقائد أى قوم أو شعب تشكل ركناً أساسياً فى ثقافتهم، وانحطاط تلك العقائد يدل على الانحطاط الثقافى والحضارى لهم.

وعلى هذا الأساس، فعرب الجاهلية كانوا فى أزدل درجات الانحطاط الثقافى والضياع حيث كانوا يعبدون الأصنام التى يصنعونها

بأيديهم فيتصورون أنها تتحكم فى مصائرهم بل يزعمون أنها حاكمة على السماء والأرض أحياناً، وقد خاطب القرآن الكرىم الرسول

الأ-كرم صلى الله عليه وآله بصدد ذلك بقوله: «قُلْ اتَّعَبُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَكُمْ بِأَيْمَانِكُمْ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ». (المائدة/ ٧٦)

وبالإضافة إلى الأصنام الصغيرة فقد كانت لديهم ثلاثة أصنام كبيرة ذات شهرة خاصة في مجتمعهم يزعمون بأنها بنات الرب وهي وسيلة للتقرب إليه، أحدها (مناء) وكان ما بين المدينة ومكة المكرمة بالقرب من ساحل البحر الأحمر، ولهذا الصنم احترام خاص عند كل العرب انذاك، فيقدمون إليه القرابين، وأكثر القبائل احتراماً وتقديساً له قبيلة (الآوس) و (الخزرج).

والثاني في الطائف يُعرف باسم (اللآت)، وقد شُيد في مكانه اليوم مسجد وكانت (ثقيف) من أكثر القبائل احتراماً له. والثالث من الأصنام الكبيرة هو (العزى) وقد وضع في الطريق المؤدى إلى العراق قريباً من منطقة (ذات العرق) ولقریش علاقة خاصة بهذا الصنم،

وهناك أصنام أخرى للقبائل والعشائر بل وللعوائل أيضاً إذ لا معنى لحياة عرب الجاهلية بدونها، فمثلاً لو أرادوا السفر فإنهم يستأذنون من الصنم ولهم في أسفارهم أصنام يصحبونها معهم.

وقد أشار القرآن الكريم في سورة النجم إلى ذلك بقوله تعالى «أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ أَلَمْ يَكُنَّ الْأَكْثَرُ الذِّكْرَ وَلَهُ الْآثَنَىٰ». (النجم / ١٩-٢١)

ومن الجدير بالذكر في الحياة الجاهلية أنهم كانوا يكرهون البنات ويندونهن أحياناً

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٣٢

بالرغم من اعتقادهم بأن الملائكة بناتُ الله وهذه الأصنام تماثيل تلك الملائكة، لذلك واجههم القرآن الكريم بمنطقهم وهو كيف تقولون: أن الله بنات في الوقت الذي تكرهونهن فيه؟

وقد استنكر القرآن وذم تلك الأفكار الخرافية المنحطة بقوله تعالى «وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ». (الزخرف / ١٩)

وقد حارب الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله هذه العقائد الضالة الناشئة من التصورات الخاطئة وهوى النفس كما ورد في ذيل الآية الكريمة بعد أن أشارت إلى الأصنام الثلاثة الكبيرة المعروفة بقوله تعالى: «إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مِمَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ». (النجم / ٢٣)

صحيح أن المشركين قد تشبثوا بدليلٍ واهٍ ليبرروا به عبادتهم للأصنام حيث قالوا: (إن ذات الله أسمى من أن يصل إليها العقل والفكر الإنساني وهو منزّه عن أن نعبدّه بصورة مباشرة)، وعلى هذا الأساس فالذين وكل إليهم أمر خلقه وتدييره هم الواسطة إليه وهؤلاء هم الملائكة والجن وكل الموجودات المقدسة فهؤلاء أربابٌ نعبدهم وهم الذين يقربوننا إلى الله «مَنْعَبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ». (الزمر / ٣)

وعلى هذا فإن أيدينا لا تصل إلى هذه المقدسات فنصنع لها تمثالاً ثم نعبدها! وهذه التماثيل هي أصنامهم وفي تصورهم أن هناك وحدة واتحاداً بين هذه الأصنام والموجودات المقدسة فهم يخاطبونها بالآلهة والأرباب.

وهم بهذه الخرافات الواهية ابتعدوا عن الله سبحانه وتعالى وهو أقرب إلى الإنسان من نفسه، وبدلاً من أن يتوجهوا إلى الله الذي هو منبع الفيض والقدرة البصير الموجود في كل مكان لجأوا إلى مخلوقات ممكنة لا حول ولا قوة ولا شعور لها بل إنها مخلوقة بأيدي عبّادها ومع ذلك فقد أجلسوا تلك المخلوقات التي لا قيمة لها على عرش الربوبية والالوهية ناسين عظمة الذات الإلهية اللامتناهية ولاهتين وراء سراب يحسبونه ماءً.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٣٣

٢- نقشى حالة الفقر الشديد بين الناس

فى الوقت الذى بُعث فيه الرسول صلى الله عليه وآله كان عرب الجاهلية غارقين فى فقر شديد إلى الحد الذى كانوا يقتلون فيه أبناءهم- وحتى الذكور منهم أولئك الذين يشكلون الحجر الأساس لحياتهم المادية والاقتصادية- ليقفلوا عدد الأفواه الجائعة، قال تعالى «وَلَاتَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ حَشِيَّةً اَمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ» (١). (الإسراء / ٣١)

وقد جسّم أمير المؤمنين على عليه السلام هذا المعنى فى تحليل جامع فقال عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ نَذِيرًا لِلْعَالَمِينَ، وَأَمِينًا عَلَى التَّنْزِيلِ وَأَتَمَّ مَعَشَرَ الْعَرَبِ عَلَى شَرِّ دِينٍ وَفِي شَرِّ دَارٍ مَنِيخُونَ بَيْنَ حِجَارَةٍ خُشِنَ وَحَيَاتِ صُمَّمٍ، تَشْرَبُونَ الْكَادِرَ، وَتَأْكُلُونَ الْجَشِبَ» (٢).

٣- عباداتهم العجيبة

كانت عبادة المشركين غريبة للغاية، ويجب القرآن الكريم على ادعاء المشركين الذين يزعمون: بأنه إذا كان محمدٌ صلى الله عليه وآله قد اتى بعبادات فإن لنا مثلها وكنا نصلى إلى جانب الكعبة كذلك، فيقول القرآن: «وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً».

(الأنفال / ٣٥)

نعم، إنهم يُسمّون صفيهم الاحمق وتصفيقهم الأبله صلاة، «فالمكاء» يعنى: صوت الطيور، وجاء تشبيه أصوات العرب فى الجاهلية حول الكعبة بصوت الطيور، ربّما لأنه خالٍ من أى مفهوم كصوت الطيور الذى لا محتوى فيه، أو أن كل ما كان يفعلونه ما هو إلا مجرد غناء.

وأما «التصدية» فمعناها التصفيق، وهو ضرب اليد على الاخرى والصوت الناتج من

(١) هناك احتمال أن هذه الآية إشارة إلى قتل البنات اللاتى ينظر إليهن المجتمع باحتقار ويعدهن لوحدهن مخلوقات وضيعة مستهلكة ولكن الاحتمال هنا يشمل الأولاد أيضاً لوجود ضمير جمع المذكر ولقوله تعالى «إن قتلهم كان خطأ كبيراً» ويعود هذا الضمير إلى الأولاد فى صدر الآية التى نزلت إمّا بخصوص الأولاد فحسب أو الأولاد والبنات على أقل تقدير وقد استخدم ضمير الجمع للمذكر لتغليب الذكور على الإناث.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ٢٦.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٣٤

ذلك يسمى تصديّة، وعلى هذا الأساس سمي تردد الصوت بين الجبال بالصدى ولم ينتهوا إلى هذا الحد بل كانوا يطوفون عراة كما ولدتهم امهاتهم حول الكعبة، وهذا ما اشير إليه عندما نزلت سورة براءة وقام بإبلاغها أمير المؤمنين على عليه السلام فى شهر ذى الحجة بقوله: «لا يطوفنّ بالبيت غريان ولا يحجنّ البيت مشرك...» (١).

ويقال: إن السبب من طوافهم عراة أن مجموعة من العرب يُسمّون أنفسهم (حُمس) (٢) يعتقدون بأن طوافهم حول الكعبة يجب أن يكون بلباس خاص، ومن لم يملك ذلك اللباس ويطوف بملابسه المعتادة فعليه أن يرميها بعيداً بعد انتهاء الطواف ولا يحق له وللآخرين استخدامها ولذلك يطلقون على هذه الألبسة (اللقاء)، أى ما يُلقى من الثياب، وإذا اخذ بنظر الاعتبار أن أكثر الناس كان يسودهم فقر مدقع ولا يملكون إلا لباساً واحداً فيضطرون لخلعه من أجل الاحتفاظ به ويطوفون عراة حول الكعبة.

وقد استفاد أصحاب الشهوات أحياناً من هذه الخرافة ليمتّعوا بالنظر إلى الشباب من الرجال والنساء عندما يعرضون أجسادهم عارية

ويذكر ابن هشام أن الرجال كانوا عراة تماماً. أما النساء فكانن يخلعن كل ملابسهن ما عدا ثوباً مشقوق الذيل يبدى أجسامهن ثم ينشغلن بالطواف، وذات يوم طافت امرأة في تلك الهيئة أمام أعين رجال شرهه فأنشأت هذا الشعر الذي حفظه لنا التاريخ:

اليوم يبدو بعضه أو كله فما بدا منه فلا أحله (٤)

أما القرابين التي يقدمونها إلى الأصنام فلها قصة مفصلة، فمن جملة ذلك أن الناس في (دومة الجندل) (٥) كانوا يقدمون شخصاً في كل سنة قرباناً إلى الآلهة مع مراسم خاصة ثم يدفنون جسده المدمى قرب المذبح، حتى كتب بعضهم: إن المصريين كانوا يقدمون أجمل

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ٣، في ذيل الآيات الأولى لسورة البقرة.

(٢) «خمس» على وزن «خمس» جمع «أحمس» وهو من تعصب لدينه، ولأن قريش كانت توطد عقيدة الشرك لذلك وصفوا أنفسهم بال (خمس).

(٣) الإسلام والعقائد والآراء البشرية، ص ٢٨٨.

(٤) سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٢١٥.

(٥) منطقة في شمال غربي (نجد) في قمة جبال الجزيرة العربية، وهناك كانت قصة وقوع التحكيم بصفين.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٣٥

الشباب والشابات قرابين إلى (آلهة النيل)، وقد بقي ذلك التقليد عرفاً اجتماعياً لبعض قبائل العرب فينذر الآباء أبناءهم أحياناً قرابين إلى الآلهة أيضاً (١).

٤- الخرافات الأخرى لعرب الجاهلية

ومن جملتها مسألة اللحوم المحللة والمحرمة والقوانين المخزية الفارغة التي كانوا يسنونها لأنفسهم كما ذكر ذلك القرآن الكريم:

«وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرِّثْ حِجْرًا لَا يُطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِرَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا». (الأنعام / ١٣٨)

ويقول في الآية التي بعدها: «وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَيَّ زَوَاجِنَا وَأَنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ». (الأنعام / ١٣٩)

وقد وعِد القرآن أصحاب تلك البدع القبيحة التي ابتدعوها بالخسران كما ورد في ذيل هذه الآيات من قوله تعالى «قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ». (الأنعام / ١٤٠)

حتى أنهم قد حرّموا بعض السنن الباقية من الأنبياء عليهم السلام وأصبحت غير مؤثرة مثل سُننه تحريم القتال في الأشهر الحرم (ذى القعدة، ذى الحجة، محرم، رجب) حيث كان ذلك المعتقد عاملاً مهماً في منعهم عن سفك وإراقة دمائهم، لكن تلك السُننه الخرافية (النسيء) كانت تبطل تأثيرها، فمتى ما أرادوا تجاوز حرمة هذه الأشهر الحرم، قالوا لا مانع من جعل شهر آخر مكان هذا الشهر، فعاب عليهم القرآن هذا العمل السيء بقوله تعالى «أَنْتُمْ النَّاسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ». (التوبة / ٣٧)

إن الحج وزياره بيت الله الحرام التي كانت من سنن إبراهيم عليه السلام ودافعاً إلى الوحدة والتقرب إلى الله سبحانه، قد تلوث بخرافاتهم ولم تصبح سبباً وعاملاً للابتعاد عن الله سبحانه فحسب بل وللتفرقة والتشتت بين الناس، لأن التعصب للقومية والشرك وعبادة الأصنام كانت سائدها عليها.

(١) الإسلام وعقائد وآراء البشر، ص ٢٧٨.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٣٦

٥- شيوع الفساد الأخلاقي

لقد بلغ الفساد الأخلاقي أعلى درجاته عند عرب الجاهلية فقد كانت تحكمتهم عداوات شديدة وأحقاد موروثه من السلف إلى الخلف، لم تقتل الأخلاق فحسب بل إن كل شيء في المجتمع ذهب ضحية لهذه العداوات وقد بين القرآن الكريم ذلك للعرب الذين من الله وتعالى عليهم بالإسلام بقوله: «وَأَذْكُرُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا». (آل عمران / ١٠٣)

و «الشفاء»: كما جاء في «مقاييس اللغة» هي الإشراف والتسلط على الشيء و (الشفاء) هنا يطلق على الأشياء التي يشرف الإنسان عليها، مثل الإشراف على جوانب الحفرة أو حافة الوادي أو حافة النهر، وكذلك (شفة) الإنسان على جانبي فمه ويُطلق أيضاً على تحسن صحة المريض لأنه يتسلط ويتغلب على المرض.

وعلى أيه حال فقد شبه القرآن الكريم حياة عرب الجاهلية بمن يقف على شفا حفرة من النار ليسقط فيها بسهولة، نار تحرق كل شيء وتحوله إلى رماد.

كانت العداوة والنفاق والاختلافات مطبوعة في نفوسهم وحاكمة عليهم بحيث صرح القرآن الكريم لنبي الإسلام محمد صلى الله عليه وآله: إن من المستحيل القضاء على هذه الاختلافات بالطرق العادية وإيجاد الاتحاد والوحدة بينهم إلا بمعجزة إلهية، وقد حصل ذلك على يد الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «لَوْ أَنْفَقَتْ مِآ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ». (الأنفال / ٦٣)

إن معاقره الخمر واللعب بالميسر والأزلام كانت متفشية بحيث كان من الصعب القضاء عليها بمرحلة واحدة، لذلك جاء أمر تحريم الخمر على عدة مراحل (١).

كما أن أحد أكبر المفاسد الأخلاقية والاجتماعية هو مسألة (حقوق المرأة) في مجتمع عرب الجاهلية، فقد وصلت إلى الحد الذي يتفق مع ما قاله بعض المفسرين: إنه عندما تحين ولادة المرأة في العصر الجاهلي تحفر حفرة وتجلس على شفتها فإن كان المولود بنتاً

(١) والتفصيل في ذلك جاء في التفسير الامثل ذيل الآية ٩٠ من سورة المائدة.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٣٧

قذفته فيها، وإذا كان ولداً عصمته منها. وقد قال أحد شعرائهم بهذا الصدد مفترحاً:

سَمِيَّتُهَا إِذْ وُلِدَتْ تَمُوتُ وَالْقَبْرُ صِهْرٌ ضَامِنٌ ذَمِيْتُ «١»

إن هذا العمل سواء كان بدافع الفقر المدقع والاعتقاد بعدم الفائدة الاقتصادية للبنات أو بدليل التعصب المفرط ضدهن لتفادي وقوعهن في الحروب أسيرات بيد الأعداء فهو أفضح وأوحش عادات عصر عرب الجاهلية.

وقد عاب القرآن هذه الاعتقادات مراراً بقوله تعالى «وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ». (النحل / ٥٨-٥٩)

إن هذا العمل نوع من أنواع التعصب الأعمى لحفظ الشرف وقد جرهم لاقتراف أفضح الجرائم: (قتل الإنسان لطفله المسالم) وهو دليل واضح على أعظم حالات الجهل وسقوط الأخلاق وانعدام العواطف الإنسانية والاستهانة بمنزلة المرأة في ذلك المجتمع الجاهلي وتعبير «أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ» يشير إلى أن وجود البنت يعدّ عاراً عندهم إلى الحد الذي يهرب من قومه وقبيلته تخلصاً من عارها، غافلاً عن أن مسألة عدم وجود بنت تعني عدم وجود امهات، وإذا انعدمت الامهات انعدم وجودهم أيضاً، يقول أحد شعرائهم في هذا

الصدق:

لكل أبى بنت يُراعى شؤونها ثلاثة أصهارٍ إذا حُمِدَ الصهرُ
فبعلُّ يُراعيها وخذرٌ يُكنّها وقبرٌ يُوارِيها وخيرُهُم القبرُ (٢)

طفولة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله:

لا يوجد بحث كثير في القرآن الكريم عن طفولة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله إلّا سورة الضحى حيث نقرأ فيها: «أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ .
(الضحى / ٧-٨)

(١) تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٤٤.

(٢) تفسير القرطبي، ج ٦، ص ٣٧٣٤. نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٣٨

في الآية الاولى إشارة إلى يتم الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله حيث جاء في التاريخ أيضاً أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله عندما كان في بطن امه توفى والده (عبد الله)، وفي السنة السادسة من عمره الشريف توفيت والدته فتكفله جدّه (عبد المطلب). وفي السنة الثامنة من عمره توفى جدّه، فاحتضنه عمّه (أبو طالب) وآثره على أولاده ونفسه. وفي الآية الثالثة إشارة واضحة إلى فقر الرسول صلى الله عليه وآله في بداية عمره الشريف فمنّ الله سبحانه وتعالى عليه بإلقاء محبته في قلب خديجة عليها السلام فتزوج منها واغدت عليه ثروتها واعانتته على حياته ودعوته. وأما في الآية الثانية فيقول تعالى «وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ» فمعرفة الحق. وقال آخرون: إن مفهوم الآية هو أنك كنت ضالاً لا تعرف الحق ونحن هديناك إليه. وقال بعضهم: إن المراد بكلمة «ضالماً» هو (غافل) عن الأحكام والكتب السماوية، ولكن بعضهم يذهب إلى الضلالة الظاهرية في الطفولة حيث ضاع الرسول صلى الله عليه وآله مرة أو مرات عديدة عند أبواب مكة أو في أماكن أخرى والله سبحانه هداه إلى أحضان مملوءة بالمحبة فأرجعه إلى أحضان (عبد المطلب) و (أبي طالب) و (حليمة السعدية) التي كانت أمه في الرضاعة. وقد بينا شرح هذه الآية في المجلد السابع من رساله القرآن في بحث تنزيه الأنبياء، وفي التفسير الأمثل في ذيل هذه الآية آراء مختلفة وأفضل التفاسير هو ما ذكر أعلاه.

وعلى أية حال فإن هذه الآيات تبين مراحل طفولة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله.

ومن أبرز خصائص الرسول صلى الله عليه وآله في هذه المرحلة أنه لم يتعلم القراءة والكتابة عند استاذٍ قط، ولربما يبدو لأول وهله أنه نقص ما، ولكنه من النقاط المهمة والقوية في شخصية الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، لأنه عندما جاء القرآن الكريم بعباراته ومعارفه الراقية لم يشك أحد في كون القرآن منزل من الله سبحانه من نتاج فكر إنسان امي.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٣٩

وقد أكدت سورة العنكبوت هذا المفهوم بقوله تعالى «وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ»
(العنكبوت / ٤٨)

لاشك أن النبي صلى الله عليه وآله لو درس على يدي استاذ ما في تلك البيئة التي يُعد عدد المتعلمين فيها قليلاً جداً لكان من المستحيل عليه أن يأتي بمثل هذا القول الجلي، ولجابهه بعض الأفراد المطلعين على مجريات الأحداث بهذه الحجّة القوية متهمين إياه بالكذب والافتراء.

وحتى لو كان الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله يعرف القراءة والكتابة فإن من المسلمات أيضاً أن هذا القرآن لا يمكن أن يأتي به عقل بشري، فعدم معرفة الرسول القراءة والكتابة دليل قاطع على هذا المعنى وفي آيتين من القرآن الكريم جاء تصريح واضح أيضاً: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ» و «فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ» (الأعراف / ١٥٧-١٥٨)

وفي آية أخرى ضمنت ذلك المعنى بقوله تعالى «هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ». (الجمعة / ٢) ونحن نعرف أن أشهر تفسير لكلمة «أمي» هو من لا يقرأ ولا يكتب وحاله كحال الذي يخرج من بطن أمه لم ير استاذاً ولا مدرسة. وفسر البعض كلمة «أمي» بأنه من قام من بين الأمة والناس لا من بين الطغاة والجبابرة. وبعضهم يذهب إلى أنه من ولد في مكة المكرمة لأن أحد أسمائها (أم القرى أو من قام من مكة، وتختلف الروايات بهذا الصدد ولكن لا مانع في ذلك لو احتمالنا أن كلمة «أمي» تتضمن معنى المفاهيم الثلاثة (لا يقرأ ولا يكتب)، وقام من بين الأمة، وولد في منطقة مكة.

وقد حاول بعض المستشرقين المخالفين أن يسلبوا هذه الخصيصة من الرسول صلى الله عليه وآله حيث زعموا أنه كان رجلاً غير (أمي)، ولو أنه كان كما يدعون فكيف خفي ذلك على بيئه لا يمكن أن يخفى فيها شيء على أحد، بل إنها ليس لها القدرة على انكار ذلك.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٤٠

بداية مرحلة البعثة النبوية:

ما تقدم يمثل لمحات مختصرة من القرآن الكريم حول حياة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله قبل البعثة الشريفة، والآن جاء دور البحوث المفصلة حول البعثة النبوية.

فقد أشار القرآن الكريم إشارات مختلفة حول بعثة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله ومن جملتها الآيات الخمس التي جاءت في أول سورة العلق، التي اتفق المفسرون على أن نزولها في بداية «١» الوحي وبعثة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حيث قال عز من قائل: «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ» وكما هو المشهور فإن هذه الآيات نزلت على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في غار حراء.

أجل، إن الله سبحانه وتعالى ذو القدرة هو الذي أنزل إليك كتاباً سماوياً عظيماً يحمل بين دفتيه أسمى العلوم والمعارف الجليلة والقوانين والدروس التربوية بوسائل بسيطة كالحروف الهجائية، وأكد مرة أخرى على ضرورة تعلم القراءة باسم الخالق العظيم، وإضافة إلى مسألة القراءة أشار إلى تعلم الكتابة وإلى أن الله سبحانه هو المعلم، الله معلم البشر الأول الذي «عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ» فكانت طرق التعليم على ثلاثة أقسام: (قسم خلقها على هيئة علوم فطرية في وجودها مع الإنسان في الفطرة، وقسم آخر يعتمد العقل والتدبر والتفكير في عالم الخلق، والقسم الثالث عن طريق الأنبياء).

إن هذه الآيات القرآنية تدل على أن البعثة بدأت في جو مفعم بالمعنوية ومملوء بنور العلم والمعرفة «٢».

فتقل الوحي من جهة و ثقل الرسالة التي أُلقيت على عاتق الرسول صلى الله عليه وآله من جهة أخرى والمستقبل المرعب في المجابهة المحتومة مع المشركين المعاندين المتعصبين من جهة

(١) أورد بعض المفسرين ومن بينهم القرطبي قولاً ضعيفاً هو إن أول آية نزلت على الرسول صلى الله عليه وآله هي آيات، سورة الحمد، أو المدثر، ولكن وفقاً لما ورد في تفسير روح البيان، إذا كان هناك خلاف ففي سورة العلق كلها ولا يوجد هناك

خلاف على الآيات الخمس الأوائل منها بكونها أول آيات نزلت، ج ١٠، ص ٤٧٠.

(٢) في الآيات ١٦٤ من سورة آل عمران والآية ٢ من سورة الجمعة أيضاً إشارات إلى أصل البعثة ولم تذكر الآيات الأولى التي نزلت.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٤١

ثالثة، كانت سبباً في شعور النبي صلى الله عليه وآله بالتعب الشديد بعد نزول الوحي عليه أول مرة، فرجع إلى بيته ونام على فراشه وإذا بصوت الوحي يقرع مسامعه للمرة الثانية بقوله تعالى «يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ». (المدثر / ١-٣) وهناك أقوال كثيرة حول سبب نزول هذه الآية عند المفسرين.

فبعضهم يقول: إنها تتعلق بزمان تجمع فيه المشركون العرب في موسم الحج، وتشاوروا لمجابهة الرسول صلى الله عليه وآله. وقد جاء في روايات متعددة أنّ الآيات الأولى من سورة العلق - على أقل تقدير - نزلت بعد حادثه غار حراء وبعثه الرسول صلى الله عليه وآله والآيات الباقية لها تتعلق بالسنوات التالية «١».

وتشابه هذه الآيات، الآيات الأولى من سورة المزمل التي أشارت أيضاً إلى أنّ الرسول صلى الله عليه وآله تدرثر بردائه ونام في فراشه فنزل قوله تعالى «يَا أَيُّهَا الْمَزْمُلُ * قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نُصَفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا * أَنَا سَنُنْقِضُكَ قَوْلًا ثَقِيلًا».

واسلوب هذه الآيات يدل على أنها نزلت في أوائل الدعوة الإسلامية لأنّ لقاء القول الثقيل يشير إلى القرآن المجيد الذي نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله في زمان كان عدد المؤمنين فيه قليلاً، فاضطر صلى الله عليه وآله إلى جمع المؤمنين ليلاً وبعيداً عن أنظار الأعداء ليقراً عليهم الآيات القرآنية التي كانت تحتوي على المعارف والقوانين الإسلامية.

وطبعي أنّ قسماً من آيات هذه السورة قد نزلت في السنوات التالية، بل وهناك احتمال أنّ الآية الطويلة الواقعة في آخر السورة والتي جاء فيها حثٌ على الجهاد في سبيل الله سبحانه قد نزلت في المدينة أو أواخر المرحلة المكية (لأنّ فيها أخباراً عن المستقبل القريب). وعلى أيّة حال فليس هناك سبب يمنع نزول الآيات الأولى من السورة في بداية الدعوة

(١) فسّر المفسرون كلمة (المدثر) على خمسة تفاسير، وردت في التفسير الامثل، ذيل هذه الآيات وأكثر الجميع ملاءمة هو أنّ الرسول صلى الله عليه وآله كان مضطرباً فنام في فراشه ونزلت تلكم الآيات.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٤٢

وبالأخص أنّ كثيراً من المفسرين قد أشاروا إلى ذلك.

ومن المعروف أنّ دعوة الرسول صلى الله عليه وآله كانت سرية في بداية البعثة ولم يتصل ويدع إلى الإسلام إلّا الخواص الذين كان يطمئن باستعدادهم النسبي لتبليغ دعوته، وفي هذه المدة آمنت به عدّة معدودة.

قصة يوم الدار:

وفي السنة الثالثة للبعثة أمر الله سبحانه رسوله الكريم صلى الله عليه وآله أن يعلن الدعوة الإسلامية فنزلت الآية الكريمة: «وَأَنْذِرْ

عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ». (الشعراء / ٢١٤)

وفي الآية: «فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَاعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ». (الحجر / ٩٤)

فأعلن الرسول صلى الله عليه وآله دعوته مبتدئاً بالأقربين من عشيرته، وهذه القصة معروفة، وقد بيناها في القسم السابق.

وفي هذه الأثناء تعرض الرسول صلى الله عليه وآله إلى ضغوط متنوعة، وتحرك الأعداء ضده من كل حدبٍ وصوب.

والجددير بالذكر أنّ تحرك الأعداء ضد الرسول صلى الله عليه وآله كان على عدّة مراحل واشكال مختلفة (ويظهر أنّ هذه المراحل

كانت موجودة في جميع الدعوات الإلهية).

المرحلة الاولى كانت مرحلة الاستهزاء وهي أول المراحل في زمان لم ينظر فيه المشركون بشكل جدى إلى الدين الجديد، ولم يحسوا بخطره الحقيقي، بل تصوروا أن السخرية والاستهزاء سينهيان الأمر سريعاً ولا يحتاج إلى أكثر من ذلك، وقد جاء تعبير عن تلك المرحلة بقوله تعالى «وَأَذَّا رَاكَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُؤًا أَهْذَا الَّذِي يَذُكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ» (١). (الانبياء / ٣٦)

ولم تنحصر السخرية والاستهزاء بنبي الإسلام صلى الله عليه وآله بل تعرض لها جميع الأنبياء

(١) وجاء مثل هذه المعنى في الآية ٤١ من سورة الفرقان «وَأِذَا رَأَوْكَ أَنْ يَنْخِذُونَكَ إِلَّا هُزُؤًا أَهْذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا».

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٤٣

السابقين: «وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ». (الحجر / ١١)

ولما رأى المشركون أن السخرية والاستهزاء لم تؤثر شيئاً وأن الإسلام ما زال يواصل تقدمه دون تكلؤ، انتقلوا إلى المرحلة الثانية: لقد تصور المشركون أنهم سيخرجون الرسول صلى الله عليه وآله من ميدان الصراع بالصاق التهم به كالجنون أو (السحر)، أو (الشعر)، أو أن ما جاء به قد تعلمه على يد هذا أو ذاك أو أنه منقول من أساطير الأولين.

فمرة يقولون: «يَا أَيُّهَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ». (الحجر / ٦)

واخرى يقول بعضهم للآخر: «إِنَّا لَنَرَاكَ كَوَّا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ». (الصافات / ٣٦)

وأحياناً يقولون: «هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ». (الزخرف / ٣٠)

وأضاف القرآن الكريم: إنه ليس مشركو العرب لوحدهم ألصقوا تلك التهم بالرسول صلى الله عليه وآله فحسب بل إن هذه التهم قد عانى منها كل الأنبياء: على مر التاريخ: «كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ». (الذاريات / ٥٢) وفي مكان آخر نقرأ قوله تعالى «وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ» (١). (النحل / ١٠٣)

وأحياناً يقولون: «وَقَالُوا اسَاطِيرُ الْأُولِينَ اكَتَبَهَا فِيهِ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا». (الفرقان / ٥)

و «اساطير»: جمع (اسطورة) ومعناها القصص الخيالية التي لا صحة لها، وبهذا الاسلوب ألصقوا أنواع التهم وكل ما يختمر في أذهانهم بالرسول صلى الله عليه وآله ولكن لم يؤثر أى منها، وأخذ الإسلام يشق طريقه بسرعته بين الطبقات المختلفة.

المرحلة الثالثة: بدأت المرحلة الثالثة بضغطات مختلفة: اجتماعية وسياسية ولأنهم أدركوا مدى خطورة الإسلام عليهم سعوا إلى القضاء على الرسول صلى الله عليه وآله والمجموعة القليلة التي آمنت به من هذا الطريق.

(١) جاء في التفاسير أن رجلاً يدعى (بلعام) كان في مكة وأصله عبد رومي لبني حضرم وكان المشركون يقولون: إن محمداً صلى الله عليه وآله تعلم القرآن منه، وقال بعضهم: إن كلامه إنما نقله من عبيد نصرانيين أحدهما يسار والآخر جبر أو ذكروا اسم سلمان الفارسي، ولم تكن لغة أى منهم العربية بينما يعد القرآن معجزة في الفصاحة والبلاغة.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٤٤

وقصة (شيعب أبى طالب) معروفة إذ تم فيها محاصرة المسلمين في ذلك الوادى المقفر لمدة ثلاث سنوات خلال السنة السادسة للبعثة حيث انتهت بموت اطفالهم وحتى بعض كبار السن.

وكذلك قصة الهجرة إلى الحبشة خلال السنة الخامسة للبعثة معروفة أيضاً على أثر تعرض المسلمين لضغوط شديدة وتعذيب

المشركين لهم.

والعجيب أنه لم يتعرض المسلمون وحدهم لهذه الضغوط فحسب، بل جاء في التاريخ أنهم عقدوا معاهدة على مقاطعة كل بنى هاشم وبنى عبد المطلب سواء من أسلم منهم أم لم يسلم فلا يتزوجون منهم ولا يزوجونهم، وأن لا يشتروا منهم ولا يبيعوهم شيئاً حتى يزداد الضغط على المسلمين.

مع العلم أننا لا نرى في الآيات القرآنية إشارات واضحة حول هذه المسألة ولكن مما كان يتوصى به المشركون والكفار والمنافقون مع بعضهم في المدينة نستطيع أن نعرف وضع مكة: «هُم الَّذِينَ يَقُولُونَ لَأَتْنَفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفُضُوا». (المنافقون / ٧)

إن هذه الضغوط لم تجدي نفعاً أيضاً، بل ازداد تعاطف الناس شيئاً فشيئاً مع المسلمين وصار الإسلام أنشودة على كل لسان، حيث إن المسلمين اكتسبوا مظلومية تأثرت بها عواطف مجاميع عظيمة فانجذبوا إليهم. وأخذت مواجهات الأعداء شكلاً أكثر حدة في:

المرحلة الرابعة: وفيها صمموا على قتل الرسول صلى الله عليه وآله وإراقه دمه ليتخلصوا منه إلى الأبد أو أن يبعده عن مكة على أقل تقدير، ففي (دار الندوة) محل اجتماعهم ومركز مشاوراتهم، اجتمعوا ووضعوا خطة شيطانية دقيقة للوصول إلى أهدافهم تلك كما يقول القرآن: «وَأَذِّمُكُم بِكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ». (الأنفال / ٣٠) وكما نعلم أن الله سبحانه وتعالى قد أبطل كل خططهم الشيطانية ونجا الرسول

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٤٥

الكريم صلى الله عليه وآله من سيوف الأعداء حيث هاجر إلى المدينة تلك الهجرة الكبيرة التي تركت آثاراً عظيمة وتحولاً كبيراً في تاريخ الإسلام وفي العالم أجمع.

ومرة أخرى نتأمل في القرآن حيث يحدثنا بقوله تعالى «الَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ». (التوبة / ٤٠)

وبهذا الترتيب تخلص الرسول صلى الله عليه وآله من الأخطار المختلفة المحيطة به بلطف من الله سبحانه وبدأ هجرته المباركة بهدوء وسكينته ودخل الإسلام عندها مرحلة جديدة في حياته، وباء الأعداء بالفشل الذريع في هذه المرحلة أيضاً.

انتشر الإسلام في المدينة بسرعة فائقة وكثر اتباع الدين الإسلامي فشكل الرسول صلى الله عليه وآله الحكومة الإسلامية وصار للمسلمين جيش منظم وبيت للمال وكل ما تحتاجه الدولة آنذاك.

وفي مقابل توسع الإسلام وتثبيت أركانه احس الأعداء بخطر أكثر جدية فوسعوا مجابتهم ودخلوا:

المرحلة الخامسة: وهي المواجهة المسلحة مع الإسلام، وبدأت الغزوات الإسلامية كغزوة (بدر الكبرى) و (الصغرى) و (أحد) و (خيبر) و (حنين) و واحدة تلو الأخرى وفي كل مرة - إلا في مورد واحد - كان المسلمون يشهدون انتصارات ملفتة للنظر وكانوا في تقدم مستمر.

وقد أشار القرآن الكريم في كثير من الآيات إلى هذه المرحلة من حياة الرسول صلى الله عليه وآله حيث تعد من أكثر المرتكزات المهمة في هذا المقطع من تاريخ الإسلام.

في الآية التالية إشارة إجمالية إلى هذه الغزوات بقوله تعالى «لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ». (التوبة / ٢٥)

فكلمة (مَوَاطِن) جمع (مَوْطِن) وتأتى أحياناً بمعنى وطن ومحل الإقامة الدائمة

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٤٦

وأحياناً بمعنى ساحة القتال ومن هنا جاءت «مواطن كثيرة» أى الساحات المتعددة للحروب الإسلامية حيث بلغ عدد هذه الغزوات ثمانين غزوة، لذا نقرأ فى الحديث أنه:

عندما نذر أحد خلفاء بنى العباس أنه إذا عافاه الله سبحانه فإنه يعطى مائلاً كثيراً للفقهاء ولما تماثل للشفاء اجتمع الفقهاء حوله عاجزين عن تعيين مقدار (المال الكثير) إلا أن الإمام التاسع (محمد بن على التقي عليه السلام فسّر ال (كثير) ب (ثمانين) (ربما تكون ثمانين ألف درهم) لأن الآية السالفة الذكر قد اطلقت مواطن كثيرة على الغزوات الإسلامية البالغة ثمانين غزوة «(١)».

ثم جاء الفتح المبين و (فتح مكة) وحكم الإسلام شبه الجزيرة العربية بأجمعها وحطم المسلمون آخر معقل للأعداء. ولكن العدو المهزوم لم يستسلم فقد اضطر إلى تشكيل جمعية سرية (وهم المنافقين الذين كانوا يتظاهرون بالإسلام وفى الخفاء كانوا منهمكين بأنواع المؤامرات ضده الدين الإسلامى).

وبهذا الاسلوب دخلوا:

المرحلة السادسة: (مرحلة نهاية الحرب مع الأعداء)، وبالطبع أن ظهور المنافقين بدأ مع أول انتصار للإسلام وتوسع فى مقابله وما زال مستمراً إلى الآن.

وفى هذه المرحلة فقد باؤوا بالفشل الذريع أيضاً حيث كلما أرادوا التآمر على الإسلام كشفهم الله سبحانه وأبطل حيلهم ولم يبق منها سوى نار خامدة تحت الرماد لم يظهر اشتعالها ثانية إلا بعد رحلة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله. نزلت آيات قرآنية كثيرة حول هذه المرحلة أيضاً تعد من مقاطع القرآن المهمة فى اسداء العبر والدروس، ففى سورة (الأحزاب)، و (التوبة)، و (المنافقون) بحوث حية ومجدية تحكى لنا عن عمق المؤامرات التى قام بها المنافقون ومن جملتها الآية الكريمة فى قوله تعالى حيث ذكرت بحوثاً كثيرة حول هذه الجماعة ومخالفتهم وفتنتهم وتجسسهم،

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ١٩٧.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٤٧

قال تعالى «لَقَدْ ابْتَعُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ». (التوبة/ ٤٨)

إن هذه المراحل الست السالفة الذكر لم تكن فى مقابل الثورة الإسلامية للرسول الكريم وحده صلى الله عليه وآله فحسب بل فى مقابل كل الثورات الإلهية وهى بدورها موضوع لقصة مفصلة نتعلم منها الكثير.

ولكن لم يفلح الأعداء بكل مساعيهم للاطاحة بالإسلام وظلت شجرته زاهية مثمرة حيث غطت باغصانها واوراقها كل أصقاع شبه الجزيرة العربية كما دلت الآية الكريمة «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا». (النصر / ١ - ٢)

الأشهر الأخيرة من حياة الرسول صلى الله عليه وآله:

إن السنة الأخيرة من حياة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله هى السنة التى كانت فيها (حجة الوداع) ونزلت بها آخر سورة من سور القرآن يعنى سورة (المائدة)، ومع نزول آخر رسالة للوحى على الرسول صلى الله عليه وآله أمر الله سبحانه وتعالى نبيه الكريم صلى الله عليه وآله أن يعين أمير المؤمنين علياً عليه السلام وصياً له وخليفة من بعده كما فى قوله تعالى «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَأَنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ».

(المائدة/ ٦٧)

وفى (غدير خم) ذلك المعبر الكبير الذى كان مُفْتَرَقَ طرق للمجاميع التى جاءت مع الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله فى (حجة الوداع) وأمام الجمع الكبير أدّى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله حق الرسالة بإظهار هذا الأمر «(١)».

وحدث الحادثة الكبيرة المؤلمة وهي رحيل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله من الدنيا في وقت كان الإسلام ثابت الأركان من جميع النواحي. وله أرضية مهياة للانتشار في جميع أنحاء العالم. ولذا فقد كانت توقعات الأعداء هي ذهاب الإسلام مع رحلة الرسول صلى الله عليه وآله ولكن خابت

(١) ويمكن مراجعة تفصيل ذلك في التفسير الأمثل، ذيل الآية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٤٨

ظنونهم وذهبت أدرج الرياح: «وَمَا جَعَلْنَا لِيَشْرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنَّ مَتَّ فَهْمُ الْخَالِدُونَ». (الأنبياء / ٣٤)

وقوله تعالى «أَنَّكَ مَيِّتٌ وَأَنْهُمْ مَيِّتُونَ». (الزمر / ٣٠)

وقال: «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ». (الأنبياء / ٣٥)

إن هذا القانون شامل و عام لعالم الخلقه أجمع: «وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ». (الغافر / ٧٨)

وتحقق وعد الله كما ورد في الآية: «يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ أَلَّا أَنْ يُمْرَ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ». (التوبة / ٣٢) وهكذا فإن هذا النور الإلهي يتألق يوماً بعد يوم، وهو الآن يُنير أفقاً واسعاً من آفاق البشريه، وفي كل سنه تتنور آفاق اخرى بنور الإسلام ليزيح الظلام والظلم عن العالم أجمع.

كان هذا شرحاً مختصراً عن المراحل المختلفه لحياه الرسول صلى الله عليه وآله في القرآن المجيد، وشرح كل مرحله منها يحتاج إلى كتاب خاص ومفصل.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٤٩

الأدلة التي تثبت صدق دعوة رسول الإسلام

إشارة

الطريق الاول: اعجاز القرآن

الطريق الثاني: جمع القرائن طريق آخر للاطمئنان

الطريق الثالث: البشارات والإشارات

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٥١

الطريق الأول: اعجاز القرآن

تمهيد:

نفحات القرآن ج ٨ ص ٩٩

بدون شك أن ادعاء أي مدع حول أي قضية لا يمكن قبوله إلا بالدليل المقنع، فكيف إذا كانت القضية غاية في الأهمية مثل نبوة الأنبياء والادعاء بنزول الوحي والارتباط بالله سبحانه ودعوة الناس إلى اتباعهم؟!.

و على هذا فإن أول المسائل التي نواجهها هي مسألة الأدلة على نبوة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله.

وإن هذه الدلائل التي نعلم إجمالاً بتفرعها تقع تحت أربعة عناوين وهي:

١- المعجزات.

٢- مضمون الدعوة.

٣- أخبار الأنبياء الماضين والكتب السماوية السابقة.

٤- القرائن المختلفة: من دراسة سوابق حياته واقربائه وأصحابه والوسائل المتخذة للوصول إلى الهدف، ومقدار تأثيره في المجتمع، ومقدار اعتقاده واثاره في سبيل هدفه، والأخلاق والصفات الاخرى التي تشكل أرضية لمعرفة صدق ادعائه.

بعد هذه الإشارة المختصرة نعود إلى معجزات النبي صلى الله عليه وآله فنقوم ببحث ودراسة للقرآن الذي يعتبر أول وأفضل وأخلد معجزة للنبي صلى الله عليه وآله وقبل كل شيء نقرأ منطلق القرآن في وصف نفسه:

١- «قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَأَيَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٥٢

كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا». (الاسراء / ٨٨)

٢- «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَاذْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ». (هود / ١٣)

٣- «وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ». (البقرة / ٢٣- ٢٤)

٤- «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَاذْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ». (يونس / ٣٨)

٥- «أَمْ يَقُولُونَ تَقْوَلُهُ بَلْ لَأَيُّمُونُونَ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ».

(الطور / ٣٣- ٣٤)

٦- «قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا اتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ». (القصص / ٢٩- ٥٠)

٧- «وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٍ مِّنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ». (العنكبوت / ٥٠- ٥١)

جمع الآيات وتفسيرها

في جميع الآيات السبع المذكورة ركز القرآن الكريم على مسألة التحدي (الدعوة إلى المعارضة) التي هي من اركان الاعجاز، فتارة يقول بصراحة- وتارة اخرى بالدلالة الالتزامية:-

إنَّ هذا الكتاب السماوي هو من عند الله وإذا كنتم في شك وريب مما نزلنا فاجمعوا كل قواكم من أجل الإتيان بمثله أو بسورة منه، لأنه إذا كان من نتاج فكر البشر فأتتم بشر أيضاً

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٥٣

ولديكم فكر وذكاء، وفي الواقع أن القرآن وبواسطة هذا المنطق العقلي الواضح أثبت اعجازه بصورة إجمالية.

إنَّ الآية الاولى تقف بوجه المعاندين قائلة: «قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَأَيَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا».

فهذه الآية تدعو من جهة أفراد البشر كافة دعوة عامة، ومن جهة اخرى فهي تدعو جميع أفراد البشر في عصرنا والعصور الآتية نظراً إلى خلود دعوة القرآن، ومن جهة ثالثة، وبملاحظة كلمة «اجتمعت»، وجملته «بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا» تبين أنها دعوة للمشاركين كافة للتعاون فيما بينهم وشحن الهمم، وتوحيد أفكارهم في مجرى واحد من اجل المقابلة بالمثل، ومن جهة رابعة، فإن إثارة الخصم والتحرش به من أجل تأجيج غيرته قد اتخذ أقوى أشكال التحدي، وحينما خاطبهم بكلام قاطع: «لايأتون بمثله»، فهو دليل قوى على ارتباطه الوثيق

بعالم ما وراء الطبيعة.

إنّ هذا التحدى وهذا النداء كان موجهاً إلى أبناء البشر جميعاً فى كل زمان ومكان، لأنّ دوافع أعداء الإسلام للقضاء عليه فى عصر النبوة وفى كل عصر وزمان قائمة وقوية، ومن المسلمّ أنّه لو كانت لديهم قدرة على ذلك لما تماهلوا عن ذلك، وتاريخ الإسلام وتاريخ كل العالم لم يذكر لنا بأنّ شخصاً أو جماعة قد أقدمت على هذا العمل، وهذا دليل على عجزهم وعدم قدرتهم، وفى النتيجة فهو دليل على عظمة واعجاز القرآن الكريم.

ويستفاد من هذه الآية أنّ الاجتماع وحده لا يؤثر فى حل المشكلات مالم يكن بعضهم ظهيراً لبعض لحماية ومساعدة بعضهم للبعض الآخر وإسداء النصح لبعضهم الآخر.

كما نلفت الانظار إلى أنّ القرآن لا- يكتفى فى التحدى بالبلاغة وجمال البيان فقط، بل الشبه من جميع الجوانب الشاملة للمحتوى والمعارف والأحكام وكل شىء، وهذا ما تؤكد كلمة (مثله) الواردة فى الآية.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٥٤

فى الآية الثانية يقلص القرآن تحديه عن الاثنيان بمثله، ويطلب من الخصم أن يأتى بعشر سور وهو أقل من عشر كل القرآن قائلاً: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ» ولم يكتف بهذا بل صرح: «وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

وفى الآية الثالثة نرى أنّ التحدى القرآنى يصل إلى أقل من ١ خ قائلاً: «وَأَنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِّثْلِهِ» ثم أضاف: «وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

فمن الواضح أنّ المراد من: «شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ» أنصارهم وكل من اعتقد اعتقادهم لأنهم هم الذين شهدوا لصالحهم فى رد وتكذيب رسالة النبى صلى الله عليه وآله. ومن الطبيعى أن يتعاونوا فيما بينهم ليأتوا بسورة واحدة مماثلة لسورة من القرآن وإلا لو كان المراد من «شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ» الإتيان بسورة تماثل سورة من القرآن لكان من المفروض مطالبه الله بالشهادة قبل أى شخص آخر، ولذا فإنّ أول تفسير للآية نقله المرحوم الطبرسى فى مجمع البيان عن ابن عباس هو: المراد منها الأعوان والأنصار، وأضاف: إنّه يطلق على الأعوان والأنصار: شهداء، لحضورهم وشهودهم حين التعاون.

وقدر رجح الفخر الرازى فى تفسيره بعد ذكر معنيين للفظ الشهداء (أى: الأصنام، والأعوان، والأنصار) المعنى الثانى «١». وارتضى بعض المفسرين هذا المعنى أيضاً.

والسورة: تمثل جزءاً من آيات القرآن، تبدأ ب «بسم الله...».

وتختم قبل مجيء «بسم الله» جديدة فى السورة التى تليها، ماعدا سورة واحدة وهى سورة التوبة أو سورة براءة.

وقيل: إنّ كلمة سورة مأخوذة من «سور» وهو الجدار المحيط بالمدن، فكأنما أعتبر

(١) تفسير الكبير، ج ٢، ص ١١٩.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٥٥

القرآن بمجموع آياته، دولة عظيمة واسعة، والسور القرآنية مُدن هذه الدولة العظيمة.

وبناءً على هذا الدليل نعتقد بوجود ترابط واتصال بين آيات السورة الواحدة، وإن لم يكن واضحاً فى الظاهر أحياناً وهذا الارتباط نظير وجود نوع من الانسجام والارتباط بين البيوت والعمارات والشوارع لكل مدينة مع أنّ فيها المساجد والمدارس والأسواق والمناطق المأهولة بالسكان، كل كيان فى موضعه المناسب.

ويستفاد من هذا المعنى أنّ السور كانت فى وقت نزول القرآن على هذه الهيئة العالية بخلاف تصوّر بعض الجهال وإن كان بعض من الآيات النازلة أحياناً يتخذ له مكان معين فى سورة خاصة بأمر من النبى صلى الله عليه وآله.

وجملة: «من مثله» تتضمن معنى شىء يكون على شاكله القرآن في كل أوصافه التي تشمل (الفصاحة) و (بلاغه الألفاظ) مع المحتويات والمعارف القيمة «١».

والشاهد على هذا الكلام ما ورد في قوله تعالى «فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ». (يونس / ٣٨)

ونقرأ في قوله تعالى «فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ». (الطور / ٣٤)

وعلى هذا الأساس يستبعد كثيراً احتمال عودة ضمير (مثله) إلى النبي صلى الله عليه وآله بأن يكون معناها: إذا كنتم مرتابين في أصل هذه الآيات السماوية فأعثروا على رجل مثل محمد صلى الله عليه وآله لم يكن قد درس على الاطلاق وأتوا بآيات تناظر الآيات التي أتى بها.

إن هذا المعنى بعيد وإن ذكره جماعة من المفسرين إما على وجه الاحتمال أو على وجه القبول.

ويحتمل أيضاً اجتماع التعبيرين في هذا المعنى ويصير مفهومه بهذا الشكل: أتوا بسورة مثل سور القرآن من شخص لا يعرف القراءة والكتابة، كالنبي صلى الله عليه وآله.

والحديث الذى ورد في «تفسير البرهان» جمع هذين المعنيين في عبارة واحدة «٢».

وعلى كل حال يقول عز من قائل في تعقيب هذه الآية: «فَبِأَن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَئِن تَفَعَّلُوا فَاْتَقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ».

(١) وبناء على ذلك فإن (من) إما زائدة أو بيانية.

(٢) تفسير البرهان، ج ١، ص ٦٧. ح ١.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٥٦

وتضمنت الآية الرابعة أيضاً التحدى بالأتیان بسورة تشابه سور القرآن فيقول عز وجل:

«أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

إن لفظه «سورة» تشمل السور الطوال والقصار في القرآن، والتعبير (بمثله) إشارة إلى مماثلته من جميع الجهات، وجمله: «وادعوا من استطعتم من دون الله» شاملة لكل ما سوى الله تعالى.

فعلى هذا الأساس إذا كان القرآن نتاج فكر بشرى، فإن إنساناً آخر يستطيع أن يأتي بمثله فضلاً عن أن يستعين أيضاً بأشخاص لا يحصون، وبالأخص مع كثرة وجود الفصحاء والبلغاء في أوساط العرب الجاهلين سابقاً.

ويستفاد ضمناً من هذه الآية والآيات السابقة أن أفضل طريق للوصول إلى الأهداف المهمة هو الاستفادة من الأطروحات المشتركة، وقد ذكر القرآن ذلك في الوقت الذى لم تكن مسألة الاجتماعات والمؤتمرات للوصول إلى حقائق المسائل المهمة مطروحة على صعيد الواقع وحتى مساعى وجهود العلماء كانت تتخذ صبغة فردية وشخصية.

في الآية الخامسة ذكر هذا المعنى نفسه في قالب آخر، يقول عز من قائل: «أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَأَيُّمُونُونَ* فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ».

و «تَقَوَّلَ»: مأخوذة من لفظه (تَقُول) بحسب ماورد عن المرحوم «الطبرسى» في مجمع البيان: هو بمعنى الكلام الذى يخلق ويفتعل بتكلف ومشقة، ويستعمل عادةً فى الكذب والزور، لأنه ليس من الواقع فى شىء ولا يخلو من تكلف «١».

ويمكن الإشارة «بحدِيث مثله» إلى تمام القرآن أو بضع سور أو سورة واحدة، أو حتى أقل من ذلك لاطلاق كلمة (الحديث) على كل منها.

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ١٦٨.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٥٧

يقول الراغب في المفردات: كل كلام ينقل إلى الإنسان عن طريق السماع المباشر، أو الوحي، في اليقظة، أو في المنام، فهو يسمى بالحديث.

الآية السادسة من سورة القصص تطرقت إلى الحديث عن الإتيان بكتاب يشابه هذا الكتاب (القرآن)، يقول عز من قائل: «قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا اتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ».

ثم من أجل تعريته وفضح أساريهم الملوثة، وبيان الاعجاز القرآني يعقب الله تعالى بقوله: «فَأَن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ».

أى: إذا عجز هؤلاء عن الإتيان بمثله فهو دليل على أن هذا الكتاب ليس وليد فكر البشر. وإلا فليس هناك مبرر لعجز الفصحاء والبلغاء الذين يعيشون بين ظهراينهم مع كل جهودهم ومساعدتهم التي بذلوها. ولفظة (كتاب) تعنى كل شيء (مكتوب) و (مدون).

وبناءً على هذا فهو شامل لجميع القرآن ولاجزائه المختلفة أيضاً، خصوصاً إذا نظرنا إلى أن هذه الآية جاءت في سورة القصص، وقد نزلت في مكة، ومن المعلوم أن القرآن لم ينزل بتمامه في ذلك الزمان، فيتضح أنه إضافة إلى كونه معجزة بأجمعه فإن أجزاءه المختلفة معجزة أيضاً.

وفي الآية السابعة والأخيرة من البحث جاء الردُّ على المحتجين فيقول تعالى على لسانهم: «وَقَالُوا لَوْلَا انزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ»، فيرد عليهم بقوله: «قُلْ أَنَّمَا آيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ».

ثم يعقب على ذلك بقوله: «أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ».

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٥٨

يعنى لماذا يطلب هؤلاء معجزات اخرى على الرغم من وجود هذه المعجزة الإلهية العظيمة؟

فعلى هذا الأساس يعلن بصراحة عن اعجاز القرآن ويتحدى المناوئين بالدلالة الالتزامية ويدعوهم إلى المنازلة.

يقول المفسر الكبير المرحوم الطبرسي في مجمع البيان: إن في إنزال القرآن دلالة واضحة ومعجزة لائحة وحجة بالغة تنزاح معه العلة وتقوم به الحجة فلا- يحتاج في الوصول إلى العلم بصحة نبوته إلى غيره. على أن إظهار المعجزات مع كونها إزاحة للعلّة تراعى فيه المصلحة فإذا كانت المصلحة في إظهار نوع منها لم يجز إظهار غيرها «١».

وتبين أهمية هذا البحث من خلال التوجه إلى النكتتين اللتين وردتا في (تفسير القرطبي) و (ظلال القرآن):

إحدهما: إنَّ خوارق العادات الجسمية تتوافق غالباً مع الأفراد المبتلين بالمسائل الحسية، وتناسب مع بداية التفكير البشري، أمّا مثل هذه المعجزة الروحية التي تنطوي على جنبه معنوية فهي تنسجم مع الحقبة المتفتحة للفكر البشري.

والاخرى اضافة إلى مخالفته خوارق عادات الأنبياء (نظير معجزة موسى وعيسى عليهما السلام التي أُلقيت عليها مسوح السحر تشكل هذا الإعجاز (الذي هو من جنس الكلام) من ألفاظ يقوى عليها جميع الأفراد من أصحاب تلك اللغة «٢».

تحصل من ذلك أن القرآن الكريم أشار في سبع آيات من السور المختلفة على الأقل إلى أنه معجزة إلهية كبرى وقام بتحدى المنكرين له بطرق مختلفة.

ومن المعلوم أن أي شخص قام بعمل خارق للعادة ودعا جميع الناس إلى معارضته

(٢) تفسير في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٤٢٢؛ وتفسير القرطبي، ج ٧، ص ٥٧١.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٥٩

ومنازلته وعجزوا عن القيام به فذلك دليل على إعجاز عمله.

وبعبارة أخرى احتج القرآن عليهم في هذه العبارات بكلام فريد من نوعه بقوله: إذا كنتم تعتقدون بأن هذه الآيات هي من صنع عقل البشر فأنتم أيضاً بشر، ولكم عقول وأفكار ولا يندر وجود البلغاء والمتكلمين والفصحاء في أوساطكم، فإذا كنتم صادقين في هذا الادعاء فأتوا بآيات مثل هذه الآيات. فيدعوهم إلى المشاركة في هذه المنازلة من خلال عباراته المتنوعة والمثيرة. من جهة أخرى لو كان بإمكان أولئك الانتصار في مثل هذه المنازلة، لحشدوا كل قواهم لأن الانهزام في هذه المواجهة يساوي التضحية بكل شيء عندهم.

لقد كان القرآن في مواجهة حادة مع اسس ثقافتهم المتمثلة في عبادة الأوثان والمتغلغلة في مختلف شؤون حياتهم، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل أنزل شيوخهم ووجهاءهم وأثرياءهم المغرورين من أوج جبروتهم وقدرتهم إلى منتهى الحضيض، وسلب منهم امتيازاتهم المصطنعة والموهومة كافة.

وبغض النظر عن الشواهد التاريخية التي سوف نشير إليها لاحقاً فإن العوامل المحركة للمقابلة بالمثل كانت كثيرة جداً وإذا كان باستطاعتهم حقاً أن يجرّدوا النبي محمداً صلى الله عليه وآله من السلاح بهذا الأسلوب، لما دعت الحاجة إلى كل هذه الحروب الدموية، والمجابهات الساخنة وحيث إننا نراهم قد توسلوا بكل شيء سوى محاولة الإتيان بمثل آيات القرآن، فهذا بنفسه أكبر دليل على انهزامهم في هذه المنازلة.

توضيحات

(أ) تأثير القرآن وجاذبيته المنقطعة النظير

إشارة

هناك قصص ووقائع موثقة وعجيبة يذكرها لنا التاريخ تروى من جهة عمق التأثير الذي يتركه القرآن الكريم على قلوب المخاطبين، وحتى على أولئك الذين لا يؤمنون بالإسلام

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٦٠

ولا بالقرآن، ومن جهة أخرى تمثل هذه القصص دليلاً دامغاً على عجز المناوئين عن الجواب عن تحدى القرآن لهم.

إن دراسة هذه الحوادث توفر للإنسان فرصة التعرف على دروس وعبر يمكن الاستفادة منها في حياته وتبين عظمة وإعجاز هذا الكتاب السماوي وما ورد فيه، وهذه نماذج من هذه القصص:

١- قصة الوليد بن المغيرة المخزومي

تحدث آيات سورة المدثر بشكل واضح عن الشخص الذي خطر في ذهنه أن يتحدى القرآن وقد آل أمره إلى مصير أسود حيث نطالع معاً هذه الواقعة التي حدثت وكانت سبباً لنزول هذه الآيات التي نقلها جمع غفير من المفسرين كالطبرسي، والقرطبي، والمراغي، والفخر الرازي وغيرهم. وهي كما يأتي:

يروى أن النبي صلى الله عليه وآله لما نزلت عليه الآية الكريمة: «حَمَّ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ غَمَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ

شَدِيدِ الْعَقَابِ» قام إلى المسجد والوليد بن المغيرة قريب منه يسمع قراءته فلما فطن النبي صلى الله عليه وآله لاستماعه لقراءته أعاد قراءة الآية فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه بنى مخزوم فقال: «والله لقد سمعت من محمد أنفاً كلاماً ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وأنه ليعلو وما يعلى عليه»، قال ذلك ثم انصرف إلى منزله فقالت قريش: صبأ والله الوليد، والله لتصبأن قريش كلهم، وكان يقال للوليد ريحانة قريش: فقال لهم أبو جهل: أنا أكفيكموه، فانطلق فقعد إلى جنب الوليد حزيناً، فقال الوليد: مالي أراك حزيناً يا ابن أخي، قال: هذه قريش يعيونك على كبر سنك ويزعمون أنك زينت كلام محمد. فقام مع أبي جهل حتى أتى مجلس قومه فقال: أتزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يخفق قط؟ فقالوا: اللهم لا، قال: أتزعمون أنه كاهن فهل رأيتم عليه شيئاً من ذلك؟ قالوا: اللهم لا، قال: أتزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه أنه ينطق بشعر قط؟ قالوا: اللهم لا، قال: أتزعمون أنه كذاب فهل جربتم

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٦١

عليه شيئاً من الكذب؟ فقالوا: اللهم لا، وكان يسمى الصادق الأمين قبل النبوة من صدقه، فقالت قريش للوليد: فما هو؟ فتفكر في نفسه ثم نظر وعبس فقال: ما هو إلا ساحر، ما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه فهو ساحر وما يقوله سحر يؤثر (١).

٢- استماع زعماء قريش إلى القرآن

نقرأ في سيرة ابن هشام: أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والاحنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي، حليف بنى زهرة خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يصلى ويتلو القرآن في بيته فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع منه وكل لا يعلم صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا وقال بعضهم لبعض: لا- تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألاً نعود، فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا (٢).

نعم لقد كانت جاذبية القرآن شديدة إلى درجة بحيث خضع لها حتى ألد الأعداء، فلو أزيلت عنهم حجب العصبية والنعاد والتعلق بالمصالح الشخصية لآمنوا بالله بصورة قطعية.

٣- قصة ابن أبي العوجاء ورفاقه

ينقل المرحوم الطبرسي في الاحتجاج عن هشام بن الحكم العالم المعروف وأحد تلامذة الإمام الصادق عليه السلام يقول:

(١) ونقل الحديث مفسرون عديدون- بتفاوت- كالفخر الرازي؛ والمراغي؛ والقرطبي؛ والطباطبائي في الميزان؛ وسيد قطب في الظلال.

(٢) سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣٣٧.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٦٢

اجتمع كل من (ابن أبي العوجاء)، و (أبي شاعر الديصاني)، و (عبد الملك البصري)، و (ابن المقفع) وقد كانوا جميعاً من الملحدين الذين لا إيمان لهم، اجتمعوا إلى جوار الكعبة واخذوا يسخرون من أعمال الحجاج ويوجهون الطعن إلى القرآن.

قال ابن أبي العوجاء: هلمُّوا جميعاً لينقض كل واحد منّا ربعاً من القرآن ونأتى بشيء مثله، وسيكون موعد لقائنا في السنة الآتية في هذا

المكان، عندما ننقض القرآن بأكمله، لأن نقض القرآن هو السبب المؤدى إلى إبطال نبوة محمد صلى الله عليه وآله وإبطال نبوته هو إبطال للإسلام وإثبات لأحقية ادّعائنا، فاتفقوا وتفرقوا على ذلك.

وفى السنة المقبلة، وفى اليوم نفسه اجتمعوا إلى جوار الكعبة وأخذ ابن أبى العوجاء يحدثهم ويقول: منذ اليوم الذى تركتكم وابتعدت عنكم، كنت افكر فى هذه الآية: «فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا». (يوسف / ٨٠)

فوجدتها على جانب كبير من الفصاحة والغزارة المعنوية بحيث إننى لم أتمكن من أن اضيف شيئاً إليها، إضافته إلى أن هذه الآية شغلت ذهنى عن التفكير غيرها.

وأما عبد الملك فقال: وأنا كذلك كنت افكر فى هذه الآية حينما افترقت عنكم: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْأَلُهمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَآيَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ».

(الحج / ٧٣)

وقد وجدت نفسى عاجزاً عن الإتيان بمثلاً.

وقال أبو شاكر: منذ ذلك الوقت الذى ابتعدت عنكم كنت افكر فى هذه الآية: «لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا». (الأنبياء / ٢٢)

ولم أجد نفسى قادراً على الإتيان بمثلاً.

وأضاف ابن المقفع فقال: «يا قوم إن هذا القرآن ليس من جنس كلام البشر لأننى منذ تلك اللحظة التى افترقت فيها عنكم كنت أتأمل فى هذه الآية: «وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ اقلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُصِّى الْأَمْرَ وَاشتَوْتِ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ».

(هود / ٤٤)

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٦٣

ورأيت نفسى عاجزاً عن الإتيان بمثلاً.

يقول هشام بن الحكم: فى هذه الأثناء مر بالقرب منهم جعفر بن محمد الصادق عليه السلام وتلا هذه الآية: «قُلْ لئنِ اجْتَمَعَتِ الْانْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَأَيْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا». (الاسراء / ٨٨)

عندئذ أخذ ينظر كل واحد منهم إلى الآخر ويقول: إذا كان للإسلام حقيقة قائمة بذاتها، ولم يكن يمثل محمد صلى الله عليه وآله وسوى جعفر بن محمد عليه السلام فتالله لا يقع نظرنا عليه فى وقت من الأوقات إلا وتستحوذ علينا أبهته، وتتشعر أبداننا من هيبتة، قالوا هذا الكلام وتفرقوا معترفين بعجزهم.

٤- قصة عثمان بن مظعون

وهو أحد صحابة نبي الإسلام صلى الله عليه وآله والمعروفين، قال عثمان بن مظعون: كنت أسلمت استحياءً من رسول الله صلى الله عليه وآله و آله لكثرة ما كان يعرض على الإسلام ولما يقر الإسلام فى قلبى فكانت ذات يوم عنده حال تأمله، فشخص بصره نحو السماء كأنه يستفهم شيئاً فلما سرى عنه، سألته عن حاله، فقال: نعم بينا أنا أحدثك إذ رأيت جبرائيل فى الهواء فأتانى بهذه الآية: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ» وقرأها على إلى آخرها فقر الإسلام فى قلبى وأتيت عمه أبا طالب فأخبرته فقال: يا آل قريش اتبعوا محمداً صلى الله عليه وآله و آله ترشدوا، فإنه لا يأمركم إلا بمكارم الأخلاق. وأتيت الوليد بن المغيرة وقرأت عليه هذه الآية فقال: إن كان محمد قاله فنعمة ما قال وإن قاله ربه فنعمة ما قال «١».

٥- قصة اسعد بن زرارة

وردت هذه القصة فى كتاب (أعلام الورى و (بحار الأنوار) وقد تحدثت عن الجاذبية والتأثير الهائل لآيات القرآن فى نفوس

المخاطبين.

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٥ و ٦، ص ٣٨١، ذيل الآية ٩٠ من سورة النحل.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٦٤

و استناداً إلى (بحار الأنوار) نقل الحكاية بصورة موجزة وكما يلي:

«قدم أسعد بن زرارة وذكوان بن عبد قيس في موسم من مواسم العرب وهما من الخزرج، وكان بين الأوس والخزرج حرب قد بقوا فيها دهرًا طويلاً وكانوا لا يضعون السلاح لا بالليل ولا بالنهار، وكان آخر حرب بينهم يوم بعث، وكانت للأوس على الخزرج، فخرج أسعد بن زرارة وذكوان إلى مكة في عمرة رجب يسألون الحلف على الأوس، وكان أسعد بن زرارة صديقاً لعتبة بن ربيعة فنزل عليه فقال له: إنه كان بيننا وبين قومنا حرب وقد جئنا نطلب الحلف عليهم، فقال له عتبة: بعدت دارنا من داركم، ولنا شغل لا نتفرغ لشيء، قال: وما شغلكم وأنتم في حرملك وأمنكم؟ قال له عتبة: خرج فينا رجل يدعى أنه رسول الله، سفه أعلامنا وسب آلهتنا وأفسد شبابنا، وفرق جماعتنا، فقال له أسعد: من هو منكم؟ قال ابن عبد الله بن عبد المطلب من أوسطنا شرفاً، وأعظمنا بيتاً، وكان أسعد وذكوان وجميع الأوس والخزرج يسمعون من اليهود الذين كانوا بينهم: النضير وقرظة وقينقاع، أن هذا أوان نبي يخرج بمكة يكون مهاجرة بالمدينة لنقتلنكم به يا معشر العرب، فلما سمع ذلك أسعد وقع في قلبه ما كان سمع من اليهود، قال: فأين هو؟ قال: جالس في الحجر وأنهم لا يخرجون من شعبهم إلا في الموسم، فلا تسمع منه ولا تكلمه فإنه ساحر يسحرك بكلامه.

وكان هذا في وقت محاصرة بني هاشم في الشعب، فقال له أسعد: فكيف أصنع وأنا معتمر لا بد لي أن أطوف بالبيت؟ قال ضع في أذنيك القطن، فدخل أسعد المسجد وقد حشا أذنيه بالقطن، فطاف بالبيت ورسول الله جالس في الحجر مع قوم من بني هاشم فنظر إليه نظرة فجاهه، فلما كان في الشوط الثاني قال في نفسه، ما أجد أجهل مني؟ أيكون مثل هذا الحديث بمكة فلا أتعرفه حتى أرجع إلى قومي فأخبرهم، ثم أخذ القطن من أذنيه ورمى به، وقال لرسول الله: أنعم صباحاً، فرفع رسول الله صلى الله عليه وآله رأسه إليه وقال: «قد أبدلنا الله به ما هو أحسن من هذا، تحية أهل الجنة: السلام عليكم»، فقال له أسعد: إن عهدك بهذا لقريب، إلى ما تدعو يا محمد؟ قال: «إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله، وأدعوكم إلى

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٦٥

«أن لا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها وإذا قتلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربي وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون». فلما سمع أسعد هذا قال له: أشهد أن لا إله إلا الله وأنتك رسول الله، يارسول الله بأبي أنت وامي أنا من أهل يثرب من الخزرج، وبيننا وبين اخوتنا من الأوس حبال مقطوعة، فإن وصلها الله بك، ولا أجد أعز منك، ومعى رجل من قومي فإن دخل في الأمر رجوت أن يتم الله لنا أمرنا فيك، والله يارسول الله لقد كنا نسمع من اليهود خبرك، ويبشروننا بمخرجك، ويخبروننا بصفتك، وارجو أن يكون دارنا دار هجرتك عندنا، فقد أعلمنا اليهود ذلك، فالحمد لله الذي ساقني إليك، والله ما جئت إلا لطلب الحلف على قومنا، وقد آتانا الله بأفضل مما أتيت له. ثم أقبل ذكوان فقال له أسعد: هذا رسول الله الذي كانت اليهود تبشروننا به، وتخبرنا بصفته، فهلم فأسلم ذكوان، ثم قال: يارسول الله ابعث معنا رجلاً يعلمنا القرآن، ويدعو الناس إلى أمرك، فقال رسول الله لمصعب بن عمير، وكان فتى حدثاً مترفاً بين أبويه يكرمانه ويفضلانه على أولادهما ولم يخرج من مكة، فلما أسلم، جفاه أبواه، وكان مع رسول الله في الشعب حتى تغير وأصابه الجهد، وأمره رسول الله بالخروج مع أسعد، وقد كان تعلم من القرآن كثيراً، فخرجوا إلى المدينة، ومعهما مصعب بن عمير فقدموا على قومهم وأخبروهم بأمر رسول الله وخبره، فأجاب من كل بطن الرجل والرجلان «١».

٦- قصة الأصمعي المشرية

ينقل الزمخشري في تفسير (الكشاف) عن الأصمعي «٢» أنه قال: أقبلت من جامع البصرة

(١) بحار الأنوار، ج ١٩، ص ٨-١٠.

(٢) اسمه عبد الملك بن قريب، عاش في أيام هارون الرشيد، اشتهر بكثرة حفظه ومعلوماته الواسعة عن تاريخ العرب وآدابهم توفي في البصرة سنة ٢١٦، الكنى واللقاب، ج ٢، ص ٣٧.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٦٦

فطلع أعرابي على قعود له فقال: من الرجل؟ قلت: من بني أصم، قال: من أين أقبلت؟

قلت: من موضع يتلى فيه كلام الرحمن، فقال: اتل عليّ، فتلوت «والذاريات» فلما بلغت قوله تعالى «وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ» قال: حسبك، فقام إلى ناقته فنحراها ووزعها على من أقبل وأدبر، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرها وولى فلما حججت مع الرشيد طفت أطوف فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت دقيق، فالتفت فإذا أنا بالأعرابي قد نحل واصفر، فسلم عليّ واستقرأ السورة، فلما بلغت الآية صاح وقال: قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، ثم قال:

وهل غير هذا؟ فقرأت: «فورب السماء والأرض إنه لحق»، فصاح وقال: ياشيبحان الله، من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف، لم يصدقوه بقوله حتى الجأوه إلى اليمين، قالها ثلاثاً وخرجت معها نفسه «١».

٧- رد فعل إعرابي تجاه آية من القرآن

وروى أن رجلاً تعلم من النبي صلى الله عليه وآله القرآن فلما انتهى إلى قوله تعالى «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ» (الزلزلة / ٧-٨)

قال: يكفيني هذه، وانصرف، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: انصرف الرجل وهو فقيه «٢».

٨- القصة المشيرة للسيد قطب

ينقل السيد قطب في تفسيره في ظلال القرآن قصة عجيبة من حياته، وذلك في ذيل قوله تعالى «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ». (يونس / ٣٨)

يقول: اذكر حادثاً وقع لي وكان عليه معي شهود ستة، وذلك منذ نحو خمسة عشر عاماً... كُنّا ستة مسلمين على ظهر سفينة مصرية تمخر عباب المحيط الأطلسي إلى نيويورك، من بين ١٢٠ راكباً وراكبةً أجانب ليس فيهم مسلم... وخطر لنا يوم الجمعة أن

(١) الكشاف، ج ٤، ص ٤٠٠.

(٢) تفسير روح البيان، ج ١٠، ص ٤٩٥؛ وتفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٦٥٠؛ وسفينة البحار، ج ٢، ص ٤١٤، مادة (قرء) والتفسير الأمثل، ذيل آيات سورة الزلزال.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٦٧

نقيم صلاة الجماعة في المحيط على ظهر السفينة! والله يعلم - أنه لم يكن بنا أن نقيم الصلاة لذاتها أكثر مما كان بنا حماسه دينية إزاء مبشر كان يقوم بمزاولة عمله على ظهر السفينة، وحاول أن يزاوّل تبشيريه معنا! ... وقد يسّر لنا قائد السفينة - وكان انجليزياً - أن نقيم

صلاتنا، وسمح لبحارة السفينة وطهايتها وخدمتها- وكلهم نوبيون مسلمون- أن يصلى معنا من لا يكون فى (الخدمة) وقت الصلاة! وقد فرحوا بهذا فرحاً شديداً، إذ كانت المرة الأولى التى تقام فيها صلاة الجماعة على ظهر السفينة ... وقمت بخطبة الجمعة وإمامة الصلاة، والركاب الأجانب معظمهم- متحلقون يرقبون صلاتنا، وبعد الصلاة جاءنا كثيرون منهم يهنئوننا على نجاح (القدّاس)! فقد كان هذا أقصى ما يفهمونه من صلاتنا! ولكن سيده من هذا الحشد- عرفنا فيما بعد أنّها يوغسلافية مسيحية هاربة من جحيم تيتو وشيوعيته!- كانت شديدة التأثير والانفعال تفيض عيناها بالدمع ولا تتمالك مشاعرها جاءت تشد على أيدينا بحرارة، وتقول:- فى انجليزية ضعيفة- أنّها لا تملك نفسها من التأثير العميق بصلاتنا هذه وما فيها من خشوع ونظام وروح! ... وليس هذا موضع الشاهد فى القصة ... ولكن ذلك كان فى قولها: أى لغة هذه التى يتحدث بها (قسيسكم)! فالمسكينة لا تتصور أن يقيم (الصلاة) إلّاقسيس- أو رجل دين- كما هو الحال عندها فى مسيحية الكنيسة! وقد صححنا لها هذا الفهم! وأجبناها: فقالت: إنّ اللغة التى يتحدث بها ذات ايقاع موسيقى عجيب، وإن كنت لم أفهم منها حرفاً ... ثم كانت المفاجأة الحقيقية لنا وهى تقول: ولكن هذا ليس الموضوع الذى أريد أن أسأل عنه ... إنّ الموضوع الذى لفت حسى، هو أن (الإمام) كانت ترد فى أثناء كلامه- بهذه اللغة الموسيقية- فقرات من نوع آخر غير بقية كلامه! نوع أكثر موسيقيّة وأعمق ايقاعاً ... هذه الفقرات الخاصة كانت تحدث فى رعشه وقشعريرة! إنّها شىء آخر! كما لو كان الإمام- مملوءاً من روح القدس! حسب تعبيرها المستمد من مسيحيتها! وتفكرنا قليلاً، ثم أدركنا أنّها تعنى الآيات القرآنية التى وردت فى أثناء خطبة الجمعة وفى أثناء الصلاة! وكانت- مع ذلك- مفاجأة لنا تدعو إلى الدهشة، من سيده لا تفهم مما نقول شيئاً «١»!

(١) تفسير فى ظلال القرآن، ج ٤، ص ٤٢٢.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٦٨

٩- قصة النجاشى وعلماء الحبشة المسيحيين

لقد جاءت أول هجرة للمسلمين إلى الحبشة وذلك بسبب الضغوط والأذى الذى تعرضوا له من مشركى مكة، ممّا اضطرهم إلى الهجرة إلى الحبشة بأمر من رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد آواهم ملك الحبشة وعاشوا فيها بأمان. ويعدّ هذا الأمر من العوامل الرئيسية التى ساعدت فى انتشار الإسلام بشكل تدريجى فى الحبشة، وكذلك ساعد على انتشار الإسلام فى مكة وذلك لأنّ المسلمين وجدوا لهم مخرجاً، فعندما كانوا يتعرضون للاذى والمضايقة فكّروا أن يهاجروا إلى الحبشة. يذكر ابن هشام فى تاريخه المعروف ...:

«فلما رأّت قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله قد آمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة، وأنهم قد أصابوا بها داراً وقراراً، ائتمروا بينهم أن يبعثوا رجلين من قريش جلدتين إلى النجاشى فيرّدهم عليهم ليفتنوهم فى دينهم ويخرجوهم من دارهم التى اطمأنوا بها وأمّنوا فيها، فبعثوا عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص بن وائل وجمعوا لهما هدايا للنجاشى ولبطارقتة ... وأمروهما بأمرهم وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلمنا النجاشى فيهم، ثم قدّمنا إلى النجاشى هداياه، ثم سلّاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم، فخرجا حتى قدّمنا إلى النجاشى هداياه وقالنا لكل بطريق منهم: إنّه قد ضوى إلى بلد الملك منّا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا فى دينكم، وجاءوا بدين مبتدع، لا- نعرفه نحن ولا أنتم وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم فإنّ قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم.

فقالوا لهما: نعم، ثم كلّمنا الملك: يا أيّها الملك، إنّه قد ضوى إلى بلدك منّا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينك وجاءوا بدين ابتدعه لا نعرفه نحن ولا أنت وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آباءهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه، فقال بطارقتة الذين كانوا حوله: صدقا أنّها

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٦٩

الملك، قومهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم، فغضب النجاشي ثم قال: لاها الله إذا لا- أسلمهم إليهما ولا- يكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادى واختاروني على من سوى حتى ادعوهم فأسألهم عما يقول هذان فى أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاوروني. ثم أرسل إلى أصحاب محمد صلى الله عليه و آله فدعاهم فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جتتموه؟ قالوا: نقول والله ما علمنا وأمرنا به نبينا صلى الله عليه و آله فلما جاءوا وقد دعا النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله، سألهم: ما هذا الدين الذى فارقتم قومكم فيه ولم تدخلوا فى دينى ولا فى دين أحد من هذه الملل؟ فقال جعفر عليه السلام: «أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسئ الجوار ويأكل القوى منا الضعيف حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته، وعفافه فدعانا إلى الله لئولئك ونعبد ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمر بصدق الحديث وأداء الأمانة وصله الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم ... وأمرنا بالصلاة والزكاة، والصيام، فعدد علينا أمور الإسلام فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله ... فعدنا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان فخرجنا إلى بلادك ورغبنا فى جوارك ورجونا أن لا نُظلم عندك أيها الملك»، فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شىء؟ قال جعفر: نعم، قال النجاشي: فاقرأه على، فقرأ جعفر عليه السلام ذكراً رحمتِ رَبِّكَ عَبْدُهُ زكريا، فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته وبكى أساقفته حتى اخضلت مصاحفهم ... فضرب النجاشي بيده على الأرض، فأخذ منها عوداً، ثم قال: «والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، إنطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يكادون». فخرجا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاء به» (١).

(١) سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣٥٦، بشكل مُلخص.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٧٠

١٠- تأثير القرآن فى اوساط العلماء الاجانب

لم يقتصر تأثير القرآن على العرب فى الأدوار الاولى لعصر الرسالة وما بعدها، وإنما شمل عصرنا هذا حتى أولئك الذين لا يحيطون علماً برموز الأدب العربى؛ فإن تأثيره بينهم قوى عجيب؛ ولهذا السبب انبرى عدد من العلماء الغربيين إلى تعظيم القرآن والاعتراف بحقائقه التى هى مورد اعتزازنا ومن جملة هؤلاء:

الدكتور (واغليرى) الاستاذ بجامعة (فايل). حيث يقول فى كتابه المعروف (التطور السريع للإسلام): «كتاب الإسلام السماوى هو أحد نماذج الاعجاز، والقرآن هو الكتاب الذى لا يمكن أن يُقلد؟ فكيف يمكن أن يكون هذا الكتاب الاعجازى من انشاء محمد صلى الله عليه و آله الرجل العربى الذى لم يتعلم القراءة والكتابة، إننا نجد فى هذا الكتاب من المحتويات والمضامين العلمية ما يفوق قابلية واستعداد أذكى أفراد البشر وأكبر الفلاسفة واقوى رجال السياسة» (١).

ويقول (كارلايل) العالم الانجليزى المعروف بصدد القرآن: «إذا ألقينا نظرة واحدة على هذا الكتاب المقدس، لوجدنا حقائق جلية، وخصائص أسرار الوجود مكنونه فى مضامينها الجوهرية، بالصورة التى تبين حقيقة القرآن وعظمته بوضوح، وهذا بحد ذاته مزية كبرى يختص بها القرآن وتفتقر إليها كل الكتب العلمية والسياسية والاقتصادية، وإن كانت بعض الكتب تحدث تأثيراً عميقاً فى ذهنية الإنسان، إلا أنها لا تشابه القرآن فى نفوذه وتأثيره».

يذكر (جان ديون بورت) في كتابه (اعتذار إلى حضرة النبي والقرآن): «القرآن منزّه عن النواقص، والعيوب بحيث لا يحتاج إلى أدنى تصحيح أو تقويم.

ثم يضيف على ذلك قائلاً: إن القسيسين أوجدوا- ولسنوات طويلة- هوة بعيدة بيننا وبين التعرف على حقائق القرآن المقدسة وعظمة المبرّر به (محمد) صلى الله عليه وآله إلّا أننا كلما قطعنا خطوة في طريق العلم والمعرفة، كلما أنزاحت عنا حُجُب الجهل والتعصب، وسيستقطب

(١) كتاب (التطور السريع للإسلام) ترجمة المرحوم سعدي ص ٤٩ (بشكل ملخص).

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٧١

هذا الكتاب الغني عن الوصف العالم إلى نفسه في القريب العاجل، ويحدث تأثيراً عميقاً في العلم والفكر البشري، وسيصبح محور أفكار الدنيا «١».

ويقول الشاعر الألماني الكبير (غوته): «نحن كنا في بادئ الأمر مبتعدين عن القرآن، ولم تنفض مدّة طويلة حتى أصبح هذا الكتاب موضع توجهنّا واهتمامنا ومبعث حيرتنا، إلى الحد الذي أذعنا فيه بالتسليم لأصوله وقوانينه العلمية الكبيرة».

ويقول العالم الفرنسي (جول لابن) في كتاب (تفصيل الآيات): «إن الذي أوقد فتيل العلم والمعرفة في العالم هم المسلمون، ونهلوا العلوم والمعرفة من بحر القرآن واجروا منه أنهاراً وينابيع إلى البشرية في العالم» «٢».

يكتب (دينورت) أحد علماء الغرب في مايلي: «يجب الاعتراف بأنّ الفضل في انتشار العلوم الطبيعية والفلكية والرياضيات في اوروبا إنّما يعود إلى تعليمات القرآن والمسلمين وأتينا لمدينون لهم، بل يمكن القول: إنّ اوروبا- من هذه الجهة- هي احدى البلاد الإسلامية» «٣».

ويقول المستشرق الشهير (نولدكه): «لقد فرض القرآن سيطرته باستمرار على قلوب أولئك الذين يخالفونه عن بعد وأوجد فيما بينه وبينهم ارتباطاً قوياً» «٤».

ب) الذين لجأوا إلى المعارضة

ذكرنا فيما سبق إنّ المعجزة تمثل تحدياً ودعوة للآخرين بالموافقة، فيعجز الجميع عن الإتيان بمثله، وهنا يتبادر في الذهن سؤال، وهو: لقد تحدى القرآن البشرية والجنّ وعلى مر التاريخ أن لا يستطيعون الإتيان بمثله أبداً، من أين يعلم القرآن بأنّ هذا التحدي سوف يستمر مفعوله على طول التاريخ؟

(١) اعتذار إلى محمد والقرآن. ترجمة فارسية ص ١١١.

(٢) المعجزة الخالدة.

(٣) المصدر السابق.

(٤) مجموعة مقالات على كتاب.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٧٢

الجواب واضح، فهذا الموضوع ليس بمسألة هامشية حتى يمكن للتاريخ أن ينساها، بل هي مرتبطة كثيراً بمصير هذه العقيدة المهمة ومصير منافسيها الذين يمتلكون قدرة هائلة ويصرفون سنوياً مبالغ ضخمة في محاربة الإسلام ومواجهته ولو كان يقع مثل هذا الأمر،

لاتخذوا من ذلك وسيلة إعلامية وبوقاً دعائياً واسعاً ومربحاً.

وعليه وبناءً على المثل المعروف القائل: «لو كان لبان» لابد أن يبدو للعيان كل مظهر من مظاهر المعارضة والمواجهة في هذا المجال، ولهذا السبب كانت ترد بعض الاتهامات على عدة من الأفراد الذين قد لا يفكرون في معارضة القرآن اطلاقاً واتخذوا من ذلك وسيلة دعائية، وهذا يدل بوضوح على الاصرار الكبير على هذه المسألة من قبل المناوئين ولهذا الأمر كانوا يتشبثون بكل الوسائل الممكنة في سبيل الوصول إلى مقاصدهم الدنيئة.

١- الشخص الوحيد الذي سجله التاريخ هو (مَسِيلْمَةُ) المشهور (بالكذاب) الذي قام بادعاء النبوة في عصر النبي صلى الله عليه وآله وعلى أرض (اليمامة) من منطقة شرق الحجاز.

كان اسمه الحقيقي (مسيلمه بن حبيب) وأظهر دعوته في آواخر حياة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله (في السنة العاشرة للهجرة) وكان يبذل ما وسعه من أجل أن يقلد رسول الله صلى الله عليه وآله في كل شيء.

ويدعى أن ملكاً ينزل عليه اسمه (رحمان) ويأتيه آيات تشابه آيات القرآن.

وقيل: إنه طلب من النبي أن يشاركه في النبوة ويوصى بأن يقوم مقامه بعد وفاته صلى الله عليه وآله حتى يكف عن المخالفة والعداء. ونستشف من الكثير من القرائن والامارات أن أيدى العصبية القبليّة كانت وراء مسيلمه وتؤيده على هذا العمل وتوازره.

وكان أهل اليمامة يتخذون هذه الوسيلة للقضاء على سيادة قريش وحاكمية أهل مكة والمدينة التي تحققت تحت ظل مقام نبوة نبي الإسلام صلى الله عليه وآله.

ولهذا السبب كانوا يبحثون عن رجل يثير الشعب ويطلب الرئاسة والمال، فوجدوا هذه الصفات عند مسيلمه.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٧٣

إلا أن الحديث الذي ينقل عنه بعنوان المعارضة للقرآن يدل بوضوح - فضلاً عن كل ما مرّ - على أنه رجل سخيّف، يعتمد السجع في الكلمات من دون أن يهتم بمحتوى كلامه.

من جملة عباراته المضحكة التي نقلت عنه في هذا المجال كتقليد للقرآن، هي هذه الكلمات:

«والمبذرات بذراً، والحاصدات حصداً، والذاريات قمحاً، والطاحنات طحنناً، والعاجنات عجنناً، والخابزات خبزاً، والثاردات ثرداً، واللاقمات لقمماً، إهاله وسمناً» (١).

يبدو أنه يريد من وراء هذه الجمل المضحكة أن يتحدى آيات سورة العاديات أو الذاريات.

يقول القرآن: «وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا* فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا* فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا* فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا* فَوَسَّطْنَ بِهِ جَمْعًا* إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ...» انظر إلى هذا التفاوت البعيد.

ينقل عنه في عبارة أخرى أنه نزلت عليه هذه الآيات «يا ضفدعة بنت ضفدعين نقي ماتنقين أعلاك في الماء وأسفلك في الطين لا الماء تكدرين ولا الشارب تمنعين» (٢).

وسائر الأحاديث أو بحسب زعمه الآيات الأخرى التي نقلت عنه هي على هذه الشاكلة أيضاً، بل إن بعضها أسوأ حالاً، وبعضها ركيك، فالإعراض عن ذكرها أولى

ويستفاد بوضوح من عباراته التي نقلت عنه أنه يولى السجع أهمية كبيرة ويرى ذلك كافياً، بالضبط على غرار الأشعار التي تنظم في زماننا للاطفال وهي مطالب حاوية لا قيمة لها تصب من دون معنى مترابط في قوالب شعريّة، ويكتفون بقافيتها فقط.

يذكر المؤرخون: أنه كان في عصره امرأة معروفة بالكذب اسمها (سِجَاح) على وزن حجاج، وكانت العرب تقول: «فلان أكذب من سجاح» نظراً لما اشتهر عنها بالكذب. وهي من بنى تميم، وكانت تدعى النبوة ونزول الوحي عليها أيضاً وتبعها ثلث من الناس، وأخذت هي الأخرى تنشئ الفاظ السجع كمسيلمه.

(١) سفينة البحار، مادة (سلم)؛ تاريخ ابن الاثير، ج ٢، ص ٣٦١؛ اعجاز القرآن للرافعي، ص ١٢٧.

(٢) المصدر السابق ص ١٢٨.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٧٤

يقال: ان أتباع هذين الشخصين المتجاورين استعد كل منهما للحرب مع الآخر، إلا أن مسيلمته توسل بأسلوب الحيلة والمكر واختلى بسجاح، وقال لها: هل ترغين بالزواج مني، فتتحد قبيلتي مع قبيلتك ونحمل حملة رجل واحد على العرب، فرضيت بذلك، ومكثت معه ثلاثة أيام ولما رجعت سألتها أفراد قبيلتها عن مهر هذا الزواج، فجاءت إلى مسيلمته وطالته بالمهر، فأمر مسيلمته أحد الأشخاص بالنداء بين القبيلتين: إن مهر سجاح هو رفع وحذف صلاتي الصبح والعشاء اللتين وردتا في شريعة محمد.

وعندما قُتل مسيلمته في حرب اليمامة بعد رحلة نبي الإسلام صلى الله عليه وآله على يد قاتل حمزة المعروف (وحشى) أظهرت هذه المرأة الإسلام «١».

ولقد اشتهر هذان الشخصان بالكذب إلى درجة بحيث قال أحد الشعراء في حقهما:

والت سجاح ووالها مسيلمته كذابة من بنى الدنيا وكذاب

٢- ومن ضمن الأفراد الذين قاموا بمعارضة القرآن في آواخر حياة النبي هو (الأسود العنسي) وكان هو الآخر يكتفي بتلفيق الكلمات في معارضة القرآن وإن كانت فارغة من المحتوى وادعى النبوة في أيام حجة الوداع (في آواخر حياة النبي) ولم تستغرق مدة ادعائه للنبوة أكثر من أربعة أشهر.

وقد فرض سيطرته على بلاد (البحرين) و (نجران) وقسم من بلاد (اليمن) وسواحل (الخليج الفارسي) وغيرها ومن ثم قتل في اليمن على يد «فيروز» الايراني مستعيناً بزوجه، ووصلت أنباء قتله إلى المدينة في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله «٢».

ويقال: إنه كان يعيش في الأماكن المنحطة فكرياً وخلقياً، ولهذا السبب تبعه مجموعة من شذاذ الآفاق، وكان يراهن على السجع في كلماته لمعارضة القرآن، كما نقل عن مسيلمته ذلك آنفاً. إلا أن اتباعه سرعان ما اطلعوا على فساد عقيدته وابتعدوا عنه.

٣- وردت بعض الاتهامات المفتعلة أيضاً إلى عدد من الشخصيات بمعارضة القرآن وإن

(١) دائرة معارف القرن العشرين، فريد وجدى وفق نقل تنزيه التنزيل للمرحوم الشهرستاني ص ١٧٦.

(٢) دايرة معارف البستاني وفق نقل تنزيه التنزيل للسيد هبة الدين الشهرستاني ص ١٨٦.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٧٥

لم يثبت تاريخياً، وقد يكون السبب وراء تلك الاتهامات أن مجموعة من الجهال فسرت قسماً من المقاطع المسجعة لبعض الادياء العرب على أنها تحد للقرآن الكريم، أو أن الأعداء المحتالين أرادوا أن يستغلوا هذا الاحتمال.

ومن جملتهم: (عبد الله بن المقفع) وهو من الكتاب والادياء المعروفين في القرن الثاني للهجرة عاصر الإمام الصادق عليه السلام ويُقال عنه إنه كان في بداية الأمر مسيحياً ثم أسلم بعد ذلك، وكان يمتلك الاحاطة الكاملة باللغة الفارسية، وترجم إلى العربية بعض الكتب من جملتها كتاب (كليته ودمنه) وقد أظهر الإسلام بوضوح في المقدمة التي كتبها لهذا الكتاب.

ولكن يقال: إنه سُمع منه أحياناً بعض الكلمات الجارحة.

ومن ثم سَلَّموه إلى أمير البصرة (سفيان بن معاوية المهلبى) فقتله بسبب بعض الاختلافات الجانيية بينهما ظاهراً.

ويقال: إنه لما أراد سفيان أن يلقيه في التنور قال له: أقتلك ولا شىء على لأنك زنديق قد أفسدت عقائد الناس. وعلى أى حال فإن عقائده ليست واضحة لنا بدقه، ولكن المسلم به هو أنه لم يدع إلى معارضة القرآن، وإن كان بعضهم يرى أن كتابه المعروف (بالدره

اليتيمة) دُونَ لهذا الغرض، ومن حسن الحظ أن كتابه هذا بين أيدينا وقد طبع عدّة مرات. ولم نَر فيه أيّة إشارة لمسألة المعارضة للقرآن، ولا يعلم ما هو السبب وراء هذه النسبة له ولكتابه. وعلى أيّة حال لا توجد هناك وثيقة تاريخية تدل على معارضته للقرآن، وكتابه المذكور وإن دُونَ بصورة أدبية إلاّ أنّه لا يوجد فيه شيء يدل على (تحديه) للقرآن.

٤- من ضمن الأشخاص الذين نسبت إليهم هذه التهمة أيضاً: (أبو العلاء المعري) وهو من الكتاب والشعراء المعروفين في القرن الخامس للهجرة، وكان رجلاً ملحداً، نقل عنه كلام جارح، بحيث لا يمكن القياس بينه وبين (عبد الله بن المقفع)، إلاّ أنّه - وعلى أي حال - لا يوجد بين أيدينا سند تاريخي يدل على توجهه إلى تحدى القرآن؛ ولعل توجيه مثل هذه النسبة إليه يعزى إلى اتهامه بالإلحاد وعدم التدين من جهة، وإلى كونه أديباً وشاعراً وكاتباً

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٧٦

من جهة أخرى يشهد على ذلك استخفافه بالعبارات المسجعة المذكورة في كتاب (التاج) لابن الراوندى، إذ يقول بصراحة في (رسالة الغفران) التي كتبها رداً، على كتاب (التاج):

بان قوافي وسجعات ابن الراوندى لاتعدو أن تكون نظير ما يقوله الكهنه نحو: اف وتُفٍ وجورِبٍ وخُفٍ «١».

وعلى هذا الأساس، يرى هو الآخر أن حبكّ العبارات المسجوعة من دون مضمون ليس لها أيّة قيمة وأهميّة.

ومن الجدير بالذكر، أنّه يمتلك مقالة جيدة بصدد القرآن في رسالة الغفران نفسها تدل على اعترافه بعظمة القرآن وشموخ معانيه (وإن كان لا يعتبره حياً سماوياً) فهو يقول بصراحة: عندما تأتي آية واحدة من القرآن في حديث ما فهي كنجم مضىء يتلألأ في ليل بهيم.

٥- (أحمد بن الحسين الكوفي) الشاعر المعروف بالمتنبى الذى يظهر من اسمه أنّه كان ادعى النبوة، وقد كان من ادباء القرن الرابع للهجرة، وهو على جانب كبير من الذوق الشعري، في بداية الأمر اعتنق الإسلام لكنه ادعى النبوة بعد ذلك كما قيل، ومن الجدير بالذكر أن دعواه هذه كانت في السنة السابعة عشرة من عمره.

جاء في حاشية كتاب (اعجاز القرآن) للرافعي: أنّه ادعى النبوة في سنة ٣٢٠ هـ. وتبعه جمع من (بنى كلب)، ومن ثمّ ألقاه والى حمص في السجن وتفرق عنه اتباعه، فتاب وافرّج عنه، ثم أنكر هذا الأمر بعد ذلك، ومَرّت مدّة من الزمن أصبح فيها مقرباً إلى (سيف الدولة) وكلما ذُكر في مجلسه ادعائه للنبوة كان ينكر ذلك؛ قُتل في نهاية الأمر على يد (فاتك بن أبي جهل) بسبب وقوع اختلافات بينه وبين اتباع (عضد الدولة الديلمي) «٢».

٦- ومن ضمن الأشخاص الذى فكروا فى تحدى القرآن: (أحمد بن يحيى المعروف بابن الراوندى، وهو من متكلمي المعتزلة، لازم الملحدين والمناوئين للإسلام دائماً لأنهم

(١) اعجاز القرآن للرافعي، ص ١٣٧.

(٢) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٧٧

كانوا يلومونه كثيراً، وكان يقول: أريد أن احيط علماً بعقائدهم؛ ثم تظاهر بالالحداد بعد ذلك ودخل فى منازعات مع الناس، يقال: إنّ أباه كان يهودياً ثم أسلم، لذا قال بعض اليهود لبعض المسلمين: إنّ ابن الراوندى سيضيع كتابكم كما ضيع والده كتاب اليهود. وكتبوا عنه: أنّه لم يستقر على عقيدة معينة، إذ كتب لليهود كتاباً فى الرد على الإسلام، مقابل أربعمائه درهم تحت عنوان (البصيرة) ولما انتهى منه، انبرى للرد عليه، وامتنع عن ذلك مقابل استلامه لمائه درهم.

ويقال: إنه قام بتأليف كتاب، يتحدى به القرآن اسمه (التاج) إلا أنه لم تقع في أيدينا نسخة منه إلى وقتنا هذا. وهو الكتاب نفسه الذي يقول عنه (أبو العلاء المعري): «أما تاجه فليس إلا نعلًا! وهل تاجه إلا كما قالت الكهنة: افِ وتُفِ وجورِبٍ وحُفٍ» (١). يُستنتج بشكل واضح من كل ما قلناه: أن أحداً لم يعط جواباً لدعوة القرآن إلى المناظرة والتحدى، على الرغم من توفر الدواعي لهذا الأمر، ابتداءً من زمن المشركين العرب وأهل الجاهلية، وانتهاءً بهذا اليوم الذي تخصص فيه القوى الاستكبارية رؤوس أموال ضخمة من أجل القضاء على الإسلام والقرآن، ومن الطبيعي أنه إذا كان باستطاعتهم أن يعثروا طاقات الأدباء العرب والعلماء الأجانب للإتيان بما يماثل القرآن لما ادخروا وسعاً في ذلك.

وما نشاهد في طول التاريخ من أشخاص كمسيلمة وسجاح مع كل فضائحهما فأنهم لم يثبتوا قدماً واحداً في هذا وعندئذ سندرك جيداً عدم إمكانية هذا الأمر، وإلا لكان ذلك ذريعة كبرى يتوسل بها أعداء الإسلام المعاندون لنشر هذا الأمر في كل مكان، وهذا هو معنى الضعف والعجز عن تحدى القرآن.

(١) اعجاز القرآن ص ١٣٣-١٣٧.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٧٩

صور اعجاز القرآن

إشارة

- ١- الاعجاز القرآني في الفصاحة والبلاغة
 - ٢- الاعجاز القرآني على صعيد المعارف الإلهية
 - ٣- اعجاز القرآن في تصور العلوم الحديثة
 - ٤- الاعجاز التاريخي للقرآن
 - ٥- الاعجاز القرآني في سن القوانين
 - ٦- الاعجاز الغيبي للقرآن
 - ٧- الاعجاز القرآني في عدم وجود التناقض والاختلاف
- نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٨١

تمهيد:

يتصور البعض أن إعجاز القرآن يقتصر على جانب الفصاحة والبلاغة فحسب وهي: المحسنات اللفظية والمعاني والبلاغة، في حين أن أغلب أصحاب الخبرة والمحققين في عصرنا يذهبون إلى عدم صحة هذا الكلام، لأن جوانب الاعجاز القرآني متنوعة ومتعددة، حتى يمكن القول إننا مع مرور الزمان سنقف على جوانب جديدة من اعجاز القرآن لم تتضح معالمها لنا في الماضي.

ويمكن التعرف على الجوانب التالية للإعجاز القرآني في وقتنا الحاضر من خلال الشواهد الموجودة في القرآن نفسه:

١- الإعجاز في الفصاحة والبلاغة وهو الظاهر الحسن والباطن العميق والبيان المتين المنزه والصراحة والحديدية والشمولية في المفاهيم، وانسجام الألفاظ مع المعاني.

- ٢- الإعجاز في المعارف والاطروحات العقائدية.
- ٣- الإعجاز في طرح المسائل التاريخية.
- ٤- الإعجاز في سن القوانين.
- ٥- الإعجاز في العلوم العصرية والمفاهيم العلمية المجهولة في عصر القرآن.
- ٦- الإعجاز في التنبؤات المستقبلية والأخبار الغيبية.
- ٧- الإعجاز في عدم وجود الاختلاف بين الآيات القرآنية التي نزلت طيلة ٢٣ عاماً بالرغم من تغيرات الظروف والأوضاع الزمانية والمكانية كافة.

ومع هذه الإشارة نعود إلى القرآن مرة أخرى لنبحث كل واحدة من الصور المتقدمة بصورة مستقلة:
نقمة القرآن، ج ٨، ص: ٨٣

١- الإعجاز القرآني في الفصاحة والبلاغة

إشارة

يقول علماء المعاني في تعريف البلاغة والفصاحة: إنّ الفصاحة تستعمل تارة لوصف الكلمة، وتارة أخرى لوصف الكلام وهي: عبارة عن خلو الكلام من الحروف والكلمات الثقيلة غير المحببة ذات الايقاع الرديء غير المتجانس من العبارات الركيكة والضعيفة والمنفرة والوحشية والمعقدة والمبهمه.

وأما البلاغة فهي عبارة عن تناسب الكلام مع مقتضى الحال والانسجام التام مع الغاية المتوخاه من الكلام. وبعبارة أخرى الفصاحة ناظرة إلى كيفية الألفاظ والبلاغة ناظرة إلى كيفية المعنى والمحتوى أو بعبارة ثانية: الفصاحة تقتصر على الجوانب الشكلية والظاهرية للكلام والبلاغة تقتصر على الجوانب المعنوية والجوهرية. ومما لا شك فيه أنّ هذين الأمرين ينطويان على جانب ذوقى واستحسانى فضلاً عن الجانب العلمى والقانونى، ولكن هذا الجانب الفنى والذوقى نفسه يتفتح ويكتمل ويتسق فى ظل التعليم والتربية والاعتماد على القواعد التى تستقى غالباً من كلمات الفصحاء والبلغاء. نظير الحس الشعري أو القابلية على الخط اللذين يتكاملان بالتعليم والممارسة والاستعانة بالمعلم. وعلى كل حال يعتقد بعضهم أنّ اعجاز القرآن والدعوة إلى التحدى التى وردت فى آيات مختلفة مستندة إلى هذا المعنى نفسه، ويمكن الاستدلال على ذلك بالأمور التالية:

١- إنّ ما اشتهر به العرب فى ذلك العصر والزمان هو فن الفصاحة والبلاغة، بحيث بلغت

نقمة القرآن، ج ٨، ص: ٨٤

أشعار الجاهلية أوج فصاحتها، وكان أحد أهم برامجهم هو قراءة أجمل قصائد تلك السنة خلال التجمع الاقتصادى الذى يعقد فى (سوق عكاظ) بالقرب من الطائف فى كل عام.

وعندما يقع اختيارهم على أفضل هذه القصائد يعلقونها على جدار الكعبة بصفتها أثراً أدبياً قيماً، ومع مرور السنين علفت سبع قصائد عرفت فيما بعد باسم (المعلقات السبع).

وعلى هذا الأساس إذا أراد القرآن أن يدعوهم إلى التحدى والمعارضة فيلزم أن يكون فى هذا المجال.

٢- ولعل الاتهام الذى كان يوجهه المشركون العرب إلى القرآن بكونه سحراً وإلى النبى بكونه ساحراً يعود إلى التأثير السحرى للقرآن، حيث اشتمل، على روعة الكلام والفصاحة.

٣- نقرأ في الحديث الوارد عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام في صدد انسجام معجزات الأنبياء مع العلوم والفنون المتطورة في أعصارهم: «إن الله تعالى لما بعث موسى عليه السلام كان الغالب على أهل عصره السحر فأتاهم من عند الله تعالى بما لم يكن في وسعهم مثله وما أبطل به سحرهم وأثبت به الحجية عليهم وأن الله تعالى بعث عيسى عليه السلام في وقت قد ظهرت فيه الزمانات (الآفات) واحتاج الناس إلى الطب فأتاهم من عند الله بما لم يكن عندهم مثله وبما أحيا لهم الموتى وأبرء الأكمه والأبرص باذن الله، وأثبت به الحجية عليهم وأن الله تبارك وتعالى بعث محمداً صلى الله عليه وآله في وقت كان الغالب على أهل عصره الخطب والكلام (وأظنه قال: الشعر) فأتاهم من الله عز وجل بخطبه ومواعظه وأحكامه ما أبطل به قولهم، وأثبت به الحجية عليهم» (١).

إن جميع هذه القرائن تدل على أن الاعجاز القرآني كان ولا يزال متكاملاً على جانب الفصاحة والبلاغة إلا أن واقع الأمر هو أن الاعجاز في الفصاحة والبلاغة كان مورد اهتمام عميق وإن لم ينحصر به. خصوصاً أن الجوانب الأخرى من الاعجاز القرآني واضحة جلية.

(١) عيون اخبار الرضا، (وفق نقل تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٤٣) ونقله أيضاً الكليني في الكافي والعلامة المجلسي في بحار الأنوار. نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٨٥

وللحصول على معلومات كافية حول اعجاز القرآن فلا بد من الالتفات إلى النقاط التالية:

١- تقدمت الإشارة إلى أن عرب الجاهلية كانوا على جانب كبير من الفصاحة والبلاغة بحيث إن القصائد المتبقية من ذلك العصر ومن جملتها (المعلقات السبع) مازالت تعرف بالقصائد المنتخبة لدى العرب.

إلا أننا نعلم بأنهم جمعوا قصائدهم كلها بعد نزول القرآن وانحنوا إجلالاً أمام الفصاحة القرآنية المنقطعة النظير، وبالرغم من امتلاكهم كل الدوافع والحوافز الذاتية لمعارضه القرآن ومنازلته إلا أنهم أخفقوا في ابداء شيء ما.

ولقد اطلعنا على نماذج حية واضحة من تأثير القرآن في هذا المجال في البحث السابق لجاذبية القرآن.

٢- يقف ثلثه من الذين تعرضت مصالحهم اللامشروعة للخطر بوجه رجال الحق دائماً وعلى طول التاريخ، ليوجهوا إليهم التهم والافتراءات، وبالرغم من كونها كاذبة إلا أنها تحكى عن بعض الحقائق الموجودة في تلك البيئة.

فعلى سبيل المثال، من ضمن الافتراءات والتهم التي وجهت إلى نبي الإسلام صلى الله عليه وآله هي مسألة السحر والساحرية، التي كانت تستخدم ضمن نطاق واسع.

ويقول القرآن في الآيات (٢٤) و (٢٥) من سورة المدثر على لسان الوليد كبير المشركين: «فَقَالَ انْ هَذَا اَلَا سِحْرٌ يُؤْتَرُ* انْ هَذَا اَلَا قَوْلُ الْبَشْرِ» (١)، فالسبب الرئيس وراء هذه النسبة المفتعلة للنبي صلى الله عليه وآله هو النفوذ العجيب والخارق للآيات القرآنية التي استحوذت على القلوب من خلال فصاحتها وبلاغتها العجيبة؛ بحيث لا يمكن أن يعتبروا هذا النفوذ أمراً عادياً ولذلك لم يجدوا لفظاً مناسبة ينسبونها له سوى لفظه (السحر)، التي تعنى في اللغة كل عمل خارق للعادة ومجهول المنشأ، فأولئك وإن أرادوا بهذه النسبة أن يسدلوا الستار على هذه الحقيقة الناصعة وينكروا الاعجاز الإلهي، إلا أنهم اعترفوا بحديثهم هذا

(١) ورد في تفصيل قصة الوليد بن المغيرة وحديثه بصدد جاذبية القرآن في البحوث السابقة.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٨٦

بدون وعي منهم بعظمة القرآن وجاذبيته السحرية.

٣- إن من يتتبع آثار المؤلفين والادباء يجد أنهم عادة ينقسمون إلى فئتين مختلفتين:

فئة تعلق اهتماماً كبيراً على الجانب الفني للألفاظ، وتجعل المعاني في بعض الأحيان ضحية للألفاظ. وبعكس ذلك فئة لا تولى اهتماماً كبيراً للألفاظ وإنما تستخدم كامل قدرتها ونبوغها في النظر إلى عمق المعاني ولهذا السبب قسم كتاب تاريخنا الأدبي والآثار

القديمة للشعراء الكبار، إلى اسلوبين مختلفين، الاسلوب العراقي والاسلوب الهندي.

الشعراء الكبار الذين نظموا قصائدهم على النحو الأول، استخدموا قابلياتهم الفنية في مجال التفنن بروعة الألفاظ وحسنها في حين أن اتباع النحو الثاني وجهوا اهتمامهم في الغالب إلى دقائق المعاني والملابسات المحيطة بها. ومما لا يقبل الإنكار أن الذين أبدوا اهتمامهم بكلا الأمرين وخلفوا وراءهم آثاراً طيبة، هم نزر يسير، إلا أن الحديث عن مدى نجاحهم في هذا المضمار حديث ذو شجون.

والدليل على هذا الكلام واضح، لأن الألفاظ الجميلة العذبة لا تتحكم في واقع المعاني المطلوبة، ولا تعكس حقائقها الدقيقة فيها، ولهذا غالباً ما يقف الشاعر والمتكلم على مفترق طريقين: جمالية اللفظ وجمالية المعنى ومن ثم يضطر إلى اختيار أحدهما، ولذلك في كثير من النثر والنظم تذهب المعاني ضحية للسجع والقافية.

غير أن الذين اطلعوا على آداب العرب وتعرفوا على حقائق القرآن يفهمون جيداً أن هذا الكتاب الإلهي العظيم حافظ على الامتياز المهم وهو الاعجاز، فألفاظه في منتهى العذوبة والحلاوة، والجمل المحبوكة في غاية الدقة والجمال. والكلمات فيه ذات ايقاع ووزن عذب، والمعاني قد اعطى حقها بكل خصائصها ودقتها، وهذه هي احدى أبعاد اعجاز القرآن في الفصاحة والبلاغة.

إن القرآن لا يتكلف بأداء المعاني ويبين مراده بوضوح وفي الوقت نفسه يضمن على المعاني ألفاظاً عذبة وفي منتهى الجمال.

٤- اشتهر الشعراء والخطباء بهذه الصفة: وهي أنهم غالباً ما يباليون إلى حد الكذب في

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٨٧

أحاديثهم من أجل التوصل إلى حلاوة البيان وطراوته؛ وعلى سبيل المثال يجعلون الطبقات السبع للأرض ستاً، والطبقات السبع للسماء ثمانية. لتساعد غبار حوافر خيل العسكر، في الصحراء أو وضع تسعة مقاعد من الفلك تحت قدميه ليصل إلى طول ركاب (قزل ارسلان)، أو يجعلون من القلب بحراً، ومن الدم ومن دمع العين نهر (جيحون) حتى قالوا:

لا تراوغ في الشعر وفي فنه لأن أكذبه هو أحسنه

وعلى هذا الأساس فإن أعذب الشعر أكذبه ويشير التعبير القرآني في صدد الشعراء إلى أنهم غالباً ما يستغرقون في تخيلاتهم وتشبيهااتهم الشعرية: «الْم تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ». (الشعراء / ٢٢٥)

غير أننا حينما نقرأ جميع آيات القرآن فلا نرى فيها أي نوع من المبالغة الكاذبة، بالرغم من وجود كل الدقة والجمال في الالفاظ والمعاني والتي تشترك في تبين الحقائق.

ولهذا السبب نشاهد أن القرآن يبريء ساحة نبي الإسلام صلى الله عليه وآله من تهمة الشاعر، وساحته أيضاً من تهمة الشعر «١».

نعم على الرغم من خلو القرآن من التخيلات الشعرية والمبالغات والاستغرافات البعيدة عن الحقيقة الشعرية، والتشبيها والاستعارات الوهمية، فلا يحتوي إلا على بيان الحقائق بصورة واقعية وقطعية، بالرغم من كل ذلك نجده في عين الوقت في منتهى العذوبة والجازبية بحيث استقطب البعيدين عن الإسلام بل حتى المخالفين للنبي صلى الله عليه وآله وذكرنا أمثلة لذلك في البحث السابق عن جاذبية القرآن.

ومن الجدير بالذكر أن ما نقله التاريخ من أن كثيراً من الشعراء العرب عندما اصطدموا بفصاحة القرآن، ارتضوا الإسلام طوع أنفسهم، ومن جملة الشعراء الذين أسلموا تحت تأثير جاذبية القرآن هو (ليبد) الذي كان له في زمن الجاهلية احدى المعلمات السبع (وهي

(١) ينقل القرآن هذه التهمة عن المشركين في ثلاث آيات في سور: الأنبياء، ٥؛ والصفوات، ٣٦؛ والطور، ٣٠؛ وينفيها الله سبحانه وتعالى عن نبيه بصراحة في آيتين من سورة يس، ٦٩؛ والحاقة، ٤١.

سبع قصائد شعرية معروفة و متميزة انتخبت وعلقت على جدار الكعبة).

وكذلك حسان بن ثابت وهو من الشعراء الأثرياء فقد أسلم تحت تأثير جاذبية القرآن.

ومن الشعراء الذين دخلوا إلى الإسلام طواعية واستفادوا كثيراً من جاذبية القرآن هم:

(الخنساء) الشاعرة والناقدة العربية، و (الاعشى) الذي كان من نوادر الشعراء في عصر الجاهلية.

٥- من الظواهر الأخرى للفصاحة والبلاغة القرآنية هو الإيقاع الموجود في القرآن نفسه.

إن أحاديث الأدباء عادة إما أن تكون شعراً أو نثراً، أما القرآن فليس شعراً ولا نثراً عادياً ومعروفاً، وإنما هو نثر ذو إيقاع خاص به، نثر

حينما يتلوه قراء القرآن يقع غالباً في قالب موزون كامل.

وإذا كان لا يمكن استعمال كلمة (الموسيقى) فيما يخص القرآن لأنه يمتزج في عرفنا بالمفاهيم السلبية. إلا أن بعض الكتاب العرب

المعروفين نظير (مصطفى الرافعي). يقول في كتابه (اعجاز القرآن): «الاسلوب القرآني يسبب ويوجد الحاناً تلفت اسماع كل مستمع

إليها، وهي نوع من الموسيقى الخاصة التي لم تكن في الكلام الموزون في ذلك الزمان وهذا الترتيب والنظم كان يلطف طباع العرب

ويعرفهم اسلوباً جديداً في الكلام لم يكن موجوداً سابقاً».

ويقول (بول-تيتلر) أحد العلماء الغربيين في هذا المضمار: «من الخطأ أن نفكر بأن الفصاحة الإنسانية تستطيع أن تؤثر بمثل ما يؤثر

القرآن لأنه دائماً يسير باطرادٍ إلى الرفعة بدون أن يرى فيه أي ضعف وفتور، وكل يوم يفتح لنا قمماً جديدة، نعم إنه معجزة يتضاءل

أمامها اناس الأرض وملائكة السماء» (١).

ويضيف إلى ذلك عالم آخر اسمه (كنت هنري دي كستري) قوله: «إذا لم تكن في القرآن غير عظمة المعاني وجمال المباني لكان

كافياً لأن يتسلط على كل العقول ويجذب جميع القلوب إليه» (٢).

(١) إثبات الهداء، ج ١، هامش ص ٢٢٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٢٢.

نقحات القرآن، ج ٨، ص: ٨٩

٦- ومن الأمور المهمة أيضاً: إن أي حديث يبعث الملل والسأم مع التكرار عادة، إلا

القرآن فإنه في منتهى الروعة بحيث لو قرىء مئات المرات لاحتفظ بجاذبيته ورونقه، الأمر الذي يدركه عشاق القرآن وغيرهم

بوضوح.

وهذا ما نقرأه جلياً في الحديث المشهور عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام والذي جاء فيه بأن رجلاً سأل الإمام الصادق عليه

السلام «ما بال القرآن لا يزداد على النشر والدرس إلا غضاضة، فقال: لأن الله تبارك وتعالى لم يجعله لزمان دون زمان ولا لناس دون

ناس فهو في كل زمان جديد وعند كل قوم غض إلى يوم القيامة» (١).

ويقول علي عليه السلام في جملة مختصرة وبلغه أيضاً: «لا تُخلقه كثرة الردّ وولوج السمع» (٢).

٧- ومن دقائق الفصاحة والبلاغة في القرآن هو تجنب كثرة الألفاظ ومراعاة الاختصار، مع ما يؤديه من وضوح المعنى وبيان تمامية

المقصود، وهو ما يسمى اصطلاحاً بترك «الايجاز المخل» و «الاطناب الممل».

وقد تمت مراعاة ذلك في آيات القرآن على أحسن وجه، فنجد أحياناً آية واحدة من القرآن تبين معالم قصة طويلة بحيث إن كل

جملة منها تتكلم عن مجال واسع من هذه القصة، ونقف على هذا في أمثلة كثيرة من القرآن، ومنها الآية المشهورة التي تقول: «وَقِيلَ يَا

أَرْضُ ائْبَلِي مَاءَ كِ وَيَا سَمَاءُ أَفْلِي وَغِيصَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ». (هود/ ٤٤)

نعم هذه هي الآية نفسها التي جثي لها الأديب العربي المعروف (ابن المقفع) على ركبته عندما قصد القيام بمعارضة أحد أرباع

القرآن حسب الاتفاق الذي عقده مع أصحابه، وحينما وصل إلى هذه الآية أعرض عن ذلك وأقرّ في نفسه بالضعف والعجز الكامل. ذلك لأنها تروى قصة طوفان نوح عليه السلام باختصار بارع بكل تفاصيلها ونتائجها، وبعبارات قصيرة وغنية بالمعاني، وحسب قول أحد المحققين إنها تشتمل على ٢٣ نكتة من

(١) بحار الأنوار، ج ١٧، ص ٢١٣.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٥٦.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٩٠

النكات الأدبية، من قبيل: (الإستعارة، الطباق، مجاز الحذف، الإشارة، الموازنة، الجناس، التسهيم أو الإرسال، التقسيم، التمثيل، الادراف و...) «١».

٨- إحدى خصائص القرآن من الناحية الادبية، هي الصراحة القاطعة بما يقل نظيرها، اضافة إلى اللطافة والدقة في العبارات. ومن المعلوم أن كل إنسان يستمتع بالنبرة الصريحة لأحد الفصحاء، ذلك لأنه يبين الحقائق بصدق وأمانة وبدون أى تشويه أو تشويش، وليس هناك لذة تفوق لذة درك الحقائق.

إنّ التشديق والتحدث بأشكال متعددة، يدل بوضوح (إلما في الموارد الاستثنائية) على عدم إيمان المتكلم بأقواله، أو على مخاوفه واحتراسه من حكم المستمعين له، وفي كلتا الحالتين يحكى ذلك عن ضعف وعجز المتكلم.

وتقرن الصراحة والصدق القاطع بالخشونة في أغلب الأحيان والمهم في الأمر أن على المتكلم في الوقت الذي يكون صريحاً فيه أن يهتم بلطافة البيان أيضاً، ونشاهد ذلك في آيات القرآن بشكل واضح.

ومن أهم الجبهات القتالية للإسلام هي جبهة التوحيد والشرك، وقد استفاد القرآن من أعلى مراتب الصراحة والقاطعية في هذا المجال فتارة يقول: «إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَأَنْ يَسْأَلَهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَأَيْسَرَ تَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ». (الحج / ٧٣)

وتارة اخرى يقول رداً على عبدة الأوثان الذين احتموا بذريعة اتباع عقائد آبائهم وأشرفهم هروباً من المنطق الصاعق للقرآن: «بَلْ تَتَّبِعِ مَا الْفَيْئَا عَلَيْهِ آبَاءُ نَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ». (البقرة / ١٧٠)

وفي موضع آخر يصعد من حدة قاطعيته في مقابل التوسل بأداب وتقاليد الأجداد بقوله على لسان إبراهيم عليه السلام: «لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ». (الأنبياء / ٥٤)

(١) أساليب اعجاز القرآن، ص ٥٢.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٩١

ويقول في صدد الإيمان بنبي الإسلام صلى الله عليه و آله: «فَلَمَّا وَرَبَّكَ لِآيُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا». (النساء / ٦٥)

وعلى هذا الأساس يعتبر الشرط الأساسى للإيمان الصادق التسليم ظاهراً وباطناً وسراً وعلانية، إضافة إلى ايجاد الانسجام بين الرغبات الذاتية والأوامر النبوية الشريفة، وبالرغم من كل هذه الصراحة والقاطعية نشهد اللطافة والدقة في العبارات بصورة كاملة أيضاً.

ونلاحظ هذه الحدية أيضاً بشكل واضح في المباحث الاخرى ذات العلاقة بالمبدأ أو المعاد، والقوانين الاجتماعية، أو المسائل المتعلقة بالحرب والصلح، أو البحوث الأخلاقية، والتي يتطلب شرح كل واحدة منها كتاباً مستقلاً.

٩- المتانة والنزاهة في البيان: الأشخاص الاميون لا يعباون بعباراتهم عادة وغالباً ما يستعينون بالجمل البعيدة عن الأدب والذوق من

أجل التوصل إلى أداء مقاصدهم من الكلمات، وبالرغم من أن القرآن ظهر في أوساط هذه الفئة من الناس، إلا أنه لم يتأثر بتلك البيئة على الإطلاق، وحرص على مراعاة منتهى المتانة والعفة في تعبيراته وهو مما أضفى على فصاحة القرآن وبلاغته طابعاً خاصاً. وحينما يتصدى الخطباء والكتّاب الكبار لحوادث العشق أو مسائل أخرى مشابهة، فهم يضطرون لأن يطلقوا العنان لألستهم وأقلامهم كيفما شاؤوا فيطرحون ألواناً كثيرة ومختلفة من التعبيرات المهيجة والمؤذية لرسم معالم الصورة الواقعية للأبطال الحقيقيين في القصة، وإما أن يسدلوا ستار الغموض والإبهام على جانب من هذه الوقائع - مراعاةً للعفة والذوق العام - ويتحدثوا مع رقبائهم بشكل مغلق. والجمع بين هذين الأمرين: أي رسم معالم الواقع بصورة كاملة، وعدم تلوث القلم واللسان بكل ما يخدش العفة والآداب، يعتبر أمراً في منتهى الصعوبة لا يؤديه إلا القليل.

فكيف يمكن أن نتصور شخصاً امتياً ظهر في مجتمع متخلف متوحش يحدد المعالم الدقيقة كاملة للأوضاع القائمة، ثم لا نجد في تعبيره أدنى معنى يخدش العفة والآداب؛ وعلى سبيل المثال حينما يبدأ القرآن في وصف الوقائع الحساسة لقصة يوسف الواقعية وما نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٩٢

اشتملت عليه من معاني الحب والغرام الذي اشتعل في قلب تلك المرأة الجميلة المتهورة نجده يستفيد من جميع اصول الأخلاق والعفاف من دون أي تمويه وتعظيم على الحقائق، أو إجمال الحوادث في جو من الإبهام والغموض، إنه لا يدع أي شاردة وواردة في الحديث إلا وذكرها ولكنه لا يتطرق إلى أدنى انحراف عن اصول العفة في البيان، فعلى سبيل المثال يقول في صدد شرح قصة اختلاء زليخا بيوسف عليه السلام: «وَرَأَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْإِبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ». (يوسف / ٢٣)

ومن الجدير بالذكر استعمال القرآن لكلمة «راود» التي تستفاد في مورد الالاحاح في الطلب من إنسان ما بشيء من الهدوء والمرونة، وهي تنسجم تماماً مع أداء المعنى المقصود هذا من جهة، ومن جهة ثانية، لا يذكر اسم زليخا ولا زوجها عزيز مصر بل يقول: «التي هُوَ فِي بَيْتِهَا» من أجل أن يبين مروءة يوسف وعدم خيانتة لمولاه، كما يبين في الوقت ذاته تقواه، ومقاومته لمن يعيش في كنفه وتحت إمرته.

ومن جهة ثالثة تشير جملة «غَلَّقَتِ الْإِبْوَابَ» التي تفيد معنى المبالغة بحكم مصدر باب التفعيل إلى مدى صعوبة الموقف وتلاطم الاحداث التي مرت بها هذه الواقعة.

ومن جهة رابعة توضح جملة «قَالَتْ هَيْتَ لَكَ» ذلك الحديث الأخير لزليخا الذي قالته لبلوغ وصال يوسف، إلا أننا نلاحظ هنا مدى رزائته وقوة سبكه المصحوبة بنزاهة البيان وسمو المعنى

ومن جهة خامسة يشير كلام يوسف: «مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ» راداً على زليخا مندداً بها وبصرامه، بمعنى انني لا أقوم بخيانة صاحب البيت الذي أنعم عليّ وقاسمته هموم العيش، بالرغم من الأيام القليلة لتي قضيتها في هذا البيت فما بالك أنت وقد قضيت هنا عمراً طويلاً.

وتوضح الآيات اللاحقة التي يطول شرحها هذه القصة بشكل رائع، ومن ثم ترسم معالم المقاومة الخيرة، لعواصف الهوى والتهور وتسليم الامور الذاتية بيد الله تعالى في هذه المشاهد بشكل ممتع وجميل.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٩٣

وفي آية أخرى عندما يصف أحاسيس نساء مصر، حينما دعتهن زليخا إلى ضيافتها لتبرئته نفسها، يقول في جملة مختصرة: «فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ». (يوسف / ٣١)

ويدل تعبير «مَلَكٌ كَرِيمٌ» على مدى عفته ونقاته الفائقين فضلاً عن دلالة على مدى جماله المنقطع النظير، وهذا مثل تعبيرنا عن عفة أحد الأشخاص عادة بأنه مَلَكٌ من الملائكة، وكذلك توجد على أثر هذه الحوادث جمل تحتوي على قدر كبير من الفصاحة

والجمال، تدلل على عظمه ومقام يوسف بصورة كاملة ذلك المثل الأعلى في العفة والطهارة «١».

١٠- أمثلة القرآن: يستخدم القرآن أمثلة كثيرة من أجل تبيان الحقائق وهي بأجمعها تجليات واضحة للفصاحة والبلاغة في هذا الكتاب الإلهي العظيم، مما يبعث على اعتزاز الإنسان و إعجابه الكبير، وهي الأدوات الدقيقة التي استخدمت في هذه الأمثلة والامور الصغيرة الجذابة الممتعة التي نلاحظها في كل واحد منها:

ومما لا يقبل انكاره أساساً هو دور المثل في توضيح وتفسير البحوث، ولهذا السبب لا يمكن الاستغناء عن ذكره في أى مبحث مهم، لتوضيح الحقائق وتقريبها من الذهن.

فالمثال الجيد والمنسجم مع المعنى المقصود يمكن أن يؤدى دور أحد الكتب أحياناً، فيوضح المطالب المعقدة ويجعلها قابلة للفهم، ولهذا يعتبر التمثيل من أحد الفنون التي يعتمد عليها الفصحاء والبلغاء والادباء والشعراء في العالم؛ يقول الزمخشري في الكشاف في صدد (المثل):

المثل في أصل الكلام معناه المثل ويعنى النظير ... ولضرب الأمثال عندهم والتحدث بالأمثال والنظائر لدى العلماء شأن رفيع ذلك لأنها ترفع الحجاب عن المعانى الخفية وتوضح النكات المبهمة بحيث يصبح الأمر المتخيل حقائق ويقع الشئ المتوهم مستيقناً في محله وتتجلى صورة الغائب على غرار صورة الشاهد ولهذا الجهة أورد الله تعالى أمثالا كثيرة في كتابه القرآن المبين وسائر كتبه الاخرى «٢».

(١) لمزيد من الاطلاع يُراجع التفسير الأمثل ذيل الآية ٣١ من سورة يوسف.

(٢) أمثال القرآن، ص ١٢٠.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٩٤

وللأمثلة فوائد عديدة، منها أنها تجعل المسائل العقلية حسيه وتقرب الطرق البعيدة، وتوصل فهم المسائل إلى جميع الناس وبصورة شاملة، وتصعد درجة الاطمئنان بالامور المطروحة، ومن ثم المثل المناسب يعتبر رداً صاعقاً على منطق المعاندين، وقد جمع بعض المحققين أمثال القرآن في كتاب درس وحلل فيه أكثر من مائة مثال قرآني.

إن أمثلة القرآن معجزة حقاً، ويكفى من أجل الوصول إلى هذه الحقيقة، أن نجعل قسماً منها مورداً للبحث.

مقتطفات من الأمثلة الاعجازية للقرآن:

حينما يريد القرآن رسم مشهد دقيق عن الحق والباطل يقول: «أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ اَوْدِيَهُ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلِيِّهِ اَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهٗ كَذٰلِكَ يَضْرِبُ اللّٰهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَاَمَّا الزَّبَدُ فَيَذٰهُبُ جَفَاءً وَاَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْاَرْضِ كَذٰلِكَ يَضْرِبُ اللّٰهُ الْاَمْثَالَ». (الرعد / ١٧)

لقد بين الله تعالى معالم صورة الحق والباطل على احسن وجه في هذا المثل الغزير بالمعاني والمشمتمل على الفاظ وعبارات موزونة، وتجدر الإشارة هنا إلى بعض الحقائق المهمة التي تضمنها هذا المثل:

١- يحدث أحياناً أن تلبس كثيراً عملية التمييز بين الحق والباطل مما يقتضى الرجوع إلى الأمثلة والأدلة.

٢- الحق دائماً يعود على الإنسان بالخير والفائدة شأنه شأن الماء الصافي الذي هو مادة الحياة أو نظير المعدن الخالص الذي يستخدم للزينة أو لوسائل الحياة الضرورية.

٣- الحق غنى في ذاته قائم بنفسه دائماً، أمّا الباطل فيستمد العون من مكانه الحق ويسعى إلى التلبس به والاستفادة من قيمه مثلما يستمد أى نوع من أنواع الكذب وجوده وشأنه من الصدق بحيث لو لم يظهر على مسرح الوجود كلام صادق لم يتصور أحد معنى

الكذب، وإذا لم يكن للحق وجود لما عُرف الباطل.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٩٥

٤- إنَّ استفادة أى موجود بحسب قابليته وقدرته كما يجمع الوادى من ماء المطر على قدر اتساعه واستيعابه.

٥- الباطل يبحث دائماً عن سوق مضطرب، مثله كمثل الماء المنحدر من قمة الجبل فإنه ينهمر بسرعة مصحوبه بهدير وتلاطم يعلوه الزبد، أما عندما يصل إلى السهل فإن هديره وهيجانه سوف يهدأ وكذلك الزبد فإنه يختفى ولا يبقى له أثر.

٦- الباطل لا يظهر فى صورة واحدة وإنما يظهر فى كل لحظة بشكل معين، مثلما يطفو الزبد على سطح الماء وعلى سطح المعادن فى فرن صهر المعادن، لذلك لا ينبغى الانخداع بتلك المظاهر المختلفة على الاطلاق، ولا بد من تحديد مقاييس لمعرفة الحق والباطل، لتشخيص وفرز كل واحد منهما عن الآخر.

٧- الصراع بين الحق والباطل مستمر استمرار الحياة ويتوارث من جيل لآخر فهذا ماء عذب فرات وهذا ملح اجاج، يسرى بين الخلائق حتى ينفج فى الصور فكما أن تساقط الأمطار من السماء وذوبان المعادن فى فرن صهر المعادن مستمر ودائم، كذلك هذا الأمر مستمر ودائم أيضاً.

٨- الباطل يميل إلى التعالى وجلب الأنظار، لكنه خاؤ من أى محتوى أما الحق فيمتاز بالتواضع والهدوء والمهارة فى الفن.

وهناك نكات أخرى يمكن استخلاصها من هذه الأمثلة وفى مجالات مختلفة إذا ما دققنا النظر فى الزوايا المختلفة لهذه الآية. وهذه الآية تمثل نموذجاً من الأمثال القرآنية، وهناك أمثال أخرى نظير المثل الذى يدعو الناس للانفاق فى سبيل الله سبحانه وتعالى، ويشبه ذلك بالحبوب والسنابل، كما ورد فى الآية ٢٦١ من سورة البقرة، وكالمثال الذى ورد فى ذم الأعمال المقرونة بالرياء حيث صورها القرآن كالحجر الصلب الذى يعلوه التراب، فاذا أصابه المطر أزال عنه التراب وتركه صلباً أملساً، أما الأعمال الخالصة لوجه الله فقد شبهها المثل بالجنة على مكان مرتفع وأصابها المطر فأتت ثمارها ضعفين. كل ذلك ورد فى الآيتين ٢٦٤ و ٢٦٥ من سورة البقرة.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٩٦

وكالذى ورد فى صدد أعمال الكفار وتشبيها بالرماد فى مهب الريح (إبراهيم / ١٨)، أو تشبيها بالسراب (النور / ٣٩)، أو بالظلمات المتراكمة فى البحر عند قدوم الليل والسحب تغطى السماء (النور / ٤٠).

وكالذى ورد فى صدد أعمال المنافقين وتشبيها بالشخص التائه فى صحراء مقفرة فى الليل البهيم، وقد هزمت صواعق الرعد والبرق وإذا به يرى لحظة واحدة أن أشعة البرق قد أضاءت ما حوله وحين يعقد العزم على التحرك فى طريقه تعود الظلمة لتغطى كل ما يقع عليه نظره (البقرة / ١٩ و ٢٠).

وكالذى ورد فى صدد تمسك عبدة الأصنام باصنامهم العديمة الشعور والقدرة وتشبيها ببيت العنكبوت (العنكبوت / ٤١).

وما ورد فى صدد تشبيه المغتابين بأولئك الذين يأكلون لحوم إخوانهم الموتى (الحجرات / ١٢) ومن ثم ما ورد فى صدد الذات المقدسة لله تعالى بأنه نور السموات والأرض، وتشبيه ذلك النور بالمصباح والخواص المتعلقة به المقترن بأنواع الظرافة والروعة (النور / ٣٥).

ويمكن إزاحة الستار فى هذا القسم من الفصاحة والبلاغة القرآنية عن موارد أخرى كثيرة يستغرق الكلام عنها وقتاً طويلاً، وهى بدورها تطلعننا على حياة مليئة بالقيم وأضدادها تواجهنا فى حياتنا اليومية وتبين لنا عالماً من المعارف فى حلة من الأمثلة البديعة.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٩٧

بعد الكلام عن مسألة الفصاحة والبلاغة وصل بنا المطاف للحديث عن المضمون وقبل كل شيء نتعرض لمسألة المعارف ونحاول بيان المسائل المتعلقة بالمبدأ والمعاد والعقائد الدينية.

ومن الامور الأساسية هي أن بيان المسائل ذات العلاقة بالمبدأ والمعاد والنبوة والإمامة، يُعدُّ أحد المعايير الفاصلة بين الأديان الحقّة والباطلة، لأنّ بحوث هذا القسم وبالأخص ما يتعلق بالذات القدسية لله تعالى وصفاته واسمائه في غاية الدقة والتعقيد، بحيث يصبح الحد الفاصل بين الشرك والتوحيد ادق من الشعرة أحياناً.

إنّ هذا القسم من الآيات القرآنية على جانب كبير من الابداع والعمق والدقة، بحيث لو لم يوجد دليل على اعجازه سوى الايضاحات الدقيقة التي يبينها في هذه المسائل، لكان هذا كافياً للاستدلال عليه.

خصوصاً وأنّ القرآن ظهر في بيئته عاكفةً على عبادة الأصنام مملوءه بالمعابد بدءاً من الأصنام المنزلية وانتهاءً بالاصنام العشائرية والأصنام الكبيرة العامة، التي كانت مقصداً لكل بلد وحي.

لقد كانوا يصنعون الأصنام بأيديهم من الاخشاب أو الصخور أو المعادن، وبالرغم من علمهم بعدم امتلاكها لأدنى احساس وشعور وحركة ورؤية، نجدهم ينسبون إليها القدرة الهائلة استناداً إلى جملة من التخيلات المحضّة الركيكة التي تدور في أذهانهم، ومن ثمّ يسلمونها مقاليد امورهم ومقدراتهم ويخضعون لها في عجز وتضرع يلتمسونها ويسجدون

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٩٨

لها ويقدمون لها القرابين حتى تصير واسطةً للفيض والشفاعة بينهم وبين الله تعالى وكان يصل بهم الأمر أحياناً إلى أن يصنعوا أصناماً من التمر، واتفق في احدى سنى القحط أن خلت منازلهم من الطعام فحملوا على آلهتهم التي صنعوها بأيديهم فأكلوها، ومن شواهد هذه القصة هو الشعر الذي لا يزال شاخصاً بين أشعار عصر الجاهلية:

أكلت حنيفه ربها عام التقمح والمجاعة لم يحذروا من ربهم سوء العواقب والتباعد

وهذه الأفكار هي من أسوأ الأفكار خرافية وانحطاطاً وأكثرها سخافة والتي يمكن أن تخطر في ذهن إنسان.

إنّ الأكثرية الساحقة من عرب الجاهلية تعتبر الملائكة بنات الله، في حين أنّهم أنفسهم كانوا ينفرون من مجرد سماع اسم البنت - لما أثر عنهم من تحقيرهم للمرأة في تلك البيئة - كما نقرأ ذلك في قوله تعالى «وَأَذَا بُشَّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا صَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ». (الزخرف / ١٧)

وتوجد هناك مسائل خرافية اخرى كثيرة يطول شرحها سواء في مبحث المعرفة الإلهية أو في مبحث المعاد وغيرها.

وعندما نشاهد شخصاً ظهر من تلك البيئة يدعو إلى التوحيد الخالص والمعارف الأصيلة ببيان دقيق يدعن له كبار الفلاسفة، حينئذ لا يعترينا الشك بأنّ بيان مثل هذه المعارف لا يصدر إلّا من الله عزّ وجلّ، وليست هناك أدنى مبالغة في هذا القول ولا حاجة إلى قطع طريق بعيد طويل للتوصل إلى الحقيقة، فاذا القينا نظرة على المجلد الثاني والثالث من هذا الكتاب «نفحات القرآن» حيث تضمن المجلد الثاني بحثاً عن الله سبحانه وتعالى والثالث حول معرفة الله لاطلعنا على سعة المعارف القرآنية وعمقها، وكذلك الحال بالنسبة إلى المعاد في القرآن فقد افرد له بحث واسع في المجلد الخامس والسادس من نفحات القرآن.

لذا نقف هنا عند البحث الإجمالي ونكتفي بإشارات عابرة في هذا المجال، الغرض منها

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٩٩

ان نعود بقرائنا الأعزاء إلى المجلدات السابقة.

وبالرغم من سيطرة فكرة الشرك بالله وعبادة الأصنام على تلك البيئة بحيث لا يجرؤ احد على النيل من هذه العقيدة بادنى لوم أو اعتراض، انبرى القرآن بقاطعية كاملة إلى ضرب تلك العقيدة الخرافية، فتارة ينقل ذلك على لسان إبراهيم الخليل عليه السلام فيقول:

«قَالَ اتَّعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَئِنَّمَعُكُم شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * افٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ». (الأنبياء / ٦٦-٦٧)

وتارة اخرى يقول في صدد قصة عجل السامري الذي أصبح مورداً لإغواء عدة من جهال بني اسرائيل واغترارهم به: «أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَزْجَعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًّا وَلَا نَفْعًا». (طه / ٨٩)

وبجملته مختصرة: إن القرآن يندد كثيراً بالشرك ويذم عبادة الأصنام بحيث إنه يعفو ويصفح عن جميع الذنوب ما عدا الشرك، فيقول: «أَنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا». (النساء / ٤٨)

إن هذا التنديد القاطع والحاسم بفكرة عبادة الأصنام يعد بحق أمراً فريداً من نوعه؛ لأن هذه الفكرة تعتبر سُنَّة معروفة للأجداد، والثقافة الرائجة في جميع أنحاء تلك البيئته بحيث إن العدول عنها يعد من عجائب الامور ومورداً لكل أنواع الذم والتفريع، أما نحن ففي الوقت الحاضر نلقى نظرة عفوية على هذه الآيات ونعتبرها أمراً عادياً بغض النظر عن أن تلك البيئته كانت تعيش ضمن ظروف وأوضاع خاصة تختلف عن أوضاعنا، هذا من جانب ومن جانب آخر عندما يشرع في بحث التوحيد، يعمد إلى طرح الدلائل الفطرية والمنطقية و (برهان النظام) و (برهان الصديقين) بشكل لا يتصور الإنسان ما هو أروع منه.

ويشير في بحث التوحيد الفطري إلى المسألة التي كانت تحدث في حياة كل أولئك الناس وبأشكال مختلفة فيقول: «فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ». (العنكبوت / ٦٥)

وبهذه الطريقة يبين استقرار نور التوحيد في أعماق وجودهم ووجدانهم، ويزيح النقاب

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٠٠

نفحات القرآن ج ٨، ص: ١٤٩

عن طوفان الحوادث تلك الشعلة المستتره في أقبية الجهل والجاهلية، فعندما يأتي إلى التوحيد الاستدلالي يقول في جملة مختصرة: «أَفَىٰ اللَّهُ شَكَّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ».

(إبراهيم / ١٠)

بعد هذا البيان الإجمالي يأخذ بيد البشريه ويجوب كل نقطه من نقاط هذا العالم الفسيح ليريهم الآيات في الآفاق وفي أنفسهم واحده تلو الاخرى فتارة يقول: «وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ». (الذاريات / ٢٠-٢١)

ثم بالبراهين المفصلة على عظمة الله تعالى وقدرته وحكمته في السماء والنجوم والأرض، والنباتات والطيور، والليل والنهار، والهواء والمطر فيستأنس الإنسان عند البحث فيها وتأخذه حالة سرور غامر «١».

ونجده يبدى رأيه أيضاً حينما يشرع في بحث الصفات الإلهية وهو من أعقد الأبحاث العقائدية وواحد من أهم المنزقات الفكرية المحيرة لكثير من العلماء؛ ففي أحد المواضع يكرم الله تعالى وينزهه من أي نوع من الصفات الممكنة المحدودة الناقصة، فيقول في جملة مختصرة: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ». (الشورى ١١)

وعلى هذا الأساس ينفي عنه جميع الأوصاف الممكنة، ويثبت له الصفات الجمالية والكمالية المنقطعة النظير.

ويتوسع في كلامه أحياناً فيقول: «هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَمَّا آلَهُ آلَا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَمَّا آلَهُ آلَا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ». (الحشر / ٢٢-٢٤)

وفي الواقع أننا لو عقدنا مقارنة بين الوصف الذي رسمه القرآن في عدة آيات عن خالق الكون وبين الرؤية التي يمتلكها المشركون والانطباعات السائدة في بيئته ظهور القرآن عن الله تعالى لما أمكن تصور أن هذا البيان الساطع الفريد من نوعه هو وليد تلك البيئته الخرافية المظلمة اطلاقاً.

(١) شرحنا هذه الآيات تحت عشرين عنواناً في ج ٢، من هذا التفسير.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٠١

ويصف في موضع آخر العلم اللامحدود لله تعالى بهذا الرسم الذي يفوق حد التصور «وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ». (لقمان / ٢٧)

في واقع الأمر أن هذه الصورة تتضمن الإشارة إلى حالة غير متناهية إلا أنها صورة حية، لأن العدد اللامتناهي قد يستفاد منه بشكل جامد في الرياضيات والتوضيحات الفلسفية، وقد يستفاد منه وهو ينبض بالحياة على شاكلة الصورة التي وردت في هذه الآية بحيث ترتقى بفكر الإنسان، إلى ذرى اللانهاية.

ونحن عندما نستطيع أن نقف على عمق المعارف الإسلامية فيما يخص أدق المسائل التوحيدية والأسماء والصفات الإلهية نكون قد بحثنا دورة لكل القرآن المجيد بهذا الصدد «١».

وحينما يضع القرآن اللبنة الأولى لمسألة المعاد والحياة بعد الموت نجده تارة يفند جميع المزاعم والافتراضات الخاطئة للمناوئين في جملة مختصرة ويقول: «كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ». (الأعراف / ٢٩)

وتارة يقول في تبيان أوسع: «أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِنْهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ* إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ». (يس / ٨١-٨٢)

وتارة اخرى يجسم لهم مشهد المعاد والبعث في لوحة حية بدون أن يكلفوا تفكيرهم عناء الاستدلال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّبَيِّنٍ لَّكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ اجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلٍ

(١) يراجع ج ٣ من هذا التفسير، للحصول على معلومات واسعة ومنظمة بهذا الصدد.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٠٢

الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ* ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ». (الحج / ٥-٦)

وبناء على ذلك يبين القرآن مشهد البعث في عالم الإنسان وطيه لمختلف المراحل الجنينية التي تُعدُّ كل واحدة منها بعثاً عظيماً، وفي عالم النباتات أيضاً نلاحظ مشهد الموت والحياة وبعثها في كل شتاء وربيع من كل سنة.

إن الآيات التي تطرقت إلى الحياة بعد الموت والأدلة المختلفة عليها تعرضت إلى المنازل والمشاهد المتعددة للآخرة، وما يقع هناك من حوادث، وكيفية تجسُّم الأعمال والحساب والكتاب والميزان والشهود في يوم القيامة، وتحتوي هذه الآيات على أمور ومسائل دقيقة، تجعل الإنسان عند مطالعتها والتأمل فيها في حالة غامرة من العجب، وبإمكانكم مطالعة نبذة من هذه المسائل بشكل موسع في المجلد الخامس والسادس من هذا الكتاب.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٠٣

٣- إعجاز القرآن في تصور العلوم الحديثة

إشارة

قبل الدخول في هذا البحث لابد من الإشارة إلى نقطتين لتصحيح أي نوع من سوء الفهم بصدد هذا البحث:

١- يجب أن لا يتوقع أحد أن يبين القرآن الكريم جميع مسائل العلوم الطبيعية وأسرار وخواص كل الأشياء، لأن القرآن لم ينزل لبيان

هذه الامور، فهو ليس دائرة للمعارف أو كتاباً لعلم طبقات الأرض «الجيولوجيا» أو لعلم النبات وإنما هو كتاب للتربية والهداية، نزل ليقود الناس إلى حياة طيبة مقترنة بالسعادة والفضيلة ويحكمها الصدق والأمانة والنظام والرحمة، وليوصلها في النهاية إلى القرب من الله تعالى

وأما الغرض من قوله تعالى في صدد القرآن الكريم: «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ». (النحل / ٨٩)

فهو لبيان كليات الامور التي تتعلق بنجاة الإنسان وسعادته وترتيبه ولذلك يقول تعقياً على هذه الجملة: «وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ». (النحل / ٨٩)

بيد أن بعضاً من الآيات الإلهية ومن أسرار الخلق في العالم وفي وجود الإنسان ذاته تساعد على معرفة الله والتعرف على عظمة عالم الخلائق الذي هو من صنع الله تعالى لذلك قد نجد أحياناً إشارات إلى هذه المسائل بين الآيات القرآنية وقد رفعت الستار عن امور خفية واستترت عن جميع علماء العالم في ذلك الوقت.

وملخص الكلام هو: أن الإتيان ببعض أسرار العلوم وحقائق عالم الوجود في القرآن لا لعرض العلوم الطبيعية أو لتأليف دائرة للمعارف بل الغرض منه هو تبين الأهداف التربوية

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٠٤

والأخلاقية، وتعليم درس التوحيد ومعرفة الله، وفهم أسماء وصفات الحق، أو الاطلاع على جانب من أسرار المعاد وما شاكل ذلك. ٢- هل من الصحيح التشبث بمثل هذه البحوث وتطبيق الآيات القرآنية على الاكتشافات العلمية؟ هل يحق لنا أن نطبق المسائل المختلفة للعلوم الطبيعية على الآيات القرآنية، أو بالعكس؟ في حين أن آراء العلماء لا تستقر على حال، وهي في تغير دائم، ولذلك ليس من المنطق في نظرنا أن نطبق أمراً ثابتاً مستحكماً على آخر متغير؟

للإجابة عن هذا السؤال لابد من القول: إن هناك ثلاثة آراء مختلفة، فأتباع الرأي الأول وهم الذين اتخذوا جانب الإفراط في هذا المجال، فقد طبقوا الآيات القرآنية على الفرضيات العلمية لأدنى تناسب أو توافق بينهما- لا على الحقائق المسلمة والقطعية للعلوم- ظناً منهم أنهم قد أسدوا خدمة إلى معرفة القرآن من هذا الطريق.

في حين أننا نعلم في وقتنا الحاضر أن القيام بهذا العمل يعد خطأ كبيراً لأنه لا يعد عدم خدمة للقرآن فحسب، بل سبباً لسقوط اعتبار القرآن ومكانته، لأن الفرضيات العلمية- لا القوانين المسلمة- في حالة تحول وتغير مستمر، ولذلك ليس من المنطق ولا هي خدمة للعلم والعقيدة أن نقوم بتطبيق الحقائق القرآنية الثابتة على جملة من الامور المتحولة والمتغيرة، والمشكوكه أو المظنونة.

وأما القائلون بالرأي الثاني: فهم الذين سلكوا طريق التفريط، واعتقدوا بعدم جواز التطبيق في أي مورد من الموارد حتى في المسلمات العلمية التي تنسجم بصورة أو بأخرى مع العبارات القرآنية الصريحة، وهذا يعد نوعاً من التعصب والجمود والبعد عن المنطق والدليل أيضاً.

و أمياً الرأي الثالث وهو الذي يمثل الحالة الوسط بين هاتين النظريتين الخاطئتين، فلو خرجنا من حيز الافتراضات ودخلنا في عالم القوانين العلمية الثابتة بالدلائل القطعية أو الشواهد المسلمة لكانت دلالة القرآن على هذه الامور صريحة وواضحة.

فما هو المانع من تطبيق هذه المسائل على آيات القرآن؟ ولماذا نتخوف من هذا

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٠٥

الانسجام الذي هو أحد الأدلة على عظمة هذا الكتاب السماوي؟ وإذن ما المانع من أن يكشف القرآن الستار بوضوح عن البحوث التوحيدية ومعرفة الله تعالى والمسائل التربوية المستندة لجملة من الحقائق العلمية المجهولة بصورة كاملة في ذلك العصر، ومن ثم يوجه أتباعه ويوقفهم على هذا الأمر، فبالإضافة إلى تحقق النتائج التوحيدية والأخلاقية من وراء ذلك، يعتبر إماراً واضحة على حقيانية القرآن فضلاً عن أنه يفتح باباً واسعاً للعلوم والمعارف.

وعلى هذا الأساس سنتطرق بدقة إلى نقطتين مهمتين في هذا البحث المتواصل وهما:

- ١- سنختار المسائل الثابتة والمسلمة مائة بالمائة من العلوم الطبيعية مثل قانون الجاذبية، والزوجية في عالم النباتات، حركة الأرض، وحركة المنظومة الشمسية، وأمثال ذلك مما ثبت بالأدلة الحسية في يومنا هذا.
- ٢- سننتخب من الآيات في هذا المجال ما هو صالح للانطباق على القواعد العلمية العصرية بدون أدنى تكلف أو تأويل، أو بعبارة أخرى فدلالة الآيات التي تقع مورداً للقبول، هي التي تكون وفق القواعد الأدبية التي يكثر فيها استفادة المعاني من الجمل والكلمات.

١- القرآن وجاذبيته العامة

نقرأ في قوله تعالى «اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ». (الرعد / ٢) مما يستحق الإهتمام في هذه الآية، أن القرآن لا يقول: إن السماء ليس لها عمد، وإنما يقول: ليس لها عمد قابل للرؤية والمشاهدة. يستفاد جيداً من هذا التعبير أن أعمدة السماء غير مرئية وأن هذه الأعمدة هي التي أرسدت دعائم السماء «١».

(١) يستفاد من ظاهر الآية أن «ترونها» وصف ل «عمد»، وقول البعض: إن مفهوم الآية «ترونها بغير عمد» هو أنكم ترون السماء بغير عمد (وعلى هذا، فعبارة «بغير عمد» جار ومجرور ومضاف إليه متعلقه ب «ترونها»، خلاف الظاهر أولاً، وثانياً، إن هذا التعبير يشير إلى أنكم ترون السماء بدون عمد في حين أن لها اعمدة في حقيقة الأمر.

نقمة القرآن، ج ٨، ص: ١٠٦

ونقرأ في حديث عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام وقد سأله أحد أصحابه وهو «حسين بن خالد» عن معنى قوله تعالى «وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوكِ...». (الذاريات / ٧) فقال الإمام عليه السلام: «سبحان الله، أليس الله يقول: «بغير عمدٍ ترونها»؟ قلت: بلى فقال: ثُمَّ عَمَدٌ وَلَكِنْ لَا تَرَوْنَهَا» «١».

فهل يوجد توجيه وتفسير لهذا الحديث سوى العمدة الذي نطلق عليه في عصرنا هذا إسم «التوازن بين القوة الجاذبية والدافعة». وتوضيح ذلك، يكمن في أن النظرية الوحيدة التي غزت أفكار علماء ذلك العصر- زمان نزول القرآن الكريم- ومن ثم القرون السابقة واللاحقة، هي نظرية «الهيئة» لبليموس التي سيطرت بقوة تامة على المحافل العلمية الدولية. ووفقاً لذلك صوّرت السماوات على شكل كرات متداخلة نظير طبقات البصل المتلاصقة وكانت الأرض في مركزها، ومن الطبيعي أن تستند السماوات كل منها إلى الأخرى

إلما أنه ثبت بطلان هذه العقيدة بالأدلة القطعية بعد مرور زهاء الالف سنة من نزول القرآن، وذهبت تماماً نظرية الأفلاك- قشور البصل- إلى غير رجعة، وأصبح من المسلّمات أن كلاً من هذه الكرات السماوية معلقة وثابتة في مدارها وموضعها، وأن المجاميع والمنظومات متحركة، والشئ الوحيد الذي يحافظ على ثباتها واستقرارها هو نفس هذا التعادل بين القوة الجاذبة والدافعة. إن الذي يتسبب في التحرك السريع لكل الكرات السماوية ومن ثم اجتماعها في مركز واحد، هو القوة الجاذبة- التي تقول: إن الجاذبية بين كل جسمين تتناسب طردياً مع وزنيهما، وعكسياً مع الجذر التربيعي للمسافة بينهما-، بيد أن الحركة الدورية موجودة في الكواكب السيارة أو المنظومات- ولا يخفى أن الميزة الدورية هي نفس القوة الطاردة المركزية وهي التي تؤدي إلى الابتعاد السريع لهذه الكرات والمنظومات عن بعضها (على

(١) تفسير البرهان، ج ٢، ص ٢٧٨. ورد هذا الحديث في التفسير المزبور عن طريقين، عن تفسير علي بن إبراهيم، وكذلك عن تفسير

العياشى.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٠٧

شاكلة الهروب من دائرة النار فى حالة دورانها وذلك عندما ينقطع سلوكها ويتطاير الشرر من قطع النار المتقاذفة)، أما لو كانت القوة الجاذبة متساوية مع القوة الدافعة بدون أدنى نقيصة أو زيادة، فسيظهر فى هذه الحالة العمدة اللامرئى القوى حتى يثبتها فى موضعها الخاص كما أن الكره الأرضية تتحرك فى دورانها حول الشمس بمدار معين ملايين السنين بدون أن تقترب منها أو تبتعد عنها، وهذه من دلائل عظمة الله وإعجاز القرآن.

ومن الظريف أن المفسرين القدامى وقفوا على هذه النكتة إجمالاً بيد أنهم لم يعبروا عنها سوى بالقول بمسألة القدرة الإلهية، بحيث يقول «ابن عباس» وفقاً لنقل الطبرسى فى «مجمع البيان» والآلوسى فى «روح المعانى»: «إن معنى الآية هو أن السماء تكون بدون عمد قابل للمشاهدة، وعليه يكون عمدها هو القدرة الإلهية الهائلة» (١).

٢- القرآن وخلق العالم

إن للقرآن الكريم تعابير وإشارات متعددة حول حدوث العالم، إذ يقول فى أحد المواضع: «ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ». (فصلت / ١١)
وفى موضع آخر يقول: «أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ». (الأنبياء / ٣٠)

لقد اشير فى هاتين الآيتين إلى ثلاث نكات مهمة فى صدد خلق العالم والموجودات الحية:

- ١- كان العالم فى بادئ الأمر على شكل غاز وبخار.
- ٢- كان العالم متصلًا فى البداية ثم فصلت الكرات السماوية عن بعضها الاخرى
- ٣- بدأت خلقه الموجودات الحية من الماء.

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ٢٧٤؛ وتفسير روح المعانى، ج ١٣، ص ٧٨.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٠٨

وهذه هى نفس الامور التى عرفت فى هذا اليوم بعنوان النظريات العلمية المسلمة. ويتقرر توضيح ذلك: بأنه بالرغم من وجود فرضيات مختلفة لم تخرج عن حدود الفرضية فى صدد كيفية نشوء العالم، إلا أنه نظراً للمطالعات التى اجريت على المجرات والمنظومات التى تتجه نحو التكون والحدوث، بدا من المسلم أن العالم كان على شكل أكوام من الغاز فى بادئ الأمر نظير الشىء المضغوط الذى تنزل منه قطعاته وتتطاير أوصاله على أثر دورانه حول نفسه، وهذه القطع تبرد شيئاً فشيئاً ثم تظهر بشكل مائع أو جامد فى كثير من الأحيان لتشكل الكرات المسكونة وغير المسكونة.

وبعبارة اخرى تدل دراسات العلماء الفلكيين فى مجال السحب، والعوالم البعيدة عن متناول اليد والتى تأخذ طريقها نحو التكامل على أنهم أخرجوا هذه النظرية وهى كون الدنيا على شكل أكوام من غاز البخار من حيز الفرضية واعتبروها من النظريات القطعية، والتى تم تأييدها من قبل المحافل العلمية الدولية.

وكذلك نقرأ فى بداية الآية الاولى بصراحة ب «أن السموات» الكرات السماوية كانت فى بداية الأمر على هيئة دخان وهذه الآية تنسجم مع الاكتشافات العلمية للعلماء التى لم تزل حديثه العهد، وفى ذلك دلالة واضحة على الاعجاز العلمى للقرآن الذى يكشف عن الحقيقة التى كانت مجهولة فى زمن نزول القرآن بصورة كاملة.

والآية الثانية أيضاً تُعبّر عن حالة الارتباط الموجودة في العالم في بادئ الأمر، ومن ثم انفصال أجزائه الأخرى وهذا أيضاً أيده المحافل العلمية كأصل من الأصول في يومنا هذا، وكذلك الحال بالنسبة إلى ظهور الموجودات الحية من ماء البحار في بادئ الأمر - سواء كانت نباتية أو حيوانية - هي الأخرى تعتبر اليوم من النظريات العلمية المعروفة، وإن كان البحث قائماً على قدم وساق بين العلماء في صدد كيفية التحول والتطور، وظهور الأنواع المختلفة للنباتات والحيوانات.

والقرآن أيضاً يفصح عن حقيقة ظهور كافة الموجودات الحية من الماء في الآية الثانية المتقدمة الذكر، فضلاً عن ذلك تصرح الآيات التي تنسب خلقه الإنسان إلى التراب، بأن

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٠٩

هذا التراب كان ممتزجاً مع الماء على هيئة طين.

ونقرأ أيضاً في قوله تعالى «وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ». (النور/ ٤٥)

وللمفسرين أحاديث مطولة في صدد «الرتق» و «الفتق» الواردين في الآية الثانية واللذين هما في الأصل بمعنى «الإتصال» و «الإنفصال».

اختار البعض المعنى المتقدم، وهو السماء والأرض واللتين كانتا على هيئة كتل عظيمة من البخار والغاز المحترق، وتجزأت شيئاً فشيئاً على أثر الانفجارات الداخلية وحركتها حول نفسها، ومن ثم ظهرت الكواكب والنجوم، من جملتها المنظومة الشمسية.

ويرى البعض الآخر أن ذلك إشارة إلى الوحدة النوعية في مواد العالم، بحيث كانت متداخلة في بداية الأمر حيث ظهرت على هيئة مادة واحدة، لكنها انفصلت عن بعضها الآخر، وتشكلت مع مرور الزمان بتركيبات جديدة.

وذهب جمع آخر أيضاً إلى أن ذلك إشارة إلى عدم نزول المطر ونمو النباتات من الأرض، بمعنى أن السماء كانت في بداية الأمر متصلة مع بعضها الآخر، ولم يكن ينزل المطر، والأرض أيضاً كانت متصلة مع بعضها الآخر، فلم يكن للنبات وجود فيها، ثم بأمر من الله تعالى انفجرت السماء ونزل المطر، وتفتحت الأرض فخرجت النباتات.

وقد أشارت إلى المعنى الأخير روايات متعددة من طريق أهل البيت عليهم السلام، وكذلك قسم من الروايات الواردة من طريق العامة «١»، في حين تضمنت بعض الروايات الأخرى الإشارة إلى المعنى الأول «٢»، وتبدو الإشارة إلى هذا الإتصال أيضاً في الخطبة الأولى من نهج البلاغة، وفي كل الاحوال ينسجم ظاهر الآية مع التفسير الأول، علاوة على عدم وجود مانع من الجمع بين التفسير المتقدم، فمن الممكن الجمع بين كل من المعاني الثلاثة في المفهوم الجامع للآية.

ومما يسترعى الإنتباه ما ورد في قوله تعالى «ءَاتْتُمْ أَشَدَّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا ...

(١) راجع تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٤٢٤، الأحاديث ٥٢، و ٥٣، و ٥٤، و ٥٥؛ وتفسير در المنثور، ج ٤، ص ٣١٧.

(٢) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١١٠

وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا.

(النازعات/ ٢٧-٣٢)

وتدل هذه الآيات بوضوح أيضاً على كون السماء مخلوقة قبل الأرض، ثم إن ظهور الماء والنباتات والجبال كان بعد الانتهاء منها. وبناءً على ذلك، يكون هذا الأمر هو الشيء الذي يؤكد عليه العلم الحديث، وهو يرى أن الأرض وجدت بعد وجود الشمس، ويعتبر ظهور الماء من سطح الأرض، ومن ثم النباتات وكذلك ظهور الجبال بعد خلق الأرض.

٣- القرآن وحركة الأرض

نقرأ في قوله تعالى «وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُ بِهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُيِّعَ اللَّهُ الَّذِي اتَّقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ». (النمل/ ٨٨)

تتجلى في هذه الآية عدّة نكات:

أولاً: إنّ الجبال التي تبدو ساكنة في نظركم، هي في حركة سريعة كسرعة حركة السحب، (وينبغي الالتفات إلى أنّ السرعة الفائقة تُشبه عادةً بسرعة السحاب، إضافةً إلى خلو الحركة السريعة للسحب من التزلزل والصخب).

ثانياً: إنّ هذا هو صنع الله الذي خلق كل شيء بميزان معين.

ثالثاً: إنّ الله عزّ وجل مطلع على أفعالكم.

عند التأمل بدقّة في هذه الجمل الثلاث، يتضح أنّ الآية لا ترتبط بيوم القيامة كما تخيل بعض المفسرين، بل ترتبط بنفس هذه الدنيا، إذ تقول: «أنتم تتخيلونها وتتصورونها هكذا في حين أنّها ليست كذلك»، وأمّا حركة الجبال في القيامة أو على مشارف القيامة فليست هي من الأمور المخفية والمبهمة، بل إنّها واضحة ومهولة بحيث لا يقوى أحد على تحملها والصبر على مشاهدتها.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١١١

إضافةً إلى أنّ الاتقان في الخلق وحاكمية النظم والموازن فيها، هو إشارة ودلالة على وضعها الفعلي لا على زمن اقتراب يوم القيامة، حيث سيتلاشى النظام العالمي ليني على أنقاضه نظام جديد.

فضلاً عن ذلك فإنّ العلم الإلهي بالأفعال التي نقوم بها يرتبط بأفعالنا في هذه الدنيا، وإلا فإنّ القيامة يوم حساب لا يوم عمل.

ويتضح من خلال هذه القرائن الثلاث أنّ هذه الآية لا تطابق حركة الجبال في نهاية مسيرة العالم ووقوع يوم القيامة بأيّ شكل من الأشكال، غاية ما في الأمر أنّ جماعة من المفسرين لم يتمكنوا من إدراك عمق المفهوم في الآية، فما وجدوا بُدأً سوى القبول بخلاف ظاهر الآية، وتفسيرها بمسألة القيامة.

كما تتضح هذه المسألة أيضاً وهي أنّ حركة الجبال لا تنفصل عن حركة الأرض، بل هما مترابطتان مع بعضهما الآخر كوحدة واحدة، فاذا تحركت الجبال تحركت الأرض الحركة الدائبة.

وربما ينقدح في الذهن هذا السؤال: لماذا اقتصر الله تعالى على ذكر الجبال، ولم يقل إنك ترى الأرض فتحسبها ساكنة في حين أنّها متحركة.

والجواب عن هذا السؤال واضح، لأنّ الجبال من أعظم الموجودات على وجه الأرض، وهي مظهر من مظاهر الصلابة والصمود والاستحكام، ولذا نقول لضرب المثل المعروف:

«إنّ الشخص الفلاني منيع وصامد كالجبل»، ولذلك يمكن اعتبار حركة الجبال على عظمتها وصلابتها وثباتها، أحد العلائم على القدرة اللامتناهية للحق تعالى لكن ممّا لا جدال فيه أنّ حركة الجبال هي إحدى التجليات الواضحة لحركة الأرض.

وفي كل الاحوال، تعتبر الآية المذكورة أحد المعاجز العلمية المهيبة للقرآن، إذ من المعلوم أنّ العقيدة الرائجة والحاكمة لدى كافة المحافل العلمية الدولية في عصر نزول القرآن وزهاء الألف سنة بعد ذلك هي نظرية ثبات الأرض ودوران الكرات حولها، والتي نشأت من هيئته «بطليموس».

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١١٢

ومن العلماء الأوائل الذين اكتشفوا حركة الأرض هم كل من «غاليليو» الايطالي، و «كبرنيك» البولندي، وذلك بعد مرور ما يقارب الألف سنة، إذ اعلنوا عقيدتهم في آواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر الميلاديين، ممّا أثار على الفور حفيظة أرباب

الكنيسة بشدة بحيث هددوهما بالقتل، في حين أن القرآن الكريم كشف الستار عن هذه الحقيقة بعشرة قرون قبلها، وطرح عباراته البديعة المتقدمة حركة الأرض باعتبارها إحدى علائم التوحيد والعظمة الإلهية.

وعلى كل حال، فمما لا شك فيه أن هذه الآية تتحدث عن حركة الجبال (وبتعبير آخر حركة الأرض) في هذه الدنيا، ذلك لأن حركة الجبال عند وقوع يوم القيامة، تُحدث زلزلاً قوياً في الكرة الأرضية بحيث يقول تعالى عنها «يَوْمَ تَرُؤْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى...» (الحجج / ٢) وهذا الكلام لا ينسجم مع جملة: «تَحْسَبُهَا جَامِدةً» على الإطلاق.

إضافة إلى أنه لا يبقى مجال لأفعال الخير والشر في تلك اللحظات الحرجة، حتى يتأتى القول بأن الله تعالى مطلع على الأفعال التي نقوم بها.

والقول بأن الآيات التي تسبق الآية المتقدمة أو ما بعدها ترتبط بالقيامة لا يمكن اعتباره دليلاً قطعياً على أن مفهوم هذه الآية يرتبط بالقيامة، لأن هذا ليس أحد المصاديق النادرة في القرآن، فربَّ آية تتحدث في مسألة معينة وتتحدث التي قبلها أو بعدها عن مسألة أخرى وبعبارة أخرى فالإطلاع على محتوى الآية نفسها والقرائن الموجودة فيها أهم وأفضل من الملاحظات الأخرى وهذه النكتة تستحق الاهتمام أيضاً وهي أن التشبيه بحركة السحب بالإضافة إلى أنه إشارة إلى السرعة الفائقة لها، يعتبر جواباً قاطعاً عن هذا السؤال، وهو إذا كانت الأرض متحركة فلماذا لا- نشعر بها؟ فيأتي الجواب إنها تتحرك ببطء ومرونة وهدوء بحيث لا يمكن تشخيص ذلك، كما لو صعد أحد على السحاب مثلاً، فإنه لم يكن يشخص حركتها أيضاً.

ومما يدعو إلى الاهتمام هذه النكتة أيضاً وهي أن القرآن يقول: «الْمَن نَجْعَلِ الْأَرْضَ

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١١٣

كِفَاتًا* أَحْيَاءَ وَآمَوَاتًا». (المرسلات / ٢٥-٢٦)

ونشاهد في قواميس اللغة التي من جملتها «المفردات» للراغب وكتاب «العين» أنه قد ذكر معنيان للفظ «كفات» المأخوذة من مادة «كفت» وهما الجمع والطيران السريع، فاذا كان المعنى الأول هو المقصود، يكون مفهوم الآية على أن جعلنا الأرض محطاً لاجتماع بنى البشر في حياتهم، وما تحت الأرض مقرأً لاجتماعهم بعد مماتهم، وإذا كان المقصود المعنى الثاني، يكون مفهومها الطيران السريع للأرض. وهذا يتناسب مع الحركة الانتقالية للأرض حول الشمس التي تسير دائرياً بسرعة فائقة- تقدر ب (٢٠) كيلو متر في كل ثانية و (١٢٠٠) كيلو متر في كل دقيقة- ثم إنها تحمل الأموات والأحياء معها وتدور بهم حول الشمس.

ولعل السبب في إطلاق لفظ «كفت» على الطيران السريع، هو أن الطيور عندما تريد أن تطير بسرعة فائقة في السماء تجمع أجنحتها بصورة كاملة وبشكل متناوب وتسيح في الفضاء، لكن نظراً لكون لفظ «كفت وكفات» تحتل معنيين، لم نذكر هذه الآية بعنوان أحد الأدلة القطعية على مسألة دوران الأرض.

٤- القرآن وحركة المنظومة الشمسية

يقول القرآن الكريم: «وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ* لَمَّا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ».

(يس / ٣٨-٤٠)

كما تقدمت الإشارة إليه من قبل أن النظرية التي تحدثت في صدد السماء والأرض وسيطرت على المحافل العلمية في عصر نزول القرآن والقرون السابقة واللاحقة عليه، هي نظرية الهيئ ل «بطليموس» الذي كان يعتبر الأرض مركز العالم، ويعتقد أن النجوم والشمس مندكة في قلب الأفلاك البلورية، ويتصور أن الأفلاك تدور حول أطراف الأرض.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١١٤

ويذكر القرآن في الآيات أعلاه مطلباً يتنافى مع هذا الكلام بصورة كاملة، فهو يقول:

أولاً: إنَّ الشمس تتحرك باتجاه احدى المقرات (أو إنَّ الشمس تتحرك في قرارها المختص بها)، لا أنَّ الشمس مع فلكها البلورى تدور حول الأرض.

ثانياً: إنَّ كلاً من الشمس والقمر يسبح في فلكه الخاص به.

وبعد إنبهار دعائم فرضية «بطليموس» على أثر اكتشافات القرون الأخيرة، وتحزُّر الأجرام السماوية من قيود الأفلاك الخارجية، استحكمت هذه النظرية التي ترى أنَّ الشمس ساكنة وثابتة في مركز المنظومة الشمسية، وتدور حولها المنظومة الشمسية بأكملها.

وفي هذا المضممار أيضاً لم تكن هناك معلومات عن حركة الشمس باتجاه قرارها الخاص أو في دائرة نفسها.

وهكذا تطور العلم أكثر فأثبت من خلال مشاهداته النجومية بالاستفادة من المراصد الفلكية القوية جداً أنَّ للشمس حركتين على أقل تقدير: الحركة الموضوعية حول نفسها، والحركة الانتقالية بصحبة المنظومة الشمسية بأكلمها باتجاه نقطة معينة من السماء، أو بتعبير آخر باتجاه نجم «ويكا» وهو يعتبر من نجوم الصورة الفلكية التي تسمى «الجاثي على ركبته» (١).

جاء في إحدى دوائر المعارف: أنَّ للشمس - بالإضافة إلى الحركات الظاهرية - حركة واقعية، «الحركة الدورية للمجرات تسير بالشمس وتدور بها في الفضاء بسرعة مليون ومائة وثلاثين ألف كيلو متر في الساعة تقريباً، وكذلك ليست الشمس ثابتة في داخل المجرات، بل تتحرك باتجاه الصورة الفلكية التي تدعى «بالجاثي» بسرعة تناهز (٧٢) ألف كيلو متر في الساعة، والسبب في عدم اطلاعنا على الحركة السريعة للشمس في الفضاء هو الدورة الفلكية للأجرام السماوية».

(١) تطلق الصورة الفلكية «الجاثي على ركبته» على النجوم التي تكون بمجموعها على هيئة شخص جاثٍ على ركبته يريد القيام، ونجم «ويكا» يعد من هذه المجموعة التي تدور حولها المنظومة الشمسية بما فيها الشمس.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١١٥

ثم تضيف على ذلك بالقول: إنَّ للشمس في دورانها حول نفسها حركة دورية موضعية أيضاً (الدورة الموضوعية لحركة الشمس في استوائها تستغرق (٢٥) ليلة تقريباً (١)).

إذن ممَّا لا يقبل الشك أن الآيه: «كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ» لا تتلاءم مع نظرية الأفلاك البلورية ل (بطليموس) التي أثبتت كل واحدة من الكرات في موضعها الخاص، وتنسجم تماماً مع اكتشافات العلم الحديث، علاوة على أنَّ الحركة باتجاه «المستقر» إشارة أخرى إلى حركة الشمس باتجاه أحد جوانب المجرات أيضاً، وفي الواقع فإنَّ بيان هذا الموضوع يُعدُّ معجزاً.

٥- القرآن واتساع العالم

نقرأ في قوله تعالى «وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِإيْدِي وَأَنَا لَمُوسِعُونَ». (الذاريات / ٤٧)

«أيدي»: (على وزن صيدٍ) معناه القدرة والقوة، كما جاء هذا المعنى في آيات أخرى من القرآن أيضاً، وذكر بعض المفسرين إضافة إلى ما قلناه معنى (النعمة) ل «أيدي» أيضاً، في حين أن «يَدٌ» تأتي بمعنى «النعمة» في بعض الأحيان والتي يكون جمعها «أيدي» وجمع جمعها «أيادي».

وعلى أيَّة حال، تدل جملة «أَنَا لَمُوسِعُونَ» بوضوح على أنَّ الله تعالى الذى خلق السموات بقدرته التامة يضيف عليها عامل الاتساع والاستيعاب بصورة مستمرة، وبناء على عدم وضوح هذا المطلب بالنسبة للعلماء والمفسرين سابقاً، فقد فسَّر الكثير منهم هذه الجملة بأنَّها تعطى معنى سعة رزق الله تعالى على عباده من خلال نزول المطر، أو من خلال طرق مختلفة. وفسَّرها بعض أنها تعطى معنى

الغنى والكفاف، وبأن الله تعالى كلما أجزل نعمه وأعطى لا تنقضى خزائنه أبداً. بيد أننا لو ألقينا نظرة على ما أثبتته المشاهدة النجومية بواسطة المراصد الفضائية نلاحظ أن المجرات تبتعد إحداها عن الأخرى بسرعة، وأن

(١) قاموس دهخدا، ج ٢٢، مادة (الشمس) «باللغة الفارسية».

نقحات القرآن، ج ٨، ص: ١١٦

العالم في حالة اتساع مطرد، ولكي يتضح مفهوم هذه الجملة في أذهاننا بصورة كاملة، نقرأ في كتاب «بداية ونهاية العالم» لمؤلفه «جان ألدر»:

«لقد كشفت أحدث وأدق الحسابات على طول مسيرة الأمواج التي تنبعث من النجوم، الستار عن إحدى الحقائق العجيبة والمدهشة، حيث بينت أن مجموعة النجوم التي تشكل هيئة العالم تبتعد بسرعة فائقة عن مركز العالم بصورة مستمرة، وكلما اتسعت الفاصلة بينها وبين مركز العالم كلما زاد ذلك من سرعته سيرها، ويبدو أن النجوم بأكملها كانت مجتمعاً في هذا المركز في يوم من الأيام ثم تشتت شملها بعد ذلك، وانفصلت عنها مجموعة من النجوم الكبيرة لتشق طريقها في مسالك الفضاء المختلفة، علاوة على أن العلماء استفادوا من هذا الموضوع على أن للعالم نقطة شروع في بداية الأمر» (١).

ونقل في نفس الكتاب عن «جورج كاموف» قوله في كتاب «خلق العالم»:

«إن فضاء العالم المتكون من مليارات المجرات، في حالة اتساع مطرد، وفي الحقيقة أن عالمنا ليس في حالة سكون وإنما في حالة انبساط، والتوصل إلى الحقيقة القائلة بأن هذا العالم هو في حالة انبساط وتوسع، هو المفتاح الذهبي للتعرف على لغز هذا العالم، قولنا: إن العالم في حالة انبساط حالياً، يستلزم منه أن العالم كان في حالة انقباض شديد جداً في يوم من الأيام» (٢).

ونقرأ في كتاب «حدود النجوم» لمؤلفه «فورد هويل» حول سرعة الانبساط واتساع العالم ما يلي:

«تصل أقوى درجات السرعة لتقهقر الكرات التي خضعت للقياس إلى وقتنا هذا إلى حدود ستة وستون ألف كيلو متر في الثانية، إن نور المجرات الأبعد يبدو ضعيفاً بنظرنا إلى درجة بحيث يتعسر علينا قياس سرعتها، نظراً لعدم وجود النور الكافي، لقد بينت الصور التي التقطت من السماء بوضوح أن فاصلة هذه المجرات ابعدها بكثير من فاصلة المجرات القريبة» (٣).

(١) بداية ونهاية العالم، ص ٧٤-٧٧ (باختصار).

(٢) المصدر السابق.

(٣) حدود النجوم، ترجمه رضا أقصى ص ٣٣٨، عن النسخة الفارسية.

نقحات القرآن، ج ٨، ص: ١١٧

وعلى هذا الأساس نقف على تفسير واضح جداً في صدد الآية السابقة واتساع السموات، والتي تكشف الستار عن السر وراء أحد المعجزات العلمية للقرآن.

ومِمَّا يستحق الاهتمام أيضاً أن عبارة: «إِنَّا لَمُوسِعُونَ» والتي استعمل فيها اسم الفاعل والجملة الإسمية للدلالة على حالة الاستمرار والديمومة، وعلى تداوم حالة التوسع والانبساط.

٦- القرآن ووجود الحياة في المجرات الأخرى

جاء في قوله تعالى «وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ». (الشورى ٢٩) يا ترى هل العيش والحياة مختص بالكرة الأرضية، والكرات الأخرى ليست مسكونة إطلاقاً؟ لقد كان العلماء الأوائل يتابعون هذه

المسألة دائماً بشيء من التردد أو الحكم المنفي، بيد أن التحقيقات الأخيرة للعلماء أثبتت لنا أن الحياة لا تختص بالكرة الأرضية. ونقرأ في كتاب «الحياة في العالم» من منشورات مجلة «لايف» ما يلي:

«من الممكن حسب احصاءات العلماء أن تتواجد في مجرتنا ملايين النجوم التي تكون سياراتها التابعة لها أهله بالسكان».

وذهب البعض إلى أكثر من ذلك حيث اعتقدوا بوجود موجودات حية في بعض الكرات السماوية تفوق حالة التطور لدى الإنسان بكثير، فالإرسالات الراديوية التي يبثونها في الفضاء ولا نستطيع الإتيان بمثله، قابله للاطلاع عليها بصورة كاملة من خلال أجهزة الاستقبال التي بحوزتنا، وإن كنا لا نفهم لغتهم ولا نعي مغزاها.

وعلى أية حال فتصريح الآية المتقدمة بالقول: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَثِّ الْمَوْجُودَاتِ الْحَيَّةِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، يخبر عن حياة الموجودات الأخرى بشكل واضح، ومن الاشتباه بمكان أن نتصور أن المقصود من الموجودات الحية في السماء هي (الملائكة)، وذلك لكون نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١١٨

كلمة «دابة» تطلق على الموجودات الجسمانية فحسب ولا تطلق على الملائكة.

ولهذا ففي الموضوع الذي يريد القرآن الكريم أن يذكر الملائكة يتحدث عنها بصورة مستقلة بعد ذكر كلمة «الدابة»، كما نقرأ ذلك في قوله تعالى «وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ». (النحل / ٤٩) بحيث نجد أن «الملائكة» جعلت في قبال «الدابة»، وهذا يدل على عدم شمول كلمة الدابة للملائكة في الآية التي جاء ذكرها في بحثنا هذا.

ومن الظريف ما يقوله «الفخر الرازي» في تفسير الآية الواردة في بحثنا هذا بأنه: «لا يستبعد أن يقال إن الله خلق في السموات أنواعاً من الموجودات الحية تمشي كما يمشي الإنسان على وجه الأرض» (١).

ونقرأ في حديث ظريف عن الإمام على عليه السلام ما يلي: «هذه النجوم التي في السماء مدائن مثل المدائن التي في الأرض مربوطه كل مدينة إلى عمود من نور» (٢).

ووردت في بعض المصادر الإسلامية روايات أخرى في هذا المجال (٣).

ومن المعلوم أن هذه المعلومات استقيت من نفس المصدر الذي استقاه القرآن الكريم، وإلا لم يطلع أحد على هذه المسائل في ذلك العصر.

٧- القرآن وخلق الجبال

وردت في القرآن الكريم عبارات مختلفة وغنية في معانيها في مجال خلق الجبال، يقول تعالى في أحد المواضع: «وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ». (النحل / ١٥)

وفي موضع آخر يقول تعالى «الْمَنْ نَجَعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا* وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا». (النبأ / ٦-٧)

ونقرأ في آية أخرى قوله عز وجل: «وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا». (المرسلات / ٢٧)

(١) تفسير الكبير، ج ٢٧، ص ١٧١.

(٢) سفينة البحار، ج ٢، ص ٥٧٤، مادة (النجم).

(٣) لمزيد من الاطلاع راجع كتاب «الهيئة والإسلام».

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١١٩

ويقول تعالى أيضاً: «وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ». (لقمان / ١٠)

وهناك آيات اخرى بهذا المضمون أو قريبة منها في القرآن الكريم أيضاً.

الأمر الذى نواجهه لأول وهلة فى هذه الآيات، هو تأثير وجود الجبال فى الحفاظ على استقرار الأرض، التى عبر عنها تارة بـ «الأوتاد» التى تستخدم عادة فى اقفال أقسام مختلفة من الأبواب والصناديق والسفن وما شابه ذلك، أو صيانة المخيمات وتقويتها فى مقابل هبوب الرياح.

وتارة اخرى عبر عنها بـ «أن تَمِيدَ بِكُمْ» المأخوذة من مادة «مَيَّدَان» بمعنى الاهتزاز والاضطراب، ومعنى ذلك أن الجبال تَحِيدُ دون اضطراب الأرض واهتزازها. ولم يطلع أحد على هذا المطلب فى ذلك العصر، ونحن فى هذا الوقت نعلم جيداً مدى دور الجبال على هذا الصعيد، وذلك للنقاط التالية:

أولاً: إن الجبال فى واقع الأمر هى فى قوة أحد الدروع الفولاذية التى تحيط بالأرض من كل جوانبها، ونظراً لقوة ارتباطها واتصالها باعماق الأرض تشكل بدورها أحد الشبكات القوية الشاملة، وإذا لم يكن كذلك وكانت الرمال الناعمة تغطى صعيد الأرض، لوقعت تحت تأثير الجاذبية القوية للقمر بكل سهوله، ولهزّ الجزر والمد كل شىء على اليابسة نظير المد والجزر فى البحار، واستولى الاضطراب والاهتزاز والحركة على وجه الأرض فى الليل والنهار، ولتعرض لإمكان الانهدام والسقوط كل مبنى من المباني.

بيد أن وجود هذا الحصن المنيع فى الأرض ينزل بالمد والجزر إلى أدنى مستوى وحالياً تأخذ القشرة السميكة للأرض بالارتفاع والانخفاض بمقدار ثلاثين سانتيمتراً فى كل يوم و ليلة أيضاً، وهذا بعكس البحار التى ترتفع وتنخفض على أثر الجزر والمد امتاراً متعددة أحياناً.

وتوجد جاذبية الشمس المد والجزر أيضاً وإن كان ضعيفاً، ولو وقع مسير الشمس والقمر فى خط واحد واتصلت الجاذبيتان فى جانب واحد، لاشتدت قوة هذه الحركات

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٢٠

وتضاعفت قوتها، إلّا أن القرآن يذهب بالقول إلى أن الجبال التى هى أوتاد الأرض تصونها من الاهتزاز.

ثانياً: إن الضغط الداخلى للأرض بواسطة حرارتها المركزية الهائلة يؤثر على قشرة الأرض بصورة دائمة، ولولا وجود الجبال لأصبح مصدراً من مصادر الاضطراب المستمر للأرض.

والآن تدبروا لو اشتد الاضطراب الناجم عن المد والجزر والضغط الداخلى على أثر مرونة قشرة الأرض وطراوتها، فهل سننعم بالهدوء والاستقرار الذى نعيشه الآن على الكرة الأرضية؟ وهل سنجد بيتاً وملجأً ومأوىً نلجأ إليه؟

ثالثاً: لقد ثبت فى وقتنا الحاضر أن الجبال بأعمدها القوية تحرك معها الهواء الحاصل فى أطراف الأرض، والآن لو فرضنا أن الأرض تتحرك فى دورانها حول نفسها بسرعتها الذاتية المعهودة— أى ما يقارب الثلاثين كيلو متر فى الدقيقة—، فلو لم تكن الجبال، لما تحقق مثل هذا الدوران للهواء الموجود فى أطرافها، ولثارت تائرة العواصف والأعاصير والرياح الشديدة على أثر اصطدام جزئيات الهواء بوجه الأرض، فضلاً عما يولد ذلك من حرارة هائلة تحرق الأخضر واليابس. كما أن الطائرات السريعة لو سارت فى الطبقات السفلى للجو لارتفعت درجة حرارة أجنحتها بحيث قد يؤدى ذلك إلى عواقب وخيمة، لهذا تضطر إلى الصعود فى الطبقات العليا للجو لتتحرك فى وسط الهواء الرقيق جداً حتى يقل احتكاكها بالهواء الذى هو المنشأ لإيجاد الحرارة.

أجل، لقد أزالنا منخفضات ومرتفعات وجبال الأرض هذه الازمة وحركت الطبقة السميكة للجو مضافاً إلى حركة الأرض، تماماً كدوران أسنان الدواليب ذات المقود التى تدور مع دورانها ببقية الأشياء الأخرى

فبناءً على ذلك، تعتبر الجبال وسيلة من وسائل استقرار الأرض واستقرار ساكنيها سواء فى مقابل جاذبية القمر والشمس، أو فى مقابل الضغط الداخلى، أو فى مقابل العواصف الشديدة والمستمرة، أو فى مقابل تولد الحرارة الشاقة.

من جهة اخرى تقدمت الإشارة فى الآيات السابقة إلى وجود العلاقة بين الجبال وبين

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٢١

نزول المطر وارتواء الأراضي والحصول على الماء الفرات وهو «الماء العذب»، يقول عز من قائل: «وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيًا شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا».

مما لا يقبل الشك هو أن العلاقة بين الاثنين - الماء والجبال - لم تكن معروفة في السابق، إلا أننا نعلم في الوقت الحالي:

أولاً: أن الجبال هي سبب من اسباب تجمع بخار الماء، أي تراكم السحب.

وثانياً: أنها سبب من أسباب برودة طبقة الهواء المجاور لها.

وثالثاً: أنها تحتفظ بالقسم الأكبر من الأمطار على شكل ثلج، كما أنها مصدر من مصادر الطاقة المستمرة لجريان المياه على سطح الأرض، ومن ثم صيانة المياه من الهدر والضياع.

بالإضافة إلى أن الامتداد الواسع للجبال، وقشرتها المتعرجة تقلب أمواج الماء وتعرضها للهواء النقي، فيصفو الماء ويتحول إلى «ماء فرات» وهو (الماء العذب).

وبغض النظر عن كل ذلك، فإن النكتة الظرفية الأخرى التي استأثرت باهتمام بعض العلماء في صدد جبال الأرض، هي أن الجبال في مقابل تغيرات الضغط الأرضي في قوة «الدولاب الثابت» الذي يحول دون تبدل السرعة.

توضيح ذلك: أن المقصود من «الدولاب الثابت» هو نفس الشيء الموجود في جميع الوسائل التي لها حركة دورية مشابهة، وذلك في صورة دولاب ثقيل يدعى بالدولاب الطيار أو الدولاب الثابت، ينصب في محورها حتى ينظم سرعتها، وعلى سبيل المثال لو ورد ضغط من الخارج على هذه الوسيلة ذات الحركة الدورية ثم انقطع الضغط فجأة لقفزت إلى الأمام ووجهت صدمته إلى ذلك الجهاز، أما إذا نصب الدولاب الثابت عليها لاحتفظت بهذا الضغط في داخلها، ثم تدفعه بالتدرج بدون أن تتوجه أي صدمته إلى ذلك الجهاز (تأمل جيداً).

هذا من جهة، ومن جهة أخرى بإمكان العواصف الهائجة التي تهب أحياناً في الجهة المخالفة أو الموافقة لحركة الأرض أن تؤثر على حركتها ...، وحينما تهدأ فورة العاصفة تتحول الأرض إلى حالة من الاندفاع العشوائي الذي يوجه ضربة قاصمة إلى جميع

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٢٢

الموجودات الأرضية، بحيث يولد الاضطراب في كل شيء.

إلا أن لوجود الجبال التي هي بمثابة «الدولاب الثابت» دور في الاحتفاظ بكل هذه الضغوط المثبتة فيها والمنفية فتحد دون حدوث الصدمات، وتحافظ على الحركة المتوازنة للأرض، وعلى حد تعبير القرآن تقف مانعاً دون حدوث الاهتزازات وزعزعة الاستقرار.

ولو كان البحث في زمن هذه الآيات قائماً على قدم وساق في مجال مباحث «الدولاب الثابت» وآثاره في ذلك العصر، لما كانت التعبيرات في هذه الآيات مدهشة ومثيرة، ولكن نظراً إلى عدم وجود مثل هذه المسائل في ذلك الزمن على الإطلاق، خصوصاً أنه لم يكن للفيزياء معنى في محيط الجزيرة العربية، فضلاً عن هذه المسائل المعقدة، فلا بد من الاعتراف بأن بيان مثل هذه الآيات تعبير عن إحدى المعجزات العلمية الكبرى «١».

والنكتة الأخرى هي أن القرآن الكريم عندما يتحدث عن تكوين الجبال يقول: «وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا». ويقول في مكان آخر: «أَمْ نَجْعَلُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلْ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلْ لَهَا رَوَاسِيًا». (النمل / ٦١)

هذه التعبيرات ونظائرها التي تكررت في القرآن تبين بوضوح أن الجبال خلقت بعد خلق الأرض، وقد أثبت العلم الحديث هذا المعنى بوضوح أيضاً، وذهب إلى القول بأن الكثير من الجبال حدث على أثر إلتواء الأرض، والبعض حدث على أثر المواد الذائبة المحرقة، والبعض الآخر حدث بسبب تنقية المواد الرخوة من اطراف المواد الصلبة للأرض الذي يحصل على أثر نزول المطر، وكل ذلك تحقق بعد خلق الأرض وإيجادها .. ومما لا ريب فيه أن هذه المسائل لم تكن معروفة حين نزول هذه الآيات من القرآن.

٨- عنصر الزوجية بين النباتات في القرآن

وردت الإشارة إلى عنصر الزوجية في عالم النباتات في آيات خمس من القرآن

(١) ما تقدم أعلاه موجز من مقال محقق تحت عنوان «أثر الجبال في استقرار الأرض» (مسألة الدولاب الثابت) في المجلة الدينية والعلمية المدرسة الإسلامية العدد ٨، السنة ١٣ (ص ٦٨-٧٣ باللغة الفارسية)، ولمزيد من الاطلاع حول هذا الموضوع والوقوف على جزئياته راجع المقال المذكور.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٢٣

الكريم، فنقرأ في قوله تعالى «وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ». (١)
(لقمان / ١٠)

وقوله تعالى «وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ» (الحج / ٥)
ونقرأ أيضاً في قوله تعالى «وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى .
(طه / ٥٣)

عندما وصل أغلب المفسرين الاوائل إلى هذه الآيات فسروا «زوج» بمعنى «النوع» «الصنف»، و «الأزواج» بمعنى «الأنواع» و «الأزواج» المختلفة للنباتات، لأن حقيقة الزوجية في حقل النباتات بمعناها المعروف لم يكن معروفاً في ذلك الزمان. إن الناس في سالف الزمان وإن كانوا يعلمون نوعاً ما عن أن بعض أنواع النباتات يتكون من جنسين، الذكر والانثى وأنهم كانوا يستخدمون عملية التلقيح من أجل تكثيرها (خصوصاً شجرة النخل التي يُعلم بوجود الذكر والانثى فيها منذ قديم الزمان، وأنهم كانوا يحرصون على إنمائها عن طريق التلقيح)، لكن أحد العلماء المعروفين في حقل النباتات من السويد يدعى «لينه» كشف عن هذه المسألة لأول مرة في أواسط القرن الثامن عشر للميلاد وهي أن عنصر الزوجية (بين الذكر والانثى في عالم النباتات تعتبر من احدى المسائل العامة، والمتفق عليها، وأن النباتات كأغلب الحيوانات إنما تتكاثر وتنمو من خلال الامتزاج بين نطفة الذكر والانثى ومن ثم تعطى الثمار.

إلا أن القرآن الكريم - كما رأينا- قد كشف النقاب عن هذه الحقيقة قبل هذا العالم بإثني عشر قرناً، وأشار إلى عنصر الزوجية في عالم النباتات في موارد متعددة، إلا أنه نظراً لعدم امتلاك هؤلاء للجرأة في التصريح بهذه الحقيقة، عمدوا إلى تفسير الزوجية بمعنى آخر على خلاف ظاهرها.

(١) وورد نفس المضمون في كل من الآية (٧) من سورة الشعراء والآية (٧) من سورة (ق).

(٢) ورد نفس هذا المضمون في الآية ٧ من سورة الشعراء والآية ٧ من سورة ق.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٢٤

ومن الظريف أن النباتات مختلفة من هذه الجهة، ففي كثير منها يجتمع الذكر والانثى فيها في أصل واحد، وفي البعض الآخر تنفصل أشجار الذكر عن أشجار الانثى

خذوا وردة من الورود ثم افصلوا أوراقها عنها، وتأملوا بدقة في داخلها تجدون عالماً مليئاً بالعجائب والأسرار. وفي الواقع ينعقد هناك محفل كبير، بيد أنه لا صخب فيه، ويخلو من أي لون من ألوان العنف والاعتداء، حيث أن المياسم الظريفة واللطيفة التي تحمل معها أكياس حبوب اللقاح تحيط بما حولها ثم تتحرك مع هبوب الرياح، لتنتثر تلك الحبوب على المدقة. إن الحبات المذكورة التي تمثل

كل واحدة منها خلية صغيرة جداً، تتجذر بسرعة وبعد العبور من على عنق المدقة تمتزج مع نطفة الانثى في المبيض في أصل الورد لتشكل بدورها بذرة الورد أو الفاكهة.

وكان الأوراق الزاهية للورد بمنزلة احدى معالم الزينة لهذا المحفل الغرامى العجيب أو الاستار الموضوعه على الحجرة المزينة للعروسين، ثم تُدعى الحشرات والفرشات الجميلة والنحل إلى هذا المحفل البهيج أيضاً.

ويتناول كل منهم الحلوى المخصوصه والمعدّه له من قبل رحيق الأزهار وبيعون لنا حصهً منها، وما نشاهده من العسل فى الأسواق، هو نصيبنا من ذلك المحفل.

وعلى أيه حال استناداً إلى تصريح القرآن فى آيات مختلفه على شموليه عنصر الزوجيه للنباتات، وبالرغم من بعض الاستثناءات القليله الواهيه الموجوده فى كل قانون كلى، يكون قد رفع الستار عن هذا السر المهم الذى خفى عن أنظار العلماء فى ذلك العصر والقرون التى تلتها وهذه بحد ذاتها من المعجز العلميه البديعه.

٩- القرآن والزوجيه العامه

نقرأ فى قوله عزّ من قائل: «وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ».

(الذاريات / ٤٩)

ويقول تعالى «سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٢٥

يَعْلَمُونَ». (يس / ٣٦)

فهذه الآيه تبين - بوضوح أكثر - شموليه عنصر الزوجيه للنباتات والبشر والأشياء الخارجيه عن حدود العلم البشرى، ونظراً لأن كثيراً من المفسرين لم يجدوا هنا مفهوماً للزوجيه بالمعنى الحقيقى (أى عنصرى الذكر والانثى، فقد عمدوا إلى تفسيرها بالأصناف المختلفه للموجودات فى العالم التى تبدو على شكل زوج زوج مثل: النهار والليل، النور والظلمه، البحر والبر، الشمس والقمر وغيرها.

لكننا نجد تفسيراً أدق لهاتين الآيتين فى وقتنا الحاضر، حيث إن التحقيقات العلميه أثبتت هذه الحقيقه بوضوح وهى أن جميع الموجودات لعالم الماده تتشكل من أجزاء صغيره جداً تدعى بالذره، وهذه الأجزاء التى عرفت قديماً بالموجود الذى لا يتجزء (أجزاء لا تتجزأ) وسمى ب «الذره» لهذا السبب قد تحطم على أثر تطور القدره العلميه والفكريه للإنسان، ومن هذا المنطلق نشأت القوه الذريه والصناعات المتعلقه بها.

وعندما حللوا الذره وجدوا أنها مركبه من أجزاء متكونه غالباً من الألكترونات (الجزئيات التى تغلف النواه، وتحمل شحنه سالبه)، البروتونات (الجزئيات التى تحمل شحنه موجبه).

وعلى هذا الأساس نستنتج من ذلك معنى أدق للزوجيه فى كل ذرات عالم الوجود وهو توفر عنصرى (الذكر) و (الانثى)، (الموجب) و (السالب)، (الفاعل) و (القابل) وبدون أى استثناء أيضاً، فى حين أن التفسير الذى قال به العلماء الأوائل بالرغم من عدم انسجامه الكامل مع مفهوم الزوجيه، فإن فيه استثناءات كثيره أيضاً.

وعلى أى حال، توجد هناك جاذبيه قويه بين الزوجين الحقيقين، وكذلك بين جسمين بشحنتين كهربائيتين مختلفتين سالبه وموجبه، وهى كثيراً ما تشابه الجاذبيه الجنسيه، فى حين لا يوجد أى نوع من أنواع الجاذبيه بين الليل والنهار، النور والظلمه، البحر والبر، وما شابه ذلك.

ومن الجدير بالذكر ما صرح به بعض المفسرين القدامى من خلال ما استلهموه من

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٢٦

الآيات السالفة، بأن المقصود من الزوجين في هذه الآيات هو عنصرى الذكر والانثى نفسيهما، وإن لم يوضحوا هذا المطلب بصورة كاملة «١».

١٠- القرآن يكشف النقاب عن مسألة مراحل تطور الجنين

وردت ضمن الآيات القرآنية المرتبطة بعلامات التوحيد ودلائل المعاد إشارات غزيرة المعانى إلى مسألة خلق الإنسان من النطفة ومن ثم مراحل تطور الجنين. والتي يمكن عدّ بعض منها فى قائمة المعجزات العلمية للقرآن.

من جملتها ما نقرأه فى الآية الثانية من سورة الإنسان: «أَنَا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا».

«النطفة»: فى اللغة بمعنى الماء الصافى أو الماء القليل «٢». (الأمشاج) جمع مشج (على وزن نسج أو على وزن سيب). أو جمع مشيج بمعنى الشىء المختلط. وقد ابدى المفسرون احتمالات متعددة فى صدد الجواب عن ما هو الشىء الذى تختلط به النطفة.

فتارة تصوروا أن ذلك إشارة إلى تركيب نطفة الإنسان من «الحيامن» و «البويضة»، وتارة أنه إشارة إلى كونها مركبة من الاستعدادات المختلفة من الناحية الجسمية أو الروحية (القبح والحسن، الذكاء والغباء و...). واخرى إلى أنه إشارة إلى أن نطفة الإنسان مركبة من مواد مختلفة من المعادن ونحوها.

بطبيعة الحال أن ذلك كله حسن، ولعله كان من أفضل التفاسير فى عصره، إلما أنه لا ينطبق بدقه على معنى الآية. ذلك أن لفظة الأمشاج جمع، واطلاقها على شيئين أى (البويضة والحيمن) خلاف الظاهر، هذا أولاً، وثانياً: أن وجود الاستعدادات المختلفة فى

(١) جاء فى تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ١٦٠، عن أحد المفسرين القدماء ويدعى «ابن زيد» أنه قال فى تفسير الآية «ومن كل شىء خلقنا زوجين...» الزوجين الذكر والانثى. كما ورد هذا المعنى نفسه عن قتادة فى تفسير الآية «سبحان الذى خلق الأزواج كلها». (تفسير القرطبي، ج ٨ ص ٥٤٧٠).

(٢) تمت الإشارة إلى المعنى الأول فى معجم مقاييس اللغة والمفردات، والى المعنى الثانى فى لسان العرب.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٢٧

الأشخاص بشكل مستقل لا يتلاءم مع معنى الأمشاج، وكذلك ليس من المناسب القول بتركيب النطفة من أنواع المعادن واشباهها، لأن هذا الأمر لا ينحصر فى النطفة فقط، وإنما تتركب من هذه المواد كل الموجودات العالية نظير الإنسان والنبات وألوان الاطعمة، اضافة إلى أن كلمة النطفة فى آيات متعددة من القرآن جاء فى خصوص نطفة الرجل.

فمثلاً نقرأ فى قوله تعالى «الْمَ يَكُ نُطْفَةً مِّنْ مَّنَىٰ يُمْنَىٰ؟ (القيامة/ ٣٧)

لكن مع تطور العلم واتساع نطاق تحقیقات العلماء ثبت اليوم أن القطرات القليلة للمنى والتي تدعى ب (النطفة) مركبة من مياه متعددة تفرزها الغدد المختلفة للجسم، وبشكل رئيسى فهناك خمس غدد تتظافر فيما بينها لكى تصنع المنى من ترشحاتها، وهى عبارة عن: غدتان تقعان فى أكياس قريبة من غدة البروستات وتدعى ب (البیضة).

والاخرى هى غدة البروستات نفسها، وكذلك غداتا «الكوبر» و «الليتر» اللتان تقعان بالقرب من المجارى البولية هذا ما أثبتته العالم الفرنسى الدكتور (بوكارى) «١».

وتختلط هذه المياه الخمسة مع بعضها بنسب دقيقة وموزونة لتشكل مادة الحياة (النطفة).

ويعتقد هذا العالم الفرنسى أن التعبير ب (الأمشاج) الوارد فى القرآن هو إشارة إلى تلك النكته الدقيقة التى خفيت عن أنظار علماء ذلك العصر.

ومما يسترعى الانتباه هو قوله تعالى فى ذیل الآية السابقة: «فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا»، بمعنى أن نعمه السمع قد تقدمت على نعمه البصر،

لا احتمال أن يكون السبب في ذلك كما ذهب إليه العلماء هو أن الحس الأول الذي يبدأ بالعمل لدى الرضيع هو السمع، فهو يستعد لالتقاط الأصوات في الأيام الأولى من حياته. بل إن له قبل ذلك نشاطاً محدوداً في العالم الجنيني أيضاً.

(١) مقتبس من كتاب (مقارنة بين التوراة والانجيل والقرآن والعلم) تأليف الدكتور «بو كاري» ترجمة المهندس «ذبيح الله دبير» باللغة الفارسية- ص ٢٧١. الملفت للنظر أن هذا الدكتور الفرنسي يميل كثيراً إلى القرآن حينما يصمم على مقارنة هذه الكتب فيما بينها، وحيث إن ترجمات القرآن المتداولة لا تشفى غليله، نراه يستفيد من الأدب العربي ويحيط به احاطة تامة ليتمكن من الحصول على ما يحتاجه من القرآن مباشرة دون حاجة للرجوع إلى ترجماته.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٢٨

وهذا بخلاف البصر فإنه يستعد للإبصار بعد ذلك ولعله بعد مرور اسبوعين، لعدم امتلاك العين المغمضة أى استعداد لرؤية امواج النور في البيئة المظلمة للرحم. ولهذا السبب فإن عين الرضيع تبقى مغمضة بعد ولادته مدة من الزمن أيضاً، حتى تعتاد على الضياء بالتدرج.

من جانب آخر يقول تعالى «الْم نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ». (المرسلات/ ٢٠)

لقد توصل علماء الأجنة اليوم من خلال مطالعاتهم ومشاهداتهم الدقيقة والمصورة عن تحولات الجنين إلى هذه النكتة، هي أن لقاء (الحيامن والبيوض) إنما يتم خارج الرحم وفي الممرات المنتهية إليه. ثم تتعقد النطفة لتشق طريقها نحو قرارها الأصلي وهو الرحم فتلتصق بجداره.

ويتبين هذا المعنى بوضوح في الآية الآنفه الذكر أيضاً، ففي البداية تتحدث عن خلقه الإنسان، ومن ثم عن استقراره في قرار الرحم (وينبغي الالتفات إلى أن «ثم» تستعمل في لغة العرب عادة للترتيب بشيء من الفاصلة)، وعليه فإن الأمر الذي غاب عن أنظار جميع العلماء في ذلك العصر وما بعده قد جاء في القرآن بشكل واضح.

والتعبير «القرار المكين» هو الآخر تعبير غني جداً في معناه والذي كان مجهولاً في ذلك الزمان قطعاً.

ونعلم في وقتنا الحاضر أن هناك خصائص مهمة أخذت بنظر الاعتبار في خلق الرحم بحيث أصبح من آمن الأماكن للجنين. وبغض النظر عن الأغشية الثلاثة التي تحيط بالجنين من كل جوانبه (غلاف بطن الأم، جدار الرحم، الكيس الخاص لاستقرار الجنين). فإن كل جنين يسبح في كيس يحتوي على ماء لزج، ويستقر هناك تقريباً في حالة من انعدام الوزن وعدم الاتكاء على شيء معين، وهو يتحمل كثيراً من الصدمات التي ترد على انحاء جسد الأم، ذلك أن الصدمات في الواقع تصيب (كيس الماء) لا الجنين نفسه مباشرة، وبعبارة أخرى يمكن أن نسمى ذلك

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٢٩

الكيس ومحتواه بالجهاز المضاد للصدمات نظير النواضح المرنة للسيارة التي تخفف من تأثير عراقل الطريق. فضلاً عن ذلك أنه يحول دون تسليط ضغط على أعضاء جسم الجنين، ذلك لأن هذا الضغط يلحق الضرر بذلك الجسم اللطيف، إضافة إلى أن البرودة والحرارة الخارجية لا- تنتقل إلى الجنين بسهولة كما لا- يخفى لأنها وفي طريقها إلى الجنين لابد أن تخترق ذلك الكيس المملوء بالماء، فتصل إليه معتدلة الحرارة، وإلا فمن الممكن أن يختل وضع الجنين بصورة كاملة عند استحمام واحد للام بالماء البارد أو الحار. وبناءً على هذه الامور التي توضح لنا مفهوم (القرار المكين) بصورة كاملة لا يعتبر الرحم ملجأً آمناً ومناسباً للجنين فحسب، بل إن هذا الأمن والحصانة تسايهه في المراحل التي تمر بها ولادته أيضاً.

وكما قال بعض المفسرين الجدد: إن المادة السائلة الخاصة التي يسبح فيها الجنين تتسبب في اتساع فوهة الرحم حين الولادة وتعقيم

المجرى الذى يمر منه الجنين ليتمكن من اجتياز هذا المجرى المتلوث بأنواع الميكروبات عادة فيخرج إلى الدنيا سالماً، فى منتهى الأمن والراحة «١».

ومما يستحق الاهتمام أن القرآن الكريم عندما يريد أن يفصح عن سلسلة المراحل التكاملية للجنين يقول تعالى «ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ انشأنَاهُ خَلْقًا آخَرَ * فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ».

(المؤمنون / ١٤)

ومن طريف القول هو ما اثبتته علم الأجنة حالياً أن الجنين عندما يطوى مرحلة كونه علقه ومضغه، تتبدل كل خلاياه إلى خلايا عظمية، ثم تغطيها العضلات واللحم بالتدرج (وقد أثبتت ذلك الأفلام الدقيقة الباهضة التكاليف التى أخذت لكل المراحل الجنينية). وهذا هو ما جاءت به الآية السابقة بدقة إذ تقول: «فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا»، وهذه هى احدى المعجزات العلمية للقرآن الكريم، ذلك أنه لم يكن فى ذلك الزمن

(١) تفسير المراغى، ج ١٨، ص ١١.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٣٠

مايسمى بعلم «الأجنة»، وعلى الخصوص فى محيط جزيرة العرب الذى لم يتوفر فيه الاطلاع على أبسط المسائل العلمية «١».

١١- القرآن يتحدث عن الآثار المهمة للغلاف الجوى للأرض

نقرأ فى قوله تعالى «وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرَضُونَ».

(الأنبياء / ٣٢)

لقد أبدى المفسرون القدماء وجهات نظر مختلفة فى صدد بيان حقيقة السقف السماوى المحفوظ، فتارة يذهبون إلى أنه محفوظ من نفوذ الشياطين، وتارة يقولون: إنه محفوظ من السقوط على الأرض، وتارة ثالثة: إنه محفوظ من الانهدام بالرغم من تقادم الزمن «٢». إن السر وراء هذه التفسيرات المبهمه هو عدم اطلاع البشر على السماء اطلاعاً دقيقاً فى ذلك العصر. وعندما وُجد علم الهيئه الجديد أثبت أن الكواكب بأجمعها تسبح فى الفضاء اللامتناهى، وأنه لا يوجد سقف أساساً، أصبح مفهوم هذه الآية أكثر تعقيداً بالنسبة لبعض المفسرين، حتى لجأوا إلى القول: إن معناها هو أن السماء كالسقف المحفوظ الذى يحول دون حدوث أى اختلال فى نظام الوجود.

وعلى هذا الأساس صار المتبادر إلى الذهن من معنى السقف هو المعنى المجازى والذى جاء بصورة التشبيه والكنائيه. إلما أن العلم البشرى لم يزل يواصل تقدمه نحو الأمام، وأصبح مفهوم هذه الآية أكثر وضوحاً نظراً إلى ما حصل عليه العلماء من معلومات جديدة عن طبقات الغلاف الجوى، فثبت أنه يوجد سقف محفوظ بمعناه الحقيقى.

(١) أشار سيد قطب فى كتابه فى ظلال القرآن ج ٦ ص ١٦ إلى ذلك. وقد شاهدنا ذلك أخيراً فى فيلم وثائقى عجيب عن المراحل التكامليه للنمو الجنينى.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٧ ص ٤٦؛ والتفسير الكبير، ج ٢٢، ص ١٦٥ وتفسير اخرى

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٣١

توضيح ذلك: أنه توجد طبقه عظيمه للهواء تحيط بالأرض من كل أطرافها تسمى «الغلاف الجوى» يصل سمكها مئات الكيلو مترات ونظراً لضخامة هذه الطبقة الشفافة ظاهراً والمتكونه من الهواء وبعض الغازات الاخرى نجدها على جانب كبير من القوة والمقاومه

يقدرها بعض العلماء بمقاومة سقف فولاذى سمكه عشرة أمتار، تُصان به الكرة الأرضية من ألوان المخاطر.

فمن جهة يقف سداً منيعاً أمام سقوط الصخور المستمرة - ليلاً ونهاراً والمعروفة ب (الشهب) المنجذبة نحو الأرض بسرعة هائلة وتشكل خطراً كبيراً فيما لو اصطدمت بإحدى الأماكن.

وتتضح أهمية هذه المسألة أكثر من خلال النظر إلى ما قاله العلماء: إن ملايين من هذه الشهب تتجه نحو الأرض فى كل يوم وليلة، وعندما تصطدم هذه الأحجار السريعة بمقاومة الغلاف الجوى تتولد حرارة فتحترق وتشتعل متحوّلة إلى رماد، ينزل إلى الأرض رويداً رويداً، وفى بعض الأحيان تكون هذه الأحجار كبيرة جداً فتجتاز الغلاف الجوى (بعد أن يحترق جزء منها) فتصيب نقطة من الكرة الأرضية، وتحدث أضراراً مخيفه، وقد سُجلت نماذج لها فى التاريخ، ولعله انذار موجه إلى الغافلين بأنّ الله تعالى لو لم يخلق هذا السقف المحفوظ، لتعرضتم بأجمعكم إلى هذا القصف الخطير، ولما كان للهدوء والاستقرار معنى فى حياتكم.

ومن جهة اخرى نعلم أنّ الشمس تنبعث منها أشعة تدعى بالأشعة فوق البنفسجية (تلك الأشعة هى نفسها التى تقع فوق اللون البنفسجى عندما يتحلل ضوء الشمس ولا تشاهد بالعين المجردة) والمقدار القليل منها مفيد ونافع جداً، فضلاً عن أنّه لا يلحق الضرر بأحد، وبالأخص إنّ له دوراً كبيراً فى قتل الميكروبات، إلّا إذا ازداد وكثر فأنّه يحرق البدن بدون أن يشعر الإنسان بالحرارة، (إنّ السبب وراء الحروق التى تصيب جلد الرأس والوجه والبدن فى المناطق القريبة من خط الاستواء فى فصل الصيف هو أنّ الشمس تسطع بصورة عمودية وتجتاز طبقة قليلة من الهواء، فلا تحظى بقدر كافٍ من التصفية) ولو لم يوجد هذا

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٣٢

(السقف المحفوظ) وهو «الغلاف الجوى» لم يستطع أى إنسان أن يقاوم الشمس ولو لحظة واحدة.

من جهة ثالثة أنّ الاشعاعات المميته المسماة ب (الأشعة الكونية) تتجه بسرعة نحو الأرض ممّا وراء المنظومة الشمسية فيقف جزء من الغلاف الجوى ويسمى ب «طبقة الاوزون» (١) مانعاً من نفوذ هذه الأشعة القاتلة ويقاومها كالسقف المحفوظ.

أخيراً برزت مخاوف كثيرة للعلماء على أثر الثقب الذى حدث فى طبقة الاوزون بسبب تصاعد الغازات الضارة من بعض أجزاء السيارات فى الهواء وإلحاقها الضرر بتلك الطبقة، هذه المخاوف ظهرت بصورة جدية بحيث أخذ رجال الدول والعلماء يفكرون فى وضع مقررات دولية تمنع حدوث هذه الاضرار.

هذا ما توصلنا إليه حالياً من التعرف على الآثار العجيبة لهذا (السقف المحفوظ)، أى الطبقات العظيمة للهواء ومن الممكن الكشف عن حقائق أهم وأكثر فى هذا المضمار مستقبلاً.

وقد يخطر فى الذهن هذا السؤال وهو: هل يمكن اطلاق اسم «الغلاف الجوى» على السماء فتصدق عليه؟ وهل تعنى السماء الكواكب والأجرام السماوية والمنظومات والمجرات؟

فى الجواب عن هذا السؤال نقول: إنّ القرآن الكريم هو الذى اطلق مراراً هذه الكلمة على الغلاف الجوى ومن جملة ذلك ما نقرأه فى قوله تعالى «وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ» (٢). (البقرة / ٢٢)

ويتجلى بوضوح نموذج آخر لهذا المعنى فى قوله عز من قائل: «لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ». (النحل / ٧٩)

(١) الاوزون، غاز أزرق اللون ذو رائحة نفاذة ويعد أخطر من غاز الاوكسجين. ويتكون عند التفريغ الكهربائى للاوكسجين، ويستعمل لاغراض الصباغة وتصفية الماء والهواء.

(٢) وورد نظير هذا المعنى فى البقرة، ١٦٤؛ الأنعام، ٩٩؛ الأعراف، ٩٦؛ يونس، ٢٤؛ هود، ٤٤؛ الرعد، ١٧ وآيات أخرى متعددة.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٣٣

١٢- القرآن والغلاف الجوي للأرض أيضاً

نقرأ في قوله تعالى «فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ». (الأنعام/ ١٣٥)

ورب سؤال يتبادر إلى الذهن وهو:

ماهى العلاقة بين الصعود إلى السماء وضيق الصدر؟

وهو سؤال لم يجد له المفسرون الأوائل جواباً دقيقاً.

قال كثير منهم: إن المقصود من ذلك هو كما أن الصعود إلى السماء أمر عسير أو محال كذلك تحصيل الإيمان بالنسبة إلى الكفار المعاندين والجهلاء المتعصبين «١».

في حين أن الأعمال الشاقة والمستحيلة كثيرة على وجه الأرض فليس هناك مبرر للتشبيه، إضافة إلى أن هذا التفسير بحاجة إلى تقدير: وهو أن الإيمان يشابه الصعود إلى السماء، في حين أن القرآن يقول: «يَجْعَلُ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ».

وقالوا في بعض المواضع: شبه الله الكافر في نفوره من الإيمان وثقله عليه بمنزلة من تكلف ما لا يطيقه، كما أن صعود السماء لا يطاق «٢»، ولا يخفى عدم تناسب هذا التفسير مع محتوى الآية أيضاً.

أما بالنظر إلى الاكتشافات الأخيرة فإن للآية المتقدمة تفسيراً آخر يناسب هذا المعنى من كل الجهات وهو:

لقد ثبت اليوم أن الهواء المحيط بأطراف الكرة الأرضية مضغوط بصورة كاملة في الأماكن المجاورة لسطح الأرض ويلائم تنفس الإنسان ويناسبه، لأنه يحتوى على الاوكسجين الكافى، وكلما ابتعدنا عن سطح الأرض أصبح الهواء أقل كثافة فيغدو التنفس شاقاً جداً على ارتفاع عشرة كيلو مترات عن سطح الأرض بدون استخدام الإنسان نقاب الاوكسجين، ويصاب بحالة من الضيق الحاد في التنفس، وكلما ارتفع إلى الأعلى أكثر،

(١) تفاسير مجمع البيان؛ روح البيان؛ تفسير القرطبي و ... ذيل الآية مورد البحث.

(٢) تفسير روح البيان، ج ٣، ص ١.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٣٤

ازدادت حدة الضيق في تنفسه حتى يصل إلى الوقت الذى يغمى عليه لثقله الاوكسجين.

إذن توجد هناك علاقة وثيقة بين ضيق النفس والصعود إلى السماء، ولم تبلور هذه الحقيقة في ذهن أى شخص في ذلك العصر «١». بيد أنها قد تبلورت في اذهان الجميع فى يومنا هذا، فقد سبق لنا أن سمعنا هذا الحديث من مضيقى الطائرة عدة مرات أثناء سفرنا بها، بأن الهواء الموجود داخلها ينظم بجهاز خاص، فإذا حدث خلل فيه، فحينئذ ينبغى الاستفادة من نقاب الاوكسجين، لتستغل الطائرة سرعتها وتصل إلى الطبقات السفلى للجو الأكثر ضغطاً.

كما أن العلاقة بين هذا المعنى وبين تفسير الآية واضحة جلية.

وهى فى الواقع تشبيه المعقول بالمحسوس، فقد شبه الجمود الفكرى والتعصب واللجاجة وقصر نظر الضالين المعاندين فى اعتناقهم للإسلام، بضيق التنفس الناجم عن قلة حصول الاوكسجين بالنسبة للشخص الذى يصعد إلى السماء.

ونتهى هذا البحث بمقوله للمراغى فى تفسيره هذه الآية، إذ يقول: «سُبْحَانَكَ رَبِّى نطق كتابك الكريم بقضية لم يتفهم سرها البشر، ولم يفقه معرفه كنهها إلا بعد أن مضى على نزولها نحو أربعة عشر قرناً، وتقدم فن الطيران، الآن علم الطيارون بالتجربة صدق ما جاء فى كتابك، ودل على صحة ما ثبت فى علم الطبيعة من اختلاف الضغط الجوى فى مختلف طبقات الهواء، وقد علم الآن أن الطبقات

العليا أقل كثافة من الطبقات التي هي أسفل منها، وأنه كلما صعد الإنسان إلى طبقة أعلى شعر بالحاجة إلى الهواء وبضيق في التنفس نتيجة لقلّة الهواء الذي يحتاج إليه، حتى لقد يحتاجون أحياناً إلى استعمال جهاز التنفس ليساعدهم على السير في تلك الطبقات، وهذه الآيات وأمثالها لم يستطع العلماء أن يفسروها تفسيراً جليلاً لأنهم لم يهتدوا لسرها، وجاء الكشف الحديث وتقدّم العلوم فأمكن شرح مغزاها وبيان المراد منها بحسب ما أثبتته العلم، ومن هذا صح قولهم، «الدين والعلم

(١) يُصاب الإنسان أحياناً بضيق في النفس عند تسلق الجبال، هذا صحيح ومعروف منذ الأيام السالفة، ويحصل نتيجة للجهد البدني الشديد ويشاهد في حالة الركض على الأرض المستوية أيضاً، غير أن القرآن يقول: إن ضيق النفس يسببه الصعود إلى السماء لا الجهد البدني الشديد.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٣٥

صنوان لا عدوان»، وهكذا كلما تقدم العلم أرشد إلى إيضاح قضايا خفي أمرها على المتقدمين من العلماء والمفسرين» (١).

١٣- القرآن وأسباب نزول المطر والتلوج

نقرأ في قوله تعالى «الْم تَرَأَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَتَرَى الْوَدَّاقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَابِرُهُ يَذْهَبُ بِالْبَصَارِ». (النور/٤٣)

في هذه الآية تعابير مختلفة، لم تتوضح معانيها بدقة في الماضي.

«يزجي»: مأخوذة من مادة (إزجاء) ومعناها في الأصل هو الدفع أو التحريك الملائم الهاديء.

يقول الراجز في المفردات: «الترجية» معناها هو التحريك على سبيل الترتب والتسلسل.

واستعمل القرآن الكريم هذه الكلمة لحركة السفن على أثر هبوب الرياح في البحر كما روت في سورة الاسراء، الآية ٦٦.

«الركام»: (على وزن غلام) وتعني الأشياء الموضوعه فوق بعضها.

«وَدَّاقَ»: (على وزن شَرَق)، وهي حسب رأى بعض المفسرين بمعنى قطرات المطر، وحسب رأى البعض الآخر بمعنى البرق.

«الْبَرْدَ»: على وزن (سَبَد) والمقصود به قطرات المطر المنجمدة، وهي في الأصل مأخوذة من مادة بَرَد على وزن (فَرَد) وهي البرودة.

ولأن قطع البرد ذات طبيعة باردة وتبعث على برودة الأرض أيضاً اطلقت هذه الكلمة عليها (٢).

(١) تفسير المراغي، ج ٨، ص ٢٥.

(٢) جاء في كتاب (التحقيق): «البرودة في الماء أن يبرد إلى أن يصل حد الانجماد فيقال له البرد».

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٣٦

«جبال»: جمع جبل، جاء في (معجم مقاييس اللغة) هو: بمعنى تجمع الشيء مصحوباً بالارتفاع، وورد هذا المعنى في (التحقيق) أيضاً، وعليه فالجبل لا يراد منه جبال الحصى والرمال فحسب، بل إن كل مرتفع متراكم ومخزون يقال له في لغة العرب: جبل.

واستناداً إلى ما قيل في هذا المجال نعود إلى الآية الأنفة الذكر: «وَيُنزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ».

لم يدرك أحد في ذلك العصر بدقة أن السحب في السماء على هيئة جبال بارتفاعات متفاوتة نشاهد قاعدتها غالباً. لأننا نراها بصورة لوحه واسعة في السماء، لكن عندما نحلّق بالطائرة إلى أعلى السحب، نشاهدها جبالاً وودياناً ومرتفعات ومنخفضات، كما نشاهد ذلك على سطح الأرض، وبعبارة اخرى إن السطح الأعلى للسحب غير مستوٍ وعلى غرار سطح الأرض يحتوى على تضاريس كثيرة، وفي كثير من الأحيان يكون متراكماً على هيئة جبل.

ومن أجل أن يتضح مفهوم الجبال في الآية أكثر يمكن أن نضيف النكتة الدقيقة والتي ثبتت نتيجة لتطور العلوم وازدهارها وهي: ذكر أحد العلماء في تحليله الشخصي ما خلاصته: إنَّ السحب المرتفعة عُبر عنها بجبال الثلج، في الآية التي وقعت مورداً للبحث؛ لأنَّ العلماء في تحقيقاتهم الجوية اصطدموا بسحب متكونة من إبرٍ ثلجية، يصدق عليها عنوان (جبال من الثلج) واقعاً، ومن الغريب هو ما ذكره بصدها أحد العلماء الروس أثناء شرحه لبعض (السحب المحملة بالأمطار) بأنها جبال من الثلج، أو جبال من السحب. هذا كله من جهة ومن جهة أخرى ذهب علماء معاصرون في صدد كيفية نشوء البرد في السماء إلى القول: إنَّ قطرات المطر تنفصل عن السحاب وتصطدم بالمناطق العليا الباردة للجو فتتجمد، ولكونها صغيرة جداً فتذفها إلى الأعلى من جديد تيارات هوائية شديدة مسلطة على تلك المنطقة فتنفذ تلك الحبيبات داخل السحب مرةً أخرى لتستقر مقابلها صفحة جديدة من الماء، تنجمد مرةً ثانية حينما تنفصل عن السحاب، ويحدث أحياناً أن

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٣٧

يتكرر هذا الأمر عدّة مرات حتى يصبح حجم البرد كبيراً، ولا تقوى التيارات الهوائية على دفعه إلى الأعلى أو أن تهدأ تلك التيارات بصورة مؤقتة، فحينئذٍ يشق طريقه إلى الأرض ويسقط باتجاهها بدون أى مانع، ويحدث أن يكون كبيراً ثقيلًا في بعض الأحيان فيلحق اضراراً بالمزارع والبساتين والحيوانات وحتى أفراد البشر أيضاً. من هنا يتبين أن وجود برد كبير الحجم ثقيل الوزن ممكن عندما تتراكم الحبيبات المنجمدة فوق قمم السحب الجبلية إلى أن تظهر رياح شديدة فتذفها وسط السحب، وتجمع مقداراً أكثر من الماء، فتصبح ثقيلة الوزن. وعلى هذا الأساس تعتبر السحب الجبلية منبعاً مهماً لتكوّن برد كبير الحجم، سبقت الإشارة إليه في الآية. وتتضح المسألة أكثر فيما لو قلنا: إنَّ هذه الجبال هي الأكوام المتكونة من الذرات الثلجية نفسها «١».

والسؤال الوحيد الذي يبقى هنا هو: لماذا وجه القرآن الكريم الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وآله بقوله: (الم تر) في حين أننا نعلم أن هذه المسألة لا تقبل الرؤية على الإطلاق، وإنما تمكن ملاحظاتها في عصرنا فقط من خلال التحليق بالطائرة؟ والجواب عن هذا السؤال واضح، ذلك أن (الم تر) والجمل المشابهة لها يراد منها «الم تعلم»، ولهذا يقول القرآن مخاطباً النبي في سورة الفيل الآية ١: «الم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل»، بالرغم من ولادته صلى الله عليه وآله في عام الفيل (العام الذي هاجم فيه أبرهه مكة المكرمة) وعدم حضوره تلك الواقعة.

(١) ذهب المفسرون في تفسير: «وينزل من السماء من جبال فيها من برد» إلى قولين يمكن استنتاجهما من سياق تركيب الآية؛ الأول: إنَّ الجار والمجرور في «من برد» متعلق بينزل وهي في حكم المفعول فيصبح معنى الآية: إنَّ الله ينزل قطع الجليد من جبال في السماء (وهنا ذكرت الجبال بصورة مطلقة). والثاني: إنَّ الجار والمجرور متعلق بفعل محذوف يقع صفة ل «جبال» فيصبح معنى الآية بناء على ذلك: إنَّ الله ينزل برداً من جبال الثلج التي في السماء (وهنا يكون مفعول «ينزل» محذوفاً ويفهم من سياق الكلام). وكلا-التفسيرين يوضح الإعجاز العلمي للقرآن وفقاً لما ذكرناه سالفاً. لأنَّ قولاً تضمن ذكر جبال من الثلج، وقولاً آخر تضمن جبال السحاب، وكلاهما لم يكن معروفاً في زمانه.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٣٨

١٤- القرآن وعلاقة الرعد والبرق والمطر

ورد الحديث عن الرعد والبرق في القرآن الكريم بشكل مكرر ثم وردت الإشارة إلى هطول الأمطار بعد ذلك مباشرة. ورد في قوله تعالى «وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبُرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ

يَعْقَلُونَ». (الروم / ٢٤)

ونقرأ في قوله تعالى «هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ».

(الرعد / ١٢)

وفي الماضي لم يكن أحد يعرف بدقته منشأ (الرعد) و (البرق)، ولذا فقد كان كل واحد يخلق لنفسه فرضية معينة، ويضفي عليها أحياناً طابع الأساطير والخرافات، أما اليوم فقد أضحى مسلماً أن حدوث الرعد والبرق يرتبط بالتفريغ الكهربائي بين سحابتين لهما شحنتان كهربائيتان مختلفتان (أحدهما موجبة والآخرى سالبة).

وفي الواقع مثلما يتصل سلكان كهربائيان أحدهما بالآخر فتحدث شرارة كهربائية يصحبها الصوت والحرارة معاً، كذلك يحدث هذا الأمر بين السحب. (فالبرق) هو الشرارة الكهربائية الهائلة، و (الرعد) هو صوت تلك الشرارة.

وقد يحدث هذا التفريغ الكهربائي بين قطع السحاب التي لها شحنات كهربائية موجبة وبين الأرض ولها شحنة كهربائية سالبة عادة، فتتدفق شرارة نارية إلى سطحها يطلقون عليها اسم (الصاعقة) والتي تسبب الحرائق الكبيرة في الصحارى والغابات وحتى في المباني والعمارات في بعض الأحيان.

وبإمكانها أن تحوّل قطعاً كبيراً من الحيوانات إلى رماد في لحظة واحدة وإذا ما ضربت جبلاً ما فسوف يتلاشى وينهار، أو إذا أصابت سطح البحر قضت على كل ذى روح يعيش في ذلك الموضع منه؛ ويُعزى ذلك كله إلى أن الحرارة الناجمة من تلك الشرارة النارية هائلة جداً، (تصل إلى حدود خمسة عشر الف سانتيجراد، أى ضعف حرارة سطح الشمس تقريباً)، فتحل كل الأشياء إلى دخان ورماد.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٣٩

وإذا ما كان البرق والرعد من المظاهر المرعبة لعالم الطبيعة إلا أنّهما بالرغم من ذلك يشتملان على فوائد ومعطيات كثيرة أيضاً. فمن إحدى آثارهما المهمة هي نزول الأمطار الغزيرة، وذلك لأن الحرارة المتولدة من البرق، تُسخن مساحة واسعة من الهواء المحيط بها، فيقلّ ضغطه، ومن المعلوم أنّ السحب ستفرغ ما فيها من أمطار على أثر قلّة الضغط، ولهذا السبب تهطل أمطار غزيرة بعد حصول الرعد والبرق.

ومما يجدر ذكره: عندما تقترب السحب المترامكة من الأرض لتظلّلها يصبح الجو مظلماً، ويسمع صوت الرعد المخيف وتترأى أنوار البرق، في الوقت ذاته تؤثر العواصف العاتية على السحب فتجعلها محملة بقطرات كبيرة غزيرة وتؤدي إلى تزايد وزنها «١»، وهذا هو عين ما قرأناه في الآيات السابقة التي تحدثت عن السحب الثقيلة بعد أن أشارت إلى مسألة البرق، إضافة إلى أنّ الحرارة الشديدة للبرق تؤدي إلى أن تتربط قطرات المطر من مقادير أكثر من الأوكسجين، فينتج من ذلك ماء مؤكسد ويسمونه بالماء الثقيل أيضاً (H₂O). (٢).

ولهذا الماء الثقيل تأثير كبير في القضاء على كثير من الميكروبات والآفات النباتية، ولذا ذهب العلماء إلى القول بتكاثر الآفات النباتية في السنة التي يقل فيها الرعد والبرق (وهذا تفسير آخر في صدد السحب الثقيلة).

وإضافة إلى ذلك فإنّ حامض الكربونيك يتولد من قطرات المطر الممتزجة بكاربون الجو وبواسطة الحرارة الشديدة للبرق، وبعد سقوطه على الأرض يتفاعل مع مواد أخرى لينتج مركبات تعد من أفضل الأسمدة لنمو الأعشاب، حتى ذهب العلماء إلى القول: إنّ مقدار الأسمدة الناشئة من الرعد والبرق في الكرة الأرضية تصل إلى حدود العشرة ملايين طن في جميع أنحاء الكرة الأرضية، وهو رقم كبير جداً.

وتتوضح عظمة القرآن العلمية بالمقارنة بين هذه الاكتشافات والآيات الأنفة الذكر،

(١) العواصف والأمطار، ص ١٣٨.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٤٠

خصوصاً إذا أخذ بنظر الاعتبار عدم وجود أدنى أثر لهذه العلوم في ذلك العصر وفي بيئة الجزيرة العربية.

١٥- القرآن وكشف هوية الإنسان

نقرأ في قوله عز من قائل: «يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعُ عِظَامَهُ* بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ». (القيامة/ ٣-٤)

جاء في الروايات، أنّ أحد مشركي العرب ويُدعى (عدى بن ربيعة) وكان رجلاً معانداً ومتعصباً جداً، أتى إلى النبي صلى الله عليه وآله وسأله عن يوم القيامة وكيفيه وزمان تحققه، وقال: إنني لا اصدقك ولا أؤمن بك وإن رأيت ذلك اليوم بأُم عيني، كيف يمكن التصديق بأن الله تعالى يجمع هذه العظام النخرة، هذا ممّا لا يقبل التصديق فنزلت الآية المذكورة أعلاه «١».

«بنان»: في اللغة بمعنى الاصابع، وقد ورد أحياناً (بمعنى رؤوس الأصابع)، وهو مأخوذ من مادة (بَنَ) بمعنى الإقامة.

وبناءً على كون الأصابع، أداة لإصلاح أحوال إقامة الإنسان في العالم، اطلق عليها هذا الاسم «٢».

إنّ للأصابع دوراً مهماً جداً في حياة الإنسان، وتعد من عجائب الخلق، وإن غفلنا عن أسرارها. لأنها تحت تصرفنا دائماً، ولو قطعت أصابع يد أحد ما، فإنه سوف لا يستطيع أن ينجز عملاً دقيقاً بأى شكل من الأشكال، وستستحيل عليه الكتابة، وتصفح أوراق الكتاب، وتناول الطعام بسهولة، والاتصال بالهاتف، وفتح الأبواب بالمفاتيح وأنواع الصناعات الدقيقة وتستحيل عليه بقية الصناعات الأخرى كأنواع الأعمال المتعلقة بالسيارات، وحتى أخذ الأشياء الثقيلة باليد أيضاً، بل ويمكن لنقص أحد الأصابع أن يوجه

(١) التفسير الكبير، ج ٣، ص ٢١٧؛ وتفسير القرطبي، ج ١٠، ص ٦٨٨٥.

(٢) المفردات للراغب؛ ومجمع البحرين؛ ومعجم مقاييس اللغة، مادة (بن).

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٤١

ضربة عنيفة لكثير من الأعمال اليومية التي يقوم بها الإنسان. ولهذا السبب تنجز الحيوانات ذوات الأربع كثيراً من أعمالها بفمها أو رأسها.

وبعبارة أخرى يمكن القول: إنّ وجود الأصابع لدى الإنسان يعتبر من العوامل المهمّة للتقدم الحضاري له، والتعبير ب «البنان» المأخوذ من مادة الإقامة والدوام، إشارة لطيفة إلى هذه الحقيقة نفسها، وذلك لصعوبة وجوده في العالم بدونها.

يقول الله تعالى في الآية الآنفه الذكر: إنّ بإمكاننا أن نعيد العظام الصغيرة الدقيقة في يوم القيامة أيضاً فضلاً عن العظام الكبيرة.

واحتمل جماعة من المفسرين أيضاً أنّ المقصود من تسوية البنان هو وصلها مع بعضها وإخراجها بصورة حافر حيوان من ذوات الأربع وليس لهذا التفسير تناسب مع آيات السورة.

من الأمور التي يمكن استنتاجها من هذه الآية هو هذا الاكتشاف المهم، فقد أصبح من الثابت أنّ معرفة هوية أحد ما يتمّ بوسيلة رؤوس أصابعه. وهي أوثق وأدق من كل امضاء ولا يستطيع أحد تزويره، في حين أنّ التزوير قادر على التسرب إلى أعقد التواقيع، ولهذا السبب أصبحت مسألة «أخذ البصمات» من الحقائق العلمية في عصرنا الحاضر واستحدثت لأجلها دائرة خاصة في المراكز الأمنية، من خلالها يكشف النقب عن كثير من المجرمين، فيكفي أن يضع أحد السراق يده على مقبض الباب، أو زجاج الغرفة، أو على القفل والصدوق والكرسي عند دخوله لأحد الغرف أو المنازل فيبقى أثرها على تلك الأشياء، أو يتمّ العثور على سلاح في قضية قتل، عليه بصمات أحد الأشخاص، وهذا يكفي لأخذ نماذج فورية لها فتمّ مطابقتها على بصمات الأشخاص المشكوك بهم في تلك الحادثة، - إضافة لما لديهم من معلومات عن المجرمين والسراق- ومن ثمّ يلقون القبض على الجاني.

إذن يكون مفهوم الآية بناءً على هذا التفسير: إننا لسنا قادرين على أن نجمع العظام الكبيرة والصغيرة فحسب، بل إن في مقدورنا أيضاً أن نعيد الأصابع وبصماتها بجميع

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٤٢

مزايها، التي هي من أدق ما في البدن من خصوصيات إلى حالتها الأولى وبعبارة أخرى أن مفهوم تسوية البنان (ومعناها التنظيم والترتيب)، شامل لجميع الخصوصيات والجزئيات، من جملتها بصمات الأصابع. ومن الجدير بالذكر هو ما نجده من توافق بين هذا المعنى وبين مسألة القيامة، المحكمة الكبرى للعدل الإلهي، التي يجب التحقيق فيها مع المجرمين والمذنبين، ذلك أن هذه المسألة يستفاد منها أيضاً في محاكم الدنيا، قبل أي مكان آخر.

١٦- القرآن يكشف الستار عن عظمة خلق السماوات

نقرأ في قوله تعالى «لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ». (المؤمن / ٥٧) صحيح أن أغلب المفسرين اعتبر هذه الآية رداً على جدال المشركين في (المعاد) «١»، أي إنكم تشكون في بعث الإنسان من جديد، في حين أن خلق الإنسان ليس بأعظم من خلق السماوات، بل إن خلق السماوات والأرض أهم من ذلك وأعظم، بيد أن جملة «ولكن أكثر الناس لا يعلمون»، هي إشارة إلى حقيقة أن عظمة السماوات كانت مجهولة لدى معظم الناس سابقاً. وبالرغم مما اكتشفه العلم الحديث من اسرار عظيمة ومهمة جداً عن وجود البشر لم يكن واحد من الألف منه معروفاً في العصور السابقة، إلا أن الاكتشافات التي تحققت في مجال عظمة السماوات، تدل على أن خلقها والأرض يفوق بمراتب خلق البشرية بكل ما تنطوي عليه من عجائب.

إن آخر ما توصل إليه العلماء بصدد السماوات وبالأخص المجرات يقول: إنه قد اكتشف إلى اليوم أكثر من مليار مجرة بواسطة المراصد الفلكية الكبيرة، ومنظومتنا الشمسية ما هي

(١) تفاسير مجمع البيان؛ الصافي؛ الكبير؛ الكشاف؛ روح المعاني؛ وروح البيان.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٤٣

إلا جزء ضئيل من إحدى المجرات التي تسمى ب «درب التبانة»، ففي مجرتنا فقط أكثر من مائة مليار كوكب والشمس بعظمتها هي إحدى النجوم المتوسطة في هذا الجيش الجرار للنجوم.

الفضاء واسع جداً بحيث إن سبر اغواره ليس يستحيل بالمركبات الفضائية البشرية فحسب، بل إننا لو ركبنا ذرات الضوء - التي تسير بسرعة فائقة تصل إلى ثلاثمائة الف كيلو متر في الثانية الواحدة - لاستغرقت رحلتنا هذه مليارات السنين الضوئية أيضاً حتى يمكننا أن نقطع المساحة المكتشفة في هذا العالم.

وكلما كان حجم المراصد الفلكية أكبر وأدق، كلما كشفت لنا الحجب عن عوالم جديدة أخرى بالرغم من هذه الاكتشافات فإننا لحد الآن لم نتوصل إلى ما وراء ما عرفناه وشاهدناه، وإن ما اكتشف بأكثر المراصد هو زاوية صغيرة وتافهة من هذا العالم العريض.

وحسب قول أحد العلماء: فإن كل هذا العالم الواسع الذي نشاهده ليس إلا ذرة صغيرة، وجزء لا حدود له من عالم أكثر عظمة «١». ومن هنا نقف على عمق الآية الآنفه الذكر التي تقول: «لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ». ونتساءل ألا يعدُّ بيان مثل هذه الامور من قبل فرد امي في عصر نزول القرآن وفي بقعة من أكثر بقاع العالم تأخرًا، معجزة؟ وبهذا النحو نصل إلى نهاية بحث الاعجاز العلمي للقرآن، وإن كانت لا تزال هناك ملاحظات كثيرة لم نتطرق إليها.

ونعتقد أنّ البحث في النماذج الستة عشر السابقة أثبت بشكل منصف ولكل إنسان واع حقيقة استحالة أن يكون هذا الكتاب العظيم أى (القرآن) من صنع عقل البشر.

(١) مجلة الفضاء، العدد ٥٦، سنة ١٩٧١.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٤٥

٤- الإعجاز التاريخي للقرآن

دور التاريخ في المسائل التربوية:

مما لا يقبل الشك أنّ القرآن ليس كتاباً تاريخياً، لكنه ولأسباب مختلفة فإنه يضم بحوثاً تاريخية متنوعة، وذلك لأن المسائل التربوية وبالأخص الاجتماعية لا يمكنها أن تنفصل عن المباحث المرتبطة ب (تاريخ القدماء) لأنّ التاريخ من أكبر معلمى الحياة وهو معيار جيد لتحديد وتبيين مزايا وخصائص المبادئ الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وفصل الحقائق عن الأوهام والمثاليات عمّا يناقضها. إنّ عظمة التاريخ تكمن في اظهاره المسائل الفكرية والعقلانية في قالب محسوس تؤدي خدمته كبيرة لفهم المسائل الإنسانية بصورة صحيحة، فمن جملة المسائل التي تُستنبط من التاريخ هي: إلى أين تؤول عاقبة الظلم والجور والاستبداد، وماهى نتيجة الاختلاف والتشردم، وما هى خاتمة التعصب والعناد والانانية، وعدم الاعتناء بالحقائق الواقعية؟

ولهذا السبب يمكن القول: إنّ التاريخ هو معين الحياة الذى يمد الإنسان بالعمر والبقاء، فمن خلال مطالعة تاريخ القدماء نحصل على صفحات مركزه هى عصارة آلاف السنين من التجارب الإنسانية توضع بين يدي جيل الحاضر والمستقبل.

وأشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة المهمة بجملة مختصرة إذ يقول:

«لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ». (يوسف / ١١١)

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٤٦

والجدير بالذكر هنا أنّ القرآن بين هذا المفهوم بعد قصة النبی يوسف عليه السلام المليئة بالحوادث والعبر التي يستفاد منها في الأبعاد المختلفة للمسائل التربوية.

وفي موضع آخر يعتبر القرآن قصص وتاريخ القدماء وسيلة لإيقاظ الأفكار والعقول فيقول: «فَأَقْصِيصِ الْقَصَصِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ». (الأعراف / ١٧٦)

وفي آيات اخرى يُعد تاريخ الأنبياء الاوائل وسيلة ناجحة ل (تثبيت قلب) نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وتقوية إرادته ولتوعية المؤمنين وايقاظهم، فيقول عز من قائل: «وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ». (هود / ١٢٠)

ويقول الله سبحانه وتعالى في صدد التعريف بقصة نوح عليه السلام: «وَلَقَدْ تَرَكْنَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ». (القمر / ١٥)

ويذكر الآثار المتبقية للقدماء بتعبير حى جميل، فيقول: «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَاِنَّهَا لَاتَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ». (الحج / ٤٦)

وعلى هذا، فالأحداث التاريخية المفصلة والآثار التاريخية الغابرة للقدماء تساهم في إنارة البصائر وتفتح آفاق جديدة رحبة.

ومن خلال هذه الإشارة إلى فلسفة تاريخ القدماء نعود إلى القرآن مرة ثانية لنلقى نظرة على الإعجاز التاريخي للقرآن.

الخطوط العريضة للتاريخ في القرآن:

إشارة

سبق القول إلى أن مقطعاً مهماً من المباحث التربوية والمواعظ والنصائح والبشائر والنذر والعهود والآمال القرآنية تبينت بصفتها مسائل تاريخية شيقة ومعبرة ومؤثرة تجذب السامع تلقائياً نحو الأهداف العليا، ولانستطيع الوقوف على عظمه البحوث التاريخية

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٤٧

المعجزة في القرآن ما لم نطالع بدقه سورة يوسف، والأنبياء، وطه، والقصص، ومريم، وآل عمران، وأمثالها. و تنطوي البحوث التاريخية على الخصوصيات الأساسية التالية:

١- الاستناد إلى المقاطع الحساسة وإلقاء نظرة فاحصة ونافذة على المسائل التربوية المهمة.

٢- خلؤها من أى شكل من أشكال الحشو والإضافات.

٣- خلؤها من حالات التضاد والتناقض وعدم السنخية والانسجام.

٤- خلافاً لأسلوب كتابه التاريخ المتعارف في ذلك الزمان (وحتى في القرون التي تلتها)، حيث طرح التاريخ فيها كمادة مسلية، ووسيلة للإطلاع على اوضاع الماضين، فلم يشتمل على أية نظرة فاحصة محللة تشكل فلسفة التاريخ والدروس والعبر المستلهمة من حياة القدماء.

بينما اهتم القرآن المجيد في تواريخه بأصول المسائل وبظواهرها أيضاً بشكل يُنمى روح حب الإطلاع في نفس القارىء والمتلقى ويحفز ذهنهما على التفكير الدقيق في الحوادث.

ومن الجدير بالذكر: إنه لم يرد ذكر للحوادث التافهة التي لا هدف لها سوى اطالة الكلام وإتلاف الوقت في أى واحدة من آياته.

٥- أولى القرآن اهتماماً بالغاً وبشكل دقيق بمسألة فصل الحقائق التاريخية عن الأساطير، وهي من المسائل المعقدة أحياناً، لأن هناك عوامل مزجت التاريخ بالأساطير الكاذبة دائماً: من جملتها، الترفيه وإرضاء العواطف الطفولية، إدارة الخيال وإيجاد الروابط المفتعلة، بحيث يمكن القول: إن الأساطير والخرافات تستأثر بمقطع مهم من تواريخ القدماء وتشكل أحد أركانها الأساسية.

فبناءً على ذلك لو فرضنا أنفسنا في زمن نزول القرآن وأجواء حياة نبي الإسلام صلى الله عليه وآله لشاهدنا مدى امتزاج تواريخ ذلك الزمان بخرافات تُتناقل على الألسنة وتعد في قائمه

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٤٨

المسلمات بحيث لا يستطيع المتعلمون الفصل بينهما، فضلاً عن أحد الاميين.

وقد كان علماء ذلك العصر من الربانيين و (أخبار) اليهود والنصارى ومشركي العرب يدافعون عن هذه الأساطير والخرافات، ومن الطبيعي أن من يعيش في مثل تلك البيئه ويصل سنه إلى الأربعين تنسج أفكاره بهذه الأساطير والخرافات ويستحيل الفصل بينها عادة، ترى هل يستطيع أحد أن يُنقى التاريخ في تلك البيئه المظلمة ويفصل الحقائق عن الأوهام والخرافات؟ إن أحداً من المحققين، والمطلعين على التاريخ في يومنا هذا لا يتمكن من القيام بمثل هذا العمل إلا بشق الأنفس، فكيف يمكن توقع ذلك من شخص امي لا يعرف القراءة في ذلك العصر؟

والآن نتوقف عند بعض الأمثلة في القرآن وبشيء من المقارنه يتضح ماقلناه سابقاً:

١- كيفية خلق «آدم» كما ورد في القرآن وفي العهدين

يَبَيِّنُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ (خَلْقَهُ) الْإِنْسَانَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي الْآيَاتِ (٣٠ إِلَى ٣٧) بِالشَّكْلِ التَّالِي:

«وَأَدَّ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ* وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ* قَالُوا سُبْحَانَكَ لَمَّا عَلَّمْنَا لَئِنَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ* قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ* وَأَذَقْنَا لِلْمَلَائِكَةِ إِسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ* وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجْرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ* فَازْلَمَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ* فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ». (البقرة / ٣٠-٣٧)

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٤٩

وقد أشير إلى هذا المعنى أيضاً في سور قرآنية أخرى كالأعراف وطه.

ويستفاد من الآية (١٢) من سورة طه بشكل واضح، أن الشيطان خدع آدم من خلال قوله له: إن هذه الشجرة، شجرة الحياة الأبدية، في حين أن آدم تلقى إنذاراً مسبقاً يقضي بأن الشيطان عدو لك فلا تغتر بأقواله.

وكذلك يستفاد من الآية (٢٦ و ٢٧) من سورة الأعراف و (١٢١) من سورة طه هذا المعنى أيضاً هو أن آدم وزوجته كانا يرتديان الأثواب في الجنة لكن عندما تناولا من تلك الشجرة المحرمة عليهم، خلعت عنهما أثواب الجنة.

وصنعوا لأنفسهما لباساً من اوراق اشجار الجنة، واستناداً إلى الآيات السابقة نستنتج مايلي:

أولاً: من المميزات الأساسية لشخصية آدم عليه السلام هي نيته مقام الخلافة الإلهية وسجود الملائكة له، وهي نفس حاله اطلاعه على «علم الأسماء» وعلمه بالحقائق والأسرار الكونية.

ثانياً: السبب وراء خروج آدم من الجنة، هو تناوله من تلك الشجرة التي حُظرت عليه من قبل وإن كان القرآن لم يذكر اسماً لهذه الشجرة، لكن ظاهر الأمر أنها كانت تحمل فاكهة طيبة ولذيذة والغاية من الأمر بتركها هو اختبار آدم عليه السلام وامتحانه من أجل غربلة إيمانه وصقل إرادته في مقابل الوسوس النفسانية والشيطانية.

ويتضح من عبارة «فأزلهما الشيطان» معنى أن التناول من تلك الشجرة المحظورة لا يعدو أن يكون مخاضاً من المخاضات وليس هو من نوع ارتكاب الذنب والطغيان أمام قدرة الله وانتهاك حرمة العبودية.

والآن نرجع على التوراة لنرى كيف امتزجت هذه الحادثة التاريخية بأنواع الخرافات والمسائل غير المنطقية والصيبانية؟

جاء في الفصل الثاني من (سفر التكوين ٧-٢٥) مايلي:

* ثم صور الله تعالى آدم من صعيد الأرض ونفخ في انفه نسمة الحياة، فأخذ روح آدم ينبض بالحياة.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٥٠

نفحات القرآن ج ٨ ١٩٩

* وغرس الله تعالى بستاناً في الجانب الشرقي من عدن، وأنزل الإنسان الذي صوره هناك.

* وأنبت الله تعالى كل شجرة بديعة ولذيذة المطعم، وانبت شجرة الحياة وسط البستان وشجرة المعرفة (بالحسن والقبح)...* وأخذ الله تعالى آدم وأنزله في بستان عدن ليرعاه ويحرسه.* وأمر الله تعالى آدم وقال انك مخير بأن تأكل من كل اشجار البستان.* ولكن لا تأكل من شجرة المعرفة، لأنك ستستحق الموت حين تناولك منها...* وكان آدم وزوجته كلاهما عاريين ولا يستحيان.

ووردت تمة هذه الواقعة في الفصل الثالث من (سفر التكوين) نفسه على النحو التالي:

١- خلق الله الأفعى (الشيطان) أمكر من كل ذي روح يدب على وجه الصحراء، فقالت للمرأة: هل قال الله حقاً لا تأكلا من جميع

أشجار البستان.

٢- وقالت المرأة للافعى بأننا نأكل من فاكهه أشجار البستان.

٣- إالأن الله تعالى أمرنا بأن لا نأكل من ثمار الشجرة التى فى وسط البستان ولا نلمسها حتى لا نموت.

٤- وقالت الأفعى للمرأة وبالطبع لا تموتان.

٥- الحقيقة أن الله يعلم أنكما يوم تأكلان منها تنور بصيرتكما، وتصبحان كالآلهة (الملائكة) الذين يعلمون الحسن والقبح.

٦- فرأت المرأة أن من الصلاح أن تأكل من الشجرة التى تبدو رائعة المنظر، جذابه لمن يعشق المعرفة فوظفت من ثمارها واكلت واعطت لزوجها أيضاً فأكل.

٧- حينئذ تنورت بصيرتهما، وعلما أنهما عاريان فحكما من أوراق شجرة التين إزاراً لهما.

٨- وسمعا صوت الله تعالى حينما كان يتبختر صباحاً فى البستان، فاختنفى آدم وزوجته بعيداً عن حضرة الله بين الأشجار.

٩- ونادى الله آدم وقال له اين أنت؟

١٠- فأجابه إننى سمعت نداءك فى البستان وأصابنى الهلع، لأننى عارٍ من اللباس ولهذا اختفيت.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٥١

١١- فقال الله من قال لك إنك عارٍ؟ هل تناولت من الشجرة التى أمرتك أن لا تأكل منها؟

١٢- وقال آدم: إن المرأة التى منحتها لى لتكون معى هى التى أعطتنى من تلك الشجرة فأكلت.

١٣- وقال الله تعالى للمرأة ما هذا الذى فعلت؟ قالت المرأة لقد أغوتنى الأفعى فأكلت.

١٤- وقال الله تعالى للأفعى: لأنك فعلت ذلك فأنت ملعونه من بين كل البهائم، والحيوانات الصحراوية ستمشين على بطنك وستأكلين التراب طيلة أيام حياتك ...

٢٢- وقال الله تعالى نظراً لأن آدم أصبح واحداً منا لعلمه بالحسن والقبح، فلا ينبغى أن يمد يده إلى شجرة الحياة أيضاً فبأكل منها ويعيش عيشاً أبدياً.

٢٣- إذن لهذا السبب ابعد الله تعالى من بستان عدن، ليشغل بزراعة الأرض التى نشأ منها.

٢٤- وأبعد آدم واسكن الكرويين (الملائكة) فى الجانب الشرقى من «بستان عدن» وكانوا يطوفون حول شجرة الحياة بالسيف البتار ليحرسونها.

وخلاصة ما جاء فى التوراة بصدد تاريخ خلق آدم وخروجه من الجنة على النحو التالى:

خلق الله آدم، وأسكنه بستاناً فى الجانب الشرقى من عدن، ليرعاه، وختم هذا البستان بين أشجاره شجرتين.

إحدهما: (شجرة العلم، بالحسن والقبح) وهى شجرة يحصل من يأكل من ثمارها على العقل والذكاء، ولأن آدم لم يكن قد تناول منها شيئاً، فلم يدرك معنى الحسن والقبح. ولهذا السبب لم يستح من غريه هو وزوجته قط، والاخرى كانت (شجرة الحياة) ومن أكل منها حظى بالعمر الخالد.

وأمر الله تعالى آدم أن لا يتناول شيئاً من شجرة العلم، المعرفة والحسن والقبح على الاطلاق وإلا فسيموت، وسرعان ما ألقى الشيطان وسواسه فى روع زوجته آدم (حواء) وقال لها: لم لا تأكلين من (شجرة العلم، والمعرفة) لأنك لو أكلت لأثيرت بصيرتك ولاطلعت على الحسن والقبح كالملائكة، وكان منظر تلك الشجرة جذاباً جميلاً، ومن ثم

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٥٢

أكلت منها حواء واعطت منها لآدم أيضاً فتفتحت عيناهما، واطلعا على الحسن والقبح، وأدركا قبح العرى فصنعا من الورق العريض لشجرة التين ستراً لهما وربطوه حولهما، حينما كان الله تعالى يتمشى فى الجنة عمد آدم إلى اخفاء نفسه بين أشجارها، فلم يشاهده

اللَّهُ تعالى وناداه أين أنت؟ فأجاب الله تعالى إني هنا بين الأشجار وقد أخفيت نفسي لأنني عارٍ فسأله الله تعالى من أين علمت أنك عارٍ؟ لعلك تناولت شيئاً من شجرة الحسن والقبح (شجرة العلم والمعرفة)، فالقى التبعه على عاتق زوجته، لما عوتبت حواء ألقى التبعه على عاتق الأفعى (الشیطان)، هنا عاقب الله الأفعى بأنّ تزحف على بطنها، وتأكل من تراب الأرض طيلة حياتها. من ناحية أخرى بعد أن تناول آدم من (شجرة العلم والمعرفة) وأصبح كأحد الآلهة، احتسب الله تعالى من أن يتناول من (شجرة الحياة) أيضاً ويحظى بالعمر الخالد. ولذلك اصدر الله تعالى أمراً بإخراجه من الجنة وأمر الملائكة أن يحرسوا شجرة الحياة بالسيف البتار لئلا يقترب منها آدم.

ولا يخفى علينا أنّ هذا هو التوراة نفسه الذي يعد اليوم (الكتاب المقدس) لجميع يهود ومسيحي العالم، ويؤمن جميعهم بمحتواه ويعتقدون أنّ الكتاب عينه الذي كان في أيدي اليهود والنصارى في عصر نزول القرآن. وبطبيعة الحال فإننا لا نعتقد بوجود مثل هذا النوع من الخرافات الصبانية المبتذلة في الكتاب السماوي لموسى عليه السلام، أو أنّ الأنبياء بعده دافعوا عنه، ولكن على أي حال احتوت هذه الاسطورة الغريبة على أمور جارحة في حق الله تعالى بحيث إنّ كل واحدة منها أشنع من الأخرى ومن جملتها:

- ١- نسبة الكذب إلى الله تعالى استناداً إلى ما نقلوه من قوله أنّكما لو تناولتما شيئاً من شجرة (العلم والمعرفة) فستمتوتان.
- ٢- نسبة البخل إليه جل وعلا بما نقلوه من أنّه لم يوافق على أن يأكل آدم وحواء من شجرة العلم والمعرفة، فيحظيا بالعقل والإدراك وكان يريد لهما البقاء على جهلتهما وعدم معرفتهما.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٥٣

- ٣- إنّ الله تعالى لم يمنحهما العقل والعلم الكافيين ليدركا قبح كونهما عاريين، بل وكان تعالى كثيراً ما يرتضى لهما هذه الحالة.
 - ٤- القول بأنّ له جسماً وأنّه يتمشى على قدميه في البستان، وفي الوقت نفسه يغفل ولا يعلم بما يدور حوله، بحيث يمكن لآدم وحواء أن يتواريا عن نظره وكل واحد من تلك الأمور يعد كفراً، ولا ينسجم مع مقام الألوهية اطلاقاً.
 - ٥- إنّ الشيطان (نعوذ بالله) أشد حرصاً من الله تعالى على آدم وحواء لأنّه أرشدهما إلى معرفة الحسن والقبح، وهو لم يكف عن اضلاله فحسب بل دعاهما إلى طريق التكامل، بينما الحقيقة هي أنّنا ندين الشيطان في علومنا ومعارفنا.
 - ٦- إنّ الجنة منزل الجهال والأغبياء لأنّ الله أخرج آدم وحواء من الجنة بجريرة حصولهما على العلم.
 - ٧- إنّ الشيطان إنّما لعن وطرده من ساحة الرحمة الإلهية، لأنّه كان يطلب الخير لآدم، فعوقب من دون أن يرتكب ذنباً معيناً.
- وكذلك فيما يخص الخرافات الأخرى كالعلم والمعرفة والحياة، وثمار أشجار البستان، أو أنّ غداء الأفعى هو التراب دائماً، وأمثال ذلك.

والآن يمكننا اجراء مقارنة بسيطة بين ما بينه القرآن في صدد تاريخ نشوء آدم وصراعه مع الشيطان، وبين ما قرأناه في العبارات السابقة، لنعلم أيهما هو الكتاب السماوي وأيها نتاج عقل إنسان جاهل؟

٢- لقاء إبراهيم عليه السلام بالملائكة

يبين القرآن الكريم قصة مجيء الملائكة إلى إبراهيم في حاله مسيرتهم إلى قوم (لوط) لإنزال العقاب بحقهم في قوله تعالى، على النحو التالي:

«وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامًا قَالُوا فَكَيْفَ نَسَلُكُمْ قَالَ إِن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَاتِيلاً إِلَيْهِ نَكَرَهُمْ وَأَوَّجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٥٤

إِلَى قَوْمِ لُوطٍ * وَأَمْرُهُ فَائِزَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِاسْحَاقَ وَمِنْ وَّرَاءِ اسْحَاقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ * فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ * يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ». (هود / ٦٩-٧٦)

في هذا المقطع التاريخي لا نواجه شيئاً غريباً ومعقداً وغير متعارف أو غير منطقي مطلقاً، فالقصة واضحة المعالم بكل تفاصيلها: حيث أمر الله الملائكة بمعاينة قوم لوط عليه السلام، وقبل ذلك جاءوا إلى إبراهيم عليه السلام يبشرونه بأنه سيرزق ولداً، فقرر أن يطعمهم، وسرعان ما اطلع على حقيقة الأمر وأراد أن يشفع لقوم لوط عليه السلام ليدفع العذاب عنهم، غير أن الأمر قد انتهى فقوم لوط لا يستحقون الشفاعة، ثم يبشرونه وزوجته بولادة ابن لهما، وتنتهي فصول هذه القصة.

ولكن لنرى ماذا نسج الكتاب المقدس - (كما يسمونه)، وهو مورد قبول اليهود والنصارى من أساطير في هذا المجال وما الذي طرحه من مسائل غير منطقيّة؟

نقرأ في الفصل الثامن عشر من سفر التكوين ما يلي:

«وظهر الله تعالى في معبر يسمى «بلوستان» بينما كان (إبراهيم) جالساً على باب الخيمة في يوم قانظ، وما أن فتح عينيه حتى رأى ثلاثة أشخاص واقفين أمامه. وحينما رآه أخذ يعدو من الخيمة لاستقباله وانحنى إلى الأرض وقال: سيدي الآن وقد حزت على التفاتة منك أرجوك ألا ترحل قبل أن آتيك بقليل من الماء لأغسل رجلك، وتستريح تحت هذه الشجرة وسأجلب بعض الخبز لتقوى به قلبك، وبعد ذلك أرحل لأنهم سيقولون لقد عمل كما أمره عندما عبر بالقرب مني.

ثم هرع إبراهيم إلى (ساره) في الخيمة، وقال: عجلني في ثلاثة مكابيل من الحنطة أعجنيها واخبزيها أقرصاً بالتنور، ثم اسرع إبراهيم إلى قطع الأبقار وأخذ عجلاً ذكراً يافعاً واعطاه لشاب فأعده وحضره بسرعه ثم حمل الزبد والحليب مع العجل الذي أحضره ووضع أمامه ووقف بالقرب منه تحت تلك الشجرة ليتناول طعامه!

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٥٥

ثم قال له: أين امرأتك ساره؟ فقال: ها هي في الخيمة، وقال آخر: سأعيد لك عمرك وهذه امرأتك ساره سيكون لها ولد، وكانت ساره عند باب الخيمة وراعه تسمع ذلك وهي وإبراهيم كانا عجوزين طاعنين في السن، وانقطعت عن ساره عادة النساء ضحكت ساره من دون قصد، وقالت: بعد أن هرمت أنا وزوجي هل يمكن أن أكون مسرورة؟!!

ثم قال الله تعالى لإبراهيم: لماذا ضحكت ساره؟ قالت: هل سألد حقاً بعدما أصبحت عجوزاً، وهل يصعب على الله أمر ما، والحال سأعيد لك عمرك في الوقت الموعود، وسيكون لساره ولد، وانكرت ساره وقالت: لم أضحك، لأنها ذعرت، فقال: ليس كذلك بل ضحكت حقاً!

ونفض هذا الشخص من هناك واتجه إلى سدوم وشايعة إبراهيم لسلوك الطريق.

وقال الله: لا أخفى على إبراهيم الأمر الذي أفعله، لأن إبراهيم سيكون حقاً قوماً عظيماً وكبيراً وتترك به كافه طوائف الأرض ...

وقال الله تعالى حيث إن صيحة (سدوم) و (عموراه) وعالية ذنوبهم عظيمة فسأهبط لأرى هل قاموا بهذه الصيحة كما أخبرت، وإذا لم يكن كذلك فسأطع على الأمر، وتوجه هؤلاء الأشخاص من هناك وتحركوا باتجاه (سدوم) والحال أن إبراهيم لازال واقفاً أمام الله، ثم أخذ إبراهيم يتقرب وقال: هل ستقوم باهلاك الصالح مع الطالح حقاً؟ من الممكن أن يوجد ٥٠ فرداً صالحاً، في أعماق المدينة، هل يمكن أن تهلك المكان ولا تنقذه بسبب ما يوجد في الأعماق من ٥٠ فرد صالح، حاشا لك أن تقوم بهذا العمل وتهلك الصالحين مع الطالحين فيكون الصالح مساوياً للطالح، حاشا لك، هل يمكن لمن يحكم الأرض بأجمعها أن لا يكون عادلاً؟

ثم قال الله تعالى إذا وجدت ٥٠ فرداً صالحاً في وسط مدينة سدوم فسأخلص كافة أهل ذلك المكان بسببهم، وقال إبراهيم في الجواب: الآن وقد شرعت في الكلام من التراب والرماد، أطلب من سيدي، لو انقصنا خمسة أفراد من مجموع ٥٠ فرد صالح .. هل يمكن أن تهلك كل أهل المدينة بسبب أولئك الخمسة أفراد؟ فقال الله: لو وجدت ٤٥ فرداً لما أهلكتها.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٥٦

وتحدث معه مرة أخرى قال لو وجد فيها ٤٠ شخصاً، فقال هو: لا أقوم بهذا الأمر بسبب ٤٠ شخصاً، وقال: إبراهيم أرجو أن لا يغضب سيدي حتى أتكلم بل وجد فيها ٣٠ شخصاً، قال: لو وجدت فيها ٣٠ شخصاً لما فعلت ذلك.

وقال اخرى والآن وقد منح لى أن أتكلم مع سيدي، بل وجد هناك ٢٠ شخصاً، قال هو لا أهلكها بسبب ٢٠ شخص، وقال تارة اخرى أرجو أن لا يغضب سيدي حتى أتكلم مرة اخرى بل وجد هناك ١٠ أشخاص، فقال هو سوف لا أهلكهم بسبب ١٠ أشخاص وعندما قضى الله الكلام مع إبراهيم بدأ المسير وعاد إبراهيم إلى مكانه» (١).

استناداً إلى هذه المخطوطة في التوراة إطلع الله تعالى وثلاثة من الملائكة على إبراهيم في معبر يدعى «بلوطستان» في أحد الأيام الحارة، ويقوم إبراهيم باستقبال الملائكة الثلاثة استقبالاً حاراً، وهم بدورهم يتناولون من طعامه (وفهم البعض من هذه العبارة أن الله تعالى أكل من طعامه!! وأن هؤلاء نفر الثلاثة كانوا من المظاهر الثلاثية لله وفقاً لعقيدة التثليث) وعلى كل حال حمل الله البشارة إلى «ساره» بأنها سترزق ولداً، إلا أن ساره ضحكت وعاتب الله ساره بالقول لماذا ضحكت فأنكرت ذلك بأنها لم تضحك إلا أن الله أكد عليها بأنك ضحكت.

ثم إن هؤلاء عزموا على الرحيل وأخذ إبراهيم يشايعهم، وفي منتصف الطريق يحدث الله نفسه بأنه لماذا لا يخبر إبراهيم بالقرار الذي يريد أن يتخذه في حق قوم لوط، لذلك قال له: سمعت ضججه كبيرة من بلاد قوم لوط وقد نقل عنهم ارتكابهم لمعاصي كثيرة، فهبطت من السماء لاحقق النظر فيما أخبرت به هل كان صحيحاً أم لا، وإذا كان صحيحاً فسأبيدهم عن آخرهم، ثم إن هؤلاء الثلاثة تحركوا تجاه «سدوم» غير أن إبراهيم لم يزل واقفاً أمام الله تعالى وبدأ بالمحاوره والمجادله أو بالاصطلاح (الرد والبدل) فقال: ليس من العدالة بمكان أن تهلك هذه البلاد لو وجد فيها ٥٠ فرداً صالحاً، فطمأنه الله تعالى على أنه لو وجد فيها ذلك لما أهلكهم، ثم يبدأ إبراهيم بالعد التنازلي بشيء من الحيطه والحذر، وفي كل مرة

(١) التوراة، سفر التكوين، الفصل ١٨.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٥٧

يشرح في حديثه يطلب العفو والمسامحه لثلا يغضب الله تعالى حتى أنه قال مرتين بصراحة: (أرجو أن لا يسبب ذلك في ازعاجك وغضبك) إلى أن وصل العدد إلى عشرة، ويبدو أن إبراهيم لم يجرأ على التنزل أكثر من ذلك، لذا في هذه الحالة اختار السكوت على مواصلة الحديث، ولما وصلت المحاوره إلى طريق مسدود، انتهى كلام الله مع إبراهيم وتحرك الله تعالى باتجاه (سدوم) وعاد إبراهيم إلى مقره الأصلي، وانطلاقاً من أن المقصود من الله عز وجل في هذه الآيات (أو بالأصح، الجمل) هو نفس باري هذا الكون يمكن أن نستنتج المطالب التاليه.

(أ) نسبة الجسمانية إلى الله تعالى وقد لاحظنا هذا الموضوع في موارد متعددة من هذه العبارات.

(ب) نسبة الجهل إلى الله تعالى وذلك بقوله هبطت إلى الأرض، لاحقق النظر في شأن قوم لوط.

(ج) التعصب والتشدد الإلهي! بحيث يلتمس منه إبراهيم أن لا يغضب، وكان يتوسل بالحيل اللطيفة، من أجل النزول بحالة الغلظة والحدة الإلهية ازاء عباده إلى ادنى مستوى ممكن!

(د) الملائكة يتناولون الطعام!

هـ) (ساره) تلك المرأة المؤمنة العارفة ضحكت على أثر بشارة الله ثم بعد ذلك أنكرت أيضاً.

هذه من نقاط الضعف الواضحة لهذه الاسطورة الكاذبة في التوراة المحرفة التي نسبت إلى الله عز وجل ولكن عندما نطالع أصل الواقعة في القرآن، لا نشاهد أى واحدة من هذه الاشتباهات والنسب الشنيعة، فمن خلال هذه المقارنة تتبين حقائق كثيرة في هذا المضمار.

٣- منشأ اختلاف اللغات

من المسائل المثيرة التي كانت تقع دائماً في قائمة الأولويات الأساسية هي مسألة

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٥٨

اختلاف ألسنة شعوب العالم بالرغم من تولدهم جميعاً من أب واحد وام واحدة، يقول القرآن الكريم في هذا الصدد: «وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ السِّتِّكُمْ وَالْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ». (الروم / ٢٢)

إننا اليوم نعلم أن منشأ اختلاف اللغات في الواقع يكمن في شيئين:

أولاً: وجود قدرة (الابتكار) والاختراع في ذهن البشر فهم يعمدون إلى خلق لغات جديدة وصياغة جمل جديدة في سبيل تأمين حاجاتهم الذاتية.

وثانياً: الفواصل القائمة بين الملل والشعوب، ففي العصور السابقة عندما كانت الأقوام والشعوب تتباعد عن إحداها عن الأخرى كانت تتحقق تغيرات وتحولات في ألفاظهم وعباراتهم القائمة شيئاً فشيئاً، وذلك لعدم وجود وسائل الاعلام وأخذت هذه التغيرات تتضاعف عبر آلاف السنين فبدأت اللغات والألسنة تنفصل إحداها عن الأخرى فكان ذلك سبباً لبداية نشوء الاختلافات في الألسنة واللغات. وانطلاقاً من كون اختلاف اللغات هي أحد دعائم التعرف على الأقوام المختلفة واعتبر ذلك من العوامل المساعدة والمؤثرة في مسألة التعرف على المجتمع البشرى وإذا كان القرآن الكريم يعدّ اختلاف اللغات إلى جانب اختلاف الألوان من آياته وعلائمه فهي إشارة إلى هذه الحكمة نفسها، لأنّ كلّاً من اختلاف الألوان واللغات وسيلة وأداة للتعرف، غاية ما في الأمر أن الأول خارج عن اختيار البشر والثاني له ارتباط واضح بالابتكار والإبداع البشرى.

والآن لننظر إلى ما تقوله (التوراة) المحرفة على صعيد اختلاف اللغات.

فقد ورد في الفصل الحادى عشر من سفر التكوين مايلي:

«وكان اللسان والكلام واحد في جميع أنحاء الأرض - وحدث عندما أخذوا بالرحيل من الجانب الشرقى «إشارة إلى أبناء نوح وقبائلهم» أن وجدوا وادياً في أرض شنعار «الاسم القديم لبابل» وسكنوا فيه - وقال بعضهم للآخر هلموا لنصنع الآجر وذلك بحرق اللبن بالنار، وكان الآجر يستعمل بدلاً عن الحجر، والطين اللازب بدلاً عن الجص - وقالوا

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٥٩

هلموا لبنى لنا بلدة وبرجاً يناطح السماء، ولنختار لنا إسماً لئلا نتفرق على وجه الأرض - ولأن الله تعالى أراد أن يرى ما يصنعه بنو البشر من بلدة وبرج، نزل - وقال: إن هؤلاء القوم مجموعة واحدة وهم على حد سواء في اللسان وشرعوا بالقيام بهذا العمل، ولا شيء يمنعهم عما يريدون - بناءه - تعال لتنزل إلى الأسفل وهناك نقوم بخلط ألسنتهم حتى لا يفهم أحدهم لسان الآخر - ومن هناك عمد الله إلى تفريقهم على وجه الأرض بأكملها، وحال دون اتمام بناء البلدة وصار سبباً لتسميتها ببابل، لأنّ الله خلط كل الأرض فيها، ومن هناك فرقهم على جميع وجه الأرض» «١».

ووفقاً لهذه الرواية الموجودة في التوراة، كانت لغة جميع الناس واحدة على وجه الأرض في البداية إلى أن اجتمع أبناء نوح وقبائلهم

في (شنعار) بابل، وصمموا على عمل مهم، وهو بناء بلدة كبيرة وبرجاً عالياً، ولم يكن هذا العمل مرضياً عند الله تعالى فكان قلقاً من تحركهم وما يؤول ذلك من نتائج لذا قال لبعض الملائكة هيا اهبطوا إلى الأرض لايجاد الاختلاف في السنتم حتى يتفرقوا (فأوجد الاختلاف بينهم حتى افرض هيمنتى الإلهية) ووقع هذا الأمر، ونظرا لعدم فهم أحدهم للغة الآخر انتشروا في البقاع المختلفة، وحال دون اتمام بناء البرج العظيم.

وقد أشير في كتاب (أعلام القرآن) إلى وجه تسمية «بابل» بهذا الاسم بالقول:

(رواة القصة ظنوا أنّ لفظه «بابل» مأخوذة من بلبل وقالوا إنّ الناس اجتمعوا في هذه المدينة بعد طوفان نوح وشيدوا فيها برجاً لتصبح علامة على مركزيتهم وشكلوا فيها المجاميع الرسمية ولكنهم عندما ناموا في الليل واستيقظوا في الصباح اختلفت ألسنتهم واخذ كل منهم يتكلم بلغة جديدة، وعلى أثر عدم حصول التفاهم بينهم افرقوا في أنحاء العالم ونشأ من كل واحد منهم شعب من الشعوب «٢».

هذه الاسطورة تنطبق تماماً مع مانقلناه سابقاً في متن التوراة التي دلت على أنّ

(١) التوراة، سفر التكوين، الفصل ١١، من الجملة ١ إلى ٩.

(٢) اعلام القرآن، ص ٢٣٨.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٦٠

الاختلاف في اللغات تحقق من قبل الله تعالى من أجل مقارعة قدرة المجتمع البابلي.

إلّا أنّ السيد «هاكس» مؤلف كتاب «القاموس المقدس» له كلام آخر لتبرير ما ورد من جمل في التوراة إذ يقول: «كانت الدنيا بأجمعها تمتلك لهجة ولغة واحدة إلى حدود الألفين عام تقريباً... لكن بعد مائة سنة من الطوفان، أي في زمن عصيان الكوشيون «١» في بابل، أوجد الله تعالى بشكل خارق للعادة الاختلاف في لغاتهم، وبسط ولايته على وجه الأرض مع هذه الأقوام المختلفة والألسنة المتنوعة» «٢».

وفي موضع آخر يقول:

«بناء على عدم كون هذه المسألة وهي (بناء البرج العالي) موافقة للإرادة الإلهية أوجد الله تعالى الاختلاف في ألسنتهم بحيث لم يكن بمقدور أحدهم أن يفهم كلام الآخر ولهذا السبب انتشروا في جميع بقاع المعمورة وتحققت على إثر ذلك امنية الله تعالى وتعمرت الأرض» «٣».

هذه التعابير توحى إلى أنّ الغاية الإلهية من ايجاد هذا التبعر في لغة مجتمع بابل، هي العمران والتشييد، والحال أنّ التوراة في العبارة التي نقلناها تقول بصراحة: إنّ الهدف من ذلك لم يكن سوى إضعاف مجتمع بابل وكسر قدرتهم ووحدتهم وشوكتهم، إلّا أننا نعلم على كل حال بأنّ منشأ اختلاف اللغات لم يكن مثل هذا الأمر على الاطلاق، وأنّ العامل الأساسي لهذا الأمر هو مرور الزمان وتباعد الأقوام فيما بينهم، ولازال الحديث في المطلب متواصلاً أيضاً.

٤ - عباده العجل من قبل بنى اسرائيل

وردت الإشارة إلى قصة عجل السامري في القرآن الكريم فبعدهما جاء موسى عليه السلام إلى

(١) «كوشيان»، هو اسم والد نمرود.

(٢) القاموس المقدس، مادة (اللغة).

(٣) المصدر السابق، مادة (بابل).

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٦١

ملتقى الوعد الإلهي (جبل الطور) ليتسلم آيات الوحي وجه الله تعالى إليه الخطاب بالقول:

«قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ* فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي* قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمُلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ* فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَاللهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَهُ* أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا* وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلِ يَأْقُومِ أَنَّمَا فَتِنتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي* قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا* أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي* قَالَ يَبْتُؤُمْ لَأَتَّخِذَ بِلِحْيَتِي وَلِمَا بَرَأَسِي أَنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي* قَالَ فَمَا حَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ* قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي».

(طه / ٨٥ - ٩٦)

يستفاد من مجموع هذه الآيات أن بني اسرائيل في غياب موسى قد غرر بهم «السامري» ذلك الرجل المنحرف والذي يقال إن له خبرة في صياغة الذهب، فصنع لهم من حليهم وزينتهم عجلاً من ذهب وانبرى هارون إلى منازلهم. إلى أن يقول القرآن في مقام اعتذار هارون من موسى «إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي». (الأعراف / ١٥٠)

وأخيراً انزعج موسى عليه السلام كثيراً من هذه القضية، وألقى باللائمة على أخيه، وعاتب السامري، وأحرق صنمه بالنار، وذر رماده في البحر، ووجه عقاباً صارماً إلى بني اسرائيل، والآن لتلقى نظرة على ما تقوله التوراة في هذا المجال:

جاء في الفصل الثاني من سفر الخروج في التوراة ما يلي:

«ولما رأى القوم أن موسى عليه السلام يترث في هبوطه من الجبل، اجتمع أولئك القوم عند

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٦٢

هارون؛ وقالوا له: انهض واصنع لنا آلهة تسير أمامنا، لأننا لا نعلم ما حلّ بذلك الرجل الذي أخرجنا من ملك مصر - وقال لهم هارون أخرجوا الاقراط الذهبية من آذان نسائكم وصبيانكم! وبناتكم واجلبوها عندي - فاخرج جميع القوم الاقراط الذهبية التي كانت في آذانهم وجاءوا بها إلى هارون، فأخذها من أيديهم، فصورها بشكل بارز، وصبت على شكل عجل وقالوا: يا اسرائيل هذه هي آلهتك التي أخرجتك من أرض مصر.

وعندما رأى هارون ذلك أقام مذبحه مقابل ذلك، ونادى هارون وقال غداً سيكون عيداً نعقده لهذا الإله - وقاموا في وقت السحر وقربوا القرابين المحترقة وقذفوا الهدايا بالقرب منها للحفاظ والسلامة وجلسوا للأكل والشرب وقاموا من فورهم للعب - وقال الله تعالى لموسى عليه السلام انزل إلى قومك، لأن القوم الذين أخرجتهم من أرض مصر قد فسدوا - بل إنهم انحرفوا بسرعة عن المسلك الذي أمرتهم به، وصنعوا لأنفسهم عجلاً أعدوه من قبل وسجدوا له وقدموا له قرباناً أيضاً، وقالوا لاسرائيل ها هي آلهتك التي أخرجتك من أرض مصر، لكن موسى طلب من ربه وقال: لماذا تصب غضبك على القوم الذين أخرجتهم من أرض مصر بحولك العظيم لكي لا يتكلم أهل مصر بأنك أخرجتهم لقصد سيء، حتى تقضى عليهم في وسط الجبال ولتبيدهم من على وجه الأرض؛ تنازل من شدة سخطك! وغير إرادتك بصدد انزال البلاء على قومك، واذكر عبادك إبراهيم واسحاق واسرائيل، لأنهم أقسموا بذاتك من أجلهم، قلت لهم: بأنني سأبارك في ذريتك واجعل عددكم بعدد النجوم.

ووقع الأمر بالفعل، فعندما اقترب من المخيم شاهد العجل والمهرولين وثار تائرة موسى، فألقى الألواح من يده، وكسرها تحت الجبل، وأخذ العجل الذي صنعه وأحرقه بالنار وسحقه إلى أن أصبح تراباً ثم نثره في الماء، وسقى بني اسرائيل منه! وقال موسى

لهارون: ماذا فعل بك هؤلاء القوم حتى أقدمت على ارتكاب هذا الذنب العظيم، فقال هارون: لا تثر ثائرة سيدي لأنك تعلم أنهم يميلون إلى الخطايا، وقالوا لي اصنع لنا آلهة نقتدي بهم ونمضى خلفهم، لأن موسى الرجل الذي أخرجنا من أرض مصر، لا نعلم ماذا حلَّ به، وأنا قلت لهم: ليخرج كل من كان لديه قطع ذهبية، ثم أعطوني إياها والقيتها في نار حامية فخرج هذا العجل ...
نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٦٣

ورجع موسى إلى ربّه، وقال وا أسفى على ما ارتكب هؤلاء القوم من ذنب عظيم لأنهم صنعوا لأنفسهم آلهة من ذهب، والآن لو رفعت عنهم وزرهم وإلا ألتمس منك أن تمحو إسمى من الكتاب الذى عهدته لى (مقام النبوة)!

وقال الله تعالى لموسى كل من أقام على الذنب امحو اسمه من كتابه، فإذن تحرك الآن وارشد هؤلاء القوم إلى المكان الذى أوصيتك به «١».

ويستفاد من العبارات السابقة المنقولة عيناً من كتاب العهد القديم عدّة نكات:

١- إن الأمر بصنع الصنم وعبادته صدر من هارون، كما أنّ الأمر تحقق بمعونته أيضاً وهو فضلاً عن عدم نهيهِ عن هذا العمل كان مروجاً له ومرسياً لدعائمه، ولم يأت الحديث عن السامرى فى هذا الفصل مطلقاً، ترى هل يمكن تحقق هذا العمل من قبل شخص يقوم مقام موسى بصفته وزيراً مساعداً وملازماً ورئيساً لكهنهته بنى اسرائيل - بشهادة التوراة - كيف يصدق العقل والمنطق أن تُنسب هذه النسبة القبيحة والمخجلة إلى هارون «٢»؟

٢- إن الله تعالى اشتد غضبه على أثر هذه القضية بحيث أراد أن يبيد قوم موسى لكن موسى تبه الله تعالى إلى نكتتين (خصوصاً أنه يخاطب الله تعالى بجمله واحدة ويقول لا يعزب عن بالك ليهدأ من فورة غضبه وسخطه، الاولى إنك إذا قمت بهذا العمل فإن أهل مصر سيقولون: ألهذه الغاية اخرجت بنى اسرائيل من مصر، كى تقتلهم فى وسط الجبال وتبيدهم من على وجه الأرض، والاخرى هى أنك اعطيت موثقا بأنى سأزيد من نسل أبنائكم بعدد نجوم السماء، وهذا العمل لا ينسجم مع هذا القول والقسم! وتغيرت مشيئة الله تعالى على أثر تنبيهات موسى له كما هو المصرح به فى التوراة.

٣- إن موسى عليه السلام بعد أن أحرق العجل بالنار، نثر رماده فى الماء وأعطى هذا الماء لبنى اسرائيل كى يشربوا منه فهل كانت هناك خصوصية فى الرماد المتبقى من العجل حتى يشربوا من مائه؟!

(١) نقلًا عن التوراة المترجم والذى طبع فى بريطانيا سنة ١٨٧٨ ص ١٠٤ و ١٠٥، (سفر الخروج الباب ٢٣).

(٢) مؤلف كتاب «القاموس المقدس» هاكس الاميركى يقدم توجيهاً مضحكاً لهذه القصة إذ يقول:

«لقد قام هارون بهذا العمل لإسكات القوم»، فمع أنّ هذا الكلام يصدق عليه القول المعروف «العذر أقبح من الفعل»، فهو لا يتلائم أبداً مع اقامة المذبحة والأمر بالقربان وتعيين العيد.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٦٤

٤- حينما اعترض موسى على هارون، قال هارون بهدوء تام له: أنت تعلم مدى ميل هؤلاء القوم نحو الخطايا وهم طلبوا منى وأنا لبيت طلبهم (ياله من عذر؟! ...) وموسى لم يعترض عليه فى المرة الثانية (فياله من مصلح متعاس).

٥- وفى نهاية المطاف ذهب موسى عليه السلام إلى محضر القدس الإلهى، وهدد الله بالاستقالة من مقام النبوة قائلاً: إذا غفرت لهؤلاء العاصين فهو الأحسن وإلا فامحو اسمى من الكتاب الذى دونته! (واعهد بهذه المهمة الشاقة إلى شخص آخر ...).

لاحظوا جيداً إلى ما رسمته التوراة عن الله، والنبى، ووزيره، ثم قارنوا بعد ذلك بين هذا الفصل التاريخى وبين ماورد فى القرآن!

من المقاطع التاريخية الاخرى للقرآن الكريم، هي مسألة «قضاء داود» النبي عليه السلام التي دارت بين اخوين متخاصمين. ويفصل القرآن القول في هذه القصة بالنحو التالي:

«وَهَلْ آتَاكَ نَبُؤُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ* إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَخِمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تَشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ* إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ* قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعِجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لِيَبْغَى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ أَلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ* فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ* يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ».

(ص / ٢١-٢٦)

في هذا المقطع التاريخي من حياة داود عليه السلام، لانتفع على أي مفهوم سلبى سوى أنه تسرع

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٦٥

شيئاً ما في إصدار الحكم، فحينما طرح أحد هذين الأخوين ادعاءه، أعرب عن قوله ومن دون أن يستمع إلى ادعاءات الأخ الثاني: إن أخاك قد ظلمك وأنه لا ينبغي أن ينازعك في صدد نعجة واحدة مع كل ما يمتلكه من المال والثروة، وإن كان هذا لا يمثل الحكم النهائي لداود عليه السلام، إلا أن نفس هذا المقدار من التسرع في إصدار الحكم لا يصلح لمقام القضاء العادل بصورة عامة، وقضاء النبي داود عليه السلام بصورة خاصة، ولعل هذا هو السبب في توبته واستغفاره وسجوده.

ولأجل هذه الدقة في مسألة القضاء والتماس المغفرة والمسامحة من هذه الزلة أعطاه الله المقام المحمود.

والشاهد على هذا التوجيه للآيات السابقة هي الآية التي وردت مباشرة بعد هذه الآيات وذلك عندما يقول: «يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ».

هذه الآية تدل بوضوح على أن المخالفة، أو بعبارة أصح، ترك الأولى الذي صدر من النبي داود عليه السلام لم يكن يتضمن في حقيقته بعض الامور التي هي من قبيل الغرام والتعلق بزوجة أحد قادة جيشه الذي يدعى باسم (اوريا) وأمثال ذلك من المفاهيم التي نسجتها ذهنية أهل الأساطير استناداً إلى ما جاء في التوراة.

والآن نعود إلى التوراة الفعلية المحرف لننظر إلى ما يقوله في هذا المجال:

نطالع في الكتاب الثاني لاشموئيل هذه الحادثة:

«ووقع عند الغروب عندما نهض من فراشه وطاف حول سطح بيت الملك، ورأى من السطح امرأة تستحم وكانت هذه المرأة غاية في الجمال والرشاقة، وأخذ داود يستفسر عن هذه المرأة، وقال شخص أليست «بث شبع» (١) (وهذا اسمها) وهي بنت «اليعام» (٢) زوجة «اورياه حتى» (٣)؟»

(١) «بث شبع» اسم تلك المرأة التي رآها داود- طبقاً لما تقوله التوراة- عارية من سطح البيت وعشقتها، وهي ابنة اليعام أحد أصحاب المناصب العبرية.

(٢) المصدر السابق.

(٣) «اوريا»، بتشديد الياء اسم أحد القادة البارزين في جيش داود، و «حتى» بتشديد التاء وكسر الحاء نسبة إلى «حت بن كنعان» الذي يعرف قومه ب «بن حت».

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٦٦

وأرسل داود اليجيان فأمسكها وجرى بها إليه، فاضطجع معها وبعد التطهير من النجاسة ذهبت إلى بيتها وحملت المرأة، وأرسلت إلى داود من يخبره أنها حامله وأرسل داود إلى «يوآب» (قائد جيشه) أن ابعث اليّ «اورياه حتّى» وبعث يوآب اورياه إليه وقدم عليه، فسأله داود عن سلامة يوآب وسلامة القوم وعن استقرار أوضاع الحرب.

وقال داود لاورياه انزل إلى بيتك واغسل رجلك، وخرج اورياه من قصر الملك واخرج من ورائه مقداراً من طعام الملك، إلّا أنّ اورياه نام مع سائر عبيد سيده في رحبة القصر ولم ينزل في بيته فحينما خبروا داود أنّ اورياه لم ينزل في بيته، فقال داود لاورياه ألم تأت من السفر فلم تنزل في بيتك؟ فقال اورياه لداود: إنّ الصندوق واسرائيل ويهوداه يسكنون تحت السقوف ويجلس سيدي يوآب وعبيده في خيمته وسط الصحراء، فهل يجوز لى أن أذهب إلى البيت لأقضى وطرى من الطعام والشراب والنوم مع زوجتي، أقسم بحياتك أن لا أقوم بهذا العمل قط ...

وتحقق الأمر بالفعل بأنّ كتب في الصباح رسالته إلى «يوآب» وبعثها بيد اورياه، وكتب الرسالة بهذا المضمون. ألقوا بأورياه في اتون حرب ضارية ثم امنعوه من الانسحاب، حتى يصاب ويموت «أى يقتل» وتحقق الأمر بالفعل بعدما ألقى يوآب نظرتة على المدينة، ووضع اورياه في الموضوع الذى علم بوجود الرجال الشجعان فيه وخرج رجال المدينة، وقاتلوا ضد يوآب، وسقط البعض من القوم عبيد داود ومات «اورياه حتّى» أيضاً ... وعلمت زوجة اورياه أنّ زوجها قد مات وأقامت العزاء فى حق زوجها وبعد انتهاء العزاء أرسل على أثرها داود عليه السلام وأتى بها إلى بيته وأصبحت زوجته! ... غير أنّ العمل الذى أقدم عليه داود لم يكن مرضياً عند الله تعالى «(١)».

خلاصة القصة أن داود عليه السلام عندما كان فى «اورشليم» صعد فى يوم من الأيام إلى سطح القصر، فوقعت عيناه على البيت المجاور له، فشاهد امرأة عارية فوق حجابها فى قلبه وجلبت بعنف إلى قصره واضطجع معها فحملت منه!

(١) نقل عن الكتاب الثانى شموييل الفصل ١١، من الجمل ٢، وحتى ٢٧.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٦٧

وكان زوج هذه المرأة من القادة المرموقين لجيش داود وكان رجلاً مجبولاً على الصفاء ونقاء الطبع بحيث إنّه عندما عاد من ميدان القتال لم تطاوعه نفسه أن يذهب إلى بيته ويضطجع مع زوجته ويستمتع بالأطعمة الممتازة مواساةً منه لأترابه المقاتلين الذين لازالوا فى ميدان القتال يعيشون فى الخيمة، بالرغم من ذلك أصدر داود قراراً مجحفاً جداً، فكتب رسالته إلى قائد عسكره (يوآب) وأعطها بيد (اورياه) نفسه ليوصلها بدوره إلى قائد العسكر، وقد كتب فى هذه الرسالة أنّه لا بدّ من تحديد مسؤوليته فى احدى المواضع الخطرة لساحة القتال، ثم تخليه أطرافه كى يقضى عليه بسيف الأعداء، ونفذ هذا القرار الاجرامى المشؤوم، وقتل على أثره اورياه الطاهر القلب والنقى والشجاع واستأثر داود عليه السلام بزوجته!! ... ونقرأ فى الجملة الأخيرة من هذا الفصل «أنّ هذا العمل لم يقع مورداً لرضا وقبول الحق تعالى».

والآن نعود إلى تنمة الحكاية، فقد ورد فى الفصل الآتى من التوراة ما يلى:

«وبعث الله تعالى «ناثان» (١) إلى داود فجاء إليه، وقال له: كان فى احدى المدن شخصان أحدهما غنى والآخر فقير، كان الغنى يمتلك غنماً وبقراً كثيراً جداً، ولم يكن الفقير يمتلك سوى انثى واحدة من الغنم، اشتراها وربّاهَا وتعاهدها مع أولاده بالرعاية تأكل من طعامه وتشرب من إنائه وتنام فى احضانه وكانت كأحد بناته.

وقدم مسافر إلى هذا الغنى وآل على نفسه أن يأخذ من أغنامه وأبقاره حتى يعده للمسافر الذى قدم عليه وأخذ نعمة ذلك الرجل الفقير وذبحها على شرف الرجل المسافر الذى قدم عليه.

وشارت ثائرة داود وقال ل (ناثان) أقسم بالله الحي القيوم، أن الرجل الذي فعل ذلك يستحق القتل! وبسبب فعله هذا وعدم اعتناؤه يجب أن يؤخذ منه!.

حينئذ قال ناثان لداود: إن ذلك الرجل هو أنت، يقول الله تعالى رب إسرائيل: أنا الذي

(١) «ناثان أو ناثان» أحد أنبياء بني إسرائيل وكان مستشاراً لداود.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٦٨

جعلتك سلطاناً على إسرائيل وأنقذتك من ربة «شاوول» (١) ... لماذا استهنت بأمر الله تعالى وارتكبت عملاً قبيحاً لديه فضربت، (أورياه حتى) بالسيف، وفعلت مع زوجته فعلاً قبيحاً، إنك قتلته بسيف «بني عمون» (٢)، والآن لن يفارق بيتك السيف أبداً، والسبب في ذلك هو تحقيرك لي، أخذت امرأة (أورياه حتى) لتكون زوجتك، والله تعالى يقول سأشعل فتيل البلاء عليك من قصرك وسأخذ زوجاتك من أمام عينيك واعطيها لصاحبك! وسينام مع نساءك في عين هذه الشمس! لأنك قمت بهذا العمل سراً أما أنا فسأنفذ العقاب في وضح النهار بمرأى ومسمع من بني إسرائيل.

وقال داود ل «ناثان»: إنني خالفت أمر الله تعالى بارتكابى الذنب، وقال «ناثان» لداود أيضاً: إن الله قد عفى عن ذنبك ولن تموت ...

وقدم داود التعازى إلى زوجته «بث شبع» وقاربها، نام معها فأنجبت ولداً سماه (سليمان) وقد أحبه الله تعالى (٣).

تظهر في هذا المقطع من القصة بعض الملاحظات التي ينبغي التدقيق فيها:

(أ) لم يأت إلى داود عليه السلام من يطالب بإجراء العدالة وإنما جاء إليه أحد أنبياء بني إسرائيل في ذلك العصر وقد كان مستشاراً لداود وذكر له على سبيل المثال أحد القصص للموعظة والنصيحة، ولم يتطرق الحديث في هذه القصة إلى الأخوين، وإنما اتجه البحث إلى الرجلين الغنى والفقير وكان أحدهما يملك قطعاً كبيراً من الأبقار والأغنام والآخر لا يملك سوى نعجة واحدة، كما أنه لم يتطرق الحديث في هذا الموضوع أيضاً إلى مسألة استدعاء الشخص الأول من الثانى، بل غاية ما فى الأمر أنه حينما قدم ضيف إلى الرجل الغنى ذبح النعجة التي كبرت على يد الرجل الثانى واعدها طعاماً للضيف.

(ب) ذهب داود عليه السلام إلى الاعتقاد بأن مثل هذا الظالم يستحق القتل (ولماذا يتوجب القتل من أجل اغتصاب نعجة واحدة؟!).

(١) «شاوول»، أحد سلاطين بني إسرائيل.

(٢) «بني عمون»، كانت من الشعوب المحاربة التي تعيش في الطرف الشرقى من «البحر الميت» وقد حاربهم داود.

(٣) الكتاب الثانى، شموئيل الفصل ١٢، من الجملة ١، وحتى ٢٤.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٦٩

(ج) حكم داود عليه السلام بإعطاء أربع نعجات عوضاً عن نعجة واحدة (فلماذا أربع مقابل واحدة!).

(د) اعترف داود عليه السلام بذنبه وعمله القبيح فى صدد قضية زوجة «أورياه».

(هـ) وعفى الله تعالى عن داود (بهذه البساطة!).

(و) وقدر الله تعالى لداود جزاء دنيوياً واحداً وهو أن تقع نساؤه فى أيدي أصحابه فيمارسون معهّن هذا العمل فى وضح النهار وبمرأى من بني إسرائيل!

(ز) وبالنتيجة أصبحت إحدى هذه النساء أمّاً ل (سليمان) وولد منها سليمان وكان الله تعالى يحبه أيضاً!

إذا اعتقدنا بنبوة داود من قبل الله تعالى كما يقر بذلك جميع المسلمين وتؤيدها مقاطع من عبارات التوراة، فليست هناك أدنى حاجة للبحث والمناقشة فى منافاة هذه الأعمال لمقام النبوة، ولا يقتصر هذا الأمر على عدم انسجامه مع منزلة النبوة بل يعتبر من الأعمال

الإجرامية الكبرى والذي يعد حدوثه من قبل شخص عادى أمراً شاذاً وغريباً من نوعه ويستحق العقاب، فكيف يمكن التصديق بأن الله تعالى يعفو ويتسامح بهذه البساطة عن إنسان قاتل عرض أحد قادة جيشه للقتل عمداً، من أجل الإستيلاء على زوجته ثم اقترف الزنى بها قبل الزواج منها؟!!

وإذا اعتبرناه ملكاً من ملوك بني اسرائيل فقط - كما وردت أحواله في كتاب الملوك والسلاطين في التوراة - لا يقبل منه ذلك أيضاً على الإطلاق لأنه:

أولاً: لم يكن ملكاً عادياً، فالتوراة أفصح عن عظمه داود ومقامه الشامخ في فصوله المختلفة، وأنه هو الذي وضع الحجر الأساس للمعبد الكبير لبني اسرائيل والذي لم يكتمل بناؤه في زمانه بسبب الحروب الكثيرة وألقت مسؤوليه اكماله على ابنه سليمان، ترى هل يمكن صدور هذا العمل من قائد يمتلك مقاما معنوياً محموداً ويكون مسدداً ومؤيداً من قبل الله تعالى!

ثانياً: من الكتب المعروفة للتوراة كتاب «مزامير داود» وأناشيده الاعتقادية ومناجاته،

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٧٠

فهل يمكن أن تقع مناجاة ودعوات «قاتل ارتكب الزنى بالمحصنة» ضمن الكتب السماوية؟

إلاً أننا عندما نعود إلى القرآن، نجد أنه لا أثر لأي حديث عن عشق داود وإجرامه واقترافه للذنب ولا على فقرات هذه القصة الكاذبة، وإنما ورد الحديث عن حكاية لأحد المحاكم العادلة - وذلك بشكل جدي لا على شكل مثال - والذي سبق شرحه من قبل، ومما تجدر الإشارة إليه هو خلو القرآن من هذه التهم، والنكته التي ينبغي ذكرها في هذا الموضوع أيضاً هي أن من المؤسف وقوع بعض المؤرخين والمفسرين الإسلاميين تحت تأثير الأساطير الكاذبة للتوراة ونقلهم إياها في كتبهم، ومن البديهي أن أحاديث هذا النمط من الأفراد لا تمتلك أي قيمة علمية وتاريخية وتفسيرية، وذلك لعدم وجود أدنى دليل على مقالاتهم في المنابع الإسلامية المعتبرة. والجدير بالذكر هو ما نقل عن الإمام علي عليه السلام قوله: «لا اوتى برجل يزعم أن داود تزوج امرأة اوريا إلا جلدته حدين حداً للنبوّة وحداً للاسلام» (١).

٦- هل أن سليمان عليه السلام بنى معبداً للأصنام؟!!

ورد التعريف بشخصية سليمان عليه السلام في القرآن الكريم على كونه نبياً كبيراً وقائداً مقتدرراً امتلك سلطه عريضة وفريده من نوعها، واشيد بعظمتته وصلاحه في سور قرآنية مختلفة، من جملتها سورة البقرة، النساء، الأنبياء، النمل، سبأ وص، فعلى سبيل المثال نقرأ قوله تعالى

«وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ». (ص / ٣٠)

القرآن في حكاياته المفصلة نوعاً ما التي أوردتها في السور المتقدمة الذكر عن هذا النبي الكبير ليس فقط لا ينسب له نسبة عبادة الصنم وصناعته مطلقاً وإنما يعدّ كافة جوانب حياته نزيهة من أي لون من ألوان التلوث بالشرك والمعصية.

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٨، ص ٤٧٢.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٧١

يكفي في هذا المجال مراجعة سورة الأنبياء (الآيات ٢٨ إلى ٨٢) وسورة النمل (الآيات ١٥ إلى ٤٤) وسورة ص (الآيات ٣٠ إلى ٤٠) وعلى الخصوص قصة هداية (ملكة سبأ) وانقاذها من براثن الشرك ودعوتها إلى التوحيد الخالص، وخاصة عندما يقول: «وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ». (النمل / ٤٣) وأساساً، يستفاد من الآيات الموجودة في نفس السورة أن الهدف

الرئيسى لسليمان فى واقعه ملكه سبأ يكمن فى محاربه الشرك والوثنيه وانقاذاها وقومها من وطأه هذا الانحراف، والآن نعود إلى التوراة الفعلية المحرف للنظر إلى ما يقوله فى شأن سليمان وما يختلقه من صورة بشعه عن هذا النبى العظيم، صورة لرجل مفتون بالأهواء بحيث ساقه هوسه وهواه إلى حد الشرك والوثنيه وحتى بناء معبد للأصنام.

جاء فى الكتاب الأول للملوک والسلاطين مايلی: «وأحب الملك سليمان نساء أجنبيات كثيره من الامم التى قال الرب لبنى اسرائيل فى شأنها: لا تذهبوا إليهن ولا يذهبن إليكم فإنهن يستميلن قلوبكم إلى اتباع آلهتهن، فتعلق بهن سليمان حباً لهن، وكان له سبع مائه زوجة وثلاث مائه جاريه فازاغت نساؤه قلبه، وفى زمن شيخوخه سليمان تمكن أزواجه من اماله قلبه إلى اتباع آلهه اخرى فلم يكن قلبه مخلصاً للرب إلهه، كما كان قبل داود أبيه فتبع سليمان عشروت آلهه الصيدونيين، وملكوم بنى عمون ووضع الشر فى عينى الرب ولم يتبع الرب اتباعاً تاماً مثل أبيه داود.

حينئذ بنى سليمان مشرفاً لكاموش صنم قبيله موآب فى الجبل المقابل لاورشليم ولمولك صنم بنى عمون، وكذلك صنع لجميع نساؤه الغريبات اللواتى كن يحرقن البخور ويذبحن لآلهتهن، فغضب الرب على سليمان، لأن قلبه مال عن الرب إله اسرائيل الذى تراهى له مرتين وأمره فى ذلك أن لا يتبع آلهه اخرى فلم يحفظ ما أمره الرب به، فقال الرب لسليمان: بما أن أمرك هذا، وأنت لم تحفظ عهدى وفرائضى التى أمرتك بها، فسأنتزع الملك عنك واسلمه إلى عبدك، إلا أنى لا أفعل ذلك فى أيامك نظراً لداود أبيك، بل انتزعه من يد ابنك» (١).

(١) سفر الملوك الأول، الفصل ١١: ٣٣: ٣٤.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٧٢

يستخلص من مضمون هذه القصة الكاذبه للتوراه مايلی:

أ) كان لسليمان عليه السلام علاقات كثيره بنساء الطوائف المشركه، وقد استولى على قسم كبير منهن خلافاً لأمر الله ثم أخذ يميل إلى معتقدهن شيئاً فشيئاً، وبالرغم من كونه شخصاً ميالاً للنساء فقد حاز على ٧٠٠ امرأة بالعقد الدائم و ٣٠٠ امرأة بالعقد المنقطع! إلا أن تعلقه الشديد بالنساء ادى به إلى ابتعاده عن طريق الله تعالى .

ب) أصدر سليمان قراراً معلناً ببناء معبد للأصنام، وبنى على الجبل المطل على «اورشليم» تلك البقعه المقدسه لاسرائيل، معبداً لصنم كموش - الصنم المعروف لطائفه الموابيان - وصنم مولك - الصنم المختص بطائفه بنى عمون - وبرزت فى نفسه علاقه خاصه بصنم «عشروت» الصنم المنسوب إلى الصيدونيان، وقد تحقق ذلك كله فى عهد شيخوخته!

ج) ووجه الله تعالى له عقاباً على هذا الانحراف والذنب العظيم، وتبلور هذا العقاب فى أن يسلب منه مملكته وسلطانه ولكن لا يسلبه من يده شخصاً وإنما يسلبه من يد ابنه «رحبعام»! وسيمنحه فرصه البقاء فى الحكم متى شاء، وهذا الأجل لكونه من عباد الله المقربين؛ لقد كان والد سليمان هو داود، ذلك العبد المقرب عند الله والذى أقدم على قتل النفس وارتكاب الزنى بالمحصنه، وهى زوجة أحد قادة جيشه!!

هل يمكن لأحد الأشخاص العقلاء أن ينسب هذه التهم الفظيعة إلى ساحة إنسان مقدس كالنبى سليمان؟!

إذا اعتقدنا نبوه سليمان عليه السلام - كما صرح به القرآن - فالأمر واضح وإذا وضعناه فى قائمه ملوك بنى اسرائيل، فكذلك لا يمكن أن تصدق فى حقه مثل هذه التهم أيضاً.

ولو أننا أنكرنا نبوته فمن المسلم أنه كان تالياً للنبى من بعده، لأن من الكتب التى اشتملت على أقوال هذا الرجل الإلهى الكبير كتابين من كتب العهد القديم أحدهما يقع تحت عنوان «مواعظ سليمان» أو «حكم سليمان» والآخر تحت عنوان «نشيد سليمان» بالإضافة إلى أن التوراه فى الفصل الثالث من الكتاب الأول لتاريخ الملوك «الجمل من ٥

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٧٣

إلى الأخير» يقول بصراحة: «لقد تجلى الله تعالى لسليمان في المنام ليلاً، وخاطبه بالقول، أطلب مني ما تشاء ونظراً لصغر سنه وقلة تجربته طلب سليمان من الله الحكمة، واستجاب الله دعاءه وأعطاه الفهم والحكمة وقال: إن هذا الفهم والحكمة التي أعطيتك إليك لم أعطه لأحد من قبلك ولا من بعدك».

هل يعقل أن يتلقى أحد الأشخاص هذا النوع الفريد من العلم والحكمة من الله تعالى في أيام شبابه ثم يقدم على بناء معبد للأصنام ارضاءً لرغبات زوجاته في عهد كبيره ونضج عقله واكتمال إدراكه؟!!

مما لا يقبل الشك أن هذه الأساطير الكاذبة كانت من صنع الأدمغة العاجزة في السابق، ومن المؤسف حقاً أن عدّة من الأفراد الجهلاء وضعوها في سلسلة الكتب السماوية بعد ذلك، وقد أطلقوا على هذا الكلام «اللا مقدّس» اسم «الكتاب المقدّس» لكن، هل ترى واحدة من هذه النسب السيئة في الوقائع والحوادث التي ينقلها القرآن؟ فإذا دقت وبحثت فسوف يكون الجواب بالنفي.

٧- المنافسة العجيبة بين يعقوب وأخيه عيسو

القرآن الكريم يسدى احتراماً بالغاً لابراهيم عليه السلام وابنه «اسحاق» وحفيده «يعقوب» ويشيد بعظمتهم واخلاصهم، فنقرأ في قوله تعالى «وَإِذْ كَرَّمْنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ * إِنَّا اخْلَصَيْنَاهُمْ بِخَالصِيهِ ذَكَرَى الدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْاٰخِيَارِ». (ص / ٤٥-٤٧)

وفي موضع آخر في قوله تعالى في شأن هذه الاسرة: «وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ». (الانبياء / ٧٢-٧٣)

هذه التعبيرات إن دلت على شيء فانما تدل على أن هؤلاء رجال موحدون، على جانب

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٧٤

كبير من الإيمان وصفاء السريرة وعلى اطلاع ولياقة عالية في قيادة البشرية، ولذا فهم مطهرون ومنزهون عن كل رجس وذنس، لكن عندما يدون تاريخ حياة هؤلاء على أيدي أصحاب الخرافات يرسمون عنهم صورة قبيحة جداً تنزل بهم إلى مستوى الأشخاص الانتهازيين والجشعين والمتحللين الذين لا يدخرون وسعاً في سبيل التوصل إلى منافعهم اللامشروعة، ولا ثبات حقيقته هذا الكلام نلتجىء إلى التوراة المحرف لنرى ما اختلقه من ملامح ومعالم رهيبة عن «اسحاق» و «يعقوب» والأخ الأكبر ليعقوب «عيسو»:

«وحدث لما شاخ اسحاق وكلت عيناه عن النظر فدعا عيسو ابنه الأكبر وقال له: يابني، فقال هاأنذا، فقال: إنني قد شخت ولا أعرف يوم وفاتي فالآن خذ عدتك، واسلحتك وقوسك واخرج إلى البرية وتصيد لي صيداً واصنع لي أظعمه كما أحب، وائتني بها لأكل حتى تباركك نفسي قبل أن أموت».

وكانت ربقاه سامعة لكلام اسحق مع عيسو ابنه، فذهب عيسو إلى البرية كي يصطاد صيداً ليأتي به، وأما ربقاه فكلت يعقوب ابنها قائلة: إنني قد سمعت أباك يكلم عيسو أخاك قائلاً: ائتنى بصيد وأصنع لي أظعمه لأكل وباركك أمام الرب قبل وفاتي، فالآن يابني اسمع لقولي في ما أمرك به، اذهب إلى الغنم وخذ لي من هناك نعجتين جيدتين، فاصنعهما أظعمه لأبيك كما يحب وحضرها إليه ليأكل حتى يباركك قبل وفاته، فقال يعقوب لربقه أمه: هو ذا عيسو أخي رجل أشعر، وأنا رجل أملكس ربماً يجسني أبي فاكون في عينيه كمتهاون وأجلب على نفسي لعنة لا- بركة، فقالت له أمه: لعنتك على يابني، اسمع لقولي فقط واذهب. فذهب وأحضر لأمه فصنعت منها أظعمه كما كان أبوه يحب وأخذت رفقاً ثياب عيسو ابنها الأكبر الفاخرة التي كانت عندها في البيت وألبست يعقوب ابنها الأصغر، وشدته على يديه وعنقه جلود جدي المعزى واعطت الأظعمه والخبز التي صنعت في يد يعقوب ابنها فدخل إلى أبيه

وقال: يا أبى، هاأنذا. من أنت يا ابني؟ فقال يعقوب لأبيه: أنا عيسو بكرك، قد فعلت كما كلمتني، قم واجلس وكل من صيدى لكى تباركنى نفسك.

فقال اسحق لابنه: ما اسرع ما اصطدت يا بنى؟ فقال: إن الرب إلهك قد يسرلى فقال

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٧٥

اسحق ليعقوب: تقدم لاحسك يا بنى، أنت هو ابني عيسو أم لا؟ فتقدم يعقوب إلى اسحق أبيه؟، فجلسه وقال: الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو، ولم يعرفه لأن يديه كانتا مشعرتين كيدي عيسو أخيه فباركه، وقال: هل أنت ابني عيسو، فقال: أنا هو، فقال قدم لى لأكل من صيد ابني حتى تباركك نفسى، فقدم له فاكل واحضر له خمرا فشرب، فقال له اسحق أبوه: تقدم وقبلنى يا بنى، فتقدم وقبله فشم رائحة ثيابه وباركه وقال: انظر، رائحة ابني كرائحة حقل قد باركه الرب.

فليعطك الله من ندى السماء ومن دسم الأرض وكثرة الحنطة والخمر، ليستبعد لك شعوب، وتسجد لك قبائل، كن سيداً لاختوتك وليسجد لك بنو امك، ليكن لاعنوك ملعونين ومباركوك مباركين، وحدث عندما فرغ اسحق من بركة يعقوب وفى حين خروج يعقوب من عند أبيه فاذا بعيسو اخاه قد اتى بصيده، فصنع هو اطعمه ودخل بها إلى أبيه، وقال لابيه: ليقيم أبى ويأكل من صيد ابنه حتى تباركنى نفسك فقال له اسحق أبوه: من أنت؟

فقال؟: أنا ابنك، بكرك عيسو فارتعد اسحق ارتعاداً عظيماً، وقال: فمن هو الذى اصطاد صيداً وأتى به الى فأكلت منه قبل أن تجيء وباركته؟ فعندما سمع عيسو كلام أبيه صرخ صرخة عظيمة وقال لأبيه: باركنى أنا أيضاً يا أبى، فقال: قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك» (١).

ونطالع فى الفصل الآتى هذا المعنى

«ثم إن اسحاق استدعى يعقوب ودعى له بالخير والبركة، وأوصاه أيضاً بوصية وقال لا تتزوج بامرأة من بنات كنعان ... وإن الله القادر المطلق سيبارك لك وسيحيطك برعايته وعنايته لكى تصبح قيماً على جماعة الامم، وليمدك الله ولك ولنسلك ببركة إبراهيم حتى ترث الأرض التى اعطاها الله لابراهيم ليسافر فيها» (٢).

خلاصة الحكاية تقع فى أن اسحاق كان له ولدان الأكبر يسمى «عيسو» والأصغر يسمى

(١) التوراة، سفر التكوين، فصل ٢٧، الجمل ١ - ٤٠.

(٢) المصدر السابق، فصل ٢٨، الجمل ١ - ٤.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٧٦

«يعقوب»، وفى آواخر أيام حياته حينما فقد بصره قرّر أن يجعل ولده الأكبر وصياً وناثباً عنه من بعده ويبارك له (يستفاد من القرائن أن المقصود من هذه البركة هو نفس مقام النبوة والروح الرسالية وقيادة الامة) إلا أن يعقوب توسل بالحيلة ولبس ثوب أخيه الأكبر بأمر من أمه التى كانت متعلقة به وتفضل له أن يقوم مقام اسحاق، ثم ربط على يده وعنقه قطعة من جلد الغنم لأن بدن أخيه كان مكتسباً بالشعر، مما قد يفضى به ذلك إلى إفشاء سره لدى أبيه (الإنسان الذى يكسوه الشعر إلى هذا الحد بحيث يكون بدنه كالغنم غريب فى بابه واقعاً) وبالتالي شغل مكان أخيه الأكبر بالحيلة والكذب والخداع، واقتنع والده العجوز بلمس يده المكسوة بالصوف فقط مع أنه قد عرف صوته فى الوهلة الاولى ثم إنه دعا فى حقه وبارك له فى عمله وأعدّه وصياً وناثباً عنه وقيماً على أهله وأسرته، وحينما اطلع اخوه الأكبر على القضية بكى بكاءً مرّاً، إلا أن الأمر قد انقضى فحينما طلب من أبيه أن ينزل البركة عليه أيضاً، سمع جواباً يقضى بانتهاء البركة وأن ما كان منها استأثر به أخوه يعقوب ولم يعد هناك فرصة لاعادة النظر!!

والغريب فى الأمر هو ماذهب إليه إله اسحاق من تأييده هذا العمل أيضاً، وتسليم مقام النبوة لرجل محتال وكذاب ومزيف، وعلى حد

قول التوراة أنه انشأه وتعاوده وطاف به كثيراً وجعله مالكا للجماعة والامم ووارثا لملك ومآثر نبيه (إبراهيم) العظيم، وليس فقط اسرة اسحاق مأمورة باتباعه فحسب، بل إن سائر الناس مأمورون باتباعه والخضوع له تعظيماً واجلالاً له.

كيف يمكن اعتبار هذه الاسطورة الكاذبة والمضحكة على أنها وحى سماوى؟!!

لو أن شخصاً استولى على مقام بسيط بالحيلة والكذب - كأن يرتدى على سبيل المثال زياً عسكرياً متواضعاً - فإنه بعد الكشف عن حقيقته ليس فقط يسلبون منه ذلك، ويخلعون عنه هذا اللباس بل يعاقبونه على هذا العمل أيضاً، لكن كيف يمكن الاستيلاء على مقام النبوة والحصول على البركة الإلهية وقيادة المجتمع بالخداع والمكر، ثم الإبقاء عليه بعد الكشف عن حقيقته المخزية؟!!

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٧٧

٨ - نسبة صنع الخمر إلى عيسى المسيح عليه السلام

أولى القرآن الكريم احتراماً بالغاً للسيد المسيح عليه السلام وتحدث عنه في سور متعددة (من قبيل سورة البقرة وآل عمران والمائدة وبعض السور الأخرى، وأشار إليه بكونه أحد أنبياء أولى العزم (صاحب شريعته وكتاب سماوى) وله معجزات كثيرة، نقرأ في قوله تعالى

«وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ * وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِّن الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَانْفُخْ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَابْرِئِ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَاجِى الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُتْبِئْكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُم لَّكُم إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ». (آل عمران / ٤٨ - ٤٩)

وبناء على ذلك تشكل المعاجز الأربع من (خلق الطير) و (شفاء المرضى الميؤوس من معالجتهم) و (إحياء الأموات) و (الإخبار عن الغيب) (التي كانت تتحقق بإذن الله) عظمه معاجز السيد المسيح عليه السلام (وفقاً لبيان القرآن).

وفى موضع آخر يعد نزول المائدة السماوية (طعام الجنة) إحدى معاجز المسيح عليه السلام وذلك فى (سورة المائدة آية ١١٥) نظراً إلى اعتبار المسائل المعقولة والمقبولة من المعاجز بصورة عامة، والآن لنلقى نظرة على ما تقوله (الأنجيل) فى هذا المجال، ففى الباب الثانى من «انجيل يوحنا» الأنجيل الرابع من الأنجيل الأربعة ورد هذا المعنى:

«وفى اليوم الثالث كان فى قاناى الجليل (أحد مدن بيت المقدس) عرس، وكانت ام يسوع هناك فدعى يسوع وتلاميذه إلى العرس ونفذت الخمر، فقالت له امه: ما بقى عندهم خمر، فأجابها: ومالى ولك يا امرأة ما جاءت ساعتى بعد، فقالت امه للخدم: اعملوا ما يأمركم به.

وكان هناك ستة جرات من حجر يتطهر اليهود بمائها على عاداتهم، يسع كل واحد منها مقدار مكياين أو ثلاثة، فقال يسوع للخدم: املاؤا الجرات بالماء فملأوها حتى فاضت فقال لهم: استقوا الآن وناولوا رئيس الوليمة، فناولوه فلما ذاق الماء الذى صار خمرًا، وكان لا يعرف من أين جاءت الخمر، لكن الخدم الذين استقوا منه كانوا يعرفون، دعا العريس

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٧٨

وقال له: جميع الناس يقدمون الخمر الجيد أولاً، حتى إذا سَكر الضيوف، قدموا إليهم الخمر الرديء، أما انت فأخرت الخمر الجيد إلى الآن» (١).

يستشف من هذه القصة النكات التالية:

١- لما دخل السيد المسيح مع امه مريم عليهما السلام إلى محفل العرس ونفذت المشروبات الخمرية، أقدم وبإيعاز من امه على خلق المعجزة، وأبدل ست جرات ممتلئة بالماء إلى خمور صافية، بحيث إن الطعم اللذيذ لها استهوى على أفئدة الحاضرين.

٢- هذه هي المعجزة الاولى من نوعها للمسيح عليه السلام والتي تحققت بإيعاز من أمه.

٣- عظم شأن السيد المسيح وجلّ قدره من خلال هذه المعجزة (تبديل الماء إلى خمر) ممّا أدى ذلك إلى إيمان تلامذته به. والطريف هنا أنّ أهالي مدينة قانا الجليل، لم يبرحوا يصنعون جرات المياه ويبيعوها للزوار والسياح احتفاءً بذكرى جرات الخمر التي حدثت بإعجاز السيد المسيح عليه السلام.

ومما لا شك فيه أنّ هذه هي اسطورة من الأساطير المفتعلة والكاذبة المنسوبة إلى هذا النبي العظيم، ولا يخفى على أحد ما للخمر من قبح واضرار غير قابلة للحصر، وقد منعت وحرمت في كافة الأديان السماوية، حتى أنّه سبق التصريح بها في نفس الكتب المقدسة لليهود والنصارى، كما ورد ذم الخمر بلهجة شديدة في كتاب «أمثال سليمان» إذ يقول هناك:

«لمن الويل لمن الشقاوة لمن المخاصمات لمن الكرب لمن الجروح بلا- سبب لمن ازمهرار العينين، للذين يدمنون الخمر الذين يدخلون في طلب الشراب الممزوج، لا- تنظر إلى الخمر إذا إحمرت حين تظهر حبابها في الكأس وساعت مرقوقه وفي الآخر تلسع كالحيّة وتلدغ كالأقحوان» (٢).

يفهم من هذه العبارة جيداً أنّ مفاصد الخمر كثيرة جداً فهي السبب الأساسي لكل الالام

(١) انجيل يوحنا عرس قانا الجليل ص ٢٥٦.

(٢) العهد العتيق، كتاب أمثال سليمان، فصل ٢٣.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٧٩

الجسدية والهموم النفسية والفكرية والمنازعات والمصادمات والاختلافات الاجتماعية، وهي من عوامل شقاء الإنسان وبؤسه، وتفعل فعلها في وجود البشر كسم الحية وهي مبرر كاف على انعدام العفة والسقوط في وحل الانحرافات الجنسية السيئة والوقوع في شرك أنواع التخيلات والابتلاءات التي طرحت في هذه العبارات بشكل واضح جداً.

ونقرأ في موضع آخر من كتاب «أمثال سليمان» هذه العبارة: الخمر المستهزئة (وهي التي تدعو الإنسان إلى أن يقوم بحركات ويتحدث بكلمات تفضى إلى الاستهزاء والسخرية) والمسكرات الصاخبة (وهي التي تسبب المنازعات والمخاصمات) وكل من يقع في أسرهِ لا يصبح حكيماً (١).

كما ونقرأ في الفصل ٢٨ من كتاب اشعيا هذه العبارة أيضاً: «أما هؤلاء (إشارة إلى مجموعة من المنحرفين) فقد ضلوا طريقهم وفقدوا صوابهم بفعل الخمر والمسكرات أيضاً».

وجاء في موضع آخر من نفس الكتاب هذا المعنى: «الويل لأولئك الذين استعانوا بشرب الخمر على الغلبة وبمزج المسكرات على القوة» (٢)، أي أنّ قواهم تتحرك من خلال شرب الخمر وتستعد للنزاع.

وجاء في كتاب هوشيع (من التوراة): «إنّ الزنا والخمر وعصير العنب بصورته المسكرة» كل منهم يؤدى إلى ضعف القلب» (٣).

يتضح من هذه العبارات جيداً أنّ المعول في حرمة الخمر ليس كونها من المشروبات العادية إنّما لكونها من المائعات المسكرة التي تلحق الضرر بالجسم والروح الإنسانية وتؤدي إلى الضياع والشقاء.

بناء على هذا أليس من المخجل أن يقال إنّ المعجزة الاولى للسيد المسيح عليه السلام التي ظهرت في مدينة قانا الجليل تبلورت في التحول الذي طرأ بركته على عدّة ظروف كبيرة

(١) عهد عتيق، كتاب أمثال سليمان، فصل ٢٠، جملة ١.

(٢) كتاب اشعيا، فصل ٥، جملة ٢٢.

(٣) كتاب هوشيع فصل ٤، جملة ١١.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٨٠

ممتلئة بالماء إلى خمور صافية، وعندما نقارن ذلك مع المعاجز القرآنية للسيد المسيح يتضح لنا مدى الفاصلة بين التواريخ المختلفة في ذهن البشر وبين التاريخ الواقعي الناشئ من طريق الوحي.

٩- المسيح عليه السلام ودعوى الألوهية

القرآن يبرئ ساحة السيد المسيح عليه السلام من أى لون من ألوان الادعاء المزيف على صعيد الألوهية، ويقول بصراحة: «وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ أَنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَادُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ». (المائدة/ ١١٦-١١٧)

والآن لننظر إلى ماتقوله الأنجيل في صدد المسيح عليه السلام.

نقرأ في انجيل يوحنا هذا المعنى:

«وجاء عيد التجديد في اورشليم، وذلك في الشتاء وكان يسوع يتمشى في الهيكل في رواق سليمان فتجمع اليهود حوله وقالوا له: «إلى متى تبقىنا حائرين؟ قل لنا بصراحة: هل أنت مسيح؟

فأجابهم يسوع: «قلت لكم، ولكنكم لا تصدقون، الأعمال التي أعملها بأسم أبي تشهد لي، وكيف تصدقون وما أنتم من خرافي، خرافي تسمع صوتي وأنا أعرفها وهي تتبغني اعطيها الحياة الأبدية فلا تهلك أبداً ولا يخطفها أحد مني الأب الذي وهبها لي هو أعظم من كل موجود، وما من أحد يقدر أن يخطف من يد الأب شيئاً، أنا والأب واحد».

وجاء اليهود بحجارة ليرجموه فقال لهم يسوع: «أرأيتمكم كثيراً من الأعمال الصالحة من عند الأب، فلاي عمل منها ترجموني أجابه اليهود: لا- نرجمك لاي عمل صالح عملت بل لتجديفك فما أنت إلا إنسان، لكنك جعلت نفسك إلها. نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٨١

فقال لهم يسوع: «أما جاء في شريعتكم أن الله قال: أنتم آلهة؟ ماذا كان الذين تكلموا بوحى من الله يدعوهم الله آلهة، على حد قول الشريعة التي لا ينقضها أحد، فكيف تقولون لي، أنا الذي قدسه الأب وأرسله إلى العالم: أنت تجدف لأنني قلت: أنا ابن الله؟ إذا كنت لا أعمل أعمال أبي فلا تصدقوني وإذا كنت أعملها فصدقوا هذه الأعمال إن كنتم لا تصدقوني حتى تعرفوا وتؤمنوا أن الأب في وأنا في الأب» (١).

يتضح من خلال هذه العبارات عدّة نكات:

- ١- أنهم اليهود عيسى من ذى قبل أنه ادعى الألوهية وأصدروا حكماً بتكفيره ورميه بالحصى
 - ٢- يقول المسيح تارة في صدد الدفاع عن نفسه: أنا الذي قلت إنني ابن الله، وأن أبي الله، وتارة أخرى يقول: أنا أقوم بأعمال إلهية، ولو لم أنجز ذلك فلا تصدقوا كلامي، ولو انجزت ذلك فصدقوا أنني حال في الله والله حال في نفسي.
- إن التعبير بالأب والابن والقيام بأعمال إلهية، والقول بحلول الإنسان في الله والله في الإنسان، كلها تعبيرات إحدانية، لا تلتئم مع كافة الموازين المنطقية، ولا- دليل على أن يدلي أحد الأنبياء بمثل هذه العبارات في حق نفسه وحق الله تعالى ولو بصورة مجازية، لأن ذلك يؤدي إلى وقوع البسطاء في دوامة الاشتباه والالتباس، ويساهم في أن يجد الأعداء الذريعة المناسبة لأن يرموه بالحصى متى ماشاءوا.

هذا في الوقت الذي يقول القرآن في الآيات التي تلونها سابقاً بصراحة تامه إنه لم يصدر من المسيح عليه السلام أى ادعاء سوى العبودية لله ودعوى النبوة والرسالة وكان في غاية الخضوع والتدلل في مجال العبودية والتسليم لأمر الله تعالى وفي آيات اخرى يقول أيضاً: إن كل ما أنجزه من معاجز كان جميعه بإذن الله، نقرأ في قوله تعالى «وَأذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِأَذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِأَذْنِي وَتَبْرِئُءَ الْاَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِأَذْنِي وَأَذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِأَذْنِي». (المائدة/ ١١٠)

(١) انجيل يوحنا، باب، اليهود يرفضون المسيح، ص ٢٨٩.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٨٢

إن المقارنة بين هذا النوع من المسائل التاريخية في القرآن وبين ماورد منها في الانجيل من شأنه أن يضع الحدود الفاصلة بينهما وبين أيهما هو الصادر من قبل الله حقاً، وأيهما هو المحرف والمختلق من الذهن البشرى.

١٠- حضور المرأة العاصية في مجلس السيد المسيح عليه السلام

لم تظهر في الآيات المختلفة للقرآن التي وردت في حق السيد المسيح حتى الحد الأدنى من ترك الأولى وقد وصفت الآيات التي وردت في شأن أمه مريم قداستها في أجلى صورها، بحيث إنها ذعرت بشدة والتجأت إلى الله حينما شاهدت ملك الوحي الذي جاءها من قبل الله ليهبها ولداً، (لأنه ظهر أمامها على هيئة شاب جميل مجهول) حتى أنها لما قاست من آلام وضع الحمل، وجسدت في مخيلتها مستقبل حياتها، بأن من الممكن أن ينسب لها الأعداء والبسطاء النسب القبيحة؛ قالت: «يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّسِيًّا». (مريم/ ٢٣)

غير أن نبياً بهذه القداسة بحيث ينطلق لسانه بأمر من الله في المهدي، ويبرهن عملياً على طهارة امه، ويتحدث عن الصلاة والزكاة، وكل مظهر من مظاهر التقوى من تلك اللحظة، مثل هذا النبي يرد وصفه في بعض الأناجيل بأوصاف تبعث كل قارىء على الدهشة والاستغراب.

والآن لنستمع وننظر إلى ما بينه «انجيل لوقا» عن حكاية المرأة السيئة الصيت التي جاءت إلى المسيح عليه السلام وتابت: «ودعا أحد الفريسيين (إحدى فرق اليهود، والفريسي بمعنى المعتزل) إلى الطعام عنده فدخل بيت الفريسي وجلس إلى المائدة وكان في المدينة امرأة خاطئة فعلمت أن يسوع يأكل في بيت الفريسي وجاءت ومعها قارورة طيب، ووقفت من خلف عند قدميه وهي تبكي واخذت تبل قدميه بدموعها وتمسحهما بشعرها، وتقبلهما وتدهنهما بالطيب فلما رأى الفريسي صاحب الدعوة ماجرى، قال في نفسه: «لو كان هذا

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٨٣

الرجل نبياً لعرف من هي هذه المرأة التي تلمسه وما حالها فهي خاطئة!» فقال له يسوع:

«ياشمعون، عندي ما أقول لك»، فقال شمعون: «قل يا معلم»، فقال يسوع: «كان لمدين دين على رجلين: خمسمئة دينار على أحدهما وخمسون على الآخر وعجز الرجلان عن ايفائه دينه، فاعفاهما منه فأيهما يكون أكثر حباً له؟».

فأجاب شمعون: «أظن الذي أعفاه من الأكثر» فقال له يسوع: «أصبت» والتفت إلى المرأة وقال لشمعون «١»: «أترى هذه المرأة؟ أنا دخلت بيتك فما سكبت على قدمي ماء، وأما هي فغسلتهما بدموعها ومسحتهما بشعرها، أنت ما قبلتني قبله، وأما هي فما توقفت منذ دخولي عن تقبيل قدمي، أنت ما دهنت رأسي بزيت، وأما هي فبالطيب دهنت قدمي، لذلك أقول: غفرت لها خطاياها الكثيرة لأنها أحببتني كثيراً، وأما الذي يغفر له القليل فهو يحب قليلاً» ثم قال للمرأة: «مغفورة لك خطاياك!» فأخذ الذين معه على المائدة يتساءلون،

من هذه حتى يغفر خطاياها» (٢).

ملخص هذه الحكاية أن السيد المسيح ينزل في بيت لأحد الفريسيين وهم كانوا طائفة من اليهود، ولا يبدى له صاحب البيت احتراماً بالغاً، وما أن اطلعت المرأة العاهرة والمنحرفة «٣» التي تسكن ذلك البلد على حضوره حتى توجهت إلى بيت اليهودي وكانت العادة الجارية في ذلك العصر على غسل رجل الضيف اكراماً له، وطفى شعره بالدهن أحياناً لأن الناس كانوا يمشون حفاة غالباً، ونظراً لعدم امتلاكهم وسيلة للتغطية والحفظ في الأسفار كانت شعور وقشور أبدانهم تصاب بالجفاف على أثر هبوب الرياح. ووفقاً لهذه الحكاية المفتعلة قامت المرأة العاهرة بغسل رجلى المسيح عليه السلام بدموعها عوضاً عن الماء، وجففتها بشعرها الطويل عوضاً عن المنشفة، وقبّلتها بشفتيها بحرارة،

(١) شمعون في الأصل بمعنى السامع، وقد اشير إلى اسماء ١٠ أشخاص في الكتاب المقدس للمسيح طبقاً لما قاله مؤلف كتاب (قاموس الكتاب المقدس)، وكان أحدهم شمعون الفريسي.

(٢) انجيل لوقا، باب يسوع يغفر لامرأة خاطئة، ص ١٨٣.

(٣) هذه المرأة هي مريم مجدليته كانت عاهرة ومتمولة، فأعلنت عن توبتها على يد السيد المسيح عليه السلام طبقاً لما جاء في انجيل لوقا في الباب الثامن.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٨٤

بحيث أدى هذا المشهد المثير إلى استياء الرجل اليهودي صاحب البيت وقلقه، وقال في نفسه إن كان هذا نبياً وواقفاً على سيره هذه المرأة لصدها عن هذا العمل على الأقل، المسيح بفراسته علم بذلك، وأقنعه بذلك من خلال المثال الذي ضربه في صدد الشخصين المديونين وأعرّب له: إنني كنت ضيفك إلا أنك لم تقم بما قامت به المرأة المنحرفة من حسن الضيافة، فأنت لم تغسل رجليّ بالماء وهي غسلته بدموع عينيها وأنت لم تقبلني وهي قبلت رجليّ بلا انقطاع، ولم تدلك رأسي بالدهن وهي دلكت رجليّ بالعطر. والآن لنبدأ قليلاً بتحليل هذه القصة، لنرى هل من المناسب لهذا النبي العظيم وحتى لمؤمن عادي أن يضع نفسه تحت تصرف امرأة عاهرة كى تعامله بمثل هذه المعاملة.

أولاً: إن السيد المسيح عليه السلام كان شاباً يناهز عمره الثلاثين عاماً في ذلك العصر، ولا بد أن تكون تلك المرأة العاهرة شابة وجميلة أيضاً، ولا يعقل أن تكون قبيحة المنظر منهوكة القوى في الأعم الأغلب فكيف يتأتى لنبي عظيم بعث لتهديب الأخلاق ونشر مظاهر التقوى أن يسمح لامرأة فاجرة بأن تتمسح برجليه مرات متعددة ثم تغسهما بدموع عينيها وتجففهما بشعرها الناعم وتدهنهما بيديها الظريفتين وتطبع عليهما قبلات حارة، فهل يُعقل هذا؟

وعلى فرض أنها أرادت التوبة من وراء ذلك فإنّ للتوبة حدوداً وقيوداً أيضاً، وهل سبق لأحد إلى يومنا هذا أن يتعامل مع أحد الروحانيين أو الرهبان العاديين بمثل هذه المعاملة، حتى تصل إلى نبي من أنبياء الله؟

وعلى كل حال فالآثار الخرافية لهذه الرواية ظاهرة من بين ثناياها بصورة كاملة، فضلاً عن أن ذكره السيد المسيح عليه السلام من المثال لا يعتبر جواباً عن استفسار اليهودي على الاطلاق.

فإشكال اليهودي لم يقع على عظم محبة هذه المرأة حتى يأتي الجواب على أن عظم محبتها وشدّة تعلقها ناتج عن كثرة ذنوبها، وإنما وقع للاستفسار عن السبب في سماح نبي من أنبياء الله بأنّ تمسح امرأة عاهرة وسيئة السمعة برجليه إلى هذه الدرجة ثم تغسلها

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٨٥

بدموع عينيها، وتجففهما بشعرها، وتدلكه بالعطر والدهن، فمما لا شك فيه أن كثرة الذنوب وقتلتها لا صلة له بهذا العمل من قريب أو بعيد.

وعليه فما جاء في تواريخ القرآن من وقائع وحوادث عن السيد المسيح عليه السلام تنزهه وتبره ساحته من مثل هذه النسب السيئة.

نتيجة البحث:

يستنتج مما ذكر سابقاً ضمن هذه النقاط العشر ومن خلال ما أجريناه من مقارنة واضحة بين تواريخ العهدين (الكتب المقدسة لليهود والنصارى) هي نفس الكتب التي عُدَّت من أهم المصادر التاريخية للأديان في عصر نزول القرآن- على أن القرآن لا يمكن أن يكون وليد الفكر الإنساني إطلاقاً، لأن ذلك يستلزم أن يتأثر بها، وقابلية التأثر هذه تترك أثرها في نقل وقائع هذه القصص، فدلّت نزاهة التواريخ التي ينقلها القرآن من هذه الخرافات والنسب القبيحة خصوصاً فيما يتعلق بشرح وقائع الأنبياء على أنه صادر من مصدر العلم الرباني وأنه معجزة خالدة على مر الدهور.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٨٧

٥- الإعجاز القرآني في سن القوانين

إشارة

من المعلوم أنه قد ورد في القرآن الكريم بالإضافة إلى المعارف والتعاليم المرتبطة بالمبدأ والمعاد والمسائل الأخلاقية والتاريخية والتشريعات المتعلقة بالعبادات، مجموعة من القوانين الاجتماعية أيضاً، والتي ترسم معالم القانون الأساسي للإسلام وبعض القوانين المدنية، الحقوقية والجزائية المتعلقة به.

إنّ الدقّة والحكمة الموجدتين في النصوص القرآنية تكفيان لوحدهما في اظهار معجزة القرآن استناداً إلى أنّ ظهور و بروز هذه القوانين الحكيمه جداً- والتي ستأتي أمثلتها فيما بعد- في محيط تحكمه شريعة الغاب، أو بعبارة اخرى في جو يضج بالفوضى والتسيب، هذه القوانين بإمكانها أن تحمل كل فرد منصف على التسليم والادعان، لذا نحن لسنا ملزمين بأنّ نفتش عن عظمة هذا الكتاب السماوي واعجازه في المسائل المرتبطة بالفصاحة والبلاغة، أو المعارف والعلوم والجوانب التاريخية فقط، بل إنّ الاقتصار على البحث في مجموعة القوانين القرآنية يفتح نافذة بوجه هذا العالم الكبير.

وهنا ينبغي- وقبل كل شيء- أن نقدم مقدمة قصيرة حول بيان معنى القانون الصالح وحقيقته، وذلك من أجل تدعيم أساس هذا البحث.

ماهى أفضل القوانين؟

من الصعوبة الجواب عن هذا السؤال، ولكن إذا وقفنا على الحكمة الواقعية من وراء وضع القوانين في المجتمعات الإنسانية فإنّ معالم الطريق ستصبح واضحة.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٨٨

إنّ المسألة تكمن في كون الإنسان يميل فطرياً إلى الحياة الاجتماعية، ويعود الفضل في رقيه وتطوره إلى حياته الاجتماعية، فمن خلال هذه الحياة تتلاقح أفكار العلماء والمفكرين وتتآزر الاكتشافات والاختراعات والابتكارات العلمية الموجودة في المجتمع وتنتقل من جيل إلى جيل آخر، ففي كل يوم نشهد تطوراً وتقدماً ورقياً على صعيد العلوم والتفكير والخصارة الإنسانية.

وأياً كان الدافع من وراء الاهتمام بهذا التعايش المشترك فإنّ له موضوعاً مستقلاً للبحث، ولكن ممّا لا شك فيه إذا كانت حياة الناس

مبعثرة ومشتتة شأنها شأن حياة الحيوانات الأخرى لم يكن هناك أى فرق بين إنسان اليوم وإنسان العصر الحجري، ولا يوجد معنى للعلم والحضارة والاختراع والاكتشاف ولا- الصناعات والفنون ولا- اللغة والآداب ولا لأى شىء آخر، إلّا أنّ لهذه الحياة الاجتماعية طوارئ ومشاكل إذا لم تتم الوقاية منها بشكل صحيح فإنّها تؤدّي إلى حدوث نكبات وويلات تؤدى بحياة الأجيال فضلاً عمّا يترتب على ذلك من توقف لعجلة التكامل والرقى.

إنّ هذه الافرازات عبارة عن: الصراعات التى تنشأ من تعارض المصالح وتزاحم الحقوق وطلب الاستعلاء، وحب الاستئثار، والأنانيات والمنافع الشخصية والتي تؤدى بدورها إلى حدوث الخلافات والنزاعات والمناوشات الفردية أو الجماعية ونشوب الحروب الإقليمية، أو الدولية، ولهذا أدركت المجاميع الإنسانية منذ تلك اللحظة هذه الحقيقة وهى أنّه لو لم توضع المقررات اللازمة لتعيين حدود صلاحيات الأفراد وحقوقهم واسلوب حل المنازعات والدعاوى والمشاجرات، لانقلب الموازين الاجتماعية رأساً على عقب وأدّت إلى حدوث كارثة كبرى

وأساساً إنّما يأخذ المجتمع الواقعى طريقه إلى الوجود والظهور بعد أن تسوده حالة التعاون والتعاقد والتعاطف بين أفرادها، ومثل هذا الأمر لا يتحقق إلّا فى ظل وضع القوانين والمقررات، وفى الواقع ليس هناك مفهوم للتعاون من دون تعهد أخلاقى، وهذا التعهد بحد ذاته منشأ حدوث القانون.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٨٩

علاوة على ذلك فإنّه من الخطأ أن نعتبر وظيفة القانون منحصرة فى نطاق الحد من حدوث الاعتداءات وإنهاء النزاعات- وإن كان هذا هو الهدف من وضع الكثير من القوانين- بل يقع على عاتق القانون قبل هذا مسؤولية توثيق العلاقات الاجتماعية وإيجاد الضمانات والتعامل معها بصدق وأمانة وتأمين الحرية اللازمة من أجل تمكين وتربية القابليات وتنميتها، وتمركز القوى وتعبئة الإمكانيات باتجاه معين من أجل توسيع رقعة التكامل.

والواقع إنّ القانون هو بمثابة الدم الجارى فى عروق المجتمع البشرى، لهذا لا بدّ من القول بصراحة: إنّ عدم القانون لم يكن لوجود المجتمع معنى، ولم يتحقق التقدم والازدهار.

إذن لم يعد الجواب عن السؤال المتقدم صعباً، فالقانون الأفضل هو الذى يمتلك صلاحية أكثر فى تأمين الامور التالية:

١- أن يجمع بين كافة القوى المؤلفة للمجتمع الإنسانى تحت راية واحدة قوية، ويحل مشكله الاختلافات الموجودة فيه كاختلاف الألوان والقوميات واللغات.

٢- أن يهيء الأرضية المناسبة لنمو الاستعدادات الكامنه وتطوير القدرات الخلاقه لدى المجتمع.

٣- أن يؤمن الحرية الواقعية حتى يتمكن جميع الأفراد من العمل على تنمية استعداداتهم فى ظلها.

٤- يحدد الحق المشروع لكل شخص من الأشخاص وكل فئة من الفئات كى يقف حاجزاً دون حصول النزاعات والاختلافات والاعتداءات.

٥- أن يعمق فى النفوس روح الاعتماد والاطمئنان من خلال تعيين نظام إجرائى صحيح مضمون.

٦- القانون الصالح ليس كما يتصوره البعض بأنّه القانون الذى يحمل معه مجموعة من القوانين العريضة والموسعة التى تشتمل على الأجهزة القضائية الواسعة والشرطة والسجون الكثيرة، بل إنّ هذا يدل على ضعف ذلك القانون وذلك المجتمع وعجزهما،

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٩٠

فالقانون الصحيح هو الذى يتخذ إجراءات وقائية مناسبة من خلال وضع التعليمات الثقافية والمقررات الصحيحة حتى لا تدعو الحاجة إلى التوسل بمثل هذه الامور.

إنّ الأجهزة القضائية والعقوبات والسجون بمثابة الطب العلاجى، أو بعبارة أصح، بمثابة إجراء عملية جراحية للمريض؛ بينما القوانين

السليمة والمقررات الدقيقة بمثابة الطب الوقائي الذي يعتبر أقل مؤونة وأسلم طريقة لخلوه من الطوارئ والأخطار. بعد هذه المقدمة نعود إلى القرآن مرة أخرى لندقق في قوانينه ونبحثها.

مزايا القوانين القرآنية:

إشارة

قبل كل شيء نرى من اللازم أن نذكر هذه النكتة وهي: إن جميع هذه القوانين إنما خرجت في محيط الحجاز، ذلك المحيط الذي لا يعرف للقانون معنى تقريباً، والأمر الوحيد الذي حكم بشكل قانوني في اوساط قبائله هي العادات والتقاليد المحدودة والمتمتجة بالخرافات، لذا فإن ظهور القوانين الإسلامية في مثل هذا المحيط يعد بحق ظاهرة عجيبة لا يمكن تبريرها وتصورها تصوراً طبيعياً وعادياً، ومن هنا فلا بد أن نتعرف على خصائص القوانين الإلهية، وليس لنا سوى القبول والتسليم بأن ذلك كله صادر من الله تعالى

أولاً: الشمولية والسعة

بالرغم من أن القرآن نزل في محيط مغلق من جهات مختلفه، ومحدود في ارتباطه مع عالم ما وراء شبه الجزيرة العربية، وكان الطابع الذي يسود ارجاءه هو طابع القومية والعنصرية والحياة القبلي، فكان من الطبيعي حتماً أن يصطبغ مثل هذا المحيط بصبغة القومية العربية، بل بصبغة التعصب القبلي مما يلفت النظر إلى أن القوانين لم تصطبغ بهذه الصبغة بأى شكل من الأشكال حتى أنه لم يرد الخطاب ب (يا أيها العرب) ولا مرة واحدة في القرآن، بل إن الخطاب كان موجهاً إلى عامة الناس في كل المواضيع والخطابات حيث

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٩١

ورد بصيغة- يا بنى آدم «١» ويا أيها الناس «٢» ويا أيها الذين آمنوا «٣» ويا عبادى «٤» ويا أيها الإنسان «٥»- فالمخاطبين في القرآن هم جميع أهل العالم، وقوانينه ناظرة إلى البشرية جمعاء.

ومما يدل على هذا المدعى أيضاً هذه الآية: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ». (الأنبياء / ١٠٧)

والآية: «تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا». (الفرقان / ١)

والآية: «إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ». ونظائرها. (يوسف / ١٠٤)

لقد نبذ القرآن التمييز العنصرى- فى ذلك المحيط العنصرى- بحيث أولى اهتماماً كبيراً وعناية فائقة للأواصر الأخوية ولجميع أبناء البشرية من خلال اطروحة الرائعة المتضمنه هذا المعنى «أنتم جميعاً أبناء آدم وخلقتم من أب واحد وام واحدة» فأنتم جميعاً اخوة لأسرة واحدة، يقول عز من قائل فى هذا المضمارة: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَنَثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ». (الحجرات / ١٣)

وفى موضع آخر ينفى كافة الارتباطات المحدودة ويبلور العلاقة القائمة بين المؤمنين فى إطار الاخوة والصدقة التى هى من أقرب العلاقات التى تقوم على أساس المساواة والمواسة، إذ يقول عز من قائل: «أَنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ». (الحجرات / ١٠)

ومما يدعو إلى الانتباه والالتفات إلى ما فى هذه الآية هو مجيء كلمة «إنما» التى تستعمل للحصر، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أحاطت هذه القوانين بشموليتها سائر

(١) وردت ٥ مرات.

(٢) وردت ٢٠ مرة.

(٣) وردت ٨٠ مرة.

(٤) وردت ٥ مرات.

(٥) وردت مرتين.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٩٢

أنحاء الحياة البشرية بدءاً بأهم المسائل الاعتقادية (كالتوحيد) وانتهاءً بأبسط المسائل الأخلاقية والاجتماعية، (كالرد على السلام وعلى أى لون من ألوان التحيه والاستقبال)، فعلى سبيل المثال يقول تعالى فى أحد المواضع: «وَأَذًا حَيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيْبًا». (النساء / ٨٦)

وقد ضمَّ القرآن الكريم بين دفتيه آية تُعدُّ من أطول الآيات القرآنية التى دار الحديث فيها حول كتابة الديون والحقوق، فقد ذكر فيما يتعلق بهذه المسألة عشرين حكماً إلهياً، وهى (الآية ٢٨٢ من سورة البقرة) وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على أن تطرق القرآن للمسائل المرتبطة بالعقائد والمعارف الإسلامية لا يتنافى بتاتاً مع بيانه للأحكام الضرورية العملية أيضاً، ولا نقصد من ذلك أنه قد تم بيان جميع جزئيات الأحكام والقوانين على صعيد الظواهر القرآنية، لأنَّ ممَّا لا يقبل الشك أن حجمها يعادل أضعاف حجم القرآن، وإنَّما المقصود أنه تعالى قد بيَّن الاصول والقواعد الضرورية فى كل مورد من الموارد القرآنية.

ولا يضير فى هذا المجال أن نشير إشارات مختصرة إلى مقتطفات من هذه الأصول:

١- أكَّدنا أنَّ القرآن الكريم استند فى المسائل الاعتقادية قبل كل شىء على (أصل التوحيد)، وقد ذكر هذا المفهوم مئات المرات فى الآيات القرآنية، بحيث رسم الخطوط العريضة لأدق المفاهيم التوحيدية إلى أن يقول فى صدد الحديث عن ماهية الله تعالى «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ». (الشورى / ١١)

وقد بين صفاته الجلالية والجمالية فى مئات الآيات، ويمكنك فى هذا المجال مراجعة المجلد الثالث من هذا الكتاب (نفحات القرآن)، ولا- يقتصر الأمر عند تعريفه بوحداية الله من كل جهة، بل يعتبر نبوة الأنبياء دعوة واحدة أيضاً، بحيث لا- يرى وجود الاختلاف والتفرقة بينهم، لذا يقول: «لَأَنْفَرُقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْ رُّسُلِهِ». (البقرة / ٢٨٥)

وبالرغم من حمل كل واحدٍ منهم مسؤولية خاصة به وفقاً للمتطلبات الزمنية التى يعيش فيها كل نبي، إلَّا أنَّ حقيقة دعوتهم وجوهرها واحدة فى كل المواقع. بالإضافة إلى أن مسألة

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٩٣

التوحيد تفرض سيطرتها على مرافق المجتمع الإنسانى أيضاً، وكما قلنا سابقاً: يعتبر أفراد البشر أعضاء لأسرة واحدة، ويعتبر عنهم بالأخوة المولودين من أب واحد وأم واحدة.

٢- «العدالة الاجتماعية» وتعتبر من أهم تعاليم الأنبياء يقول تعالى «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ». (الحديد / ٢٥)

وتعقياً لهذه الغاية فقد حرَّض الله تعالى كافة المؤمنين على هذا الأمر سواء كونهم كباراً أو صغاراً، شيباً أو شباباً، وبغض النظر عن انتمائهم العنصرى أو اللغوى، فيقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ». (النساء / ١٣٥)

٣- وأما على صعيد «الروابط الاجتماعية» والاتفاقيات وكل عهد وميثاق فيدعو الله الجميع إلى الالتزام بهذا الأصل، ويقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ». (المائدة / ١)

ويقول أيضاً: «وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا». (الاسراء / ٣٤)

إن امتداد وسعة هذه الآيات شملت حتى المعاهدة والمفاوضة مع غير المسلمين، وفرضت سيطرتها على العلاقات الاجتماعية والفردية والاتفاقيات الدولية أيضاً.

٤- وعلى صعيد «الوقوف بوجه الاعتداءات»، وتفادى الاحباطات، يقول تعالى في عبارة مختصرة ودقيقة جداً: «فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا عَتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ». (البقرة / ١٩٤)

٥- وعلى صعيد «الدفاع» يقدم اطروحة أصيلة ومتينة عامة متجسده بقوله تعالى «وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ». (الانفال / ٦٠)

وفي هذا الصدد يوصى «بإعداد القوة وتعبئة القوى بصورة عامة»، وتجهيز القدرة الحربية لذلك العصر بصورة خاصة «بعنوان أحد المصاديق» وذلك من أجل الحد من وقوع الحرب، والارهاب، وإلقاء الرعب في قلوب الأعداء، وهذا من الأهداف المنطقية الكبرى لتقوية البنية العسكرية.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٩٤

٦- وأما من ناحية المناوشات الكلامية والنزاعات التي تقع بين أصحاب المذاهب والرقباء الاجتماعيين فله وصية اخرى يقول فيها: بدلاً من المقابلة بالمثل وإعداد القوى استخدموا أسلوب مقابلة الضد بالضد، وردوا القبيح بالحسن كي تقتلع بذرة النفاق والعداوة من جذورها، يقول عز من قائل: «ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ* وَمَا يُلْقَاهَا آلاَ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ». (فصلت / ٣٤-٣٥)

٧- أما بصدد «المصير الإنساني» يقول بصراحة: إن مصير كل شخص بيده، وموقوف على جهده وسعيه: «كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ». (المدثر / ٣٨)

«وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ آلاَ مَا سَعَى وَأَنْ سَعِيهِ سَوْفَ يُرَى». (النجم / ٣٩-٤٠)

٨- وحول «حرية العقيدة» وإنه لا يمكن النفوذ في الحيز الفكري لشخص معين إلا عن طريق الاستدلال وتوضيح معالم الدين يقول تعالى «لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ». (البقرة / ٢٥٦)

وفي مجال «حرية الإنسان» يقول: إن أحد الأهداف المهمة لبعثة نبي الإسلام صلى الله عليه وآله هو اطلاق سراح الناس من قيود وسلاسل الأسر والعبودية: «وَيَضَعُ عَنْهُمْ أَصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ». (الأعراف / ١٥٧)

ولهذه الأغلال مفهوم واسع بحيث تشمل كافة أنواع سلب الحرية الإنسانية.

٩- وفي صدد «عدم التدخل في الأمور الشخصية للآخرين»، والمحافظة على كرامة الأفراد، وعدم هتك حرمتهم يقول تعالى «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا». (الحجرات / ١٢)

١٠- ومن المبادئ التي أكد عليها القرآن الكريم هو مبدأ «التعايش السلمي» مع كافة الأفراد المسالمين الذين يعدونهم من أهل التفاهم والحوار في الأهداف المشتركة، أو على الأقل من الذين اتخذوا طريق الحياد والاعتدال، لذا يقول تعالى «لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ»، ثم يعقب على ذلك بقوله: «أَتَمَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٩٥

وَأَخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ». (المتحنة / ٨-٩)

إنّ المجتمع البشرى هو المصدر الرئيسى لكل تطور وتقدم علمى واجتماعى ويستطيع أن يصل إلى هدفه المطلوب عندما تحكمه روابط وثيقة ومحكمة جداً، وفيما عدا ذلك فسوف يتحول إلى جحيم لا يطاق يحمل فى طياته مآسى وويلات اجتماعية، هذا فضلاً عن عدم استثماره لمعطياته ومكتسباته الذاتية، فمن جانب يؤكد على الوحدة الشمولية للعالم البشرى بصفتهم أعضاء لأسرة واحدة، وإخوة من أب واحد وأم واحدة، كما جاء ذلك فى سورة الحجرات الآية ١٣ وأشرنا إليه سابقاً.

ومن جانب آخر يعتبر المؤمنون أعضاء لكيان واحد بغض النظر عن الاختلافات الموجودة بينهم من الناحية اللغوية والعرقية، لذا يقول تعالى «بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ». (آل عمران / ١٩٥)

ويقول فى موضع آخر: «وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ». (التوبة / ٧١) ولم يكتف بهذا الأمر فقط، فبالإضافة إلى العلاقات الإنسانية والإيمانية أوصى وأكد على الروابط الشخصية أيضاً والتي تتحقق فى نطاق أضييق وأقرب.

ولذا يعتبر نقض هذا العهد والحلف جريمة كبرى يقول تعالى فى هذا الصدد: «الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ». (البقرة / ٢٧) ونقرأ فى سورة محمد الآية ٢٢ و ٢٣ قوله تعالى «فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطُّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ». نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٩٦

وبناءً على ذلك يرى أن قطع هذه العلاقات مقارن للفساد فى الأرض، ومن دواعى فقدان البصيرة والجمود الباطنى. وتنبثق أهمية هذه الروابط فى الإسلام من أن كل ما يساهم فى تحكيم العلاقات الاجتماعية يعتبر أمراً ضرورياً، حتى أن الكذب الذى هو من أشنع الذنوب يعدّ جائزاً لأجل إصلاح ذات البين، وعلى العكس من ذلك فإن كل ما يساهم فى تضعيف هذه الارتباطات وتفككها يعتبر أمراً منبوذاً ومرفوضاً تحت أى عنوان وإسم كان.

ثالثاً: احترام حقوق الإنسان

إنّ القانون الناجح والممتاز هو القانون الذى يُقدم- بالإضافة إلى امتيازاته الاخرى أطروحة جامعة ودقيقة فى مجال حقوق الإنسان، وبناءً على هذه الحقيقة، كلما ألقينا نظرة حول الآيات القرآنية التى وردت فى هذا المجال تجلّت عظمه هذه القوانين أكثر فأكثر. فالقرآن حرص كثيراً على مسألة حفظ النفس والمال والنواميس البشرية، بحيث وصل به الأمر إلى أن يعتبر النفس الإنسانية الواحدة مساوية لنفوس الناس جميعاً، لنقرأ قوله تعالى: «مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا». (المائدة / ٣٢)

ولا نجد لهذا التعبير مثيلاً فى أى قانون آخر.

ويذهب القرآن فى صدد مسألة حقوق الإنسان إلى أن أصل العدالة يحتل مركز الصدارة على جميع الأمور فى إجراء الحقوق، ويحذر من أن تقضى النزاعات الشخصية أو العلاقات الحميمة إلى عدم إجراء العدالة والعمل بها.

يقول تعالى فى محكم كتابه: «وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ». (المائدة / ٨)

وفى مجال آخر يتعرض القرآن الكريم إلى تأثير الصداقة على إجراء العدالة حيث

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٩٧

يوجه هذا الانذار بقوله تعالى «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا». (النساء / ١٣٥)

وتتضح هذه المسألة أكثر من خلال التأكيدات الكثيرة للقرآن على مسألة رعاية الأيتام والمراقبة الدقيقة لأوضاعهم، والتعهد بكفالتهم إلى أن يكبروا ويبلغوا سن الرشد، فيقول في هذا الصدد: «ان تَقَوْمُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ». (النساء / ١٢٧)

والجدير بالذكر أن القرآن الكريم جعل مسألة الحماية والرعاية للأيتام مرادفة للتوحيد وللمسائل الإنسانية والأخلاقية الأخرى فيقول عز من قائل: «... لَاتَعْبُدُونِ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ». (البقرة / ٨٣)

ومن طريف القول: إنه تعالى قرر خمسة قوانين إنسانية لها علاقة بحقوق الإنسان في ضمن شعيرتين من أهم الشعائر الإسلامية على صعيد الاعتقاد والعمل، ألا وهما- التوحيد والصلاة.

رابعاً: الحرص على تأمين الحرية والأمن

من أهم الأمور التي اهتمت بها القوانين القرآنية هي: حرية العقيدة، وحرية الإنسان، واستقرار الأمن على في الأصعدة والمجالات كافة، وتشير إلى هذا المعنى الآية الكريمة:

«لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ». (البقرة / ٢٥٦)

ومن الأهداف المهمة لبعثه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله هي القضاء على الأسر والقيود والاعلال إذ يقول سبحانه: «وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْإِغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ». (الأعراف / ١٥٧)

وفي موضع آخر يخاطب المؤمنين بقوله: «يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي آتِي فَاغْلِبُونَ». (العنكبوت / ٥٦)

وينقل القرآن قصة عجيبة عن «أصحاب الاخدود»، أولئك الذين كانوا يعذبون المؤمنين

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٩٨

ويلقونهم في حفر النيران لا لشيء إلا لأنهم حملوا اعتقادات راسخة، لذا يصفهم بالقول: إن هذه الزمرة المتسلطة ما أقدمت على عملها هذا إلا لأجل سلب حرية العقيدة والإيمان، ثم يبين لهم أشد العقوبات الإلهية النازلة بحقهم لنقرأ قوله تعالى «إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ». (البروج / ١٠)

وكثيراً ما يُشيد القرآن الكريم بنعمة «الأمن» بحيث يعتبره مقدماً على أي شيء آخر، ولهذا السبب حينما قدم إبراهيم الخليل عليه السلام على الأرض القاحلة، ذات الحرارة المحرقة والخالية من النبات والشجر في مكة، وبنى الكعبة، فإن أول حاجة طلبها من الله تعالى لسكنى هذه الأرض مستقبلاً هي نعمة الأمن كما ورد ذلك في القرآن: «رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ». (البقرة / ١٢٦)

وقد ورد هذا الموضوع في مكان آخر من القرآن وبتعبير آخر، فيقول تعالى «رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ». (ابراهيم / ٣٥)

ففي الآية الأولى تقدم ذكر الأمن على الأمور الاقتصادية، وفي الآية الثانية تقدم ذكره أيضاً على مسألة التوحيد، ولعله إشارة إلى عدم تحقق الضمان الديني والديني للمجتمع بدون انتشار الواقع الأمني في المحيط القائم، بالإضافة إلى أن القرآن يصف حالة انعدام الأمن بأنها أسوأ حالاً من القتل وسفك الدماء، فيقول: «وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ».

(البقرة / ١٩١)

وبالرغم من أن للفتنة معانى كثيرة، (كالشرك، والتعذيب والتنكيل والفساد)، ولكن لا يستبعد أن يكون مفهوم الآية شاملاً بحيث يستوعب كل هذه المعانى.

وعليه فإن إيجاد حالة من انعدام الأمن والفساد تفوق بمراتب حالة سفك الدماء لأنها بالإضافة إلى كونها مصدراً لسفك الدماء، هي مصدر للمفاسد الاخرى أيضاً.

وتجدر الإشارة إلى هذه النكتة أيضاً وهى: إنه قد تقرر فى الإسلام نوع خاص من «الأمن» لم يسبق له وجود فى أى قانون من القوانين الدولية ألا وهو الحفاظ على حيثية الأفراد وكرامتهم، حتى فى دائرة أفكار الآخرين.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ١٩٩

وبتعبير أدق: إن الإسلام لا يسمح لأى مسلم أن يحمل فى نفسه الظن السىء والتفكير الخاطيء تجاه الآخرين فيعمد إلى خدش كرامته الآخرين وحرمتهم فى دائره التفكير الشخصى، وقد تجسد هذا المعنى بقوله سبحانه فى الآية: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَآتَجَسَّسُوا». (الحجرات / ١٢)

إن الإسلام يريد أن تسود حالة الامن والاطمئنان التام فى المجتمع الإسلامى، ولا يقتصر الأمر على النزاعات الشخصية بين الآخرين فحسب، وإنما يشمل المناوشات الكلامية، وأكثر من ذلك على صعيد الاتجاهات الفكرية بين الأفراد مع بعضهم البعض، بحيث يشعر كل واحد منهم بأن أخيه لا يسدد باتجاهه سهام التهمة والافتراء، وهذه الحالة تمثل أعلى مستويات الأمن ولا تتحقق إلا فى ظل وجود المجتمع الإيمانى وسيادة القوانين الإسلامية.

والجدير بالذكر إنه قد ورد النهى عن الكثير من الظنون، ولكن فى أثناء بيان العلة يقول:

إن بعض الظنون إثم، ولعل منشأ التفاوت فى التعبير عائد إلى أن الظنون السيئة تجاه الآخرين تطابق الواقع أحياناً، ولا تطابقه أحياناً اخرى وبناءً على أن النوع الثانى يعدُّ ذنباً من الذنوب، فلا بد من الابتعاد عن كل الظنون السيئة الواقعة تحت عنوان «كثيراً من الظن».

النكتة الأخيرة فى هذا البحث: هى أن الإسلام انطلاقاً من اهتمامه الكبير بتحقيق الأمن الداخلى فى المجتمعات الإسلامية أجاز التوسل بالقوة والقدرة العسكرية لحل الاختلافات والمجابهات الداخلية فى حالة فشل الأساليب والطرق السلمية، ونطالع هذا المعنى فى قوله تعالى «وَأَنْ طَائِفَتَيْنِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاصِلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ أَحَدَاهُمَا عَلَى الْآخَرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِىءَ إِلَى آهِرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَاصِلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ». (الحجرات / ٩)

إن من يمعن النظر جيداً فى تعبير هذه الآية: يجد أن كل مقطع من المقاطع فيها يحكى عن تحديد صورة لمنهج دقيق يقضى بإنهاء أى شكل من أشكال الاضطراب والفتن

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٠٠

نفحات القرآن ج ٨ ص ٢٤٨

الاجتماعية وذلك من خلال استخدام أفضل السبل السلمية، أو اللجوء إلى القوة فى نهاية المطاف إذا لم تثمر الأساليب الاخرى ومن البديهي أن المقصودين بالخطاب فى هذه الآية هم أفراد المجتمع الإسلامى، أو بعبارة اخرى الحكومة الإسلامية.

خامساً: ضمانات تنفيذ القوانين القرآنية

إن وجود القوانين الدولية لا- يمثل سوى حبر على ورق، وغاية ماتقوم به من تأثير ذاتى أنها تنقل النصيحة والموعظة لكن بدون الاستناد إلى أى دليل، وعبارة اخرى فإن القوانين بحد ذاتها لا تنطوى إلا على بعد ذهنى وفكرى، وحتى تكتسب قيمة اجتماعية تحتاج إلى أن تستند إلى قاعدة معينة تلزم أفراد المجتمع باتباعها والانصياع لها، وهذه القاعدة هى التى يطلقون عليها عنوان «الضامن

التنفيذى» أو «الضمانة التنفيذية».

يتضح جيداً من هذه المقدمة أنّ قيمة القانون وصلاحيته متوقفه على مدى قوة الضمانات لتنفيذ هذه القوانين وقدرتها، فمتى ما كانت الضمانة الإجرائية لأحد القوانين أقوى وأدق كانت قيمته الاجتماعية أعلى وأكثر.

إنّ الكثير من الضمانات التنفيذية للقوانين تنطوى على آثار سيئه للغاية، وتخلق مشاكل ومساوىء على صعيد المجتمع؛ وتؤدى أحياناً إلى الاصطدام وانعدام الثقة، وسوء الظن بين الأفراد، أو أنّها تعكس القانون بشكل صارم ورهيب وهذه بحد ذاتها تعتبر خسارة كبرى ولو كانت الضمانة التنفيذية تستند إلى مجموعته من المباني الثقافية والأخلاقية والعاطفية، لما اشتملت على أى من هذه المساوىء. إنّ العالم المعاصر ومن أجل تطبيق القوانين الوضعية يمر في دوامة قاتلة.

وهذه الدوامة ناشئة من عدم وجود ما يضمن تنفيذ هذه القوانين سوى العقوبات المادية

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٠١

والتي تشمل العقوبات الجسدية أو الغرامات المادية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى عدم سن القوانين التي تقضى بمعاقبة المجرمين بالإعدام عند ارتكابهم للجرائم والجنايات الفجيعة والتي يستحق فاعلها ذلك.

إنّ عدم وجود الوازع النفسى والوجدانى الذى يضمن تنفيذ القوانين الوضعية، وكذلك ضعف الضمانات التنفيذية الخارجيه، أدّى إلى حصول الكثير من المخالفات القانونية وقد ترتب على ذلك ابتعاد الناس عن الضوابط والمقررات وتجدّر حالة عدم المبالاة يوماً بعد يوم، والدليل على ذلك هو كثرة المؤسسات القضائية والسجون فى العالم.

وهذا الوضع هو الذى يمكن أن يطلق عليه عنوان «أزمة الضمانة التنفيذية»، وله نتائج وعواقب غير محموده، الأمر الذى جعل المجتمعات الإنسانية بأسرها تدفع ضرائب ثقيله، ويمكن الوقوف على شواهد من هذا القبيل فى أرقى الدول الصناعية فى العالم. ومن العقبات الاخرى للضمانات التنفيذية فى القوانين الدولية المعاصرة، هو الاقتصار على الأحكام الجزائية وفقدان الجانب الإيجابى فى الجزاء أى الاتكاء على العقوبة وترك المكافاه.

إنّ الإنسان يتمتع بقوتين «القوة الجاذبة والدافعة» أو بعبارة اخرى الميل للحصول على المنافع ودفع المضار، ولا بدّ من الاستعانة بكلا الجانبين فى إجراء القوانين، فى حين أنّ عالم اليوم يحصر جلّ اهتمامه على دفع المضار وفى دائرة محدوده أيضاً، والدليل على ذلك واضح، لأنّ العالم المادى ليس فى جعبته شىء ليحمله بعنوان مكافاه تقديرية أزاء كل من يعمل ببنود القانون.

وعلى ضوء هذه المقدمات نعود إلى مسألة «الضمانة التنفيذية للقوانين القرآنية» لئلا نرى اشتماله على أقوى الضمانات التنفيذية وأجمعها، وهذا الامتياز ينفرد به دون غيره.

وقد أخذت بعين الاعتبار ثلاثة أنواع من الضمانات التنفيذية فى القرآن:

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٠٢

١- الضمانة التنفيذية المستمدة من الدولة الإسلامية.

٢- الضمانة التنفيذية المستنده إلى الرقابة العامة.

٣- الضمانة الذاتية الداخلية أو بتعبير آخر، الضمانة الناشئة من الإيمان والاعتقاد بمبادئ الإسلام والقيم الأخلاقية والعاطفية.

ففى المورد الأول تقع على عاتق الدولة الإسلامية مسؤوليه الوقوف بصورة حديه بوجه أى شكل من أشكال المخالفة القانونية، فالخطوة الاولى التى أقدم عليها نبي الإسلام صلى الله عليه وآله بعد هجرته إلى المدينة، وبعد التغلب على المشاكل العالقة، هى إرساء دعائم الدولة الإسلامية، وبيان معالم القوانين الإسلامية، وملاحقة أى نوع من أنواع الانحراف والشذوذ باعتباره من الذنوب التى تدخل فى دائرة (العقوبة الجزائية).

لقد اعتبر الإسلام القوانين القرآنية حدوداً إلهية، ووجه العقوبة إلى كل من يتجاوز هذه الحدود.

فمن جهة يُعرّف المتخلفين بأنهم ظالمون يقول تعالى «وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ». (البقرة / ٢٢٩)

ومن جهة اخرى يؤكد على محاربة الظالمين.

فحينما يذهب القرآن إلى القول: «لَقَدْ ارْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ». (الحديد / ٢٥)

فإن معناه: إن شخص نبى الإسلام صلى الله عليه و آله الذى هو خاتم الأنبياء وسيدهم هو الذى تقع على كاهله هذه المسؤولية قبل أى شخص آخر.

هذا من جانب، ومن جانب آخر يدعو كل فرد من أفراد الأمة الإسلامية إلى المراقبة فى اجراء القوانين الإلهية، ووفقاً لمبدأ «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، يلزم الجميع بأن لا يتهاونوا ويتخاذلوا فى الوقوف بوجه الانحراف عن القوانين الربانية.

لذا يقول سبحانه فى أحد المواضع: «وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٠٣

يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ». (التوبة / ٧١)

وتتجلى الأهمية القصوى لهاتين الوظيفتين فى الآية الكريمة من خلال تقديم ذكرهما على الصلاة والزكاة وإطاعة الله والرسول، والسر فى ذلك يقع فى أن أركان الصلاة والزكاة والطاعة لا تستقيم أعمدها من دون هذه الرقابة العامة على اجراء القوانين.

وفى موضع آخر حينما يعمد تعالى إلى طرح الصفات المختصة بالمجاهدين فى سبيل الله أولئك الذين اشتروا الجنة من الله تعالى بأموالهم وأنفسهم، يقول بعد بيان ست صفات من الصفات المتعلقة بهؤلاء المجاهدين: «الْأَمْزُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ». (التوبة / ١١٢)

ومما يلفت النظر: إنه نظراً إلى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له مراحل مختلفة تبدأ من النصيحة والإرشاد والمواعظ الاخوية، وتشق طريقها حتى تصل إلى مرحلة التشدد والحزم العملى، بناءً على ذلك فقد قسمها القرآن إلى قسمين، جعل القسم الأول فى متناول الجميع، أما القسم الثانى فقد جعله فى متناول جماعة خاصة تمارس أعمالها تحت إشراف الحكومة الإلهية، ولذا يشير إلى هذا التقسيم بقوله تعالى «وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

(آل عمران / ١٠٤)

ومن البديهي إن الأمة التى تأخذ على عاتقها مسؤولية الرقابة، على اجراء القوانين ويشاطرها فى هذا الشعور بالمسؤولية كافة أفراد المجتمع، سيكون القانون فى أوساطها معزماً مكرماً وصالحاً للتطبيق فى الوقت المناسب.

وحيثما نخرج من دائرة الرقابة العامة يأتى الكلام عن الرقابة الذاتية، والروحية والاعتقادية والوجدانية للأفراد على حسن اجراء القوانين وهكذا رقابة تعتبر بحق أفضل أنواع الرقابات وذلك لوجود الرادع الذاتى للفرد.

أمّا «الإيمان بالمبدأ» أى بالله عز وجل الذى هو حاضر فى كل حين وهو أقرب إلى العباد من أنفسهم: «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ». (ق / ١٦)

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٠٤

وسبحان الذى: «يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ». (غافر / ١٩)

والله الذى جعل الأرض والزمان وحتى أعضاء بدن الإنسان رقيباً عليه وشاهداً وشهيداً على أفعاله «١».

و «الإيمان بمحكمة القيامة الكبرى بحيث لو كان فى صحيفة أعمال الإنسان مقدار ذرة من عمل الخير أو الشر لاحضروها أمامه، ويلاقى حسابه وجزاؤه: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ» * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ». (الزلزلة / ٧-٨)

وليست الأمثلة السابقة هى التى تعكس آثار الإيمان بالمبدأ والمعاد فحسب، بل لدينا مئات الأمثلة من هذه الآيات فى القرآن الكريم

يعدّ الاعتقاد بها من أفضل الضمانات لتنفيذ القوانين الإلهية.

وكم هو الفرق بين من يرى نفسه مراقباً من قبل القوى الامنية والعسكرية التي لا- تتجاوز أعدادها الواحد بالالف وبما تمتلك من إمكانيات محدودة ونواقص كثيرة عندما تكون رقيباً على أعمال الآخرين، ومع ما تراه لازماً من اتخاذ الاستعدادات الكافية من أجل الدخول في الأماكن الهامة والمنازل العامة، وما أبعد الهوة بين هذا الشخص وبين من يرى نفسه في كل الأحوال والأمكنة وبدون استثناء خاضعاً لرقابة الله المستمرة والملائكة، ويعتقد أنّ الموجودات من حوله وحتى أعضاء بدنه ستحتفظ بأعماله وتعلن عنها في حينه.

إنّ الضمانة التنفيذية لا- أثر لوجودها في العالم المادى إطلاقاً، ولهذا السبب لم تتمكن الضمانات التنفيذية الاخرى بأى شكل من الأشكال أن تقف حاجزاً أمام المخالفات الاخرى في حين تنحسر هذه المخالفات القانونية في ظل الأجواء الدينية الواقعية التي يكون هذا الضامن التنفيذى فيها فعالاً، كما تحقق ذلك في زمن حياة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ففي ذلك الزمان لم يكن لوجود السجون معنى على الاطلاق، وقلّما كانت تعقد المحاكم القضائية، فقد كانت شكاوى الناس تتلخص بمجىء بعض الأشخاص أحياناً إلى محضر النبي صلى الله عليه وآله في المسجد ويطحون دعاواهم، فيستمعون إلى الأجوبة في المكان نفسه ويخرجون راضين بالحلول العادلة.

(١) الزلزلة، ٤؛ ويس، ٦٥؛ والنور، ٢٤.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٠٥

وفي الوقت الحاضر أيضاً تصل الجنايات والانحرافات إلى الحد الأدنى في المجتمعات الدينية خاصة في المناسبات الدينية (من جملة مناسبات شهر رمضان المبارك).

سادساً: إحياء القيم الروحية

بالرغم من أنّ الوجود الإنساني مركب من مادة وروح أو من جسم وروح، وحياة الإنسان متكونة من جانبيين، جانب مادي وجانب معنوي، إلّا أنّ جميع القوانين في العالم المادى ناظرة إلى القيم المادية، فأى عمل لا يتعارض مع المسائل المادية للمجتمع يعتبر جائزاً ومشروعاً في نظرهم، ويدخل في هذا المضمار تصويب الكثير من القوانين المخزية والتي يبعث ذكرها على الاشمئزاز والتقرز، والحال أنّ هذا الفصل لا يوجه ضربه إلى الشخصية الإنسانية المرموقة ويحطها إلى مستوى الحيوان فحسب، بل يُعرض نفس القيم المادية للخطر أيضاً، وذلك لعدم إمكانية الفصل عملياً بين هذين الأمرين.

وانطلاقاً من كون القرآن منسجماً مع الخلقة والفضيلة الإنسانية فهو يأخذ بالاعتبار كلّاً من القيم المادية والمعنوية معاً، فحينما يتطرق في حديثه إلى اختيار الزوجة يقول: «الزَّانِي لَأَيِّنِكْحُ أَلَا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَأَيِّنِكْحُهَا أَلَا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ عَلَيْكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ». (النور/ ٣)

ويقول أيضاً: «قُلْ لَأَيَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ». (المائدة/ ١٠٠)

من الواضح إنّ ذكر الخبيث والطيب في هذه الآية إمّا ناظر إلى الطهارة المعنوية وعدمها، وإمّا ناظر على الأقل إلى العموم فيشمل المعنى المادى والمعنوي معاً، لذا فإنّ كثرة الأوبئة وانتشار الموبقات لا يمكن أن يكون دليلاً على مشروعيتهم وحقانيتهم.

وتتبلور هذه المسألة أكثر في القوانين والديساتير المرتبطة بالزواج خاصة لأنه يحدث كثيراً أن يقع كل من الجمال الظاهري والمعنوي على طرفي نقيض، فيقترن جمال الظاهر مع

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٠٦

تلوث الباطن، وحسن الباطن مع عدم جمال الظاهر. ففي هذه الحالة يرجح القرآن الكريم الكفة الثقيلة لجمال الباطن وجاذبية الروح والأخلاق والإيمان فيقول: «وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ». (البقرة/ ٢٢١)

ومن المؤسف حقاً هو عدم الاهتمام بالقيم المعنوية في وضع القوانين والمقررات الاجتماعية في عالم اليوم حيث أصبح من العوامل المهمة للكثير من المآسى والويلات، علاوة على أن هؤلاء لا يجدون الطريق إلى هذه القيم في الواقع، لأن الاعتراف بهذه القيم لا يتم بدون الاستناد إلى رؤية معنوية لتكون تقيماً وزناً لها وتحفظ بقيمتها، لذا أصبح العالم المادى عاجزاً عن الوصول إليها، وما يشاهد حالياً في المتون القانونية لعالم اليوم من قبيل حقوق الإنسان مثلاً فهو الآخر عرضة للتفسير المختلفة دائماً، أو مبرر لتوجيه الابتزازات المادية، وغطاء للتستر على الأهداف اللامشروعة المنافية للأصول المنسجمة مع الإنسانية في كل الحالات.

سابعاً: الاصول الثابتة والمتغيرة

من المعلوم لدينا أن مسلمي العالم يعتقدون من خلال ما استلهموه من القرآن والأحاديث الإسلامية المعتبرة أن نبي الإسلام هو خاتم الأنبياء، وأن الدين الإسلامي هو الدين الخالد، ومع التسليم بهذا الاعتقاد يبرز هذا السؤال وهو: كيف يمكن الحفاظ على بقاء الأحكام والمقررات الثابتة والخالدة مع حدوث التغييرات المستمرة للحياة الاجتماعية للجنس البشرى، وكيف يتم حصول المتطلبات المتغيرة مع وجود قوانين ثابتة؟

إن القوانين القرآنية عالجت هذه المشكلة وذلك من خلال تصنيف القرآن لهذه القوانين

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٠٧

إلى صنفين: الصنف الأول منها هي القوانين الكلية التي أصلها ثابت، ومصادقها وموضوعها الخارجى في تغير وتبدل مع مرور الزمن، والصنف الثانى منها هي القوانين الخاصة والجزئية بالاصطلاح وهي غير قابلة للتغيير.

وتوضيح ذلك: يؤخذ من خلال ما خاطب به القرآن المؤمنين بقوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ». (المائدة/ ١)

هذه هي إحدى الاصول العامة السائدة على مرّ العصور والأزمنة، وإن كان موضوعها ومصادقها في حالة تغير وتبدل، فمثلاً ظهرت مع مرور الزمن سلسلة من الارتباطات الحقوقية الجديدة والاتفاقيات المستحدثة بين أوساط الناس لم يسبق لها وجود في عصر نزول القرآن، فعلى سبيل المثال لم يكن يبدو للعيان شيء اسمه «التأمين»، أو أنواع الشركات المختلفة في ذلك الزمن، والتي تحققت في عصرنا هذا حسب حصول المتطلبات اليومية، بيد أن القانون العام الآنف الذكر قد شمل كل هذه الأمور، فأى شكل من أشكال الاتفاقيات والمعاملات الجديدة والعقود والمواثيق الدولية، التي تظهر على مسرح الوجود حسب المتطلبات إلى نهاية العالم وتكون منسجمة مع الاتفاقيات الإسلامية تقع ضمن هذا الشمول، ونجد قسطاً وافراً من هذه القوانين في الإسلام بصورة عامة والقرآن بصورة خاصة.

ولننظر في قوله عزّ من قائل: «وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ». (الحج/ ٧٨)

بناءً على ذلك إذا تعدّر أداء إحدى التكاليف الإسلامية في ظروف خاصة فإنها تخرج من دائرة الوجوب والإلزام تلقائياً، فيتبدل الموضوع في ظروف قاسية إلى التيمم، والصلاة من وقوف إلى الصلاة من جلوس، والصلاة من جلوس إلى الصلاة في حالة الاضطجاع، ويتبدل صوم الأداء إلى صوم القضاء، ويرتفع الحج في مثل هذه الظروف.

وقد وردت إشارات إلى «قاعدة لاضرر» في موارد خاصة من آيات قرآنية متعددة تدل على خطر الأمور التي تلحق الضرر والأذى

بشكل أو بآخر، ولذلك تحدد وتضيق دائرة

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٠٨

الأحكام والمقررات التي بينت على شكل حكم عام حينما تصل إلى موارد الضرر والحرَج.

يقول القرآن في موضوع النساء المطلقات: «وَلَا تُضَارُّوهُنَّ». (الطلاق / ٦)

ويقول في موضع آخر: «وَلَا تُمَسِّكُوهُنَّ ضِرَارًا». (البقرة / ٢٣١)

ويقول في مورد الوصية: «مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصَى بِهَا أَوْ دِينَ غَيْرِ مُضَارٍّ». (النساء / ١٢)

ويقول في مورد الشهود وكتاب السننات: «وَلَا يُضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ». (البقرة / ٢٨٢)

إنَّ هذه القاعدة المطروحة بشكل أكثر تفصيلاً في الروايات الإسلامية تعتبر من القواعد المهمة التي تقوم بتطبيق الأحكام الإسلامية (من خلال التغيرات الطارئة على الموضوعات)، على الاحتياجات والضروريات الواقعية لكل زمان، وقد تم شرح ذلك في كتب «القواعد الفقهية»، وعلى أي حال فإنَّ من الشواهد الأخرى لهذا المدعى هي: «قاعدة العدل والانصاف»، وقاعدة: «عدم تكليف مالا يطاق»، وقاعدة: «المقابلة بالمثل»، في المسائل المتعلقة بالجنايات والقصاص والاضرار المالية، وكلها لها جذور قرآنية، وخلاصة الكلام: إنطلاقاً من «خاتمية نبوة نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وفقاً للآية ٤٠ من سورة الأحزاب» واستمرارية القرآن الكريم، فإنَّ القوانين القرآنية طرحت من الدقة بمكان بحيث لم تسنح لظروف الزمان وتحولات الظروف والمتطلبات البشرية التي عفا عليها الدهر وعلاها غبار الزمن الغابر.

وفي الوقت التي كانت تسد الاحتياجات القانونية لعصر النبي صلى الله عليه وآله الذي هو عصر نزول القرآن كانت ناظرة أيضاً إلى الأزمنة والقرون الآتية، ومن الأمثلة الرائعة والجلية هو ما نلاحظه في الآية المتضمنة لمفهوم (إعداد القوى وتعبئتها حفاظاً على بيضة الإسلام والمسلمين): «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ». (الأنفال / ٦٠)

فمن جهة يضع بصماته على المستلزمات الضرورية لذلك العصر ويتحدث عن الخيول المُجَرَّبَةِ، ولكن من جهة أخرى يُنَوِّه إلى أصل عام يتوافق مع ذلك العصر، ومع كل عصر

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٠٩

حتى قيام الساعة، وهذا الأصل هو تهيئة شتى أنواع القوى والقدرات التي تشمل كافة الوسائل القديمة والحالية والمستقبلية.

وأروع ماورد في هذه الآية هو هذا المعنى: إنَّ الغاية من كل هذه الأمور هو إلقاء الرعب في قلوب الأعداء ليقف ذلك حاجزاً دون وقوع الاعتداء والحرب، لا أن يؤدي ذلك إلى مزيد من إراقة الدماء.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢١١

٦- الإعجاز الغيبي للقرآن

إشارة وتنبية:

إشارة

بالرغم من وجود أصول وجذور للحوادث المستقبلية في الماضي والحاضر إلما أنه لن يستطيع أحد أن يكشف النقاب بدقته عن الحوادث المستقبلية، وبالرغم من إرادة الإنسان وعزمه المستمر في التعرف والاطلاع على الحوادث المستقبلية، وبالرغم من المساعي الكثيرة التي بذلها في هذا الطريق، إلما أنه لم يصل إلى وسيلة ناجحة ترفع الحجب الكثيفة التي حالت بينه وبين المستقبل.

إنَّ الرغبةَ الشديدةَ التي يحملها الإنسانُ للاطلاع على الحوادث المستقبلية هو الذي بعث الحماس والحمية في سوق الكهان والمنجمين وأصحاب الخرافات، بل حتى الذين يقرأون الطالع والفأل، وهؤلاء بدورهم كانوا يستثمرون حالة النهم والولع لدى الناس بالاستفادة من ألعابهم وخدعهم الماكرة، ويُسلونهم بسلسلة من العبارات المبهمة أو الأقاويل المملة التي كان يتمكن كل شخص أن يطبقها على مراده ومقصوده بسهولة، وكانوا يكسبون المنافع والأرباح من هذا الطريق.

وفي يومنا هذا أيضاً تحصل نبوءات كثيرة في عالم السياسة وغيرها من العوالم الأخرى ترمى الوصول إلى أهداف خاصة غالباً، وهي جزء لا يتجزأ من المخطط السياسي للدول، لكن الكثير منها لا يتحقق في الخارج. ويخالف ما هو عليه واقعاً.

والجدير بالذكر إنَّ هذه الأقاويل الخاطئة لا تقف مانعاً أمام التنبؤات المستقبلية في مثل هذا النوع من المسائل أيضاً، بيد أن الحقيقة التي لا يمكن التعميم عليها هي لو أن شخصاً

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢١٢

عمد إلى بيان الأمور المستقبلية بدقة وبكل تفاصيلها (لا بصورة طرح المعاني الكلية والبيانات المبهمة والعبارات المتضاربة) فهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أنه مطلع على أسرار الغيب بصورة إجمالية، وإذا تكرر وقوع هذا التنبؤ وكان متقارناً مع دعوى النبوة أو الإمامة فحينئذ يمكن التعويل عليه بصفته أحد البراهين والأدلة.

من خلال هذه الإشارة نعود مرة أخرى لنبحث أمثلة كثيرة من هذا القبيل في القرآن الكريم:

١- «الْم * غَلَبَتِ الرُّومُ * فِي ادْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيَّغْلِبُونَ * فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلِ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بَنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعَدَّ اللَّهُ لَأَخْلِفَ اللَّهُ وَعَدَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ».

(الروم / ١-٦)

٢- «لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ أَنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤْسَهُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا».

(الفتح / ٢٧)

٣- «وَعِدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَآخَرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا».

(الفتح / ٢٠-٢١)

٤- «أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ * سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ».

(القمر / ٤٤-٤٥)

٥- «وَأَذِيعَدُّكُمْ اللَّهُ أَحَدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهُمَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَه تَكُونَ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ».

(الأنفال / ٧-٨)

٦- «أَنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ».

(القصص / ٨٥)

٧- «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ».

(تبت / ١-٣)

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢١٣

٨- «أَنَا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ».

(الكوثر / ١-٣)

٩- «لَنْ يَضُرُّوكُمْ وَلَا أَذَىٰ وَآنَ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ».

(آل عمران / ١١١)

١٠- «ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ أَيْنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحِجْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحِجْلٍ مِّنَ النَّاسِ».

(آل عمران / ١١٢)

١- الأخبار عن هزيمة الأعداء في أقل من عشر سنين

في الآية الأولى إخباراً عن هزيمة الروميين «عُلبت الروم»، ثم يتحدث بعد ذلك عن محل وقوع هذه الحادثة فيقول: «فِي أَدْنَى الْأَرْضِ»، والمقصود منها أراضي الشام بحد ذاتها أي (المنطقة الواقعة بين بصرى وأذرع)، وهي داخله ضمن دائرة الروم الشرقية، وكانت تعتبر من المناطق القريبة بالنسبة إلى سكان الجزيرة العربية.

وقد وقعت هذه الحرب بحسب ماورد عن بعض المؤرخين المعاصرين في عهد «خسرو برويز» وهي حرب طويلة الأمد دارت رحاها بين الفرس والروم في حدود عام ٦١٧ ميلادي، حينما قام اثنان من القادة الإيرانيين المعروفين، وهما «شهر بُراز» (١) و «شاهين» بمهاجمة أراضي امبراطورية الروم الشرقية، وتمكنا من إلحاق هزيمة مرة بجيش الروم، وكانت منطقة الشامات ومصر وآسيا الوسطى مسرحاً لهذه العمليات، وقد آلت امبراطورية الروم أثر هذه العمليات إلى السقوط والانقراض بعد الهزيمة النكراء التي لحقت بها، وقد استولى الإيرانيون على كل ما بسط الروم نفوذهم عليه في منطقة آسيا ومصر، وقد وقعت هذه الحرب في حدود السنة السابعة لبعثة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله.

(١) اسمه فرخان، قائد إيراني حارب الروم في زمان خسرو برويز واستولى على مصر سنة ٦١٦ ميلادي، معجم دهخدا- مادة (براز).

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢١٤

وفرح أعداء الإسلام والمشركون في مكة بهذه الواقعة وتفاءلوا بها خيراً واستدلوا على حقانية أهل الشرك فقالوا: إن الإيرانيين «مجوس» ومشركون و «وثنيون» أميا الروميون فهم مسيحيون أهل كتاب، فكما تغلب الإيرانيون على الروميين، سيكون النصر حليفنا أيضاً نحن المشركين، وستطوى صحيفة حياة محمد صلى الله عليه وآله وتكون الغلبة لنا ولمعتداتنا. إن هذا النوع من الاستنتاج والتفاؤل وإن لم يستند إلى أي قاعدة منطقية، إلا أنه لم يخل من تأثير إعلامي في أوساط ذلك المحيط، ولهذا السبب كان تأثيره شديد الوطأة على المسلمين.

ويضيف القرآن تعقياً على الآية السابقة: اعلموا أن هذه الغلبة للفرس لا تدوم زمناً طويلاً «وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ» أي الروم، ثم يشير إلى الجزئيات بعد ذلك بقوله:

«فِي بضع سنينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِّنْ قَبْلِ وَ مِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ».

إلا أن هذا الفرح والسرور ليس قائماً على أساس التفاؤل بالخير بالنسبة لغلبة الإسلام على الشرك فحسب، بل السبب الأساسي لغبتهم هذه هو حصولهم على المدد الإلهي (بالنصرة على مجموعة من الأعداء في محيطهم الداخلي) «بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ».

ومن أجل ترسيخ هذا المعنى أكثر، وازالة أي لون من ألوان الشك والتردد، يقول تعالى

«وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ».

إن هذا التنبؤ العجيب المشتمل على ذكر الجزئيات، والذي يخبر عن أحد المسائل العسكرية والسياسية المهمة، كيف يمكن له أن يتحقق بدون الإحاطة بأسرار الغيب؟

فمن جهة يخبر عن أصل وقوع الانتصار للروميين المندهرين الذين وصل بهم الاحباط والهزيمة إلى حد الانقراض وفقدوا مساحة شاسعة من أرض بلادهم، ولم يعد هناك أمل بأن يستعيدوا قواهم ويثبتوا كيانهم بهذه السهولة، ومن جهة أخرى يصرح بأن هذا الأمر سيتحقق في بضعة أعوام.

ويضيف على ذلك بقوله: إن هذا سيقترن بنصر آخر للمسلمين على الكفار، وفضلاً عن

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢١٥

ذلك كله يؤكد تأكيداً قاطعاً على أن هذا الوعد الإلهي حتمي الوقوع وأن الله لن يخلف وعده.

ونرى أن هذا الوعد تحقق فعلاً بكل جزئياته، فقام ملك الروم «هرقل» بالحقاق الهزيمة تلو الهزيمة بمعسكر «خسرو برويز» في سنة ٦٢٦ م أي بعد ٩ سنوات تقريباً حيث كانت نتائج هذه الحروب لصالح الروميين إلى سنة ٦١٧ م وحققوا النصر الكامل والشامل، وأصيب «خسرو برويز» بالفشل الذريع فأزاحه الإيرانيون من على دسده الحكم وأجلسوا مكانه ابنه «شرويه».

خلاصة الكلام: إن هزيمة الروميين وقعت في سنة ٦١٧ م الموافق للسنة السابعة للبعثة النبوية الشريفة، واستعاد الروميون نصرهم من جديد في سنة ٦٢٦ م حينما ألحقوا الهزيمة «بالجيش الساساني»، ووصلت هذه الهزيمة إلى أوجها في السنة القادمة أي (سنة ٦٢٧ م) ذلك أن هرقل زحف إلى «دستجرد» الواقعة على بعد عشرين فرسخاً من «تيسفون» عاصمة إيران وموطن «خسرو برويز»، واندرح «خسرو برويز» ولاذ بالفرار، وعُزل على أثرها من مقام السلطنة مما أدى ذلك إلى قتله، ونجد أن الفاصلة بين هذين لم تتجاوز التسع سنوات، وهو مطابق تماماً لمعنى «بضع سنين»، لأن «البضع» في قاموس اللغة وعلى حد قول الراغب في المفردات: هو بمعنى حصه من العدد عشرة، فكل ما يقع بين الثلاثة والعشرة يقال له: بضع، وقال البعض: إن البضع يطلق على العدد الذي يكون أكثر من خمسة وأقل من عشرة.

وجاء في معجم مقاييس اللغة أيضاً أن «البضع» هو العدد الذي يقع بين الثلاثة والعشرة.

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه النبوءة أصبحت من الأمور المتعارفة والمسلمة لدى المسلمين حتى كان البعض منهم على استعداد لأن يراهن على هذه المسألة مع المشركين في مكة، وتحقق هذا الرهان بالفعل، وفي بداية الأمر وقع الرهان على خمس سنوات، ولما لم يتغير من الأمر شيء جاءوا إلى النبي وأخبروه بحقيقة الأمر، وما جرى عليهم مع المشركين، فقال لهم: كان ينبغي عليكم أن تحاوروهم على أقل من عشر سنوات،

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢١٦

وهكذا حصل وتحقق النصر بعد الهزيمة في أقل من عشر سنوات.

ومن النكات المهمة الأخرى هي اقتران هذا النصر بانتصار المسلمين في «معركة بدر» لأن معركة بدر وقعت في السنة الثانية للهجرة، والمقطع الزمني الفاصل بين السنة السابعة للبعثة والسنة الثانية للهجرة هو تسع سنوات - هذا إذا ما أخذنا في الاعتبار نفس السنة السابعة أيضاً وبدونها تكون الفاصلة بينهما ثمان سنوات.

من هنا كان انتصار الروميين وانتصار المسلمين متقاربين، وفي الواقع إنما فرح المسلمون لأمرين، الأول: هو الذي حققه أهل الكتاب أي الروميون على المجوسيين الذي كان أحد مشاهد انتصار العبودية لله تعالى على الشرك، في الوقت الذي كانت هزيمة الروم مدعاة لارتياح مشركي مكة وغبطتهم، والآخر: هو ما حققوه من انتصار كبير على المشركين في معركة بدر.

٢- النبوءة عن نصرين هامين آخرين

تكشف الآية الثانية - في هذا البحث - الستار عن اثنين من الحوادث المهمة الأخرى المرتبطة بمستقبل المسلمين. الحادثة الأولى تكشف عن هذه الحقيقة للمسلمين وهي:

إنكم ستدخلون المسجد الحرام وتقيمون هذه الشعائر الكبرى في منتهى الأمن والأمان في المستقبل القريب بالرغم مما يحمله المشركون من رفض واعتراض على دخول المسلمين إلى المسجد الحرام وأدائهم لمناسك الحج والعمرة، والأخرى تبين هذه الحقيقة

لهم وهي:

إن النصر الحقيقي سيكون حليفكم قبل ذلك.

يقول عز من قائل: «لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤْسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا».

تخبر هذه الآية عن أن النبي رأى في منامه رؤيا تعبر عن أن المسلمين سيدخلون

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢١٧

المسجد الحرام آمنين لأداء مناسك الزيارة لبيت الله.

كان البعض يتصور أن هذه الرؤيا ستتحقق مباشرة في السنة نفسها، فعندما توجه المسلمون إلى مكة للزيارة واعترض طريقهم مشركوا مكة في الحديبية (وهي القرية التي تقع مسافة ٢٠ كيلومتر عن مكة واشتق اسمها من البئر أو الشجرة الموجودة فيها) مما أدى ذلك إلى التوقيع على اتفاق الصلح المعروف بصلح الحديبية، عندئذ أخذ البعض يراوده الشك والتردد في أن لا تكون لهذه الرؤيا مصداقية، على مستوى الواقع، حتى أنهم بدأوا يسألون النبي صلى الله عليه وآله في هذا المجال عن السبب وراء عدم تحقق هذه الرؤية الرحمانية؟ فأكد لهم النبي صلى الله عليه وآله على أنه لم يقل: إن ذلك يتحقق في هذه السنة وإنما قصد وقوعه في المستقبل القريب، في هذه الأثناء نزلت الآية المذكورة وأول ما أكدت عليه هو صدق هذه الرؤيا، ثم أشارت بعد ذلك إلى الجزئيات وقالت: إنكم ستدخلون المسجد الحرام قريباً وتؤدون مناسك الحج بكل حرية واطمئنان، كما أن النصر سيكون حليفكم قبل أداء هذه المناسك، وتحققت هذه النبوءة وفقاً لما ذكرها جميع المؤرخين، واستطاع جمع غفير من المسلمين أن يؤدوا مناسك العمرة في السنة التالية لواقعة «الحديبية» وهي (السنة السابعة للهجرة)، وسميت هذه المناسك (عمرة القضاء) لأنها في الواقع قضاء للعمرة التي أراد الجميع أن يؤدوها في السنة الماضية.

نخرج من كل ما قيل سابقاً بهذه النتيجة: أنه قد تم الاعلان بقوة وحزم في هذا المقطع من الآيات عن مسأله غير متوقعة الحدوث، والتي كانت مورداً من موارد مثار الاختلاف ونزاع شديد بين المسلمين والمشركين، كما اشير فيها إلى التفاصيل أيضاً بالإضافة إلى ما حصل من تبتؤ عن اقتران ذلك بنصر آخر للمسلمين، وهذا في حد ذاته بيان مضاعف فيما يرتبط بهذا التبتؤ الهام.

هناك بحث ونقاش بين المفسرين حول المقصود «بالفتح القريب» فقد تحقق للمسلمين على مقربة من هذه الواقعة، أحدهما هو صلح الحديبية الذي كان من دواعي الانفتاح، والآخر هو «فتح خيبر» الذي تحقق في أوائل السنة السابعة للهجرة، أي بعد واقعة الحديبية

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢١٨

بعده أشهر، والظاهر أن «الفتح القريب» هو إشارة إلى الواقعة الثانية كما ذهب إليه الكثير من المحققين على أساس قوله تعالى «مَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا».

(الفتح / ١٩)

صحيح أن للغنيمه مفهوماً واسعاً وشاملاً لكل أنواع الغنيمه المادية والمعنوية، ولكن المتبادر في مثل هذه الموارد هو معنى الغنائم الظاهرية في الأعم الأغلب، ومما نعلمه أن الغنائم الظاهرية كانت موجودة في «فتح خيبر» لا في صلح الحديبية.

إذن، يمكن الخروج بهذه النتيجة بوضوح وهي: إن مثل هذه التنبؤات الدقيقة، والصادرة بكل قاطعية وجديه، وبدون أن يشوبها الاحتمال والتردد، لا يمكن أن تتأتى إلا من خلال الارتباط بعالم الغيب.

يخبر القرآن في الآية الثالثة - تعقياً على قضية «صلح الحديبية» وما تتبأ به من «عمره القضاء» و «فتح خيبر» - عن فتوحات اخرى متتالية وحائزة على غنائم وافرة فيقول:

«وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَعَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتُكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا».

ثم يضيف إلى ذلك قائلاً: «وَآخَرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا».

في هذه الآيات ورد الإخبار عن انتصارين على الأعداء مع الحصول على غنائم كثيرة، أحدهما قصير المدى والآخر بعيد المدى تلك الغنائم والفتوحات التي عجز عنها المسلمون بحسب الظاهر قد جعلها الله في اختيارهم وطوع إرادتهم بحوله وقوته الكاملين.

وثمة نقاش واختلاف بالرأى بين المفسرين في تحديد نوعية الغنائم والفتوحات، فقد

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢١٩

ذهب الكثير منهم إلى أن المقصود من الغنائم التي يحظى بها المسلمون في فترة قصيرة هي «غنائم خيبر»، وإن احتمل البعض أنها إشارة إلى «الغنائم المعنوية لصلح الحديبية»، إلا أن هذا الاحتمال ضعيف كما قلناه سابقاً.

وأما في صدد الغنائم طويلة الامد فقد ذهب الكثير من المفسرين إلى أنها إشارة إلى «غنائم حرب حنين» وقبيلة «هوازن» «١» و «٢». واحتمل البعض أيضاً أنها إشارة إلى الفتوحات الكبيرة القادمة نظير فتح بلاد ايران والروم واليمن، وبالرغم من أن فتح حنين والحصول على غنائم قبيلة هوازن لم يكن مستبعداً من قبل المسلمين، إلا أن التوصل إلى فتح «ايران والروم» وما شابهها كان بالنسبة إليهم أمراً شاقاً وبعيد المنال، ولهذا حينما أعطى النبي صلى الله عليه وآله البشارة وفقاً لرواية معروفة بفتح ايران والروم واليمن في حرب الخندق بدأ المنافقون يسخرون من ذلك، والسبب في ذلك يعود إلى عدم إمكان تحقيقه من ناحية الاسباب الظاهرية، لكن الله تعالى القادر على كل شيء هو الذي جعل الوصول إلى هذه الفتوحات، والحصول على الغنائم الثمينه قيد الإمكان والتحقق، فكشف الستار عنها قبل التوصل إليها بسنين طويلة، وبينها بشكل تنبؤ صادق في الآيات المتقدمة، فإنا ترى هل يمكن حصول هذه التنبؤات بدون الارتباط بعالم الغيب؟

٤ - التنبؤ بالهزيمة الساحقة للأعداء

في المقطع الرابع نقف على صورة اخرى للتنبؤ.

نزلت هذه الآيات في مكة عندما كان اعداء الإسلام يسرحون ويمرحون في أوج قدرتهم، في حين كان المسلمون في غاية الضعف وقله العدد.

(١) اشير إليه في تفاسير مجمع البيان؛ الكبير للفخر الرازي؛ وروح المعاني؛ والميزان.

(٢) إن غنائم حنين كانت عظيمة حتى أن البعض قدرها ب ٢٤ الف ناقة و ٤٠ الف شاة ومقادير كثيرة من الفضة (تفسير روح البيان ج ٩، ص ٤٢؛ منتهى الآمال ج ١، ص ٦٥).

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٢٠

وكان الأعداء يفتخرون بقدرتهم وشوكتهم ويقولون: نحن جماعة قوية ومنتحمة وسننتقم من مناوئنا ونتصر عليهم: «ام يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنتَصِرُونَ»، إلا أن القرآن يعقب على ذلك مباشرة بقوله: «سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ».

إن من المسلم هو عدم إمكان حصول التوقع والحدس بالانتصار السريع للمسلمين وكسر شوكة أعداء الإسلام في ذلك الزمان، إلا أنه لم تمر فترة قصيرة من الزمن حتى هاجر المسلمون وعظمت قدرتهم وشوكتهم بحيث إنهم وجهوا ضربة قوية ومباغته إلى نحور

الأعداء في أول اصطدام من نوعه مع الأعداء في ساحة معركة بدر.

والجدير بالذكر أن النبي الأكرم صلى الله عليه و آله في يوم بدر كما جاء عن ابن عباس بدأ بالدعاء في خيمته ومن ضمن ما كان يدعو به أنه صلى الله عليه و آله كان يقول: (اللهم أقسم عليك بالعهد الذي عاهدته معنا)، ثم لما خرج بلامه الحرب من الخيمة ودخل ساحة القتال تلا هذه الآية: «سَيَهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ» أى أن الوعد الإلهي سيتحقق هذا اليوم «١».

وبطبيعة الحال فقد استمرت هزائم الأعداء ونكوصهم على اعقابهم مراراً وتكراراً، ولم تمر أعوام حتى اذعنت «شبه الجزيرة العربية» كافة - فضلاً عن كفار مكة - بالتسليم والانقياد للمسلمين.

ونقل في تفسير القرطبي عن بعض المفسرين: إن هذه الآية نزلت في ميدان معركة بدر، في حين أن المعروف والمشهور هو نزول سورة القمر بأجمعها في مكة، والظاهر أن منشأ الاشتباه راجع إلى نفس ما تقدمت الإشارة إليه بأن النبي الأكرم صلى الله عليه و آله كرر هذه الآية في ساحة بدر، فكانت إشارة واضحة إلى تحقق الوعد الإلهي في ذلك اليوم، لهذا ظن البعض أن الآية نزلت في ذلك المكان، على كل حال فهذه هي إحدى التنبؤات القاطعة للقرآن التي تحققت على حين غرة في فترة قصيرة.

(١) نقل هذا الحديث عن صحيح البخاري عن ابن عباس في تفسير في ظلال القرآن، ج ٧، ص ٦٥٧ «مع التلخيص».

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٢١

٥- نبوءة أخرى عن الانتصار في معركة بدر

يدور الكلام في الآية الخامسة عن أحد الوعود الصريحة بالنصر الذي منه الله على المؤمنين من قبل، يقول عز من قائل: «وَأَذِّبْ يَدُكُمُ اللَّهُ أَحَدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَه تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ».

ثم يضيف على ذلك بقوله: «لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ».

وتوضيح ذلك أن «أبو سفيان» سيد مكة وزعيم المشركين كان في حال عودته من الشام على رأس قافلة كبيرة تحمل معها بضائع تجارية تقدر بخمسين الف دينار كانت تتعلق به وبجماعة من أساطين مكة وأكابرها.

وأصدر رسول الإسلام صلى الله عليه و آله أمراً إلى أصحابه بأن يعدوا أنفسهم للهجوم على القافلة، وذلك لتعطيم جزء من القدرة الاقتصادية للأعداء عن طريق مصادرة أموالهم لأنهم لم ينفكوا لحظة واحدة في اظهار العداء للمسلمين وإيجاد العراقيل.

اطلع أصحاب «أبو سفيان» في المدينة على هذه القضية مما حدا بهم إلى إيصال الخبر إلى مسامع أبي سفيان.

فلما علم بذلك اسرع في إرسال أحد الأشخاص إلى مكة ليطلعهم على الخطر الكبير الذى يهدد أموالهم وممتلكاتهم، ولم تمضِ إلآفترة قصيرة حتى تحركت رجالات قريش وقواتها مع سبعمائى بعير ومائى فارس، وكان يقود عسكرهم أبو جهل، وقد حملت هذه المسألة على محمل كبير من الجحد والخطورة بحيث أخذ زعماء مكة يهددون بهدم بيت كل من يستطيع الالتحاق بجهة الحرب ثم يمتنع عن ذلك.

من جانب آخر سلك أبو سفيان طريقاً آخر لينجو من قبضة المسلمين وأخذ يسير في طريق مجهول لكي يبعد نفسه عن مواطن الخطر. ووصل «نبي الإسلام» مع أصحابه البالغ عددهم ٣١٣- مع عدده وعتاد حربي بسيط ولكن بقلوب مملوءة بالایمان والعزم والإرادة- على

مقربه من منطقة بدر أحد المنازل القريبة الواقعة بين مكة والمدينة، وجاء الخبر هناك بتحرك جيش قريش المسلح من مكة

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٢٢

إلى المدينة، فبدأ يشاور أصحابه في ذلك المكان وما يرتأونه من ملاحقة القافلة التجارية أو الوقوف بوجه معسكر الأعداء، فوافق

البعض على مواجهة الأعداء إلا أن البعض الآخر كان يميل باطنياً إلى ملاحقة القافلة والسبب في ذلك يعود إلى أنهم لا يجدون في أنفسهم الاستعداد الكافي لمواجهة القدرة العسكرية الهائلة للأعداء.

لكن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله اختار المسلك الصحيح وأصدر أمراً بالتحرك باتجاه العدو، ووصل الجيش الإسلامي إلى ناحية بدر (وبدر هو اسم لبئر في تلك المنطقة من الأرض نسبة إلى صاحبها الأصلي المسمى بهذا الاسم، اطلق على جميع هذه الأرض بعد ذلك).

إن الآيه السابقة ناظرة إلى هذه الواقعة حيث تقول: إن الله وعدكم أن تكون احدى الطائفتين (جيش قريش أو قافلتهم التجارية) من نصيبكم، إلا أنكم أحببتم الحصول على الطائفة غير المسلحة أى القافلة التجارية، لكن الله يريد اظهار الحق والقضاء على الكافرين. لذا خاطب النبي المسلمين في ذلك الموضع أن الله تعالى قد وعدنا أن تكون احدى الطائفتين لنا وستتحرك باتجاه جيش الأعداء، وستنصر عليهم وأنا سنشاهد بأعيننا مصرع «أبى جهل» ومحل قتله

وتحقق هذا الوعد كما أراد الله ورسوله حيث اشتبك الجيشان مع بعضهما البعض، وبعد حرب طاحنة وتضحيات جسيمة وردت تفاصيلها في مجمل التواريخ الإسلامية، انتصر المسلمون وهزم مشركو مكة هزيمة مزره بحيث خلفوا وراءهم سبعين قتيلًا، وسبعين أسيراً، ولاذ الباقون بالفرار.

وقعت هذه الحرب في اليوم السابع عشر لشهر رمضان المبارك في السنة الثانية للهجرة، وتركت تأثيراً بالغاً جداً في مسيرة التاريخ الإسلامي، بحيث إن مجاهدى بدر كانوا يعدونها دائماً من أمجادهم ومآثرهم العظيمة.

هنا يطرح هذا التساؤل وهو: هل كان من المتوقع وفقاً للمقاييس الاعتيادية أن يتحقق مثل هذا النصر للمسلمين بشكل أو بآخر؟ والجواب عن ذلك، كلا لأنه:

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٢٣

أولاً: لم يتحرك المسلمون بنيه القتال ومن الطبيعي لم تكن في حوزتهم العدة والعتاد الكافي، لأنهم كانوا بهدف الاستيلاء على القافلة فاذا بهم يباغتون بجيش جرار ومسلح من قريش (طبعاً في مقياس ذلك الزمان).

ثانياً: من جهة الموازنة بين القوى فقط كان المسلمون يعيشون في وضع سىء في الظاهر فقد كان عدد أفراد جيش العدو يفوق عدد أفراد المسلمين بثلاثة أضعاف، وكانت في حوزتهم الخيول والجمال الكثيرة والمستلزمات الحربية الكافية، في حين كان المسلمون يمتلكون فارسين فقط، وكانت عدتهم الأساسية تتكون من ٧٠ ناقة يركبها كل واحد منهم بالتناوب.

ثالثاً: كان يوجد هناك أفراد أقوياء وشجعان بين صفوف جيش قريش، وكان الوازع والدافع النفسى للحرب ناشئاً من احساسهم بأنهم لا يرون أن أموالهم و ثروتهم هي المعرضة للخطر فحسب، بل كل شىء يمتلكونه هو معرض للخطر أيضاً. لكن بالرغم من ذلك كله فإن الله وعد المسلمين بالنصر وفقاً للآية الصريحة التى تقدم ذكرها، وأكد النبي على ذلك تأكيداً بالغاً أيضاً.

والجدير بالذكر أنه قد ظهرت على مدار هذه الحادثة قضايا مختلفة عبرت عن وجود «امدادات غيبية» من جملتها أن المسلمين غطوا في نوم هادىء فى ليلة وقعة بدر بحيث أعدتهم وعبأت قواهم ليوم المنازلة، كما هطل المطر من السماء ليغتسلوا ويتطهروا مما هم عليه، ثم لتصبح الأرض الرخوة التى يصعب التحرك عليها صلبة ومتماسكة وصالحة للنزال، وهذا هو ما أشارت إليه الآيات اللاحقة بالقول: «اذ يُغشِيكُمْ النُّعَاسَ اٰمَنَةً مِنْهُ وَيُنزِّلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَ كُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْاَقْدَامَ». (الانفال / ١١)

ملخص الكلام أنه يتضح جيداً من مجموع الآيات المتعلقة بملحمة بدر فى القرآن الكريم مدى الاضطراب والتزلزل الروحى لدى بعض المسلمين من تزايد أفراد العدو وقدراته العسكرية وتفوقهم على المسلمين، لذلك كان من الطبيعى جداً النبوء بهزيمة

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٢٤

المسلمين، لكن على الرغم من كل هذه القرائن يقول القرآن: لقد وعد الله المسلمين بالنصر من قبل وانتصروا في نهاية المطاف. قد يقال: إن هذه الآيات نزلت بعد الانتصار في بدر كما يعبر عنه لحنها وسياقها، وعليه لا يمكن اعتبارها جزءاً من التنبؤات القرآنية، إلا أن الاجابة عن هذا الإشكال تتضح من خلال الدقة والتأمل في نفس هذه الآيات، لأن القرآن يقول بصراحة: إن الوعد بالنصر قد جاءكم من قبل ثم تحقق هذا الوعد بعد ذلك.

٦- الوعد بالعودة

في الآية السادسة وهي - الآية ٨٥ من سورة القصص - وعد الله تعالى نبيه بالعودة إلى الحرم الإلهي الآمن، وقد جاء هذا الوعد في أصعب أيام حياة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، أي في الوقت الذي أراد أن يكسر طوق حصار الأعداء الحاقدين ويخرج من ضيق خناقهم ويهاجر من مكة إلى المدينة.

وقد قام بهذا العمل واتجه صوب المدينة ولما وصل إلى منطقة الجحفة التي لا تبعد عن مكة إلا قليلاً تذكّر موطنه الحرم الإلهي الآمن، وبدت على ملامح وجهه آثار هذا الشوق الممتزج بالحزن والاسى وفي هذا الأثناء نزلت الآية الآتية الذكر، وأبلغ على هذا النحو:

«إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ أَلَى مَعَادٍ».

إن التنبؤ بعودة النبي إلى مكة بصورة صريحة وقاطعة غير وارد في تلك الظروف الحرجة والعصيبة عادة خصوصاً مع اقترانها بنزول القرآن وبأن الله المنزل للقرآن سيقوم بهذا العمل قطعاً، لكننا نعلم أن هذا الوعد الإلهي تحقق في النهاية، وعاد النبي صلى الله عليه وآله مع جيشه القوي المقتدر إلى مكة منتصراً بعد عدة سنين، وانضم الحرم الإلهي الآمن تحت راية الإسلام بدون أي قتل وقتال، وهذه هي إحدى النبوءات الاعجازية للقرآن التي أخبر فيها عن المستقبل بصورة صريحة وقاطعة، وبدون أي قيد أو شرط، هذا في الوقت الذي لم

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٢٥

تظهر فيها القرائن والعلائم على تحقق النصر اطلاقاً.

يقول المرحوم الطبرسي في مجمع البيان: «في الآية دلالة على صحة النبوة لأنه أخبر به من غير شرط ولا استثناء وجاء المخبر مطابقاً للخبر» (١).

ويقول الفخر الرازي في تفسيره أيضاً: «قال أهل التحقيق: وهذا أحد ما يدل على نبوته صلى الله عليه وآله لأنه أخبر عن الغيب ووقع كما أخبر» (٢).

واحتمل البعض في هذا المقام أن المراد من «المعاد» هو معاد يوم القيامة، وهذا الاحتمال ضعيف كما نقل المحققون القول عن المفسرين، لأن المعاد لا يختص بنبي الإسلام حتى يوجه الخطاب إليه فقط، بالإضافة إلى أن كلمة «لرادك» لا تتناسب نوعاً ما مع معاد يوم القيامة، لأن العودة إلى مكان ما هي فرع الخروج منه.

كما أن الاستناد إلى نزول القرآن في جملة: «إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ» التي وردت قبله، وكذلك جملة: «قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ظُلْمٍ مُّبِينٍ» التي وردت بعده، كلاهما قرينه على أن الحديث يدور حول حقانية نبي الإسلام والقرآن، لا حول مسألة المعاد في يوم القيامة، فضلاً عن أن هذا التفسير لا يلتئم مع شأن نزول الآية أيضاً.

بالإضافة إلى لفظة «المعاد» على ما نقله المرحوم الطبرسي عن القتيبي هو بلد الإنسان ووطنه (معاد الرجل بلده)، لأنه أينما يذهب يعود من حيث ذهب.

وتجدر الإشارة إلى أن كلمة «المعاد» وردت مرة واحدة في القرآن الكريم وذلك في هذا الموضع الذي هو بمعنى مسقط الرأس والموطن.

٧- لن ينال الإيمان أبداً

يدور الحديث في الآية السابعة حول أحد المشركين المعروفين وهو «أبو لهب» عم

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٧ و ٨، ص ٢٦٩ في ذيل الآية مورد البحث.

(٢) تفسير الكبير، ج ٢٥، ص ٢١ في ذيل الآية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٢٦

النبي، وابن عبد المطلب، وهو الشخص الوحيد الذي ورد ذكره في القرآن من بين مشركي مكة، وأكد على أنه من أهل النار وفيه إشارة واضحة إلى أنه لن يؤتى الإيمان أبداً، يقول عز من قائل: «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ».

وبالرغم من أن أبا سفيان كان عدواً خطيراً لكنه آمن إيماناً ظاهرياً في نهاية الأمر، وآمن الكثير من الأفراد الخطيرين والمجرمين إيماناً ظاهرياً أمثال «وحشى» قاتل حمزة.

إن هذا التنبؤ القاطع عن مصير شخص ك (أبو لهب) لم يكن يتأتى من الطرق العادية، فهذه النبوءة القرآنية لا تتأتى إلا من طريق الإعجاز.

إن الكثير من مشركي مكة آمنوا إيماناً واقعياً، والبعض آمن إيماناً ظاهرياً، لكن من الذين لم يؤمنوا لا في الواقع ولا في الظاهر هو: أبو لهب وزوجته «ام جميل» شقيقة أبي سفيان، وقد صرح القرآن بوضوح أنهما لن يؤمنا أبداً، وهذه من الأخبار الغيبية للقرآن الكريم. كيف يتأتى للقرآن أن يتحدث عن جهنمية شخص ما يمكن له أن يقف إلى جانب المسلمين في نهاية الأمر، أو يتظاهر بالاسلام على الأقل إذا لم يكن صادراً من عند الله تعالى

يدعى أبو لهب «عبد العزى» (وعزى هو اسم لأحد الأصنام الكبيرة للعرب)، وكنيته: أبو لهب ولعل اختياره لهذه الكنية عائد إلى كونه ذا وجه يطفح بالحمرة والشعر، ولا ريب في أن هذه الآيات نزلت في زمن حياة أبي لهب، ولذا يقول: «تبت يدا أبي لهب»، وما نقله أغلب المفسرين عن شأن النزول يدل كذلك على أن هذه المسألة حدثت في حياته، وذلك حينما أمر النبي بأن يدعو عشيرته الاقربين إلى الإسلام ويحذرهم من الكفر والشرك، في تلك الأثناء صعد النبي إلى قمة جبل من جبال مكة يدعى ب (جبل صفا) ونادى يا صياحا، (و هذه الجملة لا تستخدم إلا حين الهجوم المباغت للعدو) فظن أهل مكة أن هناك هجوماً عدوانياً على مكة من الخارج، فلما اجتمعوا عند النبي صلى الله عليه و آله قال لهم: «أَنِّي نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٢٧

عَذَابٍ شَدِيدٍ»، احذر كم من عبادة الأصنام وادعوكم إلى التوحيد.

فاستشاط أبو لهب غضباً وقال: «تبا لك أما جمعتنا إلى هذا» فعندئذ نزلت الآيات الآنفه الذكر، وقالت: الموت له لأنه سيكون طعمه لنار جهنم في النهاية «١».

٨- إنا أعطيناك الخير الكثير

نَطَّلَعُ فِي الْمَقْطَعِ الثَّامِنِ مِنَ الْآيَاتِ وَهِيَ «سُورَةُ الْكُوثَرِ» عَلَى ثَلَاثِ نُبُوءَاتِ هَامِئَةٍ، لِأَنَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: «أَنَا أَعْطَيْتَاكَ الْكُوثَرَ* فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأُنْحَرِ* إِنَّ شَأْنَيْكَ هُوَ الْإِبْتَرُ».

ذكر معظم المفسرين شأن نزول هذه الآية، وهي متقاربة مع بعضها البعض ومن جملتها ما قاله «البرسوى» في روح البيان: «وذلك أنهم (أى المشركون) زعموا حين مات أولاده القاسم وعبد الله بمكة، وإبراهيم بالمدينة، أن محمداً صلى الله عليه وآله ينقطع ذكره إذا ما مات وذلك لفقدان نسله، فبته الله سبحانه إلى: إن الذى ينقطع ذكره هو الذى يشنأه، فأما هو فكما وصفه الله تعالى «ورفعنا لك ذكرك»، وذلك أنه أعطاه نسلاً باقياً على مر الزمان، فانظر كم قتل من أهل البيت والعالم ممتلىء منهم» (٢).

وقال «الطبرسى» فى «مجمع البيان»: «قيل: نزلت السورة فى العاص بن وائل السهمى وذلك أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وآله يخرج من المسجد فالتقيا عند باب بنى سهم وتحدثا، واناس من صنديد قريش جلوس فى المسجد، فلما دخل العاص قالوا: مع من كنت تتحدث؟

قال: مع الأبتري، وكان قد توفى قبل ذلك عبد الله ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وهو من خديجة، وكانوا يسمون من ليس له ابن أبتراً فسمته قريش عند موت ابنه أبتراً» (٣).

ونقل الفخر الرازى ستة أقوال فى شأن نزول هذه الآية بأن عدّة أفراد قالوا للنبي

(١) نقل الكثير من المفسرين والمؤرخين شأن النزول هذا مع اختلاف طفيف (تفسير مجمع البيان؛ القرطبي؛ المراغي؛ الكبير؛ الدر المنثور؛ فى ظلال نهج البلاغة؛ كذلك الكامل لابن الاثير، ج ٢، ص ٦٠).

(٢) تفسير روح البيان، ج ١٠، ص ٥٢٥.

(٣) تفسير مجمع البيان، ج ٣٠، ص ٥٤٩.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٢٨

الأكرم صلى الله عليه وآله: إنك «ابتري»، وهذه السورة ناظرة إلى هؤلاء الأشخاص (١).

وعلى الرغم من أنه قد ذكر أفراداً متعددين، إلّا أنّ المحتوى والمضمون واحد فى جميعها، وأنّ جميعهم كانوا يسمون النبي صلى الله عليه وآله «بالأبتري» حقداً وعداوة، وقد رد عليهم القرآن بأجمعهم، لأنّ هذه الأقوال الستة لا تتنافى مع بعضها البعض، فمن المحتمل أنّ هذا التعبير صدر من جميعهم، والرد القرآنى ناظر إليهم جميعاً.

وعلى أيّة حال فإنّ لفظة «الأبتري» فى الأصل، تعنى قطع عضو من أعضاء جسم الحيوان، ومن المتعارف أنّها تطلق على قطع الذنب، ثم اطلقت بعد ذلك على الأشخاص المقطوعى النسل، وكذلك على الذين ينقطع ذكرهم الحسن، أو يمحي من الخواطر، والخطبة «البتر» أيضاً تقال للخطبة التى لا تبدأ باسم الله (أو أنّها لا تشتمل على ذكر الله).

وورد فى المقاييس أيضاً أنّ «البتر» هو القطع، و«السيف الباتري» هو السيف القاطع، ويقال لمن لا- عقب له: «ابتري». أمّا «الكوثري» فهى مأخوذة من مادة الكثرة (٢)، وهى نفس هذا المعنى، ولها هنا فى هذا المقام معنى واسع وشامل، وهو عبارة عن الخير الكثير والبركة الكثيرة، واحد مصاديقها البارزة هم الأبناء الصالحون والسلالة الطيبة، واجلى مصداق لذلك هى بنت نبيّ الإسلام و«سيده نساء العالمين من الأولين والآخرين» فاطمة الزهراء عليها السلام.

وذكر المفسرون احتمالات كثيرة لمعنى «الكوثري» بحيث نقل الفخر الرازى خمسة عشر قولاً، ونقل صاحب تفسير روح المعانى عن بعض المفسرين ستة وعشرين قولاً، وأشار إليه المرحوم العلامة الطباطبائى فى «الميزان» أيضاً، ومن جملة التفاسير المشهورة له هو نفس «حوض الكوثري» المتعلق بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله والذى يرتوى منه المؤمنون عند دخولهم إلى الجنة (٣).

(١) تفسير الكبير، ج ٣٢، ص ١٣٢.

(٢) يقول الألوسي في تفسير روح المعاني، ج ٣٠، ص ٢٤٥: الكوثر صيغة مبالغه، بمعنى الكثرة التي تجاوزت حداً معيناً، وفي لسان العرب؛ الكوثر هو الكثير من كل شيء.

(٣) تفسير مجمع البيان، ج ٣٠، ص ٥٤٩.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٢٩

وفسره البعض أيضاً بأنه مقام النبوة، أو القرآن، أو نهر في الجنة، أو الشفاعة. وكما قلنا:

إنّ لهذه الكلمة معنى واسعاً وشاملاً لكل هذه المعاني وغيرها، ولا يمنع من جامعيتها المفهوم تعدد مصاديق هذا المفهوم، فليس ثمة تضاد وتنافر بين هذه التفاسير المتعددة.

وعلى أي حال يستكشف من هذه السورة ثلاث نبوءات هامة:

أولاً: إنه يقول: (أنا أعطيناك الخير الكثير).

إنّ كلمة «عطيناك» وإن خرجت بهيئة الفعل الماضي إلّا أنّها من الممكن أن تكون من قبيل المضارع القطعي المبين بصيغة الفعل الماضي.

وهذا الخير الكثير في الحقيقة يستوعب كل الانتصارات التي حظى بها النبي صلى الله عليه وآله، والتي لم تكن متوقعة حين نزول هذه السورة.

هذا مع الأخذ بنظر الاعتبار شأن النزول وكلمة «الأبتر» التي اطلقها الأعداء على النبي صلى الله عليه وآله، فيكون أحد المصاديق الجلية لهذا الخير الكثير هم «الأبناء»، والسلالة الخيرة التي تفرعت من ابنته الوحيدة «فاطمة الزهراء عليها السلام»، وانتشرت في سائر أنحاء الكرة الأرضية، وعلى حد قول البعض: إنهم ملأوا العالم في يومنا هذا، وهذا هو الذي لم يكن متوقفاً في ذلك العصر.

وأشار إلى هذا الموضوع - بصراحة - جماعة من مفسري أهل السنة أيضاً، من ضمنهم الفخر الرازي، فالقول الثالث الذي ينقله في تفسير «الكوثر» هم نفس أولاده وأبنائه وهذه السورة إنّما نزلت رداً على من عابه صلى الله عليه وآله بعدم الأولاد، فالمعنى أنّه يعطيه الله تعالى نسلاً يقون على مر الزمان، فانظر كم قتل من أهل البيت، والعالم ممتلئ منهم، ولم يبق من بنى امية في الدنيا أحد يعاب به، ثم انظر كم من الأكابر من العلماء: كالباقر والصادق والكاظم والرضا عليهم السلام والنفس الزكية وأمثالهم (١).

وجاء هذا المعنى في تفسير روح المعاني أيضاً: وقيل: هو أولاده صلى الله عليه وآله لأنّ السورة نزلت رداً على من عابه صلى الله عليه وآله وهم والحمد لله كثيرون قد ملأوا البسيطة (٢).

(١) تفسير الكبير، ج ٣٢، ص ١٢٤.

(٢) تفسير روح المعاني، ج ٣٠، ص ٢٤٥.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٣٠

من جهة ثانية يخبر أنّ أعداءه سيكونون «مبتورين»، وبلا عقب، وتحققت هذه النبوءة أيضاً، ووصلت حالة التشرذم والتشتت بأعداء الرسول بحيث لم يبق لهم أثر في هذا اليوم.

إنّ «أبو سفیان» وأبنائه وعشيرة بنى امية الذين كانوا من الأعداء الشرسين للإسلام قد وقف بعضهم بوجه النبي والبعض الآخر بوجه أبنائه، كانوا في يوم من الأيام جمعاً غفيراً، بحيث تجاوز عدد ذويهم وأبنائهم وأرحامهم عن حد الاحصاء، لكن لم يبق لهم شيء يذكر في يومنا هذا فكل شيء عنهم انطوى في صفحة النسيان.

يقول الآلوسى فى روح المعانى: «الأبتر، هو الذى لا عقب له، حيث لا يبقى منه نسل ولا حسن ذكر، وأما أنت فتبقى ذريتك وحسن صيتك وآثار فضلك إلى يوم القيامة» (١).

إن هذه السورة وإن دلّ شأن نزولها وفقاً للرواية المشهورة على أنّ القائل لهذا الكلام هو «العاص بن وائل» الذى كان من الأعداء الألداء للنبي صلى الله عليه وآله إلّا أنّه من البديهي أنّ هذه السورة ليست ناظرة إلى الشخص فقط، بل إنّ كلمة «شانىء» المأخوذة من مادة «شنان» التى هى بمعنى البغض والعداوة، لها مفهوم واسع وشامل لكل الأعداء، وهذا التنبؤ صادق فى حقهم جميعاً، لأنّه لم يبق لهم ذكر يؤثر، ولا أبناء معروفون ولم يكن التكهن بهذا المعنى ممكناً فى ذلك اليوم الذى كان النبي صلى الله عليه وآله يعيش فى مكة، والمسلمون فى منتهى القلّة.

٩ و ١٠- أولئك لن يضرّوكم بشيء

فى الآيتين التاسعة والعاشره من هذا البحث نلاحظ تنبؤات مهمّة:

١- «إنّ أهل الكتاب لن يتمكنوا أن يلحقوا بكم ضرراً ذا بال ويهددوا وجود الإسلام والمسلمين بالخطر لأنّ اضرارهم طفيفة وغير مؤثرة» «لَنْ يَضُرُّوَكُمْ أَلَّا أَدَى».

إنّ كلمة «أذى» وان شملت على حد قول «الراغب» فى «المفردات» كل ما يلحق الضرر

(١) تفسير روح المعانى، ج ٣٠، ص ٢٤٧.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٣١

بروح الإنسان وجسمه ومتعلقاته لكنه نظراً إلى أنّها وردت بصيغة الاستثناء من جملة «لن يضرّوكم»، ومجيئها بصيغة النكرة أيضاً، دلّ ذلك على أنّ المقصود منها هى الاضرار الجزئية سواء كانت مبادرة بشكل كلام جارح، أو بشكل حركات استفزازية سطحية. ولا- تتأتى هذه النبوءة المستقبلية الصريحة إلّا من طريق الوحي نظراً إلى القوة العسكرية الهائلة التى كان يتمتع بها أهل الكتاب وبالأخص اليهود، وإلى حالة الضعف التى يعانى منها المسلمون من الناحية الظاهرية.

٢- ثم يقول تعالى إنّ هؤلاء سيكون نصيبهم الفشل والاندحار والفرار متى ما قاتلوكم وأثبتوا وجودهم فى ميدان النزال: «وَأَنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤَلُّوْكُمْ الْاِدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصِرُونَ».

إنّ هذا التنبؤ عن أنّ مصير اليهود وسائر أهل الكتاب هو الفشل والتراجع فى كل حرب تقع بينهم وبين أصحاب النبي صلى الله عليه وآله لم يكن بالشىء اليسير ولا يتأتى هذا التنبؤ من الطرق العادية أيضاً.

٣- إنّ هؤلاء اليهود لن يصمدوا بحال من الأحوال، وأينما وجدوا كُتِبَ عليهم الذل والهوان إلّا بالارتباط بالله (وإعادة النظر فى سلوكهم الخاطىء)، أو الارتباط بالناس والتبعية لهذا وذاك: «ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ اِئِنَّ مَا تَقْفُوا اَلَّا يَحْبِلَ مِّنَ اللّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ».

وتحققت هذه الوعود والبشائر السماوية الثلاثة فى عصر النبي كما ذكر التاريخ الإسلامى، وبالأخص أنّ اليهود فى الحجاز وهم «بنى قريظة»، و «بنى النضير»، و «بنى قينقاع»، و «يهود خيبر»، و «بنى المصطلق»، قد خسروا الجولة فى نهاية الأمر، وتواروا عن مسرح الحياة بعدما قاموا به من انتهاكات كثيرة، وتحركات مثيرة ضد الإسلام، وهذا وإن لم يرد التصريح بذكر اليهود فى الآيات السابقة، لكن يستفاد من القرائن الموجودة فى هذه الآية والآيات المشابهة لها (كالآية ٦١ من سورة البقرة التى ذكر فيها اسم اليهود صريحاً).

إنّ هاتين الآيتين ناظرتان إلى اليهود، وبالأخص بالنسبة لما جاء فى الآية الأخيرة من أنّ هؤلاء إنّما يستطيعون أن يمسحوا عن جبينهم وسمه الذل فى صورتين:

الاولى فى صورة «الرجوع إلى الله، وترك العصيان، والذنب، والفساد فى الأرض»، ولا يتم ذلك (إلا بحبل من الله).

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٣٢

والثانية: فى صورة «إتباع الناس والاتكال على الآخرين»، (وحبل من الناس).

وهذه الآية تشير إلى نفس الظاهرة المشهورة فى حياة اليهود إلى يومنا هذا، وتاريخهم يفصح إماماً عن حالة الضياع والتشرد والذل، وإماماً عن حالة التبعية والانقياد للقوى الأخرى وتسخير الذات فى خدمة مقاصدهم السيئة، (وتشاهد الحالة الأولى فى العصر الأخير فى عهد النازيين والحالة الأخرى فى يومنا هذا).

وبالرغم مما ذكره المفسرون من احتمالات متعددة لتفسير «حبل من الله وحبل من الناس» إلا أن ما تقدم ذكره آنفاً هو الأنسب ظاهراً، ويمكن الأخذ ببعض تفاسير هؤلاء بعنوان مصداق لهذا المفهوم الكلى الذى ذكرناه.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٣٣

٧- الإعجاز القرآنى فى عدم وجود التناقض والاختلاف

إشارة

من الدلائل الأخرى على اعجاز القرآن الكريم، وكونه نازلاً من قبل الله تعالى هو عدم وجود التناقض والاختلاف فى سائر أنحاءه، فى حين أن الصفة الغالبة على الظروف التى نزل فيها القرآن والمبعوث به تدل على أنه لو لم يكن صادراً من قبل الله لوقع فيه الاختلاف و التناقض، بل الاختلافات والتناقضات الكثيرة، وقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة فى قوله تعالى «أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا».

(النساء / ٨٢)

ويمكن الوقوف على النكتة الأساسية لهذه المسألة من خلال تحليل بسيط، فنقول: إن الحالات الروحية لأى إنسان فى تغير مطرد- وقانون التكامل يحيط بالإنسان فكراً وروحاً فى حالة وجود ظروف طبيعية، وعدم حصول وضع استثنائى فهو يحدث على مر الأيام والشهور والسنين تحولاً مستمراً فى ألسنة البشر وأفكارهم وأحاديثهم، وإذا ألقينا نظرة فاحصة على تصانيف أحد الكتاب فسوف لن نجد لها على نسق واحد اطلاقاً، بل لابد من وجود تفاوت فى بداية الكتاب ونهايته، خاصة إذا ما كان الإنسان واقفاً أمام موجة من الأحداث الكبيرة والساخنة، الأحداث التى تضع الحجر الأساس لأحد الانقلابات الفكرية والاجتماعية والدينية الشاملة، فهو مهما سعى وأراد أن يكون كلامه على نسق واحد، ومعطوفاً على سابقه لا- يقوى على ذلك وخاصة إذا ما كان امياً وناشئاً فى محيط متخلف جداً.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٣٤

أمياً القرآن فقد نزل على حسب الاحتياجات والمتطلبات التربوية للمجتمع فى ظروف وملازمات مختلفة تماماً طيلة ٢٣ عاماً، فهو الكتاب الذى تحدث عن مواضيع متنوعة، وهو ليس كسائر الكتب التى تواكب أحد البحوث الاجتماعية أو السياسية أو الفلسفية أو الحقوقية أو التاريخية فحسب، بل أحياناً يتحدث عن التوحيد وأسرار الخلق، وأحياناً عن الأحكام والقوانين، والآداب والسنن، وتارة يتحدث عن الامم السابقة وقصصهم المثيرة، وتارة أخرى عن المواعظ والنصائح، والعبادات، والعلاقة القائمة بين الله تعالى وعباده، وعلى ضوء قول الدكتور «غوستاولبون»: «إن الكتاب السماوى للمسلمين - وهو القرآن - لا يقتصر على التعاليم والرسائل الدينية فحسب، بل تدرج فيه الرسائل الاجتماعية والسياسية للمسلمين أيضاً».

إن مثل هذا الكتاب المشتمل على هذه الخصوصيات لا- يمكن أن يخلو من التضاد والتناقض واختلاف الأقوال الكثيرة عادة، لكن

عندما نرى الانسجام القائم بين آياته كلها، وخلوها من كل ألوان التضاد والاختلاف والتهافت يمكننا حينئذٍ الحدس بأن هذا الكتاب ليس وليد أفكار الناس، بل هو صادر من قبل البارئ تعالى كما بين القرآن نفسه هذه الحقيقة في الآية السابقة. وبعبارة أخرى إن كافة الموجودات المادية - ومن ضمنها الإنسان الذي له صبغة مادية بأحد اللحظات - في تغير وتحوّل دائم ومطرّد وتقل هذا التغير إلى الموجودات الدائرة حوله، إن قابلية التأثر والتأثير جزء لا يتجزأ من طبيعته الإنسان، وطبيعته أي موجود مادي آخر، ولهذا السبب تتبدل أفكار الإنسان وآراؤه مع تقدم الزمن، علاوة على أن ازدياد تجارب الإنسان ورقى مستوى إبداعه في المسائل المختلفة يساهم في تصعيد هذا التغير، وهذه هي التي تؤدي حتماً إلى التغير والتضاد والانسجام في المذكرات التي تعود إلى سنين متتالية لأحد الأشخاص فيما لو جمعت ونسقت بعد ذلك، والله القادر المتعال وحده هو الذي يكون بمعزل عن هذه التغيرات وقابلية التأثر والتأثير، فليس في كلماته تضاد أبداً وهذه هي إحدى الطرق في معرفته كلام الحق وتمييزه عن كلام غيره، حتى أن البعض من

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٣٥

المفسرين صرحوا بأنه لا يقتصر الأمر على عدم وجود التضاد في القرآن فحسب، بل يتعداه إلى عدم وجود التفاوت والاختلاف في درجة فصاحته وبلاغته أيضاً، ومن الصحيح القول بأننا نجد بعض الآيات القرآنية أبلغ من بعضها الآخر، وعلى حد قول الشاعر: متى كانت «تبت يدا» بمنزلة «يا أرض ابلعي» ولكن هذا يتأتى عند اختلاف المقامات أي أن كل واحدة منها تعتبر من أفضل التعبيرات وانسبها في مقامها الخاص بها، ومن هذه الجهة لا يوجد تفاوت واختلاف.

سؤال:

وهناك سؤال لا بدّ من طرحه وهو: إذا لم يكن هناك تضاد واختلاف في القرآن الكريم فما هو السبب من وجود آيات ناسخة وآيات منسوخة؟

الجواب:

سبق وأن قلنا في بحث الناسخ والمنسوخ في القرآن: إن الآيات المنسوخة تشتمل على قرائن تدل على أن أمدها المضموني قصير وسينتهي في يوم من الأيام، بمعنى وجود دواعي النسخ في مضمونها، وبناء على هذه النكته فليست لا تضاد فيها فحسب، بل - علاوة على ذلك - يوجد فيها نوع من التناسب والتوافق بينها.

وعلى سبيل المثال لو أردنا أن نعد برنامجاً دراسياً لمقاطع زمنية مختلفة حتى نساعد الأفراد الدارسين في دائرة التعليم والتربية على تخطي المراحل المختلفة، والوصول بهم إلى المرحلة النهائية، فإن التغيرات الطارئة على البرامج في فترات مختلفة لا تعد بعنوان تضاد وتناقض وذلك لوجود قرائن في متن هذه البرامج، بل على العكس هناك نوع من التوافق والانسجام بينها.

ومما قلناه آنفاً اتضح الجواب عن سؤال مشابه أيضاً يطرح في مورد آيات «العام والخاص» أو «المطلق والمقيد» ذلك أن الجمع بين العام والخاص عن طريق التخصيص،

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٣٦

وكذلك الجمع بين المطلق والمقيد هو جمع عرفي متعارف، ولا يعد تناقضاً بأي شكل من الأشكال.

فمثلاً لو أعلنت الحكومة عن موافقتها على حرية التصدير بشكل مطلق، ثم قررت وضع استثناءات معينة بعد ذلك، فإن وجود هذه الاستثناءات ليس دليلاً على التضاد، وبالأخص إذا ما تجسد هذا العمل على شكل سِيئة وخطئة معينة بحيث يقال له: حكم عام، ثم يقومون بتقييده وتخصيصه بعد ذلك، علاوة على أنه لا يوجد حكم بدون استثناء عادة.

إلى هنا نصل إلى نهاية البحث في الإعجاز القرآني والصور المختلفة للإعجاز.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٣٧

خرق العادات والنواميس الطبيعية

إشارة

مبداً لا- شك في أن لنبي الإسلام معجزات أخرى كثيرة غير القرآن الكريم، وقد أجمع المسلمون في العالم كافة على هذه المسألة ودلت عليها روايات متواترة أيضاً، وكما أن القرآن الكريم أشار إليها مراراً وتكراراً، فذكرها تارة بشكل مجمل ومقتضب، وتارة بشكل مفصل من خلال الإشارة والتنويه إلى المعجزات الخاصة.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا هو المقطع الأول من الآية التالية:

١- «وَأِذَا دُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ * وَأِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ * وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ». (الصفات / ١٣-١٥)

التعبير ب (رأوا آية) يدل بوضوح على أنهم لو شاهدوا معجزة أو معجز للنبي، فبدلاً من أن يؤمنوا بها صدرت منهم ردود فعل وممارسات سلبية، من بينها، أولاً: إنهم أخذوا يتوسلون بمنطق الاستهزاء والسخرية، وثانياً: إنهم اعتبروا ذلك «سحراً مبيناً».

ومن المسلم أن الآيات القرآنية سمعية وليست بصرية، وعليه لا يمكن أن تكون لفظه «الآية» هنا ناظرة إلى الآيات القرآنية، بالإضافة إلى ذلك فإن التعبير ب «السحر المبين» يتناسب تماماً مع المعجزات وخوارق العادات، والواقع أن اتهامهم نبي الإسلام بالسحر، وترويجهم لهذه المسألة بشكل واسع يدل على أنهم رأوا منه خوارق عادات ومعجزات، وفضلاً عن ذلك كله كيف يتأتى للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله أن ينقل في كتابه السماوي المعجز الحسية للأنبياء السابقين كمعجزة «اليد البيضاء»، و«عصا موسى»، والمعجزات التسعة الصادرة منه (النمل / ١٢)، أو المعجزات المتعددة للسيد المسيح، نظير «إحياء الأموات»،

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٣٨

«وشفاء المكفوفين الذين فقدوا بصرهم منذ الولادة»، و «المرضى الذين يستحيل علاجهم» وما شابه ذلك، وكذلك المعجز التي جاء بها الأنبياء العظام إبراهيم، وصالح، ويوسف، وسليمان، وداود، والتي ورد ذكرها جميعاً في القرآن- ثم لا يأتي بنفسه بمعجزة حسيّة؟! كيف يمكن له أن يقنع الناس بأن جميع الأنبياء كانوا يمتلكون معجز حسيّة وهو لا يمتلك شيئاً منها في حين أن نبوته أفضل النبوات، ودينه أفضل الأديان؟ إن كل هذه القرائن- مضافاً إلى الآية السابقة- تدل على أنه كانت له صلى الله عليه وآله معجزات أخرى

بالإضافة إلى الآية السابقة فهناك آيات كثيرة أخرى بصدد بيان مسألة معجز نبي الإسلام، وقد وردت عن ائمة الدين روايات في تفسيرها وذكر سبب وتاريخ نزولها، إن معجز نبي الإسلام لا تعد ولا تحصى فعلى سبيل المثال لا الحصر نلاحظ نماذج منها:

١- نطالع في قوله تعالى «سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِن آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ».

(الاسراء / ١)

لا- شك أن الذهاب من «المسجد الحرام» إلى «المسجد الأقصى»، وأكثر من ذلك الصعود إلى السماوات، خاصة في الظروف الموضوعية لذلك الزمان، كان أمراً خارقاً للعادة، بيد أنه ما لم يشاهد الناس هذا المشهد لا يمكن أن تكون له صبغة إعجازية ولا يمكن أن يقع في طريق إثبات دعوى النبي صلى الله عليه وآله، إلا أن الروايات الإسلامية تدل على أن الناس اطلعوا على هذه القضية عن طريق الأخبار التي ألقاها النبي على القافلة أو القوافل التي كانت تشق طريقها بين مكة والشام «١».

٢- جاء في ذيل قوله تعالى «أَنَا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ». (الحجر / ٩٥)

(١) جاء في إثبات الهداة، ج ١، ص ٢٤٧، عن الإمام الصادق عليه السلام أن النبي صلى الله عليه وآله أخبر عن رؤية قافلة أبي سفيان

ومروها ببئر قبيلة فلان بحثاً عن ناقة لهم ذات وبر أحمر، كما وصف سوق الشام الذي لم يره قط (تفسير مجمع البيان ج ١، ص ٣٩٥؛ وسيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٤٣-٤٤).

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٣٩

أن سته مجموعات (أو أقل) كانت كل واحدة منها تتعامل مع نبي الإسلام بنوع من أنواع الاستهزاء، وكلما انبرى إلى دعوة الناس كانوا يسعون من خلال أحاديثهم إلى تفريق الناس من حوله، غير أن الله تعالى ابتلى كل واحد منهم ببلاء معين، ووصل الأمر بهم إلى أن ينشغلوا بأنفسهم كثيراً بحيث نسوا النبي الأعظم صلى الله عليه وآله «١».

٣- يقول تعالى «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ اٰن يَشْطُؤْا اٰلَيْكُمْ اٰيْدِيَهُمْ فَكَفَّ اٰيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ». (المائدة/ ١١)

ورد في بعض الروايات أن هذه إشارة مستبطنه ناظرة إلى المؤامرة التي دبرها «يهود بنى النضير» لاغتيال نبي الإسلام، وذلك حينما توجه النبي إليهم مع جمع من أصحابه ليتباحثوا حول الاتفاقية التي كانت معقودة بينهم بالنسبة إلى دية المقتولين، فقالوا: لا مانع من ذلك، اجلسوا وتناولوا الطعام حتى يتحقق مرادكم، وفي تلك الحالة كان في نيتهم أن يقوموا بحملة مباغتة ويقضوا على النبي وأصحابه، فأطلع الله تعالى النبي على ذلك وأخبر النبي بذلك أصحابه فعادوا بسرعة، «وكانت هذه احدى معجزات النبي» «٢».

٤- تعقياً على قوله تعالى «وَإِذَا قُرَأَتِ الْقُرْآنُ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَأِيْمُنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا». (الاسراء/ ٤٥)

ورد أن بعض الأعداء كانوا ينوون القضاء على حياة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في حالة انشغاله بتلاوة القرآن، فأسدل الله تعالى حجاباً على أبصارهم يحول بينهم وبين رؤية نبيه.

وورد في الحديث الذي نقله المرحوم الطبرسى فى الاحتجاج عن على عليه السلام: إن الله تعالى أسدل خمسة حجب على انظارهم للحيلولة بينهم وبين رؤية محمد صلى الله عليه وآله، وقد اشير إلى هذه الحجب الخمسة فى القرآن الكريم.

فى أحد المواضع من سورة يس يقول: «وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ اٰيْدِيهِمْ سِدًّا»، فهذا هو الحجاب الأول ثم يعقب بقوله: «وَمِنْ خَلْفِهِمْ سِدًّا». (يس/ ٩)

وهذا هو الحجاب الثانى.

(١) نقل الطبرسى فى تفسير مجمع البيان، ج ٥-٦، ص ٣٤٦، وكذلك العلامة المجلسى فى بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٤٨، وابن هشام فى السيرة ج ٢، ص ٥٠، وبقية المفسرين والمؤرخين شرحاً وافياً لهذه الواقعة.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ١٦٥.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٤٠

ثم يقول بعدها: «فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَأْيَبْصُرُونَ» وهذا هو الحجاب الثالث.

ثم إنه يقول: «وَإِذَا قُرَأَتِ الْقُرْآنُ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَأِيْمُنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا».

وهذا هو الحجاب الرابع.

وقال تعالى بعد ذلك: «إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ اٰغْنَاقِهِمْ اٰغْلَالًا فَهِيَ اٰلَى الْاِذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ» «١».

(يس/ ٨)

ولذا لا يرون شيئاً، وهذا هو الحجاب الخامس.

إن هذه الحجب سواء كان لها صبغة مادية أو معنوية، فهى وقفت حاجزاً أمام المؤامرات المختلفة المدبرة ضد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وهذه بحد ذاتها تمثل إحدى المعجزات النبوية الشريفة.

٥- نطالع فى قوله تعالى «فَسَيَكْفِيْكَهُمُ اللّٰهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ». (البقرة/ ١٣٧)

إنَّ الأشخاص المحيطين علماً بالتاريخ الإسلامي هم القادرون على الاطلاع على عمق مفهوم هذه الآية التي يُستشف من ظاهرها أنَّ الأعراب المعاندين والمتعصبين الجاهليين وخاصة الأشراف من مشركي مكة الذين تعرضت منافعهم اللامشروعة للخطر مع ظهور الإسلام، لم يدخروا جهداً في القضاء على الإسلام والنبى الأكرم صلى الله عليه وآله. في الوقت ذاته تعطى الآية التي نحن بصددنا وعداً صريحاً بأنَّ الله تعالى سوف يدفع شرورهم، ويسفِّه أحلامهم، ويفشل مؤامراتهم، وهذه من إحدى النبوءات الاعجازية.

٦- وردت الإشارة في القرآن الكريم إلى اعجاز آخر حدث في حرب الأحزاب، يقول عز من قائل: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا». (الأحزاب / ٩) إنَّ الذين يطالعون قصة «حرب الأحزاب» في القرآن الكريم، والروايات والتواريخ، يجزمون على وجود بون شاسع بين المسلمين واعدائهم، فقد فرض الأعداء حصاراً شديداً على المدينة بحيث أصبح سقوطها حتمياً بحسب الظاهر، ووصلت الحالة بالمسلمين إلى

(١) تفسير البرهان، ج ٢، ص ٤٢٣، ح ٢.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٤١

أَنَّ يُعَبِّرَ الْقُرْآنَ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ: «وَأَذْ ذَاغَتِ الْإِبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ... وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا». (الأحزاب / ١٠-١١) في خضم هذه الظروف هبت - على حين غزوة - نسمه الرحمة الإلهية، وانقلبت الامور رأساً على عقب وتتابعت فيوضات المدد الإلهي على المسلمين وقذف الله في قلوب المشركين الرعب والفرع الشديد فترجعوا خائبين بدون أن يحققوا عملاً معيناً وعادوا إلى مكة. وفي الواقع أنَّ جميع الأخبار الغيبية في القرآن التي بحثناها مفصلاً في الفصل السابق، يمكن الاستناد إليها في هذا البحث أيضاً، وذلك لأنَّ كل واحد منها يعتبر معجزة من معاجز نبى الإسلام ودليلاً على صدق قوله وأدعائه. طالعوا مرة أخرى كل ما ذكرناه في الفصول العشرة من بحث الاعجاز القرآني من ناحية الأخبار الغيبية، إذ كل واحد من تلك الفصول يعتبر شاهداً على البحوث التي بين ايدينا في هذا الفصل.

وأما الموارد الخاصة التي حددها القرآن الكريم، ففي مقدمتها قصة شق القمر التي جاء ذكرها في قوله تعالى «اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ* وَأَنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّشْتَمِرٌ* وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أُمَّرٍ مُّشْتَقِرٌ». (القمر / ١-٣) الكلام يقع في أنَّ المقصود من شق القمر هل هو بعنوان معجزة من المعاجز الواقعة في هذا العالم، أو أنه إشارة إلى انشقاق القمر في المستقبل أو في نهاية العالم بصفته واحدة من العلامات على بداية الآخرة، فالمشهور بين المسلمين هو الاحتمال الأول على حد قول الفخر الرازي الذي يقول: «والمفسرون بأسرهم على أنَّ المراد أنَّ القمر انشق وحصل فيه الانشقاق، ودلت الأخبار على حديث الانشقاق، وفي الصحيح خبر مشهور رواه جمع من الصحابة» «١».

وينقل المرحوم «الطبرسي» أيضاً حديث انشقاق القمر عن جمع كبير من صحابة النبي

(١) تفسير الكبير، ج ٢٩، ص ٢٨.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٤٢

الأكرم صلى الله عليه وآله، وجماعة من المفسرين ويعد المخالفين لهذه المسألة ثلاثة أشخاص فقط، هم: عثمان بن عطاء، عن أبيه وكذلك الحسن والبلخي، ثم يقول بعد ذلك: «وهذا لا يصح لأنَّ المسلمين أجمعوا على ذلك فلا يعتد بخلاف من خالف فيه ولأنَّ اشتهاره بين الصحابة يمنع من القول بخلافه» «١». وذكر جماعة من المفسرين عبارات متشابهة لما نقلناه عن «الطبرسي» و «الرازي».

علاوة على ذلك فانه توجد قرائن واضحة على هذا المعنى فى نفس هذه الآيات من جملتها:

١- جملة «وانشق القمر» المذكورة بصيغة الفعل الماضى التى تدل على وقوع مثل هذا الأمر، وأما كون الفعل الماضى بمعنى المضارع فإنه وإن ورد ذكره فى موارد معينة من القرآن الكريم، لكن نظراً لكونه استعمالاً مجازياً فهو بحاجة إلى القرينة، ولا توجد قرينة فى هذا المقام.

٢- إن أفضل شاهد على هذا المعنى هى الآية الثانية التى تقول: «وَأَنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ»، لأن مشاهدة «الآية» و «الإعراض» عنها، ونسبة السحر إلى النبى كلها تدل فى الظاهر على وجود معجزة.

٣- تخبر جملة: «وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ» فى الآية الثالثة عن تكذيب هؤلاء لنبى الإسلام صلى الله عليه وآله حتى بعد مشاهدة المعجزة، ولو لم يكن إعجازاً فى البين لما كان لهذه التعبيرات أساس من الصحة بأى شكل من الأشكال.

٤- بالإضافة إلى ذلك فقد نقلت روايات كثيرة فى مصادر الحديث الإسلامى أخبار عن حدوث هذا الإعجاز وقد وصلت إلى حد الشهرة والتواتر، وقد أقر جمع من المفسرين مسألة تواتر الأخبار الواردة فى شق القمر، من جملتهم: الطبرسى، والفخر الرازى، وسيد قطب، والبروسوى فى روح البيان فلا يمكن الإعراض عن هذه الآيات والروايات بالاستناد إلى بعض الهواجس والفرضيات البعيدة على الإطلاق.

ومما يمكن ذكره بعنوان قرينة على وقوع هذه الحادثة فى المستقبل هو اقتران قرب

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٩ و ١٠، ص ١٨٦.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٤٣

وقوع يوم القيامة إلى جانب شق القمر حينما فى قوله تعالى «أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ».

إلا أن الذى ذهب إليه جماعة من المفسرين هو أن اقتراب يوم القيامة تحقق مع ظهور نبى الإسلام، لأننا نقرأ فى المأثور عنه: «بعثت أنا والساعة لها تين» وقد أشار إلى اصبعين متوازيين من أصابعه المباركة «١».

ولذا نقرأ فى قوله تعالى «أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ».

(الأنبياء / ١)

ونقرأ فى قوله تعالى «قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِينًا».

(الأحزاب / ٦٣)

وذلك حينما سألوا النبى صلى الله عليه وآله عن موعد حصول يوم القيامة.

ووفقاً لما ورد فى الروايات المشهورة فإن المشركين جاؤوا إلى رسول الله وقالوا: «إذا كنت صادقاً فى قولك وإنك نبى حقاً فاشطر القمر لنا شطرين» «٢».

ولم يمض شىء من الوقت حتى اتصل أحد شقى القمر بالآخر وعاد إلى حالته الاولى

وقد نقل الصحابى المشهور حذيفة قصة انشقاق القمر بحضور جمع من الناس فى مسجد المدائن، فلم يعترض عليه أحد مع أنهم أدركوا عصر النبى، وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على قطعته هذه المسألة فى أوساطهم «٣».

إشكالات حول مسألة شق القمر

في قبال الآيات السابقة، والروايات الإسلامية المشهورة التي وردت في جميع كتب الحديث المعروفة، وتفسير أهل السنة والشيعة، يميل البعض من خلال الاستناد إلى مجموعة من الإشكالات إلى رفع اليد عن ظهور هذه الآيات، وربطها بالحوادث المختصة ببدايات يوم القيامة وبالاصطلاح «أشراط الساعة».

(١) تفسير الكبير، ج ٢٩، ص ٢٩؛ و تفسير مجمع البيان ذيل آية ١٨ من سورة محمد.

(٢) تفسير مجمع البيان وكتب التفسير الأخرى في ذيل الآية مورد البحث.

(٣) نقل السيوطي هذا الحديث في تفسير در المنثور، وتفسير القرطبي في ذيل الآية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٤٤

١- إشكال من زاوية تاريخية

من جملة الإشكالات التي يوردها بعض البسطاء والسذج على مسألة «انشقاق القمر» هو أن هذا الأمر ينبغي أن يدون مع ماله من أهميته كبرى في تواريخ العالم، والحال أن الأمر ليس كذلك فلا نشاهد أثراً له يذكر في التواريخ.

ومن الواضح إن هذا الاعتراض غير وارد، حيث يلزم ومن خلال دراسة وتحليل لجميع جوانب هذه المسألة تبين مايلي:

أ) ينبغي الالتفات إلى أن القمر قابل للرؤية دائماً في نصف الكرة الأرضية لا في جميعها، ولهذا فإن نصف الناس مستثنون من هذه القاعدة.

ب) إن الأكثرية الساحقة في هذا النصف من الكرة نائمون أيضاً بعد منتصف الليل، وعليه فإن الذي يحيط علماً بمثل هذه الحادثة هم ربع الناس في العالم فقط.

ج) لا يبعد في المجال القابل للرؤية أيضاً أن تكون مساحات شاسعة من السماء ملبدة بالغيوم، ويكون وجه القمر محجوباً عن الرؤية.

د) إن الحوادث السماوية إنما تسترعى انتباه الأشخاص في صورة كونها كالصواعق المصحوبة بالصخب الشديد، أو كالخسوف والكسوف الكلي المستلزم لانقطاع النور بصورة تامة ولمدة طويلة نوعاً ما أيضاً.

ولهذا السبب قلما يطلع أحد على الخسوفات الجزئية، والكسوفات البسيطة إذا لم تكن مسبقة بالاعلان من قبل الفلكيين، حتى أن الكثير من الناس تخفى عليهم حالة الكسوف التامة أيضاً في بعض الأحيان.

إن العلماء الذين يترصدون القمر والأجرام السماوية، أو الأشخاص الذين تقع أعينهم على السماء صدفة، هم فقط يمكنهم أن يطلعوا على مثل هذه الحادثة ويخبروا عنها من لم يرها من الناس.

ولذا فإن مثل هذه الحادثة القصيرة الأمد لا تسترعى انتباه جميع الناس في العالم، لا سيما أن مجتمع ذلك العصر لم يبد الاهتمام المطلوب بالأجرام السماوية.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٤٥

ه) بالإضافة إلى أن الوسائل اللازمة لتدوين المطالب في التاريخ ونشرها كانت محدودة في ذلك الزمان، وحتى الأفراد المتعلمون كانوا قليلين جداً، وكانت الكتب جميعها خطية، ولم تكن تنشر الحوادث المهمة بواسطة وسائل الاعلام المسموعة والمرئية والصحف المحلية في جميع أنحاء العالم، وتسجل في جميع التواريخ كما هو الحال في يومنا هذا.

واستناداً إلى هذه النقاط لا ينبغي الاستغراب من عدم ذكر هذه الحادثة في التواريخ غير الإسلامية، واعتبار ذلك دليلاً على عدم وقوعها.

٢- من الزاوية العلمية

استناداً إلى «هياة بطليموس» التي ترى أن الأرض هي مركز العالم والأفلاك التسعة المحيطة بأطرافها على شاكلة طبقات قشرة البصل، وكانت تعتقد أن هذه الأفلاك كالجسم البلوري المرتبط بعضه ببعض، والنجوم والأجرام السماوية مندكة في قلب الأفلاك، وتدور مساوقة لحركة الأفلاك، وأى نوع من أنواع الخرق والالتنام في الأفلاك محال، لهذا السبب أنكر اتباع هذه العقيدة كلاً من «المعراج الجسماني»، و«انشقاق القمر» معاً، ذلك أن كليهما يوجب الخرق والالتنام في الأفلاك!.

إلما أنه لم يعد هناك أرضية لهذا الكلام في يومنا هذا بعد أن طويت فرضية الهياة لبطليموس في ملف الأساطير والخرافات وثبت بطلان الافلاك التسعة من الناحية العلمية والحسية.

وقد يقال: ليس من السهل تحقق مسألة انشقاق القمر بمنظار العلم الحديث أيضاً، لأن هذه الكرة «مساحة القمر» وإن كانت خمس الكرة الأرضية إلّا أنها مع ذلك كرة عظيمة، ووقوع الانشقاق والانفجار فيها بحاجة إلى عامل قوى جداً، والجواب عن هذا الإشكال واضح في نظر أهل التوحيد، إذ لم يدع أحد بحدوث «انشقاق القمر» من جراء احدي العوامل الطبيعية، بل كان يُعزى سبب حدوث ذلك إلى الاعجاز مستنداً إلى القدرة اللامتناهية للبارى عزّ وجلّ.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٤٤

ولا يخفى عليكم أن الله لا يصعب عليه انشقاق القمر، بل إن إيجاد المنظومات والمجزات الاخرى كلها منقاداً لإرادته ومشيئته أيضاً، ذلك الله الذي أحدث الانفجار الأول في قلب الشمس منذ البداية، وفصل عنها السيارات الكبيرة للمنظومة الشمسية، فقذفت كل واحدة منها في ناحية من النواحي وبدأت تدور حولها، أجل، إن من بيده كل شيء وقادر على كل شيء لقادر على إثبات نبوة نبيه، وذلك أن يحدث في لحظة من اللحظات مثل هذا الانفجار ثم الالتنام في كرة القمر التي هي لا تساوى شيئاً أمام قدرته تعالى إن الذين يستهينون بالقدرة الإلهية - والعياذ بالله - أو لم يحيطوا علماً بحدوث المنظومات السماوية الكبيرة على أثر الانفجارات المتتابعة، هم فقط الذين يثيرون الإشكالات على هذا النوع من المسائل.

٣- انشقاق القمر في التصور القرآني

يقولون إن هناك آيات في القرآن الكريم تدل على أن نبي الإسلام صلى الله عليه وآله لم يمتلك معجزة سوى القرآن: واستدل هؤلاء على إثبات فكرتهم كما ورد في قوله تعالى «وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ». (الاسراء / ٥٩)

وكذلك تشبثوا بالآية ٩٠ إلى ٩٣ من سورة الاسراء، وذلك استناداً إلى أن جماعة طلبوا من النبي طلبات مختلفة، فتارة قالوا: لا تؤمن إلما أن تفجر لنا ينبوعاً من هذه البقعة من الأرض (الجرء القاحلة)، وتارة اخرى قالوا: لا تؤمن لك إلما أن يكون في حوزتك بستان كبير من أشجار النخل والعنب وتجري من خلاله الأنهار، أو تنزل على رؤوسنا - كما تدعى - الأحجار السماوية، أو تحضر لنا الله وملائكته، أو تمتلك بيتاً من الذهب، مليئاً بالرسوم والنقوش، أو تصعد إلى السماء، ولا نكتف بذلك إلما أن تأتينا بكتاب من قبل الله تعالى لنطلع عليه، فما كان جواب النبي الأكرم على مطالبهم إلما أن قال: «سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا». (الاسراء / ٩٣)

وعلى ضوء جوابه صلى الله عليه وآله ادعى أولئك المرتابون بأنه لم يأت بأى معجزة.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٤٧

الجواب:

إن الالتفات إلى الكلمة التي وردت في أقوال جمع من المفسرين الكبار توضح الجواب عن هذا الإشكال وهي: إن المعجزات على نوعين:

النوع الأول: هي المعجزات الضرورية لإثبات صدق دعوى النبي، وترغيب الناس في الإيمان، وتخويف المنكرين، وهي المعاجز

المنطقية للذين ينشدون الحق والباحثين عن الحقيقة، بحيث يعبر القرآن الكريم في ذيل الآية المذكورة بقوله: «وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا». (الاسراء / ٥٩)

النوع الثاني من المعجزات: هي المعجزات التي تسمى بـ «الاقتراحية»، أي المعجزات التي يطالب بها المتعللون لا لأجل سلوك سبيل الحق واليقين بصدق دعوى النبوة ومن ثم الإيمان واعتناق الإسلام، وإنما بقصد تعجيز الطرف الآخر، فإن وجدوا به قدرة على ذلك اتهموه بالسحر.

والأنبياء كانوا يتجهون صوب القسم الأول ولا يستسلمون إطلاقاً لمقترحات المتعللين والمعاجز الاقتراحية. يشير لحن الآيات ٩٠-٩٣ من سورة الاسراء بشكل واضح إلى أن هذه الموضوعات العجيبة والغريبة والمتهافته لمشركي العرب لم يكن منشأها هو البحث عن الحقيقة، بل الغاية منها هي اختلاق الأعذار والتشكيك في نبوة نبي الإسلام وارساء دعائم الشرك والصنمية، ولذا لم يُمعنوا النظر حتى في مفهوم كلامهم، فمن ضمن مطالبهم مثلاً أنهم يطلبون معجزة من المعاجز التي تبيدهم «كنزول الأحجار السماوية على رؤوسهم»، وتارة يطلبون معجزة (الصعود إلى السماء)، ثم ينفون ذلك مباشرة ويقولون: نحن لا نؤمن بذلك حتى تبث لنا كتاباً من قبل الله، وتارة يطلبون الامور المستحيلة كقولهم: أن تأتينا بالله والملائكة، والحال أن الله ليس له مكان، وليس بجسم ولا جسماني.

ثم إذا كان الهدف هو التوصل إلى معرفة حقانية النبي فلم يطلبون ست معاجز مختلفة؟

ألا تكفي معجزة واحدة؟

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٤٨

من هنا لم يتسن لأي نبي أن يستسلم لهذا النوع من الأراجيف والأباطيل، فضلاً عن أن الاعجاز ليس من شأن النبي واختياره، وإنما هو من شأن الله تعالى واختياره.

إن النبي بإمكانه أن يطلب المعجزة من الله والله تعالى يضع بين يديه أي شيء يراه صالحاً، ولهذا نقرأ هذا المعنى في ذيل قوله تعالى «قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا» (الاسراء / ٩٠-٩٣)

وكذا في قوله تعالى «وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَهُ الْإِلَهُ بِالذِّكْرِ». (الرعد / ٣٨)

وأما قوله: نحن لن نستسلم لمطالبكم لأن الأولين كذبوا ذلك، فهذا يدعو إلى هذا التساؤل وهو: كيف يجوز أن يكون تكذيب الأولين سبباً لحرمان الأجيال المتعاقبة من مشاهدة المعجزات؟ فالإجابة عنه تكمن في كون هذه العبارة متداولة وذلك بأن يقال للشخص العنيد الذي لا يريد أن نستسلم له: إن اقتراحك لم يكن وجيهاً وقد سبق لغيرك أن اقترحه، ولم يرضخ للحق.

بعبارة أخرى أن المعاجز التي تقترحونها لا تستند إلى أساس البحث عن الحقيقة، وإنما هي «اقتراحية» وتعجيزية، ولو نفذت طلباتكم لما آمنتكم أيضاً، فقد سبق لافراد مثلكم في الامم الغابرة أن طلبوا إظهار معاجز ثم كذبوها بعدما شاهدوها.

ملخص الكلام هو أن من الصحيح القول: إن القرآن لو حده معجزة خالدة، ولو لم يكن هناك معجزة أخرى سوى هذه المعجزة للنبي لاستطاعت أن تكون شاهداً على صدقه، ولكن هذا لا يدل على أن النبي لم يمتلك معجزات جسمانية ومادية غير هذه المعاجز الروحية والمعنوية، بل ذهبت الآيات والروايات والتواريخ الإسلامية وسيرة النبي إلى القول: إنه كان يمتلك ذلك، ولا شك في أن انضمام المعجزات المحسوسة والمادية إلى تلك المعجزة المعنوية الكبيرة يظهر حقانية الدعوة النبوية بصورة أجلي وأوضح.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٤٩

الطريق الثاني: جمع القرائن طريق آخر للاطمئنان

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٥١

نفحات القرآن ج ٨ ٢٩٩

الطريق الثاني: جمع القرائن طريق آخر للاطمئنان

تمهيد:

خلافاً لما يظن البعض فإن سبيل إثبات صدق دعوى النبوة لا يقتصر على المعجزات فقط، بل أحياناً تثبت عن طريق تجميع القرائن المتعلقة بحياة ذلك النبي، وصفاته وخصائصه الأخلاقية والعملية، ومضمون الدعوة وبرامجها المستخدمة يمكن الحصول على سند واضح قد يعادل اقوى المعجزات بل أحياناً يتقدم تلك المعجزات أيضاً. إن هذا النوع من الاستدلال يلاحظ أيضاً في كلام القدامى وإن كان يبدو شكله اقل انسجاماً. ولهذا السبب فمن اللازم تقديم بعض التوضيحات حول هذا الموضوع مسبقاً.

جمع القرائن دليل متداول في كل العلوم:

إشارة

للتوصل إلى الحقائق في العلوم المختلفة يتم اليوم الاستفادة من طريقه جمع القرائن بشكل كبير لكشف الجرائم، ولتشخيص أنواع الأمراض، ولمعرفة خصائص الشخصيات العظيمة السالفة على طول التاريخ، ولكشف القضايا المتعلقة بعالم الخلق، الأرض والسماء، النباتات والحيوانات.

والفرق بين هذا الأسلوب وأسلوب (الاستقراء) الذي هو أحد طرق البرهان هو: إننا نحصل بالاستقراء على حكم كلي عند البحث والتنقيب عن الأفراد، فعلى سبيل المثال نقوم بعدد فقرات أفراد كثيرين ثم ندرج في الكتب قانوناً عاماً يقول: إن الإنسان له كذا عدد من الفقرات.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٥٢

ولكن بطريقة جمع القرائن نقوم بدراسة آثار موضوع خاص أو ما يسمى ب «الجزئي الحقيقي» ثم نتوصل من مجموع تلك الآثار إلى المؤثر.

وكمثال على ذلك: حينما تقع جريمة في نقطة ما ويؤتى بالمتهم إلى المحكمة فينكر التهمة الموجهة إليه جملةً وتفصيلاً، مستفيداً من عدم وجود شاهد يثبت التهمة، فإن الحاكم الذكي لا يغلق ملف القضية بذريعة إنكار المتهم وعدم تيسر الشاهد، بل يقوم بتجميع القرائن عن طريق التحقيقات المختلفة، ودراسة أمور كثيرة أخرى مثل:

(أ) سوابق المتهم.

(ب) نوع العلاقة التي تربط بين المتهم والشخص الذي وقعت عليه الجريمة، وهل هناك من خصومة أو اختلاف بينهما أم لا؟

(ج) مكان وزمان وقوع الحادث، وهل بإمكان المتهم ايضاح المكان الذي كان فيه وقت وقوعها؟

(د) نوع السلاح أو الرصاصة التي عُثر عليها في هذه الحادثة، وهل أن المتهم يستخدم مثل هذا السلاح أم لا؟

(هـ) ملاحظة الحالة الجسدية للمتهم والشخص الذي وقعت عليه الجناية، وهل توجد آثار منازعة عليهما أم لا، وهل للمتهم توضيحات لهذه الآثار أم لا؟

و) الاحساس الذى ينعكس على المتهم عند مشاهدته رداء المقتول وآثار الجريمة، وهل تضطرب حالته أم يحتفظ بهدوئه أثناء ذلك؟

ز) الحالة النفسية للمتهم ومقارنتها بالسابق، هل هي متعادلة أم يسيطر عليها الاضطراب؟

ح) عند اجابته عن أسئلة المحقق والحاكم هل يتتابه الارتباك والاضطراب والتناقض وأمثالها أم لا؟ بالإضافة إلى مسائل اخرى كثيرة، وقد لا تكون آحادها كافية لإثبات الحقيقة، ولكن بحث هذه الجوانب أحياناً لا يبقى أى شك أو ترديد بأن الجريمة نفذت من قبل المتهم، وهذا

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٥٣

مايقوى من عزم الحاكم أو القاضى بأن يتابع القضية بأناه وما أكثر ماتنتهى متابعته إلى إقرار الطرف المقابل أيضاً. بل ويمكن القول: إنّ (الإقرار) هو دليل ظنى - لأنه لوحظ كثيراً أنّ البعض ومن أجل الهروب من قبضة العدالة أعطوا أموالاً طائلة لشخص آخر حتى يعترف بعد طمأنته بأنهم سيخلصونه فى النهاية، وكذلك (شهادة الشهود) هى دليل ظنى أيضاً، لأنّ احتمالها للخطأ أو التواطؤ ليست مستحيلة (لا شك أنّ شهادة الشهود والاعتراف مقبولة، وأنّ المقصود هو أنّها دلائل ظنية مقبولة فى نهاية الأمر، فى حين أن تجميع القرائن يمكن قبولها عند وصولها مرحلة القطع واليقين).

وتلاحظ فى الأحكام الإسلامية أيضاً نماذج واضحة لهذه المسألة، وأحياناً تمّ إثباتها حتى بواسطة قرينه حكم واحدة مثل حكاية اختلاف (العبد) و (السيد) فى عصر أمير المؤمنين عليه السلام عندما أمر عليه السلام (صورياً) بضرب عنق العبد منهما إذ سحب أحدهما رأسه ليثبت على نفسه أنه العبد.

أو كقصه اختلاف تينك المرأتين على وليد، وأمره عليه السلام - صورياً - بقطع ذلك الوليد نصفين، عندئذ تنازلت الام الحقيقية لذلك الطفل عن حقها فكان موقفها ذاك دليلاً على صدق دعواها، وأمثال ذلك.

على أية حال إنّ الاستفادة من هذه الطريقة للوصول إلى نتائج قطعية ليس فى المسائل القضائية وحسب، بل وفى الكثير من العلوم، وكذلك القضايا الاجتماعية والسياسية المختلفة هو أمر معتاد وبنّاء، ويمكننا أيضاً الاستفادة منه فى مسألة إثبات نبوة الأنبياء وأحياناً يكون تأثيره فى ايجاد اليقين والاطمئنان أكثر من تأثير المعجزات العادية.

بهذه الإشارة نعود إلى الآيات القرآنية لئرى مالها من بيان حول هذا الدليل - بشكله الكلى، ثم نتجه نحو حياة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله لنجمع القرائن المختلفة عن حياته ونضعها إلى جانب بعضها البعض حتى يحكم القراء عليها بأنفسهم.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٥٤

فى القسم الأول وفى آيات متعددة من القرآن تلاحظ إشارات حافلة بالمعاني حول هذا الدليل، ومن جملتها:

الآيات التى تعبر عن وجود نبي الإسلام صلى الله عليه وآله بأنه (شاهد) و (سراج منير) و (برهان) و (شمس).

فقرأ فى قوله تعالى

«يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا». (الأحزاب / ٤٥ - ٤٦)

فى هاتين الآيتين يقدم القرآن الكريم نبي الإسلام صلى الله عليه وآله على وآله على أنه (شاهد)، فقد ورد فى أحد التفاسير أنه شاهد على أحقيته، لأنّ صفاته وأخلاقه، وخططه البناءة، وسوابقه الساطعة، وأعماله، تشهد على حقانية دينه وصدق دعوته، هذا من جهة «١». ومن جهة اخرى يعرفه بعنوان (سراج منير)، واننا نعرف أنّ السراج هو دليل على نفسه ولا- يحتاج لدالٍ عليه، أو كالقول المعروف (طلوع الشمس دليل على الشمس).

وتعبير (برهان) الذى جاء فى قوله تعالى «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا». (النساء / ١٧٤)

هو إشارة اخرى لتلك الحقيقة، لأنّ (برهان) مشتقة من مادة (بره) على وزن (فرح) وتعنى الإيضاض، ولأنّ الاستدلالات الواضحة تنير

وجه الحق وتبيُّهه، لذا أطلق عليها برهان.

ويعتقد جمع من المفسرين أن المقصود من البرهان في هذه الآية هو ذات الرسول صلى الله عليه وآله «٢»، والمقصود من النور هو القرآن المجيد.

وبناءً على ذلك فإن شخص الرسول صلى الله عليه وآله جرى تعريفه بعنوان (برهان)، وذلك بسبب توفر آثار وقرائن في وجوده تنبئ بأحقيقته فضلاً عن معجزاته.

(١) في تفسير آخر للآية المذكورة اعتبر النبي صلى الله عليه وآله كشاهد على الأنبياء قبله. أو شاهد على أعمال امته يوم القيامة. في حين لا يوجد أي تناقض أو تعارض بين هذه التفسيرات الثلاثة ويمكن جمعها في معنى الآية.

(٢) من الذين قبلوا هذا المعنى أو نقلوه باعتباره تفسيراً: المرحوم الطبرسي في مجمع البيان، والعلامة الطباطبائي في تفسير الميزان؛ والمراغي؛ والقرطبي في تفسيرهما (ذيل الآية مورد البحث).

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٥٥

وجاء في تفسير: «والشمس وضحاها» في روايات متعددة أن (الشمس) هي إشارة لوجود الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، وأن (القمر) هو إشارة إلى وصيِّه بالحق «١».

من البديهي أنه لا يوجد دليل لإثبات وجود الشمس سوى وجودها بالذات، لأن الجميع يطلعون على وجود الشمس المشرقة والمنيرة بمجرد طلوعها من افق المشرق.

وفيما عدا هذه التعبيرات أشار القرآن الكريم في آيات أخرى إشارة واضحة إلى هذه المسألة، وأشار إلى بعض دلائل أحقية الرسول صلى الله عليه وآله ومن جملتها أنه استند إلى قضية (أميته) واعتبارها قرينه، مثلاً يقول تعالى

«وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ».

(العنكبوت / ٤٨)

وهنا يشير القرآن إلى أن الرسول صلى الله عليه وآله لو كان يقرأ ويكتب لكان الشك يقع بين كون القرآن منه أو من الله، ولكن بالنظر إلى أنه صلى الله عليه وآله كان أمياً وأن القرآن الكريم كان معجزه من جوانب مختلفة فلا يبقى لأحد أي مجال للشك في أن هذا الكتاب هو من قبل الله تعالى

وهذه طبعاً قرينه واحدة فقط من القرائن الكثيرة التي تلاحظ في وجوده صلى الله عليه وآله، ودليل على صدق دعوته، وكلما وضعنا مجموع هذه القرائن إلى جنب بعضها البعض لأضحت المسألة أكثر سطوعاً من الشمس.

وتعبير (المبطلون) يدل على أنه حتى لو كان النبي صلى الله عليه وآله قد تلقى التعليم فلا مجال أيضاً إلى أن نعتبر هذا الكتاب هو من بناء أفكاره، لماذا؟ لأنه يقينا اسمى من فكر وعلم بنى البشر، ولكن هذا الأمر بمفرده قد يشكل ذريعة للمفسدين والمبطلين.

ونقرأ في قوله تعالى:

«قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْنَكُم وَلَا ادْرَأَكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ». (يونس / ١٦)

(١) في تفسير البرهان، ج ٤، ص ٤٦٦ توجد خمسة أحاديث حول هذا الموضوع، وليس في هذا التفسير تعارض مع التفسيرات الأخرى للشمس، ويمكن جمعها كلها في معنى الآية.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٥٦

وفي الحقيقة كان النبي صلى الله عليه وآله يعتمد على هذه القرينة عندما يقول: إنني عشت بينكم سنين طويلة ولم تسمعوا مني مطلقاً

مثل هذا الكلام (الآيات القرآنية)، ولو كانت هذه الآيات صادرة منى فلا بد أن تجرى على لساني خلال هذه الأربعين سنة أو لسمعت منى قسماً منها على الأقل.

وكما يقول بعض علماء النفس: فإنّ النبوغ الفكرى، واكتشاف وإبداع المسائل المستحدثة يبدأ عادة عند الإنسان من سن العشرين، وتمتد على الأكثر إلى سن ٣٠ أو ٤٠ سنة، أى أن الإنسان إذا لم يأت حتى ذلك العمر بابتكار جديد ففى الغالب ينتفى عنده بعد ذلك.

وهذا الموضوع الذى يُعدّ اليوم كإكتشاف نفسانى كان فى الماضى غير واضح إلى هذا الحد، ولكن غالبية الناس كانوا يعرفون عادة بالهداية الفطرية أن ليس بمقدور الإنسان أن تكون له أفكار خاصة متمثلة بدين جديد وهو يعيش بين قومه وشعبه مدّة أربعين سنة ولا يظهرها مطلقاً، ولهذا يقول القرآن: كيف لا تدركون استحاله هذا الأمر؟

إنّ استناد القرآن الكريم فى آيات متعددة على (أمة) النبى صلى الله عليه وآله له دلالات مليئة بالمعاني، وكذلك القرائن بأنّ كيف يستطيع شخص لم يتلقّ تعليماً أن يأتى بكتاب بهذا المحتوى الذى ليس له نظير، وبهذا الشمول الاستثنائى، والحقائق التى تحتفظ بطاوتها تماماً بعد مضى الف سنة أو أكثر، والذى يعتبر وصفه راقية وناجعة لحل المشاكل الحياتية لبنى البشر فى الجوانب المعنوية والمادية؟

ومما قيل نستنتج أنّ للقرآن الكريم اهتماماً خاصاً بهذا الدليل (أى تجميع القرائن).

والآن نعود إلى الشرح والبيان التفصيلى لهذه القرائن التى اختصّ بها النبى الأكرم صلى الله عليه وآله، ونخضع الامور التالية للبحث والدراسة الدقيقين:

محيط دعوته والظروف السائدة هناك.

الخصائص الأخلاقية والنفسية لنبى الإسلام صلى الله عليه وآله وسوابقه.

زمان دعوته من ناحية الوضع العام فى العالم وبالخصوص فى منطقة ظهوره صلى الله عليه وآله.

مضمون دعوته وأسس القضايا التى يدعو الناس إليها. نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٥٧

الوسائل التى يستفيد منها للوصول إلى أهدافه.

انسجامه وعدم انسجامه مع متطلبات البيئة المنحرفة وكيفية تصديه للخرافات.

ماهية الأفراد الذين آمنوا ومن أى طبقة وأى نوع.

ميزان اعتقاده بالاهداف التى يدعو الناس إليها.

سرعة انتشار دعوته ومستوى الاثر الذى تتركه أحكامها وقوانينها فى المجتمع.

بالإضافة إلى علائم اخرى

١- محيط دعوة النبى صلى الله عليه وآله والظروف السائدة هناك

إنّ القضية التى يتفق عليها كل المؤرخين الكبار هى: أنّ العرب قبل بدء الرسول صلى الله عليه وآله بدعوته كانوا فى أوضاع سيئة للغاية من ناحية سيطرة المعتقدات الخرافية، والانحطاط الأخلاقى، والاختلافات، والحروب الداخلية المستعرة، والظروف الاقتصادية السيئة، ولا تتحرك فى تلك البيئة نسمه من رياح العلم والمعرفة، ولا يوجد حتى أثر من الحضارة الشكلية للبشر، ولهذا السبب كانوا يعتبرونهم قوما نصف متوحشين، ويطلقون على عصرهم اسم (العصر الجاهلى).

وللقرآن الكريم تعابير صريحة وواضحة عن ذلك العصر يمكنها رسم ملامح الأوضاع فى ذلك الزمان بشكل جيد (حتى لو لم

يصدق أحد بأن القرآن الكريم وحى إلهي، ولكن لا يمكنه انكار حقيقة أن ذكر تلك الصفات لذلك العصر في القرآن هي دليل على واقعيته وحقيقته، وإلا يكون منكرًا لكل الجوانب).

فيقول الله تعالى في مكان: «لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَأَن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ».

(آل عمران / ١٦٤)

وعبارة (ضلال مبين) في هذه الآية وفي أواخر الآية الثانية من سورة الجمعة أيضاً، هو

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٥٨

إشارة معبرة عن الاوضاع في العصر الجاهلي الذي كانت الضلالة الميئة تسود أركانها، وأي ضلالة أوضح وأبين من عبادتهم لأصنام من الحجر والخشب صنعوها بأيديهم، والأسوأ من ذلك هو تلك الأوثان التي يعملونها من التمر ويعبدونها، ثم يأكلونها أيام القحط والجفاف.

أو يدفنون بناتهم بأيديهم وهن أحياء، وهم يفخرون ويتباهون بعملهم هذا بدعوى أنهم لا يدعون عرضهم وناموسهم يقع بأيدي الأجانب، أو يقتلون أبناء خوفاً من الإملاق.

وجاء في قوله تعالى «وَأِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ * أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ». (النحل / ٥٨-٥٩)

وأي ضلال أوضح من سيطرة أنواع الخرافات والأوهام عليهم، أو اعتبارهم الملائكة بنات الله: «وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثَاءً». (الزخرف / ١٩)

وفي مكان آخر يقول: «وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ». (النحل / ٥٧)

وهناك آيات اخرى نظير ما أشرنا إليها.

أي ضلال أوضح وأبين من أن تسيطر عليهم الحروب وسفك الدماء في كل أيام السنة- باستثناء الأشهر الحرم-، وتوارث الأحقاد القبلية من الآباء للأبناء واستمرارها لسنوات وسنوات، كما يشير القرآن إلى ذلك بقوله: «وَأذْكُرُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَاصْبِرْتُمْ بِنِعْمَةِ إِخْوَانِكُمْ عَلَىٰ شَقَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا». (آل عمران / ١٠٣)

أي ضلالة أوضح من أن تكون حتى مراسم صلاتهم ودعائهم مضحكة ومقرزة، فحيناً تطوف النساء حول بيت الله الحرام وهن عاريات تماماً ويحتسبن ذلك عبادة، وحيناً آخر يقيمون صلاتهم مصحوبة بالتصفيق والصفير: «وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً». (الانفال / ٣٥)

لقد كانت الخرافات والأوهام تخيم على مجتمعهم، بضروب شتى وكانت كل قبيلة تسعى إلى إبراز نفسها على أنها أرفع من القبيلة الاخرى وربما يؤدي إلى ظهور الأحقاد

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٥٩

والضغائن والحسد، وأحياناً سفك الدماء بين القبائل إلى الحد الذي يدعهم- من أجل إثبات كثرة عددهم- إلى التوجه صوب القبور لعدّ قبور موتاهم والتفاخر بالعظام النخرة لأجدادهم وهي تحت التراب.

يقول القرآن الكريم: «الْهَكْمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ». (التكاثر / ١-٢)

وما إلى ذلك من أوهام ومفاسد وكوارث اخرى من هذا القبيل.

إن الانحطاط في تلك البيئة والفقير المعنوي والمادى جعل تلك المنطقة في قائمة أكثر مناطق العالم تخلفاً.

ينقل أحد المؤرخين الغربيين عن بعض المؤرخين المعروفين حول بيئة الحجاز في العصر الجاهلي قائلاً: عندما دخل (ديمتريوس)

القائد اليونانى الكبير (البتراء) - إحدى مدن الحجاز القديمة - وهو فى طريقه لاحتلال المنطقة العربية، قال له العرب الساكنون هناك: (أيها الملك ديمتريوس! لماذا تحاربنا؟ إننا نعيش فى أرض خصباء تفتقر لأبسط متطلبات الحياة، ومحرومة من كل النعم التى يتمتع بها أهالى المدن والقصبات، لقد اخترنا السكن فى هذه الصحراء القاحلة لأننا لا نريد أن نكون عبيداً لأحد، ولهذا تقبل منا هذه التحف والهدايا التى نقدمها لك وأخرج جيوشك من هنا وعُدْ...).

وانتهز (ديمتريوس) رسالة الصلح هذه وقبل الهدايا وغيض النظر عن هكذا حرب تُخلف مشاكل كثيرة «١».

ومنطقة (الحجاز) لم تخضع لسيطرة الفاتحين القدامى على مدى التاريخ وقد حافظت على استقلالها، والسبب كما يقول المحللون: هو عدم استحقاق مثل هذه المنطقة - الجرداء التى تفتقر لكل شىء - هذه الجهود والمشاكل، وأيضاً افتقار منطقة الحجاز لحضارات البلدان القديمة مثل إيران وروما التى تتواجد فى الكثير من نقاط شبه الجزيرة العربية.

وبعد أن تعرفنا على حال الجزيرة العربية لابد لنا من النظر إلى حال الإنسان البسيط الذى عاش فى محيطها مهما كانت قوة إرادته وقوة تفكيره (لاسيما إذا لم يكن قد تلقى أى نوع من التعليم).

(١) تاريخ حضارة العرب والإسلام تأليف كوستاف لوبون.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٦٠

هل أن الذى تربي فى محيط موبوء بالجهل والفساد يمكنه أن يكون مؤسساً للعلم والمعرفة والفضائل الأخلاقية؟

و هل سمعتم بأن علماء عظماء وفلاسفة نوابغ نهضوا من بين قبائل جاهلية نصف متوحشة؟

إذا نبتت ورود جميلة وحشائش طرية فى أرض خصبة ومهيأة فلا- عجب فى ذلك، بل العجب عندما تنبت وردة جميلة فى أرض سبخة.

وعلى أية حال يمكن أن تكون هذه المسألة بمفردها غير كافية فى إثبات أحقية الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، ولكنها بدون شك تعتبر واحدة من القرائن التى متى ما ألحقناها بالقرائن الأخرى شكلت برهاناً قوياً ومبيناً.

نختم هذا الحديث بقول أمير المؤمنين على عليه السلام - الذى أدرك العصرين، عصر الإسلام والجاهلية - وهو يرسم لنا العصر الجاهلى: «أرسله على حين فترة من الرسل، وطول هجعة من الامم، واعتزام من الفتن، وانتشار من الامور، وتلظى من الحروب، والدنيا كاسفة النور، ظاهرة الغرور، على حين اصفرار من ورقها، وإياس من ثمرها، واغورار من مائها، قد درست منار الهدى وظهرت اعلام الردى، فهى متجهمة لأهلها، عابسة فى وجه طالبها، ثمرها الفتنة، وطعامها الجيفة، وشعارها الخوف وثارها السيف» «١».

وفى مكان آخر نقرأ له عليه السلام: «إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وآله وسلم نذيراً للعالمين، وأميناً على التنزيل، وأنتم معشر العرب على شر دين وفى شر دار، منيخون بين حجارة حُشنٍ وحياتٍ صُمٍ تشربون الكدر، وتأكلون الجشب، وتسفكون دماءكم، وتقطعون أرحامكم، الأصنام فيكم منصوبة، والآثام بكم معصوبة» «٢».

وخلاصة القول هى: إن البحث فى القرآن الكريم والروايات الإسلامية ومجموع التواريخ التى كتبت فى الشرق والغرب حول العصر الجاهلى، تدلل على أنها متفقة جميعاً

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٨٩.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ٢٦.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٦١

على أن البيئة التى ظهر فيها نبي الإسلام صلى الله عليه وآله هى من أخط البيئات وأكثرها تأخرًا، بيئه لا تتسجم أبداً مع ظهور هكذا

دين وتعاليم متطورة في الأصدعة كافة.

٢- تاريخ الرسول صلى الله عليه وآله وخصائصه الأخلاقية

إن الخصائص الأخلاقية هي إحدى أفضل الطرق إلى معرفة الدعاة الصادقين من الكاذبين، فهذه الخصائص يمكن اعتمادها كقرائن وأدلة واضحة لنفي أو إثبات أحقية الداعي، وكلما شوهدت مظاهر الطهارة والتقوى، والعظمة والتسامح والرأفة والمحبة، والزهد والتقشف، والشجاعة والشهامة والماضي الاجتماعي الحسن في المدعى، فمن الصعوبة بمكان أن لا نعتبره صادقاً، وبالعكس فإذا كان محباً للدينا، ومنكباً على المادة، ومتعلقاً بالمال، والمقام، والجاه، والقدرة المصحوبة بالتهور والكذب، والحقد وحب الانتقام، وما شابه ذلك من رذائل خلقية (لا سمح الله)، فلا يمكن اعتبار مدعى النبوة هذا صادقاً مطلقاً.

ولحسن الحظ فإن سوابق النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قبل نبوته هي سوابق ساطعة ومضيئة حيث قضى أربعين عاماً بين ظهرانيهم والتاريخ الذي كتبه أيادي الأصدقاء والأعداء يعطى صورة ناطقة ومعبرة عن ذلك.

ففي كل التواريخ اعتبرت نزاهة النبي صلى الله عليه وآله وأمانته بأنها مسألة متفق عليها وأن لقب (الأمين) سمعوه يطلق عليه من قبل الجميع.

والملفت للنظر هو أن الناس - بالرغم من مخالفتهم له - بعد بداية دعوته للإسلام بقوا يودعون أماناتهم عنده، ولذا أمر صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام أثناء الهجرة إلى المدينة المنورة - أي بعد مرور ثلاثة عشر عاماً من البعثة - بأن يبقى في مكة ليؤدى عنه الأمانات إلى أهلها، ثم يهاجر إلى المدينة.

إن حسن خلق النبي صلى الله عليه وآله وحسن معاشرته وسخائه وكرمه، وخلاصة الصفات التي تليق

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٦٢

بقائد إلهي عظيم يمكن مشاهدتها به صلى الله عليه وآله بوضوح خلال الوقائع المختلفة في حياته، وخاصة أثناء فتح مكة، ومعركة احد، وكذلك في تعامله مع أسرى الحرب، والرقيق، وطبقات المجتمع المحرومة، إلى الحد الذي اعتبروا فيه هذه المسألة بأنها نقطة ضعف عنده، وأن دينه هو دين العبيد والمحرومين، وابتعد عنه الأغنياء والأثرياء، وعرضوا عليه طرد الحفاه والمستضعفين وإبعادهم مقابل تأييدهم له وتقربهم منه صلى الله عليه وآله، وقد جاء هذا المعنى بإشارة واضحة في قوله تعالى

«وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا». (الكهف / ٢٨)

وهو الذي صفح عن (أبو سفيان) ألد أعدائه والمؤجج الخطير لنيران الحروب ضد الإسلام، وجعل من بيته أثناء فتح مكة ملجأً وأماناً لأهل مكة، وأعلن العفو العام عن المكين الذين ارتكبوا جرائم كثيرة ضده وضد أتباعه، وهذا الخلق الحسن والتسامح واللطف والكرم صار السبب في جعلهم يلتفون حوله.

وفي (معركة احد) أيضاً عندما فر جماعة من حديثي الدخول في الإسلام من أرض المعركة وتركوه وحيداً بين الأعداء متحملاً ضربات شديدة منهم، عاد وأعلن العفو العام، وصفح عن الجميع إلى درجة استوجبت نزول الآية المباركة: «فَمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ». (آل عمران / ١٥٩)

فقد بينت هذه الآية لين قلب وباطن النبي صلى الله عليه وآله وصفاء سريره وكذلك لهجته الرقيقة والمليئة بالعاطفة التي لم تأمره بالعفو عن أخطائهم فحسب، بل أمرته أيضاً بطلب المغفرة لهم من الله تعالى، وأن يحترم شخصياتهم ويشاورهم.

لقد كان صلى الله عليه وآله رحيماً بالمؤمنين وغير المؤمنين بالقدر الذي يجعله يتألم بشدة من عدم إيمان البعض، وإلى حد يوشك

فيه على الهلاك أسفاً عليهم.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٦٣

ونقرأ في قوله تعالى ما يتضمّن معنى التسليّة للنبي صلى الله عليه وآله: «فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسْفًا». (الكهف / ٦)

وشبيه هذا المعنى جاء في قوله تعالى «لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ» (١).

(الشعراء / ٣)

وحقاً إذا لم يتصف القائد بهذه الصفات فلا يستطيع أن يجسد المعنى الحقيقي والواقعي للقيادة، وقد جاء في قوله تعالى «لَقَدْ جَاءَكُمْ

رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ». (التوبة / ١٣٨)

ومن المسلم به أنّ البحث حول الملكات الخلقية للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وخصائصه الأخلاقية أوسع وأشمل من أن يضمها حديث قصير، وأنّ غايتنا فقط هي الإشارة العابرة لهذه المسألة باعتبارها إحدى القرائن.

٣- مضمون الدعوة

إنّ تحقيق ودراسة محتوى أىّ دعوة يشكل في الغالب دليلاً مقنعاً للتوصل إلى صدق أو كذب المدعى، فالدين السماوى الذى يصدر عن جهة السماء، وينزل عن طريق الوحي، له مزاياه الخاصة، في حين أنّ الدين الكاذب الذى يتدعه فرد أو أفراد لأهداف مادية وشيطانية له مزايا اخرى

فالأول: غايته هداية البشرية، وتقوية النفوس، وإقامة العدل، وتهيئة متطلبات الصلح والسلام والأمن، وأخيراً تكامل الإنسان مادياً ومعنوياً.

في حين أنّ الثانى. يسعى لتحقيق الإنسان وتخدير فكره، والانتفاع الأكثر منه والاستعمار والاستثمار له، ومسلماً أنّ أهدافاً كهذه تتطلب خططاً وبرامج اخرى

وبملاحظة ما ذكر آنفاً نلقى نظرة إجمالية على مجموع المعارف والقوانين والبرامج

(١) «باخع» من مادة «بَخَع» على وزن «نَقَع» تعنى الهلكة من شدة الغم والحزن، وتعبير آخر، الموت غصّة.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٦٤

الإسلامية، لاسيّما تلك التى استند إليها القرآن الكريم وأكد عليها:

١- إنّ أول شىء يبدو للناظر ويشكل الأساس الرئيسى لكل العلوم والقوانين الإسلامية هو مسألة (التوحيد) ومحاربة كل أنواع الشرك بالاعتماد على هذا الأصل، فقد حرر رسول الإسلام صلى الله عليه وآله الإنسان من قيود كل عبودية إلّعبودية الله الأحد، ودعا البشرية إلى عبادة الآله الواحد الأحد خالق السماوات والأرض، وجامع كل صفات الكمال، المطلع على ظاهريهم وباطنيهم، وحطم سلاسل الأوهام والخرافات وعبادة البشر أو الحجر أو الخشب وأنواع الأوثان والأصنام.

وقد ذم القرآن الكريم اليهود والنصارى لعبادتهم البشر بقوله تعالى «اتَّخَذُوا حَبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أربَاباً مِّنْ دُونِ اللَّهِ». (التوبة / ٣١)

وفى مقارنة بديعة على لسان نبي الله يوسف وهو يخاطب رفاقه فى السجن يقول تعالى

«أَرَبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ». (يوسف / ٣٩)

٢- إنّ القرآن لايعتبر أىّ مؤثر فى مصير الإنسان إلّا الله تعالى ويدعو الجميع للتوكل عليه ويقول: «الَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ». (الزمر / ٣٦)

٣- ومن جهة أخرى يعتبر الإنسان مرهوناً بأعماله، وأن طريق الخلاص والفلاح الوحيد هو الجهد والاجتهاد الأكثر، فيقول تعالى: «وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى . (النجم / ٣٩)

ويقول: «كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ». (المدثر / ٣٨)

٤- اعتبر الإسلام كل بني البشر ومن أي عنصر ولون وفي كل زمان متساوين، وبناءً على هذا لا يوجد أي تمايز بينهم أو تفاضل إلاب (التقوى) والورع كما أشارت إلى ذلك الآية ١٣ من سورة الحجرات.

٥- يخاطب القرآن كل المؤمنين بأنهم (إخوة) لبعضهم البعض، ويعتبر أن أقرب رابطة ممكنة بين إنسانين هي الرابطة التي تقوم على العدالة والمساواة، بقوله تعالى «أَتَمَّا الْمُؤْمِنُونَ أَخَوَةٌ فَاصْلِحُوا بَيْنَ أَخْوَيْكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ». (الحجرات / ١٠)

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٦٥

٦- يعتبر القرآن (العدالة الاجتماعية) أصلاً أساسياً حاكماً على المجتمعات البشرية ويدعو كل المؤمنين للقيام بالقسط، فيقول: «وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ». (المائدة / ٨)

وأن لا تكون صلة القرابة والابوة والبنوة ونظائرها حائلاً دون إجراء العدالة وترجيح كفة الحكم لصالحهم - بدون دليل - كما أشارت إلى ذلك الآية ١٣٥ من سورة النساء.

٧- أقر الإسلام حاكمية أصل (الإنفاق) على العلاقات الإنسانية، ودعا الجميع إلى الإنفاق مما رزقهم الله من نعم على الآخرين: «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ». (البقرة / ٣)

يؤكد على (صلة الرحم) ورعاية رابطة القرابة (البقرة - ٢٧). وقد أولى (الأب والام) خاصة احتراماً بالغاً إلى الحد الذي أوصى بالتعامل الحسن معهما حتى وإن لم يكونا مسلمين في سورة لقمان الآية ١٤ و ١٥.

٩- من المسائل التي أكد عليها الإسلام أيضاً هي: (حماية المظلومين) في شرق العالم وغربه، حتى أن ظواهر الآيات القرآنية لم تفرق بين أبناء الدين الإسلامي وغيرهم في هذه المسألة، كما ورد في قوله تعالى «وَمَا لَكُمْ لَأْتَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ». (النساء / ٧٥)

١٠- أكد أيضاً على (احترام حقوق المرأة) في ذلك المحيط الذي أهدر كل حقوقها ولم يعطها حتى الحق في الحياة، ويقبر البنات وهن أحياء، فأعاد إليها مكانتها إلى الحد الذي يقول تعالى فيه: «وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ». (البقرة / ٢٢٨)

والحق لا ينفصل عن الواجب أبداً.

١١- دعوته ل (التعايش مع أتباع الأديان الأخرى وحملة الكتب السماوية، ودعوته كذلك الجميع اللاتفاف حول نقاط الالتقاء والاشتراك، كما نقرأ في قوله تعالى «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ». (آل عمران / ٦٤)

١٢- أعطى الإسلام أهمية بالغه ل (العلم والمعرفة)، وقد أشارت مئات الآيات القرآنية

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٦٦

إلى ذلك، وهذا الأمر كان مثيراً وملفتاً للنظر لاسيما إذا لاحظنا المحيط الذي نزل فيه القرآن، والذي كان مركزاً للجهل واللامية، وأول الآيات التي نزلت على النبي صلى الله عليه وآله كانت تؤكد على العلم كما جاء في سورة العلق الآية ١-٥.

ويقسم في مكان آخر بالقلم كما جاء في سورة القلم الآية ١، واعتبر أن أفضلية (آدم)، والبشر بصورة عامة تكمن في (فضيلة العلم والمعرفة) هذه. (البقرة / ٣١-٣٣)

١٣- تعتبر فريضة (الأمر بالمعروف) و (النهي عن المنكر) إحدى المميزات المشرفة لهذا الدين والتي يعتبرها نوعاً من الاشراف والرقابة العامة على كل المجتمع بواسطة كل المجتمع، ومسؤولية متقابلة لكل أفراد في مقابل أي نوع من المفاسد الاجتماعية أو ترك القيام

بالواجب، انظر إلى سورة آل عمران الآية ١٠٤ و ١١٠ وآيات اخرى

١٤- بما أن مصدر الكثير من المفاسد الاجتماعية هو الميل الشديد للقضايا المادية، والتنافس في حب التجميل والبذخ في الحياة فقد دعا الإسلام إلى (العيش البسيط) ونبت حب التجميل من أجل اغلاق مصدر الشر هذا كما في سورة الزخرف الآية ٣٣-٣٥، في نفس الوقت الذي اعتبر الانتفاع المعقول والمنطقي من المواهب المادية وحتى التزينية والكمالية بأنه مباح وقد أشار إليه في سورة الأعراف الآية ٣٢.

١٥- دعوته إلى ل (مراعاة الاداب)، وحسن المواجهه مع الآخرين، وملاحظه الموازين الأخلاقية في أى مكان، وقد أشار لهذه المسألة في سورة لقمان، الآيتين ١٨ و ١٩، وسورة الحجرات، الآيتين ١١ و ١٢، وسورة الفرقان، الآية ٧٢، وآيات اخرى وورد أيضاً في الآية: «خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ» (١). (الأعراف / ١٩٩)

١٦- استخدام (البحث المنطقي) في الحوار مع اتباع الأديان الاخرى بدلاً من التعصب الأعمى يقول القرآن الكريم: «ادعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ». (النحل / ١٢٥)

(١) في حديث للإمام الصادق عليه السلام أن هذه الآية أكثر الآيات الأخلاقية شمولاً في القرآن المجيد (تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث).

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٦٧

١٧- (الخشوع للحق) وقبوله من أى كان لأنه يعتبر واحداً من المبادئ السامية للدين الإسلامي، يقول تعالى «فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ». (الزمر / ١٧- ١٨)

١٨- (اخلاص النية من الدوافع غير الإلهية) من الاصول التي أكد عليها القرآن الكريم والروايات الإسلامية مراراً، واعتبرها من الأعمال النزيهة المقبولة عند الله تعالى، والتي تؤدي إلى النجاة والسعادة هي الأعمال التي لم يقصد بها التظاهر والرياء، وإنما التي يراد بها غايات إنسانية واخلاقية وإلهية سامية تشكل ركناً أساسياً، واستندت سبعة آيات من القرآن إلى جملة «مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ» (١). ومن جهة شبة صدقات المؤمنين - الخالصة - في سورة البقرة، الآية ٢٦٥ بالبستان المليء بالثمر عندما تنزل عليه رحمة المطر الإلهية تتضاعف ثماره ضعفين.

ومن جهة اخرى شبة في سورة البقرة، الآية ٢٦٤ أعمال المرائين - غير المؤمنين - بالبذور التي بُذرت في تراب قليل على صخر صلد جرفه المطر عندما نزل عليه.

١٩- انتقد الإسلام بشدة (الاسراف والتبذير) وسمى المبذرين بإخوان الشياطين: «إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ». (الاسراء / ٢٧)

٢٠- من الاصول الأساسية للإسلام أيضاً: (رعاية الأطفال الأيتام وفاقدى المعيل) وأكدت آيات وروايات كثيرة على ذلك إلى الحد الذي اعتبرت فيه أكل أموال الأيتام كأكل النار: «إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّهَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا». (النساء / ١٠) وفي مكان آخر اوصى باصلاح شؤونهم، يقول تعالى «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ». (البقرة / ٢٢٠)

٢١- احترام الاسرى في الإسلام، وقد اوصى بحسن معاملتهم واعتبر مساعدتهم وإعانتهم في القرآن الكريم بأنها جزء من أعمال الابرار والاخيار: «وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا». (الدهر / ٨)

(١) الأعراف، ٢٩؛ يونس، ٢٢؛ العنكبوت، ٦٥؛ لقمان، ٣٢؛ غافر، ١٤ و ٦٥؛ البينة، ٥.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٦٨

وجاء في حديث للإمام على عليه السلام: (اطعام الأسير والاحسان إليه حق واجب) (١).

٢٢- ومن المسائل المهمة التي أكد عليها القرآن الكريم والروايات الإسلامية هي مسألة (التشاؤم في الامور)، حتى أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله مع عقله الكامل كان مأموراً بالاستشارة:

«وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ». (آل عمران / ١٥٩)

واعتبر التشاور في الامور الاجتماعية المهمة بأنه احدى علائم الإيمان: «وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ». (الشورى ٣٨)

٢٣- كانت (محاربة الخرافات) أيضاً من المهام الرئيسية للنبي صلى الله عليه وآله في حين كان مدعو النبوة الكاذبون يصرون على نشر الخرافات وتسميم أفكار الناس عن طريقها، ولترغيب العامة لقبول خرافاتهم، ولكن نبي الإسلام صلى الله عليه وآله حطم هذا السد، بل كان يحارب كل خرافة حتى لو كان الإسلام يستفيد منها ظاهراً.

وأى خرافة أكبر من (عبادة الأوثان) التي اجتاحت جزيرة العرب بأسرها، إلى حد أن مخالفتها والإعراض عنها أصبح مشكلة عويصة وعجيبة جداً، بل عدّ أحياناً من علامات الجنون، وأثناء ما كان النبي صلى الله عليه وآله يدعو لعبادة الإله الواحد الأحد، قالوا: «اجْعَلْ الْآلِهَةَ الْهَاءَ وَاحِدًا أَنْ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ». (ص / ٥)

وظاهراً إن أحد أسباب نعت نبي الإسلام صلى الله عليه وآله بالجنون هي أنه نهض لمحاربة قضية عبادة الأصنام التي كانت من أكثر بديهيات تلك البيئة والمحيط.

والخلاصة هي أن عرب الجاهلية كانت تخيم عليهم خرافات كثيرة يطول شرحها، وقد حاربها الرسول صلى الله عليه وآله كلها.

٢٤- من المسائل التي أعطاها الإسلام أهمية كبيرة هي تحرير الإنسان من ربة الهوى والهوس واستعباد الآخرين، أو الوقوع في أسر الأعراف والتقاليد والسنن المغلوطة، إلى درجة اعتبر فيها أن احدى صفات النبي صلى الله عليه وآله هي: «وَيَضَعُ عَنْهُمْ أَصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ». (الأعراف / ١٥٧)

(١) وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٦٩ أبواب جهاد العدو، الباب ٣٢، ح ٣.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٦٩

وجاء في الحديث النبوي المعروف: أن أحد الذنوب التي لا يغفرها الله أبداً هي أن يسلب الإنسان حرية الإنسان الآخر ويستعبده ويبيعه (١).

٢٥- أحد البرامج الأساسية لهذا الدين (المنع من التكاثر) وطلب الزيادة والحرص والطمع في الامور المادية، وقد اشير إلى ذلك في آيات متعددة من القرآن الكريم، وكذلك الروايات الإسلامية، إلى حد اعتبارها من الصفات المذمومة في الحياة الدنيا، وجعلها مرادفة للهو واللعب والتفاخر (الحديد - ٢٠)، وعدّها سبباً في عدم الإيمان بالله، وذم بشدة أولئك الذين يتوجهون صوب القبور لحساب قبور موتاهم حتى يشبوا كثرة قبائلهم: «الْهَآكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ». (التكاثر / ١ - ٢)

ويقصّ عليهم - بالتفصيل - قصة «قارون» المستكبر المستكثر الذي كان يرى نفسه فوق الجميع، وعاقبته وعاقبه أمواله بعد أن خسفت به الأرض، وينهى نبيه صلى الله عليه وآله عن مد عينيه إلى الإمكانيات المادية لهؤلاء الأفراد أو اعتبارها علامة على أفضليتهم وعلوهم، (طه / ١٣١، القصص / ٧٦ فما بعد).

٢٦- (الدعوة إلى الاتحاد والتضامن) يمكن اعتبارها جزء من الأوامر التي تحتل صدر قائمة البرامج الإسلامية، والتي ذكرها القرآن الكريم بتأكيد شديد، فكان يدعو الجميع إلى الاتحاد وينهاهم عن التفرقة، ويحذرهم من العودة إلى اختلافات الجاهلية وعد الأفراد المتفرقين المشتتين على شفير هاوية من النار، (آل عمران - ١٠٣) واعتبر التنازع والاختلافات مصدراً لضعف المجتمع، وضياح قدرته وشوكته، (الانفال / ٤٦).

٢٧- (احترام القانون) يعتبر من اهم وصايا الإسلام التي أكد عليها لدرجة أنه قال:

احترموا القانون حتى لو حكم ضدكم، وجاء في القرآن: «كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ».
(النساء / ١٣٥)

واعتبر نقض حرمة القانون حراماً، والتعدى على (حدود الله) ظلماً وجوراً: «وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ». (البقرة / ٢٢٩)

(١) عن النبي صلى الله عليه وآله، إن الله تعالى غافر كل ذنب إلبامن جحد مهراً، أو اغتصب أجيراً أجره، أو باع رجلاً حراً، سفينة البحار، مادة (أجر).

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٧٠

وإن الإيمان الصادق هو التسليم المطلق لقانون الحق وترك معارضته حتى في حيز الفكر والعقل كما ورد في الآية ٦٥ من سورة النساء.

٢٨- (نبذ حب الانتقام) ولم تكن هذه الصفة الحميدة مختصة بالرسول صلى الله عليه وآله وإن تجلت بوضوح كامل في حروبه وخاصة في فتح مكة، وإنما أوصى أتباعه مراراً وتكراراً إلى العفو والصفح، وغض النظر عن زلات الآخرين وتذكيرهم بالعفو الإلهي: «وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَّا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ». (النور / ٢٢)

بل تعدى ذلك إلى القول: «ادْفَعِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ». (فصلت / ٣٤)

ولكنه مع كل هذا لا يسمح بأن يستغل الأعداء الحاقدون رحمة الإسلام ورافته، بل كان صلى الله عليه وآله يأمر أصحابه: مثلما عليكم أن تكونوا لينين وعطوفين مقابل الأصدقاء والأعداء المخدوعين فيجب عليكم أن تتعاملوا مع الأعداء الأشداء بخشونة وشدة، حتى أنه وصف الصادقين بأنهم: «أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ». (الفتح / ٢٩)

٢٩- (الدعوة إلى التقوى وهي من القضايا التي يستند إليها الإسلام في كل مناسبة، ويعتبرها السبيل الوحيد لخلص الإنسان، وزاد آخرته «١»، ومعيار شخصيته «٢»، وبركة الدنيا «٣»، وسعادة الآخرة «٤»، وسبباً للبصيرة والمعرفة «٥».

٣٠- (الحب والبغض في الله) من أسس التعاليم الإسلامية أيضاً، أو بتعبير أوضح اعتبر الإسلام كل من يخطو في محجة الإيمان، والحق، والعدل، والتقوى والنزاهة، صديقاً يجب توثيق العلاقة معه، وبالعكس أوصى بالابتعاد عن الاشرار وذوى السمعة السيئة والملوثين والظالمين، واعتبر القرآن الكريم الامتثال لذلك من علائم الإيمان الأصلية (حزب الله) «٦». واعتبرتها الروايات الإسلامية بأنها من أقوى عرى الإيمان والإسلام (أوثق

(١) البقرة، ١٩٧.

(٢) الحجرات، ١٣.

(٣) الأعراف، ٩٦.

(٤) مريم، ٦٣.

(٥) الانفال، ٢٩.

(٦) المجادلة، ٢٢.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٧١

عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله «١»، وأفضل الأعمال «٢».

هذه طائفة من تعاليم الإسلام في الاصول والفروع.

فهل يصدق أن يأتي إنسان أمي لم يتلق أي تعليم، وهو ابن بيئه غمرتها ظلمات الجاهلية، وعاش في بؤرة الكفر والفساد والجور

والخشونة، بمثل هذه التعاليم؟ كلا بالطبع إلا إذا كان مسدداً عن طريق الوحي السماوى والالهام والتأييد الإلهي. إن دراسة مضمون ومحتوى الدعوة لأي دين من أفضل الأدلة التي يستخدمها العلماء لإثبات صدق أو كذب ما يدعيه ذلك الدين، وأحياناً تكون مقدمة على الكثير من المعجزات، لأن العديد من الوسوس التي تبرز من قبل المعاندين اللجوجين لها (من قبيل اتهامه بالسحر وأمثاله) تصبح لا معنى لها عند البحث في محتوى الدعوة، بل وحتى يمكن تأليف كتاب ضخيم حول هذا الموضوع وخاصةً حول تعليمات الإسلام في كافة الجوانب الاعتقادية والأخلاقية والاجتماعية، وكذلك الميدان الواسع والفسيح لهذا المبحث في المسائل الفردية والجماعية المعنوية والمادية.

بديهي أنه لا يمكن أن تكون هذه المجموعة من التعاليم الصادرة من عربي صحراوي أمي خرج من أكثر البيئات تخلفاً هي مسألة عادية، وباعتقادنا أنه لا توجد أي معجزة أكبر من هذه المعجزة، أو على الأقل هي قريبة إذا ضممناها إلى القرائن الأخرى شكلت مجموعة مطمئنة وقوية.

٤- عمق تأثيره في محيطه

صحيح إن التأثير الواسع الذي تتركه مدرسة من المدارس في بيئته معينه لا يمكن أن يكون بمفرده دليلاً على صحتها، لأننا نعرف العديد من الديانات والتعاليم الخاطئة تركز

(١) اصول الكافي، ج ٢، ص ١٢٥.

(٢) سفينة البحار ج ١، ص ٢٠١.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٧٢

تأثيرها على بيئات واسعة وكانت نهايتها أن انفرط عقدها أو لازال البعض منها متصللاً، ولكن كيفية هذا التأثير وماهيته يمكن اعتباره كقرينة حية إلى جانب القرائن الأخرى وعندما يكون هذا التأثير على شكل قفزة وفي جوانب إيجابية ومع أقل الاضرار، فمن المسلم به أن يدل على عمق تلك المدرسة وأصالتها.

ومن له أدنى اطلاع على تاريخ العرب والإسلام لا ينكر الفاصلة الزمنية التي مدتها ٢٣ عاماً وهي سني دعوة الرسول صلى الله عليه وآله - الفاصلة التي أحدثت (طفرة فلسفية) أكثر مما هي ثورة؟

فالمبوذون الذين لم يتركوا في التاريخ اسماً ولا رسماً... ومن وجهة نظر علم الاجتماع لم يخط على جباههم أي استعداد للتطور المذهل حتى لو بعد عدة قرون، يتحولون فجأة ويدخلون مرحلة جديدة من الحضارة العظيمة، ولم يغيروا أنفسهم فقط، بل غيروا أيضاً العالم المعاصر لهم ولتبقى آثار هذه الثورة والتغيير ظاهرة في القرون اللاحقة وإلى زمان غير محدود ...

حضارة حولت مسير تاريخ البشرية، وغطت باشعاعها الحضارات الخمس العظمى في عصرها، أي: حضارة الروم) و (ايران) و (مصر) و (بابل) و (اليمن).

وهذا بالضبط ما لم يستطع المؤرخون وعلماء الاجتماع تفسيره وفق المعايير المعروفة التي بين أيديهم، وإن كانوا قد ألفوا كتباً بعنوان: تاريخ حضارة الإسلام، أو مسميات أخرى ولكنهم يعترفون بأنه لازالت عندهم نقاط كثيرة غامضة لم تجد الحل حول ظهور الإسلام ونفوذ في العالم.

والملفت هو أن هذه الثورة وهذا التحول - خلافاً لسائر الثورات - لم يحدث على صعيد واحد، ولم تكن له جوانب سياسية أو اقتصادية

فحسب، بل وغير كل نُظْم المجتمع كالثقافة، والأخلاق، والاقتصاد، والآداب، والتقاليد، وكل شيء.

ملخص الكلام: هو أن ابعاد تأثير الإسلام في محيط ظهوره، ثم في العالم كله، وكل التاريخ البشرى، هو موضوع يستحق الدقة التي تجعله قرينه ساطعة من قرائن حقايقته، وأن شرحه وبيانه يتطلب وضع كتاب منفصل.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٧٣

٥- ما هي الوسائل الكفيلة بلوغ الهدف

كل فرد أو مجموعة مضطرون- من أجل الوصول إلى أهدافهم- إلى الاستفادة من وسائل معينة. واختبار هذه الوسائل يمكنه أن يساعد إلى حد بعيد في التعرف على اصالة وأحقية تلك المدرسة أو على ترويضها وخذاعها.

وبديهي أن أولئك الذين يعتبرون الاستفادة من كل وسيلة- للوصول إلى أهدافهم- جائزة، ويجعلون أصل (الغاية تبرر الوسيلة)، أو (الغايات تبرر الوسائل) برنامجهم الأصلي هم بعيدون عن الاصالة.

أما أولئك الذين يستخدمون الوسائل المقدسة لنيل أهدافهم المقدسة فهم يعطون الدليل على أحقيتهم، ويمكن تمييز مدعى النبوة الصادقين من الكاذبين عن هذا الطريق.

الأشخاص الذين لا يعترفون بأى قيد أو شرط للوصول إلى أهدافهم ويعتبرون كل وسيلة مشروعاً أو غير مشروعاً مباحة والذين يعتبرون مفاهيم من قبيل العدالة والامانة والصدق والاحترام للقيم الإنسانية محترمة طالما أنها تعينهم للوصول إلى أهدافهم وإلا تركوها ونبدوها فمسلماً أنهم في مدعى النبوة الكاذبين.

إن الأنبياء الإلهيين هم أولئك الذين يحترمون الاصول الإنسانية حتى في حروبهم، ولا يعدلون عنها في الشدائد والمحن مطلقاً، وعند انتصارهم لا يتجاوزون أصول العدالة، والعفو، والتسامح مع أعدائهم، وفي أوقات الخطر واحتمال عدم تحقيق النصر لا يلتجأون إلى الوسائل غير الإنسانية.

وإذا قسنا هذا الأصل الكلي مع حياة نبي الإسلام صلى الله عليه وآله والتفتنا إلى سلوكه مع الأعداء والأصدقاء، في اوقات تحقيق النصر أو عدم تحقيقه، في الشدة والرخاء، فسوف ندرك جيداً أنه كان متبعاً لقيم خاصة في اختيار وسائل الوصول إلى الهدف. لم يلجأ النبي صلى الله عليه وآله مطلقاً في لحظات الخطر إلى استخدام أساليب غير إنسانية، بل وراعى المسائل الأخلاقية الدقيقة حتى في ساحة القتال.

فعند انتصاره في (فتح مكة) أصدر (العفو العام) عن أخطر أعدائه، وصفح حتى عن القتل ومجرى الحرب.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٧٤

ولما سمع أحد قادة الجيش يعلن شعاراً ثانياً ويقول:

(اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، اليوم أذل الله قريشاً) أمر فوراً بعزله وقال:

ليقولوا بدل هذا الشعار (القيح وغير اللاتق): (اليوم يوم المرحمة ... اليوم أعز الله قريشاً) «١».

وحتى حين وقف كبراء مكة صفاً ليروا حكم الرسول صلى الله عليه وآله بشأنهم (وكان الكثير من الناس يتوقعون أن يشدد الرسول ويقسو على هؤلاء الأعداء الحاقدين) التفت إليهم صلى الله عليه وآله وقال: «ما تظنون أنني فاعل بكم؟» قالوا: لا نظن إلا خيراً. فقال

صلى الله عليه وآله: «أقول لكم ما قال يوسف لإخوته: «لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ». (يوسف / ٩٢)

أذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطَّلَقَاءُ».

وعندما قتل (خالد بن الوليد) أسرى بني خزيمه بدون سبب ووصل الخبر إلى نبي الإسلام صلى الله عليه وآله. تألم بشدة وقال مرتين

أو ثلاث: «اللهم إني أبرئ إليك مما صنع خالد»، ثم أمر علياً عليه السلام أن يذهب مع مبلغ من المال إلى تلك القبيلة فيعطيههم دية قتلاهم ويعوض ممتلكاتهم التي تضررت بالمال وأن يسعى في جلب رضاهم «٢».

إن هذه الامور لا يمكن مشاهدتها في حروب عالم اليوم، وحتى في مهد الحضارة الصناعية، فقد شهد العالم افضح مآسى الانتقام في نهاية الحرب العالمية الاولى والثانية، والجرائم التي لا تُعدّ للجيش المنتصرة.

والآن كيف اتصف النبي صلى الله عليه وآله بكل هذا العفو والرحمة بين قوم نصف متوحشين؟ هذا السؤال يجب أن يجيب عليه العقلاء والحكماء.

كان ورعه واجتنابه عن الأساليب اللإنسانية إلى درجة أنه صلى الله عليه وآله، يرفضها حتى ولو تهيأت مقدماتها وأسبابها بصورة طبيعية، ومهما بدت في الظاهر أنها مؤيدة له، ففي حادثة وفاة إبراهيم ابن النبي صلى الله عليه وآله قيل: إن الشمس كسفت تزامنا مع هذه الواقعة، وقال بعض الناس: إنها كرامة ومعجزة من قبل النبي صلى الله عليه وآله، وإن الشمس كسفت لوفاء إبراهيم.

(١) نقلت هذه القضية بعبارات مختلفة في بحار الأنوار، ج ٢١، ص ١٠٥ و ١٣٠؛ وفي حبيب السير: ج ١، ص ٢٨٨؛ وتفسير جامع البيان في ج ٢، ص ٣٣٤؛ وكامل ابن الأثير ج ٢، ص ٢٤٦.

(٢) حبيب السير، ج ١، ص ٣٨٩.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٧٥

لكن النبي صلى الله عليه وآله صعد المنبر وقال: «أيها الناس إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله يجريان بأمره مطيعان له، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فاذا انكسفا أو أحدهما صلوا»، ثم نزل من المنبر فصلى بالناس صلاة الكسوف، فلما سلم قال: «ياعلى قم فجهز ابني» «١».

تشير هذه القصة إلى أن النبي صلى الله عليه وآله سارع إلى هذا العمل حتى قبل اجراء مراسم دفن ابنه إبراهيم كى يقضى على هذه الفكرة الخاطئة قبل شيوعها وإن كانت لصالحه ظاهراً... إنه لا يريد أن ينتفع من أساليب مغلوطه وغير مشروعه في التقدم لنيل أهدافه ومقاصده.

وعلى الرغم من أن الحديث قد طال حول هذا الموضوع، ولكن لا بد في الختام من ذكر هذه النقطة وهي: إن دقائق الامور التي جاءت في اداب الحرب في الإسلام وأكد عليها النبي صلى الله عليه وآله وأثبت عملياً التزامه بها هي شاهد آخر على الادعاء الآنف الذكر.

فحينما كان الجيش الإسلامى يستعد للتحرك إلى أحد ميادين الجهاد، كان النبي صلى الله عليه وآله يبين لهم واجباتهم الحساسة بهذه العبارات: «سيروا بسم الله وبالله وفي سبيل الله وعلى ملة رسول الله، لا تغلو، ولا تمثلوا ولا تغدروا ولا تقتلوا شيخاً فانياً ولا صبياً ولا امرأة ولا تقطعوا شجراً إلا أن تضطروا إليه».

وفي حديث آخر: «... ولا تحرقوا النخل، ولا تغرقوه بالماء، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تحرقوا زرعاً لأنكم لا تدرن لعلكم تحتاجون إليه ولا تعقروا من البهائم يؤكل لحمه إلا ما لا بد لكم من أكله» «٢».

وكان النبي صلى الله عليه وآله ملتزماً بكل المبادئ الأخلاقية السامية إلى تلك الدرجة التي جعلته في معركة خبير يرفض اقتراح من أشار عليه بقطع الماء عن اليهود المحاصرين لمدة طويلة في داخل قلاع خبير القوية، وأجابه صلى الله عليه وآله قائلاً: «إننى لا أقطع عنهم الماء أبداً».

وعندما قال له راع لمواشى اليهود: إننى حاضر لأن أعطيك هذه المواشى كلها، رفض النبي صلى الله عليه وآله ذلك ونهاه أن يخون الأمانة التي أودعوها عنده «٣».

(١) بحار الأنوار، ج ٢٢، ص ١٥٥، ح ١٣ (باب عدد أولاد النبي).

(٢) جاء هذا الحديث في مصادر متعددة وبعبارات مختلفة، من جملتها كتاب الوسائل، ج ١١، ص ٤٣ باب آداب امراء السرايا وأصحابهم، ح ٢ و ٣.

(٣) سيرة ابن هشام، ج ٣ ص ٣٤٤.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٧٦

٦- إيمانه وتضحيتته في سبيل هدفه

من القرائن الرئيسة الاخرى لمعرفة المدعين للنبوة الصادقين من الكاذبين هو إيمانهم بما يدعونه وتضحيتهم وايثارهم في سبيله، ولأن المدعين الكاذبين مطلعون على حقيقة الأمر فإنهم بالطبع لا يضحون كثيراً في سبيل هدفهم، بالإضافة إلى أنهم مستعدون للمساومة وتحريف مدعياتهم، في حين أن الصادقين منهم لا يُجوزون لأنفسهم أيّاً من ذلك.

صحيح أن هذا الأمر بمفرده غير كاف، ولكن يعتبر قرينته جيدة تضم إلى القرائن الاخرى

ولم ير في أي من كتب التاريخ أن نبي الإسلام صلى الله عليه وآله قد تراجع أو تنصل عن معتقداته، أو فرّ من ميدان الجهاد، وحتى في معركة (احد) عندما وصلت الحرب إلى أقصى درجات الشدة وفرّ من ساحة المعركة أغلب الجيش (أو كله عداً علياً عليه السلام وبعض المخلصين والتجأوا إلى مكان ليضمّنوا نجاتهم، هنالك حيث بقى النبي صلى الله عليه وآله صامداً في الميدان، محتملاً أذى الجراحات بسبب اصابته في جبهته وأسنانه ولم يبق له في الظاهر أي أمل في النجاة ولكنه ظل صامداً.

وفي قصة (مرض أبي طالب) وطلب قريش منه- التي قرأناها في بداية الجزء السابق- أن يعرض على النبي صلى الله عليه وآله أن يكف عن محاربه لعبادة الأصنام، ويكف عن الدعوة إلى الإله الواحد الأحد، قال صلى الله عليه وآله: «لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ماتركته» (١).

ونقرأ في قصة اخرى إن قريشاً جاءت للنبي صلى الله عليه وآله وأعطته وعداً بأن تضع تحت اختياره من المال ما يجعله أغنى رجال مكة، وأن يُزوّجوه أي امرأة يريدونها، ويجعلوه عليهم سيّداً، بشرط (أن يدع تسفيه أصنامهم. وقالوا له: إذا لم تقبل فلدنا اقتراح آخر ينفعك وينفعنا وهو

(١) تفسير جامع البيان، ج ٢ ص ٦٧.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٧٧

أن تعبد الهتنا مثل (اللات) و (العزى) عاماً ونحن نعبد آلهتك عاماً لئري ما تكون العاقبة)، وهنا نزلت سورة «يَأْتِيهَا الْكَاذِبُونَ»، وردّ عليهم النبي صلى الله عليه وآله بالسلب (١).

وفي تفسير سورة طه (الآية الثانية) نقرأ: حينما كان النبي صلى الله عليه وآله- بعد نزول الوحي والقرآن- يتعبّد كثيراً إلى حد تورّمت قدماه المباركتان، فنزلت الآية الأنفة لتمنعه من هذا العمل المُرهب، وقالت: «مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى . (طه / ٢) وهذه دلالة على أنه إلى أي حدّ كان مؤمناً بتعاليمه.

و (قصة المباهلة) ودعوة النبي صلى الله عليه وآله أعداءه- أن إذا كنتم تقولون حقاً فتعالوا بأهلكم، ويطلب كل منا من الله أن ينزل العذاب على الكاذب ويفضحه- هي دلالة اخرى على إيمانه الراسخ بدينه، لأنه صلى الله عليه وآله أعلن استعداداه التام لهذا الغرض،

وتراجع مخالفوه لأنهم غير مطمئنين بأحقيتهم في المباهلة.

وقد نقل مؤرخو الشرق والغرب قصصاً وحكايات كثيرة عن (صمود النبي صلى الله عليه وآله أمام الحوادث ومواجهته للمشاكل الكبرى التي يعجز الإنسان العادي عنها).

قال (غوستاف لوبون) المستشرق الفرنسي المعروف: إنه لا يهرب من أى خطر، وفي نفس الوقت لا يلقى بنفسه إلى الخطر بدون دليل (٢).

ويقول تلميذ تلك المدرسة العظيم أمير المؤمنين (عليه السلام بشأن أحوال النبي صلى الله عليه وآله في سوح القتال: «كنا إذا احمر البأس ولقى القوم القوم اتقينا برسول الله فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه» (٣).

٧- من هم المؤمنون به؟

عادة ما يجتذب الأفراد غير الصالحين حولهم أفراداً مثلهم، وهذه القاعدة وإن لم تكن دائمة ولكنها في الغالب هكذا.

(١) تفسير جامع البيان، ج ٢، ص ٧٠.

(٢) حضارة الإسلام والعرب، ص ١١٩.

(٣) بحار الأنوار، ج ١٦، ص ٢٣٢، وبنفس المضمون مع بعض التفاوت في نهج البلاغة. الكلمات القصار، الكلمة ٩.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٧٨

ويتضح ذلك من مطالعنا للمثل المعروف: (إن المزور يُعرف من زائريه)، وعلّة ذلك واضحة لأنّ أهل الدنيا ومنتهمزى الفرص يتجهون دائماً إلى أولئك المهيئين للتساوم معهم، يعطونهم امتيازات ويأخذون منهم أخرى ليصلوا إلى مقاصدهم غير المشروعة. وهذه المسألة خاصة تظهر أكثر وضوحاً حول المقربين والخواص وحافظى أسرار ذلك الشخص، فإذا رأينا اخلاص خواص تلك المدرسة، وحملته أسرارها، وممن تثق بهم، أدركنا بالنهاية نزاهة وإيمان وصدق قائدها، وبالعكس، فإذا التفتّ حوله أفراد كذابون، نفعيون فسوف نفهم بأنّ الماء ينبع من منبع آسن.

والآن لنلقى نظرة على الخُلص وحملته الأسرار والتلاميذ الأصليين لمدرسة نبي الإسلام صلى الله عليه وآله ... أفراداً مثل (على بن أبى طالب)، وفي مراحل لاحقة أفراداً مثل (سلمان) و (أبو ذر) و (المقداد) و (عمار بن ياسر) و (صهيب) و (بلال) وأضرابهم، فترى كل واحد منهم كان نموذجاً للتقوى والفضيلة والإيمان والمعرفة والزهد.

ونموذج آخر من هؤلاء الأفراد هم (أصحاب الصفة) المهاجرون الأبرار الذين هجروا كل ما يملكون في مكة، والتحقوا بصفوف أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وكانوا يعيشون في أسوأ الأوضاع الاقتصادية.

أو مجموعة السبعين شخصاً الذين توجهوا إلى منطقة (نجد) لنشر الإسلام، ثم تجرعوا كأس الشهادة كلهم في هذا السبيل، وكانوا يقضون الليل بالعبادة، والنهار بجمع الحطب ليضعوا ما تجود به أيديهم باختيار أصحاب الصفة أولئك (١).

وكان من بين خلص أصحابه أفراداً يعيشون في مستويات دنيا من حيث الموقع الاجتماعى، والجوانب المادية والظاهرية، ولكن النبي صلى الله عليه وآله كان يكرمهم لمميزاتهم المعنوية ويقدمهم على الآخرين، إلى ذلك الحد الذى سبب اعتراض مخالفيه الشديد وجاءه عدد من أعيانهم وكان عنده أفراداً من أمثال سلمان، وصهيب، وأبى ذر، وعمار، وخباب،

(١) منتهى الآمال - وقائع السنة الهجرية الرابعة - وجاء نفس المعنى مع بعض الاختلاف فى تاريخ الكامل لابن الاثير، ج ٢، ص ١٧١.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٧٩

ونظرائهم من المعوزين والفقراء، وحينما وقعت أعينهم على هذا المشهد قالوا بغرور وتكبر: (لو نحيث عن هؤلاء روائح صنائهم ... جلسنا نحن إليك وأخذنا عنك فلا يمنعا من الدخول عليك إلّا هؤلاء).

وهنا نزلت الآية الكريمة: «وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ». (الكهف / ٢٨) وأمر النبي صلى الله عليه وآله بأن يكون دوماً مع هذه الزمرة الحفاه من أصحاب القلوب الطاهرة، وأن لا يمد عينيه إلى الأبيهة الظاهرية للأثرياء الأنانيين (١).

وفى الآية التي بعدها ترد كلمات حادة وموجعة على ما يطلبه المستكبرون فتقول: «وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا». (الكهف / ٢٩)

وهذا البيان الصريح والقاطع يثبت بشكل جيد أن الإسلام عن أى طبقه يدافع؟ وما هى الطبقات التي تحتل الصفوف المتقدمة فيه؟ ويعتبر القرآن الكريم التفاف الأفراد المؤمنين المخلصين والأبرار حول النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بأنه واحد من شواهد حقايقته صلى الله عليه وآله إذ يقول: «فَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ». (هود / ١٧) ولكن أكثر المفسرين يعتقدون بأن (البينة) هى نفس القرآن والمعجزات، وأن المقصود ب (الشاهد) هم الاتباع المضحون المؤمنون المخلصون أنفسهم.

ومن البديهي أن إيمان شخص كعلى عليه السلام بما يتصف به من المميزات العلمية والمعنوية والأخلاقية التي اتضحت فى (نهج البلاغة) يمكن أن يكون شاهداً ناطقاً على حقايقته صلى الله عليه وآله.

(١) نقل هذه القصة الكثير من المفسرين والمؤرخين بعبارات مختلفة، تفسير مجمع البيان والقرطبي فى ذيل الآية ٢٨ من سورة الكهف.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٨٠

٨- التطور السريع

إن التطور السريع، والتقدم الخارق لدين ما، وإيجاده لتحول عظيم وواسع، يمكنه أن يشكل قرينه أخرى على أصالته وحقايقته، لأن تأثيراً كهذا يكون ممكناً فقط إذا كانت قواعد هذا الدين مستندة إلى فطرة الحياة وواقعياتها، ومنطقه مع قوانين الخلق والإبداع، أى نفس القوانين المتحكمه بحياة البشر.

فالقانون غير الفطري، وغير المنسجم مع التركيب النفسى والبدنى للإنسان، يتقدم بصعوبة بالغة، وإذا تقدم فبسبب استخدام عوامل سلطوية مشددة، فمثلاً فى بداية دعوة الشيعية لنفسها كان لها تقدم سريع ومثير، ولكننا نعرف جميعاً أن ذلك تم بالجوء إلى استخدام القوة وسفك الدماء والدكتاتورية الشديدة، فى حين أن التقدم الفكرى السريع والعميق إذا جرى فى عمق أفكار المجتمع كان دلالة على أصالته، ونحن نعلم بأن الإسلام قد انتشر فى مناطق شاسعة فى القرون الأولى من ظهوره بدون أن تطأها أقدام حتى جندي مسلم واحد.

على كل حال إن الانتشار السريع للإسلام فى ظاهر المجتمع البشرى وباطنه، وبمناطق شاسعة من هذا العالم، وذلك فى خلال برهة زمنية قصيرة أيضاً، ليس بالشىء الذى يبقى خافياً على أحد، والمثير أن هذا الدين ظهر فى منطقة نصف متوحشة، وبسط نفوذه على كل العالم المتمدن فى ذلك الزمان وفى مدّة وجيزة.

وهذا النفوذ السريع والشامل لازال يشكل لغزاً مُحيراً للمؤرخين الكبار من غير المسلمين، وكنموذج على ذلك:

١- عندما يصل مؤلفو كتاب (حضارة الغرب ومركزاتها في الشرق) وهم ثلاثة من العلماء الغربيين المعروفين - إلى فصل ظهور وانتشار الإسلام، يعترفون بصراحة قائلين: «كل المحاولات التي جرت لمعرفة الإسلام وانتشاره السريع - إلى الحد الذي استطاع أن يبسط ظلاله على القسم الأعظم من العالم المتحضر آنئذ في أقل من قرن - وعلى الرغم من كل التفسيرات والتحليلات التي وردت عن هذه الحقبة التاريخية فلا زالت هذه القضية باقية على شكل لغز من الألغاز» (١).

(١) حضارة الغرب ومركزاتها في الشرق، فصل ظهور الإسلام وانتشاره.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٨١

٢- كتبت السيدة (فاغلي) العالمة الأوربية المعروفة كتاباً بعنوان (انتشار الإسلام السريع) يمكن اعتباره شاهداً آخر على هذه المسألة، إذ اعتبرت الانتشار السريع للإسلام بأنه أمر اعجازي، كما أن القرآن كتابٌ اعجازي لا يمكن أبداً لمحمد صلى الله عليه وآله العربي الأمامي أن يتدعه.

٣- وعبر باحث إيطالي في أحد فصول كتابه عن تاريخ الرياضيات حول (الرياضيات عند المسلمين) بأنها إحدى معجزات العرب.

واعتبر أن ما أحدثه الإسلام سريعاً وعميقاً إلى درجة يعجز المنطق والتعبير العادي عن تفسيره.

ثم يضيف: «إن ما ينسبه البعض من المسلمين للمشيئة والقدرة الربانية في ظهور الإسلام وثقافته ... هو في الحقيقة دلالة على أن أصل تطور الحضارة البشرية هذا كان غير متلائم مع موازين إمكانات ومقتضيات تلك الأزمنة إلى الحد الذي جعلهم لم يستطيعوا أن يجدوا له تفسيراً سوى مشيئة الله وتقديره» (١).

٤- يقول الكاتب الانجليزي الشهير (برنارد شو) في أحد كتبه حول عظمة نبي الإسلام صلى الله عليه وآله: «إنني أنظر دائماً إلى دين محمد صلى الله عليه وآله باحترام كبير، لأنه يتمتع بحركة وطراوة عجيبة، وأعتقد بأن الإسلام هو الدين الوحيد الذي يتطابق مع أدوار الحياة المختلفة، ويتلائم مع كل عصر وزمان ... نحن ننظر إلى القرآن ككتاب لمحمد صلى الله عليه وآله بنفس التعظيم والثقة التي ينظر فيها المسلمون له ويعتبرونه كتاب الله» (٢).

٥- يتنبأ هذا العالم الانجليزي (برنارد شو) في مقال عن جاذبية الإسلام وانتشاره ويقول: «إن الإسلام وبما يمتلكه من نفوذ معنوي يزيد باضطراد من اتباعه خاصة في البلدان الأوربية» (٣).

(١) قاموس دارسي الشؤون الإسلامية الأجانب، ج ١، ص ٦٠، تأليف حسين عبد الله خورش (باللغة الفارسية).

(٢) المصدر السابق، ج ١، ص ٧٤.

(٣) المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٠٥.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٨٢

وإذا أردنا جمع شهادات المؤرخين المسلمين وغير المسلمين حول هذا الموضوع فإنها تشكل كتاباً ضخماً، لذا نكتفي بهذا المقدار:

١- الأخلاق والصفات الخاصة الأخرى لنبي الإسلام صلى الله عليه وآله بذاتها شاهد معبر على أنه يتبع هدفاً مقدساً، وينفذ مهمته إلهية، ولم تلاحظ أي علامة من علامات المدعين الكاذبين ومنتهمي الفرص المنتفعين في أخلاقياته.

وأشارت كل كتب التاريخ تقريباً - سواء التواريخ التي كتبها المسلمون أو غير المسلمين - إلى قضية نزاهته وأمانته وإلى ذلك الحد الذي يعرف فيه كل الناس هذه الصفات حتى في الجاهلية ويلقبونه ب (الأمين)، بل وبعد ظهور الإسلام كذلك كان معارضوه وأعداؤه يودعونهم أماناتهم، ولهذا السبب عندما أراد النبي صلى الله عليه وآله الهجرة إلى المدينة بعد مضي (١٣) عاماً من ظهور

الإسلام أمر علياً عليه السلام أن يبقى في مكة ليعيد للناس أماناتهم ثم يهاجر إلى المدينة. ومن المناسب أن نتأمل في هذا الحديث عن لسان الآخرين، لنرى ما لدى أولئك الذين هم غرباء عنه في الظاهر من شهادات صريحة عن هذا الموضوع:

ينقل عن كتاب (الاعتذار إلى محمد صلى الله عليه وآله) للانجليزى (جان ديفن بورت) قوله: «بلا- شك إذا لم نأت به «محمد» كواحد من نوادر العالم وكأظهر نابغة استطاع الكون تربيتهم حتى الآن، فيجب أن نعتبره من أعظم البشر، والشخصية الوحيدة التي يمكن لقارة آسيا أن تفتخر بوجود هكذا ابن لها» (١).

٢- في كتاب (محمد رسول الله صلى الله عليه وآله) نقلًا عن كتاب (الإسلام من وجهة نظر فولتير) أن (نابليون) قال منتقداً (مسرحية فولتير) التي وردت فيها اهانات لساحة الرسول صلى الله عليه وآله: «إن فولتير خان التاريخ والوجدان الإنساني لأنه أنكر السجيا السامية لمحمد صلى الله عليه وآله، وصور هذا الرجل العظيم الذي سلط نوراً إلهياً على وجوه العاملين، على صورة موجود آخر» (٢).

٣- وصدفه أن (فولتير) نفسه غير رأيه بهذه المسرحية المهينة أواخر عمره واعترف

(١) عذر التقصير إلى ساحة محمد والقرآن، ص ١٤ (فارسي).

(٢) محمد رسول الله، ص ١٤٢.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٨٣

صراحة بالقول: «يوجد في محمد شيء يدفع الجميع لاحترامه، وأنتى أسأت كثيراً بحق محمد» (١).

٤- جاء في كتاب (دائرة المعارف البريطانية) في ذيل كلمة (القرآن): «يعتبر محمد من بين الرجال والشخصيات الدينية العظيمة في العالم، أكثر الشخصيات توفيقاً وظفراً، وكانت رسالته مرادفةً للنجاح والانتصار» (٢).

٥- يقول الفرنسي (غوستاف لوبون) مؤلف الكتاب المعروف (حضارة الإسلام والعرب): «إن بساطة ووضوح اصول العقائد الإسلامية بالإضافة إلى التعامل مع الناس بالعدل والاحسان الذي طبع وجه الدين الإسلامي بطابعه المنير صار سبباً في أن يبسط نفوذه على وجه الأرض كلها».

٦- يقول (لامارتين) الشاعر الفرنسي المعروف بعد بيان مفصل في مدح نبي الإسلام صلى الله عليه وآله: «هذا هو محمد الذي لو أردنا أن نزن عظمته بأى ميزان فإننا سوف نضطر للقول: بأنه ما من رجل في العالم أعظم من محمد» (٣).

٧- طبيب وكاتب لبناني مسيحي معروف اعتبر في أشعاره التي نظمها عن (نبي الإسلام) صلى الله عليه وآله بأنه أفضل مدبر وحكيم وعالم، ورب للكرم والكلام، ورجل العقل والسياسة، وبطل ميدان المعارك، ووصفه بصفات ليس لها نظير (٤).

٨- مع أن البعض من مؤرخي الغرب المغرضين والمنتفعين حاولوا أن يعطوا صورة عن نبي الإسلام صلى الله عليه وآله مخالفةً للواقع، ولكن الرد عليهم هو نفس الرد الذي كتبه أحد من باحثهم باسم (يوحنا واكنيرت) الذي انتقد في كتابه (محمد والإسلام) الكتاب المتعصبين والمغرضين الذين كتبوا عن نبي الإسلام صلى الله عليه وآله خلافاً للحقيقة، يقول: «بالقدر الذي يعود فيه الشخص إلى الحقائق المعتمدة تاريخياً، والمصادر الموثقة والصحيحة التي كتبت عن أقوال

(١) محمد رسول الله، ص ١٤٣.

(٢) دائرة المعارف البريطانية، مادة (قرآن).

(٣) نقلًا عن كتاب (تاريخ تركيا) حسب كتاب (قاموس دارسى الشؤون الإسلامية، الاجانب) ص ٦١ (فارسي).

(٤) قاموس دارسى الشؤون الإسلامية الاجانب، ص ٥٣٤ (فارسي).

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٨٤

وأفعال وحالات محمد فسوف يبدو في نظره شاتمو هذا النبي أمثال (ماركس) و (برايدر) وسائر هؤلاء الأشخاص توافه وحقراء وضعفاء جداً» (١).

ملخص القول: ليس أصدقاؤه واتباعه فحسب، بل ومخالفوه والبعيدون عنه تحدثوا عن صفاته وسجاياه وملكاته الأخلاقية الفاضلة، وبرامج حياته الشخصية والاجتماعية القيمة بالقدر الذي لو جمعت أقوالهم هذه لشكلت عدة كتب كبيرة.

من مجموع هذه القرائن العشر التي كان لنا في كل منها إشارة عابرة، يمكن أن نستنتج بأنه كان نبياً صادقاً ورسولاً حقيقياً ومبعوثاً من الله العظيم، ولا يوجد في ذلك أدنى شك أو تردد وحتى لو غضضنا النظر عن كل معجزاته وخوارق العادات التي جاء بها. هذا الدليل يعتبر كافياً لوحده، بل وكما أشرنا سابقاً أيضاً أن هذا الدليل بالنسبة للعلماء أسمى وأعلى من المعجزات.

(١) محمد من وجهة نظر الآخرين، نقلًا عن قاموس دارسى الشؤون الإسلامية، الاجانب، ج ١، ص ١٦٤ (فارسي).

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٨٥

الطريق الثالث: البشارات والإشارات

إشارة

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٨٧

الطريق الثالث: البشارات والإشارات

تمهيد:

الدليل الثالث، وهو من الأدلة التي يمكن إقامتها لتصديق أقوال نبي الإسلام صلى الله عليه وآله هي البشارات والإشارات التي جاءت في (الكتب السماوية السابقة)، وبالرغم من أن الكثير من هذه البشارات قد غطتها سحب من التعصب وتم حذفها أو تغييرها وتزويرها من كثرة التحريفات التي جرت على الكتب السماوية السابقة، ولكن لازالت إشارات كثيرة عن هذا الموضوع تبدو للناظر في نفس كتب الديانات الاخرى الموجودة بين أيدينا اليوم.

وتشير القرائن إلى أن هذه الإشارات والدلالات كانت في متناول اليد في بداية ظهور الإسلام أكثر من الوقت الحاضر بالشكل الذي كان القرآن الكريم يستند إليها مكرراً ويدعو (اليهود) و (النصارى) للتدقيق فيها، وبلا شك إذا لم يكن ذلك موجوداً، فلا يمكن للقرآن أن يعتمد على تلك الإشارات بهذه الصراحة.

وهناك نقطة تثير الانتباه، فكما صرحت الكثير من كتب التاريخ أن مجيء مجموعة من اليهود إلى أرض المدينة كان بدافع البشارات التي قرأوها في كتبهم عن ظهور نبي الإسلام صلى الله عليه وآله، وأن الشوق وتمنى إدراك زمان ظهوره هو الذي أجبرهم على ترك ديارهم والجلء عن أوطانهم وسكنوا المدينة، وإلا فإن بيئته الحجاز عموماً والمدينة خاصة ليس فيها مايجذب للحياة المادية من قبيل التجارة أو الزراعة أو تربية المواشى حتى يختاروها وطناً لهم.

كانوا يعتبرون أنفسهم أكثر أهلية من الآخرين في قبول الدين الذي كانوا ينتظرونه،

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٨٨

ولكن بعد ظهور الإسلام وتعرض مصالحهم غير المشروعة للخطر. غير قسم منهم شكل القضية، وهبوا في النهاية لمواجهة النبي صلى

الله عليه وآله، ولا مجال للتعجب والاستغراب هنا لأننا نشاهد مثل هذا في علاقات الكثير من الأصدقاء والروابط الودية لمجموعة من المتحابين.

بهذه الإشارة نعود إلى القرآن الكريم، ونتابع الآيات التي تشير إلى هذا المعنى وتوبخ اليهود والنصارى بسبب عدم توجههم لها:

١- «الَّذِينَ آمَنَّا هُمْ كِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ». (البقرة/ ١٤٦) (الأنعام/ ٢٠)

٢- «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ». (الأعراف/ ١٥٧)

٣- «وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ». (الصف/ ٦)

٤- «وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ». (البقرة/ ٨٩)

٥- «وَأَمِنُوا بِمَا آنَزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَمَّا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَمَّا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ * وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ».

(البقرة/ ٤١-٤٢)

إنهم يعرفونه جيداً:

أول آية جاءت في سورتين من القرآن الكريم تقول:

«الَّذِينَ آمَنَّا هُمْ كِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ» أي أنهم ليسوا مطلعين على أصل ظهوره ودعوته فحسب، بل ويعرفون أيضاً إشارات وخصوصياته وجزئياته، ويقول تعالى في ذيل الآية التي جاءت في سورة البقرة: «وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ». (البقرة/ ١٤٦)

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٨٩

وينقل عن (عبد الله بن سلام) - الذي يعد من علماء اليهود الكبار ثم اعتنق الإسلام - (أنا أعلم به مني بابني) «١».

وجاء في رواية أخرى أن النبي صلى الله عليه وآله عندما جاء إلى المدينة قال (عمر) لعبد الله بن سلام: إن الله أنزل آية على نبيّه تقول: إن أهل الكتاب يعرفون كما يعرفونه أبناءهم، فما هي هذه المعرفة؟، فقال عبد الله بن سلام: «إننا نعرفه بصفاته التي بينها الله، وعندما نراه فيكم نشخصه من بينكم كما يشخص أحدنا ابنه عندما يراه بين الأولاد» «٢».

والتفسير المشهور للآية والذي ينطبق جيداً مع ظاهرها هو هذا التفسير الذي بيناه، ولكن تم عرض احتمالين آخرين في تفسير الآية وهما:

الأول: إن الضمير في (يعرفونه) يعود إلى (الاطلاع على النبوة).

والثاني: إلى (مسألة القبلة)، وبناءً على ذلك فإن الأول هو إشارة لاطلاع ومعرفة أهل الكتاب بمسألة (النبوة)، أما الثاني فهو إشارة لمعرفتهم بأمر (تغيير القبلة) عند المسلمين من (بيت المقدس) إلى (الكعبة). وكلا الاحتمالين ضعيفان جداً.

في الآية الثانية - ورد ذكر تسعة أوصاف من صفات النبي صلى الله عليه وآله التي هي في الواقع دلائل على حقايقته من زوايا مختلفة - بعضها إشارة إلى المضمون الرفيع لدعوته وبرامجه، وبعضها إشارة إلى قرائن أخرى مثل أميته وعدم تعليمه، وشفقته ورحمته، وأمثال ذلك، وتستند في قسم آخر من هذه الدلائل إلى مسألة أوصافه وعلاماته وسماته في الكتب السماوية السابقة (التوراة والإنجيل) -

يقول تعالى

«الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ... أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي؛ وتفسير المنار في ذيل الآية مورد البحث.

(٢) تفسير روح المعاني، ج ٧، ص ١٠٣؛ وتفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٢٨٢؛ وتفسير روح البيان، ج ٣، ص ١٨.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٩٠

ومع عدم ذكر اسم النبي صلى الله عليه وآله في هذه الآية صراحة ولكن الأوصاف التي ذكرتها ترمي بوضوح إلى أن المقصود هو نفسه.

فكيف يمكن القبول بأن القرآن يتحدث مع اليهود والنصارى بهذه الصراحة، ويخبرهم بوجود دلائل وعلامات النبي صلى الله عليه وآله في كتبهم ولكن هذه المسألة لا تطابق الحقيقة وأنهم يسكتون؟ ويقينا إذا لم تكن هذه الإشارات والعلامات موجودة في كتبهم فإنهم سيتخذونها حجة وذريعة مهمة ضد النبي صلى الله عليه وآله، ولصرحوا بها في كل مكان، وإذا كان ذلك قد حصل لنقله التاريخ لنا.

وبناءً على هذا فعلى الأقل أن سكوتهم يعتبر دليلاً ساطعاً على وجود هذه القرائن والأوصاف في كتبهم، وعلاوة على ذلك على حد قول الفخر الرازي: إذا لم تكن لهذا الأمر حقيقة واقعية لكان موجبا لنفرة اليهود والنصارى من الإسلام، والشخص العاقل لا يقدم مطلقاً على ما يوجب تنفر الناس (خاصةً في مجال الدعوة) «١»، وكما سيمر علينا لاحقاً فإنّ قسماً من هذه الدلائل والإشارات موجوداً حتى في كتبهم المحرّفة الحالية.

والملفت للنظر هو أن القرآن لا يقول: (يجدون علائمه ودلائله)، بل يقول: (يجدونه)، أي يجدون نفس ذلك النبي صلى الله عليه وآله في التوراة والانجيل، وهذا التعبير الذي يعنى حضور النبي صلى الله عليه وآله في كتبهم هو تأكيد على منتهى وضوح هذا الأمر. وفي البعض من الروايات الإسلامية جاء في ذيل الآية: إن بعض المسلمين سألوا شخصين من المطلعين على التوراة كلاً على حدة وأنهما ذكرا أوصاف النبي صلى الله عليه وآله بدقه متطابقة «٢».

(١) تفسير الكبير، ج ١٥، ص ٢٣.

(٢) تفسير القرطبي، ج ٤ ص ٢٧٣٥ (الملخص).

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٩١

في الآية الثالثة نقرأ عن لسان عيسى بن مريم أنه أعطى البشارة أمام بني اسرائيل «وَأَذَّ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ»، ويقول في نهاية الآية: «فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ».

والمثير للاهتمام هو أن القرآن ينقل أقوال هؤلاء في مخالفتهم ومعارضتهم للمعجزات واتهامهم عيسى عليه السلام بالسحر، ولكنه لم يتحدث عن معارضتهم حول إخبار (المسيح عليه السلام) بمسألة مجيء (أحمد صلى الله عليه وآله)، وهذا دليل واضح على أنهم لا ينكرون هذا الخبر.

في الآية الرابعة نواجه نقطة جديدة تقول: «وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ».

إن هذه الآية جاءت لتشير إلى السبب الذي استوجب نزولها من أن (اليهود) هاجروا من أرضهم وديارهم إلى المدينة لرؤيتهم علامات نبي الإسلام صلى الله عليه وآله التي في كتبهم، ولأنهم قرأوا فيها أن محل هجرة هذا النبي صلى الله عليه وآله بين جبلي (عير) و (احد) - وهما جبلان على طرفي المدينة، ولهذا فقد جاءوا وسكنوا المدينة وكتبوا حتى لإخوانهم باننا وجدنا الأرض الموعودة فتعالوا

إلينا.

فقال أولئك الذين ليسوا بعيدين جداً عنها: إنه لا تفصلنا فاصلة كبيرة عن تلك المنطقة وحين يهاجر إليها النبي الموعود نلتحق بكم! وعندما يصطدمون مع سكان المدينة الأصليين من قبيلتي (الأوس) و (الخزرج) يقولون: «نحن في ظل النبي الجديد سوف نتصير عليكم» (١).

(١) اقتباس عن سبب النزول الذي جاء في الدر المنثور من تفاسير أهل السنة. وتفسير العياشي عن الإمام الصادق (عليه السلام) (وذكره الكثير من مفسري الشيعة وأهل السنة أيضاً في ذيل الآية المذكورة) - ومع أن البعض من المفسرين مثل الفخر الرازي اعطوا احتمالات متعددة لعبارة (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) ولكن أغلبها ترجع إلى نفس المعنى الذي ذكر أعلاه.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٩٢

ولكنهم للأسف عندما ظهر هذا النبي الأكرم صلى الله عليه وآله نهضوا لمخالفته، لأنهم لم يروه مليياً لميولهم وأهدافهم غير المشروعة.

وهذه كلها تدلل على أن مسألة ظهور نبي الإسلام صلى الله عليه وآله جاءت واضحة في كتبهم إلى حد ما. النقطة الجديدة بالتأمل أن عبارة «مصدق لما معهم» أو ما يشابهها من تعبير وردت في القرآن الكريم أكثر من عشر مرات، وليس مفهومها أن النبي صلى الله عليه وآله يؤيد كتبهم السماوية مع ما حدث فيها من تحريف، بل المقصود أن أوصاف النبي صلى الله عليه وآله موافقة ومتطابقة مع العلامات والإشارات التي في أيديهم، وبتعبير آخر أن للنبي صلى الله عليه وآله وكتابه السماوي نفس الأوصاف التي كانوا يعرفونها من قبل بالضبط وكان في الحقيقة تصديقاً لكتبهم السماوية من ناحية تطابقها تماماً مع صفاته صلى الله عليه وآله.

وبهذا الترتيب تعتبر كل الآيات التي جاء فيها هذا التعبير في زمرة الآيات التي نحن بصددتها في هذا البحث. وختاماً فإن الآية الأخيرة - التي تخاطب اليهود حول الموضوع - ضمن تأكيدها على وجوب الإيمان بالكتاب السماوي للنبي صلى الله عليه وآله الذي يتطابق ومالديهم من علامات، تقول:

«وَأَمِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ».

أي أن عبدة الأوثان من العرب إذا كفروا به فلا - عجب في ذلك، بل العجب كل العجب هو أن تنكروه أنتم وتكفروا به، لأن المتوقع منكم أن تكونوا أول المؤمنين به، وإلا أستم الذين هجرتهم مدنكم ودياركم وجئتم إلى المدينة شوقاً للقائه أو لم تعدوا الأيام والليالي انتظاراً لظهوره؟ ... إذن لم تنعكس القضية وتكونون أنتم أول الكافرين به!؟

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٩٣

ثم تشير الآية إلى الباعث ل «تغيير أسلوبهم» هذا وتقول لهم: لا تكتموا الحقائق من أجل المنافع المادية: «وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ».

وهذه إشارة إلى أن أي ثمن يأخذونه مقابل ذلك فهو لا شيء، حتى ولو كان العالم كله، ولكنكم يا أصحاب الهمم الدنيئة، من أجل مصالحكم المادية التافهة (أحياناً من أجل ضيافة سنوية) كتمتم الآيات التي تحمل علامات وأوصاف النبي صلى الله عليه وآله. ثم تقول الآية تأكيداً للمراد: «وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ».

وفي الحقيقة فإن اليهود ارتكبوا عدّة مخالفات في هذا المجال:

الاولى: إنهم تعاهدوا على أن يكونوا أول المؤمنين بالنبي صلى الله عليه وآله في حين كانوا أول الكافرين به.

الثانية: إنهم لبسوا الحق بالباطل حتى يطمسوا وجهه ويوقعوا الناس في المتاهات.

الثالثة: إنهم كتموا الحق وهم يعلمون بأنه حق واشتروا بالآيات الإلهية ثمناً قليلاً. وهناك في القرآن الكريم آيات متعددة أخرى بنفس المعنى (أى تحكى عن «كتمان الحقائق» من قبل اليهود) والظاهر أن تلك الآيات كلها تشير إلى نفس مسألة كتمان آيات النبوة. ويستفاد من مجموع ماجاء في الآيات الآنفه بأن اوصاف وعلامات نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وحتى اسمه المبارك قد وردت في الكتب السابقة، وقدمت بشارات وإشارات كثيرة بالنسبة لظهوره. ونتجه الآن صوب كتب العهدين الموجودة في متناول أيدينا (التوراة والانجيل)، لنبحث في نماذج من هذه العلامات والإشارات:

التبشير بظهور النبي صلى الله عليه وآله في الكتب السماوية:

كما أشرنا من قبل، فإننا نجد في كتب اليهود والنصارى الموجودة اليوم علامات ذلك نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٩٤

النبي العظيم، ولكن قبل ظهوره كانت توجد يقيناً مسائل كثيرة طمست في ظلمات الكتمان على أثر عدم انسجامها مع التعصبات العمياء الصماء أو متطلبات مصالح زعمائهم.

وحول (بشارات العهدين) كتبت مؤلفات متعددة، أو خصصت لها أقسام من بعض الكتب، لا يسعنا ذكرها في هذه العجالة، ونكتفى ببعض النماذج البارزة:

تم التأكيد في ثلاثة موارد من «انجيل يوحنا» على لفظه (فارقليط) أو (فارقليطا) والتي تعنى فى العربية ب (المُعزى). ونقرأ فى مورد منها: «وسأطلب من الأب أن يعطيكم معزياً آخر (فارقليطا)، يبقى معكم الى الأبد» «١».

وجاء فى مورد آخر: «ومتى جاء المعزى الذى أرسله إليكم الأب، روح الحق المنبثق من الأب، فهو يشهد لى» «٢».

وفى الباب التالى له: «صدقونى، من الخير لكم أن أذهب، فإن كنت لا أذهب لا يجيئكم المعزى أما إذا ذهبت فارسله إليكم» «٣».

مما يجلب الانتباه أن الفخر الرازى ينقل فى الجزء (٢٩) من تفسيره صفحته (٣١٣) عن الأناجيل الموجودة فى عصره (انجيل يوحنا- الباب ١٤): (وأنا أطلب لكم إلى أبى حتى يمنحكم ويؤتيكم الفارقليط حتى يكون معكم إلى الأبد). وهذا عين ما ذكرناه أعلاه ولكن بالتصريح بلفظه (فارقليط)، ويذكر نفس المعنى بالتصريح بلفظه (فارقليط) أيضاً فى الباب ١٥ و ١٦ منه.

إن (فارقليط) التى تلفظ باللغة اليونانية (بريكلتوس) أو (براقليتوس) فسرها الكثير من المسيحيين بمعنى (المُعزى) أو (روح القدس)، ولكن جمعاً منهم ذكر أن معناها (كثير الحمد) وهو ما يتطابق تماماً مع اسم أحمد ومع الآية التى تقول: «وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنَ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ». (الصف / ٦)

(١) انجيل يوحنا، الباب ١٤، الجملة ١٦.

(٢) المصدر السابق، الباب ١٥، الجملة ٢٦.

(٣) المصدر السابق، الباب ١٦، الجملة ٧.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٩٥

وإن ما يتضح من المطالعة الدقيقة لجذور هذه الكلمة هو أن (فارقليط) كلمة يونانية الأصل، وأن جذرها (بريكلتوس) ومعناه (كثير الحمد) التبس عليهم مع (براقليتوس) التى تعنى (المُعزى).

ينقل السيد حسينيان مؤلف كتاب (السراج) «١» فى بداية كراسه الصغير والملء بالمضامين، عين المتن اللاتينى لإنجيل يوحنا عن كتاب باسم (الأناجيل) من تأليف «لامنيه»- طبع باريس- والموجود حالياً فى مكتبة مجلس الشورى الإسلامى:

ما يدل جيداً على أن كلمة (فارقليط) وردت هناك على صورة (بركليت) - التي تعنى بالعربية (أحمد) وبالفارسية (كثير الحمد) وليس بصورة بركليت (باراكلت) التي تعنى (المعزى) «٢»، ولكن للأسف حُذِفَ التعبير الأول فيما بعد من متون الأناجيل وحلَّ محلّه التعبير الثانى.

ويضيف أيضاً: «إن قدماء النصارى فهموا من لفظ «براكلت» اسماً خاصاً لشخص، لأنّ فى التراجم السريانية جاء عين اللفظ «أى فارقليط»، وفى التراجم العبرانية الموجودة لدى ورأيتها شخصياً «فرقليط». ولأنّهم يعتبرونه اسم إنسان «معين»، والترجمات العبرانية والسريانية عند المسيحيين لها كمال الأهميّة والاعتبار» «٣».

وفى الواقع فإنّ مفردات من قبيل (محمد) و (على) و (حسن) و (حسين) وأمثالها لا يمكن مطلقاً ترجمتها عند ترجمة العبارات، فمثلاً: بدل جملة (جاء على) لا يقول الفارسى أبداً:

(بلند مرتبه آمد) بل يقول (على آمد)، ولكن المؤسف أنّ العلماء المسيحيين فى الأزمان المتأخرة، ومن أجل محو علامة نبوة نبي الإسلام صلى الله عليه وآله هذه أبدلوا أولاً: لفظه (بركليت) ب- (باراكلت).
وثانياً: اخرجوها من صورتها كاسم علم إلى معنّى وصفى وقالوا بدلها «المعزى» (فتأمل).

(١) (جراغ) - فارسى.

(٢) كتاب جراغ، ص ١.

(٣) المصدر السابق، ص ٦.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٩٦

يتضح من هذا الكلام أنّ اللفظة الأصلية إذا كانت (بريقليتوس) فإنّ معناها (كثير الحمد) ومن غير المستبعد التباسها مع (براقليتوس)، وطبعاً أنّ احتمالات التعمد فى هذا التفسير كثيرة جداً.

يقول المرحوم (العلامة الشعرانى) فى كتابه «نثر طوبى»: «رأيت فى أحد قواميس اللغة اليونانية أنّ «فارقليط» ترجم معناها ب «كثير الحمد» أى من تتناقله الألسن ويذكر بالخير.

ثم يضيف: إنّ قواميس اللغة اليونانية باللغة الانجليزية، والقواميس الفرنسية موجودة فى كل مكان و (يمكنكم مراجعتها ولكن) يعتبرها المسيحيون مصحفهً ومحرّفهً.

ويتجمونها بمعنى (المعزى) وقد كتبنا نحن رسالهً مستقلهً فى هذا الباب «١».

ونطالع فى كتاب قاموس مفردات القرآن «٢» تأليف الدكتور قريب: «أنّ الاستفادة من الروايات هو أنّ الأنبياء العظام كل بنوته قد بشروا فى كتبهم بحضرة نبي الإسلام صلى الله عليه وآله ثم ينقل عن الكثير من المصادر الإسلامية أنّ اسمه فى الانجيل «الفارقليط» التي يكون معناها (أحمد)» «٣».

وفى عدا ذلك ففى تعبيرات الانجيل نفسه توجد جمل تشير إلى أنّ هذه الكلمه وبأى تعبير تكون فهى تتحدث عن نبي يظهر ويبقى دينه خالداً.

فجملة (وسأطلب من الأب أن يعطيكم معزياً آخر يبقى معكم إلى الأبد) «٤» دليل واضح على أنّ المقصود من (المعزى) هو نبي دينه أبدى وخالد.

ويقول هناك: «ومتى جاء المعزى الذى ارسله اليكم الأب، روح الحق المنبثق من الاب، فهو يشهد لى» «٥».

وواضح أنّ هذا المعزى هو نبي وليس روح القدس. وتكمن فى تعاليمه كل الحقائق ولن يبق شىء يستحق القول.

(١) نشر طوبى ج ١، ص ١٩٧.

(٢) فرهنگ لغات قرآن (فارسی).

(٣) فرهنگ لغات قرآن (فارسی)، ج ١، ص ٣٥١.

(٤) انجيل يوحنا، الباب ١٤، الباب ١٦

(٥) المصدر السابق، جملة ٢٦.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٩٧

وعلى أيّة حال فلا مجال لأي شك أو ترديد بأنّ كلمة (أحمد) أو مفردات من قبيلها كانت موجودة في الأناجيل المتوفرة في زمن النبي صلى الله عليه وآله، وإلا فإنّ الآية السادسة من سورة الصف ستكون في مظان الاعتراض الشديد من قبلهم ولأصبحت حجة قوية لهم في محاربة الإسلام. في حين لم ينقل لنا التاريخ الإسلامى مثل هذا الشيء.

وبناء على ذلك يبدو أنّ البعض من علماء المسيحية حينما رأوا أن مواقفهم معرضة للخطر اتخذوا قرارهم بتحريف وتبديل تلك المعانى إلى معانٍ أخرى وحتى يمكن مشاهدة نفس الاسم المقدّس للنبي صلى الله عليه وآله في بعض كتب المسيحيين التي كانت موجودة لقرون بعد ظهوره صلى الله عليه وآله في زوايا العالم المختلفة.

والشاهد على هذا الكلام بيان مثير لأحد العلماء المسيحيين الذين أعلنوا إسلامهم في كتابه (أنيس الاعلام) وهو كتاب تحقيقى فريد أزاح الستار عن هذا الجانب.

وباعتباره كان بنفسه أحد القساوسة المسيحيين المعروفين وأنهى دراسته عند كبار علماء المسيحية ووصل إلى مقام كبير في نظرهم، يشرح في مقدمته كتابه المذكور قصة إسلامه العجيبة بهذا الشكل، يقول: «بعد تنقيب كثير وجهود خارقة وجولات في المدن المختلفة وصلت إلى قسيس رفيع المستوى كان ممتازاً من ناحية الزهد والتقوى. ويعود إليه أبناء الطائفة (الكاثوليكية) من ملوك وغيرهم بأسئلتهم الدينية، وقد درست عنده فترة مذاهب النصارى المختلفة، وكان عنده تلامذة كثيرون ولكن كان له تعلق خاص بى من دونهم وكانت مفاتيح المنزل كلها بيدي إلامفتاح واحد لأحد الخزائن كان يحتفظ به عنده.

في تلك الأثناء أحس القسيس المذكور يوماً بوعكة صحية، فقال لى: قل للتلاميذ أننى لا طاقة لى على التدريس، وعندما جئت للطلبة وجدتهم مشغولين بالبحث والنقاش الذى انجر إلى معنى لفظة (فارقليطا) فى السريانية و (بريكلتوس) باللغة اليونانية ... وقد امتد جدالهم وطال، وبدا لكل واحد منهم رأياً ... بعد أن عدتُ إلى الاستاذ سألتنى: ما بحثتم اليوم؟ فقدمت له تقريراً عن اختلافهم فى لفظ (فارقليطا) ... قال: وأنت أى الأقوال انتخبت؟

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٩٨

قلت: انتخبت ما اختاره فلان مُفسّر.

فقال القس: ما قصّرت ولكن الحق والواقع يخالف كل هذه الأقوال، لأنّ الحقيقة لا يعلمها (إلا الراسخون فى العلم) وقليل من هؤلاء أيضاً من يعرفها، فألححت عليه أن يقول لى معناها، فبكى بشدة وقال: إننى لا أبخل عليك بأى شىء ... إن فى تعلم معنى الاسم أثراً عظيماً ولكن بمجرد شيوعه سيقتلوننا أنا وأنت وإذا عاهدتني بأنّ لا تقول لأحد سأتين لك المعنى ... فأقسمت له بكل المقدّسات أن لا أبوح باسمه، عندئذ قال: إنّ هذا الاسم هو من أسماء (نبي المسلمين) ومعناه (أحمد) و (محمد):

ثم أعطانى مفتاح تلك الغرفة الصغيرة وقال: افتح باب الصندوق الفلانى. وآتني بكذا وكذا كتاب، فجلبت الكتابين له وكانا مكتوبين بالخط اليونانى والسريانى قبل ظهور نبي الإسلام، على الجلد.

وقد ترجم لفظ (فارقليطا) فى كلا الكتابين بمعنى (أحمد) و (محمد)، ثم اضاف الاستاذ قائلاً: لم يكن عند علماء النصارى أى اختلاف قبل ظهور نبي الإسلام بأنّ (فارقليطا) تعنى (أحمد و محمد) ولكن بعد أن ظهر محمد أولوا اللفظة واخترعوا لها معنى آخر من

أجل الابقاء على رئاستهم ومنافعهم المادية، وقطعاً أن هذا المعنى لم يقصده صاحب الانجيل. فسألته: ما تقول عن (دين النصرى)؟ قال: نسخ بمجىء الدين الإسلامى وكرر هذا اللفظ ثلاث مرات، فقلت: فى هذا الزمان ما هو طريق النجاة والصراط المستقيم...؟ قال: أنه منحصر فى أتباع محمد صلى الله عليه وآله. قلت: وهل أن تابعيه من أهل النجاة؟ قال: أى والله (كررها ثلاثاً) ... ثم بكى الاستاذ وبكى أنا أيضاً، وقال: إذا كنت تريد الآخرة والنجاة فيجب أن تقبل دين الحق ... وسوف أدعو لك دائماً، بشرط أن تشهد لى يوم القيامة بأننى كنت مسلماً فى الباطن ومن أتباع حضره محمد صلى الله عليه وآله ... وليس من شك اليوم أن «دين الإسلام» هو دين الله على وجه الأرض... «١».

(١) اقتباس مع قليل من الاختصار عن (الهداية الثانية) مقدمة كتاب أنيس الاعلام.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٢٩٩

وكما تلاحظون فإن علماء أهل الكتاب- وفق هذا السند- فسروا وبرروا اسم وعلامات النبى صلى الله عليه وآله بعد ظهوره بشكل آخر من أجل مصالحهم الشخصية.

سؤال:

يطرح هنا سؤال وهو: إن الاسم المعروف للنبي صلى الله عليه وآله (محمد) فى حين سمي فى الآية ٦ من سورة «الصف» باسم (أحمد)، وهاتان المفردتان وإن لم تختلفا كثيراً فى دلالتهما على معنى ومفهوم (محمود) ولكنهما فى الظاهر اسمان مختلفان. وبناءً على ذلك إذا كانت (فارقيطا) تعنى (محمود)، فإنها تنسجم مع كليهما، ولكن تعبير القرآن ب (أحمد) لا ينسجم مع الاسم المعروف للنبي صلى الله عليه وآله.

الجواب:

ستتضح الاجابة جيداً عن هذا السؤال ببيان بعض النقاط:

١- جاء فى التواريخ بأن للنبي صلى الله عليه وآله منذ طفولته اسمين، وحتى أن الناس كانت تخاطبه بكليهما. أحدهما: (محمد) والآخر (أحمد)، والأول: اختاره له جده (عبد المطلب).

والثانى: أمه (آمنة)، وقد ذكر هذا الموضوع بالتفصيل فى السيرة الحلبية.

٢- من بين الذين ينادونه مراراً بهذا الاسم، عمه (أبو طالب)، وفى أيدينا اليوم كتاب بعنوان (ديوان أبى طالب) نشاهد فيه قصائد كثيرة ذكرت النبى صلى الله عليه وآله بعنوان (أحمد) مثل:

أرادوا قتل «أحمد» ظالموهم وليس بقتلهم فيهم زعيم

وإن كان «أحمد» قد جاءهم بحق ولم يأتهم بالكذب «١»

وفى غير (ديوان أبى طالب) نقلت عنه أشعار فى هذا المجال مثل:

لقد أكرم الله النبى محمداً فأكرم خلق الله فى الناس أحمد «٢»

(١) ديوان أبى طالب، ص ٢٥ و ٢٦.

(٢) تاريخ ابن عساکر، ج ١، ص ٢٧٥.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٣٠٠

نفحات القرآن ج ٨ ٣٢٥

٣- ويرى هذا التعبير أيضاً في أشعار (حسان بن ثابت) الشاعر المعروف في عصر النبي صلى الله عليه وآله: ومفجعة قد شفها فقد أحمذفظلت لآلاء الرسول تعدد

والأشعار التي جاء فيها اسم (أحمد) بدلاً من محمد سواءً في ديوان أبي طالب أو غيره كثيرة جداً ولا مجال لنقلها كلها هنا. ونختم هذا البحث ببيتين آخرين لابن أبي طالب (علي عليه السلام) حيث يقول: أتامرني بالصبر في نصر «أحمد» والله ماقلت الذي قلت جازعاً سأسعى لوجه الله في نصر «أحمد» نبي الهدى المحمود طفلاً ويافعا «١»

٤- نقرأ في الروايات التي جاءت تتحدث عن مسألة المعراج أن الله خاطب النبي صلى الله عليه وآله في ليلة المعراج مرات باسم (أحمد) وربما من هنا اشتهر بأن اسمه في السماء (أحمد) وفي الأرض (محمد).

وجاء أيضاً في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام أن للنبي صلى الله عليه وآله عشرة أسماء جاءت خمسة منها في القرآن وهي: (محمد) و (أحمد) و (عبد الله) و (يس) و (ن) و «٢».

٥- عندما تلى النبي صلى الله عليه وآله الآيات المذكورة (آيات سورة الصف) لأهل المدينة ومكة وسمعها أهل الكتاب أيضاً، لم يعترض أي واحد من المشركين وأهل الكتاب بأن (الانجيل) بشر بمجيء (أحمد) بينما اسمك (محمد). وسكوتهم هذا دليل على اشتهار هذا الاسم في ذلك المحيط، لأنه إذا حدث مثل هذا الاعتراض لكان قد نُقل إلينا. مع أن اعتراضات الأعداء وحتى في الموارد الجارحة جداً مثبتة في التاريخ.

نستخلص من مجموع هذا البحث أن اسم (أحمد) كان من الأسماء المعروفة لنبي الإسلام صلى الله عليه وآله لدى أهل الكتاب.

(١) الغدير، ج ٧، ص ٣٥٨.

(٢) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٣٠١

نشاهد بشارة أخرى في سفر التكوين والظهور في (التوراة) في الفصل السابع، لا يمكن تطبيق علاماتها إلأعلى النبي صلى الله عليه وآله و آله.

ففي الجمل من ١٧ إلى ٢٠ نطالع: «وقال إبراهيم للرب ياليت إسماعيل يعيش أمامك ...

فقال الله سمعت دعاءك في حق إسماعيل وها أنا اباركه وأكثر نسله وسيلد منه اثنا عشر رئيساً وسنجدله أمه عظيمه» «١».

وفي كتاب (أنيس الأعلام) ينقل متن جمل التوراة المكتوبة باللغة العبرية ويكتب ترجمتها على هذا الشكل: «... وأثمره وأعظمه ب «مادماد» والاثنا عشر إماماً الذي سيكون من نسله وسنجدله أمه عظيمه» «٢».

ثم يضيف: «أن (مادماد) هو نفس (محمد صلى الله عليه وآله بالعبرانية».

ومع الالتفات إلى أن النبي هو من نسل إسماعيل، وجاء في البشارة المذكورة بأنه سيكون أمه عظيمه ويخرج منه (اثني عشر سيداً وإماماً) سيتضح عدم وجود أي مصداق لها سوى شخص النبي صلى الله عليه وآله، وإذ ألحقنا بها لفظه (مادماد) التي وردت في النص العبري- وإن لم يأتوا بها في الترجمة من العبرية إلى الفارسية- ستتضح أكثر وأكثر.

إن قيل بأن هؤلاء (الاثني عشر سيداً وإماماً) وكذلك الامه العظيمة إشارة إلى (موسى عليه السلام) و (أسباط بني اسرائيل الاثني عشر) ففي الحقيقة أن الله بشر إبراهيم بظهور موسى عليه السلام، ويكون الجواب عن ذلك واضحاً لأن موسى عليه السلام وأسباط بني اسرائيل هم من نسل إسحاق، في حين أن العبارة الآنفه تعرفهم على أنهم من أبناء إسماعيل ولا يمكن أن يكون لها مصداق إلأنبي

الإسلام صلى الله عليه وآله.

(ج) جاء في سفر التكوين (التوراة) - الباب ٤٩ رقم ١٠: «ولن تؤخذ عصي السلطنة من يهودا حتى يأتي شيلوه الذى ستجتمع حوله الامم» (٣).

وظاهر هذه العبارة هو أن حكم (يهودا) وتسلب بنى اسرائيل سيستمر حتى ظهور (شيلوه) وتجتمع الامم حوله.

(١) سفر التكوين، الفصل ٧.

(٢) أنيس الأعلام، ج ٥، ص ٦٩.

(٣) سفر ظهور التوراة، باب ٤٩، رقم ١٠.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٣٠٢

أما من هو وما هو المقصود ب (شيلوه)، فإن مؤلفى اليهود والنصارى قدموا احتمالات كثيرة كان أغلبها لا تتسق مع العبارة المذكورة بأى وجه، ومن جملتها أن (شيلوه) تعنى مكاناً للاستراحة أو مدينة فى شمال «بيت ايل» أو محلاً يسمونه الآن (سيلون)، والمسلم فيه أن التعبير بمجيئه واجتماع الامم حوله هو إشارة إلى شخص وليس إشارة إلى مكان أو محل.

و (مستر هاكس) الأيركى مؤلف كتاب (القاموس المقدس) ضمن عدده للمعاني المختلفة لهذه المفردة ذكر معنى (مرسل) التى تنطبق على لفظه رسول أو رسول الله.

والشئ الوحيد الذى يمكن أن يقال هو أن بشاره التوراة هذه هى إشارة لظهور (المسيح عليه السلام) كما قالوا ولكن حسب قول فخر الإسلام فى (أنيس الأعلام): إن هذا الاحتمال غير صحيح لأن المسيح عليه السلام هو من أبناء (يهودا) من جهة الأم.

وبناءً على ذلك فإن حاكميته تعتبر امتداداً لحاكمية يهودا، وفى هذه الحالة لم يبق من مصداق لها سوى نبي الإسلام صلى الله عليه وآله المرسل من الله الذى تزاخ بظهوره حكومه (آل يهودا) خصوصاً فى المدينة وخيبر والشامات والكثير من المناطق الاخرى «١». طبعاً ذكرت بشارات متعددة اخرى أيضاً فى كتب العهدين يطول شرحها وأن البعض منها قابل للقدح والتجريح، والذين يرغبون بالبحث والتحقيق أكثر فى هذا الموضوع يمكنهم الرجوع إلى كتب (أنيس الأعلام) و (بشارات العهدين) و (البشارات والمقارنات).

(١) أنيس الأعلام، ج ٥، ص ٧٣.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٣٠٣

الخاتمية فى القرآن الكريم

إشارة

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٣٠٥

الخاتمية فى القرآن الكريم

تمهيد:

مسألة (الخاتمية) وأن نبي الإسلام صلى الله عليه وآله هو آخر الأنبياء الإلهيين من المسائل التى يعتقد بها كل المسلمين من أى فرقة أو مذهب كانوا، ولا يعرفها العلماء فحسب بل كل أفراد المسلمين أيضاً ويعتبرونها من (ضروريات الإسلام) التى يتوصل إليها أى أحد

بسرعة مهما قلت معاشرته لأتباع هذه المدرسة وهي أنهم يعتبرون النبي الأكرم صلى الله عليه وآله هو آخر الأنبياء الإلهيين. ومصدر هذا الاعتقاد يعود إلى (القرآن الكريم) و (الروايات الإسلامية) لأن هذه المسألة ليست بالشىء الذى يمكن إثباتها بالأدلة العقلية فقط، و يقيناً بعد قبولهم للقرآن الكريم بصفته كتاباً سماوياً، ونبي الإسلام صلى الله عليه وآله كونه رسولاً لله، يمكن الاعتماد على قولهم بهذا الصدد.

لهذا السبب نتوجه أولاً إلى الآيات القرآنية، ثم نتطرق إلى الشواهد التاريخية والروايات الإسلامية، ونختتمها ببعض الشبهات التى ألغاها مخالفو الإسلام حول خاتمية النبي صلى الله عليه وآله:

وردت الآية الرئيسية التى تشهد على هذا المعنى فى قوله تعالى «مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا».

(الأحزاب / ٤٠)

وذكر العلماء آيات متعددة اخرى حول الموضوع إذا لم نقبل دلالتها القطعية فعلى أقل

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٣٠٦

تقدير إنها تحتوى على إشارات مثل:

١- «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ». (فصلت / ٤١-٤٢)

٢- «تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا». (الفرقان / ١)

٣- «وَإِذْ نُنزِّلُ الْفُرْقَانَ لِيُنذِرَ كَوْمًا بِهِ وَمَنْ بَلَغَ». (الأنعام / ١٩)

٤- «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا». (سبأ / ٢٨)

٥- «قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا». (الأعراف / ١٥٨)

٦- «إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرِي لِلْعَالَمِينَ». (الأنعام / ٩٠)

٧- «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ». (الأنبياء / ١٠٧)

جمع الآيات وتفسيرها

الآية الاولى التى وردت فى بحثنا، وهى الآية ٤٠ من سورة الأحزاب التى أشارت قصة «زيد»، وهو ابن الرسول صلى الله عليه وآله وبالتبني، حيث إن الرسول صلى الله عليه وآله تزوج من زوجته التى طلقها، وذلك من أجل القضاء على احدى السنن الخاطئة التى كانت متداولة آنذاك والتى تقضى بعدم الزواج من زوجات أديانهم بعد الطلاق ولكى لا تبقى بعد زواجها من غير زوج.

والجدير بالذكر هو أن زواج زيد من هذه المرأة كان بواسطة الرسول صلى الله عليه وآله، وقد طلقها لعدم انسجامهما.

وقد نفت الآية الكريمة القرابة النسبية بين زيد والرسول الأكرم صلى الله عليه وآله حيث قال: «وَمَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ»، ثم أضافت: «وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ».

حيث تُثبت لرسول الله صلى الله عليه وآله الرابطة الروحية والمعنوية المتأتمية من مقام النبوة والخاتمية، أى أنه ليس أباكم الجسدى، بل هو أبوكم الروحى، وأبو كل الأجيال اللاحقة حتى نهاية الدنيا، وإذا نقل فى بعض الروايات عن النبي صلى الله عليه وآله قوله: «أنا وعلى أبوا هذه

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٣٠٧

الامة» فهو أيضاً إشارة إلى نفس الابوة الروحية التى تنبع من التعليم والتربية والقيادة.

ويجب الالتفات إلى أن للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله عدة أولاد نسيبين بأسماء (القاسم)، (الطيب)، (الطاهر)، و (إبراهيم) ورحلوا جميعهم عن هذا العالم قبل البلوغ. ولهذا السبب لم تسميهم الآية (رجالاً) «١».

ضمنا هناك رابطة اخرى بين مسألة ختم النبوة وعدم وجود الولد وهي أن أولاد الأنبياء كانوا أنبياء أيضاً، ولأن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لا ابن له بلغ مبلغ الرجال لم يبق أى مجال للتوهم بأن سيكون بعده نبي آخر، وعلى هذا فإن فقدان الولد هي إشارة إلى ختم النبوة.

ويقول في آخر الآية «وكان الله بكل شيء عليماً».

ووضع تحت تصرف هذا النبي الخاتم ما كان لازماً من معارف وعلوم ومسائل الاصول والفروع.

وقد ابدى الاحتمال في ربط بداية الآية بنهايتها، ففي بدايتها نفى عن النبي صلى الله عليه وآله ابوتة الجسمية لأمته، ولذا سيظهر هذا السؤال وهو: إذا كان بهذا الشكل فلماذا لا يحق لأمته أن يتزوجوا زوجات النبي صلى الله عليه وآله من بعده؟ وفي الجواب على ذلك يقول: «إنه رسول الله صلى الله عليه وآله بالإضافة إلى كونه خاتم أنبيائه وأفضلهم، ولهذا السبب فإن حفظ حرمة واجب وترك الزواج من أزواجه بعد وفاته هو جزء من هذه الحرمة» «٢».

مفهوم خاتم النبيين:

مع أن معنى (خاتم) واضح جداً- لأن مادة ختم في كافة معاجم اللغة العربية تعني انتهاء شيء- ولكن قسماً من وساوس المنحرفين تستوجب تقديم توضيحات أكثر بشأنها، يقول «ابن فارس»، أحد علماء اللغة المعروفين في القرن الرابع الهجري، في «معجم مقاييس اللغة»: «ختم، لها معنى أصلي واحد لا أكثر وهو الوصول إلى نهاية الشيء. وأن قولهم (ختم)

(١) تفسير القرطبي؛ وتفسير الميزان، ذيل الآية مورد البحث.

(٢) تفسير القرطبي، ذيل الآية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٣٠٨

عندما يضعون ختما (مهرًا) على شيء فهو من هذا الباب، لأنهم دائماً بعد انتهاء شيء ما يضعون ختماً أو مهرًا عليه».

ويقول (الخليل بن أحمد) وهو من أقدم المؤلفين والمحققين في لغة العرب والذي عاش في القرن الثاني للهجرة في زمن الأئمة المعصومين عليهم السلام عن معنى خاتم وخاتم: «خاتم كل شيء هو نهايته وآخرته. وخاتم تعني الختم «المهر» الذي يضعونه على الطين»، وذلك عند اتمام الرسالة وطبها ومن أجل أن لا يفتحها الغرباء يلصقون قطعة لينة من الطين على محل ربطها ثم يختمون فوقها بحيث لا يبقى أى طريق لفتحها إلا بكسر الختم.

وذهب سائر أصحاب اللغة أيضاً إلى هذا المعنى نفسه، وفسروا (خاتم) بمعنى الشيء الذي يؤدي إلى النهاية أو الختم الذي يضعونه في النهاية.

وفي كتاب (التحقيق) الذي يعد تحقيقاً جامعاً في مصادر اللغة المهمة بعد أن ينقل أقوال كبار اللغويين العرب يقول: «المتحقق أن لهذه المادة جذر واحد وهو في مقابل «بدء». أى اكمال شيء وايصاله إلى آخره ونهايته» «١».

وكذلك المفسرون الإسلاميون من أقدمهم وحتى معاصريهم لم يخرجوا جميعهم عن أن معنى (خاتم النبيين) في الآية المذكورة هو آخر الأنبياء.

ويقول المفسر المعروف (محمد بن جرير الطبري) الذي عاش في القرن الثالث في تفسيره الذي يعتبر من أقدم التفاسير في ذيل الآية آفة الذكر: و «خاتم النبيين الذي ختم النبوة فختم عليها فلا تفتح لاحد بعده إلى قيام الساعة» «٢».

ويقول المرحوم (الشيخ الطوسي) وهو من عظماء الفقه والتفسير، وعاش في القرن الخامس في كتابه المشهور (البيان) بعد أن يذكر (خاتم النبيين): «أى آخرهم لأنه لا نبي بعده الى يوم القيامة» (٣).
وكذلك المفسر الكبير (الطبرسي) الذي عاش بعده بقرن واحد جاء بنفس المعنى أيضاً وشرحه «٤».

(١) التحقيق، مادة (ختم).

(٢) تفسير جامع البيان، ج ٢٢، ص ١٢.

(٣) تفسير البيان، ج ٨، ص ٣١٤.

(٤) تفسير مجمع البيان، ج ٧ و ٨، ص ٣٦٢.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٣٠٩

يقول (أبو الفتوح الرازي) الذي يعدّ من المفسرين رفيعي الشأن في القرن السادس وكتب تفسيره باللغة الفارسية في تعبير جذاب في ذيل كلمه (خاتم النبيين): «وآخر الأنبياء حتى تظن أنه ختم النبوة، وبنوته ختم باب بعث الأنبياء» (١).
ويقول كذلك المفسر السني الشهير (الفخر الرازي) والذي يعدّ من مفسري القرن السادس الهجري المعروفين بعد كلمه (خاتم النبيين): «مفهومها أن لا نبي بعده، وشريعته تامه بحيث لم يبق شيء لم يذكر» (٢).

وسار بقيه المفسرين قرناً بعد قرن على نفس المعنى حتى وصل إلى المفسرين المعاصرين.

والشيء الملفت للنظر هو أن مادة ختم ومشتقاتها- الآية المذكورة- استخدمت في القرآن الكريم في سبعة موارد جاءت كلها وبدون استثناء بمعنى الاتمام أو انهاء الشيء أو الختم الذي يضربونه أسفل الرسائل، وهذا بذاته يدل على أن الآية موضوع البحث ليس لها اي مفهوم سوى أن النبي صلى الله عليه و آله هو خاتم سلسلة الأنبياء، والختم الذي وضع على نهاية سجل الرسائل.
وكذلك جاء في (نهج البلاغه) والروايات الإسلامية نفس المعنى بشكل عام، وسوف يشار إلى قسم منها في نهاية هذا البحث.

الاجابة عن بعض الاسئلة:

١- يقال أحياناً: إن (خاتم) تعني الزينه. وبناء عليه فإن مفهوم الآية هو أن النبي صلى الله عليه و آله كان زينه لكل الأنبياء وليس خاتمهم.

لكن يجب الالتفات إلى أن (خاتم) لم تأت أبداً بمعنى الزينه وإنما بمعنى (الخاتم الذي له

(١) تفسير الكبير، ج ٩، ص ١٦٢.

(٢) تفسير الكبير، ج ٢٥، ص ٢١٤.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٣١٠

فصّ ويوضع في الأصابع) وأن هذا التعبير غير لائق تماماً أن يقال: إن النبي صلى الله عليه و آله هو خاتم أصابع النبيين، ثم إننا قلنا: إن المعنى الأصلي ل (خاتم) لم يكن أبداً (خاتم الاصبع) وإنما الختم الذي يختمون به عند الانتهاء من الرسائل أو البرامج أو الكتب. وانطلاقاً من أن وضع الختم يكون في (الختام) والنهائية. فإن اسم (خاتم) يطلق على الواسطة التي تختم بها الرسالة. (لاحظوا أن كلمه «خاتم» بفتح التاء معناها «ما يختم به» أي الشيء الذي يختمون به).

وما يثير الاهتمام هو أن الختم الأصلي للأشخاص في عصر نزول القرآن والقرون التالية له، كان على الخواتيم التي يحملونها على أصابعهم وبواسطتها كانوا يختمون رسائلهم، ولهذا السبب جاء في سيرة النبي صلى الله عليه و آله «أن خاتم رسول الله كان من فضة

نقشه محمد رسول الله صلى الله عليه وآله «١».

وجاء في بعض التواريخ أن من جملة وقائع السنة السادسة للهجرة أنهم «عرضوا على النبي صلى الله عليه وآله بأنك تراسل زعماء البلدان والملوك وأنهم لا يقرأون الرسائل التي لاختم عليها.

لهذا السبب اختار النبي صلى الله عليه وآله خاتماً لاصبعه حتى يختم به الرسائل «٢».

وجاء في كتاب (الطبقات الكبرى) أيضاً أن النبي صلى الله عليه وآله عندما قرر أن ينشر دعوته ويكتب الملوك والسلاطين في العالم أمر فصنعوا له خاتماً كتب عليه (محمد رسول الله) وكان يختم به رسائله «٣».

بهذا البيان يتضح أن كلمة (خاتم) وإن كانت تطلق على خواتيم الزينة أيضاً ولكن في زمان نزول القرآن وما بعده كان يطلق على الخواتيم التي يختمون بها رسائلهم أو يختمون بها على محل ربط الرسائل بعد طيها واغلاقها. والنقطة الملفتة للنظر هي أن نفس المعنى استخدم في آيات متعددة من القرآن الكريم،

(١) سنن البيهقي، ج ١٠، ص ١٢٨؛ وفروع الكافي: ج ٦، ص ٤٧٣- باب نقش الخواتيم، ح ١، (كان نقش خاتم النبي محمد رسول الله صلى الله عليه وآله).

(٢) سفينة البحار، ج ١، ص ٣٧٦.

(٣) الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٢٥٨.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٣١١

فيقول حول مجموعته من الكفار: «خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ». (البقرة/ ٧)

ويقول عن يوم القيامة: «الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ». (يس/ ٦٥)

وعلى كل حال فإن أقل اطلاع على معاني هذه المفردة في الأدب العربي وجذورها الأصلية وموارد استعمالها يثبت بوضوح أن كلمة (خاتم النبيين) ليس لها أي معنى سوى معنى متمم عدة الأنبياء وخاتمهم.

السؤال الثاني:

الايراد الواهي الآخر طرح من قبل البعض من عديمي الخبرة وهو أن القرآن الكريم يقول: إن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله (خاتم النبيين) ولم يقل (خاتم الرسل) ومن الممكن أن سلسلة الأنبياء تنتهي بظهوره ولكن سلسلة الرسل، لانهاية لها.

الجواب:

صحيح أن (النبي) معناه كل نبي يوحى إليه من قبل الله تعالى سواء كان مكلفاً بالتبليغ أم لا، عنده كتاب سماوي أم لا. ولكن (الرسول) هو نبي مكلف بالبلاغ. وتعبير آخر، أن كل نبي رسول ولكن ليس كل رسول نبي.

بهذا البيان تكون الاجابة عن السؤال المذكور واضحة تماماً، فعندما يكون شخص ما خاتماً للأنبياء فبطريق أولى يكون خاتماً للرسول أيضاً، لأنه كما قلنا قبل قليل: إن كل رسول هو نبي - لأن مرحلة الرسالة أشمل من النبوة -.

وهذا الكلام يشبه بالضبط قولنا إن فلاناً خرج من منطقة الحجاز. فبالأكيد أن ذلك الشخص خرج من مكة أيضاً، أما إذا نقول إن فلاناً ليس في مكة. فمن الممكن أن يكون في نقطة اخرى من الحجاز.

وبناء على هذا إذا كان النبي صلى الله عليه وآله خاتم المرسلين كان ممكناً أن لا يكون خاتماً للأنبياء.

ولكن حينما نقول الآية أنه خاتم النبيين فمن المسلم به أن يكون خاتماً للمرسلين كذلك.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٣١٢

في قسم آخر من الآيات المذكورة هناك تعبيرات يعتبرها الكثير من العلماء دليلاً ساطعاً على مسألة الخاتمية. وإذا افترضنا عدم قبول

دلالتها الصريحة. فلا أقل من أن تكون قرائن وشواهد على هذه المسألة:

نقرأ في أول آية من هذا القسم: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَأَنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ* لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِن خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ».

و «الباطل»: في هذه الآية معناه الشيء الذى يبطل أو ينسخ، وعليه فإن مثل هذا الكتاب سيكون خالداً وأبدياً، وهذا بنفسه دليل على خاتمية الدين الذى يعود له هذا الكتاب، كما هو دليل على عدم تحريف القرآن أيضاً.

وقد يقال: إنَّ (الباطل) فى اللغة لا يعنى (المبطل) إذن كيف فسرتم الآية بهذا الشكل؟

فنقول: علاوة على أن الكثير من المفسرين ذكروا أن أحد معانى الباطل هنا هو المبطل «١» فأصوفاً عندما يقول (لا يأتية الباطل) فإن مفهومها أن الباطل لا يمكنه أن يعيقه أو يعطله خصوصاً وأنه قال قبلها: (وأنه لكتاب عزيز) التى تدل على بقائه وثباته.

وفى الآية التالية يقول: «تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا».

ولفظه (عالمين) التى تشمل كل سكان العالم بالرغم من عدم تقيدها بأى قيد فهى تعم أبناء كل الأعصار حتى نهاية الدنيا.

وهى ليست غير محدودة من ناحية المكان فحسب، بل وحتى من ناحية الزمان أيضاً، وتشمل حتى الآتين، ولهذا السبب اعتبرها الكثير من المفسرين دليلاً على عالمية الدين الإسلامى أولاً وعلى خلوده ثانياً «٢».

والنقطة الملفتة للنظر أيضاً أن كلمة (عالمين) اخذت من مادة (علم) التى تشمل كل

(١) مثل المرحوم الشيخ الطوسى فى تفسير البيان؛ والطبرسى فى تفسير مجمع البيان؛ والعلامة الطباطبائى فى تفسير الميزان؛ والآلوسى فى تفسير روح المعانى وكذلك بعض المفسرين الآخرين (ذيل الآية مورد البحث).

(٢) تفسير الكبير، ج ٢٤، ص ٤٥؛ وتفسير القرطبي، ج ٧، ص ٤٧١٨؛ وتفسير روح البيان، ج ٦، ص ١٨٨.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٣١٣

الموجودات التى يحتويها علم الإنسان وحتى السماوات والأرض، ولكن بمراعاة كلمة الانذار التى وردت فى الآية فإن مفهومها يكون هنا محصوراً بالمكلفين فى العالم.

على أية حال، يكون الاستدلال على الآية الثالثة بنفس الطريقة أيضاً، لأن الرسول صلى الله عليه وآله يقول وفق هذه الآية: «وَأَوْحَىٰ إِلَيْنَا هَذَا الْقُرْآنَ لِنُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ».

فسعته مفهوم (ومن بلغ) غير خافٍ على أحد ويكون شاملاً لكل بنى الإنسان إلى نهاية العالم، وهو دليل على عالمية الإسلام وديمومته وخلوده.

ويصرح (الطبرسى) رحمه الله فى مجمع البيان- ذيل الآية المذكورة- بأن (من بلغه القرآن إلى يوم القيامة) مشمولون بهذه الآية «١».

وكذلك الكثير من المفسرين القدماء والمحدثين بينوا صراحة فى ذيل هذه الآية أنها دلالة على مسألة (الخاتمية) ومن جملة هؤلاء (أبو الفتوح الرازى) من علماء القرن الثالث للهجرة وصاحب تفسير (روح البيان) والعلامة الطباطبائى فى (الميزان) وغيرهم.

ودلالة الآيات (٤ و ٥ و ٦ و ٧) مورد البحث تكون أيضاً بنفس الطريق لأن تعبير (كافه للناس) الذى جاء فى الآية الرابعة يشمل عموم الناس. وفى الآية الخامسة «إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ» والآية السادسة أيضاً استندت إلى العالمين الذى هو مفهوم واسع من جهة الزمان والمكان.

ومجموع هذه الآيات يمكن أن يكون تأييداً وتأكيذاً آخر على مسألة (خاتمية نبي الإسلام صلى الله عليه وآله) و (خلود القرآن).

وذكر بعض من الكتاب والمؤلفين آيات اخرى بهذا الصدد صرفنا النظر عن ذكرها لأن دلالتها غير كافية كما يبدو للنظر.

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٣ و ٤، ص ٢٨٢.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٣١٤

الخاتمية في الروايات الإسلامية:

كما اشير من قبل إلى أن الاعتقاد بخلود الإسلام وديمويته من الامور التي اتفق عليها كل العلماء والمفكرين المسلمين، بل وتعتبر من ضروريات هذا الدين ومصدر هذه العقيدة- وبالإضافة إلى الآيات القرآنية- هناك روايات لا تحصى وصلتنا عن النبي صلى الله عليه و آله وبقية الأنمة المعصومين عليهم السلام بما يشكل مجموعها كتاباً كاملاً، وسنشير إلى قسم منها في هذا الملخص كنموذج.

١- الروايات العديدة حول ختم سلسلة الأنبياء والتي جاءت على لسان النبي صلى الله عليه و آله وهذه الروايات بذاتها تشكل باباً واسعاً جداً، ومن جملة الأحاديث في هذا الباب الروايات التالية:

(أ) في الحديث المشهور الذي نقلته الكثير من مصادر الحديث والتفاسير عن النبي صلى الله عليه و آله والذي يقول فيه: «مثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأتمها وأكملها إلاموضع لبنه فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها ويقولون: لولا موضع اللبنة، قال رسول الله صلى الله عليه و آله فأنا موضع اللبنة جئت فختمت الأنبياء» (١). ونقل نفس الحديث بطريق آخر جاء في آخره: «فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين» (٢). ونفس المعنى نقل بطرق متعددة (٣).

وفي تفسير (مجمع البيان) جاء هذا الحديث بهذه الصورة: يقول: نقل في حديث صحيح عن جابر بن عبد الله الأنصاري عن النبي صلى الله عليه و آله أنه قال: «إنما مثل في الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأكملها وحسنها إلاموضع لبنه، فكان من دخلها فنظر إليها قال: ما أحسنها إلاموضع هذه اللبنة، قال صلى الله عليه و آله: فأنا موضع اللبنة ختم بي الأنبياء» ثم يقول: هذا الحديث نقل في

(١) صحيح مسلم، ج ٤، ص ١٧٩١.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٣١٥

(صحيح البخاري) و (صحيح مسلم) (١).

وجاء أيضاً في مسند (أحمد بن حنبل) و (الترمذي) و (النسائي) وكثير من كتب الحديث والتفاسير الاخرى وهو من الأحاديث المعروفة جداً والمشهورة.

والعلامة الطباطبائي بعد أن يذكر هذا الحديث يقول: «نفس هذا المعنى نقله أيضاً غير البخاري ومسلم مثل: الترمذي والنسائي وأحمد وابن مردويه عن غير جابر» (٢).

(ب) وجاء في (نهج البلاغة) أيضاً التصريح بمسألة خاتمية نبي الإسلام صلى الله عليه و آله في خطب متعددة. ونقرأ في الخطبة ١٧٣: «أمين وحيه وخاتم رسله».

وفي الخطبة ١٣٣: «ختم به الوحي».

وفي الخطبة ٧٢ بعد أن يصلي على عليه السلام ويسلم على النبي صلى الله عليه و آله يصفه هكذا: «الخاتم لما سبق والفتاح لما انغلق». وفي الخطبة ٨٧ يخاطب الناس قائلاً: «أيها الناس خذوها عن خاتم النبيين...».

ويقول في الخطبة الاولى من نهج البلاغة: «بعث الله سبحانه محمداً صلى الله عليه و آله لانجاز عدته و اتمام نبوته».

والمثير للاهتمام أنه عند التدقيق الواسع الذي جرى على ١١٠ أجزاء من كتاب (بحار الأنوار) بواسطة أجهزة الكمبيوتر تبين أن كلمة (خاتم النبيين) أو (خاتم الرسل) و (خاتم الأنبياء) وردت في أكثر من ٣٠٠ موضع من الكتاب (من الجزء الثاني وحتى الجزء ١١٠) والقسم الأعظم منها في روايات الأئمة المعصومين عليهم السلام والقليل منها في تفاسير العلماء المجلسي وأمثاله. وتبين بوضوح ما تحظى به مسألة ختم النبوة بنبي الإسلام صلى الله عليه وآله في أوساط المسلمين في كل عصر وزمان من شهرة وشيوع واسعين (٣).

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٧ و ٨، ص ٣٦٢.

(٢) تفسير الميزان، ج ١٦، ص ٣٢٧. ذيل الآية مورد البحث.

(٣) نتقدم بالشكر إلى المركز الكمبيوترية للحوزة العلمية في قم الذي قدم هذه الموارد التي جاءت في ٢٣ صفحة من الحجم الكبير إلى مركز تفسير رسالة القرآن.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٣١٦

وجاء في كتب أهل السنة كرارا لفظ (خاتم النبيين) و (خاتم الأنبياء) (١).

ج) حديث (المنزلة) المعروف - الذي ورد في الكثير من كتب الشيعة وأهل السنة المعروفة بخصوص على عليه السلام ويعتبر من أشهر الأحاديث النبوية المتواترة - دليل واضح على هذا المعنى. لأن النبي صلى الله عليه وآله كان يريد التوجه مع جيشه إلى (معركة تبوك) فخلف مكانه في المدينة علياً عليه السلام وقال له: «أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي» (٢).

والنقطة المثيرة للاهتمام أيضاً هي أن هذه الجملة لم يقلها النبي صلى الله عليه وآله في واقعة (معركة تبوك) فقط، بل وصرح بها في مواضع أخرى أيضاً، وعلى الأقل أنها سمعت منه صلى الله عليه وآله ست مرات في غير (غزوة تبوك):

أولاً: في يوم (المؤاخاة الأولى).

ثانياً: في يوم (المؤاخاة الثانية).

ثالثاً: أثناء تعزية النبي صلى الله عليه وآله ل (ام سليم) عندما استشهد أبوها وأخوها.

رابعاً: في الحديث الذي ينقله (ابن عباس) عن (عمر) بهذا الخصوص.

خامساً: في الحديث الذي جرى أثناء المنازعة على كفالة بنت (حمزة سيد الشهداء).

سادساً: في الحديث الذي ورد عن سد الأبواب التي على المسجد إلاباب بيت على عليه السلام وبيت النبي صلى الله عليه وآله (٣).

وهذا الحديث يثبت بوضوح أن ما من نبي سيأتي بعد نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وأن هذه المسألة اعتبرت جزءاً من الواضحات منذ نفس عصر ظهور النبي الإسلام صلى الله عليه وآله.

د) ورد في أحاديث متعددة أن الأحكام الإسلامية باقية وقائمة إلى نهاية العالم. وهذا

(١) يراجع المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي مادة، (ختم).

(٢) المملفت أن هذا الحديث نقل عن ١٧٠ طريقاً - مائة منها عن طرق أهل السنة وسبعون طريقاً من طرق أهل البيت عليهم السلام - ومن جملة الكتب التي نقل فيها هذا الحديث: صحيح مسلم؛ صحيح البخاري؛ سنن ابن ماجه؛ مستدرک الحاكم؛ مسند أحمد بن حنبل؛ ذخائر العقبى؛ الصواعق المحرقة؛ كنز العمال؛ ينابيع المودة وغيرها. (للاستيضاح أكثر ارجعوا إلى «المراجعات» المراجعة ٢٨).

(٣) للاطلاع أكثر ارجعوا إلى (تفسير نمونة «فارسي») ذيل الآية ٤٢ من سورة الأعراف والمراجعات (المراجعة ٣٢).

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٣١٧

الأمر لا يستقيم إلاب (خاتمية نبي الإسلام صلى الله عليه وآله لأن مجيء نبي جديد آخر سينسخ قسماً من أحكام النبي الذي سبقه

على الأقل.

ومن جملتها نقرأ في اصول الكافي: «حلال محمد حلالاً أبداً إلى يوم القيامة وحرامه حراماً أبداً إلى يوم القيامة. لا يكون غيره ولا يجيء غيره» (١).

وجاء نفس المعنى في مكان آخر إذ يقول الإمام الصادق عليه السلام بعد أن ذكر الأنبياء: «حتى جاء محمد صلى الله عليه وآله ف جاء بالقرآن وبشريعته ومنهاجه، فحلاله حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة» (٢).

ثم إنه يتضح من هذا الخبر المشهور أنه ليس النبي صلى الله عليه وآله (خاتم الأنبياء) فحسب، بل وأن دينه ومجموع تعاليمه وأحكامه خالدة وأبدية ولا تتعرض لأي تغيير، وأن أولئك الذين يتصورون - بقبولهم مسألة الخاتمية - أنهم يستطيعون بأفكارهم إيجاد تغييرات في تعاليم الإسلام وأحكامه مخطئون جداً، لأن الأحاديث آنفة الذكر تقول إن خلود نبوته ملازماً لخلود تعاليمه وأحكامه.

ونقل (العلامة المجلسي) رحمه الله هذا الحديث أيضاً في الكثير من مجلدات بحار الأنوار (٣).

ه) في آخر خطبة (حجة الوداع) الشهيرة وهي نفس الخطبة التي بينها النبي صلى الله عليه وآله للناس بعنوان وصيته الجامعة في آخر حجة وآخر سنة من عمره الشريف جاءت مسألة (الخاتمية) صريحة.

إذ يقول: «ألا فليبلغ شاهدكم غائبكم لا نبي بعدي ولا أمية بعدكم» ثم رفع يديه المباركتين إلى السماء - بعد أن انتهى من تبين كل وصاياه - حتى بان يياض أبطيه وقال:

«اللهم اشهد أنني قد بلغت» (٤).

(١) اصول الكافي، ج ١، ص ٥٨، ح ١٩.

(٢) اصول الكافي، ج ٢، ص ١٧، ح ٢.

(٣) بحار الأنوار، ج ٢، ص ٢٦٠، ح ١٧.

(٤) بحار الأنوار، ج ٢١، ص ٣٨١ نقلًا عن الخصال ج ٢، ص ٨٤.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٣١٨

و) وجاء في حديث معروف اخر عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «إن الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدي ولا نبي» (١). وهذا الحديث بالخصوص ملفت للنظر من جهة أنه اغلق الطريق أمام مختلقى الذرائع الذين يقولون: إنه (خاتم الأنبياء) وليس (خاتم الرسل).

ز) نهى هذه الروايات بحديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله فقد جاء في كتاب (اسد الغابة):

«أن (العباس بن عبد المطلب) عم النبي كان يطلب منه صلى الله عليه وآله أن يأذن له بالهجرة من مكة إلى المدينة حتى يلحق به (حسب بعض الروايات أن العباس كان من المؤمنين الذين يكتمون إيمانهم وبقي في مكة باذن من النبي صلى الله عليه وآله يكتب له أخبار المشركين ويلجأ إليه المسلمون، وعندما قويت شوكة الإسلام طلب العباس من النبي صلى الله عليه وآله أن يأذن له بالهجرة، ولكن النبي صلى الله عليه وآله قال له: «لا تعجل بهذا الأمر»، ومتن هذه الرواية يشير إلى هذا الأمر:

«يا عم أقم مكانك الذي أنت به فإن الله تعالى يختم بك الهجرة كما ختم بي النبوة».

ثم جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله في المدينة قبل (فتح مكة) وهاجر ورافقه في فتح مكة، وبفتح مكة انتهت الهجرة - لأن هذه المدينة أصبحت بعد فتح مكة دار إسلام وليس دار كفر يهاجر منها إلى المدينة» (٢).

وبناءً على ذلك كان (العباس) هو آخر من هاجر من مكة إلى المدينة إذ بعده فتحت مكة وانتهت الهجرة. وكتب البعض أن (العباس) الذي كان في طريق هجرته إلى المدينة مع زوجته وأبنائه التقى بالنبي صلى الله عليه وآله في أحد المنازل وسط الطريق عندما كان

صلى الله عليه وآله في طريقه ل (فتح مكة) فانضم إليه وقال له صلى الله عليه وآله: «وهجرتك آخر الهجرة كما أن نبوتى آخر النبوة» (٣).

ويبلغ مجموع الأحاديث التي ذكرت تحت هذه العناوين السبعة التي ذكرنا الآف الأحاديث التي تدل بوضوح كلها على أن مسألة خاتمية نبي الإسلام صلى الله عليه وآله كانت منذ البداية

(١) سنن الترمذى، ج ٣، ص ٣٦٤.

(٢) اسد الغابة، ج ٣، ص ١١٠.

(٣) عيون الاخبار لابن قتيبة، ج ١، ص ٥.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٣١٩

من المسائل الواضحة والبدئية.

والنقطة الملفتة للنظر أيضاً أن كل واحد من الأئمة المعصومين الأربعة عشرة عليهم السلام وصلنا عنه حديث أو أحاديث عن (الخاتمية) (١).

والبعض من الكتاب قسموا هذه الأحاديث إلى عشرين قسماً (٢).

توضيحات

١- هل أن السير التكاملي للإنسان ينسجم مع مسألة الخاتمية؟

أول سؤال يمكن أن يطرح في هذا البحث هو: هل يمكن للمجتمع الإنساني أن يتوقف؟ أو هل ل (السير التكاملي للبشر) حدٌ وحدود؟ أولاً نرى بأعيننا أن الناس هم اليوم في مرحلة أعلى من العلم والمعرفة والثقافة نسبة إلى السابق؟

إذن بهذه الحالة كيف تختم النبوات بالكلية ويحرم الإنسان في سيره التكاملي هذا من الأنبياء الجدد؟
الجواب:

إن الإجابة عن هذا السؤال تتضح بالالتفات إلى نقطة واحدة وهي أن الإنسان أحياناً يصل إلى مرحلة من النبوغ الفكري والثقافي تمكنه من مواصلة سيره بالاستفادة المستمرة من الاصول والتعاليم التي وضعها باختياره النبي الخاتم بشكل جامع بدون أن يحتاج إلى شريعة جديدة.

وهذا بالضبط ما يشبه إنساناً يحتاج في كل مرحلة من المراحل الدراسية المختلفة إلى معلم ومُربٍّ جديد حتى ينهي المراحل الأخرى أما عندما يصل إلى مرحلة (الدكتوراه) أو (الاجتهاد) ويصبح صاحب رأى في علم أو علوم متعددة، ينقطع عن ادامة تحصيلاته عند

(١) للاطلاع أكثر راجعوا كتاب الخاتمية من وجهة نظر القرآن والحديث والعقل.

(٢) للاطلاع أكثر راجعوا كتاب خاتمية آخر الأنبياء صلى الله عليه وآله من ص ٣٩ إلى ص ٤١.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٣٢٠

استاذ جديد، ويكتفى بالاعتماد على ماتعلمه من اساتذته القدامى وخصوصاً الاستاذ الأخير وينشغل بالبحث والتحقيق والمطالعة والتدقيق ويواصل مسيره التكاملي.

وبتعبير آخر صار يضع الحلول للمشاكل التي تعترض طريقه اعتماداً على تلك الاصول الكلية وما حصل عليه من آخر اساتذته، وبناء على ذلك فلا حاجة لأن يظهر دائماً للوجود دين وتعاليم جديدة بمرور الزمان (تأملوا).

أو بعبارة أخرى إن الأنبياء السابقين - ومن اجل أن يتمكن الإنسان من متابعة سيره نحو التكامل في هذا الطريق المليء بالمنعطفات والصعود والانحدار وضع - كل واحد منهم على حدة - تحت تصرفه جزءاً من خارطة هذا المسير حتى أصبح مؤهلاً لأن يتلقى خارطة المسير عامة وجامعة وكاملة والتي وضعها الله تعالى من خلال آخر الأنبياء..

ومن البديهي إذا تلقى الخارطة الكاملة والجامعة فسوف لن يحتاج إلى خارطة أخرى وهذا في الحقيقة بيان لنفس التعبير الذي ورد في أحاديث (الخاتمية) واعتبرت فيه نبي الإسلام صلى الله عليه وآله هو آخر لنبه أو واضح آخر لنبه في بناء ذلك القصر الجميل والمتين للرسالة.

كل ما ذكرنا له علاقة بعدم الحاجة إلى دين أو تعاليم جديدة، أما مسألة القيادة والامامة التي هي نفس الاشراف الكلي على تطبيق هذه الاصول والقوانين وإعانة المتخلفين عن المسيرة فهي مسألة أخرى لا يستغنى عنها الإنسان في أي وقت من الأوقات، ولهذا السبب فإن اتمام سلسلة النبوة لا تعني مطلقاً اتمام سلسلة الإمامة، لأن تبيين وتوضيح تلك الاصول والتحقق الخارجي لها غير ممكنة بدون الاستفادة من وجود قائد إلهي معصوم.

٢- هل أن القوانين الثابتة تتماشى مع احتياجات الإنسان المتغيرة؟

فيما عدا مسألة السير التكاملي للبشر التي طرحت في السؤال الأول هناك سؤال آخر وهو: إننا نعلم أن مقتضيات الزمان والمكان مختلفة من وقت لآخر، أو بتعبير آخر أن الإنسان دائماً في حالة تغيير، في حين أن شريعة خاتم الأنبياء لها قوانين ثابتة، فهل نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٣٢١

باستطاعة هذه (القوانين الثابتة) تلبية احتياجات (الإنسان المتغيرة) على طول الزمن...؟
يمكن الاجابة عن هذا السؤال أيضاً بالالتفات إلى النقطة التالية:

إذا كان لكل القوانين الإسلامية صفة (الجزئية) وتعين لكل موضوع حكماً محدداً وجزئياً فإن هذا السؤال يكون في محله، أما إذا عرفنا أن في التعاليم الإسلامية توجد سلسلة من (الاصول العامة) الواسعة جداً والتي بإمكانها مساندة الاحتياجات المتغيرة وتلبيتها فلا يبقى أي مجال لمثل هذا الإشكال.

مثلاً: بمرور الزمان تظهر سلسلة من المعاهدات والعقود والاتفاقيات الجديدة والعلاقات الحقوقية بين الناس لم تكن موجودة في عصر نزول القرآن أبداً، كما هو الحال في ما يسمى اليوم ب (التأمين) ففي ذلك الزمان لا يوجد بتاتاً شيء يسمى (التأمين) وفروعه المتعددة، «١» أو أنواع الشركات في عصرنا وزماننا هذا والتي تظهر للوجود حسب مقتضيات الوقت الحاضر، ولكن مع هذا فإن لدينا في الإسلام قانوناً عاماً جاء في بداية سورة المائدة عنوانه (وجوب الوفاء بالعهد والعقد) يقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ». وكل تلك المعاهدات والعقود يمكن وضعها تحت غطاء ذلك القانون.

وطبعاً جاءت قيود وشروط بصورة عامة أيضاً على هذا الأصل الكلي في الإسلام يجب مراعاتها.

وبناءً على هذا فإن (القانون العام) ثابت وإن كانت مصاديقه في حالة تغيير، وكل يوم يمكن أن يظهر مصداق جديد.

والمثال الآخر: إن لدينا في الإسلام قانوناً بديهيّاً باسم (قانون لا ضرر) الذي يمكن بواسطته الحد من كل حكم يشكل ضرراً على المجتمع الإسلامي، وعن طريق هذا القانون تسد الكثير من احتياجاته.

وبغض النظر عن هذا فإن مسألة (لزوم حفظ نظام المجتمع) و (وجوب تقديم الواجب)

(١) طبعاً توجد في الإسلام موضوعات شبيهة بالتأمين وفي حدود خاصة مثل مسألة (ضمان الجريرة) ولكن كما قلنا إنها شبيهة بهذه القضية فقط.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٣٢٢

ومسألة (تقديم الأهم على المهم) يمكنها في مجالات واسعة جداً أن تكون حلاله للمشاكل.

بالإضافة إلى كل ماورد فإنّ الصلاحيات الممنوحة للحكومة الإسلامية عن طريق (ولاية الفقيه) تعطيتها إمكانيات واسعة لحل المشكلات في إطار الاصول الكلية للإسلام.

وطبعاً أن بيان كل واحد من هذه الامور بالخصوص عند الالتفات إلى فتح باب الاجتهاد (الاجتهاد معناه استنباط الأحكام الإلهية من المصادر الإسلامية) يحتاج إلى تحقيق كثير يبعثنا القيام به عن هدفنا، ولكن مع هذا فإنّ ما أوردناه هنا إشارة بإمكانها أن تشكل اجابة عن الاشكال آنف الذكر.

٣- هل يجب حرمان الإنسان من فيض الارتباط بعالم الغيب؟

السؤال الاخر هو: إنّ (نزول الوحي) والارتباط مع عالم الغيب وما وراء الطبيعة إضافة إلى كونه هبة ومبعث افتخار لعالم البشرية، يعد نافذة أمل لكل المؤمنين الصادقين، إذن لا يعتبر قطع طريق الارتباط هذا وغلق نافذة الأمل هذه حرماناً عظيماً للإنسان الذي عاش بعد وفاة النبي الخاتم؟

والجواب عن هذا السؤال يتضح أيضاً بالالتفات إلى مايلي:

أولاً: إنّ الوحي والارتباط مع عالم الغيب هو وسيلة لإدراك الحقائق، وعندما يقال كل مايراد قوله وتتضح كل الاحتياجات إلى يوم القيامة في الاصول الكلية والتعليمات الجامعة للنبي الخاتم، فإنّ قطع هذا الارتباط لا يسبب أى مشكلة.

ثانياً: إنّ الذي قُطِع للأبد بعد ختم النبوة هو (الوحي لشريعته الجديدة أو لتكميل شريعته سابقة)، وليس كل نوع من الارتباط بما وراء عالم الطبيعة، لأنّ الإثنية عليهم السلام لهم ارتباط بعالم الغيب وكذلك المؤمنين الصادقين الذين ينالون مقام (الكشف) و (الشهود) على أثر ازاحتهم للحجب عن قلوبهم بعد تهذيب نفوسهم.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٣٢٣

يقول الفيلسوف المعروف (صدر المتألهين الشيرازي) في كتاب (مفاتيح الغيب): « (الوحي) يعنى نزول الملك بقصد مهمّة النبوة حتى وإن كانت منقطعة لأنه بحكم «أكملت لكم دينكم» كان ما يجب أن يصل إلى نوع البشر عن هذا الطريق قد وصل، أما باب الالهام والاشراق فلم يغلق ولن يغلق أبداً ولا يمكن أن يغلق هذا الطريق «١».

واصوفاً أنّ هذا الارتباط نتيجة لارتقاء النفس وتنقية الروح وصفاء الباطن ولا علاقة له بمسألة الرسالة والنبوة.

وبناء على هذا ففي أى زمان تحصل مقدماته وشروطه فسوف تتم هذه الرابطة المعنوية ولم يحرم نوع البشر أبداً من هذا الفيض الإلهي العظيم ولن يحرم.

٤- هل تنسجم هذه الآيات مع مسألة الخاتمية؟

إنّ مجموعة من مبتدعي الأديان في عصرنا، من أجل أن يعبدوا الطريق أمام مدعياتهم حول النبوة، لم يجدوا أى حل أمامهم سوى التوجه لمسألة (الخاتمية) التي هي من بديهيات وضروريات الدين الإسلامي ووضعها تحت الاستفهام. وكما هو اسلوب أصحاب القلوب المريضة تناولوا بعض الآيات القرآنية التي وجدوها قابلة للتحريف والانسجام مع مقاصدهم وتشبثوا بها لنفي (الخاتمية)، وكان

البعض منها غريباً عن مسألة الخاتمية إلى حد لا تستحق حتى طرحها، ونذكر هنا قسمين فقط من تلك التي يمكن طرحها إلى حد ما والتي استندوا إليها أكثر:

١- يقولون: إن الآيات لا تنفي إمكانية ظهور أنبياء آخرين. لأنها تقول: «يَا بَنِي آدَمَ اٰمَّا يٰٓأَتَيْنٰكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يٰقُصُّوْنَ عَلَيْكُمْ آيٰتِي فَمَنْ اٰتَقَىٰ وَاَصْلَحْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُوْنَ». (الأعراف / ٣٥)
إنهم يقولون: بالالتفات إلى أن جملتي (يأتينكم) و (يقصون عليكم) هما فعلان

(١) مفاتيح الغيب، ص ١٣.

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٣٢٤

مضارعان، إذن فإن الآية تدل على إمكانية بعث أنبياء آخرين في المستقبل، وفي هذه الحالة يكون اتباعهم واجباً. أما إذا التفتنا إلى نقطة واحدة سيكون الجواب عن هذا الكلام واضحاً، وهي: إذا عدنا إلى ما قبل هذه الآيات ودققنا فيها من ١١ إلى ٣٤ من تلك السورة سنرى أن كل هذه المباحث هي حول (خلق آدم) من تراب ثم إصدار الأوامر للملائكة بالسجود لآدم، ثم اسكانه في الجنة وطرده وزوجته منها لتركهم الأولى، ثم هبوطهم إلى الأرض وأوامر الله لعموم بني آدم عليه السلام. وبعبارة أخرى أن المخاطب في هذه الآيات ليس المسلمين فحسب. بل شرائح المجتمع الإنساني كافة وكل أبناء آدم ولا شك، فقد جاء لبني آدم أنبياء ورسول كثيرين ذكرت أسماء بعضهم في القرآن الكريم وسجلت كتب التواريخ أسماء البعض الآخر. ولكن هؤلاء الذين أرادوا الانتفاع من هذه الآية أنكروا الخاتمية من أجل مقاصدهم ومهدوا السبيل أمام مدعى النبوة الكاذبين. وقطعوا تماماً ارتباط الآية بماضيها وصورها على أنها خطاب للمسلمين وخرجوا بنتيجة تقول: إن على المسلمين أن ينتظروا ظهور نبي جديد. والملفت للنظر هو أن خطاب (يابني آدم) تكرر عدة مرات قبل هذه الآية في نفس سلسلة الآيات، في الآيات ٢٦ و ٢٧ و ٣١، فالآية ٢٦ تأتي مباشرة بعد قصة هبوط آدم عليه السلام إلى الأرض والآية ٢٧ تأتي بعدها ثم جاءت الآية ٣١، وفي المرحلة الرابعة تأتي الآية مورد البحث.

والمثير أيضاً أن خطاب (يابني آدم) غير موجود في أي خطاب من القرآن إلّا في هذه الآيات الأربع، ويكون الخطاب للمسلمين عادة ب «يا أيها الذين آمنوا» الذي جاء على نفس الصورة في أكثر من ثمانين موضعاً من القرآن، وأحياناً جاء خطاب أكثر عمومية هو: «يا أيها الناس».

والشاهد الآخر على هذا المدعى الآية التي نقرأ فيها نفس المضمون بعد مسألة هبوط

نفحات القرآن، ج ٨، ص: ٣٢٥

آدم عليه السلام إلى الأرض. تقول: «قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ». (البقرة / ٣٨)

ومعنى اتيان (الهدى هنا هو نفس معنى (اتيان الرسل).

وجاء المضمون نفسه في الآية ١٢٣ من سورة طه، وما يلفت النظر بالخصوص فيها هو أن المخاطب في البداية (آدم) و (حواء) وجملة (اهبطا) جاءت بصورة التثنية- ولكن في جملة «إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى» فالمخاطب جمع يشمل بني آدم بلا شك، لأن الشيطان لاحظ له من الهداية الإلهية مطلقاً، وبناءً عليه لا يمكن أن يكون ضمن المخاطبين في هذه المجموعة، لأنه بعد الخطاب يقول: «وَأَنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ». (ص / ٧٨)

أي الذي صدر عقب عناده الشديد حيث لم يبق أي أمل بهدايته، ومعلوم أن آدم وحواء شخصان، إذن فالمخاطب هما وبنوهما. وهنا نصل إلى ختام الجزء الثامن من تفسير (نفحات القرآن)- مجموعة بحوث النبوة الخاصة- والحمد لله رب العالمين.

إلهي! نور قلوبنا دائماً بنور القرآن وسنة النبي صلى الله عليه وآله وأبنائه المعصومين عليهم السلام.
 إلهي! مَنْ علينا بتوفيق إصلاح أنفسنا في ظل هذه التعليمات المنجية.
 ربنا! أرح من دربنا العقبات واهدنا إلى ما يوجب رضاك.

الجزء التاسع

الولاية والإمامة

إشارة

١- الولاية والإمامة العامة في القرآن الكريم

٢- الولاية والإمامة العامة في السنة النبوية الشريفة

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٦

الولاية والإمامة

تمهيد:

إشارة

إنّ «الولاية» و «القيادة» بشكل عام، «الإمامة» بشكل خاص - والتي تعنى - خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله، هي من أهم الابحاث العقائدية والتفسيرية والروائية في تاريخ الإسلام، ولم يجر الحديث بشأن اى قضية بالقدر الذي جرى بشأن الأمامة على مدى التاريخ الإسلامي.

ومن المؤسف حقاً خروج هذه المسألة عن نطاق الكلام والبحث والاستدلال ودخولها ميادين الصراع والحروب الدموية، وكما يقول بعض المتكلمين:

«ما سلّ في الإسلام سيف كما سلّ في الإمامة».

ومن هنا فقد تكامل هذا الجانب من العقائد الإسلامية أكثر من غيره، وألّفت حوله المزيد من الكتب، وجرى تحقيق كافة جوانبه بالنسبة للذين يريدون دراسته بدقة وتفحص، وإن كان البعض من هذه البحوث غير منطقي ويدعو إلى التفرقة والتعصب.

أما واجبنا نحن في مثل هذه المسألة المهمّة والحساسة والواسعة فيتلخص في مايلي:

١- عزل البحوث المنطقية والاصولية عن غير المنطقية، والبحوث الاستدلالية والمحقة عن البحوث المليئة بالتعصب، والاستناد إلى الكتاب والسنة، والبرهان والعقل، ومن ثم تنظيمها.

٢- مطابقة المسائل المتعلقة «بالإمامة» مع «الولاية والقيادة» والتي هي من تفرعات الولاية الإلهية للمعصومين عليهم السلام.

٣- بالنظر إلى أنّ هدفنا الحقيقي في هذا البحث التفسيري هو ايضاح هذه المسألة من وجهة النظر القرآنية، فيتحم علينا التمعن والتفسير الدقيق للآيات المتعلقة بالإمامة.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٧

وكما يقول بعض الباحثين: «إن قضية الإمامة لا تخص ماضينا، فحسب فهي قضية العالم الإسلامي المعاصر وقضية الأمة، فهي عامل بقاء واستمرار النبوة وقضية الإسلام المصيرية» «١».

وبالطبع، فإننا نتناول بالبحث أولاً مسألة القيادة في عالم الوجود ككل، ثم في عالم البشرية، ومن ثم نتطرق إلى قيادة الأئمة المعصومين عليهم السلام، وفي خاتمة المطاف نتعرض إلى مسألة حكمه وقيادة نوابهم، ولكن يبدو من الضروري ذكر بعض الامور:

١- ماهى الإمامة؟

فيما يتعلق بتعريف الإمامة هنالك اختلاف كثير في وجهات النظر، ولا بد من وجود هذا الاختلاف، فالإمامة في نظر طائفة الشيعة واتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام من اصول الدين والاسس العقائدية، بينما تعتبر في نظر طائفة اخرى «أهل السنة» من فروع الدين والأحكام العملية.

فمن البديهي أن لا تتشابه نظرة الطائفتين إلى مسألة الإمامة، وأن لا يكون لهما تعريف واحد لها. من هنا نرى أحد علماء السنة يعرّف الإمامة هكذا: «الإمامة رئاسة عامة في امور الدين والدنيا، خلافة عن النبي صلى الله عليه وآله» (٢).

واستناداً إلى هذا التعريف، فالإمامة مسؤولية ظاهرية في حدود رئاسة الحكومة، وغاية الأمر أن الحكومة تتأطر بإطار ديني، واتخذت طابع خلافة النبي صلى الله عليه وآله «الخلافة والنيابة في أمر الحكومة»، وبطبيعة الحال يمكن انتخاب مثل هذا الإمام من قبل الناس. واعتبر البعض أن الإمامة تعنى: «خلافة شخص للنبي صلى الله عليه وآله في إقامة الأحكام الشرعية»

(١) الإمامة والقيادة، تأليف آية الله الشهيد المطهرى، ص ١٣.

(٢) شرح التجريد للقوشجى، ص ٤٧٢

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٨

وحراسة الدين بنحو تكون اطاعته واجبة على جميع الأمة» (١).

وهذا التعريف لا يختلف عن التعريف الأول نوعاً ما، لأنه يحتوى على نفس المفهوم والمضمون.

كما أن ابن خلدون قد سار على نفس هذا المعنى في مقدمته تاريخه المعروف «٢».

ويقول المرحوم الشيخ المفيد في «أوائل المقالات» في بحث العصمة ما يلى: «إن الأئمة القائمين مقام الأنبياء فى تنفيذ الأحكام، وإقامة الحدود، وحفظ الشرائع، وتأديب الأنام معصومون كعصمة الأنبياء» (٣).

فطبقاً لهذا التعريف الذى يجرى ما يعتقد به اتباع أهل البيت عليهم السلام أن الإمامة أعلى مرتبة وأشمل من الزعامة والحكومة على الناس، بل إن جميع مسؤولية الأنبياء «سوى استلام الوحي وما شابهه» ثابتة للأئمة، من هنا فشرط العصمة المتوفر فى الأنبياء متوفر فى الأئمة أيضاً.

لهذا فقد جرى تعريف الإمامة فى نظر الشيعة كما ورد فى كتاب شرح احقاق الحق كما يلى: «هى منصب إلهى حائر لجميع الشؤون الكريمة والفضائل إلّا النبوة وما يلزم تلك المرتبة السامية» (٤).

وبناءً على هذا التعريف، فالإمام ينصب من قبل الله تعالى عن طريق النبي صلى الله عليه وآله، ويمتلك نفس الفضائل والخصائص التى يمتلكها النبي صلى الله عليه وآله «عدا النبوة»، ولا ينحصر عمله فى الحكومة الدينية فقط.

لهذا يعتبر الإيمان بالإمامة جزءاً من اصول الدين لا من فروع الدين.

(١) الشرح القديم للتجريد لشمس الدين الاصفهاني نقلًا عن توضيح المراد، تعليقه على شرح تجريد الاعتقاد للسيد هاشم الحسيني

الطهراني، ص ٦٧٢.

(٢) مقدمة ابن خلدون، ص ١٩١.

(٣) أوائل المقالات، ص ٧٤.

(٤) احقاق الحق، ج ٢، ص ٣٠٠ (الهامش الأول).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٩

٢- هل الإمامة من الاصول أم من الفروع؟

يتبين جواب هذا السؤال ممّا قيل في البحث السابق، لأنّ الآراء مختلفه في مسألة الإمامة، يقول «الفضل بن رزبهان» صاحب «نهج الحق» الذي يعتبر «احقاق الحق» رداً عليه، مايلي: «إنّ مبحث الإمامة عند الأشاعرة ليس من اصول الديانات والعقائد بل هي عند الأشاعرة من الفروع المتعلقة بأفعال المكلفين» (١).

كما أنّ سائر مذاهب أهل السنّة لا يختلفون مع الأشاعرة في ذلك، لأنّهم يعتبرونها من التكاليف العمليّة الموكولة إلى الناس، في حين أنّ الشيعة واتباع أهل البيت عليهم السلام ونفر قليل من أهل السنّة كالقاضي البيضاوي وبعض من اتباعه يعتبرونها من اصول الدين (٢).

والدليل هو أنّهم يعدون الإمامة منصباً إلهياً يجب أن يعين من قبل الله تعالى وأحد شروطها العصمة التي لا يعلمها إلّا الله، والإيمان بالائمة واجب كالإيمان بالنبي صلى الله عليه وآله الباني الأول لقواعد الشريعة، إلّا أنّ هذا لا يعني أنّ الشيعة يعتبرون المخالفين لهم في قضية الإمامة كافرين، بل إنّهم يعتبرون جميع الفرق مسلمين، وينظرون إليهم على أنّهم اخوة في الدين، وإن لم يقبلوا آراءهم في مسألة الإمامة، ومرّد ذلك لكونهم يقسمون اصول الدين الخمسة إلى قسمين، الاصول الثلاثة الاولى التوحيد والنبوة والمعاد على أنّها اصول الدين، والإمامة والعدل بأنّها اصول المذهب.

نختم هذا الكلام بحديث عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام- الذي يعتبر ملهماً لاتباع أهل البيت عليهم السلام- في مسألة الإمامة: «إنّ الإمامة زمام الدين ونظام المسلمين وصلاح الدنيا وعزّ المؤمنين، إنّ الإمامة أسّ الإسلام النامي وفرعه السامي بالإمام تمام الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد وتوفير الفياء والصدقات وامضاء الحدود والأحكام، ومنع الثغور والاطراف، الإمام يحلّ حلال الله، ويحرّم حرام الله، ويقيم حدود الله ويذبّ عن دين الله، ويدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة والحجة البالغة» (٣).

(١) احقاق الحق، ج ٢، ص ٢٩٤؛ دلائل الصدق، ج ٢، ص ٤.

(٢) دلائل الصدق، ج ٢، ص ٨

(٣) اصول الكافي، ج ١، ص ٢٠٠.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٠

٣- متى بدأ البحث في الإمامة؟

إشارة

بعد رحيل النبي صلى الله عليه وآله جرى جدلٌ حول من يخلف النبي، فطائفة كانوا يعتقدون بأنّ النبي صلى الله عليه وآله لم ينصب احداً لخلافته، واوكل هذا الأمر إلى الأمة، بأنّ يجلسوا ويختاروا قائداً من بينهم، القائد الذي يمسك بزمام الحكم، ويحكم الناس

باعتباره موكلًا من قبلهم، وإن لم يجر هذا الاختيار أبدًا، بل إن مجموعة صغيرة من الصحابة قامت باختيار الخليفة في مرحلة، وفي المرحلة الأخرى اتخذ انتخاب الخليفة طابعاً تعينياً، وفي المرحلة الثالثة أو كل هذا الاختيار إلى مجلس من ستة أشخاص كلهم معينون. ويطلق على اتباع هذا المنحى «أهل السنة».

وفريق آخر كانوا يعتقدون بوجوب تعيين الإمام وخليفة النبي صلى الله عليه وآله من قبل الله تعالى لأنه يجب أن يكون مثل النبي صلى الله عليه وآله معصوماً من الزلل والخطأ، وذا علم خارق للعادة لكي يتحمل قيادة الأمة معنوياً ومادياً، ويحفظ أساس الإسلام، ويبيّن مشاكل الأحكام، ويشرح دقائق القرآن، ويعمل على استمرار الإسلام.

ويطلق على هذه الطائفة «الإمامية» أو «الشيعة»، وقد أخذت هذه الكلمة من الأحاديث المعروفة والصادرة عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

فقد روى في تفسير الدر المنثور وهو من المصادر المعروفة لدى أهل السنة عن جابر بن عبد الله الأنصاري تعقيباً على الآية الكريمة: «اولئك هم خير البرية»، أنه قال: كنا عند النبي فأقبل على عليه السلام فقال النبي صلى الله عليه وآله: «والذي نفسي بيده أن هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة»، ونزلت: «ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات اولئك هم خير البرية». (البينة / ٧) فكان أصحاب النبي صلى الله عليه وآله إذا أقبل على، قالوا جاء خير البرية «١».

ويروى الحاكم النيسابوري وهو من علماء أهل السنة المعروفين في القرن الخامس الهجري هذا المعنى في كتابه المعروف شواهد التنزيل بطرق مختلفة عن النبي صلى الله عليه وآله، وقد

(١) تفسير در المنثور، ج ٦، ص ٣٧٩، ذيل الآية ٧، من سورة البينة.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١١

تجاوز عدد رواياته العشرين.

منها ما نقله عن ابن عباس، لما نزلت آية: «ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات اولئك هم خير البرية»، قال النبي صلى الله عليه وآله لعلى عليه السلام: «هم أنت وشيعتك» «١».

وجاء في رواية أخرى عن أبي بريدة: لما تلا النبي صلى الله عليه وآله هذه الآية، قال لعلى عليه السلام: «هم أنت وشيعتك يا على» «٢».

كما ذكر هذا الحديث الكثير من علماء الإسلام لاسيما من أهل السنة مثل ابن حجر في صواعقه ومحمد الشبلنجي في نور الأبصار «٣». بناءً على شهادة هذه الروايات، فإن النبي صلى الله عليه وآله هو الذي إختار لأتباع على عليه السلام ومحبيه هذه التسمية «الشيعة»، فهل يبقى مجال للعجب في انزعاج البعض من هذا الاسم ويعتبرونه شؤماً ونحساً، ويعدون حرف (الشين) الذي في مطلع سبباً «للشر» و«الشؤم» وسائر الألفاظ التي تبتدئ بحرف الشين؟! على الرغم من أن حرف (السين) في مطلع اسم المذهب الآخر، تبتدئ به كلمات من قبيل (السُّم) و (السُّرطان) و (السُّل) و (السُّفاحة) وغير ذلك.

إن هذه التعابير تعتبر بحق مثيرة للدهشة بالنسبة للباحث الذي يرغب في أن يسير في ظل البراهين المنطقية دائماً. والحال يمكن اختيار كلمات حسنة أو سيئة لكل حروف الهجاء بدون استثناء.

على أية حال فتاريخ ظهور الشيعة ليس بعد ارتحال النبي صلى الله عليه وآله بل في حياته صلى الله عليه وآله، حين اطلق هذه الكلمة على محبي واتباع على عليه السلام، وكل الذين يعتقدون بالنبي صلى الله عليه وآله أنه رسول الله، يعرفون أنه لا يتكلم عن الهوى «وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ .

وإذا ما قال لعلى عليه السلام: أنت وشيعتك المفلحون يوم القيامة فهذه حقيقة.

(١) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٣٥٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٥٩.

(٣) الصواعق، ص ٩٦؛ ونور الابصار ص ٧٠ و ١٠١، ومن أجل المزيد من الاطلاع على رواة هذا الخبر والكتب التي ذكر فيها راجعوا من احقاق الحق، ج ٣، ص ٢٨٧ وما بعدها والجزء ١٤، ص ٢٥٨.
نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٢

اصطلاح «الإمام» في اللغة والقرآن:

كلمة إمام كما قال أرباب اللغة، هي اسم مصدر على وزن «كتاب» وتطلق على كل ما يتجه إليه الإنسان ويقصده، ويختلف معنى هذه الكلمة باختلاف الموارد والجهات التي يستفاد منها لدى استعمالها فيها.

فتارة يقال: إمام الجمعة، وإمام الجماعة، وإمام الهدى واخرى يقال: إمام الضلالة «١».

وقد جاءت هذه الكلمة في الأصل من مادة «أم» وتعني القصد، يقول صاحب مقاييس اللغة: «أم» تعني الأصل والمرجع والجماعة والدين، والإمام تعني من يُؤْتَمُّ به وهو إمام في الأفعال.

كما ذكرت معان كثيرة لكلمة إمام في لسان العرب، منها الإمام، المعلم، والشاقول الذي يستخدم أثناء تشييد المباني لتنظيم العمل، والسبيل، والمقدمة ونحو ذلك.

إلّا أنّ مؤلف التحقيق، ارتأى أنّ أصل جميع هذه المعاني هو القصد المقترن بالاهتمام الخاص، وحتى لو قيل للام «أما» أو اطلقت كلمة «أم» على أصل وقاعدة كل شيء فهو لأنها غاية الإنسان ومرامه، كما تفيد كلمة الإمام معنى المقتدى أي من يقصده الناس ويبدون عناية خاصة به.

ولابدّ من التذكير بهذه الملاحظة وهي أنّ هذه الكلمة وجمعها «أئمة» قد وردت في القرآن الكريم اثنا عشر مرة تماماً «سبع مرات بصيغة المفرد وخمس مرات بصيغة الجمع».

ففي مورد جاءت بمعنى اللوح المحفوظ: «وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ». (يس / ١٢)

ولأنه قائد ودليل الملائكة لتمييز أعمال العباد، وكلهم يستلهمون منه، واستخدمت أيضاً مرة واحدة بمعنى السبيل والطريق: «وَأَنَّهُمَا لِيَأْمَامَ مُّبِينٍ». (الحجر / ٧٩)

لأنّ الإنسان ومن أجل بلوغ هدفه يهتم بالسبيل، وقد اطلق على التوراة بأنّها إمام اليهود مرتين: «وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً». (الاحقاف / ١٢) (هود / ١٧)

واطلقت خمس مرات على الأئمة الصالحين مثل قوله: «قَالَ أَنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا».

(البقرة / ١٢٤)

(١) التحقيق، مادة (أم).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٣

وفي مكان آخر يقول تعالى بشأن فئه من الأنبياء: «وَجَعَلْنَاهُمْ أئمةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا».

(الأنبياء / ٧٣)

كما ورد هذا المفهوم العام والجامع في الآيات (٧٤ من سورة الفرقان، و ٥ من سورة القصص، و ٢٤ من سورة السجدة أيضاً).
وذكرت أيضاً بمعنى أئمة الكفر والضلالة في مورد واحد: «فَقَاتِلُوا أئِمَّةَ الْكُفْرِ».

(التوبة / ١٢)

واطلقت أيضاً في حالة واحدة على مفهوم يشمل أئمة الهدى والضلال: «يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامِهِمْ». (الاسراء / ٧١)
على أية حال، فموارد استخدام هذه الكلمة في القرآن اثني عشر مورداً تماماً.

٤ - عظمة منزلة الإمام في القرآن الكريم

إن مسألة الإمامة والقيادة كما سنتطرق إليها فيما بعد ليست مسألة دينية وتشريعية فحسب، بل إن عالم الخلق والتكوين يخضع لها، الله هو إمام عالم الوجود ومكوناته المختلفة، وهو يهديها ويدبرها جميعاً.

ويعطى القرآن الكريم أهمية خاصة للإمامة ويعتبرها آخر مرحلة من مسيرة تكامل الإنسان، لم يصلها إلا أولوا العزم من الأنبياء، إذ يقول تعالى «وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا تَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ».

(البقرة / ١٢٤)

هنالك جدل كثير بين المفسرين حول هذه الكلمات التي اشير إليها في مطلع الآية، وكما يقول صاحب روح المعاني: لقد ذكروا حولها ثلاثة عشر قولاً «١».

إلا أن ما يبدو صحيحاً هو أن المراد من هذه الكلمات هو «الأوامر والنواهي» التي تلقى

(١) تفسير روح المعاني، ج ١، ص ٣٣٦.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٤

التكاليف الثقيلة والصعبة على كاهل إبراهيم عليه السلام، ليمحص - جيداً - في الابتلاء، وهي عبارة عن التصدي الشجاع لعبدة الأوثان، وتحطيم الأصنام، وإلقائه في النار، والاستقامة والثبات في جميع هذه المراحل.

وكذلك الاستعداد للتضحية بفلذة كبده، والتوجه به إلى مكان الذبح ووضع السكين على رقبتة، ولم يشغل بعياله وتركهم في صحراء مكة القاحلة الرمضاء، غير المسكونة، وأخيراً الهجرة من بلاد عبدة الأوثان والتخلي عن الحياة من أجل أداء رسالته، وحقاً أن كلاً منها كان اختباراً قاسياً وصعباً، إلا أن إبراهيم قد خرج من جميع تلك الاختبارات ظافراً وذلك بفعل قوة الإيمان والثبات والصبر.

وقد أحصى بعض المفسرين الموارد التي ابتلى بها إبراهيم أنها بلغت ثلاثين ابتلاءً، ويقولون: إن هذه الموارد الثلاثين قد ذكرت في ثلاثة آيات من القرآن الكريم، فقد ذكرت «عشرة منها» في الآية ١٣ من سورة التوبة، و «عشرة» في الآية ٣٥ من سورة الأحزاب، وذكرت «عشرة منها» في الآيات ١ إلى ٩ من سورة «المؤمنون» إذ يصبح مجموعها ثلاثين وصفاً أو ثلاثين مادة امتحانية «١» ولكن نظراً إلى أن جانباً مهماً من هذه الصفات قد تكرر ذكره وأن عددها لا يصل إلى الثلاثين، فإن هذا الكلام لا يحظى بالقبول نوعاً ما.

على أية حال فقد خرج إبراهيم بطل تحطيم الأصنام، والنبى المخلص والمضحى ظافراً من جميع تلك الابتلاءات القاسية والصعبة فاستحق ارتداء جلاباب الإمامة، وشرفه الله بهذا الخطاب المفعم بالفخر: «إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا».

ما هو هذا المقام الذى ناله إبراهيم فى آخر عمره بعد نيله مقام النبوة والرسالة، وبعد ذلك الجهاد الطويل؟

من المسلم به أنه كان أسمى وأرفع منها جميعاً، فمن اجتاز ذلك الاختبار الصعب يستحق هذه المكرمة الإلهية.

(١) تفسير روح المعاني، ج ١، ص ٣٣٥ (وقد اُضيف عليها بعض المفسرين سورة المعارج وقالوا: إنَّها جاءت في أربع سورٍ من القرآن).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٥

لقد كان للمفسرين جدالٌ طويل في تفسير معنى الإمامة، وحيث إنَّ بعضهم لم يستطع بلوغ أسرار المعنى السامى لهذه الكلمة، فقد وقعوا في متاهات عجيبه.

والأعجب من ذلك هو أنَّ طائفه من مشاهير المفسرين قد فسَّروها بمعنى النبوة، بينما من المسلم به أنَّ إبراهيم عليه السلام كان نبياً وقتذاك، وقد فاتت سنوات على نبوته ورسالته، وأصبح ذا ذرية، وفي سياق الآية يطلب الإمامة لأبنائه وذريته أيضاً.

يرى الكثير من المفسرين أنَّ الكلمات التي ابتلى الله تعالى بها إبراهيم عليه السلام كانت عبارة عن مجموعة من التعاليم والأوامر التي أمره بها الله تعالى كمقارعه عبدة الأوثان وبناء الكعبة وذبح ابنه، إلَّا أنَّهم والحالة هذه قد فسَّروا الإمامة بالنبوة، مع العلم أنَّ هذه الأوامر وهذه التوضيحات كانت بعد بلوغ إبراهيم عليه السلام مقام النبوة، وأنَّ عبارة: «أَنْتِي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ أَمَامًا» غامضة تماماً في تفسيرهم.

والمعنى الآخر الذي قالوه بصدد الإمامة هو وجوب الطاعة، ولا يخفى أنَّ إطاعة كل نبي واجبه ولا حاجة له إلى نيل مقام آخر «١».

وقد ذكر البعض تفسيراً ثالثاً لها وقالوا: المراد هو الرئاسة في أمور الدين والدنيا، أو بتعبير آخر: زعامة الحكم.

إنَّ هذا التفسير وإن كان أفضل من سابقه إلَّا أنَّه لم يدخل إلى عمق معنى الإمامة.

وحسب اعتقادنا واستناداً إلى سائر آيات القرآن التي تبحث في مجال الإمامة، فإنَّ المقصود بالإمامة هنا أنَّها مقام أسمى وأرفع من هذا كله، وهو تطبيق الأحكام، وتنفيذ الحدود الإلهية، وتربية وتهذيب ظاهر وباطن الإنسان.

وللتوضيح أكثر أنَّ الهدف من بعثه الأنبياء وارسال الرسل هو هداية المجتمع البشري، وهذه الهداية تتخذ بعدين، الأول: الهداية التي تعنى «اراءة الطريق» أي ما كلف به أيُّ نبيٍّ من الأنبياء، والثاني: «الايصال إلى المطلوب» وهو يتفرع إلى فرعين:

(١) ذكر تفاسير روح البيان؛ والكشاف والمراغى؛ والقرطبي؛ والمنار؛ سُنن إبراهيم العشرة المعروفة؛ والأوامر والنواهي الإلهية، ومجموعة هذه التعليمات.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٦

الفرع الأول: الهداية التشريعية، وتطبيق الأحكام الدينية، سواء عن طريق إقامة الحكم وتطبيق الحدود والأحكام الإلهية والعدالة الاجتماعية، أو عن طريق تربية وتعليم النفوس بشكل عملي، وكلاهما يؤدي إلى تحقيق أهداف الأنبياء، ويحتاج إلى مخطط مرهق وصعب للغاية، وإلى مواصفات كثيرة كالعلم والتقوى والشجاعة والإدارة.

الفرع الثاني: الهداية التكوينية والهداية إلى المطلوب من خلال التأثير والنفوذ المعنوي والروحي وتوجيه شعاع الهداية إلى افئدة ذوى الاستعداد من الناس، وهذا يتطلب من أيِّ نبيٍّ أو إمام أن يكون حسن السيرتين، الظاهرية والباطنية وهي التي كانت للأنبياء والأئمة ازاء أتباعهم، ومن المسلم به أنَّ مثل هذا الأمر يتطلب المزيد من المواصفات والمزايا والقابليات.

فمجموع هذين المخططين يحقق أهداف الدين والرسالات الإلهية، ويوصل ذوى الاستعداد من البشر إلى التكامل المادي والمعنوي، الظاهري والباطني، وهذا هو المراد من الإمامة في الآية المذكورة، ولم ينل إبراهيم عليه السلام هذا المقام من دون أن يؤدي الامتحان لنيل تلك المؤهلات والصفات.

ويستفاد ممَّا تقدم أنَّ مقام «الإمامة» يشترك مع مقام «النبوة» في الكثير من الحالات، وبإمكان نبيٍّ من اولي العزم كإبراهيم أن يبلغ مقام الإمامة أيضاً، والأكثر وضوحاً من ذلك هو أنَّ اجتماع مقام «النبوة» و «الرسالة» و «الإمامة» في خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله متحقق فعلاً.

ويمكن أن ينفصل مقام الإمامة عن مقام النبوة والرسالة، كما في الأئمة المعصومين عليهم السلام الذين يعلمون مسؤولي الإمامة فقط، من دون أن ينزل عليهم الوحي ويكونوا «رسلاً» أو «أنبياء».

على أية حال، فمن خلال مطلع هذه الآية تتضح جيداً عظمة مقام الإمامة، وأن تعيين الإمام من قبل الله تعالى «قَالَ أَنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا».

وذيل هذه الآية يؤكد كثيراً على هذا الموضوع، فهو يقول: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا أُعْطِيَ هَذَا الْمَقَامَ قَالَ: «وَمِنْ ذَرِّيَّتِي».

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٧

فجاء الخطاب قائلاً: «لا- ينال عهدى الظالمين»، أى أن نفر من ذريتك الذين لم يظلموا، وكانوا معصومين ومطهرين هم المؤهلون لهذا المنصب فقط.

لا- شك في أن الظلم في هذه العبارة ليس ظلم الآخرين فحسب، بل الظلم بالمعنى الشامل الذى يقابل العدالة، و «العدالة» بمفهومها الواسع تعنى وضع الشيء في محله، والظلم يعنى وضعه في المحل الذى لا يناسبه، لذا ينقل القرآن الكريم عن لسان لقمان حيث يقول لابنه: «يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ». (لقمان/ ١٣)

كما يتضح أن العدالة هنا تعنى العدالة التامة، أو بتعبير آخر مقام العصمة الذى يتناسب والإمامة بمفهومها الشامل، وإلا فالعدالة القابلة للنقص والاقتران بالذنب لا تتلائم مع مقام الإمامة بمعناها الرفيع أبداً.

وبناءً على ذلك يمكن الاستدلال بالآية أعلاه لإثبات عصمة الإمام أيضاً، بيد أن الكلام في الصفات هل يكون مقروناً بالعدالة وترك جميع أشكال الذنب مدى الحياة، أم أثناء التصدي للإمامة؟ فالبعض واستناداً إلى البحث الاصولي المشهور من أن في المشتق الحقيقي «من تلبس بالمبدأ» هو في حال النسبة- أى حينما نسب صفة من الصفات لأحد يجب أن يمتلك تلك الصفة في حال نسبتها إليه، فمثلاً تطلق كلمة القائم على الذى يتمتع بصفة القيام أثناء نسبة هذه الصفة إليه، ولا تطلق على الذى كان قائماً وقد جلس الآن- يعتقد أن مفهوم الآية هو عدم تمتعه بصفة الظلم أثناء توليه الإمامة، لا بشرك ولا بذنوب، وليس ملوثاً بأى معصية اخرى وعليه فالعدالة والعصمة لا تشمل بداية الحياة.

إلا أننا نقرأ في الروايات أن أئمة أهل البيت عليهم السلام واتباعاً لرسول الله صلى الله عليه وآله قد استدلوا بهذه الآية على العدالة في جميع مراحل العمر: إذ ينقل عبد الله بن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وآله أن الله تعالى قال لإبراهيم عليه السلام: «لا اعطيك عهداً للظالم من ذريتك، قال: يارب ومن الظالم من ذريتي الذى لا ينال عهدك؟ قال من سجد لصنم من دونى لا اجعله إماماً أبداً ولا يصلح أن يكون إماماً» (١).

(١) أمالى الشيخ المفيد، (مطابق لنقل تفسير البرهان ج ١، ص ١٥١ ح ١٣).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٨

وقد نقل هذا المعنى ابن المغاربي عالم أهل السنة المعروف في كتاب «المناقب» عن ابن مسعود عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله مع قليل من الاختلاف، إذ يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله في تفسير هذه الآية: قال الله تعالى لإبراهيم عليه السلام ما معناه: «مَنْ سَجَدَ لَصْنَمٍ مِنْ دُونِي لَا اجْعَلُهُ إِمَامًا».

ثم أضاف صلى الله عليه وآله: «وانتهت الدعوة إلى وإلى أخى على، لم يسجد أحدنا لصنم قط» (١).

وقد نقلت روايات اخرى عن طريق ائمة أهل البيت عليهم السلام في الكتب المعتمدة بهذا الصدد أيضاً، وتضم مجموعة هذه الروايات هذه النكتة وهى: إن النبي إبراهيم عليه السلام كان أعلم وأذكى من أن يسأل الله الإمامة للذين كانوا مشركين أو ظالمين، ولم تكن هنالك حاجة للرد عليه بأن الظالمين لا تشملهم هذه الهبة، لأن الأمر واضح.

فعلى هذا الأساس، لو سأل الله شيئاً فمن المسلم به أنه كان للذين كانوا ظالمين أو مشركين فى وقت ما ثم تابوا واصلحوا، وفى هذا المجال سمع الجواب بأن عهد الإمامة لا يشمل مثل هؤلاء، أى أن لا يكونوا ذوى سابقة فى الظلم والشرك.

يقول المفسر الشهير العلامة الطباطبائى فى «الميزان»: «سأل بعض أساتذتنا عن تقريب دلالة الآية على عصمة الإمام، فأجاب: إن الناس بحسب القسمة العقلية على أربعة أقسام:

١- من كان ظالماً فى جميع عمره.

٢- من لم يكن ظالماً فى جميع عمره.

٣- من هو ظالم فى أول عمره دون آخره.

٤- ومن هو بالعكس.

وإن إبراهيم عليه السلام أجلُّ شأنًا من أن يسأل الإمامة للقسم الأول والرابع من ذريته، فبقى قسمان، وقد نفى الله أحدهم (وهو الذى يكون ظالماً فى أول عمره دون آخره، فبقى الآخر) وهو الذى يكون غير ظالم فى جميع عمره .. (تأملوا جيداً) «٢».

وقد اعترف الفخر الرازى فى تفسيره بأن الآية دليل على عصمة الأنبياء، واللطف هو

(١) المناقب لابن المغازلى، مطابق لنقل تفسير الميزان ج ١، ص ٢٧٨ فى ذيل الآية مورد البحث.

(٢) تفسير الميزان، ج ١، ص ٢٧٤.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٩

«إنه يثبت هذا الأمر من خلال وجوب عصمة الإمام وأن كل نبي إمام» (تأملوا جيداً أيضاً) «١».

وبطبيعة الحال يستفاد من هذه الآية مطالب أخرى بشأن الإمامة ووجوب عصمة الإمام، وتنصيه من قبل الله وغير ذلك مما لا يسع المقام لبحثه.

والآن وعلى ضوء ما مرّ تتضح عظمة وجلالة الإمامة فى نظر القرآن الكريم، وقد كان غرضنا هنا بيان هذه النقطة.

٥- فلسفة وجود الإمام

بالرغم من اتضاح فلسفة وجود الإمام بنحو إجمالى فى البحث السابق من خلال الاستعانة بالآيات المتعلقة بإمامة إبراهيم عليه السلام إلّا أن هذا الموضوع مهم إلى الحد الذى يتطلب فتح بحث مستقل له.

وبشكل عام فإن الكثير من الامور التى تذكر على أنها الأهداف من بعث الأنبياء أو فلسفة وجودهم، تصدق بحق الإمام أيضاً.

لقد تطرق الخواجه نصير الدين الطوسى قدس سره إلى بيان فلسفة بعث الأنبياء فى فصل النبوة من كتاب تجريد الاعتقاد وأشار العلامة الكبير الحلّى فى شرح ذلك الكلام إلى تسع نقاط من هذه الفلسفة إجمالاً ندرجها كما يلى، ونضعها أمام القارئ الكريم، وكما سنلاحظ فإن الكثير منها يصدق على قضية تعيين الأئمة المعصومين عليهم السلام أيضاً:

١- ترسيخ المعرفة العقلية عن طريق البيان النقلى، من هنا فإن الإنسان يدرك الكثير من الحقائق سواء فى الاصول أو فى فروع الدين من خلال القوة العقلية، إلّا أن الوسوس قد تغزو قلبه أحياناً، وهذا الاضطراب يحول دون أدائها، أما إذا تم تأييد وترسيخ هذه الأحكام العقلية بكلام الأئمة المعصومين فستزال جميع أشكال الغموض والاضطراب، ويسعى الإنسان لأدائها برباطة جأش.

(١) التفسير الكبير، ج ٤، ص ٤٣.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٠

- ٢- فى بعض الأحيان يحذر الإنسان من القيام ببعض الأعمال وذلك لخوفه من الإتيان بتصرف فى حدود سلطة الله وهيمنته مخالف لإرادته فيكون كلام الإمام رافعاً لذلك الحذر والخوف.
- ٣- لا تجتمع أعمال الإنسان فى حدود «الحسن والقبح العقليين»، وما أكثر الأمور التى لا يدرك عقل الإنسان حسنها وقبحها، فهنا لابد من الاقتداء بالقادة الإلهيين، لإدراك حسنها وقبحها.
- ٤- إن بعض الأشياء نافع وبعضها الآخر مضر، ولا قدرة للإنسان على إدراك نفعها وضررها من خلال تفكيره فقط بدون إرشاد القادة الإلهيين، فهنا يشعر بالحاجة إليهم.
- ٥- إن الإنسان موجوداً اجتماعياً، وهو عاجز عن حل مشاكل حياته بدون التنسيق والتعاون مع الآخرين، ومن المسلم به أن المجتمع لن يستقيم ولن يبلغ الكمال المطلوب مالم يمتلك القوانين التى تحافظ على حقوق جميع الأشخاص، وتأخذ بأيديهم نحو الصراط المستقيم، فتشخيص هذه القوانين بشكل صائب ومن ثم تطبيقها لن يحصل إلا عن طريق القادة الواعين والطاهرين والمعصومين.
- ٦- إن الناس يتفاوتون فى إدراك الكمالات وكسب العلوم والمعارف والفضائل، فالبعض يمتلك القدرة على السير فى هذا الطريق، والآخر عاجز، فالقادة الإلهيون يقومون بترسيخ الفئة الأولى وإعانة الفئة الثانية كي تصل الفئتان إلى الكمال الممكن.
- ٧- إن النوع الإنسانى بحاجة إلى مستلزمات وصناعات وعلوم، ويستطيع القادة الربانيون تأمين هذه المستلزمات وذلك من خلال توجيه المجتمع نحو الحصول عليها.
- ٨- إن المراتب الأخلاقية متفاوتة لدى الناس، والسييل الوحيد لتنمية هذه الفضائل هو سبيل القادة الإلهيين الطاهرين والمعصومين.
- ٩- إن الأئمة مطلعون على الثواب والعقاب والأجر والجزاء إزاء الطاعة والمعصية، وعندما يُعلمون الآخرين هذه الأمور فهم يخلقون لديهم حافزاً قوياً لأداء الواجبات «١».

(١) شرح التجريد، ص ٢٧١ (مع قليل من الاختصار والاقتباس).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢١

ونظراً إلى أن الأئمة ليسوا سوى استمرار لخط النبوة، فإن أغلب هذه الفلسفات بالإمكان تحقيقها بواسطة الأئمة المعصومين عليهم السلام أيضاً.

وفى القرآن الكريم تتلخص هذه الأمور بل وحتى أكثر منها فى ثلاثة مواضع وهى:

«التعليم» و «التربية» و «القيام بالقسط» التى اشير إليها فى آيات عديدة، فيقول تعالى بشأن الفلسفة من بعثه النبي صلى الله عليه وآله «هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَأَنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ». (الجمعة/ ٢)

فقد تمت الإشارة هنا إلى مسألة «التعليم» و «التربية» التى هى أهم أهداف الأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام.

وفى مكان آخر يقول تعالى «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ». (الحديد/ ٢٥)

وقد اشير هنا إلى العدالة الاجتماعية والقيام بالقسط الذى يوفر الأرضية المناسبة «للتعليم» و «التربية» الصحيحة.

نعم، فالزعماء العاديون فى العالم يفكرون:

أولاً: بصيانتهم مكانتهم ومصالحهم الشخصية أو الحزبية، لهذا فهم دائماً يضحون بمصالح المجتمعات البشرية من أجل مصالحهم الخاصة، أمياً القادة الطاهرون والمعصومون واتباعهم فهم وحدهم الذين يستطيعون المحافظة على حقوق الإنسان والمصالح العامة للمجتمع الانساني كما ينبغي.

ثانياً: هب أن الزعماء غير الربانيين يريدون تطبيق العدالة وقيادة المجتمعات البشرية نحو الكمال المطلوب، فإن تشخيص هذه الأمور

فى الكثير من الحالات غير ممكن بالنسبة لهم، فهم يستطيعون فى هذه الحالة أن يشخصوا الامور ولكنّ تشخيصهم ناقص وغير دقيق. وهذا الأمر - التشخيص الدقيق - ممكن فقط بالنسبة للقادة الربانيين الذين يعتمدون على البحر اللامتناهى من العلم الإلهى.

وقد أثبتت تجربة السبعين سنه من الحكم الشيعى على نصف سكان الكرة الأرضية

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٢

هذه الحقيقة بوضوح، فلقد كرسوا أوسع وأعظم جهاز اعلامى لترسيخ دعائم الماركسية، وقدموا الملايين من الكتب والكراسات والمقالات والخطب على هذا الصعيد، وزعموا بأنّ الشيعية هى الطريق الوحيد لحل مشاكل المجتمع البشرى وتأمين العدالة الاجتماعية، وتكامل النوع الإنسانى، وأفضل وسيلة للتفسير الصحيح للتاريخ والعلوم الاجتماعية، وقمعوا المعارضين لهم بشتى الأساليب، لكننا رأينا أنّها لم تجلب سوى التعاسة والتخلف والديكتاتورية، وفى خاتمة المطاف اضطر مفكروهم إلى الاعتراف بأنّ ما كانوا يتصورونه الطريق الحقيقى للسعادة لم يكن إلّا انحطاطاً وتخلفاً للمجتمع الإنسانى! وربّما لم يشهد التاريخ نظيراً لهذه القضية، إذ تدافع طائفة كبيرة من المفكرين والعلماء واساتذة الجامعات عن عقيدة ما، وفى النهاية يتضح أنّ ما كانوا يؤمنون به فارغ من أى محتوى

فما الضمان لعدم حدوث مثل هذه الحالة فى المستقبل، وعدم تلوث عقائد المجتمع الإنسانى بهذه الأفكار المضلّة؟

ومن هنا تبرز ضرورة الاستفادة من أفكار الأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام المصانين من الزلل والخطأ من قبل الله تعالى وخلاصة الكلام هى أنّ الإله الذى خلق النوع الإنسانى وأمره بالسير فى طريق الكمال والسعادة، وأرسل الأنبياء المعصومين الذين يتلقون الأوامر الإلهية بواسطة الوحي، من أجل «تبيين الطريق» و «الايصال إلى المطلوب»، فلا بدّ أن يجعل أئمة معصومين لخلافة الأنبياء بعد رحيلهم وذلك من أجل استمرار هذا الطريق، وليعينوا المجتمع البشرى فى الهداية إلى الطريق والايصال إلى المطلوب، ومن المسلم به أنّ هذا الهدف سيقى ناقصاً بدونهم للأسباب التالية:

أولاً: من المتيقن أنّ العقول البشرية لا تستطيع تشخيص جميع عوامل وأسباب التقدم والرّقى وحدها، وقد لا تشخص عشر ذلك.

ثانياً: ربّما يتعرض دين الأنبياء بعد ارتحالهم لأنواع التحريف، فلا بدّ من الحراس المعصومين والربانيين ليحافظوا عليه ويحولوا بين تحريف المبطلين وبين بلوغ مآربهم،

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٣

وآراء الجهلة وتفسيرات أصحاب الأهواء والمآرب.

وهذا ما يشير إليه الحديث المعروف الوارد فى اصول الكافى عن الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول: «إنّ فينا أهل البيت فى كل خلف عدولاً ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين» (١).

وكذلك ما أشار إليه الإمام على عليه السلام فى احدى كلماته القيمة، إذ يقول: «اللهم بلى لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة إمّا ظاهراً مشهوراً، وإمّا حافياً مغموراً لئلا تبطل حجج الله وبيناته» (٢).

ثالثاً: من المتعذر اقامة الحكومة الإلهية التى توصل الإنسان إلى الغاية التى خلق من أجلها، إلّا عن طريق المعصومين، لأنّ الحكومات البشرية - ووفقاً لشهادة التاريخ - كانت غالباً ما تسير فى خط المصالح الشخصية، أو الفتوية، وأنّ جميع مساعيها كانت فى هذا الاتجاه، وكما جرّبنا مراراً وتكراراً أنّ شعارات «الديمقراطية» و «حكم الشعب للشعب» و «حقوق الإنسان»، وما شابه ذلك ماهى إلّا قناع للوصول إلى أهدافهم الشيطانية عن طريق أسهل، فقد فرضوا أغراضهم على الشعوب بشكل خفى ومن خلال استغلال هذا المنطق وهذه الأدوات.

إنّ هذه الاصول الثلاثة أى «تبيين الطريق» الذى يعجز العقل عن تشخيصه، و «المحافظة على ميراث الأنبياء» و «إقامة حكومة العدل»، تمثل بالواقع الاسس الحقيقية لفلسفة وجود الإمام المعصوم.

ونختم هذا الحديث بكلام للإمام على بن موسى الرضا عليه السلام حيث يعتبر من أكثر الكلمات شمولية فيما يتعلق بفلسفة الإمامة، وحديث من نهج البلاغة لأمير المؤمنين عليه السلام:

(١) اصول الكافي، ج ١، ص ٣٢، باب صفة العلم، ح ٢.

(٢) نهج البلاغة، كلمات القصار، الكلمة ١٤٧.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٤

الحديث الأول الذي تحدث به عليه السلام يوم الجمعة في المسجد الجامع في مدينة (مرو) بحضور حشد من الناس، يتناول مسائل كثيرة، نشير هنا إلى جانب منه، قال عليه السلام:

«إن الإمامة هي منزلة الأنبياء، وإرث الأوصياء، إن الإمامة خلافة الله وخلافة الرسول ... الإمام البدر المنير، والسراج الزاهر، والنور الساطع، والنجم الهادي في غياهب الدجى ... الإمام الماء العذب على الظماء والذال على الهدى والمنجى من الردى ... الإمام السحاب الماطر، والغيث الهاطل، والشمس المضيئة ... الإمام أمين الله في خلقه، وحجته على عباده، وخليفته في بلائه ... نظام الدين، وعز المسلمين، وغيض المنافقين، ووبار الكافرين» (١).

وفي عبارة قصيرة يصور أمير المؤمنين عليه السلام روح الإمامة، فيقول:

«ومكان القيم بالأمر مكان النظام من الخرز، يجمعه ويضمه، فاذا انقطع النظام تفرق الخرز والذهب ثم لم يجتمع بحدافيره أبداً» (٢).

(١) اصول الكافي، ج ١، ص ٢٠٠، باب نادر جامع في فضل الإمام.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ٤٦.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٥

١- الولاية والإمامة العامة في القرآن الكريم

تمهيد:

هنالك بحثان مستقلان في موضوع الولاية وهما:

١- «الولاية العامة» أي لأبد من وجود إمام بين الناس منصب من قبل الله، دائماً وفي كل عصر، سواء كان يتمتع بمقام النبوة والرسالة، أو بمقام الولاية فقط.

٢- «الولاية والإمامة الخاصة» أي من الذي يتصدى لهذا المنصب والمقام الإلهي بعد النبي صلى الله عليه وآله؟

وبتعبير آخر: كما أن النبوة تتفرع إلى «نبوة خاصة» و «نبوة عامة»، فكذلك الإمامة.

وقد ورد في القرآن الكريم ما يشير إلى الولاية العامة ندرجه فيما يلي:

١- «أَنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ». (الرعد / ٧)

٢- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ». (التوبة / ١١٩)

٣- «اطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ». (النساء / ٥٩)

آية الانذار والهداية:

ففى الآيه الاولى يخاطب الله تعالى النبى صلى الله عليه و آله: «أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ».

ينقل الفخر الرازى ثلاثة أقوال فى تفسير هذه الآيه:

الأول: إنَّ «المنذر» و «الهادى» شىء واحد، وعليه يكون مفهوم الآيه كما يلى:

«أَنْتَ مُنذِرٌ وَهَادٍ لِكُلِّ قَوْمٍ».

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٦

الثانى: المنذر هو النبى صلى الله عليه و آله والهادى هو الله تعالى

الثالث: المنذر هو النبى صلى الله عليه و آله والهادى هو على عليه السلام، إذ يقول ابن عباس: إنَّ النبى قد وضع يده على صدره وقال:

«أنا المنذر ثم أوماً إلى منكب على عليه السلام وقال: أنت الهادى يا على، بك يهتدى المهتدون من بعدى» (١).

وقد نقلت مجموعة اخرى من المفسرين هذه التفاسير الثلاثة، فيما أصرَّ بعض مفسرى أهل السنَّة على أنَّ تفسير الآيه أحد التفسيرين الاولين، لأنَّ التفسير الثالث لا يتناسب ونمط تفكيرهم الملىء بالتعصب.

بينما لا يتناسب التفسير الأول مع ظاهر الآيه، فلو كان مقرراً أن يكون الوصفان لرسول الله صلى الله عليه و آله لقال: إنَّما أنت منذرٌ و هادٍ لكل قوم، وبتعبير آخر لا ينبغى تقديم «لكل قوم» وهو جار ومجرور على «هادٍ»، وإذا ما تقدم فيجب أن يتقدم على الوصفين فيقال: إنَّما أنت لكل قوم منذرٌ و هادٍ، وخلاصة القول: إنَّه لا يبدو هنالك مبرر لتقديم لكل قوم على وصف وتأخيره عن الآخر، أو لا بد من تقديمه عليها أو تأخيره عنها (تأملوا جيداً).

والتفسير الثانى غير مألوف ولا مناسب، لأنَّ كون الله هادياً فلا شك فيه حتى يحتاج إلى بيان، أضف إلى أنَّ ظاهر العبارة هو أنَّ لكل عصر وزمان هادٍ خاص. والحال أنَّ الله واحدٌ أحد، فهذه الوحداية لا تتسجم والتعددية التى تستفاد من عبارة لكل قوم هادٍ.

بناءً على ذلك فالتفسير الوحيد الذى يحظى بالقبول هو: إنَّ النبى صلى الله عليه و آله منذرٌ ولكل قوم فى كل عصر ودهرٍ «هادٍ».

فهل هذا الهادى إشارة إلى علماء كل قوم وكل زمان؟

الاجابة عن هذا السؤال سلبية أيضاً، فهناك علماء عديدون فى كل عصر ودهر وليس هادٍ واحد، فكما كان النبى صلى الله عليه و آله واحداً فهادى المسلمين واحدٌ فى كل عصر وزمان.

وبتعبير آخر، أنَّ النبى صلى الله عليه و آله مؤسس الدين عن طريق الانذار، والإمام يواصل طريقه من خلال الهداية.

إنَّ هذه النكات تستفاد من الآيه نفسها، ولو بحثنا عن الروايات المنقولة عن طريق أهل

(١) التفسير الكبير، ج ١٩، ص ١٤.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٧

السنَّة والشيعه بهذا الصدد لاتضح المسألة أكثر.

ففى تفسير الدر المنثور وهو من تفاسير أهل السنَّة المعروفة «تأليف جلال الدين السيوطى» المتوفى عام ٩١٠ هـ ق، والقائم على أساس تفسير الآيات والروايات، ينقل روايات عديدة فى تفسير هذه الآيه عن النبى صلى الله عليه و آله:

١- يروى عن ابن جرير وابن مردويه وأبى نعيم والديلمى وابن عساكر وابن النجار: لما نزلت «أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ» وضع رسول الله صلى الله عليه و آله يده على صدره فقال: «أنا المنذر، وأوماً بيده إلى منكب على عليه السلام فقال: أنت الهادى يا على، بك يهتدى المهتدون من بعدى» (١).

٢- يقول أبو بريدة الاسلمى: سمعت من النبى صلى الله عليه و آله بشأن هذه الآيه «٢» وقد وضع يده على صدره وقال: «إنَّما أنت منذرٌ، ووضع يده على صدر على عليه السلام وقال: لكل قوم هادٍ».

٣- وفي الكتاب نفسه ينقل عن «عبد الله بن أحمد» و «ابن أبي حاتم» و «الطبراني» و «الحاكم» و «ابن مردويه» و «ابن عساكر» عن علي عليه السلام في تفسير الآية: «إنما أنت منذر ولكل قوم هاد» قال: «رسول الله المنذر، وأنا الهادي» (٣).

٤- ونقرأ في رواية أخرى عن ابن عباس، أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «أنا المنذر وعلي الهادي، وبك يا علي يهتدى المهتدون». وقد أورد هذا الحديث طائفة من مشاهير حفاظ أهل السنة منهم: «الحاكم» في «المستدرک» و «الذهبي» في «التلخيص» و «الفخر الرازي» و «ابن كثير» في «تفسيريهما»، و «ابن الصباغ المالكي» في «الفصول المهمة» و «الكليني الشافعي» في «كفاية الطالب» و «العلامة الطبري» في «تفسيره» و «ابن حيان الاندلسي» في «البحر المحيط» و «النيشابوري» في «تفسيره»، و «الحموي» في «فرائد السمطين» وطائفة أخرى في كتبهم التفسيرية (٤).

(١) تفسير در المنثور، ج ٤، ص ٤٥.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) للاطلاع على هذا الحديث ووثائقه راجعوا كتاب احقاق الحق، ج ٣، ص ٨٨-٩٩.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٨

٥- يقول «مير غياث الدين» مؤلف كتاب «حبيب السير»: «قد ثبت بطرق متعددة أنه لما نزل قوله تعالى «إنما أنت منذرٌ ولكل قوم هاد»، قال صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: «أنا المنذر وأنت الهادي، بك يا علي يهتدى المهتدون من بعدى» (١).

٦- وقد نقل الحموي في هذا الحديث أيضاً عن أبي هريرة عن علي عليه السلام (٢).

٧- ونقل هذا الحديث في «مستدرک الحاكم» عن «أبي بريدة الاسلمي» بشكل واسع فقال: دعا رسول الله صلى الله عليه وآله بالطهور وعنده علي بن أبي طالب فأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله بيد علي بعد ما تطهر فألصقها ب صدره ثم قال: «إنما أنت منذر» ويعني نفسه، ثم ردها إلى صدر علي ثم قال: «ولكل قوم هاد»، ثم قال له: «أنت منار الأنام وغاية الهدى وأمير القراء، أشهد على ذلك أنك كذلك» (٣).

وليس من المستبعد أن يكون النبي صلى الله عليه وآله قد بين هذا الكلام في حالات متعددة وبأشكال مختلفة، والتعبير المختلفة للأحاديث المذكورة تشهد على هذا الأمر.

كما وردت في مصادر اتباع أهل البيت عليهم السلام روايات متعددة في هذا المجال، ولا مجال لذكرها جميعاً، بل نكتفي بالإشارة إلى بعضها، فقد ورد في تفسير نور الثقلين (٤) ما يربو على خمسة عشر حديثاً منها ما روى عن الإمام الباقر عليه السلام والإمام الصادق عليه السلام أنهما قالوا: «كل إمام هاد كل قوم في زمانه»، وفي تعبير آخر: «كل إمام هاد للقرن الذي هو فيه» (٥).

والعجيب أن بعض المفسرين قد تناسوا جميع هذه الأحاديث، وذكروا معاني أخرى للآية المذكورة، مستندين إلى أقوال بعض الصحابة التي لم ترو عن النبي صلى الله عليه وآله، منها التفسير الذي نُقل عن مجاهد حيث يقول: المراد من «المنذر» محمد صلى الله عليه وآله والمراد من «لكل قوم»

(١) حبيب السير، ج ٢، ص ١٢.

(٢) احقاق الحق، ج ٣، ص ٩٢.

(٣) تفسير الميزان، ج ١١، ص ٣٢٧ ذيل الآية مورد البحث.

(٤) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٤٨٢-٤٨٥.

(٥) المصدر السابق، ج ١٩ و ٢٠، ص ٤٨٣.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٩

هادٍ» «إن لكل قوم نبياً يدعوهم إلى الله!» وهذا تفسير بعيد كما يبدو.

وروى تفسير آخر عن سعيد بن جبير حيث يقول: المنذر محمد صلى الله عليه وآله والهادى هو الله! بينما ظاهر الآية هو أن هادى كل قوم يختلف عن هادى الآخرين، علماً أن الله الواحد هادٍ لجميع الأقسام، ولا يتناسب مع مثل هذه التفاسير. فهل من المناسب ترك الروايات المتواترة عن رسول الله صلى الله عليه وآله والذهاب وراء هذه التفاسير الخاطئة حرصاً على أن لا يمتلك الشيعة مستمسكاً؟

آية الصادقين:

وفى الآية الثانية خاطب تعالى المؤمنين داعياً إياهم إلى التقوى وبعدها أمرهم بأن يكونوا مع الصادقين «دائماً» «لئلا ينحرفوا»: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ». فمن هم الصادقون هنا؟ ثمّة تفاسير مختلفة أيضاً:

لقد احتمل البعض أن المراد من «الصادقين» هو شخص النبي صلى الله عليه وآله، وهذه الآية منحصرة بزمانه، ولا يخفى أن خطاب هذه الآية كسائر خطابات القرآن عامة، وتشمل كل المؤمنين فى كل عصرٍ ومصرٍ.

وقال آخرون: إن «مع» تعنى «من»، أى كونوا من الصادقين! فى الوقت الذى لا توجد ضرورة لمثل هذه التأويلات والتبريرات، بل ليس من المعتاد أبداً فى الأدب العربى وكلام الادباء استخدام «مع» بمعنى «من».

فطبقاً لظاهر الآية فإن جميع المسلمين مكلفون أن يكونوا فى خط الصادقين ومعهم فى كل زمن وعصر.

من هنا يعرف بأن ثمّة صادق أو صادقين فى كل عصر يتحتم على الناس أن يكونوا معهم فى طريق التقوى والزهد.

ومن أجل فهم معنى الصادقين، من الأفضل أن نعود إلى القرآن نفسه لنرى ماذا يذكر من

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٠

صفات للصادقين، فى مكان يقول: «أَنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَزَلُوا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ». (الحجرات / ١٥)

فى هذه الآية وصف تعالى الصديق بأنه فرع أو شعبة من «الإيمان» و«العمل النزيه» عن كل أشكال الشك والريب والتردد.

وفى الآية ٧٧ من سورة البقرة بعد أن ذكر تعالى أن حقيقة الإيمان تكمن فى الإيمان بالله، واليوم الآخر، والملائكة، والكتب السماوية، والأنبياء، وكذا الانفاق فى سبيل الله، وفى سبيل تحرير المستضعفين والمحرومين من ربة الظالمين، وكذلك إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والوفاء بالعهد، والصبر والاستقامة إزاء المشاكل وأثناء الجهاد، يضيف: «أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا».

بناءً على ذلك فقد ذكر أن السمة المميزة للصادقين هى: الإيمان التام بجميع المقدسات، واطاعة أوامر الله على جميع الأصعدة، لاسيما الصلاة وإيتاء الزكاة والانفاق والاستقامة فى الجهاد، وفى مواجهة المشاكل، وقد جاء نظير هذا المعنى فى الآية ٨ من سورة الحشر أيضاً.

من مجموع هذه الآيات وكذلك من اطلاق الآية مورد البحث التى تأمر باتباع الصادقين بدون قيد أو شرط، نستنتج أن المسلمين مكلفون باتباع الذين يتمتعون بأعلى مراحل الإيمان والتقوى وأسمى المستويات من ناحية العلم والعمل والاستقامة والجهاد، فالآية لا تقول: كونوا من الصادقين، بل تقول: كونوا معهم، بينما نراها تقول: كونوا من الزاهدين وهذا يبرهن على أن المراد مرتبة أسمى من المراتب التى يصلها الناس، وأجلى مصداق لهذا المعنى هم المعصومون هذا من جانب، ومن جانب آخر أن الأمر باتباع الصادقين

بشكلٍ مطلق، وعدم الانفصال عنهم بدون قيد أو شرط، دليل آخر على عصمتهم، لأنّ الاتباع بلا قيد أو شرط لا معنى له إلّا فيما يتعلق بالمعصومين.

ونظراً لوضوح محتوى الآية لم يستطع الفخر الرازي انكار دلالتها على وجود المعصوم في كل زمان ومكان، إلّا أنّه ولعدم إيمانه بعقائد أتباع أهل البيت عليهم السلام يتحدث عن عصمته

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣١

جميع الأمة، أو بتعبير آخر «إجماع الأمة»، بينما نرى أنّ القضايا التي تحظى بإجماع الأمة محدودة للغاية، والحال أنّ أتباع الصادقين تكليف عام وفي كل الأحوال والشؤون.

وكذلك لم يفهم أي ناطق بالعربية أثناء نزول هذه الآية أنّ كلمة «الصادقين» تعني مجموع الأمة، فكيف يمكن حملها على هذا المعنى أليس من الأفضل الاقرار بوجود صادق في كل عصر وزمان ليس في سيرته السهو والخطأ ويجب علينا اتباعه؟

سؤال: وهنا يثار سؤال وهو: إنّ «الصادقين» ذكرت بصيغة الجمع، وعليه فلا بدّ من وجود عدّة معصومين في كل زمان، فكيف يتلائم هذا وعقائد أتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام؟

إنّ الجواب على هذا السؤال من خلال الاستناد إلى نقطة، وهي: إنّ هذا الجمع ربّما يكون إشارة إلى مجموع الأزمنة، لأنّ «الصادقين» وعلى مدى مجموع الأزمنة يمثلون مجموعة، تماماً كما يقال: يتحتم على الناس اتباع الأنبياء في كل زمان، فليس مفهوم هذا الكلام هو وجود أنبياء متعددين في كل زمان، بل المقصود هو: أنّ على كلّ قوم اتباع نبي زمانهم، أو يقال: على الناس أن يعرفوا تكاليفهم تجاه العلماء والمراجع، أي: على كلّ شخص اتباع عالم ومرجع زمانه.

والشاهد على هذا الأمر هو عدم وجود شخص مفترض الطاعة في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله غيره، في الوقت الذي تشمل الآية المذكورة زمانه أيضاً بكل تأكيد.

من هنا يتضح أنّ المراد ليس الجمع في زمان واحد، بل في عدّة أزمنة، وهذا الكلام هو بمثابة تحليل لهذه الآية.

وأما من ناحية الروايات، فإنّ الكثير من مفسري ومُحدّثي أهل السنيّة نقلوا عن ابن عباس قوله: إنّ هذه الآية نزلت بحق علي بن أبي طالب عليه السلام.

ومنهم «العلامة الثعلبي» في تفسيره، فقد روى إنّ ابن عباس قال في تفسير هذه الآية:

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٢

«مع الصادقين يعني مع علي بن أبي طالب وأصحابه» (١).

كما ينقل «العلامة الكنجي» في «كفاية الطالب»، و«العلامة سبط بن الجوزي» في «التذكرة» عن طائفة من العلماء ما يلي: «قال علماء السير: معناه كونوا مع علي عليه السلام وأهل بيته، قال ابن عباس: عليّ عليه السلام سيد الصادقين» (٢).

وجرى التأكيد على هذا المعنى أيضاً في الروايات العديدة التي وصلتنا عن أهل البيت عليهم السلام، منها الرواية التي نقرأها عن جابر بن عبد الله الأنصاري عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال في تفسير آية «وكونوا مع الصادقين»، يعني «محمد وآل محمد» (٣).

ونقرأ في رواية أخرى أنّ «بريد بن معاوية» روى عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير هذه الآية أنّه قال: «إيانا عنى» (٤).

وفي تفسير البرهان ينقل عن كتاب نهج البيان: «روى أنّ النبي صلى الله عليه وآله سُئل عن الصادقين فقال: «هم علي وفاطمة والحسن والحسين وذريتهم الطاهرون إلى يوم القيامة» (٥).

ومن البديهي أنّ جميع هذه الروايات إنّما هي في الواقع بيان للمصداق، ولا تتعارض مع المفهوم العام للآية، لأنّها تشمل شخص النبي صلى الله عليه وآله بالمرتبة الاولى ومن ثم الأئمة المعصومين عليهم السلام في كلّ عصر ودهرٍ.

من هنا فإنّ الآية الآنفة الذكر تثبت «الولاية العامة» وكذلك «الولاية الخاصة».

آية اولى الأمر:

والحديث فى الآيه الثالثه عن وجوب اطاعه الله ورسوله واولى الأمر، يقول تعالى

(١) احقاق الحق، ج ٣، ص ٢٩٧.

(٢) المصدر السابق.

(٣) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٢٨٠، ح ٣٩٢.

(٤) المصدر السابق، ح ٣٩٣.

(٥) تفسير البرهان، ج ٢، ص ١٧٠.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٣

«أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ». (النساء / ٥٩)

فوجوب اطاعه الله ورسوله صلى الله عليه وآله واضح ومعلوم، أما من هم المقصودون فى «اولى الأمر» الذين اعتبرت اطاعتهم بموازاة اطاعه الله ورسوله صلى الله عليه وآله، فهناك جدل بين المفسرين.

يتفق علماء الشيعة وأتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام أن المراد من «اولى الأمر» هم الأئمة المعصومون عليهم السلام الذين هم قادة المجتمع معنوياً ومادياً فى كافه شؤون الحياه، ولا تشمل غيرهم، لأن الطاعه - بلا قيد أو شرط - الوارده فى الآيه الكريمة والتي اعتبرت موازیه لطاعه الله ورسوله صلى الله عليه وآله لا يمكن تصورها إلا بحق الأئمة المعصومين عليهم السلام، وأما الآخرون الذين تجب طاعتهم فإنها محدوده بحدود ومقیده بقيود، ولا وجود للطاعه المطلقه بشأنهم أبداً، وهذا الأمر واضح.

هذا فى الوقت الذى يختلف فيه مفسرو وعلماء أهل السنه كثيراً فى معنى اولى الأمر.

فمنهم من فسرها بمعنى «الصحابة»، ومنهم ب «قاده الجيش»، وبعضهم فسرها ب «الخلفاء الأربعة».

وهم لم يقدموا أى دليل واضح لهذه التفاسير الثلاثه.

واعتبرت طائفه اخرى «اولى الأمر» بمعنى العلماء، مستندين إلى الآيه: «وَأِذَا حِجَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّعَوْا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَالْأُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ». (النساء / ٨٣)

ولكن نظراً إلى أن الآيه التى هى محل بحثنا تبحث الطاعه بلا قيد أو شرط، والآيه ٨٣ من سورة النساء تتعلق بالسؤال والتحقيق فإنها توضح أمرين مختلفين، ولا يمكن اعتبار كلا الأمرين بمعنى واحد، فالتحقيق من العالم أمر، والطاعه بلا قيد أو شرط أمر آخر، فلا يتصور الثانى إلا بصدد المعصومين، أما الأول فله مفهوم أوسع.

وقد أعطى بعض مفسرى أهل السنه احتمالاً خامساً وهو: أن المراد من اولى الأمر هم ممثلو طبقات الناس، والحكام، والزعماء، والعلماء، وذوو المناصب فى جميع شؤون الحياه.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٤

وبتعبير آخر: المقصود هم أهل الحل والعقد الذين حيثما اتفقوا على شىء تجب طاعتهم بلا قيد أو شرط «على شرط أن يكونوا منا، حيث ذكرت (منكم) كشرط فى الآيه الكريمة، ولا يخالفون سنه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، ولا يتعرضون للإجبار فى مباحثاتهم، وأن يتمتعوا باتفاق الآراء، وتلك المسأله من المسائل».

فهذه المجموعه واجبه الطاعه فى المسائل التى لم يصلنا فيها نص، ويمكن القول: إنهم معصومون، لذا ورد الأمر باطاعتهم بلا قيد أو شرط «١».

من هنا فالموما إليه يعتبر اولى الأمر مجموعة من العلماء وأهل الحل والعقد الذين تتوفر فيهم الشروط الخمسة التالية:

١- الإسلام، ٢- عدم مخالفة السنة، ٣- غير مجبور فى ابداء الرأى، ٤- ابداء الرأى فيما لا نصّ فيه، ٥- التمتع باتفاق الآراء، ويعدّ مثل هذه الجماعة معصومة.

فهل ياترى أنّ المقصود من «اولى الأمر» فى الآية الكريمة هو هذا؟ وهل أنّ أهل العرف وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله كانوا يستفيدون هذا المعنى عند سماعهم للآية؟ أم أنّ هذا المعنى قد فرض على الآية بتكلف وعناء لئلا ينصرف معنى الآية إلى الأئمة المعصومين عليهم السلام الذين يعتقد بهم الشيعة؟

ويظهر أنّ كلام تفسير «المنار» مشتق من كلام «الفخر الرازى» حيث يقول:

«واعلم أنّ قوله «اولى الأمر منكم» يدل عندنا على أنّ إجماع الأئمة حجة والدليل على ذلك أنّ الله تعالى أمر بطاعة اولى الأمر على سبيل الجزم، وفى هذه الآية ومن أمر الله بطاعته على سبيل الجزم والقطع لا بدّ وأن يكون معصوماً عن الخطأ، إذ لو لم يكن معصوماً عن الخطأ كان بتقدير اقدمه على الخطأ، والخطأ لكونه منهى عنه، فهذا يفضى إلى اجتماع الأمر والنهى فى الفعل الواحد بالاعتبار الواحد، وأنّه محال، فثبت أنّ الله تعالى أمر بطاعة اولى الأمر على سبيل الجزم وثبت أنّ كل من أمر الله تعالى بطاعته على سبيل الجزم وجب أن يكون معصوماً عن الخطأ، فثبت قطعاً أنّ وليّ الأمر المذكور فى هذه الآية لا بدّ وأن يكون معصوماً.

(١) تفسير المنار، ج ٥، ص ١٨١.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٥

ثم يضيف: ذلك المعصوم إمّا مجموع الامه أو بعض الامية، لا جائز أن يكون بعض الامية، لأننا بيننا أن الله تعالى أوجب طاعة اولى الأمر فى هذه الآية قطعاً، وايجاب طاعتهم قطعاً مشروط بكوننا عارفين بهم قادرين على الوصول إليهم والاستفادة منهم، ونحن نعلم بالضرورة أننا فى زماننا هذا عاجزون عن معرفة الإمام المعصوم، عاجزون عن الوصول إليهم، عاجزون عن استفادة الدين والعلم منهم، وإذا كان الأمر كذلك علمنا أنّ المعصوم الذى أمر الله المؤمنين بطاعته ليس بعضاً من أبعاض الامية ولا طائفة من طوائفهم، وذلك يوجب القطع بأنّ إجماع الامه حجة» (١).

إنّ ما وضع الفخر الرازى وصاحب المنار وأمثالهم فى الزاوية الحرجة وجعلهم يفسرون هذه الآية بهذا التفسير الذى من المسلم أنّ أياً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله لم يكن يفهمه حين نزول الآية، هو التعيين المسبق الذى يحول دون البحث عن مفهوم الآية فى أئمة أهل البيت عليهم السلام المعصومين، فمن ناحية أنّ دلالة الآية على عصمة اولى الأمر جليّة.

ولم يكن فى نيتهم التسليم لشخص كإمام معصوم من ناحية اخرى لذا فهم يبحثون عن تفسير لم يفهمه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله أثناء نزول الآية.

والأعجب من جميع التفاسير هو التفسير الذى ينتخبه بعض مفسرى أهل السنة، ويقولون: إنّ المراد من اولى الأمر: الحكام والأمراء والملوك ويجب اتباع أى حاكم يتسلط على المسلمين، عادلاً كان أم ظالماً، سالكاً جادة الصواب أم منحرفاً، يأمر بإطاعة الله أم بمعصيته، كما يقول فى تفسير المنار فى إشارة غامضة: «وبعضهم اطلق فى الحكام فأوجبوا طاعة كلّ حاكم» (٢).

والأعجب من ذلك أيضاً، الروايات المشكوكة والموضوعة التى نسبت لرسول الله صلى الله عليه وآله لإثبات تفسير هذه الآية، كالذى قاله رسول الله صلى الله عليه وآله فى جوابه لجابر الجعفى حين قال:

يانبى الله أرأيت إن قامت علينا امراء يسألونا حقهم ويمنعونا حقنا فما تأمرنا؟

قال صلى الله عليه وآله: «إسمعوا وأطيعوا» (٣).

(١) تفسير الكبير، ج ١٠، ص ١٤٤.

(٢) تفسير المنار، ج ٥، ص ١٨١.

(٣) صحيح مسلم، ج ٣، ص ٤٧٤، كتاب الامارة، باب طاعة الأمراء وإن منعوا الحقوق.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٦

وفي حديث آخر في الكتاب نفسه، روى عن أبي ذر أنه قال: «إن خليلي أوصاني أن أسمع وأطيع وإن كان عبداً مجدع الأطراف» (١). وقد فسّر البعض المجدع الأطراف بمعنى من ولد في بيت غير طاهر وملوث. ومن المسلم به أن الساحة المقدسة للنبي صلى الله عليه و آله أظهر من أن يأمر خلافاً لمنطق العقل والشرع في الوقت الذي يروى عنه أنه قال: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» وأجلى دليل على ابتداع مثل هذه الأحاديث هو أن أباذر الذي روى عنه الحديث لم يفعل هكذا بشهادة تاريخه، حتى أنه قد ضحى بنفسه بسبب اعتراضه على انحراف امراء وحكام عصره!.

وعلى أيّة حال، من الواضح أنّ النبي صلى الله عليه و آله أسمى من هذه الأقاويل، فليس من إنسان عاقل ينطق بهذا الكلام ويقول: إنّ الحاكم واجب الطاعة في كل مايقول ويعمل، لا سيما وأنّ هذا الحديث: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» (٢) مشهورٌ بين علماء المسلمين سواء الشيعة أو السنة.

ولا طاعة لبشرٍ في معصية الله (٣).

من هنا نستنتج أنّ أصح تفسير للآية هو اطاعة الأئمة المعصومين عليهم السلام.

ويبقى لدينا سؤالان لا بدّ من الاجابة عنهما، وهما:

١- إذا كان معنى «أولى الأمر» هو الإمام المعصوم، فهل يتناسب مع كلمة «أولى» التي تفيد الجمع؟ فباعتماد الشيعة أنّ الإمام المعصوم واحد لا أكثر في كلّ عصر.

وقد اتضح الجواب عن هذا السؤال في البحوث السابقة، فصحيح أنّ الإمام المعصوم واحد في كل زمن، ولكن بالنظر لعمومية الآية بالنسبة لكافة الأزمنة، فإنّ الأئمة المعصومين بمجموعهم يشكلون مجموعةً، ونظير هذا المعنى كثير في كلمات العرب، فمثلاً نقول: السلام عليكم وعلى أرواحكم وأجسادكم. فلا يمكن الاعتراض على هذا السلام، فكل إنسان لا يمتلك أكثر من روح وجسم، فلماذا ذكرت الأرواح والأجساد هنا بصيغة

(١) صحيح مسلم، ج ٣، ص ١٤٦٧، كتاب الامارة، باب طاعة الأمراء وإن منعوا الحقوق.

(٢) نهج البلاغة، كلمات القصار، الكلمة ١٦٥.

(٣) تفسير در المنثور، ج ٢، ص ١٧٧.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٧

الجمع؟ الجواب: إنّ هذا الجمع ناظرٌ للمجموع.

من هنا فبالرغم من أنّ النبي صلى الله عليه و آله له وصيّ في كل زمان لكنهم يتعددون في مجموع الأزمنة، فيتحتّم استخدام صيغة الجمع لهم.

٢- والسؤال الآخر هو: إنّ الإمام المعصوم لم يكن موجوداً في عهد النبي صلى الله عليه و آله فكيف يؤمر بطاعته؟

وجواب هذا السؤال هو ما ورد سابقاً وهو: لو كانت الآية ناظرةً إلى زمان النبي صلى الله عليه و آله فقط لورد مثل هذا الإشكال، أمّا وأنها تعتبر حكماً عاماً لجميع المسلمين حتى يوم القيامة فلا يرد ذلك الإشكال، ففي عهد رسول الله كان هو الإمام صلى الله عليه و آله وفي سائر العصور كان الأئمة المعصومون عليهم السلام، فليس مفهوم الكلام «يجب على المسلمين اطاعة النبي وأوصيائه» هو

وجوب وجود أوصيائه في عهده.

ونختتم هذا الكلام بإشارة سريعة إلى الروايات الواردة في كتب الشيعة والسنة في ذيل هذه الآية والتي تفسرها بعلى عليه السلام وسائر الأئمة المعصومين عليهم السلام:

ينقل الشيخ سليمان القندوزي الحنفي في كتاب ينابيع المودة، عن تفسير «مجاهد» أن آية: «اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم» نزلت في علي عليه السلام أثناء ما خلفه رسول الله صلى الله عليه وآله في المدينة خلال «معركة تبوك»، ويروى عن علي عليه السلام بأنه استدل بهذه الآية أثناء محاجته للمهاجرين والأنصار، ولم يؤاخذه المهاجرون والأنصار «١». ونقل في شواهد التنزيل عن الحاكم الحسكاني في ذيل الآية: «اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم»، سألت (أى علي) رسول الله صلى الله عليه وآله: يا نبي الله من هم؟ قال: «أنت أولهم» «٢».

كما رويت روايات كثيرة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أيضاً في تفسير هذه الآية بالأئمة المعصومين عليهم السلام وبلغت العشرات، وجاء فيها جميعاً أن «أولى الأمر» هم الأئمة المعصومون «٣».

(١) ينابيع المودة، ص ١١٤ و ١١٥ و ١١٦.

(٢) شواهد التنزيل، ج ١، ص ١٤٨.

(٣) من أجل المزيد من الاطلاع راجعوا تفسير البرهان، ج ١ ص ٣٨١ إلى ٣٨٧؛ و تفسير كنز الدقائق ج ٣ ص ٤٣٧-٤٥٢. نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٩

٢- الولاية والإمامة العامة في السنة النبوية الشريفة

تمهيد:

يعتبر هذا القسم من أهم أقسام السنة النبوية الشريفة وقد وردت بهذا الصدد روايات كثيرة عن النبي صلى الله عليه وآله في أشهر وأهم المصادر الإسلامية وحيث من المناسب الالتفات إليها بكامل الدقة والحياد، من أجل إزالة الاتهامات التي الصقت بهذه المسألة سنوات طويلة، وذلك من خلال نور العلم والاخلاص والبحث، والكشف عن الصورة الحقيقية لها بعيداً عن التعصب، وليتضح واجبنا الإلهي ازاء هذه القضية الإسلامية المهمة.

ونكتفي هنا بتناول جانب من الروايات المشهورة التي تتناول مسألة الإمامة والولاية بشكل عام، مع شرح مختصر لمحتواها ومفهومها، ونرجو من القراء الكرام أن يكرروا ملاحظة هذه الروايات والوثائق والمصادر، وأن يطلعوا بدقة على مضمونها، ونوكل إليهم الاستنتاج والاستنباط النهائي.

إننا نعتقد أن اتخاذ موقف اللامبالاة ازاء هذه الأحاديث الناطقة والمرور عليها مرور الكرام، أو غض الطرف عن الحقائق، لا يقلل من مسؤوليتنا، بل يضاعفها.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٤١

١- حديث الثقلين

لقد سمي هذا الحديث بهذا الاسم لأن النبي صلى الله عليه وآله قال فيه: «إني تاركٌ فيكم الثقلين...» (١).

ونقل هذا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله بشكل واسع للغاية في كتب الشيعة والسنة المشهورة (وفي مصادر الدرجة الاولى بحيث لم يبق معه شك في صدور هذا الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله. وبشكل عام، يمكن الاستفادة من هذه الأحاديث، بأنه من الأحاديث التي لم يدل بها الرسول صلى الله عليه وآله لمرّة واحدة فيكون حديثاً واحداً، ورواته كثيرين، بل إنه صلى الله عليه وآله ذكره في موارد مختلفة، وقد روى بروايات متعددة.

ونذكر هنا رواة هذا الحديث والكتب الإسلامية التي ورد فيها:

١- ففي صحيح مسلم الذي هو من أشهر المصادر لدى أهل السنة وأهم الصحاح الستة، ينقل عن «زيد بن أرقم» أنه قال: «قام رسول الله صلى الله عليه وآله يوماً فينا خطيباً بماء يدعى خمأً، بين مكة والمدينة» (٢)، فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر، ثم قال: «أما بعد ألا أيها الناس فإنما أنا بشر، يوشك أن يأتي رسول ربّي فاجيب وأنى تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، فحث على كتاب الله ورغب فيه، ثم قال:

وأهل بيتي اذركم الله في أهل بيتي، اذركم الله في أهل بيتي، اذركم الله في أهل بيتي» (٣).

(١) تقرأ كلمة «ثقلين» على نحوين فتارة تقرأ على وزن «حَرَمِينَ»، ومفردتها (ثَقَل) على وزن «حَرَم» وتعني الشيء الثمين والنفيس، كما تأتي بمعنى امتاع المسافر، وتارة تُقرأ (ثَقَلَيْن) على وزن (سَبْطَيْن) حيث تعني الشيء الثقيل، ويعتقد صاحب كتاب «التحقيق» أن الاولى تعني القيمة المعنوية (والثانية أكثر شمولية) كما ينبغي الانتباه إلى أن (ثَقَل) على وزن (حَرَم) صفة مشبهة، و (ثَقَل) على وزن (سَبَط) اسم مصدر.

(٢) جاء في هامش صحيح مسلم أن غدير خم يبعد عن الجحفة ثلاثة أميال.

(٣) صحيح مسلم، ج ٤ ص ١٨٧٣.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٤٢

إن جعل أهل البيت عليهم السلام في موازاة القرآن باعتبارهما شيئين ثمينين، والتأكيد على التذكير بالمسؤولية الإلهية تجاههما يبرهن على علاقة هذا الأمر بمصير المسلمين وهدايتهم والمحافظة على اصول الإسلام، وإلا لما اجتماعاً.

٢- وجاءت في نفس الكتاب رواية اخرى لنفس الراوى مع شيء من الاختلاف (١).

واللطيف أنه عندما يُسأل زيد بن أرقم تعقياً على هذه الآية هل المقصود من أهل بيته زوجاته؟ فيجيب: لا، المقصود من أهل البيت أهله من النسب الذين تحرم عليهم الصدقة.

٣- ونقرأ في كتاب سنن الترمذي الذي يعرف ب «صحيح الترمذي أيضاً في بحث مناقب أهل البيت عليهم السلام عن جابر بن عبد الله أنه يقول: رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله يوم عرفه وقد صعد ناقته وخطب، فسمعتة يقول: «يا أيها الناس إني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا، كتاب الله وعترتي أهل بيتي» (٢).

ثم يضيف الترمذي: وقد روى كل من أبي ذر، وأبي سعيد الخدرى، وزيد بن الأرقم، وحذيفة هذا المعنى أيضاً.

٤- بعد قليل وفي نفس الكتاب يروى عن أبي سعيد وزيد بن الأرقم أنهما قالوا: قال رسول الله صلى الله عليه وآله «إني تارك فيكم ما أن تمسكتم به لن تضلوا بعدى: أحدهما أعظم من الآخر، كتاب الله حبل ممدود ما بين السماء والأرض، وعترتي أهل بيتي، وأنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما» (٣).

٥- وفي سنن الدارمي وهو من الكتب المعروفة أيضاً، روى حديث يشابه حديث زيد بن الأرقم عن النبي صلى الله عليه وآله، ويختتم

الكلام بالتصريح باسم الثقلين و «كتاب الله وأهل البيت» (٤).

ولا ينبغي نسيان أن (الدارمي) وبناء على ما قاله بعض العارفين هو استاذ مسلم وأبي داود، وكتاب سنن الدارمي أحد الكتب الستة المعتمدة المعروفة لدى أهل السنة (وان ذكر

(١) صحيح مسلم، ج ٤، ص ١٨٧٤.

(٢) صحيح الترمذى، ج ٥، ص ٦٦٢، باب مناقب أهل بيت النبي، ح ٣٧٨٦.

(٣) صحيح الترمذى، ص ٦٦٣، ح ٣٧٨٨.

(٤) سنن الدارمي، ج ٢، ص ٤٣٢.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٤٣

البعض سنن ابن ماجه بدلاً عنه).

٦- ونقرأ في مسند أحمد وهو من الأئمة الأربعة لأهل السنة رواية عن زيد بن ثابت حيث يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إني تارك فيكم خليفين: كتاب الله جبل ممدود ما بين السماء والأرض، أو ما بين السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي وأنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض» (١).

انتبهوا إلى أنه في بعض هذه الروايات ورد تعبير «الثقلين» «كما في رواية صحيح مسلم». وفي بعضها «خليفتي» «كما في الرواية الأخيرة التي نقلت عن سنن أحمد»، وفي البعض الآخر لم يرد أى منهما، بل مفهومها ومضمونها، وفي الحقيقة فإنها جميعاً تعود إلى أمر واحد. ٧- يروي أحمد بن شعيب «النسائي»- الذي يعتبر من أعظم أهل السنة أيضاً، وكتاب سننه من الصحاح الستة المشهورة أيضاً- في كتاب «الخصائص» عن زيد بن الأرقم قوله:

إن النبي صلى الله عليه وآله وحين عودته من حجة الوداع ووصوله إلى غدير خم أمر بإقامته ظلّه هناك واغتسل تحتها ثم قال: «كأنى دعيت فاجبت، وإني تارك فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله وعترتي فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فإنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض، ثم قال: إن الله مولاي وأنا مولى كل مؤمن ثم أخذ بيد علي عليه السلام، فقال: من كنت مولاه فهذا وليه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه».

وفي نهاية الرواية ورد أن الراوى الثانى «أبو طفيل» قال: قلت لزيد بن الأرقم: أسمع هذا الحديث من رسول الله صلى الله عليه وآله و آله؟

قال: كل من كان تحت الظلة رأى هذا المنظر بعينه، وسمع هذا الكلام بأذنيه (٢).

هذه الرواية تبرهن جيداً على أن النبي صلى الله عليه وآله أدلى بهذا الكلام فى الملاءعام، وبحضور حشد غفير فى غدير خم، والجميع قد سمعوا ذلك.

(١) مسند الإمام أحمد، ج ٥، ص ١٨٢.

(٢) خصائص النسائي، ص ٢٠، وفقاً لما نقل عن فضائل الخمسة، ج ٢ ص ٥٤.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٤٤

٨- ويروي الحاكم النيسابورى- وهو من علماء القرن الرابع الهجرى فى كتاب مستدرک الصحيحين وهو من المصادر المعروفة لدى أهل السنة ويضم الروايات التى لم ترد فى صحيحى البخارى ومسلم، بينما هو فى مرتبتهما من ناحية القيمة والوزن- هذا الحديث عن ابن واصله أنه يقول: سمعت من زيد بن الأرقم أن النبي صلى الله عليه وآله وصل إلى أشجار بين مكة والمدينة وكانت هناك خمس

ظلل، فنزل وقام الناس بتنظيف ما تحت الأشجار، وبعد صلاتي الظهر والعصر، خطبنا رسول الله فحمد الله وأثنى عليه، وبالغ في الوعظ ثم قال:

«أيها الناس إنني تارك فيكم أمرين لن تضلوا أن اتبعتموهما: وهما كتاب الله وأهل بيتي عترتي» (١).

ثم يضيف الحاكم: وهذا الحديث صحيح على شرط الشيخين (٢).

٩- يقول ابن حجر الهيتمي مفتي الحجاز وهو من ألد أعداء الشيعة، في كتاب «الصواعق المحرقة»: في رواية صحيحة «كأنني قد دُعيت فاجبت، إنني قد تركت فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله عز وجلّ وعترتي فانظروا كيف تخلفوني فيهما فإنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض».

ثم يضيف: وقد وردت هذه الزيادة في رواية أخرى أيضاً: «سألت ربي ذلك لهما، فلا تتقدموهما فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا، ولا تعلموهما فإنهم اعلم منكم».

ثم يضيف: إن لهذه الرواية طريقتين يروون على نيف وعشرين راوياً، ولا حاجة لشرحه وتفصيله (٣).

إن هذا الاقرار الصريح بسعة هذا الحديث «إلى حد التواتر» ومن شخص طالما شنّ أعنف الهجمات على الشيعة فيما يخص مسألة الإمامة لهو أمرٌ جديرٌ بالاهتمام.

(١) مستدرک الصحيحين، ج ٣، ص ١٠٩ (طبقاً لنفس المصدر).

(٢) المراد من شرط ذينك الشخصين هو أنهما ينقلان الأحاديث التي تنتهي لسلسلة سندها إلى النبي صلى الله عليه وآله وأن رواتهما يحظون بثقتهم وليسوا متهمين، وحيث إنهما لم ينقلتا كل الأحاديث التي تتمتع بهذا الشرط، فقد قام الحاكم النيسابوري بجمع الأحاديث التي تتمتع بالشرط ولم تأت في الكتابين، وذلك في كتابه «المستدرک»، من هنا يمكن أن يكون المستدرک موازياً لصحيح البخاري ومسلم.

(٣) الصواعق، ص ٢٢٦.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٤٥

١٠- يروي ابن الأثير «محمد بن محمد بن عبد الكريم» صاحب الكتب المشهورة والتي من بينها كتاب «اسد الغابة في معرفة الصحابة» في أحوال «عبد الله بن حنطب» أنه قال:

«خطبنا رسول الله صلى الله عليه وآله بالجحفة فقال: ألسن أولي بكم من أنفسكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله! قال إنني سألتكم عن اثنين عن القرآن وعن عترتي» (١).

١١- وذكر «جلال الدين عبد الرحمن السيوطي» وهو من العلماء المعروفين أيضاً وصاحب المؤلفات الكثيرة (٢)، في كتاب «احياء الميت» ما أورده ابن الأثير في اسد الغابة (٣).

١٢- وقد أورد البيهقي «أبو بكر أحمد بن الحسين» الذي يقول الزمخشري بحقه: «إن للشافعي دينا على عاتق جميع أتباعه، إلا أن البيهقي ولما كتبه فهو ذو حق على الشافعي نفسه وعلى أتباعه أيضاً» (٤).

وأورد هذا الحديث في كتاب «السنن الكبرى وهو من أهم كتبه (نظيراً لما ورد في صحيح مسلم لا سيما وأن كلمة أهل البيت قد تكررت فيه ثلاثاً)» (٥).

١٣- كما أن الحافظ الطبراني وهو من المحدثين المعروفين لدى أهل السنة «وقد عاش في القرن الثالث والرابع للهجرة» وكما يقول البعض: إنه عاصر أكثر من ألف استاذ في الحديث، يروي في كتابه الموسوم «المعجم الكبير» بسنده إلى رسول الله صلى الله عليه وآله أن النبي صلى الله عليه وآله دعا الناس إلى اتباع الثقلين، فقام رجل وسأله: يا رسول الله، وما الثقلان؟ قال:

«الأكبر كتاب الله، سبب طرفه بيد الله، وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به لا تزلوا ولا تضلوا، والأصغر عترتي وأنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض».

ثم أضاف النبي صلى الله عليه وآله: «وقد سألت ربي لهما ذلك، فلا تتقدموهم فتهلكوا، ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم» (٦).

- (١) اسد الغابة في معرفة الصحابة، ج ٣، ص ٤٧.
- (٢) قيل إنه كتب أكثر من خمسمائة كتاب (الكنى واللقاب، ج ١ ص ٢٠٧).
- (٣) احياء الميت الذي طبع على هامش الاتحاف، ص ١١٦.
- (٤) الكنى والألقاب، ج ٢، ص ١١٤.
- (٥) سنن البيهقي، ج ١٠، ص ١١٤.
- (٦) المعجم الكبير، ص ١٣٧، وفقاً لما نقله احقاق الحق، ج ٩، ص ٣٢٢.
- نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٤٦
- ١٤- ونقل ابن تيمية «أحمد بن عبد الحلیم الحنبلي» «المتوفى سنة ٧٢٨ هـ» مؤسس «المذهب الوهابي» في كتاب منهاج السنة، هذا الحديث كما ورد في صحيح مسلم (١).
- كما نقله جماعة آخرون من علماء السنة المشهورين والمعروفين في كتبهم، منهم:
- ١٥- ابن المغازلي علي بن محمد، «الفتاوى الشافعية وهو من علماء القرن الخامس الهجري» إذ نقل هذا الحديث بمزيد من التفصيل عن زيد بن الأرقم (٢).
- ١٦- الخوارزمي وهو من مشاهير علماء القرن السادس وكان من الفقهاء والمحدثين والخطباء والشعراء، نقل هذا الحديث أيضاً في كتابه الموسوم بـ «المناقب» (٣).
- ١٧- وذكره الذهبي «محمد بن أحمد بن عثمان الدمشقي الشافعي»- وهو من علماء القرنين السابع والثامن، وهو معروف بالتحيز لمذهبه، وقد قال تاج الدين السبكي في كتاب «طبقات الشافعية» بحقه: إنه محدث عصره، وختام الحفاظ، ورافع راية مذهب السنة والجماعة، وامام أهل زماننا- هذا الحديث أيضاً في كتاب «تلخيص المستدرک» (٤).
- ١٨- وذكر المؤرخ الشهير علي بن برهان الحلبي الشافعي وهو من علماء القرن الحادي عشر، في كتابه «إنسان العيون» المشهور بالسيرة الحلبية، حديث الثقلين ضمن بيانه لحديث الغدير وبعبارة صريحة كالذي ذكرناه آنفاً، وبعد ذكر هذا الحديث يقول بصراحة: «هذا حديث صحيح حيث نُقل باسناد صحيحه وحسنه» (٥).
- وذكر ابن حيان المالكي في كتاب «المقتبس في أحوال الاندلس» شبيه ما ورد في صحيح مسلم، إلا أنه ذكر المكان الذي تلا فيه النبي صلى الله عليه وآله تلك الخطبة والواقع بين مكة والمدينة بأنه «الحصائن» والتي تعني «القلاع» (٦).

(١) منهاج السنة، ج ٤، ص ١٠٤.

(٢) احقاق الحق، ج ٤، ص ٤٣٨، (نقلًا عن كتابه الخطي).

(٣) المناقب، ص ٩٣.

(٤) جاء هذا الكتاب على هامش كتاب المستدرک للحاكم، ج ٣، ص ١٠٩.

(٥) السيرة الحلبية، ج ٣، ص ٢٧٤.

(٦) المقتبس، ص ١٦٧.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٤٧

٢٠- وأورد «علاء الدين علي بن محمد البغدادي» المشهور بـ «الخازن» وهو من علماء القرن الثامن الهجري في تفسيره ما جاء في صحيح مسلم والترمذي «١».

٢١- وأورد «ابن أبي الحديد المعتبري عز الدين عبد الحميد» وهو من علماء القرن السابع الهجري، هذه الرواية أيضاً في شرح نهج البلاغة، فيقول: «قد بين رسول الله صلى الله عليه وآله عترته من هي لما قال: إني تارك فيكم الثقلين، فقال عترتي أهل بيتي». ثم يضيف: وقد بين رسول الله صلى الله عليه وآله أهل بيته أيضاً في مكان آخر، عندما نشر عليهم الكساء، وعندما نزلت الآية: «أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ...»، قال: «إلهي هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس» «٢».

٢٢- ونقل «زيني دحلان» الشافعي (سيد أحمد) مفتي مكة وهو من علماء القرن الثالث عشر الهجري وله مؤلفات كثيرة، هذا الحديث في كتاب «السيرة النبوية» الذي طبع على هامش السيرة الحلبية كما نقله صحيح مسلم تماماً، وكما رواه مسند أحمد بن حنبل عن أبي سعيد الخدري «٣».

ترتيب مختصر:

كانت هذه مجموعة من مشاهير العلماء منذ قرون الإسلام الأولى وحتى القرون الأخيرة، حيث نقلوا حديث الثقلين في كتبهم بكل صراحة، ولكن لا ينبغي أن ننسى أن هذه طائفة قليلة من مجموع رواة هذا الحديث، وطبقاً لما جاء في خلاصة عبقات الأنوار فقد ذكر المرحوم مير حامد حسين الهندي مائة وستة وعشرين كتاباً معروفاً، وقد أورد في كتابه هذا نص العبارة مع رقم الجزء والصفحة في الكتاب «٤».

ومن الجدير بالذكر أن هذا الحديث لم يرو عن جابر بن عبد الله الأنصاري أو أبي سعيد

(١) تفسير الخازن، ج ١، ص ٤.

(٢) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد، ج ٢، ص ٤٣٧، طبع القاهرة.

(٣) السيرة النبوية، ج ٢، ص ٣٠٠؛ على هامش ج ٣ من السيرة الحلبية، ص ٣٣ وجاء أيضاً في ص ٣٣.

(٤) نقلًا عن خلاصة عبقات الأنوار، ج ٢، ص ١٠٥-٢٤٢.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٤٨

الخدري أو زيد بن الأرقم فحسب، بل رواه ما لا يقل عن ثلاثة وعشرين من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله عنه مباشرة، وفيما يلي أسماؤهم:

- ١- زيد بن الأرقم، ٢- أبو سعيد الخدري، ٣- جابر بن عبد الله الأنصاري، ٤- حذيفة بن أسيد، ٥- خزيمه بن ثابت، ٦- زيد بن ثابت، ٧- سهل بن سعد، ٨- ضمرة الاسلمي، ٩- عامر بن ليلي، ١٠- عبر الرحمن بن عوف، ١١- عبد الله بن عباس، ١٢- عبد الله بن عمر، ١٣- عدى بن حاتم، ١٤- عقبه بن عامر، ١٥- علي بن أبي طالب عليه السلام، ١٦- أبو ذر الغفاري، ١٧- أبو رافع، ١٨- أبو شريح الخزاعي، ١٩- أبو قدامة الأنصاري، ٢٠- أبو هريرة، ٢١- أبو هيثم بن التيهان، ٢٢- ام سلمه، ٢٣- أم هاني.

تكرار حديث الثقلين على لسان النبي صلى الله عليه وآله:

من الامور التي يجدر ذكرها هنا أن النبي صلى الله عليه وآله لم يدل بهذا الحديث لمرة واحدة فقط كما هو الحال بالنسبة لحديث الغدير الذي صرح به النبي صلى الله عليه وآله مرة واحدة وسمعه ونقله كثيرون، بل إنه ردّد حديث الثقلين في مواطن عديدة ومناسبات مختلفة.

والمواطن التي ذكر فيها الحديث ونُقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله في كتب أهل السنة عبارة عن:

١- في غدير خم أثناء عودة النبي صلى الله عليه وآله من حجة الوداع، حيث قام وأورد حديث الثقلين ضمن كلماته المفصلة. وهذا ما ذكرناه آنفاً عن صحيح مسلم وخصائص النسائي مع ذكر الاسناد والمصادر.

٢- خلال أيام الحج وفي يوم عرفة وعندما كان النبي صلى الله عليه وآله يخطب من على ناقته حيث أدلى بهذا الحديث. وهذا ما رواه الترمذي في صحيحه عن جابر بن عبد الله الأنصاري، وأدرج سابقاً تحت الرقم ٢.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٤٩

٣- تحدّث النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بهذا الحديث في «الجحفة» وهي أحد مواقيت الحج بين مكة والمدينة، كما ذكر ذلك ابن الأثير في «اسد الغابة» في أحوال «عبد الله بن حنطب»، وذكر سابقاً في العدد ٨ من سلسلة الأحاديث.

٤- أثناء مرضه الذي انتهى بوفاته، وعندما كان يدلي بآخر وصاياه، أوصى صلى الله عليه وآله بالثقلين وقال: «أيها الناس يوشك أن اقبض قبضاً سريعاً فينطلق بي وقد قدّمت إليكم القول معذرةً إليكم إلما أتى مخلف فيكم كتاب ربي عزّ وجلّ وعترتي أهل بيتي، ثم أخذ بيد علي عليه السلام فرفعها، فقال: هذا عليّ مع القرآن والقرآن مع علي لا يفترقان حتى يردا على الحوض فاسئلوهما ما خلّفت فيهما» (١).

وهناك دقائق وظرائف لا تخفى على أهل الحقيقة.

٥- قال صلى الله عليه وآله في «مسجد الخيف» اثناء «حجة الوداع»: ألا وإنّي سائلكم عن الثقلين، قالوا: يارسول الله وما الثقلان؟ قال: كتاب الله الثقل الأكبر، طرف بيد الله وطرف بأيديكم فتمسكوا به لن تضلوا ولن تزلوا، وعترتي أهل بيتي، فأنه قد نبأني اللطيف الخبير أنّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض كاصبعتي هاتين» (٢).

٦- أثناء عودته صلى الله عليه وآله من الطائف «بعد فتح مكة» حيث وقف النبي وذكر هذا الحديث وهذه النقاط المهمة (٣).

إنّ هذا التكرار والتأكيد وفي أماكن مختلفة، في المدينة وفي أيام الحج، في يوم عرفة، وفي مسجد الخيف «أيام منى» وفي وسط الطريق بين مكة والمدينة، وموارد أخرى دليل واضح وبرهان قوي وناطق على أنّ التمسك بهذين الأمرين المهمين يعتبر قضية مصيرية ومهمة بحيث كان النبي صلى الله عليه وآله يريد توعية المسلمين على أهميتهما لئلا يضلوا، والعجب العجيب إذا ما تخلينا عنهما بعد كل هذا التكرار والتأكيد، وألقينا بأنفسنا في الضلالة، أو قلنا من شأنهم من خلال التبريرات الخاطئة.

(١) الصواعق المحرقة، ص ٧٥.

(٢) تفسير علي بن إبراهيم وفقاً لنقل بحار الأنوار، ج ٢٣، ص ١٢٩، ح ٦١.

(٣) صواعق ابن حجر، الفصل الأول، الباب ١١ آخر ص ٨٩.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٥٠

نفحات القرآن ج ٩٩

فكيف يمكن المرور مرور الكرام بحديث نقله نيف وعشرون من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله، وورد في المصادر الشهيرة ومن قبل الطبقة الاولى ونقل في ما يقارب من مائتي كتاب إسلامي معروف، لا شك ولا ريب في سنده، ولا غموض في برهانه؟ من المسلم به أنّ من يمر بهذا الحديث مرور الكرام تقع على عاتقه مسؤولية عظيمة.

فالذى يؤمن بالنبي صلى الله عليه وآله باعتباره رسول الله صلى الله عليه وآله وخاتم النبيين والأمين على الوحي، ويرى تأكيده على التمسك بهذين الأمرين المهمين رأى العين، ويعتبر أن الهدى فى اتباعهما، عليه أن يعلم أن هناك سرّاً مهماً يكمن فى هذين الأمرين.

المسائل المهمة المستوحاة من حديث الثقلين:

إنّ هذا الحديث الشريف يرسم خطوطاً مهمّة أمام المسلمين، وسنشير إلى جانب منها بشكل مختصر:

١- إنّ القرآن وأهل البيت عليهم السلام متلازمان دائماً ولا يمكن فصلهما، والذين يبحثون عن حقائق القرآن يتحتم عليهم التمسك بأهل البيت عليهم السلام.

٢- كما أنّ اتباع القرآن واجب على المسلمين بلا قيد أو شرط فإنّ اتباع أهل البيت عليهم السلام واجب أيضاً بلا قيد أو شرط.

٣- إنّ أهل البيت معصومون عليهم السلام، فعدم افتراقهم عن القرآن من ناحية، ووجوب اتباعهم بلا قيد أو شرط من ناحية أخرى دليل واضح على عصمتهم من الزلل والخطأ والذنب، فلو كانوا يذنبون أو يخطئون لانفصلوا عن القرآن، وأنّ اتباعهم لم يؤمن المسلمين من الضلالة والانحراف، وأنّ قوله صلى الله عليه وآله: «ما إن تمسكتهم بهما لن تضلوا»، دليل جليّ على عصمتهم.

٤- والأهم من كل ذلك أنّ النبي صلى الله عليه وآله قد رسم هذا الخط للمسلمين على مر الزمان إلى يوم القيامة، فيقول: «إنهما لن يفترقا حتى يردا علىّ الحوض» فهذا يوضح بجلاء أنّ هناك

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٥١

شخصاً من أهل البيت عليهم السلام بعنوان أمام معصوم على مر التاريخ، وكما أنّ القرآن نبراس هداية فإنّهم كذلك، إذن لا بدّ أن نسعى ونبحث عنهم فى كلّ عصر وزمان.

٥- استفاد من هذا الحديث الشريف أنّ الانفصال عن أهل البيت عليهم السلام أو التقدم عليهم يمثل أساس الضلال، ولا ينبغي تقديم شيء على ما يختارونه.

٦- إنهم أفضل وأعلم من الناس كافّة.

نعم، فلا غموض فى استجلاء هذه الامور من الحديث المذكور أبداً.

واللطيف أنّ «السمهودى» والشافعى «١» وهما من علماء القرن التاسع والعاشر الهجرى المعروفين، وصاحب كتاب «وفاء الوفاء» يقول فى احدى مؤلفاته باسم «جواهر العقدين» الذى كتبه حول حديث الثقلين: إنّ ذلك يفهم وجود مَنْ يكون أهلاً للتمسك به من أهل البيت والعترة الطاهرة فى كلّ زمانٍ وجدوا فيه إلى قيام الساعة، حتى يتوجه الحثّ المذكور إلى التمسك به كما أنّ الكتاب العزيز كذلك «٢».

سؤال أخير:

يبقى سؤال واحد فقط وهو: إنّه عبر فى بعض الروايات وإن كانت قليلة جداً ب «وسنتى» بدلاً عن «وعترتى أهل بيتى»، حيث عثرنا عليهما فى مكانين فى سنن البيهقى، فى مورد يروى ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه خطبنا فى حجة الوداع وقال: «إنّى تارك فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا أبداً، ثم قال: كتاب الله وسنة نبيّه» «٣».

وفى سند آخر نقل هذا المعنى عن أبى هريرة أيضاً «٤».

ولكن من الواضح أنّ هذه الرواية لا يُستند عليها في مقابل جميع تلك الروايات التي

(١) «سمهود»، قرية كبيرة إلى جانب النيل في مصر.

(٢) خلاصة عبقات الأنوار، ج ٢، ص ٢٨٥.

(٣) سنن البيهقي، ج ١٠، ص ١١٤.

(٤) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٥٢

تصرح باسم أهل البيت والعترة، وحتى أنّ كلمة أهل البيت تكررت في بعضها ثلاث مرات، وتم التأكيد عليهم، وفي بعضها جاء اسم عليّ عليه السلام بالنص، وأنّ النبي صلى الله عليه وآله أخذ بيده وعزّف به، ويبدو أنّ سلاطين الزمان قاموا بهذا التغيير للإفلات من مؤاخذات الناس، إلّا أنّهم لم يستطيعوا التحريف.

فضلاً عن أنّ هاتين الروايتين على فرض صحة حديث «وستى» لا تتعارضان، ففي مكان يوصى النبي صلى الله عليه وآله بالكتاب والسنة، وفي مكان آخر بالكتاب والعترة، لأنّ النبي صلى الله عليه وآله وكما أسلفنا قد أدلى بهذا الحديث مرات عديدة (وفقاً للروايات التي وردت في المصادر المشهورة لأهل السنة)، فتارة في حجة الوداع، واخرى أثناء عودته من الطائف، ومرة في المدينة وعلى المنبر، واخرى على فراش المرض والوفاء «١»، فما الضير في أن يقول مرات ومرات: «وعترتي» ومرة واحدة: كتاب الله وسنتي؟ وهل هنالك شخص ينكر أنّ سنة النبي صلى الله عليه وآله هي إحدى آثاره العظيمة، التي يجب العمل بها؟ وهل يمكن لمسلم أن يغيض الطرف عن سنة رسول الله صلى الله عليه وآله التي أكد عليها القرآن، وقال: «مَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا».

(الحشر / ٧)

إنّ هذا المعنى لا يتعارض والتأكيد على اتباع العترة والتمسك بها الوارد في الموارد الاخرى

وبتعبير آخر: إنّ اختيار إحدى الروايتين يكون في موضع يتعارضان فيه، والحال أنّهما لا يتعارضان على الاطلاق، إنّ التمسك بهدى أهل البيت عليهم السلام هو أحد المصاديق البارزة للعمل بسنة رسول الله صلى الله عليه وآله فمن اطاع أهل البيت عليهم السلام فقد عمل بسنة رسول الله صلى الله عليه وآله، والذي أدار ظهره لهم وقدم اختياره على اختيار رسول الله صلى الله عليه وآله فقد تمرد على رسول الله صلى الله عليه وآله.

وعلى أي حال لا يمكن التنصل من المسؤولية التي حملتها إيانا أحاديث الثقلين الأحاديث المتواترة بلا شك، ولا يمكن التغاضي عنها من ناحية السند والبرهان.

ونختم الكلام بشعر أورده الإمام الشافعي بهذا الصدد:

(١) لقد تمت الإشارة إلى هذه الموارد سابقاً، ويجدر القول إنّ المرحوم السيد شرف الدين قد أشار إلى الموارد في الرسالة الثامنة في كتابه المراجعات.

ولما رأيت الناس قد ذهبت بهم مذاهبهم في بحر العين والجهل

ركبت على اسم الله في سفن النجاة وهم آل بيت المصطفى خاتم الرسل

وأمسكت حبل الله وهو ولاؤهم كما قد أمرنا بالتمسك بالحبل

وما أسعد الإنسان إذ يراهم الملاذ في كل شيء ويعرف الحق من خلالهم «١».

وقد استند في الكثير من الروايات الأنفة إلى قضية حوض الكوثر، وسبب ذلك بحسب الظاهر أنّ حوض الكوثر يقع في باب الجنة،

وأن أول قدم للدخول تكون هناك، وأن الصالحين يزورون النبي صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام هناك.

نقحات القرآن، ج ٩، ص: ٥٥

٢- حديث سفينة نوح

إشارة

من الأحاديث المشهورة بحق أهل البيت عليهم السلام والأئمة المعصومين عليهم السلام هو «حديث السفينة» الذي ورد في الكتب المعروفة لدى الشيعة وأهل السنة بشكل واسع، ونحن هنا نبحت في نص واسناد ومصادر هذا الحديث الشريف بشكل سريع: لقد نقل هذا الحديث ما لا يقل عن ثمانية من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وهم (أبو ذر، وأبو سعيد الخدري، وابن عباس، وأنس، وعبد الله بن الزبير، وعامر بن وائلة، وسلمة بن الأكوع، وعلي عليه السلام) «١».

لقد وردت الروايات الآتية في الكتب المشهورة لدى أهل السنة حيث نشير إلى جانب منها فيما يأتي،- وللمزيد من التوضيح نحث على مراجعة الكتب التالية: احقاق الحق، الجزء التاسع، وخلصه عبقات الأنوار، الجزء الرابع وسائر الكتب-.

إن أبا ذر رحمه الله كان ماسكاً باب الكعبة ويقول: «من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فليعلم أني أبو ذر الغفاري، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها هلك»، وجاء في رواية: «ومن تخلف عنها غرق» «٢».

وعليه فهم سفينة النجاة في بحر الحياة المتلاطم.

٢- يروي «ابن عباس» وكذا «سلمة بن الأكوع»- وفقاً لما ينقله أبو الحسن علي بن

(١) وفقاً لما نقل في اسد الغابة أن عبد الله بن الزبير ولد في بداية الهجرة، وفي سن السابعة أو الثامنة جاء به أبوه الزبير إلى الرسول صلى الله عليه وآله ليبيعه، فسمع منه صلى الله عليه وآله ما بقي من عمره ورواها (اسد الغابة، ج ٣، ص ١٦٢).

(٢) روى هذا الحديث الحافظ الطبراني في المعجم الكبير والمعجم الصغير، ص ٧٨ طبعة دلهي؛ وابن قتيبة الدينوري في عيون الأخبار، ج ١، ص ٢١٢ طبعة مصر؛ والحاكم النيشابوري في المستدرک، ج ٣، ص ١٥٠؛ والذهبي في ميزان الاعتدال، ج ١، ص ٢٢٤؛ والسيوطي في تاريخ الخلفاء، ص ٥٧٣؛ وجماعة أخرى كثيرة.

نقحات القرآن، ج ٩، ص: ٥٦

محمد الشافعي، المشهور بابن المغازلي، في كتاب المناقب- عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها هلك».

وهذه العبارة نقلت عن ابن عباس، إلا أن عبارة «ابن الأكوع» أكثر اختصاراً وهي:

«مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح من ركبها نجا».

يقول الشيخ «محمد أمين الانطاكي»، مؤلف كتاب «لماذا اخترت مذهب الشيعة» في بحث حديث السفينة: اتفقت آراء علماء الإسلام على صحة واستفاضة نقل هذا الحديث حتى بلغ حد التواتر، وهناك عدد كبير من الحفاظ وأئمة الحديث وأهل السير والتواريخ نقلوا هذا الحديث حتى بلغ عددهم أكثر من مائة وحتى غير المسلمين نقلوا هذا الحديث ووضعه بين الأحاديث الإسلامية «١».

وروى هذا الحديث في كتاب «عبقات الأنوار» عن اثنين وتسعين كتاباً مكتوبه من قبل اثنين وتسعين من مشاهير علماء أهل السنة

بشكل مفصل مع جميع المشخصات:

وفي الملحقات التي ذكرها صاحب كتاب «خلاصة عبقات الأنوار» نقل هذا الحديث عن ثمانية من الصحابة، وثمانية من التابعين، وثلاثة من علماء القرن الثاني، وثمانية من علماء القرن الثالث، وأربعة عشر من علماء القرن الرابع، وهكذا قرناً بعد قرن حتى وصل إلى القرن الحالي، وذكرهم جميعاً بالإسم والمواصفات «٢».

مفاد حديث السفينة:

من أجل إدراك المعنى الدقيق لهذا الحديث لابد من إلقاء نظرة على أحوال سفينة نوح. يقول القرآن الكريم: «فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ* وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدَرٍ». (القمر / ١١-١٣)

(١) لماذا اخترت مذهب الشيعة، ص ١٦٦.

(٢) خلاصة عبقات الأنوار، ج ٢، ص ١٢٦-١٩٥.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٥٧

لقد دمر هذا الفيضان الشامل وغطى الماء كل شيء ولم يبق مأوى يلتجئ الإنسان إليه سوى سفينة نوح التي ضمن الله تعالى لمن ركبها النجاة من الغرق، بحيث عندما قال ابن نوح بغرور: «سَيَأْوِي أَلِيَّ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ» فليس هناك فيضان يصل إلى قمم الجبال، جُوبه برد أبيه الحازم والرادع حيث قال له: «لَأَعْيَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ»! إشارة إلى المؤمنين الذين ركبوا في السفينة، وظهر صدق كلام نوح مباشرة إذ: «وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ». (هود / ٤٣)

إن تشبيه أهل البيت بمثل هذه السفينة وفي تلك الظروف، زاخرٌ بالمعاني التي تعلمنا منها الكثير من الحقائق، ومن بينها:

١- إن العواصف ستعصف بالامة الإسلامية بعد النبي صلى الله عليه وآله وتجرّف الكثير معها ويغرق في أمواجها الكثير أيضاً.
٢- هنالك طريق واحد فقط للخلاص من مخالب الأخطار التي تهدد الدين والإيمان وارواح الناس، ألا وهي سفينة أهل البيت عليهم السلام التي يُعتبر التخلف عنها أو تركها سبباً للهلاك.

٣- إن الانفصال عن واسطه النقل في الصحراء قد لا- يؤدّي إلى الموت دائماً، إلّا أنّه يُعرّض الإنسان إلى العناء، بيد أنّ التخلف عن سفينة النجاة في بحر متلاطم لا ينتج عنه سوى الموت والهلاك.

٤- لقد كان شرط الركوب في سفينة نوح عليه السلام الإيمان والعمل الصالح، من هنا فقد عرض نوح على ابنه الإيمان، والانفصال عن الكافرين، والركوب معه ومع أصحابه في السفينة: «يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ». (هود / ٤٢)
بناء على ذلك فشرط نجاة هذه الامه من العواصف والانحرافات هو الإيمان واليقين بمقام سفينة النجاة هذه.

٥- ليست محبتهم فقط التي تؤدّي إلى النجاة، حيث طرح بعض علماء الإسلام ذلك بادعائهم أنّ جميع المسلمين يجبون أهل البيت عليهم السلام ويعظموهم، من هنا فهم جميعاً من الناجين. بل إنّ الكلام الذي جاء في الرواية هو عن اتباعهم (مقابل التخلف عنهم)، فإنّ ابن

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٥٨

نوح كان يحبُّ أباه إلّا أنّه لم يكن يتبعه، ولم تؤدِّ محبته إلى نجاته ابداً (تأملوا جيداً).

٦- كما استفيد من «حديث الثقلين» خلال البحوث الآنفه أنّ التمسك بولاء أهل البيت عليهم السلام مستمرٌّ حتى نهاية العالم، وأنّ القرآن وأهل البيت عليهم السلام لن يفترقا حتى يردا على رسول الله صلى الله عليه وآله الحوض في الجنة، يستفاد أيضاً من «حديث

السفينه»، أن هذا الخط مستمر حتى نهاية الكون، لأن الدنيا دائماً مركز الابتلاءات والعواصف، أي أن الشياطين ودعاة الضلالة والتائهيين في وادي الحيرة موجودون في كل زمان، ولا تهدأ هذه العواصف أبداً، وهي قائمة إلى يوم القيامة حيث يحكم الله تعالى بين عباده، فتزال الاختلافات «١» على هذا الأساس، فإن وجود السفينه سفينه النجاه هذه ضروري إلى الأبد والتخلف عنها يؤدي إلى الهلاك.

٧- إن التمسك المطلق بأهل البيت عليهم السلام (في قبال التخلف عنهم) يمكن أن يكون شاهداً جلياً على وجود الإمام المعصوم في كل زمان من أهل البيت عليهم السلام، حيث يؤدي أتباعه إلى النجاه والتخلف عنه إلى الهلاك.

٨- إن هذا الحديث تفسيراً للحديث المعروف «ستفترق امتي على ثلاث وسبعين فرقة، فرقة ناجية والباقيون في النار» «٢».

ويبرهن على أن الفرقة الناجية هم الذين يتمسكون بمذهب أهل البيت عليهم السلام، ويهتدون بهداهم في اصول وفروع الدين. من مجموع ما قيل يمكن الاستفادة أيضاً من هذا الحديث المعروف: إن مسألة أهل البيت عليهم السلام يجب أن تكون مسألة بسيطة وعلى الهامش، بحيث يأخذ المسلمون ما يريدونه في امور الدين والدنيا من الغير ويكتفون بمحبة أهل البيت عليهم السلام.

(١) يصرح القرآن في آيات عديدة أن يوم القيامة يوم يزال فيه الاختلاف وأن الله يفصل بين الامم.

(٢) لقد روى هذا الحديث طائفة كثيرة من علماء الشيعة والسنة، وجاء في بعض طرق الحديث أن النبي عليه السلام قال في جوابه لعلي عليه السلام الذي سأله، من هي الفرقة الناجية؟، المتمسك بما تمسكت به أنت و شيعتك و أصحابك (احقاق الحق، ج ٧ ص ١٨٥).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٥٩

٣- حديث النجوم

إشارة

الحديث الآخر الذي ورد بشكل واسع بحق أهل البيت عليهم السلام في المصادر الإسلامية، ويؤكد على أنهم عليهم السلام هداة وأئمة الناس في كل زمان هو حديث النجوم. حيث رواه جماعة كثيرة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله (ما لا يقل عن سبعة أشخاص، ومنهم علي عليه السلام، وجابر بن عبد الله، وأبو سعيد الخدري، وانس بن مالك، والمنكدر «١»، وسلمة بن الاكوع، وابن عباس)، وجرت الإشارة إليه في عشرات الكتب من قبل حفاظ أهل السنة ومحدثيهم، حيث ندرج جانباً منها فيما يأتي، ونشير إلى بقية المصادر بشكل إجمالي (للمزيد من اطلاع القراء):

١- ينقل «الحاكم النيسابوري» في المستدرک عن «ابن عباس» أن النبي صلى الله عليه وآله قال:

«النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق، وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف، فاذا خالفتها قبيلة من العرب اختلفوا فصاروا حزب ابليس».

وبعد ذكره لهذا الحديث قال الحاكم: هذا حديث صحيح السند «٢».

يقول العلامة «الحمزوي» في «مشارك الأنوار»: جاء في الرواية التي صححها «٣» الحاكم النيسابوري: «النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف».

ومن الذين أوردوا هذا الحديث في كتابه، «ابن حجر» في «الصواعق» و «العلامة علي المتقي» في «منتخب كنز العمال» و «البدخشي» في «مفتاح النجاج» و «الشيخ محمد صبان

(١) المنكدر بن عبد الله، أبو محمد بن المنكدر- طبقاً لقول ابن الأثير في اسد الغابة- هو من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله.
 (٢) الحاكم النيشابورى فى المستدرک، ج ٣، ص ١٤٩ طبقاً لنقل احقاق الحق، ج ٩، ص ٢٩٤.
 (٣) عبارة الحمزاوى هكذا، صححها الحاكم على شرط الشيخين (إشارة إلى المعايير التى على أساسها يعتبر البخارى ومسلم الأحاديث صحيحة، فهذا الحديث صحيح)، مشارق الأنوار، ص ٩٠.
 نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٦٠

المالکى فى «اسعاف الراغبين» و «العلامة النبهانى» فى «الشرف المؤبد» و «جواهر البحار» (١).
 كل هذا متعلق بالحديث الذى رواه ابن عباس عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله، كما أشرنا أيضاً إلى أن هناك رواة كثيرين أيضاً نقلوا هذا الحديث عن النبى صلى الله عليه وآله، حيث وردت رواياتهم فى كتب السنة والشيعه المعروفة (وبالطبع هناك تفاوت قليل فى عبارات هذه الروايات لا أثر لها فى ما يمثل الهدف الحقيقى).

فمثلاً نقرأ فى روايه «سلمه بن الاكوع»: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «النجوم أمان لأهل السماء وأهل بيتى أمان لأمتى» (٢).
 وقد روى هذا المعنى عن رسول الله صلى الله عليه وآله بشيء من الاختلاف كل من جابر بن عبد الله الأنصارى والمنكدر، وانس، وأبو سعيد الخدرى.

ونقرأ فى الحديث الآخر الذى رواه على عليه السلام عن النبى صلى الله عليه وآله بهذا الصدد: «النجوم أمان لأهل السماء فاذا ذهبت ذهب أهل السماء وأهل بيتى أمان لأهل الأرض فاذا ذهب أهل بيتى ذهب أهل الأرض».
 وقد نقل هذا الحديث «محب الدين الطبرى» فى «ذخائر العقبى عن مناقب أحمد بن حنبل» (٣).
 ونقله جماعة آخرون فى كتبهم، مثل «الحموينى» فى «فرائد السمطين» و «ابن حجر» فى «الصواعق» و «محمد بن صبان» و «إسعاف الراغبين» و «الخوارزمى» فى «مقتل الحسين» و «النبهانى» فى «الشرف المؤبد».

(١) للمزيد من الاطلاع يراجع احقاق الحق، ج ٩، ص ٢٩٤-٢٩٦.
 (٢) لقد أورد هذا الحديث كل من السيوطى فى الجامع الصغير، ص ٥٨٧؛ ومحب الدين الطبرى فى ذخائر العقبى وابن حجر فى الصواعق، وجماعة آخرون فى كتبهم.
 (٣) ذخائر العقبى ص ٧.
 نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٦١

مضمون حديث النجوم:

إن حديث أو أحاديث النجوم تشير إلى امور مختلفه:
 ١- إن هذا الحديث فى واقع الأمر إشارة إلى آيات القرآن التى تبين أن لنجوم السماء أثرين مهمين:
 أولاً: قوله تعالى «وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ». (النحل / ١٦)
 ويقول فى مكان آخر: «وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ». (الانعام / ٩٧)
 إن هذا فى الواقع إشارة إلى احدى الفوائد المهمه للنجوم، فقبل اختراع البوصله كان من المتعذر تشخيص الطرق لاسيما فى الأسفار البحرية- حيث لا- وجود للجبال والأشجار- إلّا عن طريق النجوم، لهذا فإن السفن تتوقف عن المسير خلال الليالى التى تغطى فيها الغيوم السماء، وإذا واصلت طريقها فإن خطر الموت يهددها.

وهذا يعود إلى أن نجوم السماء متجمعة ماعدا النجوم الخمسة السيارة (عطارد، الزهرة، المريخ، المشتري، وزحل) ولا تغير مكانها، وكأنها جواهر قد رصعت قطعة قماش سوداء، وهذه القطعة سحبت باتجاه معين وهن يأخذن بها في الاتجاه المعاكس، لهذا فقد سميت «الثوابت» بالإضافة إلى النجمة القطبية الثابتة في مكانها التي لا تنبغ أو تأفل كسائر النجوم، وهذا الوضع أدى إلى أن يتعرفوا على سائر النجوم ويعرفوا مكانها على مدار السنة، وأن يلتمسوا طريقهم نحو مقاصدهم من خلال الخارطة التي كانت لديهم.

والفائدة الأخرى هي ما يقوله القرآن في أن بعض النجوم «رجوم» للشياطين، أي أنها بمثابة السهام التي تنطلق نحو الشياطين وتحول دون نفوذهم إلى السموات، إذ يقول القرآن: «أَنَا زَيْنَا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ * لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ». (الصفوات / ٦-٩)

من هذه الآيات وسائر آيات القرآن يمكن أن ندرك مفهوم أمان النجوم لأهل الأرض.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٦٢

فكيف توصل النجوم أو «الشهب» الطريق أمام الشياطين، وتمنعها عن النفوذ إلى السموات؟ إن هذه المسألة يجب أن تبحث على حدة، وقد أوردنا شرحها في ذيل هذه الآيات في التفسير الامثل، وما يتوجب الاهتمام به هنا هو المفهوم الإجمالي للآيات التي تبين أن النجوم هي سبب تقهقر الشياطين عن الملأ الأعلى ويصبح منطقهم منزهاً للملائكة والكروبيين وهذا المقدار كاف لتفسير حديث النجوم.

نعم فالنبي صلى الله عليه وآله كنجوم السماء، فمن جهة ينقذون الناس من الضلالة في ظلمات الكفر والفساد والذنوب، ويشخصون لهم سبيل بلوغ غاياتهم، ويحفظون سالكي سبيل الحق من الغرق وسط أمواج الضلالة.

ومن جهة أخرى عندما يحاول شياطين الجن والانس النفوذ إلى حرم الإسلام ليقوموا بتحريف أحكام القرآن والسنة فإنهم عليهم السلام يردونهم على أعقابهم كالشهب الثاقبة، ويردون كيدهم إلى نحورهم ويحولون دون اطلاعهم على الأسرار.

وهذه النكتة جديرة بالاهتمام أيضاً لاسيما وأنها تبين أن أهل البيت عليهم السلام أمان للامة ازاء الاختلافات، فلو استمرت الاختلافات لصار الناس من حزب ابليس كما قال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «اختلفوا فصاروا حزب ابليس» وهذا التعبير مفعم بالمعاني.

٢- يستفاد من هذا الحديث أن خطأ هداية أهل البيت عليهم السلام متواصل حتى فناء الكون، كاستمرار أمان النجوم لأهل السماء أو أهل الأرض.

٣- أنه يثبت عصمتهم من الخطأ والذنب أيضاً، فلو أمكن صدور الخطأ والذنب عنهم لم يتسن لهم أن يكونوا أماناً- بشكل كامل ومطلق- لأهل الأرض في مواجهة الاختلاف والضلال، (تأملوا جيداً).

٤- كما أن نجوم السماء تتبادل البزوغ فكلما أفل منها واحد بزغ آخر، وكلما اختفت منها مجموعة في الافق، طلعت أخرى فإن أهل البيت عليهم السلام كذلك أيضاً.

وقد وضع على عليه السلام هذا الأمر بصريح العبارة في نهج البلاغة:

«ألا أن مثل آل محمد صلى الله عليه وآله كمثل نجوم السماء إذا هوى نجمٌ طلع نجمٌ» (١).

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٠٠.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٦٣

ولعل الأمر لا يحتاج إلى تذكير بعدم إمكانية تفسير أهل البيت عليهم السلام في هذه الروايات بنساء النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، لأنه يتحدث عن أشخاص يمثلون أساس هداية الامة ونجاتها من الغرق في الضلالة، ويتصدون للاختلافات في كل عصر، ونحن نعلم أن نساء النبي كن يعشن في زمان خاص، بالإضافة إلى أنهن لم يكن لهن دور خاص في التصدي للاختلافات.

سؤال:

ربما يقال: إننا نقرأ في الحديث المروى عن النبي صلى الله عليه وآله في مختلف الكتب: «أصحابي بمنزلة النجوم في السماء فأَيُّما أخذتم به اهتديتم» (١).

فهل أن هذا الحديث لا يتعارض والأحاديث المذكورة التي وردت بحق أهل البيت عليهم السلام؟
للاجابة عن هذا السؤال، لابد من الالتفات إلى بعض الامور:

١- على فرض أن حديث «أصحابي كالنجوم» حديث معتبر فهو لا يتعارض مع ما ورد بحق أهل البيت عليهم السلام، لأن وجود مرجع واحد في بيان حقائق الإسلام لا يتعارض مع وجود المراجع الآخرين، لاسيما وأنه لم يرد الكلام في حديث «أهل بيتي كالنجوم» عن القرآن الكريم، بينما يمثل القرآن الكريم أهم سند للمسلمين.

٢- إن هذا الحديث «موضوع» و «مقدوح به» من ناحية السند لدى الكثير من علماء أهل السنة، أو مشكوك على أقل تقدير. ومن الذين صرحوا بهذا المعنى «أحمد بن حنبل» أحد الأئمة الأربعة لأهل السنة، و «ابن حزم»، و «أبو إبراهيم المزني»، أحد أصحاب الشافعي و «الحافظ البزاز» و «الدارقطني» و «الذهبي» وطائفة أخرى حيث يخرجنا نقل كلام كل منهم عن إطار البحث التفسيري، ولكن بإمكانكم مراجعة «خلاصة كتاب عبقات الأنوار» بغية الاطلاع الواسع على جميع هذه الأقوال (٢).

(١) جامع الاصول، ج ٩، ص ٤١٠.

(٢) خلاصة العبقات، ج ٣، ص ١٢٤ إلى ١٦٧ (وفي هذا الكتاب بين ضعف سند هذا الحديث عن أكثر من ثلاثين من علماء أهل السنة مع شرح لأحوالهم).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٦٤

٣- إن مضمون هذا الحديث لا يتناسب مع المعايير المنطقية، فأننا نعلم أن اختلافات شديدة قد وقعت بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله (الأصحاب بالمعنى الشامل للكلمة، نعني جميع الذين أدركوه صلى الله عليه وآله وكانوا إلى جانبه)، وقد أريقت دماء كثيرة بسبب هذه الاختلافات ووقعت حروب رهيبه، فأى منطق يرتضى لنا أن نعتبر فرقتين متخاصمتين وكل منهما متعطش لدم الآخر، أنوار هداية، ونخيّر الناس بأن لا فرق بالنسبة لكم في أن تلتحقوا بمعسكر أمير المؤمنين عليه السلام أو بمعسكر معاوية؟ أى: أن الأمر سيان للقوم في حرب الجمل سواء كانوا مع على عليه السلام أو مع طلحة والزبير! فكلهم أنوار هداية ويأخذون بأيديكم إلى الجنة؟

فلا عقل يقبل مثل هذا المنطق، والنبي الأكرم صلى الله عليه وآله أسمى وأرفع من أن ينسب إليه مثل هذا.

إن القرائن تبرهن على أن حكام «بنى أمية» ومن لف لفهم قد ابتدعوا هذا الحديث ونسبوه إلى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله من أجل ترسيخ دعائمهم أو إضعاف معنى حديث النجوم والتقليل من أهمية أهل البيت عليهم السلام، ليفهموا أهل الشام أن لو كانت حكومة على عليه السلام على الحق ومشعل هداية، فإن حكومة معاوية كذلك بحكم كونه من أصحاب رسول الله، فلا فرق في أن تكونوا مع هذا أو مع ذاك، والله العالم بحقائق الامور.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٦٥

٤- حديث «الأئمة الأئني عشر»

الحديث الآخر الذي يكشف عن منزلة أهل البيت عليهم السلام في الولاية والإمامة بشكل عام، وبإمكانه الاجابة عن الكثير من الأسئلة التي ترد بهذا الصدد، هو ذلك الحديث الذي يذكر أن الأئمة اثني عشر وهو من أشهر الأحاديث، وقد نقل في أكثر كتب الصحاح، وفي البداية نتجه نحو سند الحديث، ومن ثم نتطرق إلى مضمونه:

روى هذا الحديث عن جملة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله إذ تنتهي أكثر الأسانيد إلى «جابر بن سمرة»، ثم إلى «عبد الله بن مسعود» و«عبد الله بن عمر»، و«عبد الله بن عمرو بن العاص»، و«عبد الملك بن عمير»، و«أبي الجلد»، و«أبي جيفة» (وهم سبعة أشخاص على الأقل)، إلا أن حفاظ الحديث والذين نقلوه في كتبهم بلغوا العشرات، والآن نلفت انتباهكم إلى جانب منها:

١- روى في صحيح مسلم عن جابر بن سمرة أنه قال: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول:

«لا يزال الإسلام عزيزاً إلى اثني عشر خليفة» - ثم قال كلمة لم افهمها! فقلت لأبي: ما قال؟

فقال: كلهم من قريش» (١).

وينقل في هذا الكتاب بسند آخر عن جابر، وجاء: «لا يزال هذا الأمر» بدلا عن «لا يزال هذا الدين عزيزاً»، وجاء في تعبير ثالث ويسند آخر: «لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً».

ويروى عن عامر بن سعد بن أبي وقاص بتعبير رابع: إنني كتبت إلى جابر بن سمرة أن اكتب لي الأخبار التي سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وآله، فكتب لي: سمعت رسول الله يقول: «لا يزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة، أو يكون عليكم اثني عشر خليفة كلهم من قريش».

(١) صحيح مسلم، ج ٣، ص ١٤٥٣.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٦٦

وسمعت أيضاً: «عصية من المسلمين يفتتحون بيت أبيض، بيت كسرى أو آل كسرى .

وسمعته يقول أيضاً: «إن بين يدي الساعة كذابين فاحذروهم» (١).

وعن طريق آخر جاء في صحيح مسلم نفسه عن جابر: «لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً إلى اثني عشر خليفة»، وفي آخر هذا الحديث تلاحظ أيضاً جملة «كلهم من قريش» (٢).

٢- جاء هذا الحديث في صحيح البخاري وبعبارة مشابهة، يقول جابر: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول:

«يكون اثني عشر أميراً فقال كلمة لم اسمعها، فقال أبي إنه قال كلهم من قريش» (٣).

٣- وذكر هذا المعنى في صحيح الترمذي أيضاً مع شيء من الاختلاف، ويقول الترمذي بعد نقله: «هذا حديث حسن صحيح» (٤).

٤- كما جاء هذا الحديث في صحيح أبي داود أيضاً مع اختلاف بسيط، ويبرهن نمط الحديث على أن النبي صلى الله عليه وآله أدلى به على الملاء العام، فقد جاء فيه أن النبي صلى الله عليه وآله حينما قال:

«لا يزال هذا الدين عزيزاً إلى اثني عشر خليفة فكبر الناس وضجوا ثم قال كلمة خفية: كلهم من قريش» (٥).

٥- ذكر هذا الحديث في مسند أحمد أيضاً وفي عدة موارد، بحيث عد بعض المحققين في هذا الكتاب طرقة إلى جابر أربعاً وثلاثين طريقاً (٦).

وجاء عن «مسروق» أنه قال: كنا جلوساً ليلة عند عبد الله بن مسعود يقرئنا القرآن فسأله رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن هل سألتم رسول الله صلى الله عليه وآله كم يملك هذه الامية من خليفة؟ فقال عبد الله: ما سألتني عن هذا أحد منذ قدمت العراق قبلك، قال: سألتناه فقال:

- (١) صحيح مسلم، ج ٣، ص ١٤٥٣.
 (٢) المصدر السابق.
 (٣) صحيح البخارى، ج ٣، الجزء ٩، ص ١٠١ (فى الباب الذى أورده قبل باب اخراج الخصوم وأهل الريب).
 (٤) صحيح الترمذى، ج ٤، ص ٥٠١، باب ما جاء فى الخلفاء، الحديث ٢٢٢٢٣.
 (٥) صحيح أبى داود، ج ٤ ص ١٠٣.
 (٦) يراجع كتاب منتخب الأثر، ص ١٢؛ واحقاق الحق، ج ١٣.
 نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٦٧
 «اثنى عشر كعدة نقباء بنى اسرائيل» (١).

مانقلناه يتعلق بأشهر كتب السنه وأكثرها اعتباراً التى نقل فيها هذا الحديث عن طرق مختلفه، ومن بعدها جاء فى كتب اخرى أيضاً، حيث نشير إلى أسماء بعضها تجبياً للاطلاع فى الحديث، وبإمكانكم الحصول على مزيد من التفصيل فى كتب «احقاق الحق»، و «فضائل الخمسة»، و «منتخب الأثر» وأمثالها.

مضمون حديث «الأئمة عليهم السلام اثنى عشر»:

إنّ التعبيرات التى جاءت فى هذه الروايات متفاوتة، فقد عبر فى بعضها ب «اثنى عشر خليفة» وفى بعض «اثنى عشر أميراً» وفى بعض جرى الحديث عن ولاية وحكم اثنى عشر رجلاً «ماولاهم اثنى عشر رجلاً»، ولكن غالباً ما عبر ب «خليفة»، وفى بعضها جاء التعبير أيضاً بالعدد فقط «اثنى عشر كعدة نقباء بنى اسرائيل»، كما عبر فى بعضها ب «اثنى عشره قيماً». ولكن من الواضح أنها جميعاً تشير إلى مسألة الخلافة والولاية والحكومة، وبالتالي فهى واحدة. ومن ناحية اخرى فقد ورد فى بعضها: «لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً»، وفى بعض: «لا يزال أمر امتى صالحاً»، وفى بعض: «لا يزال أمر هذه الامه ظاهراً»، وفى بعض: «ماضياً» وفى بعض: «لا يضرهم من خذلهم». وتعبيرات اخرى من هذا القبيل حيث تشير جميعها إلى حقيقة واحدة وهى: صلاح أمر الامه واقتدارهم وظفرهم ونجاتهم.

(١) مسند أحمد، ج ١، ص ٣٩٨.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٦٨

ومن جهة ثالثة تلاحظ جملة «كلهم من قريش» فى أغلب هذه الروايات التى نقلت بأساليب مختلفة، ما عدا بعض الروايات مثل الرواية التى نقلها القندوزى الحنفى فى ينايع المودة، إذ ينقل فى ذيل هذه الرواية عن كتاب «مودة القربى عن «جابر بن سمره» أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «كلهم من بنى هاشم» (١).

وجاء فى أغلب هذه الروايات أن رسول الله صلى الله عليه وآله خفض صوته أثناء ذكره هذه الجملة، وصرح بها سرّاً، وهذا يدل بوضوح أنّ ثمة أشخاص كانوا يعارضون أن يكون الخلفاء الاثنى عشر لرسول الله صلى الله عليه وآله فى قريش أو بنى هاشم، ممّا أدّى إلى أن يصرح النبى صلى الله عليه وآله بذلك بشكل سرى!

على أية حال فإنّ تفسير هذا الحديث الشريف الذى ورد فى المصادر المشهورة والمعتبرة ونظراً لاعتراف جميع علماء الإسلام به فإنّه واضح لأتباع أهل البيت عليهم السلام، وأنهم لا يرون معنى له سوى الأئمة الاثنى عشر، إلّا أنّ تفسيره بالنسبة لأتباع المذاهب الاخرى

أصبح عبارة عن مسألة غامضة ومعقدة ومعضلة، بنحو يمكن معه القول بكل اطمئنان: إنَّ أيّاً منهم لم يقدم تفسيراً واضحاً له، والسر في ذلك معلوم، فالخلفاء الأوائل كانوا أربعة، وحكام بنى امية كانوا اربعة عشر، وبلغ عدد حكام بنى العباس سبعاً وثلاثين شخصاً. وإنَّ أيّاً منهم لم ينطبق عليه حديث «الأئمة اثني عشر»، كما أنَّ الجمع والتمييز بينهم لن يحل المشكلة، إلّا أنَّ نلغى البعض ونقبل بالبعض الآخر وفقاً لميولنا، ونتخب اثني عشر منهم بمشقة وعناء، وهذا أيضاً لا ينسجم مع أي منطق.

من الأفضل لنا أن نضع زمام الحديث بيد «الحافظ سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي» فهو يقول في الكتاب المعروف «ينابيع المودة»:

قال بعض المحققين: إنَّ الأحاديث الدالة على كون الخلفاء بعده صلى الله عليه وآله اثني عشر قد اشتهرت من طرق كثيرة فبشرخ الزمان وتعريف الكون والمكان علم أن مراد رسول الله صلى الله عليه وآله من حديثه هذا الأئمة الاثني عشر من أهل بيته وعترته، إذ لا يمكن أن يحمل هذا الحديث على الخلفاء بعده من أصحابه لقلتهم عن اثني عشر ولا يمكن أن يحمله على الملوك الأموية لزيادتهم عن اثني عشر، ولظلمهم الفاحش - إلّا عمر بن عبد العزيز - ولكونهم غير

(١) ينابيع المودة، ص ٤٤٥، الباب ٧٧.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٦٩

بنى هاشم، لأنَّ النبي صلى الله عليه وآله قال: كلهم من قریش، في رواية عبد الملك عن جابر واخفاء صوته صلى الله عليه وآله في هذا القول يرجح هذه الرواية لأنهم لا يحسنون خلافة بنى هاشم، ولا يمكن أن يحمله على الملوك العباسيين لزيادتهم على العدد المذكور ولقلة رعايتهم الآية: «قُلْ لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى . (الشورى / ٢٣)

وكذلك حديث الكساء، فلا بد من أن يحمل هذا الحديث على الأئمة الاثني عشر من أهل بيته وعترته صلى الله عليه وآله لأنهم كانوا اعلم أهل زمانه وأجلهم وأورعهم واتقاهم وأعلاهم نسباً وأفضلهم حسباً وأكرمهم عند الله «١».

يقول الدكتور «محمد التيجاني السماوي» الذي كان من أهل السنة ثم اختار التشيع، في الكتاب الذي ألفه حول سبب تشييعه واسماه «كونوا مع الصادقين» في عدّة جمل قصيرة ومفعمة بالمعاني: «هذه الأحاديث لا تصح ولا تستقيم إلّا إذا فسرناها على أئمة أهل البيت الذين تقول بهم الشيعة الإمامية، وأهل السنة والجماعة هم المطالبون بحل هذا اللغز إذ إنَّ عدد الأئمة الاثني عشر الذي اخرجوه في صحاحهم بقي حتى الآن لغزاً لا يجدون له جواباً» «٢».

والعجيب أن البعض أرادوا تفسير هذا الحديث الشريف دون الازعان لاعتقاد اتباع أهل البيت عليهم السلام في هذا المجال فتعرضوا لعناء مدهش، فمن ناحية عدوا «يزيد بن معاوية» من الاثني عشر الذين سما بهم الإسلام واصبح مقتدرًا، ومن ناحية اخرى اغفوا عددا من الخلفاء وفقاً لرغبتهم.

وباعتقادنا أنّهم لو اختاروا السكوت لكان أفضل لهم من هذه التبريرات، والأعجب من ذلك كله التفسير الذي سمعناه في احدى أسفارنا لحج بيت الله الحرام من أحد علماء مكة وفي المسجد الحرام وهو: إنَّ الأئمة الاثني عشر أولهم الخلفاء الأربعة وثمانية منهم سيظهرون في المستقبل!

بينما كل من يقرأ هذا الحديث يعرف أن المراد منه الوجود المتتابع للخلفاء الاثني عشر،

(١) ينابيع المودة، ص ٤٤٦، ملحق الباب ٧٧.

(٢) كونوا مع الصادقين، ص ١٤٦.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٧٠

والتعبير مثل: «لا يزال هذا الدين منيعاً عزيزاً»، أو «لا يزال هذا الدين قائماً حتى تقوم الساعة» تفيد هذا المعنى بجلاء وصراحة بأن سلسلة خلفاء النبي صلى الله عليه وآله الاثني عشر ستستمر إلى يوم القيامة. ونختم هذا البحث بحديث عن الحافظ أبي نعيم الاصفهاني في كتاب «حلية الأولياء» فهو ينقل بسنده عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «من سره أن يحيا حياتي ويموت مماتي ويسكن جنه عدن غرسها ربي، فليوال علياً من بعدى، وليوال وليه وليقتد بالائمة من بعدى فإنهم عترتي» (١).

ملاحظة

وثمة ملاحظة مهمة هنا نشير إليها ونترك شرحها للبحوث اللاحقة، وهي ورود أسماء الأئمة الاثني عشر - كما يعتقد به اتباع مذهب أهل البيت - في العديد من الروايات التي نقلت عن طريق السنة والشيعة، وفي بعض طرق هذه الروايات تمت الإشارة إلى اسم أولهم على عليه السلام وآخرهم المهدي (عج) بصيغة أولهم على وآخرهم المهدي، وفي بعضها أشير إلى ثالثهم أي الإمام الحسين عليه السلام بهذا الشكل الذي نقل أن رسول الله صلى الله عليه وآله وأما إليه وقال: «هذا ابني إمام ابن إمام أخو إمام أبو أئمة تسع» (٢)، وهكذا اشير إلى جميع الأئمة الاثني عشر.

لا تخلو الأرض من حجة:

من المسائل المهمة التي يستند إليها في الروايات هي أن الأرض لا تخلو من مندوب عن الله تعالى وقد تكرر هذه المضمون في الروايات المتواترة التي وصلتنا عن مصادر أهل

(١) حلية الأولياء، ج ١، ص ٨٦ (وفقاً لنقل الفضائل الخمسة من الصحاح الستة، ج ٢، ص ٣٤).

(٢) يقول المرحوم العلامة في كشف المراد (شرح تجريد الاعتقاد)، إن هذا الحديث روى بشكل متواتر عن النبي صلى الله عليه وآله كشف المراد، ص ٣١٤.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٧١

البيت عليهم السلام، بأن الأرض لا تخلو من إمام أو «نبي» أو حجة على العموم، وقد احتوى كتاب الكافي على باين في هذا المجال، وروى في باب منهما تحت عنوان: «إن الأرض لا تخلو من حجة»، ثلاثة عشر حديثاً عن الإمام الباقر عليه السلام والإمام الصادق عليه السلام والإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام وبعض الأئمة، في الباب الآخر تحت عنوان: «إنه لو لم يبق في الأرض إلّا رجلان لكان أحدهما الحجة»، ورويت فيه خمسة أحاديث بهذا المضمون (١)، حيث نشير فيما يلي إلى بعض هذه الأحاديث الواردة في كلا البابين.

نقرأ في أحد الأحاديث الواردة عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إن الأرض لا تخلو إلّا وفيها إمام كيما إن زاد المؤمنون شيئاً ردّه وإن نقصوا شيئاً أتمّه لهم» (٢).

ونقرأ أيضاً في حديث آخر عنه عليه السلام: «ان الله أجل وأعظم من أن يترك الأرض بغير امام عادل» (٣)، بل ورد في بعض هذه الأحاديث أن الأرض إذا خلت من الإمام والحجة ساعة واحدة لتزلزلت الأرض وساخت بأهلها (٤).

ونقرأ في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «لو كان الناس رجلين لكان احدهما الإمام»، «وان آخر من يموت الإمام»

«٥».

بالإضافة إلى الأحاديث الثمانية عشر المذكورة فقد اشير إلى هذا المعنى بصراحة في نهج البلاغة أيضاً، ففي الكلمات المهمة التي قالها الإمام علي عليه السلام لكميل بن زياد، يقول:

«اللهم بلى لا تخلو الأرض من قائم لله بحجته، اما ظاهراً مشهوراً واما خائفاً مغموراً لثلاث تبطل حجج الله وبيناته» «٤».

وقد نقل المرحوم العلامة المجلسي أيضاً في الجزء ٢٣ من بحار الأنوار في باب «الاضطرار إلى الحجّة» ١١٨ حديثاً في هذا المجال وهذه الأحاديث الموجودة في اصول

(١) اصول الكافي، ج ١، ص ١٧٨ و ١٧٩.

(٢) المصدر السابق، ج ١ ح ٢ من الباب الأول.

(٣) المصدر السابق، ج ١، ح ٦ من الباب الأول.

(٤) المصدر السابق، ح ١١ و ١٢ و ١٣.

(٥) المصدر السابق، ح ٣، (باب إنه لو لم يبق إلّالرجلان احدهما الإمام).

(٦) نهج البلاغة، الخطبة ١٤٧.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٧٢

الكافي هي قسم منها، وقسم كثير اضيف إليها من سائر الكتب «١».

بناءً على ذلك فإنّ قضية وجود حجة على الأرض في كل عصر تعتبر من الامور المسلّم بها في مذهب أهل البيت عليهم السلام، إلى الحد الذي نقرأ في حديث للامام موسى بن جعفر عليه السلام:

«إنّ الله لا يُخلى أرضه من حجة طرفه عين، إمّا ظاهر وإمّا باطن» «٢».

الإشارات القرآنية والمنطقية على وجوب الحجّة:

إنّ ما جاء في الروايات الآتية الذكر يمكن تطبيقه مع الدليل العقلي أيضاً، لأنّ «برهان اللطف» الذي ورد في مستهل البحث حول لزوم وجود الإمام أو النبي في كل عصر وزمان، وكذلك المفاصد المترتبة على فقدانه تصدق على ذلك في جميع الأحوال حتى لو كان سكان الكرة الأرضية شخصين فقط.

تقول قاعدة اللطف: إنّ الذي خلق الإنسان من أجل السعادة والتكامل، وألقى على عاتقه التكليف، من الواجب أن يهيء مقدمات هداية الإنسان وتربيته، وأن يضع تحت تصرفه مستلزمات بلوغ هذا الهدف لأنّه لو لم يفعل هكذا فقد نقض الغرض، ومن المستحيل أن يفعل الله الحكيم هكذا.

لا شك في أنّ وجود العقل أو القادة العاديين لا يصون الإنسان من الأخطاء والزلازل والمعاصي، وبتعبير آخر: إنّ علم الإنسان لا يستطيع لوحده إرشاد الإنسان إلى غايته، أي طاعة الله والسعادة الأبدية، بل بالإضافة إلى ذلك فهو يحتاج إلى من يرتبط بالعلم الإلهي والمعصوم من الخطأ والزلل والمعصية، ليتسنى له اتمام الحجّة وتوضيح السبيل للناس بشكل تام.

إنّ هذا البرهان يصدق في كل عصر وزمان، ولكل مجتمع كبيراً كان أم صغيراً حتى ولو

(٢) بحار الأنوار، ج ٤٧، ص ٤١.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٧٣

كان من شخصين، وعليه فلو لم يكن في الأرض إلا شخصان فاحدهما النبي أو الإمام المعصوم. على أزيه حال فكما قرأنا في الروايات الآنفه أن الله أجل من أن يكلف الناس بلوغ مقام السعادة من دون أن يرشدهم إلى الطريق الصحيح الذي يخلو من الخطأ.

يلاحظ في بعض آيات القرآن إشارات إلى هذا المعنى أيضاً.

فآية الكريمة: «إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ». (الرعد / ٧)

تدل على أن لكل قوم في كل عصر وزمان هادياً، (هادٍ بالمعنى الحقيقي للكلمة حيث يجسد الهداية الكاملة والخالية من كل خطأ)، ومن هنا نقرأ في الحديث الوارد عن الإمام الباقر عليه السلام، إذ قال في تفسير هذه الآية: «... وفي كل زمان إمامٌ مَنّا يهديهم إلى ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله» (١).

والتعبير الذي جاء في نهج البلاغة يضم في ثناياه دليلاً منطقياً أيضاً، وهو: إن أحد واجبات الإمام هو المحافظة على آثار النبوة والتعاليم الإلهية من كل تحريف، وبتعبير آخر:

لو فرضنا أن كل من على الأرض كفروا فلا بد من وجود شخص يحافظ على تعاليم وآثار النبوة وينقلها إلى الأجيال القادمة التي تريد سلوك سبيل الهداية، وإلا فإن الحجج الإلهية تُمحي وتزول، وتنتهي دلائله وبياناته «لثلا تبطل حجج الله وبياناته». وهنا نصل إلى خاتمة البحوث المتعلقة بالولاية العامة، والآن نتطرق إلى شروطها وخصائصها.

(١) بحار الأنوار، ج ٢٣، ص ٥، ح ٩.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٧٥

الشروط والصفات الخاصة بالإمام

إشارة

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٧٧

الشروط والصفات الخاصة بالإمام

تمهيد:

نظراً للمسؤوليات الخطيرة الملقاة على عاتق الإمام وخليفة النبي صلى الله عليه وآله، فلا بد بطبيعة الحال من أن تتوفر فيه شروط صعبة. وتلك الشروط تشابه إلى حد ما شروط وخصائص النبي صلى الله عليه وآله لأنهما يسيران في طريق واحد، ويتحملان نوعاً واحداً من المسؤولية، فالنبي صلى الله عليه وآله يتقدم في المرحلة الأولى والأئمة يتابعونه في المراحل اللاحقة.

وكما تحدثنا في بحث النبوة، فالنبي وبحكم المسؤولية المهمة الملقاة على عاتقه يجب أن يتمتع بعلم واسع في كل مجال، ليستطيع انقاذ البشر من أخطار الضلالة، ويهديهم في القضايا العقائدية والأخلاقية والأحكام والأنظمة الاجتماعية إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم وكمالهم، ويوضح الأحكام الإلهية بلا نقص أو زيادة.

أضف إلى هذا فلا بد أن يتمتع باطلاع عن روح وجسم الإنسان، والمسائل النفسية والاجتماعية، وتاريخ المجتمع البشري، والخاصة

أن يتمتع بما يساعد على معرفة الناس الذين يحتاجون إلى التربية، بل وتم التوضيح في بحث علم الأنبياء ووجوب تمتعهم بالعلم بما يخص وقائع المستقبل نوعاً ما، ليتسنى لهم وضع الخطط الدقيقة لذلك لشمولية رسالتهم (للمزيد من التوضيح بهذا الصدد راجعوا الجزء السابع من نفحات القرآن، بحث المقام العلمي للأنبياء).

وهذه الامور تصدق بالنسبة لأنتم الحق وخلفاء الأنبياء أيضاً مع شيء من التفاوت لأنهم يواصلون طريق الأنبياء وخطهم، وكل ما يشرع به اولئك يواصله هؤلاء، وكل ما أقامه

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٧٨

الأنبياء يصونه ويكمله الأئمة عليهم السلام فالشجيرات التي غرستها سواعد الأنبياء تسقى بسواعد الأئمة الهداة عليهم السلام. ومن جهة اخرى فالائمة الصالحون كالأنبياء يجب أن يوصلوا ما يعلمونه إلى الناس سالما من الخطأ والزلل والانحراف، وإذا لم يكونوا معصومين لا تتحقق الغاية من وجودهم.

ومن ناحية ثالثة فالأنبياء وبمقتضى مقام القيادة في الدين والدنيا لابد وأن يكونوا ذوي أخلاق فاضلة وصفات محمودة ظاهرة كانت أو باطنية لئلا يتذمر منهم الناس ولكي تثمر الأهداف من بعثهم ولا يعرض امرٌ ينقض الغاية.

هذا الأمر يصدق بحق الأئمة عليهم السلام تماما، فهم لا ينبغي عليهم التنزه عن أسباب التذمر فحسب، بل لابد من توفر الجاذبيات الأخلاقية لديهم بالقدر الكافي لجذب القلوب والعقول، وهنا لابد أولاً من البحث في علم الإمام.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٧٩

علم الإمام

إشارة

يشير القرآن الكريم إلى هذه المسألة في عدة آيات:

فيقول تعالى في مكان: «وَأَذِّبْهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ إِذْ عَاوَا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا». (النساء / ٨٣)

ويقول في آية اخرى «فَأَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ». (النحل / ٤٣)

تدل الآية الاولى على أن هناك اشخاصاً بين المسلمين كانوا يسلكون - وبلا وعى منهم - سبيل بث الشائعات التي يثيرها أعداء الإسلام أحياناً، فتارة يثرون إشاعة الانتصار، واخرى إشاعة الهزائم، أو سائر الإشاعات، وسبب هذا الأمر الغفلة والجهل، وقد يتسبب في انهيار معنويات المسلمين، يقول القرآن: على المسلمين أن يراجعوا النبي صلى الله عليه وآله أو اولى الأمر في مثل هذه المسائل الاجتماعية المهمة التي يجهلونها.

واولى الأمر تعنى أصحاب القرار، ومن المسلم به أنها لا- تعنى هنا القادة الحربيين، لأنه تعالى يقول بعد ذلك ما معناه: إن الذين يستنبطون الأحكام (أى الذين يبحثون القضايا من أصلها يمتلكون الاطلاع حول هذه الامور، وعلى الذين يجهلون مراجع هؤلاء)، فإن «يستنبطونه» من مادة «نَبَطَ» - على وزن «فَقَطَّ» - وتعنى فى الأصل الماء الأول الذى يستخرجونه من البئر ويتفجر من باطن الأرض، لذا يقال للحصول على الحقيقة من مختلف

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٨٠

الأدلة والقرائن، استنباط.

وهذا التعبير صادق بحق العلماء فقط، لا قادة الجيش ولا الأمراء، من هنا فإنه تعالى يكلف المسلمين بالرجوع إلى العلماء وأولى الأمر

في المسائل الحساسة والمصيرية.

لكن ما المقصود هنا من «اولى الأمر»؟ ثمة جدل بين المفسرين أيضاً، فبعض فسرها بمعنى امراء الجيش لاسيما الجيش الذي فيه رسول الله صلى الله عليه وآله، وبعض بمعنى العلماء والفقهاء، وبعض فسرها بالخلفاء الأربعة، وبعض بمعنى أهل الحل والعقد (زعماء المجتمع)، وطائفة اعتبرتهم الأئمة المعصومين عليهم السلام.

والظاهر أن التفسير الأخير أكثر ملائمة من البقية، فقد ذكرت خصلتان لأولى الأمر في ذيل الآية لا يمكن لهما أن تصدقا على غير المعصوم:

الاولى: ما يقوله تعالى بما معناه: ولو ردوه إلى اولى الأمر لأرشدهم أولئك الذين يعلمون اصول القضايا، وظاهر هذا التعبير أن علمهم غير مختلط بالجهل والشك، وهذا الأمر لا يصدق على غير المعصومين.

والثانية: هي أنه تعالى يعدد وجود اولى الأمر نوعاً من الفضل والرحمة الإلهية حيث تحول طاعتهم دون اتباع الناس للشيطان: «وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إَلَّا قَلِيلًا».

ومن الواضح أن اتباع المعصومين فقط هو الطريق الأمثل والأصوب الذي بإمكانه الحؤول دون ضلال الإنسان واتباعه للشياطين، لأن غير المعصومين ربما يزلون ويقعون في الخطأ والمعصية ويصبحون أعبؤة بيد الشيطان.

لهذا فقد فسرت (اولى الأمر) في هذه الآية في العديد من الروايات التي وصلتنا عن طرق أهل البيت عليهم السلام وأهل السنة بمعنى الأئمة المعصومين.

ففي رواية ذكرها المرحوم الطبرسي في مجمع البيان عن الإمام الباقر عليه السلام قوله: «هم الأئمة المعصومون» (١).

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٨٢.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٨١

ونقرأ في الحديث الذي نقل في تفسير العياشي عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام:

«يعني آل محمد، وهم الذين يستنبطون من القرآن ويعرفون الحلال والحرام وهم حجة الله على خلقه» (١).

ونقرأ في الحديث الآخر الذي نقل في «كمال الدين» للصدوق عن الإمام الباقر عليه السلام:

«ومن وضع ولاية الله وأهل استنباط علم الله في غير أهل الصفوة من بيوتات الأنبياء فقد خالف أمر الله» (٢).

أما فيما يتعلق بالآية الثانية أي: فهي توعد إلى الجميع بسؤال أهل الذكر عن الامور التي يجهلون بها يقول الله سبحانه: «فاسألوا أهل الذكر ان كُنتم لاتعلمون».

(النحل / ٤٣ والأنبياء / ٧)

فمما لا شك فيه أن الذكر هنا بمعنى العلم والاطلاع، وأهل الذكر تشمل العلماء والمطلعين بشكل عام، وعلى هذا الأساس فقد استدل بهذه الآية بشأن التقليد ورجوع الجاهل للعالم، إلا أن المصداق الكامل لها هم الذين يستلهمون علمهم من علم النبي صلى الله عليه وآله والبارى جلّ وعلا، فعلمهم علم منزه من الخطأ والزلل، علم مقترن بالعصمة، لهذا فقد فسرت هذه الآية باهل البيت عليهم السلام والأئمة المعصومين، ففي الرواية الواردة عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام في اجابته عندما سئل عن الآية: «نحن أهل الذكر ونحن المسؤولون» (٣).

والجدير بالذكر أن نفس هذا المطلب أو ما يقاربه قد نقل عن التفاسير الاثني عشر لأهل السنة، (المراد من التفاسير الاثني عشر، تفسير «أبو يوسف» و «ابن حجر» و «مقاتل بن

(١) تفسير كنز الدقائق، ج ٣، ص ٤٨٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٨٦.

(٣) تفسير البرهان، ج ٢، ص ٣٦٩.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٨٢

سليمان» وتفسير «وكيع بن جراح» وتفسير «يوسف بن موسى القطان» وتفسير «قتادة» وتفسير «حرب الطائي» وتفسير «السدّي» وتفسير «مجاهد» وتفسير «مقاتل بن حيان» وتفسير «أبي صالح» وتفسير «محمد بن موسى الشيرازي».

فقد روى في هذه التفاسير عن ابن عباس أنّ المراد من الآية «فاسألوا أهل الذكر هو محمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، هم أهل الذكر والعلم والعقل والبيان، وهم أهل بيت النبوة» (١).

وملخص الكلام هو: بالرغم من سعة مفهوم الآية، إلّا أنّ نموذجها الكامل والشامل لا يتصور إلّا في الأئمة المعصومين عليهم السلام المنزه علمهم من الخطأ والزلل، ومن هنا يتضح عدم معارضة نزول الآية بشأن علامات الأنبياء السابقين، والتوراة، والانجيل، والسؤال من علماء اليهود والنصارى مع ما قيل في معنى هذه الآية.

ملاحظة

كما ذكرنا في مبحث علم الأنبياء في الجزء السابع من هذا الكتاب، فإنّ الأنبياء المكلفين بهداية الناس في جميع الجوانب المادية والمعنوية، الذين تمتد حدود مسؤولياتهم إلى الجسم والروح والدنيا والآخرة، يجب أن يكونوا على جانب كبير للغاية من العلم ليتسنى لهم انجاز هذا الواجب على أحسن وجه.

والأئمة الذين هم خلفاء النبي يحظون بهذا الحكم أيضاً، فلا بدّ من امتلاكهم لعلم يتناسب مع واجبهم العظيم ليطمئن إليهم الناس ويسلمونهم دينهم.

ويجب أن يكون هذا العلم منزهاً من الخطأ والعيب والزلل، وإلّا فإنّه لا يحظى بثقة الناس، ويسمح الناس لأنفسهم بتقديم بعض آرائهم على آراء النبي أو الإمام، باعتبار أنّ النبي والإمام يخطئان أيضاً ولا ينبغي التسليم لهما مطلقاً، إذن فالثقة المطلقة تتبع عصمتها. يقول القرآن الكريم بشأن إمام بنى اسرائيل «طالوت»: «أَنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ

(١) احقاق الحق، ج ٣، ص ٤٨٢.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٨٣

بَسَطَهُ فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ». (البقرة/ ٢٤٧)

من هنا يقول تعالى في مقابل مزاعم بنى اسرائيل الذين كانوا يقولون: إنّ طالوت من أسرة فقيرة ومجهولة، وأنّه خالي اليدين من مال الدنيا: أنّ الأساس الحقيقي للحكم الإلهي هو «العلم» و «القدرة» حيث وهبه الله ما يكفيهما.

وفيما يتعلق بيوسف عليه السلام عندما يصف نفسه بالأهلية للتصدي لجانب من حكم مصر، أي إدارة بيت المال، فهو يستند إلى العلم والأمانة: «قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ». (يوسف/ ٥٥)

بل كما قلنا سابقاً بشأن علم الأنبياء: لا بدّ أن يتمتعوا بجانب من علم الغيب على الأقل ليتسنى لهم القيام بواجبهم على أحسن وجه، وأنّ الذي يصدق بحقهم يصدق بحق الأئمة أيضاً.

إنّ تكليفهم عالمي أيضاً، فلا بدّ أن يكونوا مطلعين على أسرار العالم، وواجبهم مرتبط بالماضي والمستقبل، فكيف يمكنهم أداء رسالتهم جيداً إذا كانوا يجهلون الماضي والمستقبل، وأن يضعوا الخطط لجميع الناس؟

إن حدود رسالتهم تشمل ظاهر وباطن المجتمع، والناس، فمن المتعذر انجاز هذه الامور المهمة بدون العلم بالغيب، وهذا ماورد بتعبير لطيف للغاية في حديث الإمام الصادق عليه السلام يقول «مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ يَحْتَجُّ بِعَبْدٍ فِي بِلَادِهِ ثُمَّ يَسْتَرُّ عَنْهُ جَمِيعَ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَقَدْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ» (١).

نعم فالعلم بأسرار العالم حالياً وفي الماضي والمستقبل هو في واقع الأمر: السبيل إلى انجاز الرسالة المهمة في هداية البشر والتحول إلى حجة لله تعالى

ومختصر الكلام هو أن أول شرط للتصدي لمقام الإمامة هو العلم والاطلاع وإلزام جميع العلوم الدينية، وحوائج الناس، وكل ما يلزم في أمر تعليم وتربية وهداية وإدارة المجتمع الإنساني، ومن المستحيل أداء هذه المسؤولية بدون مثل هذا العلم.

(١) بصائر الدرجات وفقاً لنقل بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ١٣٧.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٨٥

مصادر علم الأئمة!

إشارة

من الامور المهمة الجديرة بالدقة والاهتمام فيما يتعلق بعلم الأئمة المعصومين عليهم السلام، مصادر علم الأئمة عليهم السلام، إذ من أين يحصل لهم هذا الاطلاع الواسع على امور الدين والدنيا، وبالتسليم بأن الوحي لاينزل عليهم، وأن أبواب الوحي بعد وفاة خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله قد أوصدت والى الأبد، فكيف يطلعون على مسائل الشريعة ومصالح الإسلام والمسلمين والحقائق المتعلقة بالماضي والمستقبل التي تعتبر ضرورية في أمر هداية الامم؟

من الممكن معرفه هذه المصادر جيداً من خلال الإشارات التي وردت في آيات القرآن والبيانات المفصلة والواسعة التي جاءت في الروايات.

إن هذه المصادر متنوعة وكثيرة نذكر بعضاً منها:

١- العلم الكامل بكتاب الله

بنحو يلتمون فيه بمعرفة تفسيره وتأويله وباطنه وظاهره ومحكمه ومتشابهه.

يقول القرآن الكريم: «وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ». (الرعد / ٤٣)

يتضح من خلال هذه الآية أن هناك شخصاً لديه علم الكتاب جميعاً (انتبهوا إلى أن علم الكتاب قد جاء بشكل مطلق، وشامل لجميع العلوم المتعلقة بعلم الكتاب، على العكس مما ورد في الآية: «قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ». (النمل / ٤٠)

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٨٦

من المسلم به أن كتاب الله معين لا- ينضب من العلوم، وأن العلم به مفتاح لجميع الامور، فعندما يستطيع «آصف بن برخيا» وزير سليمان من القيام بهذا العمل المهم نتيجة لعلمه ببعض الكتاب، ويأتي بعرش ملكة سبأ بطرفه عين من أقصى جنوب الجزيرة العربية (اليمن) إلى أقصى شمالها (الشام مركز حكومة سليمان)، فمن المسلم به أن الذي عنده جميع علم الكتاب يستطيع القيام بأعمال أهم من ذلك كثيراً، ولكن من الذي عنده علم الكتاب؟ يشير القرآن الكريم إلى ذلك إشارة غامضة.

فقال البعض: إنَّ المراد هو الله تعالى (وعلى هذا سيكون عطف جملة «عنده علم الكتاب» عطفًا تفسيريًا، وهذا يخالف ظاهر الكلام). كما قال عدد من المفسرين: المراد منه هم علماء أهل الكتاب وأشخاص كسلمان، وعبد الله بن سلام الذين كانوا قد شاهدوا علامات النبي صلى الله عليه وآله في الكتب السماوية السابقة ويشهدون بحقانيته صلى الله عليه وآله.

إلا أن أغلب المفسرين نقلوا في كتبهم أن هذه الآية إشارة إلى علي بن أبي طالب عليه السلام وأئمة الهدى عليهم السلام. يروى المفسر الشهير القرطبي في تفسير هذه الآية عن عبد الله بن عطاء: قلت لأبي جعفر علي بن الحسين عليه السلام: إنَّ الناس يظنون أن الذي عنده علم الكتاب هو عبد الله بن سلام، فقال: «إنما ذلك علي بن أبي طالب رضى الله عنه»، هو علي بن أبي طالب فقط، وكذلك قال محمد بن الحنفية ذلك «١».

والجدير بالذكر أن هذه السورة (سورة الرعد) نزلت في مكة والحال أن عبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وسائر علماء أهل الكتاب أسلموا في المدينة.

وقد ورد هذا الكلام عن سعيد بن جبير أيضاً عندما سئل: هل أن «مَنْ عنده علم الكتاب» هو عبد الله بن سلام؟ قال: «كيف يكون هو وهذه السورة مكية» «٢»؟

(١) تفسير القرطبي، ج ٥، ص ٣٥٦٥.

(٢) تفسير در المنثور، ج ٤، ص ٦٩.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٨٧

كما ينقل الشيخ سليمان القندوزي الحنفى «١» في «ينابيع المودة» عن «الثعلبي» و «ابن المغازلي» عن «عبد الله بن عطاء»: كنت مع محمد الباقر عليه السلام في المسجد ورأيت ولد عبد الله بن سلام فقلت: هذا ابن من عنده علم الكتاب، فقال: هذه الآية بحق علي بن أبي طالب عليه السلام «٢».

وقد رويت في نفس الكتاب رواية أخرى عن عطية العوفى عن «أبي سعيد الخدرى» قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله عن آية «الذى عنده علم من الكتاب»، فقال صلى الله عليه وآله: هو وزير أخى سليمان، ثم سألته عن آية «قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب»، فقال صلى الله عليه وآله: ذلك أخى علي بن أبي طالب عليه السلام «٣».

ونقرأ أيضاً في رواية أخرى عن ابن عباس أنه قال: «مَنْ عنده علم الكتاب» إنما هو علي بن أبي طالب عليه السلام، لقد كان عالماً بالتفسير والتأويل والناسخ والمنسوخ «٤».

وملخص الكلام هو: لا يمكن تفسير هذه الآية بعلماء أهل الكتاب إبداءً، بسبب نزول هذه السورة الرعد في مكة، وهؤلاء أسلموا بعد الهجرة في المدينة، واستناداً إلى الروايات الآنفه فهى بحق علي بن أبي طالب عليه السلام ومن بعده تشمل (سائر الأئمة المعصومين عليهم السلام). نعم، فهذا العلم الواسع بالقرآن الكريم وأسراره، ودقائقه، وظاهره وباطنه، هو أحد المصادر الرئيسة لعلم الأئمة المعصومين عليهم السلام «٥».

ومن شواهد هذا المعنى قول الآية الكريمة: «وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ». (آل عمران/ ٧) وللتوضيح ثمة جدل بين المفسرين بأن هل «الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ» معطوفة على «اللَّهُ» أى ليس هنالك من يعلم تأويل القرآن سوى الله «والراسخون في العلم»، أم أنها مطلع جملة

(١) «قندوز»، مدينة شمال أفغانستان نسب إليها هذا العالم السنى.

(٢) ينابيع المودة، ص ١٠٢.

(٣) المصدر السابق، ص ١٠٣.

(٤) ينابيع المودة، ص ١٠٤.

(٥) وردت عن أهل البيت عليهم السلام روايات عديدة في هذا المجال، فللمزيد من الاطلاع راجعوا تفسير كنز الدقائق، ج ٦، ص ٤٨٠ وتفسير البرهان ذيل الآية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٨٨

مستقلة؟ وعليه فإن مفهوم الآية يكون هكذا: لا- يعلم تأويل القرآن غير الله، أما الراسخون في العلم فيقولون: وإن كنا لا نعلم تأويل الآيات المتشابهة، إلا أننا نسلّم أمامها.

وما يؤيد المعنى الأول هو أولاً: من المستبعد أن تكون في القرآن أسرار لا يعلمها إلا الله فقط، فالقرآن نزل لتربية الناس وهدايتهم، ولا معنى في أن تكون في هذا الكتاب آيات وجمل لا يعلم مقصودها إلا الله تعالى

ثانياً: كما يقول المفسر الكبير «الطبرسي» في «مجمع البيان»: لا يوجد بين المفسرين من يقول: إن الآية الفلانية لا يعلم معناها إلا الله، بل إنهم يسعون دائماً لكشف أسرار الآيات بطرق مختلفة، منها أحاديث المعصومين عليهم السلام، وفي الواقع أن هذا الكلام يناقض إجماع المفسرين.

ثالثاً: إذا كان المقصود هو التسليم بدون علم فيجب أن يقال: «الراسخون في الإيمان، لا الراسخون في العلم»، فالذي لا يعرف شيئاً كيف يمكن تسميته راسخاً في العلم؟

رابعاً: جاء في عدة روايات أن «الراسخون في العلم، يعلمون تأويل القرآن» وهذا دليل على أن هذه العبارة عطف على لفظ الجلالة «الله».

فقرأ في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «الراسخون في العلم أمير المؤمنين والأئمة من بعده» (١).

وجاء في رواية أخرى عنه عليه السلام أنه قال: نحن الراسخون في العلم ونحن نعلم تأويله» (٢).

ونقرأ في رواية أخرى أيضاً، أن الإمام الباقر عليه السلام (أو الإمام الصادق عليه السلام) قال في تفسير الآية: «وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ»: «فرسول الله أفضل الراسخين في العلم، قد علمه الله عز وجل جميع ما أنزل عليه من التنزيل والتأويل، وما كان الله لينزل عليه شيئاً لم يعلمه تأويله، وأوصيائه من بعده يعلمونه كله» (٣).

وهناك روايات عديدة أخرى بهذا الصدد تؤيد هذا المعنى المفهوم (٤).

(١) اصول الكافي، ج ١، ص ٢١٣، ح ٣.

(٢) المصدر السابق، ح ١.

(٣) المصدر السابق، ح ٢.

(٤) للمزيد من التوضيح، راجع كتاب جامع الأحاديث، ج ١، ص ٢٧؛ وتفسير كنز الدقائق، ص ٤٢-٤٥؛ واصل الكافي، ج ١، ص ٤١٥.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٨٩

من خلال البراهين الأربعة التي ذكرناها آنفاً- وكل برهان منها يكفي لإثبات الغرض- فلا يبقى شك في أن عبارة «والراسخون في العلم» معطوفة على «الله» ومعناها علمهم بالتأويل وباطن الكتاب.

والجدير بالذكر أن التعبير ب «الراسخون في العلم» جاء مرتين في القرآن الكريم، فمرة جاء في الآية محل البحث سورة آل عمران ٧، ومرة في سورة النساء حيث يقول تعالى بعد أن ذم أفعال أهل الكتاب (اليهود والنصارى القبيحة المتمثلة بأكل الربا ونهب أموال

الناس:

«لَكِنَّ الرَّاْسِخُوْنَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ».

(النساء / ١٦٢)

ويبدو أن الذين ذكروا اسم «عبدالله بن سلام» وأمثاله من علماء أهل الكتاب- الذين أسلموا- في تفسير الراسخين في العلم يقصدون هذه الآية ١٦٢ من سور النساء، لا الآية ٧ من سورة آل عمران، لأن الآية التي تتحدث حول علماء أهل الكتاب الآية الأولى، أما الآية التي هي محل بحثنا (الآية ٧ من سورة آل عمران) فلا علاقة لها بقضية أهل الكتاب، (تأملوا جيداً).

كما تتضح هنا نكتة مهمة أخرى وهي: ما ورد في خطبة الأشباح في نهج البلاغة حيث يقول عليه السلام: «واعلم أن الراسخين في العلم هم الذين أغناهم الله عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب لاقرار بجملته ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب» «١».

وربما يكون إشارة إلى آية سورة النساء أيضاً، حيث يتحدث عن تسليم بعض علماء أهل الكتاب والمؤمنين بلا قيد أو شرط أمام القرآن وسائر الكتب السماوية، لا الآية من سورة آل عمران (تأملوا جيداً كذلك).

وملخص الكلام أن ظاهر الآية ٧ من سورة آل عمران يقول: إن الله والراسخين في العلم يعلمون تأويل القرآن، ونظراً إلى أن المقصود من الراسخين في العلم هم النبي صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومون عليهم السلام بالدرجة الأولى إذن يُعرف أحد مصادر علمهم وهو القرآن الكريم وتأويله وتفسيره وظاهره وباطنه.

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٩١ (خطبة الأشباح).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٩٠

ونختتم هذا الحديث بإشارة أخرى إلى آيات القرآن الكريم فنقرأ في الآية: «يَلْهُوْ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ».

(العنكبوت / ٤٩)

ففي مصادر أهل البيت عليهم السلام تلاحظ روايات كثيرة بصدد تفسير جملة «الذين اوتوا العلم» في هذه الآية بالأئمة المعصومين بعد النبي صلى الله عليه وآله.

وللمزيد من الاطلاع راجعوا بحار الأنوار وتفسير البرهان «١».

٢- الوراثة من النبي صلى الله عليه وآله

المصدر الثاني من مصادر علوم الأئمة المعصومين عليهم السلام هو الوراثة من النبي صلى الله عليه وآله، بمعنى أن النبي صلى الله عليه وآله قد علم علماً عليه السلام جميع العلوم وشرائع الإسلام، واستناداً إلى بعض الروايات فإن علماً عليه السلام قد كتب ذلك في كتاب بخط يده وانتقل هذا العلم إلى أولاده أي الأئمة المعصومين عليهم السلام نسلاً بعد نسل.

أو بتعبير آخر- كما ورد في الروايات- أن النبي صلى الله عليه وآله علم علماً عليه السلام ألف باب من العلم يفتح من كل باب ألف باب.

وقد احتوى في كتاب الكافي على روايات عديدة في هذا المجال، منها ما نقرأه في حديث عن أبي بصير حيث يقول: سألت الإمام الصادق عليه السلام إن شيعتكم يقولون: إن رسول الله صلى الله عليه وآله علم علماً عليه السلام باباً من العلم يفتح منه ألف باب، قال الإمام عليه السلام: «علم رسول الله علماً ألف باب يفتح من كل باب ألف باب».

ثم قال عليه السلام: «يا أبا بصير! ان عندنا الجامعة... قلت وما الجامعة؟ قال: صحيفة طولها سبعون ذراعاً بذراع رسول الله صلى الله عليه وآله واملائه، من فلق فيه، وخط على يمينه، فيها كل حلال وحرام، وكل شيء يحتاج الناس إليه حتى الارش من الخدش» «٢».

والجدير بالذكر أنه قد وردت روايات لا حصر لها في أشهر كتب السنة والشيعة حول

(١) بحار الأنوار، ج ٢٣، ص ١٨٨-٢٠٨؛ وتفسير البرهان، ج ٣، ص ٢٥٤-٢٥٦ (لقد روى في هذين الكتابين ما يقارب عشرين حديثاً بهذا الصدد).

(٢) اصول الكافي، ج ١، ص ٢٣٩.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٩١

الحديث المعروف بـ «مدينة العلم» ومن جملة رواة هذا الحديث «ابن عباس» و «جابر بن عبد الله» و «عبد الله بن عمر» و «علي عليه السلام».

ومن الذين نقلوا هذا الحديث في كتبهم هم «الحاكم النيسابوري» في «المستدرک»، و «أبو بكر النيشابوري» في «تاريخ بغداد» و «ابن المغازلي» في «مناقب أمير المؤمنين عليه السلام»، والكنجي في «كفاية الطالب» و «الحمويني» في «فرائد السمطين» و «الذهبي» في «ميزان الاعتدال» و «القندوزي» في «ينابيع المودة» و «النبهاني» في «الفتح الكبير» وطائفة أخرى (١).

ونقرأ أيضاً في عدّة روايات بصريح القول أنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام كانوا يقولون: ما نقله بإمكانك أن تنقله عن رسول الله صلى الله عليه وآله، لأننا سمعنا كل ذلك عن أجدادنا عن رسول الله صلى الله عليه وآله!

فقد سألت أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام: ربّما نسمع حديثاً منك، ثم نشك في هل أننا سمعناه منك أم من أبيك؟

فقال عليه السلام: «ما سمعته مني فاروه عن أبي، وما سمعته من أبي فاروه عن رسول الله صلى الله عليه وآله» (٢).

ويقول في مكان آخر أيضاً: «حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدي، وحديث جدي حديث الحسين، وحديث الحسين حديث الحسن، وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين عليه السلام وحديث أمير المؤمنين عليه السلام حديث رسول الله صلى الله عليه وآله و آله وحديث رسول الله قول الله عز وجل» (٣).

وجاء عنه عليه السلام في رواية أخرى حيث قال بصريح العبارة: «مهما اجبتك فيه بشيء فهو من رسول الله لسنا نقول برأينا من شيء» (٤).

(١) للمزيد من الاطلاع راجعوا احقاق الحق، ج ٥، ص ٤٦٨-٥٠١ وللإطلاع على مصادر هذا الحديث في كتب الشيعة راجعوا كتاب جامع الأحاديث، الطبعة القديمة، ص ١٦ وما بعدها.

(٢) جامع الأحاديث، ج ١، ص ١٧، ح ٤، باب حجية فتوى الأئمة.

(٣) المصدر السابق، ح ١.

(٤) المصدر السابق، ح ٧ (وتوجد أحاديث أخرى أيضاً بهذا الصدد في نفس الكتاب).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٩٢

٣- الاتصال بالملائكة

من مصادر علم الأئمة، اتصالهم بالملائكة، لا بمعنى أنهم كانوا من الأنبياء والرسل، فإننا نعلم أنّ نبي الإسلام صلى الله عليه وآله كان خاتم الأنبياء والرسل، وبوفاته انقطع الوحي، بل إنهم كانوا كـ «الخضر» و «ذو القرنين» و «مريم»، حيث كانوا على اتصال بالملائكة بناءً على ظاهر آيات القرآن، وكانت الحقائق تلقى في قلوبهم من خلال عالم الغيب.

جاء عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «إنّ علياً كان مُحدّثاً؟ وعندما طلبوا منه عليه السلام معرفة من يُحدّثه قال: يُحدّثه ملك، ولما

سألوه: هل كان نبيّاً؟ فأوماً بيده بالنفي والانكار، ثم أضاف: كصاحب سليمان، أو كصاحب موسى أو كذى القرنين «١»، (هناك روايات عديدة أيضاً بهذا المجال) «٢».

٤- إلقاء روح القدس

المصدر الرابع لعلم الأئمة هو فيض روح القدس. وتوضيح ذلك: إنّ الحديث قد تكرر في آيات القرآن عن تأييد «روح القدس» فقد ورد ثلاث مرات بشأن المسيح عليه السلام، (البقرة/ ٨٧ و ٢٥٣ والمائدة/ ١١٠) ومرة واحدة بشأن النبي صلى الله عليه وآله (البقرة/ ١١٠). فمن هو أو ما هو «روح القدس»؟ ثمّة جدل كثير بين المفسرين، فقد فسّره جماعة من المفسرين بـ «جبرائيل»، وفسّر بالروح المقدسة الطاهرة للمسيح عليه السلام، أو بمعنى الانجيل الذي انزل عليه، وتارة قالوا: إنّ المراد هو اسم الله الأعظم الذي كان المسيح يحيى به الموتى «٣».

(١) اصول الكافي، ج ١، ص ٢٧١.

(٢) المصدر السابق.

(٣) جاءت هذه المعاني الأربعة في تفسير كنز الدقائق، ج ٢، ص ٧٨، ولكن في بعض التفاسير المعروفة ذكر التفسير الأول فقط، واكتفى في تفسير الكبير بذكر ثلاثة معانٍ وهي، جبرئيل، والانجيل، والاسم الأعظم (تفسير الكبير، ج ٣، ص ١٧٧).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٩٣

ولكن يستفاد من تعابير القرآن الكريم، وكذا مختلف الروايات، أنّ روح القدس له عدّة معانٍ وربما يحمل معنى خاصاً في كل مكان، ففي إحدى آيات القرآن الكريم: «قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ». (النحل/ ١٠٢)

يعنى بحسب الظاهر «جبرئيل» الذي كان ينزل بالقرآن على النبي صلى الله عليه وآله من قبل الله تعالى لكن يبدو أنّه يحمل مفهوماً آخر في الموارد الثلاثة الأخرى والتي جميعها بحق المسيح عليه السلام، فالتعبير «إذ أيدتك بروح القدس» -أو- «وأيدناه بروح القدس» يدل على أنّه إشارة إلى الروح التي كانت ترافق المسيح عليه السلام وتؤيده وتسده. ويفهم من الروايات التي وردت في مصادر أهل البيت عليهم السلام أنّ روح القدس هي الروح التي كانت مع الرسل والأنبياء والمعصومين عليهم السلام دائماً، وكانت تنقل إليهم الامدادات الغيبية في مختلف الحالات، بل يستفاد من الروايات العديدة التي وردت في مصادر السنّة أيضاً، أنّهم كانوا يصفون الكلام أو الشعر ذي المغزى الذي يصدر عن شخص ما: «كان هذا بتأييد من روح القدس».

ومن هذا الكلام ما نقرأه في الرواية الواردة في تفسير الدر المنثور أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قال بحق الشاعر الإسلامي المعروف «حسان بن ثابت»: «اللهم أيد حسناً بروح القدس كما دافع عن نبيّه» «١».

ونقرأ بشأن شاعر أهل البيت المعروف «الكميت بن زيد الأسدي» أنّ الإمام الباقر عليه السلام قال له: كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله و آله لحسان بن ثابت، «لن يزال معك روح القدس ما دَئِيتَ عنّا» «٢».

وورد في رواية أخرى أنّ الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام بكى كثيراً عندما أنشده الشاعر دعبل الخزاعي بعض أبيات قصيدته المعروفة «مدارس آيات» ثم قال له: «نطق»

(١) تفسير در المنثور، ج ١، ص ٨٧ (ذيل الآية ٨٧ من سورة البقرة) وجاء في صحيح مسلم، ج ٤، ص ١٩ و ٣٢ باب فضائل حسان بن

ثابت ما يشبه هذا المضمون.

(٢) سفينة البحار، ج ٢، ص ٤٩٥٤.

نقمة القرآن، ج ٩، ص: ٩٤

روح القدس على لسانك بهذين البيتين» (١).

من هنا يتضح جيداً أنّ «روح القدس» روح معينة تعين الإنسان أثناء ادائه للأعمال المعنوية الإلهية، وبطبيعته الحال فإنها متفاوتة بتفاوت مراتب الأشخاص، فهي لدى الأنبياء والأئمة المعصومين تكون فعالة وتعمل بشكل استثنائي وأكثر وضوحاً، ولدى الآخرين تكون وفقاً لقبلياتهم وإن كنا نفتقد العلم بماهيتها وتفصيلها.

وجاء عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير «وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ»

(الواقعة/ ١٠-١١)

فقال: «السابقون هم رسل الله عليهم السلام وخاصة الله من خلقه، جعل فيهم خمسة أرواح، أيدهم بروح القدس فبه عرفوا الأشياء...» (٢).

وجاء في رواية أخرى عن الإمام الباقر عليه السلام بهذا الصدد حيث قال بعد تعداده للأرواح الخمسة الموجودة لدى الأنبياء والأوصياء: «فبروح القدس.. عرفوا ما تحت العرش إلى ما تحت الثرى» (٣).

وهناك روايات كثيرة أخرى بهذا المجال في أصول الكافي وسائر الكتب، حيث لا يسع المجال لشرحها هنا.

نعم فالإمداد الإلهي عن طريق روح القدس مصدر آخر من مصادر علم المعصومين عليهم السلام.

٥- النور الإلهي

المصدر الخامس الذي يمكن ذكره لعلوم الأئمة هو ماورد في العديد من الروايات في أصول الكافي، منها ما يقوله «حسن بن راشد»: سمعت الإمام الصادق عليه السلام يقول: «... فاذا

(١) كشف الغمّة، ج ٣، ص ١١٨؛ واعلام الوري ص ٣٣١، وذانك البيتان هما، خروج إمام لا- محالة خارج يقوم على اسم الله والبركات

يميز فينا كلّ حقٍ وباطل ويجزى على النعماء والنقمة

(٢) أصول الكافي، ج ١، ص ٢٧١.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٧٢.

نقمة القرآن، ج ٩، ص: ٩٥

مضى الإمام الذي كان قبله رفع لهذا منار من نور ينظر به إلى أعمال الخلاق فهذا يحتاج الله على خلقه» (١).

وورد في بعض الروايات أيضاً ب «عمود من نور» (٢)، إلماً أنه غالباً ما جاء تعبير «منار من نور»، وبالطبع ليس هنالك تباين كثير بين هذين التعبيرين.

وللمزيد من الاطلاع راجعوا بحار الأنوار، ج ٦، ص ١٣٢، إذ ينقل المرحوم العلامة المجلسي ستة عشر رواية بهذا الصدد، وكذلك وردت روايات عديدة في هذا المجال في باب «عرض الأعمال» (ج ٢٣، ص ٣٣٣ وما بعدها).

يستفاد من مجموع ما قيل إنّ مصادر علم الأئمة المعصومين عليهم السلام متعددة ومتنوعة، ويأتي علمهم بجميع معاني القرآن الكريم بالدرجة الأولى، وفي الدرجة الثانية تأتي العلوم التي يرثونها عن رسول الله صلى الله عليه وآله، ويليها التسديد والتأييد الإلهي،

والالهامات القلبية والاتصال بالملائكة وعالم الغيب.

ومن فيض هذه المصادر يقتبس الأئمة المعصومون علوماً ومعارف كثيرة ليتسنى لهم إنجاز مهمتهم التي تتجسد في المحافظة على الإسلام والقرآن وسنة النبي صلى الله عليه وآله وهداية الخلق نحو الخالق، وتربية النفوس وإقامة الحدود وتدبير الأمور على أحسن وجه.

والملاحظة الأخرى الجديرة بالاهتمام هي أنه يستفاد من بعض الروايات أن أرواح الأئمة عليهم السلام تستلهم كل ليلة جمعة علوماً ومعارف جديدة بصدد القضايا المستجدة، وذلك من قبل الله تعالى (لينسجموا مع متطلبات الأمة الإسلامية).
منها ما نقرأه في الرواية الواردة عن الإمام الصادق عليه السلام حيث قال: «إن لنا في كل ليلة جمعة سروراً».

(١) اصول الكافي، ج ١، ص ٣٨٧، ح ٢.

(٢) المصدر السابق، ح ٤.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٩٦

يقول الراوي فقلت: زادك الله وما ذاك؟

قال عليه السلام: «إذا كان ليلة الجمعة وافى رسول الله العرش ووافى الأئمة معه، فلا تُرَدُّ أرواحنا إلى أبداننا إلا بعلم مستفاد، ولولا ذلك لأنفدنا» (١).

وتشاهد روايات عديدة في هذا البحث بهذا الصدد أيضاً يطول شرحها هنا.

نظراً إلى ما ذكرناه في هذا الفصل يتضح أن مصادر علم الأئمة ليست أمراً بسيطاً، فالمصادر التي يمتلكونها هي التي تميزهم عن سائر الناس، وتعينهم في أدائهم للمسؤوليات المهمة التي يتحملونها في المحافظة على الإسلام وتعاليم القرآن وهداية العباد.

(١) اصول الكافي، ج ١، ص ٢٥٤ (باب في أن الأئمة عليه السلام يزدادون في ليلة الجمعة).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٩٧

عصمة الأئمة عليهم السلام

تمهيد:

التوقى من الخطأ والسهو والمعصية شرط آخر من الشروط العامة للأئمة المعصومين، وفي الحقيقة أن القرائن كافة التي تدل على عصمة الأنبياء عليهم السلام تدل على عصمة الأئمة عليهم السلام أيضاً، لأن مسؤوليتهم تتشابه إلى حد كبير.
صحيح أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله الواضع لأسس الشريعة ويتصل بعالم الوحي، أما الأئمة فهم بمثابة الامتداد لوجود النبي صلى الله عليه وآله وهم حماة حراس الشريعة بالرغم من عدم نزول الوحي عليهم، لأنهم يتبعون أثر النبي صلى الله عليه وآله في هداية الناس، والدفاع عن الأحكام والحدود الإلهية وجميع ما يتعلق بالشريعة، من هنا فهم يشتركون في الكثير من الصفات ويتشابهون فيما بينهم.

بناءً على ذلك فإن جميع الأدلة الرئيسة التي ذكرناها في بحث عصمة الأنبياء (١) تصدق فيما يتعلق بالأئمة أيضاً.

بعد هذه اللمحة المختصرة نرجع إلى بعض آيات القرآن الواردة بهذا الصدد ونبدأ بالكلام من القرآن:

١- «أَتَمَّا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُدْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً». (الأحزاب / ٣٣)

(١) للمزيد من الايضاح راجعوا ج ٧، ص ١٤٥ - ١٦٠ من هذا التفسير.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٩٨

في البحوث السابقة وأثناء تفسير الآية ١٢٤ من سورة البقرة، قرأنا ما يتعلق بعظمة مقام الإمامة والولاية في قصة إبراهيم عليه السلام حيث أن الله تبارك وتعالى قد أخضع هذا النبي العظيم إلى العديد من الاختبارات المهمة، ولما خرج منها ظافراً قال له: «أَنْتَى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ أَمَامًا» (فالإمامة تعنى الهيمنة على الجسم والروح، وتربية النفوس والمجتمعات البشرية).

وعندما سأل إبراهيم عليه السلام هذا المقام لبعض ذريته وأبنائه، جوبه بالرد الإلهي المشروط، فقال تعالى: «لَا يَنْتَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ»، أى (أنّ الرهط الطاهر والمعصوم من أبنائك يستحقون هذا المقام فقط).

وقد تبين في تلك البحوث كيف أنّ هذا المقطع من الآية دليل على عصمة الأئمة، وأنّ الذين أمضوا عمرهم في طريق الكفر والشرك من ناحية الاعتقادات، أو من ناحية أعمالهم حيث ارتكبوا الظلم بحق أنفسهم أو الآخرين، لا يستحقون هذا المقام، لأنّ الظلم بالمعنى الشامل للكلمة يشمل الظلم والشرك والكفر والانحرافات العقائدية، وكذلك جميع أشكال التجاوز على الآخرين، وظلم النفس عن طريق ارتكاب المعصية.

وحيث إنّ هذه البحوث قد جاءت هناك بشكل مفصل ومستفيض فلا نرى حاجة للتكرار، وعليه فقد وضع القرآن الكريم الركنية الأساسية لشرط عصمة الأئمة في هذه الآية الكريمة.

والآن نعود إلى آية التطهير وبحث مسألة العصمة الواردة في هذه الآية:

صحيح أنّ هذه الآية تتوسط الآيات المتعلقة بنساء النبي صلى الله عليه وآله إلّا أنّها تحمل نغمة مختلفة عنها، وتشير إلى معنى آخر، فجميع الآيات التي سبقتها وتلتها جاءت بضمير «جمع المؤنث» بينما جاءت الآية محل البحث بضمائر «جمع المذكر»!

ففي مستهل هذه الآية خاطب تعالى نساء النبي صلى الله عليه وآله وأمرهنّ بالمكوث في بيوتهن، وأن لا يخرجن بين الناس كما كان سائداً في الجاهلية، ويحافظن على معايير العفة، وأن يقمن الصلاة ويؤتين الزكاة ويطعن الله ورسوله «وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَاطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ». (الاحزاب / ٣٣)

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٩٩

فجميع الضمائر الستة التي وردت في هذا المقطع من الآية هي على صورة جمع المؤنث (تأملوا جيداً).

ثم يتبدل لحن الآية، ويقول: «أَنْمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا».

وقد استخدم في هذا المقطع من الآية ضميرين جمع بصورة جمع المذكر.

صحيح أنّ مطلع ونهاية كل آية يستهدف امرأة واحداً، إلّا أنّ هذا الكلام يجرى في المكان الذي لا تتوفر فيه قرينة على الخلاف، وعلى هذا فالذين رأوا أنّ هذا الجانب من الآية ناظرٌ إلى نساء النبي صلى الله عليه وآله أيضاً فقد نطقوا خلافاً لظاهر الآية والقرينة التي فيها، أى تباين الضمائر.

بالإضافة إلى ذلك نمتلك روايات عديدة فيما يتعلق بهذه الآية حيث نقلها أكابر علماء المسلمين سواء الشيعة أم السنة عن النبي صلى الله عليه وآله وجاءت بشكل وآخر في أشهر كتب الفريقين التي تحظى بقبولهم.

هذه الروايات بأجمعها تفيد أنّ المخاطب في هذه الآية هو النبي صلى الله عليه وآله وعلى وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام (لا نساء النبي) كما سيأتى بالتفصيل فيما بعد.

ولكن قبل الدخول في البحث لابدّ من التطرق إلى تفسير العبارات:

إنّ التعبير ب «إنّما» الذي عادة ما يستعمل للحصر دليل على أنّ الموهبة الواردة في هذه الآية تخص آل النبي صلى الله عليه وآله ولا

تشمل غيرهم.

وعبارة «يريد» إشارة إلى إرادة الله التكوينية- أى أن الله تعالى شاء من خلال أمر تكويني أن يطهركم ويحفظكم من كل قذارة- لا الإرادة التشريعية، فالإرادة التشريعية تعنى تكليفهم بصيانه أنفسهم طاهرة، ونحن نعلم أن هذا التكليف لا يختص بآل الرسول صلى الله عليه وآله بل إن المسلمين جميعاً مكلفون بتطهير أنفسهم.

ربما يتصور أن الإرادة التكوينية تفرض نوعاً من الجبر، وفي هذه الحالة لن تكون العصمة فضيلة وفخراً.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٠٠

نفحات القرآن ج ٩، ص: ١٤٩

لقد ذكرنا الاجابة عن هذا السؤال بالتفصيل فى الجزء السابع فى بحث عصمة الأنبياء، ولا بد من التعرض إليه باختصار: إن المعصومين يمتلكون نوعين من القابلية «قابلية ذاتية موهوبة» و «قابلية اكتسابية من خلال أعمالهم وملكاتهم الداخلية»، ومن مجموع هاتين القابليتين اللتين لا تخلو إحداها على أقل تقدير من صبغة اختيارية لتحصيل هذا المقام السامى، وتعتبر آخر فإن المشيئة الإلهية توفر الأرضية للتوفيق من أجل بلوغ هذا المقام الشامخ، واستثمار هذا التوفيق يتعلق بإرادتهم (تأملوا جيداً).

فترك الذنب بالنسبة لهم محال عادى لا عقلى، فمثلاً، محال عادى أن يصطحب إنسان عالم ومؤمن الخمر إلى المسجد ويحتسيه بين صفوف الجماعة، إلا أنه من المسلم به أن هذا الأمر ليس محالاً عقلياً، ولا يتعارض مع كون هذا الفعل اختيارياً، أو على سبيل المثال، أن الإنسان العاقل لا يخرج إلى الزقاق والشارع عارياً كما ولدته امه أبداً، فالقيام بهذا العمل ليس محالاً بالنسبة له، بل مستوى تفكيره ومعرفته لا يسمح له بالقيام بمثل هذا الفعل وإن كان فعله وتركه باختياره.

وهكذا حالة ارتكاب الذنوب بالنسبة للأنبياء والأئمة، صحيح أن العصمة من الألفاظ الإلهية، بيد أن الألفاظ الإلهية تخضع لحساب، كما يقول القرآن الكريم بشأن إبراهيم عليه السلام:

لن ننال منزلة الإمامة ما لم تفلح فى الابتلاءات الإلهية «وَأَذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ...» (١).

(البقرة/ ١٢٤)

وأما كلمة «الرجس» فتعنى لغتاً، الشيء القذر سواء من ناحية كونه قذراً ومقززاً لطبع الإنسان، أو بحكم العقل، أو الشرع، أو جميعها. من هنا فبعد أن يفسر «الراغب» فى «المفردات» الرجس بأنه الشيء القذر، يذكر له أربع حالات (نفس الحالات الأربع التى ذكرت أعلاه من ناحية طبع الإنسان، أو العقل، أو الشرع، أو جميعها)، وإذا ما فسر الرجس فى بعض تعابير العلماء بالذنب أو «الشرك» أو

(١) للمزيد من الايضاح فى مجال أن العصمة لا تتنافى واختيارية أفعال المعصومين راجعوا، ج ٧، ص ١٥٥ وما بعدها من هذا التفسير.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٠١

«العقيدة الباطلة» أو «البخل والحسد» فهو فى الحقيقة بيان لمصاديق من هذا المفهوم الواسع الشامل.

على أية حال، نظراً لمجىء «الف ولام الجنس» فى بداية هذه الكلمة «الرجس» والتى تفيد العموم، يكون مفهوم الآية: إن الله شاء أن يبعد كل أنواع الرجس عنهم.

وفى عبارة: «ويطهركم تطهيراً»، فيما أن «التطهير» تعنى التزكية فهى تمثل تأكيداً آخر على قضية نفى الرجس وكافة الاقذار التى وردت فى العبارة السابقة، وكلمة «تطهيراً» التى هى بعنوان مفعول مطلق فهى تأكيد آخر على هذا المعنى

والنتيجة: هى أن الله تعالى شاء وبمختلف التأكيدات أن يطهر ويُنزه آل النبى صلى الله عليه وآله من كل أشكال القذارة والرجس، ومن المسلم أنه يشمل النبى صلى الله عليه وآله بالمرتبة الاولى باعتباره صاحب الدار ومن ثم البقية، والآن لنعرف من هم أهل البيت؟

مَنْ هُمْ أَهْلُ الْبَيْتِ؟

رأى بعض من مفسرى أهل السنّة أنّ ذلك يعنى نساء النبي صلى الله عليه وآله، ولكن كما قلنا فإنّ تغيير سياق الآية، وتبديل الضمائر من «جمع المؤنث»- فيما قبل وبعد هذه الآية- إلى «جمع المذكر» دليل يبيّن على أنّ لهذه العبارة مضمونا منفصلاً، وأنّ المراد منها أمر آخر، أليس الله حكيماً والقرآن فى أعلى مراتب الفصاحة والبلاغة وجميع عباراته تخضع للحساب. وطائفة اخرى من المفسرين خصتها بالنبي وعلى وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، والروايات الكثيرة الواردة فى مصادر أهل السنّة والشيعة والتي تشير إلى بعضها لاحقاً شاهد على هذا المعنى وبسبب وجود هذه الروايات ربما ذكر الذين لا يحصرون الآية بهؤلاء العظماء معنىً واسعاً لها بحيث يشملهم ويشمل نساء النبي صلى الله عليه وآله وهذا تفسير ثالث للآية.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٠٢

أمّا الروايات التي تدل على اختصاص الآية بالنبي صلى الله عليه وآله وعلى عليه السلام وسيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام وابنيهما الحسن والحسين عليهما السلام فهي- وكما أشرنا- كثيرة للغاية، منها ثمانية عشرة رواية، نقلت خمس منها فى تفسير «الدر المنثور» عن ام سلمة، وثلاث عن أبى سعيد الخدرى، وواحدة عن عائشة، وواحدة عن انس، واثنان عن ابن عباس، واثنان عن أبى الحمراء، وواحدة عن وائلة بن الاسقع، وواحدة عن سعد، وواحدة عن الضحاک بن مزاحم، وواحدة عن زيد بن الأرقم «١». ويحصى المرحوم العلامة الطباطبائى فى تفسير «الميزان» الروايات التي وردت بهذا الصدد بما يربو عن سبعين روايةً ويقول: وهى روايات جمّة تزيد على سبعين حديثاً يربو ما ورد منها من طرق أهل السنّة على ما ورد منها من طرق الشيعة، ويضيف رواة آخرين سوى الذين ذكرناهم أعلاه (الرواة الذين ذكرت رواياتهم فى غير تفسير الدر المنثور). وذكر البعض أنّ عدد الروايات والكتب التي نقلت فيها بلغ المئات ولا يُستبعد أن يكون كذلك. وهنا نذكر طائفة من هذه الروايات فقط مع ذكر مصادرها ليتبين قول الواحدى فى «أسباب النزول»: أنّ الآية نزلت فى النبي صلى الله عليه وآله وعلى وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام خاصة لا يشاركهم فيها غيرهم «٢». ويمكن اختصار هذه الروايات فى أربعة اقسام:

١- الروايات التي نقلت عن بعض نساء النبي صلى الله عليه وآله وآله تقول بصريح التعبير: عندما كان النبي صلى الله عليه وآله يتحدث عن هذه الآية سألناه هل نحن منهم؟ فقال: «لا ولكنكم على خير». منها ما يرويه الثعلبى فى تفسيره عن «ام سلمة» زوجة النبي صلى الله عليه وآله أنّ النبي كان فى بيتها وجاءته فاطمة عليها السلام بالطعام، فقال لها صلى الله عليه وآله: «ادع لى بعلك وابنيك» فجاءوا فتناولوا الطعام ثم نشر صلى الله عليه وآله عليهم الكساء وقال: اللهم هؤلاء أهل بيتى وعترتى فأذهب عنهم الرجس

(١) تفسير در المنثور، ج ٥، ص ١٩٦ و ١٩٩.

(٢) تفسير الميزان، ج ١٦، ص ٣١١.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٠٣

وطهّرهم تطهيراً، ونزلت آية «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ...» فقلت يارسول الله وأنا معكم؟! فقال: «إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ» «١».

وكذلك الثعلبى وهو من العلماء المعروفين لدى أهل السنّة الذى عاش فى القرن الرابع وأوائل القرن الخامس، وتفسيره الكبير معروف، يروى عن عائشة زوجة النبي صلى الله عليه وآله ما يلى:

عندما سئلت عن حرب الجمل ودورها في تلك الحرب المدمرة، قالت (بتأسف): لقد كان تقديراً إلهياً وعندما سئلت عن علي عليه السلام قالت:

«تسألني عن أحب الناس كان إلى رسول الله، وزوج أحب الناس كان إلى رسول الله، لقد رأيت علياً وفاطمة وحسناً وجمع رسول الله صلى الله عليه وآله بثوب عليهم، ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي وحامتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. قالت: فقلت يارسول الله أنا من أهلك؟ قال: تنحى فإنك إلى خير» (٢).

فمثل هذه الروايات تؤكد بصراحة أن نساء النبي صلى الله عليه وآله لم يكن من أهل البيت في هذه الآية.

٢- وردت قصيدة حديث الكساء في روايات كثيرة للغاية وبتعابير مختلفة والمضمون المشترك لها جميعاً هو أن رسول الله صلى الله عليه وآله دعا علياً عليه السلام وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام - أو أنهم حضروا عند رسول الله صلى الله عليه وآله - أو أنه غطاهم بالكساء أو بقماش، وقال: إلهي هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس، فنزلت الآية: «أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً».

والجدير بالاهتمام أن هذا الحديث روى في صحيح مسلم عن «عائشة»، وكذلك نقله الحاكم في «المستدرک»، والبيهقي في «السنن»، وابن جرير في «تفسيره»، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣).

(١) ذكر الطبرسي في مجمع البيان في ذيل الآية مورد البحث، والحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٥٦، الحديث أعلاه.

(٢) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية محل البحث.

(٣) صحيح مسلم، ج ٤، ص ١٨٨٣، ح ٢٤٢٤ (باب فضائل أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٠٤

وأورده الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل أيضاً (١)، كما نقل هذا الحديث في صحيح «الترمذی» مراراً، ففي موضع رواه عن «عمرو بن أبي سلمة» وفي موضع آخر عن «ام سلمة» (٢).

والملاحظة الأخرى هي أن «الفخر الرازي» يضيف في ذيل آية المباهلة (سورة آل عمران، الآية ٦١) بعد نقله لهذا الحديث (حديث الكساء):

واعلم أن هذه الرواية كالمتفق على صحتها بين أهل التفسير والحديث (٣).

كما يجدر ذكر هذه الملاحظة وهي: أن الإمام «أحمد بن حنبل» أورد هذا الحديث في مسنده بطرق مختلفة (٤).

٣- نقرأ في جانب آخر من الروايات العديدة والكثيرة أيضاً أن النبي صلى الله عليه وآله وبعد نزول آية التطهير كان يمر على دار فاطمة عليها السلام ولعدة أشهر «في بعضها ستة أشهر، وفي بعضها ثمانية أو تسعة أشهر» أثناء ذهابه لصلاة الصبح وينادي: «الصلاة يا أهل البيت! إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً».

وروى هذا الحديث في «شواهد التنزيل» للمفسر الشهير «الحاكم الحسكاني» عن «انس بن مالك» (٥).

وجاء في نفس الكتاب رواية أخرى عن «أبي الحمراء» يذكر فيها أن المدّة كانت «سبعة

(١) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٣٣، ح ٣٧٦.

(٢) صحيح الترمذی، ج ٥، ص ٦٩٩، ح ٣٨٧١ (باب فضل فاطمة).

(٣) تفسير الكبير، ج ٨، ص ١٠٥، ص ٨٠.

(٤) مسند أحمد، ج ١، ص ٣٣٠، ج ٤، ص ١٠٧، ج ٦، ص ٢٩٢ (نقلًا عن فضائل الخمسة، ج ١، ص ٢٧٦ وما بعدها).

(٥) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ١١ و ١٢ و ١٣ و ١٤ و ١٥ و ٩٢ (انتهوا إلى أن شواهد التنزيل نقل هذه الرواية بطرق عديدة).
نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٠٥
أشهر».

ورويت هذه الواقعة أيضاً في نفس الكتاب عن «أبي سعيد الخدرى» ذاكراً أن المدّة كانت «ثمانية أشهر» (١).
إن الاختلاف في هذه التعابير أمر طبيعي، فربما شاهد أنس هذا الأمر لمدّة ستة أشهر، وأبو سعيد الخدرى لمدّة ثمانية أشهر، وأبو
الحرّاء لمدّة سبعة أشهر وابن عباس تسعة أشهر (٢).
فكل منهم نقل ما رآه، فلا تضارب بين كلامهم.

على أيّة حال، فاستمرار هذه الحالة وتكرار هذا الكلام خلال تلك الفترة الطويلة من قبل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله كان أمراً
مخطئاً له، فهو كان يريد أن يُبين بوضوح أن المراد من «أهل البيت» هم أهل هذه الدار فقط، لئلا يبقى شك بالنسبة لأي شخص في
المستقبل، وليعلم الجميع أن هذه الآية نزلت بحق هذه الزمرة فقط، والعجيب أن القضية بالرغم من هذا التكرار والتأكيد بقيت غامضة
بالنسبة للبعض.

لاسيما وأن الدار الوحيدة التي كانت بابها مفتوحة على مسجد النبي صلى الله عليه وآله هي دار النبي صلى الله عليه وآله وعلى عليه
السلام، (فقد أمر النبي صلى الله عليه وآله بإغلاق جميع الأبواب التي كانت تفتح على المسجد ماعدا هاتين البابين).
ويذكر أن الكثير من الناس طالما سمعوا هذا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله أثناء الصلاة، وبعد هذا التأكيد والإثبات
أليس من المدهش أن يصير بعض المفسرين على سعة مفهوم الآية لتشمل نساء النبي صلى الله عليه وآله أيضاً، مع ما أوردناه سابقاً من
حديث عائشة زوجة النبي صلى الله عليه وآله واستناداً إلى شهادة التاريخ حيث أنها لم تدع شيئاً أثناء ذكرها لفضائلها وتفصيل
حياتها مع النبي صلى الله عليه وآله، فهي لم تر نفسها غير مشمولة بهذه الآية فحسب، بل تقول: إن النبي قال لي:
«لست منهم!»

(١) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٢٨؛ واحقاق الحق، ج ٢، ص ٥٠٣ إلى ٥٤٨.

(٢) تفسير در المنثور، ج ٥، ص ١٩٩.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٠٦

٤- الروايات العديدة المروية عن الصحابي المعروف أبي سعيد الخدرى التي أشارت إلى آية التطهير تقول بصراحة: نزلت في خمسة:
في رسول الله وعلى وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام (١).

وملخص الحديث هو: إن الروايات التي وردت في المصادر الإسلامية بشأن آية التطهير واختصاصها بالنبي وعلى وفاطمة والحسن
والحسين من الكثرة بحيث يجعلها في صف الروايات المتواترة، ولا يبقى فيها أدنى شك من هذه الناحية، حيث إن صاحب شرح
إحقاق الحق ينقلها عن ما يربو على سبعين مصدراً من مصادر أهل السنة (بالإضافة إلى المصادر المعروفة لدى أتباع أهل البيت)
ويقول: «لو أحصينا كافة هذه المصادر لتجاوزت الألف» (٢)!

أجوبة عن عدة أسئلة:

نظراً إلى أن الآية الآنف الذكر التي تواترت الروايات في المصادر الإسلامية المعروفة في تفسيرها، تعد كرامة عظيمة لأنتم أهل البيت
عليهم السلام يمكن اعتبارها دليلاً على حقانية خطهم، وقد تشبث بعض العلماء وأخذوا كالعادة بالبحث عن إشكالات أشبه ما تكون
باختلاق المبررات بعيداً عن الانتقاد العلمي، بينما أيقنت طائفة أخرى بالآية والروايات بشجاعة، وإن ظلوا أتباعاً لطريقة أهل السنة من

الناحية الاصولية، وفيما يلي بعض الانتقادات:

١- المراد من أهل البيت هم الساكنون في بيت النبي صلى الله عليه وآله، لأن البيت يعنى الدار المسكونة، وسكنة بيت النبي صلى الله عليه وآله هم نسائه، وليس الآخرين، وإذا ما جاء الضمير على صورة ضمير المذكر فالسبب يعود إلى أن لفظ «الاهل» مذكر، وإذا ما جاء البيت بصيغة المفرد لا الجمع، بينما نساء النبي صلى الله عليه وآله كنّ يسكنن في بيوت عديدة، فذلك بسبب أن النبي صلى الله عليه وآله كان واحداً، فذكر بيته بصفة الواحد أيضاً، والخلاصة أن الآية ناظرة إلى نساء النبي صلى الله عليه وآله فقط.

(١) وردت في شواهد التنزيل أربع روايات بهذا الصدد، ج ٢ من ص ٢٤-٢٧ (ح ٦٥٩ و ٦٦٠ و ٦٦١ و ٦٦٤).

(٢) اقتباساً من احقاق الحق، ج ٢، ص ٥٠٢ إلى ٥٦٣.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٠٧

لقد اتضحت الاجابة جيداً عن هذا السؤال أو التبرير من خلال الأبحاث السابقة، وآثار التكلف أثناء الدفاع عن هذا الرأي مشهودة تماماً، فلو كان المقصود من (الأهل) نساء النبي صلى الله عليه وآله يكون ظاهر اللفظ «مفرد مذكر» ومعناه «جمع مؤنث»، بينما لم يذكر في الآية لا «المفرد المذكر» ولا «الجمع المؤنث» بل جاء بصيغة «الجمع المذكر».

كما أن التعبير ب «البيت» جاء بصيغة المفرد خلافاً لمطلع الآية الذى جاء بصيغة الجمع، فمن المتعذر أن تكون عبارة: «وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ» من أجل شخص النبي صلى الله عليه وآله، لأن النبي صلى الله عليه وآله لم يكن يمتلك بيتاً مستقلاً، فقد كان بيته هي البيوت التي كانت تعيش فيها زوجاته.

على هذا الأساس فلا- سبيل سوى أن يكون المقصود من البيت هنا بيت القرابة والارتباط النسبي بالنبي صلى الله عليه وآله، لا بيت السكنى كما في التعبير المتداول والمعتاد عليه.

بالإضافة إلى كل هذا فعلى فرض قبولنا بهذه الآراء البعيدة عن الواقع، فهل يمكن التغاضي عن روايات بهذه السعة والكثرة والصرحة وهي التي تحصر أهل البيت عليهم السلام بخمسة أشخاص؟ أم نعتبرها روايات ضعيفة السند؟ فلو لم تكن هذه الروايات متواترة وقوية، فليس لدينا- إذن- حديث متواتر وصحيح، ولو كانت هذه الروايات خالية من الصراحة، فأى رواية صريحة في مضمونها؟!

والأدهى من ذلك كله ما نقل عن «عكرمة» قوله: من شاء باهله أنها نزلت في نساء النبي صلى الله عليه وآله «١»، ونقل عنه في تعبير آخر: إن عكرمة كان ينادى في السوق أن قوله تعالى إنما يريد الله... نزل في نساء النبي صلى الله عليه وآله «٢».

إنه لمدهش حقاً، فهل يمكن إثبات المسائل العلمية والاستدلالية بالمباهلة والصراخ في الأسواق، وهو أمر يمتلك جميع هذه الأدلة والشواهد والقرائن، إذ يقوم النبي صلى الله عليه وآله ببسط الكساء على خمسة أشخاص ويشخصهم بدقة ويخاطبهم، حتى أنه لم يسمح ل «أم سلمة»

(١) تفسير روح المعاني، ج ٢٢، ص ١٢.

(٢) المصدر السابق، ص ١٣.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٠٨

و «عائشة» بالدخول تحته، وأخذ يكرر هذه العبارة أمام دار فاطمة عليها السلام لمدة ستة أشهر أو ثمانية أشهر أو تسعة أشهر، دالاً على أن المرادف بهذه الآية هو أنتم، وإن كلمة «إنما» التي تدل على الحصر واضحة للعيان.

والنبي صلى الله عليه وآله إنما يريد بهذا التأكيد إزالة جميع اشكال الشبهات، بيد أن عكرمة يريد من خلال الدوافع التي يعلمها جيداً أن يثبت بالمباهلة غير ذلك رافعاً عقيرته في الأسواق ضد ذلك!.

إنَّ حماس واندفاع عكرمه وراء المباهلة النادرة والقليلة الحصول في الأبحاث العلمية، وكذا مناداته في الأسواق التي هي من النوادر في القضايا العلمية أيضاً، بحد ذاته دليل على أن هناك أمراً وراء ذلك، وإن وراء هذا القيل والقال تكمن أسراراً أخرى فهل كان مكلفاً بإنكار هذه الفضيلة الإلهية العظيمة ارضاءً لسلطين زمانه، وأن ينبرى للتصدي لأحاديث النبي صلى الله عليه وآله بهذه الصلافة؟!

٢- السؤال الآخر هو: إذا كان المراد هو تلك الأنوار المقدسة الخمسة، فما هي منزلة سائر أئمة أهل البيت عليهم السلام؟ والجواب هو: أن الذين كانوا يعاصرون ذلك الوقت هم أولئك الخمسة، والآخرون جاءوا فيما بعد، وورثوا تلك الصفات عن النبي صلى الله عليه وآله وآبائهم عليهم السلام.

٣- كما تم التلميح آنفاً إلى أن المراد من الإرادة في «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ»، الإرادة التكوينية، لا التشريعية، وبتعبير آخر ليس المراد هو أن الله أمركم بالابتعاد عن المعصية، لأن هذا الأمر الإلهي يعم المسلمين جميعاً ولا يخص أصحاب الكساء فقط. يتضح مما تقدم أن الإرادة التكوينية والمشينة الإلهية قضت بتطهيرهم، والمحافظة عليهم من كل ذنب، وصياتهم من شر الشيطان والأهواء النفسية، ونحن نعلم أن مشيئة الله غير قابلة للتخلف، وما تفوه به البعض من أن إرادة الله قابلة للتخلف يمثل غاية الجهل والغباء، فمن الذي يستطيع الحيلولة دون مشيئة الله، إلا أن تكون مشيئة الله متعلقة بشرط

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٠٩

ولم يحصل ذلك الشرط؟ ونحن نعلم أن الإرادة في الآية أعلاه مطلقة، وليست مشروطة بشرط أبداً. وما قاله البعض: إن هذا الكلام يستدعي أن يكون صحابة النبي صلى الله عليه وآله معصومين لاسيما الذين شاركوا في معركة بدر، حيث قال تعالى بحقهم:

«وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» (١). (المائدة/ ٦)

ومما يبعث على الأسف هو عند اضطرام نار التعصب فإنها تلتهم كل شيء وتحوّله إلى رماد، وبالأساس فإننا نفتقد في القرآن الكريم مثل هذه الآية بشأن معركة بدر، وما نزل بشأن معركة بدر هو: «وَيُنزِّلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهَّرَ كُفْرًا بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْسَ الشَّيْطَانِ». (الأنفال/ ١١)

وظاهر هذه الآية تتعلق بنزول المطر (في معركة بدر) واستثمار المسلمين له للغسل والوضوء، ولا ترتبط ببحثنا أبداً، إلا أن هذا الأخ المتعصب حذف مطلع الآية وجاء بعبارة «ليطهركم» فقط، وعدّها دليلاً على طهارة وقداسته الصحابة كافة.

وبالطبع فإن عبارة: «وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» لم تأت بشأن أصحاب بدر، بل جاءت في ذيل آية الوضوء والغسل والتيمم، وواضح أنها تشير إلى الطهارة التي تحصل من هذه المطهرات الثلاثة، فكيف يصادها هذا المفسر الشهير من هناك ويذهب بها إلى ميدان بدر، ويصادر أمراً يخص الغسل والتيمم ويقحمه في موضوع بحث العصمة؟ إنه أمر غامض.

ويثار هنا سؤال آخر وهو: إذا كانت الآية دليلاً على عصمة هؤلاء العظماء، فلماذا جاءت «يريد» بصيغة «الفعل المضارع» إذن؟

فإن كانوا معصومين فلماذا يقول: «يريد الله» فهل أن تحصيل الحاصل ممكن؟ لماذا لم يقل «أراد الله بصيغة الفعل الماضي»؟ «٢».

(١) تفسير روح المعاني، ج ٢٢، ص ١٧، (ذيل الآية ٣٣ من سورة الأحزاب).

(٢) تفسير روح المعاني، ج ٢٢، ص ١٧.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١١٠

لو كان قائل هذا الكلام يبحث التعبير ب «يريد» في آيات القرآن الكريم بدقة وتمعن لما تفوه بمثل هذا الكلام، لأن هذه الكلمة طالما استعملت في الكثير من آيات القرآن الكريم بشأن الامور المتعلقة بالإرادة المستمرة من الماضي وحتى الآن، ومن الآن إلى

المستقبل، وبتعبير آخر: إن هذه العبارة غالباً ماتستعمل للدلالة على استمرار وثبات المشيئة على شىء ما فى الماضى والحاضر والمستقبل، ويمكن ملاحظة صدق هذا الكلام فى الآيات التالية:

«وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ». (آل عمران / ١٠٨)

«يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ». (البقرة / ١٨٥)

«يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ». (النساء / ٢٨)

وبديهى أن مفهوم هذه الآيات ليس هو أن الله أراد ظلماً فى السابق، وكان يريد بكم العسر قبل ذلك، أو أنه لم يرد سابقاً التخفيف عنكم واليوم فعل هكذا، بل إن مفاد هذه الآيات جميعها هو أنه أراد هكذا فى الماضى والحاضر وفى المستقبل.

وكذلك قال تعالى بشأن الشيطان: «وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا». (النساء / ٦٠)

و «أَنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ». (المائدة / ٩١)

و «بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ». (القيامة / ٥)

يتضح جلياً من خلال هذه الآيات بيان الإرادة المستمرة للشيطان فى الماضى والحاضر والمستقبل لإغواء الناس، وذلك بخلق العداوة والبغضاء عن طريق الخمر والقمار، وكذا مفهوم الآية الثالثة، وهو: إن الإنسان الجاحد يريد أن يكون متحرراً على الدوام ويرتكب الذنب، لذا فهو ينكر القيامة.

هنالك آيات كثيرة فى القرآن تتابع هذا الموضوع، غير هذه الآيات الست أعلاه التى تبين أن استعمال كلمة «يريد» بنحو الاستمرارية يشمل الأزمنة الثلاثة.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١١١

على هذا الأساس فمفهوم الآية الكريمة: «أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ»، هو تعلق الإرادة الإلهية المستمرة بطهارة وقداسته وعصمة أصحاب الكساء.

شبهات حول العصمة:

تثار عدّة أسئلة فيما يتعلق بعصمة الأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام أهمها هو: أليس العصمة صفة إجبارية؟ فإذا كانت العصمة موهبة إلهية تمنح فقط إلى هؤلاء، وليس بمقدور الأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام ارتكاب الذنب، أو أن الله يحول دون عوامل الذنب بشكل حازم، فما الفضيلة والفخر فى ذلك؟

لقد تمّ تقديم الاجابة عن هذا السؤال بشكل مفصل فى الجزء السابع من نفحات القرآن فى بحث عصمة الأنبياء وهو باختصار:

إن إثارة هذه الشبهة سببه عدم التمعّن باصول عصمة المعصومين عليهم السلام، فهم لم يلتفتوا إلى أن هذه «التقوى الراسخة» تنبع من «إيمانهم القوى وعلمهم ومعرفتهم الخارقة» التى يكون جانب منها اكتسابياً والآخر هبة، فمثلاً: إن الإنسان الذى يبلغ درجة عالية فى الطب، محال أن يشرب ماءً ملوثاً بالجراثيم، بينما ربّما يفعل الإنسان الامى هذا الأمر، إن امتناع الطبيب عن شرب الماء الملوّث كان باختياره، فهو يستطيع شرب ذلك الماء، إلّا أن إيمانه ومعرفته بعواقب الأمر تحول دون ذلك، فهو شبيه المعصوم فى حرية إرادته ازاء القيام بهذا العمل «١».

السؤال الآخر هو: إن الأئمة اعترفوا بالخطأ والذنب من خلال كلماتهم، فكيف يمكن اعتبارهم معصومين؟ ففى ادعيتهم يسألون الله أن يغفر لهم ذنوبهم، وهذا بحد ذاته دليل على عدم عصمتهم.

(١) للمزيد من الايضاح راجعوا ج ٧، ص ١٥٥ - ١٦٠ من هذا التفسير.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١١٢

يقول أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في الخطبة ٢١٦ من نهج البلاغة: «إني لست في نفسي بفوق أن اخطيء ولا آمن ذلك من فعلى إلّا أن يكفى الله من نفسي ما هو أملكك بي مني» (١).

ويشار نظير هذا الاعتراض بشأن الكثير من الآيات المتعلقة بقصص الأنبياء في القرآن الكريم أيضاً، حيث ذكرناها جميعاً في نفس الجزء السابع تحت عنوان «تنزيه الأنبياء»، وأعطينا الجواب عنها، وتعمّقنا هذه القضايا من خلال الإشارة إلى جزئيات تاريخ الأنبياء وما يمكن أن يتعرض إلى هذه الشبهات.

ولابدّ من الإشارة إلى بعض النقاط بشكل مختصر:

١- في الكثير من الحالات كان الأئمة عليهم السلام يتحدثون لتعليم الناس باعتبارهم الاسوة، وأن أقوالهم كانت تحمل طابعاً تعليمياً، واللطف أن تفسير روح المعاني وبعد إثارة هذا الاعتراض بشأن علي عليه السلام يأتي بهذا الجواب، ثم يقول: وقصد الكلام كما في بعض الأدعية النبوية بعيد «٢» فلماذا لا يكون مستبعداً في كلام النبي صلى الله عليه وآله بينما يستبعد في كلام علي عليه السلام. إن هذا لا يدل إلّا على تعصب هذا المفسر المعروف.

٢- كان الغرض في بعض الحالات هو أنهم عليهم السلام يريدون أن يقولوا: إننا لا نملك شيئاً بدون الاعتماد على اللطف الإلهي، وهذه هي عطايه ومواهبه وفوضاته التي تجعلنا معصومين، وبتعبير آخر: إن ما نقل عن علي عليه السلام في العبارة يعاكس ما يقوله المشككون تماماً فهو يدل على عصمته بالاعتماد على الألفاظ الإلهية، فالإمام يقول: لست معصوماً عن الخطأ «بدون اللطف الإلهي»، وهذه الموهبة ليست سوى لطف إلهي، أو وفقاً للتعبير الذي ورد في سورة يوسف ليس إلّا.

٣- في الكثير من الامور التي وردت في الآيات أو الأدعية باعتبارها ذنباً، فهي ليست سوى ترك الأولى ومصداق للقول المعروف: «حسنات الأبرار سيئات المقربين».

(١) يصرُّ آلوسى في تفسيره، ذيل آية التطهير اصراراً عجيباً في انكار أن مفهوم الآية يتعلق بعصمة أهل البيت عليهم السلام ويشير هذه الشبهة (تفسير روح المعاني، ج ٢٢، ص ١٧).

(٢) تفسير روح المعاني، ج ٢٢، ص ١٨.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١١٣

وهذه النكتة جديرة بالذكر أيضاً وهي أن المراد من ترك الأولى ليس ترك عمل واجب، أو ارتكاب محرم أو مكروه، بل أراد الفعل المباح أو المستحب في قبال عمل أكثر استحباباً منه، وواضح أن ترك المستحب الأولى والإتيان بمستحب آخر ليس في فعله خلاف، إلّا أنه ترك للأولى لكن ليس هذا الفعل بالنسبة للآخرين لا يعتبر خلافاً فحسب، بل إن أداء المستحب بحد ذاته يعدُّ فضيلةً، وربما يؤدّي إلى اللوم بالنسبة إلى المقربين لدى الله تعالى

فالصلاة المقبولة من شخص عادي، تعد تركاً للأولى بالنسبة للعالم الكبير، وصلاة ذلك العالم لا تليق بالمعصوم، للمزيد من التوضيح راجعوا الجزء السابع من نفحات القرآن.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١١٥

خصائص الأئمة عليهم السلام

إشارة

كما تكررت الإشارة فإن رسالة الأئمة المعصومين عليهم السلام تشبه وتنسجم مع رسالة الأنبياء في الكثير من الحالات، سوى أن الوحي لا ينزل عليهم، ولم يضعوا الحجر الأساس للدين، بل واصلوا خط الأنبياء، من هنا فإن أكثر الصفات اللازمة فيهم تطابق صفات الأنبياء، ونظراً إلى أننا قد جئنا بهذه الصفات بشكل مفصل، مستندين إلى آيات القرآن الكريم في بحث الصفات العامة للأنبياء في الجزء السابع، فلا نرى ضرورة لشرحها بشكل موسع هنا، ولكن من أجل التذكير لابد لنا من المرور عليها ثانية (التفتوا إلى أن هذه الصفات جميعها طرحت في القرآن بشأن الأنبياء)، وابد للقادة الالهيين والأئمة المعصومين عليهم السلام بالاضافة إلى تمتعهم بـ «العلم» و «العصمة» أن يتمتعوا بالصفات التالية:

١- الصدق: فلو لم تتوفر لديهم هذه الصفة لم يحصل الاطمئنان والثقة اللازم توفرها من أجل اقامة العلاقات المعنوية بين الأتباع والقادة.

٢- الالتزام بالعهود والمواثيق: لأن جانباً عظيماً من دعوتهم يقوم على أساس الوعود التي يمنحونها للناس، فإن لم يكونوا «صادق الوعد» تنهار ركائز ثقة العامة بهم.

٣- الأمانة في المحافظة على الودائع والأحكام الإلهية وابلاغها: حيث إنها تمثل إحدى دعائم الثقة والإعتماد.

٤- المحبة والحرص الفائق تجاه الناس: فلو لم تتوفر هذه الميزة من المستحيل أن يبدي الناس تحملاً للعناء والمشقات في قيادة المجتمع - لاسيما الجهلة والمعاندون -.

٥- الاخلاص والتجرد التام وقطع الأمل بكل أجر مادي وإلا ستفقد الدعوة والقيادة جاذبيتها.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١١٦

٦- الاحسان والتفضل بحق الأصدقاء بل وحتى الأعداء: وهي من مظاهر رحمانية الله ورحيمته وسبب في إقامة الارتباط المعنوي بين القيادة والقاعدة.

٧- الشجاعة الفائقة وعدم الخشية إلا من الله تعالى التي تعد ميزة أساسية للذين «يلغون رسالات الله» في القرآن الكريم، لأنها السر الحقيقي وراء النجاح، وبدونها لا يتقدم العمل في مجال القيادة.

٨- التوكل المطلق على الله: فغالباً ما يبقى القائد الرباني وحيداً فريداً ويعزله عن الآخرين الفساد الذي يسود البيئة، فلو لم يكن متوكلاً على الله فمن المتعذر عليه مواصلة طريقه.

٩- الرفق وحسن الخلق: الميزة الاخرى التي وردت في القرآن الكريم بشأن النبي صلى الله عليه وآله، وفي الحقيقة لابد لكل قائد إلهي (سواء كان نبياً أو إماماً) أن يتمتع بها، وإلا فإن الخشونة والغلظة والاتصاف بـ «فظ غليظ القلب» يؤدي إلى تفرق الناس وعقم أهداف القائد الإلهي.

١٠- النجاح في الامتحانات القاسية: حيث يعتبر القرآن الكريم إعطاء منصب الإمامة لإبراهيم عليه السلام بسبب نجاحه في اجتياز الامتحان والإبتلاء وتحمله المشاق.

وفي واقع الأمر يجب على المعصومين أن يخرجوا من الامتحانات القاسية ظافرين، ليكونوا مؤهلين لقيادة المؤمنين جسماً وروحاً وظاهراً وباطناً.

لقد وردت هذه المواضيع بشكل مفصل ومستند إلى آيات القرآن الكريم في بحث الصفات العامة للأنبياء في الجزء السابع من نفحات القرآن.

الله فقط الذي يُعَيِّن الإمام:

يستنتج من مجموع الأبحاث التي جرت بشأن صفات الإمام وتشبيهه بالأنبياء في الكثير من الحالات أن الأئمة المعصومين عليهم السلام

(أوصياء الأنبياء) يجب أن يكون تعيينهم من قبل الله تعالى.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١١٧

وبتعبير آخر: ليس ل «انتخاب الأئمة» دور في هذا المجال ولا- «إجماع الأئمة» أو «التنصيب» من قبل أشخاص عاديين، لأن الصفات اللازمة في الإمام لا- يعلمها إلا الله تعالى، وأهمها «العصمة»، و «العلم الخاص»، حيث يتعذر على الإمام التحليق في سماء الإمامة والزعامه بدون هذين الجناحين!

فمن الذي يعلم أن فلاناً معصوم عن الذنب والخطأ، وأن هيمنه علمه على جميع مسائل التشريع وحياء البشر مسلّمه وثابتة؟ إن تشخيص سائر الصفات الخاصة بالإمام التي ذكرت آنفاً، متعذر على أغلب الناس، وربما جميعهم.

من هنا يستفاد جيداً أن لا سبيل لتعيين الإمام سوى عن طريق التنصيب الإلهي، وهذا «التنصيب» يثبت من خلال ثلاثة طرق: الأول: عن طريق النبي صلى الله عليه وآله أو الإمام المعصوم السابق الذي يعين خليفته بأمر الله تعالى ويعرفه لجميع الناس، وفي الحقيقة أنه في هذه القضية يمثل الوساطة في نقل الأمر الإلهي إلى الناس.

الثاني: عن طريق مشاهدة «المعجزات» كما مر ذكره في بحث النبوة، أي خرق العادة، وهو خارج عن طاقة البشر، وهو مترافق مع التحدي ودعوة الآخرين بالإتيان بمثلهما إن لم يذعنوا.

غاية الأمر أن التحدي في قضية «النبوة» يأتي في مجالها وفي قضية «الإمامة» في مجال الإمامة، أو بتعبير أكثر بساطة: إن الذي يدعى الإمامة يقوم بخرق العادة الخارج عن طاقة أي إنسان تأكيداً على ادعائه الإمامة.

ومن المسلم به أن خرقاً للعادة كهذا يعطى له من قبل الله تعالى ومن المحال أن يمنح الله الحكيم والعالم بالسرائر هذه الوسيلة للذي يدعى الإمامة زوراً وبهتاناً.

الثالث: الطريق الثالث هنا هو كالذي مرّ في بحث النبوة، وهو جمع القرائن، أي مجموعة الصفات والأفعال والخصائص المتوفرة لدى شخص ما بحيث يتيقن الإنسان من

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١١٨

خلال مشاهدتها أنه إمام معصوم وقائد إلهي، فيتظافر علمه ومعرفته مع المزايا الأخلاقية والصفات الإنسانية والأفعال والأقوال والسلوكيات لتثبت بكل يقين أنه إمام معصوم وخليفة للنبي صلى الله عليه وآله.

راجعوا تفصيل هذه المسألة في الجزء السابع من نفحات القرآن في بحوث «النبوة والقرآن».

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١١٩

الولاية التكوينية للأنبياء والأئمة عليهم السلام

إشارة

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٢١

الولاية التكوينية للأنبياء والأئمة عليهم السلام

تمهيد:

نحن نعلم أن الولاية على نحوين:

١- الولاية التشريعية.

٢- الولاية التكوينية.

المراد من الولاية التشريعية هو الحكم والاشراف القانوني والإلهي الذي يكون تارة بشكل محدود كولاية الأب والجد على الصغير، وتارة بشكل واسع وشامل كولاية الحاكم الإسلامي على كافة القضايا المتعلقة ب «الحكومة» و «إدارة شؤون الأمة الإسلامية»، حيث سيأتي بحث ذلك بشكل مفصل في «الجزء العاشر من نفحات القرآن» إن شاء الله تعالى

أما المراد من الولاية التكوينية، فهي: قدرة الإنسان على التصرف في عالم الخلق والتكوين بأمر الله وإذنه، والإتيان بأفعال خارقة للعادة والنواميس الطبيعية لعالم الأسباب، فمثلاً يرى المريض الذي لا علاج له بإذن الله، وذلك من خلال الهيمنة والنفوذ الذي وهبه الله تعالى له، أو يحيى الموتى وأعمال أخرى من هذا القبيل، وكل أشكال التصرف المعنوي غير الاعتيادي في أرواح وأجسام البشر، وهذا النوع يشمل الطبيعة أيضاً.

وربما تكون ل «الولاية التكوينية» أربع حالات بعضها «مقبولة» وبعضها «غير مقبولة».

١- «الولاية في أمر الخلق وخلق العالم»: بمعنى أن الله تبارك وتعالى يمنح عبداً من عباده أو ملكاً من ملائكته قدرة خلق العوالم أو محوها من الوجود، ومن المسلم به أن هذا الأمر ليس مستحيلاً، لأن الله على كل شيء قدير وقادر على منح أي نحو من القدرة لأي إنسان، بيد أن آيات القرآن تؤكد في كل المواضع على أن خلق عالم الوجود والسموات

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٢٢

والأرضين والجن والانس والملائكة والنباتات والحيوانات والجبال والبحار قد حصل بقدرة الله جلّ وعلا، لا عن طريق عباده الخاصين أو ملائكته، لذا فقد نسب الخلق إليه في جميع الأحوال، ولم ينسب هذا الأمر إلى غيره «بنحو واسع» في أي موضع أبداً، وعليه فإن خالق السموات والأرضين والنبات والحيوان والإنسان هو الله وحده.

٢- «الولاية التكوينية في إيصال الفيض»: بمعنى أن كل إمداد ورحمة وبركة وقدرة من قبل الله تعالى تصل إلى عباده أو سائر الكائنات في عالم الوجود بواسطة أولياء الله وخاصة عباده، كمياه الشرب بالنسبة للبيوت في مدينه ما التي تمر من خلال الانبوب الرئيس وهذا الانبوب الكبير يستلم المياه من مصدرها ويوصلها إلى جميع النقاط، ويعبر عنه ب «الواسطة في الفيض».

وهذا المعنى ليس محالاً أيضاً من الناحية العقلية، ويشاهد نموذج في العالم الصغير، وبناء الإنسان، وتوزيع المواد الغذائية على الخلايا كافة عن طريق شريان القلب، فما المانع من ذلك في العالم الكبير أيضاً؟

ولكن مما لا شك فيه أن إثباته بحاجة إلى دليل مقنع، وإذا ما ثبت فهو بإذن الله تعالى

٣- «ولاية تكوينية في حدود معينة»: كإحياء الموتى وشفاء المرضى الذين يستحيل علاجهم ونحو ذلك.

وقد وردت نماذج من هذا النوع من الولاية بشأن بعض الأنبياء في القرآن الكريم بصراحة حيث سيشار إليها لاحقاً، والروايات الإسلامية شاهد على ذلك أيضاً، من هنا فإن هذا الفرع من الولاية التكوينية ليس ممكناً من ناحية العقل فحسب، بل هنالك أدلة نقلية عليه أيضاً.

٤- «الولاية التي تعني الدعاء من أجل تحقيق المطالب»: ويأتي ذلك بقدرة الله تعالى فإن النبي صلى الله عليه وآله أو الإمام المعصوم يدعو فيتحقق ما طلبه من الله تعالى

وهذا المعنى ليس فيه أي محذور عقلي ولا- نقل، وأن الآيات والروايات مليئة بنماذج منه، بل ربما لا- يمكن اطلاق اسم الولاية التكوينية عليه لأن استجابته دعائه تأتي من قبل الله تعالى.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٢٣

ويشاهد في الكثير من الآيات إشارات إلى ال «الاسم الأعظم» الذي كان لدى الأنبياء والأئمة عليهم السلام أو بعض أولياء الله (من غير الأنبياء والأئمة)، ومن خلاله كانوا يستطيعون التصرف بعالم التكوين.

وبغض النظر عن المراد من «الاسم الأعظم»- الذي بحثناه بشكل مفصل في بحث صفات الله- فإن مثل هذه الروايات ربما تكون ناظرة إلى القسم الثالث من الولاية التكوينية وتنطبق عليه بشكل تام.

بهذه الإشارة نعود إلى بعض آيات القرآن في هذا المجال «الولاية التكوينية»:

١- «وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ * وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَانْفُخْ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَابْرِيءُ الْأَكْمَةِ وَالْأَبْرَصَ وَآخِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَابْتُئْتُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُم لَّآيَةً لَّكُم أَنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ». (آل عمران / ٤٨-٤٩)

٢- «فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ». (ص / ٣٦)

٣- «قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ إِنَّا آتَيْكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَّبِّي عَنِّي كَرِيمٌ». (النمل / ٤٠)

في الآية الاولى يدور الحديث أولاً عن الألفاظ الإلهية بحق عيسى عليه السلام حيث «وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ». ثم بعثه كرسول إلى بني اسرائيل، «وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ»، ومن ثم يشرح كلام المسيح عليه السلام في إثبات حقانيته وبيان معاجزه التي تم بيانها في خمس مراحل:

يقول في الاولى: «أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَانْفُخْ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ».

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٢٤

وفي الثانية والثالثة: «وَأَبْرِيءُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ».

والرابعة: «وَأُخِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ».

والخامسة: «وَابْتُئْتُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ أَنْ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُم أَنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ».

إنَّ التَّمَعُّنَ فِي مَضْمُونِ هَذِهِ الْآيَاتِ وَالتَّفَاوُتِ فِي التَّعَابِيرِ الْمُسْتَعْمَلَةِ فِيهَا، يُوَضِّحُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ وَهِيَ: أَنَّ الْمَسِيحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَنْسَبُ خَلْقَ الطَّيْرِ مِنَ الطِّينِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، بَيْنَمَا فِي الْأَقْسَامِ الثَّلَاثَةِ الْآخَرَى يَنْسَبُ (شِفَاءَ الْأَعْمَى وَالْأَبْرَصَ، وَإِحْيَاءَ الْمَوْتَى إِلَى نَفْسِهِ، وَلَكِنْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَمْرِهِ، وَهَذَا هُوَ الْمَقْصُودُ مِنَ الْوَلَايَةِ التَّكْوِينِيَّةِ، حَيْثُ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ يَمْنَحُ مِثْلَ هَذِهِ الْقُدْرَةَ لِلنَّاسِ بِحَيْثُ يُوَثِّرُ فِي عَالَمِ الْخَلْقِ وَالتَّطْبِيعَةِ بِأَمْرِهِ، وَيَخْرِقُ الْأَسْبَابَ التَّطْبِيعِيَّةَ، فَيُحْيِي الْمَيِّتَ وَيَشْفِي الْمَرْضَى الَّذِينَ يَسْتَحِيلُ عِلَاجَهُمْ.

هذا النموذج من الولاية التكوينية التي وهبها الله تبارك وتعالى لعبده المسيح عليه السلام، ولا مانع أو حائل أبداً دون اعطاء مثل ذلك لسائر الأنبياء أو الأئمة المعصومين عليهم السلام.

وإذا قال قائل: إنَّ مقصود هذه الآية هو أنَّ المسيح عليه السلام كان يدعو فيبريء الله المريض، أو يحيى الميت، فقد نطق بما يخالف ظاهر الآية، لأنَّ الآية تقول بوضوح: «بِإِذْنِ اللَّهِ» أي إنني أفعل ولكن تحقيق الفعل بإذن الله، وليس هنالك من دليل لترك هذا والبحث عن معنى يخالف الظاهر.

بل ليس هنالك مانع أيضاً في مرحلة خلق الطير من أن يلقى الله تعالى هذا الأثر في فم عيسى عليه السلام فيكون القيام بمثل هذا العمل بإذن الله، بيد أن بعض المفسرين لم يقتنعوا بهذا المعنى وقالوا: إنَّ خلق الطير مستند إلى الله مباشرة، ولعلَّ هذا القول يأتي لثلاث يدعى الجهلاء الوهية المسيح، لأنَّ أمر الخلقه متعلق به وحده:

وورد شبيه هذا المعنى أيضاً في سورة المائدة، غاية الأمر أنَّ الخطاب صادر من قبل الله تعالى للمسيح عليه السلام لا على لسان

المسيح عليه السلام، فيقول تعالى

«وَأَوْدُ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبرِيءُ الْأَكْمَةَ

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٢٥

وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَأَدْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي». (المائدة/ ١١٠)

والملفت للنظر هو أن اختلاف التعبير الذى كان فى سورة آل عمران ظاهرٌ بدقته هنا أيضاً، أى لم تُنسب مسألة الخلق وخلق الطير إلى المسيح عليه السلام، ولكن نُسب إليه احياء الموتى وشفاء المرضى والعمى الذين يستحيل علاجهم، وإن جاء التعبير بإذن الله فى كل ذلك.

وملخص الكلام أن هذه الآيات تثبت بأن الولاية التكوينية لعيسى عليه السلام هى فى نطاق خاص، وليس هنالك دليل على اختصاصها المطلق بالمسيح عليه السلام، ويمكن أن تصدق بحق سائر الأنبياء أو الأئمة المعصومين عليهم السلام بمقتضى أن: «حكم الأمثال فى ما يجوز وما لا يجوز واحد».

وفى الآية الثانية يتحدث تعالى عن تسخير الرياح لسليمان عليه السلام ويقول: «فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ». ويستفاد من هذه الآية والآيات التى تليها أنه وكما أن الشياطين كانت تُنفذ أمر سليمان وتنجز له أعمالاً مهمّة فى البر والبحر، فإنّ الرياح كانت تُنفذ أمره أيضاً، وكانت تتحرك حيث يأمرها، وهذا الأمر ليس سوى مصداق للولاية التكوينية فى هذا الجانب من الموجودات. وورد نظير هذا المعنى أيضاً فى سورة الأنبياء، والحديث هنا عن أمر سليمان عليه السلام على العواصف، إذ يقول تعالى «وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا».

(الانبياء/ ٨١)

وهذا الاحتمال واردٌ أيضاً فيما جاء فى قصة موسى عليه السلام فى البقرة، الآية ٦٠: (من ضرب الحجر وانبثاق عين الماء فيه بإذن الله)، (وكذا ضرب البحر بالعصا، حيث يقول تعالى «فَاَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اصْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطُّودِ الْعَظِيمِ».

(الشعراء/ ٦٣)

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٢٦

وكل ذلك كان من قبيل الولاية التكوينية أيضاً.

والخلاصة هو أنه فى جميع الحالات التى يمنح فيها الله تعالى لأحد عباده الخاصين القدرة والقوة للنفوذ فى عالم الخلق والطبيعة، يحصل لذلك العبد نوع من الولاية التكوينية.

والحديث فى الآية الثالثة عن التصرف التكويني لشخص من المقربين لسليمان ومن خاصته، بيد أن اسمه لم يأت فى القرآن سوى بوصف (الذى عنده علم من الكتاب)، فعندما خاطب سليمان عليه السلام أصحابه وخاصته: «قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ» قَالَ عَفْرَيْتُ مَنْ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ»، ثم يضيف:

«قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ».

وبطبيعة الحال أن هذا لم يكن ادعاءً فحسب، بل إنه نفذ وعده، إذ نقرأ فى سياق الآية:

«فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي».

وهنا بحوث كثيرة:

من ذلك الذى كان عنده علم من الكتاب؟ فالمعروف والمشهور أنه كان وزير سليمان عليه السلام، (آصف بن برخيا) الذى يقال إنه كان ابن اخته، وطبقاً لما ورد فى الرواية فى تفسير العياشى فى جواب الإمام محمد بن على الجواد عليه السلام ليحيى بن الأکثم فإن «آصف» كان وصى وخليفة سليمان عليه السلام، وكان نبياً، وكان سليمان عليه السلام يريد بهذا العمل تعريف العامة بمكانته ومنزلته، وإلا فإنه كان يمتلك القدرة على هذا العمل من باب أولى «١».

وقد احتمل البعض أيضاً أن هذا الشخص كان سليمان نفسه «٢»، إلا أنه لا ينسجم وظاهر الآية.

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٩١، ح ٧٧ كما نقل هذا المعنى بصريح القول في تفسير الدر المنثور عن ابن عباس وآخرين بأن القائل كان آصف بن برخيا حيث كان الاسم الآخر له «اتمليخا»، (تفسير در المنثور، ج ٥، ص ١٠٩).

(٢) نقل هذا الاحتمال في تفسير الميزان، ج ١٥، ص ٣٦٣ واشكّل عليه.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٢٧

واحتمل البعض أنه كان رجلاً من بني اسرائيل، حيث يتعارض هذا مع التفسير الذي يقول إنه كان آصف بن برخيا، لأنه وحسب الظاهر كان من بني اسرائيل، على أية حال فالذي يحظى باهتمامنا هنا ليس شخصاً بعينه، بل الغرض هو أن أحد اولياء الله كانت له القدرة في التصرف في عالم التكوين وعالم الأسباب من خلال امتلاكه لـ «علم من الكتاب» أو معرفة الاسم الأعظم، أو أى شيء آخر، وأن ينقل عرش وملكه سباً من اقصى جنوب شبه الجزيرة العربية إلى أقصى شمالها خلال طرفه عين، ولا يخفى أن هذا الأمر ممكن لسائر اولياء الله لاسيما والأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام.

وقد ورد في بعض الروايات عن الإمام الباقر عليه السلام:

«إن اسم الله الأعظم على ثلاثة وسبعين حرفاً وإنما كان عند آصف منها حرف واحد فتكلم به فخسف بالأرض ما بينه وبين سرير بلقيس حتى تناول السرير بيده ثم عادت الأرض كما كانت أسرع من طرفه عين ونحن عندنا من الاسم الأعظم اثنان وسبعون حرفاً وحرف واحد عند الله تعالى استأثر به في علم الغيب عنده، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» (١).

ونقل هذا المعنى أيضاً في روايات اخرى عن الإمام الباقر عليه السلام والإمام الصادق عليه السلام وبعض أئمة أهل البيت عليهم السلام.

ويستفاد بوضوح مما مر من الآيات أن الولاية التكوينية أمر ممكنٌ وجدير بالقبول في نظر القرآن الكريم.

الولاية التكوينية في الأحاديث الإسلامية:

كثيراً ما نصادف في الروايات الإسلامية إشارات عن المعجزات التي حصلت في إطار الولاية التكوينية، وتوضيح ذلك أن المعجزات لها أقسام وأنواع فبعضها يحصل بدعاء

(١) اصول الكافي، ج ١ ص ٢٣٠ استناداً إلى نقل تفسير البرهان، ج ٣، ص ٢٠٣، ح ١.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٢٨

النبي صلى الله عليه وآله أو الإمام المعصوم فقط، وبعض يحصل بطلب الناس منهم وبإذن الله، وبعضها يحصل عن طريقهم وبفعلهم، أى أن بعض المعجزات يحصل من خلال تصرفهم ومقامهم الروحي والمعنوي وبإذن الله، بحيث لا يمثل سوى الولاية التكوينية التي نتحدث عنها الآن.

وهذه الحالات كثيرة للغاية، وفيما يلي نشير إلى بعض النماذج منها:

١- ورد نموذج ظريف منها في نهج البلاغة- الخطبة القاصعة- حيث يقول عليه السلام «ولقد كنتُ معه صلى الله عليه وآله كما أتاه الملائكة من قريش فقالوا له: يا محمد إنك ادّعت عظيمًا لم يدعه أبواؤك ولا أحد من بيتك، ونحن نسألك أمراً إن أنت أجبنا إليه وأرئيتنا علمنا أنك نبيٌّ ورسول، وإن لم تفعل علمنا أنك ساحرٌ كذاب».

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله «وما تسألون» قالوا: تدعو لنا هذه الشجرة حتى تنقلع بعروقها وتقف بين يديك، فقال صلى الله عليه وآله: «إن الله على كل شيء قدير، فإن فعل الله لكم ذلك، أتؤمنون وتشهدون بالحق؟» قالوا: نعم، قال: «فاني ساريكم ما تطلبون وإنّي لأعلم أنكم لا تفيئون إلى خير، وإن فيكم من يطرح في القليب ومن يحزب الأحزاب»، ثم قال صلى الله عليه وآله:

«يأيتها الشجرة إن كنت تؤمنين بالله واليوم الآخر، وتعلمين أني رسول الله فانقلعي بعروقك حتى تقفى بين يدي ياذن الله». فوالذى بعثه بالحق (لا نقلعت) بعروقها وجاءت ولها دوى شديد وقصف كقصف أجنحة الطير حتى وقفت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله مرفرفة، وألقت بعضها الأعلى على رسول الله صلى الله عليه وآله وبعض أغصانها على منكبيه، وكنت عن يمينه صلى الله عليه وآله.

فلما نظر القوم إلى ذلك قالوا- علواً واستكباراً: فمرها فليأتك نصفها، ويبقى نصفها، فأمرها بذلك فاقبل إليه نصفها كأعجب إقبال وأشدّه دويّاً فكادت تلتف برسول الله صلى الله عليه وآله!

فقالوا- كفرةً وعتواً:- فمرّ هذا النصف فليرجع إلى نصفه كما كان، فأمره صلى الله عليه وآله فرجع، فقلت أنا: «لا إله إلا الله، إني أول مؤمن بك يا رسول الله، وأول من أقرّ بأن الشجرة فعلت ما فعلت بأمر الله تعالى تصديقاً بنبوتك وإجلالاً لكلمتك». نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٢٩

فقال القوم كلهم: بل ساحرٌ كذاب عجيب السحر، خفيفٌ فيه، وهل يصدقك في أمرك إلا مثل هذا «يعنونى»؟ «وإني لمن قوم لا- تأخذهم في الله لومة لائم، سيماهم سيما الصديقين، وكلامهم الأبرار، عمازٌ الليل ومنار النهار، متمسكون بحبل القرآن، يحيون سنن الله وسنن رسوله، لا يستكبرون ولا يعلون، ولا يغلون ولا يفسدون، قلوبهم في الجنان وأجسادهم في العمل» (١).

تأملوا تعابير هذه الخطبة قليلاً، فإنها تثبت أن هذا الأمر الخارق للعادة حدث بنفوذ وتصرف النبي صلى الله عليه وآله في التكوين، وعليه فما ورد في ذيل هذه العبارة: «إن الشجرة فعلت ما فعلت بأمر الله تعالى، هو أمر الله وإذنه والقدرة التي قد وهبها لنبه لمثل هذا التصرف، كما ورد التعبير «إذن الله» في بداية هذه الكلمة.

بناءً على ذلك، فالتعابير مثل: مُرّ ليحدث كذا أو كذا، وكلام رسول الله صلى الله عليه وآله أيتها الشجرة افعلى كذا وكذا، كلها أدلة على ولاية النبي صلى الله عليه وآله ونفوذه التكويني.

٢- يروى المرحوم العلامة المجلسي في كتاب بحار الأنوار عن سلمان الفارسي: لما قدم النبي صلى الله عليه وآله المدينة تعلق الناس بزمام الناقة، فقال النبي صلى الله عليه وآله: يا قوم دعوا الناقة فهي مأمورة، فعلى باب من بركت فأنا عنده (وهذا أفضل طريق للخلاص من كل اختلاف وتفرقة).

فأطلقوا زمامها وهي تهف في السير حتى دخلت المدينة، فبركت على باب أبي أيوب الأنصاري، ولم يكن في المدينة أفقر منه، فانقطعت قلوب الناس حسرةً على مفارقة النبي صلى الله عليه وآله، فنادى أبو أيوب: «يا أمّاه افتحي الباب، فقد قدم سيد البشر، وأكرم ربيعه ومضر، محمد المصطفى والرسول المجتبي .

فخرجت وفتحت الباب وكانت عمياء، فقالت: «واحسرتاه ليت كانت لي عين أبصر بها

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢ (القاصعة).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٣٠

وجه سيدي رسول الله صلى الله عليه وآله في المدينة»، وضع صلى الله عليه وآله كفه على وجه ام أبي أيوب فانفتحت عيناها «ربما يراد في وضع اليد الإشارة باليد، أو وضع اليد فوق قطعة قماش» (١).

٣- كما وردت هذه الرواية أيضاً في الكتب المشهورة لدى الشيعة والسنة وهي لما لم يأت النصر على يد بعض امراء الجيش في معركة خيبر، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «سأعطى الراية غداً إلى رجل يحب الله ورسوله ويحب الله ورسوله، يفتح الله على يديه، ثم ارسل على عليّ وكان أرمداً، فحضر فبصق في عينيه فبرأتا، ثم سلّمه الراية وفتح خيبر» (٢).

تفيد هذه الرواية المشهورة أنّ النبي صلى الله عليه وآله ابرء عيني على عليه السلام من خلال ولايته التكوينية- بإذن الله-.

٤- وجاء في تاريخ أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً «مد الفرات في عهد على عليه السلام فأقبل إليه الناس، فقالوا: يا أمير المؤمنين نحن نخاف الغرق لأنّ في الفرات قد جاء من الماء ما لم ير مثله وقد امتلأت جنبته فالله الله، فركب أمير المؤمنين عليه السلام والناس معه وحوله يميناً وشمالاً ٠٠٠٠ حتى انتهى إلى الفرات وهو يزخر بأمواجه، فوقف والناس ينظرون فتكلم بالعبرانية كلاماً فنقص الفرات ذراعاً، فقال: حسبكم؟ قالوا: زدنا» (٣).

فهل هذا الفعل سوى تصرف تكويني بإذن الله؟

(١) بحار الأنوار، ج ١٩، ص ١٢١.

(٢) لقد أورد ابن الأثير هذه الرواية في الكامل بالتفصيل (ج ٢، ص ٢١٩)؛ وكذا ابن هشام في السيرة النبوية ج ٣، ص ٣٤٩؛ والعلامة المجلسي في بحار الأنوار ج ٢١، ص ٢٩٨، ح ٣٠.

(٣) بحار الأنوار، ج ٤١، ص ٢٣٧ (مع الاختصار).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٣١

٥- ونقرأ في تاريخه عليه السلام أيضاً أنه وأثناء مروره قرب الكوفة جاءه قوم من اليهود، وقالوا: «أنت على بن أبي طالب الإمام؟ فقال: أناذا، قالوا: لنا صخرة مذكورة في كتبنا عليها اسم سته من الأنبياء، وهو ذا نطلب الصخرة فلا نجدها فإن كنت إماماً أوجدنا الصخرة.... فسار القوم خلف أمير المؤمنين عليه السلام إلى أن استبطن فيهم البر فاذا بجبل من رمل عظيم فقال عليه السلام: أيتها الرياح انسفي الرمل عن الصخرة بحق اسم الله الأعظم فما كان إلّاساعة حتى نسفت الرمل وظهرت الصخرة» (١)

وهذا نموذج آخر من النفوذ والتأثير على عالم التكوين.

وقد وردت نماذج أخرى في الكثير من كتب التاريخ والتفسير، والحديث، ومختلف المصادر الإسلامية للشيعة والسنة، حيث يحتاج ذكرها كلها إلى تدوين كتاب مستقل.

إنّ هذه الآيات والروايات تؤكد أنّ أولياء الله سواء من الأنبياء أو الأئمة المعصومين عليهم السلام كانوا يتمتعون بقدره بأمر الله وإذنه، بحيث كانوا يستطيعون التصرف في عالم التكوين من خلال ما وهبهم الله تعالى من إذن في حالات معينة، وهذا ما نُعبر عنه بالولاية التكوينية.

وبطبيعة الحال، فإنّ الولاية التكوينية لها تفرعات أخرى أيضاً، منها التأثير في القلوب المستعدة لقبول الحق عن طريق الألفاظ المعنوية والروحية، وتربية وهداية النفوس المؤهلة من خلال التأثير الروحي فيها، حيث تتوفر أمثلة كثيرة لذلك في التاريخ الإسلامي.

وغالباً ما كان يحصل لكثير من الأشخاص تحول وتغيير مفاجيء، بنحو لا- ينسجم مع الموازين والمعايير الطبيعية، وذلك بمجرد وجودهم في محضر رسول الله صلى الله عليه وآله أو الإمام المعصوم عليه السلام، وبالتالي يستقيم سلوكهم في الحياة على أثره.

إنّ هذا التحول والتغيير المفاجيء والخارق للعادة يحصل أيضاً نتيجة ل «الولاية التكوينية» والتأثير في النفوس المؤهلة.

(١) بحار الأنوار، ج ٤١ ص ٢٣٧ (مع الاختصار).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٣٣

الولاية والإمامة الخاصة

إشارة

١- الآيات التي تهتم بمسألة الإمامة بشكل مباشر

٢- آيات الفضائل

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٣٥

الولاية والإمامة الخاصة

تمهيد:

بعد الفراغ من البحوث العامة في «الإمامة العامة» جاء دور الكلام في بحث الإمامة الخاصة، حيث سيكون البحث في معرفة الإمام المعصوم والوصى بعد النبي صلى الله عليه وآله، مُستعينين بمختلف المصادر الإسلامية، والنصوص الواردة في القرآن، والروايات الموثوقة في هذا البحث.

كما نستعين بأسلوب جمع القرائن الذي هو أحد أهم الأساليب لمعرفة الأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام، ونسأل الله تعالى أن يأخذ بأيدينا وقلمنا وبياننا إلى ما هو حق، ويبعدنا عن كل خلاف وانحراف.

في البداية نيمّم وجوهنا صوب آيات القرآن الكريم لنرى ما ورد من آيات بصدد الإمامة الخاصة.

حيث يمكن تقسيم هذه الآيات إلى قسمين:

١- الآيات التي تهتم بمسألة الإمامة بشكل مباشر وتبحث فيها بجلاء.

٢- الآيات التي تبحث هذه المسألة بشكل غير مباشر.

وبالرغم من كثرة الآيات في كلا القسمين، فإننا سنتنخب مجموعة من الآيات وذلك لمزيد من التوضيح، ومن ثم نشرع بالبحث.

ففي القسم الأول نناقش الآيات التالية:

١- آية التبليغ وواقعة الغدير.

٢- آية الولاية.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٣٦

٣- آية اولى الأمر.

٤- آية الصادقين.

٥- آية القربى

وفي القسم الثاني نتجه نحو آيات الفضائل، وهذه الآيات لا تطرح مسألة الخلافة والولاية بشكل مباشر، إلا أنها تثبت الفضائل بحق أمير المؤمنين عليه السلام، حيث تصفه بأنه أفضل أمّة محمد صلى الله عليه وآله، وأسمى شخصيّة بعد النبي صلى الله عليه وآله، مع إلحاق مقدمة عقلية واضحة (ترجيح المرجوح على الراجح قبيح) حيث نستنتج عدم وجود شخص أليق وأجدر منه لقيادة الأمّة بعد النبي صلى الله عليه وآله.

وهذه الآيات كثيرة للغاية حيث تجرى الإشارة إلى ٣٢ آية، من بينها:

١- آية المباهلة. ٢- آية خير البرية. ٣- آية ليلة المبيت. ٤- آية الحكمة. ٥- آيات سورة هل اتى ٦- آيات مقدمة سورة براءة، ٧- آية

سقاية الحاج. ٨- آية صالح المؤمنين.

٩- آية الوزارة. ١٠ و ١١- آيات سورة الاحزاب. ١٢- آية البينة والشاهد. ١٣- آية «الصديقون»، ١٤- آية النور. ١٥- آية الانذار. ١٦-

آية مرج البحرين. ١٧- آية النجوى

١٨- آية «السابقون». ١٩- آية أذن واعية. ٢٠- آية المحبّة. ٢١- آية «المنافقين»، ٢٢- آية الايذاء. ٢٣- آية الانفاق. ٢٤- آية المحبّة.

٢٥- آية المسؤولين. ٢٣- آية اشقاها.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٣٧

القسم الأول: الآيات التي تهتم بمسألة الإمامة بشكل مباشر

١- آية التبليغ

إشارة

«يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ»
(المائدة/ ٦٧)

شأن النزول:

جاء في الكثير من كتب علماء السنّة (وكافة كتب الشيعة المعروفة) سواء التفسير أو الحديث أو التاريخ، أن الآية أعلاه نزلت بحق علي عليه السلام.

وروى هذه الروايات جمع كثير من الصحابة، منهم «أبو سعيد الخدرى، وزيد بن أرقم، وجابر بن عبد الله الأنصارى، وابن عباس، والبراء بن عازب، وحذيفة، وأبو هريرة، وابن مسعود، وعامر بن أبى ليلى، وجاء في رواياتهم أن هذه الآية نزلت بشأن علي عليه السلام وواقعه يوم الغدير.

واللطيف أن بعض هذه الروايات نُقلت بطرق متعددة منها:

رواية أبى سعيد الخدرى عن أحد عشر طريقاً.

رواية ابن عباس عن أحد عشر طريقاً أيضاً.

ورواية البراء بن عازب نُقلت عن ثلاثة طرق.

ومن بين الذين أوردوا هذه الروايات (بشكل واسع أو بالاجمال) فى كتبهم، العلماء

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٣٨

المعروفون المدرجة أسماؤهم فيما يلى:

«أبو الحسن الواحدى النيشابورى فى أسباب النزول ص ١٥٠.

«ابن عساكر الشافعى نقلًا عن «الدر المنثور»، ج ٢، ص ٢٩٨.

«الفخر الرازى فى التفسير الكبير ج ٣، ص ٦٣٦.

«أبو اسحاق الحموينى فى «فرائد السمطين» (مخطوط).

«ابن الصباغ المالكى فى «الفصول المهمّة» ص ٢٧.

«جلال الدين السيوطى فى «الدر المنثور» ج ٢، ص ٢٩٨.

«القاضى الشوكانى فى «فتح القدير» ج ٣، ص ٥٧.

«شهاب الدين الالوسى الشافعى فى «روح المعانى» ج ٦، ص ١٧٢.

«الشيخ سليمان القندوزي الحنفي في «ينابيع المودة» ص ١٢٠.

«بدر الدين الحنفي في عمدة القارى في «شرح صحيح البخارى» ج ٨ ص ٥٨٤.

«الشيخ محمد عبده المصرى في تفسير المنار ج ٦ ص ٤٦٣.

«الحافظ ابن مردويه (المتوفى عام ٤١٨ هـ. ق) (على ضوء نقل السيوطى فى الدر المنثور) وكثير غيرهم.

وبالطبع لا ينبغي نسيان أن بعض هؤلاء العلماء فى الوقت الذى ينقلون به الرواية وشأن النزول فإنهم يمرون بها مرور الكرام للأسباب التى سنشير إليها لاحقاً، أو يبادرون إلى نقدها، حيث سنتطرق إلى بحث أقوالهم بشكل دقيق فى البحوث القادمة إن شاء الله.

حادثة الغدير:

اتضح من البحث السابق وبشكل إجمالى أن هذه الآيه وعلى ضوء الشواهد التى لا تحصى قد نزلت بحق على عليه السلام، وأن الروايات التى نقلت فى الكتب المعروفة لأهل السنّة - فضلاً عن كتب الشيعة - أكثر من أن يستطيع أحد إنكارها.

وبالإضافة إلى الروايات أعلاه، فلدينا روايات اخرى تفيد بصريح القول: إن هذه الآيه وردت أثناء واقعه الغدير وخطبه النبي صلى الله عليه وآله فى التعريف بعلى عليه السلام على أنه الوصى والولى،

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٣٩

وعدها يربو على الروايات السابقة، حتى أن المحقق الكبير العلامة «الأمينى» ينقل فى كتاب الغدير، حديث الغدير عن ١١٠ من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله بالاسناد والوثائق الحيه، وكذلك عن ٨٤ من التابعين و ٣٦٠ من مشاهير علماء المسلمين ومؤلفيهم.

إن كل من يلقى نظرة على مجموع هذه الأسانيد والوثائق يدرك بأن حديث الغدير من أكثر الروايات الإسلاميه جزءاً، ومصداقاً واضحاً للحديث المتواتر، ومن يشك فى تواتره، فعليه أن لا يؤمن باى حديث متواتر.

وحيث إن الولوج فى هذا البحث بنحوٍ واسعٍ يخرجنا عن اسلوب كتابه تفسير موضوعى، فنكتفى بهذا القدر بشأن اسناد الروايه وشأن نزول هذه الآيه، ونتطرق إلى مضمون الروايه، ونرشد من يريد المزيد من المطالعه حول إسناد الروايه إلى الكتب التالیه:

١- كتاب الغدير، ج ١.

٢- احقاق الحق، تأليف العلامة الكبير القاضى «نور الله التستري» مع شرح مفصل لآيه الله النجفى، ج ٢ و ٣ و ١٤ و ٢٠.

٣- المراجعات للمرحوم السيد «شرف الدين العاملی».

٤- عباة الأنوار للعالم الكبير «ميرحامد الحسينى الهندى» (من الأفضل مراجعة خلاصة العباة، ج ٧ و ٨ و ٩).

٥- دلائل الصدق، تأليف العالم الكبير المرحوم «المظفر»، ج ٢.

مضمون روايات الغدير:

وهنا نأتى بقصه الغدير بشكل مختصر كما يستفاد من مجموع الروايات أعلاه، (وطبعاً فإن هذه الواقعة قد وردت فى بعض الروايات بشكل مفصل ومطول، وفى بعضها بشكل مختصر وقصير، وفى بعضها اشير إلى جانب من هذه القصه وفى البعض إلى جانب آخر، ومنها جميعاً يستفاد ما يلى):

فى السنه الأخيرة من حياة النبي صلى الله عليه وآله اقيمت مراسم حجه الوداع بكل جلال بمشاركة

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٤٠

النبي صلى الله عليه وآله، وكانت الأفتدة تمتلى بالمعنويات ولم تزل اشعاعات هذه اللذة المعنوية وهذه العبادة العظيمة تنعكس في النفوس.

وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله الذين كان عددهم كثيراً للغاية لا تسعهم أنفسهم نتيجة لإدراكهم هذا الفيض والسعادة العظيمة «١».

ولم يكن أهل المدينة وحدهم الذين يرافقون رسول الله صلى الله عليه وآله في هذا السفر، بل كان المسلمون من مختلف بقاع الجزيرة العربية يرفقته صلى الله عليه وآله لنيل هذا الفخر التاريخي العظيم.

وكانت شمس الحجاز تضيء على الجبال والأودية حرارة لا تطاق، إلا أن حلاوة هذا السفر المعنوي النادر كانت تيسر كل شيء، وقد اقترب الظهر، وأخذت منطقة الجحفة، وصحراء «غدير خم» الجافة الرضاء تبدو للعيان.

ومن هذا المكان الذي يتشعب إلى أربعة طرق يفرق أهل الحجاز، فطريق يتجه إلى الشمال نحو المدينة، وطريق إلى الشرق نحو العراق، وطريق إلى الغرب نحو مصر، وطريق إلى الجنوب نحو اليمن، وهنا يجب أن تطرح آخر المستجدات في هذا السفر، ويتفرق المسلمون بعد استلامهم لآخر حكم وهو في واقع الأمر كان خط النهاية في الواجبات الناجحة للنبي صلى الله عليه وآله.

كان ذلك في يوم الخميس من السنة العاشرة للهجرة، وقد مضت عشرة أيام على عيد الأضحى، وفجأة صدر الأمر من الرسول صلى الله عليه وآله إلى الذين معه بالتوقف، ونادى المسلمون بأعلى أصواتهم أصحابهم الذين تقدموا الركب بالتوقف والعودة، وامهلوا المتأخرين حتى يصلوا، وزالت الشمس وصدح صوت مؤذن رسول الله صلى الله عليه وآله بالأذان: الله أكبر، داعياً الناس إلى صلاة الظهر، وسرعان ما استعد الناس للصلاة، إلا أن حرارة الجو كانت إلى الحد الذي اجبر البعض على أن يغطي أرجله بقسم من ازاره ويستتر رأسه بالقسم الآخر، وإلا فإن حصى الصحراء وأشعة الشمس ستحرق أرجلهم ورؤوسهم.

(١) ذكر البعض أن عدد الذين كانوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله ٩٠ ألفاً، والبعض ١١٢ ألفاً، وبعض ١٢٠ ألفاً، وبعض ١٢٤ ألفاً.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٤١

فلا خيمة في الصحراء، ولا خضرة، ولا نبات، ولا شجرة، سوى بعض الأشجار البرية الجرداء التي تقاوم حرارة الصحراء، والتي لاذ بها البعض، ووضعوا قطعة من القماش على إحداها وجعلوها ظللاً لرسول الله صلى الله عليه وآله، إلا أن الرياح اللاهبة تهب تحتها وتلفها بحرارة الشمس المحرقة.

وانتهت صلاة الظهر، وعزم المسلمون على اللجوء إلى خيامهم الصغيرة التي كانوا يحملونها معهم، بيد أن النبي صلى الله عليه وآله أوعز لهم بالاستعداد لسماع بلاغ إلهي جديد يوضح ضمن خطبة مفصلة، ولم يكن بمقدور البعدين عن رسول الله صلى الله عليه وآله رؤية وجهه الملكوتي وسط زحام الناس، لذا فقد صنعوا له منبراً من أربعة من أحداج الإبل، فارتقاء النبي صلى الله عليه وآله، وفي البداية حمد الله واتنى عليه واستعاذ به، ثم خاطب الناس قائلاً:

«أيها الناس: يوشك أن أدعى فأجيب.

أنا مسؤول، وأنتم مسؤولون.

فكيف تشهدون بحقي؟

فصاح الناس: نشهد أنك قد بلغت ونصحت وجاهدت فجزاك الله خيراً، ثم قال:

ألستم تشهدون أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله إليكم، وأن البعث حق، وأن الله يبعث من فى القبور؟! فقالوا: نشهد بذلك، قال:

اللهم اشهد، ثم قال:

أيها الناس أسمعوني؟ قالوا: نعم، ثم عمّ السكوت الصحراء فلم يسمع إلّا صوت الريح، فقال صلى الله عليه وآله: فانظروا ماذا صنعتم بالثقلين من بعدى؟

فقال رجل من بين القوم: ما هذان الثقلان يا رسول الله؟!

قال صلى الله عليه وآله: أما الثقل الأكبر فهو كتاب الله حبل ممدود من الله إليكم، طرفه بيد الله والطرف الآخر بأيديكم، فلا تدعوه، وأما الثقل الأصغر فهم عترتي وقد أخبرني اللطيف الخبير أنّهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض، فلا تتقدموهما فتهلكوا ولا تتأخروا عنهما فتهلكوا.

ونظر الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يلتفت حوله، وكأنه يبحث عن أحد، ولما وقعت

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٤٢

عيناه على على عليه السلام التفت إليه وأخذ بيده ورفعها حتى بان بياض ابطيها، وشاهدتهما جميع القوم، وعرفوا أنه ذلك الفارس المقدم، وهنا ارتفع صوت النبي صلى الله عليه وآله، وقال: أيها الناس من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال النبي صلى الله عليه وآله: الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين وأولى منهم بأنفسهم، ثم قال: فمن كنت مولاه فعلى مولاه، وكرر هذا الكلام ثلاث مرات، وكما قال أرباب الحديث: إنه كرره أربعاً، ثم رفع رأسه نحو السماء، وقال:

اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، واحب من أحبه وابغض من أبغضه وانصر من نصره واخذل من خذله وأدر الحق معه حيث دار.

ثم قال صلى الله عليه وآله: إلفليبلغ الشاهد الغائب».

هنا انتهت خطبة الرسول صلى الله عليه وآله وكان العرق يتصبب من النبي صلى الله عليه وآله وجميع من حضر، وما زال الناس لم يفترقوا من ذلك المكان حتى نزل عليه الوحي وقرأ هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وآله: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي».

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الله أكبر، الله أكبر على إكمال الدين وإتمام النعمة ورضى الربّ برسالتى والولاية لعلى من بعدى».

فى هذه الأثناء عمّ الناس النشاط والحركة، وأخذوا يهتفون علياً عليه السلام بهذا المقام، وكان من الذين هتأوه، أبو بكر وعمر حيث نطقا بهذه العبارة أمام أعين الحاضرين:

«بخ، بخ لك يا ابن أبى طالب أصبحت وأمست مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة».

أثناء ذلك قال ابن عباس: «والله أنه عهد سيبقى فى أعناقهم»، واستأذن النبي صلى الله عليه وآله الشاعر المعروف «حسان بن ثابت» لينشد شعراً بهذه المناسبة، ثم استهل قصيدته المعروفة:

يناديهم يوم الغدير نبيهم بخم وأسمع بالرسول ناديا

فقال فمن مولاكم ونبيكم؟ فقالوا ولم يبدو هناك التعاميا

إلهك مولانا وأنت نبينا ولم تلق منا فى الولاية عاصيا

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٤٣ فقال له قم يا على فإني رضيتك من بعدى إماماً وهادياً

فمن كنت مولاة فهذا وليه فكونوا له أتباع صدق مواليا

هناك دعا اللهم وال وليه وكن للذى عادى علياً معاديا «١»

لو تغاضينا عن جميع الروايات الواردة بشأن نزول الآية الآنفه الذكر، وكذا الروايات الواردة حول واقعة الغدير، وأمعا النظر بمضمون الآية نفسها وما تلاها من الآيات، نستطيع من خلال عمق هذه الآيات اتخاذ موقف ازاء مسألة خلافة النبي صلى الله عليه وآله. والتوضيح: إن الآية المذكورة باختلاف التعبيرات التي وردت فيها تؤكد على أنها ناظرة إلى قضية ذي ثلاث مزايا مهمّة:

١- إنها قضية تحظى بأهميّة فائقة من وجهة نظر الإسلام إلى الحد الذي يؤمر النبي صلى الله عليه وآله بإبلاغها، وإن لم يفعل فما بلغ رسالة الله! وتعبير آخر فقد كانت أمراً مرادفاً لقضية النبوة، فإن لم يؤدّها تبقى رسالة النبي صلى الله عليه وآله ناقصة! ومن البديهي أنه ليس المراد أن هذا أمر الهيّ عاد وكل أمر إلهي لا يبلغ لم تبلغ رسالة الله، فهذا الكلام من قبيل توضيح الواضح وغنى عن البيان، بينما ظاهر الآية هو أن القضية المشار إليها تحظى باهتمام خاص من حيث إنها خلاصة الرسالة والنبوة.

٢- إن هذه القضية لا تتعلق بالصلاة والصوم والحج والزكاة وما شابه ذلك من قواعد تعاليم الإسلام، لأنها من آيات سورة المائدة، ونحن نعلم أن سورة المائدة هي آخر سورة نزلت على النبي صلى الله عليه وآله (أو من أواخر السور) أي في أواخر عمر النبي صلى الله عليه وآله المبارك حيث كان قد تم بيان كافة الأركان المهمّة للإسلام «٢».

(١) روى هذا الشعر جماعة من كبار علماء السنة منهم، الحافظ «أبو نعيم الاصفهاني»، والحافظ «أبو سعيد السجستاني»، و«الخوارزمي المالكي»، والحافظ «أبو عبد الله المرزباني»، و«الكنجي الشافعي»، و«جلال الدين السيوطي»، و«سبط بن الجوزي»، و«صدر الدين الحموي».

(٢) يقول الفخر الرازي في ذيل هذه الآية، قال أصحاب الآثار أنه لما نزلت هذه الآية على النبي صلى الله عليه وآله لم يعمر بعد نزولها إلّا أحد وثمانين يوماً، أو اثنين وثمانين يوماً، التفسير الكبير، ج ١١، ص ١٣٩؛ وجاء في تفسير المنار أيضاً وبعض الكتب الأخرى أن سورة المائدة جميعها نزلت في حجة الوداع (تفسير المنار، ج ٦، ص ١١٦) وبالطبع فقد نقل البعض بشأن عدد الأيام أعلاه، أقل من ذلك.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٤٤

٣- إن عبارات الآية تدل على أن القضية المقصودة من الآية كانت مسألة قد اتخذ البعض ازاءها موقفاً متصلباً، ولربما تعرضت حياة النبي صلى الله عليه وآله إلى الخطر بسببها، من هنا أعلن الباري تعالى دعمه الخاص لنيبه في هذا الصدد وقال:

«وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ».

ثم يؤكد تعالى في نهاية الآية:

«إِنَّ اللَّهَ لَأَيُّدِي الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ».

وهذه العبارة بحد ذاتها دليل على المواقف السلبية لبعض المخالفين.

إن مجموع هذه الامور الثلاثة التي تستتج من الآية تؤكد على أن المراد منها ليس إلّا ابلاغ خلافة ووصاية النبي صلى الله عليه وآله. نعم، فمثل هذا الأمر يمكن أن يحظى بالبحث والتمعن في أواخر حياة النبي صلى الله عليه وآله، وليس سائر دعائم الإسلام التي كانت قد بُنيت آنذاك، ومثل هذا الأمر باستطاعته أن يكون مرادفاً للنبوة ومماثلاً لها، وربما تثار الاعتراضات نتيجة لظهور مثل هذا الأمر قبل هذا الوقت ويكمن فيه الخوف من الخطر.

إن أي تفسير آخر يعطى لهذه الآية عدا ما يتعلق بالولاية والإمامة والخلافة، لا ينسجم معها.

فلو طالعت جميع كلمات المفسرين الذين أرادوا صرف مضمون الآية إلى قضايا أخرى لم يستطع أي منهم أن يُشير إلى الأمر الذي تؤكد عليه الآية، وهذا ما حدا بهم إلى أن يتوقفوا عن تفسيرها.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٤٥

توضيحات

١- معنى الولاية والمولى في حديث الغدير

لقد اطلعنا على حديث الغدير المتواتر بشكل إجمالي، والعبارة المشهورة التي جاءت عن رسول الله صلى الله عليه وآله في جميع الكتب وهي: «من كنت مولاه فعليّ مولاه» توضح الكثير من الحقائق، وإن أصرّ كثيرٌ من كتاب أهل السنّة على تفسير كلمة «المولى» بمعنى الصديق والمحبّ والناصر، لأنّ هذا أحد المعاني المعروفة لـ «المولى» .

ونحن نسلم بأنّ إحدى معاني «المولى الصديق والمحب والناصر، إلّا أنّ ثمة قرائن عديدة تثبت أنّ المولى في الحديث أعلاه تعنى «الولى والمشرف والقائد» وهي كما يلي بإيجاز:

١- إنّ قضية محيية على عليه السلام مع جميع المؤمنين لم تكن أمراً خفياً وسرياً ومعقداً، بحيث يحتاج إلى هذا التأكيد والايضاح، وبحاجة إلى إيقاف ذلك الركب العظيم وسط الصحراء القاحلة الساخنة والقاء خطبة عليهم لأخذ الاقرارات من ذلك الجمع. فالقرآن يقول بصريح القول: «أَنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ». (الحجرات / ١٠)

وفى موضع آخر يقول: «وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ». (التوبة / ٧١) والخالصة: إنّ الاخوة الإسلامية ومودة المسلمين مع بعضهم من أكثر المسائل الإسلامية بداهة، حيث كانت موجودة منذ انطلاقة الإسلام، وطالما أكد عليها النبي صلى الله عليه وآله مراراً بالإضافة إلى عدم كونها مسألة تحتاج إلى بيان بهذا الاسلوب الحاد في الآية، وأن يشعر النبي صلى الله عليه وآله بالخطر من البوح بها (تأملوا جيداً).

٢- إنّ عبارة: «ألست أولى بكم من أنفسكم» الواردة في الكثير من الروايات لا تتناسب أبداً مع بيان مودة عادية، بل إنّها يريد القول إنّ تلك الأولوية والصلاحيات التي لى تجاهكم وكونى نييكم وإمامكم وقائدكم، فإنّ كل ذلك ثابت لعلى عليه السلام وأنّ أى تفسير لهذه العبارة غير ما قيل فهو بعيد عن الانصاف والواقعية، لاسيما مع الأخذ بنظر الاعتبار جملة «من أنفسكم» (أنا أولى بكم من أنفسكم).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٤٦

٣- التهاني التي قدمها من حضر في هذه الواقعة التاريخية لعلى عليه السلام، لاسيما التهاني التي قدمها أبو بكر وعمر، إذ إنّها تبرهن على أنّ القضية لم تكن سوى تعيينه للخلافة التي تستحق التبريك والتهاني، فالاعلان عن المودة الثابتة لدى كل المسلمين بشكل عام لا يحتاج إلى تهنئة.

جاء في مسند الإمام أحمد أنّ عمراً، قال لعلى بعد خطبة النبي صلى الله عليه وآله: «هنيئاً لك يا ابن أبى طالب أصبحت وأمست مولى كل مؤمن ومؤمنة» (١).

ونقرأ في العبارة التي ذكرها الفخر الرازى في ذيل الآية: «يا أيّها الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ» إنّ عمراً قال: «هنيئاً لك أصبحت مولى ومولى كل مؤمن ومؤمنة، وبهذا فإنّ عمراً يعدّه مولاة ومولى المؤمنين جميعاً».

وفى تاريخ بغداد جاءت الرواية بهذا الشكل: «بخ بخ لك يا ابن أبى طالب! أصبحت مولاة ومولى كل مسلم» (٢).

وجاء فى «فيض القدير»، و «الصواعق»، أنّ أبا بكرٍ وعمراً باركا لعلى بالقول: «أمست يا ابن أبى طالب مولى كل مؤمن ومؤمن» (٣).

ومن نافله القول: إنّ المودة العادية بين المؤمنين ليست لها مثل هذه المراسيم، وهذا لا ينسجم إلّا مع معنى الولاية التي يفيد الخلافة.

٤- إنّ الشعر الذى نقلناه آنفاً عن «حسان بن ثابت» بذلك المضمون والمحتوى الرفيع، وتلك العبارات الصريحة والجلية شاهد آخر على هذا الادعاء، وتشير إلى هذه القضية بما فيه الكفاية (راجعوا تلك الأبيات مرة أخرى .

٢- آيات أخرى في القرآن تؤيد حديث الغدير

روى كثيرٌ من المفسرين ورواه الحديث في ذيل الآيات الأولى من سورة المعارج:

(١) مسند أحمد، ج ٤، ص ٢٨١ (على ضوء نقل الفضائل الخمسة، ج ١ ص ٤٣٢).

(٢) تاريخ بغداد، ج ٧، ص ٢٩٠.

(٣) فيض القدير، ج ٦، ص ٢١٧؛ الصواعق، ص ١٠٧.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٤٧

«سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ». (المعارج / ١-٣)

سبب النزول وخلاصته:

إن النبي صلى الله عليه وآله عيّن علياً خليفته يوم غدیر خم وقال بحقه: «من كنت مولاه فعلى مولاه»، فمالبث أن انتشر الخبر، فجاء «النعمان بن الحارث الفهري» - (وكان من المنافقين) «١» - إلى النبي صلى الله عليه وآله وقال: لقد أمرتنا أن نشهد أن لا إله إلا الله وأنك محمد رسول الله، فشهدنا، ثم أمرتنا بالجهاد والحج والصلاة والزكاة فقبلنا، فلم ترض بكل ذلك، حتى أقمت هذا الفتى «مشيراً إلى على عليه السلام خليفته لك، وقلت: مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ فَهَلْ هَذَا مِنْكَ أَمْ مِنَ اللَّهِ؟» قال النبي صلى الله عليه وآله: «والله الذى لا معبود سواه إنّه من الله»، فالتفت إليه «النعمان بن الحارث»، وقال: «إلهي إن كان هذا حقاً منك فانزل علينا حجارة من السماء». وفجأةً نزلت حجارة من السماء على رأسه وقتلته فنزلت آية «سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ».

ما ورد أعلاه يطابق الرواية التي نقلت في مجمع البيان عن أبي القاسم الحسكاني «٢» وقد نقل هذا المضمون الكثير من مفسرى أهل السنة ورواه الأحاديث مع شيء من الاختلاف، مثل: القرطبي في تفسيره المعروف «٣»، والآلوسى في تفسير روح المعاني «٤»، وأبو اسحاق الثعلبي في تفسيره «٥».

وينقل العلامة الأميني هذه الرواية في كتاب الغدير عن ثلاثين من علماء السنة (مع ذكر المصدر ونص العبارة)، منها السيرة الحلبية، «فرائد السمطين» للحمويني، و«درر السمطين» للشيخ محمد الزرندي، و«السراج المنير» لشمس الدين الشافعي، و«شرح الجامع الصغير» للسيوطي، و«تفسير غريب القرآن» للحافظ أبو عبيد الهروي، و«تفسير

(١) جاء في بعض الروايات أنه «الحارث بن النعمان» وفي بعضها «النضر بن الحارث».

(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٩ و ١٠، ص ٣٥٢.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ج ١٠، ص ٦٧٥٧.

(٤) تفسير روح المعاني، ج ٢٩، ص ٥٢.

(٥) وفقاً لنقل نور الابصار للشبلنجي، ص ٧١.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٤٨

شفاء الصدور» لأبي بكر النقاش الموصلي، وكتب اخرى

وقد أورد بعض المفسرين أو المحدّثين الذين يُقرّون بفضائل على عليه السلام على مضمّن إشكالات مختلفة على سبب النزول هذا، أهمها الإشكالات الأربعة التالية التي أوردتها صاحب تفسير المنار وآخرون بعد ذكرهم لهذه الرواية:

الإشكال الأول: إنّ سورة المعارج مكية، ولا تتناسب مع واقعة غدیر خم.

والجواب: إنَّ كون السورة مكية لا يعتبر دليلاً على أنَّ جميع آياتها نزلت في مكة، فلدينا العديد من سور القرآن الكريم التي تُدعى بالمكية وكتبت في جميع المصاحف على أنَّها مكية، بيد أنَّ عدداً من آياتها نزلت في المدينة، وكذا العكس، فعلى سبيل المثال أنَّ سورة العنكبوت من السور المكية، والحال أنَّ آياتها العشر الاولى نزلت في المدينة، على ضوء قول الطبري في تفسيره المعروف، والقرطبي في تفسيره وآخرين من العلماء «١».

أو سورة الكهف المعروفة بأنَّها مكية بينما نزلت آياتها السبع الاولى في المدينة استناداً لتفسير «القرطبي»، و «الاتقان» للسيوطي، وتفسير عديدة «٢».

وهكذا فهناك سورٌ عُدَّت بأنَّها مدنية بينما نزلت آيات منها في مكة، مثل سورة «المجادلة» فهي مدنية كما هو معروف، إلَّا أنَّ الآيات العشر الاولى منها نزلت في مكة، طبقاً لتصريح بعض المفسرين «٣».

وموجز الكلام أنَّه توجد حالات كثيرة بأنَّ تذكر سورة على أنَّها مكية أو مدنية، ويكتب عليها في التفاسير والمصاحف هذا الاسم إلَّا أنَّ جانباً من آياتها قد نزل في موضع آخر.

وعليه فلا مانع أبداً من أن تكون سورة المعارج هكذا أيضاً.

الاشكال الثاني: جاء في هذا الحديث أنَّ الحارث بن النعمان جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله في الأبطح، ونحن نعلم أنَّ الأبطح اسم لوادي مكة، ولا تتلائم مع نزول الآية بعد واقعة الغدير بين مكة والمدينة.

(١) تفسير جامع البيان، ج ٢٠، ص ٨٦؛ وتفسير القرطبي ج ١٣، ص ٣٢٣.

(٢) للمزيد من الاطلاع على الموضوع، راجعوا الغدير، ج ١، ص ٣٥٦، و ٢٥٧.

(٣) تفسير أبي السعود الذي كتب على هامش تفسير الرازي، ج ٨ ص ١٤٨؛ والسراج المنير، ج ٤، ص ٣١٠.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٤٩

الجواب: أولًا: إنَّ عبارة الأبطح في بعض الروايات فقط لا في جميعها، وثانيًا: إنَّ «الأبطح والبطحاء» تعني الأرض الرملية التي يجري فيها السيل، وهنالك مناطق في المدينة وسائر المناطق يطلق عليها اسم الأبطح أو البطحاء أيضاً، واللطيف أنَّه قد اشير إليها مراراً في الشعر العربي.

منها: الشعر المعروف الذي أنشده «شهاب الدين» المشهور بـ «حيص بيص» في رثائه لأهل البيت عليهم السلام، عن لسانهم في مخاطبة قاتليهم:

ملكنا فكان العفو منا سجيئة فلما ملكتم سال بالدم أبطح
وحللتكم قتل الاسارى وطالماغدونا عن الاسرى نعف ونصفح
ومن الواضح أنَّ مقاتل أهل البيت عليهم السلام كانت على الأغلب في العراق وكربلاء والكوفة والمدينة، وما أريق دمٌ في أبطح مكة أبداً، نعم استشهد بعض أهل البيت عليهم السلام في واقعة «الفخ» التي تبعد عن مكة ما يقرب من فرسخين، والحال أنَّ الأبطح يجاور مكة «١».

وشاعرٌ آخر يرثي الإمام الحسين عليه السلام سيد الشهداء قائلاً:

وتأَنَّ نفسي للربوع وقد غدابيت النبي مقطع الاطناب

بيت لآل المصطفى في كربلاضربوه بين اباطح وروابي

وثمة أشعار اخرى كثيرة ورد فيها تعبير «الأبطح» أو «الأباطح» لا تعني منطقة خاصة في مكة.

وملخص الكلام، صحيح أنَّ أحد معاني الأبطح هو بقلعه في مكة، إلَّا أنَّ معنى ومفهوم ومصداق الأبطح لا ينحصر بتلك البقعة.

٣- كيفية ارتباط هذه الآية بما قبلها وبعدها

إنّ بعض المفسرين ومن أجل مجانية الحقيقة الكامنة في هذه الآية توّسل بمبرر آخر

(١) الغدير، ج ١، ص ٢٥٥.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٥٠

نفحات القرآن ج ٩ ١٩٩

وهو: إنّ سياق الآيات السابقة واللاحقة بشأن أهل الكتاب لا تنسجم مع قضية الولاية والخلافة والإمامة، ولا تتناسب هذه الاثنيية مع بلاغة وفصاحة القرآن «١».

إلّا أنّ كافة المطلعين على كيفية جمع آيات القرآن يعرفون أنّ آيات القرآن نزلت تدريجياً وبمناسباتٍ مختلفة، من هنا فكثيراً ما تتحدث سورة ما حول قضايا مختلفة، فجانّب منها يتحدث عن الغزوة الفلانية، والجانّب الآخر حول الحكم والتشريع الإسلاميّ الفلاني، وجانّب يخاطب المنافقين، وآخر يخاطب المؤمنين، فمثلاً لو طالعنا سورة النور لوجدناها تحتوى على جوانب متعددة، كلّ منها ناظرٌ إلى موضوع، بدءاً من التوحيد والمعاد ومروراً بتنفيذ حدّ الزنا وقصّة «الافك»، والقضايا المتعلقة بالمنافقين، والحجاب، وغيرها، (وكذلك سائر السور الطوال إلى حدّ ما) بالرغم من وجود ارتباط عام بين مجموعة أجزاء السورة.

والسر وراء هذا التنوع في المحتوى ما قيل: إنّ القرآن نزل تدريجياً وحسب المتطلبات والضرورات وفي مختلف الأحداث، وليس على هيئة كتاب كلاسيكيّ أبداً بحيث يتابع موضوعاً معداً سلفاً، على هذا الأساس لا مانع على الإطلاق من أن تنزل مقاطع من سورة المائدة بشأن أهل الكتاب، ومقاطع منها في واقعة الغدير، بالطبع فمن وجهة النظر العامة أنّهما يرتبطان معاً إذ إنّ تعيين خليفة لرسول الله صلى الله عليه وآله يترك أثره على قضايا أهل الكتاب أيضاً، لأنّه سيؤدّي إلى ياسهم من انهيار الإسلام برحيل النبي صلى الله عليه وآله.

٤- لماذا لم يحتج الإمام على عليه السلام بحديث الغدير؟

إنّ البعض الآخر من اللاهثين وراء التبريرات يقول: إذا كان حديث الغدير يتمتع بهذه العظمة والواقعية فلماذا لم يحتج به على عليه السلام وأهل بيته وأصحابه ومحبيه عند الحاجة؟ ألم يكن من الأفضل أن يستندوا إلى مثل هذه الوثيقة المهمة من أجل إثبات خلافة على عليه السلام؟!

(١) تفسير المنار، ج ٦، ص ٤٦٦.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٥١

إنّ هذا الإشكال شأنه شأن سائر الإشكالات فهو ناتج عن عدم الاطلاع الكافي على كتب الحديث والتاريخ والتفسير، فلقد رويت أحاديث عديدة في كتب علماء السنّة أنّ علياً عليه السلام أو الأئمة أو أنصارهم قد احتجوا بحديث الغدير، والمدّش هو: كيف غابت عن أنظار المشككين؟.

منها ما ينقله «الخطيب الخوارزمي الحنفي» في كتابه «المناقب» عن «عامر بن وائل» قال: كنت مع على عليه السلام يوم الشورى وسمعتة يقول لهم: «لاحتجن عليكم بما لا يستطيع عربكم ولا عجمكم تغيير ذلك، ثم قال: أنشدكم الله أيّها النفر جميعاً أفيكم أحد وخذ الله قبلي؟ فانشدكم بالله هل فيكم أحد قال له رسول الله صلى الله عليه وآله: من كنت مولاه فعليّ مولاه اللهمّ وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره ليلبغ الشاهد الغائب، غيري» «١».

ونقل هذه الرواية الحمويني في فرائد السمطين في الباب ٥٨، وابن حاتم في درر النظم، وابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة. كما روى ابن حجر في الصواعق هذا المضمون عن الدار قطنى «٢». وفي كتاب الغدير ذكر بحث شامل وبمصادر واسعة حول «مناشدة» أمير المؤمنين عليه السلام في مواطن عديدة، منها أيام عثمان، وأبان خلافته، يوم الجمل، ومرة أخرى في الكوفة يوم صفين، بالإضافة إلى المواضيع الستة عشر الأخرى المنقولة من احتجاجات فاطمة عليها السلام، والإمام الحسن عليه السلام، والإمام الحسين عليه السلام، وجماعة من الصحابة وغيرهم، التي تحكى عن المعلومات الواسعة لهذا الكاتب الكبير من ناحية، ومن ناحية أخرى تبرهن على أن الاحتجاج بهذا الحديث كان موضع اهتمام على مدى القرون المختلفة، بالرغم من سعى السياسات الخاصة التي كانت مهيمنة على هذه القضية في التقليل من أهميتها قدر الإمكان. ونظراً إلى أن الغور في هذه البحوث الواسعة يخرجنا عن الهدف الذى نبتغيه، فإننا نكتفى بهذا المقدار ونحيل الراغبين إلى هذا المصدر «٣» وسائر المراجع.

(١) المناقب، ص ٢١٧.

(٢) الغدير، ص ١٦١.

(٣) المصدر السابق، ص ١٥٩-٢١٣.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٥٣

٢- آية الولاية

إشارة

الآية الأخرى التى تعقب قضية الإمامة الخاصة، تقول:

«إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ». (المائدة/ ٥٥)

سبب النزول

إشارة

روى الكثير من المفسرين والمحدثين فى سبب نزول هذه الآية أنها نزلت بحق على عليه السلام. فقد نقل السيوطى فى «الدر المنثور» عن ابن عباس: إن علياً كان راکعاً وإذا سائل فأعطاه خاتمه، فسأله النبى صلى الله عليه وآله من الذى أعطاك هذا الخاتم؟ فأوماً إلى على عليه السلام وقال: ذلك الراكع، فنزلت آية: «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ...» «١».

وفى الكتاب نفسه رويت روايات عديدة بنفس المضمون عن «ابن عباس»، و«سلمة بن كهيل» وعن على عليه السلام نفسه «٢».

وروى المعنى نفسه فى كتاب «أسباب النزول» للواحدى عن «جابر بن عبد الله»، وكذا عن «ابن عباس» «٣».

يقول المفسر الشهير «جار الله الزمخشري» فى كتاب «الكشاف»: «إنها نزلت فى

(١) تفسير در المنثور، ج ٢، ص ٢٩٣.

(٢) المصدر السابق.

(٣) أسباب النزول، ص ١٤٨.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٥٤

على عليه السلام حين سأله سائل وهو راعع في صلاته فطرح له خاتمه «١»، وينقل الفخر الرازى في تفسيره عن «عبد الله بن سلام»: لما نزلت هذه الآية، قلت: يارسول الله أنا رأيت علياً تصدق بخاتمه على محتاج وهو راعع فنحن نتولاه كما ويروى عن أبي ذر قوله: صليت مع رسول الله صلى الله عليه وآله يوماً صلاة الظهر فسأل سائل في المسجد فلم يعطه أحد فرفع السائل يده إلى السماء وقال: اللهم اشهد أنى سألت في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله فما أعطاني أحد شيئاً، وعلى عليه السلام كان راععاً فأوما إليه بخنصره اليمنى وكان فيها خاتم، فأقبل السائل حتى أخذ الخاتم بمراى النبى صلى الله عليه وآله فقال: «اللهم إن أخى موسى سألك فقال: رب اشرح لى صدرى- وأشركه فى أمرى فأنزلت قرآنا ناطقاً «سنشُدُّ عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً» فنزلت الآية «٢».

وبطبيعة الحال فإن للفخر الرازى- وكالعادة- شبهات على كيفية دلالة هذه الآية على الإمامة حيث سنشير إليها لاحقاً. ويروى الطبرى أيضاً فى تفسيره روايات عديدة فى ذيل هذه الآية وسبب نزولها، إذ تفيد أكثرها أن هذه الآية نزلت بحق على عليه السلام «٣».

وأوردت طائفة أخرى هذه الرواية بعبارات مختلفة فى حق على عليه السلام، منها فى كنز العمال ج ٦، ص ٣١٩ حيث ينقل هذه الرواية عن ابن عباس.

كما ينقل «الحاكم الحسكاني» الحنفى النيشابورى من علماء القرن الخامس المعروفين فى «شواهد التنزيل» بخمسة طرق عن «ابن عباس»، واثنين عن «انس بن مالك»، ومثلهما عن «محمد بن الحنفية»، وواحد عن «عطاء بن السائب»، ومثله عن «عبد الملك بن جريح المكي» عن النبى صلى الله عليه وآله «إنما وليكم الله» نزلت بحق على عليه السلام عندما تصدق بخاتمه وهو راعع «٤».

(١) تفسير الكشاف، ج ١، ص ٦٤٩.

(٢) تفسير الكبير، ج ١٢، ص ٢٦.

(٣) تفسير جامع البيان، ج ٦، ص ١٨٦.

(٤) للمزيد من الاطلاع على الطرق المذكورة، راجعوا شواهد التنزيل ص ١٦١-١٦٨.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٥٥

ونقل المرحوم العلامة الأمينى هذه الرواية ونزول هذه الآية بحق على عليه السلام عن كثير من كتب السنّة فقارب العشرين كتاباً (مع ذكر دقيق لمصادرها ووثائقها)، وبإمكان الراغبين مراجعة ذلك الكتاب للمزيد من الاطلاع «١».

ونقل هذا المعنى فى كتاب احقاق الحق عن كثير من الكتب «٢».

والأمر اللطيف الآخر هو أن شاعر الرسول صلى الله عليه وآله المعروف «حسان بن ثابت» أورد هذه القضية فى شعره على أنها مسألة تاريخية مُسلم بها.

فهو يقول فى شعره مخاطباً علياً عليه السلام:

وأنت الذى أعطيت إذ كنت راععاً كاهاً فدتك النفس ياخير راعع

فانزل فيك الله خير ولايه وبينها فى محكمات الشرائع «٣»

ونقرأ في القصيدة الأخرى التي رواها «سبط بن الجوزي» عن «حسان»:

منْ ذا بخاتمه تصدَّق راعوا وسرَّها في نفسه اسراراً! «٤»

وموجز القول: إنَّ نزول هذه الآية بحق علي عليه السلام ليس بالأمر الذي يُشككُ أو يرتاب فيه حتى أنَّ مؤلف «منهاج البراعة» في شرح نهج البلاغة، يقول: لقد نقلت روايات «متظافرة» بل متواترة عن طرق أهل السنَّة وأتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام بهذا الصدق. والمهم هو تبيين كيفية دلالتها على الولاية وخلافة النبي صلى الله عليه وآله.

كيفية دلالة الآية على الخلافة:

لقد استند في الآية المذكورة على مفهوم كلمة «الولي»، وذكر الإمام علي عليه السلام على أنه

(١) الغدير، ج ٢، ص ٥٢ و ٥٣.

(٢) احقاق الحق، ج ٢، ص ٣٩٩-٤٠٧.

(٣) روى شعر حسان بن ثابت في كثير من الكتب باختلاف بسيط، منها في تفسير روح المعاني، وكفاية الطالب للكنجي الشافعي وكتب أخرى

(٤) تذكرة الخواص، ص ١٠، ونقله الكنجي الشافعي أيضاً في كفاية الطالب ص ١٢٣ وعد قائليه بعده شعراء. نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٥٦

ولي المسلمين، صحيح أنَّ لكلمة الولي معاني عديدة كما أشرنا إليها آنفاً، فتارة تعني الناصر والصديق، وأخرى جاءت بمعنى المتصرف والحاكم المشرف وكما يقول الراغب: إنَّ أصلها بمعنى أن يحصل شيان فصاعداً حصولاً ليس بينهما ما ليس منهما ثم يضيف: «الولاية» بكسر الواو بمعنى «النصرة» و «الولاية» بفتح الواو تعني تولى الأمر «١».

أمَّا القرينة الموجودة في الآية فهي تدلُّ على أنَّ «الولي» هنا تعني المتولى والمشرف وصاحب الخيار لأنها لو كانت تعني الناصر والصديق والمعين لشملت المؤمنين جميعاً، كما نقرأ في الآية: «وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ». (التوبة/ ٧١) بيد أنَّ الولاية في آية البحث اعتبرت منحصرة في حالة خاصة بذلك المتصدق في ركوعه، وكلمة «إنما» التي تفيد الحصر جاءت معها (تأملوا جيداً).

إنَّ هذا التعبير يجعلنا نتيقن بأنَّ «الولاية» في الآية الآنفه الذكر لا تعني الصداقة والنصرة (وكذا سائر المعاني المشابهة والقريبة لهذا المعنى، وعلى هذا الأساس فلا مجال إلَّا أن تكون بمعنى المتولى وصاحب الأمر المشرف، الذي توازي ولايته ولاية الله والنبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

والآية التالية: «وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ».

وحقيقة هذه الآية أنها تتمم لمضمون الآية المذكورة، وتلاحظ فيها قرينة أخرى على تفسير الولاية بمعنى تولى الأمر والاشراف، لأنَّ التعبير «حزب الله» وانتصارهم على الأعداء يتعلق بإقامته حكمه إسلامية لا على أساس الصداقة العادية، وهذا يفيد أنَّ كلمة الولي في الآية تعني المشرف والحاكم والماسك بزمام أمور الإسلام والمسلمين، لأنَّ معنى «الحزب» هو ضربٌ من التنظيم والتضامن الاجتماعي من أجل تأمين أهداف مشتركة.

(١) مفردات الراغب، مادة (ولي) وذكر البعض ٢٧ معنى للمولى (الغدير، ج ١، ص ٣٦٢) إلَّا أنَّ أصول معانيها ذانك المعنيان والبقية

ترجع إليهما.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٥٧

شبهات واعتراضات:

إن دلالة الآية على الإمامة والخلافة - كما رأينا - واضحة، ولو كانت هذه الآية قد نزلت بحق الآخرين ربّما لم يجر حولها أدنى جدال! ولكن لكونها قد نزلت بحق على عليه السلام ولا تنسجم مع الغاية الناشئة عن الطائفية، فقد أصر البعض على إيراد الشبهات على صدر الآية وذيلها وسبب نزولها ودلالاتها من كل جانب.

ويمكن تصنيف هذه الشبهات إلى صنفين: فبعضها ذات صبغة علمية ظاهراً فيجب الرد عليها بصورة علمية، إلّا أنّ البعض يستند إلى ما يُستشهد به، وكذلك وجود المبررات حسب زعم مثيرها فينبغي أيضاً بحثها ونقدها بشكل إجمالي:

١- الشبهة الأولى التي تعتبر من الصنف الأول هي أنّ الضمائر والأسماء الموصولة التي في الآية جاءت بصيغة ضمير الجمع، مثل «الذين آمنوا» و «الذين يقيمون الصلاة» و «يوتون الزكاة» و «هم راكعون» فكيف والحالة هذه تنطبق على فرد واحد. فالآية تقول: إنّ أولياءكم هم الذين يتمتعون بهذه المزايا أي على بن أبي طالب عليه السلام.

والجواب: بالنظر إلى أن سبب نزول الآية الذي نقل بشكل مستفيض بل متواتر في كتب الشيعة والسنة لم يبق مجال للشك في أنّها ناظرة إلى شخص واحد، وبتعبير آخر: إنّ الروايات والتاريخ الإسلامي يشهد بأنّ التصديق على السائل في حال الركوع يختص بعلى عليه السلام لأنّ القائم بالتصديق واحد، ولم تقم به مجموعة، من هنا لا بدّ من القول: إنّ التعبير بصيغة الجمع جاء من أجل احترام وتعظيم منزلة ذلك الشخص.

وكثيراً ما يُشاهد في الأدب العربي أنّ لفظ الجمع جاء تعبيراً عن المفرد، فمثلاً جاءت كلمة «نساء» في آية المباهلة بصورة الجمع، بينما المقصود منها فاطمة الزهراء عليها السلام فقط طبقاً لصريح سبب النزول، وفي نفس الآية جاءت كلمة «أنفسنا» بصيغة الجمع، والحال أنّ الجميع يسلمون بأنّ لا أحد شارك في المباهلة غير النبي صلى الله عليه وآله وعلى عليه السلام، وجاء في القرآن أيضاً في قصته «غزوة حمراء الأسد»: «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» (آل عمران / ١٧٣)

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٥٨

وهنا ذكر الناطق بهذا الكلام كلمة «الناس» التي تفيد الجمع بينما جاء في التاريخ أنّ القائل ليس سوى «نعيم بن مسعود». وجاء أيضاً بشأن نزول الآية: «فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ...» (المائدة / ٥٢) إذ نعلم هنا أنّها نزلت بشأن «عبد الله بن أبي»، والحال أنّ الضمائر هنا جاءت بصيغة الجمع.

كما أنّ الخطاب في الآية الأولى من سورة الممتحنة عامّ بينما نزلت بشأن رجل يدعى «حاطب بن أبي بلتعة»، وفي الآية التالية جاء الضمير بصيغة الجمع أيضاً: «يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ...» بينما كان القائل هو «عبد الله بن أبي». (المنافقون / ٨) وكذلك في الآية: «الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ...» (البقرة / ٢٧٤)

التي نزلت في حق على عليه السلام طبقاً للكثير من الروايات، بينما ضمائرهما جميعاً جاءت بصيغة الجمع.

وجاءت الآية ٢١٥ من سورة البقرة المتعلقة بالسؤال عن الأشياء التي يجب أن ينفقوها:

«يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ» بصيغة الجمع بينما كان السائل هو شخص يدعى «عمرو بن الجموح» (١).

ولكن ما السبب في أن يأتي الكلام بصيغة الجمع في هذه الحالات مع أنّ المراد شخص واحد؟ ربّما يكون سببه في بعض الحالات، الاحترام، وفي بعضها إشارة إلى مؤازرة الآخرين لذلك الشخص، وبالتعمّن في الحالات أعلاه يمكن تمييز حالات الاحترام عن حالات المؤازرة.

فضلاً عن كل ذلك فنحن نعلم أن ضمير الجمع «المتكلم مع الغير» قد استخدم في آيات القرآن في حالات لا حصر لها أثناء حديث الله عن نفسه، مع أن ذاته المقدسة لا نظير لها في الوجدانية والتفرد، وهو «أحد واحد» من جميع الجوانب، وهذا مرده إلى أن العظيم يمتلك جنوداً مطيعين وممثلين لأوامره في أداء ما يشاء، وهذا يؤدي إلى استخدام ضمير الجمع مع

(١) للمزيد من الاطلاع على مصادر هذه الروايات، يراجع التفسير الأمثل، ذيل الآية ٢١٥ من سورة البقرة.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٥٩

كونه مفرداً، وبتعبير آخر أن ضمير الجمع هذا دليل على عظمتة وسمو مقامه.

٣- الشبهة الثانية هي أن من المسلم به أن علياً عليه السلام لم تكن له ولاية بمعنى الحكم وقيادة المسلمين في عصر النبي صلى الله عليه وآله، فكيف يتعين تفسير الآية هكذا؟ الجواب عن هذا السؤال واضح، فكثيراً ما شاهدنا خلال التعابير اليومية بأن يطلق اسم أو عنوان على أشخاص مرشحين أو منتخبين لذلك المنصب وإن لم يمارسوا العمل به بعد، أو بتعبير آخر: إنهم يتمتعون بذلك المقام بالقوة لا بالفعل.

فمثلاً يقوم إنسان في حياته بتعيين شخص ما «وصياً» له، وبالرغم من كونه حياً فإننا نقول: إن فلاناً وصيه أو القيم على أطفاله.

فإطلاق الوصي والخليفة على علي عليه السلام في عهد النبي صلى الله عليه وآله كان من هذا القبيل أيضاً، حيث اختاره النبي صلى الله عليه وآله في حياته لهذا الأمر بإذن من الله، وأثبت له الخلافة بعد رحيله.

ويلاحظ هذا المعنى أيضاً في الآية الكريمة إذ يطلب زكريا من الله تعالى «هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا». (مريم / ٥)

واستجاب الله له ووهبه يحيى ومن المسلم به أن يحيى لم يكن خليفته ووليه ووارثه في حياته، بل عُيِّنَ لما بعد حياته.

ويشاهد نظير هذا الكلام في واقعة «يوم الانذار» (اليوم الذي جمع به النبي صلى الله عليه وآله أقرباءه ليدعوهم إلى الإسلام للمرة الأولى، فطبقاً لما ذكره «المؤرخون» الإسلاميون سواء من السنة أو الشيعة، أن النبي صلى الله عليه وآله أوماً إلى علي صلى الله عليه وآله في ذلك اليوم وقال:

«إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له واطيعوه» (١).

فهل يتسبب التعبير أعلاه في خلق مشكلة في عهد النبي صلى الله عليه وآله؟

فلا شك في أن الجواب سيكون بالنفي، فالتعبير بالولي في آية البحث هو كما أشرنا إليه.

أما شبهات الفريق الثاني (التبريرات) فهي عديدة أيضاً منها:

١- قولهم: أي زكاة واجبة كانت متعلقة بدمه على عليه السلام وهو الذي لم يكن يجمع لنفسه

(١) روى هذا الحديث الكثير من علماء السنة مثل، ابن أبي جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبي نعيم والبيهقي والثعلبي والطبري، وأورد ابن الأثير هذا الكلام في ج ٢ من كتاب الكامل، وكذلك «أبو الفداء» في الجزء الأول من تاريخه، وجماعة آخرون (للمزيد من الاطلاع انتظروا البحوث الآتية).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٦٠

من مال الدنيا أي شيء؟ وإذا كان المراد الصدقة المستحبة فلا يقال لها زكاة؟

الجواب: أولاً: إن موارد إطلاق الزكاة في القرآن الكريم على الزكاة المستحبة كثيرة، فكثيراً ماورد في العديد من السور المكية اسم «الزكاة» والمراد منها الزكاة المستحبة، إذ إن وجوبها كان بعد هجرة النبي صلى الله عليه وآله إلى المدينة.

والآيات ٣ من سورة النمل، و ٣٩ من سورة هود، و ٤ من سورة لقمان من جملة الموارد التي جاءت فيها كلمة الزكاة، ونظراً لكون هذه

السور مكية فإنَّ المراد هو الزكاة المستحبة.

ثانياً: صحيح أنَّ علياً عليه السلام لم يدخر من مال الدنيا إلاَّ أنه كانت تأتيه حصه من بيت المال، ومن المتيقن أنه كان يمتلك وارداً بسيطاً من مجهوده أيضاً، وأنَّ الخاتم المذكور من الفضه والظاهر أنه كان رخيصاً، على هذا الأساس فإنَّ تعلق هذا القدر من الزكاة البسيطة به عليه السلام ليس مستبعداً أبداً، وأنَّ المبالغه بما قالوه بشأن قيمه ذلك الخاتم لا أساس لها من الصحه على الاطلاق.

ثالثاً: ألا يتعارض الانتباه إلى السائل مع حضور القلب في الصلاة والاستغراق في مناجاه الخالق جل وعلا مع القول السائد عنه: (حتى عرف بأنَّ نصلاً وقع في رجليه فأخرجوه أثناء الصلاة ولم يُحسّ) «١» فكيف يتسنى له الانتباه إلى السائل أثناء الصلاة؟!
الجواب: إنَّ الذي يورد هذا الإشكال غافل عن سماع صوت السائل ومساعدته فما قام به عليٌّ عليه السلام لا يعتبر توجهها إلى غير الله، أو إلى الذات أو الامور الدنيوية، بل إنه في واقع الأمر توجه إلى الله.

فقد كان القلب المقدس لعلي عليه السلام يشعر بالسائلين، ويستجيب لندائهم فقد مزج عمله العبادي هذا بعباده اخرى وتصدق أثناء الصلاة، وكلاهما كان لله وفي سبيله.

ومثل هذا الإشكال في الحقيقه إشكال على القرآن الكريم، لأنَّ الله تعالى قد امتدح في هذه الآيه اعطاء الزكاة أثناء الركوع، ولو كان هذا العمل دليلاً على الغفله عن ذكر الله فلا ينبغي أن يستند إليها كصفه ساميه وفائقه الأهميه.

(١) نص الروايه هكذا، روى أنه وقع نصلٌ في رجليه فلم يتمكّن من اخراجه فقالت فاطمه عليها السلام أخرجوه في حال صلاته فإنه لا يحسّ بما يجري عليه حينئذٍ فأخرج وهو في صلاته (المحجّه البيضاء، ج ١، ص ٣٩٨- احقاق الحق، ج ٢، ص ٤١٤).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٦١

فهؤلاء المتعصبون يريدون في الواقع انكار فضل علي عليه السلام فيشكلون على الله عزّ وجلّ.

انتبهوا هنا إلى كلام الرازي فهو يقول: «وهو أن اللائق بعلي عليه السلام أن يكون مستغرق القلب بذكر الله حال ما يكون في الصلاة، والظاهر أن من كان كذلك فإنه لا يتفرغ لاستماع كلام الغير ولفهمه» «١».

علينا أن نسأل الفخر الرازي أن إذا كان هذا العمل خلافاً لآداب الصلاة وحضور القلب، فلماذا اثني عليه البارئ جلّ وعلا، واعتبر ولاية المؤمنين حقيقه بمثل هذا الشخص؟!
على أزيه حال، فلا مجال للشك في أن سماع صوت المحتاج والاستجاب له في حال الصلاة عباده مضاعفه حصلت في آن واحد، وعلينا أن نعوذ بالله من التعصب الذي يبعثنا عن الحقائق.

٣- ومن جمله التبريرات التي طرحت هنا بصيغه إشكال هو: إن التصديق بالخاتم على السائل فعل كثير ويتعارض مع الصلاة!
ليس هناك ما يدعو للعجب، فعندما يريد الإنسان أن لا يدعن للواقع فإنه يصطنع التبريرات ليحاجج بها، وهو على يقين بأنَّ تبريراته واهيه؟!
والجواب: أولاً: إنَّ عمليه اخراج الخاتم تمت بإشارة بسيطه وعلى ضوء جميع الفتاوى فإنَّ هذا العمل لا يعتبر فعلاً كثيراً ولا يوجب الإشكال في الصلاة، لا سيما إذا أشار الإمام عليه السلام بإشارة بسيطه، والسائل اخراجه بنفسه.

ثانياً: لقد صرح الفقهاء بأنَّ حتى قتل الحيوان اللادغ مثل «العقرب» أثناء الصلاة، أو رفع الطفل أثناء الصلاة، أو حساب عدد الركعات عن طريق الحصى، بل وحتى غسل جانب من اللباس أو اليد إذا تنجست أثناء الصلاة، لا يضر بالصلاة، بينما يعتبر اعطاء الخاتم للسائل أو اخراجه أبسط من ذلك بكثير.

٤- يقول المبررون: من اين جاء علي عليه السلام بذلك الخاتم النفيس؟ وألم يكن التختم به إسرافاً؟

(١) التفسير الكبير، ج ١٢، ص ٣٠.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٦٢

الجواب: من الذى قال: إن ذلك الخاتم كان نفيساً، ولماذا نصغى ونصدق بمثل ذلك الهراء الفارغ، ونسير رويداً رويداً نحو إنكار آية قرآنية؟

لقد ورد فى رواية واحدة مرسله وضعيفة أن قيمة ذلك الخاتم كانت تعادل خراج الشام! حيث من المسلم به أنها أكثر شياً بالخرافة لا بالحقيقة، ولعلها جعلت من قبل الذين وضعوها بقصد التقليل من قيمة هذه الفضيلة العظيمة. إن فى مثل هذه الحالات ليس المهم أن ينفق فيها بل المهم هو أن الإنسان نفسه محتاج إلى الشىء ويغض الطرف عنه فى سبيل الله، ويكون هذا الفعل مقروناً بغاية الاخلاص فى التية.

فعندما تنزل سورة كاملة فى القرآن وهى (سورة هل أتى بسبب اعطاء بضعة اقراص من الخبز (وفى حالة من الجوع طبعاً) إلى المسكين واليتيم والأسير فى سبيل الله، فما العجب فى أن تنزل آية بشأن التصديق بخاتم على فقير أثناء الصلاة. وأمثال هذه الشبهات التى يؤدى التطرق إلى ذكرها والرد عليها إلى ضياع الوقت.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٦٣

٣- آية اولى الأمر

يقول تعالى فى الآية: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ». (النساء / ٥٩)

فى بحث الولاية العامة كان لنا كلام مفصل حول معنى هذه الآية ومن هم المقصودون فيها، وكما جرت الإشارة إليه فإن الأمر بالطاعة المطلقة ل «اولى الأمر» إلى جانب رسول الله صلى الله عليه وآله دليل على أن «اولى الأمر» تشمل الذين هم فى منزلة رسول الله صلى الله عليه وآله أى أوصياؤه المعصومون، لأنه من المتعذر الطاعة المطلقة لغير المعصومين عليهم السلام. وبالمناسبة فإن جميع الاحتمالات التى قيلت فى تفسير «اولى الأمر» قد بحثت، ورأينا عدم وجود دلالة ومعنى صحيح لها إلّا فى الإمام المعصوم.

إن ما يجب أن نضيفه على ذلك هنا- فى بحث الولاية الخاصة «خلافة على عليه السلام»، وهو بحث أكثر تفصيلاً حول الروايات التى وردت فى المصادر الإسلامية المعروفة (لاسيما مصادر أهل السنة المشهورة) فى دلالة هذه الآية على عليه السلام. نقل المفسر المعروف «الحاكم الحسكاني» الحنفى النيشابورى خمس روايات فى ذيل هذه الآية حيث دلت فيها جميعاً صفة «اولى الأمر» على عليه السلام (كمصداق جلى).

ففى الرواية الاولى ينقل عنه عليه السلام لما قال رسول الله صلى الله عليه وآله: شركائى الذين قرنهم الله بنفسه وبى وأنزل فيهم «يأيتها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول» الآية ... قلت: يابى الله من هم؟ قال: أنت أولهم «١». وفى الرواية الثانية ينقل عن المفسر المعروف «مجاهد» أن هذه الآية نزلت بحق أمير

(١) سنذكر مصادر هذه الروايات عند الانتهاء من الروايات الخمس.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٦٤

المؤمنين عليه السلام حينما خلفه على المدينة (عندما توجه إلى معركة تبوك).

وفى الرواية الثالثة ينقل هذا المعنى عن أبى جعفر الباقر عليه السلام، وفى الرواية الرابعة ينقل عن «سعد بن أبى وقاص»، قوله: «لما نزل رسول الله صلى الله عليه وآله لحقه على عليه السلام يحمل سلاحاً؛ فقال: يا رسول الله خلفتني عنك ولم اتخلف عن غزوة قبلها وقد

أرجف المنافقون بى أنك خلفتنى لما استتقلتنى!!! قال سعد: فسمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: يا على أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدى فارجع اخلفنى فى أهلى وأهلك».

وروى عنه عليه السلام نفس هذا المعنى فى الرواية الخامسة (١).

وفى تفسير «البحر المحيط» تأليف «أبو حيان الأندلسى المغربى» ومن بين ما نقل حول معنى أولى الأمر، ينقل عن مقاتل وميمون والكلبى (وثلاثتهم من المفسرين): أن المراد منها امراء السرايا أو أئمة أهل البيت عليهم السلام (٢).

ثم آثار الموما إليه شبهتين على نزول الآية بحق على عليه السلام:

الاولى أن علياً عليه السلام كان واحداً، والحال أن «اولى الأمر» صيغة جمع.

والاخرى أن ظاهر هذه الآية هو أن الناس أمروا بأن يطيعوا اولى الأمر أثناء وجود رسول الله صلى الله عليه وآله بينما لم يكن على عليه السلام إماماً فى عهد رسول الله صلى الله عليه وآله (٣).

وكان قد طرح ما يشابه هذه الشبهات والإشكالات فى آية الولاية، وقد تطرقنا إلى الاجابة عنها بوضوح هناك، فمن ناحية قلنا، كثيراً ما يعنى أشخاصاً وهم على قيد الحياة، ويقولون أو يكتبون: إن فلاناً وصيى، وعليه أن يفعل كذا وكذا، وعلى أولادى اتباعه، ومعنى ذلك هو أن يتعهد القيام بهذه الأعمال بعد ممات الموصى له.

وإن قضية «الجمع» أيضاً كما قلنا لا تتسبب فى خلق مشكلة على الاطلاق، فكثيراً ما يطلق الجمع على المفرد فى القرآن وغيره من النثر والشعر، وفى الواقع أن «اولى الأمر» هنا تفيد الجمع وتشمل جميع الأئمة المعصومين، وإن كان فى كل زمان إمام ومعصوم واحد، إلا أنهم سيكونون جمعاً فى النهاية.

(١) هذه الأحاديث الخمسة أوردتها صاحب شواهد التنزيل، ج ١، ص ١٤٨-١٥١.

(٢) البحر المحيط، ج ٣، ص ٢٧٨.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٧٩.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٦٥

للمزيد من التفصيل بصدد الرد على هذين الإشكاليين راجعوا ذيل آية الولاية.

والجدير بالذكر هو أن فريقاً آخر نقل روايات فى شأن نزول هذه الآية غير «الحاكم الحسكاني» فى «شواهد التنزيل» إذ يقولون: إنها ناظرة إلى خلافة على عليه السلام. منهم العالم الشهير «أبو بكر بن المؤمن الشيرازى» الذى ينقل فى رسالته الاعتقاد (على ضوء نقل المناقب للكاشى) عن ابن عباس: إن الآية المذكورة نزلت بحق على عليه السلام عندما توجه الرسول الى غزوة تبوك وأبقى علياً فى المدينة، فقال له على عليه السلام: «أتخلفنى على النساء والصبيان؟»، فقال له الرسول صلى الله عليه وآله: «أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى حين قال: اخلفنى فى قومى واصلح، فقال عز وجل واولى الأمر منكم» (١).

يروى صاحب كتاب «ينابيع المودة» الشيخ سليمان الحنفى القندوزى فى كتابه عن كتاب «المناقب» عن سليم بن قيس الهلالي: إن رجلاً جاء إلى على عليه السلام وسأله: أرني أدنى ما يكون العبد مؤمناً، وأدنى ما يكون به العبد كافراً، وأدنى ما يكون به العبد ضالاً؟ فقال له عليه السلام: «قد سألت فافهم الجواب وأما أدنى ما يكون العبد به ضالاً أن لا يعرف حجته الله تبارك وتعالى وشاهده على عباده الذى أمر الله عز وجل عباده بطاعته وفرض ولايته»، قلت: يا أمير المؤمنين صفهم لى؟

قال: «الذين قرنهم الله تعالى بنفسه ونبه فقال: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ» (٢).

إن هذه الرواية شاهد على أن اولى الأمر حجج الله ووكلاؤه.

ووردت عشرات الروايات فى تفسير البرهان عن مصادر أهل البيت عليهم السلام فى ذيل الآية كلها تقول: إن الآية المذكورة نزلت

بحق علي عليه السلام أو بحقه وسائر أئمة أهل البيت عليهم السلام، بل وفي بعض هذه الروايات جاءت أسماء الأئمة الاثني عشر واحداً واحداً «٣».

(١) احقاق الحق، ج ٣، ص ٤٢٥.

(٢) ينابيع المودة، ص ١١٦.

(٣) تفسير البرهان، ج ١، ص ٣٨١-٣٨٧.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٦٧

٤- آية الصادقين

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ». (التوبة/ ١١٩)

لقد تحدثنا عن تفسير هذه الآية بالتفصيل في بحث الولاية العامة، وما يحتاج توضيح أكثر هنا هو شرح الروايات الكثيرة التي طبقت الآية على علي عليه السلام أو جميع أهل البيت عليهم السلام فمثلاً:

١- يروي المفسر المعروف «السيوطي» في «الدر المنثور» عن ابن عباس في تفسير الآية: «اتقوا الله وكونوا مع الصادقين...»، أنه قال: «مع علي بن أبي طالب عليه السلام».

ونقل شبيه هذا المعنى كل من «الخوارزمي» في «المناقب»، و «الزرندي» في «درر السمطين»، و «عبد الله الشافعي» في «المناقب»، و «الحاكم الحسكاني» في «شواهد التنزيل»، مع فارق أن بعضها يعبر ب- «هو علي بن أبي طالب»، وبعضها ب «علي بن أبي طالب خاصة»، وبعض رواها «مع علي وأصحاب علي» «١».

٢- يروي «الحافظ سليمان القندوزي الحنفي» في «ينابيع المودة» عن سلمان الفارسي:

لما نزلت آية «يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين»، قال سلمان: يارسول الله هذه عامة أم خاصة؟

قال النبي صلى الله عليه وآله: «أما المأمورون فعامه الناس، وأما الصادقون فخاصه، أخى علي وأوصياؤه من بعده إلى يوم القيامة» «٢».

٣- يروي «الحاكم الحسكاني» في «شواهد التنزيل» عن عبد الله بن عمر في ذيل عبارة

(١) المناقب، ص ١٨٩؛ درر السمطين، ص ٩١؛ المناقب لعبد الله الشافعي، ص ١٥٤؛ شواهد التنزيل، ج ١، ص ٢٥٩.

(٢) ينابيع المودة، ص ١١٥.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٦٨

«وكونوا مع الصادقين» قوله: «يعنى محمداً وأهل بيته عليهم السلام» «١».

٤- روى جماعة من كبار أهل السنة مثل «العلامة الحمويني» في «فرائد السمطين» و «الشيخ أبو الحسن الكازروني» في «شرف النبي» عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في ذيل هذه الآية قوله: «مع آل محمد، أو مع محمد وآله، أو مع محمد وعلي» حيث إن معناها جميعاً متقارب «٢».

ولم يقتصر العظماء الذين نقلوا الرواية على الأشخاص الذين ذكرناهم.

وهذا الأمر يحظى بالأهمية أيضاً حيث يأمر الله تعالى المؤمنين أن يكونوا دوماً مع الصادقين، فهو حكم مطلق بلا قيد أو شرط، وهذا المعنى لا يتحقق أبداً إلا لبشأن المعصومين عليهم السلام، لأن غير المعصوم ربما يخطيء، وفي هذه الحالة فإن الشخص الذي يمكن الوقوف إلى جانبه واتباعه دائماً لن يكون إلّا من المعصومين، وعليه فالمراد من الصادقين في هذه الآية ليس كل صادق، بل الصادقون

الذين لا سبيل للكذب إليهم- لا عمدًا ولا سهوًا- مع هذا فالعجب من بعض مفسري أهل السنّة المعروفين كالألوسي في تفسير روح المعاني مثلًا، فبعد ذكره لبعض الأخبار التي تفسر الصادقين في هذه الآية بعلى عليه السلام، يضيف: إنّ الشيعة قد استدلوا بها على أحقية على عليه السلام، ثم يقول: إنّ استدلالًا باطل ويمر منها بدون أن يأتي بدليل واحد على مزاعمه. إنّ مثل هذه المواقف تدلّ على أنه إلى أي حد يستطيع حجاب التعصب من الحيلولة دون اشعاع نور الفكر، ويسلب حرية التفكير حتى من العلماء.

وفى المقابل يرر اناس متحررو التفكير كالدكتور محمد التيجاني الذي شخص طريقه في ظل هذه الآية والآيات المعنوية، وأظهر إيمانه بعلى عليه السلام وسائر ائمة أهل البيت عليهم السلام بشجاعه فائقة، وألف كتاباً طريفاً ولطيفاً للغاية في هذا المجال اسماءه (لاكون مع الصادقين)، وقد ترك هذا الكتاب أثراً عجبياً في نفوس الكثير من المسلمين.

(١) شواهد التنزيل، ج ١، ص ٢٦٢.

(٢) للمزيد من الاطلاع، راجعوا احقاق الحق، ج ١٤، ص ٢٧٤ و ٢٧٥؛ والغدير، ج ٢، ص ٢٧٧؛ واحقاق الحق، ج ٣، ص ٢٩٦ وما بعدها، وج ١٤، ص ٢٧٠-٢٧٧.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٦٩

٥- آية القربى

إشارة

يخاطب تعالى النبي صلى الله عليه وآله قائلاً في الآية: «قُلْ لَأَسْأَلَكُمْ عَلَيْهِ إِجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى . (الشورى / ٢٣)» إنّ المراد من «القربى في هذه الآية، حسب ما قاله جميع مفسري الشيعة وطائفة من مفسري السنّة: هم قرابة النبي صلى الله عليه وآله. وفي قبال هذا التفسير ذكرت احتمالات وتفسير اخرى يبدو أنّ الدافع الحقيقي لها هو التقليل من أهميّة الإمامة وخلافه النبي صلى الله عليه وآله والاقلال من شأن أهل البيت عليهم السلام، منها التفاسير الثلاثة الآتية:

١- المراد من اجر وثواب الرسالة هو حب الامور التي تدعوكم إلى القرب من الله، وعليه فإنّ «القربى هي الامور التي تؤدي إلى القرب من الله تعالى ومن الواضح أنّ هذا التفسير لا يتلائم وظاهر الآية على الاطلاق، لأنّ المهم فيما يتعلق بالصلاة والصوم والجهاد ونحو ذلك من عوامل القرب الإلهي هو العمل بها لا مودتها ومحبتها، فالتعبير بالمودّة لا يتناسب وهذه القضية باى شكل من الأشكال، إلّا أن يكون هنالك شخص بين مخاطبي النبي صلى الله عليه وآله لم يجب هذه الامور حتى الذين كانوا يقصرون في عملهم منهم من كانوا يحبون هذه الامور بحكم تعلقهم بالله والقرآن، وإن لم يكونوا يعملون.

فضلاً عن جميع ذلك، ف «القربى تعني: القرب والدنو لا- «المقرب»، لذا فإنّها جاءت في جميع الحالات التي استخدمت فيها هذه الكلمة في القرآن الكريم (١٥ مرة بالاضافة الى هذه الآية التي هي مورد بحثنا) بمعنى الأشخاص الذين يتمتعون بالقرابة (وأساساً ذوى القربى النسبية).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٧٠

فلماذا ولأى سبب تفسر آية البحث خلافاً لجميع حالات استعمال القرآن والمفهوم اللغوي لهذه الكلمة؟ هل هنالك دافع غير ما أشير إليه آنفاً؟!

الجدير بالاهتمام أن الكثير من أرباب اللغة قد صرحوا بأن القربى أو ذى القربى تعنى قرابة النسب، فيقول صاحب مقاييس اللغة: فلان ذو قربتى، هو من يقرب منك رحماً، ثم يضيف: «القربى والقرابة» أى أن كلاهما بمعنى واحد وجاء فى لسان العرب، والقرابة والقربى الدنو فى النسب.

٢- وقال البعض الآخر: إن المقصود هو ايها المسلمون أحبوا قرباكم كأجر للرسالة، والحال أن مودة قرباهم لا علاقة لها بالرسالة. عجب، كيف تُترك محبة قربى رسول الله صلى الله عليه وآله التى هى انسب معنى هنا، وتطرح مودة قرباهم على أنها أجر الرسالة؟!
٣- وقال بعض من المفسرين: إن المقصود هو احفظوا قرابتى منكم كأجر للرسالة، وحيث إن لى قرابة سببية أو نسيية مع الكثير من قبائلكم فلا تؤذونى.

إن هذا التفسير هو اسوء تفسير لهذه الآية، لأن أجر الرسالة مطلوب من الذين تقبلوا رسالته فقط، ولا يعنى أولئك الذين يؤذون النبى صلى الله عليه وآله، وأما إذا كان المراد أعداؤه الذين يؤذونه، فأولئك لم يتقبلوا رسالته أبداً، ناهيك عن أجرهم واحسانهم! فكيف يمكن أن يقول إن أجرى أن لا تؤذونى لقرابتى منكم.

النقطة الأساسية فيما يخص الآية هى أن القرآن الكريم- من ناحية- ينقل عن الكثير من الأنبياء أنهم كانوا يقولون بصريح القول «وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ» (١).

ومن ناحية اخرى تقول آية البحث فيما يتعلق بالنبى صلى الله عليه وآله: «قُلْ لَأَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى . وَمِنْ نَاحِيَةٍ ثَالِثَةٍ: نقرأ بشأن النبى صلى الله عليه وآله فى الآية: «قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا لِمَنْ»

(١) بالتسلسل، الآية ١٠٩ و ١٢٧ و ١٤٥ و ١٦٤ و ١٨٠ من سورة الشعراء.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٧١

شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا. (الفرقان / ٥٧)

ومن ناحية رابعة جاء بشأن رسول الله صلى الله عليه وآله فى الآية: «قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ». (سبأ / ٤٧) من خلال جمع هذه الآيات الأربعة مع بعضها يمكن الاستنتاج جيداً أن النبى صلى الله عليه وآله شأنه شأن بقية الأنبياء لم يطلب أجراً لشخصه من الناس، بل إن فى مودة قرباه مرضاة الله، وهو امر يصب فى صالح هؤلاء تماماً، لأن هذه المودة نافذة فى الإمامة وخلافة النبى صلى الله عليه وآله واستمرار خط قيادة رسول الله صلى الله عليه وآله فى الأمة، وهدايته الناس فى ظلها (تأملوا جيداً).

نعم فحيثما فسرنا هذه الآيات الأربع بهذا الشكل لم تبق فيها نقطة غموض وتعقيد واشكال، وإلا فسيشاهد تضاد فيما بينها من ناحية، ومن ناحية اخرى نظطر إلى تفاسير طويلة وعريضة لا تتلائم وظاهر الآيات بأى شكل من الأشكال.

ولكن بما أن هذا التفسير لا يروق لبعض من المفسرين، لأنه لا يتفق مع حكمهم المسبق فقد تركوه، فتارة قالوا: إن طلب الأجر لا يتلائم ومقام النبى صلى الله عليه وآله، وعلى هذا الأساس فآية «إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى» يجب اعتبارها استثناءً منقطعاً، وتارة قالوا: إن هذه الآية لا تتفق بالآية: «قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ». (ص / ٨٦)

وتارة يتورطون فى تبريرات معقدة.

إن هذه الحقيقة تتضح أكثر فيما لو رجعنا إلى الروايات الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وآله، فى شرح وتفسير هذه الآية ونضعها إلى جانب هذه الآيات.

من مجموع الروايات الواردة فى تفسير الآية نستنتج مايلى:

لا شك أن آية البحث ناظرة إلى قضية الإمامة والخلافة حيث يمكن اعتبارها أجراً للرسالة، الأجر الذى يقرب الناس إلى الله، وتعود فائدته إليهم.

ومما قيل آنفا يتضح الرد على بعض المفسرين الذين طالما يتخذون موقفاً ملؤه العصبية ازاء الآيات المتعلقة بالإمامة.

يقول «الآلوسی» في «روح المعاني» في تفسير هذه الآية:

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٧٢

«على كرم الله وجهه واجب المحبة وكل واجب المحبة واجب الطاعة وكل واجب الطاعة صاحب الإمامة وينتج على رضى الله تعالى عنه صاحب الإمامة وجعلوا الآية دليل صغرى (١)».

ولكن كما فهم من البحوث الآنفه فنحن لا نريد أبداً استغلال هذه الآية من خلال الصغرى والكبرى الواهيتين، والأمر المهم في الآية شيء آخر وهو أن مودة ذوى القربى عدت أجراً للرسالة، وفي الآيات الأخرى ذكر الاجر المذكور على أنه وسيلة للتقرب من الله وفي صالح الناس، ومن مجموع ذلك تتضح مسألة الإمامة والخلافة بالتفصيل الذى ورد أعلاه، وأحاديث النبى صلى الله عليه وآله التى يشار إليها سند لهذا الاستدلال.

آية القربى فى الروايات الإسلامية:

نقلت روايات كثيرة فى مصادر السنّة والشيعه فى ذيل هذه الآية: «قُلْ لَأَسْأَلَكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى حَيْث لَهَا تَأْثِيرٌ كَبِيرٌ فِي تَفْسِيرٍ وَتَبْيِينِ مَفْهُومِ الْآيَةِ، مِنْ جَمَلَتِهَا الرِّوَايَاتُ الْآتِيَةُ:

ينقل «الحاكم الحسكاني» وهو من مشاهير علماء القرن الخامس الهجرى فى «شواهد التنزيل» عن «سعيد بن جبير» عن «ابن عباس» ما يلى:

«لَمَّا نَزَلَتْ قُلْ لَأَسْأَلَكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ هَؤُلَاءِ الْقُرْبَى الَّذِينَ أَمَرْنَا اللَّهَ بِمُودَتِهِمْ؟ قَالَ: عَلَى وَفَاطِمَةَ وَوَلَدِهِمَا» (٢).

ورويت فى الكتاب نفسه عدّة روايات اخرى بهذا المضمون بطرق مختلفة عن ابن عباس (٣).

٢- وفى رواية اخرى فى الكتاب نفسه يروى عن أبى امامة الباهلى أن النبى صلى الله عليه وآله قال:

(١) تفسير روح المعاني، ج ٢٥، ص ٣٠.

(٢) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ١٣٠.

(٣) المصدر السابق، ص ١٣١-١٣٥.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٧٣

«إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْأَنْبِيَاءَ مِنْ أَشْجَارٍ شَتَّى وَخَلَقْتَ وَعَلَى مِنْ شَجْرَةٍ وَاحِدَةٍ، فَأَنَا أَصْلُهَا وَعَلَى فِرْعَهَا، وَفَاطِمَةُ لِقَاحُهَا وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ ثَمَارُهَا وَأَشْيَاعُنَا أَوْرَاقُهَا فَمَنْ تَعَلَّقَ بِغَضَنِ مِنْ أَغْصَانِهَا نَجَا وَمَنْ زَاغَ هَوَى لَوْ أَنَّ عَبْدًا عَبْدَ اللَّهِ بَيْنَ الصِّفَا وَالْمَرُوءَةِ أَلْفَ عَامٍ، ثُمَّ أَلْفَ عَامٍ، ثُمَّ أَلْفَ عَامٍ، حَتَّى يَصِيرَ كَالشَّنِّ الْيَابِسِ، ثُمَّ لَمْ يَدْرِكْ مَحَبَّتَنَا أَكْبَهَ اللَّهُ عَلَى مَنْخَرِيهِ فِي النَّارِ. ثُمَّ قَرَأَ: «قُلْ لَأَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى» (١).

٣- يروى «السيوطى» المفسر السنّى الشهير فى الدر المنثور فى ذيل آية البحث عن مجاهد عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وآله قال فى تفسير الآية: «قل لا أسألكم عليه أجراً- أن تحفظونى فى أهل بيتى وتودوهم بى» (٢).

٤- يروى «أحمد بن حنبل فى فضائل الصحابة» عن «سعيد بن جبير»: «لما نزلت آية «قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى»، سأل القوم رسول الله: من هم قرباك الذين وجبت مودتهم علينا؟ قال: «على وفاطمة وابناهما وقالها ثلاثاً» (٣).

ونقل القرطبي المعنى نفسه في تفسير الآية بشيء من الاختلاف عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.

٥- يروى «الحافظ أبو نعيم الاصفهاني» في «حلية الأولياء» عن «جابر»: أن أعرابياً جاء لرسول الله صلى الله عليه وآله وقال: يا محمد أعرض عليّ الإسلام، فقال: «تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، قال تسألني عليه أجراً؟ قال: لا، إلا المودة في القربى قال: قرباي أو قرباك؟ قال: قرباي، قال: هات ابايك، فعلى من لا يحبك ولا يحب قرباك لعنة الله، قال صلى الله عليه وآله: آمين» (٤).

٦- ويروى المفسر المعروف «ابن جرير الطبري» أيضاً في ذيل هذه الآية عن ابن جبير أنه قال: «هي قربي رسول الله صلى الله عليه وآله».

(١) شواهد التنزيل، ص ١٤١.

(٢) تفسير در المنثور، ج ٦، ص ٧.

(٣) احقاق الحق، ج ٣، ص ٢.

(٤) حلية الأولياء، ج ٣، ص ٢٠١.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٧٤

٧- يروى «الحاكم» في «مستدرک الصحيحين» عن علي بن الحسين عليه السلام لما قتل علي عليه السلام خطب الحسن بن علي عليه السلام: «ومما قاله في خطبته أنه عرف نفسه حتى بلغ هذه العبارة»: إنا من أهل البيت الذين افترض الله مودتهم على كل مسلم فقال تبارك تعالی لنيبه صلى الله عليه وآله: قل لا أسألکم عليه أجراً إلا المودة في القربى (١).

كما نقل هذه الرواية فريقاً من مشاهير أهل السنة، منهم محبّ الدين الطبري في الذخائر (ص ١٣٨) وابن حجر في صواعقه الصفحة ١٠١، والسيوطي في الدر المنثور ذيل آية البحث.

٨- يروى المفسر المعروف أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في جامع البيان عن أبي الديلم:

لما جرى على بن الحسين عليه السلام أسيراً إلى الشام فوقفوه عند باب دمشق، فقام رجل من أهل الشام وقال: الحمد لله الذي قتلكم واستأصلكم وقطع قرني الفتنة، فقال له علي بن الحسين عليه السلام: أقرأت القرآن يا شيخ؟ قال: نعم، فقال عليه السلام أقرأت حم؟ قال: قرأت القرآن ولكن لم أقرء آل حم، قال عليه السلام أما قرأت: «قل لا أسألکم عليه أجراً إلا المودة في القربى، فقال: وإتکم لأنتم هم؟ قال عليه السلام: «نعم!» (٢).

٩- يروى «ابن حجر» في «الصواعق المحرقة» عن علي عليه السلام أنه قال: «فينا آل حم آية، لا يحفظ مودتنا إلا كل مؤمن ثم قرأ: قل لا أسألکم عليه أجراً إلا المودة في القربى (٣).

وورد نظير هذا المعنى أيضاً في كنز العمال (٤).

و يستفاد جيداً من هذه الرواية أن المراد من «القربى في آية البحث هم قربي الرسول صلى الله عليه وآله.

والمقصود من آل حم مجموعة السور التي جاءت حم في مطلعها وهي عبارة عن السور

(١) مستدرک الصحيحين، ج ٣، ص ١٧٢.

(٢) تفسير جامع البيان، ج ٢٥، ص ١٦.

(٣) الصواعق المحرقة، ص ١٠١.

(٤) كنز العمال، ج ١، ص ١١٨.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٧٥

السبع التالية: المؤمن، فصلت، الشورى الزخرف، الدخان، الجاثية والاحقاف، وآية البحث في واحدة منها «١».

١٠- نقل الزمخشري في الكشاف، وكذا الفخر الرازي في التفسير الكبير، والقرطبي في تفسيره حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله في ذيل هذه الآية الكريمة تكشف عن أهميته مودة آل محمد صلى الله عليه وآله بنحو مدهش، ونحن هنا نقل نص الحديث عن آله في ذيل هذه الآية الكريمة تكشف، إذ يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «مَنْ مات على حب آل محمد مات شهيداً- ألا وَمَنْ مات على حب آل محمد مات على حب آل محمد صلى الله عليه وآله، ألا وَمَنْ مات على حب آل محمد مات تائباً، ألا وَمَنْ مات على حب آل محمد صلى الله عليه وآله مات مؤمناً مستكمل الإيمان، ألا وَمَنْ مات على حب آل محمد صلى الله عليه وآله بَشْرُهُ مَلَك الموت بالجنة ثم مُنْكَر ونكير، ألا وَمَنْ مات على حب آل محمد صلى الله عليه وآله يزف إلى الجنة كما تُزف العروس إلى بيت زوجها، ألا وَمَنْ مات على حب آل محمد صلى الله عليه وآله فُتِح له في قبره بابان إلى الجنة، ألا وَمَنْ مات على حب آل محمد صلى الله عليه وآله جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة، ألا وَمَنْ مات على حب آل محمد صلى الله عليه وآله مات على بغض آل محمد صلى الله عليه وآله، ألا وَمَنْ مات على حب آل محمد صلى الله عليه وآله جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله، ألا وَمَنْ مات على بغض آل محمد صلى الله عليه وآله مات كافراً، ألا وَمَنْ مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة».

والمدهش أنه جاء في بعض حواشي تفسير الكشاف التي دونت من قبل بعض المتعصبين بعد نقل هذا الحديث الشريف: وآثار الوضع عليه لائحة!

ولكن ما الدليل على مجعوليته وفي أي موضع من هذا الحديث يلوح أثر هذا الجعل؟ لم يوضح ذلك، سوى أن عظمة شأن آل محمد صلى الله عليه وآله التي تم بيانها في هذا الحديث النبوي الشريف لا-تتنفق والحكم المسبق للبعض، ولعلمهم كانوا يرون عظمة آل محمد صلى الله عليه وآله للمرة الاولى بهذا المستوى الراقي في هذا الحديث النبوي الشريف، وقد نقل ذلك الحديث القديم

(١) يراجع هامش تفسير مجمع البيان، ج ٧ و ٨، ص ٥١٢ مطلع سورة المؤمن.

(٢) تفسير الكشاف، ج ٤، ص ٢٢٠ و ٢٢١؛ تفسير الكبير، ج ٢٧، ص ١٦٥ و ١٦٦؛ تفسير القرطبي، ج ٨، ص ٥٨٤٣.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٧٦

ثلاثة من كبار المفسرين الذين يعتقدون به وتقبلوه بقبول حسن ولم يوردوا عليه مؤاخذه.

هذا في الوقت الذي يقول الفخر الرازي في ذيل هذا الحديث: وإن كان في معنى «آل» جدل واختلاف، ولكن «لا شك أن فاطمة وعلياً والحسن والحسين كان التعلق بينهم وبين رسول الله أشد التعلقات وهذا كالمعلوم بالنقل المتواتر فوجب أن يكونوا هم الآل». وقيم «الفخر الرازي» أيضاً شواهد وقرائن كثيرة على هذا المعنى بأن علياً وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام داخلون في هذه الآية «١».

يتبين مما قيل آنفاً أن بعض الروايات التي نقلت في ذيل هذه الآية والتي تقول: «إن المخاطب فيها هم كفار قريش، والمراد هو أن لا تنسوا قرباتي منكم ولا تؤذوني لقرباتي منكم» لا-يمكن قبولها، ويحتمل أن وضاع الحديث قد نقلوا مثل هذا الأمر، للتقليل من أهميته منزلة أهل البيت عليهم السلام، لأن مثل هذا الخطاب لكفار قريش يتعارض تماماً مع مفهوم الآية، فمن المستحيل أن يقول النبي صلى الله عليه وآله لهم لا-أسألكم أجراً سوى أن لا تنسوا قرباتي منكم وهم غير موقنين إطلاقاً برسالة النبي صلى الله عليه وآله فضلاً عن رغبتهم في اعطائه الأجر.

خلاصة القول، إن أولئك الذين تمسكوا بهذه الرواية ولكنهم يقطعون علاقة الآية بأهل البيت عليهم السلام هم في الحقيقة ينكرون مضمون الآية لأن طلب أجر الرسالة من منكريها فارغ عن المعنى تماماً.

ونختتم هذا البحث بأبيات من الشعر حيث ذكرها الفخر الرازي والآلوسي في «التفسير الكبير» و«روح المعاني» في ذيل هذه الآية ليكون ختاماً مباركاً لهذا البحث ويكون «ختامه مسك».

وهذا الشعر صادر عن الإمام الشافعي المعروف باعتقاده الراسخ بأهل البيت عليهم السلام إذ يقول:

يا ركباً قف بالمحصب من منى واهتف بساكن خيفها والناهض
سحراً إذا فاض الحجيج إلى منى فيضاً كَمُلَّتْ طَمِ الفراتِ الفائضِ

(١) للمزيد من الاطلاع راجعوا تفسير الكبير، ج ٢٧، ص ١٦٦ و ١٦٧.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٧٧ إن كان رفضاً حُبُّ آلِ مُحَمَّدٍ فليشهد الثقلان انِّي رافضى «١»

جعلنا الله من محبي آل محمد صلى الله عليه وآله الذين نصلى عليهم فى صلاتنا وبدون ذلك لا تقبل صلاتنا، اللهم اجعل هذه المحبة مقدمة لمعرفة «مقام ولايتهم» كى لا نتصور أن قضية بهذه الأهمية طرحت على أنها مودة عادية، ثم اجعل هذه المعرفة سبيلاً لاتباع مذهبهم.

(١) تفسير الكبير، ج ٢٧، ص ١٦٦؛ و تفسير روح المعاني، ج ٢٥، ص ٣٢.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٧٩

القسم الثانى: آيات الفضائل

تمهيد:

كما أسلفنا سابقاً، أننا فى هذه البحوث لا نتقصى الآيات القرآنية التى تحدثت، مباشرة عن قضية الخلافة والولاية، بل نبحت فى الآيات التى ورد فيها ذكر لفضائل على بن أبى طالب عليه السلام والتى بمجموعها توضح زوايا هذه القضية لمن فاتهم الاطلاع عليها، وجميع هذه الآيات تشير إلى أن أمر الإمام على عليه السلام مستثنى عن الآخرين، ومع وجود على بن أبى طالب فى هذه الأمة فإن الإمامة والخلافة لا تناط أموراً بغيره.

بعبارة اخرى إن من خلال حوار بين الإنسان وعقله يمكن استنتاج مسألة الإمامة والخلافة منها، وهى: إن الله الحكيم لا- يجعل «المفضول» حاكماً وقائداً على الأفضل، بل وحتى عقلاء الدنيا فإنهم يوجهون اللوم والتأنيب لمن يقوم بعمل كهذا، ويعتبرون فعله هذا دليلاً على ضعف إدارته وعدم تدبيره لأنه جعل الأفضل تابعاً لمن هو أدنى منه.

إن هذه الآيات من الكثرة بحيث إن بعض العلماء ألفوا كتباً مستقلة بهذه المسألة، إلّا أننا اخترنا من بينها آية تضم مفاهيم واضحة، كما أنّها تنسجم واختصار الكتاب.

وهنا نتجه نحو المصادر المعروفة لدى أهل السنة ونختزل الكلام عما ورد فى مصادر أتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام لئلا يتصور أحد أن أتباع هذا المذهب قد نطقوا بشيء بدافع التعصب.

وعلى أية حال فإن هذه الآيات كثيرة، وقد اخترنا منها ٢٤ آية.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٨١

إشارة

«فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَابْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ». (آل عمران / ٦١)

هنا ينبغي توضيح بعض الامور:

اولاً: مضمون الآية.

ثانياً: من الذين ذكرتهم الروايات التي جاءت في المصادر الإسلامية المعروفة في تفسير هذه الآية؟

ثالثاً: كيفية الاستدلال بهذه الآية على أفضلية علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام.

رابعاً: الرد على بعض الشبهات فيما يتعلق بهذه الآية.

مضمون آية المباهلة:

تدل الآية أعلاه بالإضافة إلى الآيات التي نزلت قبلها وبعدها أن النبي صلى الله عليه وآله يؤمر في مواجهة اصرار النصارى على التمسك بعقائدهم المحرفة كزعمهم بألوهية عيسى عليه السلام مثلاً، وعدم جدوى المنطق والاستدلال ازاء عنادهم، فكان لابد للنبي عليه السلام من التضرع وأن يسلك طريق المباهلة، ويثبت صدق كلامه من خلال هذا الطريق المعنوي، أي يباهلهم ليتبين الصادق من الكاذب!

والمباهلة في الأصل من مادة «بهل» على وزن (أهل) وتعني الترك، من هنا فعندما يتركون الحيوان لحاله ولا يلفون ثدياه في كيس خاص - لمنع وليده من الرضاعة - يقولون

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٨٢

له: «باهل»، و «الابتهال» في الدعاء تعني التضرع وايقال الأمر إلى الله تعالى

وتارة فسروا هذه الكلمة بمعنى «الهلاك واللعن والطرده من الله»، وذلك أيضاً بسبب ترك العبد وايقاله إلى نفسه والخروج عن ظل لطف الله سبحانه.

هذا الرأي هو الأصل اللغوي، أما من ناحية «المفهوم المتداول» الذي أشير إليه في الآية، فالمباهلة الملاعبة بين شخصين، من هنا فعندما لاتجدي الاستدلالات المنطقية، ويجتمع الذين يدور بينهم جدول بشأن مسألة دينية مهمة ويتضرعون إلى الله سائلين منه أن يفضح الكاذب ويعاقبه، وهو ما فعله النبي صلى الله عليه وآله في مواجهة نصارى نجران، حيث اشير إليه في الآية.

ومن خلال ما ذكر نقلني نظرة على تفسير هذه الآية:

«فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ ابْنَاءَنَا وَابْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ».

لا شك أن هذه الواقعة التاريخية قد حصلت ولم يستطع أحد انكارها، ومفادها: أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله اختار نفراً واصطحبهم معه للمباهلة.

جاء في الروايات الإسلامية التي نقلها المفسرون والمحدثون: لما نزلت الآية أعلاه اقترح النبي صلى الله عليه وآله على نصارى نجران المباهلة، فطلب زعماء النصارى من النبي صلى الله عليه وآله مهلة يوم واحد ليتشاوروا في الأمر، فقال لهم خبرهم:

«انظروا محمداً في غدٍ فإن غدا بولده وأهله فاحذروا مباهلتة، وإن غدا بأصحابه فباهلوه فإنه على غير شيء فلما كان الغد جاء النبي

صلى الله عليه وآله أخذاً بيد علي والحسن والحسين بين يديه يمشيان وفاطمة تمشى خلفه، وخرج النصارى يقدمهم أسقفهم، فلما رأى النبي صلى الله عليه وآله قد أقبل بمن معه سأل عنهم فقيل له: هذا ابن عمه وزوج ابنته وأحب الخلق إليه، وهذان ابنا بنته من علي عليه السلام، وهذه الجارية بنته فاطمة أعز الناس عليه وأقربهم إلى قلبه، وتقدم رسول الله فجثا على ركبتيه قال الأسقف جثا والله كما جثا الأنبياء للمباهلة، فرجع ولم

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٨٣

يقدم علي المباهلة، فقال الأسقف: يا أبا القاسم إنا لا نباهلك ولكن نصالحك» (١).

وجاء هذا المضمون أيضاً باختلافات طفيفة لا تضر بأصل القضية في الكثير من التفاسير الأخرى مثل تفسير الفخر الرازي (ج ٨، ص ١٠)؛ والقرطبي (ج ٢، ص ١٣٤٦)؛ وروح البيان (ج ٢، ص ٤٤)؛ وروح المعاني (ج ٣، ص ١٨٨)؛ والبحر المحيط (ج ٢، ص ٤٧٢)؛ وتفسير البيضاوي (ذيل آية البحث) وتفسير أخرى والآن لنرى كتب الحديث، ماذا تقول:

المباهلة في أقوال المحدثين:

وردت روايات كثيرة تعد موثوقة ومعتبرة في مصادر أهل السنة ومصادر أهل البيت عليهم السلام حيث تفيد بصريح القول: إن آية المباهلة نزلت بحق علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام. منها:

١- روى في صحيح مسلم في كتاب «فضائل الصحابة» في باب فضائل علي بن أبي طالب عليه السلام عن سعد بن أبي وقاص أن معاوية قال لسعد: ما منعك أن تسب أبا تراب؟ قال:

أما ما ذكرت ثلاثاً قالهن له رسول الله صلى الله عليه وآله فلن أسبهُ لئن تكون لي واحدة منها لكانت أحب إلي من حمر النعم، ثم أخذ يذكر قصة حديث المنزلة في (معركة تبوك) وقصة اعطاء الراية لعلي عليه السلام أبان معركة خيبر، ثم يضيف: ولما نزلت هذه الآية «قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم» دعا رسول الله صلى الله عليه وآله علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال: اللهم هؤلاء أهلي (٢). روى هذا الحديث جماعة آخرون من عظماء أهل السنة مثل! الترمذي في صحيحه (٣).

(١) تفسير مجمع البيان، ج ١ و ٢، ص ٤٥٢ مع شيء من الاختصار.

(٢) صحيح مسلم، ج ٤، ص ١٨٧١، ح ٣٢، الباب ٤.

(٣) صحيح الترمذي، ج ٥، ص ٦٣٨، ح ٣٧٣٢ (الباب ٢١ باب مناقب علي عليه السلام).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٨٤

فبعد نقله يضيف. يقول أبو عيسى إنه حديث حسن وصحيح وغريب (لعل غرابته تكمن في عدم اتفاقه مع حكمه المسبق المليء بالتعصب).

وأحمد بن حنبل في مسنده (١).

والبيهقي في السنن الكبرى (٢).

والسيوطي في الدر المنثور (٣).

٢- وفي موضع آخر من صحيح الترمذي أيضاً نقل الحديث عن سعد بن أبي وقاص: إنه لما نزلت آية المباهلة دعا النبي صلى الله عليه وآله علياً وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام وقال: اللهم هؤلاء أهلي (٤).

والرواية نفسها نقلها الحاكم في «مستدرک الصحيحين»، وأخيراً يقول: هذا حديث صحيح موافق لمعايير الشيخين «٥». كما نقله البيهقي أيضاً في السنن الكبرى «٦».

٣- يروى السيوطي في «الدر المنثور» عن «الحاكم»، و«ابن مردويه» و«أبو نعيم» في «الدلائل»، عن «جابر بن عبد الله الأنصاري»: لما عزم النبي صلى الله عليه وآله على مباهلة النصارى أخذ في اليوم التالي بيد علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام واتى بهم إلى المباهلة، لكنهم لم يباهلوا، ثم يضيف جابر: إن آية «تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم...» نزلت بحق هؤلاء «٧». يقول السيوطي: هذا حديث صحيح لدى «الحاكم».

٤- ويروى عن ابن عباس في كتاب الدر المنثور نفسه أن وفد نصارى نجران جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وبعد تفصيله لقصة المباهلة ورجوع نصارى نجران يضيف: كان هذا لما خرج النبي صلى الله عليه وآله وكان معه علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام وقال لهم: إن دعوت أنا فأمنوا أنتم، فأبوا أن يلاعوه وصالحوه على الجزية.

(١) مسند أحمد بن حنبل، ج ١، ص ١٨٥.

(٢) السنن الكبرى طبقاً لنقل الفضائل الخمسة، ح ١، ص ٢٩١.

(٣) تفسير در المنثور، ذيل الآية ٦١ من سورة آل عمران.

(٤) صحيح الترمذي، ج ٥، ص ٢٢٥ (الباب ٤، ح ٢٩٩٩).

(٥) مستدرک الصحيحين، ج ٣، ص ١٥٠.

(٦) السنن الكبرى ج ٧، ص ٦٣.

(٧) تفسير در المنثور، ج ٢ ص ٣٨ ذيل آية البحث (مع الاختصار).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٨٥

٥- وفي نفس الكتاب يروى عن «ابن جرير» عن «العلباء بن أحمر الشكري»، عندما «١» نزلت آية قل تعالوا ندع أبناءنا ٠٠٠ ودعا النبي صلى الله عليه وآله بعلي وفاطمة وابنيهما الحسن والحسين عليهم السلام واقترح على المخالفين المباهلة فأبوا «٢».

٦- يروى العلامة الطبري في تفسيره وبسنده عن «زيد بن علي» في تفسير هذه الآية: كان النبي وعلي وفاطمة والحسن والحسين «٣».

٧- ويروى في نفس الكتاب أيضاً بسنده عن السدي في ذيل هذه الآية: أخذ النبي بيد الحسن والحسين وفاطمة وقال لعلي اتبعنا «٤».

٨- يقول العلامة «أبو بكر الحصاص» وهو من علماء القرن الرابع الهجري في كتاب «أحكام القرآن» في تعبير مفيد بصدد المباهلة: أن رواة السير ونقله الأثر لم يختلفوا في أن النبي صلى الله عليه وآله أخذ بيد الحسن والحسين وعلي وفاطمة عليهم السلام ودعا النصارى الذين حاجوه إلى المباهلة «٥».

وعلى ضوء قول الحصاص فإن هذه القضية محل إجماع واتفق علماء الحديث والتاريخ جميعاً.

٩- يقول هذا العالم نفسه في كتاب آخر تحت عنوان «معرفة علوم الحديث» بعد ذكره لقصة المباهلة: قال الحاكم وقد تواترت الأخبار في التفاسير عن عبد الله بن عباس وغيره إن رسول الله صلى الله عليه وآله أخذ يوم المباهلة بيد علي وحسن وحسين وجعلوا فاطمة وراءهم ثم قال:

هؤلاء أبناؤنا وأنفسنا ونساؤنا «٦».

هذا جانب فقط من الروايات المتعلقة بقصة المباهلة ونزولها بحق هؤلاء، ومن الطبيعي أن اختلاف هذه الأحاديث في بعض الجزئيات مثل إن كانت فاطمة مع النبي صلى الله عليه وآله أم أنها

(١) تفسير در المنثور، ج ٢، ص ٣٩.

(٢) المصدر السابق.

(٣) تفسير جامع البيان، ج ٣، ص ١٩٢ (وفقاً لنقل احقاق الحق، ج ٣، ص ٤٧).

(٤) المصدر السابق.

(٥) أحكام القرآن للجصاص، ج ٣، ص ١٤.

(٦) معرفة علوم الحديث، ص ٥٠، (وفقاً لنقل احقاق الحق، ج ٣، ص ٤٨).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٨٦

جاءت خلفه، أم أن علياً عليه السلام كان إلى جانب النبي صلى الله عليه وآله أم خلفه، لا يترك أثراً على أصل القضية، لأن ثمة اختلاف في نقل جزئيات وفروع ومتعلقات الكثير من الوقائع التاريخية المسلم بها، مثل معركة بدر، وخيبر، والأحزاب، وفتح مكة، ومن النادر أن نستطيع العثور على واقعة تاريخية مهمة تخلو من هذه الاختلافات في مثل هذه الامور الثانوية.

على أيه حال فالروايات المذكورة وبشهادة جماعة من عظماء أهل السنة كثيرة ومشهورة بحيث وصلت إلى حد التواتر، مع هذا فإن من العجب أن يقول صاحب تفسير المنار في ذيل هذه الآية: قال الاستاذ الإمام: الروايات متفقاً على أن النبي صلى الله عليه وآله اختار للمباهلة علياً وفاطمةً وولديهما ويحملون كلمة (نساءنا) على فاطمة، وكلمة (أنفسنا) على علي عليه السلام فقط، ومصادر هذه الروايات الشيعة! ومقصدهم منها معروف «١».

وإنه لمدهش حقاً، فعندما تتركز قاعدة الحكم المسبق والتعصب الطائفية يتفوه عالم معروف كمؤلف كتاب المنار بكلام لا يخفى خواؤه على أحد، هل أن «صحيح مسلم وصحيح الترمذى ومسند أحمد من مصادر الشيعة؟ وهل أن علماء الشيعة كتبوا سنن البيهقي، والدر المنثور للسيوطي، وأحكام القرآن للجصاص، وتفسير الطبري، ومستدرک الحاكم؟ إن خطأ بهذا المستوى لا يحصل إلا نتيجةً لحجاب التعصب.

فمن ناحية يقول الموما إليه: إن الروايات التي نقلت هذا الحديث «متفق عليها» ومن ناحية أخرى يضعها موضع التشكيك. فإذا كانت كتب مثل صحيح مسلم، والترمذى، ومسند أحمد، وما شابهها بحيث يستطيع الشيعة وضع روايات ودسها فيها بحيث تغدو متواترة، فإى قيمة تبقى لهذه الكتب؟ وكيف يتسنى قبول ولو حديث واحد منها؟ وفى واقع الأمر أن مؤلف المنار بكلامه هذا أفقد اعتبار المصادر المعروفة لأهل السنة، وسلب منها قيمتها بالكامل، نعم فهو أراد التنكر لفضيلة علي وفاطمة وابنيهما عليهم السلام بيد أنه

(١) تفسير المنار، ج ٣، ص ٣٢٢.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٨٧

وجه ضربة قاصمة لأصل المذهب السنّي!

والكلام الوحيد الذى يبقى هنا هو الشبهة التى آثارها المنار وآخرون بصدد «ضمائر الجمع» الموجودة فى الآية، وستتطرق إليه فيما بعد بشكل مفصل.

أهمية المباهلة:

إن أول أمر يثير الاهتمام فى هذه الآية هو إمكانية طرح قضية المباهلة على أنها دليل جلي على حقانية وصدق النبي صلى الله عليه وآله

آله في مسألة ادعائه للرسالة، لأنه من المتعذر على الذي لا يملك إيماناً جازماً بصلته بالبارى عزوجل أن يدخل مثل هذا الميدان، أي ليدعو معارضيه أن تعالوا ندعو الله أن يفضح الكاذب، وأنا اعطى عهداً على أن دعائي على أعدائي سيحصل بشكل عملي، وسترون نتيجة ذلك!

ومن المسلم به أن دخول مثل هذا الميدان خطير للغاية، فلو لم يُستَجَب الدعاء ولا يظهر أثرٌ من عقاب الخصوم، فلا تكون هناك نتيجة سوى فشل الداعي، وأي إنسان عاقل لا يدخل هذا الميدان ما لم يطمئن إلى النتيجة.

من هنا نقرأ في الروايات الإسلامية: لما حضر النبي صلى الله عليه وآله إلى المباهلة استمهله نصارى نجران ليفكروا في الأمر، وعندما رأوا أن النبي صلى الله عليه وآله اصطحب معه الأشخاص الذين يمكن أن تستجاب دعوتهم، وحضر إلى المباهلة بعيداً عن المراسيم والضجيج، اعتبروا ذلك دليلاً آخر على صدق دعوته فانصرفوا عن المباهلة، لئلا يصيبهم العذاب الإلهي.

فعندما رأوا أن النبي صلى الله عليه وآله جاء بنفر قليل من خاصته وحامته وابنائ الصغار وابنته فاطمة عليها السلام، اضطربوا وذعروا وأبوا المباهلة.

ومن جهة أخرى فإن هذه الآية سنّد واضح على المقام الشامخ لآل النبي صلى الله عليه وآله، على وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، لأن الآية فيها ثلاث كلمات، «أنفسنا، ونساءنا، وأبناءنا»، ولا شك في أن المراد من «أبنائنا» الإمام الحسن والحسين عليه السلام ولا اعتراض في ذلك أبداً، ولا تنطبق كلمة «نساءنا» على أحدٍ سوى فاطمة عليها السلام، وأما كلمة «أنفسنا» فمن

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٨٨

المتيقن بأنها ليست إشارة إلى شخص النبي صلى الله عليه وآله، لأن الآية تقول:

ندع... وأنفسنا، فإن كان المراد هو النبي صلى الله عليه وآله، فإن دعوة الإنسان لنفسه لا معنى لها، بناء على ذلك فلا يبقى سبيل إلا أن نقول: أن المراد هو علي عليه السلام فحسب.

والملفت للنظر هو أن «الفخر الرازي» ينقل في ذيل هذه الآية عن «محمود بن الحسن الحمصي» وهو من علماء الشيعة، أنه يثبت من خلال هذه الآية أن علياً أفضل من الأنبياء والصحابة أجمعين بعد النبي صلى الله عليه وآله. فيقول: ليس المراد بقوله (وأنفسنا) نفس محمد صلى الله عليه وآله لأن الإنسان لا يدعو نفسه بل المراد به غيره، وأجمعوا على أن ذلك الغير كان علياً عليه السلام فدلت الآية على أن نفس علي هي نفس محمد صلى الله عليه وآله، ولا يمكن أن يكون المراد منه أن هذه النفس هي عين تلك النفس، فالمراد أن هذه النفس مثل تلك النفس، وذلك يقتضي الاستواء في جميع الوجوه....

ثم الإجماع دل على أن محمداً صلى الله عليه وآله كان أفضل من سائر الأنبياء عليهم السلام فيلزم أن يكون علي أفضل من سائر الأنبياء عليهم السلام فهذا وجه الاستدلال بظاهر هذه الآية، ثم قال: ويؤيد الاستدلال بهذه الآية الحديث المقبول عند الموافق والمخالف هو قوله عليه السلام: «من أراد أن يرى آدم في علمه، ونوحاً في طاعته، وإبراهيم في خلته، وموسى في هيبته، وعيسى في صفوته، فلينظر إلى علي بن أبي طالب عليه السلام».

ثم يضيف قائلاً: (وأما سائر الشيعة فقد كانوا قديماً وحديثاً يستدلون بهذه الآية على أن علياً (رضي الله عنه) أفضل من سائر الصحابة، وذلك لأن الآية لما دلت على أن نفس علي (رضي الله عنه) مثل نفس محمد صلى الله عليه وآله إلّا فيما خصه الدليل وكان نفس محمد أفضل من الصحابة (رضوان الله عليهم) فوجب أن يكون نفس علي أفضل أيضاً من سائر الصحابة) «١».

وبعد إirاده لهذا الدليل يمر الفخر الرازي من الكرام ويكتفي في الجواب قائلاً: (إنه كما انعقد الإجماع بين المسلمين على أن محمداً صلى الله عليه وآله أفضل من علي، فكذلك انعقد الإجماع بينهم قبل ظهور هذا الإنسان، على أن النبي أفضل ممن ليس بنبي واجمعوا على أن علياً

(١) التفسير الكبير، ج ٨، ص ٨١.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٨٩

(رضى الله عنه) ما كان نبياً، فلزم القطع بأن ظاهر الآية كما أنه مخصوص في حق محمد صلى الله عليه وآله، فكذلك مخصوص في حق سائر الأنبياء عليهم السلام) (١).

تمعنوا جيداً في كلام «الفخر الرازي» تجدوا بأنه في واقع الأمر لا يمتلك جواباً لذلك الاستدلال القوي والمتين، وكأنه يريد الكلام لملء الفراغ فحسب، وإلا فالقول بأفضلية كل نبي من الأنبياء على من هو غير نبي ليس محل جدال، لأن أفضلية جميع أنبياء الله على غيرهم مسلم بها في الوحي فقط، وأما في غير الوحي فرمما يكون هناك عظماء أفضل من الأنبياء جميعاً ما عدا رسول الله صلى الله عليه وآله، ولو غضضنا النظر عن هذا فإن الكلام حول أفضلية على سائر الامة، وهذا الأمر لا يحتاج إلى إثبات أفضليته عليه السلام على سائر الأنبياء (تأملوا جيداً).

على أيته حال، فالفضيلة التي تستنتج من هذه الآية والروايات المتواترة التي جاءت تعقياً عليها تستطيع توضيح قضية خلافه النبي صلى الله عليه وآله لأن الله تعالى يأبى أن يكون الأفضل مأموماً وغير الأفضل إماماً، وأن يكون الذي هو كنفس النبي صلى الله عليه وآله تابعاً، ومن سواه الذي يليه في المرتبة متبوعاً!!

وفي هذه القضية لا فرق في أن نرى الإمامة مشروطة بتعيين إلهي - كما نعتقد نحن أو عن طريق انتخاب الامة، كما يعتقد أبناء السنة، لأنه في الحالة الاولى من المحال أن يقدم الله تعالى «المفضل» على «الأفضل»، وفي الحالة الثانية لا ينبغي للامة أن تقدم على فعل يخالف الحكمه، ولن يكون مقبولاً ومرضياً فيما أقدمت عليه.

مؤاخذاتهم على آية المباهلة:

المؤاخذة المعروفة التي أثارها صاحب المنار والآخرين بصدد نزول الآية بحق أهل البيت عليهم السلام، وهي: كيف يتسنى أن يكون المراد من «أبناءنا» الحسن والحسين عليهما السلام والحال إن كلمة «أبناء» جمع ولا يطلق الجمع على المثنى؟ وأيضاً: كيف يمكن إطلاق كلمة

(١) تفسير الكبير، ج ٨، ص ٨١.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٩٠

«نساءنا» وهي تفيد الجمع، على السيدة فاطمة عليها السلام فقط؟

وكذا كيف يمكن أن يكون المراد من «أنفسنا» علياً وحده؟ إذ إن «أنفسنا» صيغة جمع أيضاً، وعلى عليه السلام كان واحداً.

الجواب:

في الرد على هذا السؤال نلفت انتباهكم إلى عدة أمور:

١- كما ذكر بالتفصيل فيما سبق فقد وصلتنا روايات كثيرة في العديد من المصادر الإسلامية المعتبرة والمعروفة سواء من الشيعة أو السنة بصدد نزول هذه الآية بشأن أهل البيت، حيث صرح فيها أن النبي صلى الله عليه وآله لم يصطحب معه إلى المباهلة غير علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، وهذا بذاته سيكون قرينه واضحة لتفسير الآية، فإننا نعلم أن من بين القرائن التي تفسر آيات

القرآن هي (السنة وسبب النزول القطعي).

على هذا الأساس، فالمؤاخذه المذكورة لا تثير اهتمام الشيعة فحسب، بل يجب على علماء الإسلام جميعاً الرد عليها.

٢- إن إطلاق (صيغة الجمع - على «المفرد» أو «المثنى») ليس أمراً مستجداً، وكثيراً ما يشاهد هذا المعنى في القرآن وغيره من الأدب العربي وغير العربي.

وتوضيح ذلك هو: كثيراً ما يحصل عند تفصيل قانون ما، أو تنظيم وثيقه ما، إيراد الحكم بصيغة العموم أو الجمع، فمثلاً يدونون في الوثيقة أن: المسؤول على تنفيذها هم الموقعون عليها وأبناءؤهم، بينما ربّما يكون لأحد طرفيها ولدٌ واحدٌ أو ولدان، فهذا الموضوع لا يتعارض أبداً مع تنظيم القانون أو الوثيقة بصيغة «الجمع».

خلاصة الأمر لدينا مرحلتان: «مرحلة ابرام العقد»، و «مرحلة التنفيذ».

ففي مرحلة ابرام العقد تذكر الألفاظ بصيغة الجمع لكي تنطبق على كافة المصاديق، أما في مرحلة التنفيذ فربّما ينحصر المصداق بشخص واحد، وهذا الحصر في المصداق لا يتعارض وعمومية القضية.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٩١

وبعبارة اخرى فقد كان النبي صلى الله عليه وآله مكلفاً على ضوء العهد الذي كان أبرمه مع نصارى نجران أن يصطحب معه أبناءه ونساءه والذين هم بمنزلة نفسه جميعاً إلى المباهلة، ولكن لم يكن مصداقاً لهؤلاء سوى ابنين وامرأة واحدة ورجل واحد.

وفي القرآن الكريم لدينا موارد اخرى عديدة بأن تأتي العبارة بصيغة الجمع إلّا أنّ مصداقها يختص بشخص واحد لسبب ما، مثل الآية: «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ». (آل عمران / ١٧٣)

فالمراد في كلمة الناس في هذه الآية وعلى ضوء تصريح فريق من المفسرين هو «نعيم بن مسعود» الذي كان قد أخذ الأموال من «أبي سفيان» ليُرْعَبَ المسلمين من قوّة المشركين!

كما نقرأ في الآية: «لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ».

(آل عمران / ١٨١)

فالمراد من «الذين» في الآية وبناءً على ما صرح به بعض المفسرين هو «حي بن اخطب» أو «الفنحاص»، وأحياناً يشاهد إطلاق كلمة الجمع على المفرد أيضاً من باب الإكبار، كما نقرأ بشأن إبراهيم: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ». (النحل / ١٢٠)

فهنا اطلقت كلمة «أمّة» وهي جمع على شخص واحد (وكان لنا بحث مفصّل أيضاً بهذا الصدد).

٣- يُستفاد من آية المباهلة أيضاً أن يقال لأبناء البنت «ابن» على العكس ممّا كان شائعاً في الجاهلية حيث كانوا يعتبرون أبناء الابن فقط أبناءهم، وكانوا يقولون:

بنونا بنو أبنائنا، وبناتنا بنوهنّ أبناء الرجال الأبعد

فهذا النمط من التفكير كان وليداً لتلك السنة الخاطئة حيث إنهم لم يكونوا يرون أنّ الانثى عضواً رئيساً في المجتمع البشري، ويعدونهن أوعية لحمل الأولاد فقط.

كما يقول شاعرهم:

وإنّما امهات الناس أوعية مستودعاتٌ وللانساب آباء

بيد أنّ الإسلام قضى على هذا النمط من التفكير قضاءً مبرماً واجرى حكم الابن على

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٩٢

أبناء الولد والبنت على حدّ سواء.

ونقرأ في القرآن الكريم بشأن أبناء إبراهيم: «وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ»*

وَزَكَرِيًّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلِّ مِنَ الصَّالِحِينَ». (الأنعام / ٨٥-٨٤)

ففي هذه الآية عدّ المسيح من أبناء إبراهيم والحال أنّه كان ابن من البنت.

وفى الروايات الواردة عن طرق الشيعة والسنة بحق الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام كثيراً ما يلاحظ تكرار اطلاق كلمة «ابن رسول الله».

ونقرأ فى الآيات المتعلقة بالنساء اللواتى يحرم الزواج منهن: «وحلائل أبنائكم...»، فهذه المسألة من المسلم بها بين فقهاء الإسلام حيث إنّ زوجات الأبناء والأحفاد أولاداً كانوا أم بنات محرمات على الشخص ومشمولات بالآية أعلاه.

ومن الامور الجديرة بالاهتمام بشأن آية المباهلة ما ورد فى الرواية المشهورة أنّ المأمون العباسى سأل الإمام علياً بن موسى الرضا عليه السلام: ما الدليل على خلافة جدك على بن أبى طالب؟ قال: «آية أنفسنا»، قال: «لولا نساتنا» قال: «لولا أبنائنا».

يقول العلامة الطباطبائي فى تفسير هذه الجملة القصيرة:

«آية أنفسنا» يريد أن الله جعل نفس على عليه السلام كنفس نبيه صلى الله عليه وآله، وقوله: لولا نساتنا.

معناه: أنّ كلمة نساتنا فى الآية دليل على أنّ المراد بالأنفس الرجال فلا فضيلة فيه حينئذٍ، وقوله: لولا أبنائنا، معناه: أنّ وجود أبنائنا فيها يدل على خلافه، فإنّ المراد بالأنفس لو كان هو الرجال لم يكن مورداً لذكر الأبناء» (١) (تأملوا جيداً).

ونقلت هذه الحادثة فى بحار الأنوار بنحو آخر، والظاهر أنّ السؤال وجواب الإمام الرضا عليه السلام عنه كان فى موضع آخر، تقول هذه الرواية: قال المأمون يوماً للرضا عليه السلام: أخبرنى بأكبر فضيلة لأمير المؤمنين عليه السلام يدل عليها القرآن، فقال له الرضا عليه السلام: «فضيلة فى المباهلة، قال الله تعالى «فمن حاجك فيه...» الآية، فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله الحسن والحسين عليهم السلام فكانا

(١) تفسير الميزان، ج ٣، ص ٢٣٠- ذيل آية المباهلة.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٩٣

ابنيه، ودعا فاطمة عليها السلام فكانت فى هذا الموضع نساءه، ودعا أمير المؤمنين عليه السلام فكان نفسه بحكم الله عز وجل، فقد ثبت أنّه ليس أحد من خلق الله تعالى أجلّ من رسول الله صلى الله عليه وآله وأفضل فوجب أن لا يكون أحد أفضل من نفس رسول الله صلى الله عليه وآله بحكم الله تعالى...».

فقال له المأمون: هل بالإمكان أن يذكر الدعاء لمن هو نفسه، ويكون المراد نفسه فى الحقيقة دون غيره فلا يكون لأمير المؤمنين عليه السلام ما ذكرت من الفضل؟ قال عليه السلام: «ليس يصح ما ذكرت، وذلك أنّ الداعي إنّما يكون داعياً لغيره، كما أنّ الأمر أمر لغيره، لم يدع رسول الله صلى الله عليه وآله رجلاً فى المباهلة إلا أمير المؤمنين عليه السلام فقد ثبت أنّه نفسه التى عنها الله سبحانه فى كتابه وجعل حكمه ذلك فى تنزيهه» (١).

(١) بحار الأنوار، ج ١٠، ص ٣٥٠، مع الاختصار.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٩٥

٢- آية خير البرية

«أَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَأَوْهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَيْدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ رَبَّهُ». (البينة / ٧-٨)

في هذه الآيات وما قبلها ذكر الله تعالى «خير» و «شر» مخلوقاته، فهو يصف الكفار والمشركين وأهل الكتاب الذين يفكرون بإطفاء نور الله من خلال مختلف الدسائس والمؤامرات، وهم ضالون ويجزؤون الآخريين نحو الضلالة، بأنهم شر البرية (١)، وفي المقابل وصف المؤمنين الذين اكتشفوا طريق الحق في ظل إيمانهم وكانوا ولا زالوا مصدراً للأعمال الصالحة، فبالإضافة إلى أنهم مهتدون فهم نبراس هداية الآخريين، على أنهم «خير البرية».

صحيح أن مفهوم الآية واسع وشامل، ولا يختص بشخص أو أشخاص معينين، ولكن تمت الإشارة في العديد من الروايات الإسلامية التي جاءت في مصادر الحديث لأهل السنة والشيعة، إلى أشخاص يقفون في طليعة (خير البرية) وأفضل مخلوقات الله. إن التمعن في مضمون هذه الروايات بإمكانه ايضاح الكثير من الحقائق التي يلفها الغموض لحد الآن بالنسبة للبعض. وأن يكون رداً على الكثير من الأباطيل النابعة عن الجهل.

(١) «البرية» من مادة «برء» وتعنى الخلق، لذا يقال لله تعالى «البارى» بمعنى «الخالق» والمخلوقات بريئة، وقال البعض، إن «البرية» من «البرى» وتعنى «التراب» وبما أن المخلوقات برئت من التراب فيقال لها «برية»، وقال البعض أيضاً، إن «البرية» أخذت من «بريت القلم» ونظراً إلى أن المخلوقات تأتي إلى الوجود بأمر الله على أشكال مختلفة من حيث الهيئة والقامة كأنهم يشبهون الأقلام المبرأة في مصنع الخلق فيقال لها «برية» (يراجع تفسير القرطبي، ج ١٠، ص ٧٢٣٥؛ ومفردات الراغب وسائر كتب اللغة).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٩٦

وهنا نلفت انتباه القراء إلى جانب من هذه الروايات:

١- يروى المفسر المعروف «السيوطي» في الدر المنثور عن «ابن عساكر» عن «جابر بن عبد الله» في ذيل هذه الآية: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَإِذَا بَعَلَى قَادِمٌ نَحُونَا، وَلَمَّا وَقَعَتْ عَيْنُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَلَيْهِ، قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ هَذَا وَشِيعَتَهُ لَهُمُ الْفَائِزُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَنَزَلَتْ «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ»، فَكَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إِذَا أَقْبَلَ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامِ قَالُوا: جَاءَ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ» (١).

وجاءت هذه الرواية بنفس المضمون، في «شواهد التنزيل» للحاكم الحسكاني (٢).

٢- ونقرأ في رواية أخرى عن ابن عباس: لما نزلت آية: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ»، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لَعَلَى عَلَيْهِ السَّلَامِ: «هُوَ أَنْتَ وَشِيعَتُكَ، تَأْتِي أَنْتَ وَشِيعَتُكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَاضِينَ مَرْضِينَ وَيَأْتِي عَدُوَّكَ غَضَبَانًا مَقْمَحِينَ» (٣).

٣- جاء في رواية أخرى عن «أبو بريدة»: لَمَّا قَرَأَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ هَذِهِ الْآيَةَ، نَفَتْ إِلَى عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَالَ: «هُمْ أَنْتَ وَشِيعَتُكَ يَا عَلِيُّ وَمِعَادُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ الْحَوْضُ» (٤).

٤- جاء في تفسير الدر المنثور أن ابن مردويه يروى عن علي عليه السلام أن النبي صلى الله عليه وآله قال لي:

«أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ، أَنْتَ وَشِيعَتُكَ وَمَوْعِدِي وَمَوْعِدُكُمْ الْحَوْضُ إِذَا جِئْتُ الْأُمَّمَ لِلْحِسَابِ تُدْعَوْنَ غُرًّا مَحْجَلِينَ» (٥).

٥- كما ورد في «شواهد التنزيل»: إن «عطية الكوفي» يقول: دخلنا على «جابر بن عبد الله الأنصاري» وقد سقط حاجباه على عينيه من الكبر فقلنا له: اخبرنا عن علي، فرفع حاجبيه بيده ثم قال: «ذاك من خير البرية» (٦).

(١) تفسير در المنثور، ج ٦، ص ٣٧٩.

(٢) شواهد التنزيل، ج ٢، ح ١١٣٩.

(٣) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٣٥٧، ح ١١٢٦؛ ونفس المضمون أورده ابن حجر في الصواعق، ص ٩٦؛ والشبلنجي في نور الابصار،

ص ٧٠ و ١٠١ أيضاً.

(٤) المصدر السابق، ص ٣٥٩، ح ١١٣٠.

(٥) تفسير در المنثور، ج ٦، ص ٣٧٩.

(٦) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٣٦٤، ح ١١٤٢.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٩٧

٦- يروى الكنجى الشافعى فى كفاية الطالب عن عطاء: سألت عائشة عن على عليه السلام فقالت: «ذاك خير البشر لا يشك فيه إلّا كافر» (١).

ونقل فى نفس الكتاب أيضاً عن «حذيفة» أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «على خير البشر، من أبى فقد كفر» (٢).

بديهي أن هذه التعابير جميعها ناظرة إلى شخص على عليه السلام بعد النبى صلى الله عليه وآله، أى أنه أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

والملفت للانتباه أن الألوسى المفسر السنّى المعروف الذى يمتاز بتشدد خاص فى الروايات الخاصة بفضائل على عليه السلام (وطالما أشرنا إلى نماذج من ذلك فى هذا الكتاب) وبعد بيانه لجانب مهم من الروايات الواردة عن النبى صلى الله عليه وآله فى ذيل هذه الآية، يقول: «ليس معنى هذه الروايات أن هذه الآية تخص علياً عليه السلام وشيعته، وإن كانوا داخلين فى هذه الآية ويقفون فى الصفوف الاولى بلا ريب.

ثم يقول: إن الإمامية وإن كانوا يعتبرون علياً عليه السلام أفضل من الأنبياء والملائكة، إلّا أنهم يفضلون النبى صلى الله عليه وآله عليه». وخلاصة القول: إن جماعة كثيرة نقلت الروايات المتعلقة ب «خير البرية» فى المصادر الإسلامية المعروفة، وهى من أجلى الأدلة على فضلية على عليه السلام على كافة المسلمين والصحابه بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

هذا فى الوقت الذى ركز أعداء على عليه السلام وبسبب عدائهم له أبان عهد بنى امية الأسود على كتمان فضائله، وكنتم شيعته فضائله بسبب خوفهم من أولئك المجرمين، إلّا أن هذه الفضائل العظمى قد تجاوزت جميع هذه الحقب، وبعد كل هذه القرون والاعصار وصلت إلينا بأعجوبة، وهذا لم يتحقق إلّا باللطف الإلهي.

على أى حال، يستفاد من هذه الروايات بالإضافة إلى الآية الشريفة أمران هما:

(١) ١. كفاية الطالب، ص ١١٨، طبعه الغرى (على ضوء نقل احقاق الحق، ج ٣، ص ٢٨٨).

(٢) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٩٨

١- أفضلية على عليه السلام على جميع أصحاب النبى صلى الله عليه وآله، وحيث إن تقديم غير الأفضل على الأفضل فعل قبيح وغير مقبول، فلا يمكن تقديم غيره عليه، وعليه يجب أن يكون هو أول خليفة لرسول الله صلى الله عليه وآله، سواء كان التنصيب من الله - كما تعتقد الشيعة - أم من قبل الأمة حيث تعتقد به طائفة اخرى

٢- الأمر الآخر الذى نحصل عليه من هذه الروايات العديدة هو أن تسمية اتباع على عليه السلام ب «الشيعة» أمر ورد على لسان النبى صلى الله عليه وآله مراراً، والذين يعلنون عداؤهم لهذه الصفة، ويتنفرون منها، وأحياناً يتخذون «الشين» فيها دليلاً على «الشوم» و «الشر» هم فى الواقع قد انبروا إلى معارضة رسول الله صلى الله عليه وآله ويعربون عن انزعاجهم لكلامه والعياذ بالله، ومن المسلم به أن فعلهم صعب جداً فيما لو صرحوا بكلامهم هذا علانية، أليس الأفضل أن نقول:

«إنهم كانوا يجهلون هذه الروايات الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله؟».

نعم، فلقب الشيعة لا يثير الازعاج، إنه تاج فخر وضعه رسول الله صلى الله عليه وآله على رؤوس أتباع مذهب على عليه السلام، طبقاً للكثير من الروايات، نسأل الله أن نكون أهلاً لهذا الفخر.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٩٩

٣- آية ليلة المبيت

نقرأ في الآية: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ». (البقرة/ ٢٠٧)

وردت روايات كثيرة في المصادر الإسلامية المعروفة في شأن نزول هذه الآية منها:

١- ينقل المفسر السنّي المعروف «الثعلبي» في تفسيره في شأن نزول هذه الآية مايلي:

«لما عزم النبي صلى الله عليه وآله على الهجرة إلى المدينة، ترك علي بن أبي طالب عليه السلام في مكة ليؤدى الديون التي عليه والأمانات إلى اهلها، وأمره ليلة خرج إلى الغار وقد احاط المشركون بالدار، أن ينام في فراشه صلى الله عليه وآله وقال له: اتشح ببردى الأخضر، ونم على فراشي فإنه لا يصل منهم إليك مكروه إن شاء الله، ففعل ذلك على عليه السلام فأوحى الله تعالى إلى جبرئيل وميكائيل إني آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من الآخر، فأيكما يؤثر صاحبه بالحياة، فاختر كلاهما الحياة فأوحى الله تعالى إليهما: أفلا كنتما مثل علي؟ آخيت بينه وبين محمد فبات على فراشه يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة، إهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوه، فنزلا فكان جبرائيل عند رأسه وميكائيل عند رجليه وجبرائيل ينادى بخ بخ من مثلك يا علي بن أبي طالب يباهى الله تبارك وتعالى بك الملائكة فأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وآله وهو متوجه إلى المدينة في شأن على عليه السلام: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ».

وقد نقل رواية الثعلبي هذه وبنفس التفصيل كل من الغزالي في إحياء العلوم (ج ٣، ص ٢٣٨) والكنجي في كفاية الطالب (ص ١١٤) ... وابن الصباغ المالكي في «الفصول المهمة» (ص ٣٣) و«السبط بن الجوزي الحنفي» في «تذكرة الخواص» (ص ٢١) و«الشبلنجي» في «نور الابصار» (ص ٨٢) (١).

(١) الغدير، ج ٢، ص ٤٨.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٠٠

نفحات القرآن ج ٩ ص ٢٤٩

٢- ويروى الحاكم الحسكاني في «شواهد التنزيل» عن «أبو سعيد الخدرى» هذا المضمون بشيء من التفاوت «١».

٣- وفي نفس الكتاب «شواهد التنزيل» يروى عن ابن عباس أن علياً عليه السلام كان أول من آمن برسول الله صلى الله عليه وآله بعد خديجة وارتدى رداءه وبات في فراشه ... (لكنه لم يشر إلى الآية الشريفة في هذه الرواية) «٢».

٤- وفي نفس الكتاب أيضاً يروى هذا المعنى عن «عبد الله بن سليمان» (وفي نسخة عن عبد الله بن عباس) قال: «أنام رسول الله صلى الله عليه وآله علياً على فراشه ليلة انطلق إلى الغار، فجاء أبو بكر يطلب رسول الله فأخبره على أنه قد انطلق، فأتبعه أبو بكر وباتت قريش تنظر علياً وجعلوا يرمونه، فلما أصبحوا إذا هم بعلي، فقالوا: أين محمد؟ قال: لا علم لي به، فقالوا: قد أنكرنا تصورك كئنا نرمى محمداً فلا يتصور وأنت تتصور، وفيه نزلت هذه الآية: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ» «٣».

٥- يروى الحاكم النيسابوري في كتابه المعروف «مستدرک الصحيحين» عن ابن عباس أن علياً عليه السلام باع نفسه لله، وارتدى ثوب النبي صلى الله عليه وآله وبات في فراشه ... وفي نهاية هذه الرواية يقول: هذا الحديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه «٤».

٦- في نفس الكتاب يروى عن «حكيم بن جبير» عن «علي بن الحسين عليه السلام: «إن أول من شرى نفسه ابتغاء مرضاة الله علي بن أبي طالب عليه السلام» (٥).

ثم يضيف: لما أراد علي عليه السلام المبيت في فراش رسول الله صلى الله عليه وآله، كان يردد هذه الأبيات:
وقيتُ بنفسى خير من وطىء الحصى ومن طاف بالبيت العتيق وبالحجر
رسول إله خاف أن يمكروا به فنجاه ذو الطول الإله من المكر

(١) شواهد التنزيل، ج ١، ص ١٩٦، ح ١٣٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٩٨.

(٣) شواهد التنزيل، ج ١، ص ١٠٠.

(٤) مستدرک الصحيحين، ج ٣، ص ٤.

(٥) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٠١ وبات رسول الله في الغار آمنًا موقى وفي حفظ الإله وفي ستر

وبت أراعيهم ولم يتهموننى وقد وطنت نفسى على القتل والأسر (١)

وجاءت هذه الأبيات التي تعبّر عن التضحية والإيثار وفخر علي عليه السلام بهذا الأمر، في كتب أخرى أيضاً.

٧- يقول «الطبري» المؤرخ المعروف بشأن هجرة النبي صلى الله عليه وآله واحاطة المشركين بداره صلى الله عليه وآله: ثم جعلوا يطلعون فيرون علياً على الفراش متسجياً ببرد رسول الله صلى الله عليه وآله فيقولون:

«والله إن هذا لمحمد نائم عليه برده فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا فقام علي عن الفراش فقالوا: والله لقد صدقنا الذي حدثنا فكان مدياً نزل في ذلك اليوم وما كانوا أجمعوا له: «وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ...» (٢).
(الانفال / ٣٠)

٨- يروى «ابن الأثير» في «اسد الغابة» في فضائل علي عليه السلام: «لما أراد النبي صلى الله عليه وآله الهجرة، خلف علي بن أبي طالب بمكة لفضاء ديونه ورد الودائع التي كانت عنده، وأمره ليله خرج من الغار وقد أحاط به المشركون بالدار أن ينام علي فراشه وقال: إتشخ ببردى الحضرمي - وبعدها نقل قصة ليله المبيت وما أوحى الله إلى جبرائيل وميكائيل .. ثم قال:

فأنزل الله عز وجل علي رسوله وهو متوجه إلى المدينة في شأن علي: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ» (٣).

٩- يروى «أحمد بن حنبل» أحد أئمة أهل السنة الأربعة في مسنده وهو من المصادر الإسلامية المشهورة، عن ابن عباس في تفسير الآية: «وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ...» قال: تشاورت قريش ليله بمكة، فقال بعضهم: إذا أصبح فأثبته بالوثائق - يريدون النبي صلى الله عليه وآله وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضهم: بل أخرجوه، فأطلع الله نبيه صلى الله عليه وآله على ذلك فبات علي عليه السلام على فراش النبي صلى الله عليه وآله وخرج النبي صلى الله عليه وآله حتى لحق بالغار» (٤).

(١) مستدرک الصحيحين: ج ٣، ص ٤.

(٢) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ١٠٠.

(٣) اسد الغابة، ج ٤، ص ٢٥.

(٤) مسند أحمد، ج ١، ص ٣٤٨.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٠٢

ولم يشر الإمام أحمد إلى آية: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ...»، إلا أنه يتحدث عن آية: «وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا...» التي وردت في واقعة ليلة المبيت أيضاً.
ولا تنحصر الروايات بما قيل: بل هناك روايات كثيرة أخرى رويت في المصادر المعروفة بهذا الصدد، وللمزيد من الاطلاع بإمكانكم مراجعة كتب: احقاق الحق «١»، وشواهد التنزيل «٢»، وفضائل الخمسة «٣»، والغدير «٤»، وتفسير البرهان «٥».

(١) شواهد التنزيل، ج ١، ص ٩٦ وما بعدها.

(٢) فضائل الخمسة، ج ٢، ص ٣٤٥ وما بعدها.

(٣) الغدير، ج ٢، ص ٤٩ وما بعدها.

(٤) الغدير، ج ٢، ص ٤٩ وما بعدها.

(٥) تفسير البرهان، ج ١، ص ٢٠٦-٢٠٧.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٠٣

٤- آية الحكمة

«يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا». (البقرة / ٢٦٩)

يروى الحاكم الحسكاني في «شواهد التنزيل» عن «الربيع بن الخيثم» أنهم ذكروا عنده علياً، فقال: لم أرهم يجدون عليه في حكمه والله تعالى يقول: «يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا» «١».

وفي نفس الكتاب نُقلت عدّة روايات أخرى بهذا المعنى أو ما يدانيه.

بالإضافة إلى أنه يروى عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ فِي حُلْمِهِ، وَإِلَى نُوحٍ فِي حِكْمَتِهِ، وَإِلَى يُوسُفَ فِي اجْتِمَاعِهِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ» «٢».

وفي موضع آخر يروى عن «أبي الحمراء»: «كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَقَدِمَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَحُونَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى آدَمَ فِي عِلْمِهِ، وَنُوحَ فِي فَهْمِهِ، وَإِبْرَاهِيمَ فِي حُلْمِهِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ» «٣».

ويروى عن «ابن عباس» أيضاً، كنت عند رسول الله صلى الله عليه وآله فسئل عن علي عليه السلام فقال:

«قُسِمَتِ الْحِكْمَةُ عَشْرَةَ أَجْزَاءٍ فَأُعْطِيَ عَلِيٌّ تِسْعَةَ أَجْزَاءٍ وَأُعْطِيَ النَّاسَ جِزْءًا وَاحِدًا» «٤».

إنّ هذه العبارات تكشف بجلاء أن ليس هنالك من أحد من الامة الإسلامية بعد

(١) شواهد التنزيل، ج ١، ص ١٣٧، ح ١٤٧.

(٢) المصدر السابق، ص ١٠٦، ح ١٤٧.

(٣) المصدر السابق، ص ٧٩، ح ١١٦.

(٤) المصدر السابق، ص ١٠٥، ح ١٤٦.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٠٤

النبي صلى الله عليه وآله يضاهاى علياً عليه السلام في العلم والمعرفة والحكمة، وحيث إنّ أهم أركان الإمامة، العلم والحكمة فإنّه كان أجدد الناس للإمامة والخلافة بعد النبي صلى الله عليه وآله.

جاء أيضاً في «صحيح الترمذی» أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «أنا دار الحكمة وعلى بابها» (١).
و من المسلم به أن من أراد دخول البيت، عليه أن يدخل من الباب كما أمر بذلك القرآن الكريم: «وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا». (البقرة/ ١٨٩)

وعليه فمن أراد الدخول إلى خزائن علم النبي صلى الله عليه وآله عليه المبادرة إلى على عليه السلام وطلب مفتاح هذا الكنز منه.

(١) صحيح الترمذی، ج ٥، ص ٦٣٧ (المناقب، باب مناقب على بن أبي طالب، ح ٣٧٢٣).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٠٥

٥- آيات سورة هل اتى (الإنسان)

إشارة

تعتبر سورة «هل اتى سنداً آخر من الأسانيد المهمة لفضيلة على عليه السلام وآل النبي صلى الله عليه وآله، وأن التمعن في مضمون هذه السورة وعباراتها، وكذا شأن النزول الذي ذكر لها يزيل الغموض عن الكثير من القضايا.
صحيح أن آيات هذه السورة تعرض بحثاً عاماً، إلا أن سبعة عشر آية منها التي تبدأ من الآية ٥: «إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا» وتستمر حتى الآية ٢٢، تتحدث عن نفر على أنهم «أبرار»، بيد أن شأن النزول والروايات العديدة التي وردت في المصادر الإسلامية المعروفة، تكشف أن أتم وأكمل مصداق للأبرار في هذه الآية هم: على، وفاطمة، والحسن، والحسين عليهم السلام.

والجدير بالاهتمام أن في هذه الآيات السبعة عشر ذكرت أنواع نعم الجنة، وأفضلها واسماها- سواء المعنوية أو المادية- إذ أنها تتحدث عن بساتين الجنة، وعيون ماء الجنة الطاهر، والملابس، والزينة، والطعام، والارائك والأسرة، والولدان، وبالتالي النعم العظيمة والملك العظيم، والنعم الوحيدة التي لم تجر الإشارة إليها في ما بين هذه النعم هي الأزواج وحوار الجنة حيث يقول بعض العارفين بأسرار القرآن: إن هذا الأمر بمثابة الاحترام لسيدة الإسلام فاطمة الزهراء عليها السلام.

وقليلاً ما تجتمع نعم الجنة هذه وفي أقصى درجاتها في سورة من سور القرآن الكريم، وهذا يبرهن على أن المراد من «الأبرار» هنا ليسوا اناساً عاديين، بل أبرار ومطهرون وفي غاية العظمة والقرب من الله.

وهذا الأمر جدير بالذكر أيضاً حيث ذكرت علامات لهؤلاء «الأبرار» إذا أنها تكشف عن

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٠٦

منزلتهم، يقول تعالى: «يُؤْفُونَ بِالْأَنْدَرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا* وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مَشْكُونًا وَتَيْمًا وَاسِيرًا* أَنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَنُرِيدَ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا* أَنَا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا غَمُّوسًا قَمَطِيرًا». (الإنسان/ ٧- ١٠)

أما شأن نزول هذه الآية: فيروى الزمخشري في تفسيره المعروف «الكشاف» عن ابن عباس: «إن الحسن والحسين عليهما السلام مرضا فعادهما رسول الله صلى الله عليه وآله في ناس معه، فقالوا: يا أبا الحسن، لو نذرت على ولدك، فنذر على وفاطمة وفضة إن برنا مما بهما: أن يصوما ثلاثة أيام فشفيا وما معهم شيء فاستقرض على عليه السلام ثلاثة أصوع شعير فطحنت فاطمة صاعاً واختبرت خمسة أقراص على عددهم فوضعوها بين أيديهم ليفطروا فوقف عليهم سائل فقال: «السلام عليكم» (١) أهل بيت محمد مسكين من مساكين المسلمين، أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة، فأثروه وباتوا لم يذوقوا إلا الماء، وأصبحوا صياماً فلما أمسوا ووضعوا الطعام بين

أيديهم وقف عليهم سائل يتيم فأثروه، ووقف عليهم أسير في الثالثة، ففعلوا مثل ذلك؛ فلما أصبحوا أخذ على عليه السلام بيد الحسن والحسين وأقبلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فلما أبصرهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع قال: ما أشد ما يسوءني ما آرى بكم، وقام فانطلق معهم فرأى فاطمة في محرابها قد التصق ظهرها ببطنها وغارت عيناها فساءه ذلك، فنزل جبريل وقال: خذها يا محمد هناك الله في أهل بيتك فأقرأه السورة» (٢).

ويروى القرطبي هذا المعنى باختلاف قليل في تفسيره في ذيل آيات البحث، وينقل أيضاً شعراً عن السائلين وعن سيده الإسلام في هذا المجال (٣).

ونقل «الفخر الرازي» أيضاً في تفسيره نفس هذه القصة عن الواحدى في كتاب «الوسيط»، والزمخشري في الكشاف، ولكنه يضيف في ذيلها: إن عبارة «إن الأبرار يشربون...» جاءت بصيغة الجمع، وأنها تشمل الأبرار جميعاً، ولا يمكن حصرها بشخص

(١) جاء نذر الحسن والحسين عليهما السلام في رواية الجعفي طبقاً لنقل تفسير القرطبي (تفسير القرطبي، ج ١٠، ص ٦٩٢٢).

(٢) تفسير الكشاف، ج ٤، ص ٦٧٠ (ذيل آيات هذه السورة).

(٣) تفسير القرطبي، ج ١٠، ص ٦٩٢٢.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٠٧

واحد (على بن أبي طالب عليه السلام)، وبالطبع لا يمكن انكار أن علياً عليه السلام داخل في عموم هذه الآيات، لكنها لا تختص به. إلما أن يقال: إن هذه السورة نزلت أثناء أداء على عليه السلام العبادة خاصة، ولكن ثبت في اصول الفقه أن المعيار عموم اللفظ، لا خصوصية السبب (١).

على أن الفخر الرازي كأنه نسي هذا الأمر وهو أن شأن النزول يقول: إن هذه الآيات نزلت بحق على، وفاطمة، والحسن، والحسين عليهم السلام لا في على بن أبي طالب خاصة لتقع مشكلة صيغة الجمع.

أضف إلى ذلك: أن المراد من شأن النزول ليس إلغاء «عمومية مفهوم الآية»، بل المراد هو أن هذه الآيات نزلت للمرة الأولى بعد قيام هذه الاسرة بتلك العبادة والطاعة والايثار، وهذه فضيلة عظيمة ومنحة كبيرة أن تنزل هذه الآيات بعد أداء ذلك العمل.

وبتعبير آخر: إن علياً عليه السلام وأهل بيته المصداق السامى لهذه الآيات، بل يعدون النموذج الكامل لها، لأن علة نزولها هو عملهم الطاهر، ومن أراد انكار هذه الفضيلة العظمى إنما يخادع نفسه.

وينقل «الآلوسي» أيضاً هذه القصة بكاملها في «روح المعاني» عن ابن عباس، ومن ثم يضيف: وهذا الخبر مشهور بين القوم.

ثم يسعى وعلى ديدنه إلى التقليل منها أو إضعافها، ومن أجل هذا الغرض يضيف بعد بيانه الامور بشأن اسناد هذه الرواية: فاحتمال أصل النزول في الأمير «كرم الله وجهه» وفاطمة (رض) قائم ولا جزم بنفى ولا إثبات لتعارض الأخبار ولا يكاد يسلم المرجح عن قيل

وقال... إذ دخولهما في الأبرار أمر جلي بل هو دخول أولى فهما هما وماذا عسى يقول امرؤ فيهما سوى أن علياً مولى المؤمنين ووصى النبي صلى الله عليه وآله وفاطمة البضعة الأحمديّة والجزء المحمدي وأما الحسنان فالروح والريحان وسيدا شباب الجنان

وليس هذا من

(١) تفسير الكبير، ج ٣، ص ٢٤٤.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٠٨

الرفض بشيء بل ما سواه عندي هو الغي (١).

إلّا أننا نقول: لو تغافلنا عن منقبة بهذه الشهرة فإنّ سائر الفضائل يكون مصيرها هكذا، وسيأتي اليوم الذي ستوضح أفضلية على وفاطمة

والحسن والحسين عليهم السلام. فلماذا نتجاهل هذه الرواية المعروفة التي نقلها كبار المحدثين والمفسرين والتي لا معارض لها، ونسد على انفسنا طرق معرفة هؤلاء العظماء؟!
 يروى «السيوطي» العالم السنّي المعروف في تفسير «الدر المنثور» عن ابن مردويه عن ابن عباس: إن الآية «ويطعمون الطعام على حبه...» نزلت بحق علي وفاطمة عليهما السلام.
 وأورد «الشبلنجي» أيضاً في «نور الابصار» قصة شأن النزول بكاملها «٢»، وكذلك فريق آخر من كبار المفسرين والمحدثين.

هل أتى في الشعر:

إنّ نزول هذه السورة بحق أهل البيت عليهم السلام جلى إلى الحد الذي أشار الكثير من الشعراء المعروفين إلى هذا المعنى في شعرهم، منها هذه الأبيات التي نقلت عن إمام الشافعية «محمد بن ادريس الشافعي» في العديد من الكتب:
 إلى م، إلى م، وحتى متى اعاتب في حبّ هذا الفتى
 وهل زوجت فاطم غيرة؟ وفي غيره هل أتى هل أتى «٣»
 ينقل «ابن البطريق» وهو من علماء القرن السادس الهجري في كتاب «عمدة عيون صحاح

(١) تفسير روح المعاني، ج ٢٩، ص ١٥٨.

(٢) نور الابصار، ص ٦٢.

(٣) احقاق الحق، ج ٣، ص ١٥٨؛ وعلى في الكتاب والسنة، ج ١، ص ٤٤٧. نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٠٩

الأخبار» عن تفسير ابن اسحاق الثعلبي، أنه قال:

أنا مولى لفتى انزل فيه هل أتى «١»

ويقول «محمد بن طلحة الشافعي» أيضاً (من علماء القرن السابع) في كتاب «مطالب السؤال» بحق آل النبي صلى الله عليه وآله:

هم العروة الوثقى لمعتصم بهامناقبهم جاءت بوحي وانزال

مناقب في الشورى وسورة هل أتى وفي سورة الاحزاب يعرفها التالي «٢»

المراد من مناقب تلك العترة في الآية: «قُلْ لَأَسْأَلَنَّكُمْ عَلَيْهِ جَزَاءً أَلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى .

(الشورى / ٢٣)

والمراد من الآية «أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ». (الأحزاب / ٣٣) وقصة سورة هل أتى معلومة أيضاً.

كما نقلت أشعار كثيرة أخرى بهذا الصدد عن «طلّاح» ابن رزيك (أبو الغارات) «٣».

المشكوك وسورة هل أتى

إنّ كل مطلع على كتب الحديث والتفسير والتاريخ للاخوة أهل السنة يعرف جيداً حيثما يكون الحديث عن منقبة علي بن أبي طالب عليه السلام وآل النبي صلى الله عليه وآله ينبرى بعض المتعصبين من هنا وهناك ويشيرون بالشبهات، ويسعون بشتى الذرائع اثاره المؤاخذات على سند ودلالة ومضمون ذلك الحديث، ويقللون من أهميته، وإن كانت المؤاخذات ضعيفة وواهية، وكأنّهم قطعوا عهداً على أنفسهم على أن لا يتقبلوا أيّاً من هذه الفضائل، وإن تقبلوها فإنّها لا تتفق وحكمهم المسبق.

إنّ مطالعة كتب مثل تفسير «روح المعاني»، و «الفخر الرازي»، و «المنار»، ونحو ذلك شاهد على هذا الكلام بأنّ حكمهم العقائدي المسبق يقف حائلاً في جميع الأحوال أمام

(١) عمدة عيون صحاح الاخبار؛ ص ٣٤٩.

(٢) مطالب السؤال، ص ٨ (طبقاً لنقل الغدير، ج ٣، ص ١٠٩).

(٣) يراجع كتاب علي في الكتاب والسنة، ج ١، ص ٤٤٧.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢١٠

الاذعان لهذه الروايات، إلى الحد الذي يصاب الإنسان بالدهشة أحياناً بسبب المؤاخذات الواهية التي أثاروها على هذه الروايات. بينما يتقبلون مناقب الآخرين برحابة صدر، وإن بدت عليها آثار الضعف، ومع هذا فقد افلتت الكثير من الحالات من سيف انتقاداتهم وهي تكفي لإدراك الحقيقة.

على أيّة حال من الواجب هنا الإشارة إلى جانب مهم من تلك المؤاخذات:

١- إنّ هذه الفضيلة تصح في حالة نزول هذه السورة في المدينة وبعد ولادة الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام (والمشهور أنّ ولادة الإمام الحسن عليه السلام في السنة الثالثة للهجرة، وولادة الإمام الحسين عليه السلام في السنة الرابعة للهجرة)، بينما يعتقد الكثيرون بأنّ هذه السورة مكية، وعليه فإنّها لا تتفق بشأن النزول الآنف الذكر. ولكن بناءً على قول المفسر السني المعروف القرطبي، فإنّ المشهور أنّ العلماء يعتقدون بأنّ هذه السورة مدنية (وقال الجمهور مدنية) (١).

وانضمت طائفة كثيرة إلى هذا الرأي أيضاً، منهم:

الحاكم الحسكاني إذ عدّ هذه السورة من السور المدنية حيث نزلت بعد سورة «الرحمن» وقبل سورة «الطلاق»، والجدير بالاهتمام أنّ العالم المذكور نقل ثمانية روايات بهذا الصدد جرى التصريح فيها جميعاً بأنّ سورة «هل أتى مدنية»، وبعض هذه الروايات عن «ابن عباس»، وبعضها عن «عكرمة»، و «الحسن»، وبعضها عن آخرين.

وقد قال في كلامه: إنّ بعض أعداء أهل البيت اعترضوا على سبب نزول هذه السورة، فقالوا: لقد اتفق علماء التفسير على أنّ هذه السورة مكية في حين أنّ قصتها وقعت في المدينة.

ثمّ يضيف: كيف يسوغ له دعوى الإجماع مع قول الأكثر أنّها مدنية (٢).

ونقل في كتاب «تاريخ القرآن» لأبي عبد الله الزنجاني عن كتاب «نظم الدرر وتناسخ الآيات والسور»، عن جماعة من مشاهير أهل السنة: إنّ سورة هل أتى مدنية (٣).

(١) تفسير القرطبي، ج ١٠، ص ٦٩٠٩.

(٢) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٣١٠-٣١٥.

(٣) تاريخ القرآن، ص ٥٥.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢١١

ويروي «السيوطي» المفسر السني المعروف أيضاً في «الدر المنثور» المعنى نفسه عن ابن عباس بطرق مختلفة.

وفي «الاتقان للسيوطي» نقل أيضاً عن «البيهقي» في «دلائل النبوة» عن عكرمة: إنّ سورة هل أتى مدنية (١).

بالإضافة إلى أنّ كافة الذين يرون أنّ شأن نزول هذه السورة في علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، وهم جماعة كثيرة

جرت الإشارة إليهم آنفا- وكلهم يشهدون على كون السورة مدنية.

فضلاً عن جميع ذلك، على فرض أن قسماً من هذه السورة مكي، والقسم المتعلق بنذر على وأهل بيته مدني، فلا مانع من أن يكون قسم من السورة مكيّاً والآخر مدنيّاً.

من هنا، فإن مؤلف تفسير «روح البيان» (البرسوي الحنفي) بعد ذكره عن طائفة من كبار العلماء أن سورة «هل أتى مدنية، إشارة إلى كلام الذين يرون أن بعض آياتها مكي والآخر مدني، فيقول: على هذا الأساس يمكنك القول: (إن هذه السورة مكية وإن شئت قلت إنها مدنية على أن الآيات المدنية في هذه السورة أكثر من الآيات المكية، فالظاهر أنها تسمى مدنية لا مكية ونحن لا نشك في صحة القصة) «٢».

من بين الأمور التي اتخذها هذا المفسر وغيره من الواعين دليلاً على كون هذه السورة مدنية هو مجيء كلمة «أسير» فيها، ونحن نعلم أن لا وجود للأسير في مكة، وأن قضية الأسر والأسير كانت بعد نزول حكم الجهاد في المدينة.

يقول صاحب «روح البيان» في هذا المجال: «دل على ذلك أن الأسير إنما كان في المدينة بعد آية القتال والأمر بالجهاد» «٣». والمدهش أن المترجمين الذين ليسوا على استعداد للتخلي عن حكمهم المسبق بصدد الولاية والخلافة خلقوا التبريرات ل «الأسير» هنا، حيث بالإمكان أن تكشف عن الحقائق، فقد قالوا: إن المراد من الاسير اسير زوجة! أو أسير الديون، ونحو ذلك ... «٤».

(١) تفسير الميزان، ج ٢٠، ص ٢٢١.

(٢) تفسير روح البيان، ج ١٠، ص ٢٦٩.

(٣) المصدر السابق.

(٤) نقلت هذه الأقوال في البحر المحيط، ج ٨، ص ٣٩٥ عن بعض المفسرين، إلا أن صاحب هذا الكتاب E (أبو حيان الاندلسي) يرى أنه يعني الاسير من الكفار.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢١٢

وينبغي التساؤل: لماذا نذهب وراء المجازيات، مع إمكانية تفسير الاسير بالمعنى الحقيقي؟

٢- كيف يتسنى حصر اللفظ العام للآية بأشخاص محددين؟

ولكن كما أسلفنا مراراً أن عمومية مفهوم الآيات لا يتعارض مع سبب النزول الخاص، وهذا يشاهد أيضاً في الكثير من آيات القرآن الكريم الاخرى حيث يكون مفهوم الآية عاماً وشاملاً، إلا أن سبب نزولها وهو مصداقها الكامل والسامى يكون مورداً خاصاً، والمثير للدهشة أن أحداً لم يتخذ عمومية مفهوم الآية في سائر الآيات الواردة في القرآن وسبب نزولها دليلاً على معارضته سبب النزول، إلا أن القضية هنا مختلفة!!

٣- المؤاخذه الاخرى التي يثيرها المشككون هي: كيف يتمكن الإنسان من البقاء طويلاً ثلاثة أيام ويفطر بماء فقط؟

بيد أن هذه المؤاخذه عجيبة، لأننا كثيراً ما رأينا- وعلى امتداد حياتنا- أشخاصاً يمسون عن الطعام من أجل العلاج، فبعضهم قد يمسون ثلاثة أيام وهذا يسير، وتارة يمسون لمدة عشرة أيام أو عشرين يوماً بل وحتى أربعين يوماً، أى أنهم وعلى مدى أربعين يوماً لا يشربون سوى الماء فقط، ولا يتناولون طعاماً أبداً (حتى عصير الفواكه والشاي)، وهذا الأمر- حسب اعتقاد الأطباء الذين يعالجون المرضى عن طريق الصيام أدى إلى علاج الكثير من أمراضهم، حتى أن طبيباً مشهوراً غير مسلم يدعى «الكسي سوفورين» ألف كتاباً حول آثار الصيام لمدة أربعين يوماً مع بيان دقيق لطرقه «١».

واعتبر بعض الكتاب الصوم لأكثر من عشرين يوماً علاجاً لبعض الأمراض.

إن الاضراب عن الطعام ومنه «الاضراب عن الماء» متداول في عصرنا الراهن وأحياناً يتجاوز الأربعين يوماً.

ولكن لماذا يتعجب هؤلاء المشككون من الصوم لمدة ثلاثة أيام والامساك عن الطعام والافطار بالماء لوحده؟ أليس هدفهم هو تعطيل هذه الفضيلة العظمى بأى وسيلة متاحة؟

(١) ترجم هذا الكتاب إلى العربية واسمه «التطبيب بالصوم».

نقمة القرآن، ج ٩، ص: ٢١٣

٦ و ٧- آيات مقدمة سورة «البراءة» وآية «سقاية الحاج»

إشارة

في سورة التوبة، وفي موضعين منها نزلت آيات تتضمن مناقب عظيمة لأمر المؤمنين عليه السلام بلحاظ سبب نزولها والروايات التي نقلها أغلب المفسرين والمؤرخين والمحدثين.

الاولى آيات مقدمة سورة البراءة

إشارة

الآيات التي في مطلع هذه السورة التي نزلت بشأن اعلان الحرب على المشركين الذين ينقضون العهد، وقد اتفق كافة المفسرين والمؤرخين تقريباً على أن النبي صلى الله عليه وآله وأثناء نزول هذه الآيات في السنة التاسعة للهجرة التي تعلن فيها عن نقض العهد مع المشركين، اختار «أبا بكر» لابلاغ هذا الأمر إلى عامة الناس في مكة خلال الحج، ولكن لم يمض من الوقت شيء حتى استرجع الآيات منه وأعطاها لعلي عليه السلام وأمره بابلاغها إلى أهل مكة في مراسم الحج، وهكذا فعل.

وبالرغم من وجود جدل بين المحدثين والمفسرين والمؤرخين في تفرعاتها، نشير هنا إلى جانب من هذه الروايات:

١- يقول أحمد بن حنبل الإمام السنّي المعروف في مسنده الذي هو أحد كتب الحديث المعروفة لدى السنّة: إن النبي صلى الله عليه وآله بعث بالبراءة إلى أهل مكة مع أبي بكر، لا يحج بالبيت مشرك ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلاّ بنفس مسلمة، من كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وآله مدّة فأجله إلى مدّته، والله برىء من المشركين ورسوله، قال: فسار بها ثلاثاً، ثم قال

نقمة القرآن، ج ٩، ص: ٢١٤

لعلي عليه السلام: إحقه فردد عليّ أبا بكر وبلغها أنت، قال: ففعل، قال: فلما قدم على النبي صلى الله عليه وآله أبو بكر بكى وقال: يارسول الله حدث فيّ شيء؟ قال: «ما حدث فيك إلاّ خير ولكن امرت أن لا يبلغه إلاّ أنا أو رجل منّي» (١).

وينقل الترمذى في سننه المعروفة وهي من المصادر الرئيسة للحديث لدى أهل السنّة، هذه الرواية بتعبير آخر في بحث تفسير القرآن عن أنس بن مالك، أن النبي صلى الله عليه وآله بعث بالبراءة مع أبي بكر، ثم دعاه وقال: «لا ينبغي لأحد أن يبلغ هذا إلاّ رجل من أهلي فدعا علياً فأعطاه إيّاه» (٢).

ثم نقل الترمذى رواية أخرى عن ابن عباس حول هذا الموضوع، ولكن أكثر تفصيلاً وبياناً (٣)، واللطيف أنه يقول بعد نهاية الحديثين، سواء عنه أم نقلًا عن الآخرين: هذا حديث حسن غريب، إلاّ أنه لم يعبر بهذا بشأن غيره من الروايات سواء قبله أو بعده، وهذا بحد ذاته من الامور الغريبة، وكان كل حديث يروى منقبة استثنائية بحق على عليه السلام يعتبر غريباً بنظرهم.

٢- ينقل السيوطي في الدر المنثور عن «عبد الله بن أحمد بن حنبل» و «ابن مردويه» عن علي عليه السلام لما نزلت الآيات العشر الأولى من سورة التوبة على النبي صلى الله عليه وآله دعا أبا بكر ليأخذ هذه الآيات ويقرأها على أهل مكة؛ ثم دعاني النبي صلى الله عليه وآله فقال لي: أدرك أبا بكر فحيثما لحقته فخذ الكتاب منه فاذهب به إلى أهل مكة فقرأه عليهم فلحقته بالجحفة فأخذت الكتاب منه، فرجع أبو بكر إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله نزل في شيء؟ قال: «لا، ولكن جبرئيل جاءني فقال: لن يؤدّي عنك إلّا أنت أو رجل منك» (٤).

٣- وفي نفس الكتاب يروي عن «أحمد» و «الترمذي» و «ابن مردويه» أيضاً عن «انس» بأنه صلى الله عليه وآله بعث بآيات البراءة مع أبي بكر، ثم دعاه وقال: «لا ينبغي لاحد أن يبلغ هذا إلّا رجل

(١) مسند أحمد، ج ١، ص ٣.

(٢) سنن الترمذي، ج ٤، ص ٣٣٩، ح ٥٠٨٥.

(٣) المصدر السابق، ح ٣٠٩١.

(٤) تفسير در المنثور، ج ٣، ص ٢٠٩.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢١٥

من أهلي، فدعا علياً فأعطها إياه» (١).

٤- ويروي أيضاً في هذا الكتاب عن «سعد بن أبي وقاص»: إن النبي صلى الله عليه وآله بعث بآيات البراءة مع أبي بكر إلى مكة حتى إذا كان ببعض الطريق أرسل علياً عليه السلام فأخذها منه ثم سار بها، فوجد أبو بكر في نفسه، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا يؤدّي عنى إلّا أنا أو رجل منى» (٢).

٥- ويروي في الكتاب نفسه عن «أبي سعيد الخدري» الصحابي المعروف: إن النبي صلى الله عليه وآله بعث أبا بكر يؤدّي عنه براءة، فلما أرسله بعث إلى علي عليه السلام فقال: يا علي أنه لا يؤدّي عنى إلّا أنا أو أنت فحمله على ناقته العضاء فسار حتى لحق بأبي بكر فأخذ منه براءة، فأتى أبو بكر النبي صلى الله عليه وآله وقد دخله من ذلك مخافة أن يكون قد انزل فيه شيء، فلما أتاه قال: «مالي يا رسول الله؟ (وساق الحديث) إلى أن ذكر قول النبي صلى الله عليه وآله: «لا يبلغ عنى غيرى أو رجل منى» (٣).

٦- وفي هذا الكتاب أيضاً يروي عن «أبي رافع» الصحابي المعروف: إن النبي صلى الله عليه وآله بعث أبا بكر بآيات البراءة إلى الحج فنزل عليه جبرئيل وقال: «إنه لن يؤدّيها عنك إلّا أنت أو رجل منك» (٤).

٧- ٨- روى الحاكم الحسكاني في «شواهد التنزيل» ما يقارب من اثنتي عشرة رواية بشأن هذا الموضوع عن أنس بن مالك، وابن عباس، وسعد، وأبي سعيد الخدري، وأبي هريرة، وغيرهم حيث يطول المقام بذكرهم جميعاً، وبمقدور الراغبين الرجوع إلى الكتاب المذكور الذي هو في متناول الجميع من أجل المزيد من التحقيق (٥).

وروى جماعة كثيرة أخرى أيضاً هذه الرواية بطرق مختلفة، وأن رواه هذا الحديث كثيرون إلى الحد الذي يقول المرحوم العلامة الأميني: «هذا الحديث أخرجه كثير من أئمة

(١) تفسير در المنثور، ج ٣، ص ٢٠٩.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٣٠ (بشيء من الاختصار).

(٤) المصدر السابق.

(٥) شواهد التنزيل، ج ١، ص ٢٣٢-٢٤٣ (الحديث رقم ٣٠٩ و ٣١٠ و ٣١١ و ٣١٢ و ٣١٤ و ٣١٥ و ٣١٦ و ٣١٧ و ٣١٨ و ٣٢٣ و ٣٢٤ و ٣٢٥).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢١٦

الحديث وحفاظه بعده طرق صحيحة يتأتى التواتر بأقل منها عند جمع من القوم ثم عدد ٧٣ نفرًا منهم «١» ثم يضيف: إن رواة هذا الحديث ينتهي أسانيدهم إلى جمع من الصحابة الأولين منهم على عليه السلام، أبو بكر، جابر بن عبد الله الأنصاري، أنس بن مالك، أبو سعيد الخدري، سعد بن أبي وقاص، أبو هريرة، عبد الله بن عمر، حبش بن جنادة، عمران بن حصين، أبو ذر الغفاري «٢». ونختم هذا البحث بشعر لـ «شمس الدين المالكي» وهو من شعراء القرن الثامن الهجري المعروفين، يقول:

وأرسله عنه الرسول مبلغًا وخصّ بهذا الأمر تخصيص مفرد
وقال هل التبليغ عنى ينبغى لمن ليس من بيتى من القوم فاقتدى

النتيجة:

إن هذه الرواية بهذه السعة في المصادر تعتبر أحد الأدلة الواضحة على أفضلية على عليه السلام على غيره بعد رسول الله صلى الله عليه وآله واعتماده صلى الله عليه وآله عليه، وغاية قربه من الله تعالى، فهو يقول بصريح القول: «أمرني جبرئيل الأمين عن الله بأن يبلغ على هذه الآيات»، وقال صلى الله عليه وآله: «لن يؤذى هذا الأمر إلا أنا أو رجل مني، وأن علياً وحده المؤهل لأداء هذا العمل». وبالنظر إلى أن: إلغاء اليهود مع المشركين كان أحد أكثر المراحل حساسية في تاريخ الإسلام ويقتضى اطلاعاً وتدبيراً وشجاعة استثنائية وكان من الممكن أن يواجه ردود فعل قوية من قبل المعارضين أثناء مراسم الحج، فإن اختيار على عليه السلام لهذه المهمة كان أفضل دليل على أنه أعلم الامة وأشجعها وأكثرها تدبيراً، ومن المسلم به أن الذي يُختار لهذا الأمر أكثر أهلية وأجدر لخلافة النبي صلى الله عليه وآله.

والجدير بالاهتمام أن أبا بكر نفسه أدرك هذا الأمر أيضاً، وعند حضوره عند النبي صلى الله عليه وآله

(١) للاطلاع على أسماء هؤلاء ال ٧٣ شخص راجعوا كتاب الغدير، ج ٦، ص ٣٤١-٣٨٨.

(٢) الغدير، ج ٦، ص ٣٤١-٣٤٨.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢١٧

استفسر باضطراب: هل نزل شيء بحقي؟ فأجابه النبي صلى الله عليه وآله: «هذا العمل يؤدبه شخص مني!».

وهنا نلاحظ أن المشككين - بما امتلكوه من حكم مسبق - بذلوا كل ما بوسعهم من أجل التقليل من أهمية هذه المنقبة، وتجاوزوا هذه المسألة بتحليلاتهم الواهية.

فمثلاً يقول «الآلوسي» في «روح المعاني»: هذا الحديث يدل باختصار على افضلية على عليه السلام وقربه من الرسول صلى الله عليه وآله، وهذا ما لا ينكره مؤمن، لكنه لا يدل أبداً على أن علياً أليق بامر الخلافة من أبي بكر، ثم يضيف قائلاً: وقد ذكر بعض أهل السنة نكتة في نصب أبي بكر أميراً للناس في حجه ونصب الأمير «كرم الله وجهه» مبلغاً نقض العهد في ذلك المحفل، وهي أن أبا بكر كان مظهرًا لصفة الرحمة والجمال، وعلى عليه السلام هو أسد الله ومظهر جلاله ففوض إليه نقض عهد الكافرين الذي هو من آثار الجلال وصفات القهر فكانا عينين فوارتين يفور من إحداهما صفة الجمال، ومن الاخرى صفة الجلال في ذلك الجمع العظيم الذي كان أنموذجاً للحشر ومورداً للمسلم والكافر.

يقول الآلوسي بعد ذكره لهذا الكلام: «ولا يخفى حسنه لو لم يكن في البين تعليل النبي صلى الله عليه وآله» (١).

وكما قال «الآلوسی» في كلامه الأخير فإنّ هذا التحليل «الشاعري» لا يتفق وقول النبيّ صلى الله عليه وآله، فهو يقول بصراحة: لقد أمرني جبرئيل عن الله أنّ هذا الأمر لا يؤدّيه إلّا أنا أو رجل منّي، أي رجل نظير للنبيّ صلى الله عليه وآله ويمتلك مواصفات خاصة وأقرب الناس إليه، ونحن نعلم أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان جامعاً لصفات الجمال والجلال. لماذا يصير هؤلاء الاخوة على إغفال منقبة بهذه العظمة أو يحرفونها عن منحها الحقيقي بتبريرات شاعريّة، مخافة أن يستند إليها الشيعة ويشبّوا حقانيّة مذهبهم!؟

ونهي كلامنا هذا بالحديث الذي روى عن أبي ذر الغفاري في كتاب «مطالب السؤل»، فهو يقول: قال النبيّ صلى الله عليه وآله: «علي منّي وأنا من علي ولا يؤدّي إلّا أنا أو علي» (٢).

(١) تفسير روح المعاني، ج ١٠، ص ٤٧.

(٢) مطالب السؤل، ص ١٨ (على ضوء نقل الغدير، ج ٦، ص ٣٤٨).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢١٨

الثانية: آية سقاية الحاج

نقرأ في قوله تعالى «أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَشْرِجِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَإِيْهِدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ».

(التوبة / ١٩)

لقد أورد الحاكم الحسكاني الحنفى في «شواهد التنزيل» ما يربو على عشر روايات من طرق مختلفة في ذيل هذه الآية، تثبت أنّها نزلت بحق علي عليه السلام.

ففي إحدى هذه الروايات ينقل عن أنس بن مالك: إنّ «العباس بن عبد المطلب» و «شيبه» قعدا يفتخران، فقال له العباس: أنا أشرف منك، أنا عم رسول الله صلى الله عليه وآله ووصى أبيه وساقى الحجيج، فقال شيبه: أنا أشرف منك، أنا أمين الله على بيته وخازنه، أفلا- أئتمنتك كما أئتمنتني؟ فاطّلع عليهما على عليه السلام فأخبراه بما قالوا، فقال علي عليه السلام: أنا أشرف منكما، أنا أول من آمن وهاجر، فانطلقوا ثلاثتهم إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فأخبروه بما أجابهم بشيء، فانصرفوا فنزل عليه الوحي بعد أيام فأرسل إليهم فقرأ: «أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ...» إلى آخر العشر (١).

وورد هذا المضمون أيضاً بشيء من الاختلاف في بقيّة الروايات.

وجاء في بعضها: لما سمع العباس بنزول الآية قال ثلاثاً: «إنا قد رضينا».

وبالإضافة إلى «الحاكم الحسكاني» فقد نقل هذه الروايات أيضاً جمع غفير- بعضهم بشكل مفصل وبعضهم على نحو الاختصار- في كتبهم، منهم:

«الطبري» في تفسيره عن «أنس بن مالك» (٢).

«الواحدى» في «أسباب النزول» (٣).

«القرطبي» في تفسيره (٤).

(١) شواهد التنزيل، ج ١، ص ٢٤٩.

- (٢) تفسير جامع البيان، ج ١٠، ص ٥٩.
- (٣) أسباب النزول، ص ١٨٢.
- (٤) تفسير القرطبي، ج ٨، ص ٩١.
- نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢١٩
- «الفخر الرازى» فى «التفسير الكبير» (١).
- «الخازن» فى تفسير «الخازن» (٢).
- «أبو البركات النسفى» فى تفسيره (٣).
- «ابن الصباغ المالكى» فى «الفصول المهمة» (٤).
- وفى تفسير «الدر المنثور» وهو تفسير يستند إلى أحاديث أهل السنة نقل روايات كثيرة بشأن نزول هذه الآية بحق على عليه السلام، والقصة الآتية (٥).

وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال هو: أليس التفاخر أمر منبوذ فى الإسلام؟ فلم يُقدّم أمير المؤمنين عليه السلام على هذا الأمر؟ تتضح الاجابة عن هذا السؤال من خلال الالتفات إلى قضية واحدة وهى: إن الناس ربّما يقعون بالخطأ فى تشخيص القيم، فيتركون القيمة الحقيقية ويتبعون الامور المتأخرة من ناحية القيمة، ففى مثل هذه الحالات لا- مانع من الافتخار والتباهى من أجل توضيح الحقيقة، بل تعتبر واجباً فى بعض الحالات، فمثلاً ربّما يفتخر شخص بنفسه فى احدى المجالس قائلاً: إننى امتلك الثروة الفلانية، وآخر يقول: إنّ القصر الفلانى يعود لى، ويقول ثالث: كفانى فخراً إننى أمير بلدى! وينبرى شخص قد جلس هناك فيقول من أجل ابراز القيم الحقيقية: بالرغم من افتقارى للمال والثروة والمقام والجاه إلّا أننى افتخر بكونى حافظاً للقرآن. فهذا الفعل لا يعد قبيحاً بل هو درس بليغ.

- (١) تفسير الكبير، ج ٤، ص ٤٢٢.
- (٢) تفسير الخازن، ج ٢، ص ٢٢١.
- (٣) تفسير أبو البركات، ج ٢، ص ٢٢١.
- (٤) الفصول المهمة، ص ١٢٣.
- (٥) تفسير در المنثور، ج ٣، ص ٢١٨ و ٢١٩.
- نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٢١

٨- آية «صالح المؤمنين»

نقرأ فى القرآن الكريم، أنّ البارى جل وعلا- خاطب بعض نساء النبى صلى الله عليه و آله اللواتى ارتكبن مخالفة، قائلاً: «وَأَنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ». (التحریم / ٤)

إنّ عبارة «صالح المؤمنين» تشمل المؤمنين والصالحين والصادقين من أصحاب النبى صلى الله عليه و آله، وليس الصحابة والأنصار الذين عاصروه فحسب، بل هى تشمل المؤمنين والصالحين فى سائر الدهور والأعصار أيضاً، أولئك الذين يتصدون لنصرة الإسلام والنبى صلى الله عليه و آله ورسالته بمختلف السبل.

بيد أنّ المهم هنا أنّ «صالح المؤمنين» فسرت فى روايات عديدة بعلى عليه السلام، وتؤكد على أنه أفضل واكمل مصداق لهذه الآية،

ونظراً لمجيئه جنباً إلى جنب جبرئيل تتجلى عظمة منزلته وأهميته هذه الفضيلة جيداً.

نعم فقد كان على عليه السلام أفضل نصير لرسول الله صلى الله عليه وآله مدى حياته بعد الله وجبرئيل الأمين، وعليه فمن يستحق أن يخلف النبي صلى الله عليه وآله غيره؟ ألا تدل هذه الروايات على أنه كان أفضل الأمة، وأفضل الخلق بعد النبي صلى الله عليه وآله؟ والآن لننظر في اسناد هذه الروايات وتتطرق إلى جانب منها الذى اقتطف بشكل عام من مصادر أهل السنة:

ينقل «الحاكم الحسكاني» ثمانية عشر حديثاً في ذيل هذه الآية من مختلف الطرق، بأن المراد من «صالح المؤمنين» على بن أبي طالب عليه السلام، منها: إنه يروى عن «أسماء بنت

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٢٢

عميس» تقول: سمعت النبي صلى الله عليه وآله يقول: «صالح المؤمنين على بن أبي طالب» (١).

وروى في الكتاب نفسه عن «ابن عباس» أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال بحق على بن أبي طالب عليه السلام: «هو صالح المؤمنين» (٢).

ويروى عن «عمار بن ياسر» قوله: سمعت علياً عليه السلام يقول: دعاني رسول الله صلى الله عليه وآله وقال:

«ألا- أبشرك: قلت: بلى يا رسول الله ومازلت مبشراً بالخير، قال: قد أنزل الله فيك قرآناً، قلت: وما هو يا رسول الله؟ قال: قُرت بجبرئيل، ثم قرأ: وجبريل وصالح المؤمنين» (٣).

وينقل هذا المعنى أيضاً في رواية أخرى عن «حذيفة».

وفي رواية ينقل عن «ابن سيرين»، وفي أخرى عن «على بن أبي طالب» نفسه، أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «صالح المؤمنين، على بن أبي طالب» (٤).

كما نقل الكثير من المفسرين هذا الحديث في تفاسيرهم، منهم السيوطي في «الدر المنثور» في ذيل الآية عن «ابن عباس» و «أسماء بنت عميس».

ويقول «البرسوي» في تفسير «روح البيان» بعد نقله لهذه الأقوال في ذيل هذه الآية:

منها قول مجاهد في أن المراد من صالح المؤمنين، على عليه السلام ويؤيده قوله صلى الله عليه وآله: «يا على أنت منى بمنزلة هارون من موسى، ثم ينقل آيات عديدة حيث اطلق الباري تعالى كلمة الصالحين في القرآن الكريم على كبار الأنبياء، ويستنتج بأنه لما كان على عليه السلام بمنزلة نبي الله «هارون»، فهو جدير بصفة الصالحين» (٥).

بالإضافة إلى أن هذه الرواية نقلت من قبل جماعة آخرين مثل «العسقلاني» في «فتح الباري»، و «ابن حجر» في «الصواعق»، و «علاء الدين المتقي» في «كنز العمال».

وخلاصة القول: إنها منقبة عظيمة لا نظير لها إذ قرن الله تعالى صالح المؤمنين بجبرئيل،

(١) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٢٥٦، ح ٩٨٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٥٨، ح ٩٨٧.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٥٩، ح ٩٨٩.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٥٥-٢٦٣.

(٥) تفسير روح البيان، ج ١٠، ص ٥٣.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٢٣

ومصادقها التام والكامل على ضوء هذه الروايات على بن أبي طالب عليه السلام.

نعم، فقد كان جنباً إلى جنب النبي صلى الله عليه وآله في جميع مراحل حياته، وكان يعد نصيراً وظهيراً له في الأحوال جميعاً، وهو اجدر الجميع بخلافته صلى الله عليه وآله.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٢٥

٩- آية الوزارة

إشارة

نقرأ في القرآن الكريم على لسان موسى عليه السلام: «وَاجْعَلْ لِيَّ وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي». (طه / ٢٩-٣٢)

فهذه الآيات تبين طلبات موسى عليه السلام في بداية بعثته.

في ذيل هذه الآيات نشاهد روايات عديدة أيضاً في مصادر أهل السنة، مفادها أنّ النبي صلى الله عليه وآله قد سأل الله ذلك من أجل تحقيق أهداف رسالته، مع فارق أنّه جعل اسم علي عليه السلام بدل اسم هارون، وفيما يلي تطالعون بعضاً من هذه الروايات:

١- روى في «شواهد التنزيل» عن «حذيفة بن اسيد» أنّ النبي صلى الله عليه وآله أمسك بيد علي بن أبي طالب عليه السلام وقال: «ابشر، وأبشر، أنّ موسى دعا ربّه أن يجعل له وزيراً من أهله هارون، وإنّي أدعو ربّي أن يجعل لي وزيراً من أهلي علياً أخي، أشدّد به ظهري واشركه في أمري» (١).

٢- في رواية أخرى يروى عن «أسماء بنت عميس» تقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «اللهم إنّي أقول كما قال أخي موسى اللهم اجعل لي وزيراً من أهلي، علياً أخي، أشدّد به أزرى، واشركه في أمري، كي نسبحك كثيراً، ونذكرك كثيراً، إنك كنت بنا بصيراً» (٢).

بديهى أنّ المراد من الاشتراك في عمل النبي صلى الله عليه وآله لا تعنى الشركة في النبوة، بل الشركة في أمر قيادة الأمة.

٣- وفي رواية أخرى ينقل حديثاً عن «أنس بن مالك» ليس فيه إشارة إلى قصة

(١) شواهد التنزيل، ج ١، ص ٣٦٨، ح ٥١٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٧٠، ح ٥١١.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٢٦

موسى عليه السلام، بل مطروح فيه مسألة الخلافة والوزارة، فيقول: قال رسول الله عليه السلام: «إنّ خليلي ووزيرى وخليفتى فى أهلى، وخير من أترك بعدى، ينجز موعدى ويقضى دينى، على بن أبى طالب» (١).

٤- روى هذا الحديث باختلاف بسيط أيضاً عن سلمان الفارسى (٢).

٥- ويروى الحافظ أبو نعيم الاصفهانى وهو من علماء القرن الخامس الهجرى فى كتاب «ما نزل من القرآن فى على» ما تضمنه حديث «أسماء بنت عميس» عن «ابن عباس»، وفى نهايته يقول ابن عباس: بعد دعاء النبى صلى الله عليه وآله هذا سمعت منادياً ينادى: «يا أحمد قد اوتيت ما سألت» (٣).

٦- وينقل «الفخر الرازى» فى تفسيره الكبير هذه الرواية بمزيد من التفصيل عن «أبى ذر الغفارى» عن رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أن يقول: لما تصدق على عليه السلام بخاتمه ... فأقبل السائل حتى أخذ الخاتم بمراى النبى صلى الله عليه وآله فقال: «اللهم إنّ

أخى موسى عليه السلام سألك فقال: ربّ اشرح لى صدرى (إلى قوله) وأشركه فى أمرى فانزلت قرآناً ناطقاً، سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً، اللهم وأنا محمد نبيك و صفيك فاشرح لى صدرى ويسر لى أمرى واجعل لى وزيراً من أهلى علياً اشدد به ظهري»، قال أبو ذر: فوالله ما أتم رسول الله صلى الله عليه وآله هذه الكلمة حتى نزل جبرئيل فقال: يا محمد اقرأ: «أَنَّمَا وَكَّيْكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ...» إلى آخرها (٤).

إنّ إسناده وطرق هذه الرواية والكتب التى رويت فيها من الكثرة بحيث لا يستوعبها هذا الموجز وقد أُشير إلى جانب منها فقط.

مضمون آية وروايات «الوزارة»:

تقول هذه الروايات بجلاء: إنّ النبى صلى الله عليه وآله دعا واستجاب له الله تعالى كما استجاب

(١) شواهد التنزيل، ج ١، ص ٣٧٤، ح ٥١٦.

(٢) المصدر السابق، ج ١، ص ٧٧، ح ١١٥.

(٣) ملحقات احقاق الحق، ج ٢٠، ص ١٢٨.

(٤) تفسير الكبير، ج ١٢، ص ٢٦ (ذيل الآية ٥٥ من سورة المائدة).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٢٧

لموسى وكان دعاؤه أن يجعل له وزيراً من أهله يشاركه فى أمره، ويشدّ به أزره، كما هو هارون لموسى عليه السلام تماماً. وكما جرت الإشارة فإنّ من المسلم به ليس المراد من الشركة الاشتراك فى أمر النبوة، إذ لا نبى بعد رسول الله صلى الله عليه وآله الذى كان خاتم النبيين، ومعلوم أيضاً ليس المراد المشاركة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإرشاد، وتبليغ الرسالة فحسب، لأنّها تكليف المسلمين جميعاً، فيجب على الجميع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وعلى الجميع كل حسب وسعه نشر الإسلام وهداية الآخرين.

على هذه الأساس، فالمراد مقام خاص غير النبوة والتكليف العام بالأمر بالمعروف، وهل يمكن أن تكون هذه القضية سوى القيادة والوزارة من قبل البارى عزّ وجلّ؟ والنتيجة المباشرة لهذا الأمر هى أنّه عليه السلام سيكون خليفة النبى صلى الله عليه وآله. وبعبارة اخرى، ثمّة تكاليف لا تمثل واجب جميع الناس، وهى صيانة الرسالة الإلهية من كل تحريف وانحراف، وكذلك توضيح ما ليس يدركه الناس فى مضمون الدين، وقيادة الامية أثناء غياب النبى صلى الله عليه وآله وبعد رحيله، والمساعدة المؤثرة فى تحقيق أهدافه، حيث تختصر جميعها فى كلمة وزير (١).

وهذا ما سأله النبى صلى الله عليه وآله من الله بحق على عليه السلام، واستجاب الله دعاءه.

وهنا يتضح الرد على وساوس بعض المفسرين الذين لا يطيقون الاذعان لمثل هذه المناقب بحق على عليه السلام.

فهم يحاولون تفسير «الشركة فى أمر النبى صلى الله عليه وآله» بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر (٢)، والحال أنّنا نعلم أنّها واجب المسلمين جميعاً، ولا تحتاج إلى تعيين وزير من قبل الله تعالى.

(١) «الوزير» من مادة «وزر»، حيث إنّ الوزير يتحمل ثقل المسؤوليات المختلفة على عاتقه، فقد اطلقت هذه الكلمة عليه.

(٢) تفسير روح المعانى، ج ١٦، ص ١٨٥.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٢٩

١٠ و ١١ - آيات سورة الاحزاب

إشارة

هنالك آيات في سورة الأحزاب نزلت بحق علي عليه السلام على ضوء قول طائفة من المفسرين، أو أنها ناظرة إلى تضحياته الفريدة من نوعها.

فقرأ في قوله تعالى «مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا». (الأحزاب/ ٢٣)

ويقول تعالى (أى بعد آيتين): «وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا». (الأحزاب/ ٢٥)

نحن نعلم أن معركة الأحزاب كانت من أهم الغزوات في الإسلام، فهي كما يتضح من اسمها تعتبر صراع جميع أعداء الإسلام ضد المسلمين، وتضافرت كافة الفرق التي تعرضت مصالحها للخطر نتيجة لانتشار الدين الإسلامي، من أجل القضاء على الإسلام ورسول الله صلى الله عليه وآله، ولتطمئن قلوبهم إلى الأبد!

فهناك سبع عشرة آية من سورة الأحزاب شرحت أحوال هذه المعركة، وقد توضحت فيها دقائق الأمور وخفاياها، وقد فصلت أحوال مختلف فرق المسلمين في هذا المضمار بدقة وظرافة.

لقد مرت على المسلمين لحظات حرجة وخطيرة للغاية في هذه المعركة، فحشود العدو، وقله الجيش الإسلامي في مقابلهم (ذكر المؤرخون عدد جيش الأحزاب بعشرة الآف رجل، والجيش الإسلامي بثلاثة الآف رجل) بالإضافة إلى استعداد العدو من حيث المعدات الحربية وقله عدده المسلمين.

فالأيتان من ضمن هذه الآيات السبع عشرة.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٣٠

ويروى صاحب «شواهد التنزيل» في ذيل الآية الأولى بسنده عن علي عليه السلام قوله: «فينا نزلت رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، ثم قال: فأنا والله المنتظر» (١).

ويروى عن «عبد الله بن عباس» أيضاً: «إن الآية «مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ» ناظرة إلى علي عليه السلام والحمزة وجعفر، وعبارة «وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ» إشارة إلى علي عليه السلام الذي كان ينتظر الشهادة في سبيل الله، «فوالله لقد رزق الشهادة» (٢).

وروى هذا المعنى أيضاً في كل من «الصواعق المحرقة» لابن حجر، و «الفصول المهمة» لابن الصباغ المالكي، و «الكشف والبيان» للنيسابوري (٣).

البحث فيما يتعلق بالآية الثانية أكثر اتساعاً من هذا، فقد قال الكثير من المحدثين والمفسرين: إن «كَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ...» إشارة إلى علي عليه السلام وضرته المؤثرة التي وجهها لعمر بن عبد ود وكفى المؤمنين قتال الكفار.

ومن بين الذين رويوا هذا المعنى هو «عبد الله بن مسعود»، فعندما كان يقرأ هذه الآية كان يقول في تفسيرها: «و كفى الله المؤمنين القتال، بعلي بن أبي طالب» (٤).

ويروى «الحاكم الحسكاني» عدده أحاديث بهذا المضمون عن عبد الله بن مسعود (٥).

ويروى عن ابن عباس أيضاً أنه لما قرأ آية «و كفى الله المؤمنين القتال» قال: «كفاهم الله القتال يوم الخندق بعلي بن أبي طالب، حين قتل عمرو بن عبد ود» (٦).

كما روى عن حذيفة الصحابي المعروف حديثاً مفصلاً حول نزال علي عليه السلام لعمر بن عبد ود وقتله، ثم يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أبشر يا علي! فلو وزن اليوم عملك بعمل أمة

(١) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ١ و ٢، ح ٦٢٧.

(٢) المصدر السابق.

(٣) علي في الكتاب والسنة، ص ٢١٨.

(٤) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٣، ح ٦٢٩.

(٥) المصدر السابق، ح ٦٣٠ و ٦٣١ و ٦٣٢.

(٦) المصدر السابق، ص ٥، ح ٦٣٣.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٣١

محمد لرجح عملك بعملهم وذلك أنه لم يبق بيت من بيوت المسلمين إلا وقد دخله عز بقتل عمرو» (١).

وينقل نفس المعنى عن «ابن حكيم» عن جده عن رسول الله صلى الله عليه وآله.

ينقل «السيوطي» في الدر المنثور عن «ابن أبي حاتم»، و «ابن مردويه»، و «ابن عساکر» عن «ابن مسعود» أنه لما كان يقرأ هذه الآية،

يقول (في شرحها): «وكفى الله المؤمنين القتال بعلي بن أبي طالب» (٢).

ونقل هذا المعنى العلامة «الشيخ سليمان القندوزي» في «ينابيع المودة» (٣).

ونقل فريق آخر يطول المقام بذكر أسمائهم، هذا الحديث أيضاً.

والجدير بالاهتمام أن مضمون هذه الآيات ومن خلال الشرح المذكور هو أن علياً عليه السلام كان السبب في انتصار المسلمين بإذن

الله في ذلك الميدان الخطير للغاية، حيث كانت معركة الأحزاب السهم الأخير بيد العدو، وهي أصعب مؤامرات المشركين ضد

الإسلام، نعم، فقد كان مجرياً للإرادة الإلهية، واحد الأسباب المهمة لانتصار المسلمين في هذه المعركة، فلا تشاهد هذه المنقبة

لأى أحد من أمة محمد صلى الله عليه وآله سوى علي عليه السلام.

ألا يستحق من يفوق عمله هذا عمل كافة أمة محمد صلى الله عليه وآله، خلافة النبي صلى الله عليه وآله؟!

سؤال:

ربما يقال هنا: إنه قد جاء في الآية التي تشير بالإجمال إلى قصة معركة الأحزاب:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا».

(الأحزاب / ٩)

طبقاً لهذه الآية، فأحد أسباب هزيمة الأحزاب كانت الريح العاصفة التي هبت عليهم، والسبب الآخر الجنود غير المرئيين (الملائكة)،

وعليه فكيف يمكن القول: إن علياً عليه السلام كان سبب الانتصار؟

(١) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٧، ح ٦٣٤.

(٢) تفسير در المنثور، ج ٥، ص ١٩٢.

(٣) ينابيع المودة، ص ٩٤.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٣٢

الجواب: هو أن الانتصار في معركة ما، ربما تكون له عوامل متعددة كالعامل العسكري، والطبيعي، والمعنوي، وغيرها، ومما لا شك فيه أن ثلاثة عوامل قد تضافرت في هذه المعركة بحيث لا يتسنى انكار أى منها أبداً، وهى: مصرع عمر بن عبد ود فارس الأحزاب على يد على عليه السلام، وهبوب الرياح، وجيش الملائكة، ففي جميع الحالات التى تتضافر فيها عوامل عديدة فى صنع حادث ما، يمكن نسبة ذلك الحادث إلى واحد منها أو إليها جميعاً.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٣٣

١٢- آية البينة والشاهد

«أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ مُّوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ». (هود/ ١٧)

لقد أورد «الحاكم الحسكاني» فى «شواهد التنزيل» روايات عديدة تناهز ال ١٦ رواية فى ذيل هذه الآية تشهد بأن المراد من الشاهد فى الآية أعلاه على عليه السلام «١»، من ضمنها ما نقله عن «أنس بن مالك» فى أن المراد من عبارة «أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ...»، محمد صلى الله عليه وآله، والمراد من عبارة «وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ...»، على بن أبى طالب. فهو كان لسان حال النبى صلى الله عليه وآله لأهل مكة فى نقض العهد معهم.

وينقل فى رواية اخرى عن «ابن عباس» أنه قال فى تفسير: «(وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ...): هو على خاصة» (٢).

وينقل عن زاذان (أحد أصحاب على عليه السلام) عن على عليه السلام أنه قال: «لو ثبت لى الوسادة فجلست عليها لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم وبين أهل الانجيل بانجيلهم وبين أهل الزبور بزبورهم وبين أهل الفرقان بفرقانهم بقضاء يزهر يصعد إلى الله، والله ما نزلت آية فى ليل أو نهار ولا سهل ولا جبل ولا بر ولا بحر إلا لو قد عرفت أى ساعة نزلت وفيمن نزلت، وما من قريش رجل جرى عليه المواسى إلا قد نزلت فيه آية من كتاب الله تسوقه إلى جنه أو تقوده إلى نار، فقال قائل: فما نزل فيك يا أمير المؤمنين؟ قال: «أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ» محمد صلى الله عليه وآله على بينة من ربه وأنا الشاهد منه أتلو آثاره» (٣).

(١) شواهد التنزيل، ج ١، ص ٢٨٠، ح ٣٨٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٦٩، ح ٣٨٧.

(٣) شواهد التنزيل، ج ١، ص ٢٨٠، ح ٣٨٤.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٣٤

وأورد السيوطى فى تفسير «الدر المنثور» أيضاً روايات عديدة فى هذا الصدد، منها أنه ينقل عن «ابن أبى حاتم» و «ابن مردويه»، و «أبى نعيم» عن على بن أبى طالب، أنه قال: «ما من رجل من قريش إلا نزل فيه طائفة من القرآن».

فسأله رجل: ما نزل فيك؟ قال عليه السلام: أما تقرأ سورة هود: «أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ» رسول الله صلى الله عليه وآله و آله على بينة من ربه، وأنا شاهد منه «١».

ثم أورد عدة أحاديث بهذا المعنى «٢».

وفى تفسير «روح المعانى» وبعد نقله لرواية «ابن أبى حاتم»، و «ابن مردويه»، عن على عليه السلام فى أن نزول هذه الآية بحقه عليه السلام، ويروى هذا المعنى أيضاً فى حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله و آله أنه قال: «أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ»، أنا، «وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ» على يقول:

لقد استدل بعض الشيعة أن علياً (كرم الله وجهه) هو خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله و آله لأن الله تعالى سماه شاهداً فى قوله: «أنا

أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا». (الفتح / ٨)

فينبغي أن يكون مقام علي ك مقامه صلى الله عليه وآله، وحيث أخبر أنه يتلوه أى يعقبه ويكون بعده دلّ على أنه خليفته. ثم يقول: هذا الخبر لا يكاد يصح، وبعد ذلك ينقل رواية تفيد أن المراد من «الشاهد» زمان رسول الله صلى الله عليه وآله «٣». وقد توسل مفسّر المنار الذى لا يقل تعصباً عن الآلوسى فى روح المعانى ازاء الشيعة والقضايا المتعلقة بإمامة علي عليه السلام بكل ما لديه فى تفسير الآية وأوقع نفسه فى عناء عجيب، فمن جملة مايقول: ويجوز أن تكون البيئنة على هذا علمه اليقيني الضرورى بنبوته كما تقدم، ويكون الشاهد الذى يتلوه منه القرآن وهو الأظهر عندي وروى عن ... (سعيد بن جبير): إن البيئنة القرآن والشاهد جبريل عليه السلام ... ويتلوه من تلاوة القرآن لا من التلو والتبعية

(١) تفسير در المنثور، ج ٣، ص ٣٢٤، (ذيل آية مورد البحث).

(٢) المصدر السابق.

(٣) تفسير روح المعانى، ج ١٢، ص ٢٨.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٣٥

فهو الذى كان يقرأه على النبى صلى الله عليه وآله عند نزوله به وفى الشاهد روايات اخرى ضعيفة ومنها أنه على عليه السلام يرويه الشيعة ويفسرونه بالإمامة. «١».

ويالأسف، فقد كانت الأحكام والفرضيات المسبقة أهم حائل دون فهم آيات القرآن والروايات الإسلامية المشهورة، وهنا ثمة مسائل تحظى بالأهمية، منها:

١- المدهش أن يقال حول الرواية التى تتمتع بهذه الطرق المختلفة فى الكتب المشهورة لدى أهل السنة إنها رواية ينقلها الشيعة، ألم يشاهد مفسّر المنار هذه الروايات الواردة فى «الدر المنثور» و «شواهد التنزيل» بل حتى «روح المعانى» بشأن تفسير الشاهد بعلى عليه السلام، ويدعى: إن هذه الرواية نقلها الشيعة فقط، أم يجب القول أن كل رواية تصب فى صالح مذهب التشيع هى رواية شيعية، وإن رواها العشرات من رواة أهل السنة؟!

٢- هناك طائفة من مفسرى السنة يؤمنون بأن المراد من الشاهد «لسان» النبى صلى الله عليه وآله (المعنى الذى لا يشاهد فى أى موضع من القرآن).

بينما يعتبر صاحب المنار أنها رواية ضعيفة، لعله نفت إلى هذه الحقيقة وهى أن تفسير «الشاهد» ب «لسان» النبى صلى الله عليه وآله، وكذا «يتلوه» ب «تلاوة القرآن» ملء بالتكلف.

فيصبح المعنى الإجمالى للآية: «أفمن كان يمتلك الدليل الواضح من ربه وهو القرآن، ويتلوه لسانه ويشهد على ذلك ... كمن ليس كذلك»، فمفهوم هذا القول هو: إن النبى صلى الله عليه وآله شاهد على نفسه، فهل يمكن للمدعى أن يكون شاهداً على نفسه؟ أم يجب أن يكون الشاهد شخصاً آخر؟ ألم يأت النبى صلى الله عليه وآله بالقرآن، فكيف يكون لسان النبى صلى الله عليه وآله شاهد على القرآن؟

وهل أن لسان النبى صلى الله عليه وآله ليس منه؟ فكيف نجعل جزءاً منه شاهداً عليه؟ إن الذى لا يريد الاعتراف بهذه الحقائق سيقع فى هذه المتاهات.

٣- ما قيل من أن المراد من «الشاهد» هو «جبرئيل»، والحال أن أيّاً من الناس لم يره ويجهل وجوده، فكيف يتفق ومفهوم الشهادة؟

فهل نحن مجبورون على إنشاد شعر نتورط فى قافيته؟

٤- الأعجب ما يقوله الآلوسى فى روح المعانى: المراد من «البيئنة» القرآن و «الشاهد» صفته الاعجازية.

(١) تفسير المنار، ج ١٢، ص ٥٣.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٣٦

والحال أن كون القرآن «بينه» يكون من خلال اعجازه فحسب، ولا يعد القرآن «بينه» بدون صفاته الاعجازية، على هذا الأساس ستكون «البينة» و «الشاهد» واحداً، وهذا لا يتفق ومضمون الآية.

٥- إن تفسير «البينة» ب «العلم اليقيني الباطني لرسول الله صلى الله عليه و آله» بنبوته، ومن ثم تفسير «الشاهد» بالقرآن الكريم من الغرائب أيضاً، فلا بد أولاً من البحث عن معنى «البينة» في القرآن نفسه، فقد استعملت «البينة» في القرآن الكريم ١٩ مرة، و «البيئات» وهي جمعها ٥٢ مرة، وعادة ما جاءت بمعنى «المعجزة» أو «الكتب السماوية والقرآن الكريم» لا بمعنى العلم الباطني الفطري اللازم. وعليه فلو أردنا تجاوز التكلفات، فالبينة في الآية المذكورة تعني القرآن الذي هو المعجزة الخالدة لنبي الإسلام صلى الله عليه و آله، والشاهد شخص غير النبي صلى الله عليه و آله حيث يشهد على حقايقته صلى الله عليه و آله، أما الذين لا يرغبون في أن يفضى هذا التفسير إلى حقانية مذهب التشيع فهم على استعداد للخوض في كل أشكال التكلف من أجل نبذ هذا التفسير، لئلا يعاكس حكمهم المسبق الخط الصحيح.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٣٧

١٣- آية الصديقون

«وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ». (الحديد/ ١٩)

نقل في «شواهد التنزيل» عن «ابن أبي ليلى عن أبيه: قال رسول الله صلى الله عليه و آله: «الصادقون ثلاثة: حبيب النجار مؤمن آل ياسين، وحزيب (حزقيل) مؤمن آل فرعون، وعلي بن أبي طالب الثالث وهو أفضلهم» «١».

وورد هذا الحديث أيضاً في كتاب «الفضائل» لأحمد بن حنبل، و «معرفة الصحابة» لأبي نعيم، و «المناقب» لابن المغازلي «٢».

وفي نفس كتاب «شواهد التنزيل» نقل اربعة أحاديث اخرى بهذا المعنى عن طرق اخرى «٣».

ونقل الحديث الآنف الذكر في كتاب «ينابيع المودة» للشيخ سليمان القندوزي عن مسند أحمد، وأبي نعيم، وابن المغازلي، والموفق الخوارزمي، عن «أبي ليلى» و «أبي ايوب الأنصاري»، أنهما قالوا: قال رسول الله صلى الله عليه و آله: «الصادقون ثلاثة، حبيب النجار، وحزقيل مؤمن آل فرعون ... وعلي بن أبي طالب وهو أفضلهم» «٤».

ونقل هذا المعنى أيضاً في «كنز العمال» عن ابن عباس «٥».

(١) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٢٢٣، ح ٩٣٨.

(٢) تعليقات- وحواشي- المحمودي على شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٢٢٤.

(٣) المصدر السابق، ح ٩٣٩ و ٩٤٠ و ٩٤١ و ٩٤٢.

(٤) ينابيع المودة، ص ١٢٤، الباب ٤٢.

(٥) كنز العمال، ج ١١، ص ٦٠١، ح ٣٢٨٩٧.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٣٨

كما نقل «احقاق الحق» هذا الحديث عن كتب وطرق مختلفة «١».

وبالرغم من أن هذه الروايات لا تتناول قضية الخلافة بصورة مباشرة، إلا أن إثبات صفة صديق الأمة لعلي عليه السلام ترجح كفة ميزانه

فيما لو قيس مع غيره، حيث تكشف عن أهليته للخلافه أكثر ممن سواه.

والمدهش أنه واستناداً إلى هذه الروايات الكثيرة أن علياً عليه السلام صديق هذه الامة، إلّا أن البعض منحوا هذا اللقب إلى الآخرين، حيث نقلوا في ذيل هذه الآية أن الصديقين ثمانية، منهم أبو بكر وعلي عليه السلام، بيد أن هذه الرواية ليست عن النبي صلى الله عليه وآله، فالروايات التي نقلت عن رسول الله صلى الله عليه وآله تصف علياً عليه السلام بأنه صديق هذه الامة.

ويجدر ذكر هذا الأمر وهو أن عمومية مفهوم الآية لا تتعارض وهذه الروايات، فقد قلنا مراراً: إن مثل هذه الروايات ناظرة إلى الأكمل، أي أنها تقول: إن أكمل مصداق ل «الصديق» في الامة الإسلامية، هو علي عليه السلام الذي كان صادقاً إلى أبعد الحدود، وقد سبق رجال هذه الامة إيماناً، وصدق برسول الله صلى الله عليه وآله، واطلق عليه النبي صلى الله عليه وآله لقب «الصديق». وستطالعون اموراً كثيرة في هذا المضممار أيضاً في تفسير الآية اللاحقة.

(١) احقاق الحق، ج ٣، ص ٢٤٣.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٣٩

١٤- آية النور

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

(الحديد/ ٢٨)

يروى في «شواهد التنزيل» عن ابن عباس في تفسير هذه الآية، أن المراد من عبارة «يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ»، الحسن والحسين عليهما السلام الذين وهبهما الله تعالى لعلي عليه السلام، والمراد من «وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ»، علي بن أبي طالب عليه السلام (حيث إنه نبراس الامة الإسلامية ووسيلة هدايتها) (١).

إن «ابن عباس» لم يقل هذا اجتهاداً منه، ففي رواية اخرى يروى في الكتاب نفسه بسنده عن «جابر بن عبد الله» عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال في تفسير «يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ...»: «الحسن والحسين عليهما السلام»، وقال في تفسير «وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ...»: «علي بن أبي طالب عليه السلام» (٢).

ويروى في الكتاب نفسه عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال في تفسير هذه الآية: «من تمسك بولاية علي فله نور» (٣). (تأملوا جيداً).

وفي تأييده لهذا المعنى يروى عن «أبي سعيد الخدرى» أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «أما والله لا يحب أهل بيتي عبد إلّا أعطاه الله عزّ وجلّ نوراً حتى يرد عليّ الحوض» (٤).

ونقل في «كنز العمال» عن علي عليه السلام أنه قال: «أنا عبد الله وأخو رسوله وأنا الصديق

(١) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٢٢٧، ح ٩٤٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٢٨، ح ٩٤٤.

(٣) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٢٢٨، ح ٩٤٦.

(٤) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٢٨، ح ٩٤٧.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٤٠

الأكبر لا يقولها بعدى إلّا كذاب مفتر، ولقد صليت قبل الناس سبع سنين» (١).

مشيرا إلى أنه أول من آمن برسول الله صلى الله عليه وآله من الرجال، وعليه فإنه الجدير بحمل لقب «الصديق الأكبر». وفي نفس الكتاب، نقل عن «معاذ بن عدوية» قوله: سمع علياً عليه السلام يقول على المنبر في البصرة: «أنا الصديق الأكبر آمنت قبل أن يؤمن أبو بكر وأسلمت قبل أن يسلم» (٢).

على أيته حال، فهذه منقبة من أفضل المناقب، وصاحبها أجدر من غيره بخلافه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله. لقد أورد العلامة الأميني رحمه الله في الجزء الثالث من الغدير بحثاً مطولاً بشأن إيمان علي عليه السلام بالنبي صلى الله عليه وآله على أنه أول من آمن من الرجال، وذكر مصادر كثيرة عن أشهر كتب علماء أهل السنة، حتى أنه ذكر كثيراً من الشعر لشعراء الإسلام أيضاً كشاهد على ذلك (٣).

وسنخصص فصلاً كاملاً تحت عنوان «المسلم الأول»، وسيجرى البحث عن الكثير من القضايا هناك «إن شاء الله».

(١) كنز العمال، ج ١٣، ص ١٢٢، ح ٣٦٣٨٩.

(٢) المصدر السابق، ص ١٦٤، ح ٣٦٤٩٧.

(٣) الغدير، ج ٣، ص ٢١١-٢٤١.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٤١

١٥- آية الانذار

«وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ* وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»
(الشعراء / ٢١٤-٢١٥)

إن هذه الآيات لها قصة معروفة حيث ذكرها جميع مؤرخي الإسلام تقريباً.

وفي تفسير هذه الآية، تشاهد رواية معروفة لدى الخاص والعام كما يقول «الطبرسي» في «مجمع البيان»، وكذا قول «الحاكم الحسكاني» في «شواهد التنزيل»، يقول «البراء بن عازب»: لما نزلت آية «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» جمع رسول الله صلى الله عليه وآله بني عبد المطلب وهم يومئذ أربعون رجلاً، الرجل منهم يأكل المسنة، ويشرب العس، فأمر علياً عليه السلام برجل شاء فأدمها ثم قال: ادنوا بسم الله فدنا القوم عشرة عشرة فأكلوا حتى صدروا، ثم دعا بقعب من لبن فجرع، منه جرعة ثم قال لهم: اشربوا بسم الله فشربوا حتى رووا، فبدرهم أبو لهب فقال: هذا ما سحركم به الرجل. فسكت صلى الله عليه وآله يومئذ ولم يتكلم، ثم دعاهم من الغد على مثل ذلك من الطعام والشراب ثم أنذرهم رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا بني عبد المطلب إنني أنا النذير إليكم من الله عز وجل والبشير فأسلموا وأطيعوني تهتدوا، ثم قال: من يؤاخيني (منكم) ويؤازرنى ويكون وليى ووصيى بعدى وخليفتى فى اهلى ويقضى دينى. فسكت القوم.

فأعادها ثلاثاً، كل ذلك يسكت القوم ويقول على عليه السلام: أنا، فقال فى المرة الثالثة: أنت، فقام القوم وهم يقولون لأبى طالب: أطلع ابنك فقد أمر عليك (١)، نقل هذا الحديث فى هوامش شواهد التنزيل عن «عبد الله بن عباس» وكذلك عن «أبى رافع».

وينقل عن «خصائص النسائي» أن «ربيعه بن ناجذ» يقول: إن رجلاً قال لعلى عليه السلام:

(١) شواهد التنزيل، ج ١، ص ٤٢٠ (مع الاختصار)؛ وتفسير مجمع البيان، ج ٧ و ٨، ص ٢٠٦.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٤٢

يأمر المؤمنين بم ورث ابن عمك دون أعمامك؟ قال: جمع رسول الله صلى الله عليه وآله بني عبدالمطلب فصنع لهم مداً من

الطعام فأكلوا حتى شبعوا، وبقي الطعام كما هو كأنه لم يُمس، ثم دعا بغمر فشربوا حتى رووا، وبقي الشراب كأنه لم يُمس، أو لم يُشرب، فقال: «يا بني عبد المطلب إنني بعثت إليكم خاصة وإلى الناس عامة وقد رأيتم من هذه الآية ما قد رأيتم، أيكم يبايعني على أن يكون أخي وصاحبي ووارثي؟» فلم يبق إليه أحد فقامت إليه وكنت أصغر القوم فقال: اجلس، حتى كان في الثالثة ضرب بيده على يدي، ثم قال علي عليه السلام: بذلك ورثت ابن عمي دون عمي (١).

وقد نقل «الطبري» المؤرخ الشهير هذا الحديث أيضاً بالتفصيل، ويقول تعقيباً عليه: إن النبي صلى الله عليه وآله، أو ما إلى علي عليه السلام وقال: «إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا». فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع (٢).

ثم نقل الطبري هذا المعنى بطرق أخرى

من الامور الظريفة أن الطبري المؤرخ والمفسر السنّي الكبير، الذي نقل قصة يوم الانذار في «تاريخه» بهذا النحو، عندما يأتي إلى «التفسير» (الفتوى إلى أن للطبري تفسيراً مفصلاً في ٣٠ جزء، عدا التاريخ) ويصل إلى هذه الآية ويروي الحادثة المذكورة، يقول: إن النبي عليه السلام قال: «أيكم يؤازرنى على هذا الأمر على أن يكون اخي وكذا وكذا... قال علي عليه السلام: أنا يا نبي الله أكون وزيرك... فقال النبي صلى الله عليه وآله: إن هذا أخي وكذا وكذا» (٣).

فكما تلاحظون فإن هذا المفسر المعروف يعبر «بكذا وكذا» بدلاً عن وصيي وخليفتي فيكم، وكرر هذا الأمر مرتين لثلاثي تعبير «الوصي والخليفة» بأيدي اتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام ويقدمونه وثيقة على خلافة علي عليه السلام، ويصاب حكم الطبري وأمثاله المسبق المليء بالتعصب!

فهل هذا هو معنى المحافظة على الأمانة في تدوين ونقل أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله؟ ألم

(١) تعليقات شواهد التنزيل، ج ١، ص ٤٢٣.

(٢) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٦٣.

(٣) تفسير جامع البيان، ج ١٩، ص ٧٥، ذيل الآية ٢١٤ من سورة الشعراء.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٤٣

يكن يفكر بأن تعبيره التاريخي سيوضع يوماً أمام تعبيره التفسيري ويقام القياس بينهما، وتجري محاكمتهما؟ ويجدر الانتباه إلى أن الطبري ليس فريداً في القيام بهذا الفعل، فهناك الكثير ممن مارسوا ويمارسون هذه الأفعال.

فقد نقل الألوسي هذه الرواية أيضاً في روح البيان بشكل ناقص ومعيب، ثم يضيف:

«ومن الروايات ما يتمسك به الشيعة فيما يدعون من أمر الخلافة وهو مؤول أو ضعيف أو موضوع» (١).

إن الأحكام المسبقة لهذا المفسر المعروف عجيبة حقاً، فهو يقول: بما إن هذه الرواية تصب في صالح الشيعة فأما يجب أن توجه، أو تضعف، أو تعتبر مزورة، أي أن أساس الحكم لا يستند إلى الحقائق التاريخية والقرآن والسنة، بل إلى الأحكام المسبقة وكل ما يخالفها يجب غض الطرف عنه وتبريره وتضعيفه.

ومن البديهي أنه لو اجتمع جميع الأنبياء والكتب السماوية لعجزوا عن النفوذ إلى عقليته من يمتلك مثل هذا النمط من التفكير، وتغييره.

لقد ذكر «أحمد بن حنبل» أحد أئمة مذاهب السنة في كتابه المعروف ب «مسند أحمد» قصة يوم الانذار إلى أن يقول: قال علي عليه السلام قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لما نزلت هذه الآية «وانذر عشيرتكم الاقربين...» قال: جمع النبي صلى الله عليه وآله من أهل بيته فاجتمع ثلاثون فأكلوا وشربوا فقال صلى الله عليه وآله: من يضمن عني ديني ومواعيدي ويكون معي في الجنة ويكون

خليفتي في أهلي ... فقلت: «٢».

يقول ابن أبي الحديد المعتزلي: أما خبر الوزارة (إشارة إلى الحديث الذي ثبتت وزارة علي عليه السلام) فقد نقله الطبري في تاريخه عن عبد الله بن عباس عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: لما انزلت هذه الآية «وانذر عشيرتكم الاقربين ...» على رسول الله صلى الله عليه وآله دعاني ... ثم نقل القصة إلى أن ذكر قول الرسول صلى الله عليه وآله «وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه، فأياكم يؤازرنى على

(١) تفسير روح المعاني، ج ١٩، ص ١٣٥ ذيل آية البحث.

(٢) مسند أحمد، ج ١، ص ١١١ (مع شيء من الاختصار).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٤٤

هذا الأمر على أن يكون أخى ووصيى وخليفتي فيكم؟ فقال علي عليه السلام: أنا يارسل الله أكون وزيرك عليه، فقال الرسول صلى الله عليه وآله: هذا أخى ووصيى وخليفتي فيكم» (١).

انتبهوا إلى أنه قد جاء في هذه الرواية وبعض الروايات المتقدمة التعبير بخليفتي فيكم، ويتضح من ذلك أن التعبير بالاهل في الروايات الاخرى يفيد هذا المعنى أيضاً (تأملوا جيداً).

ذكر «ابن الاثير» (٢) هذه الحادثة أيضاً بالتفصيل في كتابه «الكامل» - بل وأكثر تفصيلاً من أغلب المحدثين والمؤرخين إلى أن يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أياكم يؤازرنى على هذا الأمر على أن يكون أخى ووصيى وخليفتي فيكم؟ فأحجم القوم عنها جميعاً»، فقال علي عليه السلام: «أنا يارسل الله أكون وزيرك عليه ... فقال الرسول صلى الله عليه وآله: إن هذا أخى ووصيى وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا» (٣).

واللطيف أنه قد عبر ب «خليفتي فيكم» في هذا الحديث أيضاً، وفي الحقيقة أنها احدى معجزات النبي صلى الله عليه وآله إذ أنه قال هذه العبارة بحزم لعلي عليه السلام في ذلك الحين، ولم يكن له من العمر سوى ثلاثة عشرة سنة، فمن يستطيع التنبؤ بأن هذا الصبي ذا الثلاث عشر عاماً سيصبح من أعظم رجال البشرية في المستقبل، ويستحق خلافة النبي صلى الله عليه وآله، والكل يسمعون له ويطيعونه؟

واللطيف أيضاً: إن النبي صلى الله عليه وآله قال هذا في الأيام الاولى لدعوته، يوم الانذار، وكذلك في الأشهر الأخيرة من حياته المباركة، أليس هذا الكلام أفضل دليل على إمامة علي عليه السلام؟

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٣، ص ٢١٠.

(٢) «ابن الاثير» من أشهر المؤرخين حيث عاش في القرن السابع، و تاريخه يقع في ١٣ جزء.

(٣) الكامل، ج ٢، ص ٦٣.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٤٥

١٦- آية مرج البحرين

«مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ * فَإِىَّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُخْرِجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ». (الرحمن / ١٩-٢٢)

لقد وردت أقوال كثيرة في تفسير هذه الآية، وقد ذكرنا أبحاثاً كثيرة بهذا المضمار في التفسير الأمثل، فتارة قيل: المراد من البحرين بحران ذواتا ماء عذب ومالح، حيث يتجاوران في الكثير من المناطق دون أن يختلطا مع بعضهما، ويلاحظ هذا المشهد جيداً في جميع

المناطق التي تصب فيها الأنهار بالبحار.

والتفسير الآخر اللطيف لهذين البحرين، تيار «غولف استريم» والأنهار البحرية العملاقة التي تتحرك في الكثير من محيطات العالم وتأخذ المياه الدافئة من المناطق الاستوائية نحو المناطق القطبية، وربما يختلف لونها عن لون المياه المحيطة بها، والمدهش أن عرضها يبلغ أحياناً مائة وخمسين كيلو متراً وعمقها عدّة مئات من الأمتار، وقد تصل سرعتها إلى ١٦٠ كم في اليوم! وتختلف درجة حرارتها عن المياه المجاورة ب ١٠-١٥ درجة!

إنّ هذا التيار من المياه الدافئة يخلق رياحاً دافئة ويمنح قسماً من حرارته إلى المناطق المجاورة، ويعمل على تلطيف الجو في المناطق الشمالية للكورة الأرضية التي يمر بها، ويجعلها ملائمة، ولولا هذه التيارات البحرية لتعسرت الحياة في تلك البلدان، وربما لا يمكن تجرعها.

وطبعاً فإنّ «غولف استريم» اسم لأحد التيارات والأنهار البحرية، ويشاهد شبيه ذلك في مياه القارات الخمس، وأنّ السبب الرئيس لهذه الحركة هو الاختلاف بين درجة حرارة مياه المناطق الاستوائية ومياه المناطق القطبية. (١)

(١) للمزيد من التفصيل في هذا الصدد وبشأن هذه الآيات راجعوا الى التفسير الأمثل ذيل الآيات مورد البحث.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٤٦

وحيث إنّ آيات القرآن ذوات ظاهر وباطن، فقد تفسر تفسيراً مادياً ومعنوياً، ففي الروايات الإسلامية فسر هذان البحرين بعلي وفاطمة عليهما السلام، وفسر اللؤلؤ والمرجان معنوياً بالحسن والحسين عليهما السلام.

فقد روى في «شواهد التنزيل» عن «سلمان الفارسي» في تفسير آية «مرج البحرين يلتقيان» أنّ «المراد هو علي وفاطمة عليهما السلام» ثمّ يضيف: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان، يعنى الحسن والحسين» (١)، ونقل هذا المعنى بطريق آخر عن «ابن عباس» و«الضحّاك» (٢).

وجاء في رواية أخرى عن «سعيد بن جبير» عن «ابن عباس» أنّ المراد من «مرج البحرين يلتقيان» علي وفاطمة عليهما السلام، والمراد من «بينهما برزخ لا يبغيان» حب دائم لا ينقطع ولا ينفد، والمراد من «يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان» الحسن والحسين عليهما السلام (٣).

وورد في رواية أخرى تعبير أكثر وضوحاً عن «ابن عباس» بشأن «بينهما برزخ لا يبغيان» وهو أنّ المراد «ود لا يتباغضان» (٤).

وفي الحقيقة أنّ البرزخ يعنى «الحائل بين شيئين» فالمحبة هنا تحول دون البغى والتجاوز.

وبعد أن يذكر «السيوطي» أيضاً في تفسيره الروائي «الدر المنثور» الروايات المتعلقة بالتفسير الظاهري لهذه الآية، نقل مضمون الأحاديث المتقدمة عن «ابن عباس» وعن النبي صلى الله عليه وآله، فيقول: روى «ابن مردويه» عن «ابن عباس» في تفسير آية «مرج البحرين يلتقيان»، أنّ المراد علي وفاطمة عليهما السلام.

ثمّ يضيف: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان، يعنى الحسن والحسين عليهما السلام» (٥).

(١) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٢٠٩ (ح ٩١٩).

(٢) المصدر السابق، ص ٢٠٨.

(٣) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٢١٠.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٣٠.

(٥) تفسير در المنثور، ج ٦، ص ١٤٣.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٤٧

وروى هذا المعنى عن «انس بن مالك» أيضاً «١».

واللطيف أن المفسر المعروف «الآلوسی» بعد أن ينقل الرواية الأنفة في تفسير «روح المعاني» عن «ابن عباس» و «انس بن مالك»، وكذا عن طريق الطبرسي عن «سلمان الفارسي» و «سعيد بن جبیر» و «سفيان الثوري» يضيف قائلاً: «والذي اراه أن هذا إن صح ليس من التفسير في شيء بل هو تأويل كتأويل المتصوفة لكثير من الآيات، وكل من على وفاطمة رضی الله تعالى عنهما عندي أعظم من البحر المحيط علماً وفضلاً وكذا كل من الحسين رضی الله تعالى عنهما أبهى وأبهج من اللؤلؤ والمرجان بمراتب جاوزت حد الحساب» «٢».

إن اعترافه الصادق بمنزلة هؤلاء العظماء امر حسن في ذاته، على شرط أن لا يكون غرضه سلب قيمة هذه الروايات! ولعل الآلوسی تناسى أن هذا الحديث روى عن النبي صلى الله عليه وآله، بطرق عديدة، وأن النبي صلى الله عليه وآله له كامل الصلاحية في تأويل الآيات، وأن مقارنته بتأويلات الصوفيين الموضوعه والمنحرفة التي تفتقد للسند مقارنته مجحفه لا تناسب شأن العالم.

على أيه حال، فهذه الآية من الآيات التي تدلل على الفضل العظيم والمقام الرفيع لعلی وزوجته وولديهما الحسن والحسين عليهم السلام، لأنها شبت علياً وفاطمة عليها السلام ببحرين عظيمين، البحر الذي يكشف عن عظمة الباري جلّ وعلا، والذي يعتبر مصدراً للبركات، ومنطلقاً للعلوم والمعارف الزاخرة، ومظهراً بارزاً لفضائل الأخلاق كالجود والسخاء والطهارة والعصمة، وتشبه ولديهما باللؤلؤ النفيس الذي لانظير له، الذي ينمو في أعماق البحر، ثم يبرز إلى الخارج، تكامل فيه الحسن والجمال، ظاهرياً وباطنيّاً، والعلم والتقوى والفضيلة والطهارة والعصمة.

فأى شخص تشاهد فيه كل هذه المناقب؟ ومن أكثر جدارة بخلافه النبي صلى الله عليه وآله غير على وأولاده عليهم السلام، وكم مروا من هذه المناقب مرور الكرام!

(١) المصدر السابق.

(٢) تفسير روح المعاني، ج ٣٧، ص ٩٣ (ذيل آيات البحث).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٤٩

١٧- آية النجوى

إشارة

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ* ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صِدَقَاتٍ فَمَاذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَاقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ». (المجادلة/ ١٢-١٣)

من القرائن المتوفرة في هاتين الآيتين، وكذلك من شأن النزول الذي أورده الكثير من المفسرين من بينهم المرحوم «الطبرسي» في «مجمع البيان»، و «الفخر الرازي» في «التفسير الكبير»، و «القرطبي» في تفسير «الجامع لأحكام القرآن»، و «الآلوسی» في «روح المعاني»، وغيرهم يستفاد أن نفرّاً من المسلمين وكما يقول بعض المفسرين أنهم جماعة من الأغنياء والأثرياء كانوا يناجون رسول الله صلى الله

عليه وآله في أبسط الأمور من أجل الحصول على مكانة لهم لدى الناس، غافلين عن حقيقة أن وقت النبي صلى الله عليه وآله ائتمن من أن يضيعها شخص من أجل قضايا بسيطة أو لا أهميتها لها، اضعف إلى ذلك أن هذا الأمر كان يؤدي إلى انزعاج المستضعفين، وتمييز الأغنياء، وأحياناً كان يبعث على التشاؤم.

فنزلت أول آية من الآيتين أعلاه تأمر المسلمين أن: «إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ»، فخلق هذا الإيعاز اختباراً لطيفاً، وكان محكاً للذين يزعمون قربهم من النبي صلى الله عليه وآله، فقد أبى الجميع اعطاء الصدقة والنجوى سوى شخص واحد وهو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، هنا تبين ما كان يجب أن يوضح ويفهمه المسلمون ويعتبروا به، وأخذوا منه الدرس البليغ.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٥٠

نفحات القرآن ج ٣٠٢٩

وبعد مدّة وجيزة نزلت الآية الثانية، ونقضت هذا الحكم واصبح معلوماً استحكام حب المال في قلوب البعض من الرغبة في نجوى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وان هذه النجوى غالباً ما كانت بشأن الأمور غير الضرورية، وكان القصد منها الحصول على الوجهة الاجتماعية.

وقد وردت هنا روايات عديدة مفادها أن علياً هو الرجل الوحيد الذي عمل بهذه الآية.

روى في شواهد التنزيل عن مجاهد، عن علي عليه السلام أنه قال: «إن في القرآن لآية ما عمل بها أحد قبلي ولا بعدى وهي آية النجوى قال: كان لي دينارٌ فبعته بعشرة دراهم فكلما اردت أن أناجي النبي صلى الله عليه وآله تصدقت بدرهم منه ثم نسخت» (١). ونقل في رواية اخرى عن أبي أيوب الأنصاري قال: نزلت هذه الآية في علي: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ... صدقة»، أن علياً ناجى النبي صلى الله عليه وآله عشر نجوات، يتصدق في كل نجوة بدينار (٢).

وجاء في نفس الكتاب أيضاً في رواية اخرى عن مجاهد أن في القرآن آية لم يعمل بها أحد غير علي بن أبي طالب عليه السلام حتى نسخت، وهي: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ...»، فهو قد ناجى رسول الله صلى الله عليه وآله وتصدق بدينار (٣). ونقلت في هذا الكتاب روايات اخرى عديدة بهذا الصدد تناهز عشر روايات!

وذكر السيوطي في تفسيره الروائي «الدر المنثور» هذه الرواية أيضاً بطرق عديدة (أكثر من سبع طرق)، لا سيما أنه ينقل عن «الحاكم النيشابوري» باقراره أن هذا الحديث صحيح، عن علي عليه السلام: «إن في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلي ولا أحد بعدى»، ثم ذكر بقية الحديث كما ذكرنا أعلاه عن شواهد التنزيل (٤).

وفي الكتاب نفسه ينقل عن الكثير من الرواة عن علي عليه السلام: «إن رسول الله صلى الله عليه وآله استشار علياً بشأن تحديد مقدار هذه الصدقة قائلاً: ما ترى ديناراً، قلت: لا يطيقونه، قال: فنصف دينار قلت: لا يطيقونه، قال: فكم، قلت: قلت: شعيرة قال: إنك لزهد، قال: فنزلت

(١) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٢٣١، ح ٩٥١.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٤٠، ح ٩٤٦.

(٣) المصدر السابق.

(٤) تفسير در المنثور، ج ٦، ص ١٨٥.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٥١

ءأشفتكم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات، قال: فبي خفف الله عن هذه الامة» (١).

وهناك رواية لطيفة بهذا الصدد ينقلها «البرسونى» فى تفسير «روح البيان» عن «عبد الله بن عمر» حيث كان يقول: «كان لعلى عليه السلام ثلاث لو كانت لى واحدة منهن كان أحبَّ إلَى من حمر النعم، تزويجه فاطمة عليها السلام، واعطاؤه الراية يوم خيبر، وآية النجوى» (٢).

وأورد الزمخشري ذلك أيضاً فى «الكشاف» (٣).

وكذلك القرطبي فى تفسير «الجامع لأحكام القرآن» (٤).

والطبرسى فى «مجمع البيان» (٥).

وفى الحقيقة أن «عبد الله بن عمر» أشار إلى ثلاث قضايا مهمّة وهى: إنَّ فاطمة عليها السلام وكما يعبر النبى صلى الله عليه وآله «سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين»، لم يكن لها كفؤ سوى على عليه السلام إذ كان رجل التاريخ بعد النبى صلى الله عليه وآله.

وقضية اعطائه الراية يوم خيبر، واحرازه للقب «كرار غير فرار»، بعد أن تقدم الآخرون وقفلوا خائبين، والظفر الذى تحقق من خلال ذلك يعدُّ منقبة أخرى لا نظير لها، وكذلك وجود آية فى القرآن ما عمل بها إلأعلى عليه السلام.

والمدحش أن البعض يصرون على التقليل من أهميّة هذه المنقبة، بل انكار كونها منقبة بشكل تام! وكالمعتاد فإنهم يتوسلون بمختلف المبررات والعلل الواهية، والتى لا أساس لها.

فتارة يدعون أن كبار الصحابة لما لم يقوموا بهذا العمل فلاّتهم لم يروا حاجة إليها! وأخرى يقولون: لم يكن لديهم متسع من الوقت لأن الآيه سرعان ما نسخت! وحيناً يقولون: إنَّ الآخرين كانوا يظنون أن اعطاء الصدقة والنجوى يؤدى إلى انزعاج الفقراء وذعر

(١) تفسير در المنثور، ج ٦، ص ١٨٥.

(٢) تفسير روح البيان، ج ٩، ص ٤٠٦.

(٣) الكشاف، ج ٤، ص ٤٩٤ (ذيل آيات البحث).

(٤) تفسير القرطبي، ج ٩، ص ٦٤٧٢.

(٥) تفسير مجمع البيان، ج ٩ و ١٠، ص ٢٥٢.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٥٢

الأغنياء، والفقراء عاجزون عن القيام بمثل ذلك، والأغنياء القادرون على ذلك يخشون التعرض للتأنيب إذا تركوه، وعلى هذا الأساس فإنَّ عدم عمل الآخرين بهذه الآيه لا يسلب الفضل عنهم (١).

ولكن، يبدو أن هؤلاء المفسرين الكبار! قد نسوا الآيه الثانية خلال اختلاقم لهذه المبررات، إذ وجه القرآن الكريم اللوم لمن تناجوا آنفاً وتركوا ذلك بعد نزول حكم الصدقة، فيقول تعالى «ءَأَشْفَقْتُمْ ان تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَى نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ».

ثم يعدُّ القرآن هذا الفعل وكأنه معصية، ويعتبرهم إجمالاً مشمولين بالتوبة «وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ»، ومن أجل تلافى هذا العمل القبيح أمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة واطاعه الله ورسوله.

فلو كان الوقت ضيقاً لما كان هناك ما يدعو للتأنيب واللوم، ولا- حاجة للتوبة، وإذا كان هدفهم استقطاب قلوب الفقراء وإزالة الاضطراب عن قلوب الأغنياء فهو عمل يستحق التشجيع والتكريم، فلماذا يوجه البارى تعالى اللوم لهم ويتحدث عن التوبة؟ إذن من خلال التأمل فى هذه الآيه يتبين جيداً أن عملهم كان قبيحاً.

فالواقع أن القضايا الواقعة لا تتفق والحكم المسبق لهؤلاء الاخوة، فإن كل شىء وحتى آيات القرآن الكريم يلفها النسيان، والحال أنها شاخصه أمامهم.

وهنا يقول البعض من أجل التقليل من أهمية هذه الفضيلة: لقد كان الفاصل الزمني بين نزول آية النجوى ونسخها ساعة واحدة فقط، لهذا لم يفلح كبار الصحابة بالعمل بها، فهؤلاء من الناسين أيضاً، حيث لم ينتبهوا إلى لحن آية النسخ، الآية التي توجهت إلى بعض الصحابة باللوم لتركهم الصدقة خشية الاملاق، وتغاضوا عن النجوى والآن فإن الله تعالى يقبل توبتهم. فاذا كان الفاصل الزمني بينهما ساعة واحدة فقط لن يبق مجال لهذه الجدالات، وعليه فمن المناسب أن تكون هناك رواية تقول: إنَّ الفاصل الزمني بينهما كان عشرة أيام «٢».

(١) التفسير الكبير، ج ٢٩، ص ٢٧٢؛ وتفسير روح المعاني، ج ٢٨، ص ٢٨.

(٢) في تفسير روح المعاني، نقل هذا القول عن مقاتل الذي كان معاصراً للمنصور الدوانيقي، ومن تلامذة التابعين.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٥٣

سؤال:

السؤال الوحيد الذي يبقى ههنا هو: كيف يعد هذا العمل فضيلة؟ وهل الأمر كما يقول بعض المتعصبين من المفسرين: أن لا العمل بها يعد فضيلة ولا تركها منقصة؟

أم أن الأمر كما جاء في الروايات الإسلامية من أن علياً عليه السلام كان يعتبرها منقبة عظيمة بالنسبة له، وأن عبد الله بن عمر كان يعدُّ الزواج من فاطمة عليها السلام سيده النساء وفتح خبير منقبة؟

لقد تبين الجواب عن هذا السؤال خلال البحوث المتقدمة، ونضيف: إنَّ أفضل طريق للحصول على جواب هذا السؤال هو الرجوع إلى القرآن الكريم والتمعن في الآية الناسخة (الثانية)، فهذه الآية تثبت أن الله تعالى كان يريد بهذا الحكم اختبار المسلمين، هل أنهم على استعداد لدفع شيء ما من أجل النجوى مع النبي صلى الله عليه وآله - حيث كانوا يزعمون أنها تجرى من أجل مصالح المسلمين، وأن يتصدقوا في سبيل الله؟

وهنا يخرج شخص واحد ظافراً من هذا الاختبار، وهو علي بن أبي طالب عليه السلام، أليس هذا هو الفخر بعينه؟ وبعبارة أخرى فإنَّ جميع الناس شملهم التأنيب والتوبيخ والتوبة الواردة في هذه الآية، والوحيد الذي لم يشمل هذا التوبيخ هو علي عليه السلام، فلماذا ياترى يُنكر بعض العلماء حقائق بهذا الجلاء والوضوح؟ اجيبوا أنتم؟!

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٥٥

١٨- آية السابقون

إشارة

«وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأُولَىٰ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ». (الواقعة/ ١٠-١٤)

روى في تفسير «شواهد التنزيل» ل «الحاكم الحسكاني» عن «ابن عباس»: «السُّبَّاقُ ثَلَاثَةٌ: سَبَقَ يُوْشَعُ بْنُ نُوْنٍ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَسَبَقَ صَاحِبُ يَاسِينَ إِلَىٰ عِيسَىٰ وَسَبَقَ عَلِيٌّ إِلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ» (١).

وروى في الكتاب نفسه عن «ابن عباس» قوله: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله عن تفسير هذه الآية، فقال: «حدثني جبرئيل

بتفسيرها، قال ذاك علي وشيعته إلى الجنة» (٢).

هذان التفسيران لا يتعارضان مع بعضهما، لأنّ علياً عليه السلام كان سبباً إلى الإيمان بالنبي صلى الله عليه وآله وكذلك فهو سبباً إلى الجنة، وفي الحقيقة أنّ بينهما ارتباط والتحام لا ينفك أبداً. وفي الكتاب نفسه نُقلت عدّة أحاديث أخرى في هذا الصدد.

وفي تفسير «الدر المنثور» أيضاً نُقلت روايتان عن «ابن عباس» في هذا المجال، في احدهما ينقل «ابن أبي حاتم»، و «ابن مردويه» عن «ابن عباس» في تفسير هذه الآية، قال:

«يوشع بن نون سبق إلى موسى ومؤمن آل ياسين سبق إلى عيسى وعلي بن أبي طالب سبق إلى رسول الله صلى الله عليه وآله» (٣). وفي الكتاب نفسه ينقل حديثاً آخر بنفس المضمون (٤).

(١) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٢١٣، ح ٩٢٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٢١٥ و ٢١٦، ح ٩٢٧.

(٣) تفسير در المنثور، ج ٦، ص ١٥٤.

(٤) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٥٦

ومن الذين نقلوا هذه الرواية هو «ابن المغازلي» (على ضوء نقل ابن البطريق) في كتاب «العمدة»، و «سبط ابن الجوزي» في «التذكرة»، و «ابن كثير» في «تفسيره»، و «ابن حجر» في «الصواعق»، و «العلامة الشوكاني» في «فتح القدير»، و «الشيخ سليمان القندوزي» في «ينابيع المودة» (١).

والمسألة الجديرة بالاهتمام أيضاً هي أنّ «القاضي روز بهان» الذي يتّصف بتعصب خاص في القضايا المتعلقة بالإمامة والخلافة، وكتابه المسمى «ابطال نهج الحق» شاهد على هذا المعنى يقول في معرض اجابته للعلامة الحلّي بشأن هذه الآية (حيث ينقل العلامة الحلّي في كتابه، عن طريق أهل السنّة عن ابن عباس سابق هذه الاميّة على بن أبي طالب) في كتابه «ابطال نهج الحق»: هذا الحديث جاء في روايات أهل السنّة ولكن بهذه العبارة:

«سبّاق الامّة ثلاثة: مؤمن آل فرعون، وحبيب النجار، وعلي بن أبي طالب» ثم يضيف: ولا شك أنّ علياً عليه السلام سابق في الإسلام، وصاحب السابقة والفضائل التي لا تحصى ولكن لا تدل الآية على نص بإمامته (٢).

ولكن ينبغي الالتفات إلى عدم قول أي أحد بأنّ هذه الأحاديث لوحدها تعني النصّ على إمامة علي بن أبي طالب عليه السلام، بل الغرض أنّنا عندما نستجمع هذه الآيات والروايات مع بعضها نرى أنّ علياً عليه السلام ابرز شخص في الامّة الإسلامية كان لائقاً لهذا المقام، ولا يلحقه أحد في هذا المجال.

فهل من المناسب أن نقدّم غيره عليه مع كل هذه المناقب التي لا تقبل الانكار، وتتبع غيره مع وجوده؟!!

(١) احقاق الحق، ج ٣، ص ١١٤ - ١٢٠.

(٢) المصدر السابق، ص ١٢١.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٥٧

نستأنف هذا البحث بذكر أمرين:

١- مَنْ الْمَقْصُودُ مِنْ: «قَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ»؟

في سياق الآيات المتقدمة، وبعد ذكر القرآن الكريم لمنزلة السابقين الرفيعة على أنهم المقربون لدى الله تعالى وأن منزلتهم في جنات النعيم، يضيف: «ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ».

ينقل الحاكم الحسكاني في «شواهد التنزيل» عدّة روايات عن «محمد بن فرات»، و «محمد بن سهل»، و «علي بن عباس» عن «جعفر بن محمد عليه السلام» أنه قال في تفسير آية:

«وقليل من الآخرين» هو علي بن أبي طالب عليه السلام (١).

ومن البديهي أن ليس مفهوم الآية أن جنّة هذه الامّة مختصّة به، بل إنّ مقام السبق في الإيمان يستدعي مقامات سامية في الجنّة والقرب من الله تعالى حيث يختص بعلي بن أبي طالب عليه السلام (بعد النبي صلى الله عليه وآله).

من هنا ففي الآيات اللاحقة من هذه السورة التي توضّح منازل ومزايا طائفة اخرى من أهل الجنّة (أصحاب اليمين)، يقول تعالى في آخر المطاف: «ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ». (الواقعة / ٣٩-٤٠)

واضح أن أصحاب اليمين وإن كانوا من أهل الجنّة إلّا أنهم يُدانون «المقربين من السابقين».

٢- مَنْ هُوَ أَوَّلُ مُسْلِمٍ؟**إشارة**

هذا بحث مهم «مَنْ هُوَ أَوَّلُ مَنْ آمَنَ»؟ والبحث حوله لا تخفى أهميته؟

فقد اتفقت الامّة الإسلامية جميعها على أن خديجة الكبرى عليها السلام كانت أول مَنْ آمَنَ مِنَ النِّسَاءِ، أمّا من الرجال فبالرغم من اصرار البعض على تعقيد المسألة وتعريضها للبحث

(١) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٢٩٨-٢٩٩، الأحاديث ٩٣٢-٩٣٥.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٥٨

والجدال، فمن خلال تفحص الأحاديث والتواريخ لا يبقى شك لكل مراقب محايد، بأنّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام كان أول مؤمن، فهو كان أول مصدّق برسول الله صلى الله عليه وآله وأول مَنْ بايعه، وأول مَنْ صَلَّى معه.

إنّ القرائن والأدلة على هذه القضية متوفرة في جميع المصادر الإسلامية حيث نشير فيما يأتي إلى جانب منها:

لقد روى ما لا يقل عن ثمانية عشر من الصحابة وبطرق مختلفة- هذا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله بأنّ علياً عليه السلام كان أول مَنْ آمَنَ مِنَ الرِّجَالِ وَصَلَّى مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ:

١- يقول أبو سعيد الخدري وهو من كبار الصحابة: أن رسول الله صلى الله عليه وآله ضرب على كتف علي عليه السلام وقال: «يا علي لك سبع خصال لا يحاجك فيهن أحد يوم القيامة أنت أول المؤمنين إيماناً بالله...» (١).

٢- تقول عائشة: نقلت فاطمة عليها السلام هذا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال لها: «رَوَّجْتُكَ أَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ عِلْمًا وَأَقْدَمَهُمْ سَلْمًا وَأَفْضَلَهُمْ حِلْمًا» (٢).

٣- يقول ابن عباس: سمعت «عمر بن الخطاب» يقول:

كفوا عن ذكر علي بن أبي طالب فقد رأيت من رسول الله صلى الله عليه وآله فيه خصالاً لئن تكون لي واحدة فهي في آل الخطاب

أحب اليّ مما طلعت عليه الشمس، كنت أنا وأبو بكر وأبو عبيدة في نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله فانتهيت إلى باب أم سلمة، وعلى قائم على الباب فقلنا:

أردنا رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: يخرج إليكم، فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله فصرنا إليه فاتكأ على علي بن أبي طالب ثم ضرب بيده منكبه، ثم قال: «إنك مخاصم تخاصم، أنت أول المؤمنين إيماناً، وأعلمهم بأيام الله، وأوفاهم بعهده، وأقسمهم بالسوية، وأرأفهم بالرعية وأعظمهم رزية» (٣).

إنّ هذا الحديث يكشف عن قضايا كثيرة لا يستوعبها هذا البحث.

(١) أورد هذا الحديث «أبو نعيم الاصفهاني» في «حلية الاولياء»، ج ١، ص ٦٦.

(٢) ينقل هذا الحديث «ابن عساكر» في «تاريخ دمشق» في ترجمة الإمام علي عليه السلام ج ١، ص ٢٤٤.

(٣) كنز العمال، ج ١٣، ص ١١٧.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٥٩

٤- يروى «معاذ بن جبل» عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال لعلي عليه السلام: «تخصم الناس بسبع لا يحاجك فيه أحد من قريش أنت أولهم إيماناً بالله» (١).

٥- تروى «أسماء بنت عميس» زوجة جعفر بن أبي طالب، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لفاطمة: «زوجتك أقدمهم سلماً وأعظمهم حلاً وأكثرهم علماً» (٢).

٦- يقول «سلمان الفارسي»: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «أولكم وروداً على الحوض، أولكم إسلاماً علي بن أبي طالب» (٣).

٧- يقول «أبو سخيلة» حججت مع سلمان فنزلنا بأبي ذر فكننا عنده ما شاء الله، فلما حان منا خوف قلت: يا أبا ذر اني ارى أموراً قد حدثت واني خائف أن يكون في الناس اختلاف فإن كان ذلك فما تأمرني؟ قال: «إلزم كتاب الله عزّ وجلّ وعلي بن أبي طالب فأشهد أنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: علي أول من آمن بي، وأول من يضافحني يوم القيامة، وهو الصديق الأكبر وهو الفاروق يفرق بين الحق والباطل» (٤).

٨- يقول «عبد الرحمن بن عوف» في حديث في ذيل آية «السابقون الاولون»، كانوا عشرة انفار من قريش: «كان أولهم إسلاماً علي بن أبي طالب» (٥).

٩- ينقل جمال الدين أبو الحجاج في كتاب «تهذيب الكمال» عن «أبو رافع» من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله: «أول من أسلم من الرجال علي» (٦).

١٠- يروى أنس بن مالك خادم رسول الله أنه صلى الله عليه وآله قال: «أول هذه الامة وروداً علي

(١) أورد هذا الحديث شهاب الدين الحسيني الشافعي في كتاب «توضيح الدلائل»، ص ١٧١ (حسب نقل احقاق الحق، ج ٢٠، ص ٤٥٥).

(٢) تاريخ ابن عساكر، ج ١، ص ٢٤٥.

(٣) أورد هذه الرواية محمد بن أبي بكر في كتاب «الجوهرة»، ص ٨، ونقلها صاحب كتاب كنز العمال أيضاً دون ذكر سندها، ج ١١ ص ٦١٦.

(٤) مختصر تاريخ دمشق، ج ١٧، ص ٣٠٦، حسب نقل احقاق الحق، ج ٢٠، ص ٤٧٢، وأورد هذا الحديث كنز العمال من عبارة (إنّ

هذا أول من آمن بي إلى الأخير) في ج ١١، ص ٦١٦، ح ٣٢٩٩٠.

(٥) مختصر تاريخ دمشق، ج ١٧، ص ٣٠٧، تأليف الإمام محمد بن مكرم المعروف بابن منظور).

(٦) تهذيب الكمال، ج ٣، ص ٨٥، (طبقاً لنقل احقاق الحق، ج ٢٠، ص ٣٦٧).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٦٠

الحوض أولها إسلاماً، على بن أبي طالب» (١).

١١- يقول ابن عباس يمتاز على عليه السلام بأربع خصائص لشأن في احد غيره: هو اول عربى وعجمى صلى مع رسول الله صلى الله عليه وآله (٢).

ويقول في موضع آخر: «أول من أسلم بعد خديجة، على بن أبي طالب» (٣).

١٢- ينقل المحدث المعروف النسائي في كتاب «السنن» عن زيد بن أرقم أنه قال: «أول من أسلم مع رسول الله صلى الله عليه وآله على بن أبي طالب» (٤).

١٣- ينقل أبو أحمد الجرجاني الشافعي في كتاب «الكامل في الرجال» عن مالك بن الحوريث أنه قال: «كان على أول من أسلم من الرجال وخديجة أول من أسلم من النساء» (٥).

١٤- تقول ليلي الغفارية، وهي امرأة كانت تداوى جرحى الحرب في عصر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: خرجت مع على عليه السلام بالبصرة فلما رأيت عائشة واقفة دخلني شيء من الشك فأتيته، فقلت: هل سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله فضيلة في علي؟ قالت: نعم، دخل علي علي رسول الله صلى الله عليه وآله وهو علي فراش لي وعليه جرد قطيفة فجلس بينهما فقلت له: أما وجدت مكاناً هو أوسع لك من هذا؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله: «يا عائشة دعى لي أخي فإنه أول الناس بي إسلاماً وآخر الناس بي عهداً عند الموت وأولى الناس بي يوم القيامة» (٦).

١٥- ينقل أحمد بن حنبل أحد الأئمة الأربعة لأهل السنة في مسنده- حديثاً عن الصحابي المعروف «معقل بن يسار»: «إني كنت ذات يوم جالساً عند الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله

(١) أورد هذا الحديث ابن عديم الحلبي وهو من علماء القرن السابع الهجري، في كتابه تاريخ حلب ص ٢٩٥.

(٢) المختار في مناقب الابرار، ص ١٦، طبقاً لنقل احقاق الحق، ج ٢٠ ص ٤٥٧).

(٣) ورد هذا الحديث في كتاب آل محمد، ص ١٧٤، عن حسام الدين الحنفي.

(٤) احقاق الحق، ج ٢٠، ص ٤٧٥.

(٥) الكامل في الرجال، ج ٦، ص ٢٣٧٨.

(٦) نقل هذا الحديث محمد بن مكرم الأنصاري في كتاب مختصر تاريخ دمشق، ج ١٧، ص ٣٠٨.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٦١

فقال: هل لك في فاطمة عليها السلام تعودها؟ فقلت: نعم، فقام متوكئاً عليّ، فقال: أما أنه سيحمل ثقلها غيرك ويكون أجرها لك، قال: فكأنه لم يكن علي شيء حتى دخلنا علي فاطمة عليها السلام، فقال لها: كيف تجدينك؟ قالت: والله لقد اشتد حزني، واشتدت فاقتي وطال سقمي قال:

«أوما ترضين أنني زوجتك أقدم امتي سلماً وأكثرهم علماً وأعظمهم حلاً» (١).

تجدد الإشارة إلى أن هذا الحديث أورده ابن أبي الحديد في «شرح نهج البلاغة ج ٣ ص ٢٥٧»، وابن عساكر في «تاريخ دمشق، ج ١، ص ٢٣٢»، والهيثمي في «مجمع الزوائد، ج ٩، ص ١٠١»، والمتقى الهندي في «كنز العمال، ج ١٢، ص ٢٠٥»، وأورده جمع آخر من

علماء السنّة في كتبهم.

- ١٦- يقول «عبد الله بن صامت» (ثابت) وهو من صحابة الرسول صلى الله عليه وآله: دخلنا يوماً على رسول الله فقلنا: «من أحب أصحابك إليك؟ فإن كان أمر كُنّا معه، وإن كان ناسئته كُنّا دونه، قال هذا على أقدمكم مسلماً وإسلاماً» (٢).
- ويظهر جلياً من هذا الحديث بأنّ «عبد الله بن ثابت» وأصحابه كانوا يبحثون عن رجل أفضل الناس جميعاً بعد النبي صلى الله عليه وآله للإمامة والولاية، فأشار النبي صلى الله عليه وآله إلى الإمام على عليه السلام معزّفاً إياه لتحمل هذا الأمر.
- ١٧- وينقل «بريدة» وهو صحابي من صحابة النبي صلى الله عليه وآله قصةً مشابهةً لقصة «معقل بن يسار»، حيث نقرأ في نهاية تلك القصة أنّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وأسى فاطمة الزهراء عليها السلام وقال: «أما ترضين أنّ الله زوجك من أقدم امتي إسلاماً وأغزهم علماً وأفضلهم حِلماً؟» ثم يضيف: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ أبنيك سيداً شاباً أهل الجنة» (٣).
- ١٨- الإمام على بن أبي طالب عليه السلام نقل بنفسه هذا المعنى في حديثه المقبول من قبل الجميع، وقد ورد في كتاب «الجوهرة» تأليف محمد بن أبي بكر الأنصاري: إنّ الإمام

(١) مسند أحمد، ج ٥، ص ٢٦.

(٢) نقل هذا الحديث أحمد بن مردويه في كتاب المناقب، احقاق الحق، ج ١٥، ص ٣٣٦.

(٣) أورد هذا الحديث «ابن عساكر» في «تاريخ دمشق» في كتاب «ارجح المطالب» تأليف العلامة التستري، ص ١٠٧ و ٣٩٦ فقط.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٦٢

على عليه السلام قال على منبر البصرة: «أنا الصديق الأكبر، آمنت قبل أن يؤمن أبو بكر، وأسلمت قبل أن يسلم» (١).

كذلك ينقل «الشيخ محمد بن مكرم الأنصاري» في كتابه «مختصر تاريخ دمشق» عن الإمام أنّه قال: «أنا أوّل مَنْ أسلم» (٢).

وهناك موارد متعددة في «نهج البلاغة» تستند على هذا المعنى منها أنّ الإمام يقول في الجملة رقم ١٣١: «اللهم إنّي أول من أناب وسمع وأجاب، لم يسبقني إلّا رسول الله صلى الله عليه وآله بالصلاة» (٣).

تجدد الإشارة إلى أننا خرجنا بعض الشيء في هذا البحث عن أسلوبنا في هذا التفسير واسهبنا في الحديث، إلّا أنّ أهميّة المسألة أوجبت علينا التوسّع في البحث أكثر مما ينبغي.

على أزيدة حال نختم هذه الروايات والروايات التي أوردتها «ابن هشام» في تاريخه المعروف «السيرة النبوية» مع الاعتراف بهذه الحقيقة، أنّ المواضيع غير المطروقة كثيرة في هذا الباب.

إنّه ينقل أنّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في أوائل أيام الإسلام كان يذهب إلى بعض مفاوز مكة عند دخول وقت الصلاة لأداء الصلاة، ويرافقه على بن أبي طالب - خفية - فقط ... وذات يوم قال له أبوه أبو طالب: يا ولدي ما هذا الدين الذي أنت عليه؟ قال: يا أبت! آمنت بالله وبرسول الله، وصدّقته بما جاء به، وصليت معه لله واتبعته، فقال له: أمّا أنّه لم يدعك إلّا إلى خير فالزمه (٤).

(١) الجوهرة، ص ٨، وقد نقل هذا المعنى طائفة أخرى مثل «أبو أحمد الجرجاني» في كتاب الكامل في الرجال، ج ٣، ص ١١٢٣،

وتوضيح الدلائل، ص ١٧١، و مختصر تاريخ دمشق وغيرها.

(٢) مختصر تاريخ دمشق، ج ١٧، ص ١١٨.

(٣) ورد هذا المعنى في الخطبتين ٧١ و ١٩٢ أيضاً.

(٤) سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٢٦٣.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٦٣

إنَّ أسبقية إيمان على عليه السلام من الوضوح والجلء بحيث إنَّ جمعاً من الشعراء المعروفين ذكروه في أشعارهم كواحدٍ من مناقب الإمام على عليه السلام ومفاخره.

يقول أحدهم في هذا المجال:

أليس أول مَنْ صَلَّى لقبلكم وأعلم الناس بالقرآن والسنن؟

ويقول آخر:

فهذا وفي الإسلام أوَّل مسلم وأوَّل مَنْ صَلَّى وصام وهللاً

وينقل المرحوم «العلامة الأميني» في «الغدِير» بعد ذكره لعشرة شعراء أنهم انشدوا هذا المعنى في طيات أشعارهم «١».

وجدير بالذكر أيضاً أنَّ العلامة الأميني ينقل في ذلك الكتاب أكثر من مائة حديث آخر عن «الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله»، و «أمير المؤمنين عليه السلام»، و «الصحابه»، و «التابعين»، و «المؤرخين»، و «المحدثين»، كلها تنصُّ على أنَّ علياً عليه السلام أول مَنْ آمن برسول الإسلام صلى الله عليه وآله من الرجال.

سؤال واحد فقط!

بقي هنا سؤال معروف كان مطروحاً بين بعض «المرجفين» منذ القرون الأولى لظهور الإسلام، وهو «صحيحٌ أنَّ علياً عليه السلام أول مَنْ أسلم من الرجال، ولكن: هل يصح إسلامٌ غلامٍ في العاشرة من عمره؟» ولو سلّمنا بجعل زمان بلوغه معياراً فإنَّ جمعاً آخر آمنوا بالإسلام قبله على هذا الأساس.

الجواب:

من المناسب أن نورد هنا المحاججة التي جرت بين «المأمون» الخليفة العباسي، مع أحد علماء أهل السنة المعروفين في عصره ويُدعى «اسحاق»، وقد أورد هذا الحديث «ابن عبد ربه»، في «العقد الفريد».

(١) الغدير، ج ٣، ص ٢٣١ - ٢٣٣.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٦٤

إذ قال له «المأمون»: يا اسحاق أى الأعمال كان أفضل يوم بعث الله رسوله؟

قال اسحاق: الإخلاص بالشهادة، قال المأمون: أليس السبق إلى الإسلام؟ قال اسحاق: نعم، قال المأمون: فهل علمت أحداً سبق علياً إلى الإسلام؟ قال اسحاق: إنَّ علياً أسلم وهو حديث السن لا يجوز عليه الحكم، وأبو بكر أسلم وهو مستكمل يجوز عليه الحكم ... فقال المأمون: أخبرني عن إسلام علي حين أسلم؟ فهل يخلو رسول الله صلى الله عليه وآله حين دعاه إلى الإسلام من أن يكون دعاه بأمر الله أو تكلف ذلك من نفسه؟ ثم قال: يا اسحاق لا- تنسب رسول الله إلى التكلف فإنَّ الله يقول: «وما أنا من المتكلفين»، قال اسحاق:

دعاه بأمر الله، قال المأمون: فهل من صفه الجبار جلّ ذكره أن يكلف رسله دعاء من لا يجوز عليه حكم قد تكلف رسول الله صلى الله عليه وآله من دعاء الصبيان ما لا يطيقون ... أترى هذا جائزاً عندك أن تنسبه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال اسحاق: أعوذ بالله «١».

ويضيف المرحوم العلامة الأميني رحمه الله) بعد نقله هذا الحديث من «العقد الفريد»: قال أبو جعفر الاسكافي المعتزلى المتوفى سنة ٢٤٠ في رسالته: قد روى الناس كافة افتخار على عليه السلام بالسبق إلى الإسلام وأنَّ النبي صلى الله عليه وآله استنبت يوم الاثنين

وأسلم على يوم الثلاثاء، وأنه كان يقول: صليت قبل الناس سبع سنين وأنه مازال يقول: أنا أول من أسلم ويفتخر بذلك ويفتخر له به أولياؤه، وما دحوه، وشيعته في عصره، وبعد وفاته، والأمر في ذلك أشهر من كل شهير، وقد قدمنا منه طرفاً وما علمنا أحداً من الناس فيما خلا استخف بإسلام على عليه السلام، ولا تهاون به، ولا زعم أنه أسلم إسلام حدث غرير وطفل صغير، ومن العجب أن يكون مثل العباس وحمزة ينتظران أبا طالب وفعله ليصدوا عن رأيه، ثم يخالفه على ابنه لغير رغبة ولا رهبة يؤثر القلة على الكثرة (٢).

وخلاصة الحديث توضح من خلال النقاط التالية:

أولاً: إن رسول الإسلام صلى الله عليه وآله قبل إسلام على عليه السلام، ومن لم يقرّ بإسلامه في ذلك السن،

(١) العقد الفريد، ج ٣، ص ٤٣، بشكل مختصر.

(٢) الغدير، ج ٣، ص ٢٣٧.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٦٥

فانه في الواقع إنما يُشكل على الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله.

ثانياً: من خلال الروايات المشهورة التي تمت الإشارة إليها آنفاً ورد في قصة يوم الدار أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أعدّ طعاماً ودعا عشيرته الأقربين من قريش لتناول الطعام ودعاهم للإسلام وأن: أول من يليب دعوته صلى الله عليه وآله في الدفاع عن الإسلام سيكون أخاه ووصيه، فلم يلب أحد دعوته صلى الله عليه وآله سوى على بن أبي طالب، حيث قال عليه السلام: «أنا أعينك وابعك» فقال صلى الله عليه وآله: «أنت أخي ووصي وخليفتي من بعدى» (١).

فهل يصدق احد أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله يتخذ- من لم يبلغ في ذلك اليوم سن البلوغ، ولم يكن إسلامه مقبولاً أيضاً حسب قول المرجفين- أخواً ووصياً وخليفة له من بعده ويدعو الآخرين لمؤازرته إلى أن يصل الأمر ليقول رؤوس الشرك لابي طالب مستهزئين: يجب أن تسمع لابنك وتوازره.

إن سن البلوغ ليس شرطاً في صحة الإسلام بدون أدنى شك، فكل صبي مميز عاقل بما فيه الكفاية يؤمن بالإسلام على فرض عدم إسلام أبيه، يفصل عن أبيه ويحتسب في زمرة المسلمين.

ثالثاً: يستفاد من القرآن الكريم أن البلوغ ليس شرطاً حتى في النبوة، وأن بعض الأنبياء بلغوا هذا المقام في سن الطفولة، كما يقول تعالى بخصوص النبي يحيى «وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا». (مريم/ ١٢)

وقد جاء كذلك في قصة عيسى عليه السلام أنه قال بصريح الكلام حين طفولته: «أني عبدُ اللهِ آتاني الكتابَ وجعلني نبياً». (مريم/ ٣٠)

وأكثر من هذه الامور جميعاً أن رسول الإسلام صلى الله عليه وآله قبلَ علياً عليه السلام حتى أنه اتخذته في يوم الدار أخواً ووصياً ووزيراً وخليفة له من بعده.

وعلى أية حال فإن الروايات التي تقول إن علياً عليه السلام هو أول من قبلَ دعوة الرسول صلى الله عليه وآله تعد فضيلة لا مثيل لها للإمام لا يساويه فيها أحد، ولهذا السبب فإنه أفضل الأمة لخلافه الرسول صلى الله عليه وآله.

(١) تفسير در المنثور، ج ٦، ص ٢٦٠.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٦٧

إشارة

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذِكْرًا وَتَعِيَهَا أذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾. (الحاقة / ١٢)

لقد كان الهدف هو أن نجعل من نجاه المؤمنين بواسطة سفينة نوح واغراق الكافرين بواسطة الطوفان تذكراً (لكم) لتعيها (والحوادث المشابهة لها) اذُنٌ واعية (كي تنقلوها للآخرين فيتعتظوا).

ينقل «السيوطي» في «الدر المنثور» من سته طرق عن «بريدة» الصحابي المعروف، عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال لعلي عليه السلام: «إن الله أمرني أن ادنيك ولا اقصيك، وأن اعلمك وأن تعي، وحق لك أن تعي، فنزلت هذه الآية: وَتَعِيَهَا أذُنٌ وَاعِيَةٌ» (١). وينقل في نفس ذلك الكتاب عن «أبو نعيم الاصفهاني» في «حلية الاولياء» عن علي عليه السلام أن الرسول صلى الله عليه وآله قال له ... ثم يذكر نفس مضمون حديث «بريدة»، ويضيف في النهاية: «فَأَنْتَ أذُنٌ وَاعِيَةٌ لِعَلْمِي» (٢).

وينقل أيضاً في نفس ذلك الكتاب من خمسة طرق عن «مكحول» وهو احد خدام النبي صلى الله عليه وآله، عندما نزلت آية «وتعيها اذُنٌ واعية» قال الرسول صلى الله عليه وآله: «سألت ربي أن يجعلها اذن علي، قال محكول: فكان علي يقول ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله شيئاً فنسيته» (٣).

(١) تفسير در المنثور، ج ٦، ص ٢٦٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٦٨

ونقل «الزمخشري» الحديث الأخير في «الكشاف» أيضاً دون أن يشكل عليه (١).

ونقل جمع آخر من المفسرين مثل «الفخر الرازي» في «التفسير الكبير» (٢)، و «الآلوسي» في «روح المعاني» (٣)، و «البرسوني» في «روح البيان» (٤)، و «القرطبي» في «التفسير الجامع» (٥)، نقلوا جميعاً نهاية الآية بخصوص الحديث الأخير. وأورد «الطبري» أيضاً في تفسيره هذا الحديث وطائفة أخرى من الأحاديث بصدد هذا الموضوع. (٦)

وقد ذكر «الحاكم الحسكاني» في «شواهد التنزيل» ثلاثة عشر حديثاً في نهاية هذه الآية حيث نقلها من عدة رواة، وتنتهي سلسلة سندها إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، وبعض هذه الأحاديث مروية عن «مكحول» خادم النبي صلى الله عليه وآله، وبعض منها عن «بريدة»، وبعضها عن شخص «علي بن أبي طالب عليه السلام»، والبعض الآخر عن «جابر بن عبد الله الأنصاري»، حيث ستطالعون نماذج من تلك الأحاديث أدناه:

نقرأ في حديث عن «أبو الدنيا» عن علي عليه السلام أنه عندما نزلت الآية «وَتَعِيَهَا أذُنٌ وَاعِيَةٌ»، قال لى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «سألت الله أن يجعلها اذنك يا علي» (٧).

ونقرأ في حديث آخر عن «مكحول» أنه عندما تلا الرسول صلى الله عليه وآله الآية «وَتَعِيَهَا أذُنٌ وَاعِيَةٌ»، التفت إلى علي عليه السلام وقال: «سألت الله أن يجعلها اذنك» (٨).

وفي حديث آخر عن «بريدة» أورد مضمون الحديث الذي نقلناه باديء الأمر نصاً (٩) واخيراً ينقل عن «جابر بن عبد الله الأنصاري» أنه عندما نزلت الآية الآنفه الذكر، سأل

(١) تفسير الكشاف، ج ٤، ص ٦٠٠.

- (٢) تفسير الكبير، ج ٣٠، ص ١٠٧.
- (٣) تفسير روح المعاني، ج ٢٩، ص ٤٣.
- (٤) تفسير روح البيان، ج ١٠، ص ١٣٦.
- (٥) تفسير القرطبي، ج ١٠، ص ٦٧٤٣.
- (٦) تفسير جامع البيان، ج ٢٩، ص ٣٥.
- (٧) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٢٧١.
- (٨) المصدر السابق، ص ٢٧٧ ح ١٠١٥.
- (٩) المصدر السابق، ص ٢٨٢، ح ١٠٢٢.
- نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٦٩
- الرسول الله تعالى أن يجعل اذن على عليه السلام (مصدقها الأتم) وتحقق مراد النبي هذا «١».
- ونقل مؤلف كتاب «الفضائل الخمسة» هذا الحديث أيضاً، إضافة لما ذكر من «كنز العمال»، و «نور الابصار»، و «مجمع الزوائد» للهيثمي، و «أسباب النزول» للواحدى «٢».

النتيجة:

مع الأخذ بنظر الاعتبار ما نقلناه سابقاً بخصوص شروط الإمامة والولاية وخلافة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله والتي تنص على ضرورة تمتع الأئمة الإلهيين بالمقدار الكافي والسهم الأعظم من العلم والمعرفة لكي يتمكنوا تحمّل مسؤولية قيادة الأمة، وهداية الخلق فى أمر الدين والدنيا، ويحفظوا تعاليم الإسلام وقوانين الله تعالى ويحرسوا القرآن والسنة، ومع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ علياً عليه السلام كان الشخص الوحيد من الأمة الذى يمتاز بمثل هذه المكانة والموهبة بما يطابق الروايات الآنفه الواردة فى تفسير الآية المذكورة، فقد ثبت لنا دون أدنى شك بأنه لم يكن اليق منه لاحراز مقام الإمامة والخلافة أحد.

(١) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٢٨٠، ح ١٠١٩.

(٢) الفضائل الخمسة، ج ١، ص ٣٢٠ و ٣٢١.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٧١

٢٠- آية المحبة

«إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا». (مريم / ٩٦)

لهذه الآية دلالة واضحة على أنّ الإيمان والعمل الصالح هما مصدر المحبة بين فئات المجتمع.

أجل، للإيمان والعمل الصالح جاذبية عجيبة، ذلك أنّها تجذب القلوب نحو بعضها كما يجذب المغناطيس الحديد نحوه، وحتى الأفراد الملوثون والنجسون يستأنسون بالطاهرين والصالحين من الأفراد.

ونقلت روايات كثيرة فى تفسير هذه الآية الشريفة فى المصادر المعروفة لأهل السنة بواسطة عدّة رواة عن شخص الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله تنص على أنّ هذه الآية نزلت فى على بن أبى طالب عليه السلام، وقد قلنا مراراً بأنّ نزول الآية فى أحد الأفراد، يراد منه بأنّ ذلك الشخص هو المصدق الأتم لتلك الآية، ولا يتنافى مع شمولية معنى الآية.

ونتوجه هنا نحو المنابع الإسلامية متناولين جوانب من هذه الروايات بالبحث والدراسة:

في «شواهد التنزيل» ينقل روايات متعددة عن «البراء بن عازب»، و «أبو رافع»، و «جابر بن عبد الله الأنصاري»، و «ابن عباس»، و «أبو سعيد الخدري»، و «محمد بن الحنفية»، و بطرق متعددة على أن هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب عليه السلام بأن جعل الله محبته في قلب كل مؤمن.

وجاء في حديث عن أبي سعيد الخدري أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله قال لعلي عليه السلام «يا أبا

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٧٢

الحسن! قل اللهم اجعل لي عندك عهداً واجعل لي في صدور المؤمنين مودة» (١).

فنزلت الآية الكريمة: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا»، ثم أردف قائلاً: «لا تلقى مؤمناً إلا في قلبه حبٌ لعلي بن أبي طالب» (٢).

ويلاحظ هذا المعنى في حديث آخر عن «جابر بن عبد الله الأنصاري» باختلاف قليل جداً (٣).

ونقل هذا المضمون أيضاً عن «البراء بن عازب» عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله (٤).

وكذلك نقل هذا المعنى عن «محمد بن الحنفية» (بعده طرق) مع هذا الفارق أنه في هذه الروايات وردت محبة ذرية وأهل بيت علي عليه السلام إلى جانب محبته (٥).

وقد وردت في هذا الكتاب عشرون رواية تقريباً وكلها تتناول هذا المعنى بطرق متعددة.

ونقل «السيوطي» هذا الحديث أيضاً في «الدر المنثور» بطرقه المختلفة عن «البراء بن عازب»، وعن «ابن عباس» (٦).

ونقل «الزمخشري» في تفسير «الكشاف» هذه الرواية في نهاية الآية الشريفة أن الرسول صلى الله عليه وآله قال لعلي عليه السلام:

«يا علي قل اللهم اجعل لي عندك عهداً واجعل لي في صدور المؤمنين مودة فأنزل الله هذه الآية» (٧).

وأورد المفسر المعروف «القرطبي» عين هذا المضمون في تفسيره، ولم يشكل عليه أيضاً مثل الكشاف (٨).

(١) هذا التعبير إشارة للآية ٨٧ من هذه السورة التي تقول حول مسألة الشفاعة أنهم لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً.

(٢) شواهد التنزيل، ج ١ ص ٣٦٥، ح ٥٠٤.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق، ص ٣٥٩، ح ٤٨٩ و ٤٩٠.

(٥) شواهد التنزيل، ج ١، ص ٣٦٦ والأحاديث ٥٠٥ و ٥٠٦ و ٥٠٧ و ٥٠٨ و ٥٠٩.

(٦) تفسير در المنثور، ج ٤، ص ٢٨٧.

(٧) تفسير الكشاف، ج ٣، ص ٤٧.

(٨) تفسير القرطبي، ج ٦ ص ٤٢٠ (ذيل آية مورد البحث).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٧٣

ومن الشخصيات المعروفة التي نقلت هذا الحديث في نهاية الآية «سبط ابن الجوزي» في «التذكرة» (١)، و «محب الدين الطبري» (٢)، و «ابن الصباغ المالكي» في «الفصول المهمة»، (٣) و «الهيثمي» في «الصواعق» (٤)، و «ابن صبان» في «اسعاف الراغبين» (٥)، وقد وردت اسماؤهم في الكتب المبسوطة حول الإمامة والولاية.

والمفسر الوحيد الذي اتخذ موقفاً سلبياً إزاء هذا الحديث بين المفسرين المعروفين «هو الالوسي» في «روح المعاني»، حيث إنه ينقل الحديث طبقاً لما هو معمول به ثم يسعى إلى التقليل من شأنه أو اهماله بالكامل.

إنه وبعد أن ينقل الحديث عن «البراء بن عازب» ويؤيده مع حديث «محمد بن الحنفية» يقول: «المعيار في تفسير الآية عموم اللفظ دون خصوص سبب النزول» (٤).

قلنا مراراً ونعود فنقول مرة أخرى لا يدعى أحد أن سبب النزول يحدد المفهوم الشامل للآيات، بل إن سبب النزول هو الاتم والاكمل للآية.

وبتعبير آخر: إن ما جاء في هذه الروايات بشأن علي عليه السلام على أن الله تعالى جعل محبته في قلوب المؤمنين جميعاً، لم يأت بشأن أي فرد آخر من أمه محمد صلى الله عليه وآله، وهذه فضيلة كبرى لأمر المؤمنين على عليه السلام حيث لا يجاريه احد في هذه الفضيلة.

يا ترى أليس من جعل الله تعالى قلوب المؤمنين جميعاً تطفح بمودته ومحبته، أجدر من الجميع لمنصب الإمامة الإلهي، وخلافة الرسول صلى الله عليه وآله؟

(١) التذكرة، ص ٢٠.

(٢) ذخائر اعقبي، ص ٨٩.

(٣) الفصول المهمة، ص ١٠٦.

(٤) الصواعق المحرقة، ص ١٧٠.

(٥) اسعاف الراغبين المدون في حاشية نور الابصار، ص ١١٨.

(٦) تفسير روح المعاني، ج ١٦، ص ١٣٠.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٧٥

٢١- آية المنافقين

«وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ». (محمد/ ٣٠)

تعُدُّ هذه الآية- في الحقيقة- نقطه مقابل شيء ما ورد في الآية السابقة.

فقد نزلت هذه الآية بشأن المنافقين وصفاتهم، يقول تعالى ولو نشاء لأريناكمهم بل ونضع العلامات في وجوههم لتعرفهم بها.

ثم يضيف بعد ذلك: ولتعرفنهم أيضاً في طريقة حديثهم، لاسيما وأنه كلما ورد الحديث عن الجهاد، تراهم يسعون للتصل واضعاف معنويات الناس، وعندما يدور الحديث عن الصالحين والطاهرين والسابقين في الإسلام، يسعون لخدش سمعتهم ومكانتهم.

ومن هنا حيث نقرأ في حديث مشهور عن «أبي سعيد الخدري» أنه يقوله في تفسير جملة «وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ»: «ببغضهم على بن أبي طالب!» نقل هذا الحديث «الحاكم الحسكاني» في «شواهد التنزيل» من ثلاثة طرق (١).

ونقل «السيوطي» أيضاً في تفسير «الدر المنثور» هذا الحديث عن «ابن مردويه» و «ابن عساكر» عن «أبي سعيد الخدري» (٢).

وينقل في رواية أخرى عن «ابن مسعود» أنه كان يقول: «ما كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله إلا ببغضهم على بن أبي طالب عليه السلام» (٣).

ولا يقتصر رواة هذا الحديث والكتب التي نقل فيها على ما ذكره فقط، ذلك أن «جابر بن

(١) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ١٧٨ (ح ٨٨٣ إلى ٨٨٥).

(٢) تفسير در المنثور، ج ٦، ص ٦٦.

(٣) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٧٦

عبد الله الأنصاري»، و «أبوذر الغفاري» نقلًا هذا الحديث أيضاً.

ومنهم أن «ابن عبد البر» ينقل هذا الحديث عن جابر في «الاستيعاب» (١)، وأن «محب الدين الطبري» ينقل عن «أبو ذر» في «الرياض النضرة» بهذا النحو: «ما كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله إلا بثلاث: بتكذيبهم الله ورسوله والتخلف عن الصلاة وبغضهم علي بن أبي طالب» عليه السلام (٢).

ونقل هذا الحديث أيضاً في «صحيح الترمذي» وهو من المصادر الرئيسة لدى أهل السنة من طريقتين عن «أبي سعيد الخدري» و «أم سلمة»، وهناك فارق بسيط في حديث «أم سلمة» عن الحديث السابق (٣).

ونقل ابن عساكر أيضاً في تاريخ دمشق، نفس هذا المضمون أو نظيره مرة عن «أبي سعيد الخدري»، ومرة عن «جابر بن عبد الله»، واخرى عن «عبادة بن الصامت»، ومرة عن «محبوب بن أبي الزناد» (٤).

جاء في حديث «عبادة بن الصامت» أنه قال «كنا نبور أولادنا بحب علي بن أبي طالب عليه السلام، فاذا رأينا أحداً لا يحب علي بن أبي طالب علمنا أنه ليس منا، وأنه لغير رُشد»، وفي حديث «محبوب بن أبي الزناد»، أنه ورد على لسان طائفة من الأنصار قولهم: «إن كنا نعرف الرجل إلى غير أبيه ببغضه علي بن أبي طالب عليه السلام» (٥).

ونهي حديثنا بنقل هذه الرواية التي تمتاز بسعة مفهومها وشموليتها مع حديث منقول عن شخص الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله.

تحدث الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله يوم خيبر بحديث مفصل بشأن علي عليه السلام، ومن جملة ما قاله:

«يا أيها الناس امتحنوا أولادكم بحبه، فإن علياً لا يدعو إلى ضلالة ولا يبعد عن هدى فمن

(١) الاستيعاب، ج ٢، ص ٤٦٤.

(٢) الرياض النضرة، ص ٢١٤.

(٣) صحيح الترمذي، ج ٥، ص ٦٣٥، ح ٣٧١٧.

(٤) تاريخ مدينة دمشق، ج ٤٢، ص ٢٨٧.

(٥) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٧٧

أحبه فهو منكم ومن أبغضه فليس منكم! (١).

يتضح لنا بشكل جلي أن الإنسان عندما يتأمل بشكل دقيق في هذه الروايات والرواية السابقة المذكورة في نهاية الآيتين الشريفتين من القرآن بانه يواجه شخصية يعد حبه ومودته علامة الإيمان، ومخالفته ومعاداته علامة الكفر والنفاق، هذا في الوقت الذي تمكنت فيه هذه الروايات أن تمر عبر الممرات الزمنية السابقة، حيث قامت الحكومات السابقة مثل حكومة بنى امية بمضايقة ومحاصرة أصحاب ومحبي علي عليه السلام بأشد ما يكون، وحيث كان أعداؤه يمسكون زمام الامور في كل مكان، بل وحتى أن سب ولعن علي في المجالس العامة كان ممّا يتقرب به للحكومة ومراكز السلطة، حقاً أن الإنسان ليتعجب من أن كل هذه الفضائل الفريدة والنادرة التي ملأت الآفاق شرقاً وغرباً، وملأت صفحات كتب الرواية والتفسير والتاريخ، كيف تمكنت أن تفلت من قبضة هؤلاء الأعداء الألداء وتصل اليوم إلى أيدينا.

لا يمكن أن ننظر إلى هذا الأمر سوى أنه من مشيئة الله وامداده من أجل بقاء نور الحق مضيئاً على مر القرون والأعصار، ولإتمام الحجة في خلافة وولاية علي عليه السلام على جميع الاجيال.

(١) مختصر تاريخ ابن عساکر، ج ١٧، ص ٣٧١.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٧٩

٢٢- آية الإيذاء

«إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا».

(الأحزاب / ٥٧)

من البديهي أنه ليس بوسع احد أن يلحق الاذى والضرر بالذات المقدسة لله تعالى وبناءً على ذلك فإن المراد من ايذاء الله - كما أكد على ذلك المفسرون أيضاً- أن الكفر والالحاد هما اللذان يغضبان الله تعالى وقد أكدت الآية على معاقبة الذين يؤذون الرسول والمؤمنين، ذلك أن ايذائهم يعد بمنزلة ايذاء الله تعالى

ونقرأ هنا في الروايات المتعددة التي وصلت عن طرق الاخوة من أهل السنة، وعن طرق أهل البيت عليهم السلام أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله قال: «يا علي! من آذاك فقد آذاني»، وعلى هذا النحو فإن ايذائه يعد ايذاءً للرسول صلى الله عليه وآله. ينقل «الحاكم الحسكاني» في «شواهد التنزيل» عن «جابر بن عبد الله الأنصاري» أنه قال: سمعت من الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله و آله، أنه قال لعلي «من آذاك فقد آذاني» (١).

وينقل في حديث آخر عن «ابن أبي سلمة» عن أم سلمة زوج الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله و آله، أنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لعلي بن أبي طالب عليه السلام: «أنت أخي وحيبي، من آذاك فقد آذاني» (٢). ثم يضيف قائلاً: ونقل نفس هذا المعنى عن طائفة اخرى مثل «عمر»، و «سعد بن أبي وقاص»، و «أبو هريرة»، و «ابن عباس»، و «أبو سعيد الخدري» (٣).

(١) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٨٩ ح ٧٧٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٩٨، ح ٧٧٨.

(٣) المصدر السابق، ص ٩٩.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٨٠

ونقل في حديث آخر عن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال وقد اشار إلى شعره ومسكه بيده: حدثني رسول الله صلى الله عليه وآله و آله وقد أشار إلى شعره وقبض عليه بيده ثم قال: «من آذى شعرة منك فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله فعليه لعنة الله» (١).

إن الأحاديث التي ذكرت تشير فقط إلى أن ايذاء علي عليه السلام يعد ايذاءً للرسول صلى الله عليه وآله و آله، إلا أنه لم يستند فيها إلى الآية السابقة، بينما ورد هذا الاستناد بشكل صريح في بعض الروايات، منها ما قاله الحاكم النيسابوري في «مستدرک الصحيحين» في حديث صحيح معتبر عن «ابن عباس» أنه قال: إن رجلاً من أهل الشام سب علياً عليه السلام أمامه، فقال ابن عباس: «ياعدو الله آذيت رسول الله صلى الله عليه وآله و آله «إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا» لو كان رسول الله صلى الله عليه وآله و آله حياً لآذيته» (٢).

ونقل «الذهبي» هذا الحديث أيضاً في «تلخيص المستدرک» ويصرح أنه حديث صحيح (٣).

ونقل السيوطي في «الدر المنثور» رواية ابن عباس واستناده إلى الآية الشريفة السابقة أيضاً (٤).

وينقل أيضاً في كتاب «مستدرك الصحيحين» عن «عمرو بن شاس» حديثاً مفصلاً جاء في آخره: «يقول عمرو بن شاس الاسلامي وكان من أصحاب الحديبية قال: خرجنا مع علي عليه السلام إلى اليمن فجفاني في سفره ذلك حتى وجدت في نفسي، فلما قدمت اظهرت شكايته في المسجد حتى بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله قال: فدخلت المسجد ذات غداة، ورسول الله صلى الله عليه وآله في ناس من أصحابه فلما رأني أبدني عينيه، قال: يقول حدد إلي النظر حتى إذا جلست قال: يا عمرو أما والله لقد آذيتني، فقلت: أعود بالله أن أؤذيك يا رسول الله، قال: بلي من آذى علياً فقد آذاني».

(١) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٩٧، ح ٧٧٦.

(٢) مستدرك الصحيحين، ج ٣، ص ١٢١.

(٣) تلخيص المستدرك المطبوع نهاية مستدرك الصحيحين، ج ٣، ص ١٢٢.

(٤) تفسير در المنثور، ج ٥، ص ٢٢٠.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٨١

ويقول الحاكم النيسابوري بعد ذكره هذا الحديث: إنه حديث صحيح معتبر (١).

تجدد الإشارة إلى أن: مؤلف «مختصر تاريخ دمشق» أورد هذا الحديث في كتابه مع عدة أحاديث أخرى عن «جابر»، و«سعد بن أبي وقاص»، و«عمرو بن شاس»، وكلها تجمع على أن إيذاء علي عليه السلام يعد إيذاءً للرسول صلى الله عليه وآله (٢). إن هذه الأحاديث «متظافرة» وكثيرة، وأن الكثير منها يعد من الأحاديث التي قال بصحة سندها علماء أهل السنة، وهي تدل بشكل واضح على أن علياً عليه السلام هو نفس الرسول صلى الله عليه وآله، ومودته مودة للرسول صلى الله عليه وآله ومحبته محبة للرسول الله صلى الله عليه وآله وايداؤه إيذاء للرسول الله صلى الله عليه وآله. وبناءً على ما تقدم، هل من شك في أن علياً عليه السلام أفضل الأئمة بعد رسول الله، وأنه أليق فرد في الأئمة لتولي منصب الإمامة والولاية وخلافة رسول الله صلى الله عليه وآله؟

(١) مستدرك الصحيحين، ج ٣، ص ١٢٢، وقد ورد هذا الحديث نصاً في تلخيص الذهبي.

(٢) مختصر تاريخ دمشق، ج ١٧، ص ٣٤٢.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٨٣

٢٣- آية الانفاق

«الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ». (البقرة/ ٢٧٤)

لاشك أن مفهوم الآية مفهوم عام وشامل، إذ إن الترغيب بالانفاق في سبيل الله يتخذ اشكالاً مختلفة، في السر والعلن وفي الليل والنهار، وتبشر المنفقين بشاره عظيمه: «فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» مما قد سلف أو مما هو آت، ولكن يستفاد من الروايات الإسلامية أن مصداق هذه الآية الأكمل هو علي عليه السلام.

لاسيما أنه وردت روايات كثيرة في سبب نزول هذه الآية، تؤكد على أنها نزلت أول مرة في حق علي عليه السلام.

يقول ابن عباس: نزلت هذه الآية في علي بن أبي طالب عليه السلام وكانت عنده أربعة دراهم فقط، أنفقهن في سبيل الله، درهماً في الليل، ودرهماً في النهار، ودرهماً في السر، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله «ما حملك على هذا؟ قال: حملني عليها رجاء أن استوجب علي الله ما وعدني».

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ألا ذلك لك»، فنزلت الآية السابقة في هذه الأثناء.

أورد هذا الحديث «الحاكم الحسكاني» في «شواهد التنزيل» مع سبعة أحاديث أخرى بنفس هذا المضمون بطرق مختلفة «١». وينقل «السيوطي» هذا المضمون نفسه في «الدر المنثور» بطرق متعددة منها: عن ابن عباس، أن هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب عليه السلام وعنده أربعة دراهم، انفق منها درهماً

(١) شواهد التنزيل، ج ١، ص ١٠٩-١١٥.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٨٤

في الليل، ودرهماً في النهار، ودرهماً في السر ودرهماً في العلن، ونزلت هذه الآية «١».

معنى هذا الحديث أن علياً عليه السلام كان يسلك مختلف السبل من أجل الحصول على رضا الله تعالى فقد انفق كل ما تحت بساطه في سبيل الله، وكذلك فإنه اعطى ليلاً وانفق في حالتين مختلفتين سراً وعلناً، وفي النهار أيضاً انفق في كلا الحالتين سراً وعلانية، إن هذا الإيثار والإخلاص المقرون بالشوق العظيم لكسب رضا الله تعالى وبكل وسيلة ممكنة، نال قبول الله تعالى فنزلت تلك الآية الشريفة.

ومن الذين نقلوا هذه الرواية، «محب الدين الطبري» في «ذخائر العقبى» «٢»، و«سبط ابن الجوزي» في «التذكرة» «٣»، و«العلامة الكنجي» في «كفاية الطالب» «٤»، والمفسر المعروف «القرطبي» في تفسيره «٥»، وأورد هذا الحديث - بنفس تلك العبارة أو باختلاف بسيط - جمع آخر في كتبهم.

وكذلك ذكره «الشبلنجي» في «نور الأبصار» «٦»، و«الشيخ سليمان القندوزي» في «ينابيع المودة» «٧».

وينقل مؤلف «الفضائل الخمسة» هذا الحديث أيضاً في كتابه عن جمع آخر منهم «ابن الاثير» في «اسد الغابة» «٨»، و«ابن حجر» في «الصواعق المحرقة» «٩»، و«الواحدى» في «أسباب النزول» «١٠».

ونختم هذه الأحاديث بجملة عن ابن أبي الحديد المعتزلي: إنه وبعد الإشارة إلى

(١) تفسير در المنثور، ج ١، ص ٣٦٣.

(٢) ذخائر العقبى ص ٨٨.

(٣) تذكرة الخواص، ص ١٧.

(٤) كفاية الطالب، ص ١٠٨.

(٥) تفسير القرطبي، ج ٢، ص ١١١٥، (ذيل الآية مورد البحث).

(٦) نور الابصار، ص ١٠٥.

(٧) ينابيع المودة، ص ٩٢.

(٨) اسد الغابة، ج ٤، ص ٢٥.

(٩) الصواعق المحرقة، ص ٧٨.

(١٠) أسباب النزول، ص ٦٤ (استناداً لنقل الفضائل الخمسة)، ج ١، ص ٣٢١ و ٣٢٢.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٨٥

الصفات السامية لعلي عليه السلام، وعندما يصل إلى مسألة الجود والسخاء يقول بعد الإشارة لآيات سورة هل أتى: وروى المفسرون أنه لم يملك إلا أربعة دراهم، فتصدق بدرهم ليلاً، وبدرهم نهاراً، وبدرهم سراً، وبدرهم علانية، فأنزل فيه «الذين ينفقون أموالهم...»

(١).

يبين هذا التعبير أن هذه المسألة متفق عليها بين المفسرين أو على الأقل مشهورة.

(١) شرح ابن أبي الحديد، ج ١، ص ٢١ (أورده ضمن مقدمته في وصف المولى على عليه السلام).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٨٧

٢٤- آية المحبة

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ». (المائدة/ ٥٤)

تصرح هذه الآية بوضوح: بأن ارتداد المسلمين الداخلين تَوًّا إلى الإسلام لا يشكل ضرراً عليه، فإنَّ الله تعالى قد أوكل أمر الدفاع عن هذا الدين المقدس إلى طائفة من المؤمنين ذوى الخصال المتميزة، من الذين يحبون الله ويحبهم.

والذين يمتازون بالتواضع والتخضع أمام المؤمنين، وبالشدة والشجاعة أمام الكافرين، الذين يحاربون ويجاهدون دون كلل في سبيل الله، ولا يخافون لومة لائم أبداً.

أجل، إن اجتماع هذه الصفات في فرد أو مجموعة من الأفراد، يعد فضلاً إلهياً لا يليق بكائن من كان.

ولا- شك في أن مفهوم هذه الآية واسع وشامل كما هو الحال في كثير من الآيات السابقة، ولكن يستفاد من الروايات المنقولة عن طرق الشيعة والسنة وبشكل واضح أن علياً عليه السلام أفضل واكمل مصداق لهذه الآية.

وعندما يصل الفخر الرازى إلى تفسير هذه الآية، وينقل اقوالاً عن المفسرين حول تطبيق هذه الآية، يقول في نهاية البحث:

قال جمع إن هذه الآية نزلت في علي عليه السلام، ثم يستدل بدليلين لدعم هذا القول، أولاً عندما اعطى الرسول صلى الله عليه وآله الراية بيد علي عليه السلام يوم خيبر، قال «لأدفعن الراية غداً إلى رجل يحبُّ الله ورسوله ويحبه الله ورسوله». نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٨٨

ثم يقول: وهي عين الصفة التي اشير إليها في الآية الآنفه، والدليل الآخر أن الآية التالية لها هي آية: «أَنَّمَا وَجِّهَكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ...» إذ نزلت بحق علي عليه السلام لذا من الأجدد القول أن الآية السابقة هي الاخرى نزلت بحقه أيضاً (نهاية كلام الفخر الرازى) (١).

إن استدلال الفخر الرازى بكلام الرسول صلى الله عليه وآله يوم فتح خيبر إشارة إلى حديث معروف نقل في الكثير من الكتب المشهورة على أنه قيل بحق علي عليه السلام، ويعد من أعظم فضائله عليه السلام، سيما وأنه طبقاً لهذا الحديث، وبعد أن فشل نفر من قادة جيش الإسلام في فتح خيبر، فإنَّ الرسول صلى الله عليه وآله وقف في ليل ذلك اليوم وسط الجيش وخاطبهم قائلاً: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله كراراً غير فرار، لا يرجع حتى يفتح الله على يده!».

ثم قال: اين علي؟ قالوا: إنه مريض، وعينه تؤلمه (ولا يقوى على الحرب) فقال: عليّ به، فجاء علي ونفخ الرسول صلى الله عليه وآله في عينه (أو مسح من ريق فمه على عينه) فبرأت عينه المباركة، فأعطاه الراية، وفي اليوم التالي فتح خيبر في هجوم خاطف (فتحقق هذا التنبؤ العجيب للرسول صلى الله عليه وآله بشأنه).

وقد أورد هذا الحديث- إضافةً للفخر الرازى- كثير من المحدثين والمؤرخين (باختلاف بسيط في التعابير) في كتبهم، ومنهم الحاكم النيسابورى في كتاب مستدرك الصحيحين: وقد أشار إليه في ثلاثة مواضع: أولاً نقل في حديث عن «ابن عباس» أن جماعة تحدثوا عنده بألفاظ غير مناسبة بشأن علي عليه السلام فانزعج بشدة وقال: «اف وتف، وقعوا في رجل له بضع عشرة فضائل ليس لأحد غيره وقعوا في رجل قال له النبي صلى الله عليه وآله لا يبعثن رجلاً لا يخزيه الله أبداً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله» (٢).

وينقل في حديث آخر عن «عامر بن سعد بن أبي وقاص» أن معاوية قال لأبي «سعد» ذات يوم: ما يمنعك أن تسب ابن أبي طالب؟ فقال: لا أسبه ما ذكرت ثلاثاً قالهن له رسول الله صلى الله عليه وآله لأن تكون لي واحدة منهن أحب الي من حمر النعم، قال معاوية: وما هن؟ قال: «حين أنزل

(١) التفسير الكبير، ج ١٢، ص ٢٠.

(٢) المستدرک، ج ٣، ص ١٣٢.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٨٩

عليه «أَتَمَّا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً» فأخذ علياً وفاطمة وابنيها فدخلهم تحت ثوبه وقال: «رب إن هؤلاء أهل بيتي»، ولا أسبه ما ذكرت حين خلفه في غزوة تبوك، فقال له: خلفتني مع الصبيان والنساء، قال:

«إلا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبوة بعدى»، ولا أسبه ما ذكرت يوم خيبر، وقال: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويفتح الله على يديه» فتناولنا لرسول الله صلى الله عليه وآله فقال: أين علي، قالوا: هو أرمده، قال: ادعوه، فدعوه فبصق في وجهه ثم أعطاه الراية ففتح الله عليه، قال: فلا والله ما ذكره معاوية بحرف حتى خرج من المدينة «١».

وينقل في الحديث الثالث عن «عبد الله بن بريده الأسلمي» أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله قال الجملة التالية في خيبر ... ثم ينقل القصة مع بعض الإضافات علاوة على ما ذكر آنفاً «٢».

ومن الذين صرحوا بأن الآية السابقة نزلت بحق علي عليه السلام، «الثعلبي» في تفسيره (استناداً إلى ما ورد في مناقب عبد الله الشافعي) إذ يقول في نهاية الآية السابقة: «إنها نزلت في علي عليه السلام» «٣».

ويصرح العلامة «الثعلبي» في نهاية هذه الآية أيضاً (بناءً على نقل ابن بطريق في كتاب العمدة): أنها نزلت في علي بن أبي طالب عليه السلام «٤».

وينقل ذلك أيضاً مؤلف «كنز العمال» في كتابه عن «سعد بن أبي وقاص»، وفي حديث آخر عن «عامر بن سعد» أورد نفس هذا المعنى مع بعض الإضافات «٥».

إن هذه الأحاديث وما يشابهها التي وردت في الكتب المعروفة للسنة واتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام تحكى عن فضيلة لا مثيل لها على قول سعد بن أبي وقاص، التي إن وجدت في أحد الأفراد تكفيه فخراً وفضلاً.

(١) تلخيص المستدرک المطبوع في حاشية المستدرک، ج ٣، ص ١٠٨ و ١٠٩.

(٢) المستدرک، ج ٣، ص ٤٣٧.

(٣) المناقب، ص ١٦٠ مخطوطة (بناءً على نقل احقاق الحق، ج ١٤، ص ٢٤٨).

(٤) العمدة، ص ١٥١، (طبقاً لنقل احقاق الحق، ج ٣ ص ١٩٨).

(٥) كنز العمال، ج ١٣، ص ١٦٢ و ١٦٣ (الحديث رقم ٣٦٤٩٥ و ٣٦٤٩٦) (طبع مؤسسة الرسالة - بيروت).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٩٠

وبوجود مثل هذه الشخصية وسط الامة، هل يجدر بنا أن نتصور أنه بالإمكان تسليم خلافة الرسول صلى الله عليه وآله لغير شخصه؟! ولهذه الملاحظة أيضاً أهميتها بالغه في تأكيد مفهوم آية المودة، أنه يستفاد من الروايات الواردة في الكتب المعروفة والمشهورة أن علياً عليه السلام لم يحظ برعاية الرسول صلى الله عليه وآله ولطف الله تعالى به فحسب، بل إنه كان أحب المخلوقات عند الله ورسوله أيضاً.

والشاهد على هذا الكلام حديث «الطير» المعروف.

نقرأ في كتاب «المستدرک علی الصحیحین» إنَّ «أنساً» خادم الرسول صلى الله عليه وآله مرض بعد أن عمَّر طويلاً بعد النبي صلى الله عليه وآله فأتاه محمد بن الحجاج يعوده في أصحاب له، فجرى الحديث حتى ذكروا علياً عليه السلام فتنقصه محمد بن الحجاج، فقال أنس: من هذا أقعدوني فأقعدوه، فقال: يا ابن الحجاج، إلاً أراك تنقص علي بن أبي طالب، والذي بعث محمداً صلى الله عليه وآله بالحق، لقد كنت خادم رسول الله صلى الله عليه وآله بين يديه وكان كل يوم يخدم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله غلام من أبناء الأنصار، فكان ذلك اليوم يومى، فجاءت ام أيمن مولاة رسول الله صلى الله عليه وآله بطير فوضعت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا ام أيمن ما هذا الطائر؟ قالت: هذا طائر أصبته فصنعت له لك، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا أنس انظر من على الباب، قلت: اللهم اجعله رجلاً من الأنصار، فذهبت فاذا على الباب، قلت: إن رسول الله صلى الله عليه وآله على حاجة فجئت حتى قمت مقامى فلم ألبث أن ضرب الباب، فقال: يا أنس انظر من على الباب، فقلت: اللهم اجعله رجلاً من الأنصار فذهبت فاذا على الباب، قلت: إن رسول الله صلى الله عليه وآله على حاجة فجئت حتى قمت مقامى فلم ألبث أن ضرب الباب، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا أنس اذهب فأدخله فلست بأول رجل أحبَّ قومه ليس هو من الأنصار فذهبت فأدخلته، فقال: يا أنس قرب إليه الطير، قال: فوضعت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله فأكلها جميعاً، قال محمد بن

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٩١

الحجاج: يا أنس كان هذا بمحضر منك؟ قال: نعم، قال: اعطى بالله عهداً أن لا انتقص علياً بعد مقامى هذا ولا أعلم أحد ينتقصه إلاً أشنت له وجهه «١».

وأورد «الذهبي» هذا الحديث أيضاً في «تلخيص المستدرک» المطبوع في حاشية «المستدرک».

وإضافة لما قلناه، فإنَّ الحديث المعروف بـ «حديث الطير» في مختلف المصادر الإسلامية، ورد في كتب كثيرة، بحيث إنَّ العلامة الأميني رحمه الله يقول بشأنه: حديث الطير حديث متواتر وصحيح سلّم أئمة الحديث بتواتره وصحته.

وأورد هذا الحديث «موفق بن أحمد» وهو فقيه، ومحدث كبير، وخطيب فذ، وأديب، وشاعر في كتاب المناقب «٢».

والأهم من ذلك أنَّ المحدث المعروف «الترمذى» ينقل في كتابه المشهور باسم «صحيح الترمذى» عن «أنس بن مالك» أنَّه كان بين يدي الرسول صلى الله عليه وآله طيراً، فقال: «اللهم أنتنى بأحبِّ خلقك إليك يأكل معى هذا الطير فجاء على فأكل معى» «٣».

يقول العلامة الكنجى الشافعى في «كفاية الطالب» بعد نقله هذا الحديث: «وفيه دلالة واضحة على أنَّ علياً عليه السلام أحبُّ الخلق إلى الله وأدلُّ الدلالة على ذلك اجابته دعاء النبي صلى الله عليه وآله فيما دعا به، وقد وعد الله تعالى من دعاه بالاجابة حيث قال: «ادعوني استجب لكم» فأمر بالدعاء ووعد بالاجابة، وهو عزَّ وجلَّ لا يخلف الميعاد، وما كان الله عزَّ وجلَّ ليخلف وعده رسله ولا يرد دعاء رسوله لأحبِّ الخلق إليه ومن أقرب الوسائل إلى الله تعالى محبته ومحبة من يحبُّه لحبه» «٤».

وينقل «العلامة النسائي» - وهو من علماء القرن الثالث الهجرى - هذا الحديث أيضاً مع

(١) المستدرک علی الصحیحین، ج ٣، ص ١٣١.

(٢) المناقب، ص ٦٧.

(٣) صحيح الترمذى، ج ١٣، ص ١٧٠.

(٤) كفاية الطالب، ص ٥٩، (طبقاً لنقل احقاق الحق، ج ٥، ص ٣١٩).

بعض الإضافات في كتابه المعروف «الخصائص» (١).

ومن العلماء الآخرين الذين نقلوا هذا الحديث في كتبهم: «سبط ابن الجوزي» في «التذكرة»، و «ابن الأثير» في «اسد الغابة»، و «ابن مسعود الشافعي» في «مصاييح السنه»، و «محب الدين الطبري» في «ذخائر العقبى»، و «الشيخ سليمان البلخي القندوزي» في «ينابيع الموده»، وطائفة اخرى غيرهم لو أردنا ذكر أسمائهم وشرح كلماتهم لطلال بنا المقام.

ومن الملاحظات التي قد تثير الدهشة لدى البعض أن ابن الأثير في «اسد الغابة» عندما ينقل حديث الطير بعده طرق، يقول في احدي طرق الحديث المنقول عن أنس بن مالك: إن النبي صلى الله عليه وآله كان عنده طائر فقال اللهم ائتني بأحب خلقك إليك يأكل معي من هذا الطائر فجاء أبو بكر فرده، ثم جاء عثمان، فرده (وفي رواية اخرى نقلها النسائي في الخصائص ورد اسم عمر بدل عثمان) فجاء علي فأذن له.

يقول «ابن الأثير» في نهاية هذا الحديث أن ذكر أسماء «أبو بكر وعثمان» في هذا الحديث غريب جداً (٢).

والأعجب من ذلك أن بعض المحدثين من السنه إذ أرادوا المرور بهذه الفضيلة الفريدة مزوا مستطرقين وأغمضوا أعينهم عن الحقائق، ولجأوا إلى التشكيك في سند هذا الحديث، مثل ابن كثير الدمشقي كاتب «البداية والنهاية» إذ يقول بعد ذكر هذا الحديث: «وفي القلب من صحه هذا الحديث نظر وإن كثرت طرقه» (٣).

بينما نجد أن هذا الحديث المتواتر الذي ورد في الكثير من المصادر المعروفة بشكل واسع، لا غبار عليه من حيث السند والدلالة سوى أنه لا ينسجم مع الأحكام المسبقة للبعض، وللمرحوم العلامة الأميني جملة لطيفة بعد ذكر هذه العبارة إذ يقول: «باجتماع

(١) الخصائص، ص ٥.

(٢) اسد الغابة، ج ٤، ص ٣٠.

(٣) البداية والنهاية، ص ٣٥٣.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٩٣

جميع شروط الصحه في هذا الحديث إن كان شك ما في القلب تجاه هذا الحديث أيضاً، فالإشكال يكمن في ذلك القلب وليس في الحديث».

٢٥- آية المسؤولين

نقرأ في قوله تعالى بشأن الظالمين: إن الخطاب يأتي إلى ملائكة العذاب: «وَقَفُّوهُمْ أَنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ». (الصفات / ٢٤)

وهناك أخذ ورد بين المفسرين فيما سيسألون عنه، قال بعضهم: عن البدع التي ابتدعوها، وقال بعضهم الآخر: عن أعمالهم السيئة وعن خطاياهم، وأضاف بعضهم: عن التوحيد: «ولا إله إلا الله» (١).

ولا مانع من اجتماعهن جميعاً في مفهوم الآية.

إلا أنه ورد في العديد من الروايات أن المراد هو السؤال عن «ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام».

وقد وردت هذه الروايات في المصادر الإسلامية المعروفة.

ومنها في «شواهد التنزيل»، إذ ينقل بطريقين عن أبي سعيد الخدري، عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال في تفسير هذه الآية: «عن ولاية علي بن أبي طالب» (٢).

وينقل في حديث آخر عن «سعيد بن جبير»، عن «ابن عباس» أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله قال: «إذا كان يوم القيامة أوقف أنا وعلي على الصراط فما يمر بنا أحد إلا سألناه عن ولاية علي، فمن كانت معه، وإلما ألقيناه في النار! وذلك قوله وقفوههم إنهم

مسؤولون» (٣).

ونقل «الحاكم الحسكاني» هذا الحديث أيضاً في الكتاب المذكور، عن طرق اخرى

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٧، ص ٤٤١ (نهاية الآية التي نحن بصدددها).

(٢) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ١٠٦-١٠٧، ح ٧٨٦ و ٧٨٧.

(٣) المصدر السابق، ح ٧٨٨.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٩٤

ونقل «ابن حجر» أيضاً في كتاب «الصواعق» هذا الحديث عن «أبي سعيد الخدري» عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله «١».

وممن نقل هذا الحديث «أحمد بن حنبل» (أحد الأئمة الأربعة للسنة) في كتاب المسند عن أبي سعيد الخدري: «إنه يسأل في يوم القيامة عن ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام».

ونقل هذا الحديث أيضاً كل من: «عز الدين الحنبلي» في «كشف الغمة» (٢)، و«الآلوسي» في تفسيره «٣»، و«سبط ابن الجوزي» في «التذكرة» (٤)، و«أبو نعيم الاصفهاني» في «كفاية الخصام» (٥)، و«الشيخ سليمان القندوزي» في «ينابيع المودة» (٦)، وجمع آخر لو أردنا ذكر اسمائهم وكتبهم لطال بنا المقام.

والطريف أنه- في بعض هذه الروايات- وردت «ولاية أهل البيت» إضافة لولاية علي عليه السلام «٧».

كما أن هذه الملاحظة جديرة بالاهتمام أيضاً وهي أن جميع الروايات الآنفه الذكر نقلت عن المصادر المعروفة والكتب المشهورة للسنة، والرواة المقبولين، ولكن مع ذلك فإن «الآلوسي» عندما ينقل هذه الرواية يقول: «روى بعض الإمامية عن ابن جبير عن ابن عباس يسألون عن ولاية علي»، و«كذلك نقل الإمامية هذه الرواية عن أبي سعيد الخدري» (٨).

ويضيف من عنده ولاية سائر الخلفاء بكل تعجب!

إن هذا المفسر المتعصب يتصور أن كل حديث بشأن فضائل علي عليه السلام لابد وأن يكون

(١) الصواعق، ص ٨٩.

(٢) كشف الغمة، ص ٩٢.

(٣) تفسير روح المعاني، نهاية الآية التي نحن بصدددها.

(٤) التذكرة، ص ٢١.

(٥) كفاية الخصام، ص ٣٦١.

(٦) ينابيع المودة، ص ٢٥٧.

(٧) علي في الكتاب والسنة، ج ١ ص ٢٢٩.

(٨) تفسير روح المعاني، ج ٢٣، ص ٧٤.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٩٥

رواته من الإمامية والشيعة حتماً، وكان أحكامه الطائفية المسبقة لا تسمح له التصديق بأن هذه الأحاديث منقولة بهذا الشكل الواسع في المصادر المعروفة للسنة، وكأنه لا يصدق أيضاً بأن الاجيال اللاحقة سيقراون كلماته، ويشكلون عليه، أن رواة هذا الحديث ليسوا من الإمامية فحسب، بل إنهم غالباً من علماء السنة.

وعلى أية حال فإن مفهوم هذه الأحاديث وكذلك الآية الآنفه لا يعنى أنه في يوم القيامة يسأل عن ولاية «علي بن أبي طالب» فقط،

ذلك أن يوم القيامة هو يوم السؤال عن جميع الأعمال، والنعم، وجميع أنواع المسؤوليات، بل المراد أن أحدى أهم الامور التي يسأل عنها هي ولاية هذا الإمام المعصوم، وبلا أدنى شك فإن الولاية هنا ليست بمعنى نوع من المحبة العادية والدارجة التي لا بد وأن يتحلى بها كل مؤمن تجاه الآخرين، ذلك أن هذا الأمر يعد أحد الفروع العادية للدين، بل إن المراد شىء أبعد من هذه المسألة ويعد من أهم أركان الإسلام واسس الدين.

فهل يمكن أن يكون هذا الموضوع شيئاً آخر غير مقام القيادة والخلافة الإلهية بعد رسول الإسلام صلى الله عليه وآله؟! نعم، على بن أبى طالب عليه السلام هو ذلك الشخص الذى تعد ولايته من أهم أركان الإسلام وشروط الإيمان، وعلى رأس تسلسل الامور التي يُسأل عنها فى يوم القيامة.

وكيف لا يكون كذلك، وقد ملأت فضائله ومفاخره جميع كتب الحديث، وتتألأت شخصيته الرفيعة فى آيات القرآن المجيد، بالرغم من كل المواقف العدائية التي اتخذها أعداؤه معه، وكتبوا فضائله (ولايرون يكتمونها لحد الآن أيضاً)، وبالرغم من أن أصحابه واتباعه اضطروا إلى اخفاء فضائله أيضاً خوفاً من بطش الأعداء!.

ونختم هذا الكلام بنقل حديث معروف عن ابن عباس ورد فى الكثير من المصادر الإسلامية إذ يقول: ما نزل فى القرآن «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» إلأعلى سيدها وشريفها وأميرها، وما أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله إلأقده عاتبه الله فى القرآن، ما خلا على بن أبى طالب فإنه لم يعاتبه بشىء، وما نزل فى أحد من كتاب الله ما نزل فى على ... نزلت فى على ثلاثمائة آية! (١).

(١) مختصر تاريخ دمشق، ج ١٨، ص ١١.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٩٦

ونقل هذا الحديث - أو قسمه الأول - عن طائفة اخرى كثيرة أيضاً، مثل الحافظ «أبو نعيم الاصفهاني» فى «حلية الأولياء»، و «محب الدين الطبرى» فى «ذخائر العقبى»، و «العلامة الكنجى الشافعى» فى «كفاية الطالب»، و «سبط ابن الجوزى» فى «التذكرة»، و «الشبلنجى» فى «نور الأبصار»، و «الهيثمى» فى «الصواعق»، و «السيوطى» فى «تاريخ الخلفاء»، و «القندوزى» فى «ينابيع المودة» (١). كانت هذه طائفة من الآيات التي نزلت بشأن على عليه السلام فى القرآن، إذ عمدنا إلى اختيار هذا العدد منها.

(١) للمزيد من الاطلاع على هذه المصادر يرجى مراجعة احقاق الحق، ج ٣، ص ٤٧٦.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٩٧

الأئمة الاثنى عشر

إشارة

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٩٩

الأئمة الاثنى عشر عليهم السلام

تمهيد:

إشارة

بالرغم من أن المذهب الشيعى لا ينحصر ب «الإمامية الاثنى عشرية»، بل يضم الشعب والفرق الاخرى مثل «الزيدية» الذين يعتقدون

بأربعة من الأئمة فقط، و«الاسماعيلية» الذين يعتقدون «بسبعة أئمة» وغيرهم من الفرق، إلّا أنه وبلا أدنى شك يعد الشيعة الاثني عشرية أشهر تلك الفرق قاطبة، إذ يشكلون جزءاً مهماً من المسلمين في سائر انحاء العالم، ويشكلون في بعض الدول كإيران والعراق والبحرين الأكثرية القاطبة من السكان، وفي البعض الآخر يشكلون نسبة كبيرة من السكان كما هو الحال في أغلب البلدان الإسلامية. إن للشيعة الاثني عشرية مراكز علمية هامة، تضم عشرات الآلاف من العلماء والطلاب المنهمكين في التحقيق والتدريس وتعلم العلوم الإسلامية.

وقد تمّ تأليف وطبع ونشر عشرات الآلاف من الكتب العلمية حول العقائد الإسلامية، والفقه، والاصول، والتفسير، والحديث، والفلسفة، والرجال، والدراية، والتاريخ الإسلامي من قبل علماء الشيعة.

وقد ذكر المرحوم المحقق الجليل «الشيخ آقا بزرك الطهراني» في كتابه «الذريعة إلى تصانيف الشيعة» والذي تمّ طبعه مؤخراً في ٢٦ مجلداً، أسماء عشرات الآلاف من كتب علماء الشيعة مع ذكر مؤلفيها مع شرح وجيز عن كل منهم، مما يوضح بشكل جلي حجم الخدمات الجليلة التي قدمها العلماء الشيعة للعلوم الإسلامية، وكيف أنّهم خلفوا وراءهم تصانيف ثمينه جداً في جميع الفنون الإسلامية والعلوم الإنسانية مخلدة ذكراهم.

ويجدر بالذين لا يدركون هذه الحقائق أن يقوموا بزيارة المراكز العلمية للشيعة في

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٠٠

مختلف مناطق العالم، ليرى الطلاب والفضلاء وعلماء الشيعة الذين يمتازون بالمهارة الفائقة في العلوم الإسلامية المختلفة عن كتب، ويطلعوا على مكتباتهم المملوءة بالكتب العلمية لهؤلاء العلماء، وكذلك بالكتب العلمية للعلماء السنّة.

ويلاحظوا عن قرب، الفقهاء، والمتكلمين، ومفسري القرآن، والكتاب اللامعين، والخطباء، والكم الهائل من حفظة القرآن الكريم. ولكن مما يؤسف له أنّ الرقابة الشديدة المفروضة على الكثير من المحافل الخيرية الإسلامية والحاكمة كذلك على أغلب المكتبات المعروفة للدول الإسلامية، لم تسمح لحد الآن بأن يقوم المحققون المحايدون للسنّة من التعرف بشكل واضح على اتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام والعلماء وآثارهم العلمية.

ونجد هنا أنّ المكتبات مليئة بكتب علماء السنّة إلى جانب كتب علماء الشيعة دون ملاحظة أدنى فرق بينهم من حيث الحضور في المكتبات، ولا يشعر أي منهم أيضاً بأدنى خطر من هذه الناحية على مذهبه، إلّا أنّ مكتبات الاخوة السنّة لها شكل آخر غالباً، ولا يلاحظ فيها أي أثر لعشرات الآلاف من المؤلفات العلمية المعروفة للشيعة، أو أنّها تقتصر على مقدار قليل منها فقط!

وعلى أيّة حال نأمل أن يأتي اليوم الذي يتمكن فيه المحققون وبيحادي تام، أن يدققوا ويبحثوا فيما قلناه آنفاً، ويعرفوا المجتمع الشيعي الإمامي كما هم عليه - وليس كما يقوله اعداؤهم، أو كما تحاول أن تصوره الأبقاق الاستعمارية عنهم - وبقينا سيشهد ذلك اليوم وقائع جديدة في العالم الإسلامي مع اتباع هذا المذهب، وسينعم العالم الإسلامي بتفاهم وانسجام أفضل.

ولكى لا- نتبعد عن أصل الموضوع، تلاحظ في الآيات القرآنية، إشارات لأئمة أهل البيت المعصومين عليهم السلام تزداد جلاءً ووضوحاً بمساعدة الروايات الواردة في المصادر الإسلامية المعروفة بشأن تفسير هذه الآيات.

وهذه الآيات متعددة، ونشير في النهاية إلى بعض منها فقط، وتمت الإشارة إلى مجموعة

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٠١

منها في بداية البحث في موضوع ولاية وإمامة على عليه السلام، ومنها:

١- آية «انَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ». (الاحزاب / ٣٣)

بشهادة محتواها، وكذلك الروايات الواردة في شرحها وتفسيرها عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في المصادر الإسلامية المعروفة، أنّ مفهومها عام أي أنّها تشمل بالإضافة لعلی عليه السلام سائر الأئمة المعصومين، وخاصة الإمام الحسن والإمام الحسين

عليهما السلام اللذين صُرح باسميهما في هذه الروايات.

٢- آية «قُلْ لَأَسْأَلَنَّكُمْ عَلَيْهِ اجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى . (الشورى ٢٣)

تشير أيضاً وبنحو الإجمال لجميع الأئمة المعصومين عليهم السلام، وقد صرح في روايات متعددة منقولة عن سعيد بن جبير وابن عباس عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أن المراد من «القربى في هذه الآية، على عليه السلام وفاطمة عليها السلام وذريتهما، وصرح في البعض الآخر باسم الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام أيضاً.

ولغرض المزيد من التوضيح يرجى مراجعة «شواهد التنزيل» وسائر المصادر التي ذكرناها أثناء شرح هذه الآية «١».

٣- آية «أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ». (النساء / ٥٩)

وهذه الآية هي الأخرى كسابقتهما، لاسيما أن لهذه الآية مفهوماً عاماً يشمل كل زمان، وبناء على ذلك لا بد من وجود مصداق من «اولى الأمر» في كل عصر وزمان، يكون فرداً معصوماً، وطاهراً من الذنوب (لأن الطاعة المطلقة الخالية من كل قيد وشرط غير مشروع سوى للمعصومين خاصة).

إضافة إلى ذلك ففي بعض الروايات المعروفة الواردة في مصادر أهل السنة صرح باسم الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام.

٤- آية «كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ». (التوبة / ١١٩)

هي الأخرى بنفس المفهوم الذي شرحناه سابقاً، إذ لها مفهوم عام شامل لكل عصر

(١) أوردت روايات بطرق مختلفة في هذا المجال في شواهد التنزيل، ج ٢، ص ١٣٠-١٣٤.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٠٢

وزمان، وهي دليل على أنه يوجد في كل عصر وزمان صادق معصوم (ذلك أن المؤازرة والتبعية المطلقة دون قيد أو شرط ليس لها مفهوم سوى للمعصومين فقط)، وإضافة إلى ذلك فإن بعض الروايات الواردة في شرح هذه الآية، تفسر الصادقين بأنهم محمد وأهل بيته عليهم السلام «١».

وبما أن هذه الآيات والروايات المتعلقة بها، ذكرناها في هذه المباحث بشكل مفصل لذا نحجم عن تكرارها مرة أخرى وننتقل إلى آيات الفضيلة.

ونؤكد مرة أخرى على أن آيات الفضيلة لا تطرح باعتبار أنها الآيات التي لها دلالة مباشرة على إمامة وولاية أئمة أهل البيت عليهم السلام، بل الهدف من ذلك هو أن يتضح بشكل جلي أن كل واحد منهم كان أفضل أفراد عصره، وبما أنه لا بد من وجود اولى الأمر والإمام المعصوم في كل عصر وزمان طبقاً لمفهوم الآيات السابقة، فإنهم مصداق هذا المعنى

١- آية الصلوات والتحية

نفحات القرآن ج ٩ ص ٣٤٦

نقرأ في قوله تعالى «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا». (الأحزاب / ٥٦)

لقد تم تجسيد مقام نبي الإسلام صلى الله عليه وآله في هذه الآية بأفضل وجه، ذلك أن الله تعالى وملائكته المقربين يصلون على النبي صلى الله عليه وآله، وكذلك صدور الأمر لجميع المؤمنين أن يصلوا ويسلموا عليه بدون استثناء.

أى مقام اسمى من هذا المقام؟ وأى عظمة فوق هذه العظمة؟

صحيح أنه لم يرد في هذه الآية، كلام عن آل الرسول صلى الله عليه وآله إلا أننا نقرأ في الكثير من الروايات أن أصحابه وانصاره عندما سألوه: كيف نصلى ونسلم عليك، فقد جعل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله «الآل» إلى جانب الصلاة عليه، وجميع الرحمة

والسلام للذين يطلبان من الله

(١) شواهد التنزيل، ج ١، ص ٢٦٢.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٠٣

تعالى فهما له، وآله أيضاً، وهذه قرينه على أن الصلوات والتحية من الله والملائكة تتسم بالتعميم أيضاً، فهي تشمل الرسول صلى الله عليه وآله وآله وهذه ليست مسأله بسيطة، بل إنها توضح أن لهم مقامات تالية لمقام الرسول صلى الله عليه وآله، وتكليف شبيه بتكليفه من بعض الجهات، وإلا فإن هذا المقام الشامخ لا يمكن أن يكون لهم بسبب القرابة فقط. ومنتقل الآن إلى طائفة من هذه الروايات الواردة في أشهر مصادر السنة:

١- نقل في «صحيح البخارى» عن أبى سعيد الخدرى قلنا: يارسول الله صلى الله عليه وآله السلام عليك معلوم، كيف نصلى عليك؟ قال: «قولوا اللهم صل على محمد عبدك ورسولك كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم وبارك على محمد وآل محمد كما باركت على إبراهيم» (١).

وينقل هذا الحديث في نفس الكتاب والصفحة بنحو اكمل عن «كعب بن عجرة» أحد الصحابة المعروفين أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وآله: عرفنا كيفية السلام عليك، ولكن كيف يجب أن تكون الصلوات عليك؟ قال: «قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم انك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد» (٢).

تجدر الإشارة إلى أن البخارى يذكر هذه الأحاديث في نهاية الآية الشريفة: «إن الله وملائكته...».

٢- نقل في «صحيح مسلم» وهو ثانى مصدر معروف للحديث عند الاخوة السنة عن «أبى مسعود الأنصارى» أن الرسول صلى الله عليه وآله دخل علينا ونحن في مجلس سعد بن عباد، فقال بشير بن سعد: يارسول الله! لقد امرنا الله بأن نصلى عليك فكيف نصلى عليك؟ فسكت الرسول أولاً، ثم قال: «قولوا اللهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على آل إبراهيم، بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد» (٣).

(١) صحيح البخارى ج ٦، ص ١٥١.

(٢) المصدر السابق.

(٣) صحيح مسلم، ج ١ ص ٣٠٥، ح ٦٥.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٠٤

٣- وفى تفسير «الدر المنثور» وهو أشهر تفسير روائى ينقل نفس رواية «أبو سعيد الخدرى» عن «البخارى» و «النسائى» و «ابن ماجه» و «ابن مردويه» عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله (١).

ونقل فى نفس الكتاب عبارة «أبو مسعود الأنصارى» عن «الترمذى» و «النسائى» و «ابن مردويه» (٢).

وينقل عين هذا المضمون أيضاً بفارق قليل عن «مالك» و «أحمد» و «البخارى» و «مسلم» و «أبو داود» و «النسائى» و «ابن ماجه» و «ابن مردويه» عن «أبى أحمد الساعدى» (٣).

وينقل الحاكم النيسابورى فى المستدرک على الصحيحين عن ابن أبى لیلی أن «كعب بن عجرة» صادفنى وقال: أترید أن اعطيك هدية سمعتها من الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله؟! قلت: بلى اهدنى! قال: سألتنا رسول الله صلى الله عليه وآله: كيف نصلى عليكم أهل البيت؟ قال قولوا: «اللهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على

محمد وعلي آل محمد كما باركت علي إبراهيم وعلي آل إبراهيم إنك حميد مجيد».

ثم يقول الحاكم النيسابوري وقد عزم علي ذكر أحاديث غير مذكورة في صحيح البخاري ومسلم: نقل البخاري هذا الحديث في كتابه عن «موسى بن إسماعيل» بنفس هذا السند والألفاظ، والسبب في ذكرى إياه ثانية هنا يعود للإشارة إلى أن «أهل البيت» و «آل» أمر واحد، وتجدر الإشارة إلى أن الحاكم نقل هذا الحديث بعد حديث «الكساء» الذي اشير فيه وبشكل صريح أن أهل بيتي علي وفاطمة والحسن والحسين «٤»، وهذا تعبير عميق المعنى

(١) تفسير در المنثور، ج ٥ ص ٢١٧.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المستدرک علی الصحيحین، ج ٣، ص ١٤٨.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٠٥

وبعد ذلك ينقل «الحاكم» حديث الثقلين، وبعده حديث «أبو هريرة» أن الرسول صلى الله عليه وآله نظر إلى علي والحسن والحسين وقال: «أنا حرب لمن حاربكم وسلم لمن سالمكم» (١).

ونقل محمد بن جرير الطبري في تفسيره نهاية هذه الآية الرواية أعلاه مع اختلاف بسيط عن «موسى بن طلحة» عن أبيه، ويروي برواية اخرى نفس الحديث عن ابن عباس، وفي رواية ثالثة عن «زياد» عن «إبراهيم»، وفي رواية رابعة عن «عبد الرحمن بن بشر بن مسعود الأنصاري» (٢).

ونقل البيهقي أيضاً في كتابه المعروف «السنن» روايات متعددة بهذا الصدد حيث إن بعضها يوضح تكليف المسلمين في الصلاة وأثناء التشهد، ومنها في حديث عن «أبي مسعود وعقبه بن عمرو»، ينقل أن رجلاً جاء وجلس بين يدي الرسول صلى الله عليه وآله وكنا جلوساً عنده، فقال: يا رسول الله إنا نعرف كيفية السلام عليك، ولكن كيف نصلي عليك أثناء الصلاة؟

فسكت الرسول صلى الله عليه وآله حتى قلنا: ليت الرجل لم يسأل مثل هذا السؤال، ثم قال: «إذا أنتم صليتم علي فقولوا اللهم صل علي محمد النبي الامي وعلي آل محمد كما صليت علي إبراهيم وعلي آل إبراهيم، وبارك علي محمد النبي الامي وعلي آل محمد كما باركت علي إبراهيم وعلي آل إبراهيم إنك حميد مجيد».

ثم ينقل عن «أبي عبد الله الشافعي» أنه حديث صحيح بشأن الصلوات علي النبي صلى الله عليه وآله في الصلوة (٣).

وأورد البيهقي أحاديث متعددة اخرى بصدد كيفية الصلاة علي الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بشكل مطلق أو في الصلاة خاصة في حديث عن «كعب بن عجرة» عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله ينقل أنه كان يقول في الصلاة: «اللهم صل علي محمد وآل محمد كما صليت علي إبراهيم وآل إبراهيم وبارك علي محمد وآل محمد كما باركت علي إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد» (٤).

(١) المستدرک علی الصحيحین ج ٣، ص ١٤٩.

(٢) تفسير جامع البيان، ج ٢٢ ص ٣٢.

(٣) سنن البيهقي ج ٢ ص ١٤٦ و ١٤٧.

(٤) سنن البيهقي ج ٢ ص ١٤٧.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٠٦

يتضح من هذا الحديث أنه حتى الرسول صلى الله عليه وآله كان يذكر هذه الصلوات في صلواته.

يقول البيهقي في نهاية إحدى الروايات التي لم يرد الحديث فيها عن الصلاة: - هذه الروايات ناظرة إلى حال الصلاة لأن جملة «قد علمنا كيف نسلم» هي إشارة إلى السلام في التشهد (السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته) لذا فإن المراد من الصلوات هي الصلوات في حال التشهد «١».

وعلى هذا الأساس فإن المسلمين مأمورون بالصلاة على الرسول صلى الله عليه وآله في التشهد أيضاً كما هم مأمورون حسب اعتقاد جميع الفرق الإسلامية بالسلام على الرسول صلى الله عليه وآله في التشهد بلفظ: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله». وبالرغم من أنه يلاحظ هنا اختلاف بسيط بين المذاهب الأربعة للسنة، إذ إن الشافعيين والحنبلين يقولون: الصلاة على الرسول صلى الله عليه وآله في التشهد الثاني واجبة، في الوقت الذي يقول المالكيون والحنفيون: إنها سنة «٢»، إلا أنه وطبقاً للروايات الآتية فإنها واجبة على الجميع.

وعلى أي حال فإن الكتب التي نقلت فيها الروايات المرتبطة بالصلوات على محمد وآل محمد صلى الله عليه وآله (سواء بشكل مطلق أو في خصوص التشهد في الصلاة) أكثر مما أوضحناه في هذا الموجز، وما ذكر هنا كان بمثابة نموذج من هذه الروايات والكتب، وقد نقل هذه الروايات مجموعة من الصحابة أمثال ابن عباس، وطلحة، وأبو سعيد الخدري، وأبو هريرة، وأبو مسعود الأنصاري، وبريدة، وابن مسعود، وكعب بن عجرة، وشخص على صلى الله عليه وآله.

الملاحظة المحيرة جداً أن علماء السنة بالرغم من كل هذه التأكيدات الواردة في روايات الرسول صلى الله عليه وآله بشأن إضافة آل محمد تراهم دائماً (باستثناء بعض الموارد النادرة) يحذفون «آل محمد» ويقولون صلى الله عليه وسلم!

(١) سنن البيهقي ج ٢ ص ١٤٧.

(٢) الفقه على المذاهب الأربعة، ج ١، ص ٢٦٦.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٠٧

والأعجب من ذلك أنه في كتب الحديث، وحتى في الأبواب التي تنقل فيها الروايات الآتية بشأن إضافة «آل محمد صلى الله عليه وآله» فإنهم عندما يذكرون اسم الرسول صلى الله عليه وآله في طيات هذه الأحاديث يقولون: «صلى الله عليه وسلم!» (بدون إضافة الآل) ولا ندري ما عذرهم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله في هذه المخالفة الصريحة لأوامره وتوجيهاته؟

فمثلاً يكتب البيهقي في عنوان هذا الباب «باب الصلوة على النبي صلى الله عليه وسلم في التشهد!» وكذا الحال في البعض الآخر من مصادر الحديث المعروفة.

إن اختيار هذا العنوان سواء كان من قبل مؤلفي هذه الكتب أو من قبل المحققين التاليين لهم، ومع الأخذ بنظر الاعتبار ماورد في نهايته عجيب ومتناقض جداً.

ونتهي هذا الموضوع بذكر حديثين آخرين:

١- ينقل ابن حجر في الصواعق هكذا: إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «لا تصلوا على الصلاة البتراء، قالوا: وما الصلاة البتراء؟ قال: تقولون اللهم صل على محمد وتمسكون، بل قولوا:

اللهم صل على محمد وآل محمد» «١».

يوضح هذا الحديث أنه حتى كلمة «علي يجب أن لا- تفصل بين محمد، وآل محمد ويجب القول: «اللهم صل على محمد وآل محمد».

٢- ينقل السمهودي في الاشراف على فضل الاشراف عن ابن مسعود الأنصاري أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «من صلى

صلاة لم يصل فيها على وعلى أهل بيتي لم تقبل» (٢).
وعلى ما يبدو أن الإمام الشافعي في شعره المعروف، أخذ بنظر الاعتبار هذه الرواية يقول:
يا أهل بيت رسول الله حاكم فرض من الله في القرآن انزلهُ
كفاكم من عظيم القدر أنكم من لم يصل عليكم لا صلاة له (٣)
يا ترى أن الذين يمتلكون مثل هذا المقام الذي يجب ذكر أسمائهم إلى جانب اسم

(١) الصواعق، ١٤٤.

(٢) السهمودي في الاشراف، ص ٢٨ طبقاً لنقل احقاق الحق، ج ١٨، ص ٣١٠.

(٣) في كتاب الغدير النفيس ورد أن انتساب هذه الايات هي للإمام الشافعي عن شرح المواهب للزرقاني ج ٧، ص ٧ وجمع آخر.
نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٠٨

النبى صلى الله عليه وآله في الصلوة كواجب وفريضة إلهية، هل يمكن مساواتهم مع الآخرين.
وهل يبقى مكان لغيرهم للتصدي لمسألة الولاية والإمامة وخلافه النبى صلى الله عليه وآله بوجودهم؟ وأي منصبٍ بوسعهم أن يرجح
الآخرين عليهم- مع حيازتهم على كل هذه الفضائل والمقام الشامخ-؟ ألا توضح كل هذه الأدلة مسألة الولاية والخلافه بشكل مباشر؟
لكم أن تحكموا بأنفسكم.

٢- آية النور والبيوت

نقرأ في الآيات التي تأتي بعد آية: «اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»، ما يلي: «فِي بُيُوتِ الَّذِينَ أُذِنَ لَهُمْ أَنْ تَرْفَعُوا فِيهَا أَسْمَاءَهُمْ يُسَبِّحُونَ لَهُ فِيهَا بِالْعُدْوَةِ وَالْآصِيَالِ* رِجَالٌ لَاتُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَمَّا بَيَّعَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةَ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ* لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ». (النور/ ٣٥-٣٨)

بعد أن بين الله تعالى في الآية ٣٥ من هذه السورة، النور الإلهي بمثال دقيق وظيفي ولطيف، ينتقل إلى مكان هذا النور في الآيات التالية.

تأملوا جيداً في التعابير الآنفه الذكر، ولاحظوا ما لهذه البيوت الإلهية وحراسها من مكانة وعظمة، حسب الوصف والتجسيد الوارد في هذه الآيات، ثم تأملوا الروايات الواردة ادناه:

ينقل السيوطي في تفسير الدر المنثور عن «أنس بن مالك»، و «بريدة» (وهما من صحابة الرسول صلى الله عليه وآله) أنه عندما تلا رسول الله صلى الله عليه وآله هذه الآية، قام رجل، وقال: «أى بيوت هذه يا رسول الله!». قال الرسول صلى الله عليه وآله: «بُيُوتُ الْأَنْبِيَاءِ!».

فقام «أبو بكر» وقال: «هذا البيت منها لبيته علي وفاطمة؟!». نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٠٩
قال: «نعم من أفاضلها» (١).

ونقل «الحاكم الحسكاني» شبيه هذا المعنى في «شواهد التنزيل» عن «أبو برزة» (رجل آخر من الصحابة) عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، دون أن يذكر شخصاً معيناً، بل هكذا: «قيل: يا رسول الله أبيت علي وفاطمة منها؟ قال: من أفاضلها» (٢).

وبعد ذكر هذه الرواية، ينقل الرواية السابقة أيضاً بطريقتين عن «أنس بن مالك» و «بريدة» (٣).

ومن الملفت للنظر أن «الألوسي» في «روح المعاني» وبالرغم من ذكره لجميع فضائل أهل البيت عليه السلام دون رغبة منه إلماً أنه

يضيف هنا بعد أن ينقل الرواية الأولى عن «أنس بن مالك» و«بريدة»: «هذا إن صرَّح لا ينبغي العُدول عنه» (٤). (وبعبارة أخرى إنه أفضل كلام في تفسير الآية إذ إن المراد بذلك بيوت الأنبياء وأفضلها بيت علي وفاطمة). وأورد جمع آخر من كبار علماء السنَّة هذه الرواية في كتبهم أيضاً.

ويقينا فإن هذه الروايات، تشمل علياً عليه السلام وفاطمة عليها السلام وولديهما الحسن والحسين عليهما السلام وكذا أولاد فاطمة عليها السلام من نسل الحسين عليه السلام أي الأئمة المعصومين فإنهم مشمولون بهذه الآية أيضاً، ذلك أنهم يواصلون نفس الطريق ونفس النهج.

نعم، إن بيوتهم كبيوت الأنبياء، بل من أفضلها، إنه بيت يتلأأ منه نور الله دائماً، ولا تصل إليه يد الشيطان، ويقينا فإن الساكنين في هذا البيت هم من أفضل البشر، وهم كالأنباء في الفضل والفضيلة.

٣- الصراط المستقيم

في الآية السادسة من سورة الحمد التي نقرأها ليل نهار في الصلوة نسأل الله تعالى

(١) تفسير در المنثور، ج ٥، ص ٥٠.

(٢) شواهد التنزيل، ج ١ ص ٥٣٢، ح ٥٦٦.

(٣) المصدر السابق، ح ٥٦٧ و ٥٦٨.

(٤) تفسير روح المعاني، ج ١٨، ص ١٥٧ نهاية الآية التي نحن بصدددها.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣١٠

ونقول: «اهدنا الصراط المستقيم».

الصراط الذي يوصلنا إليك وإلى ما يرضيك، صراطاً غير صراط الذين غضبت عليهم ولا الضالين.

اللهم اهدنا أيضاً إلى هذا الصراط، وثبتنا عليه.

بلا شك أن مفهوم «الصراط المستقيم» مفهوم واسع جداً ولذا فسره البعض على أنه بمعنى «الإسلام»، والبعض الآخر فسره على أنه «القرآن»، وبعض على أنه «الرسول صلى الله عليه وآله وأئمة الحق» وبعض آخر بمعنى «دين الله»، وبعض آخر بمعنى طريق واسلوب أنبياء الله، إذ إن كلاً من هذه التفاسير بوسعها أن يشكّل جزء من مفهوم الآية الواسع.

ولكن في العديد من الروايات التي نقلت عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بطرق مختلفة، وُضِع الاصبع على واحدة من أبرز مصاديق هذه الآية، ذلك أن الصراط المستقيم فُسرَ بمعنى صراط وطريق علي بن أبي طالب عليه السلام أو محمد وآل محمد صلى الله عليه وآله.

ينقل «الحاكم الحسكاني» في «شواهد التنزيل» عن «جابر بن عبد الله الأنصاري» عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال:

«إن الله جعل علياً وزوجته وابناءه حُجَجَ الله على خلقه وهم أبواب العلم في امتي، من اهتدى بهم هُدي إلى صراط مستقيم» (١).

وينقل في حديث آخر عن «ابن عباس» عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال لعلي بن أبي طالب عليه السلام: «أنت الطريق الواضح وأنت الصراط المستقيم وأنت يعسوب المؤمنين!» (٢).

وينقل أيضاً في حديث ثالث عن «ابن عباس» أنه كان يقول في تفسير «اهدنا الصراط المستقيم»: «قولوا - معاشر العباد - اهدنا إلى حُبِّ النبي واهل بيته!» (٣).

وينقل في الحديث الرابع عن «أبو بريدة» في نهاية هذه الآية أنه قال: المراد بالصراط محمد وآله» (٤).

(١) شواهد التنزيل، ج ١، ص ٧٦، ح ٨٩.

(٢) المصدر السابق، ح ٨٨.

(٣) المصدر السابق، ح ٨٧.

(٤) شواهد التنزيل، ج ١، ص ٧٤، ح ٨٦.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣١١

وقد أورد «العلامة الثعلبي» هذا الحديث في تفسيره أيضاً «١».

ونقله أيضاً «الشيخ عبيد الله الحنفي» في كتاب «ارجح المطالب» عن «أبو هريرة» «٢».

وينقل في الحديث الخامس الوارد في «شواهد التنزيل» عن «عبد الرحمن بن زيد» عن أبيه أنه قال في تفسير آية: «صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ»: «هو النبي ومن معه وعلي بن أبي طالب وشيعته» «٣».

وقد وردت روايات متعددة بهذا الشأن أيضاً في مصادر الشيعة واتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام، ومنها أنه ورد في رواية عن الإمام الصادق صلى الله عليه وآله في تفسير الآية: «صراط الذين أنعمت عليهم» أنه قال: «يعني محمداً وذريته عليهم السلام» «٤».

وبناءً على ذلك فإن أبرز وأوضح مصاديق الصراط المستقيم هو صراط النبي وعلي عليه السلام وأولاده المعصومين من نسل فاطمة الزهراء عليها السلام، من اهتدى بهم وسار على نهجهم، هدى إلى صراط مستقيم يقربه إلى الله تعالى ويبعده عن الضلالة والانحراف.

٤- وسيلة قبول توبة آدم عليه السلام

جاء في قوله تعالى أن آدم عليه السلام بعد «ترك الأولى تلقى» كلمات من ربه، وتاب بهن، وقبل الله توبته ذلك أن الله تواب رحيم وهو قوله تعالى «فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ». (البقرة/ ٣٧)

فما هي هذه الكلمات التي أوحاها الله تعالى لآدم كي يتوب بهن؟ هناك جدال بين المفسرين، إذ يرى البعض منهم أن ذلك يعد إشارة لما جاء في الآية: «قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا

(١) تفسير الثعلبي بناءً على نقل كفاية الخصام، ص ٣٤٥.

(٢) أرجح المطالب، ص ٨٥.

(٣) شواهد التنزيل، ج ١، ص ٨٥، ح ١٠٥.

(٤) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٢٣، ح ١١٠١ (للمزيد من الاطلاع على هذه الأحاديث يرجى مراجعة تفسير نور الثقلين والبرهان).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣١٢

وَأَنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ». (الأعراف/ ٢٣)

ويرى البعض الآخر أن ذلك إشارة للأدعية الأخرى ومنها دعاء يونس أثناء مكثه في بطن الحوت، أي جملة: «سُبْحَانَكَ أَنْتَ كُنْتَ مِنَ الظَّالِمِينَ».

ولكن جاء في الروايات المتعددة التي نقلت عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أو عن الصحابة، أن تلك الكلمات كانت القسم على الله بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام.

ينقل السيوطي في «الدر المنثور» في نهاية هذه الآية عن «ابن عباس» إنني سألت رسول الله صلى الله عليه وآله عن الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فتاب عليه، قال: «سأل بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين إلتأبت علي، فتاب عليه» «١».

وينقل أيضاً في ذلك الكتاب عن عليّ عليه السلام إنّي سألت الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله عن تفسير هذه الآية، قال: ... أمر الله آدم أن قل: «اللهم إنّي أسألك بحق محمد وآل محمد، سبحانك لا إله إلا أنت عملتُ سوءً وظلمتُ نفسي فأغفر لي إنك أنت الغفور الرحيم، اللهم إنّي أسألك بحق محمد وآل محمد سبحانك لا إله إلا أنت عملتُ سوءً وظلمتُ نفسي فتاب عليّ إنك أنت التواب الرحيم فهؤلاء الكلمات التي تلقى آدم» (٢).

يُعلم جيداً من هذه الروايات أنه لا منافاة بين هذه التفسيرات الثلاثة، وكل هذه الكلمات كانت مجموعة في دعاء آدم عليه السلام. ونقل «ابن المغازلي» في مناقبه نفس هذا المعنى عن «سعيد بن جبير» عن «ابن عباس» أنه سأل الرسول صلى الله عليه وآله بشأن الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فتاب عليه، فقال الرسول صلى الله عليه وآله: «سأله بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين إلا ما ثبت عليّ فتاب عليه» (٣). ونقل «العلامة القندوزي» هذا الحديث أيضاً في «ينابيع المودة»، والبيهقي في «دلائل النبوة»، و«البدخشي» في «مفتاح التّجاح»، و«عبد الله الشافعي» في «المناقب» (٤).

(١) تفسير در المنثور، ج ١، ص ٦٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) مناقب ابن المغازلي، طبقاً لنقل احقاق الحق، ج ٩ ص ١٠٢.

(٤) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣١٣

وبالرغم من أن الكثير من الكتب، انتهت سند هذا الحديث ب «ابن عباس»، إلا أن الراوية لا ينحصر ب «ابن عباس»، ذلك أنه ينقل نفس هذا المعنى في «الدر المنثور» عن الديلمي في «مسند الفردوس» بسند ينتهي ب عليّ عليه السلام، أن علياً عليه السلام يقول: سألت من الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بشأن هذه الآية إلى أن يقول: «فعليك بهؤلاء الكلمات فإن الله قابل توبتك وغافر ذنبك. قل: اللهم إنّي أسألك بحق محمد وآل محمد سبحانك لا إله إلا أنت عملتُ سوءً وظلمتُ نفسي فتاب عليّ إنك أنت التواب الرحيم» (١).

ونقل هذا المعنى في مصادر أهل البيت عليهم السلام ومصادر السنّة عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً، ورواياته متعددة وطرقه متنوعة (٢).

لا ينبغي النظر إلى هذا الحديث على أنه فضيلة عابرة، والمرور به مروراً عابراً، إذ إن آدم عليه السلام عندما يريد أن يتوب من تركه الأولى (وهذا أول ترك للأولى يؤمّر من قبل الله أن يسأله بحق محمد وآل محمد صلى الله عليه وآله، أو بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، كي يقبل توبته.

لاسيما وأن هذا المعنى لم يرد بشأن أحد سواهم، وهو مقام رفيع مختص بهم، وهذا دليل العظمة الفائقة للخمسة الطيبة وللرسول وأهل بيته والأئمة المعصومين عليهم السلام.

وعلى هذا كيف يمكن القول بوجود من هو أفضل وأليق منهم لخلافة وولاية الرسول صلى الله عليه وآله، وكيف يمكن ترجيح سواهم عليهم؟

وبالرغم من وجود مثل هذه الأسانيد، أمّن العجب - ياترى أن تبقى الإمامة في نسل الرسول صلى الله عليه وآله إلى يوم القيامة؟!

إشارة

«مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُمْ مِنْ فَرْعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ». (النمل / ٨٩)

(١) تفسير در المنثور، ج ١، ص ٦٠ (مع الاختصار).

(٢) تفسير البرهان، ج ١، ص ٨٦؛ تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٦٧ فما فوق؛ بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ٣١٩ فما فوق.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣١٤

للحسنة هنا، مفهوم واسع بأنها تشمل جميع الحسنات، وتبشّر مَنْ يَأْتِي بِحَسَنَةٍ، فله خيرٌ منها، وأحد آثارها المهيّبة الأمان من خوفٍ وفزعٍ يوم المحشر وهو أعظم الفزع.

ولكن ورد في بعض الروايات «إِنَّ مَحَبَّةَ أَهْلِ بَيْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ تَعْتَبَرُ وَاحِدَةً مِنْ أَهَمِّ وَأَبْرَزِ مَصَادِيقِ الْحَسَنَةِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَتَبَيَّنَ أَنَّ هَذِهِ الْمَحَبَّةَ تَعَدُّ مِنْ أَفْضَلِ وَسَائِلِ الْأَمَانِ فِي يَوْمِ الْمَعَادِ».

ونقلت عدّة روايات في «شواهد التنزيل» في نهاية هذه الآية بهذا المعنى أنّ المراد من «الحسنة» في الآية أعلاه محبة أهل البيت عليهم السلام.

ومنها أنّه يُنْقَلُ عَنْ «أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْجَدَلِيِّ» عَنْ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ لَهُ: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا» - إِلَى قَوْلِهِ - تَعْمَلُونَ؟ قَالَ: بَلَى جُعِلَتْ فِدَاكَ.

قال: «الحسنة حبنا أهل البيت والسيئة بغضنا»، ثم قرأ الآية «١».

ونقل نفس هذا المعنى في الحديثين ٥٨٢، و ٥٨٧ مع هذا الفارق أنّه جاء في نهاية الحديث الثالث: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِالسَّيِّئَةِ الَّتِي مَنْ جَاءَ بِهَا أَكْبَهُ اللَّهُ عَلَى وَجْهِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، بُعِضْنَا أَهْلَ الْبَيْتِ!» ثم تلا أمير المؤمنين عليه السلام الآية الثانية وقال: «وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُتِبَتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ» (٢). (النمل / ٩٠)

ويُنْقَلُ فِي حَدِيثٍ آخَرَ عَنْ «أَبِي إِمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ» (٣) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْأَنْبِيَاءَ مِنْ شَجَرٍ شَتَّى وَخَلَقَنِي وَعَلِيًّا مِنْ شَجَرَةٍ وَاحِدَةٍ فَانَا أَصْلُهَا وَعَلِيُّ فَرْعُهَا، وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ ثَمَارُهَا، وَأَشْيَاعُنَا أَوْرَاقُهَا، فَمَنْ تَلَقَّى بَعْضُنَا مِنْ أَغْصَانِهَا نَجَا، وَمَنْ زَاغَ هَوَى وَوَلَّوْا أَنْ عَابَدُوا عَبْدَ اللَّهِ الْفَ عَامٍ، ثُمَّ الْفَ عَامٍ، ثُمَّ أَلْفَ عَامٍ ثُمَّ لَمْ يَدْرِكْ مَحَبَّتَنَا أَكْبَهُ اللَّهُ عَلَى مِخْرَجِهِ فِي النَّارِ!» (٤).

(١) شواهد التنزيل، ج ١، ص ٥٤٨، ح ٥٨١.

(٢) المصدر السابق، ص ٥٥٢، ح ٥٨٧.

(٣) أبو امامة الباهلي كان من أصحاب الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، وذكروا أنّ وفاته كانت سنة ٨١، وهو آخر من توفى في الشام (اسد الغابة، في مادة صَدَيْقٍ)، ولكن في كتاب الكنى والالقب ذكروا أنّ وفاته كانت سنة ٨٦ واسمه صَدَى عَلَى وَزْنِ رُجَيْلٍ، وكان من جملة الذين جعل عليهم معاوية العيون لثلا يذهب إلى عليّ عليه السلام.

(٤) شواهد التنزيل، ج ١ ص ٥٥٣، ح ٥٨٨.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣١٥

وينقل العلّامة القندوزي أيضاً مضمون الحديث الأول عن عليّ عليه السلام ويختم الحديث، أنّه قال: «الحسنة حبنا والسيئة بغضنا» (١).

وينقل عن «ابن كثير» عن الإمام الصادق عليه السلام في ذلك الكتاب نفسه أنّه قال (آية): «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ امْتَالِهَا»، قال: هي للمسلمين عامة واما الحسنة التي من جاء بها فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون فهي ولايتنا وحبنا».

وبالرغم من أن طائفة من المفسرين وأرباب الحديث لم يوردوا مودة أهل البيت عليهم السلام على أنها حسنة كبيرة في نهاية الآية التي نحن بصددنا، إلا أنهم نقلوا هذا المضمون لهذه الأحاديث في نهاية الآية: «وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حَسَنًا». (الشورى ٢٣) ومن جملة هؤلاء «السيوطي» إذ نقل في «الدر المنثور» عن «ابن أبي حاتم» عن «ابن عباس» أنه قال في تفسير هذه الآية: «المودة لآل محمد صلى الله عليه وآله» ٢.

ويقول «الآلوسي» في «روح المعاني» في نهاية هذه الآية ٢٣ من سورة الشورى بعد أن يقول: إن بعض المفسرين قالوا: المراد من «الحسنة» المودة لذوى قريبي رسول الله صلى الله عليه وآله، يقول: هذا المعنى نُقل عن «ابن عباس» و«السدي»، ثم يضيف قائلاً: محبة آل الرسول من أعظم الحسنات، وجاء عنوان «الحسنة» في صدر هذه الآية «٣».

وهناك أحاديث أخرى شبيهة بالأحاديث السابقة وردت في كتب أخرى لو أردنا ذكرها لطلال بنا المقام.

ونختم هذا البحث بحديث ورد بشأن محبة أهل البيت عليهم السلام (وإن لم يرد في نهاية الآية):

نقل «الشبلنجي» حديثاً عن الرسول صلى الله عليه وآله، في كتاب «نور الأبصار» وصرح بأنه حديث صحيح، وقد ورد ضمن الحديث أن الرسول صلى الله عليه وآله قال: «والله لا يدخل قلب رجل، الإيمان

(١) ينابيع المودة، ص ٩٨.

(٢) تفسير در المنثور، ج ٦، ص ٧.

(٣) تفسير روح المعاني، ج ٢٥، ص ٣١.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣١٦

حتى يحبهم (اهل بيتي) لِقْرَابَتِهِمْ مَنِيَّ «١».

وهذه الملاحظة أيضاً لها أهميتها، إذ إن المحبة العادية والمألوفة لا يسعها إطلاقاً أن تصبح وسيلةً للنجاة من فزع يوم القيامة، أو أن تكون شرطاً من شروط الإيمان، إن هذه التعابير توضح بشكل جلي أن محبة أهل البيت إنما هي إشارة لمسألة الولاية والإمامة الهامة لبناء الدين، إذ تعد سبب بقاء الدين واستمرارية خط النبوة وحفظ الإيمان.

ومن مجموع ما ورد بنحو الإشارة في الآيات السابقة، وما ورد بشكل صريح في الروايات الواردة في تفسير تلك الآيات، تتضح لنا هذه المسألة، وهي: إن آل محمد صلى الله عليه وآله وأهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله خاصة على وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام يحظون بمقام رفيع جداً وذلك لأنهم:

أولئك الذين تعد محبتهم اجراً على الرسالة.

من لم يصلّ ويسلم عليهم لا صلاة له.

تعد منزلتهم بمثابة الصراط المستقيم.

إن آدم عليه السلام ومن أجل الفكاك من غضب الله تعالى عليه بسبب «تركه الأولى أقسم بأسمائهم على الله تعالى وتاب لكي تقبل توبته!

وأخيراً فإن مودتهم حسنة تنقذ كل مؤمن من خوف وفزع يوم القيامة.

نعم، إن الذين يتصفون بهذه الصفات الحميدة، ويحظون بهذا المقام الشامخ كما ورد في الروايات المعروفة للسنة والمصادر المشهورة لأهل البيت، لا يمكن أن يجاريهم الآخرون إطلاقاً، وبالنتيجة لا يمكن الذهاب لغيرهم مع وجودهم، وبقينا فإن هذه المحبة والمودة تعد مقدمة لمسألة الولاية والقيادة والتي بدورها تعد استمراراً لخط قيادة الرسول صلى الله عليه وآله.

(١) نور الأبصار، ص ١٢٦.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣١٧

وكذلك الذين ذكروا في الروايات المتواترة لحديث الثقلين وأصبحوا إلى جوار القرآن الكريم يمثلون أحد الثقلين، وأصبح الاثنان يمثلان وسيلتي النجاة من الضلال، تلك الوسيلتان اللتان ستبقيان قائمتين في الأمة الإسلامية حتى قيام الساعة، ولا بد للمسلمين أن يلجأوا إليهما.

والذين عرفوا بأنهم سفينة النجاة، ونجوم الهداية الساطعة هم خير البرية وأفضل الناس، هذه الأوصاف التي وردت في أغلب المصادر المعروفة والمشهورة لكلا الفريقين.

نعم، إننا نعتقد بأن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وتأكيده على الإشارات الواردة في آيات القرآن الكريم بهذا الشأن أتم الحجة بحديثه على جميع المسلمين، وبقي على المسلمين أن يختاروا سبيل نجاتهم بعيداً عن مشاعر التعصب والأحكام المسبقة، أى أن يلجأوا إلى آل محمد صلى الله عليه وآله ليصلوا من خلال هدايتهم وقيادتهم إلى السعادة وبر الأمان، والذين لا يعتنون بكل هذه الإشارات والتصريحات المستندة إلى هذا الكم من الوثائق المعتمدة أو يبررون ويؤولون ويفسرون بالرأى، عليهم أن يجيبوا عن أعمالهم هذه.

التصريح باسماء أئمة أهل البيت عليهم السلام:

هذه الملاحظة جديرة أيضاً بأن تذكر وهي: إن في البعض من الروايات الواردة في مصادر السنة ذكرت أسماء الأئمة الاثني عشر بشكل كامل أيضاً، أى أنه بعد ذكر علي عليه السلام ورد اسم الإمام الحسن عليه السلام ثم الإمام الحسين عليه السلام ثم الإمام علي بن الحسين عليه السلام ثم الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام وبعده جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، ثم موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام، ثم علي بن موسى الرضا عليه السلام، ثم محمد بن علي الجواد التقى عليه السلام، وبعده علي بن محمد الهادي النقي عليه السلام، ثم الحسن بن علي العسكري عليه السلام، ثم محمد بن الحسن المهدي عليه السلام!

ومن هؤلاء الذين ذكروهم «سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي» إذ نقل في كتاب «ينابيع المودة» حديثين بهذا الشأن:

الحديث الأول: ينقله عن «فرائد السمطين» بسند ينتهي بابن عباس أن يهودياً جاء إلى

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣١٨

الرسول صلى الله عليه وآله وسأل أسئلة متعددة حول الإسلام والتعاليم الإسلامية، ومن جملة أسئلته أنه قال: أخبرني عن وصيكم من هو؟ فما من نبي إلا وله وصي، وأن نبينا موسى بن عمران أوصى إلى يوشع بن نون، فقال صلى الله عليه وآله: إن وصي علي بن أبي طالب، وبعده سبطاي الحسن والحسين، تتلوه تسعة أئمة من صلب الحسين (١).

الحديث الثاني: وينقل في حديث آخر عن «المناقب» عن جابر بن عبد الله الأنصاري قصة مشابهة لهذه القصة أيضاً، وردت فيها أسماء الأئمة الاثنا عشر واحداً بعد الآخر بشكل صريح، وقد أشرنا إلى كلا الحديثين بنحو الاختصار لطولهما (٢).

ويجب أن لا ننسى أننا نقلنا روايات كثيرة في السابق لها دلالة على الأئمة الاثنا عشر بنحو الإجمال، ومتى ما عاودتم الرجوع إلى ذلك البحث، وأخذتم بنظر الاعتبار تلك الروايات المعتمدة والمشهورة المنقولة عن طرق السنة والشيعه ستلاحظون بأنه لم يطرح أى تفسير صحيح وجدير بالملاحظة بشأن الأئمة الاثني عشر (أو الخلفاء والأمراء الاثني عشر) سوى ما نقله الشيعة، وبقي الجميع متحيرين في تفسير عدد الاثني عشر بشأن خلفاء الرسول صلى الله عليه وآله.

إن هذه الروايات المنقولة في أكثر مصادر الحديث اعتباراً، على درجة من القوة بحيث أنها غير قابلة للإنكار، والتفسير الصحيح

والوحيد لهذه المسألة هو التفسير الذي ذكره «الإمامية».

نأمل أن يأتي اليوم الذي ندع فيه أحكامنا المسبقة جانباً، ونشرع بانجاز بحثٍ جديدٍ ومستقلٍ في هذه الروايات والآيات القرآنية بشأن الإمامة وخلافة رسول الله صلى الله عليه وآله، لعل ذلك يؤدي إلى فتح آفاقٍ جديدةٍ امام الجميع.

(١) يتابع المودة، ص ٤٤٠، الباب ٧٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٤٢، الباب ٧٦.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣١٩

الإمام المهدي عليه السلام

إشارة

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٢١

الإمام المهدي عليه السلام

تمهيد:

إشارة

على العكس مما يتصوره بعض الجهلة فإنّ الاعتقاد بقيام المهدي عليه السلام وحكومته العالمية، لا يختص فقط بالشيعة واتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام، بل إنّ جميع الفرق الإسلامية دون استثناء يعتقدون بظهور رجل من ذرية الرسول في آخر الزمان يسمى المهدي، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، ونقلوا رواية هذا الموضوع في كتبهم عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله. وقد كتبت مصنفات كثيرة وذكرت روايات عديدة في هذا الصدد على أيدي علماء السنّة والشيعة سنشير إلى بعض منها في الأبحاث القادمة.

هذه الروايات من الروايات المتواترة والقطعية وأيدها جميع المحققين من الإسلاميين - بصرف النظر عن مذاهبهم الخاصة، باستثناء عدد محدود مثل «ابن خلدون»، و «أحمد أمين المصري» اللذان شككا في صدور هذه الروايات عن الرسول صلى الله عليه وآله، وبين أيدينا مجموعة من القرآن الدالة على أنّ الباعث الذي حملهم على هذا السلوك لم يكن ضعف الروايات، بل لعلهم كانوا يتصورون بأنّ الروايات المتعلقة بظهور المهدي تنطوي على الخارق من العادات بحيث لا يسعهم تصديقها بسهولة.

هذا في الوقت الذي وافقت على ذلك أكثر الفرق الإسلامية تعصباً لاسيما الوهابيون، واعترفوا بتواتر أحاديثه.

والشاهد على هذا الادعاء بيان صدر قبل عدّة سنوات من قبل رابطة العالم الإسلامي

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٢٢

الواقعة بشدة تحت نفوذ الوهابيين وحكومة آل سعود، جواباً على سؤالٍ موجه لهم بشأن ظهور الإمام المهدي عليه السلام.

وكان هذا البيان بمثابة جواب لأحد أهالي (كينيا) باسم «أبو محمد» وبتوقيع الامين العام «لرابطة العالم الإسلامي» «محمد صالح القزاز»، وقد ورد في هذا البيان مايلي:

إنّ «ابن تيمية» مؤسس مذهب الوهابيين يؤيد الأحاديث المتعلقة بالمهدي عليه السلام. وقد تطرق البيان بعد ذلك إلى الرسالة التي أعدها خمسة من علماء الحجاز المعروفين في هذا الشأن: ونقرأ في مقطع من هذه الرسالة:

(عندما يظهر الفساد في العالم وينتشر الكفر والظلم، سوف يملأ الله تعالى العالم عدلاً ب (المهدي) كما ملئ ظملاً وجوراً، وأنه آخر الخلفاء الراشدين الاثني عشر الذين أخبر عنهم النبي صلى الله عليه و آله في كتب الصحاح المعتمدة ...).

وقد نقل الكثير من صحابة النبي صلى الله عليه و آله الأحاديث المتعلقة بالمهدي، ومن جملتهم:

عثمان بن عفان، علي بن أبي طالب، طلحة بن عبيد الله، عبد الرحمن بن عوف، عبد الله بن عباس، عمار بن ياسر، عبد الله بن مسعود، أبو سعيد الخدري، ثوبان، قره بن اياس المزني، عبد الله بن الحارث، أبو هريرة، حذيفة بن اليمان، جابر بن عبد الله الأنصاري، أبو امامة، جابر بن ماجد، عبد الله بن عمر، أنس بن مالك، عمران بن الحصين، وام سلمة.

وهؤلاء عشرون شخصاً ممن نقلوا روايات المهدي، ويوجد كثير غيرهم.

كما نقلت أحاديث كثيرة حول ظهور المهدي عبر أولئك الصحابة أنفسهم بما يمكن اعتبارها من ضمن الروايات النبوية، لأن هذه المسألة ليست بالتي يمكن الاجتهاد حولها (ولذلك فإن الصحابة سمعوا بها من النبي صلى الله عليه و آله).

ثم يضيف: إن هاتين المسألتين - أي روايات النبي صلى الله عليه و آله وروايات الصحابة التي لها هنا حكم الحديث - وردتا في الكثير من المتون الإسلامية المعروفة وكتب الحديث الرئيسية فضلاً عن (السنن) و (المعاجم) و (المسانيد).

ومن جملتها (سنن أبي داود، سنن الترمذي، ابن ماجه، ابن عمرو، مسند أحمد، وابن

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٢٣

ليلى والبزاز، وصحيح الحاكم، ومعجم الطبراني، والدارقطني، وأبو نعيم، والخطيب البغدادي، وابن عساكر وغيرهم).

ثم يضيف: ولأهمية هذه القضية كتب وألف البعض من علماء المسلمين كتباً خاصة بموضوع أخبار المهدي، من ضمنهم (أبو نعيم الاصفهاني) في [أخبار المهدي و (ابن حجر الهيثمي) في [القول المختصر في علامات المهدي المنتظر] والشوكاني في [التوضيح في تواتر (ما) جاء في المنتظر والدجال والمسيح و (ادريس العراقي المغربي) في كتاب [المهدي وأبو العباس ابن (عبد المؤمن المغربي) في كتاب [الوهم المكنون في الرد على ابن خلدون .

يضيف بعد ذلك: وقد صرح قسم من علماء المسلمين الكبار - قديماً وحديثاً - في تأليفاتهم بأن الأحاديث المتعلقة بالمهدي وصلت إلى حد التواتر (ولهذا فهي غير قابلة للانكار).

ومن جملة هؤلاء (السخاوي) في كتاب [الفتح المغيث ومحمد بن أحمد السفاويني في [شرح العقيدة]، وأبو الحسن الابري في [مناقب الشافعي، وابن تيمية في كتاب فتاواه، والسيوطي في [الحاوي، وادريس العراقي في كتابه، والشوكاني في [التوضيح، ومحمد جعفر الكناني في [نظم التنافر].

ويقول في نهاية هذا المبحث: إن (ابن خلدون) فقط حاول النيل من أحاديث المهدي ولكن سادة الدين وعلماء المسلمين ردوا أقواله، وبعض آخر مثل (ابن عبد المؤمن) ألفوا كتباً خاصة في الرد عليه.

وخلاصة القول: إن حفظه الحديث وعظماء الشريعة قد صرحوا بأن أحاديث المهدي تشتمل على روايات صحيحة وحسنة تؤدي بمجموعها إلى التواتر.

ويستنتج في الختام: (وبناءً على ذلك فإن الاعتقاد بظهور المهدي يعتبر واجباً على كل مسلم، وهو جزء من عقائد أهل السنة والجماعة، ولا ينكر ذلك إلا كليل جاهل أو مبتدع) «١».

(١) من الرسالة المؤرخة في ٢١ مايو ١٩٧٦ التي جاءت بتوقيع مدير المجمع الفقهي الإسلامي محمد منتظر الكناني، وهي الرسالة التي جاءت نتيجة مباحثة المذكور مع أربعة أشخاص آخرين من فقهاء الحجاز المعروفين وهم، الشيخ صالح بن عثيمين، والشيخ أحمد محمد جمال، والشيخ أحمد علي، والشيخ عبد الله الخياط.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٢٤

ومن الضروري أيضاً الإشارة إلى هذا المطلب، أنه حسب اعتقاد طائفة من المحققين، فإن الاعتقاد بوجود المهدي لا يقتصر على المسلمين فقط، بل إن سائر اتباع المذاهب الأخرى أيضاً في انتظار مصلح كبير لهذا العالم، وقد اشير إلى هذا المعنى في مصادرهم المختلفة، وللتعرف على الشرح الوافي لهذا الموضوع لابد من مطالعة الكتب المصنفة بشأن ظهور المهدي «١». والآن ومع الأخذ بنظر الاعتبار اسلوب مباحث الكتاب التي تدور حول محور التفسير الموضوعي، تنتقل إلى الآيات التي تشير إلى هذا الظهور الكبير:

١- حكومة الصالحين في الأرض

نقرأ في قوله تعالى «وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ* أَنْ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ». (الأنبياء/ ١٠٥-١٠٦)

تأتي هذه الآيات بعد الآيات التي تبين الأجر الأخرى للصالحين، وفي الواقع فإنها تكشف عن الأجر الدنيوي لهم، وهو أجر مهم جداً، ذلك أنه يهيء أرضية السعادة وتطبيق أحكام الله تعالى وصلاح ونجاة المجتمع الإنساني. ومع الأخذ بنظر الاعتبار أن «الأرض» بمعناها المطلق تشمل كل الكرة الأرضية، وجميع أنحاء العالم (إلا إذا كانت هناك قرينة خاصة)، فإن هذه الآية تعدّ بشاراً بخصوص الحكومة العالمية للصالحين، وإذ لم يتحقق هذا المعنى في الماضي، فلا بد من انتظار تحققه في المستقبل، وهذا هو نفس الشيء الذي نتوخاه تحت عنوان «الحكومة العالمية للمهدي».

(١) بإمكانكم مراجعة كتاب ثورة المهدي العالمية بهذا الشأن.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٢٥

وهذه الملاحظة جديرة بالاهتمام أيضاً إذ تقول الآية: ولقد كتبنا هذا الوعد في كتب الأنبياء السابقين أيضاً، وهذه إشارة إلى أن هذا الوعد ليس وعداً جديداً، بل إنه أمر متجذر ورد في المذاهب الأخرى أيضاً.

والمراد ب «الزبور» على الأقوى نفس «زبور داود»، وهو عبارة عن مجموعة من المناجاة، والأدعية، ونصائح داود النبي المذكورة في كتب العهد القديم (الكتب الملحقة بالتوراة) باسم «مزامير داود».

واللطيف أنه- بالرغم من كل التحريفات التي طالت كتب العهد القديم بمرور الزمان- فإن هذه البشارة الكبيرة يمكن ملاحظتها بشكل واضح في نفس هذا الكتاب أي «مزامير داود».

ونقرأ في المزمور / ٣٧ الجملة / ٩: (... لأن الأشرار سينقطعون، وأمّا المتوكلون على الرب فسيكونون ورثة الأرض، وحالاً يخفى الأشرار، وكلما بحثت عنهم فسوف لن تجد لهم أثراً).

وجاء في الجملة / ١١: (أما المتواضعون فقد ورثوا الأرض، وهم يتلذذون من وفور النعمة).

وورد المعنى نفسه أيضاً في الجملة / ٢٧ من نفس المزمور بالعبارة التالية: (لأنّ مباركى الرب سيرثون الأرض، اما ملعونوه فسوف يتقطعون).

وجاء في الجملة / ٢٩: (فالصديقون ورثوا الأرض، وسيسكنونها أبداً).

ومن الواضح أن التعابير السابقة من قبل «الصديقون»، «المتوكلون»، «المتبركون» و «المتواضعون» إشارة لعبارة «عبادى الصالحون» التي وردت في القرآن الكريم.

والمراد من «الذكر» في الآية الآنفه، الذكر حسب اعتقاد الكثير من مفسري التوراة، وتشهد على ذلك الآية: «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ

الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرَى لِلْمُتَّقِينَ».

(الأنبياء / ٤٨)

واحتمل البعض الآخر أن المراد من «الذكر»، «القرآن»، وجميع كتب الأنبياء السابقين

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٢٤

من «الزبور»، (وبناء على ذلك فإن معنى الآية يصبح بهذا الشكل: لقد كتبنا هذه البشارة في جميع كتب الأنبياء السابقين بالإضافة للقرآن).

وعلى أيّة حال فإنّ هذه البشارة قد جاءت أيضاً في قسم من ملحقات التوراة مثل كتاب «النبى اشعيا» كما نقرأ ذلك في الفصل الحادى عشر من هذا الكتاب:

«الاذلاء بعدالة الحكم، وستكون الأرض حقاً نكالاً «ورمزاً لليقظة» للمساكين ... حزام ظهرها العدل ... ونطاق وسطها سيكون الوفاء ... سيسكن «سيانس» الذئب مع الشاة ...

وسيكون الطفل الصغير راعيها ... لأن الأرض ستمتلىء من علم الله، كما تمتلىء البحار من المياه).

كما تلاحظ مثل هذه الإشارات في كتاب التوراة نفسه أيضاً من جملتها: الفصل / ١٣ رقم ١٥: (سنعطى الأرض إلى واحد من أولاد إبراهيم. ولو عد أحد ذرات غبار الأرض لعدّ ذريته).

وجاء في الفصل / ١٧ الجملة / ٢٠: (اعطيته «إسماعيل» بركتى واربيته (ابناؤه) إلى أقصى غايه وسيظهر منه اثنا عشر سيداً وائمة عظيمة).

لاحظوا الجملة الثانية عشر فانه سيبعث السرور ممّا يدل على أنّ الأئمة الاثني عشر كلهم من ذريته وأولاده.

وفي الفصل / ١٨ الجملة / ١٨: (سيبارك منه جميع أقوام الدنيا ...).

وهناك تعابير واشارات اخرى من هذا القبيل لو اردنا ذكرها لطال بنا المقام.

لقد وردت هذه المسألة بشكل صريح فى الروايات الإسلامية أيضاً- بالإضافة إلى الإشارات الواضحة لمسألة قيام المهدي عليه السلام فى الآية السابقة، ومنها أنّ المرحوم «الطبرسى» فى «مجمع البيان» نقل فى نهاية هذه الآية عن الإمام الباقر عليه السلام قوله: «هم أصحاب المهديّ فى آخر الزمان». نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٢٧

وجاء فى تفسير القمى أيضاً فى نهاية هذه الآية ما يلى: «قال القائم واصحابه».

ليس من شك فى أنّه من الممكن أن يقيم عباد الله الصالحون حكومته على جزء من الأرض، كما حصل فى عصر رسول الله صلى الله عليه وآله وبعض الأعصار الاخرى إلّا أنّ استقرار الحكومة بأيدى الصالحين على وجه الأرض كلها ستحصل فى عصر المهدي عليه السلام فقط، وهناك روايات كثيرة بلغت حد التواتر، وقد وردت عن طرق السنّة والشيعة بهذا الصدد.

كما أنّ «الشيخ منصور على ناصف» مؤلف كتاب «التاج الجامع للاصول»- وهو كتاب يضم الاصول الخمسة المعروفة لدى السنّة، وقد كتب علماء الازهر تقارير مهمة عليه- أورد فى الكتاب المذكور ما يلى: «اشتهر بين العلماء سلفاً وخلفاً أنّه فى آخر الزمان لابدّ من ظهور لرجل من أهل البيت مسمى المهدي يستولى على الممالك الإسلامية ويتبعه المسلمون ويعيد بينهم ويؤيد الدين».

ثم يضيف قائلاً: «وقد روى أحاديث المهدي جماعة من خيار الصحابة، واخرجها أكابر المحدثين: كابى داود، والترمذى، وابن ماجه، والطبرانى، وأبى يعلى والبراز والإمام أحمد والحاكم (١)».

لم يستطع حتى ابن خلدون المعروف بمخالفته لأحاديث المهدي، انكار شهرة هذه الأحاديث بين جميع علماء الإسلام أيضاً (٢).

ومن الذين أوردوا تواتر هذه الأخبار فى كتبهم «محمد الشبلنجى» العالم المصرى المعروف فى كتاب «نور الأبصار» إذ يقول: «تواتر الأخبار عن النبى صلى الله عليه وآله على أنّ المهدي من أهل بيته وأنّه يملأ الأرض عدلاً».

لقد ورد هذا التعبير فى الكثير من الكتب الاخرى أيضاً، حتى أنّ «الشوكانى» من علماء السنّة المعروفين يقول فى كتاب ألفه حول

تواتر الأحاديث المرتبطة بالمهدي عليه السلام، وخروج الدجال، وعودة المسيح عليه السلام، بعد بحثٍ مفصّل بشأن تواتر الأحاديث المتعلقة بالمهدي عليه السلام:

(١) التاج الجامع للأصول، ج ٥ ص ٣٤١ (ورد هذا المطلب كهامش في تلك الصفحة).

(٢) ابن خلدون، ص ٣١١.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٢٨

«هذا يكفي لمن كان عنده ذرّة من الإيمان وقليل من انصافٍ» (١).

ومن المستحسن هنا أن نذكر على الأقل بعضاً من روايات النخبة الواردة في أشهر المصادر الإسلامية كنموذج من هذا البيدر:

١- ينقل «أحمد بن حنبل» من أئمة السنّة الاربعه في كتابه «مسند أحمد» عن «أبو سعيد الخدرى» أنّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله قال: «لا تقوم الساعة حتى تمتلأ الأرض ظلماً وعدواناً، قال ثم يخرج رجلٌ من عترتى أو من أهل بيتى يملأها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وعدواناً» (٢).

٢- ونقل الحافظ أبو داود السجستاني نفس هذا المعنى في كتابه «السنن» مع فارق ضئيل (٣).

٣- نقل الترمذى المحدث المعروف بسند صحيح (طبقاً لتصريح منصور على ناصف في التاج) عن عبد الله، عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله قال: «لو لم يبق من الدنيا إلّ ما يومٍ لطوّل الله ذلك اليوم حتى يبعث رجلاً منى أو من أهل بيتى يواطئ اسمه اسمى، واسم ابىه اسم ابى (٤)، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت ظلماً وجوراً» (٥).

وأورد الحاكم النيسابورى في «المستدرک» ما يشبه هذا الحديث مع فارق قليل، ويقول في نهايته: هذا حديث صحيح (٦).

٤- ونقل أيضاً فى صحيح «أبى داود» عن أم سلمة أنّها قالت: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّه كان يقول: «المهدى من عترتى من ولد فاطمة» (٧).

(١) نقلًا عن كتاب التاج، ج ٥، ص ٣٦٠.

(٢) مستدرک أحمد، جملة ٣، ص ٣٦.

(٣) سنن أبى داود، ج ٤ ص ١٥٢.

(٤) صرّح بعض العلماء الكبار أنّ الصحيح هنا، اسم ابىه اسم ابنى، وبهذا الشكل يكون موافقاً تماماً للاسم المبارك للإمام المهدي حسب اعتقاد الشيعة أى (محمد بن الحسن العسكرى).

(٥) التاج، ج ٥، ص ٣٤٣.

(٦) المستدرک، ج ٤، ص ٥٥٨.

(٧) صحيح أبى داود، ج ٢، ص ٢٠٧.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٢٩

٥- نقل الحاكم النيسابورى فى المستدرک، حديثاً أكثر تفصيلاً بهذا الشأن عن أبى سعيد الخدرى عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله قال: «ينزل بأمى فى آخر الزمان بلاء شديد من سلطانهم، لم يُسمع بلاء أشد منه، حتى تضيق عنهم الأرض الرخبه، وحتى يملأ الأرض جوراً وظلماً، لا يجد المؤمن ملجأً يُلجأ إليه من الظلم فيبعث الله عزّ وجلّ رجلاً من عترتى، فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، يرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض، لا تدخّر الأرض من بذرها شيئاً إلّا اخرجته، ولا السماء من قطرها شيئاً إلّا صبّه الله عليهم مدراراً» (١).

وبعد ذكر هذا الحديث يقول الحاكم: هذا حديث صحيح وبالرغم من أن «البخارى» و «مسلم» لم يورداه في كتبهما. ومثل هذه الأحاديث- الواردة عن مختلف الرواة من المصادر المشهورة- كثيرة جداً، وتشير إلى الحكومة العالمية التي ستقام في نهاية المطاف على اليد المقتردة الكفوءة للإمام المهدي عليه السلام، ويملاً العدل والقسط كل مكان، ويتحقق بالتالي مضمون الآية السابقة: «أَنَّ الْأَرْضَ يَرْتُهَا عِبَادِي الصَّالِحُونَ».

٢- آية سورة النور

نقرأ في قوله تعالى «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ».

(النور / ٥٥)

لقد بشر المؤمنون الصالحون في هذه الآية المباركة وبشكل صريح، أنهم سيمسكون زمام السلطة والحكومة على الأرض في نهاية المطاف، وسيُنشر الدين الإسلامي، وستتبدل حالات اللا أمن والخوف إلى الاستقرار والأمن، وتُقلع جذور الشرك في جميع أنحاء العالم،

(١) المستدرک علی الصحیحین، ج ٤، ص ٤٦٥.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٣٠

ويتمكن عباد الله من مواصلة عبادة الله الواحد الأحد بكل حرية، وتتم الحجّة على الجميع، بحيث لو أنّ أحداً أراد أن يواصل مسير الكفر سيكون فاسقاً ومقصراً، (أرجو أن تتأملوا في القسم الأخير من الآية بدقّة).

وبالرغم من أنّ هذه الامور الهامة كانت تعد وعداً إلهياً تحقق في عصر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله والأزمة اللاحقة من بعده بنحو أوسع للمسلمين في العالم، وعاد الإسلام الذي كان يوماً ما تحت قبضة الأعداء يعانى من وطأة الظلم بحيث لم يسمحوا له بأدنى فرصة للظهور والبروز على الساحة، ويعيش المسلمون في حالة دائمة من الخوف والفرع، عاد في نهاية المطاف وانتشر ليس في شبه جزيرة العرب فحسب، بل عمّ أجزاء عظيمة واسعة من العالم، وانكفأ الأعداء منهزمين في جميع الجبهات، ولكن بالرغم من هذا كله، فإنّ حكومة الإسلام العالمية التي يجب أن تعمّ كافة أرجاء المعمورة وآفاق الأرض، وتقلع جذور الشرك وعبادة الأوثان بشكل نهائي، وتشر الأمن والأمان والهدوء والحرية والتوحيد الخالص، لم تتحقق بعد، إذن يجب انتظار تحقق هذا الأمر.

سيتحقق هذا الأمر طبقاً لما ورد في الرواية المتواترة التي أشرنا إليها آنفاً في عصر قيام المهدي عليه السلام، وبناءً على ما تقدم فإنّ احدى مصاديق هذه الآية تحقق في عصر النبي صلى الله عليه وآله والأعصار المقارنة له، وسيتحقق شكله الأوسع في عصر قيام المهدي عليه السلام، ولا منافاة بين هذين الأمرين، ولا بدّ من تحقق هذا الوعد الإلهي في كلا المرحلتين.

المراد من الاستخلاف هنا خلافة الأتقوام الكافرة الماضية، إذ تزول فيها حكومتهم وتحل محلها حكومة الحق، نظير ما جاء في قوله تعالى «ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ». (يونس / ١٤)

وقد ورد شبيه هذا المعنى في الآيتين ٦٩ و ٧٤ من سورة الأعراف.

وبناءً على ذلك، فالذين تصوروا أنّ الآية تعد دليلاً واضحاً على خلافة الخلفاء الأربعة- أمثال الفخر الرازي- باعتبار أنّ أولئك هم الذين استخلفوا الرسول، وأنّ الوعد الإلهي قد تحقق في عصرهم، إنّما وقعوا في الخطأ، لأنّ هذه الآية لا يراد بها خلافة الرسول، بل خلافة

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٣١

الأقوام السابقة كما ورد ذلك في الآيات الثلاثة الآنفه الذكر، وكما ورد في قوله تعالى «وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسَيْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا». (الأعراف / ١٣٧)

من البديهي أن بنى اسرائيل ورثوا الفراعنة وسيطروا على جميع أنحاء ذلك البلد الواسع الملى بالبركات (مصر وأطرافها). على أية حال فإن الآية تُبشر بقيام حكومة المؤمنين الصالحين في جميع أنحاء العالم، تلك الحكومة التي تحقق مقدار واسع منها في عصر رسول الإسلام صلى الله عليه وآله وبعده، وهي وإن لم تعم جميع العالم، إلا أنها كانت نموذجاً على تحقق هذا الوعد الإلهي، ولكن لم يتحقق بعد على هيئة حكومة عالمية تعم أرجاء المعمورة، والمصداق النهائي لها سوف يتحقق بقيام حكومة الإمام المهدي عليه السلام مع توفر الأرضية والظروف بمشيئة الله تعالى إذ ستملأ الدنيا عدلاً وقسطاً طبقاً لما ورد في الروايات الصادرة عن الرسول صلى الله عليه وآله وسائر الأئمة المعصومين عليهم السلام، بعد ما ملئت ظلماً وجوراً، ونحن بانتظار تحقق هذا الوعد القرآني. والروايات الواردة في المصادر المختلفة في تفسير هذه الآية تؤكد وتؤيد هذه المسألة أيضاً.

ومنها إن المفسر المعروف «القرطبي» ينقل في تفسير «الجامع لاحكام القرآن» في نهاية هذه الآية عن «سليم بن عامر»، عن «المقداد بن اسود»، يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «ما على ظهر الأرض بيت حجر ولا مدر إلا أدخله الله كلمة الإسلام» (١). وفي تفسير «روح المعاني» نُقل عن «الإمام على بن الحسين عليه السلام» أنه قال في تفسير هذه الآية: «هم والله شيعتنا أهل البيت يفعل ذلك بهم على يد رجل منا وهو مهدي هذه الأمة وهو الذي قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطول الله تعالى ذلك اليوم حتى يلى رجل من عترتي اسمه اسمي يملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً».

(١) تفسير القرطبي، ج ٧ ص ٤٦٩٢.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٣٢

ويمكن مشاهدة هذا المعنى باختلاف قليل في الكثير من مصادر أهل البيت عليهم السلام. وبالرغم من أن «الآلوسي» لم يقيم هذا الحديث برأى ايجابى في تفسير «روح المعاني»، إلا أنه يقول في نهايته: وردت عدة روايات عن طرفنا تؤيد هذا المعنى وإن لم نؤول عليها - كرواية «عطية» عن النبي صلى الله عليه وآله بعد أن تلا هذه الآية، قال صلى الله عليه وآله: «أهل البيت هاهنا وأشار إلى القبلة» (١).

وينقل القرطبي حديثاً آخر بهذا الشأن أيضاً أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله قال: «زويت لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها» (٢).

يتضح من كل ما أسلفناه، الجواب عن الكثير من مؤآخذات المخالفين لمنطق اتباع أهل البيت عليهم السلام في تفسير هذه الآية. وتوضيح ذلك: إنه كما قلنا سابقاً: إن تحقق هذا الوعد الإلهي له عدة مراحل، واحدى هذه المراحل حصلت مع المؤمنين الصالحين في عصر الرسول صلى الله عليه وآله، إذ بعد فتح مكة وسيطرة الإسلام على الجزيرة العربية، شعر المسلمون في ظل الإسلام والرسول صلى الله عليه وآله بأمن نسبي واستولوا على جزء عظيم من المنطقة، وتحقق بذلك ما ورد بشأن نزول هذه الآية.

(وقد ورد سبب نزول هذه الآية في العديد من التفاسير، ومنها أسباب النزول، ومجمع البيان، وفي الظلال، والقرطبي (باختلاف بسيط)، أنه عندما هاجر رسول الإسلام صلى الله عليه وآله والمسلمون إلى المدينة واستقبلهم الأنصار بأحضانهم، نهض العرب بأجمعهم ضدهم، بحيث إنهم اضطروا إلى عدم مفارقة اسلحتهم، فينامون الليل بالسلاح، ويستيقظون الصبح مع السلاح، وكان الاستمرار على هذه الحالة ينقل على المسلمين، وأخذ بعضهم يتساءل إلى متى ستستمر هذه الحالة؟ هل سيأتى زمان ننام فيه الليل براحة بال واطمئنان، ولا نخشى احداً سوى الله؟ فنزلت هذه الآية، وبشرت بقرب حلول هذا الوقت).

(١) تفسير روح البيان، ذيل آية مورد البحث.

(٢) تفسير القرطبي، ذيل آية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٣٣

والمرحلة الاخرى لهذا الوعد، حصلت في زمن الخلفاء إذ سيطر الإسلام على أجزاء واسعة من العالم وأخضعها لسلطته، فعادت على المسلمين بمزيد من الأمن والاستقرار.

إلا أن المرحلة الثالثة والنهائية أي عالمية الإسلام وحاكميته المطلقة على العالم المترامنة مع الأمن والاستقرار وانتصار جيش التوحيد على معسكر الشرك ولم يتحقق بعد، وسيقتصر تحققه على عصر قيام المهدي عليه السلام فقط، وهذه المعاني الثلاثة التي تمثل سلسلة مراحل لحديث واقعي لا توجد بينها أية منافاة.

كما يستفاد من هذه الآية أيضاً، أن هذا الوعد الإلهي يختص بالأفراد الذين يمتلكون الإيمان والعمل الصالح، وبقينا كلما تحقق هذان الشرطان وفي أي عصر ومصر سوف تنهياً للمسلمين احدي مراحل هذه الحاكمية الإلهية، وبالمقابل كلما حدثت هزيمة ما، وعاد المسلمون أذلاء ضعفاء في قبضة الأعداء، يجب أن نعلم بأنّ دينك الأساسيين اللذين يمثلان شرطى تحقق الوعد الإلهي قد طوتهما صحف النسيان، فالإيمان عاد ضعيفاً، والاعمال آلت ملوثة!

٣- آية ظهور الحق

نقرأ في قوله تعالى «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ». (التوبة/ ٣٣) تجدر الإشارة إلى أن هذه الآية تأتي بعد آية: «يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ أَنْ يُمْسِقَ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ». وأعطى الله في هذه الآيات- كما في الآيات السابقة- الوعد في غلبة وانتصار الإسلام على كافة الأديان في العالم. وحول السؤال القائل: ما هو المقصود بانتصار الإسلام على كافة الأديان؟ اعطى المفسرون عدّة احتمالات.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٣٤

فالفخر الرازي يعطى خمسة تفاسير هنا تعد جواباً على الاسئلة المرتبطة بكيفية هذه الغلبة:

١- المقصود بالغلبة هو الغلبة النسبية والموضعية، ذلك إن الإسلام انتصر بمنطقه على جميع الأديان والمذاهب.

٢- المراد هو الانتصار على الأديان في الجزيرة العربية.

٣- المراد إخبار النبي صلى الله عليه وآله بجميع الأديان الإلهية (فسرت جملة «ليظهره» هنا بمعنى الإخبار).

٤- المراد النصر والغلبة المنطقية، أي أن الله ينصر منطق الإسلام على سائر الأديان.

٥- المراد النصر النهائي على جميع الأديان والمذاهب عند نزول عيسى عليه السلام وقيام المهدي عليه السلام إذ سيصبح الإسلام عالمياً.

ولاشك بأن تفسير الآية بالنصر المنطقي وبصورة وعدٍ مستقبلي لا ينطوي على مفهوم صحيح، لأن النصر المنطقي للإسلام كان واضحاً منذ البداية، إضافة إلى ذلك فإن مادة «الظهور» و«الأظهار» (ليظهره على الدين كله) وكما يستفاد من موارد استعماله في القرآن المجيد، بمعنى الغلبة الخارجية والعينية كما نقرأ ذلك في قصة أصحاب الكهف: «أَنْهُمْ أَنْ يُظْهِرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ».

(الكهف / ٢٠)

ونقرأ في قوله تعالى «كَيْفَ وَأَنْ يُظْهِرُوا عَلَيْكُمْ لَأَيِّرُقُبُوا فِيكُمْ أَلَّا وَلَا ذِمَّةً».

(التوبة / ٨)

ومن البديهي أن عبدة الأصنام من قوم أصحاب الكهف، ومشركي مكة لم ينتصروا منطقياً على المؤمنين بالله اطلاقاً، واقتصرت غلبتهم على الغلبة الخارجية فقط، وبناءً على هذا فإن المراد بغلبة الإسلام على جميع الأديان هي الغلبة الخارجية والعينية، وليس الغلبة المنطقية والفكرية.

إن هذه الغلبة - وكما ورد نظير ذلك في البحث الماضي - لها مراحل مختلفة:

حصلت إحدى مراحلها في عصر الرسول صلى الله عليه وآله، ومرحلتها الأوسع حصلت في القرون

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٣٥

التالية، ومرحلتها النهائية ستحصل عند قيام المهدي عليه السلام، لأن الآية الشريفة تتحدث عن غلبة الإسلام على جميع الأديان دون أي قيد وشرط، والغلبة المطلقة دون أي قيد أو شرط إنما تتحقق بشكل كامل عندما تلقى ظلالها على جميع أرجاء المعمورة، كما ورد في رواية رسول الإسلام صلى الله عليه وآله إذ قال: «لا يبقى على ظهر الأرض بيتٌ مَدْرٍ ولا وَبْرٍ إلا أدخله الله كلمة الإسلام» (١). ونقل شبيه هذا المعنى في تفسير «الدر المنثور» عن «سعيد بن منصور»، و«ابن المنذر» و«البيهقي» في سننه عن «جابر بن عبد الله» أنه قال في تفسير هذه الآية:

«لا يكون ذلك حتى لا يبقى يهودي ولا نصراني صاحب مله إلا الإسلام» (٢).

أجل سيتحقق هذا الوعد الكبير في ذلك اليوم الكبير.

ونقل هذا المعنى عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير الآية السابقة، إذ قال: «والله ما نزل تأويلها بعد ولا ينزل تأويلها، حتى يخرج القائم، فاذا خرج القائم لم يبق كافر بالله العظيم» (٣).

وهذه الملاحظة على جانب من الأهمية إذ إن الآية: «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ» قد ورد في ثلاث سور من القرآن: الأولى في التوبة الآية ٣٣ (كما مر سابقاً)، والثانية في سورة الفتح الآية ٢٨، والثالثة في سورة الصف الآية ٩. هذا التكرار يبين أن القرآن المجيد قد تابع هذه المسألة بتأكيد متزايد.

ونقرأ في حديث آخر نقل في مصادر السنة عن أبي هريرة: المقصود من الآية: «لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ»، خروج عيسى بن مريم عليه السلام (ونحن نعلم أن خروج عيسى ابن مريم عليه السلام وطبقاً لما ورد في الروايات الإسلامية سيكون أثناء قيام المهدي عليه السلام). (٤).

(١) تفسير مجمع البيان، الآية التي نحن بصدددها.

(٢) تفسير در المنثور، ج ٣، ص ٢٣١.

(٣) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٢١٢.

(٤) تفسير در المنثور، ج ٣، ص ٢٣١.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٣٦

ونختم هذا البحث بحديث منقول عن «قتادة» المفسر المعروف، إذ يقول في تفسير هذه الآية: «الأديان ستنة الذين آمنوا، والذين هادوا، والصابئون، والنصارى والمجوس، والذين أشركوا، فالأديان كلها تدخل في دين الإسلام» (١).

ومن الواضح أن هذا المعنى لم يتحقق بعد بشكل نهائي، ولن يتحقق إلّا في عصر قيام المهدي عليه السلام.

وهذه الملاحظة جديرة بالاهتمام أيضاً، وهي: أن المقصود بزوال الديانة اليهودية والمسيحية ليس بشكل كامل، بل المقصود حاكمية الإسلام على العالم اجمع (تأملوا جيداً).

آثار انتظار المهدي عليه السلام:

تصوّر بعض الجهلة أنّ انتظار ظهور المهدي عليه السلام بناءً على الآيات والروايات الآنفه، يمكن أن يتسبب في الركود والتخلف، أو الهروب من تحمّل أعباء المسؤوليات، والاستسلام أمام الظلم والاضطهاد، ذلك أنّ الاعتقاد بهذا الظهور الكبير يعنى في مفهومه اليأس وقطع الأمل في إصلاح العالم قبله، بل وحتى الاعانة على انتشار الظلم والفساد لكي تنهيا الأرضية المناسبة لظهوره! لقد مرّت سنوات عديدة وألسن المخالفين والمنكرين لقيام المهدي عليه السلام تتناول هذا الحديث، وأشار إلى ذلك ابن خلدون، في الوقت الذي تعد هذه المسألة على العكس من ذلك تماماً، وأنّ انتظار هذا الظهور الكبير له آثار بناءة جداً، سنشير إليها لاحقاً بشكل سريع ومختصر، كي يتّضح أنّ مثل هذا الحكم يعدّ حكماً متسرعاً وغير دقيق أمام مسألة اشير إليها في القرآن المجيد، وكذلك في الأحاديث المتواترة الواردة في الكتب المعروفة للسنة،

(١) تفسير در المنثور، ج ٣، ص ٢٣١.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٣٧

والمصادر المشهورة للشيعة، ومبيّنة بشكل صريح.

حقيقة الانتظار وآثاره البناءة:

لقد كان الحديث يدور حول حقيقة الإيمان بظهور المهدي عليه السلام ببرنامجه العالمي الذي يملأ بموجبه العالم عدلاً وقسطاً ويقطع جذور الظلم والاضطهاد، فهل لتلك الحقيقة آثار تربوية بناءة أم آثار سلبية؟ وهل أنّ الإيمان بمثل هذا الظهور يحمل الإنسان على الاستعراض في افكار تخيلية بحيث يغفل عن واقعه المعاش ويجعله مستسلماً أمام كل الظروف؟

أم أنّ ذلك في حالة صحة هذه العقيدة يعد نوعاً من الدعوة للثورة وبناء الفرد والمجتمع؟

هل يبعث على التحرك أم الركود؟

هل يخلق روح تحمّل المسؤولية أم يكون داعياً إلى الهروب من اعباء المسؤوليات؟!

وأخيراً: هل هو عامل مخدّر أم متبّه؟

ولكن قبل توضيح ومتابعة هذه الاسئلة، يعدّ الالتفات إلى هذه النقطة أمراً ضرورياً جداً، وهي: أنّ أفضل القوانين وارقى المفاهيم إذا وقعت في ايدي الأفراد غير الكفوئين أو غير اللائقين أو الانتهازيين يمكن أن تتعرض إلى المسخ الشديد، بحيث تعطى نتائج مغايرة للهدف الأصلي تماماً، وتتحرك بالاتجاه المضاد منها، ولهذه القضية نماذج كثيرة، ومسألة «الانتظار» وبالنحو الذي سنراه في عداد هذه المسائل.

وعلى أيّة حال فإنّ التخلّص من كافة أنواع الخطأ في الحساب في مثل هذه الأبحاث، لا بدّ - كما يقال - من أخذ الماء من مصدره، لكي لا يُؤثر فيه التلوّث المحتمل للأنهار والقنوات التي يمرّ فيها الماء خلال مسيره.

أي إنّنا سنتوجه في بحث مسألة «الانتظار» مباشرة نحو المصادر الإسلامية الأصلية، ونُخضع مضامين الأحاديث المختلفة التي تؤكد على مسألة «الانتظار» للبحث والتحقيق، كي نصل إلى الهدف الأساسي.

والآن تأملوا في هذه الطائفة من الروايات بدقّة:

١- سأل سائل من الإمام الصادق عليه السلام: ماذا تقول فيمن مات وهو على ولاية الأئمة

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٣٨

بانتظار ظهور حكومة الحق؟

فقال الإمام عليه السلام في جوابه: «هو بمنزلة مَنْ كان مع القائم عليه السلام في فسطاطه - ثم سكت هنيئاً - ثم قال: هو كَمَنْ كَانَ مع رسول الله صلى الله عليه وآله» (١).

ونقل هذا المضمون نفسه في روايات كثيرة وبتعابير مختلفة.

٢- وجاء في بعض منها: «بمنزلة الضارب بسيفه في سبيل الله».

٣- وفي البعض الآخر: «كَمَنْ قَارَعَ مع رسول الله صلى الله عليه وآله بسيفه».

٤- وفي البعض الآخر: «بمنزلة مَنْ كَانَ قَاعِدًا تحت لواء القائم».

٥- وفي البعض الآخر: «بمنزلة المجاهد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله».

٦- وفي البعض الآخر: «بمنزلة مَنْ استشهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله».

إن هذه التشبيهات السبعة الواردة في هذه الروايات الستة بشأن انتظار ظهور المهدي عليه السلام، تكشف عن هذه الحقيقة، بوجود نوع من الرابطة والتشابه بين مسألة «الانتظار» من جهة، و«الجهاد»، ومقاتلة الأعداء بأعلى صورة من جهة أخرى (تأملوا).

٧- ورد انتظار مثل هذه الحكومة أيضاً في روايات متعددة، واشير إليه على أنه أفضل العبادات.

ونقل هذا المضمون في بعض الأحاديث عن الرسول صلى الله عليه وآله، وفي البعض الآخر عن أمير المؤمنين عليه السلام، ونقرأ في حديث أن الرسول صلى الله عليه وآله قال: «أَفْضَلُ أَعْمَالِ أُمَّتِي أَنْتِظَارُ الْفَرَجِ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» (٢).

ونقرأ في حديث آخر عن الرسول صلى الله عليه وآله: «أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ أَنْتِظَارُ الْفَرَجِ» (٣).

وهذا الحديث سواء نظرنا فيه إلى مسألة انتظار الفرج بالمعنى الواسع للكلمة أو بالمفهوم الخاص لها أى بمعنى انتظار ظهور المصلح العالمى الكبير، يوضح أهميته الانتظار فى بحثنا هذا.

(١) محاسن البرقى طبقاً لنقل بحار الأنوار، ج ١٣، ص ١٣٦.

(٢) اصول الكافى بناءً على نقل بحار الأنوار، ج ١٣، ص ١٣٧.

(٣) اصول الكافى بناءً على نقل بحار الأنوار، ج ١٣، ص ١٣٦.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٣٩

كل هذه التعابير تقول بأجمعها إن الانتظار يعد ثورة مقرونة بشكل مستمر بالجهاد الواسع الشامل، اجعلوا هذه المسألة نصب أعينكم كى تنتقل إلى مفهوم الانتظار، ثم نستخلص النتيجة من مجموع هذه المفاهيم.

مفهوم الانتظار:

«الانتظار»: يُطلق عادةً على حالة من يشعر بعدم الارتياح من الوضع الموجود، ويسعى من أجل ايجاد وضع أفضل.

ومثله كمثل المريض الذى ينتظر تحسن حالته، أو الأب الذى يعيش حالة انتظار عودة ولده من السفر، أو مَنْ يشعر بعدم الارتياح من مرض أو فراق الولد ويسعى من أجل وضع أفضل.

وكذا الحال بالنسبة للتاجر الذى يشعر بعدم الارتياح من وضع السوق المضطرب ويعيش الانتظار كى تنتهى الأزمة الاقتصادية، فانه يعيش كلا الحالتين «عدم الانسجام مع الوضع الموجود»، و«السعى من أجل وضع أفضل».

وبناءً على ذلك فإن مسألة انتظار حكومة الحق والعدالة للامام «المهدى» وقيام المصلح العالمى مرگبة فى الواقع من عنصرين، عنصر

«النفى» وعنصر «الإثبات». ويمثل عنصر النفى عدم الانسجام مع الوضع الموجود، ويمثل عنصر الإثبات السعى من أجل الحصول على الوضع الأفضل.

وإن حلت هاتان الخصلتان بصورة متجذرة في روح الإنسان فستكونان مصدرًا لنوعين من الأعمال الواسعة الشاملة. وهذان النوعان من الاعمال يتمثلان بترك أى نوع من أنواع التعاون والانسجام مع عوامل الظلم والفساد، وحتى النضال والاشتباك معها من جهة، وبناء الذات واعدادها والمحافظة عليها من الزلل، واكتساب الاستعدادات الجسميَّة والروحيَّة والماديَّة والمعنويَّة من أجل تبلور تلك الحكومه العالميه والشعبيه الموحده من جهة اخرى

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٤٠

ولو تأملنا جيداً نرى أن كلاً منها يعدُّ بناءً وعامل تحريكٍ ووعيٍ ويقظة.

ومع أخذ المفهوم الأساس «لانتظار» بنظر الاعتبار يمكن أن نُدرِك جيداً معنى الروايات المتعددة التي نقلناها آنفاً بشأن البشارة، ونتيجة عمل المنتظرين. والآن نفهم لماذا عدَّ المنتظرون الحقيقيون أحياناً كالذين مع المهدي عليه السلام في فسطاطه، أو تحت لوائه، أو كالضارب بسيفه في سبيل الله، أو المتشطح بدمه، أو المستشهد؟

أليست هذه الحالات إشارة إلى المراحل المختلفة، ودرجات الجهاد في سبيل الحق والعدالة، والتي تتناسب مع مقدار الاستعداد ودرجة انتظار الأفراد؟

أى، كما أن ميزان تضحية المجاهدين في سبيل الله ودورهم متفاوت فيما بينهم، فإنَّ الانتظار وبناء الذات والاستعداد له درجات متفاوتة أيضاً، بحيث إنَّ كلاً منها يتشابه مع ما يقابلها من حيث «المقدمات» و «النتيجة»، فكلاهما يمثلان الجهاد، وكلاهما يريدان الاستعداد وبناء الذات، فمن كان في فسطاط قائد مثل تلك الحكومه أى في مركز القيادة العامه لحكومه عالميه لا يسعه أن يكون فرداً غافلاً وغير مبال، لأنَّ ذلك المكان ليس لكائن من كان، إنَّه مكان أولئك الذين يليقون حقاً بتلك المنزلة والأهميه. وكذلك فإنَّ الذى يحمل السلاح بيده ويقا تل بين يدي قائد هذه الثورة ضد المخالفين لحكومته، حكومه الصلح والسلام والعدالة، لابد وأن يمتلك استعداداً روحياً وفكرياً وقاتلياً عالياً.

ولغرض المزيد من الاطلاع على الآثار الواقعيه لانتظار ظهور المهدي عليه السلام نرجو الالتفات إلى التوضيح التالي:

الانتظار يعنى الاستعداد التام:

إشارة

لو كنت ظالماً ومضطهداً كيف يمكن أن أنتظر فرداً تكون دماء الظلمه طعمه لسيفه؟

لو كنت ملوثاً نجساً كيف بوسعى أن أكون فى انتظار ثورة ستأتى شرارتها على حضائر النجسين والملوثين؟

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٤١

فالجيش الذى ينتظر أن يخوض حرباً شعواء يجب أن يعمل على رفع الاستعداد القتالى لأفراده، ويؤجج فيهم روح الثورة، ويعمل على إصلاح أى نقطه ضعف فيه.

لأنَّ كفيئه «الانتظار» تتناسب دائماً مع الهدف الذى نحن بانتظاره.

انتظار مسافر عائد من سفره.

انتظار عودة أحد الأحبة الأعزاء.

انتظار حلول موسم جنى الثمار من الأشجار وحصاد المحصول.

وكل نوع من حالات الانتظار هذه ممزوج بنوع من الاستعداد، ففي احداها لا بد من اعداد البيت وتوفير وسائل الاستقبال، وفي الاخرى تهيئه الأدوات اللازمة، كالمنجل.

من هنا لكم أن تنظروا إلى أن الذين ينتظرون قيام مصلح عالمي كبير فإنهم ينتظرون في الواقع ثورةً وانقلاباً وتحولاً يعد من أوسع واشمل الثورات الإنسانية على مر تاريخ البشرية.

إنهم ينتظرون انقلاباً مغايراً للثورات السابقة التي كانت تفتقر إلى الصيغة المنطقية في محتواها، بل ثورة عامة شاملة لجميع الشؤون والجوانب الحياتية للبشرية، ثورة سياسية وثقافية واقتصادية وأخلاقية.

الفلسفة الاولى بناء الذات فردياً

إن مثل هذا التحول يحتاج قبل كل شيء إلى العناصر الإنسانية المستعدة والأمنية لكي يكون بوسع القائمين به تحمّل أعباء تلك الإصلاحات الواسعة في العالم، ويحتاج ذلك بالدرجة الاولى إلى رفع مستوى التفكير والوعي والاستعداد الروحي والفكري للمساهمة في تطبيق ذلك البرنامج العظيم، إن النظرات الضيقة والمحدودة، والأفكار المنحرفة، والحسد، والنزاعات الصبانية وغير العقلانية، وبشكل عام كل نوع من النفاق والتشتت لا ينسجم مع مكانة «المنتظرين الواقعيين».

والملاحظة المهمة هي أن المنتظر الحقيقي ليس بوسعه أن يتخذ دور المتفرج أمام هذا

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٤٢

البرنامج المهم اطلاقاً، ولا بد أن ينخرط من الآن في صفوف الثوريين.

إن الإيمان بنتائج وعاقبة هذا التحول لا يسمحان له بأن يكون في خندق المعارضين اطلاقاً، كما أن الانضمام لخندق المؤيدين أيضاً لا يحتاج فقط إلى امتلاك «اعمال نظيفة»، وروح أنظف، والتحلّي «بالشهامه» و «الوعي»، إذ إن ذلك وحده لا يكفي.

فلو كنت شخصاً فاسداً وغير مستقيم كيف بوسعي أن أعد الأيام في انتظار نظام ليس فيه للفاسدين وغير الصالحين أي دور أو أثر، بل سيكونون مطرودين وغير مرغوب فيهم.

ألا يكفي هذا الانتظار لتصفية الروح والفكر، وغسل الجسم والروح من الدرن والنجاسات؟

إن الجيش الذي يعيش الانتظار لخوض جهاد التحرير لا بد وأن يكون في حالة الانذار القصوى والاستعداد الكامل، ويعمل جاهداً للحصول على السلاح اللائق بساحة القتال هذه، ويبني المواضع اللازمة، ويرفع المستوى القتالي لمنتسبيه،

ويقوى معنوية أفراده، ويعمل على ابقاء شعله الحب والشوق لمثل هذه المنازلة حية في قلوب جنوده، والجيش الذي لا يتحلّى بمثل هذا الاستعداد لا يمكن أن يعيش حالة الانتظار مطلقاً، وإن ادعى ذلك فإنما يكذب.

إن انتظار مصلح عالمي بمعنى الاستعداد الفكري والأخلاقي، المادى والمعنوى الكامل، إنما هو من أجل إصلاح العالم اجمع، تأملوا كم أن هذا التهيؤ والاستعداد يعد بناءً.

إن إصلاح جميع أرجاء الأرض وإنهاء كل أنواع المظالم والاضطرابات ليس مزاحاً، ولا يمكن أن يكون عملاً بسيطاً، فالاستعداد والتهيؤ لمثل هذا الهدف العظيم يجب أن يكون متناسباً مع حجمه، أى: يجب أن يكون بسعته وعمقه!

ومن أجل تحقيق هذه الثورة، لا بد من رجال عظماء جداً يمتازون بالتصميم العالى والاقتدار الرفيع ولا يقبلون الهزيمة، طاهرين وبعيدى النظر وبشكل استثنائي، وعلى استعداد كامل، ويمتلكون نظرة ثابتة للامور.

ويستلزم البناء الذاتى لمثل هذا الهدف استخدام اعمق البرامج الأخلاقية والفكرية

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٤٣

والاجتماعية، هذا هو معنى الانتظار الواقعي، فهل يتسنى لاحد الادعاء بأن مثل هذا الانتظار ليس بناءً؟

الفلسفة الثانية: أعمال الرعاية الاجتماعية

المنتظرون الصادقون مكلفون في نفس الوقت بأن لا يركزوا اهتمامهم بأنفسهم فحسب، بل بمراقبة أحوال بعضهم البعض، وأن يبادروا في إصلاح الآخرين وإصلاح أنفسهم، لأن البرنامج العظيم والثقل الذي ينتظرونه ليس برنامجاً فردياً، بل إنه برنامج ينبغي أن تساهم فيه جميع عناصر الثورة، ولا بد أن يكون طابع العمل طابعاً جماعياً وجماهيرياً، ولا بد أن تتناغم الجهود والمساعى، وينبغي أن يكون عمق الانسجام وسعته بعضم ذلك البرنامج الثوري العالمي الذي يعيشون انتظاره.

وفي هكذا ميدان واسع للمنازلة الجماعية، ليس بوسع أي فرد أن يبقى غافلاً عن أحوال الآخرين، بل إنه مكلف بإصلاح أي نقطة ضعف في أي مكان يراها، وأن يرمم أي موضع متضرر، وأن يقوى كل جزء ضعيف، لأنه بدون الاشتراك الفعال والمنسجم لكل المناضلين فإن تطبيق مثل هذا البرنامج يعدُّ أمراً مستحيلاً.

وبناءً على هذا فإن المنتظرين الواقعيين وضايفه لسعيهم في إصلاح أنفسهم، مكلفون أيضاً بإصلاح الآخرين. هذا هو الأثر البناء الآخر لانتظار قيام مصلح عالمي، وهذه هي فلسفة كل تلك الفضائل المعدة للمنتظرين الحقيقيين.

الفلسفة الثالثة: المنتظرون الحقيقيون لا يذوبون في فساد المحيط

الأثر المهم الآخر الذي يمتاز به انتظار المهدي هو عدم الذوبان في مفاصد المحيط، وعدم الاستسلام أمام الانحرافات والفساد.

وتوضيح ذلك: إنه عندما يشيع الفساد ويجر الأكرهية نحو التلوث، فإن الأفراد الطاهرين

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٤٤

يواجهون أحياناً مأزقاً نفسياً حاداً لا مخرج منه، مأزقاً مغلقاً نابعاً من اليأس من الإصلاحات.

إنهم يعتقدون أحياناً بأن الأمر قد خرج من أيديهم ولا أمل بالإصلاح قط، والسعي من أجل المحافظة والبقاء على الطهارة يعد عبثاً، ومن الممكن أن يجرحهم هذا اليأس والاحباط نحو الفساد والتأقلم مع المحيط تدريجياً، بحيث لا يتمكنون معه من المحافظة على أنفسهم بصورة أقلية صالحة أمام الأكرهية الطالحة، وينظرون إلى مسألة عدم التأقلم مع الجماعة كباعث على الفضيحة! والشئ الوحيد الذي يمكن أن يبعث فيهم «الأمل» ويدعوهم إلى المقاومة والمحافظة على النفس، ولا يدعهم يذوبون في المحيط الفاسد هو الأمل بالإصلاح النهائي، في هذه الصورة فقط سوف لن يرفعوا أيديهم عن بذل المساعي والجهود للمحافظة على طهارتهم وإصلاح الآخرين.

وإن كنا نلاحظ في القوانين الإسلامية أن اليأس من غفران الذنوب يعد من الذنوب الكبيرة، ومن الممكن أن يتعجب الجاهلون أنه لماذا يعد اليأس من رحمة الله على هذا القدر من الأهمية، بل حتى أنه أهم من كثير من الذنوب، إن فلسفة هذه المسألة تكمن في حقيقة مفادها هو أن المذنب الآيس من الرحمة لا يرى أي مبرر للتفكير بالتكفير عن ذنبه، أو على الأقل الاعراض عن الاستمرار بارتكاب الذنب، ومنطقه يرتكز على أن الماء قد تجاوز هامتي سواء بتمر أو مائة متر! أنا المفضوح في الدنيا فلن ابالي بهوم الدنيا! ولا لون بعد السواد أشد منه، سأدخل جهنم لا محالة، أنا الذي اشترت ذلك لنفسى، فمم الخوف إذن؟! وأمثال هذا المنطق ...

أما عندما تفتح أمامه نافذة أمل، الأمل بعفو الله، الأمل بتغيير الوضع الموجود، ستولد نقطة عطف في حياته تدعوه إلى التوقف عن مسيرة الذنوب والعودة نحو الطهارة والإصلاح.

ولهذا السبب يمكن اعتبار الأمل على أنه عامل تربوي مؤثر في أوضاع الفاسدين دائماً، وكذلك الصالحون المبتلون بالأوساط الفاسدة، لا يسعهم المحافظة على أنفسهم بدون الأمل.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٤٥

والنتيجة إن انتظار ظهور مصلح يزداد الأمل بظهوره كلما ازدادت الدنيا فساداً، له أثر نفسى متزايد لدى المعتقدين، ويصونهم أمام أمواج الفساد المتلاطمة؛ إنهم لا يعرفون اليأس بمجرد انتشار رقعة فساد المحيط، بل بمقتضى «اقتراب موعد الوصل* يزداد لهيب الشوق والوله» فإنهم يرون موعد الوصل والوصول إلى الهدف الذى هو نصب أعينهم، وتزداد حدة المنازلة مع الفساد أو المحافظة على النفس بكل شوق واستماتة.

من مجموع الأبحاث الماضيه نستخلص النتيجة التالية: إن الأثر التخديرى للانتظار يقع فى حالة واحدة بأن يصبح مفهومه المسخ أو التحريف- كما حرّفه إلى هذا المفهوم جمع من المعارضين، ومسخه جمع من المؤيدين- أمّا لو تُرجم إلى مفهومه الواقعى فى المجتمع والفرد فيتحوّل إلى عامل مهم للتربية وبناء الذات والتحرك والأمل.

ومن جملة الأساسيد الواضحة التى تؤيد هذا الموضوع ما جاء فى آخر هذه الآية «وَعِدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ» (النور / ٥٥)

ونقل عن أئمة الإسلام الكرام المقصود بهذه الآية «هو القائم وأصحابه» (١).

ونقرأ فى حديث آخر: (نزلت فى المهدي).

وفى هذه الآية اشير إلى المهدي عليه السلام وأصحابه بأنهم «الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ»، وبناءً على ذلك فإن تحقق هذه الثورة العالمية بدون الإيمان الراسخ الذى لا يداخله أى نوع من الضعف والتخاذل، وبدون الأعمال الصالحة التى تفتح الطريق أمام إصلاح العالم يعدّ أمراً غير ممكن البتة، وعلى الذين ينتظرون مثل هذا البرنامج أن يرفعوا مستوى وعيهم وإيمانهم، وأن يجتهدوا فى إصلاح اعمالهم.

ويمكن لهؤلاء الأفراد أن يمنحوا أنفسهم أمل الاشتراك فى حكومته فقط، وليس الذين يتعاونون مع الظلم والاضطهاد، وليس البعيدون عن الإيمان والعمل الصالح، ولا الأفراد

(١) بحار الأنوار، ج ١٣، ص ١٤.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٤٦

الجبنة والأذلاء الذين يخشون كل شىء وحتى يخافون من ظلمهم بسبب ضعف إيمانهم.

ولا الأفراد المتقاعسون والكسالى والعاطلون الذين يقفون مكتوفى الأيدى أمام مفسد محيطهم ومجتمعهم مفضلين السكوت دون أن يكون لهم أدنى سعي أو جهد على طريق مواجهة معالم الفساد.

هذا هو الأثر البناء لقيام المهدي عليه السلام فى المجتمع الإسلامى.

اللهم! نور أبصارنا بجمال طلعتة البهية، واجعلنا من أنصاره المخلصين وجنوده المضحين!

نهاية الجزء التاسع من نفحات القرآن

ربيع الثانى سنة ١٤١٥ هـ ق

المطابق لشهر مهر

سنة ١٣٧٣ هـ ش

الجزء العاشر

العلاقة بين الإمامة والحكومة

تحدثنا في المجلد التاسع من نفحات القرآن عن مسألة الإمامة والولاية من وجهة نظر القرآن الكريم، وحيث إن مسألة الإمامة لا تنفصل عن مسألة الحكومة بل إن روح الإمامة والولاية تعني حكومة النفوس والأبدان، وهدايتها إلى الصراط المستقيم والتحرك نحو الكمال والسعادة، لذا وجب علينا بحث مسألة الحكومة الإسلامية بعد الانتهاء من بحث مسألة الإمامة والقيام بتحليلها وتفصيلها، حيث لم يكتمل موضوع الإمامة والولاية بذلك القدر.

ألم نَعِدْ إقامة حكومة العدل الواحدة في العالم احدى أهم الأهداف في قيام المهدي (عج)؟ ونعني به نفس الشيء الذي كان بصدده الرسول صلى الله عليه وآله وباقي الأئمة عليهم السلام، ولم تسنح الفرصة لا من حيث الزمان ولا المكان للوصول إلى هذا الهدف بالرغم في وجود الأسس اللازمة لإقامتها، نعم لقد بذل الجميع جهوداً للوصول إلى تشكيل حكومة العدل الإلهي. فكيف يمكن اذن فصل موضوع الحكومة عن الإمامة؟ بل، ولقد بدأ الرسول صلى الله عليه وآله بعد الانتصار في الغزوات الأولى بتشكيل الحكومة الإسلامية واعتبرها ركناً مهماً من أركان الإسلام، بل الضامن الوحيد لإجراء القوانين بأكملها، وقد كان الهمم الوحيد لأولئك الذين خلفوا الرسول صلى الله عليه وآله سواء كانت خلافتهم حقه أم لم تكن، هو تشكيل وإدامة الحكومة الإسلامية.

ولقد دعى سكان الكوفة الإمام الحسين عليه السلام إلى تشكيل الحكومة الحقة ومحاربة غاصبيها، ولو لا نقض العهد من قبل أهل الكوفة وتخاذلهم وعدم وفائهم، لرفع الإمام عليه السلام علم الحكومة الإسلامية عالياً، والروايات الواردة عن طريق الأئمة المعصومين عليهم السلام

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٦

ونهج البلاغة احتوت على تعابير كثيرة توضح من خلالها أن أعداءهم قد غضبوا حقهم عليهم السلام، وهذا الحق ليس إلّا (حكومة العدل الإسلامية).

كل هذه الأدلة وتلك الشواهد التي لا تُحصى برهان آخر على أن مسألة الإمامة لا تنفصل عن الخلافة) و (الحكومة).

ونرى في رواية (هارون الرشيد) الذي أراد بزعمه أن يرجع «فدكاً» إلى الإمام موسى بن جعفر عليه السلام ملاحظةً جديرة بالاهتمام لتوضيح المقصود:

إن «فدكاً» - وكما هو معلوم - ضيعة قريبة من (خيبر) وكانت خضراء يانعاً، وقد وهبها الرسول صلى الله عليه وآله إلى ابنته الزهراء عليها السلام في حياته، وقد اغتصبت منها بعد وفاته مباشرة، فكانت دائماً موضع اعتراض المحبين لأهل البيت عليهم السلام فلذلك وبعد ضغط الرأي العام، فكر الرشيد بارجاعها إلى أولاد فاطمة عليها السلام فقال للإمام موسى بن جعفر عليه السلام: «حدّ فدكاً حتى أردّها إليك» وألح عليه كثيراً، فقال الإمام موسى الكاظم عليه السلام: «لا آخذها إلّا بحدودها».

قال هارون: وما حدودها؟

قال الإمام عليه السلام: «إن حدّتها لم تردّها».

قال هارون: بحق جدك إلّا فعلت.

قال الإمام عليه السلام: «أمّا حدّها الأول فعدن»، فتغيّر وجه الرشيد. وقال: أيهاً.

قال الإمام عليه السلام: «والحدّ الثاني سمرقند». فأربد وجهه.

قال الإمام عليه السلام: «والحدّ الثالث أفريقية»، فاسودّ وجهه.

وقال هارون: هيه.

قال الإمام عليه السلام: «والرابع ساحل بحر الخزر وأرمينية».

قال الرشيد: فلم يبق لنا شيء، فتحول إلى مجلسي.

قال الإمام عليه السلام: «قد أعلمتك أنتي إن حدّتها لم تردّها فعند ذلك عزم على قتلي» (١).

هذا الحديث يدل على أن بين مسألة (فدك) و (الخلافة) رابطة قوية وتعنى أن ما عُصِبَ

(١) بحار الأنوار، ج ٤٨، ص ١٤٤ (نقلًا عن كتاب أخبار الخلفاء).

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٧

كان خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله والتي تعتبر فدك جزءاً منها، ولو أراد هارون ارجاع فدك لكان يجب عليه أن يتخلى عن الخلافة، مما أشعره أن الإمام إذا ما وصل إلى حالة من القوة لفعل ذلك وسيتولى الخلافة حتماً، لذا عزم على قتله «١». الغرض، هو أن المسائل ذات العلاقة ببحث الإمامة لها رابطة مع المسائل ذات العلاقة بالحكومة وقيادة المسلمين، وهذا أمر بديهي ولا يقبل أى شك أو شبهة، ونرى هذا الارتباط واضحاً فى كل مكان ويتجلى بوضوح فى الروايات الإسلامية وفى تاريخ سيرة وحياة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمة الأطهار عليهم السلام وفى طبيعة الأحكام الإسلامية.

ولقد اجملت مباحث الفقه الإسلامى فى ثلاثة أقسام هى: قسم «العبادات» وقسم «المعاملات»، وقسم «السياسة».

ويعتبر قسم (السياسة) والذي هو من الأبواب الفقهية المهمة ويشتمل على مسائل عدّة مثل (الجهاد، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، القضاء والشهادات، والحدود والديات والقصاص) جزءاً من المسائل المتعلقة بالحكومة، إذن لا يمكن إجراء أقسام الجهاد وبعضاً من مسائل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكذلك القضاء والشهادات وتنفيذ الحدود والقصاص بدون وجود الحكومة على الإطلاق.

وترسم كذلك المسائل المرتبطة بالانفال والخمس والزكاة والأراضى الخاصة بالخراج، الخطوط العريضة لجزء مهم من الحكومة باعتبارها الدعامة الأساسية لإقامة بيت المال الإسلامى.

وعلى هذا فقد امتزجت المسائل السياسية والحكومية بالفقه الإسلامى بشكل كامل بحيث لا يمكن وضعها موضع التنفيذ دون تشكيل الحكومة.

كل ذلك شاهد جلى على أن الإسلام ليس بمعزل عن الحكومة والسياسة، وقد نفذت المسائل المتعلقة بالحكومة والسياسة- والتي تعنى بإدارة نظام المجتمع- فى التعاليم الإسلامية بصورة لو أردنا أن نفصل بينها لا يكون للإسلام معنى ومفهوم، والذين يحاولون

(١) الزهراء سيده نساء العالمين، ص ١٣٠.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٨

فصلهما عن بعضهما يقومون فى الواقع (بفصل الإسلام عن الإسلام)، والإسلام بدون الإسلام تناقض واضح.

ويتبين لنا من خلال ذلك، السبب الذى دفع بنا إلى بحث مسائل الحكومة وزعامه المسلمين بعد انتهائنا من بحث الإمامة فى الجزء السابق.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٩

ضرورة إقامة الحكومة فى المجتمع البشرى

إشارة

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١١

بعد أن لاحظنا الصلة الوثيقة بين الإمامة والحكومة نتحول إلى مسألة مهمة أخرى ألا وهي ضرورة وجود الحكومة للمجتمعات البشرية. وكما يبين لنا التاريخ، أن هناك أنواعاً معينة من الحكومات في المجتمعات البشرية، كحكومة القبيلة، وحكومة الملوك والسلاطين، والحكومات التي هي من النوع الذي نشهده في الوقت الحاضر، ويعنى ذلك أن البشر وعبر مراحل العملية والثقافية يُدرك تماماً ضرورة وجود الحكومة، ويعلم كذلك أن الحياة الاجتماعية من دون تحكيم النظام والقانون لا يمكن إيجادها ولو ليوم واحد. ولهذا السبب يمكن ملاحظة الهرج والمرج والشغب الذي يحدث بُعَيْدَ سقوط حكومة ما، وحتى قيام حكومة أخرى حيث يسيطر النظام الجديد ظلّه على الحياة، فيحترق كل شيء ويتحول إلى رُكام. لذا فلا يمكن لأى عاقل ان يشك في ضرورة وجود الحكومة للمجتمعات البشرية، وقد وردت الكثير من الآيات والروايات الإسلامية التي تصرّح وتلمّح إلى هذا المعنى نذكر بعضها باختصار:

١- في قصة بنى اسرائيل نلاحظ أنه وعلى أثر الفوضى الداخلية وغياب الحكم القوى قد أصابهم الضعف والانحطاط والهزيمة وتسلط الأعداء عليهم، فجاءوا إلى نبيّ لهم طالبين تعيين حاكم لهم حتى يتسنى لهم السير في طريق الله تحت إمرته، يقول القرآن الكريم: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلِكِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذِ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ ائْتِنَا بِمَلِكًا نَفْحَاتِ الْقُرْآن، ج ١٠، ص: ١٢

نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا». (البقرة/ ٢٤٦)

مع أن هذه الآية تشير إلى أبعاد وآثار وجود الحاكم على قوم أو شعب في مسألة الجهاد ضد العدو الخارجي وتطهير الأرض من دنس الأجنبي وتحرير الأسرى إلّا أنها تتعدى إلى أبعاد معانٍ أخرى حيث تصدق فيها كذلك. والقرآن يوضح بهذا التعبير أن الوصول إلى الحرية والاستقرار الاجتماعى مستحيل بدون وجود الحكومة والحكم القوى، وقد يُتصور هنا أن بنى اسرائيل أرادوا قائداً للجيش فقط لا- حاكماً عليهم، إلّا أنه يجب ملاحظة كلمة (ملك) والتي تعنى الحاكم على جميع الشؤون وإن كان المعنى العام للقصة يشير إلى وجود ساحة قتال مع عدوٍ خارجي. والحقيقة أن النبي (أشموئيل) في ذلك الوقت كان يمتلك صلاحية قيادة المجتمع كذلك، بينما كان لطالوت الذى انتخبه لبنى اسرائيل دور القائد للجيش.

٢- وقد ورد في القرآن الكريم في ذيل هذه الآيات المذكورة، خبر اندحار جيش جالوت في مقابل بنى اسرائيل، حيث يقول: «فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ». (البقرة/ ٢٥١)

وتشير الجملة الأخيرة إلى أنه لولا وجود حكومة قوية ومهيبة تقف بوجه الطغاة والخارجين على القانون، لامتألت الأرض بالفساد، وعلى هذا فإن الحكومة العادلة هي هبة من الله للحد من الفساد الدينى والاجتماعى.

٣- وقد ورد معنى مشابه لهذا في سورة الحج حيث تقول بعد اعطاء الضوء الأخضر للمسلمين للجهاد ضد الأعداء: «الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَيَّجَتْ صَوَامِعُ وَبِيْعٌ وَصِلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا». (الحج / ٤٠)

وهنا أيضاً كان الحديث عن دور الحكومة في البعد الجهادي، ولكن من الطبيعي أن الجهاد من دون التشكلات المنظمة السياسية والاجتماعية والاقتصادية لا يمكن تحقيقه،

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٣

وذلك لأن المجاهدين يتألفون من قسمين: «القوات العسكرية» و «القوات الشعبية» وتعتبر الأخيرة الظهير والسند لما وراء ميدان القتال

والتي تضمّ في الواقع كل المجتمع.

٤- ونقرأ في الآية التي تليها عبارة تشير إلى المؤمنين الحقيقيين: «الَّذِينَ أَنْكَرُوا الْآيَةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ». (الحج / ٤١)

وتشير هذه الآية ضمناً إلى أنّ إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (في معناها الواسع العام) لا يتيسر إلا عن طريق تشكيل الحكومة، ولذا فالآية تصف المؤمنين الحقيقيين بأنهم عندما يمتلكون القدرة ويصلون إلى تشكيل الحكومة فإنهم سيقومون هذه الفرائض الإلهية الكبيرة، وهنا يتبين لنا دور الحكومة في إصلاح المجتمع من وجهة نظر الإسلام.

٥- تشير الآيات (٤٣-٥٦ من سورة يوسف) بوضوح إلى حدثٍ يتبين من خلاله ضرورة الحكومة، وذلك أنّ ملك مصر يرى مناماً ويطلب من يوسف الذي كان وقتها في السجن أن يفسّر له تلك الرؤيا بدقّة بعد أن ذاع صيته في تفسير الأحلام، فيكشف يوسف عليه السلام شيئاً من مستقبل مصر من خلال تلك الرؤيا حيث ينتظر الناس سبع سنوات من القحط والجوع، وإذا مرّوا من تلك السنين بسلام فإنهم سيلاقون سنين الخير والرفاه، ثم يبيّن كيفية إجراء الأعمال الضرورية لمواجهة تلك السنين الصعبة وطرق تحضير وخزن المواد الغذائية وطريقة الاستهلاك، فيطلق الملك سراحه ويخرج من السجن ثم يعينه مسؤولاً عن خزائنه مصر، وهكذا يتمّ انقاذ شعب كبير بأكمله وذلك بمديرية النبي يوسف عليه السلام الصحيحة جنباً إلى جنب مع ملك مصر.

وتبيّن هذه القصة بشكل لا لبس فيه ضرورة وجود الحكومة ذات الاطلاع والتدبير لتقوم بمهامها لإدارة المجتمعات الإنسانية وخصوصاً في الوقائع الصعبة، وأتت إذا ما حُرمت هذه المجتمعات من الحكومات من ذلك النوع فإنها لا محالة ستقع في مشاكل عويصة ممّا سُسبب لها اضراً جسيماً لا يمكن تعويضها.

٦- نلاحظ الكثير من الآيات القرآنية تشير إلى أنّ الحكومة الإلهية إنّما هي نعمة من نعم

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٤

اللّه، وذلك بملاحظة الحكومة ودورها الفعّال في تنظيم المجتمع الإنساني والحيلولة دون بروز الظلم والعدوان، وتوفير الجو الملائم للوصول إلى الكمال الإنساني.

ومن ذلك ما ورد عن النبي داود عليه السلام وابنه سليمان عليه السلام: «وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا».

(الانبياء / ٧٩)

عندما تُعدّ نعم الله الكثيرة على بني اسرائيل تقول: «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ».

(المائدة / ٢٠)

وطبعاً لم يكن جميع بني اسرائيل حكاماً وملوكاً، لكن عندما ينتخبوا من بينهم حاكماً وملكاً عليهم فإنّ الخطاب يتوجه إليهم باعتبارهم قوم حباهم الله سبحانه هذه النعمة فانتخب منهم ملوكاً وحكاماً.

ويتحدث القرآن الكريم عن لسان النبي سليمان عليه السلام: «قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَتَّبِعُنِي لِأَخِيذٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ». (ص / ٣٥)

وتشير الآيات التي تليها إلى أنّ الله سبحانه استجاب دعاءه ووهب له حكومة عظيمة ومواهب كثيرة لا نظير لها، وجاء في قوله تعالى: «أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا». (النساء / ٥٤)

وتكمن أهميّة هذه المسألة في أنّ الله سبحانه يُعِدُّ موهبة الحكم مرادفة للعزّة ويعتبر فقدانها قرينه للذلّة.

يقول سبحانه وتعالى «قُلِ اللَّهُمَّ مَا لِكِ الْمَلِكِ تُوتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

(آل عمران / ٢٦)

تشير كل الآيات التي ذكرناها إلى أهميته وجود الحكومة للمجتمعات البشرية من وجهة نظر القرآن الكريم، وفي الواقع إن هذا الآيات نافذة على العالم الواسع للحكومة في المجتمعات البشرية.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٥

ضرورة الحكومة في الرويات الإسلامية:

تعد مسألة ضرورة الحكومة ذات أهميته وصدى واسع في الروايات الإسلامية، وقد بينت تلك الروايات أنه لا يمكن للناس العيش دون وجود الحكومة، وأن وجود حكومة وإن كانت ظالمة خير من الفوضى في غياب الحكومة.

وهنا لنرى نموذجاً من تلك الروايات ذات المعنى المذكور:

١- عن أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة جواباً على ادعاء الخوارج حين قالوا: «لا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ، فقال عليه السلام: «كَلِمَةُ حَقٍّ يُرَادُ بِهَا بَاطِلٌ ثُمَّ اسْتَطْرَدَ قَائِلًا: «نَعَمْ إِنَّهُ لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ يَقُولُونَ لِأَمْرَةٍ إِلَّا لِلَّهِ، وَإِنَّهُ لَا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ أَمِيرٍ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ يَعْمَلُ فِي أَمْرَتِهِ الْمُؤْمِنُ وَيَسْتَمْتِعُ فِيهَا الْكَافِرُ، وَيُبْلَغُ اللَّهُ فِيهَا الْأَجَلَ وَيَجْمَعُ بِهِ الْفِيءَ وَيَقَاتِلُ بِهِ الْعِدَّةَ، وَتَأْمَنُ بِهِ السُّبُلُ وَيُؤَخَذُ بِهِ لِلضَّعِيفِ مِنَ الْقَوِيِّ حَتَّى يَسْتَرِيحَ بَرٌّ وَيُسْتَرَاحَ مِنْ فَاجِرٍ» (١).

وبديهياً أن الإمام علياً عليه السلام لم يقصد من عبارة «أمير بر أو فاجر» أن هذين متساويين، بل قصد به أنه لا بد من وجود حاكم عادل وصالح، وإلا فوجود حاكم وإن كان ظالماً خيراً من الفوضى والشغب، وعلى كل حال فلا تنفي هذه الحالة الأخيرة الحكم الإلهي الصالح على العالم كله، ذلك أن الحكم يشبه النبوة والقضاء التابعين من ذات الخالق المقدسة، ولقد بينت هذه العبارة ضمناً الأبعاد المختلفة لفلسفة الحكومة والأدلة الواردة في إثبات ضرورتها، وسنبحث ذلك بالتفصيل في صفحات قادمة.

٢- اشير في الروايات المعروفة والتي نقلها (الفضل بن شاذان) عن الإمام الرضا عليه السلام إلى ثلاث نقاط مهمة حيث بين فيها دلائل وأسباب تعيين (أولى الأمر) والحكم في المجتمع.

قال الفضل بن شاذان إنه سمع من الرضا عليه السلام مرّة بعد مرّة، أنه قال: فإن قال: فلم جعل أولى الأمر وأمر بطاعتهم؟ قيل: لعل كثيرة منها أن الخلق كما وقفوا على حد محدود وأمروا ألا يتعدوا ذلك الحد لما فيه من فسادهم لم يكن يثبت ذلك، ولا يقوم إلا بأن يجعل عليهم فيه أميناً يمنعهم من

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٤٠.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٦

التعدى والدخول فيما حظر عليهم لأنه لو لم يكن ذلك كذلك لكان أحد لا يترك لذته ومنفعته لفساد غيره، فجعل عليهم فيما يمنعهم من الفساد وقيم فيهم الحدود والأحكام.

ومنها: أنا لا نجد فرقة من الفرق ولا ملّة من الملل بقوا وعاشوا إلبقيم ورئيس كما لا بد لهم منه في أمر الدين، فلم يجز في حكم الحكيم أن يترك الخلق مميّاً يعلم أنه لا بد لهم منه ولا قوام إلبابه، فيقاتلون فيه عدوهم ويقسمون به فيهم، وقيم لهم جمعهم وجماعتهم، ويمنع ظالمهم من مظلومهم.

ومنها: إنه لو لم يجعل لهم إماماً قيماً أميناً حافظاً مستودعاً لدرست الملّة وذهب الدين وغيرت السنّة والأحكام، ولزاد فيه المبتدعون ونقص منه الملحدون، وشبهوا على المسلمين لأننا قد وجدنا الخلق منقوصين محتاجين غير كاملين، مع اختلافهم واختلاف أهوائهم وتشتت أبحاثهم، فلو لم يجعل لهم قيماً حافظاً لما جاء به الرسول لفسدوا على نحو ما بينا وغيرت الشرايع والسنن والأحكام والإيمان

وكان في ذلك فساد الخلق أجمعين «١».

٣- في تفسير النعماني عن أمير المؤمنين عليه السلام وعند ذكر آيات من القرآن الكريم، مثل:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ». (الأنفال / ٢٤)

وآية «وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ». (البقرة / ١٧٩)

إنه كان يقول: «وفي هذا أوضح دليل على أنه لا بد للامة من إمام يقوم بأمرهم فيأمرهم وينهاهم ويُقيم فيهم الحدود ويجاهد العدو، ويقسم الغنائم ويفرض الفرائض ويعرفهم أبواب ما فيه صلاحهم ويحذرهم ما فيه مضارهم، إذ كان الأمر والنهي أحد أسباب بقاء الخلق، وإلا سقطت الرغبة والرغبة، ولم يُرتدع، ولفسد التدبير وكان ذلك سبباً لهلاك العباد» «٢».

وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في حديث آخر أنه قال: «لا- يستغنى أهل كل بلد عن ثلاثة يُفزع إليهم في أمر دنياهم وآخرتهم، فإن عُدِموا ذلك كانوا همجاً: فقيه عالم ورع،

(١) بحار الأنوار، ج ٦، ص ٦٠، الزوايه طويله لكننا انتخبنا قسماً منها.

(٢) بحار الأنوار، ج ٩٠، ص ٤١.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٧

وأمير خير مطاع، وطبيب بصير ثقة» «١».

و قلنا مراراً إن ما ورد في الروايات الإسلامية يدل على ضرورة وجود حكومة وإن كانت ظالمة خير من الفوضى، حيث نقرأ لأمير المؤمنين عليه السلام قوله: «وال ظلوم غشوم خير من فتنه تدوم» «٢».

ويعنى ذلك أنه حتى في حالة عدم القدرة على تحقيق حكومة عادلة فلا أقل من إقامة حكومة وإن كانت ظالمة وجائرة وذلك في سبيل الاستقرار والأمن للبلد وحدوده ومنع العدوان عليه، وفي غير هذه الحالة تسود حالة من اللأامن والتدهور حيث ستراق دماء الكثير من الأبرياء دون أيّ وازع مما سيسهل على الأعداء النفوذ إلى داخل البلد والسيطرة عليه.

ضرورة الحكومة في التصور العقلي:

كان ما ذكرناه حول ضرورة الحكومة في التصور القرآني والروائي والتي أشارت جميعها بالأدلة القاطعة على ضرورة وجود الحكومة للمجتمعات الإنسانية، وهنا نشير إلى ضرورة الحكومة من خلال الأدلة العقلية حتى تتضح المسألة لنا أكثر.

وتنطلق هذه الأدلة أحياناً في تصور شخص يؤمن بالتوحيد، وأحياناً أخرى نراها من وجهة نظر الشخص المادي، حيث نلاحظ عاملاً مشتركاً بينهما وهو اعتقادهما بضرورة وجود الحكومة للمجتمع البشري وإن كانت آراؤهما تتفاوت وتباين في أحيان أخرى ويمكن الإشارة إلى الأدلة المشتركة في التصور العام فيما يخص هذا الموضوع وهي:

أولاً: إن حياة الإنسان تنطبع بطابع اجتماعي بحيث لو خلت حياته من هذه الصفة فإنها ستكون في أدنى مستوى لها من الجاهلية والوحشية والانحطاط، لأن كل المنافع والآثار

(١) بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٢٣٥.

(٢) غرر الحكم، ج ٢، ص ٧٨٤، ج ٥٠، باب الواو.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٨

الإيجابية والبناءة في حياة البشر بما فيها الحضارة والتقدم والكمال والعلوم والفنون والصناعات المختلفة، كلها نابعة من بركة الحياة

الاجتماعية والعمل المشترك والتعاون فيما بين البشر في المجالات المتعددة.

فما لم تنضم الطاقات الفكرية والبدنية البسيطة بعضها إلى البعض الآخر، فلا مجال لوجود الحركات والانبعاثات العظيمة في المجتمع بأى حال من الأحوال، وببساطة: لو انفصل الإنسان عن المجتمع فسيكون كالحوان، فمن جهة نجد الرغبات والآمال الداخلية والحياة الاجتماعية التي تهبه كل تلك القدرة والإمكان للتقدم والتطور نحو الأفضل، ومن جهة أخرى بما أن الحياة الإنسانية في داخل المجتمع على الرغم من أن كل تلك الآلاء والتعم لا تخلو من النزاع والمنافسة ليس بسبب غلبه الأنانية وحب الذات فقط، بل لاشتباه الكثير من أفراد المجتمع في تشخيص الحدود والحقوق فيما بينهم، لذا فإن دور القوانين هنا يكون ضرورياً لتحديد حقوق الأفراد وسد الطريق أمام التعدييات والتجاوزات اللامشروعة.

كذلك فإن هذه القوانين لا يمكن أن تؤثر لوحدها في ردع الاعتداءات والنزاعات إلا إذا انبرى إلى تنفيذها أفراد يعتمد عليهم في المجتمع، وبعبارة أخرى فالحكومة وحدها تستطيع أن تعزز القوانين وتنفذها في المجتمع وتحول دون انتشار الفساد وسفك الدماء والاعتداء على حقوق الآخرين - ولو بصورة نسبية.

ولذلك نرى الأقوام البشرية ومنذ القدم سعت إلى إيجاد حكومة لها.

ثانياً: لو افترضنا أنه يمكن للناس العيش بسلام بدون حكومة (وهو مُحال بالطبع)، فلا يمكن على أية حال الوصول إلى التقدم والكمال في العلوم والمعارف والصناعات ومختلف الشؤون الاجتماعية دون وجود برنامج دقيق ومديرية عالمة، وهذه هي أشكال أخرى للحكومة.

ومن هذا المنطلق فإن جميع العقلاء في العالم يؤكدون على ضرورة تشكيل الحكومة للمجتمعات البشرية إلا ما يرى نادراً في كلمات بعض المؤيدين للشوعية من أنه لو قُضِيَ

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٩

على النظام الطبقي للمجتمع فلا تعود هناك ضرورة لأي حكومة، إذ يعتقدون أن الدولة والحكومة إنما تساعد على الحفاظ على منافع الطبقة الرأسمالية وحسب، وعندما يتم القضاء على هذه الطبقة فلا يبقى سبب لوجود الحكومة.

ولكن من الواضح أن كل ذلك إنما هو محض خيال وأوهام لا وزن لها في ميزان العقل والمنطق، ذلك أن الوصول إلى حالة عدم وجود الطبقة في العالم، أو أن يكون كل البشر في مستوى معاشي واحد، إنما هو حُلْمٌ وخيال لا أكثر وخاصة في الوضع الحالي الذي تمر به المجتمعات البشرية.

ولو فرضنا أننا يمكننا الوصول إلى مجتمع كهذا والقضاء على النظام الطبقي والحكومي الحافظ لهذا النظام، تبقى الحاجة إلى برنامج دقيق ومديرية ضرورية للوصول إلى التقدم العلمي والصناعي والحفاظ على السلامة الاجتماعية والنظام والحريّة وتأمين الغذاء والسكن وسائر الاحتياجات. فهل يمكن مثلاً الاستغناء عن وزارة التربية والتعليم في سبيل وضع برنامج صحيح لغرض تعليم وتربية الشباب؟ وهل يمكن بدون وجود وزارة الصناعة الحفاظ على العوامل الصناعية؟ وهل بالإمكان ردّ العدوان والهجوم الأجنبي دون وجود وزارة الدفاع؟ ولو افترضنا عدم حدوث حرب في العالم، فهل يمكن إيجاد النظم في المجتمع الإنساني مع غياب قوى الأمن في ذلك المجتمع؟

على أية حال فإن هذه المسألة تعتبر من البديهيات وهي أن المجتمع الإنساني لا يمكنه العيش بسلام دون وجود الحكومة ولو ليوم واحد، وحتى الذين لا يؤيدون هذه القاعدة لم يصلوا إلى أية نتيجة ورجعوا خائبين.

صحيح أن الحكومات المستبدّة والظالمة هي التي تكون بؤرة للفساد ومنبع البؤس على طول التاريخ للبشرية ولا تزال، ولكن لو حدث وتهدم النظام القائم لهذه الحكومات وتأخر تشكيل حكومة أخرى تخلف تلك الحكومة ليوم أو أكثر، وفي حالة غياب الحكومة، فستكون النتيجة لذلك، الهرج والمرج وحالة من اللأمن والتدهور وإزدياد السَّعْب في جميع البلاد، وسنرى أن وجود الحكومة

الظالمة أفضل بكثير من غيابها.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٠

وأما الذين يؤمنون بإرسال الرُّسل وانزال الكتب السماوية من قِبَلِ الله تعالى فهم يفهمون مسألة ضرورة الحكومة بشكل أوضح وأكثر بياناً، لأنهم يؤيدون من جهة، الأهداف التي من أجلها بُعثَ الأنبياء والتي ذُكرت في المصادر اللاهوتية، إضافة إلى الأدلة العقلية التي تسندها، ومن جهة أخرى فإنَّ الوضع بدون تشكيل الحكومة لا يمكن أن يُطاق أبداً، فمثلاً إنَّ مسألة التربية الصحيحة والتعليم وتزكية النفوس وتطهيرها لا يمكن أجزاؤها دون وجود الحكومة.

والآن تصوّروا أنَّ جميع المدارس والجامعات في عصرنا الحاضر هي تحت سلطة حكومة علمانية أو أنها لاتعبر أهمية للقيم الدينية، وأنَّ وسائل الاعلام كالراديو والتلفزيون والصُّحف تُدار أيضاً من قِبَلِ نفس النظام، ثم سعيها عن طريق النصائح والإرشادات أو على الأ-كثر الاستفادة من المساجد والمنابر لتعليم الناس أهداف ومبادئ الأنبياء والتعليم والتربية الدينية، فإننا حتماً لن نصل إلى أيِّ مردود، بل ستبقى أنواره ضعيفة في قلوب بعض الاتقياء وهم أقلية، ولكن متى ما تشكَّلت حكومة تبنى أساسها على الإيمان والتوحيد والاعتقاد بالله وتؤمن بالمقدسات وتأخذ أمر هذه المراكز الحساسة على عاتقها، فإنَّ الأمر حينئذٍ سيختلف تماماً.

وبالنسبة إلى موضوع (العدالة الاجتماعية) و (قيام الناس بالقسط) وهما الهدف الآخر فإنَّ الأمر يبقى هو هو، إذ كيف يمكن إقامة القسط والعدل مع وجود حكومة ظالمة تفتقد إلى الإيمان والدين أو عميلة ومرتبطة بالاستكبار والاستعمار؟ وباختصار، فإنَّ أزياءً من الأهداف التي جاء من أجلها الأنبياء لا-يمكن تحقيق الجزء الأعظم منها إلَّا بوجود الحكومة، ولذا نرى أنَّ الرسول الأ-كرم صلى الله عليه و آله لم يكن ليتكمن من الوصول إلى الأهداف الإسلامية السامية إلَّا بعد أن قام بتشكيل الحكومة، وكذلك الحال مع الأنبياء الآ-خرين الذين استطاعوا التوصل إلى التوفيق المنقطع النظير بعد أن قاموا بتكوين الحكومة، بينما ظلَّ أولئك الأنبياء الذين لم يحققوا نجاحاً في تشكيل الحكومة مضطهدين من قِبَلِ الطبقات الفاسدة في مجتمعهم.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢١

ونفس الحالة ستتواجد في آخر الزمان على ما ذُكر، إذ لا يمكن نشر التوحيد والعدل إلَّا بتشكيل الحكومة، حكومة المهدي (عج) العالمية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنَّ الأحكام الإسلامية لا تنحصر في إطار (العبادات) وحسب، بل إنَّ لدينا احكاماً جمّة تهتم بالشؤون السياسية والاجتماعية للمسلمين، كأحكام الحدود والديّات والخمس والزكاة والانفال وما شاكل.

فهل يمكن جمع حقوق مستحقي الزكاة وأخذها من الأغنياء دون وجود حكومة؟ أو هل يمكن تنفيذ كافة الامور القضائية في الإسلام؟ كيف يمكننا ضمان إجراء الحدود والحدّ من أعمال المفسدين؟ وإذا تعرّض البلد المسلم إلى الهجوم والعدوان، كيف يمكن بدون وجود الحكومة تعبئة الجيوش المجرّبة وتهيئة الأسلحة المختلفة للدفاع عن حياض الإسلام ودرء الخطر الخارجي؟ وخلاصة الكلام: إنّه من غير تشكيل حكومة عادلة وشعبية على أساس العقائد الدينية، فإنَّ القسم الأعظم من الأحكام الإسلامية ستظلّ معطّلة، لأنّه لا يمكن بدون مساندة ووجود الحكومة إجراء الأقسام الثلاثة الرئيسية في الدين الإسلامي، (السياسيات) وهو برنامج الحكومة وعمودها الفقري، و (المعاملات) التي لا تستقرّ إلَّا بوجود الحكومة، وحتى (العبادات) كالحج وصلوة الجمعة والجماعة، كل ذلك لا يمكن أن يتبلور ويتألق إلَّا في ظل حكومة الله العادلة.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٣

أهداف الحكومة الإسلامية

بناءً على ماورد في البحث المتقدم حول ضرورة وجود الحكومة اتضحت أيضاً أهداف الحكومة الإسلامية بشكل اجمالي، ولمزيد من التوضيح نشير ادناه إلى بعض الآيات الشريفة:

١- نقرأ في قوله تعالى: «الَّذِينَ أَنْ مَكَّنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ». (الحج / ٤١) أن تعبير (مكَّنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ) يُشير إلى القدرة المعطاة للمؤمنين في الأرض، لكن هذا التعبير نفسه قد استُخدم مراراً في القرآن الكريم معبراً عن قدرة الحكم، كما نطالع في آيتين من سورة يوسف: «وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ». (يوسف / ٥٦) وفيما يخصّ ذا القرنين تقول الآية: «أَنَا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا». (الكهف / ٨٤)

وطبقاً لما تعنيه الآية الشريفة الأولى فإنّ المعنى يكون هكذا: إنّ أولياء الله إن أعطوا زمام الامور والحكم فإنهم سيقومون الصلوة، وهي من جهة، مظهر في مظاهر التقرب والوصول إلى الله تعالى، ومن جهة أخرى فإنهم سيعبدون الطريق المؤدى إلى العدالة الاجتماعية، وأبرز مظاهر هذا الطريق أداء الزكاة، بالإضافة إلى ذلك فإنهم سيعملون على اشاعة الفضائل الإنسانية والقضاء على المنكرات بواسطة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المجتمع بأبعاده المختلفة.

على هذا، فلو افترضنا أنّ كلمة (مكَّنَا) تعنى أى نوع من القدرة سيتم معنى الآية ضمن

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٤

التعبير الذى قلناه سابقاً، ذلك أنّ الحكومة هي أبرز نموذج للقدرة.

وقد ذكر العلامة الطباطبائي في ذيل هذه الآية

فهل يمكن الوصول إلى هذه القدرة من دون استلام الحكم «١»؟

وقد ورد هذا المعنى في تفسير القرطبي بشكل أوضح حيث يفسّر جملة «الَّذِينَ أَنْ مَكَّنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ» بالامراء وأصحاب الحكومة «٢».

وطبيعى أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المذكور في هذه الآية وكما ورد ذلك في مختلف البحوث الفقهية، يلزم لتنفيذه مراحل عدّة، واحدى هذه المراحل يختصّ بالحكومة وتشكيلها.

٢- ورد في القرآن الكريم ما يتعلق بحكومة الصالحين حيث تقول الآية: «وَعِدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسِّرَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا». (النور / ٥٥)

وفي هذه الآية وبعد أن وعد الله المؤمنين الصالحين باستخلافهم وتسليمهم مقاليد الحكم، عبّ قوله ببعض العبارات وهي في الواقع أهداف هذه الحكومة، أولها: التمكين والقدرة للدين الإلهي وتحكّمه على المجتمع، والاخرى إزالة حالة اللأمن وتبديله إلى الأمن والاستقرار الاجتماعى الكامل والعبادات الخالية من كل أنواع الشرك، وعلى هذا فإنّ أهداف الحكومة طبقاً لذلك هي كما يلي:

١- سيادة الدين والقوانين الإلهية على كل المجتمع.

٢- نشر الأمن والاستقرار الكاملين في كل مكان.

٣- إخلاص العبادة لله وحده وإزالة كل آثار الشرك والوثنية.

والواقع أنّ الهدف الأصلي لكل ذلك هو كمال الإنسان والسير نحو الله سبحانه، وأنّ الأمن والاستقرار وتحكيم القوانين الإلهية إنّما هي مقدمة للوصول إلى ذلك.

(١) تفسير الميزان، ج ١٤، ص ٣٨٦.

(٢) تفسير القرطبي، ج ٧، ص ٤٤٦٥.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٥

٣- ونقرأ خطاب الله لنبية داود عليه السلام: «يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ». (ص / ٢٦) وتبين هذه الآية بوضوح النتيجة المرجوة للخلافة والحكومة في الارض وهي احقاق الحقوق أو ما يُعرف بالحد من الاعتداء والتعدى على حقوق الآخرين وأخذ حق الضعفاء والمحرومين من الأقوياء والمترفين. وبديهى أن هدف حكومة النبي داود عليه السلام وأنبياء بنى اسرائيل الآخرين لم يكن هذا فحسب، بل إنه أحد الأهداف لاية حكومة فى اى مكان وزمان.

و صحيح أن عبارة (الحكم) الواردة فى القرآن الكريم تعنى أغلبها (القضاء) ولكن وبعد ملاحظة أن الشرط الأول من الآية يتحدث عن الخلافة فى الأرض، يتضح أن أى نوع من الحكم بالعدل مشمول فى مضمون الآية ككل، مضافاً إلى ذلك فإن القضاء هو شأن آخر من شؤون الحكومة، وقد ورد ما يشبه هذا المعنى فى سورة النساء حيث يقول تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ». (النساء / ٥٨)

ولقد ورد فى روايات كثيرة فى تفسير هذه الآية صراحة أن المقصود من هذه الامانة هو مقام الولاية والتي يؤدّيها كل إمام إلى الإمام الذى يليه، وإن كان المعنى العام لها يشمل باقى أنواع الأمانات كذلك، «١» وبالأخص ما ورد فى بعض الروايات من أن المخاطب فى الآية هم الحكام والامراء، «٢» ويدل ذلك على أن المراد بالحكومة العادلة فى الآية المذكورة ليس القضاء فحسب، بل يشمل كل نوع من أنواع الحكم العادل.

٤- إن جميع الآيات والروايات التى تذكر هدف بعثه الأنبياء على أنه تعليم وتربية وتركيب النفوس واقامة القسط بين الناس ورفع الأغلال وتحطيم القيود، فإنها فى الواقع تبين أهداف تشكيل الحكومات الإلهية، لأن هذه الحكومات هى مقدمة ووسيلة لضمان أهداف

(١) تفسير نورالثقلين، ج ١، ص ٤٩٥ و ٤٩٦؛ تفسير العياشى، ج ١، ص ٢٤٩؛ بحار الأنوار، ج ٢٣، ص ٢٧٤ فمافوق.

(٢) تفسير البرهان، ج ١، ص ٣٨٠ (أنه خاطب بها الحكام).

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٦

بعثه الأنبياء، وعلى هذا يمكن تلخيص أهداف الحكومات الإلهية بالنقاط التالية:

- ١- تعليم وتربية أفراد المجتمع فى المجالات العلمية والأخلاقية.
- ٢- ضمان الحريات الإنسانية، ورفض كل أنواع العبودية واستعمار الإنسان لأخيه الإنسان سواء فى المجالات الفكرية أو السياسية أو العسكرية أو الاقتصادية.
- ٣- إقامة العدل والحق وضمن العدالة الاجتماعية فى كل الطبقات الاجتماعية.
- ٤- استتباب الأمن الاجتماعى بوصفه مقدمة للوصول إلى الأهداف الأخرى
- ٥- تركيز المبادئ الخاصة بالعبودية لله والسير إليه تعالى والكمال الإنسانى والوصول إلى منزلة القرب من الله التى هى غاية الغايات ومنتهى الرغبات.

ونختم هذا البحث بكلام لأمير المؤمنين على عليه السلام والذى ورد فى أول عهده إلى مالك الأشر، حيث يرسم له بوضوح أهداف الحكومة الإسلامية اذ يقول: (هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ عَلِيُّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، مَالِكُ بْنُ الْحَارِثِ الْأَشْهَرِيُّ فِي عَهْدِهِ إِلَيْهِ حِينَ وُلَاهُ مَضِيرًا، جَبَايَةً خَرَاجَهَا، وَجِهَادَ عَدُوِّهَا وَاسْتِصْلَاحَ أَهْلِهَا وَعِمَارَةَ بِلَادِهَا) «١».

وهكذا فإن عمارة البلاد واستصلاح أهلها وجهاد عدوها وتعزيز بيت المال كل ذلك يعنى دعامة لانجاز تلك الامور، وهى أهداف

هذه الحكومة، ولكن كما أشرنا سابقاً فإن هذه الأهداف هي بمثابة أسس المرحلة الأولى أما الأهداف النهائية والاصليّة فهي التعليم والتربية وتهذيب النفوس والسير إلى الله سبحانه.

(١) نهج البلاغة، الرسالة ٥٣.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٧

أنواع الحكومات

إشارة

لقد كانت للحكومات على مدى التاريخ أشكال متباينة، وربما كانت تلك الأشكال بعدد أنواع حكومات العالم، ولكن يمكن تقسيم اصولها إلى ثلاثة أنواع:

١- الحكومات الاستبدادية

وهي الحكومات المتشكلة على أساس الحكم الفردي أو حكم جماعة معينة حيث تدور حول محور المصلحة الفردية أو مصلحة تلك الجماعة، وطبيعي أن تخدم تلك الحكومة منافع ومصالح تلك الفئة فقط، ونتيجتها ستكون استعباد المجتمع وانتشار البؤس والحرمان فيه، هذا وقد قام حكام وسلاطين من هذا القبيل على طول التاريخ بارتكاب أفضع الجنايات وذلك لحفظ مصالحهم الشخصية، وقد تعدوا كل الحدود المعروفة، بل لقد سفكوا دماء إخوتهم وبنينهم عند احساسهم بالخطر منهم على مناصبهم. وفي هذا النوع من الحكومات لا تؤخذ آراء الشعب بنظر الاعتبار بل ولا يُقام لها أي وزن على الاطلاق وكل شيء يدور حول محور الظلم والجبروت، وتنقسم هذه الحكومات إلى أنواع اخرى منها الحكومة الفردية الاستبدادية (المستبدة)، والحكومة الحزبية المستبدة حيث يسيطر فيها الحزب ذو الأقلية على الأكثرية المطلقة وذلك باستخدام اسلوب القوة، ثم تفرض على تلك الأكثرية آراؤها وايديو لوجيتها وهو ما كان يشيعة الماركسيون حيث كانوا يسمونها بالديكتاتورية البروليتارية (المقصود بالبروليتارية (الطبقة المنتجة) والبعض منهم الذي ثبت ولاؤه وإخلاصه للماركسيين، فُتَسَجَّلَ أسماءهم في

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٨

الحزب الشيوعي حيث كانوا يشكلون مجموعة صغيرة في مقابل الجموع الغفيرة للشعب ويتحكمون بمصير الشعب بأكمله، ولم يكن الحزب الشيوعي حزباً ممثلاً لمختلف قطاعات الشعب، ولا يهتم بالانتخابات الحرة، ولم يكن بمقدور أيّ كان الانتماء إليه، بل ولم تكن في أفكاره أيّ نوع من الديمقراطية.

٢- الحكومة الديمقراطية

وهي أفضل وأكمل حكومة معروفة في عالمنا الحاضر.

والأساس في حكومة من هذا القبيل هو أن جميع الناس في أيّة فئة كانوا أو طبقة يمكنهم - وبحريّة تامّة - الذهاب إلى صناديق الاقتراع والادلاء بأرائهم حول من يريدون انتخابه من الممثلين وتسليمهم زمام أمور الشعب لفترة معينة تحت ضوابط خاصة وشروط معينة، فيضع الممثلون للشعب بعد ذلك وبحريّة واستقلالية كاملتين على الأرجح كل القوانين الضرورية، ثم يشكلون هيئة بواسطة هؤلاء الممثلين تارةً أو بصورة مباشرة من قبل الشعب تارةً اخرى باسم مجلس الوزراء أو رئيس الجمهورية، ويطلق - كما أشرنا - على هذا

النوع من الحكومة بالحكومة الديمقراطية (أى حكومة الشعب أو حكومة الشعب على الشعب). وتنقسم هذه الحكومة بدورها إلى قسمين: النوع الأول وهو الحكومة التى لها صفة شعبية واقعا، وهى نادرة الوجود سواء فى الماضى أو حتى فى الحاضر وربما لم تظهر ملامحها فى الخارج بعد.

والنوع الآخر هى حكومة شعبية الظاهر والمظهر لكنها ليست كذلك فى الواقع، فحقيقتها (استبدادية) وظاهرها (ديمقراطية)! وهذا التفاوت الموجود بين الظاهر والواقع ينقسم كذلك إلى صنفين، فإمّا ان يتدخل فرد أو أفراد مصّلمحيون فى نمط الانتخابات وبصورة علنية مرسلين أفراد الشعب إلى صناديق الاقتراع عنوة، أو أنّهم يعملون على ملء صناديق الاقتراع بأوراق انتخابية مزيفة

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٩

حتى يتمّ لهم انتخاب الأفراد الذين يرغبون فى فوزهم فى هذه الانتخابات والخروج بأصوات انتخابية أكثر، وقد تأخذ هذه العملية، أى عملية تدخل أولئك الأفراد طابعا آخر هو طابع التدخل الخفى وقد يكون غير محسوس، فيبدو للبعض من أصحاب العقول الساذجة وذوى التية الحسنه أنّ هذه الانتخابات إنّما جرت بحرية كاملة تماما، بينما يختلف الواقع عمّا يروونه، إذ يسيطر ذوو الإمكانيات والنفوذ على وسائل الاعلام ويروجون عن طريقها، لمن يريدون مستفيدين من أساليب علم النفس بحيث يتصوّر الناس أنّ هؤلاء المرشحين عبارة عن علماء مدبرين وكانهم ملائكة منزلين، لكنهم فى الواقع عملاء يخدمون تلك الطبقة الثرية وذات السلطة القوية وكل المصلحين والوصوليين.

والحق أنّ الحكومة فى مثل هذه المجتمعات التى نجدها بكثرة فى اوروبا وعلى الأخص فى أمريكا، هى حكومة مستبدة وظالمة إلّا أنّها ترتدى زيّ الحكومة الديمقراطية والشعبية.

٣- الحكومة الإلهية

وهى الحكومة التى لا تعتمد لا على الإرادة الفردية ولا على الأكثرية الساحقة من الشعب، بل تنبثق طبقاً لإرادة الله، ولا شك أنّ إرادة البارى عزّ وجلّ لا تقتضى سوى ضمان المصالح الواقعية لعباده ليس إلّا، ويمكن مشاهدة مثل تلك الحكومة من خلال حكومة الأنبياء وأوصيائهم الحقيقيين وأولئك الذين يسرون على خطاهم وينتهجون منهجهم، ومثل هذه الحكومة يندر وجودها فى العالم. لقد ذكر القرآن الكريم نماذج للانواع الثلاثة لهذه الحكومات:

١- أشار القرآن الكريم إلى حكومة فرعون باعتبارها حكومة مستبدة وفردية حيث يقول: «انّ فرعونَ علّا فى الأرض وجعلَ أهلها شيعاً يستضعف طائفته منهم يُدبِحُ أبناءهم ويستحيى نساءهم أنّه كان من المفسدين». (القصص / ٤)

كان فرعون يعتبر كل أرض مصر ملكاً شخصياً له وكل ما فيها من أنهار ومياه هى له

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٣٠

أيضاً. وكان يقول: «يا قوم اليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون». (الزخرف / ٥١)

إنّه لم يقنع بحكومته المستبدة على الشعب فحسب، بل كان يتوقع أن يعبدته الجميع ولا يعبدون غيره! ولذا قال لموسى عليه السلام: «لئن اتخدت إلهاً غيرى لأجعلنك من المشجونين». (الشعراء / ٢٩)

وحتى أنّه كان يتصوّر ان من يريد الاعتقاد والإيمان بشخص يدعى النبوة بعد ما رأى معجزاته لا يمكن أن يفعل ذلك إلا بعد موافقته وإذنه! ولذلك نرى أنّه وبخّ السحرة الذين آمنوا بموسى عليه السلام بعد مشاهدته أدلته ومعجزاته حيث قال: «قال فرعون أمتّم به قبل ان آذن لكم». (الاعراف / ١٢٣)

ونرى انموذجاً آخر لحكومة مستبدة أخرى ألا- وهى حكومة «نمرود» والذى صرّح مخاطباً إبراهيم عليه السلام: «أنا أحيى وأميت» ولكنه واجه بعد ذلك استدلال إبراهيم عليه السلام الدامغ عندما قال له: «فإنّ الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب

فَبِهْتِ الَّذِي كَفَرَ».

(البقرة / ٢٥٨)

والحقيقة أن الناس جميعاً وحتى السلاطين المستبدين أنفسهم كانوا يعلمون بهذه الحقيقة وهي أن الملوك مفسدون في الأرض ومخلون بأنظمة المجتمع الإنساني، ولذا نقرأ في القرآن الكريم أنه عندما وصلت رسالة سليمان عليه السلام إلى بلقيس ملكة سبأ، وبدأت تحقيقاتها حول سليمان لتبين فيما إذا كان ملكاً مستبداً أو نبياً مُرسلاً، فأرسلت إليه الهدايا، وقالت معبرة عن قلقها: «إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَظَ أَهْلِهَا إِذْ لَهُمْ كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ». (النمل / ٣٤)

فقد كان الملوك يضطهدون ويعذبون مخالفينهم بأبشع الصور بل حتى يدفنونهم أحياء، وقد ورد ذلك في سورة البروج التي تتحدث بعض آياتها عن أصحاب الاخدود (إذ يذكر التاريخ أن الملك «ذو نواس» أصدر أمراً بحفر خندق ووضع كمية كبيرة من الحطب فيه وأشعل ناراً عظيمة ثم قذف ببعض المسلمين الذين فضلوا البقاء على دينهم وسط تلك

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٣١

النيران ولم يرحم منهم لا شيخاً ولا طفلاً رضيعاً)، وما كان ذنبهم إلا أن آمنوا بالله العزيز القهار: «وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ». (البروج / ٨)

ويضم التاريخ بين صفحاته الكثير من هذه الوقائع التي مارستها الحكومات المستبدة والتي كانت تُعامل شعوبها كالعبيد، بل أدنى من ذلك أيضاً، وقد أشار القرآن في عدة مواطن إلى مثل تلك الحكومات، ولذلك كان أحد أهم الأهداف لثورات الأنبياء عليهم السلام محاربة الاستبداد وإنقاذ الشعوب من براثن المستبدين.

٢- ونرى كذلك بعض الآيات القرآنية الشريفة التي تشير إلى حكومة الشورى أو كما هو المصطلح عليه بحكومة الشعب للشعب، وإن لم يكن هذا المصطلح واضحاً كما عليه اليوم.

نطالع في قوله تعالى وفيما يخص قصة (سليمان عليه السلام) مع (بلقيس - ملكة سبأ): لما وصلت رسالة سليمان إلى بلقيس جمعت الأخيرة مستشاريها وبدأت معهم بالتحدث عن مضمون تلك الرسالة قائلة: «يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ». (النحل / ٣٢)

ومن المتيقن أنه لم تكن في ذلك الزمان انتخابات ولا آراء شعبية، لكن مع وجود مثل هذه الحالة عند الملكة وهي الالتزام بالشورى في سير الأمور والبت فيها فذلك يدل على وجود حكومة الشورى نوعاً ما.

إضافة إلى ذلك فإن مسألة الشورى هي إحدى المسائل التي تتضمنها البرامج الإسلامية وتؤكد عليها في الأمور الاجتماعية والحكومية عامة، وكما يذكر القرآن الكريم واصفاً المؤمنين الحقيقيين بقوله: «وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ». (الشورى ٣٨)

بل حتى أنه أمر النبي صلى الله عليه وآله بالمشورة مع المؤمنين حيث يقول القرآن مخاطباً الرسول صلى الله عليه وآله: «وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ». (آل عمران / ١٥٩)

ومع أن حكومة الرسول صلى الله عليه وآله كانت من نوع الحكومات الإلهية، إلا أنه صلى الله عليه وآله كان يُؤمر بمشاوره الناس لتبقى حكومته ذات صبغة شعبية.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٣٢

٣- وأما ما يتعلق بالحكومات الإلهية فقد وردت آيات قرآنية كثيرة تبحث ذلك، يقول القرآن الكريم عن لسان داود: «قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَأَبْتِغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ». (ص / ٣٥)

وتبين من الآيات التي تلت هذه الآية أن دعاء سليمان عليه السلام كان قد استجيب ووهبه الله حكومة لم يسبق لها مثل، فقد كانت الريح تجرى بأمره، وسخر الله له الشياطين والنفثات، وكان يستفيد حتى من الطيور في إنجاز بعض أعماله.

ويقول القرآن الكريم متحدثاً عن آل إبراهيم: «فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا». (النساء / ٥٤)

وتشمل كلمة (آل إبراهيم): بنى اسرائيل ويوسف وداود وسليمان وغيرهم).

ويذكر القرآن الكريم (طالوت)، أحد ملوك بنى اسرائيل المعروفين وعلى لسان نبي ذلك الزمان (شمونيل) قائلاً: «وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ

اللَّهُ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلَكًا». (البقرة / ٢٤٧)

وَيُقَصِّدُ بِذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْهَبَةُ قَدْ وَهَبَهَا اللَّهُ سَبْحَانَهُ لَطَالُوتَ.

ولكن بنى اسرائيل الذين لم يكونوا على علم واطلاع كاملين بأمر الحكومة الإلهية، عارضوا هذا الانتخاب واعتبروا أنفسهم أفضل منه

لاستلام ذلك المنصب لأن طالوت كان رجلاً قروياً، فلم يكن صاحب مال ولا عشيرة معروفة، لكن نبيهم رفع تلك الشبهة بقوله:

«إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلِكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ». (البقرة / ٢٤٧)

وقد اشير في سورة النساء إشارة واضحة إلى حكومة النبي صلى الله عليه وآله بقوله: «أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ

فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا». (النساء / ٥٤)

كانت تلك لمحة حول بعض أنواع الحكومات المذكورة في القرآن الكريم، والآن نبدأ بنقد ودراسة كل نوع من تلك الحكومات

الثلاث:

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٣٣

دراسة ونقد لأنواع الحكومات

إشارة

لا- يخفى على أى شخص ما تستبطنه الحكومات المستبدة والدكتاتورية فى ثناياها من مفاسد، وما أصاب المجتمعات من ويلات

ومصائب مدمرة على مر التاريخ، من قتل الأبرياء وتعذيبهم، والحروب المدمرة والاستيلاء على الأموال، واستعباد المحرومين

والضعفاء، وانتشار التعذيب والتمييز العنصرى والظلم، وصرف أموال المجتمع على الترف والبدخ، كل ذلك من آثار تسلط

الحكومات المستبدة، وقد ذكر القرآن الكريم وصفاً حقاً لذلك حيث قال: «إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا

إِذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ». (النمل / ٣٤)

ولا فرق بين أن يكون الاستبداد فردياً أو جماعياً، بل إن آثار الاستبداد الجماعى أكثر سوءاً من الاستبداد الفردى، وأوضح مثال على

هذا النوع من الاستبداد هو الحزب الشيوعى فى روسية والذى كان السبب فى جز أنواع المصائب والفتن التى لا- يمثل لها فى

التاريخ.

إن الحكومات المستبدة التى تتظاهر بزى الحكومات الشعبية والديمقراطية لا تقل سوءاً عن الحكومات المستبدة المطلقة، بل إنها

أسوأ بكثير من جهات شتى ذلك لأن الشعب حساس دائماً تجاه استبداد الدكتاتوريين ويتحين الفرص للانتفاض ضدهم والتخلص

منهم، أما فى حالة الحكومة المستبدة المتلبسة بلباس الديمقراطية- كما هو الحال فى كثير من الحكومات الغربية التى تستلم السلطة

بصرف طائفة على الاعلام والصحف بالإستعانة بالرأسماليين- فلا تبين شيئاً يمكن الناس من معارضتهم والثورة ضدهم فى

الفرصة المناسبة.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٣٤

وأما الحكومة الديمقراطية الواقعية التى تمثل أكثرية الشعب (إذا وجدت حكومة كهذه فى العالم) فهى كذلك، حيث تنطوى على

مساوىة كثيرة، بل وحتى تمارس الظلم والاعتداء، وذلك لأمر منها:

أولاً: إن الكثير من الناس في أغلب الدول التي تكون حكوماتها واقعاً أو ظاهراً من هذا النوع، لا يشاركون بصورة عملية في الانتخابات فيها، إذ ربما شارك ستون أو سبعون في المئة بل وأقل من ذلك أيضاً؛ ومع ذلك فإننا نرى ان نتائجها تشير إلى أن المرشح الفلاني قد حاز على أكثرية الأصوات، إنها لم تكن أكثرية في المجتمع. (مثلاً نسبة ٣١ خ مقابل ٢٩ خ من مجموع ٦٠ خ من الأفراد المشتركين في تلك الانتخابات).

وفي هذه الحالة، توجد مصاديق عديدة فإن الأقلية من الناس تتسلم مقاليد الامور، بينما ترسخ الأكثرية تحت حكمهم وسيطرتهم، وبديهي أن ينظّموا كل القوانين حسب أهوائهم ومصالحهم، وهذا هو الظلم الفاحش بعينه.

ثانياً: لو فرضنا أن جميع أفراد الشعب الذين لهم حق المشاركة في الانتخابات قد اشتركوا فيها (طبعاً إن مثل هذه الفرضية لم تحدث أبداً) فيمكن أيضاً فوز البعض بأكثرية قليلة وضيئلة (كأن يكون ٥١ خ في مقابل ٤٩ خ أو أكثر أو أقل).

وهذا أيضاً أحد أنواع (استبداد الأكثرية) ضد الأقلية، ففي دولة يبلغ عدد سكانها ١٠٠ مليون نسمة مثلاً تخضع فيه ٤٩ مليون نسمة لسلطة ٥١ مليون شخص، فكل شيء في المجتمع يسير وفقاً لمصلحة الأكثرية وقد يكون بضرر الأقلية، ولهذا فقد أذعن كثير من المفكرين إلى أن حكومة الأكثرية هي نوع من الحكومة الظالمة التي لا بد منها، لأنه لا حيلة لهم ولا بديل سواها.

ثالثاً: وبعيداً عن ذلك وعلى فرض أن الحكومة الديمقراطية لا تنطوي على أي من الإشكاليين المذكورين فإنها حكومة تتبع رغبات الأكثرية من الشعب، ونحن نعلم أنه يحدث أحياناً أن ينحرف أكثرية الشعب نتيجة للمستوى العلمي والثقافي المتدني، أو في هذه الحالة يتحتم على العلماء والمتقنين النهوض ومحاربة هذه الآفة الخطيرة، بينما لا نرى

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٣٥

في هذه الموارد معارضة ولا محاربة في الأنظمة الديمقراطية، بل نرى العكس، حيث أخذت هذه الانحرافات شكلاً قانونياً واجيزت من قبل المشرعين هناك، فمثلاً أصبح الزواج من الجنس المماثل في إنجلترا وأمريكا مجازاً من قبل القانون، وكذلك الحال مع مسألة سقط الجنين أو الإجهاض، ذلك أن الممثلين في هذه الدول يعبرون عن رغبات الشعب لا رعاية مصالحه.

ومن هنا نجد أننا بحاجة إلى البحث عن النوع الثالث من الحكومة، ألا وهي حكومة الصالحين، الحكومة التي اقترحها الأنبياء عليهم السلام، وحتى لو كانت هناك انتخابات فإنها تجري على أساس انتخاب الأصلاح وقت رعاية الإمام العادل.

ففي هذا النوع من الحكومة لا نجد الآفات الثلاث التي وجدناها في الحكومات الديمقراطية، فلا مجال للرأسمالية ولا للاستبداد حيث يسيطر بواسطتها نصف المجتمع على النصف الآخر، ولا مكان للرغبات المنحرفة في المجتمع.

وعلى هذا، فإن الحكومة الوحيدة التي يمكن قبولها تماماً هي حكومة الله، وحكومة الرسول صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام، وأولئك الذين يمتلكون الشروط الخاصة لخلافتهم، وطبيعي أن لا نرى الدنيا في حالة من العدالة والصلاح والسعادة التامة إلّا في ظل الحكومة الإلهية.

الحكومة تنصيب أم انتخاب:

الجواب عن هذا السؤال يختلف باختلاف وجهات النظر فالذين لا ينتمون إلى دين معين، أو ينتمون إلى دين، لكن انتمائهم محدود بالامور والمسائل الشخصية وليس له أي نفوذ في الامور الاجتماعية، مثل «الكثير من المسيحيين» فإن جوابهم عن هذا السؤال واضح.

فهم يقولون: إن أفضل أشكال الحكومات هي التي تكون منبثقة عن الشعب، ولأن اتفاق الآراء غير ممكن غالباً، فلذلك يجب انتخاب الحكام عن طريق الأكثرية.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٣٦

ولكن ما هو جدير بالذكر أن الموالين لهذه الفكرة يؤيدون الحكومات التي تصل إلى دفة الحكم عن طريق الانقلابات واستخدام

القوة من قبل العسكريين و يقيمون معها نفس العلاقات التي يقيمونها مع الحكومات الشعبية، ولا يهتمهم كيف وصلت هذه الحكومة إلى سدة الحكم! المهم هي على كرسى الحكم وتستطيع تثبيت حكمها وسيادتها.

ولهذا السبب نراهم يترثون قليلاً حينما يقع انقلاب عسكري في أى بقعة من بقاع العالم ليروا هل ينتصر ويستلم مقاليد الحكم؟ فإذا انتصر وثبت دعائم حكمه ووطّد أركانه فعندئذ تتبارى الحكومات المادية للاعتراف به.

والاعجب من ذلك أنّ جميع فقهاء المذاهب الأربعة من السنّة، حسب قول مؤلف كتاب (الفقه الإسلامى وأدلّته) يتفقون على أنّ الإمامة والحكومة يمكن حيازتهما بالقوة والغلبة، وكلّ من يصل إلى الحكم بالقوة! دون الحاجة إلى بيعه الناس أو خلافة امام ومجىء خليفة من بعده «١». وقد ورد هذا المعنى بصراحة أكثر على لسان الفقيه السنّى المعروف «أحمد بن حنبل»، حيث لا يعتبر الإمامة مشروطة بالعدل ولا بالعلم ولا الفضيلة، وينقل حديثاً يتضمن معناه أنّ كلّ من تغلّب على الحكم بالسيف فهو خليفة وأمير للمؤمنين ولا يجوز لأحد انكار إمامة ذلك الغالب سواء كان باراً أم فاجراً «٢».

وورد نظير هذا المعنى فى كتاب (منهاج السنن) «٣».

وربّما خطر على بال البعض ان القول بهذا المعنى لا- يصدر إلّا من أولئك الذين لا يؤمنون بأى اله أو دين، ولكن لماذا يصدر هذا القول وتلك الفتوى ممّن يدعى الإيمان والإسلام ويتمسك بالقيم الخاصة للحكومة كالإيمان والعدالة؟ ولكننا وبعد فهمنا لهذه الحقيقة وهى أنّهم كانوا غالباً بصدد تبرير موقف الخلفاء من بنى امية وبنى العباس ومسائرتهم، حينئذ لا يعترينا العجب من اعترافهم بالحكومات الظالمة والفاجرة التى وصلت إلى سدة الحكم بالقوة والبطش.

(١) الفقه الإسلامى وأدلّته، ج ٦، ص ٦٨٢.

(٢) الأحكام السلطانية، ص ٢٠.

(٣) كتاب منهاج السنّة كتاب البغاة، ص ٥١٨.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٣٧

على أيّة حال، فإننا وكلّما نظرنا بمنظار القرآن الكريم إلى هذه المسألة يتّضح لنا بجلاء أنّ الحكومة هى من حقّ الذات المقدّسة للخالق ثم لمن يراه عزّ وجلّ صالحاً لذلك.

فقد ذكر القرآن الكريم هذه الآية فى أكثر من مكان: «إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ».

(الانعام / ٥٧) (يوسف / ٤٠-٦٧)

ونرى نفس هذا المضمون فى آيات اخرى

إنّ كلمة «حُكْم» تتضمّن معنىً واسعاً حيث تشمل (الحكومة) و (القضاء) كذلك.

والواقع أنّ توحيد الخلق ملازمٌ لتوحيد الحكم، بمعنى أننا عندما نَسَلِّمُ أنّ العالمَ بأجمعه مخلوق من مخلوقات الله سبحانه، علينا أن نقبل أنّ ملكاً تامّاً له أيضاً، وطبيعى أن يكون الحكم المطلق لهذا العالم بيد الله كذلك، لذا وجب أن نسير حسب أوامره، واعتبار من يجلس على كرسى الحكم دون اذنه وأمره متعدياً وغاصباً.

هذه الفكرة النابعة من (التوحيد الافرغالى للخالق) (توحيد المالكية والحكم)، معروفة كاملاً للموحدين كما أنّ عقائد المذاهب الالحادية معروفة للجميع، (تأمل جيداً).

ولهذا السبب فإننا نعتبر الأنبياء حكّاماً حقيقيين من قبل الله، ولهذا السبب أيضاً بدأ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بتشكيل الحكومة فى أول فرصة سنحت له، أى عند هجرته إلى المدينة حيث كان الوقت مناسباً لذلك.

وبعد ذلك فالحكومة من حقّ الذين عُيِّنوا من قبله بواسطة أو بدونها.

وهناك روايات كثيرة تحدد الأمراء والأئمة بعد الرسول صلى الله عليه وآله باثني عشر إماماً وقد أوردنا المصادر لذلك في المجلد التاسع من نفحات القرآن بأن هذا الحق من نصيب الأئمة الاثني عشر من آل البيت عليهم السلام، (إذ لم يظهر أى تفسير مقبول لتلك الروايات غيره).

وعلى هذا الأساس، فإنّ الأشخاص الذين لهم حق الخلافة والحكومة في زمن غيبة الإمام المهدي (عج) هم الذين ينصّب بهم الإمام بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

ويتبين لنا ممّا قيل أعلاه أنّ الحكومة من وجهة نظر المسلم الموحد يجب تعيينها من قبل الله تعالى بل وحتى تلك الحقوق التي نقر بها للشعب فهي أيضاً تتعين من قبله تعالى

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٣٨

ولا يتمكن الموحد ابداً ان يجعل إرادة الخلق اساساً للحكومة دون أن تنتهي إلى إرادة الخالق. (تأمل جيداً).

وما كتبه بعض المغفلين من أنّ: «هناك حقيقة يدركها الجميع وهي أنّ كل من حاز على أكثرية الأصوات وأيده الشعب فهو الحاكم لأنّ القوّة الحقيقية للمجتمع هو الشعب ... الشعب هو الذي يمنح الولاية لشخص ويجسّد حاكميته على الآخرين» لا يتلاءم مع النظرة التوحيدية.

نحن نقول: إنّ النظرة التوحيدية هي عكس هذا الأمر، أي: إنّ الله تعالى هو الذي يمنح الولاية لشخص ما ويجسّد حاكميته على الآخرين، ولو كان للشعب حق في هذا المجال فهو أيضاً من الله تعالى

زبدة الكلام هي أنّ الحكومة وحسب النظرة التوحيدية تكون من السماء، بينما حسب الأفكار الالحادية فهي من الأرض!.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٣٩

حقيقة الحكومة الإسلامية

إشارة

البحث حول حقيقة الحكومة الإسلامية مع الاخذ بنظر الاعتبار ما تقدم من كلام في البحث السابق ليس بتلك الصعوبة، لان حق الحكومة هو اولاً وبالذات من شأنه سبحانه، وذلك بعد قبول التوحيد في الحاكمية الذي يعد من فروع التوحيد الافعالى، وفي المرتبة الثانية من شأن كل من يعيّن لذلك. وعلى هذا، فالحكومة الإسلامية ليست حكومة دكتاتورية استبدادية، ولا حكومة ديمقراطية، بل نمط من الحكومة الأفضل، أي الحكومة الإلهية.

لكن هذا لا يعنى أن أصل (الشورى، والاهتمام بآراء الشعب ليس له دور في الحكومة الإسلامية، وأنّه لا يعتد به لا من قريب ولا من بعيد.

لأنّ «مالك الملوك» و «أحكم الحاكمين» حينما يأمر بالشورى والاصغاء إلى آراء الشعب، تكتسب هذه الامور شرعيتها، ونعلم بوجود الأمر الصريح بالشورى في آيتين من القرآن الكريم.

ففي الآية ٣٨ من سورة الشورى التي سميت بهذا الاسم لأجل نفس هذه الآية، ذكرت سبع خصال جلية للمؤمنين المتوكلين على الله تعالى أحدهما، المشورة في الامور المهمة، يقول تعالى «وَأْمُرْهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ»!.

وذهبت الآية ١٥٩ من سورة آل عمران ابعده من ذلك إذ أوصت النبي صلى الله عليه وآله ثلاث توصيات فيما يتعلق بالمؤمنين، احدهما مشاورتهم في الامور الحساسة، يقول تعالى

«وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ».

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٤٠

وبناءً على هذا، فاحترام آراء الناس يكتسب مشروعيته من أمره تعالى هذا من جهة ومن جهة أخرى فالنبي صلى الله عليه وآله وخلفاؤه المعصومون، وكذلك العلماء الذين يكتسبون مشروعيتهم بالواسطة من قبله سبحانه باعتبارهم من مصاديق «الولى الفقيه» ملزمون برعاية مصالح الناس فى كل مكان وزمان، أى الاهتمام بغبطة العامية كما يصطلح عليه، ومن البديهي أن مصلحة الناس تستلزم اسهامهم فى أمر الحكومة نوعاً ما والاصغاء لآرائهم، وبهذا يكتسب الاهتمام بآرائهم صبغة إلهية.

وبعبارة أخرى فالحكومة الإلهية إنما تبدو منسجمة حينما تتمتع بقدرة تنفيذية عالية، ولا سبيل إلى هذه القدرة إلا بمشاركة الشعب فى أمر الحكومة، وبما أن تنفيذ الأحكام الإلهية واجب، فيكون اسهام الشعب فى أمر الحكومة مقدّمة لذلك الواجب، ومقدّمة الواجب واجبة.

وخلاصة الكلام: إن جوهر الحكومة الإسلامية هو الحكومة الإلهية، لكن هذه الحكومة تنبع فى خاتمة المطاف من الحكومة الشعبية، فتعيين الأنبياء والأئمة وخلفائهم يشكل جوهر الحكومة الإلهية، والتزام هؤلاء بمسألة الشورى واحترام آراء الشعب الذى يكون بأمر الله تعالى أيضاً، يشكل الصبغة الشعبية لها.

فالذين يتصورون أن الحكومة الإسلامية متكئة على آراء الشعب مائة بالمائة، ويهملون عنصرها الإلهي، يذهبون شططاً، كما أن الذين يولون اهتمامهم للجانب الإلهي ويغضون الطرف عن جانب الشورى وآراء الشعب مخطئون أيضاً.

وستتناول فى الأبحاث القادمة (فى بحث البيعة والشورى) هذا الأمر بتفصيل أكثر.

وعلى أية حال، فكيف يمكن تجاهل هذه الحقيقة، وهى أن مشاركة الشعب فى أمر الحكومة تضيف قدرة ومنعة للحكام، كما أنهم أعجز ما يكونون عند غياب مشاركة الشعب، كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام فى الخطبة الشقشقية:

«أَمَّا وَالَّذِي فَلقَ الحِجَّةَ وَبرءَ النَّسِمةَ لولا حُضورَ الحَاضِرِ وَقيامَ الحِجَّةِ بِوجودِ النَّاصِرِ وَمَا أَخَذَ اللهُ عَلَى العُلَماءِ إِلا إِيقارُوا عَلَى كِظِّ ظالمٍ وَلَا سَعْبٍ مَظْلومٍ، لَأَلقيتُ حَبَلها عَلَى غارِبها» (١).

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٣.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٤١

هذا التعبير يحكى بكل وضوح عن أن تأييد الشعب يؤدى أيضاً إلى إقامة الحجّة على الولي المنصوب من قبل الله تعالى ولا شك أن ولايته عليه السلام كانت ثابتة من قبل الله تعالى وعن طريق الرسول صلى الله عليه وآله، وأن هذه الولاية فعلية، فهى - وعلى خلاف ما قاله بعض المغفلين - لم يكن لها جنبه الشائنة والقوة، أما من الناحية التنفيذية والعملية فلا تستغنى عن دعم الشعب، ولا يتحرك لها ساكن بدون ذلك الدعم.

أما بالنسبة لفقهاء الإسلام - وكما سيأتى - فالولاية الفعلية ثابتة للجميع، لكن تجسيد هذه الولاية إنما يكون ممكناً حينما تتمتع بدعم وتأيد الشعب فقط، ولهذا السبب فالولى الفقيه الذى يحظى بآراء الشعب تكون له الأولوية قياساً بالفقهاء الآخرين، لتمكنه من تطبيق ولايته التى يتمتع بها دون غيره، (وسياتى تفصيل هذا الكلام فى محله إن شاء الله تعالى).

وعلى هذا، فلو تمّ التعبير فى مثل هذه الموارد ب «الانتخاب»، فذلك لا يعنى أن هذا المنصب يُمنح لهم من قبل الشعب، لأنّ حقّ الولاية من وجهة النظر التوحيدية إنما هو لله لا غير، وهذا المنصب إنما يكون للذين عينهم الله تعالى مباشرة أو عن طريق أوليائه، أما اعتبار الشعب هو الأساس ونفى الجانب الإلهي للحكومة فنابع من عقائد الشرك غير التوحيدية.

والمقصود أن الشعب إنما يعلن دعمه لفقيه ما حينما يراه أفضل وأليق من كل الفقهاء، ولو كان الانتخاب بيد الشعب، ولما كانت هنالك ضرورة لانتخابه من بين الفقهاء، بل لأمكنهم انتخاب من شاؤوا لهذا الأمر، سواء كان فقيهاً أم لم يكن.

وخلاصة القول: إنَّ الشعب لا- يضع أحداً على سدة الحكم، لأنَّ هذا الحق خاص بالله تعالى ودور الناس إنَّما يقتصر على انتخاب شخص من بين الذين منحهم الله تعالى حق الولاية، ولو تمَّ التعبير بـ «الانتخاب» فهذا لا- يعنى ما يروج له العالم المادى، والقرائن الحالية والمقالية شاهد صدق على هذه الحقيقة، وهى أنَّ حقيقة هذين الانتخابين متفاوتة تماماً.
(تأمل جيداً).

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٤٢

وعلى هذا، فإنَّ أمير المؤمنين عليه السلام كان ولياً من قبل الله تعالى حتى قبل بيعته الناس له، ومن الجدير بالذكر أنَّ الله تعالى قد منح هذه الولاية له عليه السلام طبقاً لصريح آية الولاية: «إِنَّمَا وَكَّيْكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ». (المائدة/ ٥٥)

وطبقاً لحديث الغدير المتواتر وجملته: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَهَذَا عَلِيٌّ مَوْلَاهُ»، حيث إنَّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قد عينه رسمياً لهذا المنصب من قبل الله تعالى لكن بيعته الناس للآخرين حالت بينه وبين تطبيق ولايته مدَّة من الزمن، ولم يمكن تجسيد هذه الولاية إلَّا بعد بيعته الناس له عليه السلام. أجل، فالشعب قد هيا الأرضية للتنفيذ، لا أنَّه أوصله إلى مقام الولاية الفعلية. وكذا الأمر بالنسبة للفقهاء، حيث إنَّهم- وطبقاً لما سيأتى من الأدلة- كلما تمتعوا بحسن التدبير والإدارة والإحاطة بأمر الزمن وشروطه فضلاً عن الاجتهاد والعدالة، فلهم الولاية الفعلية من قبل الله تعالى لكن تطبيق هذه الولاية يحتاج إلى مقدمات وعلى رأس هذه المقدمات دعم الشعب وتأييده.

وهكذا الحال فى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، إذ إنَّه لم يتمكن من تشكيل الحكومة فترة وجوده فى «مكة»، بل قام بتشكيلها حينما دخل المدينة وكان دعم الشعب كافياً لذلك والعقبان قد ازيلت، لكن هذا لا يعنى أنَّ النبي صلى الله عليه وآله لم تكن له الولاية فى مكة، وأنَّها منحت له من قبل الناس فى المدينة، (تأمل جيداً).

الولاية الخبرية والإنشائية!؟

يعتقد البعض أنَّ العلماء الذين تحدثوا عن «ولاية الفقيه» لهم رأيان متفاوتان، فالبعض قال بولاية الفقيه بالمعنى «الخبرى»، والبعض الآخر بالمفهوم «الإنشائي»، وهذان المفهومان يختلفان فى الماهية عن بعضهما. فالأول يقول: إنَّ الفقهاء العدول منصوبون من قبل الله تعالى للولاية. ويقول الثانى: يجب على الناس انتخاب الفقيه الجامع للشرائط للولاية.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٤٣

لكننا نعتقد أنَّ هذا التقسيم لا أساس له أصلاً، لأنَّ الولاية كيفما تكون فهى إنشائية، سواء أنشأها الله تعالى أو النبي صلى الله عليه وآله أو الأئمة، كأن يقول الإمام عليه السلام: «إِنِّي قَدْ جَعَلْتُهُ حَاكِمًا»، أو أن ينتخبه الناس «على سبيل الفرض»، فينشئون له الولاية والحكومة.

فكلاهما إنشائي، والتفاوت يكمن فى أنَّ إنشاء الحكومة يكون تارة من قبل الله تعالى واخرى من قبل الناس، والتعبير بـ «الإخبارى» هنا يحكى عن عدم احاطة القائل بهذا القول، أو أنَّه يدرك الفرق، إلَّا أنَّه استعمل هذه العبارات من باب المسامحة.

والتعبير الصحيح هو أنَّ الولاية إنشائية فى كل الأحوال، وهى من ضمن المناصب التى لا تتحقق بدون الإنشاء، والتفاوت هنا هو أنَّ إنشاء هذا المنصب والموهبة قد يكون من قبل الله تعالى أو من قبل الناس، فالمدارس التوحيدية تراه من قبل الله تعالى (وحتى لو كان من قبل الناس فلا بد أن يكون بإذنه تعالى أيضاً)، وتوهمه المدارس الإلحادية بأنَّه من قبل الناس.

وعلى هذا، فالخلاف ليس حول «الإخبار» و «الإنشاء»، بل حول الذى ينشئ ذلك، هل هو الله تعالى، أم الخلق؟ أو بعبارة اخرى هل

أن أساس مشروعية الحكومة الإسلامية يكون بإذن الله تعالى وإجازته في كل مراحل ومراتب الحكومة، أم ياذن الناس واجازتهم؟ لا شك أن الذي يوافق النظرة الإلهية هو الأول دون الثاني.

الحكومة والوكالة:

يقال أحياناً إن الحكومة الشعبية نمط من الوكالة، لا منح منصب، لأن مالك الملوك هو الله تعالى فيجب أن يهبه هو تعالى لمن يشاء، وبعبارة أخرى فكما أن كل واحد يتمكن أن يوكل غيره في الأمور الشخصية، ولا شك أن لهذا الأمر مشروعيته، فكذا الأمر في القضايا الاجتماعية، إذ بإمكان الشعب اعتبار شخص ما وكيلًا له لإدارة الشؤون الاجتماعية، والشعب ملزم بتحمل نتائج تلك الوكالة ما بقيت.

لكن هذا الكلام سقيم لوجوه:

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٤٤

أولاً: بأى حق يتدخل وكيل الأكثرية في شؤون الأقلية؟ لنفرض أن ٥١ مليون نفر قد انتخبوا أحد الأشخاص وكيلًا عنهم، و ٤٩ مليون قد وُكِّلوا شخصاً آخر، فأى دليل يمتلك وكيل ال (٥١ مليون) حق التدخل في شؤون ال (٤٩ مليون نفر).

ثانياً: هنالك شريحة يعتد بها من الشعب لا- تشارك في الانتخابات في أكثر الأحيان ولأسباب شتى ولا يمنحون أصواتهم لأحد باعتباره وكيلًا لهم، فأية ضرورة تقضى بوجود اتباعهم لمن يتمتع بوكالة الآخرين؟!

ثالثاً: الوكالة عقد جائز، وبإمكان الموكل عزل وكيله متى شاء، في حين أن الشعب لا يمكنه أبداً في ظل الأنظمة السياسية في العالم عزل مرشحيه- والمرشحين لرئاسة الجمهورية وأمثالها.

الحقيقة هي أن الديمقراطية لا- يمكن تحجيمها بهذه العناوين، إذ إن للديمقراطية هويتها الخاصة بها، وهي في الواقع نوع من العقد الاجتماعي تفرضه الضرورة، لأن الشعب بحاجة إلى حكومة ما على كل الأحوال، ومن جهة أخرى فاتفق آراء الشعب على هذا الأمر غير ممكن، إذن، فلا بد من الذهاب- شئنا أم أبينا- وراء رأى الأكثرية، كما يجب على الأقلية الرضوخ أمام الأكثرية، إذ لا سبيل لإدارة المجتمع ولا توجد رؤية أخرى سوى ذلك، وهي أنه تتوافق مع رأيهم، حتى لو لم يكن هذا الأمر متصفاً بالعدالة المحضة.

أمّا الذين ينظرون إلى الحكومة بأنها من قبل الله تعالى فلهم رؤية أخرى وهي أنه لنرى من ذلك الشخص الذى وضع الله تعالى الحكومة تحت اختياره؟ وبهذه الحالة تكون آراء الشعب- عند تعدد الأفراد اللاتقيين من وجهة نظر الإسلام- قادرة على صنع القرار عند تعيين الشخص المتفق عليه، فيتغلب ذلك الشخص الذى يحظى بدعم جماهيري أكبر لتنفيذ أهداف الحكومة.

وبإمكان المسائل المتعلقة بالبيعة توضيح هذا الأمر بشكل أكبر، وسنتكلم إن شاء الله بالتفصيل في الأبحاث القادمة عن دور البيعة في الحكومة، وحقيقة البيعة وشروطها.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٤٥

العلاقة بين الدين والحكومة من وجهة نظر القرآن الكريم

إشارة

إنّ شعار فصل الدين عن السياسة هو الأكثر رواجاً في الدول الغربية، وقد يعد من بديهياتهم المتفق عليها، ومن هنا يأخذهم الرعب والخوف من تشكيل الحكومة الإسلامية التي تجمع بين «الدين» و «السياسة» بشكل تام! وذلك لسببين:

١- الدين الموجود في المجتمعات الغربية هو دين المسيحية الحالي، ونحن نعلم أن هذا الدين ونتيجة للتحريفات الكثيرة التي طرأت

عليه على مَرِّ الزمن قد تجسّد في سلسلة من التوصيات الأخلاقية، ولا علاقة له بالقضايا الاجتماعية خصوصاً السياسية منها. والفرق بين الشخص المتدين وغير المتدين في هذه المجتمعات، هو أنّ الأول ملتزم بسلسلة من الاصول الأخلاقية، ويذهب في الاسبوع مرّة واحدة إلى الكنيسة ليتضرع ويناجي ربّه ساعة من الزمن، أمّا غير المتدين فلا يبالي بمثل هذه الأخلاقيات (وإن احترموها أحياناً باعتبارها من المثل الإنسانية لا الدينية)، ولا يذهبون إلى الكنيسة أبداً.

٢- الذكرى المؤلمة جداً التي يحملونها معهم من حكومة أرباب الكنيسة في القرون الوسطى وعهد «انكيزيسون» (تفتيش العقائد)، سببت في أن يفصلوا الدين عن السياسة وإلى الأبد.

توضيح ذلك: لقد هيمن رجال الكنيسة في القرون الوسطى على كافة الشؤون السياسية والاجتماعية لشعوب أوروبا، وحكم البابوات دول هذه القارة بكل قوة، بحيث انتهت حكومتهم إلى الاستبداد والطغيان، حتى أنّهم وقفوا أمام كل تقدم علمي، وسحقوا كل تطور نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٤٦

علمي وفكري باعتباره منافياً للدين، فأسسوا محاكم سميت فيما بعد بـ «انكيزيسون» «محاكم تفتيش العقائد»، وحكموا على أعداد كبيرة في هذه المحاكم بالموت، فقطعوا رؤوس بعضهم، وأحرقوا البعض الآخر بالنار وهم أحياء، أو أنّهم حكموا عليهم بالسجن، ومن بينهم عدد من العلماء الطبيعيين المعروفين. وكلّ الملوك كانوا يحسبون لرجال الدين هؤلاء حساباً ويطيعون أوامرهم. بالإضافة إلى الأموال الطائلة التي أخذوها وعاشوا في نعيم لا يوصف.

وقد أثارت كل هذه الامور الشعب ضدهم، خصوصاً علماء العلوم الطبيعية، حيث إنّهم وقفوا في وجوههم بقوة، وعمّ شعار «فصل الدين عن السياسة» من جهة، والتنافي بين العلم والدين، من جهة أخرى كلّ مكان، ثم وبانتصار هذا الجناح، انسحبت الكنيسة ورجالها من المجتمع والحكومة، والدولة الوحيدة التي بقيت بيد رجال الكنيسة من تلك الامبراطورية الواسعة هي دولة الفاتيكان الصغيرة التي لا تتجاوز الكيلومتر المربع الواحد أي بمساحة قرية صغيرة (١).

كانت هذه كلها، تطورات قد حدثت في أوروبا وخلال تلك الظروف الخاصة.

ثم إنّ فريقاً من الدول الإسلامية حينما ذهب إلى الغرب للدراسة أو التجارة أو السياحة جاء بمثل هذه الأفكار معه كهديّة من الغرب للشرق الإسلامي وهي لزوم فصل الدين عن السياسة، دون الوقوف على البون الشاسع بين «الإسلام» وبين «المسيحية» المحرّفة، وبدون التأمل في التفاوت بين الثقافة الإسلامية الحاكمة على هذه الدول وثقافة الكنيسة.

ومع الأسف فقد رضخت بعض الدول الإسلامية لهذه المؤامرة الاعلامية واعتبرتها أصلاً لا يمكن التنازل عنه (لا يخفى أنّ الدول الغربية التي كانت ولا تزال تخاف قوّة

(١) ذكرت مساحة الفاتيكان في قاموس دهخدا وقاموس معين بأنّها ٤٤ هكتاراً (أقل من نصف كم)، وبلغ عدد نفوسها حسب بعض المصادر ٥٢٥ نفرًا! وفي البعض الآخر ٧٠٠ نفر، وفي البعض الآخر ألف نفر! وفي الحقيقة فإنّ هذه الدولة عبارة عن مجموعة من الكنائس والأبنية المتعلقة بها، وفيها محطة قطار، دائرة البريد، محطة الاذاعة، ولها قانون خاص بها وحكومة مستقلة، وهناك حوالي خمسين دولة لها ممثلين لدى البابا. والملفت للنظر أنّ هذا البلد يقع في قلب روما عاصمة إيطاليا (قاموس دهخدا، قاموس معين، والمنجد في الاعلام).

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٤٧

الحكومة الإسلامية، قد تابعت هذه القضية بجديّة، وأن الدول المستغرّبة مثل تركيا، قد اتبعت هذا الأصل ووضعت على رأس قائمة أعمالها وقامت بتشكيل الحكومة العلمانية).

هذا في الوقت الذي وقفت الكثير من الدول الإسلامية وشعوبها اليقظة في وجه هذه المؤامرة، التي أرادت فصل «المسلمين» عن

«الإسلام»، وجعل الإسلام كمسيحية اليوم مجرد طقوس ظاهرية خاصة بالخلق والخالق بعيدة عن المجتمع والسياسة. ولهذا السبب، فحينما نجحت الثورة الإسلامية الإيرانية وآتت اكلها وقامت بتشكيل أول حكومة إسلامية ثورية، أخذت الحيرة والدهشة كل من في الغرب من كيفية إمكان إمساك الدين بزمام الحكم؟ وهل بإمكان الدين تلبية كل متطلبات عصرنا؟ ولكن بعد أن فوجئوا بثبات وصلابة هذه الحكومة، ولغرض حصرها ضمن حدودها الجغرافية ولئلا تكون نموذجاً لبقية الدول الإسلامية، فقد توسلوا بعمليات تخريبية كثيرة، بالإمكان الوقوف عليها في الكتب التي تتناول هذا الموضوع.

ولحسن الحظ بقيت هذه المؤامرات عقيمة، وتجدرت نظرية تأسيس الحكومة الإسلامية في الكثير من الدول الإسلامية، في قارة آسيا وأفريقيا وأصبح تياراً حياً ومنقذاً، مع ما يحاول الغرب بكل ما اوتى من قوة، ولم يترك أى شىء في هذا الطريق إلّا وتوسل به من كيل الاتهامات المغرضة الكاذبة والإعلام المغرض والمدسوس.

أما كيف أن الإسلام اقترن بمسألة الحكومة من حيث الاصول والفروع والتاريخ، فهذه المسألة ليست بتلك الصعوبة، وكل من يتأمل في القرآن الكريم وسنة النبي صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام وكذلك تاريخ الإسلام، يدرك هذه المسألة بكل وضوح، وهى استحالة فصل الحكومة والسياسة في الإسلام، ولأن ذلك بمنزلة فصل الإسلام عن نفسه!

والشاهد على هذا الأمر وقبل كل شىء هو تاريخ الإسلام، فكما تمت الإشارة سابقاً فإن أول عمل قام به النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بعد الهجرة إلى المدينة كان تشكيل الحكومة الإسلامية،

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٤٨

فقد كان صلى الله عليه وآله يدرك جيداً أن أهداف النبوة وبعثه الأنبياء وهى التربية والتعليم، وإقامة القسط والعدل وسعادة الإنسان ورفعته، غير ممكنة بدون تشكيل الحكومة، ولهذا السبب فقد بدأ فى أول فرصة ممكنة بإرساء أسس الحكومة وذلك بأمر من الله تعالى

فشكل جيشاً من المهاجرين والأنصار، وأوجب على الجميع فى أى سن كانوا وتحت أى ظروف (باستثناء النساء والأطفال والمرضى والمقعدين) المشاركة فيه، وكان قسم من تأمين السلاح والمؤونة والدواب لهذا الجيش المتواضع والبسيط على عاتق الشعب، والقسم الآخر على عاتق الحكومة الإسلامية، وكلما ازدادت الغزوات والمطاحنات مع الأعداء الشرسين واتسعت رقعة الحروب أكثر، ازداد جيش الإسلام رسوخاً وتنظيماً.

ونزل حكم الزكاة، وتمّ ولأول مرة تأسيس بيت المال الإسلامى لضمان تكاليف الجهاد، واحتياجات المحرومين.

ثم نزلت أحكام القضاء والعقوبات المترتبة على الجرائم والتخلفات الواحدة تلو الأخرى ودخلت الحكومة الإسلامية مراحل جديدة. ولو لم يكن للإسلام حكومة، فما هى ضرورة تشكيل الجيش وبيت المال وكيف يمكن معاقبة المجرمين والجناء إذا لم تكن هناك محاكم.

وقد امتد هذا الوضع على هذا المنوال إلى ما بعد النبي صلى الله عليه وآله فى فترة الخلفاء، بل وحتى فى عهد خلفاء بنى أمية وبنى العباس، حيث إنهم كانوا يحكمون باسم خلفاء رسول الله صلى الله عليه وآله، ومع أن حكومتهم كانت تتسم بالظلم والخروج عن اطار الشرعية والقوانين الإسلامية، لكن مهما يكن فهى تعكس هذه الحقيقة وهى أن تشكيل الحكومة الإسلامية يعدّ من المسائل الأولية والأساسية فى الإسلام.

والضغوط الموجهة لأئمة أهل البيت عليهم السلام، وثورة الإمام الحسين عليه السلام، وولاية عهد الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام، وحبس الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، ونفى الإمام الهادى عليه السلام والإمام الحسن العسكري عليه السلام إلى سامراء ووضعهم تحت الرقابة خوفاً من الثورة على الحكومة، كلها تبين بوضوح أن الأئمة من أهل البيت عليهم السلام كانوا يعتبرون تشكيل حكومة

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٤٩

العدل الإلهي من مسؤولياتهم الأكيدة، وقد استغلوا كل فرصة من أجل إثبات حقهم، كما أن عدوهم كان يدرك هذا الأمر جيداً. ولو كان الإسلام كمسيحية اليوم محدوداً بسلسلة من الأحكام الأخلاقية، لما كان لهذه الظواهر في تاريخ الإسلام أى مفهوم، إذ لا أحد يعارض معلماً بسيطاً للأخلاق أو زاهداً منزهلاً في زاوية مكنفياً بإقامة صلاة الجماعة.

إنما تبدأ المعارضة حينما يتعلق الأمر بالحكومة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فهناك الكثير من الأحكام الإسلامية في القرآن المجيد والتي تصرخ عالياً بضرورة تشكيل الحكومة وإرساء أسسها، وبعبارة أخرى فهذه الأحكام أحكام سياسية، وهي التي ترسم الخط السياسي للمجتمع الإسلامي.

هناك آيات قرآنية كثيرة حول الجهاد، وتكليف المجاهدين، وغنائم دار الحرب، والشهداء، والاسرى فهل يا ترى بالإمكان توجيه مثل هذه الأحكام خارج نطاق الحكومة؟

الكثير من الآيات القرآنية سلطت الأضواء على مسؤوليات القاضى، وأحكام القضاء، وتطبيق الحدود والقصاص وأمثالها، والكثير منها ناظر إلى أموال بيت المال.

وأما فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهي من واجبات كل فرد مادام في حدود التذكير والأوامر والنواهي الكلامية، لكن بعض مراحل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي تحتاج إلى الصلابة والقوة، بل وحتى المواجهة العسكرية المسلحة غير ممكنة إلا عن طريق الحكومة.

وتطبيق العدالة الاجتماعية وإقامة القسط والعدل، وفتح الطريق للتبليغ بحرية في أقصى نقاط العالم، لا يكون بالنصيحة والموعظة والممارسات الأخلاقية أبداً، الحكومة هي التي ينبغي أن تنزل إلى الميدان لتفك قيد الظالم عن عنق المظلوم، وتعيد حقوق المستضعفين، وتوصل نداء التوحيد إلى اسماع كل سكان المعمورة عن طريق وسائل الإعلام المتوفرة في كل زمان.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٥٠

نفحات القرآن ج ١٠ ٩٩

وقد وردت نفس هذه المضامين وبشكل أوسع في أحاديث النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وروايات المعصومين عليهم السلام، والتي تشكل قسماً كبيراً من فقه الإسلام والكتب الفقهية، ولو أردنا فصل هذه المسائل عن الروايات والكتب الفقهية لما بقى هنا لك ما يعتد به.

وكما تقدم فالكتب الفقهية تقسم إلى ثلاثة أقسام، وهي «العبادات»، و«المعاملات»، و«السياسة».

فالعبادات هي علاقة الخلق بالخالق.

والمعاملات هي علاقة الناس بعضهم ببعض.

كما وأن السياسة هي علاقة الناس بالحكومة.

لكن لو دققنا النظر، لوجدنا أن قسم السياسة ليس الوحيد الذي لا يطبق بغياب الحكومة، بل إن المعاملات أيضاً لو لم تكن تحت إشراف الحكومة لحدثت الآلاف من المصاعب والعراقل، ولضاعت حقوق المستضعفين، وانقسم المجتمع إلى قطبين أغنياء وفقراء، ولعانى الشعب من مئات المشاكل المصطنعة.

بل وحتى العبادات لا تُقام إلا في ظل حكومة قوية عادلة، ومن العبادات الحج وهو فريضة ذات صبغة سياسية قوية جداً.

وصلاة الجمعة عبادة مهمة أخرى حيث إنه فضلاً عن الحضور الواسع لكل شرائح المجتمع فيها، فإن أهم القضايا الإسلامية والسياسية والاجتماعية والثقافية المعاصرة تطرح في خطبتها.

كما أن صلاة الجماعة اليومية لا تخلو من هذا المحتوى أيضاً، وإن كانت صبغتها السياسية أقل درجة.

وفى سورة الحج إشارة لطيفة إلى هذه الامور، يقول تعالى «الَّذِينَ أَنْ مَكَّنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ». (الحج / ٤١)

ومما تقدم، لا يبقى هناك أدنى شك في أن فصل التعاليم الإسلامية عن المسائل السياسية أمر غير ممكن، وأن الشعارات التي تطلق في الغرب لفصل الدين عن السياسة

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٥١

فارغة من المحتوى تماماً في الشرق الإسلامي.

ونختتم هذا الكلام بحديث جامع ولطيف عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

حينما جاء «أبو الدرداء» و «أبو هريرة» برسالة معاوية إلى علي عليه السلام وكان قد طلب فيها تسليم قتلة عثمان إليه ليحاكمهم، قال الإمام علي عليه السلام: «لقد أبلغتاني ما قاله معاوية، والآن اسمعا كلامي وأبلغاه عني، إن عثمان بن عفان لا يعدو أن يكون أحد رجلين: إما إمام هدى حرام الدم وواجب النصره لا تحل معصيته ولا يسع الامة خذلانه، أو إمام ضلالة حلال الدم، لا تحل ولايته ولا نصرته، فلا يخلوا من احدي الخصلتين.

والواجب في حكم الله وحكم الإسلام على المسلمين بعد ما يموت إمامهم أو يقتل، ضالاً كان أو مهتدياً، ومظلوماً كان أو ظالماً، حلال الدم أو حرام الدم، أن لا يعملوا عملاً ولا يحدثوا حدثاً ولا يقدموا يداً ولا رجلاً ولا يبدأوا بشي قبل أن يختاروا لأنفسهم إماماً عفيفاً عالمياً ورعاً بالقضاء والسنة، يجمع أمرهم ويحكم بينهم ويأخذ للمظلوم من الظالم حقه ويحفظ أطرافهم ويجبي فيئهم وقيم حجتهم ويجبي صدقاتهم، ثم يحتكمون إليه في إمامهم المقتول ظلماً ليحكم بينهم بالحق، فإن كان إمامهم قتل مظلوماً حكم لأوليائه بدمه، وإن كان قتل ظالماً نظر كيف الحكم في ذلك» (١).

وعلى هذا الأساس وجب عليك يا معاوية وقبل التطرق لقضية قتل عثمان الرضوخ للحكومة الإسلامية وتبايع من بايعه كل الناس ولا تتأخر ولو لحظة بالتوسل بهذه الحجج والذرائع.

فريقان لا يروق لهما تشكيل الحكومة الإسلامية:

إشارة

مع كل ما تقدم- وطبقاً للأدلة اليقينية أن- «الإسلام بدون حكومة» إسلام ممسوخ وفارغ من المحتوى وفي الواقع «فهو إسلام بدون الإسلام»، فمع كل ذلك لا زال هناك فريق يصرّ ويخالف مسألة تشكيل الحكومة الإسلامية، وعلّة هذه المخالفة- في الواقع- أمران

(١) كتاب سليم بن قيس، ص ١٨٢.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٥٢

أحدهما له صبغة نفسية، والآخر له صبغة روائية.

أمّا العامل النفسى فهو إنهم يعيشون ذكرى مرة مع الحكومات، واعتقادهم بعجز أى أحد في الظروف الراهنة من تشكيل الحكومة الإسلامية وبسط العدل الإلهي، نظراً للضغوط المستمرة الموجهة للحكومة من الداخل من قبل المتطرفين الذين يحاولون انتهاك حدود القوانين الإسلامية وضرب العدالة الاجتماعية، وتقديم الشعارات الفارغة على تعاليم الكتاب والسنة المعروفة.

ومن جهة اخرى فهناك الضغوط الواردة من الخارج، والمؤامرات التي تحاك من قبل الأجانب التي يقوم بها عملاؤهم من العناصر «السرية» و «العلنية» كل ذلك يحول دون نجاح الحكومة الإسلامية في مواصلة طريقها، ويتسبب في حرفها حتماً عن مسيرها الحقيقي

لتضعها في خدمة أهدافهم، ولهذا السبب، يرون أن الحكومة الإسلامية الحقيقية غير قابلة للتطبيق عملياً. وهم يستدلون على ادعائهم هذا بقضية الحكومة الدستورية في إيران حيث إن علماء الدين قد توغلوا فيها بكل ما اوتوا من قوة، ليعكسوا للعالم تشكيكه الحكومة الإسلامية (أو ما يماثلها ولو من بعض الجهات)، لكن رغم كل تلك الجهود، فقد وقف مؤيدو الخط المنحرف من الداخل والأجانب وقفه رجل واحد وفي خاتمة المطاف استبدلوا بحكومة مستبدة ظالمة. أما من الناحية الروائية فهم يتمسكون بالروايات القائلة: «كل راية ترفع قبل قيام القائم فهي راية ضلال!» وهذه الروايات تنقسم إلى عدة أقسام:

الطائفة الأولى

- وفيها إشارة إلى أنه ما لم يحن الوقت للثورة في وجه سلاطين الجور والحكومات الظالمة، فلا تحركوا ساكناً، مثل:
- ١- الرواية التي ينقلها «ابو المرهف» عن «الإمام الباقر» عليه السلام حيث يقول: «الغبرة على نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٥٣
- من أثارها، هلك المحاصير، قلت جُعلت فداك: وما المحاصير؟ قال: المستعجلون...» (١).
- ٢- ونقرأ في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام عن آبائه الكرام في وصية النبي صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام أنه قال: «يا علي، إن إزالة الجبال الرواسي أهون من إزالة ملكك لم تنقض أيامه» (٢).
- ٣- وجاء في حديث عن «عيسى بن القاسم» أن الإمام الصادق عليه السلام قال: «اتقوا الله وانظروا لأنفسكم، فإن أحق من نظر لها أنتم... ثم أضاف عليه السلام قائلاً: إن أتاكم منا آت ليدعوكم إلى الرضا منا فنحن نشهدكم إنا لا نرضى إنه لا يطيعنا اليوم وهو وحده، فكيف يطيعنا إذا ارتفعت الرايات والاعلام؟» (٣).
- ٤- ونقرأ في نهج البلاغة عن أمير المؤمنين عليه السلام: «الزموا الأرض واصبروا على البلاء ولا تحركوا بأيديكم وسيفوفكم في هوى ألسنتيكم ولما تشتمعجلوا بما لم يعجله الله لكم، فإنه من ميات منكم على فراشه وهو على معرفته حق ربه وحق رسوله وأهله بيته مات شهيداً، ووقع أجره على الله، واستوجب ثواب ما نوى من صالح عمله، وقامت النيّة مقام إصلاته لسيفه فإن لكل شيء مدة وأجلاً» (٤).
- ولا شك أن هذه الطائفة من الأخبار لا دلالة لها لا من قريب ولا من بعيد على النهي عن إقامة الحكومة الإسلامية قبل ظهور المهدي (عج)، بل الشيء الوحيد الذي تتضمنه هو تحيين الفرص، وعدم البدء بهذه الامور قبل توفر الفرصة المناسبة، لأنكم ستدفعون ثمنًا غالياً وخسائر فادحة دون أية نتيجة تذكر.
- بل ربما يكون مفهوم هذا الكلام عكس ما يتوقعه هؤلاء، وهو أنه متى ما تهيأت الظروف لتشكيل الحكومة الإسلامية، فعليكم بها. وهذه الروايات - في الواقع - هي نفس ما جاء في الخطبة الخامسة من نهج البلاغة، حيث

(١) وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٣٦ (ذكر صاحب الوسائل هذه الروايات في الوسائل ج ١١، كتاب الجهاد، الباب ١٣ من أبواب جهاد العدو).

(٢) وسائل الشيعة، ج ١١ ص ٣٨.

(٣) المصدر السابق.

(٤) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٠ (القسم الأخير منها).

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٥٤

يقول عليه السلام: «وَمُجْتَنَى الثَّمَرَةَ لِغَيْرِ وَقْتِ إِبْنَاعِهَا كَالزَّرْعِ بِغَيْرِ أَرْضِهِ». (إذ لن يحصل أي منهما على النتيجة المتوقعة).

والطائفة الثانية:

هناك بعض الروايات تقول: يجب أن تكون أهداف الثورة هو توجيه الناس لطلب الرضا من آل محمد صلى الله عليه وآله، أي أن الدعوة للأئمة المعصومين عليهم السلام وأهدافهم، وعدم جواز الثورة بدونهم.

ومن جملتها ما نقرأه عن الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول: «إن أتاكم آت منا فانظروا على أي شيء تخرجون؟ ولا تقولوا خرج زيد، فإن زيدا كان عالماً وكان صدوقاً ولم يدعكم إلى نفسه وإنما دعاكم إلى الرضا من آل محمد، ولو ظهر لوفى بما دعاكم إليه، إنما خرج إلى سلطانٍ مُجْتَمَعٍ لِيُنْقِضَهُ، فالخارجُ مِنَّا اليوم إلى أي شيء يدعوكم؟ إلى الرضا من آل محمد؟ فنحن نُشْهِدُكُمْ أَنَّا لَشَنَا نَرْضَى بِهِ وَهُوَ يَعْصِينَا الْيَوْمَ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، وَهُوَ إِذَا كَانَتِ الزَّيَاةُ وَالْأَلْوِيَةُ أَجْدَرُ أَنْ لَا يَسْمَعَ مِنَّا...» (١).

ومن البديهي أن هذا الحديث وأمثاله لا يدل أيضاً على النهي عن تشكيل الحكومة الإسلامية، بل يقول: يجب أن يكون الهدف من تشكيل الحكومة هو إدخال السرور على الأئمة عليهم السلام وكسب رضاهم، باعتبارهم الخلفاء الحقيقيين للنبي صلى الله عليه وآله، ولا يجب البدء بهذا العمل عشوائياً بدون موافقتهم!

وعلى هذا، فمتى ما توفرت الظروف المناسبة في عصر «الغيب» لتشكيل الحكومة الإسلامية، وتيقنا بأن الإمام (عج) راضٍ عنها، وكان الهدف من تشكيلها هو احياء الإسلام والقرآن وارضاء آل محمد صلى الله عليه وآله، فلا مانع منها، بل يجب السعي إليها أيضاً، (تأمل جيداً).

والطائفة الثالثة:

بعض الروايات، تقول: كل ثورة تقوم قبل قيام القائم عليه السلام فإن مصيرها الفشل، كالروايات أدناه:

١- نقرأ في حديث عن أبي بصير عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «كُلُّ رَايَةٍ تُرْفَعُ قَبْلَ قِيَامِ الْقَائِمِ فَصَاحِبُهَا طَاغُوتٌ يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ» (٢).

(١) وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٣٦، ح ١.

(٢) وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٣٧، ح ٦.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٥٥

٢- ونقرأ في حديث آخر عن «الحسين بن خالد» أنه قال: قلت لأبي الحسن الرضا عليه السلام:

إن عبد الله بن بكير كان يروى حديثاً وأنا أحسب أنه عرضه عليك، فقال: ما ذلك الحديث؟

قلت: قال ابن بكير: حدثني عبيد بن زرارة قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام أيام خروج محمد بن عبد الله بن الحسن (١) إذ دخل عليه رجل من أصحابنا فقال له: جعلت فداك إن محمد بن عبد الله قد خرج فما تقول في الخروج معه؟ فقال: «اسكنوا ما سكنت السماء والأرض»، فقال عبد الله بن بكير: فإن كان الأمر هكذا ولم يكن خروج ما سكنت السماء والأرض فما من قائم وما من خروج، فقال أبو الحسن عليه السلام «صدق أبو عبد الله عليه السلام وليس الأمر على ما تأوله ابن بكير، إنما عنى أبو عبد الله عليه السلام اسكنوا ما سكنت السماء من النداء» (النداء الخاص الذي يأتي من السماء قبل قيام القائم عليه السلام)، والأرض من الخسف بالجيش (أي السفيناني الذي يحكم قبيل ظهور المهدي عليه السلام) (٢).

ويستفاد من هذا الحديث أيضاً أنه لا ينبغي الثورة قبل قيام المهدي عليه السلام.

٣- وفي حديث آخر عن سُدَيْرٍ من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام، أن الإمام عليه السلام قال له: «الزَّمَّ بَيْتَكَ وَكُنْ حَلَسًا مِنْ أَحْلَاسِهِ، وَاسْكُنْ مَا سَكَنَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، فَإِذَا بَلَغَكَ أَنْ الشُّفْيَانِي قَدْ خَرَجَ فَارْحَلْ إِلَيْنَا وَلَوْ عَلَى رِجْلِكَ» (٣). «الشفيناني»: أحد الجلادين والحكام الظالمين ويظهر قبل قيام المهدي عليه السلام، ويرسل الجيوش إلى مناطق مختلفة، من جملتها الجيش الذي يبعثه إلى المدينة المنورة فيصل إلى الصحراء القريبة من المدينة، فتحدث زلزلة هناك وتنشق الأرض لتبتلعه وجيشه! وهناك روايات كثيرة أخرى بنفس هذا المضمون، وهو عدم جواز القيام ما لم تظهر علامات ظهور المهدي عليه السلام، كرواية «عمرو بن حنظلة» عن الإمام الصادق عليه السلام، ورواية المعلى بن خنيس عنه عليه السلام، ورواية جابر عن الإمام الباقر عليه السلام (٤)، و....

(١) محمد بن عبدالله بن الحسن، حفيد الإمام الحسن المجتبي عليه السلام ثار أيام المنصور العباسي، وبايعه جمع غفير، استولى على مكة والمدينة واليمن، لكن المنصور أرسل إليه جيشاً جراراً تغلب عليه ونال بدوره الشهادة، وهو معروف بالنفس الزكية، كانت شهادته في رمضان سنة ١٤٥ للهجرة (تمت المنتهى، ص ١٣٥ فما بعدها).

(٢) وسائل الشيعة، ص ٣٦، ح ٣.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٦، ح ٣.

(٤) وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٣٥ و ٤١.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٥٦

نقد وتحليل:

حول هذه الروايات نلفت نظركم إلى عدّة نقاط لا بدّ منها:

١- توجد لدينا في الشريعة الإسلامية مجموعة أصول بديهية لا يجوز تخطيها، من جملتها «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» الذي لا سبيل للشك بوجوبه أبداً ومن حيث بدايته وكونه من الأصول المسلّم بها، وما أكثر الآيات والروايات التي أكدت عليه. لنفرض أننا نعيش في محيط قد ضاعت فيه الأحكام الإلهية، وعمّ التجاهر بالمنكرات، وادّعى المعروف في زاوية النسيان، وأحاط الظلم والفساد في كل مكان، وكان باستطاعتنا تغيير الوضع الفاسد بثورة قوية ضد النظام الحاكم ونشر المعروف بدل كل تلك المنكرات على نطاق واسع، فهل يدعى أحد حُرْمَهُ هذا العمل في مثل هذه الظروف، وأتّه ينبغي التفرج على هذه الأوضاع الفاسدة التي تصادر فيها الأحكام الإلهية، ويخرج بواسطتها الشباب المسلم عن الدين؟!!

قد يدعى المتذرعون عدم حدوث مثل هذا الأمر، لنفترض أنّه يمكن حدوثه، إذ ليس هذا الفرض محالاً عقلياً، فهل يقولون ثانياً بضرورة الامتناع عن كل تحرك والتسليم أمام الإنتشار السريع للفساد والظلم ومصادرة الأحكام الإسلامية؟!!

لا أظن أن عالماً ومحققاً يتفوه بمثل هذا الكلام!

من الشواهد على هذا الكلام محمد بن عبدالله من أحفاد الإمام المجتبي عليه السلام المعروف ب «النفس الزكية»، حيث نقرأ عنه: «حينما بايعه عدد من الوجهاء باعتباره المهدي عليه السلام، وبلغ الإمام الصادق عليه السلام ذلك الخبر بل وحتى طلبوا منه عليه السلام أن يبايعه! قال عليه السلام: دعوا هذا الأمر، فإنّه لم يحن الوقت بعد (وسيكون ظهور المهدي في المستقبل)، فلو أنّك (عبدالله أبو محمد) تعتبر ابنك هو المهدي الموعود، وأنّه ليس بالمهدي، ولم يحن وقت ذلك بعد، ولو أردت إجباره على الخروج في سبيل الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فوالله لن ندعه لوحده، وسنبايعه!».!

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٥٧

فغضب عبدالله وأجاب بجواب غير مناسب «١».

خلاصة القول: هي أنه لو فرضنا أن هذه الروايات تصرح بأن كل ثورة قبل قيام المهدي عليه السلام على ضلال، لكننا لا نتمكن أبداً لاجل خبر واحد أو عدّة أخبار هي في حكم خبر الواحد، من تجاهل الاصول المسلّمة للإسلام والتي جاءت في القرآن الكريم وأحاديث الأئمّة المعصومين عليهم السلام، وعلى هذا، فمتى ما توفرت مقدمات تشكيل الحكومة الإسلامية وأمكن محو الظلم والفساد والاعتداء و... فلا- ينبغي التشكيك في ضرورة القيام بذلك. إذ لا يمكن تناسي أدلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتطبيق الحدود وإقامة القسط والعدل بحجة ورود النهي عن هذا العمل في عدّة أخبار مشكوكة!

٢- لدينا في قبال هذه الروايات روايات اخرى عن أهل البيت عليهم السلام تحكى عن أن الأئمّة عليهم السلام قد أثنوا على بعض الثورات التي حدثت في زمانهم، مع أن هذه الثورات لم تبلغ غايتها، فكيف يعقل منع هذه الثورات مع ثنائهم عليهم السلام عليها؟! ومن جملة ذلك ما جاء في الروايات حول قيام «زيد بن علي» باعتبارها ثورة مقدّسة:

يقول المرحوم الشهيد في القواعد في بحث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: «كان خروجه بإذن الإمام عليه السلام» ويقول الشيخ المفيد في الإرشاد: «كان زيد أفضل أبناء الإمام السجاد عليه السلام بعد الإمام الباقر عليه السلام، وكان عالماً عابداً تقياً سخياً شجاعاً، قام بالسيف ليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويأخذ بثأر شهداء كربلاء» «٢».

يذكر المرحوم العلامة المامقاني روايات كثيرة في فضل ومدح زيد بن علي، وقسماً من هذه الروايات وردت في ذمه، حيث يقوم بمناقشتها ولا يراها تستحق الذكر أمام روايات المدح تلك «٣».

يقول المرحوم العلامة المجلسي بعد ذكره لاختلاف الروايات حول «زيد» وثورته:
«الأخبار التي تدل على مكانته الرفيعة ومدحه والثناء عليه وأنه لم يدع لغير الحق هي

(١) إرشاد المفيد، ج ٢، ص ١٨٥ (الباب ١٣ في حالات الإمام الصادق عليه السلام).

(٢) تنقيح المقال (رجال المامقاني)، حالات زيد.

(٣) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٥٨

الأكثر، وقد أقرُّ جُلُّ الأصحاب بعظمه مكانة زيد» «١».

فحينما تكون كل ثورة قبل المهدي عليه السلام ثورة ضلال وشرك، فكيف يمكن الثناء على ثورة زيد بن علي عليه السلام، وتمجيدها؟!

والنموذج الآخر هو الروايات التي جاءت في مدح الحسين بن علي شهيد فخ.

وكان الحسين بن علي هذا من أحفاد الإمام الحسن المجتبي عليه السلام، ثار في أيام الخليفة العباسي (موسى الهادي) سنة ١٦٩ هـ، توجه من المدينة إلى مكة للحج في ذلك العام، وحينما وصل مع أنصاره أرض «فخ» قريباً من مكة، حدثت معركة ضارية بينه وبين أنصاره من جهة، وبين عمال وجنود الخليفة العباسي من جهة أخرى فاستشهد الحسين بن علي مع جماعة من أنصاره في هذه المعركة، وهو الذي عدّه دعبل الخزاعي في أبياته المعروفة «مدارس آيات» باعتباره شهيداً من شهداء أهل البيت عليه السلام، ولم يعترض الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام على قوله:

قُبُورٌ بِكُوفَانٍ وَأُخْرَى بِطَبِيبَةٍ وَأُخْرَى بِفَخٍّ نَالَهَا صَلَوَاتِي

ونقرأ في حديث عن الإمام التاسع، (الإمام الجواد عليه السلام): بينما كان النبي صلى الله عليه وآله يجتاز أرض فخ إذ نزل وصلى وبينما هو في الركعة الثانية أخذته العبرة، فبكى بكاءً أبكى من معه، وحينما انتهت الصلاة، سأله صلى الله عليه وآله عن سبب بكائه،

فقال صلى الله عليه وآله: لقد جاءني جبرائيل وقال لي:

«أى محمد! إن رجلاً من ولدك يُقتل في هذا المكان، أجر الشهيد معه، أجر شهيدين» (٢).

بل جاء في حديث عن الإمام الجواد عليه السلام أنه قال: «لم يكن لنا بعد الطف مصرع أعظم من فخ» (٣).

كما جاء في رواية عن الحسين بن علي (شهيد فخ) نفسه أنه قال: «ما خرجنا حتى

(١) بحار الأنوار، ج ٤ ص ٢٠٥.

(٢) تنقيح المقال، ج ١ ص ٣٣٧ (حالات الحسين بن علي شهيد فخ)؛ بحار الأنوار، ج ٤٨، ص ١٧.

(٣) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٥٩

شاورنا موسى بن جعفر فأمرنا بالخروج» (١).

يقول المرحوم العلامة المامقاني في خاتمة ما يتعلق بشرح أحواله: «يتضح مما قلنا أنه كان من الثقات، لأن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام قد أمضى ذلك في أحد الأخبار، وجاء في الحديث: «أجر الشهيد معه، أجر شهيدين»، وقد بكى عليه النبي صلى الله عليه وآله في زمانه، وقال الإمام الصادق عليه السلام: «ستدخل روحه الجنة قبل جسده».

ولمزيد من الاطلاع حول هذا الموضوع راجع كتاب تنقيح المقال الذي تقدم (ج ١ ص ٣٣٧ وبحار الأنوار، ج ٤٨، ص ١٦٠ فما بعدها).

مضافاً إلى ما تقدم، فقد جاء في الروايات أن أقواماً سيثرون قبل قيام المهدي عليه السلام، ويمهدون لظهوره عليه السلام، وقد ورد مدحهم في الأحاديث الشريفة، فلو كانت ثورتهم باطله داعية إلى الطاغوت، لما كان لهذه الروايات مفهوم صحيح.

ونكتفي هنا بروايتين عن طريقي الشيعة والسنة، مع أن الروايات أكثر من هذا بكثير.

نقرأ في حديث عن الإمام أبي الحسن الأول (الإمام الكاظم عليه السلام) أنه قال: «رَجُلٌ مِنْ قَوْمٍ يَدْعُو النَّاسَ إِلَى الْحَقِّ يَجْتَمِعُ مَعَهُ قَوْمٌ كَثِيرٌ الْحَدِيدِ لَا تَزَلُّهُمْ الرِّيحُ الْعَوَاصِفُ وَلَا يَمْلُونَ مِنَ الْحَرْبِ وَلَا يَجْبِنُونَ وَعَلَى اللَّهِ يَتَوَكَّلُونَ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ» (٢).

وقد تمّ التصريح في قسم من الروايات التي تشير إلى مثل هذه الثورات بأنها ممهدة لظهور المهدي عليه السلام. وعلى أية حال، فهي حاكية عن أن ثورات مشروعة ستحدث قبل قيام المهدي عليه السلام، ثورات دامية داعية إلى الحق مع ضمان النصر.

ونقرأ في حديث في سنن ابن ماجه وهو من المصادر السنية المعروفة:

حضر جمع من شباب بنى هاشم بين يدي الرسول صلى الله عليه وآله، وحينما وقع نظره المبارك عليهم أخذته العبرة وتغير لونه، فسئل عن ذلك، فقال صلى الله عليه وآله:

(١) المصدر السابق.

(٢) سفينة البحار، لفظه (قم).

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٦٠

«إنا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا، إن أهل بيتي سيقولون بعدى بلاءً وتشريداً وتطريداً حتى يأتي قَوْمٌ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ مَعَهُمْ رَايَاتٌ سَوْدٌ فَيَسْأَلُونَ الْخَيْرَ فَلَا- يعطونه فيقاتلون وينصرون فيعطون ما سألوا فلا يقبلونه حتى يدفعوها إلى رجل من أهل بيتي فيملأها قسطاً كما ملأوها جوراً، فمن أدرك ذلك منكم فليأتهم ولو حبواً على الثلج» (١).

يستفاد من ذيل هذه الرواية بكل وضوح أن هذه الثورة ستحدث قبيل ثورة المهدي عليه السلام، وأنها الممهدة له عليه السلام فضلاً

عن مشروعيتهما.

ويظهر بجلاء من كل ما قيل في هذا الفصل أن ثورات ستحدث قبل ظهور المهدي (عج) فيها صبغة إلهية، بعضها يؤتى أكله وبعضها ينتهي بالفشل، وليس أن كل راية ترفع قبل المهدي (عج) راية ضلال وطاغوت حتى لو كانت بإذن أهل البيت عليه السلام وعلى خطاهم، (تأمل جيداً).

٣- والحاصل أن الروايات التي تقول: «كل راية ترفع قبل قيام المهدي عليه السلام راية ضلال وصاحبها طاغوت...»، يجب تفسيرها بشكل بحيث تتلاءم مع المسلمات الفقهية وأحكام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر «محاربة الفساد»، وكذلك مع الثورات العديدة التي حدثت في زمان المعصومين عليهم السلام وأمضوها بدورهم عليهم السلام. ولدينا لتفسير هذه الروايات عدة سبل:

١- المراد بها، تلك الثورات المنحرفة، الثورات التي تقع بدون إذن واجازة المعصومين عليهم السلام، أو الحكام الشرعيين أو نواب الإمام المهدي (عج) في عصر الغيبة.

٢- المراد منها، الثورات التي تحدث بقصد الدعوة لأنفسهم لأهداف آل محمد صلى الله عليه وآله، حيث تمت الإشارة إلى ذلك في الروايات أكثر من مرة.

٣- المراد بها، الثورات التي تظهر في فترات معينة بدون استعداد لها، وأن الأئمة عليه السلام إنما تلفظوا بتلك الجمل ونهوا عن ذلك للحد من الثورات التي لم تنضج بعد.

(١) سنن ابن ماجه، ج ٢ ص ١٣٦٦، ح ٤٨٢.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٦١

ونعود هنا ثانية إلى القرآن الكريم لتأمل في النداء العام للقرآن بدعوة الأمة الإسلامية للثورة في وجه الظالمين والدفاع عن المظلومين وبسط القسط والعدل.

نقرأ في قوله تعالى: «وَمَا لَكُمْ لَأْتَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَوْلَاهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا». (النساء / ٧٥)

لا يخفى أن هذه الآية ونظائرها التي تتحدث حول إقامة القسط والعدل أو الدفاع عن المظلومين ومقارعة الظالمين لا تنحصر بزمان ومكان معينين، وأنها من الاصول المهمة للإسلام، وأنه كلما توفرت الفرص والمقدمات لهذا الهدف المقدس فلا بد من الإقدام على ذلك فوراً.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٦٣

أركان الحكومة الإسلامية

إشارة

١- السلطة التشريعية

٢- السلطة التنفيذية

٣- السلطة القضائية

٤- التربية والتعليم

٥- الدفاع (القوات المسلحة) نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٦٥

أركان الحكومة الإسلامية

المقدمة:

نحن نعلم أن أية حكومة بحاجة إلى ثلاثة أركان أساسية، ليس بمقدورها مواصلة السير والبقاء بدونها:

١- ركن التقنين (وضع القوانين).

٢- ركن التنفيذ.

٣- ركن القضاء.

فلا بد أولاً من توفر القوانين القادرة على معالجة مشاكل المجتمع ولتنظيم علاقات الناس بعضهم البعض الآخر، والعمل على تحريك عجلات المجتمع على طريق الرقى والتكامل، سواء كان مصدر سنّ القوانين الوحي الإلهي، تارة، وتارة، بأمر أحد الأفراد على من تسلط عليهم، وأحياناً بمجالس سنّ القوانين، الذي سنتحدث عنه لاحقاً.

وحتى المجتمعات التي تُدار وفق القوانين الإلهية، والتي تستمد قوانينها من مصدر الوحي، تحتاج هي الأخرى أيضاً إلى سلطة مقننة كي تعمل على تطبيق القوانين الإلهية العامة لإدارة حياتهم اليومية، وتعمل أيضاً على تطبيق المسائل الجزئية واحتياجات كل زمان التي يعرض عليها التغيير والتبديل بمرور الزمان على المسائل التي هي محل ابتلاء، أو كما يصطلح على ذلك «ردّ الفروع إلى الأصول» أو بتعبير آخر، تقوم بعملية «التقنين الموضوعي». نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٦٦

وبعد أن تُكتب نصوص القوانين وتجعل موضع التنفيذ والعمل، يجب أن يوكل أمر تنفيذها بيد مجموعة من الأفراد يقومون بتطبيقها على المجتمع، فلو كانت هذه القوانين بحاجة إلى مقررات تنفيذية، يقوم هؤلاء بتدوين هذه المقررات، وإن لم تكن هناك حاجة إلى ذلك، ينتقلون مباشرة إلى مرحلة التطبيق، وهذا ما يُعمل به في عالم اليوم والمسمى بـ «السلطة التنفيذية» أو «الحكومة».

وللدول أيضاً رئيس يُعبر عنه أحياناً برئيس الجمهورية، وأحياناً رئيس الوزراء، وأخرى بالصدر الأعظم، وهؤلاء أيضاً يقومون بدورهم بتعيين الوزراء والمدبرين العامين، والمدبرين من الدرجة الأولى، ورؤساء الأقسام والشعب، إذ يقسمون بينهم الواجبات التنفيذية، ويطبّقون من خلالها برامجهم الحكومية.

وفي هذا الخضم يحتمل حدوث مشاكل واختلافات بين الناس، أو بين دوائر الدولة، أو بين الدولة والناس في المسائل الحقوقية المختلفة، والسلطة التي تأخذ على عاتقها تشخيص الظالم من المظلوم وصاحب الحق من المدعى الفاقد له، تسمى بـ «السلطة القضائية»، ولا شك في أنّ الحكم الصادر من قبل هذه السلطة، يحتاج بعد صدوره أيضاً إلى السلطة التنفيذية لغرض تنفيذه، والتي يجب أن تنفذ هذه الأحكام بشكل دقيق.

وفي هذا المجال توجد أقسام أخرى في النظام، قد نتصور أحياناً بأنها تشكل أركاناً مستقلة بحد ذاتها، ومن الممكن أن ينظر لها على أنّها تمثل الركن الرابع والخامس و... كالشرطة والاستخبارات، وكذلك التربية والتعليم والمؤسسات الخيرية والقوات العسكرية وقوى الأمن الداخلي وما شاكل ذلك.

إلا أنه من الواضح أنّ هذه الأمور تُعد جزءاً من السلطة التنفيذية وبمنزلة الأداء بيدها إذ تستخدمها لغرض تنفيذ القوانين بأفضل الطرق وأكثرها تأثيراً.

وتقوم الاستخبارات بكشف النقاب عن المؤامرات السرية، وتضع المعلومات الوافية عن الحوادث التي تقع هنا وهناك بين يدي المسؤولين التنفيذيين، ليتسنى لهم أحباط تلك المؤامرات، والوقوف على ما يضر المجتمع وما ينفعه لاتخاذ الموقف المناسب، وفي الوقت

المناسب أزياءها، وكذلك تقوم المراكز التعليمية والمؤسسات الخيرية بمساعدتهم للوصول إلى أهدافهم من خلال الطرق الثقافية، سيما وأن أفضل الطرق لتطبيق القانون هو الطريق الثقافي، الذي يدفع المجتمع إلى تطبيق القوانين بشكل ذاتي وآلي، ويصبح المجتمع بالتالي مصداقاً لقوله تعالى: «لَيَقَوْمٌ نَّاسٌ بَالِقِشُطٍ»، وكذا الحال بالنسبة للمراكز التي ذكرت آنفاً.

وبعد هذه الإشارة المختصرة نعود إلى القرآن المجيد ونبحث عن كل من هذه الأركان الثلاثة في آيات القرآن الكريم.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٦٩

الركن الأول: السلطة التشريعية

تمهيد:

طبقاً للرؤية القرآنية وأحاديث المعصومين عليهم السلام وعلماء الإسلام، فإن مسألة تشريع القوانين تختص بالله تعالى، والواقع أن مسألة التقنين (سن القوانين) تعد شأنًا من شؤون التوحيد في الأفعال، فكما أن الله تبارك وتعالى هو الحاكم المطلق على جميع عالم الوجود وعالم البشرية، فإنه كذلك حاكم على نظام التشريع أيضاً.

وهذه المسألة فضلاً عن كونها وردت بشكل صريح في الآيات المباركة والروايات الإسلامية، فهي مؤيدة أيضاً بدليل العقل، لأنّ المقنن الواقعي هو الذي يجب أن يمتلك الصفات التالية:

١- يجب أن يكون مطلعاً على حقيقة الإنسان وملئياً بجميع خصائصه من حيث الجسم والروح، بحيث يكون خبيراً كاملاً بالإنسان، وعارفاً بجميع أسراره، وعواطفه، وميوله، وغرائزه وشهواته، ومسائله الفطرية، ومطلعاً أيضاً على جميع القابليات والكفاءات الكامنة في الفرد والمجتمع، والكمالات المتيسرة له بالقوة، وبعبارة أخرى: يجب أن لا يخفى عليه أي شيء في تركيبه الإنسان وكيانه.

٢- يجب أن يكون عالماً بآثار وخواص جميع الأشياء في الوجود من حيث انسجامها وتناغمها مع وجود الإنسان أو عدم انسجامها، وبشكل أدق يجب أن يعلم فوائد ومفاسد جميع الأعمال الفردية والاجتماعية وآثارها ونتائجها.

٣- أن يكون خبيراً بجميع الحوادث التي يمكن وقوعها في المستقبل البعيد أو القريب،

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٧٠

والتي تلعب دوراً مؤثراً بنحو أو آخر في مصير الإنسان.

٤- المقنن أو المشرع الحقيقي هو الذي يكون مصوناً من كل خللٍ أو ذنبٍ أو خطأ، وأن يكون قوى الإرادة شجاعاً في الوقت الذي يكون فيه رؤوفاً رحيماً، وأن لا يداخله الخوف من أي قوة في المجتمع.

٥- يجب أن لا تكون له أية مصلحة أو منفعة في المجتمع البشري، لئلا يتجه محور أفكاره أثناء سنّ القوانين - من حيث يعلم أو لا يعلم - نحو الجهة التي تحافظ على مصالحه الشخصية، ويضحى بمصلحة المجتمع لحساب مصالحه الشخصية.

فهل تتوفر هذه الصفات في غير ذات الله تعالى؟ وهل بإمكانكم العثور على من يقول: أنا عالم بالإنسان وبجميع خصائصه؟ في حين أن أعظم العلماء، يبدون عجزهم عن الإجابة عن هذا السؤال، بل إنهم يقولون علناً إن الإنسان يُعدّ كائنًا مجهولاً، حتى أنهم اختاروا هذا العنوان لكتبهم ومؤلفاتهم؟

وهل هناك من هو خبير بالماضي والمستقبل والروابط الدقيقة فيما بينها وبين زماننا الحاضر؟

وهل هناك من يكون عارفاً بآثار وأسرار جميع الموجودات، ومصاناً من كل نوع من أنواع الانحراف والذنب والخطأ؟

من المسلم أن هذه الصفات والخصائص لا تتحقق إلا في الله تعالى وأنبيائه الكرام.

ونخلص من هذه الإشارة القصيرة إلى نتيجة طيبة، وهي أن المشرع الحقيقي هو الله تعالى الذي خلق الإنسان وأطلع على جميع أسرار

خلقته، ويعلم أسرار جميع الموجودات، وخبيرٌ بحوادث المستقبل والماضي وعلاقتها بأحداث الحاضر على أحسن ما يرام. ولا طريق لأى خطأ أو زلل إلى ذاته الطاهرة المقدسة ولا يخشى أحداً، ولا حاجة له أو مصلحة شخصية لكي يشبعها عن طريق القوانين الموضوعه، بل إنه تعالى يلاحظ منفعة الإنسان فقط في تشريعاته المقدسة.

وفضلاً عن ذلك كله فإنّ الوجود بأسره ضمن دائرة حكومته وسلطته، ولا معنى لأن يقوم

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٧١

غيره بإصدار أحكامه في هذه الدائرة، بل إنّ الخضوع لأحكام الآخرين والإعتراف بقانون غير قانونه جلّ وعلا يعدّ نوعاً من الشرك والضلال.

وبهذه الإشارة نعود مرة أخرى إلى القرآن الكريم، ونستعرض الآيات التي تؤكد على أنّ مسألة التشريع وسنّ القوانين مختصة بالله تعالى.

١- «مَالَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا». (الكهف/ ٢٦)

٢- «وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ». (الشورى/ ١٠)

٣- «وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ». (المائدة/ ٤٤)

٤- «وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ». (المائدة/ ٤٥)

٥- «وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ». (المائدة/ ٤٧)

٦- «وَأَن احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ». (المائدة/ ٤٩)

٧- «افْحَكُم بِالْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ». (المائدة/ ٥٠)

٨- «إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ». (النور/ ٥١)

٩- «وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ». (الأنعام/ ١٥٣)

١٠- «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا». (المائدة/ ٣)

جمع الآيات وتفسيرها

في الآيات السبع الأولى من هذه الطائفة يدور الحديث على أنّ الحكم هو حكم الله فقط وعلى الجميع إطاعه أحكامه تعالى.

صحيح أنّ «الحكم» يأتي بمعنى «المنع» «١» أساساً، ولكن بما أنّ الأمر والنهي يصبح سبباً

(١) يرجع الرجوع إلى كتاب مصابيح اللغة، ومصباح اللغة، ومفردات الراغب.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٧٢

لمنع وقوع المخالفات والأعمال الخاطئة، سُمي ب «الحكم»، وسميت العلوم والمعارف لهذا السبب ب «الحكمة» إذ إنّها تمنع وقوع الأعمال الجاهلة وغير العقلانية.

والملاحظة الأخرى الجديرة بالاهتمام أيضاً، هي أنّ مصطلح «الحكم» في القرآن الكريم، يأتي أحياناً بمعنى التحكيم والفصل، وأخرى بمعنى الأمر والنهي، وعندما يأتي بمعنى التحكيم، يُعدّ أيضاً نوعاً من الأمر والنهي الذي يصدر عن القاضي.

ومع الأخذ بنظر الاعتبار ما تقدم ذكره، نعود مرّة أخرى إلى الآيات المباركة، إذ إنّ الآية الأولى، تصرح بأنّ الحاكمية والحكومة، والأمر والنهي وكذلك الولاية، مختصة بأجمعها بالله تعالى إذ تقول: «مَالَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا».

والواقع أنّ صدر الآية وذيلها هما بمنزلة العالمة والمعلول، لأنّه عندما تختصّ الولاية بالله تعالى، فمن الطبيعي حينئذٍ أن يقتصر الحكم

والقانون أيضاً به تعالى، ومن الواضح، أن «الحكم» يشمل هنا الأمر والنهي وكذلك القضاء والحكومة أيضاً، لأن كل هذه الأمور تعدّ بمثابة فروع الولاية، وبما أن الولاية منحصره به تعالى، إذن فالحكم من شأنه أيضاً، بل يعتقد البعض أن ولاية الله تعالى تشمل حاكميته التكوينية على عالم الخليفة أيضاً، لأن ولايته في عالمي التشريع والتكوين ثابتة، إذن فحاكميته تمتاز بالشمول والعمومية.

ويدور الحديث في الآية الثانية عن حكم الله وقضائه: «وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ». ويقول تعالى في نهاية الآية: «ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ».

وبما أن كل شيء (وخاصة الحكم والقضاء) بيده تعالى، إذن يجب أن يكون التوكّل عليه والإنابة إليه فقط. وطالما أن التحكيم والقضاء غير منفصلين عن الحكم والقانون (بمعنى أن الكثير من موارد النزاع هي من قبيل الشبهة الحكمية، وليس الشبهة الموضوعية)، نصل إلى أن الحكم والأمور والقانون أيضاً بيده تعالى فقط.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٧٣

أما الآيات الثالثة والرابعة والخامسة، فقد تحدثت عن الذين لا يحكمون بما أنزل الله تعالى، ولا يعيرون لذلك أهميته تذكراً، أو بعبارة أخرى، يحكمون بغير حكم الله، فقبل عنهم في إحداهم أنهم «كافرون» وفي الآية الأخرى «ظالمون» وفي الثالثة أنهم «فاسقون» وهو قوله تعالى: «وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ... فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ... فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ».

فهم كافرون بسبب إعراضهم عن أحد فروع التوحيد الفعال، أي التوحيد في حاكمية الله حيث يؤكد هذا الفرع من التوحيد أنه: ليس لغيره سبحانه الحق في الحكم وإصدار الأوامر ولا في الحكومة، ولا في القضاء والتحكيم، لذا من المسلم به أن من ينحرف عن هذه النظرية، فقد ابتلى بنوع من الشرك.

«وهم ظالمون»: بسبب ممارستهم الظلم بحق أنفسهم والآخرين، وتركهم جانباً الأحكام التي تمثل أساس سعادتهم وسبب رقي مجتمعهم، وأخذهم بأحكام قليلة الأهمية أو فاقده لها تماماً، والتي لا تأخذ بنظر الاعتبار سوى مصالح محدودة وقليلة. «وهم فاسقون»: لكونهم تجاوزوا حدود العبودية وخرجوا عنها، لعلمنا بأن معنى الفسق هو الخروج عن الواجب والأمر.

هذه التعابير الثلاثة المختلفة (الكافرون والظالمون والفسقون) في الآيات الثلاث الآنفه دقيقة جداً، ومن الممكن أن تكون إشارة إلى الأبعاد الثلاثة للقانون الإلهي، لأن «القانون» ينتهي في أحد جوانبه ب «المقنن» «الله تعالى»، إذ تعتبر مخالفته «كفراً»، ومن ناحية أخرى ينتهي بعباد الله تعالى، إذ تعد مخالفته «ظُلماً»، والثالثة، ينتهي بشخص الحاكم والقاضي من البشر، إذ يعد حكمه - «عندما يكون مخالفاً لحكم الله» - «فسقاً».

والآية السادسة تأمر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بأن يحكم بينهم بما أنزل الله ولا يتبع في ذلك أهواءهم ويحذرهم لئلا يفتنوه عن بعض الأحكام التي أنزلها الله عليه، وهو قوله تعالى:

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٧٤

«وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ».

إن المقارنة بين «الحكم بما أنزل الله» و «إتباع الهوى» يبين لنا أن الذي يعرض بوجهه عن حكم الله تعالى، سيسقط في وادي الهوى المرعب، وقول الآية: «واحذرهم أن يفتنوك» تأكيد آخر ومكرر على إتباع أحكام الله تعالى، والوقوف بوجه الوسواس وعدم الإيعتراف بغيره، ومما لا شك فيه أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لم يكن ليفتن بهم إطلاقاً بسبب تمتعه بمقام العصمة الرفيع، لئلا أن التعبير أعلاه يعدّ درساً لسائر الناس، لكي يحذروا مكائد الأعداء والأعييبهم من أجل حرف المؤمنين وإبعادهم عن الإمتثال للأحكام الإلهية ومع الأخذ بنظر الاعتبار سبب نزول هذه الآية والذي ذكره المفسرون، فإن الآية الآنفه تتعلق بمسألة القضاء والفصل في الاختلافات والمنازعات، وكلمة «بينهم» أيضاً تعتبر عن هذا المعنى، ولكن من المسلم به هو أن الفصل يجب أن يكون مستنداً إلى حكم وقانون، ومفهوم هذه الآية يشير إلى أن مستند القضاء والفصل يجب أن يكون ما أنزل الله فقط.

والآية التي تأتي بعد الآية السابقة مباشرة في القرآن الكريم، تقول: «أَفْحَكَمَ الْجَاهِلِيَّةُ يَبْعُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ». وهنا تصرح هذه الآية الكريمة بأن الأحكام غير الإلهية إنما هي أحكام جاهلية، تلك الأحكام التابعة من الجهل وعدم المعرفة، وأحياناً عن الهوى والوساوس الناجمة عن الجهل، ولو تأملنا في هذه الآية جيداً، لوجدنا أن هذا المعنى لا يختص فقط بعصر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ونهضته في العصر الجاهلي للعرب، بل إن كل حكم غير إلهي - وكما أشرنا إلى ذلك آنفاً - لا يمكن أن يكون منزهاً من الجهل، لأن علم الإنسان محدود يقيناً، إذ إنه لا يملك معرفة كاملة بجميع خصائص وزوايا وجوده، ولا يملك اطلاعاً كاملاً على أسرار الموجودات والحوادث الماضية والحالية والمستقبلية، التي تلعب دوراً مؤثراً في نوعيته

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٧٥

الأحكام سلباً وإيجاباً، مضافاً إلى أن لكل فرد في المجتمع ميولاً ومصالح معينة، ولا يمكنه أن يُبعد نفسه تماماً عن تلك المصالح أثناء سنّ القوانين، والله تبارك وتعالى وحده العالم بكل شيء والغني عن عباده.

يقول «البرسوي» في تفسيره روح البيان، في تبين معنى «الجاهلية»: «وهو كل ما لا يستند إلى الوحي والكتاب السماوي» (١). ونقرأ في تفسير «في ظلال القرآن» (٢).

ونقل في تفسير «مجمع البيان» عن بعض المفسرين المتقدمين قولهم:

«إن هذا النوع من التمييز والإزدواجية المطبقة أيضاً في عصرنا هذا، والقوانين التي تطبق على الضعفاء فقط سواء داخل الدول أو في العلاقات الدولية أيضاً، والتي غالباً ما يستثنى منها الأقوياء، دليل بارز على وجود المجتمعات الجاهلية!». والملفت للنظر أن الكثير من الآيات الآنفه الذكر والتي صرحت باختصاص حق التقنين والتشريع بالله تعالى موجودة في سورة المائدة، والمعلوم لدينا أن سورة المائدة وكما هو معروف هي آخر سورة، أو من أواخر السور التي نزلت على الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، إذ إن الكثير من المسائل الإسلامية الهامة ومنها المسائل المتعلقة بالحكومة التي تعدّ من أركان الإسلام المهمة وردت في هذه السورة، وتم التأكيد في آيات عدّة من هذه السورة المباركة، على أن «الحكم» و «الأمر» و «تشريع القوانين» مختصّ بالله تعالى، وهذه التأكيدات المتكررة في هذه السورة ذات مغزى عميق.

وتتحدث الآية الثامنة عن الإيمان والتسليم المطلق أمام حكم الله ورسوله صلى الله عليه وآله إذ تقول:

«إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

(١) تفسير روح البيان، ج ٢، ص ٤١٠.

(٢) في ظلال القرآن، ج ٢، ص ٧٥١.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٧٦

ويتضح لنا من سبب النزول الوارد في بعض التفاسير للآيات التي تأتي بعدها - وهو أن جماعة من المنافقين لما شعروا بضعف موقفهم جاءوا إلى الرسول صلى الله عليه وآله وأقسموا على تسليمهم لأوامر النبي صلى الله عليه وآله - ومن الواضح أن الآية أعلاه تتحدث عن المجموعة المقابلة لهذه المجموعة، أي المؤمنين، وتقول: إن التسليم المطلق لا بد أن يكون أمام قوانين الله تعالى، ولا عبرة بأى قانون غيره، وإن كان المراد بالآية مسألة القضاء والفصل بين المنازعات فكذلك أنها تدل على ما قصدناه، لأنه وكما سبق وأن قلنا: إن مسألة التحكيم تقوم على أساس القانون أيضاً، وبناءً على ذلك فإن التسليم لقضاء الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله يعني التسليم، التسليم أمام القانون الإلهي، ولهذا نجد أن القضاء دائماً عندما يصدر عن أحكامهم، يستندون في ذلك إلى مادة واحدة أو أكثر من المواد القانونية، يعني التسليم، فعلى المؤمنين الاستناد إلى مواد القانون الإلهي فقط.

وقد وردت الآية التاسعة بعد أوامر إلهية عشرة جاءت قبلها (بخصوص الشرك، والإحسان إلى الوالدين، والكف عن قتل الأولاد-

وبشكل عام- إهراق الدماء البريئة، والأعمال القبيحة الاخرى) إذ يقول تعالى في نهاية هذه الطائفة من الأحكام: «وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ».

ومن هذا التعبير يتضح لنا جيداً أنّ «الصراط المستقيم» يعنى حكم الله تعالى وقانونه وأوامره، وكل ما هو دونه يعدّ من الطرق المعوجّة والمنحرفة والتي تبعد الناس عن صراط الله المستقيم، ويستفاد من هذا التعبير أيضاً، أن اتباع الطرق الاخرى تؤدي إلى بث التفرقة والتشتت والاختلاف، والدليل على ذلك واضح أيضاً، لأنّ رأى الناس وحتى العلماء الكبار فى تشخيص منافع ومفاسد الأعمال يختلف اختلافاً كبيراً عن بعضهم البعض، ومتى ما احيلت مسألة تشريع القوانين إلى الناس، فإنّ الاختلاف والتشتت سوف يحكمان

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٧٧

المجتمعات الإنسانية على الدوام.

ينقل «ابن مسعود» فى حديثٍ عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، أنّ النبي صلى الله عليه وآله خطّ خطاً مستقيماً، ثم قال «(١)»: «هذا سبيل الرشده، ثم خط عن يمينه وعن شماله خطوطاً ثم قال: هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه؟ ثم تلا هذه الآية «وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ».

وفى الآية العاشرة والأخيرة، وبالرغم من عدم تصريحها باختصاص سنّ القوانين بالله تعالى، إلّا أنّها تنطوى على تعبير معين يستفاد منه بشكل جيد عدم وجود أى مصدر للتشريع غير الله تعالى، إذ تقول الآية المباركة: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا».

ونعلم أنّ «الدين» بمعناه الحقيقى يشمل جميع شؤون الحياة البشرية، وبالنظر إلى أنّ الإسلام هو خاتم الأديان السماوية، وسيبقى قائماً حتى قيام الساعة، فإنّ مفهوم هذه الآية يعنى أنّ جميع ما يحتاجه الإنسان من حيث القوانين قد أخذ الإسلام بنظر الاعتبار حتى قيام الساعة، وبناءً على ذلك لا يبقى أى مجال لقوانين أخرى.

وتجدر الإشارة إلى أنّ بعض هذه القوانين خاصّةً وجزئية، والبعض الآخر عامّةً وكلية، وواجب علماء الدين والمشرّعين الإسلاميين، القيام بتطبيق تلك الكليات على مصاديقها، واستنباط القوانين والضوابط اللازمة منها.

وقد تمّ التأكيد مراراً على هذا المعنى فى الروايات الإسلامية أيضاً، وللإمام على عليه السلام خطبة مؤثرة ومفصلة فى ذمّ الذين يسمحون لأنفسهم بتشريع القوانين فى المحيط الإسلامى معتبرين ذلك اجتهاداً، إذ يقول عليه السلام فى جانب من هذه الخطبة: «أَمْ أَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ دِينًا

(١) تفسير الكبير، ج ١٤، ص ٣.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٧٨

نَاقِصًا فَاسْتَعَانَ بِهِمْ عَلَى إِتْمَامِهِ، أَمْ كَانُوا شُرَكَاءَ لَهُ فَلَهُمْ أَنْ يَقُولُوا وَعَلَيْهِ أَنْ يَرْضَى (١)».

وهناك روايات متعددة تصرّح بأنّ كل ما تحتاجه الامّة الإسلامية إلى يوم القيامة مأخوذ بنظر الاعتبار فى القوانين الإسلامية، حتى دية خدش بسيط فى بدن الغير، على أنّه يجب أخذ هذه الأحكام من أهلها، وهذه تبين وبشكل واضح أنّ التشريع فى الإسلام مختصّ بالله تعالى، ولا مجال لتشريع الآخرين، وبناءً على ذلك فإنّ ما يحصل فى المجالس التشريعية الإسلامية، هى عملية تطبيق القواعد العامة لقوانين الإسلام على مصاديقها ومواردها.

ونقرأ فى حديث ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمْ يَدْعُ شَيْئًا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْاُمَّةُ إِلَّا أَنْزَلَهُ فِي كِتَابِهِ وَبَيَّنَّهُ لِرَسُولِهِ» (٢).

ونقرأ فى حديث آخر ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا وَفِيهِ كِتَابٌ وَسُنَّةٌ» (٣).

وورد في روايات أخرى أن جميع الأحكام والقوانين اللازمة، شرّعت للأمة الإسلامية، ومنها ماورد في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «ما ترك عليّ شيئاً إلّا كتبه حتى أرش الخدش» (٤). ولمزيد الإطلاع على كثرة وسعه الأحاديث الواردة في هذا المجال يراجع المجلد الأول الباب ٤ من كتاب جامع أحاديث الشيعة.

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٨.

(٢) أصول الكافي، ج ١، ص ٥٩، ح ٢.

(٣) المصدر السابق، ح ٤.

(٤) جامع أحاديث الشيعة، ج ١، باب ٤ من أبواب المقدمات، ح ٢٦.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٧٩

هل يمتلك الرسول صلى الله عليه وآله والمعصومون حق التشريع؟

إنّ مسألة الولاية على التشريع، أو بتعبير أبسط، حق التشريع بالنسبة للرسول صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام من المسائل المعقدة جدّاً، إذ تناولت الأحاديث الإسلامية هذه المسألة مراراً وتكراراً.

فهل يمتلك الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله الحق في أن يضع ما يراه من المصلحة على شكل قانون للمسلمين حتى مع عدم نزول الوحي الإلهي بشأن تلك المسألة؟

لا شك في أنّ هذا الأمر ليس محالاً، بشرط أن يمنحه الله تعالى مثل هذا الحق (أي حق التشريع)، ومفاد الكلام هنا هل وقع مثل هذا الأمر، وهل تشهد الأدلة النقلية على ذلك أم لا؟

لدينا الكثير من الروايات (بعضها صحيحة السند والبعض الآخر ضعيفة) إذ تقول: إنّ الله تبارك وتعالى قد «فوض الأمر» إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله والأوصياء من بعده (والمراد من مسألة «تفويض الأمر» هنا حق التشريع).

وقد جمع المرحوم الكليني الروايات المتعلقة بموضوع «التفويض» في الجزء الأول من أصول الكافي، وصنّفها في باب واحد، إذ ينقل في هذا الباب عشرة أحاديث في هذا المجال، ومن جملة هذه الأحاديث نقرأ في حديث عن الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام حيث قالوا: «إنّ الله تبارك وتعالى فوّض إلى نبيّه أمر خلقه لينظر كيف طاعتهم، ثمّ تلى هذه الآية: وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا» (١).

(١) أصول الكافي، ج ١، ص ٢٦٧، ح ٥.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٨٠

ونقرأ في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام:

(إنّ الله عزّ وجلّ أدب نبيّه على محبته فقال: وإنّك لعلّي خلق عظيم، ثمّ فوّض إليه فقال عزّ وجلّ: وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا، وقال عزّ وجلّ: من يطع الرسول فقد أطاع الله...» (١). فإذن، القرائن الموجودة في العبارات الواردة في هذا الحديث توضّح بشكل جلي ما المراد من التفويض.

وقد جاء في بعض هذه الروايات أنّه بعد هذا التفويض الإلهي، مارس الرسول صلى الله عليه وآله أمر التشريع وشرع بعض القوانين، منها: أن الله تبارك وتعالى جعل الصلاة ركعتين وأضاف الرسول صلى الله عليه وآله ركعتين أخريين عليهما (في صلوات الظهر والعصر والعشاء)، وركعة واحدة في المغرب، وتشريع الرسول صلى الله عليه وآله هذا ملازم للفريضة الإلهية والعمل به واجب، كما

أضاف صلى الله عليه وآله على ذلك (٣٤ ركعة أخرى (أى ضعف الفرائض) بعنوان صلاة النوافل، وأوجب الله تعالى صيام شهر رمضان المبارك، وقال الرسول صلى الله عليه وآله باستحباب صيام شهر شعبان وثلاثة أيام من كل شهر ... «٢».

ويلاحظ في أحاديث أخرى واردة في أمر تفويض التشريع إلى الرسول صلى الله عليه وآله، نماذج أخرى من تشريعات الرسول صلى الله عليه وآله «٣».

وفيما يتعلق بالمراد من «تفويض الأمر» هناك عدة احتمالات بخصوص هذه المسألة، منها:

١- تفويض أمر التشريع للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله كلياً.

٢- تشريع جزئى فى الموارد المحدودة، وفيها أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله قام بتشريع بعض الأحكام قبل نزول الأحكام الإلهية أو بعدها، وأمضاها الله تعالى.

٣- تفويض أمر الحكومة والتدبير والسياسة وتربية النفوس والمحافظة على النظام.

٤- تفويض أمر العطاء والمنع (فيعطى من بيت المال لمن يرى فيه الصلاح، ويمنع من لا

(١) أصول الكافي، ج ١، ص ٢٦٥، ح ١.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٦٦، ح ٤.

(٣) للمزيد من التوضيح ودراسة جميع روايات التفويض عليكم بمراجعة كتاب أنوار الفقاهة، ج ١، ص ٥٥٢.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٨١

يرى فيه الصلاح).

٥- التفويض فى بيان حقائق أسرار الأحكام، أى يبين للناس كل ما يرى فيه المصلحة من الأسرار والأحكام، ولا يفصح عما لا يرى فيه المصلحة.

والمعنى الثانى هو الاستفادة من مجموع الروايات الواردة فى باب التفويض، وهو أن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله قام بالتشريع فى موارد محدودة بإذن الله تعالى (ولعلها لم تتجاوز حدود العشرة موارد)، وأن الله تعالى قد أمضى هذا الأمر، وبعبارة أخرى، أن الله تعالى قد أعطاه هذه الصلاحية فى قيامه بالتشريع فى بعض الموارد، ومن ثم أمضاها الله تعالى.

ويستفاد أيضاً من هذه الروايات وبشكل جيد، أن الله تبارك وتعالى، قد أعطاه هذا المقام لعدة أسباب:

أولاً: لكى يبين عظمة مقامه ومنزلته وبأن تشريعاته من سنخ تشريعات الله تعالى.

والثانى: لكى يمتحن الناس ويرى مدى تسليمهم لأوامر النبى صلى الله عليه وآله.

والثالث: إن الله تعالى قد أيده بروح القدس، وأطلعه من خلال ذلك على أسرار الأحكام الإلهية.

ومن خلال ما ذكرنا، تتضح لنا عدة أمور:

١- يُستفاد من مجموع روايات التفويض، أن الله تبارك وتعالى أعطى رسول الإسلام صلى الله عليه وآله الولاية على التشريع إجمالاً، لكى يمتحن طاعة الخلق من جهة، ولتعظيم المقام الرفيع للرسول صلى الله عليه وآله وبين منزلته عند الله تعالى من جهة أخرى.

٢- إن هذا التفويض لا يتمتع بصفة الكلية والشمول، بل يتحقق فى موارد محدودة ومعدودة، ولهذا السبب كان الرسول صلى الله عليه وآله ينتظر نزول الوحي فى الأمور المهمة التى كان المسلمون يسألونه عنها غالباً، وهذا دليل على عدم شمول التفويض، وإلّا لما دعت الضرورة إلى أن ينتظر الرسول صلى الله عليه وآله نزول الوحي، بل كان بمقدوره أن يشرع أى قانون يراه، (فتأمل).

٣- هذا المقام الرفيع أعطى له صلى الله عليه وآله بإذن الله تعالى، وإضافة لذلك فإن بعض القوانين التى شرعها الرسول صلى الله عليه وآله، أمضاها الله سبحانه وأقرها، وبناءً على ذلك فلا دليل على تعدد الشارع

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٨٢

والمشروع إطلاقاً، بل إنَّ تشريع النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يُعَدُّ أيضاً فرعاً من تشريع الله تعالى.

٤- هذا المقام الرفيع والسامى تحقق للنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بعد النَّبُوَّةِ وبعد أن صار مؤيداً بروح القدس، وكان معصوماً، ولم يطرأ على فعله أى خطأ أو زلل، وبناءً على ذلك فالذين لا يتمتعون بهذه الشروط لن تتحقق لهم مثل هذه المنزلة الرفيعة.

٥- بالرغم من أن الأئمة المعصومين عليهم السلام كانوا مؤيدين بروح القدس، ولم يصدر عنهم أى خطأ أو انحراف إطلاقاً، إلا أنهم لم يصدروا تشريعاً جديداً، لأنه بعد إكمال الدين وإتمام النعمة الإلهية، فإنَّ جميع الأحكام التي تحتاجها الأمة إلى يوم القيامة وطبقاً للروايات الكثيرة التي قد تصل إلى حد التواتر، قد تمَّ تشريعها ولم يبق مجال لأى تشريع جديد، وبناءً على ذلك فإنَّ واجب الأئمة المعصومين عليهم السلام إقتصر على توضيح وتبيين الأحكام التي وصلت إليهم عن الرسول الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ سواء بدون واسطة أو بالواسطة.

سؤال:

هل من الممكن أن يُقال أنه يُستفاد من بعض الروايات، أن أمير المؤمنين عليه السلام فرض الزكاة على الخيل فكان ذلك تشريعاً جديداً حيث وردت رواية بأنَّ الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام قالوا: «وَضَعَ أمير المؤمنين عَلَى الْخَيْلِ الْعِتَاقِ الزَّاعِيَةَ فِي كُلِّ فَرَسٍ فِي كُلِّ عَامٍ دِينَارَيْنِ وَعَلَى الْبَرَادِيزِ دِينَاراً» (١).

وجاء أيضاً فى رواية على بن مهزيار أن الإمام الجواد عليه السلام عندما جاء إلى بغداد فى عام ٢٢٠ هـ، فرض خُمساً آخر غير الخُمس الواجب المتعارف عليه فى قسم عظيم من الأموال، ولمرة واحدة فقط (٢).

وكلا- الحديثين معتبران من حيث السند، وبناءً على ذلك لا بدَّ من القول: إنَّ الأئمة المعصومين عليهم السلام كانوا يمتلكون حق التشريع أيضاً.

(١) الخلاف، ج ٢، ص ٥٥.

(٢) وسائل الشيعة، ج ٦، أبواب ما يجب فيه الخمس، الباب ٨، ح ٥.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٨٣

الجواب:

إنَّ الأحكام الكليَّة فى التشريع تختلف عن الأحكام التنفيذية للحاكم، فالأحكام الكليَّة هى نفس القوانين الثابتة والمستمرة التى تبقى قائمة فى كل عصر ومكان إلى يوم القيامة، إلا أنَّ الأحكام الصادرة عن الحاكم الشرعى هى التى تصدر بسبب الأمور الضرورية وأمثالها وبشكل مؤقت (مثل حكم تحريم التباكو الذى صدر فى فترة محدَّدة لغرض محاربة الاستعمار الاقتصادى الإنجليزى من قبل مرجع كبير ثم رفع بعد انتهاء الخطر).

ويستفاد من القرائن الواردة فى رواية الإمام الجواد عليه السلام وبشكل واضح، أنه عليه السلام لما جاء إلى بغداد كان الشيعة يعانون الفاقة والضعف، وقد أقرَّ الإمام تعدد الخمس فى تلك السنة لغرض حل هذه المشكلة بشكل خاص، والواقع أنه عليه السلام طبق أحكام العناوين الثانوية والضرورية على إحدى مصاديقها، بدون أن يمثل ذلك تشريعاً جديداً.

ويمكن أن يكون حكم الزكاة الوارد فى رواية الإمام أمير المؤمنين عليه السلام من هذا النوع أيضاً، ولذا فإنَّ هذا الحكم محدود بذلك الزمان فقط، ولم ينظر إليه الفقهاء كتشريع عام ولم يصدروا فتاواهم طبقاً لتلك الفتوى، (فتأمل).

٦- ممَّا ورد فى البند الخامس يتضح لنا أنَّ غير الأئمة المعصومين عليهم السلام لا أحد يملك حق تشريع القوانين الكليَّة الإلهية بطريق أولى لأنه باختتام النبوة وارتحال النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وإكمال الدين وإتمام النعمة، لم يبق مجال لتشريع الآخرين من جهة، وأنَّ

جميع الأحكام الإلهية الكلية التي يحتاجها الإنسان إلى يوم القيامة تمّ تبيينها طبقاً للكثير من الآيات القرآنية والروايات الواردة بذلك الشأن، ومن جهة أخرى فإنّ غيرهم من الناس ليسوا معصومين وغير مؤيدين بروح القدس لكي يثبت لهم مثل هذا الحق، خاصة وقد اعتبرت الروايات السابقة هذا المعنى شرطاً للحاكمية على التشريع.

٧- لا بدّ من الالتفات إلى أن البعض من روايات التفويض، لم تنظر إلى مسألة تشريع الأحكام، بل تناولت تسليمهم أمر الحكومة والولاية، أو تسليمهم بيت المال.

٨- تعتقد طائفة من علماء السنة بتفويض تشريع الأحكام إلى الفقهاء في ما لا نصّ فيه،

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٨٤

وتوضيح ذلك: يقسم علماء السنة المسائل إلى قسمين: مافيه نصّ (في القرآن والسنة) وما لا نصّ فيه.

وفيما يتعلق بالقسم الأول يعتقدون جميعاً بوجوب العمل بالأوامر والنصوص، وفي القسم الثاني يعتقد الكثير منهم بوجوب الذهاب إلى القياس أولاً، بمعنى قياس تلك المسألة التي لم يرد فيها نصّ مع المسائل التي ورد فيها حكم معين، والإفتاء بحكم شبيه بذلك الحكم لتلك المسألة، وبغير ذلك فإنّ علماء الدين مكلفون بدراسة مصلحة ومفسدة ذلك الأمر، ثم وضع حكم مناسب حسب ما هو أفضل وأقوى برأيهم، ويجب على أتباعهم القبول بذلك الحكم، والعمل به كحكم إلهي.

وهذا ما يصطلحون عليه أحياناً بـ «الإجتهد» (طبعاً الإجتهد بمعناه الخاص، وليس الإجتهد بمعنى استنباط الأحكام من الأدلة الشرعية)، وأحياناً يصطلحون عليه بكلمة «التصويب»، ويقولون إنّ ما يضعه الفقيه في هذه الموارد على شكل قانون يحظى بتصويب الله تعالى! ولو وضع فقهاء مختلفون أحكاماً متعددة ومختلفة، فإنّها جميعاً تحظى بالقبول بعنوان حكم إلهي!

وبهذا الشكل فإنّهم يعطون للفقهاء حقّ في التشريع في الموارد التي لم يرد بشأنها نصّ أو دليل خاص.

إلا أنّ فقهاء الشيعة السائرون على مذهب أهل البيت عليهم السلام يخالفون هذا الكلام جملة وتفصيلاً، ويقولون: إنّ جميع الأحكام التي يحتاجها الإنسان إلى يوم القيامة وردت في الشريعة الإسلامية ولم يبق شيء لم يُذكر له حكم لكي يقوم أحدٌ بتشريع قانونٍ ما، ولكن البعض من هذه الأحكام وردت بشكل صريح في القرآن الكريم أو السنة النبوية الشريفة، أو سنة الأئمة المعصومين عليهم السلام، والبعض منها ورد بشكل القواعد الكلية والأصول العامة، أو بعبارة أخرى إنّ في «العمومات» و «الإطلاقات» أدلة أولية وثانوية، بحيث إنّ لكل موضوع من المواضيع، هناك حكم ثابت له، سواء كان هذا الحكم حكماً واقعياً تارةً أو حكماً ظاهرياً تارةً أخرى.

وبناءً على ذلك لا وجود لشيء باسم الإجتهد (بالمعنى الخاص) أو القياس أو ما لا نصّ

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٨٥

فيه فمسؤولية الفقهاء تقتصر على تطبيق الأحكام الكلية على مصاديقها فقط.

ويتضح لنا ممّا تقدم ذكره أنّ «التشريع» في المجالس التشريعية لا يعنى في عرف مذهب أهل البيت عليهم السلام وضع أحكام جديدة بشأن المسائل التي يواجهها الإنسان، بل المراد به تطبيق الأصول على الفروع أو تشخيص الموضوعات المختلفة بمعنى التشريع الموضوعي.

وخلاصة القول: إنّ مجالس التشريع في مذهب الشيعة، ليست بمعنى وضع الأحكام الكلية ازاء أحكام الإسلام، أو بدل ما لا نصّ فيه، والمسألة هي من قبيل تطبيق الأحكام، أو التشريع الموضوعي، ولهذا السبب وُضع «مجلس صيانة الدستور» إلى جانب المجلس التشريعي، لكي يُشرف عليه جمّع من الفقهاء ويتأكدوا من أنّ القوانين الموضوعية غير مخالفة لأحكام الإسلام.

وحتى مجلس «تشخيص المصلحة» الذي أقرّ مؤخراً في الدستور، هو الآخر مسؤول عن تشخيص الموضوع أيضاً، وليس جعل القانون. وبعبارة أوضح: إنّ أحد العناوين الثانوية هو عنوان الأهم والمهم، يعنى متى ما تعارضت مسألتان شرعيتان مع بعضهما، كما هو الحال مثلاً في المحافظة على أموال الناس وعدم التصرف بها إلا بإذن صاحبها مع مسألة الحاجة الملحة لفتح شارع في المدينة أو طريق في

الصحراء، فمن جهة تعتبر مسألة المحافظة على النظام في المجتمع الإسلامي واجبة، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا بشق الطرق الضرورية، ومن جهة أخرى فإن المحافظة على أموال الناس أمر واجب، ففي هذه الحالات يجب تقديم الأهم على المهم، وأن تُمنح الإجازة بفتح هذه الطرق، مع دفع الأضرار والخسائر الناجمة عن ذلك إلى مالكي تلك الأراضي.

وكذلك الحال فيما يتعلق بمسألة وضع الأسعار على المواد المختلفة، فالقانون الإسلامي أساساً، يقول بحرية الأسعار والتسعيرة، ولكن في الحالات التي تصبح فيها هذه الحرية سبباً لاستغلال الانتهازيين والجشعين الذين يجعلون المجتمع في وضع حرج بحيث تتوقف معها مسألة المحافظة على النظام الاقتصادي في المجتمع على تحديد

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٨٦

الأسعار، فمما لا شك فيه أن مسألة المحافظة على النظام مرجحة، ومن الممكن هنا القيام بإصدار قانون لتحديد الأسعار، وتكليف الحكومة الإسلامية بتنفيذه.

وعلى مجلس تشخيص المصلحة في هذه الموارد، اختيار الأهم من خلال دراسته الدقيقة للأمر، لكي تقوم الحكومة الإسلامية بتنفيذ القانون، بالضبط كما هو معروف أن المحافظة على النفس واجبة وأكل اللحم الحرام ممنوع، ولكن في موارد خاصية عندما ينحصر فيها حفظ النفس على الاستفادة من اللحم الحرام فقط، نسمح بذلك ونعتبره أمراً مجازاً، وذلك لأن أهمية حفظ النسل أكبر وأهم من ذلك.

وبناءً على هذا المفهوم فإن (مجلس تشخيص المصلحة) يختلف كثيراً عن الإجتهد والإستحسان والمصالح المرسله الشائعه بين علماء السنه، إذ يدور الأمر هنا بين تعارض وتضاد حكيمين، فتصبح مسألة تشخيص المصلحة هي الأهم، في حين أن الذي يحصل هناك عبارة عن وضع حكم معين لموضوع يعتقد بعدم وجود حكم معين له، (فتأمل).

ومن مجموع ما ذكرنا نستنتج أن المجلس التشريعي يعد أحد أركان الحكومة الإسلامية، ذلك أنه في كل زمان ومكان وفي كل مرحلة معينة تبرز مجموعة من المتطلبات والمسائل المستحدثة التي تستوجب تحديد القانون الخاص بها بشكل دقيق، ولكن التشريع هنا يعني التخطيط وتطبيق الأصول على الفروع، واستخراج الفروع من القوانين الكلية وتشخيص المواضيع بشكل دقيق.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٨٧

مجلس الشورى وانتخاب النواب

إشارة

يجب علينا هنا أن نبحت أولاً مسألة أهمية الشورى في الإسلام، ومواردها، وصفات الذين ينبغي أن نستشيرهم.

أهمية وضورة المشورة:

تعد مسألة المشاورة وخاصة في الأمور الاجتماعية وما يتعلق بمستقبل المجتمع من أهم المسائل التي عرضها الإسلام بدقته وأهميته خاصة، ولها مكانة متميزة في آيات القرآن الكريم والروايات الإسلامية وتاريخ أئمة الإسلام العظام.

وقد جاء الأمر بالمشورة في عدة آيات من القرآن الكريم.

ففي سورة آل عمران أمر الله تعالى رسوله الكريم صلى الله عليه وآله، بأن يشاور المسلمين في الأمور المهمة وهو قوله تعالى:

«وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ». (آل عمران / ١٠٩)

وفي سورة الشورى، وعند بيان الأوصاف المتميزة للمؤمنين حقاً يقول تعالى: «وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ». (الشورى / ٣٨)

وكما تلاحظون في هذه الآية، أن مسألة الشورى هي بمستوى الإيمان بالله تعالى والصلاة، إذ يبين ذلك أهميتها الاستثنائية. ويُقال أحياناً إن السبب في صدور الأمر إلى الرسول صلى الله عليه وآله بمشاركة الناس كان لغرض احترام المسلمين وإشراكهم في المسائل الاجتماعية فقط، ذلك أن الذي يعزم على الأمور في نهاية المطاف هو شخص الرسول صلى الله عليه وآله وليس الشورى، وهذا هو قوله تعالى في نهاية الآية الكريمة: «فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ». (آل عمران / ١٥٩)

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٨٨

ولكن من المسلم به أن المراد من الآية الكريمة لاسيما نهايتها ليس المقصود به أن يقوم الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله بمشاركة الناس ومن ثم لا يأخذ بوجهات نظرهم وآرائهم، ويختار طريقاً آخر، فمثل هذا الأسلوب لا ينسجم، من جهة، مع الهدف الذي تقصده الآية (لأنه سيصبح سبباً لعدم احترام الرأي العام، ويؤدى بالتالى إلى انزعاج المسلمين وترتب نتائج عكسية)، ولا ينسجم من جهة أخرى مع تاريخ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أيضاً، لأنه صلى الله عليه وآله عندما كان يشاور الناس في الحوادث والملمات المهمة، فإنه كان يحترم آراء الناس، حتى أنه كان يتجاهل أحياناً وجهة نظره الكريمة، بهدف تقوية ودعم مبدأ المشاورة بينهم. وتجدر الإشارة إلى أن آية المشاورة ونظراً للآيات الواردة قبلها وبعدها، يُراد بها غزوة «الحُد»، ونعلم أنه في غزوة الحُد، لم يكن الرسول صلى الله عليه وآله موافقاً على الخروج بالجيش من المدينة، ولكن بما أن أكثرية آراء المسلمين استقرت على هذا الأمر، فقد وافق صلى الله عليه وآله على الخروج «١».

وعلى فرض أن هذه الآية تعطى هذه المزية للرسول صلى الله عليه وآله بأن تكون مشاورته للناس ذات جنبه تشريفي، إلا أن الآية الواردة في «سورة الشورى» والتي توضح القانون العام للمسلمين بشكل واضح وجلى، تؤكد على أن الأمور المهمة يجب أن تُنجز من خلال الشورى بين المسلمين، وأن الشورى تلعب دوراً مصيرياً.

ومن البديهي أن العمل بالشورى يكون في المسائل التي لم ينزل بها حكم خاص من قبل الله تعالى، وعندما نقول: إن الشورى في مسألة خلافة الرسول صلى الله عليه وآله لا اعتبار لها، بسبب وجود أمر خاص من قبل الله تعالى في هذا المجال، ومع تعيين الوصى وخليفة الرسول صلى الله عليه وآله عن طريق الوحي ومن خلال شخص رسول الإسلام صلى الله عليه وآله، لم يبق مجالاً للشورى بعد ذلك.

وبعبارة أخرى، إن الشورى يُعمل بها دائماً في المواضيع، وليس في الأحكام التي صدر حكمها من قبل الله تعالى. وعلى أية حال فإن مسألة الشورى التي ذكرت في الإطار المبين أعلاه، تُعدّ ركناً ومبدأً

(١) كتاب سيد المرسلين، ج ٢، ص ١٤٢.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٨٩

أساسياً في الإسلام، إذ إن التعبير بكلمة «أمر» إشارة إلى الأمور المهمة، وخاصة المسائل التي يحتاجها المجتمع، ويحمل هذا المصطلح مفهوماً واسعاً لدرجةٍ يشمل معها جميع الأمور السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية المهمة.

وقد صدر الأمر بالشورى في القرآن الكريم كذلك في الأمور المهمة المتعلقة بنظام الأسرة (المجتمع المصغر، ومن ذلك فطام الطفل قبل بلوغ الحولين الكاملين إذ يشير إلى مبدأ الشورى، وهو قوله تعالى: «فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا».

(البقرة / ٢٣٣)

وهذا دليل على الأهمية البالغة للشورى في الأمور.

أهمية الشورى في الأحاديث الإسلامية:

لقد ذكرت أهمية استثنائية للشورى في الأحاديث الإسلامية، سواءً تلك التي نقلت عن شخص الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، أو عن الأئمة المعصومين عليهم السلام، لدرجةٍ اعتُبرت معها مسألة الشورى في الحديث النبوي الشريف إحدى أسباب إحياء المجتمع، وتركها يُشكل إحدى أسباب موت المجتمع إذ قال صلى الله عليه وآله:

«إِذَا كَانَ أَمْرًاؤُكُمْ خِيَارَكُمْ وَأَعْنِيَاؤُكُمْ سَمِحَاؤُكُمْ وَأَمْرُكُمْ سُورَى بَيْنَكُمْ فَظَهَرُ الْأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ بَطْنِهَا، وَإِذَا كَانَ أَمْرًاؤُكُمْ شَتْرَارَكُمْ وَأَعْنِيَاؤُكُمْ بُحْلَاؤُكُمْ وَلَمْ يَكُنْ أَمْرُكُمْ سُورَى بَيْنَكُمْ فَبَطْنُ الْأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ ظَهْرِهَا» (١).

وبلغت أهمية الشورى إلى درجة أن قال عنها الإمام علي عليه السلام:

«الِإِسْتِشَارَةُ عَيْنُ الْهَدَايَةِ، وَقَدْ خَاطَرَ مَنْ اسْتَعْنَى بِرَأْيِهِ» (٢).

ونقرأ في حديث آخر عن الإمام علي عليه السلام أيضاً أنه قال:

(١) تحف العقول، باب الأحاديث القصيرة للنبي صلى الله عليه وآله، ح ١٣.

(٢) بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٤٢، ح ١٠.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٩٠

«لَا يَسْتَعْنَى الْعَاقِلُ عَنِ الْمَشَاوَرَةِ» (١).

والسبب في ذلك واضح أيضاً، وجاء ذلك في تعبير جميل ورد في بعض الروايات عن الإمام علي عليه السلام في هذا المجال إذ قال:

«حَقَّ عَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يُضِيفَ إِلَى رَأْيِهِ رَأْيَ الْعُقَلَاءِ وَيُضَمَّ إِلَى عِلْمِهِ عُلُومَ الْحَكَمَاءِ» (٢).

وجاء في حديث آخر أيضاً عن الإمام علي عليه السلام أنه قال:

«مَنْ شَاوَرَ ذَوِي الْعُقُولِ اسْتِضَاءً بِأَنْوَارِ الْعُقُولِ» (٣).

وبناءً على ذلك، فالمشاورة هي السبب في إضافة عقول الآخرين وعلومهم وتجاربهم إلى عقل المرء وعلمه وتجربته، إذ إن الإنسان في

هذه الحالة قليلاً ما يقع في الخطأ والانحراف. والاحاديث الواردة في هذا المجال كثيرة جداً، ونختتم هذا البحث المختصر بحديث

آخر عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وحديث عن الإمام علي عليه السلام.

قال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله:

«لَا مَظَاهِرَةَ أَوْثَقُ مِنَ الْمَشَاوَرَةِ» (٤).

وقال الإمام علي عليه السلام:

«شَاوَرَ ذَوِي الْعُقُولِ تَأْمَنُ مِنَ الزَّلَلِ وَالنَّدَمِ» (٥).

وهناك ملاحظة أخرى جديرة بالإشارة إليها، إذ ليس من الضروري أن يكون مستوى الذين نشاورهم أرفع درجةً من المشاورين

أنفسهم، والدليل على ذلك مشاورة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله لأصحابه، ولربما نجد أفراداً بسطاء يمتلكون من العقل والفتنة

الفطرية ما يجعل مشاورتهم تحل الكثير من المعضلات، كما ورد ذلك في حديث عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، إنه

دار الحديث ذات مرةً في مجلسه عليه السلام عن أبيه المعصوم عليه السلام فقال: «إِنَّ اللَّهَ

(١) غرر الحكم.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٠٠.

(٥) غرر الحكم.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٩١

تبارك وتعالى ربّما فتح على لسانه» (١).

ونختتم الحديث حول أهميّة المشاورة بأبيات من الشعر الحسن لأحد الشعراء العرب إذ يقول:

أقرن برأيك رأى غيرك واشتشر فالحق لا يخفى على الإثنيين

للمرء مرآة تريه وجهه ويرى قفاهُ بجمع مرآتين

أى أن المرآة الواحدة تريه جانباً منه، فإذا أراد أن يرى جوانب متعددة فعليه بمرآتين.

صفات المستشارين:

مِمَّا لا شك فيه أنّ الطرف الذى يشاوره الإنسان، وخاصةً فى الأمور المهمّة والمسائل الاجتماعية الحساسة، لا يمكن أن يكون أى شخص كان، بل يجب أن يمتلك صفات خاصة تجعله فرداً صالحاً للمشورة، ولهذا السبب نجد الروايات الإسلامية وصفت مجموعة من الناس بأنهم «أفراد جديرون بالمشورة» ومجموعة أخرى بأنهم «غير جديرين».

ويقول الإمام الصادق عليه السلام فى حديث مروى عنه:

«إن المشورة لا- تكون إلاّ بحدودها الأربعة... فأولها أن يكون الذى تشاوره عاقلاً، والثانى أن يكون حُرّاً متديناً، والثالث أن يكون صديقاً مؤاخياً، والرابع أن تطلعه على سرّك فىكون علمه به كعلمك...» (٢).

ونظالغ فى حديث آخر عن الإمام على عليه السلام أنّه قال:

«خير ما شاورت ذووا النهى والعلمِ واولوا التجاربِ والحزمِ» (٣).

وورد فى النقطة المقابلة لهذا المعنى، نهى شديد عن المشورة مع الأفراد «البخلاء» و «الجبناء» و «الحريصين» و «الحمقى»، إذ قال النبى الأكرم صلى الله عليه وآله للإمام على عليه السلام:

«يا على لا تشاور جبناً فإنّه يضيق عليك المخرج، ولا تشاور البخيل فإنّه يقصّر بك عن

(١) ميزان الحكمة، ج ٥، ص ٢١١.

(٢) ميزان الحكمة، ج ٥، ص ٣١٨.

(٣) غرر الحكم.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٩٢

غايترك، ولا تشاور حريصاً فإنّه يزيّن لك شرها» (١).

كما ورد النهى فى الروايات أيضاً عن مشاورة الأفراد الحمقى والجهلاء والكذابين.

ويستفاد ممّا تقدم أنّ المستشارين - وخاصةً فى الأمور المهمّة - يجب أن يكونوا من الأذكياء، والعقلاء، والمحسنين، وذوى التجربة،

والصادقين، والأمناء، والشجعان والأسخياء، وإن فقدان أو زوال كل واحدة من هذه الصفات يوجب وهن وتخلخل أركان واسس المشاورة.

وعلى سبيل المثال، عندما يكون المستشار فرداً أحمقاً وجاهلاً، فإنه سيقبل الحقائق للإنسان، وبالشكل الذي ورد ذكره في الأحاديث، فإذا أراد أن يحسن إليك فسوف ينقلب عليك شراً! ولو كان جباناً فإنه سيحول دون الإقدام المناسب والحزم في الأمور، فتذهب تلك الفرصة السانحة، ولو كان كذاباً- وكما تعبر الروايات عنه- يقرب إليك البعيد، ويبعد عنك القريب ويشبه في ذلك السراب الذي يخدع العطاشى فى الصحراء، ولو كان بخيلاً يحول دون أعمال الخير ويخوفك دائماً من الفقر وعسر الحال، ولو كان قليل التجارب أو عديمها، فإنه سيؤدى إلى العبث وإفشال البرامج والمناهج البناءة، ولو كان حريصاً فإنه سيدعوك إلى ممارسة الظلم والعدوان لكى يطفىء بذلك نار الحرص «٢».

ومن خلال ما تقدم ذكره من الملاحظات يجب أن نتوخى الحذر الشديد فى اختيار من نستشيرهم، وخاصة فى المسائل الاجتماعية المهمة التى تأخذ بنظر الاعتبار حقوق الآخرين، وأن تؤخذ المعايير الآتية الذكر بنظر الاعتبار بشكل دقيق. وهناك ملاحظة أخرى جديرة بالذكر أيضاً، إذ إن المشاورة فى الإسلام تؤدى إلى إيجاد الحق بمعنى أن الشخص المستشار إما أن لا يقبل المشاورة، أو يقبلها ولكن بشرط أن يراعى حق أداء الأمانة فى ذلك، وأن يجعل بين يدي من استشاره ما يرى فيه الخير والصالح، وبغير ذلك فإنه يعد «خائناً!»، والخيانة فى المشاورة تعد من كبائر الذنوب.

(١) بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ٣٤.

(٢) إن جميع ما ذكر أعلاه تقريباً ورد فى الروايات المختلفة.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٩٣

ونقرأ فى حديث ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله:

«إن استشاره أخوه المؤمن فلم يمخضه النصيحة سلب الله لُبَّهُ» (١).

وورد فى حديث آخر عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «خيانة المستسلم والمستشير من أفضح الأمور وأعظم الشرور وموجب عذاب السعير!» (٢).

إن الحديث عن المشاورة وفروعها وما يتعلق بها واسع جداً، وما ذكرناه يعدّ غيضاً من فيض وعصاره من هذه الأبحاث التى تساعد على فتح الطريق أمام الأبحاث اللاحقة.

ونختتم بحثنا هذا بمقطع جميل آخر من الشعر الذى يتناول صفات المستشارين:

لا تستشر غير ندبٍ حازمٍ فطنٍ قد استوى منه اسرار واعلان

فللتدابير فرسان إذا ركظوا فيها أبروا كما للحرب فرسان «٣»

(١) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ١٠٤.

(٢) غرر الحكم.

(٣) حياة الحيوان، الدميرى، ج ١، ص ١٧٣. نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٩٥

إشارة

هناك سؤال مهم يطرح نفسه وهو: إننا موافقون على أن مسألة الشورى والمشاورة تعدّ من أهمّ القوانين الإسلامية الأساسية، ولكن الطريقة المتبعة حالياً في انتخاب مجموعة من الأفراد، الذين يجتمعون في مجلس معين مثل «مجلس الشورى الإسلامى»، وتتم إدارة جلساته طبقاً لقانون خاص بهذا المجلس، ويتناولون فيه القضايا المختلفة بالبحث والدراسة والمشاورة، ومن ثم يصوّتون على تلك الأمور بأكثرية الآراء، وتصبح تلك القرارات لازمة التنفيذ، فما هو الدليل الشرعى على صحة هذا الأسلوب فى الشورى؟!

وبعبارة أخرى: إن مثل هذه المراسيم والإجراءات المعمول بها فى المجالس التشريعية الفعلية، لم ترد فى أية آية أو رواية أو سند تاريخى، فكيف نثبت شرعيتها ولزوم الالتزام بلوازمها؟ فى الوقت الذى يشكّل فيه مجلس الشورى فى عصرنا هذا واحداً من الأركان الأساسية الثلاثة للحكومة الإسلامية، بلوائحه الداخلية وآدابه وتقاليده الخاصة به.

ويلاحظ هذا المعنى أيضاً فى إقرار اللوائح فى المستويات الأدنى، وعلى مستوى مجالس الوزراء والمسؤولين عن المسائل الاقتصادية والثقافية والسياسية والعسكرية.

وفى معرض الإجابة عن هذا السؤال المهم لا بدّ أن نقول وباختصار: إن مجلس الشورى الحالى يمثل فى الواقع نفس «الصورة المتبلورة للمشورة» التى وردت فى تعاليم الدين الإسلامى.

وتوضيح ذلك: إنّه من الأفضل فى المسائل الاجتماعية المتعلقة بالبلاد، التشاور مع

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٩٦

جميع الناس وفى جميع أنحاء البلاد، ولكن بما أن مثل هذا الأسلوب غير ممكن عملياً، وفضلاً عن أن جميع الناس لا يملكون الخبرة اللازمة فى جميع المسائل، فلذلك لا- يوجد أى حلّ آخر لهذه المسائل سوى أن يُصار إلى انتخاب النواب من قبل الناس لكى يتشاوروا فيما بينهم، وما يختاره هؤلاء النواب- حيث يمثل حضورهم فى ذلك المجلس حضور جميع الناس- ويصادقون عليه، يعدّ مصداقاً كاملاً وجامعاً للشورى الإسلامية الحقيقية.

وبما أن اتفاق جميع الآراء فى أغلب المسائل لا- يتحقق عادةً، فلا- يوجد حلّ لذلك إلّا من خلال رأى الأكثرية كميّار ومقياس لذلك، والذى غالباً ما يكون أقرب إلى الواقع.

والأكثرية هنا طبعاً هى الأكثرية المتشكلة من الأفراد المؤمنين والواعين، سيّما وأنّ افتراضنا مبنى على أن الناس وبحكم تكليفهم الدينى ينتخبون ممثليهم من الأفراد الذين يمتلكون الصفات اللازمة لهذا الأمر.

وبناءً على ذلك فإنّ ما يقال إنّ القرآن الكريم يذم الأكثرية فى كثير من الموارد، لا يشمل الموضوع الذى نتحدث عنه قطعاً، إذ إنّ الأكثرية المقصودة فى قوله تعالى: «أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ». (المائدة/ ١٠٣)

وقوله تعالى «أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ». (الأنعام/ ٣٧)

وقوله تعالى: «أَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ». (التوبة/ ٨)

وقوله تعالى: «أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ». (المؤمنون/ ٧٠)

وأمثالها نازرة إلى الأكثرية فى المجتمعات المنحرفة والضالّة لا الأكثرية المؤمنة والعالمة والملتزمة.

إنّ هذه الضمائر وبقرينة ما جاء قبلها، تعود جميعاً إلى المشركين والجهلاء والمتعصبين وغير الملتزمين، إذ لم يصرح القرآن أبداً بأن:

«أكثر المؤمنين أو أكثر المتقين لا- يعلمون ولا- يفقهون»، ولهذا السبب فإننا نقرأ فى علم الاصول فى باب «التعادل والتراجيح» عندما

يدور الحديث حول الروايات المتعارضة: إنّ الشهرة بين الفقهاء هى إحدى المرجّحات، والمشهور هو نفس الاستناد إلى قول أكثرية

الفقهاء، وقد ورد فى الحديث: «خُذْ بِمَا اسْتَهَرَّ

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٩٧

بَيْنَ أَصْحَابِكَ وَدَعِ الشَّاذَّ النَّادِرَ، فَإِنَّ الْمُجْمَعِ عَلَيْهِ لَا رَيْبَ فِيهِ» (١).

بل ويستفاد من تاريخ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه كان يحترم رأى الأكثرية من المسلمين فى موارد المشاورة، بالرغم من كونه صلى الله عليه وآله يمثل العقل الكلى.

ويتضح ذلك فى معركة أُحُد عندما شاور المسلمين بخصوص مسألة البقاء داخل المدينة أو الخروج منها وخوض الحرب خارجها، فلما رأى إجماع أكثرية المسلمين على تأييد النظرية الثانية، قبلها وعمل بها، حتى إنه صلى الله عليه وآله لم يعتن برأيه الشخصى المؤيد للأقلية.

فأعطى بذلك أكبر درس فى تاريخ الإسلام بشأن مسألة الشورى (٢). وكما هو معلوم لدينا أن نتيجة هذا الأمر لم تكن إيجابية تماماً، ولكن بالرغم من ذلك فإن فوائد احترام الشورى كانت أكثر بكثير من الخسائر الفادحة لمعركة أُحُد! (فتأمل).

وحصل ما يشبه هذا الأمر أيضاً فى معركة «الخنديق»، فقد جاء فى (مغازى الواقدى) أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله كان يشاور أصحابه كثيراً فى المسائل والامور العسكرية والحربية، ومن ذلك أنه قال صلى الله عليه وآله لأصحابه قبل وقوع معركة الخندق: هل نغادر المدينة ونقاتل جيش المشركين، أم نبقى فى المدينة ونحفر خندقاً حول المدينة، أم نكون على مقربة من المدينة ونجعل الجبل خلفنا؟! وعندها اختلف أصحاب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حول هذه المسألة ...

فرأى جمع من أصحابه أن يخرج النبي صلى الله عليه وآله خارج المدينة، ولكن سلمان قال: كُنَّا إِذَا دَاهَمَنَا فِرْسَانُ الْعَدُوِّ وَخَشِينَاهُمْ، نَحْفِرُ الْخَنْدِيقَ حَوْلَ الْمَدِينَةِ، فَهَلْ تَجِيزُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ نَحْفِرَ خَنْدِيقًا حَوْلَ الْمَدِينَةِ؟ فنالت وجهه نظر سلمان قبول (أكثر) المسلمين (ورجّحوا حفر الخندق وقبل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بهذا الرأى) (٣).

ونكرر القول مرّة أخرى أنه فى عملية الشورى عندما تتعرض مجموعة ما للقيام بمسألة الشورى وخاصة فى المسائل الاجتماعية المهمة - فقلماً يحصل الإجماع على رأى واحد، ولو أهملت الأكثرية ولم يؤخذ بها، لن ينجز أى عمل على الإطلاق.

(١) وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٧٥، الباب ٩ من أبواب صفات القاضى، ح ١،

(٢) سيرة ابن هشام، ج ٣، ص ٦٦.

(٣) مغازى الواقدى، ج ١، ص ٤٤٤ (مع التلخيص).

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٩٨

ومن اللازم أن نذكر الملاحظة التالية أيضاً، وهى أن مسألة الشورى والمشاورة، قبل أن يقرها الدين الإسلامى كانت متداولة بين سائر العقلاء فى العالم أيضاً، وقد أقرها الدين الإسلامى - مع إضافة بعض الشروط المهمة إليها - حيث إن الأمر بين سائر العقلاء فى العالم يستند إلى أن المعيار هو رأى الأكثرية، هذا فيما يتعلق برأى الأكثرية.

وأما اللوائح المعمول بها فى المجالس التشريعية لأسلوب إدارة تلك المجالس وكيفية أخذ الآراء، فهى موضوعة أيضاً على أساس تصويت ذلك المجلس وعن طريق تلك الشورى.

وبناءً على ذلك فإن مجالس التشريع الإسلامى، بجميع التشريعات المتبعة فى أمر الانتخابات، والمنتخبين، وإدارة الجلسات، وكيفية مناقشة المسائل، وتقسيمها إلى مسائل فورية وغير فورية، وأمثلة ذلك، فإنها تمثل نفس «الشكل المنظم لقاعدة الشورى التى ينظر إليها الإسلام باعتبارها إحدى الثوابت الأساسية، إذ يمكن مطابقتها جميع تلك الممارسات مع هذه القاعدة.

ومن البديهي أنه متى ما انحرف أحد المجالس عن نظرية الشورى الإسلامىة من حيث مواصفات المشاورين أو الامور الاخرى ويُصار إلى انتخاب أفراد غير واعين أو غير ملتزمين، أو يتحول المحيط الحر لابتداء الرأى إلى جو من الضغوط، أو يتم اقرار شىء ما خلافاً

للقوانين الإسلامية والضوابط الدينية المسلم بها، فإنّ هذا المجلس سوف لن يكون مجلساً إسلامياً للشورى ولن ندافع عنه إطلاقاً.

المسؤولية الرئيسية لمجلس التشريع الإسلامي:

إنّ تعبير «السلطة المقننة» أو «المجلس التشريعي»- المقتبس من الأجانب- يؤدّي أحياناً إلى أن يتداعى إلى الذهن بأنّ المراد به قيام ممثلي الشعب في هذا المجلس بوضع القوانين، أي قيامهم بتشريع الحلال والحرام، في حين أنّ الأمر ليس كذلك، إذ كما أشرنا إلى ذلك في بحوثنا السابقة أنّ العمل الرئيسي للممثلين في هكذا مجلس هو تطبيق الأحكام

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٩٩

الكلية على المصاديق، والفهم الموضوعي للأمر، أي ينبغي عليهم الجلوس والتشاور لتحديد المواضيع المعقدة التي يحتاجها المجتمع، بهدف تطبيق الأحكام الإسلامية عليها.

وعلى سبيل المثال، يعدّ الدفاع عن دولة الإسلام ضد الغزو الاجنبي وقتالهم أمراً واجباً، كما أن عقد الصلح معهم في ظروف خاصة يؤدّي إلى تعزيز وتقوية دعائم الإسلام وردّ كيدهم وشّرهم، إلّا أنّ تشخيص هذا المعنى وتحديدته، وهو هل أنّ الحرب مثلما في الظروف الحالية، تؤدّي إلى دفع شرّهم، أم الصلح؟ هذا الأمر بحاجة إلى الفهم والخبرة الموضوعية، ويعقد المجلس في هذه الحالة جلسة خاصة، ومن خلال دراسته للموضوع من كافة جوانبه، يختار ما فيه الصلاح للأمة.

وكذلك فيما يتعلق بكيفية إنفاق أموال بيت المال، وكيفية تنظيم الخزينه وتوزيعها بشكل عادل، لتصبح مصداقاً للعدل والمساواة، فإنّ المجلس يعقد اجتماعه الخاص لمناقشة هذا الموضوع، ويختار ما يراه المصداق الحقيقي للأصلح.

ومن الممكن طبعاً في بعض الاحيان أن يُخطىء المجلس في محاولته لتطبيق الأحكام الإسلامية على مصاديقها، لأنّ أغلب النواب عادةً ليسوا من الفقهاء والمجتهدين، ولهذا السبب بالذات ولغرض الحد من الوقوع في هذه الأخطاء، فقد تم تشكيل (مجلس صيانة الدستور) في نظام الجمهورية الإسلامية، ويضم نخبة من الفقهاء والحقوقيين، إذ يقوم هذا المجلس بالاطمئنان على إسلامية القوانين، والدراسة الموضوعية لها.

ومن خلال هذا الكلام يمكن الوصول إلى هذه النتيجة، وهي وجود اختلافين رئيسيين بين المجالس التشريعية الإسلامية، والمجالس التشريعية للأنظمة العلمانية والغربية:

١- تقوم المجالس التشريعية غير الدينية بتشريع الأحكام فعلاً ويضعون الحلال والحرام والمجاز والممنوع، دون أن يستندوا في ذلك إلى حكم إلهي، ولكن في المجالس التشريعية الإسلامية، يتمثل العمل الرئيسي فيها بتطبيق الأحكام الإلهية الكلية على مصاديقها أو الدراسة والدراسة الموضوعية لها.

٢- إنّ الهدف المطلوب في المجالس التشريعية الغربية والعلمانية هو السعي لتحقيق

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٠٠

نفحات القرآن ج ١٠ ص ١٤٩

متطلبات الناس، سواء كانت هذه المتطلبات منحرفة وتؤدّي إلى انحطاط المجتمع، أو إيجابية وبناءة ومفيدة، ولهذا السبب فإننا نشاهد ونلاحظ أنّه يتمّ في هذه المجالس التصويت على قوانين مخزية وحمقاء من قبيل السماح بالاختلاط الجنسي، والاعتراف الرسمي بعقد الزواج بين الذكور، ونظائرها من القوانين المخزية!

بينما نجد أنّ الهدف الأساسي في المجالس التشريعية الإسلامية يتمثل بتحقيق إرادة الله سبحانه وتعالى والاصول المعروفة في الدين الإسلامي، والاهتمام بتلبية المتطلبات السليمة للناس.

وحل المشاكلهم وتطوير المجتمع الإسلامي في جميع المجالات الإيجابية ضمن إطار التعاليم الإسلامية، مع رفض تلبية الحاجات والرغبات المنحرفة.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٠١

الركن الثاني: السلطة التنفيذية

إشارة

القوانين بشكل مجرد، عبارة عن كلمات مدونة على الورق، ولا تظهر قيمتها الحقيقية إلا بعد أن تصل إلى مرحلة التطبيق العملي، وهي بالضبط تشبه وصفه الطبيب، التي مهما كانت دقيقة وصحيحة في تشخيصها للداء والدواء، لن يكون لها أدنى تأثير يذكر على حالة المريض إلا بعد أن يعمل بها، إذ إن تشخيص المرض، والقيام بجميع التحليلات وبدقه، والمعرفة الصحيحة بكمية ونوعية الأدوية كلها على حدة، والتطبيق العملي لها، على حدة، بل إن الركن الأساسي يتمثل بالجوانب العملية. إن أي قانون مهما كان مثالياً وقيماً، لن يكون له أدنى تأثير مالم نتحرك نحو تطبيقه، ف «السلطة التنفيذية» هي التي تحفظ ماء وجه السلطة التشريعية.

وبالرغم من أن هذه المسألة تعدّ من الواضحات، إلّا أنّ القرآن الكريم لديه إشارات غتية المعنى بشأنها، ومن ذلك:

١- عندما بُلغ النبي موسى عليه السلام بالرسالة في جانب الطور في الوادي الأيمن، وأخذ الأمر بالتصدي لفرعون وابقاذ بني اسرائيل والدعوة إلى التوحيد والحق والعدالة، طلب من الله تعالى أن يعينه على تنفيذ ذلك وقال: «وَاجْعَلْ لِي وَزِيْرًا» (١) مِنْ أَهْلِى هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَاشْرِكْهُ فِي أَمْرِي». (طه / ٢٩ - ٣١)

٢- ونطالع في قصة «بني اسرائيل» و «طالوت»: عندما انتفض بنو اسرائيل من ظلم

(١) يقول «الماوردي» في الأحكام السلطانية: من الممكن أن يكون وزير من مادة «وزر» اي مشتق من الثقل، ذلك انه يتحمل المسؤولية، أو من مادة وزر بمعنى الملجأ والملاذ (لانه ملجأ الناس)، «أومن» مادة «أزر» بمعنى السند (لأنّ السند الرئيسي هو الله تعالى (الأحكام السلطانية، ص ٢٤).

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٠٢

«جالوت»:، ذلك الرجل الذي أخرجهم من ديارهم وأشّر أبناءهم، فخططوا لقتاله وخوض الحرب ضده، ولتطبيق هذه الخطة، لابد من قائد خبير وجدير، ومدبر من جميع الجوانب، ومن أجل اختيار مثل هذا الرجل، قصدوا نبي زمانهم «اشموئيل» وقالوا له: «ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ». (البقرة / ٢٤٦)

فأوحى إليه الله تعالى بأن يختار طالوت، ذلك الشاب المؤمن الواعي والشجاع، وقال:

«إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا». (البقرة / ٢٤٧)

٣- ونقرأ في قصة النبي يوسف عليه السلام كذلك: عندما تنبأ بسنين عجاف من الناحية الاقتصادية لأهل مصر، ووضع لهم برنامجاً حكيماً لتجاوز هذه السنين الصعبة، اختار سلطان مصر النبي يوسف عليه السلام لتنفيذ ذلك البرنامج والاشراف عليه، وتم ذلك الاختيار باقتراح من النبي يوسف عليه السلام، إذ يقول القرآن الكريم بهذا الشأن: «قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْم». (يوسف / ٥٥)

وتمكن النبي يوسف عليه السلام بما يمتلكه من القدرة الجيدة والإدارة الرشيدة، أن يعبر ببلاد مصر من تلك السنين العجاف ويحافظ

عليها.

٤- مِمَّا لَمْ يَشْكُ فِيهِ أَنَّ الْأَرْضَ شَهِدَتْ قِيَامَ حُكُومَةِ النَّبِيِّ سَلِيمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالَّتِي تَعَدُّ مِنْ أَكْبَرِ الْحُكُومَاتِ الَّتِي قَامَتْ عَلَى وَجْهِ الْبَسِيطَةِ، وَلِغَرَضِ دَفْعِ عَجَلَتِهِ تَطَوَّرَ الْمَجْتَمَعُ الْبَشَرِيُّ إِلَى الْأَمَامِ، وَنُشِرَ الْعَدَالَةُ فِيهِ، لِحُجَّةِ النَّبِيِّ سَلِيمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى الْإِسْتِفَادَةِ الْقَصُورِ مِنْ جَمِيعِ الْوَسَائِلِ وَالسَّبِيلِ الْمُمْكِنَةِ، وَبِدَرَجَةٍ عَالِيَةٍ مِنَ الْحِكْمَةِ الْإِدَارِيَّةِ وَالضَّبْطِ الْعَالِيِ، وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى فَقَدْ سَخَّرَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ كُلَّ الْإِمْكَانِيَّاتِ اللَّازِمَةِ لِتَحْقِيقِ تِلْكَ الْأَهْدَافِ، وَتَمَكَّنَ هُوَ أَيْضاً وَمِنْ خِلَالِ الْإِسْتِفَادَةِ مِنْ هَذِهِ الْوَسَائِلِ، أَنْ يَحْقُقَ أَهْدَافاً هَامَّةً وَسَامِيَةً.

ويشير القرآن الكريم في سورة النمل المباركة في شرح قصة حكومة داود وابنه سليمان عليهما السلام، إلى العلم الواسع والجسم الذي يتمتعان به عليهما السلام إذ يقول تعالى

«وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا...» ثم يضيف قائلاً: «وَوَرِّثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ». (النمل / ١٥-١٦)

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٠٣

ويتحدث القرآن الكريم في سورة سبأ المباركة عن الأب وابنه عليهما السلام إذ يقول تعالى

«وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَالنَّارَ لَهُ الْحَدِيدَ* أَنْ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ* وَلَسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عُدُوها شَهْرًا وَرَواحُهَا شَهْرًا وَاسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقَظْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَرِغِ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ* يَعْمَلُونَ لَهُ مِمَّا يُشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ وَتَمَائِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ*».

(سبأ / ١٠-١٣)

إنَّ الْقُوَّةَ الْإِدَارِيَّةَ الَّتِي كَانَ يَتَمَتَّعُ بِهَا سَلِيمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَشَدَّةَ انضِبَاتِهِ فِي الْأُمُورِ التَّنْفِيزِيَّةِ وَإِدَارَةِ الْبِلَادِ، كَانَتْ إِلَى دَرَجَةٍ أَنَّهُ عِنْدَمَا قَضَى فِيهَا نَحْبَهُ وَهُوَ مَتَكِيٌّ عَلَى عَصَاهُ (ولهذا السبب مات واقفاً)، كان عماله من الجن يؤدون واجباتهم بمنتهى الدقة، حتى أكلت دابة الأرض منسأته وسقط على الأرض، كما جاء ذلك في القرآن الكريم:

«فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَآذِلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ*». (سبأ / ١٤)

وكل هذه الامور تحكى عن مدى الإدارة المحكمة والقوية لسليمان عليه السلام وشدة التزامه وانضباطه في العمل.

وكما يلاحظ في عالم الخلق من أن المكلفين من قبل الله تعالى بتنظيم وإدارة العالم في مختلف المجالات والمشار إليهم في القرآن الكريم: «وَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا*». (النازعات / ٥)

ووردت الكثير من الإشارات الأخرى أيضاً بشأن أعمال الملائكة في هذا المجال، ففي عالم البشريه أيضاً لا يمكن اشاعة النظام وتنفيذ القوانين بدون جهاز تنفيذى قوى ومنظم ومعتبر يتم فيه تقسيم الأعمال وتوزيع المسؤوليات.

ويتضح هذا الأمر بشكل جلى في كتاب الإمام على عليه السلام لمالك الاشرى رضى الله عنه الذى يضم النموذج الكامل للنظام التنفيذى من حيث كيفية ادارة الدولة.

فبعد أن يشير الإمام على عليه السلام في هذا الكتاب إلى مسألة المستشارين ينتقل للإشارة إلى

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٠٤

واجبات مالك الاشرى رضى الله عنه باعتباره حاكم بلاد مصر، إذ يأمره عليه السلام ويقول: «اختر وزراءك من الأفراد ذوى السيرة الحسنة والأذكاء».

ومن ثم ينتقل إلى ذكر الامور والجوانب الإدارية والتنفيذية المختلفة للدولة، فيشير في البداية إلى مسألة القوة الدفاعية والجيش

الإسلامي المقتردر، ومن ثم يشير إلى الموظفين والعمال الحكوميين، وبعد ذلك يشير إلى القضاة، ثم ينتقل إلى التجار والامور التجارية والصناعية والاقتصادية، وأخيراً يتناول المسائل المتعلقة بالمحتاجين، والمعوزين في المجتمع، ويتطرق إلى شرح وواجبات ومسؤولية كل منهم في هذا المجال من خلال شرح مستفيض ودقيق، ويذكر في ذلك أدق الامور وأظرفها. إن هذا العهد الذي يعد في الواقع مستخلصاً من آيات القرآن الكريم والروايات النبوية الشريفة، تم تنظيمه بالشكل الذي لم تتمكن فيه القرون الأربعة عشر أن تغطيه بغارها وتجعل منه عهداً تقادمت عليه السنون فعاد قديماً فحسب، بل إن عظمته واشعاعه أصبح أكثر بهاءً بمرور الزمان عليه، حيث بعد نموذجاً بارزاً من التخطيط الإسلامي في مجال الاصول التي ينبغي أن تسيّر الإدارة الإسلامية، والنظام التنفيذي في الحكومة الإسلامية عليها.

النظام التنفيذي للحكومة الإسلامية في عصر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله:

بالرغم من أن الحكومة الإسلامية على عهد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله كانت بسيطة جداً في تكوينها، إلا أن كل ما تحتاجه الحكومة القوية والمقتدرة، كان منظوراً في تركيبه تلك الحكومة، إذ كان مسجد الرسول صلى الله عليه وآله بما يعنيه من بساطة عجيبة، يمثل القاعدة الأساسية للحكومة ونظامها التنفيذي.

فهو من جانب يمثل الجامعة الإسلامية، ذلك لأنه يمثل مهذا لتعلم الدين والقراءة والكتابة والتربية في الليل والنهار.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٠٥

ويمثل من جانب آخر مقر الجيش الإسلامي، ومركز القائد العام لهذا الجيش.

ومن جهة ثالثة يمثل محكمة القضاء أو كما يقال بيت العدالة.

ومن جهة رابعة يمثل مركز بيت المال وجمع الزكوات والغنائم الحربية، وبالرغم من صغر حجمه وبساطته التي كان عليها فإنه كان يسع لاستيعاب جميع هذه الامور!

وقد اختار النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لكل أمر من هذه الامور، مسؤولاً أو عدداً من المسؤولين، واستمر هذا الأمر بعده صلى الله عليه وآله على هذا المنوال، وخاصة في عصر الإمام على عليه السلام، إذ اتخذ طابعاً جديداً وتنظيمات أوسع بموازاة توسع رقعة الدولة الإسلامية وتطورها في العالم، إذ تم توضيح قواعده في عهده عليه السلام لمالك الاشرى رضى الله عنه.

وكل ذلك يدل على أنه لا بد من النظر إلى مسألة النظام التنفيذي بعد مسألة الشورى إذ بدون ذلك يفقد أي قانون قيمته واعتباره.

صفات وشروط المسؤولين التنفيذيين:

تناول القرآن الكريم وبشكل صريح في ثلاث من آياته المباركة- وعلى نحو الإشارة في العديد من الآيات الاخرى صفات وخصائص العمال اللاتقين في الحكومة.

نقرأ أولاً في قصة طالوت وبنى اسرائيل: «عندما اعترض بنو اسرائيل على انتخاب طالوت من قبل نبيهم (اشموئيل) لقيادة الحكومة، وقالوا بعدم جدارته بسبب عدم امتلاكه المال والثروة (وعدم انتسابه إلى احدى الاسر المعروفة في بنى اسرائيل)، خاطبهم نبيهم قائلاً: لقد أوتى اثنتين من الصفات: سعة العلم، وقدرة في الجسم، وبسبب هاتين الصفتين (العلم والقوة) اختاره الله تعالى، «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ»

(البقرة/ ٢٤٧)

وبناءً على ذلك فقد عد القرآن الكريم صفتي العلم والقوة على أنهما يمثلان الشرطين الأساسيين لرئيس الحكومة الإسلامية أولاً، ومن

ثم يشمل ذلك جميع العاملين في تلك الحكومة أيضاً.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٠٦

ويشير القرآن الكريم في قصة يوسف عليه السلام إلى شرطين آخرين أيضاً فيما يتعلق بالمدراء والموظفين في المستويات العليا للحكومة كالعاملين على حفظ بيت المال (وزير المالية) إذ يقول تعالى «قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ». (يوسف/ ٥٥)

وفي قصة موسى وشعيب عليهما السلام أيضاً أشار القرآن الكريم على لسان بنات شعيب إلى شرطين آخرين أيضاً بخصوص العمال اللائقين: «قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ». (القصص / ٢٦)

وبناءً على ذلك فإن القرآن الكريم يشترط العلم والوعى والعقل، والقوة والقدرة، والامانة والاستقامة في جميع المستويات، بدءاً برئيس الحكومة ومروراً بالوزراء وحتى العاملين الصغار- مع تفاوت المناصب.

وقد تمت الإشارة أيضاً في العديد من الآيات المباركة في القرآن الكريم، إلى هذا المطلب، وذكر فيها بعض الشروط التي ينبغي توفرها في العاملين في الحكومة، ومنها:

١- اجتناب التعاطي مع المسرفين: «وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ». (الشعراء / ١٥١)

٢- اجتناب التعاطي مع السفهاء: «وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا». (النساء / ٥)

٣- اجتناب اتخاذ المضللين: «وَمَا كُنْتُمْ تُتَّخَذُ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا». (الكهف / ٥١)

٤- اجتناب المكذبين: «فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ». (القلم / ٨)

٥- اجتناب الهمازين والناميين والمنايعين للخير والمعتدين الآثمين والحاقدين والسيئين: «وَلَا- تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ * مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٌّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ». (القلم / ١٠-١٣)

٦- عدم اتباع هوى النفس: «فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا». (النساء / ١٣٥)

٧- وأخيراً ضرورة اتباع المؤمنين والتعاون معهم وعدم الاستفادة من غير المسلمين في المناصب الحساسة والذي يؤدي إلى تسلطهم على المسلمين: «وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا». (النساء / ١٤١)

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٠٧

وتمثل هذه بعض الشروط والصفات التي من الضروري مراعاتها لدى القائمين على أعمال الحكومة الإسلامية.

شروط القائمين على الحكومة في الأحاديث الإسلامية:

إشارة

وردت في الاحاديث الإسلامية أيضاً شروط ثقيلة جداً وكثيرة للقائمين على الحكومة، والتي لا يمكن بدونها تحقيق إقامة الحكومة الإسلامية بشكل كامل مطلقاً.

١- العلم والوعى في أعلى مستوياتهما

نقرأ في حديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «مَنْ أَمَّ قَوْمًا وَفِيهِمْ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْهُ لَمْ يَزَلْ أَمْرُهُمْ إِلَى السَّفَالِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ!»

«١».

ونقرأ في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام: «مَنْ دَعَى النَّاسَ إِلَى نَفْسِهِ وَفِيهِمْ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْهُ فَهُوَ مُبَدِعٌ ضَالٌّ!» «٢».

٢- سعة الصدر وانفتاح الفكر والاستعداد لتحمل الحوادث المختلفة

نقرأ في إحدى الكلمات القصار المعروفة للإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «آلَةُ الرِّيَاسَةِ سَعَةُ الصَّدْرِ» «٣».

٣- الوعي بمسائل الزمان

نقرأ في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «العالمُ بزمانِهِ لا تهجُمُ عليه اللوابسُ!» «٤».

(١) الوسائل، ج ٥، ص ٤١٥ (الباب ٢٦ من ابواب صلوة الجماعة).

(٢) سفينة البحار، ج ٢ مادة (العلم).

(٣) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ١٧٦.

(٤) اصول الكافي، ج ١، ص ٣٧.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٠٨

٤- مراعاة العدالة وعدم التفريق بين الناس

ونقرأ في حديث أن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قال لعمر بن الخطاب: «ثلاث إن حفظتهن وعملت بهن كفتك ما سواهن، وإن تركتهن لم ينفعك شيء سواهن».

قال: «وما هنَّ يا أبا الحسن؟»

قال: «إقامة الحدود على القريب والبعيد، والحكم بكتاب الله في الرضا والسخط، والقسم بالعدل بين الأحمر والأسود».

فقال عمر: لقد أوجزت وأبلغت! «١».

٥- الاهتمام بمكافأة المحسنين والعفو عن المذنبين الذين يؤمل بتوبتهم وعودتهم عن ذنوبهم

نقرأ في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام:

«ثلاثة تجب على السلطان للخاصة والعامة: مكافأة المحسن بالاحسان ليزدادوا رغبةً فيه، وتغمُّدُ ذنوب المسيء ليتوب ويرجع عن غيئه، وتألفهم جميعاً بالاحسان والانصاف» «٢».

٦- النظر لمصالح الناس ومصالحه بعين المساواة!

ومن بين الأوامر التي أصدرها الإمام على عليه السلام لمحمد بن أبي بكر عندما اختاره لولاية بلاد مصر ما يلي:
«أحب لعامة رعتيك ما تحب لنفسك وأهل بيتك، واکره لهم ما تکره لنفسك وأهل بيتك، فإن ذلك أوجب للحجة وأصلح للرعية»
«٣».

٧- الارتباط العاطفي مع الناس

لقد اعتبرت بعض الروايات الإسلامية السلطان العادل بمنزلة الوالد، وأوصت الناس أن

(١) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٣٤٩، ح ٥٣.

(٢) بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٢٣٣.

(٣) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٢٧.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٠٩

يحترمونه احترام الأب، والمراد بهذا الحديث أنه ينبغي للسلطان أيضاً أن ينظر للناس بعين الأبوة ويعتبرهم بمنزلة ابنائه، وبناءً على ذلك لا بد من إقامة روابط عاطفية قوية بينه وبين الناس كما هو الحال بين الأب وابنائه، ويقول الإمام موسى بن جعفر عليه السلام في حديث ورد عنه:

«إِنَّ السُّلْطَانَ الْعَادِلَ بِمَنْزِلَةِ الْوَالِدِ الرَّحِيمِ فَأَحِبُّوا لَهُ مَا تُحِبُّونَ لَأَنْفُسِكُمْ وَآكْرَهُوا لَهُ مَا تَكْرَهُونَ لَأَنْفُسِكُمْ» «١».

٨- الابتعاد عن البخل، والجهل، والجفاء والظلم

يقول الإمام أمير المؤمنين على عليه السلام في هذا المجال:

«وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ لَا يَتَّبِعِي أَنْ يَكُونَ الْوَالِي عَلَى الْفُرُوجِ وَالْدَّمَاءِ وَالْمَغَانِمِ وَالْأَحْكَامِ وَامَامَةِ الْمُسْلِمِينَ؛ الْبَخِيلُ، فَتَكُونَ فِي أَمْوَالِهِمْ نَهْمَتُهُ، وَلَا الْجَاهِلُ فَيُضَيِّعُ لَهُمْ بَجْهَلِهِ، وَلَا الْجَانِي فَيَقْطَعُهُمْ بِجَفَائِهِ، وَلَا الْخَائِفُ لِلدُّوْلِ، فَيَتَّخِذُ قَوْمًا دُونَ قَوْمٍ، وَلَا الْمُرْتَشِي فِي الْحُكْمِ فَيَذْهَبُ بِالْحَقُوقِ وَيَقِفُ بِهَا دُونَ الْمَقَاطِعِ، وَلَا الْمَعْطَلِ لِلسُّنَّةِ فَيُهْلِكُ الْأُمَّةَ» «٢».

٩- عدم المصانعة والتعاطي مع أهل الباطل

يقول إمامنا ومولانا أمير المؤمنين عليه السلام في كلماته القصار في نهج البلاغة:

«لا يقيم أمر الله سبحانه إلا لمن لا يصانع ولا يضارع ولا يتبع المطامع» «٣».

١٠- النظر بعين الامانة لمقامه ومنصبه

وهذه الملاحظة أيضاً جديرة هي الاخرى بالاهتمام، وهي أن المناصب والمسؤوليات في الحكومة الإسلامية، تم اعتبارها في العديد من الروايات أمانة إلهية، دون اعتبارها

(١) وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ٤٧٢، ح ١.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٣١.

(٣) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ١٢٠.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١١٠

وسيلة للتعالى والاستفادة منها للاغراض الشخصية، حتى أنه أُشير لهذا الأمر في بعض الآيات المباركة في القرآن الكريم، قبل الروايات الإسلامية، إذ نقرأ في قوله تعالى

«إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ». (النساء / ٥٨)

وقد ورد في نهاية هذه الآية في كتب التفسير والحديث روايات متعددة على أن المراد بالامانة، هو الولاية والحكومة، وعلى رأس ذلك ولاية الأئمة المعصومين عليهم السلام، ومن ذلك ما نقرأه في إحدى الروايات الواردة في تفسير الآية الأنفة:

«يعنى الإمامة، والإمامة الامانة!» (١)

وينقل في كتاب دعائم الإسلام أيضاً في حديث عن الإمام علي عليه السلام أنه كتب إلى «رفاعة» قاضى الأهواز مايلي:

«إعلم يا رفاعة، أن هذه الامارة أمانة، فمن جعلها خيانة فعليه لعنة الله إلى يوم القيامة، ومن استعمل خائناً فإن محمداً صلى الله عليه و آله بريء منه فى الدنيا والآخرة» (٢).

وينقل في تفسير الدر المنثور عن الإمام علي عليه السلام أيضاً أنه قال:

«حق على الإمام أن يحكم بما انزل الله وأن يؤدى الأمانة، فاذا فعل ذلك فحق على الناس أن يسمعوا له وان يطيعوا وأن يجيبوا إذا دُعوا» (٣).

ونظال فى نهج البلاغة أيضاً، أن أمير المؤمنين عليه السلام قال فى كتابه إلى والى آذربايجان:

«وإن عملك ليس لك بطعمه ولكن فى عنقك امانة» (٤).

ومن البديهى أن هذه الروايات لا تحجم المفهوم الواسع للآية التى توصى بالمحافظة على جميع الامانات، بل وكما هو واضح لدينا فإنها تمثل المصادق الواضح للامانة الإلهية.

ومما لا شك فيه أيضاً أن الذى ينظر إلى هذه المناصب بعين الأمانة الإلهية، فإن أسلوبه

(١) نُقل فى تفسير البرهان سبع روايات على الأقل فى هذا المجال، وتلاحظ فى كتاب بحار الأنوار أيضاً فى الجزء ٢٣ و ٦٧ و ١٠٢ (فى الصفحات ٣٨٠، و ٢٨٠، و ٢٥٣ على التوالى)، روايات متعددة بهذا الشأن.

(٢) دعائم الإسلام، ج ٢، ص ٥٣١.

(٣) تفسير الدر المنثور، ج ٣، ص ١٧٥.

(٤) نهج البلاغة، الخطبة ٥.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١١١

فى التعاطى مع هذا الأمر يختلف كثيراً عن ذلك الذى ينظر إليها على أنها ملك مطلق له، وكذا الحال بشأن الأموال والثروات، فإن القرآن الكريم يعبر عنها أيضاً بأنها عبارة عن أمانة إلهية بين يدى الناس، موضحاً بأن المالك الأصلي لها هو الله تبارك وتعالى وهو

الذى أودعها بأيدي الناس أياماً معدودات، كما ورد فى قوله تعالى «آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسَدِّ تَخْلِفِينَ فِيهِ». (الحديد/ ٧)

ومن المسلم به أن صرف الأموال المودعة بعنوان أمانة لدى الإنسان فى الموارد الخاصة التى يجيزها صاحب تلك الأموال لا توجد فيه أية صعوبة، فى حين أن الإنسان لو كان هو المالك الأصلي لها، فإن صرف تلك الأموال ليس سهلاً عليه.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١١٣

هيكلة السلطة التنفيذية

إشارة

يتألف النظام التنفيذى عادةً من شبكة واسعة، يقف على رأسها رئيس الحكومة، ويليه الوزراء فى المرتبة التالية، ويأتى فى المرتبة الثالثة منهم المدبرون العامون والمحافظون، ورؤساء الأقسام والنواحى التابعة، وكل دولة سواء كانت كبيرة أم صغيرة، فإنها بحاجة إلى هذه التقسيمات، سواء كانت بهذه المسميات أو بغيرها.

والواقع أن هذه الشبكة الواسعة تمتلك فلسفة واضحة، تستمد قوتها من مسألة ضرورة تقسيم الأعمال.

وتمثل هذه المسألة فى عالم التشريع والأنظمة البشرية، صورة واضحة عن تركيب النظام التكويني، فعندما ننظر إلى بدن الإنسان من حيث تشكيلاته الداخلية والخارجية، نرى أن هذا «العالم الصغير» الذى انطوى فيه «العالم الكبير»، يمتلك نظاماً تنفيذياً غايةً فى الانسجام، مع شبكة واسعة لتقسيم الأعمال.

وعندما يقرر العقل أداء عمل ما، ويصدر الأمر النهائى بذلك، يبدأ كل جزء من أجزاء جسم الإنسان بأداء نشاطه الخاص به، ويواصل تنفيذ ذلك العمل إلى مراحلته النهائية بانسجام كامل.

وكمثال بسيط على ذلك، عندما يشعر الإنسان بالخطر، كأن يُدرك بواسطة العين أو الأذن، وجود حيوان مفترس بالقرب منه (كأن يرى هيكله أو يسمع صوته)، ولا يملك سلاحاً يدافع به عن نفسه، وبالقرب منه ملجأ يمكن أن يلوذ به، فإن أمر الفرار نحو ذلك الملجأ سيصدر له من العقل، وسرعان ما تبدأ شبكات الأعصاب والعضلات بالعمل، وتزداد

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١١٤

ضربات القلب بشدة عالية لإيصال المزيد من الدم إلى العضلات، وتزداد سرعة عمل الرئتين لتنقية الدم وتصفيته، وإيصال المزيد من الأوكسجين اللازم لحركة العضلات، وتزول جميع آثار التعب والكسل والنوم من الإنسان بشكل مؤقت، ويراقب أوضاعه وحركاته بمنتهى الذكاء واليقظة، وبعبارة أخرى يطير الكرى عن مقلتيه.

وينسى الإنسان فجأةً وبشكل لا-إرادى جميع الأمور التى من الممكن أن تشغل فكره وتعيقه عن أداء هذا العمل من قبيل الجوع، والعطش، والألم!

ويستنفر الجسم جميع طاقاته الكامنة فيه، ويصبح مستعداً لأداء أصعب الأعمال وأكثرها مشقة، ويبدى أحياناً عشرة أضعاف مما يبدىه من الطاقة فى الحالات الاعتيادية، وجميع هذه الأمور تتم بشكل تلقائى واتوماتيكي تماماً وبمستوى عالٍ من الدقة والظرافة، بحيث أن مجرد مطالعة هذا الموضوع لوحده يكفى للوقوف على علم الله تعالى وعجيب قدرته، والاطلاع على حقيقة التوحيد.

وكل مجتمع بشرى ينطبق عليه نفس الحكم الذى ينطبق على الجسم، ولهذا السبب لا بد من تقسيم الأعمال فيه بشكل دقيق، ومواصلة تأمين متطلباته الثقافية، والاقتصادية، والعسكرية، والمادية والمعنوية، من خلال التخطيط الدقيق لذلك، وبالرغم من الاختلاف

الموجود بين كل منها، فإن التناغم والتنسيق وإكمال كل منها للآخر يعدّ أمراً في غاية الضرورة. ولهذا السبب أيضاً فإن جميع المجتمعات البشرية- سواء المتدينه أو البعيده عن الدين، شريقيها أو غربيها، قديمها أو جديدها- رضخت لهذه القاعده في حياتها الاجتماعيه، بالرغم من التفاوت الموجود فيما بينها في كيفية تقسيم الاعمال والمناصب والمسؤوليات، إذ إن البعض منها بدائي جداً في ذلك والبعض الآخر تعمل بشكل دقيق للغاية.

النظام التنفيذي في عالم الوجود:

بالرغم من الله تبارك وتعالى قادر على كل شيء، وكل ما يريده يتحقق بإرادته تعالى فوراً:
«إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ». (يس / ٨٢)

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١١٥

وبالرغم من ذلك كله فإن الآيات المباركة في القرآن الكريم توضح وبشكل جلي، أن الله تبارك وتعالى قسّم الأعمال في هذا العالم، إذ خلق طوائف من الملائكة ليقوم كل منها بانجاز إحدى الأعمال المهمّة في هذا العالم.

فيشير القرآن الكريم أحياناً بشكل عام إلى هذه المسألة وهو قوله تعالى

«جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ». (فاطر / ١)

ويقول في موضع آخر: «فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا». (النازعات / ٥)

وينقل في موضع آخر قول الملائكة: «وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ * وَأَنَا لَنَحْنُ الصَّافُونَ * وَأَنَا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ». (الصفات / ١٦٤-١٦٦)

وأحياناً أخرى يشير إلى طوائف خاصة منها لها وظائفها الخاصة، إذ يمكن أن نشير فيما يلي إلى المجاميع التالية كنموذج على ذلك:

١- الملائكة المبلغين للوحي والمنزلين للكتب السماوية:

«يُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ». (النحل / ٢)

٢- مجموعة حملة العرش:

«الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ». (غافر / ٧)

٣- مجموعة المراقبين لأعمال الناس:

«وَأَنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَعْمَلُونَ». (الانفطار / ١٠-١٢)

٤- مجموعة جند الله الذين يعززون المؤمنين في الحروب وحوادث الحياة القاسية:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَارِسِيْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا».

(الاحزاب / ٩)

٥- مجموعة حفظه الناس ازاء الكثير من الاخطار والحوادث:

«وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً». (الانعام / ٦١)

٦- مجموعة المكلفين بقبض الأرواح:

«قُلْ يَتُوفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ». (السجدة / ١١)

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١١٦

وكذلك: «الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُم الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ». (النحل / ٣٢)

٧- الملائكة المكلفون بتقسيم الأرزاق:

«فَالْمُقَسَّمَاتِ أَمْراً». (الذاريات / ٤)

إذ يقول البعض في تفسير هذه الآية الكريمة، وجرياً مع تناسب الآيات الواردة قبلها:

إنها تشير إلى الملائكة الذين يقسمون الأرزاق بين العباد، بينما يقول البعض الآخر: إنها تشير إلى الملائكة المكلفين بتقسيم جميع الأعمال في عالم الوجود.

٨- الملائكة المكلفون بنشر السحاب ونزول الأمطار والمكلفون بتشتيتها بعد هطول الأمطار:

«وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً* فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً». (المرسلات / ٣-٤)

٩- الملائكة المكلفون بدفع وساوس الشياطين عن قلوب المؤمنين، والذين يصدون هجوم الشياطين عن افكار المؤمنين، فيقضون على وساوسهم:

«فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً» «١». (الصفات / ٢)

١٠- الملائكة الذين يتولون في ليلة القدر، والمكلفون بإبلاغ تقديرات الله تعالى على مدى سنة كاملة، تلك المقدرات التي تُحدد وفقاً لاستحقاق الأفراد وحسن أعمالهم، وليس بدون حساب وبشكل اجباري:

«تَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ». (القدر / ٤)

وكما تلاحظون فإن الله تبارك وتعالى وبالرغم من قدرته التامة على جميع الأعمال، فإنه يقسم تدبير أمور هذا العالم بين الملائكة، وجعل لكل مجموعة منهم واجباً وتكليفاً محدداً.

ونلاحظ في الروايات الإسلامية أيضاً تعبيرات متعددة وبلغه بشأن أصناف الملائكة، من حيث تقسيم المسؤوليات، ومن جملة ذلك ماورد في نهج البلاغة في خطبة الأشباح:

(١) قيل الكثير من الأوجه في تفسير هذه الآية، وأحد تلك المعاني ما جاء أعلاه.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١١٧

«ومنهم من هو في خلق الغمام الدُّبْحِ، وفي عظم الجبال الشَّمْخ ... وفي فترة الظلام الأيهم، خَرَقَتْ أقدامهم تخوم الارض السيفلى فهى كرايات بيض قد نفذت في مخارق الهواء، وتحتها ريح هفافة، تحبسها على حيث انتهت من الحدود المتناهية، قد استفرغتهم اشغال عبادته، ووصلت حقائق الايمان بينهم وبين معرفته ... قد ذاقوا حلاوة معرفته، وشربوا بالكأس الروية من محبته!» «١».

ولدينا المزيد من الروايات الاخرى بشأن تقسيم المسؤوليات فيما بين الملائكة، لو ذكرناها جميعاً لظال بنا المقال «٢».

ويمكننا أن نستخلص ممّا تقدم ذكره أنفأ المفهوم القرآني التالي: لو أرادت البشرية أن تسير نظام ربوبيه الباريء جلّ وعلا في الوجود وتطبق نظام ادارته في عالم التكوين، لابد لها أن تهتم وبكل دقة بمسألة تقسيم الأعمال والمسؤوليات في المجتمع الإنساني، لكي تقترن حياة أفراد المجتمع بالموفقية والنجاح.

وبعبارة أخرى نحن نعلم أن نظامى التكوين والتشريع يجب أن يعمل بشكل متناغم، ولا بدّ لحياة البشرية أن تستلهم فلسفتها من خلقه الباريء جلّ وعلا وتصطنع بصبغة الله تعالى وأن كل ما هو حاكم هناك يجب أن يكون هو الحاكم هنا.

إنّ الاهتمام والالتفات إلى هذه الحقيقة يدعوننا إلى مسألة تنظيم الامور التنفيذية.

النظام التنفيذي في عصر النبي صلى الله عليه وآله:

بالرغم من أن الحكومة الإسلامية على عهد الرسول صلى الله عليه وآله كانت بسيطة جداً، إلّا أنه في نفس الوقت كانت مسألة تقسيم

المسؤوليات في النظام التنفيذي لهذه الحكومة، واضحة جداً ومدروسة بشكل دقيق.

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٩١ (خطبة الاشباح).

(٢) وللمزيد من الايضاح بشأن أصناف الملائكة عليكم بمراجعة بحار الأنوار، ج ٥٩، ص ١٧٤ وما يليه.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١١٨

ومن ذلك أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله كان يختار للمعارك - التي لا يشارك فيها بشخصه - قائداً أو عدداً من القادة، وحتى أنه صلى الله عليه وآله أحياناً كان يعين خليفته للقائد الأول لتلافي الحوادث المحتملة الوقوع للقائد الأول، وعلى سبيل المثال في معركة مؤته كان القائد الأصلي للجيش جعفر بن أبي طالب ثم أضاف قائلاً: لو حصل أمرٌ لجعفر فبعده «زيد بن حارثة» على الجيش، ولو حصل له أمرٌ أيضاً «فبعد الله بن رواحة» على الجيش، ولو حصل له أمرٌ ما أيضاً، على المسلمين أن يختاروا شخصاً من بينهم عن طريق الشورى لقيادة الجيش «١».

وجاء في التواريخ أيضاً أنه كان للرسول صلى الله عليه وآله كتاباً للوحى وللأمور الاخرى إذ يمكن أن نذكر من بينهم الإمام أمير المؤمنين على بن أبي طالب عليه السلام وكذلك «زيد بن ثابت»، و«علاء بن الخصرى» و«أبى بن كعب» «٢».

واختار صلى الله عليه وآله بعض الأفراد لجمع أموال الزكاة والامناء على بيت المال، إذ يمكن أن نذكر من بينهم «مهاجر بن أبى امية» المكلف بجمع أموال بيت المال فى صنعاء، و«زيد بن لبيد» فى «حضر موت» و«عدى بن حاتم» فى قبيلة «طى» و«مالك بن نويرة» فى «بنى حنظلة»، و«زبرقان بن بدر» فى قبيلة «بنى سعد» و«العلاء بن الحضرمى» فى «البحرين» «٣».

وعين الرسول صلى الله عليه وآله أيضاً بعض الخبراء لتحسين محصول بساتين النخيل لغرض دفع الزكاة، ومنهم «عبدالله بن رواحة». كما أنه صلى الله عليه وآله كان يعين الأمراء للمناطق المختلفة، ويمكن أن نذكر من بينهم علياً عليه السلام، و«معاذ بن جبل» على اليمن، و«عتاب بن اسيد» على «مكة» و«عثمان بن أبى العاص» على منطقة «بنى ثقيف».

لقد كان للرسول صلى الله عليه وآله، العديد من الرسل الذين أرسلهم للملوك ورؤساء البلدان المجاورة، ومنهم «عبدالله بن حذافة» الذى بعثه إلى «كسرى ملك الساسانيين، و«دحية

(١) سيد المرسلين، ج ٢، ص ٤٤، ونقل بعض المؤرخين الأمراء الثلاثة بشكل آخر، ولا يوجد بينهم وبين مرادنا اختلاف.

(٢) الكامل لابن الأثير، ج ٢، ص ٣١٣.

(٣) سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ٢٤٦.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١١٩

الكلبى» إلى «قيصر» ملك الروم، و«حاطب بن أبى بلتعنة» إلى «المقوقس» ملك مصر، و«عمرو بن امية» إلى «النجاشى» ملك الحبشة «١».

وبهذا الشكل نشاهد أنه فى تلك الحكومة الخالية من أى نوع من أنواع التشرىفات، نجد نظاماً تنفيذياً منسجماً بشكل كامل ويتألف من اقسام مختلفة، وقد اختار صلى الله عليه وآله لكل قسم منها مسؤولاً أو عدة مسؤولين، يحكمون فيها.

وهذا كله يوضح لنا بشكل جلى، أن مسألة تقسيم المسؤوليات والإدارات فى الأقسام المختلفة للنظام التنفيذى للحكومة الإسلامية، يعد أمراً مسلماً به ولا يمكن اجتنابه.

كيفية انتخاب رئيس السلطة التنفيذية والمسؤولين الآخرين:

في النظرة الكونية الإسلامية التي تقول: إن الحكم لله، وإن مصدر شرعيتها في المجتمعات البشرية تستند إلى الاجازة والتفويض الإلهي، ومن الطبيعي أن يتم في الأنظمة التنفيذية تعيين المسؤولين في جميع المستويات من قبل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ومن ثم الأئمة المعصومين عليهم السلام وبعدهم خلفائهم ونوابهم أي الفقهاء العظام.

ولهذا السبب نجد أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عندما شرع ببناء الدولة الإسلامية في بداية الهجرة إلى المدينة، وعمل على توسيعها فيما بقي من عمره الشريف، كان يقوم صلى الله عليه وآله بتعيين الولاة وامراء الجيش والقضاء والسفراء بنفسه، ومن المحتمل أنه كان صلى الله عليه وآله يقوم باستشارة أصحابه في الحالات المهمة بشأن انتخاب أولئك الأشخاص.

ومن المؤكد عندما يتحول الأمر إلى الفقيه الجامع للشرائط، وخاصة في عصرنا وزماننا- إذ تعتبر المشاركة الجماهيرية في أمر الحكومة من البديهيات، ذلك أنه بدون مشاركتهم لن تتوفر دواعي المساهمة والتعاون مع الحكومة مطلقاً- يجب أن تكون مسألة الشورى والمشاورة مع الناس على رأس البرنامج الخاص باختيار المستويات الرفيعة للسلطة التنفيذية.

وبعبارة أخرى لا بد أن يكون للناس المعرفة الكافية برئيس السلطة التنفيذية، الشخص

(١) بيت النبوة (خاندان وحى)، ص ٢٦ بالفارسية.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٢٠

الأول في هذه السلطة، والتعاون في هذا المجال- ومتى ما كان الفقيه الجامع للشرائط غير معني بهذا الأمر، فإنه يعرض مصالح المسلمين للخطر ويتسبب في زعزعة النظام الإسلامي، وبناءً على ذلك فإنه يفقد شرعية ولايته أيضاً.

وليس بوسع الولي الفقيه أن يقول: أنا خليفة المعصوم، وأنا الذي أعين جميع المديرين التنفيذيين ورئيس الوزراء والوزراء ورئيس الجمهورية في الحكومة الإسلامية مطلقاً، ذلك لأن هذا الأمر لا ينسجم مع مصالح الناس وغبطة المسلمين وشروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويؤدي إلى زعزعة دعائم الحكومة، وتضعيف أسسها وقدرتها، بل إن أساس مثل هذه الحكومة سرعان ما ينهار وتمحى من صفحة التاريخ والمجتمع.

إذن، يجب عليه أن يحترم قاعدة الشورى القرآنية في هذا الأمر، ويعطى الأهمية لاختيار الناس، ويدعوهم للمساهمة في هذا الأمر المهم، وإحدى أفضل الطرق لذلك هو ما نص عليه دستور الجمهورية الإسلامية، من أن انتخاب رئيس الجمهورية يتم في البداية من قبل الشعب، ويكتسب دعمه الشعبي من خلال آرائهم، ثم يصار في المرحلة النهائية إلى صدور الأمر بتنصيبه من قبل الفقيه الجامع للشرائط، لكي يصار إلى تثبيت جنبته الشعبية من جهة، ويضمن من جهة أخرى جنبته الإلهية التي تشكل أساس هذا الانتخاب. (فتأمل).

وهذه الملاحظة هي الاخرى جديرة بالاهتمام، وهي أن التجربة أثبتت أن انتخاب الناس في مجتمع مؤمن وملتزم متى ما تم من خلال الإعداد الصحيح والمسبق والتدريب والمعرفة الكافية، غالباً ما يكون صحيحاً.

بينما لو حصل في بعض الموارد خطأ معين في تشخيص الشعب وضمير الامة- وهذا قليل ونادر- فيجب على الفقيه الجامع للشرائط أن يستفيد من صلاحياته، ويُعرض عن تنفيذ تنصيب مثل هذا الشخص، ولكن بما أن الولي الفقيه منتخب هو الآخر من قبل الشعب، (كما سنشير لذلك لاحقاً)، فيجب أن يقوم بتنوير الأذهان من خلال التدبير والدراية الصحيحة وإرائة الوثائق والأدلة، ويعمل على توعية الضمير الشعبي تجاه هذا الأمر، ولو حصل خطأ معين فعليه أن يقف بوجهه ويتصدى له.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٢١

ولكن كما قلنا إن هذا الأمر يحصل في موارد نادرة جداً، خاصة وأن صلاحية المرشحين لهذا الأمر يجب أن تؤيد من قبل مجموعة

من أهل الخبرة والدراية، لذا من المستبعد أن تحصل مشكلة مهمة في هذا المجال.

طبعاً من الممكن أن يتحقق اختيار الشعب بشكل غير مباشر، بمعنى أن يختار الناس نوابهم لمجلس الشورى الإسلامى، ومن ثم يقوم النواب بترشيح إحدى الشخصيات لمنصب رئاسة الوزراء، وبعد المداولة اللازمة واحرازه الصلاحية يمنحونه رأى الاعتماد والثقة، ولغرض تنفيذ هذا الحكم يراجعون الولي الفقيه بعد ذلك، ومن ثم يقوم الولي الفقيه أيضاً- إما بشكل مباشر أحياناً، أو بشكل غير مباشر (كما نشاهد ذلك بخصوص فقهاء مجلس صيانة الدستور)- بتأييد هذا الرأى والموافقة عليه وتنفيذه.

وبالرغم من أن رئيس السلطة التنفيذية، أى رئيس الجمهورية فى نظام حكم الجمهورية الإسلامية يتم انتخابه فى الوقت الحاضر من قبل الشعب، إلا أن مسؤولى الدرجة الاولى أى الوزراء، يتم تعيينهم بواسطة اقتراحه وانتخاب نواب الشعب فى مجلس الشورى، وبهذا الشكل فإن الشعب يشارك ويساهم عن طريقين فى انتخاب الوزراء: أولاً: عن طريق نواب المجلس، وثانياً: بواسطة رئيس السلطة التنفيذية، والاثان منتخان عن طريق الشعب.

كما أن الفقيه الجامع للشرائط، يشرف على هذا الأمر أيضاً عن طريق مجلس صيانة الدستور، من خلال المصادقة على تنفيذ تنصيب رئيس الجمهورية أيضاً.

إن هذا الاسلوب غير المعقد نسبياً يضمن من جهة، تدخل الفقيه الجامع للشرائط فى هذا الانتخاب طبقاً للموازن الشرعية، ومن جهة أخرى مشاركة الشعب أيضاً، وبهذا الشكل تتم مراعاة الجنبتين الشرعية والشعبية بشكل دقيق، (فتأمل).

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٢٣

الثقافة الحاكمة على الحكومة الإسلامية

إشارة

هذا الجزء من المسائل المتعلقة بالحكومة الإسلامية يعد من أهم الأجزاء وأكثرها حيوية، لأن من الممكن أن نفهم مما تقدم عن النظام التنفيذى فى الحكومة الإسلامية، أنها تسير بنفس الاسلوب الذى يسير عليه الحكام غير الإسلاميين.

أى أن تقسيم المسؤوليات، وتشكيل الوزارات وانتخاب الوزراء، والمديرين الكبار والأدنى منهم، ورئيس الجمهورية أو رئيس الوزراء مطلوب هنا أيضاً، وكذا الحال بالنسبة لمسألة الانتخابات الشعبية، والاستناد إلى آراء وإرادة الشعب، والانتخاب المباشر أو غير المباشر من قبل نواب الشعب فى مجلس الشورى وامثال ذلك، موجودة هى الاخرى أيضاً.

وبناء على ذلك فإن الفرق الوحيد لهذه الحكومة مع سائر الحكومات، يكمن فى الاسم والعنوان فقط!

إلا أن ذلك يعد خطأ فاحشاً، لأن الشىء الأهم الذى يفرق بين الشعوب والحكومات والجمعيات يكمن فى الثقافة الحاكمة عليهم، خاصة وأن الحكومة أو المؤسسات والجمعيات هى بمنزلة الجسم فقط، وروحها يكمن فى الثقافة الحاكمة عليها.

ولغرض الوقوف على الثقافة الإسلامية الحاكمة على هذه التنظيمات، يلزمننا المزيد من البحوث، وهى بحاجة إلى كتاب أو مجموعة من الكتب المستقلة، وما تظالعونه هنا يمثل فى الواقع فهرساً من تلك البحوث، هذا الفهرس الذى بإمكانه أن يوضح للقراء الكرام الكيفية الاجمالية لهذه المسألة وأهدافها وأهميتها.

وبشكل عام فإن ثلاثة أصول أساسية تتحكم بنظام الحكومة الإسلامية. والتي تميزها عن سائر الحكومات الشعبية:

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٢٤

١- معرفة المسؤولين التنفيذيين بأنهم المؤتمنون على أمر الله تعالى ويجب عليهم المحافظة على ما أودع بأيديهم من أمر الحكومة

والمناصب الحكومية كوديعه وامانه إلهية، وبأنهم بمثابة حلقة الوصل بين الله سبحانه وتعالى وعباده، وأن ينفذوا بدقة كل ما أمر به تعالى بشأن عباده، وليس بإمكانهم مطلقاً أن ينشغلوا بالتفكير في المحافظة على مناصبهم أو مصالحهم الشخصية أو مصالح جماعة معينة.

في حين أن الحكام الماديين يفكرون في كيفية المحافظة على مناصبهم ومصالحهم الشخصية أكثر من أي شيء آخر، ومن الممكن أحياناً أن يعمدوا إلى صرف الملايين من أجل الوصول إلى أحد المناصب، والمؤكد أنهم وبعد استلام الحكم يقومون بتعويض ما أنفقوه ويزيدون عليه أضعافاً مضاعفة، أو على الأقل يتعلق هؤلاء الأفراد بطبقه معينة من المجتمع، ومن أجل المحافظة على مصالح تلك الطائفة التي ينتمون لها، والتي رصدت مبالغ طائلة لإيصالهم إلى سدة الحكم، يقومون بشتى الجهود، من أجل أن تعود على تلك الطبقة بالمزيد من الفوائد والارباح المضاعفة.

ولذا فإن اختلاف هذا المنظار عن المنظار الذي يعمل بموجبه الحكام والمديرون الإسلاميون واضح جداً وفي جميع المجالات.

٢- ينظر الناس إليهم كمبعوثين من قبل الله تعالى ذلك لأن طاعتهم تعد فرعاً من طاعة الله تعالى وأوامرهم بمنزلة أوامر الله. ويعتبرون قوانين الحكومة الإسلامية- في حالة قيام تلك الحكومة على الاسس الصحيحة- بمنزلة قانون الله، ويعتقدون بأن طاعتها توجب النجاة في الآخرة، وأن مخالفتها يعد ذنباً ويوجب العذاب يوم القيامة.

هذه النظرة تختلف كثيراً عن النظرة السائدة في الحكومات المادية، إذ يرى الناس أن الحكام عبارة عن أفراد مثلهم، وهم غالباً في صدد المحافظة على مصالحهم الشخصية أو مصالح الحزب والجماعة التي ينتمون لها، وإذا شعروا بأن الناس غير راضين بالقوانين المشرعة، وأمنا من العقاب، فإنهم سرعان ما يتخلون عن واجبهم في تحمّل مسؤولياتهم.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٢٥

٣- في الحكومة الإسلامية وبشكل عام يجب أن تلقى الروح المعنوية والقيم الاخلاقية بظلالها على جميع الامور، وأن تأتي المسائل الاخلاقية والانسانية على رأس قائمة الاعمال، ويجب أن تكون الدوافع أبعد بكثير من الدوافع المادية، وليس الهدف النهائي من تشكيل الحكومة والحياة الأفضل إنما يتمثل في توفير المقدمات اللازمة للسير إلى الله والقرب من الباري ويجاد التكامل الروحي والمعنوي؟!

فهل يمكن أن تتساوى هذه الأهداف والدوافع مع أهداف ودوافع الشعب والعاملين في حكومة مادية؟

طبعاً لغرض الوصول إلى تحقق حكومة إلهية تامة وكاملة، لا بد أن نطوى طريقاً طويلاً وشاقاً، ولا بد من اعطاء دروس كثيرة للمجتمع، ولكن مهما يكن الحال فإن محتوى هذه الحكومة قياساً للحكومات المادية، من حيث العنصر الثقافي «متفاوت» للغاية بل و«متباين» أيضاً.

ومن خلال هذا التحليل ننتقل إلى الآيات القرآنية المباركة، ومن ثم إلى الروايات الإسلامية، لغرض الوقوف على الثقافة الحاكمة على المحاور المختلفة للحكومة الإسلامية ومناقشتها:

١- نقرأ في قوله تعالى

«بِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ».

(آل عمران / ١٥٩)

وبناءً على ذلك فإن الحاكم الإسلامي وبالإضافة إلى الحزم والعزم الشديدين، فهو مطالب ومكلف بالعفو والصفح، وحتى الاستغفار واللين والانسجام، وأن يرى في الله تعالى السند والملاذ الأول والأخير في كل حال من الأحوال.

٢- وفي سورة فصلت المباركة يأمر الباري تعالى بغسل العداوة والبغضاء بماء المحبة

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٢٦

والاحسان، وتلافى مواجهة الأحتية بالمثل كلما أمكن ذلك، إذ يقول تعالى «إِذْفَعْ بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ فَأِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عِدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ». (فصلت / ٣٤)

إن سيطرة مثل هذه الثقافة على النظام الإسلامى التنفيذى والتى تقف على نقيض الثقافة المادية تضفى عليه نورانية وشفاء، وتعطى له معنى ومفهوماً آخرين.

٣- ويقول تعالى فى سورة الكهف المباركة تجاه اصرار الذين يعتقدون بأن واجب النبى الأكرم صلى الله عليه وآله أن يُبعد الفقراء وإن كانوا مؤمنين ومخلصين، ويقترّب من الطبقات الغنية والمتنفذة، إذ تقول الآية بكل صراحة وحزم:

«وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا». (الكهف / ٢٨)

وشتان بين هذا المنطق الذى يرى فى الحب والإيمان بالله تعالى لدى هؤلاء الأفراد أئمن وأعلى شىء لديهم، ويأمر بصد الأغنياء الغافلين عن ذكر الله، وليس الفقراء المخلصين المؤمنين، وبين منطق الذين يعلنون اليوم بكل صراحة فى العالم، بأن القيمة العليا تكمن فى المصالح والمنافع المادية، ويضحون بجميع القيم الأخرى فى سبيل تلك المصالح.

٤- وتخطب سورة ص وبلهجة حازمة وشديدة، النبى داود عليه السلام:

«يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ». (ص / ٢٦)

وكما نرى فإن الآية الكريمة تنذر هذا النبى المعصوم والقدوة للناس بأن يحذر وساوس النفس الأماره، لئلا تصبح سبباً لانحرافه عن طريق الحق والعدالة.

وعلى هذا الأساس، يجب على الحاكم الإسلامى أن يراقب نفسه جيداً ويحذر من الأهواء والدوافع الدنيوية والحبّ والبغض أن تتحكم فى أعماله وتصرفاته فيضيق بها حقاً أو يرتكب باطلاً، وما أشد ما اختلف هذا الميزان للحاكم مع من يقول إن القاضى يعتبر

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٢٧

مسؤولاً فقط أمام القانون لا أكثر، ذلك القانون الذى له أكثر من ألف طريقة للفرار والتبرير.

٥- وفى سورة النساء يخاطب القرآن الكريم جميع المؤمنين ويذكرهم بأصل مهم، وهو تقديم الأصول والضوابط على الروابط، ويقول:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ أَنْ يَكُونَ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَأَنْ تَلُؤُوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا». (النساء / ١٣٥)

وبهذا لا ينبغى للروابط بين الأب والأم والأبن والأخ أن تكون حجرة عثرة أمام تطبيق القانون وإجراء العدالة، بل حتى المنافع الشخصية لا بد من نسيانها وتركها فى مقابل الحق.

ومن البديهي أن مثل هذه الكلمات يمكن أن تطرح فى المحافل المادية، ولكن مضافاً إلى عدم وجود الضمانات العملية فى تطبيقها، لا يمكن تصوّر مفهوم صحيح عنها، ولهذا نجدهم يقدمون المنافع الشخصية والحزبية دائماً على القيام بالعدل والقسط، فالروابط حاكمه هنا على الضوابط، وأحياناً يتم هذا المعنى من تجاوز القوانين علناً فى التصرفات المتناقضة للحكام الماديين فيما لو تشابهت المفردات، أحدهم يسير وفق المصلحة، والآخر على نقيضه، فهنا يتضح زيف الشعارات المتعلقة بالقسط والعدل وحقوق البشر ويثبت بطلانها.

هناك ملاحظات ملفتة للنظر فى الروايات الإسلامية لبيان الثقافة الحاكمة على الحكومة الإسلامية يطول شرحها، ولكن يمكن الإشارة إليها باختصار:

١- رعاية الاصول الأخلاقية في حرب مع الأعداء

بالرغم من أن الحرب تمثل منتهى الخشونة لدى الإنسان، وتكون مع الأسف ضرورية في بعض الأحيان مقابل من لا يدرك سوى منطق القوة، مع ذلك نجد أن الإسلام في برنامجه الحربى قرن المسائل الإنسانية مع وحشية الحرب، وأوجب على المسلمين رعاية الأصول

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٢٨

الأخلاقية في حربهم مع الأعداء الشرسين.

وعندما كانت مجموعات المجاهدين من جيش الإسلام تتوجه إلى ميادين القتال كان رسول الله صلى الله عليه وآله يدعوهم إليه ويوصيهم بوصاياه، ويقول:

«سَبِّرُوا بِسْمِ اللَّهِ وَبِاللَّهِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلَى مِلَّةِ رَسُولِ اللَّهِ لَا تَعْلُوا، وَلَا تُمْتَلُوا وَلَا تَعْدُرُوا وَلَا تَقْتُلُوا شَيْخًا فَانِيًا، وَلَا صَبِيًّا وَلَا امْرَأَةً وَلَا تَقْطَعُوا شَجَرًا إِلَّا أَنْ تَضْطُرُّوا إِلَيْهَا، وَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أَدْنَى الْمُسْلِمِينَ أَوْ أَفْضَلِهِمْ نَظَرَ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَهُوَ جَارٍ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ فَإِنْ تَبِعَكُمْ فَأَخُوكُمْ فِي الدِّينِ وَإِنْ أَبَى فَأَبْلَغُوهُ مَا مَنَّهُ وَاسْتَعِينُوا بِاللَّهِ عَلَيْهِ» (١).

ونقرأ في حديث آخر:

«نَهَى رَسُولُ اللَّهِ أَنْ يُلْقَى السُّمُّ فِي بِلَادِ الْمُشْرِكِينَ» (٢).

«مَا بَيَّتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَدُوًّا قَطُّ» (٣).

ونقرأ أيضاً في حديث آخر من وصايا النبي صلى الله عليه وآله الحربية إلى الإمام على عليه السلام عندما كان الإمام عازماً للتوجه إلى اليمن:

«لَا تَقَاتِلَنَّ أَحَدًا حَتَّى تَدْعُوهُ، وَأَيُّمَ اللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ عَلَى يَدَيْكَ رَجُلًا خَيْرَ لَكَ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَغَرَبَتْ» (٤).

٢- الآداب الإسلامية في جمع الضرائب

ونقرأ في الآداب المتعلقة بجمع الزكاة والأموال لبيت المال أن الإمام علياً عليه السلام كلما بعث رجلاً لجمع الزكاة أوصاه بوصايا عديدة. منها ما يلي:

(١) فروع الكافي، ج ٥، ص ٢٧-٢٨- ح ١.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٨، ح ٢.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٨، باب وصية رسول الله...، ح ٢٣.

(٤) المصدر السابق، ح ٤.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٢٩

«أَنْطَلِقُ عَلَى تَقْوَى اللَّهِ وَخِيَدِهِ لَا- شَرِيكَ لَهُ، وَلَا- تُرْوَعَنَّ مُسْلِمًا، وَلَا تَجْتَازَنَّ عَلَيْهِ كَارِهًا، وَلَا تَأْخُذَنَّ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِي مَالِهِ فَإِذَا قَدِمْتَ عَلَى الْحَيِّ فَمَنْزِلُ بِمَائِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخَالِطَ أَيْتَانَهُمْ، ثُمَّ امْنُضِ إِلَيْهِمْ بِالسَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ حَتَّى تَقُومَ بَيْنَهُمْ، فَتَسَلِّمْ عَلَيْهِمْ وَلَا تُخْدِجْ بِالتَّحِيَّةِ لَهُمْ، ثُمَّ تَقُولُ: عِبَادَ اللَّهِ! أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ وَلِيُّ اللَّهِ وَخَلِيفَتُهُ لِأَخْذِ مِنْكُمْ حَقِّ اللَّهِ فِي أَمْوَالِكُمْ فَهَلْ لِلَّهِ فِي أَمْوَالِكُمْ مِنْ حَقٍّ فَتَوَدُّوهُ

الى وِئِهِ، فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: لا، فَلَا تُرَاجِعْهُ، وَأَنْ أَنْعَمَ لَكَ مُنْعِمٌ فَانْطَلِقْ مَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخِيفَهُ أَوْ تُوعِدَهُ أَوْ تُعَسِّفَهُ أَوْ تُرَهِّقَهُ» (١).

وبعد هذه التعليمات، يوصيه الإمام عليه السلام بوصايا مؤكدة عن كيفية الانتخاب العادل لزكاة بيت المال من بين الأموال الجيدة والسقيمة، ورعاية الرفق والمداراة والمحبة، وغير ذلك مما يعتبر نموذجاً واضحاً على حاكمية القيم الإسلامية في هذه الأمور في المعاملة مع الناس.

قد يتصور البعض أنّ طريقة المعاملة هذه في مسألة الضرائب الإسلامية توجب الضعف والفتور لدى الناس، وتختلف كثيراً عما نشاهده اليوم من كيفية جمع الضرائب.

ولكن لا ينبغي الغفلة عن أنّ هذه التعليمات واردة في المجتمع الإسلامي الذي تربي أفراده تربية إسلامية وشعروا فيه بالمسؤولية. كما أننا نجد الآن وفي بعض المجتمعات غير الإسلامية، كثيراً من الأشخاص - وبسبب الثقافة الحاكمة هناك - يدفعون الضرائب عن طيب خاطر من دون أن يطالبهم أحد، وأكثر من ذلك وأفضل ما يجري في مجتمعنا الإسلامي حيث تأتي الناس زرافاتٍ ووحداً إلى مراجع الدين ليؤدوا ما عليهم من الخمس الواجب وبدقة متناهية حتى يحسبوا حساب عدّة كيلو غرامات من السكر أو الشاي الموجودة في بيوتهم مما زاد عن مؤونة السنة، حيث إنّ الناس يشعرون جميعاً بالمسؤولية، وهكذا بالنسبة لزكاة الفطرة وشعور الناس بالمسؤولية تجاهها.

وكلما انتشرت وتعمقت هذه الثقافة والشعور بالمسؤولية اتّضح الجواب عن هذا الإشكال كاملاً.

(١) نهج البلاغة، الرسالة ٢٥.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٣٠

٣- الإقتصاد في كل شيء

من مميزات الثقافة الإسلامية أيضاً الإقتصاد والدقة في صرف أموال بيت المال بعنوان أنّه وديعة وأمانة إلهية بيد المسؤولين يحاسبون عليها يوم القيامة حساباً عسيراً، والحادثة المعروفة التي وقعت لعقيل بن أبي طالب أحد الشواهد على ذلك حيث طلب من أخيه الإمام على عليه السلام أن يفصله على الآخرين في العطاء، فنجد أنّ الإمام علياً عليه السلام رفض وضع أدنى امتياز بين أخيه والآخرين حتّى أنّه عليه السلام أحمى له حديده وقربها من يده وحذره من عذاب الله يوم القيامة.

وهناك موارد أخرى كثيرة ولا- نظير لها ستبين دقة المسؤولين ورجال الإسلام في هذا المجال ومن ذلك تعليمات الإمام على عليه السلام إلى الكُتاب في الحكومة الإسلامية حيث يقول عليه السلام:

«ادِقُوا أَقْلَامَكُمْ وَقَارِبُوا بَيْنَ شِطْرِكُمْ وَاحْذِقُوا عَنِّي فَضُولَكُمْ، وَأَقْضُوا قَضَاءَ الْمَعَانِي، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَثَارَ، فَإِنَّ أَمْوَالَ الْمُسْلِمِينَ لَا تَحْتَمِلُ الْأَضْرَارَ» (١).

وقد بين الإمام الصادق عليه السلام هذا المعنى بصورة كلية حيث قال:

«أَنَّ الْقَصْدَ أَمْرٌ يُجِبُّهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ وَأَنَّ السَّرْفَ يُبْغِضُهُ حَتَّى طَرَحَكَ النَّوَاهُ فَإِنَّهَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ وَحَتَّى صَبَّكَ فَضَلَ شَرَابَكَ» (٢).

وقد ثبت في هذا الزمان أنّ كل شيء لا ينبغي أن يطرح، فيمكن الاستفادة حتى من القمامة والمواد الزائدة للمصانع وغيرها، وحتى أنّ مياه المجارى مع قذارتها ورائحتها النتنة يتم تصفيتها من جديد وإرسالها إلى المزارع، وكذلك يتم جمع القمامة فيصنعون منها منتجات مختلفة، ونختم هذا الكلام بحديث كريم من دعاء الصحيفة السجادية للإمام على بن الحسين عليه السلام في هذا المجال حيث يدعو الله تبارك وتعالى ويقول:

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَاحْجُبْنِي عَنِ السَّرَفِ وَالْازْدِيَادِ، وَقَوِّمْنِي بِالْيُذْلِ وَالْاِقْتِصَادِ، وَعَلِّمْنِي حُسْنَ التَّقْدِيرِ، وَأَقْبِضْ نِي بِطُفِكَ عَنِ التَّبَذِيرِ» (٣).

(١) الخصال، ج ٢١، الباب ٢٥، ح ٨٥؛ بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٤٩، ج ١٠١، ص ٢٧٥.

(٢) بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٣٤، ح ١٠.

(٣) الصحيفة السجادية، الدعاء ١٣٠ (دعاؤه في المعونة على قضاء الدين).

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٣١

٤- المعيار الفضيلة وليس العمر

لقد تم انتخاب عتاب بن أسيد من قبل النبي صلى الله عليه وآله أميراً على مكة المكرمة، وكان شاباً شجاعاً ذكياً، فكتب له رسول الله صلى الله عليه وآله في كتاب تنصيه كلمات منيرة توضح الثقافة السامية للإسلام في المجال التنفيذي في الحكومة الإسلامية ونقرأ في بعض كلماته:

«فَهَوْلَنَا خَادِمٌ وَفِي اللَّهِ آخٌ وَلَاوَلِيَانَا مُوَالٍ، وَلَاعْدَانَا مُعَادٍ، وَهُوَ لَكُمْ سَمَاءٌ ظَلِيلَةٌ، وَأَرْضٌ زَكِيَّةٌ، وَشَمْسٌ مُضِيئَةٌ وَلَا يَحْتَجُّ مُحْتَجٌّ مِنْكُمْ فِي مُخَالَفَتِهِ بِصَغْرِ سِنَّهٖ، فَلَيْسَ الْأَكْبَرُ هُوَ الْأَفْضَلُ، بَلِ الْأَفْضَلُ هُوَ الْأَكْبَرُ!» (١).

٥- الرأفة الإسلامية

الإمام على عليه السلام عندما أراد بيان الرأفة الإسلامية وشفقة الحاكم الإسلامي على سائر الرعية في عهده المعروف بعهد مالك الأشر الذي يعتبر حقاً أفضل مرسوم إداري كتب لحد الآن ولم يصبه غبار النسيان على مرور الزمان، كتب يقول فيه:

«وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ وَالْمَحَبَّةَ لَهُمْ وَاللُّطْفَ بِهِمْ، وَلَا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبْعاً ضَارِياً تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ، فَإِنَّهُمْ صِدْفَان: إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدُّنْيَا أَوْ نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ» (٢).

وفي الحقيقة أن الثقافة الإسلامية الحاكمة على العلاقات بين المسلمين وبين غيرهم تتلخص في هذه الجملات المعدودة.

٦- الاعتماد على الشعب

في مكان آخر من كتاب العهد هذا، يوصي الإمام عليه السلام بأن يجعل الوالي اعتماده على

(١) بحار الأنوار، ج ٢١، ص ١٢٣.

(٢) نهج البلاغة، الرسالة ٥٣.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٣٢

الطبقة العامة والكادحة، والإجتناب عن الطبقة المترفة وموالاتها، والسعي دائماً لكسب رضا الطبقة الأولى دون الثانية، يقول عليه السلام:

«وَلْيَكُنْ أَحَبَّ الْأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْ سَيِّطُهَا فِي الْحَقِّ وَاعْتَمَّهَا فِي الْعَدْلِ وَاجْتَمَعُهَا لِرِضَى الرَّعِيَّةِ، فَإِنَّ سِيْخَطَ الْعَامَّةِ يُجْحِفُ بِرِضَى الْخَاصَّةِ، وَإِنَّ سَخَطَ الْخَاصَّةِ يُعْتَفَرُ مَعَ رِضَى الْعَامَّةِ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الرَّعِيَّةِ انْتَقَلَ عَلَى الْوَالِي مَوْوَنَةً فِي الرَّخَاءِ وَأَقْلُ مَعُونَةً لَهُ فِي الْبَلَاءِ وَأَكْرَهُ لِلْإِنصَافِ وَاسْتَأْذِنَ بِاللِّحَافِ وَأَقْلُ شُكْرًا عِنْدَ الْإِعْطَاءِ وَابْتِطَأَ عُدْرًا عِنْدَ الْمَنْعِ، وَأَضْعَفُ صَبْرًا عِنْدَ مُلِمَاتِ الدَّهْرِ مِنْ أَهْلِ الْخَاصَّةِ، وَإِنَّمَا عِمَادُ الدِّينِ وَجَمَاعُ الْمُسْلِمِينَ وَالْعُدَّةُ لِلْإِعْدَاءِ، الْعَامَّةُ مِنَ الْأُمَّةِ، فَلْيَكُنْ صِعُوكَ لَهُمْ وَمِثْلَكَ مَعَهُمْ».

ويأمر عليه السلام في محل آخر بأن يبتعد كل البعد عن أهل الحسد والذين يبحثون عن عيون الناس، ويقول:
«وَلْيَكُنْ ابْتِعْدَ رَعِيَّتِكَ مِنْكَ وَأَشْنَأْهُمْ عِنْدَكَ، اطْلُبْهُمْ لِمَعَابِبِ النَّاسِ، فَإِنَّ فِي النَّاسِ عُيُوبًا الْوَالِي أَحَقُّ مَنْ سَتَرَهَا، فَلَا تَكْشِفَنَّ عَمَّا غَابَ عَنْكَ مِنْهَا، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ تَطْهِيرَ مَا ظَهَرَ لَكَ وَاللَّهُ يَحْكُمُ عَلَى مَا غَابَ عَنْكَ!».

٧- الإتصال المستمر بالعلماء

التعاون والإتصال المستمر مع المتخصصين والمفكرين والعلماء من كل فن أحد النقاط المهمّة في الثقافة الإسلامية الحاكمة على الجهاز التنفيذي، وقد جاء في عهد مالك الأشتر أيضاً:
«وَإِكْتِزَ مَدَارِسَةَ الْعُلَمَاءِ وَمُنَاقَشَةَ الْحُكَمَاءِ فِي تَثْبِيْتِ مَا صَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرٌ بِبِلَادِكَ وَإِقَامَةِ مَا اسْتَقَامَ بِهِ النَّاسُ قَبْلَكَ» (١).
ويستفاد من هذه العبارة بصورة جيدة أنّ على المسؤولين والحكام الإسلاميين أن يكون لهم دائماً مستشارون في مختلف المسائل السياسية والاجتماعية، ولا يتخذوا قراراً أو يبرموا أمراً في المسائل المهمّة من دون مراجعة هؤلاء المستشارين.

(١) نهج البلاغة، الرسالة ٥٣.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٣٣

٨- الثقافة الحاكمة على الجهاز القضائي

يستفاد أيضاً من الصفات المذكورة للقضاة في هذا العهد نكات مهمّة جداً لم يتطرق إليها بهذه الدقة في أي مذهب أو دين، وتوضح جانباً من الثقافة الحاكمة على الأجهزة القضائية في الحكومة الإسلامية، يقول عليه السلام:
«ثُمَّ اخْتَرِ لِلْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ أَفْضَلَ رَعِيَّتِكَ فِي نَفْسِكَ مِمَّنْ لَا تَضَيِّقُ بِهِ الْأُمُورُ، وَلَا تُمَحِّكُهُ الْخُصُومُ وَلَا يَتِمَادِي فِي الزَّلَّةِ، وَلَا يَحْصِرُ مِنَ الْفِيءِ إِلَى الْحَقِّ إِذَا عَرَفَهُ، وَلَا تُشْرِفِ نَفْسُهُ عَلَى طَمَعٍ وَلَا يَكْتَفِي بِأَذْنِي فَهَمُّ دُونَ أَقْصَاءِ، وَأَوْقَفَهُمْ فِي الشُّبُهَاتِ وَأَخَذَهُمْ بِالْحَجِجِ، وَأَقْلَبَهُمْ تَبَرُّمًا بِمِرَاجِعِهِ الْخُصْمِ، وَأَصْبَرَهُمْ عَلَى تَكْشُفِ الْأُمُورِ وَأَصْبِرْهُمْ عِنْدَ اتِّضَاحِ الْحُكْمِ، مِمَّنْ لَا يَزْدَهِيهِ اطِّرَاءُ، وَلَا يَسْتَمِيلُهُ اغْتِرَاءُ وَأَوْلَيْكَ قَلِيلٌ!» (١).

٩- الإرتباط المباشر مع الناس

الارتباط المباشر مع الناس ارتباطاً واقعياً وصحيحاً لا ظاهرياً تشريفاتياً، من النقاط المهمّة الأخرى التي استند إليها في هذا العهد، حيث يأمر الإمام عليه السلام مالك الأشتر بعنوانه حاكماً مطلعاً على الثقافة الإسلامية بهذه الصورة:
«وَاجْعَلْ لِتَدْوِي الْحَاجَاتِ مِنْكَ قِسِمًا تَفْرُغُ لَهُمْ فِيهِ شَخْصَكَ وَتَجْلِسُ لَهُمْ مَجْلِسًا عَامِيًا فَتَتَوَاضَعُ فِيهِ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَكَ وَتُقْعَدُ عَنْهُمْ

جُنْدَكَ وَاعْوَانَكَ مِنْ اِحْرَاسِكَ وَشُرْطِكَ حَتَّى يُكَلِّمَكَ مُتَكَلِّمُهُمْ غَيْرَ مُتَتَعِّعٍ فَأَنَّى سَجِعتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي غَيْرِ مَوْطِنٍ: «لَنْ تُقَدَّسَ أُمَّةٌ لَا يُؤَخَذُ لِلضَّعِيفِ فِيهَا حَقُّهُ مِنَ الْقَوَى غَيْرَ مُتَتَعِّعٍ» (٢).

وقد أثبت التجارب أن الارتباط غير المباشر بالشعب، يكون سبباً لتزييف الواقع وعدم الإطلاع الكامل على الأوضاع الجارية، غالباً، وعدم حصول الضعفاء من الناس على

(١) نهج البلاغة، الرسالة ٥٣.

(٢) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٣٤

الأخص على حقوقهم، مضافاً إلى أن الارتباط المباشر يوجب ازدياد المحبة يوماً بعد آخر بين المسؤولين وبين أفراد الشعب.

١٠- الإهتمام بالمحرومين

آخر نقطة مهمّة أخرى نذكرها كخاتمة في بحث الثقافة الحاكمة على الجهاز التنفيذي في الحكومة الإسلامية بالرغم من المطالب الكثيرة في هذا المجال، وهي الأهميّة القصوى للاهتمام بالمحرومين في الثقافة الإسلامية، ففي العهد المذكور لمالك الأشتر وعندما يصل الإمام على عليه السلام إلى هذا الموضوع يتغير لحن كلامه كلياً، ويقول:

«ثُمَّ اللَّهُ فِي الطَّبَقَةِ السُّفْلَى مِنَ الَّذِينَ لَا حِيلَةَ لَهُمْ مِنَ الْمَسَاكِينِ وَالْمُحْتَاجِينَ وَاهْلِ الْبُؤْسَى وَالزَّمْنَى فَإِنَّ فِي هَذِهِ الطَّبَقَةِ قَانِعاً وَمُعْتَرّاً وَاحْفَظْ لِلَّهِ مَا سَيَحْفَظُكَ مِنْ حَقِّهِ فِيهِمْ، وَاجْعَلْ لَهُمْ قِسِماً مِنْ بَيْتِ مَالِكَ، وَقِسِماً مِنْ غَلَّتِ صَوَافِي الْإِسْلَامِ فِي كُلِّ بَلَدٍ، فَإِنَّ لِلْأَقْصَى مِنْهُمْ مِثْلَ الَّذِي لِلْأَذْنَى، وَكُلُّ قَدْ اشْتَرَعْتَ حَقَّهُ فَلَا يَشْغَلَنَّكَ عَنْهُمْ بَطْرٌ، فَإِنَّكَ لَا تُعْذَرُ بِتَضْيِيعِكَ التَّافَهُ، لِأَحْكَامِكَ الْكَثِيرِ الْمُهْمَمِّ، فَلَا تُشْخِصْ هَمَّكَ عَنْهُمْ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لَهُمْ» (١).

إنّ هذا التأكيد والإصرار الشديد الذي لا نظير له لأمير المؤمنين عليه السلام بالنسبة إلى هذه الطبقة يعتبر من أوضح معالم العدالة الاجتماعية في الإسلام لحفظ حقوق الناس وخاصية الطبقة المستضعفة، والأسلوب العملي الذي اتبعه الإمام عليه السلام في أيام حكومته شاهد على هذا المدعى

النتيجة:

ما تقدّم يعتبر جانباً من الثقافة الحاكمة على النظام التنفيذي في الإسلام ونموذجاً من

(١) نهج البلاغة، الرسالة ٥٣.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٣٥

مجمل الثقافة الإسلامية في هذا المجال يبيّن أبعاد هذه الحكومة الإلهية والشعبية، وبواسطته يمكننا الوصول إلى هذه الحقيقة وهي أن ما يطرح فعلاً بعنوان الحكومة الإسلامية تفصله عن الشكل الأصلي لهذه الحكومة فاصله واسعة بالرغم من الحركة نحو ذلك الهدف المنشود:

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٣٧

كيفية انتخاب رئيس الجهاز التنفيذي

هناك طرق مختلفة في عالمنا المعاصر لانتخاب رئيس السلطة التنفيذية والمسؤولين من الدرجة الأولى فتارة عن طريق الانتخاب المباشر، وأخرى الانتخاب غير المباشر، وثالثة تنصيبه من قبل مسؤول أعلى وأما بالنسبة لمن ينصبهم النبي صلى الله عليه وآله فتارة يكون تنصيبه أمراً إلهياً وأخرى يكون التنصيب عن طريق النبي نفسه، وهذا ما لاحظناه في حياة الرسول صلى الله عليه وآله

و بالنسبة لمن ينصبه النبي صلى الله عليه وآله عن طريق الأمر الإلهي فذلك أمر واضح، وقد أشارت إليه الآيات التالية:

١- «الَّذِينَ أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ». (الأحزاب/ ٦)

٢- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ».

(النساء/ ٥٩)

٣- «فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا». (النساء/ ٦٥)

٤- «فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ». (النور/ ٦٣)

ومن الواضح أن الإطاعة المطلقة للنبي صلى الله عليه وآله الواردة في هذه الآيات الشريفة ملازمة لتنصيبه صلى الله عليه وآله قائداً للمجتمع الإسلامي.

(١) ذهب بعض المفسرين إلى أن، الضمير في (أمره) يعود إلى الرسول صلى الله عليه وآله، والبعض الآخر ذهب إلى رجوعه إلى الله تعالى ولكن الأوفق لمحتوى الآية الشريفة هو المعنى الأول، وإليه ذهب صاحب الميزان.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٣٨

وهناك آيات أخرى في القرآن الكريم تؤيد هذا المعنى أيضاً.

أما بالنسبة إلى الأئمة المعصومين عليهم السلام فاعتقادنا أنهم أيضاً منتخبون من قبل الله تعالى وتم نصبهم بواسطة الرسول صلى الله عليه وآله، وهناك آيات من سورة المائدة تشير إلى ذلك «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ...». (المائدة/ ٦٧)

الواردة في واقعة الغدير والمذكورة في التفسير الأمثل بشرح كاف، وكذلك روايات عديدة من مختلف الفرق الإسلامية حول انتخاب الإمام على عليه السلام ونصبه خليفة وإماماً بعد الرسول صلى الله عليه وآله، وكذلك الروايات الواردة عن الرسول صلى الله عليه وآله في آله، حول تعيين الأئمة الإثني عشر، والروايات الواردة عن الأئمة والمعصومين عليهم السلام (تعيين كل إمام لما بعده) (وتم شرحها في الجزء التاسع من نفحات القرآن) كلها شاهدة على هذا المدعى ولا حاجة لنا إلى التكرار.

هذا بالنسبة إلى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام، وأما بالنسبة إلى من يأتي بعدهم وفي الفترة اللاحقة، فيمكن للولي الفقيه الجامع للشرائط أن يعين شخصاً لذلك المقام، لأن الولي الفقيه والصالح الذي تتوفر فيه سائر الشروط المعتبرة هو النائب عن الأئمة المعصومين عليهم السلام كما في بحث ولاية الفقيه والذي سنشير إليه فيما بعد، ويجب على الحاكم الشرعي والفقيه الجامع للشرائط أن يضع نصب عينيه مصلحة الأمة في جميع الشؤون الاجتماعية والسياسية، وبلاشك أن مصلحة الأمة توجب أن يكون انتخاب مسؤولي الجهاز التنفيذي بمشورة الناس ومشاركتهم حتى يتسنى لهم التعاون بينهم بشكل أفضل فيما بعد، وهذا لا يكون إلا بانتخاب الشعب لهؤلاء المسؤولين، سواء كان بطريقة مباشرة أو غير مباشرة وخاصة في عصرنا الحاضر الذي سادت فيه ثقافة مشاركة الشعب في الحكومة في المجتمعات البشرية.

وعلى هذا الأساس يُرشح عدّة أشخاص تتوفر فيهم الصلاحية الكافية والشروط اللازمة لإحراز هذا المنصب المهم والحساس طبقاً

لتأييد مجلس الخبراء الصالحين، ويتم عرضهم على الناس، ثم ينتخب الشعب آخر هؤلاء الأشخاص ضمن برنامج انتخاب صحيح وسالم، ومن المعلوم أن من يتمتع بشعبية أكبر وأوسع هو الذى سيفوز بالانتخابات،

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٣٩

ومن خلال تأييد الناس له وتكاتفهم معه أكثر فسيكون هو الأصح لهذا المنصب.

ثم تأتي النوبة لتنفيذ الحكم من قبل الولي الفقيه الجامع للشرائط لى ينتهى بالأمر إلى الأئمة المعصومين عليهم السلام والنبى الأكرم صلى الله عليه وآله حيث ينتهى فى الواقع إلى إذن الله تعالى ورضاه.

ومن المعلوم أن تنفيذ حاكمية هذا الشخص والذى يتمتع بشعبية أكبر، وتدلل أكثرية الأراء التى حصل عليها على أنه يتمتع بحماية أوسع من الشعب هى بصالح الشعب ومصالحته، وسوف لا يتمتع الولي الفقيه الموظف برعاية مصالح الأئمة من تنفيذ هذا الحكم.

النتيجة: هى أن الحكومة الإسلامية التى تطوى مسيرها من الأعلى - أى حكومة الله - إلى الناس، يمكنها أن تتوافق بصورة كاملة مع موازين الحكومة الشعبية، مع فارق بينهما، وهو أن المرشحين لإشغال منصب رئاسة السلطة التنفيذية فى الحكومة الإسلامية لا بد أن تتوفر فيهم عدّة شروط من الإسلام والإيمان والأمانة والتقوى، بخلاف نظام الحكم غير الإسلامى الذى لا اعتبار فيه لهذه الشروط مطلقاً، وهذا فارق مهم يفرق بين الحكومة الإلهية والحكومة المادية بالرغم من اشتراكهما فى شكل الحكومة الشعبية.

كان هذا بالنسبة إلى المسؤول الأول للجهاز التنفيذى، أما بالنسبة إلى المسؤولين الكبار من الدرجة الثانية فما فوق، فيمكن أن تكون مشاركة الشعب فى انتخابهم بصورة مباشرة أو غير مباشرة، مثلاً يمكن للشعب أن يدلى بأصواته للوزراء، أو يتم ذلك عن طريق نوابه فى مجلس الشورى الإسلامى، وفى كلا-الصورتين يكون لرأى الناس ومشاركتهم دخل فى انتخاب الوزراء، ولكن فى هذه المرحلة أيضاً لا بد من توفر بعض الشروط كالإسلام والإيمان والأمانة فى المنتخبين، لأنهم إنتخبوا من أجل إجراء أحكام الإسلام وتحقيق العدالة الاجتماعية ونشر الثقافة الإنسانية والفضائل الأخلاقية، فلو كان لا يملكها فكيف يمكنه السعى إلى إيجادها ونشرها؟

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٤١

الركن الثالث: السلطة القضائية

تمهيد:

إنّ القضاء والحكم لحلّ الاختلافات ورفع المشاجرات موجود بين الناس من قديم الأيام. حتى فى المجتمعات البدائية كان هناك نوع من التحكيم لحلّ الاختلاف من قبل رئيس القبيلة أو بعض أقربائه أو يتم تعيين شخص لهذا الغرض، وفى الحقيقة أنه من العسير أن يذكر تاريخ بداية القضاء، سوى أن نقول أن عمره يتزامن مع عمر المجتمعات البشرية.

والدليل على ذلك، لأنه كما نعلم أنّ حياة الإنسان هى حياة اجتماعية، وبدون شك فإنّ هذا النوع من المعيشة بالرغم من الإيجابيات يعتبر ميداناً خصباً لنشوء الاختلاف والتضاد، وبعبارة اخرى، إنّ هذه الحياة الاجتماعية وبالرغم من أنّها تعتبر مصدراً لمنافع كثيرة وبركات للمجتمعات البشرية وتؤدّى إلى التطور المادى والمعنوى، إلّا أنّها تحتوى أيضاً على نقاط سلبية ومشكلات عديدة، وتتلخص فى الصراعات التى تظهر دائماً لدفع الاعتداء وإرجاع الحق إلى أهله، فلولا وجود الجهاز القضائى الصحيح لحلّها، لتبدلت المجتمعات البشرية إلى ميدان للصراع الدائم والدامى يحرق الأخضر واليابس.

ومن الجدير بالذكر أنّ هذا الصراع والاختلاف والذى يكون تارة بين اثنين أو أكثر من الأشخاص، وتارة اخرى بين قبيلتين أو دولتين، ليس من الضرورى أن يكون نابغاً من روح العدوان والأنانية واتباع الهوى. بل لو فرضنا وجود مجتمع يكون مصداقاً تاماً للمدينة الفاضلة، وكان جميع من فيها على أعلى مستويات الإيمان والأخلاق والتقوى والثقافة الإنسانية، فمع ذلك يمكن لاختلاف الأذواق

وعدم الإطلاع على جزئيات الحقوق

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٤٢

الاجتماعية والقوانين الموضوعه أن تكون سبباً لظهور الخلافات في تشخيص الحقوق المُستَحَقَّة للأفراد.

على هذا الأساس يكون وجود السلطة القضائية على كل الأحوال جزءاً لا يتجزأ من المجتمعات الإنسانية وبدونها لا يمكن العيش في مختلف السطوح والمستويات الثقافية والفكرية.

ومن البديهي أن السلطة القضائية تتوسع وتعمق بموازاة توسع المجتمعات البشرية، لأنه مضافاً إلى زيادة التعداد الكمي وكثرة الصراعات بسبب كثرة الروابط، نلاحظ زيادة في كيفية الصراعات وتنوعها، فلو لم تتوسع السلطة القضائية بموازاة توسع المجتمع لكان الجانب الاجتماعي مهدداً بالخطر بسبب الاختلافات العميقة والخطرة.

وخلاصة الكلام: إن من الضروري وجود جهاز قضائي مقتدر مع ضمانات كافية لأجراء الأحكام وتعميم العدالة الاجتماعية ومنع الظلم والفساد، ووضع نهاية للصراعات والمنازعات والتنفيذ الصحيح للقوانين، وكذلك الرقابة الدقيقة على الأجهزة التنفيذية، وتعريف المسؤولين في مختلف المراتب بوظائفهم، وبذلك أعطى الدين الإسلامي أهمية بالغة لهذه المسألة ووضع لها المقررات الكثيرة والمتنوعة، لأنه دين الحياة الحقيقية للبشرية بمضمون قوله تعالى:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ». (الأنفال / ٢٤)

نكتفي بهذه الإشارة ونرجع إلى القرآن الكريم حيث أشار إلى هذا الموضوع في عدة آيات، منها:

١- يقول القرآن الكريم مخاطباً النبي الأكرم صلى الله عليه وآله:

«أَنَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً». (النساء / ١٠٥)

٢- ويقول في موضوع آخر مخاطباً الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بالنسبة إلى التحكيم لغير المسلمين:

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٤٣

«وَأَنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ». (المائدة / ٤٢)

٣- ويقول في مكان آخر مخاطباً جميع المؤمنين:

«إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً». (النساء / ٥٨)

٤- ومن جهة أخرى يوصي المؤمنين بالخضوع والتسليم لحكم النبي صلى الله عليه وآله وعدم إظهار التبرم لا- في الظاهر ولا في الباطن، والقبول بالحق والعدل بالروح والبدن مهما كان الحق مرّاً، ويقول:

«فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَزَاجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً». (النساء / ٦٥)

٥- ويقول أيضاً:

«أَمَّا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ». (النور / ٥١)

٦- ويؤكد القرآن الكريم حتى على مسألة الشهادة في المحاكم والتي هي إحدى المقدمات المهمة في القضاء بالحق والعدالة، ويخاطب جميع المؤمنين قائلاً:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ». (المائدة / ٨)

فعلى هذا الأساس لا يمكن لأى شىء أن يخل بالحق والعدل في المجتمع الإسلامي، فالشهادة ينبغي أن تكون عادلة سواء في حق الصديق والعدو، والقضاء يجب أن يدور حول محور العدالة ويكون الأقرب والأبعد بالنسبة إليه على حد سواء.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٤٥

من يكون له حق الفصل والقضاء؟

تمهيد:

كما أن حق الحكومة والحاكمية يعود إلى الله تعالى على أساس أصل «التوحيد الأفعالي» المسلم به، كذلك حق القضاء أيضاً يعود إلى من له الإذن من الله تعالى.

«التوحيد الأفعالي» يقول: إن كل الأفعال تعود إلى الله تعالى، و«توحيد الخالقية» يقول:

إن كل شيء في هذا العالم خلق منه و«توحيد الحاكمية» الذي هو فرع توحيد الخالقية يقول: إن الحكومة لله تعالى خالصة، وهذا هو السبب في كون القضاء في محيط حكومته من اختصاصه تبارك وتعالى ومن يأذن له بذلك.

من جانب آخر يقول توحيد الطاعة: إن الأمر المطاع والمقبول إنما هو أمر الله تعالى ومن يعود أمره إلى أمر الله تعالى، فعلى هذا الأساس لا بد أن يكون الحكم القضائي المقبول أيضاً بإذن منه تعالى.

لو نظرنا إلى المجتمع البشري من هذه الزاوية فسوف نجد أن مبدأ القضاء واضح جداً، فلا نقع في حيرة في تشخيصه مطلقاً، لأن أنظارنا متوجهة إلى نقطة واحدة وهي التي صدر منها الوجود، وانبعث منها الخلائق، والأمر النافذ في كل شيء هو أمره، إذن فلا بد أن نسعى كي تكون محاكمنا القضائية خاضعة لأمره ومصطبغة بصبغة إلهية كي نحصل بذلك على مشروعيتها.

نعود بعد هذا التمهيد إلى القرآن الكريم لنكتشف مسأله انحصار القضاء والتحكيم بالله تعالى:

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٤٦

١- نقرأ في قوله تعالى

«انِ الْحُكْمُ اَللّٰهُ لِيَقْضِيَ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ». (الأنعام / ٥٧)

وقد جاء صدر هذه الآية الشريفة «انِ الْحُكْمُ اَللّٰهُ» في سورة يوسف الآية ٤٠ كذلك.

ويمكن أن يكون ما جاء في سورة يوسف له مفهوم أوسع بحيث يشمل الحكومة والقضاء، ولكن ما جاء في الآية المذكورة فيه إشارة أقوى إلى القضاء وحل الاختلافات بقريته ذيل الآية الكريمة، وقد أشار إلى هذا المعنى مجموعة من المفسرين:

أمثال الطبرسي في مجمع البيان والفخر الرازي في التفسير الكبير (١).

٢- نقرأ في قوله تعالى:

«وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا اَنْزَلَ اللّٰهُ فَاُولٰٓئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ... فَاُولٰٓئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ... فَاُولٰٓئِكَ هُمُ الْفٰسِقُونَ». (المائدة / ٤٤-٤٥، ٤٧)

فهم كفار لأنهم خرجوا عن جادة التوحيد (توحيد الحاكمية)، وظالمون لأنهم ظلموا أنفسهم والآخرين وحرموا من مصالح الأحكام القطعية وغرقوا في دوامة مفسد الأحكام الجاهلية، وفاسقون لأنهم خرجوا عن دائرة الطاعة، والفسق كما تعلم هو الخروج عن طاعة المولى، وهذه الآيات الشريفة لها مفهوم واسع كذلك بحيث يشمل الفتوى في الأحكام الإلهية، ومسألة القضاء والتحكيم، ومسألة الحكومة أيضاً، فيجب أن تكون في كل من الأبعاد الثلاثة موافقة ومطابقة لحكم الله تعالى (لاحظ جيداً).

٣- القرآن الكريم يعتبر كل حكم غير إلهي حكم طاغوت، وأتباعه يمثل السير على خطى الشيطان، فيقول:

«الْم تَر اَلَّذِينَ يَزْعُمُونَ اَنَّهُمْ اٰمَنُوْا بِمَا اَنْزَلَ اِلَيْكَ وَمَا اَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ اَنْ يَتَّحٰكُمُوْا اِلَى الطَّاغُوْتِ وَقَدْ اٰمَرُوْا اَنْ يَكْفُرُوْا بِهٖ وَيُرِيْدُ الشَّيْطٰنُ اَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلٰلًا بَعِيْدًا». (النساء / ٦٠)

٤- القرآن الكريم يعتبر أيضاً الأحكام التي تصدر عن مبدأ غير إلهي أحكاماً جاهلية،

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٣١٠؛ التفسير الكبير، ج ١٣، ص ٧.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٤٧

ويعبّر عن الأشخاص الذين يريدون أحكاماً غير إلهية (كبعض اليهود الذين اختلفوا فيما بينهم فجاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وآله وكانوا يريدون منه أن يصدر حكماً مطابقاً لرغبتهم) بقوله:

«أَفْحَكُمُ الْجَاهِلِيَّةُ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ». (المائدة/ ٥٠)

٥- يقول القرآن الكريم في مكان آخر معلماً للنبي الكريم صلى الله عليه وآله بأن يقول:

«أَفَعَيِّرَ اللَّهُ أَتْبَغَى حُكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا». (الأنعام/ ١١٤)

٦- ويأمرنا القرآن الكريم بحل اختلافاتنا بواسطة تحكيم الله تعالى، بقوله:

«وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكِّمُوهُ إِلَى اللَّهِ». (الشورى/ ١٠)

يستفاد من مجموع هذه الآيات وآيات أخرى بصورة واضحة أن نظرية القرآن في هذا الموضوع تقضى بأن الحاكم والقاضي هو الله تعالى، وكذلك من جعله الله تعالى قاضياً وحاكماً من قبله، وما سوى ذلك فهو حكم الشيطان والطاغوت والجاهلية.

وعلى هذا لا بدّ في سلسلة مراتب القضاة في الحكومة الإسلامية أن تنتهي إلى أمر وإذن الله تعالى وتكتسب المشروعية منه، فالرسول الكريم صلى الله عليه وآله قد حصل على هذا المنصب من الله تعالى، والأئمة المعصومون عليهم السلام أيضاً قد انتخبوا لهذا المقام من قبل الله تعالى وبواسطة النبي صلى الله عليه وآله، والقضاة الإسلاميون يكتسبون مشروعيتهم من الأئمة عليهم السلام.

وقد بين القرآن الكريم هذا المعنى بوضوح في قوله تعالى

«وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَآ يَقْضُونَ بِشَيْءٍ». (المؤمن/ ٢٠)

إذن فقضاء الله تعالى وأوليائه هو المقبول والصحيح، لا التحكيم الجاهلي وغير الإلهي.

وهذا المعنى أيضاً ورد بصراحة أكثر في الروايات الإسلامية في أبواب القضاء منها:

١- ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قوله:

«اتَّقُوا الْحُكُومَةَ فَإِنَّ الْحُكُومَةَ إِنَّمَا هِيَ لِلإِمَامِ الْعَالِمِ بِالْقَضَاءِ الْعَادِلِ فِي الْمُسْلِمِينَ، لَنَبِيِّ أَوْ وَصِيِّ نَبِيِّ» «١».

(١) وسائل الشيعة، ج ١٨، أبواب صفات القاضي، باب ٣، ح ٣.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٤٨

٢- وفي حديث آخر ورد عن الإمام الصادق عليه السلام بأن الإمام علي عليه السلام قال لشريح القاضي:

«يَا شَرِيحُ قَدْ جَلَسْتَ مَجْلِسًا لَا يَجْلِسُهُ إِلَّا نَبِيٌّ، أَوْ وَصِيِّ نَبِيِّ أَوْ شَقِيٍّ» «١».

٣- وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً أنه قال:

«وَالْحُكْمُ لَا يَصِحُّ إِلَّا بِإِذْنِ مَنْ لَدَيْهِ وَبُرْهَانِهِ» «٢».

وهكذا نجد أن الأدلة العقلية الناظرة إلى التوحيد الأفعالي وتوحيد الحاكمية والمالكية تثبت اشتراط القضاء بالإذن الإلهي، وكذلك الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة الواردة في هذا المجال، وما يقال إن المجتهد الجامع للشرائط (الولي الفقيه) له ثلاثة مناصب: منصب الإفتاء، ومنصب القضاء، ومنصب الولاية، فهو ناظر إلى هذا المعنى.

والآن نبحت صفات القاضي في الإسلام، وكذلك آداب القضاء، والفرق بين القضاء في الإسلام والقضاء في الثقافة الغربية ومسائل

اخرى في هذا الباب.

(١) وسائل الشيعة، ج ١٨، ابواب صفات القاضى، باب ٣، ح ٢.

(٢) مصباح الشريعة، ص ٤١ (إن اعتبار هذا الكتاب مشکوك عند العلماء، وبالأخص فإن مؤلفه لم يُعرف لحد الآن).

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٤٩

صفات القاضى

إشارة

ذُكرت في المصادر الإسلامية شروط صعبة للقاضى لعلنا لا نجد لها في أى مدرسة ودين آخرين، وإن اختلف في عددها علماء الإسلام وفقهاء الشيعة والسنة.

ولما لم يكن هذا الكتاب كتاباً فقهياً استدلالياً، فسنشير فقط إلى المجمع عليه منها عند فقهاءنا، ثم نستعرض استعراضاً خاطفاً تلك الشروط التي وقعت محل بحث ونقاش بين العلماء والتي اعتبر البعض اشتراطها والبعض الآخر كونها أموراً كمالية في القاضى. أما الشروط المتفق عليها بين فقهاءنا، وكما عبر عنها الفقيه الماهر صاحب الجواهر رضوان الله عليه: «لا خلاف أجده في شىء منها»، وكما عدّها المرحوم الشهيد الثاني من موارد الاتفاق، فهي سبعة:

١- البلوغ: فلا يقبل قضاء الصبى الذى لم يبلغ، ولا- حكومته حتى لو كان يتمتع بدرجة عالية من التقوى والعلم والاطلاع، لأن غير البالغين غير مكلفين بالأحكام الإلهية، ولذا فهم خارجون عن دائرة القوانين والأوامر الإسلامية، وبهذا الدليل لا يعتمد على قضائهم وحكومتهم.

٢- كمال العقل: فلا يحق للمجنون ولا لناقص العقل ومن يفقد التعادل الروحى، أن يجلس على مسند القضاء، ودليله واضح.

٣- الإسلام والإيمان: فلا تقبل حكومة الخارج عن زمره المسلمين ومن لم يعتقد بمباني مذهب أهل البيت عليهم السلام ودليله واضح أيضاً.

٤- العدالة: وهي مرحلة عالية من التقوى تمنع صاحبها من ارتكاب الكبائر والاصرار

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٥٠

نفحات القرآن ج ١٠ ١٩٩

على الصغائر، والحق أن من لا يتمتع بمثل هذه الدرجة من التقوى لا يُتوقع أن يقضى قضاءً صحيحاً.

٥- العلم والإطلاع على القوانين الإلهية: في موارد حقوق الناس والحدود والديات والقصاص والمعاملات، وكذلك مقررات العدالة الإسلامية. فهل ينفذ حكم من يفقد مثل هذا الشرط (الاجتهاد المطلق أو على الأقل المتجزىء) أو غير المجتهد المطلع على كل المسائل الحقوقية ومقررات العدالة الإسلامية؟ فيه بحث ونقاش بين العلماء والفقهاء، وإن كان المشهور بينهم اعتبار الاجتهاد، حتى أن بعضهم اشترط أعلميته على كل علماء مدينته، ولكن هذا الشرط ضعيف.

وعلى كل حال، فإنه وفي حالة عدم الحصول على العدد اللازم من المجتهدين- المجتهد المطلق- فلا مناص من الاعتماد على غير المجتهدين، والمطلعين منهم على كل المسائل عن طريق التقليد.

٦- طهارة المولد: وبعبارة أخرى ولد الحلال، لأن ولد الحرام وإن لم يكن له ذنب في كونه ولد حرام، إلا أنه غير مقبول في المجتمع

الإسلامي، فلا تكون كلمته نافذة، ولا شك في ضرورة نفوذ كلمة القاضي وقبولها- مضافاً إلى ذلك، فإن احتمال الانحراف والذنب في مثل هذا الإنسان أكثر من احتمالهما في غيره وإن لم يكن مجبوراً على الذنب والانحراف، (لاحظوا ذلك بدقة).

٧- الذكورة: المشهور والمعروف بين علماء الإسلام أن القاضي لا بُدَّ أن يكون رجلاً، وإن خالف وتردد بعض فقهاء العامة كأبي حنيفة في هذا الحكم «١».

ومن الواضح أن سيطرة العواطف والاحاسيس عند المرأة لا يسمحان لها بالقيام بوظيفته فيها شدة وصرامة كمسألة القضاء والحكومة، مضافاً إلى أن هذا الموضوع مورد اتفاق وإجماع علماء الشيعة.

(١) نقل عن أبي حنيفة قبول قضاء المرأة في الأموال، ولكن حكى عن الطبري جواز ذلك بقول مطلق. (بداية المجتهد، ج ٢، ص ٤٦٠، كتاب الاقضية).

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٥١

وهنا ثلاثة شروط وقع البحث في شرطيتها بين العلماء:

٨- الحرّية (وعليه لا يمكن أن يكون العبد قاضياً) ولكن الكثيرين لم يقبلوا هذا الشرط.

٩- البصر.

١٠- السمع.

والواقع، لا يوجد اي دليل على اشتراط هذه الثلاثة، وعليه فلا فرق في صلاحية القضاء عند الحر والعبد (ومن حسن الحظ أن موضوع الرقية منتفٍ في زماننا).

وأما في خصوص السمع والبصر، فإن لم يكن القضاء في الموارد التي يحتاج فيها إلى الإبصار أو إلى السمع، فلو كان القاضي أعمى ولكن كان بإمكانه الاستماع والقضاء بدقة، أو كان أصماً ولكن كان بإمكانه النظر وقراءة ملف الدعوى والقضاء بشكل صحيح، فلا مانع من حكومته، وإن كان الأغلب هو أن الأعمى أو الأصم لا يمتلك القدرة الكافية للقضاء في كل الموارد، وعليه تكون رعاية هذين الشرطين واجبة غالباً من باب المقدمة.

وما ذكرنا هنا من الشرائط السبعة ولزومها، وعدم لزوم الشرائط الثلاثة الأخيرة، كان في الواقع بنحو الإشارة، وأما تفصيل الكلام في ذلك فمذكور في الكتب الاستدلالية الفقهية «١».

الشرائط الكمالية:

وبالإضافة إلى الشرائط العشرة الانفة، فقد قلنا في البحث السابق أن هناك شروطاً وصفاتٍ أخرى اعتبرت في الروايات الإسلامية للقاضي والتي لا بدّ من عدها من شروط الكمال، وقد وردت إشارة إلى القسم المهم منها في عهد أمير المؤمنين عليه السلام إلى مالك الاشر (في ضمن الشروط الواجبة)، وهي:

١- «ثُمَّ اخْتَرَهُ لِلْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ أَفْضَلَ رَعِيَّتِكَ فِي نَفْسِكَ».

٢- «مِمَّنْ لَا تَضِيقُ بِهِ الْأُمُورُ».

(١) يمكن في هذا المجال مراجعة من كتاب الجواهر، ج ٤٠، ص ١٢-٢٣.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٥٢

- ٣- «وَلَا تُمَحِّكُهُ الْخُصُومَ»، سعة الصدر.
- ٤- «وَلَا يَتِمَادَى فِي الرِّزْلَةِ»، عدم اللجاجة.
- ٥- «وَلَا يَخْضُرُ مِنَ الْفِيءِ إِلَى الْحَقِّ إِذَا عَرَفَهُ»، التسليم للحق.
- ٦- «وَلَا تُشْرَفُ نَفْسُهُ عَلَى طَمَعٍ».
- ٧- «وَلَا يَكْتَفِي بِإِذْنِي فَهَمَّ دُونَ أَقْصَاءِ»، عدم الاكتفاء بالتحقيق السطحي.
- ٨- «وَأَوْقَفُهُمْ فِي الشُّبُهَاتِ».
- ٩- «وَأَخَذَهُمْ بِالْحُجَجِ».
- ١٠- «وَأَقْلَهُمْ تَبَرُّمًا بِمِرَاجِعِهِ الْخَضَمِ».
- ١١- «وَأَضْبَرُهُمْ عَلَى تَكْشِفِ الْأُمُورِ».
- ١٢- «وَأَضْرَمَهُمْ عِنْدَ اتِّضَاحِ الْحُكْمِ».
- ١٣- «مِمَّنْ لَا يَزِدُّهُ إِطْرَاءٌ وَلَا يَسْتَمِيلُهُ إِغْرَاءٌ».
- ١٤- «وَأَفْسَحَ لَهُ فِي الْبُذْلِ مَا يُزِيلُ عِلَّتَهُ وَتَقِلُّ مَعَهُ حَاجَتُهُ إِلَى النَّاسِ» (١)، ينبغي أن يكون مكتفياً من بيت المال.
- ومضافاً إلى ذلك فقد وردت بعض الإرشادات في الروايات الإسلامية في القاضى والتي يمكن عدّها من جهة ما، شرائط كمالية منها: عدم قبول دعوة الناس إلى طعام، عدم قبول الهدية وأن لا يذهب بنفسه للسوق لشراء حوائجه، وأن لا يدعو احد طرفى الدعوى إلى ضيافته، والورع عن كل الامور التي قد تؤدي إلى تاثير الناس فى حكمه وتغيير قناعاته فيحكم بغير الحق عالماً أو جاهلاً.

القرآن وصفات القاضى:

لم ترد الصفات والشروط بشكل مفصل ومبسوط فى القرآن الكريم، ولكن وردت

(١) نهج البلاغة، عهد الإمام على عليه السلام لمالك الاشرى.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٥٣

تعبيرات جمعت فيها أكثر الشروط المذكورة.

١- فى موضع نجد القرآن الكريم يعتبر أن أتباع الهوى يمنع من الحكم بالعدل، حيث يقول تعالى «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا».

(النساء / ١٣٥)

٢- ونفس هذا المعنى جاء بشكل آخر فى قصه حكومه وقضاء داود عليه السلام، حيث خوطب داود بقوله تعالى

«يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ». (ص / ٢٦)

وبذلك يعتبر القرآن أن الورع عن «أمّ المفساد» وهو اتباع هوى النفس - يمثل أحد الشروط الأساسية للحكومة بالحق، والنقطة المقابلة لها، هى الدرجة العالية من التقوى والمانعة من الانحراف عن مسير العدالة والحق، إلى درجة أن أقوى العواطف الإنسانية كالعلاقات الأسرية لا تستطيع أن تؤثر سلباً فى تلك التقوى

٣- وفى موضع آخر من القرآن - نجد أنه يعتبر الحكم بما أنزل الله من شروط الإيمان والعدالة (١)، ويؤكد على نبي الإسلام صلى الله

عليه و آله أن يكون حكمه مطابقاً لما علمه الله «إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ». (النساء / ١٠٥)

٤- وفي موضع آخر نجد القرآن الكريم يُحذِرُ النبي صلى الله عليه و آله من اتباع أهواء الناس، فيقول:

«وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ». (المائدة / ٤٩)

٥- كما ويحذره من أن تؤثر العداوات الشخصية في القاضى فيحكم بغير عدل، بل لا بد أن يكون الحكم والشهادة مطابقين دائماً للعدل والحق، سواءً كانا في حق الصديق أو كانا

(١) المائدة، ٤٤، ٤٥، ٤٧.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٥٤

في حق العدو، يقول تعالى «وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ آَلَا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ». (المائدة / ٨)

النتيجة:

من خلال الآيات المذكورة والروايات الإسلامية وفتاوى كبار الفقهاء في الصفات اللازمة للقضاء والشهادة، وكذلك الصفات الكمالية في القاضى، يمكن أن نستفيد هذه النتيجة وهي: أن الإسلام اعتنى عناية خاصة بهذه المسألة، وتابع بدقه فائقة قضية العدالة القضائية، وألزم معتقديه بها بشكل يمنع عن أدنى درجة من الانحراف عن الحق والعدالة في القاضى مهما كانت قليلة حتى أنه اهتم بأصغر الامور التي قد تؤثر في عدالة حكم القاضى وتحرفه عن الحق، وحذّر منها.

ومتى ما اضفنا الشرائط الآتية في الفصل اللاحق حول «آداب القضاء» سيتضح لنا أكثر فاكثر اهتمام الإسلام بهذا الأمر بشكل تتصاغر معه شعارات العدالة التي ترفعها المدارس الاخرى

آداب القضاء في الإسلام:

المسألة المهمية هي: إن الأديان الإلهية قد تقدمت على المدارس المادية بخطوات كثيرة في مجالات القضاء والحكومة والقواعد التي تقتضيها المجالس القضائية، بل لا يمكن المقارنة بينهما في هذا المجال، وما ذاك إلا من أجل الاسس الأخلاقية القوية التي تمتكها الأديان الإلهية في تلك المجالات.

ففي هذه الأحكام نجد لطائف ودقائق كثيرة، وعلى الرغم من أن بعضها مرتبط بالزمان السابق وقد لا يكون له اليوم مورد، ولكنها من وجهة النظر الاصولية تمتاز بمفهوم قيم بالنسبة للمسائل القضائية.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٥٥

ويكفينا للاستشهاد على ذلك ماجاء على لسان «المحقق الحلى» في كتاب الشرائع في بحث آداب القضاء والذي يعتبر في الواقع عصارة ما ورد في الروايات الإسلامية وكلمات الفقهاء.

حيث يقول: يستحب للقاضى رعاية عدّة امور:

١- أن يطلب من أهل ولايته من يسأله عمياً يحتاج إليه في أمور بلده (أى يتعرف على عادات الناس واوضاعهم الاقتصادية، وأن يتعرف على العلماء والصالحين وحتى القضاء السابقين ليحصل على بصيرة كافية في عمله، إذ إن الاطلاع بأوضاع المنطقة والمحل والثقافة الحاكمة على الناس، له تأثير بالغ في مسألة القضاء والحكومة العادلة).

- ٢- أن يسكن عند وصوله في وسط البلد حتى ترد الخصوم عليه وروداً متساوياً.
- ٣- وأن يُنادى بقدمه إن كان البلد واسعاً ولا ينتشر خبره فيه إلا بالنداء.
- ٤- أن يجلس للقضاء في موضع بارز، مثل رحبة أو فضاء ليسهل الوصول إليه (لا خلف الأبواب المغلقة محاطاً بالحرس).
- ٥- أن يبدأ بأخذ ما عند الحاكم المعزول من حاجات الناس وودائعهم، لأن نظر الأول سقط بولايته. (وقد كانت العادة في تلك الأزمنة أن يودع الناس وودائعهم عند الحاكم، وكذا الأموال المتنازع فيها).
- ٦- لو حكم في المسجد، صلى عند دخوله تحية المسجد، ثم يجلس مستديراً القبلة ليكون وجه الخصوم إليها (ليستشعر الخصوم أنهم في محضر الله).
- ٧- ويسأل عن أهل السجون، ويثبت أسماءهم وينادي في البلد بذلك ليحضر الخصوم ويجعل لذلك وقتاً فإذا اجتمعوا أخرج اسم واحد واحد، ويسأله عن موجب حبسه، وعرض قوله على خصمه، فإن ثبت محبسه فوجب اعادته، وإلا اشاع حاله بحيث إن لم يظهر له خصم أطلقه.
- وكذا يسأل عن الأوصياء على الأيتام، وأمناء الحاكم، والحافظين لأموال الأيتام (الذين يليهم الحاكم) فيعزل الخائن، ويستبدل به الصالحين بحسب ما يقتضيه رأيه.
- نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٥٦
- ٨- أن يحضر من أهل العلم من يشهد حكمه، فإن أخطأ تبهوه.
- ٩- أن لا يتولى البيع والشراء بنفسه (حذراً من مراعاة الناس لحاله فيبيعونه بأقل من القيمة السوقية، فيتأثر بذلك).
- ١٠- أن لا يقطب وجهه في مجلس القضاء، فيخاف الناس من بيان مطالبهم بصراحة، وأن لا يكون لينا فيتجرأ الخصوم.
- ١١- أن لا يضع فوارق بين الشهود (أن يكون الشهود سواء الذين يعرفهم أم الذين لا يعرفهم، القريب والبعيد سواسية أمام القضاء).
- ١٢- أن يجمع الدعاوى المقدمة في كل اسبوع مرة، ويرتبها ويحفظها، وكذا ينظم الدعاوى المقدمة في كل شهر وكل سنة، فينظمها بتواريخها (أو يصدر أوامره بهذا الصدد).
- ويقول هذا الفقيه الكبير البارع في بحث وظائف القاضي وما يلزم عليه مراعاته:

في وظائف القاضي وهي سبع:

- ١- المساواة بين الخصمين في السلام والجلوس والنظر والكلام والانصات والعدل في الحكم، (بمعنى أنه إذا سلم على أحدهما سلاماً مميزاً بالا احترام فعليه أن يسلم على الآخر بنفس الكيفية، وكذا في رد السلام دون أن تؤثر فيه العلاقات الاجتماعية والمقامات الاجتماعية، وإذا نظر إلى أحدهما بلحظات معينة فعليه أن ينظر للآخر بنفس الكيفية وحتى إذا استمع إلى كلام أحدهما بدقه فعليه أن يستمع لكلام الآخر بنفس الدقة، والحاصل أن عليه مراعاة المساواة الكاملة في مجلس القضاء والحكومة في كل الجوانب حتى التشريفات والاحترامات الجزئية، وما ذاك إلا للحد من الانحراف الكلي الكبير).
- ٢- لا يجوز له أن يلقن أحد الخصمين مافيه حذر على خصمه ولا أن يهديه لوجه الإحتجاج.
- ٣- إذا سكت الخصمان، استحَبَّ أن يقول لهما تكلمما، أو ليتكلم المدعى.
- ٤- إذا ترفع الخصمان وكان الحكم واضحاً، لزمه القضاء، ويستحب له ترغيبهما في الصلح، فإن أبا إلا المناجزة، حكم بينهما.
- نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٥٧

٥- إذا ورد الخصوم مترتبين، بُدء بالأول فالأول، فإن وردوا جميعاً، قرع بينهم.

٦- إذا قطع المدعى عليه دعوى المدعى بدعوى لم تسمع حتى يجيب عن الدعوى وينهى الحكومة ثم يستأنف.

٧- إذا بدر أحد الخصمين بالدعوى فهو أولى «١».

ونكرر هنا إن البحث الجامع والمستدل حول هذه المسائل موكول إلى كتب الفقه الاستدلالية ومصادر الحديث المعروفة، وما ذكرناه هنا عصاره ما جاء في تلك الكتب ليتضح النظام الحاكم على المؤسسات القضائية الإسلامية، وليتضح الفرق بينه وبين سائر المدارس الوضعية.

والنقطة الأخرى المهمة هنا هي أن الروايات الإسلامية أوصت القاضي بأن لا يجلس مجلس القضاء حال الغضب «٢».

كما ينبغي عليه أن لا يقضى بين الناس وهو عطشان أو جائع أو حال النعاس (إذ قد تؤثر تلك الأمور في قضائه سلباً) «٣».

تفاوت كيفية القضاء في الإسلام عن المدارس المادية:

توجد اليوم في العالم مجالس قضائية كثيرة وهي جذابة بظاهرها ولكن متى ما قارنا محتوى تلك المجالس القضائية مع المجالس القضائية الإسلامية، نجد بأن تلك المجالس المادية خاوية وسخيفة وسوف نجد اختلافات واضحة وبيئة فيها، ومن جملتها:

١- ينبغي على القاضي الإسلامي أن يكون صاحب نظر ورأى، ولا يقتصر على مواد القانون فقط، بل لابد أن يكون عارفاً بجذورها ومبانيها، مجتهداً فيها، وبعبارة أخرى الاجتهاد في القضاء شرط من شروطه، بينما لا نجد مثل هذا الاشتراط في دنيا اليوم

(١) جواهر الكلام، ج ٤٠، ص ١٣٩ - ١٤٩.

(٢) وسائل الشريعة، ج ١٨، ص ١٥٦.

(٣) كنز العمال، ج ٦، ص ١٠٣، ح ١٥٠٤؛ اللمعة الدمشقية، كتاب القضاء.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٥٨

ومجالسها القضائية حتى يكتفى بمعرفة مواد القانون فقط والاقتصار على تلك المواد، وهذا فرق واضح بين هذه المجالس والمجالس القضائية الإسلامية.

وبتعبير أوضح، أن الاطلاع على الأحكام التي جاءت في تحرير الوسيلة (مثلاً) قد يكون عن طريق التقليد وقد يكون عن طريق الاجتهاد، وإن كانت وظيفة القاضي على أي حال تطبيق هذه الأحكام في موارد الدعوى وتشخيص صاحب الحق عن غيره، ولكن هناك فرق واضح بين ما إذا كان مطلعاً على أحكام تحرير الوسيلة عن طريق التقليد، أم عن طريق الاجتهاد وتتبع جذور تلك الأحكام ومبانيها من الكتاب والسنة والإجماع والعقل، فالإسلام يوحى بالطريق الثاني.

٢- في النظم القضائية الحديثة، يُكتفى بلياقة القاضي في حدود القضاء والحكومة فقط، أما في الإسلام فإن هذا المقدار غير كافٍ، بل لابد أن يكون القاضي نزيهاً في كل المجالات، إذ إن العدالة تعني الورع عن كل أنواع الذنب سواء كان في دائرة المسائل القضائية، أم في دائرة غير القضاء.

ومن الواضح أن هناك فرقاً كبيراً بين من يكون ورعاً في كل المجالات عن الذنب وبين من يكون ورعاً في مجال معين ودائرة ضيقة، فاحتمال انحراف الثاني أكثر من احتمال انحراف الأول.

٣- إذا قضى قاضي المجالس القضائية الحديثة بالحق دون أن يكون مطلعاً، فإنه لا يكون مسؤولاً، بينما وكما أشرنا آنفاً فإن مثل هذا القاضي مسؤول أمام الله في نظر الإسلام، فالوصول إلى الحق لا يكفي وحده لعدم تحمل المسؤولية، بل لابد أن يكون عن تحقيق

وإطلاع.

٤- يعتبر الارتشاء في نظام القضاء الإسلامي ليس من الذنوب الكبيرة فحسب، بل طبقاً لبعض الروايات فإنه في حد الكفر والشرك، قال الإمام الصادق عليه السلام: «أما الرشا في الحكم فهو الكفر بالله» (١).

(١) وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ١٦٣، باب تحريم الرشوة، ح ٨.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٥٩

فالإسلام يمنع القاضي حتى من قبول الهدية (بطبيعة الحال الهدايا التي تقدم له باعتبار أنه في مقام القضاء، سواء قبل الحكومة والقضاء أم بعده) وقصة الأشعث بن قيس معروفة، حيث جاء ليلاً بهدية إلى دار الإمام علي عليه السلام وهي طبق من الحلوى اللذيذة، فقال له الإمام علي عليه السلام ما هذا؟

فقال: هدية جئت بها إليك! فغضب الإمام عليه السلام وصاح به:

«هَبْلَتَكَ الْهَبُولُ أَعَنْ دِينَ اللَّهِ أَتَيْتَنِي لِتَخْدَعَنِي؟!»

أى تريد أن تعطيني الرشوة باسم الهدية (١).

والملفت للنظر هو أن الإسلام يلعن الراشي والمرتشي والواسطة بينهما، وقد ورد في حديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «لَعَنَ اللَّهُ الرَّاشِيَّ وَالْمُرْتَشِيَّ وَالْوَسْطَةَ الَّذِي بَيْنَهُمَا» (٢).

وقد وردت آيات من القرآن الكريم وبشكل مكرر تشير إلى مسألة الرشوة وتذمها، منها قوله تعالى

«وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِيَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ». (البقرة/ ١٨٨)

وللفخر الرازي هنا تعبير جميل وهو أن «الادلاء» مأخوذ من «الدلو» وهو الإناء الذي يستخرج الماء من البئر بواسطته، «والرشاء» بمعنى «الحبل» فكما أن الإنسان يستخرج الماء الموجود في الدلو بالحبل، فكذلك الراشي يأكل أموال الناس بواسطة الرشوة التي يعطيها للقاضي.

نعم، فالتعبير ب «ولا تدلوا بها إلى الحكام» تشبيه وإشارة لطيفة لهذا الموضوع.

ويستفاد أيضاً من سورة المائدة بأن علماء اليهود حَرَفُوا الْأَحْكَامَ الْإِلَهِيَّةَ لِمَنَافِعِهِمُ الْخَاصَّةِ، وقد ذمَّ القرآن الكريم هذه الظاهرة، فقد قال تعالى

«وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ».

(المائدة/ ٤٤)

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٢٤٤.

(٢) ميزان الحكمة، ج ٤، ص ١٣٥.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٦٠

فمن هذه الآيات يمكن الاستنتاج بأن القضاء والحكومة لله بالدرجة الأولى ومن ثم نقلت منه إلى من يرى فيه المصلحة، وبتعبير آخر: إن غير الله يأخذ مشروعياً أحكامه وقضائه من الله تعالى وهذا ما يقتضيه التوحيد الأفعالي وحاكمية الله أيضاً.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٦١

الحدود والتعزيرات في الإسلام

إشارة

في معرض البحث عن النظام القضائي في الإسلام، لابد من الإشارة السريعة إلى مسألة «الحدود والتعزيرات» (وتفصيل ذلك موكول إلى كتاب أو كتب مستقلة) وهذا البحث في الحقيقة مكمل لأبحاث القضاء في الإسلام، لأن وظيفة القاضي هي «احقاق الحقوق» و «اجراء الحدود» ليردع المجرمين، ويحذر المنحرفين والذين تلوث أيديهم بالاجرام، وهنا لابد من بحث وتبسيط الضوء على عدة مواضع.

١- فلسفة الحدود والتعزيرات في الإسلام

لا شك في أن تشريع الأحكام الإلهية إنما هو من أجل دعوة الناس إلى القسط والعدل، وهداية المجتمع إلى طرق الأمن والامان، ليتمكن الناس من كسب الفضائل والتخلص من الرذائل، والسير إلى الله ومقام القرب الإلهي والذي هو أعلى مقصد للخلق. ولما لم تكن الأحكام الإلهية بمفردها مؤثرة في كل النفوس، كان من اللازم أن تقترن بالانذار والتبشير من أجل خلق الدافع لدى الناس للتحرك باتجاه العمل بها.

ولمّا لم تكن الانذارات والبشارات الاخروية كافية لردع بعض الناس من ارتكاب المخالفات وداعية لقيامهم بالواجبات والوظائف الفردية والاجتماعية، كان من اللازم تعيين مجازات دنيوية لاولئك الذين يتجاوزون الحدود الإلهية المرسومة، ويسحقون الحق والعدالة باقدامهم، لتكون تلك المجازاة ضامناً لإجراء هذه الأحكام بين أولئك الذين لم يتربوا تربية دينية كافية والذين يفتقدون التقوى الدينية.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٦٢

ولا شك في أن النظام الإسلامي يختلف في هذا المضمار عن النظم المادية، إذ لا يوجد في تلك النظم أي ضامن إجرائي غير تلك المجازاة الدنيوية والمادية، ولذا فإن كل حكم فاقد لمعاقبه المتخلف لا يعد في نظر تلك النظم قانوناً وحكماً، وإنما يعتبر في نظرهم توصية أخلاقية فحسب.

وأما في النظم الإلهية، فإن الاعتقادات القلبية، والالتزامات المعنوية والإيمان بمحكمه العدل الالهي العظيمة يوم القيامة والاعتقاد بمراقبة الله في الدنيا، كل ذلك يعتبر من الدوافع المهمة وضامناً إجرائياً قوياً، ولكن لما لم يكن ذلك الداعي مؤثراً في كل النفوس لوحده، كان من الضروري أن يكون إلى جنبه ضامناً إجرائياً مادياً، وعقوبة دنيوية.

واهتمام الشارع المقدس بإجراء الحدود والمجازاة ضد المتخلفين وصل إلى حدّ بحيث ورد في الروايات المتعددة:

«حدّ يُقام في الأرض أزكى من مطر أربعين ليلة وأيامها».

وهذا الحديث مروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وعن الإمام الباقر عليه السلام والإمام الصادق عليه السلام أيضاً، وفي بعض النصوص وردت كلمة «أفضل» أو «أنفع» بدلاً عن كلمة «أزكى» (١).

ونقرأ في حديث عن الإمام السابع موسى بن جعفر عليه السلام في تفسير قوله تعالى «يُحيى الأرض بعد موتها» قال عليه السلام: «لَيْسَ يَحْيِيهَا بِالْقَطْرِ وَلَكِنْ يَبْعَثُ اللَّهُ رَجَالًا فَيَحْيُونَ الْعَيْدَلَ فَتَحْيَى الْأَرْضُ لِأَحْيَاءِ الْعَدْلِ ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَلَا قَامَةَ الْحَدِّ فِيهِ أَنْفَعُ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْقَطْرِ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا».

وكيف لا يكون إجراء الحدّ «أنفع» و «أفضل» و «أزكى» من قطر أربعين صباحاً، وسلامه وأمن المجتمع إنما هي في ذلك الأصل، وأن جذور كل خير وبركة في إجراء الحدود، إذ إنّ الأحكام المباركة التي تجلب الخير والنعمة والمنافع الاقتصادية لا تفيد بلا وجود أمن

وأمان في المجتمع، كما أن أمن المجتمع لا يحصل بدون إجراء الحدود واحقاق الحق، ولولا ذاك لعم الفساد والظلم في المجتمع ولقتل الناس بعضهم بعضاً وخربت المدن واستضعف

(١) وسائل الشيعة، ج ١٨، باب ١ من أبواب مقدمات الحدود، ح ٢، ٣، ٤.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٦٣

عباد الله، ولهذا فإن أول ما طلبه إبراهيم الخليل عليه السلام من ربه عندما بنى الكعبة، هو أن يجعل ذلك البيت آمناً فقال: «رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ». (البقرة/ ١٢٦)

وبذلك طلب نعمة الأمن قبل الأرزاق الأخرى لأنه كان يعلم أن فقدان الأمن يمنع من الاستفادة من المواهب الأخرى

٢- معنى الحد والتعزير

«الحدود»: جمع «حدّ» وهو لغة بمعنى «المنع»، وانتخاب هذا الاسم لقسم من المجازاة الشرعية هو لأنها تمنع الناس من ارتكاب بعض المخالفات القانونية الشرعية. وهي في الاصطلاح الشرعي في عبارات الفقهاء، مجازاة خاصة تجرى في حق المكلفين لارتكابهم بعض الذنوب.

وأما «التعزير» في اللغة فهو بمعنى «التأديب» وقد يأتي أحياناً بمعنى «التعظيم» أو «النصرة» و «المنع»، وفي الاصطلاح بمعنى المجازاة والاهانة، حيث لم يرد فيها مقدار معين في الشرع وإنما أوكلت إلى نظر القاضى، فهو الذى يحدد مقدار ونوع التعزير طبقاً لميزان الجرم الذى يرتكبه المذنب و «مقدار تحمله».

وعلى هذا فالفارق بين «الحدّ» و «التعزير» هو أنّ مقدار الأول ثابت ومحدد، وأما التعزير فهو فى الأغلب غير معين، وقلنا (فى الأغلب) لأنّ بعض التعزيرات ورد فيها مقدار معين فى الروايات الإسلامية، وتفصيل ذلك فى كتاب الحدود، ومع ذلك وقع الخلاف فى أنّ تعيين المقدار فى تلك التعزيرات هل هو معين قطعى أم أنّه مذكور من باب المثل والمصدق؟

وتوجد بعض الفوارق الأخرى بين الحدّ والتعزير، حتّى عيّد الشهيد فى كتاب «القواعد» عشرة وجوه للاختلاف بينهما ولا مجال هنا لتفصيل الكلام فيها «١».

(١) القواعد، الشهيد الأول، ج ٢، ص ١٤٢.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٦٤

٣- تعداد الحدود الإسلامية

إشارة

ورد فى الإسلام عشرة حدود أساسية لعشرة ذنوب كبيرة، وذكرت أربعة منها فى القرآن المجيد صريحة، واستفيدت الستة الباقية من السنّة الشريفة.

١- حدّ الزنا

جاء في قوله تعالى

«الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيْشِهْدَ عَذَابُهُمَا طَافِعَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ». (النور/ ٢)

ففي الآية إشارة إلى حد زنا المرأة والرجل، ولم يرد فيها «الاستثناءات» و «الجزئيات» الاخرى مثل أحكام زنا المحصن والمحصنة والزنا بالمحارم والامور الاخرى من هذا القبيل والتي بينتها السنة والروايات الإسلامية بشكل مفصل.

٢- حدُّ السرقة

جاء في قوله تعالى

«وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ». (المائدة/ ٣٨)

ويوجد في هذا المورد أيضاً بعض الشروط والاستثناءات في قطع يد السارق التي وردت في السنة والروايات الإسلامية، ونحن نعلم بأن القرآن الكريم يذكر غالباً أصول المسائل فقط ويترك التفصيل والشرح للسنة.

٣- حدُّ القذف

ورد في قوله تعالى فيما يرتبط بنسبة الأعمال المخالفة للعفة للأشخاص المنزهين عنها، ما يلي:

«وَالَّذِينَ يَزُمُونَ الْمَحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ». (النور/ ٤)

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٦٥

فهذه المجازاة الثلاثية للقاذف، ذكرت لتطهير المحيط الاجتماعي وحفظ احترام وكرامة الناس، وللحد من اشاعة الفحشاء والفساد، كما أن هناك بعض الشروط والخصوصيات والاستثناءات ذكرت في الروايات الإسلامية.

٤- حدُّ المحارب

وردت في القرآن المجيد مجازاة ثقيلة لأولئك الذين يحاولون الاخلال بأمن المجتمع، وأولئك الذين يتعرضون بالأسلحة لأنفس

وأموال وأعراض الناس، وهذه الشدة والصرامة في المجازاة إنما هي لردع الأشرار، يقول تعالى
«إِنَّمَا جِزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ». (المائدة/ ٣٣)

والمقصود من المحارب، وكما أشرنا أيضاً، هو الشخص الذي يحمل السلاح ويتعرض لأموال الناس وأعراضهم وأنفسهم بالسلاح، سواء أكان ذلك من قطاع الطرق أو من أهل المدن أو من الأشيقاء الذين يتعرضون للناس بالسكين والأسلحة الباردة فيعتدون على أنفس الناس وأموالهم ونواميسهم، والملفت للنظر أن القرآن عدَّ هؤلاء من المحاربين لله ولرسوله صلى الله عليه وآله وهذا دليل على اهتمام الإسلام الفائق بالحريات والأمن الاجتماعي وحقوق الناس.

وهناك كلام بين الفقهاء والمفسرين في أن هذه الأنواع الأربعة من الحدود المذكورة في المحارب، هل هي على التخيير وبإمكان القاضي أن ينتخب أيها شاء، أم أنها معينة ولكنها تختلف باختلاف الجناية التي يرتكبها المحارب؟ فمثلاً المحارب الذي يقتل الأبرياء، جزاؤه الاعدام، والذي يتجاوز على أموال الناس فجزاؤه أن تقطع أصابعه، وإن ارتكب الجنائيتين معاً فجزاؤه الاعدام والصلب لاعتبار

الناس، وإن شهر السلاح فقط في وجه الناس وأرعبهم بدون أن يرتكب جناية أخرى فإنَّ جزاءَهُ النفي عن بلده، ولا مجال

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٦٦

هنا لبيان اختلاف الفقهاء والمفسرين بشكل مفصل، ومن أراد التفصيل فليراجع كتب الفقه المطولة (كتاب الحدود بحث «حدّ المحارب») وتفسير القرآن ومن جملتها «التفسير الأمثل» (١).

هذه الحدود الأربعة وردت في القرآن المجيد، وأما الحدود الستة التي وردت الإشارة إليها في السنة فهي كالاتي.

٥- حد المرتد

إشارة

والمراد به، الشخص الذي يعتنق الإسلام ثم يعود إلى الكفر ويعلن كفره، وقد ذكر الإسلام له حدّاً شديداً (ولذلك فلسفة خاصة سنشير إليها فيما بعد).

في القرآن الكريم وردت الإشارة فقط إلى ذمّ هولاء المرتدين بشدّة وتوعدهم بالعذاب الإلهي العظيم، بدون أن يتعرض إلى الجزاء الدنيوي لهم، قال تعالى

«مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ، وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَيْدْرًا فَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ». (النحل / ١٠٦)

ويقول عزوجل في موضع آخر:

«كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ». (آل عمران / ٨٦-٨٧)

وكما أسلفنا فإنه لم ترد إشارة في القرآن الكريم إلى حدّ الارتداد، ولكن العذاب العظيم الذي وعده به المرتد يحكى عن الجزاء الدنيوي الثقيل أيضاً.

والمشهور بين الفقهاء هو أن المرتد إن كان فطرياً (وهو الذي انعقدت نطقته من أب وام مسلمين أو على الأقل أحدهما مسلم) فحدّه القتل ولا تقبل توبته (إذا كان رجلاً)، وإن كان

(١) التفسير الأمثل، ذيل الآية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٦٧

مرتداً ملياً، وهو الذي ولد من أب وام كافرين، يستتاب فإن تاب وإلا قتل، ومن جملة من يلحق بالمرتد، الشخص الذي يسب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله - نعوذ بالله - ويهينه، ويلحق بالنبي والأنبياء المعصومين عليهم السلام وفاطمة الزهراء عليها السلام، وفي الحقيقة أن هذا العمل يعد من جملة أسباب الارتداد، وعليه فلا داعي لذكره كحدّ مستقل، وإن عنوانه بعض الفقهاء في كتاب الحدود في الفقه الإسلامي بعنوان حدّ مستقل، وتوجد بعض الروايات الخاصة في إباحة دم مثل هذا الشخص، وردت في المصادر الإسلامية (١).

لماذا كل هذه الصرامة في المرتد؟

الملاحظ هو أن الإسلام لم يتعامل بشدّة مع أولئك الذين لم يقبلوا الإسلام أصلاً، وإنما يدعوهم إلى الإسلام بالاعلام والتبليغ المنطقي، فإن لم يقبلوا الإسلام وقبلوا العيش مع المسلمين بشرائط الذمة فإنه لا يكف عنهم فحسب بل يتكفل برعاية أموالهم

ومنافعهم المشروعة وأنفسهم.

وأما بالنسبة إلى أولئك الذين اعتنقوا الإسلام ثم ارتدوا فإنه يتعامل معهم بشدة، وما ذلك إلا لأن الارتداد عن الإسلام يؤدي إلى زعزعة المجتمع الإسلامي ويعتد نوعاً من الانتفاضة ضد الحكومة والنظام الإسلامي، ويكون غالباً دليلاً على سوء نوايا المرتدين. ولذا وكما سبقت الإشارة فإن مثل هذا المرتد الذي انعقدت نطفته من أب أو أم مسلمين، وعدل عن الإسلام وأعلن ذلك وثبت ارتداده في المحكمة الإسلامية، فإن الإسلام يهدر دمه، وتقسّم أمواله على أقربائه المسلمين وتنفصل عنه زوجته ولا تقبل توبته ظاهراً، أي أن هذه الأحكام الثلاثة تجرى عليه على أية حال. وأما إذا كان نادماً حقاً فإن توبته تقبل ما بينه وبين الله (هذا في الرجل أما في المرأة فإن توبتها تقبل ولا تقتل)، وأما إذا لم يندم ولم يتب، ولكنه لم يتفوه ظاهراً بما يدل على ارتداده، لم يتعرض له أحد باذى

(١) وسائل الشيعه ج ١٨، ص ٤٥٨، كتاب الحدود الباب ٢٥، ح ١-٤.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٦٨

وإذا لم يكن المرتد عن الإسلام مولوداً من مسلمين أو من مسلم من طرف واحد فإنه يؤمر بالتوبة، فإن تاب قبلت توبته ولم تجر عليه تلك الأحكام، وأما إذا لم يتب جرت عليه (ويكفي في ذلك التوبة الظاهرية، ولم تؤمر بالتحقيق في حقيقة أمره). ومن وجهة النظر السياسية قد يبدو أن حكم المرتد الفطرى نوع من الارهاب العقائدى والفكرى، خصوصاً لأولئك الذين لم يطلعوا على حقيقة محتوى هذه الأحكام، ولكن الانصاف أننا إذا لاحظنا أن هذه الأحكام غير مرتبطة بأولئك الأشخاص الذين يعتقدون بامور لم يظروها للملأ وإتّما هي مختصة بالمرتدين الذين يعلنون ارتدادهم، فهم في الحقيقة يعلنون عن ثورتهم ضد الحكم الإسلامى، وعليه فمن الواضح أن هذه الصرامة والشدة في حقهم ليست خالية من الدليل، كما أنها لا تتنافى أبداً مع حرية الرأى والعقيدة، فكم من دولة شرقية وغربية تجرى قوانيناً شبيهة بهذا القانون مع اختلافات بسيطة حيث إنها تهدر دم كل من يحاول التعرض والثورة ضد الحكومة.

وينبغى الالتفات إلى هذه النكته وهى أن قبول الشخص للإسلام لا بد أن يكون طبقاً للمنطق والعقل، خصوصاً أولئك الذين ولدوا من أبوين مسلمين وترعرعوا في محيط اسلامى، فإنه من البعيد جداً أنهم لم يتعرفوا على محتوى الإسلام، وعليه فإن ارتدادهم عن الإسلام أقرب ما يكون إلى سوء التية والخيانة منه إلى الاشتباه وعدم درك الحقيقة، فمثل هذا الشخص يستحق جزاء الارتداد.

ورد في القرآن الكريم الآية ٧٢، ٧٣ من سورة آل عمران، الحديث عن طائفة من المتأمرين على الإسلام الذين يظهرون الإسلام أولاً ثم يظهرون الكفر بعد ذلك ليؤهموا الآخرين أنهم لم يجدوا في الإسلام من عناصر القوة شيئاً يدفعهم إلى البقاء على اعتناق الإسلام، ولذا فإنهم عدلوا عنه، وهدفهم من ذلك زلزلة اعتقاد المسلمين بإسلامهم وإيمانهم، فقد ورد في قوله تعالى

«وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَيَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَجَّهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ». (آل عمران / ٧٢)

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٦٩

وخلاصة الكلام: أولاً: إن حكم توبة المرتد الفطرى مختص بالرجال المتولدين من مسلمين، وقبلوا الإسلام أولاً ثم رجعوا عنه، فمن لم يقبل الإسلام عند بلوغه، لا تشمله تلك الأحكام!

ثانياً: الأشخاص الذين لازالوا في حال التحقيق والفحص، غير مشمولين بهذا الحكم حتى لو كانت نتيجة تحقيقهم هي الرجوع عن الإسلام واعتناق عقيدة أخرى لكن بشرط أن لا يظهروا خلافهم وعداءهم للإسلام بالقول، فلا يتعرض لهم حينئذٍ أحد، ويعفون عن تلك العقوبات.

ثالثاً: متى ما سبكت عن المرتدين، خيف على الإسلام من التآمر عليه يومياً من قبل جماعات (كاليهود في صدر الإسلام) وخيانة

المسلمين وزلزلة اعتقادات الناس والثورة ضد الحكومة الإسلامية عن طريق اظهار الارتداد، ومن هنا يعمّ الهرج والمرج العظيمين في المجتمعات الإسلامية، خاصة وإن مثل هذه الأعمال التخريبية لها آثار سريعة وخطيرة، ولذا فإن الإسلام تعامل معها بشدة وصرامة.

٦- حدّ شرب الخمر

بحث مسألة شرب الخمر وآثارها الوخيمة في عدّة آيات من القرآن الكريم، ولكن لم يرد في القرآن حدّ شرب الخمر، وإنّما ورد ذلك في الروايات الإسلامية، وحدّ شرب الخمر هو ثمانين جلد، فقد ورد في حديث عن بريد بن معاوية عن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«إِنَّ فِي كِتَابِ عَلِيِّ يُضْرَبُ شَارِبُ الْخَمْرِ ثَمَانِينَ وَشَارِبُ النَّبِيذِ ثَمَانِينَ» (١).

(والخمر هو الشراب المتخذ من العنب، والنبيذ: الشراب المتخذ من التمر وقد يطلق أحياناً على معنى أوسع).

وقد ورد في بعض الروايات تعليل هذا الحدّ بأنّ شارب الخمر يسكر فاذا سكر افترى وتعرض بالقذف (لناموس الناس، ومن هنا كان حدّه حدّ القذف) (٢).

(١) مرآة العقول، ج ٢٣، ص ٣٣٠، ح ٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٣١، ح ٧.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٧٠.

٧- حدّ اللواط

لقد بين القرآن الكريم قبح هذا العمل وعظمه هذا الذنب حين استعرض قصة قوم لوط عليه السلام، وباعتقاد بعض المفسرين فإنّ إشارة إجمالية وردت في بيان حدّه في قوله تعالى

«وَالَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ فَادُّوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا». (النساء / ١٦)

وهذا مبنى على أنّ «اللذان» إشارة إلى الرجلين وأنّ الضمير في «يأتيناها» إشارة إلى اللواط، في حين أنّ هذا الضمير يعود إلى كلمة «الفاحشة» التي وردت في الآية السابقة على هذه الآية إشارة إلى «الزنا».

وعلى أيّة حال فإنّ حدّ اللواط طبقاً للروايات الإسلامية هو الاعدام، في صورة تحقق الادخال، فإن لم يتحقق فالجلد وقد وردت روايات كثيرة في هذا المعنى عن الأئمة المعصومين عليهم السلام (١).

٨- حدّ المساحقة

وللمساحقة في الإسلام حدّ شديد، وهو طبقاً للمشهور، كحدّ الزنا، مائة جلد، ولا فرق فيه بين المحصنة وغيرها.

وهذا المطلب ورد في روايات عديدة عن أئمة الدين (٢).

ولا يوجد في القرآن الكريم ما يدلّ بصراحة على هذا الحكم، ولكن بعض المفسرين يرى أنّ في سورة النساء إشارة إلى ذلك، يقول تعالى

«وَاللَّاتِي يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ مِنْ نُسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى تَيَوَّمَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا». (النساء / ١٥)

ولكن أغلب المفسرين عدّ هذه الآية إشارة إلى حكم الزنا قبل نزول حكم الجلد في سورة النور، والقرائن الموجودة في هذه الآية

والآية التالية لها تؤيد هذا المعنى أيضاً.

- (١) وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ٤١٦ أبواب حد اللواط.
 (٢) المصدر السابق، ص ٤٢، أبواب حد السحق والقيادة.
 نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٧١

٩- حد القيادة

القيادة أو الوساطة بين النساء والرجال الذين يرتكبون الأفعال المنافية للعفة، لها حد ثابت ومعين في الإسلام أيضاً (وأن لم يذكر ذلك الحد في القرآن)، وطبقاً للمشهور فإن حد القيادة هو الجلد ٧٥ جلده، أي ثلاثة أرباع حد الزنا «١».

١٠- حد الساحر

يذم القرآن المجيد السحر والسحرة بشكل واضح، حيث نقرأ في قصة موسى وفرعون، على لسان موسى عليه السلام: «وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى . (طه / ٦٩) وفي قصة هاروت وماروت (المَلَكَيْنِ) ورد ذم شديد، حيث عدت الآيات القرآنية الواردة في هذه القصة السحر ككفرًا، حيث جاءت في سورة البقرة، الآية ١٠٢.

ولكن لم ترد إشارة في القرآن الكريم إلى حد الساحر، وإنما ورد في الروايات الإسلامية إن حد الساحر القتل «٢».

وهناك خلاف بين الفقهاء في أن هذا الحد مطلق وبدون قيد وشرط أم أنه خاص بأولئك الذين يحلون السحر ويفعلونه أو بتعبير آخر «المرتدين»؟

كما أن هناك كلام بين العلماء في حقيقة السحر، وإنه هل للسحر واقعية أم أنه نوع تخيل؟ أم أن بعضه واقعي وبعضه تخيل؟ ومن هنا، بحث مسألة السحر بشكل مطول في الكتب الفقهية «٣».

وما ينبغي معرفته هنا هو أن شدة الإسلام وصرامته في مسألة السحرة قد يكون باعتبار أن هؤلاء السحرة وقفوا بوجه الأنبياء وحاربوهم كما هو واضح من قصة سحرة فرعون،

- (١) راجع كتاب جواهر الكلام، ج ٤١، ص ٤٠٠؛ وكتاب وسائل الشيعة، أبواب حد السحق والقيادة، الباب ٥، ج ١٨، ص ٤٢٩.
 (٢) وسائل الشيعة ج ١٨، ص ٥٧٦.
 (٣) وهذا البحث تارة عنون في المكاسب المحرمة في مبحث تحريم السحر، وتارة في كتاب الحدود، في مبحث حد الساحر.
 نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٧٢

وأحياناً يقوم هؤلاء السحرة بدور إغواء الناس البسطاء فيحرفونهم عن الاعتقاد بمعاجز الأنبياء، وهذا ذنب عظيم يستوجب عقاباً شديداً. كان ذلك، فهرسة للحدود الإلهية في الإسلام، الهدف منها تطهير المجتمع والحد من انتشار الفساد والمنكرات وضياع الأمن بين الناس.

ومضافاً إلى هذه الحدود، وكما أشرنا سابقاً، فإن بعض العقوبات الاخرى مقررة في الإسلام، سماها الفقهاء «التعزيرات» (والتعزير يأتي بمعنى المنع، التأديب، التعظيم والاحترام والنصرة أيضاً كما بينا ذلك سابقاً، وكل هذه المفاهيم تجتمع مع التعزير بمعنى «العقاب»، وذلك لأن التعزير يمنع المجرم والمذنب من الذنب، ويؤدبه، ويبعث على احترامه وتعظيمه في المستقبل، وينصره على هواه ونفسه

الأماره).

قلنا بان «التعزيرات» هي العقوبات التي تجرى في الذنوب التي لم يرد فيها حدٌ معين.

وتوضيح ذلك:

إن كل قانون لابد من ضامن لتنفيذه، بمعنى السند الذي يوجد دافعاً عقلياً لاجرائه، فإن خلى القانون من هذا السند تبدل إلى توصية أخلاقية بحتة، وخرج عن النطاق العملي.

صحيح أن الدوافع الإلهية والثواب والعقاب يوم القيامة، من الدوافع القوية عند المؤمنين، ولكن الإسلام لم يكتف بهذه الحوافز الاخرية وإن كان يحترمها ويقدها، ولكنه أضاف إليها دوافع دنيوية ومادية، ليعمل من كان ضعيف الإيمان والذين لا تؤثر فيهم الوعود الاخرية كثيراً، على رعاية تلك القوانين خوفاً من العقاب على أقل التقادير، كي لا يتحول المجتمع إلى ميدان يجول ويصول فيه المفسدون الفاسدون عديمو أو ضعيفو الإيمان.

ولما كانت الذنوب يختلف بعضها عن البعض الآخر، كما يختلف المرتكبون لها من جهة الاطلاع والعمر والسوابق الاخلاقية، وكذا المكان والزمان، وقدرة تحمل تلك

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٧٣

العقوبات، اختلفت التعزيرات أيضاً، فأوكل تعيينها إلى نظر القاضي فيراعى فيه الشروط بدقة من كل الجهات فيعين ما يراه مناسباً للمجرم.

وفي الحقيقة، إن كل العقوبات الإسلامية متفاوتة- ماعدا بعض الموارد التي ادرجت في الحدود المعينة، فيؤثر في التعزير ومقداره أحوال المجرم وكيفية وكمية الذنب الذي يرتكبه، ولذا فتعيين مقدار التعزير موكول إلى نظر القاضي.

عدة نكات مهمة في التعزيرات الإسلامية:

١- وحدة القرار

إن حرية القضاة في تعيين مقدار التعزير وإن كانت امتيازاً ونقطة قوة مضيئة تمنحهم إمكان تعيين التعزيرات المناسبة للمجرمين كل بحسب جرمه، ولكن هذه المسألة تصير سبباً أحياناً في اختلاف القضاة في المناطق المختلفة في كمية التعزيرات للجرم الواحد، وهذا الأمر لم يكن يشكل مشكلة في الزمن الماضي حيث كانت المناطق متصلة بعضها عن البعض الآخر، ولكن اليوم وبالالتفات إلى الاتصالات السريعة والواسعة بين المناطق المختلفة، يشكل ذلك مشكلة حقيقية.

ولهذا الدليل، فلا مانع من أن يجلس أهل النظر والقضاة البارعون في جلسات مشتركة لتعيين حدود للتعزيرات، ولكن ينبغي أن لا تكون تلك التعزيرات معينة وإنما كحد أعلى وحد أدنى كالحبس والغرامة المالية والعقوبات الإسلامية وامثال ذلك لتكون التعزيرات على نسق واحد في المناطق المختلفة.

وهذا الأمر ينسجم تماماً مع الموازين الإسلامية، وعلى أقل تقدير يمكن الاستدلال على مشروعيته بالعناوين الثانوية.

٢- عدم اقتصار التعزير على الجلد

التعزير- وكما أسلفنا- له معنى واسع يشمل كل ردع وتأديب، ولا يوجد أى دليل على

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٧٤

أن هذا المعنى قد تغير في الشرع الإسلامى المقدس أو فى اصطلاح الفقهاء (وبالاصطلاح ليس له حقيقة شرعية أو متشرعية)، كما أنه لم ينقل إلى معنى جديد فى اصطلاح الفقهاء، وإن كان كثير من الفقهاء وتبعاً للروايات اعتمدوا على مصداق خاص منه (الجلد)، ولكن بيان هذا المصداق المعروف لا يُعدُّ دليلاً على انحصار مفهوم التعزير بالجلد، وإن توهم بعض أن التعزير مساوٍ للضرب والجلد. ولكن التحقيق والتدقيق فى كلمات الفقهاء يثبت بطلان هذا التصور.

يقول العلامة الحلّى - قدس سرّه الشريف - فى «التحرير» بعد أن يبيّن أن التعزير ورد للجنايات والذنوب التى لم يرد فيها حدٌ معين: «وَهُوَ يَكُونُ بِالضَّرْبِ وَالْحَبْسِ وَالتَّوْبِيخِ مِنْ غَيْرِ قَطْعٍ وَلَا جَرْحٍ وَلَا أَخْذِ مَالٍ» (١).

ويقول فى كتاب «الفقه على المذاهب الأربعة» بعد نقل كلام «ابن القيم» وإن ظاهر عبارته أن الحاكم له تعزير المجرمين بأى طريقة يرى فيها الصلاح - سواءً الحبس أو الضرب -: «وَبِالْجُمْلَةِ فَإِنَّ التَّعْزِيرَ بَابٌ وَاسِعٌ يُمَكِّنُ لِلْحَاكِمِ أَنْ يَقْضَى بِهِ عَلَى كُلِّ الْجَرَائِمِ الَّتِي لَمْ يَضَعْ الشَّارِعُ لَهَا حَدًّا أَوْ كَفَّارَةً عَلَى أَنْ يَضَعَ الْعُقُوبَةَ الْمُنَاسِبَةَ لِكُلِّ بَيْئَةٍ وَلِكُلِّ جَرِيمَةٍ مِنْ سَجْنٍ أَوْ ضَرْبٍ أَوْ نَفْيٍ أَوْ تَوْبِيخٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ» (٢).

هذه مقتطفات من كلمات فقهاء الخاصة والعامه.

ومضافاً إلى ذلك، فإن روايات كثيرة وصلتنا فى ابواب مختلفه من الفقه، تدلُّ بوضوح على سعة معنى مفهوم ومصداق التعزير يطول المقام بذكرها هنا، ومن رغب فى الوقوف عليها لابد له من مراجعه بحث التعزير فى كتاب الحدود والتعزيرات. ومن مجموع ماورد فى كتب «اللغة» و «كلمات الفقهاء» و «الروايات الإسلاميه» فى ابواب الفقه المختلفه، يمكن الاستنتاج بوضوح أن الحاكم الإسلامى غير مقيد بانتخاب نوع معين من أنواع التعزير، والموارد ادناه كلها من جمله التعزيرات، بشرط رعايه حال المجرم

(١) التحرير، ج ٢، ص ٢٣٩.

(٢) الفقه على المذاهب الأربعة، ج ٥، ص ٤٠٠.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٧٥

والمحيط الاجتماعى وكمية وكيفية الذنب وسائر الجهات:

١- الضرب باشكال مختلفه.

٢- الحبس بكيفية وكمية متفاوتة.

٣- الغرامة المالية، أى أخذ مقدار من المال، وتوقيف أموال المجرم لمدة معينة (كحجز سيارات المتخلفين عن قوانين المرور).

٤- التوبيخ العلنى والسرى.

٥- النفى إلى منطقة اخرى لمدة طويلة أو قصيرة، وترك المراودة، أو ترك التعامل مع المجرمين.

٦- المنع من السفر إلى خارج البلده، أو الدوله، أو حتى الإقامة الجبرية فى المنزل.

٧- المنع من التكسب والاشتغال لمدة معينة.

٨- حرمانه من العمل فى بعض المناصب، والحقوق الاجتماعيه.

٩- التشهير بالمجرم عن طريق وسائل الاعلام بشكل محدود أو موسع.

١٠- حرمانه من بعض الامتيازات، كمنعه من ارتداء زى الروحانيين، بالنسبة إلى الأفراد الذين يرتدون ذلك الزى.

وامور اخرى يمكنها أن تردع المتخلفين والمجرمين، وتحلّ من تكرار تلك الذنوب من قبلهم ومن ارتكابها من قبل الآخرين.

٣- معنى تخيير الحاكم في التعزيرات

هناك كلام طويل بين الفقهاء في مقدار التعزيرات التي يُخَيَّر فيها القاضى، ولكنهم متفقون على أن التعزير لابد أن يكون أقل من الحد وإن اختلفوا في الحد الذي لابد أن يكون التعزير أقل منه، وهل هو حدُّ الزنا، أم أقل الحدود، أم أنه يتناسب مع الذنب المرتكب؟

وما ينبغي التنبيه عليه هنا هو أن المراد من تخيير القاضى فى انتخاب كميئه وكيفية التعزير، لا يعنى أنه يتبع ميوله الشخصية فى ذلك، بل المراد فى التخيير هو فسح المجال

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٧٦

للقاضى لكى يأخذ بنظر الاعتبار مناسبات «الجرم» و «الجريمة» من كل الجهات، فالقاضى وإن كان ظاهراً مخيراً فى تعيين التعزير إلا أنه فى الحقيقة ليس مخيراً، لأنه يُعَيَّن لكل جرم مقداراً من العقوبة يتناسب مع ذلك الجرم، بمعنى أن الجرم إذا كان يقتضى الحبس لمدة شهر من الزمان، أو عشرين جلده فلا يمكنه زيادة تلك المدّة أو عدد الجلديات حتى يوماً واحداً أو جلده واحدة، أو فلساً واحداً فى الغرامة المالىة.

٤- التعزيرات فى القرآن الكريم

إشارة

ذكرت فى القرآن الكريم بعض موارد التعزير يمكن أن تكون نموذجاً للحكم الكلى الإسلامى:

(أ) قصة المتخلفين عن غزوة تبوك

وتوضيحه: نقرأ فى قوله تعالى

«وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّمْ يَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ». (التوبة/ ١١٨)

فقد بيّن فى هذه الآية بنحو الإشارة، وفى الروايات والتفاسير بنحو التفصيل، التعزير العجيب الذى مارسه النبى الأكرم صلى الله عليه وآله فى حق أولئك نفر الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك (والذين لم يأتروا بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وتركوا الجهاد بدون عذر وجيه).

وهؤلاء الثلاثة طبقاً لتصريح بعض الروايات هم «كعب بن مالك» و «مرارة بن ربيع» و «هلال بن امية»، ومع أنهم لم يكونوا من المنافقين ولكنهم تخاذلوا عن الجهاد فى تبوك، ثم انتبهوا إلى أنهم ارتكبوا ذنباً عظيماً، وندموا على ذلك.

وعندما رجع الرسول الكريم صلى الله عليه وآله من غزوة تبوك، جاء هؤلاء الثلاثة إليه وقدموا الاعتذار، ولكن الرسول صلى الله عليه وآله لم يكلمهم وأمر المسلمين بأن لا يكلموهم، فلم يكلمهم أحد

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٧٧

وقاطعهم الناس حتى أن نساءهم وأولادهم جاءوا إلى النبى صلى الله عليه وآله وطلبوا منه الرخصة فى الانفصال عنهم، فلم يسمح لهم الرسول صلى الله عليه وآله بالانفصال التام عنهم وإنما أمرهم بعدم مقاربتهم.

وعندما وجد هؤلاء المتخلفون أنفسهم فى حصار اجتماعى رهيب وضقت عليهم الآفاق على سعتها اضطروا إلى ترك «المدينة» هرباً من الفضيحة والذل، والتجأوا إلى الجبال فى أطراف المدينة، فكان أهلهم يأتونهم بالطعام ولكن كانوا لا يكلمونهم حتى بكلمة واحدة!

وحينئذ قال أحدهم لصاحبه: والآن وقد قاطعنا الناس تعالوا ليقاطع أحدنا الآخر، فلعل الله يقبل توبتنا!

وتحقق هذا الاقتراح عملياً، وبعد خمسين يوماً من التضرع والتوبة إلى الله، قبلت توبتهم ونزلت الآية الآنفه الذكر «١».

وبمختصر تدقيق فى هذه الحادثة التاريخية العجيبة، يتضح لنا أن هذا الأمر فى الواقع نوع مهم من التعزير، وإنه سجن معنوى شديد مقترن بالتحقير والتشهير والطرود المؤقت من المجتمع، وقد ترك أثراً بليغاً فى نفوس المسلمين وفى نفوس هؤلاء المجرمين الثلاثة، وصار سبباً فى ترك مثل هذه الذنوب فى المستقبل.

وهذه القصة شاهد حى آخر على عمومية مفهوم التعزير وعدم اختصاصه بالجلد بالسياط، وتدل أيضاً على أن بعض أنواع التعزيرات لها تأثير أقوى وأبلغ بكثير من الجلد بالسوط، وإنه يكون موجباً للنهى عن المنكر بشكل أوسع فى المجتمع.

(ب) قصة ثعلبة

والمورد الآخر هو قصة أحد الأنصار (ثعلبة بن حاطب) والتي ورد ذكرها فى الآيات وهى قوله تعالى

(١) تفسير مجمع البيان؛ وتفسير روح الجنان، ذيل الآية مورد البحث؛ وسفينه البحار.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٧٨

«وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ». (التوبة/ ٧٥-٧٨)

يعتقد كثير من المفسرين أن هذه الآيات نزلت فى شأن أحد الأنصار واسمه «ثعلبة بن حاطب»، لقد كان هذا الرجل فقيراً، يأتى إلى المسجد دائماً ويطلب من رسول الله صلى الله عليه وآله أن يدعو الله أن يعطيه مالاً كثيراً، فكان النبى صلى الله عليه وآله يقول له: «قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه»، ولكن ثعلبة كان يصبر ويلىح على النبى صلى الله عليه وآله، ويتقسم بالله سيؤدى كل ما عليه من حقوق فيما لو أعطاه الله المال الكثير، فاضطر النبى صلى الله عليه وآله إلى أن يدعو الله أن يعطيه مالاً كثيراً.

لم تمض فترة طويلة إلا ومات ابن عم ثعلبة وكان غنياً، فورث ثعلبة ثروة طائلة، وكانت ثروته تزداد يوماً بعد آخر، فصار يملك قطعاناً من الأنعام.

وعندما حان موسم الزكاة بعث الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله الجبأ لجمع الزكوات، فلم يمتنع ثعلبة الذى ذاق لتوه لذة المال عن دفع الحق الإلهى فحسب، بل أخذ يُشكل على أصل تشريع الزكاة أيضاً! وادعى أنها «شبيهة الجزية» التى تؤخذ من أهل الكتاب! (عاد مأمور رسول الله صلى الله عليه وآله صفر اليمين، فنزلت الآيات المذكورة أعلاه فى ذم ثعلبة وبخله ونفاقه ونقضه العهد!).

نزول هذه الآيات بنفسه يُعدُّ تعزيراً شديداً فى حقه، لأنها فضحت افعاله القبيحة.

وطبقاً لبعض الروايات فإن ثعلبة ومن أجل استعادة حيثته وجبر هذه الخسارة الاجتماعية الفادحة، جاء بنفسه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وأعلن عن استعداده لدفع زكاة أمواله، ولكن رسول الله صلى الله عليه وآله رفض قبولها منه!

رحل رسول الله صلى الله عليه وآله إلى جوار ربّه، فجاء ثعلبة ثانية إلى الخليفة الأول ليؤدى زكاة ماله، فلم يقبلها منه الخليفة الأول!

وفى زمن الخليفة الثانى والثالث جاء ثعلبة ليدفع زكاة أمواله، فكان جواب كل منهما له

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٧٩

هو: لا نقبل منك لأن رسول الله صلى الله عليه وآله لم يقبل منك، ومات ثعلبة في آخر أيام خلافة عثمان (١).
ففي الآيات الآتية الذكر، وإن لم يُصرَّح بمسألة التعزير، ولكن نفس هذا الأمر (نزول الآيات في ذم فعل ثعلبة وفضحه، ومعاملة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله والخلفاء لثعلبة بتلك الكيفية)، يعتبر من مصاديق التعزير، وقد ترك ذلك أثراً عميقاً في نفسه ونفوس الآخرين، ولا يراد من التعزير إللاردع المذنبين سواءً بالعقاب المادى أو المعنوى.

ج) آية الايذاء

وكما أشرنا سابقاً، فإن القرآن قد أمر بمعاقبة الرجال والنساء (الذين لا أزواج لهم) ويرتكبون الزنا، حيث يقول تعالى «وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيهَا مِنْكُمْ فَأُذُوهُمَا...» (النساء / ١٦)

فإن كان المراد من الايذاء هنا هو نفس الحد الشرعى الوارد فى الآية ٢ من سورة النور: «الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي ..»، فحينئذ لا علاقة له ببحث التعزيرات بل يدخل فى بحث الحدود، ولكن متى ما قلنا أن المنظور من «الايذاء» هو العقاب بنحو مطلق والذى ليس له حدٌ وحدود معينة مذكورة وإنه يرتبط بما قبل نزول حد الزنا- كما قاله جمع من المفسرين- فإنه حينئذ سيرجع إلى التعزيرات، لأنه عقاب غير معين فى حق الزناة غير المحصنين كان موجوداً فى الإسلام قبل تشريع حد الزنا. وقد ذكر المرحوم «الطبرسى» فى مجمع البيان معنيين لجملة «أذوهما» كلاهما يتلائم مع التعزيرات، الأول: هو أن المراد منها توبيخهما بالألفاظ وضربهما بالنعل! والثانى: هو أن المراد منها توبيخهما بالكلام فقط «٢».

د) آية النشوز

(١) القسم الأول من هذه الرواية نقله كثير من المفسرين، والقسم الأخير منها ذكر فى تفسير الكبير، ج ١٦ ص ١٣٨؛ وتفسير روح الجنان، ج ٦، ص ٧٤.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٢١.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٨٠

نلاحظ فى القرآن الكريم حكماً يرتبط بالنساء الناشزات، ويعتبر هو الآخر من مصاديق التعزيرات، مع أن الأزواج قد امروا بمراعاة الاحتياط فى إجراء هذا الحكم، يقول عزوجل:

«وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فِعْظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فَإِنَّ اطَّعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً.» (النساء / ٣٤)

والمراد بالناشزات أولئك النسوة اللاتى يمتنعن عن أداء وظائف الزوجية، واللاتى تظهر فيهن علامات عدم الوثام المختلفة «١». وفى الآية أعلاه، ذكرت ثلاثة أنواع من التعزير لمثل هؤلاء النسوة، الأول: الوعظ والنصيحة (ويجب أن لا ننسى بأن الوعظ فى كل مورد يعد من مراتب التعزير، لما له من الأثر الرادع)، الثانى: الهجر والابتعاد عنهن فى المضاجع، الثالث: العقاب البدنى، وكل من المرحلتين الثانية والثالثة إنما تجرى مع عدم نجاح المرحلة السابقة لها فى التأثير.

فإن سئلنا: هل يجرى ذلك فى الرجل إذا نشز وطغى

قلنا فى الجواب: نعم! ولكن لما كان مثل هذه العقوبات خارجة عن طاقة النساء، فإنها أوكلت إلى الحاكم الشرعى، فيكلف الحاكم بمعاقبة الرجال الناشزين بوعظهم ونصيحتهم أو ضربهم فى موارد.

وقصة الرجل الذى أجحف بحق زوجته ولم يقبل الرضوخ إلى الحق فأجبره الإمام على عليه السلام على التسليم بكل الطرق حتى

اضطر إلى تهديده بالسيف، معروفة.

ومن هنا يتضح الجواب عن السؤال الذى قد يخطر فى أذهان الكثير من الناس عند ذكر هذه الآية وهو: كيف يمكن أن يسمح الإسلام للرجال بضرب نساءهم، فى حين أن هذا الأمر يسيء إلى كرامة الإنسان وخصوصاً شريك الحياة، وذلك: «أولاً»: أن المراد من الضرب والعقاب البدنى هنا ليس أن يأخذ الرجل السوط وينهال على زوجته ضرباً حتى يختلط لحمها بدمها، ولا أن يضربها بكفه على وجهها حتى يسود وجهها، فإن كل ذلك غير جائز فى شرع الإسلام المقدس، بل وعليه الدية لو فعل ذلك، بل

(١) «نشوز» من مادة «نشز» على وزن «نذر» وفى الأصل بمعنى الأرض المرتفعة، وإذا اطلق على أحد الزوجين كان معناه طغيان ذلك الزوج وامتناعه عن أداء وظيفته تجاه زوجته.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٨١

المراد هو الضرب الخفيف الذى لا- يؤدى إلى الجرح ولا إلى احمرار واسوداد الجسم، حتى قال بعض المفسرين فى توضيح الآية: ضرب كضرب اليد بالسواك! أو ما شابه ذلك مما يؤدى إلى ايلامها، ولكن ينبغى أن لا يكون شديداً فيجرحها. «ثانياً»: يجب أن لا ننسى أن النساء على أربعة أقسام:

القسم الأول: النساء المؤمنات الصالحات، الواقفات على مسؤوليتهن فى الأسرة وذلك على أثر اللياقات الذاتية والتربوية المكتسبة عندهن، ومثل هؤلاء النسوة لا بد من احترامهن من قبل أزواجهن على أتم وجه، وهن مصداق الآية: «وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ». (النساء/ ١٩)

والقسم الثانى: أولئك النسوة اللاتى يتخلفن عن أداء وظائفهن فى محيط الأسرة، فيتسببن فى إيذاء أزواجهن، ولكن تخلفهن ليس عميقاً وفاحشاً، بل يمكن أن يتأثرن بالوعظ والنصيحة خوفاً من الله، ويرجعن إلى الحق لتقواهن، فهؤلاء مشمولات بقوله: «فِعْظُوهُنَّ» فى الآية المذكورة.

والقسم الثالث: النسوة اللاتى يكون نشوزهن عميقاً، ولا ينفع معهن الوعظ ولكن لأرواحهن الشفافة يؤثر فيهن الهجر، فأنهن لا يرغبن إلأى العيش بصلح وصفاء، فهؤلاء يشملهن: «وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ». (النساء/ ٣٤)

فيبقى القسم الرابع: فقط من النساء اللاتى يتمردن على أزواجهن ويمتنعن عن أداء وظائفهن، ويتمادين فى غيبن وعنادهن، ولجأتهن، فلا تقوى عندهن فتمنعهن عن ذلك، ولا وعظ ينفذ ويؤثر فيهن، ولا هجر فى مضجع يكدر أرواحهن، فلا سبيل إلأى الشدة، ومن هنا فإن الإسلام فى هذا المورد فقط يجيز للزوج أن يؤدب زوجته بالضرب الخفيف ويعزرها، وهذا الأمر رائج حتى فى المجتمعات الشرقية والغربية المعاصرة، حتى أن المعترضين على هذا القانون الإسلامى يمارسون ذلك بأنفسهم أيضاً فى مثل هذه الظروف والحالات، فمع تلك الظروف التى بينها لا يعد هذا الأمر عجباً لا يتلائم مع احترام كرامة الإنسان.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٨٢

«ثالثاً»: هذا الأمر لا يختص بالنساء، بل يشمل الرجال إذا ما نشزوا وامتنعوا عن أداء وظائف الزوجية، وبنفس تلك المراحل المذكورة، ففى البدء لا بد من وعظهم ونصيحتهم، فإن لم يؤثر ذلك، فالتعزير المعنوى كالهجر وعدم الاكتراث بهم فى المجتمع حتى يرجعوا عن غيهم، فإن لم يؤثر ذلك، فلا بد من اتباع سبيل الضرب وأمثاله من العقوبات، ولكن وكما قلنا سابقاً: بما أن هذا العمل لا يمكن للنساء القيام به وأن سلطة الرجل تحول دونه، أرجع الأمر إلى الحاكم الشرعى فهو المكلف بإيقاف هؤلاء الرجال عند حدّهم.

وبالالتفات إلى النكات الثلاثة السابقة، لا نظن أن منصفاً يعترض على هذا الحكم ويدعى أنه خلاف كرامة الإنسان.

ولابد من التنبيه إلى أنه ورد فى ذيل هذه الأحكام الثلاثة مباشرة قوله تعالى: «فَإِنْ أَطَعْتُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ سَبِيلٌ». (النساء/ ٣٤)

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٨٣

أحكام السجن في الإسلام

تمهيد:

إشارة

كما ذكرنا في بحث التعزيرات، فإنَّ «السجن» من أنواع «التعزيرات» والوسائل الرادعة للمتخلفين والمجرمين، مضافاً إلى أنه لا مفر من الحبس، والتوقيف في بعض الأحيان وذلك للحد من فرار المتهمين، أو الضغط والتضييق على المدينين لاجبارهم على أداء ديونهم، ولهذا فإنَّ أحكام السجن لها موقع خاص في الفقه الإسلامي، وسنشير هنا ببعض الإشارات لتكميل البحث المرتبط بالحكومة الإسلامية، وإن كان أداء حق هذا البحث يتطلب تأليف كتاب أو كتب مستقلة، وبعض المحققين قد كتب أيضاً في هذا المجال بعض الكتب (١).

١- تاريخ السجن

إشارة

لا يتأتى لأحد أن يحدد تاريخاً دقيقاً لتأسيس أول سجن في تاريخ البشرية، لأنَّ هذه المسألة تعود تقريباً إلى بدايات الحياة الاجتماعية للبشرية، ومنذ ذلك اليوم الذي وجدت فيه الحكومات فالسجون كانت موجودة، بل وحتى غير الحكام كالمملوك الجيَّارين والاقطاعيين الظالمين، قد اعدوا بعض الأمكنة لسجن عبيدهم ورعيته، حتى أن بعضهم كان يحبسهم في اصطبلات الحيوانات! وأما في خصوص تاريخ تأسيس السجن في الإسلام، فقد اتفق المؤرخون تقريباً على

(١) من جملتها كتاب «أحكام السجون» للدكتور الشيخ أحمد الوائلي، وهو أحد المصادر التي اعتمدنا عليها في بحثنا هذا.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٨٤

أنه لم يكن في عصر النبي صلى الله عليه وآله سجن بشكل رسمي، لأنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله لم يكن يُجوز ذلك، بل لعدم اتساع المجتمع حينذاك وخاصة في بداية الإسلام حيث كان الناس يلتزمون بالقوانين الإلهية، وقلما كان يوجد شخص متخلف عن تلك القوانين.

ولذا لا نرى في القرآن الكريم عبارة أو جملة واحدة تدل على وجود السجن في ذلك العصر مطلقاً.

ولكن وفي نفس الوقت كانوا يستعينون بطرق أخرى بالنسبة إلى المجرمين الذين لا بد من توقيفهم حتى يتعين التكليف فيهم، أو المدينين الذين يمتنعون عن أداء ديونهم مع امتلاكهم المال اللازم لذلك، أو الأسرى الذين يؤسرون في حروب المسلمين، ومن جملة تلك الطرق:

١- كان المجرمون يحبسون أحياناً في المسجد، ولما لم يكن في ذلك الوقت قفلاً وقيدً ونحو ذلك، كانوا يوكلون شخصاً لمراقبة ذلك السجين كي لا يفر من المسجد، أو أنهم كانوا يخطون دائرة حوله ويوصونه بعدم اجتياز ذلك الخط المستدير، وإلا فهو مسؤول عن ذلك! والمتهم أيضاً ولأسباب اجتماعية خاصة ولأجل أن لا يتضاعف عقابه، لم يكن يتخطى ذلك الخط المرسوم حوله، ولعلَّ التعبير «بالترسيم» في بعض الروايات إشارة إلى هذا المطلوب.

٢- الحبس في دهليز المنازل إذ إنَّ أكثر المنازل كان لها دهليز طويل بين باب الدار وبحثها وفي أكثر الأحيان كان لها باب يفصلها

عن باحة الدار، فلو اغلقت البابان تحوّل الدهليز عملياً إلى سجن.

٣- نفس المنازل كانت نوعاً آخر من السجون، وكما ورد في القرآن الكريم الأمر بحبس النساء في المنازل، يقول تعالى: «وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نَسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا». (النساء / ١٥)

ولا يخفى أنّ هذا الحكم كان قبل نزول حدّ الزنا، وعندما نزل، نسخ الحكم المذكور.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٨٥

٤- «الملازمة» وهى شكل آخر من السجون، وتكون بهذا الترتيب مثلاً، بأن يلازم الدائن المدين المتمكن ولا ينفصل عنه حتى يأخذ حقه.

٥- مسألة «استرقاق الأسرى تعتبر أيضاً قائمة مقام السجن، وقد وردت أحكامها مفصلاً في الفقه الإسلامى.

هذه أشكال بدائية وبسيطة للسجون، وقد تغيرت وتعدّدت بمرور الزمن واتساع المجتمع الإسلامى وتعقيد الحياة وزيادة عدد المجرمين، وأصبح السجن على شكل بناء مخصص، وإن كان السجن موجوداً وبشكل كامل في بلدان أخرى وقبل قرون من الزمن.

أول سجن أسس زمن عمر بن الخطاب:

على الرغم من اصرار بعض المؤرخين على عدم وجود سجن بمعنى المحل الخاص لحجز المجرمين في زمن الخلفاء الثلاثة الأول، وإن السجن بُنى في زمن أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام، إلّا أنّ هذا الادعاء مخالف لكثير من الروايات التى ورد فيها أنّ «عمر» كان أول من أقدم على تأسيس السجن فى الإسلام.

والشاهد على هذا الأمر هو ما ذكره «ابن همان» فى كتاب «شرح فتح القدير» المصنف فى الفقه الحنفى حيث يقول:

«لم يكن السجن موجوداً فى زمن النبى صلى الله عليه وآله ولا زمن خلافة أبى بكر، بل كان المجرمون يُحجزون فى المسجد أو فى دهليز المنازل، حتى جاء «عمر» فاشترى بيتاً فى مكة بأربعة آلاف درهم وجعله سجنًا» (١).

وقد ذكر هذا المطلب فى كتب أخرى أيضاً ككتاب «النظم الإسلامى» وكتاب «الجنات المتحدة بين القانون والشريعة»، فقد صرح هؤلاء أنّ «عمر» اشترى تلك الدار من «صفوان بن أمية» أحد زعماء مكة، وقد ذكر هذا المطلب أيضاً فى كتاب «المهذب» لأبى إسحاق

(١) شرح فتح القدير، ج ٥، ص ٤٧١.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٨٦

الشيرازى، المصنف فى الفقه الشافعى، وأنّ عمر اشترى تلك الدار وبدّلها إلى سجن «١».

ومن هنا نجد أنّ بعض الشعراء فى زمن الخليفة الثانى قد ضمنوا أشعارهم ببعض الأبيات التى لم ترق للخليفة أو أنّها كانت مخالفة للشريع فكان عمر يأمر بحبسهم فى تلك السجون، ولذا نظم بعضهم بعض الأبيات معتذراً ومبيناً براءته من التهمة، ومن مجموع هذه الأمور يتضح الشاهد الحى على وجود السجن فى زمن خلافة عمر.

ومن جملة هؤلاء الشعراء، «الحطيئة» الذى حبسه عمر فانشد هذين البيتين وأرسلهما إلى عمر:

ماذا تقول لأفراخ بذى مرخ حمر الحواصل لا ماء ولا شجر!

ألقيت كاسيهم فى قعر مظلمة فارحم عليك سلام الله يا عمر!

ومن تعبيره «قعر مظلمة» بالخصوص يستفاد أنّ ذلك السجن كان عميقاً ومظلماً فكأنه كان طامورة.

وهناك قرائن اخرى تدل على وجود مثل هذا السجن في زمن عمر، إذ مع اتساع رقعة العالم الإسلامي يزداد عدد الجرائم والمجرمين لا محالة، فلا يمكن تصور عدم وجود سجن ومحبس للمجرمين.

السجن في زمن أمير المؤمنين علي عليه السلام:

والوجه الوحيد الذي يبقى للجمع بين كلام أولئك الذين نفوا وجود السجن في زمن عمر وبين كلام أولئك الذين يصرون على وجوده هو أن عمر لم يقدم على بناء السجن وإنما اكتفى بشراء دار «صفوان بن أمية» بأربعة آلاف درهم واستفاد منه في هذا المضمار.

وأما في عصر أمير المؤمنين علي عليه السلام فإنه أقدم شخصياً على بناء السجن (لكي تراعى المسائل الإنسانية بشكل أفضل في حق المسجونين، وللحد من فرارهم).

والظريف في هذا المقام هو أن التواريخ نقلت أن الإمام عليه السلام بنى أول سجن من «البواري»

(١) المذهب، ج ٢، ص ٢٩٤.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٨٧

لتوفير الاضائة والتهوية الكافيتين وسماء «النافع» (ولعل هذه التسمية لأن الحبس كان من أجل تربية المجرمين وإصلاحهم)، ولكن وللأسف فإن بعض المجرمين استغل شفقة الإمام عليه السلام وأساء الاستفادة من هذا السجن، فقام بعض اللصوص بثقب حائط ذلك السجن وهربوا منه، فاضطر الإمام عليه السلام إلى بناء سجن محكم من الطين وسماه «المخيس».

وكما أشرنا آنفاً فإن الدولة الإسلامية كانت قد اتسعت رقعتها في زمن عمر بن الخطاب بشكل لا يمكن معه إدارة المجتمع دون وجود سجن للمجرمين، والظاهر أن الاصرار على انكار هذا الموضوع يعود إلى الأوضاع السياسية والتوصيات القومية، وإلا فإن التاريخ يشهد هو الآخر على هذا الأمر مضافاً إلى قرائن الأوضاع والاحوال.

وعلى أية حال كان السجن في ذلك الوقت مجرد محل لحجز المجرمين والمدنيين والسارقين وأمثال هؤلاء، ولم يكن ذلك السجن محلاً للمخالفين السياسيين أبداً، فلو صار وجودهم مضرراً في المجتمع فإنهم كانوا يرسلون إلى المنفى كما هو الحال في قضية أبي ذر الغفاري التي نقرأها في التاريخ، حيث إن عثمان وحاشيته لم يتحملوا صراحة لسان أبي ذر الذي كان على الدوام يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فاضطروا إلى نفيه إلى أرض وعرة بلا- ماء ولا- كلاً باسم «الربذة» وبقي هناك إلى أن ودع دار الفناء وانتقل إلى جوار ربّه، ولكن سنرى أن السجن قد تغير جداً في عصر بني أمية وصار مقراً لاعتقال الخصوم السياسيين والمعارضين المؤمنين والأميرين بالمعروف والناهين عن المنكر.

٢- فلسفة وأقسام السجون

إشارة

ينبع عشق الإنسان للحرية من عشقه الملتهب للتكامل والرقى، ولا- يمكن لأي موجود سجين أن يستمر في سيره التكاملي، وحتى الحيوانات تتغرب في أقباصها مهما تهيأت لها ظروف العيش في تلك الأقباص، فهي ترجح الحرية على أسر القفص وإن كانت الأخطار تهددها خارج القفص.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٨٨

ولهذا، فإن الحيوانات الاسيرة في الأقباص لا تبدى أي مظهر من مظاهر الفرح والراحة كالتهريد واللعب إلا إذا كانت قد ولدت في

نفس تلك الأقفاس ولم تذق طعم الحرية.

وإذا كان ذلك غريزةً كامنةً في الحيوانات، ففي الإنسان يتلاحم هذا الشعور العاطفي مع الإدراك العقلي، فيطلب الإنسان بالدليل والبرهان حريته، ولهذا الدليل نفسه يعتبر السجن وسلب الحرية منه نوعاً من أنواع العقاب الصعب والمُرّ. ولا شك في أن أكثر السجنون على طول التاريخ كانت تعبر عن أبشع صور الظلم من قبل الطغاة والحاquدين للوصول إلى مقاصدهم الدنيئة اللامشروعة، ولكن ذلك لا يمنع في أن يكون للسجن فلسفة وأهميئة واقعية، وآثار إيجابية في إصلاح الأفراد ومحاربة الفساد الاجتماعي.

فالاقتال وسلب الحرية، يُعدُّ وسيلةً ثقيلةً للضغط على المسجونين لتحقيق أحد الامور العشرة التالية التي تشكل فلسفة الحبس.

١- السجن الايدائي

هذا النوع من السجن يكون عادةً للأشخاص الذين يرتكبون المخالفات، فالسجن يسلبهم الحرية ليقفوا على قبح أفعالهم، ويردعهم عن تكرارها في المستقبل، ولكي يعتبر الآخرون بذلك. وهذا السجن موجود منذ القدم وحتى الآن، وكل حكومة لها مثل هذا السجن (إلّا في بعض الموارد الاستثنائية).

٢- السجن الإصلاحي

وهذا السجن يستفاد منه لحبس الأفراد الذين يعتادون على الامور السيئة (كالمعتادين على المخدرات) والذين لا ينفع معهم النصح والإرشاد، فلا مهرب من حبسهم في هذا السجن وعزلهم عن المجتمع لمدة قصيرة أو طويلة، لإصلاحهم واجبارهم على ترك ما اعتادوا عليه.

نقعات القرآن، ج ١٠، ص: ١٨٩

٣- السجن الاحتياطي

كأن تحدث حادثة مهمة كقتل نفس محترمة، ولم يُعرف القاتل ولكن يُتهم البعض بالقتل، وحينئذٍ لا بدّ من التحقيق للتعرف على القاتل، ولمنع هروب المتهمين وعدم التمكن من القبض على القاتل بعد ثبوت الأدلة الكافية، لا بدّ من توقيف المتهمين فترة التحقيق المؤقتة، فمن ثبتت براءته قدّم الاعتذار إليه وأُطلق سراحه، ومن ثبت جُرمه عوقب بالعقاب الذي يستحقه. وهذا النوع من السجن كالأصناف السابقة كان ولا يزال موجوداً في كل مكان تقريباً، ومن الطبيعي أن التحقيقات لا بدّ أن تتم على وجه السرعة، إذ قد يكون المتهم بريئاً في الواقع، فينبغي أن لا يبقى فترة طويلة في الحبس.

٤- السجن التأديبي

وهذا السجن يُستفاد منه عادةً في حق الأطفال الذين لا تشملهم القوانين، والذين لو اطلق عنانهم لأساءوا استغلال الحرية الممنوحة لهم وسلوكوا طريق الانحراف، ومن هنا كان لا بدّ من ايداعهم في مثل هذا السجن في مقابل ارتكابهم بعض الذنوب. ليم تأديبهم وتربيتهم.

٥- السجن السياسي

يطلق لفظ «السجين السياسي» على أولئك الأشخاص الذين يقومون بنشاطات سياسية معارضة لمصلحة المجتمع والنظام الحاكم، وقد تكون تلك النشاطات أحياناً غير معارضة لمصلحة المجتمع، بل قد تكون في مصلحته ولكنها مخالفة لمطامع الحكم المتسلط على

رقاب أبناء المجتمع (كالسجناء السياسيين في أكثر البلاد هذا اليوم، حيث يتم حبس هؤلاء الأفراد حتى لو كان الحق معهم).

٦- السجن الاستحقاقى

ونقصد بالاستحقاق هنا، أخذ الحق، فمثلاً، لشخص على آخر دينٌ يمتنع عن أدائه إليه

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٩٠

مع أنه متمكن من الأداء، فهنا قد يحبس المدين حتى يضطر إلى دفع ما عليه للدائن، ولكن هنا لا بدّ من الافراج عنه فوراً بمجرد أن يقبل دفع حق الدائن إليه، لأنّ فلسفة الحبس تنتهى بهذا المقدار.

٧- سجن الحفظ

إشارة

وهذا السجن قد يوجد ولكن بندرة، وهو مورد بعض الأشخاص الذين اشتد غضب الناس عليهم إلى درجة أن وجود هؤلاء الأشخاص في المجتمع يشكل خطراً على حياة الناس، في حين أنهم على فرض ارتكابهم ذنباً فإنهم لا يستحقون الاعدام، ومن هنا تضطر الدولة وهي الحافظة لمصالح الناس إلى نقل هؤلاء الأشخاص إلى سجن معين حتى تهدأ أثرة المجتمع ضدّهم، ومتى ما عادت الأوضاع إلى حالتها الطبيعية اطلق سراح هؤلاء الأشخاص، وكما قلنا فإنّ مثل هذا السجن نادر التحقق، وقد تحققت مصاديقه في حالات الثورات والانتفاضات الشعبية والحركات الاجتماعية.

ما ذكرناه من الاقسام السبعة أعلاه، فلسفة معقولة يمكن تصورها للسجن.

وفى قبال هذه الفلسفة المعقولة، توجد أهداف ومبررات لا معقولة وظالمة كانت العامل الأصلي لكثير من السجنون فى دنيا الأمس واليوم ولا تزال، ويمكن هنا ذكر عدّة أنواع منها:

١- السجن الانتقامى

سجن ليس له هدف معقول اطلاقاً، إلّا أنّ الجيّارين والظلمة والاقطاعيين وللانتقام من الاحرار والرعية حيث يحمل هؤلاء الجبّارون حقداً أعمى فى قلوبهم على الناس، فيلقون بهم فى السجنون، وكم من شاهد من التاريخ أنّ بعض هؤلاء الناس يبقون فى تلك السجنون حتى يموتوا وتتهراً أجسادهم؟

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٩١

٢- السجنون المعدة لقمع التحرر

يحاول الجبّارون كسر روح المقاومة المعنوية أو الجسدية عند المناضلين الثائرين ضدّهم، فيلقون بهم فى السجنون لأجل ذلك، وأحياناً يكون الحبس توأماً مع الاهانة والتعذيب الروحى والجسدى، ومن الواضح أنّ الأفراد المقاومين الصامدين سيخرجون من هذه الحلبة سالمين غانمين، بل يزدادوا أحياناً صلابة وتجربة وعزيمة كالفولاذ الذى يصهر فى الحرارة فيصير أكثر صلابة ونقاء، ولكن قد يؤثر هذا السجن سلباً فى بعض الأشخاص الضعفاء أو ممن هم فى مستوى متوسط من الإيمان والعزيمة، فنراهم بعد التحرر من السجن يغيرون مسير حياتهم ويتركون نضالهم، وقد ينحرف بعضهم ويعمل ضمن أجهزة القطاع الظالم، وذلك للضغوط التى واجهوها فى السجنون.

٣- السجن لعزل القيادة عن القاعدة

هذه السجون خاصة بقيادة الدين والقادة السياسيين، حيث إن الجبارين وعندما يضيقون ذرعاً بجهاد هؤلاء يحاولون التفكيك بينهم وبين قواعدهم ومؤيديهم، فيلقون بالقادة في السجون، والملفت للنظر أن هذه السجون يكون لها في أكثر الموارد نتيجة معكوسة بحيث تؤدي إلى زيادة الانسجام والتآلف بين القواعد والقيادات، فتعزز مكانة القادة في قلوب مؤيديهم، وتزيد من جماهيريتهم.

٤- السجن لرفع المضايقات

أحياناً يكون وجود العالم، المخترع، القائد، أو أى فرد لائق، مزاحماً لوجود الحكام الجبارين، فما يكون من الجبارين إلّا أن يودعوا هؤلاء في السجون ليرتاحوا من مضايقاتهم ومزاحمتهم، ويستمتروا في تسلطهم وتجبرهم دون مزاحم. حتى أن التاريخ نقل لنا أن بعض الجبارين قام بسجن أزواج نساء جميلات من دون ذنب سوى السيطرة على نسايتهم! نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٩٢

٥- السجن بسبب النزاهة

ومن أعجب أنواع السجن على طول التاريخ، السجن الذى يتلى به بعض الأشخاص بسبب نزاهتهم وبراءتهم، ولا بد من الالتفات إلى النزاهة والطهارة تعدّ جُرمًا فى المحيط الملوّث بالذنوب والآثام!! لأنّ ذلك يؤدّى إلى افشال مخططات هؤلاء الملوّثين، فكم من يوسفٍ على مرّ التاريخ أودع السجن بذنب الطهر والعفة والرغبة عن الذنوب. كما فى يوسف الذى دخل السجن بسبب طهارته وعفته. ومن الواضح أنّ مثل هذه السجون التى ليس لها أية فلسفة عقلية وشرعية خارجة عن موضوع بحثنا، وإنّما أشرنا إليها للتوضيح والضرورة.

٣- السجن من وجهة نظر القرآن الكريم

لا- شك فى أنّ كثيراً من الامور التى ذكرت فى فلسفة السجن أمور معقولة، وفى الواقع يعتبر السجن تبعاً لتلك الامور ضرورة اجتماعية، سواء كان لمعاقبة المجرمين أو كان لإصلاحهم وتأديبهم، أو كان لقطع خطرهم أو قطع جذور الفساد وغير ذلك من المسوغات، وقد وردت إشارات عديدة لهذا المعنى فى القرآن المجيد. ولا- يخفى أنّ الألفاظ التى تدل على مفهوم «السجن» كثيرة فى لغة العرب وقد استعملت فى القرآن والسنة الشريفة، وبعض تلك الألفاظ بشكل واضح الدلالة على هذا المعنى، وبعضها قابل للبحث والنقاش. ومن جملة المصطلحات، لفظ «السجن» التى وردت فى تسعة موارد فى آيات القرآن الكريم فى سورة يوسف بمناسبة حبس هذا النبى الكريم الطاهر «بنفسها أو بمشتقاتها». واستعملت فى مورد واحد فى قصة فرعون فى سورة الشعراء حيث خاطب فرعون موسى عليه السلام مهدداً إياه بالسجن وحكى هذا القول القرآن الكريم بقوله تعالى «قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ الْهَأْ غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ». (الشعراء / ٢٩) فمن هذه التعبيرات يُستفاد أنّ السجن بمعناه الواقعى كان موجوداً فى عصر موسى وفرعون، وحتى قبل ذلك أى فى زمن يوسف وعزيز مصر، فكانوا يودعون المذنب والبرىء نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٩٣

فى السجن بحيث إنّ بعض السجناء كان يبقى سنوات عديدة حتى يأتى عليه النسيان.

والمصطلح الآخر هو «الحبس» الذي استعمل في القرآن الكريم في موردين، ولكن ليس في معنى السجن، وإنما استعمل في هذا المعنى في الأحاديث الإسلامية كثيراً (١).

مصطلح «الإمساك» الذي استعمل في مورد واحد في القرآن المجيد بمعنى السجن، وهو مورد النساء اللاتي يأتين الفاحشة، وذلك قبل نزول حكم حدّ الزنا (الجلد)، وقد ورد هذا التعبير في الآية ١٥ من سورة النساء وسيأتي تفصيل الكلام عنه لاحقاً. مصطلح «النفي» عن «الأرض» الذي ورد في الآية ٣٣ من سورة المائدة وفسره البعض بالسجن.

وكذا مصطلح «الإرجاء» الذي ورد في سورة الأعراف الآية ١١١ في قصة موسى وفرعون، حيث يعتقد البعض أنه بمعنى السجن، وذلك عندما اقترح ملاء فرعون عليه أن يرجى موسى وأخاه هارون حتى يجمع السحرة، قال تعالى «قَالُوا ارْجِهْ وَاخَاهُ وَارْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ».

ولكن أغلب المفسرين لم يفسر الإرجاء بهذا المعنى، بل قالوا إن معناه التأخير، وبالالتفات إلى المعجزات التي جاء بها موسى أمام فرعون، واستعداد فرعون لنزال السحرة مع موسى، يستبعد جداً أن يكون فرعون قد حبس موسى وهارون عليهما السلام. وعلى أية حال، فإن المتيقن أنه يوجد في القرآن المجيد مورد واحد على الأقل من موارد حكم السجن، وكما أشرنا آنفاً فإنه ذكر بعبارته «الإمساك» حيث يقول عز وجل:

«وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نُسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا». (النساء / ١٥)

والمعروف بين المفسرين هو أن هذه الآية ناظرة إلى عقاب النساء اللاتي يرتكبن الزنا، قبل نزول حكم حدّ الزنا وهنا ذكر حكمهن وهو السجن المؤبد، وإن تبدل هذا الحكم فيما بعد إلى حكم الجلد أو الرجم.

(١) راجع كتاب ميزان الحكمة ج ٢ ص ٢٤٦-٢٥١ للاطلاع على تلك الأحاديث، حيث ذكرت أبواب مختلفة فيمن يجوز حبسه ومن يحكم عليه بالحبس المؤبد وكذلك حقوق المحبوسين وموارد حرمة الحبس.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٩٤

وجملته «أَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ»، وإن لم يذكر لفظ السجن فيها، ولكن الإمساك في البيوت إلى آخر العمر أمرٌ شبيه بالسجن.

وهذا هو المورد الوحيد المتحقق في القرآن حول حكم السجن.

٤- موارد السجن في الروايات الإسلامية

إشارة

وردت في الروايات الإسلامية موارد متعددة للسجن المؤبد وغيره، من جملتها:

١- في مورد الإعانة على القتل

إذا أمسك شخص شخصاً آخر فقتله ثالث، فحكم القاتل هو الإعدام، وحكم المعاون هو السجن المؤبد، وهذا الحكم مورد اتفاق وإجماع فقهاءنا، وقد وردت روايات كثيرة في المصادر المعتمدة تدل عليه.

ففي حديث عن الإمام علي عليه السلام في رجلين أمسك أحدهما بثالث فقتله الثاني، قال عليه السلام:

«يُقتل القاتل ويحبس الآخر حتى يموت غمّاً كما حبسه حتى مات غمّاً» (١).

٢- الأمر بالقتل

يرى الفقه الإسلامي أنّ الشخص إذا أمرَ آخرًا بقتل ثالث برىء، لا يحق للمأمور أن يقتل ذلك البرىء حتى لو هدده الأمر بالقتل إذا لم يفعل، إذ لا تقيء في الدماء وما يقال من أنّ المأمور معذور لا أساس له من الصحة. فلو أنّ شخصاً لم يعتقد بهذا الحكم الإسلامي، فقتل بريئاً حفظاً لنفسه من تهديد الأمر الظالم، فحكمه في الإسلام هو القتل وحكم الأمر هو السجن المؤبد!

قال الإمام الباقر عليه السلام في حقّ مثل هذا الشخص: «يُحْبَسُ الأمر بقتله حتى يموت» (٢).

(١) وسائل الشيعة، ج ١٩، ص ٣٥، ح ١، الباب ٧ من أبواب قصاص النفس.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٢، ح ١، الباب ١٣ من أبواب القصاص.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٩٥

٣- في مورد تكرار السرقة

يحكم في مورد تكرار السرقة في المرّة الثالثة بالسجن المؤبد على السارق، وقد نقل هذا الحكم بعض كبار أصحاب الإمام الباقر والصادق عليهما السلام عنهما (١).

٤- في مورد المرتدة الفطرية:

إذا لم تتب، حيث يحكم عليها بالسجن المؤبد، وقد جاء في حديث عن الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام: «والمرأة إذا ارتدت عن الإسلام استتبت فإن تابت وإلا خُلِدَتْ في السجن» (٢).

وقد ذكرت موارد أخرى للسجن المؤبد، لا بدّ من مطالعتها في كتب الفقه المطولة.

وتختلف السجون المؤقتة التي لها جنبه تعزيرية، ويرتبط ذلك بميزان «الجرم» و«مقدار تحمّل المجرم» وشروط أخرى. والمتهمون بالقتل في صورة خوف فرارهم، ومن يساعد القاتل على الفرار بعد ثبوت جرمه، والمرأة الحامل التي يثبت عليها الزنا والتي يحتمل فرارها والتي ينبغي أن تسجن حتى تضع حملها، والسارق من غير حرز، والمدين الذي يمتنع عن أداء دينه مع تمكنه من ذلك، وشهود الزور، ومن يكفل مجرمًا فيسجن حتى يحضر المجرم إلى المحكمة، وكل من يرتكب منكراً ولا يتركه إلا أن يحبس، كل هؤلاء من المساجين المؤقتين.

٥- التعامل الإنساني مع المساجين

كما أشرنا سابقاً، فإنّه على الرغم من سوء استغلال موضوع السجن بشكل واسع وعلى مرّ التاريخ، فإنّ السجن من وجهة النظر الاجتماعية والإنسانية، أمرٌ ضروري لمكافحة الجرائم والجنايات وتربية النفوس المريضة، ولكن بحدود وشروط معينة ومحسوبة! أحد تلك الشروط، هو مراعاة المعاملة الإنسانية مع السجناء، فلا بدّ من التعامل معهم على أساس أنّهم بشر، فينبغي ترك المضايقات الظالمة، وأن لا يحبس أحدٌ بذنب غيره، وأن

(١) وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ٤٩٢، الباب الخامس من أبواب حدّ السرقة.

(٢) المصدر السابق، ص ٥٤٩، الباب الرابع من أبواب حدّ المرتد، ح ٦.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٩٦

لا يعاقب أحدٌ أكثر ممّا يستحق حتى لساعه، ولا بدّ أن تكون كل البرامج في سبيل تعليم وتربية السجين، وبتعبير آخر، ينبغي أن يكون السجن مركزاً للتربية والتهذيب لا مركزاً لتخريج المجرمين والحاقدين، فلا بدّ أن يتصف السجن بمواصفات درس التربية.

ومن قصة النبي يوسف عليه السلام ومدّة سجنه في مصر، يستفاد بشكل جيد أنّ تلك السجون كانت على درجة عالية من الظلم والإضطهاد بحيث أنّ بعض السجناء كان يبقى طيلة عمره في السجن، وفقط بعض المصادفات أو الحوادث غير المترقبه هي التي كانت تلفت انتباه الظلمة والحكام إلى السجناء، ولو لم تقع تلك الحادثة لبقى السجين إلى آخر عمره في السجن، بالضبط كما حصل ليوسف حيث إنّ الملك لو لم ير تلك الرؤيا ولو لم يعرف يوسف تفسير الأحلام، لما التمس عزيز مصر تفسير رؤياه من يوسف ولما بعث خلفه ولبقى يوسف، إلى آخر عمره في السجن، في حين أنّه لم يرتكب أي ذنب، وذنبه الوحيد هو طهارته وتقواه وعدم انصياعه لرغبات وأهواء زوجته عزيز مصر (زليخا)، وبطبيعة الحال فإنّ هذه التقوى والطهارة ليست ذنباً صغيراً في قاموس مثل هذه البيئة المنحطة المتسافلة!

والقرآن الكريم يحدثنا كيف أن يوسف الصديق حاول أن يحوّل بيئه السجن إلى محيط للتربية والتعليم والإصلاح، فكان يعلم السجناء درس التوحيد وعبادة الله وهو أصل كل طهارة وحسن، فمتى ما سُئل يوسف عن مسألة بسيطة، أو طلب منه تفسير رؤيا عابرة، كان يطرح المعارف الإلهية ويبين المسائل التربوية للسجناء.

قال تعالى حكاية عن لسان يوسف:

«يَا صَاحِبِ السِّجْنِ أَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ* مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ». (يوسف / ٣٩ - ٤٠)

فصحيح أنّ يوسف عليه السلام كان سجيناً من السجناء، ولكن عمله ذلك كان دليلاً على أنّه لو كان على رأس السلطة لكان يمارس نفس العمل التربوي مع السجناء في محيط السجن بالأولوية، ولحوّل بيئه السجن إلى مركز للتعليم والتربية الإلهية، ولبذل كل جهده من أجل

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٩٧

استغلال الفرصة التي يمتلكها السجناء في السجن لإعادة النظر في تصرفاتهم السابقة وإعادة حساباتهم لبناء أنفسهم من جديد، وتبديل سلوكهم المنحرف إلى سلوك قويم.

وقد أثبتت لنا التجارب أنّ كثيراً من السجناء الأشرار الملوّثين بالذنوب والجرائم سرعان ما يتمّ إصلاحهم إذا ما وجدوا قريناً صالحاً يرشدهم إلى الطريق الصحيح، إذ إنّهم خارج السجن لم يكن لديهم الفرصة الكافية من أجل التفكير والتأمل في تصرفاتهم الفاتية وإعادة حساباتهم للمستقبل، فالسجن توفيق إجباري لمثل هؤلاء.

ونلاحظ في الروايات الإسلامية اهتمام الدين بحقوق السجناء ومنحهم الإجازات للاشتراك في صلاة الجمعة والالتقاء بذويهم وأصدقائهم.

ومن جملة ذلك ماورد في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول:

«عَلَى الْإِمَامِ أَنْ يُخْرِجَ الْمُحْبَسِينَ فِي الدِّينِ، يَوْمَ الْجُمُعَةِ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَيَوْمَ الْعِيدِ إِلَى الْعِيدِ فَيُرْسَلُ مَعَهُمْ فَإِذَا قَضَوْا الصَّلَاةَ وَالْعِيدَ رَدَّهُمْ إِلَى السِّجْنِ» (١).

وينبغي الالتفات إلى أنّ لكلّ من صلاة الجمعة والعيد خطبتان ولهما أثر بالغ في التربية.

وفي حديث آخر يتوسع أكثر من نطاق الأول، حيث ورد فيه: «إِنَّ عَلِيّاً عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يُخْرِجُ أَهْلَ السُّجُونِ - مَنْ حُبِسَ فِي دِينٍ، أَوْ

تُهمّه - إلى الجمعة فيشهدونها ويُضمنهم الأولياء حتى يردوهم» (٢).

كما ويستفاد من حديث آخر أنّ علياً عليه السلام كان كل جمعة يتفقد السجن والسجناء بنفسه، فيجرى الحدّ على أولئك الذين ينتظرون إجراء الحدّ عليهم (ويطلقهم) ويطلق من ليس عليه حدّ (٣).

ومن خلال الآيات والروايات والأحكام الواردة في هذا المجال يمكن استنباط وتنظيم إرشادات جامعة، من نماذجها:

١- عندما القي القبض على عبد الرحمن بن ملجم قاتل الإمام على عليه السلام وأودع السجن،

(١) وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ٢٢١، باب من يجوز حبسه، ح ٢.

(٢) المستدرک، ج ١٧، ص ٤٠٣، ح ١.

(٣) ميزان الحكمة، ج ٢، ص ٢٥.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٩٨

أوصى الإمام عليه السلام بمداراته والإهتمام به، ومن جملة وصاياه لأولاده في حق ابن ملجم، قال:

«أطعموه واسقوه وأحسنوا أسارته» (١).

والمعروف هو أنّ الإمام عليه السلام بعد أن ضربه ابن ملجم على رأسه الشريف فشقه ورقد الإمام عليه السلام في الفراش يغمى عليه أحياناً ويفيق أحياناً، ناوله الإمام الحسن عليه السلام قعباً من لبن، فشرب منه قليلاً ثم نحا عن فيه وقال: إحملوه إلى أسيركم، ثم قال للحسن عليه السلام: بحقّي عليك يا بنى إلّما طيبتم مطعمه ومشربه ... (٢).

ويروى العلامة المجلسي حديثاً آخر، وذلك عندما جرىء بابن ملجم إلى الإمام على عليه السلام فتكلم معه الإمام بكلام ثم قال لولده الإمام الحسن عليه السلام: «ازفق يا ولدي بأسيرك وازحمه واحسن اليه واشفق عليه، الا ترى الى عينيّه قد طارتا الى أم رأسه وقلبه يزجف خوفاً ورعباً وفرعاً، فقال له الحسن عليه السلام يا اباة! قد قتلك هذا اللعين الفاجر وافجعنا فيك وانت تأمرنا بالرّفق به؟! فقال له نعم يا بنى نحن اهل بيت لا نرداد على الذنب إلّا كرماً وعفواً ورّحمته والشفقة من شيمتنا لا من شيمته، بحقّي عليك فاطعمه يا بنى ممّا تأكله، واسقيه ممّا تشربه ولا تقيّد له قدماً، ولا تغلّ له يداً» (٣).

٢- يقول المرحوم الشيخ الطوسي في كتاب الخلاف: من أمسك بصبي صغير وحبسه، فسقط عليه جدار، أو قتله حيوان مفترس، أو لدغه عقرب أو ثعبان فمات، فهو ضامن لدمه، ثم يقول الطوسي بعد ذلك: «دليلنا إجماع الفرقة وأخبارهم» (٤).

فمن هذه العبارة يستفاد ضرورة كون السجن مأموناً ونظيفاً فلو مات السجين بسبب عدم تحقق ذلك فدمه مضمون.

٣- ونقل المرحوم الشيخ الطوسي في كتابه «المبسوط» عن بعض الفقهاء، لو سجن شخصاً في غرفة واغلق عليه الباب فاخنتق ومات فهو ضامن لدمه (٥).

(١) بحار الأنوار، ج ٤٢، ص ٢٣٩.

(٢) بحار الأنوار، ج ٤٢، ص ٢٨٩.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٨٧ - ٨٨.

(٤) كتاب الخلاف، ج ٣، ص ٩٤، (كتاب الجنایات، المسألة ١٩).

(٥) أحكام السجن في الإسلام، ص ٢٦٣ (فارسي).

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ١٩٩

ونفس هذا الكلام قيل في مورد الجوع ونحوه.

ومن مجموع ذلك يستفاد تأمين الغذاء ومراعاة التهوية الكافية في السجن كي لا تتعرض حياة السجن وسلامته للخطر.

٤- ذكر كثير من الفقهاء في بحث آداب القاضى، أن على القاضى إذا دخل المدينة أن يطالع أحوال السجناء وملفاتهم ويحقق فيها ويدرسها بشكل جيد، ليطلق من انتهت فترة محكوميته أو حُبس بلا دليل كافٍ، فوراً.

وصرح بعض الفقهاء أن على القاضى حين وصوله إلى المدينة أن يعلن للملا بأنه سيدرس قضايا السجناء فى موعدٍ يعينه لهم ليتسنى لذوى السجناء الحضور ساعة التحقيق، وعندما يحضر أطراف النزاع يقرأ أسماء السجناء واحداً بعد الآخر.

ويسألهم عن علّة حبسهم، ثم يسأل من طرف الدعوى الآخر، فإن كان عنده دليل مقنع على حبسه، رده إلى السجن، وإن لم يكن هناك مدعٍ، أعلن عن اسمه ليأتى من يدعى عليه شيئاً ويطرح دعواه عند القاضى، وإلا أطلق صراحه «١».

٦- الطرح التاريخى لأبى يوسف لحماية السجناء

يعتبر العصر العباسى من فترات التاريخ الإسلامى المظلمة، واحد الشواهد الحيّة على ذلك هو ازدياد عدد السّجون والضّغط الشّديد على السّجناء، واعتقال الأبرياء بتهم واهية، وتعذيب القرون الوسطى.

لقد تسربت أخبار هذه السّجون الرهيبة إلى الخارج على الرّغم من التّعقيم الشّديد من الحاكم فى ذلك العصر، حتى تعالت صرخات النّاس من هنا وهناك، وطالبت العلماء فى ذلك الوقت للتّدخل فى الأمر لوضع حد لهذا الإرهاب والظلم.

ومن جملة الأمور الايجابية التى تحققت فى هذا المجال، الطرح الذى قدّمه أبو يوسف

(١) جواهر الفلاح، ج ٤، ص ٧٤.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٠٠

نفحات القرآن ج ١٠ ٢٤٩

الفقيه السّنى المعروف وتلميذ أبى حنيفة، حيث إنّ هارون الرّشيد ومن أجل أن يكفّف أفواه المعارضين طلب من أبى يوسف أن يكتب طرْحاً فى كيفية التعامل مع السّجناء من وجهة النّظر الإسلاميّة والفقّه الإسلامى، وقد أكّد هارون الرّشيد على كيفية التعامل مع الشّارقين والأشرار والمخالفين عندما يلقي عليهم القبض، وإنّه هل يجب تهيئة الطّعام لهم؟ وإن كان واجباً فهل يجب أخذه من مورد الزكاة أم من محل آخر؟ وكيف يتعامل معهم بنحو كلى؟

ومن الواضح أن هارون الرّشيد لم يكن يهمله أمر السّجناء وإنّما اضطره الضّغط الجماهيرى لذلك.

فكتب أبو يوسف طرْحاً مفصلاً وموسعاً فى هذا المجال وأرسله إلى هارون الرّشيد وكان طرّحه متسمّاً بالصّيراحة والشّجاعة فى عدّة موارد من فقراته، وقرن ذلك بالانتقاد الشّديد للوضع الرّاهن حينذاك من دون أن يحدد الإجابة بالموارد التى أرادها لهارون الرّشيد، لأنّه كان يعلم جيداً بأنّ أكثر سجناء الحكم العباسى هم من السّياسيين!

وتتلخص هذه الرّسالة التاريخيّة بإثنتى عشرة فقرة نذكرها هنا:

١- إذا لم يكن للسّجناء شىء ممّا يأكلون منه، فيجب أن يُصرف عليهم من الزكاة أو «حق الفقراء» أو من بيت المال أو من «الأموال العامّة».

٢- يجب أن يُصرف على أى من السّجناء مبلغ من بيت المال وذلك لتأمين قوتهم، ويحرم عدا ذلك.

٣- واعلم أنّ الأسير من أسرى المشركين لا بدّ وأن يُطعم ويحسن إليه حتى يحكم فيه، فكيف برجل مسلم قد أخطأ أو أذنب أترك ليموت جوعاً؟

٤- ولم تزل الخلفاء، يا أيّها الخليفة تجرى على أهل السجون ما يقوتهم فى طعامهم وكسوتهم فى الشتاء والصيف، وأول من فعل

ذلك الإمام على بن ابي طالب عليه السلام وحذا من جاء بعده حذوه.

وحدثني بعض الرواة، حيث قالوا: إنَّ عمر بن عبدالعزيز كتب إلينا ما نصه: لا تدعن في سجونكم أحداً من المسلمين في وثاق لا يستطيع أن يصلى قائماً، ولا يبيتن في قيد إلا رجلاً مطلوباً بدم.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٠١

٥- أوصى بأنَّ تدفعوا للسجناء دراهم في كل شهر، فإنَّك إن أعطيتهم الخبز ذهب به ولاة السجن والقوام والجلالوزة فلا يصل إليهم شيء.

«و هنا كشف أبو يوسف اللثام عن فساد ولاة السجن في زمان خلافة بنى العباس ووضح ذلك بكل جلاء».

٦- وولَّ رجلاً من أهل الخير والصلاح يثبت أسماء من في السجن فتجرى عليهم الصدقة وتكون الأسماء عنده ويدفع ذلك إليهم شهراً بشهر، يقعد ويدعو باسم رجل رجل ويدفع ذلك إليه في يده ويكون للأجراء عشرة دراهم في الشهر لكل واحد.

٧- سمعت أن بعض السجناء يغلون بالسلاسل كي يتصدق عليهم الناس، فإنَّ هذا عظيم أن يكون قوم من المسلمين قد أذنبوا وخطأوا وقضى الله عليهم ما هم فيه فحبسوا يخرجون في السلاسل يتصدقون، وما أظن أهل الشرك يفعلون هذا بأسارى المسلمين الذين في أيديهم فكيف ينبغي أن يفعل هذا بأهل الإسلام؟

وإنما صاروا إلى الخروج في السلاسل يتصدقون لما هم فيه من جهد الجوع فرموا أصابوا ما يأكلون وربما لم يصيبوا «وهذه من المصائب الكبرى .

٨- ومن مات منهم ولم يكن له ولي ولا قرابة يغسل ويكفن من بيت المال ويصلى عليه ويدفن.

وقد بلغني وأخبرني به الثقات أنه ربما مات منهم الميت الغريب فيمكث في السجن اليوم واليومين حتى يستأمر الوالى في دفنه وحتى يجمع أهل السجن من عندهم وما يتصدقون ويكنزون لمن يحمله إلى المقابر فيدفن بلا غسل ولا كفن ولا صلاة عليه، فما أعظم هذا في الإسلام وأهله.

٩- ولو أمرت بإقامة الحدود لقل أهل الحبس ولخاف الفساق وأهل الدعارة ولتناهوا عما هم عليه، وإنما يكثر أهل الحبس لقله النظر في أمرهم، فأمر ولا تكك جميعاً بالنظر في أمر المساجين، فمن كان عليه أدب وأدب وأطلق، ومن لم يكن له قضية خلى عنه.

١٠- وعليهم أن لا يسرفوا في الأدب ولا يتجاوزوا بذلك إلى ما لا يحل ولا يسع، فإنه

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٠٢

بلغني أنهم يضربون الرجل في التهمة وفي الجناية الثلاثمائة والمائتين ضربه وأكثر أو أقل، وهذا ممَّا لا يجوز ولا يحل في الإسلام، فظهر المؤمن حمي ولا يجوز أذيته.

١١- كل من أتى بما يجب عليه الحد أو القصاص وقامت عليه البينة بذلك، يجب أن تقام عليه الحدود الإسلامية، فمن جرح منهم جراحة في مثلها قصاص، وقامت عليه البينة بذلك، قيس جرحه واقتص منه إلا أن يعفو المجنى عليه، فإن اقتص منه أو عفا عنه صاحب الدم، فيطلق سراحه ولا يبقى في السجن.

١٢- إذا لم يستطع الجاني تحمل القصاص حكم عليه بالأرش واطيل حبسه حتى يحدث توبه ثم يخلى سبيله «١».

فهذه الرسالة التاريخية تحكى عن رؤية فقيه عاصر العباسيين عن أحكام الإسلام في السجناء، ويمكن أن تكون نموذجاً صغيراً من مجموعة كبيرة من الشواهد والأدلة على التعليمات الإسلامية في هذا المجال.

(١) كتاب الخراج للقاضي أبي يوسف، ص ١٤٩- بتصرف.

الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

تمهيد:

إن قيمة أي قانون مرتبطة بميزان إجرائه، فأفضل القوانين إذا لم تطبق على الأرض لا تعدو أن تكون مجرد حبر على ورق، ولا تحل أي مشكلة من مشاكل المجتمع، وبالعكس فإن أضعف القوانين إذا طبقت بشكل جيد ودقيق فإنه يمكنها أن تحل كثيراً من مشكلاته. ولهذا، وردت في الإسلام، والحكومة الإسلامية برامج موسعة وكثيرة لضمان إجراء القوانين والحد من التخلف عنها، وهذه البرامج تشمل على الأمور التالية:

١- الجهاز القضائي.

٢- وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٣- مسألة الحسبة.

وقد تكلمنا بالمقدار الكافي حول وظائف الجهاز القضائي وإجراء الحدود والتعزيرات، والآن نكرس الكلام للبحث في مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وموضوع الحسبة.

يعتبر إجراء الحدود والحسبة في الواقع من فروع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأننا نعلم بأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له ثلاث مراحل، إثنان منها وظيفة عامة للناس بنحو الواجب الكفائي، ومرحلة واحدة من وظائف الحكومة، والمراحل هي:

١- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالقلب (أي أن يتأذى القلب من المخالفات والذنوب التي يرتكبها الآخرون، ويميل إلى الخير والصلاح،) وقال البعض أن المقصود من

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٠٤

هذه المرحلة هو أن يظهر انزجاره أو ميله القلبيين بوجهه أو عمله بصورة قطعية أو صلح للمرتكبين) وهذه وظيفة عامة للناس في قبال ترك الواجبات والإتيان بالمحرمات.

٢- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باللسان، ويكون ابتداءً بالكلمات اللطيفة اللينة الحبيبة والوعظ والحكمة، ثم بالكلمات الحادة الخشنة (وهي وظيفة عامة للناس أيضاً).

٣- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باليد، وبتعبير آخر اتخاذ الإجراءات العملية والقاسية أحياناً في قبال تارك الواجبات ومرتكبي المحرمات سواء عن طريق العقاب البدني أو الحبس أو الأعمال المشابهة الأخرى

وكما قلنا في الأبحاث الفقهية فإن هذه المرحلة من وظائف الحكومة الإسلامية ولا يمكن أن يسمح للناس بالقيام بها، لأن ذلك يؤدي إلى وقوع الهرج والمرج وأنواع الفوضى الأخرى

وهذا الأمر هو بالضبط ما جاء بعنوان وظيفة الحسبة في الفقه الإسلامي وكلمات الفقهاء ومؤرخي الإسلام.

وبعد هذه الإشارة نرجع إلى الآيات القرآنية في هذا المضمون:

١- «كُتِبَ خَيْرَ أَمَةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ». (آل عمران / ١١٠)

٢- «وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ». (آل عمران / ١٠٤)

٣- «لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْتَجِدُّونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ». (آل عمران / ١١٣-١١٤)

٤- «وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٠٥

وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ». (التوبة / ٧١)

٥- «التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ». (التوبة / ١١٢)

٦- «الَّذِينَ أَنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ». (الحج / ٤١)

٧- «يَا بَنِي آدَمَ اقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ». (لقمان / ١٧)

جمع الآيات و تفسيرها

خطوة مهمة في طريق إجراء الأحكام:

ما جاء في هذه الآيات هو أكثر ما جاء من آيات القرآن المجيد في خصوص فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المهمة، والتي تبين أبعادها المختلفة.

فالآية الأولى تصوّر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعنوان أمر عام وتعتبره من خصائص الأمة الإسلامية، لا بمعنى أنه لم يوجد في الأمم السابقة أصلاً، بل بمعنى أنه يعدُّ أصلاً أصيلاً في الأمة الإسلامية وركناً ركيناً فيها حيث يقول: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ».

والملفت للنظر أنها من جهة تعتبر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خصوصية من الخصائص التي أدت إلى أفضلية الإسلام على سائر الأديان وأنّ الأمة الإسلامية هي الأمة النموذجية المثلى ومن جهة أخرى تقدم هذه الوظيفة على الإيمان بالله! وهذا يدل على أنه إذا لم تؤدّ هذه الوظيفة على المستوى العام بصورة أصلين أساسيين اجتماعيين، فلا ضمان لاستمرار إيمان الناس.

نعم، فهو كذلك، فلو نُسيت هاتان الوظيفتان، ضعف الإيمان في القلوب، وذبلت غصونه

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٠٦

وأوراقه، والنتيجة هي اضمحلال الإيمان والإسلام.

ثمّ إنّه من هذا البيان يتضح جيداً أنّ المسلمين إنّما يكونون أمة متميزة وممتازة ما داموا يدعون إلى الخير والصلاح ويجاهدون المنكر والفساد، فإذا ما نسوا ذلك لم يعودوا خير أمة ولم يترشح منهم النفع للمجتمع البشري!

نعم.. فالمسلمون إنّما يمكنهم أن يكونوا قادة الأمم في العالم وأن تستفيد البشرية جمعاء من وجودهم، فيما لو طبقوا هاتين الوظيفتين الكبيرتين.

وبتعبير آخر: كل واحد من أفراد الأمة الإسلامية، لابد أن يشعر بالمسؤولية، وخلافاً لما نراه اليوم حيث توكل مسؤوليه مكافحة الفساد إلى مجموعة معينة من المأمورين الحكوميين وبقى سائر أفراد المجتمع في حلٍّ من تحمل هذه المسؤولية الاجتماعية المهمة فيبقون متفرجين على الممارسات الاجتماعية السلبية بلاحراك.

فالآية تؤكد على أنّ هذه المسؤولية عامة لا بد أن يتحملها الصغير والكبير، الشاب والشيوخ والرجل والمرأة والعالم والجاهل. واستعمال كلمة «المعروف» و «المنكر» في الآية لنكتة مهمة أخرى، إذ هي من جهة، تبين أنّ الواجبات والمحرمات أمورٌ يدركها ويعرفها عقل الإنسان وروحه جيداً، فهو يعشق الواجبات، في حين أنّ المنكرات أمور بعيدة عن ذوقه فهو يجهلها وينفر منها.

ومن جهة أخرى، فإنّ من البديهي إننا لو نسينا هاتين الوظيفتين واعتاد المحيط على المنكرات والبعد عن الخير والمعروف، صار المنكر معروفاً والمعروف منكراً في نظر الناس، وهذه أكبر خسارة يمكن أن يتحملها مجتمع من المجتمعات، وهذا البلاء هو الذي عمّ

اليوم كثيراً من المجتمعات العالمية، حيث تبدل المعروف عندهم منكراً والمنكر معروفاً! والآية الثانية ناطرة إلى قسم آخر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتي تختص نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٠٧

بها مجموعة من الآيات الإسلامية، وبتعبير آخر هي مختصة بالحكومة وموظفي الحكومة حيث ورد فيها: «وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

وعندما نضع هذه الآية في قبال الآية السابقة نجد أن الآية السابقة تتحدث عن مرحلة من مراحل هاتين الوظيفتين المهمتين غير المرحلة التي تتحدث عنها هذه الآية، فتلك مرحلة القلب واللسان وهذه مرحلة استخدام القوة والشدة، والملفت للنظر هو أن هذه الآية تحصر الفلاح بأولئك الأشخاص الذين يؤدون هاتين الوظيفتين العظيمتين (إلتفتوا إلى أن جملة أولئك هم المفلحون تدل على الحصر) «١». والتعبير بالأمة، قد يكون إشارة إلى أن هذه الوظيفة لا بد أن تؤدي بصورة «جماعية»، وأن تكون مقترنة «بمنهج تنظيم»، ونحن نعلم بأن الأمور التي تحتاج إلى شدة والتي تؤدي من قبل الحكومة لا تكون ممكنة بغير الشرطين.

وذيل الآية يبين بوضوح أن كل فلاح ونجاح في الدنيا والآخرة وفي الفرد والمجتمع، لا يتحقق إلّا في ظل هاتين الوظيفتين. وفي الآية الثالثة، إشارة إلى نكته طريفة أخرى في مجال هاتين الوظيفتين العظيمتين، تتضح لنا من خلال دراسة سبب النزول فقد ورد في سبب نزول هذه الآية أن مجموعة من علماء وأخبار اليهود كانوا قد أسلموا والتحقوا بصفوف المسلمين، مما أدى إلى غضب زعماء اليهود جداً، فمن أجل إذلال وتحقير هؤلاء المؤمنين ادعى زعماء اليهود أن ثلث من أشرارهم قد اعتنقوا الإسلام وإنهم لو كانوا صالحين ما تركوا دينهم!!

(١) ما قاله البعض من أن «من» التي وردت في الآية زائدة أو أنها للبيان، وأن مفهوم الآية شامل لكل المؤمنين، مخالف لظاهر الآية، فالظاهر منها هو أن «من» تبعيضية، أي أنه يجب على مجموعة منكم فقط القيام بهذه الوظيفة. وكذلك فإن ما قاله البعض من أن «من» تبعيضية للواجب الكفائي، مخالف للظاهر أيضاً، لأن الواجب الكفائي واجب على الجميع، غايته أن نوع الوجوب فيه يختلف عن نوع الواجب العيني (وتوضيح ذلك مو كول إلى علم الأصول).

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٠٨

فالآية المذكورة أعلاه تجيب هؤلاء وتقول: «لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ أَنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ* يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ».

فالآية تلخص خصائص الصالحين من أهل الكتاب الذين اعتنقوا الإسلام في ثلاثة أمور: الإيمان بالمبدأ والمعاد، ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي النهاية المسارعة في الخيرات. وهذا يدل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يعد من أبرز مظاهر الصالحين بعد الإيمان بالله ويوم القيامة، وأنه أصل كل الخير.

وفي الآية الرابعة، يعتبر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أول خصوصية من خصائص المؤمنين، حتى أن إقامة الصلاة وأداء الزكاة وإطاعة الله والتبى صلى الله عليه وآله جاءت بعدها، وهذا يدل على أن هاتين الوظيفتين العظيمتين إذا لم تطبقا، فإن أساس العبادة والطاعة وعبودية الله تتعرض للخطر.

يقول الله تعالى: «وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

وقد اختتمت عدة أمور في تفسير جملة «بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ»، من جملتها أن هؤلاء منسجمون في الإيمان بالله ومباني الإسلام- والآخرة هو أن أحدهم ينصر الآخر في أمور الدين والدنيا، والثالث هو أن هؤلاء بالتعليم والتربية يخرجون الآخرين صوب درجات

الكمال العالیه.

ومن الواضح أنّ هذه التفسيرات الثلاثة لا منافاة فيما بينها، ويمكن أن تجتمع في مفهوم الآيه، لأنّ الولاية في الآيه جاءت مطلقة فتشمل ارتباط المؤمنين ببعضهم في أبعادٍ مختلفة.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٠٩

وفي الآيه الخامسة وبعد ذكر التجارة المربحة التي يتجر بها المؤمنون الحقيقيون مع الله، أي الجهاد في سبيله، حيث يشرون أنفسهم وأموالهم بالجنة الغالية، وبعد بيان أنّ الله عزوجل يبارك لهم هذه المعاملة ويعدّها فوزاً عظيماً، يلخص أوصاف هؤلاء في تسعة أمور ويقول: «التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْعَامِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ».

وفي الواقع فإنّ الأوصاف الستة المذكورة أولاً، إشارة إلى مراحل العبادة والطاعة والعبودية في هؤلاء، والأوصاف الثلاثة الأخيرة (وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وحفظ الحدود) إشارة إلى جهاد هؤلاء الاجتماعي في طريق إرساء مباني الحق والعدالة وإجراء الأحكام الإلهية، وبعد هذه الأمور جاءت البشارة الإلهية لهم بشكل مطلق.

وبتعبير آخر، فإنّ الأوصاف الستة الأولى ناظرة إلى علاقة الخلق بالخالق، والثلاثة الأخيرة ناظرة إلى علاقة الخلق بأنفسهم وهذه البشارة التي ذكرت في آخر الأمر تشمل سعادة الدنيا وسعادة الآخرة معاً.

وفي الآيه السادسة، إشارة إلى بُعد آخر من هذه المسألة وهو البعد الحكومي، وبتعبير آخر تعتبر الآيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أحد وظائف الحكام الإسلاميين المهمة، حيث يقول عزوجل:

«الَّذِينَ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ».

وفي الحقيقة فإنّ الوعد بنصر الله، الوارد في الآيه السابقة لهذه الآيه «وَلَيُنصِرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصِرُهُ» مختصة بمثل هؤلاء الأشخاص، الذين إذا ما تسلموا زمام القدرة والحكم في الأرض فإنهم مضافاً إلى أدائهم الصلوة وحدهم، يقيمونها أيضاً في كل مكان، ويؤتون الزكاة لمستحقيها، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢١٠

هذا على الرغم من أنّ البعض يتصور أنّ مراد الآيه، المهاجرون فقط، ولكن من الواضح أنّ الآيه الشريفة لها مفهوم أوسع وتشمل الجميع حتى قيام القيامة.

والنكته التي لا بد من الالتفات إليها أيضاً هي أنّ القرآن الكريم غالباً ما يعبر بلفظ «الإقامة» في خصوص الصلوة إلّافي مورد المنافقين حيث عبر بالقيام بدل الإقامة، حيث يقول واصفاً إياهم، «وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالِي . (النساء / ١٤٢)

وهذا التعبير قد يكون إشارة إلى أنّ المؤمنين الحقيقيين لا يؤدّون الصلاة بأنفسهم فحسب، بل إنهم يحاولون إقامة الصلاة في كل المجتمع، وقال البعض إنّ ذلك إشارة إلى أنّ هؤلاء المؤمنين ليس فقط يأتون بظاهر الصلوة وصورتها بل إنهم يحاولون إقامة الصلاة بكل محتواها الحقيقي وشرائط صحتها وكمالها (والجمع بين هذين التفسيرين ليس مشكلاً).

وفي الآيه السابعة والأخيرة نلاحظ نكته أخرى حول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي أنّ هذين الأمرين المهمين ليسا من مختصات الشريعة الإسلامية فقط، بل إنّ هناك تأكيد شديد عليهما في الأمم السالفة أيضاً (وإن كانتا قد أخذتا شكلاً موسعاً وأساسياً في الشريعة الإسلامية).

فينقل لنا القرآن الكريم عن لسان لقمان ذلك الرجل الحكيم العالم:

«يَا بُنَيَّ اِقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ».

فهنا اعتبرت الآيه أنّ رمز انتصار الإنسان في أربعة أمور:

إقامة الصلاة، الأمر بالمعروف، النهى عن المنكر، والصبر.

وجملة «إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ» قد تكون إشارة إلى خصوص الصبر المذكور في الذيل، وقد تكون شاملة للأصول الأربعة جميعاً. ولا بد هنا من التدقيق في هذه النكته وهي أن اقتران الصبر بمسألة الأمر بالمعروف

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢١١

والنهي عن المنكر إشارة إلى الارتباط الوثيق بين هذين الأمرين، إذ إن أداء هاتين الوظيفتين الإلهيتين المهمتين يقترن أحياناً بالمشاكل والصعوبات، ولا يمكن تحقق الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر إلا بالصبر والإستقامة. كما أن هذين الأمرين على ارتباط وثيق أيضاً بالصلاة، لأننا نعلم جيداً بأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، أو بتعبير آخر هي الأساس الأصلي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر «إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ». (العنكبوت / ٤٥)

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الروايات:

نلاحظ في الروايات أيضاً تأكيداً كبيراً على هاتين الوظيفتين المهمتين، وتعتبرهما الضامن لإجراء كل الفرائض الإلهية والسبب الرئيس في الأمن والأمان وتحقيق العدالة.

١- ورد في حديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «مَنْ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ فَهُوَ خَلِيفَةُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ، وَخَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ وَخَلِيفَةُ كِتَابِهِ» «١».

٢- وفي حديث آخر عنه صلى الله عليه وآله نلاحظ تعبيراً أوضح، حيث كان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله على المنبر فقام إليه رجل وقال: يا رسول الله صلى الله عليه وآله: «مَنْ خَيْرُ النَّاسِ؟» فقال النبي صلى الله عليه وآله: «أَمْرُهُمُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَتَقَاهُمْ لِلَّهِ وَأَرْضَاهُمْ» «٢».

٣- وفي حديث آخر عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيَعْمُنَنَّكُمْ عَذَابُ اللَّهِ» «٣».

٤- وفي حديث معروف أيضاً عن علي عليه السلام قال: «وما أعمال البر كلها والجهد في سبيل الله عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا كنفثه في بحر لجي» «٤».

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٢، ص ٤٨٤، ذيل الآية ١٠٤ من سورة آل عمران.

(٢) المصدر السابق.

(٣) وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٤٠٧، ح ١٢، الباب ٣ من أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(٤) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٣٧٤.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢١٢

٥- وأخيراً نقرأ عن الإمام الباقر عليه السلام بياناً لفلسفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كلام مختصر مفيد حيث يقول عليه السلام: «إِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ فَرِيضَةٌ عَظِيمَةٌ بِهَا تُقَامُ الْفَرَائِضُ وَتَأْمَنُ الْمَذَاهِبُ وَتَحُلُّ الْمَكَاسِبُ وَتُرَدُّ الْمِظَالِمُ وَتَعْمُرُ الْأَرْضُ وَيُنْتَصَفُ مِنَ الْأَعْدَاءِ وَيَسْتَقِيمُ الْأَمْرُ» «١».

والأحاديث الواردة عن أئمة الدين الإسلامي عليهم السلام في هذا المجال كثيرة جداً إلى درجة أنها لو جمعت لصارت كتاباً مستقلاً.

وهنا ينبغي الإلتفات إلى عدة نكات ضرورية:

١- إن أحسن أنواع الحكومات، تلك الحكومة التي يشترك فيها كل الناس، وبتعبير آخر الحكومة التي يحمل أركانها أكتاف الناس،

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الواقع تصميم لمسألة الحكومة وتثبيت لاشتراك عامة الناس فيها، إذ عن هذا الطريق يمكن الحد من الكثير من المخالفات، وتعريف الناس بوظائفهم الفردية والاجتماعية، ومع الأخذ بنظر الاعتبار قلعة المأمورين الحكوميين (كالتسوية وقوى الأمن الداخلي) قياساً إلى عدد المتخلفين، تتضح لنا أهمية هذه الوظيفة الإسلامية أكثر فأكثر، إذ لا يمكن نظم المجتمع والحد من وقوع المخالفات والجرائم إلا عن هذا الطريق.

وما قيل من أنه لو كان في داخل البيت ولد مجرم فإن أباه وأمه مسؤولان تجاهه، وأن الولد البالغ مسؤول عن أبيه وأمه إذا ما ارتكبا ذنباً، وأنه إذا صدر ذنب في شرق العالم وكان في غربه رجل يمكنه الحد من ارتكابه، فلم يفعل كان شريكاً له، هذا القول، له تأثير عميق بلا شك في الحد من ارتكاب الذنوب والمخالفات والدعوة إلى القيام بالفرائض والمسؤوليات.

هذا في حين أن مجتمع اليوم والحكومات اللاحادية، قد أوكلت مسؤولية الحد من

(١) وسائل الشيعة، ج ١، ص ٣٩٥، الباب ١، ح ٦.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢١٣

المخالفات والمفاسد على عهده مجموعة صغيرة خاصة فقط، ولذا فإن نتائج هذه المجموعات محدود جداً وقليل.

ومن هنا يتضح لنا عظمة وأهمية هذه الفريضة الإسلامية من جهة، وجماهيرية الحكومة الإسلامية من جهة أخرى.

ولكن هذا لا يعني أن يتصرف جميع الناس وكأنهم رجال شرطة، بل إن وظيفتهم على مستوى الدعوة إلى الخيرات ومكافحة المنكرات والشؤون عن طريق النصح والموعظة، وأحياناً عن طريق قطع الروابط والعلاقات الاجتماعية مع الفاسدين والمفسدين.

٢- قد أشرنا في بحث التعزيرات إلى أنها قسم من أقسام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو نفس القسم الذي يجري من قبل الحاكم الشرعي والذي لا يحق للآخرين التدخل فيه، وكما جاء هناك، فإن التعزير بمعنى المنع من ارتكاب الذنب أو الحد من الاستمرار على ارتكابه أو تكراره، وفي هذه الطريق لا بد من الاستفادة من قاعدة الاستيصال فالأسيهل أي ينبغي البدء بالمراحل البسيطة أولاً، فإن لم تقع مؤثرة انتقل إلى المراحل المعقدة والخشنة.

فيبدأ بالتذكير الأخرى أو الأبوي، ثم العتاب الخفيف، ثم الشديداً، ثم عدم الإكرام وقطع الروابط، وفي النهاية الحبس والجلد والغرامات المالية والتوبيخات الاجتماعية وأمثال ذلك، فهذه هي المراحل في طريق التعزير عن المنكر، وبعبارة أخرى المصايق المختلفة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولهذا فإن العلماء يعتمدون على أدلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الفقه عندما يبحثون الحدود والتعزيرات لإثبات مشروعيتها.

٣- لا يمكن إنكار تأثير فريضة «الأمر بالمعروف» و«النهي عن المنكر» في تأمين العدالة الاجتماعية وإجراء القوانين ومحاربة المنكرات والحد من الجنايات وتقليل عدد السجناء، وتطوير الثقافة الاجتماعية، وقد أثبت التجارب أن المجتمعات التي تؤدي هاتين الوظيفتين بشكل صريح وقاطع ومدروس، تكون عادة مجتمعات نظيفة وسليمة ويعم الأمن والأمان فيها، وبالعكس فإن المجتمعات التي نسيت هاتين الوظيفتين والتي وقفت

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢١٤

مكتوفة الأيدي قبال التخلفات والمعاصي، ابتليت بعواقب سيئة، فدخل الفساد حتى في المنازل والبيوت، وفي هذا المجتمع لا يأمن أي فرد من أفراده من المخاطر، وبالضبط كما ورد في الحديث الشريف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فإن البلاء والعذاب سيعم الجميع، وكما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «فَيُولَىٰ عَلَيْكُمْ شَرَارِكُمْ ثُمَّ تَدْعُونَ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ» (١).

٤- إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يبدأ عادةً كما نعلم من العمل الثقافي، وعليه، فإن كل أجهزة الإعلام الجماعية، وكل

مراكز الإذاعة والتلفزيون لها دخل في رفع مستوى الإطلاع والثقافة الجماهيرية وتوجيه الناس نحو الخير والصلاح والطهر والأخلاق الإنسانية الرفيعة والفضيلة، والتنفّر من الفساد والقبائح، فكل من هؤلاء موقعه في دائرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحتى مراكز التربية والتعليم بمستوياتها المختلفة والتي تُعرّف الشُّبان والصِّبيان أصول العقائد الصحيحة والموازن الإنسانية والقوانين والأداب الاجتماعيّة، والتي تخطو من أجل التعليم والتربية الصّحيحة، لها موقعها الخاص في تلك الدائرة، وذلك لأنّ كل هذه الأمور يمكن أن تساهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعليه فإنّ دور هذه المراكز في تحقيق هذين الأصلين الاجتماعيين المهمين، واضح وجليّ.

والنكته المهمة الأخرى هي أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإن اعتبرنا قسمين من فروع الدين، إلّا أنّهما من جهة أخرى، بدرجة من السّعة والأهميّة بحيث يشملان قسماً عظيماً من أصول العقائد، لأنّ تلك الأمور مؤثرة في هذا المسير وعن طريق تحكّم أسس الاعتقادات يمكن محاربة المفاسد الاجتماعيّة، كما أنّ العبادات أيضاً تعتبر مقدمه لها.

٥- خلافاً لما يراه البعض، فإنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليسا وظيفه عبادية، بل فلسفه عقليّة واضحة (التفتوا جيداً).
وتوضيح ذلك:

بالإلتفات إلى العلاقات الاجتماعيّة، وأنّ أي عمل خير أو شرّ في المجتمع الإنساني لا يتحدد بنقطة خاصه، بل يسرى بأى صورة إلى النقاط الأخرى، فكل عمل قبيح يعتبر كالنار

(١) نهج البلاغه، الرسالة ٤٧.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢١٥

التي إذا لم تطفأ فإنّها ستسرى وتحرق كل ما في طريقها وتحيله إلى رماد، فمحاربه الفساد حق اجتماعي.

وأفضل تعبير عن هذا المطلب هو ما ورد في الحديث النبوي حيث يقول:

«إنّ مثل الفاسق في القوم كمثل قوم ركبوا سفينة في البحر فاقتسموها فصار لكل واحد منهم [مكان فعمد أحدهم الى مكانه لخرقه تعالى فقالوا أتريد أن تهلكنا فقال وما انتم من مكاني فإن تركوه غرقوا وغرق معهم و إن أخذوا على يديه نجوا ونجا فذلك مثل الفاسق]» (١).

ومن هنا يتضح لنا، أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ليسا تدخلًا في حياة الآخرين الخاصّة، فلا شك في أنّ الإسلام يعتبر التّدخل في حياة الآخرين والتجسس عليهم حراماً، والقرآن الكريم تحدث عن هذه الحقيقة في (سورة الحجرات)، ولكن حدود الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي الإضطرابات والمفاسد الاجتماعيّة الفاضحة، والتي لها مدخلة مباشرة في تحديد مصير المجتمع، وأنّ مصير المجتمع معقود عليها، والتخلف والانحراف في كلّ فردٍ من أفراد المجتمع له أثر بالغ على المجتمع ككلّ.

وبناءً على هذا، فإنّه لا يحق لأحد أن يعترض على أولئك الذين يأمرّون بالمعروف وينهون عن المنكر في مثل هذه الموارد ويقول لهم: إنّ هذا الأمر لا يهمكم فلا تتدخلوا فيه، فإن جواب هذا الشخص، هو أنّ هذا الأمر يخصّنا جميعاً، فإنّ مصيرنا مرتبط بنا جميعاً، فهل يحق لأحد أن يعترض على الدولة إذا ما عينت مأمورين للتلقيح ضد الأمراض المسرية إذا ما سرت تلك الأمراض في المجتمع ويقول لمسؤولي الدولة: إنّ هذا الأمر لا- يعنيكم؟ فأنا الذي أتمرّض وأنا الذي أعرض نفسي للخطر فلماذا تتدخلون في حياتي الشخصية؟!

فلا- شك في أنّ الجميع سيجيئون ذلك الشخص بأنّ سلامتك ليست منفصلة عن سلامة المجتمع، ومرضك سيسرى إلى أفراد المجتمع الآخرين، ولذا فإن الأمر بهمّ الجميع.

وعليه فلا بدّ من الإذعان بأنّ هاتين الوظيفتين (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) تعتبران من أثار الحياة الاجتماعيّة للإنسان ومن

الحقوق والواجبات الاجتماعية.

كان هذا ملخصاً لبحث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأثرهما في تحقيق أهداف الحكومة الإسلامية.

(١) راجع تفسير روح الجنان، ج ٣، ص ١٤٢؛ المعجم الاوسط، ج ٣، ص ١٤٩.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢١٦

جهاز الحسبة والمحتسب في الحكومة الإسلامية:

هذا البحث مرتبط تماماً ببحث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو في الحقيقة فرع من فروع، إذ كما أشرنا فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له شقان، شق عام يشمل جميع الناس، وشق خاص تختص به الحكومة الإسلامية، ففي هذه المرحلة قد يلزم إبداء الخشونة والشدّة وهذا ليس من شأن الناس، بل لابد أن يقوم مأمور الحكومة المدربون على القيام بهذه الوظيفة، وهذا يشكل أساس «الحسبة» (١).

توضيح ذلك:

«الحسبة»: في اللغة، إسم مصدر من مادة «إحتساب»، وكما ذكر أرباب اللغة فإنه بمعنى التسليم والصبر حيال المشكلات طلباً للأجر الإلهي، وكذلك السعى في أداء أعمال الخير لتحقيق الثواب. ولما كان هذا الشق من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سعياً واجتهاداً وجداً في طريق إطاعة الله ومكافحة المنكرات لنيل رضا الله، سُمي «حسبة».

يقول في كتاب «التحقيق» حول معنى مادة «حسب»: الأصل في هذا المصطلح بمعنى التحقيق والبحث والتدقيق بقصد الإمتحان. وهذا التعبير يناسب كثيراً شغل المحتسب الذي يستخبر عن شرائح مختلفة من المجتمع ويبحث ويحقق ويراقب حركاتهم، فإن وجد انحرافاً نهيهم إليه، فإن لم ينفذ واجههم بشدة. وكانت دائرة «الحسبة» من الدوائر المعروفة في زمن الخلفاء وتشرف على نشاطات الكسبة والتجار والفلاحين وشرائح المجتمع الأخرى من حيث المخالفات والمنكرات، وكلما رأى المحتسبون مخالفة كانوا ينهون مرتكبيها لها، فإن لم يؤثر فيهم النهي والتذكير والموعظة، كانوا يعاقبون المخالف في نفس المكان مباشرة، أو يقبضون عليه ويسلمونه إلى القاضي فيأمر بحسبه.

(١) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ح ٢، مادة (حسب).

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢١٧

وباعتقاد البعض، فإن جذور هذه المسألة تعود إلى عصر النبي صلى الله عليه وآله حيث كان صلى الله عليه وآله يمارس عمل المحتسب بنفسه الشريفة، وتارة كان يوكل الأمر إلى شخص ينتخبه لهذا الغرض، ولكن لابد من الالتفات إلى أن استعمال هذا المصطلح لم يكن معمولاً به في ذلك العصر، ولم يكن موجوداً في كلام الفقهاء المتقدمين، ويبدو أن هذا المصطلح استعمل لأول مرة، في عصر خلفاء بني أمية وبني العباس، حيث انتخب لهذا الشق من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وعلى أية حال، فإن الأخبار الواصلة عن عصر النبي صلى الله عليه وآله تدل على أن كلمة «الحسبة» وإن لم تكن متداولة في ذلك العصر بمعناها ومفهومها المعهود اليوم، ولكن مفهومها الواقعي أي، النظارة على المسائل الاجتماعية من قبل الحكومة الإسلامية، كان مراعى تماماً حينذاك، فتارة كان الرسول صلى الله عليه وآله يقوم بنفسه بهذه الوظيفة، وأخرى يوكلها إلى آخرين.

ومن جملة الشواهد على ذلك، ما ورد من أن الرسول صلى الله عليه وآله قد أمر سعيد بن سعيد بن العاص - بعد فتح مكة - بالاشراف على السوق، حيث ورد في الحديث: «استعمل رسول الله سعيد بن سعيد بن العاص بعد الفتح على سوق مكة» (١). حتى أن المستفاد من بعض الروايات، أن بعض النساء كن يمارسن وظيفة الاشراف على المسائل النسائية (كمسائل الحجاب وأمثال ذلك)، ومن جملة تلك النسوة امرأة باسم «سحراء» بنت نهيك (٢) الذي أدرك عصر النبي صلى الله عليه وآله، كانت مأمورة بالقيام بتلك الوظيفة، فكانت تدور في الأسواق وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر (وإن ذهب البعض إلى أنها لم تقم بذلك الدور في عصر النبي صلى الله عليه وآله وإنما كان ذلك في زمن عمر بن الخطاب) (٣). وفي كثير من المواضع، كان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يتولى ذلك بنفسه، خاصة في مسائل الإحتكار والغش والتدليس في المعاملة وأمثال ذلك، ومن جملة ما ورد في ذلك: «إن

(١) التراتيب الإدارية، للكتاني، ج ١، ص ٢٨٥ (ينقل الرواية عن ابن عبد البر في الاستيعاب).

(٢) «نهيك» على وزن شريك، وفي الأصل بمعنى الجمل القوى، والسيف القاطع، ويقال للرجال القاطعين الحازمين أيضاً. (٣) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢١٨

رسول الله صلى الله عليه وآله مرّ بالمحتكرين فأمر بحكرتهم أن تخرج إلى بطون الأسواق وحيث تنظر الأبصار إليها» (١)، فاقترح الناس أن تُعين أسعارها، فرفض النبي صلى الله عليه وآله ذلك. وفي حديث آخر، أن النبي صلى الله عليه وآله مرّ على رجل خلط طعاماً جيداً برديء، فقال له النبي صلى الله عليه وآله في ذلك، فقال الرجل: أردت أن أبيع جميعاً فقال صلى الله عليه وآله: «مئزر كل واحدٍ منهما على حدة، ليس في ديننا غش» (٢). وجاء في عهد الإمام علي عليه السلام إلى مالك الأشر: «إمّنع من الإحتكار فإن رسول الله صلى الله عليه وآله منع منه، وليكن البيع بيعاً سمحاً بموازين عدل، وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع، فمن قارف حكرة بعد نهيك إياه، فنكل به وعاقبه في غير إسراف» (٣). ونقرأ أيضاً في أحوال الإمام علي عليه السلام أنه كان يتولى بنفسه الأمور المرتبطة بالحسبة، فكان أحياناً يمرّ في سوق القصابين وينهاهم عن المخالفة (٤).

وكان عليه السلام يمرّ تارة في سوق السمّكين وينهاهم عن بيع الأسماك المحرّمة (٥).

ولكن، وبمرور الزمان، اتسعت مسألة «الحسبة» واتخذت تدريجياً صورة دائرة مهمّة من دوائر الدولة الإسلاميّة، فكان المأمورون باسم «المحتسبين» يدورون في الأزقة والأسواق والشوارع الكبيرة ليل نهار ويراقبون الأمور الاجتماعيّة، المختلفة، فيعاقبون المخالفين في محل ارتكاب المخالفة أحياناً، وأحياناً أخرى يأخذونه إلى القاضي (كما في مأموري شرطة المرور هذه الأيام). واتّسعت دائرة «الحسبة» إلى درجة أن «جرجى زيدان» المؤرخ المعروف ذكر في كتابه «تاريخ الحضارة الإسلاميّة» يقول:

(١) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٣١٧، ح ١، الباب ٣.

(٢) كنز العمال، ج ٤، ص ١٥٩.

(٣) نهج البلاغة، الرسالة ٥٣.

(٤) كنز العمال، ج ٤، ص ١٥٨.

(٥) وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ٣٣٢.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢١٩

«الحسبة»: وهي احدى المناصب الإسلامية، شأنها شأن منصب القضاء وللمحتسب حق ردع الناس عن القيام بالمنكرات، وله حق الاشراف على التعزير والتأديب، وأمر الناس بضرورة رعاية المصالح في المؤمن، ومنعهم من الوقوف في الطرقات، ومراقبة شؤون النقل، ومنع أصحاب السفن من تحميل السفينة أكثر من طاقتها، وذلك حفاظاً على أموال وأرواح الناس، ويأمر بإقامته وتعديل الجدران المشرفة على السقوط وكل شيء من شأنه تعريض المارة للخطر، وكل شيء يلحق بهم الضرر، ويمنع الغش والتدليس في الكسب والعمل، ويأمر بمراعاة المكيال والميزان والاشراف على منع كل ما من شأنه أن يلحق الاذى والاجحاف بالناس.

وكل ما ذكر هو مسؤوليات القاضى، ولكن لكون القاضى لا- يستطيع ممارسة كل هذه الأعمال بشكل عملي، لذا فُصلت هذه المسؤوليَّة من مهامه، وأصبحت مستقلة.

المتصدى لهذا المنصب أو المسؤول يجب أن يكون فرداً صالحاً ومن ذوى الوجاهة، لأنَّ هذه المسؤوليَّة تمثل خدمة دينية «ومن دون هذه الوجاهة لا يمكنه القيام بهذه المسؤوليَّة».

ورئيس امور الحسبة يقوم بتعيين ممثلين عنه في كافة المناطق ويستطيع أن يجلس كل يوم في أحد المساجد المهمَّة، ويقوم مُمثِّلوه يقومون بممارسة الأعمال المختلفة الملقاة على عاتقهم في الاشراف على المشاغل المختلفة والسوق.

وفي مصر، كان رئيس امور الحسبة يجلس يوماً في مسجد القاهرة ويوماً في مسجد القسطنطينية، ويرسل ممثليه إلى الشوارع والأزقة لكي يقوموا بالاشراف على وضع اللحوم ومراكز الطبخ والأغذية، وكذلك الاشراف على الحمولة التي تحملها الحيوانات، حيث لا يسمحون تحميلها أكثر من طاقتها، ويأمرون سقاءء الماء بأن يغطوا أوانيهم بقطع من القماش، وأن يراعوا الموازين الصحيَّة والإسلاميَّة في أعمالهم.

ويحذرون معلمى المدارس والمكاتب بأن لا يضربوا تلامذتهم ضرباً شديداً إذا ما أذنبوا، وإذا ما ضربوهم فليتنبوا المناطق الحساسة والخطرة من الجسم.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٢٠

والمحتسب له حق الاشراف على محل ضرب العملة لكي لا يحصل الغش أثناء ضرب السكة فتخرج عن العيار المطلوب.

وفي الأندلس كان يسمى هذا المنصب لاخطه «الاحتساب» والمسؤول عنه أحد القضاة، ويقوم هذا الشخص بركوب مركباً والتجوال في الأسواق يحيط به أعوانه وموظفوه، ويحمل معه ميزان ليزن به الخبز، فاذا كان أقل مما هو مقرر فيعاقب البائع.

ويجب على القصاب أن يعلق قيمة للحوم في دكانه، وذلك لكي لا يتلاعب بالاسعار.

وفي بعض الأحيان يقوم المحتسب بإرسال طفلٍ أو امرأة لكي يشتريا من السوق، ويقوم المحتسب بوزن ما اشترياه، فاذا رأى نقصاً في الوزن فيقوم بمجازاة البائع.

هؤلاء، لديهم قوانين واسعة لها علاقة بالحسبة يقومون بتدريسها في مدارسهم، كما يدرس فقهاء الإسلام دروسهم «١».

ومن مجموع هذا الكلام والمطالب الاخرى المذكورة في الكتب المصنفة في «الحسبة»، يظهر أن «دائرة الحسبة» كانت تتولى كثيراً من الأمور التي تتولاها اليوم الدوائر الحكوميه كأمانة العاصمة والقوى الداخليَّة، وقوى التعزيرات والغرامات الحكوميه، والتربية والتعليم، والقضاة، وأنها أحد أركان الحكومه الإسلاميَّة الفعالة، وخاصة في دورها الواضح والبارز في محاربة المنكرات، ولذا فإنَّ قصائد الشعراء تضمَّنت مصطلح «المحتسب» ووظائفه بشكل موسع.

والمستفاد من مجموعته من المصادر أن القيام بوظيفة «المحتسب» كان من الواجبات الكفائيَّة بين المسلمين، إذ كما قلنا فإنَّ «الحسبة» فرع من فروع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتَّى أن بعض النساء كنَّ يُنتخبن لهذه الوظيفة ليشرفن على تحركات النساء الاجتماعيَّة.

ونقرأ في «دائرة معارف دهخدا» (فارسي) في بحث «وظائف المحتسب»: «إن وظيفة المحتسب، أولاً: الاشراف على إجراء المقررات الشرعية والمنع من ارتكاب

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية «جرجي زيدان»، ج ١، ص ٢٥٢، مع التصرف.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٢١

المحرمات، وثانياً: الاشراف على صحة سير الأمور المرتبطة بالمصالح العامة للمجتمع ورفاههم وحياتهم، وكذلك الحد من سدّ الطرقات العامة والأزقة من قبل بعض المخالفين والباعه... والإشراف على الوزن، وما هو اليوم في عهده «البلديات» من هذه الوظائف كان في الأصل في عهده القاضي، ولكنهم جعلوها شغلاً مستقلاً لكي لا يتولى القاضي بها» (١).

ويذكر في نفس الكتاب وظائف المحتسب نقلاً عن كتاب «معالم القزبة» والذي قد يكون أجمع كتاب كتب في أحكام الحسبة، حيث يذكر ما يظهر منه أن شغل المحتسب يشمل الاشراف على أنواع الكسب والتجارات وموارد الإنتاج والخدمات والتربية والتعليم.

ومن جملة الموارد: منع وقوع المنكرات في الأزقة والأسواق ومراقبته صحة الوزن والمكيال وأموال الأفران والمخابز، والأموال الصّحية والمسالخ والتدقيق في صحة الذبح وشرائطه، والحمامات العامة، والأطباء والمعلمين والمؤذنين وخدمة المساجد والوعاظ والكتّاب، وكذا النظارة على أشغال التجارة، والملاحين، والمعمارين والبنائين، والسماصرة والصرافين والصاغة وأمثالهم (٢).

وفيما يرتبط بالفرق بين مسألة «الحسبة» ومسألة «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» ذكرت بعض الكتب مثل «الأحكام السلطانية» فروقاً كثيرة بينهما بلغت تسعة فوارق (٣).

ويمكن في الواقع تلخيص تلك الفروق في جملة واحدة وهي أن «الحسبة» هي الشق الحكومي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والذي يمكن التوسل به في موارد اللزوم، وعليه فالمحتسب يُعيّن من قبل الحكومة، وله أعوان وأنصار، وظيفتهم الاشراف والنظارة على المسائل الاجتماعية المذكورة، وهؤلاء يستلمون مرتباتهم الشهرية من صندوق بيت المال، ويلقون القبض على المخالفين ويعزرونهم ويعاقبونهم على النحو الذي مرّ، وأما الشق العام للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا يكون بهذا النحو.

(١) لغتنامه دهخدا، مادة (حسبة).

(٢) المصدر السابق.

(٣) الأحكام السلطانية، ص ٢٤.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٢٣

الركن الرابع: التربية والتعليم

تمهيد:

إشارة

يعتبر نشر الثقافة الصّحية والتربية والتعليم أحد الأركان المهمة في الحكومة الإسلامية، وبالنظر إلى الإنسان كموجود ثقافي، أي أن أعماله وسلوكه نتاج لمجموعة أفكاره واستعداداته، لذا فأيّ إصلاح وتحوّل في وضع المجتمع غير ممكن ما لم يتمّ النفوذ إلى فكره وروحه.

ولذا تحاول الدول العظمى النفوذ في ثقافة المجتمعات ووسائل الإعلام العامة كالمطبوعات (الكتب والجرائد والمجلات) والإذاعة والتلفزيون وأمثال ذلك، من أجل تحقيق أهدافها السياسية والاجتماعية والعسكرية والاقتصادية المختلفة، ويعتبر ذلك ركناً من أركان تلك الحكومات وقوة رابعة تضاف إلى القوى الثلاث (القوة التشريعية والتنفيذية والقضائية)، بل إن الكثيرين يعتبرون ذلك من أهم أركان المجتمع ويراهنون عليه كثيراً.

وهذه حقيقة لا مبالغة فيها، إذ إن وسائل الإعلام العامة لو استغلت في طريق نشر الثقافة الصحيحة السالمة المبرمجة المؤثرة، لكان جو التشريع والقضاء والتنفيذ سالماً، ولخفت كثيراً من ذلك العبء الثقيل عن كاهل المسؤولين، ولأدى أفراد المجتمع وظائفهم بشكل طبيعي ومنظم.

والملفت للنظر هو أن منهج الحكومة الإسلامية المستنبط من القرآن المجيد والسنة النبوية، والمقرر قبل أربعة عشر قرناً، كان قد اهتم فوق حد التصور بمسائل التربية والتعليم والتبشير والإنذار، وقد اعتمد برامج عديدة ومتنوعة لتحقيق هذا الغرض.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٢٤

والموضوع القابل للتأمل هو أن أبرز أنواع الحكم الإسلامي وهو حكومة الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وآله، بنيت على أساس ثورة ثقافية، فقد إهتم الرسول صلى الله عليه وآله طيلة الثلاثة عشر عاماً التي قضاها في مكة بالتربية والتعليم ونشر الثقافة الإسلامية والعقائد، وقد ربى أصحابه وعلمهم بحيث صار كل منهم لبنة أساسية في بناء الحكومة الإسلامية، أي أن الثورة السياسية والاجتماعية للنظام الإسلامي قامت على أساس نفس تلك الثورة الثقافية.

ويعتبر إحياء الفكر والتفكير، المادة الأولية لكل البرامج الإسلامية، حتى أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله كان يطلب من مخالفيه هذا الأمر فقط وكما ورد في القرآن المجيد: «قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْرِئاً مُتَّفَعِينَ...» (سبأ/ ٤٦) وفي حديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «إِنَّ التَّفَكُّرَ حَيَاةُ قَلْبِ الْبَصِيرِ، كَمَا يَمْشِي الْمُسْتَنِيرُ فِي الظُّلُمَاتِ بِالنُّورِ» (١). وفي حديث عن الإمام علي عليه السلام قال: «بِالتَّفَكُّرِ تَنْجَلِي غِيَاهِبِ الْأُمُورِ» (٢).

وورد في حديث آخر معروف: «تَفَكَّرْ سَاعَةً خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةٍ سِتِينَ سَنَةً» (٣).

وعلى هذا الأساس، سنتناول بالبحث الأمور التالية، مستلهمين من القرآن الكريم:

١- التربية والتعليم في الإسلام.

٢- أهمية العلم لا تنحصر بالعلوم الدينية.

٣- تعلم العلوم المفيدة، في الروايات الإسلامية.

٤- مقام المعلم في الإسلام و...

١- التربية والتعليم في الإسلام

وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة في «التعليم» و«التعلم» و«نشر العلم»، وذكر كل

(١) بحار الأنوار، ج ٨٩، ص ١٧.

(٢) غرر الحكم.

(٣) بحار الأنوار، ج ٦٦، ص ٢٩٣.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٢٥

تلك الآيات لا يَسَعُهُ هذا المختصر، ولذا سنشير هنا إلى بعض تلك الآيات:

١- «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا». (الطلاق / ١٢)

٢- «كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ». (البقرة / ١٥١)

٣- «رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ». (البقرة / ١٢٩)

٤- «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَاسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ». (النحل / ٤٣)

٥- «وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ». (التوبة / ١٢٢)

٦- «يُوتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَدَّكُرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ». (البقرة / ٢٦٩)

٧- «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا آتَانَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ». (البقرة / ١٥٩)

فبنظرة إجمالية إلى هذه الآيات السبع التي انتخبناها من بين عشرات الآيات القرآنية حول التعليم والتربية، يتضح لنا اهتمام الإسلام البالغ بهذا الأمر المهم.

ففي الآية الأولى، يعتبر العالم كله بمثابة جامعة خُلقت جميع الموجودات فيه لتعليم الإنسان وزيادة اطلاعه، والهدف هو أن يتفكر الإنسان في أسرار هذه الكائنات، فيتعرف على علم وقدره الخالق، وبتعبير آخر، الهدف من عالم الخلق كله هو العلم والمعرفة حيث يقول عز وجل:

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٢٦

«اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ... لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ...» (١).

وهذا في الحقيقة موضوع ظريف وهو أن خلق السماوات وخلق الأرضين وتديرهما الدائمي، يكون وسيلة لتحريك حس الإطلاع عند الإنسان للتفكير والتأمل في أسرار العالم، وبالنتيجة التيقن من علم الله وقدرته، فكل تلك الأمور إذن مقدمة لتربية النفس الإنسانية والقرب إلى الله، وللإطلاع على أن أحكام الشريعة كأحكام الخلق، مبتنية على حسابات دقيقة، فالخلق إذن من أجل العلم.

وتشير الآية الثانية إلى الهدف من بعثه نبي الإسلام صلى الله عليه وآله، وتعتبر أن الهدف هو التعليم والتربية في ظل تلاوة آيات الله، حيث تقول:

«كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ».

فهنا لم يحصر الهدف من البعث في تعليم الكتاب والحكمة، بل تعليم الأمور التي لم يكن بالإمكان التعرف عليها إلا بنزول الوحي، ولذا يقول: «وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ».

وبهذا يكون الهدف من الخلق تطوير المعرفة، والهدف من البعث كذلك هو توسعه ونشر العلم والحكمة وتهذيب وتربية النفوس.

(١) فسرت السماوات السبع بتفسيرات عديدة، منها تفسير معروف وهو أن كل ما نراه من سماوات وكرات سماوية ونجوم سيارة وثابتة، مرتبط بالسماوات الأولى، وما بعدها ستة عوالم أخرى عظيمة جداً، واحد تفاسير الأرضين السبع هو أن ما يوجد فوقنا من عوالم يوجد مثله تحت أرجلنا وهذا المعنى بينه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في عبارة رائعة حيث سأل أصحابه هل يعرفون ما تحت أرجلهم؟ فقالوا: الله ورسوله أعلم فقال صلى الله عليه وآله: «الأرض وتحتها أرض أخرى بينهما خمسمائة عام» (تفسير روح البيان، ج

١٠، ص ٤٤). وللإطلاع أكثر على معنى السماوات السبع راجعوا الى ج ٢، ص ١٤٤ من هذا التفسير.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٢٧

والمستفاد من الآية الثالثة هو أنّ هذا الهدف الكبير أى التربية والتعليم والحكمة، ورد في دعاء إبراهيم الخليل عليه السلام لهذه الأمة، حتى إنه يطلب ذلك من الله عز وجل ويقول:

«رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

وهذا يدل على أنّ هذين الهدفين (التربية والتعليم) كانا من الأهداف المعروفة في الأمم السابقة أيضاً.

والملفت للنظر هو أنّه ورد في هذه الآية وبعض الآيات الأخرى الواردة في هذا المضممار، الحديث عن تعليم الكتاب وتركيب النفس إضافة إلى تعليم الحكمة، وفيما يرتبط بمعنى «الحكمة» وردت تفسيرات كثيرة ومختلفة.

الأول: إنّ المراد منها هو العلوم الدنيوية والتعرف على أحكام الدين.

والثاني: إنّ المراد منها هو سنّة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، ولإنها ذكرت إلى جنب كتاب الله. وقال البعض الآخر إنّ المراد من الحكمة هو العلامات والفوارق التي تميز الحق من الباطل، وقيل أيضاً إنّ الحكمة بمعنى الآيات المتشابهة التي لا بدّ أن يُعلمها الرسول بنفسه للآخرين «١».

لكن وبالتأمل في أصل لفظ «الحكمة» في اللغة، والتي جاءت بمعنى المنع من الجهل والخطأ، ووضع كلّ شيء في موضعه، يبدو أنّ المراد من الحكمة هنا الإطلاع على أسرار وعلل ونتائج الأحكام، وأسرار خلقه الكون والإنسان، ومصيره ونهايته.

وفي الآية الرابعة إشارة إلى قاعدة كلية هي أساس مسألة التربية والتعليم، حيث يقول عز وجل: «فَاسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ».

وهذه الآية وإن وردت في صفات الأنبياء السابقين عليهم السلام وإنهم كانوا من جنس البشر، وأنّه لا فرق بينهم وبين سائر البشر في الظاهر، ولكننا نعلم أنّ مورد الآية لا يحدّد مفهومها

(١) التفسير الكبير، ج ٤، ص ٦٦ (ذيل الآية مورد البحث).

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٢٨

الوسيع، بل الحكم باقي على عموميته.

وهذا في الواقع أصلٌ أساسي يدعّن بصحته كل عقلاء العالم، وهو أنّ غير أهل العلم يتعلمون من أهل العلم، إذ إنّ العلوم والمعارف الحقيقية محصول التفكير والتأمل والتجارب التي اكتسبها القدماء، والتي يضعونها تحت تصرف الأجيال القادمة، وهؤلاء يضيفون عليها ويسلمونها للأجيال اللاحقة، وهكذا يتكامل العلم والمعرفة البشرية يوماً بعد يوم، ولهذا الدليل تعتبر مسألة التربية والتعليم الأساس الأول لكل تطور ورقي اجتماعي في البعد المعنوي والمادي.

ونُقِلت عبارة عن الغزالي توضح هذا المطلب أكثر، وهي أنّه سئل عن كيفية حصوله على هذه الإحاطة العلمية باصول وفروع الإسلام، فأجاب بتلاوة هذه الآية: «فَاسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» «١».

وقد فسّرت الروايات العديدة الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، أهل الذكر، بمعنى الأئمة المعصومين عليهم السلام «٢» ولكن وكما تعلم أنّ هذه التفاسير ليست بمعنى الحصر، بل في بيان المصداق الأتمّ والأكمل لها، وشبهه هذا المعنى نلاحظه في تفسير كثير من آيات القرآن.

والآية الخامسة تقسم المسلمين إلى مجموعتين: «المعلمين والمتعلمين» وفي الواقع لا بدّ أن يكون المسلم فرداً من أفراد إحدى المجموعتين، فإما أن يكون معلماً أو متعلماً حيث يقول عز وجل:

«وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ».

وقد استند كثير من العلماء على طول التاريخ إلى هذه الآية الشريفة لإثبات لزوم تعلم

(١) تفسير روح البيان، ج ٥، ص ٣٧.

(٢) للإطلاع على هذه الروايات يراجع من تفسير البرهان ج ٢ ص ٣٦٩، والملاحظ أن هذا التعبير ورد في روايات أهل السنة أيضاً (راجع شواهد التنزيل للحسكاني ج ١، ص ٣٤٤، وإحقاق الحق، ج ٣، ص ٤٨٢).

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٢٩

العلوم الإسلامية لإبلاغها إلى الآخرين بعنوان الواجب الكفائي، مضافاً إلى أنهم يوجبون التعلّم على الجميع وجوباً عينياً. وفي عالم اليوم، يعتبر طلب العلم في كثير من الدول إلزامياً، فيجب على كل طفل أن يتعلم وإلّا استدعى وليه من قبل الجهات المسؤولة، ولكن التعليم ليس إلزامياً في أي مكان من العالم، بل الناس مخيرون بين انتخاب التعليم وعدمه. وأمّا في الإسلام، فإنّه كما يعتبر تحصيل العلم واجباً، فكذلك تعليم الآخرين فإن فيه جنبه الإلزام والوجوب وأحد الأدلة على ذلك هو نفس آية التفرّ هذه، فإنّها من جهة توجب تحصيل العلم بجملة «فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ» (١). ومن جهة أخرى فإنّها توجب التعليم، بجملة «وَلْيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ»، ولا شك في أنّ كلّ ذلك مقدّمه للقيام بالتكاليف الإلهية، والذي تخلّص في جملة: «لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ».

ولهذا، فإنّ بعض علماء الإسلام، كان أحياناً يطوى المسافات البعيدة لأيام عديدة وينتقل من بلد إلى آخر لتعلّم حديث واحد، ومن جملة هؤلاء - كما ذكر التاريخ - «جابر» الذي سافر من «المدينة» إلى «مصر» ليسمع حديثاً واحداً من أحد العلماء الذي كان يروى ذلك الحديث، ولذا قيل إنّ أحداً لا يصل إلى مرحلة الكمال إلّا بالسفر (والإلتقاء بعلماء البلاد المختلفة والاستفادة من علومهم وتجاربهم)، وإنّ أحداً لا يصل إلى مقصوده إلّا بالهجرة (٢).

ونقرأ في قصة الخضر وموسى عليه السلام والتي وردت الإشارة إليها في سورة الكهف كيف أنّ هذا النبيّ الكبير (موسى)، كان قد طوى طريقاً طويلاً وشاقاً حتى وصل إلى هذا العبد الصالح (الخضر) وتعلّم شيئاً من علومه.

(١) طبقاً لأقوال علماء الأدب فإن «لولا» تحضيضية، وهي في مقام اللوم والتقريع ومن الواضح فإن التقريع إنّما يكون على ترك الواجب أو فعل الحرام.

(٢) تفسير روح البيان، ج ٣، ص ٥٣٧.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٣٠

وفي الآية السادسة، نواجه تعبيراً مهماً آخر حول تعلّم العلم والمعرفة، يقول عزّ وجلّ:

«يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ».

بداهية أن المنظور من تعبير «مَنْ يَشَاءُ» ليس هو أنّ يعطى الله الحكمة والعلم لهذا وذاك بلا مبرر وبدون مقدمة، بل وكما تعلم فإنّ «مشيئة» الله وإرادته منسجمة دائماً مع «حكيمته»، أي أنّه يؤتي الحكمة من كان لائقاً بها، وهذه اللياقة إنّما يحصل عليها الإنسان عن طريق الجد والسعي وتحمل عناء ومشقة تحصيل العلم، أو بواسطة جهاد النفس والتقوى التي تعتبر منبع النظرة الصائبة والفرقان الإلهي. واللطف في هذا الأمر هو أن الآية الكريمة تعبر عن العلم والحكمة بعبارة «خَيْرًا كَثِيرًا» وهو تعبير جامع يشمل كل الحسّن والخير، خير الدنيا والآخرة، والخير المادي والمعنوي، والخير في كل الجهات.

وللمفسر الكبير، المرحوم العلامة الطباطبائي (ره) نكتة في هذا المقام يقول: «إنّ جملة «وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ» جاءت بصيغة المبنى للمجهول، في حين أنّ الجملة التي قبلها جاءت بصيغة المعلوم حيث قال تعالى «يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ» وماذا كإلّا للبيان أنّ الحكمة

والمعرفة ذاتاً منبع خير كثير، لا من جهة الإنتساب إلى الله المتعال فقط، بل إن ذات وحقيقه العلم خير كثير» (١).
والآية الأخيرة، أشارت إلى بُعد آخر في هذه المسألة، حيث ورد فيها ذم شديد لأولئك الذين يكتمون العلم والمعرفة، حيث يقول تعالى:

«إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ».

(١) تفسير الميزان، ج ٢، ذيل الآية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٣١

والتعبير بلعن الله ولعن اللاعنين من أشد التعبيرات التي استعملت في القرآن المجيد في ذنب من الذنوب، وهذا دليل على قبح كتمان العلم والهدى إلى أبعد الحدود، بالخصوص تلك العلوم والمعارف التي تكون أساساً لهداية الناس.

وفي الآية التي تلي هذه الآية مباشرة من سورة البقرة، ذكر تعالى الطريق الوحيد للتوبة من هذا الذنب الكبير وهو تبيين المسائل المكتومة بعد التدم والعودة إلى الله، وهذا بنفسه دليل واضح على أن جبران «كتمان العلم» لا يتحقق إلا بتبينه حيث يقول تعالى: «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ». (البقرة/ ١٦٠)

وهذه الآية وإن نزلت في أهل الكتاب الذين كتموا علامات نبي الإسلام صلى الله عليه وآله المذكورة في كتبهم، إلا أن مفهومها أوسع من ذلك، فتشمل كتمان كل علم من العلوم يكون سبباً في هداية الناس، والزوايات الواردة عن المعصومين عليهم السلام تشهد بهذا الأمر وأن المراد من العلم مفهومه المطلق، يقول النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «مَنْ سِئِلَ عَنْ عِلْمٍ يَعْلَمُهُ فَكْتَمَهُ، الْجَمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلْجَامٍ مِنْ نَارٍ» (١).

وفي حديث آخر عنه صلى الله عليه وآله نلاحظ تعبيراً أوضح من الأول حيث يقول صلى الله عليه وآله: «مَنْ كَتَمَ عِلْمًا نَافِعًا عِنْدَهُ، أَلْجَمَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلْجَامٍ مِنْ نَارٍ» (٢).

ومن الواضح أن هذا التعبير يشمل كل العلوم المفيدة للإنسان في مجال من المجالات.

وقد نقل هذا المعنى بصراحة في حديث آخر عنه صلى الله عليه وآله أيضاً حيث يقول صلى الله عليه وآله: «مَنْ عَلِمَ شَيْئًا فَلَا يَكْتُمَهُ» (٣).

٢- أهمية العلم لا تنحصر بالعلوم الدينية

قد يتصور البعض أن كل تلك التأكيدات الواردة في الآيات القرآنية والزوايات الشريفة في التعلم والتعليم ونشر العلوم، ناظرة إلى العلوم الدينية فقط، ولا تشمل ما يرتبط ببحث

(١) تفسير مجمع البيان، ج ١-٢، ص ٢٤١، ذيل الآية مورد البحث.

(٢) كنز العمال، ح ٢٩١٤٢، ج ١٠، ص ٢١٦؛ بحار الأنوار، ج ٢، ص ٧٨.

(٣) كنز العمال، ح ٢٩١٤٥.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٣٢

الحكومة الإسلامية ونشر كل العلوم وهو مورد حديثنا!

ولكن هذا اشتباه كبير، إذ إن المستفاد من آيات القرآن، ومن الزوايات الإسلامية أيضاً، هو أهمية العلم والتربية والتعليم بشكل مطلق.

والشواهد على هذا المعنى كثيرة، من جملتها الآيات القرآنية الشريفة التالية:

١- ورد في قصة آدم عليه السلام، مسألة تعليم الأسماء، وهي إشارة إلى العلم والإطلاع على أسرار خلقه تمام الموجودات، لا فقط العلوم الدينيّة، يقول عزّوجلّ:

«وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا». (البقرة / ٣١)

٢- تعرضت الآية الرابعة من سورة الرحمن التي تعدّد نعم الله تعالى وآلائه إلى تعليم البيان، واعتبرته موهبة إلهية عظيمة، يقول تعالى:

«عَلَّمَهُ الْبَيَانَ». (الرحمن / ٤)

٣- ورد في سورة يوسف عليه السلام إشارة إلى علم تفسير الأحلام التي تحكى عن المستقبل والتي قد يكون لها أثر في مصير الأمم كشعب مصر، وتأويل تلك الأحلام، حيث يحكى القرآن عن لسان يوسف ويقول:

«ذَلِكُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي». (يوسف / ٣٧)

٤- وفي نفس تلك السورة، يشير إلى مسألة تدبير أمر دوله كامله والإطلاع على إدارة بيت المال، حيث يحكى القرآن عن لسان يوسف مخاطباً عزيز مصر:

«قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ». (يوسف / ٥٥)

٥- (وفي أمر إدارة الدولة هذا) قصيدة طالوت وجالوت، عندما يُبين دليل انتخاب طالوت ملكاً من قبل نبي ذلك العصر (اشموئيل)، تقول الآية:

«إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ». (البقرة / ٢٤٧)

ومن الواضح أنّ امتياز طالوت على سائر بني إسرائيل لم يكن في العلوم والمعارف الإلهية فقط، بل كان العلم والقدرة الإدارية للأمور العسكريّة والسياسية عند هذا الشاب الذكي المدبّر، مورد نظر في الاستدلال.

٦- وفي قصة داود عليه السلام يعتبر تعليم (صنعة لبوس من امتيازاته الكبيرة بل على رأى

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٣٣

الطبرسي في مجمع البيان أنّ «لبوس» يشمل كلّ أنواع الأسلحة الدفاعية والهجومية، ولا تختص بالدروع «١»، يقول عزّوجلّ:

«وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ». (الأنبياء / ٨٠)

٧- وتتحدث سورة الكهف عن قصة موسى والخضر والعلوم والمعارف التي تعلمها موسى عليه السلام من الخضر عليه السلام، ونلاحظ أنّ أياً منها لم يكن من العلوم الدينيّة، بل كانت من العلوم التي تدير المجتمع الإنساني طبق نظام أحسن، يقول تعالى:

«فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتِيَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا». (الكهف / ٦٥)

ثم يذكر في الآيات اللاحقة ثلاثة نماذج لهذه العلوم وهي ليست من العلوم الدينيّة، بل مرتبطة بتدبير الحياة.

٨- ورد في سورة النمل الحديث عن اطلاع سليمان عليه السلام وعلمه بحديث الطير ومنطقه، ويعتبر ذلك من الأمور التي كان سليمان يفتخر ويتباهى بها، يقول تعالى

«وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ». (النمل / ١٦)

٩- وفي أواخر سورة الكهف وفي قصيدة ذي القرنين، ورد الحديث عن بنائه السيد وإنه حادثه مهمّة حتى أنّها تبين بعض الجزئيات في عملية بناء ذلك السيد وكيفية تدبير أمر بناء سدّ محكم قوى حديدى للحدّ من هجوم القبائل الفاسدة والمفسدة (بأجوج ومأجوج)، يقول تعالى:

«آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قَطْرًا». (الكهف / ٩٦)

١٠- وفي سورة لقمان أيضاً، وردت آيات في بيان وصايا لقمان لابنه، حيث نرى مجموعه من الإرشادات لها جنبه اجتماعية وإدارية،

يعتبر رعايتها والاهتمام بها من الأمور المهمة في حياة كل فرد، من جملتها إنه قال:

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية ٨٠ من سورة الأنبياء عليهم السلام ولكن هناك قرائن في الآية تشير جميعها إلى أنها إشارة إلى الدرع.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٣٤

«وَلَا تَصِيْرُ مَعْرُ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَأَيُّحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ».

(لقمان / ١٨ - ١٩)

هذا في حين أن الله تعالى كرم لقمان لعلمه وحكمته ومعرفته، حتى قرن كلامه بكلامه تعالى!

١١- وفي سورة سبأ وفي بيان أحوال سليمان عليه السلام ورد الحديث عن برامج العمرانية والفتية المتشعبة والتي كان الجن يقومون بها تحت إشرافه:

«يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ».

(سبأ / ١٣)

وفي الآية السابقة لهذه الآية، وردت إشارة إلى تعلم سليمان إذابة الفلزات، حيث يقول تعالى: «وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ» (سبأ / ١٢)

١٢- يقول تعالى في سورة البقرة، في ما يرتبط بحكومة داود النبي:

«وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ» (البقرة / ٢٥١)

ومن الواضح، فإن العلم والحكمة هنا، هي المعرفة اللازمة بتدبير الملك والمملكة وإن كان لها معنى أوسع من ذلك، فإنها بلا شك تشمل هذا القسم من العلوم وهو المرتبط بالحكومة وإدارة الدولة.

ومن مجموع الإشارات التي وردت في الآيات المذكورة والبعض الآخر من آيات القرآن المجيد، يمكن الاستفادة بوضوح أنه وخلافاً لتصور البعض أن القرآن الكريم قد اهتم فقط بالعلوم الدينية والمعارف الإلهية، وأنه لم يتعرض لأهمية العلوم الاخرى، يتبين لنا أن القرآن الكريم قد اهتم بتعلم وتعليم هذه الأقسام من العلوم وعدّها من المواهب الإلهية العظيمة، وهو يحفز المسلمين على تعلّمها وتعلّم كل علم مفيد ونافع في الحياة المادية والمعنوية.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٣٥

٣- تعلم العلوم المفيدة في الزوايا الإسلامية

وفي الأحاديث الإسلامية أيضاً (وتبعاً لآيات القرآن المجيد) فلم تكتف بالحث والترغيب لتعلم العلوم الدينية فقط، بل نجد أن الزوايا قد اهتمت بالترغيب لتعلم العلوم المفيدة في الحياة المادية والمعنوية مضافاً إلى العلوم الدينية، وإليك نماذج من تلك الزوايا الشريفة:

١- ورد في حديث معروف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال:

«اطلبوا العلم ولو بالصين فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم» (١).

وينبغي الالتفات إلى أن الصين في ذلك الوقت كانت أبعد دولة معروفة، وعليه فإن المراد من ذكر الصين هو التمثيل للبعد في المسافات في هذا الحديث.

ومن البديهي، فإن ما كان في الصّيين من العلوم لم يكن من العلوم الدينيّة والمعارف القرآنيّة، إذ لم تكن الصّيين مركزاً من مراكز الوحي، بل كان المراد هو العلوم الدنيوية المفيدة.

٢- وفي حديث آخر عن أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام، قال: «الحِكْمَةُ ضَالَةٌ الْمُؤْمِنِ فَاطْلُبُوهَا وَلَوْ عِنْدَ الْمُشْرِكِ» (٢).
ومن الواضح، أن ما عند المشركين ليس من العلوم الدينيّة ومعارف التّوحيد، بل كان عندهم بعض العلوم المفيدة الاخرى النافعة في الحياة.

ومن مثل هذه الأحاديث، يتداعى إلى الذّهن الشّعار المعروف «العلم ليس له وطن» ويؤكد على أن العلم ضالّة المؤمن، وقد ورد في حديث آخر: «كلمة الحكمة ضالّة المؤمن فحيث وجدها فهو أحقُّ بها» (٣).

٣- وفي حديث معروف عن النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «العلمُ علّمانِ علّم الأديانِ وعلّم الأبدانِ» (٤) (فالعلم الأول أساس سلامة الرّوح والثاني أساس سلامة جسد الإنسان).

٤- وفي حديث آخر عنه صلى الله عليه وآله قال:

(١) بحار الأنوار، ج ١، ص ١٨٠؛ وكنز العمال، ح ٢٨٦٩٧.

(٢) بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٣٤.

(٣) بحار الأنوار، ج ٢، ص ١٩٩، ح ٥٨.

(٤) بحار الأنوار، ج ١، ص ٢٢٠، ح ٥٢.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٣٦

«العلمُ ثلاثة: الفقه للأديان والطب للأبدان والتحو للسان» (١).

فهنا يبيّن صلى الله عليه وآله ثلاثة أقسام مهمّة من العلوم الإلهيّة والبشريّة، وهي العلوم الدينيّة وعلوم الطب والتحو الذي هو مفتاح العلوم الاخرى

٥- وفي حديث آخر عن أمير المؤمنين علي عليه السلام:

«العلوم أربعة الفقه للأديان والطب للأبدان والتحو للسان والتجوم لمعرفة الأزمان» (٢).

٦- وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام يقول فيه:

«وكذلك أعطى (الإنسان) علم ما فيه صلاح دُنياه كالزراعة والغراس واستخراج (٣) الأرضين واقتناء الأغنام والأنعام واستنباط المياه ومعرفة العقاقير التي يُستشفى بها من ضروب الأقسام، والمعادن التي يستخرج منها أنواع الجواهر، وركوب السفن والغوص في البحر ... والتصرّف في الصناعات ووجوه المتاجر والمكاسب» (٤).

وبهذا، يعتبر الإمام الصادق عليه السلام أن جميع هذه العلوم من المواهب الإلهيّة وأنه يحفّز ويرغب الناس على تعلّمها.

٧- وفي حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله ضمن بيان حقوق الأبناء على الآباء، قال:

«ويُعَلِّمُهُ كِتَابَ اللَّهِ وَيُطَهِّرُهُ وَيُعَلِّمُهُ السَّبَاحَةَ» (٥).

فمن هذا الحديث، يستفاد بوضوح أن تعليم فنّ السباحة أيضاً اخذ بنظر الاعتبار لدى مشرع الإسلام، وأوصى بتعليمه للأبناء.

٨- وفي حديث عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: «وبعد علم القرآن ما يكون أشرف من علم النجوم وهو علم الأنبياء والأوصياء وورثة الأنبياء الذين قال الله عز وجل: وعلاماتٍ وبالنجم هم يهتدون» (٦).

(١) بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٤٥، ح ٥٢.

(٢) المصدر السابق، ج ١، ص ٢١٨.

(٣) بما أن استخراج المعادن ذكر في الفقرات اللاحقة، فلا يبعد أن المقصود من استخراج الأرضين هو تحضير الأراضي الموات لزراعتها.

(٤) بحار الأنوار، ج ٣، ص ٨٣.

(٥) وسائل الشيعة، ج ١٥، ص ١٩٩، باب ٨٨، ح ٧.

(٦) بحار الأنوار، ج ٤٧، ص ١٤٦.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٣٧

فالمستفاد من مجموع الآيات والروايات المذكورة، وروايات أخرى يطول المقام بذكرها جميعاً، هو أن الإسلام أسس نهضة علمية واسعة، وأن هذه النهضة المباركة نمت وترعرعت خلال قرنين أو ثلاثة وتشعبت تلك الشجرة المباركة حتى عمّت غصونها كل العالم الإسلامي، وأثمرت في فترة وجيزة ثماراً كثيرة منها الكتب الكثيرة التي أُلِّفَتْ وصِيَّغَتْ في مختلف الفروع العلمية كالمعارف الإلهية والفلسفية والطب والصيحة والجغرافيا والفيزياء والكيمياء وغير ذلك، وتُرجم بعضها وحقق البعض الآخر ونشرت بصورة تحقيقات جديدة لعلماء الإسلام.

العلماء الذين بحثوا تاريخ الحضارة الإسلامية وكتبوا كتباً في ذلك، ومنهم علماء الغرب خصصوا فصلاً مهماً من تاريخ الحضارة الإسلامية للنهضة العلمية عند المسلمين، وعدّدوا فروع علوم مختلفة انتشرت واتخذت رونقاً خاصاً عندهم مع ذكر رواد تلك العلوم المسلمين فرداً فرداً.

والنكتة المهمة هنا هي اعتراف المؤرخين الغربيين الصريح بأن النهضة العلمية في أوربا قد استندت إلى نهضة المسلمين العلمية وأن الأوربيين مدينون في نهضتهم لعلماء الإسلام!

ففي كتاب «تاريخ الحضارة الغربية ومبانيها في الشرق» والذي كتب من قبل مجموعة من علماء الغرب، جاء: «عندما نطالع خدمات البيزنطية (١) والمسلمين للثقافة الغربية يمكننا القول بأن نوراً عظيماً أشرق من الشرق على الغرب»!

يقول الدكتور ماكس يرهوف في كتاب «ميراث الإسلام»: «لقد كانت علوم العرب (المسلمين) كالقمر المنير الذي يضيء ظلمات ليالي أوربا القرون الوسطى، ولما ظهرت العلوم الجديدة خفت نور ذلك القمر، ولكن كان ذلك القمر هو الذي هداانا في تلك الليالي الظلماء حتى وصلنا إلى هذا المستوى، ويمكننا القول بأن نور ذلك القمر لا زال معنا» (٢).

ونقرأ في ذلك الكتاب أيضاً: «.... والخلاصة، وبهذه الوسيلة (ترجمة كتب علماء

(١) «البيزنطية»، إمبراطورية روما الشرقية وعاصمتها البيزنطية وهي الآن تشمل قسماً من تركيا، وتعتبر إسطانبول الفعلية محلاً لعاصمتها البيزنطية.

(٢) ميراث الإسلام، ص ١٣٤.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٣٨

الإسلام) هطلت علوم الشرق كمطر الرحمة على أرض أوربا القاحلة، فحولتها إلى أرض خصبة مثمرة، وشيئاً فشيئاً تعرّف الأوروبيون على علوم الشرق!».

ويقول هذا الكاتب في مذكرات تحت عنوان «العلوم الطبيعية والطب»: «إن ما اكتشف في السنين الأخيرة كان نوراً جديداً على تاريخ علوم العالم الإسلامي القديم، ولا شك في أن هذه الاكتشافات ليست كافية لحد الآن، وأن العالم سيقف أكثر فأكثر على أهمية العلوم الإسلامية في المستقبل» (١).

وفى مقالة اخرى عن البروفسور «كيب» أستاذ اللغة العربية فى جامعة لندن، تحت عنوان «نفوذ الأدب الإسلامى فى أوروبا» يقول: «عندما تلقى نظرة على الماضى نلاحظ بأن علوم وأدب الشرق كان بمنزلة المادة الأولية للحضارة العربية بنحو أضواء معنويات وأفكار الشرق، الروح الكدرة لأهل القرون السالفة الغربيين، وهدتْهم إلى عالم أوسع» (٢).

وكتب «جرجى زيدان» المؤرخ المسيحى المعروف فى كتابه «تاريخ الحضارة الإسلاميه» فى مبحث تأثير الإسلام فى العلوم والمعارف التى وردت دائرة الإسلام من الخارج، قائلاً: «عندما وصلت الحضارة الإسلاميه إلى مرحلة الكمال، وانتشرت العلوم الأجنبية فى بلاد المسلمين، بدأ المسلمون بتعلم تلك العلوم، فاستفاد بعض (علماء الإسلام) من نبوغهم وسبقوا أهل تلك العلوم الأصليين، وأضافوا إليها آراء واكتشافات جديدة، وبهذا تنوعت العلوم وتكاملت وانسجمت مع الثقافة والآداب الإسلاميه، واتخذت شكل الحضارة الإسلاميه».

وعندما نهض الغربيون لاستعادة علوم اليونان، أخذوا أكثر هذه العلوم بنفس ذلك اللون الإسلامى من اللغة العربية! (٣).
ويقول فى موضوع آخر: «ومما قلناه حول دور التعليم فى الحضارة الإسلاميه، يمكن

(١) ميراث الإسلام، ص ١١١.

(٢) المصدر السابق، ص ١٨١.

(٣) تاريخ الحضارة، جرجى زيدان، ج ٣، ص ١٩٦.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٣٩

الجزم بأن العلم والمعرفة نشأتا فى جهات مختلفه عند المسلمين، وأن العلماء والفقهاء والأطباء والفلاسفة قد أبدوا نبوغهم وإبداعهم فى هذا المجال» (١).

وخلاصة الكلام، إن الكتب التاريخية العالميه العامه، أو تلك الخاصه بتاريخ الحضارة الإسلاميه، قد ذكرت بوضوح اعترافات مؤرخى الشرق والغرب بتأثير النهضة العلميه عند المسلمين على تاريخ وعلم وثقافة المجتمع البشرى على المدى البعيد أو القصير، وتفصيل الكلام فى ذلك يحتاج إلى كتاب مستقل، وما ذكر إنما هو جانب مختصر من ذلك.

٤ - مقام المعلم فى الإسلام

كما نعلم فإن التعلم فى نظر الإسلام واجب عيني، وقد يكون فى بعض العلوم واجباً كفايئاً، أى أن بعض العلوم يجب على الجميع تعلمها، وأما ذلك القسم الذى يتميز بميزه تخصصيه وتعلمه ليس ميسوراً للجميع، فهو واجب كفايئ.

وكذلك الكلام فى تعليم العلوم، فقسم من العلوم لابد أن يتم تعليمه للجميع من قبل الذين يحملون تلك العلوم، فى حين أن تعليم البعض الآخر، واجب كفايئ.

فعلى كل حال، فإن تعلم وتعليم كل العلوم التى يرتبط بها قوام المجتمع البشرى مادياً ومعنوياً لازم وضرورى، سواء كان واجباً عينيّاً أو كفايئاً، ولهذا فإن أى مسلم لا يحق له أن ينفصل عن التطورات العلميه الحديثه، بل عليه ومن أجل تقوية أركان الحكومه الإسلاميه، أن يبذل كل ما بوسعه لتعلم وتعليم تلك العلوم، ولا شك فى أن المسلمين لو قصروا فى هذا المجال وصاروا سبباً فى تأخر الدول الإسلاميه عن المجتمع البشرى، فإنهم سيكونون مسئولين أمام الله!

يعتبر القرآن المجيد أن المعلم الأول هو الله عزوجل، وأن التلميذ الأول هو آدم عليه السلام، وأول علم تعلمه آدم هو، علم الأسماء «ويحتمل قوياً أن المراد من ذلك هو الإطلاع على أسرار الخلقه وموجودات الكون».

(١) تاريخ الحضارة، جرجى زيدان، ج ٣، ص ٢٢٢.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٤٠

وآدم لم يكن الوحيد الذى تعلم من الله عزوجل، بل علم الله يوسف الصديق أيضاً علم تفسير الأحلام: «وَعَلَّمَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ»، (يوسف / ١٠١)

وعلم سليمان لغة الطيور وقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مِنْطِقَ الطَّيْرِ». (النمل / ١٦)

وعلم دواد عليه السلام صنعة الدروع: «وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ». (الأنبياء / ٨٠)

وعلم الخضر علماً واطلاعاً كثيراً: «وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً». (الكهف / ٦٥)

وعلم الملائكة علماً جماً: «سُبْحَانَكَ لَعَلَّمْنَا لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا». (البقرة / ٣٢)

وعلم البشر النطق والبيان: «عَلَّمَهُ الْبَيَانَ». (الرحمن / ٤)

وفوق كل ذلك فإنه علم نبي الإسلام صلى الله عليه وآله علوماً ومعارف لا يمكن تحصيلها عن طرق طبيعية «وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ». (النساء / ١١٣)

كما أن الملك العظيم سفير الوحي جبرئيل قد علم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله علوماً كثيرة «عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى» (النجم / ٥) والأنبياء عليهم السلام بدورهم يعتبرون في زمرة أكبر معلمى العالم حيث إنهم علموا البشرية علوماً ومعارف كثيرة في مجالات الدين والدنيا، يقول القرآن الكريم فى نبي الإسلام صلى الله عليه وآله أعظم الأنبياء: «وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ». (الجمعة / ٢) ونفس هذا المنهج سلكه كل نبي من الأنبياء عليهم السلام مع أمته وعلمهم علم الدين والدنيا.

والعلماء وهم ورثة الأنبياء، جلسوا مقعد التعليم بعد الأنبياء وعلموا الناس العلم والمعرفة، ولذا فإن مقامهم فى نظر القرآن شامخ وعظيم حتى قال تعالى فيهم: «يَزْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ». (المجادلة / ١١) وأما مقام المعلم فى الروايات الإسلامية فإنه شريف وعظيم حتى أن الله وملائكته وكل الموجودات - حتى النملة فى جحرها والحيتان فى البحار - تصلى عليهم كما ورد فى الحديث المروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله حيث قال:

(١) أكثر المفسرين، فسروا «شديد القوى بأنه جبرئيل، ولكن البعض يرى أن المقصود (بشديد القوى) هو الذات الإلهية المقدسة.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٤١

«إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ حَتَّى النَّمْلَةِ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحُوتِ فِي الْبَحْرِ يُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرِ» (١).

وهذا المضمون ورد فى أحاديث عديدة أخرى أيضاً.

وفى حديث آخر عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أيضاً:

«أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَجُودِ الْأَجُودِ؟ اللَّهُ الْأَجُودُ الْأَجُودُ! وَأَنَا أَجُودٌ وَوَلَدُ آدَمَ! وَأَجُودُكُمْ مِنْ بَعْدِي رَجُلٌ عَلَّمَ عِلْماً فَنَشَرَ عِلْمَهُ، يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُمَّةً وَحَدَهُ!» (٢).

والتعبير بالأمة، يبين لنا بوضوح سعة وجود المعلمين فى موازاة سعة انتشار تعليماتهم بين المجتمع البشرى، وكلما كان عدد تلامذتهم أكثر كانت سعة شخصيتهم المعنوية الاجتماعية أوسع، حتى تصل أحياناً إلى سعة أمة كاملة.

وقد بلغت أهمية نشر العلم والمعرفة والثقافة فى الإسلام إلى درجة أنه ورد فى حديث معروف أن مجلس العلم روضة من رياض الجنة (٣).

والملفت للنظر أن أى عمل فى الإسلام يكون مقدمته لنشر العلم أو يتناسب معه، يعد عبادة، فقد ورد فى حديث عن النبي الأكرم صلى

الله عليه وآله: «مُجَالَسَةُ الْعُلَمَاءِ عِبَادَةٌ» (٤).

وفي حديث آخر عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام قال: «النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ الْعَالَمِ حُبًّا لَهُ عِبَادَةٌ» (٥).
وفي حديث آخر عن النَّبِيِّ الْأَكْرَمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَالَ لِأَبِي ذَرٍّ: «الْجُلُوسُ سَاعَةً عِنْدَ مُذَاكِرَةِ الْعِلْمِ

(١) كنز العمال، ح ٣٨٧٣٦.

(٢) ميزان الحكمة، ج ٦، ص ٤٧٤.

(٣) هذا الحديث وإن لم نعثر على نصه في المصادر الإسلامية، إلا أنه ورد في بعض الروايات عن النَّبِيِّ الْأَكْرَمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنَّهُ قَالَ: «بادروا إلى رياض الجنَّة، قالوا: يا رسول الله وما رياض الجنَّة؟ قال: حَلَقُ الذِّكْرِ»، وبعد أن ذكر المرحوم الفيض الكاشاني هذا الحديث في المجلد الأول من الوافي، قال: والمراد من حلقة الذكر هنا، وكما ورد في أحاديث أخرى في هذا الباب، هو مجلس العلم (الوافي، ج ١، ص ١٧٧).

ونقل الترمذى في صحيحه هذا الحديث بتفاوت بسيط «إذا مررتُم برياض الجنَّة فارتعوا. قالوا: وما رياض الجنَّة؟ قال: حَلَقُ الذِّكْرِ» صحيح الترمذى، ج ٥، ص ٥٣٢، باب ٨٣، ح ٣٥١٠.

(٤) بحار الأنوار، ج ١، ص ٢٠٤.

(٥) المصدر السابق، ص ٢٠٥.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٤٢

خيرٌ لك من عبادة سنه، صيامُ نهارها وقيامُ ليلها، والنَّظَرُ إِلَى وَجْهِ الْعَالَمِ خَيْرٌ لَكَ مِنْ عِتْقِ أَلْفِ رَقِيَّةٍ» (١).

والأحاديث الواردة في هذا المضمار كثيرة ومتنوعة، يطول المقام بذكرها ونختصر الحديث هنا ونختم هذا البحث بحديث عن لقمان الحكيم، الذي قَرَنَ كَلَامَهُ بِكَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، يَقُولُ لِقَمَانَ لَوْلَدِهِ: «يَا بُنَيَّ جَالِسِ الْعُلَمَاءِ.... فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ يُحِبُّ الْقُلُوبَ بِنُورِ الْحِكْمَةِ كَمَا يُحِبُّ الْأَرْضَ بِوَابِلِ السَّمَاءِ» (٢).

ومما ذكر، يتضح جيداً أنَّ مسألة التَّعْلِيمِ وَالتَّرْبِيَةِ وَنَشْرَ الْعِلْمِ وَالثَّقَافَةِ، تتميز في المنهج الإسلامي عموماً وفي برنامج الحكومة الإسلامية بشكل خاص، (ومن وظيفة الحكومة الإسلامية الإهتمام الفائق بأمر التربية والتعليم).

٥- التَّعْلِيمُ الْمَبَاشِرُ وَغَيْرُ الْمَبَاشِرِ

ما ذكر في البحوث المتقدمة، كان في إطار التربية والتعليم بالطرق المباشرة، كتشكيل حلقات الدرس، والمدرسة وأمثلة ذلك، ولكن توجد في الإسلام طرق تعليم غير مباشرة كثيرة، وتأثيرها من بعض الجهات أوسع وأعمق من تأثير الطرق المباشرة. فالعبادات الإسلامية، وخاصة تلك التي تؤدي بشكل جماعي كصلاة الجماعة والجمعة ومناسك الحج، من جملة الأمور التي لها تأثير قوي في التعليم الجماعي للناس.

فصلاة الجماعة التي تقام خمس مرات باليوم والليل تُعَلِّمُ الْمُسْلِمِينَ دَرَسَ الْوَحْدَةِ وَالْإِتِّحَادِ وَرِصِّ الصُّفُوفِ وَالْمَسَاوَةِ وَالْأُخُوَّةِ، فتجمع شرائح المجتمع المختلفة والتي قد لا تلتقى في السنة مرة واحدة في غير الصلاة على أثر المشاغل والمسؤوليات المختلفة التي يشغلون بها عن بعضهم، فصلاة الجماعة تعلم هؤلاء درس وحدة التفكير ووحدة الهدف في المسائل الاجتماعية.

(١) بحار الأنوار، ج ١، ص ٢٠٣.

(٢) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٠٤.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٤٣

فصفوف صلاة الجماعة، ومضافاً إلى روحانياتها الخاصة الحاكمة عليها واقترانها بنور المعنوية والصفاء، خير وسيلة لاطلاع عامة الناس على المسائل المصيرية للمجتمع الإسلامي.

لقد استطاع المسلمون الأوائل ومن خلال صلاة الجماعة - وهو لقاء يوفّر لهم اللقاء صباحاً ونهاراً ومساءً - كسب الوعي الكافي ووحدة الصف والكلمة مقابل أعدائهم ذوى العدة والعدد، حيث استطاعوا أن ينشروا برنامج الحكم الإسلامي وتعاليم الدين بسرعة فائقة. ففي صلاة الجمعة والجماعة، وطبقاً للتعاليم الإسلامية، فإن الإمام وحده هو الذى يقرأ الحمد والسورة نيابة عن الجميع، وبهذه الطريقة يبعث الانضباط الاجتماعى فى نفوس الناس التى تعتاد على الإدارة المقرونة بالروح والمعنى اللذين توفرهما مضامين السورتين اللتين يقرأهما إمام الجماعة.

والنكتة المهمة هنا هى أن للإمام الحق أن ينتخب سوراً مختلفة وآيات متنوعة من القرآن لقراءتها بعد سورة الحمد بحسب المناسبات المختلفة، وكل واحدة من هذه السور يمكنها أن تشتمل على دروس فى المعرفة الإسلامية، والأخلاق، والتربية السياسية والاجتماعية، فعندما يقرأها الإمام بشكل جذاب والكل قائم يصغى لها بسكون عميق، يكون لها أثر تعليمى قوى منقطع النظير فى نفوس المأمومين، يضطرهم إلى التفكير والتعمق فى محتوى الآيات، ويضعف روحانية العبادة وتأثيرها، ولو أن هذه المراسم العبادية تؤدى بأدائها الإسلامية المقررة وحضور القلب وتمركز الحواس وهى الشرط الأساسى لقبولها، لكانت مدرسة عظيمة لتربية المجتمع الإسلامى، وفضلاً عن ذلك فإن هذه المراسم تكون درساً تربوياً لأعداء الإسلام والأجانب، وغالباً ما يلاحظ أن هؤلاء يقفون متأملين متفكرين فى هذه العبادة عندما يشاهدون المسلمين فى صفوف منظمه ومرصوه يُقيمون الصلاة.

ومن هنا ورد عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام أنه قال:

«إِنَّمَا جُعِلَتِ الْجَمَاعَةُ لِئَلَّا يَكُونَ الْإِخْلَاصُ وَالتَّوْحِيدُ وَالْإِسْلَامُ وَالْعِبَادَةُ لِلَّهِ إِلَّا ظَاهِرًا مَكْشُوفًا مَشْهُورًا، لِأَنَّ فِي إِظْهَارِهِ حُجَّةً عَلَى أَهْلِ الشَّرِّ وَالْعُزْبِ ... مَعَ مَا فِيهِ مِنَ الْمُسَاعَدَةِ

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٤٤

عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَالزَّجْرَ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ مَعَاصِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» (١).

وخلاصة الكلام هى إن تأثير صلاة الجماعة فى إيقاظ المسلمين وتربيتهم، وتأثيرها فى افشال مخططات الأعداء وكسر شوكتهم، لا يخفى على أحد.

ولهذا فإن هذه العبادة العظيمة، من أهم وأكبر العبادات الإسلامية، وقد ذكر لها فضل عظيم وثواب جليل فى الروايات إلى درجة يبهت الإنسان لها.

ففى حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «مَنْ مَشَى إِلَى مَسْجِدٍ يَطْلُبُ فِيهِ الْجَمَاعَةَ كَانَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ سَبْعُونَ أَلْفَ حَسَنَةٍ وَيُرْفَعُ لَهُ مِنَ الدَّرَجَاتِ مِثْلُ ذَلِكَ، فَإِنْ مَاتَ وَهُوَ عَلَى ذَلِكَ، وَكَلَّ اللَّهُ بِهِ سَبْعِينَ أَلْفَ مَلَكٍ يَعُودُونَ فِي قَبْرِهِ وَيُبَشِّرُونَهُ وَيُنْسُونَهُ فِي وَحْدَتِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ حَتَّى يُبْعَثَ» (٢).

٦- صلاة الجمعة وآثارها التربوية

وصلاة الجمعة هى الاخرى إحدى أهم الاجتماعات العبادية السياسية الإسلامية، والتى لها تأثير قوى فى التربية المباشرة وغير المباشرة. فهذه الصلاة الرائعة، تقام كل أسبوع مرة ومسلموا المدينة الواحدة مكلفون بالإشتراك فى صلاة واحدة فقط (٣).

ولصلاة الجمعة خطبتان قبل الصلاة، تشتملان على مواعظ وعبر وأمر بالتقوى، وخصوصاً على المسائل الاجتماعية السياسية المهمة للمجتمع، فهي من جهة تُطْفِئُ الرُّوحَ والنَّفْسَ وتغسلها من أوساخ الذنوب والمعاصي، ومن جهة أخرى تعلم النَّاسَ الإطِّلاعَ على المعارف الإسلامية والأحداث الاجتماعية والسياسية المهمة، وكيفيه اتخاذ المواقف

(١) وسائل الشيعة، ج ٥، ص ٣٧٢.

(٢) المصدر السابق، ح ٧.

(٣) هذا بحسب الفقه الشيعي التابع لأهل البيت عليهم السلام وهناك من الفرق الإسلامية السنية من يجيز إقامة العديد من صلوات الجمعة في المدينة الواحدة، كصلوات الجماعة التي تقام في مساجد متعددة (الفقه على المذاهب الأربعة، ج ١، ص ٣٨٥).

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٤٥

الصَّحِيحَةُ قِبَالِهَا، وَمِنْ جِهَةٍ ثَالِثَةٍ تُوْفِرُ الْجَوَّ الْمُنَاسِبَ لِلْعَمَلِ الْجَمَاعِيِّ لِحُلِّ الْمَشَاكِلِ فِي إِطَارِ تَجْدِيدِ الرُّوحِ الْإِيمَانِيَّةِ وَالنَّشَاطِ الْمَعْنَوِيِّ. وَالخُطْبَتَانِ مِنْ وَاجِبَاتِ الصَّلَاةِ، وَوَرَدَ فِي الرِّوَايَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالْكِتَابِ الْفَقْهِيَّةِ أَنَّ مِنْ آدَابِ الْخُطْبَةِ هُوَ أَنْ يَرْفَعَ الْخُطِيبُ صَوْتَهُ بِحَيْثُ يَسْمَعُهُ كُلُّ النَّاسِ، وَأَنْ عَلَيْهِمْ أَنْ يَصْغُوا لِكَلَامِهِ وَيَرَاعُوا السُّكُوتَ التَّامَ، وَأَنْ يَسْتَقْبِلُوا الْخُطِيبَ بِوَجْهِهِمْ.

وَالْأَفْضَلُ أَنْ يَكُونَ الْخُطِيبُ رَجُلًا فَصِيحًا بَلِيغًا مُطَّلِعًا عَلَى أَوْضَاعِ وَأَحْوَالِ الْمُسْلِمِينَ، خَيْرًا بِمَصَالِحِهِمْ، شَجَاعًا، صَرِيحًا لِلهَجَّةِ فِي بَيَانِ الْحَقِّ، مِضَافًا إِلَى حَسَنِ سِيرَتِهِ وَسُلُوكِهِ فِي الْمَجْتَمَعِ فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبًا لِنُفُوذِ كَلَامِهِ فِي قُلُوبِهِمْ وَأَنْ يُذَكِّرَ النَّاسَ بِاللَّهِ.

وَلَا يَبْدَأُ مِنْ بَيَانِ الْمَسْأَلَةِ الْمَرْتَبَةِ بِالَّذِينَ وَدُنِيَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْخُطْبَتَيْنِ، وَكَذَا مَا يَحْتَاجُهُ النَّاسُ فِي دَاخِلِ وَخَارِجِ الدَّوْلِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالْمَنْطِقَةِ، وَطَرَحَ الْمَسْأَلَةِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْإِجْتِمَاعِيَّةِ وَالْاِقْتِسَادِيَّةِ الْمُهَيِّمَةَ مَعَ مِرَاعَاةِ الْأَوْلِيَاةِ، فَيَزُودُ النَّاسَ بِالْمَعْلُومَاتِ الْلازِمَةِ وَيُخْبِرُهُمْ عَنِ مَوَاقِفِ الْأَعْدَاءِ، وَيَشِيرُ إِلَى الْبَرَامِجِ الْقَصِيرَةِ وَالْبَعِيدَةِ الْمَدَى لِإِفْشَالِ خُطْبَتِهِمْ.

وَلَا يَبْدَأُ أَنْ يَكُونَ الْخُطِيبُ ذَكِيًّا جَدًّا وَفَطْنًا، مَفْكَرًا، مُطَّلِعًا عَلَى الْمَسْأَلَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ وَالْمَادِيَّةِ فِي الْإِسْلَامِ، وَأَنْ يَسْتَغْلِ هَذِهِ الشَّعِيرَةَ الْعَظِيمَةَ أَفْضَلَ اسْتِغْلَالِ تَوْعِيَةِ الْمُسْلِمِينَ وَتَطْوِيرِ الْأَهْدَافِ الْإِسْلَامِيَّةِ.

وَفِي حَدِيثِ جَامِعٍ عَنِ الْإِمَامِ عَلِيِّ بْنِ مُوسَى الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ، يُبَيِّنُ فِيهِ ضَرْوَةَ خُطْبَةِ الْجُمُعَةِ وَأَنَّ ذَلِكَ لِتَعْمِيمِ الْفَائِدَةِ وَأَنَّ اللَّهَ يَرِيدُ أَنْ يَفْسَحَ الْمَجَالَ لِأَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ لِيَعِظَ النَّاسَ وَيُرْغِبَهُمْ فِي الطَّاعَةِ وَيَحْذَرُهُمُ الْمَعْصِيَةَ، إِلَى أَنْ يَقُولَ الْإِمَامُ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَتَوْقِيفُهُمْ عَلَى مَا أَرَادَ مِنْ مَصْلَحَةٍ دِينِيَّةٍ وَدُنْيَاةٍ وَيُخْبِرُهُمْ بِمَا وَرَدَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْأَهْوَالِ الَّتِي لَهُمْ فِيهَا الْمَضْرَّةُ وَالْمَنْفَعَةُ».

ثُمَّ يَبَيِّنُ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِلْسَفَةَ وَجُودِ خُطْبَتَيْنِ فَالْأُولَى لِلْحَمْدِ وَالثَّنَاءِ وَالتَّمْجِيدِ وَالتَّقْدِيسِ لِلَّهِ (وَالْمَسْأَلَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ وَالْأَخْلَاقِيَّةِ)، وَالثَّانِيَّةُ لِبَيَانِ بَاقِي مَتَطَلِبَاتِ الْوَعْيِ وَالْإِنذَارِ وَالْأَدْعِيَةِ

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٤٦

وغير ذلك من الأوامر والتواهي والإرشادات المرتبطة بصلاح وفساد المجتمع «١».

وَالدَّوْرَ الَّذِي تَلْعَبُهُ الْيَوْمَ صَلَاةُ الْجُمُعَةِ فِي تَوْعِيَةِ النَّاسِ فِي الْمَسْأَلَةِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْإِجْتِمَاعِيَّةِ غَيْرِ خَافٍ عَلَى أَحَدٍ، وَكَثِيرًا مَا يَتِمُّ إِفْشَالُ مَخْطَطَاتِ الْأَعْدَاءِ الَّتِي يَبْشُرُهَا مِنْ خِلَالِ وَسَائِلِ إِعْلَامِهِمْ عَلَى طُولِ الْأَسْبُوعِ وَمَعَ كُلِّ امْكَانَاتِهِمْ وَتَجْهِيزَاتِهِمْ، فِي خُطْبَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ خُطْبِ الْجُمُعَةِ الْمُدْرُوسَةِ وَالدَّقِيقَةِ، وَلَوْ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ يَعُونَ أَهْمِيَّةَ هَذَا الْبَرَامِجِ الْأَسْبُوعِيِّ الْمُهْمِ، وَيَقِيمُونَهُ كَمَا أَرَادَ الْإِسْلَامُ، وَأَنْ لَا يَمَسْخُوا هُوِيَّةَ هَذِهِ الْعِبَادَةِ الْعَظِيمَةِ كَبَعْضِ الدَّوْلِ الضَّعِيفَةِ الْإِرَادَةِ أَوْ الْمَاجُورَةِ مِنْ قَبْلِ الْاسْتِعْمَارِ، فَإِنَّهُمْ - أَيْ الْمُسْلِمُونَ - سَيَسْتَمْرُونَ هَذِهِ الشَّعِيرَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ وَيَتَعَرَّفُونَ عَلَى عَمَقِ تَأْثِيرِهَا الثَّقَافِيِّ وَالتَّرْبَوِيِّ.

وَلِصَلَاةِ الْعِيدَيْنِ (عِيدِ الْفِطْرِ وَعِيدِ الْأَضْحَى) وَهِيَ تَشَابَهَانِ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ كَثِيرًا وَخُصُوصًا مِنْ جِهَةِ الْخُطْبَتَيْنِ اللَّتَيْنِ يُوْتَى بِهِمَا بَعْدَ الصَّلَاةِ هُنَا، نَفْسِ آثَارِ وَبَرَكَاتِ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ.

٧- الآثار الثقافية لمؤتمر الحج العظيم

ومن العبادات الاخرى التي لها تأثير مهم في تربيته المسلمين ونشر العلم والمعرفة ووحدة الصيغوف وقوة شوكة المسلمين هي مراسم الحج، التي يجتمع فيها كل سنة الملايين من المسلمين من شتى بقاع الأرض في مؤتمر عظيم فيتعلمون في هذا المؤتمر شتى أنواع العلوم والمعارف وفي كل الجهات المادية والمعنوية. والنكتة المهمة هنا هي أن الإشتراك في هذا المؤتمر العالمي واجب على كل مسلم يستطيع الحج مرة واحدة في العمر، وأما باقى المرات فهي مستحبة، ولا فرق في هذا الحكم

(١) وسائل الشيعة، ج ٥، ص ٣٩، ح ٦.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٤٧

بين المسلمين، فالحج واجب على الرجل وعلى المرأة، والشاب والشيخ، والأبيض والأسود والمتعلم والجاهل، ولهذا نجد كل سنة مجموعة عظيمة من كبار الشخصيات العلمية والثقافية والسياسية والاقتصادية من المسلمين بين صفوف الحجاج يتشرفون بزيارة بيت الله الحرام، وفي طول المدة التي يقضونها في مكة والمدينة وسائر المشاهد والمواقف يلتقى بعضهم البعض الآخر فيتبادلون العلوم والمعارف والمعلومات والأخبار فيما بينهم.

وفي الآونة الأخيرة وبعد وقوف المسلمين على أهمية هذا الاجتماع المعنوي العظيم نجد أن علماء الدول الإسلامية المختلفة يعقدون المؤتمرات المصغرة والموسعة على هامش مؤتمر الحج العظيم، فيلتقون ويتبادلون العلوم والمعارف والثقافات عن هذا الطريق.

يذكر القرآن الكريم جملة مختصرة في بيان فلسفة الحج حيث يقول: «لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ». (الحج / ٢٨)

وللمفسرين كلام طويل في تفسير معنى كلمته (منافع) ولكن من الواضح أنه لا يوجد حد لمفهوم هذا اللفظ، فيشمل كل المنافع والبركات المعنوية والمادية والنتائج السياسية والثقافية والاجتماعية.

وقد سأل الزبيع بن خيثم الإمام الصادق عليه السلام عن تفسير هذه الكلمة، فبين له الإمام عليه السلام أنها تشمل المنافع الدنيوية والأخروية «١».

وفي رواية أخرى عن الإمام الصادق عليه السلام يجب فيها هشام بن الحكم عن فلسفة الحج، فيشير الإمام عليه السلام إلى عدة أبعاد مهمة، منها تعرف مسلمي العالم بعضهم على البعض الآخر، ثم المنافع الاقتصادية، ثم إيجاد كثير من مجالات العمل في إطار موسم الحج ثم يشير عليه السلام إلى آثاره الثقافية ويقول: «وَلِتَعْرِفَ آثَارَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَتُعْرِفَ أَخْبَارَهُ وَيُذَكَّرَ وَلَا يُنْسَى» «٢».

وعلى أية حال، فلو أن أحداً دقق وتأمل في جزئيات مراسم الحج، وخاصة إذا شاهد تلك المراسم عن قرب، فإنه سيقف على أهمية البعد الثقافي والتربوي للحج بنحو يقل نظيره.

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٤٨٨.

(٢) وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٩، ح ١٨.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٤٨

نعم، فالحج يمكن أن يكون مؤتمراً سنوياً ثقافياً عظيماً - بل مؤتمرات - فيلتقى العلماء من كل أنحاء العالم الإسلامي في الأيام التي

يتواجدون فيها في مكة المكرمة، فُتبدل الأفكار والإبداعات التي يحملونها فيما بينهم مضافاً إلى آثار الحج المعنوية الخاصة. وفي الفترات المظلمة لحكومة السلاطين الظالمين والطغاة الذين لم يفسحوا المجال لانتشار العلوم والمعارف الإسلامية، كان المسلمون يستفيدون من الظرف الذي يتاح لهم في موسم الحج لحل الكثير من مشاكلهم، وبالالتقاء بائمة الهدى عليهم السلام وكبار علماء الإسلام، حيث كانوا يطلعون على المعارف والقوانين الإسلامية وسنة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وعندما يعودون إلى بلادهم، يعودون وهم يحملون رسالات مهمة في الأخلاق والثقافة وشتى العلوم.

٨- تأثير المساجد والأماكن المقدسة

من جملة المراكز التي يمكنها أن تشارك في نشر الثقافة الإسلامية، وتكون مؤثرة في زيادة اطلاع عامة المسلمين، هي الأماكن المقدسة التي يرتادها الزائرون لزيارة مرقد قادتهم العظام حتى يشد هؤلاء الرحال من بلدانهم في سفر معنوي باتجاه تلك المشاهد الشريفة، وهذا بنفسه وسيلة جيدة لتبادل المعلومات والمعارف، ومواجهة الهجمة الثقافية المضادة للإسلام. وهناك بعض المساجد الشهيرة في الإسلام، امرنا بشد الرحال إليها، لتسبح الروح ويغوص القلب في بحر متلاطم من الروحانية والمعنويات والنور، ولتقوية الارتباط بين المسلمين الذين يفدون من مناطق قريبة وبعيدة لزيارة تلك المساجد. وقد ورد في حديث عن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: «لا تُشدُّ الرِّحالَ إلَّا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجد الرسول ومسجد الكوفة» (١).

(١) وسائل الشيعة، ج ٣، ص ٥٥٢، أبواب أحكام المساجد، الباب ٤٤، ح ١٦.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٤٩

وهذا المعنى جاء أيضاً في كتب أهل السنة المعروفة، فقد رووا عن رسول الله صلى الله عليه وآله إنه قال: «لا تُشدُّ الرِّحالَ إلَّا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام والمسجد الأقصى» (١).

ومن الواضح أن هذين الحديتين لا تنافي بينهما، ومتى ما ضمناهما إلى بعضهما، يكون المقصود أربعة مساجد، كما أنه من الواضح أن الهدف من بيان مثل هذه الأحاديث هو بيان أهمية المساجد الثلاثة أو الأربعة ولا يعني أن الإنسان إذا ماشد الرحال إلى مسجد آخر فإنه يكون قد ارتكب مخالفة، كما تصور بعض الجهال، إذ لو كان مفهوم هذا الحديث هو التحريم، فإنه يحرم كل سفرٍ مطلقاً إلَّا إلى هذه الأسفار الثلاثة في حين أن هناك أسفاراً مشروعة أخرى كثيرة.

(ولابد من الالتفات إلى أن «لا تُشدُّ الرِّحال» مطلقاً تشمل كل سفر).

وشبيه هذا المعنى ورد في بحار الأنوار مع تفاوت مختصر (٢).

فمثل هذه المساجد في الحقيقة، تعتبر من المراكز الإسلامية الثقافية وقد كانت لسنين عديدة في صدر الإسلام وما بعد ذلك محلاً لإقامة حلقات الدرس والبحث العلمي، وكان كبار العلماء يتواجدون فيها للتدريس وتعليم العلوم والتربية، وكذلك اليوم فإن المسجد الحرام ومسجد النبي غاص على طول السنين بالطلاب والأساتذة وحلقات الدرس، كما أن كثيراً من المساجد الإسلامية المهمة في البلاد الأخرى كسورية وإيران والعراق تعتبر منتديات للتربية والتعليم، حتى أنها تصير أحياناً مركزاً لأكبر حلقات الدرس، وقد يكون التحفيز من قبل الروايات على شد الرحال إلى هذه المراكز إنما هو لأجل ذلك، مضافاً إلى كسب المعنويات والروحانيات في تلك المساجد، والاستفادة من السوابق العلمية التاريخية لهذه المساجد.

ونفس هذا المعنى متحقق في المرقد المقدسة لأئمة الدين عليهم السلام، حيث يكون صحن

(١) صحيح مسلم، ج ٢، ص ١٠١٤، كتاب الحج، باب ٩٥، ح ١٣٩٧.

(٢) بحار الأنوار، ج ٦٦، ص ٢٤٠، باب ٤٤، ح ٢.

نقمة القرآن، ج ١٠، ص: ٢٥٠

نقمة القرآن ج ١٠ ص ٣٠١

وروضة تلك المراقدة مركزاً للدرس والتعليم ونشر العلوم والمعارف الإسلامية، وأن زيارة تلك المراكز تكون عادةً مقترنة بالاستفادة العلمية.

ومما يلفت النظر هو أن بعض هذه المشاهد الشريفة كحرم الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام يَغصُّ على طول السنة بالزوار حتى يصل عددهم إلى ١٢ مليون زائر سنوياً، ولذا فإن اجتماعات عظيمة تعقد على طول أيام السنة، وتقام مؤتمرات وجلسات رائعة، ولذلك كله تأثيره العميق في تربية المسلمين.

نقمة القرآن، ج ١٠، ص: ٢٥١

دور الصحف والمجلات في الحكومة الإسلامية

تمهيد:

لاشك في أن الصحف والمجلات تعتبر اليوم من أهم وسائل التربية والتعليم في العالم، والتي انتشرت بفضل التقدم العلمي وتطور التكنولوجيا والصناعة، ولذا فهي عامل مهم في تهذيب الأفكار العامة أو تخريبها وتضليلها، وقد يصل عدد النسخ المطبوعة لمجلة من المجلات أو صحيفه من الصحف، إلى عدة ملايين نسخة، توزع في عدة قارات من هذا العالم في نفس الوقت تقريباً، فتؤثر في توجيه أفكار المجتمعات في العالم نحو جهة معينة.

ولاشك في أن دور الصحف والمجلات لم يكن واسعاً ومؤثراً في السابق كما هو عليه اليوم - كما في كثير من الأمور الأخرى أيضاً - ولكن وعلى أية حال، كان للكتاب والمكتبات على طول التاريخ أثر بالغ في التربية والتعليم وانتقال العلوم من جيل إلى آخر وفي تكامل الثقافة البشرية.

وبعد هذه الإشارة الخاطفة، نعود إلى القرآن الكريم، ونأمل في الأهمية التي أولاها للكتاب والكتابة والتي كانت بلا شك مبرراً من مبررات الحركة العلمية للمسلمين في صدر الإسلام.

وفي القرآن المجيد آيات كثيرة تتعرض لهذا الموضوع، منها:

١- «ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ». (القلم / ١)

٢- «أَفَرَأَىٰ وَرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ». (العلق / ٣-٥)

٣- «وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ...». (البقرة / ٢٨٢)

نقمة القرآن، ج ١٠، ص: ٢٥٢

٤- «وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ». (البقرة / ٢٨٢)

٥- «وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا». (سبأ / ٤٤)

٦- «اتُّونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ آثَارِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ». (الأحقاف / ٤)

٧- «رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً* فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ». (البينة / ٢-٣)

جمع الآيات وتفسيرها

يستعمل القرآن الكريم في بعض الآيات صيغة القسم للتأكيد على أهميّة الموضوع الذي يريد بيانه، والقسم تارة يكون بالذات الإلهية الطاهرة، وفي كثير من الموارد يكون بالموجودات المهمة كالشمس والقمر والأرض والسماء وأمثال ذلك. وفي الآية الأولى التي ذكرناها وهي أول آية من سورة القلم، يقسم عزوجلّ بالقلم، وكل ما يكتبه القلم: «ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ». وفي الحقيقة أنّ ما وقع القسم به هنا، وإن كان في الظاهر موضوعاً صغيراً، فهو قطعة خشب وقصبه بسيطة أو ما شابه، وشيء من السوائل الملونة، وأسطر على صفحات متواضعة، إلّا أنّه في الواقع منبع ظهور الحضارات الإنسانية وتقدم العلوم والمعارف ويقظة الفكر وتصوير المذاهب والأديان بصورتها الحقيقية، ومصدر التربية والتعليم والهداية للبشرية. ومن هنا، فإنّ العلماء يقسمون أدوار حياة الإنسان إلى دورين رئيسيين هما «مرحلة ما قبل التاريخ» و «مرحلة ما بعد التاريخ»، ويقولون إنّ مرحلة ما بعد التاريخ تبدأ من حين اختراع الخط والكتابة، وعندما استطاع الإنسان أن يمسك القلم بيده ويكتب أحداث حياته على الصفحات، وأما قبل ذلك فيسمى بمرحلة ما قبل التاريخ.

ويجب أن لا- نغفل عن أنّ هذه الآية نزلت في محيط جاهلي أكثر من أي محيط آخر، حيث لم يكن هناك من يهتم بالقلم والكتابة، ولم يصل عدد الذين كانوا يعرفون الكتابة في

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٥٣

مكة- وهي أكبر مركز عبادي سياسي واقتصادي في الحجاز حسب قول بعض العلماء- إلى أكثر من عشرين شخصاً! فالقسم بالقلم في مثل هذا المحيط له من العظمة والجلال الكبيرين ما لا يخفى! ومن فلسفة القسم في القرآن هو أنّه كان يحفز المسلمين على التأمل في الأمور التي يُقسم بها، وفي هذه الآية كان الأمر كذلك، فصار ذلك سبباً في اتساع أمر القراءة والكتابة والتأليف وترجمة كتب المجتمعات الأخرى، وانتشار العلوم في العالم الإسلامي. وتعتبر الآية الثانية، من أولى الآيات- طبقاً للرأى المشهور- التي نزلت على قلب النبي الطاهر في جبل النور في غار حراء، وكانت أولى ومضات الوحي، ولذا فإنّها إشارة إلى أهم المسائل، فعندما يأمر تعالى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بتلاوة آيات القرآن، يقول له: «اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ* الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ* عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ».

وبهذا فإن أول وصف لله تعالى بعد الرّبوبيّة والكرامة هو وصف التعلّم بواسطة القلم وهو منبع تعليم «مالم يعلم». ومن هنا فإنّ بداية الوحي نشأت مع بداية الحركة العلميّة، وهذا المعنى عميق ودقيق ومرتب لكل مسلم. فمثل هذه العبارات، حفّزت المسلمين باستمرار على الإهتمام بالكتاب والمكتبات وتعلم العلوم والمعارف، وإذا كانت الزوايات قد صرحت بأن «مداد العلماء أفضل من دماء الشهداء»، فإنّ ذلك من أجل أن أسس دماء الشهداء مبتنية على المعارف والعقائد التي تنبع أساساً من القلم، كما أنّ سند بقاء دماء الشهداء هو مداد أقلام العلماء.

إنّ تفاهم الناس فيما بينهم وانتقال الأفكار ينحصر في طريقتين عادة: البيان والقلم مع تفاوت بينهما وهو أنّ البيان وسيلة للارتباط بين الحاضرين في مكان وزمان واحد، أمّا الارتباط بالقلم فلا ينحصر في الحاضرين، وإنّما يعتبر القلم وسيلة للارتباط بين أبناء

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٥٤

الأجيال والعصور المختلفة وفي الأمكنة المختلفة، فهو يربط أهل القرون السابقة بالقرون السائدة واللاحقة، ولذلك يقول أحد العلماء: «بيان اللسان تُدرِسُهُ الأعمام وما تُثَبِّتُهُ الأقلام باقي على مرّ الأيام».

وكذلك قال بعض العلماء: «ينبغي أن لا تسقط برايا الأقلام تحت الأقدام، فإنها محترمة أيضاً».

والنكتة الملفتة للنظر هي أنه كما أن البيان من خصوصيات الإنسان، فإن القلم أيضاً من مختصاته، بل إن القلم أعقد بكثير من البيان باللسان، وليس عبثاً أن يكون أمر تعليم الكتابة بالقلم من قبل الله نفسه - بشكل مباشر بواسطة أحد الأنبياء (آدم أو إدريس) أو بطريق غير مباشر، أى منح موهبة وقابلية القراءة والكتابة للبشرية - من أكبر النعم الإلهية على الإنسان، وأن الآيات القرآنية الأولى للوحى قد استندت إلى القلم، وأشارت إليه بعد الإشارة إلى عظمة الله.

وفى الآية الثالثة وهى مقطع من أطول آيات القرآن المجيد، والناظرة إلى تنظيم العلاقات اليومية بين الناس، نجد اهتماماً خاصاً بمسألة القلم، يقول عز وجل: «وَلْيُكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ» ثم يضيف: «وَلَا يَأْب كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيَمْلِكِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ...».

فهنا تعتبر الآية أن القدرة على الكتابة موهبة إلهية، ويوصى أولئك الذين شملتهم هذه العناية الربانية أن يعينوا أولئك الاميين لإحقاق حقوقهم، فيستفيدوا من هذه القدرة ويكتبوا لهم.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٥٥

والظريف هو أنه جاء فى بقیة هذه الآية: «وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ» أى لا ينبغي أن يتضرر كاتب أو شهيد، فإن وسعنا مفهوم هذه الآية التى وردت فى مورد خاص (وهو كتابة وثيقة القرض) أى لو ألغينا الخصوصية وألحقنا بها الموارد الاخرى التى يمكن الاستفادة فيها من موهبة الكتابة لإعانة أفراد المجتمع، وكذلك عدم إضرار الكاتب، وبعبارة أخرى حفظ حرية القلم، نصل إلى نكتة مهمة وصلت إليها البشرية بعد قرون من نزول هذه الآية، مع أنها تواجه مشاكل عديدة فى تطبيق ذلك عملياً.

وفى الآية الخامسة، يذم القرآن المجيد أولئك الذين يخالفون الآيات الإلهية، ويحاججهم ويطالبهم بالمبررات المنطقية التى دعتهم إلى ذلك، يقول عز وجل:

«وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ».

وبالرغم من أن المراد من الكتب، الكتب السماوية، ولكن ما ذكر من موضوع الكتاب ودراسته وتعلمه فى هذه الآية إلى جانب إرسال الأنبياء، وأن الكتاب أحد الدليلين المعتبرين، يكفى لمعرفة أهمية ودور الكتاب، ونظير هذا المعنى نجده فى سورة القلم، فى مقام المؤاخذه وذم منكرى الإسلام والقرآن، حيث يقول تعالى: «أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ». (القلم / ٣٧)

وهذا إشارة إلى أن الكتاب يمكن أن يكون فى عده موارد سنداً معتبراً يُستند إليه فى الإحتجاج.

والحقيقة أن اعتماد القرآن المجيد على مسألة الكتاب والكتابة فى مورد الكتب السماوية للأنبياء سواء فى أمور الدنيا، أو فى صحيفه الأعمال والمحكمة الإلهية، كلها تبين أهمية هذا الموضوع من وجهة نظر القرآن والإسلام.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٥٦

توضيحات

١- أهمية الكتاب والقلم فى الروايات

وردت روايات كثيرة عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام فى بيان أهمية الكتاب والكتابة، وإليك نماذج من تلك الروايات:

١- ورد فى حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«قَيِّدُوا الْعِلْمَ فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا تَقْيِيدُهُ».

قال صلى الله عليه وآله: «كِتَابَتُهُ» (١).

٢- وفي حديث آخر عنه أيضاً: «اُكْتُبُوا الْعِلْمَ قَبْلَ ذَهَابِ الْعُلَمَاءِ وَإِنَّمَا ذَهَابُ الْعِلْمِ بِمَوْتِ الْعُلَمَاءِ» (٢).

٣- قال الإمام الصادق عليه السلام لأحد أصحابه: «أُكْتُبُ وَبُثَّ عِلْمُكَ فِي إِخْوَتِكَ فَإِنْ مِتَّ فَوَرَّثَ كُتُبَكَ بَنِيكَ، فَإِنَّهُ يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ هَرَجَ مَا يَأْسُونَ فِيهِ إِلَّا بِكُتُبِهِمْ» (٣).

٤- وفي حديث آخر عنه أيضاً: «مَنْ لَلَّهِ عَلَى النَّاسِ بَرُّهُمْ وَفَاجِرِهِمْ بِالْكِتَابِ وَالْحِسَابِ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَتَغَالَطُوا» (٤).

٥- يقول أمير المؤمنين عليه السلام في حديث رائع جداً ومختصر: «الْكَتُبُ بَسَاتِينُ الْعُلَمَاءِ» (٥).

والبساتين لها هواء لطيف، ولها مناظر خلابة، وفيها أنواع الثمار، وفيها أنواع الأوراق والورود والأعشاب الطيبة، وفي الحقيقة، فإن الكتاب له كل تلك الآثار.

٦- وفي حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله، ورد بتعبير رائع جداً يبين فيه أهمية الكتاب والكتابة بطرز محير للعقول، يقول صلى الله عليه وآله: «ثَلَاثٌ تَخْرِقُ الْحَجَبَ، وَتَنْتَهِي إِلَى مَا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ: صَرِيْرُ أَقْلَامِ الْعُلَمَاءِ، وَوَطْءُ أَقْدَامِ الْمُجَاهِدِينَ، وَصَوْتُ مَغَازِلِ الْمُحْصَنَاتِ» (٦).

وفي الواقع، كل واحد من هذه الأصوات الثلاثة خفي في الظاهر إلا أنه في باطنه وواقعه

(١) بحار الأنوار، ج ٢، ص ١٥١.

(٢) كنز العمال، ح ٢٨٧٣٣.

(٣) بحار الأنوار، ج ٢، ص ١٥٠.

(٤) فروع الكافي، ج ٥، ص ١٥٥.

(٥) غرر الحكم.

(٦) الشهاب في الحكم والآداب، ص ٢٢.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٥٧

جوهري، وكل واحد منها إشارة إلى إحدى المسائل الأساسية في المجتمعات البشرية «العلم والكتابة» «الجهاد والشهادة» «السعي والعمل»!

٧- يقول الإمام الصادق عليه السلام للمفضل ضمن بيان نعم الله العظيمة على البشرية:

«وَكَذَلِكَ الْكِتَابِيَّةُ الَّتِي بِهَا تُقَيَّدُ أَخْبَارُ الْمَاضِيَةِ لِبَاقِيْنَ وَأَخْبَارُ الْبَاقِيْنَ لِلْآتِيْنَ وَبِهَا تُخَلَّدُ الْكُتُبُ فِي الْعُلُومِ وَالْآدَابِ وَغَيْرِهَا وَبِهَا يَحْفَظُ الْإِنْسَانُ ذِكْرَ مَا يَجْرِي بَيْنَهُ وَيَبْنِي غَيْرِهِ مِنَ الْمُعَامِلَاتِ وَالْحِسَابِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَانْقَطَعَ إِخْبَارُ بَعْضِ الْأَزْمِنَةِ عَنْ بَعْضٍ، وَأَخْبَارُ الْغَائِبِينَ عَنْ أَوْطَانِهِمْ، وَدَرَسَتِ الْعُلُومُ وَضَاعَتِ الْآدَابُ، وَعَظُمَ مَا يَدْخُلُ عَلَى النَّاسِ مِنَ الْخَلَلِ فِي أُمُورِهِمْ وَمُعَامِلَاتِهِمْ، وَمَا يَخْتَاجُونَ إِلَى النَّظَرِ فِيهِ مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ وَمَا رَوَى لَهُمْ مِمَّا لَا يَسْعُهُمْ جَهْلُهُ» (١).

٨- ونختم هذا البحث برواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله تكشف الستار عن أهمية بقاء الآثار العلمية بواسطة الكتابة، وتدعو العلماء وتحفزهم وتشدهم إلى ذلك، يقول صلى الله عليه وآله:

«الْمُؤْمِنُ إِذَا مَاتَ وَتَرَكَ وَرَقَةً وَاحِدَةً عَلَيْهَا عِلْمٌ، تَكُونُ تِلْكَ الْوَرَقَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ سِتْرًا فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ وَأَعْطَاهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِكُلِّ حَرْفٍ مَكْتُوبٍ عَلَيْهَا مَدِينَةً أَوْسَعُ مِنَ الدُّنْيَا سَبْعَ مَرَّاتٍ» (٢).

٢- وصايا مهمة للحكومات الإسلامية

من مجموع ما قرأناه في الآيات والروايات، تتضح لنا هذه النقطة، وهي أن المسلمين في القرون الأولى لظهور الإسلام لما توجهوا للعلوم والفنون والمعارف، وأوجدوا نهضة علمية واسعة عمت بركاتها وثمارها أوربا أيضاً، فإنّ جذور ذلك موجود وكامن في الثقافة التي علمهم إياها الإسلام، ومن الواضح جداً أنّ على الحكومات الإسلامية أن تهتم بهذه المسألة

(١) بحار الأنوار، ج ٥٨، ص ٢٥٧.

(٢) المصدر السابق، ج ١، ص ١٩٨.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٥٨

التي تعتبر أساس حياتهم وتقدمهم في دينهم ودنياهم.

وفي هذا المجال، فإنّ الحكومة الإسلامية وبلاستفادة ممّا ذكر، عليها أن تراعى القواعد والأمور التالية.

١- لا بدّ أن تنتشر القراءة والكتابة بشكل واسع في كلّ طبقات المجتمع حتّى لا يبقى فرد جاهل بهما، بل يتنعم الجميع بنعمة القراءة والكتابة، وأي تقصير في هذا المجال تكون الحكومة الإسلامية مسؤولاً عنه.

٢- تأسيس المكتبات العامة والخاصة لعامة الناس ولخصوص المحققين والعلماء، والمكتبات التي تضم مختلف الكتب في شتى العلوم من وظائف الحكومة الإسلامية أيضاً.

وكلّ جهد في هذا المجال، فضلاً عن كونه مطلوب من قبل الشارع المقدّس، فمع ذلك سيكون سبباً في قوة واقتدار المسلمين، ومواجهة النواقص والمفاسد الفردية والاجتماعية المختلفة، وهو أيضاً سبب في تطور المجتمع الإسلامي ورفقه.

٣- ينبغي أن لا تقتصر وسائل الإعلام العامة في الحكومة الإسلامية على الأخبار والمسائل السياسية وبرامج التسلية، بل لا بدّ أن يخصص جزء كبير منها لنشر العلوم والمعارف وبما يتناسب مع كل الأمزجة لجميع أفراد المجتمع ونشر آخر التطورات والاكتشافات العلمية في أوّل فرصة ممكنة بشكل واسع في المجتمع الإسلامي، للحدّ من أي تخلف حضاري وعلمي عند المسلمين.

٤- على الحكومة الإسلامية أن تشجّع العلماء والمحققين والكتّاب على الاستفادة من كل الوسائل العلمية الحديثة وأن توفر ما يلزم لتعزيز هذه القدرة عندهم، وعليها من أجل إنتاج حصيلة علمية تشجيع الابداعات والابتكارات العلمية، وتوزيع الجوائز والإماتات، وإن تكرم العلماء والمحققين بنحو يحفز الآخرين على الجدّ والسعي في هذا المجال.

٥- توسعة المدارس والجامعات وتعميق برامجها وتطويرها واستثمار الابتكارات العلمية للعلماء المسلمين، وحتى المحققين الأجانب، وفي هذا المجال لا بدّ أن يكون ذلك على رأس برامج الحكومة الإسلامية، وأن يتبلور ذلك طبقاً لما أراه الإسلام والذي

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٥٩

انعكس في الآيات والروايات المذكورة وهي نموذج من تعاليم الإسلام.

والإطلاع على الصناعة والتكنولوجيا ليس أمراً منفصلاً عن ذلك بحال، لأننا نعلم أن تعلم كل الأمور المهمة بنحو من الأنحاء لحفظ المجتمع الإسلامي، واجب عيني في الفقه الإسلامي، ولا يحقّ لأي مسلم أن يغفل عنه.

٣- تأسيس المكتبات

إحدى مسؤوليات الحكومة الإسلامية المهمة فيما يرتبط بمسألة التربية والتعليم هو تأسيس المكتبات العامة، وذلك لأنّ أكثر الناس غير قادرين على شراء كتب مختلفة وعديدة، في حين أنّهم يطلبون العلم ويريدون المعرفة، وحتى لو كانوا قادرين على ذلك، فإنّه لا يلزم أن تُجتمد أموال طائلة في المنازل، فالأفضل أن يتمّ تأسيس مكتبات عامة ليتم استغلال الثروات في أمور أخرى، ولكي يتمكن الفقير والغني ومتوسط الحال والصغير والكبير من اقتناء الكتب المختلفة ومطالعتها، سواء الكتب الدينية أو العلمية أو الأدبية أو

التاريخية والسياسية.

وفلسفة تشكيل المكتبات معروفة من قدم الدهر، ولهذا نجد أن مكتبات عديدة قد اسست منذ آلاف السنين في نقاط مختلفة من هذا العالم وإن كان بعضها بسيطاً وابتدائياً.

وفي المجتمع الإسلامي، وللتأكيد الكبير الذي ورد في التعاليم الإسلامية على مسألة العلم والمعرفة نجد أن المكتبات العظيمة كانت قد اسست منذ القرن الثاني للهجرة في البلاد الإسلامية، حتى أظهر المؤرخون غير المسلمين إعجابهم وتقديرهم لمثل تلك المكتبات. ولجرجي زيدان، المؤرخ المسيحي الشهير، بحث مفصل حول مكتبات بغداد والأندلس ومصر وسائر نقاط العالم الإسلامي، الأمر الذي يبين انفتاح المسلمين العلمي العظيم في القرون الأولى للإسلام.

ومن جملة المكتبات العظيمة المهمة التي يذكرها هي مكتبة بيت الحكمة في بغداد،

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٦٠

والتي يُحتمل وبشكل قوى أن هارون الرشيد هو المذى أسسها، والتي جُمع فيها كل الكتب المؤلفة في الطب والعلوم الأخرى وكذا العلوم الإسلامية المدونة «١».

وقد قام كثير من رجال بغداد بتأسيس مكتبات أخرى تبعاً لمكتبة بيت الحكمة، جمعوا فيها آلاف الكتب المختلفة.

ولقد كان المأمون العباسي، من السابقيين في تأسيس المكتبات في الدول الإسلامية، وكان بعض حكام الأندلس قد اقتدوا به في هذا المجال.

ومن جملة من اهتم بهذا الأمر «المستنصر العباسي» في القرن الرابع للهجرة، حيث أسس مكتبة عظيمة في «قربط» جمع فيها الكتب من أنحاء العالم، وكان قد كلف جماعة من التجار بالترحال والسفر إلى نقاط الدنيا وشراء الكتب العلمية لتلك المكتبة، حتى أن البعض قال إن عدد الكتب الموجودة في تلك المكتبة بلغ «أربعمائة ألف كتاب» «٢».

وهذا العدد كبير جداً بعد الأخذ بنظر الاعتبار أن كل الكتب حينذاك كانت مخطوطة، وكانت كتابة الكتاب الواحد تستغرق أسابيع أو أشهر أو سنين.

وقد اقتدى به كثير من ملوك «الأندلس» فأسسوا مكتبات عديدة في سائر البلاد، حتى قيل إن «غرناطة» كانت تضم سبعين مكتبة عامة ضخمة، وكل ذلك إنما هو لأجل الرغبة الشديدة واللهفة لطلب العلم والمعرفة عند الناس، حتى صار جمع الكتب وتأسيس المكتبات من علامات العظمة والشخصية، فحتى الرؤساء والملوك الذين لم يكونوا من أهل المطالعة، كانوا يحاولون تأسيس مكتبة معتبرة خاصة في منازلهم!!

وفي زمن «الفاطميين في مصر» تأسست مكتبات كبيرة أيضاً، كانوا يسمون بعضها «خزانة الكتب» ويصرفون أموالاً طائلة في جمع الكتب حتى أنهم كانوا أحياناً يجمعون عدة نسخ من الكتاب وبخطوط مختلفة وزخرفة متنوعة، حتى ذكر التاريخ أن المكتبة التي أسسها «يعقوب بن كلس» كانت تضم ٣٤٠٠ نسخة مختلفة من «القرآن المجيد» و ١٢٠٠

(١) تاريخ الحضارة، جرجي زيدان، ج ٣، ص ٢٢٨.

(٢) تاريخ الحضارة، جرجي زيدان، ج ٣، ص ٢٢٨.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٦١

نسخة من «تاريخ الطبري» وقيل أن عدد الكتب في تلك المكتبة بلغ ١/٦٠٠/١٠٠٠ كتاب منها ٦٥٠٠ نسخة في النجوم والهندسة والفلسفة «١».

يقول «ول ديورانت» في كتابه «تاريخ الحضارة»: كانت مكتبات الخلفاء الفاطميين تضم مئات الكتب المزينة بالنقوش من جملتها

(٢٤٠٠) نسخة من القرآن، وكان في «مكتبة الخليفة» في القاهرة ١٠٠٠ / ٠٠٠ كتاب في عهد الخليفة «الحاكم بأمر الله» و ٢٠٠ / ٠٠٠ كتاب في عهد الخليفة «المستنصر» (٢).

ومتي ما قارنا بين هذه الأعداد وبين أعداد الكتب في المكتبات اليوم في كثير من البلدان، نلاحظ تفاوتاً واضحاً بينها، مع أن أمر طبع ونشر الكتب اليوم أسهل بكثير من ذلك الوقت خصوصاً مع تطور وسائل الطباعة الكبير، حيث لم يكن في السابق إلا الكتب المخطوطة، وهذا التفاوت في الأعداد والأرقام مسألة مهمة لا بد من دراستها، ونختم هذا الحديث بعبارة أخرى للمؤرخ الشهير «ول ديورانت» حيث يقول: كانت أغلب المساجد تشتمل على مكتبة، وكان في أكثر المدن أيضاً توجد مكتبة عامة تحتوى على عدد كبير من الكتب، تفتح أبوابها لطلاب العلم ... وكان فهرست مكتبة «الري» فقط عشرة مجلدات، وكان رواد مكتبة «البصرة» يحصلون على مخصصات وإعانات مالية!

وكان «ياقوت الحموي» الجغرافي الشهير قد قضى ثلاث سنوات في مكتبة «مرو» و «خوارزم» لجمع المعلومات لكتابه «معجم البلدان»، وعندما خرب المغول «بغداد» كان في بغداد ستة وثلاثون مكتبة عامة، غير المكتبات الخاصة العديدة، إذ كان المتعارف أن يكون لكل من الأغنياء مكتبة تضم عدداً من الكتب! ولقد دعى «أمير بخارى» طبيباً معروفاً إلى بلاطه، فلم يستجب الطبيب لدعوته واعتذر بأنه يحتاج إلى أربعمائة بعير! لحمل كتبه، وعندما توفي «الواقدي» ترك ستمائة صندوق مملوءة بالكتب، يلزم لحمل كل منها رجلين.

(١) تاريخ الحضارة «ول ديورانت»، ج ٣، ص ٢٣١.

(٢) المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٦٧.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٦٢

وكان لبعض الأعظم مثل «الصاحب بن عباد» كتبٌ بعدد كتب كل مكتبات أوروبا! ولم يكن في أي بلد من بلدان العالم - إلا الصين أيام «مينك هوانك» - شوق وشغف بجمع الكتب نظير ما كان عند المسلمين في الفترة ما بين القرن الثامن وحتى القرن الحادي عشر الميلادي (الثاني - الخامس الهجري) وقد وصلت الحياة الثقافية للمسلمين إلى أوجها في تلك الفترة (١).

لقد كانت الدوّل الإسلاميّة مهدياً للعلم والحضارة والثقافة في القرون الوسطى وفي أكثر القرون حيث كان الأوروبيون يعيشون في أحلك فترات تاريخهم المظلم.

ولكى لا- نتعد عن صلب الموضوع، نقول: إن الهدف هو أن يتضح مدى تأثير تعاليم الإسلام في تطور التربية والتعليم وتأسيس المكتبات وانتشار العلم والمعرفة، ومن هنا نتضح لنا خطورة مسؤوليّة الحكومة الإسلاميّة في هذا الأمر المهم.

(١) قصّة الحضارة، ول ديورانت، ج ٤، ص ٣٠٤.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٦٣

الركن الخامس: الدفاع (القوات المسلحة)

تمهيد:

لو كانت الدنيا خالية من الظلمة الطامعين والمعتدين والمتجاوزين، لما كان هناك أيّة ضرورة لوجود القوات المسلحة لحفظ الحدود، ولعاش الناس في بلادهم آمنين مطمئنين تربطهم روابط تجارية وثقافية وسياسية واجتماعية واقتصادية سالمة وطبيعية.

ولكن حب الإستعلاء والتسلط الذى قد يوجد أحياناً عند بعض الأفراد، وأحياناً عند بعض الشعوب، يؤدى غالباً إلى اعتداء هذا الفرد أو ذلك الشعب على فرد آخر أو شعب آخر، وفى مثل هذه الحالات يحق للجميع أن يتسلحوا ويستعدوا لحفظ أمنهم وحياتهم، إذ إنَّ النِّظام الذى يحكم العالم اليوم وللأسف هو نظام الغلبة للقوى وهذا الأمر يبرر لنا فلسفة تشكيل القوى المسلحة وقوات الدفاع. فصحيح أن وجود مثل هذه القوى لم ينجح بشكل كامل لمنع مثل هذه الإعتداءات العدوانية، ولكنها بلا شك كانت ولا تزال مانعةً بنسبة معينة من ذلك، إذ فى كثير من الأحيان يتحتم على القوى المعتدية أن تغامر وتخاطر بوجودها فى اعتدائها، حيث إنَّ النتيجة لا تكون معلومة، فقد تتحمل خسائر جسيمة وتُدفع ضريبةً غاليةً فى طريق الغلبة على البلد المعتدى عليه وهذا نفسه يمنع فى كثير من الأحيان مثل هذه الإعتداءات والحروب.

ومضافاً إلى ذلك، فإنَّ الأمة ذات الحضارة والثقافة التى تريد الحصول على ميدان حرٍّ لتنتشر ثقافتها بين الأمم الأخرى تحتاج إلى قوة عسكرية للحصول على ذلك الجو الحرِّ، ولا يمكنها ذلك بدون الإتكاء على القوة، وهذه فلسفة أخرى لتشكيل القوى العسكرية. ولو أردنا بحث هذه المسألة فى بعد أوسع، لا بد أن نقول إنَّ الحياة غير ممكنة بلا

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٦٤

«جهاد»، إذ إنَّ الكائن الحى يواجه دائماً فى طريق استمرار حياته، بعض الموانع والصعوبات التى تهدد كيانه فى كل لحظة، وإذا لم يكن مجهزاً بقوة دفاعية فسوف ينهزم بسرعة.

وجسم الإنسان وهو «عالمٌ صغير» يتجلى فيه العالم الأكبر، هذا الجسم نموذج بارز لهذه المسألة، وذلك لأنَّ حياة الإنسان مهددة دائماً بخطر التلوث «بالميكروبات» و «الفايروسات» التى ترد البدن عن أربعة طرق (التنفس، الأكل، الشرب، والجلد إذا ما أصيب البدن بجراحات)، فلو لم يكن بدن الإنسان مزوداً بالقوى الدفاعية المجهزة، لابتلى بأنواع الأمراض الخطيرة التى تشلُّ حركته وتقتله. نعم، فكريات الدَّم البيضاء تهب لمواجهه أى عدو خارجى يرد البدن، وتجاهده عن طريق حروب فيزيائية وكيميائية، وحتى لو انتصر العدو مؤقتاً ومرض الإنسان، تستمر تلك الكريات بدفاعها حتى تتغلب على العدو وتؤمن السلامة الكاملة للبدن.

وعدد هذه الخلايا الدفاعية الموجودة فى بدن الإنسان يصل إلى عدده ملايين كما يقول العلماء، وعند ملاحظة عمل هذه القوى يختار عقل الإنسان حيث تحكى عن نكات عجيبة من أسرار الخلقه تجعل الإنسان يضطر للركوع أمام قدرة الخالق عز وجل. والمجتمع الإنسانى والدول المختلفة غير مستثناء عن هذا القانون العام، وتحتاج إلى إدامه حياتها واستمرارها لقوى عسكرية مجهزة ومتطورة.

وبعد هذه الإشارة نعود إلى القرآن الكريم.

ففى القرآن الكريم آيات عديدة فى مجال الجهاد وفلسفته وأحكامه، وكذلك آثاره ونتائجه، وقد إنتقينا إحدى عشرة آية من بين تلك الآيات:

١- «اذنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ* الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ بَغْيٍ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ». (الحج / ٣٩- ٤٠)

٢- «وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلَّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ». (الأنفال / ٣٩)

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٦٥

٣- «وَاعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ». (الأنفال / ٦٠)

٤- «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَتْهُمْ بُيُوتًا مَّرْصُوصًا». (الصف / ٤)

٥- «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِيَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ». (الأنفال / ٦٥)

٦- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ * تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يُغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَآخِرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشْرُ الْمُؤْمِنِينَ».

(الصف / ١٠-١٣)

٧- «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعِندَهُ عِلْمٌ حَقٌّ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ». (التوبة / ١١١)

٨- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ».

(آل عمران / ٢٠٠)

٩- «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ». (التوبة / ٧٣) (التحريم / ٩)

١٠- «لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا». (النساء / ٩٥)

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٦٦

جمع الآيات و تفسيرها

روح الجهاد، دفاع لاغزو:

في الآية الأولى من الآيات الآتية الذكر، والتي يعتقد جمع من المفسرين أنها أول آية في الجهاد، تريح الستار عن أهم فلسفة للجهاد، وتجزئ للمسلمين الذين حوصروا من قبل الأعداء الشرسين الجائرين، أن يحاربوا هؤلاء عسكرياً ويجاهدوهم، يقول تعالى:

«إِذِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ».

فهنا حصل المسلمون على إذن بالجهاد، مضافاً إلى أنهم وُعدوا بالنصر من قبل الله تعالى، وقد ذكر لذلك دليل، وهو أن العدو هو الذي بدأ الحرب العدوانية عليهم، ولذا فالسكوت عنه خطأ، لأنه يؤدي إلى تجرؤ العدو وتجاسره وإلى ضعف المسلمين.

يقول المرحوم الشيخ الطبرسي في مجمع البيان: وكان المشركون يؤذون المسلمين ولا يزال يجيء مشجوج ومضروب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ويشكون ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فيقول لهم صلوات الله عليه وآله: إصبروا فإنني لم أؤمر بالقتال، حتى هاجر فأنزل الله عليه هذه الآية بالمدينة وهي أول آية نزلت في القتال» (١).

والملفت للنظر هو أن القرآن المجيد يقول في الآية السابقة لهذه الآية: «إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا»، أي أن هذا الكلام لا يعنى أن يجلس هؤلاء في زاوية من زوايا المسجد ويضعون يداً على يدٍ وينتظرون دفاع الله، بل إن سنة الله اقتضت أن يكون دفاعه عن المؤمنين بعد أداء وظيفتهم في أمر الجهاد ومواجهة العدو، إذن، فالذين يحق لهم الإطمئنان للحماية الإلهية هم الذين لم يتركوا وظيفة الجهاد.

كما أن النكتة الأخرى التي ينبغى الالتفات إليها هي أن الآية اللاحقة تقول في تحفيز المؤمنين على الدفاع المقدس: «الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ». (الحج / ٤٠)

(١) ومن جمله من صرح بأن هذه الآية هي أول آية نزلت في الجهاد- مضافاً إلى ما جاء أعلاه- المرحوم العلامة الطباطبائي في الميزان» و «البرسوي) في (روح البيان) والعلامة المشهدي في (كنز الدقائق) و «الآلوسي»، في روح المعاني، وإن ادعى البعض أن الآية الأولى في الجهاد هي قوله تعالى: «قاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم...» (البقرة/ ١٩) وقال البعض إنها قوله تعالى: «إن الله اشترى من المؤمنين ..» (التوبة/ ١١١).

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٦٧

أي أن المشركين أخرجوكم من وطنكم ومنازلكم لا لذنوبكم بل للإيمانكم بالله، ولذا إذا لم تقفوا في وجوههم وتقابلون تعرضت دنياكم ودينكم وإيمانكم ومساجدكم للخطر.

وبما أن الأمر بالجهاد صدر بعد الهجرة، فيدل على أن أصل الجهاد في الإسلام هو الدفاع ضد الأعداء، لأن المسلمين لم يحملوا السلاح طيلة السنوات الثلاث عشرة على الرغم من كل أساليب الإيذاء والضرب والجرح، لعل المشركين يعودون إلى الرشد، ولما لم تنفع الأساليب السلمية مع المشركين وكانت نتيجة الصبر والتحمل هو الهجرة العامة والضغوط الاجتماعية والاقتصادية حتى بعد الهجرة، لم يكن هناك أي مبرر عقلي لجلوس المسلمين مكتوفي الأيدي ناظرين قساوة الأعداء واضطهادهم واعتداءاتهم؟! وفي الآية الثانية إشارة إلى فلسفة أخرى للجهاد، وهي كالفلسفة المذكورة في الآية السابقة يمكن أن توجد في كل زمان ومكان، يقول تعالى: «وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ».

والطريف أن القرآن الكريم يشير في ذيل هذه الآية بصراحة ويقول:

«فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ».

وذهب جمع من المفسرين إلى أن المراد من «الفتنة» هو «الشرك»، وبعض قال إن المراد منها الضغوط التي استعملها المشركون لإرجاع المؤمنين إلى الشرك وردهم عن إيمانهم.

وفي تفسير الميزان- واعتماداً على جذور هذا المصطلح الأصلية- فسّر الفتنة بمعنى الأمور التي يمتحن الناس بها، وبالطبع فإن تلك الأمور تكون ثقيلة على الناس وتستعمل عادة بمعنى زوال الأمن والصلح.

وقد ذكرنا في التفسير الأمثل، في ذيل الآية ١٩٣ من سورة البقرة خمسة معانٍ لهذا المصطلح استناداً إلى آيات القرآن وهي:

١- الإمتحان.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٦٨

٢- المكر.

٣- البلاء والعذاب.

٤- الشرك وعبادة الأوثان.

٥- الإضلال والإغواء.

وقد اشير في بعض كتب اللغة كلسان العرب إلى أغلب هذه المعاني أيضاً، ومن البديهي أن الفتنة في الآية مورد البحث لا يمكن أن تكون بمعنى الإمتحان أو المكر والبلاء، وعليه فهي بمعنى الشرك أو ضغوط المشركين لإضلال الآخرين، ويمكن أن تكون بمعنى جامع شامل للشرك وضغوط المشركين والعذاب والبلاء، وعليه فما دامت الضغوط مستمرة من قبل الكفار لتغيير عقيدة المؤمنين، يكون القتال في مواجهة ذلك مأذوناً فيه، ويجوز الجهاد للحصول على الحرية والحد من الضغوط والتعذيب، ولكن متى ما رفع الكفار أيديهم عن ممارسة ذلك، ينبغي الكف عن قتالهم، وعليه فالجهاد هنا نوع من أنواع الدفاع.

وفي الآية الثالثة ورد أمرٌ للمسلمين لإعداد كل لون من ألوان القوة لقتال الأعداء، يقول عزوجل: «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ» ثم

يشير إلى مصداق واضح لذلك كان يعد حينذاك من وسائل القتال المهمة، يقول عز وجل: «وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ». وفي العبارة اللاحقة يشير تعالى إلى الهدف النهائي لهذا الإعداد ويقول: «تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ».

وعليه فالهدف من الإعداد وتهيئة القوى ليس غزو الآخرين والهجوم على أحد، وإنما الهدف هو إخافة الأعداء، ذلك التخويف الذي يكون رادعاً من نشوب الحرب والقتال.

وفي الحقيقة، فإن تقوية البنية الدفاعية، كان دائماً عاملاً مؤثراً في الحد من هجوم الأعداء، وهذا هدف مقدس جداً ومطابق للعقل والمنطق.

ولابد من الالتفات إلى هذه التكتة وهي أن مفهوم الآية الكريمة أوسع بكثير، ويشمل كل

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٦٩

نوع من أنواع إعداد القوى المعنوية والمادية والعسكرية والاقتصادية والثقافية، وخصوصاً وأنها تؤكد على القوى المتناسبة مع كل زمان، ويدل ذلك على أن المسلمين يجب أن لا يتوانوا، بل عليهم أن يسعوا جاهدين لتوفير أحدث الأسلحة المعقدة في زمنهم، بل ويسبقوا الآخرين في ذلك، ولكن يبقى الهدف الأصلي لهذا الإعداد والاستعداد ليس غزو الآخرين والإعتداء عليهم، بل هو إطفاء نار الفتنة والحد من الإعتداء، وبعبارة أخرى خنق هجوم الأعداء في مرحلة النطفة.

ولما كان إعداد المعدات العسكرية المتطورة والحديثة في قبال الأعداء يحتاج إلى أموال طائلة، وهذا الأمر لا يمكن بدون اشتراك جميع أفراد المجتمع، تعقب الآية الكريمة بهذا المعنى بالقول: «وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَمَا تُمْرُونَ». (الأنفال / ٦٠)

والتكتة المهمة هنا هي أن الآية اللاحقة لهذه الآية: «وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ». (الأنفال / ٦١) فذكر هذه الآية بعد تلك له معنى دقيق وعميق، وهو تأكيد آخر على روح حب الصلح والسلام في الإسلام، أي أن أمر المسلمين بإعداد أفضل أنواع الأسلحة والقوى إنما هو من أجل تحكيم اسس السلام والصلح لا الإعتداء على أحد.

والآية الرابعة وفي ضمن الترغيب في الجهاد، تقيد الجهاد أولاً بالأهداف المقدسة، ثم تؤكد على توحيد صفوف المسلمين، وهي من أهم عوامل الانتصار في الحرب مع الأعداء، يقول عز وجل: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صِيْفًا كَانَتْهُمْ بُنْيَانًا مَرَّضُونَ» وعبارة «في سبيله» الواردة في كثير من آيات الجهاد تكشف لنا هذه الحقيقة وهي أن الجهاد يجب أن لا يكون من أجل حب التسلط والاستعمار والاستعلاء وغضب حقوق الآخرين وأراضيهم أو الانتقام منهم أو اتباعاً للهوى والرغبات، بل لابد أن يكون الهدف هو الحق والعدالة وما يوجب رضا الله تعالى فقط، وتكرار هذا التعبير في آيات عديدة من القرآن إنما

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٧٠

هو للحد من وقوع الحروب التي يكون الهدف منها وساوس ورغبات شيطانية ومادية، وهذا الأمر هو الفارق الأساسي بين القوى المسلحة الإسلامية وبين غيرها! (التفتوا جيداً).

ثم أن التعبير بجملته بنيان مرصوص (وهو البناء الذي استعمل فيه الرصاص الذائب بدلاً من الإسمنت، لكي يكون صلداً وقوياً) ويمكن أن يكون إشارة إلى أن أعداء الإسلام كالسيل الجارف المخرب، وأن صفوف المجاهدين المسلمين كالسد الحديدي المنيع الذي يصمد أمام السيول. أو هو إشارة إلى السد الحديدي الذي بناه ذو القرنين لمقابلته قوم «ياجوج ومأجوج» السفاكين للدماء، أو كناية عن كل سد يقام في وجه الأعداء وهجومهم.

وعلى أي حال، فإن هذا التعبير يدل على أن الجهاد في الإسلام له صفة دفاعية في الأصل، لأن السدود وسيلة دفاعية مؤثرة في قبال أمثال «ياجوج ومأجوج» على مر التاريخ، ولا يوجد سد له ميزة الغزو والهجوم والإعتداء.

وكما أن السدود إذا أصابها خلل أو ثغرة فإنها ستكون معرضة للخطر والتلاشي، فكذلك صفوف المجاهدين الرسالين فمتى ما برز

فيها اختلاف وفرقة وعدم انسجام، فستكون محكومة بالإنذار والفسل، فالله عزوجل يحب الصّيفوف المتراصفة المتحدّة المتفقه والمنسجمه تماماً.

وفى الآية الخامسة، يأمر نبي الإسلام صلى الله عليه وآله أن يحفز المسلمين على قتال الأعداء، وهذا الأمر وارد بعد تلك الآيات التى تحرض على إعداد القوى لإخافة العدو والحد من وقوع الحروب المدمره، وكذلك بعد الآية التى تحرضهم على الصلح والسلم. وفى الحقيقة، الحرب فى نظر الإسلام آخر وسيلة مشروعه تستعمل للحد من اعتداءات الأجانب الأعداء، وفى البدء تعدّ القوى لترهب الأعداء، ثمّ دعوتهم إلى السلم من موضع القدرة لا من موضع الضعف، ثمّ يصدر أمر القتال والجهاد إذا لم تنفع تلك السبل، يقول عزوجل: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ»، ثمّ يشير إلى أهم عوامل النصر يعنى نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٧١

الإستقامه والصمود، ويقول: «إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ».

فغباء هؤلاء وجهلهم يكون من جهه سبباً فى مخالفتهم للمنطق والعقل وإصرارهم على روح العدوان فلا يفهمون إلا منطق القوه، ومن جهه اخرى يكون جهلهم سبباً لضعفهم وعدم اقتدارهم فى ميدان الحرب، وذلك لأنهم يفتقدون الهدف والمبرر الواقعى فى حروبهم، ومن هنا فإن بإمكان المؤمن الواحد أن يغلب عشرة منهم إذا ما استقام وصد، وبإمكان العشرين أن يغلبوا مائتين من الكفار. يقول الراغب فى مفرداته: التحريض فى الأصل بمعنى التحريك نحو شىء بعد تزيينه وتسهيل طريق الوصول إليه عن طريق إزالة الموانع - وفى الحقيقة فإن الإيمان بالله والإعتقاد بيوم المعاد والأجر العظيم الذى أعدّه الله للمجاهدين والشهداء فى سبيل الله يزيل كل الموانع عن طريق جنود الإسلام، ويهون عليهم هذا العمل الثقيل والصعب جداً.

هذه الآية تُخطئ كل حسابات الموازنة بين القوى الظاهرية والمادية، وتدل بوضوح على أن سلسلة من القوى المعنوية موجودة عند المسلمين يمكنهم بالإتكاء عليها كسر شوكة جيش العدو المتفوق صورياً بعدته وعدده عليهم، وكسب المعركة لصالح المسلمين. الآية السادسة تحرض المؤمنين على الجهاد بطريق آخر، بواسطة تشبيه الجهاد بالتجارة المربحة التى توجب النجاة من عذاب أليم، والنصر فى الدنيا والآخرة، يقول تعالى:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ * تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ»، وفى الآيات اللاحقه لهذه الآيات يعد المؤمنين بدرجات عظيمه، حيث يقول: «يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصِيرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ».

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٧٢

ففى هذه الآيات يعتبر رأسمال هذه التجارة المربحة فى الدنيا والآخرة مرّكب من الإيمان والجهاد، أى أن «العقيدة» و «الجهاد» هما ركنا هذه التجارة، ذلك الجهاد الذى يكون بالمال والنفس معاً، إذ إن إعداد الوسائل والمعدات العسكرية اللازمة للنصر لا يمكن إلا بصرف الأموال، والملفت للنظر هنا هو أنه لم يذكر أن نتيجة الجهاد هى المغفرة والرّحمة الإلهية والنعم الخالدة فى الجنة فقط، وإنما يذكر النصر القريب فى هذه الدنيا ويعتبره أعز من آثاره الاخرى. (دققوا جيداً).

والتعبير بالتجارة، إشارة إلى نكته أن الإنسان على أية حال له رأسمال، وهذه الدنيا كالمترج يمكن استغلال رؤوس الأموال، فيها وتشغيلها وتبديلها إلى رؤوس أموال خالدة وباقيته، وهذا لا يتم إلا بالتعامل مع الوجود المقدس للبارى تعالى، الوجود الذى بيده كل مفاتيح الخير والسعادة، والتجارة مع هذا الوجود مقترن على الدوام مع الكرامة والمواهب وأنواع النعم.

كما أن النكته الجديرة بالذكر هنا هى أن المخاطب فى هذه الآيات هم المؤمنون، مع أنها تدعوهم فى نفس الوقت إلى الإيمان!

والهدف من ذلك هو أن يرتقى هؤلاء المؤمنون من مراحل الإيمان الابتدائية والصورية إلى المراحل العالية المقترنة بالجهاد والأعمال الصالحة، وذلك لأن الإيمان شجرة مثمرة تبدأ من شجيرة صغيرة حتى تصير أغصانها عالية إلى عنان السماء، فتثمر أنواع الفضائل ومكارم الأخلاق، وهذا يحتاج إلى طي مراحل تكاملية مختلفة.

وفي الآية السابعة، نجد نفس مضمون الآية السابقة ولكن في صورة جميلة أخرى، فهي تصور المعاملة وكأن الله هو المشتري والمؤمن هو البائع، والمتاع هو الأموال والأنفس، والثمن هو الجنة الخالدة، وأسناد هذه المعاملة العظيمة المربحة ووثائقها، ثلاثة كتب سماوية هي التوراة والإنجيل والقرآن، يقول تعالى:

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٧٣

«إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ».

وهذه التجارة المربحة بأركانها الأربعة ووثائقها المضمونة، من أهم التجارات التي يمكن أن يقوم بها الإنسان في طول عمره ولهذا يبارك عزوجل للمؤمنين بصورة مباشرة هذه المعاملة المربحة حيث يقول: «فَاسْتَبَشِرُوا بِنِعْمَتِ اللَّهِ الَّتِي بِأَيْدِيكُمْ بِهَذَا وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ». نعم لقد كانت هذه الدواعي هي السبب في وصول معنويات المقاتلين المسلمين إلى أعلى مستوياتها الممكنة، فمع قلة عيادهم وعدتهم استطاعوا أن يتغلبوا على عدوهم في شرق العالم وغربه.

وفي الآية الثامنة يخاطب المؤمنون مرة أخرى ويأمرهم بالصبر والمثابرة والاستعداد لصد هجمات الأعداء، يقول عزوجل:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ».

ففي هذه الآية أربعة أوامر مهمة تضمن عزة المؤمنون وانتصارهم: الأول، الأمر بالصبر والصمود أمام الأحداث المختلفة وهو النفس والشهوات، فيقول: إصبروا وهو في الواقع أساس كل انتصار.

ثم يأمرهم بعد ذلك بالمصابرة، وهي من باب مفاعلة بمعنى الصبر والاستقامة في مقابل صبر واستقامة العدو، وبتعبير آخر فإن مفهوما هو إنه مهما كانت المشاكل كثيرة وصعبة فإن صبركم واستقامتكم أيها المؤمنون لا بد وأن يكون أكبر، وكلما زاد العدو من هجومه، عليكم أن تزيدوا من استقامتكم وصمودكم حتى تغلبوا العدو (وصابروا).

وفي الأمر الثالث يأمرهم بالمرابطة ويقول: «ورابطوا»، وهذه الجملة مأخوذة من مادة «رابط» وهي بالأصل بمعنى ربط شيء في مكان ما (كربط الفرس في محل معين) وهي

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٧٤

كناية عن الاستعداد الذي يعتبر الصمود وحماية الثغور من أوضح مصاديقه، إذ إن الجنود يحفظون دوابهم ووسائلهم ومعداتهم في ذلك المحل.

ولذا فإن بعض المفسرين فسرها بحفظ الخيل والدواب المركوبة في الثغور فقط، والاستعداد في مقابل العدو حتى قالوا إن مفهومها الواسع يشمل الاستعداد لصناعة المعدات الحربية الحديثة - أعم من تلك التي يستفاد منها في حروب الجو أو الأرض أو البحر (١).

ولا شك في أن هذا لا يعني أن الآية الكريمة لا تشمل الحدود الثقافية والعقائدية، فإن مفهوم «رابطوا» واسع إلى درجة أنه يشمل كل استعداد للدفاع مقابل العدو، ولذا شبّهت بعض الروايات الإسلامية، العلماء بحراس الحدود حيث يقف هؤلاء صفًا بوجه جنود إبليس، ويحولون دون هجومهم على الأشخاص الفاقدين لقدرة الدفاع عن أنفسهم، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «علماء شيعتنا مرابطون في الثغر الذي يلي إبليس وعفاريته ويمنعونه عن الخروج على ضعفاء شيعتنا وعن أن يسلم عليهم إبليس» (٢).

حتى أنه ورد في بعض الروايات عن الإمام علي عليه السلام تفسير جملة «رابطوا» بانتظار الصلوات الواحدة بعد الأخرى (٣)، وهو في الحقيقة كالإستعداد في مقابل جنود الشيطان (تأملوا جيداً).

وفى الأمر الرابع، يأمرهم بالتقوى، إشارة إلى أن الصبر والإستقامة والمرابطة لا بد أن تكون جميعاً منسجمة ومعجونة بالتقوى والإخلاص، وأن تكون منزهة عن كل رياء وتظاهر.

وفى الآية التاسعة، يأمرهم عز وجل بأن يقاتلوا على جبهتين ويغلظوا فى القتال، جبهة الأعداء الدّاخلين والعناصر المخربة الذين تغلغلوا فى صفوف المسلمين والذين يستغلون

(١) تفسير المراعى، ج ٤، ص ١٧٢.

(٢) بحار الأنوار، ج ٢، ص ٥.

(٣) تفسير مجمع البيان، ج ١ و ٢، ص ٥٦٢.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٧٥

الفرص لتضعيف الحكومة الإسلامية وزعزعة الأمن الداخلى، ويأمرهم أن يقفوا أيضاً بوجه الأعداء فى الخارج الذين أشارت الآية إليهم بعنوان الكفار، يقول تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبئس المصير».

وبطبيعة الحال فإنّ الجهاد له معنى واسع، فكما يشمل المواجهة المسلحة يشمل أيضاً المواجهة الثقافية والاجتماعية والغلظة فى الكلام والكشف عن الهويات والتهديد أيضاً، وعليه فما ورد فى الروايات عن الإمام الصادق عليه السلام: «إن رسول الله لم يُقاتل منافقاً قط» «١» لا ينافى ما جاء فى هذه الآية.

ومضافاً إلى ذلك فإن ما جاء فى الآية الشريفة يعتبر أمراً كلياً، فإن لم يتجاوز المنافقون الحدود المعينة لا بد من مواجهتهم بالأساليب غير المسلحة فقط، وأما إذا كانت مؤامراتهم تشكل خطراً جدياً، لم يكن إلّا مواجهتهم بالجهاد المسلح وكسر شوكتهم، كما حدث مراراً فى زمن الإمام على عليه السلام.

وبتعبير آخر، فإنه وإن كان رسول الله صلى الله عليه وآله قد سلك طريق المداراة واللين مع المنافقين ولكن، كما وذكر ذلك سيد قطب فى تفسير الظلال فإن اللين له مواضع وللشدة مواضع اخرى، وإذا لم يتصرف فى كل موضع بما يناسبه، أدى الأمر إلى تضرر الشريعة والمسلمين، وعليه فلا مانع من المداراة فى شرائط معينة، واستعمال الشدة والخشونة وحتى الجهاد المسلح فى شرائط وظروف اخرى «٢».

وفى الآية العاشرة إشارة إلى مقام المجاهدين والقوى العسكرية الإسلامية الشامخ، وأفضليتهم وامتيازهم على الآخرين، يقول تعالى «لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأَجْرًا عَظِيمًا».

(١) تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٣١٩.

(٢) تفسير فى ظلال القرآن، ج ٤، ص ٢٥٥.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٧٦

وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا.

وبهذا يقسم القرآن المجيد المسلمين إلى مجموعتين «المجاهدين» و «القاعدين»، ثم يقسم القاعدين إلى قسمين «اولى الضرر» و «غير اولى الضرر» الذين يمتنعون عن الإشتراك فى القتال لتخاذلهم ثم يعتبر أن الدرجات العظيمة والفضل الكبير والمغفرة والرحمة الإلهية لا تشمل إلّا المجاهدين.

ومن هنا يتضح تماماً أنه، وخلافاً لما هو المعروف اليوم فى العالم من أن وظيفة القتال مع الأعداء مختصة بمجموعة خاصة من الناس. إن وجوب القتال فى الإسلام يكون فى عهده كل من يقدر على حمل السلاح وجهاد الأعداء ولهذا لم نعهد فى عهد رسول الله صلى

الله عليه وآله تشكيل جيش خاص بعنوان القوات المسلحة، وعندما تندلع الحرب كان كل من يقدر على حمل السلاح وباستلها من القرآن المجيد يحمل سلاحه ويتجه نحو ميدان القتال، وبتعبير اليوم، فإن لكل فرد من المسلمين مكانه الخاص في صف التعبئة العسكرية، وهذا الأمر صار سبباً في تعظيم القدرة العسكرية عند المسلمين.

توضيحان

١- الجيوش المنظمة والتعبئة الجماهيرية

من خلال آيات كثيرة أخرى واردة في أبعاد مسألة الجهاد الإسلامي المختلفة يتضح الهيكل العام للقوات المسلحة في الحكومة الإسلامية وخصائصها، وتبدو امتيازاتها على سائر مناهج المجتمعات الأخرى في الأمور العسكرية. وبطبيعة الحال فإننا نعيش في عصر تعقدت فيه الفنون العسكرية جداً، واكتسبت طابع التخصص، فلا مفر من الاستفادة من القوى المتخصصة في هذه الفنون من كبار الضباط وذوى الرتب العسكرية الذين درسوا فنون الحرب وتمرنوا عليها، وعليه فمن اللازم إبقاء

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٧٧

مجموعة من هؤلاء بعنوان «الكوادر الثابتة» في الجيش، ليهتموا ليلاً ونهاراً بالأمور الدفاعية والتخطيط والبرمجة والاستعداد في كل لحظة لمواجهة الخطر الخارجي والداخلي، ولكن مع كل ذلك، فدور التعبئة الجماهيرية العامة محفوظ في محله، بل لا يمكن أن تؤدي المجموع المذكورة دورها بشكل فاعل ومثمر بدون التعبئة العامة والقوات الجماهيرية، كما شاهدنا دور هذه القوات الجماهيرية في الحرب العدوانية التي فرضت على الجمهورية الإسلامية ولمدة ثمان سنوات، إذ لولا وجود قوات التعبئة الجماهيرية، لاحتلت القوات العراقية المعادية مساحات عظيمة من أراضي إيران، وقد كانت هذه القوات العظيمة البطله هي التي صدت قوات صدام المدعومة من القوى الاستكبارية العظمى كل الدعم.

ولذا، فإن تصور البعض أن دور التعبئة الجماهيرية العامة خاص بذلك الزمن الذي لم تكن الفنون العسكرية قد تعقدت وتطورت فيه كما هي عليه اليوم - كزمن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، تصور خاطيء جداً.

واليوم أيضاً لا يمكن إنكار دور قوات التعبئة الجماهيرية في الدفاع عن الدول الإسلامية، والشاهد الآخر على هذا الموضوع مجاهدو فلسطين المحتلة، فنحن نعلم جيداً أن الذي ألقى إسرائيل وسلب النوم من عينيها في الأراضي المحتلة هو القوات الجماهيرية غير النظامية والتي تشكل غالباً من الشبان والصبيان ذوى الأعمار الصغيرة، والذين لا يمتلكون السلاح إلا بالحجارة في مواجهة إسرائيل! فلو لم تكن نعيش نماذج عينية لهذه القضية، فسوف يصعب تصديق وجود أفراد يقاتلون بالحجارة ويؤرقون العدو في عصر الأسلحة المتطورة والقنابل الذرية والصواريخ العابرة للقارات!

ففي فلسطين المحتلة، لا يوجد جيش نظامي يواجه إسرائيل، وكل ما يوجد إنما هو قوات تعبوية وقوات جماهيرية غير منظمة، اكتسبت بمرور الزمن تجربة جيدة وخبرات كثيرة حتى صارت عملياً وكأنها جيش مدرب، مع وجود مجاميع لا تزال تحارب بنفس

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٧٨

الطرق البدائية ومع ذلك فقد أفلقت العدو المجهز بأحدث أنواع الأسلحة!

وعليه ينبغي على الحكومة الإسلامية أن لا تتساهل في مسألة الاستفادة من قوات التعبئة الجماهيرية مطلقاً.

وعدم وجود قوات تعبوية جماهيرية في الدول الصيغانية المتطورة، وعدم استفادة تلك الدول من الجماهير، ليس إلالعدم اعتقاد هؤلاء بوجود الجهاد بعنوان فريضة إلهية عظيمة، فهؤلاء يرون أن الحرب مسئولية الدولة فقط، أما في الإسلام فإن الجهاد وظيفة كل فرد

من أفراد المسلمين.

إنَّ عظمة الشَّهادة وعظمة مقام الشَّهداء في الإسلام أمر غير معروف عند غير المسلمين، ومن هنا فإنَّ دواعي التَّعبئة الجماهيرية غير موجودة عند الآخرين، أما عند المسلمين فهي موجودة دائماً.

وطبيعته الحال، فإنَّ تلك الدَّول التي لا تعتقد بمثل هذه الثقافة عندما يصل حدُّ السيف إلى رقابها، وتتعرض بلادهم لخطر الفناء فإنَّها قد تفكر في الإستعانة بتشكيل قوات تعبئة جماهيرية، أما في الإسلام فإنَّ هذه القوات موجودة على الدَّوام.

ولذا، فعلى الحكومة الإسلامية وبعد الإفتخار بهذه الثقافة الدِّينية، أن تهتم جيداً بقوات التَّعبئة الجماهيرية حتى في زمن الصِّلح، بل عليها أن تدرِّب قوات التَّعبئة الجماهيرية بمرور الزَّمن على الفنون العسكرية المتناسبة مع عصرها، حتَّى يتمكن كل من يقدر على حمل السلاح من التَّوجه إلى ميدان المعركة ساعة الخطر.

ومن ذلك الوقت، أصبح تكريم مقام الشَّهداء واحترام أسرهم وتقديرهم المادى والمعنوى جزء من إرشادات الإسلام، ومن التَّدابير الأساسية لحفظ روح التَّعبئة الجماهيرية الجهادية وبقائها في أوساط المسلمين، ولو نُسى الأمر فإنَّه سترك بدون شك تأثيرات سلبية خطيرة وكثيرة في تضعيف الرُّوح الجهادية عند المسلمين.

وكم هو جميل أن يكون إلى جنب كل مسجد من مساجدنا وحدات للتَّعبئة الجماهيرية، وأن تعتبر التَّعبئة الجماهيرية عبادة كبيرة إلى جنب الصَّلاة، وهذه الأمور لا يمكن تحقيقها إلَّا

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٧٩

في ظلَّ الإعتقادات الصحيحة والثقافة الدِّينية، وهي من الأسلحة الإستراتيجية التي نمتلكها اليوم والتي حرمت منها الدَّول الإلحادية وإن كانت مجهزة بأحدث أنواع الأسلحة والتَّدريبات العسكرية:

ويتضح لنا من خلال الآية الشريفة: «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ». (الأنفال / ٦٠)

والتي مرَّ الحديث عنها في البحث السابق، أنَّ على المسلمين أن يحفظوا استعدادهم وقدراتهم العسكرية حتَّى في زمن الصِّلح، فإذا تطورت الفنون العسكرية الحربية يوماً بعد آخر فإنَّ على المسلمين أن يتدربوا باستمرار بحسب ما يتناسب مع ذلك التَّطور، كما أنَّ عليهم أن يحصلوا على تلك الأسلحة المتطورة بأى ثمن كان، ومع الأخذ بنظر الاعتبار أنَّ كلمة «قوة» تشمل كل أنواع القوى المادية والمعنوية، البشرية وغير البشرية، فلا بدَّ من إعداد كل ذلك.

ونقرأ في القرآن الكريم: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا تُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعاً». (النساء / ٧١)

وبعد الأخذ بنظر الاعتبار أنَّ «الحذر» بمعنى اليقظة والفتنة والإستعداد الدائم لمواجهة المخاطر، وقد تأتي أحياناً بمعنى الوسيلة التي يمكن بها مواجهة الخطر، يتضح لنا جيداً لزوم الإستعداد الكامل الدائم عند المسلمين في مقابل الأعداء.

وجملة «فَانفِرُوا تُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعاً» مع الإلتفات إلى أنَّ النَّفر هو الرَّحيل والهجرة، تدلُّ على أنَّه لا ينبغي للمسلمين الجلوس في البيوت انتظاراً لهجوم العدو، بل عليهم أن يستعدوا لاستقباله ومواجهته - قبل أن يهجم عليهم - ويهجموا عليه مستفيدين من الأساليب القتالية المختلفة لهذا الأمر، فتارة يهجمون بصورة مجاميع متفرقة، واخرى بصورة حرب عصابات، وتارة بشكل جيش منظم يبدأ بالهجوم على العدو، فيقاتلون في كلِّ ظرف بما يتناسب معه.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٨٠

٢- السبق والرمية

وبالنسبة إلى التَّدريب العسكري، نجد أنَّ الإسلام مضافاً إلى ترغيبه المسلمين بمسابقة الخيل والرمية، فإنَّه أجاز للمسلمين إقامة

المسابقات والرّهان والرّبح والخسارة في هذا المجال أيضاً، مع أنّ الإسلام يحرم القمار والرّبح والخسارة ويعتبر ذلك من الذّنوب الكبيرة، أمّا في هذا المورد فهناك حكمة وفلسفة واضحة استثنى فيها هذه الموارد.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ الملائكة لتنْفِرُ عند الرّهان، وتلعن صاحبه ما خلا الحافِرَ والخَفَّ والرّيش والنّصل» (١). والملفت للنظر أنّ مثل هذه المسابقات كانت تقام بحضور رسول الله صلى الله عليه وآله وأحياناً بدعمه المادى لها، حتّى ورد عن الإمام السّجاد عليه السلام أنّه قال: «إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أجرى الخيل وجعل سبّها أواقى من فضة». حتّى أنّ المستفاد من بعض الروايات أنّ النّبى الأكرم صلى الله عليه وآله كان يشترك بنفسه في بعض تلك المسابقات (٢).

(١) وسائل الشّيعه، ج ١٣، ص ٣٤٧، ح ٤، الباب ١ من كتاب السبق والرماية، واحتمل بعض الأعظم أنّ مصطلح «نصل» لا يختص بالسهم بل يشمل كل سلاح له رأس مدبب كالزّمح والخنجر، حيث كانوا يستبقون برميها، كما أنّ مصطلح «الخف» يشمل السباق بالجمال والفيلة، وإن «الحافر» يشمل ذوات الأربعة غير الحصان، وأن «الريش» إشارة إلى السهم، الذى يكون فى آخره عادة عدّة ريشات لتنظيم حركته.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٤٩، ح ٥، وص ٣٥١، ح ٤.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٨١

آداب الجهاد

إشارة

أحد أفضل الطرق لمعرفة أصالة المدارس الفكرية هو دراسة كيفية سلوك أنصار تلك المدرسة مع العدو وخاصة في ميدان الحرب وما بعدها أى مع أسرى الحرب وما تفرزه تلك الحرب.

ودراسة الآيات القرآنية والروايات الإسلامية الواردة في آداب الحرب توضح هذه الحقيقة وهي أنّ الإسلام لم يتخلّ عن الإهتمام بالمسائل الأخلاقية والإنسانية حتّى فى أحسن لحظات الحياة، يعنى ميدان القتال، فنجده قد عجن مورد الغضب باللطف والخشونة بالرحمة، ولا شك أنّ على الحكومة الإسلامية أنّ تهتم بهذه الأخلاقية الرفيعة التي لها أثر عميق فى كيفية نظرة الأجانب للإسلام والتي يمكنها أن تكون وسيلة لاستقطاب هؤلاء وتأملهم فى الدين الإسلامى عليهم يرجعون.

وقد وردت تأكيدات كثيرة فى آيات القرآن على رعاية العدالة وعدم تجاوز الحدود المعقولة والإنسانية فى مقابل الأعداء. من جملة تلك الآيات، قوله تعالى:

«وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ».

(البقرة/ ١٩٠)

ففى الآية إشارة إلى ثلاث نقاط، الأولى هى أنّ الحرب لا بدّ أن تكون لله وفى سبيل الله لا من أجل السلطة والانتقام. والآخرى هى أنّ الحرب لا بدّ أن تكون ضد المعتدى، أى مالم تُشَنّ الحرب عليكم، لا تمدوا أيديكم إلى السلاح.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٨٢

والنقطة الثالثة هى عدم تجاوز الحدود فى ميدان الحرب، ورعاية الأصول الأخلاقية.

وعليه، فإن وضع العدو سلاحه واستسلم، فلا ينبغي قتاله، وكذا الحال بالنسبة لأولئك الذين لا يقدرّون على الحرب والقتال كالعجزة

والشيوخ والأطفال والنساء، فلا ينبغي إلحاق الأذى بهم، كما أن تدمير البساتين والمزارع وهدم الأماكن التي يمكن أن يستفاد منها، واللجوء إلى استخدام الأسلحة ذات الدمار الشامل، كل ذلك من مصاديق التعدي على الأبرياء والأساليب غير الإنسانية، وهي ممنوعة في نظر الإسلام.

وفي نفس السورة (بعد تلك الآية بعدة آيات) يؤكد تعالى مرة أخرى على هذا المعنى ويقول:

«فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ». (البقرة/ ١٩٤)

وفي هذا إشارة إلى أنكم إذا أردتم نصر الله لكم والانتصار في الحرب، فعليكم اجتناب التعدي والتماذي في القتال. ونفس هذا المعنى أكدت عليه سورة المائدة بشكل آخر، حيث تصرح الآية قائله: «وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا». (المائدة/ ٢)

(وتسيطر عليكم روح الانتقام الناشئة من سلوك أعدائكم الخشن في الحديبية).

وفي الزوايات الإسلامية أيضاً وردت تعبيرات مختلفة وإرشادات كثيرة في مورد رعاية الأصول الأخلاقية الإنسانية في ميدان الحرب وبعد الإنتهاء منها تجاه الأعداء، وتتجلى في هذه الزوايات العواطف الإنسانية وروح السلم بشكل واضح.

كتب أرباب السير في سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله أنه متى ما أمر جيشاً بالسير إلى حرب، كان يستدعى الجيش وقادته ويعظهم ويرشدهم بمواعظ وإرشادات منها: «إذهبوا باسم الله تعالى...» (١).

اغزوا بسم الله وفي سبيل الله تعالى، قاتلوا من كفر بالله ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا،

(١) منتهى الأمال، ج ١، ص ١٦، في باب الفضائل الأخلاقية عند النبي صلى الله عليه وآله وذكر العلامة المجلسي شبيه هذا المعنى في بحار الأنوار، ج ٩٧، ص ٢٥.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٨٣

ولا تقتلوا وليداً ولا متبتلاً في شاهر ولا تحرقوا النخل ولا تغرقوه بالماء ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تحرقوا زرعاً وأنكم لا تدرن لعلكم تحتاجون إليه ولا تعقروا من البهائم ممّا يؤكل لحمه إلّما لا بد لكم من أكله وكان ينهى عن إلقاء السم في بلاد المشركين ورسول الله صلى الله عليه وآله نفسه لم يتعامل مع الأعداء بغير هذا التعامل الإنساني، فلم يتوسل بالإغارة لتحقيق النصر، وكان يرى جهاد النفس مقدّم على كل شيء.

والتدقيق في هذه الإرشادات الدقيقة جداً، يبين بوضوح أن الإسلام لم يغفل عن المسائل الأخلاقية المرتبطة بالحرب أبداً، وإن شخص الرسول صلى الله عليه وآله كان يعمل بها بحذافيرها تجاه العدو، لا مثل الأشخاص الذين يدافعون عن حقوق الإنسان بألسنتهم فقط، وأمّا أعمالهم فلا تشير إلى شيء من ذلك.

ومضافاً إلى ذلك فإنّ التأكيد على أنّ جهاد النفس أفضل الجهاد، إشارة إلى أنّ المسلم الحقيقي هو المسلم الذي يراعى الأصول الإنسانية في ميدان الحرب.

وممّا ذكر يتضح أنّ الإسلام يمنع من استخدام الأسلحة الكيميائية وكل سلاح ذي دمار شامل، وعلى الحكومة الإسلامية أن تجتنب استخدام مثل هذه الأسلحة.

وفي حديث آخر عن أمير المؤمنين على عليه السلام قال: «إذا كانت الهزيمة بإذن الله فلا تقتلوا مُدْبِرًا ولا تصيبوا مُعَوَّرًا ولا تجهزوا على جريح ولا تهيجوا النساء بأذى وإن شتمن أعراضكم وسبين امراءكم» (١).

ومن خلال التأمل في حديث النبي الأكرم صلى الله عليه وآله الذي ذكرناه وأوامره إلى الجيش وقادته قبل الحرب، يتضح لنا أنّ هذه الإرشادات إنّما هي من متبنيات الإسلام الأساسية في الجهاد والحرب ضد الأعداء، وعلى الحكومة الإسلامية أن تعمل كلّ ما بوسعها

من أجل إحياء تلك المباني والمحافظة عليها.

(١) نهج البلاغة، الرسالة ١٤.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٨٤

أقسام الجهاد:

إشارة

الجهاد الإسلامي وإن قسّمه المحققون إلى قسمين هما: الجهاد الابتدائي والجهاد الدفاعي، ولكل منهما فروع أخرى، ولكن في الواقع حتى الجهاد الابتدائي يعتبر جهاداً دفاعياً كما سيتضح لنا لاحقاً، وبعد هذه الإشارة نعود إلى آيات القرآن المجيد، ونتناولها بالبحث والتحقيق:

١- الجهاد الابتدائي

ورد في سورة الحج، والتي يعتقد بعض المفسرين أنها أول آية نزلت في الجهاد: «أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنفُسِهِمْ ظُلْمًا وَإِنِ اللَّهُ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ». (الحج / ٣٩)

ثم يضيف تعالى في توضيح المطلب ويقول: «الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ». والتعبير (بالإذن) في الآية يناسب ما ذهب إليه القائلون بأنها أول آية نزلت في الجهاد، وتدلل على عدم وجود مثل هذا الإذن قبل ذلك.

وعلى أيّة حال، فهي تدلّ بوضوح على أنّ بداية تشريع الجهاد هو الجهاد الدفاعي في مقابل العدو، ذلك العدو الذي أجبر المسلمين على الهجرة وترك منازلهم بلا ذنب اقترفوه، نعم إن كان لهم ذنب فهو الاعتقاد بالله تعالى وحده.

ويذهب البعض الآخر من المفسرين إلى أنّ أول آية في الجهاد هي قوله تعالى:

«وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ». (البقرة / ١٩٠)

وحتى لو قبلنا هذا الرأي فإنّ أساس الجهاد مبني على كسر هجوم العدو وعدوانهم، وكلّ عاقل يدرك أنّ السكوت على عدوان العدو السفاك لا يتلائم مع أي منطق.

والتعبير بـ «في سبيل الله» يدلّ على أنّه حتّى الدفاع الإسلامي، إنّما يكون لله وعلى أساس الموازين الشرعية الإلهية لا طلباً للتسلط والجاه والهوى.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٨٥

هذا أول شكل للجهاد في الإسلام، ولكن لا ينبغي أن يُفهم من معنى «الجهاد الدفاعي» أنّ الحكومة الإسلامية لا بدّ أن تجلس مكتوفة الأيدي بلا حراك حتّى يدخل العدو بيتها ويغزوها في عقر دارها، ثم تهب للدفاع، بل على العكس من ذلك، فبمجرد أن تشعر باستعداد العدو للهجوم والقتال وأن غرضه هو الاعتداء على بلاد الإسلام، عليها أن تأخذ بزمام المبادرة وتكسر شوكة العدو وقدرته في مهدها.

٢- الجهاد لإخماد نار الفتنة

ورد في قوله تعالى «وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ». (البقرة/ ١٩٣)

وكما أشرنا فيما سبق فإن في تفسير مصطلح «الفتنة» بين العلماء كلام، ولكن مهما فسرنا «الفتنة»، تارةً بإيجاد الفساد، وإيذاء المؤمنين أو بالشرك وعبادة الأوثان المقترنة بفرض هذا الاعتقاد على الآخرين، أو كان بمعنى إضلال وإغواء وخذاع المؤمنين، كل ذلك أنواع من الهجوم من قبل العدو على المؤمنين، ولذا فإن الجهاد في مقابل ذلك يأخذ شكلاً دفاعياً.

وجملة «فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ» تدل بوضوح على أن الهدف هو الحد من ظلم الظلمة الجائرين.

والملفت للنظر أنه ورد في الآية نفس السورة:

«وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ». (البقرة/ ١٩١)

فهذه الآية وبملاحظة الآية السابقة التي تتحدث عن المشركين المهاجمين، تدعو بصراحة إلى قتال ومحاربة أولئك الذين أغاروا على المسلمين وأخرجوهم من ديارهم ومنازلهم والذين لا- يمتنعون من ارتكاب أى جريمة في حق المسلمين خاصة من أجل تغيير عقيدتهم، فكانوا يمارسون الضغوط والتعذيب الوحشي ضدهم، فالقرآن لا يجيز قتال هؤلاء فحسب، بل إنه يوجب ذلك عليهم.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٨٦

والفتنة وإن فسرت في بعض الأحاديث وكلمات جمع من المفسرين بالشرك وعبادة الأوثان، ولكن قرائن كثيرة في هذه الآية والآيات السابقة واللاحقة تدل بوضوح على أنه لم يكن المنظور منها الشرك أبداً، بل أعمال كإعمال مشركي مكة الذين كانوا دائماً يمارسون الضغوط والتعذيب ضد المسلمين لتغيير عقيدتهم، ولذا ورد في تفسير «المنار» في معنى الآية قوله: «حتى لا تكون لهم قوة يفتنونكم بها ويؤذونكم لأجل الدين ويمنعونكم من إظهاره أو الدعوة إليه» (١).

ولا شك في أن مثل هذه الفتنة وسلب الحريات والتعذيب والضغوط لتغيير العقيدة ودين الله أشد من القتل.

وعليه فجملة «ويكون الدين كله لله إشارة إلى أن رفع الفتنة إنما يكون في أن يعبد شخص خالقه بحريه، وأن لا يخشى أحداً، لا أن يكون المشركون أحراراً في عبادة الأوثان فيبدلوا الكعبة إلى محل عبادة الأصنام، ويسلب المسلمون حق قول «الله أكبر» و «لا إله إلا الله» علناً.

وعلى أية حال، فالآيات «١٩٠»، و «١٩١» و «١٩٣» من هذه السورة والمرتبطة بعضها مع البعض الآخر، تدل جميعاً على أن إخماد نار الفتنة باعتباره هدفاً للجهاد الإسلامي له جنبه دفاعية في الواقع، ويحفظ المسلمين في مقابل الهجمة الثقافية والاجتماعية والعسكرية لأعداء الإسلام.

٣- الجهاد لحماية المظلومين

يدعو القرآن الكريم المسلمين إلى الجهاد من أجل حماية المظلومين وقتال الظالمين وتقول: «وَمَا لَكُمْ لَاتُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا». (النساء/ ٧٥)

(١) تفسير المنار، ج ٢، ص ٢١١.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٨٧

ففي الآية أولاً دعوة للجهاد في سبيل الله، ثم تعقب مباشرة بالكلام عن المستضعفين والمظلومين الذين مارس الأعداء القساء معهم أشد الضغوط حتى أجلوهم عن وطنهم وديارهم ومنازلهم وأهليهم، ويبدو أن هذين المعنيين يعودان في الواقع إلى معنى واحد، إذ إن نصرة مثل هؤلاء المظلومين مصداق واضح من مصاديق الجهاد في سبيل الله.

وينبغي أن لا- نغفل عن الفرق الواضح بين «المستضعف» والضعيف، فالضعيف يطلق على الشخص العاجز، أمّا المستضعف فهو الشخص الذي أضطهد على يد الظلمة الجائرين، سواء كان اضطهاداً فكرياً أو اجتماعياً أو اقتصادياً أو سياسياً (إلتفتوا جيداً).

ومن الواضح أن هذا الجهاد جهادٌ دفاعي أيضاً، وهو الدفاع عن المظلومين ضد الظالمين.

والأهداف الثلاثة المذكورة، هي أهم أهداف الجهاد الإسلامي، وبالرغم من تقسيمه إلى قسمين (الجهاد الابتدائي والجهاد الدفاعي) إلّا أنّ حقيقتهم دفاعية- ولهذا لا نجد في تاريخ الإسلام مورداً واحداً يدلّ على استعداد الكافرين للعيش بصلح وسلام مع المسلمين ومواجهة ذلك بالرّد والرّفص من قبل الإسلام.

واليوم أيضاً، ليس للحكومة الإسلامية هدف عدواني ضد أحد، ومالم تفرض عليها الحرب فإنّها لا تقاتل أحداً أبداً، ولكنّها تعتقد أنّ الدفاع عن المظلومين من أهم وظائفها ومسؤولياتها، وأنّ حبّ الفتنة وإيجاد الرّعب والوحشة والتضييق والضغط وسلب الحريات من قبل أعداء الإسلام نوعٌ من أنواع إعلان الحرب، ولذا تعتبر نفسها مسؤولة عن الدفاع ضد المعتدين.

ونكرر ثانية، إنّ مفهوم الدفاع ليس أن يجلس الإنسان مكتوف الأيدي حتّى يُغزى في عقر داره، بل عليه أن يتحرك إيجابياً ضدّ تحركات الأعداء ويحفظ قدرته العسكرية القتالية وخاصة في الظروف الحساسة، وأنّ يبادر بضرب الأعداء قبل أن يفتحه العدو المتآمر.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٨٩

الحكومة الإسلامية والسلام

إشارة

لا شك في أنّ الحرب وإراقة الدماء والتّخريب مضافاً إلى منافاتها للفطرة السليمة، فإنّها لا تنسجم أيضاً مع قوانين عالم الوجود. فالحرب، هي نوع من المرض والانحراف واللجوء إلى العنف للوصول إلى الأهداف الظالمة، وحتى الحروب المقدسة التي تتميز بصفه الدفاع عن الحق والعدالة، إنّما تنشأ نتيجة انحراف مجموعة من الناس عن الصّراط المستقيم، وتارة تفرض على بعض الأفراد أو الأمم.

فحصيلة الحرب دائماً هي الدمار وإزهاق الأرواح وإتلاف الأموال وتخريب المدن وتعطيل الإعمار، وتأصيل العداوات والبغضاء.

ولذا ينبغي اجتناب الحروب كلما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، واستغلال القوى البشرية والمنح الإلهية في طريق بناء المجتمعات.

نحن نعرف أنّ جهاداً وقتالاً دائماً يدور في داخل وجود كلّ إنسان، وهو الجهاد ضد الميكروبات الخارجية، فكريات الدّم البيضاء التي تعتبر في الواقع جنوداً مدافعة عن الجسم في حالة قتال دائم ومرير مع أنواع الميكروبات التي ترد إلى الجسم عن طريق «الماء» والغذاء و«الهواء» و«الجروح».

وهذه الحرب في الواقع، حرب دفاعية أيضاً، فلو توقفت الميكروبات عن مهاجمة جسم الإنسان لتوقف دفاع كريات الدّم، وعندها فلا حرب.

يحاول بعض المفكرين الذين جندوا طاقاتهم لخدمة المستعمرين أن يصوروا الحرب

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٩٠

على أنّها أمرٌ ينسجم مع الطبع البشري، فيضفون الشريعة على استخدام المستعمرين القوة والعنف لتحقيق أهدافهم الخبيثة التوسعية، فهؤلاء يتوسلون بأصل الصّراع من أجل البقاء وهو أحد أصول (دارون) الأربعة ويقولون: «ينبغي أن تكون الحرب والصّراع بين البشر

قائمة على قدم وساق وإلا عمَّ الخنوع والضَّعف الأرض، وتأخر نسل البشر إلى الوراء! وأما الصِّراع والحرب فهو سبب لبقاء الأقوياء وواضحلال الضَّعفاء وزوالهم وبهذا تتحقق مسألة انتخاب الأصلح!!».

وقد يُستدل أحياناً ببعض آيات القرآن- التي يفسرونها تفسيراً محرّفاً بالإعتماد على الرأى- لإثبات هذا الموضوع.

ولكن هذا الاستدلال ضعيف جداً، إذ على فرض قبول هذا الأصل- الصِّراع من أجل البقاء- فى خصوص الحيوانات المفترسة المتوحشة- وهو رأى مردود من قبل العلماء الذين نقدوا الأصول الداروينية- فلا يمكن أن نقبل ذلك فى عالم الإنسانيّة، إذ إنَّ البشر يمكنهم أن يتكاملوا عن طريق التعاون البقائى والإستباق السَّالم للرقى، كما يفعلون ذلك فى ميدان الصِّناعة والسِّياسة بين الأحزاب والجمعيات المتنافسة فى دنيا اليوم، وعلى هذا الأساس فإنَّ حياة البشريّة اليوم مبتنية على أصل التَّعاون من أجل البقاء لا الصِّراع من أجل البقاء.

وعلى كل حال، لا نجد أى دليل يمكنه توجيه الحرب وإضفاء الشرعيه عليها وخاصة فى مثل حروب هذا العصر التى لا يمكن جبران الخسائر النَّاجمة عنها فى قرون، سواء الخسائر البشريّة أو الصِّناعية والزَّراعية وغيرها. والفكر السَّقيم المريض فقط هو الذى يمكنه تبرير مثل هذه الحروب.

وبعد هذه الإشارة نعود للقرآن المجيد، ونحقق فى روح السَّلم فى الحكومه الإسلاميه:

١- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ». (البقرة / ٢٠٨)

٢- «وَأَنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ». (الأنفال / ٦١)

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٩١

٣- «فَإِنْ اعْتَرَفْتُمْ فَلَمْ يُقَاتِلْكُمْ وَ الْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا».

(النساء / ٩٠)

٤- «وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاصْتَلُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحِدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ». (الحجرات / ٩)

٥- «وَالصُّلْحُ خَيْرٌ». (النساء / ١٢٨)

٦- «وَأَذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَأُحِبُّ الْفُسَادَ». (البقرة / ٢٠٥)

٧- «وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَى إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا». (النساء / ٩٤)

جمع الآيات و تفسيرها

تدعو الآية الاولى المؤمنين فى كل العالم إلى الصِّلح والسِّلام والاستقرار، وتعتبر الحرب من مؤامرات ومخططات الشَّيطان، يقول تعالى:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ».

فمن جهة تخاطب الآية المؤمنين، وهذا يدل على أن السَّلام والصِّلح لا يتحقق إلأفى ظل الإيمان.

ومن جهة أخرى، فإنَّ الإعتماد على مصطلح «كافّة» يدل على عدم وجود أى استثناء فى قانون الصِّلح، وأنَّ الحرب أمرٌ مخالف لتعاليم الإسلام والقرآن، ولا يمكن تصورها إلأ بشكل مفروض.

ومن جهة ثالثة، فإنَّ التعبير «بخطوات الشَّيطان» إشارة لطيفة إلى أن أسباب الحرب تنشأ بشكل تدريجى وأنَّ شياطين الجنِّ والإنس يسوقون النَّاس خطوةً خطوةً نحو

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٩٢

الإقتتال، وكما ورد في المثل المعروف «بَدُو القِتَال اللِّطَام» أى الصفعة، ولذا ينبغي إخماد نار الحرب في مراحلها الأولى. ومن جهة رابعة، يستفاد من الآية أن كل عمل يؤدي إلى عرقلة عملية السلام والصلح، إنما هو عمل شيطاني، ولم لا يكون كذلك والحال أن الحرب نارٌ محرقة تأكل كل القوى والطاقت الماديّة والمعنويّة البشريّة وغير البشريّة وتحيلها إلى رمادٍ، وخاصيّة في مثل عصرنا الحاضر والذي تكون الحروب فيه أفضع وأكثر تخريباً وخساره من الحروب السابقة، وطبقاً للحسابات والاحصائيات فإن جبران الخسائر الناجمة من بعض الحروب تستغرق أحياناً قرناً من الزمن، وهذا بالنسبة إلى الخسائر المادية فقط، أما الخسائر البشريّة فهي غير قابلة للتعويض والجبران أبداً.

وقد يكون ذلك هو السبب في أن الملائكة اعتبروا أن من أهم العيوب في الإنسان هو إراقتة للدّماء والحروب المدمرة، وذلك عندما قال تعالى: «إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً» فكان جواب الملائكة: «قَالُوا اتَّجَعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ». (البقرة/ ٣٠) فيتضح أنه لا عيب أقبح من هذا العيب.

وما ينبغي التأمل فيه هنا هو أن أرباب اللّغّة صرّحوا بأنّ «السّلم» و «السّلم» كلاهما بمعنى «الصّيلح» وقد اخذا من مادة «السّلامه» وإن أحد أسماء الله تعالى هو «السلام»، وذلك لأنّ ذاته المنزهة هي مصدر الصّيلح والاستقرار والسّلامه، وطبقاً لما ورد في «التحقيق» فإنّ مادة «سّلم» في الأصل ما يقابل «الخصومة» ولازمها الخلاص من الآفات والبلايا والوصول إلى السّلامه والعافية، وإنّما سُمي الإسلام (إسلاماً) لأنّه منشأ الصّيلح والسّلامه في الدّنيا والآخرة، (والسّلم) هو الآلة التي يصل بها الإنسان سالماً إلى النقاط العاليه ثم يعود كذلك.

والعجيب أن بعض المفسرين الكبار فسّروا «السّلم» في هذه الآية بتفسيرات لا تتناسب مع ظاهر الآية.

وفي الآية الثانيه، إشارة إلى جماعة من الذين يحاربون المسلمين، يقول عزوجل: «وَأَنْ

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٩٣

جَنَحُوا لِلْسَّلْمِ فَاجْتَنَحَ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».

والمهم هنا هو أن هذه الآية في سورة الأنفال وردت بعد آية شريفه تأمر المسلمين بالاستعداد الدائم وتهيئته كافة أنواع القوى لإخافة الأعداء.

أى أن الهدف الأصلي ليس هو الحرب، بل من أجل تقوية دعائم الصّيلح أيضاً، إذ لو لم يكن المسلمون مستعدين تماماً، لسيطرت الروح الاستعماريه والتسلط على تفكير العدو.

والنكتة المهمية الأخرى هنا هي استخدام لفظ «جَنَحُوا» المأخوذة من مادة (جناح) بمعنى الخضوع والرغبة والتحرك نحو الشيء، ومفهومها الترغيب في قبول حتّى المحادثات الأولى للصّيلح.

والتعبير «توكل على الله» قد يكون إشارة إلى أن بعض المسلمين أخذ يروج أن رغبة العدو في الصّيلح إنما هي خدعة منهم، ولذا خالفوا ذلك، أو على الأقل دبت فيهم بعض الوسوس.

فالقرآن يخاطب الرسول الكريم ويأمره بعدم الأخذ بآراء هؤلاء ووساوسهم إذا ما رغب العدو في الصّيلح، وإنّما عليه أن يتوكل على الله ويجنح للسّلم مع رعايه موازين الإحتياط اللازم.

فهذه الآية من الآيات التي توصي الحكومات الإسلاميّة باتخاذ الرّغبة في الصّيلح أصلاً أساسياً في سياساتها، وما قاله البعض من أن هذه الآية نسخت بآيات الجهاد «١» لا أساس له، إذ لا دليل عليه، حيث لا تنافي بين آيات الجهاد وهذه الآية، فلا ضرورة للقول بالنسخ.

وفي الآية الثالثة إشارة إلى مجموعة من الكفّار من أنصار الحرب، حيث تقول: «فَإِنْ اغْتَرَبْتُمْ وَكُفَرْتُمْ فَمَا يَجْعَلُ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا».

وتعبير «فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا» تأكيد كامل على قبول دعوة الصلح التي تقدم

(١) راجع تفسير الكبير، ج ١٥، ص ١٨٧.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٩٤

بها العدو، ذلك الصلح العادل الحقيقي لا الصلح الكاذب الدليل.

وذكر في سبب نزول هذه الآية، إنها تحكى عن طائفة «الاشجع» حيث جاء جمع منهم بزعامه مسعود بن رجيلة إلى مقربة من المدينة، فأرسل الرسول صلى الله عليه وآله ممثلين عنه إليهم للتعرف على نواياهم من هذا السفر، فقالوا:

جننا للتعاقد مع محمّد على ترك المخاصمة (وأن نكون على حياد في نزاعكم مع الآخرين). فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله أن يأخذوا إليهم مقداراً من التمر بعنوان الهدية، ووقع على عقد ترك التعرض معهم.

ومن البديهي أن مفهوم الآية قانون كلى عام وخالد، وإن كان سبب نزولها مورداً خاصاً، لإتينا نعلم بأن سبب النزول لا يحدد مفهوم الآيات العام.

وفى الآية الزابعة، حديث عن الحروب المحتملة في داخل الدولة الإسلامية بين الاجنحة المتخاصمة، أى طوائف من المؤمنين، وفى الآية أمرٌ أكيد على إقرار الصلح بينها، فإن أغلقت كل الطرق لإقتال الفئة الباغية لتحقيق الصلح والسلام، كان ذلك واجباً على المؤمنين، يقول تعالى:

«وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاصِلِحُوا بَيْنَهُمَا» ثم يضيف «فَإِنْ بَعَثَ إِحِدَاهُمَا عَلَى الْآخَرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغَى حَتَّى تَفِىءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ»، وفى الختام يعود إلى مسألة الصلح ويقول: «فَإِنْ فَاءَتْ فَاصِلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ».

فالمستفاد من صدر الآية هو أن ترك الخصام وإقرار الصلح داخل الدول الإسلامية أصل أساسى أيضاً، ولذا فإن الشارع جوز القتال باعتباره آخر الحلول المتصورة لتحقيق هذا الهدف!

ويستفاد من ذيل الآية أن الصلح لا بد أن يكون عادلاً ومن موقع القوة، لا أن يكون جائراً ومن موقع الضعف والاستسلام، إذ إن مثل هذا الصلح الأخير يكون دائماً متزلزلاً وغير ثابت ويُرَبَّى فى داخله نطفة الحرب.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٩٥

والنكتة المهمة هنا هو أنه ورد التعبير فى الآية ب «العدل» أحياناً، واخرى بتعبير «القسط»، وعلى رأى الزاغب الأصفهاني، فالعدل لفظ يحمل مفهوم المساواة، و «القسط» يعنى «التصيب العادل» (غاية الأمر، إذا جاء هذا المصطلح بصيغة الثلاثى المجرد فإنه يعنى أخذ نصيب الآخرين، وعليه فإنه يعطى مفهوم الظلم، وتارة يستعمل على وزن أفعال - أقساط - ومفهومه إعطاء نصيب وسهم الآخرين، وحينئذٍ يحمل معنى العدالة).

وطبقاً لهذا البيان، وتعبيرات اخرى للراغب، فإن كلمة «القسط» و «العدل» واحدٌ من حيث المعنى والمفهوم، ولكن يمكن أن يكون بينهما فارق وهو أن مصطلح «القسط» و «الإقساط» يستعمل فى الموارد التى يشترك فيها جماعة إذا أعطى لكل واحد منهم نصيبه الكامل فذلك القسط، وإلا فهو «الجور».

وأما «العدالة» التى يُقَابَلُها «الظلم» فإن لها مفهوماً أوسع من ذلك فهى تستعمل فى موارد الشكره وفى غير موارد الشكره، وعليه، فإن كان مالٌ حقاً مُسَلِّماً لشخص ما، وأعطى ذلك الحق فتلك هى العدالة وإن أخذ ذلك الحق منه فهو «الظلم» (١).

والآية الخامسة ناظرة إلى الخلافات الشخصية الخاصة، فتأمر بإقرار الصلح بين الرجل والمرأة إذا برزت الخلافات بينهما، يقول تعالى: «وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَغْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ».

وعلى الرغم من أن مورد الآية هو الصلح فى الخلافات الزوجية، ولكن مفهوم العبارة واسع جداً يشمل كل صلح وصفاء بين شخصين

أو مجموعتين أو شعبيين ودولتين. (تأملوا جيداً).

والملفت للنظر هو أن الصلح الوارد في هذه الآيات المتعاقبة ورد في ثلاث صور هي:

(١) وفي الواقع أن النسبة بينهما هي نسبة العموم والخصوص المطلق، فللقسط مفهوم خاص يستعمل في موارد الشركة فقط، والعدالة مفهوم أوسع يشمل غير موارد الشركة.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٩٦

الصلح بين المسلمين وأعدائهم الذين يرغبون في الصلح.

والصلح بين المجاميع المتخاصمة من المسلمين أنفسهم.

والصلح بين فردين متنازعين.

إن الصلح العادل الشريف مطلوب بكل أشكاله، حيث الإسلام يدافع عن مثل هذا الصلح، ومسئولية الحكومة الإسلامية هي تقوية أسس الصلح في هذه المراحل الثلاثة أيضاً.

والآية السادسة التي لا تشير إلى مسألة الصلح بشكل مباشر ولكنها تحمل رسالة بينة بشكل غير مباشر في هذا المجال، إذ إنها تقول في ذم بعض المنافقين (إن له ظاهراً خادعاً) وعندما يخرج من عندك: «وَأَذًا تَوَلَّى سَيِّئَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَاسِدَ».

وفي الآية اللاحقة في نفس هذه السورة يُهدد أمثال هؤلاء الأشخاص بالعذاب الإلهي الأليم، ومن الطبيعي، فإن الحروب لا تثمر إلا الفساد في الأرض وهلاك الحرث والنسل والأموال سواء المزارع وحقول تربية الحيوانات وغير ذلك، ولذا فإنها منفورة في نظر الإسلام، ومالم يكن هناك موجب ومسوغ مشروع للحرب، ينبغي الإنتهاء عنها، وبعبارة أخرى (الصلح أصل والحرب استثناء).

النتيجة:

من مجموع ما جاء في الآيات الآتية الذكر، يُستفاد أن أساس الحكومة الإسلامية قائم على الصلح والصفاء والصدقة، وقد اعتبر القرآن الكريم ذلك أصلاً ثابتاً في كل الأحوال سواء في مورد الأعداء، أو في مورد الأصدقاء والأحبة، وحتى في داخل الأسرة الواحدة

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٩٧

وآحاد الناس، وإذا لم يكن هناك مبرر وموجب لفرض الحرب، فلا يرجح القرآن الحرب أبداً.

ولكن هذا لا يعني أن يفقد المسلمون استعدادهم العسكري فيرغب الأعداء في الهجوم عليهم، كما أنه لا يعني أن يقبل المسلمون الصلح غير العادل ومن موقع الضعف، إذ إن هذين الأمرين من عوامل الحرب، لا الصلح العادل الثابت.

وكذلك الروايات الإسلامية فإنها تؤكد على ضرورة السعي والجد في إقرار السلام والصلح في المجتمعات البشرية، حتى ورد في الحديث:

«أَجْرُ الْمُصْلِحِ بَيْنَ النَّاسِ كَالْمَجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»، أي لا تتصوروا أن كل ذلك الثواب العظيم المذكور «للمجاهدين في سبيل الله» لا يشمل «المصلحين»، بل إن الساعين إلى إقرار السلام حالهم حال المجاهدين المترصدين للعدو في المتاريس، وورد في حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام قال:

«من كمال السعادة السعي في صلاح الجمهور» (١).

ويمكن أن يكون لهذا الحديث مفهوم أوسع يشمل كل صلاح اجتماعي، ولكنه بلا شك يدل على الصلح في قبال الحرب.

وجاء في عهده عليه السلام لمالك الأشتر الذي يعتبر أفضل مصدر للأبحاث المرتبطة بالحكومة الإسلامية، حول إقرار الصلح: «ولا تدفعن صلحاً دعاك إليه عدوك ولله فيه رضى فإن في الصلح دعةً لجنودك وراحة من همومك وأمناً لبلادك». فالإمام عليه السلام يبين هنا فلسفة الصلح في ثلاث ثمرات: الأمن للناس، وفرصة لتجديد قوى المقاتلين، وراحة لفكر رئيس الدولة. والتكئة المهمة هنا هي أن الإمام عليه السلام لا يعتبر كل صلح مفيد، بل ذلك الصلح الذي فيه

(١) غرر الحكم، نقلًا عن ميزان الحكمة، ج ٥، ص ٣٦٣.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٩٨

رضى لله تعالى، أى، ذلك الصلح الذى يكون سبباً فى عزّة المسلمين ونشر العدل، ولكنه يحذر مالكاً من العدو بعد عقد الصلح ويقول:

«ولكنّ الحذر كلّ الحذر من عدوك بعد صلحه فإن العدو رُبما قارب ليتغفل فخذ بالحزم واتهم في ذلك حُسن الظن» (١).

(١) نهج البلاغة، الرسالة ٥٣.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٩٩

أسرى الحرب

تمهيد:

يقع عادةً فى أكثر الحروب عددٌ من الأسرى، وذلك لحصول ظروف قاهرة فى أثناء الحرب لم يعد بإمكان المقاتلين الاستمرار بالقتال أو التراجع إلى الخلف، كأن تنفذ معداتهم أو ينفذ طعامهم أو يحاصروا من قبل القوات المعادية، حتى يصبح القتال بالنسبة لهم نوعاً من الانتحار، ولذا يضطرون إلى التسليم.

والعقل والمنطق يحكمان بعدم جواز قتل هؤلاء، بل ينقلوا إلى الخطوط الخلفية للجبهات، ويحبسون فى أماكن محروسة، إلى حين الاستفادة منهم فى تبادل الأسرى، أو الاستفادة منهم فى ممارسة الضغط على العدو والحرب النفسية لإجباره على الكف عن الاستمرار بالقتال أو كسب امتيازات معينة حين الصلح.

والأهم من هذا كله، فإن إراقة الدماء تحتاج إلى مسوغ ومبرر، وفى حالة استسلام العدو لا يبقى وجه لذلك.

ولذا فإن مسألة وقوع الأسرى فى الحروب أمرٌ عادى وكذلك الحال فى الإسلام، ونلاحظ أن الإسلام قد شرع أحكاماً عديدة ومهمة بالنسبة للأسرى ينبغى على الحكومة الإسلامية العمل بها وتطبيقها مع الأسرى الذين يقعون فى حوزتها.

وبعد هذه الإشارة نعود إلى القرآن لنرى أحكام أسرى الحرب من وجهة نظره:

١- «فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا ائْتَمَّتْهُمُ فَشَدُّوا الوَتَاقَ فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً». (محمد / ٤)

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٣٠٠

٢- «مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ اسْرَى حَتَّى يُنْخَنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ». (الأنفال / ٦٧)

٣- «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا اخْتَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ

رَحِيمٌ». (الأنفال / ٧٠)

جمع الآيات و تفسيرها

تخاطب الآية الأولى المسلمين وتذكّرهم باستعمال الشدة والحزم في الحرب، فتقول أولاً: «فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ». وواضح أنّ كلمة «لَقِيتُمْ» هنا مأخوذة من «اللقاء» بمعنى الحرب لا كل لقاء، وخير دليل على ذلك هو ذيل الآية حيث تتحدث عن أسرى الحرب.

وبعد التأمل فيما مرّ من أنّ الحرب في الإسلام كانت دائماً دفاعية ومفروضة على المسلمين، تتضح منطقيّة الأمر أعلاه وذلك لأنّ المسلمين إذا لم يظهروا الشدة والحزم قبال هجوم الأعداء، فإنّ الفشل سيكون حليفهم لا محالة، فكل إنسان يواجه عدواً سفاكاً للدماء، إذا لم يوجه الضربات المهلكة له، فإنّ ذلك يعنى الهزيمة أمامه.

ثمّ تضيف الآية: «حَتَّىٰ إِذَا ائْتَمَّتْهُمْ فِئَةٌ فَنَسَفُوا الرُّسُلَ».

وأكثر المفسرين قالوا: إنّ هذه الجملة تعنى التشديد على العدو والإكثار من قتلهم، ولكن وبعد الإلتفات إلى أنّ هذه الجملة مأخوذة من مادة «ثخن» بمعنى «الغلظة» والصّيلة فإنه يمكن حينئذٍ تفسيرها بالنصر والغلبة التامة على العدو والسّيطرة الكاملة عليه، أى ينبغي أن يستمروا بالقتال بقوة واقتدار حتى يغلبوا العدو (وعليه فليس الهدف هو إراقة الدماء وإنّما الهدف هو الغلبة على العدو).

وعلى أيّة حال، فإنّ الآية الأولى ناظرة إلى أمر عسكري مهم وهو وجوب متابعة الحرب وعدم إيقافها ما لم يتمّ التغلب على العدو وكسره وأخذ الأسرى، لأنّ إيقاف الحرب يكون

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٣٠١

سبباً في زعزعة صمود المسلمين في الحرب، وأنّ الإنشغال بنقل الأسرى إلى الخطوط الخلفية يشغل المقاتلين عن أهدافهم الأساسية. وتعبير «شُدُّوا الرُّسُلَ» إشارة إلى ضرورة إحكام قيد الأسرى والتدقيق في حبسهم، كي لا يهربوا من الأسر، فينقلوا إلى مقاتلين ضد المسلمين.

ثمّ تبين الآية حكم الأسرى وتقول: «فَإِذَا مَنَّ اللَّهُ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ وَجَعَلَ لَكُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَوَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا أَن يُصَلُّوا عَلَىٰ الَّذِينَ كَفَرُوا أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدًا».

فهنا تخيّر المسلمين بين أمرين، إطلاق الأسرى بلا مقابل، أو مقابل الفدية (ويراد بالفدية «الغرامة» التي يتحملها العدو في أزاء إطلاق سراح أسراه، وهي في الواقع جزء من الخسائر التي تسبب بها في عدوانه).

والنكته المهمّة هنا هي أنّ فقهاء الإسلام وتبعاً للروايات، ذكروا طريقاً ثالثاً في المسألة وهي استرقاق الأسرى، ولكن لم ترد إشارة إلى ذلك في الآية الشريفة على الرّغم من مسألة استرقاق الأسرى كانت أمراً عادياً في ذلك الزّمان، وقد يكون ذلك باعتبار أنّ «الإسترقاق»- وكما ذكرنا ذلك مفصلاً في محله- كان حكماً مقطوعاً متناسباً مع شرائط خاصّة، وكان نظر الإسلام هو أنّ يتمّ تحرير هؤلاء العبيد تدريجياً حتى لا يبقى شيء باسم الإسترقاق، ولهذا فإنّ الآية إشارة فقط إلى الطريقتين الأولين أى الإطلاق بلا مقابل أو في مقابل الفدية (وتبادل الأسرى بين الطرفين نوع من أخذ الغرامة في مقابل إطلاق سراح الأسرى).

كما أنّهم ذكروا طريقاً رابعاً في الكتب الفقهيّة للأسرى (وهو قتل الأسرى) ولم تذكره الآية أيضاً، وذلك لأنّ قتل الأسير ليس حكماً أساسياً في الأسرى، بل هو استثناء يتمّ إجراؤه في خصوص الأسرى من ذوى الخطر ومجرمى الحرب لا في كل أسير (١). ومما ذكرنا يتضح أنّ حكم الآية ليس منسوخاً، ولا دليل على نسخه، وعدم ذكر بعض أحكام الأسرى فيها، له دليل وجيه.

(١) وللغفر الرازى في تفسير هذه الآية وعدم ذكر القتل والإسترقاق، رأى يشابه ما ذكرناه أعلاه (تفسير الكبير، ج ٢٨، ص ٤٤).

وفى الآية الثانية إشارة إلى كيفية أسر الأسرى، تقول: «مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ اسْرَى حَتَّى يُثَخَّنَ فِي الْأَرْضِ».

وتعبير «يُثَخَّنَ فِي الْأَرْضِ» وكما أشرنا سابقاً لا يعنى المبالغة فى إراقة الدماء والإكثار من القتل، بل ومن خلال جملة «فى الأرض» يتضح أن المراد هو تحكيم المواقع على أرض المعركة والتفوق على العدو، والسيطرة على المنطقة، وحتى لو فرضنا أن معناها هو إراقة الدماء فإنما هو من أجل كسر شوكة العدو والغلبة عليه.

وفى الواقع فإن هذا التعبير شبيه جداً بما جاء فى ذيل الآية حيث يقول تعالى «حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا» وهذا خير شاهد على تفسيرنا.

والنكتة المهمة هنا هى أن هذا تحذير للمسلمين من أخذ الأسرى قبل تحقيق الأهداف المرسومة، بسبب أن بعض المسلمين الذين أسلموا حديثاً، كان هدفهم الأساسى هو أخذ الأسرى، ليحصلوا على مبلغ أكبر من المال عند الفداء، وكان ذلك يؤدى إلى تماهل هؤلاء فى أداء مسؤولياتهم الخطيرة فى الحرب وعدم اكتراثهم بالأخطار المحتملة ضد المسلمين، وانشغالهم بالأمر الثانوى، فيتعرض جند الإسلام إلى ضربة ماحقة، كما حدث ذلك فى معركة أحد وانشغال بعض المسلمين فى جمع الغنائم.

ولذا يقول تعالى فى ذيل الآية: «تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

ثم إن الاستفادة من الآية هو أن أخذ الأسرى لم يكن فى عصر نبي الإسلام صلى الله عليه وآله فقط، بل كان ذلك أمراً جارياً فى عصور الأنبياء السابقين أيضاً، غاية الأمر أن هذه الآية تؤكد على أن أخذ الأسرى ينبغى أن لا يكون لأجل الربح المادى، فكم من مورد تقتضى فيه مصلحة المسلمين أن يطلق المسلمون سراح أسرى العدو بدون أخذ الفدية منهم.

والملفت للنظر هنا هو أن القرآن الكريم يحذّر فى الآية اللاحقة أولئك الذين يضحون بالمصلحة العامة وأهداف الحرب المهمة من أجل مصالحهم الشخصية المادية، فيعرضون مصلحة المجتمع للخطر، تقول الآية: «لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ» (وهو أنه لا يعذب أمه بلا نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٣٠٣).

حجّة) «لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ» (الأسرى الذين أخذتموهم لأغراض دنيوية) «عَذَابٌ عَظِيمٌ». (الانفال / ٤٨)

ومن مجموع هذه العبارات، يستفاد بوضوح أن أخذ الأسرى لا بد أن يتم أولاً بعد السيطرة الكاملة على العدو (ولو فى موقع معين من ميدان القتال)، وثانياً إن أخذ الأسرى يجب أن لا يكون لأغراض مادية أى لأخذ الفدية مقابل إطلاق سراحهم فيما بعد، إذ فى كثير من الأحيان تستوجب المصالح الإنسانية ومصالح المسلمين أن يتم إطلاق سراح هؤلاء الأسرى بلا مقابل، وفى مثل هذه الظروف يصعب على المسلمين الذين أسروا هؤلاء الأسرى لأغراض مادية إطلاق سراحهم والإمتثال للحكم الإلهى.

وفى الآية الثالثة، نجد حديث عن مسألة الرفق بالأسرى بما يدل على احترام الإسلام لهم ولأحاسيسهم، تقول الآية: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِنَّ يَٰعْلَمُ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

وكلمة «خيراً» فى الجملة الأولى إشارة إلى الإيمان والإسلام وإتباع الحق، والمراد من «خيراً» فى الجملة الثانية هو الثواب الإلهى المادى والمعنوى الذى يحصل عليه هؤلاء فى ظل الإيمان بالله، وهذا أفضل بكثير من المبالغ التى دفعوها بعنوان الفدية أو التى خسروها فى ساحة الحرب.

وجملة «إِنَّ يَٰعْلَمُ اللَّهُ» وكما ذكرنا ذلك مراراً، بمعنى التحقق - المعلوم - إذ إن علم الله شمل كل شىء من الأزل، ولا يحدث شىء فى علمه أو يزيد أو ينقص، إلا المعلومات التى تتحقق على أثر مرور الزمن مثل وجود نية أو اعتقاد فى قلب الأسير.

ومضافاً إلى هذا الثواب، فإن لطفاً إلهياً آخر يشملهم وهو غفران ذنوبهم، والذى يشغل بالهم لا محالة بعد إيمانهم ويعذب روحهم، فالمغفرة الإلهية تسكين لهم.

كان هذا تفسيراً مختصراً للآيات القرآنية الواردة فى الأسرى، واستنتاجاتها.

الأسرى في الروايات:

وردت روايات عديدة عن الأئمة الأطهار عليه السلام في التعامل العطوف مع أسرى الحرب، ورعاية الأخلاق الإنسانية معهم، وهذه الروايات تبين عظمة التعاليم الإسلامية في هذا المجال.

١- ورد في حديث عن أمير المؤمنين على عليه السلام بعدما ضربه ابن ملجم (لعنه الله) ثم قبض عليه، قال الإمام عليه السلام لولده الحسن عليه السلام: «إحبسوا هذا الأسير، وأطعموه واشقوه وأحسنوا أسارته» (١).

٢- وفي حديث آخر عنه عليه السلام قال: «إطعام الأسير والإحسان إليه حق واجب وإن قتلته من الغدا!» (أى وإن كان محكوماً بالإعدام غداً كإبن ملجم) (٢).

وهذا الحكم شامل لجميع الأسرى ويعم المسلم والكافر، ولذا نجد في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام ما يدل صراحة على هذا الحكم، يقول عليه السلام: «إطعام الأسير حق على من أسره وإن كان يراد من الغد قتله فإنه ينبغي أن يُطعم ويُسقى ويُرفقَ به كافرًا كان أو غيره» (٣).

وهناك روايات أخرى في قصية أسير ابن ملجم قاتل الإمام على عليه السلام تحكى جميعاً عن غاية لطف الإمام على عليه السلام بالإسرى (سواءً كانوا أسرى حرب أو غير حرب).

ومن جملة ذلك ما ورد عن الإمام على عليه السلام عندما كان راقداً في فراش الشهادة يوصى ولده الحسن عليه السلام بمداراة أسيره والترحم عليه والإحسان إليه، ثم يغمى على الإمام عليه السلام، وعندما يفيق يأتيه ولده الحسن بقدر من لبن فيشرب الإمام عليه السلام منه قليلاً ثم ينحيه عن فيه ويأمرهم أن يسقوا ابن ملجم، ويضيف قائلاً: «وحتى عليك يا بني إلاما طيبتم مطعمه ومشربته وازفقوا به إلى حين موتى وتطعمه مما تأكل وتسقيه مما تشرب» (٤).

(١) مستدرک الوسائل، ج ٢، ص ٢٥٧.

(٢) وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٦٩.

(٣) المصدر السابق، ص ٦٨.

(٤) مستدرک الوسائل، ج ٣، ص ٢٥٨، ح ٤.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٣٠٥

وهنا نكتة مهمة أخرى وهي أن إطلاق سراح الأسرى مقابل فدية لا بد أن يتناسب مع مكنتهم، كما راعى ذلك النبي الأكرم صلى الله عليه وآله مع أسرى بدر، بل ويجوز إطلاق سراحهم في قبال عملٍ ثقافي يقدمونه كما ذكر المؤرخون، واعتبروا ذلك خطوة تاريخية مهمة بعد معركة بدر الكبرى من قبل رسول الله صلى الله عليه وآله وهو إطلاق سراح كل أسير من المشركين في قبال تعليم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة (١) في حين دفع البعض الآخر من الأسرى أربعة آلاف درهم فدية لحرته، أما الفقراء والمعدمين فقد أطلق سراحهم بلا مقابل.

(١) سيرة الحلبي، ج ٢، ص ١٩٣.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٣٠٧

تمهيد:

من المسائل التي تثار ضد الحكومة الإسلامية ويُطَبَّلُ ويزمَّرُ لها من قبل الأعداء هي مسألة كيفية تعامل الحكومة الإسلامية مع الأقليات الدينية غير المسلمة، ولكن ليس هذا بسبب وجود تعقيد في المسألة، بل من أجل أمرين هما:

الأول: عدم اطلاع الكثير من الناس على قوانين وتعاليم الإسلام في هذه القضية، والوقوع في شباك التعصبات الجافة.

الثاني: وسائل اعلام العدو المضللة وسعي الأعداء لابعاد أتباعهم عن الشريعة الإسلامية، لأنهم يعلمون جيداً أن جاذبية التعاليم الإسلامية قويه إلى درجة أنها تؤثر على أتباع الأديان الاخرى بمجرد تفهمها، ولذا يقول هؤلاء لأتباعهم: إن الإسلام يتعامل بخشونة مع أتباع الأديان الأخرى، فابتعدوا عن المسلمين!!

في حين أن الإسلام يتعامل تعاملماً أخوياً مع أتباع المذاهب الاخرى ويدعوهم دائماً للعيش بسلام جنباً إلى جنب، وتفصيل الكلام في ذلك سيتضح في الأبحاث القادمة.

وبعد هذه الإشارة، نرجع إلى القرآن الكريم ونتعمق في دراسة الآيات القرآنية ثم الروايات الواردة في هذا المجال:

١- «لَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ* إِنَّمَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ». (الممتحنة/ ٨-٩)

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٣٠٨

٢- «قَاتِلُوا الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ». (التوبة/ ٢٩)

٣- «وَلَمَّا تَجَادَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقَوْلُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ». (العنكبوت/ ٤٤)

٤- «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ». (آل عمران/ ٦٤)

٥- «لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قَسِيصِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ». (المائدة/ ٨٢)

جمع الآيات و تفسيرها

الآية الأولى التي وردت بعد آيات تحذر المسلمين من عقد الصداقة مع أعداء الله، وتذكرهم بغيض هؤلاء للنبي صلى الله عليه وآله والمسلمين، وإبذائهم باليد واللسان للمسلمين الأبرياء، تقول: «لَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ».

ثم تضيف للتأكيد الأقوى في مورد الذين يحاربون المسلمين وتقول: «إِنَّمَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ

دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ».

من ملاحظة سبب نزول هاتين الآيتين والآيات السابقة لهما في سورة «المتحنة»، وبملاحظة القرائن الموجودة في نفس الآيات، يتضح تماماً أن هذه الآيات ناظرة إلى
نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٣٠٩

المشركين وعبدة الأوثان، فهي تقسمهم إلى مجموعتين: مجموعة قاتلت المؤمنين وآذتهم ولم تتردد عن كل مخالفة وممارسة عدائية ضدهم، ومجموعة ثانية كانت مستعدة للعيش معهم بسلام.

ففي هذه الآيات نجد منع إنشاء العلاقة والتعامل مع المجموعة الأولى وقد أجازت ذلك منع المجموعة الثانية، وعدت الذين يرتبطون بالمجموعة الأولى من الظالمين، أما المتعاملين مع المجموعة الثانية فاعتبرتهم الآية الشريفة من أنصار العدالة.

وإذا كان الحكم الإلهي في مورد المشركين وعبدة الأوثان على هذا النحو، فهو بالنسبة للكفار من أهل الكتاب من باب أولى. واعتبر بعض المفسرين أن الأمر الوارد في هذه الآية قد نُسخ، وأن ناسخه هو قوله تعالى: «فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ». (التوبة / ٥)

ولكن وبقرينه أن هذه الآية بشهادة سائر آيات سورة التوبة، نازلة في شأن المشركين الذين ينقضون العهد، والذين أعلنوا العداء للمسلمين، يتضح لنا تماماً أن الآية لم تُنسخ، بل إن آيات سورة التوبة مرتبطة بالمجموعة الأولى.

وروى بعض المفسرين في تفسير هذه الآية أن زوجة أبي بكر المطلقة قد جاءت لابنتها «أسماء» ببعض الهدايا من مكة، ولما كانت لا تزال مشركة، امتنعت أسماء من قبول تلك الهدايا منها، حتى أنها لم تسمح لأمتها بالدخول عليها، فنزلت الآية المذكورة، وأمرها الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أن تستقبل أمها وتقبل هديتها وأن تحترمها «١».

وعلى أية حال، يستفاد من هذه الآيات، أصل عام كلي في كيفية تعامل المسلمين مع غير المسلمين، بلا تحديد ذلك بزمان أو مكان خاص، وهذا الأصل هو أن المسلمين مكلفين بسلوك طريق السلم مع كل فرد أو مجموعة أو مجتمع أو دولة لا تتخذ موقفاً معادياً تجاههم، أو تحارب الإسلام والمسلمين وتنصر أعداءهم، سواء كان هؤلاء مشركين أو كانوا من أهل الكتاب.

(١) تفسير روح البيان، ج ٩، ص ٤٨١، كما نقلت هذه الرواية في كثير من كتب التفسير، وفي صحيح البخاري بتفاوت.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٣١٠

وحتى لو كانت مجموعة أو دولة تقف في صف أعداء الإسلام ثم تراجع عن ذلك وغيّرت سياستها، فإن على المسلمين أن يقبلوهم وأن لا يعادوهم، فالمعيار هو الموقف الراهن لأولئك تجاه الإسلام والمسلمين.

قصة «الجزية»:

والآية الثانية وهي من سورة التوبة أيضاً، وبعد بيان الأحكام الخاصة بالنسبة للمشركين وعبدة الأوثان، تتعرض لبيان موقف المسلمين من كفار أهل الكتاب (اليهود والنصارى) وتقول:

«قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ»

ولا شك في أن لهجة الآية في خصوص أهل الكتاب «شديدة» وذلك لأن أهل الكتاب وخاصة «اليهود» كانت لهم مواقف سلبية جداً تجاه الإسلام والمسلمين، فقد وافقوا الأعداء في حرب الأحزاب وبعض الحروب الأخرى مضافاً إلى أنهم وقفوا في وجه الإسلام في

بعض الحروب كحرب «خيبر» وآمروا على قتل رسول الله صلى الله عليه وآله، وكانوا يتجسسون على المسلمين لصالح الأعداء. وبالنظر لأن الآية أعلاه من آيات سورة التوبة، ونعرف أن سورة التوبة نزلت في السنة التاسعة للهجرة، حيث كان المسلمون قد غزوا غزوات عديدة، وكان من الضروري أن يحددوا موقفهم من كل القوى المخالفة لهم. ففي البدء تحذر المشركين وتطلب منهم تحديد موقفهم، فتعلن الحرب ضد أولئك الذين نقضوا عهدهم إلّا إذا أذعنوا للحق، وأما أولئك الذين وفوا بعهدهم فتطلب منهم الاستمرار بالوفاء حتى النهاية (وهذا المعنى ذكر في الآيات الأولى من السورة). ثم تعلن الحرب على أهل الكتاب الذين لا زالوا ينسجون مع المشركين ضد المسلمين،

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٣١١

فتصفهم بثلاثة أوصاف، الأولى: «لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَمَّا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ»، فصحيح أن اليهود والنصارى كانوا في الظاهر يقبلون المبدأ والمعاد، ولكنهم من جهة أخرى كانوا قد دنسوا هذا الاعتقاد بالخرافات، فأداروا ظهورهم للتوحيد الصحيح وتمسكوا بالتثليث والشرك، وقالوا بانحصار المعاد غالباً في المعاد الروحاني، والأهم من ذلك هو أن إيمانهم بالمبدأ والمعاد لم ينعكس على أعمالهم وأفعالهم، وانغمسهم في الخرافات والضلال كان إلى درجة يمكن القول معها أنهم ليسوا بمؤمنين بالمبدأ والمعاد. والصفة الثانية هي: «وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ».

وتاريخ هؤلاء يشهد بأنهم لم يلتزموا عملياً باجتنب المحرمات وكانوا يرتكبون الذنوب المحرمة في كل الشرائع السماوية، فكان الدين عندهم مجرد طقوس خاوية صورية (كما أن الدين عندهم اليوم عبارة عن مسألة شخصية تقتصر على الدعاء الأسبوعي وذكر بعض الأمور الأخلاقية التي ليس لها أي أثر على حياتهم عملياً، مثالهم الصهيونية التي لا تتورع عن القيام بأى جريمة نكراء من أجل تحقيق أغراضها).

والصفة الثالثة هي: «وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ».

لأنهم غيروا مفهوم الدين كلياً وعزلوه عن هموم البشرية وخطوه بالخرافات.

وهذه الأوصاف الثلاثة، تعتبر متلازمة لهم في الواقع، وهي التي كانت تدعوهم مجتمعة لمواجهة الإسلام ومخالفته.

ولكن مع كل ذلك فإن الآية تفتح باباً للصلح أمامهم وتقول: «حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ».

يقول الراغب في مفرداته: «الجزية» ما يؤخذ من أهل الذمة (وهم غير المسلمين الذين يتعاهدون معهم للعيش جنباً إلى جنب داخل الدول الإسلامية)، وتسميته بذلك لأنه بمنزلة الجزاء والأجر الذي يدفعونه لحفظ أنفسهم (وأموالهم).

وجاء في كتاب التحقيق، أن الجزية نوع من الجزاء والأجرة، وهو نفس ما يؤخذ من غير المسلمين.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٣١٢

وعلى كل حال، فإن أصل «الجزية» هو «الجزاء»، لأن ما يدفعونه من مال لا يكون مجاناً وبلا عوض، بل عوضه هو أن الحكومة الإسلامية تكون مسؤولة عن الدفاع عن أموالهم وأنفسهم وأعراضهم وتوفير الأمن اللازم لهم.

وقد احتمل البعض أن «الجزية» مأخوذة من «الجزء» لأن الجزية عادة مبلغ قليل من المال يدفعه كل فرد منهم سنوياً.

والتعبير بـ «عن يد» إشارة إلى أن «المعاهد» لا بد أن يدفع «الجزية» بيده شخصياً، ولا يحق له توكيل شخص آخر للقيام بذلك، ولكن البعض يعتقد أن هذا التعبير إشارة إلى أن الجزية لا بد أن تكون نقداً، وعليه فيحق للذمي أن يوكل عنه شخصاً آخر لدفع الجزية ولكن يجب أن تكون نقداً لا نسيئة، أو أن المراد من ذلك هو أن «الجزية» تؤخذ من الأغنياء فقط، وأما الفقراء فيعفون عن أداء الضرائب الإسلامية.

وأياً كان المعنى من هذه الثلاثة فلا يؤثر على أصل المسألة مع أنه يمكن جمعها جميعاً.

وأما تعبير «صاغرون» والذي ذكرت له معانٍ وتفسير غير مناسبة، فهو في الأصل مأخوذ من مادة «صَغَرَ» بمعنى الاستصغار والخضوع،

فيكون المراد هنا هو خضوع هؤلاء واحترامهم للإسلام والمسلمين ولمقررات الحكومة الإسلامية، وبعبارة أخرى علامة على العيش بسلام وقبول أنهم أقلية مسالمة ومحترمة في قبال الأكثرية.

وما ذكره بعض المفسرين من أنه بمعنى «التحقير والإهانة والشخية بأهل الكتاب» لا يمكن استفادته لا من المفهوم اللغوي للكلمة ولا من روح التعاليم الإسلامية، ولا من أحكام التعامل مع الأقليات الدينية الواصلة إلينا، وفي الواقع فإن هؤلاء المفسرين يفرضون عقيدتهم الخاصة على الآية.

ومن هنا تتضح لنا حقيقة تلك (الزوبعة) التي يثيرها البعض حول هذه الكلمة من هذه الآية، وأنها مخالفة لكرامة الإنسانية ونهج العيش المشترك المسالم، فهي ضجة وزوبعة لا أساس لها من الواقع.

والنكتة المهمة هنا هي أن «الجزية» عادة مبلغ قليل من المال كان أهل الكتاب يدفعونه

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٣١٣

في قبال تعهد الحكومة الإسلامية على حفظ أموالهم وأنفسهم ونواميسهم، وطبقاً لما ورد في بعض الروايات فإن مقدار الجزية كان ديناراً واحداً في السنة!!

حتى أن بعض أهل الكتاب الذين كانوا يعجزون عن دفعه كانوا يعفون من الجزية (وقد أشرنا سابقاً إلى أن البعض يرى أن جملة «عن يد» إشارة إلى ذلك).

إختيار الأسلوب الأفضل في النقاش:

والآية الثالثة تتناول كيفية مجادلة المسلمين لأهل الكتاب، فهي توصيهم بانتخاب أفضل أسلوب للنقاش والبحث وتقول: «وَلَا تُجَادِلُوا

أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ».

وهذا مفهوم عام وجامع وأساسى.

و «الجدال»: فى اللغة هو إبرام الحبل وإحكامه، فإذا تباحث اثنان فى أمرٍ وأراد كلٌ منهما حرف صاحبه عن رأيه يقال «جادله» والمراد منه هنا النقاش والبحث المنطقي.

أما فيما يرتبط بالمراد من جملة «بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ»، فإن بعض المفسرين قالوا إن المراد منها هو التعامل معهم بلين ولطف ومحبة، ففى قبال الخشونة اللين، وفى قبال الغضب، الصبر، وفى قبال الشر، حب الخير، وفى قبال التسرع، التأنى.

وعلى أية حال، فإن تعبير بجملة (بالتى هى أحسن) جامع جداً يشمل كل الأساليب الصحيحة والمناسبة للبحث والنقاش، سواء كان ذلك بالألفاظ أو فى محتوى الكلام، أو فى لحن القول أو فى الحركات والسلوك العملى، وعليه يكون مفهوم الجملة هو أن الحديث معهم لابد أن يكون مؤدباً، وأن لحن القول لابد أن يكون حبيباً وأن محتوى الكلام لابد أن يكون منطقياً وبرهائياً، فينبغى أن يكون الصوت خالياً عن العريضة والغوغاء والضجيج، وأن تكون حركات اليد والعين والحاجبين المكتملة للبيان على هذا المنوال.

وكل ذلك من أجل أن الهدف من النقاش والمجادلة ليس حب السيطرة والإستعلاء، وإنما هو إقناع الطرف المقابل ونفوذ الحق إلى أعماق روحه، وأن يتخذ الموقف الصحيح فى

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٣١٤

قبال الإسلام، فهؤلاء المعاهدون لابد أن يعرفوا أن روح الإسلام وروح السلام والصفاء، والآية توصى المسلمين بأن يتعاملوا مع غير المسلمين معاملة سلمية.

وبطبيعة الحال، فإن هذه الأمور يجب أن لا تكون بنحو يتصور المقابل أن المسلمين ضعفاء عاجزين فيسئ استغلال عطفهم ولينهم.

ثُمَّ تَسْتَشِي آيَةَ مَجْمُوعَهُ مِنْ هَؤُلَاءِ وَتَقُولُ: «إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ» وَهِيَ إِشَارَةٌ إِلَى الَّذِينَ رَفَضُوا الْعَيْشَ بِسَلَامٍ إِلَى جَنْبِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَسَاءُوا اسْتِغْلَالَ مَحَبَّةِ الْمُسْلِمِينَ لَهُمْ وَمَدَارَاتِهِمْ وَلِيْنِهِمْ، حَيْثُ عَادُوا الْحَقَّ وَعَانَدُوهُ مَعَ أَنَّهُمْ كَانُوا قَدْ قَرَأُوا عِلَامَاتِ نَبِيِّ الْإِسْلَامِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِي كِتَابِهِمْ، وَكَانُوا يَحَاوِلُونَ إِخْفَائِهَا وَكِتْمَانَهَا، وَكَانَتْ مِيُولُهُمْ مِيُولَ عِدْوَانِيَّةٍ وَغَيْرِ مَسَالِمَةٍ، بَعِيدَةٍ عَنِ الْإِحْتِرَامِ وَالْمَحَبَّةِ، فَمَثَلُ هَؤُلَاءِ لَا شَكَّ فِي ضَرُورَةِ اسْتِثْنَائِهِمْ مِنْ تِلْكَ الْأَحْكَامِ الرَّؤُوفَةِ.

وَجَاءَ فِي تَتْمِيَةِ آيَةِ عَدَّةٍ جَمَلٌ لَطِيفٌ آخَرٌ فِي هَذَا الْمَجَالِ حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى: «وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَانزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ».

وهذا في الحقيقة نموذج واضح ورائع للمجادلة بالتي هي أحسن، أي أن القرآن الكريم لم يكتفِ بذكر الكليات في هذا المجال، بل عرض مصاديق واضحة في الأثناء.

وهذه العبارة تدل بوضوح على ضرورة الإعتماد على النقاط المشتركة لتحكيم اسس العيش السليم المشترك، وهي الإيمان بالله الواحد والإيمان بكل الكتب السماوية وأمثال ذلك.

ولكن التأكيد والإصرار على الجهات المشتركة لا يعنى قبول المسلمين لبدع هؤلاء وانحرافاتهم وتراجعهم عن معتقداتهم، وقد تكون جملة «وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ»، إشارة لطيفة لهذا المعنى.

ونقرأ في حديث مفصل عن الإمام الصادق عليه السلام الذي يرشدنا فيه إلى نموذج «للمجادلة بالتي هي أحسن» ويأمرنا بالتأمل في آخر سورة «ليس»، وملاحظة كفيته مجادله منكرى المعاد بطرق مختلفة وبمنطق لطيف وبرهاني قوى في نفس الوقت «(١)».

(١) إقتباس من تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ١٦٣، ذيل الآية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٣١٥

هذا وقد جاء مضمون الآية بشكل آخر في سورة النحل، حيث يقول تعالى «أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن». (النحل / ١٢٥)

والملفت للنظر هو أن هذه الآية هي أول الإرشادات الأخلاقية العشرة التي وردت في تلك السورة في مورد التعامل الصيحي مع المخالفين.

وفي الواقع فإن الجملة الأولى أي: «أدع إلى سبيل ربك بالحكمة» ناظرة إلى الاستدلالات العقلية في قبال أرباب الاستدلال والفكر. وعبارة «والموعظة الحسنة» إشارة إلى الأسلوب العاطفي في المجادلة مع غير أرباب الاستدلال العقلي، أي أولئك الذين يدورون مدار المسائل العاطفية، وخصوصاً وأن وصف «الموعظة» بالحسنة، إشارة إلى ضرورة خلوها من الخشونة والإستعلاء وتحقير الطرف المقابل وإثارة إحاسيسه وأمثال ذلك، ولا شك في أن مثل هذه الموعظة تكون مؤثرة.

و «وجادلهم بالتي هي أحسن» إنما هي مع أولئك الذين ملئت أذهانهم بالشبهات والشكوك، فينبغي مجادلتهم عن طريق المناظرات الصحيحة وإخلاء أذهانهم من تلك الشبهات تمهيداً لقبول الحق.

الدعوة إلى أصل أساسي مشترك:

والآية الرابعة تخاطب أهل الكتاب وتدعوهم إلى أصل أساسي مشترك وهو التوحيد وفروعه، يقول عز وجل: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا آرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ».

والدعوة إلى القدر المشترك خير طريق للعيش بين مذهبين مختلفين، إذ لا يمكن عادة أن نطلب من طرف واحد أن يتخلى عن معتقداته ويتبع الطرف الآخر، وحتى لو كان ذلك مقبولاً ومنطقياً فإنه غير ممكن عملياً، فالأفضل أن نترك أتباع الأديان الأخرى على نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٣١٦

معتقداتهم إذا رفضوا قبول الإسلام بعد بيان الأدلة على حقانيته، وأن نعمل ضمن القدر المشترك بيننا وبينهم، وخير مشترك بين كل الأديان السماوية هو أصل «التوحيد» في الذات والصفات.

وحتى أنصار التثليث (وينبغي التنبيه هنا إلى أن الإعتقاد بثلاث ثلاثة لم يكن موجوداً في عصر المسيح والقرن الأول بعده، كما صرح بهذا المعنى علماء المسيحية) فإنهم يفسرون التثليث بشكل يتلائم مع التوحيد، ويسمونه ب «الوحدة في التثليث»، وعلى الرغم من أن ذلك تناقض واضح، ولكنه في نفس الوقت دليل على أن هؤلاء يرغبون في بقائهم أوفياء لأصل التوحيد.

وهذه الدعوة إلى الحياة السلمية المشتركة المستمرة من المعتقدات المشتركة يعتبر في الحقيقة مصداقاً واضحاً للمجادلة بالتي هي أحسن» الذي ورد في الآية السابقة، ويدل بوضوح على أن الإسلام لا يرغب أبداً في إجبار أتباع الأديان الأخرى بالقوة على اعتناق الشريعة الإسلامية.

والطريف هنا، هو أن النبي صلى الله عليه وآله بعد صلح الحديبية في السنة السابعة للهجرة وعندما أرسل كتباً إلى زعماء وملوك الدول العظمى في ذلك الوقت مثل «المقوقس» ملك مصر و «هرقل» ملك الروم، و «كسرى» ملك إيران، دعاهم فيها إلى الإسلام، ذكر هذه الآية المباركة في ذيل تلك الكتب ودعاهم على الأقل إلى الأصل المشترك بين كل الأديان السماوية، أي أصل «التوحيد»، ثم العيش بسلام جنباً إلى جنب.

وهذا بنفسه خير دليل على روح السلام والصلح في الإسلام والرغبة في العيش السليم مع أتباع سائر الأديان السماوية، والذي لها جذور منذ عصر النبي صلى الله عليه وآله.

وفي خامس وآخر آية من الآيات التي ذكرناها في صدر البحث، إشارة إلى اختلاف مواقف أتباع الأديان الأخرى تجاه المسلمين، فتحدث الآية عن كل من هؤلاء بحسب حاله، يقول تعالى:

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٣١٧

«لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى .

ثم تبين الآية الكريمة دليل محبة المجموعة الثانية للمؤمنين وتقول:

«ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَيَسْتَكْبِرُونَ».

وهذا التعبير يدل بوضوح على أن الإسلام مضافاً إلى أنه يرفض مواجهته من لا يكن للإسلام العداء والبغضاء، فإنه يعتبر هؤلاء من أقرب الأصدقاء إلى الإسلام، ويشن على زعماء هؤلاء ويعتبرهم من أهل العلم والمعرفة وترك الدنيا والإستكبار وبهذا يستقبل هؤلاء بصدر رحب ويفتح لهم ذراعي المحبة والصدقة ويكن لهم احتراماً خاصاً.

وإذا كان موقف الإسلام تجاه اليهود والنصارى متفاوتاً، فإن ذلك ليس لعداوة خاصة يكتنحها لليهود، بل من أجل مواقفهم العدائية ضد المسلمين واتفاقهم مع المشركين العرب السفاكين، على العكس من النصارى، ولذا جمع في الذكر بين اليهود والمشركين في هذه الآية، وأما المسيحيين فكانوا على صلة حسنة بالمسلمين.

والملفت للنظر هنا هو أن المسيحيين كانوا أبعد من اليهود عن المسلمين لاعتقادهم بالتثليث بينما كان اليهود يقولون بالتوحيد صراحة، ولكن لما كان اليهود عملياً يضمرون العداء ويحيكون المؤامرات ضد المسلمين بخلاف المسيحيين فإن الإسلام يهتم بالعيش بسلام مع النصارى أكثر من اليهود.

وللأسف، فإن وضع اليهود اليوم هو الإستمرار في ميولهم العدائية السالفة، حيث نجد أن اليهود اليوم قد جندوا كل قدراتهم ضد

الإسلام والمسلمين، في حين أن بين المسيحيين أفراد أو دول تربطهم روابط حسنة مع المسلمين. ومن مجموع ما ذكر، يتضح تماماً أن سعة صدر الإسلام وعظمتها تميل إلى الرغبة في العيش بسلام مع الأديان السماوية الأخرى بشرط أن يدخل هؤلاء من باب الصِّلح والصِّفاء والصدّاقة والإحترام المتقابل - ويأمر المسلمين بالتعامل الحسن معهم، وأن يجادلهم بالموعظة الحسنة وإتباع المنطق والأدب والإنصاف، وبهذا الطريق يرشدونهم إلى تعاليم نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٣١٨

شريعة الإسلام، لا عن طريق ممارسة الخشونة والشدة والتصرفات المرفوضة إسلامياً.

العيش المشترك مع أتباع الأديان الأخرى في الروايات:

نلاحظ في الروايات الإسلامية إرشادات كثيرة فيما يرتبط بكيفية التعامل مع أتباع الأديان الأخرى:

١- جاء في عهد أمير المؤمنين المعروف لمالك الأشتر:

«وأشعر قلبك الرحمة للرعيّة والمحبة لهم واللطف بهم ولا تكوننّ عليهم سبعا ضارياً تغتمهم، فإنهم صنفان، إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق» (١).

ونحن لم نعهد تعبيراً أوضح وأبلغ من هذا التعبير حول العيش بمحبة و سلام مع غير المسلمين، وبملاحظة أن الإمام علياً عليه السلام يبين في هذا العهد أن إبداء المحبة والمداراة والرحمة واللطف تجاه غير المسلمين هو من وظائف رئيس الحكومة الإسلامية، يتضح لنا جلياً تكليف سائر أفراد المجتمع الإسلامي تجاه بعضهم البعض.

٢- وفي حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أن علياً عليه السلام صاحب رجلاً ذمياً فقال له الذمى:

أين تريد يا عبد الله؟

قال عليه السلام: أريد الكوفة. فلما عدل الطريق بالذمى عدل معه الإمام عليّ عليه السلام، فقال له الذمى: أليس زعمت تريد الكوفة؟ قال الإمام عليه السلام: بلى.

فقال له الذمى: فقد تركت الطريق.

فقال الإمام عليه السلام: قد علمت.

فقال له الذمى: فلم عدلت معي وقد علمت ذلك؟

فقال له الإمام عليّ عليه السلام:

(١) نهج البلاغة، الرسالة ٥٣.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٣١٩

«هذا من تمام حسن الصُّحبة أن يُشيع الرجلُ صاحبَهُ هُنَيْئَةً إذا فارقه، وكذلك أمرنا نبينا».

فقال له الذمى: هكذا؟ قال: نعم.

فقال له الذمى: لا جرم إنما تبعته من تبعه لأفعاله الكريمة، وأنا أشهدك أنني على دينك.

فرجع الذمى مع عليّ عليه السلام، فلما عرفه أسلم (١).

٣- ونقرأ في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«من ظلم معاهداً وكلفه فوق طاقته فأنا حجيجُه يوم القيامة» (٢).

٤- وجاء في كتاب «الخراج» لأبي يوسف أن «حكيم بن حزام» شاهد «عياض بن غنم» وقد حبس قوماً من أهل الذمة في الشمس لما امتنعوا عن إعطاء الجزية (وكان يريد أن يضيق عليهم ليضطرهم لدفع الجزية) فقال له حكيم: ما هذا يا عياض، لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول:

«إِنَّ الَّذِينَ يُعَذِّبُونَ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا يُعَذِّبُونَ فِي الآخِرَةِ» (٣).

وقد كان هذا الأمر معروفاً بين المسلمين إلى درجة أنهم نقلوا أن أحد ولأه عمر بن عبد العزيز واسمه «علي بن أرطاه» كتب له بأن قوماً عندنا لا يدفعون الخراج ما لم يجبروا على ذلك بالضرب والإيذاء! فكتب له عمر بن عبد العزيز: عجيب حقاً أن تطلب مني أن أجبرك بتعذيب الناس، أتريد أن تجعلني درعاً أمام عذاب الله، وتظن أن إذني ينجيك من عذابه؟!

فإذا جاءك كتابي فمن دفع خراجه وإلا حلفه على عجزه عن دفع الخراج، واكتف بذلك الحلف.

ثم يضيف: وأيم الله إنه لأحب إلي أن ألقى الله يوم القيامة وهؤلاء لم يدفعوا الخراج من أن ألقاه وقد عذبتهم (٤). وكما تلاحظون فإن الوارد في الحديث هو «تعذيب وإيذاء الإنسان» وهذا يدل على أن

(١) بحار الأنوار، ج ٤١، ص ٥٣.

(٢) فتوح البلدان، البلاذري، ص ١٦٧.

(٣) الخراج، ص ١٢٤.

(٤) الخراج، ص ١١٩.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٣٢٠

المتنعين عن أداء الخراج لم يكونوا من المسلمين.

ونفس هذا المضمون ورد في حديث آخر، ولكن ورد فيه عنوان «الناس»، حيث ورد أن «سعيد بن زيد» رأى أن قوماً يُعذبون لعدم دفعهم «الجزية» فقال: سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «من عذب الناس عذبه الله» (١).

٥- ورد تعبير رائع في نهج البلاغة، خطبة الجهاد، يقول عليه السلام: «وَلَقَدْ بَلَّغْنِي أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ يَدْخُلُ عَلَى الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ وَالْآخَرَى الْمَعَاهِدَةَ فَيَنْتَرِعُ حِجْلَهَا وَقَلْبَهَا وَقَلْبَئِذَاهَا وَرُغْتَهَا مَا تَمْتَنِعُ مِنْهُ إِلَّا بِالْإِسْتِرْجَاعِ وَالْإِسْتِرْحَامِ فلو أن امرءاً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً، بل كان به عندي جديراً».

عندما أخبروا أمير المؤمنين عليه السلام بأن سرايا من جيش معاوية هجموا على الأنبار وقتلوا واليه عليها «حسان بن حسان» ونهبوا أموال المسلمين وغير المسلمين، فدعى أمير المؤمنين الناس إلى الجهاد وخطب خطبة الجهاد المعروفة، جاء فيها المقطع أعلاه (٢).

فهنا نجد أن الإمام عليه السلام يعتبر المرأة المعاهدة والمرأة المسلمة في رعييل واحد في وجوب الدفاع عنهما، وأن من مات أسفاً على سلبهما أموالهما فهو عنده جدير، ولا نجد تعبيراً أبغ من هذا في الدفاع عن حيثية أهل الذمة وأموالهم وأنفسهم وأعراضهم.

٦- روى أن علياً أمير المؤمنين عليه السلام رأى رجلاً مكفوفاً كبيراً يسأل، فقال أمير المؤمنين عليه السلام ما هذا؟ قالوا: يا أمير المؤمنين هو نصراني. فقال أمير المؤمنين عليه السلام:

«استعملتموه حتى إذا كبر وعجز منعموه، أنفقوا عليه من بيت المال».

تعامل المسلمين مع غير أهل الذمة:

قد يُتصور أحياناً أن غير المسلمين صنفان، هما «أهل الذمة» و «المحاربون»، وعليه فكل من لم يكن من «أهل الذمة» فهو محارب وأن

ماله ودمه مهدوران.

(١) الخراج، ص ١٢٤ و ١٢٥.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ٢٧.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٣٢١

ولكن في الحقيقة أنّ غير المسلمين أربعة أصناف، إذ يوجد مضافاً إلى الصنفين المذكورين صنف ثالث وهم «المعاهدون» (وهم الذين يرتبطون بالمسلمين بعهدٍ وميثاق وإن كانوا يعيشون خارج المحيط الإسلامي ولم يكونوا أقلية) و «المهادنون» وهم غير الأصناف الثلاثة، بل هم قوم يعيشون في بلادهم ولا يزاحمون المسلمين. وفي دنيا اليوم، يوجد لهذه الأصناف الأربعة مصاديق واضحة:

١- الأقليات التي تعيش داخل الدول الإسلامية، والتي تشملها قوانين تلك الدول، وتكون الحكومات الإسلامية ملزمة بحفظ أموال ودماء ونواميس أفراد هذه الأقليات والدفاع عن حقوقها، وهؤلاء يدفعون بعض الضرائب للحكومة الإسلامية، ويمكن اعتبارها بمقام «الجزية» لأن «الجزية» كما ذكرنا مأخوذة من «الجزء» بمعنى الشيء الذي تأخذه الحكومة الإسلامية كأجرٍ أو معونة للدفاع عنهم، وهؤلاء هم «أهل الذمة».

٢- بعض الدول «كإسرائيل» و «أمريكا» الذين يحاربون المسلمين اليوم، ولا يتورعون عن أي عدوان ضدهم ولا يُقصرون في إيذائهم، فهؤلاء كفره حربيون، لئنا ملزمين بأى تعهد في قبالتهم.

٣- هناك شعوب غير مسلمة تربطهم معنا علاقات صداقة، وتبادل معهم السفراء، ونعقد معهم أحياناً بعض المعاهدات الإقتصادية والتجارية والثقافية، أو نلتزم بمقررات معينة فيما بيننا من خلال المنظمات الدولية وكل هؤلاء مصاديق «للمعاهدين» وعلينا أن نتعامل معهم بما تقتضيه الإلتزامات التي تربطنا معهم بشكل مباشر أو غير مباشر (عن طريق المنظمات العالمية) وأن نرعى الإحترام المتبادل فيما بيننا.

٤- وهناك بعض الدول التي ليست في حالة حرب معنا، ولا- معاهدة لنا، ولا- يوجد بيننا سفراء، ولا تربطنا بهم موائيق، ولكن لا يزاحموننا ولا نحن نزاحمهم، فعلى أن نراعى الأصول الإنسانية والأخلاقية معهم، وهؤلاء هم (المهادنون).

ومما ذكر أعلاه، يتضح لنا أنّ «أهل الذمة» هم فقط ذلك الصنف من أهل الكتاب الذين يعيشون داخل الدول الإسلامية، وأنّ أحكام الجزية أو عدم التظاهر بالمعاصي والذنوب

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٣٢٢

الكبيرة وأمثالها، خاصة بهم.

وأما أهل الكتاب من الذين يعيشون في دولهم، فلا يعتبرون من مصاديق أهل الذمة، حتى لو ارتبطوا بموائيق وعهود معنا، وإنما هم مصاديق «المعاهدين» وقد يكونون «محاربين» وقد يكونون «مهادنين» في بعض الظروف. (الفتوا جيداً).

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٣٢٣

الحكومة الإسلامية والأجهزة الأمنية

تمهيد:

لا شك في أن التجسس على أحوال الناس الخاصة والبحث عن أسرارهم عملٌ مذموم وقبيح، فإنَّ الله «ستار العيوب»، وينبغي على عباده أن يكونوا كذلك أيضاً، إلبالنسبة للذين يهتكون السُّر ويتركون الحياء جانباً ويتظاهرون بارتكاب الذنوب، فإنه لا حرمة لهم، لأنهم هم الذين هتكوا حرمتهم.

والقرآن الكريم يحذّر بصراحة من التجسس، كما ورد في سورة الحجرات، حيث يقول تعالى:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا». (الحجرات/ ١٢)

فهنا إشارة إلى ثلاثة ذنوب كبيرة «سوء الظن»، «التجسس» و «الغيبه» وكل واحد من هذه الثلاثة في الواقع مقدّمه للآخر، فإن إساءة الظن بالأشخاص مقدّمه للتجسس عليهم، والتجسس سبب في الإطلاع على العيوب والأخطاء، فتكون الغيبه، التي تعتبر من أكبر الذنوب، وأساس العداوات والاختلاف وفقدان الثقة.

و «كرامة الإنسان» في الحقيقة، أهم شيء في كيانه من وجهه نظر الإسلام، حتى أنها أهم من حاله وحياته أيضاً، وقد ورد في حديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله:

«إِنَّ الدَّرَهَمَ يُصَيِّبُهُ الرَّجُلُ مِنَ الرَّبَا أَعْظَمُ فِي الخَطِيئَةِ مِنْ سِتِّ وَثَلَاثِينَ زَيْنَةً يَزِينُهَا الرَّجُلُ، وَأَرَبَى الرَّبَا عَرَضُ الرَّجُلِ المُسْلِمِ» (١).

(١) المحجبة البيضاء، ج ٥، ص ٢٥٣.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٣٢٤

والواقع هو أن رأسمال الإنسان في المجتمع هو كرامته، وكل المسائل الأخرى تابعة لها، ولا شك في أن سوء الظن والتجسس والغيبه تعرّض رأسماله الغالي إلى الخطر، أو تفنيه.

ولكن ومع ذلك، فإن هناك بعض الموارد إذا واجهناها بحسن الظن، ولم يُتجسس عليها وتفصح أسرارها، فإنها ستشكل خطراً على المجتمع الإسلامي، سواء كان هذا الخطر مؤامرة من قبل المنافقين في الداخل، أو مخططات مشؤمه من قبل الأعداء من الخارج تنفذ على أيدي عملائهم في الداخل.

فمثل هذه الموارد لا بد من مواجهتها بريبة واستفهام، والتجسس لحفظ الأهداف الأهم، وهذه هي فلسفه تشكيل الأجهزة الأمتية والأمن المضاد، وهي فلسفه معقولة ومنطقية وموافقه للعقل والشرع، وإن كان طلب الدنيا والحكومات المستبدة والإستكبارية تسيء استغلال ذلك، ولكن هذا لا يمنع من بقاء أصل هذا الأمر منطقياً ومعقولاً، فلا يقال ما هي الضرورة لمثل هذه الأعمال؟ فأى قانون مقدس لم يُستغل استغلالاً سلبياً من قبل ضعاف النفوس؟!

وخلاصة الكلام، هي أن عدم التجسس على أوضاع الآخرين وحياتهم الخاصة «أصل» لا بد أن يحفظ، ولكن التجسس في موارد معينة «استثناء» ولا بد أن يُحفظ هو الآخر في حدود وشروط خاصة باعتباره وظيفة شرعية واجتماعية.

وفي الواقع إن هذا الاستثناء يخضع لقانون الأهم والمهم ويخضع للعناوين الثانوية، فحفظ كرامة الأفراد مهم جداً، ولكن حفظ وجود المجتمع الإسلامي ونظام الحكم والأمن والإستقرار أهم من ذلك وأوجب، ولذا ففي مثل هذه الموارد يقدم الثاني على الأول.

ومما تقدم يتضح أن التجسس واستقصاء أسرار الآخرين يحتاج إلى مجوز ودليل كافٍ، وأما التصرف الشخصي فغير مجاز.

هذا ما يرتبط بالتجسس في داخل المجتمع الإسلامي.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٣٢٥

وأما في خارج المجتمع الإسلامي، فالمسألة أوضح، فإن على المسلمين دائماً أن يتعرفوا على ما يجري في ظاهر وباطن المجتمعات الأجنبية والذي قد يرتبط بمصير المجتمع الإسلامي، فعليهم أن يحبطوا المؤامرات في مهدها ويخنقوها وهي في مراحلها الأولى وبغير ذلك فإنهم سيطلعون عليها بعد فوات الأوان، ويكون القضاء عليها صعباً حينئذٍ، أو يكلف ثمناً باهضاً جداً!

وهناك نوع آخر من التجسس في الحكومة الإسلامية (وكل حكومات العالم) وهو التجسس على أحوال موظفي وكوادر الحكومة الإسلامية ومسؤوليها، ليحصل الإطمئنان بأنهم يؤدون وظائفهم بشكل صحيح، وأنهم لا يجحفون ولا يتعدون على حقوق المسلمين، وأنهم لا يسيئون استغلال مناصبهم.

وعلى أيّة حال، فالمستفاد من آيات القرآن هو أن مسألة التجسس كانت موجودة في تلك الأعصار، وأنّ النبي صلى الله عليه وآله كان له أجهزة للأمن المضاد لمواجهة عمليات التجسس لصالح أعداء الإسلام، وبهذا الطريق كان يحبط مؤامراتهم وتحركاتهم. وقد حذر الله عزّ وجلّ، المسلمين وأمرهم بمراقبته تحركات جواسيس المنافقين، وقال:

«لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ» (١). (التوبة/ ٤٧)

وقد يكون لفظ «سماع» بمعنى «الجاسوس»، أو من يتميز بقوة السمع والإستقبال، والاحتمال الأول أنسب لمورد الآية. هذا في حين أنّ الله تعالى قبل عدّة آيات يأمر النبي صلى الله عليه وآله ببذل الجهد للتعرف على المنافقين، ويقول: «عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَّبِعَنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ». (التوبة/ ٤٣)

(١) و «أوضعوا» من مادة «إيضاع» بمعنى السّرعته في الحركة، فالمراد هنا هو أنّ المنافقين يوجدون الفتنة في قلوب البسطاء من المسلمين والفرقة والتفاق بسرعة.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٣٢٦

توضيحات

١- قصة تجسس حاطب وسارة

يظهر أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله كان له جهاز أمني قوى من خلال قصة «حاطب بن أبي بلتعنة» التي وقعت قبيل فتح مكة المكرمة.

وتوضيح ذلك: كان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يستعد لفتح مكة وكان حريصاً على عدم انتشار أخبار ذلك وانتقالها إلى أسماع المشركين وكان هناك رجل من المسلمين يقال له «حاطب بن أبي بلتعنة» اشترك في غزوة «بدر» و «بيعة الرضوان»، وكان يخاف على أهله في مكة من كيد المشركين فوسوس له الشيطان، فأراد أن يقدم خدمة لهم ليأمن كيدهم على عياله، فاتفق مع امرأة تدعى «سارة» كانت قد جاءت من مكة إلى المدينة، وعندما أرادت العودة إلى مكة كتب حاطب كتاباً معها لتوصله إلى أهل مكة يخبرهم بنية رسول الله صلى الله عليه وآله وأعطاها عشرة دنانير، وقيل عشرة دراهم، وكان قد كتب في الكتاب: من حاطب بن أبي بلتعنة إلى أهل مكة أنّ رسول الله يريدكم فخذوا حذركم، فخرجت سارة، ونزل جبرئيل فأخبر النبي صلى الله عليه وآله بما فعل حاطب، فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله عليّاً وعماراً وعمر والزبير وطلحة والمقداد بن الأسود وأبا مرثد، وكانوا كلهم فرساناً وقال لهم: إنطلقوا حتى تأتوا روضه خاخ فإنّ بها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى المشركين فخذوه منها، فخرجوا حتى أدركوها في ذلك المكان الذي ذكره رسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا لها: أين الكتاب؟ فحلفت بالله ما معها من كتاب، فنحوها وفتشوا متاعها فلم يجدوا معها كتاباً، فهموا بالرجوع فقال على عليه السلام: والله ما كذبنا ولا كُذِّبنا وسلّ سيفه وقال لها: أخرجي الكتاب وإلّا والله لأضربنّ عنقك، فلما رأته الجذّ أخرجته من ذوائبها فقد أخبأتها في شعرها، فرجعوا بالكتاب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فأرسل إلى حاطب فأتاه، فقال له: تعرف الكتاب؟ قال: نعم، قال ما حملك على ما صنعت؟ قال: يا رسول الله، والله ما كفرت منذ أسلمت، ولا غششتك منذ نصحتك ولا أحببتهم منذ فارقتهم ولكن لم يكن أحدٌ من المهاجرين إلّأوله بمكة من يمنع عشيرته وكنت عزيزاً

فيهم- أي غريباً، وكان أهلي بين ظهرائهم فخشيتُ على أهلي فأردت أن أتخذ عندهم يداً وقد علمت أن الله ينزل بهم بأسه وأن كتابي لا يغني عنهم شيئاً، فصدقه رسول الله صلى الله عليه وآله وعذره،
نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٣٢٧

فقام عمر بن الخطاب وقال دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: وما يدريك يا عمر لعلَّ الله إطلع على أهل بدر فغفر لهم، فقال لهم اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم.
فنزلت الآيات الأولى من سورة «الممتحنة» وحذرت بشدة المسلمين من تكرار مثل هذه التصرفات، لأنها تذهب بديناهم وآخرتهم «١». ففى هذه القصة، نجد أن هناك تجسساً لصالح الأعداء، ولكن جهاز الأمن المضاد عند النبي صلى الله عليه وآله - سواءً كان عن طريق اطلاع جبرئيل الأمين أو أى طريق آخر - أحبط مؤامرة العدو، بنحو لم يصل أى خبر عن تحرك النبي صلى الله عليه وآله ومخططه لفتح مكة إلى أسماع قريش وفوجىء مشركو قريش بدخول جيش الإسلام إلى مكة، وكان ذلك سبباً فى تحرير أقوى قلاع الشرك بلا إراقه دماء ولا حرب، ولو كانت الجاسوسة قد أوصلت ذلك الكتاب إلى مكة، كان يُحتمل أن تراق دماء كثيرة فى هذا الطريق، وهذا يدل على أهميته دور الأجهزة الاستخبارية أو الأمن المضاد فى تحديد مصير مجتمع وأمة بكاملها.

٢- قصة استخبار حذيفة

نموذج آخر من النشاطات الأمنية فى عصر النبي صلى الله عليه وآله، هو قصة «حذيفة» فى حرب الأحزاب. فقد روى فى التواريخ؛ ذات ليلة من ليالى حرب الأحزاب، وبعد اختلاف الأحزاب فيما بينهم، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع - يشرط له رسول الله صلى الله عليه وآله الرجعة - أسأل الله تعالى أن يكون رفيقى فى الجنة؟ قال حذيفة: فما قام رجل من القوم من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد، فلما لم يقم أحد دعانى رسول الله صلى الله عليه وآله فلم يكن لى بد من القيام حين دعانى، فقال: «يا حذيفة إذهب فأوغل فى القوم فانظر ماذا

(١) ذكر أكثر المفسرين هذا المعنى فى شأن نزول الآيات الأولى من سورة الممتحنة.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٣٢٨

يصنعون ولا تُحدثنَّ شيئاً حتى تأتينا».

قال فتهيأت فدخلت فى القوم والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل لا تقرُّ لهم قِدرًا ولا ناراً ولا بناءً، فقام أبو سفيان فقال: يا معشر قريش لينظر امرؤ من جلسه؟ قال حذيفة:

فأخذت بيد الرجل الذى كان إلى جنبى فقلت: من أنت قال: فلان بن فلان ثم قال أبو سفيان:

يا معشر قريش إنكم والله ما أقمتم بدار فقام، لقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذى نكره ولقينا من شدة الريح ما ترون ما يطمئن لنا قِدر ولا- تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا تحلوا فإني مرتحل، ثم قام إلى جملة وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث فوالله ما أطلق عقاله إلا وهو قائم، ولولا- عهد رسول الله صلى الله عليه وآله إلى «أن لا تحدث شيئاً حتى تأتيني» ولو شئت لقتلته بسهم.

والمستفاد من آيات القرآن، أن وجود الأجهزة الأمنية والتجسسية كان أمراً رائجاً حتى فى زمن الأنبياء الذين سبقوا نبينا محمداً صلى الله عليه وآله، حتى استفيد من الطيور فى هذا المجال كما فى قصة سليمان عليه السلام والهدد، الذى كان يأتى بأخبار البلدان البعيدة إلى سليمان، ثم يحمل رسالة سليمان - التى كانت تبين علاقته بالدول الاخرى إلى تلك الدول «١».

٣- المنظمات الأمنية فى الروايات الإسلامية

لهذه المسألة في الروايات الإسلامية وكتب التاريخ صدقاً واسعاً، فمن خلال الاطلاع عليها يمكن الوقوف على هذه الحقيقة وهي أن الحكومة الإسلامية ينبغي أن لا تغفل عن هذه المسألة المهمة، وأن عليها أن تمارس نشاطاً موسعاً في اتجاهين: أن تطلع على تحركات العدو العسكرية والسياسية والاقتصادية التي لها تأثير على مستقبل ومصير المسلمين، وأن تواجه الفعاليات الجاسوسية، للعدو الذي يحاول النفوذ واختراق المسلمين للتعرف على أسرارهم وسرقتها.

وستعرض هنا إلى بيان نموذج من هذه الروايات والوقائع التاريخية:

(١) الآية ٢٠ إلى ٢٦ من سورة التمل (وللتفصيل راجع التفسير الأمثل، ذيل الآية مورد البحث).

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٣٢٩

١- ورد في حديث عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا بعث جيشاً فاتهم أميراً بعث معه من ثقافته من يتجسس خبره» (١).

فقد يكون ذلك الأمير معتمداً من بعض الجهات، ولكن خطورة مسؤوليته توجب وجود ناظرٍ ومفتشٍ عليه، تحسباً من انحرافه - لا سمح الله - وارتكابه ما لا يمكن جبرانه من قبل المسلمين.

وهذا الحديث موافق لما ورد في متن الوسائل وقرب الإسناد، الطبعة الجديدة (مؤسسة آل البيت)، ولكن ورد في بعض الكتب كلمة «فأثمهم» أي، عين لهم أميراً، بدلاً من «فاتهم»، ولكن تعيين المفتش والجاسوس أنسب بلفظ «فاتهم»، وانتخاب مثل هذا الأمير يكون لتمييزه ببعض الميزات المفقودة في غيره، (الفتنوا جيداً).

٢- ورد في حديث آخر حول سيرية «عبد الله بن جحش» (والسيرية، الحرب التي لم يحضر الرسول بنفسه فيها)، أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بعث عبد الله بن جحش بن رثاب الأسدي ومعه ثمانية رهط من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد، وكتب له كتاباً وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه فيمضي لما أمره به. فلما سار عبد الله يومين فتح الكتاب فنظر فيه فإذا فيه: إذا نظرت في كتابي هذا فامضي حتى تنزل نخله بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم من أخبارهم (والقصة طويلة وقد جاء في ذيلها أنه اشتبك معهم وأسر منهم جماعة وغنم غنائم ... «٢»).

٣- بعد غزوة بدر «٣»، لما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى: إن موعداكم بدر للعام القابل.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لرجل من أصحابه قل: نعم، هو بيننا وبينكم موعد.

ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وآله علي بن أبي طالب عليه السلام وقال له: أخرج في آثار القوم، فأنظر ماذا

(١) وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٤٤.

(٢) سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٢٥٢؛ والكامل، لابن الأثير ج ٢، ص ١١٣.

(٣) سيرة ابن هشام، ج ٣، ص ١٠٠.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٣٣٠

يصنعون وما يريدون، فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة، والذي نفسى بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ثم لأنجزتهم!

قال علي: فخرجت في آثارهم أنظر ماذا يصنعون، فجنبوا الخيل وامتطوا الأبل وتوجهوا إلى مكة.

وكان هذا النشاط التجسسي للنبي علي يد أمير المؤمنين عليه السلام، عمل مهم جداً ومؤثر في تحديد مصير المسلمين، وكان ينقذهم

من أن يُفاجأوا.

٤- ونقرأ «١» في قصة حرب أُحُد أن النبي صلى الله عليه وآله أرسل رجلين يتجسسان على أحوال جيش قريش قبل أن يردوا أُحُد ليتعرفوا على عدد قوات العدو وعدتهم، كما أنه أرسل «الحباب بن المنذر» سراً ليستطلع أوضاع قريش بعد أن نزلوا أحداً، وطلب منه أن يأتيه بالخبر سراً إذا كان عددهم كبيراً، وإذا كان قليلاً فلا مانع من أن يخبره علناً.

ولما كان عدد المشركين كبيراً، جاء الحباب وأخبر رسول الله صلى الله عليه وآله بعددهم سراً.

٥- وكتب نهج البلاغة، تبين لنا بوضوح أن الجهاز الأمني للإمام على عليه السلام كان مطلعاً على الأمور في كل بقاع الدولة الإسلامية.

ومن جملة ذلك «عهده لمالك الأشر» في تعيين المفتشين السريين للنظر في كيفية قيام العمال- الولاة بوظائفهم، يقول عليه السلام: «وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم فإن تعاهدك في السر لأموهم حدوة لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرعية».

وبطبيعة الحال، فإن هذا النشاط واحد من نشاطات العيون التجسسية، وهو أن يتجسسوا على كيفية قيام مأموري وموظفي الدولة الإسلامية بوظائفهم.

٦- وفي كتاب آخر له عليه السلام إلى واليه على مكة «القثم بن عباس» وهو أخو عبد الله بن عباس، يقول فيه: «أما بعد، فإن عيني بالمغرب» (٢) كتب إلي يعلمني أنه ووجه إلى الموسم

(١) المغازي للواقدي، ج ٢، ص ٢٠٦ و ص ٢٠٧.

(٢) الشام، وعاصمتها دمشق، التي تقع إلى الغرب (أو الشمال الغربي) من الكوفة مركز خلافة الإمام علي عليه السلام.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٣٣١

اناس من أهل الشام العمى القلوب الصم الأسماع الكمه الأبصار الذين يلبسون الحق بالباطل ويطيعون المخلوق في معصية الخالق.... فاقم على ما في يديك قيام الحازم الصليب» (١) ويبدو أن معاوية كان قد أعد مخططاً لخداع «القثم بن عباس» ودعوته لخيانته على عليه السلام، وإيجاد الفوضى في موسم الحج، فأخبر عيون الإمام عليه السلام المخترقين جهاز حكم معاوية، الإمام علياً عليه السلام بهذا الخبر بسرعة فأسرع الإمام عليه السلام في إحباط تلك المؤامرة.

والكلام هنا في المأمورين السريين الذين يخترقون قلب أجهزة العدو وينفذون فيها لنقل المعلومات السرية.

٧- ونقرأ كتاب أمير المؤمنين عليه السلام إلى «عثمان بن حنيف»، حيث يقول عليه السلام: «أما بعد يا ابن حنيف فقد بلغني أن رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأذبة فأسرعت إليها تستطاب لك الألوان وتُنقل إليك الجفان» (٢).

فمن هذا الكتاب يتضح لنا بأن عيون الإمام عليه السلام السرية لم تكن تنقل له المسائل السياسية والعسكرية فقط، بل وكذلك المسائل الأخلاقية التي لم تكن مناسبة لمقام الولاة وموظفي الحكومة الإسلامية وغير المنسجمة مع أصول التعاليم الإسلامية وخاصة فيما يرتبط بالزهد، وأن جزئيات حركاتهم غير خافية على عيون الإمام التجسسية الفطنة.

وشبيه هذا المعنى نراه في كتابه عليه السلام إلى «المنذر بن جارود» واليه على «اصطخر» حيث ورد في هذا الكتاب:

«أما بعد فإن صلاح أبيك غزني منك، وظننت إنك تتبع هديته، وتسلك سبيله فإذا أنت فيما رقتي إلى عنك لا تدع لهواك انقياداً ولا تبقى لآخرتك عتاداً تعمّر دنيارك بخراب آخرتك وتصل عشيرتك بقطيعة دينك» (٣).

والمستفاد من الروايات أن خيانته ابن الجارود هي أنه اختلس أربعمائة الف درهم من

(٢) المصدر السابق، الرسالة ٤٥.

(٣) المصدر السابق، الرسالة ٧١.

نقحات القرآن، ج ١٠، ص: ٣٣٢

بيت المال، له ولأقربائه، فعزله الإمام عليه السلام من ولايته وحبسه مدة من الزمن (١).

ونرى هنا أن عيون الإمام عليه السلام قد نقلوا خيانه هذا الوالى الخفيّة بعد أن كشفوها، وأنّ الإمام عليه السلام أبدى موقفاً شديداً تجاهه.

٨- جاء في تاريخ حياة الإمام الحسن المجتبي عليه السلام لما بلغ معاوية بن أبي سفيان وفاة أمير المؤمنين عليه السلام وبيعة الناس ابنه الحسن عليه السلام دسّ رجلاً من حَمِيرٍ إلى الكوفة، ورجلاً من بنى القين إلى البصرة ليكتبا إليه بالأخبار، ويفسدا على الحسن الأمور، فعرف ذلك الحسن عليه السلام فأمر باستخراج الحميري من عند لَجَام بالكوفة، فأخرج وأمر بضرب عنقه، وكتب إلى البصرة باستخراج القيني من بنى سليم فأخرج وضُربت عنقه (٢) وكتب الحسن عليه السلام إلى معاوية: أمّا بعد فإنّك دسست الرّجال للإحتيال والإغتيال وارصدت العيون كأنك تحب اللقاء وما أشكُّ في ذلك فتوقعه إن شاء الله.

٩- بعد حرب صفين أعلن جماعة من «بنى ناجية» يتزعمهم «الحريث بن راشد» مخالفتهم للإمام ونقضهم البيعة، فأرسل الإمام عليّ عليه السلام إلى الحريث وطلب منه المثول عنده ليبيّن له السّيّن وأموراً من الحق، فلم يحضر الحريث وفرّ برجاله، وفي الطريق قتلوا رجلاً مسلماً من أتباع الإمام عليه السلام، وتركوا يهودياً واعتبروه من أهل الذمّة، فكتب الإمام عليه السلام كتاباً إلى عماله في تلك المناطق، مضمونه: أن قوماً مذنبين هربوا، ونظن أنّهم قصدوا البصرة، وكان ممّا جاء في ذلك الكتاب: «واجعل عليهم العيون في كل ناحية من أرضك ثم اكتب إليّ بما ينتهي اليك عنهم» (٣).

(١) سفينة البحار، مادة (نذر).

(٢) بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ٤٥، ح ٥.

(٣) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد، ج ٣، ص ١٣٠.

نقحات القرآن، ج ١٠، ص: ٣٣٣

من مجموع الروايات الأنفة الذكر، والرّوايات والتواريخ الاخرى التي يطول المقام بذكرها، يتضح جيداً أن أجهزة التجسس والتفتيش كانت تعمل دأبة في عصر النّبى الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمّة المعصومين عليهم السلام سواء في مجال كشف مؤامرات الأعداء، أو في إبطال خطط الأجهزة الجاسوسية للمخالفين، أو في التحقيق في سلوك موظفي الدولة الإسلامية، وكذلك كشف مؤامرات المنافقين في داخل الدولة الإسلامية.

وبطبيعة الحال، فإنّ أساليب «التجسس» و «ضد التجسس» في زماننا تغيرت كثيراً كغيرها من المسائل عمّا كانت عليه في ذلك الوقت واتسعت وتعقدت كثيراً واستفيد فيها من التكنولوجيا الحديثة المتطورة بشكل واسع.

ولا شك، أن الحكومة الإسلامية في هذا العصر لا يمكنها الإكتفاء بالأساليب القديمة والبدائية للوصول إلى أهدافها الأمنية بواسطة الأمن المضاد، بل لابد أن تتجهزّ بكلّ الوسائل المتطورة، لكي تكشف كل مؤامرات الأعداء ومخططاتهم الرامية إلى تضعيف الدولة الإسلامية وقهرها، كما أنّ عليها أن تراقب بدقة تصرفات المسؤولين في الدولة الإسلامية، ونشاطات الأحزاب والتجمعات السياسيّة المتواجدة، لإقرار الأمن والحدّ من المفسد والتخريب.

وعلى الحكومة الإسلامية أن تستعين بالتكنولوجيا الحديثة وكلّ أساليب التجسس ولا تكتفى بالأساليب القديمة.

وعلى الرّغم من أنّ هذا يكلفُ الدولة أموالاً طائلة، إلّا أنه قد يكون صرف أموال قليلة في هذا المجال سبباً للحدّ من ضياع أموال طائلة

في المجالات العسكرية والسياسية والاقتصادية، أو تكون سبباً في الوقاية من خسائر كثيرة لا يمكن تعويضها. فمثلاً لو أن أجهزة التجسس في الدولة الإسلامية، كشفت عملية تفجير تستهدف زعزعة أمنها، فإنها ستمنع من حدوث خسائر فادحة في القوى البشرية والاقتصادية، والأهم من ذلك أنها ستكشف مؤامرة الأعداء العسكرية الخطيرة وتمنع من مضاعفات مثل هذا العمل. نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٣٣٤

٤- استراق السمع

لا شك في أن مراقبة المكالمات الهاتفية والشخصية والتجسس على محتواها للإطلاع على أسرار الناس، مصداق من مصاديق الآية الشريفة في سورة الحجرات الدالة على حرمة «التجسس»، كما أن الروايات الإسلامية تؤكد هذا المعنى. فقد ورد في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا تتبعوا عثرات المسلمين فإنه من تتبع عثرات المسلمين تتبع الله عثرته، ومن تتبع الله عثرته يفضحه».

والملفت للنظر هو أنه ذكر المخاطبين في هذا الحديث بقوله: «يا معشر من أسلم بلسانه ولم يسلم بقلبه» (١). وفي أصول الكافي، في باب من طلب عثرات المسلمين وعوراتهم ذكرت أحاديث كثيرة أخرى - غير الحديث أعلاه - وحرمة هذا الأمر كانت مسلمة بين المسلمين إلى درجة أن عمر بن الخطاب كان ذات ليلة يتجول في أزقة المدينة، فسمع رجلاً يغنى في داره، فتسلق عمر حائط الدار وصاح بالرجل يا عدو الله أتعصى الله هنا وتظن أن الله لن يفضحك؟! فقال الرجل: مهلاً أيها الخليفة، فإن كنت قد ارتكبت ذنباً واحداً فإنك قد ارتكبت ثلاثة ذنوب، فإن الله عز وجل يقول «وَلَا تَجَسَّسُوا» وأنت تتجسس، وإن الله عز وجل يقول «وَأَتُوا الْجُبُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا» (البقرة/ ١٨٩) وأنت سطوت من على الجدران، وإن الله عز وجل يقول:

«لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا» (النور/ ٢٧) ولم تفعل أنت ذلك!

فاستحي عمر وقال: لو عفوت عنك فهل تترك اقرار هذا الذنب؟

قال الرجل: نعم، فعفى عنه عمر وخرج (٢).

وعلى أية حال، فلا شبهة في أن استراق السمع، بمعنى مراقبة مكالمات الناس، العادية منها أو الهاتفية، وحتى التجسس على الرسائل والمكاتبات الخاصة، كل ذلك من مصاديق التجسس الواضحة الحرمه.

(١) أصول الكافي، ج ٢، ص ٣٥٥، ح ٤.

(٢) كنز العمال، ج ٣، ص ٨٠٨، ح ٨٨٢٧.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٣٣٥

ولكن، قد تقتضى الضرورات أحياناً، أن ترتكب الحكومة الإسلامية مثل هذا الفعل في بعض الموارد، وهو مورد احتمال وجود مؤامرة ضد الإسلام والمسلمين، واحتمال وجود خطر على الأنافس والأموال المحترمة، ففي مثل هذه الموارد لا مفر من استراق السمع والتفتيش في الأعمال، بالضبط كما يتم ذلك في التفتيش عن المواد المخدرة وأمثال ذلك في الطرق العامة ووسائل النقل أو تفتيش الأشخاص في مداخل المدن!

والواقع أن هذه المسألة فرع من فروع مسألة تراحم الواجبات أو تراحم الواجب والحرام، ولا بد من مراعاة «المرجحات» ومسألة «الأهم والمهم».

وبتعبير أوضح، التجسس على أفعال المسلمين حرام ولكن حفظ نفوس أفراد المجتمع، ونظام الدولة الإسلامية، وإحباط مؤامرات

الأعداء، أهم من ذلك، وعليه ففي كل مورد يخاف فيه من تعرّض مثل هذه الأمور للخطر، يجوز استراق السمع للحدّ من وقوع تلك المخاطر.

٥- التعذيب الجسدي لأخذ الإعترافات!

إشارة

لاشكّ في أنّ إيذاء أي إنسان بلا مبرر غير جائز، وقلنا في الأبحاث السابقة أيضاً: إنّ لا يجوز تعذيب أحدٍ لأخذ الإعترافات منه، وأنّ كل إقرار مأخوذ بهذا الأسلوب غير معتبر شرعاً وليس له أيّة قيمة قانونية.

ففي حديث عن أمير المؤمنين الإمام عليّ عليه السلام قال: «مَنْ أقرَّ عِنْدَ تجريدٍ أو تخويفٍ أو حبسٍ أو تهديد فلا حدَّ عَلَيْهِ» (١). ولكن إذا كان المتهم قد ارتكب جرماً بيناً غير ذلك الجرم الذي لم يثبت عليه، جاز تعزيره لأجله، كما لو ألقى القبض على سارق في أثناء اقتحامه منزل أحد الناس ولم تثبت سرقة، فلو عزّر لاقترامه المنزل واعترف أثناء التعزير بالسرقة ظناً منه أنّ هذا التعزير

(١) وسائل الشيعة، ج ١٨، ح ٢، الباب السابع من أبواب حدّ السرقة.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٣٣٦

تعذيب لأخذ الإقرار، وثبت بالفرائض صدق اعترافه هذا (كما لو دلّ على مواضع إخفاء تلك المسروقات وتبين صحته ذلك)، أمكن الأخذ بهذا الإقرار واعتباره شرعياً، وذلك لأنّ الفرائض القطعية هي التي تثبت صحته هذا الإقرار.

كما يمكن اتباع هذا الأسلوب في خصوص الجواسيس الأجانب حتى لو لم يرتكبوا مخالفة قطعية، وكان الحاكم الشرعي يعتقد يقيناً أو ظناً قوياً بأنّ هذا الجاسوس يحمل معلومات سرية خطيرة تهدد مصير الدولة الإسلامية والمسلمين بالخطر، فإنه في مثل هذه الحالة يمكن تعذيب هذا الجاسوس والتضييق عليه بشرط مراعاة التعامل الإنساني.

وقد مرّ بنا في قصة «حاطب بن أبي بلتعة»، عندما امتنعت «ساره» تلك الجاسوسة، عن الإقرار وتسليم الكتاب الذي كتبه حاطب لأهل مكة، سلّ على عليه السلام سيفه وهدهدها بالقتل، فخافت «ساره» فأخرجت الكتاب من شعرها وسلمته للإمام عليه السلام. فهذا الإقرار كان مقروناً بالتعذيب الرّوحى ومع ذلك حكم بصحته.

فمن الواضح أنّ مثل هذه الضغوط في مثل هذه الموارد، ليست أمراً مخالفاً للعقل ولا للشرع لأنّ أهميّة المسألة تكون إلى درجة يجوز معها مثل هذا التعذيب، ففي تلك الحادثة، لو أنّ خبر عزم الرّسول صلى الله عليه وآله على فتح مكة، كان قد وصل إلى أسماع قريش، لأريقت دماء كثيرة في ذلك البلد الآمن مع أنّ نتيجة الحرب كانت واحدة.

وفي قصة قضاء أمير المؤمنين عليه السلام نجد موارد كثيرة مارس الإمام عليه السلام فيها التعذيب النفسى ضد المجرمين وخاصة في القضايا المهمّة التي كانوا يرفضون الإعتراف والإقرار فيها، فكان الإمام يمارس مثل ما مرّ ذكره من الأساليب للحصول على إقرارهم، فمثلاً جاء في قصيته: أنّ رجلين تداخيا عنده، وكان كل منهما يدعى أنّه السيّد وأنّ الآخر غلامه، فقال الإمام عليه السلام لقنبر: يا قنبر على بسيف رسول الله صلى الله عليه وآله لأجل أن أضرب رقبة العبد (بعد أن أدخل رأسيهما في ثقبين أعدتهما خصيصاً لهذا الأمر)، قال: فأخرج الغلام رأسه مبادراً، فقال عليّ عليه السلام للغلام: ألسنت تزعم أنّك لست بعبد، ومكث الآخر في الثقب، قال: بلى إنّهُ ضربني وتعدّى على (١).

(١) وسائل الشيعة، ج ١٨، أبواب كيفية الحكم، باب ٢١، ح ٤، ص ٢٠٨.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٣٣٧

فلا شك في أن هذا التهديد كان مؤذياً للغلام الواقعي ولكن هذا المقدار جائز للكشف عن واقع حق مهم ففي موارد التجسس يكون الأمر كذلك، بل هو أعلى وأولى.

وبتعبير آخر، فإن قانون «الأهم والمهم» و «تزامم الواجبات والمحرمات» يُجيز مثل هذا التعذيب في مثل هذه الموارد. ولكن، ينبغي أن لا يُستغل هذا القانون بهذه الذريعة ويُعدَّب المتهمون تعذيباً شديداً لا يطاق أو يطبق هذا القانون والإستثناء لأدنى سوء ظن بالأشخاص.

وينبغي أن لا ننسى أن هذا مجرد استثناء، ولا يجوز الاستفادة من مثل هذه الأساليب إلّا في موارد الضرورة مع رعاية الحقوق الإنسانيّة كما وكيفا.

ومن هنا تتضح لنا مسألة أخرى وهي أن بعض المأمورين لجمع المعلومات والأسرار يضطرون- ولكسب الأخبار الحساسة والمصيرية- أن يتزوّوا بزى الأعداء ويتقمصوا شخصيات أفراد العدو في الملابس والمأكل كي يتمكنوا من اختراق العدو، وفي مثل هذه الحالات قد يضطرون إلى ارتكاب بعض الذنوب كأكل الحرام أو الحديث ضد الإسلام والمقدّسات الإسلاميّة لتحقيق أغراضهم، فالحكم هنا مشمول لقاعدة «تزامم الواجب والحرام» و «الأهم والمهم»، فمتى ما كان الهدف أعلى وأهم من الذنب، كان ارتكاب ذلك الذنب جائزاً، لتحقيق الهدف.

سؤال: هل الغاية تبرر الوسيلة؟

قد يقال، إن ما ذكرنا من استثناءات أليس تعبيراً آخر عن ما هو معروف عند بعض زعماء المدارس الإلحادية المادية من أن: «الغايات تبرر الوسائل»؟

والجواب:

وفي الإجابة عن هذا السؤال، لا بدّ من الإلتفات إلى نكته واحدة وهي أن هؤلاء الذين يقولون بهذه المقالة لم يحددوا قيماً ولا شرطاً لها، أي إنهم يقولون: للوصول إلى الأهداف

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٣٣٨

(بلا استثناء) يمكن التوسل بأيّ وسيلة (بلا استثناء)، ولذا فإنهم يوجهون الحروب المدمّرة الدامية من أجل الحفاظ على مصالحهم الإقتصادية، فيذهب آلاف الناس ضحية من أجل عدم تضرر مصالحهم بأقل ضرر.

أمّا أتباع الأديان السماوية، فهم ينكرون هذه العمومية في الشّقين معاً، أي أنّه لا يكفي كل هدفٍ لتبرير وتجويز الوسيلة، كما أنّه ليست كل وسيلة مجازة وإن كان الهدف سامياً، فالحاكم هنا هو قانون «الأهم والمهم»، تلك الأهميّة المقررة عقلاً وشرعاً، لا كلّ أهميّة وإن كانت مصلحة شخصية، وهوى وهوساً شيطانياً.

فقانون الأهم والمهم ليس أمراً يمكن إنكاره- فمثلاً يجوز ضرب وجه من استعمل الترياق ويريد التّوم- ذلك التّوم الذي يؤدّي بحياته- بعدة صفعات على خده ليفيق من نومه من أجل إنقاذه من الموت، وأكبر من ذلك يمكن أخذ الضّرائب الماليّة من الناس من أجل إعداد القوة المناسبة لحفظهم من أخطار الأعداء وغزوهم، أو حبس كلّ أفراد المجتمع في منازلهم لعدة أيام، لتلقيحهم بلقاح ينقذهم من وباءٍ خطير يهدد حياتهم جميعاً.

هذا ما يقوله أتباع مدرسة الأنبياء عليهم السلام، بينما نجد أن أتباع المدارس المادية الإلحادية لا يشترطون أي شرط لتطبيق قاعدتهم، فيجيزون كل وسيلة للوصول إلى أي هدف من أهدافهم.

وبهذا ينتهي الجزء العاشر من نفحات القرآن والذي تناول البحث حول الحكومة والولاية، وبهذا تنتهي الدورة الكاملة في المعارف

والعقائد الإسلامية من وجهة نظر القرآن الكريم وعلى أساس التفسير الموضوعي في عشرة أجزاء. نشكر الله ونحمده على هذا التوفيق الذي شملنا لأداء هذا الأمر المهم.

إلهنا: تقبل منا جميعاً هذا المجهود المتواضع واجعله ذخراً لنا في يوم الجزاء، ووفق كل من يود الإطلاع على المعارف والعقائد الإسلامية من وجهة نظر القرآن الكريم، للإطلاع عليه.

تم في آخر شهر صفر يوم ذكري استشهاد

الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام

سنة ١٤١٦ هـ ق

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (التوبة/٤١).

قال الإمام علي بن موسى الرضا - عليه السلام: رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا أَحْيَا أَمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَيُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بِنَادِرُ الْبِحَار - في تلخيص بحار الأنوار، للعلامة فيض الاسلام، ص ١٥٩؛ عُيُونُ أَخْبَارِ الرُّضَا(ع)، الشيخ الصدوق، الباب ٢٨، ج ١/ ص ٣٠٧).

مؤسس مجتمع "القائمية" الثقافي بأصفهان - إيران: الشهيد آية الله "الشمس آبادي" - رَحِمَهُ اللَّهُ - كان أحداً من جهابذة هذه المدينة، الذي قد اشتهر بشغفه بأهل بيت النبي (صلوات الله عليهم) ولاسيما بحضرة الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) و بساحة صاحب الزمان (عجل الله تعالى فرجه الشريف)؛ ولهذا أسس مع نظره و درايته، في سنة ١٣٤٠ الهجرية الشمسية (= ١٣٨٠ الهجرية القمرية)، مؤسسة و طريقة لم ينطقي و مصباحها، بل تتبّع بأقوى و أحسن موقف كل يوم.

مركز "القائمية" للتحري الحاسوبى - بأصفهان، إيران - قد ابتدأ أنشيطته من سنة ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية) تحت عناية سماحة آية الله الحاج السيد حسن الإمامي - دام عزه - و مع مساعده جمع من خريجي الحوزات العلميه و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، في مجالات شتى: دينيه، ثقافيه و علميه...

الأهداف: الدفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثقافه الثقليين (كتاب الله و اهل البيت عليهم السلام) و معارفهما، تعزيز دوافع الشباب و عموم الناس إلى التحري الأذق للمسائل الدينيه، تخليف المطالب النافعه - مكان البلايتي المبتدله أو الرديئه - في المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوترية)، تمهيد أرضيه واسعة جامعته ثقافيه على أساس معارف القرآن و أهل البيت -عليهم السلام - بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطلاب، توسعه ثقافه القراءة و إغناء أوقات فراغه هواره برامج العلوم الإسلامية، إناله المنابع اللازمه لتسهيل رفع الإبهام و الشبهات المنتشرة في الجامعه، و...

- منها العداله الاجتماعيه: التي يمكن نشرها و بثها بالأجهزة الحديثه متصاعده، على أنه يمكن تسريع إبراز المرافق و التسهيلات - في آكناف البلد - و نشر الثقافه الاسلاميه و الإيرانيه - في أنحاء العالم - من جهه أخرى.

- من الأنشطة الواسعه للمركز:

(الف) طبع و نشر عشرات عنوان كتب، كتيبه، نشره شهريه، مع إقامة مسابقات القراءة

(ب) إنتاج مئات أجهزة تحقيقيه و مكتبيه، قابله للتشغيل في الحاسوب و المحمول

(ج) إنتاج المعارض ثلاثيه الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرسوم المتحركه و... الأماكن الدينيه، السياحيه و...

(د) إبداع الموقع الانترنتي "القائمية" www.Ghaemiyeh.com و عدده مواقع أخرى

(ه) إنتاج المنتجات العرضيه، الخطابات و... للعرض في القنوات القمرية

(و) الإطلاع و الدّعم العلمى لنظام إجابة الأسئلة الشرعية، الاخلاقية و الاعتقادية (الهاتف: ٠٠٩٨٣١١٢٣٥٠٥٢٤)

(ز) ترسيم النظام التلقائى و اليدوى للبلوتوث، ويب كشك، و الرسائل القصيرة SMS

(ح) التعاون الفخرى مع عشرات مراكز طبيعىة و اعتبارية، منها بيوت الآيات العظام، الحوزات العلميه، الجوامع، الأماكن الدينيه كمسجد جَمكران و...

(ط) إقامة المؤتمرات، و تنفيذ مشروع " ما قبل المدرسة " الخاص بالأطفال و الأحداث المُشاركين فى الجلسة

(ى) إقامة دورات تعليمية عمومية و دورات تربية المربى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السنّة

المكتب الرئيسى: إيران/أصفهان/ شارع "مسجد سيد/ " ما بين شارع "پنج رَمضان " و مُفترق " وفائى/ " بنايه " القائمية "

تاريخ التأسيس: ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية)

رقم التسجيل: ٢٣٧٣

الهوية الوطنية: ١٠٨٦٠١٥٢٠٢٦

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالىكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المتجر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ٢٥-٢٣-٢٣٥٧٠ (٠٠٩٨٣١١)

الفاكس: ٢٣٥٧٠٢٢ (٠٣١١)

مكتب طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ (٠٢١)

التجارية و المبيعات ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩

امور المستخدمين ٢٣٣٣٠٤٥ (٠٣١١)

ملاحظة هامة:

الميزانية الحالية لهذا المركز، شعبيته، تبرعته، غير حكومية، و غير ربحية، اقتنيت باهتمام جمع من الخيرين؛ لكنها لا توافى الحجم المتزايد و المتسع للامور الدينية و العلميه الحالية و مشاريع التوسعة الثقافية؛ لهذا فقد ترجى هذا المركز صاحب هذا البيت (المسمى بالقائمة) و مع ذلك، يرجو من جانب سماحة بقيه الله الأعظم (عجل الله تعالى فرجه الشريف) أن يوفق الكل توفيقاً متزائداً لإعانتهم - فى حد التمكن لكل احد منهم - إيانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاء الله تعالى؛ و الله ولى التوفيق.

مركز
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية
الغمامة اصحمان

WWW



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

